سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٢٣)

شرح

الكافية الشافية

في الانتصار للفرقة الناجية

للحافظ المحقق
شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية
تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جنانه

شرح فضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الأول

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

شرح
الكافية الشافية
في الانتصار للفرقة الناجية

(١)

ⓒ مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
شرح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية لابن قيّم الجوزية./
محمد بن صالح العثيمين - الرياض، ١٤٣٤هـ
٤مج؛ (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٢٣)
ردمك: ٤ - ٦٢ - ٨٠٣٦ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)
١ - ٦٣ - ٨٠٣٦ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج١)
١ - العقيدة الإسلامية ٢ - التوحيد ٣ - أهل السنّة
أ. العنوان ب. السلسلة
ديوي ٢٤٠ ١٤٣٤/١٠٢٢٧

الطبعة الأولى
محرم ١٤٣٥هـ

يُطلب الكتاب من:
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص. ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٢٣)

شرح
الكافية الشافية
في الانتصار للفرقة الناجية

للحافظ المحقق
شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية
تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جناته

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الأول

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تَقْدِيمٌ

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله من شُرور أَنْفُسنا ومن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أن لا إلَهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالـهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالة، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه حتَّى أتاهُ اليَقينُ فصَلواتُ الله وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فقد كان مِن الأعمال الجليلة لصاحِب الفَضيلة شيخِنا الوالد محمَّد بن صالح العُثَيْمِين -رحمه الله تعالى-، أنه اعتنى عنايةً بالغةً بالمتُون العلميَّة وشَرْحها والتَّعْليق عَلَيها وتَوْضيحها وتَقْريبها لطُلاب العِلم والدَّارسين والبَاحِثِين، وذلك بأُسلوبه المتميِّز بالوُضوح والتَّأصيل المنهجي وجَودة السَّبك بلا تكلُّف ولا تَعقيد.

وكان من اختياراته في العَقيدة من المتون المتقدِّمة: قراءته للنُّونيَّة وهي: «**الكـافِيَة الشَّـافِيَة في اعْتِقـاد الفِـرْقة النَّاجِيَـة**»، للحافِظ العـلَّامة شَمْس الدِّين

أبي عَبْدالله محمَّد بن أبي بَكْر، ابن قَيِّم الجوزيَّة، المتوفَّى بدمشق عام (٧٥١هـ)[١]، تغمَّده الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنه فَسِيح جنَّاته، وجَزاه عن الإسلام والمسلمين خَير الجَزاء.

وفي شَهر ذي الحِجَّة من عام (١٣٩١هـ) شَرَع -رحمه الله- في تَدْوين قراءةٍ عِلميةٍ لتلك القَصِيدة «الرَّائعة» -كما كان يَصِفُها في كلِّ مناسبة-، وكَتَب بخطِّه مختاراتٍ من أبياتها، جَعَلها فُصُولًا متنوعة، وقد أُضِيفت إلى آخِر هذا الكتاب تَتْميمًا للفائدة، كما جَلَس -رحمه الله- في حَلقاتٍ متعدِّدة لشَرْحها ضِمْن دُروسه العِلميَّة التي كان يَعْقِدها للطُّلاب في جامِعِه بعُنَيْزة، وكان أَوَّل الشُّروحات المسجَّلة صوتيًّا لفضيلته -رحمه الله- تلك الدُّروس التي كانت خلالَ الفترة من (١٤٠٨-١٤١٢هـ)، وقد شَمِلت مَتْن النُّونية كاملًا.

وفي حَجِّ عام (١٤١٧هـ) بادَر الشَّيخ الدُّكتور علي بن عبدالعزيز الشبل -أثابه الله- باقتراح إلى فضيلة شيخنا العلامة الوالد محمد بن صالح العثيمين -رحمه الله- للشُّروع في العمل اللازم لطباعة ذلك الشَّرح المسجَّل، فوافَقَه على ذلك؛ على أن يَتِم عَرْض المادة المفرَّغة على فضيلته قبل النَّشر، ثم طلب منه تأجيلَ إعداد ذلك الشَّرح للطباعة؛ لعزمه -بمشيئة الله تعالى- على إعادة شرح النُّونية شرحًا مفصَّلًا، وقد تحقَّق ذلك فِعْلًا -ولله الحمد والشكر- فكان الشَّرحَ الأخيرَ، وهو المسجَّل خلال الفَترة من (١٤١٩هـ) حتى وفاته -رحمه الله- عام (١٤٢١هـ)،

(١) ترجم له الكثيرون؛ انظر: (ذيل طبقات الحنابلة) لابن رجب -رحمه الله- (٥/ ١٧٠)، (الدرر الكامنة) لابن حَجَر العسقلاني -رحمه الله- (٤/ ٢١)، (البدر الطالع) للشَّوْكاني -رحمه الله- (٢/ ١٤٣)، (شذرات الذهب) لابن العماد الحنبلي -رحمه الله- (٦/ ١٦٨)، (الأعلام) للزركلي -رحمه الله- (٦/ ٥٦)، وغيرهم.

وقد بدأ فيه -رحمه الله- بـ(**فصل: في أقسام التَّوحيد والفَرق بين توحيد المرسلين وتوحيد النُّفاة المُعَطِّلين**) إلى آخر المنظُومة، ثم عاد بشَرحها من أوَّلها حتى بلغ قول النَّاظِم -رحمه الله-:

وَاللهُ أَعْلَمُ بِالمُرَادِ بِقَوْلِهِ

وَرَسُولُهُ المَبْعُوثُ بِالفُرْقَانِ(١)

وإنفاذًا للقَواعد والضَّوابِط والتَّوْجيهات الَّتِي قرَّرها فَضِيلة الشَّيخ الوالِد محمَّد بن صالح العُثَيْمِين -رحمَهُ اللهُ تعالَى- لإِخْراج تُراثِه العِلْمي قَامَ القِسْم العِلْمِيُّ بـ(**مؤسَّسة الشَّيخ محمَّد بن صالح العُثَيْمِين الخَيْرِيَّة**) بتَهْيِئَة وإِعْداد تلك الشُّرُوحات للمنظومة، وتَخْريج أحاديثها وتَجْهيزها للطِّباعة والنَّشر، وقد تَفضَّل الشَّيخ الدُّكتور: (**علي بن عبدالعزيز الشبل**) -مَشْكورًا- بمراجعتها، وضَبَط مَتْنَ النُّونية من خلال ثِنْتي عشرة نُسخة تجمَّعت لديه بالإضافة إلى تَقْريراتِ فَضِيلة الشَّيخ الشَّارح -رحمه الله- أَثْناء الدَّرْس بالتَّنْويه على الفُرُوق بين النُّسَخ.

وفي هذا الشَّأن كَتَب الشيخ الدكتور علي بن عبدالعزيز الشبل -حفظه الله- إفادةً عِلْميَّة مُجْمَلة هذا نَصُّها:

[تنويه مجمل بالنُّسخ:

١- نُسخة بِرْلِين وهي المنوَّهَة عنها بـ(الأصل)، وهي منسوخة سنة (٧٧٠هـ)، أي: بعد وفاة ابن القيم -رحمه الله- بـ١٩ سنة، وتقع في ١٦٦ لوحة،

---

(١) البيت رقم (١١٧٧).

بخط نَسْخيٍّ واضح، وصُورتها بجامعة الإمام محمَّد بن سُعود الإسلاميَّة، برقم ٧٠٨٧ف.

٢- نُسخة الإفتاء في الرياض، وأَصْلها مِن مكتبة سَماحة الشيخ محمَّد بن إبراهيم آل الشيخ -رحمه الله-، وهي محفوظة بمكتبة الرياض، برقم ٣٤٧/ ٨٦، ومنسوخة سنة (٧٨٢هـ)، أي: بعد وفاة ابن القيم -رحمه الله- بـ٣١ سنة، وتقع في ١٢٦ ورقة.

٣- نُسخة السَّفَّارينيَّة، وعليها تَمَلُّك عبد القادر بن الشيخ محمد السَّفَّاريني الحَنْبلي -رحمه الله-، وهي محفوظة بمكتبة بِرْلين بألمانيا، ومنسوخة سنة (١٢٠٧هـ)، وتقع في ١٣٧ ورقة، وصُورتها بجامعة الإمام محمَّد بن سُعود الإسلاميَّة، برقم ٧١٠١ ف.

٤- نُسخة الظَّاهرية: وهي ضِمن المجموع الكبير «الكواكِب الدَّرَارِي»، ومنسوخة سنة (٨٢٨هـ)، في ١٣١ ورقة، وصُورتها بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، برقم ٢٩٥٣ف.

٥- نُسخة ابن سَحْمان الأولى، وهي نُسخة جيِّدة مُقابلة على نُسختين، وبها حواشٍ تَصْحيحيَّة ذات قِيمة عالية؛ محفوظ أصلها لدَى أُسْرتنا بمكتبة الجَدِّ الشيخ صالح الحمد الشبل -رحمه الله-، ومنسوخة سنة (١٣٠٦هـ) بخط الشيخ سليمان بن سَحْمان -رحمه الله-، في ١٥١ ورقة، وجملة أبياتها (٥٨٥٩) بيتًا، ومضبوطة بالشَّكل كلها سنة (١٣١٤هـ).

٦- نُسخة ابن سَحْمان الثانية، وتقع في ١٥٣ ورقة، وقد نُسخت في المحرم (١٣٠٨هـ)، وفِلْمها في جامعة الإمام محمَّد بن سُعود الإسلاميَّة، برقم ٦٥٨٠ف، وهي مصوَّرة عن أصلها بحائل.

٧- نُسخة التَّيْمُورية، وهي بدار الكُتُب المصرية، برقم ١٧٠ عقائد تيمور، ومنسوخة سنة (٧٦٨هـ)، مجرَّدة عن التَّصْويبات، وفيها ١٥٦ورقة.

وهذه النُّسَخ هي النُّسَخ الأصلية للمقابلة والمراجعة، وأما بقية النُّسخ فمُسانِدة وهي:

٨- نُسخة بُرَيْدة، وتقع في ١٣٥ ورقة، بمكتبة بُرَيدة العامَّة، بخط محمَّد بن عبد العزيز -رحمه الله-، وهي نسخة مضبوطة بالشَّكْل.

٩- نُسخة الإفتاء الثانية، في الرياض، وتقع في ١٥٤ ورقة، مجهولة المصدر، وهي برقم ٣٣٣.

١٠- نُسخة مكتبة آل يَعْقوب، بحائل، في ١٨٤ لوحة، منسوخة سنة ١١٦٩هـ، وآلت إليهم وَقْفًا من حُمود العبيد الرشيد -رحمه الله-.

١١- المطبوعة ضِمن شرح الشَّيخ أحمد بن إبراهيم بن عِيسى -رحمه الله-، المسمَّى «توضيح المقاصد وتَصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيِّم».

١٢- المطبوعة ضِمن شرح الشيخ محمَّد خَليل هَرَّاس -رحمه الله- على النُّونية]. انتهى ما كتبه الشَّيخ الدُّكتور علي بن عبدالعزيز الشبل، فجزاه الله خيرًا على جهده المشكور وعَمَله الجليل.

نَسْأل اللهَ تعالَى أن يَجْعل هذا العملَ خالصًا لوجهِه الكَريم؛ نافِعًا لعِبادِه، وأن يجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلام والمسلِمين خَيْرَ الجَزَاء، ويُضاعِفَ لهُ المثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورسولِه، خاتَمِ النَّبيِّين، وإمام المُتَّقِين، وسيِّد الأوَّلينَ والآخِرينَ، نبيِّنَا محمَّد، وعلَى آلِه وأصحابِه والتَّابعينَ لهم بإِحْسانٍ إلَى يوم الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ
فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ
غُرَّة شَعْبان ١٤٣٤هـ

* * *

نبذة مختصرة عن
العلاَّمة محمد بن صالح العثيمين
١٣٤٧- ١٤٢١هـ

نسبه ومولده:

هو صاحب الفضيلة الشيخ العالم المحقق، الفقيه المفسّر، الورع الزاهد، محمد بن صالح بن محمد بن سليمان بن عبد الرحمن آل عثيمين من الوهبة من بني تميم.

ولد في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك عام ١٣٤٧هـ في عنيزة -إحدى مدن القصيم- في المملكة العربية السعودية.

نشأته العلمية:

ألحقه والده رحمه الله تعالى -ليتعلم القرآن الكريم عند جدّه من جهة أمه المعلِّم عبد الرحمن بن سليمان الدامغ -رحمه الله -، ثمَّ تعلَّم الكتابة، وشيئًا من الحساب، والنصوص الأدبية في مدرسة الأستاذ عبدالعزيز بن صالح الدامغ -حفظه الله-، وذلك قبل أن يلتحق بمدرسة المعلِّم علي بن عبد الله الشحيتان -رحمه الله تعالى- حيث حفظ القرآن الكريم عنده عن ظهر قلب ولـمَّا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره بعد.

وبتوجيه من والده -رحمه الله- أقبل على طلب العلم الشرعي، وكان فضيلة الشيخ العلَّامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رحمه الله- يدرِّس العلوم

الشرعية والعربية في الجامع الكبير بعنيزة، وقد رتَّب اثنين[١] من طلبته الكبار؛ لتدريس المبتدئين من الطلبة، فانضم الشيخ إلى حلقة الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع -رحمه الله- حتى أدرك من العلم في التوحيد، والفقه، والنحو ما أدرك.

ثم جلس في حلقة شيخه العلَّامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله، فدرس عليه في التفسير، والحديث، والسيرة النبوية، والتوحيد، والفقه، والأصول، والفرائض، والنحو، وحفظ مختصرات المتون في هذه العلوم.

ويُعدّ فضيلة الشيخ العلَّامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رحمه الله- هو شيخه الأول؛ إذ أخذ عنه العلم؛ معرفةً وطريقةً أكثر مما أخذ عن غيره، وتأثر بمنهجه وتأصيله، وطريقة تدريسه، واتِّباعه للدليل.

وعندما كان الشيخ عبد الرحمن بن علي بن عودان -رحمه الله- قاضيًا في عنيزة قرأ عليه في علم الفرائض، كما قرأ على الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- في النحو والبلاغة أثناء وجوده مدرّسًا في تلك المدينة.

ولما فتح المعهد العلمي في الرياض أشار عليه بعضُ إخوانه[٢] أن يلتحق به، فاستأذن شيخَه العلَّامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رحمه الله- فأذن له، والتحق بالمعهد عامي ١٣٧٢-١٣٧٣هـ.

ولقد انتفع -خلال السنتين اللّتين انتظم فيهما في معهد الرياض العلمي- بالعلماء الذين كانوا يدرِّسون فيه حينذاك ومنهم: العلَّامة المفسِّر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والشيخ الفقيه عبدالعزيز بن ناصر بن رشيد، والشيخ المحدِّث عبد الرحمن الإفريقي -رحمهم الله تعالى-.

---

(١) هما الشيخان محمد بن عبد العزيز المطوع، وعلي بن حمد الصالحي رحمهما الله تعالى.
(٢) هو الشيخ علي بن حمد الصالحي رحمه الله تعالى.

وفي أثناء ذلك اتصل بسماحة الشيخ العلَّامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز -رحمه الله-، فقرأ عليه في المسجد من صحيح البخاري ومن رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية، وانتفع به في علم الحديث والنظر في آراء فقهاء المذاهب والمقارنة بينها، ويُعدُّ سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمه الله- هو شيخه الثاني في التحصيل والتأثُّر به.

ثم عاد إلى عنيزة عام ١٣٧٤هـ وصار يَدرُسُ على شيخه العلَّامة عبد الرحمن ابن ناصر السعدي، ويتابع دراسته انتسابًا في كلية الشريعة، التي أصبحت جزءًا من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة، حتى نال الشهادة العالية.

تدريسه:

توسَّم فيه شيخه النّجابة وسرعة التحصيل العلمي فشجّعه على التدريس وهو ما زال طالبًا في حلقته، فبدأ التدريس عام ١٣٧٠هـ في الجامع الكبير بعنيزة.

ولّما تخرَّج من المعهد العلمي في الرياض عُيِّن مدرِّسًا في المعهد العلمي بعنيزة عام ١٣٧٤هـ.

وفي سنة ١٣٧٦هـ توفي شيخه العلَّامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رحمه الله تعالى- فتولّى بعده إمامة الجامع الكبير في عنيزة، وإمامة العيدين فيها، والتدريس في مكتبة عنيزة الوطنية التابعة للجامع؛ وهي التي أسسها شيخه -رحمه الله- عام ١٣٥٩هـ.

ولما كثر الطلبة، وصارت المكتبة لا تكفيهم؛ بدأ فضيلة الشيخ -رحمه الله- يدرِّس في المسجد الجامع نفسه، واجتمع إليه الطلاب وتوافدوا من المملكة وغيرها حتى كانوا يبلغون المئات في بعض الدروس، وهؤلاء يدرسون دراسة

تحصيل جاد، لا لمجرد الاستماع، وبقي على ذلك، إمامًا وخطيبًا ومدرسًا، حتى وفاته -رحمه الله تعالى-.

بقي الشيخ مدرِّسًا في المعهد العلمي من عام ١٣٧٤هـ إلى عام ١٣٩٨هـ عندما انتقل إلى التدريس في كلية الشريعة وأصول الدين بالقصيم التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وظل أستاذًا فيها حتى وفاته- رحمه الله تعالى -.

وكان يدرِّس في المسجد الحرام والمسجد النبوي في مواسم الحج ورمضان والإجازات الصيفية منذ عام ١٤٠٢هـ، حتى وفاته -رحمه الله تعالى-.

وللشيخ -رحمه الله- أسلوب تعليمي فريد في جودته ونجاحه، فهو يناقش طلابه ويتقبل أسئلتهم، ويُلقي الدروس والمحاضرات بهمَّة عالية ونفسٍ مطمئنة واثقة، مبتهجًا بنشره للعلم وتقريبه إلى الناس.

آثاره العلمية:

ظهرت جهوده العظيمة -رحمه الله تعالى- خلال أكثر من خمسين عامًا من العطاء والبذل في نشر العلم والتدريس والوعظ والإرشاد والتوجيه وإلقاء المحاضرات والدعوة إلى الله -سبحانه وتعالى-.

ولقد اهتم بالتأليف وتحرير الفتاوى والأجوبة التي تميَّزت بالتأصيل العلمي الرصين، وصدرت له العشرات من الكتب والرسائل والمحاضرات والفتاوى والخطب واللقاءات والمقالات، كما صدر له آلاف الساعات الصوتية التي سجلت محاضراته وخطبه ولقاءاته وبرامجه الإذاعية ودروسه العلمية في تفسير القرآن الكريم والشروحات المتميزة للحديث الشريف والسيرة النبوية والمتون والمنظومات في العلوم الشرعية والنحوية.

وإنفاذًا للقواعد والضوابط والتوجيهات التي قررها فضيلته -رحمه الله تعالى- لنشر مؤلفاته، ورسائله، ودروسه، ومحاضراته، وخطبه، وفتاواه ولقاءاته، تقوم مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية -بعون الله وتوفيقه- بواجب وشرف المسؤولية لإخراج كافة آثاره العلمية والعناية بها.

وبناءً على توجيهاته -رحمه الله تعالى- أنشئ له موقع خاص على شبكة المعلومات الدولية(١)، من أجل تعميم الفائدة المرجوة -بعون الله تعالى- وتقديم جميع آثاره العلمية من المؤلفات والتسجيلات الصوتية.

أعماله وجهوده الأخرى:

إلى جانب تلك الجهود المثمرة في مجالات التدريس والتأليف والإمامة والخطابة والإفتاء والدعوة إلى الله -سبحانه وتعالى- كان لفضيلة الشيخ أعمال كثيرة موفقة منها ما يلي:

- عضوًا في هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية من عام ١٤٠٧هـ إلى وفاته.
- عضوًا في المجلس العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في العامين الدراسيين ١٣٩٨-١٤٠٠هـ.
- عضوًا في مجلس كلية الشريعة وأصول الدين بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في القصيم ورئيسًا لقسم العقيدة فيها.
- وفي آخر فترة تدريسه بالمعهد العلمي شارك في عضوية لجنة الخطط والمناهج للمعاهد العلمية، وألّف عددًا من الكتب المقررة بها.

---

(١) www.binothaimeen.com

- عضوًا في لجنة التوعية في موسم الحج من عام ١٣٩٢هـ إلى وفاته -رحمه الله تعالى- حيث كان يلقي دروسًا ومحاضرات في مكة والمشاعر، ويفتي في المسائل والأحكام الشرعية.
- ترأس جمعية تحفيظ القرآن الكريم الخيرية في عنيزة من تأسيسها عام ١٤٠٥هـ إلى وفاته.
- ألقى محاضرات عديدة داخل المملكة العربية السعودية على فئات متنوعة من الناس، كما ألقى محاضرات عبر الهاتف على تجمعات ومراكز إسلامية في جهات مختلفة من العالم.
- من علماء المملكة الكبار الذين يجيبون على أسئلة المستفسرين حول أحكام الدِّين وأصوله عقيدة وشريعة، وذلك عبر البرامج الإذاعية من المملكة العربية السعودية وأشهرها برنامج (**نور على الدرب**).
- نذر نفسه للإجابة على أسئلة السائلين مهاتفة ومكاتبة ومشافهة.
- رتَّب لقاءات علمية مجدولة، أسبوعية وشهرية وسنوية.
- شارك في العديد من المؤتمرات التي عقدت في المملكة العربية السعودية.
- ولأنه يهتم بالسلوك التربوي والجانب الوعظي اعتنى بتوجيه الطلاب وإرشادهم إلى سلوك المنهج الجاد في طلب العلم وتحصيله، وعمل على استقطابهم والصبر على تعليمهم وتحمل أسئلتهم المتعددة، والاهتمام بأمورهم.
- وللشيخ -رحمه الله- أعمال عديدة في ميادين الخير وأبواب البرّ ومجالات الإحسان إلى الناس، والسعي في حوائجهم وكتابة الوثائق والعقود بينهم، وإسداء النصيحة لهم بصدق وإخلاص.

مكانته العلمية:

يُعَدُّ فضيلة الشيخ -رحمه الله تعالى- من الراسخين في العلم الذين وهبهم الله -بمنّه وكرمه- تأصيلًا ومَلَكة عظيمة في معرفة الدليل واتباعه واستنباط الأحكام والفوائد من الكتاب والسنّة، وسبر أغوار اللغة العربية معانِيَ وإعرابًا وبلاغة.

ولما تحلَّى به من صفات العلماء الجليلة وأخلاقهم الحميدة والجمع بين العلم والعمل أحبَّه الناس محبة عظيمة، وقدّره الجميع كل التقدير، ورزقه الله القبول لديهم واطمأنوا لاختياراته الفقهية، وأقبلوا على دروسه وفتاواه وآثاره العلمية، ينهلون من معين علمه ويستفيدون من نصحه ومواعظه.

وقد مُنح جائزة الملك فيصل -رحمه الله تعالى- العالمية لخدمة الإسلام عام ١٤١٤هـ، وجاء في الحيثيات التي أبدتها لجنة الاختيار لمنحه الجائزة ما يلي:

- **أولًا**: تحلِّيه بأخلاق العلماء الفاضلة التي من أبرزها الورع، ورحابة الصدر، وقول الحق، والعمل لمصلحة المسلمين، والنصح لخاصتهم وعامتهم.
- **ثانيًا**: انتفاع الكثيرين بعلمه؛ تدريسًا وإفتاءً وتأليفًا.
- **ثالثًا**: إلقاؤه المحاضرات العامة النافعة في مختلف مناطق المملكة.
- **رابعًا**: مشاركته المفيدة في مؤتمرات إسلامية كثيرة.
- **خامسًا**: اتباعه أسلوبًا متميزًا في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وتقديمه مثلًا حيًّا لمنهج السلف الصالح؛ فكرًا وسلوكًا.

عقِبُه:

له خمسة من البنين، وثلاث من البنات، وبنوه هم: عبد الله، وعبد الرحمن، وإبراهيم، وعبد العزيز، وعبد الرحيم.

وفاته:

تُوفي -رحمه الله- في مدينة جدّة قبيل مغرب يوم الأربعاء الخامس عشر من شهر شوال عام ١٤٢١هـ، وصُلِّيَ عليه في المسجد الحرام بعد صلاة عصر يوم الخميس، ثم شيّعته تلك الآلاف من المصلّين والحشود العظيمة في مشاهد مؤثرة، ودفن في مكة المكرمة.

وبعد صلاة الجمعة من اليوم التالي صُلِّيَ عليه صلاة الغائب في جميع مدن المملكة العربية السعودية.

رحم الله شيخنا رحمة الأبرار، وأسكنه فسيح جناته، ومَنَّ عليه بمغفرته ورضوانه، وجزاه عما قدّم للإسلام والمسلمين خيرًا.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ العُثَيْمِينَ الخَيْرِيَّةِ

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

قال ابنُ القيِّم -رحمه الله-: «الحمدُ لله الذي شَهِدَتْ له بِالرُّبوبيَّةِ جميعُ مخلوقاتِه، وأَقَرَّتْ له بالعُبوديَّةِ جميعُ مَصنوعاتِه، وَأَدَّتْ له الشَّهادةَ جميعُ الكائناتِ أَنَّه اللهُ الذي لا إلهَ إلَّا هو بما أَوْدَعَهَا مِن لَطيفِ صُنْعِهِ وبَديعِ آياتِه، وسبحان الله وبحمدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِه، وَزِنَةَ عَرْشِه، ومِدَادَ كَلماتِه، ولا إلهَ إلَّا اللهُ الأحدُ الصَّمدُ الذي لا شريكَ له في رُبوبيَّتِه، ولا شَبيهَ له في أفعالِه، ولا في صفاتِه، ولا في ذاتِه».

الشـرحُ

قَال الشَّارِحُ رَحمه اللهُ تعالَى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين وأُصلي وأُسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين، أما بعد:

القصيدةُ النُّونيَّةُ معروفةٌ بـ**(الكافِيَة الشَّافِيَة في اعتقادِ الفِرْقةِ النَّاجية)**، فهي كتابٌ ذَكَرَ فيه المؤلِّفُ -رحمه الله- عقيدةَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ في نظمٍ رقيقٍ وشَيِّقٍ، والإنسانُ إذا حَفِظَ هذه النُّونيَّةَ، وصار في الخَلْوَةِ يَتَرَنَّمُ بها، انتفع بها وَرَقَّ بها قَلبُه،

فهي قصيدةٌ مهمَّةٌ ينبغي حِفظُها، ومَن كان صاحبَ هِمَّةٍ فإنَّه يسهلُ عليه حفظُها، ولذا أنا أشيرُ بحِفْظِها، وكان شيخُنا عبد الرحمن بن سَعْدِي -رحمه الله- يتمثَّلُ بأبياتِها أحيانًا عند المناسبةِ، فهي في الحقيقةِ كَنزٌ ثمينٌ، نسألُ اللهَ تعالى أن ينفعَنا بها، وأن يَرْزُقَنا عِلمًا نافعًا، وعملًا صالحًا.

قَوْلُهُ: «**الحمدُ لله الذي شَهِدَتْ له بربوبيَّتِه جميعُ مخلوقاتِه**» هذه شَهادةٌ فِعْليَّةٌ، فكُلُّ المخلوقاتِ تشهدُ بأنَّه الرَّبُّ عزَّ وجلَّ لأنَّ هذا المخلوقَ لا بُدَّ له مِن خالقٍ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾؟ [الطور:٣٥]، الجواب: لا هذا، ولا هذا.

إِذَنْ فلا بُدَّ مِن خالقٍ، فجميعُ المخلوقاتِ شَهِدَتْ بِرُبُوبِيَّةِ الله عزَّ وجلَّ وأنَّه تعالى الرَّبُّ الخالقُ الحكيمُ المُبدعُ، قال اللهُ تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ﴾ [الملك:٣].

قَوْلُهُ: «**أَقَرَّتْ له بالعُبوديَّةِ جميعُ مصنوعاتِه**» كُلُّ المصنوعاتِ تُقِرُّ له بالأُلُوهيَّةِ (بالعُبوديَّةِ)، فإن أراد المؤلِّفُ -رحمه الله- العُبوديَّةَ الكَونيَّةَ، فلا شكَّ أنَّها عامَّةٌ، لأنَّ جميعَ المصنوعاتِ مُقِرَّةٌ لله تعالى بالعُبوديَّةِ الكَونيَّة، لا تَخْرجُ عن ذلك أبدًا، قال اللهُ تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣]، ولذلك تجدُ أكبرَ الرُّؤساءِ في أكبرِ الدُّولِ خاضعًا للمرضِ إذا أَصابَهُ، ومَن الذي أَصابَهُ به؟ اللهُ عزَّ وجلَّ خاضعًا للموتِ إذا أخَذه، ومَن الذي قَدَّرَ عليه الموتَ؟ اللهُ عزَّ وجلَّ.

إِذَنْ العُبوديَّةُ الكَونيَّةُ لا يُسْتَثْنَى منها أحدٌ.

أَمَّا العُبوديَّةُ الشَّرْعيَّةُ فيُسْتَثْنَى منها الكافرُ، فالكافرُ لم يُقِرَّ بعُبوديَّتِهِ، بل قال الكافرون للرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥].

إِذَنْ إذا أَثْبَتْنا أنَّ الخَلقَ مصنوعٌ، فهل نُثْبِتُ أنَّ اللهَ صانعٌ؟

الجواب: نعم، لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨]، لكنَّه ليس مِن أسمائِه، بل يُخْبَرُ به عنه، وتجد المتكلِّمين دائمًا في كلامِهم يُعَبِّرونَ عن الخالقِ بـ(**الصَّانع**)، وهذا وإن كان حقًّا، لكنَّه لا ينبغي، بل التَّعبيرُ بـ(**الخالق**) هو الموافقُ للقرآنِ، قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ﴾ [الحشر:٢٤].

قَوْلُهُ: «**وَأَدَّتْ له الشَّهادةَ جميعُ الكائناتِ أَنَّه اللهُ الذي لا إله إلَّا هو بما أَوْدَعَها من لطيفِ صُنْعِه، وبديعِ آياتِه**»، ولهذا يقولُ الشَّاعرُ:

فَوَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الإِلَهُ ... أَوْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ[1]

لأنه لا منازِعَ له، يفعلُ في خَلْقِه ما يشاءُ، وهذا يدلُّ على أنَّه عزَّ وجلَّ واحدٌ.

قَوْلُهُ: «**وسُبحان الله وبحمدِه**» هذا جمعٌ بين التَّنزيهِ عن كُلِّ ما لا يليقُ بِه، وإثباتِ الكمالِ له، فبالحمدِ ثَبَتَ له الكمالُ، بمعنى أنَّه يُحْمَدُ على كَمالِه، وبالتَّسبيحِ ثَبَتَ له عزَّ وجلَّ التَّنزيهُ عن كُلِّ نَقْصٍ، والتَّسبيحُ والتَّحميدُ يُقْرَنانِ دائمًا، لأنَّ بهما الكمالَ المُطْلَقَ.

قَوْلُهُ: «**عَدَدَ خَلقِه، ورِضَا نَفْسِه وزِنَةَ عَرْشِه ومِدَادَ كَلِماتِه**» بيانٌ لمقدارِ هذا

---

(١) البيتان لأبي العَتَاهِيَة، كما في التمثيل والمحاضرة للثعالبي (ص:١١).

الحمدِ وكيفيَّتِهِ، فـ(**عَدَدَ خَلْقِه**) بالكَميَّة، و(**رِضَا نَفْسِه، وَزِنَةَ عَرْشِه، وَمِدَادَ كلماتِه**) هذا بالكَيْفيَّة، وإن كان مِدادُ الكلماتِ قد يكونُ بالكَميَّةِ أيضًا.

قَوْلُهُ: «الأَحَدُ الصَّمَدُ» (الأَحَدُ): أي: المُتَفَرِّدُ، و(**الصَّمدُ**): القولُ الذي يجمعُ كُلَّ ما قِيلَ فيها: أَنَّه الغنيُّ بِذَاتِه، الذي افْتَقَرَتْ له جميعُ مخلوقاتِه، فهو غنيٌّ عن جميعِ المخلوقاتِ، وجميعُ المخلوقاتِ كُلُّها مُفْتَقِرَةٌ له.

قَوْلُهُ: «لَا شَبِيهَ لَهُ فِي أَفْعَالِهِ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ، وَلَا فِي ذَاتِهِ» هذه ثلاثةُ أشياءَ لا شبيهَ لله تعالى فيها، وهي: أفعالُه وصفاتُه وذاتُه.

أوَّلًا: الفِعلُ: فَمَثلًا: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] فِعْلٌ، لكن هل هو يُشْبِهُهُ استواؤنا على السَّريرِ، وعلى البَعِيرِ؟ الجواب: لا، وكذلك: «**يَنْزِلُ إِلَى السَّماءِ الدُّنْيَا**»[1]. هل يُشْبِهُه نُزولُنا مِن السَّطحِ إلى الأرضِ؟ الجوابُ: لا.

ثانيًا: الصِّفات مِثل: العِلم والسَّمعِ والقُدْرة والعِزَّة، أيضًا لا تُشْبِهُه صفاتُنا، فنحن عندنا عِلمٌ وقُدْرةٌ وسَمعٌ وبَصرٌ وعِزَّةٌ وحِكْمةٌ، لكن لا تُشْبِهُ ما لله تعالى مِن ذلك.

ثالثًا: الذَّات، فذواتُ المخلوقين لا تُشْبِهُ ذاتَ الخالقِ عزَّ وجلَّ.

واعلم أنَّ كلمةَ (**ذات**) تُطْلَقُ على عَينِ الشَّيء، لكن هذا الإطلاقُ هل هو لُغَويٌّ أو مُحْدَثٌ؟ قال بعضُهم: إنَّه مُحْدَثٌ، وإنَّما في اللُّغةِ لا تُطْلَقُ على ذاتِ الشَّيء، وإنَّما تُطْلَقُ على الجهةِ، وعلى الحالِ، وأن تكونَ بمعنى (**صاحبة**)، فتقولُ مثلًا: (**هذه امرأةٌ ذاتُ مالٍ**) أي: صاحبةُ مالٍ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

بَيۡنِكُمۡ﴾ [الأنفال:١] أي: الحال التي بَيْنكم أَصْلِحُوها، وقال النَّبِيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ: ثِنْتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ الله»[(١)]. أي: في جانبِه وجهتِهِ.

وقال خُبَيْبٌ[(٢)] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ»[(٣)]. أي: في جانبِه وجِهتِهِ.

لكن اسْتُعْمِلَت استعمالًا شائعًا عند العلماءِ، حتَّى صارت حقيقةً عُرفيَّةً، فاسْتُعْمِلَتْ في مقابلِ الصِّفةِ، فاستعملوها بمعنى نفسِ الشَّيءِ، وعينِ الشَّيءِ، فكما تقولُ العربُ: (هذا زيدٌ عينُه)، و(هذا زيدٌ نفسُه)، يكونُ: (وهذا زيدٌ ذاتُه)، وصار الآن استعمالًا شائعًا لا يُنْكَرُ، ولهذا قال المؤلِّفُ -رحمه الله-: (فِي صِفَاتِه وَذَاتِهِ).

وقوله: «وَلَا شَبِيهَ لَهُ فِي أفعالِه» هذا مِن بابِ التَّجوُّزِ، وما قاله شيخُه -رحمه الله- من التَّعبيرِ بِنَفْيِ التَّمثيلِ أَوْلَى، يعني: الذي ينبغي أَلَّا نُعبِّرَ بلفظِ (التَّشبيه)، بل نُعبِّر بلفظِ (التَّمثيلِ)، لأنَّ ذلك هو الذي جاء في القرآنِ الكريمِ، قال اللهُ تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [النحل:٧٤]، أمَّا (التَّشبيهُ) وإن كان يُرَادُ به معنى (التَّمثيل)، لكنَّه لا يساوي نفيَ التَّمثيلِ، وعلى هذا فنقول: التَّعبيرُ بنفي التَّمثيلِ أَوْلَى مِن وُجوهٍ:

الأوَّل: أنَّه الذي جاء به القرآنُ، وكُلَّما وَافَقَ كلامُ الإنسانِ ما عَبَّرَ به القرآنُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾، رقم (٣١٧٩)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ، رقم (٢٣٧١).

(٢) هو خبيب بن عدي بن مالك بن عامر الأنصاريّ الأوسيّ، شهد بدرًا واستشهد في عهد النبيّ ﷺ. انظر ترجمته في: الإصابة (٢/ ٢٢٥).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب هل يستأسر الرجل ومن لم يستأسر، ومن ركع ركعتين عند القتل، رقم (٢٨٨٠).

والسُّنَّةُ فهو أَوْلى، لأَنَّه كلامٌ مُحْكَمٌ.

الثَّاني: أنَّ نفيَ التَّشبيهِ مُجْمَلٌ في الواقعِ، لأنَّ هناك أناسًا يَدَّعون أنَّ مَنْ أَثْبَتَ لله صِفةً فهو مُشَبِّهٌ، فأهلُ التَّعطيلِ يُسَمُّون أهلَ الإثباتِ مُشَبِّهَةً، فإذا قلنا: (**مَعَ نَفْيِ التَّشبيهِ**) وقد تَقَرَّرَ في ذهنِ الإنسانِ أنَّ إثباتَ الصِّفاتِ تشبيهٌ فُهِمَ مِن هذا اللفظِ نفيُ الصِّفاتِ.

الثَّالث: أنَّ نفيَ التَّشبيهِ لا يصحُّ، لأَنَّه إن أُرِيدَ به مُطْلَقُ التَّشبيهِ فهو غيرُ صحيحٍ، لأَنَّه لا بُدَّ مِن اشتراكِ الخالقِ والمخلوقِ في أصلِ الصِّفةِ، وهو نوعٌ مِن التَّشبيهِ، لكنَّهما يختلفان في كيفيَّتِها.

فمثلًا (**العِلمُ**)، لله عزَّ وجلَّ عِلمٌ، وللإنسانِ عِلمٌ، لا بُدَّ مِن هذا، فهما اشتركا في أصلِ العِلمِ وهو نوعٌ مِن الشَّبَهِ، فإذا أراد بذلك نفيَ مُطْلَقِ التَّشبيهِ فهذا غَلَطٌ، لأَنَّه لا بُدَّ مِن اشتباهٍ، أعني: اشتراكًا في أصلِ المعنى، فهذا لا بُدَّ منه، لكن يختلفان في الكيفيَّةِ والعمومِ والشُّمولِ، وما أشبه ذلك، وإن أراد به التَّشبيهَ المُطْلَقَ قال: (مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ) أي: (**التَّشبيه المطلق**)، فهذا لَغْوٌ مِن القولِ لا قيمةَ له، لأَنَّه لا أحدَ ممَّن يُثْبِتُ الخالقَ والمخلوقَ يقولُ: إنَّ الخالقَ مِثلُ المخلوقِ مِن كُلِّ وجهٍ.

إِذَنْ يكونُ نفيُنا للتَّشبيهِ إذا أردنا التَّشبيهَ المُطْلَقَ يكونُ لَغْوًا مِن القولِ، لأَنَّه لا حاجةَ إليه كما لا حاجةَ أن نقولَ: (**السَّماءُ فَوْقَنا، والأرضُ تَحْتَنا**)، ولا أن نقولَ كما قال النَّاظمُ:

كَأَنَّنَا وَالسَّمَاءُ مِنْ حَوْلِنَا ... قَوْمٌ جُلُوسٌ حَوْلَهُمْ مَاءُ[1]

---

(١) البيت في الكشكول، لبهاء الدين الحارثي (١/ ٢٦١) بلا نسبة.

إِذَنْ نفيُ التَّمثيلِ أَوْلى لهذه الوجوهِ الثَّلاثةِ، وهذا الذي قرَّره شيخُ الإسلامِ -رحمه الله- حين ناظر مَنْ ناظره في (**العقيدة الواسطيَّة**)[1].

* * *

«واللهُ أكبرُ عَدَدَ ما أَحَاطَ به عِلمُه، وَجَرى به قَلَمُه، وَنفَذَ فيه حُكْمُه مِن جميعِ بَرِيَّاتِه، وَلَا حَولَ وَلَا قوَّةَ إلَّا بالله، تَفْويضَ عَبْدٍ لَا يملكُ لنفسِه ضَرًّا ولا نَفْعًا، وَلَا مَوْتًا وَلَا حَياةً، ولا نُشُورًا، بَلْ هُوَ باللهِ، وإلى الله في مَبَادي أمرِه ونِهاياتِه».

الشرحُ

قَوْلُهُ: «**تَفْويضَ**»: منصوبةٌ بفعلٍ محذوفٍ، يعني: أُفَوِّضُ ذلك تفويضَ عبدٍ.

قَوْلُهُ: «**بل هو بالله وإلى الله**» أي: بالله وُجودًا، فوجودُ الإنسانِ بالله، (**وإلى الله**) غايةً، فإنَّ مرجعَ العبدِ إلى الله -تبارك وتعالى- مهما طَالَتْ به الحياةُ مَرْجِعُه إلى ربِّه -تبارك وتعالى- قالُ اللهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:٤٢].

* * *

«وأشهدُ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، ولا صاحبةَ له، ولا ولدَ له، ولا والدَ له، ولا كُفْءَ له، الذي هو كما أَثْنَى على نفسِه، وفوق ما يُثْنِي عليه أحدٌ مِن جميعِ بَرِيَّاتِه، وأشهدُ أن محمَّدًا عبدُه ورسولُه، وأَمِينُه على وَحْيِه، وَخِيرَتُه مِن بَرِيَّتِه، وسَفِيرُه بَيْنَه وبين عِبادِه، وحُجَّتُه على خَلْقِه، أرسله بالهُدى ودِينِ الحقِّ بين يَدَي السَّاعةِ بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنِه، وسِراجًا مُنيرًا، أرسله على حين فَتْرَةٍ مِن الرُّسلِ، وَطُمُوسٍ مِن السُّبُلِ، ودُروسٍ مِن الكُتبِ، والكُفْرُ قد اضْطَرَمَتْ نارُه،

(١) المناظرة على العقيدة الواسطيَّة، مطبوعةٌ عقب الواسطيَّة، المجلد الثَّالث من مجموع الفتاوى.

وتَطَايَرَ في الآفاقِ شَرَارُه، وقد استوجب أهلُ الأرضِ أن يَحُلَّ بهم العِقابُ، وقد نَظَرَ الجبَّارُ -تبارك وتعالى- إليهم فَمَقَتَهُم عَرَبَهم وعَجَمَهم، إلَّا بَقايا مِن أهلِ الكتابِ».

الشرحُ

قَوْلُهُ: «وسفيرُه بين عبادِه» السَّفيرُ يعني: الرَّسولَ، ومِن ذلك سُفَرَاءُ الدُّولِ، لأنَّهم واسطةٌ بين دُوَلِهم، وبين الدُّولِ الأخرى.

قَوْلُهُ: «أرسله بالهدى ودِينِ الحقِّ» اعلم أنَّ الهُدَى في هذا الموضعِ هو العِلْمُ النَّافعُ، وأنَّ دِينَ الحقِّ هو العملُ الصَّالحُ، لكنَّ الهُدَى في غيرِ هذا الموضعِ ينقسمُ إلى: هُدَى توفيقٍ، وهو العملُ الصَّالحُ، وإلى هُدَى عِلمٍ، وهو البيانُ والإرشادُ.

قَوْلُهُ: «والكُفْرُ قد اضْطَرَمَتْ نارُه» الكُفرُ بالضَّمِّ: مبتدأٌ، فهذه جملةٌ جديدةٌ.

* * *

«وقد استند كُلُّ قومٍ إلى ظُلمِ آرائِهم، وحَكَمُوا على الله سبحانه بمقالاتِهم الباطلةِ وأهوائِهم، وليلُ الكفرِ مُدْلَهِمٌّ ظلامُه، شديدٌ قَتَامُه، وسَبيلُ الحَقِّ عافيةٌ آثارُها، مَطمُوسةٌ أعلامُها، فَفَلَقَ اللهُ سبحانه بمحمَّدٍ ﷺ صُبْحَ الإيمانِ، فأضاء حتَّى ملأ الآفاقَ نُورًا، وأَطْلَعَ به شمسَ الرِّسالةِ في حَنادسِ الظُّلَمِ سِراجًا مُنيرًا، فَهَدَى به مِن الضَّلالةِ، وعَلَّمَ به مِن الجَهَالةِ، وبَصَّرَ به مِن العَمَى، وأَرْشَدَ به مِن الغَيِّ، وكَثَّرَ به بعد القِلَّةِ، وأَعَزَّ به بعد الذِّلَّةِ، وَأَغْنَى به بَعْد العَيْلَةِ، وَاسْتَنْقَذَ به مِن الهَلَكَةِ، وفَتَحَ به أَعْيُنًا عُمْيًا، وآذانًا صُمًّا، وقُلوبًا غُلْفًا، فَبَلَّغ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وَجَاهَدَ في الله حَقَّ جِهادِه، وعَبَدَ اللهَ حتَّى أتاه اليقينُ مِن ربِّه، وَشَرَحَ اللهُ له صَدرَه،

وَرَفَعَ له ذِكْرَه، وَوَضَعَ عنه وِزْرَه، وجَعَلَ الذِّلَّةَ والصَّغَارَ على مَنْ خَالَفَ أَمْرَه، وَأَقْسَمَ بحياتِه في الكتابِ المُبِين، وقَرَنَ اسمَه باسْمِه، فإذا ذُكِرَ ذُكِرَ معه، كما في الخُطَبِ والتَّشهُّدِ والتَّأذين، فلا يَصِحُّ لأحدٍ خُطْبَةٌ، ولا تَشَهُّدٌ، ولا أذانٌ، ولا صلاةٌ حتَّى يشهدَ أنَّه عبدُه ورسولُه شَهادةَ اليَقِينِ، فصلَّى اللهُ وملائكتُه وأنبياؤُه ورسلُه وجميعُ خَلْقِه عليه، كما عَرَّفَنَا بالله، وهَدَانَا إليه وسَلَّمَ تسليمًا كثيرًا».

الشرحُ

ابن القيِّم -رحمه الله- قَلمُه سيَّالٌ، ومِن نِعْمَةِ الله على العبدِ أن يكونَ قلمُه سيَّالًا، ويكونَ كلامُه منتظمًا ومتآلفًا، لأنَّ بعضَ النَّاسِ لو أراد أن يكتبَ مِثل هذه الخُطْبَةِ رُبَّما يمكثُ شهرًا في كتابتِها، هذا إنْ كَتَبَها، وقد لا يستطيعُ، وبعضُ النَّاسِ يَمُنُّ اللهُ عليه، فيكون عنده انطلاقٌ في القولِ والكتابةِ، وبعضُ النَّاسِ تجده قويًّا في كتابتِه عَيِيًّا في خطابِه، وبعضُ النَّاسِ بالعكسِ.

وقد حدَّثني شيخُنا محمَّد بن عبد العزيز المطوَّع -رحمه الله- فقال: إنَّني سَمِعْتُ السَّيِّدَ محمَّد رشيد رضا -رحمه الله تعالى- صاحب (المنار) وهو يتكلَّمُ في المسجد الحرامِ، لكنَّه يقولُ: إنَّ كلامَه رديءٌ -في خطابِه- مع أنَّ كتاباتِه مِن أرقى الكتاباتِ.

ولكن فضلُ الله يؤتيه مَنْ يشاءُ، والنَّاسُ يختلفون.

قَوْلُهُ: «وَفتحَ به أعينًا عُميًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلْفًا» الغُلْفُ: المُغَلَّف عليه ومنه: غِلَافُ الشَّيءِ يُطْوَى عليه فيخفى، فالقلوبُ قلوبٌ مُفَتَّحةٌ قابلةٌ للحقِّ مطمئنَّةٌ به، وقلوبٌ مُغَلَّفَةٌ -والعياذُ بالله- قد رَانَ عليها ما كان يكسبُ صاحبُها، وخُتِمَ عليها، وطُبِعَ عليها، فلا ينفعُها شيءٌ، نعوذُ باللهِ من هذا.

قَوْلُهُ: «وَكَشَفَ الغُمَّةَ» ليس المرادُ بالغُمَّةِ الغَمَّ الذي يصيبُ الإنسانَ، بل المرادُ الغُمَّةُ التي كان غطَّاها أهلُ الكتابِ على الدِّين، وقالوا: إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ، وما أشبه ذلك، فالرَّسولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- كَشَفَهَا وَبيَّنَهَا.

قَوْلُهُ: «وَشَرَحَ اللهُ صدرَه، وَرَفَعَ له ذِكْرَه، ووَضَعَ عنه وِزْرَه» اللهُ أكبرُ، رَفَعَ اللهُ له ذِكْرَه -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- فهو يُذْكَرُ مع ذِكْرِ الله، مَنْ شَهِدَ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله، وفي الأذانِ، في كُلِّ يومٍ خَمْسَ مرَّاتٍ على الأقلِّ يُشْهَدُ له بالرِّسالةِ على أعالي الأمكنةِ، فله ذِكْرٌ في العباداتِ، لأنَّ مِن شرطِ العبادةِ الإخلاصَ لله عزَّ وجلَّ والثَّاني: المتابعةَ للرَّسولِ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم- فأنت في عبادتِك تستحضرُ أنَّك تابعٌ للرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- فيكونُ ذِكْرُ الرَّسولِ في قلبِك، وإن لم تَقُلْهُ بلسانِك، وهذا لا شكَّ أنَّه مِن رَفْعِ الذِّكْرِ، ثُمَّ الرَّفعُ الأعظمُ يكونُ يومَ القيامةِ حين يلحقُ النَّاسَ مِن الـهَمِّ والغَمِّ ما لا يطيقون، فيذهبون إلى آدمَ ونوحٍ وإبراهيمَ وموسى وعيسى -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- يطلبون أن يشفعوا لهم عند الله، فلا أحدَ يشفعُ إلَّا محمَّدٌ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم[1]- وهذا مُسْتَفَادٌ مِن قولِ الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:١-٤].

قَوْلُهُ: «أَقْسَمَ بحياتِه في الكتابِ المبين» أَقْسَمَ بحياتِه في قولِه تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢].

قَوْلُهُ: «وَقَرَنَ اسْمَه باسمِه» وهذا ليس دائمًا، بل في بعضِ الأحيانِ، ولهذا كَرِهَ العلماءُ أن يقولَ الإنسانُ عند الذَّبحِ: (**بِسْمِ الله، وَصَلَّى اللهُ على محمَّدٍ**)، لأنَّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قول الله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، رقم (٤٤٧٦)، ومسلم كتاب: الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٣).

المقامَ مقامُ إخلاصٍ وعبادةٍ، إنَّما في بعضِ الأشياءِ قَرَنَ اللهُ تعالى اسمَ رسولِه باسمِه -سبحانه وتعالى-.

قَوْلُهُ: «**فلا يَصِحُّ لأحدٍ خُطْبَةٌ... حتَّى يشهدَ أنَّه عبدُه ورسولُه**» وهذا القولُ هو الصَّحيحُ أنَّ الخُطْبَةَ لا تَصِحُّ إلَّا بالشَّهادَتَيْنِ، وإن كان الفقهاءُ -رحمهم اللهُ- لم يشترطوا ذلك، لكنَّ قولَهم ضعيفٌ.

إِذَنْ الصَّحيحُ أنَّه لا بُدَّ في الـخُطْبَةِ مِن الشَّهادةِ للهِ عزَّ وجلَّ بالتَّوحيدِ ولرسولِه -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- بالرِّسالة.

وهذه أَضِفْهَا إلى المعلوماتِ في الفقهِ، بمعنى أنَّك إذا مَرَرْتَ بشروطِ الخُطْبَةِ في بابِ صلاةِ الجمعةِ فأَضِفْ إليها ذلك، وقد اختار شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ وتلميذُه ابنُ القيِّم أنَّه لا بُدَّ أن تشتملَ الـخُطْبَةُ على الشَّهادَتَيْنِ: شهادةِ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله.

* * *

«**أَمَّا بَعْدُ: فإنَّ اللهَ -جلَّ ثناؤه وتَقَدَّسَتْ أسماؤه- إذا أراد أن يُكْرِمَ عَبْدَه بمعرفتِه، ويجمعَ قلبَه على محبَّتِه، شَرَحَ صدرَه لِقَبُولِ صِفاتِه العُلَى، وتلقِّيها مِن مِشْكَاةِ الوحي، فإذا وَرَدَ عليه شيءٌ منها قَابَلَهُ بالقَبولِ، وتلقَّاه بالرِّضى والتَّسليم، وأَذْعَنَ له بالانقيادِ، فاستنار به قلبُه، واتَّسع له صدرُه، وامتلأ به سُرورًا ومحبَّةً، وَعَلِمَ أنَّه تعريفٌ مِن تعريفاتِ الله تعالى تَعَرَّفَ به إليه على لسانِ رسولِه، فَأَنْزَلَ تلك الصِّفةَ مِن قَلبِه مَنزلةَ الغذاءِ أعظمَ ما كان إليه فاقةً، ومنزلةَ الشِّفاءِ أشدَّ ما كان إليه حاجةً، فاشتدَّ بها فرحُه، وعَظُمَ بها غِنَاهُ، وقَوِيَتْ بها معرفتُه، واطْمَأَنَّتْ إليها نَفْسُه، وسَكَنَ إليها قلبُه، فَجَالَ من المعرفةِ في ميادينِها، وأَسَامَ عَيْنَ بَصِيرتِه**

بين رياضِها وبَساتِينِها، لتيقُّنِه بأنَّ شَرَفَ العِلمِ تابعٌ لشَرَفِ مَعلُومِه، ولا مَعلُومَ أعظمُ وأجلُّ ممَّن هذه صفتُه، وهو ذو الأسماءِ الحُسْنَى، والصِّفاتِ العُلَى، وأنَّ شرفَه أيضًا بحسب الحاجةِ إليه».

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «**فإذا وَرَدَ عليه شيءٌ منها قَابَلَهُ بالقَبُولِ، وتَلقَّاهُ بالرِّضى والتَّسليمِ...**» وهذه واللهِ هي التِّجارةُ الرَّابحةُ أنَّه إذا وَرَدَ شيءٌ مِن صفاتِ الله فَتَلقَّهَا بالتَّسليمِ، لا تَقُل: لِـمَ؟ وكيف؟ وهل يمكن؟ بل أَقِرَّ بها بدونِ تردُّدٍ.

فإذا بَلَغَكَ أنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- يَنزِلُ إلى السَّماءِ الدُّنيا، فقل: (**ينزلُ**) سَمْعًا وقَبولًا، ولا تعترض، ولا تَقُل: كيف ينزلُ وهو فوق السَّمواتِ وهو العَلِيُّ الأعلى، وعُلُوُّه مِن لازمِ ذاتِه؟ لا تَقُل هكذا، ولا تقلْ: كيفَ ينزلُ في ثُلُثِ الليلِ، وثلثُ الليلِ يختلفُ ويتنقَّلُ؟ فإنَّ هذا يفتحُ عليك بابَ الشَّرِّ الذي لا نهايةَ له، ثُمَّ في النِّهايةِ تُنْكر ولا بُدَّ، لكن إذا قُلْتَ: (**سَمِعْنَا وصَدَّقْنَا وآمنَّا، ورَبُّنا ليس كَمِثْلِه شيءٌ**)، انْشَرَحَ صدرُك، وسَلِمْتَ مِن المُعارَضاتِ، وسَلِمْتَ مِن الشُّكوكِ التي يُلقيها الشَّيطانُ في قلبِك، وما ضَرَّ أولئك المتكلِّمين الذين نَفَوْا ما أَثْبَتَهُ اللهُ لنفسِه إلَّا مِثْلُ هذا حيث حَكَّمُوا عُقولَهم الفاسدةَ الخَرِبةَ، حتىَّ نَفَوْا كثيرًا مِن صفاتِ الله عزَّ وجلَّ بهذه الشُّبهةِ.

ولا شكَّ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إذا أراد أن يُكْرِمَ عبدًا شَرَحَ صدرَه لقَبولِ ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه في كتابِه، أو على لسانِ رسولِه ﷺ، فتلقَّاها بالتَّسليم والفرحِ والسُّرورِ، وازداد إيمانًا بالله عزَّ وجلَّ وتعظيمًا له، لأنَّه كُلَّما ازدادت معرفةُ الإنسانِ بالله في صفاتِه وآياتِه، فلا شكَّ أنَّه يزدادُ محبَّةً وتعظيمًا لربِّه، عكس أهل الباطلِ

-والعياذُ بالله- الذين إذا جاءتهم مثلُ هذه الصِّفاتِ ذهبوا يمينًا وشمالًا في التَّعطيلِ والتَّحريفِ، حتَّى يَبْقَوْا وهم على شكٍّ فيما وَصَفَ اللهُ به نَفْسَه، وفرقٌ كبيرٌ بين هذا وهذا.

فعليك يا أخي إن كنت تريدُ السَّلامةَ والإيمانَ واليقينَ وانشراحَ الصَّدرِ أن تقولَ: (**هكذا قال رسولُ الله ﷺ**)، وهو معصومٌ مِن الكذبِ على الله عزَّ وجلَّ وهو معصومٌ مِن أن يقولَ على الله ما لا يَعلمُ، وهو يَعلمُ ما يقولُ، وهو أنصحُ الخَلقِ للخَلقِ.

وكذلك أصحابُه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ لم يقابلوا هذا بالاعتراضِ، فهم يعلمون أنَّ اللهَ فوق كُلِّ شيءٍ، وأنَّ عُلُوَّه مِن لوازمِ ذاتِه، يعلمون هذا أشدَّ ممَّا نعلمُ، ومع ذلك لم يقولوا: (**يا رسولَ الله، كيف ينزلُ وهو فوقَ كُلِّ شيءٍ؟**).

لم يقولوا ذلك، وهم أحرصُ منَّا على معرفةِ حقائقِ صفاتِ الله عزَّ وجلَّ وهم أيضًا إذا وجَّهوا السُّؤالَ يُوَجِّهونَه إلى أعلمِ النَّاسِ بالله عزَّ وجلَّ ومع ذلك أَمْسَكُوا، لأنَّ صُدُورَهم منشرحةٌ، فكُلُّ ما صَحَّ عن رسولِ الله أخذوه بالتَّسليمِ، وكُلُّ ما قاله اللهُ عن نفسِه في الكتابِ أخذوه بالتَّسليمِ، فإيَّاك والإيراداتِ، لا أن تورِدَها أنت على نفسِك، ولا أن تورِدَها على غيرِك ممَّن يَفُوقُك عِلمًا، اترك هذا إن كنت تريدُ السَّلامةَ، أمَّا إن كنت تريدُ الهلاكَ، فإنَّك كالذي يسبحُ في ماءٍ عميقٍ، وهو لم يتعلَّم السِّباحةَ، فهذا مَآلُه لِلغَرَقِ وإن كان سيطفو بِقَدْرِ ما عنده مِن النَّفَسِ، لكن في النِّهايةِ يموتُ.

فمثلًا: إذا عَلِمَ الإنسانُ أنَّ اللهَ تعالى سميعٌ تَقَرَّبَ إلى الله بكُلِّ قولٍ، لأنَّ اللهَ يَسمعُه، سواء أكان جَهرًا أم سِرًّا، وإذا عَلِمَ أنَّ اللهَ تعالى بصيرٌ تَقَرَّبَ إليه بكُلِّ فِعلٍ، فتكون حركاتُه وسكناتُه كُلُّها مقرونةً بصفاتِ الله عزَّ وجلَّ.

إذا عَلِمَ أنَّ اللهَ غفورٌ تَعَرَّضَ لمغفرتِه، ولم يتَّكِلْ على الأمانيِّ الباطلةِ، ولم يَقُلْ: إذا كان غفورًا فاللهُ غفورٌ يغفرُ لي زلَّاتي، لا، بل يَتَعَرَّضُ للمغفرةِ بطلبِ المغفرةِ، وفِعلِ المُكفِّراتِ مِن الذُّنوبِ، وما أشبه ذلك.

إذا عَلِمَ أنَّه عزَّ وجلَّ الحيُّ القيُّومُ الذي تقومُ به المخلوقاتُ، فإنَّه لن يلجأَ إلَّا إليه، وإذا عَلِمَ أنَّه أحدٌ صَمَدٌ، صَمَدَ إليه، وسأله حاجاتِه، وهَلُمَّ جرًّا.

فالحقيقةُ أنَّ فلاحَ الإنسانِ وسعادتَه، وانشراحَ صدرِه هو بإيمانِه، وإقرارِه بأسماءِ الله تعالى وصفاتِه وتعبُّدِه لله بها، ولهذا قال النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- في الأسماءِ الحُسْنَى: «**إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[1]. إحصاؤها لفظًا، وإحصاؤها معنًى، وإحصاؤها عَملًا، وتعبُّدًا لله بها أي: بمقتضاها.

والمؤلِّفُ -رحمه الله- ذكر هذه المقدِّمةَ كاستهلالٍ لما يريدُ أن يبدأَ به، وهذه تُسَمَّى عند أهلِ البلاغةِ (**براعة الاستهلال**)، وهي أن يأتيَ الإنسانُ بمقدِّمةٍ تشيرُ إلى موضوعِ البحثِ، كما أنَّ هناك براعةَ اختتامٍ، أن يأتِيَ بكلامٍ بما يُشْعِرُ أنَّه سوف يختتمُه، ولـمَّا كانت هذه القصيدةُ في الصِّفاتِ بدأ المؤلِّفُ -رحمه الله تعالى- بهذه المقدِّمةِ.

قَوْلُهُ: «**...بأنَّ شرفَ العلمِ تابعٌ لشرفِ معلومِه**» وهذه قاعدةٌ مفيدةٌ، وهي: (**العلمُ يَشْرُفُ بِشَرَفِ المعلومِ**)، فإنَّ شَرَفَ العِلمِ بشَرَفِ معلومِه، ومعلومٌ أنَّ أشرفَ شيءٍ، وأعلى شيءٍ هو معرفةُ الله تعالى بأسمائِه وصفاتِه، ولهذا كان عِلمُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب ما يجوز من الاشتراط والثنيا في الإقرار، والشروط التي يتعارفها الناس بينهم، رقم (٢٥٨٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، رقم (٢٦٧٧).

التَّوحيدِ هو الفقهَ الأكبرَ، كما يُسمِّيه العلماءُ، فالعلمُ بمعرفةِ الله تعالى بأسمائِه وصفاتِه هو الفقهُ الأكبرُ، أمَّا علمُ أحكامِه المتعلِّقةِ بأفعالِ عِبادِه، فهو فِقْهٌ أصغرُ بالنِّسبةِ إلى الفقهِ.

فإذا قال قائلٌ: إنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- قال: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[1]. قلنا: وأيُّ فِقهٍ أعظمُ مِن الفِقهِ في أسماءِ الله وصفاتِه؟!

قَوْلُهُ: «**وأنَّ شَرَفَه أيضًا بحسبِ الحاجةِ إليه**» يَشْرُفُ العِلمُ بِشَرَفٍ آخرَ أيضًا، وهو حاجةُ النَّاسِ إليه، فكُلَّما احتاج النَّاسُ إلى العِلمِ كان طلبُه أشرفَ مِن طلبِ غيرِه، لأنَّ العِلمَ الذي لا يُحْتَاجُ إليه مَضْيَعَةٌ للوقتِ، ولا شرفَ في هذا العلمِ.

إِذَنْ المؤلِّفُ -رحمه الله- أفادنا بأنَّ العِلمَ يَشْرُفُ بأمرين: شَرَفِ المعلومِ، وحاجةِ النَّاسِ إليه.

* * *

«وليست حاجةُ الأرواحِ قطُّ إلى شيءٍ أعظمَ منها إلى معرفةِ بارِئها وفاطِرِها، ومحبَّتِهِ وذِكْرِه، والابتهاجِ به، وطلبِ الوسيلةِ إليه والزُّلفى عنده، ولا سبيلَ إلى هذا إلَّا بمعرفةِ أوصافِه وأسمائِه، فكُلَّما كان العبدُ بها أعلمَ، كان بالله أَعْرَفَ، وله أطْلَبَ، وإليه أقربَ، وكُلَّما كان لها أَنْكَرَ، كان بالله أجهلَ، وإليه أكْرَهَ، ومنه أبْعَدَ.

واللهُ تعالى يُنْزِلُ العبدَ مِن نَفْسِه حيثُ يُنْزِلُه العبدُ مِن نَفْسِه، فمن كان لِذِكرِ أسمائِه وصفاتِه مُبْغِضًا، وعنها مُعْرِضًا نافرًا ومُنَفِّرًا، فاللهُ له أشدُّ بُغضًا، وعنه

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، رقم (٧١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم (١٠٣٧).

أعظمُ إعراضًا، وله أكبرُ مَقْتًا، حتَّى تعودَ القلوبُ على قَلْبَيْنِ: قلبُ ذِكْرُ الأسماءِ والصِّفاتِ قُوتُه وحياتُه، ونعيمُه وقُرَّةُ عَيْنِه، لو فَارَقَهُ ذِكْرُهَا ومحبَّتُها ساعةً لَاسْتَغَاثَ: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»[(١)]. فَلِسَانُ حالِه يقولُ:

يُـرَادُ مِـنَ الْقَلْـبِ نِسْـيَانُكُمْ ... وَتَأْبَى الطِّبَاعُ عَـلَى النَّاقِـلِ[(٢)]

ويقولُ:

وَإِذَا تَقَاضَـــيْتَ الفُـــؤَادَ تَنَاسِــيًا ... أَلْفَيْتَ أَحْشَـائِي بِـذَاكَ شِـحَاحَا[(٣)]

ويقولُ:

إِذَا مَرِضْـــنَا تَـــدَاوَيْنَا بِـــذِكْرِكُمُ ... فَنَـتْرُكُ الـذِّكْرَ أَحْيَانًـا فَنَنْـتَكِسُ[(٤)]

ومن المُحَالِ أن يَذْكُرَ القلبُ مَنْ هو مُحَارِبٌ لصفاتِه، نافرٌ مِن سماعِها، مُعْرِضٌ بِكُلِّيَّتِهِ عنها، زَاعِمٌ أنَّ السَّلامةَ في ذلك، كَلَّا والله، إنْ هو إلَّا الجهالةُ والخُذْلَانُ، والإعراضُ عن العزيزِ الرَّحيمِ، فليس القلبُ الصَّحيحُ قطُّ إلى شيءٍ أَشْوَقَ منه إلى معرفةِ ربِّه تعالى وصِفاتِه وأفعالِه وأسمائِه، ولا أفرحَ بشيءٍ قَطُّ كَفَرَحِهِ بذلك، وكَفَى بالعبدِ خُذْلانًا أن يُضْرَبَ على قلبِه سُرَادِقُ الإعراضِ عنها، والنُّفرةُ والتَّنفيرُ والاشتغالُ بما لوكان حقًّا لم ينفع إلَّا بَعد معرفةِ الله تعالى والإيمانِ به وبصفاتِه وأسمائِه».

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، رقم (٢٦٥٤).
(٢) البيت للمتنبي، كما في محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، للراغب الأصفهاني (١/ ٣٣٩).
(٣) البيت لابن الفارض، كما في الكشكول (٢/ ١٦٧).
(٤) البيت لزين الدين الصفدي، كما في مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، لشهاب الدين العمري (١٢/ ٤٧٨).

الشـرحُ

هذه مشكلةٌ تقعُ لبعضِ النَّاسِ، يقولُ: (لا فائدةَ من البحثِ في أسماءِ الله وصفاتِه، اتركونا مِن هذا البحثِ، هذا شيءٌ فَرَغَ النَّاسُ منه)، وفي الحقيقةِ لا يقولُ ذلكَ إلَّا إنسانٌ -كما قال ابنُ القيِّم رحمه الله- على خَطَرٍ عظيمٍ، لأنَّ معرفةَ أسماءِ الله وصفاتِه هي قُوتُ القَلبِ ورُوحُه، ولا يمكنُ للإنسانِ أن يُحِبَّ اللهَ غايةَ المحبَّةِ، ويُعَظِّمَ اللهَ غايةَ التَّعظيمِ إلَّا بمعرفةِ أسمائِه وصفاتِه، وقد حَثَّ النَّبيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- على ذلك حتَّى قال: «**إِنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**»[1]. وهذا عِوَضٌ عظيمٌ، فالجنَّةُ ليست بالأمرِ الهيِّن، فما تكونُ إلَّا لشيءٍ هو أعظمُ الأشياءِ، ثُمَّ إنَّ الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- لم يُعيِّن لنا هذه الأسماءَ، ولو عَيَّنَها لنا لَسَقَطَ عنَّا كثيرٌ مِن المَئُونةِ ولم نتعبْ في تحصيلِها، ولكن جَعل ذلك للبحثِ والنَّظرِ، واستخلاصِها مِن كتابِ الله، وسُنَّةِ رسولِه ﷺ، حتَّى يُعْرَفَ مَنْ هو حريصٌ عليها ممَّن ليس بحريصٍ.

ونظيرُ هذا إخفاءُ ليلةِ القدرِ، ولو شاء اللهُ عزَّ وجلَّ لبيَّنها لِعِبادِه بِعَيْنِها، ولكنَّه -سبحانه وتعالى- أراد أن يَعْلَمَ مَنْ هو حريصٌ مِن عبادِه ممَّن ليس بحريصٍ، هذا مِن وَجْهٍ، ومِن وَجْهٍ آخرَ لأجْل أن يَكثُرَ ثوابُهم في الأعمالِ في جميعِ ليالي العَشْرِ.

كذلك أيضًا ساعةُ الإجابةِ في كُلِّ ليلةٍ أخفاها، فهذه السَّاعةُ «**لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ خَيْرًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ**»[2]. وهذا بِقَطعِ النَّظرِ عن الذي يكونُ وقتَ النُّزولِ الإلهيِّ، وكذلك ساعةُ الجمعةِ لم يبيِّنْها اللهُ، لكنَّ أرجاها مُبَيَّنٌ.

---

(١) سبق تخريجه (ص:٣٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب الإشارة في الطلاق والأمور، رقم (٤٩٨٨).

هكذا أيضًا بالنِّسبة لأسماءِ الله عزَّ وجلَّ يقولُ بعضُ النَّاسِ: دَعُونَا مِن الأسماءِ، دَعُونَا مِن الصِّفاتِ، هذا شيءٌ انقضى، فلا تُوجَدُ الآن جَهْمِيَّةٌ ولا مُعتزلةٌ، ولا، ولا...، فنقول: هذا غيرُ صحيحٍ، بل يُوجَدُ الآن جهميَّةٌ ومعتزلةٌ وأشاعرةٌ، وماتُرِيديَّةٌ، فهذا موجودٌ.

وأيضًا إن لم يكن ذلك موجودًا، فلماذا نتركُ البحثَ في أسماءِ الله وصفاتِه، حتَّى نكونَ جاهلين؟! هذا ليس بصحيحٍ.

أيضًا البحثُ مع الجهميَّةِ[1] والمُعْتَزِلَةِ[2] مفيدٌ في البحثِ مع الشُّيوعيِّين والمُلحِدِينَ والزَّنادقةِ، لأنَّ هناك مقدِّماتٍ مَذكورةً في مناظرةِ هؤلاء تفيدُ طالبَ العِلمِ في مناظرةِ الشُّيوعيِّين والزَّنادقةِ والمُلْحِدِينَ، فعلى كُلِّ حالٍ كما قال ابنُ القيِّمِ -رحمه الله- في هذه المقدِّمة: (**لا ينبغي لنا أن ندعَ البحثَ في أسماءِ الله وصفاتِه**)، فينبغي لنا أن نبحثَ، ولكن لا على سبيلِ أهلِ التَّحريفِ، ولكن على سبيلِ السَّلفِ، وأئمَّةِ الأُمَّةِ، نتلقَّاها بالقَبولِ والتَّسليمِ، مع اعتقادِنا أنَّ كُلَّ ما وَصَفَ اللهُ

---

(١) هم أصحاب جَهْم بن صفوان، وهو مِن الجَبرية الخالصة، ظهرت بدعته بِتِرْمِذَ، وقتَلَه سَلْم بن أَحْوَز المازني بِمَرْو في آخر مُلك بَني أُمية، وافق المُعْتَزِلَة في نفي الصفات الأزلية، وزاد عليهم بأشياء:
منها قوله: لا يجوز أن يُوصف الباري تعالى بِصِفَةٍ يُوصَف بها خَلْقُه، لأن ذلك يقضي تشبيها، فنفى كونَه حيًّا عالمًا، وأثبت كونَه: قادرًا، فاعلًا، خالقًا، لأنه لا يوصف شيء مِن خَلْقِه بالقُدْرَة والفِعل والخَلق. الملل والنِّحَل للشهرستاني (١/ ٨٦).

(٢) المعتزلة فرقة إسلامية نشأت في أواخر العصر الأموي، وازدهرت في العصر العباسي، وقد اعتمدت على العقل المجرد في فهم العقيدة الإسلامية لتأثُّرها ببعض الفلسفات المستوردة، مما أدى إلى انحرافها عن عقيدة أهل السنة والجماعة، وقد أُطلِق عليها أسماء مختلفة منها: المعتزلة، والقَدَرية، والعدلية، وأهل العدل والتوحيد، والمقتصدة والوَعيدية. انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (١/ ٦٤).

به نفسَه فإنَّه لا يُشْبِهُ شيئًا مِن أوصافِ المخلوقين أبدًا، قال اللهُ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

قَوْلُهُ: «لَاسْتَغَاثَ: يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» يعني: لاسْتَغَاثَ بهذا الدُّعاءِ قائلًا: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»(١). فالإنسانُ إذا رأى مِن قلبِه إعراضًا فليلجأْ إلى الله بهذا الدُّعاءِ حتَّى لا يَزيغَ القلبُ ويَزِلَّ، فالإنسانُ ينبغي له دائمًا أن يدعوَ بهذا الدُّعاءِ مفتقرًا إلى الله عزَّ وجلَّ عالمًا بأنَّه -سبحانه وتعالى- هو القادرُ على هدايتِهِ وزَيْغِه.

* * *

«والقلبُ الثَّاني: قلبٌ مضروبٌ بِسِيَاطِ الجَهَالِةِ، فهو عن معرفةِ ربِّه ومحبَّتِه مَصْدُودٌ، وطريقُ معرفةِ أسمائِه وصفاتِه كما أُنْزِلَتْ عليه مَسْدُودٌ، وقد قَمَشَ شُبَهًا من الكلامِ الباطلِ، وارتوى مِن ماءٍ آجِنٍ غيرِ طائلٍ، تَعِجُّ منه آياتُ الصِّفاتِ وأحاديثُها إلى الله عَجِيجًا، وتَضِجُّ منه إلى مَنْزِلِها ضَجِيجًا مما يَسُومُها تحريفًا وتَعطيلًا، ويُؤَوِّلُ مَعانِيَها تغييرًا وتَبْدِيلًا، قد أَعَدَّ لدَفْعِها أنواعًا مِن العُدَدِ، وهَيَّأَ لِرَدِّها ضُرُوبًا مِن القوانين، وإذا دُعِيَ إلى تحكيمِها أَبَى واسْتَكْبَرَ وقَالَ: تلك أدلةٌ لفظيَّةٌ، لا تفيدُ شيئًا مِن اليقينِ.

قَدْ اتخذ التَّأويلَ جُنَّةً يَتَتَرَّسُ بها مِن مواقعِ سِهامِ السُّنَّةِ والقرآنِ، وجَعَلَ إثباتَ صفاتِ ذي الجلالِ تجسيمًا وتشبيهًا، يَصُدُّ به القلوبَ عن طريقِ العِلمِ والإيمانِ، مُزْجَى البضاعةِ مِن العِلمِ النَّافعِ الموروثِ عن خَاتَمِ الرُّسلِ والأنبياءِ، لكنَّه مليءٌ بالشُّكوكِ والشُّبَهِ والجِدالِ والمِراءِ، خَلَعَ عليه الكلامُ الباطلُ خِلْعَةَ الجَهلِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، رقم (٢٦٥٤).

والتَّجهيلِ، فهو يَتَعَثَّرُ في أذيالِ التَّكفيرِ لأهلِ الحديثِ، والتبديعِ لهم والتَّضليلِ، قد طَافَ على أبوابِ الآراءِ والمذاهبِ يتكفَّفُ أربابَها، فانثنى بأَخَسِّ المواهبِ والمَطَالِبِ، عَدَلَ عن الأبوابِ العاليةِ الكفيلةِ بنهاية المرادِ، وغايةِ الإحسانِ، فابتُلِيَ بالوقوفِ على الأبوابِ السَّافلةِ المَلِيئَةِ بالخَيْبَةِ والحرمان، وقد لَبِسَ حُلَّةً منسوجةً مِن الجهلِ والتَّقليدِ والشُّبهةِ والعِنادِ، فإذا بُذِلَتْ له النَّصيحةُ، ودُعِيَ إلى الحقِّ، أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بالإثمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ولبِئْسَ المِهَادِ.

فما أعظمَ المصيبةَ بهذا وأمثالِه على الإيمانِ، وما أشدَّ الجنايةَ به على السُّنَّةِ والقرآنِ، وما أحبَّ جهادَه بالقلبِ واليدِ واللسانِ إلى الرَّحمنِ، وما أثقلَ أجرَ ذلك الجهادِ في الميزان، والجهادُ بالحُجَّةِ والبَيانِ مُقَدَّمٌ على الجهادِ بالسَّيفِ والسِّنانِ، ولهذا أَمَرَ به تعالى في السُّورِ المكِّيَّة، حيث لا جهادَ باليدِ إنذارًا وتَعذيرًا، فقال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢]، وأَمَر تعالى بجهادِ المنافقين، والغِلْظَةِ عليهم، مع كَوْنِهم بين أَظْهُرِ المسلمينَ في المُقَامِ والمَسيرِ، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة:٧٣]، فالجهادُ بالعِلمِ والحُجَّةِ جهادُ أنبياء الله ورُسلِه وخاصَّتهِ مِن عِبادِه المَخْصوصين بالهدايةِ والتَّوفيقِ والاتِّفاقِ، و«مَنْ مَاتَ وَلَـمْ يَغْزُ، وَلَـمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِغَزْوٍ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ»(١). وكَفَى بالعَبدِ عَمًى وخُذلانًا أن يرى عَسَاكِرَ الإيمانِ، وجنودَ السُّنَّةِ والقرآنِ، قد لَبِسُوا للحَربِ لأْمَتَهُ، وأَعَدُّوا له عُدَّته، وأخذوا مَصَافَّهم، ووقفوا مَواقفَهم، وقد حَمِيَ الوَطِيسُ، ودارت رَحَى الحربِ، واشتدَّ القتالُ، وتَنَادت الأقرانُ: النِّزالَ النِّزالَ، وهو في الملجأِ والمغاراتِ والمُدَّخَلِ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب ذم من مات، ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو، رقم (١٩١٠).

مع الـخَوالفِ كَمِينٌ، وإذا سَاعَدَ القَدَرُ وعَزَمَ على الـخروجِ قَعَدَ فوق التَّلِّ مع النَّاظرين، ينظرُ لمن الدَّائرةُ، ليكونَ إليهم مِن المتحَيِّزين، ثُمَّ يأتِيهم وهو يُقْسِمُ باللهِ جَهْدَ أيمانِه: إنِّي كُنْتُ معكم، وكُنْتُ أتمنَّى أن تكونوا أنتم الغالبين.

الشــرحُ

قَوْلُهُ: «والقَلبُ الثَّاني: قلبٌ مَضروبٌ بِسِياطِ الجَهَالَةِ، فهو عن معرفةِ ربِّه ومحبَّتِه مَصْدُودٌ... إلخ» كلامُ المؤلِّفِ هنا كُلُّه يَنْصَبُّ على أهلِ التَّعطيلِ مِن المُعتزلةِ والجَهميَّةِ والأشعريَّة وغيرِهم، وكُلٌّ منهم ينالُه مِن هذه الأوصافِ بِقَدْرِ تعطيلِه جزاءً وِفَاقًا، فالمُعَطِّلُ تعطيلًا محْضًا يستحقُّ جميعَ هذه الأوصافِ، والمُعَطِّلُ تعطيلًا دون ذلك يستحقُّ ما يستحق مِن هذه الأوصافِ، ولا شكَّ أنَّ هذا جنايةٌ على النُّصوصِ، وعلى ربِّ العالمين أن يُحَرَّفَ كتابُه، وكلامُ رسولِه ﷺ إلى مَعانٍ لـم يُرِدْها اللهُ ورسولُه لمجرَّدِ اتِّباعِ الهوى في المجتهدين منهم، والتَّقليدِ الأعمى في المقلِّدين منهم.

ولا تقولوا: إنَّ المؤلِّفَ -رحمه الله- قد بَالَغَ وأَسْرَفَ، لأنَّه قد عَاصَرَهُمْ ونَاظَرَهم وأتعبوه وأتعبهم، فهو ليس مِثلَنا الآن، ليس عندنا مَنْ يجادلُنا في هذا، أو يناظرُنا فيه، لكن هو وشيخُه -رحمه الله- صَارَتْ لهما مجالاتٌ عظيمةٌ مع هؤلاء المُعطِّلةِ المبتدعة، فكانوا يستحقُّون أن يُوصَفُوا بهذه الأوصافِ، لأنَّهم -في الحقيقةِ- قد أتعبوه، ولكن الحمدُ لله بما أعطاهما اللهُ تعالى من العِلمِ والإيمانِ والعقلِ والفَهْمِ استطاعا أن يُسَيْطِرَا على الموقفِ، وأن يجعلا أولئك تحت أقدامِهما كما كان أهلُ السُّنَّةِ بالأوَّل تحت أقدامِ أولئك، كما سيشيرُ إليه المؤلِّفُ -رحمه الله- في هذه القصيدةِ.

قَوْلُهُ: «وإذا دُعِيَ إلى تحكيمِها أَبَى واسْتَكْبَرَ وَقالَ: تلك أدلَّةٌ لفظيَّةٌ لا تفيدُ شيئًا من اليقينِ» هذه قاعدةٌ عندهم والعياذُ بالله، فأهلُ الكلامِ يقولون: هذه أدلَّةٌ لفظيَّةٌ لا تفيدُ اليقينَ لاحتمالاتِها، ويأتون للألفاظِ باحتمالاتٍ بعيدةٍ لا تُرادُ بها، فيقولُ مثلًا: (**العرشُ**) له عدَّةُ مَعانٍ، و(**الاستواءُ**) له عدَّةُ مَعانٍ، و(**اليدُ**) لها عِدَّةُ معانٍ، وهكذا، فيَشُكُّون ويُشَكِّكون -والعياذُ باللهِ- ويقولون: هذه أدلَّةٌ لفظيَّةٌ لا تفيدُ اليقينَ، سبحان الله!

إِذَنْ هذا معناه أنَّ الدِّينَ كُلَّه ليس يَقينًا، فإذا كانت آياتُ الصِّفاتِ وأحاديثُها لا تُفيدُ اليقينَ فما الذي يُفيدُ؟! لكن اللَّهُمَّ اهْدِنَا فيمن هَدَيْتَ، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

قَوْلُهُ: «وَجَعَلَ إثباتَ صِفاتِ ذي الجَلالِ تَجسيمًا وتَشبيهًا، يَصُدُّ به القُلوبَ عن طريقِ العلمِ والإيمانِ» هم يقولون: أنتم أيُّها المُثْبِتَةُ مُجَسِّمَةٌ، إذا قلتم: لله يدٌ حقيقيَّةٌ، يأخذُ بها، ويَقبضُ ويبسطُ، فأنتم مُجَسِّمَةٌ، وغَرَضُهم بهذا التَّنفيرُ عن إثباتِ أنَّ لله يَدًا حقيقيَّةً، أو يقولون: إنَّكم مُشَبِّهَةٌ، وهذا أيضًا مِن أَجْلِ التَّنفيرِ عن الطَّريقِ السَّليمِ، كما قال الكافرون: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص:٤]، هذا شاعرٌ، هذا مجنونٌ، سواءٌ بِسَواءٍ، فالطَّريقُ واحدةٌ، وإن اختلفت المواضعُ.

قَوْلُهُ: «والجهادُ بالحُجَّةِ واللسانِ مُقَدَّمٌ على الجهادِ بالسَّيفِ والسِّنانِ» اللهُ أكبرُ! كلامٌ عجيبٌ! الجهادُ بالعلمِ مُقَدَّمٌ على الجهادِ بالسَّيفِ، وهذا يعني أنَّ العِلمَ مُقَدَّمٌ على الجهادِ بالسَّيفِ، وهو كذلك، وطلبُ العِلمِ مِن حيثُ هو أفضلُ مِن الجهادِ.

فمثلًا: خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِن شُجعان المسلمين، كم قُتِلَ على يدِه مِن

الكفار، وأبو هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دونه بكثيرٍ، ومع ذلك أيُّهما الذي بَقِيَ ذِكْرُه وانتفع النَّاسُ به كثيرًا؟ الجواب: أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولهذا فإنَّ العِلمَ لا يَعْدِلُه شيءٌ، كما قال الإمامُ أحمدُ -رحمه الله-: «العلمُ لا يعدلُه شيءٌ لمن صَحَّتْ نيَّتُه»[1]، وصدق -رحمه الله- الآن مثلًا الإمامُ الشَّافعيُّ، والإمامُ أحمدُ، وشيخُ الإسلامِ ابنُ تَيمية وغيرُهم مِن الأئمَّةِ يُدَرِّسُونَ لنا وهم في قبورِهم، بل بيننا وبينهم بلادٌ شاسعةٌ، وأما الشُّجعان الذين قاتلوا، ونَفَعَ اللهُ بهم، وفَتَحَ بهم البلادَ لا ينفعوننا مِثلَهم.

فالحقيقةُ أنَّ العِلمَ لا يُدْرِكُ فضلَه أحدٌ إلَّا إذا تأمَّل، ورأى أنَّ مَنْ عَامَلَ اللهَ بالصِّدقِ في العلمِ فَعَمِلَ به وعَلَّمَهُ ونَشَرَه، ودعا النَّاسَ إليه فاللهُ تعالى يرفعُ ذِكْرَه، لكن قد تقولُ لشخصٍ مِن النَّاسِ: **جهادُك بالسَّيفِ أفضلُ**، وتقولُ لآخرَ: **جهادُك بالعلمِ أفضلُ**، لكن لو نظرنا إلى الأَمْرَين جميعًا قلنا: الجهادُ العلميُّ أفضلُ، لأنَّ جهادَ العِلمِ تستقيمُ به الأُمَّةُ، وتحيا به المِلَّةُ، وجهادَ السَّيفِ المقصودُ به صَدُّ الأعداءِ وإذلالُهم، حتَّى يكونَ الدِّينُ لله عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «**وَمَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالغَزْوِ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ**» وهل هذا عامٌّ؟ الجوابُ: إذا جَعَلْنَا الغزوَ عامًّا لكُلِّ ما يُسَمَّى غزوًا -حتَّى جهاد النَّفْسِ وحتَّى العلم- فلا بُدَّ أن يكونَ في قَلبِه شُعبةٌ مِن النِّفاقِ إن لم يُحَدِّثْ نَفْسَه بالغَزْو، وإن كان ظاهرُه أنَّ المرادَ غزوُ الكُفَّارِ، والجهادُ قد لا يطرأُ على البالِ خصوصًا في أيَّامِ الرُّكودِ، لكن في أيَّامِ الحركاتِ يطرأُ، كما في هذه الأيَّامِ مع اليهودِ والنَّصارى.

* * *

(١) هذا القول حكاه علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان الصالحي الحنبلي، في كتاب الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف (٤/ ١٢٣)، دون قوله: «لمن صحت نيته».

«فَحَقِيقٌ بمَن لنَفْسِه عنده قَدْرٌ وقِيمةٌ أَلَّا يبيعَها بأَخَسِّ الأثمانِ، وأَلَّا يُعَرِّضَها غدًا بين يَدَي الله ورسولِه لمواقفِ الخِزْي والهَوَانِ، وأن يُثَبِّتَ قَدَمَه في صفوفِ أهلِ العِلمِ والإيمانِ، وأَلَّا يَتَحَيَّزَ إلى مقالةٍ سوى ما جاء في السُّنَّةِ والقرآنِ.

فكأنْ قد كُشِفَ الغِطَاءُ، وانجَلى الغُبارُ، وأَبَانَ عن وُجوهِ أهلِ السُّنَّةِ مُسْفِرَةً ضَاحِكَةً مُسْتَبْشِرَةً، وعن وجوهِ أهلِ البدعةِ عليها غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ، يومَ تَبْيَضُّ وُجوهٌ وتَسْوَدُّ وُجوهٌ، قال ابنُ عبَّاس: «تَبْيَضُّ وُجُوهُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعة، وَتَسْوَدُّ وجوهُ أهلِ البدعةِ والفِرْقَةِ الضَّالَّةِ»[1].

فَوَالله لَـمُفَارَقَةُ أهلِ الأهواءِ والبدعِ في هذه الدَّارِ أسهلُ مِن مُرَافَقَتِهم إذا قيل: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢]، قال أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبعده الإمامُ أحمدُ -رحمه الله تعالى-: «أزواجُهم: أَشْبَاهُهم ونُظَرَاؤُهم»[2]. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير:٧] فَجَعَلَ صاحبَ الحقِّ مع نظيرِه في درجتِه، وصاحبَ الباطلِ مع نَظيرِه في درجتِه، هُنَالِكَ -وَالله- يَعَضُّ الظَّالِمُ على يديه إذا حَصَلَتْ له حقيقةُ ما كان في هذه الدَّارِ عليه، يقولُ: ﴿يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩]».

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «وأَلَّا يُعَرِّضَهَا غدًا بين يَدَي الله ورسولِه لمواقفِ الخِزي والهَوَانِ»

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٣٩٥٠) دون قوله: «وتَسْوَدُّ وجوهُ أهلِ البدعةِ والفُرْقَةِ». وحكاه ابن كثير بتمامه في التفسير (٢/ ٩٢).

(٢) أخرجه بنحوه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٦٧)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

الوقوفُ بين يدي الله أمرٌ ظاهرٌ، فنحن سَنَقِفُ بين يَدِي الله عزَّ وجلَّ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]، سوف تُلاقِي ربَّك، وسوف يُحَاسِبُك حسابًا يسيرًا إن كنت مِمَّنْ أُوتِيَ كتابَه بيمينِه، أو بالعكس.

أمَّا (بَيْنَ يَدِي رسولِ الله -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-)، فهذا يُحْمَلُ على أنَّ المعنى أنَّ الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- سيشهدُ بأنَّه بَلَّغَ أُمَّتَهُ البلاغَ المُبِينَ كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة:١٤٣]، وإذا شَهِدَ أنَّه بَلَّغَ البلاغَ المُبِينَ فقد شَهِدَ على أُمَّتِه، فإنَّ مَنْ خَالَفَ مقتضى هذه الشَّهادةِ فهو في خِزيٍ وعارٍ، نسأَلُ اللهَ العافيةَ.

قَوْلُهُ: «وَتَسْوَدُّ وجوهُ أهلِ البدعةِ والفِرْقَةِ الضَّالَّةِ»، وفي نسخةٍ: **(تَسْوَدُّ وجوهُ أهلِ البدعةِ والفُرْقَة والضَّلالةِ)**، فمع **(الضَّالَّة)** نقولُ: **(الفِرْقَة)**، ومع **(الضَّلالة)** نقولُ: **(الفُرْقَة)**، وهما متلازمان، لأنَّ أهلَ البِدعِ متفرِّقون، وأهلَ السُّنَّةِ مجتمعون.

* * *

فصل

«وَكَانَ مِن قَدَرِ الله وقضائِه أن جَمَعَ مجلسَ المذاكرةِ بين مُثْبِتٍ للصِّفاتِ والعُلوِّ ومعَطِّلٍ لذلك، فَاسْتَطْعَمَ المُعَطِّلُ المُثْبِتَ الحديثَ استطعامَ غيرِ جائعٍ إليه، ولكن غَرَضُه عَرْضُ بضاعتِه عليه، فقال له: ما تقولُ في القرآنِ ومسألةِ الاستواءِ؟ فقال المُثْبِتُ: نقولُ فيهما ما قال ربُّنا -تبارك وتعالى- وما قاله نبيُّنا محمد ﷺ، نَصِفُ اللهَ تعالى بما وَصَفَ به نفسَه، وبما وَصَفَهُ به رسولُه، مِن غيرِ تحريفٍ، ولا تعطيلٍ، ومن غيرِ تشبيهٍ، ولا تمثيلٍ، بل نُثْبِتُ له -سبحانه وتعالى- ما أَثْبَتَهُ لنفسِه مِن الأسماءِ والصِّفاتِ، وننفي عنه النَّقائصَ ومشابهةَ المخلوقاتِ، إثباتًا بلا تمثيلٍ، وتنزيهًا بلا تعطيلٍ، فمَنْ شَبَّهَ اللهَ بِخَلْقِه فقد كَفَرَ، ومَنْ جَحَدَ ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه فقد كَفَرَ، وليس ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه، أو وَصَفَهُ به رسولُه تشبيهًا، فالمُشَبِّهُ يعبدُ صنمًا، والمُعَطِّلُ يعبدُ عَدَمًا، والموحِّدُ يعبدُ إلهًا واحدًا صمدًا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

والكلامُ في الصِّفاتِ كالكلامِ في الذَّاتِ، فكما أنَّا نُثْبِتُ ذاتًا لا تُشْبِهُ الذَّواتِ، فكذا نقولُ في صفاتِه: إنَّها لا تُشْبِهُ الصِّفاتِ، فليس كمِثلِه شيءٌ، لا في ذاتِه، ولا في صفاتِه، ولا في أفعالِه، فلا نُشَبِّهُ صفاتِ الله بصفاتِ المخلوقين، ولا نُزِيلُ عنه -سبحانه- صفةً مِن صفاتِه لأجلِ تشنيعِ المُشَنِّعين وتلقيبِ المفترين، كما أنَّا لا نُبْغِضُ أصحابَ رسولِ الله ﷺ لتسميةِ الرَّوافضِ لنا نَوَاصِبَ، ولا نُكَذِّبُ بِقَدَرِ الله تعالى ونَجْحَدُ كمالَ مشيئتِه وقُدرتِه لتسميةِ القَدَرِيَّةِ لنا مُجْبِرَةً، ولا نَجْحَدُ صفاتِ ربِّنا -تبارك وتعالى- لتسميةِ الجهميَّةِ والمُعْتَزِلَةِ لنا مُجَسِّمَةً مُشَبِّهَةً حَشْوِيَّةً، كما قيل:

فَإِنْ كَانَ تَجْسِيمًا ثُبُوتُ صِفَاتِهِ ... فَإِنِّي بِحَمْدِ الله لَهَا مُثْبِتُ

إلى:

فَإِنْ كَانَ تَجْسِيمًا ثُبُوتُ صِفَاتِهِ ... لَدَيْكُمْ فَإِنِّي اليَوْمَ عَبْدٌ مُجَسِّمُ(١)

ورَضِيَ اللهُ عن الشَّافعيِّ إذ يقولُ:

إِنْ كَانَ رَفْضًا حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ ... فَلْيَشْهَدِ الثَّقَلَانِ أَنِّي رَافِضِي

وقَدَّسَ اللهُ روحَ القائلِ، وهو شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمية إذْ يقولُ:

إِنْ كَانَ نَصْبًا حُبُّ صَحْبِ مُحَمَّدٍ ... فَلْيَشْهَدِ الثَّقَلَانِ أَنِّي نَاصِبِي

الشرحُ

قَوْلُهُ: «وَكَانَ مِن قَدَرِ الله وقضائِه أن جَمَعَ مجلسَ المذاكرةِ بين مُثْبِتٍ للصِّفاتِ والعُلوِّ، وبين معطِّلٍ لذلك» هذا يَحْتَمِلُ أن تكونَ قَطْعِيَّةً، ويَحْتَمِلُ أن تكونَ على سبيلِ التَّمثيلِ، لأَنَّه يجوزُ أن يُضْرَبَ المَثَلُ في مِثلِ هذا كما يَضربُ اللهُ تعالى في القرآنِ الأمثالَ في مِثل ذلك، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر:٢٩]، وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:٧٥-٧٦].

---

(١) هذان البيتان أوردهما ابن القيم -رحمه الله- في العديد من كتبه، لكن دون عزو.

قَوْلُهُ: «نَصِفُ اللهَ بما وَصَفَ به نَفْسَه، وبما وَصَفَهُ به رسولُه» وهذا حقٌّ في الثُّبُوتِ.

قَوْلُهُ: «مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ» يعني: لا نُحَرِّفُ النُّصوصَ، ولا نُعَطِّلُ معناها، ولا نُعَطِّلُ صفاتِ الله، وهذا في النَّفي يشملُ شَيْئَيْنِ:

الأَوَّل: تعطيلُ النُّصوصِ عن معانيها.

الثَّاني: تعطيلُ الله عزَّ وجلَّ عن صِفاتِه التي دَلَّتْ عليها هذه النُّصوصُ.

أمَّا التَّحريفُ فهو التَّغييرُ، ومنه: (حَرَفْتُ الدَّابَّةَ عن جهةِ سَيْرِها) أي: أَمَلْتُهَا وَغَيَّرْتُهَا، وهو ثلاثةُ أنواعٍ:

الأَوَّل: تحريفٌ لفظيٌّ لا يُغَيِّرُ المعنى كقول القارئ: (الحمدُ لله رَبَّ العالمين)، فهذا تحريفٌ لفظيٌّ مُغَيِّرٌ للمعنى، لكنَّه لا يجوزُ، لأنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- لم يَتكَلَّمَ بالقرآنِ على هذا الوجهِ.

الثَّاني: تحريفٌ لفظيٌّ يُغَيِّرُ المعنى، مِثل: (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتُ عَلَيْهِم)، أو يقرأ فيقول: (أَهْدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ)، لأنَّ (أَهْدِنَا) يعني: (أَعْطِنَا هَدِيةً)، ومثل أن يقرأَ: (وكَلَّمَ اللهَ مُوسَى تكليمًا)، والصَّوابُ: (كَلَّمَ اللهُ)، لكنَّه حَرَّفَ بناءً على مذهبِه، لأجل أن يكونَ الكلامُ من موسى، ولذا لـمَّا قال النَّافي بأنَّ القراءةَ هي: (وَكَلَّمَ اللهَ موسى تكليمًا)، قال له المُثْبِتُ: ما تقولُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾؟ [الأعراف:١٤٣]، فهو هنا لا يستطيعُ أن يقولَ: (الهاء) في (كَلَّمَهُ): فاعلٌ، لأنَّ الهاءَ بإجماعِ أهلِ اللغةِ ضميرُ نصبٍ، فَبُهِتَ الذي كَفَرَ.

فقال: إذن معنى ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء:١٦٤] أي: جَرَّحَهُ بمخالبِ الحكمةِ، لأنَّ الكَلْمَ بمعنى الجَرْحِ، ومنه ما جاء في الحديثِ: «لا يُكْلَمُ أَحَدٌ

فِي سَبِيلِ الله، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِه...»[١]، والكَلْمُ هنا بمعنى الجَرْح.

قلنا: سبحان الله العظيم! هذا مُنْكَرٌ، لأنَّه لا يمكنُ أن يُطْلَقَ التَّكليمُ بمعنى الجَرْحِ إلَّا بقرينةٍ، ولا قرينةَ هنا، ثُمَّ هل لله عزَّ وجلَّ وحاشاه، هل له أظفارٌ يُجَرِّحُه بها؟! أنت الآنَ فَرَرْتَ مِن شيءٍ أَثْبَتَهُ اللهُ لنفسِه، وَوَقَعْتَ في أقبحَ منه.

الثَّالث: التَّحريفُ المعنويُّ، وهذا ما أَكْثَرَهُ عند أهلِ الكلامِ! قالوا: إنَّ ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] يعني: **(استولى على العرشِ)**، فهم أَبْقَوُا اللفظَ على ما هو عليه، ولكن قالوا معناه: **(استولى)**، فهنا عَطَّلُوا النَّصَّ عن مدلولِه، وعَطَّلُوا اللهَ عن صفةِ الاستواءِ، فصار تعطيلُهم من وَجْهَيْنِ:

الوجه الأوَّل: تعطيلُ النَّصِّ عن مدلولِه.

الوجه الثَّاني: تعطيلُ الله عن صفةِ الاستواءِ.

واعلم أنَّ أهلَ التَّأويلِ جَنَوْا على النُّصوصِ من وَجْهَيْنِ:

الوجه الأوَّل: نفيُهم المعنى الظَّاهر من سياقِها، أي: نفيُ ما دَلَّتْ عليه، وهذه جنايةٌ، أن تُلْوَى أعناقُ النُّصوصِ إلى معنًى آخرَ.

الوجه الثَّاني: إثباتُ معنًى لم يُرِدْه اللهُ عزَّ وجلَّ ونعلمُ أنَّه غيرُ مرادٍ، لأنَّ القرآنَ نَزَلَ بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، فتأمَّل حالَ هؤلاء، نسألُ اللهَ العافيةَ، وألَّا يُزِيغَ قلوبَنا، كيف وَقَعُوا في الفخِّ مِن حيثُ لا يشعرون.

قَوْلُهُ: «**مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ وَلَا تَمْثِيلٍ**» لَمَّا قَرَنَهَا بالتَّمثيلِ، فمُرادُه بالتَّشْبِيهِ التَّكييفُ، يعني: أيضًا أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ لا يُكَيِّفُونَ صِفاتِ الله أبدًا، لأنَّه لا سبيلَ إلى

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من يجرح في سبيل الله عزَّ وجلَّ، رقم (٢٨٠٣). ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، رقم (١٨٧٦).

ذلك، ولهذا قال الإمامُ مالكٌ -رحمه الله-: «الكَيْفُ مجهولٌ غيرُ معقولٍ»[(١)]، فهم لا يُكَيِّفونَ، لأنَّهم لو كَيَّفُوا لكان قولهُم على الله بلا عِلمٍ، إذ إنَّ اللهَ أَخْبَرَنَا عن الصِّفاتِ، ولم يخبرْنا عن الكيفيَّةِ.

قَوْلُهُ: «**وَلَا تَمْثِيلٍ**» أي: ولا يُمَثِّلون صِفاتِ الله بصفاتِ الخَلقِ، لا يمكن أن يتصوَّروا أنَّ وَجْهَ الله مِثلُ وَجْهِ المخلوقِ أبدًا، ولا عَيْنَه، لكن يُثْبِتُونَ العينَ ويقولون: اللهُ أعلمُ بكيفيَّتِها، فصار مذهبُ أهلِ السُّنَّةِ جامعًا بين إثباتٍ ونفيٍ.

قَوْلُهُ: «**إثباتًا بلا تمثيلٍ**» رَدٌّ على الممثِّلةِ، لأنَّ المُمَثِّلَةَ غَلَوْا في الإثباتِ.

قَوْلُهُ: «**وتَنْزِيهًا بِلَا تَعْطِيلٍ**» ردٌّ على المعطِّلةِ، لأنَّ المعطِّلةَ غَلَوْا في النَّفي، فَنَفَوْا ما دلَّت عليه النُّصوصُ غُلُوًّا في التَّنزيهِ، أمَّا أهلُ السُّنَّةِ فهم بين هؤلاء وهؤلاء، والحمدُ لله.

قَوْلُهُ: «**فَمَنْ شَبَّهَ اللهَ بِخَلْقِه فقد كَفَرَ، وَمْن جَحَدَ ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه فقد كَفَرَ، وليس ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه، أو وَصَفَهُ به رسولُه تَشْبيهًا**» هذه العبارةُ هي نصُّ عبارةِ نُعَيْم بن حَمَّادٍ الخُزَاعيِّ -رحمه الله[(٢)]- شيخِ البخاريِّ، قال: «مَنْ شَبَّهَ اللهَ بخلْقِه فقد كَفَرَ، وَمْن جَحَدَ ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه فقد كَفَرَ، وليس فيما وَصَفَ اللهُ

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٤٤١).

(٢) هو نعيم بن حماد بن الحارث بن همام بن سلمة بن مالك، الإمام، العلَّامة، الحافظ، أبو عبد الله الخزاعي، المروزي، صاحب التصانيف. قال صالح بن مسمار: سمعت نعيم بن حماد يقول: أنا كنت جَهْمِيًّا، فلذلك عرفت كلامهم، فلما طلبت الحديث، عرفت أن أمرهم يرجع إلى التعطيل. قال محمد بن سعد: طلب نعيم الحديث كثيرًا بالعراق والحجاز، ثم نزل مصر، فلم يزل بها حتى أشخص منها في خلافة أبي إسحاق -يعني: المعتصم- فسئل عن القرآن، فأبى أن يجيب فيه بشيء مما أرادوه عليه، فحبس بسامراء، فلم يزل محبوسًا بها حتى مات في السجن، سنة ثمان وعشرين ومائتين. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥٩٦).

به نَفْسَه، أو رسولُه تشبيه»[١].

قَوْلُهُ: «كما أَنَّا لا نُبْغِضُ أصحابَ رسولِ الله ﷺ لتسميةِ الرَّوافضِ لنا نَوَاصِبَ» الرَّوافضُ لهم قاعدةٌ باطلةٌ تقولُ: «مَنْ لم يَكرهْ أبا بكرٍ وعُمرَ فقد أَبْغَضَ عليًّا»، أو «مَنْ أَحَبَّ أبا بكرٍ وعُمرَ فقد أَبْغَضَ عليًّا»، فيقولون: أنتم الذين تُحِبُّون أبا بكرٍ وعمرَ والصَّحابةَ نواصبُ، والنَّواصبُ هم الذين يَنْصِبون العداوةَ لآلِ البيتِ، فكُلُّ مَنْ أَبْغَضَ آلَ البيتِ فهو نَاصِبِيٌّ، وعلى ذلك فالخوارجُ نواصبُ.

لكن نحن لا نُبْغِضُ آلَ البيتِ ونرى أنَّ الواحدَ منهم يَفْضُلُ غيرَه بِقُربِه مِن الرَّسولِ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- ولكنَّنا لا نكرهُ الصَّحابةَ، بل نُحِبُّ الصَّحابةَ ونَزِنُ لهم بالقِسطِ.

أمَّا الرَّوافضُ، فالقاعدةُ عندهم أنَّ مَنْ أَحَبَّ أبا بكرٍ وعُمرَ فقد أَبْغَضَ عَلِيًّا، وكأنَّ القُلوبَ لا تتحمَّلُ أن تُحِبَّ هؤلاء وهؤلاء.

هم الآن يُسَمُّون أهلَ السُّنَّةِ الذين يُحِبُّونَ الصَّحابةَ كُلَّهم يُسَمُّونهم نواصبَ تشنيعًا، كما أنَّ أهلَ التَّعطيلِ الذين يُنكرون الصِّفاتِ يُسَمُّونهم ممثِّلَةً، مُشَبِّهَةً، مُجَسِّمَةً، وما أشبهَ ذلك.

قَوْلُهُ: «وَلا نُكَذِّبُ بِقَدَرِ الله، ولا نجحدُ كمالَ مشيئتِه وقدرتِه لتسميةِ القَدَرِيَّةِ لنا مُجْبِرَةً» القَدَرِيَّةُ هم الذين يقولون: إنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- لا عَلاقَةَ له في فعلِ العبدِ، ومَن أَثْبَتَ أنَّ فِعلَ العبدِ بمشيئةِ الله فهو جَبْرِيٌّ.

قَوْلُهُ: «...فَإِنِّي اليَوْمَ عَبْدٌ مُجَسِّمٌ» وهذه هي العِزَّةُ في الدِّين، يعني: لا يَهُمُّنا أن تقولوا: مُجَسِّمٌ، أو غيرُ مُجَسِّمٍ، فإن كان إثباتُ الصِّفاتِ تجسيمًا، فأنا مُجَسِّمٌ.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص:٩٤).

فصــل

«وَأَمَّا القرآنُ فَإِنِّي أقولُ: إنَّه كلامُ الله مُنَزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ، منه بَدَأَ وإليه يعودُ، تَكَلَّمَ اللهُ به صِدْقًا، وسَمِعَه منه جَبْرَائِيلُ حقًّا، وبَلَّغَهُ محمَّدًا ﷺ وحيًا، وأنَّ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم:١] و﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ [الشُّورى:١-٢] و﴿الٓر﴾ [يونس:١] و﴿قٓ﴾ [ق:١] و﴿نٓ﴾ [القلم:١] عينُ كلامِ الله تعالى حقيقةً، وأنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بالقرآنِ العربيِّ الذي سَمِعَهُ الصَّحابةُ مِن رسول الله ﷺ جميعَه كلامُ الله، وليس قولَ البَشَرِ، ومَنْ قَالَ: إنَّه قولُ البَشَرِ، فقد كَفَرَ، واللهُ يُصْلِيه سَقَرَ، ومَنْ قال: ليس لله في الأرضِ كلامٌ فقد جَحَدَ رسالةَ محمَّدٍ ﷺ، فإنَّ اللهَ بَعَثَهُ يُبَلِّغُ عنه كلامَه، والرَّسولُ إنَّما يُبَلِّغُ كلامَ مُرْسِلِه، فإذا انْتَفَى كلامُ الْمُرْسِلِ انْتَفَتْ رسالةُ الرَّسولِ».

الشـرحُ

نحن الآن في مَقامِ مُناظَرةٍ بين مُعَطِّلٍ ومُثْبِتٍ، وهذا رأيُ الْمُثبتِ في كلامِ الله، والظَّاهرُ أنَّ هذا واقعٌ مع ابنِ القيِّم نفسِه، وأنَّه حَصَلَ بينه وبين الْمُعَطِّلِ مناظرةٌ فتكلَّم بهذا الكلامِ، وما بَعْدَه بهذا الأسلوبِ البَديعِ، وذلك فضلُ الله يؤتيه مَنْ يشاءُ، واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ.

قَوْلُهُ: «وَأَمَّا القرآنُ فَإِنِّي أقولُ: إنَّه كلامُ الله مُنَزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ» نقولُ في القرآنِ: القرآنُ كلامُ الله تعالى مُنَزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ، ولا يكفي قولُنا: (**مُنَزَّلٌ**) فقط، بل نقولُ: (**غيرُ مخلوقٍ**)، لئلَّا يقولَ قائلٌ: هذا المطرُ مُنَزَّلٌ كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق:٩]، وبهيمةُ الأنعامِ مُنَزَّلَةٌ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ

ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر:٦]، وهذا الحديدُ مُنَزَّلٌ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد:٢٥]، فلا بُدَّ أن نقولَ: (**غَيْرُ مخلوقٍ**) حتَّى لا يقولَ قائلٌ: إنَّ قولَكم: إنَّه مُنَزَّلٌ لا يمنعُ أن يكونَ مخلوقًا، ونقولُ: إنَّه غيرُ مخلوقٍ، لأنَّه كلامٌ، والكلامُ صِفةُ المتكلِّمِ، وصفةُ المخلوقِ مخلوقةٌ، وصفةُ الخالقِ غيرُ مخلوقةٍ، ولهذا كان السَّلفُ يقولون: (**إنَّه كلامُ الله مُنَزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ**).

قَوْلُهُ: «منه بَدَأَ» يعني أنَّ اللهَ تعالى هو الذي تَكَلَّمَ به ابتداءً، لم يتكلَّم به جبريلُ، ولا محمَّدٌ -عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ-.

قَوْلُهُ: «**وإليه يعودُ**» أي: يرجعُ، ولكن ما معنى العَوْد هنا، هل هو عَوْدٌ حِسِّيٌّ، أو عَوْدٌ حُكْمِيٌّ، أو هما؟ الجوابُ: هو عَوْدٌ حِسِّيٌّ، لأنَّه يُنْزَعُ في آخرِ الزَّمانِ، حتَّى لا يَبْقَى منه شيءٌ، لا في صدورِ الرِّجالِ، ولا في المصاحفِ، وهذا حين يُعْرِضُ النَّاسُ عنه إعراضًا كُلِّيًّا، فإنَّه يُنْزَعُ مِن بين أيديهم، لأنَّ القرآنَ أعظمُ وأجَلُّ مِن أن يَبْقَى بين قومٍ لا يقيمون له وزنًا، أو يدوسونه بأرجلِهم -والعياذُ بالله- كما أنَّ الكعبةَ إذا أَعْرَضَ النَّاسُ عنها وامتهنوها سَلَّطَ اللهُ عليها (ذو السُّوَيْقَتَيْنِ) مِن الحبشةِ، يهدمُها حَجرًا حَجرًا حتَّى يُلقِيَها في البحرِ[1]، وذلك إذا عَتَا النَّاسُ فيها، ولم يُقَدِّروها حقَّ قَدْرِهَا، وهذا عَوْدٌ حسِّيٌّ.

وأمَّا المعنويُّ أي: يعودُ إليه حُكْمًا بمعنى أنَّه لا يُنْسَبُ إلى غيرِ الله، فلا يُقَالُ: القرآنُ كلامُ جبريلَ، ولا كلامُ محمَّدٍ، وإنَّما هو كلامُ الله عزَّ وجلَّ فهو يعودُ إليه

---

(١) بدلالة حديث النبي ﷺ: «**يُخَرِّبُ الكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الحَبَشَةِ**». أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب قول الله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾، رقم (١٥١٤)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، رقم (٢٩٠٩).

وَصْفًا وحُكْمًا، لأنَّ الكلامَ إنَّما يُضَافُ حقيقةً إلى مَنْ تكَلَّمَ به أوَّلا إلى مَنْ بَلَّغَهُ، فلو قلتَ:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ ....[١]

فهل هذه القصيدةُ لك أم أنَّها لامرئ القيسِ[٢]؟ الجوابُ: لامرئ القيسِ.

وكذلك ولو قلتَ:

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي اليَوْمَ مَتْبُولُ ....[٣]

فهل هي لك أم أنَّها لكعبِ بن زُهيرٍ[٤]؟ الجوابُ: لكعبِ بن زُهيرٍ.

إِذَنْ إذا قلنا: (**هذا القرآنُ كلامُ الله**)، فهو كلامُ الله يُنْسَبُ إلى الله عزَّ وجلَّ ويدلُّك لهذا أنَّ اللهَ نَسَبَهُ مرَّةً إلى جبريلَ، ومرَّةً إلى محمَّدٍ، ولا يمكنُ أن يكونَ كلامٌ واحدٌ منسوبًا لاثنين، لكن يُنْسَبُ إليهما على سبيلِ التَّبليغِ، فجبريلُ بَلَّغَهُ محمَّدًا، ومحمَّدٌ بَلَّغَهُ أُمَّتَه، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢١]، فالمرادُ بالرَّسولِ هنا جبريلُ، وأمَّا قولُه تعالى:

---

(١) انظر: جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي (ص:٥١).

(٢) هو امرؤ القيس بن حُجْر بن الحارث الكِندي، مِن بني آكِل المرار: أشهر شعراء العرب على الإطلاق، يماني الأصل، مولده بِنَجْد، أو بِمِخْلاف السَّكَاسِك باليمن، اشتُهر بلَقَبِه، واختلف المؤرخون في اسمه، فقيل: حُنْدُج، وقيل مُلَيْكة وقيل عَديّ، وكان أبوه مَلِك أَسَدٍ وغَطَفَانَ. انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٢/ ١١).

(٣) انظر: المصدر السابق (ص:٦٣٢).

(٤) هو كعب بن زهير بن أبي سُلْمى -واسمه رَبِيعَة- بن رِياح بن قُرْط بن الحارث بن مازن المزني الشاعر المشهور، صحابيٌّ معروف، قال قصيدته (بانت سعاد) بين يدي النبي ﷺ فكساه النبيّ -صلّى اللهُ عليه وعلى آله وسلم- بُرْدَة له، فاشتراها معاوية مِن وَلَدِه، فهي التي يَلْبَسُها الخُلَفاء في الأعياد. انظر ترجمته في: الإصابة لابن حجر (٥/ ٤٤٣).

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ [الحاقة:٤٠-٤٢] فالمرادُ به محمَّدٌ ﷺ، إذن القرآنُ كلامُ الله.

قَوْلُهُ: «تكَلَّمَ اللهُ به صِدْقًا، وسَمِعَهُ منه جَبْرَائِيلُ حقًّا» أفادنا المؤلِّفُ أنَّ جبريلَ لم يَتلقَّه مِن اللَّوحِ المحفوظِ، وإنَّما سَمِعَهُ مِن الله، والقولُ بـ(**أنَّ اللهَ تكلَّمَ به ثُمَّ أَنْزَلَهُ إلى بيتِ العِزَّةِ في السَّماءِ الدُّنيا**) هذا في النَّفسِ منه شيءٌ، وإن كان يُرْوَى عن ابنِ عبَّاسٍ[1] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فالذي يظهرُ أنَّ اللهَ يتكلَّمُ بالقرآنِ حين إنزالِه، وقولُه تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج:٢١-٢٢] يَحْتَمِلُ أنَّ المعنى: (**في اللَّوحِ المحفوظِ ذِكْرُه**) كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦]، ومعلومٌ أنَّ القرآنَ نَفْسَه ليس في زُبُرِ الأوَّلين، إنَّما الذي في زُبُرِ الأوَّلين هو ذِكْرُه، فيَحْتمل أنَّ الذي في اللَّوحِ المحفوظِ هو أنَّ القرآنَ سيكونُ ويُنَزَّلُ على محمَّدٍ ﷺ، وما أشبه ذلك، فيكونُ المرادُ بكونِه في اللَّوحِ المحفوظِ ذِكْرَه، لكن يُضْعِفُ هذا الشَّيءَ نحوُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٧-٧٩]، فإنَّ ظاهرَه أنَّ القرآنَ نفسَه كُتِبَ في نفسِ اللَّوحِ المحفوظِ، واللهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، فقد يكتبُه اللهُ في اللَّوحِ المحفوظِ، ولكن لا يتكلَّم به إلَّا عند إنزالِه.

قَوْلُهُ: «وَبَلَّغَهُ محمَّدًا ﷺ وَحْيًا، وأنَّ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم:١] **و﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ﴾** [الشُّورى:١-٢] **و﴿الٓر﴾** [يونس:١] **و﴿قٓ﴾** [ق:١] **و﴿نٓ﴾** [القلم:١] **عينُ كلامِ اللهِ حقيقةً...»** المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- كَرَّرَ هذا، لأنَّ مِن النَّاسِ مَن اخْتَلَفَ في هذا القرآنِ، فالجهميَّةُ قالوا: (**القرآنُ كلامُ اللهِ مُنَزَّلٌ، لكنَّه مخلوقٌ، وأُضِيفَ إلى اللهِ على سبيلِ التَّشريفِ، فإضافتُه إضافةُ تشريفٍ وخَلْقٍ، وليست إضافةَ صفةٍ إلى موصوفِها**).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥١٢٩)، وابن جرير (٣/ ١٨٨).

وقالت الأشاعرةُ: (إنَّ القرآنَ عبارةٌ عن كلامِ الله، خَلَقه اللهُ عزَّ وجلَّ ليُعَبِّرَ عمَّا في نفسِه).

وهم في الحقيقةِ قد تَلَاقَوْا مع المُعْتَزِلَةِ فيما ذهبوا إليه، بل قد يكونُ المُعْتَزِلَةُ خيرًا منهم مِن بعضِ الوجوهِ، لأنَّ المُعْتَزِلَةَ يقولون: (هذا الذي بين أيدينا في المصحفِ هو كلامُ الله حقًّا)، وأولئك يقولون: (ليس كلامَ الله، ولكنَّه عبارةٌ عن كلامِ الله)، والكُلُّ قد اتَّفَقَ أنَّ ما بين أيدينا في المصحفِ مخلوقٌ، لكنَّ المُعْتَزِلَةَ قالوا: (هو كلامُ الله)، وأولئك قالوا: (هو عبارةٌ عن كلامِ الله)، لأنَّ الأشاعرةَ مِن أصولِ مذهبِهم الباطلة أنَّ الكلامَ هو المعنى القَائِمُ بالنَّفْسِ، وليس هو الحرفَ والصَّوتَ، وقالوا: مُستحيلٌ أن يتكلَّمَ اللهُ بحرفٍ وصوتٍ، فانظر كيف خَالَفُوا اللُّغةَ وحَكَمُوا على الله تعالى بعقولِهم الفاسدةِ؟!

* * *

«ونقولُ: إنَّ اللهَ فوقَ سمواتِه مُسْتَوٍ على عَرْشِه، بائنٌ مِن خَلْقِه، ليس في مخلوقاتِه شيءٌ من ذاتِه، ولا في ذاتِه شيءٌ مِن مخلوقاتِه، وإنَّه تعالى إليه يصعدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ، وتَعْرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إليه، وإنَّه يُدَبِّرُ الأمرَ من السَّماءِ إلى الأرضِ ثُمَّ يعرجُ إليه، وإنَّ المسيحَ رُفِعَ بذاتِه إلى الله، وإنَّ رسولَ الله ﷺ عُرِجَ به إلى الله حقيقةً، وإنَّ أرواحَ المؤمنين تصعدُ إلى الله عند الوفاةِ، فَتُعْرَضُ عليه، وَتقِفُ بين يديه، وإنَّه تعالى هو القاهرُ فوق عبادِه، وهو العليُّ الأعلى، وإنَّ المؤمنين والملائكةَ المُقَرَّبين يخافون ربَّهم مِن فوقِهم، وإنَّ أيديَ السَّائلين تُرْفَعُ إليه، وحوائجَهم تُعْرَضُ عليه، فإنَّه -سبحانه- هو العَليُّ الأعلى بكُلِّ اعتبارٍ».

الشرحُ

هذه القطعةُ في بيانِ صفةِ العُلوِّ الذَّاتيِّ، والاستواءِ على العرشِ، فنقول: إنَّ اللهَ تعالى فَوْقَ عرشِه مُستوٍ عليه، وفوقَ جميعِ المخلوقاتِ، بائنٌ مِن خَلْقِه، وفَسَّرَ البَيْنُونةَ بقوله: **(لَيْسَ في مخلوقاتِه شيءٌ مِن ذاتِه، ولا في ذاتِه شيءٌ مِن مخلوقاتِه)**، وليست البينونةُ عدمَ المماسَّةِ مَثلًا، هذا لا نعلمُه، فلو قال قائلٌ: **(إنَّ اللهَ استوى على العرشِ)**، هل هو مُماسٌّ للعرشِ، أو غيرُ مُماسٍّ؟ نقولُ: اللهُ أعلمُ.

إِذَنْ ما معنى البَيْنُونة التي جاءت في كلامِ السَّلفِ؟

معناها نفيُ الحُلُولِ، فليس شيءٌ حالًّا مِن المخلوقاتِ في ذاتِه، وليس شيءٌ من ذاتِه حالًّا في المخلوقاتِ، لأنَّه فوقَ كُلِّ شيءٍ، وبهذا نَعرفُ أنَّ اللهَ تعالى إذا نَزَلَ إلى السَّماءِ الدُّنيا، لا تكونُ السَّمواتُ الأخرى فوقَه، إذ لو كانت فوقَه لكان حالًّا في المخلوقاتِ، وهذا مستحيلٌ، فإنَّه لا يُحيطُ به شيءٌ مِن مخلوقاتِه أبدًا، بل هو فوقَ كُلِّ شيءٍ.

قد تَعْجِزُ عن تصوُّرِ هذا الأمرِ، ولكن لا غرابةَ، فنحن عاجزون عن تصوُّرِ كُلِّ صفاتِ الله عزَّ وجلَّ وليس لنا شَرْعًا أن نتصوَّرَها، يعني: نحن عاجزون قَدَرًا عن تصوُّرِها، ولا يحقُّ لنا شرعًا أن نتصوَّرَها، لأنَّ تصوُّرَها معناه محاولةُ إثباتِ التَّكييفِ، وهذا أمرٌ ممتنعٌ، فمهما قَدَّرْتَ في نفسِك مِن شيءٍ، فاللهُ تعالى أعظمُ وأجَلُّ، ولهذا ليس لنا الحقُّ في أن نتفكَّرَ في ذاتِ الله عزَّ وجلَّ وصفاتِه، لأنَّ الوصولَ إليه أمرٌ مستحيلٌ، فعلى هذا نقولُ: إنَّ اللهَ تعالى لا يَحِلُّ في شيءٍ مِن مخلوقاتِه، ولا يَحِلُّ فيه شيءٌ مِن مخلوقاتِه، وهذا هو معنى البينونة التي عَبَّرَ عنها السَّلفُ في قولِهم: **(بَائِنٌ من خَلْقِهِ)**.

وأمَّا العُلوُّ فهو ثابتٌ أيضًا لله عزَّ وجلَّ لأنَّه العليُّ العظيمُ الأعلى، قال اللهُ تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١]، وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠]، وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤]، وقال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء:١٥٨]، وعُرِجَ بالرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- إلى الله، وكُلُّ هذا يدلُّ على علوِّه -سبحانه وتعالى- كُلُّ هذه المعاني لا تكونُ إلَّا للعُلُوِّ، هكذا أَثْبَتَ الموحِّدُ، أَثْبَتَ الموحِّدُ أنَّ القرآنَ كلامُ الله حقيقةً، وأنَّ اللهَ تعالى فوقَ عرشِه بَائِنٌ مِن خَلْقِه، ننظر ماذا كان موقفُ المُعطِّلِ؟

* * *

«فَلَمَّا سَمِعَ المُعَطِّلُ منه ذلك أَمْسَكَ، ثُمَّ أَسَرَّهَا في نفسِه، وخلا بشياطينِه وبَنِي جِنْسِه، وأَوْحَى بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القولِ غُرورًا، وأصنافَ المكرِ والاحتيالِ، ورَامُوا أمرًا يُسْتَحْمَدُون به إلى نُظَرائِهم مِن أهلِ البِدعِ والضَّلالِ، وعقدوا مجلسًا بيَّتوا في مساءِ ليلته ما لا يرضاه اللهُ مِن القولِ، واللهُ بما يعملون محيطٌ، وأَتَوْا في مجلسِهم ذلك بما قَدَرُوا عليه مِن الـهَذَيَانِ واللَّغطِ والتَّخليطِ، ورَامُوا استدعاءَ المُثْبِتِ إلى مجلسِهم الذي عقدوه، ليجعلوا نُزُلَه عند قُدومِه عليهم ما لَفَّقُوه مِن الكذب ونَمَّقُوه، فَحَبَسَ اللهُ -سبحانه- عنه أيديَهم وألسنتَهم، فلم يتجاسروا عليه، وَرَدَّ اللهُ كيدَهم في نُحورِهم، فلم يَصِلُوا بالسُّوءِ إليه، وخَذَلَهُمُ المطاعُ فمزَّق ما كتبوه مِن المحاضرِ، وَقَلَبَ اللهُ قُلوبَ أوليائِه وجُنْدِه عليهم مِن كُلِّ بَادٍ وحَاضِرٍ، وأخرجَ النَّاسُ لهم مِن المُخَبَّآتِ كَمَائِنَها، ومِن الجَوائِفِ والـمُنَقِّلاتِ دَفَائِنَها.

وقَوَّى اللهُ جَأْشَ المُثْبِتِ، وثَبَّتَ قَلْبَه ولسانَه، وشَيَّدَ بالسُّنَّةِ المحمَّديَّةِ بُنْيَانَهُ، فَسَعَى في عَقدِ مجلسٍ بَيْنَه وبَيْنَ خُصُومِه عند السُّلطانِ، وحَكَّمَ على نَفْسِه كُتُبَ

شُيوخِ القومِ السَّالفين، وأئمَّتِهم المتقدِّمين، وأنَّه لا يَسْتَنْصِرُ مِن أهلِ مَذْهَبِه بكتابٍ، ولا إنسانٍ، وأنَّه جَعَلَ بينه وبينكم أقوالَ مَنْ قلَّدتموه، ونُصوصَ مَنْ على غيرِه مِن الأئمَّةِ قدَّمتموه، وصَرَّحَ المُثْبِتُ بذلك بَيْن ظهْرَانَيْهم، حتَّى بَلَّغَهُ دَانِيهم لِقَاصِيهم، فلم يُذْعِنُوا لذلك، واسْتَعْفَوْا مِن عَقْدِه، فَطَالَبَهُمْ المُثْبِتُ بواحدةٍ مِن خِلالٍ ثلاثٍ: مناظرةٍ في مَجْلِسٍ عامٍّ على شَرِيطةِ العِلْمِ والإنصافِ، تُحْضَّرُ فيه النُّصوصُ النَّبويَّةُ، والآثارُ السَّلفيَّةُ، وكُتُبُ أئمَّتِكم المتقدِّمين مِن أهلِ العِلمِ والدِّينِ، فقيل لـهم: لا مَرَاكِبَ لكم تُسَابِقُونَ بها في هذا المَيْدَانِ، وما لكم بِمُقَاوَمَةِ فُرْسَانِه يَدَان، فدعاهم إلى مُكَاتبتِه بما يَدْعُونَ إليه، فإن كان حقًّا قَبِلَهُ، وشَكَرَكُمْ عليه، وإن كان غيرَ ذلك سَمِعْتُم جوابَ المُثْبِتِ، وتَبَيَّنَ لكم حقيقة ما لَدَيْه، فَأَبَوْا ذلك أَشَدَّ الإباءِ، واسْتَعْفَوْا غايةَ الاستعفاءِ، فدعاهم إلى القيامِ بين الرُّكنِ والمَقَامِ قيامًا في مواقفِ الابتهالِ حَاسِري الرُّؤوسِ، نسألُ اللهَ أن يُنْزِلَ بَأْسَه بأهلِ البِدَعِ والضَّلالِ.

وظنَّ المُثْبِتُ -واللهِ- أنَّ القومَ يُجِيبون إلى هذا، فَوَطَّنَ نَفْسَه عليه غايةَ التَّوطينِ، وَبَاتَ يُحَاسِبُ نفسَه، وَيَعْرِضُ ما يُثْبِتُه ويَنْفِيه على كلامِ ربِّ العالمين، وعلى سُنَّةِ خَاتَمِ الأنبياءِ والمرسلين، ويتجرَّدُ عن كُلِّ هَوًى يُخَالِفُ الوحيَ المُبِينَ، وَيَهْوِي بصاحبِه في أسفلِ السافلين، فلم يُجِيبوا إلى ذلك أيضًا، وَأَتَوْا مِن الاعتذارِ بما دَلَّ على أنَّ القومَ ليسوا مِن أُولِي الأيدِي والأبصارِ، فحينئذٍ شَمَّرَ المُثْبِتُ عن سَاقِ عَزْمِه، وعَقَدَ لله مجلسًا بَيْنَه وبَيْنَ خَصْمِه، يَشْهَدُه القريبُ والبعيدُ، ويَقِفُ على مَضْمُونِه الذَّكِيُّ والبَلِيدُ، وجَعَلَهُ عقدَ مجلسِ التَّحكيمِ بين المُعَطِّلِ الجَاحِدِ، والمُثْبِتِ المَرْمِيِّ بالتَّجْسيمِ».

الشـرحُ

الظَّاهرُ لي مِن كلامِه هذا أنَّه يريدُ أن يقولَ: إنَّه مُثْبِتٌ، ويُحاكِمُ أهلَ التَّعطيلِ، فَدَعَاهم إلى هذه الخصالِ الثَّلاثِ فَأَبَوْا، دَعَاهُم إلى المناظرةِ مُقابلةً وَجهًا لوجهٍ، فَأَبَوْا وامتنعوا عن الحضورِ إلى عالِـمٍ حقٍّ يَحْكُمُ بينهم، ثُمَّ دَعَاهم إلى الكتابةِ بأن يكتبَ لهم، ويكتبوا له، فامتنعوا أن يكتبَ لهم المُثْبِتُ دليلَ ما أَثْبَتَ، لأنَّهم يعرفون أنَّهم لا طاقةَ لهم بِنَفْيِه، ثُمَّ دَعَاهم إلى المُبَاهلةِ[1] بين الرُّكنِ والمَقَامِ، لأنَّه إذا تَبَاهَلَ القومُ حَقَّت العقوبةُ على مَنْ كان على خطأٍ، ولكنَّهم أَبَوْا، فلَمَّا رأى أنَّ الأمورَ كُلَّها تَعَذَّرَتْ، وأنَّهم أَبَوْا كُلَّ الثَّلاثِ، كَتَب هو مُناظرةً بَيْنَه وبَيْنَ أهلِ التَّعطيلِ في القصيدةِ الآتية، لِيَحْكُمَ الإنسانُ بما يراه مِن خلالِ هذه القصيدةِ لِـمَنْ يكونُ الصَّوابُ.

قَوْلُهُ: «**نَسْأَلُ اللهَ أن يُنْزِلَ بأسَه بأهلِ البدعِ والضَّلالِ**» هذا ليس دعاءً منه، لأنَّه هنا يحكي القضيَّةَ، فيقول: إذا أَبَيْتُم هذا نذهبُ إلى مكَّةَ، ونَقِفُ بين الرُّكنِ والمَقَامِ، ونَبْتَهِلُ إلى الله عزَّ وجلَّ.

وكما شَاهَدْنَا قوَّةَ أُسلوبِ المؤلِّفِ -رحمه الله- وبيانِه وفصاحتِه، وكُلُّ كُتُبِه على هذا النَّحوِ تجدُها في غايةِ ما يكونُ مِن البَيانِ والفصاحةِ والسَّلاسةِ، حتَّى إنَّ الإنسانَ إذا قرأها، أو صار يُرَاجِعُهَا لا يَمَلُّ، نسألُ اللهَ تعالى أن يغفرَ له، وأن يَجْزِيَه خيرًا.

***

(١) المُبَاهَلَة المُلاعَنَة، وهو أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا لعنة الله على الظالم منا. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: بهل.

«وقد خَاصَمَ في هذا المجلسِ باللهِ، وحَاكَمَ إليه، وَبَرِئَ إلى اللهِ مِن كُلِّ هَوًى وبدعةٍ وضلالةٍ، وتَحَيُّزٍ إلى فئةٍ غيرِ رسولِ اللهِ ﷺ، وما كان أصحابُه عليه، واللهُ سبحانه المسئولُ أَلَّا يَكِلَه إلى نَفْسِه، ولا إلى شيءٍ ممَّا لَدَيْه، وأن يُوَفِّقَه في جميعِ حالاتِه لما يُحِبُّه ويرضاه، فإنَّ أَزِمَّةَ الأمورِ بِيَدَيه، وهو يَرْغَبُ إلى مَنْ يَقِفُ على هذه الحُكُومةِ أن يقومَ لله قيامَ مُتَجَرِّدٍ عن هَواه، قاصدًا لِرِضَى مَوْلاه، ثُمَّ يقرأَها مُتفكِّرًا، ويُعِيدَها ويُبديَها مُتدبِّرًا، ثُمَّ يَحكُمَ فيها بما يُرْضِي اللهَ ورسولَه وعِبادَه المؤمنين، ولا يقابلَها بالسَّبِّ والشَّتمِ كَفِعْلِ الجاهلين والمعاندين، فإن رَأَى حقًّا قَبِلَهُ، وشَكَرَ عليه، وإن رأى باطلًا رَدَّه على قائلِه، وأهدى الصَّوابَ إليه، فإنَّ الحقَّ لله ورسولِه، والقصدُ أن تكونَ كلمةُ السُّنَّةِ هي العُلْيَا جهادًا في الله، وفي سبيلِه، واللهُ عند لسانِ كُلِّ قائلٍ وقَلبِه، وهو المُطَّلِعُ على نيَّتِه وكَسْبِه، وما كان أهلُ التَّعطيلِ أولياءَه، إنْ أولياؤه إلَّا المتَّقون المؤمنون المُصَدِّقون، ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:١٠٥]».

الشرحُ

قَوْلُهُ: «وهو يَرْغَبُ إلى مَنْ يَقِفُ على هذه الحُكُومَةِ أن يقومَ لله قيامَ مُتَجَرِّدٍ عن هَوَاه، قاصدًا لِرِضَى مولاه» هو يَرْغَبُ ممَّن سَمِعَ هذه الحُكُومَةَ -ويريد بهذا القصيدةَ النُّونيَّةَ- إلى مَنْ يَقِفُ على هذه الحكومةِ أن يقومَ لله قيامَ مُتَجَرِّدٍ عن هواه... إلخ، نسألُ اللهَ أن يجعلَنا كذلك.

قَوْلُهُ: «فإنَّ الحَقَّ لله ورسولِه، والقصدُ أن تكونَ كلمةُ السُّنَّةِ هي العُلْيَا جهادًا في الله، وفي سبيلِه» وذلك كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

قَوْلُهُ: «**قال اللهُ تعالى:** ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التوبة:١٠٥]»، فاللهُ عزَّ وجلَّ يرى ذلك بكتابِه، ويرى ذلك بِعَيْنِه -سبحانه وتعالى-.

وقوله: ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ يعني: يراه الرَّسولُ بحسَبِ سُنَّتِه، لأنَّ سُنَّةَ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- تَحْكُمُ على القولِ بأنَّه حقٌّ، أو صِدقٌ، فكأنَّه رآه.

***

فصــل

«وهذه أَمثالٌ حِسَانٌ مَضرُوبةٌ للمُعطِّلِ والمُشبِّهِ والمُوَحِّدِ، ذَكَرْتُهَا قَبْلَ الشُّروعِ في المقصودِ، فَإِنَّ ضَرْبَ الأمثالِ ممَّا يَأنسُ به العَقلُ لتقريبِها المَعقولَ مِن المشهودِ، وقد قال تعالى وكلامُه المُشْتَمِلُ على أعظم الحُجَجِ، وقَواطِعِ البراهين: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، وقد اشْتَمَلَ منها على بضعةٍ وأربعينَ مَثَلًا، وكان بعضُ السَّلفِ إذا قَرأَ مَثَلًا لم يفهمْه يشتدُّ بكاؤه ويقولُ: لَسْتُ مِن العَالِمِينَ، وسَنُفْرِدُ لها -إن شَاءَ اللهُ- كتابًا مستقِلًّا متضمِّنًا لأسرارِها ومعانيها، وما تَضَمَّنَتْهُ مِن فُنونِ العِلمِ وحَقَائقِ الإيمانِ، واللهُ المُسْتَعَانُ، وعليه التُّكْلانُ»

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «وهذه أمثالٌ حِسَانٌ مضروبةٌ للمُعَطِّلِ والمُشَبِّهِ والمُوَحِّدِ»، فهؤلاء ثلاثةٌ: مُعَطِّلٌ، ومُشَبِّهٌ -يعني: مُمَثِّلًا- ومُوَحِّدٌ.

قَوْلُهُ: «وقد اشْتَمَلَ منها على بضعةٍ وأربعينَ مَثَلًا»، وهذه فائدةٌ أنَّ أمثالَ القرآنِ بِضْعَةٌ وأربعونَ مَثَلًا، والبِضْعَةُ ما بين الثَّلاثةِ إلى التِّسعةِ، فأمثالُ القرآنِ -سواء أمثال الدُّنيا، أو الآخرةِ، أو الأعمال الصَّالحة، أو العامل، أو غير ذلك- كُلُّها تَبْلُغُ بِضْعَةً وأربعين مَثَلًا، مع أنَّ القرآنَ أَبْيَنُ الكلامِ وأوضَحُه، ومع ذلك فإنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- قد أَكْثَرَ فيه مِن ضَربِ الأمثالِ، وقال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، و﴿ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ يعني: ذَوِي العِلْمِ، و﴿ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾

هنا جمعُ مذكَّرٍ سالـمٌ، لكن هل هو جَمْعٌ مِن (عَامِرٍ) أو مِن (مُذْنِبٍ)؟ الجوابُ: مِن (مُذْنِبٍ)، لأنَّ هذا وصفٌ(١).

قَوْلُهُ: «**وَسَنُفْرِدُ لها كتابًا مُسْتَقِلًّا مُتَضَمِّنًا لأسرارِها ومعانيها...**» والحمدُ لله أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- قد يَسَّرَ له فوَفَى بها وَعَدَ، فله كتابٌ مستقِلٌّ اسمُه: (**أمثالُ القرآنِ**).

***

«**المَثَلُ الأوَّلُ: ثِيابُ المُعطِّلِ مُلَطَّخَةٌ بِعَذِرَةِ التَّحريفِ، وشَرابُه مُتَغَيِّرٌ بنجاسةِ التَّعطيلِ، وثيابُ المُشَبِّهِ مُتَضَمِّخَةٌ بِدَمِ التَّشبيهِ، وشرابُه مُتَغَيِّرٌ بِفَرْثِ التَّمثيلِ، والمُوَحِّدُ طاهرُ الثَّوبِ والقلبِ والبدنِ، يخرجُ شرابُه ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾** [النحل:٦٦].

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «**ثيابُ المُعَطِّلِ مُلَطَّخَةٌ بِعَذِرَةِ(٢) التَّحريفِ**» وهذا بالنِّسبةِ إلى استعمالِهم النُّصوصَ، فإنَّ المُعَطِّلَ لم يستعملْها استعمالَ السَّلفِ في إجرائِها على ظاهرِها، بل كان يُحَرِّفُهَا.

قَوْلُهُ: «**وشرابُه مُتَغَيِّرٌ بنجاسةِ التَّعطيلِ**» هذا باعتبارِ عقيدتِه.

فالأوَّلُ باعتبارِ استعمالِه للنُّصوصِ، والثَّاني باعتبارِ عقيدتِه، فإنَّه مُعَطِّلٌ للنُّصوصِ.

---

(١) انظر في ذلك قولَ ابنُ مالكٍ -رحمه الله- في ألفيَّتِه:

وَارْفَعْ بِواوٍ، وبِيَا اجْرُرْ وَانْصِبِ سَالِمَ جَمْعِ (عَامِرٍ) وَ(مُذْنِبِ)

(٢) العَذِرَة: الغائط. انظر: لسان العرب، مادة: عذر.

قَوْلُهُ: «وثيابُ المُشَبِّهِ مُتَضَمِّخَةٌ[١] بدَمِ التَّشبيهِ، وشرابُه مُتَغَيِّرٌ بِدَمِ التَّمثيلِ» والظاَّهِرُ أيضًا أنَّ المُشَبِّهَ عنده تحريفٌ للنُّصوصِ، فإنَّه مُحَرِّفٌ لها بلا شَكٍّ، لأنَّ التَّحريفَ إخراجُ اللفظِ عمَّا يُرَادُ به، والمُشَبِّهُ أخرجه عمَّا يُرَادُ به بلا شَكٍّ، فإنَّ اللهَ لم يُرِدْ بهذه النُّصوصِ أن يُثْبِتَ مماثلتَه للمخلوقين، بل أراد أن يُبَيِّنَ كمالَ صفاتِهِ -سبحانه وتعالى- التي لا يمكنُ أن تُشْبِهَ صفاتِ المخلوقين.

ولقد بَيَّنَّا فيما سبقَ أنَّ كُلَّ صفةٍ أَضَافَهَا اللهُ لنفسِه فإنَّها لا تحتاجُ إلى أن نقولَ: إنَّ اللهَ لا يماثلُه فيها شيءٌ، ولا نحتاجُ أن نستدلَّ بالآيةِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، بل نقولُ: بمجرَّدِ إضافتِها إلى الله، فإنَّ فيها دَلالةً على أنَّها ليست كَصِفَةِ المخلوقين، فمثلًا: تُضَافُ (اليدُ) إلى (البعيرِ)، وتُضَافُ إلى (الذَّرَّةِ)[٢]، ولا يمكنُ أن يفهمَ أحدٌ أنَّ يدَ (الذَّرَّةِ) مُمَاثِلةٌ ليَدِ (البعيرِ)، فهل يلزمُ أن تقولَ: إنَّ للذَّرَّةِ يدًا، وليست كَمِثلِ يدِ البعيرِ؟ لو قُلْتَ ذلك لاستخفَّ النَّاسُ بعقلِك، لأنَّ ذلك معروفٌ، وإذا قال اللهُ تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، فَأَضَافَ اليدَ إليه، فهل يمكنُ أن نفهمَ أنَّها كـ(يدِ) المخلوقِ؟ الجوابُ: لا، بلا شَكٍّ، فيكون ذِكْرُ الأدلَّةِ التي تدلُّ على نفيِ المُماثلةِ مِن بابِ التَّوكيدِ كما سبق.

فأقولُ: إنَّ المُمَثِّلَ أيضًا ثوبُه مُتَضَمِّخٌ بدمِ التَّحريفِ، لأنَّ أدلَّةَ الكتابِ والسُّنَّةِ في صِفاتِ الله لا تدلُّ على التَّشبيهِ قطعًا.

* * *

(١) أي متلطخة. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: ضمخ.
(٢) واحدة الذَّرّ، وهو النَّملُ الأحمرُ الصَّغير. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: ذرر.

«المَثَلُ الثَّاني: شجرةُ المُعَطِّلِ مَغروسةٌ ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة:١٠٩]، وشَجَرةُ المُشَبِّهِ قد ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم:٢٦]، وشجرةُ المُوَحِّدِ ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٥]».

الشرحُ

وهذا المَثَلُ واضحٌ أيضًا، فشَجَرةُ المُعَطِّلِ مغروسةٌ متمكِّنةٌ، لكنَّها على شَفَا[1] جُرُفٍ[2]، أدنى شيءٍ يَجْرُفُها ويُسْقِطُها، أمَّا المُشَبِّهُ المُمَثِّلُ فقد اجْتُثَّتْ مِن فوقِ الأرضِ ما لها مِن قرارٍ، أي: وُضِعَتْ وَضعًا على الأرضِ، فالأُولى غائِرةٌ عروقُها، لكنَّها على شَفَا جُرُفٍ، وهذه عروقُها خارجةٌ بارزةٌ.

والسَّببُ في ذلك أنَّ المُعَطِّلَ يَدَّعِي أنَّه هو العاقلُ، وأن هذا هو مقتضى الأدلَّةِ، وأنَّ هذا مَثَلًا يُنَزِّه اللهُ عنه، فظاهرُ مذهبِه التَّنزيهُ، بخلاف المُشَبِّه، فكُلُّ إنسانٍ يمكنُه أنْ يَرُدَّ عليه، لأنَّه يقولُ: اللهُ مِثْلي، أو مِثْل فلانٍ، أو فلانٍ، بخلاف ذاك، فإنَّه مُمَوِّهٌ.

أما المُوَحِّدُ فإنَّ شجرتَه أصلُها ثابتٌ وفَرْعُها في السَّماءِ، لا تَعْصِفُها الرِّياحُ، ولا تُغَيِّرُها القلاقلُ، بل هي ثابتةٌ، وفرعُها في السَّماءِ عالٍ، فليست كشجرةِ المُشَبِّهِ اجْتُثَّتْ مِن فوق الأرضِ، ولا كشجرةِ المُعَطِّلِ التي بُنِيَتْ على شَفَا جُرُفٍ هَارٍ.

* * *

(١) الشَّفا: حَرْفُ كلِّ شيءٍ. انظر: تاج العروس، مادة: شفي.
(٢) الـجُرُفُ مَا أَكَلَ السيلُ مِنْ أَسْفَلِ شِقِّ الْوَادِي والنَّهر. انظر: لسان العرب، مادة: جرف.

«المَثَلُ الثَّالثُ: شجرةُ المُعَطِّلِ شجرةُ الزَّقُّومِ، فالحُلُوقُ السَّليمةُ لا تبْلَعُها، وشجرةُ المُشَبِّهِ شجرةُ الحَنْظَلِ، فالنُّفوسُ المستقيمةُ لا تَتْبَعُهَا، وشجرةُ المُوَحِّدِ طُوبَى «يسيرُ الرَّاكبُ في ظِلِّها مئة عامٍ لا يَقْطَعُهَا»»(١).

الشرحُ

وهذا المَثَلُ واضحٌ أيضًا.

* * *

«المَثَلُ الرَّابعُ: المُعَطِّلُ قد اتخذ قَلْبَهَ لِوقايةِ الحرِّ والبردِ كَبَيْتِ العنكبوتِ، والمُشَبِّهُ قد خُسِفَ بِعقْلِه، فهو يَتَجَلْجَلُ في أرضِ التَّشبيهِ إلى البَهَمُوتِ، وقلبُ المُوَحِّدِ يطوفُ حولَ العَرشِ ناظرًا إلى الحَيِّ الذي لا يموتُ»

الشرحُ

الأوَّل: (المُعَطِّلُ) قد بنى له بيتًا، لكنَّه كَبيتِ العنكبوتِ، وبيتُ العنكبوتِ كما قال ربُّنا عزَّ وجلَّ: ﴿أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ [العنكبوت:٤١].

الثَّاني: (المُشَبِّهُ) قد خُسِفَ به، فهو يَتَجَلْجَلُ في أرضِ التَّشبيهِ إلى البَهَمُوتِ، والظَّاهِرُ أنَّ (البَهَمُوت) الأرضُ العميقةُ التي يَنْبَهِمَ مَنْ يقعُ فيها، ولا يُعْلَمُ له حالٌ، ولا خبرٌ، فهو إذن غيرُ متبوعٍ، وغيرُ مَرْضِيٍّ، ولا يُنْظَرُ إلى كلامِه إطلاقًا.

الثَّالثَ: (المُوَحِّدُ) فيقول: إنَّ قلبَه يطوفُ حولَ العرشِ، ناظرًا إلى الحيِّ الذي لا يموتُ، فهو مُرْتَفِعٌ بقلبِه يَطَّلِعُ إلى الله -سبحانه وتعالى- ببصيرتِه كُلَّ حينٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦١٨٦)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها، رقم (٢٨٢٧).

«المَثَلُ الخَامسُ: مِصْبَاحُ المُعَطِّلِ قد عَصَفَتْ عليه أَهْوِيةُ التَّعطيلِ فَطُفِئَ وما أَنَارَ، ومِصْبَاحُ المُشَبِّهِ قد غَرِقَتْ فَتِيلَتُه في عَسكَرِ التَّشبيهِ، فلا يُقْتَبَسُ منه الأنوارُ، ومصباحُ المُوَحِّدِ ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور:٣٥]».

الشرحُ

قَوْلُهُ: «قد غَرِقَتْ فَتِيلَتُه في عَسْكَرِ التَّشبيهِ»، وفي نسخةٍ: (فِي عَكَرِ التَّشبيهِ)، وهي الصَّحيحةُ، المُعَطِّلُ أَوْقَدَ المصباحَ يَظُنُّ أنَّه ينفعُه، ولكن جاء الهواءُ فأطفأه، والمُشَبِّهُ لم يُوقِدْ أصلًا، لأنَّه وَضَعَ الفتيلةَ في عَكَرِ الزَّيْتِ، ولم يَستَفِدْ شيئًا، وعَكَرُ الزَّيتِ هو ما يكونُ عليه، بحيث يطفو على الزَّيتِ، فلا تَصِلُ الفَتِيلَةُ إلى أسفلَ.

* * *

«المَثَلُ السَّادسُ: قلبُ المُعَطِّلِ مُتَعَلِّقٌ بالعَدَمِ، فهو أَحْقَرُ الحَقِيرِ، وقَلْبُ المُشَبِّهِ عابِدُ الصَّنمِ الذي قد نُحِتَ بالتَّصويرِ والتَّقديرِ، والمُوَحِّدُ قلبُه مُتَعَبِّدٌ لِـمَنْ ليس كَمِثْلِه شيءٌ وهو السَّميعُ البصيرُ».

الشرحُ

المُمَثِّلُ يَعْبُدُ صَنمًا، والمُعَطِّلُ يعبدُ عَدَمًا، وكُلٌّ منهما خبيثٌ، ولذا نقولُ: كُلُّ مُمَثِّلٍ في الواقعِ مُعَطِّلٌ، وكُلُّ مُعَطِّلٍ مُمَثِّلٌ أيضًا، ولا نقولُ: (وليس كُلُّ...)، لكن كيف يكونُ المُمَثِّلُ مُعَطِّلًا؟ الجوابُ: نقولُ: هوَ مُعَطِّلٌ مِن وُجوهٍ ثلاثةٍ:

الأوَّل: أنَّه عَطَّلَ اللهَ مِن كَمالِه الواجبِ، حيث شَبَّهَه بالمخلوقِ، فإنَّ تشبيهَ الكاملِ بالنَّاقصِ يجعلُه ناقصًا، فتَمْثِيلُه تعطيلٌ لله عزَّ وجلَّ.

الثَّاني: أنَّه عَطَّلَ النَّصَّ الذي أَثْبَتَ به الصِّفةَ، فإنَّ النَّصَّ الذي أَثْبَتَ به الصِّفةَ -أو المُماثَلة على زَعْمِه- قد عَطَّلَه، لأنَّ النَّصَّ إنَّما دَلَّ على صفةٍ تليقُ بالله، فإذا أَثْبَتَ به التَّمثيلَ عَطَّلَه عن مُرادِه بلا شَكٍّ، ولم يُرِدِ اللهُ عزَّ وجلَّ حينما وَصَفَ نَفْسَهُ بما وَصَفَ به نَفْسَه أن يَفْهَمَ عبادُه أنَّه مُماثِلٌ لِخَلْقِه أبدًا، إنَّما أراد المعنى والصِّفةَ التي تليقُ به.

الثَّالث: أنَّ المُمَثِّلَ عَطَّلَ كُلَّ نصٍّ يدلُّ على نفيِ التَّمثيلِ، فهو عَطَّلَ قولَه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشُّورى:١١]، لأنَّه قال: إنَّ مِثْلَه شيْء، وعَطَّلَ قولَه تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، واستكبر عن قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤]، وما أَشْبَهَ ذلك، فصار المُمَثِّلُ مُعَطِّلًا مِن وُجوهٍ ثلاثةٍ.

والمُعَطِّلُ مُشَبِّهٌ أيضًا مِن وَجْهَيْنِ:

الوجه الأوَّل: أنَّه إذا نَفَى صِفةً عن الله، فَإنَّه شَبَّهَه بِمَنْ خلا مِن تلك الصِّفَةِ، فمثلًا إذا قال: (**ليس اللهُ بسميعٍ**) يعني: ليس له سَمْعٌ، شَبَّهَه بالأَصَمِّ، وإذا قال: (**إنَّ اللهَ لا ينزِلُ، ولا يَستوِي، ولا يَفْعلُ**) شبَّهَه بالأشَلِّ الذي ليس له فِعْلٌ، وإذا قال: (**ليس له عينٌ**) شَبَّهَه بالأعمى، وهكذا، فهو بِنَفْيِه مُشَبِّهٌ.

الوجه الثَّاني: أنَّه إنَّما عَطَّلَ لاعتقادِه أنَّ هذه الأدلَّةَ تدلُّ على التَّشبيهِ، يقولُ مَثَلًا: إثباتُ اليدِ معناها المَثِلُ، وإثباتُ العَينِ معناها المَثِلُ، وهكذا، فمِن أَجْلِ ذلك أُنْكِرُ هذه الصِّفةَ، حتَّى لا أقعَ في التَّمثيلِ، فيقول شيخُ الإسلامِ: «مَثَّلُوا أَوَّلًا، وعطَّلوا آخِرًا»[1]. وبهذا نعرفُ -والعياذُ بالله- أنَّ كِلَا الطَّريقَيْنِ سيِّءٌ، وأنَّ كُلَّ واحدٍ منهما أَخَذَ مِن الباطلِ بنصيبٍ.

---

(١) انظر: الفتوى الحموية (ص:٢٦٧).

«المَثَلُ السَّابعُ: نُقُودُ المُعَطِّلِ كُلُّها زُيوفٌ، فلا تَرُوجُ علينا، وبضاعةُ المُشَبِّهِ كَاسِدَةٌ، فلا تَنْفَقُ لَدَيْنَا، وتجارةُ المُوَحِّدِ يُنَادَى عليها يومَ العَرْضِ على رؤوسِ الأشهادِ: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا﴾».

الشــرحُ

الزُّيوفُ: هي المغشوشةُ، والزَّيْفُ: العَيبُ، والمعنى أنَّ المُعَطِّلَ عنده نقودٌ، ولكنَّها كُلَّها مَعِيبةٌ، والمُمَثِّلُ نُقُودُه كاسِدةٌ، أي: رَخِيصةٌ لا تساوي شيئًا، وكأنَّ المؤلِّفَ -رحمه اللهُ- يرى أنَّ المُعَطِّلَ عنده مِن الحرصِ، وعَرَضِ التِّجارة أكثرُ ممَّا عند المُشَبِّهِ، وأنَّ النَّاسَ أيضًا يَغْتَرُّون به أكثرَ مِن المُشَبِّهِ، ولهذا تجدون التَّعطيلَ في الأُمَّةِ كثيرًا، لكنَّ التَّشبيهَ لم تَثْبُتْ عليه قدمٌ، حتى إنَّ بعضَهم يقولُ: إنَّ مذهبَ التَّشبيهِ كان في الأوَّلِ، وأنَّه بعد ذلك زال وانْمَحَى مِن الوجودِ.

أمَّا تجارةُ المُوَحِّدِ، فإنَّ كُلَّ النَّاسِ يرغبُها، وإذا ظَفَر بها قال: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا﴾.

* * *

«المَثَلُ الثَّامنُ: المُعَطِّلُ كَنَافِخِ الكِيرِ، إمَّا أن يَحْرِقَ ثيابَك، وإمَّا أن تجدَ منه رِيحًا خَبِيثةً، والمُشَبِّهُ كَبَائِعِ الخَمْرِ، إمَّا أن يُسْكِرَكَ، وإمَّا أن يُنَجِّسَكَ، والمُوَحِّدُ كبائعِ المِسْكِ، إمَّا أن يُحْذِيَكَ، وإمَّا أن يَبِيعَك، وإمَّا أن تَجِدَ منه رائحةً طيِّبةً».

الشــرحُ

قَوْلُهُ: «المُشَبِّهُ كَبائعِ الخَمْرِ، إمَّا أن يُسْكِرَكَ، وإمَّا أن يُنَجِّسَكَ» هذا بناءً على المشهورِ عند أهلِ العلمِ مِن أنَّ الخَمرَ نَجِسَةٌ، أمَّا على ما أختارُه، فَنَجَاسَتُها مَعنويَّةٌ.

«المَثَلُ التَّاسِعُ: المُعَطِّلُ قد تَخَلَّفَ عن سَفِينةِ النَّجاةِ، ولم يَرْكَبْها، فأَدْرَكَهُ الطُّوفانُ، والمُشَبِّهُ قد انكسرت به في اللُّجَّةِ، فهو يُشاهِدُ الغَرَقَ بِالعِيَانِ، والمُوَحِّدُ قد رَكِبَ سَفِينَةَ نوحٍ، وقد صَاحَ به الرُّبَّان: ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

«المَثَلُ العَاشِرُ: مَنْهَلُ المُعَطِّلِ ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ فَرَجَع خَاسِئًا حَسِيرًا، ومَشْرَبُ المُشَبِّهِ مِن ماءٍ قد تَغَيَّرَ طَعْمُه ولَوْنُه ورِيحُه بالنَّجاسةِ تغييرًا، ومَشْرَبُ المُوَحِّدِ ﴿مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾».

وقد سَمَّيْتُها بـ(الكافِيَة الشَّافية في الانتصارِ للفِرقةِ النَّاجية)، وهذا حينُ الشُّروعِ في المحاكمةِ، واللهُ المُسْتَعَانُ، وعليه التُّكْلانُ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ».

الشرحُ

قَوْلُهُ: «وهذا حينُ الشُّروعِ في المحاكمةِ» (حينُ) كقولِه تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾، فالظَّرفُ قد يتسلَّطُ عليه الفِعلُ، فيصحُّ أن يُسْنَدَ ويُسْنَدَ إليه.

وهذه الأمثالُ عجيبةٌ تدلُّ على قُدْرَةِ المؤلِّف -رحمهُ اللهُ- على صِياغةِ الأساليبِ والألفاظِ، فكَوْنُه يجمعُ هذا الجمعَ يَدُلُّ على أنه عجيبٌ.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١- حُكْمُ الْـمَحَبَّةِ ثَابِتُ الْأَرْكَانِ ... مَا لِلصُّدُودِ بِفَسْخِ ذَاكَ يَدَانِ
٢- أَنَّى وَقَاضِي الْحُسْنِ نَفَّذَ حُكْمَهَا ... فَلِذَا أَقَرَّ بِذَلِكَ الْـخَصْمَانِ
٣- وَأَتَتْ شُهُودُ الْوَصْلِ تَشْهَدُ أَنَّهُ ... حَقٌّ جَرَى فِي مَجْلِسِ الْإِحْسَانِ
٤- فَتَأَكَّدَ الْـحُكْمُ الْعَزِيزُ فَلَمْ يَجِدْ ... فَسْخُ الْوُشَاةِ إِلَيْهِ مِنْ سُلْطَانِ
٥- وَلِأَجْلِ ذَا حُكْمُ الْعَذُولِ تَدَاعَتِ الْـ ... أَرْكَانُ مِنْهُ فَخَرَّ لِلْأَذْقَانِ
٦- وَأَتَى الْوُشَاةُ فَصَادَفُوا الْحُكْمَ الَّذِي ... حَكَمُوا بِهِ مُتَيَقَّنَ الْـبُطْلَانِ
٧- مَا صَادَفَ الْحُكْمُ الْمَحَلَّ وَلَا هُوَ اسْـ ... ـتَوْفَى الشُّرُوطَ فَصَارَ ذَا بُطْلَانِ
٨- فَلِذَاكَ قَاضِي الْحُسْنِ أَثْبَتَ مَحْضَرًا ... بِفَسَادِ حُكْمِ الْـهَجْرِ وَالسُّلْوَانِ
٩- وَحَكَى لَكَ الْحُكْمَ الْمُحَالَ وَنَقْضَهُ ... فَاسْمَعْ إِذَنْ يَا مَنْ لَهُ أُذُنَانِ
١٠- حُكْمُ الْوُشَاةِ بِغَيْرِ مَا بُرْهَانِ ... إِنَّ الْـمَحَبَّةَ وَالصُّدُودَ لَدَانِ
١١- وَاللهِ مَا هَذَا بِحُكْمٍ مُقْسِطٍ ... أَيْنَ الْغَرَامُ وَصَدُّ ذِي هِجْرَانِ(١)؟!
١٢- شَتَّانَ بَيْنَ الْـحَالَتَيْنِ فَإِنْ تُرِدْ ... جَمْعًا فَمَا الضِّدَّانِ يَجْتَمِعَانِ

(١) في نسخة الإفتاء «الهجران»، معرف بـ(ال).

١٣- يَـا وَالِـهًا هَانَـتْ عَلَيْـهِ نَفْسُـهُ ... إِذْ بَاعَهَـا غَبْنًـا بِكُـلِّ هَـوَانِ
١٤- أَتَبِيـعُ مَـنْ تَهْـواهُ نَفْسُـكَ طَائِعًـا ... بِالصَّـدِّ وَالتَّعْـذِيبِ وَالْـهِجْرَانِ؟!
١٥- أَجَهِلْتَ أَوْصَافَ الْـمَبِيْعِ وَقَـدْرَهُ ... أَمْ كُنْتَ ذَا جَهْـلٍ بِـذِي الْأَثْـمَانِ؟!
١٦- وَاهًـا لِقَلْـبٍ لَا يُفَـارِقُ طَـيْرُهُ الْ ... أَغْصَـانَ قَائِمَـةً عَـلَى الْكُثْبَـانِ
١٧- وَيَظَـلُّ يَسْـجَعُ فَوْقَهَـا وَلِغَـيْرِهِ ... مِنْهَـا الـثِّمَارُ، وكُـلُّ قِطْـفٍ دَانِ
١٨- وَيَبِيتُ يَبْكِي وَالْـمُوَاصِلُ ضَاحِكٌ ... وَيَظَـلُّ يَشْـكُو وَهْـوَ ذُو شُـكْرَانِ
١٩- هَـذَا وَلَـوْ أَنَّ الْـجَمَالَ مُعلَّـقٌ ... بِـالنَّجْمِ هَـمَّ إِلَيْـهِ بِـالطَّيَرَانِ

الشرحُ

ذَكَر ابنُ القَيِّم -رحمه الله- بعد الْـمُقدمة أنَّ هذا حِينُ الشُّرُوع في المحاكمة، فبدأ بهذا النَّظْمِ العجيب الغريب الذي يُظْهِر فيه التَّغَزُّلَ، وهذا مِن شأن الشُّعراء إذا أرادوا الدخول في شيء مُهِمٍّ أتوْا بما يدلُّ على التَّغَزُّل مِن أَجْل أن تتهيأ النَّفْسُ، وتستعد لِفَهْم ما يقع بَعْدَ ذلك، وقد جاء مِثْلُ ذلك بين يَدي النَّبيِّ ﷺ في قول الشاعر: بَانَتْ سُعَادُ... إلخ[1]، لأنَّ حُضورَ النَّفْس بِمِثل هذه الأوصاف، وهذا التَّعلُّق يُهَيِّؤُها لِيُلقَى إليها أمرٌ مطلوب.

والمسألة هنا ليست بالـهَيِّنة، فالمسألة محاكمةٌ بين أهل الإثبات، وأهل التَّعطيل، فالقصيدة كُلُّها محاكمةٌ بين أهل الإثبات، وأهل التَّعطيل، ولذلك قَدَّم لها المؤلف هذه المقدمة العظيمة.

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٦٧٠)، والبيهقي (٢١١٤٢).

فالخلاصة: أنَّ المؤلف ذَكَر المحبة وشئونها، ثم ذكر بعد ذلك المحبوب لينتقل إلى المقصود، فقال -رحمه الله-:

١- حُكْمُ الْـمَحَبَّةِ ثَابِتُ الْأَرْكَانِ مَا لِلصُّدُودِ بِفَسْخِ ذَاكَ يَدَانِ

٢- أَنَّى وَقَاضِي الْـحُسْنِ نَفَّذَ حُكْمَهَا فَلِذَا أَقَرَّ بِذَلِكَ الْـخَصْمَانِ

قَوْلُهُ: «حُكْمُ الْـمَحَبَّةِ ثَابِتُ الْأَرْكَانِ» يعني أنَّ له حبيبًا يُحبُّه، محبّةً ثابتةً لا تتغيّر.

قَوْلُهُ: «مَا للصُّدُودِ بِفَسْخِ ذَاكَ» أي: بِفَسْخ ذاك الحُكم.

قَوْلُهُ: «يَدَانِ» أي: قُدْرة.

إِذَنْ هو تصوَّرَ الآن أنَّ له حبيبًا يُحبُّه، وأنَّ صُدودَ هذا الحبيب قد يَفسخ الحكم، وهو ثبوت أركان المحبة.

لكنه يقول: لا يمكن، فهي مَحَبَّة عظيمة، حتى لو صدَّ الحبيب، فإنها ثابتة لا تتغيّر.

قَوْلُهُ: «أَنَّى» أي: كيف يمكن أن يَفْسَخَ الصُّدودُ هذه الأركانَ؟

قَوْلُهُ: «وَقَاضِي الْـحُسْنِ نَفَّذَ حُكْمَهَا» قاضي الحُسن أي: تصوَّرَ أنَّ هناك قاضيًا حَسَنَ القضاء نفَّذ الْـحُكم، وهو ثُبُوت أركان المحبة.

قَوْلُهُ: «الخَصْمَانِ» الخصمان اللذان بين أيدينا الآن هما المحبّة والصُّدُود، لما حكم القاضي بأنه لا يمكن أن يَفْسخ الصُّدودُ حُكمَ المحبّة، أَقَرَّ الخصمان بذلك أنه لا يمكن.

٣- وَأَتَتْ شُهُودُ الْوَصْلِ تَشْهَدُ أَنَّهُ حَقٌّ جَرَى فِي مَجْلِسِ الْإِحْسَانِ

بعد أن ذَكَر المحبَّةَ، وأنَّ الصُّدُود لا يمكن أن يَفْسَخَهَا، قال:

«**وَأَتتْ شُهُودُ الوَصْلِ**» أي: بَيْنَ الحبيب والمحبوب.

«**تَشْهَدُ أَنَّهُ حَقٌّ جَرَى فِي مَجْلِسِ الْإِحْسَانِ**» وإذا كانت شُهود الوَصْل تشهد بأنَّه حَقٌّ، صار هذا يزيد الحُكمَ ثباتًا ورُسوخًا، ولا سيما وأنه جرى في مجلس الإحسان.

والإحسانُ -كما هو معلوم- مرتبةٌ فوْقَ العَدْل كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠].

٤- فَتَأَكَّدَ الْـحُكْمُ الْعَزِيزُ فَلَمْ يَجِدْ فَسْخُ الوُشَاةِ إِلَيْهِ مِنْ سُلْطَانِ

قَوْلُهُ: «**فَتَأَكَّدَ الْـحُكْمُ الْعَزِيزُ**» هذا التأكُّد مِن جِهة حُكم القاضي، ومِن جِهة الشُّهود.

قَوْلُهُ: «**الوُشَاةِ**» أي: النَّمامين الذين يُريدون إفساد النَّاسِ بِنَقْلِ كلام بعضهم في بعض.

٥- وَلِأَجْلِ ذَا حُكْمُ الْعَذُولِ تَدَاعَتِ الْـ أَرْكَانُ مِنْهُ فَخَرَّ لِلْأَذْقَانِ

قَوْلُهُ: «**الْعَذُول**» أي: اللائم، والمعنى: بعدما ثبت الحُكم على هذا الوجه صار اللومُ على محبَّة هذا الحبيب، تداعت له الأركانُ، ولم يَثْبُت.

٦- وَأَتَى الوُشَاةُ فَصَادَفُوا الحُكْمَ الذِي حَكَمُوا بِهِ مُتَيَقَّنَ الْـبُطْلَانِ

قَوْلُهُ: «**الوُشَاةُ**» أي: النَّمامون، حيث أتوا ليفسدوا الحُكم الأول، فوجدوا أنه لا طاقة لهم بذلك، ووجدوا أنَّ ما حكموا به -وهو الوشاية- مُتيقَّن البطلان.

٧- مَا صَادَفَ الحُكْمُ المَحَلَّ وَلَا هُوَ اسْـ ـتَوْفَى الشُّـرُوطَ فَصَارَ ذَا بُطْلَانِ

لأنَّ مِن شَرْطِ صِحة الحُكمِ ونَفَاذِ الحُكمِ أن يُصادفَ مَحَلَّه، بأن يكون المحكوم عليه قابلًا، وأن تتم الشروط، وهؤلاء الوُشَاةُ حُكمهم ما صادف المحلَّ، ولا استَوفى الشروط.

٨- فَلِذَاكَ قَاضِي الْحُسْنِ أَثْبَتَ مَحْضَرًا بِفَسَادِ حُكْمِ الْـهَجْرِ وَالسُّلْوَانِ

قَوْلُهُ: «قَاضِي الحُسْنِ» أي: الحاكم الذي سبق الكلام عليه، فقاضي الحُكم أثبت مَحْضَرًا بفساد حُكم الهَجْر والسُّلوان، والمَحْضَرُ هو ما نُسَمِّيه بالصَّكِّ، كتب قاضي الحُسن صَكًّا أنه لا يمكن أن يَسْلُوَ عن محبوبه، ولا أن يَهْجُرَه.

٩- وَحَكَى لَكَ الحُكْمَ المُحالَ وَنَقْضَهُ فَاسْمَعْ إِذَنْ يَا مَنْ لَهُ أُذُنَانِ

معناه أن قاضيَ الحُسنِ الذي أثبت أنَّ حُكم المحبة ثابتٌ حكى لك الحُكم.

قَوْلُهُ: «وَنَقْضَهُ» أي الذي يَصدُر مِن الوُشَاة.

١٠- حُكْمُ الوُشَاةِ بِغَيْرِ مَا بُرْهَانِ إِنَّ الْمَحبَّةَ وَالصُّدُودَ لَدَانِ

يعني: أنهما ضِدَّان لا يمكن أن يجتمعا، فالمحبةُ إذن ثابتةٌ، وليس لها مُعارض، فَبَطَل حُكْمُ الوُشَاة الذين يحاولون التفريق.

١١- وَاللهِ مَا هَذَا بِحُكْمٍ مُقْسِطٍ أَيْنَ الْغَرَامُ وصَدُّ ذِي هِجْرَانِ؟!

١٢- شَتَّانَ بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ فَإِنْ تُرِدْ جَمْعًا فَمَا الضِّدَّانِ يَجْتَمِعَانِ

قَوْلُهُ: «وَاللهِ ما هَذَا بِحُكْمٍ مُقْسِطٍ» أي: حُكم الوُشَاة الذين يحاولون التفريق بين الحبيب ومحبوبه.

قَوْلُهُ: «أَيْنَ الغَرَامُ وصَدُّ ذِي هِجرَانِ» يعني: كيف يمكن أن يكون الغرام؟ و(الغَرَامُ) هو المحبة اللازمة، و(صَدُّ ذِي هِجرَانِ) لا يمكن، لأنَّ الغرام ينافي الصَّدَّ.

١٣- يَـا وَالِــهًا هَانَــتْ عَلَيْــهِ نَفْسُــهُ   إِذْ بَاعَهَــا غَبْنًــا بِكُـــلِّ هَـــوَانِ

قَوْلُهُ: «الوَالِه» هو شديدُ المَحبَّة، أو شديدُ التَّحيُّر، والأول أظهرُ في هذا السياق.

قَوْلُهُ: «هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ إِذْ بَاعَهَا غَبْنًا بِكُلِّ هَوَانِ»، لأنَّ الغالب أنّ الإنسان المغْرمَ يَخْضَعُ لِـخَلِيلِه، ويُوافقه على الحَسَنِ والسَّيِّءِ، فالذي تَهُونُ عليه نَفْسُه يبيعها بكل هَوان.

١٤- أَتَبِيــعُ مَــنْ تَهْــواهُ نَفْسُــكَ طَائِعًــا   بالصَّــدِّ وَالتَّعْــذِيبِ وَالهِجْــرَانِ؟!

والاستفهامُ هنا للإنكار!

١٥- أَجَهِلْتَ أَوْصَافَ الْـمَبِيْعِ وَقَـدْرَهُ؟   أَمْ كُنْــتَ ذَا جَهْـلٍ بِــذِي الْأَثْــمَانِ؟

قَوْلُهُ: «أَوْصَافَ الْـمَبِيْعِ» هذا باعتبار النوع.

قَوْلُهُ: «وَقَدْرَهُ» باعتبار الكيفية.

قَوْلُهُ: «أَمْ كُنْتَ ذَا جَهْلٍ بِذِي الْأَثْمَانِ» يعني: أم أنت جاهلٌ بالثَّمَنِ الذي بَذَلْتَ تَظُنُّهُ رفيعًا وهو رخيص.

١٦- وَاهًــا لِقَلْــبٍ لَا يُفَــارِقُ طَــيْرُهُ الْـــ   أَغْصَــانَ قَائِمَــةً عَــلَى الْكُثْبَــانِ

قَوْلُهُ: «وَاهًا» كلمةُ تَوجُّعٍ يعني: يتوجَّع لهذا القَلْبِ الذي طَيرُه لا يفارق الأغصان.

قَوْلُهُ: «قَائِمةً» أي: الطَّيْر على الكُثْبَان.

١٧- وَيَظَلُّ يَسْجَعُ فَوقَهَا وَلِغَيْرِهِ ... مِنْهَا الثِّمَارُ وكُلُّ قِطْفٍ دَانِ

يعني: هذا الطير يَسْجَعُ على الأغصان، فالقلبُ مُوجَعٌ، والثِّمار لِغَيْرِه، كأنه يقول -رحمه الله-: إنَّ مِن أشدِّ البلاء أن يتعلق القلبُ بشيء، وتكُونَ الثمارُ لغيره.

١٨- وَيَبِيتُ يَبْكِي وَالْمُوَاصِلُ ضَاحِكٌ ... وَيَظَلُّ يَشْكُو وَهْوَ ذُو شُكْرانِ

وهذا حقٌّ، فإذا كان الإنسان متعلِّقًا بِحَبِيبه، وَحَصَلَ منه هِجْرَان، وصَادَقَ آخرَ، فإنَّ الأوَّل يَبْكِي، والثانيَ ضَاحِكٌ.

قَوْلُهُ: «وَيَظَلُّ يَشْكُو، وَهْوَ ذُو شُكْرانِ»، وفي نسخة: «وَهْوَ ذُو هِجْرَانِ» والثانية أقرب للصواب، أنه يشكو وهو مَهْجُور، لأنَّ حبيبه قد صَدَّ عنه.

١٩- هَذَا وَلَوْ أَنَّ الْجَمَالَ مُعَلَّقٌ ... بِالنَّجْمِ هَمَّ إِلَيْهِ بِالطَّيَرَانِ

والكلام -كما قلنا- غَزَلٌ، فيقول: لو أنَّ مَحْبُوبَهُ الجَميلَ مُعَلَّق بالنجم، لَهَمَّ إليه بالطَّيَرانِ لِيَصِلَ إليه.

* * *

٢٠- لله زَائِرَةٌ بِلَيْلٍ لَمْ تَخَفْ ... عَسَسَ الْأَمِيرِ وَمَرْصَدَ السَّجَّانِ

٢١- قَطَعَتْ بِلَادَ الشَّامِ ثُمَّ تَيَمَّمَتْ ... مِنْ أَرْضِ طَيْبَةَ مَطْلَعِ الْإِيمَانِ

٢٢- وأَتَتْ عَلَى وَادِي الْعَقِيقِ فَجَاوَزَتْ ... مِيقَاتَهُ حِلًّا بِلَا نُكْرَانِ

٢٣- وَأَتَتْ عَلَى وَادِي الْأَرَاكِ وَلَمْ يَكُنْ ... قَصْدًا لَهَا فَأَلَا بِأَنْ سَتَرَانِي

٢٤- وَأَتَتْ عَلَى عَرَفَاتٍ ثُمَّ مُحَسِّرٍ ... وَمِنًى فَكَمْ نَحَرَتْهُ مِنْ قُرْبَانِ؟!

٢٥- وأَتَتْ عَلَى الْجَمَرَاتِ ثُمَّ تَيَمَّمَتْ ... ذاتَ السُّتُورِ وَرَبَّةَ الْأَرْكَانِ

٢٦- هذَا وَمَا طَافَتْ وَلَا اسْتَلَمَتْ وَلَا رَمَتِ الْجِمَارَ وَلَا سَعَتْ لِقِرَانِ
٢٧- وَرَقَتْ عَلَى أَعْلَى الصَّفَا فَتَيَمَّمَتْ دَارًا هُنَالِكَ لِلْمُحِبِّ[1] الْعَانِي
٢٨- أَتَرَى الدَّلِيلَ أَعَارَهَا أَثْوَابَهُ وَالرِّيحَ أَعْطَتْهَا مِنَ الْخَفَقَانِ؟!
٢٩- وَاللهِ لَوْ أَنَّ الدَّلِيلَ مَكَانَهَا مَا كَانَ ذَلِكَ مِنْهُ فِي إِمْكَانِ
٣٠- هَذَا وَلَوْ سَارَتْ مَسِيرَ الرِّيحِ مَا وَصَلَتْ بِهِ لَيْلًا إِلَى نُعْمَانِ
٣١- سَارَتْ وَكَانَ دَلِيلَهَا فِي سَيْرِهَا سَعْدُ السُّعُودِ، وَلَيْسَ بِالدَّبْرَانِ
٣٢- وَرَدَتْ جِفَارَ الدَّمْعِ وَهْيَ غَزِيرَةٌ فَلِذَاكَ مَا احْتَاجَتْ وُرُودَ الضَّانِ
٣٣- وَعَلَتْ عَلَى مَتْنِ الْهَوَى وَتَزَوَّدَتْ ذِكْرَ الْحَبِيبِ وَوَصْلَهُ الْمُتَدَانِي
٣٤- وَعَدَتْ بِزَوْرَتِهَا فَأَوْفَتْ بِالَّذِي وَعَدَتْ وَكَانَ بِمُلْتَقَى الْأَجْفَانِ
٣٥- لَمْ يَفْجَأِ الْمُشْتَاقَ إِلَّا وَهْيَ دَا خِلَةُ السُّتُورِ بِغَيْرِ مَا اسْتِئْذَانِ
٣٦- قَالَتْ وَقَدْ كَشَفَتْ نِقَابَ الْحُسْنِ مَا بِالصَّبْرِ لِي عَنْ أَنْ أَرَاكَ يَدَانِ
٣٧- وَتَحَدَّثَتْ عِنْدِي حَدِيثًا خِلْتُهُ صِدْقًا وَقَدْ كَذَبَتْ بِهِ الْعَيْنَانِ
٣٨- فَعَجِبْتُ مِنْهُ وَقُلْتُ مِنْ فَرَحِي بِهِ طَمَعًا وَلَكِنَّ الْمَنَامَ دَهَانِي
٣٩- إِنْ كُنْتِ كَاذِبَةَ الَّذِي حَدَّثْتِنِي فَعَلَيْكِ إِثْمُ الْكَاذِبِ الْفَتَّانِ
٤٠- جَهْمِ بْنِ صَفْوَانٍ وَشِيعَتِهِ الْأُلَى جَحَدُوا صِفَاتِ الْخَالِقِ الدَّيَّانِ

---

(١) في عدد من النسخ المخطوطة: «للمحِثِّ»، وهما سائغان.

٤١- بَلْ عَطَّلُوا مِنْهُ السَّمَوَاتِ الْعُلَى ... وَالْعَرْشَ أَخْلَوْهُ مِنَ الرَّحْمَنِ

٤٢- ونَفَوْا كَلَامَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ ... وَقَضَوْا لَهُ بِالْخَلْقِ وَالْحِدْثَانِ

٤٣- قَالُوا وَلَيْسَ لِرَبِّنَا سَمْعٌ وَلَا ... بَصَرٌ وَلَا وَجْهٌ فَكَيْفَ يَدَانِ؟!

٤٤- وَكَذَاكَ لَيْسَ لِرَبِّنَا مِنْ قُدْرةٍ ... وَإِرَادَةٍ أَوْ رحْمَةٍ وَحَنَانِ

٤٥- كَلَّا وَلَا وَصْفٌ يَقُومُ بِه سِوَى ... ذَاتٍ مُجَرَّدَةٍ بِغَيْرِ مَعَانِ

٤٦- وَحَيَاتُهُ هِيَ نَفْسُهُ، وكَلَامُهُ ... هُوَ غَيْرُهُ، فاعْجَبْ لِذَا الْبُهْتَانِ

٤٧- وَكَذَاكَ قَالُوا مَا لَهُ مِنْ خَلْقِهِ ... أَحَدٌ يَكُونُ خَلِيلَهُ النَّفْسَانِي

٤٨- وَخَلِيلُهُ الْمُحْتَاجُ عِنْدَهُمُ وَفِي ... ذَا الْوصْفِ يَدْخُلُ عَابِدُ الْأَوْثَانِ

٤٩- فَالْكُلُّ مُفْتقِرٌ إِلَيْهِ لِذَاتِهِ ... فِي أَسْرِ قَبْضَتِهِ ذَلِيلٌ عَانِ

٥٠- وَلِأَجْلِ ذَا ضَحَّى بِجَعْدٍ خَالِدُ الْـ ... ـقَسْرِيُّ يَوْمَ ذَبَائِحِ الْقُرْبَانِ

٥١- إِذْ قَالَ: إِبْرَاهِيمُ لَيْسَ خَلِيلَهُ ... كَلَّا وَلَا مُوسَى الْكَلِيمَ الدَّانِي

٥٢- شَكَرَ الضَّحِيَّةَ كُلُّ صَاحِبِ سُنَّةٍ ... لله دَرُّكَ مِنْ أَخِي قُرْبَانِ

الشرحُ

٢٠- لله زَائِرَةٌ بِلَيْلٍ لَمْ تَخَفْ ... عَسَسَ الْأَمِيرِ وَمَرْصَدَ السَّجَّانِ

٢١- قَطَعَتْ بِلَادَ الشَّامِ ثُمَّ تَيَمَّمَتْ ... مِنْ أَرْضِ طَيْبَةَ مَطْلَعِ الْإِيمَانِ

٢٢- وأَتَتْ عَلَى وَادِي الْعَقِيقِ فَجَاوَزَتْ ... مِيقَاتَهُ حِلًّا بِلَا نُكْرَانِ

٢٣- وَأَتَتْ عَلَى وَادِي الْأَرَاكِ وَلَـمْ يَكُنْ قَصْـدًا لَـهَا فَـأَلَّا بِـأَنْ سَـتَرَانِي
٢٤- وَأَتَـتْ عَـلَى عَرَفَـاتِ ثُـمَّ مُحَسِّـرٍ وَمِنًـى فَكَـمْ نَحَرَتْـهُ مِـنْ قُرْبَـانِ؟!
٢٥- وأتَتْ عَلَى الْـجَمَرَاتِ ثُمَّ تَيَمَّمَـتْ ذاتَ السُّـتُورِ وَرَبَّـةَ الْأَرْكَـانِ
٢٦- هذا وَمَا طَافَـتْ وَلَا اسْـتَلَمَتْ وَلَا رَمَـتِ الْجِمَارَ وَلَا سَـعَتْ لِقِـرَانِ
٢٧- وَرَقَتْ عَلَى أَعْلَى الصَّـفَا فَتَيَمَّمَـتْ دَارًا هُنَالِـكَ لِلْمُحِـبِّ الْعَـانِي
٢٨- أَتَـرَى الـدَّلِيلَ أعَارَهَـا أَثْوَابَـهُ وَالرِّيحَ أَعْطَتْهَـا مِـنَ الْـخَفَقَانِ؟!
٢٩- وَالله لَـوْ أَنَّ الـدَّلِيلَ مَكَانَهَـا مَـا كَـانَ ذَلِـكَ مِنْـهُ فِي إِمْكَـانِ
٣٠- هَذا وَلوْ سَـارَتْ مَسِـيرَ الـرِّيحِ مَـا وَصَـلَتْ بِـهِ لَـيْلًا إِلَى نُعْـمَانِ
٣١- سَـارَتْ وَكَـانَ دَلِيلَـهَا فِي سَـيْرِهَا سَـعْدُ السُّـعُودِ، وَلَـيْسَ بِالـدَّبْرَانِ
٣٢- وَرَدَتْ جِفَارَ الـدَّمْعِ وَهْـيَ غَزِيـرَةٌ فَلِذَاكَ مَـا احْتَاجَـتْ وُرُودَ الضَّـانِ
٣٣- وَعَلَتْ عَلَى مَتْنِ الْـهَوَى وَتَـزَوَّدَتْ ذِكْرَ الْـحَبِيبِ وَوَصْـلَهُ الْـمُتَدَانِي
٣٤- وَعَـدَتْ بِزَوْرَتِهَـا فَأَوْفَـتْ بِالَّـذِي وَعَـدَتْ وَكَـانَ بِمُلْتَقَـى الْأَجْفَـانِ
٣٥- لَـمْ يَفْجَـأِ الْـمُشْتَاقَ إِلَّا وَهْـيَ دَا خِلَـةُ السُّـتُورِ بِغَـيْرِ مَـا اسْـتِئْذَانِ
٣٦- قَالَتْ وَقَدْ كَشَفَتْ نِقَابَ الْحُسْنِ مَا بِالصَّـبْرِ لِي عَـنْ أَنْ أَرَاكَ يَـدَانِ

لما ذكر -رحمه الله- المحبوبةَ، وكيف طَوَت هذه الفَيافِي[1] مِن الشام إلى المدينة، إلى مواضعِ النُّسُك: عرفاتٍ والمُحَسِّر ومِنًى، وعَمِلت كُلَّ الأشياء وَسَعَتْ،

(١) هي البَرارِي الواسِعة، جَمْعُ فَيْفَاء. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: فيف.

ومع ذلك ما طابت نفسُها حتى وَصَلَت إلى حبيبها، وهو يراها كأنه في المنام بين النوم واليقظة، ويحدِّثها، يقول:

٣٧- وَتَحَــدَّثَتْ عِنْــدِي حَــدِيثًا خِلْتُــهُ صِــدْقًا وَقَــدْ كَــذَبَتْ بِــهِ الْعَيْنَــانِ

٣٨- فَعَجِبْتُ مِنْهُ وَقُلْتُ مِنْ فَرَحِي بِـه طَمَعًــا وَلَكِــنَّ الْــمَنَامَ دَهَــانِي

كما أنَّ هؤلاء المُعطِّلة يتحدثون للناس حديثًا يظنه الغبيُّ صِدقًا، ولكنه كَذِبٌ، ولهذا قال لها:

٣٩- إنْ كُنْـتِ كَاذِبَـةَ الَّـذِي حَـدَّثْتِنِي فَعَلَيْــكِ إِثْــمُ الْكَــاذِبِ الْفَتَّــانِ

٤٠- جَهْمِ بْنِ صَـفْوَانٍ[1] وشِـيعَتِهِ الْأُلَى جَحَدُوا صِـفَاتِ الْــخَالِقِ الـدَّيَّانِ

قَوْلُهُ: «الكَاذِبِ الفَتَّانِ»: هو جَهْمُ بن صَفوان، وأيهما أعظم: كَذِبُها، أو كَذِبُ الجَهْم بنِ صفوان؟ الجواب: طبعًا، كذِبُ الجهمِ بن صفوان، فالجهمُ قد جمَع بين هاتين الرَّذِيلَتين: الكَذِب والفتنة، فقد كذب على اللهَ عزَّ وجلَّ وكَذَّب اللهَ أيضًا، لأنه قال: إنَّ الله تعالى ليس له صفات، وفتَن العَالَمَ بما عنده مِن الشبهات.

لكن انظر إلى حُسْن تَخَلُّص المؤلف -رحمه الله- وانتقالِه مِن هذه القِصة العجيبة التي تجعل الإنسانَ يَسِيرُ بِقَلْبِه مِن الشام إلى المدينة إلى مكة إلى المَشَاعِر، ثُمَّ في النهاية ننتقل هذا الانتقالَ الذي هو في الحقيقة مَطلبٌ عظيم، لكن لا نشعر به، فننتقل مِن أمورٍ مُصَوَّرة أنها حِسِّيَّة إلى أُمورٍ مَعْنَوِيَّة بهذه السُّهولة، وهذا فضل الله

(١) **جهم بن صفوان هو**: أبو مُحْرِز السَّمَرْقَندِي، رأس الجَهْمِيَّة مِن أكذَبِ الناس على الله تعالى وأَعْظَمِهم فتنةً وضلالةً في الدِّين، وكان مِن أعظم الناس نفيًا لصفات الله تعالى وأسمائه، قال الذهبي في الميزان: ما علمته روى شيئًا، لكنه زرع شرًّا عظيمًا، هلكَ زمن التابعين سنة (١٢٨هـ). [الشارح]. وانظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٠٤).

يؤتيه مَن يشاء، والمؤلف -رحمه الله- معروف بأنه قويٌّ جِدًّا في أُسلوبه، حتى إنَّ أساليبه -رحمه الله- تَدخُل في الإنسان كما يَدخُل النومُ للرَّجُل السهران.

والجَهْم بن صفوان هذا لا بُدَّ أن نعرف أنه مِن تِرْمِذَ[١]، وأنه تلَّقى مقالة التَّعطيل عن الجَعْد بنِ دِرْهم[٢]، والجَعْد بن دِرهم هو أول مَنْ قال بالتعطيل.

فالجعدُ تكلَّم في مسألتين فقط: إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يُكَلِّم موسى تكليمًا، ثم أخذها عنه الجهمُ بنَ صفوانَ، وصار يناظر بهما، ويدعو إلى هذا المذهب، وانتشر المذهبُ على يده، فلهذا نُسِب إليه، وصار يُسَمَّى مذهب الجهميّة، لا مذهب الجعديّة، لأنه هو الذي نَشَره، وهو مبنيٌّ على تعطيل صفات الله، فأول ما كان أنهم عَطَّلُوا صِفات الله، ثم غَلَوْا فَعَطَّلوا الأسماءَ والصفاتِ، ثم غَلَوْا وعَطَّلوا كُلَّ ما يدل على ثبوت، ثم غَلَوْا وعَطَّلُوا كُلَّ ما يدُلُّ على ثبوتٍ، أو انتفاء، وقالوا: لا يصح أن يُوصَف اللهُ بِنَفْيٍ، ولا إثباتٍ.

فقال: إن الله -سبحانه وتعالى- (لم يتخذ إبراهيم خليلًا)، و(لم يكلِّم موسى تكليمًا)، لأنَّ (الخليلَ) مأخوذ مِن الخُلَّة، والخُلَّةُ عندهم -أي عند المُعَطِّلة- مأخوذة من الخِلَّة -بالكسرة- بمعنى الحَاجَة، فاتخذ إبراهيم خليلًا، أي: محتاجًا إلى رَبِّه.

---

(١) مدينة مشهورة مِن أُمَّهات المُدن، والمشهور مِن أهل هذه البلدة أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرَة الترمذي الضرير، صاحب الصحيح، أحد الأئمة الذين يُقتدَى بهم في علم الحديث. انظر: معجم البلدان (٢/ ٢٦).

(٢) الجعد هو: الجعد بن درهم من الموالي، مبتدع، له أخبار في الزندقة، سكن الجزيرة -يعني العراق- وأخذ عنه مروان بن محمد، أو تَأَدَّب عليه في صغره، قُتِلَ (سنة ١١٨). [الشارح]. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٦/ ١٥١)، تاريخ الإسلام (٤/ ٢٣٨)، ميزان الاعتدال (١/ ترجمة ١٤٨٢)، لسان الميزان (٢/ ترجمة ٤٢٧)، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (١/ ٣٢٢).

قال: (ولم يكلِّم موسى تكليمًا)، لأنَّ الكلام -عندهم- مخلوقٌ، فلم يَصْدُر مِن الله تعالى كلامٌ، هذا أولُ ما نَشَأ التَّعْطِيلُ.

ومعلوم أنَّ هذين الأَصْلَيْن: انتفاءُ المحبة، وانتفاءُ الكلامِ يَسْقُطُ بهما كلُّ الدِّينِ، لأنَّ العَابِدِين لله تعالى إنما يَعْبُدونه محَبَّةً، ويعبدونه بكلامه الذي هو شَرْعُه، فإذا بَطَلَ هذا وهذا، فلن يبقى شيء، فَمِن أَجْلِ هذه المصيبة العظيمة حَصَلَ ما حَصَلَ.

قَوْلُهُ: «**الأُلَى**» بمعنى: الذين.

قَوْلُهُ: «**جَحَدُوا صِفَاتِ الخَالِقِ الدَّيَّانِ**» أي: أنكَرُوها.

واعلم أنَّ جَحْدَ الصفاتِ نوعان: تكذيبٌ، وتأويل.

أما التكذيب: فهذا كُفر لا إشكال فيه، ولا يجوز أن يتوقَّفَ فيه أحد، مِثل أن يقول: إنَّ الله لم يَسْتَوِ على العَرْش، ولم يُؤَوِّل، أو: إنَّ الله تعالى لم يَخْلُق الخَلْق، ولم يؤَوِّل، وهذا لا شك أنه كفر.

وأمَّا جحد التأويل: فيُنْظَر، إذا كان للتأويل مَساغٌ في اللغة العربية، فإنه لا يَكْفُر، لكن يكون فاسقًا، وإذا لم يكن له مَسَاغٌ، فهو كالجاحد جَحْدَ تكذيبٍ.

فمثلًا هذا رجل قال: والله لا أشتري خُبزًا، وذهب واشترى خُبزًا، فقلنا: عليك كفارة يمين، قال: لا، أنا ما قصدت خُبزًا، بل قَصَدْتُ بَعيرًا، فهذا لا يُقبل أبدًا، لأنَّ هذا لا يمكن في اللغة العربية، أمَّا إذا كان يمكن فنَعَم.

كما قال الحَرِيري في مَقَامَاته[1]:

وَطالَمَا مَـرَّ بِي كَلْـبٌ وفِي فَمِـهِ ... ثَـوْرٌ ولكنَّـه ثَـوْرٌ بِـلَا ذَنَـبِ

(١) انظر: مقامات الحريري (ص:٤٧٦).

هل يمكن أن يكون ثورٌ بِفَمِ الكلب؟ الجواب: لا، ولكن له تأويل، لأنَّ الثور يطلق في اللغة العربية على قُرْصٍ مِن اللَّبَن الجَافِّ، وهذا ممكن، أما شيءٌ لا يمكن، فلا نَقْبَل التأويل فيه، فيكون كَجَحْدِ التكذيبِ.

ومثله أيضًا مَن قال في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢] قال: إنَّ الله لا يجيء، فهذا جَحْد تكذيبٍ، فيكون كُفرًا، وإذا قال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ يعني: جاء أمر ربك، فهذا إنكارُ تأويلٍ.

فهم جَحَدُوا صِفَاتِ الخالِقِ الدَّيَّانِ، وقالوا: إنَّ الله ليس له صفة.

سبحان الله! فالله سَمَّى نفسَه بأَنَّه سميعٌ، بصيرٌ، عليمٌ، قالوا: أبدًا، ما له صِفَة.

فقاعدتهم: (**كل وَصْفٍ يَتَّصِفُ به الإنسان، فاللهُ لا يَتَّصِفُ به**) لماذا؟

قالوا: لأنه إذا اتَّصف بِوَصْفٍ يَتَّصِفُ به المخلوق فهذا تشبيهٌ، والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١].

فإذا قيل لهم: ما تقولون في الصفات الموجودة؟ قالوا: هذه الصفات تعبير عن الذات، فَصِفَاتُه هي ذاته، ليست معنًى آخرَ سِوى الذاتِ، فعطّلوا صفات الله عزَّ وجلَّ بهذه الحجة الباطلة.

يقول -رحمه الله-:

٤١- بَـلْ عَطَّلُـوا مِنْـهُ السَّـمَوَاتِ الْعُـلَى   وَالْعَـرْشَ أَخْلَـوْهُ مِـنَ الـرَّحْمَنِ

هم ينكرون شيئين: العُلُوَّ والاستِوَاء.

أنكروا عُلُوَّ الله عزَّ وجلَّ وقالوا: لا يمكن أن يَعْلُوَ، لأننا لو أثبتنا عُلُوَّه لَزِمَ مِن ذلك أن يكون جِسْمًا، والأجسام عندهم مُتَمَاثلة.

وأنكروا أيضًا استواءه على العرش، قالوا: ما استوى على العرش، لأنه لو استوى على العرش لكان محدودًا على محدود، لأنَّ العرش محدود له قوائم، فإذا قلت: (استوى عليه) لزم أن يكون محدودًا على محدود، وهذا يقتضي تمثيل الخالق بما له حَدٌّ، هذه شُبَهُهُم.

لكن يقول في الرَّدِّ عليهم: إنَّ الله أثبت أنه استوى على العَرْش، ولُزُوم ألَّا يكون مُسْتَوِيًا عليه إلا المَحْدُود، هذا إنما هو بالنسبة للمَخلوق، أما بالنسبة للخَالق، فقد قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

٤٢- ونَفَوْا كَلَامَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَقَضَوْا لَهُ بِالْخَلْقِ وَالْحِدْثَانِ

قالوا: الله لا يتكلّم، وإنما يَخْلُق كلامَه فيُسْمَع، وقالوا: إن الله تعالى كلَّم موسى، أي: خَلَقَ أصواتًا سَمِعَها موسى نُسِبَتْ إلى الله عزَّ وجلَّ.

ونِسْبَتُها إلى الله عزَّ وجلَّ مِن باب التشريف والتكريم، كَنَاقَةِ الله، وبَيْتِ الله، وما أَشْبَهَ ذلك.

ولولا أنَّ هذا قِيلَ ما صدَّقنا، إذ كيف يكون كلامُ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ مَخْلُوقًا وهو صِفَةٌ مِن صِفَاتِه؟!

أنت الآن عندما تتكلَّم، هل هو كَمِثْل ما لو عَجَنْتَ عَجِينَةً؟ الجواب: لا.

فالكلام صفة المتكلِّم، هم قالوا: إنه مخلوق، لأننا لو أثبتنا أنه يتكلَّم لَزِمَ قِيامُ الحوادث به، لأنَّ الكلام -كما نعلم- حادث، فقولنا: (**بسم الله الرحمن الرحيم**)، البَاءُ قَبْلَ السِّين، والسِّينُ قَبْلَ المِيم، فهُو حادث، ولا يَقُومُ الحَادِثُ إلَّا بِحَادِثٍ، إذن امْحُ كونَ الكلام مِن صِفات الله عزَّ وجلَّ.

انظر كيف زيَّن لهم الشيطان ذلك؟!

نردُّ عليهم بأنَّ الله تعالى أَثْبَت أنه يُكلِّم، فقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء:١٦٤] وقد قرأها بعضُهم (وكَلَّمَ اللهَ موسى) فجعَلَ المتكلِّمَ موسى، ولكنهم بُهتوا حين قيل لهم اقرؤوا قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣] فلا يستطيعون، لكن مع ذلك أصرُّوا على باطلهم -والعياذ بالله- والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠] وقال: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ [الأعراف:١٨٦].

قَوْلُهُ: «وَقَضَوْا لَهُ بالـخَلْقِ والـحِدْثَانِ» يقول ابن القيم -رحمه الله-[1] في مواضعَ مِن كلامه: القول بأنَّ القرآن مخلوق يُبْطِلُ الشريعةَ كُلَّها، لأنه إذا كان مخلوقًا صار عبارةً عن أصواتٍ كأصوات الرَّعْد، ليس فيها أمرٌ، ولا نهيٌ، ولا خبرٌ، ولا استخبارٌ، أو صار حروفًا إِنْ كُتِب، وكأنها نُقُوش على باب، فكلمة (قُل) لا تَدُلُّ على أَمْرٍ، وكلمة (لا تفعل) لا تدل على نهي، إنها خَلَقَ الله هذه النُّقُوش.

وهذا كما قال ابن القيم إذا قلنا: كلام الله مخلوق، بَطَلَ الأمر والنهي، ولا شريعةَ، ولا خَبَرَ، ولا قَصص، وقالوا أيضًا:

٤٣- قَالُوا وَلَيْسَ لِرَبِّنَا سَمْعٌ وَلَا بَصَرٌ وَلَا وَجْهٌ فَكَيْفَ يَدَانِ؟!

يعني: ليس له سمعٌ، ولا بصرٌ، لكن كيف ذلك والله تعالى يقول: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة:١] قال: هذا سَمِعَ بذاته، لا بمعنًى هو السمع، ولا بِوَصْفٍ هو السمع، فهو سَمِيعٌ بذاته، بَصِيرٌ بذاته، أي أنَّ السمعَ والبصرَ هو الذات.

(١) انظر -على سبيل المثال-: مختصر الصواعق المرسلة (ص:٣٥٧).

فهو يقول: لأنك لو أثبتَّ لله صفةً قديمةً لَزِمَ مِن ذلك تَعَدُّدُ القُدماء، فلو قلت: (لله سَمْعٌ قَديم) يعني: لم يكن حَادثًا، بَصَرٌ قديم، عِلْم قديم، قُدْرَة قديمة، لزم تَعَدُّدُ القُدَمَاء.

وهذا كلام في الحقيقة لا يُعْقَلُ أصلًا، فضلًا عن أن يكون حقًّا.

قَوْلُهُ: «**فكيف يدان**» يعني: فكيف يكون له يدان؟

وقَوْلُهُ: «**فَكَيْفَ يدان**» يعني: كيف الثنتان؟! والشيء إذا ثُنِّي معناه أنه مُقَدَّر، يعني: المفرد قد يكون المراد به الجِنس، فَيَعُمُّ أكثر، لكن (**يدان**) محدود، كيف يكون لله (**يدان**)؟!

فنحن نقول في الرَّدِّ عليهم: إنَّ الله أثبت لنَفْسِه سَمْعًا وَبَصْرًا ووجهًا ويَدَيْن، وَلَسْنَا أَعْلَمَ بالله مِن نَفْسِه، بل هو عزَّ وجلَّ أعلمُ بِنَفْسِه وبِغَيْرِه.

٤٤- وَكَذَاكَ لَيْسَ لِرَبِّنَا مِنْ قُدْرةٍ وَإِرَادَةٍ أَوْ رحْمَةٍ وَحَنَانِ

أيضًا يقولون: إنَّ الله ليس له قُدْرَة، فإذا قيل لهم: الله على كلِّ شيء قدير؟

قالوا: (**قدير بذاته**)، ليس له وصف هو القُدْرَة، وليس له أيضًا إرادة، أو رحمة وحنان، والحنان أَلْطَفُ مِن الرحمة.

٤٥- كَلَّا وَلَا وَصْفٌ يَقُومُ بِه سِوَى ذَاتٍ مُجَرَّدَةٍ بِغَيْرِ مَعَانِ

هذا مذهب الجَهْمِيَّة الذين يقولون: لا يمكن أن تَصِف الله بأيِّ صِفَة، لا ثُبُوتِيَّة، ولا سَلْبِيَّة، وهؤلاء هم الغُلَاة، ووافقهم على ذلك المُعْتَزِلَة، إِلَّا أنَّ المُعْتَزِلَة أثبتوا الحياة والعِلْم والقُدْرة، لأنه لا يمكن أن يقومَ الخَلْقُ إِلَّا بذلك.

٤٦- وَحَيَاتُـهُ هِـيَ نَفْسُـهُ، وكَلَامُـهُ هُـوَ غَـيْرُهُ، فاعْجَـبْ لِـذَا الْبُهْتَـانِ

حياتُه نَفْسُه، وسَمْعُه نَفْسُه، وبَصَرُه نَفْسُه، أما كلامه فيقول المؤلف: (كَلَامُه هوَ غيرُه) لماذا؟ لأنَّه مخلوقٌ عندهم، والمخلوق غيرُ الخالق.

قَوْلُهُ: «فاعْجَبْ لِذَا البُهْتَانِ» أَمَرَ أن نعجب، ونحن نمتثل أمره، أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ الكلامِ، وبَيْنَ الحياةِ والعِلْمِ والقُدْرَة؟ يقولون: الكلام غير الله، لأنه مخلوق مُنْفَصِل، وأما الحياة والعِلْم والقُدْرَة، فهي نَفْسُ الله دون زيادة في المعنى.

٤٧- وَكَـذَاكَ قَـالُوا مَـا لَـهُ مِـنْ خَلْقِـهِ أَحَـدٌ يَكُـونُ خَلِيلَـهُ النَّفْسَـانِي

٤٨- وَخَلِيلُـهُ الْـمُحْتَاجُ عِنْـدَهُمْ وَفِي ذَا الْوصْفِ يَـدْخُلُ عَابِـدُ الْأَوْثَـانِ

٤٩- فَالْكُـلُّ مُفْتَقِـرٌ إِلَيْـهِ لِذَاتِـهِ فِي أَسْرِ قَبْضَـتِهِ ذَلِيـلٌ عَـانِ

قالوا: إنَّ الله عزَّ وجلَّ لا خَلِيلَ له، فلا يُمكِنُ أن يَتَّخِذ خَليلًا، لأنهم نَفَوْا أَصْلَ المحبة، وقالوا: إنَّ الله لا يُحِبُّ، ولا يُحَبُّ، لماذا؟ قالوا: لأنَّ المَحَبَّة لا تكون إلَّا بين شيئين مِن جِنسٍ واحِدٍ، ومَعْلومٌ الفَرْقُ بينَ الخَالقِ والمَخْلُوق.

لكن هل كلامهم هذا معقول أو محسوس؟ الجواب: لا، فالمحبةُ تكون بين شيئين مِن جنسٍ واحِدٍ، وتكون بين شيئين بينهما أعظمُ الفُرُوق.

الآن نحن نشاهد أننا نُحِبُّ بعضَ الأدواتِ دونَ بعضٍ، إنسانٌ مَثَلًا عنده قَلَمٌ سَهْلُ السَّيْر، ما يَتَقَطَّع، وقَلَمٌ آخَرُ بالعكس، والمحبةُ تكون للأَوَّلِ.

وهذا شخص عنده نَاقَةٌ -مثلًا- ذَلُولٌ حَبِيبَةٌ، ونَاقَةٌ صَعْبَةٌ، أَيُّهما أحبُّ إليه؟ الجواب: الذَّلُول.

وآخر عنده سَيَّارَة مِن أَفْخَم السَّيَّارات، وسَيَّارَة مِن أَرْدَأِ السَّيَّارَات، أَيُّهما أَحَبُّ إليه؟ الجواب: الأُولَى، وليس هناك تناسب.

فهم أنكروا -سبحان الله- المَحْسُوسَ فَضْلًا عن المعقول، إذا لم يكن له محبة، فلا خُلَّة، لأنَّ الخُلَّة أَعْلَى أنواع المحبة، ولهذا لا نَعْلَمُ أنها ثبتت إلا لاثنين فقط مِن المخلوقات، وهما: محمد وإبراهيم -صلَّى الله عليهما وسلَّم- ولا يجوز أن نقول في أحدٍ غيرهما: إنه خَلِيلُ الله، لأنَّ هذا وَصْفٌ خَاصٌّ.

هم يقولون: إنَّ معنى الخُلَّة: الفَقْر، فَخَلِيلُ الله، أي: مُفْتَقِرٌ إلى الله عزَّ وجلَّ. أَخَذُوهَا مِن الخِلَّة -بالكسرة- وقالوا: خليل الله يعني: مفتقرا.

إذا كان هكذا، يقول ابن القيم -رحمه الله-: «**وَخَلِيلُهُ الْمُحتَاجُ عِنْدَهُمْ**» يعني معنى الخليل: المحتاج.

«**وفِي ذَا الوصْفِ يَدْخُلُ عَابِدُ الأَوْثَانِ**» أي: يكون المشركون أَخِلَّاء لله عزَّ وجلَّ الفسَّاقُ أَخِلَّاءُ لله، لأنَّ الكُلَّ محتاجٌ لله عزَّ وجلَّ.

٥٠- وَلِأَجْلِ ذَا ضَحَّى بِجَعْدٍ خَالِدُ الْـ ... ـقَسْرِيُّ[1] يَوْمَ ذَبَائِحِ الْقُرْبَانِ

٥١- إِذْ قَالَ: إِبْرَاهِيمُ لَيْسَ خَلِيلَهُ ... كَلَّا وَلَا مُوسَى الْكَلِيمَ الدَّانِي

أصلُ التَّعطيل: إِنْكَارُ هاتين الصّفتين وهما: الخُلَّة والكلام.

بعد ذلك توسَّع التعطيل، وإنَّما صار الأصلُ نَفْيَ هاتين الصّفتين، لأنَّ بهما بُطْلَان الشَّرْع مِن أَصْلِه، إذ إِنَّ الكلامَ هُو أساسُ الشرائع، والمحبة أساسُ العِبادة،

(١) خالد القسري هو: خالد بن عبد الله القَسْريّ، من بَجِيلَة، أحد خطباء العرب، وأجوادهم، ولّاه هشام بن عبد الملك العراقَيْن: (البصرة والكوفة)، ولد (سنة ٦٦هـ)، وتوفي (سنة ١٢٦هـ). [الشارح]. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٦/ ١٤٥).

فلا بدَّ مِن المحبة، والتَّعظيم للمعبود، وإِلَّا فلا عِبادة.

ولذلك لما أنكر ذلك الجَعْدُ بنُ دِرْهَمٍ خَرَجَ خالدُ بنُ عبد الله القَسْرِيّ -رحمه الله- بالـجَعْد في عيد الأضحى، وكان مِن عَادَةِ الـخُلفاء أنهم يخرجون بالضَّحايا يذبحونها في مُصَلَّى العِيد، كَما فَعَل نَبِيُّنا ﷺ(١).

فخرج به مُوَثَّقًا، وخطب الناسَ، وقال: «أيها الناسُ ضَحُّوا تَقَبَّلَ اللهُ ضحاياكم، فإني مُضَحٍّ بالجَعدِ بن دِرْهَم». فهذا حُكْمٌ، وعَلَّله بقوله: إنه قال: «إنَّ الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يُكَلِّم موسى تكليمًا» ثم نَزَل فَذَبَحه، والناسُ يَنْظُرون(٢).

٥٢- شَكَرَ الضَّحِيَّةَ كُـلُّ صَـاحِبِ سُـنَّةٍ　　　لله دَرُّكَ مِـــنْ أَخِـــي قُرْبَـــانِ

يقول ابن القيم: إِنَّه شكرَ الضحيةَ كُلُّ صاحبِ سُنَّةٍ، ونحن نَشْكُر هذه الضَّحية، ونرى أَنَّه مصيبٌ، وأنه إذا كانت البَعِير كبيرةَ الجِسم تُجْزِئُ عن سَبعة، فهذا عن ملايين، لأنَّ الله -سبحانه وتعالى- هَتَك سِتْرَه، وبَيَّن أَمْرَه، ورجعَ عن رَأْيِه ما لا يُحصيهم إلَّا الله عزَّ وجلَّ وعليه فإننا نشكر كُلَّ حاكمٍ أَعْدَمَ مُبتَدِعًا كافرًا يُفسد الدِّينَ، كما فعل خالدٌ القَسْرِيُّ -رحمه الله- بهذا المبتدع.

* * *

(١) كما في خطبة النبي ﷺ يوم العيد: «إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ مِنْ يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ، ثُمَّ نَرْجِعَ، فَنَنْحَرَ فَمَنْ فَعَلَ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا». أخرجه البخاري: كتاب العيدين، باب سنة العيدين لأهل الإسلام، رقم (٩٠٨).

(٢) الحكاية أوردها الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٩/ ٣٨٢).

فصل

٥٣- وَالعَبْدُ عِنْدَهُمُ فَلَيْسَ بِفَاعِلٍ ... بَلْ فِعْلُهُ كَتَحَرُّكِ الرَّجَفَانِ

٥٤- وَهُبُوبِ رِيحٍ أَوْ تَحَرُّكِ نَائِمٍ ... وَتَحَرُّكِ الأَشْجَارِ لِلْمَيَلَانِ

٥٥- وَاللهُ يُصْلِيهِ عَلَى مَا لَيْسَ مِنْ ... أَفْعَالِهِ حَرَّ الْحَمِيمِ الآنِ

٥٦- لَكِنْ يُعَاقِبُهُ عَلَى أَفْعَالِهِ ... فِيهِ تَعَالَى اللهُ ذُو الإِحْسَانِ

٥٧- وَالظُّلْمُ عِنْدَهُمُ الْمُحَالُ لِذَاتِهِ ... أَنَّى يُنَزَّهُ عَنْهُ ذُو السُّلْطَانِ؟

٥٨- وَيَكُونُ مَدْحًا ذَلِكَ التَّنْزِيهُ مَا ... هَذا بِمَعْقُولٍ[١] لَدَى الأَذْهَانِ

الشرحُ

هذه الأبيات السِّتَّة فيها بَيَانُ ضلالِ الجَهْمِيَّة، وهو أنَّ العَبْدَ عندهم مُجْبَرٌ على عَمَلِه، ليس بفاعلٍ، ولا يُنْسَبُ الفعلُ إليه، ولا يُمْدَحُ على حُسْنَى، ولا يُذَمُّ على سُوءٍ، لأَنَّه ليس له إرادة، وليس له اختيار، بل فِعلُه -كما ذُكِرَ- مِثْلُ تَحَرُّك الرَّجَفَان[٢]، وهُبوب الريح، أو تحرُّك النائم، أو تحرُّك الأشجار مِن الهواء، ومع ذلك يُصليه اللهُ تعالى النَّارَ على ما ليس بِفِعْلِه، وهذا عندهم ليس بِظُلْم، لأنهم يقولون: إنَّ الظُّلم مُحالٌ لِذَاته، يعني لا يُتَصَوَّرُ أنَّ اللهَ يَظْلِم، لا لأَنَّه مُنَزَّهٌ عن

(١) في مطبوعة الهراس، وبعض النسخ: «بمقبول».
(٢) الرَّجَفانُ: الاضْطِرابُ الشديد. انظر: لسان العرب، مادة: رجف.

الظُّلْم لِكَمَال عَدْلِه، ولكن لأنه لا يمكن أن يَقَعَ منه ظُلم، لأنه يتصرف في خَلْقِه، فهو لا يتصرف في شيء غير مخلوق له، لا يتصرف في مُلْكِ غيره، فهو إذا عاقبَ المحسنَ أَشَدَّ العِقاب، وأثابَ المسيءَ أفضلَ الثوابِ، فليس هذا ظلمًا، لماذا؟

لأنَّ الظُّلم مُحالٌ في حقِّ الله، ووجهُ استحالَتِه عندهم: أنَّ الله -سبحانه وتعالى- يتصرف في مُلْكِه، والمتصرف في مُلْكِه كما يشاء ليس بِظَالِمٍ.

فَعَلَى رأيهم هذا، لا يُثْنَى على الله عزَّ وجلَّ بأنه لا يَظْلِمُ، ولا يُثْنَى عليه بأنه ليس بظلَّام، لماذا؟

الجوابُ: لأنَّ وُقوعَ الظُّلم مِنه مُحال، فإذا كان مُحالًا فكيف يُقال: إِنَّه مُنَزَّه عن الظُّلْم، لأَنَّه لا ظُلمَ أصلًا، ولهذا قال المؤلف -رحمه الله-: (**أَنَّى يُنَزَّه عَنْهُ ذُو السُّلطَانِ؟!**) يعني: كيف يُنَزَّه عن الظلم؟! والظلم مُحال، إنه لو أراد أن يَظْلِم ما ظَلَمَ.

إِذَنْ هم يقولون:

أولًا: العبد ليس بِفَاعِلٍ، ولكنه مُجْبَرٌ على الفِعل، فتحرُّكُه الاختياري كتحرُّكِه الاضطراري، فحركته بِيَدِه -إشارةً إلى بعيدٍ، أو قريبٍ- كحَرَكَة يد المُرتَعِش الذي لا يملِك إيقافَها.

ثانيًا: لو عَذَّب رَبُّنا أفضلَ النَّاس وأطوعَهم له لم يكن ظالمًا، لأنَّ الظُّلم في حقِّ الله مُحَال، إذ إنَّ الظُّلمَ تَصَرُّف المتصرِّف في حقِّ غيرِه، وهذا لا يُتَصَوَّرُ في حقِّ الله، فليس بِظُلْم، لأنَّ أيَّ شيءٍ يقعُ مِن الله ليس بظُلْم.

وعلى رأيهم هل يكون اللهُ عزَّ وجلَّ مُنزَّهًا عن الظُّلم، ومُثْنًى عليه بذلك؟
الجواب: لا، لأنَّ هذا -أصلًا- شيءٌ مُحَال.

ونحن نقول: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يَظْلِم لِكَمَال عَدْلِه، والظُّلْم مُمْكِنٌ في حَقِّه، وذلك بِأَن يُثِيبَ العاصيَ، ويُعاقبَ المُطيعَ، وهذا ظُلم.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

لو أنَّه -وحَاشَاهُ مِن ذلك- عذَّبَ المُطِيعَ لكان هذا ظُلمًا، لأنه وَعَدَ المُطِيعَ بالثواب والحُسنى، فإذا أخْلَف صَار هذا ظُلمًا!.

الخلاصة: أنَّ مَذْهَبَ الجَهْمِيَّة في أفعالِ العِبادِ أنهم مُجْبَرُون عليها، لا إرادة لهم، وأنَّ حَرَكَاتِهم الاختيارية بمنزلة تحرُّك الأشجار في الهواء.

فإذا قيل لهم: تَعْذِيبُهم على ذلك ظُلْمٌ، قالوا: لا، الظُّلم هو الشيء المستحيل، وهذا لا يستحيل، لأنَّ الظلم أَنْ يتصرف الإنسانُ في حقِّ غيره، أو مُلْكِ غيره، وهذا بالنسبة لله مستحيل، لأنَّ كلَّ شيء مِلْكُه، فإذن لا ظُلم، لأنه تصرف في مُلْكِه.

لكن بماذا نردُّ عليهم؟

نقول: هذا التفسير الذي ذكرتموه للظلم لا يُثْنَى به على أحدٍ، لأنَّ المُحَال لا يُمْدَحُ الإنسانُ عليه، لا إيجادًا، ولا عَدَمًا مع أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقول: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي**»(١). وهذا يدل على إمكانه، لكنَّ اللهَ حَرَّمه على نَفْسِه، لِكَمَالِ عَدْلِه.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

والله عزَّ وجلَّ نَزَّهَ نَفْسَه عن الظلم مُتَمَدِّحًا بذلك، فلو كان مُحالًا لِذَاته لَصَار نفيُ الظُّلْمِ عن الله تَنْزِيهًا له عَمَّا لا يليق به، ولَصَار عَبثًا لا فائدة منه، وهذا الأمر ظاهر.

أما الرَّدُّ عليهم في قولهم: (إِنَّ الإنسانَ مُجْبَر) فليس هذا مَوْضِعَه، إنما الكلام أن نفهمَ مذهَبهم، وكُلُّ إنسانٍ يَعْرِف أنَّ فِعْلَه باختياره، لكن هناك أشياء ليست باختيار الإنسان، كالموت والمرض، لكنَّ الأفعال الاختيارية التي يفعلها باختياره، كعملٍ صالحٍ، أو عملٍ سَيِّءٍ، كقولٍ، أو فِعلٍ، هذا باختياره.

ولهذا لو أمسكنا واحدًا مِن هؤلاء وضربناه ضربًا مُبَرِّحًا شديدًا، وقال: لماذا تضربونني؟ أنتم أخطأتم عَلَيَّ؟ نقول له: هذا بِغَيْرِ اختيارٍ مِنَّا، هذا أمرٌ مُقَدَّر، والمُقدَّر ما لنا عنه، أيرضى بهذا، أو ما يرضى؟ الجواب: ما يرضى.

وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أميرُ المؤمنين، لما جيء إليه بِسَارِقٍ، فأمَرَ بِقَطعِ يده -كما ذُكِرَ عنه- فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: الْقَدَرُ قَالَ: فَضَرَبَهُ أَرْبَعِينَ سَوْطًا، وَقَالَ: «قَطَعْتُ يَدَكَ لِسَرِقَتِكَ، وَضَرَبْتُكَ لِفِرْيَتِكَ عَلَى اللهِ»[1].

فالمهمُّ أنَّ هذا القولَ لا يمكن أن يستقيم عليه أحدٌ عاقلٌ إطلاقًا، ولو أننا قُلنا به لَفَسدت السموات والأرض، وكان كُلُّ إنسان يَزني ويَسرق ويَقتل، ويَشرب الخمر، ثم لا يُلام عليه، ولا يُقال له شيء، لأنه بغير اختياره، وبغير إرادته.

***

(١) أخرجه الرامَهُرمُزِي في المحدث الفاصل (ص:٣١٧)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ١٦٩).

فصل

٥٩- وَكَذَاكَ قَالُوا: مَا لَهُ مِنْ حِكْمَةٍ ... هِيَ غَايَةٌ لِلْأَمْرِ وَالْإِتْقَانِ

٦٠- مَا ثَمَّ غَيْرُ مَشِيئَةٍ قَدْ رَجَّحَتْ ... مِثْلًا عَلَى مِثْلٍ بِلَا رُجْحَانِ

٦١- هَذَا وَمَا تِلْكَ الْمَشِيئَةُ وَصْفَهُ ... بَلْ ذَاتُهُ أَوْ فِعْلُهُ قَوْلَانِ

٦٢- وَكَلَامُهُ مُذْ كَانَ غَيْرًا كَانَ مَخْـ ... ـلُوقًا لَهُ مِنْ جُمْلَةِ الْأَكْوَانِ

الشرحُ

هذه الأبيات الأربعة فيها مِن ضلال هؤلاء الجَهْمِيَّة، حيث قالوا: إنَّ الله -سبحانه وتعالى- ليست له حكمة، قالوا: لأنَّ الحِكمةَ غَرَضٌ باعثٌ على الفِعل، والله عزَّ وجلَّ ليس له غَرَضٌ، فهو مُنَزَّهٌ عن الغَرَض، ولهذا مِن ألفاظهم السائدة الباطلة قولهم: «**إنَّ الله مُنَزَّهٌ عن الأَبْعَاضِ والأَعْرَاضِ والأَغْرَاضِ**» ومُرادهم بالأبعاض: الوجه واليد والعين، وما أشبه ذلك.

وبالأعراض أي: الصِّفات، فيقولون: هو مُنَزَّهٌ عن الصِّفَاتِ، لأنَّ الصفاتِ أعراضٌ لا تقوم إلَّا بأجسام.

والأغراض يعني: الحِكْمة، فالله يَفْعَل الشيء لمجرد المشيئة فقط.

فالجَهْمِيَّة يقولون: إنَّ اللهَ يفعلُ الأشياءَ كُلَّها، يَخْلُقُ نارًا وجَنَّةً، ويُعَذِّب هذا ويُكْرِمُ هذا، وما أشبه ذلك، بدون حِكمة، بل مُجَرَّد مَشيئة، شاء أن يَفْعَلَ فَفَعَل، لماذا؟ قالوا: هكذا شاء.

مع أنَّ القرآن والسُّنَّة مملوءان مِن إثباتِ حِكمةِ الله عزَّ وجلَّ سواءً في أفعاله، أم في تشريعاته، هذا بالإضافة إلى اسمه الحكيم، وبالإضافة إلى وَصْفِه بالحِكمة، كما قال الله تعالى: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر:٥] وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الأنبياء:١٦] وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص:٢٧] وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر:٨٥] فنفى اللهُ عنه الباطلَ، وأثبتَ الحقَّ.

ولـمَّا ذَكَرَ المواريثَ قال تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء:١٧٦] فالحِكمة هنا (حتى لا نضل)، وكذلك في الأمور القَدَرِيّة يبيِّنُ الله عزَّ وجلَّ أنَّه فَعَلَهَا لِحِكْمةٍ عظيمةٍ، فقال تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص:٧٣] فأحكامُه الكونية والقَدَرِيّة كُلُّها مُقْتَرِنةٌ بالحِكمة، قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الإنسان:٢٩]، وقال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠].

ولا شَكَّ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ موصوفٌ بالحِكمة، وأنَّ أحكامَه الكونية والشرعية مقرونةٌ بالحِكمة أيضًا، ولا نعلمُ أفعالًا تنتفي عنها الحِكمة إلَّا وهي أفعال سَفَهٍ، فالذي يأكل تَمْرًا، ويأكل جَمْرًا، يشرب ماءً عَذْبًا، وماءً مُرًّا، كل شيء إذا سألته: لماذا فعلتَ ذلك؟ فيقول: هذا ما أُريده، فهذا لا شَكَّ أنه سَفِيهٌ.

فانظر لَـمَّا فَرُّوا مِن ثُبُوت الحِكمة لَزِمَهُم شَرٌّ مما فَرُّوا منه، وهو القول بالسَّفَه، وهذا لازم لهم.

وقالوا أيضًا: إنه يَفْعَلُ ويُرَجِّحُ شيئًا على شيء بدون سببٍ للترجيح، ولهذا قال: (**مَا ثَمَّ غيرُ مَشِيئةٍ قَدْ رَجَّحَتْ مِثْلًا عَلَى مِثْلٍ بِلَا رُجْحَانِ**)، يعني: رجَّح شيئًا على شيء.

قَوْلُهُ: «بِلَا رُجْحَانِ» أي: بلا سَبب لترجيحه، فالله عزَّ وجلَّ يفعل ما يشاء بِدُونِ حِكْمَة.

وسبحان الله! ما أعمَى قُلوبَهم! فما أكثرَ ما يَذْكُرُ الله عزَّ وجلَّ الحِكمةَ من أسمائه وأوصافه، ومع ذلك يقولون: إنَّ الله ليست له حِكمة، يُرَجِّحُ ما شاء على ما شاء مِن مشروعاته ومفعولاته بلا رجحان.

كذلك أيضًا قالوا: نفسُ المشيئةِ ليستْ وصفَه، فلا يُوصف اللهُ بأنَّ له مشيئة، بل المشيئة إمّا: الفعل المُشَاء، وإِمَّا أنَّ المشيئة لا تَعْدُو ذاتَه، فهي ذاتُ الله، أو فِعْلُه، على قولين.

وكُلُّ إنسانٍ يعلمُ أنَّ المشيئةَ ليست الذات، وليست الفِعل، بل المشيئة مع القُدرة هي التي يكون بها الفعل.

كذلك أيضًا قالوا: هل تقولون: إنَّ كلام الله هو اللهُ أو لا؟ نقول: كلامُ الله غيرُ الله.

يقولون: إذا قلتم: بأنَّه غيرُ الله لَزِمَ أن يكونَ مخلوقًا، لأنه ما ثَمَّ إِلَّا خالقٌ، أو مخلوق، فإذا قلتم: كلامُ الله ليس هو الله، لَزِم أن يكونَ مخلوقًا، وكذلك المشيئة ليست وَصْفًا، ولكنها مخلوقة.

وقولهم هذا بناءً على تفسيرهم الثاني الذي يقول: إنَّ المشيئة هي الفعل، فتكون المشيئةُ هنا أُطْلِقَتْ على الفعل، كما أَطْلَقَ كلامَه المضاف إليه على ما خَلَقَه في الشجرة، أو في موسى، أو ما أشبه ذلك.

لكن لماذا يقولون ذلك؟ الجواب: لأنهم لا يرون أن الله يتَّصفُ بشيء مِن الصفات، فأصلُ الصفات عندهم ممتنعٌ، فإمَّا ذاتٌ، وإما مفعول.

ومن المعروف أنَّ المُعْتَزِلَة والجَهْمِيَّة أيضًا يُنكرون صفات الله عزَّ وجلَّ حتى الأسماء الدالة على المعاني يُنكرون معانيَها.

فيقولون: مثلًا: الكلامُ ليس وَصْفًا لله، لأنه ليس له وَصْفٌ، فهل هو الله، أو غير الله؟ الجواب: هو غير الله بلا شَكٍّ، إذن هو مخلوق.

ونحن نقول: هو غير الله، لكنه وَصْفُ الله، إذ إنَّ الكلَام وَصْفُ المتكلِّم، وإذا كان وَصْفًا لله فالصِّفَةُ لها حُكمُ الموصوف أي: تابعة له، ليست مخلوقة، وَإِنْ كانت الصِّفة غير الموصوف -في الواقع- لكنها ليست غيرًا منفصلًا، إذ إنها وَصْفُ المَوْصُوف.

* * *

٦٣- قَالُوا: وإقْرَارُ الْعِبَادِ بِأَنَّهُ ... خَلَّاقُهُمْ هُوَ مُنْتَهَى الْإِيمَانِ

٦٤- وَالنَّاسُ فِي الْإِيمَانِ شَيْءٌ وَاحِدٌ ... كَالْمُشْطِ عِنْدَ تَمَاثُلِ[1] الْأَسْنَانِ

٦٥- فَاسْأَلْ أَبَا جَهْلٍ وَشِيعَتَهُ وَمَنْ ... وَالَاهُمُ مِنْ عَابِدِي الْأَوْثَانِ

٦٦- وَسَلِ الْيَهُودَ وكُلَّ أَقْلَفَ مُشْرِكٍ ... عَبَدَ الْمَسِيحَ مُقَبِّلَ الصُّلْبَانِ

٦٧- وَاسْأَلْ ثَمُودَ وَعَادَ بَلْ سَلْ قَبْلَهُمْ ... أَعْدَاءَ نُوحٍ أُمَّةَ الطُّوفَانِ

٦٨- وَاسْأَلْ أَبَا الْجِنِّ اللَّعِينَ أَتَعْرِفُ الْـ ... ـخَلَّاقَ أَمْ أَصْبَحْتَ ذَا نُكْرَانِ؟

٦٩- وَاسْأَلْ شِرَارَ الْخَلْقِ أَعْنِي أُمَّةً ... لُوطِيَّةً هُمْ نَاكِحُوا الذُّكْرَانِ

٧٠- وَاسْأَلْ كَذَاكَ إِمَامَ كُلِّ مُعَطِّلٍ ... فِرْعَونَ مَعْ قَارُونَ مَعْ هَامَانِ

(١) في نسخة الظاهرية، وغيرها: «تمايل»، وما في الأصل أظهر.

٧١- هَلْ كَانَ فِيهِمْ مُنْكِرٌ لِلْخَالِقِ الرْ　　رَبِّ الْعَظِيمِ مُكَوِّنِ الْأَكْوَانِ

٧٢- فَلْيَبْشَرُوا مَا فِيهِمُ مِنْ كَافِرٍ　　هُمْ عِنْدَ جَهْمٍ كَامِلُو الْإِيمَانِ

الشرحُ

وهذا أيضًا مِن صُوَرِهم الفاسدة: أنَّ الإيمان هو الإقرار بالرَّبِّ فقط، فإذا أَقَرَّ الإنسان بِقَلْبِه أنَّ للكون ربًّا خالقًا، فهو مؤمنٌ كاملُ الإيمان، وهذا غُلوٌّ فَاحِشٌ في الإرجاء.

فالأقوال عندهم ليست إيمانًا، فقول: (لا إله إلا الله) ليست مِن الإيمان، والأفعال ليست إيمانًا، فالصلاة ليست مِن الإيمان، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ليس مِن الإيمان، وإماطة الأذى عن الطريق ليست مِن الإيمان، فالإيمان هو إقرارُ الإنسان بربوبية الله عزَّ وجلَّ فقط، بل غايةُ الإيمان الاعتراف بأنَّ الله هو الخالق، ثُمَّ مع ذلك يمنعون الزيادة والنقص فيه، ويقولون: الإيمان لا يَزيد، ولا يَنقُص، فيستوي أَفْسَقُ عِبَادِ الله بِأَتْقَى عِبَادِ الله في الإيمان، ولهذا يقول -رحمه الله-:

٦٣- قَالُوا: وإقْرَارُ الْعِبَادِ بِأَنَّهُ　　خَلَّاقُهُمْ هُوَ مُنْتَهَى الْإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «مُنْتَهَى الْإِيمَانِ» أي: غايةُ الإيمان، وسبحان الله أن يكون هذا الإقرار هو الغاية، مع أنه لا يُنْكِره أحد إلَّا مُكَابَرَةً.

٦٤- وَالنَّاسُ فِي الْإِيمَانِ شَيْءٌ وَاحِدٌ　　كَالْمُشْطِ عِنْدَ تَمَاثُلِ الْأَسْنَانِ

قَوْلُهُ: «وَالنَّاسُ فِي الْإِيمَانِ شَيْءٌ وَاحِدٌ»، فَأَتْقَى الناسِ، وَأَشْقَى الناس كُلُّهم شيء واحد في الإيمان، ولا يمكن أن نقول: هذا إيمانه أَعْلَى مِن إيمان هذا، أو أَزْيَدُ

أَوْ أَكْمَلُ، لأنَّ الإيمانَ عندهم واحدٌ، وهو الإقرار.

أما المِشْطُ فمعروف.

يقول ابن القيم -رحمه الله- على هذا الرأي الفاسد الباطل:

٦٥- فَاسْأَلْ أَبَا جَهْلٍ وَشِيعَتَهُ وَمَنْ ... وَالَاهُمُ مِنْ عَابِدِي الْأَوْثَانِ

اسألهم: هل هم يُقرِّون بالرَّبِّ، أو لا يُقرِّون؟

الجواب: يُقرِّون، وَكَمْ مِن آيةٍ في القرآن يُقِرُّون، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥]، قال: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون:٨٦-٨٧] وهكذا يُقِرُّون بهذا، ويقولون عن أصنامهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ﴾ [الزمر:٣].

٦٦- وَسَلِ الْيَهُودَ وكُلَّ أَقْلَفَ مُشْرِكٍ ... عَبَدَ الْمَسِيحَ مُقَبِّلَ الصُّلْبَانِ

قَوْلُهُ: «وَسَلِ اليَهُودَ» اليهود أيضًا اسألهم هل يُقرِّون بالله أو لا؟

الجواب: يُقرِّون.

وَقَوْلُهُ: «وَكُلَّ أَقْلَفَ مُشْرِكٍ عَبَدَ الْمَسِيحَ مُقَبِّلَ الصُّلْبَانِ» يعني بذلك النصارى، فالنصارى لا يَرَوْن الخِتَان، ويتساهلون جدًّا في النجاسات، ولا يُقيمون لها وَزْنًا، واليهود على العكس، اليهود يُغْلُون جِدًّا في النجاسات، حتى إنه عندهم إذا تَنَجَّس الثوبُ فلا يَطْهُر، فلا بُدَّ مِن أن يَقْرِضَ المحلّ الذي أصابته النجاسة، والنصارى بالعكس، يبول الإنسان على سراويله وثوبه، ولا يهمه، ولهذا قال: (وَكُلَّ أَقْلَفَ مُشْرِكٍ عَبَدَ الْمَسِيحَ مُقَبِّلَ الصُّلْبَانِ).

ومن ضلال النصارى أنَّ الصليب الذي يدَّعون أنَّ عيسى -عليه السلام- قُتِلَ، ثم صُلِبَ عليه مُقدَّسٌ عندهم، ومقتضى العقل أن يكونَ مُهَانًا، فلو كان عندهم عُقُول لكانوا إذا رَأَوُا الصليب كَسَرُوه، لأنَّ نَبِيَّهُم صُلِب عليه، لكن لِـجَهْلِهم وضَلالهم وسَفَاهَة عُقُولهم يُقَدِّسُون الصليب.

٦٧- وَاسْأَلْ ثَمُودَ وَعَادَ بَلْ سَـلْ قَـبْلَهُمْ   أَعْـــدَاءَ نُـــوحٍ أُمَّـــةَ الطُّوفَـــانِ

٦٨- وَاسْأَلْ أَبَا الجِنِّ اللَّعِينَ أَتَعْـرِفُ الْـ   ـــخَلَّاقَ أَمْ أَصْـبَحْتَ ذَا نُكْـرَانِ؟

كل هؤلاء لو سألتهم لَأَقَرُّوا بِرُبُوبِيَّة الله، حتى إبليس يسأل رَبَّه فيقول: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [ص:٧٩]، ويُقْسِمُ بعزَّةِ الله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢] فهو يُقِرُّ بالله، ويُقرُّ بِعزَّتِه، ويُقِرُّ بسلطانه، فَسُكُوتُه إقرار، لأنَّه في مقام آخر كان يَرُدُّ على موسى، قال الله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:٢٣-٢٦] فهل هو مؤمنٌ عند الجَهْمِ؟ الجواب: نعم، مؤمنٌ كاملُ الإيمان مِثْلُ إيمان جبريلَ. نسأل الله العافية.

قَوْلُهُ: «وَاسْأَلْ أَبَا الْـجِنِّ اللَّعِينَ» الفَعِيل بمعنى مَفْعُول، يعني: المَلعُون، لأنَّ الله قال له: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ﴾ [ص:٧٨] أي: حقَّت عليه.

٦٩- وَاسْـأَلْ شِرَارَ الْـخَلْقِ أَعْنِـي أُمَّـةً   لُوطِيَّـةً هُـمْ نـاكِحُوا الـذُّكْرَانِ

قَوْلُهُ: «شِرَارَ الـخَلْقِ» أي: مِن حَيْثُ هذه الفَعْلة الشَّنِيعَة القبيحة، فإنه ما سبقهم بها أَحَدٌ مِن العالَمِين، وهي نِكاح الذُّكْران، وتَرْك النِّسْوَان، ولهذا وَبَّخَهُم نَبِيُّهم -عليه الصلاة والسلام- فقال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ [الشعراء:١٦٥-١٦٦].

وهم لا يفعلون هذا بمقتضى الشَّهْوة الطبيعية، ولهذا يقول لهم: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء:١٦٦]، وفي آية: ﴿مُّسۡرِفُونَ﴾ [الأعراف:٨١].

٧٠- وَاسْأَلْ كَذَاكَ إِمَامَ كُلِّ مُعَطِّلٍ فِرْعَونَ مَعْ قَارُونَ مَعْ هَامَانِ

قَوْلُهُ: «فِرْعَونَ مَعْ قَارُونَ مع هامان» هؤلاء: ثلاثة: أما قارونُ فهو مِن قوم مُوسى -عليه السلام- قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ [القصص:٧٦] أعطاه الله تعالى أموالًا عظيمة، مَفَاتِح هذه الأموال -يعني مفاتح الخزائن-، تَنُوءُ أي: تَثْقُل بالعُصْبَة أُولِي القُوَّة.

وأما هَامَانُ فهو وَزِيرُ فِرعونَ، وفِرعَونُ رأسُ الكَفَرَة.

اسألهم: هل يؤمنون بالله أو لا يؤمنون؟ الجواب: يؤمنون بالله ويُقِرُّون، لكن كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾ [النمل:١٤] حتى إنَّ موسى يقول لِفِرْعَوْنَ: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢]، ولم يَقُلْ: (كذبتَ، ما عَلِمْتُ) بل سَكَتَ مُقِرًّا رَغْمًا عَنْ أَنْفِه.

٧١- هَلْ كَانَ فِيهِمْ مُنْكِرٌ لِلْخَالِقِ الرْ رَبِّ الْعَظِيمِ مُكَوِّنِ الْأَكْوَانِ

الجواب: لا، إذن بَنَى عليه قَوْلَه - رحمه الله -:

٧٢- فَلْيَبْشَرُوا مَا فِيهِمُ مِنْ كَافِرٍ هُمْ عِنْدَ جَهْمٍ كَامِلُو الْإِيمَانِ

هذا مذهب الجَهْمِيَّة في الإيمان، أنَّ الإيمان هو إقرار القَلْبِ بأنَّ اللهَ تعالى خَالِقُ الأكْوَانِ فقط.

وهل يَزيد، أو يَنقُص؟ الجواب: لا يَزيد، ولا يَنقُص، ولهذا عِنْدَهُم أَتْقَى الناسِ، وَأَشْقَى الناسِ على حَدٍّ سَواء في الإيمان.

وابن القيم -رحمه الله- لم يأتِ بالأدلة التي تَدلُّ على زيادة الإيمان ونقصانه، بل أتى لهم بِدَلِيلٍ واقعٍ، لا يمكنُ إنكارُه، وأنهم إنْ قالوا: (هؤلاء مؤمنون كاملو الإيمان)، كَفَرُوا، وإن قالوا: (إنهم غير مؤمنين) خُصِموا.

▪ فما هو الإيمان عند أَهْل السُّنَّة؟

الإيمانُ عند أهل السُّنَّة يشملُ أربعةَ أشياء: الإقرار بالقَلْب، وقول اللسان، وعَمَل الجوارحِ، وعمل القَلْب، وَوَرَدَ عن البعض: أنَّ الإيمان هو القَوْل والعَمَل فقط.

وهذا لا بأس به، ويُفصَّل فيُقال: إنَّ مُرَادَهم قولُ القَلْبِ واللسانِ، وعَمَلُ القَلْبِ واللسانِ والجَوَارِح، وهذا في (العقيدة الواسطية)[1] كذلك، حيث قال: «والدِّينُ قولٌ وعمَلٌ» ثم فَصَّل، ودَلِيلُهم -والحمد لله- مَعروفٌ.

أما دُخول إقرار القَلْب بالإيمان فَلَهُ أَدِلَّة منها:

أنَّ النبيَّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- لَـمَّا سأله جبريل عن الإيمان فقال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[2].

وأما أقوالُ اللسانِ، وأفعالُ الجوارحِ، وأعمالُ القلوبِ، فَدَلَّ عليها قولُ النبيِّ ﷺ: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ». وهذا قولُ اللسانِ «وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ». وهذا فِعل الجَوَارِح «وَالْـحَيَاءُ شُعْبَةٌ

(١) انظر: العقيدة الواسطية (ص:١١٣).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو، رقم (٩).

مِنَ الإِيمَانِ»[1]. وهذه أعمال القلوب.

فقولُ القلبِ يعني: الإقرار، وعَمَلُه يعني: فِعْله، فَمَثَلًا: (التَّوَكُّل) هذا عَمَلٌ، لأنَّ القَلْبَ يَتَحرَّك، والرجاءُ والخوف، وما أَشْبَه ذلك، أما مُجَرَّد الإقرار الذي هو التصديق، فهذا عِندَهم قولُ القَلبِ، فهذا هو الفَرْقُ.

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، رقم (٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، رقم (٣٥).

فصل

٧٣- وَقَضَى بِأَنَّ اللهَ كَانَ مُعَطَّلًا والْفِعْلُ مُمْتَنِعٌ بِلَا إِمْكَانِ

٧٤- ثُمَّ اسْتَحَالَ وَصَارَ مَقْدُورًا لَهُ مِنْ غَيْرِ أَمْرٍ قَامَ بالدَّيَّانِ

٧٥- بَلْ حَالُهُ سُبْحَانَهُ فِي ذَاتِهِ قبْلَ الْحُدُوثِ وَبَعْدَهُ سِيَّانِ

الشرحُ

٧٣- وَقَضَى بِأَنَّ اللهَ كَانَ مُعَطَّلًا والْفِعْلُ مُمْتَنِعٌ بِلَا إِمْكَانِ

الفاعل في قوله: «**وَقَضَى بِأَنَّ اللهَ كَانَ مُعطَّلًا**» هو جهمٌ وأتباعُه.

وهذا أيضًا مِن ضَلال جَهْمٍ، حيث يقول: إِنَّ تَسَلْسُل الحوادثِ في الماضي مستحيل، كما أن تَسَلْسُلَها في المستقبل مستحيل، ويُعَلِّل ذلك بقوله: لو قلنا بجواز التَّسَلْسُل في الماضي والمستقبل لَزِمَ أن يكون هناك قديمان مُسْتَوِيَان: الرَّبُّ عزَّ وجلَّ والصِّفَة التي هي فِعْلُه.

وكذلك قال في الآخرة، لا يمكن أن تَتَسَلْسَل في الآخرة، لأنه يلزم أن تكون الحوادثُ مِثلَ الله تعالى بأنها الآخرة.

فكان الفعل -على زَعْمه- في حقِّ الله تعالى مستحيلًا، ثم صار ممكنًا، وهذا لا شَكَّ أنه نَقْصٌ في الخالق عزَّ وجلَّ أن يكون أولًا لا يستطيع أن يفعل -بل فِعْلُه مستحيل- ثم استحال هذا المستحيلُ وصار مُمْكِنًا، وكذلك يُقَال في تسلسل الحوادث في المستقبل.

فنقول: مهما كان، إذا قلنا: بتَسَلْسُل الحَوادث فَلَسْنَا نقول: بقِدَم حادثٍ بِعَيْنِه، ومعنى قولنا: (التَّسَلْسُل) أي: ما مِن مخلوقٍ إلَّا وقَبْلَهُ مخلوق إلى ما لا نهاية.

ونقول: إنَّ لله تعالى مخلوقات قَبْلَ السمواتِ والأرض، لكنها غيرُ معلومة لنا عقلًا، ولا منقولة إلينا سَمْعًا، لأننا نؤمن بأنَّ اللهَ لم يَزَل فَعَّالًا، ولا يزال فعَّالًا، ثم مَهْمَا قَدَّرت، فإنه لا يمكن أن يُساويَ المفعولُ الفاعلَ، فلا بُدَّ مِن ثلاثة أشياء: فاعل، وفِعْل، ومفعول.

وأَيُّهم الأَقْدَم؟ الجواب: الفَاعلُ، ثم كان منه الفِعْل، ثم كان مِن الفِعْل المفعول.

فَمَهْمَا قُلْنا بِتَسَلْسُل الحَوَادِث في الماضي، فلا يمكن أن تكون مُساوِيةً للخالق، فالفَاعِل لا بُدَّ أن يكونَ سابقًا على الفِعل الذي هو وَصْفُه، ثُمَّ على المفعول.

هو يقول: لا يمكن قِدَمُ الفِعْل، ولا قِدَمُ المفعول، لأننا لو قُلنا بهذا لَزِم تَسَاوِي الخالق مع المخلوق.

فنقول: هذا مِن جَهْلِك وسَفَهِك، فأيُّ إنسانٍ عاقلٍ تسألُه: أيُّها أسبقُ الفَاعِل، أو الفِعْل، أو المفعول؟ سيقول: الفَاعِل، ولا شَكَّ.

وعلى كلِّ تقدير، فاللهُ تعالى هو «الأَوَّلُ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ»(١). كما قال النَّبيُّ ﷺ، وهو يقول: لا يمكن.

وقولُهُ هذا يستلزم أن يكونَ اللهُ -أَوَّلًا- مُعَطَّلًا، لا يمكن أن يَفعل، ثُمَّ فَعل،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٣).

فصار قادرًا، بمعنى أنه أتى زَمَنٌ على الرَّبِّ عزَّ وجلَّ وهو غيرُ قَادِرٍ على الفِعل، ثم بعد ذلك صار قادرًا على الفِعْل بِدُون سَبَب.

فيُقال: أنت الآن وَصَفْت الله بالعَجْز أَوَّلًا، ثُمَّ وَصَفْتَه بالقُدْرة ثانيًا.

فما الذي جَعَلَه أولًا عاجزًا، ثُمَّ جَعَلَه ثانيًا قَادرًا؟!، بل نقول: هو قادرٌ على كلِّ شيء في كُل وَقْتٍ، وفي كلِّ حِينٍ.

الآن الزمان الذي نحن فيه، والذي لا نَعْلَمُ أَوَّلَه، أليس يتعاقب؟ فكُلُّ لحظةٍ تَعْقُبُ الأُخرى، فتَتَسَلْسُلُ هذه الآنَاتِ والأوقاتِ إلى ما لا نِهَايةَ له في الأَزَل، كذلك فيما يُسْتَقْبَل.

وعلى ذلك نسأَلُ هذا فنقول له: هل الفِعْلُ في حَقِّ الله قَبْلَ الفِعْل كَمالٌ أو نَقْصٌ؟

فإن قال: إنه كَمالٌ، قلنا: إذن الفِعلُ نقصٌ، وإن قال: نقصٌ، قلنا: خُصِمْتَ، فإذن ليس عاجزًا عَن الفِعْل أبدًا في أيِّ لَحْظَة مِن اللَّحظات، لا الأَزَلِيَّةِ، وَلَا الأَبَدِيَّة.

وأمّا القول بأنَّ الله تعالى كان قادرًا فَلَم يَفْعَلْ -لمقتضى حِكْمَتِه- ثُمَّ فَعَل ربما نُجَوِّزه، كما قاله بعضُ أهلِ العِلم بأنَّ التَّسَلْسُل في الماضي مُمْتَنِع، ولكن الصحيح أن التَّسَلْسُل في الماضي والمستقبل جائز، وواجبٌ بإخبار الله، فهو جائزٌ عقلًا، لكنه واجبٌ شَرْعًا بِحَسَب ما أخبر الله به.

ثُمَّ مع ذلك يقول: القُدْرَة ليست وَصْفًا زائدًا عن ذاته، فهو قادرٌ بذاته لا بِقُدرةٍ، لأنه يمنع الصفات، وهذا الكلام لولا أنه ذُكِرِ ما كُنَّا نظنُّ أنَّ أحدًا يتصوّره، فَضْلًا عن أن يقول به، ويَعْتَقِده في ربِّه عزَّ وجلَّ.

٧٤- ثُـمَّ اسْـتَحَالَ وَصَـارَ مَقْـدُورًا لَـهُ مِـنْ غَـيْرِ أَمْـرٍ قَـامَ بالـدَّيَّانِ

أي: مِن غيرِ سَبَبٍ، فما الذي جَعَلَه مَثَلًا قَبْلَ نِصْفِ ساعةٍ مُستحيلًا، ثُمَّ جاء وصار مُمْكِنًا؟! بل يقول:

٧٥- بَـلْ حَالُـهُ سُـبْحَانَهُ فِي ذَاتِـهِ قَبْـلَ الْـحُدُوثِ وَبَعْـدَهُ سِـيَّانِ

لأنه لا يرى أَنَّ وَصْفًا يقوم بالله.

* * *

٧٦- وَقَضَـى بِـأَنَّ النَّـارَ لَـمْ تُخْلَـقْ وَلَا جَنَّـاتِ عَـدْنٍ، بَـلْ هُمَـا عَـدَمَانِ

٧٧- فَـإِذَا هُمَـا خُلِقَـا لِيَـوْمِ مَعَادِنَـا فَهُمَـا عَـلَى الْأَوْقَـاتِ فَانِيَـتَانِ

٧٨- وَتلَطَّـفَ الْعَـلَّافُ[1] مِـنْ أَتْبَاعِـهِ فَـأَتَى بِضِـحْكَةِ جَاهِـلٍ مُجَّـانِ

٧٩- قَالَ: (الْفَنَاءُ يَكُونُ فِي الحَرَكَاتِ لَا فِي الذَّاتِ)، وَاعَجَبًا لِذَا الْـهَذَيَانِ!

الشرحُ

يقول: إن الجَهْمَ كما مَنَع التَّسَلْسُلَ في الماضي مَنَعَهُ في المُسْتَقْبَل، وقد تَقَدَّم أنَّ عَقِيدَتَنا أنه ما مِن مَخْلُوق إلَّا وَقَبْلَهُ مَخْلُوقٌ، إلى ما لا نِهَاية له، ولا نُحِيط بذلك عِلْمًا، ونقول: ما مِن مَخْلُوق إلَّا وَبَعْدَهُ مَخْلُوقٌ، إلى ما لا نهايةَ له.

فَعَقِيدَتُنا القولُ بالتَّسَلْسُل مَاضِيًا ومُسْتَقْبَلًا، وهذا لا يمكن أن يكون فيه

---

(١) العَلَّاف: هو محمد بن الـهُذَيْل بن عبد الله العَلَّاف العبدي، مولى عبد القيس، من أئمة المُعْتَزِلَة، وُلد (سنة ١٣٥هـ) بالبصرة، واشتُهِر بِعِلْم الكَلام، وتوفي (سنة ٢٣٥هـ)، إذن عُمِّرَ مئة سنة. [الشارح]. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٨/ ٥٢٩).

إشراك مع الله أبدًا، وهم يقولون: التَّسَلْسُل ممنوعُ في الماضي، وفي المستقبل، فأفعالُ الله في الماضي ليست دائمةً، وأفعالُه في المستقبل ليست دائمةً.

ومِن زَلَّاتِه وسَقَطَاتِه أيضًا قوله: الجنة والنار غير موجودتين الآن، وهذا لا شَكَّ أنه تكذيبٌ للقرآن والسُّنَّة، إذ يَلْزَمُ على قوله هذا أنَّ كُلَّ ما أَخبر به الرسولُ ﷺ عن الجَنَّة وما رأى فيها، والنارِ وما رأى فيها أنَّ كُلَّه كَذِبٌ، أو تَخَيُّلاتٌ خُيِّلت للرسول -عليه الصلاة والسلام- وليست بحقيقة.

ويقول أيضًا: إنهما تَفْنَيَانِ فيما بَعْدُ، ولَيْسَتَا مُؤَبَّدَتَيْن.

٧٦- وَقَضَى بِأَنَّ النَّارَ لَمْ تُخْلَقْ وَلَا جَنَّاتِ عَدْنٍ، بَلْ هُمَا عَدَمَانِ

فهُما الآن عَدَمَان، لكن متى تُخْلَقَان عنده؟ الجواب: تُخْلَقَانِ يومَ القيامة.

٧٧- فَإِذَا هُمَا خُلِقَا لِيَوْمِ مَعَادِنَا فَهُمَا عَلَى الْأَوْقَاتِ فَانِيَتَانِ

يعني حتى إذا خُلِقَا يوم القيامة فَهُمَا يَفْنيَانِ لا يَبْقَيَانِ، لماذا؟ لأنه يمنع التَّسَلْسُل في الماضي والمستقبل، إذ لا بُدَّ مِن نِهايةٍ في الأَوَّل، وفي الآخِر، فليس هناك استمرارٌ لِفَاعِلِيَّة الرَّبِّ، لا أولًا، ولا آخرًا، فاللهُ عزَّ وجلَّ كان مُعَطَّلًا، وسيكون في الآخِر مُعَطَّلًا.

٧٨- وَتلَطَّفَ الْعَلَّافُ مِنْ أَتْبَاعِهِ فَأَتَى بِضِحْكَةِ جَاهِلٍ مَجَّانِ

جاء رَجُلٌ يقال له (**العَلَّاف**) وتَلَطَّف، فأتى بشيء مُضْحِكٍ.

قَوْلُهُ: «**فَأَتَى بِضِحْكَةِ جَاهِلٍ مَجَّانِ**» أي: بِدُونِ عِوَضٍ.

٧٩- قَالَ: (الْفَنَاءُ يَكُونُ فِي الحَرَكَـاتِ لَا فِي الذَّاتِ)، وَاعَجَبًا لِذَا الْـهَذَيَانِ!

حيثُ جاء هذا العَلَّاف، وهو كَاسْمِهِ (عَلَّاف)، وقال: أنا لا أقولُ بِمَنْعِ التَّسَلْسُل، لكنَّ المَمْنُوع تَسَلْسُلُ الحَرَكَات، أما الأعيانُ فتَبْقَى، فالجَنَّةُ والنارُ تَبْقَيَانِ، وسَاكِنُوهُمَا يَبْقُونَ، لكنَّ حَرَكَاتِهِم تَفْنَى.

قَوْلُهُ: «وَاعجَبًا لِذَا الـهَذَيانِ!» يعني: اعجب لـهَذَا الـهَذَيَان.

* * *

اسمع تفسير ابن القيم -رحمه الله- في قوله:

٨٠- أَيَصِيرُ أَهْلُ الْـخُلْدِ فِي جَنَّاتِهِمْ وَجَحِيمِهِمْ كَحِجَارَةِ الْبُنْيَانِ؟!
٨١- مَا حَالُ مَنْ قَدْ كَانَ يَغْشَى أَهْلَهُ عِنْدَ انْقِضَاءِ تَحَرُّكِ الْـحَيَوانِ
٨٢- وَكَذَاكَ مَا حَالُ الَّذِي رَفَعَتْ يَدَا هُ أُكْلَةً مِنْ صَحْفَةٍ وَخِوَانِ
٨٣- فَتَنَاهَتِ الْـحَرَكَاتُ قَبْلَ وُصُولِهَا لِلْفَمِّ عِنْدَ تَفَتُّحِ الْأَسْنَانِ
٨٤- وَكَذَاكَ مَا حَالُ الَّذِي امْتَدَّتْ يَدٌ مِنْهُ إِلَى قِنْوٍ مِنَ الْقِنْوَانِ
٨٥- فَتَنَاهَتِ الحَرَكَاتُ قَبْلَ الْأَخْذِ هَلْ يَبْقَى كَذَلِكَ سَائِرَ الْأَزْمَانِ
٨٦- تَبًّا لِـهَاتِيكَ الْعُقُولِ فَإِنَّهَا وَالله قَدْ مُسِخَتْ عَلَى الْأَبْدَانِ
٨٧- تَبًّا لِـمَنْ أَضْحَى يُقَدِّمُهَا عَلَى الْـ آثَارِ وَالْأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ

الشرحُ

يقول على مَذْهَبِ العَلَّاف المُضْحِك:

٨٠- أَيَصِيرُ أَهْلُ الْـخُلْدِ فِي جَنَّاتِهِمْ وَجَحِيمِهِمْ كَحِجَارَةِ الْبُنْيَانِ؟!

إذا قُلنا: إنَّ الحركاتِ تَفْنَى والذواتِ تَبْقَى، يَبْقَى أهلُ الجَنَّةِ كالأحجار، وأهلُ النار كالأحجار، لا يتحركون، ولا يأكلون، ولا يَشربون، ولا يَتكلّمون، لماذا؟ لأنَّ المُحال هو أَبَدِيَّةُ الحَرَكات، أما الذواتُ فَلا يَمتنع.

٨١- مَا حَالُ مَنْ قَـدْ كَـانَ يَغْشَـى أَهْلَـهُ   عِنْـدَ انْقِضَـاءِ تَحَـرُّكِ الْـحَيَوانِ

ما حال مَنْ كان على زوجته، أو على حُورِيَّةٍ مِن الحُورِ العِينِ؟ الجواب: فإنه يبقى عليها دائمًا وأَبَدًا متطابِقَيْن إلى ما لا نِهاية له، وذلك على مَذْهَبِه.

ويقول:

٨٢- وَكَذَاكَ مَا حَالُ الَّـذِي رَفَعَـتْ يَـدَا   هُ أُكْلَـةً مِـنْ صَـحْفَةٍ وَخِـوَانِ

ما حال مَنْ أَخَذَ الأُكْلَة ورَفَعَها؟ تبقى يدُه هكذا دائمًا وأبدًا، والأُكْلَة بِيَدِه دائمًا، وذلك لانقطاع الحركات.

٨٣- فَتَنَاهَتِ الْـحَرَكَاتُ قَبْلَ وُصُولِـهَا   لِلْفَـمِّ عِنْـدَ تَفَـتُّحِ الْأَسْـنَانِ

الفَمُ مَفْتُوحٌ الآنَ، يَرْتَقِبُ وُصولَ اللُّقْمَة، لكن الشكوى لله.

انقطعت الحركات، فَبَقِيَت اليَدُ مع مَأْكُولِها مَرْفُوعةً، والفمُ مفتوحًا إلى أَبَدِ الآبِدِين، سبحان الله!

٨٤- وَكَذَاكَ مَا حَالُ الَّـذِي امْتَـدَّتْ يَـدٌ   مِنْـهُ إِلَى قِنْـوٍ مِـنَ الْقِنْـوَانِ

٨٥- فَتَنَاهَتِ الحَرَكَاتُ قَبْلَ الْأَخْذِ هَـلْ   يَبْقَـى كَـذَلِكَ سَـائِرَ الْأَزْمَـانِ

الجواب: نعم يبقى، وهو رافعٌ يَدَيْهِ يأخذ الثَّمَرَة، فانتهت الحَرَكات، فيبقى على هذا أبد الآبدين.

قَوْلُهُ: «إِلَى قِنْوٍ مِنَ الْقِنْوَانِ» أي: إلى الثَّمر.

٨٦- تَبًّــا لِـــهَاتِيكَ الْعُقُــولِ فَإِنَّهَــا ... وَالله قَــدْ مُسِــخَتْ عَــلَى الْأَبْــدَانِ

وصَدَقَ -رحمه الله تعالى- إذ كيف يجرؤ عَالِـمٌ مِن العلماء أن يقول هذا في حقِّ الله، أو في حَقِّ عِباد الله؟! حتى أهل النار الذين يُعَذَّبُون بالنار عندما يُرْفَعُ السَّوْطُ لِضَرْبِهِم، وتنتهي الحركات فَيَقِفُ.

وَقَوْلُهُ: «مُسِخَتْ عَلَى الْأَبْدَانِ» يعني: أُزِيلَت مِن الأبْدان، أَبْدَان بلا عُقُول، ويَا لَيْتَهُم رَضُوا بهذه العُقُول السَّخِيفَة، فَأَشَدُّ مِن ذلك قوله:

٨٧- تَبًّا لِـمَنْ أَضْحَى يُقَـدِّمُهَا عَـلَى الْــ ... آثَـــارِ وَالْأَخْبَـــارِ وَالْقُـــرْآنِ

قَوْلُهُ: «الآثار» ما رُوِي عن الصحابة.

قَوْلُهُ: «الأخبار» أي: عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ: «القرآن» كلام الله عزَّ وجلَّ.

وقَدَّمَ الأَدْنَى على الأَعْلَى مِن أَجْلِ الرَّوِيِّ[1]، كما أنَّ الله تعالى قَدَّمَ هارونَ على موسى في سُورةِ طه مِن أَجْلِ تَنَاسُب الآيات فقال تعالى: ﴿بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠]، وفي الآية الأخرى: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٢] فالتَّنَاسُب أمرٌ يُسَوِّغُ شيئًا لا ينبغي في حال عَدَمِ المُنَاسَبَة.

والخلاصة: أنَّ الـجَهْم بن صَفْوَان يَمْنَعُ التَّسَلْسُل في الماضي والمستقبل، ويقول: تَفْنَى النارُ بِمَنْ فيها، والجَنَّة بِمَنْ فيها.

---

(١) الروي هو آخر حرف صحيح في البيت، وعليه تُبنى القصيدة، وإليه تَنْتَسِب، فيقال: قصيدة مِيمِية، أو نُونِيَّة، أو عَيْنِيَّة، إذا كان الرَّوِيُّ فيها مِيمًا، أو نُونًا، أو عَيْنًا. انظر: علم العروض والقافية، لعبد العزيز عتيق (ص:١٣٦).

وأمَّا العَلَّاف فَتَلَطَّف ليكون وَسَطًا -على زعمه- بينَ أَهْلِ السُّنَّة والجَهْمِيَّة، وقال: لا نقول كما تقول الجَهْمِيَّة في فَنَاءِ الذَّوَات والحركات، ولا نقول بِبَقَاءِ الحَرَكَات والذَّوَات، كما قال أهلُ السُّنَّة، ولكن نكون وَسَطًا بينهما، فنقول: تَفْنَى الحركاتُ دُونَ الذوات.

* * *

فصل

٨٨- وَقَضَى بِأَنَّ اللهَ يَجْعَلُ(١) خَلْقَهُ عَدَمًا ويقْلِبُهُ وُجُودًا ثَانِي

٨٩- الْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ وَالْأَرْوَاحُ وَالْـ أَمْلَاكُ وَالْأَفْلَاكُ وَالْقَمَرَانِ

٩٠- وَالْأَرْضُ وَالْبَحْرُ الْمُحِيطُ وَسَائِرُ الْـ أَكْوَانِ مِنْ عَرَضٍ وَمِنْ جُثْمَانِ

٩١- كُلٌّ سَيُفْنِيهِ الْفَنَاءَ الْمَحْضَ لَا يَبْقَى لَهُ أَثَرٌ كَظِلٍّ فَانِي

٩٢- وَيُعِيدُ ذَا الْمَعْدُومَ أَيْضًا ثَانِيًا مَحْضَ الْوُجُودِ إِعَادَةً بِزَمَانِ

الشرحُ

وهذا أيضًا مِن ضَلَالِه، إذ يقول: إنَّ الله تعالى يُعْدِمُ الخَلقَ كُلَّه عَدَمًا مَحْضًا، فإذا كان يومُ القِيامةِ أَنْشَأَهُ مِن جديدٍ، وعلى هذا فالذي يُنَعَّم ويُعَذَّب ليس بني آدم الموجودين، لأنَّ بني آدم الموجودين يُعْدَمُون عَدَمًا مَحْضًا، ولا يُمْكِنُ أن يُعَادُوا، ولكنَّ اللهَ يُنْشِئُ أَقْوَامًا آخرين.

والسمواتُ والأرضُ تُعْدَم نهائيًا، ولا يَبْقَى لها في الوجود أثر، ثم يَخْلُق الله أَرْضًا ثانية، وَسَمَاءً ثانيةً، وشمسًا ثانيةً، وقمرًا ثانيًا.

فالجنة والنار -مِن الأصل- غير مَوْجُودَتَيْن عنده، ولهذا ما تكلَّم عليهما ابن القيم، وَتَكَلَّم على ما هو موجود الآن، فهذا الموجود يُعْدَمُ عَدَمًا مَحْضًا، ثم يُؤتَى

(١) في مطبوعة الهراس وبعض النسخ: «يعدم» والأصل أولى.

بِبَدَلِه، وكُلُّ هذا بِناءً على أَصْلِه الخَبِيث، وهو عَدَمُ التَّسَلْسُل، ثم قال -رحمه الله-:

٨٨- وَقَضَى بِأَنَّ اللهَ يَجْعَلُ خَلْقَهُ عَدَمًا ويقْلِبُهُ وُجُودًا ثَانِي

قَوْلُهُ: «عَدَمًا» أي: عَدَمًا مَحْضًا.

وَقَوْلُهُ: «وُجُودًا ثَانِي» أصله أن يُقَال: (وجودًا ثانيًا)، لكن أَلْجَأَتْهُ ضَرُورَةُ النَّظْم. إلى ذلك.

٨٩- الْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ وَالْأَرْوَاحُ وَالْـ أَمْلَاكُ وَالْأَفْلَاكُ وَالْقَمَرَانِ

٩٠- وَالْأَرْضُ وَالْبَحْرُ الْمُحِيطُ وَسَائِرُ الْـ أَكْوَانِ مِنْ عَرَضٍ وَمِنْ جُثْمَانِ

قَوْلُهُ: «القَمَرَانِ» يعني: الشمس والقمر.

قَوْلُهُ: «مِنْ عَرَضٍ، وَمِنْ جُثْمَانِ» (العَرَض): الأوصاف، و(الجُثْمان): الأجساد.

٩١- كُلٌّ سَيُفْنِيهِ الْفَنَاءَ الْـمَحْضَ لَا يَبْقَى لَهُ أَثَرٌ كَظِلٍّ فَانِي

قَوْلُهُ: «الْـمَحْضَ» يعني: الكامل.

وَقَوْلُهُ: «كَظِلٍّ» يعني: طَلَعَتْ عَلَيْه الشمسُ وأَفْنَتْه.

٩٢- وَيُعِيدُ ذَا الْـمَعْدُومَ أَيْضًا ثَانِيًا مَحْضَ الْوُجُودِ إِعَادَةً بِزَمَانِ

قَوْلُهُ: «إِعَادَةً بزَمَانِ» يعني: يأتي بِبَدَلِهم نِهَائِيًّا، وعلى هذا فَمَن اسْتَحَقَّ الثوابَ في الدُّنْيا لا يُثابُ في الآخِرَة، لأنَّ غَيْرَه يُثابُ، ومَنِ استحقَّ العِقَابَ لا يُعَاقَبُ، بل يُعاقَبُ غَيْرُه! فَهَنِيئًا لأهل المعاصي أنهم لا يُعَاقَبُونَ، حيثُ يُنْشِئُ اللهُ أَقْوَامًا آخَرِينَ، وحُجَّتُه بَاطِلَةٌ بِلَا شَكٍّ.

يقول: لأنَّ الله يقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨]، ويقول: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

فنقول: هذا مِن زَيْغِك، وهذه الآيةُ -وإن كانت مُشْتَبِهَةً- فهناك آياتٌ أُخْرَى تَدُلُّ على أنَّ نَفْسَ المَخْلُوقِ يُعَادُ، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، وهو -سبحانه وتعالى- يُبَدِّلُ الأرضَ غيرَ الأرض، لكنْ إِبْدَالُ صِفَةٍ، لا إِبْدَالُ عَيْنٍ، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:٤٨]، لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ [طه:١٠٥] أيُّ جِبَالٍ هي مَوجودة، أو مَعْدُومة؟ الجواب: موجودة ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه:١٠٥-١٠٧]، وقال في السموات: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ [الطور:٩] فهذا تبديلٌ، لأنها الآن لا تَمُورُ، ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ [المعارج:٨] وهي الآن ليست كذلك، فالإعادةُ إعادةُ صِفةٍ، لا إعادةِ عَيْنٍ.

خلاصة هذا البحث: أنَّ هذا الرجل -وهو الجهم- زَعَمَ أَنَّ المَعَاد يومَ القِيامة ليس لهذه الأجسام، وأنَّ هذا الخَلْق الموجودَ المُشَاهَد الآن يَفْنَى يومَ القيامةِ فَنَاءً كاملًا، ولا يوجد منه شيء أبدًا كَالظِّلِّ تَنْسَخُه الشمسُ، هل يَبْقَى ظِلًّا؟

الجواب: لا يبقى شيء، ثم يُعِيدُ الله تعالى الخَلْقَ مِن جَدِيد، فيُعِيدُ الحيوانَ، والإنسانَ، والبهائمَ، والوُحوشَ، وهكذا.

أيضا السمواتُ يُعِيدُها مِن جديدٍ، والأرض يُعِيدُها مِن جَديد، والكواكبُ يُعِيدُها مِن جديد، فكُلُّ شيءٍ يُعادُ مِن جَدِيدٍ، لماذا؟ قال: لأنَّ هذا هو مَعْنَى التبديل، فأنت إذا قلت: أَبْدِل لي هذه الحَقِيبَةَ بهذا الكِتَاب، فالحقيبةُ تَنْتَقِلُ مِنِّي إليك، والكتاب يَنْتَقِل منك إِلَيَّ، فالبَدِيلُ غيرُ المُبْدَل منه، والله يقول: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم:٤٨].

ولا شكَّ أنَّ هذا القول باطلٌ، والتبديل الذي ذَكَرَهُ الله عزَّ وجلَّ ليس تبديلَ ذات بذات، لكنه تبديلُ وصفٍ بوصفٍ، واستشهد المؤلفُ لذلك بقوله تعالى: ﴿بَدَّلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء:٥٦] قال: إنَّ الجِلْدَ بَاقٍ، لكنه نَضِجَ مِنَ النَّارِ ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء:٥٦]، فَهِيَ لَـمَّا نَضِجَتْ نَشَأَتْ مِن جَدِيدٍ، وهِيَ هِيَ.

واستدلَّ أيضًا بأنَّ الله تعالى يَطْوي السموات، ويَطْوِي الأرضين، والطَّيُّ للمعدوم غيرُ مُمْكِن، واستدلَّ أيضًا بأنه لو كان خَلْقًا جديدًا لَعُذِّب مَنْ لا يَستحقُّ العَذَاب، ونَجَا مَنْ يستحقُّ العذاب، لأنَّ هذا الكافر عُدِم نهائيًا، وجاء كافرٌ جديد بدلًا منه، وعَذَّبنا هذا الكافر.

وهذا غير معقول، ولا يمكن أنَّ الله عزَّ وجلَّ يخلُق أقوامًا يُعذّبهم، وأقوامًا يُنَعِّمهم بِدُون أيّ عمل.

* * *

٩٣- هَذَا الْـمَعَادُ وَذَلِكَ الْـمَبْدَا لَدَى ... جَهْمٍ، وَقَدْ نَسَبُوهُ لِلْقُرْآنِ

٩٤- هَذَا الَّذِي قَادَ ابْنَ سِينَا[1] وَالْأُلَى ... قَالُوا مَقَالَتَهُ إِلَى الْكُفْرَانِ

٩٥- لَمْ تَقْبَلِ الْأَذْهَانُ ذَا وَتَوَهَّمُوا ... أَنَّ الرَّسُولَ عَنَاهُ بِالْإِيمَانِ

٩٦- هَذَا كِتَابُ الله أَنَّى قَالَ ذَا ... أَوْ عَبْدُهُ الْـمَبْعُوثُ بِالْبُرْهَانِ

(١) ابن سِينَا: هو الحسين بن عبد الله بن سينا، فيلسوف، له تصانيف في الطِّبِّ وغيره، كان مِن أهل دعوة الحاكم العُبَيْدِي، معروفًا بالإلحاد، وُلِد في إحدى قُرَى بُخَارَى (سنة ٣٧٠)، وتوفي في سَفَرِه إلى هَمَذَانَ (سنة ٤٢٨)، وكان يُلَقَّبُ المُعَلِّم الثالث للفلاسفة، وسَيُذكر المُعَلِّمُ الأول لهم لاحقًا في هذا الكتاب إن شاء الله. [الشارح]. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٣١).

٩٧- أَوْ صَحْبُهُ مِنْ بَعْدِهِ أَوْ تَابِعٌ لَهُمُ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ

الشرحُ

٩٣- هَذَا الْمَعَادُ وَذَلِكَ الْمَبْدَا لَدَى جَهْمٍ، وَقَدْ نَسَبُوهُ لِلْقُرْآنِ

٩٤- هَذَا الَّذِي قَادَ ابْنَ سِينَا وَالْأُلَى قَالُوا مَقَالَتَهُ إِلَى الْكُفْرَانِ

يقول -رحمه الله تعالى-: إنَّ هذا المبدأ والمعاد عند جَهْمٍ ليس هناك تَسَلْسُل، لا في الماضي، ولا في المستقبل، وذَكَر أنَّ هذا هو الذي قادَ ابنَ سِينَا والأُلَى قالوا مَقَالَتَه إلى الكُفْران، وهذا صريحٌ في أنَّ ابنَ سِينَا كَافِرٌ، وهو عند بعض أَقْوَامِنَا مِن أَبْرَزِ أعلام الإسلام، ويُقَدِّسُونه، وربما يُسَمُّون بعض المدارس باسمه، وهذا مِن الجَهْل، ولا أظنُّ أنهم يَعْلَمُون أنه وَصَل في فلسفته وَطِبِّه إلى الكُفر، ولو عَلِمُوا بذلك ما رَضُوا، فما رَضُوا أن يُقَدَّس، ولا أن تكونَ المدارسُ باسمه.

المُهم أنَّ ابن القيم -رحمه الله- صَرَّح بأنه كافر، وكذلك شَيْخُه ابن تيمية -رحمه الله- صَرَّح بأنَّ ابن سينا المُقَدَّس عند العَرَب كَافِرٌ، نسأل الله العافية.

فالذي يُنْكِر المَعَاد الجُثْماني لا شَكَّ في كُفْرِه، وقولُه هذا كلامُ المشركين، وأما ما ذُكِر عنه مِن أنه تَابَ قَبْلَ مَوْتِه، فإن ثَبَت هذا بسندٍ صحيح، نقول: الحمد لله أنه تابَ فتابَ الله عليه، وإلَّا فالأصلُ بَقَاءُ ما كانَ على ما كانَ.

٩٥- لَمْ تَقْبَلِ الْأَذْهَانُ ذَا وَتَوَهَّمُوا أَنَّ الرَّسُولَ عَنَاهُ بِالْإِيمَانِ

فَأَذْهَانُهم ما قَبِلَت هذا، ولا رَضِيَتْ به، وظَنُّوا أنَّ هذا هو الذي عَنَاه الرسول ﷺ، يعني: لم تَقْبَل التَّسَلْسُل، وظنوا أنَّ هذا هو الذي عَنَاهُ الرسول

-صلى الله عليه وعلى آله وسلم-، بقوله: «أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ»(١).

فيقول -رحمه الله-: أرونا إذا كان الرسول ﷺ جاء به.

٩٦- هَـذَا كِتَابُ اللهِ أَنَّى قَالَ ذَا ... أَوْ عَبْدُهُ الْـمَبْعُوثُ بِالْبُرْهَانِ

٩٧- أَوْ صَحْبُهُ مِنْ بَعْدِهِ أَوْ تَابِعٌ ... لَـهُمُ عَلَى الْإِيـمَانِ وَالْإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «البُرْهَانِ» أي السُّنَّة.

قَوْلُهُ: «أو صَحْبُه» أي: أقوال الصحابة مِن بَعْدِه، أو تَابع لهم على الإيمان والإحسان، فكُلُّهم لم يقولوا بهذا القول، فكيف يَتَوَهَّمُ واهمٌ أنَّ هذا ما جاء به النبي ﷺ؟!

* * *

٩٨- بَلْ صَرَّحَ الْوَحْيُ الْـمُبِينُ بِأَنَّهُ ... حَقًّا مُغَيِّرُ هَـذِهِ الْأَكْوَانِ

٩٩- فَيُبَـدِّلُ اللهُ السَّـمَوَاتِ الْعُلَى ... وَالْأَرْضَ أَيْضًا، ذَانِ تَبْدِيلَانِ

١٠٠- وَهُمَا كَتَبْدِيلِ الْجُلُودِ لِسَاكِنِي النْـ ... ـنِيرَانِ عِنْدَ النُّضْجِ مِنْ نِيرَانِ

١٠١- وَكَذَاكَ يَقْبِضُ أَرْضَهُ وَسَمَاءَهُ ... بِيَدَيْهِ مَا الْعَدَمَانِ مَقْبُوضَانِ

١٠٢- وَتُحَدِّثُ الْأَرْضُ الَّتِي كُنَّا بِهَا ... أَخْبَارَهَا فِي الْحَشْرِ لِلرَّحْمَنِ

١٠٣- وَتَظَلُّ تَشْهَدُ وَهْيَ عَدْلٌ بِالَّذِي ... مِنْ فَوقِهَا قَدْ أَحْدَثَ الثَّقَلَانِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٣).

١٠٤- أَفَيَشْهَدُ الْعَدَمُ الَّـذِي هُـوَ كَاسْـمِهِ لَا شَيْءَ، هَـذَا لَـيْسَ فِي الْإِمْكَـانِ

الشـرحُ

٩٨- بَـلْ صَرَّحَ الْـوَحْيُ الْـمُبِينُ بِأَنَّـهُ حَقًّـا مُغَـيِّرُ هَـذِهِ الْأَكْـوَانِ

بيَّنَ -رحمه الله- في هذه المقطوعة أنَّ الوحيَ المُبِينَ يعني: القرآن الكريم الذي جعله الله تعالى تبيانًا لكل شيء (**بأنه حقًّا مُغَيِّرُ هذه الأكْوَانِ**)، وليس يأتي بأكوانٍ أُخْرى، كما قال الجهم، بل إنه يُغَيِّرُها.

٩٩- فَيُبَـدِّلُ اللهُ السَّـمَوَاتِ الْعُـلَى وَالْأَرْضَ أَيْضًـا، ذَانِ تَبْـدِيلَانِ

قَوْلُهُ: «**ذانِ تَبْديلان**» أحدُهما: للسماء، والثاني: للأرض، قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم:٤٨].

لكن هل هذا التبديل بمعنى التغيير، أو بمعنى إيجاد أرضٍ أُخرى، وسماء أُخرى؟

الجواب: الأول، لأنه لو كانت أرضًا جديدة وسماءً جديدة ما صحَّ أن يُقال: إنها بُدِّلَت، لأنَّ الأرضَ الجديدةَ غيرُ الأُولى، والسماءَ الجديدة غيرُ الأُولى، فكيف يقول: الله يبدل الأرض غير الأرض والسموات، ثم نقول: هذه أرضٌ جديدة، وهذه سماءٌ جديدة؟! هذا لا يمكن.

إِذَنْ التبديلُ يكونُ تبديلَ صِفَة، أي: تتغَيَّر الصِّفَة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴾ [المعارج:٨-٩].

والأرض يبدلـها الله عزَّ وجلَّ فتكون قاعًا صَفْصَفًا، لا تَرَى فيها عِوَجًا ولا أَمْتًا[1].

ولما قيل لبعض الناس: كيف يَصِحُّ أن نَدْعُوَ للمرأة ونحن نصلِّي عليها: «اللَّهُمَّ أَبْدِلْـهَا زَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهَا»[2]. والله يقول في القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور:٢١]، ويقول عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ [غافر:٧-٨]؟

والجواب عن هذا: أنَّ المرادَ إبدالُ صفاتِه لا إبدال ذاته، لأنَّ الزوج في الدنيا قد يكون مسيئًا إلى زوجته غاية الإساءة، ومتعبًا لها، فنسأل الله أن يُبدلَها بِزَوْجٍ غيرِ زوجها مِن حَيثُ الصِّفات، وهذا جوابٌ واضح.

يقول:

١٠٠- وَهُمَا كَتَبْدِيلِ الْـجُلُودِ لِسَاكِنِي النْـ ... ـنِـيرَانِ عِنْـدَ النُّضْـجِ مِـنْ نِـيرَانِ

أهل النار -نسأل الله العافية- تَنْضَجُ جُلودُهم، ولا يبقى فيها إحساسٌ مِن العذاب، لأنَّ الشيء إذا نَضِجَ لا يُحِسُّ بالنار، فإذا نَضِجَت -والعياذ بالله- أُعيدت نَفْس الجُلود، فَتَدُبُّ فيها الحياة مِن جديد ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦] اللهمَّ أَجِرْنَا مِن النار.

---

(١) أي: لَا انْخفاضَ فِيهَا، وَلَا ارْتِفاع. التاج: أمت.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب الدعاء للميت في الصلاة، رقم (٩٦٣).

وليس المعنى أنَّ الجُلودَ الأُولى تَنْفَسِخ، ثم يُخْلَق جلدٌ جديد، لا، بَل المعنى أنَّ الجِلد الأول الذي نَضِجَ مِنَ النار حتى صَارَ لا يُحِسُّ يُبَدَّل، بمعنى أنه يُعَادُ وَصْفُه، لا ذاته، لِيَذُوقُوا العذاب.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا﴾ يُفِيد التَّكْرار، وأنَّ هذا دَأْبُهُم أبدًا.

١٠١- وَكَــذَاكَ يَقْــبِضُ أَرْضَــهُ وَسَــمَاءَهُ ... بِيَدَيْــهِ مَــا الْعَــدَمَانِ مَقْبُوضَــانِ

وهذا صحيح، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾ [الزمر:٦٧].

لو كانت عُدِمت الأرض الأُولى، وجِيء بأُخرى ما صارت هذه الأرض التي أشار الله إليها قَبْضَةً له، ولهذا قال: (**ما العدمان مقبوضان**).

وَقَوْلُهُ: «**مَا العَدَمَانِ مَقْبُوضَانِ**» وهذا مِن حيثُ الإعراب فيه إشكال، وهو أنَّ (ما) في هذا السياق تَعْمَلُ عَمَلَ (ليس)، تَرْفَع الاسمَ، وتَنْصِب الخَبَر، فكيف نُجِيب عن هذه الجُملة مِن شيخٍ عالمٍ بالعربية؟

إن قلت: جَرَى على لُغة (تميم)، فلا يَصحُّ، لأنَّ اللغات تغيَّرت، ولا يُقْبَلُ بعد تَغَيُّر اللغات مِن أحدٍ يَلْحَنُ، فيقول: أنا على لُغَة تميم، أو على لغة جُشَم، أو ما أشبه ذلك.

وإن قلت: إنه على لُغَةِ مَن يُلزِم المثنى الألفَ مُطلقًا، قلنا أيضًا: هذا غيرُ مقبول، لأنه بعدَ تَغَيُّر اللغة لا يُقْبَلُ لأحدٍ يخالف لغة قريش.

وإن قلت: الضرورة! فالجواب: نعم، للضرورة.

١٠٢- وَتُحَـدِّثُ الْأَرْضُ الَّتِـي كُنَّـا بِهَـا أَخْبَارَهَـا فِي الْـحَشْرِ لِلـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «كُنَّا بِهَا» الباء بمعنى (في)، أو بمعنى (على)، أي: كُنَّا عليها، أو فيها.

١٠٣- وَتَظَلُّ تَشْـهَدُ وَهْـيَ عَـدْلٌ بِالَّـذِي مِـنْ فَوقِهَـا قَـدْ أَحْـدَثَ الـثَّقَلَانِ

الله أكبر! جَمَادٌ ويُوصَف بأنه عَدْلٌ، يعني: مقبولُ الشَّهَادة، فالأرضُ التي نحن عليها الآن تَشْهَد علينا بما عَمِلْنا، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة:٤-٥] أَوْحَى أن تُحَدِّث أخبارها فتقول: عَمِلَ عَلَيَّ فلانٌ كذا في يوم كذا، تقول ذلك وهي جَمَادٌ.

لكن لا تستغرب يا أخي! إذا أَمَرَ اللهُ شيئًا امتثَلَ لِـمَا قال، قال تعالى: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:١١] فلا تستغرب أنَّ اللهَ يقول يوم القيامة للأرض: اشهدي، فتَشْهَدُ بما عُمِلَ عليها مِنْ خيرٍ وشرٍّ.

إن كنت في أقصى حُجْرَةٍ مُظْلِمَة، فإنَّ الأرض سوف تَشْهَدُ عليك بما عَمِلْت، جِلْدُك يَشهَدُ عليك، يَدَاك، رِجْلاك تَشْهَد عليك، الملائكةُ الكرام يشهدون، ربُّ العالمين -وكفى به شهيدًا- يشهد كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة:١٠٧] فليس هناك مَفَرٌّ.

١٠٤- أَفَيَشْهَدُ الْعَدَمُ الَّـذِي هُـوَ كَاسْـمِهِ لَا شَيْءَ، هَـذَا لَـيْسَ فِي الْإِمْكَـانِ

قَوْلُهُ: «أَفَيَشْهَدُ الْعَدَمُ الَّذِي هُوَ كَاسْمِهِ؟» الجواب: لا.

إذا كانت هذه الأرض سوف تُعْدَمُ ويُؤْتَى بأرضٍ جديدة كيف تشهد؟!

ولذا قال: «لَا شَيْءَ، هَذَا لَيْسَ فِي الْإِمْكَانِ»، فالأدلة -والحمد لله- واضحةٌ على بُطلانِ هذا المذهب أنه ليس هناك إعادةٌ لِـمَا قد وُجِد، وإنما يَحْدُثُ شيءٌ آخرُ معلومٌ.

ولذا يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم:٢٧] أي: نَفْس الخَلْق، لكنَّ ابن القيم -رحمه الله- يُكْثِر مِن الأدلة حتى يَرْسَخَ الحُكْم في الذهن.

* * *

١٠٥- لَكِنْ تُسَوَّى ثُمَّ تُبْسَطُ ثُمَّ تَشْـ ـهَدُ ثُمَّ تُبْدَلُ وَهْيَ ذَاتُ كِيَانِ

١٠٦- وَتُمَدُّ أَيْضًا مِثْلَ مَدِّ أَدِيمِنَا مِنْ غَيْرِ أَوْدِيَةٍ وَلَا كُثْبَانِ

١٠٧- وَتقِيءُ يَوْمَ الْعَرْضِ مِنْ أَكْبَادِهَا(١) كَالْأُسْطُوَانِ نَفَائِسَ الْأَثْمَانِ

١٠٨- كُلٌّ يَرَاهُ بِعَيْنِهِ وَعِيَانِهِ مَا لِامْرِئٍ بِالْأَخْذِ مِنْهُ يَدَانِ

١٠٩- وَكَذَا الْجِبَالُ تُفَتُّ فَتًّا مُحْكَمًا فَتَعُودُ مِثْلَ الرَّمْلِ ذِي الْكُثْبَانِ

١١٠- وَتَكُونُ كَالْعِهْنِ الَّذِي أَلْوَانُهُ وَصِبَاغُهُ مِنْ سَائِرِ الْأَلْوَانِ

١١١- وَتُبَسُّ بَسًّا مِثْلَ ذَاكَ فَتَنْثَنِي مِثْلَ الْهَبَاءِ لِنَاظِرِ الْإِنْسَانِ

الشرح

يقول -رحمه الله-:

١٠٥- لَكِنْ تُسَوَّى ثُمَّ تُبْسَطُ ثُمَّ تَشْـ ـهَدُ ثُمَّ تُبْدَلُ وَهْيَ ذَاتُ كِيَانِ

قَوْلُهُ: «لَكِنْ تُسَوَّى» يعني: الأرض، يُسَوِّيها عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «ثُمَّ تُبْسَطُ، ثُمَّ تَشْهَدُ، ثم تُبْدَلُ وَهْيَ ذَاتُ كِيانِ»، المؤلف يريد أن يُكَرِّرَ الدليلَ على أنَّ الأرض هي الأرض، لكنها تُبَدَّل بصفاتها.

(١) في نسخة الحلبي «ذا أكبادها».

١٠٦- وَتَمُــدُّ أَيْضًــا مِثْــلَ مَــدِّ أَدِيمِنَــا مِــنْ غَــيْرِ أَوْدِيَــةٍ وَلَا كُثْبَــانِ

قَوْلُهُ: «أَدِيمِنَا» الأَدِيم هو الجِلد.

قَوْلُهُ: «مِنْ غَيْرِ أَوْدِيَةٍ وَلَا كُثْبَانِ» الأودية: مجاري للماء، والكثبان: الشيء العالي.

١٠٧- وَتقِيءُ يَوْمَ الْعَـرْضِ مِـنْ أَكْبَادِهَـا كَالْأُسْــطُوَانِ نَفَــائِسَ الْأَثْــمَانِ

قَوْلُهُ: «تقيءُ» يعني: يخرج منها كما يخرج القَيْءُ مِن الفَمِ.

وَقَوْلُهُ: «وَتقيءُ مِنْ أَكْبَادِهَا كَالْأُسْطُوَانِ نَفائِسَ الْأَثْمانِ» الأثمان النفيسة: الذهب، تَقِيئُه يومَ القيامة، ولكن لا نَعْلَم كيف ذلك؟ إنما نشهد بأنها كالذي يتقيَّأ، فيَخرُج منها هذا الذَّهب مِثلَ الأسطوان، ولعلَّ هذا -والله أعلم- مِن أَجْل ألَّا يبقى في الأرض مَعْدِن، وأَنْفَسُ المعادن هو الذهب.

١٠٨- كُــلٌّ يَــرَاهُ بِعَيْنِــهِ وَعِيَانِــهِ مَــا لِامْــرِئٍ بِالْأَخْــذِ مِنْــهُ يَــدَانِ

قَوْلُهُ: «عينه» أي: العَين البَاصِرَة.

قَوْلُهُ: «عيانه» أي معاينته، يعني أنه يراه بعينٍ تُبصِرُ وتَرَى، وكم مِن عَينٍ لا تُعَاين!

قَوْلُهُ: «مَا لِامْرئٍ بِالْأَخْذِ مِنْهُ يَدَانِ» هذا الذهب الذي يخرج مِن الأرض كالقَيء لا يستطيع أحدٌ أن يأخذَه، لأنَّ يوم القيامة ليس فيه تصرّف، فالإنسان لا يتصرف فيه كيفما يشاء، فهم مُدَبَّرون تمامًا، لا خِيار لهم، فلا أحدَ يستطيع أن يجلس ليستريح، ولا أحد يَتَّقِي بأحد، ولا أحد يأخذ مِن هذا الذهب، لأنه لا خيار له في ذلك اليوم.

١٠٩- وَكَـذَا الْجِبَـالُ تُفَـتُّ فَتًّـا مُحْكَـمًا فَتَعُـودُ مِثْـلَ الرَّمْـلِ ذِي الْكُثْبَـانِ

الجبالُ الصُّمُّ الصَّلْبَة العظيمة تكون يوم القيامة مِثلَ كُثْبَان الرمل كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل:١٤].

١١٠- وَتَكُـونُ كَـالْعِهْنِ الَّـذِي أَلْوَانُـهُ وَصِـبَاغُهُ مِـنْ سَـائِرِ الْأَلْـوَانِ

قَوْلُهُ: «الْعِهْن»: هو الصُّوف المنفُوش، والصُّوف المنفُوش كالقُطن المنفُوش، لا شيء، تُقبض على حجم إنسان بيدٍ واحدة.

١١١- وَتُـبَسُّ بَسًّـا مِثْـلَ ذَاكَ فَتَنْثَنِـي مِثْـلَ الْـهَبَاءِ لِنَـاظِرِ الْإِنْسَـانِ

الله أكبر، تكون هباءً يَتطاير، وما هو الهَبَاء؟ هو أنك حينما ترى الكَوَّة[1] تدخل منها الشمس، فترى في الأشِعَّة أشياءَ تَتطَاير، وهذه الجبال -سبحان الله العظيم- تكون كالهَباء تتطاير، ولا شك أنَّ هذا سيكون عن حَدَثٍ عظيمٍ، كما وَصَفَه الله عزَّ وجلَّ فقال: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:١].

ونحن الآن نسمع بالزلازل، وهي ليست بشيء بالنسبة ليوم القيامة، قريبًا وقعت زلازل في تُركيا في الأسبوع الماضي، وبَقِيَت (٥٤) ثانية، ودَمَّرت مئات البيوت والقُرى والمُدن في أقلّ مِن نصف دقيقة.

سبحان الله! تفجَّرت الأرض، المجاري تفجَّرت، الأسلاك تقطَّعت، كل شيء في لحظة، وما ظنك لو كنت تشاهد هذا الغبار الذي يتصاعد مِن البيوت، ومِن الأرض، ومِن الأودية، ثُمَّ ما أعقب ذلك مِن اشتعال النيران، وأمَّا يوم القيامة، فهو أشدُّ مِن هذا بكثير.

---

(١) الكَوَّةُ: الخَرْق في الحَائِطِ ونحوه. التاج: كوو.

فالجبالُ الصُّمُّ الصَّلْبة الشامخة تَنْدَكُّ، تكون رملًا، تكون كَثِيبًا وتكون هَبَاء، ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور:١٠] أي: سَيْرًا عَظِيمًا سريعًا هباءً يطير في السماء.

وكان الناس في أول الأمر إذا رأوا النَّعْش ارْتَاعُوا وخافوا، وخشعوا، أمَّا الآن فقد قَسَت القُلوبُ، والسبب في ذلك الغفلة عن دِين الله عزَّ وجلَّ ومِن أحسنِ ما يُلَيِّنُ القُلوبَ كثرةُ قِراءة القرآن الكريم بِتَدَبُّر، ولذا يقول ابن عبد القويِّ -رحمه الله-:

وَحَافِظْ عَلَى دَرْسِ الْقُرْانِ فَإِنَّهُ ... يُلَيِّنُ قَلْبًا قاسِيًا مِثْلَ جَلْمَدِ[1]

وصدق -رحمه الله-، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١]. نسأل الله أن يُلَيِّن قُلوبَنا على الحقّ.

***

١١٢- وَكَذَا الْبِحَارُ فَإِنَّهَا مَسْجُورَةٌ ... قَدْ فُجِّرَتْ تَفْجِيرَ ذِي سُلْطَانِ

١١٣- وَكَذَلِكَ الْقَمَرَانِ يَأْذَنُ رَبُّنَا ... لَهُمَا فَيَجْتَمِعَانِ يَلْتَقِيَانِ

١١٤- هَذِي مُكَوَّرَةٌ، وَهَذَا خَاسِفٌ ... وكِلَاهُمَا في النَّارِ مَطْرُوحَانِ

١١٥- وَكَوَاكِبُ الْأَفْلَاكِ[2] تُنْثَرُ كُلُّهَا ... كَلَآلِئٍ نُثِرَتْ عَلَى مَيْدَانِ

١١٦- وَكَذَا السَّمَاءُ تُشَقُّ شَقًّا ظَاهِرًا ... وَتَمُورُ أَيْضًا أَيَّمَا مَوَرَانِ

١١٧- وَتَصِيرُ بَعْدَ الْإِنْشِقَاقِ كَمِثْلِ هَـ ... ـذَا الْمُهْلِ أَوْ تَكُ وَرْدَةً كَدِهَانِ

---

(١) انظر القصيدة بكاملها في الآداب الشرعية والمنح المرعية، لمحمد بن مفلح الحنبلي (٣/ ٥٩٠).
(٢) في نسخة برلين السفارينية: «الأملاك».

الشـرحُ

يريد -رحمه الله- هنا أن يؤكِّدَ أنَّ التبديل ليس إنشاء خَلْقٍ جديدٍ، لكنه اختلاف صفات، فالبِحار تُسَجَّر كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦] واختُلف في معنى سُجِّرت: هل المعنى: (مُلئت نارًا)، أو المعنى: (فُجِّرت)، كما في الآية الثانية؟

الجواب: كلا الوجهين مُحتَمل، وإن رجَّحنا فإننا نرجِّح أنها تمتلئ نارًا، حتى تكون كُلّ آية قد دلَّت على معنًى غير ما دلَّت عليه الأخرى.

* * *

١١٨- وَالْعَـرْشُ وَالْكُـرْسِيُّ لَا يُفْنِـيهِمَا ... أَيْضًـا، وَإِنَّهُمَا لَـمَخْلُوقَانِ

١١٩- وَالْحُورُ لَا تَفْنَى كَـذلِكَ جَنَّـةُ الْـ ... ـمَأْوَى وَمَـا فِيهَـا مِـنَ الْوِلْـدَانِ

١٢٠- وَلِأَجْـلِ هَـذَا قَـالَ جَهْـمٌ: إِنَّهَـا ... عَـدَمٌ وَلَـمْ تُخْلَـقْ إِلَى ذَا الْآنِ

١٢١- وَالْأَنْبِيَـاءُ فَـإِنَّهُمْ تَحْـتَ الثَّـرَى ... أَجْسَـامُهُمْ حُفِظَـتْ مِـنَ الدِّيـدَانِ

١٢٢- مَـا لِلْـبِلَى بِلُحُـومِهِمْ وَجُسُـومِهِمْ ... أَبَـدًا، وَهُـمْ تَحْـتَ التُّرَابِ يَـدَانِ

١٢٣- وَكَذَاكَ عَجْبُ الظَّهْرِ لَا يَبْلَى، بَـلَى ... مِنْـهُ تُرَكَّـبُ خِلْقَـةُ الْإِنْسَـانِ

١٢٤- وَكَـذَلِكَ الْأَرْوَاحُ لَا تَـبْلَى كَـمَا ... تَـبْلَى الْـجُسُومُ وَلَا بِـلَى اللُّحْمَانِ

١٢٥- وَلِأَجْلِ ذَلِكَ لَـمْ يُقِرَّ الْـجَهْمُ بِالْـ ... أَرْوَاحِ خَارِجَـةً عَـنِ الْأَبْـدَانِ

١٢٦- لَكِنَّهَـا مِـنْ بَعْـضِ أَعْـرَاضٍ بِهَـا ... قَامَـتْ، وَذَا فِي غَايَـةِ الْـبُطْلَانِ

الشـرحُ

١١٨- وَالْعَـرْشُ وَالْكُـرْسِيُّ لَا يُفْنِيهِمَا أَيْضًـا، وَإِنَّهُـمَا لَـمَخْلُوقَانِ

يقول -رحمه الله تعالى-: إنَّ مما يدلُّ على تَسَلْسُل الحَوادث، وبَقَاء بعض المخلوقات: العَرْش والكرسيّ لا يُفنيهما أبدًا، وإنهما لمخلوقان، يعني: إنهما مخلوقان، ومع ذلك لا يفنيان، فالتَّسَلْسُل فيهما بحسب المستقبل، لكنَّ أَعْيَانَهُمَا كانت عدمًا، ثُمَّ خَلَقَهُمَا الله عزَّ وجلَّ.

وفي هذا نصٌّ صريح مِن المؤلف -رحمه الله- على أنَّ العرش غير الكرسيّ، فما هو العرش، وما هو الكرسيّ؟

المشهور أنَّ الكرسيَّ هو موضع قدمَي الله عزَّ وجلَّ صحَّ ذلك عن ابن عباس[1] رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أما العرش فهو أعظم وأعظم، وهو الذي استوى عليه الرحمن -جلَّ وعلَا- وقد جاء في الحديث: «أنّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، وَالأَرْضِينَ السَّبْعَ لِلْكُرَسِيّ كَحَلْقَةٍ أُلْقِيَتْ فِي فَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ»[2].

وماذا تكون الحَلْقة بالنسبة للفَلاة؟ الجواب: لا شيء.

وإنَّ فضلَ العَرش على الكرسيّ كَفَضْلِ الفَلاة على هذه الحلقة، ولهذا وصف اللهُ العرشَ بأنه عظيم بـ(الـ) فقال: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩] وهما لا يَفْنَيَان، خلقهما الله تعالى للبقاء أبدًا.

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٤٨)، والحاكم (٢/ ٢١٠) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٩٢٨).

(٢) أخرجه ابن حبان (٢/ ٧٧)، وسعيد بن منصور في التفسير (٣/ ٩٥٢).

١١٩- وَالْحُورُ لَا تَفْنَى كَذلِكَ جَنَّةُ الْـ ـمَأْوَى وَمَا فِيهَا مِنَ الْوِلْدَانِ

كذلك الحور والوِلدان في الجنة لا تَفْنيَان، خَلَقَهُما الله تعالى للبقاء أبد الآبدين.

١٢٠- وَلِأَجْلِ هَذَا قَالَ جَهْمٌ: إِنَّهَا عَدَمٌ وَلَمْ تُخْلَقْ إِلَى ذَا الْآنِ

يعني أنَّ الجنة عَدَمٌ، والحُور عَدَمٌ، والوِلدان عدَمٌ، ولا تُخْلَقُ إلَّا يوم القيامة، ثُمَّ في النهاية أيضًا تَفْنَى، لأنه لا يرى تسلسل الحوادث.

١٢١- وَالْأَنْبِيَاءُ فَإِنَّهُمْ تَحْتَ الثَّرَى أَجْسَامُهُمْ حُفِظَتْ مِنَ الدِّيدَانِ

١٢٢- مَا لِلْبِلَى بِلُحُومِهِمْ وَجُسُومِهِمْ أَبَدًا، وَهُمْ تَحْتَ التُّرَابِ يَدَانِ

الله أكبر! أجسام الأنبياء في الأرض محفوظة مِن الدِّيدان، لا تأكلها الأرض، حرَّم الله على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء(١)، وفي هذا دليل على أنَّ الأمرَ أمرُ الله عزَّ وجلَّ وأنَّ كلَّ الكون يَسِيرُ بأمر الله، فالأرض التي مِن طبيعتها أن تأكل الأجسام، لا تأكلُ أجسامَ الأنبياء، والذي قال لِنَارِ إبراهيمَ -عليه الصلاة والسلام- ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩] -والنار تُحرِق وتُهلِك، فصارت بردًا وسلامًا- قادرٌ على أن يُحرِّم على الأرض أن تأكل أجسادَ الأنبياء، ولذلك لو كُشف عن أي نبيٍّ مِن الأنبياء لَوُجِدَ كأنه ماتَ اليومَ، لا تأكله الأرض.

(١) كما في حديث: «إِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ». أخرجه أبو داود: كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، رقم (١٠٤٧)، والنسائي: كتاب الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة، رقم (١٣٧٤)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب فضل الجمعة، رقم (١٠٨٥).

يقول -رحمه الله-:

١٢٣- وَكَذَاكَ عَجْبُ الظَّهْرِ لَا يَبْلَى، بَلَى ... مِنْهُ تُرَكَّبُ خِلْقَةُ الْإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «بَلَى» كلمة (بَلَى) هنا تَكثر في كلام المؤلف، وجاء مِثلها في القرآن، وهي بمعنى: (بل) في مثل هذا التركيب، وهذا أيسرُ مِن أن نُقَدِّرَ أنها جوابٌ لما مضى.

ثُمَّ استأنف فقال: (بَلَى مِنْهُ تُرَكَّبُ خِلْقَةُ الْإِنْسَانِ).

وعَجْبُ الذَّنَب، هو عبارةٌ عن حَبَّةٍ صغيرة في منتهى عُصْعُص الظَّهْر، وهذه -بإذن الله- لا تأكلها الأرضُ أبدًا، بل تبقى، حتى لو نُبِش القَبرُ وحُرِث، لا بُدَّ أن تبقى، لأنها يومَ القيامةِ تكون كالبَذْرَة للجسم، منها يُكَوَّن الجِسم، سبحان الله! واللهُ على كل شيء قدير.

١٢٤- وَكَذَلِكَ الْأَرْوَاحُ لَا تَبْلَى كَمَا ... تَبْلَى الْجُسُومُ وَلَا بِلَى اللُّحْمَانِ

الأرواح لا تَبْلَى، فقد خَلَقَها اللهُ عزَّ وجلَّ للبقاء، فها هنا الآن العرش، والكرسيّ، والحُور، وأجساد الأنبياء، وعَجْبُ الذَّنَب، والسادس: الأرواح، كُلُّ هذه لا تفنَى ولا تَبْلَى.

قال:

١٢٥- وَلِأَجْلِ ذَلِكَ لَمْ يُقِرَّ الْجَهْمُ بِالْـ ... أَرْوَاحِ خَارِجَةً عَنِ الْأَبْدَانِ

١٢٦- لَكِنَّهَا مِنْ بَعْضِ أَعْرَاضٍ بِهَا ... قَامَتْ، وَذَا فِي غَايَةِ الْبُطْلَانِ

يقول جهم: لا توجد رُوحٌ تخرج مِن البَدَنِ، وتَدخُل فيه، فالروحُ عَرَضٌ مِن الأعراض، يعني مِثل ما يمرض البَدَن، ويَتَحَرَّك ببطء، وما أشبه ذلك، يَعْتَرِيه

عَرَضٌ، أي: مرضٌ شديدٌ فيمُوت.

فالموت عنده ليس معناه أنَّ هناك رُوحًا تخرج مِن البَدَن وتبقى، لكنه يرى أنَّ الموت والحياة وَصْفَانِ للبَدَنِ أي: عَرَضَان، كما يَعْرِض المرضُ والصِّحة، فهي وَصْفٌ مِن الأوصاف كالطُّول والقِصَر والحُمْرَة والسواد والبياض، ويقول: ليس هناك رُوحٌ تَخْرُج وتُنَعَّم أو تُعَذَّب في القبر، ولا نَعِيم في الجَنَّة لها، لأنَّ التَّسَلْسُل عنده ممنوع.

ولكنَّ هذا لا شَكَّ أنه مخالفٌ لما جاء به الكتابُ والسُّنَّة، قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر:٤٢]، وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام:٦١].

والإنسان إذا مات يرى روحَه خارجةً مِن بَدَنِه، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ البَصَرُ»[1]. ولذلك يَشْخَصُ البَصَرُ، لأنه يَرى رُوحَه خارجة مِن جَسَدِه.

أما الجهم فيقول: لا تُوجَد رُوحٌ تخرج، أو تدخل، فالموتُ عبارةٌ عن فَقْدِ الحياة، فهذا الجسم الذي يتحرك الآن، ويسيرُ ويجيء، يفقد هذه الحركة.

ثم قال -رحمه الله-:

* * *

١٢٧- فَالشَّأْنُ لِلْأَرْوَاحِ بَعْدَ فِرَاقِهَا ... أَبْدَانَهَا[2] -وَاللهِ- أَعْظَمُ شَانِ

١٢٨- إِمَّا عَذَابٌ أَوْ نَعِيمٌ دَائِمٌ ... قَدْ نُعِّمَتْ بِالرَّوْحِ وَالرَّيْحَانِ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حُضِرَ، رقم (٩٢٠).

(٢) في أكثر الأصول: «أبداننا».

١٢٩- وَتَصِيرُ طَيْرًا سَارِحًا مَعْ شَكْلِهَا ... تَجْنِي الثِّمَارَ بِجَنَّةِ الْحَيَوانِ

١٣٠- وَتَظَلُّ وَارِدَةً لِأَنْهَارٍ بِهَا ... حَتَّى تَعُودَ لِذَلِكَ الْجُثْمَانِ

١٣١- لَكِنَّ أَرْوَاحَ الَّذِينَ اسْتُشْهِدُوا ... فِي جَوْفِ طَيْرٍ أَخْضَرٍ رَيَّانِ

١٣٢- فَلَهُمْ بِذَاكَ مَزِيَّةٌ فِي عَيْشِهِمْ ... وَنَعِيمِهِمْ لِلرُّوحِ[1] وَالْأَبْدَانِ

١٣٣- بَذَلُوا الْجُسُومَ لِرَبِّهِمْ فَأَعَاضَهُمْ ... أَجْسَامَ تِلْكَ الطَّيْرِ بِالْإِحْسَانِ

١٣٤- وَلَهَا قَنَادِيلٌ إِلَيْهَا تَنْتَهِي ... مَأْوَى لَهَا كَمَسَاكِنِ الْإِنْسَانِ

١٣٥- فَالرُّوحُ بَعْدَ الْمَوْتِ أَكْمَلُ حَالَةً ... مِنْهَا بِهَذِي الدَّارِ فِي جُثْمَانِ[2]

١٣٦- وَعذَابُ أَشْقَاهَا أَشَدُّ مِنَ الَّذِي ... قَدْ عَايَنَتْ أَبْصَارُهَا[3] بِعِيَانِ

١٣٧- وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهَا عَرَضٌ أَبَوْا ... ذَا كُلَّهُ، تَبًّا لِذِي نُكْرَانِ

الشرحُ

ذكر -رحمه الله- أحوال الروح فقال:

١٢٧- فَالشَّأْنُ لِلْأَرْوَاحِ بَعْدَ فِرَاقِهَا ... أَبْدَانَهَا -وَاللهِ- أَعْظَمُ شَانِ

ولا أحدَ يتصوّر كيف يكون نعيمُ الروح، أو عذابُها بعد فِراقِها البَدَن؟ فشأنُ الروح عظيمٌ، أعظمُ شأنٍ، كما قال -رحمه الله-.

---

(١) في الشرح: «بالروح».

(٢) في نسخة الإفتاء: «جسمان».

(٣) في نسخة الحلبي: «أبصارنا».

١٢٨- إِمَّا عَذَابٌ أَوْ نَعِيمٌ دَائِمٌ قَدْ نُعِّمَتْ بِالرَّوْحِ وَالرَّيْحَانِ

وهذه روح المُقَرَّبين، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨-٨٩] اللهم اجعلنا منهم يا ربَّ العالمين.

١٢٩- وَتَصِيرُ طَيْرًا سَارِحًا مَعْ شَكْلِهَا تَجْنِي الثِّمَارَ بِجَنَّةِ الْحَيَوَانِ

الأرواح تكون طيورًا تَسْرَح في الجنة مع شكلها، وتَجْنِي مِن ثمرات الجنة.

قَوْلُهُ: «بِجَنَّةِ الْحَيَوَانِ» أي: بجنة الحياة العظيمة الدائمة، فالألفُ والنون للمبالغة، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت:٦٤] أي: الحياة العظيمة.

١٣٠- وَتَظَلُّ وَارِدَةً لِأَنْهَارٍ بِهَا حَتَّى تَعُودَ لِذَلِكَ الْجُثْمَانِ

فهي تأكل مِن الثمار، وتشرب مِن الأنهار، وتكون على صورةِ طيرٍ، حتَّى يَهُونَ عليها التنقُّلُ في جنات النعيم، حتى تعود إلى جسمها يومَ القيامة عَوْدًا لا خُروج بَعْدَه، لأنَّ الإنسان إذا بُعث يوم القيامة فلا مَوْتَ، لكنَّ أرواحَ الشهداء غير أرواح بقية المؤمنين، ولذا قال:

١٣١- لَكِنَّ أَرْوَاحَ الَّذِينَ اسْتُشْهِدُوا فِي جَوْفِ طَيْرٍ أَخْضَرٍ رَيَّانِ

الرُّوح في جوفِ طيرٍ أخضرَ رَيَّانَ، يعني: مملوءًا حَيَوِيَّةً وخُضْرَةً مِن أَحْسَن ما يكون منظرًا وحَرَكة.

١٣٢- فَلَهُمْ بِذَاكَ مَزِيَّةٌ فِي عَيْشِهِمْ وَنَعِيمِهِمْ لِلرُّوحِ وَالْأَبْدَانِ

وذلك كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩].

١٣٣- بَذَلُوا الْـجُسُومَ لِرَبِّهِمْ فَأَعَاضَهُمْ أَجْسَامَ تِلْكَ الطَّيْرِ بِالْإِحْسَانِ

١٣٤- وَلَـهَا قَنَادِيلٌ إِلَيْهَا تَنْتَهِي مَأْوَى لَـهَا كَمَسَاكِنِ الْإِنْسَانِ

الشهداء تكون أرواحهم في جوفِ طيورٍ خُضرٍ تَسْرَحُ حيثُ شاءت[(١)]، ولكن لها قَناديلُ مُعَلَّقة بالعرش تأوِي إليها، كما تأوِي الطيور إلى أوكارها.

وبيَّن المؤلفُ -رحمه الله- الحكمةَ مِن ذلك بأنَّ هؤلاء بَذَلُوا أجسادَهم لله عزَّ وجلَّ في الجهاد في سبيل الله، حتى قُتِلوا، فأَبْدَلَ اللهُ تعالى أرواحَهم بَدَلَ الأجساد التي خَرَجَت منها بِهَذِه القَناديل المُعَلَّقة تحتَ العرش، ولهذا قال: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩].

والفَرْق بين أرواح الشهداء، وأرواح المؤمنين أنَّ أرواح الشهداء لها قناديلُ مُعَلَّقة تحت العرش، وتلك ليس لها، وكذلك هناك فرق، وهو أنَّ ظاهِر السُّنة أنَّ أرواحَ المؤمنين غيرُ أرواح الشهداء، فأرواح المؤمنين هي نفسُها طير، وهذه أرواحٌ في جوف الطير، فهي أعظمُ تكريمًا من الأول.

١٣٥- فَالرُّوحُ بَعْدَ الْـمَوْتِ أَكْمَـلُ حَالَـةً مِنْهَا بِهَـذِي الـدَّارِ فِي جُـثْمَانِ

يعني أنَّ الروحَ إذا فارقت البَدَنَ -وهي مِن أرواح المؤمنين- فإنها أكملُ حالةً منها في اتصالها بالبَدَن في الدنيا.

وانظر إلى كلام الله عزَّ وجلَّ في آية مِن القرآن حيث قال: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [العلى:١٦-١٧] وهذا مُطْلَق.

---

(١) كما في حديث الشهداء: «أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَـهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْـجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ». أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، رقم (١٨٨٧).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧] وهذا مُقيَّد.

وقال الله لنبيه: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [الضحى:٤].

فهذه ثلاثُ مراتبَ: المرتبة الأولى بالنسبة للآخرة مِن حيثُ إنَّها خيرٌ مِن الدنيا مِن حيثُ هي، ثُمَّ مَنْ يتمتع بهذا الخير، وهو مَن اتقى، ثم مَنْ شُهِدَ له بأنه سيتمتع بِعَيْنِه وهو الرسول ﷺ: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ وهذا مِن شهادة الله تعالى لنبيِّه ﷺ أنَّ الآخرةَ خيرٌ له مِن الأُولى.

١٣٦- وَعذَابُ أَشْـقَاهَا أَشَـدُّ مِـنَ الَّـذِي ... قَــدْ عَايَنَــتْ أَبْصَــارُهَا بِعِيَــانِ

إي -والله- أَشدُّ، عذابُ الأشقى مِن الأرواح أشدُّ مِن عذاب الدنيا كلها، ألم تعلموا أنَّ نارَ الآخرة «فُضِّلَتْ عَلَى نَارِ الدُّنْيَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا؟»(١) فكُلُّ نار الدنيا مِن أولها إلى آخرها، نارُ الآخرةِ أشدُّ بِتِسْعَةٍ وسِتِّين جزءًا، نسأل الله العافية.

١٣٧- وَالْقَــائِلُونَ بِأَنَّهَــا عَــرَضٌ أَبَــوْا ... ذَا كُلَّــهُ، تَبًّــا لِــذِي نُكْــرَانِ

القائلون بأنها عَرَضٌ يقولون: ليس هناك رُوحٌ تَخرج مِن الجسد تُعَذَّبُ وتُنَعَّم، وغاية ما حصل للبدن تغيُّرٌ مِن حياةٍ إلى موتٍ، كما يتغيّر مِن صحةٍ إلى مرضٍ.

* * *

١٣٨- وَإِذَا أَرَادَ اللهُ إِخْــرَاجَ الْــوَرَى ... بَعْـدَ الْـمَمَاتِ إِلَى الْـمَعَادِ الثَّـانِي

١٣٩- أَلْقَى عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي هُـمْ تَحْتَهَـا ... وَاللهُ مُقْتَــدِرٌ وَذُو سُــلْطَانِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة النار، وأنها مخلوقة، رقم (٣٠٩٢)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم، رقم (٢٨٤٣).

١٤٠- مَطَـرًا غَلِيظًـا أَبْيَضًـا مُتَتَابِعًـا عَشْـرًا وَعَشْـرًا بَعْـدَهَا عَشْـرَانِ
١٤١- فَتَظَـلُّ تَنْبُتُ مِنْـهُ أَجْسَـامُ الْـوَرَى وَلُـحُومُهُمْ كَمَنَابِـتِ الرَّيْحَـانِ
١٤٢- حَتَّـى إِذَا مَـا الْأُمُّ حَـانَ وِلَادُهَـا وَتَمَخَّضَـتْ فَنِفَاسُـهَا مُتَـدَانِي
١٤٣- أَوْحَى لَـهَا رَبُّ السَّمَا[1] فَتَشَـقَّقَتْ فَبَـدَا الْـجَنِينُ كَأَكْمَـلِ[2] الشُّـبَّانِ
١٤٤- وَتَخَلَّـتِ الْأُمُّ الْوَلُـودُ وَأَخْرَجَـتْ أَثْقَالَـهَا أُنْثَـى وَمِـنْ ذُكْـرَانِ

الشـرحُ

أشار المؤلف -رحمه الله- إلى كيفية بَعْثِ الله الوَرَى، وقد ذكر الله -سبحانه وتعالى- أنَّ بَعْثَ الناس كإنزال المَطَر على الأرض، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝١٠ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق:٩-١١] وأمثال هذه الآية كثير.

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩].

١٣٨- وَإِذَا أَرَادَ اللهُ إِخْـرَاجَ الْـوَرَى بَعْـدَ الْـمَمَاتِ إِلَى الْـمَعَادِ الثَّـانِي
١٣٩- أَلْقَى عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي هُـمْ تَحْتَهَـا وَاللهُ مُقْتَـدِرٌ وَذُو سُـلْطَانِ
١٤٠- مَطَـرًا غَلِيظًـا أَبْيَضًـا مُتَتَابِعًـا عَشْـرًا وَعَشْـرًا بَعْـدَهَا عَشْـرَانِ

---

(١) في بعض الأصول: «الورى».
(٢) في نسخة الإفتاء: «كأجمل».

فله عزَّ وجلَّ السُّلْطة الكاملة على كلِّ الخَلق، وله القُدرة التامة.

وأشبه ما له في هذا الوصف مَنِيُّ الرجال غليظًا أبيضًا.

وقال: (أبيضًا) بالصَّرْف لضرورة الشِّعر.

قَوْلُهُ: «**مُتَتَابِعًا عَشْرًا وَعَشْرًا بَعْدَهَا عَشْرَانِ**» يعني: أربعين يومًا، وهو يمطر الأرض ليلًا ونهارًا، وفي هذه الأربعين يَصِل الماء إلى قَعْر القُبور فتَنْبُت الأجسامُ، فكما نَبَتَت بِمَنِيِّ الرِّجال أولًا تَنْبُت الآن بهذا المطر.

١٤١- فَتَظَـلُّ تَنْبُـتُ مِنْـهُ أَجْسَـامُ الْـوَرَى ... وَلُـحُومُهُمْ كَمَنَابِـتِ الرَّيْحَـانِ

كالأرض مثلًا التي فيها حُبُوب الرَّيحان، إذا أتاها المطر بدأت تَنْبُت.

١٤٢- حَتَّـى إِذَا مَـا الْأُمُّ حَـانَ وِلَادُهَـا ... وَتَمَخَّضَـتْ فَنِفَاسُـهَا مُتَـدَانِي

قَوْلُهُ: «**حَانَ**» يعني: قرُب، والمراد بـ(الأمّ) هنا الأرض.

١٤٣- أَوْحَـى لَـهَا رَبُّ السَّـمَا فَتَشَـقَّقَتْ ... فَبَـدَا الْـجَنِينُ كَأَكْمَـلِ الشُّـبَّانِ

إذا كمل الناس في قبورهم مِن هذا الماء أوحى الله للأرض أن تتشقق عن أجسامها، فإذا تَشَقَّقَت عن أجسامها، يقول -رحمه الله-: (**فَبَدَا الْـجَنِينُ كَأَكْمَلِ الشُّبَّانِ**).

١٤٤- وَتَخَلَّـتِ الْأُمُّ الْوَلُـودُ وَأَخْرَجَـتْ ... أَثْقَالَـها أُنْثَـى وَمِـنْ ذُكْـرَانِ

الآن تَخَلَّت عن الناس، وخرج الناس على ظَهْرِها، ثُمَّ يوحي الله إلى إسرافيلَ أن يَنْفُخَ في الصُّورِ، فينفُخُ في الصُّورِ النَّفْخَة الثانية، وأما النَّفْخَةُ الأُولى فيموت الناس الموجودون، فتَخْرُج الأرواح مِن هذا الصُّورِ بعد أن اجتمعَت فيه،

وتذهب كُلُّ رُوحٍ إلى جَسَدِها التي كانت تَعْمُرُه في الدنيا، لا تخطئه أبدًا، وهذا مع كثرة العَالم، لأنَّ الله أمَرَها أن تذهب إلى أجسادها، ولا مَفَرَّ لها مِن أَمْرِ الله عزَّ وجلَّ فإذا ذَهَبَت إلى أجسادها فإذا هم قِيَامٌ ينظرون.

وكُلُّ ذلك بإذن الله وإرادَتِه وقُدْرَتِه، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤] وقال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣] الأول والأخير، والصغير والكبير، والذَّكَر والأُنثى، بِصَيْحَةٍ واحدة يَحْضُرُون إلى الله عزَّ وجلَّ للقضاء بينهم، وهذا هو الحقُّ، وهو المعقول المؤيَّد بالمنقول.

أما جَهْمٌ وأَتْبَاعُه، فإنهم -في الحقيقة- على شَفَا[1] جُرُفٍ[2] هَارٍ، انْهَارَ بهم في مهاوي الضلال، والعياذ بالله.

* * *

١٤٥- وَاللهُ يُنْشِــئُ خَلْقَــهُ فِي نَشْــأَةٍ ... أُخْـرَى كَـمَا قَـدْ قَـالَ فِي الْفُرْقَـانِ

١٤٦- هَذَا الَّذِي جَاءَ الكِتَابُ وَسُنَّةُ الْهَـ ... ـادِي بِـهِ، فَـاحْرِصْ عَـلَى الْإِيـمَانِ

١٤٧- مَــا قَــالَ: إِنَّ اللهَ يُعْــدِمُ خَلْقَــهُ ... طُـرًّا كَقَـوْلِ الْـجَاهِلِ الْـحَيْرَانِ

الشــرحُ

تقَدَّم أنَّ ابن القيم -رحمه الله- كَرَّر، وأَبْدَى، وأَعَادَ في الأدلة الدَّالَّة على أنَّ الخَلْق لا يُسْتَبْدل بِخَلْق آخرَ غير الأول، ولكنه يُعَادُ كما كان، قال:

---

(١) الشَّفا: حَرْفُ كلِّ شيءٍ. انظر: تاج العروس، مادة: شفي.
(٢) الـجُرُفُ مَا أَكَلَ السيلُ مِنْ أَسْفَل شِقِّ الْوَادِي والنَّهر. انظر: لسان العرب، مادة: جرف.

١٤٥- وَاللهُ يُنْشِئُ خَلْقَهُ فِي نَشْأَةٍ ... أُخْرَى كَمَا قَدْ قَالَ فِي الْفُرْقَانِ

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [النجم:٤٧] والنشأة لا تعني إبدال الأوَّلِ بِآخَرَ، بدليل قول الله -تبارك وتعالى- في أطوار الحمل: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٢-١٤] فبقوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ تَمَّ الجسم الآن، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ وذلك بعد نَفْخ الرُّوح فيه، لأنه صار الآن حَيًّا.

فهل قوله: ﴿أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ معناه: أَعْدَمْنَا الأوَّلَ، وأنشأنا جديدًا؟ الجواب: لا، ولكن تبدَّلت أوصافه، كذلك قول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [النجم:٤٧] يعني: البَعْث، والبَعْث ليس معناه إعدام الأول، ثُمَّ إنشاء خلق آخر.

١٤٦- هَذَا الَّذِي جَاءَ الكِتَابُ وَسُنَّةُ الْهَـ ... ـادِي بِهِ، فَاحْرِصْ عَلَى الْإِيمَانِ

١٤٧- مَا قَالَ: إِنَّ اللهَ يُعْدِمُ خَلْقَهُ ... طُرًّا كَقَوْلِ الْجَاهِلِ الْحَيْرَانِ

قَوْلُهُ: «مَا قَالَ» الضمير يعود على الله عزَّ وجلَّ يعني ما قال الله: (**إِنَّ اللهَ يُعْدِمُ خَلْقَهُ طُرًّا كَقَوْلِ الْجَاهِلِ الْحَيْرَانِ**).

وَقَوْلُهُ: «**الْجَاهِلِ الْحَيْرَان**» المراد به: الجَهْمُ بن صَفوان.

الأصول التي تقدَّمت في مذهب جَهْمٍ ينبغي للإنسان أن يُقَيِّدَها فيقول: خالف في كذا، وفي كذا في الإيمان، وفي الصفات، وفي إعادة الخَلق، فيُقَيِّدها

في دَفْتَرٍ خاصٍّ، حتى لا يذهب عليه العِلم، وكُلُّ إنسان وقُدرته، وكُلُّ إنسان وأسلوبه، المهم ألَّا تكون مجرد قراءة، تقول مثلًا ذكر ابن القيم -رحمه الله تعالى- مثلًا أُصُول مَذْهَب الجَهْمِيَّة التي خالفوا بها أهل السُّنَّة والجماعة، ثم تُذْكر، حتى تكون مرجعًا.

* * *

فصل

١٤٨- وَقَضَى بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِفَاعِلٍ ... فِعْلًا يَقُومُ بِهِ بِلَا بُرْهَانِ
١٤٩- بَلْ فِعْلُهُ الْمَفْعُولُ خَارِجَ ذَاتِهِ ... كَالْوَصْفِ غَيرِ الذَّاتِ فِي الْحُسْبَانِ
١٥٠- وَالْجَبْرُ مَذْهَبُهُ الَّذِي قَرَّتْ بِهِ ... عَيْنُ الْعُصَاةِ وَشِيعَةُ الشَّيْطَانِ
١٥١- كَانُوا عَلَى وَجَلٍ مِنَ الْعِصْيَانِ إِذْ[1] ... هُوَ فِعْلُهُمْ، والذَّنْبُ لِلإِنْسَانِ
١٥٢- وَاللَّوْمُ لَا يَعْدُوهُ إِذْ هُوَ فَاعِلٌ ... بِإِرَادةٍ وَبِقُدْرَةِ الْحَيَوَانِ
١٥٣- فَأَرَاحَهُمْ جَهْمٌ وَشِيعَتُهُ مِنَ اللْـ ... ـلَوْمِ الْعَنِيفِ وَمَا قَضَوْا بِأَمَانِ
١٥٤- لَكِنَّهُمْ حَمَلُوا ذُنُوبَهُمُ عَلَى ... رَبِّ الْعِبَادِ بِعِزَّةٍ وَأَمَانِ
١٥٥- وَتَبَرَّؤُوا مِنْهَا، وَقَالُوا: إِنَّهَا ... أَفْعَالُهُ مَا حِيلَةُ الْإِنْسَانِ

الشرحُ

١٤٨- وَقَضَى بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِفَاعِلٍ ... فِعْلًا يَقُومُ بِهِ بِلَا بُرْهَانِ
١٤٩- بَلْ فِعْلُهُ الْمَفْعُولُ خَارِجَ ذَاتِهِ ... كَالْوَصْفِ غَيرِ الذَّاتِ فِي الْحُسْبَانِ

قَوْلُهُ: «وَقَضَى بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِفَاعِلٍ...» وهذا أيضًا مِن أُصولِه الخَبِيثة.

---

(١) في نسخة الشرح: «ذا».

قَوْلُهُ: « بِلَا بُرْهَانِ» أي: بلا دليل.

يقول جهمٌ: إِنَّ الله ليس بفاعلٍ فِعلًا يقوم به، يعني: ليس بِخَالِقٍ خلقًا هو وَصْفُه، ولا بِسَامِعٍ سَمْعًا هو وَصْفُه، بل خَلْقُه مَخْلُوقُه، فيكون مخلوقٌ بلا خَلْق، مخلوق لله، لكن بلا خَلْقٍ هو فعلُ الله.

ومِن المعلوم أنه يوجد خَالِقٌ، وخَلْق وهُو فِعل الخَالِق، ومخلوقٌ، وهو بائنٌ مُنْفَصِل.

فالجهم يقول: إِنَّ الله -سبحانه وتعالى- لَيْس بخالقٍ بِخَلْقٍ هو وَصْفُه، لماذا؟

الجواب: لأنه ينفي الصفات، فيقول: لا يُوصَفُ اللهُ بِخَلْقٍ، والخَلْق عنده مَصْدَرٌ بمعنى اسم المفعول، أي: إنه مَخْلُوقٌ، والعَجَب أنه يُقِرُّ بخالقٍ، ولا يُقِرُّ بِخَلْقٍ، ويُقِرُّ بمخلوقٍ، فالواسطةُ بينهما عنده مَنْفِيَّةٌ.

قَوْلُهُ: «بَلْ فِعْلُهُ المَفْعُولُ خارِجَ ذَاتِهِ» ويجوز (خارجُ).

وَقَوْلُهُ: «بَلْ فِعْلُهُ الْـمَفْعُولُ خَارِجَ ذَاتِهِ» يعني: حَالَ كَوْنِه خَارِجَ ذَاتِه، لأنَّ المفعول -كما نعلم- ليس في الذات، فأنت إذا صَنَعْت طعامًا، فالطَّعامُ ليس وَصْفَكَ، وليس ذاتَك أيضًا، ولكنه شيءٌ خارجٌ ليس بالذات، ولا بالصفات.

قَوْلُهُ: «كَالْوَصْفِ غَيرِ الذَّاتِ في الحُسْبَانِ» يعني: كما يقول أيضًا: إنَّ الوصفَ غيرُ الذات، ولكننا لا نُثبِتُ الوَصْف، لأننا لو أثبتنا الوَصْف لأَثْبَتْنَا قُدَمَاء مُتَعَدِّدين: سمعًا قديمًا، بَصرًا قديمًا، قُدْرَةً قديمة، عِلمًا قديمًا، وهذا يقتضي تَعَدُّد الآلهة، لأنَّ أخصَّ وَصْفٍ للإله -عِنْدَهُم- هو القِدَم.

وتَضَمَّنَ البيتان أنّ الله -سبحانه وتعالى- ليس بفاعلٍ فِعلًا يقوم به، فليس بخالقٍ خَلْقًا يقوم بذاته، وليس بِمُسْتَوٍ استواءً يَقُوم بذاته، وليس بآتٍ يومَ القيامة إِتيانًا يقوم بذاته، وليس بنازلٍ إلى السماء الدنيا نُزُولًا يَقُوم بذاته، وليس بِرَازِقٍ رِزْقًا يَقُوم بذاته، فلا يَقُوم بذاته فِعْلٌ أبدًا، لماذا؟ قال: لأنَّ هذه الأفعال حوادثُ، ولو قامت بالرَّبِّ عزَّ وجلَّ لكان حَادِثًا، لأنَّ الحوادث لا تقومُ إلا بِحَادِثٍ.

انظر كيف جَعَلَ التَّعْطِيلَ في قالب التَّنْزِيه؟! فالذي يَسْمَعُ هذا الكلام يقول: نعم، هذا صحيحٌ وطَيِّبٌ، لكنه -في الحقيقة- ليس تَنْزِيهًا، بل هو تعطيلٌ لكمال الله عزَّ وجلَّ فيقول: إنَّ الله -سبحانه وتعالى- لا يَفْعَلُ فِعْلًا يقوم به، ثُمَّ يقول: إنَّ الإنسان أيضًا لا يَفْعَل فِعْلًا يَقُومُ به.

١٥٠- وَالْجَبْرُ مَذْهَبُهُ الَّذِي قَرَّتْ بِهِ ... عَيْنُ الْعُصَاةِ وَشِيعَةُ الشَّيْطَانِ

الجَبْر هو مذهب الجَهْمِيَّة، ومعنى الجبر: أَنَّ الإنسان مُجْبَرٌ على عَمَلِه، كقول القائل:

أَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ مَكْتُوفًا وَقَالَ لَهُ: ... إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالْمَاءِ(١)

فالجَبْر مذهبُ جَهْمٍ، الإنسان العاصي يَزْنِي ويَسْرِق، ويشرب الخَمر، ويَقْتُل النَّفْس بِغَير حقٍّ، يقول الجَهم: إنه مُجْبَر على عَمَلِه أي: بِغَيْر اختيارٍ منه.

وهل يؤاخذ عليه وهو مُجْبَر؟ قال: نعم يُؤاخذ، والله تعالى إذا آخَذَه على ذَنْبِه وهو مُجْبَرٌ فَلَيْس بِظَالِمٍ، لأنَّ الظُّلْم عنده -كما سبق- مُحَال ممتنع لذاته، لأنه إن فَعَلَ شيئًا فَعَلَه في مُلْكِه.

---

(١) البيت في نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لشهاب الدين التلمسان (٥/ ٢٩٢) بلا نسبة.

فلذلك الآن أهلُ المعصية، وشِيعةُ الشيطان الذين يأخذون بِوَحْيِ الشيطان سوف تَقَرُّ أَعْيُنُهم بهذا المذهب، لأنهم يقولون: نحن الآن مُجْبَرون، ما لنا ولكم، فكما أنَّ الإنسان لا يُغيِّر لَوْنَه، ولا يُغَيِّر صُورَته، ولا يُغَيِّر طُولَه ولا قِصَرَه، فكذلك لا يُغَيِّر عَمَلَه، لأنه مُجْبَرٌ عليه.

وهل هذا مَذْهَبٌ؟ الجواب: لا، والله ليس بِمَذْهَبٍ، ولا أحدَ يقول به، أَيُّ عاقلٍ يمكن أن يقول: حَرَكَةُ يدي هكذا كَصُورَتِي، ليس لي فيها تَصَرُّف، لا أحد يقول بهذا، الصُّورَةُ ليس للإنسان فيها تَصَرُّفٌ، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران:٦] فليس للإنسان تَصَرُّفٌ فيها: جَمِيل قَبِيح، طَوِيل قَصِير، أَسْوَد أبيض، ليس له تصرُّف فيها.

هو يقول: نَفْسُ الفِعل ليس فيه تَصَرُّف، فالطائعُ والعاصي كلاهما يَفعل بِغَير اختياره.

والله لو حَدَّثْتَ عَجُوزًا بهذا الكلام، لقالت: ما هذا الكلام؟! ومع ذلك هؤلاء يَدَّعون أنهم أهلُ العَقْل، وأنَّ هذا مُقتَضَى العقل، لأنَّ الرَّبَّ هو الرَّبُّ يفعل ما يشاء، فنقول: نعم، الرَّبُّ يفعل ما يشاء، لكنه أعطى المخلوق إرادةً وقُدْرةً ومشيئة.

يقول:

١٥١- كَانُوا عَلَى وَجَلٍ مِنَ الْعِصْيَانِ إِذْ ... هُوَ فِعْلُهُمْ، والذَّنْبُ لِلْإِنْسَانِ

١٥٢- وَاللَّوْمُ لَا يَعْدُوهُ إِذْ هُوَ فَاعِلٌ ... بِإِرَادةٍ وَبِقُدْرَةِ الْحَيَوَانِ

الضمير في قَوْلِهِ: «كانُوا» يَعُود على العُصاة وشِيعَة الشيطان.

وَقَوْلُهُ: «إِذْ» في نسخة: «ذا» أي: العِصيان الذي هو فِعلهم، والذَّنْب لمن؟ الجواب: للإنسان.

فالإنسان فاعلٌ بإرادة وفاعل بِقُدْرَة، ولولا الإرادة لم يَفعل، ولولا القُدرة لم يَفعل أيضًا، فهَل الإنسان -مثلًا- إذا كان لا يريد القيام، ولكنه يُريد أن يجلس، ويَبقى عند صاحِبه ليتحدث معه، هل يقوم؟ الجواب: لا، لأنه ما أراد، وكذلك لو أراد القيام، ولكن أصابه شَلَل، فهل يمكن أن يقوم؟ الجواب: لا يقوم.

إِذَنْ فِعْلُ الإنسان بإرادةٍ وقُدرة، وما دام بإرادته وقُدرته فاللَّوم عليه وَحدَه إذا عصى، فالعُصاة خائفون وَجِلُون، لأنهم يعلمون أنهم يفعلون المعصية بإرادتهم وقدرتهم، وأنَّ اللَّوْم يلحقهم.

١٥٣- فَأَرَاحَهُمْ جَهْـمٌ وَشِـيعَتُهُ مِـنَ اللَّـ ... لَـوْمِ الْعَنِيـفِ وَمَـا قَضَـوْا بِأَمَـانِ

أي قال جهم لهم: استريحوا، ولا تخافوا، لا عليكم، أنتم مُجْبَرون على هذا، هل أحدٌ منكم قَصِير يستطيع أن يرفع قامَتَه؟ أو طويلٌ يستطيع أن يُنزِل قَامَتَه؟ الجواب: لا، وهذا نَفس الشيء، استريحوا، اعصُوا، ازنُوا، اسرِقوا، اشْرَبوا الخمر، لا عليكم، لأنَّ الإنسان مُجْبَر.

وهذا الذي يقوله ابن القيم -رحمه الله- ليس تَخَيُّلًا، بل هو واقعٌ، فهُم يرون أنَّ الإنسان مُجْبَرٌ، ليس له إرادة إطلاقًا، وأظنُّ أنه قَبْلَ أن يسمع أحدٌ هذا القول الباطل، أنه لا يُظَنُّ أن تَرْسُخَ قدم إنسان على هذا القول، فكلٌّ يمشي بإرادته، يسافر بإرادته، ويُقيم بإرادته، ويقرأ بإرادته، ويمتنع بإرادته، فلا أحد يُنكر هذا.

ومع أن الجَهْمِيَّة أراحوهم مِن اللَّوْم، لكنهم ما أَمَّنُوهم مِن العِقاب، لأنَّ اللهَ سيعذبهم وهم ليس عليهم لَوْمٌ، لكن يعذبهم، لأنَّ الظُّلْم في حقه مستحيل، فهو

رتَّب العُقوبة على هذا الفِعل، وهؤلاء أُجبِروا على فِعله، وله أن يعاقبهم على شيء يُجْبَرُون عليه، لهذا قال: (**وَما قَضَوْا بِأَمَانِ**)، يعني: ما أَمَّنوهم مِن العقوبة مع أنهم مُجْبَرون.

١٥٤- لَكِـــنَّهمْ حَمَلُـــوا ذُنُـــوبَهُمُ عَـــلَى   رَبِّ الْعِبَـــادِ بِعِـــزَّةٍ وَأَمَـــانِ

١٥٥- وَتَـــبَرَّؤُوا مِنْهَـــا، وَقَـــالُوا: إِنَّهَـــا   أَفْعَالُـــهُ مَـــا حِيلَـــةُ الْإِنْسَـــانِ

يقولون - نسأل الله العافية -: إنَّ أفعالك هي أفعالُ الله، ما لك فيها حِيلَة، فأنت مُجْبَرٌ عليها، فانظر إلى هذا التناقض! يرفعون اللَّومَ عنهم، لأنهم مُجبَرون، ويُوجِبُون العِقَاب لهم، لأنه لا ظُلمَ، فالله لا يَظْلِم أحدًا، فانظر كيف التناقض؟! وكان المفروض أن يكون اللَّوْم على الله عزَّ وجلَّ، ولذلك ألزمهم به ابن القيم -رحمه الله-.

يقال: إنَّ رجلًا سارقًا قُدِّمَ إلى أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فحَكَم بِقَطْعِ يَدِه لِتَمام الشروط، وَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: الْقَدَرُ -يريد أن يحتجَّ بالقَدَر- فَضَرَبَهُ أَرْبَعِينَ سَوْطًا، وَقَالَ: «قَطَعْتُ يَدَكَ لِسَرِقَتِكَ، وَضَرَبْتُكَ لِفِرْيَتِكَ عَلَى الله»[1].

وبذلك يكون أَلْقَمَه حَجَرًا، مع أنَّ أمير المؤمنين يَقْطَع يَدَه بقَدَر الله، وشرع الله، وهو يسرق بِقَدَرِ الله، لا بِشَرْعِ الله، لكنَّ أميرَ المؤمنين عَدَل عن الحُجَّة الشرعية إلى الحُجَّة القَدَرِيَّة إلزامًا له بما أَقَرَّ به أنه سرق بِقَدَر الله، فتُقطعُ يدُه بِقَدَر الله.

(١) أخرجه الرامَهُرمُزِي في المحدث الفاصل (ص:٣١٧)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ١٦٩).

١٥٦- مَا كَلَّفَ الْـجَبَّارُ نَفْسًا وُسْعَهَا ... أَنَّى وَقَدْ جُبِرَتْ عَلَى الْعِصْيَانِ؟!

١٥٧- وَكَذَا عَلَى الطَّاعَاتِ أَيْضًا قَدْ غَدَتْ ... مَجْبُورَةً فَلَهَا إِذَنْ جَبْرَانِ

١٥٨- وَالْعَبْدُ فِي التَّحْقِيقِ شِبْهُ نَعَامَةٍ ... قَدْ كُلِّفَتْ بِالْـحَمْلِ وَالطَّيَرَانِ

١٥٩- إِذْ كَانَ صُورَتُهَا تَدُلُّ عَلَيهِمَا ... هَذَا وَلَيْسَ لَهَا بِذَاكَ يَدَانِ

١٦٠- فَلِذَاكَ قَالَ بِأَنَّ طَاعَاتِ الْوَرَى ... وَكَذَاكَ مَا فَعَلُوهُ مِنْ عِصْيَانِ

١٦١- هِيَ عَيْنُ فِعْلِ الرَّبِّ لَا أَفْعَالُهُمْ ... فَيَصِحُّ عَنْهُمْ عِنْدَ ذَا نَفْيَانِ

١٦٢- نَفْيٌ لِقُدْرَتِهِمْ عَلَيْهَا أَوَّلًا ... وَصُدُورِهَا مِنْهُمْ بِنَفْيٍ ثَانِي

الشرحُ

هذا مترتبٌ على قوله بالجَبر، فيقول الناظم -رحمه الله-:

١٥٦- مَا كَلَّفَ الْـجَبَّارُ نَفْسًا وُسْعَهَا ... أَنَّى وَقَدْ جُبِرَتْ عَلَى الْعِصْيَانِ؟!

١٥٧- وَكَذَا عَلَى الطَّاعَاتِ أَيْضًا قَدْ غَدَتْ ... مَجْبُورَةً فَلَهَا إِذَنْ جَبْرَانِ

وعلى هذا يُرفَع التكليف، إذا كان مُجْبَرًا على العصيان، وهو لا يستطيع أن يَنْفَكَّ منه، ولا طاقة له به، صار يُنفى عنه اللَّوْم.

فإن قيل: ما الفَرْقُ بين كلامِ جَهْمٍ هذا، والكلام بِوَحْدَةِ الوُجود عند الصوفية؟

الجواب: **إذا قلنا**: إنَّ أفعال العِباد هي أفعالُ الله، فهذا طريقٌ قريبٌ جدًّا إلى القول بِوَحْدَة الوجود، كما قال القائل:

وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَثْرُهُ وَنِظَامُهُ

قَوْلُهُ: «وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الوجُودِ كَلَامُه» يعني: الله عزَّ وجلَّ.

ولا شك أنَّ هذا طريق إلى وَحْدَة الوجود.

١٥٨- وَالْعَبْدُ فِي التَّحْقِيقِ شِبْهُ نَعَامَةٍ قَدْ كُلِّفَتْ بِالْحَمْلِ وَالطَّيَرَانِ

النعامة إذا رأيتَها رأيت جِسمًا كبيرًا، ورأيتَ لها جناحين، تُكَلَّف بأنْ يُحْمَل عليها كما يُحْمَلُ على البعير وتطير، فهَل هذا ممكن؟ الجواب: غير ممكن!

مثلًا: واحِدٌ عنده نَعامة، ذهبَ يُحمِّلُها أكياسًا مِن الأمتعة، ويقول: طيري، فلا تَقْدِرُ أن تَحْمِلَ، ولا أنْ تَطِير، لأنَّ العبد عند الجَهْم كالنعامة كُلِّف ما لا يستطيع، فإذا فَعَل فِعْلًا فالفاعل هو الله عزَّ وجلَّ.

١٥٩- إِذْ كَانَ صُورَتُهَا تَدُلُّ عَلَيهِمَا هَذَا وَلَيْسَ لَهَا بِذَاكَ يَدَانِ

قَوْلُهُ: «إِذْ كَانَ صُورَتُهَا تَدُلُّ عَلَيهِمَا» أي: صورتها تدلُّ على الحَمْل والطيران، فتدلُّ على الحَمْل لأنها كبيرة، وعلى الطيران، لأنَّ لها أجنحة.

وَقَوْلُهُ: «هَذَا وَليسَ لَهَا بِذَاكَ يَدَانِ» يعني: ليس لها قُوَّة.

١٦٠- فَلِذَاكَ قَالَ بِأَنَّ طَاعَاتِ الْوَرَى وَكَذَاكَ مَا فَعَلُوهُ مِنْ عِصْيَانِ

١٦١- هِيَ عَيْنُ فِعْلِ الرَّبِّ لَا أَفْعَالُهُمْ فَيَصِحُّ عَنْهُمْ عِنْدَ ذَا نَفْيَانِ

١٦٢- نَفْيٌ لِقُدْرَتِهِمْ عَلَيْهَا أَوَّلًا وَصُدُورِهَا مِنْهُمْ بِنَفْيٍ ثَانِي

يعني ينفي القُدرة فيقول: الإنسان ليس بقادرٍ على عَمَلِه، وهل هذا صحيح؟ هل هو قادرٌ على عَمَلِه، أو غير قادر؟ الجواب: هو قادر له قُدْرَةٌ، أعطاه الله إيَّاها.

وهل هو الفاعل، أو غيره؟ الجواب: هو الفاعل.

هو يقول: لا قُدرةَ، ولا فاعِلَ، لا قُدْرَة، لأنه مُجْبَرٌ، ولا فاعِلٌ، لأنَّ فِعْلَه عينُ فِعل الرَّبِّ عزَّ وجلَّ.

إِذَنْ ما هما النفيان؟ بَيَّنَهما بأنهما نفيُ القُدْرَة، ونَفْيُ صُدُورِها منهم.

* * *

١٦٣- فَيُقَالُ: مَا صَامُوا وَلَا صَلَّوْا وَلَا ... زَكَّوْا وَلَا ذَبَحُوا مِنَ الْقُرْبَانِ

١٦٤- وَكَذَاكَ مَا شَرِبُوا وَمَا قَتَلُوا وَلَا ... سَرَقُوا وَلَا فِيهِمْ غَوِيٌّ زانِي

١٦٥- وَكَذَاكَ لَمْ يَأْتُوا اخْتِيَارًا مِنْهُمُ ... بِالْكُفْرِ وَالْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ

١٦٦- إِلَّا عَلَى وَجْهِ الْمَجَازِ لِأَنَّهَا ... قَامَتْ بِهِمْ كَالطَّعْمِ وَالْأَلْوَانِ

١٦٧- جُبِرُوا عَلَى مَا شَاءَهُ خَلَّاقُهُمْ ... مَا ثَمَّ ذُو عَوْنٍ وَغَيْرُ مُعَانِ

١٦٨- وَالْكُلُّ مَجْبُورٌ وَغَيْرُ مُيَسَّرٍ ... كَالْمَيْتِ أُدْرِجَ دَاخِلَ الْأَكْفَانِ

الشرحُ

١٦٣- فَيُقَالُ: مَا صَامُوا وَلَا صَلَّوْا وَلَا ... زَكَّوْا وَلَا ذَبَحُوا مِنَ الْقُرْبَانِ

على مذهب الجبر، لا يقال: إنَّ الإنسان هو المصلِّي، وهو الصائم، وهو المزكِّي، وهو الدَّاعي، وهو المتقرِّب إلى الله بالذبح، إلَّا على سبيل المجاز، لأنَّ فاعل هذه الأشياء حقيقةً هو الله عزَّ وجلَّ نسأل الله العافية. اللهمّ ربنا لا تُزِغ قلوبنا بعد إذ هديتنا.

فليَحْمَد المسلم رَبَّه إذ لم يجعله هكذا، لأنَّ هؤلاء رجالٌ لهم قلوب، ولهم فَهْمٌ، وأذكياء، ومع ذلك ضَلُّوا هذا الضلال البعيد.

إذا قام الإنسان يصلِّي يقول: هذا غير مُصَلٍّ، فَمَنِ المُصَلِّي؟ يقول: الله عزَّ وجلَّ فنقول: لكنَّ الكُلَّ يقول: إنَّ هذا الإنسان صَلَّى، قال: هذا مَجَازٌ، فَنِسْبَة الصلاة إليه مجَاز، لأنَّها قامت به، وهي فِعل الرَّبِّ.

١٦٤- وَكَذَاكَ مَا شَرِبُوا وَمَا قَتَلُوا وَلَا سَرَقُوا وَلَا فِيهِمْ غَوِيٌّ زَانِي

١٦٥- وَكَذَاكَ لَمْ يَأْتُوا اخْتِيَارًا مِنْهُمُ بِالْكُفْرِ وَالْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ

يقول: المؤمن مَجْبُور على الإيمان، والكافر مَجْبُور على الكُفر.

١٦٦- إِلَّا عَلَى وَجْهِ الْمَجَازِ لِأَنَّهَا قَامَتْ بِهِمْ كَالطَّعْمِ وَالْأَلْوَانِ

طعمُ التَّمر حُلوٌ طَيِّب، وطعمُ الشَّرْي[1] شديد المرارة، هذا الطعم الذي قام بالتمر وبالشَّرْي متقابلان، هل هو باختيار الشَّرْي والتمر؟ الجواب: لا، هكذا فِعلُ العَبدِ، كما يقومُ الطَّعم في المطعوم، يقوم الفِعل في الفاعل بالنسبة للعبد.

١٦٧- جُبِرُوا عَلَى مَا شَاءَهُ خَلَّاقُهُمْ مَا ثَمَّ ذُو عَوْنٍ وَغَيْرُ مُعَانِ

قَوْلُهُ: «**جُبِرُوا عَلَى مَا شَاءَهُ خَلَّاقُهُمْ**» قال: (**جبروا**) لم يقل: جُبلوا، ولو قال: (**جُبلوا**) صَحَّ، فالإنسان يُجْبلُ على الخُلُق الطَّيِّب، وعلى الخُلُق الرديء، وعلى العمل الصالح، وعلى العمل السيِّء، فهذه جِبِلَّة، ولهذا لما قال النبيُّ ﷺ لأشَجِّ عبد القيس: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاةُ**». قَالَ: يَا رَسُولَ الله،

(١) الشَّرْي -بالتَّسْكين-: الحَنْظَلُ، يقالُ: هو أَحْلَى مِن الأرْي، وأَمَرُّ مِن الشَّرْي. انظر: تاج العروس، مادة: شري.

أَخُلُقَيْن تَخَلَّقْتُ بِهِمَا أَمْ جَبَلَنِي اللهُ عَلَيْهِمَا، قَالَ: «بَلْ جَبَلَكَ اللهُ عَلَيْهِمَا»، قَالَ: الحَمْدُ لله الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ(١). فأقرّ الجَبْل، لكنَّ الجبرَ لا يُقرّ.

هو يقول: إنهم مُجْبرون.

قَوْلُهُ: «مَا ثَمَّ ذُو عَوْنٍ، وَغَيْرُ مُعَانِ» يعني: لا يوجد مُعِين، ولا مُعَانٌ، فالمُعِين هو الله عزَّ وجلَّ والمُعَانُ: الخَلْق، فهو يقول: هما شيءٌ واحد، يعني: أفعال الخَلْق هي أفعالُ الله، فَعَلَيْه قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مِن قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، على زَعْمِه ليس لها فائدة، لأنَّ الفِعلَ فِعلُ الله.

١٦٨- وَالْكُلُّ مَجْبُورٌ وَغَيْرُ مُيَسَّرٍ كَالْمَيْتِ أُدْرِجَ دَاخِلَ الْأَكْفَانِ

الميت -أحسَنَ اللهُ لي ولكم الخاتمة- يُؤخذ جُثَّة مِن سَريرِ غُسله إلى أكفانه ويُدرَج، فهل هذا باختياره؟ الجواب: ليس باختياره، فهو يقول: الإنسان في أفعاله كالميت يُدْرَجُ داخل أكفانه.

لكن لو قال قائل: إنَّ الإنسان مُجْبَرٌ، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧] فما الجواب؟

الجواب أن نقول: إنَّ قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ أي: ما أَوْصَلْت مَرْمِيَّك إليه، وقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ بالفِعل، فالرسول رَمَى على وُجُوهِهم التُّرابَ وهذا فِعْل، لكن هل أَوْصَله؟ التُّراب ليس له نُفُوذٌ في الهواء كنُفُوذِ الحَجَر، ولذا فما يُوصَل، أَمَّا الحَجَر ربما يُوصِلُه الإنسان إلى ثلاثمئة ذِرَاع، لكن التراب ما يمكن.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في قبلة الرجل، رقم (٥٢٢٥)، وأصل الحديث عند مسلم: كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله، وشرائع الدين، والدعاء إليه، رقم (١٧).

إِذَنْ (رميت) الأولى بمعنى: أَوصلتَ، والثانية: (الفعل)، الثالثة «وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ»: الإيصال.

العجب أنَّ الغاز المُسَيِّل للدموع أَصْلُه هذه المسألة، وهو رَمْيُ التراب إلى عيون المشركين، لأنه لما رمى الترابَ صار كُلُّ واحدٍ مَشْغولًا بعينه، أو نقول: إنَّ الغاز المسيل للدموع مأخوذ مِن هذا، فالأصول الأصيلة تجد لها أَصلًا في الشريعة مِن قَبْلُ.

* * *

١٦٩- وَكَذَاكَ أَفْعَالُ الْمُهَيْمِنِ لَمْ تَقُمْ أَيْضًا بِهِ خَوْفًا مِنَ الْحَدَثَانِ

١٧٠- فَإِذَا جَمَعْتَ مَقَالَتَيْهِ أَنْتَجَا كَذِبًا وَزُورًا وَاضِحَ الْبُهْتَانِ

١٧١- إِذْ لَيْسَتِ الْأَفْعَالُ فِعْلَ إِلَهِنَا وَالرَّبُّ لَيْسَ بِفَاعِلِ الْعِصْيَانِ

١٧٢- فَإِذَا انْتَفَتْ صِفَةُ الْإِلَهِ وَفِعْلُهُ وَكَلَامُهُ وَفَعَائِلُ الْإِنْسَانِ

١٧٣- فَهُنَاكَ لَا خَلْقٌ وَلَا أَمْرٌ وَلَا وَحْيٌ وَلَا تَكْلِيفُ عَبْدٍ فَانِي

الشرحُ

١٦٩- وَكَذَاكَ أَفْعَالُ الْمُهَيْمِنِ لَمْ تَقُمْ أَيْضًا بِهِ خَوْفًا مِنَ الْحَدَثَانِ

أفعال المُهَيْمِن لا يصحُّ أن تُنْسَب إليه، يعني: كُلّ الصفات الفِعلية لا تُنْسَبُ إلى الله، فخَلْقُه بمعنى مَخْلُوقِه، وسَمعُه بمعنى مَسْمُوعِه، وهُلَمَّ جرًّا.

قَوْلُهُ: «خَوْفًا مِنَ الْحَدَثَانِ» يعني: خوفًا مِن أن تقوم به الحَوادث، والحوادثُ لا تقوم إِلَّا بحادثٍ، هذه قاعدتهم المهدومة، فنَفَى أيضًا أن تقوم الأفعال بالله،

وهذا مِن الغرائب، أفعال العباد بالنسبة لله أفعال الله، وأفعال الله لا تُنْسَبُ إلى الله، فهذا شيء عجيب، فانظر إلى هذا الهَذَيان الذي ما فَوْقَه هَذَيان!!

هذه المذاهب لولا أنَّ الذين ينقلونها ثقاتٌ: كابن القيم وابن تيمية -رحمهما الله- ما صَدَّقنا، لكن هم -جزاهم الله خيرًا- خَضُّوا لنا المَخِيضَ[1] فأظهروا الزُّبْد، فهم قرأوا كُتُب هؤلاء وَمَحَّصُوها وعَرَفُوها ونقلوها إلينا صافيةً، فهم -والله- ثقاتٌ، ثقاتٌ في نَقْلِهم، وثقاتٌ في فَهمهم أيضًا، لأنه ربما يُطالع الإنسانُ كتابَ شخص، ولا يعرف معناه، فَيَنقُل عنه ما لا يريد، لكنهم ثقاتٌ في النقل، وثقاتٌ في الفَهم.

فنقول: إن هذا المذهب لا يكاد يتصوّره عاقل، فضلًا عن أن يعتقده في رَبِّه.

١٧٠- فَـإِذَا جَمَعْـتَ مَقَالَتَيْـهِ أَنْتَجَـا ... كَـذِبًا وَزُورًا وَاضِـحَ الْبُهْتَـانِ

قَوْلُهُ: «كذبًا» أي: كذبًا في قولهم: إنَّ أفعالَ العباد أفعالُ الله.

قَوْلُهُ: «وَزُورًا» كذلك، وهو أقبح الكذب، ونَفيُهم أفعالَ الله عن نفسه أيضًا كذبٌ وزورٌ.

١٧١- إِذْ لَيْسَـتِ الْأَفْعَـالُ فِعْـلَ إِلَـهِنَا ... وَالـرَّبُّ لَـيْسَ بِفَاعِـلِ الْعِصْـيَانِ

١٧٢- فَـإِذَا انْتَفَـتْ صِـفَةُ الْإِلَـهِ وَفِعْلُـهُ ... وَكَلَامُـهُ وَفَعَائِـلُ الْإِنْسَـانِ

١٧٣- فَهُنَـاكَ لَا خَلْـقٌ وَلَا أَمْـرٌ وَلَا ... يَـوَحْيٌ وَلَا تَكْلِيـفُ عَبْـدٍ فَـانِي

يعني: أنَّ أفعال الله ليست فِعْلَه.

(١) مَخَضَ اللبنَ يَمْخَضُه ويَمْخِضُه ويَمْخُضُه مَخْضًا، فهو مَمْخُوضٌ ومَخِيضٌ: أَخَذ زُبْده، وَقَدْ تَمَخَّضَ، والمَخِيضُ والمَمْخُوض: الذي قد مُخِضَ وأُخذ زُبدُه. انظر: لسان العرب، مادة: مخض.

قَوْلُهُ: «**والرَّبُّ لَيْسَ بِفَاعِلِ الْعِصْيَانِ**» إذا نَفَى فِعلَ العبد وقيامَه بالعبد، وأنه قائم بالله، ثم نَفَى فِعْل الله، وقال: إنَّ الله لا تقوم به الأفعال خَوفًا مِن قيام الحوادث به، والحوادث -على زعمه- لا تقوم إلَّا بحادثٍ.

إِذَنْ انتفى فِعل الرَّبِّ عن الرَّبِّ، وانتفى فِعل العبدِ عن العبدِ، يعني أنَّ العبد لا يفعل، والرَّبّ لا يفعل، إذن لم يبقَ شيء، إذن لا شرعَ، ولا وَحْيَ، ولا قرآن، وهذا من اللوازم.

وقد تَقَدَّم في (القواعد المثلى)[1]: هل لازم المذهب مذهبٌ أو لا؟ وقلنا: أمَّا ما كان لازمًا مِن كلام الله، وكلام رسوله فهو حقٌّ، وأمَّا ما كان لازمًا مِن أقوال العلماء ومذاهبهم، فليس بمذهبٍ لهم لجَوَاز أن يلتزموا به فيكون مَذهبًا لهم، أو لا يلتزموا به، فلا يكون مذهبًا لهم، وسَبَق بيانُ سبب عدم التزامهم.

إِذَنْ هؤلاء -والعياذ بالله- نَفَوْا فِعل قيام الأفعال بالله، ونَفَوْا قيام الأفعال بالإنسان، وبذلك أبطَلوا القَدَر والشرع، وأبطلوا الحِكمة، وقد سبق أنهم لا يُثبِتون لله حِكْمةً.

فإذا كان الإنسان يفعل بغير اختياره، إذن كيف نمدحُ المُطيع، وكيف نذم العاصي؟! كيف نعاقب العاصي، وكيف نُثِيب المطيع؟! وإذا كان الله لم يَقُم به فِعلٌ، فأين كلامُه؟ وأين فِعلُه؟ وأين خَلْقُه؟ وأين تَدْبيرُه؟

إِذَنْ يلزم على قولهم نفيُ الشرائع كُلِّها، وإبطالُ القَدَر والشرع، فهُم يَرَوْن أنَّ فِعل الله هو المفعول فقط، أمَّا أن يكونَ فِعلٌ قائمٌ به فلا، فهو مخلوق بلا خَلقٍ قائمٍ بالله، واللهُ خالقٌ بلا وصفٍ قائمٍ به، بل خالق، أي: له مخلوق.

---

(١) انظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، للمصنف (ص:١٣).

هم ينكرون فِعل الله الذي هو مُتَّصِف به، وهذا أكبر تناقض

ولا شك أنَّ القول الذي لا يَقبل العقلُ سِواه هو ما دلَّ عليه الكتابُ والسنةُ، فلا شك أنَّ الله موصوفٌ بالأفعال، وأنَّ الأفعال وصفُه -سبحانه وتعالى- قائمٌ به، ولا يلزم مِن حُدوث الفِعل حُدوثُ الفاعل بلا شَكٍّ.

وهل يمكن مفعولٌ بلا فِعل؟ الجواب: أبدًا، وهل يمكن أن يوجدَ قَصرٌ مبنيٌّ بدون بِنَاءٍ مِن بَانِيه؟ الجواب: أبدًا، فالمفعول يلزم منه سَبْقُ الفِعل، وإلَّا لَـمَا حَصَل المطلوب، ونقول أيضًا: إنَّ الإنسان هو الفاعل، ولو لم يكن هو الفاعل لَكَان الرَّجل إذا زَنَى لَذَهَبْنا لواحدٍ لم يَزْنِ، لأنَّ هذا ما فعل.

فنقول: الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة هو أنَّ للإنسان فِعلًا قائمًا به يُحْمَدُ عليه وَيُذَّم، ويُثَابُ، ويُعَاقَب، ويَصِل به إلى الدرجات العُلَى، أو إلى الدَّرْك الأسفلِ مِن النار، هذا لا شكَّ فيه، وهو مقتضى العقل والشرع.

* * *

١٧٤- وَقَضَى عَلَى أَسْمَائِهِ بِحُدُوثِهَا ... وَبِخَلْقِهَا مِنْ جُمْلَةِ الْأَكْوَانِ

١٧٥- فَانْظُرْ إِلَى تَعْطِيلِهِ الْأَوْصَافَ وَالْـ ... أَفْعَالَ وَالْأَسْمَاءَ لِلرَّحْمَنِ

١٧٦- مَاذَا الَّذِي فِي ضِمْنِ ذَا التَّعْطِيلِ مِنْ ... نَفْيٍ وَمِنْ جَحْدٍ وَمِنْ كُفْرَانِ

الشرحُ

١٧٤- وَقَضَى عَلَى أَسْمَائِهِ بِحُدُوثِهَا ... وَبِخَلْقِهَا مِنْ جُمْلَةِ الْأَكْوَانِ

١٧٥- فَانْظُرْ إِلَى تَعْطِيلِهِ الْأَوْصَافَ وَالْـ ... أَفْعَالَ وَالْأَسْمَاءَ لِلرَّحْمَنِ

ابن القيم -رحمه الله- يقول: «**وَقَضَى**» يعني: جهمًا.

أسماء الله -تبارك وتعالى- قديمة تَسمَّى بها -جلَّ وعلا-، واستأثر بِعِلْم بعضها عن خَلْقه، وأظهَر ما يحتاج الناسُ إليه مِن أسمائه وعَرَّفهم بها، وهي قديمة.

والجهم يقول: أسماء الله حادثةٌ مخلوقةٌ، كما أنَّ كلامَه حادثٌ مخلوقٌ.

فعندنا الأسماء والصفات والأفعال، أمَّا الأسماء فنَفَى قِدَمَها، وقال: إن أسماء الله مخلوقة، وليست قَدِيمة، خَلَقَها كما خَلَق السموات والأرض.

وهو هنا أخطأ أو أصاب؟ الجواب: أخطأ.

فهو قال: إنَّ أسماءَ الله عزَّ وجلَّ مخلوقة، وليست قديمة بِقِدَمِه، قال: لأنَّ الاسم غير المُسَمَّى.

نقول: وهل صحيح أنَّ الاسم غيرُ المُسَمَّى؟

الجواب: إن قلت: (**نعم**) أخطأت، وإن قلت: (**لا**) أخطأت، بل فيه تفصيل:

١- إن أردت بالاسم اللفظَ الدَّالَّ على مُسَمَّاه فهو المُسمَّى، أنا إذا قلت: (**ادعُ لي زيدًا**)، فإنَّك تدعو نفْس زيد، وهو المسمَّى بهذا الاسم، فهو هو.

٢- أما إذا أُرِيد بالاسم الحروف الدالة على مُسَمَّاه، فهذا غيرُه بلا شَكٍّ، ولهذا إذا كتبت: (**زيد قام**)، وضَرَبْتَ حُروف (**زيد**) ضربًا مُبْرِحًا، **فهل** (**زيد**) الذي (**عندي**) هل يقول: أوجعتني؟ الجواب: لا، لأنَّ الاسم غير المسَمَّى، لكن لو أقول: (**ادْعُ زيدًا**)، فهذا المسمَّى لا شك، قال الله تعالى: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ﴾ [غافر:١٤] والمراد مُسَمَّى هذا الاسم، ولا يحتمل اللفظ غيره.

لكن لو قلت: (**اكتب الله**)، فالمرادُ الاسمُ، يعني: الحروف الدَّالَّة على مسمَّاه.

فعَلَى هذا هم يقولون: إنَّ أسماء الله مخلوقه، لأنها غيرُه، فتَسَمَّى الله بها بعد أن لم يكن له اسم -والعياذ بالله- فكان مُعَطَّلًا عن الأسماء والأوصاف، وعن الأفعال، فلم يَبْقَ شيء.

إِذَنْ كان عَدَمًا، ثُمَّ صار موجودًا، والعياذ بالله.

ثُمَّ أتى إلى الأوصاف فقال: لا يمكن أن يُوصفَ بِصِفةٍ، لأننا لو وصفناه بصفةٍ قديمةٍ لَزِم تَعَدُّد القُدَماء، وهذا شِرك.

فانظر كيف صَاغَهُ بِقَالَبِ التنزيه؟!

وأتى إلى الأفعال فقال أيضًا: لا يمكن أن يَفْعَل، فلا يَقْدِر أن يستويَ على العرش، ولا أن ينزل إلى السماء الدنيا، ولا أن يَخْلُق، حتى الخَلْق حَوَّلَه إلى المخلوق (المفعول) فلا فِعْل.

فهو الآن نفى الأسماء والصفات والأفعال، ماذا بقي؟ لم يَبْقَ شيء.

لكن ماذا نقول نحن في هذا الأمر في الأسماء والصفات؟

نقول: إنَّ الله لم يَزَل، ولا يَزَال بأسمائه وصفاته، فأسماؤه وصفاتُه قديمةٌ بِقِدَمِه، صحيح أنَّ أنواع الصفات الفِعلية، أو أفرادها هي التي تكون حادثةً، فمَثلًا الاستواء على العرش كان حادثًا، والنُّزول إلى السماء الدنيا حادثٌ، والكلام باعتبار آحاده حادث، أمَّا الصفات الذاتية، فهي قديمة بِقِدَمِ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ وكذلك الأسماء.

لكن انظر كيف صوَّر ابن القيم -رحمه الله وجزاه الله خيرًا، وجمعنا به في جنات النعيم- كيف صوَّر هذا؟

١٧٦- مَاذَا الَّذِي فِي ضِمْنِ ذَا التَّعْطِيلِ مِنْ نَفْيٍ وَمِنْ جَحْدٍ وَمِنْ كُفْرَانِ

قَوْلُهُ: «مَاذَا الَّذِي فِي ضِمْنِ ذَا التَّعْطِيلِ»؟ الجواب: ما الذي فيه؟ فيه كُلُّ شيء: كُفْرٌ وجَحْدٌ وتَعْطيلٌ.

* * *

١٧٧- لَكِنَّهُ أَبْدَى الْـمَقَالَةَ هَكَذَا فِي قَالَبِ التَّنْزِيهِ لِلرَّحْمَنِ

١٧٨- وَأَتَى إِلَى الْكُفْرِ الْعَظِيمِ فَصَاغَهُ عِجْلًا لِيَفْتِنَ أُمَّةَ الثِّيرَانِ

١٧٩- وَكَسَاهُ أَنْوَاعَ الْـجَوَاهِرِ وَالْـحُلَى مِنْ لُؤْلُؤٍ صَافٍ وَمِنْ عِقْيَانِ

١٨٠- فَرَآهُ ثِيرَانُ الْوَرَى فَأَصَابَهُمْ كَمُصَابِ إِخْوَتِهِمْ قَدِيمَ زَمَانِ

١٨١- عِجْلَانِ قَدْ فَتَنَا الْعِبَادَ بِصَوْتِهِ إِحْدَاهُمَا وَبِحَرْفِهِ ذَا الثَّانِي

الشرحُ

١٧٧- لَكِنَّهُ أَبْدَى الْـمَقَالَةَ هَكَذَا فِي قَالَبِ التَّنْزِيهِ لِلرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «لَكِنَّهُ أَبْدَى الْـمَقَالَةَ هَكَذَا» يعني بالنَّفْيِ.

قَوْلُهُ: «فِي قَالَبِ التَّنْزِيهِ لِلرَّحْمَنِ» يعني: جَعَل هذا مِن باب التنزيه لله عزَّ وجلَّ فقال: الأسماء حادثةٌ، ليست قديمةً فهي مخلوقةٌ، والأوصاف مُنَزَّهٌ عنها، لأنه لو كان هناك صفة لَتَعَدَّدَ القُدَماء، والأفعال لا يمكن، لأنه لو قامت به الأفعال لكانَ حَادثًا.

هذا كُلُّه لو سمعه أحد مِن العوامِّ لظَنَّ أنَّ هذا جيِّد، وأنه حقيقة، لأنه صاغه في قالَب التنزيه للرحمن.

١٧٨- وَأَتَـى إِلَى الْكُفْـرِ الْعَظِـيمِ فَصَـاغَهُ عِجْـلًا لِيَفْـتِنَ أُمَّـةَ الثِّـيرَانِ
١٧٩- وَكَسَاهُ أَنْـوَاعَ الْـجَوَاهِرِ وَالْـحُلَى مِـنْ لُؤْلُـؤٍ صَـافٍ وَمِـنْ عِقْيَـانِ

صحيح، أتى إلى الكفر الصريح وجَعَله (**عِجْلًا**)، يشير إلى عِجل بني إسرائيل حينما جَعَل السَّامِرِيُّ مِن حُلِيِّهم عِجْلًا، وجَعَل داخِلَه مُجَوَّفًا، ومِن عند فَمِه ضَيِّقًا، فصاروا يُولُّونه الرِّيح، فتأتي مِن دُبُرِه، وتخرج مِن فَمِه لها صَوتٌ، ومعروفٌ أنَّ الريحَ إذا دخلَت مِن واسعٍ، وخَرَجَت مِن ضيِّقٍ يكون لها صوتٌ.

على كل حال لعلَّه جَعَل له تعاريج، أو أشياءَ مِن صُنعه، حتى إذا خرجت مِن فَمِه صارتْ كَخُوارِ الثَّوْرِ، والذي صنَع هذا هو السَّامريُّ -قَبَّحَه الله-، صنع هذا الحُليّ عِجْلًا بَعْدَما ذَهَب موسى لميقاتِ ربِّه، واستَخْلَف عليهم هارون -عليه الصلاة والسلام-.

ونَعلم أنَّ موسى -عليه السلام- كان ميعادُه ثلاثين لَيْلَة، وأَتَمَّها الله بِعَشْرٍ، فصارت أربعين ليلة، فلما تَـمَّتِ الثلاثون ولم يَأتِ، صَنَع السامِرِيُّ هذا العِجل، وقال لهم: هذا هو إلهكم وإله موسى، لكنَّ موسى ضَلَّ، فقد ذَهَب، وتأخَّر عن الموعد الذي وَعَدَنا فَضَيَّع إلَـهَه، وهذا العِجْلُ إلـهُه، فإذا هَبَّت الريح دَخَلَت جَوْفَه، ثم خَرَجَت مِنْ ضَيِّقٍ، فصار له خُوَارٌ، قال الله تعالى: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [طه:٨٨].

الجَهْم جَعَل مقالته كَثَوْر بني إسرائيل، أَبْدَاها مُزيَّنة مُزَخْرَفةً، أعطاه الله بيانًا يتكلَّم، ويَصنع الكلام كما شاء، قد أُلين له الكلام، فأظهر هذه المقالةَ التي هي التعطيل المحض، أظهَرَها على أنها تنزيهٌ لله عزَّ وجلَّ فَقَبِلَها الثيران، وأما الرجال، فَلَم يَقْبَلُوها.

وعلى هذا فنقول: الجَهْمِيَّة كُلُّهم ثِيران، وحُقَّ لهم، بل الثيران أحسنُ منهم، قال تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤].

ونحن -والحمد لله- لا نقول: ادَّعَوْا عليه بلا بَيِّنَة، بل هذه مقالاتُه تَدُلُّ على أنهم ثِيرَانُ الوَرى.

وَقَوْلُهُ: «العِقْيَان» يعني: الذهب.

١٨٠- فَــرَآهُ ثِـيرَانُ الْــوَرَى فَأَصَــابَهُمْ كَمُصَــابِ إِخْــوَتِهِمْ قَــدِيمَ زَمَــانِ

قَوْلُهُ: «فَرَآهُ ثِيرَانُ الْوَرَى» أي: الذين لا يفهمون، فالذين تَبِعُوا هذا القولَ ثيرانٌ، لأنهم تَبِعوا هذا القول، وافتُتِنوا به، فهو أظهرَ لهم هذا القول على أنه تنزيهٌ للرَّبّ، والرَّبُّ حَاشَاهُ أن يفعل، وحَاشَاهُ أن يكون له وَصْفٌ، حَاشَاهُ أن يكون له أسماءٌ قديمة، فَأُعجبوا به، وأخذوا به، ولولا هذا ما أخذ بمقالته واحدٌ مِن الناس، لكن التَّمْوِيه.

قَوْلُهُ: «كَمُصَابِ إِخْوَتِهِمْ قَدِيمَ زَمَانِ» أي: بني إسرائيل، فهُم عَبَدُوا العِجْل، واتخذوه إلـهًا، ومع أنهم يعرفون أنه لا يَصلح أن يكون إلـهًا، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه:٨٩] فهو لا يتكلَّم، ولا يَرُدُّ عليهم، ولا يَضُرُّهم، ولا يَنْفَعُهُم، كيف يكون إلـهًا؟!

ثم قال:

١٨١- عِجْـلَانِ قَـدْ فَتَنَـا الْعِبَـادَ بِصَـوْتِهِ إِحْــدَاهُمَا وَبِحَرْفِــهِ ذَا الثَّــانِي

قَوْلُهُ: «عِجْلَانِ قَدْ فَتَنَا الْعِبَادَ» عِجْلان: العِجْلُ الأولُ: عِجلُ بني إسرائيل مِنَ الذَّهَب، والثاني: عِجْلُ الجَهْم بن صفوان مِن الكلام المُزَخْرَف والمُزيَّف،

يقول: (فَتَنَا الْعِبَادَ بِصَوْتِهِ إِحْدَاهُمَا) أيهما الذي بِصَوْتِه؟ الجواب: عِجْل بني إسرائيل.

قَوْلُهُ: «وَبِحَرفِهِ ذَا الثَّانِي» (حرفه) يعني: كلامه، فهذا بالتحريف، أي: بتحريف الكَلِم عن مواضعه، وتزويقِ الكلام الذي يَحْسَبُه الظمآنُ ماءً، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا.

فقَوْلُهُ: «ذا الثاني» يعني: جهمًا، فجَهْمٌ صاغ الكلامَ في قالَب التنزيه، والعِبادُ مَفْطُورون على تنزيه الله، لكنهم جاهلون، فَغَرَّهم هذا.

* * *

١٨٢- وَالنَّاسُ أَكْثَرُهُمْ فَأَهْلُ ظَوَاهِرٍ ... تَبْدُو لَهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلِ مَعَانِي

١٨٣- فَهُمُ الْقشُورُ وَبِالْقُشُورِ قِوَامُهُمْ ... وَاللُّبُّ حَظُّ خُلَاصَةِ الْإِنْسَانِ

١٨٤- وَلِذَا تَقَسَّمَتِ الطَّوَائِفُ قَوْلَهُ ... وَتَوَارَثُوهُ إِرْثَ ذِي السُّهْمَانِ

١٨٥- لَمْ يَنْجُ مِنْ أَقْوَالِهِ طُرًّا سِوَى ... أَهْلِ الْحَدِيثِ وَشِيعَةِ الْقُرْآنِ

١٨٦- فَتَبَرَّؤُوا مِنْهَا بَرَاءَةَ حَيْدَرٍ ... وَبَرَاءَةَ الْمَوْلُودِ مِنْ عِمْرَانِ(١)

١٨٧- مِنْ كُلِّ شِيعِيٍّ خَبِيثٍ وَصْفُهُ ... وَصْفُ الْيَهُودِ مُحَلِّلِي الْحِيتَانِ

الشرحُ

١٨٢- وَالنَّاسُ أَكْثَرُهُمْ فَأَهْلُ ظَوَاهِرٍ ... تَبْدُو لَهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلِ مَعَانِي

قَوْلُهُ: «وَالنَّاسُ أَكْثَرُهُمْ فَأَهْلُ ظَوَاهِرٍ» يعني: أكثر الناس ليس عندهم عُمق

(١) في أكثر الأصول: «عثمان».

في التفكير، ولا في العِلم، فأكثرُهم أهلُ ظواهرٍ يَغْتَرُّون بظاهر القول، ولا ينظرون إلى ما يترتب على هذا الظاهر، وهل هو حقٌّ أو باطلٌ، مُصْلِحٌ أو مُفْسِد؟ فإذا تكلَّم الفصيح ذو البَيَان بكلامٍ -ولو باطلًا- الْتبَس عليهم، فَتَجِدُهم أتباعَ كُلِّ ناعِقٍ.

قَوْلُهُ: «تَبْدُو لَـهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلِ مَعَانِي» يعني: أنهم لا يغوصون إلى المعاني، ويعرفون ما المراد بهذا الكلام، وماذا يُفْضي إليه؟

١٨٣- فَهُـمُ الْقشُـورُ وَبِالْقُشُـورِ قِـوَامُهُـمْ وَاللُّـبُّ حَـظُّ خُلَاصَـةِ الْإِنْسَـانِ

يعني: هؤلاء ليس عندهم إلَّا القُشور، وأمَّا اللُّبُّ، فهو عند خُلاصة الإنسان، وهم عبادُ الله عزَّ وجلَّ الذين يَعرِفُون الكلام، ويَعْرِفُون مُرادَه، فلا يَشْتَبِهُ عليهم.

١٨٤- وَلِـذَا تَقَسَّـمَتِ الطَّوَائِـفُ قَوْلَـهُ وَتَوَارَثُـوهُ إِرْثَ ذِي السُّـهْمَانِ

قَوْلُهُ: «وَلِذَا تَقَسَّمَتِ الطَّوَائِفُ قَوْلَهُ» الطوائف يعني: المبتدعة.

قَوْلُهُ: «قَولَهُ» أي: قول جَهْم.

قَوْلُهُ: «وَتَوَارَثُوهْ إِرْثَ ذِي السُّهْمَانِ» هذا له السُّدُس، وهذا له الرُّبُع، وهذا له الثُّمُن، وهذا له الثُّلُث... وهكذا.

فواحدٌ منهم أخذ سَهمًا، وواحدٌ أخذ سهمين، وواحد أخذ أسْهُمًا كثيرة، فمثلًا هو عَطَّل اللهَ مِن أسمائه، وعَطَّل الله مِن أوصافه، وعطَّل الله مِن أفعاله، وقال: إنَّ الإيمانَ شيءٌ واحدٌ، ولا يدخل فيه القول والعمل، وقال بالجَبر، وأنكر أنَّ للعبد اختيارًا، فهذه خمسة أشياء، والناس تَقَسَّمُوها.

فمِن الناس مَنْ أَقَرَّ بالأسماء وأنكر الصفات، مثل المُعْتَزِلَة، ومنهم مَن أَقَرَّ بالأسماء وأثبت من الصفات سبعًا، وهُم الأشاعرة، ومنهم مَن قال بأنَّ الإنسانَ مُجْبَرٌ على عَمَلِه، ولكن لا يصحُّ أن نقول: (مجبرٌ)، بل نقول: عَمَلُه كَسْبٌ له، وهو خَلْق لله، كما قالت الأشاعرة، ولهذا كان الكَسْبُ عند الأشعرِيِّ ليس له قيمةٌ أبدًا، فهو من الأشياء التي ليس لها معنى، ومنهم مَن قال: إنَّ الله تعالى لا يوصَف بالأفعال الاختيارية.

إِذَنْ أصل أهل البدع -على كلام ابن القيم هذا- هو قولُ جَهْمٍ، لكن كُلٌّ أخذ بنصيبه، هذا أخذ بهذا، وهذا أخذ بهذا.

١٨٥- لَمْ يَنْجُ مِنْ أَقْوَالِهِ طُرًّا سِوَى ... أَهْلِ الْحَدِيثِ وَشِيعَةِ الْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «**طُرًّا**» بمعنى: جميعًا، يعني لم يَنْجُ أحدٌ مِن أقواله إلَّا أهلُ الحديث وشيعة القرآن، يعني: أهل الحديث والقرآن.

قَوْلُهُ: «**وَشِيعَةِ الْقُرْآنِ**» يعني: أصحابَه المتشيعين له.

١٨٦- فَتَبَرَّؤُوا مِنْهَا بَرَاءَةَ حَيْدَرٍ ... وَبَرَاءَةَ الْمَوْلُودِ مِنْ عِمْرَانِ

قَوْلُهُ: «**فَتَبَرَّؤُوا مِنْهَا**» أي: مِن أقواله.

قَوْلُهُ: «**بَرَاءَةَ حَيْدَرٍ**» تبَرَّأَ أهلُ الكتاب والسُّنَّة مِن هذه الأقوال براءةَ حَيْدَرٍ، و(حَيْدَر) لَقَبٌ لعليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحَيْدَر اسمُ الأَسَدِ، وكان يقول حينما بَارَزَ مَرْحَبًا اليهوديَّ: «أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَهْ»[1].

وَقَوْلُهُ: «**بَرَاءَةَ حَيْدَرٍ**» أي: مِن دَمِ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإن كان أهلُ الباطل

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي قرد وغيرها، رقم (١٨٠٧).

اتَّهَمُوا عَلِيًّا بأنه قد تَـمَالَأ مع الذين قَتلوا عثمان، وهو بريء منه بلا شَكٍّ، بل إنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ممن استأذن أن يُدافِع عن عثمان، ولكنه لم يأذن له، فهو مُتَبَرِئٌ مِن دَم عثمان، إذن براءةُ حَيْدَرٍ مِن دَمِ عثمان، وكذا بَراءَة عَلِيٍّ مِن الرَّفْض.

قَوْلُهُ: «وَبَراءَةَ الْـمَوْلُودِ مِنْ عِمْرَانِ»، عندي: يعني بالمولود مِن عِمْرَانَ، يعني موسى بن عِمْران -عليه الصلاة والسلام- حين تَبَرَّأ مِن عُبَّاد الْعِجْل، أو حين بَرَّأه الله تعالى مما وَصَفَه به اليهود مِن أنه آدَرُ، والآدَرُ: عَظِيمُ الخِصْيَة، وهو عَيْبٌ ومَرَضٌ.

أراد الله -سبحانه وتعالى- أن يُظهر براءته، فوضَع ثَوْبَه على حَجَر، وجعل يغتسل، فطار الحَجَرُ بِثَوْبه، فَجَعَل يسعى وراءه، ويقول: «ثَوْبِي حَجَرُ، ثَوْبِي حَجَرُ». حتى وصل إلى مَلَأ بني إسرائيل، فرأوا الرجل عُريانًا، فشاهدوا موسى، فإذا هو بريء، ليس فيه شيء[1]، والبراءة هي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾ [الأحزاب:٦٩]، وجَعَل يَضْرِبُ الحَجَر، كيف يَضرْبُه وهو جماد؟

لأنه فَعَلَ فِعْلَ المُختَار المُرِيد، فجَعَل يضربه، ولذلك كنا مع الصبيان إذا عَثَرَ الصبيُّ بالحَجر جَعَلْنا نَضْرِب الحَجَر، حتى تَطِيبَ نَفْسُه، لأنَّ الصبي يعتقد أنَّ الحَجَر اعتدى عليه، فتَجِدُه يَصيح، فإذا قُلتَ: ضربناه مرتين أو ثلاثًا، سَكَت الصَّبِيُّ، لأنه أُخِذَ له بالحقِّ.

فقَوْلُهُ: «وَبَرَاءَةَ الْـمَوْلُودِ مِنْ عِمْرَانِ» يَحْتَمِل هذا وهذا، فإنْ نَظَرْنَا إلى أنَّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى -عليهما السلام- رقم (٣٢٢٣)، ومسلم: كتاب الحيض، باب جواز الاغتسال عريانا في الخلوة، رقم (٣٣٩).

القرآن قال: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ [الأحزاب:٦٩] قلنا: إنَّ الأَوْلى أن يُحتَمَل على براءته مما عابوه به، حيث قالوا: إنه آدَرُ، وإن نَظَرْنَا إلى سِياقِ الكلام الأول (مسألة العِجْل)، قلنا: إنه تبرَّأ مِن عِبادَتِهم العِجْلَ كما تَبَرَّأ أهلُ السُّنَّة مِن عِجْل جَهْمٍ.

١٨٧- مِـنْ كُـلِّ شِـيعِيٍّ خَبِيـثٍ وَصْـفُهُ وَصْـفُ الْيَهُـودِ مُحَلِّـلِي الْحِيتَـانِ

قَوْلُهُ: «**شِيعِيٍّ**» الشيعيُّ هو الذي يَغْلُو في عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأهلِ البيت، ويَدَّعون أنهم شيعةُ أهل البيت، والحقيقةُ أنهم ليسوا شيعةَ أهل البيت، وأنَّ أهلَ البيت بَريئون مما هم عليه.

ولهذا يُذكر أنَّ بعض أتباع عَبْدِ الله بْنِ سبأ[١] لـمَّا خاطب عليَّ بن أبي طالب، وقال له: أنت الله، أمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالأخاديد فَخُدَّتْ، وبالحَطَب فَجُمِع، وبالنار فَأُضْرِمت، ثم جعل يُلْقِيهم في النار، لأنَّ فَعْلَتَهُم فَعْلَةٌ عَظِيمة شنيعة، فعذَّبهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالنار، وقال: يذوقون نار الدنيا قَبل نار جهنم، ولَمَّا بلغ ذلك عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا انتقده، وقال: لو كنت مكانه لقتلتهم، لأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ**»[٢]. ولـمَا أحرقتهم، لأنَّ النَّبيَّ -عليه الصلاة والسلام- نَهَى أَنْ يُعَذَّبَ بِالنَّارِ[٣].

فبلغ ذلك عليَّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال: «وَيْحَ ابْنِ أُمِّ الْفَضْلِ، إِنَّهُ

---

(١) هو عبد الله بن سبأ، مِن غُلاة الزَّنادقة، ضالٌّ مُضِلٌّ، زعم أن القرآن جزء مِن تسعةِ أجزاء، وعِلْمه عند علي، فنهاه علي بعد ما هم به. انظر ترجمته في: الفتنة ووقعة الجمل، لسيف بن عمر الأسدي التَّميمي (ص:٤٨)، وتاريخ الطبري (٤/ ٣٤٠)، وميزان الاعتدال للذهبي (٢/ ٤٢٦).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب لا يعذب بعذاب الله، رقم (٣٠١٧).
(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٤، رقم ١٦٠٧٨)، وأبو داود: كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار، رقم (٢٦٧٣).

لَغَوَّاصٌ عَلَى الْـهَنَاتِ»[١]. يعني: على الزَّلَّة.

ولكنَّ عليًّا فعل ذلك بتأويلٍ لِعِظَم بِدْعَتِهم، والعياذ بالله.

فعليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بريء مِن الشيعة براءةً كاملة، ولو أنه خرج لقاتلهم.

وهؤلاء الشيعة يُشْبِهُون اليهود في الحِيَل والمَكْر، وليسوا شيعةً لآل البيت.

أمَّا شيعة آل البيت حقيقةً، فهُم أهلُ السُّنة الذين يُنْزِلُونهم منزلتهم، ويعرفون حَقَّهم وفَضْلَهم، ولا يجعلون لهم حظًّا مِن الرُّبوبية، أو تَدْبيرِ الخَلْق، كما يزعم غُلاتهم ذلك.

* * *

(١) أخرجه البيهقي (٨/ ٣٥١) رقم (١٦٨٥٨).

فصــل

في مُقَدِّمَةٍ نَافِعَةٍ قَبْلَ التَّحْكِيم

١٨٨- يَـا أَيُّهَـا الرَّجُـلُ الْـمُرِيدُ نَجاتَـهُ ... اسْـمَعْ مَقَالَـةَ نَاصِـحٍ مِعْـوَانِ

١٨٩- كُـنْ فِي أُمُـورِكَ كُلِّـهَا مُتَمَسِّـكًا ... بِـالْوَحْيِ لَا بِزَخَـارِفِ الْـهَذَيَانِ

١٩٠- وَانْصُـرْ كِتَـابَ الله وَالسُّـنَنَ الَّتِـي ... جَاءَتْ عَـنِ الْـمَبْعُوثِ بِالْفُرْقَـانِ

١٩١- وَاضْرِبْ بِسَيْفِ الْوَحْيِ كُلَّ مُعَطِّلٍ ... ضَرْبَ الْـمُجَاهِدِ فَـوْقَ كُـلِّ بَنَـانِ

١٩٢- وَاحْمِلْ بِعزْمِ الصِّدْقِ حَمْلَـةَ مُخْلِصٍ ... مُتَجَـــرِّدٍ لله غَـــيْرِ جَبَـــانِ

١٩٣- وَاثْبُتْ بِصَبْرِكَ تَحْتَ أَلْوِيَةِ الْـهُدَى ... فَـإِذَا أُصِـبْتَ فَفِـي رِضَى الـرَّحْمَنِ

١٩٤- واجْعَـلْ كِتَـابَ الله وَالسُّـنَنَ الَّتِـي ... ثَبَتَتْ سِـلَاحَكَ ثُـمَّ صِـحْ بِجَنَـانِ

١٩٥- مَــنْ ذَا يُبَــارِزُ فَلْيُقَــدِّمْ نَفْسَــهُ ... أَوْ مَــنْ يُسَـابِقْ يَبْـدُ فِي الْـمَيْدَانِ

١٩٦- وَاصْدَعْ بِمَا قَالَ الرَّسُولُ، وَلَا تَخَفْ ... مِـنْ قِلَّـةِ الْأَنْصَـارِ وَالْأَعْـوَانِ

١٩٧- فَــاللهُ نَــاصِرُ دِينِــهِ وَكِتَابِــهِ ... وَاللهُ كَــافٍ عَبْــدَهُ بِأَمَــانِ

١٩٨- لَا تَخْشَ مِنْ كَيْدِ الْعَـدُوِّ وَمكْـرِهِمْ ... فَقِتَالُــهُمْ بِالْكِــذْبِ[1] وَالْبُهْتَــانِ

١٩٩- فَجُنُــودُ أَتْبَــاعِ الرَّسُـولِ مَلَائِـكٌ ... وَجُنُــودُهُمْ فَعَسَــاكِرُ الشَّــيْطَانِ

---

(١) في نسخة برلين: «بالزور»، وكذا في نسخة الحلبي.

٢٠٠- شَتَّانَ بَـيْنَ الْعَسْـكَرَيْنِ فَمَـنْ يَكُـنْ مُتَحَيِّــرًا[1] فَلْيَنْظُــرِ الْفِئَتَــانِ

٢٠١- وَاثْبُتْ وَقَاتِلْ تَحْتَ رَايَاتِ الْــهُدَى وَاصْــبِرْ، فَنَصْــرُ اللهِ رَبِّــكَ دَانِ

٢٠٢- وَاذْكُرْ مَقَـاتِلَهُمْ لِفُرْسَانِ الْــهُدَى للهِ دَرُّ مُقَاتِــــلِ الْفُرْسَــــانِ

٢٠٣- وَادْرَأْ بِلَفْظِ النَّصِّ فِي نَحْـرِ الْعِـدَى وَارْجُمْهُــمُ بِثَوَاقِــبِ الشُّــهْبَانِ

٢٠٤- لَا تَخْشَ كَثْرَتَهُمْ، فَهُمْ هَمَجُ الْـوَرَى وَذُبَابُــهُ، أَتَخَــافُ مِــنْ ذِبَّــانِ؟!

٢٠٥- وَاشْغَلْهُمُ عِنْدَ الْـجِدَالِ بِبَعْضِـهِمْ بَعْضًــا فَـذَاكَ الْــحَزْمُ لِلْفُرْسَـانِ

٢٠٦- وَإِذَا هُـمُ حَمَلُـوا عَلَيْـكَ فَـلَا تَكُـنْ فَزِعًــا لِــحَمْلَتِهِمْ وَلَا بِجَبَــانِ

٢٠٧- وَاثْبُـتَ وَلَا تَحْمِـلْ بِـلَا جُنْـدٍ فَـمَا هَـذَا بِمَحْمُـودٍ لَـدَى الشُّـجْعَانِ

الشـرحُ

لـمَّا ذكر -رحمه الله- ما ذَكَرَ مِن قواعد أهل البِدَع، عَقَدَ فَصْلًا للتَّحْكيم، فقال -رحمه الله-:

١٨٨- يَـا أَيُّهَـا الرَّجُـلُ الْـمُرِيدُ نَجَاتَـهُ اسْـمَعْ مَقَالَــةَ نَاصِــحٍ مِعْـوَانِ

فهو يخاطب الرَّجل، لأنَّ الرجلَ هو محلُّ الخطاب، لِعِلْمِه بما يُحْتَرم وما يُقبَل.

قَوْلُهُ: «الـمُرِيدُ نَجَاتَهُ» أي: مِن النار، ومِن البدع.

قَوْلُهُ: «اسْمَعْ مَقَالَةَ نَاصِحٍ مِعْوَانِ» أي: ناصح لك، مُعِينٌ لك، فهو مِن أهل المُعاوَنَة والمساعدة.

(١) وفي نسخة: «متحيزًا» بزاي.

فإذا قال قائل: أليس في هذا مَدْحٌ لنفسه وتزكيةٌ لـها؟ الجواب: أنه -رحمه الله- لم يُرِد بهذا أن يُثْنِيَ الناسُ عليه، لكن يريد مِن هذا أن يَقْبَلَ الناسُ الحقَّ، ونَظِير هذا قول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا هُوَ أَعْلَمُ بِكِتَابِ الله مِنِّي، تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ، لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ»[1]. فهو لم يَقْصِد أن يَمْدَح نَفْسَه، بل قصدُه أن يُقْبِل الناسُ عليه، ويأخذوا منه، ولهذا بعضُ العلماء يمدح مُؤَلَّفَهُ ليُقْبِلَ الناسُ عليه.

أرأيتم ابن مالك -رحمه الله[2]- في الألفية ماذا قال؟ قال:

تُقَرِّبُ الْأَقْصَى بِلَفْظٍ مُوجَزِ   وَتَبْسُطُ الْبَذْلَ بِوَعْدٍ مُنْجَزِ
وَتَقْتَضِي رِضًى بِغَيْرِ سُخْطِ   فَائِقَةً أَلْفِيَّةَ ابْنِ مُعْطِ

فليس قصدُه بهذا أن يمدحه الناس، بل قصدُه أن ينتفعَ الناسُ بها، فَفَرْقٌ بين شخص يُزَكِّي نَفْسَه ليُمْدَح، وشخص يقول عن نَفْسِه ما يوجب أن يَقْبَل الناس الحقَّ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه -رضي الله تعالى عنهما-، رقم (٢٤٦٣).

(٢) هو محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك العلَّامة جمال الدين أبو عبد الله الطائي الجِياني الشافعي النحوي نزيل دمشق، إمام النحاة وحافظ اللغة، قال الذهبي: ولد سنة ستمئة، أو إحدى وستمئة، وسمع بدمشق من السخاوي والحسن بن الصباح وجماعة، وأخذ العربية عن غير واحد، وجالس بحلب ابن عمرون وغيره، وتصدر بها لإقراء العربية، وصرف همته إلى إتقان لسان العرب، حتى بلغ فيه الغاية، وحاز قصب السبق، وأربى على المتقدمين، وكان إمامًا في القراءات وعللها، وأما اللغة فكان إليه المنتهى في الإكثار من نقل غريبها، والاطلاع على وحشيها، وأما النحو والتصريف فكان فيهما بحرًا لا يجارى، وحبرًا لا يبارى، وأما أشعار العرب التي يستشهد بها على اللغة والنحو، فكانت الأئمة الأعلام يتحيرون فيه، ويتعجبون من أين يأتي بها. انظر: بُغية الوُعاة في طبقات اللغويين والنحاة (١/ ١٣٠).

فابن القيم -رحمه الله- لا يريد أن يزكِّي نَفْسَه بقوله: (مَقَالَةَ نَاصِحٍ مِعْوَانِ)، إنما أراد حثَّ الناس على أن يَقْبَلُوا ما يقوله مِن الحقِّ.

١٨٩- كُـنْ فِي أُمُـورِكَ كُلِّـهَا مُتَمَسِّـكًا بِـالْوَحْيِ لَا بِزَخَـارِفِ الْـهَذَيَانِ

قَوْلُهُ: «فِي أُمُورِكَ كُلِّـهَا» أي: العَقِيدة، والخُلُق، والعِبادة، والمُعاملة، كل أمورك حتى لِباسك، وأَكْلك، وشُربك، كن متمسكًا بالوحي الشامل للكتاب والسُّنَّة، لا بزخارف الـهَذَيان.

١٩٠- وَانْصُـرْ كِتَـابَ الله وَالسُّـنَنَ الَّتِـي جَاءَتْ عَـنِ الْـمَبْعُوثِ بِالْفُرْقَـانِ

قَوْلُهُ: «وَانْصُرْ كِتَابَ الله» أي: بالدفاع عنه، وبيانِ أحكامه وأسراره ومَعانيه، لأنَّ هذا نَصْرُ القرآن، وليس النَّصْرُ أن تَتْلُوَه فقط، بل نَصْرُهُ أن تَذُبَّ عنه، وتُبيِّن أحكامَه وأسرارَه، وما فيه مِنَ البَدَائِعِ العظيمة.

كذلك «السُّنَنَ الَّتِي جَاءَتْ عَنِ الْـمَبْعُوثِ» وهذا يعني أنه لا بُدَّ أن نتأكد مِن أن السُّنَّة جاءت عن النبيِّ ﷺ، وليس كُلُّ ما يُنْسَبُ إليه يكون صحيحًا، بل لا بُدَّ أن تبحث أولًا عن سَنَدِها، فإذا صَحَّ فانظر في المتن، ثم انصر ما جاء عن الرسول -عليه الصلاة والسلام-.

١٩١- وَاضْرِبْ بِسَيْفِ الْوَحْيِ كُلَّ مُعَطِّلٍ ضَرْبَ الْـمُجَاهِدِ فَـوْقَ كُـلِّ بَنَـانِ

قَوْلُهُ: «وَاضْرِبْ بِسَيْفِ الوحْيِ» وإذا ضربتَ بِسَيْفِ الوحي، فهل أنت غالبٌ، أو مغلوب؟ الجواب: غالب، والدليل على هذا قولُ الله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء:١٨].

انظر إلى هذه الكلمات العظيمة ﴿نَقْذِفُ﴾ أي: نرمي بِشِدَّة ﴿عَلَى ٱلْبَٰطِلِ

﴿فَيَدۡمَغُهُۥ﴾ أي: يصيبه في أُمِّ دِمَاغِه، وهل يَبقى حيًّا، أو يموت في الحال؟ الجواب: يموت في الحال، ولهذا جاءت (الفاء) و(إذا) الفُجَائِيَّة، قال: ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ ولم يقل: فإذا هو يَزْهَقُ، فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: يموت في الحال، والقائل هو الله عزَّ وجلَّ الذي وَعْدُه صِدْقٌ، وقولُه حقٌّ، وهو عزَّ وجلَّ قادر على هذا.

فهو -رحمه الله- هنا يأمرنا أن نَضرب بِسَيْف الوحي كُلَّ مُعَطِّل، وما أَعْظَمَه مِن سَيْف!، وما أَبْتَرَهُ لِلبَاطِل، وأَقْطَعَه له!

قَوْلُهُ: «فَوْقَ كُلِّ بَنَانِ» هذا مأخوذٌ مِن قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢] يعني: حتى الأصابع قَطِّعوها قِطَعًا قِطَعًا.

لكن إذا قال قائل: إننا نجد مَنْ يرمي بالحَقِّ على الباطل، ولكن لا يحصل هذا؟

نقول: العِلَّةُ ليست بِالسِّلاح، بل العِلَّة بِحَامِل السِّلاح، وليس كلُّ مَنْ حَمَل السَّيفَ يَقْتُل به، فالجَبَان إذا كان معه السيف، وجاءه العدو، فماذا يكون موقفه؟

الجواب: يرتعش ويرتعش ويسقط السيف منه! أما الشجاع لو كان معه عصا لم يَهَبْ سَيْفَ الأعداء، فالواقعُ أنَّ السلاح بِحَامِلِه، وإِلَّا فالقرآنُ هو القرآن، والسُّنة هي السُّنة، والحقُّ هو الحقُّ، والباطل هو الباطل، لكنَّ العِلَّة بالفاعل.

يقول -رحمه الله-:

١٩٢- وَاحْمِلْ بِعزمِ الصِّدْقِ حَمْلَةَ مُخْلِصٍ مُتَجَــرِّدٍ لله غَــيْرِ جَبَــانِ

يأمرنا -رحمه الله- أن نحمل بِعَزْمِ الصدق حَملةَ مُخلص مُتَجَرِّد لله لا لِلْهوى، ولا لأن يكون قولُه هو الأعلى، لكن مُتَجَرِّد لله عزَّ وجلَّ.

والذي يحمل بِنِيَّةٍ خالصة، وعَزِيمَةٍ صادقة لله عزَّ وجلَّ فإنه لا يَهَاب، لأنَّ آخر ما يمكن أن يُفْعَلَ به أن يُقتل، وإذا قُتِل فهو في سبيل الله، ينتقل مِن دار الشقاء والكَدَرِ والأذى إلى دار النعيم، فهو لا يبالي، مِثْل ما كَتَبَ خَالِد بن الوليد إِلَى هُـرْمُزَ ملك فارس: «جِئْتُكَ بِقَوْمٍ يُـحِبُّونَ الْـمَوْتَ كَمَا تُحِبُّونَ الْـحَيَاةَ»[1]. فهذه كلمة عظيمة، يعني: نحن نُحب الموتَ في سبيل الله كما تحبون الحياة، يعني: فلا نبالي.

وابن القيم -رحمه الله- يقول:

١٩٣- وَاثْبُتْ بِصَبْرِكَ تَحْتَ أَلْوِيَةِ الْـهُدَى ... فَـإِذَا أُصِـبْتَ فَفِـي رِضَى الـرَّحْمَنِ

ويأمر كذلك بالصبر تحت أَلْوِيَة الهدى.

وَقَوْلُهُ: «أَلْوِيَةِ» جمع لواء، وهي الأعلام، فهو يقول: اثبت، فإذا قُدِّر أنك أُصبت، فذلك في رضى الرحمن، والإصابةُ في رضى الرحمن هي -في الحقيقة- ليست إصابة، بل هي غايةُ ما يَتَمَنَّاه الإنسان، فإذا أُصيب في الله، وفي رِضى الله، فهو لم يُصَب في الواقع، بل حصل له الأجر والفضل.

وهذا الشطر الأخير (فَإِذَا أُصِبْتَ فَفِي رِضَى الرَّحْمَنِ) يجب أن يكون عند قلب كُلِّ إنسان.

واعلم أنَّ الداعيَ إلى الله لا بُدَّ أن يَنالَه أَذًى، إما بالقول، وإما بالفعل، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١] فكُلُّ نبيٍّ له عدوٌّ مِن المجرمين، وكُلُّ مَن وَرِث الأنبياء فَلَه عدوٌّ مِن المجرمين، فلا بد مِن أَذِيَّة، لا بُدَّ مِن مُضايقةٍ تسمعها بأُذُنِك، أو تُخْبَرُ عنها، ولكن ما الموقف؟ إنَّ كل ما

(١) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ٣٤٨).

يصيب الإنسان مِن ذلك فهو في رِضَى الله عزَّ وجلَّ ولذا لما دَمِيَتْ أُصْبُعُ النبيِّ ﷺ ماذا قال؟ قال: «هَل أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ، وَفِي سَبِيلِ الله مَا لَقِيتِ»[1].

ما دام الإنسان يناله الأذى لقيامِه بأمر الله فلْيَبْشَر بالخير، فإنَّ هذا مِن منازل الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-.

ولا تكن كالذين قال الله فيهم: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت:١٠] وارتَدَّ، لكن اثبُت!

١٩٤- واجْعَلْ كِتَابَ الله وَالسُّنَنَ الَّتِي ثَبَتَتْ سِلَاحَكَ ثُمَّ صِحْ بِجَنَانِ

قَوْلُهُ: «بِجَنَانِ» في نسخة بـ «بِجَبَانِ»، وعندي لو كانت «بِجَبَان» لكانت أَوْضَح، يعني: صِح بِالجُبَنَاء، فتقول: مَن ذا يُبارِز، لأن (صِحْ بَجَنَان) أي: صِحْ بالقَلْب، فتحتاج إلى تأويل، أي: صِحْ بلسانك صيحةً خارجةً مِن قَلْبِك.

على كل حالٍ، إذا كانت النسخة هكذا حَسَبَ تأليف المؤلف لهذه القصيدة، فمعنى (صِحْ بجَنَان) أي: صِحْ صيحةً نابعةً مِن جَنَانِك، أي: مِن قَلْبِك، وإن كانت (بِجَبَانِ) فالأمر واضح، لأنَّ الإنسان إذا صاح بالجُبَنَاء تفرّقوا بمجرد صَيْحَتِه.

ولذا يُذْكَر عن بعض الشُّجْعان أنه كان إذا كَرَّ على العدوِّ وصاح، تمزَّقت الفُرسان، تمزَّقوا بمجرد صَيْحَتِه، حتى إنَّ بعض الفُرسان يقولون: نَفْسُ الفَرَس تَخِرُّ مِن صَيحَةِ هذا الرجل الشجاع.

والمعنى: اجعل القرآن والسُّنَّة السلاح.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من ينكب في سبيل الله، رقم (٢٦٤٨)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين، رقم (١٧٩٦).

قَوْلُهُ: «**ثُمَّ صِحْ**» يعني: اصرُخ بهما بالجَبان، وماذا تكون حال الجبان، هل الصُّمُود أو الهَرَب؟ الجواب: الهَرَب، فلا يُمكِن أن يبقى ما دام سلاحُك الكتابَ والسُّنَّة، وعندك القُوَّة: قُوَّة العزيمة، وقُوَّة الإرسال، فاعلم أنه لن يبقى أمامك أحد.

فهو إذن يقول: اجعل سلاحَك شيئين: كتاب الله والسنن التي ثَبَتَت، وليس كُلُّ سُنَّة تُقَال، بل السُّنَن التي ثَبَتت، لِجَعْلِها هي السلاح، ثم صِحْ بهؤلاء الجُبناء قائلًا: مَنْ يبارز؟ وهل يستطيع أحد أن يبارز مَنْ سِلاحُه كتابُ الله، وسُنة رسوله ﷺ، وهذا المبارز سلاحُه الهَذَيان والكَذِب والفِرْية والدَّجَل والزخارف، هل يستطيع أو لا؟ الجواب: لا يستطيع أبدًا، فآيةٌ مِن كتاب الله تُحطِّمُ كُلَّ ما جاء به مِن هذه الزخارف، حتى تُبيدَها.

١٩٥- مَـــنْ ذَا يُبَـــارِزُ فَلْيُقَـــدِّمْ نَفْسَـــهُ   أَوْ مَـــنْ يُسَـــابِقْ يَبْـــدُ فِي الْـــمَيْدَانِ

قَوْلُهُ: «**مَنْ ذَا يُبَارِز**» يعني: صِحْ بالجَبان، وقل: (**مَنْ ذَا يُبَارِزُ فَلْيُقَدِّمْ نَفْسَهُ**)، (**أَوْ مَنْ يسَابِقْ يَبْدُ فِي الميدَانِ**».

ومعنى المُبَارَزة: الخُروج، مِن بَرَزَ يَبْرُزُ إذا خَرَجَ، وكان مِن عادتهم أنه إذا التقى الصَّفَّان طلب الشُّجعان مِن عدوهم أن يُبَارِزوهم، والفائدة مِن المُبارزة أنه إذا غُلِبَ المُبارِز مِن العدُوِّ انكسرت شَوْكَتُه، وأصابهم الرُّعْبُ والهَلَع، وهذا شيء معروف في مسالك المجاهدين.

ذكر الفقهاء أنَّ أمير المؤمنين عليَّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طلب مبارزته مِن العدُوِّ عمرو بن عبد وُدّ مِن المشركين، فلما أقبل عمرو بن عبد وُدّ على عليٍّ صاح فيه عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قائلًا: «مَا خَرَجْتُ لأُبارِزَ رَجُلَيْن». وهل هو صادق، أو غير صادق؟

الجواب: نعم، صادق، فهو خرج ليُبَارز واحدًا، انظر إلى الذكاء! فالتفت عمرو ابن عبد وُدّ، وظنَّ أنَّ وراءهَ واحدًا، فلمَّا التفت أخذ رأسه[١]، والحَرْبُ خَدْعَةٌ، ولكن أين الذي يكون حاضِرَ الكلام في مِثل هذا الضِّيق؟!

وَقَوْلُهُ: «مَنْ يُسَابِقُ» (من) استفهامية، ويُشكل على هذا قوله: (يَبْدُ فِي الميدَانِ)، حيث حَذَف حَرْفَ العِلَّة، وحَذْفُ حِرْف العِلَّة إنما يكون عند الجَزْم، وإذا جُزِمَت (يَبْدُو) وهي جواب (مَنْ) تَرَجَّح أنها شَرْطٌ، لكن لا مانع أن نقول: إنه يَجُوز حذفُ حَرْفِ العِلَّة مِنْ أَجْلِ استقامة الوزن.

١٩٦- وَاصْدَعْ بِمَا قَالَ الرَّسُولُ، وَلَا تَخَفْ   مِـــنْ قِلَّـــةِ الْأَنْصَـــارِ وَالْأَعْـــوَانِ

أُمِرْنا أن نَصْدَع بما قال الرسول -عليه الصلاة والسلام- وألَّا نخافَ مِن قِلَّة الأعوان والأنصار، حتى لو كنتَ وحدَك، نعم اصدع بما قال النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام- ولا تَخَفْ مِن قِلَّةِ الأنصار، بل لا تَخَفْ مِن كَثْرَةِ مَنْ يقومُ عليك، ويكون ضِدَّك، فالصادع بما قال الرسول إمّا أن يجد ناصرًا، أو لا يَجِد ناصرًا، أو يَجِد مُعارِضًا.

فالأول: الذي يجد الناصر واضح أنه سيصدع، لأنَّ لديه مَنْ يعينه.

الثاني: الذي لم يجد لا هذا ولا هذا، بل وجد مُعْرِضًا هذا أيضًا قد يكسل إذا رأى أنَّ ما صدع به من قول الرسول لم يلتفت إليه أحد.

الثالث: الذي وَجَدَ المُعَارِض الذي يقابله، وينابذه، ويُضيِّقُ عليه، ويأتي ضدَّه بِادِّعاءات، ولكن كل هذا يجب أن يكون لا شيء أمام الإنسان، وهذا لا يعني

---

(١) والحديث أخرجه الحاكم (٣/ ٣٤، رقم ٤٣٢٩)، ومن طريقه البيهقي (٩/ ٢٢٢، رقم ١٨٣٥٠).

أنه في العقائد فقط، بل في العقائد، والأحكام الفقهية، والآداب، والأخلاق، وكُلِّ شيء اصدع بها قال الرسول ﷺ قولًا وفعلًا، ولا تخف من قلة الأنصار والأعوان، فالناس أمامك إما مساعد أو مُعْرِض أو معارِض، فلا تُبالِ بهذا، حتى لو لم يكن أمامك إلَّا المُعْرِض والمُعارِض، فلا يهمنَّك.

١٩٧- فَـــاللهُ نَـــاصِرُ دِينِـــهِ وَكِتَابِـــهِ   وَاللهُ كَـــافٍ عَبْـــدَهُ بِأَمَـــانِ

وصدق -رحمه الله- فالله ناصرٌ دينَه، وناصرٌ كتابَه، و(**كَافٍ عَبْدَهُ بأَمَانٍ**)، لكن متى يكفيه؟ الجواب: إذا توكَّل عليه، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

١٩٨- لَا تَخْشَ مِنْ كَيْدِ الْعَـدُوِّ وَمكْـرِهِمْ   فَقِتَالُـــهُمْ بِالْكِـــذْبِ وَالْبُهْتَـــانِ

يقول: لا تخشَ مِن كيد هؤلاء ومَكْرِهم، لأنهم يُقاتِلون بالكذب والبُهتان والزخارف المُموَّهَة الباطلة لكنَّ هذا -أي: عدم الخشية مِن كيدهم ومَكرهم- يحتاج إلى هِمَّة قوية، وعزيمة صادقة.

١٩٩- فَجُنُـــودُ أَتْبَـــاعِ الرَّسُـــولِ مَلَائِـــكٌ   وَجُنُـــودُهُمْ فَعَسَـــاكِرُ الشَّـــيْطَانِ

ويقول: وجنود هؤلاء عساكر الشيطان، أما جنود أتباع الرسول فهم ملائكة الرحمن كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال:١٢] فالملائكة تُثبِّت عبادَ الله وتُؤيِّدُهم، ولهذا كان الرسول -عليه الصلاة والسلام- يقول لحسان بن ثابت وهو ينشد: «**اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٠٤٠)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٤٨٥).

ولهذا يجد الإنسان عند الجهاد بالعِلم والبيان، يجد إلهامًا لا يجده في حال السَّعة، وذلك بتَثْبِيت الملائكة له، وفَتْحِ أبواب العِلم.

٢٠٠- شَتَّانَ بَيْنَ الْعَسْكَرَيْنِ فَمَنْ يَكُنْ مُتَحَيِّرًا فَلْيَنْظُرِ الْفِئَتَانِ

يعني: يجب أن يَعْلَمَ الإنسان الفَرْقَ بينَ هذا وهذا، ومَن كان مُتَحَيِّرًا فلينظر وليتأمل، حتى يَعْرِف مَنْ هم أحقُّ بالاتِّبَاع، ثُمَّ قال -رحمه الله-:

٢٠١- وَاثْبُتْ وَقَاتِلْ تَحْتَ رَايَاتِ الْهُدَى وَاصْبِرْ، فَنَصْرُ اللهِ رَبِّكَ دَانِ

هذا كالأول، لكنه كَرَّره -رحمه الله- لزيادة تثبيت قَلْب الإنسان.

٢٠٢- وَاذْكُرْ مَقَاتِلَهُمْ لِفُرْسَانِ الْهُدَى لله دَرُّ مُقَاتِلِ الْفُرْسَانِ

معناه: بَيِّنْ مَعايبَهم، فينبغي لنا أن نُبَيِّن فيما بيننا مَقَاتِلَهم -أي: موضع قَتْلِهم- حتى نَقْتُلَهم بها يُبطل أقوالهم، فنقول: جَادِلهم بكذا، حَاجِّهِم بكذا، نَاظِرْهم بكذا، كما قال الشافعي -رحمه الله- في القَدَرية: «نَاظِرُوا الْقَدَرِيَّةَ بِالْعِلْمِ، فَإِنْ أَقَرُّوا بِهِ خُصِمُوا، وَإِنْ أَنْكَرُوا كَفَرُوا»(١). وهذا أحسنُ ما يكون أن تبدأ بِذِكر العَيْب، لأنك إذا بدأت بِذِكْر العَيب، وفَهِمَ الناسُ العَيبَ فقد بانت مَقَاتِلُه وهُزِم، ولم يستطع حِراكًا.

٢٠٣- وَادْرَأْ بِلَفْظِ النَّصِّ فِي نَحْرِ الْعِدَى وَارْجُمْهُمُ بِثَوَاقِبِ الشُّهْبَانِ

قَوْلُهُ: «ادْرَأْ» بمعنى ادفع.

قَوْلُهُ: «فِي نَحْرِ الْعِدَى» أي: أمامَهم.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص:٢٤٧).

والمعنى: بَيِّن النصَّ، لا تذهب يمينًا وشِمالًا، لا تُحَرِّفْ، اذكر لفظ النَّصِّ، فهُم لا يستطيعون حينئذٍ أن يتحركوا.

٢٠٤- لَا تَخْشَ كَثْرَتَهُمْ، فَهُمْ هَمَجُ الْوَرَى وَذُبَابُهُ، أَتَخَافُ مِنْ ذِبَّانِ؟!

الجواب: لا أخاف مِنَ الذِّبَّان، ولا مِن الهَمَج والرِّعَاع، حتى ولو كانوا كثيرين، فالحقُّ منصورٌ، ولو قَلَّ أتباعه، والباطل مَخْذُول، ولو كثُر أتباعه.

فهو يقول هنا: الذُّباب مِن أَهْوَن ما يكون، ومِن أَخْوَف ما يكون، لو تقول له بيدك هكذا -حتى لو لم تضربه- فإنه يطير، ولا يأتي ناحيتَك، فهؤلاء ذِبَّان الوَرَى.

والمؤلف -رحمه الله- أتى بهذا التشبيه لِبَيَانِ حالهم وتقبيحها، لأنَّ تشبيه الإنسان بالذُّباب تقبيح بلا شَكٍّ، وهو أيضا مُبَيِّنٌ لحاله، وأنه مِن أَضْعَف ما يكون مِنَ الحَشَرَات.

٢٠٥- وَاشْغَلْهُمُ عِنْدَ الْجِدَالِ بِبَعْضِهِمْ بَعْضًا فَذَاكَ الْحَزْمُ لِلْفُرْسَانِ

هذا أيضًا مِن طُرُق المناظرة المفيدة، فأهل البدع متناقضون، فليسوا على طريقة واحدة، حتى إنَّ الواحد منهم يقول: هذا شيء يوجِبُه العقْل، والثاني يقول: هذا شيء يمنعه العقْل، فيقول: يمنعه، ولم يقل: يُجِيزُه.

فيقول -رحمه الله-: اشْغَلْ بعضَهم ببعض، سواء كانوا أمامك، فتقول: أنت يا فلان تقول: كذا، وأنت يا فلان تقول: كذا، بَيِّنوا لي، فإن لم يكونوا أمامك فَبَيِّنْ أقوالهم، وتقول: إذا قال فلان: كذا وكذا، فقد قال فلان: كذا وكذا، والصواب كذا وكذا، وهو ما دَلَّ عليه الكتاب والسُّنَّة.

المهم اضْرِب بعضَهم ببعضٍ، فإنه يكفيك بعضُهم بعضًا، وهذه سياسة، حتى في الأمور العسكرية الآن، وهذا مِن دَأْبِ أهل السُّنة والجماعة مع أهل الكلام، ولهذا تجد شيخ الإسلام -رحمه الله- أحيانًا يَسُوق بيان بُطلان قولهم بأنه متناقض، ثم يقول: قال فلان -وهو مِن زعمائهم- كذا وكذا، وقال الآخر -وهو مِن زعمائهم أيضًا: كذا وكذا، وهذا يدل على التناقض، وتناقضُ القولِ أكبرُ دليلٍ على بُطلانِه، ومِن القواعد المعروفة (فَرِّق تَسُدْ).

٢٠٦- وَإِذَا هُمُ حَمَلُوا عَلَيْكَ فَلَا تَكُنْ   فَزِعًا لِحَمْلَتِهِمْ وَلَا بِجَبَانِ

يعني: إذا حَمَلوا عليك جميعًا فلا تَخَفْ، بل اثْبُت، وإلَّا فسيكونون عليك جميعًا، انظر الآن اليهود والنصارى، بَعضُهم لبعضٍ عَدُوٌّ، لِقَوْل الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [البقرة:١١٣]، كلُّ واحدٍ منهم يُضلِّل الآخَرَ، ومع ذلك فهم يكونون أولياء ضِدَّ المسلمين، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة:٥١] مع أنهم أعداء، لكن ضِدّ العدُوِّ المشترك يكونون سواءً.

٢٠٧- وَاثْبُتْ وَلَا تَحْمِلْ بِلَا جُنْدٍ فَمَا   هَذَا بِمَحْمُودٍ لَدَى الشُّجْعَانِ

قَوْلُهُ: «**اثبُت**» أي: أمامهم.

وَقَوْلُهُ: «**وَلَا تَحْمِلْ بِلَا جُنْدٍ**» يعني: لا تَقْدَم إلَّا ومعك جُنود، لأنه ليس مِن الحِكْمة أن يَقْدَمَ الإنسان بدون جُنود، وكذلك لا تَقْدَم إِلَّا بِسِلاح، فليس مِن الحِكمة أن تَقْدَم بلا سلاح، وأيضًا لا بُدَّ أن يكون سلاحُك مكافئًا لسلاح العَدُوِّ، وإلَّا فإنك مهزوم.

ولذلك يتسرع بعض الناس في الإقدام في مقاتلة الأعداء، وليس عندهم شيء مِن السلاح، وقد يكون أيضًا ليس عندهم الإيمان الذي كان عند الصحابة، فيحصل البلاء والهزيمة.

المهم أنك لا تَحْمِل بلا سلاح، ولا تَحْمِل بلا جُنْد، ولذا قال -رحمه الله-: (**فَمَا هَذَا بِمَحْمُودٍ لَدَى الشُّجْعَانِ**).

وَقَوْلُهُ: «**لَا تَحْمِلْ بِلَا جُنْدٍ**» يحتمل كلام المؤلف هنا أنه يريد بالجُند العلماء الذين يساعدونك ويُعِينونك، ويحتمل أن يريد به السلاح يعني: لا تحمل إلَّا بعِلْم، لكنَّ آخِرَ كلام المؤلف يؤيد الاحتمال الأول، ولهذا قال بعد ذلك: (**فَإِذَا رَأَيْتَ عِصَابَةَ الْإِسْلَامِ... فَاخْتَرِقِ الصُّفُوفَ**).

* * *

٢٠٨- فَإِذَا رَأَيْتَ عِصَابَةَ الْإِسْلَامِ قَدْ ... وَافَتْ عَسَاكِرُهَا مَعَ السُّلْطَانِ

٢٠٩- فَهُنَاكَ فَاخْتَرِقِ الصُّفُوفَ وَلَا تَكُنْ ... بِالْعَاجِزِ الْوَانِي وَلَا الْفَزْعَانِ

٢١٠- وَتَعَرَّ مِنْ ثَوبَيْنِ مَنْ يَلْبَسْهُمَا ... يَلْقَ الرَّدَى بِمَذَمَّةٍ وَهَوَانِ

٢١١- ثَوْبٌ مِنَ الْجَهْلِ الْمُرَكَّبِ فَوْقَهُ ... ثَوْبُ التَّعَصُّبِ بِئْسَتِ الثَّوبَانِ

٢١٢- وَتَحَلَّ بِالْإِنْصَافِ أَفْخَرَ حُلَّةٍ ... زِينَتْ بِهَا الْأَعْطَافُ وَالْكَتِفَانِ

٢١٣- وَاجْعَلْ شِعَارَكَ خَشْيَةَ الرَّحْمَنِ مَعْ ... نُصْحِ الرَّسُولِ فَحَبَّذَا الْأَمْرَانِ

٢١٤- وَتَمَسَّكَنَّ بِحَبْلِهِ وَبِوَحْيِهِ ... وَتَوَكَّلَنَّ حَقِيقَةَ التُّكْلَانِ

الشـرحُ

٢٠٨- فَـإِذَا رَأَيْـتَ عِصَـابَةَ الْإِسْـلَامِ قَـدْ وَافَـتْ عَسَـاكِرُهَا مَـعَ السُّـلْطَانِ

قَوْلُهُ: «فَإِذَا رَأَيْتَ عِصَابَةَ الْإِسْلَامِ» يعني: القَوم الذين هم عصابة الإسلام يعني: أهل التَّعَصُّب له.

قَوْلُهُ: «قَدْ وَافَتْ عَسَاكِرُهَا مَعَ السُّلْطَانِ» يعني: اجتمعت مع السلطان فالزَمْهَا، ولهذا قال:

٢٠٩- فَهُنَاكَ فَاخْتَرِقِ الصُّفُوفَ وَلَا تَكُـنْ بِالْعَـاجِزِ الْـوَانِي وَلَا الْفَزْعَـانِ

يعني: إذا رأيتَ القومَ قد تَلاقَوْا وتَوافَوْا، (فَاخْتَرِقِ الصُّفُوفَ)، ولا تكن جَبَانًا، ولا تكن خائفًا، ما دُمتَ تخترقُ الصُّفوف لله عزَّ وجلَّ وبالله، وإيَّاكَ أن يَلْحَقَك الخَوَرُ، لأنَّ الإنسان إذا لَحِقَه الخَوَرُ وضَعُفَ ضَعُفَتْ قُوَاهُ، وعَجَزَ عن أن يدافع عن نَفْسِه فضلًا عن أن يهاجمَ أهلَ الباطل، ثُمَّ قال:

٢١٠- وَتَعَـرَّ مِـنْ ثَـوبَيْنِ مَـنْ يَلْبَسْـهُمَا يَلْـقَ الـرَّدَى بِمَذَمَّـةٍ وَهَـوَانِ

قَوْلُهُ: «وَتَعَرَّ مِنْ ثَوْبَيْنِ» تَعَرَّ يعني: تجرَّد، فهنا أمَر -رحمه الله- أن نَتَعَرَّى مِن ثوبين، وبَيَّن أنَّ مَنْ يَلْبَس هذين الثوبين يَلْقَى الرَّدَى بِمَذَمَّةٍ وهَوَانٍ، ثُمَّ ذَكَر الثَّوْبَ الأول فقال:

٢١١- ثَوْبٌ مِنَ الْـجَهْلِ الْـمُرَكَّبِ فَوْقَـهُ ثَـوْبُ التَّعَصُّـبِ بِئْسَـتِ الثَّوبَـانِ

الجهل المركَّب هو الذي مَن اتَّصف به فهو جاهلٌ، ولا يَدْرِي أنه جاهل، وذلك أنَّ الناس ثلاثة أقسام:

الأول: عالـمٌ عِلمُه مُطابقٌ للواقع.

الثاني: يَظُن أنه عالـمٌ، ولكنه جاهلٌ.

الثالث: جاهلٌ ليس له عِلمٌ إطلاقًا.

أما الأول: فهو محمودٌ أن يتكلم الإنسان بِعِلْمٍ مُطابقٍ للواقع.

وأما الثاني: وهو الجاهل المركَّب الذي يَجْهَل، ولا يدري أنه يجهل، فهذا أسوأ الأقسام.

والثالث: الجاهل جهلًا بسيطًا غير مُرَكَّب، فهذا أهونُ مِن الذي قَبْلَه، لكنه دون مَرْتَبَةِ الأَوَّل، وهو العالـم.

والبلاءُ كلُّ البلاء مِن الجاهلِ جهلًا مُرَكَّبًا، الذي يجادلك بغير عِلم، ويتكلَّم بغير عِلم، يتكلَّم بين العامَّة بغير عِلم، ويتكلَّم مع العُلماء بالمجادلة بغير عِلم، فهو يرى نَفْسَه أنه عالـم، وأنه إمامُ الأئمة، وأميرُ العلماء، وعالِـمُ الأمراء، لا يُدانِيه أحد، وإذا تباحثت معه، فإذا هو لا يعرف كُوعَه[1] مِن كُرْسُوعِه[2]، فهو مِن أجهَلِ عِباد الله، ولذلك نقول: إنَّ الجاهل جهلًا مُرَكَّبًا هو شرُّ الجاهِلَيْنِ: الأول: مَنْ جَهلُه بسيط، والثاني: مَنْ جَهلُه مُرَكَّب.

قَوْلُهُ: «**فَوْقَهُ ثَوْبُ التَّعَصُّبِ**» هذا أيضًا مُشْكل، أي: التعصب لما هو عليه مِن الباطل، أو مِن الجهل، والمتعصبُ لا يكاد يَرْعَوِي للدَّليل أبدًا، لأنه يعتقد أنَّ ما هو عليه حقٌّ، ولا يُبَالي بأحد.

---

(١) الكُوع: هو رأسُ اليَد مـمَّا يَلي الإبْهام. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: كوع.
(٢) الكُرْسوع: طَرَف رَأْسِ الزَّنْدِ مِـمَّا يَلِـي الْـخِنْصَرَ. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: كرسع.

فهو يرى أنه لا يمكن أن يتزحزح عما هو عليه، لأنه يرى أنَّ تَزَحْزُحَه ذُلٌّ، وأنه إذا تزحزح، قال الناس: هذا رجلٌ جاهل.

أَوَما عَلِم أنَّ الرسول -عليه الصلاة والسلام- أحيانًا يَحْكُم بالشيء ثُمَّ يتبين له خلافُه فيرجع، وكذلك الخلفاء، وكذلك الأئمة.

وقد كَتَب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري كتابًا في القضاء مِن أعظم الكُتُب وأَجْمَعِها، حتى إنَّ ابن القيم جعل كتابه (إعلام الموقعين) -ذلك الكتاب الذي قَلَّ أن يوجد في كُتُب الإسلام مِثْلُه- جَعَلَه مَبْنِيًّا على كتاب عُمَرَ لأبي موسى في القضاء، قال له: «لَا يَمْنَعْكَ مِنْ قَضَاءٍ قَضَيْتَ بِهِ الْيَوْمَ فَرَاجَعْتَ فِيهِ نَفْسَكَ، وَهُدِيتَ فِيهِ لِرُشْدِكَ، أَنْ تُرَاجِعَ فِيهِ الْـحَقَّ، فَإِنَّ الْـحَقَّ قَدِيمٌ، وَلَا يُبْطِلُ الْـحَقَّ شَيْءٌ، وَإِنَّ مُرَاجَعَةَ الْـحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ»[1]. وهذه أيضًا مِحْنَةٌ عظيمة، وهي كما تلحق العلماء في باب العقيدة وأصول الدين، تلحقهم أيضًا في باب الفِقه، فتجد بعض العلماء، ولا سِيَّما المُقلدون المتعصبون يتعصبون لمذهبهم، ويَلْوُون أعناق النصوص لأجل أن تطابق المذهب.

وانظر كُتُب الخِلاف كـ(المغني) للموَفَّق ابن قدامة، و(المجموع شرح المهذب) للنووي، وما أشبهها، تجد كيف يتعصب بعضُ الناس لِـمَذْهَبِه، ويحاول أن يَلوِيَ أعناق النُّصوص للمذهب، وهذه محنة سَبَبُها أنَّ الإنسان يعتقد قبل أن يستدل، فيجعل الدليل تبعًا لما يقوله ويعتقده، والواجب أن تَسْتَدِلَّ أولًا، ثُمَّ تعتقد، وتجعل اعتقادك وحُكْمَك تابعًا للدَّليل، لكنَّ التَّعَصُّب أمرُه مُشكل.

فإذا قال قائل: كيف تقولون هذا والنصارى يقولون: إنَّ المسلمين متعصبون

---

(١) أخرجه الدارقطني (٤٤٧١)، وابن شبة في تاريخ المدينة (٢/ ٧٧٥).

لِدِينِهم؟ قلنا: هذا تعصُّبٌ محمود، بل واجب، لأنهم لم يتعصبوا لذلك لمجرد أنه دِينُهم، بل لأنه دِينُ الله عزَّ وجلَّ وهذا كما نقول: إن المجادلة مذمومة إلَّا إذا كانت لإثبات الحقِّ، وإبطال الباطل.

وهذان الثَّوْبَان -أعاذني الله وإيَّاكم منهما- إذا ابتُلِي بهما الإنسان حُرِمَ الحقَّ، فأنت جَرِّد نَفْسَك مِن هَذين الثوبين: الجهل المُركَّب والتعصب.

٢١٢- وَتَحَلَّ بِالْإِنْصَافِ أَفْخَرَ حُلَّةٍ زِينَتْ بِهَا الْأَعْطَافُ وَالْكَتِفَانِ

ثم أمر بعد التَّجَرُّد مِن هذين الثوبين بالتحلِّي بالإنصاف.

قَوْلُهُ: «**تَحَلَّ بِالْإِنْصَافِ**» أي: البَس الإنصاف بعد أن تَتَعَرَّى مِن هذين الثوبين.

وَقَوْلُهُ: «**بِالْإِنْصَافِ**» أي: بالعَدْل، سواءً كان لك، أو عليك، كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء:١٣٥].

ومِن الشهادة على النفس أن يُنْصِفَ الإنسانُ خَصْمَه، فإذا بان الحقُّ وجب عليه اتِّباعُ الحقِّ، وإذا قال خَصْمُه قولًا يتضمن حقًّا وباطلًا، فالوَاجِب أن يَقْبَل الحَقَّ ويَرُدَّ الباطل، ولا يجوز أن يَرُدَّ كُلَّ قوله.

ألم تعلموا أن الله عزَّ وجلَّ أقرَّ قول المشركين مع أنهم مشركون؟

الجواب: بَلَى أقرَّه، لأنه حقٌّ.

مثاله: قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف:٢٨] فاستدلوا للفاحشة بأمرين:

الأول: أنهم وجدوا آباءهم عليها.

الثاني: أن الله أمرهم بها.

فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف:٢٨]، فأبطل هذا الدليل، أو التعليل الذي تَعَلَّلوا به، وسَكَتَ عن قوله: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ [الأعراف:٢٨] وإبطالُ أحد الشيئين والسكوتُ عن الآخر يدلُّ على قبُوله، وأنَّه حقّ.

ألم تعلموا أنَّ النبيَّ ﷺ لـمَّا جاءه الـحَبْر وقال: «إِنَّنَا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ... ضَحِكَ تَصْدِيقًا لَه»[1]. مع أنه عالِـمٌ يهوديٌّ؟! لكنَّ الحقَّ يجب أن يُقبل مِن أي أحد تكلَّم به، فلهذا يقول ابن القيم -رحمه الله-: (**وَتَحَلَّ بِالْإِنْصَافِ أَفْخَرَ حُلَّةٍ**).

وَقَوْلُهُ: «**أَفْخَرَ**» بالنصب على أنها حالٌ مِن الإنصاف، ولا يجوز أن تكون مجرورة على أنها صِفَةٌ، لأنه يُشتَرَط في النَّعْت أن يكون مُوافقًا للمَنْعُوت في المعرفة، أو النكرة.

قَوْلُهُ: «**زِينَتْ بِهَا الْأَعْطَافُ وَالْكَتِفَانِ**» يعني: إذا لُبِسَتْ على الْعِطْفِ -وهو ما بين الكتف والرقبة- والكتف صارت جميلةً، لأنها إنصاف.

٢١٣- وَاجْعَلْ شِعَارَكَ خَشْيَةَ الرَّحْمَنِ مَعْ ... نُصْحِ الرَّسُولِ فَحَبَّذَا الْأَمْرَانِ

الشعار اجْعَلْه خشيةَ الله عزَّ وجلَّ لا للانتصار لِنَفْسِك، ولهذا كان النبيُّ ﷺ لا ينتصر لنفسه قطُّ، وإنما ينتصر لله -سبحانه وتعالى- إذا انتُهِكت حُرماتُ الله، فإنه يُنكرُها أشدَّ الإنكار.

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام:٩١]، رقم (٤٥٣٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٧٨٦).

قَوْلُهُ: «مَعْ نُصْحِ الرَّسُولِ» يعني: مع النصح للرسول ﷺ وذلك بالمتابعة له.

٢١٤- وَتَمَسَّكَنَّ بِحَبْلِهِ وَبِوَحْيِهِ ... وَتَوَكَّلَنَّ حَقِيقَةَ التُّكْلَانِ

قَوْلُهُ: «تَمَسَّكَنَّ بِحَبْلِهِ» أي: تَمَسَّكنَّ بحبل الله، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران:١٠٣].

قَوْلُهُ: «وَبِوَحْيِهِ» أي: بوحي الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم.

وَقَوْلُهُ: «وَتَوَكَّلَنَّ حَقِيقَةَ التُّكْلَانِ» يعني: اعتمِد على الله، لأنَّ التوكل على الله هو صِدقُ الاعتماد عليه في جَلْبِ المنافع، ودَفْعِ المَضَارِّ مع الثقة بالله، وفِعل الأسباب النافعة.

* * *

٢١٥- فَالحَقُّ وَصْفُ الرَّبِّ وَهْوَ صِرَاطُهُ الْـ ... ـهَادِي إِلَيْهِ لِصَاحِبِ الْإِيمَانِ

٢١٦- وَهُوَ الصِّرَاطُ عَلَيْهِ رَبُّ الْعَرْشِ أَيْـ ... ـضًا، ذَا وَذَا قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ

٢١٧- وَالْحَقُّ مَنْصُورٌ وَمُمْتَحَنٌ فَلَا ... تَعْجَبْ، فَهَذِي سُنَّةُ الرَّحْمَنِ

٢١٨- وَبِذَاكَ يَظْهَرُ حِزْبُهُ مِنْ حَرْبِهِ ... وَلِأَجْلِ ذَاكَ النَّاسُ طَائِفَتَانِ

٢١٩- وَلِأَجْلِ ذَاكَ الحَرْبُ بَيْنَ الرُّسْلِ وَ الْـ ... ـكُفَّارِ مُذْ قَامَ الْوَرَى سِجْلَانِ

٢٢٠- لَكِنَّمَا الْعُقْبَى لِأَهْلِ الْحَقِّ، إِنْ ... فَاتَتْ هُنَا كانَتْ لَدَى الدَّيَّانِ

الشرحُ

٢١٥- فَالحَقُّ وَصْفُ الرَّبِّ وَهْوَ صِرَاطُهُ الْـ ... ـهَادِي إِلَيْهِ لِصَاحِبِ الْإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «فَالْـحَقُّ وَصْفُ الرَّبِّ» فالله عزَّ وجلَّ هو الـحقُّ، والـحقُّ وَصْفُه، لقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج:٦] والحقُّ هو الشيء الثابت المطابقُ للواقع، إنْ كان خَبَرًا فهو الصِّدقُ، وإنْ كان طَلَبًا، أو خَلْقًا فهو النفع.

قَوْلُهُ: «وَهْوَ صِرَاطُهُ الْـهَادِي إِلَيْهِ لِصَاحِبِ الْإِيمَانِ» فهو صِراطُه الهادي إليه، لأنَّ الله تعالى وصف الصراطَ الهاديَ إليه بأنَّه حقٌّ، فقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ [يونس:٣٥] فالحق يُوصَفُ به الصراط، يعني: الدِّين، لقول الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ [النور:٢٥].

فهو الحقُّ، وهو الهادي إلى الحقِّ، وصراطه أيضًا هو الحقُّ، فهذه ثلاثة أمور، فالله تعالى هو الحقُّ، والحقُّ وَصْفُه، فيهدي عبادَه، ويَدُلُّهُم ويُرْشِدُهُم إلى الحقِّ، وصِرَاطه الْـمُوَصِّل إليه هو الحقُّ، فالرسول حقٌّ، والجنة حقٌّ، والنار حقٌّ، لأنَّ كُلَّ شيء ثابتٌ مطابقٌ للواقع فهو حقٌّ.

٢١٦- وَهُوَ الصِّرَاطُ عَلَيْهِ رَبُّ الْعَرْشِ أَيْـــضًا، ذَا وَذَا قَــدْ جَـاءَ فِي الْقُــرْآنِ

قَوْلُهُ: «وَهُوَ الصِّرَاطُ» أي: الحقُّ أيضًا هو الصراط.

قَوْلُهُ: «عَلَيْهِ رَبُّ الْعَرْشِ» ودليل ذلك قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٦] أي: على طريقٍ مستقيم، ليس فيه اعوِجَاجٌ، فتجد كُلَّ ما شَرَعَه الله، أو كُلَّ ما خَلَقَه الله مُطابقًا للحقِّ تمامًا، لأنَّ الله على صراط مستقيم.

قَوْلُهُ: «وَذَا قَدْ جَـاءَ فِي الْقُرْآنِ» أين جـاء في القرآن أنَّ الله على صـراط مستقيم؟

الجواب: جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٦].

قال:

٢١٧- وَالْـحَقُّ مَنْصُورٌ وَمُمْتَحَنٌ فَلَا ... تَعْجَبْ، فَهَذِي سُنَّةُ الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «وَالْـحَقُّ مَنْصُورٌ وَمُمْتَحَنٌ» اللهم انصرنا بالحقِّ، وانصُر الحقَّ بنا، الحقُّ منصور ولا بُدَّ، لقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر:٥١] لكن لا بدَّ مِن محِنة، ولهذا قال: (وَمُمْتَحَنٌ فَلَا تَعْجَبْ) أي: لا تستنكر هذا أن يكون الله تعالى يمتحن أهلَ الحقِّ بالمِحَن ليختبرهم بها.

ألم تروا أنَّ الذَّهَب لا يخرج صافيًا إلَّا إذا عُرِض على النار، وذَاب، وذَهَبَ وَسَخُه، فلا بد مِن امتحانٍ، ودليلُ هذا الواقعُ والشرعُ.

أما الواقع، فانظر ماذا جرى للنبيِّ ﷺ مِن المحن؟! محِنٌ عظيمةٌ في أول الدعوة وآخِر الدعوة، ماذا جرى له في مكة؟ وماذا جرى له في الطائف؟ وماذا جرى له في المدينة؟ أليس قد شُجَّ وجُهه، وكُسِرَت رَبَاعِيَتُه[1][2]؟ الجواب: بلى، لكن لا بدَّ مِن امتحان.

أما الشرع، فقد قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١].

أتظنُّ أنَّ عَدُوَّك ينام دون أن يحاول القضاءَ عليك؟ أبدًا، ولكن اقرأ ما بعد هذه الجملة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب التفسير، باب ومن سورة آل عمران، رقم (٣٠٠٢).

(٢) الرَّباعِيَةُ -كَثَمَانِيَة-: السِّنُّ التي بين الثَّنِيَّةِ والناب، وهي إحدى الأسنان الأربعةِ التي تِلِي الثَّنايا، تكونُ للإنسانِ وغَيرِه. التاج: ربع.

وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان:٣١]، لأنَّ العَدُوَّ إما أن يُغِيرَ عليك لِـهَدْمِ ما جئتَ به مِن الشريعة، والتشويش عليك فيُقَابَل بالهداية، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾، فمهما حاول الأعداء أن يُضِلُّوا الناس عن سبيل الله، فالله تعالى هو الهادي، أو يحاول العَدُوّ أن يقضي عليك بالقوة العسكرية فيُقابَل بالنصر، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

إِذَنْ لا بدَّ مِن مِحنة، وكُلَّما كان الإنسانُ أشدَّ في دِينِ الله، والجهاد في دِين الله، لَحِقَهُ مِن الأَلَم، ومِن الأذى، ومِن التشويش، ما لم يَلْحَقْ غَيْرَه.

قَوْلُهُ: «فَلَا تَعْجَبْ، فَهَذِي سُنَّةُ الرَّحْمَنِ» إذن استدللنا على أنَّ هذه سُنَّة الرحمن، بدليلٍ شرعيٍّ وواقعيٍّ، فلا بد مِن محنة، ولذلك نرى في واقعنا اليوميّ، أو المدرسيّ (العامِيّ) متى يكون الإنسان نابغًا؟ الجواب: إذا تفوق في الامتحان.

فلا بدَّ مِن امتحان.

٢١٨- وَبِـذَاكَ يَظْهَـرُ حِزْبُـهُ مِـنْ حَرْبِـهِ وَلِأَجْـلِ ذَاكَ النَّـاسُ طَائِفَتَـانِ

قَوْلُهُ: «بِذَاكَ» أي: بِكَوْن الحَقِّ منصورًا وممتحنًا يظهر الحِزْب مِن الحَرْب، فالْـمُحارِب ضِدّ ما جاء به الوحي، ضِدّ دِين الله، والحزبُ هو حزبُ الله ينتصر لِدِين الله، وينصره الله به.

فهو يقول: ولا عَجَب في ذلك، فإنَّ هذه سُنَّة الله عزَّ وجلَّ حتى يتبيَّن حزبُ الله مِن حَرْب الله، ولولا ذلك لكان الناسُ أُمَّةً واحدة، وما تبيَّن حِزبُ الله مِن حَرْبه، ولأجل أنَّ الحق منصوٌر وممتَحَنٌ صار الناس طائفتين، لكنَّ العُقبى لأهل الحق كما سبق في قوله الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر:٥١-٥٢].

٢١٩- وَلِأَجْلِ ذَاكَ الحَرْبُ بَيْنَ الرُّسْلِ وَ الْـ ـكُفَّارِ مُـذْ قَـامَ الْـوَرَى سِـجْلَانِ

قَوْلُهُ: «وَلِأَجْلِ ذَاكَ الْـحَرْبُ... سِجْلَانِ» كما قال أبو سفيان: «الحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ»[١]. أي: دَلْوٌ لك وَدَلْوٌ لِعَدُوِّك، فالحرب سِجال، أي: مُسَاجَلة بين أعداء الله، وأولياء الله عزَّ وجلَّ.

٢٢٠- لَكِـنَّمَا الْعُقْبَـى لِأَهْـلِ الْـحَقِّ، إِنْ فَاتَـتْ هُنَـا كانَـتْ لَـدَى الـدَّيَّانِ

وصدق -رحمه الله- قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ﴾ [هود:٤٩] أي: اصبر على ما ينالُك مِن الأذَى، والمعارضة والمعاداة والمباغضة، اصبر ﴿إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩].

وصَدَقَ اللهُ، فوالله العاقبةُ لِمَنْ؟ للرسول -عليه الصلاة والسلام- قضى على صَنَادِيد قريش، وعاد منهم مَن بَقِي مِن أنصار الإسلام، فهُم عادوا قُوَّادًا في الإسلام، مجاهدين في سبيل الله، فلا تَنْسَ خالد بن الوليد[٢]، ولا عِكْرِمَة بن أبي جهل[٣]، ولا غيرهما رضي الله عنهم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (٧)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، رقم (١٧٧٣).

(٢) هو خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشيّ المخزوميّ سيف الله، أبو سليمان، كان أحد أشراف قريش في الجاهليّة، وكان إليه أَعِنَّة الخيل في الجاهلية، وشهد مع كفّار قريش الحروب إلى عمرة الحديبيّة، كما ثبت في الصّحيح أنه كان على خيل قريش طليعة، ثم أسلم في سنة سبع بعد خيبر، وقيل قبلها. انظر: الإصابة لابن حجر (٢/ ٢١٥).

(٣) هو عكرمة بن أبي جهلٍ عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد اللهَّ بن عمرو بن مخزوم القرشي المخزومي، كان كأبيه مِن أشدّ الناس على رسول الله ﷺ، ثم أسلم عكرمة عام الفتح، وخرج

واتسعت الرسالة حتى خرَجَت مِن وراء جزيرة العرب إلى مشارق الأرض ومغاربها وشَمالها وجنوبها، فصارت العاقبة الآن لمن؟ لأبي جهل وقومه وأصحابه، أو لمحمدٍ رسول الله ﷺ؟ الجواب: للثاني بلا شك.

ومع هذا يقول -رحمه الله-: **(إنْ فَاتَتْ هُنَا كَانَتْ لَدَى الدَّيَّانِ)** يعني: إنْ فاتَك النَّصْر في الدنيا كان في الآخرة عند الله عزَّ وجلَّ ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١].

افرض أن رجلًا داعيًا مِن الدعاة، قام يدعو لِدين الله، ويُبيِّن بطلانَ ما عليه أهل الباطل ثُمَّ قُضِي عليه قَبْلَ أن يُتِمَّ ما أراد، فالآن فاته النصرُ في الدنيا، لكن له العقبى في الآخرة، إن فاتت في الدنيا وجَدَها في الآخرة.

فالعُقبى لأهل الحقِّ، إن فاتت في الدنيا وجدوها لدى الدَّيَّان عند الله، فالعُقبى لهم على كل حال، إما في الدنيا والآخرة، وإما في الآخرة، أمَّا أن يُحْرَمَ النصر، فهذا شيء مُمْتَنِعٌ، كما سبق في الآية.

على أنني كرَّرتُ مرارًا وأقول: إنَّ النصر ليس نَصْرَ الشخص، ولكن نَصْرَ الطريق الذي ينتهجه، فإذا قُدِّر أنَّ الإنسان قَضَى الله عليه في الدنيا قَبْلَ أن يُشاهِدَ النصر -أي: نصر ما كان عليه- فإنَّ منهجه سوف ينتصر بعد ذلك، ويقوم ما دام هو المنهج الذي جعله الله -سبحانه وتعالى- لعباده.

ولهذا نقول: إنَّ انتصارَ المسلمين بعد موت الرسول ﷺ انتصارٌ للرسول ﷺ، وإن كان بعد وفاته، ويدل لهذا أنَّ هِرَقْلَ عظيمَ الرومِ لما حدَّثه أبو سُفيان بما

= إلى المدينة، ثم إلى قتال أهل الردّة، ووجّهه أبو بكر الصديق إلى جيش نعمان، فظهر عليهم، ثم إلى اليمن ثم رجع، فخرج إلى الجهاد عام وفاته فاستشهد. انظر: الإصابة (٤/ ٤٤٣).

كان عليه الرسول -عليه الصلاة والسلام- مِن الدعوة إلى الحقِّ، قال هِرَقل لأبي سفيان: «إِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ»(١).

لكن هل الرسول مَلَك ما تحت قَدَمَيْه؟ الجواب: نعم، مَلَكَ ذلك، لكن لا بِشَخْصِه، ولكن بِشَرْعِه ومِنْهاجه -عليه الصلاة والسلام-.

***

٢٢١- وَاجْعَلْ لِقَلْبِكَ هِجْرَتَيْنِ، وَلَا تَنَمْ ... فَهُمَا عَلَى كُلِّ امْرِئٍ فَرْضَانِ

٢٢٢- فَالْهِجْرَةُ الْأُولَى إِلَى الرَّحْمَنِ بِالْـ ... إِخْلَاصِ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلَانِ

٢٢٣- فَالْقَصْدُ وَجْهُ اللهِ(٢) بِالْأَقْوَالِ وَالْـ ... أَعْمَالِ وَالطَّاعَاتِ وَالشُّكْرَانِ

٢٢٤- فَبِذَاكَ يَنْجُو الْعَبْدُ مِنْ إِشْرَاكِهِ ... وَيَصِيرُ حَقًّا عَابِدَ الرَّحْمَنِ

٢٢٥- وَالهِجْرةُ الْأُخْرَى إِلَى المَبْعُوثِ بِالْـ ... ـحَقِّ الْمُبِينِ وَوَاضِحِ الْبُرْهَانِ

٢٢٦- فَيَدُورُ مَعْ قَوْلِ الرَّسُولِ وَفِعْلِهِ ... نَفْيًا وَإِثْبَاتًا بِلَا رَوَغَانِ

٢٢٧- وَيُحَكِّمُ الْوَحْيَ الْمُبِينَ عَلَى الَّذِي ... قَالَ الشُّيُوخُ فَعِنْدَهُ حَكَمَانِ

٢٢٨- لَا يَحْكُمَانِ بِبَاطِلٍ أَبَدًا، وَكُلْـ ... ـلُ الْعَدْلِ قَدْ جَاءَتْ بِهِ الْحَكَمَانِ

٢٢٩- وَهُمَا كِتَابُ اللهِ أَعْدَلُ حَاكِمٍ ... فِيهِ الشِّفَا وَهِدَايَةُ الْحَيْرَانِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (٧)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، رقم (١٧٧٣).

(٢) في نسخة برلين: «في الأقوال وبعض الأصول تقدم «الأعمال» على «الأقوال».

٢٣٠- وَالْـحَاكِمُ الثَّـانِي كَـلَامُ رَسُـولِهِ مَـا ثَـمَّ غَيْرُهُمَـا لِـذِي إِيـمَانِ[١]

٢٣١- فَـإِذَا دَعَـوْكَ لِغَـيْرِ حُكْمِهِـمَا فَـلَا سَـمْعًا لِـدَاعِي الْكُفْـرِ وَالْعِصْـيَانِ

٢٣٢- قُـلْ لَا كَرَامَـةَ لَا، وَلَا نُعْمَـى وَلَا طَوْعًـا[٢] لِـمَنْ يَـدْعُو إِلَى طُغْيَـانِ

٢٣٣- وَإِذَا دُعِيتَ إِلَى الرَّسُولِ فَقُلْ لَـهُمْ سَمْعًا وَطَوْعًـا، لَسْـتُ ذَا عِصْـيَانِ

الشـرحُ

هذه الأبيات مهمة جدًّا، فيها إخلاص القصد، وإخلاص المتابعة.

يقول -رحمه الله-:

٢٢١- وَاجْعَلْ لِقَلْبِكَ هِجْـرَتَيْنِ، وَلَا تَـنَمْ فَهُـمَا عَـلَى كُـلِّ امْـرِئٍ فَرْضَـانِ

قَوْلُهُ: «وَاجْعَلْ لِقَلْبِكَ هِجْرَتَيْنِ» يعني: هاجِرْ بِقَلْبك هِجْرَتَين، ومعنى الهجرة هنا أن تترك ما سواهما، وتهاجر إليهما.

قَوْلُهُ: «وَلَا تَنَمْ» أي: لا تَتَوَانَ، ولا تتكاسل، بل كن يقظًا سريعًا ذا هِمَّة.

قَوْلُهُ: «كُلّ امْرِئٍ» هل يشمل المُسلمَ والكافرَ، أو المُسلم فقط؟ الجواب: يشمل المُسلمَ والكافرَ، لأنه ما مِن أحدٍ يسمع دعوةَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يموت وهو لا يؤمن بما جاء به إِلَّا كان مِن أصحاب النار[٣]، فكُلُّ امرئٍ يجب عليه أن يهاجر هاتين الهجرتين.

---

(١) في نسخة الإفتاء: «الإيمان».

(٢) في نسخة ابن سحمان: «سمعًا».

(٣) دليله قوله ﷺ: «لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَلَا يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، وَلَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ». أخرجه الطيالسي (٥١١)، وابن منده في التوحيد (١٤٩).

٢٢٢- فَالْـهِجْرَةُ الْأُولَى إِلَى الـرَّحْمَنِ بِالْـ إِخْـلَاصِ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْـلَانِ

وهذه هي الهجرة الأولى: أن تكون مُخْلِصًا لله في سِرِّك أي: فيما تعمله في قلبك مِن خشيةٍ وتوكُّلٍ ورغبةٍ ورهبةٍ.. إلخ.

قَوْلُهُ: «وفي إِعْلَانِ» أي: ما تفعله بجوارحك مِن قولٍ، أو فِعلٍ.

ويجوز أن يكون معنى (في سِرٍّ) يعني: في غَيْبَةٍ عن الناس، (وفي إِعْلَانِ) أي: في مُعَايَنَة الناس، وكلاهما صحيح.

٢٢٣- فَالْقَصْـدُ وَجْـهُ الله بِـالْأَقْوَالِ وَالْـ أَعْـمَالِ وَالطَّاعَـاتِ وَالشُّـكْرَانِ

قَوْلُهُ: «فَالْقَصْدُ وَجْهُ الله» يعني: اجعل القصدَ وجهَ الله عزَّ وجلَّ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف:٢٨].

قَوْلُهُ: «وَالطَّاعَاتِ وَالشُّكْرَانِ» هذا مِن باب عَطْفِ الصفات، لأنَّ الطاعات أقوالها وأعمالها كلها يدخل فيها الشُّكْران، بل الشُّكر هو الطاعةُ، وامتثالُ الأمر.

٢٢٤- فَبِـذَاكَ يَنْجُـو الْعَبْـدُ مِـنْ إِشْرَاكِـهِ وَيَصِـيرُ حَقًّـا عَابِـدَ الـرَّحْمَنِ

يعني: إذا أخلصَ القصدَ لله عزَّ وجلَّ في كلِّ أقواله وأعماله وطاعاته، وتركِ المَنْهِيَّات، فإنه ينجو مِن الإشراك، ويصير مخلصًا تمامًا.

٢٢٥- وَالهِجْرةُ الْأُخْرَى إِلَى المَبْعُوثِ بالِـ ـحَقِّ الْـمُبِينِ وَوَاضِـحِ الْبُرْهَـانِ

قَوْلُهُ: «إِلَى الْـمَبْعُوثِ» يعني: النبيَّ صلى الله عليه وسلم.

فالهجرة الثانية هي إلى رسول الله ﷺ باتِّباعه، وعَدَم الرَّوَغَان عَن هديه،

لا تقدُّمًا ولا تأخُّرًا، ولا يَمْنَةً، ولا يَسْرَة، وبِهَذِه الهِجْرَة تَسْلَم مِن الابتداع، فيَجِبُ على كل مُسْلِمٍ أن يَجْعَل لِقَلْبِه هاتين الهجرتين.

٢٢٦- فَيَـدُورُ مَـعْ قَـوْلِ الرَّسُـولِ وَفِعْلِـهِ نَفْيًـا وَإِثْبَاتًـا بِـلَا رَوَغَـانِ

يعني: أنه يَدُور مع قول الرسول، ومع فِعله (**نَفْيًا**) إن نفى الرسول ﷺ شيئًا، (**وإثباتًا**) إن أثبت شيئًا.

قَوْلُهُ: «**بِلَا رَوَغَانِ**» الرَّوَغان: هو عدم استقامة السَّيْرِ، كما يكون ذلك في الثعالب، فالثَّعلبُ ذكيٌّ يَرُوغُ إذا رأى عَدوَّه -مِن إنسانٍ، أو حيوانٍ- أَدْرَكَه، وهو يَشُدُّ سعيًا، راغَ يمينًا، أو شمالًا، أو رجوعًا، وإذا صاحِبُه الذي وراءه قد تَعَدَّاه بخطوات كثيرة، فمتى يرجع؟!

فالإنسان يجب أن يكون دائرًا مع قول الرسول ﷺ وفعله، نفيًا فيما نَفَى، وإثباتًا فيما أَثْبَت، ففي باب الخَبَر في الإِثبات يُصَدِّق، ولا يتردد، ولا يَقُلْ: كيفَ وكَيْتَ، ولا لِـم؟ وفي باب الأمر يُطِيع، ولا يتردد، ولا يَقُل: هل الأمر للوجوب، أو للاستحباب؟

وفي باب النفي في الأخبار أيضًا يَجزِم بانتفاء ما نفاه الرسول ﷺ، ويَجزِم بإثبات ما أثبته.

وفي باب النهي يترك ما نهى عنه، ولا يَقُلْ: هل هذا النهي للكراهةِ، أو للتحريم؟ فإذا نهى عنه الرسول ﷺ فليَقُل: سَمِعْنا وأَطَعْنا، ويَجْتَنِب، وإذا أُمِر به لِيَقُلْ: سَمِعْنا وأطعنا، ولْيَفْعَل.

ولذلك لا أذكر أنَّ أحدًا من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إذا أمر النَّبِيُّ ﷺ بشيء أنهم يقولون: يا رسول الله، هل هذا للوُجوب، أو للاستحباب؟ نعم في باب الرأي

يقولون هذا، كما يُذكر عن الحُبَاب بن المُنْذر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ أنَّ النبيَّ ﷺ لما نزل في أدنى مياه بَدْر قال: يَا رَسُولَ الله، أَرَأَيْتَ هَذَا المَنْزِلَ، أَمَنْزِلٌ أَنْزَلَكَهُ اللهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدَّمَهُ، وَلا نَتَأَخَّرَهُ، أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالحَرْبُ وَالمَكِيدَةُ؟ قال: «بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالحَرْبُ وَالمَكِيدَةُ»[1]. قال: ليس هذا، بل نتقدم إلى آخر بئرٍ مِن أجْل ألَّا يدخُل الكفار علينا.

كذلك أيضًا امرأة مغيث: وهي جارية -يعني: مملوكة- اشترتها عائشةُ مِن أهلها، لأنهم كاتَبُوها، ثُمَّ أعتقتها، فلما أعتقتها خَيَّرها النبيُّ ﷺ بيْن أن تبقى مع زوجها، أو تَفْسَخ النكاح، لأنها صارت حُرَّةً وزوجُها عبدٌ، فخَيَّرَها النبيُّ ﷺ، فاختارت الفِراق، وكانت تُبْغِضُ زوجها بُغْضًا شديدًا، وهو يُحِبُّها حُبًّا شديدًا، حتى كان يَتْبَعُها في أسواق المدينة يبكي، يريد أن تبقى، ولكن أَبَتْ فتوَسَّط النَّبِيُّ ﷺ بينهما شافعًا، يريد أن ترجع إلى زوجها، فقال النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ رَاجَعْتِهِ» قَالَتْ: يَا رَسُولَ الله تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: «إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ». قَالَتْ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ[2].

أما إنه يقول: افعلوا كذا، ثُمَّ يقولون: يا رسول الله أَهُوَ للوجوب، أو للجَواز، أو للاستحباب؟ الجواب: ما قالوا هذا رضي الله عنهم.

فهم إذا دُعُوا إلى الله رسوله قالوا: سمعنا وأطعنا.

٢٢٧- وَيُحَكِّمُ الْوَحْيَ الْـمُبِينَ عَلى الَّـذِي ... قَـالَ الشُّـيُوخُ فَعِنْـدَهُ حَكَـمَانِ

قَوْلُهُ: «الْوَحْيِ الْـمُبِين» يعني: الكتاب والسُّنَّة.

قَوْلُهُ: «قَالَ الشُّيوخُ» يعني: الفُقهاء، فُقهاء المذهب مَثَلًا، أو علماء الكلام الذين يُقتَدى بهم.

---

(١) أخرجه الطبري في التاريخ (٢/ ٤٤٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب شفاعة النبي ﷺ في زوج بريرة، رقم (٤٩٧٩).

أكثر المتعصبين للمذاهب إذا قلتَ: هذا لا يجوز، قال: لا، هذا يجوز، فقلت له: ما الدليل؟ قال: هو في الكتاب الفُلاني.

والحقيقة أنَّ أقوالَ أهلِ العِلم يُحتجُّ لها، ولا يُحتجُّ بها، فليستْ بِحُجَّة، بل الحُجَّة فيما قال الله ورسوله، فهو يقول: (**إنه يُحَكِّمُ الوَحْيَ الْـمُبِينَ عَلى الَّذِي قَالَ الشُّيُوخُ**).

ثُمَّ قال: «**فَعِنْدَهُ حَكَمَانِ**» وهما الكتاب والسُّنَّة، لقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء:٥٩]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء:٦٥].

٢٢٨- لَا يَحْكُـمَانِ بِبَاطِـلٍ أَبَـدًا، وَكُـلُّ الْعَدْلِ قَدْ جَاءَتْ بِـهِ الْـحَكَمَانِ

وصدَق -رحمه الله- فلا يمكن أن يأتيَ القرآنُ والسُّنَّةُ بباطل، والمراد بالسُّنَّة ما صحَّ عن النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم.

٢٢٩- وَهُمَـا كِتَـابُ الله أَعْـدَلُ حَـاكِمٍ فِيـهِ الشِّـفَا وَهِدَايَـةُ الْـحَيْرَانِ

لا شك أَنَّ أعْدَل الكُتُب كتابُ الله عزَّ وجلَّ لو اجتمع الخَلْق كُلُّهم على أن يأتوا بِمِثل أحكام القرآن ما أَتَوْا بِمِثْلِها، لأنها أعدل حكم.

قَوْلُهُ: «**فِيه الشِّفا**» الشِّفاء هو البُرْء مِن المَرَض، لكن أيُّ شِفاء في القرآن: الشفاء الحِسِّي، أو الشِّفاء المَعنوي؟ الجواب: كلاهما، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس:٥٧] هذا الشفاء

المعنوي، وقال النَّبيُّ ﷺ للذي قرأ على اللَّدِيغ بالفاتحة، فقام كأنما نُشِطَ مِن عِقَال، قال لهذا القارئ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ»(١).

فالشفاء الذي جاء به القرآن، أو الذي في القرآن يشمل الشفاءين: الحِسيّ، والمعنويّ.

قَوْلُهُ: «وهِدَايَةُ الْـحَيْرَانِ» إي والله، هداية الحيران أي: المتحيّر، المتردد، الشَّاكّ، فهذا يجد الهدايةَ في القرآن، فيجد طِيب القَلب، وطُمَأْنِينَة القَلب، وانشراح الصدر، وانفتاح النفس في القرآن.

فمهما طَلَبْتَ مِن الأطباء أن يزول عنك ما في قَلبك، فلن تجد مِثل القرآن، لكن لمن؟ الجواب: للذين آمنوا كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤]، أما غير المؤمن فلا ينتفع به، واقرأ قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة:١٢٤] قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥].

فغير المؤمن لا يرى الشفاء بالقرآن أبدًا، ولا ينتفع بالقرآن، بل ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين:١٣]، لأنه لا ينتفع بها و﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مِثل قولنا: (سَواليف الأولين)، لأنه لا ينتفع، فكلَّما كان الإنسان أقوى إيمانًا بالله كان القرآن أَنفعَ له في شفاء مَرَض القَلب، وفي نُور القلب، وفي انشراح الصدر، وفي طمأنينة القلب، وجَرِّبْ تَجِدْ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب، رقم (٢١٥٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار، رقم (٢٢٠١).

والعجيب أني أحيانًا -وهذا عن نفسي- أطلب حُكم مسألةٍ مِن المسائل، فيما عندي مِن كتب الفقهاء، وفيما أَعْرِف مِن السُّنَّة، ولا أجدها، ثم أتأمَّل في آيةٍ مِن القرآن تُوحِي بِحُكم هذه المسألة، فإذا تأمَّلتُ وجدتُ الحُكم في القرآن.

فيطمئن الإنسان إلى أنَّ القرآن ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، وهداية لكل حائر.

٢٣٠- وَالْحَاكِمُ الثَّانِي كَلَامُ رَسُولِهِ ... مَا ثَمَّ غَيْرُهُمَا لِذِي إِيمَانِ

قَوْلُهُ: «وَالحَاكِمُ الثَّانِي كَلامُ رَسُولِهِ» قَيَّدَهُ المؤلف، فقال: «لِذِي إيمانِ».

كلام الرسول -عليه الصلاة والسلام- هو الحاكم الثاني، وفِعْلُه هو الحاكم الثاني، وقد قرأتم قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء:٦٥] أي: فيما حصل بينهم مِن نزاع ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥].

٢٣١- فَإِذَا دَعَوْكَ لِغَيْرِ حُكْمِهِمَا فَلَا ... سَمْعًا لِدَاعِي الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ

أفادنا المؤلف -رحمه الله- أنَّ مَنْ حَكَم بِغَيْر ما جاء به الكتابُ والسُّنَّةُ فَحَالُهُ بينَ أمرين: إما أن يكون كافرًا، وإما أن يكون عاصيًا، ولهذا قال: (**فَلَا سَمْعًا لِدَاعِي الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ**).

٢٣٢- قُلْ لَا كَرَامَةَ لَا، وَلَا نُعْمَى وَلَا ... طَوْعًا لِمَنْ يَدْعُو إِلَى طُغْيَانِ

٢٣٣- وَإِذَا دُعِيتَ إِلَى الرَّسُولِ فَقُلْ لَهُمْ ... سَمْعًا وَطَوْعًا، لَسْتُ ذَا عِصْيَانِ

هكذا الواجب على المُسْلِم أن يقول بقلبه ومَقَالِه: لا سَمْعَ، ولا طَاعَةَ لمن يدعو إلى طُغيان، لكن كيف يدعو إلى طُغيان؟ نقول: لأنَّ أيَّ إنسان يدعو إلى

حُكم غير حُكم الله ورسوله، فهُو طاغٍ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى الطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ الشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠-٦١].

فقول المؤلف: «يَدْعُو إِلَى طُغْيَانِ» مُوافِقَة للآية السابقة.

إِذَنْ كل ما خالف حُكم الله فهو طُغيان، وكل مَن دعا إلى ذلك فهو طاغوت، فهل تريد أن تكون مِن أهل الإيمان، أو مِن أهل الطاغوت؟

الجواب: مِن أهل الإيمان.

* * *

٢٣٤- وَإِذَا تَكَاثَرَتِ الْـخُصُومُ وَصَيَّحُوا ... فَاثْبُتْ، فَصَيْحَتُهُمْ كَمِثْلِ دُخَانِ

٢٣٥- يَرْقَى إِلَى الْأَوْجِ الرَّفِيعِ وَبَعْدَهُ ... يَهْوِي إِلَى قَعْرِ الْـحَضِيضِ الدَّانِ

٢٣٦- هَذَا وَإِنَّ قِتَالَ[1] حِزْبِ الله بِالْـ ... أَعْمَالِ لَا بِكَتَائِبِ الشُّجْعَانِ

٢٣٧- وَالله مَا فَتَحُوا الْبِلَادَ بِكَثْرَةٍ[2] ... أَنَّى وَأَعْدَاهُمْ بِلَا حُسْبَانِ؟!

٢٣٨- وَكَذَاكَ مَا فَتَحُوا الْقُلُوبَ بِهَذِهِ الْـ ... آرَاءِ بَلْ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ

---

(١) في نسخة الإفتاء: «قبل حرب» بموحدة تحتانية.

(٢) في نسخة التيمورية: «بهذه».

الشرحُ

٢٣٤- وَإِذَا تَكَاثَرَتِ الْـخُصُومُ وَصَيَّحُوا فَاثْبُتْ، فَصَيْحَتُهُمْ كَمِثْلِ دُخَانِ

٢٣٥- يَرْقَى إِلَى الْأَوْجِ الرَّفِيعِ وَبَعْدَهُ يَهْوِي إِلَى قَعْرِ الْـحَضِيضِ الدَّانِ

قَوْلُهُ: «وَإِذَا تَكَاثَرَتِ الْـخُصُومُ» يعني: بأن كنت وحيدًا في بلدك تدعو إلى السُّنَّة واتِّباع السَّلف، وكَثُرَ الأعداء الذين يَدْعُون إلى مذهبهم الباطل، فالواجب ألَّا تَنْهَزِم، لأنك إذا انهزمتَ فقد هَزَمْتَ الحقَّ، بل اثبُت، وما أَرْعَبَ أعداءَك إذا رَأَوْك ثابتًا.

قَوْلُهُ: «فَصَيْحَتُهُمْ كَمِثْلِ دُخَانِ» فهو شَبَّهَهُم بالدُّخان، تعلو أصواتُهم وضجيجهم وكلماتهم ودعاياتهم، فالدُّخان إذا ثبت له الإنسان تمزَّق وتفرَّق يمينًا وشمالًا، ولم يَضُرَّ الإنسان، وإذا تعالى في الجَوِّ فمآله الرجوع والسُّفْل، وهذا التمثيل مِن أعجب التمثيلات وأَدَقِّها، فهو أشدُّ مِن قول الشاعر:

بَلِيتُ بِلَى الْأَطْلَالِ إِنْ لَمْ أَقِفْ بِهَا
وُقُوفَ شَحِيحٍ ضَاعَ فِي التُّرْبِ خَاتَمُهُ[1]

فقَوْلُهُ: «الأَطْلَالِ» يعني: أطلال محبوبته، يقول: فهو (شَحِيح)، إذا ضاع خاتمه في التراب هل يَنظُر أَوَّلَ مرة ويمشي؟ أبدًا، بل يَنْخُل التُّرابَ نَخْلًا، حَبَّة حَبَّة، لَعَلَّه يجد خاتمة.

أقول: إنَّ هذا التشبيه العجيب دونَ ما شَبَّه ابن القيم -رحمه الله- أعداء الحقِّ بالدُّخَان، وَجْهُ الشَّبَه: الدخان، إذا ثَبَتَّ له هل يدفعُك؟ الجواب: لا يدفعُك،

(١) البيت للمتنبي، انظر: شرح معاني شعر المتنبي للإفليلي (١/ ١٥٨).

ولكن يتمزَّق يمينًا وشمالًا.

ثانيًا: إذا تعالَوْا عليك، وهو باطل فَمَآلهم للسُّفُول والنزول، لأنَّ الدخان يَرْقَى، وإذا به يَنْزِل، لأنَّ الرياح تَرُدُّه إلى الأرض.

وَقَوْلُهُ: «**دُخَانٍ يَرْقَى إِلَى الْأَوْجِ الرَّفِيعِ**» شَرَح المؤلف المشابهة في الارتفاع فقط، لكننا زِدْنا على هذا بِعَدَم صُمود الدخان لمن ثَبَت، فإنه يتمزَّق ويتفرَّق.

٢٣٦- هَـذَا وَإِنَّ قِتَـالَ حِـزْبِ الله بِالْـ ... أَعْـمَالِ لَا بِكَتَائِـبِ الشُّـجْعَانِ

قَوْلُهُ: «**حِزْب الله**» وفي نسخة «**حَرْبِ الله**» ويصحُّ حِزْب وحَرْب، لأنَّ القتال يكون مِن جانبين.

قِتَال حِزْب الله يعني: قتالهم لأعدائهم.

قَوْلُهُ: «**لا بكتائب الشجعان**» يعني: ليس بكتائب الشجعان وحدها، وإلَّا فمِن المعلوم أنَّ قتال حِزب الله لأعدائهم يكون بالأعمال، ويكون بالكِتائب، ولولا الكتائب، ولولا رايات الجهاد ما حَصَلَت الغَلَبة على أعداء الله، فأعداء الله قِتالُـهم يكون بأمرين: الأول: بالأعمال، والثاني: بكتائب الشجعان.

فابن القّيم -رحمه الله- لم يَنْفِ أنَّ القتال يكون بكتائب الشجعان، ولكنه نَفَى أن يكون القتال مقتصرًا على كتائب الشجعان.

وصدق -رحمه الله- فالأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، والمعاملات الطيبة تفتح قُلوب الأعداء أكثرَ مما تفتحه السيوف، ولهذا نجد في عِلم التاريخ أن كثيرًا مِن رؤساء الكفر لما شُرِح لهم الإسلام أَسْلَمُوا بِدُون أيِّ قتال، ولما قيل: إنَّ المسلمين كذا وكذا.. أسلموا.

وهذا هرقل لما ذُكرت له صفات الرسول -عليه الصلاة والسلام- أَقَرَّ بأنه حَقٌّ[(١)]، لكن منعه -والعياذ بالله- الشُّحُّ بِمُلْكِه، فلم يُسْلِم!

٢٣٧- وَالله مَـا فَتَحُـوا الْـبِلَادَ بِكَثْـرَةٍ   أَنَّـى وَأَعْـدَاهُمْ بِـلَا حُسْـبَانِ؟!

قَوْلُهُ: «**وَالله مَا فَتَحُوا الْبِلَادَ بِكَثْرَةٍ**» يشير إلى الصحابة، وسَلَف الأُمة، فهُم ما فتحوا البلاد بكثرة (**أَنَّى وَأَعْدَاهُمْ بِلَا حُسْبَانِ**)؟

وهذا صحيحٌ، وفيه الردُّ على مَنْ قال: إِنَّ المسلمين فَتَحُوا البلاد بالسلاح والحرب، وهذا قول أعداء المسلمين، لأنهم إذا قالوا هذا، فمعناه أَنَّ المسلمين طُغَاةٌ معتدون فَتَحوا البلاد بِقُوَّة السلاح، وهذا ما قاله إِلَّا أعداؤنا مِن المستشرقين وأذنابهم، وإنما فَتَحوا البلاد بالعَمَل، وفَتَحوا القُلوب بالعِلم.

فبالعَمَل: إذا رأى الكفار في عهد الصحابة ما عليه طُغاتُهم ووُلاتُهم مِن استعبَادِهم واستِذْلالـهم ورَأَوْا ما كان عليه الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وأَنَّ أميرهم السلطان الأعلى فيهم ثوبُه مُرَقَّع، ينام في المسجد علي كثيبٍ مِن الرَّمْل، وليس عنده حارسٌ، ويتكلَّم عليه الصغير والكبير، ويخطب الناس فتَرُدُّ عليه المرأة[(٢)]، وما أَشْبَهَ ذلك، هل النفوس بِفِطْرَتِها الأصيلة تقبل هؤلاء أو ترفضهم؟

الجواب: تَقْبَلُهم والله، فتنفتح قلوبُهم قبل انفتاح بُلْدَانهم، فبهذه الأعمال الجليلة، والأخلاق الفاضلة فتَحوا البلادَ لا بِكَثْرَة العَدَد، ولا بقوة العُدَّة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (٧)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، رقم (١٧٧٣).

(٢) أخرج هذه القصة سعيد بن منصور في كتاب السنن (١/ ١٩٥، رقم ٥٩٨)، والبيهقي (٧/ ٢٣٣، رقم ١٤١١٤)، وقال البيهقي: هذا منقطع.

لو قارنَّا بين كثرة العَدد، وقُوَّة العُدَّة فأيهما أكثرُ: هُم أو أعداؤهم؟ الجواب: الأعداء أضعافٌ مُضاعَفة بلا حسبان، وكذلك في العُدَّة، لكن فتَحوا البلاد بهذه الأعمال.

٢٣٨- وَكَذَاكَ مَا فَتَحُوا الْقُلُوبَ بِهَذِهِ الْـ ... آرَاءِ بَلْ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ

يقول: كذلك فتَحوا القُلوب بالعِلم والإيمان، لا بقواعِدِ أهل المنطق اليونانيّ.

وصدق -رحمه الله- لو أنه عُرِضَت عقائدُ المسلمين على أعدائهم بما يَعرِضُها به علماءُ الكلام، هل يؤمنون؟ لا يؤمنون أبدًا، بل لا يَزيدهم ذلك إلَّا نُفورًا، لكنَّ عقيدة المُسلِم سهلةٌ ويَسِيرة، يأتي الأعرابي يقول: أشهد أن لا إله إلَّا الله، وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله، ويمضي، ويتعلَّم العقيدة مِن هاتين الكلمتين.

لكن لو أننا دَعَوْنا أعداءَ الله بكلام أهل الكلام، وأعطينا الواحد منهم مجلداتٍ لم ينتفع، فكلامه -رحمه الله- حقٌّ بلا شَكٍّ.

* * *

٢٣٩- وَشَجَاعَةُ الْفُرْسَانِ نَفْسُ الزُّهْدِ فِي ... نَفْسٍ، وَذَا مَحْذُورُ كُلِّ جَبَانِ

٢٤٠- وَشَجَاعَةُ الْحُكَّامِ وَالْعُلَمَاءِ زُهْـ ... ـدٌ فِي الثَّنَا مِنْ كُلِّ ذِي بُطْلَانِ

٢٤١- فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا لِقَلْبٍ صَادِقٍ ... شُدَّتْ رَكَائِبُهُ إِلَى الرَّحْمَنِ

٢٤٢- وَاقْصِدْ إِلَى الْأَقْرَانِ لَا أَطْرَافِهَا ... فَالْعِزُّ تَحْتَ مَقَاتِلِ الْأَقْرَانِ

٢٤٣- وَاسْمَعْ نَصِيحَةَ مَنْ لَهُ خُبْرٌ بِمَا ... عِنْدَ الْوَرَى مِنْ كَثْرَةِ الْجَوَلَانِ

٢٤٤- مَـا عِنْـدَهُمْ -وَاللهِ- خَـيْرٌ غَـيْرَ مَـا أَخَـذُوهُ عَمَّـنْ جَـاءَ بِـالْقُرْآنِ

٢٤٥- وَالْكُـلُّ بَعْـدُ فَبِدْعَـةٌ أَوْ فِرْيَـةٌ أَوْ بَحْـثُ تَشْـكِيكٍ وَرَأْيُ فُـلَانِ

الشـرحُ

٢٣٩- وَشَجَاعَةُ الْفُرْسَانِ نَفْسُ الزُّهْـدِ فِي نَفْـسٍ، وَذَا مَحْـذُورُ كُـلِّ جَبَـانِ

هذا التعريف الذي ذكَرَه للشجاعة لا تكاد تجدُه في كتاب، فزُهد الإنسان في نفسه هو الشجاعة، فشَجاعةُ الفُرسان نَفْسُ الزهد في نَفْسٍ، فإذا زَهَد الإنسانُ في نَفسِه فلا يهمُّه الموت، لأنَّ الجُبنَ يدعو إليه الشُّحُّ بالنفس، يخاف أن يُقْدِم فَيُقْتَل، فإذا زَهَدَ بنفسِه، ولم تهمّه النَّفس إذا فاتت، فهذه هي الشجاعة، ولذلك تجد الشجاع عندما يُقْدِمُ ينسى نَفسه، وينسى كُلَّ شيء، فشجاعةُ الشجعان هي الزُّهد في النفس، وكَرَمُ الكُرَماء الزهدُ في المال، ويأتي زُهدٌ آخرُ، ولذا قال -رحمه الله-:

٢٤٠- وَشَجَاعَةُ الْـحُكَّامِ وَالْعُلَـمَاءِ زُهْـ ـدُ فِي الثَّنَـا مِـنْ كُـلِّ ذِي بُطْـلَانِ

قَوْلُهُ: «وَشَجَاعَةُ الْـحُكَّامِ» كذلك الأمراء شجاعتهم ألَّا يَهْتَمُّوا بِمَدْح الناس إيَّاهم، أو ذَمِّهم، وأن يقودوا الناس بكتاب الله عزَّ وجلَّ حتى لو قالت الأُمم: هؤلاء مُخَالِفون لِـحُقوق الإنسان: يقطعون يد السارق، ويقتلون القاتل.

فالواجب على الأمراء -وهذا يشمل السلطان ومَنْ تحتَه- ألَّا يبالوا بأحد، وأن يزهدوا في ثناء الناس عليهم بالباطل.

وشجاعة العالِـم أن يَزْهَد في الثناء مِن أهل الباطل، بمعنى أنه لا يُحابي أهل الباطل، أثْنَوْا عليه، أو ذَمُّوه لا يهمُّه، يقول: أنا عالـمٌ أُبدي العِلم، سواء أَثنى عَلَيَّ

أهلُ الباطل، أم قَدَحُوا فيَّ، فيَزْهَد في ثناء أهل الباطل عليه، لأنَّ أهل الباطل إذا رَأَوُا العالِـمَ قد دَاهَنَهُم أَثْنَوْا عليه، وقالوا: هذا العالِمِ الذي يعرف الأمور، هذا العالم الذي يَصْلُح لكل واحد، فيُثنون عليه، فهو إذا زَهَد في هذا الثناء صار عالمًا حقًّا وشُجاعًا، اللهمَّ اجعلنا مِن هؤلاء.

ومِن ثَمَّ نقول: العلماء ثلاثة أقسام: عالِـم أُمَّة، وعالِـم مِلَّة، وعالِـم دَوْلة.

الأول: عالـم الملَّة: وهو الذي يَبُث المِلَّةَ أي: شريعة الإسلام، ولا يُبالي بمَن خالَفه، أثنى الناسُ عليه، أم قَدَحُوا فيه، فهذا عالِمُ المِلَّة الذي يريد إقامة الشريعة، ولا يَهُمُّه ما يقوله الناس عليه: (هذا رجلٌ مُعَقَّد)، (هذا رجلٌ رجعيٌّ)، (هذا لا يعرف إلَّا دِينًا مَضَت عليه القرون)، فلا يَهُمُّه.

الثاني: عالـم أُمَّة: بمعنى أنه ينظر ماذا يريد العامَّة، إن رأى العامَّةَ مُقبلين على شيء وهو حرامٌ في الشريعة، ولكنَّ الناسَ مُقبلون عليه، ذَهَب يقول: (هذا حلالٌ، الناسُ ما لهم بُدٌّ مِنه، ولا يمكن أن نَرُدَّ الناس)، فيُفتي بما يناسب أهواء الناس، ثُمَّ يحاول أن يجعل له وجهًا في الشرع، فيُحَرِّف النصوصَ مِن أجْل موافقة أهواء الناس.

فهذا إذا رأى أنَّ الثناء عليه يكون في تحليل المصارف (الربا)، فيكون هو هذا الرجل العالـم الفَاهِم لِلُغَة العَصر، واقتِصَاد العَصر، فيقول للناس: اعمَلُوا بالرِّبا، فلا يقوم الاقتصاد إلَّا به، فهذا لَاحَظَ ثناءَ الناس عليه، ولم يُبالِ بما يخالف الشرع.

ولما ظهرت الدعوة في البلاد العربية إلى الاشتراكية -وهي في الحقيقة الشَّرَكِيَّة يُصْطَاد بها الأغنياء- لما ظهرت صاروا يأتون بالأدلَّة الدالَّة عليها، وأنها

في القرآن، ويثبتونها، حتى يقول القائل منهم: **(الاشتراكيُّون أنت إمامُهم)**[1] يعني: الرسول -عليه الصلاة والسلام-.

ومِن أعجَب ما رأيت مِن الاستدلال قول أحدهم: إن الله تعالى قال في القرآن: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ [الروم:٢٨]، قال: فهذه اشتراكية بين السيد والعبد، وكذا في قوله تعالى: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ [الروم:٢٨].

انظر -والعياذ بالله- إلى هذا التحريف؟!

الآية ما معناها؟ يعني: هل أنتم شركاءُ مع هؤلاء، فأنتم سواءٌ في المشاركة؟

الجواب: لا، هذا معطوف على النفي، لكنهم جَعَلُوه إثباتًا، وقالوا: إنَّ الناس شُرَكاءُ في ثلاثة، وعَلَّلوا هذا بالحاجَة، والناس الآن محتاجون إلى الاشتراكية، الشعب كله طبقات: هذا غني جدًّا، وهذا فقير جدًّا، فنحن في حاجة إلى أن نَضُمَّ مالَ هذا إلى هذا، ولكنهم في الحقيقة أخذوا أموال الأغنياء، ولم ينفعوا الفقراء.

المقصود أنَّ عالم الأمة هو الذي ينظر إلى أهواء الناس، وما تهواه ويُسَيِّر الأمورَ علي ما يريدون.

الثالث: عالـم دولة: وهو ينظر ما تريد الدولة، إذا أرادت شيئًا قال: هذا حلال، هذا له وِجهة نظر، ثم يستدل بآياتٍ، أو أحاديثَ ويُحَرِّفُهَا.

---

(١) هذا صدر بيت من همزية الشاعر أحمد شوقي، وتمامه: (لولا دعاوى القوم والغُلَواء). انظر: شعر شوقي في ميزان النقد، لمحمد مصطفى المجذوب (ص:٨٣).

والعلماء في الحقيقة -نسأل الله الحماية- عليهم مسئولية عظيمة، يجب عليهم أن يتقوا الله عزَّ وجلَّ قَبْلَ أن يتقوا عباد الله.

فصارت شَجاعة المقاتل الزهدُ في النفْس، وشجاعةُ الغنيِّ الزهد في المال، وشجاعة العالم الزهد في الثناء مِن أهل الباطل، وشجاعةُ الأمراء الزهد في ثناء الناس، أو قَدْحِهم، لا يَهُمُّهم أحد.

هذه في الحقيقة ضوابطُ، لو أنَّكم إذا مرَّت بكم تُقَيِّدُونَها، تضعون عليها إشارة، ثم تَنقلونها في دفترٍ خاصٍّ يكون فيها فائدة عظيمة ومرجع، لأنها في الواقع ضوابطُ قد لا تجدونها في غير هذا الكتاب.

٢٤١- فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا لِقَلْبٍ صَادِقٍ ... شُدَّتْ رَكَائِبُهُ إِلَى الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «اجْتَمَعَا» يعني: اجتَمع الزهد في النفْس، والزُّهد في الثناء، فإنَّها سوف تُشَدُّ ركائِبُه إلى الله عزَّ وجلَّ ويكون قصدُه وجهَ الله تعالى.

٢٤٢- وَاقْصِدْ إِلَى الْأَقْرَانِ لَا أَطْرَافِهَا ... فَالْعِزُّ تَحْتَ مَقَاتِلِ الْأَقْرَانِ

يعني: إذا قاتلتَ لا تَذْهب للحَواشي، بل ابدأ بالأَقْران، والأَقْران هُم مَنْ مِثْلُك في الشجاعة، فأنت شجاع، فلا تذهبْ إلى أطراف الجيش الذين ليس عندهم شجاعة، لأنَّ قَتْلَهُم سهلٌ، لكن اقصد إلى الأَقْرَان الذين هُم مِثْلُك فاقتلهم.

كذلك بالنسبة للعلماء، لا تذهب للعامَّة، بل اقتل العالِـمَ الذي يقودهم بالباطل، اقتُله -طبعًا- بالحُجَّة والبرهان، لا بالسَّيْف، وهذه توصيةٌ مِنْ خبير بالأمر، لأنك إذا أردت القضاء على باطل قومٍ فإلى مَنْ تقصد؟ أتذهب إلى العامِّي

تُناظره في هذا القول؟ لا، لكن اذهب إلى العالِم، ويقول العوامُّ: (**إذا صَدَعْتَ رَأْسَ الـحيَّةِ مَاتَ ذَنَبُهَا**) لكن إذا ضَربْتَ ذَنَبَها فلن تموت.

ولهذا يقول -رحمه الله-: «**اقْصِدْ إِلَى الْأَقْرَانِ لَا أَطْرَافِهَا**» فلا تأتِ للحواشي والأطراف، فهؤلاء سَتَعْجِزُ عنهم، لكن انظر إلى أقرانك الذين هم عُلماء مِثْلُك، وناظِرْهم حتى ينهزموا أمامك، وبالتالي ينهزمون أمام عوامِّهم، أما أن تأتي للعوامِّ، فلا تُفَكِّر أبدًا في ذلك، فقد يجتمع عليك عشرون عاميًّا، يَصِيحُون بك، بل وقد تأخذ أحدَهم الغَيْرةُ فيَضْرِبك، فلا تتكلَّم مع هؤلاء. وهذه مِن الحِكَم التي أرشد إليها -رحمه الله تعالى-.

٢٤٣- وَاسْمَعْ نَصِيحَةَ مَنْ لَهُ خُبْرٌ بِمَا ... عِنْدَ الْوَرَى مِنْ كَثْرَةِ الْـجَوَلَانِ

قَوْلُهُ: «**وَاسْمَعْ نَصِيحَةَ مَنْ لَهُ خُبْرٌ...**» يعني بذلك نَفْسَه.

قَوْلُهُ: «**خُبْرٌ**» أي: عِلْم، يعني: أنه -رحمه الله- جالَ في أقوال العلماء، وليس بلازم أن يذهب إلى كل عالمٍ في بيته، لكن جال في أقوال العلماء فيما كَتَبُوه، وتأملها وعرفها.

٢٤٤- مَا عِنْدَهُمْ -وَاللهِ- خَيْرٌ غَيْرَ مَا ... أَخَذُوهُ عَمَّنْ جَاءَ بِالْقُرْآنَ

وهذا مِن إنصاف المؤلف يقول: الخيرُ الذي عندهم موجودٌ في القرآن، وأكثرُ ما عندهم هو الباطل والشرُّ، فإذا كان الخير الذي عندهم موجودًا في القرآن، فإلى أين أرجعُ؟

الجواب: أرجعُ إلى القرآن، ولا يَهُمُّني إذا وافقوا القرآن في شيء، ثم أُبْطِلُ ما خالفوا القرآن مما عندهم، ولا يهمني هذا.

٢٤٥- وَالْكُــلُّ بَعْــدُ فَبِدْعَــةٌ أَوْ فِرْيَــةٌ   أَوْ بَحْــثُ تَشْــكِيكٍ وَرَأْيُ فُــلَانِ

ذَكَرَ أربعة أقسام:

الأول: بِدعةٌ ابتدعوها في دِين الله مِن عبادةٍ قوليةٍ أو فِعْلية.

الثاني: فِرْية أي: كَذِبٌ أَخْبَرُوا به عن الله عزَّ وجلَّ.

الثالث: بحثُ تشكيكٍ فيما يُورِدُونَه مِن الأسئلة التي لا يجدون لها جوابًا، ولهذا قال بعضهم: (**أكثرُ الناس شكًّا عند الموت أهلُ الكلام**)[1].

اللهم أَعِذْنا مِن ذلك يا ربَّ العالمين، وارزقنا اليَقين أحياءً، وعند الموت.

الرابع: رأيُ فُلان، وهذا عن التقليد الأعمى، فيقول: قال فلان، وقال فلان.

فهؤلاء القوم ليس عندهم إلَّا واحدٌ مِن هذه الأمور الأربعة: بِدعة، فِرْيَة، تشكيك، تقليد.

* * *

٢٤٦- فَاصْدَعْ بِأَمْرِ اللهِ لَا تَخْشَ الْوَرَى   فِي اللهِ وَاخْشَــاهُ تَفُــزْ بِأَمَــانِ

٢٤٧- وَاهْجُرْ وَلَوْ كُلَّ الْوَرَى فِي ذَاتِهِ   لَا فِي هَــوَاكَ وَنَخْــوَةِ الشَّــيْطَانِ

٢٤٨- وَاصْبِرْ بِغَيْرِ تَسَخُّطٍ وَشِكَايَةٍ   وَاصْفَحْ بِغَيْرِ عِتَابِ مَنْ هُوَ جَانِ

٢٤٩- وَاهْجُرْهُمُ الهَجْرَ الجَمِيلَ بِلَا أَذًى   إِنْ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنَ الْهِجْرَانِ

٢٥٠- وَانْظُرْ إِلَى الْأَقْدَارِ جَارِيَةً بِمَا   قَدْ شَاءَ مِنْ غَيٍّ وَمِنْ إِيمَانِ

---

(١) هذا القول أورده شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨) ونسبه للغزالي.

٢٥١- وَاجْعَلْ لِقَلْبِكَ مُقْلَتَيْنِ كِلَاهُمَا ... بالْحَقِّ فِي ذَا الْخَلْقِ نَاظِرَتَانِ

٢٥٢- فانْظُرْ بِعَيْنِ الْحُكْمِ وَارْحَمْهُمْ بِهَا ... إذْ لَا تُرَدُّ مَشِيئَةُ الدَّيَّانِ

٢٥٣- وَانْظُرْ بِعَيْنِ الْأَمْرِ وَاحْمِلْهُمْ عَلَى ... أَحْكَامِهِ، فَهُمَا إِذَنْ نَظَرَانِ

٢٥٤- وَاجْعَلْ لِوَجْهِكَ مُقْلَتَينِ كِلَاهُمَا ... مِنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَنِ بَاكِيَتَانِ

٢٥٥- لَوْ شَاءَ رَبُّكَ كُنْتَ أَيْضًا مِثْلَهُمْ ... فَالْقَلْبُ بَيْنَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ

الشرحُ

٢٤٦- فَاصْدَعْ بِأَمْرِ الله لَا تَخْشَ الْوَرَى ... فِي الله وَاخْشَاهُ تَفُزْ بِأَمَانِ

قَوْلُهُ: «فاصْدَعْ بِأَمْرِ الله» لقول الله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر:٩٤].

وَقَوْلُهُ: «اصدع» يعني: بَيِّنْهُ بَيَانًا واحدًا، تَصْدَعُ به الحَجَر مِن قُوَّة البَيَان والإظهار.

قَوْلُهُ: «لَا تَخْشَ الْوَرَى فِي الله وَاخْشَاهُ» هذا مأخوذ من قوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ [المائدة:٤٤].

قَوْلُهُ: «وَاخْشَاهُ تَفُزْ بِأَمَانِ» يعني: إن فعلتَ هذا، أي: صَدَعْتَ بالحَقِّ، وخَشِيتَ الله عزَّ وجلَّ دون غيره، فستَفُوز بأمان.

فالمؤلف يقول: الواجب على الإنسان أن يَصْدَعَ بالحقِّ، ولا يخشى إلَّا الله عزَّ وجلَّ فإنَّ الأمان في خشية الله، والخَوف كلّ الخَوف في خَشية الناس، فمن خَشِيَ الله خافه الناسُ، ومَنْ خاف الناسَ وَطِئَه الناس.

٢٤٧- وَاهْجُرْ وَلَوْ كُلَّ الْوَرَى فِي ذَاتِهِ لَا فِي هَوَاكَ وَنَخْوَةِ الشَّيْطَانِ

يعني: اهجر مَنْ خالف الحقَّ -ولو كانوا كُلَّ الورى- في ذات الله عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «لَا فِي هَوَاكَ» يعني: لا تَهْجُرْهُم انتصارًا لِـهَواك.

قَوْلُهُ: «وَنَخْوةِ الشَّيْطَانِ» النَّخْوَة: العِزَّة والفَخر، وما أشبه ذلك.

ولكن اهجرهم لله عزَّ وجلَّ في ذات الله، حتى لو كان أباك وأُمَّك، اهجرهم في ذات الله، ولكن كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٥].

٢٤٨- وَاصْبِرْ بِغَيْرِ تَسَخُّطٍ وَشِكَايَةٍ وَاصْفَحْ بِغَيْرِ عِتَابِ مَنْ هُوَ جَانِ

قَوْلُهُ: «وَاصْبِرْ» أي: لِـحُكْم الله عزَّ وجلَّ الذي يَحصُل لك مِن أذيَّة أو ضَرَر.

قَوْلُهُ: «بِغَيْرِ تَسَخُّطٍ وَشِكَايَةٍ» فلا تتسخط بِقَلْبك، ولا تَشْكُوَنَّ بِلِسَانك.

قَوْلُهُ: «وَاصْفَحْ بِغَيْرِ عِتَابِ مَنْ هُوَ جَانِ» اصفح يعني: أَعْرِض عن الشيء، وهو مأخوذٌ مِن صَفْحَة العُنُق، فإنَّ الإنسان إذا أَعْرَض بَدَت صَفْحتُه.

المعنى: اصفح عن هؤلاء «بِغَيْرِ عِتَابِ مَنْ هُوَ جَانِ» ولكن الحقّ لا بُدَّ أن تقوله.

وفي هذا إشارة إلى إبطال الطريقة التي يفعلها بعض الناس، حتى مِن العلماء مَنْ تجده إذا خالفه أحدٌ في رأيه -ولو كان عن اجتهاد- قام يَسُبُّه سَبًّا عظيمًا، وممن يسلك هذه الطريقةَ ابنُ حَزْمٍ -رحمه الله-[1]، وَيَا وَيْلَ مَنْ خَالَفَه، يَسُبُّه سَبًّا عظيمًا،

(١) ابن حزم: هو عليّ بن أحمد بن سعيد، ابن حزم الظاهري، أحد أئمة الإسلام، ولد بقرطبة سنة (٣٨٤هـ)، كان له ولأبيه رئاسة الوزارة، ولكن زَهِد فيها، وأقبل على العلم، ولقد انتقد كثيرًا من العلماء فطاردته الملوك، فمات في بادية -يعني خارج المدن- ببلدة من بلاد الأندلس سنة (٤٥٦هـ). [الشارح].

وهذا غلط، فعليك أن تصبر، وأن تدعُوَ إلى الله عزَّ وجلَّ بالحقِّ بدون تَسَخُّط وعتاب.

٢٤٩- وَاهْجُرْهُمُ الهَجْرَ الجَمِيلَ بِلَا أَذًى إِنْ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنَ الْهِجْرَانِ

قَوْلُهُ: «وَاهْجُرْهُمُ الْهَجْرَ الْجَمِيلَ» الهَجر الجميل هو الهَجر بلا أذية، كما أنَّ الصبر الجميل هو الصبر بلا شِكَاية.

قوله: «إِنْ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنَ الْهِجْرَانِ» يعني: لا تَهجُرهم إِلَّا إذا كان لا بدَّ مِن الهجر، فاهجُرهم بلا أذى.

وهذا يدلُّ على تسامح ابن القيم -رحمه الله- في مِثل هذه الأمور، عكسَ ما يفعله الآن أهل الغَيْرَة والحماس، تجده يُشَدِّد في مجادلة الآخرين، وفي هَجْرِهم، وفي التنفير منهم، وهذا ليس مِن طريق السلف.

٢٥٠- وَانْظُرْ إِلَى الْأَقْدَارِ جَارِيَةً بِمَا قَدْ شَاءَ مِنْ غَيٍّ وَمِنْ إِيمَانِ

قَوْلُهُ: «قَدْ شَاءَ» أي: الله عزَّ وجلَّ فانظر إلى أقدار الله تعالى كيف هي جارية بما شاء الله مِن غَيٍّ، ومِن إيمان.

فهذا رجل مؤمن صالحٌ تقيٌّ، وهذا رجل فاسق شَقِيٌّ، مَن الذي قدَّر هذا؟ إنه الله عزَّ وجلَّ لكن لا إكراهَ، بل للإنسان اختيار، إلَّا أنَّ الرَّبَّ عزَّ وجلَّ إذا رأى مِن عِباده زَيْغًا، أزاغ قلوبهم -والعياذ بالله-، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف:٥].

فانظر إلى أقدار الله تَجِدِ الرَّجُل الذكِيَّ الكثيرَ المالِ، الكثيرَ البِذْل، الجيِّدَ الرَّأي تجده كافرًا، وتجد آخرَ دُونَه في ذلك، لكنه مؤمن، فانظر إلى أقدار الله عزَّ وجلَّ كيف جرت بما شاء؟

ولكن هل هو لمجرد مشيئةٍ، أو مشيئةٍ لِحكمة؟ الجواب: نعم، مشيئةٌ لِحكمة.

٢٥١- وَاجْعَـلْ لِقَلْبِـكَ مُقْلَتَـيْنِ كِلَاهُمَـا   بالْــحَقِّ فِي ذَا الْــخَلْقِ نَاظِرَتَــانِ

اجعل لقَلبِك عَيْنَين تنظر إلى الخَلق مِن وجهين.

٢٥٢- فانْظُرْ بِعَيْنِ الْـحُكْمِ وَارْحَمْهُـمْ بِهَـا   إذْ لَا تُــرَدُّ مَشِــيئَةُ الــدَّيَّانِ

قَوْلُهُ: «فانْظُرْ بِعَيْنِ الْـحُكْمِ» أي: الحُكم الكَوْني القَدَريّ، كيف حَكَمَ اللهُ على هؤلاء بالضلال؟

قَوْلُهُ: «وَارحَمْهُمْ بِهَا» أي: بهذه العين، كيف أَضَلَّ اللهُ هؤلاء المساكين، حتى بَقُوا حَيَارى، لا يَبْنُونَ أمرَهم على قاعدة، وليس لهم عقيدة، فتَرْحَمُهم، وتقول: الحمد لله الذي فَضَّلني عليهم، وهذا هو النظر الأول.

وأما النظر الثاني، فقال -رحمه الله تعالى-:

٢٥٣- وَانْظُرْ بِعَيْنِ الْأَمْرِ وَاحْمِلْهُـمْ عَـلَى   أَحْكَامِــهِ، فَهُــمَا إِذَنْ نَظَــرَانِ

قَوْلُهُ: «وَانْظُرْ بِعَيْنِ الْأَمْرِ» أي: الأمر الشرعيّ.

قَوْلُهُ: «وَاحْمِلْهُمْ عَلَى أَحْكَامِهِ» أي: أَلزِمْهم بها، ولا تأْخُذْك في دِين الله لَوْمَةُ لَائِم.

فحينئذٍ لنا نَظَران:

النظر الأول: أن تنظر إليهم بعين القَدَر، وهذا يقتضي الرحمة، والحنان عليهم، والتَأَوُّه لَهُم، وأن نَحمَد الله عزَّ وجلَّ أن عافانا مما ابتلاهم به، لأنَّ هذا مِن أقدار الله عزَّ وجلَّ، فأنت إذا نظرتَ إلى هذا المَخْذُول -والعياذ بالله- تَرِقُّ له وتقول: هو مسكين، كيف صُدَّ عن الهُدى، واتَّبع الهوى والرَّدى؟!

النظر الثاني: بِعَيْن الشرع، فهذا النظر يجب عليك أن تحملهم على الشرع، ولو بالضَّرْب، ولو بالحَبْس، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النور:٢].

فقال: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٢]، أما بِعَيْنِ القَدَر فارحمْهُم وتَأَوَّه لهم.

قال الشافعي -رحمه الله-: «حُكْمِي فِي أَهْلِ الْكَلَامِ: أَنْ يُضْرَبُوا بِالْجَرِيدِ وَالنِّعَالِ وَيُطَافَ بِهِمْ فِي الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ، وَيُقَالُ هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَأَقْبَلَ عَلَى الْكَلَامِ»(١).

هذا النظر بأيِّ النَّظَرين؟ الجواب: هو بالنَّظَر الشرعي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتوى الحَمَوِيَّة(٢): ويَعلم العَليم أنهم مِن وجهٍ مستحقون ما قاله الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذا إذا نظرنا إليهم بعَينِ الشرع، لكن إذا نظرت إليهم بعين القدَر رحمتَهم، ورقَقْت لهم، وقلت: سبحان الله الذي أَضَلَّ هؤلاء! مع أنهم قد يكونون أذكياءً، وقد يكونون على أخلاقٍ فاضلة، وقد يكونون على عباداتٍ وخُشوع، ولكنهم ضَلُّوا في العقيدة، وهذا لا شكَّ أنه مِن العَدْل، وأنت إذا نظرت إليهم مِن هذا الوجه حَرَصْتَ غايةَ الحِرص على أن يلتزموا بالشرع، لأنَّ مَنْ رَحِم أحدًا لِفَقْد شيء لا بُدَّ أن يسعى له بالحصول عليه.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص:١٧٩).
(٢) انظر: الفتوى الحموية الكبرى (ص:٥٥٥).

تقدَّم أنَّ القلب جَعَلَ له مُقلتين تنظران إلى الخَلق بِعَيْن القدَر، وبِعَيْن الشَّرع، وأما عن الوجه فيقول:

٢٥٤- وَاجْعَلْ لِوَجْهِكَ مُقْلَتَينِ كِلَاهُمَا ... مِنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَنِ بَاكِيَتَانِ

قَوْلُهُ: «مُقْلَتَيْنِ» يعني: عينين، اجعل عينين باكيتين مِن خشية الله عزَّ وجلَّ.

وكل مَقام له مقال، ففي مَقام العبادة والتَّضَرُّع إلى الله عزَّ وجلَّ احْمِلِ العَيْن على البكاء، لأنَّ المَقامَ يقتضيه.

وفي مَقام المجادلة والانتصار للحقِّ لا تَحْمِل بهذا، لأنَّ خَصْمَك قد يرى هذا أنه مقامُ ضَعْف، فلِكُلِّ مَقام مَقالٌ، والمجاهد المِغْوار على فَرَسِه ليس يبكي كما يبكي الساجد الخاشع لله عزَّ وجلَّ.

وفي معنى ذلك يقول القحطاني -رحمه الله- في نونيته[1]:

يَا حَبَّذَا عَيْنَانِ فِي غَسَقِ الدُّجَى ... مِنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَن بَاكِيَتَانِ

نعم، هاتان العينان مَحَلُّ الثناء، لأنَّ (حَبَّذَا) يعني: الثناء عليهما.

فأين منا مَن يتصف بهذا؟! بل أكثر الناس اليوم يَنامون إلى الصباح، وإذا قاموا في غَسَقِ الليل، فالبُكاءُ قليل، لكن عينان في غَسَقِ الدُّجَى مِن خشية الله -سبحانه وتعالى- تبكيان، هذا في زمننا قليلٌ، نسأل الله أن يجعلنا وإِيَّاكم مِن هؤلاء القليل.

فالإنسان ينبغي له أن يكون له مع الله تعالى صِلَة، فيبكي مِن خشية الله -سبحانه وتعالى- في سجوده، في قيامه، كلما تذَكَّر آيات الله -سبحانه وتعالى-

---

(١) انظر: نونية القحطاني (ص:٥٠).

أوجب له ذلك خشيةً له، حتى يَلين القلب، لأنَّ القلب إذا لم تُلَيِّنْه يبقى قاسيًا، لأنَّ زَهْرَةَ الدنيا وزخارفها والأصحاب، وما أشبه ذلك قد يُوجِبُ هذا، أو بعضُه قَسوةَ القلب، فلا بد أن تتعاهد قلبك بما يُلَيِّنُه.

وأحسنُ ما يَلَيِّنُه كتابُ الله عزَّ وجلَّ إذا قرأته بإمعانٍ وتدبُّرٍ، فإنه يُلَيِّن القلب، كما قال ابن عبد القوي -رحمه الله-:

وَحَافِظْ عَلَى دَرْسِ الْقُرَانِ فَإِنَّهُ ... يُلَيِّنُ قَلْبًا قَاسِيًا مِثْلَ جَلْمَدِ(١)

ومِصداق ذلك قوله -تبارك وتعالى-: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

٢٥٥- لَوْ شَاءَ رَبُّكَ كُنْتَ أَيْضًا مِثْلَهُمْ ... فَالْقَلْبُ بَيْنَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ

وصدق -رحمه الله-، فلو شاء الله لكنتَ مِثْلَهم يعني: مِثل هؤلاء الضُّلَّال الذين ضَلُّوا عن الهُدى، لأنك بَشَرٌ وإنسان، تقرأ كما يقرؤون، وتَتَدَبَّر كما يتدبرون، فلو شاء الله لأَضَلَّك.

فاحْمَدِ الله على نِعمةِ الهداية، واعْلَم قَدْر نِعمة الله عليك بذلك، واعلم أنَّ له -سبحانه وتعالى- أكبرَ المِنَّة عليك، لأنه لو شاء لأزاغ قلبك، -والعياذ بالله- ولا تَعْجَب بنفسك، ولا تقل: هذا مِنِّي، فتكونَ كقَارُونَ الذي قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨]، وإذا اعتقدتَ هذه العقيدةَ صِرتَ تلجأ إلى الله عزَّ وجلَّ أن يُثَبِّتَك دائمًا، فإنَّ «قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ

(١) انظر القصيدة بكاملها في الآداب الشرعية والمنح المرعية، لمحمد بن مفلح الحنبلي (٣/ ٥٩٠).

وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»[١]. فكُلُّ العباد قُلوبُهم بين أصابع الرحمن عزَّ وجلَّ يُقلِّبها كيف يشاء، إن شاء أزاغَهَا، وإن شاء هداها، ولكنَّ الزيغ له سبب كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف:٥].

ولما حَدَّثَ النبيُّ ﷺ بهذا الحديث قال: «اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِك».

احرص على هذا القلب الذي إذا صلحَ صلحَ الجسدُ كُلُّه، وإذا فسدَ فسدَ الجسد كله، اللهمَّ أصلِح قلوبنا، اللهمَّ أصلِح قلوبنا، اللهمَّ أصلِح قلوبنا يا رَبَّ العالمين.

قَوْلُهُ: «بَيْنَ أَصَابعِ الرَّحْمَنِ» هكذا ثبت عن النبيِّ ﷺ، ولا يلزم مِن كون القلب بين أصابع الرحمن المُماسَّة والمباشرة، بحيث يُقال: إنَّ هذا الحديث لا يصح، لأنه يستلزم أن تكون أصابعُ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ في صُدور بني آدم، لأنَّ أهل التعطيل عَطَّلوا هذا الحديث وأنكروه، وقالوا: لا يمكن، كيف تكون القلوب بين أصابع الرحمن؟

فيقال: البَيْنِيَّة لا تقتضي المُماسَّة، ولا المباشرة.

والدليل: قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤] هل يُماسُّ الأرض؟ الجواب: لا.

وهل يماسُّ السماء؟ الجواب: لا، ومع ذلك سَمَّى الله ذلك بَيْنِيَّة، فلا يلزم مِن كون قُلوبِنا بين أصابع الرحمن أن تكون المُماسَّة، أو المباشرة.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، رقم (٢٦٥٤).

فإذا قال قائل: كيف إذن؟

فالجواب: أن نجيبه بما أجاب به الإمام مالك -رحمه الله- (**البَيْنِيَّة معلومة، والكيفية مجهولة، والسؤال عنها بدعة، والإيمان بها واجب**).

هكذا نقول في كل مَن حاول أن يسأل عن كيفية صِفات الله عزَّ وجلَّ أو أن يتخيل ذلك بِقَلْبِه، حتى لو حدَّثَتْك نفسُك أن تتطلبَ كيفيةَ صفات الله، فأَوْرِد عليها ما قاله مالك -رحمه الله- وغيره من العلماء.

اللهم ثَبِّت قلوبَنا على طاعتك يا ربَّ العالمين.

* * *

٢٥٦- وَاحْذَرْ كَمَائِنَ نَفْسِكَ اللَّاتِي مَتَى ... خَرَجَتْ عَلَيْكَ كُسِرْتَ كَسْرَ مُهَانِ

٢٥٧- وَإِذَا انْتَصَرْتَ لَهَا فَأَنْتَ كَمَنْ بَغَى ... طَفْيَ الدُّخَانِ بِمَوْقِدِ النِّيرَانِ

٢٥٨- وَاللهُ أَخْبَرَ وَهْوَ أَصْدَقُ قَائِلٍ ... أَنْ لَيْسَ يَنْصُرُ عَبْدَهُ بِأَمَانِ

٢٥٩- مَنْ يَعْمَلِ السُّوآى سَيُجْزَى مِثْلَهَا ... أَوْ يَعْمَلِ الْحُسْنَى يَفُزْ بِجِنَانِ

٢٦٠- هَذِي وَصِيَّةُ نَاصِحٍ وَلِنَفْسِهِ ... وَصَّى وَبَعْدُ لِسَائِرِ الْإِخْوَانِ

الشرحُ

٢٥٦- وَاحْذَرْ كَمَائِنَ نَفْسِكَ اللَّاتِي مَتَى ... خَرَجَتْ عَلَيْكَ كُسِرْتَ كَسْرَ مُهَانِ

قَوْلُهُ: «كَمَائِنَ نَفْسِكَ»: أي: مَا كَمُنَ فيها وخَفِيَ، والنفس أَمَّارة بالسُّوء إلَّا ما رحم رَبِّي.

فهو يقول: احذر كَمائن نَفْسِك، فللنَّفسِ كَمَائِنُ يعني: أشياء مستترة، لا يعلمها إِلَّا الله عزَّ وجلَّ كما قال القحطاني[١]:

وَالله لَـوْ عَلِمُـوا قَبِـيحَ سَرِيـرَتِي لَأَبَـى السَّـلَامَ عَـلَيَّ مَـنْ يَلْقَـانِي

فالإنسان في نَفْسِه كَمائنُ لا يعلمها إِلَّا اللهُ، فاحذر هذه الكَمَائِن.

والكمائن كثيرة قد تكون إشراكًا بالله -نسأل الله العافية- وقد تكون رِياءً، فالإنسان يحب الرِّيَاء، وأن يراه الناس على عملٍ صالحٍ، وقد تكون الحَسَدَ لعباد الله، وهو مِن خِصَال اليهود، وقد تكون كراهةَ أن ينتصر دِين الله عزَّ وجلَّ أو أن ينتصر أولياء الله عزَّ وجلَّ وقد تكون بإيثار الدنيا على الآخرة، وقد تكون بإيثار الأولاد والأزواج على الآخرة، قال تعالى: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩]، وقد تكون بكراهة الحقِّ وتَثَاقُلِه، وقد تكون بالعداوة والبغضاء للمؤمنين، وغير ذلك مما لا يُحصى.

المهم أنَّ هناك كمائنَ في القلب خَفِيَّة، تحتاج إلى تمحيصٍ، وإلى غَسْل القلب مِن ظاهرِه وباطِنه، كُلنا يستطيع أن يصلِّي صلاة خشوع ظاهرة، يكبّر فيرفع يديه، يضع يديه على صدره، يركع تمامًا، يسجد تمامًا، يقرأ تمامًا، لكنَّ الشأن على القلب، هل القلب يتابع الجوارح -أو بعبارةٍ أصحّ- هل هذه الجوارحُ تابعةٌ للقلب بإحسان العمل أم هو صورة؟

هذه مسألة حَذَّر منها ابن القيم -جزاه الله خيرًا- فاحذر هذه، واجعل دائمًا قصدَك الوصول إلى الله عزَّ وجلَّ فهو غايةُ كُلِّ غاية.

(١) انظر: نونية القحطاني (ص:١٨).

أنت إذا جعلت هذا هو القصد -والله-، تنسى الدُّنيا ومَنْ فيها، إذا جعلت قصدَكَ أن تصِل إلى الله، أن تنصُر دِينَ الله، أن تُحِبَّ في الله، وتُبغِض في الله، فإنك سوف تصل إلى الغَايةِ التي تنسى الدنيا كُلَّها، بل تجد لَذَّة العَيش بهذه الدنيا والحياة الطيبة.

أَمَّا إِنْ أتبعْت نَفْسَك الدُّنيا وزَخَارِفَها، فإنك تتعب، لأنَّ الدنيا لا يمكن أبدًا أن تأتِيَك على ما تريد، لكن إذا قَصدْتَ اللهَ جاءك ما تريد، وإذا أردت الله جاءك ما تريد.

فاحذر هذه الكمائن، لأنها إِنْ (**خَرَجَتْ عَلَيْكَ كُسِرْتَ كَسْرَ مُهَانِ**)، وهنا شبَّهَها المؤلف -رحمه الله- بالكَمِين في الحرب، والكَمِين في الحرب بأَنْ يختبئ لِعَدُوِّه، ثم يخرج إليه، وإذا خرج إليه انكسر.

وانظر كيف فعَلَت هَوازِنُ في غزوة الطائف؟ كانوا ثلاثة آلاف وخمسمئة، وكان النَّبِيُّ ﷺ مع جُنوده اثني عشر ألفًا، فكَمَنَ لهم هؤلاء في الوادي، يعني: اختبئوا واختَفَوْا، فلما نزل المسلمون في الوادي هَجَمُوا عليهم[1]، فحصل ما حصل لولا لُطف الله عزَّ وجلَّ.

فكَمَائِن النفس احذرها، وكُلَّما وجدتَ في قَلبِك شيئًا مِن هذه الكمائن فافزع إلى الله عزَّ وجلَّ ولا تُحاول أن تأتي بأدلَّة عقلية، وأشياء مِن هذا، بل افزَع أولًا إلى الله، لأنَّ الله تعالى عَلَّمنا هذا فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف:٢٠٠] فلا ملجأ، ولا مَنْجا إلَّا إلى الله عزَّ وجلَّ، ولا تجلس تُفَكِّر

(١) يعني غزوة حُنَين، وتسمى أَوْطَاس، وتسمى هوازن، والحديث أخرجه أحمد (٣/ ٣٧٦، ١٥٠٩١).

تريد أن تَطرُد هذه الوساوس، لأنها ربما تغلبك، لكن عليك باللُّجوء إلى الله عزَّ وجلَّ واستَعِذ بالله.

يقول -رحمه الله-:

٢٥٧- وَإِذَا انْتَصَرْتَ لَـهَا فَأَنْتَ كَمَنْ بَغَى طَفْـيَ الـدُّخَانِ بِمَوْقِـدِ النِّـيرَانِ

قَوْلُهُ: «وَإِذَا انْتَصَرْتَ لَـهَا» أي: لنفسك، يعني: صِرتَ معها في كمائنها، فقد أخطأتَ خطأً عظيمًا، كمن أراد أن يُطفئَ الدخانَ بمُوقِد النيران، فإنه لا يتمكن، لأنَّ كلَّ إيقاد لا بدَّ له مِن دخان، ولا يمكن كَمَن أراد أن يطفئَ النَّارَ بزيادة الحطَب.

٢٥٨- وَاللهُ أَخْـبَرَ وَهْـوَ أَصْـدَقُ قَائِـلٍ أَنْ لَـيْسَ يَنْصُـرُ عَبْـدَهُ بِأَمَـانِ

ثُمَّ قال: إنَّ الله أخبر بأن سوف ينصر عبده بأمان، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١].

وصدق اللهُ وَعْدَه، نَصَرَ الله محمدًا ﷺ على أعدائه، فقد خرج مِن مكة خائفًا على نَفْسِه مختبئًا في الغَار، ورجع إليها بعد ثماني سنين فاتحًا منتصرًا، ولهذا أعلن النَّبيُّ ﷺ في السعي، وهو على الصَّفا والمَرْوَة **«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْـمُلْكُ وَلَهُ الْـحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ»**[1].

فالله تعالى أخبَر بأنه سينصُر عَبْدَه، وصَدَق عزَّ وجلَّ ووقع هذا.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

٢٥٩- مَنْ يَعْمَلِ السُّوآى سَيُجْزَى مِثْلَهَا أَوْ يَعْمَلِ الْحُسْنَى يَفُزْ بِجِنَانِ

وأخبر أيضًا أنَّ مَن يعمل السُّوآى يُجزَى مِثْلَها، وأنَّ مَنْ يعمل الحُسنى يَفُزْ بجِنَان، وهذا مأخوذ من قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت:٤٦].

٢٦٠- هَذِي وَصِيَّةُ نَاصِحٍ وَلِنَفْسِهِ وَصَّى وَبَعْدُ لِسَائِرِ الْإِخْوَانِ

يعني أنه -رحمه الله- أوصانا بهذه الوصايا النافعة، وقد بدأ بنَفْسِه، وهكذا الناصح يبدأ أولًا بنَفْسِه، ثُمَّ بإخوانه.

* * *

فصل

وَهَذَا أَوَّلُ عَقْدِ مَجْلِسِ التَّحْكِيمِ

٢٦١- فَاجْلِسْ إِذَنْ فِي مَجْلِسِ الحَكَمَيْنِ لِلرْ ... رَحْمَنِ لَا لِلنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

٢٦٢- الْأَوَّلُ[1]: النَّقْلُ الصَّحِيحُ وَبَعْدَهُ الْـ ... ـعَقْلُ الصَّرِيحُ وَفِطْرَةُ الرَّحْمَنِ

٢٦٣- وَاحْكُمْ إِذَنْ فِي رُفْقَةٍ قَدْ سَافَرُوا ... يَبْغُونَ فَاطِرَ هَذِهِ الْأَكْوَانِ

٢٦٤- فَتَرَافَقُوا فِي سَيْرِهِمْ وَتَفَارَقُوا ... عِنْدَ افْتِرَاقِ الطُّرْقِ بِالْحَيْرَانِ

٢٦٥- فَأَتَى فَرِيقٌ ثُمَّ قَالَ: وَجَدْتُهُ ... هَذَا الْوُجُودَ بِعَيْنِهِ وَعِيَانِ

٢٦٦- مَا ثَمَّ مَوْجُودٌ سِوَاهُ وَإِنَّمَا ... غَلِطَ اللِّسَانُ فَقَالَ: مَوْجُودَانِ

الشرحُ

لما ذكر المؤلف -رحمه الله تعالى- النصائحَ السابقة طَلَبَ أن نجلس مجلس التحكيم، فبدأ المؤلف في التحكيم بين الطوائف، وهذا مِن إنصافه -رحمه الله-، وهكذا يجب على كل إنسان أَلَّا يَرُدَّ قولًا إِلَّا بعدَ وجود شيئين:

- الشيء الأول: صِحَّة قوله هو.
- الشيء الثاني: بُطلان قول الخَصم.

(١) في الأصول: «إحداهما».

لأنك لا يمكن أن تُبطل قول خَصمك، وأنت لم تُصَحِّح سِواه، إنما لا بدَّ مِن الأمرين: الأدلة على صحة ما تقول، والأدلة على بُطلان ما يقول الخَصم، فهذا هو العدل.

قال -رحمه الله-:

٢٦١- فَاجْلِسْ إِذَنْ فِي مَجْلِسِ الحَكَمَيْنِ لِلرْ ... رَحْمَــنِ لَا لِلــنَّفْسِ وَالشَّــيْطَانِ

اللام في قوله: «لِلرَّحْمَنِ» للإخلاص، يعني: اجلس للرحمن كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ [النحل:١٢٥].

قَوْلُهُ: «**لَا لِلنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ**» يعني: لا لأجل أن تنتصر لِنَفسِك بالباطل، فإنَّ هذا مِن وَحْيِ الشيطان.

والإنسان إذا جلس مع مُجَادِلِه بهذه النِّية أي: الإخلاص فإنّه سوف يرجع إلى الحقِّ، سواء كان معه، أَم مع خصمه.

٢٦٢- الْأَوَّلُ: النَّقْلُ الصَّحِيحُ وَبَعْدَهُ الْـ ... ـعَقْلُ الصَّرِيحُ وَفِطْرَةُ الرَّحْمَنِ

الواقع أنَّ المؤلف -رحمه الله- جعلهما شيئين، وهم ثلاثة:

الأول: «**النَّقْلُ الصَّحِيحُ**»، ويتمثل هذا في القرآن الكريم، وفيما صحَّ عن النَّبي ﷺ، أما ما لم يصحَّ، فليس بشيء، ولهذا قَيَّده المؤلف بقوله: (**النقل الصحيحُ**).

الثاني: «**العَقْلُ الصَّرِيحُ**» والصريحُ مِن كلِّ شيءٍ خالصُه، والمراد بالعقل الصريح: الخالص مِن الشبهات والشهوات، يعني أنَّ الإنسان حينما يتدبر، ويتعقل لا يكون في قَلبه شُبهة، أو شهوةٌ لانتصار نَفْسِه، فكُلَّما سمعت عقلًا صريحًا، فالمعنى أنه سالِمٌ مِن الشبهات والشهوات.

الشبهات: الجهل، والشهوات: الإرادات السيئة، فإذا وَفَّق اللهُ -سبحانه وتعالى- الإنسانَ عِلْمًا، وحُسنَ قَصْد وإرادة، صار ذا عقل صريح، وضِدّ ذلك العقلُ المبنيُّ على الجهل، أو على سوء الإرادة.

والعقل الصريح يطابق تمامًا النقل الصحيح، وإن كان في النقل الصحيح ما يَعْجِز العقلُ الصريح عن إدراكه، ولذلك نحن لا نُدرك أبدًا تفاصيل ما اتَّصف الله تعالى به، لكن نُدركُ الإجمال، ثم نأخذ التفصيل مِن القرآن والسُّنَّة.

فإنه لا بدَّ أن يطابق العقلُ الصريحُ النَّقلَ الصحيحَ، ولا يمكن أن يتعارضا أبدًا، فإن قُدِّرَ تعارضهما، فإمَّا أن يكون النقلُ غيرَ صحيح، وإما أن يكون العقلُ غيرَ صريح، أَمَّا نقلٌ صحيحٌ، وعقلٌ صريحٌ، فلا يمكن أن يتعارضا.

الثالث: «فِطْرَةُ الرَّحْمَنِ» فالفطرة في الحقيقة غيرُ العقل، الفطرةُ مجبولٌ عليها الإنسان، يُدرك مدلولَـها بدون تعقُّل، وبدون نَظرٍ كعُلوِّ الله عزَّ وجلَّ، فهذا مُدْرَكٌ بالفطرة، فالإنسان مفطُورٌ -قبلَ أن يدرُس أدلة العُلُوِّ النقلية والعقلية- على عُلُوِّ الله على خَلْقِه، وأنه تعالى فوقَ كلِّ شيء، ويؤمن بذلك.

٢٦٣-وَاحْكُـمْ إِذَنْ فِي رُفْقَـةٍ قَـدْ سَـافَرُوا يَبْغُـونَ فَـاطِرَ هَـذِهِ الْأَكْـوَانِ

قَوْلُهُ: «سَافَرُوا» أي: سافروا سَفَرًا معنويًّا، وهو سَفَرُ القلب، أي: ساروا بقلوبهم يطلبون الله، أين الله؟ ومَن هو الله؟

والمؤلف سيَذكرُ أقسام الناس كُلِّهم، الكافر والمؤمن، فهم (**سَافَرُوا يَبْغُونَ فَاطِرَ هَذِهِ الْأَكْوَانِ**) أي: يطلبون الرَّبَّ عزَّ وجلَّ.

٢٦٤- فَتَرَافَقُوا فِي سَيْرِهِمْ وَتَفَارَقُوا ... عِنْدَ افْتِرَاقِ الطُّرْقِ بِالْحَيْرَانِ

حين خرجوا مِن البلد ترافقوا رُفْقَة، ولكنَّهم تفرَّقوا، (عِنْدَ افْتِرَاقِ الطُّرْقِ بِالْحَيْرَانِ)، لما افترق الطريق تحيَّروا أيذهبون يمينًا، أو شمالًا، أو أمامًا، أو خلفًا؟ فتفرَّقوا، فهم ترافقُوا في أول الطريق، ثُمَّ افترقوا عند افتراق الطرق.

٢٦٥- فَأَتَى فَرِيقٌ ثُمَّ قَالَ: وَجَدْتُهُ ... هَذَا الْوُجُودَ بِعَيْنِهِ وَعِيَانِ

قَوْلُهُ: «وَجَدْتُهُ» أي: وجدتُ فاطرَ هذه الأكوان، فالضمير في (وَجَدْتُهُ) يعود على قوله: (فَاطِرَ هَذِهِ الأَكْوَانِ).

قَوْلُهُ: «وَجَدْتُهُ هَذَا الْوُجُودَ بِعَيْنِهِ وَعِيَانِ» يعني: وجدته نفْس الوُجود، فالرَّبُّ هو الوجود.

بدأ المؤلف -رحمه الله- بأشدِّهم شَطْحًا وضلالًا، وهم أهل وَحْدَة الوُجود الذين على رأسهم الخبيث ابن عَرَبِي[1]، فابن عربي هو رئيس هذه الطائفة، فقد ذهبوا يطلبون الله، وقالوا: وجدنا اللهَ هو هذا الوجود، وما وجدنا شيئًا آخر غير الله غير هذا الوُجود، فهذا الوجود هو عينُ الله، فمَثَلا اسم الأخ حَمَد، والذي عن يمينه سُليمان، والذي عن يساره ناصر، هؤلاء شيء واحد.

---

(١) هو محيي الدِّين محمد بن علي بن محمد بن عربي أبو عبد الله الطائي الأندلسي، طاف البلاد وأقام بمكة مدة، وصنف فيها كتابه المسمى بـ(الفتوحات المكية) في نحو عشرين مجلدًا، فيها ما يعقل وما لا يعقل، وما ينكر وما لا ينكر، وما يعرف وما لا يعرف، وله كتابه المسمى بـ(فصوص الحكم) فيه أشياء كثيرة ظاهرها كفر صريح، كان مولده في سنة ستين وخمسمئة بمرسية من الأندلس، ووفاته في الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وستمئة. انظر: فوات الوفيات (٣/ ٤٣٥)، والبداية والنهاية لابن كثير (١٣/ ١٨٢).

٢٦٦-مَا ثَمَّ مَوْجُودٌ سِوَاهُ وَإِنَّمَا ... غَلِطَ اللِّسَانُ فَقَالَ: مَوْجُودَانِ

سبحان الله! هؤلاء يقولون: الرَّبُّ هو المربوب، والخالق هو المخلوق، لا يوجد رَبٌّ، وهؤلاء هم أهل وَحْدَة الوجود، فيقولون: كُلُّ الكونِ هو الرَّبُّ، والرَّبُّ هو الكون، (مَا ثَمَّ موجودان)، وإنما غَلِط اللسان، فقال: موجودان.

* * *

٢٦٧- فَهُوَ السَّمَاءُ بِعَيْنِهَا وَنُجُومِهَا ... وَكَذَلِكَ الْأَفْلَاكُ وَالْقَمَرَانِ

٢٦٨- وَهُوَ الْغَمَامُ بِعَيْنِهِ وَالثَّلْجُ وَالْـ ... أَمْطَارُ مَعْ بَرَدٍ وَمَعْ حُسْبَانِ

٢٦٩- وَهُوَ الْهَوَاءُ بِعَيْنِهِ وَالْمَاءُ وَالتْـ ... ـتُرْبُ الثَّقِيلُ ونَفْسُ ذِي النِّيرَانِ

٢٧٠- هَذِي بَسَائِطُهُ وَمِنْهُ تَرَكَّبَتْ ... هَذِي الْمَظَاهِرُ، مَا هُنَا شَيْئَانِ[1]

٢٧١- وَهُوَ الْفَقِيرُ لَهَا لِأَجْلِ ظُهُورِهِ ... فِيهَا كَفَقْرِ الرُّوحِ لِلْأَبْدَانِ

٢٧٢- وَهِيَ الَّتِي افْتَقَرَتْ إِلَيْهِ لِأَنَّهُ ... هُوَ ذَاتُهَا وَوُجُودُهَا الْحَقَّانِ

٢٧٣- وَتَظَلُّ تَلْبَسُهُ وَتَخْلَعُهُ، وَذَا الْـ ... إِيجَادُ وَالْإِعْدَامُ كُلَّ أَوَانِ

٢٧٤- وَيَظَلُّ يَلْبَسُهَا وَيَخْلَعُهَا، وَذَا ... حُكْمُ الْمَظَاهِرِ كَيْ يُرَى بِعِيَانِ

٢٧٥- وَتَكَثُّرُ الْمَوْجُودِ كَالْأَعْضَاءِ فِي الْـ ... ـمَحْسُوسِ مِنْ بَشَرٍ وَمِنْ حَيَوَانِ

٢٧٦- أَوْ كَالْقُوَى فِي النَّفْسِ ذَلِكَ وَاحِدٌ ... مُتَكَثِّرٌ قَامَتْ بِهِ الْأَمْرَانِ

٢٧٧- فَيَكُونُ كُلًّا هَذِهِ أَجْزَاؤُهُ ... هَذِي مَقَالَةُ مُدَّعِي الْعِرْفَانِ

---

(١) في نسخة الإفتاء: «أولاهما».

٢٧٨- أَوْ أَنَّهَا كَتَكَثُّرِ الْأَنْوَاعِ فِي ... جِنْسٍ كَمَا قَالَ الْفَرِيقُ الثَّانِي

٢٧٩- فَيَكُونُ كُلِّيًّا، وَجُزْئِيَّاتُهُ ... هَذَا الْوُجُودُ، فَهَذِهِ قَوْلَانِ

٢٨٠- إِحْدَاهُمَا(١) نَصُّ (الفُصُوصِ) وَبَعْدَهُ ... قَوْلُ ابْنِ سَبْعِينٍ، ومَا الْقَوْلَانِ

٢٨١- عِنْدَ الْعَفِيفِ التِّلْمِسَانِيِّ الَّذِي ... هُوَ غَايَةٌ فِي الْكُفْرِ وَالْبُهْتَانِ

٢٨٢- إِلَّا مِنَ الْأَغْلَاطِ فِي حِسٍّ وَفِي ... وَهْمٍ، وَتِلْكَ طَبِيعَةُ الْإِنْسَانِ

٢٨٣- وَالْكُلُّ شَيْءٌ وَاحِدٌ فِي نَفْسِهِ ... مَا لِلتَّعَدُّدِ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِ

الشرحُ

هؤلاء -كما تقدَّم- يقولون: إنَّ الخالقَ والمخلوقَ شيءٌ واحد، وانظر هذيانهم! يقول:

٢٦٧-فَهُوَ السَّمَاءُ بِعَيْنِهَا وَنُجُومِهَا ... وَكَذَلِكَ الْأَفْلَاكُ وَالْقَمَرَانِ

يقول: هذا هو الله -نسأل الله تعالى العافية- وسيأتي وجه كلامه الفاسد الباطل.

٢٦٨-وَهُوَ الْغَمَامُ بِعَيْنِهِ وَالثَّلْجُ وَالْـ ... أَمْطَارُ مَعْ بَرَدٍ وَمَعْ حُسْبَانِ

قَوْلُهُ: (حُسْبانِ) بالسين، ولا يَبْعُد أن تكون بالصاد، لأنَّ (الحُصْبان) حصب البرد، لأنه كالحصباء يرمي بالأرض.

٢٦٩- وَهُوَ الْهَوَاءُ بِعَيْنِهِ وَالْمَاءُ وَالتْـ ... ـتُرْبُ الثَّقِيلُ ونَفْسُ ذِي النِّيرَانِ

(١) في نسخة التيمورية: «سيئان» بسين مهملة.

٢٧٠- هَـذِي بَسَـائِطُهُ وَمِنْـهُ تَرَكَّبَـتْ هَـذِي الْـمَظَاهِرُ، مَـا هُنَـا شَـيْئَانِ

يقول: هذا هو الله عزَّ وجلَّ وكيف يكون الله مختلفًا اختلافًا عظيمًا؟ يقول: **(هذي البسائط)**، والبسائط كما نقول: (الأصول)، ومنه تركَّبت هذي المظاهر، ما هنا شيئان.

لو صوَّرنا إنسانًا عليه -مثلًا- شِماغٌ أحمر مُلَوَّن، ثياب بيضاء، فهذه مَظَاهِر فقط، وَإِلَّا فهما شيءٌ واحد، فالاختلاف في النظر فقط، وإِلَّا فهما شيء واحد.

٢٧١- وَهُوَ الْفَقِيرُ لَـهَا لِأَجْـلِ ظُهُـورِهِ فِيهَـا كَفَقْـرِ الـرُّوحِ لِلْأَبْـدَانِ

٢٧٢- وَهِـيَ الَّتِـي افْتَقَـرَتْ إِلَيْـهِ لِأَنَّـهُ هُـوَ ذَاتُهَـا وَوُجُودُهَـا الْـحَقَّانِ

يقول: إنَّ الخالق عزَّ وجلَّ هو هذا الشيء، هو هذا الوجود، فهو مفتقر إليها مِن أجْل أن يَظْهَر بها، ولولا هذا الوجود ما ظهر، وهي مفتقرةٌ إليه، لأنه أصلُها وذاتها، فها هنا افتقاران: افتقارٌ أَوَّل، وافتقارٌ ثانٍ.

فالله عزَّ وجلَّ تفتقر إليه هذه الموجودات، حتى تَظْهَر وتَبْرُز، وهو أيضًا مفتقر إليها مِن أَجْل أن يظهر فيها ويتبيَّن.

فأين الرُّبوبية؟! أين غِنى الخالق؟! أين الخَالق والمَخلوق؟! يعني: لولا أن هذه سُطِّرَت، ونَقَلَها الثقات، كابن القيم -رحمه الله- وشيخِه وغيرهم، لقُلنا: هذا لا يمكن أن يقوله عاقل قطّ.

على كلامهم الآن: (أنا، وأنت) شيءٌ واحد، والبقرة والحمار شيء واحد، والمسجد وحاناتُ الخُمور شيء واحد، لكنها مَظاهر تَتَلَوَّن.

فهل هذا معقول؟! هل هذه عقيدة؟ لكن اللهُمَّ لا تُضِلَّنا يا ربَّ العالمين.

٢٧٣- وَتَظَلُّ تَلْبَسُهُ وَتَخْلَعُهُ، وَذَا الْـ إِيجَادُ وَالإِعْدَامُ كُلَّ أَوَانِ

قَوْلُهُ: «تَلْبَسُهُ» يعني: إذا وُجِدت لَبِسَتْهُ، وإن عُدِمَتْ خَلَعَتْه (وَذَا الْإِيجَادُ وَالْإِعْدَامُ كُلَّ أَوَانِ).

٢٧٤- وَيَظَلُّ يَلْبَسُهَا وَيَخْلَعُهَا، وَذَا حُكْمُ الْـمَظَاهِرِ كَيْ يُرَى بِعِيَانِ

قَوْلُهُ: «وَيَظَلُّ يَلْبَسُهَا وَيَخْلَعُهَا» لأنه مُفتَقِر لها كما سبق، (وَذَا حُكْمُ الْـمَظَاهِرِ كَيْ يُرَى بِعِيَانِ)، فصار الآن الخالقُ مُفتقرًا للمخلوق، والمخلوق مفتقرًا للخالق، وهما ليسا شيئين، ولكنهما شيءٌ واحد ومَظاهر.

٢٧٥- وَتَكَثُّرُ الْـمَوْجُودِ كَالْأَعْضَاءِ فِي الْـ ـمَحْسُوسِ مِنْ بَشَرٍ وَمِنْ حَيَوَانِ

قَوْلُهُ: «وَتَكَثُّرُ الْـمَوْجُودِ» أرضٌ، سماءٌ، جبالٌ، أنهارٌ، بحارٌ، فهو كثير لا يُحصى.

يقول: هذا مِثل أعضاء الحيوان، الآن كم في الإنسان مِن عُضو؟ الجواب: ثلاثمئة وستون عُضوًا كما في الحديث الصحيح[1]، والإنسان شيء واحد، يقول: هذه المَظاهر الكونية هي مِن جنس أعضاء البَشر المحسوس، وعجائب، ألوانٌ، وأنواعٌ متنوعة، ما بين ذَرَّةٍ وفِيلٍ كلّها أعضاء، إذ لا يوجد خالق.

---

(١) يعني حديث النبي ﷺ قَالَ: «إِنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلَاثِمئة مَفْصِلٍ، فَمَنْ كَبَّرَ اللهَ، وَحَمِدَ اللهَ، وَهَلَّلَ اللهَ، وَسَبَّحَ اللهَ، وَاسْتَغْفَرَ اللهَ، وَعَزَلَ حَجَرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ شَوْكَةً، أَوْ عَظْمًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، وَأَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ، عَدَدَ تِلْكَ السِّتِّينَ وَالثَّلَاثِمئة السُّلَامَى، فَإِنَّهُ يَمْشِي يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحْزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ». أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (١٠٠٧).

٢٧٦-أَوْ كَالْقُوَى فِي النَّفْسِ ذَلِكَ وَاحِدٌ مُتَكَثِّرٌ قَامَتْ بِهِ الْأَمْرَانِ

قَوْلُهُ: «أو كَالْقُوَى فِي النَّفْسِ ذَلِكَ وَاحِدٌ» القُوى في النفس تختلف، فهي كثيرة، لو أنك أحصيت كيف تتقلب نَفْسُك في أربعٍ وعشرين ساعة، لوجدت العَجَب العُجَاب، لأنها سوف تتقلب كُلَّما رأت شيئًا، كُلَّما سمِعَت شيئًا، كلَّما فكَّرَتْ في شيء، فنَظَرُها -مثلًا- للباب غير نَظَرِها للفِرَاش، غير نَظَرِها للسَّقْف، فهي قُوًى مُتعلِّقة بالموجودات المسموعة، والمرئية، والفكريات أيضًا، فلا يُحصى تَقَلُّب النَّفْس.

فأصل القوة في الإنسان هي واحدة، لكنها تتكيَّف حَسَبَ المُشَاهَد، والمَسْمُوع، والمَعْقُول، وهلمَّ جرًّا، وهي قوة واحدة.

٢٧٧- فَيَكُونُ كُلًّا هَذِهِ أَجْزَاؤُهُ هَذِي مَقَالَةُ مُدَّعِي الْعِرْفَانِ

يقول ابن عربي: إنَّ هذا الكونَ هو الله، وما نُشاهِدُه أجزاء كأعضاء الإنسان، فالخَلْق -يعني: الموجودات- شيء واحد، وهذا التفرُّق بمنزلة الأجزاء، فهو كلٌّ، والمخلوقات أجزاؤه.

قَوْلُهُ: «كُلًّا هَذِهِ أَجْزَاؤُهُ» لاحِظ الفَرْق بين الكُلِّ والكُلِّيِّ، فالكُلُّ شيء واحدٌ له أجزاء، ولا يصح أن يُخْبَرَ به عن أجزائه، فمَثَلًا لا يصح أن أُخْبِرَ عن يَدِي بأنها جسمي، لأنَّ الجُزء بعضُ الكل.

فهو على هذا القول يعني أنَّ الكونَ مع الخالق عزَّ وجلَّ كُلٌّ، وهذه أجزاؤه، فأجزاؤه يعني: الموجودات مِثل: السماء، الأرض، البحار، الأنهار كُلُّها واحد، فهذا شيء واحد، كُتْلَةٌ عظيمة، وهذه أجزاؤه.

٢٧٨- أَوْ أَنَّهَـا كَتَكَثُّرِ الْأَنْـوَاعِ فِي جِنْسٍ كَـمَا قَـالَ الْفَرِيـقُ الثَّـانِي

٢٧٩- فَيَكُـونُ كُلِّيًّـا، وَجُزْئِيَّاتُـهُ هَـذَا الْوُجُـودُ، فَهَـذِهِ قَـوْلَانِ

وأما الثاني، فقال ابن سَبْعِين[1]: إنه كُلِّي، والمشاهدات المختلفة أنواع، وليست أجزاءً يعني: فالمخلوقات أنواع، والخالق جنسٌ، فهو مِن باب اختلاف الكُلِّيِّ مع الجزئي.

تقول مثلًا: الكلام: اسمٌ وفِعلٌ وحرفٌ، فتسأل: كلمةُ الكلام هل هي كُلٌّ، أو كُلِّيٌّ؟ الجواب: كُلِّيٌّ، وأجزاؤه أنواع: الاسم، والفعل، والحرف، لأنك تقول: الاسم كَلِمة، والفِعل كلمة، والحَرف كلمة، فيَصِحُّ أن تُخْبِر بالأكبر عن الأصغر، أما الكل والجزء، فلا يَصِحُّ أن تخبر بالأكبر عن الأصغر، فهل يصح أن أقول: اليَدُ إنسان؟ الجواب: لا يصح، فهذا يكون الكُل والجزء.

والحب، والبُرُّ، والذُّرَة، والشَّعِير، وما أشبه ذلك هذا كُلِّيٌّ مع جزئياته، ولهذا تقول: الحِنْطة حَبٌّ، الشَّعير حَبٌّ، الذُّرَة حَبٌّ، فتُخبر عن الجزئي بالكُلِّي، لكنَّ الكل والأجزاء لا يَصْلُح، هل يمكن أن تقول: اليَدُ إنسان؟ لا يمكن، فهذا هو الفَرْق.

فما صَحَّ أن يُخْبَرَ به عن أنواعه فهو (كُلِّي)، وما لا فهو (كُلّ).

هؤلاء يقولون: إنَّ الكون مع الخالق ليس كُلًّا وجزءًا، بل هو كُلِّيٌّ مع جزئياته، كما قال الفريق الثاني.

---

(١) ابن سبعين: هو عبد الحقِّ بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين الإشبيلي، من زهَّاد الفلاسفة، ومن القائلين بوحدة الوجود، ولد (سنة ٦١٣هـ)، وتوفي (سنة ٦٦٩هـ)، فَصَدَ بمكة، وترك الدم يمشي حتى مات نزفًا. [الشارح]. وانظر: البداية والنهاية (١٣/ ٣٠٣).

٢٨٠- إِحْدَاهُمَا نَصُّ (الفُصُوصِ) وَبَعْدَهُ   قَـوْلُ ابْـنِ سَـبْعِينٍ، ....

هؤلاء ثلاثة مِن الزَّنَادِقَة:

١- الأول يقول: (إِحْدَاهُمَا نَصُّ الْفُصُوصِ) والفُصُوص لابن عربي.

فابن عربيّ يرى أنَّ هذه الوحدة كُلٌّ، واختلافَ المشاهد وتَكَثُّرها أجزاء، ولكنَّ ابن سبعين يخالفه فيقول: إنه كُلِّيٌّ، والمتكثّرات أنواع، فهو كُلِّيٌّ وجزئياته، لكن جاءنا الطاغوت الثالث، وهو التِّلِمساني[1] فقال:

٢٨٠- .... ومَا الْقَوْلَانِ

٢٨١- عِنْـدَ الْعَفِيـفِ التِّلْمِسَـانِيِّ الَّـذِي   هُـوَ غَايَـةٌ فِي الْكُفْـرِ وَالْبُهْتَـانِ

قَوْلُهُ: «الْعَفِيف التِّلْمِسَانِيّ» يُسَمِّيه أهلُ العِلم (الفاجِرَ التلمساني)، لأنه بَعِيدٌ عن العِفَّة، أين هو مِن العِفَّة وهو يقول بهذا القول الباطل ؟! يقول:

٢٨٢- إِلَّا مِـنَ الْأَغْـلَاطِ فِي حِـسٍّ وَفِي   وَهْـمٍ، وَتِلْـكَ طَبِيعَـةُ الْإِنْسَـانِ

٢٨٣- وَالْكُـلُّ شَيْءٌ وَاحِـدٌ فِي نَفْسِـهِ   مَـا لِلتَّعَـدُّدِ فِيـهِ مِـنْ سُـلْطَانِ

يقول التلمساني: إنَّ ابن عربي، وابن سبعين غَلِطَا غَلَطًا عظيمًا، هما جعلاه أنواعًا على رأي ابن سبعين، وأجزاءً على رأي ابن عربي، وهذا غلطٌ، فالكُلُّ شيء واحد، ليس هناك أنواع، ولا أجزاء.

---

(١) العفيف التلمساني: هو سليمان بن عليّ بن عبد الله الكومي، شاعر تنقل في بلاد الروم، وسكن دمشق، يتبع طريقه ابن عربي -لكنه يخالفه كما تقدَّم- ويميل إلى مذهب النُّصَيرية، ولد (سنة ٦١٠هـ)، وتوفي بدمشق (سنة ٦٩٠هـ). [الشارح]. وانظر ترجمته في: البداية والنهاية (١٣/ ٣٨٥).

فهو يقول: إنه هو الذي أصاب، والآخران أخطآ وَوَهِمَا.

لكن أيُّهم أقربُ إلى الوَهَم؟ الجواب: هذا الخَبِيثُ هو أقربُ إلى الوَهَم، إذ كيف تكون هذه الأنواعُ المُتَبَايِنَة المتفرقة شيئًا واحدًا؟!

فعَلَى كلامه: الـخُيُول والـحَمِير شيءٌ واحد، السماء والأرض شيءٌ واحد، وليس هناك افتراقٌ، ولا تَنَوُّعٌ إلَّا بالوَهَمِ الحِسِّيِّ.

فهو يقول: الشيء شيء واحد لا يختلف، لكن كَوْنِي أظنُّ أنَّ هذا (حَمَدٌ)، وهذا (سليمان)، فهذا وهَمٌ حَسبَ الحُسْبان فقط، وَإِلَّا فالواقع أنهما شيء واحد، إذا شَبِع سليمان لم يَشْتَهِ الأكلَ حَمَدٌ، لأنهما شيء واحد، فكونُكم تعتقدون: هذا جَمَلٌ، وهذا حِمَارٌ، وهذا كَلْبٌ، فهذا حَسب الوَهْمِ والخيال والحُسْبان الباطل، والصواب أنهم شيء واحد.

نقول: وهل هذا يُتَصَوَّر؟ الجواب: أبدًا، فكما أننا لا نتصور ما قاله الأشاعرة: إنَّ كلام الله شيء واحد، وإنَّ الخَبَر والاستخبار، والأمر والنهي بمعني واحد، فكذلك لا نتصور هذا.

وهؤلاء يقولون: التِّلْمِساني العفيف.

لكننا نقول: هو عفيفٌ إلَّا عن الباطل، نسأل الله العافية، ولا نَسُبُّه وهو ميت، لكنه يقول: كُلُّ الدنيا شيء واحد، السماء هي الأرض، والأرض هي السماء، لكن كيف ذلك وأنا أرى السماء زرقاء، والأرض غبراء؟!

قال: هذا حَسَب وَهْمِك، فأنت حينما تُؤْلِـمُك عينُك، تَجِدُ في بعض الأحيان -إذا نظرت- ذُبابًا يطير أمامَ عَيْنَيك، وتقول: لا يوجد شيء، هذا الذي تُفَرِّق الآن فيه هو وَهَمٌ، وإلَّا فالشيء شيء واحد.

نسأل الله العافية، هذا وَهَمٌ، يقولون: نحن أهل العُقول، فأين العُقول؟!

فعندنا الآن ثلاثة أقوال:

القول الأول: قول ابن عربي، وهو أنَّ الموجود شيء واحد، والمُشَاهَد أجزاؤه.

القول الثاني: قول ابن سبعين وهو أنَّ الموجود كُلِّيٌّ، وما نشاهده جزئياته.

القول الثالث: قول التلمساني إذ يقول: الذي يُشَاهَدُ كُلُّه شيءٌ واحد، وتقسيمه إلى شيء، وشيء، وشيء، هذا وَهَمٌ، وإِلَّا فإنَّ الشيء شيء واحد.

فهل هذه المذاهب تَنْطَبِعُ على الناس؟

الجواب: لا، لكنَّ الذي غرَّ الناسَ مِن هؤلاء أنهم يتظاهرون بالزُّهْد والتصوف والعِفَّة، والعامةُ مِثل ما قال ابنُ القيم في أول النونية (**النَّاسُ أَكْثَرُهُمْ فَأَهْلُ ظَوَاهِرٍ**) يرون هؤلاء عندهم زُهد وعِفَّة وسُلوك، فيقولون: هذا هو الحقُّ، فلهذا غرُّوا الناس، وكُلُّ هؤلاء الذين ذَكَرَهُم المؤلف كُلُّهم مِن الصوفية.

* * *

٢٨٤- فَالضَّيْفُ وَالْـمَأْكُولُ شَيْءٌ وَاحِدٌ ... وَالْوَهْمُ يَحْسِبُ هَا هُنَا شَيْئَانِ

٢٨٥- وَكَذَلِكَ الْـمَوْطُوءُ عَيْنُ الْوَاطِ وَالْـ ... ـوَهْمُ الْبَعِيدُ يَقُولُ: ذَانِ اثْنَانِ

٢٨٦-وَلَرُبَّمَا قَالَا مَقَالَتَهُ كَمَا ... قَدْ قَالَ قَوْلَهُمَا بِلَا فُرْقَانِ

٢٨٧- وَأَبَى سِوَاهُمْ ذَا وَقَالَ: مَظَاهِرٌ ... تَجْلُوهُ ذَاتُ تَوَحُّدٍ وَمَثَانِ

٢٨٨- فَالظَّاهِرُ الْـمَجْلُوُّ شَيْءٌ وَاحِدٌ ... لَكِنْ مَظَاهِرُهُ بِلَا حُسْبَانِ

٢٨٩- هَذِي عِبَارَاتٌ لَهُمْ مَضْمُونُهَا ... مَا ثَمَّ غَيْرٌ قَطُّ فِي الْأَعْيَانِ

٢٩٠- فَـالْقَومُ مَـا صَـانُوهُ عَـنْ إِنْسٍ وَلَا ... جِــنٍّ وَلَا شَــجَرٍ وَلَا حَيَــوَانِ

٢٩١- كَــلَّا وَلَا عُلْــوٍ وَلَا سُــفْلٍ وَلَا ... وَادٍ وَلَا جَبَــلٍ وَلَا كُثْبَــانِ

٢٩٢- كَــلَّا وَلَا طَعْــمٍ وَلَا رِيــحٍ وَلَا ... صَــوْتٍ وَلَا لَــوْنٍ مِــنَ الْأَلْــوَانِ

٢٩٣- لَكِنَّهُ الْـمَطْعُومُ وَالْـمَلْبُوسُ[1] وَالْـ ... ـمَشْمُومُ وَالْــمَسْمُوعُ بِــالْآذَانِ

٢٩٤- وَكَذَاكَ قَالُوا إِنَّــهُ الْــمَنْكُوحُ وَالْــ ... ـمَذْبُوحُ، بَـلْ عَـيْنُ الْغَـوِيِّ الـزَّانِ

الشرحُ

في هذه المقطوعة يقول -رحمه الله-:

٢٨٤- فَالضَّيْفُ وَالْــمَأْكُولُ شَيْءٌ وَاحِـدٌ ... وَالْـوَهْمُ يَحْسِـبُ هَـا هُنَـا شَـيْئَانِ

ما دمنا قلنا بالوحدة، يكون الضيف والطعام المقدَّم للضيف شيئًا واحدًا، فالرجل يأكل نفسَه، لأنَّ الخبز الذي أمامه هو نفسُه.

قَوْلُهُ: «والوَهْمُ» يعني: وهم الإنسان.

قَوْلُهُ: «**يحسب أن هاهنا شيئان**» ضيف وطعام، وليس كذلك، هذا وهم كذلك يقول:

٢٨٥- وَكَذَلِكَ الْـمَوْطُوءُ عَيْنُ الْوَاطِ وَالْـ ... ـوَهْمُ الْبَعِيـدُ يَقُـولُ: ذَانِ اثْنَـانِ

نسأل الله العافية، الرجل الذي يطأ امرأته هو نفسه الموطوء، ولكن «**وَالْوَهْمُ الْبَعِيدُ يَقُولُ: ذَانِ اثْنَانِ**» يعني: أنه توهَّم فظنَّ أنَّ هناك اثنين: واطِئًا وموطوءًا.

(١) في الأصول: «الملموس»، ونسخة الإفتاء: «المسموس».

٢٨٦-وَلَـرُبَّمَا قَـالَا مَقَالَتَـهُ كَـمَا قَـدْ قَـالَ قَوْلَـهُمَا بِـلَا فُرْقَـانِ

قَوْلُهُ: «قَالَا» الضمير يعود على ابن عَرَبِيٍّ وابن سَبعين.

قَوْلُهُ: «مَقَالَتَهُ» أي: مقالة التِّلْمِسَانِيّ.

قَوْلُهُ: «كَمَا قَدْ قَالَ قَوْلَـهُمَا بِلَا فُرْقَانِ» يعني: كما أنه أيضًا قال بقولهما، فصاروا مُذَبْذَبِينَ: تارَةً يُضَلِّل أحدُهم الآخَرَ، وتارةً يوافق أحدُهم الآخَرَ، لأنهم لم يرتكزوا على دليل، بل هي أوهام يتوهَّمُونها، وخيالات يظنونها حقائق.

٢٨٧- وَأَبَـى سِـوَاهُمْ ذَا وَقَـالَ: مَظَـاهِرٌ تَجْلُـوهُ ذَاتُ تَوَحُّـدٍ وَمَثَـانِ

قَوْلُهُ: «وَأَبَى سِوَاهُمْ» أي: سوى الثلاثة، وهم: ابن عَرَبِيّ، وابن سَبعين، والتِّلْمِسَانِيّ، أبي سواهم هذا القول، يعني: سواهم مِن أهل وَحْدَة الوُجُود، وقالوا: هذه (مَظَاهِرٌ تَجْلُوهُ) أي: تجلو الإله، يعني: تُظْهِرُه.

وهذا القول أيضًا يُضاف للأقوال الثلاثة السابقة، يقول: إنَّ الكون شيء واحد، فالخالق والمخلوق شيءٌ واحدٌ، وهذه مظاهِر، أي: مظاهِر تجلو ذلك الخالق على زَعْمِه.

وَقَوْلُهُ: «مَظَاهِرٌ» يعني: لا حقائق، مثلما يظهر لنا الماء إذا نزل وقابلته الشمس، الذي يسميه الناس قَوْس قُزَح، فهو مَظَاهِر فقط، وإلَّا فهو شيء واحد.

وهذا يعني أننا نُقَسِّم الموجودات المتغايِرة إلى موجودات في الشكل فقط، لا في العين، وهو قريب مِن قول التِّلْمِسَانِيّ: إنه أوهام.

فهذه عقيدة هؤلاء القوم في الله عزَّ وجلَّ والعياذ بالله، وهي أخبث العقائد، وقد تَقَدَّم أن الذي خَدَعَ الناسَ بأقوالهم هذه، وإِلَّا فإنَّ مجرد تَصَوُّرِها كافٍ في

ردِّها وإبطالها، فمجرد أنْ تتصوَّرَ هذا تعرف أنه باطل، لكنَّ الذي غرَّ الناس وخَدَعهم هو أنَّ هؤلاء كانوا يَتَنَسَّكُونَ بالزُّهْد، ويأتون أيضًا بعبارات غير صريحة، بل هي إشارات ورموز، إذا قرأها الإنسان فلا يعرف معناها تمامًا، لكن هم يُفَسِّرُونها بما يريدون، فيظن القارئ أول ما يقرؤها بأنها حقٌّ، ولكنها باطل.

وهذان الأمران: زُخْرُف الحال وزخرف المقال غرَّا الناس.

فزخرف الحال هو الزهد والتَّنَسُّك والتَّعَبُّد، والعامة -كما هو معلوم- هوامٌّ، وأما زخرف المقال فيعني: رموزه، بحيث لا يدري أحد ماذا يريدون إلَّا بعد أن يُلَقِّنوه ما يريدون بكلامهم، فلذلك اغتر الناس بهم كثيرًا.

وحَسَب فهمنا أنك لا تكاد تجد فَرقًا بين هذا، وما قبله، هم يقولون: هذا الخالق هو عين المخلوق، وهذا الاختلاف اختلاف مَظاهر وتنوّع، فلا أجد فرقًا بين هذا وهذا، لكن مع ذلك ابن القيم -رحمه الله- يرى أنَّ هناك فرقًا.

٢٨٨- فَالظَّـاهِرُ الْـمَجْلُوُّ شَيْءٌ وَاحِـدٌ لَكِـنْ مَظَـاهِرُهُ بِـلَا حُسْـبَانِ

يعني: أنَّ الكون شيء واحد، لكن المظاهر لا حصرَ لها، وإذا تأملتَ وجدتَ أنه لا فرق، كلٌّ يقول: هذا الكون هو الخالق، الخالق والمخلوق شيء واحد، لكن هؤلاء يقولون: أجزاء وكُلّ، وأنواع وكُلِّيّ، وابن سبعين ينفي هذا كُلَّه.

وهؤلاء يقولون: إنَّ المجلوَّ شيءٌ واحد، والمَظاهر متعددة، ما تكاد تجد فَرقًا يستريح به الذهن.

٢٨٩- هَـذِي عِبَـارَاتٌ لَـهُمْ مَضْـمُونُهَا مَـا ثَـمَّ غَـيْرٌ قَـطُّ فِي الْأَعْيَـانِ

وهذا صحيح، فخلاصة ما يقولون أنَّه ما ثَمَّ غير الله، فالخالق والمخلوق شيء واحد.

فابن القيِّم -رحِمه الله- أجملَ الجميع في البيت الأخير، وقال: مضمون كلامهم أنه (مَا ثَمَّ غَيْرٌ قَطُّ فِي الْأَعْيَانِ).

٢٩٠- فَالْقَومُ مَا صَانُوهُ عَنْ إِنْسٍ وَلَا ... جِنٍّ وَلَا شَجَرٍ وَلَا حَيَوَانِ

قَوْلُهُ: «فَالْقَوْمُ مَا صَانُوهُ» أي: ما صانوا الخالقَ عزَّ وجلَّ، وحاشاه مما وصفوه، وتعالى الله عن قولهم عُلُوًّا كبيرًا.

قَوْلُهُ: «مَا صَانُوهُ عَنْ إِنْسٍ وَلَا جِنٍّ وَلَا شَجَرٍ وَلَا حَيَوَانِ» يعني: هو الإنس والجن والشجر والحيوان.

٢٩١- كَلَّا وَلَا عُلْوٍ وَلَا سُفْلٍ وَلَا ... وَادٍ وَلَا جَبَلٍ وَلَا كُثْبَانِ

لأنه شيء واحد.

٢٩٢- كَلَّا وَلَا طَعْمٍ وَلَا رِيحٍ وَلَا ... صَوْتٍ وَلَا لَوْنٍ مِنَ الْأَلْوَانِ

٢٩٣- لَكِنَّهُ الْمَطْعُومُ وَالْمَلْبُوسُ وَالْـ ... ـمَشْمُومُ وَالْمَسْمُوعُ بِالْآذَانِ

٢٩٤- وَكَذَاكَ قَالُوا إِنَّهُ الْمَنْكُوحُ وَالْـ ... ـمَذْبُوحُ، بَلْ عَيْنُ الْغَوِيِّ الزَّانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ قَالُوا: إِنَّهُ الْمَنْكُوحُ وَالْمَذْبُوحُ» أعوذ بالله، يعني: الرَّبّ يُنْكَح ويُذْبَح.

قَوْلُهُ: «بَلْ عَيْنُ الْغَوِيِّ الزَّانِي» يعني: أنه الزاني أيضًا، والعياذ بالله.

* * *

٢٩٥- وَالْكُفْـرُ عِنْـدَهُمْ هُـدًى وَلَـوَ انَّـهُ ... دِينُ الْـمَجُوسِ وَعَابِـدِي الْأَوْثَـانِ
٢٩٦- قَـالُوا: وَمَـا عَبَـدُوا سِـوَاهُ وَإِنَّـمَا ... ضَـلُّوا بِـمَا خَصُّـوا مِـنَ الْأَعْيَـانِ
٢٩٧- وَلَـوَ انَّهُـمْ عَمُّـوا وَقَـالُوا: كُلُّهَـا ... مَعْبُـودَةٌ، مَـا كَـانَ مِـنْ كُفْـرَانِ
٢٩٨- فَالْكُفْرُ سَتْرُ حَقِيقَةِ الْـمَعْبُودِ بِالتَّــ ... ــخْصِيصِ عِنْـدَ مُحَقِّـقٍ رَبَّـانِي
٢٩٩- قَالُوا: وَلَـمْ يَـكُ كَـافِرًا فِي قَوْلِـهِ: ... (أَنَـا رَبُّكُـمْ) فِرْعَـوْنُ ذُو الطُّغْيَـانِ
٣٠٠- بَـلْ كَـانَ حَقًّـا قَوْلُـهُ إِذْ كَـانَ عَيْــ ... ــنَ الْـحَقِّ مُضْـطَلِعًا بِهَـذَا الشَّـانِ
٣٠١- وَلِـذَا غَـدَا تَغْرِيقُـهُ فِي الْبَحْـرِ تَطْـ ... ــهِيرًا مِـنَ الْأَوْهَـامِ وَالْـحُسْبَانِ

الشـرحُ

يقول -رحمه الله-:

٢٩٥- وَالْكُفْـرُ عِنْـدَهُمْ هُـدًى وَلَـوَ انَّـهُ ... دِينُ الْـمَجُوسِ وَعَابِـدِي الْأَوْثَـانِ

يقولون: الكفر عندهم هُدًى، ولو أنه دين المجوس والنصارى والمشركين، لأن الكافر الذي لا يعبد ربًّا مُصِيبٌ، إذ ليس ثَمَّ رَبٌّ ولا مربوب، ولا عابد ولا معبود.

٢٩٦- قَـالُوا: وَمَـا عَبَـدُوا سِـوَاهُ وَإِنَّـمَا ... ضَـلُّوا بِـمَا خَصُّـوا مِـنَ الْأَعْيَـانِ

المجوس الذين يعبدون النار هم قالوا عنهم: ما عبدوا غير الله، لأنَّ النار هي الله، فالذي يعبد عيسى -عليه الصلاة والسلام- والذي يعبد البقر، والشجر، والحجر، ما عبد إلا الله، لأنهم يقولون: كلُّ الوجود هو الله.

لكنهم كفَّروهم، لأنهم خصَّوا العِبادة بالنار، ولو عبدوا الكونَ كُلَّه لكانوا موحِّدين، ولكانوا أكملَ هدايةً، ولكانوا -والعياذ بالله- هم الذين على الحقِّ، لكن هم كفروا بكونهم خَصُّوا العبادةَ بالنار، وكذلك أصحاب الأوثان خَصُّوا العبادة بالأوثان فكفروا.

فعلى قولهم هذا -والعياذ بالله- نقول للذي يعبد هُبَل واللَّات والعُزَّى: أنت أخطأت لأنك تعبد هذه بأعيانها، بلِ اعبُدْ كُلَّ شيء حتى تكون محقِّقًا للعبادة، أمَّا أنْ تُخَصِّص فهذا ضلال!

ولذا قال بعد ذلك:

٢٩٧- وَلَـوَ انَّهُـمْ عَمُّـوا وَقَـالُوا: كُلُّهَـا   مَعْبُـودَةٌ، مَـا كَـانَ مِـنْ كُفْـرَانِ

إِذَنْ كُفْرُهم بتخصيص بعض الرَّبِّ على زعمهم، ولو أنهم عبدوا كُلَّ الكون لكانوا موحِّدين!

٢٩٨- فَالْكُفْرُ سَتْرُ حَقِيقَةِ الْـمَعْبُودِ بِالتْـ   ـتَخْصِيصِ عِنْـدَ مُحَقِّـقٍ رَبَّـانِي

الكفر عندهم هو ستر حقيقة المعبود بالتخصيص، وحقيقة المعبود عندهم كل شيء، فأنت إذا عبدتَ واحدًا فقد كفرتَ، لأنك سَتَرْتَ حقيقة المعبود، لأنَّ المعبود هو كلُّ شيء.

٢٩٩- قَالُوا: وَلَـمْ يَـكُ كَـافِرًا فِي قَولِـهِ:   (أَنَـا رَبُّكُـمْ) فِرْعَـوْنُ ذُو الطُّغْيَـانِ

لما قال: (أنا ربكم) فليس بكافر، لماذا؟ قالوا: لأنَّ الكونَ كُلَّه رَبٌّ، لكن بالتخصيص.

٣٠٠- بَـلْ كَـانَ حَقًّـا قَوْلُـهُ إِذْ كَـانَ عَيْـ   ـنَ الْـحَقِّ مُضْـطَلِعًا بِهَـذَا الشَّـانِ

٣٠١- وَلِـذَا غَـدَا تَغْرِيقُـهُ فِي الْبَحْـرِ تَطْـ ـهِيرًا مِـنَ الْأَوْهَـامِ وَالْـحُسْبَانِ

يقولون: إنَّ فرعون لما قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤] لم يكن كافرًا، لأنَّ هذا هو الحقّ، فإنَّ المخلوقَ عينُ الخالق فيكون هو الرَّبَّ، ولكن هو ظنَّ لما خصَّص نفسه أنَّ هناك شيئًا متخصصًا متعينًا فأُغرق تطهيرًا له مِن هذا الظنِّ والوهم، فيكون هذا الإغراق -على زعمهم- ليُطهِّره حيث توهَّم وظنَّ التعدد، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ﴾ يعني: وأنتم مُرَبُّون ومعبودون، ولو أنَّه وَحَّد تمامًا لقال: أنا وأنتم كُلُّنا ربّ.

وهذا مثل قول بعضهم في قول الله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح:٢٥] قالوا: أُدْخِلوا نار المحَبَّة، لأنَّ المحَبَّة ساخنة، وليست النارَ ذاتَ اللَّهب! ولا أظنُّ أحدًا أضلَّ مِن هؤلاء القوم.

* * *

٣٠٢- قَالُوا: وَلَـمْ يَكُ مُنْكِرًا مُوسَى لِـمَا عَبَدُوهُ مِنْ عِجْلٍ لِـذِي الْـخَوَرَانِ

٣٠٣- إِلَّا عَـلَى مَـنْ كَـانَ لَـيْسَ بِعَابِـدٍ مَعْهُـمْ وَأَصْـبَحَ ضَـيِّقَ الْأَعْطَـانِ

٣٠٤- وَلِذَاكَ جَرَّ بِلِحْيَةِ الْأَخِ حَيْـثُ لَـمْ يَـكُ وَاسِـعًا فِي قَوْمِـهِ لِبِطَـانِ

٣٠٥- بَـلْ فَـرَّقَ الْإِنْكَـارُ مِنْـهُ بَيْـنَهُمْ لَـمَّا سَرَى فِي وَهْمِـهِ[1] غَـيْرَانِ

الشـرحُ

لما رجَع موسى -عليه السلام- مِن ميقات رَبِّه وَجَد قومَه يعبدون العِجل،

---

(١) في نسخة الحلبي: «فَهْمِه».

فغضِب غضبًا عظيمًا، حتى ألقى الألواح، وأخذ برأس أخيه يجُرُّه إليه، يعني: لِـمَ لَـمْ تنكر عليهم؟

هؤلاء يقولون: إنَّ موسى لم يكن منكِرًا على الذين عبدوا العجل، إنما أنكر على الذين لم يعبدوه، لأنهم كانوا ضيِّقي الأعطان، حيث ظنُّوا أنه لا يُعبد إلَّا الله، والواقع -عندهم- أنَّ كُلَّ شيء يُعْبَدُ، لأنَّ كلَّ شيء إله، وأَنَّ موسى ما أنكر على أخيه هارون إنكاره عليهم عبادة العجل، وإنما أنكر عليه لماذا يُنْكِرُ عليهم، وهم الذين فعلوا الواقع، وكان ضَيِّقَ العَطَن عليهم، يعني: ما تَحَمَّلَتْ نفسُه فِعلَ هؤلاء الذين فعلوا الحقيقة!

فانظر -والعياذ بالله- إلى شَطَحاتِهم العظيمة.

فهو قَلَبَ الحقيقة -والعياذ بالله- إذ جعل موسى يُنكر على الذين لم يعبدوا العِجل، لا على الذين عبدوه، وهذا مِن المُكَابَرَة، نسأل الله العافية.

* * *

٣٠٦- وَلَقَـدْ رَأَى إِبْلِـيسَ عَـارِفُهُمْ فَأَهْـــ ... ـوَى بِالسُّجُودِ هُوِيَّ ذِي خُضْـعَانِ

٣٠٧- قَالُوا لَهُ: مَاذَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: هَـلْ ... غَـــيْرُ الْإِلَـــهِ وَأَنْـــتُمَا عَمِيَـــانِ

٣٠٨- مَـا ثَـمَّ غَـيْرٌ، فاسْـجُدُوا إِنْ شِـئْتُمُ ... للشَّـــمْسِ وَالْأَصْـــنَامِ وَالشَّـــيْطَانِ

٣٠٩- فَالْكُـــلُّ عَـــيْنُ الله عِنْـــدَ مُحَقِّـــقٍ ... وَالْكُـــلُّ مَعْبُـــودٌ لِـــذِي الْعِرْفَـــانِ

٣١٠- هَذَا هُـوَ الْـمَعْبُودُ عِنْـدَهُمُ فَقُـلْ: ... سُـــبْحَانَكَ اللَّهُـــمَّ ذَا السُّـــبْحَانِ

٣١١- يَـــا أُمَّـــةً مَعْبُودُهَـــا مَوْطُوؤُهَـــا ... أَيْـــنَ الْإِلَـــهُ وَثُغْـــرَةُ الطَّعَّـــانِ؟!

٣١٢- يَــا أُمَّــةً قَــدْ صَــارَ مِــنْ كُفْرَانِهَــا   جُــزْءًا يَسِــيرًا جُمْلَــةُ الْكُفْــرَانِ

الشـرحُ

يقول -رحمه الله-:

٣٠٦- وَلَقَــدْ رَأَى إِبْلِـيسَ عَـارِفُهُمْ فَأَهْــ   ــوَى بِالسُّجُودِ هُوِيَّ ذِي خُضْـعَانِ

قَوْلُهُ: «**عارِفُهُمْ**» يعني: ابن عَرَبِيٍّ، لأنه -كما سبق- هو قدوة القائلين بِوَحْدَة الوجود.

قَوْلُهُ: «**رَأَى إِبْلِيسَ**»: وَهْمًا، وقد يكون حقيقة.

قَوْلُهُ: «**فَأَهْوى بالسُّجُودِ هُوِيَّ ذِي خُضْعَانِ**» أي: أهوى بالسجود للشيطان، لأنَّ الشيطان رَبٌّ عنده.

٣٠٧- قَالُوا لَهُ: مَاذَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: هَــلْ   غَــيْرُ الْإِلَـــهِ وَأَنْـــتُمَا عَمِيَـــانِ

يعني: لما قالوا له: كيف تسجد للشيطان؟! قال: ما سجدتُ إِلَّا للرحمن ليس إِلَّا.

قَوْلُهُ: «**وَأَنْتُمَا عَمِيَانِ**»، كأنه يخاطب إما نَفْسَه، وإما رَجُلين وهمًا، فيقول لهما: أنتما -اللذان أنكرتما عَلَيَّ- عَمِيان، لا تعرفان، لأنَّ المعرفة عنده سجوده للشيطان، والعياذ بالله.

٣٠٨- مَــا ثَــمَّ غَــيْرٌ، فاسْــجُدُوا إِنْ شِــئْتُمُ   للشَّــمْسِ وَالْأَصْــنَامِ وَالشَّــيْطَانِ

٣٠٩- فَالْكُــلُّ عَــيْنُ الله عِنْــدَ مُحَقِّــقٍ   وَالْكُــلُّ مَعْبُــودٌ لِــذِي العِرْفَــانِ

٣١٠- هَذَا هُوَ الْـمَعْبُودُ عِنْـدَهُمْ فَقُـلْ: سُــبْحَانَكَ اللَّهُــمَّ ذَا السُّــبْحَانِ

وقال لهم أيضًا: اسجدوا -إن شئتم- للشمس، والأصنام، والشيطان، والكلب والحِمار، والذئب، والنار، والثلج، والماء، وكلِّ شيء، فاعبدوا ما شئتم مِن هذه الموجودات، لأنَّ هذا هو التوحيد عندهم.

قَوْلُهُ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ذَا السُّبْحَانِ» أي: تنزيهًا لك يا ذا التنزيه.

٣١١- يَــا أُمَّــةً مَعْبُودُهَــا مَوْطُوؤُهَــا أَيْــنَ الْإِلَـهُ وَثُغْـرَةُ الطَّعَّــانِ؟!

فهو يُنكر عليهم إنكارًا عظيمًا، أُمَّة يكون معبودُها موطوءَها، أُمَّة يكون معبودُها مأكولَها، أُمة يكون معبودُها مذبوحَها، سبحان الله!

ومِن الغريب أن زوجته التي يجامعها هي رَبُّه، وزوجها هو رَبُّها، وحِماره الذي يركب هو ربُّه، وهو ربُّ الحِمار، لأنَّ كُلَّ شيء هو عابد معبود، رَبٌّ مربوب.

٣١٢- يَــا أُمَّــةً قَـدْ صَــارَ مِــنْ كُفْرَانِهَــا جُــزْءًا يَسِــيرًا جُمْلَــةُ الْكُفْــرَانِ

يعني: كل الكفران جزءٌ يَسيرٌ مِن كُفْرَانِكُم، لأنَّ الكافرين يخصصون المعبودات بأشياء معينة، وهؤلاء كلُّ شيء جعلوه إلـهًا، حتى حماره الذي يركبه هو إلـهه.

إِذَنْ جميع الكُفران بالنسبة لكُفر هؤلاء جزء مِن كُفران هذه الأُمَّة.

والمشكلة أنَّ هؤلاء ينتسبون إلى الإسلام وهم صُوفية، وبهذا نعرف أنَّ مذهب الصوفية مِن أخطر المذاهب على الإسلام وأشدِّها هَدْمًا، لأنَّ الصوفي يصل إلى حالة يقول: ما ثَمَّ إِلَّا الله، يعني: كُلّ الكون هو الله، ويقول: ما في الجُبَّة إِلَّا الله، ويقول: الجُبَّة هي الله، ومَن في الجُبَّة هو الله.

وهذه مذاهبُ خبيثةٌ -والعياذ بالله- فكل الكُفر جزء مِن كُفرهم، فالذين يعبدون المسيح ابن مَرْيَم عبدوا واحدًا مِن المخلوقات، لكن هؤلاء يعبدون كُلَّ شيء، لأنهم لا يَرَوْنَ إِلَّا أنَّ الكونَ كُلَّه خالقَه ومخلوقَه شيءٌ واحد، فالعابد والمعبود شيءٌ واحد، والرَّبُّ والمربوب شيء واحد، والواطئ والموطوء شيء واحد، وهكذا والعياذ بالله.

وهذا مذهب لولا أنه سُطِّر ما كان الإنسان يُصَدِّق به إطلاقًا، وهذا أيضًا موجود في كتبهم.

وهذا يعني أنَّ أئمة الحقِّ لا يَفْتَرُونَ عليهم في هذا، بل كُتُبهم بين أيدينا معروفة ومقروءة، وسيأتي -إن شاء الله- للمؤلِّف بيان أنَّ هذا أمر واقع، ومَن أراد أن يقرأ في كُتُبِهم فلْيَقْرَأْ.

* * *

فصل

فِي قُدُومِ رَكْبٍ آخَرَ

٣١٣- وَأَتَى فَرِيقٌ ثُمَّ قَالَ: وَجَدْتُهُ ... بِالذَّاتِ مَوْجُودًا بِكُلِّ مَكَانِ
٣١٤- هُوَ كَالْهَوَاءِ بِعَيْنِهِ لَا عَيْنُهُ ... مَلَأَ الْخَلَاءَ[1] وَلَا يُرَى بِعِيَانِ
٣١٥- وَالْقَوْمُ مَا صَانُوهُ عَنْ بِئْرٍ وَلَا ... قَبْرٍ وَلَا حُشٍّ وَلَا أَعْطَانِ
٣١٦- بَلْ مِنْهُمُ مَنْ قَدْ رَأَى تَشْبِيهَهُ ... بِالرُّوحِ دَاخِلَ هَذِهِ الْأَبْدَانِ[2]
٣١٧- مَا فِيهِمُ مَنْ قَالَ: لَيْسَ بِدَاخِلٍ ... أَوْ خَارِجٍ عَنْ جُمْلَةِ الْأَكْوَانِ
٣١٨- لَكِنَّهُمْ حَامُوا عَلَى هَذَا وَلَمْ ... يَتَجَاسَرُوا مِنْ عَسْكَرِ الْإِيمَانِ
٣١٩- وَعَلَيْهِمُ رَدَّ الْأَئِمَّةُ أَحْمَدُ ... وَصِحَابُهُ مِنْ كُلِّ ذِي عِرْفَانِ
٣٢٠- فَهُمُ الْخُصُومُ لِكُلِّ صَاحِبِ سُنَّةٍ ... وَهُمُ الْخُصُومُ لِمُنْزِلِ الْقُرْآنِ
٣٢١- وَلَهُمْ مَقَالَاتٌ ذَكَرْتُ أُصُولَهَا ... لَمَّا ذَكَرْتُ الْجَهْمَ فِي الْأَوْزَانِ

الشرحُ

يقول المؤلِّف -رحمه الله- في قُدُوم ركبٍ آخَرَ.. وهذا الرَّكْبُ هل هو ضالٌّ، أو مُهتدٍ؟ الجواب: ضالٌّ.

---

(١) في نسخة الحلبي: «الخلو».
(٢) في نسخة ابن سحمان: «الأكوان»، والمتن أصوب.

قال:

٣١٣- وَأَتَــى فَرِيــقٌ ثُــمَّ قَــالَ: وَجَدْتُــهُ بِالــذَّاتِ مَوْجُــودًا بِكُــلِّ مَكَــانِ

٣١٤- هُــوَ كَالْــهَوَاءِ بِعَيْنِــهِ لَا عَيْنُــهُ مَــلأَ الْــخَلَاءَ وَلَا يُــرَى بِعِيَــانِ

هذا الرَّكْبُ هُم الـجَهْمِيَّة الـحُلُولِيَّةُ منهم، لأنَّ الـجَهْمِيَّة انقسموا إلى قسمين:

- قِسم حُلولية، هذا مذهبهم، وهم قدماؤهم.
- وقسم مُعَطِّلَة تمامًا، قالوا: إنَّ الله لا يُوصَف بأنه فَوْق، ولا تَحْت، ولا يمين، ولا شمال، ولا مُتَّصِل بالخَلْق، ولا مُنْفَصِل عنه، فعَطَّلوا، لكنَّ قُدَماءَهم همُ الذين قالوا بالحُلُول.

قوله: «قَالَ: وَجَدْتُهُ» الضميرُ يعود على فاطر الأكوان، وهو الله عزَّ وجلَّ.

قوله: «وَجَدْتُهُ بِالذَّاتِ مَوْجُودًا بِكُلِّ مَكَانِ» يعني: إنَّ الله موجودٌ بذاته بكلِّ مكان.

يقولون: بذاته، لا بِعِلْمه، يقولون: إنَّ الله بذاته في كلِّ مكان، في المسجد، في السوق، في البيت، في السيارة، في الطَّيَّارة، في الكَنِيف، في الحَمَّام، والعياذ بالله.

ولا ريبَ أنَّ هذا كُفْرٌ مَحْضٌ -والعياذ بالله- ولا أحد يستطيع أن يصف الله بهذا الوصف وله مُسْكَةٌ مِن عَقل، أو دِين.

فالنصارى -عليهم لعنة الله إلى يوم القيامة- قالوا: إنَّ الله حَلَّ في عيسى بن مريم حتى صار عيسى إلــهًا، فنزل إلى الأرض يفدي المساكين والمظلومين، وينشر المحبَّة بين العالَمين، هذه عقيدتهم في عيسى.

هؤلاء ما قالوا: إنه حَالٌّ في واحدٍ مِن المخلوقات، بل حَالٌّ في كل مكان، وهذا بلا شكٍّ يَلْزَمُ عليه إما تعدد الخالق أو تَجَزُّؤ الخالق، يعني: إما أنه أجزاء وأوصال، كل جزء منه في جهة، وإما أنه متعدِّد لا واحد، هذا بِقَطْع النَّظَر عن أن تصوُّر هذه القضية نقص عظيم في جانب الله، فإن هذا القول يَسْتَلْزِمُ النقصَ العظيم في جانب الله.

قَوْلُهُ: «هُوَ كالهَواءِ بِعَيْنِهِ» يعني: يملأ الأمكنة، لكنه ليس عين الهواء، فالهواء مُنْبَثٌّ في الأرض، فهو يرى أنَّ الله مُنبَثّ في الأرض كالهواء، لكنه ليس عينَ الهواء، بل هذا كُفر، وأهل الوَحْدَة السابقون يقولون: هو عين الهواء.

قَوْلُهُ: «مَلَأَ الْـخَلَاءَ وَلَا يُرَى بِعِيَانِ» يعني: جعله شيئًا واحدًا كالهواء يملأ الوجود، وفي كل مكان، ولكنه ليس الهواءَ بِعَيْنِه، ويأتي -إن شاء الله- بقية الكلام على هذه الطائفة، نسأل الله أن يهدينا إلى صِراطه المستقيم، وألَّا يُزِيغَ قلوبَنا بعد إذ هدانا.

٣١٥- وَالْقَـوْمُ مَـا صَـانُوهُ عَـنْ بِئْـرٍ وَلَا ... قَـــبْرٍ وَلَا حُـــشٍّ وَلَا أَعْطَـــانِ

وهذا أعظم مِن الأول، الأولون قالوا: إنَّ الله عزَّ وجلَّ بائنٌ مِن خَلْقِه، لكنه معهم بالذات في كل مكان، في الآبار، في القبور، في الحشوش، في كل مكان.

لم يُنزِّهوه -والعياذ بالله- عما ينُزَّه عنه بعضُ الناس، فَهُم جعلوه في كل مكان، فَوَصَفُوه على ما قال المؤلف -رحمه الله-.

٣١٦- بَـلْ مِـنْهُمُ مَـنْ قَـدْ رَأَى تَشْـبِيهَهُ ... بِـــالرُّوحِ دَاخِـــلَ هَـــذِهِ الْأَبْـــدَانِ

وعلى هذا فيكون حالًّا حتى في الأبدان، كحُلُول الروح في البدن.

٣١٧- مَا فِيهِمُ مَنْ قَالَ: لَيْسَ بِدَاخِلٍ ... أَوْ خَارِجٍ عَنْ جُمْلَةِ الْأَكْوَانِ

نعم ما فيهم مَنْ قال هذا، يُشير إلى الأقدمين منهم الذين قالوا: إنه ليس داخلَ العالم، ولا خارجَ العالـم.

٣١٨- لَكِنَّهُمْ حَامُوا عَلَى هَذَا وَلَمْ ... يَتَجَاسَرُوا مِنْ عَسْكَرِ الْإِيمَانِ

فهم حاموا حول هذا الشيء، وقالوا: لا داخلَ العالـم، ولا خارِجَه، يعني: لا يُوصَفُ بهذا، ولا هذا، لكنهم خافوا مِن عسكر الإيمان، يعني: خافوا مِن أهل الإيمان أن يَنبِذُوهم نبذًا.

٣١٩- وَعَلَيْهِمُ رَدَّ الْأَئِمَةُ أَحْمَدٌ[1] ... وَصِحَابُهُ مِنْ كُلِّ ذِي عِرْفَانِ

قَوْلُهُ: «أَحْمَدٌ» يعني بذلك: أحمد بن حنبل -رحِمه الله-.

وهؤلاء الجَهْمِيَّة هم الذين رَدَّ عليهم أحمدُ بن حنبل وأصحابُه، وقصةُ مِحْنَتِه مشهورةٌ في كتب التاريخ.

٣٢٠- فَهُمُ الْخُصُومُ لِكُلِّ صَاحِبِ سُنَّةٍ ... وَهُمُ الْخُصُومُ لِمُنْزِلِ الْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «فهُم» يعني: الجَهْمِيَّة.

٣٢١- وَلَهُمْ مَقَالَاتٌ ذَكَرْتُ أُصُولَهَا ... لَـمَّا ذَكَرْتُ الْجَهْمَ فِي الْأَوْزَانِ

وقد تقدَّمْت أُصُولُ جَهْمٍ في الأسماء والصفات، وفي القَدَر، وفي الإيمان، وغير ذلك.

---

(١) أحمد بن حنبل: هو أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الوائلي، أصله مِن مَرْوَ، وأبوه والي سَرَخْسَ -اسم بلد- وُلِد ببغداد سنة (١٦٤هـ)، ورحل للحِجَاز وغيره في طَلَب الحديث، امتُحن في القول بخَلْق القرآن، وتُوُفِّيَ في بغداد سنة (٢٤١هـ). [الشارح]. انظر ترجمته في: تهذيب الكمال (١/ ٤٣٧).

وَقَوْلُهُ: «لَـمَّا ذَكَرْتُ الجَهْمَ» يعني بذلك: زعيمَهمُ الجَهْمَ بنَ صَفْوَان، ويقال: إِنَّ الجهمَ بنَ صَفْوَان ليس زعيمَ الطائفةِ الأَوَّلَ، بل زعيمُها الأولُ الجَعْدُ بنُ دِرْهَمٍ، حيث تكلم بأمرين:

الأول: قال: إِنَّ الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا.

الثاني: ولم يكلِّم موسى تكليمًا، هذا أولُ ما نَفَى -الكلامُ والمحبةُ- ثم تطوَّرت المقالة وتفرَّعت، ونَشَرها الجَهْمُ بنُ صَفْوَان، وإليه نُسِبَتْ، لأنه هو الذي نشرها، ودافع دونها.

أما الأول -وهو الجَعْد- فإنه قُتِلَ دون أن تنتشر مقالته.

* * *

فصل

في قُدُومِ رَكْبٍ آخَرَ

٣٢٢- وَأَتَـى فَرِيـقٌ ثُـمَّ قَـارَبَ وَصْـفُهُ ... هَــذَا وَلَكِــنْ جَــدَّ فِي الْكُفْــرَانِ
٣٢٣- فَـأَسَرَّ قَـوْلَ مُعَطِّــلٍ وَمُكَــذِّبٍ ... فِي قَالَــبِ التَّنْزِيــهِ لِلــرَّحْمَنِ
٣٢٤- إِذْ قَـالَ: لَـيْسَ بِـدَاخِلٍ فِينَـا وَلَا ... هُـوَ خَـارِجٌ عَـنْ جُمْلَـةِ الْأَكْـوَانِ
٣٢٥- بَـلْ قَـالَ: لَـيْسَ بِبَـائِنٍ عَنْهَـا وَلَا ... فِيهَـا، وَلَا هُــوَ عَيْنُهَـا بِبَيَـانِ
٣٢٦- كَـلَّا وَلَا فَـوْقَ السَّـمَوَاتِ الْعُـلَى ... والْعَــرْشِ مِــنْ رَبٍّ وَلَا رَحْمَــنِ
٣٢٧- وَالْعَرْشُ لَيْسَ عَلَيْهِ مَعْبُودٌ سِوَى الْـ ... ـعَدَمِ الَّــذِي لَا شَيْءَ فِي الْأَعْيَـانِ
٣٢٨- بَـلْ حَظُّـهُ مِـنْ رَبِّـهِ حَـظُّ الثَّـرَى ... مِنْــهُ وَحَــظُّ قَوَاعِــدِ الْبُنْيَــانِ
٣٢٩- لَوْ كَانَ فَوْقَ الْعَرْشِ كَانَ كَهَذِهِ الْـ ... أَجْسَامِ، سُبْحَانَ الْعَظِيمِ الشَّانِ!
٣٣٠- وَلَقَدْ وَجَدْتُ لِفَاضِلٍ[1] مِنْهُمْ مَقَـا ... مًـا قَامَـهُ فِي النَّـاسِ مُنْـذُ زَمَـانِ
٣٣١- قَـالَ: اسْـمَعُوا يَـا قَـومِ إِنَّ نَبِـيَّكُمْ ... قَـدْ قَـالَ قَـوْلًا وَاضِـحَ الْبُرْهَـانِ
٣٣٢- لَا تَحْكُمُوا بِالْفَضْـلِ لِي أَصْـلًا عَـلَى ... ذِي النُّـونِ يُـونُسَ ذَلِـكَ الْغَضْـبانِ
٣٣٣- هَــذَا يَـرُدُّ عَـلَى الْــمُجَسِّمِ قَوْلَـهُ ... اللهُ فَــوْقَ الْعَــرْشِ وَالْأَكْــوانِ

(١) قال الحلبي في نسخته في هامش الأصول: «هو الجويني».

٣٣٤- وَيَـــدُلُّ أَنَّ إِلَـــهَنَا سُـــبْحَانَهُ ... وَبِحَمْــدِهِ يُلْقَــى[1] بِكُــلِّ مَكَــانِ

٣٣٥- قَــالُوا لَــهُ: بَــيِّنْ لَنَــا هَــذَا فَلَــمْ ... يَفْعَــلْ، فَــأَعْطَوْهُ مِــنَ الْأَثْــمَانِ

٣٣٦- أَلْفًا مِنَ الـذَّهَبِ الْعَتِيـقِ، فَقَـالَ فِي ... تِبْيَانِــهِ فَاسْــمَعْ لِــذَا التِّبْيَــانِ

٣٣٧- قَدْ كَانَ يُونُسُ فِي قَـرَارِ الْبَحْـرِ تَحْـ ... ـتَ الْــمَاءِ فِي قَـبْرٍ مِـنَ الْــحِيتَانِ

٣٣٨- وَمُحَمَّدٌ صَعِدَ السَّمَاءَ وَجَـاوَزَ السْـ ... ـسَبْعَ الطِّبَـاقَ، وَجَـازَ كُـلَّ عَنَـانِ

٣٣٩- وَكِلَاهُمَــا فِي قُرْبِــهِ مِــنْ رَبِّــهِ ... سُــــبْحَانَهُ إِذْ ذَاكَ مُسْــــتَوِيَانِ

٣٤٠- فَـالْعُلْوُ وَالسُّـفْلُ اللَّـذَانِ كِلَاهُمَـا ... فِي بُعْــدِهِ مِــنْ ضِــدِّهِ طَرَفَــانِ

٣٤١- إِنْ يُنْسَــبَا لله نُــزِّهَ عَــنْهُمَا ... بِالْإِخْتِصَــاصِ، بَـلَى هُمَـا سِـيَّانِ

٣٤٢- فِي قُرْبِ مَـنْ أَضْـحَى مُقِيمًا فِـيهِمَا ... مِــنْ رَبِّــهِ، فَكِلَاهُمَــا مِــثْلَانِ

٣٤٣- فَلِأَجْلِ هَذَا خُـصَّ يُـونُسُ دُونَهُـمْ ... بِالــذِّكْرِ تَحْقِيقًــا لِــهَذَا الشَّــانِ

٣٤٤- فَأَتَى الثَّنَـاءُ[2] عَلَيْـهِ مِـنْ أَصْـحَابِهِ ... مِــنْ كُــلِّ نَاحِيَــةٍ بِــلَا حُسْــبَانِ

٣٤٥- فَاحْمَــدْ إِلَــهَكَ أَيُّهَــا السُّــنِّيُّ إِذْ ... عَافَــاكَ مِــنْ تَحْرِيــفِ ذِي بُهْتَــانِ

٣٤٦- وَالله مَــا يَــرْضَى بِهَــذَا خَــائِفٌ ... مِــنْ رَبِّــهِ أَمْسَــى عَــلَى الْإِيــمَانِ

٣٤٧- هَذَا هُوَ الْإِلْـحَادُ حَقًّا، بَلْ هُوَ التْــ ... ــتَحْرِيفُ مَحْضًــا أَبْـرَدُ الْــهَذَيَانِ

---

(١) في نسخة: «يُلْفَى».

(٢) في نسخة الحلبي: «النثار».

٣٤٨- وَالله مَا بُلِيَ الْـمُجَسِّمُ قَـطُّ ذِي الْـ ... ـبَلْوَى وَلَا أَمْسَى بِذَا[1] الْـخِذْلَانِ

٣٤٩- أَمْثَـالُ ذَا التَّأْوِيـلِ أَفْسَـدَ هَـذِهِ الْـ ... أَدْيَـانَ حِـينَ سَرَى إِلَى الْأَدْيَـانِ

٣٥٠- وَالله لَـوْلَا اللهُ حَـافِظُ دِينِـهِ ... لَتَهَـدَّمَتْ مِنْـهُ قُـوَى الْأَرْكَـانِ

الشـرحُ

٣٢٢- وَأَتَـى فَرِيـقٌ ثُـمَّ قَـارَبَ وَصْـفُهُ ... هَـذَا وَلَكِـنْ جَـدَّ فِي الْكُفْـرَانِ

٣٢٣- فَـأَسَرَّ قَـوْلَ مُعَطِّـلٍ وَمُكَـذِّبٍ ... فِي قَالَـبِ التَّنْزِيـهِ لِلـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «وَأَتَى فَرِيقٌ» أي: مِن الذين ساروا يطلبون اللهَ عزَّ وجلَّ.

هذا الفريق وصف الله -تبارك وتعالى- بالتنزيه، ولكنه تنزيهٌ هو كُفر كما سيبينه المؤلف -رحمه الله-.

٣٢٤- إِذْ قَـالَ: لَـيْسَ بِـدَاخِلٍ فِينَـا وَلَا ... هُـوَ خَـارِجٌ عَـنْ جُمْلَـةِ الْأَكْـوَانِ

٣٢٥- بَـلْ قَـالَ: لَـيْسَ بِبَـائِنٍ عَنْهَـا وَلَا ... فِيهَـا، وَلَا هُـوَ عَيْنُهَـا بِبَيَـانِ

هؤلاء مُعَطِّلَةٌ مَحْضَة يقولون: لا يجوز أن نَصِف اللهَ بأنه داخل العالم، ولا خارج العالم، ولا متصل بالعالم، ولا منفصل عن العالم، ولا هو عينُه، ولا فوق العالم، ولا تحت العالم.

وهذا إنكار لوجود الرَّبِّ عزَّ وجلَّ في الواقع، وهو عكس القول الأول الذي قَبْلَه، والذي يقول: إنه بذاته في كل مكان.

---

(١) في نسخة الحلبي: «بذي الخذلان».

فإذا قيل لهم: إذا وصفتم الله بهذا الوصف فأين الله؟ الجواب: عدم، لأنه إذا انتفى عنه كُلُّ ما ذُكر، فهذا يعني العَدَمَ المَحْضَ.

ولو قال قائل: ما هو العدم؟ لم تجد شيئًا أدق وصفًا مِن هذا الوصف، ولهذا يُعتبر قولهم هذا تناقضًا مع قولهم بأنَّ الله موجود، كيف تقول: إنَّ الله موجود، وهو موصوف بهذه الصفات، فأين يكون؟ معدوم، ولهذا قولهم يُعتَبر متناقضًا، لأنهم إذا قالوا: إنه موجود، ثم وصفوه بهذه السُّلُوب فهذا هو النفي المحض، والعَدَم المحض، لكن مع ذلك يقولون هذا، فيعبدون معبودًا لا يدرون أين هو؟ لا يدرون هل هو فوق، أو تحت؟ فهُم لا يجهلون فقط، بل يعتقدون أنه لا فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا شمال، ولا متصل، ولا منفصل، هم يعتقدون أنهم يعبدون هذا الرَّبَّ.

وهؤلاء هم طائفة مِن الجهمية، وهم المتأخرون منهم.

وكذلك المعتزلة يقولون: ليس بداخل العالم... إلى آخره.

فالجهمية انقسموا إلى قسمين: أوائلهم قالوا: إنه بذاته في كل مكان، والثاني المتأخرون: نَفَوْا هذا وعَطَّلوه، وقالوا: ليس بداخل ولا خارج.

٣٢٦- كَلَّا وَلَا فَوْقَ السَّمَوَاتِ الْعُلَى   والْعَرْشِ مِنْ رَبٍّ وَلَا رَحْمَنِ

نفى أن يكون الله تعالى فوق السموات، وأن يكون فوق العَرش، لكن لماذا تقولون هذا القول؟ قالوا: لو قلنا: إنه فوق السموات أو على العرش لزِم أن يكون جسمًا، والله مُنَزَّهٌ عن الأجسام.

٣٢٧- وَالْعَرْشُ لَيْسَ عَلَيْهِ مَعْبُودٌ سِوَى الْـ ـعَدَمِ الَّـذِي لَا شَيْءَ فِي الْأَعْيَـانِ

يعني: أنكروا أن يكون اللهُ استوى على العرش، وحُجَّتُهم في هذا حجة بالية، يقولون: إنه لو كان كذلك لزِم أن يكون جِسمًا، والجسم مُمْتَنِعٌ على الله عزَّ وجلَّ.

ثم قالوا: ليس عَرَضًا أيضًا، ولهذا يقولون: ليس بجسم، ولا عَرَض، فماذا يكون إذا لم يكن جسمًا قائمًا بنَفْسِه، ولا عَرَضًا قائمًا بِغَيْرِه؟ فماذا يكون؟

الجواب: لا يكون إلَّا عَدَمًا.

فلا يتعجب المسلِمُ مِن أنَّ اللهَ أزاغ قلوبَ هؤلاء، حتى وصلوا إلى هذه الحال، اللهمَّ لا تُزِغ قلوبنا بعد إذ هديتنا.

٣٢٨- بَـلْ حَظُّـهُ مِـنْ رَبِّـهِ حَـظُّ الثَّـرَى مِنْـهُ وَحَـظُّ قَوَاعِـدِ الْبُنْيَـانِ

حَظُّ العرشِ مِن الله كحظِّ الثَّرى أسفل الأرض، وحَظُّ القواعد مِن البنيان، يعني: في القرب.

هو لم يستوِ على العرش، والعرشُ ليس قريبًا منه، وهو بالنسبة للعرش كالنسبة إلى أسفل الأرض، وإلى قواعد البناء، لأنهم يُنكرون العُلُوَّ، وهم -في الحقيقة- كما قال ابن القَيِّمِ -رحمه الله-: مقارِبون لوصف جَهْم.

٣٢٩- لَوْ كَانَ فَوْقَ الْعَرْشِ كَانَ كَهَذِهِ الْـ أَجْسَامِ، سُبْحَانَ الْعَظِيمِ الشَّـانِ!

قَوْلُهُ: «سُبْحَانَ الْعَظِيمِ الشَّانِ!» يَحْتَمِلُ أنه مِن تَتِمَّة قول هذا القائل، ويَحتمل أنه مِن كلام ابن القيم -رحِمه الله- يُنَزِّهُ اللهَ تعالى عمَّا قالوه فيه، والمعنى على الوجهين صحيحٌ، لأنَّ أولئك القومَ الذين يَنْفُون أن يكون اللهُ داخل العالم، أو خارجه، أو متصلًا، أو منفصلًا إلى آخره، يريدون بهذا التنزيهَ.

٣٣٠- وَلَقَدْ وَجَدْتُ لِفَاضِلٍ مِنْهُمْ مَقَا ... مًا قَامَهُ فِي النَّاسِ مُنْذُ زَمَانِ

قَوْلُهُ: «لفاضِلٍ منْهُمْ» هو أبو المَعَالِي الجُوَيْنِيّ[١].

وقد ذكر قصته الشيخ أحمد بن عيسى[٢] في شرح هذه القصيدة نقلًا عن القُرْطُبِيّ[٣] في التَّذْكِرَة[٤].

وَقَوْلُهُ: «لِفَاضِلٍ مِنْهُمْ»: يَحتمل أنه يريد عند ابن القيم، ويَحتمل «لفاضل منهم» أي: عندهم، وأنَّه لم يصفْه بالفضل.

٣٣١- قَالَ: اسْمَعُوا يَا قَومِ إِنَّ نَبِيَّكُمْ ... قَدْ قَالَ قَوْلًا وَاضِحَ الْبُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «نَبِيَّكُمْ» يعني بذلك: محمدًا ﷺ، وجاء بهذه الصيغة إذا كان هذا

(١) أبو المعالي الجويني: إمامُ الحرمين، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف، ولد في جوين من أعمال نَيْسَابُور سنة (٤١٩هـ)، وأقام مدةً بالحجاز (مكة والمدينة) كان من أعلم المتأخِّرين من الشافعية، تُوُفِّي بقرية من أعمال نيسابور سنة (٤٧٨هـ). [الشارح]. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٦٨).

(٢) هو الشيخ أحمد بن إبراهيم بن عيسى من بني زيد (١٢٥٣-١٣٢٩هـ) مِن علماء نجد وصاحب رحلة وتصانيف عديدة، أشهرها شرحه وتوضيحه على النونية، ورُدوده على خصوم الدعوة السلفية، وبها يُعرف قدْره، وهو مِن تلاميذ الشيخ عبد الرحمن بن حسن، وابنه الشيخ عبد اللطيف، وأجازه الشيخ حسين بن محسن الأنصاري، وقد أخذ عنه العلم جمع مِن نجْد والحجاز وغيرها، كما كان داعية لتحقيق التوحيد لله عزَّ وجلَّ، رحمه الله ورفع درجته. انظر: حاشية الأثبات في مخطوطات الأئمة: شيخ الإسلام ابن تيمية، والعلَّامة ابن القيم، والحافظ ابن رجب، لعلي بن عبد العزيز بن علي الشبل (ص:١٣٢).

(٣) هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح، الإمام، العلَّامة، أبو عبد الله الأنصاري، الخزرجي، القرطبي، المتوفى (٦٧١هـ) إمام متفنن متبحر في العلم، له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه، ووفور فضله، توفي في أوائل هذه السنة بمنية بني خصيب من الصعيد الأدنى. تاريخ الإسلام للذهبي (١٥/ ٢٢٩).

(٤) انظر: التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبي (ص:٤٦٢).

اللفظ محفوظًا لأجل أن يَشُدَّهم إلى الاستماع، ويُقَوِّي الدليل أنه إذا كان نَبِيًّا، فلا بد أن نستمع إليه، وأن نَقْبَل ما قال، هذا إذا كان اللفظ الذي ساقه ابن القيم محفوظًا بهذا. قد قال:

٣٣٢- لَا تَحْكُمُوا بِالْفَضْلِ لِي أَصْلًا عَلَى ذِي النُّونِ يُونُسَ ذَلِكَ الْغَضْبَانِ

فهو يقول: -وما أدري عن صحة النقل، لأنَّ الرجل ما أظنه أنه يبلغ به الأمر إلى هذا الحدِّ- فيقول: أريد أن أُبَيِّنَ لكم أنَّ الله -سُبحانَه وتعالَى- ليس بذاته فوق العرش، حيث يوجد حديث يَرُدُّ على أهل التجسيم الذين يقولون: إنَّ الله بذاته فوق العرش، وهذا الحديث هو قول الرسول ﷺ: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»(١).

على كل حالٍ هذا ساقه بالمعنى بلا شك، وإلا فالنَّبِيُّ ﷺ قال: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى». يعني: لا تُفَضِّلُونِي في القُرْب مِن رَبِّي -على زعمه- على يُونسَ بن مَتَّى، فأنا وهو عند الله تعالى سِيَّانِ، حين كان في بطن الحوت، وأنا فوق السموات السبع.

وذلك أنَّ يُونسَ بنَ مَتَّى -عليه الصلاة والسلام- خرج مِن قومه مُغاضبًا قبل أن يأذن اللهُ له بالهجرة عنهم، ولهذا لما آمنوا حين جاءهم العذاب نفَعَهم الإيمان، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟﴾ [يونس:٩٨] وذلك أنَّ لهم شيئًا مِن العُذر، حيث إنَّ نَبِيَّهم -عليه الصلاة

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [طه:٩] ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، رقم (٣٢١٥)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب في ذكر يونس -عليه السلام-، رقم (٢٣٧٧).

والسلام- فارقهم قبل أن يُؤذَن له، وقبل أن ييئسَ مِن إيمانهم، فلما آمنوا كشف الله عزَّ وجلَّ عنهم العذاب، فقد يَظُنُّ الظانُّ أن هذا يُنَزِّل مِن قَدْرِ يونس.

ومحمد ﷺ قد عُلِمَ أنه أفضلُ الخلق، أفضلُ بني آدم، فقال: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى» ولم يقل: على موسى، ولا: على هارون، ولا: على إبراهيم، بل قال: «يُونُسَ بْنِ مَتَّى».

والسبب أنه فعل فِعلًا لم يُؤْذَنْ له فيه.

ولا يَرِدُ على هذا أن يُقال: وموسى فَعَل فِعلًا لم يُؤذن له فيه، إذ الفَرْق ظاهر، لأنَّ موسى -عليه الصلاة والسلام- فَعَل فِعلًا قبل أن يكون نَبِيًّا حين قتَل الذي مِن عَدُوِّه بعد أن استغاثه الذي مِن شِيعته.

٢٣٣- هَـذَا يَـرُدُّ عَـلَى الْـمُجَسِّمِ قَوْلَـهُ ... اللهُ فَـوْقَ الْعَـرْشِ وَالْأَكْـوَانِ

قَوْلُهُ: «يَرُدُّ على الْـمُجَسِّمِ قولَه»: القائل هو أبو المعالي الجُوَيْنِيّ.

وَقَوْلُهُ: «الْـمُجَسِّم» يريد بذلك الذين يُثْبِتُون العُلُوَّ، وهو قوله: (**اللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ والأَكْوَانِ**).

قَوْلُهُ: «اللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ والْأَكْوانِ» هذا مَقُولُ القول، أي: قول المُجَسِّم: (**اللهُ فَوْقَ العَرْشِ والأَكْوانِ**)، وهذا واضح.

إِذَنْ ما قول المجَسِّم؟ الجواب: قوله: (**اللهُ فَوْقَ العَرْشِ والأَكْوانِ**)، لأنه يرى أن مَنْ أثبت أنَّ الله فوق، فهو جِسم.

بقي أن يُقال: كلمةُ جِسم، أو غير جِسم، هل هي واردة عن النَّبيِّ ﷺ أو عن الصحابة؟ الجواب: لا.

لكنَّ أهل التعطيل الذين أنكروا صفات الله عزَّ وجلَّ صاروا يُشَوِّهونَ سُمعة المُثبِتين بمثل هذا، ويقولون: أنتم مُجَسِّمَة، أنتم مُشَبِّهة، مِن أجْل أن يُنَفِّروا الناس عنهم.

ولكني أقول: إنَّ وصفَ الحقِّ بهذه الأوصاف لا يَضرُّه، فنقول: كلمة الجسم، أو المجسِّم، أو ما أشبه ذلك كلها حادثة، يُراد بها تنفير الناس عن الإثبات، فما موقفنا؟

موقفنا أن نقول: يجب أن نتأدَّبَ مع الله عزَّ وجلَّ ورسولِه ﷺ، فلا ننكر الجسم، ولا نثبت الجسم، لأنَّ الله لـم يُثْبِتْه ولـم يَنْفِهِ، وكذلك النَّبي ﷺ، وهذا خَبَرٌ عن الرَّبِّ، فيجب أن نتأدَّبَ بين يدي الله ورسوله، ونقول: لا نُثْبِت الجسم، ولا ننفيه، هذه واحدة.

أما بالنسبة للمعنى فإننا نستفصل ونقول: ماذا تريد؟ هل تريد الجسم الذي أَجْلَبْتَ به وأَجْنَبْتَ علينا، أتريد جِسمًا مكونًا مِن عظام، وعصب، ودم، ولحم، وما أشبه ذلك؟ فهذا معنًى باطل لا يليق بالله تعالى، ولا نُقِرُّ به، بل نُنكِره أعظم الإنكار.

أم تريد بالجسم الذات العظيمة المتصفة بما يليق بها مِن صفات الكمال؟ إن قال: أريد هذا المعنى، نقول: هذا حقٌّ، ونُثْبِتُه لله عزَّ وجلَّ، ونؤمن بأنَّ الله -تبارك وتعالى- له ذات، وله صفات، وهذا ليس علينا فيه عيب.

ولا يمكن إثباتُ الله عزَّ وجلَّ إلَّا على هذا الوجه، لأنك إن قلت: إنه عَرَضٌ في غيره، فهذا مُنْكَرٌ عظيم، وإن قلت: إنه هواء، وليس بشيء، ولا يُرَى، ولا يُشَاهَدُ، فهذا أيضًا مُنْكَرٌ عظيم.

فالله -سُبحانَه وتعالَى- لا بدَّ أن يكون له ذات، لكنها لا تُماثِلُ ذوات المخلوقين، وهذا هو الحقُّ، أما التَّطْبِيل والإجلاب والإجناب علينا، فهذا لا يَضُرُّنا.

ما ضَرَّ محمدًا ﷺ أن قيل له: إنه ساحر كَذَّاب، ولا إنه شاعرٌ مجنون، بل لم يَزِدْه ذلك إلَّا رِفعةً وأَجرًا وثوابًا.

٣٣٤- وَيَـــدُلُّ أَنَّ إِلَـــهَنَا سُـــبْحَانَهُ وَبِحَمْـــدِهِ يُلْقَـــى بِكُـــلِّ مَكَـــانِ

قَوْلُهُ: «يُلْفَى» أي: يُدْرَكُ ويُحَصَّل بكل مكان.

يدل هذا على أنَّ الله تعالى موجودٌ بكل مكان.

٣٣٥- قَـالُوا لَـهُ: بَـيِّنْ لَنَـا هَـذَا فَلَـمْ يَفْعَـلْ، فَـأَعْطَوْهُ مِـنَ الْأَثْـمَانِ

٣٣٦- أَلْفًا مِنَ الـذَّهَبِ الْعَتِيـقِ، فَقَـالَ فِي تِبْيَانِـــهِ فَاسْـــمَعْ لِـــذَا التِّبْيَـــانِ

قَوْلُهُ: «قَالُوا لَهُ: بَيِّنْ لَنَا» يعني كيف يدل هذا[1] على هذين الأمرين: أنَّ الله ليس فوق، وأنه بكلِّ مكان؟ فأجاب[2] بأنه (لَـمْ يَفْعَلْ)، وقال: لا أُبيِّن، لأنه قال: -كما في الرواية- لن أُبيِّنَ هذا حتى تُعطوا الضيفَ ألفَ دينار، فانتدب لذلك رجلان فقال: لا، بل لا بد أن يكون واحدًا. وهذا تَحَدٍّ لهم، فَانْتَدَبَ له واحدٌ.

قَوْلُهُ: «فاسْمَعْ لِذَا التِّبْيَانِ» اسمع لهذا التبيان، يقول ذلك سُخرية به، وليس مِن أجْل أن نستمع إليه فنأخذ به، لكن هذا مِن باب الاستهزاء والسخرية.

٣٣٧- قَدْ كَانَ يُونُسُ فِي قَـرَارِ الْبَحْـرِ تَحْــ ـتَ الْـمَاءِ فِي قَـبْرٍ مِـنَ الْـحِيتَانِ

أولًا: قوله: «فِي قَرَارِ البَحْرِ» هذا غيرُ مُسَلَّم به، لأنه مِن الجائز أن يكون

(١) المراد بقوله: (هذا) أي: حديث: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى».
(٢) أي: أبو المعالي الجُوَيني.

الحوتُ التقَمه على سطح الماء، أو التقَمه في قاع البحر، والأول أقرب، لأنه لو نزل إلى قاع البحر ربما يموت قبل أن يصل إلى قاع البحر، ولذا فالأول أقرب، لأنَّ يونس -عليه السلام- لما ركب البحرَ في سفينة سارت السفينة مُحَمَّلَةً، وقالوا: إنْ بَقِينا جميعًا على ظهرها غَرِقْنا جميعًا، وإنْ أَلْقَيْنا بَعْضَنا في البحر سَلِمْنَا، إذن ماذا نفعل؟ قالوا: نعمل قُرْعَة، فضربوا القُرْعة، فسَاهَم يونس فكان مِن المُدْحَضِين، يعني: المَغْلُوبين، فألْقَوْه في البحر، فهيَّأ اللهُ له حُوتًا عظيمًا التقَمه دون أن يكسرَ له عظمًا، أو يجرح له جلدًا، فابتلع جميعَه، وبقي في بطنه، وهذا مِن آيات الله عزَّ وجلَّ.

وبقي في بطنه ونادى في الظلمات في ذلك المكان الضيِّق الحَرِج ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ [الأنبياء:٨٧] وهذا خالصُ التوحيد ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ [الأنبياء:٨٧] أي: أُنَزِّهُك أن تفعل ما لا يليق بك، ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧] كأنه يقول: إنه ظالمٌ ظَلَم نَفْسَه، والرَّبُّ عزَّ وجلَّ لم يفعل به ما ينافي الحِكمة، بل نَزَّه ربَّه أن يكون فَعلَ به ما ينافي الحِكمة، وبَيَّنَ أنَّ الظُّلمَ مِنْ نفسه، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٨].

٣٣٨- وَمُحَمَّدٌ صَعِدَ السَّمَاءَ وَجَاوَزَ السْـ ـــسَبْعَ الطِّبَاقَ، وَجَازَ كُلَّ عَنَانِ

قَوْلُهُ: «وَجَازَ كُلَّ عَنَانِ» يعني: ارتفع -عليه الصلاة والسلام- بجسمه وروحه عن كلِّ شيء، حتى السموات والأرض كانت تحته، وما أعظم هذا النَّبيَّ الكريم! وما أقوى جأشَه! كيف شاهد هذه المخلوقات العظيمة العالية، ومع ذلك أدركها بفؤاده تمامًا! قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم:١١].

وانظر إلى كمال أدب النَّبِيِّ ﷺ، قال الله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧] يعني: ما جاوز، وقام ينظر ما هذا، وما هذا؟ مع أننا لو دخلنا حُجرة

مِن الحُجَر لكان الواحد يدور بِعَيْنِه في الجُدران، وفي السطح، وفي الفراش، وفي كلِّ شيء، لكنَّ النَّبِيَّ ﷺ على كمال الأدب ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم:١٧].

يقول الجُوَيْنِيّ -عفا الله عنه-:

٣٣٩- وَكِلَاهُمَا فِي قُرْبِهِ مِنْ رَبِّهِ ... سُبْحَانَهُ إِذْ ذَاكَ مُسْتَوِيَانِ

سبحان الله! هذا الذي وصل إلى مكانٍ سمِع فيه صريفَ الأقلام كرَجُلٍ في بطن الحوت في الأرض في القرب مِن الله!

هذا يقول هكذا، لأنه يقول: إنَّ الله في كلِّ مكان، وإذا كان في كلِّ مكان، لزم أن يكون النَّبِيَّانِ عنده مُسْتَوِيَيْنِ.

٣٤٠- فَالْعُلُوُ وَالسُّفْلُ اللَّذَانِ كِلَاهُمَا ... فِي بُعْدِهِ مِنْ ضِدِّهِ طَرَفَانِ

العلو والسُّفْل كل واحد منهما (فِي بُعْدِهِ مِنْ ضِدِّهِ طَرَفَانِ) فهذا فوق بَعيد، وهذا أسفل.

٣٤١- إِنْ يُنْسَبَا للهِ نُزِّهَ عَنْهُمَا ... بِالْإِخْتِصَاصِ، بَلَى هُمَا سِيَّانِ

٣٤٢- فِي قُرْبِ مَنْ أَضْحَى مُقِيمًا فِيهِمَا ... مِنْ رَبِّهِ، فَكِلَاهُمْا مِثْلَانِ

يعني: إن نُسِبَا لله عزَّ وجلَّ يُنزَّه عنهما بالاختصاص، فلا يقال: إنَّ العاليَ أقربُ إلى الله مِن النازل، هذا لا يجوز، فهُما عند الله سِيَّان، ولا يُنْسَبان إلى الله عزَّ وجلَّ، هما ينسبان إلينا، والسُّفْل ضد العُلو، فالعُلو في طرَف، وهذا في طرَف، لا يلتقيان، لكنهما بالنسبة لله هما سِيَّان.

قَوْلُهُ: «مِثْلَانِ» أي: متشابهان.

٣٤٣- فَلِأَجْلِ هَذَا خُـصَّ يُـونُسُ دُونَهُـمْ   بِالـــذِّكْرِ تَحْقِيقًـــا لِـــهَذَا الشَّـــانِ

يريد -نسأل الله العافية- أن يُونُس -عليه السلام- ذُكِر لأنه في قَعر البحر -على كلامه- ومحمد في أعلى شيء، لكنَّ موسى وإبراهيم -عليهما السلام- وغيرهما ليسوا في قعر الأرض، بل على سطح الأرض، فيريد أن يُبَيِّنَ أنَّ أعلى شيء، وأسفل شيء كلاهما سواء، فـ «**لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى**» في قُربِي مِن الله، وبُعده مِن الله.

أليس هذا تحريفًا؟! هل أراد الرسول ﷺ هذا المعنى؟! يعني: لا تُفَضِّلوني عليه في القُرْب حينما عُرِجَ به ﷺ؟! والله ما أراد هذا.

فلا شك أن هذا -والعياذ بالله- مِن التحريف الذي يَحْمِلُ عليه الهوى، وهو تحريفٌ مِن أَبْطَل البَاطِل، فالنَّبِيُّ ﷺ لم يتعرض إطلاقًا للعُلو والسُّفْل، لكن لما كان يونس -عليه الصلاة والسلام- خرج مِن قومه مغاضِبًا، ظانًّا أنَّ الله لا يَقْدِر عليه، وحَصَل ما حَصَل، ربما يقع في نفس بعض الناس تنزيلُ رُتبة يونس، والنَّيْل مِن قَدْرِه، وعلى ذلك يكون المعنى: لا تُفَضِّلُوني في الرُّتبة والمنزلة على يونس.

فنَهى النبي ﷺ أن يُفَضَّل على هذا النَّبِيِّ الذي قد يَتَصَوَّرُ الإنسان أنه -عليه الصلاة والسلام- قد نزل قَدْرُه بسبب ما حصل منه، لأنك عندما تقول: محمدٌ أفضلُ مِن يونس، وقد ذهب الذهن إلى ما حصل مِن يونس، ما الذي يقع في نَفْسِك؟ الجواب: التقليل مِن شأنه وتنزيله، ولذا نهى أن يُفَضَّل محمد على يونس -عليهما الصلاة والسلام-.

وليس أيضًا مراد الرسول ﷺ بذلك أن يُنْكَرَ فضلُ محمدٍ على يُونسَ -عليهما الصلاة والسلام-، لأنَّ هذا أمرٌ معلوم، لكن: لا تُفَضِّلُونِي على سبيل

المُفَاخَرَة، هذه واحدة.

أو: لا تُفَضِّلُونِي على سبيل الاحتقار ليُونُس، وإلَّا فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ لا يَنْهَى عن شيء أثبته الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥] وقال عزَّ وجلَّ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة:٢٥٣].

فأثبت التفضيلَ للأنبياء، وأثبت التفضيل للرُّسل.

٣٤٤- فَـأَتَى الثَّنَـاءُ عَلَيْـهِ مِـنْ أَصْـحَابِهِ ... مِـنْ كُـلِّ نَاحِيَـةٍ بِـلَا حُسْـبَانِ

لماذا أَثْنَوْا عليه؟ الجواب: لأنه (وَافَقَ شَنٌّ طَبَقَه)[1]، وقالوا: أنت العالم، أنت الشيخ، هذا الحقُّ، لأنه وافق أهواءهم.

ثم قال ابن القيم -رحمه الله-:

٣٤٥- فاحْمَـدْ إِلَـهَكَ أَيُّهَـا السُّـنِّيُّ إِذْ ... عَافَـاكَ مِـنْ تَحْرِيـفِ ذِي بُهْتَـانِ

أَمَرَ -رحمه الله- أن يحمد الإنسانُ رَبَّه، وخَصَّ بذلك السُّنِّيَّ، أي: المتَّبِعَ للسُّنَّة، فنقول: الحمد لله، نسأل الله أن يثبتنا على ذلك، وأن يميتنا عليه.

٣٤٦- وَالله مَـا يَـرْضَى بِهَـذَا خَـائِفٌ ... مِـنْ رَبِّـهِ أَمْسَـى عَـلَى الْإِيـمَانِ

قَوْلُهُ: «مَا يَرْضَى بِهَذَا» أي: ما يرضى بهذه المقالة مؤمنٌ يخاف الله، لأنه إذا فَعَل هذا فقد وَصَف الله بأدنى النقص، نسأل الله العافية، فلا يرضى بذلك مؤمنٌ خائفٌ مِن الله عزَّ وجلَّ.

٣٤٧- هَذَا هُوَ الْإِلْحَادُ حَقًّا، بَلْ هُوَ التْـ ... ـتَحْرِيفُ مَحْضًـا أَبْـرَدُ الْـهَذَيَانِ

هذا هو الإلحاد والتحريف، والإلحاد في هذا الموضع خاصةً يكون بالمعاني،

---

(١) هذا يُضرب مثلا للشيئين يتفقان. انظر: مجمع الأمثال للميداني (٢/ ٣٥٩).

والتحريف يكون بتحريف اللفظ عن معناه.

فالمعنى أنَّ هذا هو الإلحاد في آيات الله عزَّ وجلَّ، وهو التحريف لكلام الله عزَّ وجلَّ.

فصار في الأُمَّة مَنْ وافق الأمم السابقة، حَرَّفوا الكَلِمَ عن مواضعه، فصدق رسول الله ﷺ في قوله: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»[1].

٣٤٨- وَاللهِ مَا بُلِيَ الْـمُجَسِّمُ قَطُّ ذِي الْـ ـبَلْوَى وَلَا أَمْسَى بِـذَا الْـخِذْلَانِ

قَوْلُهُ: «الْمُجَسِّمُ» أي: على زعم هؤلاء، والمراد به المثبِت للصفات، هذا هو الظاهر، مع أنه يَحْتَمِلُ أن نقول: أراد أنه لو فُرِضَ أنَّ أحدًا جَسَّمَ، فإنه لن يُبْلَى بمثل هذه البليَّة، لكن المعنى الأول أظهرُ، وأقربُ إلى عقيدة ابن القيم -رحمه الله-.

٣٤٩- أَمْثَالُ ذَا التَّأْوِيلِ أَفْسَدَ هَذِهِ الْـ أَدْيَانَ حِينَ سَرَى إِلَى الْأَدْيَانِ

قَوْلُهُ: «ذَا التَّأْوِيلِ» المشار إليه التأويل الذي هو التحريف، أما التأويل الذي هو تفسير المعنى الحقيقي فهذا لا بأس به.

٣٥٠- وَاللهِ لَوْلَا اللهُ حَافِظُ دِينِهِ لَتَهَدَّمَتْ مِنْهُ قُوَى الْأَرْكَانِ

وصدق -رحمه الله- لو لا أنَّ اللهَ حافظُ دينِه كما يدلُّ على هذا قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩] لو لا هذا لتهدَّم الدِّين، ولَزَال الدِّين كما زالت الأديانُ السابقة التي حَرَّفَ أهلُها نُصوصَها، وأَلْـحَدُوا فيها.

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٢٦٩)، ومسلم: كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، رقم (٢٦٦٩).

فصل

في قُدُومِ رَكْبٍ آخَرَ

٣٥١- وَأَتَى فَرِيقٌ ثُمَّ قَارَبَ وَصْفُهُ ... هَذَا وَزَادَ عَلَيْهِ فِي الْمِيزَانِ

٣٥٢- قَالَ: اسْمَعُوا يَا قَوْمِ لَا تُلْهِيكُمُ ... هَذِي الْأَمَانِي هُنَّ شَرُّ أَمَانِي

٣٥٣- أَتْعَبْتُ رَاحِلَتِي وَكَلَّتْ مُهْجَتِي[1] ... وَبَذَلْتُ مَجْهُودِي وَقَدْ أَعْيَانِي

٣٥٤- فَتَّشْتُ فَوْقُ وَتَحْتُ ثُمَّ أَمَامَنَا ... وَوَرَاءُ ثُمَّ يَسَارُ مَعْ أَيْمَانِ

٣٥٥- مَا دَلَّنِي أَحَدٌ عَلَيْهِ هُنَاكُمُ ... كَلَّا وَلَا بَشَرٌ إِلَيْهِ هَدَانِي

٣٥٦- إِلَّا طَوَائِفُ بِالْحَدِيثِ تَمَسَّكَتْ ... تُعْزَى مَذَاهِبُهَا[2] إِلَى الْقُرْآنِ

٣٥٧- قَالُوا الَّذِي تَبْغِيهِ فَوْقَ عِبَادِهِ ... فَوْقَ السَّمَاءِ وَفَوْقَ كُلِّ مَكَانِ

٣٥٨- وَهُوَ الَّذِي حَقًّا عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ... لَكِنَّهُ اسْتَوْلَى عَلَى الْأَكْوَانِ

٣٥٩- وَإِلَيْهِ يَصْعَدُ كُلُّ قَوْلٍ طَيِّبٍ ... وَإِلَيْهِ يُرْفَعُ سَعْيُ ذِي الشُّكْرَانِ

٣٦٠- وَالرُّوحُ وَالْأَمْلَاكُ مِنْهُ تَنَزَّلَتْ ... وَإِلَيْهِ تَعْرُجُ عِنْدَ كُلِّ أَوَانِ

٣٦١- وَإِلَيْهِ أَيْدِي السَّائِلِينَ تَوَجَّهَتْ ... نَحْوَ الْعُلُوِّ بِفِطْرَةِ الرَّحْمَنِ

٣٦٢- وَإِلَيْهِ قَدْ عَرَجَ الرَّسُولُ فَقُدِّرَتْ ... مِنْ قُرْبِهِ مِنْ رَبِّهِ قَوْسَانِ

---

(١) في نسخة الحلبي: «وكلَّ مطيتي».

(٢) في نسخة الإفتاء: «مذاهبنا».

٣٦٣- وَإِلَيْهِ قَدْ رُفِعَ الْـمَسِيحُ حَقِيقَةً ... وَلَسَوْفَ يَنْزِلُ كَيْ يُرَى بِعِيَانِ

٣٦٤- وَإِلَيْهِ تَصْعَدُ رُوحُ كُلِّ[1] مُصَدِّقٍ ... عِنْدَ الْـمَمَاتِ فَتَنْثَنِي بِأَمَانِ

٣٦٥- وَإِلَيْهِ آمَالُ الْعِبَادِ تَوَجَّهَتْ ... نَحْوَ الْعُلُوِّ بِلَا تَوَاصٍ ثَانِ

٣٦٦- بَلْ فِطْرَةُ الله الَّتِي لَمْ يُفْطَرُوا ... إِلَّا عَلَيْهَا الْـخَلْقُ والـثَّقَلَانِ

٣٦٧- وَنَظِيرُ هَذَا أَنَّهُمْ فُطِرُوا عَلَى ... إِقْرَارِهِمْ، لَا شَكَّ بِالـدَّيَّانِ

٣٦٨- لَكِنْ أُولُو التَّعْطِيلِ مِنْهُمْ أَصْبَحُوا ... مَرْضَى بِدَاءِ الْـجَهْلِ وَالْـخِذْلَانِ

٣٦٩- فَسَأَلْتُ عَنْهُمْ رُفْقَتِي وَأَحِبَّتِي ... أَصْحَابَ جَهْمٍ حِزْبَ جِنْكِزْخَانِ

٣٧٠- مَنْ هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُقَالُ لَهُمْ فَقَدْ ... جَاءُوا بِأَمْرٍ مَالِئِ الْآذَانِ

٣٧١- وَلَهُمْ عَلَيْنَا صَوْلَةٌ مَا صَالَهَا ... ذُو بَاطِلٍ، بَلْ صَاحِبُ الْبُرْهَانِ

٣٧٢- أَوَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَهُمْ وَكَلَامَهُمْ ... مِثْلَ الصَّوَاعِقِ لَيْسَ ذَا لِـجَبَانِ

٣٧٣- جَاءُوكُمُ مِنْ فَوْقِكُمْ وَأَتَيْتُمُ ... مِنْ تَحْتِهِمْ، مَا أَنْتُمُ سِيَّانِ

٣٧٤- جَاءُوكُمُ بِالْوَحْيِ لَكِنْ جِئْتُمُ ... بِنُحَاتَةِ الْأَفْكَارِ وَالْأَذْهَانِ

الشرحُ

فهؤلاء فريقٌ مِن الرُّفقاء خرجوا في سَفَر، ثم اختلفوا في مفترق الطُّرُق، فكَلُّ إنسانٍ سَلَك طريقًا، أو كل طائفة سلكت طريقًا، وسبق الكلام على عدَّة منهم.

---

(١) في نسخة برلين: «كل روح مُصدِّق».

يقول -رحمه الله-:

٣٥١- وَأَتَى فَرِيقٌ ثُمَّ قَارَبَ وَصْفُهُ ... هَذَا وَزَادَ عَلَيْهِ فِي الْمِيزَانِ

يعني: أنه قاربَ الذي قَبْلَه، لكنه زاد عليه.

٣٥٢- قَالَ: اسْمَعُوا يَا قَوْمِ لَا تُلْهِيكُمُ ... هَذِي الْأَمَانِي هُنَّ شَرُّ أَمَانِي

قَوْلُهُ: «الأماني» أي: ما يتمناه الإنسان، لكنه لا يَصِل إليه، ولذلك يُقال: (مَنْ غَرَّتْهُ الْأَمَانِيُّ لَمْ يَفُزْ بِأَمَانِ).

فالإنسان تُمَنِّيه نفسُه الشيءَ المستحيلَ، ولكنه يَتْبَع هذه الأُمْنِيَّة فيهلِك، والواجب على الإنسان أن يُحَكِّمَ العقل فيما يُلْقِيه الشيطانُ، أو نفسُه الأَمَّارة بالسوء على قلبه، حتى يكون مستقيمًا في سُلوكه إلى الله عزَّ وجلَّ.

٣٥٣- أَتْعَبْتُ رَاحِلَتِي وَكَلَّتْ مُهْجَتِي ... وَبَذَلْتُ مَجْهُودِي وَقَدْ أَعْيَانِي

يعني: أتعب راحلته في السفر، وطلب الوصول إلى فاطر الأكوان عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «وَبَذَلْتُ مَجْهُودِي وَقَدْ أَعْيَانِي» يعني: بذلت طاقتي.

قَوْلُهُ: «وَقَدْ أَعْيَانِي» يعني: أتعبني السَّفَر والطَّلَب لفاطر الأكوان.

٣٥٤- فَتَّشْتُ فَوْقُ وَتَحْتُ ثُمَّ أَمَامَنَا ... وَوَرَاءُ ثُمَّ يَسَارُ مَعْ أَيْمَانِ

يعني: فَتَّشْتُ في كلِّ الجهات أطلب هذا الرَّبَّ، أو أطلب مَنْ يدلني على هذا الرَّبِّ.

٣٥٥- مَا دَلَّنِي أَحَدٌ عَلَيْهِ هُنَاكُمُ ... كَلَّا وَلَا بَشَرٌ إِلَيْهِ هَدَانِي

٣٥٦- إِلَّا طَوَائِفُ بِالْحَدِيثِ تَمَسَّكَتْ ... تُعْزَى مَذَاهِبُهَا إِلَى الْقُرْآنِ

الآن أقرَّ هذا الرجل أنه طاف بالأرض، وسار، وتعِب، وأعيا، يطلُبُ خالقَ الأكوان، ولم يَدُلَّه عليه إلَّا طوائفُ بالحديث تمسَّكَتْ، وهم أهل السُّنَّة والجماعة، حيث دَلُّوه على الله عزَّ وجلَّ حقًّا، وهَدَوْهُ إليه، وبيَّنوا أنه -سُبحانَه وتعالَى- فوق السموات العُلى.

قَوْلُهُ: «**تُعْزَى مَذَاهِبُهَا إِلَى القُرْآنِ**»، لأنهم هم أهل القرآن وأهل السُّنَّة.

٣٥٧- قَالُوا الَّذِي تَبْغِيهِ فَوْقَ عِبَادِهِ   فَوْقَ السَّمَاءِ وَفَوْقَ كُلِّ مَكَانِ

قَوْلُهُ: «**فَوقَ السَّمَاءِ وَفَوقَ كُلِّ مَكَانِ**» هنا أَقَرُّوا بعُلُوِّ الله عزَّ وجلَّ وهو مَحَكُّ بين أهل التعطيل والتمثيل، وبين أهل السنَّة والجماعة، ولهذا كثيرًا ما تحصل المناظرة في مسألة العُلُوِّ والاستواء، كالكلام، فقال: إنهم دَلّوه بأنَّ الله فوقَ العباد، وفوق السماء، وفوق كُلِّ مكان.

واستدلَّ المؤلف على عُلُوِّ الله تعالى بِعِدَّة أدلة، نأخذها واحدًا واحدًا.

قال -رحمه الله-:

٣٥٨- وَهُوَ الَّذِي حَقًّا عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى   لَكِنَّهُ اسْتَوْلَى عَلَى الْأَكْوَانِ

قَوْلُهُ: «**وَهُوَ الَّذِي حَقًّا عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**» قد دَلَّ على ذلك الكتابُ والسُّنَّةُ، وإجماعُ السلف.

ففي الكتاب: ذَكَر اللهُ الاستواء على العرش في سبعة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤].

وقد سردها شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في كتابه (**العقيدة**

الواسطية)[1]، فهو سبحانه استوى على العرش، وأما (استولى) فلا تأتي على العرش، لكنها تأتي على الأكوان، فاستولى على الأكوان يعني: مَلكَ الأكوانَ كلَّها قبل خَلق السموات والأرض، ولهذا يُقال: (**على العرش استوى، وعلى المُلْك استولى**).

فإذا قال قائل: ما معنى: استوى على العرش؟

فالجواب: استوى على العرش بمعنى علا على العرش عُلُوًّا خاصًّا، ليس العُلُو المطلَق على جميع المخلوقات، بل هو عُلوٌّ خاص اختصَّ به العرش، ويدلُّ لهذا أنه عُدِّيَ بـ (**على**) الدالة على العُلُو.

ولقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف:١٢-١٣] أي: تركبوا عليها، وتعلوا عليها ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:١٣] أي: إذا استقررتم عليه تذكرون نعمة الله أن يَسَّرَ لكم مِن الفُلك والأنعام ما تركبون ﴿وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف:١٣].

إِذَنْ نحن نؤمن بأنَّ معنى (**استوى على العرش**) يعني: علا عليه، لكن هل هذا العُلو يشبه عُلو الإنسان على السرير، أو على الفُلك، أو على الدابة؟

الجواب: لا، لقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] واستواؤنا على السرير، وعلى الفُلك، وعلى الأنعام استواءُ افتقار، بدليل أنه لو سُحِبَتْ مِن تحتنا لسقطنا، أما استواء الله على العرش، فهو استواءُ سلطان وتمام مُلْكٍ وعَظَمَة، وليس لافتقاره إلى العَرش، بل العرشُ وكُلُّ المخلوقاتِ مفتقِرةٌ إلى ربِّها عزَّ وجلَّ، وهو غَنِيٌّ عنها.

---

(١) انظر: العقيدة الواسطية (ص:٧٠).

أمَّا أهل التعطيل فقالوا: استوى بمعنى استولى، فأنكروا صفة العظمة والسلطان، وحَوَّلوها إلى معنًى دون ذلك بكثير.

وقولهم هذا باطل لِوُجُوهٍ كثيرة، منها:

▪ **أولًا**: لم يأتِ في اللغة أنَّ (**استوى**) بمعنى (**استولى**)، فهذه لغة العرب بين أيدينا، فلم يأتِ (استوى على كذا) بمعنى (استولى عليه)، والقرآن نزل باللغة العربية.

▪ **ثانيًا**: أنه خلاف إجماع السلف، فلم يَقُلْ أحدٌ مِن السلف (الصحابة والتابعين والأئمة مِن بَعْدِهم): إن (**استوى**) بمعنى (**استولى**)، فتفسيره بذلك خروج عن الإجماع، وداخلٌ في قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].

▪ **ثالثًا**: أنه يلزم عليه لوازم باطلة، منها: أنه إذا كان (استوى) بمعنى (استولى) لزِم أن يكون مُلْكُ العرشِ قَبل خَلق السموات والأرض لغيرِ الله، لأنَّ الله قال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [الأعراف:٥٤] أي: بعد خَلقها، لأنَّ الاستواء المذكور أتى بـ (ثُمَّ)، فيكون ملكُ العرشِ لغير الله عزَّ وجلَّ، فمَن المالك إذن؟!

وربما يقول قائل أيضًا: قولكم: (**استولى على الأكوان**) كأنَّ آخَرَ كان مستوليًا عليها؟

فالجواب: لا، فهذه لو جاءت بما يقتضي التعقيب كان لا بأس، وابن القيم هنا قال: استولى على الأكوان بدون (ثُمَّ) فليس فيها محظور، أمَّا ابتداءً، فصحيحٌ أنَّ الله استولى على كُلِّ شيء.

لكن لو قال قائل: لِـمَ لا نقول: إنه مالكٌ في الأصل؟ نقول: إن ابن القيم اختار (استولى) لأجل أن يَرُدَّ عليهم، لأنه إذا قال: (استوى) بمعنى (استولى) قلنا: يَلْزَم عليه أيضًا أن يصحَّ أن نقولَ: إن الله استوى على الجَبَل، واستوى على الأرض، واستوى على البَعير، واستوى على الفُلْك، واستوى على الوادي، لأنه مُسْتَوْلٍ على هذا.

ولا يمكن أن يقول بذلك أحد، ولذلك اختار ابن القيم كلمة **(استولى)** لِيُبَيِّن لهؤلاء الذين قالوا: استوى على العرش بمعنى استولى عليه أنهم أخطئوا، فإن الاستيلاء على كُلِّ شيء، ولذلك قال ابن القيم: «**لَكِنَّهُ اسْتَوْلَى عَلَى الأَكْوَانِ**» فأراد -رحمه الله- هنا بهذا الاستدراك أن يَرُدَّ على هؤلاء، كأنه يقول: إنكم ضللتم، فالاستيلاء على جميع الأكوان، وأما الاستواء، فهو على العَرش، أي: خاصٌّ بالعرش، فالله استولى على الأكوان حقيقة، فهو وَلِيُّها، وهي مِلكُه بلا شك. وبذلك ليس في كلام ابن القيم محظور.

فالحاصل أنَّ كلمة **(استولى)** على المُلك، أو **(استولى)** على الخَلق، ليس فيها إشكال، والإشكال في تفسير **(استوى)** بـ **(استولى)**.

وعلى ذلك فنحن لا نَمْنَع أنه استولى على العرش، فمِن كمال الله تعالى أن يستولي على كلِّ شيء.

فتبَيَّنَ بذلك بُطلانُ قولِ مَنْ يقول: إنَّ (استوى) بمعنى (استولى).

فإذا قال قائل: ألم يَقُل الشاعر[1]:

قَدِ اسْتَوى بِشْرٌ عَـلَى الْعِـرَاقِ ... مِنْ غَـيْرِ سَـيْفٍ وَدَمٍ مِهْـرَاقِ

---

(١) البيت للأخطل، كما في تاج العروس: سوو.

«بشر» يعني: بِشْرَ بنَ مَرْوَانَ، مِن أُمَراء بني أُمَيَّة.

قلنا: قيل هذا، لكن مَن القائل؟ هل القائل عربيٌّ فصيح يمكن أن يُحْتَجَّ بكلامه؟ الجواب: لا، فقائل هذا مجهول، لا يُعلمُ قائلُه، هذا هو الوجه الأول.

الوجه الثاني: ثُمَّ لو عُلِم فهو بعدَ تَغَيُّر اللسان، لأنَّ المسلمين لما فتحوا البلاد غير العربية تغيَّرت ألسنتهم، كما تغيَّرت ألسنتا نحن الآن، نحن الآن نخاطِبُ إخوانَنا مِن الباكستانيين والهنود، إذا أردت أن تقول: (لا أدري) تقول: (ما في معلوم)، فهم أخذوا مِن لُغتنا، وأخذنا مِن لُغَتهم، كذلك العرب الفصحاء لما فُتحت البلادُ تَأَثَّروا بِلُغَات الأعاجم.

الوجه الثالث: نقول: على فرض أنَّ الذي قاله عَرَبِيٌّ فصيح قُحٌّ، فاستواؤه على العرش يمكن أن يُفَسَّر بمعنى استيلائه، ويمكن أن يُقال: استوى عليه أي: علا عليه عُلوًّا معنويًّا، لأنه سيطر عليه وفتحه، وحينئذٍ لا دليل فيه إطلاقًا.

الوجه الرابع: ثم على فرض أنَّ فيه دليلًا واضحًا فإنّه لا يمكن أن يُقابِلَ -فضلًا عن أن يعارِض- الأدلةَ الواضحةَ في القرآن والسنَّة، وإجماع السلف على أنَّ (استوى على العرش) يعني: (علا عليه).

فالأمر واضح -ولله الحمد- ولا إشكال فيه أنه (استوى على العرش) أي: علا عليه علوًّا خاصًّا، ليس كالعلو المطلَق على جميع المخلوقات.

قسم ثالث مِن الناس قال: استوى على العرش كاستواء الإنسان على السرير، وكاستواء الملِك على عرش مملكته، وربما مَثَّل وجلس متربعًا، أو ما أشبه ذلك، وهؤلاء المُمَثِّلة، فَكُلٌّ مِن المُمَثِّلة والمعطِّلة ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه.

ونحن نقول: إنَّ الله تعالى استوى على العرش أي: علا عليه عُلُوًّا خاصًّا

يليق به -جلَّ وعلا-، ولا نُكَيِّفه، فلا يجوز لنا أن نسأل عن الكيفية، لأنَّ الكيفيةَ مجهولة، ولا يمكن الوصولُ إلى معرفتها، فكيف نسأل عن شيءٍ لا يمكنُ الوصولُ إليه، وما هذا إلَّا تَنَطُّعٌ في الدِّين، وتَعَمُّقٌ فيه.

وقصة الإمام مالك -رحِمه الله- مشهورة أنه سأله رجل وهو في المسجد النبوي قال له: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] كيف استوى؟

فأطرق مالك -رحمه الله- برأسه، وصار يتصبب عرقًا، ثم رفع رأسَه وقال: «الاستواءُ معلومٌ، والكيفُ مجهولٌ، والإيمانُ به واجبٌ، والسؤالُ عنه بدعةٌ».

والمنقول عنه بلفظ: «الاستواءُ غيرُ مجهولٍ، والكيفُ غيرُ معقولٍ، والإيمانُ به واجبُ، والسؤالُ عنه بدعةٌ»[1].

ثم استدلَّ المؤلف أيضًا على علوِّه عزَّ وجلَّ بقوله:

٣٥٩- وَإِلَيْـهِ يَصْـعَدُ كُـلُّ قَـوْلٍ طَيِّـبٍ وَإِلَيْـهِ يُرْفَـعُ سَـعْيُ ذِي الشُّـكْرَانِ

لقول الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠] وهذه الآية مِن أدلة العلوِّ الذاتِيِّ، وجه ذلك: قوله: (إليه) أي: إلى الله يصعد الكَلِم الطيِّب.

وهذا يدُلُّ على علوِّه، ووجه الاستدلال: أنَّ الصعود يعني: الارتفاع، وتقول مثلًا لإنسان: اصعد إلى فلان في الدور الثاني، أي: ارتفع إليه.

قَوْلُهُ: «وإلَيهِ يُرْفَعُ سَعْيُ ذِي الشُّكْرَانِ» مأخوذ مِن قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠].

---

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٥١٥)، عن الإمام مالك بإسناد جوَّده الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٠٧).

٣٦٠- وَالـرُّوحُ وَالْأَمْـلَاكُ مِنْـهُ تَنَزَّلَـتْ وَإِلَيْـهِ تَعْـرُجُ عِنْـدَ كُـلِّ أَوَانِ

قَوْلُهُ: «وَالرُّوحُ وَالْأَمْلَاكُ مِنْهُ تَنَزَّلَتْ» هذا مذكور في سورة القَدْر في قوله تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر:٤-٥] ونُزولها لا يكون إلَّا مِن أعلى، وهذا نوعٌ ثانٍ للدلالة على العُلوِّ، فعروج الأشياء إليه تدلُّ على عُلوِّه.

قَوْلُهُ: «وإلَيهِ تَعْرُجُ عِنْدَ كُلِّ أوَانِ»: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤]، فالنزول يدلُّ على عُلوِّه، والعروج إليه يدلُّ على عُلوِّه.

٣٦١- وَإِلَيْـهِ أَيـدِي السَّـائِلِينَ تَوَجَّهَـتْ نَحْـوَ الْعُلُـوِّ بِفِطْـرَةِ الـرَّحْمَنِ

أيُّ إنسان يسألُ اللهَ تعالى فإنَّ يده تتوجه للأعلى بالفطرة، بدون دراسة، وبدون تعليم، فهذا دليلٌ فِطري، فما قال قائلٌ قطُّ: (يا الله) إلَّا ورفع يديه إلى السماء، ولهذا استدل أبو العلاء الهَمَذانِيُّ -رحِمه الله-[1] على أبي المعالي الجُوَيْنِي الفِطرة[2].

قال: ما تقول في هذا: ما قال عارفٌ قَطُّ: (يا الله) إلَّا وجد في قلبه ضرورةً تطلب العُلُوَّ؟ فبُهت وجعل يضرب على رأسه ويقول: حَيَّرَني الهَمَذاني، حَيَّرَني الهَمَذَاني، لأنَّ هذا لا يمكن أن ينكره أحد.

---

(١) هو أبو العلاء الهمذاني الحافظ العلَّامة المقرئ، شيخ الإسلام الحسن بن أحمد بن الحسن بن أحمد ابن محمد بن سهل العطار شيخ همذان، مولده سنة ثمان وثمانين وأربعمئة، برَع على حُفاظ عصره في حِفظ ما يتعلق بالحديث من الأنساب والتواريخ والأسماء والكنى والقصص والسير، مات أبو العلاء في جمادى الأولى سنة تسع وستين وخمسمئة. انظر ترجمته في: تذكرة الحفاظ (٤/ ٨٠).

(٢) انظر: العلو للعلي الغفار (١/ ١٩٢).

قَوْلُهُ: «نَحْوَ العُلُوِّ بِفِطْرَةِ الرَّحْمَنِ» أي: بدون تعلُّم وبدون تدبُّر، فمن حين ما يبتهل الإنسانُ إلى رَبِّه يرفع يديه نحو السماء.

٣٦٢- وَإِلَيْهِ قَدْ عَرَجَ الرَّسُولُ فَقُدِّرَتْ مِنْ قُرْبِهِ مِنْ رَبِّهِ قَوْسَانِ

قَوْلُهُ: «وَإِلَيْهِ قَدْ عَرَجَ الرسُولُ» هذا مِثل الأول، فتعرج الأشياء إليه لأنه فوق.

وهذا العُروج كان ليلة المعراج، وكان ذلك في مكةَ قبل الهجرة بثلاث سنوات، وقيل: بِسَنَة.

وسبب هذا الاختلاف المتبايِن أنهم لم يكونوا يستعملون التاريخَ مِن قبل، فالتاريخ لم يُسْتَعْمَلْ ويثبت في الدولة الإسلامية إِلَّا في زمن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلذا حصَل هذا الاختلاف، فيكون مثلًا قد تَقَدَّم المعراج، ولم يطَّلع عليه أحد، ثُمَّ اطَّلع عليه بعد سنتين، وقال: إنه كان قَبل الهجرة بِسَنَة.

وقد عُرِجَ بالنبيِّ ﷺ بجسده ورُوحه إلى السموات السبع، وأُسْرِي به إلى المسجد الأقصى، فهنا إسراء، وهنا معراج، وكلاهما في ليلةٍ واحدة.

قَوْلُهُ: «فقُدِّرَتْ مِنْ قُرْبِهِ مِنْ رَبِّهِ قَوْسَانِ» يشير إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم:٨-٩] هذا كلامه هنا، وهو أحد القولين في هذه الآية، لكن كلامه في (**التبيان في أقسام القرآن**)(١) يخالف ذلك، حيث ذكر في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم:٨-٩] أنَّ الذي دنا فتدلى هو جبريل وقرب مِن النَّبيِّ ﷺ، حتى كان قاب قوسين أو أدنى، وليس الله عزَّ وجلَّ وهذا هو الصواب.

---

(١) انظر: التبيان في أقسام القرآن (ص:٢٥٦).

ولكن المؤلف -كغيره مِن المجتهدين- يكون له في المسألة قولان أو أكثر، وهذه مِن مسائل الأصول التي اختلف فيها السَّلَف -رحمهم الله-.

لكننا لا نشك أن النبيَّ ﷺ عُرِج به إلى مكان سمِع فيه صَرِيفَ الأقلام، أي: الأقلام التي يُكتَب بها، وصريفها يعني: صوتها عند الكتابة.

٣٦٣- وَإِلَيْهِ قَدْ رُفِعَ الْمَسِيحُ حَقِيقَةً وَلَسَوْفَ يَنْزِلُ كَيْ يُرَى بِعِيَانِ

هذا أيضًا مِن النوع الأول، وهو رفع الأشياء إليه.

فالمسيح ابن مريم -عليه السلام- تمالأ عليه قوم مِن اليهود ليقتلوه، فدخلوا عليه، فرفَعَه الله عزَّ وجلَّ بجسده، وألقى شَبَهَه على واحدٍ مِن هؤلاء الذين جاءوا ليقتلوه، فأمسكوا به، فقال لهم: أنا صاحبُكم، قالوا: أبدًا، أنت المسيح، فقتلوه وصلبوه، وقالوا: إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء:١٥٧] فالآية مُؤَكَّدَةٌ بنفيٍ، ثم بنفيٍ آخر، ثُمَّ توكيد بكلمة (يقينًا).

والعجب أنَّ النصارى مِن سَفههم وضلالهم يقولون: إنه مقتول، ويدَّعون أنه صُلِبَ وفَدَى بنفسه جميع الناس، وهذا مِن سَفههم وضلالهم.

المهم أنَّ المسيحَ ابنَ مريم -عليه السلام- رُفِعَ إلى الله حقيقةً لا مجازًا، وسوف ينزل في آخر الزمان، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ(١).

(١) كما في حديث النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ المَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ». أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب قتل الخنزير، رقم (٢١٠٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب نزول عيسى بن مريم حاكما بشريعة نبينا محمد ﷺ، رقم (٢٣٤٤).

فإن قال قائل: هذه المدة الطويلة مِن أين يأكل، ومِن أين يشرب؟

فالجواب: إن طُلِبَ منك أن تشتريَ له خبزًا وأُدْمًا فاشْتَرِ، وَإِنْ لم يُطلَب فَصُمَّ فَمَك، وأعرِض عن هذا الكلام، وهذا إيراد سخيف!

فإن قال قائل: يكون عيسى بن مريم -عليه الصلاة والسلام- أفضلَ الصحابة، لأنه نَبِيٌّ، وقد اجتمع به النَّبيُّ ﷺ في السماء، فيكون أفضلَ الأُمة.

فالجواب أن نقول: إذن قولوا: جميعُ الأنبياء الذين اجتمع بهم الرسول ﷺ صحابةٌ، لأنه اجتمع بهم، وشهدوا له بالنبوة والصلاح، ولا يمكنهم أن يَدَّعُوا ذلك، وذلك أنَّ أخبار الغيب لا يمكن أن تُعْطَى أحكام الشهادة.

وقد أجمع المسلمون على أن أفضل هذه الأُمَّة بعد نبيِّها أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَهُمْ في غفلة عن هذه الحَذْلَقة، أو هذا التَّعَمُّق؟! ليسوا والله في غفلة، هم أشد انتباهًا مِن هؤلاء الذين ادَّعوا هذه الدعوى الباطلة، بل أفضل هذه الأمة هو الصِّدِّيق: عبد الله بن عثمان أبو بكر، ثُمَّ عمر، ثُمَّ عثمان، ثُمَّ عليّ رضي الله عنهم.

قَوْلُهُ: «وَلَسَوفَ يَنْزِلُ كَيْ يُرَى بِعِيَانِ» متى يَنزل؟

الجواب: ينزل بأمر الله على كُلِّ حال، وذلك فيما إذا عاث الدجَّال في الأرض فسادًا، لأنَّ الدجَّال يبقى في الأرض أربعين يومًا، أول يوم قَدْرُه كَسَنَةٍ، والثاني كشهر، والثالث كأسبوع، والرابع كسائر الأيام[1].

ولقد ضَلَّ قوم قالوا: إنَّ أول يوم ليس كَسَنَة في الطُّول، لكن في المَشَقَّة والمعاناة، وإِلَّا فالشمس لا يمكن أن تتغيّر، فالشمس دورانها واحد.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته، رقم (٢٩٣٧).

وهؤلاء ليس عندهم إيمانٌ بالله عزَّ وجلَّ، لأننا نقول: مَن الذي خَلق الشمسَ؟ الجواب: الله عزَّ وجلَّ، مَنْ الذي سَيَّرَها على هذا الزمن؟ الجواب: الله عزَّ وجلَّ، أليس الخالق الذي سَيَّرها على هذا الزمن بقادر على أن يمنع سَيرها؟ الجواب: بلى والله، لكن لما نقص إيمانُهم، وعجزت عقولُهم عن إدراك ما أخبر به النَّبِيُّ ﷺ قالوا هذه الدعوى.

ويدلُّ لهذا أنَّ مَنْ هُم أفضل منهم، وأصحّ عُقولًا، وأقوى فَهمًا فهِموا أن الطولَ طولُ زمَن، وليس طولَ مَشَقَّة، فقالوا: يا رسول الله، هذا اليوم الذي كَسَنَة هل تكفينا فيه صلاةُ يوم واحد؟ قال: «لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ»[1]. فأقرَّهُمُ النَّبِيُّ ﷺ على فَهْمِهم، وأزالَ عنهم الإشكالَ بأنَّ هذا اليوم الطويل الذي قَدْرُه اثنا عشَر شهرًا يُصَلَّى فيه صلاة اثني عشَر شهرًا.

٣٦٤- وَإِلَيْـهِ تَصْـعَدُ رُوحُ كُـلِّ مُصَـدِّقٍ ... عِنْـدَ الْـمَمَاتِ فَتَنْثَنِـي بِأَمَـانِ

قَوْلُهُ: «بأَمَانِ» أي: إلى الله.

قَوْلُهُ: «تصْعَدُ رُوحُ كُلِّ مُصَدِّقٍ» أي: كُلّ مؤمن، فتخرِق السموات السبع، حتى تصل إلى الله عزَّ وجلَّ، فيأمر اللهُ عزَّ وجلَّ بأن تُعَادَ إلى الأرض إلى جسدها الذي كانت تعمره في الدنيا، فيقول: **«فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُم، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى»**[2].

تأمل -سبحان الله- شأن الرُّوح، فهو عجيب جدًّا، وشأن الملائكة أيضًا

(١) هو بقية الحديث السابق.
(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧، رقم ١٨٥٥٧)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣) واللفظ لأحمد.

عجيب، في هذه اللحظات التي يُغَسَّل فيها الميتُ، ويُكَفَّنُ ويُدْفَنُ تصعد الروحُ إلى أعلى شيء، فتخرق السموات، وتمر بالملائكة، ويَشَمُّون رائحتها الطيبة، ثم تعود حتى تكونَ في جسدها في القبر، وهذا مما يدلُّ على أنَّ الأرواحَ والملائكةَ لها شأن غير شأن هذه الأجسام الثقيلة.

٣٦٥- وَإِلَيْهِ آمَالُ الْعِبَادِ تَوَجَّهَتْ نَحْوَ الْعُلُوِّ بِلَا تَوَاصٍ ثَانِ

قَوْلُهُ: «وإليْه آمَالُ العِبَادِ تَوَجَّهَتْ» هذا مِن النوع الثالث، وهو الفِطرة، ولهذا قال بعد ذلك: (بِلْ فِطْرَةُ الله).

فكُلُّ العِباد الذين يؤمنون بالله تجد قلوبَهم معلَّقةً بالعلوِّ، وهذا بدون أيّ قراءة وأيّ تلقين.

٣٦٦-بَلْ فِطْرَةُ الله الَّتِي لَمْ يُفطَرُوا إِلَّا عَلَيْهَا الْخَلْقُ والثَّقَلَانِ

قَوْلُهُ -رحمه الله-: «بَلْ فِطْرَةُ الله» أي: بل هي فطرة الله.

والفِطرة هي أول الخَلْق كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:١] وقال النَّبيُّ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ»(١).

قَوْلُهُ: «الخَلْقُ» بدل مِن نائب الفاعل، وهو الواو في (يفطروا)، ويجوز أن تكون مِن لُغة (أَكَلُونِي الْبَرَاغِيثُ)، وبعض الناس يُعَبِّر عن ذلك فيقول: (أكلوه البراغيثُ)، لكن لا حرجَ أن تقول: (أكلوني البراغيث)، لأنه مثالٌ قاله عَرَبِيٌّ فَتَحْكِي قَوْلَه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم (١٣٨٥)، مسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم (٢٦٥٨).

٣٦٧-وَنَظِيرُ هَذَا أَنَّهُمْ فُطِرُوا عَلَى إِقْرَارِهِمْ، لَا شَكَّ بِالدَّيَّانِ

قَوْلُهُ: «وَنَظِيرُ هَذَا» أي: نظير إقرارهم بعُلوِّ الله إقرارًا فِطريًّا أنَّهم أقرُّوا بالله عزَّ وجلَّ بمقتضى الفِطرة، فكُلُّ إنسانٍ يعرف أنَّ له ربًّا، وأنَّ له إلهًا، لكن كما قال النَّبيُّ ﷺ: «فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»[1].

٣٦٨-لَكِنْ أُولُو التَّعْطِيلِ مِنْهُمْ أَصْبَحُوا مَرْضَى بِدَاءِ الْجَهْلِ وَالْخِذْلَانِ

يشير إلى أن أهلَ التعطيل الذين سبق ذِكْرُهم، هؤلاء -والعياذ بالله- أصبحوا مرضى بداء الجهل والخِذْلان.

٣٦٩- فَسَأَلْتُ عَنْهُمْ رُفْقَتِي وَأَحِبَّتِي أَصْحَابَ جَهْمٍ حِزْبَ جِنْكِزْخَانِ[2]

هذا الرجل كأنه في أول الأمر مِن الجَهْمِيَّة ثُمَّ دُلَّ على أهل الحديث.

٣٧٠- مَنْ هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُقَالُ لَهُمْ فَقَدْ جَاءُوا بِأَمْرٍ مَالِئِ الْآذَانِ

قَوْلُهُ: «مَالِئِ الْآذَانِ» يعني: أنَّ الآذان لا تسمع لغيره، لأنها امتلأت

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام، رقم (١٣٥٨). ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، رقم (٢٦٥٨).

(٢) جنكزخان: السلطان الأعظم للتتر أبو ملوكهم ولد سنة (٥٥٨هـ)، وكان ابتداء ملكه سنة (٥٩٩هـ)، وحصل من جيوشه من الفساد والدمار لبلاد المسلمين ما يشيب له المولود، ويتحير منه الحليم، وهلك سنة (٦٢٤هـ) عن ٦٦ سنة بعد أن خلف امبراطورية كبيرة حيث تمت له السيطرة على شمال الصين سنة (٦١٠هـ) والاستيلاء على تركستان وإيران وروسيا حتى وصلت سيطرته إلى الخليج العربي، وغزا ابنه أوروبا حتى وصل ألمانيا والمجر سنة (٦٣٩هـ)، وأسس حفيده الامبراطورية المغولية في الصين، واتخذ بكين عاصمة له، وكان المغول وثنيين ثم إن بعضهم دخل في الإسلام وأسسوا الامبراطورية المغولية الإسلامية في الهند، ومنغوليا التي ظهر منه التتر إقليم في شرق آسيا يقع بين سيبريا والصين. [الشارح].

واقتنعت، ولا يمكن أن يدخلها شيءٌ آخر سواه.

٣٧١- وَلَــهُمْ عَلَيْنَـا صَـوْلَةٌ مَـا صَالَــهَا ذُو بَاطِـلٍ، بَـلْ صَـاحِبُ الْبُرْهَـانِ

قَوْلُهُ: «لَـهُمْ عَلَيْنَا» أي: لأهل الحديث صولة عظيمة، ما صالها أحدٌ إِلَّا صاحب البرهان، فإنه يصول ببرهانه ودليله.

٣٧٢- أَوَمَـا سَـمِعْتُمْ قَوْلَــهُمْ وَكَلَامَهَـمْ مِثْـلَ الصَّـوَاعِقِ لَـيْسَ ذَا لِـجَبَانِ

يعني أن قولَهم لا يمكن دفعُه، وقولُهم قاضٍ على كُلِّ ما يقوله أهلُ التعطيل.

وهذا الذي ذكره ابنُ القيم -رحِمه الله- على هذه الصفة مِن باب التمثيل، لأنَّ التمثيل بمِثل هذه الأمور الحِسِّيَّة للأمور المعنوية يُعطي الكلام جمالًا.

٣٧٣- جَـاءُوكُمُ مِـنْ فَـوْقِكُمْ وَأَتَيْـتُمُ مِـنْ تَحْـتِهِمْ، مَـا أَنْـتُمُ سِـيَّانِ

أيهما أبلغ: أن يأتيك الإنسان مِن فَوقَ، أو مِن تحت؟ الجواب: مِن فوق، ولهذا إذا جاء العدو مِن فوق سَيْطَرَ عليك بلا شك، وفرقٌ عظيم بين أن يرمَيك مِن أعلى الجبل، وأنت ترميه مِن أسفل.

فيقول: إنَّ هؤلاء أَتَوْكُم مِن فوقُ، وأنتم أتيتموهم مِن تحتُ، فما هذان سِيَّيْنِ

٣٧٤- جَـاءُوكُمُ بِـالْوَحْيِ لَكِـنْ جِئْـتُمُ بِنُحَاتَــةِ الْأَفْكَــارِ وَالْأَذْهَــانِ

وأيهما أبلغ؟ الجواب: مَنْ جاء بالوحي.

* * *

٣٧٥- قَالُوا مُشَبِّهَةٌ مُجَسِّمَةٌ فَلَا تَسْمَعْ مَقَالَ مُجَسِّمٍ حَيَوَانِ
٣٧٦- وَالْعَنْهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا[1] وَاغْزُهُمْ بِعَسَاكِرِ التَّعْطِيلِ غَيْرَ جَبَانِ
٣٧٧- وَاحْكُمْ بِسَفْكِ دِمَائِهِمْ وَبِحَبْسِهِمْ أَوْ لَا فَشَرِّدْهُمْ عَنِ الْأَوْطَانِ
٣٧٨- حَذِّرْ صِحَابَكَ مِنْهُمُ فَهُمُ أَضَلْ لُ مِنَ الْيَهُودِ وَعَابِدِي الصُّلْبَانِ
٣٧٩- وَاحْذَرْ تُجَادِلُهُمْ بِقَالَ اللهُ أَوْ قَالَ الرَّسُولُ فَتَنْثَنِي بِهَوَانِ
٣٨٠- أَنَّى وَهُمْ أَوْلَى بِهِ قَدْ أَنْفَذُوا فِيهِ قُوَى الْأَذْهَانِ وَالْأَبْدَانِ
٣٨١- فَإِذَا ابْتُلِيتَ بِهِمْ فَغَالِطْهُمْ عَلَى التْـ تَأْوِيلِ لِلْأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ
٣٨٢- وَكَذَاكَ غَالِطْهُمْ عَلَى التَّكْذِيبِ لِلْـ آحَادِ، ذَانِ لِصَحْبِنَا أَصْلَانِ

الشرحُ

٣٧٥- قَالُوا مُشَبِّهَةٌ مُجَسِّمَةٌ فَلَا تَسْمَعْ مَقَالَ مُجَسِّمٍ حَيَوَانِ

قَوْلُهُ: «قَالُوا: مُشَبِّهَةٌ مُجَسِّمَةٌ» القائلُ أهلُ التعطيل مِنَ الجَهْمِيَّة وغيرهم، فهُم يقولون عن أهل الحديث: إنهم مُشَبِّهَةٌ مُجَسِّمَةٌ، مُشَبِّهَةٌ، لأنهم أثبتوا الصفات، وادَّعى هؤلاء المعطِّلة أنَّ كُلَّ مَن أثبت لله صفةً فقد مَثَّله بخَلْقِه إذا كان للمخلوق مِثْلُها، هكذا قاعدتهم، وقالوا: مُجَسِّمَةٌ، لأنه سبق لنا الكلامُ في هذا، وبَيَّنَّا أنَّ التجسيم لم يَرِدْ إثباتُه، ولا نفيُه في القرآن والسُّنَّة، وأنه حادثٌ، وأنَّ لفظه لا يَثْبُتُ، أمَّا معناه فيُسْتَفْصَلُ فيه.

(١) في نسخة برلين: «كثيرًا».

قَوْلُهُ: «فَلَا تَسْمَعْ مَقَالَ مُجَسِّمٍ حَيَوَانِ» لا تسمع مقالته، فإنه حيوان، يعني كالبهائم.

وهذا خطأ، فهم المستحِقُّون لهذا الوصف.

٣٧٦- وَالْعَــنْهُمْ لَعْنًــا كَبِــيرًا وَاغْــزُهُمْ بِعَسَــاكِرِ التَّعْطِيــلِ غَــيْرَ جَبَــانِ

هذا مِن شِيَم أهل التعطيل، وأهل البِدعة أنهم يُقَابِلونَ أهلَ السُّنَّة بالشتائم واللعنات، وأهل السُّنَّة لا يقابلونهم بهذا، أهلُ السُّنَّة لا تسمع لهم لعنًا لأهل البدع، وإنما يقابلونهم بالأدلة الدالة على إثبات الحقِّ وإبطال الباطل، أما هؤلاء فليس عندهم إلَّا الصِّياحُ، واللعنُ، والسَّبُّ، والشتم.

قَوْلُهُ: «وَاغْزُهُمْ بِعَسَاكِرِ التَّعْطِيلِ» الذي يغزو بعساكر التعطيل مخذولٌ على كل حال، وعساكر التعطيل هم أهل التعطيل جميعهم.

قَوْلُهُ: «غَيرَ جَبَانِ» يعني: كن غير جبان، هو يدَّعِي الآن أنه بطل، وأنه شجاع، وأنَّ معه أُمَـمًا، ولكن ما أسرعَ أن يُخْذَلَ.

٣٧٧- وَاحْكُمْ بِسَفْكِ دِمَائِهِمْ وَبِحَبْسِـهِمْ أَوْ لَا فَشَـــرِّدْهُمْ عَــنِ الْأَوْطَــانِ

ثم أمروا بهذا الحكم وهو (سَفْك دِمَائِهِمْ وَبِحَبْسِهِمْ أَوْ لَا فَشَرِّدْهُمْ عَنِ الْأَوْطَانِ).

وهذا كما قال الله عزَّ وجلَّ عن قريش: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [الأنفال:٣٠] هذا الشيء نفسُه، فهم يطالبون بِقَتْل أهل السُّنَّةِ، يعني: أهلَ الحديث، فهذا حُكْم، أو حبسهم، يعني: حبسًا مُؤَبَّدًا، وهذا حُكمٌ آخر.

والثالث: «أَوْ لَا» يعني: إن لم تحكم بهذا، ولا بهذا فشرِّدْهم عن الأوطان،

فهذا حُكْمٌ صَادِرٌ مِن أصحاب الجهم وأصحاب جَنْكِزخان على أَهْلِ السُّنَّة والجماعة. نسأل الله العافية.

٣٧٨- حَذِّرْ صِحَابَكَ مِنْهُمُ فَهُمُ أَضَلْ ... لُ مِنَ الْيَهُودِ وَعَابِدِي الصُّلْبَانِ

نسأل الله العافية! حذِّر أصحابَك مِن أهل الحديث، فهُم أَضَلُّ مِن اليهود والنَّصارى! والنَّصارى هم عابدو الصلبان، فهم يقولون عن أهل السُّنَّة والجماعة هذا، حتى يُنَفِّرُوا الناسَ منهم.

٣٧٩- وَاحْذَرْ تُجَادِلُهُمْ بِقَالَ اللهُ أَوْ ... قَالَ الرَّسُولُ فَتَنْثَنِي بِهَوَانِ

يعني: لا تستدلّ عليهم بقال الله وقال رسوله، لأنك لن تجدَ دليلًا، وسوف تكون مهزومًا، لأنَّ معهم الكتابَ والسُّنَّةَ، لكن نجادلهم بما يدّعونه عقلًا بالهذيان الذي لا خير فيه.

أما أن تقول لهم: الدليلُ قولُ الله تعالى فسوف (تَنْثَنِي بِهَوَانِ)، يعني: تنهزم وتكون مغلوبًا.

٣٨٠- أَنَّى وَهُمْ أَوْلَى بِهِ قَدْ أَنْفَذُوا ... فِيهِ قُوَى الْأَذْهَانِ وَالْأَبْدَانِ

قَوْلُهُ: «أَنَّى» يعني: كيف تجادلهم بقال الله وقال الرسول ﷺ (وَهُمْ أَوْلى بِهِ) يعني: كيف تجادلهم وهم أولى به منك؟! أولى بقال اللهُ وقال رسولُه صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ: «أَنْفَذُوا فِيهِ قُوَى الأَذْهَانِ وَالأَبْدَانِ» قوى الأبدان: يسهرون الليل، ويتعبون النهار في حفظ الحديث، والبحث فيه، وكذلك أيضًا قُوى الأذهان في التأمل -جزاهم الله خيرًا- كيف تجادلهم بها وهم أَوْلى بها منك؟!

٣٨١- فَإِذَا ابْتُلِيْتَ بِهِمْ فَغَالِطْهُمْ عَلَى التْـ ... تَأْوِيـــلِ لِلْأَخْبَـــارِ وَالْقُــرْآنِ

قَوْلُهُ: «فإِذَا ابْتُلِيت بِهِمْ» أي: بأهل الحديث، يعني إذا قَدَّر اللهُ عزَّ وجلَّ أن تجلسَ وإِيَّاهم في مجلس، فهذه على رأيه بَلْوى، فماذا تصنع؟

يقول: «فَغَالِطْهُمْ عَلَى التَّأْوِيلِ لِلْأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ» يعني: قلِ: المرادُ بكذا كذا، المراد بـ ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢] أي: جاء أمر ربك، والمراد بـ ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢١٠] أي: يأتي أمر الله، كما قال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾ [النحل:٣٣] ويُشَبِّهون ويُلَبِّسُون، فيقولون هذا الكلام، ويؤولون بحُجة أنَّ القرآن يُفَسِّر بعضه بعضًا، وأنَّ الآية الأخيرة تُفَسِّرُ ما سبق.

فنقول: لو كان في الآية المذكورة إجمال، أو توجد احتمالات، لقلنا: القرآن يُفَسِّرُ بعضُه بعضًا، لكن قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢] هذه آية واضحة لا تحتاج إلى أن نحملها على الأخرى.

ويُقال: هذا الذي ذكرتم إنما نحتاج إليه إذا كان في الآية إجمال فسَّرته الآية الأخرى.

طبعًا ربما يصيحون في وجه الإنسان حتى ينهزم، ولكنهم مخذولون، والحمد لله على كُلِّ حال.

وَقَوْلُهُ: «فَغَالِطْهُمْ عَلَى التَّأْوِيلِ للأَخْبَارِ وَالقُرْآنِ» هذا واحد.

٣٨٢- وَكَذَاكَ غَالِطْهُمْ عَلَى التَّكْذِيبِ لِلْـ ... آحَـــادِ، ذَانِ لِصَـــحْبِنَا أَصْـــلَانِ

فصاروا يوصي بعضهم بعضًا بالمغالطة، إما بالتأويل إذا لم يمكنهم تكذيب النصِّ، لأنهم لو جاءوا بآية، فلا تستطيع أن تكذبها، فما العمل، يقول: أَوِّل، وإذا جاءوا بحديث متواتر، فلا تستطيع أن تُكذِّبَهم أيضًا، ولذا فأَوِّل.

أو بالتكذيب إذا كان الخبرُ خبرَ آحاد، وقل: هذا كَذِب، ولذلك عند هؤلاء المتكلمين المعطِّلة لا يُستدلُّ بأخبار الآحاد في العقائد مهما كانت صِحَّتُها، فصار يَرُدُّ على أهل السنَّة بالتأويل -إن لم يمكن التكذيب- وبالتكذيب إذا كان الخبرُ خبرَ آحادٍ، ويقول: هذان أصلان لأصحابنا. وبئس الأصلان.

لكن ما المراد بالتأويل هنا؟ الجواب: فيما نرى أنَّ تأويل هؤلاء يعني: التَّحريف.

* * *

٣٨٣- أَوْصَى بِهَا أَشْيَاخَنَا أَشْيَاخُهُمْ ... فَاحْفَظْهُما بِيَدَيْكَ وَالْأَسْنَانِ

٣٨٤- وَإِذَا اجْتَمَعْتَ وَهُمْ بِمَشْهَدِ مَجْلِسٍ ... فَابْدُرْ بِإِيرَادٍ وَشَغْلِ زَمَانِ

٣٨٥- لَا يَمْلِكُوهُ عَلَيْكَ بِالْآثَارِ وَالْـ ... أَخْبَارِ وَالتَّفْسِيرِ لِلْفُرْقَانِ

٣٨٦-فَتَصِيرَ -إِنْ وَافَقْتَ- مِثْلَهُمُ، وَإِنْ ... عَارَضْتَ زِنْدِيقًا أَخَا كُفْرَانِ

٣٨٧-وَإِذَا سَكَتَّ[1] يُقَالُ: هَذَا جَاهِلٌ ... فَابْدُرْ وَلَوْ بِالْفَشْرِ وَالْهَذَيَانِ

٣٨٨- هَذَا الَّذِي أَوْصَى بِهِ أَشْيَاخُنَا ... فِي سَالِفِ الْأَوْقَاتِ وَالْأَزْمَانِ[2]

الشرحُ

٣٨٣- أَوْصَى بِهَا أَشْيَاخَنَا أَشْيَاخُهُمْ ... فَاحْفَظْهُما بِيَدَيْكَ وَالْأَسْنَانِ

قَوْلُهُ: «أَوْصَى بِهَا أَشْيَاخَنَا أَشْيَاخُهُمْ» أي: بهذين الأصلين، وهما: التأويل الذي هو تحريف، والتكذيب.

---

(١) في نسخة الإفتاء: «سئلت».

(٢) في نسخة الحلبي: هَذَا الَّذِي -والله- أَوْصَانا بِهِ ... أَشْيَاخُنَا فِي سَالِفِ الْأَزْمَانِ

قَوْلُهُ: «فَاحْفَظْهُمَا بِيَدَيْكَ والأَسْنَانِ» يعني: أمسِكْهُما باليدين وبالأسنان، لكي يكون الإمساك قويًّا ثلاثيًا، قال النَّبِيُّ ﷺ في سنته: «تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»(١). فهؤلاء أوصوا بالتمسك بما هُم عليه مِن الباطل والعَضّ عليه بالأسنان.

٣٨٤- وَإِذَا اجْتَمَعْتَ وَهُمْ بِمَشْهَدِ مَجْلِسٍ   فَابْدُرْ بِإِيرَادٍ وَشَغْلِ زَمَانِ

يعني: إذا اجتمعتَ في مجلس معهم بادِرْ أنت، بادر بإيرادات، لو قال قائل كذا فالجواب كذا، اشغل المجلس بهذه الإيرادات أو بـ(السواليف) كما يقول العوامّ، فلا تجعلهم هم الذين يبدؤون، لأنهم إن بدؤوا فهي مشكلة، لكن ابدأ أنت بالتكلُّم، وهذا كما صنعه حذيفةُ رَضِوَٱللَّهُعَنهُ لما أرسله النَّبِيُّ ﷺ إلى الأحزاب ليسبُرَ القومَ، فوجد أبا سفيان ومَن حولَه وكأنهم خافوا، فقال أبو سفيان: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، لِيَنْظُرِ امْرُؤٌ مَنْ جَلِيسُهُ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَخَذْتُ بِيَدِ الرَّجُلِ الَّذِي إِلَى جَنْبِي، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ(٢).

فهو رَضِوَٱللَّهُعَنهُ بادَر، وهذه مِن السياسة، وهؤلاء أوصوْا أصحابهم أن يبادروا بالكلام، حتى يسيطروا على المجلس.

٣٨٥- لَا يَمْلِكُوهُ عَلَيْكَ بِالْآثَارِ وَالْـ   أَخْبَارِ وَالتَّفْسِيرِ لِلْفُرْقَانِ

يعني: إن بدؤوا فسوف يبدؤون بالآثار مِن الكتاب والسنّة والأَخْبَارِ والتفسِيرِ للفُرْقَانِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨/ ٣٧٣، رقم ١٧١٤٤)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (٧)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، رقم (١٧٧٣).

٣٨٦- فَتَصِيرَ -إِنْ وَافَقْتَ- مِثْلَهُمْ، وَإِنْ عَارَضْتَ زِنْدِيقًا أَخَا كُفْرَانِ

صحيح، إذا بدؤوا بالكتاب والسُّنَّة، فإنْ وافقَهم صار مِثلَهم مُجَسِّمًا مُشَبِّهًا، وإن خالفهم، فهو كافرٌ زِنديق عند أهل المجلس الآخرين، لأنه خالف الكتاب والسُّنة، فهذه سياسةٌ في باب المجادلة، أنك إذا اجتمعت مع شخص باطل فابدأ أنت، حتى يكون مقامُه مقامَ مُدافع، لا مقام مهاجم.

٣٨٧- وَإِذَا سَكَتَّ يُقَالُ: هَذَا جَاهِلٌ فَابْدُرْ وَلَوْ بِالْفَشْرِ وَالْهَذَيَانِ

قَوْلُهُ: «وإذْا سَكَتَّ» هذا هو الاحتمال الثالث.

الاحتمال الأول: أن يوافق، فيكون ممثِّلًا مُجَسِّمًا.

الاحتمال الثاني: أن يُعارض، فيكون زنديقًا ملحدًا.

الاحتمال الثالث: أن يسكت، وإن سكت قالوا: هذا جاهل.

قَوْلُهُ: «فَابْدُرْ» يعني: بادر أنت.

قَوْلُهُ: «ولوْ بِالفَشْرِ والهَذَيَانِ» الفَشْر يعني: الكذب.

وهذه وصايا لا شكَّ أنها وصايا نافعة لو كانت في حقٍّ، أما إذا كانت في باطل فهي باطلة.

٣٨٨- هَذَا الَّذِي أَوْصَى بِهِ أَشْيَاخُنَا فِي سَالِفِ الْأَوْقَاتِ وَالْأَزْمَانِ

فانظر إلى هذا الحزب كيف أوصوْا صاحبَهم بأن يكون الكلامُ له أوَّلًا، فَإِنْ مَلَكُوه عليه فلْيَحْذَرْ، لأنه لا تخلو حالُه مِن الاحتمالات الثلاثة السابقة.

* * *

٣٨٩- فَرَجَعْتُ مِنْ سَفَرِي، وَقُلْتُ لِصَاحِبِي ... وَمَطِيَّتِــي قَــدْ آذَنَــتْ بِحِــرَانِ

٣٩٠- عَطِّلْ رِكَابَكَ وَاسْتَرِحْ مِـنْ سَـيْرِهَا ... مَـا ثَـمَّ شَيْءٌ غَـيْرُ ذِي الْأَكْـوَانِ

٣٩١- لَـوْ كَـانَ لِلْأَكْـوَانِ رَبٌّ خَـالِقٌ ... كَانَ الْـمُجَسِّمُ صَاحِبَ الْبُرْهَانِ

٣٩٢- أَوْ كَانَ رَبٌّ بَـائِنٌ عَـنْ ذِي الْـوَرَى ... كَـانَ الْـمُجَسِّمُ صَـاحِبَ الْإِيـمَانِ

٣٩٣- وَلَكَانَ عِنْدَ النَّاسِ أَوْلَى الْـخَلْقِ بِالْـ ... إِسْـلَامِ وَالْإِيـمَانِ وَالْإِحْسَـانِ

٣٩٤- وَلَكَانَ هَذَا الحِزْبُ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ ... لَـمْ يَخْتَلِـفْ مِـنْهُمْ عَلَيْـهِ اثْنَـانِ

٣٩٥- فَـدَعِ التَّكَـالِيفَ الَّتِـي حُمِّلْتَهَـا ... وَاخْلَـعْ عِـذَارَكَ وَارْمِ بِالْأَرْسَـانِ

٣٩٦- مَا ثَمَّ فَوْقَ الْعَرْشِ مِـن رَبٍّ وَلَـمْ ... يَـتَكَلَّمِ الـرَّحْمَنُ بِـالْقُرْآنِ

٣٩٧- لَوْ كَـانَ فَـوْقَ الْعَـرْشِ رَبٌّ نَـاظِرٌ ... لَـزِمَ التَّحَيُّـزُ وَافْتِقَـارُ مَكَـانِ

٣٩٨- لَـوْ كَـانَ ذَا الْقُـرْآنُ عَـيْنَ كَلَامِـهِ ... حَرْفًـا وَصَـوْتًا كَـانَ ذَا جُـثْمَانِ

٣٩٩- فَـإِذَا انتَفَـى هَـذَا وَهَـذَا مَـا الَّـذِي ... يَبْقَـى عَـلَى ذَا النَّفْـيِ مِـنْ إِيـمَانِ؟!

٤٠٠- فَدَعِ الْـحَلَالَ مَـعَ الْـحَرَامِ لِأَهْلِـهِ ... فَهُـمَا السِّيَاجُ لَـهُمْ عَـلَى الْبُسْتَانِ

٤٠١- فَاخْرِقْهُ ثُمَّ ادْخُـلْ تَـرَى فِي ضِـمنِهِ ... قَـدْ هُيِّئَـتْ لَـكَ سَـائِرُ الْأَلْـوَانِ

٤٠٢- وَتَـرَى بِهَـا مَـا لَا يَـرَاهُ مُحَجَّـبٌ ... مِـنْ كُـلِّ مَـا تَهْـوَى بِـهِ زَوْجَـانِ

٤٠٣- وَاقْطَعْ عَلَائِقَـكَ الَّتِـي قَـدْ قَيَّـدَتْ ... هَذَا الْـوَرَى مِـنْ سَـالِفِ الْأَزْمَـانِ

٤٠٤- لِتَصِـيرَ حُـرًّا لَسْـتَ تَحْـتَ أَوَامِـرٍ ... كَـلَّا وَلَا نَهْـيٍ وَلَا فُرْقَـانِ

الشـرحُ

٣٨٩- فَرَجَعْتُ مِنْ سَفَرِي، وَقُلْتُ لِصَاحِبِي وَمَطِيَّتِـي قَـدْ آذَنَـتْ بِحِـرَانِ

قَوْلُهُ: «وَمَطِيَّتِي قَدْ آذَنَتْ» يعني: أَعْلَمَتْ بِحِران، والحِران هو الوقوف مِن التعب والإعياء، بحيث لا تستطيع الدابة أن تمشي.

يقول:

٣٩٠- عَطِّلْ رِكَابَكَ وَاسْتَرِحْ مِنْ سَيْرِهَا مَـا ثَـمَّ شَيْءٌ غَـيْرُ ذِي الْأَكْـوَانِ

قَوْلُهُ: «عَطِّلْ رِكَابَكَ» هذا مقول القول في البيت السابق.

وهذا يريد -وهو صاحبٌ غاشٌّ أشدَّ الغِشِّ- مِن صاحبه أن يُنكر الرَّبَّ عزَّ وجلَّ، ويقول: لا يوجد ربٌّ أصلًا، فلا توجد إلا هذه الأكوان، أرضٌ تَبلع، وأرحامٌ تدفع.

٣٩١- لَـوْ كَـانَ لِلْأَكْـوَانِ رَبٌّ خَـالِقٌ كَانَ الْـمُجَسِّمُ صَاحِبَ الْبُرْهَانِ

يعني لو ثبت أنَّ للخَلق خالقًا، صار المُجَسِّم -وهو المُثبت للصفات- هو صاحب البرهان، أي: صاحب الدليل. فهو يقول: لو كان هذا أمرًا ثابتًا لكان الحقُّ مع أهل التجسيم، وأهل التجسيم هُم أهل السُّنَّة والجماعة.

فنقول: الحمد لله، الإيمان بوجود الله عزَّ وجلَّ أمرٌ فِطْرِيٌّ، لا ينكره أحدٌ إلَّا مكابرةً، وبناءً على ذلك يكون الحقُّ مع المُثْبِتَة بإقرار هذا الزنديق.

٣٩٢- أَوْ كَانَ رَبٌّ بَائِنٌ عَنْ ذِي الْوَرَى كَـانَ الْـمُجَسِّمُ صَاحِبَ الْإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «بائِنٌ» يعني: أنَّ الخالقَ شيءٌ والمخلوقَ شيءٌ آخر.

٣٩٣- وَلَكَانَ عِنْدَ النَّاسِ أَوْلَى الْـخَلْقِ بِالْـ   إِسْـــلَامِ وَالْإِيـــمَانِ وَالْإِحْسَـــانِ

والواقع أن هذا هو الحقُّ، أنَّ للعَالَـمِ خالقًا، وأنَّ له ربًّا بائنًا مِن خَلقه عزَّ وجلَّ، وأنَّ الحقَّ مع المُثْبِتَة الذين يُسمِّيهم هؤلاء مُجَسِّمَةً.

٣٩٤- وَلَكَانَ هَذَا الحِزْبُ فَوْقَ رُءُوسِـهِمْ   لَـــمْ يَخْتَلِـفْ مِـنْهُمْ عَلَيْـهِ اثْنَـانِ

ونقول: نعم، هو فوق رءوسهم معنًى لا شكَّ، وحِسًّا هو الأصل، فالأصل أنَّ العاقبةَ للمتقين، وأنَّ أنصارَ الرحمن هم الأَعْلَوْن، لكن قد يَتَخَلَّف هذا، إما لفوات الشرط أو وجود مانع، أو لعقوبة يجعلها اللهُ عزَّ وجلَّ لأعداء المسلمين تأديبًا لهم.

٣٩٥- فَـدَعِ التَّكَـالِيفَ الَّتِـي حُمِّلْتَهَـا   وَاخْلَـعْ عِـذَارَكَ وَارْمِ بِالْأَرْسَـانِ

قال في (القاموس)[1]: العِذار مِنَ اللِّجام: ما سال على خدِّ الفَرَس.

يقول: انسلِخْ مِن الإسلام ودعِ التكاليف **(وَاخْلَعْ عِذَارَكَ وَارْمِ بِالْأَرْسَانِ)** يعني: اخلع الرَّسَن الذي تقود به الحِصان، وارْمِ به بالأرض، ونَمْ نَومةً، لكنها نومة خِزْيٍ، وليست نومةَ راحةٍ.

٣٩٦- مَا ثَمَّ فَوْقَ الْعَرْشِ مِن رَبٍّ وَلَـمْ   يَـــتكَلَّمِ الـــرَّحْمَنُ بِـــالْقُرْآنِ

هؤلاء نُفاةُ الفَوقية، ونُفاة الكلام، مِثل الجَهْمِيَّة ينكِرون عُلوَّ الله عزَّ وجلَّ، وينكرون أن يكونَ تَكَلَّمَ بالقرآن، بل خَلَقَ القرآنَ عندهم.

٣٩٧- لَوْ كَانَ فَوْقَ الْعَرْشِ رَبٌّ نَاظِرٌ   لَـــزِمَ التَّحيُّـــزُ وَافْتِقَـــارُ مَكَـــانِ

قَوْلُهُ: «**لَو كَانَ فَوقَ العرشِ رَبٌّ نَاظِرٌ لَزِمَ التَّحَيُّزُ**» نقول: هذا التحيُّزُ الذي

(١) انظر: القاموس المحيط، مادة: عذر.

ألزمتم به أهلِ السُّنَّة ماذا تعنون به؟ أتعنون به أنه مُنْحَازٌ عن المخلوقات، بائنٌ منها؟ فهذا حَقٌّ لا شك فيه، أم تعنون: أنه محصور بمخلوق؟ فهذا باطل، وهذا باعتبار المعنى.

أما باعتبار اللفظ فما مَوقِفُنا منه؟ القاعدة: لا نُثْبِت ولا نَنْفِي، ونؤمن بأنَّ الله عزَّ وجلَّ مُنحازٌ عن المخلوقات، بائِنٌ منها، وليس شيءٌ يحوزه مِن مخلوقاته.

٣٩٨- لَـوْ كَـانَ ذَا القُـرْآنُ عَـيْنَ كَلَامِـهِ ... حَرْفًـا وَصَـوْتًا كَـانَ ذَا جُـثْمَانِ

الضمير في (كَانَ) يعود على الله، يعني: لو كان القرآنُ عينَ كلام الله حرفًا وصوتًا، لكان الله (ذا جُثمان)، وهو قريبٌ مِن قوله: (جِسم)، وقد تَقَدَّم قولنا في الجِسم.

٣٩٩- فَـإِذَا انتَفَـى هَـذَا وَهَـذَا مَـا الَّـذِي ... يَبْقَـى عَـلَى ذَا النَّفْـيِ مِـنْ إِيـمَانِ؟!

إذا انتفى أن يكون فوق العرش، وأن يكون القرآن كلامَه، فماذا يكون؟ الجواب: انتفتِ الربوبيةُ الحقُّ، وانتفى الوحيُ والشرعُ، وصار الناس لا يعملون بشرع الله، لأنَّ القرآن لو كان مخلوقًا إنْ نظرنا إلى الأصوات صارت هذه الأصوات كأنها زَمْجَرَةَ الرَّعْد، خلق الله أصواتًا على هذا النحو.

وإن كان مكتوبًا صار كأنه نُقُوش، لا يحتوي على أمرٍ، ولا نهيٍ، ولا خبرٍ، ولا استفهام، ما دام أنه مخلوق، فيكون كخَلْق الثُّرَيَّا مثلًا، نجومٌ مجتمِعة على شكلٍ مُعَيَّن، كذلك نقول: هذه حروف مجتمِعة على شكلٍ مُعيَّن، خلَقها الله هكذا.

وإن كان مجرد أصوات مخلوقة، صار كأنه الرعد والصواعق، ولا يدلُّ على شيء، ولذلك مَن قال: إنَّ القرآنَ مخلوقٌ، لزِم منه إبطالُ الشريعة كلها، فلا يحتوي على أمرٍ ولا نهيٍ، ولا استفهام، ولا خبر.

٤٠٠- فَدَعِ الْـحَلَالَ مَـعَ الْــحَرَامِ لِأَهْلِـهِ   فَهُـمَا السِّـيَاجُ لَــهُمْ عَـلَى الْبُسْـتَانِ

قَوْلُهُ: «دَعِ الْـحَلَالَ مَعَ الحَرَامِ» يعني: لا تَقُل: هذا حلال أفعلُه، وهذا حرام أترُكه، ودَعْهُما: أي: دعْ الِالتزامَ بهما، افعَلْ ما تشاء، وكنْ حُرًّا، لأنَّ التحليل والتحريم هو السِّياج، والسياج هو الذي يُجْعَلُ مِن شَبَكٍ، أو نحوه على البستان ليحميَه مِن دُخول أحدٍ عليه.

ومعلوم أنَّ الذي يحمي العقيدة هو العمل بالحلال، واجتناب الحرام، فالحلال والحرام عبارة عن حائط يحوط الإيمان، ويمنعه مِن أن يناله سُوء مِن الخارج، ولذلك تجد الإنسانَ إذا ترك الحرامَ لله عزَّ وجلَّ يَقْوَى إيمانُه، وإذا فعَل الواجبَ تَقَرُّبًا لله يقوى إيمانُه، فهذه الحدود -كما سمَّاها الله حدودًا- تحفظ القلبَ، وكُلَّما كان هذا السياجُ أقوى كان الإيمانُ أحفظَ.

ولهذا نقول: إنَّ الأعمال الصالحة بمنزلة المطر يسقي الشجر، وشجرة الإيمان هي شجرةٌ في القلب، ولكن الأعمال الصالحة تُغذِّيها وتُنمِّيها، ولذلك كُلَّما عَمِل الإنسان عملًا صالحًا على الوجه المطلوب منه يجد أنَّ إيمانَه يقوى ويزداد، ويزداد قُربًا مِن الله عزَّ وجلَّ، فالأعمال الصالحة كالمياه للأشجار.

٤٠١- فَاخْرِقْهُ ثُمَّ ادْخُـلْ تَـرَى فِي ضِـمنِهِ   قَـدْ هُيِّئَـتْ لَـكَ سَـائِرُ الْأَلْـوَانِ

يعني: اخرِق هذا السياجَ تجد كلَّ شيء أمامك مما تشتهيه نفسُك مِن حلال وحرام، ومما تَهْوَى مِن زخارف الدنيا ولَذَّاتها التي ليس لها حدود.

وهذا انسلاخٌ مِن العَمَل، وما سبق انسلاخٌ مِن العقيدة.

٤٠٢- وَتَــرَى بِهَــا مَــا لَا يَــرَاهُ مُحَجَّــبٌ   مِــنْ كُــلِّ مَــا تَهْــوَى بِــهِ زَوْجَــانِ

قَوْلُهُ: «زَوْجَانِ» أي: صِنْفَان.

محبوبٌ لِذاتِه، ومحبوبٌ لِغَيره، أزواج مِن اللَّعِب والشَّهَواتِ.

٤٠٣- وَاقْطَعْ عَلَائِقَـكَ الَّتِـي قَـدْ قَيَّـدَتْ   هَذَا الْـوَرَى مِـنْ سَـالِفِ الْأَزْمَـانِ

٤٠٤- لِتَصِـيرَ حُـرًّا لَسْـتَ تَحْـتَ أَوَامِـرٍ   كَــلَّا وَلَا نَهْــيٍ وَلَا فُرْقَــانِ

وهذا واضح أنه دعوة للإلحاد والتَّحلُّل مِن كُلِّ شيء، وحينئذٍ يكون الذي انتحل هذا الوصف زِنْدِيقًا مُلحِدًا، لا يَعترف بربٍّ، ولا بحلالٍ ولا بحرامٍ.

فانظُرْ كيف جرَّ التعطيل الناس الأذكياء إلى أن يكفروا بالله، لأنَّ هؤلاء الأذكياء فلاسفةٌ كما يُفهَم مِن كلام المؤلف، فهُم نظروا في مذهب أهل التعطيل، ووجدوه ليس بشيء، ونظروا في مذهب أهل السنَّة والجماعة ووجدوه -أيضًا على قول أهل التعطيل وتشويههم إِيَّاه- غير صحيح أيضًا، فماذا قالوا؟

قالوا: لا نكون مع هؤلاء، ولا مع هؤلاء، إذنِ ارْمِ بالأصلين، واترك كُلَّ شيء، ولا تُحلِّل شيئًا، ولا تُحرِّم شيئًا، وكن طليقًا.

وهذا -والعياذ بالله- هو غاية الزَّنْدَقَة والجُحُود.

وَقَوْلُهُ: «لِتَصِيرَ حُرًّا» نقول: نعم هو حُرٌّ بالنسبة للشريعة، لكنه رقيق بالنسبة للشيطان، كما قال ابن القيم -رحمه الله- في هذه النونية:

هَرَبُوا مِنَ الرِّقِّ الَّذِي خُلِقُـوا لَـهُ   وَبُلُـوا بِـرِقِّ الـنَّفْسِ وَالشَّـيْطَانِ

فقَوْلُهُ: «هَرَبُوا مِنَ الرِّقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ» هو عبادة الله.

فوالله ليس بحُرٍّ مَن تحلَّل مِن الشريعة، بل هو في غايةٍ مِن الرِّق، فالحرُّ هو الذي لا يخضع لأحد إلَّا لله عزَّ وجلَّ.

* * *

٤٠٥- لَكِنْ جَعَلْتَ حِجَابَ نَفْسِكَ إِذْ تَرَى ... فَوْقَ السَّمَا لِلنَّاسِ مِنْ دَيَّانِ

٤٠٦- لَوْ قُلْتَ: مَا فَوْقَ السَّمَاءِ مُدَبِّرٌ ... وَالْعَرْشَ تُخْلِيهِ مِنَ الرَّحْمَنِ

٤٠٧- وَاللهُ لَيْسَ مُكَلِّمًا لِعِبَادِهِ ... كَلَّا وَلَا مُتَكَلِّمًا بِقُرَانِ

٤٠٨- مَا قَالَ قَطُّ وَلَا يَقُولُ وَلَا لَهُ ... قَوْلٌ بَدَا مِنْهُ إِلَى إِنْسَانِ

٤٠٩- لَحَلَلْتَ طَلْسَمَهُ(١) وَفُزْتَ بِكَنْزِهِ ... وَعَلِمْتَ أَنَّ النَّاسَ فِي هَذَيَانِ

الشرحُ

٤٠٥- لَكِنْ جَعَلْتَ حِجَابَ نَفْسِكَ إِذْ تَرَى ... فَوْقَ السَّمَا لِلنَّاسِ مِنْ دَيَّانِ

يعني: أنك جعلت الحجاب لنفسك عن الحرية أَنْ ترى فوق السماء إلـهًا يَدِين الناسُ له، ويتعبَّدون له.

فـ(الدَّيَّان) هنا (فَعَّال) بمعنى دائِن، يعني: هو الذي يجازي عبادَه، لأنَّ الدَّيَّان بمعنى المجازِي لعباده بما يستحقُّون.

٤٠٦- لَوْ قُلْتَ: مَا فَوْقَ السَّمَاءِ مُدَبِّرٌ ... وَالْعَرْشَ تُخْلِيهِ مِنَ الرَّحْمَنِ

٤٠٧- وَاللهُ لَيْسَ مُكَلِّمًا لِعِبَادِهِ ... كَلَّا وَلَا مُتَكَلِّمًا بِقُرَانِ

(١) في نسخة الحبي: «حِلَّسْمًا».

٤٠٨- مَا قَالَ قَطُّ وَلَا يَقُولُ وَلَا لَهُ ... قَوْلٌ بَدَا مِنْهُ إِلَى إِنْسَانِ

٤٠٩- لَحَلَلْتَ طَلْسَمَهُ وَفُزْتَ بِكَنْزِهِ ... وَعَلِمْتَ أَنَّ النَّاسَ فِي هَذَيَانِ

يعني: لو قلتَ هذا القول، وأنكرتَ هذا الإنكار لحُزْتَ على الصواب، وحللتَ الطِّلَّسم المُعقَّد الذي لا يُدْرى ما الحقّ فيه، فلا ندري هل الحقّ مع أهل السنة الذين يُسَمِّيهم أهلُ التعطيل مُجَسِّمَةً، أو مع أهل التعطيل؟ فنحن في حَيرة.

إِذَنْ أَنْكِر، وكما يقول العوامّ: (لا نعرف شيئًا، فاطْوِهِ) فنحن ما خُلِقْنَا إلَّا لنتمتع، وما هي إلَّا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، نسأل الله العافية.

يعني: لو اعتقدت هذه العقيدة الحقّ لكنتَ مُكَبَّلًا، فإذا تخلَّيْتَ منها حينئذٍ عرَفتَ حكمةَ الخَلق، وأسرار الخَلق، وأنَّ الناس الذين يتعبدون، ويقيدون أنفسهم بالعقيدة كُلُّهم في هَذَيَان.

وهذا الكلام لا يقوله ابن القيم -رحمه الله-، وسيأتي -إن شاء الله- نقضُه، لكن أراد أن يبيِّنَ حالَ هذا الصاحب الذي عجَز أن يتحمَّل ما عليه السَّلَف، ثُمَّ قال لصاحبه: تَحَلَّلْ.

* * *

٤١٠- لَكِنْ زَعَمْتَ بِأَنَّ رَبَّكَ بَائِنٌ ... مِنْ خَلْقِهِ إِذْ قُلْتَ: مَوْجُودَانِ

٤١١- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ فَوْقَ الْعَرْشِ وَالْـ ... ـكُرْسِيَّ حَقًّا فَوْقَهُ الْقَدَمَانِ

٤١٢- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ خَلْقَهُ ... وَيَرَاهُمُ مِنْ فَوقِ سَبْعِ ثَمَانِ(١)

٤١٣- وَزَعَمْتَ أَنَّ كَلَامَهُ مِنْهُ بَدَا ... وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ آخِرَ الْأَزْمَانِ

---

(١) في نسخة الشرح وابن سحمان: «ست ثمان».

٤١٤- وَوَصَفْتَهُ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَـرِ الَّـذِي لَا يَنْبَغِـي إِلَّا لِـذِي الْـجُثْمَانِ
٤١٥- وَوَصَـفْتَهُ بِـإِرَادَةٍ وَبِقُـدْرَةٍ وَكَرَاهَـةٍ وَمَحَبَّـةٍ وَحَنَـانِ
٤١٦- وَزَعَمْـتَ أَنَّ اللهَ يَعْلَـمُ كُـلَّ مَـا فِي الْكَـوْنِ مِـنْ سِرٍّ وَمِـنْ إِعْـلَانِ
٤١٧- وَالْعِلْـمُ وَصْـفٌ زَائِـدٌ عَـنْ ذَاتِـهِ عَـرَضٌ يَقُـومُ بِغَـيْرِ ذِي جُـثْمَانِ

الشـرحُ

هذه الأشياء كُلُّها المذكورة في هذه الأبيات مِن مذهب أهل السُّنَّة والجماعة، فنحن نؤمن بها، لكنه يقول: (زعمتَ)، لأنه غيرُ مُصَدِّقٍ بهذا.

٤١٠- لَكِـنْ زَعَمْـتَ بِـأَنَّ رَبَّـكَ بَـائِنٌ مِـنْ خَلْقِـهِ إِذْ قُلْـتَ: مَوْجُـودَانِ

معنى ذلك أنه إذا أقرَّ الإنسان بأنَّ هنا موجودَيْن: خالقًا ومخلوقًا، لزِم أن يكون الخالقُ بائنًا مِن الخَلق، وليس إيَّاه، فنحن نؤمن بأنَّ الله بائنٌ مِن خَلقه، ويكون ثَمَّ موجودان: خالق ومخلوق.

٤١١- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ فَوْقَ الْعَـرْشِ وَالْـ ـكُرْسِيَّ حَقًّـا فَوْقَـهُ الْقَـدَمَانِ

هذا أيضًا مِن عقيدة أهل السنَّة والجماعة، أنَّ الله فوق العرش، وأنَّ الكرسِيَّ غيرُ العرش، لكنه موضع قَدَمَي الله عزَّ وجلَّ.

جاء ذلك في حديث ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا[1]، ومثل هذا لا يُقَالُ بالرأي، فله حُكمُ الرفع.

(١) أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٤٨)، والحاكم (٢/ ٢١٠) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٩٢٨).

٤١٢- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ خَلْقَهُ وَيَرَاهُمُ مِنْ فَوقِ سَبْعِ ثَمَانِ

ونحن نؤمن بأنَّ الله تعالى يسمع خَلقه، ولو كانوا في قاع البحر، ونؤمن بأنَّ الله عزَّ وجلَّ يراهم مِن فوق سبع سموات، وهو -سُبحانَه وتعالَى- على عرشه، لا يَخْفَى عليه شيءٌ مِن أفعالهم.

قَوْلُهُ: «مِنْ فَوقِ سَبْعِ ثَمانِ»، نقول: إنَّ سبع الثماني تشمل العرش والسموات السبع، لأنك إذا أضفت السموات السبع إلى العرش صار سبع ثمان.

وأما ما أشار إليه الشارح ابن عيسى -رحِمه الله- أنها سِت ثَمان، وقال: إنها الأرض والسماء، ففيه نظر، بل يقال: إنه مِن فوق سَبع ثَمان، أي: سَبع لها ثامِن، وهو العرش.

٤١٣- وَزَعَمْتَ أَنَّ كَلَامَهُ مِنْهُ بَدَا وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ آخِرَ الْأَزْمَانِ

قَوْلُهُ: «وَزَعَمْتَ أَنَّ كَلَامَهُ» يريد بذلك خصوصَ القرآن الكريم، لأنَّ كلامَ الله عزَّ وجلَّ الذي هو كلامه لا مُنتهى له، لكن كلامه الذي هو القرآن (منه بدا) يعني: هو الذي تكلَّم به أولًا، وإليه يعود، وهذا كلام السلف -رحمهم الله-.

قَوْلُهُ: «مِنْهُ بَدَا» يعني: هو الذي ابتدأ الكلام به حقيقةً، وإضافتُه إلى الرسول محمد ﷺ، وإلى الرسول جبريل -عليه الصلاة والسلام- إضافَةُ تبليغٍ فقط.

فقد أضاف الله القرآن إلى جبريل -عليه السلام- في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢٠]، وأضافه إلى محمد ﷺ فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ [الحاقة:٤٠-٤١] ولا يمكن أن يكون قولٌ واحد لقائِلَيْن، لكن نقول: هذا قولُ تبليغ، وليس قولَ ابتداء، فقول القرآن ابتداءً مِن الله عزَّ وجلَّ، وجبريل -عليه السلام- قاله مُبَلِّغًا محمدًا ﷺ، ومحمد ﷺ قاله

مُبَلِّغًا أُمَّته كما قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة:٦٧].

أما قَوْلُهُ: «وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ» أي: يعود، ففُسِّرت بمَعْنَيَيْن عند أهل السُّنَّة:

المعنى الأول: أنه يعود إلى الله وَصفًا، فلا يُوصَفُ به غيرُه، فيُقال: القرآنُ كلامُ الله.

المعنى الثاني: أنه يعود إليه حِسًّا، بمعنى أنه يُنْزَع في آخر الزمان، فيُرْفَع مِن المصاحف ويُنْسَى مِن الصدور، ويبقى الناس بلا قرآن -نعوذ بالله مِن هذه الحال- لا في الصدور، ولا في المسطور، وهذا -والله أعلم- إذا أعرض الناس عن القرآن إعراضًا كليًّا: لا تلاوةً، ولا عِملًا، ولا تصديقًا، فإنَّ مِن إكرام القرآن أن يُنْزَع، وألَّا يبقى بين قومٍ لا يرفعون به رأسًا، ولا يرون بمخالفته بأسًا.

ونظير ذلك الكعبة -زادها الله تشريفًا- في آخر الزمان، يُسَلَّطُ عليها رجلٌ مِن الحبشة، وصفه النَّبِيُّ ﷺ وصفًا دقيقًا، فيهدمها بجنوده، وينقضها حجرًا حجرًا[1]، لكن كيف ذلك مع أنَّ الله تعالى حَماها مِن الفيل وأهلها مشركون؟

نقول: حماها الله مِن الفيل، ومِن أَبْرَهَةَ مَلِك الحَبَشة حينما قدِم لهدم الكعبة لأمر عَلِمَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ، وهو أنَّ هذا البيتَ المُعَظَّم سوف يكون فيه مَن يُعَظِّمه، لكن في آخر الزمان يَمتهن أهلُ مكةَ هذا البيت امتهانًا، لا يجعلون له حُرمة، وليس هناك مستقبلٌ له، فحينئذٍ يُسَلَّطُ عليه هذا الحَبَشِيُّ، وينقضه حجرًا حجرًا، ولا يناله أيّ سوء.

(١) بدلالة حديث النبي ﷺ: «يُخَرِّبُ الكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الحَبَشَةِ». أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب قول الله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾، رقم (١٥١٤)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، رقم (٢٩٠٩).

والقرآن مِثلها، إذا نُزِع تعظيمُه مِن القلوب، فلم يُتْلَ، ولم يُتبع، فإنَّ مِن كرامة هذا القرآن أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يرفعه، والله على كل شيء قدير.

لو قال قائل: كيف يُمْحَى مِن المصاحف؟

قلنا: الله أكبر، الذي خَلَق المصحفَ، وخَلَق مادةَ الكتابة والأوراق هو اللهُ عزَّ وجلَّ، فهو قادر على أن يمحوَه، أما ما في الصدور فالأمر ظاهر، هذا الإنسان يحفظ القرآن ويُتْقِنه، ثم ينسى منه ما شاء الله.

٤١٤- وَوَصَفْتَهُ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ الَّذِي ... لَا يَنْبَغِي إِلَّا لِذِي الْجُثْمَانِ

ونؤمن أيضًا بأنَّ الله -سُبحانَه وتعالَى- موصوفٌ بالسمع والبصر، فالسمع والبصر قد وصف اللهُ بهما نفسَه فقال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

هم قالوا: لا سَمْع، ولا بَصَر، لأنه لا يُوصَفُ بالسمع والبصر إلَّا الجسمُ، وسبق الكلام في رَدِّ هذا.

٤١٥- وَوَصَفْتَهُ بِإِرَادَةٍ وَبِقُدْرَةٍ ... وَكَرَاهَةٍ وَمَحَبَّةٍ وَحَنَانِ

وهذا حقٌّ، **فدليل الإرادة** قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج:١٤] **ودليل القُدرة** قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٨٤] **ودليل الكراهة:** ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ [التوبة:٤٦] **ودليل المحبَّة:** ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [التوبة:٥٤] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢].

فنؤمن بأنَّ مِن صفاته الإرادةَ والقدرةَ، والإرادة والقُدرة يؤمن بهما أيضًا الأشاعرة، ويؤمنون بالسمع والبصر، وأما الكراهة والمحبَّة، فينكرهما الأشاعرةُ وغيرُهم مِن أهل التعطيل، ويفسرونهما إما بالمخلوق، وإما بالإرادة، فيفسرونهما

بالإرادة، لأنهم يُثبتون الإرادة، أو بالمخلوق، لأنهم كلهم يُثبتون المخلوق.

فهم يقولون: إنَّ الله -مثلًا- يكره الكافرين، أي: يُعَذِّبهم، أو يقولون: يريد تعذيبهم، ولا يثبتون الكراهة.

ولكن نقول لهم: ماذا تقولون في قوله: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ [التوبة:٤٦] هل يمكن أن يُفَسَّر (كَرِهَ) بمعنى (عَذَّب) انبعاثهم؟ الجواب: لا يستقيم، أو أراد تعذيبَ انبعاثِهم؟ الجواب: هذا أيضًا لا يستقيم.

قالوا: إن العقل لا يدلُّ على أن اللهَ يتصف بالكراهة، فنقول لهم: الجواب على ذلك مِن وجهين:

الوجه الأول: إذا فرضنا أنَّ العقلَ لا يدلُّ، فإنَّ السمعَ -يعني: الكتاب والسنّة- دلَّ على ذلك، والدليل لا يتعيَّنُ في دليل واحد، فقد يكون للشيء عدَّةُ أدلة، ولهذا فمن القواعد المعروفة -عندهم- أنَّ انتفاءَ الدليل المُعَيَّن لا يَسْتَلْزِمُ انتفاءَ المدلول، يعني: إذا انتفى هذا الدليل، فلا يمتنع أن يَثْبُتَ الشيءُ بدليل آخر.

فمثلًا: مكة لها طرق كثيرة، فإذا قَدَّرنا أنَّ أحد الطُّرق إليها مسدود، هل معناه امتناع الوصول إلى مكة؟ الجواب: لا، لأنه توجد طرق أخرى.

فإذا قدَّرنا أنَّ العقل -كما زعموا- لا يَدُلُّ على ثبوت الكراهة، فعندنا (النقل) أي: السمع.

الوجه الثاني: أن نقول: بل العقل يدلُّ على ثبوت الكراهة لله، فإنَّ انتقامَ الله مِن العاصين يدلُّ على كراهة المعصية، ولو كان يحبها هل يعذبهم؟ الجواب: أبدًا، وكذلك نقول في المحبة.

ولهذا فإن الأشاعرة وغيرهم ممن يُحَكِّمون العقل في صفات الله هم -بلا شك-

مخالفون للعقل، لأنَّ كونَ العقل دليلًا لم يثبت إلَّا بطريق السمع، فإذا أنكروا دَلالةَ السمع لزِم إنكارُ دَلالة العقل.

ووجه كون العقل دليلًا بالسمع أنَّ الله عزَّ وجلَّ دائمًا يقول: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١] ويقول: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:٢٤] وما أشبه ذلك.

قَوْلُهُ: «وحنان» الحنان هو خالص الرحمة، لكن لم يَرِدْ بهذا اللفظ، ولذلك في صحة اسم (الحنَّان) نظر، أما (المنَّان) فقد ثبتت به السُّنَّة[1].

٤١٦- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ كُلَّ مَا ... فِي الْكَوْنِ مِنْ سِرٍّ وَمِنْ إِعْلَانِ

وهذا حقٌّ، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]، ومتى كان في كتاب مُبِين، فهو معلوم عند الله عزَّ وجلَّ.

٤١٧- وَالْعِلْمُ وَصْفٌ زَائِدٌ عَنْ ذَاتِهِ ... عَرَضٌ يَقُومُ بِغَيْرِ ذِي جُثْمَانِ

يعني: يرون أنَّ العِلمَ وصفٌ زائدٌ عن الذات، وإذا كان زائدًا عن الذات فَمَنْ أَثْبَته فقد أثبتَ تعدُّدَ القدماء.

---

(١) كما في حديث أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ المَسْجِدَ وَرَجُلٌ قَدْ صَلَّى وَهُوَ يَدْعُو وَيَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ المَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَام، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتَدْرُونَ بِمَ دَعَا اللهَ؟ دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى». أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، بعد باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله بعباده، رقم (٣٥٤٤)، والنسائي: كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر، رقم (١٣٠٠)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم، رقم (٣٨٥٨) قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه وقد روي من غير هذا الوجه عن أنس.

قَوْلُهُ: «عَرَضٌ يَقُومُ بغَيْرِ ذِي جُثْمانِ» يعني: أنكم تقولون: إنَّ الله له عِلم، وتقولون: إنَّ الله ليس بجسم، وهذا على رأيه تناقُضٌ، فالعِلم لا يكون إِلَّا مِن ذي جثمان.

* * *

٤١٨- وَزَعَمْــتَ أَنَّ اللهَ كَلَّــمَ عَبْــدَهُ مُوسَــى فَأَسْــمَعَهُ نِــدَا الــرَّحْمَنِ

٤١٩- أَفَتَسْمَعُ الْآذَانُ غَيْرَ الحَرْفِ وَالصْــ ــصَوتِ الَّذِي خُصَّتْ بِهِ الْأُذْنَانِ[1]

٤٢٠- وَكَـذَا النَّـدَاءُ فَإِنَّـهُ صَـوْتٌ بِإِجْـ ـماعِ النُّحَـاةِ وَأَهْـلِ كُـلِّ لِسَـانِ

٤٢١- لَكِنَّـهُ صَـوْتٌ رَفِيـعٌ وَهْـوَ ضِـدْ دٌ لِلنِّجَـاءِ، كِلَاهُمَـا صَـوْتَانِ

٤٢٢- فَزَعَمْــتَ أَنَّ اللهَ نَــادَاه وَنَــا جَــاهُ، وَفِي ذَا الــزَّعْمِ مَحْــذُورَانِ

٤٢٣- قُرْبُ الْـمَكَانِ وَبُعْدُهُ وَالصَّوْتُ بَلْ نَوْعَــاهُ مَحْــذُورَانِ مُمْتَنِعَــانِ

الشرحُ

٤١٨- وَزَعَمْــتَ أَنَّ اللهَ كَلَّــمَ عَبْــدَهُ مُوسَــى فَأَسْــمَعَهُ نِــدَا الــرَّحْمَنِ

ونقول: نعم، إنَّ الله كَلَّم موسى -عليه الصلاة والسلام- قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤] (اللهُ) فاعل، و(موسى) مفعول به، و(تكليمًا) مصدر مُؤَكِّد، والمصدر المؤَكِّد ينفي احتمال المَجاز، ولهذا بَطَلَ قولُ مَن حَرَّفَ المعنى إلى قوله: (كَلَّمَهُ) أي: جَرَّحَهُ، كيف جَرَّحَهُ؟ قال: نعم، جَرَّحَهُ بمخالب الحِكمة، وهذا جعله كقول الشاعر:

(١) في نسخ التيمورية والظاهرية والشرح: «الآذان».

وَإِذَا الْـمَنِيَّــةُ أَنْشَـبَتْ أَظْفَارَهَـا أَلْفَيْـتَ كُـلَّ تَـمِيمَةٍ لَا تَنْفَـعُ[1]

يقول: جرَّحه بمخالب الحِكمة، سبحان الله، ما هذا الكلام؟! قال: نعم، أليس الكَلْمُ في اللغة بمعنى الجَرْح، كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ الله...»[2]؟ فيقال: بلى، لكن هل معناه أن نَحمل الكَلْم في كل موضع على الجَرح؟! الجواب: أبدًا.

لَـمَّا حَرَّفَ بعضُ الطغاة المبتدِعة الآية قال: (وَكَلَّمَ اللهَ موسى تكليمًا) لأجل أن يكون لفظ الجلالة مفعولًا به، ويكون المُتكَلِّم هو موسى -عليه السلام-، فقيل له: ماذا تقول في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣]؟ فقَوْلُهُ: «كَلَّمه» لا يمكن أن يقول أحد: إنَّ (الهاء) في (كَلَّمه) فاعل، بل هي مفعول به، و(رَبُّهُ) فاعل، فَبُهِتَ الذي كفر.

٤١٩- أَفَتَسْمَعُ الْآذَانُ غَيْرَ الحَرْفِ وَالصْـ ـصَوتِ الَّذِي خُصَّتْ بِهِ الْأُذُنَانِ

٤٢٠- وَكَـذَا النِّـدَاءُ فَإِنَّـهُ صَـوْتٌ بِإِجْـ ـمَاعِ النُّحَـاةِ وَأَهْـلِ كُـلِّ لِسَـانِ

٤٢١- لَكِنَّـهُ صَـوْتٌ رَفِيـعٌ وَهْـوَ ضِـدْ دُ لِلنِّجَـــاءِ، كِلَاهُمَـــا صَـــوْتَانِ

موسى -عليه السلام- كَلَّمَهُ رَبُّه بصوتين: مناداة ومناجاة، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢] فقال: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾، والنداء يكون للبعيد، والمناجاة للقريب، ولهذا لو كان إلى جنبك رَجل وتكلَّمتَ إليه برفع صوت لأنكر عليك، ويقول: هل أنا بعيد؟! هل أنا أصمّ؟! لكن لو كان

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهُذلي، كما في الكامل للمبرد (٢/ ١٢٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من يجرح في سبيل الله عزَّ وجلَّ، رقم (٢٨٠٣). ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، رقم (١٨٧٦).

بعيدًا ثُمَّ ناديته بصوت خفي، لَقالَ: إِنَّك لم تتكلَّمْ معي.

إِذَنْ المناداة للبعيد، والمناجاة للقريب.

وانظر إلى قوله: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾ ولـم يقل: (**تَقَرَّبنا إليه**) فموسى هو الذي قُرِّبَ إلى الله عزَّ وجلَّ فَسَمِعَ صوتَه.

٤٢٢- فَزَعَمْـــتَ أَنَّ اللهَ نَـــادَاه وَنَـــا جَـــاهُ، وَفِي ذَا الـــزَّعْمِ مَحْـــذُورَانِ

٤٢٣- قُرْبُ الْـمَكَانِ وَبُعْدُهُ ....

قَوْلُهُ: «**نَادَاه وَنَاجَاهُ**» وذلك في قوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾.

قَوْلُهُ: «**وَفِي ذَا الزَّعْمِ مَحْذُورَانِ**» يقول: في هذا محذوران، ثم ذَكَر المحذور الأول فقال: «**قُرْبُ المَكَانِ وَبُعْدُهُ**» لِقوله: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾.

إِذَنْ هو كان في الأول بعيدًا ثُمَّ قُرِّب، فالبُعد محذور، والقرب محذور أيضًا، لأنَّ الله لا يوصف بأنَّ بعضَ الخلق قريب إليه، والثانيَ بعيد.

وقد تقدَّمَ أنهم يقولون: إن العرش مِثل الفَرْش في القُرب إلى الله عزَّ وجلَّ، وإنهما سواء، وعلى هذا فلا فرق بين الجنة في أعلى عِلِّيِّين، والنار في أسفل سافلين، وسَبَق الكلام على هذا.

فيقول: أنت إذا قلت: إنَّ الله ناداه وناجاه لزِم المحذوران: القرب والبعد في المكان، وهما عند هذا المُعَطِّل سواء، فلا يوجد قُربٌ، ولا بُعدٌ.

المحذور الثاني: بالنسبة للصوت، فقال:

٤٢٣- .... وَالصَّوْتُ بَلْ نَوْعَـــاهُ مَحْـــذُورَانِ مُمْتَنِعَـــانِ

قَوْلُهُ: «والصَّوتُ بَلْ نَوْعَاهُ مَحْذُورَانِ مُمْتَنِعَانِ» الصوت: منه صوت رفيع، ومنه صوت منخفض، يقول: يمتنع على الله أن يكون له صوتٌ رفيع، وصوتٌ منخفض، لأنَّ هذا عنده لا يكون إلَّا لجسم، والكلام عنده هو المعنى القائم بالنفس، وليس المسموع مِن الله عزَّ وجلَّ.

فصار عنده محذوران الآن: قرب المكان وبعد المكان، رفع الصوت وخفض الصوت، وكلاهما -والحمد لله- ليس بمحذور عندنا، ولله تعالى أَنْ يفعلَ ما يشاء.

* * *

٤٢٤- وَزَعَمْتَ أَنَّ مُحَمَّدًا أَسْرَى بِهِ ... لَيْلًا إِلَيْهِ، فَهْوَ مِنْهُ دَانِ

٤٢٥- وَزَعَمْتَ أَنَّ مُحَمَّدًا يَومَ اللِّقَا ... يُدْنِيهِ رَبُّ الْعَرْشِ بِالرِّضْوَانِ

٤٢٦- حَتَّى يُرَى[1] الْمُخْتَارُ حَقًّا قَاعِدًا ... مَعَهُ عَلَى الْعَرْشِ الرَّفِيعِ الشَّانِ

٤٢٧- وَزَعَمْتَ أَنَّ لِعَرْشِهِ أَطًّا بِهِ ... كَالرَّحْلِ أَطَّ بِرَاكِبٍ عَجْلَانِ

٤٢٨- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ أَبْدَى بَعْضَهُ ... لِلطُّورِ حَتَّى عَادَ كَالْكُثْبَانِ

٤٢٩- لَـمَّا تَجَلَّى يَومَ تَكْلِيمِ الرِّضَى ... مُوسَى الْكَلِيمِ مُكلَّمِ الرَّحْمَنِ

٤٣٠- وَزَعَمْتَ لِلْمَعْبُودِ وَجْهًا بَاقِيًا ... وَلَهُ يَمِينٌ، بَلْ زَعَمْتَ يَدَانِ

٤٣١- وَزَعَمْتَ أَنَّ يَدَيْهِ لِلسَّبْعِ الْعُلَى ... وَالْأَرْضِ يَوْمَ الْحَشْرِ قَابِضَتَانِ

---

(١) في نسخة الظاهرية: «نرى».

الشرحُ

٤٢٤- وَزَعَمْــتَ أَنَّ مُحَمَّــدًا أَسْرَى بِــهِ ... لَــيْلًا إِلَيْــهِ، فَهْــوَ مِنْــهُ دَانِ

قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء:١] وقد أُسْرِيَ به مِن الحِجْر مِن قلب الكعبة(١)، لأنَّ الحجرَ -كما يعلم الكثير مِنَّا- مِن الكعبة، وكان النَّبيُّ ﷺ نائمًا في الحِجْر، فَأُسْرِي به مِن هناك.

وأما راوية أنه أُسري به مِن بيت أُمِّ هانِئٍ(٢) فهذه -إنْ صَحَّتْ- فالجَمعُ بينهما: أنه كان في أول الأمر في أول الليل في بيتِ أُم هانِئٍ، ثُمَّ قام ونام في الحِجْر، لأن رواية أنه أُسْرِي به مِن الحِجْر رواية صحيحة، ليس عليها غُبار.

قَوْلُهُ: «فَهْوَ مِنْهُ دَانِي» أي: مِن الله، ولا شكَّ في هذا، لأنه عُرِجَ به بعد هذا الإسراء إلى السموات السَّبْع.

واعلَمْ أنَّ هذا الإسراء ذُكِرَ في سورة الإسراء، وأنَّ المعراج ذُكِرَ في سورة النَّجْم، فهما في موضعَيْن مِن القرآن الكريم.

٤٢٥- وَزَعَمْــتَ أَنَّ مُحَمَّــدًا يَــومَ اللِّقَــا ... يُدْنِيــهِ رَبُّ الْعَــرْشِ بِالرِّضْــوَانِ

٤٢٦- حَتَّى يُـرَى الْـمُخْتَارُ حَقًّـا قَاعِـدًا ... مَعَـهُ عَـلَى الْعَـرْشِ الرَّفِيـعِ الشَّـانِ

هذه المسألة اختلف السلف فيها، هل الله عزَّ وجلَّ يُدْني النَّبِيَّ ﷺ يوم القيامة حتى يُجْلِسَه معه على العرش أم لا؟

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، رقم (٣٦٧٤).
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ٤٣٢).

فمنهم مَن صحَّح الحديثَ(١) الواردَ في هذا، وقال: إن الله تعالى يُجلِسه على العرش، ولا غَرو في ذلك، لأنَّ الله تعالى على كُلِّ شيء قدير، وللنَّبِيِّ ﷺ مِن المَيزات والمناقب ما ليس لغيره.

ومنهم مَن قال: لا، الحديث في هذا ضعيف، وإنما يُجلسه بين يَدي الله عزَّ وجلَّ، إما على الكرسيِّ أو على شيء آخر.

ولكن إذا صحَّ الحديثُ أنَّ الله يُجلس نبيَّه ﷺ معه على العرش، فيجب علينا أن نؤمنَ به، ونقول: آمنا بما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٤٢٧- وَزَعَمْتَ أَنَّ لِعَرْشِهِ أَطًّا بِهِ ... كَالرَّحْلِ أَطَّ بِرَاكِبٍ عَجْلَانِ

ورد في هذا أيضًا حديث أنَّ العرش له أَطِيطٌ كأطيط الرَّحْل(٢)، والأطيط هو صَرِير الرَّحل، فالبعير إذا كان عليه الشداد ثُمَّ حَمَّلنا عليه شيئًا ثقيلًا، فإذا مشى تسمع له صريرًا، هذا الصرير هو الأطيط، وهذا أيضًا أطيط العرش، وفيه حديث، لكنه ضعيف، وأنكره كثيرٌ مِن أهل العلم، وقالوا: إن هذا يستلزم أن يكونَ العرشُ قد حَمل الله كما يُحْمَل على الرَّحْل، ومعلوم أنَّ العرشَ لم يحمل الرَّبَّ عزَّ وجلَّ، لأنَّ كُلَّ شيءٍ مفتقِرٌ إلى الله، والله تعالى لا يفتقرُ إلى شيء.

فليس استواءُ الله -سبحانه وتعالى- على العرش كاستواء الإنسان على السرير

---

(١) وهو حديث عبد الله بن مسعود قال: بينا أنا عند رسول الله ﷺ أقرأ عليه حتى بلغت ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ قال: «يُجْلِسُنِي عَلَى الْعَرْشِ». أخرجه الذهبي في العلو (٢٢٢)، وقال: هذا حديث منكر.

(٢) يعني حديث أبي أُمامة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «سَلُوا اللهَ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهَا سِرَّةُ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ أَهْلَ الْفِرْدَوْسِ لَيَسْمَعُونَ أَطِيطَ الْعَرْشِ». أخرجه الطبراني (٨/ ٢٤٦، رقم ٧٩٦٦) قال الهيثمي (١٠/ ٣٩٨): فيه جعفر بن الزبير وهو متروك. والحاكم (٢/ ٤٠٢، رقم ٣٤٠٢).

الذي إذا سُحِبَ مِن تحته سقط، أو على البعير أو على الفُلْك، بل هو استواءٌ يليق بجلاله، وهو استواءٌ ليس افتقارًا إلى العرش، بل لإظهار عظمته -تبارك وتعالى- كما سبق.

فحديثُ أَطِيطِ العرشِ بالله عزَّ وجلَّ ضعيفٌ لا شكَّ، ولا نعتقد هذا، بل نقول: إن الله تعالى غنيٌّ عن العرش، وليس محتاجًا إليه حتى يَثْبُتَ عليه فيكون له أَطِيطٌ.

أما حديث: «أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَـهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا مِنْ مَوْضِعِ أَصَابعَ مِنْهَا إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ لله، أَوْ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ»(١). فهذا لا يُنكَر، لأنَّ السماء تحملُ الملائكة.

٤٢٨- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ أَبْدَى بَعْضَهُ ... لِلطُّورِ حَتَّى عَادَ كَالْكُثْبَانِ

٤٢٩- لَـمَّا تَجَلَّى يَومَ تَكْلِيمِ الرِّضَى ... مُوسَى الْكَلِيمِ مُكلَّمِ الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «مُكَلِّم» يجوز فيها وجهان: (مُكلِّم)، و(مُكلَّم)، والثانية أَوْلى، لأنَّ الله يقول: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء:١٦٤] فهو مُكَلَّم.

وفي هذا البيت يشير إلى قول الله -تبارك وتعالى- في قصة موسى -عليه السلام- قال موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف:١٤٣] يعني: مكِّنِّي مِن رؤيتك، فقال الله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ ولا يمكن أن تراني، ثم ضرب له مثلًا وقال: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾ حتى يعلم موسى -عليه الصلاة والسلام- أنه لن يمكن أن يرى الله في الدنيا، لأنَّ أجسامنا لا تتحمَّل،

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٣)، الترمذي: كتاب الزهد، باب قول النبي ﷺ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ»، رقم (٢٣١٢).

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ اندكَّ الجبل لِعَظَمَة الله عزَّ وجلَّ كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الحشر:٢١] والقرآن هو كلامه ﴿عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١].

لكنه لن يندكَّ، ولكن يتصدَّع مِن خشية الله عزَّ وجلَّ، أما وقد تجلَّى اللهُ عزَّ وجلَّ للجبل فقد ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ مِثل كُثبان الرمل، لما رأى موسى -عليه الصلاة والسلام- ما رأى خَرَّ صَعِقًا، أي: غُشِي عليه، لأنه عجَز عن أن يتحمل الموقف، مع أنَّ الله لم يَتَجَلَّ له.

٤٣٠- وَزَعَمْتَ لِلْمَعْبُودِ وَجْهًا بَاقِيًا وَلَهُ يَمِينٌ، بَلْ زَعَمْتَ يَدَانِ

وكُلُّ هذا حقٌّ.

قَوْلُهُ: «**زَعَمْتَ لِلْمَعْبُودِ وَجْهًا**» وهذا حَقٌّ، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الرعد:٢٢] والآيات في هذا متعددة، ولكن هل وجه الله عزَّ وجلَّ مماثلٌ لأوجه المخلوقين؟

الجواب: لا والله، بل مُبَايِنٌ لها غاية المُباينة، لأنه كما أنَّ ذاته كذلك فكذلك صفاته، ولا يجوز أن تتخيّل وجهَ الله عزَّ وجلَّ، لأنك مهما تخيَّلْتَ فاللهُ أعظمُ وأَجَلُّ، ومهما قلتَ مما تخيّلت فأنت كاذب في ذلك، لأنه لا علم عندك، بل نقول: لله عزَّ وجلَّ وجهٌ موصوف بالجلال والإكرام، ولا نعلم كيفيته، علينا أن نؤمن به، وأن نسأله بوجهه أن يُنْجِيَنا مِن النار.

قَوْلُهُ: «**وَلَهُ يَمِينٌ، بَلْ زَعَمْتَ يَدَانِ**» نعم، له يمين، وله يدان (بالتثنية) وكلتا

يديه يمين، كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ»(١). أي: يُمْنٌ وبَركة وقوة، فلا تختلف إحداهما عن الأخرى، بخلاف أيدي المخلوقين، حيث تختلف إحداهما عن الأخرى.

٤٣١- وَزَعَمْتَ أَنَّ يَدَيْهِ لِلسَّبْعِ الْعُلَى ... وَالْأَرْضِ يَوْمَ الْحَشْرِ قَابِضَتَانِ

وهذا صحيح، قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٢٠].

وقد قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء:١٠٤] يعني: كما تُطوى سجلات الكتب نطويها.

ولم يكن لدى الناس فيما سبق ظروف يُدخِلون فيها الكتب، فإذا كتب الإنسانُ كتابًا، فإنه يَطويه، ثم يضرب عليه الشَّمْع ويرسله، وهذا إلى عهد ليس ببعيد، لكن بعد أن تَفَتَّح الناسُ صاروا يجعلون ظروفًا للكتب، يدُسُّونها فيها.

***

٤٣٢- وَزَعَمْتَ أَنَّ يمينَهُ مَلْأَى مِنَ الْـ ... ـخَيْرَاتِ مَا غَاضَتْ عَلَى الْأَزْمَانِ

٤٣٣- وَزَعَمْتَ أَنَّ الْعَدْلَ فِي الْأُخْرَى بِهَا ... رَفْعٌ وَخَفْضٌ وَهْوَ بِالْمِيزَانِ

٤٣٤- وَزَعَمْتَ أَنَّ الْخَلْقَ طُرًّا عِنْدَهُ(٢) ... يَهْتَزُّ فَوْقَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم، رقم (١٨٢٧).

(٢) في نسخة الحلبي: «عندما».

٤٣٥- وَزَعَمْتَ أَيْضًا أَنَّ قَلْبَ الْعبْدِ مَا ... بَيْنَ اثْنَتَيْنِ مِنَ الْأَصَابِعِ عَانِ

٤٣٦- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَضْحَكُ عِنْدَمَا ... يَتَقَابَلُ الصَّفَّانِ يَقْتَتِلَانِ

٤٣٧- مِنْ عَبْدِهِ يَأْتِي فَيُبْدِي نَحْرَهُ ... لِعَدُوِّهِ طَلَبًا لِنَيْلِ جِنَانِ

٤٣٨- وَكَذَاكَ يَضْحَكُ عِنْدَمَا يَثِبُ الْفَتَى ... مِنْ فَرْشِهِ لِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ

٤٣٩- وَكَذَاكَ يَضْحَكُ مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ ... إِذْ أَجْدَبُوا وَالْغَيْثُ مِنْهُمْ دَانِ

٤٤٠- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَرضَى عَنْ أُولِي ... حُسْنَى وَيَغْضَبُ مِنْ أُولِي الْعِصْيَانِ

٤٤١- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ صَوْتَهُ ... يَوْمَ الْمَعَادِ بَعِيدُهُمْ وَالدَّانِي

٤٤٢- لَمَّا[1] يُنَادِيهِمْ: أَنَا الدَّيَّانُ لَا ... ظُلْمٌ لَدَيَّ، فَيَسْمَعُ الثَّقَلَانِ

٤٤٣- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يُشْرِقُ نُورُهُ ... فِي الْأَرْضِ يَوْمَ الْفَصْلِ وَالْمِيزَانِ

٤٤٤- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَكْشِفُ سَاقَهُ ... فَيَخِرُّ ذَاكَ الْجَمْعُ لِلْأَذْقَانِ

٤٤٥- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ كَفَّهُ ... لِمُسِيئِنَا لِيَتُوبَ مِنْ عِصْيَانِ

٤٤٦- وَزَعَمْتَ أَنَّ يَمِينَهُ تَطْوِي السَّمَا ... طَيَّ السِّجِلِّ عَلَى كِتَابِ بَيَانِ

٤٤٧- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَنْزِلُ فِي الدُّجَى ... فِي ثُلْثِ لَيْلٍ آخِرٍ أَوْ ثَانِي

٤٤٨- فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُجِيبَهُ ... فَأَنَا الْقَرِيبُ أُجِيبُ مَنْ نَادَانِي

٤٤٩- وَزَعَمْتَ أَنَّ لَهُ نُزُولًا ثَانِيًا[2] ... يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْقَضَاءِ الثَّانِي

---

(١) في نسخة الإفتاء: «يوم».

(٢) في نسخة الإفتاء: «بائنا».

٤٥٠- وَزَعَمْــتَ أَنَّ اللهَ يَبْــدُو جَهْــرَةً ... لِعِبَــادِهِ حَتَّــى يُــرَى بِعِيَــانِ
٤٥١- بَــلْ يَسْــمَعُونَ كَلَامَــهُ وَيَرَوْنَــهُ ... فَالْــمُقْلَتَانِ إِلَيْــهِ نَاظِرَتَــانِ
٤٥٢- وَزَعَمْــتَ أَنَّ لِرَبِّنَــا قَــدَمًا وَأَنْ ... نَ اللهَ وَاضِــعُهَا عَــلَى النِّــيرَانِ
٤٥٣- فَهُنَاكَ يَدْنُو بَعْضُهَا مِنْ بَعْضِهَا ... وَتَقُولُ قَطْ قَطْ حَاجَتِي وَكَفَانِي
٤٥٤- وَزَعَمْتَ أَنَّ النَّاسَ يَوْمَ مَزِيدِهِمْ ... كُــلٌّ يُحَــاضِرُ رَبَّــهُ وَيُــدَانِي
٤٥٥- بِالْـحَاءِ مَعْ ضَادٍ وَجَا مَعْ صَادِهَا ... وَجْهَــانِ فِي ذَا اللَّفْــظِ مَحْفُوظَــانِ
٤٥٦- فِي التِّرْمِــذِيِّ وَمُسْــنَدٍ وَسِــوَاهُمَا ... مِــنْ كُتْــبِ تَجْسِــيمٍ بِــلَا كِــتْمَانِ
٤٥٧- وَوَصَــفْتَهُ بِصِــفَاتِ حَــيٍّ فَاعِــلٍ ... بِالْإِخْتِيَــارِ وَذَانِــكَ الْأَصْــلَانِ
٤٥٨- أَصْلُ[(١)] التَّفَرُّقِ بَيْنَ هَذَا الْـخَلْقِ فِي الْـ ... ـبَارِي، فَكُنْ فِي النَّفْيِ غَيْرَ جَبَانِ
٤٥٩- أَوْ لَا، فَلَا تَلْعَبْ بِدِينِكَ نَاقِضًا ... نَفْيًــا بِإِثْبَــاتٍ بِــلَا فُرْقَــانِ
٤٦٠- فَالنَّــاسُ بَــيْنَ مُعَطِّــلٍ أَوْ مُثْبِــتٍ ... أَوْ ثَالِــثٍ مُتَنَــاقِضٍ صِــنْفَانِ[(٢)]
٤٦١- وَاللهِ لَسْــتَ بِرَابِــعٍ لَــهُمُ بَــلَى ... إِمَّــا حِمَــارًا أَوْ مِــنَ الثِّــيرَانِ

الشرحُ

٤٣٢- وَزَعَمْتَ أَنَّ يمينَهُ مَلْأَى مِنَ الْـ ... ـخَيْرَاتِ مَا غَاضَتْ عَلَى الْأَزْمَانِ

قَوْلُهُ: «يمينُهُ مَلْأَى» يشير إلى قول النَّبِيِّ ﷺ: «يَدُ الله مَلأَى سَحَّاءُ اللَّيْلَ

(١) في نسخة الحلبي: «أصلا».
(٢) في بعض النسخ: «صفعان»، وفي نسخة: «صَنْعَان».

والنَّهَارَ»[١]. سحَّاء: كثيرة العطاء، «**الليل والنهار**» ظرف، يعني: في الليل والنهار دائمًا وأبدًا.

قَوْلُهُ: «**مَا غَاضَتْ عَلَى الأزْمَانِ**» يشير إلى قول النَّبِيِّ ﷺ: «**أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ**»[٢]. أي: لم يَنْقُصْ، سبحانه وتعالى.

٤٣٣- وَزَعَمْتَ أَنَّ الْعَدْلَ فِي الْأُخْرَى بِهَا ... رَفْعٌ وَخَفْضٌ وَهْوَ بِالْمِيزَانِ

بيده الأخرى القِسط، والقسط يعني: العدل، يخفض ويرفع، فيخفِضُ مَن يَسْتَحِقُّ الخفضَ، ويرفعُ مَن يستحِقُّ الرفعَ بالميزان، لا يظلِم أحدًا شيئًا، لا نقصًا مِن حَقِّه، ولا زيادةً في سيئاته، فهو -سُبحانَه وتعالَى- عدلٌ حكمٌ.

٤٣٤- وَزَعَمْتَ أَنَّ الْخَلْقَ طُرًّا عِنْدَهُ ... يَهْتَزُّ فَوْقَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ

يعني: زعمت أنَّ الخَلْق كُلَّهم يهتزون عند أصابع الرحمن، فإنَّ الله تعالى يقبض السموات والأَرَضين ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ، ويقول: «**أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الْمُلُوكُ؟**»[٣].

٤٣٥- وَزَعَمْتَ أَيْضًا أَنَّ قَلْبَ الْعَبْدِ مَا ... بَيْنَ اثْنَتَيْنِ مِنَ الْأَصَابِعِ عَانِ

يعني: زعمتَ أن قلبَ العبدِ بين أصبعَيْن مِن أصابع الرحمن، وهذا سبَق، وذكَرنا أن في الحديث إثباتَ الأصابع لله عزَّ وجلَّ[٤]، وذكرنا أنه لا يلزم مِن كون

(١) أخرجه النسائي في الكبرى: كتاب النعوت، باب الواحد القهار، رقم (٧٦٤٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، رقم (٧٤١١).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ يَوْمَ القِيَامَةِ، رقم (٦١٥٤)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٧٨٧).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، رقم (٢٦٥٤).

القلب بين أصابعه أن تكون الأصابعُ في الصدور، أو مُماسَّةً له، وذكرنا مثالًا يبينه، وهو قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤].

٤٣٦- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَضْحَكُ عِنْدَمَا ... يَتَقَابَلُ الصَّفَّانِ يَقْتَتِلَانِ

٤٣٧- مِنْ عَبْدِهِ يَأْتِي فَيُبْدِي نَحْرَهُ ... لِعَدُوِّهِ طَلَبًا لِنَيْلِ جِنَانِ

هذا أيضًا مما جاء به الحديث أن الله يضحك إلى الرجل يأتي ويقابل العدوَّ ويقاتله، ويُبدي إليه نحرَه، مِن أجل الوصول إلى الجنة(١)، لأنَّ هذا يدلُّ على كمال التَّصديق، ولولا كمال تصديقه ما ذهب يُبدي نَحْرَه لعدوِّه.

وفي هذا إثبات الضحِك لله عزَّ وجلَّ، ولكن هل هذا الضحك كضحكنا؟ الجواب: لا، ولكنه ضحكٌ يليق بالله عزَّ وجلَّ، وعلينا أن نُثبته، وليس علينا أن نسأل عن كيفيته، بل ليس لنا أن نسأل عن كيفيته، والواجب الكَفُّ.

٤٣٨- وَكَذَاكَ يَضْحَكُ عِنْدَمَا يَثِبُ الْفَتَى ... مِنْ فَرْشِهِ لِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ

هذا أيضًا حديث آخر أن الله عزَّ وجلَّ يضحك للرَّجل يقوم مِن فراشه للتهجُّد(٢).

---

(١) كما في حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «يَضْحَكُ اللهُ إِلَى رَجُلَيْنِ: رَجُلٍ لَقِيَ الْعَدُوَّ وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ مِنْ أَمْثَلِ خَيْلِ أَصْحَابِهِ فَانْهَزَمُوا وَثَبَتَ، فَإِنْ قُتِلَ اسْتُشْهِدَ، وَإِنْ بَقِيَ فَذَلِكَ الَّذِي يَضْحَكُ اللهُ إِلَيْهِ». أخرجه النسائي في الكبرى: كتاب عمل اليوم والليلة، بعد باب ما يقول إذا انتبه من منامه، رقم (١٠٦٣٧).

(٢) كما في حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «وَرَجُلٍ قَامَ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ لَا يَعْلَمُ بِهِ أَحَدٌ، فَتَوَضَّأَ فَأَسْبَغَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ حَمِدَ اللهَ وَمَجَّدَهُ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَاسْتَفْتَحَ الْقُرْآنَ، فَذَلِكَ الَّذِي يَضْحَكُ اللهُ إِلَيْهِ». وهو جزء من الحديث السابق.

وضحكُ الله عزَّ وجلَّ لهذا وهذا يعني: الفرحَ به والرِّضى، وهذا مِن لازم الضحك، وليس هو الضحك، فالضَّحِك شيء آخر، لكن مِن لازمه أن يكون اللهُ -تبارك وتعالى- راضيًا بهذا فَرِحًا به.

٤٣٩- وَكَذَاكَ يَضْحَكُ مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ   إِذْ أَجْدَبُوا وَالْغَيْثُ مِنْهُمْ دَانِ

قَوْلُهُ: «يَضْحَكُ مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ» إشارة إلى حديث ساقه ابن تَيْمِيَّة -رحمه الله- في العقيدة الواسطية بقوله: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غِيَرِهِ»(١). لكنَّ ابنَ القيم -رحمه الله- أشار إليه بلفظ (الضحك) فإمَّا أن يكون لفظان في الرواية، أو روايتان.

المهم أننا نُثْبِت مِن هذا دليلًا ثالثًا لوصف الله تعالى بالضحك.

وَقَوْلُهُ: «وَالغَيْثُ مِنْهُمْ دَانِي» يعني: كيف يقنَطُون والله -سُبحانَه وتعالَى- قريب التغيير، «عَلِمَ يَوْمَ الْغَيْثِ يُشْرِفُ عَلَيْكُمْ آزِلِينَ مُشْفِقِينَ، فَظَلَّ يَضْحَكُ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ»(٢). إذ كيف تقنطون مِن رحمة الله، وفرج الله قريب؟!

فكلمة واحدة تُزيل كُلَّ هذا الجَدْب والقَحْط، ولا يخفى عليكم ما حدث في خطبة الجمعة حين دخل رجلٌ والنَّبيّ ﷺ يخطُب الناسَ، فقال: يا رسول الله، هَلَكَ المَالُ، وانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فادْعُ اللهَ يُغِيثُنَا. فرفع يديه ودعا، ثم أنشأ اللهُ سَحابةً فتوسَّطَتِ السماءَ، وانتشرتْ، ورَعَدَتْ، وبَرَقَتْ، وأمطرتْ، فلم يَنْزِلِ النَّبيُّ ﷺ مِن الخطبةِ إلَّا والمطر يَتَحَادَرُ مِن لِحيته، قال أنس: «فما قَدِمَ أَحَدٌ مِن ناحيةٍ

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الإيمان وفضائل الصحابة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨١).
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٦٠٥، رقم ٨٦٨٣).

إِلَّا حَدَّثَ بِالْجُودِ». أي: بكثرة الأمطار(١).

٤٤٠- وَزَعَمْـتَ أَنَّ اللهَ يَـرضَى عَـنْ أُولِي   حُسْنَى وَيَغْضَبُ مِنْ أُولِي الْعِصْيَانِ

هاتان صفتان: الرِّضى والغضب، يرضى عن أهل الحسنى، ولا يرضى عن أهل السوء، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:٩٦]، وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧]. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة:١١٩].

وصفة الرِّضى مِن صفات الله -تبارك وتعالى- الثابتة في القرآن والسُّنَّة، ودليلها في القرآن ما سبق.

أَمَّا في السُّنَّة فقوله -عليه الصلاة والسلام-: «رَضِيَ لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»(٢).

أما أهلُ التَّعطيلِ ففسَّروا الرِّضى بالثواب، وهذا خطأ، لأنَّ الثوابَ نتيجةُ الرضى، والرِّضى وصفٌ في ذاتِ الله عزَّ وجلَّ، والثوابُ مخلوقٌ بائِنٌ عن الله، لكنهم لا يرون قيامَ الصفات بالله عزَّ وجلَّ، لأنه سبق أن قالوا: إننا لو أثبتنا هذه الصفات لزِم قيامُ الحوادث به، والحوادثُ لا تقوم إِلَّا بحادث.

أو يقولون: هذه أعراض، والعَرَضُ لا يقومُ إِلَّا بجسمٍ، أو ما أشبه ذلك مِن التعليلات الباطلة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في المسجد الجامع، رقم (١٠١٣)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، والنهي عن منع وهات، وهو الامتناع من أداء حق لزمه، أو طلب ما لا يستحقه، رقم (١٧١٥).

المهم أننا نؤمن بأنَّ الله عزَّ وجلَّ يرضى.

وكذلك أيضًا يغضب، قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء:٩٣].

وكذلك السخط كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة:٨٠].

لكن هل الرِّضى، والغضب، والضحك، والعَجب، مِن الصفات الفِعلية، أو الذاتية؟

الجواب: مِن الفعلية، فكُلُّ صفةٍ لها سبب فهي فِعلية، لأنها تقتضي أن توجد عند هذا السبب، فتكونُ فعليةً تتعلَّق بمشيئة الله عزَّ وجلَّ.

٤٤١- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ صَوْتَهُ ... يَوْمَ الْمَعَادِ بَعِيدُهُمْ وَالدَّانِي

٤٤٢- لَمَّا يُنَادِيهِمْ: أَنَا الدَّيَّانُ لَا ... ظُلْمٌ لَدَيَّ، فَيَسْمَعُ الثَّقَلَانِ

وهذا حَقٌّ، فالله تعالى ينادي الخلائقَ يوم القيامة، يناديهم بصوت يقول: «أَنَا الدَّيَّان»[1]. وثبت أيضًا أنه ينادي آدمَ فيقول: «أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ»[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٥، رقم ١٦١٣٨)، والبخاري تعليقًا: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣].

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم (٣٣٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله يقول الله لآدم أخرج بعث النار، رقم (٢٢٢).

٤٤٣- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يُشْرِقُ نُورُهُ فِي الْأَرْضِ يَوْمَ الْفَصْلِ وَالْمِيزَانِ

لقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الزمر:٦٩].

٤٤٤- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَكْشِفُ سَاقَهُ فَيَخِرُّ ذَاكَ الْجَمْعُ لِلْأَذْقَانِ

وثبت هذا في الصحيح عن النَّبِيِّ ﷺ مِن حديث أبي سعيد[1] الطويل، وفيه أنَّ الله تعالى يكشِفُ ساقَه، فيسجد لله عزَّ وجلَّ كُلُّ مَن سجد له في الدنيا مخلِصًا في سجوده، ويعجِز عن السجود مَن لم يسجد لله تعالى بإخلاص، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم:٤٢-٤٣].

والساق ثابتة بالسُّنَّة، لا إشكال فيها، لكن هل ثبت بالقرآن؟

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم:٤٢] وهنا الساق غير مضافة، فلم يقل سبحانه: (عن ساقه)، ولا يجوز لنا أن نُضيفَ إلى الله عزَّ وجلَّ ما لم يُضِفْه لنفسه.

لكن لما كان سياقُ الآيةِ الكريمة يُطابِقُ سياقَ الحديث النَّبوِيِّ، وَجَبَ أن نُفَسِّرَ الآيةَ بما دلَّ عليه الحديثُ، وهو أنها ساقٌ لله عزَّ وجلَّ تليق بجلاله، لا تُشْبِهُ ساقَ أحدٍ مِن المخلوقين، وهذا هو الحقُّ.

وهناك قول آخر للسلف في الآية نفسها أنَّ المرادَ بالساق: الشِّدَّة، فمعنى

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣]، رقم (٧٠٠١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣).

﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾ أي: تتبيَّن الشدَّة في ذلك اليوم[١]، لكن ما دام الحديثُ النَّبوِيُّ مطابقًا لسياق الآية، فالواجب أن تُحمَل الآيةُ عليه.

٤٤٥- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ كَفَّهُ ... لِمُسِيئِنَا لِيَتُوبَ مِنْ عِصْيَانِ

نعم، هذا جاء به الحديث الصحيح: «إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، وَبِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ»[٢]. ففي الحديث إثباتُ اليد، وإثباتُ بسطِها، وهذا حَقٌّ.

وقد دَلَّ على ذلك القرآنُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة:٦٤].

٤٤٦- وَزَعَمْتَ أَنَّ يَمِينَهُ تَطْوِي السَّمَا ... طَيَّ السِّجِلِّ عَلَى كِتَابِ بَيَانِ

ودليل هذا قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِ﴾ [الأنبياء:١٠٤] فهو عزَّ وجلَّ يطويها بيمينه[٣].

٤٤٧- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَنْزِلُ فِي الدُّجَى ... فِي ثُلْثِ لَيْلٍ آخِرٍ أَوْ ثَانِي

٤٤٨- فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُجِيبَهُ ... فَأَنَا الْقَرِيبُ أُجِيبُ مَنْ نَادَانِي

يشير إلى الحديث الصحيح عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «يَنْزِلُ اللهُ تعالى إِلَى السَّمَاءِ

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ١٨٧) عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «هُوَ يَوْمُ حَرْبٍ وَشِدَّةٍ».
(٢) أخرجه مسلم: كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، رقم (٢٧٥٩).
(٣) كما في قوله النبي ﷺ قال: «يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ». أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ يَوْمَ القِيَامَةِ، رقم (٦١٥٤)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٧٨٧).

الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ -أَوِ الثَّانِي، الَّذِي يَكُونُ بَيْنَ النِّصْفِ وَالسُّدُسِ- فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟»[1].

فمن الذي ينزل أهو الرَّبُّ -جلَّ وعلا- أو رحمتُه، أو مَلَكٌ مِن ملائكته، أو أمْره؟

الجواب: ننظر: (يَنْزِلُ رَبُّنَا)، فالفِعل مضاف إلى الله عزَّ وجلَّ، وكُلُّ فعلٍ مضاف إلى الله، فإنه يعني: ذات الله، وهذه قاعدة لا إشكال فيها مِن الناحية اللغوية، فكل ما أضافه الله لنفسه فهو له ذاته، ولا تُؤوَّلْ، ولا تُحَرَّفْ.

وعليه نقول: إن الله ينزل، هو نفسه، لكن هل يجب علينا أن نقول: ينزل بنفسه، أو ينزل بذاته، أو ما أشبه ذلك؟

الجواب: لا يجب علينا إلَّا إذا كان هناك مَن يُحرِّف النزولَ إلى نُزولِ الرحمة، أو الأمر، أو الملائكة، فهنا نُضيف كلمة (ذاته) مِن أجل رَدِّ هذا القول.

وبهذا نعرف أنه لا اعتراض على قول مَن يقول: ينزل (بذاته) كما اعترض بعض الناس على تعبير بعض السلف (ينزل بذاته)، قالوا: ليس لنا أن نزيدَها، فنقول: نعم، الأصل أنه ليس لنا أن نزيدَها، لأنَّ الفعل إذا أُضيف إلى فاعله، فهو له حقيقة، أي: ذاته، لكن إذا كنا نسمع مَن أشاع قولًا بأنَّ المراد: تنزل رحمتُه، أو أمره، أو مَلَكٌ مِن ملائكته، فيجب علينا أن نضيف (بذاته) حتى نُبَيِّنَ للناس.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

والكلمات التي لا تخالف الظاهر -وإن لم تكن موجودة- إذا اضطُررنا إليها، فلا حَرجَ علينا فيها كما قلنا في ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]: هو نفسه استوى على العرش.

وبعض الناس يقول: لا تَقُل: بذاته! بل أقول: (بذاته) ما دام هناك مَنْ يُؤوِّل ويحرِّف، فلا بد أن يُبيَّن.

وهذا النزول يَرِدُ عليه أسئلة:

السؤال الأول: كيف يَنزل؟

الجواب: يَنزل على كيفيةٍ شاءها، ولا تسأل، لأننا نقول لمن سأل: (كيف ينزل؟): أنت مبتدِع.

السؤال الثاني: حال النزول هل يلزم مِنه أن يَخلُو العرشُ منَ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ؟

الجواب: أيضًا نقول: لا تسأل، فالسؤال عن هذا بدعة، فالصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ما سألوا عن هذا، وإذا كانوا لم يسألوا، فإنه يَسَعُنَا ما يَسعهم، ومَن لا يَسعه ما وسِع الصحابة فلا وسَّع الله عليه.

السؤال الثالث: هل النزول ينافي عُلوَّ الله؟

الجواب: نَجزم بأنَّ هذا لا ينافيه، لأنَّ (العُلوّ) مِن الصفات الذاتية، فهو عالٍ على الخَلق كُلِّهم، ولو نزل إلى السماء الدنيا، كما هو عالٍ على الخلق كُلِّهم، وهو معهم لكنه في العُلوِّ.

ولا تَقِسِ المعانيَ التي يَحتمِلها اللفظ مما يتعلق بالآدمي على ما يكون لله منها، وذلك لاختلاف ما بين المخلوق والخالق.

إِذَنْ موقفنا مِن هذا أن نقول: إن اللهَ ينزل حقًّا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلثُ الليل الآخِرُ، أو الثاني الذي يبتدئ مِن النصف فيقول: «مَنْ يَدْعُونِي...» إلى آخره.

أما المُحَرِّفون الذين قالوا: ينزل أمرُه، فنقول: هذا تحريفٌ مخالِفٌ لظاهر اللفظ، ثم إن (أمرَ الله) هل يَختصُّ بنُزُوله إلى السماء الدنيا؟ الجواب: لا، لأنَّ الله قال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة:٥].

كذلك (الرحمة) إذا نزلت إلى السماء الدنيا، فماذا نستفيد منها؟!

أيضًا (المَلَكُ) لا يمكن، فهل يمكن لأيِّ مَلَكٍ مِن الملائكة أن يقول للخَلق: مَنْ يدعوني؟ الجواب: لا يمكن، لكنَّ المحرِّفَ -والعياذ بالله- يكون قد تلوَّث بنجاسة التَّحريف، وغَشِيَت قلبَه حتى لا يُبْصِر ما وراءها، فيفسر النزول بهذا التفسير.

قَوْلُهُ: «فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُجِيبَهُ» هنا إشكال في كلمة (**فَأُجِيبَهُ**) هل هي بالرفع، أو بالنصب، أو بالجزم؟

الجواب: بالنصب، لأنها جواب الاستفهام، مسبوقة بـ(فاء) السببية، ولذا قال الناظم[1]:

مُرْ، وَادْعُ، وَانْهَ، وَسَلْ، وَاعْرِضْ لِحَضِّهِمُ
تَمَنَّ، وَارْجُ، كَذَاكَ النَّفْيُ قَدْ كَمُلَا

(١) انظر: حاشية الآجرومية لعبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي الحنبلي النجدي (ص:٤٩).

٤٤٩- وَزَعَمْتَ أَنَّ لَهُ نُزُولًا ثَانِيًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْقَضَاءِ الثَّانِي

قَوْلُهُ: «**وَزَعَمْتَ أَنَّ لَهُ نُزُولًا ثَانِيًا... إلخ**» قد ثبتت به السنة، وأشار إليه الرَّبُّ عزَّ وجلَّ في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:٦٩].

٤٥٠- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَبْدُو جَهْرَةً لِعِبَادِهِ حَتَّى يُرَى بِعِيَانِ

هذه قضية رؤية الله عزَّ وجلَّ، فهل الله يُرَى؟

أمَّا المنافقون فيرونَ اللهَ عزَّ وجلَّ ثُمَّ يَحْتَجِب عنهم، ويُعْطَوْنَ نورًا ثُمَّ ينطفئ، لأنه إذا كان كذلك صاروا أشدَّ حسرةً، وهم في ظاهر أمرهم مستنيرون بِنُور الله، ولكن يُحرَمون بعد أن يروه، فيكون هذا أشدَّ ألـمًا وحسرة.

وأما المؤمنون فهُم عند أهل التعطيل المحرومين مِن رجائهم لرؤية الله، فلا يُرَى.

هؤلاء الذين ينكرون رؤية الله لا يرجون لقاء الله -نسأل الله العافية- لأنهم يقولون: رؤية الله مُحالة، مع أنَّ رؤية الله دلَّ عليها القرآنُ والسُّنَّةُ، وإجماعُ الصحابة رضي الله عنهم.

ففي القرآن الكريم عِدَّةُ آيات: أصرحها وأبْيَنُها قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] وهذه واضحة جدًّا.

ومنها قول الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] فسَّر النَّبيُّ ﷺ -وهو أعلم الناس بتفسير كلام الله- الزيادةَ بأنها النظر إلى وجه الله -تبارك وتعالى-(١).

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في رؤية الرب -تبارك وتعالى-، رقم (٢٥٥٢)، وابن ماجه: كتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٧).

ومنها قول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] وَجْهُ الدلالة أنه لمّا حُجِبَ الفُجّارُ في حال الغضب، لزِم مِن ذلك ألّا يُحْجَبَ الأبرارُ عن رؤية الله عزَّ وجلَّ، لأنه لو كان الكُلُّ لا يمكن أن يروا الله، لم يكن لنفي رؤية الله عن الفُجّار فائدة.

وفي السورة نفسها أيضًا قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٣] ينظرون لأيِّ شيء؟ الجواب: ينظرون لكُلِّ ما أعدَّه اللهُ لهم مِن النعيم، وينظرون إلى الله أيضًا بدليل قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥].

المهم أنَّ هذا شيء معلوم في القرآن كثير.

وفي السُّنَّة: تواترت السُّنَّة عن النبيِّ -عليه الصلاة والسلام- أنَّ المؤمنين يَرَوْن ربَّهم رؤيةً حقيقيةً حِسِّيَّة، قال رسول الله ﷺ: «**كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ**»[١]. وقال رسول الله ﷺ: «**كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ عِيَانًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ**»[٢].

فهل يبقى بعد هذا شيءٌ؟! لكن أولئك الذين حُرِموا مِن رجاء رؤية الله -والعياذ بالله- أنكروا هذا، حتى إن بعضهم قال: مَن زعم أن اللهَ عزَّ وجلَّ يُرَى فقد كفر. نسأل الله العافية، ونحن ربما نقول: مَن أنكر رؤية الله عزَّ وجلَّ فقد كفر، لأن الأدلةَ فيها واضحة، ولا يمكن أن تحتمل التأويل.

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، باب (٥٥٤)، مسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، رقم (٧٤٣٥).

٤٥١- بَــلْ يَسْــمَعُونَ كَلَامَــهُ وَيَرَوْنَــهُ فَالْــمُقْلَتَانِ إِلَيْـــهِ نَاظِرَتَـــانِ

بقي أن نقول: أليس الله تعالى قال لموسى -عليه السلام- حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣].

فالجواب: بلى، لكنّ هذا في الدنيا، لأنَّ أجسامنا في الدنيا لا تحتمل رؤية الله عزَّ وجلَّ، ولهذا بيَّن اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ موسى -عليه السلام- لن يتحمَّل، لقوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾.

فإذا ادَّعَوْا أن (لن) تفيد التأبيد كما إذا قلت: (لن يقوم زيد) يعني: لا يمكن أن يقوم أبدًا.

فالجواب: أن هذا زعمٌ باطل، ليس بصواب.

وانظر إلى قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [البقرة:٩٥] حيث أَكَّدَ النفي بقوله: ﴿أَبَدَۢا﴾، ومع ذلك يقول أهل النار لمالك: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧] فتمنوا الموتَ، فدلَّ هذا على أن (لَن) وإن اقتضت التأبيد في الدنيا، فلن يستمرَّ التأبيدُ إلى الآخرة.

ونحن نقول: في الدنيا لا أحد يراه، ولا يمكن، لكن في الآخرة يراه الناس.

وفي هذا يقول ابنُ مالك -رحمه الله-[(١)]:

وَمَــنْ رَأَى النَّفْــيَ بِـــ(لَنْ) مُؤَبَّـدَا فَقَوْلَــهُ ارْدُدْ، وَسِــوَاهُ فَاعْضُــدَا

هذا ذكره في كتاب المنظومة (الكافية الشافية) التي لَـخَّصَ منها الألفية.

---

(١) انظر: شرح الكافية الشافية (٣/ ١٥١٥).

وأما رؤية الله عزَّ وجلَّ في المنام فقد ورد فيها حديث(١)، وهذا الحديث مختلَف فيه، لكن أكثر أهل العلم صَحَّحوه، ولابن رجب -رحِمه الله- شرحٌ(٢) على هذا الحديث.

٤٥٢- وَزَعَمْـــتَ أَنَّ لِرَبِّنَـــا قَـــدَمًا وَأَنْ نَ اللهَ وَاضِـــعُهَا عَـــلَى النِّـــيرَانِ

٤٥٣- فَهُنَاكَ يَـدْنُو بَعْضُـهَا مِـنْ بَعْضِـهَا وَتَقُولُ قَـطْ قَـطْ حَـاجَتِي وَكَفَـانِي

إثبات القدم لله أيضًا جاءت به السُّنَّة، وفي لفظ (الرِّجلِ) لله عزَّ وجلَّ قال النبي ﷺ: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ». يعني: تطلبُ المزيدَ، «حَتَّى يَضَعَ فِيهَا رَبُّ الْعِزَّةِ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَدَمَهُ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ». أي كفى، «وَعِزَّتِكَ وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ»(٣). أي يَنْضَمُّ بعضُها إلى بعضٍ، فَيَصْدُقُ وَعْدُ الله عزَّ وجلَّ إِيَّاهَا بِأَنْ يَمْلأَهَا.

إِذَنْ نُثْبِتُ القدمَ لله عزَّ وجلَّ، وأنه يضعُ قدمَه على النار، فهل هذه القدم مِثل أقدام المخلوق؟ الجواب: لا، لا يمكن أن تكون مثلَها، احتجاجًا بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

ونقول لِـمَن قال: يَلْزَمُ مِن إثبات القدم أن تكون مماثلةً لأقدام المخلوقين،

(١) وهو قوله ﷺ: «أَتَانِي رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّي وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الـمَلَأُ الأَعْلَى؟ قُلْتُ: رَبِّ لَا أَدْرِي، فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ فَوَجَدْتُ بَرْدَهَا بَيْنَ ثَدْيَيَّ فَعَلِمْتُ مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ». أخرجه الترمذي: كتاب التفسير، باب ومن سورة (ص)، رقم (٣٢٣٤).

(٢) هو كتاب: (اختيار الأَوْلَى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف بعزة الله وصفاته وكلماته، رقم (٦٢٨٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٤٨).

نقول: سبحان الله! أَفِدْنَا هل قدمُك موافقة لقدَم الحِمار أو لا؟ إن قال: نعم، قلنا: أنت حمار، وإن قال: لا، قلنا: إذن إذَا أمكن إثباتُ القَدمِ للمخلوقين مع التباين العظيم، أفلا يمكن أن نثبتَ القدمَ لربِّ العالمين مع التباين العظيم؟!

والجواب: بلى.

قَوْلُهُ: «قط» بمعنى كَفى، ومنه قولنا، فقط، تقول: (عندي مئة ريال فقط) أي: يكفي، لكن أدخَلوا الفاء عليها لتحسين اللفظ.

والحاصل أنَّ المقصودَ بكل ما ذُكِر في الأبيات السابقة إثباتُ صفات الله عزَّ وجلَّ.

وقول المؤلف: (زعمتَ)، و(زعمت)، و(زعمت) هذا قولُ المعطِّل الذي يُنكرُ على المثبِت، وهذه الأشياء المزعومة كلها جاءت في الكتاب والسنّة، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء:١٠٤] والرِّضى عن المؤمنين، والغضب على الكافرين وما أشبه ذلك، لكن كُلُّ هذه الأشياء مُنْكَرَةٌ عند أُولي التعطيل لا يثبتونها، وهم فيها على مَسلكين:

المسلك الأول: إذا أمكنهم أن يطعُنوا في الأحاديث ويُكَذِّبوها كذَّبوها، مِثل خبر الآحاد، يقولون: إنه لا تثبُت به العقائد.

وهذه قاعدة باطلة مهدومة.

المسلك الثاني: إذا لم يتمكنوا مِن الرَّدِّ ذهبوا إلى التحريف، لأنهم لا يستطيعون أن يقولوا في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]: إنها غير ثابتة، لكن يقولون بالتحريف.

فهُم لهم في النصوص المثبِتة طريقتان: طريقة الرَّدِّ إذا أمكن، وإن لم يمكن فالتحريف، أما الإنكار المطلَق، فهذا لا يمكن في مثل القرآن والمتواتِر، لأنه ثابت، لكن يقولون: نُحَرِّف، فالمراد باليد مثلًا: (القُوة) أو (النعمة)، وإلَّا فلا نُنكر أن لله يدًا، لكن ليست اليد المعروفة الحقيقية، بل هي القُوة، أو النعمة.

وهل لله وجه؟ قالوا: نعم، له وجه، لكن ليس الوجه الحقيقي، بل المراد به الثواب، فقوله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٧] أي: ثوابه، لأنَّ الجنَّةَ مُؤَبَّدَةٌ.

هذه طريقتهم في النصوص، ليس أيضًا في الصفات حتى فيما يخالف قولهم في العقائد الأخرى.

فمثلًا: الجَبْرِيَّة يُنكِرون كلَّ حديث يُثبِتُ للعبد إرادة حقيقية، وإذا أمكن أن يَرُدُّوه ردُّوه، وإذا لم يمكن حَرَّفوه، فمثلًا: محاجَّةُ آدم لموسى[(١)]، قالت القَدَرِيَّة: هذا حديثٌ كَذِبٌ، لا يمكن، ولا نَقبَل أن آدمَ احتجَّ بالقدَر، لأنَّ الإنسانَ له إرادة، فهذا الحديثُ مخالِفٌ للعقل، وطريقُه آحاد فلا نقبله، ورَدُّوه.

والذي لا يمكن أن يردُّوه يُحرِّفونه، فيقولون: المراد به كذا وكذا، بناءً على أصول مذاهبهم.

٤٥٤- وَزَعَمْتَ أَنَّ النَّاسَ يَوْمَ مَزِيدِهِمْ   كُلٌّ يُحَاضِرُ رَبَّهُ وَيُدَانِي

---

(١) يعني حديث: «احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الجَنَّةِ، قَالَ لَهُ آدَمُ: يَا مُوسَى اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى». أخرجه البخاري: كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله، رقم (٦٢٤٠)، ومسلم: كتاب القدر، باب، حجاج آدم وموسى -عليهما السلام-، رقم (٢٦٥٢).

٤٥٥- بِالْـحَاءِ مَعْ ضَادٍ وَجَا مَعْ صَادِهَا وَجْهَانِ فِي ذَا اللَّفْظِ مَحْفُوظَانِ

قَوْلُهُ: «بالْـحَاءِ مَعْ ضَادٍ» يعني: يُحَاضِر.

قَوْلُهُ: «وَجَا مَعْ صَادِهَا» (وجا) يعني: (وجاء) مع صادها، يعني: وجاء: يُحَاصِر.

قَوْلُهُ: «وَجْهَانِ في ذَا اللَّفْظِ مَحْفُوظَانِ» يعني: إنَّ لفْظ الحديث جاء بهذا وبهذا، يعني: (يُحَاضِرُ أو يُحَاصِر)، والمعنى متقارب، يعني أنَّ اللهَ تعالى يُكَلِّمُ العبدَ مُحاصرةً يعني: ليس معهما أحدٌ، أو محاضرةً يعني: مناقشةً، أي: أخذًا وردًّا.

٤٥٦- فِي التِّرْمِذِيِّ وَمُسْنَدٍ وَسِوَاهُمَا مِنْ كُتْبِ تَجْسِيمٍ بِلَا كِتْمَانِ

قَوْلُهُ: «في التِّرْمِذِيِّ» يعني: في جامع الترمذي.

قَوْلُهُ: «مِنْ كُتْبِ تَجْسِيمٍ» فهم يرون أن جميعَ الكتب التي تُثبتُ هذه الصفات كُلّها كتب تجسيم، لأنهم يَدَّعون أن إثباتَ هذه الصفات لله يقتضي التجسيمَ.

٤٥٧- وَوَصَفْتَهُ بِصِفَاتِ حَيٍّ فَاعِلٍ بِالْإِخْتِيَارِ وَذَانِكَ الْأَصْلَانِ

٤٥٨- أَصْلُ التَّفَرُّقِ بَيْنَ هَذَا الْـخَلْقِ فِي الْـ ـبَارِي، فَكُنْ فِي النَّفْيِ غَيْرَ جَبَانِ

يعني: وزعمت أنه موصوف بصفات الحيِّ الفاعل الاختيارية، مثل: النزول، والاستواء، والضَّحِك، والفرَح، وما أشبهَ ذلك، فهذه أفعالٌ اختيارية.

وهذه الأفعال الاختيارية موصوف بها الإنسان، أو غير موصوف بها؟

الجواب: موصوف بها الإنسان، فيقول: زعَمْت هذا.

قَوْلُهُ: «وذَانِكَ الأصْلَانِ أَصْلُ التَّفَرُّقِ بَيْنَ هَذَا الْـخَلْقِ في البَارِي فكُنْ فِي

النَّفْيِ غَيْرَ جَبَانِ» يعني: انفِ هذا الشيء، وقُلْ: إن اللهَ -تبارك وتعالى- ليس له فعلٌ اختياري.

ولذلك عند هؤلاء المعطِّلَة لا يستطيع اللهُ عزَّ وجلَّ أن ينزل، ولا أن يأتيَ للفصل، ولا أن يضحك، ولا أن يفرح، لأنهم يَدَّعون أن الأفعال الاختيارية تستلزِمُ حُدوثَ صفةٍ في الله، والحادِثُ لا يكون إلَّا بحادث.

وسبَق أن هذه قاعدةٌ باطلة، وأنَّ قيامَ الحوادث بما هو أَزَلِيّ لا يَمْنَعُ منه عقلٌ، ولا شرعٌ.

٤٥٩- أَوْ لَا، فَلَا تَلْعَبْ بِدِينِكَ نَاقِضًا ... نَفْيًا بِإِثْبَاتٍ بِلَا فُرْقَانِ

يعني: إن لم تكن شجاعًا في النفي، فلا تلعب بدِينك، فمَرَّةً تنفي، ومَرَّةً تُثْبِت، إنْ حَصَرَكَ المناظر أَثْبَتَّ، وإن خَلَا لك الجوُّ نَفيْتَ، بل كن غير جَبانٍ، يعني: شجاعًا مع مَن يُثبِت لِتَغْلِبَه بالنفي.

٤٦٠- فَالنَّاسُ بَيْنَ مُعَطِّلٍ أَوْ مُثْبِتٍ ... أَوْ ثَالِثٍ مُتَنَاقِضٍ صِنْفَانِ[1]

٤٦١- وَاللهِ لَسْتَ بِرَابِعٍ لَهُمُ بَلَى ... إِمَّا حِمَارًا أَوْ مِنَ الثِّيرَانِ

يقول -رحمه الله-: إنَّ الناس ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: نافٍ -أي: مُعَطِّل- اطَّرَدَ نفيُه في كل الصفات.

القسم الثاني: مثبت لكُلِّ ما أثبته اللهُ لنفسه، اطَّرَدَ إثباتُه في كُلِّ الصفات.

القسم الثالث: متناقِض، يُثْبِتُ بعضَ الصفات دون بعض، أو يثبت تارَةً وينفي أخرى.

---

(١) في بعض النسخ: «صفعان»، وفي نسخة: «صَنْعَان».

وهذا تقسيم حاصل.

إِذَنْ لم يبقَ شيءٌ، ولذا قال: (وَاللهِ لَسْتَ بِرَابِعٍ لَهُمُ بَلَى).

قَوْلُهُ: «بَلَى» هنا بمعنى (بَل)، وابن القيم -رحِمه الله- يستعملها دائمًا بهذا المعنى، ووردت (بَلى) في القرآن في موضع بمعنى (بَل).

قَوْلُهُ: «إِمَّا حِمَارًا أَوْ مِنَ الثِّيرَانِ» علَّه لا يقول شيئًا أبدًا لا إثباتًا، ولا نفيًا، ولا ترددًا.

وذكر الحمار لأنَّ الحمارَ أبلدُ البهائم، ولهذا ضربه الله تعالى مثلًا بالذين ﴿حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ [الجمعة:٥] ولأجل كونه أبلد الحيوان فهو أدلُّ الحيوان للطريق.

وذكر لنا شيخنا عبد الرَّزَّاق عفيفي -رحِمه الله- أنه لما كان أبلد الحيوان صار أدلّ الحيوان، إذ ليس عنده تفكير، فهو يمشي على هذه الطريقة، وقال: والذكي ليس يدلُّ كثيرًا، لأن مُخَّه دائمًا منشغِلٌ بغير الطريق.

أمَّا كون الحمار يدُلُّ فهذا شيء معلوم، وقد عرفنا هذا لما كنا فلاحين، وأما كون الذكي ما يدُلُّ كثيرًا، فهذا يحتاج إلى نظر، فقد لا نُسَلِّم، أنا أرى أن السائقين مِن أدلِّ الناس، فإذا ذهب معك إلى البيت ولو مرة واحدة فإنه يعرفُ البيتَ، لكن الراكب معه لا يعرف أبدًا، لأن السائق عنده تركيز بخلاف مَن معه.

بقي قَوْلُهُ: «أَوْ مِنَ الثِّيرَانِ» ما وجهه؟

هل نقول: إن ابن القيِّم -رحِمه الله- قالها تكميلًا للبيت، أو هناك ملاحظة؟ الجواب: فيه ملاحظة، فالثور ليس عنده حكمة، فهو يعيث بقرونه، ولا يبالي في مناسبة، أو غير مناسبة.

وذكروا لنا أن رجلًا -رحِمه الله- دخل إلى حَوْشِ البقر، فَعَدَا عليه الثور، ولا يستطيع أن يهرب الآن لأنه محاطٌ بالجدران، حتى ألجأه الثَّوْرُ إلى الجدار، يريدُ أَنْ يقتُلَه، فاتَّكَأَ الرجلُ على الجدار، وأمسك برأس الثور، ولفّه حتى كسر رقبته وسقط.

وقصدي بهذا أن الثَّوْرَ ليس عنده تصرف، فالحِمار بليد ليس عنده عِلم، والثَّوْرُ -وإن كان عنده عِلم- لكن ليس عنده حكمةٌ، فالظاهر أن هذا مراده -رحمه الله-، وليس مراده أن يكمل شَطر البيت فقط.

* * *

٤٦٢- فَاسْمَحْ[1] بِإِنْكَارِ الجَمِيعِ وَلَا تَكُنْ ... مُتَنَاقِضًا، رَجُلًا لَهُ وَجْهَانِ

٤٦٣- أَوْ لَا فَفَرِّقْ بَيْنَ مَا أَثْبَتَّهُ ... وَنَفَيْتَهُ بِالنَّصِّ وَالْبُرْهَانِ

٤٦٤- فَالْبَابُ بَابٌ وَاحِدٌ فِي النَّفْيِ وَالْـ ... إِثْبَاتِ فِي عَقْلٍ وَفِي مِيزَانِ

٤٦٥- فَمَتَى أَقَرَّ بِبَعْضِ ذَلِكَ مُثْبِتٌ ... لَزِمَ الْجَمِيعَ أَوِ ائْتِ بِالْفُرْقَانِ

٤٦٦- وَمَتَى نَفَى شَيْئًا وَأَثْبَتَ مِثْلَهُ ... فَمُجَسِّمٌ مُتَنَاقِضٌ دَيْصَانِي

٤٦٧- فَذَرُوا المِرَاءَ وَصَرِّحُوا بِمَذَاهِبِ الْـ ... ـقُدَمَاءِ وَانْسَلِخُوا مِنَ الْإِيمَانِ

٤٦٨- أَوْ قَاتِلُوا مَعْ أُمَّةِ التَّجْسِيمِ وَالتْـ ... ـتَشْبِيهِ تَحْتَ لِوَاءِ ذِي الْقُرْآنِ

٤٦٩- أَوْ لَا فَلَا تَتَلَاعَبُوا بِعُقُولِكُمْ ... وَكِتَابِكُمْ وَبِسَائِرِ الْأَدْيَانِ

٤٧٠- فَجَمِيعُهَا قَدْ صَرَّحَتْ بِصِفَاتِهِ ... وَكَلَامِهِ وَعُلُوِّهِ بِبَيَانِ

(١) في نسخة الشرح: «فاسمع».

٤٧١- وَالنَّـاسُ بَـيْنَ مُصَـدِّقٍ أَوْ جَاحِـدٍ أَوْ بَـيْنَ ذَلِـكَ أَوْ شَـبِيهُ أَتَـانِ

الشرحُ

٤٦٢- فَاسْمَحْ بِإِنْكَـارِ الجَمِيـعِ وَلَا تَكُـنْ مُتَنَاقِضًـا، رَجُـلًا لَـهُ وَجْهَـانِ

قَوْلُهُ: «**فَاسْمَحْ بإِنْكَار الجَمِيعِ**» يعني: أَنْكِر الجميع، ويريد بذلك الأسماء والصفات كُلّها، وحينئذٍ يكون البابُ عنده مطّردًا، لا يثبت، لا الأسماء، ولا الصفات، ولا شَكَّ أن قاعِدتَهم هذه مُطّردة، لكن هل هي صحيحة، أو غير صحيحة؟ المهم أنَّ قاعدتهم مُطَّردة.

قَوْلُهُ: «**وَلَا تَكُنْ مُتَنَاقِضًا**» التناقُض هو أن يُثبتَ البعضَ، وينفي البعضَ، فمثلًا المعتزِلة: أثبتوا الأسماءَ، وأنكروا الصفات، إذن تناقضوا، أيّ فرق بين هذا وهذا؟! فمَنْ أثبت الأسماء لزِمه أن يُثبت الصفات.

والأشاعرة -مثلًا- أثبتوا الأسماء، ولم يثبتوا مِن الصفات إلَّا سبعَ صفاتٍ فقط، هذا المعروف عنهم، وربما يكون هناك فِرَق أخرى أثبتت أكثر مِن السبع، أو فسرتها بتفاسير أخرى، فالأشاعرة أثبتوا الحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام، والإرادة، كما قال السفاريني -رحمه الله-[1]:

لَهُ الحَيَـاةُ، وَالكَـلَامُ، وَالبَصَـرْ، سَـمْعٌ، إِرَادةٌ، وَعِلْـمٌ وَاقْتَـدَرْ
بِقُـدَرةٍ تَعَلَّقَـتْ بِمُمْكِـنِ كَـذَا، إِرَادةٌ، فَـعِ وَاسْـتَبِنِ

(١) انظر كتابه: (لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية) (١/ ١٣٠).

فهؤلاء متناقضون، نقول لهم: لماذا أثبتم السبع الصفات، ولم تثبتوا غيرها؟! إما أن تثبتوا الجميع فتُوافقوا أهلَ السُّنَّة، وإما أن تنفوا الجميع فتُوافقوا المعتزِلة الذين تزعمون أنكم أنتم الذين تصدَّيتم للرَّدِّ عليهم، ولهذا نقول: المعتزلة أطردُ في القاعدة مِن الأشاعرة، وإن كانوا أخطئوا في إثبات الأسماء دون الصفات.

وقد قرأنا لبعض كُتَّابهم أنه لم يَرُدَّ أحد على المعتزِلة كما رَدَّ عليهم الأشاعرةُ. وهذا كذِبٌ وبُهتانٌ.

المهم أنَّ الاضطراد إما بإنكار الجميع، وإما بإثبات الجميع، ولهذا قال:

٤٦٣- أَوْ لَا فَفَــرِّقْ بَــيْنَ مَــا أَثْبَتَّــهُ وَنَفَيْتَــهُ بِــالنَّصِّ وَالْبُرْهَــانِ

قَوْلُهُ: «**أَوْ لَا**» يعني: لا تُنْكر الجميعَ، أنكِر بعضها.

قَوْلُهُ: «**فَفَرِّقْ بَيْنَ مَا أَثْبَتَّهُ وَنَفَيْتَهُ بِالنَّصِّ والبُرْهَانِ**» هل يقدر أو لا يقدر؟ الجواب: لا يقدر أن يفرِّق بين ما أثبته وما نفاه.

فالأشاعرة -كما سبق- لا يُثبِتون لله إلَّا سبع صفاتٍ، والباقي لا يثبتونه، فالرحمة، والرضى، والغضب، والسخط، والكراهة، والبُغض، والمحبة، والوجه، وما أشبه ذلك، كُلُّ هذا -عندهم- ليس بثابتٍ لله على وجه الحقيقة، ويَجب أن يُؤوَّل، لماذا؟

منهم مَنْ قال: لأنَّ العقل لا يدل عليه، ونحن لا نُثْبِت إلَّا ما دلَّ عليه العقل.

ومنهم مَنْ قال: لأنَّ إثباته يَسْتَلْزِمُ التجسيمَ، لأننا لا نشاهد ما يتصف بذلك إلَّا ما هو جسم، فإذا أثبتنا حقيقته لله لزِم أن يكون جسمًا، ثُمَّ قالوا: الأجسام متماثِلة، وكل ما استَلْزَمَ باطلًا فهو باطل، لأنَّ المماثَلةَ باطلةٌ.

نقول لهم: ما دليلكم على إثبات العقل لهذه الصفات السبع؟ قالوا: الإيجاد يدلُّ على القدرة، فالسموات والأرض والبشر والحيوان كُلُّها مُوجَدٌ لله، فهذا دليل على القدرة، وهذا صحيح.

والتخصيص يدلُّ على الإرادة، ومعنى التخصيص أن يقول: هذه سماء، وهذه أرض، وهذا إنسان، وهذا جمل، وهذه شمس، وهذا قمر، فهذا يدلُّ على أنَّ هناك إرادةً فَرَّقَتْ بين الموجودَيْنِ، ولولا الإرادة لكان الخَلْقُ كُلُّهم شيئًا واحدًا، إذن تخصيصُ كُلِّ واحدٍ مِن المخلوقات بما يختصُّ به دليلٌ على الإرادة، وهذا صحيح.

لو نظرنا إلى هذه المخلوقات وجدنا أنها مُحكَمةٌ متقَنةٌ، قال الله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس:٤٠] قالوا: إحكامُ هذه الأشياء وإتقانُها يَدُلُّ على العلم، لأنَّ الجاهل لا يُتْقِنُ، فلو أعطيت شخصًا مسجِّلًا لِفكِّه وتركيبه وهو لا يعرف ذلك، فإنه لا يستطيع ذلك، لأنه لا دراية ولا عِلم له بذلك، حتَّى لو قام بتركيبه على غير انتظام، فإنّ المسجلَ لا يعمل.

قالوا: فهذا النظام البديع، والإحكام الغريب يدلُّ على العِلم.

وهذا صحيح، فنوافقهم على ذلك، فاجتمع عندنا الآن ثلاث صفات، وهي: القدرة، والإرادة، والعلم.

قالوا: وهذه الصفات لا تقوم إلَّا بِحَيٍّ، لأنَّ الميت لا يستطيع، فليس عنده قدرة، ولا إرادة، ولا عِلم، إذن نثبت صفةَ الحياة بهذه الطريقة بأنها مِن لازم كونه عليمًا قادرًا مُريدًا أن يكون حيًّا. وهذا صحيح.

والحيُّ إمّا أن يكون أعمى أصمَّ أخرسَ، أو بصيرًا سميعًا متكلِّمًا، والأول

ممتنِع على الله، فلا يمكن أن يكون بهذا العيب، فبقِي الثاني، ولزم أن يكون سميعًا بصيرًا متكلِّمًا.

فنقول: وهذا أيضًا صحيح، وليتهم قالوا: والمريد إما أن يكون سفيهًا، وإمّا أن يكون حكيمًا، وهذا صحيح، والأول ممتنِع، فلزم الثاني، وهو الحكمة، لكن لم يقولوا هذا، وما هُدوا إليه، مع العِلم بأن هذا مِن أظهر ما يكون، فمثال المريد للشيء: الصبي الذي يمسك فنجان الشاي ويضرب به البيت، فهو هنا مريدٌ، لكن فِعله هذا سَفَهٌ، وليس بِحِكْمَة.

إِذَنْ كُلُّ مُريدٍ فإما أن يكون حكيمًا، وإما أن يكون سفيهًا، والثاني ممتنِعٌ على الرَّبِّ عزَّ وجلَّ، فلزِم أن يكون حكيمًا، ولهذا يقولون: فِعلُ الله، وحُكم الله، وتشريع الله لغير حكمة، لكن لمطلق الإرادة.

فالآن هذا دليل العقل لإثبات هذه الصفات السبع، والباقي -وهو كل ما حوى مِن قاموس الكتاب والسنّة- لم يثبتوه، وهذا مِن أعظم التناقض، فنحن نردُّ عليهم بأشياء كثيرة، بوجوه عقلية، فنقول:

أولًا: اعتمادكم على العقل فيما يُثْبَتُ لله، وفيما يُنْفَى عنه، هذا باطلٌ مِن أصله، لأنَّ الرسولَ ﷺ والصحابةَ والخلفاءَ والأئمةَ مِن بعدِهم ما جعلوا مَدار هذه الأشياء على العقل، فالاعتمادُ على العقل طريقٌ مُحْدَثٌ بِدْعِيٌّ وضلال، لقول الرسول -عليه الصلاة والسلام-: «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالةٍ فِي النَّارِ»[1].

ثانيًا: نقول: اعتمادُكم على العقل مخالِفٌ للعقل، ولا نقول: العقل لا يثبته، بل نقول: هو مخالفٌ للعقل، وبين هذه والتي قبلها فرق، كيف يكون مخالفًا

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧).

للعقل؟ لأنَّ مِن المعلوم لكلِّ أحد أنَّ طريق الإثبات في هذه الأمور هو السمع، فليس لنا طريق أن نثبت لله تعالى مِن ذلك شيئًا، أو نَنفيَه إلَّا عن طريق السمع، فالعقل إذن يؤيد أننا لا نعتمد في إثبات هذه الأمور، أو نفيها إلَّا على السمع، لا على العقل، فصار تحكيم العقل في هذه الأمور مخالفًا للعقل.

ثالثًا: أن نقول: يمكن أن نثبت ما نفيتموه بالعقل، كما أثبتُّم ما أثبتموه بالعقل، مع أن نفي الأمور الخبرية لا مدخل للعقل فيها، إذ إن موقف العقل سيكون التوقف.

ونقول مثلًا: جلبُ النِّعَمِ، ودفعُ النِّقمِ دليلٌ على الرحمة، فَلْتُثْبَت، كما استدللتم بالتخصيص على الإرادة، بل ودلالة ذلك على الرحمة أقوى مِن دلالة التخصيص على الإرادة الذي زعمت أيها الأشعريّ أنه دليل عقلي على إثبات الإرادة.

هم يقولون: الإرادة تُثْبَتُ بالعقل، لأننا نشاهد المخلوقات لها خصائص، كلّ واحد له خصيصة، فتخصيصُ كُلِّ شيء بما يختص به يدلُّ على أنَّ هناك إرادة.

نقول: سبحان الله! هذا الدليل الخفيّ الذي قد يَعْسُرُ فَهْمُه على طالب العلم هل هو أقوى مِن دليل الغيث على الرحمة؟ الجواب: لا والله، ليس بأقوى.

ونقول: عقوبةُ المجرمين ومثوبةُ الطائعين دليلٌ على كراهة الأوَّلين ومحبَّةِ الآخرين، إذ لا يمكن لشخص أن يمسكَ إنسانًا ويجلده، ويضربه ضربًا مُبَرِّحًا، ويقول له: (والله إني أُحِبُّك، فأنت أحبُّ إليَّ مِن كثير مِن الناس)، وهو يضربه، فالعقوبة تدلُّ على الكراهة.

لكن واحد يضرب شخصًا ضربًا مبرِّحًا ويجلده، ويقول له: (والله إني أكرهك) فهذا صادق، وإنسان آخر دعا شخصًا إلى بيته، وأكرمه غاية الإكرام،

وألبسه مِن خير اللِّباس، وأركبه مِن خير المركوب، وقال: تدري لِـمَ فعلتُ بك هذا؟ قال: نعم، قال: لأني أكرهك. فلا يمكن هذا.

إِذَنْ مثوبة الطائعين وعقوبة المجرمين دليلٌ واضح على أن الله يُحِبُّ الأوَّلين ويكرهُ الآخرين.

فنقول لهم: يمكن أن نُثْبِتَ ما نفيتموه بطريق العقل كما أثبتم أنتم ما أثبتموه بطريق العقل، بل إِنَّ إثباتنا قد يكونُ أوضح.

رابعًا: أن نقول: هَبْ أن العقلَ لا يدلُّ على ما نَفَيْتم، هب أن العقلَ لا يدل على إثبات الرحمة لله، أو إثبات الرِّضى، أو الغضب، أو ما أشبه ذلك، ولكن السمع أثبته، فإذا انتفى الدليلُ العقلِيُّ على زعمكم، فقد أثبته الدليلُ السمعيُّ، والقاعدة التي أطبق عليها جميع العقلاء أنَّ انتفاءَ الدليلِ المُعَيَّن لا يستلزمُ انتفاءَ المدلول، لأنَّ المدلول قد يَثْبُت بدليل آخر، فإذا انتفى هذا الدليل، فهناك دليل آخر، فهب أن هذا الدليل قد انتفى، لكن هناك دليلٌ آخر.

وكما أن هذا في المعقولات فهو أيضًا في المحسوسات، أرأيت لو كان لِـمَكَّةَ ثلاثة طرق، فأردتُ أن أسافر إليها، فجاءني رجل فقال: إنَّ الطريق الشمالي مغلق، فقلت: إذن أذهبَ مِن الطريق الوسط، فقال: مغلق، فأقول: أذهب مِن الطريق الجنوبي، فهل إذا انسدَّ طريقان يوصلان إلى مكة، ولها ثلاثة طرق، يستلزم انسداد الطريق الثالث؟ الجواب: لا.

فإذا كانت هذه الصفات -كما زعمتم- لا يدلُّ عليها العقل، فالسمع يدلُّ عليها، فوجب إثباتُها بالدليل السَّمْعِيِّ القائمِ السالمِ عن المُعارِض المقاوِم.

فتبيَّن بهذا أنَّ المؤلف -رحِمه الله- يقول لهؤلاء الجماعة: أنتم متناقِضون،

والمعتزِلة أكثر اضطرادًا منكم في القاعدة، لأنَّ المعتزِلةَ يُنكِرون كُلَّ الصفات، فيقولون: أريحونا مِن التناقض، فليس لله صفة، فلا عِلم، ولا قُدرة، ولا حياة، ولا حكمة، ولا كلام، وأما الجهمية فينكرون الأسماء والصفات.

انظر -والعياذ بالله- فكُلٌّ أخذ قسمًا، فالجهمية قالوا: دعُونا مِن التناقض، لا تقولوا: لماذا أثبتم الأسماء ونفيتم الصفات؟ فالكُلُّ نَفِرٌّ منه جميعًا، فلا اسمَ، ولا صفة.

فاحمدوا الله على أنْ عافاكم مما ابتلاهم به.

وأمَّا أهل السنة فقالوا: نُثبِت كل ما أثبته الله لنفسه في كتابه، أو على أَلْسِنة رُسُله.

وهذا هو الحقّ، لأنَّ هذه أمور غيبية لا تُدْرَكُ بالعقل، فوجب تلقيها مِن السمع (**الكتاب والسنَّة**).

فالمهم أنَّ الأشاعرةَ متناقِضون لا شكَّ، فما هو الطريق السليم الصحيح؟

الجواب: الطريق هو إثبات الجميع، فكلُّ ما سَمَّى الله به نفسه فثابتٌ، وكُلُّ ما وصف به نفسه فثابتٌ على الوجه الحقيقي، لكن يجب أن نلاحظَ قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ولهذا قال المؤلف -رحمه الله-:

٤٦٤- فَالْبَابُ بَابٌ وَاحِدٌ فِي النَّفْيِ وَالْـ إِثْبَاتِ فِي عَقْلٍ وَفِي مِيزَانِ

نحن الآن في سياق الرَّدِّ على الأشاعرة الذين يُثبتون بعضًا، وينفون بعضًا، فهو يقول: كيف تُثبتُ شيئًا، وتنفي مِثله والبابُ بابٌ واحد؟! إما أن تُثبتَ الجميعَ، وإما أنْ تنفيَ الجميعَ، وهذا هو العدل.

٤٦٥- فَمَتَـى أَقَـرَّ بِـبَعْضِ ذَلِـكَ مُثْبِـتٌ   لَـزِمَ الْـجَمِيعَ أَوِ ائْـتِ بِالْفُرْقَـانِ

قَوْلُهُ: «**فَمَتَى أَقَرَّ بِبَعْضِ ذَلِكَ مُثْبِتٌ**» لو قال المؤلف: «**فمتى أَقَرَّ ببعض ذلك مُثْبِتًا**» لكان أحسن، والمعنى: إذا أَقَرَّ ببعض ذلك مُثبتًا له لزِمه الجميعُ، أو أن يأتيَ بالفرقان، فيقول: أَثْبَتُّ كذا لكذا، ونَفَيْتُ كذا لكذا.

وقد تقدَّم أنَّ الأشاعرة لهم شُبْهَة فيما أثبتُوه، ولهم شُبهة فيما نَفَوْهُ، وسَبَقَ أن شُبْهَتَهُمُ التي احتجوا بها باطلةٌ مِن عدة أوجه:

أولًا: الاعتماد على العقل غير صحيح.

ثانيًا: العقل يقتضي عدم الاعتماد على العقل.

ثالثًا: إذا قُدِّرَ أن العقل لم يدلّ فقد دَلَّ عليه السمع، وانتفاء الدليل المُعَيَّن لا يَسْتَلْزِم انتفاء المدلول.

رابعًا: أنَّ العقل قد دلَّ على ما نفَوْه بالعقل.

خامسًا: ويمكن أيضًا أن نستدلَّ على بطلان مذهبهم بالتناقض، فنقول: مذهبكم متناقض أيضًا، إذ لا فرق بين ما نفيتموه وبين ما أثبتموه.

سادسًا: نقول: إنَّ نفيَكم يَلْزَمُ منه أنكم فررتم مما أثبته الله لنفسه، ووقعتم في نظير ما فررتم منه، وضربنا مثلًا فيما سبق بـ(اليد)، قالوا: لا نثبتها، لأنَّ للإنسان يدًا، وإثبات اليد يَسْتَلْزِمُ التشبيه، قلنا: قلتم: إنها بمعنى القوة، وللإنسان قوة، فإثبات القوة عندكم يستلزم التشبيه، فوقعتم في مِثل ما فررتم منه، ولكن على وجهٍ أقبحَ، وهو تحريفكم للنصوص عن ظاهرها إلى هذا المعنى الذي أبديتموه.

إذا أقرُّوا بثبوت السبع الصفات يلزمهم إثبات البقية، وإلَّا فليأتوا بالبرهان، ولا برهانَ لهم والحمد لله، وقد أبانَ اللهُ -سُبحانَه وتعالَى- الحقَّ على يد أهل العلم الربَّانيين.

٤٦٦- وَمَتَى نَفَى شَيْئًا وَأَثْبَتَ مِثْلَهُ فَمُجَسِّمٌ مُتَنَاقِضٌ دَيْصَانِي

قَوْلُهُ: «مُجَسِّم»، لأنه أثبت، وهو يدَّعي أنَّ الإثبات يَستلزِم التشبيه.

قَوْلُهُ: «مُتَنَاقِضٌ» حيث نفى شيئًا قد أثبت مِثلَه، فهو مُجَسِّمٌ مُتَنَاقِض.

قَوْلُهُ: «دَيْصَانِي» نسبة إلى طائفة الدَّيْصانية(١).

٤٦٧- فذَرُوا المِرَاءَ وَصَرِّحُوا بِمَذَاهِبِ الْـ ـقُدَمَاءِ وَانْسَلِخُوا مِنَ الْإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «ذَرُوا المِرَاءَ» يعني: اتركوا الجدال، والجدال بغير الحقِّ، أو لغير الحقِّ مِراء، وأمَّا الجدال بالحقِّ، فليس بِمِراء، بل هو لإثبات الحقِّ، فلا يُذَمُّ الإنسانُ عليه.

قَوْلُهُ: «وَصَرِّحُوا بِمَذَاهِبِ الْقُدَمَاءِ» يعني بذلك الفلاسفةَ الذين انسلخوا مِن الأديان.

---

(١) الديصانية: أصحاب ديصان، أثبتوا أصلين نورًا، وظلامًا، فالنور يفعل الخير قصدًا واختيارًا، والظلام يفعل الشر طبعًا واضطرارًا، فما كان مِن خير، ونفع، وطيب، وحسن، فمن النور. وما كان من شر وضرر، ونتن، وقبح، فمن الظلام، وزعموا أن النور: حي، عالم، قادر، حساس، دراك، ومنه تكون الحركة والحياة، والظلام: ميت، جاهل، عاجز، جماد، موات، لا فعل له ولا تمييز. وزعموا أن الشر يقع منه طباعًا وخرقًا، وزعموا أن النور جنس واحد، وكذلك الظلام جنس واحد، وأن إدراك النور إدراك متفق، فإن سمعه وبصره وسائر حواسه شيء واحد، فسمعه هو بصره، وبصره هو حواسه، وإن ما قيل سميع بصير، لاختلاف التركيب، لا لأنهما في نفسهما شيئان مختلفان. انظر: الملل والنحل (٢/ ٥٥).

يقول: إذا كان الأمرُ على هذا الوجه، والعقيدة على هذا الوجه المتناقِض فاتركوها، دعونا لنكونَ مطَّرِدين في القاعدة، انسلخوا مِن الإيمان.

وبهذا نعرف ضلال مَن قال مِن الناس: إنَّ الأشاعرة الذين حَكَّموا العقل هم الذين سَدُّوا البابَ على الفلاسفة والمناطقة، وابن القيم على العكس مِن هذا الرأي، إذ يرى أن هؤلاء هم الذين فتحوا البابَ للفلاسفة والمناطقة والملحدين.

قال: إذا كنتم متناقضين في عقيدتكم -وهذه عقيدة فليست بهينة، فليست بكلامٍ يُقال، بل عقيدة، كيف تُثبتون الإرادة وتنفون الرحمة والباب واحد؟! إذن هذه عقيدة باطلة متناقضة لا نرضاها، فنرضى على زعمهم النفيَ في كُلِّ شيء، والكفر- فانسلخوا مِن الإيمان، وهذه العقائد المتناقضة الفاسدة، وقولوا: لا نؤمن بشيء أبدًا.

فَتبيَّن بهذا أَنَّ تناقضَ هؤلاء واضطرابهم هو الذي فتح للملاحدة الباب، قالوا: كيف يبني إنسان عقيدتَه -التي عليها محياه ومماته- على أمورٍ متناقضة؟! هذا لا يمكن.

وهذه نقطة مهمة في كلام ابن القيم -رحمه الله-.

٤٦٨- أَوْ قَاتِلُوا مَـعْ أُمَّـةِ التَّجْسِيمِ وَالتْـ ـتَشْبِيهِ تَحْـتَ لِـوَاءِ ذِي الْقُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «قَاتِلُوا مَعْ أُمَّةِ التَّجْسِيمِ» يعني: على زعمهم، والمراد بهم أهل السُّنَّة حتى عند الأشاعرة، فهم يقولون: أنتم يا أهل السنّة مُجَسِّمَة.

فإذا رأيت في كتبهم: (مُجَسِّمة) فاعلَمْ أنهم يقصدون بذلك أهلَ السنة والجماعة.

فالفلاسفة يقولون: لكم أحد أمرين: إما أن تنسلخوا مِن الأديان كُلِّيَّةً، وإلَّا كونوا مع أهل التجسيم والتشبيه، قاتلوا مع هؤلاء الأئمة الذين تعتقدون أنهم مُشَبِّهة مُجَسِّمة، لأنَّ كلامَ أهل التجسيم والتشبيه -على زعمهم- غيرُ متناقِض، فكلامهم مُطَّرِد، وهو إثبات ما أثبته لنفسه مِن غير فرق بين صفة وصفة.

قَوْلُهُ: «تحتَ لِوَاءِ ذِي القُرْآنِ» أي: تحت لواء صاحب القرآن.

٤٦٩- أَوْ لَا فَـلَا تَتَلَاعَبُـوا بِعُقُـولِكُمْ   وَكِتَـابِكُمْ وَبِسَـائِرِ الْأَدْيَـانِ

٤٧٠- فَجَمِيعُهَـا قَـدْ صَرَّحَـتْ بِصِـفَاتِهِ   وَكَلَامِـهِ وَعُلُـوِّهِ بِبَيَـانِ

يعني: إذا لم تكونوا مع أُمة التشبيه والتجسيم، فأنتم مُتَلاعبون بكتابكم وعقولكم وبسائر الأديان، لأنَّها كُلَّها قد صَرَّحَت بصفاته وكلامه وعلوِّه ببيان.

انظر الآن إلى الفلاسفة والملاحدة الذين يرون أن الذين يُنكِرون بعضًا ويُثبتون بعضًا لم يُحَكِّموا العقلَ، وأنَّ هذا التناقضَ تلاعبٌ بالعقول.

٤٧١- وَالنَّـاسُ بَـيْنَ مُصَـدِّقٍ أَوْ جَاحِـدٍ   أَوْ بَـيْنَ ذَلِـكَ أَوْ شَـبِيهُ أَتَـانِ

قَوْلُهُ: «أتان» الأتان: أنثى الحمار.

فالناس على أربعة أقسام:

الأول: «مصَدِّقٍ» كأهل السنة، أي: مُقِرّ بما أثبته اللهُ لنفسه، وأثبته له رسولُه.

الثاني: «أَوْ جَاحِدٍ» كأهل التعطيل، يعني: منكرًا.

الثالث: «أَوْ بَيْنَ ذَلِكَ» كالأشاعرة مُصَدِّق ببعض وجاحد ببعض.

الرابع: البليد: الذي ليس عنده عقيدة إطلاقًا، لا هذا ولا هذا، فيقول: إن هذا يُشبه الأتان، أي: الحمارة، والعياذ بالله.

* * *

٤٧٢- فَاصْنَعْ مِنَ التَّنْزِيهِ تُرْسًا مُحْكَمًا ... وَانْفِ الْجَمِيعَ بِصَنْعَةٍ وَبَيَانِ

٤٧٣- وَكَذَاكَ لَقِّبْ مَذْهَبَ الْإِثْبَاتِ بِالتْـ ... ـتَجْسِيمِ، ثُمَّ احْمِلْ عَلَى الْأَقْرَانِ

٤٧٤- فَمَتَى سَمَحْتَ لَهُمْ بِوَصْفٍ وَاحِدٍ ... حَمَلُوا عَلَيْكَ بِحَمْلَةِ[1] الْفُرْسَانِ

٤٧٥- فَصُرِعْتَ صِرْعَةَ مَنْ غَدَا مُتَلَبِّطًا ... وَسْطَ الْعَرِينِ مُمَزَّقَ اللُّحْمَانِ

٤٧٦- فَلِذَاكَ أَنْكَرْنَا الْجَمِيعَ مَخَافَةَ التْـ ... ـتَجْسِيمِ إِنْ صِرْنَا إِلَى الْقُرْآنِ

٤٧٧- وَلِذَا خَلَعْنَا رِبْقَةَ الْأَدْيَانِ مِنْ ... أَعْنَاقِنَا فِي سَالِفِ الْأَزْمَانِ

الشرحُ

٤٧٢- فَاصْنَعْ مِنَ التَّنْزِيهِ تُرْسًا مُحْكَمًا ... وَانْفِ الْجَمِيعَ بِصَنْعَةٍ وَبَيَانِ

قَوْلُهُ: «التَّنْزِيه» يعني: أَنْ تُنَزِّه اللهَ عزَّ وجلَّ عن مشابهة المخلوقين، وهم بإنكارهم ما أنكروه مِن الأسماء والصفات كلِّها، أو بعضها إنما يريدون -على زعمهم- التنزيه، وأنه لو وُصِفَ اللهُ تعالى بما وُصِفَ به لكان مشابهًا للمخلوق.

فيقول: «اصْنَعْ مِنَ التَّنْزِيهِ تُرْسًا مُحْكَمًا» يعني: تَتَرَّسْ بالجحد، والتُّرْس ما يَتَتَرَّسُ به المقاتل، حتى لا تصيبَه السهام، فخذْ مِن التنزيه الذي هو الجحد تُرسًا محكمًا، وقلْ: نُنَزِّه الله أن نثبت له شيئًا، لأننا إذا أثبتنا له شيئًا شبَّهناه بالأجسام.

---

(١) في نسخة الإفتاء وبرلين السفارينية: «بجملة» بجيم تحتانية.

٤٧٣- وَكَذَاكَ لَقِّبْ مَذْهَبَ الْإِثْبَاتِ بِالتْـ ـتَجْسِيمِ، ثُـمَّ احْمِـلْ عَـلَى الْأَقْـرَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ لَقِّبْ مَذْهَبَ الإثْبَاتِ بِالتَّجْسِيم» إذن أَثْبِتْ وانْفِ، أثبت بأنَّك مُنزِّه، وانفِ بأنَّ المُثْبِتَ مُجَسِّمٌ، فيكون لك مَقتلان:

الأول: أنك تريد التنزيهَ بهذا التعطيل.

الثاني: أنَّ المثبِتَ مُجَسِّمٌ.

قَوْلُهُ: «ثُمَّ احْمِلْ عَلَى الأقْرَانِ» الأقران جمع (قِرْن) وهو المماثل للإنسان، ولهذا يُقَال: فلانٌ قِرْنُ فلانٍ، أو قَرينه، أي: مماثل له.

٤٧٤- فَمَتَى سَمَحْتَ لَـهُمْ بِوَصْفٍ وَاحِدٍ حَمَلُـوا عَلَيْـكَ بِحَمْلَـةِ الْفُرْسَـانِ

يعني: لو أنك أَثْبَتَّ وصفًا واحدًا حَمَلُوا عليك، لكن كيف يحملون عليك؟

الجواب: بأن يقولوا: أنت أَثْبَتَّ كذا، فما الفَرق بينه وبين ما نفيتَ؟

إِذَنْ لا تُثْبِت شيئًا حتى تَسْلَمَ مِن الإيراد والتناقض.

وهذه وصية غير مقبولة، لكن هم يُوصي بعضُهم بعضًا، ويقول: إيَّاك أن تُقِرَّ بوصف واحد، إِنْ أقررتَ لله بوصفٍ واحد قالوا لك: ما الفرق؟ أثبِتِ الباقيَ، أو انفِ الكُلَّ.

٤٧٥- فَصُرِعْتَ صِرْعَةَ مَـنْ غَـدَا مُتَلَبِّطًـا وَسْـطَ الْعَـرِينِ مُـمَزَّقَ اللُّحْـمَانِ

يعني أنك إذا فعلتَ هذا، وأقررتَ بوصفٍ، وحَمَلُوا عليك صرعوك «صِرْعَةَ مَنْ غَدَا مُتَلَبِّطًا وَسْطَ العَرِينِ»، والعَرِين هو مَسكن الأسد، والأسد معروف أنه يأكلُ الآدميَّ، ويُمَزِّقُ لحمَه في مكانه.

٤٧٦- فَلِذَاكَ أَنْكَرْنَا الْـجَمِيعَ مَخَافَـةَ التْـ ـــتَجْسِيمِ إِنْ صِرْنَـا إِلَى الْقُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «أَنْكَرْنَا الْـجَمِيعَ» يعني: جميع الصفات على رأي المعتزِلة، أو الأسماء والصفات على رأي غُلاةِ الجهمية، «مَخَافَةَ التَّجْسِيمِ إنْ صِرْنَا إلى القُرْآنِ».

وسبحان الله! أنا لا أظنهم يُعبِّرون بهذا التعبير «مَخَافَةَ التَّجْسِيمِ إنْ صِرْنَا إلى القُرْآنِ» إلَّا إذا أراد المؤلفُ -رحِمه الله- بقوله: «إنْ صِرْنَا إلى القُرْآنِ» أي: إلى ظاهر القرآن، أمَّا أن يُعلنوا أنهم على خلاف القرآن فلا أظنهم يفعلون هذا، لكن يجب أن يُحمَل كلام المؤلف على أن المعنى: إنْ صِرْنَا إلى ظاهر القرآن، لأنهم يَرَوْنَ أنَّ ظاهر القرآن فيما يتعلق بالصفات يَسْتَلْزِمُ التجسيمَ والتشبيهَ.

٤٧٧- وَلِـذَا خَلَعْنَـا رِبْقَـةَ الْأَدْيَـانِ مِـنْ أَعْنَاقِنَـا فِي سَـالِفِ الْأَزْمَـانِ

فهم خَلَعُوا رِبْقَةَ الأديان مِن أعناقهم -والعياذ بالله- وعلى زعمهم أنهم تَحَرَّرُوا، ولكنهم في الحقيقة لم يتحرَّروا، فهم غَلُّوا أيديَهم إلى أعناقهم بِرِقِّ الشيطان، والنفسِ الأمَّارة بالسوء.

* * *

٤٧٨- وَلَنَـا مُلُـوكٌ قَـاوَمُوا الرُّسْـلَ الأُلَى جَـاءُوا بِإِثْبَـاتِ الصِّـفَاتِ كَـمَانِي

٤٧٩- فِي آلِ فِرْعَـونٍ وَهَامَـانٍ وَقَـا رُونٍ وَنُمْـرُودٍ وَجِنْكِزْخَـانِ

٤٨٠- وَلَنَـا الْأَئِمَّـةُ كَالْفَلَاسِـفَةِ الْأُلَى لَـمْ يَعْبَئُـوا أَصْـلًا بِـذِي الْأَدْيَـانِ

٤٨١- مِـنْهُمْ أَرِسْـطُو ثُـمَّ شِـيعَتُهُ إِلَى هَـذَا الْأَوَانِ وَعِنْـدَ كُـلِّ أَوَانِ

٤٨٢- مَـا فِـيهُمُ مَـنْ قَـالَ إِنَّ اللهَ فَـوْ قَ الْعَـرْشِ خَـارِجَ هَـذِهِ الْأَكْـوَانِ

٤٨٣- كَـلَّا وَلَا قَـالُوا بِـأَنَّ إِلَـهَنَا ... مُـتَكَلِّمٌ بِـالْوَحْيِ وَالْقُـرْآنِ

٤٨٤- وَلِأَجْـلِ هَـذَا رَدَّ فِرْعَـونٌ عَـلَى ... مُوسَى وَلَـمْ يَقْـدِرْ عَـلَى الْإِيمَانِ

٤٨٥- إِذْ قَـالَ مُوسَـى: رَبُّنَـا مُـتَكَلِّمٌ ... فَـوْقَ السَّمَاءِ وَإِنَّـهُ مُتَـدَانِي

الشرحُ

٤٧٨- وَلَنَـا مُلُـوكٌ قَـاوَمُوا الرُّسْـلَ الأُلَى ... جَـاءُوا بِإِثْبَـاتِ الصِّـفَاتِ كَـمَانِي

٤٧٩- فِي آلِ فِرْعَـونٍ[(١)] وَهَامَـانٍ[(٢)] وَقَـا ... رُونٍ[(٣)] وَنُمْـرُودٍ[(٤)] وَجِنْكِزْخَـانِ[(٥)]

كُلُّ هؤلاء الذين ذُكِروا طُغاة، والعياذ بالله.

على كُلِّ حال هو يتكلَّم عن هؤلاء الذين عطَّلوا الصفات، مثل: ابن سينا وأتباعه، وأئمَّة الكفر، وقال: إنهم يستدلون بقول فرعون وهامان، والله عزَّ وجلَّ يقول عن قوم فرعون: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص:٤١].

قال المؤلف -رحمه الله-:

٤٨٠- وَلَنَـا الْأَئِمَّـةُ كَالْفَلَاسِـفَةِ الْأُلَى ... لَـمْ يَعْبَئُـوا أَصْـلًا بِـذِي الْأَدْيَـانِ

---

(١) فرعون: ملك مصر الجبار الذي أُرسل إليه موسى -عليه السلام-.

(٢) وهامان: وزيره. [الشارح].

(٣) قارون: كان من بني إسرائيل لكنه كان غنيًّا، ويَدين بدين فرعون. [الشارح].

(٤) نمرود: هو ابن كنعان ملك بابل، كان على زمن الخليل إبراهيم -عليه السلام-، ذكروا أنه هو الذي حاجَّ إبراهيم في ربه، وكان جبارًا طاغية. [الشارح].

(٥) جنكزخان، سبق ذكره. [الشارح].

الفلاسفة يُقال: إنهم الحكماء، وأصل الفلسفة يعني: الحكمة.

هؤلاء الفلاسفة لا يؤمنون بالرَّبِّ حسَبَ ما يُظهِرون، ويقولون: إن الكونَ يتفاعل، وينتقل حسب قوانين ونُظُم يَدَّعُونها، ولذلك «**لَـمْ يَعْبَئُوا أَصْلًا بِذِي الأَدْيَانِ**» منهم: أرسطو.

ولذا قال:

٤٨١- مِـنْهُمْ أَرِسْـطُو[1] ثُـمَّ شِـيعَتُهُ إِلَى ... هَـذَا الْأَوَانِ وَعِنْـدَ كُـلِّ أَوَانِ

٤٨٢- مَـا فِـيهُمُ مَـنْ قَـالَ إِنَّ اللهَ فَـوْ ... قَ الْعَـرْشِ خَـارِجَ هَـذِهِ الْأَكْـوَانِ

٤٨٣- كَـلَّا وَلَا قَـالُوا بِـأَنَّ إِلَـهَنَا ... مُـتَكَلِّمٌ بِـالْوَحْيِ وَالْقُـرْآنِ

٤٨٤- وَلِأَجْـلِ هَـذَا رَدَّ فِرْعَـونٌ عَـلَى ... مُوسَـى وَلَـمْ يَقْـدِرْ عَـلَى الْإِيـمَانِ

٤٨٥- إِذْ قَـالَ مُوسَـى: رَبُّنَـا مُـتَكَلِّمٌ ... فَـوْقَ السَّـمَاءِ وَإِنَّـهُ مُتَـدَانِي

قَوْلُهُ: «**مِنْهُمْ**» أي: مِن أئمة الفلاسفة.

وأرسطو كان تلميذًا لأفلاطون، ولكنه خالفه في كثير مِن المسائل.

قَوْلُهُ: «**مُتَدَانِي**» وفي نسخة «**نَادَانِي**»، والظاهر أَنَّ «**ناداني**» أحسن، وعلى نسخة «**متداني**» يعني: كأنه قال: إنَّ الله -سُبحانَه وتعالَى- فوق السماء، وإنه كَلَّمني عن قُربٍ، كقوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢].

---

(١) أرسطو: هو الفيلسوف اليوناني المشهور، واضع علم المنطق، ولد قبل الميلاد سنة (٣٨٤ ق.م)، ومات قبل الميلاد سنة (٣٢٢ ق.م)، وكان معلمًا للإسكندر الأكبر، وكان يحاضر وهو ماش فسمي هو وأتباعه بالمشائين، وكان له أثرٌ كبيرٌ في علم الفلسفة، فكان يلقب (المعلم الأول)، وأبو نصر الفارابي (المعلم الثاني)، وأبو علي بن سينا (المعلم الثالث). [الشارح].

٤٨٦- وَكَذَا ابْنُ سِينَا لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ وَلَا ... أَتْبَاعُهُ، بَلْ صَانَعُوا بِدِهَانِ
٤٨٧- وَكَذَلِكَ الطُّوسِيُّ لَمَّا أَنْ غَدَا ... ذَا قُدْرَةٍ لَمْ يَخْشَ مِنْ سُلْطَانِ
٤٨٨- قَتَلَ الخَلِيفَةَ، وَالقُضَاةَ، وَحَامِلِي الْـ ... ـقُرْآنِ، وَالْفُقَهَاءَ، فِي الْبُلْدَانِ
٤٨٩- إِذْ هُمْ مُشَبِّهَةٌ مُجَسِّمَةٌ وَمَا ... دَانُوا بِدِينِ أَكَابِرِ الْيُونَانِ
٤٩٠- وَلَنَا الْمَلَاحِدَةُ الْفُحُولُ أَئِمَّةُ التْـ ... ـتَعْطِيلِ وَالتَّشْبِيهِ[1] آلُ سِنَانِ
٤٩١- وَلَنَا تَصَانِيفٌ بِهَا غَالَيْتُمُ ... مِثْلُ: (الشِّفَا) وَ(رَسَائِلِ الإِخْوَانِ)

الشرحُ

٤٨٦- وَكَذَا ابْنُ سِينَا لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ وَلَا ... أَتْبَاعُهُ، بَلْ صَانَعُوا بِدِهَانِ

يعني أن ابن سِينا وأتباعَه ليسوا مِن هؤلاء الْمُثْبِتَة، ولا مِن أهل السُّنَّة، لكنهم صانَعوا، وأظهروا الإسلامَ مُداهنةً، وإلَّا فهُم زنادِقَة منافقون كُفَّار، إلَّا أَنَّهم أظهروا أنَّهم مسلمون، ولهذا يفخر أهلُ القومية العربية بأن ابنَ سينا منهم، وهو طبيب مشهور، فتجدهم يترفَّعون به، حتى إننا سمِعنا أن بعضَ المدارس والمستشفيات تُسَمَّى باسمه، مع أنه زِنْدِيقٌ مُلْحِدٌ.

٤٨٧- وَكَذَلِكَ الطُّوسِيُّ[2] لَمَّا أَنْ غَدَا ... ذَا قُدْرَةٍ لَمْ يَخْشَ مِنْ سُلْطَانِ

الطُّوسِيُّ كان وزيرًا لآخر خلفاء بني العباس، وكان خبيثًا ماكرًا مخادعًا،

(١) في نسخة: «والتسكين».
(٢) الطوسي: هو محمد بن محمد الطوسي الفيلسوف، كان وزيرا لهولاكو ملك التتر، وكان معه في واقعة بغداد التي قتل فيها الخليفة العباسي، يلقب نصير الدين، لكن لقبه ابن القيم في (إغاثة اللهفان) نصير الشرك والكفر، وسماه مُلحدا، وذكر له فظائع، ولد بطوس قرب نيسابور سنة (٥٩٧هـ)، ومات ببغداد سنة (٦٧٢هـ) عن (٧٥) سنة [الشارح]. انظر ترجمته في: البداية والنهاية (١٣/ ٣١٣).

طلب مِن التتر أن يَقْدَمُوا إلى بغداد عاصمة المُلك، وسَهَّلَ لهم الطريقَ، ووصف لهم كيف يأتون زمنًا ومكانًا، وحصل ما حصل مِن المصيبة العُظمى، كما يقول المؤلف -رحمه الله-:

٤٨٨- قَتَلَ الخَلِيفَةَ(١)، وَالقُضَاةَ، وَحَامِلِي الْـ ـــقُرْآنِ، وَالْفُقَهَـاءَ، فِي الْبُلْـدَانِ

قتل أممًا عظيمة مِن العلماء، قتلهم لأنَّهم مُشَبِّهة ومجسِّمَة، لأنَّ بغداد هي العاصمة التي فيها العلماء والفقهاء ووجهاء الأُمّة كلها، حصدهم، والعياذ بالله.

وقصتهم معروفة في كتب التاريخ كـ**(البداية والنهاية)** لابن كثير، و**(النهاية)** لابن الأثير.

الذي يقرأ كيف كان الأمر يجد فظائع، والعياذ بالله، نسأل الله السلامة.

وهو قد خدعَ السلطانَ الخليفة العبَّاسِيَّ.

٤٨٩- إِذْ هُـمْ مُشَـبِّهَةٌ مُجَسِّـمَةٌ وَمَـا دَانُـوا بِـدِينِ أَكَـابِرِ الْيُونَـانِ

إِذَنْ هو الآن يُقاتل لإحقاقِ الباطل، ورسوخِ الكفر، وهو يَدَّعِي أنه مُسْلِمٌ.

٤٩٠- وَلَنَا الْـمَلَاحِدَةُ الْفُحُولُ أَئِمَّـةُ التْـ ـــتَعْطِيلِ وَالتَّشْـبِيهِ آلُ سِـنَانِ

قَوْلُهُ: «**آل سنان**»: هذه قبيلة أشار إليها الهَرّاس في شرحه(٢) بقوله: (آل سِنان هي أُسرة قوية مِن أهل فارس، كانت تحكم في خُرَاسان، وفي كَنَفِها تَربَّى ابن سِينا، وعلى كُتُبهم تَخَرَّجَ، وكان لهم مكتبات حافِلة بشتَّى المؤلَّفات في جميع فروع العلم، ولا سيما علوم الفرس واليونان).

---

(١) المراد بالخليفة المذكور هو: المستعصم بالله، آخر خلفاء بني العباس، وُلد سنة (٦٠٩هـ) وبويع له بالخلافة سنة (٦٤٠هـ)،و قتل في (١٤) صفر سنة (٦٥٦هـ). [الشارح]

(٢) انظر: شرح نونية ابن القيم لمحمد خليل هراس (ص:٩٥).

قَوْلُهُ: «والتشبيه» في نسخة (التسكين) أي: أنهم يُسَكِّنون الناسَ ويُسقِطون عنهم الفرائض، وأما (التشبيه) فلها وجه، لأنه لما ذكر أئمة التعطيل قال: (التشبيه)، لكنه الآن يتكلَّم عن المعطِّلة.

٤٩١- وَلَنَــا تَصَــانِيفٌ بِهَــا غَــالَيْتُمُ　　مِثْلُ: (الشِّفَا) وَ(رَسَائِلِ الْإِخْــوَانِ)

قَوْلُهُ: «الشِّفَا»: لابن سينا.

* * *

٤٩٢- وَكَذَا (الْإِشَارَاتُ) الَّتِي هِـيَ عِنْـدَكُمْ　　قَــدْ ضُــمِّنَتْ لِقَوَاطِــعِ الْبُرْهَــانِ

٤٩٣- قَدْ صَرَّحَتْ بِالضِّدِّ[1] مِمَّا جَاءَ فِي التَّــ　　ــوْرَاةِ وَالْإِنْجِيــلِ وَالْفُرْقَــانِ

٤٩٤- هِيَ عِنْدَكُمْ مِثْلُ النُّصُوصِ وَفَوْقَهَا　　فِي حُجَّــةٍ قَطْعِيَّــةٍ وَبَيَــانِ

٤٩٥- وَإِذَا تَحَاكَمْنَــا فَــإِنَّ إِلَــيْهِمُ　　يَقَــعُ التَّحَــاكُمُ لَا إِلَى الْقُــرْآنِ

٤٩٦- إِذْ قَــدْ تَسَــاعَدْنَا بِــأَنَّ نُصُوصَــهُ　　لَفْظِيَّــةٌ عُزِلَــتْ عَــنِ الْإِيقَــانِ

٤٩٧- فَلِــذَاكَ حَكَّمْنَــا عَلَيْــهِ وَأَنْــتُمُ　　قَــوْلَ[2] الْــمُعَلِّمِ أَوَّلًا وَالثَّــانِي

الشرحُ

٤٩٢- وَكَذَا (الْإِشَارَاتُ) الَّتِي هِـيَ عِنْـدَكُمْ　　قَــدْ ضُــمِّنَتْ لِقَوَاطِــعِ الْبُرْهَــانِ

قَوْلُهُ: «الإِشَارَاتُ» وهو كتاب لابن سينا.

---

(١) في نسختي التيمورية والسفارينية: «بالصد» بمهملة.

(٢) في نسخة الحلبي: «فوق».

وهذه كتب الفلاسفة التي هي عندهم أعظم مِن القرآن والسُّنة، نسأل الله العافية.

فهؤلاء يقولون: عليكم بهذه الكتب، واتركوا الكتابَ والسُّنَّة، وسيأتي السببُ في ذلك.

٤٩٣- قَدْ صَرَّحَتْ بِالضِّدِّ مِمَّا جَاءَ فِي التْـ ... ـتَـوْرَاةِ وَالْإِنْجِيـلِ وَالْفُرْقَـانِ

قَوْلُهُ: «الفُرْقَانِ» يعني: القرآن.

٤٩٤- هِيَ عِنْدَكُمْ مِثْلُ النُّصُوصِ وَفَوْقَهَا ... فِي حُجَّـةٍ قَطْعِيَّـةٍ وَبَيَـانِ

قَوْلُهُ: «مِثْلُ النُّصُوصِ» أي: نصوص الشريعة في حُجَّةٍ قَطْعِيَّة وَبيَانِ.

٤٩٥- وَإِذَا تَحَاكَمْنَـا فَـإِنَّ إِلَـيْهِمُ ... يَقَـعُ التَّحَـاكُمُ لَا إِلَى الْقُـرْآنِ

وهذا تصريح واضح بالكفر، والعياذ بالله.

٤٩٦- إِذْ قَـدْ تَسَـاعَدْنَا بِـأَنَّ نُصُوصَـهُ ... لَفْظِيَّـةٌ عُزِلَـتْ عَـنِ الْإِيقَـانِ

وهذا غير صحيح، بل إن دلالة القرآن منها ما هو قَطْعِيّ، ومنها ما هو ظَنِّيّ، وكذلك السُّنَّة، ولا تقل: إن دلالةَ القرآنِ كلَّها لفظيةٌ معزولةٌ عن اليقين كما زعموا.

٤٩٧- فَلِـذَاكَ حَكَّمْنَـا عَلَيْـهِ وَأَنْـتُمُ ... قَـوْلَ الْـمُعَلِّمِ أَوَّلًا وَالثَّـانِي[1]

والمعلم الأول: أرسطو، والثاني: الفارابي، والثالث: ابن سينا.

(١) المعلم الثاني (الفارابي)، وهو محمد بن طرخان، تركي الأصل، سمي بذلك لشرحه مؤلفات أرسطو (المعلم الأول) وُلد في فاراب على نهر جيحون سنة (٢٦٠هـ)، كان فيلسوفًا، وتوفي بدمشق سنة (٣٣٩هـ). [الشارح]. انظر ترجمته في: مرآة الجنان (٢/ ٢٤٦).

٤٩٨- يَا وَيْحَ جَهْمٍ وَابْنِ دِرْهَمَ وَالْأُلَى قَالُوا بِقَوْلِهِمَا مِنَ الْخَوَرَانِ

٤٩٩- بَقِيَتْ مِنَ التَّشْبِيهِ فِيهِ بَقِيَّةٌ نَقَضَتْ قَوَاعِدَهُ مِنَ الْأَرْكَانِ

٥٠٠- يَنْفِي الصِّفَاتِ مَخَافَةَ التَّجْسِيمِ لَا يَلْوِي عَلَى خَبَرٍ وَلَا قُرْآنِ

٥٠١- وَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يَسْمَعُ أَوْ يَرَى وَكَذَاكَ يَعْلَمُ سِرَّ كُلِّ جَنَانِ

٥٠٢- وَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ قَدْ شَاءَ الَّذِي هُوَ كَائِنٌ مِنْ هَذِهِ الْأَكْوَانِ

٥٠٣- وَيَقُولُ: إِنَّ الْفِعْلَ مَقْدُورٌ لَهُ وَالْكَوْنَ يَنْسُبُهُ إِلَى الْحِدْثَانِ

٥٠٤- وَبِنَفْيِهِ التَّجْسِيمَ يَصْرُخُ فِي الْوَرَى وَاللهِ مَا هَذَانِ مُتَّفِقَانِ

٥٠٥- لَكِنَّنَا قُلْنَا: مُحَالٌ كُلُّ ذَا حَذَرًا مِنَ التَّشْبِيهِ[1] وَالْإِمْكَانِ

الشرحُ

٤٩٨- يَا وَيْحَ جَهْمٍ وَابْنِ دِرْهَمَ وَالْأُلَى قَالُوا بِقَوْلِهِمَا مِنَ الْخَوَرَانِ

قَوْلُهُ: «يَا وَيْحَ جَهْمٍ وابْنِ دِرْهَمَ» أي: جَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ تلميذِ الجَعْدِ بنِ دِرْهَمٍ، وهما رأسا التعطيل.

قَوْلُهُ: «الخَوَرَانِ» يعني: الضعف.

٤٩٩- بَقِيَتْ مِنَ التَّشْبِيهِ فِيهِ بَقِيَّةٌ نَقَضَتْ قَوَاعِدَهُ مِنَ الْأَرْكَانِ

لأنه معروف أن الجهمية يُثْبِتونَ الأسماءَ، وينكرون الصفات، وأولئك

(١) في نسخة الحلبي: «التجسيم».

الملاحدة لا يُقِرُّون بأسماء، ولا صفات، فيقولون: إن الجهمية فيهم شيءٌ مِن التشبيه حيث أثبتوا الأسماء.

٥٠٠- يَنْفِي الصِّفَاتِ مَخَافَةَ التَّجْسِيمِ لَا   يَلْوِي عَلَى خَبَرٍ وَلَا قُرْآنِ

وَقَوْلُهُ: «**يَنْفِي الصِّفَاتِ**» أي: الجهميّ ينفي الصفات، لكنه يثبت الأسماء.

وَقَوْلُهُ: «**يَنْفِي الصِّفَاتِ مَخَافَةَ التَّجْسِيمِ**» تكلَّم المؤلفُ -رحِمه الله- الآن عن مذاهب هؤلاء المعطِّلة، وذَكر مستنداتٍ مِن القائلين، والكُتُب التي عدّدها، وأئمتهم، وقال: إنهم نَفَوُا الصفاتِ مخافةَ التجسيم.

فهم في الحقيقة وقعوا في التجسيم، ووقعوا في التشبيه، لأنهم ظنُّوا أنَّ مدلولَ النصوص هو التجسيم والتشبيه، ولما ظنُّوا هذا الظنَّ صاروا ينفُون ذلك، فقالوا: إنه لو ثبت أن له كذا لكان هذا جسمًا، والأجسام متماثلة.

فنقول: أنتم الآن فهمتم النصوص على وجه التجسيم والتمثيل، وهذا خطأ، فالنصوص لم تدلّ على هذا، فالنصوص دَلَّتْ على صفاتٍ لله عزَّ وجلَّ تليق به، ولا تماثِلُ صفاتِ المخلوقين، وذلك لأنَّ الصفةَ تابعةٌ للموصوف، فأنت إذا أضفت أيَّ صفةٍ إلى موصوفها فإنَّ ذلك يمنع أن تكون مِثل الصفة المضافة إلى موصوف آخر، لأنها مُقَيَّدة.

نقول مثلًا: وجه الله، ولم نقل: (وجه) وأطلقنا، فـ(وجه الله) يكون لائقًا بذاته كما لو قلت: (**وجه الفرس**)، و(**وجه القط**)، هل تفهم مِن قولك: (**وجه الفرس**) أنه مثل (**وجه القط**)؟ الجواب: أبدًا، لأنَّ هذا ليس وجهًا مطلقًا، بل هو وجهٌ مضاف.

فإثبات الصفات إذن لا يستلزم التمثيل أبدًا، ووجه ذلك أنها صفاتٌ مضافةٌ إلى الله، أو إلى موصوف مُعَيّن، والصفات تتبع الموصوف، ولا يمكن أن يفهم أحدٌ مِن الناس أن صفات فُلان كصفات الحيوان الآخر، لأنه مِن غير جنسه.

لكن لو أقول: (**يد فلان**) و(**يد فلان**) نفهم التمثيل، لأنَّ الجنس واحد والاختلاف هنا بالعين، أما الخالق والمخلوق، فبينهما أكبر مِن أيِّ مباينة فيما بين المخلوقات بعضها مع بعض، فإذا كانت المخلوقات بعضها مع بعض متباينة ومتفرِّقة، فالبَيْنُ والتَّفَرُّق بين الخالق والمخلوق أعظم وأعظم.

٥٠١- وَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يَسْمَعُ أَوْ يَرَى ... وَكَذَاكَ يَعْلَمُ سِرَّ كُلِّ جَنَانِ

٥٠٢- وَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ قَدْ شَاءَ الَّذِي ... هُوَ كَائِنٌ مِنْ هَذِهِ الْأَكْوَانِ

لكنه يقول: إنَّ الله عزَّ وجلَّ يسمعُ بلا سمعٍ، ويرى بلا بصر، أما العِلم فإنه مذهب الجهمية.

ولا أدري عن مذهب الجهم نفسه، بعضهم يُنكره، وبعضهم ينفيه، لكن مقتضى قولهم بالجبر أنَّ الله يعلمُ، فيُثْبِتُ العِلم.

٥٠٣- وَيَقُولُ: إِنَّ الْفِعْلَ مَقْدُورٌ لَهُ ... وَالْكَوْنَ يَنْسُبُهُ إِلَى الْحِدْثَانِ

يقول: إنَّ الله -سُبحانَه وتعالَى- قادرٌ على أن يفعل، وهذا الكونُ كُلُّه حادثٌ بعد أن لم يكنْ، وهذا حقٌّ، لكنَّ الفلاسفة الأُلَى لا يُقِرُّون بهذا، ويُنكرونه عليهم.

٥٠٤- وَبِنَفْيِهِ التَّجْسِيمَ يَصْرُخُ فِي الْوَرَى   وَاللهِ مَا هَذَانِ مُتَّفِقَانِ

قَوْلُهُ: «وَبِنَفْيِهِ التَّجْسِيمَ» يعني: هو ينفي التجسيم، ويُثْبِت هذه الصفات، أو الأفعال، أو الإرادة، أو ما أشبهَ ذلك، ثُمَّ قال: (مَا هَذَانِ مُتَّفِقَانِ).

٥٠٥- لَكِنَّنَا قُلْنَا: مُحَالٌ كُلُّ ذَا   حَذَرًا مِنَ التَّشْبِيهِ وَالْإِمْكَانِ

قَوْلُهُ: «لَكِنَّنَا قُلْنَا» أي: الفلاسفة، فالفلاسفة قالوا: كُلُّ هذا مُحَالٌ.

* * *

فصل

في قُدُومِ رَكْبِ الإِيمَانِ وَعَسْكَرِ القُرْآنِ

٥٠٦- وَأَتَى فَرِيقٌ ثُمَّ قَالَ: أَلَا اسْمَعُوا ... قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ مَطْلَعِ الْإِيمَانِ

٥٠٧- مِنْ أَرْضِ طَيْبَةَ مِنْ مُهَاجَرِ أَحْمَدٍ ... بِالْحَقِّ وَالْبُرْهَانِ وَالتِّبْيَانِ

٥٠٨- سَافَرْتُ فِي طَلَبِ الْإِلَهِ فَدَلَّنِي الْـ ... ـهَادِي عَلَيْهِ وَمُحْكَمُ الْقُرْآنِ

٥٠٩- مَعْ فِطْرَةِ الرَّحْمَنِ جَلَّ جَلَالُهُ ... وَصَرِيحِ عَقْلِي فَاعْتَلَى[1] بِبَيَانِ[2]

٥١٠- فَتَوَافَقَ الْوَحْيُ الصَّرِيحُ وَفِطْرَةُ الرْ ... رَحْمَنِ وَالْمَعْقُولُ فِي إِيمَانِي

٥١١- شَهِدُوا بِأَنَّ اللهَ -جَلَّ جَلَالُهُ- ... مُتَفَرِّدٌ بِالْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ

٥١٢- وَهُوَ الْإِلَهُ الْحَقُّ لَا مَعْبُودَ إِلْـ ... ـلَا وَجْهُهُ الْأَعْلَى الْعَظِيمُ الشَّانِ

٥١٣- بَلْ كُلُّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ فَبَاطِلٌ ... مِنْ عَرْشِهِ حَتَّى الْحَضِيضِ الدَّانِي

الشرحُ

ذكر المؤلفُ -رحمه الله- في هذا الفصل قُدُومَ رَكْبِ الإيمانِ وعسكرِ القرآن، وهذا نِعْمَ الفريق، يقول -رحمه الله-:

٥٠٦- وَأَتَى فَرِيقٌ ثُمَّ قَالَ: أَلَا اسْمَعُوا ... قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ مَطْلَعِ الْإِيمَانِ

---

(١) في نسخة مطبوعة: «فاعقلي».

(٢) في نسخة الحلبي: «بُنْيَاني».

قَوْلُهُ: «أَلَا اسْمَعُوا» يحتمل المعنى: اسمعوا بالآذان، أو اسمعوا سمعَ إجابة، ولا مانع أن نحمله على الوجهين: اسمعوا بالآذان، واسمعوا بالإجابة، وهذا الأسلوب جاء به القرآنُ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ [الحج:٧٣] فاستنصتنا اللهُ عزَّ وجلَّ.

والنَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام- أحيانًا يقول لأصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فيرسل واحدًا ويقول: «اسْتَنْصِتِ النَّاسَ»[١]. أي: يُنْصِتُون.

ولا حرج أن يقول المُعَلِّم، أو مَن أراد أن يُعَلِّم: أنصِتوا، أو اقتربوا، أو تجمَّعوا، أو ما أشبهَ ذلك، ولا يُعَدُّ هذا مِن باب الخُيَلَاء، بل هذا مِن باب النُّصحِ والإرشاد.

قَوْلُهُ: «قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ مَطْلَعِ الإِيمَانِ» أي: مكان طلوعه، وبيَّن ذلك بقوله:

٥٠٧- مِنْ أَرْضِ طَيْبَةَ مِنْ مُهَاجِرِ أَحْمَدٍ بِالْحَقِّ وَالْبُرْهَانِ وَالتِّبْيَانِ

المؤلف -رحِمه الله- ذكر أنَّ هذا الرَّكْبَ جاء مِن أرض طَيْبَة، وهي المدينة مهاجر أحمد -عليه الصلاة والسلام-، وتسميتها بيثرب إنما جاء مِن قِبَلِ المنافقين كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب:١٣]، وقال النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُونَ: يَثْرِبُ، وَهِيَ المَدِينَةُ»[٢].

ونرى بعض كُتَّاب العصر الذي يرى نفسه فوق الناس إذا أراد أن يُعَبِّرَ عن المدينة يقول: يثرب، وهذا غلط، فاسم المدينة: المدينة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب الإنصات للعلماء، رقم (١٢١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان معنى قول النبي ﷺ: «لا ترجعوا بعد كفارا...»، رقم (٦٥).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل المدينة، باب فضل المدينة وأنها تنفي الناس، رقم (١٧٧٢)، ومسلم: كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها، رقم (١٣٨٢).

وهل يقال: المُنَوَّرة أو بوصفٍ آخر؟

الجواب: اشتُهِر عند الناس الآن اسم المدينة المنورة، ولا شكَّ أنَّ المدينةَ مُنَوَّرةٌ بالرسالة، ولكنَّ هذا التنوير لا يَخُصُّها، فكُلُّ بلدٍ يدخله الإسلامُ فهو مُنَوَّرٌ بالإسلام. فأحسن وصف أن تقول: المدينة النبوية، فإذا كان ولا بدَّ أن تصفَها فقل: المدينة النبوية، أو المدينة مُهَاجَر النَّبِيِّ ﷺ، لكن هذا يطول، فقل: النبوية، ولم أسمع في كتب الأقدمين المدينة المنورة، ولا أدري متى حدث هذا اللقب؟

قَوْلُهُ: «مِنْ أَرْضِ طَيْبَةَ مِنْ مُهَاجَرِ أَحْمَدٍ» أي: مكان هجرته.

قَوْلُهُ: «أَحْمَد»: هو النَّبِيّ ﷺ، وله أسماء في القرآن، أحمد، ومحمد، واختار اللهُ عزَّ وجلَّ أن ينطقَ عيسى لبني إسرائيل بقوله: ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦] لأن (أَحْمَدَ) اسمُ تفضيل، بخلاف (مُحَمَّد)، فأراد اللهُ عزَّ وجلَّ أن ينطق عيسى بهذا الاسم الدالّ على التفضيل، كأنه يقول: سيأتيكم رسولٌ هو أحمدُ النَّاسِ لله عزَّ وجلَّ، وهو أحمدُ النَّاسِ خِصَالًا، وهو أيضًا أعظمُ النَّاس حمدًا، أي: أن يحمدوه.

قَوْلُهُ: «بِالحَقِّ» ضد الباطل.

قَوْلُهُ: «وَالبُرْهَانِ»: الدليل القاطع.

قَوْلُهُ: «والتِّبْيَانِ» الدليل الواضح، فهذه ثلاثة أوصاف.

٥٠٨- سَافَرْتُ فِي طَلَبِ الْإِلَـهِ فَـدَلَّنِي الْـ ـهَادِي عَلَيْـهِ وَمُحْكَـمُ الْقُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «فَدَلَّنِي الْـهَادِي عَلَيْهِ» الـهادي إلى الله هو النبيُّ ﷺ، يعني بذلك: السُّنة.

قَوْلُهُ: «ومُحْكَمُ القُرْآنِ» هذا دليل آخر.

٥٠٩- مَـعْ فِطْـرَةِ الـرَّحْمَنِ جَـلَّ جَلَالُـهُ وَصَرِيـحِ عَقْـلِي فَـاعْتَلَى بِبَيَـانِ

قَوْلُهُ: «**مَعْ فِطْرَةِ الرَّحْمَنِ جَلَّ جَلَالُهُ**» هذا دليل ثالث.

قَوْلُهُ: «**وَصَرِيحِ عَقْلِي فَاعْتَلَى بِبَيَانِ**» هذه أربعة أدلة على الإله الحقِّ عزَّ وجلَّ: الأول: القرآن، الثاني: السُّنّة، الثالث: الفطرة، الرابع: العقل.

٥١٠- فَتَوَافَقَ الْوَحْيُ الصَّرِيحُ وَفِطْرَةُ الرْ رَحْمَـنِ وَالْـمَعْقُولُ فِي إِيـمَانِي

قَوْلُهُ: «**الوَحْيُ الصَّرِيحُ**» هنا يشمل: القرآن والسنَّة.

فهو طلب منّا أن نستمعَ إليه في شرح مذهبه الذي عليه، وبَيَّن أن مذهبه مَبْنِيٌّ على القرآن والسنة والعقل والفطرة، وأنَّ هذه الأربعة كُلَّها توافقت عليه.

٥١١- شَـهِدُوا بِـأَنَّ اللهَ -جَـلَّ جَلَالُـهُ- مُتَفَـرِّدٌ بِالْـمُلْكِ وَالسُّـلْطَانِ

قَوْلُهُ: «**شَهِدُوا بِأَنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ**» أي: عظُمت عظمته عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «**مُتفَرِّدٌ بِالمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ**» أي: لا مالكَ غيره، ولا سلطان على الإطلاق لغيره عزَّ وجلَّ.

٥١٢- وَهُـوَ الْإِلَـهُ الْـحَقُّ لَا مَعْبُـودَ إِلْـ لَا وَجْهُـهُ الْأَعْـلَى الْعَظِـيمُ الشَّـانِ

هذا معنى لا إله إلا الله، وعبادتُه -سبحانه- هي الحقُّ، وعبادة ما سواه عبادة باطلة، ولذا قال:

٥١٣- بَـلْ كُـلُّ مَعْبُـودٍ سِـوَاهُ فَبَاطِـلٌ مِنْ عَرْشِهِ حَتَّى الْـحَضِيضِ الـدَّانِي

قَوْلُهُ: «**بَلْ كُلُّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ فَبَاطِلٌ مِنْ عَرْشِهِ**» أي: عرش الله.

قَوْلُهُ: «**حَتَّى الحَضِيضِ الدَّانِي**» أي: الأسفل.

وهذا الذي قاله -رحمه الله- هو معنى قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَـٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

***

٥١٤- وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ
٥١٥- وَعَلَيْهِمَا فَلَكُ الْعِبَادَةِ دَائِرٌ مَا دَارَ حَتَّى قَامَتِ الْقُطْبَانِ
٥١٦- وَمَدَارُهُ بِالْأَمْرِ، أَمْرِ رَسُولِهِ لَا بِالْهَوَى وَالنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ
٥١٧- فَقِيَامُ دِينِ الله بِالْإِخْلَاصِ وَالْـ إِحْسَانِ، إِنَّهُمَا لَهُ أَصْلَانِ
٥١٨- لَمْ يَنْجُ مِنْ غَضَبِ الْإِلَهِ وَنَارِهِ إِلَّا الَّذِي قَامَتْ بِهِ الْأَصْلَانِ
٥١٩- وَالنَّاسُ بَعْدُ فَمُشْرِكٌ بِإِلَهِهِ أَوْ ذُو ابْتِدَاعٍ أَوْ لَهُ الْوَصْفَانِ
٥٢٠- وَاللهُ لَا يَرْضَى بِكَثْرَةِ فِعْلِنَا لَكِنْ بِأَحْسَنِهِ مَعَ الْإِيمَانِ
٥٢١- فَالْعَارِفُونَ مُرَادُهُمْ إِحْسَانُهُ وَالْجَاهِلُونَ عَمُوا عَنِ الْإِحْسَانِ

الشرحُ

بَيّنَ المؤلفُ -رحِمه الله- في هذه الأبيات معانيَ عظيمة: أولًا عبادة الله، مَنْ هو العبد في الأصل؟

الجواب: العبد في الأصل الذليل، ومنه قولهم: (طريق مُعَبَّد)، أي: مُذَلَّل، ذللته الأقدام أو ذَلَّ له البناء، المهم أنه مِن الذُّلِّ، ولذا قال -رحمه الله-:

٥١٤- وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ

قَوْلُهُ: «غَايَةُ حُبِّهِ مَعْ ذُلِّ عَابِدِهِ» يعني: لا بد مِن أمرين: أن تعبد الله محبةً، وأن تعبدَه تذلُّلًا له عزَّ وجلَّ، تعتقد بقلبك أنك عبدٌ ذليل، لا تملك لنفسك شيئًا، بل أنت عند الله تعالى أَذَلّ مِن كُلِّ شيء.

يعني: أن يكون الإنسان محبًّا لله عزَّ وجلَّ طالبًا الوصولَ إليه، فبالحُبِّ يتقدَّم الإنسانُ في طاعة الله، وبالذُّل يتهيب معصيةَ الله عزَّ وجلَّ، لأنَّ الإنسانَ إذا وقع في المناهي يخشى أن يأخذه اللهُ تعالى بذنْبِه، فإذا اجتمع في قلب الإنسان المحبة التامة لله مع التعظيم استقام تمامًا على شرع الله، لأنه بحُبِّه لربِّه يطلبُ ربَّه، وبتعظيمه لله يخافُ منه، فيكون فاعلًا للمأمور تاركًا للمحظور.

فلا بدَّ مِن هذين الأمرين: تمام المحبة، وتمام الذل لله عزَّ وجلَّ، أمَّا أن تعبدَ اللهَ وتقول: أنا أُحبُّه، ولكن في قلبك استكبار واستغناء عن الله، فهذا ناقص جدًّا.

فالمستكبِر عن عبادة الله هل يمكن أن يعبُد الله؟ الجواب: لا، لأنه لا يعبُد وهو لا يذلُّ له أبدًا، بل مَن رأى نفسَه استغنى عن الله، فإنه لن يعبدَ اللهَ، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق:٦-٧].

وأكثرُ الناس الذين أُترفوا في الدنيا يرون أنهم استغنَوْا، وأنَّ هذا هو الغاية التي يقصدونها، ومِن ثَمَّ جاءت النصوص بالحذر مِن التَّرَف في الدنيا، والتنعم فيها، لا بما أباح الله منها، فما أباح الله منها، فإن الله يُحِبُّ منّا أن نفعله، وأن نأتيَه، لكن الانغماس في التَّرَف، حتى يكون الإنسانُ كأنما خُلِق لتَرَف نفسه، فهذا لا شكَّ أنه سوف يكون في قلبه مِن الاستكبار عن عبادة الله بقدْر ما في قلبه مِن عبادة الدنيا.

قَوْلُهُ: «مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ» القُطب هو ما عليه المدار، وفي السماءِ قُطْبَان:

شمال وجنوب، كُلُّ واحدٍ منهما له أفلاكٌ تدورُ حولَه، نجوم وكواكب تدور حوله.

يقول العلماء عن القطب: إنه نجمٌ خَفِيٌّ جدًّا، لا يراه إلَّا حديدو البصَر في غير ليالي القمر. هذا هو تعبيرهم، وهو لا يتجاوز مكانه، لأن النجومَ تدور عليه، ولهذا كلَّما كان النَّجْمُ أقربَ إليه صارت دائرتُه ضيِّقةً.

الآن مثلًا الجَدْي قريب مِن القطب، ولهذا لا يتزحزح عن مكانه إلا يسيرًا، لأنه قريب، وبَنَات نَعْشٍ[1] الصغرى تدور حول القُطب، ولا تغيب بالنسبة لنا نحن في هذا المكان، لأنها تدور ودورانها ضيّق، وبَنَاتُ نعش الكبرى تدور، لكنها تختفي في جانب السماء، ثُمَّ تظهر بقُرْب، يعني بسرعة حوالي سِتّ، أو سَبْع ساعات، ثم تبدو.

فالحاصل أن القُطبَ هو ما عليه مدارُ الشيء، ولذا قال -رحمه الله-:

٥١٥- وَعَلَيْهِمَا فَلَكُ الْعِبَادَةِ دَائِرٌ   مَا دَارَ حَتَّى قَامَتِ الْقُطْبَانِ

وهذا صحيح، فلولا القطب ما دار، لكن يدور على أيِّ شيء؟

قال -رحمه الله-:

٥١٦- وَمَدَارُهُ بِالْأَمْرِ، أَمْرِ رَسُولِهِ   لَا بِالْهَوَى وَالنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

المدار هو أمر الله ورسوله، (فافعل ولا تفعل) هذا هو المدار، لا الهوى، فمن دار أو حام حول الحمى مِن غير الكتاب والسنة فقد ضلَّ.

---

(١) بنات نعْش: سبعة كواكبَ: أربعة منها نعْش لأنها مُربعة، وثلاثة بنات نعْش، الواحد ابن نعش لأن الكوكب مذكَّر فيذكرونه على تذكيره، وإذا قالوا ثلاث أو أربع ذهبوا إلى البنات، وكذلك بنات نعش الصغرى. انظر: لسان العرب، مادة: نعش.

٥١٧- فَقِيَـامُ دِيـنِ الله بِـالْإِخْلَاصِ وَالْـ إِحْسَـانِ، إِنَّهُـمَا لَـهُ أَصْـلَانِ

قَوْلُهُ: «بالإِخْلَاصِ» يعني: بالتوحيد، الذي ضده الشرك.

قَوْلُهُ: «وَالإِحْسَانِ» أي: على السُّنة، الذي ضده البدعة.

فلا بدَّ مِن إخلاص، ولا بدَّ مِن إحسان، وهو الاتّباع.

فالإخلاص ضده الشرك، والإحسان ضده البدعة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف:١١٠] والعمل الصالح ما كان لله خالصًا ولرسوله تابعًا.

٥١٨- لَـمْ يَنْجُ مِـنْ غَضَـبِ الْإِلَـهِ وَنَـارِهِ إِلَّا الَّـذِي قَامَـتْ بِـهِ الْأَصْـلَانِ

قَوْلُهُ: «الأَصْلَانِ» أي: الإخلاص والإحسان.

٥١٩- وَالنَّـاسُ بَعْـدُ فَمُشْـرِكٌ بِإِلَـهِهِ أَوْ ذُو ابْتِـدَاعٍ أَوْ لَـهُ الْوَصْـفَانِ

قَوْلُهُ: «وَالنَّاسُ بَعْدُ» يعني: الذي ليس بمخلص ولا محسن.

قَوْلُهُ: «فَمُشْرِكٌ بِإِلَهِهِ» وهذا فَقَدَ الإخلاص.

قَوْلُهُ: «أَوْ ذُو ابْتِدَاعٍ» وهذا فَقَدَ الإحسان الذي هو الاتِّبَاع.

قَوْلُهُ: «أَوْ لَهُ الوَصْفَانِ» يعني: يكون مشركًا مبتدِعًا.

٥٢٠- وَاللهُ لَا يَـرْضَى بِكَثْـرَةِ فِعْلِنَـا لَكِـنْ بِأَحْسَـنِهِ مَـعَ الْإِيـمَانِ

٥٢١- فَالْعَـارِفُونَ مُـرَادُهُمْ إِحْسَـانُهُ وَالْـجَاهِلُونَ عَمُوا عَـنِ الْإِحْسَـانِ

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢] ولم يقل: أكثر، لكن لا شكَّ أن الأكثرَ مع الإحسان أفضل.

وهنا مَثَلٌ، لو قال قائل: مِن العبادات ما تخفيفُه أفضل مِن إطالته، إما دائمًا، وإما لعارض؟ قلنا: نعم، وهو كذلك، فسُنَّةُ الفجر الأفضل تخفيفها دائمًا، وابتداء التهجد بركعتين خفيفتين كذلك، وتحية المسجد والإمام يخطب يوم الجمعة تخفيفها عارض، لأنَّ الأصل في تحية المسجد أنها كغيرها مِن العبادات، كُلَّما طالت فهو أفضل مع الإحسان.

فأنت ترى الآن أن الإنسانَ الذي يصلي سُنَّةَ الفجر بسرعة أفضل مِن الذي يُصلِّيها بطول قراءة وطول ركوع وسجود، لأن هذا هو السُّنَّة، فهو أحسن، والذي يصوم يومًا ويفطر يومًا أفضل مِن الذي يصوم كلَّ الأيام، لأنه أحسنُ عملًا.

* * *

٥٢٢- وَكَـذَاكَ قَـدْ شَـهِدُوا بِـأَنَّ اللهَ ذُو ... سَـمْعٍ وَذُو بَصَـرٍ، هُمَـا صِـفَتَانِ

٥٢٣- وَهُوَ الْعَلِيُّ يَـرَى وَيَسْـمَعُ خَلْقَـهُ ... مِنْ فَوْقِ عَرْشٍ فَوْقَ سِتٍّ ثَمَانِ[1]

٥٢٤- فَيَرَى دَبِيبَ النَّمْلِ فِي غَسَقِ الدُّجَى ... وَيَـرَى كَـذَاكَ تَقَلُّـبَ الْأَجْفَـانِ

٥٢٥- وَضَجِيجُ أَصْـوَاتِ الْعِبَـادِ بِسَـمْعِهِ ... وَلَدَيْـهِ لَا يتَشَـابَهُ الصَّـوْتَانِ

٥٢٦- وَهُـوَ الْعَلِيمُ بِـمَا يُوَسْـوِسُ عَبْـدُهُ ... فِي نَفْسِـهِ مِـنْ غَـيْرِ نُطْـقِ لِسَـانِ

٥٢٧- بَلْ يَسْتَوِي فِي عِلْمِهِ الدَّانِي مَعَ الْـ ... ـقَـاصِي وَذُو الْإِسْرَارِ وَالْإِعْـلَانِ

٥٢٨- وَهُوَ الْعَلِيمُ بِـمَا يَكُـونُ غَـدًا وَمَـا ... قَـدْ كَـانَ وَالْـمَعْلُومِ فِي ذَا الْآنِ

٥٢٩- وَبِكُلِّ شَيْءٍ لَـمْ يَكُنْ لَوْ كَـانَ كَيْـ ... ـفَ يَكُونُ مَوْجُودًا لِـذِي الْأَعْيَـانِ

---

(١) قال الحلبي في نسخته: «في هامش الأصل: أي: ست وثمان، وهي السموات والأرض».

الشـرحُ

في هذه الأبيات ذكر المؤلف -رحِمه الله- بعضًا مِن صفات الله عزَّ وجلَّ وأسمائه، فقال:

٥٢٢- وَكَـذَاكَ قَـدْ شَـهِدُوا بِـأَنَّ اللهَ ذُو ... سَـمْعٍ وَذُو بَصَـرٍ، هُمَـا صِـفَتَانِ

قَوْلُهُ: «**وَكَذَاكَ قَدْ شَهِدُوا**» أي: أهل السنة والجماعة.

قوله: «بِأَنَّ اللهَ ذُو سَمْعٍ وَذُو بَصَرٍ هُمَا صِفَتَانِ» دليلهما قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] وهذا كثير في القرآن، فهو سميعٌ ذو سمعٍ، وبصيرٌ ذو بصرٍ.

ولقد ذكرنا دليل ذلك في (**شرح العقيدة الواسطية**)(١)، ومِن ذلك قول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١].

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «الْـحَمْدُ لله الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتِ الْـمُجَادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ، تَشْكُو زَوْجَهَا، وَمَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١]»(٢). كذلك البصير، ثُمَّ فَصَّلَ فقال:

٥٢٣- وَهُوَ الْعَلِـيُّ يَـرَى وَيَسْـمَعُ خَلْقَـهُ ... مِنْ فَوْقِ عَـرْشٍ فَـوْقَ سِـتِّ ثَـمَانِ

---

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية، للشارح (ص:٣٢).

(٢) أخرجه البخاري معلقًا: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:١٣٤]، وابن ماجه: كتاب المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨).

قَوْلُهُ: «وَهُو العَلِـيُّ» أي: بذاته وصفاته، أما العَلِيُّ بذاته فأدلته كثيرة، فالكتابُ والسنةُ والإجماعُ والعقلُ والفِطْرَةُ، كُلُّها تدلُّ على أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- عَلِـيٌّ بذاته.

وأما علوُّ صفاته، فقد دلَّ عليه السمعُ والعقلُ، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠] المثَل: يعني: الوصف، الأعلى: الذي ليس فوقه شيء، بل ولا مِثله شيء، فله الوصف الأعلى الكامل مِن كُلِّ وجه.

قَوْلُهُ: «يَرَى وَيَسْمَعُ خَلْقَهُ» يرى عزَّ وجلَّ برؤية حقيقية، وقد ثبت في القرآن الكريم أنَّ له -سبحانه وتعالى- عينًا، فجاءت بلفظ الإفراد، ولفظ الجمع، ودلَّت السنّةُ على أنَّ له عينين اثنتين.

فبصيغة الإفراد كقوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه:٣٩]، وبصيغة الجمع كقوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤] وبصيغة التثنية التي دلَّت عليها السُّنة قول النَّبِيِّ ﷺ في الدَّجَّال: «إِنَّهُ أَعْوَرُ، وإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ»(١).

وأما قول المؤلف -رحمه الله-: «يَسْمَعُ» فالسمع لا نستطيع أن نقول فيه: إنَّ له أذنين كما نقول في البصر: إن له عينين، لأنه لم يَرد في الكتاب والسنة إثباتُ الأُذن لله عزَّ وجلَّ ولا نَفْيُها.

والسمع قد يكون مِن غير ذي أُذن، أرأيتم الأرض يوم القيامة تُحَدِّثُ أخبارها بما سمعت مِن قول، أو رأت مِن فِعل، وهي ليس لها أذن، وليس لها عين، لكن يُنْطِقُها اللهُ عزَّ وجلَّ، فلا يجوز لنا أن نثبتَ الأذنَ لله عزَّ وجلَّ مِن أجل أنه

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، رقم (٦٧١٢)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذِكر الدجال وصفته، رقم (٢٩٣٣).

ثَبَتَ له السمع، لأنه لا تلازم، بل نقول: إنه تعالى يسمعُ بسمعٍ حقيقيٍّ، ولا ندري بأيِّ شيء.

قَوْلُهُ: «مِنْ فَوْقِ عَرْشٍ فَوْقَ سِتِّ ثَمانِ» يعني: السموات سبع، والأَرَضون سبع، فالجميع أربعة عشر، فالذي في أسفل الأرض السابعة يراه عزَّ وجلَّ ويسمعه وهو فوق عرشه الذي هو فوق ست وثمان، يعني: أربعة عشر، وعلى هذا يكون قوله: (ست ثمان) على تقدير حرف العطف أي: ست وثمان.

٥٢٤- فَيَرَى دَبِيبَ النَّمْلِ فِي غَسَقِ الدُّجَى ... وَيَرَى كَذَاكَ تَقَلُّبَ الْأَجْفَانِ

قَوْلُهُ: «فَيَرَى دَبِيبَ النَّمْلِ في غَسَقِ الدُّجَى» أي: في ظُلمته.

قَوْلُهُ: «وَيَرَى كَذَاكَ تَقَلُّبَ الأَجْفَانِ» أي: أجفان العيون، يرى عزَّ وجلَّ تَقَلُّبَها، سواء عند الكلام، أو عند النوم، أو عند أيِّ سبب، فكُلُّ أجفانِ الخَلق يراها.

٥٢٥- وَضَجِيجُ أَصْوَاتِ الْعِبَادِ بِسَمْعِهِ ... وَلَدَيْهِ لَا يَتَشَابَهُ الصَّوْتَانِ

سبحان الله! ضجيج أصوات العباد في كُلِّ مكان، وعند كُلِّ سبب يسمعُها عزَّ وجلَّ، ولا تشتبه عليه الأصواتُ -سبحانه وبحمده- مما يدلُّ على سَعَة سَمْعِهِ -تبارك وتعالى- وعلى أنه محيطٌ إحاطةً تامة بكُلِّ مسموع.

٥٢٦- وَهُوَ الْعَلِيمُ بِمَا يُوَسْوِسُ عَبْدُهُ ... فِي نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ نُطْقِ لِسَانِ

يعلم عزَّ وجلَّ بما توسوسُ به نفسُك، أي: ما تُحَدِّثُ به نفسَك دون أن تنطق، فإيَّاك أن يعلمَ منك ما لا يرضاه منك، يعني: لا تُحَدِّثْ نفسَك إلَّا بما هو مُرْضٍ لله -تبارك وتعالى-.

ولكن هل حديث النفس يُؤاخَذ به الإنسان؟

الجواب: إن كان استقرَّ في ذهنه هذا، فإنه يؤاخَذَ به، لأنه اطمأنَّ إليه واستقرَّ في نفسه، وإن كان يُحَدِّث -ولكن لم يستقر في ذهنه- فإنه لن يضره شيئًا، دليلُ هذا قولُ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»[(١)]. وهذه مِن نعمة الله -سُبحانَه وتعالَى- أنَّ ما يُفكِّر فيه الإنسانُ إذا لم يَرْكَنْ إليه ويُثْبِتْه، فإنه لا يؤاخَذ به مهما عظُم، لكن إذا ألقى الشيطان في قلبك مثل هذه الوساوس الشديدة، فما موقفك؟ نقول: إن موقفك أن تستشفيَ بما أخبر به النَّبِيُّ ﷺ، وذلك بأمرين:

الأول: الاستعاذة بالله مِن الشيطان الرجيم.

الثاني: الانتهاء والإعراض عن هذا الذي وقع في قلبك.

وإذا مارستَ هذا العملَ فإن الشيطان يَنْدَحِرُ، ثم لا يعود إليك مرة أخرى، وجَرِّبْ تَجِدْ، والشيطان لا يأتي بمثل هذه الوساوس العظيمة الفظيعة إلَّا لقلبٍ ممتلئٍ إيمانًا وصريحٍ في إيمانه، ليس فيه شكٌّ، ولا قلقٌ، ولا ارتياب، لأنَّ الشيطان إنما يُسَلَّطُ على قلبٍ عامرٍ ليدمِّره، أما المدُمَّر فلا يأتي إليه، لأنه قد كُفِي.

ذُكِرَ لابن عباس رَضِيَالله عَنْهُمَا أنَّ اليهودَ قالوا للمسلمين: إِنَّا نُصَلِّي ولا نوسوَس في صلاتنا -يعني: لا نُحَدِّثُ أنفُسَنَا. فكأنَّهم يقولون: نحن خيرٌ منكم- فقال: «نعم، صَدَقوا، ومَا يَصْنَعُ الشيطانُ بقلبٍ خَرَابٍ؟!»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العتق، باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه، رقم (٢٥٢٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١٢٧).

(٢) انظر: الوابل الصيب (ص:٤٠).

وهذا جواب عجيب، فالشيطان لا يأتي إلى شيء مُنْهَدِم ليدمِّرَه، ولكن يأتي إلى العامر ليدمره، ولكن الحمد لله ما مِن داء إلَّا وله دواء، والعليم بدواء هذا الداء هو الرسول ﷺ، علَّمنا أن نستعيذ بالله مِن الشيطان الرجيم(١)، وننتهي.

٥٢٧- بَلْ يَسْتَوِي فِي عِلْمِهِ الدَّانِي مَعَ الْـ ... ـقَاصِي وَذُو الْإِسْرَارِ وَالْإِعْلَانِ

قَوْلُهُ: «الإِسْرَارِ» في نسخةٍ الهمزةُ فوق الألف، والصواب (الإِسرار) بدليل أنه مقابل (الإعلان).

٥٢٨- وَهُوَ الْعَلِيمُ بِمَا يَكُونُ غَدًا وَمَا ... قَدْ كَانَ وَالْمَعْلُومِ فِي ذَا الْآنِ

قَوْلُهُ: «وَهُوَ العَلِيمُ بِمَا يَكُونُ غَدًا» هذا المستقبل.

قَوْلُهُ: «وَمَا قَدْ كَانَ» هذا الماضي.

قَوْلُهُ: «وَالمعْلُومِ فِي ذَا الآنِ» هذا الحاضر.

والأزمان بالنسبة للإنسان ثلاثة: ماضٍ وحاضر ومستقبل.

فاللهُ عزَّ وجلَّ عليمٌ بالماضي وبالمستقبل وبالحاضر، واسمع إلى قول الله -تبارك وتعالى- عن موسى -عليه الصلاة والسلام- لما سأله فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥١-٥٢] أي: لا يجهلُ المستقبل ﴿وَلَا يَنسَى﴾ أي: لا ينسى الماضي، بل هو -جلَّ وعلا- عليمٌ بالحاضر والماضي والمستقبل، واقرأ قول الله -سبحانه وتعالى- في آية الكرسيِّ:

---

(١) كما في حديث: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا، مَنْ خَلَقَ كَذَا، حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِالله وَلْيَنْتَهِ». أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣١٠٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٤).

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ [البقرة:٢٥٥].

٥٢٩- وَبِكُلِّ شَيْءٍ لَـمْ يَكُنْ لَوْ كَـانَ كَيْـ ـفَ يَكُونُ مَوْجُودًا لِـذِي الْأَعْيَـانِ

قَوْلُهُ: «وَبِكُلِّ شَيْءٍ لَـمْ يَكُنْ لَوْ كَان كَيْفَ يَكُونُ» أي: عليم بكُلِّ شيء لم يكن لو كان كيف يكون، فكُلُّ شيءٍ لم يكن يعلمُه عزَّ وجلَّ كيف يكون إذا كان، لأنه محيطٌ بكُلِّ شيءٍ علمًا.

* * *

٥٣٠- وَهُوَ الْقَـدِيرُ فَكُـلُّ شَيْءٍ فَهْـوَ مَقْـ ـدُورٌ لَـهُ طَوْعًـا بِـلَا عِصْـيَانِ

٥٣١- وَعُمُـومُ قُدْرَتِـهِ تَـدُلُّ بِأَنَّـهُ هُـوَ خَـالِقُ الْأَفْعَـالِ لِلْحَيَـوَانِ

٥٣٢- هِـيَ خَلْقُـهُ حَقًّـا وَأَفْعَـالٌ لَـهُمْ حَقًّـا، وَلَا يَتَنَـاقَضُ الْأَمْـرَانِ

٥٣٣- لَكِنَّ أَهْلَ الْـجَبْرِ وَالتَّكْـذِيبِ بِالْـ أَقْـدَارِ مَـا انْفَتَحَـتْ لَـهُمْ عَيْنَـانِ

٥٣٤- نَظَـرُوا بِعَيْنَـيْ أَعْـوَرٍ إِذْ فَـاتَهُمْ نَظَـرُ الْبَصِـيرِ وَغَـارَتِ الْعَيْنَـانِ

٥٣٥- فَحَقِيقَةُ الْقَدَرِ الَّـذِي حَـارَ الْـوَرَى فِي شَـأْنِهِ هُـوَ قُـدْرَةُ الـرَّحْمَنِ

٥٣٦- وَاسْتَحْسَنَ ابنُ عَقِيلَ ذَا مِـنْ أَحْمَـدٍ لَـمَّا حكَـاهُ عَـنِ الرِّضَـا الرَّبَّـانِي

٥٣٧- قَالَ: الإِمَـامُ شَـفَا القُلُـوبَ بِلَفْظَـةٍ ذَاتِ اخْتِصَـارٍ وَهْـيَ ذَاتُ بيَـانِ

الشـرحُ

٥٣٠- وَهُوَ الْقَـدِيرُ فَكُـلُّ شَيْءٍ فَهْـوَ مَقْـ ـدُورٌ لَـهُ طَوْعًـا بِـلَا عِصْـيَانِ

مِن أسماء الله تعالى: القدير، والقدير هو الفاعل بلا عجز، دليل ذلك

قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر:٤٤] فبِقُدْرَته لا يُعْجِزُه شيءٌ.

ومِن أسمائه: القَويُّ، الفاعل بلا ضَعف، لأنَّ ضد القوة الضعف، وضد القُدْرَة العَجْزُ.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗ﴾ [الروم:٥٤].

إِذَنْ هو القدير، والقدير هو الفاعل بلا عجز، ولنضرب مثلًا يبين هذا وهذا.

رجل قيل له: احمِلْ هذه الصخرة، فحاوَل فعجَز، ولم تتزحزح، نقول عنه: إنه عاجز، يعني: ضد القادر، وآخر قلنا له: احمل هذه الصخرة، فحمَلَها، لكن بمشقة، فنقول: هذا ضعيف، وضده القوي.

رجل ثالث قيل له: احمل هذه الصخرة، فأخذَها وكأنها رِيشة، فنقول: هذا قوي.

قَوْلُهُ: «فَكُلُّ شَيْءٍ فَهوَ مَقْدُورٌ لَهُ» يعني: إنْ كان موجودًا، فهو قادرٌ على إعدامِه، وإنْ كان معدومًا، فهو قادر على إيجاده، ولما قال -سبحانه وتعالى- للسموات والأرض ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١] فكُلُّ شيءٍ فهو مُنْقَادٌ لِقُدرة الله -تبارك وتعالى-.

٥٣١- وَعُمُومُ قُدْرَتِهِ تَدُلُّ بِأَنَّهُ ... هُوَ خَالِقُ الأَفْعَالِ لِلْحَيَوَانِ

عمومُ قدرة الله عزَّ وجلَّ تدلُّ على أنه خالقٌ لأفعال الحيوان، ويريد بالحيوان: الإنسان وما سواه.

ووجه ذلك: أنَّ هذه الأفعال لن تخرج عن إرادته، وإرادتُه هي قدرتُه، ولذلك نستدل بعمومِ قُدرةِ الله على أنه خالقٌ لأفعال العباد مِن عاقلٍ، وغيرِ عاقل.

وانظر إلى تحليل المؤلف لهذا حيث قال:

٥٣٢- هِـيَ خَلْقُـهُ حَقًّـا وَأَفْعَـالٌ لَــهُمْ   حَقًّــا، وَلَا يَتَنَــاقَضُ الْأَمْــرَانِ

قَوْلُهُ: «هِيَ خَلْقُهُ حَقًّا» قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

وهي «أَفْعَالٌ لَـهُمْ»، ولهذا يضيفُ اللهُ تعالى أعمالَ العباد إليهم فيقول: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور:٤١] فهي أفعال لهم، فمَن الصائم؟ الجواب: الإنسان هو الفاعل، مَن القائم؟ الإنسان، مَن القارئ؟ الإنسان، مَن المتوضئ؟ الإنسان... وهكذا.

فهي أفعال لهم، وهي في نفس الوقت مخلوقةٌ لله عزَّ وجلَّ، ووجه هذا: أن فِعلَ العبدِ ناتجٌ عن شيئين، هما: الإرادة الجازمة، والقدرة التامة.

فمَن خَلق الإرادة في الإنسان؟ الجواب: الله عزَّ وجلَّ هو الذي جعله مُريدًا، الله هو الذي جعله قادرًا، فالفعل الناتج عن إرادة الإنسان وقُدرته مخلوقٌ لله عزَّ وجلَّ، لأنَّ الإرادةَ والقُدرةَ مخلوقةٌ لله، والأمر واضح الآن، لكن مع هذا يقول ابن القيم -رحمه الله-:

٥٣٣- لَكِنَّ أَهْلَ الْـجَبْرِ وَالتَّكْـذِيبِ بِالْــ   أَقْـدَارِ مَـا انْفَتَحَـتْ لَــهُمْ عَيْنَـانِ

قَوْلُهُ: «أَهْلَ الـجَبْرِ» أهل الجبر هم الذين قالوا: إن الإنسانَ مُـجْبَرٌ على أفعاله لله، فالإنسان مُجْبَر عليها.

قَوْلُهُ: «**وَالتَّكْذِيبِ بِالأَقْدَارِ**» المراد بذلك القَدَرِيَّة الذين يقولون: إن أفعالَ العباد يفعلُها الإنسانُ مستقِلًّا عن الله عزَّ وجلَّ، فانظر الآن: طرفان متناقضان:

أهلُ الجبر يقولون: الإنسانُ ليس له إرادة، وليس له قُدْرَة، أفعالُه كاهتزاز الأشجار في الهواء، وأما القَدَرِيَّة فقالوا: إنَّ الإنسان مستقلٌّ بعَمَله، ليس لله فيه إرادة، وليس له تدخُّل فيه، فتأمَّل التناقض بين الطرفين!

الجبرية والقدرية إخوان في شيء، ولكنهم أعداء في شيء، ففي مسألة الصفات إخوان، كلهم يُنكرون الصفات، وفي مسألة القدَر أعداء، وفي مسألة الإيمان أعداء، لأنَّ الجَبرية مُرْجِئَة، والمعتزِلة وَعِيدِيَّة يرون أن فاعلَ الكبيرة مخلَّدٌ في النار، فأهل الباطل دائمًا يفترقون ويتفقون على غير هُدًى.

٥٣٤- نَظَرُوا بِعَيْنَيْ أَعْوَرٍ إِذْ فَاتَهُمْ   نَظَرُ الْبَصِيرِ وَغَارَتِ الْعَيْنَانِ

قَوْلُهُ: «**أعْوَرٍ**» هنا مصروفة لضرورة الشعر.

قَوْلُهُ: «**نَظَرُوا بِعَيْنَيْ أَعْوَرٍ**» واحد نظر مِن يمين، وواحد نظر مِن يسار، فالأعور الذي عينه اليسرى عوراء ينظر مِن اليمين، والذي عينه اليمنى عوراء ينظر مِن اليسار، ولهذا جاء الحديث أنَّ العَوْرَاء البيِّنَ عَوَرُهَا لا تَجْزِي[1]، عَلَّلَه الفقهاء فقالوا: لأنَّ العوراءَ لا تُدرِكُ الرَّعيَ كاملًا، ولا تستطيعُ الدفاعَ عن نفسها،

(١) وهو حديث: «أَرْبَعٌ لَا تَجُوزُ فِي الْأَضَاحِيِّ: الْعَوْرَاءُ الْبَيِّنُ عَوَرُهَا، وَالْمَرِيضَةُ الْبَيِّنُ مَرَضُهَا، وَالْعَرْجَاءُ الْبَيِّنُ ظَلْعُهَا، والعَجْفَاءُ -يعني الهزيلة- التي لا تُنْقِي». أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٤)، وأبو داود: كتاب الضحايا، باب ما يكره من الضحايا، رقم (٢٨٠٢)، والترمذي: كتاب الأضاحي، باب ما لا يجوز من الأضاحي، رقم (١٤٩٧)، والنسائي: كتاب الضحايا، باب ما نهي عنه من الأضاحي العوراء، رقم (٤٣٦٩)، وابن ماجه: كتاب الأضاحي، باب ما يكره أن يضحى به، رقم (٣١٤٤).

إذا جاءها الذئب مِن اليمين وهي عوراء مِن اليمين أكلها قَبل أن تنظر إليه.

فهؤلاء نظروا بعَين أعور، كيف؟

فالجبرية نظروا إلى عُموم مشيئة الله وخَلقه، وغفلوا عن أن للإنسان إرادةً وفِعلًا، والآخرون نظروا بالعَين الصحيحة إلى أن الإنسانَ مختارٌ فاعلٌ، لا يرى أحدًا يُجبِره، وغفلوا عن أن كلَّ ما في الكون خَلْقٌ لله ومِلْكٌ له.

قَوْلُهُ: «وَغَارَتِ العَيْنَانِ» واحد منهم غارت عَينه اليمنى، وواحد غارت عَينه اليسرى.

٥٣٥- فَحَقِيقَةُ الْقَدَرِ الَّذِي حَارَ الْوَرَى في شَأْنِهِ هُوَ قُدْرَةُ الرَّحْمَنِ

ما دام اللهُ قادرًا، فكُلُّ شيء واقِعٌ بقَدَرِه عزَّ وجلَّ، هذا وجه قول المؤلف: حقيقة القَدَر هو قدرة الرحمن، لأنَّه إذا كان هذا يقع بإرادة الله وقدرتِه فهذا هو القَدَر.

٥٣٦- وَاسْتَحْسَنَ ابنُ عَقِيلَ[1] ذَا مِنْ أَحْمدٍ لَـمَّا حَكَاهُ عَنِ الرِّضَا الرَّبَّانِي

يعني أن ابن عقيل -رحمه الله، وهو مِن مشاهير أصحاب الإمام أحمد- حكى عن الإمام أنه قال: (القَدَرُ قُدْرَةُ الله). فاستحسن هذا وأعجبه، لأنه واضح، ودليله واضح.

وابن عقيل هذا له (كتاب الفنون)، وقد قيل: إنه يبلغ ثمانمئة مجلدة.

---

(١) ابن عقيل: هو علي بن عقيل بن محمد بن عقيل، ولد سنة (٤٣١هـ)، وتوفي سنة (٥١٣هـ)، له مصنفات جمة، أهمها (الفنون)، قال الذهبي: لم يصنف في الدنيا أكبر منه، حدثني -يقوله الذهبي- حدثني مَن رأى منه المجلد الفلاني بعد الأربعمئة مجلدا -أي: مِن الفنون- انتهى. [الشارح]. انظر ترجمته في: البداية والنهاية (١٢/ ٢٢٨).

الله أكبر، كتاب واحد في ثمانمئة مجلدة، لكن على اسمه، الفنون، فكُلُّ فنون العلم موجودة فيه.

كان له أبناء، أكبرهم عقيل، طالب علم، وأبوه يَعْقِدُ عليه آمالًا، تُوفي وحزن عليه أبوه، وكانوا في المقبرة، فقام رجل مِن الناس وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف:٧٨] يريد هذا القائل أن يَفدِيَ عقيلًا بنفسه.

فبكى كُلُّ الذين في المقبرة، فقال ابن عقيل: «**إِنَّ القرآنَ لتسكين الأحزانِ لا لتهييج الأحزان**». انظر كيف الجواب العجيب؟!

نأخذ مِن هذا أن أولئك الذين يأتون للعزاء، ويُهَيِّجون أهل الميت، أنهم ليسوا على صواب، لأن المقصودَ بالعزاء تقويةُ الإنسان على تحمُّل المصاب، لا أن يُهَيِّج الحزن، ويُبْقِي الإنسان دائمًا في همٍّ وحزن.

المهم أن ابن عقيل -رحمه الله- استحسن قول الإمام أحمد -رحِمه الله-: «القَدَرُ قُدْرَةُ الله».

٥٣٧- قَالَ: الإِمَـامُ شَـفَا القُلُـوبَ بِلَفْظَـةٍ ذَاتِ اخْتِصَـارٍ وَهْـيِ ذَاتُ بَيَـانِ

قَوْلُهُ: «**قَالَ**» القائل: ابن عقيل.

قَوْلُهُ: «**الإِمَامُ شَفَا القُلُوبَ بلَفْظَةٍ**» شفاها أي: أبرأها مما فيها مِن الشك في القَدَر الذي حار فيه الوَرَى.

قَوْلُهُ: «**بلَفْظَةٍ ذَاتِ اخْتِصَارٍ وَهْيَ ذَاتُ بَيَانِ**» أي: مختصرة وبيِّنة، وصدَق -رحمه الله-.

ثم إن النبيَّ ﷺ شفا القلوبَ وأحياها، لَـمَّا أخبر فقال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ». فكُلُّ واحدٍ مكتوبٌ مقعده مِن الجنة ومقعده مِن النار، قالوا: يا رسول الله، أفلا نَدَعُ العملَ ونَتَّكِل على ما كُتب؟ قال: «لَا، اعْمَلُوا كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِـمَا خُلِقَ لَهُ».

فانظر إلى هذا الجواب البيِّن الواضح مِن الرسول -عليه الصلاة والسلام- الذي لو اجتمع الناس على أن يأتوا بمثله ويشفوا الصدورَ ما استطاعوا، «فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِـمَا خُلِقَ له، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»، ثُمَّ تلا قول الله عزَّ وجلَّ مستدِلًّا لذلك: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾[1] [الليل: ٥-١٠].

وقوله تعالى: ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ يعني: لكُلِّ فِعلة يُسرى، ومنها أن يُيَسِّرَ له فعل الطاعات.

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾، رقم (٤٩٤٥)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٧).

فصـــل

٥٣٨- وَلَـهُ الْـحَيَاةُ كَمَالُـهَا فَلِأَجْلِ ذَا مَـا لِلْمَـمَاتِ عَلَيْـهِ مِـنْ سُـلْطَانِ

٥٣٩- وَكَـذَلِكَ الْقَيُّـومُ مِـنْ أَوْصَـافِهِ مَـا لِلْمَنَـامِ لَدَيْـهِ مِـنْ غَشَـيَانِ

٥٤٠- وَكَـذَاكَ أَوْصَـافُ الْكَـمَالِ جَمِيعُهَـا ثَبَتَـتْ لَـهُ وَمَـدَارُهَا الْوَصْـفَانِ

٥٤١- فَمُصَحِّحُ الْأَوْصَافِ وَالْأَفْعَالِ وَالْـ أَسْـمَاءِ حَقًّـا، ذَانِـكَ الْوَصْـفَانِ(١)

٥٤٢- وَلِأَجْـلِ ذَا جَـاءَ الْـحَدِيثُ بِأَنَّـهُ فِي آيَـةِ الْكُـرْسِي وَذِي عِمْـرَانِ

٥٤٣- اسْمُ الْإِلَهِ الْأَعْظَمُ اشتَمَلَا عَلَى اسْـ ـمِ الْـحَيِّ وَالْقَيُّـومِ مُقْتَرِنَـانِ

٥٤٤- فَالْكُـلُّ مَرْجِعُهَـا إِلَى الْإِسْـمَيْنِ يَـدْ رِي ذَاكَ ذُو بَصَـرٍ بِهَـذَا الشَّـانِ

الشـرحُ

٥٣٨- وَلَـهُ الْـحَيَاةُ كَمَالُـهَا فَلِأَجْلِ ذَا مَـا لِلْمَـمَاتِ عَلَيْـهِ مِـنْ سُـلْطَانِ

قَوْلُهُ: «وَلَهُ الحَيَاةُ كَمَالُـهَا» أي: حياة كاملة ليس فيها نقص بوجه مِن الوجوه.

قَوْلُهُ: «فَلِأَجْلِ ذَا مَا لِلمَمَاتِ عَلَيهِ مِنْ سُلْطَانِ» يعني: أنه لا سلطان للموت عليه -جَلَّ وعلا-، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨] فلا يموت، لكَمال حياته، فله الحياة الكاملة.

(١) في أكثر الأصول الخطية: «الأصلان».

٥٣٩- وَكَــذَلِكَ الْقَيُّــومُ مِــنْ أَوْصَــافِهِ مَــا لِلْمَنَــامِ لَدَيْــهِ مِــنْ غَشَــيَانِ

قَوْلُهُ: «**وَكَذَلِكَ القَيُّومُ مِنْ أَوْصَافِهِ**» وهو أيضًا مِن أسمائه.

وابن القيم -رحِمه الله- عَبَّر عن القيُّوم بأنه مِن أوصافه، ولكن لا مانع، لأنَّ كُلَّ اسم متضمنٌ لصِفَة.

قَوْلُهُ: «**مَا لِلمَنَامِ لَدَيْهِ مِنْ غَشَيَانِ**»، فمِن أوصافه القيوميَّة التي تَضَمَّنَها قوله تعالى: ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥] وهذه القيوميَّة تمنع النوم، فالنوم مستحيل في حقِّ الله عزَّ وجلَّ، قال الله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥] لماذا؟

لأنه عزَّ وجلَّ القيُّوم، والقيُّومُ هو القائم بنفسه، القائم على غيره، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد:٣٣] يعني: كمن لا يملك هذا.

فاللهُ قائمٌ بنفسه مستغنٍ عن غيرِه، وغيرُه قائمٌ به -جلَّ وعلا-، فلأجل ذلك لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، لكمال حياته، وكمال قيوميَّته.

أرأيتم لو أنَّ أحدًا مِن الخلق له سُلطة على جماعة مِن الناس، وهو كثير النُّعَاس، هل يمكن أن يقوم بمصالحهم؟ الجواب: لا، فالإنسان إذا كان ينعُس، فإنه لو تَكَلَّم فربما تجده يهذي، فكيف يُصلح غيرَه؟!

فلِكمال حياته -سبحانه وتعالى- وكمال قَيُّومِيَّته لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، وغيرُه تأخذه السِّنَةُ والنوم قهرًا.

٥٤٠- وَكَــذَاكَ أَوْصَــافُ الْكَـمَالِ جَمِيعُهَــا ثَبَتَــتْ لَــهُ وَمَــدَارُهَا الْوَصْــفَانِ

أوصافُ الكمال كُلُّها ثبتتْ لله، والدليل قولُ الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠].

وَقَوْلُهُ: «وَمَدَارُهَا الوَصْفَانِ»، يشير إلى الحياة والقيوميَّة، فكُلُّ أوصاف الكمال تدور على هذين الوصفين، فالحيُّ فيه كمالُ الأوصاف، والقيُّوم فيه كمالُ الأفعال.

٥٤١- فَمُصَحِّحُ الْأَوْصَافِ وَالْأَفْعَالِ وَالْـ أَسْـمَاءِ حَقًّـا، ذَانِـكَ الْوَصْـفَانِ

كُلُّ الأسماء والأوصاف والأفعال تدور على هذين الاسمين: الحيّ والقيُّوم، فما مِن كمالٍ لحيٍّ إلا دخل تحت قوله: (الحيّ)، وما مِن كمالٍ في فِعل، ولا سلطان إلَّا دخل تحت قوله: (القيُّوم).

٥٤٢- وَلِأَجْلِ ذَا جَـاءَ الْـحَدِيثُ بِأَنَّـهُ فِي آيَـةِ الْكُـرْسِي وَذِي عِمْـرَانِ

٥٤٣- اسْمُ الْإِلَهِ الْأَعْظَمُ اشتَمَلَا عَلَى اسْـ ـمِ الْـحَيِّ وَالْقَيُّـومِ مُقْتَرِنَـانِ

يعني: جاء في الحديث أنَّ اسمه الأعظم، الذي إذا دُعِي اللهُ به أَجاب، وإذا سُئِلَ به أَعطى تضمَّن: الحيّ القيُّوم[1].

قوله -رحمه الله-: «فِي آيَةِ الكُرْسِي وَذِي عِمْرَانِ» يعني: في سورة البقرة وسورة آل عِمران، فقال الله عزَّ وجلَّ في سورة البقرة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال في سورة آل عمران: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [آل عمران:٢].

(١) وذلك في قوله ﷺ: «اسْمُ الله الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وَفَاتِحَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾. أخرجه أبو داود: كتاب الوتر، باب الدعاء، رقم (١٤٩٦)، والترمذي: كتاب الدعوات، بعد باب جامع الدعوات عن النبي ﷺ، رقم (٣٤٧٨)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم، رقم (٣٨٥٥).

بقي موضع ثالث في سورة طه، وهو قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه:١١١].

٥٤٤- فَالْكُـلُّ مَرْجِعُهَـا إِلَى الْإِسْـمَيْنِ يَـدْ ... رِي ذَاكَ ذُو بَصَـــرٍ بِهَــذَا الشَّــانِ

لأن هذين الاسمين يتضمَّنان جميعَ معاني أسماءِ الله، ووجه ذلك ما سبق، وهو أنَّ الحيَّ يتضمَّنُ كمالَ الأوصاف، والقيُّومَ كمالَ الأفعال.

* * *

٥٤٥- وَلَـهُ الْإِرَادَةُ وَالْكَرَاهَـةُ وَالـرِّضَى ... وَلَـهُ الْـمَحَبَّةُ وَهْـوَ ذُو الْإِحْسَـانِ

٥٤٦- وَلَهُ الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ الْعَارِي عَنِ التْـ ... ـتَشْـبِيهِ وَالتَّمْثِيـلِ بِالْإِنْسَـانِ

٥٤٧- وَكَمَالُ مَنْ أَعْطَى الْكَـمَالَ لِنَفْسِـهِ[1] ... أَوْلَى وَأَقْـدَمُ، وَهْـوَ أَعْظَـمُ شَـانِ

٥٤٨- أَيَكُونُ قَدْ أَعْطَـى الْكَـمَالَ وَمَـا لَـهُ ... ذَاكَ الْكَـمَالُ، أَذَاكَ ذُو إِمْكَـانِ؟!

٥٤٩- أَيَكُـونُ إِنْسَـانٌ سَـمِيعًا مُبْصِـرًا ... مُـتَكَلِّمًا بِمَشِـيئَةٍ وَبَيَـانِ؟

٥٥٠- وَلَـهُ الْـحَيَاةُ وَقُـدْرَةٌ وَإِرَادَةٌ ... وَالْعِلْـمُ بِـالْكُلِّيِّ وَالْأَعْيَـانِ

٥٥١- وَاللهُ قَـدْ أَعْطَـاهُ ذَاكَ وَلَـيسَ هَـ ... ـذَا وَصْفَهُ، فَاعْجَبْ مِنَ الْبُهْتَـانِ

٥٥٢- بِخِـلَافِ نَـوْمِ الْعَبْـدِ ثُـمَّ جِمَاعِـهِ ... وَالْأَكْـلِ مِنْـهُ وَحَاجَـةِ الْأَبْـدَانِ

٥٥٣- إِذْ تِلْكَ مَلْزُومَاتُ كَوْنِ الْعَبْـدِ مُحْـ ... ـتَاجًـا، وَتِلْـكَ لَـوَازِمُ النُّقْصَـانِ

٥٥٤- وَكَـذَا لَـوَازِمُ كَوْنِـهِ جَسَـدًا نَعَـمْ ... وَلَـوَازِمُ الْإِحْـدَاثِ وَالْإِمْكَـانِ[2]

(١) في نسخة الحلبي: «بنفسه».

(٢) في نسخة برلين هنا حاشية: «لعن الله من نسب الحنابلة إلى التجسيم».

٥٥٥- يَتَقَـدَّسُ الـرَّحْمَنُ جَـلَّ جَلَالُـهُ عَنْهَـا وَعَـنْ أَعْضَـاءِ ذِي جُـثْمَانِ

الشـرحُ

٥٤٥- وَلَـهُ الْإِرَادَةُ وَالْكَرَاهَـةُ وَالـرِّضَى وَلَـهُ الْـمَحَبَّةُ وَهْـوَ ذُو الْإِحْسَـانِ

هذه مِن صفاتِهِ عزَّ وجلَّ، **فله الإرادة**، ودليلها موجود في كتاب الله بكثرة، قال تعالى: ﴿يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:١]، وقال: ﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقال: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧] وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥] والإرادة عند أهل العلم تنقسم إلى قسمين: إرادة كونية، وإرادة شرعية، والفَرق بينهما مِن وجهين:

الوجه الأول: الإرادة الكونية تكون فيما يُحِبُّ الله، وفيما لا يُحبُّ، ولهذا نقول: إن الله تعالى قد أراد إيمانَ المؤمن كونًا، وأراد كُفْرَ الكافر كونًا، فالأول فيما يُحِبُّ، والثاني فيما لا يحبُّ.

الوجه الثاني: الإرادة الكونية لا بدَّ فيها مِن وقوع المراد، والإرادة الشرعية قد يقع المراد وقد لا يقع، فقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٢٧] هذه إرادة شرعية، لأنها لو كانت إرادةً قَدَرِيَّة لوجب أن تقع، أي: أن يقع مرادُه، وهو التوبة، ولكنَّ الله تعالى يتوب على مَن تاب فقطْ، والإرادة الكونية لا بدَّ فيها مِن وُقُوع المراد، لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣].

وله الكراهة، كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ [التوبة:٤٦] فالله تعالى يكره ما يَسْتَحِقُّ الكراهة مِن أفعالٍ وأقوالٍ، ففي قوله: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ المكروه هنا فِعل، وهو الانبعاث، وفي قول النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ كَرِهَ

لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ»[1]. المكروه هنا قول.

وله الرَّضَى، كقولِه تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة:١١٩] فهو يَرْضَى عن الأقوال، ويرضى عن الأفعال، ويرضى عن المؤمنين.

وله المَحَبَّة: فهو يُحِبُّ ويُحَبُّ، كقول تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤].

قَوْلُهُ: «وهوَ ذُو الإِحْسَانِ» يعني: النِّعَم، وإحسان الله تعالى لا يمكن أن يُعَدَّ ولا يحصى، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النحل:١٨].

أشار بهذا إلى أن هذه الأوصاف: الإرادة، والكراهة، والرِّضى، والمحبَّة، ليست هي الإحسان، بل الإحسان مِن لوازمها، أي: مِن لوازم المحبَّة والرِّضى.

أما أصحاب التعطيل فيُنكِرون الكراهة والرِّضى والمحبَّة، ويفسرون الكراهة بالعقوبة، والرِّضى بالمثوبة، والمحبَّة كذلك بالمثوبة، فتجدهم إذا فسَّروا قولَ الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤] قالوا: يعني: يُثيب المحسنين، وأنكروا أن يكون له محبَّة، وقالوا: إن المحبَّة لا تكون إلَّا بين متناسِبَيْنِ.

وهم أخطئوا في تحريف المنقول، وأخطئوا أيضًا في الواقع.

فالمحبَّة تكون بين متناسِبَيْن، كما بين الرجل وابنه وأبيه، وما أشبَهَ ذلك، وتكون بين المتبايِنَيْن، كمحبَّة الجهاد للإنسان، والإنسان للجهاد.

قال النبيُّ ﷺ في أُحُدٍ: «إِنَّهُ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»[1]. أين التناسب بين الأحجار

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستقراض، باب ما ينهى عن إضاعة المال، رقم (٢٢٧٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، رقم (٥٩٣).

والصخرات والإنسان؟ الجواب: لا تناسب، الإنسان في نفسه يُحِبُّ البَعير الفلاني، ولا يحبُّ البعيرَ الفلاني، كذلك الناقة تُحِبُّ صاحبَها وتَرُومه، وتختاره مِن بين الناس، كذلك أيضًا الجمادات: تجد الرجلَ -مثلًا- يشتري ساعة وأخرى، ويحبُّ هذه أكثر مِن هذه، وكذا قَلَم، كتاب، فقولهم مردودٌ بالحِسِّ، ومردودٌ بالشرع.

ثُمَّ نقول تنزُّلًا معهم: إذا فسَّرتمُ المحبَّة بالمَثُوبة، فهل يمكن أن يُثيبَ مَن لا يُحِبّ؟ الجواب: لا يمكن، كيف يثيب هذا ويعطيه ويرضيه وهو لا يحبُّه؟! هذا لا يمكن.

فالحمد لله الذي فتح عُقول أهل السنّة والجماعة لِـمَا يوافق المنقول والمعقول.

٥٤٦- وَلَهُ الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ الْعَارِي عَنِ التْـ ... ـشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ بِالْإِنْسَانِ

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، أي: مشابهًا، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢] أي: أنه لا نِدَّ له.

قَوْلُهُ: «**التَّشْبِيهِ والتَّمْثِيلِ**» هذا مِن باب عطف المترادِفَيْنِ بعضهما على بعض، مع أن التعبيرَ بنفي التمثيل أحسن مِن التعبير بلفظ نفي التشبيه.

ثم ذكر المؤلف دليلًا عقليًّا على أن اللهَ له الكمال، فقال:

٥٤٧- وَكَمَالُ مَنْ أَعْطَى الْكَمَالَ لِنَفْسِهِ ... أَوْلَى وَأَقْدَمُ، وَهْوَ أَعْظَمُ شَانِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب خرص الثمر، رقم (١٤١١)، ومسلم: كتاب الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه، رقم (١٣٩٢).

يعني: أن المؤلفَ -رحمه الله- استدلَّ بثُبُوت الكمال لله عزَّ وجلَّ بأنه أعطى الكمال، فيكون هو أَوْلَى به، فكمالُه سابقٌ على مَن أعطاه الكمال، وهذا واضح، لأنَّ مِن كماله أن أعطى ولا شكَّ، وهذا دليلٌ عقليٌّ، ولهذا قال: (أَوْلَى وَأَقْدَمُ وَهْوَ أعظَمُ شَانِ).

٥٤٨- أَيَكُونُ قَدْ أَعْطَى الْكَمَالَ وَمَا لَهُ ذَاكَ الْكَمَالُ، أَذَاكَ ذُو إِمْكَانِ؟!

قَوْلُهُ: «أَيَكُونُ قَدْ أَعْطَى الكَمَالَ... إلخ» ؟

الجواب: أبدًا، لا يمكن، لأنَّ مِن كماله أنْ يُعْطِيَ الكمالَ، أما أن يكون ناقصًا ثم يُعْطِي الكمالَ، فهذا مستحيل، إذ كيف يُعطِي الكمالَ مَن ليس بكامل؟! فكمال الله قد دَلَّ عليه السمعُ والعقلُ، ومِن الأدلة العقلية على كمال الله أنه معطٍ الكمالَ، ومُعطي الكمال أولى بالكمال.

٥٤٩- أَيَكُونُ إِنْسَانٌ سَمِيعًا مُبْصِرًا مُتَكَلِّمًا بِمَشِيئَةٍ وَبَيَانِ؟

هذا وصف للإنسان، فالإنسان سميع وبصير، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢].

قَوْلُهُ: «مُتكَلِّمًا»، والدليل قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٧].

قَوْلُهُ: «بِمَشِيئَةٍ»، لأنَّ الإنسانَ يتكلَّم بإرادة.

قَوْلُهُ: «بَيَان» أي: فصاحة، ولهذا تجد بعض الناس إذا تكلَّم سَلَبَ العقولَ، وتحقَّقَ بهذا قولُ الرسول ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الخطبة، رقم (٤٨٥١)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٩).

٥٥٠- وَلَـــهُ الْـــحَيَاةُ وَقُـــدْرَةٌ وَإِرَادَةٌ وَالْعِلْـــمُ بِـــالْكُلِّيِّ وَالْأَعْيَـــانِ

قَوْلُهُ: «وَلَهُ الحَيَاةُ» أي: الإنسان له الحياة، لقوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ [الأنعام:٩٥].

قَوْلُهُ: «وَقُدْرَةٌ» يعني: وله القُدرة، والدليل قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ [البقرة:٢٦٤] ونفيُ قُدرة هؤلاء يدلُّ على ثبوت القُدرة لغيرهم، وقال تعالى: ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾ [القلم:٢٥].

قَوْلُهُ: «وَإِرَادَةٌ»، فللإنسان إرادة، قال تعالى: ﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾ [البقرة:٢٢٣] أي: مِن حيثُ أردتم، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا﴾ [النساء:٢٧].

قَوْلُهُ: «وَالعِلْمُ» يعني أنَّ الإنسانَ له عِلم، والدليلُ قولُه تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق:٥]، وقوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران:٣].

قَوْلُهُ: «والعِلْمُ بالكُلِّيِّ وَالأَعْيَانِ»: **(الكُلِّي)** يعني: المعانيَ، و**(الأعيان)**: الأجسام، فالإنسان له عِلم بالمعاني الكُلِّيَّة، وكذلك بالأعيان.

٥٥١- وَاللهُ قَــدْ أَعْطَــاهُ ذَاكَ وَلَــيسَ هَـــ ـذَا وَصْفَهُ، فَاعْجَـبْ مِـنَ الْبُهْتَـانِ

قَوْلُهُ: «وَلَيسَ هَذَا وَصْفَهُ» أي: وصْف الله، يعني: كيف يكون إنسان متصفًا بهذه الصفات الكاملة، والله هو الذي أعطاه إيَّاها، وليس هذا وصفًا لله؟!

هؤلاء يقولون على كلامهم: إنَّ الله تعالى أعطى السمعَ والبصرَ، ولكن ليس له سمعٌ ولا بصرٌ، فيكون المخلوقُ أكملَ مِن الخالق.

٥٥٢- بِخِلَافِ نَوْمِ الْعَبْدِ ثُمَّ جِمَاعِهِ وَالْأَكْلِ مِنْهُ وَحَاجَةِ الْأَبْدَانِ

٥٥٣- إِذْ تِلْكَ مَلْزُومَاتُ كَوْنِ الْعَبْدِ مُحْـ تَاجًا، وَتِلْكَ لَوَازِمُ النُّقْصَانِ

لما ذكر الكمال لله عزَّ وجلَّ وأنَّ الإنسان له كمال، فلا يمكن أن يكون الخالق دونه في الكمال، أجاب عن شيء قد يتوهَّمه الإنسانُ، وهو نوم العبد، هل هو كمالٌ أو نقص؟

الجواب: هو كمالٌ مِن جهةٍ، ونقصٌ مِن جهةٍ أخرى، فمن جهة أنَّ الإنسانَ إذا كان صحيحَ البدن، وليس فيه آلامٌ ولا أوجاع، ونام، فهذا كمال، لكن مِن جهة أنه مِن لوازم النقص يكون نقصًا، فالإنسان لنقصانه يحتاج إلى نومٍ يستريح به مِمَّا مضى، ويستجد نشاطه لما يستقبل.

كذلك الجِماعُ كمالٌ في الإنسان، لكنه مِن لوازم النقص، إذ إن الإنسانَ محتاجٌ إلى بقاءِ النَّسل الذي طريقه الجِماع.

والأكل كذلك كمالٌ مِن وجهٍ، ونقصٌ مِن وجهٍ آخر، فالإنسانُ الصحيحُ يأكل بشهوةٍ ونَهْمَةٍ، ولذة في الأكل، والمريضُ بالعكس، لكن كونه يأكل مِن لوازم النقص، لأنه محتاج.

لَـمَّا كانت هذه الأشياء حاجةً، فقد تَنَزَّهَ اللهُ عزَّ وجلَّ عن الحاجة، فهو ليس بحاجةٍ إلى أكلٍ، ولا شربٍ، ولا جِماع، ولا غير ذلك، أما العبدُ فهذا مِن كماله، لاحتياجه إليه ليقوم به كماله.

٥٥٤- وَكَذَا لَوَازِمُ كَوْنِهِ جَسَدًا نَعَمْ وَلَوَازِمُ الْإِحْدَاثِ وَالْإِمْكَانِ

يعني: أيضًا مِن لوازم كونه جسدًا أن يحتاج إلى هذه الأشياء للبقاء والإمكان.

فالجسد يحتاج إلى شيء يُنَمِّيه ويُبْقِيه، وكذلك الإحداث والإمكان، فالإنسان حادثٌ ممكن الوجود، وليس بواجب الوجود، والله عزَّ وجلَّ ليس بحادث، وهو واجب الوجود.

٥٥٥- يَتَقَــدَّسُ الــرَّحْمَنُ جَــلَّ جَلَالُــهُ عَنْهَــا وَعَــنْ أَعْضَــاءِ ذِي جُــثْمَانِ

قَوْلُهُ: «يَتَقَدَّسُ الرَّحْمَنُ... عَنْهَا» أي: عن هذه اللوازم، ويتقدَّس أيضًا عن أعضاء ذي جُثمان.

وكلامُ المؤلف -رحِمه الله- هنا مُوهِمٌ ما ليس بمرادٍ له قطعًا، لأنَّ قولَه: «عَنْ أَعْضَاءِ ذِي جُثْمَانِ» يشملُ الوجهَ، واليدَ، والعينَ، والقدَمَ، والساقَ، فإنَّ هذه مِن أعضاء الجسم، فهل الله مُنَزَّهٌ عنها؟

الجواب: إنْ نَظَرْنا إلى ظاهر كلام المؤلف قلنا: إنه يدلُّ على ذلك، لكن لِعِلْمِنَا بحال المؤلف، وأنه يُثْبِتُ هذه الصفات لله عزَّ وجلَّ، وهي: الوجه، والعين، واليد، والساق، والقَدَم، لِعِلْمِنَا بذلك كما نعلمُ الشمسَ في رابِعَةِ النهار، فإننا نقول: إنه لم يُرِدْ نفيَ هذا عن الله، وإنما أراد نفيَ خصائصِ هذه الأعضاءِ بالنسبة للإنسان، فخصائصُ هذه الأعضاء بالنسبة للإنسان يجوز أن تنفصل مِن جسمه، وألا تنفصل، لكن اليد بالنسبة لله عزَّ وجلَّ، والساق، والقَدَم، والعين، لا يجوز أن يكون فيها هذا، ولهذا قال العلماء: لا يجوز أن تُطْلِقَ على يد الله أنها بعض الله، لأنَّ البعض ما جاز انفصالُه عن الكُلِّ، وهذا بالنسبة إلى الله أمر مستحيل.

ولهذا نجد دقةَ تعبير شيخ الإسلام ابن تيمية -رحِمه الله- حيث قال في (التَّدْمُرِيَّة)[1]: وبيان هذا، أن صفاتنا منها ما هي أعيان وأجسام، وهي أبعاض

(١) انظر: الرسالة التدمرية (ص:٧٧).

لنا، كالوجه واليد، ومنها ما هي معان وأعراض، وهي قائمة بنا، كالسمع والبصر والكلام والعلم والقدرة، ثم إن من المعلوم أن الرب لما وصف نفسه بأنه حي عليم قدير، لم يقل المسلمون: إن ظاهر هذا غير مراد، لأن مفهوم ذلك في حقه مثل مفهومه في حقنا، فكذلك لما وصف نفسه بأنه خلق آدم بيديه، لم يوجب ذلك أن يكون ظاهره غير مراد، لأن مفهوم ذلك في حقه كمفهومه في حقنا، بل صفة الموصوف تناسبه، فإذا كانت نفسه المقدسة ليست مثل ذوات المخلوقين، فصفاته كذاته ليست مثل صفات المخلوقين، ونسبة صفة المخلوق إليه، كنسبة صفة الخالق إليه، وليس المنسوب كالمنسوب، ولا المنسوب إليه كالمنسوب إليه. اهـ

إِذَنْ كلامُ ابن القيم يجب أن يُحْمَل على أعضاء ذي الجثمان، أي: خصائص هذه الأعضاء، وهي جواز انفصالها عن الكُلِّ، فأعضاءُ الإنسان يجوز أن تنفصلَ عن الكُلِّ، أما بالنسبة لهذه الأسماء، أو هذه الصفات -بالنسبة إلى الله- فإنه لا يمكن أن يكونَ فيها ذلك.

* * *

٥٥٦- وَاللهُ رَبِّي لَـمْ يَـزَلْ مُتَـكَلِّمًا ... وَكَلَامُـهُ الْـمَسْمُوعُ بِـالآذَانِ

٥٥٧- صِـدْقًا وَعَـدْلًا أُحْكِمَـتْ كَلِمَاتُـهُ ... طَلَبًـا وَإِخْبَـارًا بِـلَا نُقْصَـانِ

٥٥٨- وَرَسُـولُهُ قَـدْ عَـاذَ بِـالْكَلِمَاتِ مِـنْ ... لَـدْغٍ وَمِـنْ عَـيْنٍ وَمِـنْ شَـيْطَانِ

٥٥٩- أَيُعَاذُ[١] بِالْـمَخْلُوقِ؟ حَاشَاهُ مِنَ الْـ ... إِشْرَاكِ، وَهْـوَ مُعَلِّـمُ الْإِيـمَانِ

٥٦٠- بَـلْ عَـاذَ بِـالْكَلِمَاتِ وَهْـيَ صِـفَاتُهُ ... -سُـبْحَانَهُ- لَيْسَـتْ مِـنَ الْأَكْـوانِ

---

(١) في بعض الأصول: «أفعاذ».

٥٦١- وَكَـذَلِكَ الْقُـرْآنُ عَـيْنُ كَلَامِـهِ الْـ مَسْـمُوعِ مِنْـهُ حَقِيقَـةً بِبَيَـانِ

٥٦٢- هُـوَ قَـوْلُ رَبِّي كُلُّـهُ لَا بَعْضُـهُ لَفْظًـا وَمَعْنًـى، مَـا هُمَـا خَلْقَـانِ

٥٦٣- تَنْزِيـلُ رَبِّ الْعَالَـمِينَ وَقَوْلُـهُ اللَّفْـظُ وَالْـمَعْنَى بِـلَا رَوَغَـانِ

الشرحُ

ذكر المؤلف -رحمه الله- في هذه الأبيات ما يتعلَّق بصِفَةٍ مِن صفات الله عزَّ وجلَّ وهي صفة الكلام، فقال:

٥٥٦- وَاللهُ رَبِّي لَـمْ يَـزَلْ مُتَـكَلِّمًا وَكَلَامُـهُ الْـمَسْمُوعُ بِـالآذَانِ

إنَّ الله تعالى لم يزل مُتَـكلِّمًا، يعني: ولا يزال متكلِّمًا، اقرأ قولَ الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ﴾ [يس:٨٢] فقوله: «لَـمْ يَزَلْ» يعني: فيما مضى، ولا يزال كذلك في المستقبل، حتى قال الرَّبُّ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧].

الله أكبر! لو كلّ ما في الأرض صار أقلامًا يُكْتَبُ به، والبحرُ يمُدُّه مِن بعده سبعة أبحُر ما نَفِدَتْ كلماتُ الله، ولا نَفاد لها، لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لم يزلْ ولا يزالُ مُريدًا خالقًا، وكُلَّما أراد شيئًا قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ فلا نفادَ لكلمات الله -سبحانه وتعالى-، ولهذا قال: (لَـمْ يَزَلْ مُتَـكَلِّمًا).

واعلم أنَّ الكلمات تحدُث في الأزل، والتسلسل فيها باقٍ كما سبق، وكذلك في الماضي، فمن يحصي هذه الكلمات؟ الجواب: لا يحصيها إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ، وهو -سُبحانَه وتعالَى- لم يزل متكلِّمًا بكلامٍ بحرفٍ وصوت.

فإن قال قائل: الحروف هي الحروف التي تتكون منها كلمات الناس، أفلا يقتضي هذا أن يكونَ مماثِلًا للخَلق؟

فالجواب: لا يمكن، لأنَّ الصوت يختلف، فكما أنَّ الخالقَ والمخلوقَ يتفقان في الوجود ومع ذلك يختلفان في صفته، فوجودُ الخالقِ غيرُ وجودِ المخلوق، كذلك صوتُ الخالقِ عزَّ وجلَّ ليس كصوتِ المخلوق، أما الحروفُ فالحروف هي الحروف التي يتكلَّم بها الناس، وهذا لا يقتضي المشابَهة.

قَوْلُهُ: «وَكَلَامُهُ المَسْمُوعُ بِالآذَانِ» فكلامه يُسمَع، وليس يَخْلُقُ أصواتًا تُسْمَع تُعبِّرُ عن كلامه، بل كلامُه عزَّ وجلَّ مسموعٌ بالآذان.

أرأيتم حين كَلَّم موسى -عليه السلام-، فسمع موسى -عليه السلام- بآذانه، وصار يخاطِبُ اللهَ عزَّ وجلَّ، وكذلك النبيُّ ﷺ في المعراج كان يسمعُ كلامَ الله عزَّ وجلَّ ويخاطبُه، وسمِعَه مِن قَبْلِهما آدمُ -عليه الصلاة والسلام- وغيرُ ذلك.

فكلام الله مسموعٌ يُسْمَعُ بالآذان، لكنَّ صوتَه لا يُشبه أصواتَ المخلوقين، فلا يقومُ له إلَّا مَنْ ثَبَّته اللهُ عزَّ وجلَّ، ولهذا إذا تكلَّم بالوحي ارتجفت السمواتُ وصَعِقَت الملائكة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣].

٥٥٧- صِـدْقًا وَعَـدْلًا أُحْكِمَـتْ كَلِمَاتُـهُ   طَلَبًـا وَإِخْبَـارًا بِـلَا نُقْصَـانِ

قَوْلُهُ: «طَلَبًا وَإِخْبَارًا» فيه لف ونشر غير مُرَتَّب.

وَقَوْلُهُ: «صِدْقًا وَعَدْلًا» الصدقُ بالنسبة للإخبار، والعدلُ بالنسبة للأحكام، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، وفي قراءة:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾، فهي صدقٌ ليس فيها كَذِبٌ بِوَجْهٍ مِن الوجوه، وهي عدلٌ ليس فيها جَوْرٌ بِوَجْهٍ مِن الوجوه، ولهذا قال: (طَلَبًا)، وهذا يعود على العدل، (وإخبارًا) على الصدق (بِلَا نُقْصَانِ).

٥٥٨- وَرَسُولُهُ قَدْ عَاذَ بِالْكَلِمَاتِ مِنْ ... لَدْغٍ وَمِنْ عَيْنٍ وَمِنْ شَيْطَانِ

قَوْلُهُ: «وَرَسُولُهُ» يعني: محمدًا صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ: «قَدْ عَاذَ بالكَلِمَاتِ مِنْ لَدْغٍ وَمِنْ عَيْنٍ ومِنْ شَيْطَانِ» يعني: قال: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ»(١). مِن اللَّدْغ ومِن السامَّة، والهامَّة، والشيطان.

ومن قول النبيِّ ﷺ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله» استدلَّ الإمامُ أحمدُ -رحمه الله- بهذا على أنَّ كلامَ الله غيرُ مخلوقٍ، لأنَّ المخلوقَ لا يُسْتَعَاذُ به، هكذا قرَّر الإمامُ أحمدُ -رحمه الله-.

والحقيقة أنَّ المخلوق يُسْتَعاذ به فيما يَقْدِر عليه هذا المخلوقُ الحيُّ أمامك، كما جاء ذلك في عدة أحاديث، حيث قال النَّبِيُّ ﷺ لـمَّا تحدَّث عما تحدَّث عنه مِن الفتن: «وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً، أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ»(٢).

وأخبر أنَّ جيشًا عائِذٌ بالحَرَم(٣).

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره، رقم (٢٧٠٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٤٠٦)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب نزول الفتن كمواقع القطر، رقم (٢٨٨٦).

(٣) يعني قوله ﷺ: «يَعُوذُ عَائِذٌ بِالْبَيْتِ، فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعْثٌ، فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ خُسِفَ بِهِمْ». أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت، رقم (٢٨٨٢).

لكنَّ الشيءَ الذي هو غيرُ مُحسوسٍ لا يمكنُ الاستعاذةُ إِلَّا بصفةٍ مِن صفات الله، وأما بالمخلوق استعاذة محسوسة فهو كالاستغاثة تمامًا، والاستغاثة فيما يقدر عليه جائزة.

٥٥٩- أَيُعَاذُ بِالْـمَخْلُوقِ؟ حَاشَاهُ مِنَ الْـ   إِشْرَاكِ، وَهْـوَ مُعَلِّـمُ الْإِيـمَانِ

المعنى: أنَّ النبيَّ ﷺ لا يمكن أن يستغيثَ بمخلوقٍ غير حاضرٍ قادرٍ على إعاذته، لأنه لو فعل هذا لكان ذلك شِركًا، والنبيُّ ﷺ يتحاشى أن يُشرِك، وهو -عليه الصلاة والسلام- مُعَلِّمُ الإخلاص والإيمان.

٥٦٠- بَـلْ عَـاذَ بِـالْكَلِمَاتِ وَهْـيَ صِـفَاتُهُ   -سُـبْحَانَهُ- لَيْسَـتْ مِـنَ الْأَكْـوانِ

قَوْلُهُ: «بَلْ عَاذَ بِالكَلِمَاتِ وَهْيَ صِفَاتُهُ» أي: صفات الله عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «لَيْسَتْ مِنَ الأَكْوانِ» خلافًا للجهمية الذين قالوا: إن كلامَ الله مخلوقٌ مِن جملة المخلوقات.

٥٦١- وَكَـذَلِكَ الْقُـرْآنُ عَـيْنُ كَلَامِـهِ الْـ   مَسْـمُوعِ مِنْـهُ حَقِيقَـةً بِبَيَـانِ

هذا القرآن الذي بين أيدينا -نسأل الله أن يجعلنا ممن يتلونه حقَّ تلاوته- هذا كلام الله، تكلَّم به -جلَّ وعلا- حقيقةً، وسَمِعَه جبريلُ -عليه السلام- ثُمَّ ألقاه على قلب النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم.

٥٦٢- هُـوَ قَـوْلُ رَبِّي كُلُّـهُ لَا بَعْضُـهُ   لَفْظًـا وَمَعْنًـى، مَـا هُمَـا خَلْقَـانِ

هو قولُ الله عزَّ وجلَّ كله لا بعضه، خلافًا لِـمَن قال: إن الكلامَ مخلوقٌ، والمعنى القائم بالنفس غيرُ مخلوق، فجعل بعضَ الكلام مخلوقًا، وجعل بعضَه غيرَ مخلوقٍ، مثل الأشاعرة.

أَمَّا المعتزلة: فقالوا: كلامُ الله مخلوقٌ مِن الأصل، وليس له كلامٌ هو قائم بنفسه، بل هو مخلوق.

وكلامُ المعتزلة أقربُ إلى المعقول مِن كلام الأشاعرة، لأننا إذا جعلنا الكلام هو المعنى القائم بالنفس فمعناه: أنه لا كلام لله حقيقة.

وبريءٌ منهما قول السلف: إنَّ كلام الله هو المعنى واللفظ.

فالله عزَّ وجلَّ يتكلَّم بها في نفْسه متى شاء كيف شاء.

٥٦٣- تَنْزِيـــلُ رَبِّ الْعَالَـــمِينَ وَقَوْلُـــهُ اللَّفْـظُ وَالْــمَعْنَى بِــلَا رَوَغَــانِ

معلوم أن الناس انقسموا في الكلام إلى ثلاثة أقسام:

الأول: مَن قالوا: إن كلامَ الله صفةٌ مِن صفاته، شاملٌ للمعنى واللفظ، وهذا قول السلف، فالقرآنُ كلامُ الله لفظًا ومعنًى.

الثاني: مَن قال: كلامُ الله مخلوقٌ، بائِنٌ منه، لا يُوصَفُ به إلَّا على سبيل التشريف والتكريم، وهذا قول المعتزِلة، وهذا القول أدَّى إلى القول بأنَّ كُلَّ كلام في الوجود كلامُ الله عزَّ وجلَّ، كما قال الناظم:

وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُـهُ سَــواءٌ عَلَيْنَـا نَثْـرُهُ وَنِظَامُـهُ

وهذا القول يؤدِّي إلى القول بوَحْدَة الوجود، وهي سلسلة خبيثة.

الثالث: مَن قال: إن كلام الله عزَّ وجلَّ هو المعنى القائم بنفسه، وخلق أصواتا تعبِّر عمَّا في نفسه، وهذا قول الأشاعرة.

سبحانه وتعالى! أيكون ما في النفس كلامًا؟! لو كان كلامًا لم يكن فرقٌ بين

العِلم والكلام، لأنَّ العِلم أيضًا معنًى قائمٌ بالنفْس، وكُلُّ أحدٍ يعرف الفَرق بين العِلم والكلام.

لهذا أشار المؤلف -رحمه الله- إلى أن كلًّا مِن اللفظ والمعنى كلامُ الله.

***

٥٦٤- لَكِنَّ أَصْوَاتَ الْعِبَادِ وَفِعْلَهُمْ ... كَمِدَادِهِمْ وَالرَّقِّ مَخْلُوقَانِ

٥٦٥- فَالصَّوْتُ لِلْقَارِي وَلَكِنَّ الْكَلَا ... مَ كَلَامُ رَبِّ الْعَرْشِ ذِي الْإِحْسَانِ

٥٦٦- هَذَا إِذَا مَا كَانَ ثَمَّ وَسَاطَةٌ ... كَقِرَاءَةِ الْمَخْلُوقِ لِلْقُرْآنِ

٥٦٧- فَإِذَا انْتَفَتْ تِلْكَ الْوَسَاطَةُ مِثْلَمَا ... قَدْ كَلَّمَ الْمَوْلُودَ مِنْ عِمْرَانِ[(١)]

٥٦٨- فَهُنَالِكَ الْمَخْلُوقُ نَفْسُ السَّمْعِ لَا ... شَيْءٌ مِنَ الْمَسْمُوعِ، فَافْهَمْ ذَانِ

٥٦٩- هَذِي مَقَالَةُ أَحْمَدٍ وَمُحَمَّدٍ[(٢)] ... وَخُصُومُهُمْ مِنْ بَعْدُ طَائِفَتَانِ

٥٧٠- إِحْدَاهُمَا[(٣)] زَعَمَتْ بِأَنَّ كَلَامَهُ ... خَلْقٌ لَهُ أَلْفَاظُهُ وَمَعَانِي

٥٧١- وَالْآخَرُونَ[(٤)] أَبَوْا وَقَالُوا: شَطْرُهُ ... خَلْقٌ، وَشَطْرٌ قَامَ بِالرَّحْمَنِ

٥٧٢- زَعَمُوا الْقُرَانَ عِبَارَةً وَحِكَايَةً ... قُلْنَا[(٥)] كَمَا زَعَمُوهُ قُرْآنَانِ

---

(١) قال الحلبي في نسخته: في هامش الأصل: «أي: موسى».

(٢) قال الحلبي في نسخته: في هامش الأصل «أي: البخاري».

(٣) قال الحلبي في نسخته: في هامش الأصل «أي: الجهمية والمعتزلة».

(٤) قال الحلبي في نسخته: في هامش الأصل «أي: الأشاعرة».

(٥) في نسخة: «فَلَنا».

٥٧٣- هَـذَا الَّـذِي نَتْلُـوهُ مَخْلُـوقٌ كَـمَا قَـالَ الْوَلِيـدُ وَبَعْـدَهُ الْفِئَتَـانِ

٥٧٤- وَالْآخَـرُ الْـمَعْنَى الْقَـدِيمُ فَقَـائِمٌ بِـالنَّفْسِ لَـمْ يُسْـمَعْ مِـنَ الـدَّيَّانِ

الشـرحُ

٥٦٤- لَكِـنَّ أَصْـوَاتَ الْعِبَـادِ وَفِعْلَهُـمْ كَمِـدَادِهِمْ وَالـرَّقِّ مَخْلُوقَـانِ

هذه أربعة أشياء: الصوت، والفعل، والرَّق، والمِدَاد، فالصوت: النطق، والفعل: حركات الفم واللسان، والمداد: الحِبر، والرَّق: الورق المكتوب عليه، قال تعالى: ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ [الطور:٣] فهذه الأربعة مخلوقة، ولهذا قال:

٥٦٥- فَالصَّـوْتُ لِلْقَـارِي وَلَكِـنَّ الْكَـلَا مَ كَلَامُ رَبِّ الْعَرْشِ ذِي الْإِحْسَـانِ

٥٦٦-هَـذَا إِذَا مَـا كَـانَ ثَـمَّ وَسَـاطَةٌ كَقِـرَاءَةِ الْمَخْلُـوقِ لِلْقُـرْآنِ

يعني: فالصوت للقارئ، والكلام كلام الباري عزَّ وجلَّ.

٥٦٧- فَإِذَا انْتَفَـتْ تِلْـكَ الْوَسَـاطَةُ مِـثْلَمَا قَـدْ كَلَّـمَ الْمَوْلُـودَ مِـنْ عِمْـرَانِ

٥٦٨- فَهُنَالِكَ الْـمَخْلُوقُ نَفْسُ السَّمْعِ لَا شَيْءٌ مِـنَ الْمَسْـمُوعِ، فَـافْهَمْ ذَانِ

قَوْلُهُ: «الْمَوْلُودَ مِنْ عِمْرَانِ» يعني: موسى بن عمران -عليه السلام-، حيث كلَّمه اللهُ تكليمًا.

هنا إذا كلَّم اللهُ عزَّ وجلَّ أحدًا بلا وساطة، فكلامُ الله غيرُ مخلوق، وهو المسموع، والسمعُ الذي أدرك الكلامَ مخلوقٌ.

٥٦٩- هَـذِي مَقَالَـةُ أَحْمَـدٍ[(١)] وَمُحَمَّـدٍ[(٢)] وَخُصُـومُهُمْ مِـنْ بَعْـدُ طَائِفَتَـانِ

قَوْلُهُ: «أَحْمَدٍ وَمُحَمَّدٍ» يعني: أحمد بن حنبل -رحمه الله-، ومحمد بن إسماعيل البُخاري -رحمه الله-.

فأحمد بن حنبل، ومحمد بن إسماعيل البخاري قالا: إن هناك فَرْقًا بين المقروء والقراءة، وبين القارئ والمتكلِّم بالمقروء، فالمقروُء غيرُ مخلوق، والقراءةُ مخلوقةٌ، والقارئُ مخلوقٌ، والمتكلِّم بالمقروء وهو الله عزَّ وجلَّ طبعًا غيرُ مخلوق، فكلامُه غيرُ مخلوق، وبهذا التفصيل يزول الإشكال.

فهنا فرق بين الكلام والمتكلِّم، وبين القارئ والمقروء، ولهذا قال بعض السلف كما أشرت إليه مِن قبل: (**الصوتُ صوتُ القارئ، والكلامُ كلامُ الباري**).

ففَرْقٌ بين المفعولِ وبين الفِعل، وهذا التفصيل تزول به إشكالات كثيرة.

ولهذا لو قال قائل -سمع شخصًا يقرأ القرآن-: إنه مخلوق، فهذا غلط، لأنه يحتاج إلى تفصيل.

فيقال: صوت القارئ وحركاته مخلوقة لا شكَّ، أما المقروء فليس بمخلوق.

بالنسبة للسمع نقول: عندنا سامع وسمع ومسموع، فالسامع مخلوق، والسمع مخلوق، والمسموع فيه تفصيل: إن كان المسموع صوت القارئ فهو مخلوق، وإن قُصِدَ به ما يَلْفِظُ به القارئ، فهو غير مخلوق.

و هذا هو تحرير مذهب أهل السنّة والجماعة في هذه المسألة.

---

(١) أحمد: هو أحمد ابن حنبل، وقد سبق الكلام عن ترجمته. [الشارح].

(٢) محمد: هو محمد بن إسماعيل البخاري، صاحب الصحيح، وُلِد في بخارى سنة (١٩٤هـ)، وتوفي في خرتنك مِن أعمال سمرقند سنة (٢٥٦هـ)، فيكون عمره ثنتين وستين سنة (٦٢). [الشارح].

واعلموا أيضًا أن العلماء مِن أهل السنّة والجماعة ما لجئوا لهذه التفاصيل إلّا للضرورة، فلمَّا تكلَّم أهل البِدع في هذا الباب قالوا: لا بدَّ أن نتكلَّم، وإلّا لكنا نقول: (**القرآن كلام الله**) فقط، وكفى، قال الله تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦] لكنهم اضطروا إلى هذه التفاصيل لأجل مقاومة أهل البدع ومقارعتهم.

والإمام أحمد -رحِمه الله- رُوِيَ عنه أنه قال: مَن قال: لَفْظِي بالقرآن مخلوق فهو جَهْمِيّ، ومَنْ قال: غيرُ مخلوق فهو مبتدِع، لأنَّ كلمةَ (لفظ) مصدرٌ يَصِحّ أن يُعَبَّرَ بها عن اسمِ المفعول، وعن الفعل، فإذا قال: (لفظي بالقرآن مخلوق) يريد اسم المفعول ماذا يكون؟ الجواب: يكون جهميًّا.

وإذا قال: (لفظي) يريد حركات الإنسان والصوت المسموع مِن هذه الحركات، لو قال: (إنه مخلوق) فصحيح، لكن إذا قال: (غير مخلوق) يكون مبتدعًا.

نقول: إذا قال: (لفظي بالقرآن غير مخلوق) فهو مبتدع، لماذا؟ لأنه لا حاجة إلى قول ذلك، فمعروف أن الملفوظَ به غيرُ مخلوق، فلا يحتاج، فإذا قال: (لفظي مخلوق)، وأراد الملفوظ به فهو جهمي، وإن قال: (غير مخلوق) وأراد الملفوظ به أيضًا فيقال: هذا صحيح، ولكنه مبتدِع.

لما ذكر المؤلفُ قولَ الإمام أحمدَ وقولَ الإمامِ البخاريِّ -رحِمهما الله- قال: «**وَخُصُومُهُمْ مِنْ بَعْدُ طَائِفَتَانِ**»، ثُمَّ ذكر الطائفة الأولى، وهي المعتزِلة والجَهْمِيَّة، فقال:

٥٧٠- إِحْدَاهُمَا زَعَمَتْ بِأَنَّ كَلَامَهُ　　　خَلْقٌ لَهُ أَلْفَاظُهُ وَمَعَانِي

هذه هي الطائفة الأولى، وهم المعتزلة والجهمية، قالوا: إنَّ كلامَ الله مخلوقٌ ألفاظه ومعانيه، ولم يقم بذاته -سبحانه وتعالى-، فهو خلَق أصواتًا، وسمِعها

جبريلُ، فهي كأصوات الرعد والصواعق، سمعها وتلقَّاها، وحكاها إلى محمد صلى الله عليه وسلم.

فهم يقولون: إنَّ الله -سُبحانَه وتعالَى- لم يتكلَّم بكلام هو وصفُه، وليس له كلام هو وصفُه، ولكنه خلقَ كلامًا، ونَسَبَ هذا الكلام إليه، كما خلق ناقةً فنسبها إليه، وكما خلق بيتًا، ونسبه إليه، فنِسبة الكلام إلى الله ليست نِسبة صفة إلى الموصوف، ولكنها نِسبةُ خَلق إلى خالق.

فهؤلاء جعلوا القرآنَ ألفاظَه ومعانيَه مخلوقةً، وقالوا: القرآنُ كغيره مِن سائر المخلوقات، فهو مخلوقٌ لله عزَّ وجلَّ، وناظروا على ذلك، وحصَلت فيه مِحَنٌ كثيرة في زمن الإمام أحمد وبَعده وقَبْله.

٥٧١- وَالْآخَرُونَ أَبَوْا وَقَالُوا: شَطْرُهُ خَلْقٌ، وَشَطْرٌ قَامَ بِالرَّحْمنِ

الآخرون أبوا هذا القول، وهؤلاء هُم الأشاعرة، وقالوا: لا يمكن، فكلامُ الله صفةٌ مِن صفاته، ولكن جعلوا الألفاظَ مخلوقةً، والمعنى هو الصفة.

فصار كلامُ الله -على رأي هؤلاء- شطرين: شطرًا مخلوقًا، وشطرًا غيْرَ مخلوق، فالشطر المخلوق هو الألفاظ، يعني: الحروف والأصوات، والشطر غير المخلوق هو المعنى، وهو الذي قام بالرحمن، ولهذا يقولون: إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه. فشطروا الكلام، وقالوا: الألفاظ مخلوقة، خلقها الله عزَّ وجلَّ في الهواء، فسمعها جبريل، فنزل بها إلى الرسول ﷺ، أما المعاني فهي قائمةٌ بنَفْس الله، وليست مخلوقة.

هؤلاء في الحقيقة تناقضوا فجعلوا اللفظَ له جهة، والمعنى له جهة، والمعتزلة خيرٌ منهم في الاضطراد، لأنهم جعلوا الكلامَ مضطردًا، وقالوا: الكُلُّ مخلوقٌ،

ولا يُتَصَوَّر أن ينفصل لفظٌ عن معناه، ولا معنًى عن لفظه، كيف نقول: هذا المعنى غير مخلوق، واللفظ مخلوق، والمعنى كلام، واللفظ حدث؟! هذا لا يصحُّ، بل الكُلُّ مُحْدَثٌ، والكُلُّ مخلوقٌ، وانتهينا.

فمذهب المعتزلة في القرآن أنه مخلوق، وعلى هذا فتكون كُلُّ هذه الأربعة: (القارئ، والقراءة، والصوت، والمقروء) مخلوقةً عندهم، ويرون أنَّ كلامَ الله مِن جملة المخلوقات.

فأيها أقعد؟ الجواب: مذهب المعتزلة أقعد، لأنه مُطَّرِد، ولا يُعْقَل أنَّ كلامًا مِن متكلِّم واحدٍ يكون لفظُه له وجه، ومعناه له وجهٌ آخر.

وقد أَلَّف شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- كتابًا سماه (التسعينية)، رَدَّ عليهم مِن تسعين وجهًا.

وانظر إلى بَلِيَّة ما ذكروا:

٥٧٢- زَعَمُوا الْقُرَانَ عِبَارَةً وَحِكَايَةً ... قُلْنَا كَمَا زَعَمُوهُ قُرْآنَانِ

زعموا القرآن عبارة وحكاية عن كلام الله.

قَوْلُهُ: «فَلَنَا كَمَا زَعَمُوهُ قُرْآنَانِ» يعني: قرآن حكاية، وقرآن قول وصِفة، فأمَّا القرآن الذي هو الصفة فالمعنى، والقرآن الذي هو حكاية وعبارة فاللفظ.

إِذَنْ عندنا قرآنان: القرآن الذي هو المعنى القائم بنفس الرَّبِّ عزَّ وجلَّ، والقرآن الذي هو المسموع، ولهذا قال: (فَلَنَا كَمَا زَعَمُوهُ قُرْآنَانِ).

٥٧٣- هَـذَا الَّـذِي نَتْلُـوهُ مَخْلُـوقٌ كَـمَا قَـالَ الْوَلِيـدُ[١] وَبَعْـدَهُ الْفِئَتَـانِ

يقولون: الذي نتلوه مخلوق، والمعنى القائم بنفس الله -وهو الصفة- غير مخلوق.

فهذا هو مذهبهم، ولهذا قال بعض المحققين مِن الأشاعرة المتكلمين: نحن والمعتزلة على حدّ سواء، كُلُّنا متفقون على أن ما بين دَفَّتَي المصحف مخلوق.

هم متفقون على هذا، لكنَّ الأشعريةَ -وهم أصحاب هذا القول الذي يقول: المعنى هو الصفة واللفظ مخلوق- يقولون: هذا عبارةٌ عن كلام الله، وليس كلامَ الله، والمعتزلة يقولون: هذا -يعني الذي في المصحف- كلامُ الله.

سبحان الله! واتفق الجميع على أنه مخلوق، لكن أيهما أقْوَم؟ الجواب: المعتزلة، فهم يقولون: هذا كلامُ الله مخلوقٌ، والأشاعرة يقولون: هذا مخلوقٌ، وليس كلامَ الله.

والحقيقة أنه ليس كُلُّ أحدٍ يتفطن لهذا المعنى، فالأشاعرة يقولون: هذا ليس كلام الله وهو مخلوق، والمعتزلة يقولون: هذا كلام الله وهو مخلوق.

ونحن نقول: كلام الله غير مخلوق، فالأشاعرة قالوا: هذا عبارة عن كلام الله، وليس كلامَ الله، أو حكاية، والفَرق بين العبارة والحكاية أن العبارة يخلق الله أصواتًا تُعَبِّر، والحكاية حكاية القول، مثل ما يكون في الصَّدَى.

أنتم إذا تكلَّمتم مثلًا بين الجبال يكون صدًى يحكي الصوت، فهم يقولون:

---

(١) الوليد بن المغيرة: هو أبو خالد بن الوليد، ولد قبل الهجرة بخمس وتسعين سنة، ومات بعدها بثلاثة أشهر، كان من زعماء قريش، وممن حرم الخمر في الجاهلية، ولكنه عادى الإسلام حين ظهر الإسلام. [الشارح].

إن الله تعالى تكلَّم بكلامٍ لا يُسمَع، لكن أصابه الصَّدَى، حكايةً عن الكلام، لكن المعروف عند الأشاعرة أنهم يقولون: إنه عبارة، والكُلَّابِيَّة يقولون: إنه حكاية.

قَوْلُهُ: «كَمَا قَالَ الوَلِيدُ» هو الوليد بن المغيرة أبو خالد بن الوليد، فالوليد بن المغيرة قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٤-٢٥] فقال الله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر:٢٦].

فهم يقولون: هذا قول البشر، فهم يقولون: مخلوق مِثلما أنَّ كلامي أنا مخلوق وكلام الثاني مخلوق، فهذا مخلوق أيضًا كما قال الوليد.

قَوْلُهُ: «وَبَعْدَهُ الفِئَتَانِ» الفئتان هما الأشاعرة والمعتزلة، فكلاهما يقول: هذا الكلامُ الذي بين أيدينا -وهو القرآن- مخلوقٌ.

٥٧٤- وَالْآخَرُ الْمَعْنَى الْقَدِيمُ فَقَائِمٌ بِالنَّفْسِ لَمْ يُسْمَعْ مِنَ الدَّيَّانِ

هذا المسموع الذي يُسمع ويُتْلَى مخلوقٌ، وليس كلامَ الله، بل هو عبارة عن كلام الله، هذا كلام الله عند الأشاعرة، المعنى القديم، ولهذا يقولون: كلام الله قديم.

انتبِهوا لهذه الكلمة فهي خطأ، وليست صوابًا، فلا يجوز أن نقول: (كلام الله قديم) بل كلامُ الله مُتَعَلِّقٌ بمشيئته، متى شاء تكلَّم.

قَوْلُهُ: «لَمْ يُسْمَعْ مِنَ الدَّيَّانِ» يعني: ما سمعه لا جبريل، ولا موسى، ولا محمّد، لأنه هو المعنى القائم بالنفس.

وكلُّ أحدٍ يعرف أنَّ المعنى القائم بالنفس لا يُسَمَّى كلامًا أبدًا، أنت الآن لو أردتَ أن تخطُب خُطبةً، وفي نَفْسِك تُكَوِّن عناصرها، وتقول: أقول كذا، وأقول

كذا، وأقول كذا، وأقول كذا، هل يُقَال: إنك تكلَّمت؟ الجواب: لا، فليس هذا بكلام، ولا يُعْرَف في اللغة العربية أنَّ هذا كلام.

هم يقولون: إن هذا هو الكلام، ولهذا قالوا: إن كلامَ الله قديم، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يعلم عِلمًا قديمًا أنه سيتكلَّم بهذا الكلام إلى يوم القيامة.

***

٥٧٥- وَالْأَمْـرُ عَـيْنُ النَّهْـيِ، وَاسْـتِفْهَامُهُ هُـوَ عَـيْنُ إِخْبَـارٍ وَذُو وَحْـدَانِ

٥٧٦- وَهْـوَ الزَّبُـورُ وَعَـيْنُ تَـوْرَاةٍ وَإِنْـ ـجِيلٍ وَعَـيْنُ الـذِّكْرِ وَالْفُرْقَـانِ

٥٧٧- الْكُـلُّ شَيْءٌ[1] وَاحِـدٌ فِي نَفْسِـهِ لَا يَقْبَـلُ التَّبْعِـيضَ فِي الْأَذْهَـانِ

٥٧٨- مَـا إِنْ لَـهُ كُـلٌّ وَلَا بَعْـضٌ وَلَا حَـرْفٌ وَلَا عَـرَبِي وَلَا عِـبْرَانِي

الشرحُ

٥٧٥- وَالْأَمْـرُ عَـيْنُ النَّهْـيِ، وَاسْـتِفْهَامُهُ هُـوَ عَـيْنُ إِخْبَـارٍ وَذُو وَحْـدَانِ

قَوْلُهُ: «وَالأَمْرُ عَيْنُ النَّهْيِ» يعني: قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣]، هو عين قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء:٣٢]، وقوله: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ هو عين قوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦].

نقول: هل هذا الكلام معقول؟ هل الأمر هو عين النهي؟!

والله، لا أعتقد أنَّ عاقلًا يقول هذا المعنى، سبحان الله! عينُ الأمر هو عينُ

(١) في نسخة الحلبي: «معْنًى».

النهي؟! يقول: نعم، لأنَّ الكلام معنًى، لكن إنْ عَبَّرتَ عنه بالأمر صار أمرًا، وإن عبَّرت عنه بالنهي صار نهيًا.

سبحان الله! المتكلِّم نفسُه هل يُقَدِّر الأمرَ أمرًا، أو يقدِّره نهيًا؟ الجواب: يقدِّره أمرًا، ولا يقدِّره نهيًا، أمَّا هو فيقول: لا، المعنى واحد لا يتجزَّأ ولا يتبعَّض، وليس هناك أمرٌ، ولا نهيٌ، لكن الصورة التي تُخْلَقُ لتُعَبِّرَ عن هذا هي التي يُقال عنها: إنها أمرٌ أو نهيٌ.

والله ليس هذا بمعقولٍ إطلاقًا!

قَوْلُهُ: «**واسْتِفْهَامُهُ هُوَ عَيْنُ إِخْبَارٍ**» فالاستفهام مثل: (هل قام زيد؟) فهو بمعنى (قام زيد) فعندهم هذا هو هذا، فالاستفهام هو الخبر، وقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣]، هو عين قوله: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد:١٦] فـ (**اسْتَفْهَمَ**) و(**أخبر**) بمعنًى واحدٍ، فيجعلون العالِـمَ كالجاهل، فالعالم الذي يصدر الأخبار كالجاهل الذي يسأل عن الأخبار.

ولهذا قال: «**واسْتِفْهَامُهُ عَيْنُ إِخْبَارٍ وَذُو وحْدَانِ**» يعني: الشيء الواحد لا يتجزَّأ.

وهذا لا أحد يَقْبَلُه لا فِطرةً، ولا عقلًا، ولا لغةً، ولا عُرْفًا.

ولو أنك سألت عامّة الأشعرية في الوقت الحاضر ما ظنوا أنَّ هذا مذهبهم في كلام الله عزَّ وجلَّ، لأنه مذهبٌ يرفضه الذِّهْنُ، ولا يمكن أن يتصوَّرَه، فكيف يُعْقَلُ أنَّ الأمرَ هو النهي، والخبرَ هو الاستفهام، والتوراةَ هي الإنجيل، والإنجيلَ هو القرآن؟! اللهم اهدِنا.

٥٧٦- وَهُوَ الزَّبُورُ وَعَيْنُ تَوْرَاةٍ وَإِنْـ ـجِيلٍ وَعَيْنُ الذِّكْرِ وَالْفُرْقَانِ
٥٧٧- الْكُلُّ شَيْءٌ وَاحِدٌ فِي نَفْسِهِ لَا يَقْبَلُ التَّبْعِيضَ فِي الْأَذْهَانِ

هذه أربعة كتب: الزَّبُور، والتوراة، والإنجيل، والقرآن، يقول: هذه شيء واحد، فالتوراة هي القرآن، والقرآن هو الإنجيل، والإنجيل هو الزَّبور، فكُلُّها شيءٌ واحد، لكن اختلفت في الصورة، فإنْ عُبِّر عنه بالعربية سمَّيناه قرآنا، وبالعِبرية توراةً، وبالسُّرْيَانِيَّة إنجيلًا، بالدَّاوُدِيَّة زَبورًا، وإلَّا فهي شيءٌ واحد.

نقول: سبحان الله! ففَرْقٌ بين القرآن والتوراة مِن آلاف الوجوه: في الشمول، وفي الصلاحية لكُلِّ زمان ومكان، فالتوراة نزلت لقومٍ مُعيَّنين لبني إسرائيل، وكل تشريعاتها تليقُ ببني إسرائيل، شُدِّد عليهم، ووُضعت عليهم الآصار والأغلال، وحُرِّمَ عليهم بعضُ الحلال في شريعتهم، لكن في القرآن بالعكس.

أمَّا الإنجيل ففيه تسامُحٌ كثير جدًّا، لكن في القرآن لا، فالقرآن جمع بين الحزم واليُسْر.

فالحاصل كيف نقول: إن التوراةَ والإنجيلَ والقرآنَ والزَّبُورَ كُلَّ هذه شيء واحد لكن تختلف بالأساليب؟!

ولذلك فإن تَصَوُّرَ هذا القولِ كافٍ في ردِّه -نسأل الله الهداية- فالذين يذهبون إلى هذا -سبحان الله!- ليسوا بالعلماء الذين ليسوا بشيء، بل علماء معتبَرون عندنا، نُجِلُّهم ونشهد لهم بالخير، لكن -سبحان الله!- الهِداية بيد الله عزَّ وجلَّ، وبهذا يُعرَف أن الإنسان مهما كان فهو ضعيف، وإلَّا فيوجد أُناسٌ أجِلَّاء اعتنقوا هذا القولَ، نشهد لهم بالخير، وبمحبة عِزِّ الإسلام وشأنه.

ولذلك إذا قال قائل: ما موقفنا مِن العلماء الذين لهم قَدَم صِدق في العِلم، وهُم قد خدموا الكتاب والسنّة، مع تَلَبُّسِهِم بهذه الضلالات في العقيدة؟

نقول: موقفنا منهم أننا نُعَظِّمهم، ونُكرمهم ونحبُّهم على ما قاموا به مِن نصر السُّنَّة، لكن لا نَحمدهم على ما فعلوه مِن مخالفة السلف، بل نعاملهم بالعدل، والعدل أن نُعطيَ كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّه، ومِن مذهب أهل السُّنَّة والجماعة أن الإنسان يكون فيه خَصلة خير، وخَصلة شرّ، خَصلة طاعة، وخَصلة معصية، خَصلة إيمان، وخَصلة كُفر، وقد يكون فيه جانبُ صوابٍ، وجانبُ خطأ، لكن الأصل أن يُعتبَر بأكثر أحواله، وأكثر أقواله، فإذا كان يُنسَبُ إلى أهل السُّنَّة، ويقول مثلًا: إمامِي في ذلك إمامُ أهل السُّنة الإمام أحمد بن حنبل، وما أشبه ذلك، ويخرج في بعض الأحيان عن مذهب أهلِ السُّنة، فهذا يُعتبَرُ مِن أهل السُّنة، ولكن يُقال: هو في هذه المسألة المعيَّنة مِن أهل البدعة.

وأمَّا مَن ينتسب إلى أهل البدعة، فهو بِدْعيٌّ حتى لو قال قولًا لأهل السُّنة، لأنَّ العِبرةَ بأصله وانتمائه، ويُقال: هو بِدعيٌّ، لكن له قولٌ يُوافِق أهل السُّنة في كذا.

إِذَنْ إذا علِمنا أن الرجلَ له مَقامُ صِدْقٍ في الشريعة، وأنه حسَن النية والقصد، وأنَّ بدعته ليست مُكَفِّرَة، فهذا يجب علينا أن نسأل الله له العفوَ والرحمةَ، ونتبرّأ مِن مقاله، ولا نتبرأ منه.

٥٧٨- مَـــا إِنْ لَـــهُ كُـــلٌّ وَلَا بَعْـــضٌ وَلَا حَـــرْفٌ وَلَا عَـــرَبِي وَلَا عِـــبْرَانِي

قَوْلُهُ: «مَا إِنْ لَهُ كُلٌّ وَلَا بَعْضٌ... إلخ» لماذا قالوا ذلك؟

الجواب: لأنهم يرون أنَّ الكلامَ هو المعنى القائم بالنفس، وأنه ليس له كُلٌّ،

ولا بعضٌ، ولا حرفٌ، ولا صوتٌ، ولا يوجد وصفٌ بأنه عربِيٌّ، ولا عِبراني، فالكلام هو المعنى القائم بالنفس، وهو شيء واحد، لا يقبل التَّجَزُّؤَ، ولا يقبل أن هذا أمر، وهذا نهي، فالكلُّ شيءٌ واحد.

***

٥٧٩- وَدَلِيلُهُمْ فِي ذَاكَ بَيْتٌ قَالَهُ ... فِيمَا يُقَالُ الْأَخْطَلُ النَّصْرَانِي

٥٨٠- يَا قَوْمِ قَدْ غَلِطَ النَّصَارَى قَبْلُ فِي ... مَعْنَى الْكَلَامِ ومَا اهْتَدَوْا لِبَيَانِ

٥٨١- وَلِأَجْلِ ذَا جَعَلُوا الْمَسِيحَ إِلَهَهُمْ ... إِذْ قِيلَ كِلْمَةُ خَالِقٍ رَحْمَنِ

٥٨٢- وَلِأَجْلِ ذَا جَعَلُوهُ نَاسُوتًا وَلَا ... هُوتًا قَدِيمًا بَعْدُ مُتَّحِدَانِ

٥٨٣- وَنَظِيرُ هَذَا مَنْ يَقُولُ: كَلَامُهُ ... مَعْنًى قَدِيمٌ غَيْرُ ذِي حِدْثَانِ

٥٨٤- والشَّطْرُ مَخْلُوقٌ وَتِلْكَ حُرُوفُهُ ... نَاسُوتُهُ لَكِنْ هُمَا غَيْرَانِ

٥٨٥- فَانْظُرْ إِلَى ذَا الِاتِّفَاقِ فَإِنَّهُ ... عَجَبٌ، وَطَالِعْ سُنَّةَ الرَّحْمَنِ

الشرحُ

٥٧٩- وَدَلِيلُهُمْ فِي ذَاكَ بَيْتٌ قَالَهُ ... فِيمَا يُقَالُ الْأَخْطَلُ(1) النَّصْرَانِي

وأعجب مِن هذا قولُهم: عندنا دليل على أن الكلامَ هو المعنى القائم بالنفس، والدليل هو هذا البيت الذي قاله الأَخْطَل النصرانيُّ، والأَخْطَل معروف

(١) الأخطل النصراني: هو غياث بن غوث، من بني تغلب، من شعراء بني أمية، نشأ على المسيحية في أطراف الحيرة بالعراق، ثم اتصل ببني أمية في دمشق، ولد سنة (١٩هـ) واختلف في سنة وفاته، وفي تاريخ ابن كثير أنه سنة (٩٢هـ) إذن عمر ثلاثًا وسبعين سنة. [الشارح].

أنه مِن الشعراء، وهذا البيت يقول[1]:

إِنَّ الكَـلَامَ لَفِـي الفُـؤَادِ وَإِنَّـمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الفُـؤَادِ دَلِـيلا

هذا هو البيت، فالكلام محَلّه الفؤاد.

لكن هل الأخطل أراد بذلك ما أراد هؤلاء؟ أم أراد أن الكلام المُنَظَّم الذي يحمل المعنى هو ما يفكر فيه الإنسان أولًا في قَلبه، ثم يُعَبّر عنه باللسان؟ هو أراد هذا لا شك، ولم يكن يعرف هذا المذهب الحادث المبتدَع.

والحقيقة أنه استدلالٌ بها لا دليلَ فيه مِن وجهين:

الوجه الأول: هل يُستدَلّ بقول إنسان على اللغة العربية بعد اختلافها؟ الجواب: لا.

الوجه الثاني: أنَّ هذا البيت لا يُراد به المعنى الذي يقولونه، بل معنى قوله: (إِنَّ الكلامَ لفي الفؤادِ) أن الإنسانَ الذي يتكلَّم بعقْلٍ يُقَدِّر الشيءَ في فؤاده أولًا، ثم بعد ذلك يُعَبِّرُ عنه.

فكُلُّ إنسانٍ عاقلٍ يريد أن يكونَ لقوله وزنٌ ومعنًى لا يمكن أن ينطقَ بكلمة حتى يُقَدِّرَها في قلبه ويَزِنَها، وينظر هل يَتكلَّم بها، أو لا يَتكلَّم؟ فإذا نَضِجَت عنده حينئذٍ يُعَبِّر، هذا هو معنى البيت الذي لا يَحتمل غيرَه.

ونظير استدلالهم بهذا البيت استدلالهم بأنَّ (استوى) بمعنى (استولى) في قول الرجل المجهول[2]:

---

(١) انظر: البيان والتبيين للجاحظ (١/ ١٨٧).

(٢) انظر: الأزمنة والأمكنة لأبي علي الأصفهاني (١/ ٣٦).

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَـلَى الْعِـرَاقِ ... مِنْ غَـيْرِ سَـيْفٍ وَدَمٍ مُهْـرَاقِ

وليس معنى: (اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِراقِ) أنه رَكِب فوقَه، لكن المعنى قد استولى عليه، إذن حَوِّل كُلَّ كلمات (اسْتَوَى) التي في القرآن إلى (استولى) لهذا البيت!

على كُلِّ حالٍ دليل الأشاعرة في أنَّ الكلام هو المعنى القائم بالنفس قول النصراني، وسبحان الله أنْ جَعَل اللهُ إمامَهم نصرانيًّا!

ثُمَّ قال ابن القيم -رحمه الله-:

٥٨٠- يَا قَوْمِ قَدْ غَلِطَ النَّصَـارَى قَبْـلُ فِي ... مَعْنَـى الْكَـلَامِ ومَـا اهْتَـدَوْا لِبَيَـانِ

قَوْلُهُ: «يَا قَوْمِ» إِمَّا أن يخاطبَ ابنُ القيم -رحمه الله- أهلَ السُّنَّة، أو يخاطبَ هؤلاء ليبيِّنَ لهم أنَّ استدلالَهم بما يقوله النصراني خطأٌ، لأنَّ النصارى غلِطوا في أمر أعظمَ مِن هذا.

قَوْلُهُ: «قَدْ غَلِطَ النَّصَارَى» يريد أنهم غلِطوا في معنى قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء:١٧١] فقالوا: إن عيسى هو كلمة الله، والكلمة وصفُ المتكلِّم، فالمسيحُ جزءٌ مِن المتكلِّم، أي: جزء مِن الله، لأنه كلمته.

لكننا نقول: إن عيسى ليس كلمة الله، لكنه كان بكلمة الله عزَّ وجلَّ، ودليل هذا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩].

فهم غلِطوا في تفسير (كلمة الله) يعني: عيسى -عليه الصلاة والسلام-.

٥٨١- وَلِأَجْلِ ذَا جَعَلُوا الْـمَسِيحَ إِلَـهَهُمْ إِذْ قِيـلَ كِلْمَـةُ خَـالِقٍ رَحْمَـنِ

يعني: جعلوا المسيحَ إلـهًا لهم لما قيل: إنه كلمةُ الله، قالوا: لما كان كلمة الله فهو إذن وصفٌ مشتقٌّ منه، والوصفُ لازمٌ للموصوف، فهو إذن إلهٌ فَلْيُعْبَد.

٥٨٢- وَلِأَجْـلِ ذَا جَعَلُـوهُ نَاسُـوتًا وَلَا هُوتًـا قَـدِيمًا بَعْـدُ مُتَّحِـدَانِ

قَوْلُهُ: «**ناسوتًا**» الناسوت: عبارة عن الناس، فهو مِن الإنسان.

قَوْلُهُ: «**لاهوتًا**» اللاهوت: عبارة عن إله.

فقالوا: إن الناسوتَ -وهو حادِثٌ- حلَّ في اللاهوت، وهو قديم، وقالوا: إنَّ عيسى -عليه السلام- اتَّحد مع الله -تبارك وتعالى- وصارا واحدًا.

فهم قالوا: إن إلههم مُرَكَّبٌ مِن ناسوت ولاهوت، والناسوت حلَّ في اللاهوت كالكلام، فالمعنى قديم، واللفظ حادث مخلوق، وسُمِّي الكلامُ كلامَ الله، مع أنه مُرَكَّبٌ مِن شيئين: معنًى ولفظٌ، واللفظ مخلوق، والمعنى صفة، ولذا قال:

٥٨٣- وَنَظِـيرُ هَـذَا مَـنْ يَقُـولُ: كَلَامُـهُ مَعْنًـى قَـدِيمٌ غَـيْرُ ذِي حِـدْثَانِ

٥٨٤- والشَّـطْرُ مَخْلُـوقٌ وَتِلْـكَ حُرُوفُـهُ نَاسُـوتُهُ لَكِـنْ هُمَـا غَـيْرَانِ

ابن القيم -رحِمه الله- قارَنَ بين قول النصارى في عيسى بن مريم: إنه كلمة، والكلمة صِفة، فهو إلهٌ بهذا المعنى، مخلوقٌ جسدًا، لكنه صِفة لله عزَّ وجلَّ، وبين قول الأشاعرة في الكلام حيث يقولون: اللفظ مخلوق، والحروف مخلوقة، والمعنى صفة، فابن القيم يقول: هذا نظير هذا.

وَقَوْلُهُ: «**وَنَظِيرُ هَذَا مَنْ يَقُولُ كَلَامُهُ مَعْنًى قَدِيمٌ... إلخ**» مَن هؤلاء؟ الجواب: الأشاعرة، فيقولون: المعنى صفة، والشطر مخلوق وهي الحروف.

والحروف ناسُوتُه، فالحروف عند الأشاعرة في الكلام كالناسوت عند النصارى في الإله (لَكِنْ هُمَا غَيْرَانِ)، لأنَّ اللفظَ غيرُ المعنى، وعيسى -عليه الصلاة والسلام- غيرُ الله، لكن اتَّحدا.

٥٨٥- فَـــانْظُرْ إِلَى ذَا الِاتِّفَـــاقِ فَإِنَّـــهُ عَجَـــبٌ، وَطَـــالِعْ سُـــنَّةَ الـــرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «فَانْظُرْ إِلَى ذَا الاتِّفَاقِ» صحيح أنَّ هذا اتفاق عجيب بين النصارى، وبين هؤلاء، وذلك في استدلالهم على الكلام بقول نصراني، ثُمّ إذا طَبَّقْتَ هذا وهذا وجدتَ أنهما متشابهان، إن لم يكونا مِثْلَيْن.

فقول النصارى في المسيح بأنَّ جسدَه مخلوق، ومعناه (حقيقته) غير مخلوق، لأنه كلمة الله، وهؤلاء يقولون: اللفظ مخلوق، والمعنى غير مخلوق.

فقضيةُ الكلام تُشْبِهُ مِن بعض الوجوه قضيةَ عيسى بن مريم -إن لم تكن تماثلها- في معتقد النصارى، يقول: جسدُ عيسى مخلوقٌ أُحادي، وليس هناك إشكال، لكن هو (كلمة الله) فالمعنى لهذا الجسد إله صفة مِن صفاته، فاتَّحدا بعد أن كانا مُفْتَرِقَيْن مُتَغَايرَيْن، اتَّحدا وصارا شيئًا واحدًا، ولهذا الإله مُركَّب مِن ثلاثة.

وَقَوْلُهُ: «فَإِنَّهُ عَجَبٌ وَطَالِعْ سُنَّةَ الرَّحْمَنِ» الله أكبر! كُلُّ مَن ضَلَّ عن الحقِّ فيه شَبَهٌ مِن غير المُسْلم، وهذه قاعدة عامة، لأنَّ الرسولَ ﷺ قال: «إِنَّ اليَهُودَ افْتَرَقُوا عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَالنَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»[1]. إذن ما مِن شيء في هؤلاء إلَّا سيحدث في هذه الأُمَّة، يركبون سَنَن مَنْ كان قبلهم.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب شرح السنة، رقم (٤٥٩٦)، والترمذي: كتاب الإيمان، باب افتراق الأمة، رقم (٢٦٤٠) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه: كتاب الفتن، باب افتراق الأمم، رقم (٣٩٩١).

فكُلُّ مَنْ خالَفَ ما عليه الرسول وأصحابه سوف يأخذ بنصيبٍ مِن موافقة اليهود والنصارى، فالحسد والكذب والخِداع، كل هذا موجود في اليهود والنصارى.

وَقَوْلُهُ: «وَطَالِعْ سُنَّةَ الرَّحْمنِ» يعني: اطلِّع عليها، وسنة الرحمن يعني: طريقه الذي يَبْتَلِي به العِبَاد، كما قال -جلَّ وعلا-: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح:٢٣].

فعلى كُلِّ حالٍ ابنُ القيم -رحِمه الله- شدَّد في هذا الموضوع، لأنَّ كلامهم بما يَطْلُونَه مِن الزخارف قد يغترُّ به بعضُ الناس، وفي الحقيقة أنَّ الإنسان لا يعقل إطلاقًا هذا القول الذي ذهب إليه هؤلاء، مَن يعقل الفَرق بين اللفظ والمعنى؟! اللفظ في الحقيقة هو دلالة المعنى، وكيف يمكن لأيِّ عاقل أن يقول: إنَّ الأمرَ هو النهي، بل هو عينُ النهي، هل هذا معقول؟!

* * *

٥٨٦- وَتَكَايَسَتْ أُخْرَى وَقَالَتْ: إِنَّ ذَا ... قَوْلٌ مُحَالٌ وَهْوَ خَمْسُ مَعَانِ

٥٨٧- تِلْكَ الَّتِي ذُكِرَتْ وَمَعْنًى جَامِعٌ ... لِجَمِيعِهَا كَالْأُسِّ لِلْبُنْيَانِ

٥٨٨- فَتَكُونُ أَنْوَاعًا وَعِنْدَ نَظِيرِهِمْ ... أَوْصَافُهُ، وَهُمَا فَمُتَّفِقَانِ

٥٨٩- إِنَّ الَّذِي جَاءَ الرَّسُولُ بِهِ لَمَخْـ ... ـلُوقٌ وَلَمْ يُسْمَعْ مِنَ الدَّيَّانِ

٥٩٠- وَالْخُلْفُ بَيْنَهُمُ فَقِيلَ: مُحَمَّدٌ ... أَنْشَاهُ تَعْبِيرًا عَنِ الْقُرْآنِ

٥٩١- وَالآخَرُونَ[1] أَبَوْا، وَقَالُوا: إِنَّمَا ... جِبْرِيلُ أَنْشَاهُ عَنِ الْمَنَّانِ

(١) قل الحلبي في نسخته: «في هامش الأصل: أي: الأشاعرة والكُلاَّبية».

٥٩٢- وَتَكَايَسَــتْ أُخْـرَى وَقَالَــتْ: إِنَّــهُ نَقْـلٌ مِـنَ اللَّــوْحِ الرَّفِيـعِ الشَّــانِ
٥٩٣- فَـاللَّوْحُ مَبْـدَؤُهُ وَرَبُّ اللَّــوْحِ قَــدْ أَنْشَــاهُ خَلْقًــا فِيــهِ ذَا حِــدْثَانِ
٥٩٤- هَذِي مَقَالَاتٌ لَــهُمْ، فَـانْظُرْ تَـرَى فِي كُتْــبِهِمْ يَــا مَــنْ لَــهُ عَيْنَــانِ
٥٩٥- لَكِــنَّ أَهْــلَ الْــحَقِّ قَــالُوا: إِنَّـمَا جِبْرِيــلُ بَلَّغَــهُ عَــنِ الــرَّحْمَنِ
٥٩٦- أَلْقَــاهُ مَسْــمُوعًا لَــهُ مِــنْ رَبِّــهِ لِلصَّــادِقِ الْــمَصْدُوقِ بِالْبُرْهَــانِ

الشرحُ

٥٨٦- وَتَكَايَسَــتْ أُخْـرَى وَقَالَــتْ: إِنَّ ذَا قَــوْلٌ مُحَــالٌ وَهْــوَ خَمْــسُ مَعَــانِ

قَوْلُهُ: «وَتَكَايَسَتْ أُخْرَى» تكايَسَت يعني: ادَّعت الكَيْس، والكَيْس هو الفِطنة والجِدّ والعزم، كما في قوله ﷺ: «الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِـمَا بَعْدَ الْـمَوْتِ»(١). فـ(تكايست) يعني: قالت: أنا التي أعرف، أنا التي عندي الحِذْق، عندي الذكاء.

قَوْلُهُ: «وَقَالَتْ: إِنَّ ذَا قَوْلٌ مُحَالٌ» الإشارة إلى قول الأشاعرة: إن الأمر والنهي والخبر والاستفهام شيءٌ واحد، وإنَّ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور شيءٌ واحد.

قالوا: هذا الشيء مُحالٌ، كيف يكون **(افعل)** هو عين: **(لا تفعل)**؟! وكيف يكون **(هل أنت؟)** عين **(مثل أنت)**، هذا لا يمكن، هذا الأمر غير معقول ومُحَال،

(١) أخرجه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في صفة آنية الحوض، رقم (٢٤٥٩).

ولكنَّ الكلامَ (خَمْسُ مَعَانِي)، ثم ذكَرَها بقوله:

٥٨٧- تِلْكَ الَّتِي ذُكِرَتْ وَمَعْنًى جَامِعٌ لِجَمِيعِهَا كَالْأُسِّ لِلْبُنْيَانِ

قَوْلُهُ: «تِلْكَ الَّتِي ذُكِرَتْ» المراد: الأمر، والنهي، والاستفهام، والخبر، فهذه أربعة.

قَوْلُهُ: « **وَمَعْنًى جَامِعٌ لِجَمِيعِهَا كَالأُسِّ لِلْبُنْيَانِ» وهذا الخامس وهو المعنى** الجامع لها، مثل الأصل، يعني: كأنَّ الكلامَ شجرةٌ له أصلٌ، وله فُروع، الأصل: المعنى الجامع، والفروع أربعة، وهي: أمرٌ، ونهيٌ، وخبرٌ، واستفهام.

وهذا التقسيم -في الحقيقة- تقسيمٌ ذهنيٌّ، لا يمتُّ إلى الحقيقة بِصِلَة، كلام يقوله حتى هؤلاء الذين تكايسوا بالحقيقة، فهم ما أتوا بطائل، لأنَّ هذا التقدير الذي قَدَّروه وَهْمٌ، فهو تقدير ذهني، لا حقيقة له في الخارج، إذ ما معنى أن يكونَ الكلامُ له أصلٌ، ويتفرع عن هذا الأصل أربعة: أمرٌ ونهيٌ وخبرٌ واستفهام؟! هذا لا معنى له، ولذلك ما أحسن ما يُقال: إن كلامَ أهل الكلام كلامٌ في كلام، ليس فيه فائدة.

ولهذا يقول:

٥٨٨- فَتكُونُ أَنْوَاعًا وَعِنْدَ نَظِيرِهِمْ أَوْصَافُهُ، وَهُمَا فَمُتَّفِقَانِ

قَوْلُهُ: «فَتكُونُ أَنْوَاعًا» يعني: تكون هذه الأربعة أنواعه، وعند نظيرهم أوصافه.

انظر الخلاف! هؤلاء يقولون: أمرٌ ونهيٌ وخبرٌ واستخبار، هذا وصف للكلام، وليس نوعًا، ومعلوم أن الصفات تتعدد على موصوفٍ واحد، لكن أنواع

لا تتنوع على شيء واحد، لأن قولك: هذا نوع وهذا نوعٌ، يعني: التباين.

فصار الأوَّلون الذين جعلوه شيئًا واحدًا، قالوا: إنَّ الأمر والنهي والخبر والاستخبار أوصافُ الكلام، أمَّا الذين قالوا: هذا خطأ، فقد جعلوا هذه الأربعة أنواعًا للكلام، فيكون كلُّ واحد منها قسيمًا للآخَر، وليس هو الآخَر.

قَوْلُهُ: «وَهُمَا فَمُتَّفِقَانِ» يعني: ومع ذلك فالطائفتان متفقتان، على ماذا؟

قال -رحمه الله-:

٥٨٩- إِنَّ الَّذِي جَاءَ الرَّسُولُ بِهِ لَمَخْـ ـلُوقٌ وَلَمْ يُسْمَعْ مِنَ الدَّيَّانِ

إِذَنْ كُلُّ الخلاف الآن شبيهٌ باللفظي، فانْصَبَّ في أن القرآنَ المكتوبَ في المصاحف المسموع بالآذان مخلوقٌ، كما قالت المعتزلة، ثم اختلفوا أيضًا إذا كان مخلوقًا، فمن أين مصدره؟ الجواب: على ثلاثة أقوال، ولذا قال:

٥٩٠- وَالْخُلْفُ بَيْنَهُمُ فَقِيلَ: مُحَمَّدٌ أَنْشَاهُ تَعْبِيرًا عَنِ الْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «**أَنْشَاهُ تَعْبِيرًا عَنِ الْقُرْآنِ**» يعني: محمدًا -عليه الصلاة والسلام-.

فهو الذي تكلَّم بالقرآن تعبيرًا عن كلام الله، أما هذا المسموع الذي سمعناه مِن رسول الله ﷺ فليس كلامَ الله.

٥٩١- وَالآخَرُونَ أَبَوْا، وَقَالُوا: إِنَّمَا جِبْرِيلُ أَنْشَاهُ عَنِ الْمَنَّانِ

أَلْهَم اللهُ -سبحانه وتعالى- جبريلَ -عليه السلام- فتكلَّم بهذا القرآن.

إِذَنْ الأول يقول: أُلْهِمَ إِيَّاه محمدٌ، وعبَّر عن كلام الله الذي في نفس الله، والثاني يقول: لا، جبريل، لأنَّ جبريل ينزل بكلام، فالذي أنشأه جبريلُ.

٥٩٢- وَتَكَايَسَتْ أُخْرَى وَقَالَتْ: إِنَّهُ نَقْلٌ مِنَ اللَّوْحِ الرَّفِيعِ الشَّانِ

قَوْلُهُ: «تكايست» يعني: ادَّعت الكَيْسَ لنفسها.

قَوْلُهُ: «وَقَالَتْ: إِنَّهُ نَقْلٌ مِنَ اللَّوْحِ الرَّفِيعِ الشَّانِ» يعني: مِن اللوح المحفوظ، قالوا: لأنَّ الله قال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج:٢١-٢٢]، إذن ليس مِن محمد، ولا مِن جبريل، بل مِن اللوح المحفوظ.

فجبريل أخذه مِن اللوح المحفوظ، وتكلَّم به على محمد، فإنه نُقِلَ مِن اللوح الرفيع الشَّان.

٥٩٣- فَاللَّوْحُ مَبْدَؤُهُ وَرَبُّ اللَّوْحِ قَدْ أَنْشَاهُ خَلْقًا فِيهِ ذَا حِدْثَانِ

قالوا: إن الله خلق كلامًا في اللَّوح المحفوظ، فجاء جِبريلُ فأخذ الكلامَ مِن اللوح المحفوظ، ثُمَّ نزل به إلى محمد.

فإذن الخلاف بينهم: هل أنشأه محمد؟ هل أنشأه جبريل؟ هل أخذه جبريل مِن اللوح المحفوظ بدون إنشاء؟ يعني وجده مخلوقًا في اللوح المحفوظ، وأخذه مِن اللوح المحفوظ، ونزل به؟ ثلاثة أقوال.

٥٩٤- هَذِي مَقَالَاتٌ لَهُمْ، فَانْظُرْ تَرَى فِي كُتْبِهِمْ يَا مَنْ لَهُ عَيْنَانِ

يقول: نحن ما كذَبْنَا عليهم، وهذا الكلام موجود في كُتبهم، وإذا شئت أن تنظر، فإنْ كان لك عينان فانظر، وإنْ كان لك عينٌ واحدة فانظر أيضًا، لكن تأكَّد.

٥٩٥- لَكِنَّ أَهْلَ الْحَقِّ قَالُوا: إِنَّمَا جِبْرِيلُ بَلَّغَهُ عَنِ الرَّحْمَنِ

٥٩٦- أَلْقَاهُ مَسْمُوعًا لَهُ مِنْ رَبِّهِ لِلصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ بِالْبُرْهَانِ

هذا هو الحق أن القرآنَ صَدَرَ مِن عند الله عزَّ وجلَّ، تكلَّم به رَبُّ العزة والجلال، وسمِعه جبريل، ونقله بأمانة إلى محمد ﷺ، ولهذا أضافه الله إلى الرسول البشريِّ، وإلى الرسول المَلَكِيِّ.

فأضافه إلى الرسول الملكي فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢١] فهذه أوصاف عظيمة، وكُلُّها مِن أجْل حماية القرآن.

فقَوْلُهُ: ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ يحفظ ولا أحد يقربه.

وَقَوْلُهُ: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ يعني: له مكانة، يُسمع مِن الرَّبِّ عزَّ وجلَّ مباشرة.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَكِينٍ﴾ يعني: له مكانة هناك، وقوله: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾، ولهذا يقول للملائكة: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ»(١).

ووصفه تعالى بأنه قوِيٌّ وأمين، وهذان الوصفان هما الرُّكنان اللذان يتمُّ بهما الشيء، قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].

وأضافه إلى الرسول البشريِّ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ [الحاقة:٤٠-٤٢].

وأضافه إلى نفسه كما قال: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع جبريل، ونداء الله الملائكة، رقم (٧٠٤٧)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدًا حببه لعباده، رقم (٢٦٣٧).

ومِن المعلوم أنه لا يمكن أن يكون كلامَ الرسول، وكلامَ جبريل، وكلامَ الله، والكلام شيء واحد، لا يمكن أن يكون الكلامُ الواحدُ لثلاثة متكلِّمين، إذن إلى مَن يُنسب حقيقة؟

الجواب: إلى الأول، إلى الله، ويكون منسوبًا إلى جبريل، لأنه بلَّغه عن الله، وإلى محمد، لأنه بلَّغه عن جبريل إلى الأمة.

فهم يقولون: ألقاه مسموعًا له، ألقاه إلى مَن؟ الجواب: للصادق المصدوق بالبرهان، مسموعًا له مِن الله عزَّ وجلَّ، هذا مذهب أهل السنَّة والجماعة.

فهو ألقاه على أيِّ شيء؟ الجواب: لم يُلْقِهِ على أُذُن الرسول -عليه الصلاة والسلام-، وإنما ألقاه على قَلبه، يعني: بلغ قَلْبَه.

ثُمَّ مِن هذا الرسول؟ هو الرسول الكريم الأمين.

فلذلك لم يبقَ أيُّ شَكٍّ في أنَّ هذا القرآن الذي نقرؤه كلامُ رَبِّنا عزَّ وجلَّ، سمِعه جبريل، وألقاه على قلب النَّبِيِّ ﷺ، والنَّبِيُّ ﷺ ألقاه على أُمَّته، وتلقَّاه الصحابةُ -وهم أُمَنَاء على وَحْيِ الله، سواء كان قرآنًا أم سنة- فألقَوْهُ إلى مَن بعدهم صافيًا نقيًّا، ثم تفرَّقت الأُمَّة.

قَوْلُهُ: «**الصَّادِق**» أي: في مقاله.

قَوْلُهُ: «**المَصْدُوقِ**» أي: فيما أُوحِيَ إليه، فهو صادق ومصدوق.

* * *

فصل

في مَجَامِعِ طُرُقِ أَهْلِ الأَرْضِ وَاخْتِلافِهِمْ فِي القُرْآنِ

٥٩٧- وَإِذَا أَرَدْتَ مَجَامِعَ الطُّرُقِ الَّتِي ... فِيهَا افْتِرَاقُ النَّاسِ فِي الْقُرْآنِ
٥٩٨- فَمَدَارُهَا أَصْلَانِ قَامَ عَلَيْهِمَا ... هَذَا الْخِلَافُ، هُمَا لَهُ رُكْنَانِ
٥٩٩- هَلْ قَوْلُهُ بِمَشِيئَةٍ أَمْ لَا؟ وَهَلْ ... فِي ذَاتِهِ أَمْ خَارِجٌ هَذَانِ
٦٠٠- أَصْلَا اخْتِلَافِ جَمِيعِ أَهْلِ الأَرْضِ فِي الْـ ... ـقُرْآنِ فَاطْلُبْ مُقْتَضَى الْبُرْهَانِ
٦٠١- ثُمَّ الْأُلَى قَالُوا بِغَيْرِ مَشِيئَةٍ ... وَإِرَادَةٍ مِنْهُ فَطَائِفَتَانِ
٦٠٢- إِحْدَاهُمَا جَعَلَتْهُ مَعْنًى قَائِمًا ... بِالنَّفْسِ، أَوْ قَالُوا بِخَمْسِ مَعَانِ
٦٠٣- وَاللهُ أَحْدَثَ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ كَيْ ... تُبْدِيهِ مَعْقُولًا إِلَى الْأَذْهَانِ
٦٠٤- وَكَذَاكَ قَالُوا: إِنَّهَا لَيْسَتْ هِيَ الْـ ... ـقُرْآنَ، بَلْ دَلَّتْ عَلَى الْقُرْآنِ
٦٠٥- وَلَرُبَّمَا سُمِّي بِهَا الْقُرْآنُ تَسْـ ... ـمِيَةَ الْمَجَازِ، وَذَاكَ وَضْعٌ ثَانِ
٦٠٦- وَكَذَلِكَ اخْتَلَفُوا فَقِيلَ: حِكَايَةٌ ... عَنْهُ، وَقِيلَ: عِبَارَةٌ لِبَيَانِ
٦٠٧- إِذْ كَانَ مَا يُحْكَى كَمَحْكِيٍّ وَهَـ ... ـذَا اللَّفْظُ وَالْمَعْنَى فَمُخْتَلِفَانِ
٦٠٨- وَلِذَا يُقَالُ: حَكَى الْحَدِيثَ بِعَيْنِهِ ... إِذْ كَانَ أَوَّلُهُ نَظِيرَ الثَّانِي
٦٠٩- فَلِذَاكَ قَالُوا: لَا نَقُولُ: حِكَايَةٌ ... وَنَقُولُ: ذَاكَ عِبَارَةُ الْفُرْقَانِ

٦١٠- وَالْآخَرُونَ يَرَوْنَ هَذَا الْبَحْثَ لَفْـ ـظِيًّا وَمَا فِيهِ كَبِيرُ مَعَانِ

الشرحُ

٥٩٧- وَإِذَا أَرَدْتَ مَجَامِعَ الطُّرُقِ الَّتِي فِيهَا افْتِرَاقُ النَّاسِ فِي الْقُرْآنِ

٥٩٨- فَمَدَارُهَا أَصْلَانِ قَامَ عَلَيْهِمَا هَذَا الْخِلَافُ، هُمَا لَهُ رُكْنَانِ

٥٩٩- هَلْ قَوْلُهُ بِمَشِيئَةٍ أَمْ لَا؟ وَهَلْ فِي ذَاتِهِ أَمْ خَارِجٌ هَذَانِ

٦٠٠- أَصْلَا اخْتِلَافِ جَمِيعِ أَهْلِ الأَرْضِ فِي الْـ ـقُرْآنِ فَاطْلُبْ مُقْتَضَى الْبُرْهَانِ

ذكر في هذا الفصل مَجَامِعَ طُرُقِ أهل الأرض، واختلافهم في القرآن الكريم، يعني: على أيِّ شيء يدور؟ وذكر أن أصلَ اختلاف الناس في القرآن ينبني على هذين الأصلين: هل هو بمشيئة أو غير مشيئة؟ وهل هو في ذاته أم خارجٌ عن ذاته؟ هذان هما الأصلان اللذان انبنى عليهما الخلاف.

وعقيدة أهل السُّنَّة أنه بمشيئة، وأنه ليس خارجَ ذاته، لأننا إذا قلنا: خارج ذاته لزِم أن يكون مخلوقًا، بل هو في ذاته تَكَلَّم به نَفسه -سبحانه وتعالى-، وسمِعه جبريلُ، وألقاه على قلب النبيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

ثُمَّ فَرَّع المؤلفُ -رحمه الله- فقال:

٦٠١- ثُمَّ الْأُلَى قَالُوا بِغَيْرِ مَشِيئَةٍ وَإِرَادَةٍ مِنْهُ فَطَائِفَتَانِ

٦٠٢- إِحْدَاهُمَا جَعَلَتْهُ مَعْنًى قَائِمًا بِالنَّفْسِ، أَوْ قَالُوا بِخَمْسِ مَعَانِ

الفِرقة الأخرى قالت: إنه لفظ ومعنى... إلخ، وستأتي في كلام المؤلف.

أما هذا الفَصل فذَكَر فيه مذهبَ الأشاعرة والكُلَّابِيَّة فقط، فقال: إن الذين

قالوا بغير المشيئة طائفتان: إحداهما جعَلَتْه المعنى القائم بالنفس، وهؤلاء هم الأشاعرة، لكن اختلف الأشاعرة كما سبق، فقالوا: إنه معنًى واحد، وقال آخرون: إنه خَمس معانٍ.

والذين جعلوه معنًى واحدًا يقولون: الأمر والنهي والخبر والاستخبار شيءٌ واحد، والقرآن والتوراة والإنجيل والزَّبُور شيءٌ واحد، وإذا أمَر الله بالشيء كونًا فقال: (كن) فهو كالذي في القرآن بمعنى: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام:٧٢]، وكُلُّها شيءٌ واحد.

٦٠٣- وَاللهُ أَحْـدَثَ هَـذِهِ الْأَلْفَـاظَ كَـيْ ... تُبْدِيـــهِ مَعْقُـــولًا إِلَى الْأَذْهَـــانِ

إِذَنْ فالألفاظ والأصوات المسموعة مخلوقة.

٦٠٤- وَكَذَاكَ قَالُوا: إِنَّهَا لَيْسَـتْ هِـيَ الْـ ... ـقُرْآنَ، بَـلْ دَلَّـتْ عَـلَى الْقُـرْآنِ

وقالوا: إنها ليست هي القرآن، وإنما هي مخلوقة لتَدُلَّ على القرآن.

إِذَنْ لماذا سُمِّي القرآنُ كلامَ الله؟ فقالوا: إنه مجاز، ولهذا قال:

٦٠٥- وَلَـرُبَّمَا سُـمِّي بِهَـا الْقُـرْآنُ تَسْـ ... ـمِيَةَ الْـمَجَازِ، وَذَاكَ وَضْـعٌ ثَـانِ

٦٠٦- وَكَـذَلِكَ اخْتَلَفُـوا فَقِيـلَ: حِكَايَـةٌ ... عَنْــهُ، وَقِيــلَ: عِبَــارَةٌ لِبَيَـــانِ

ثُمَّ اختلفوا على قولين:

فالأول: مذهب الكُلَّابِيَّة، وهم أتباع عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب(١)، يقولون: إنه حكاية، ولا نقول: إنه كلام الله حقًّا، ولا إنه عبارة عنه.

---

(١) هو أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان، البصري، رأس المتكلمين بالبصرة في زمانه، صاحب التصانيف في الرد على المعتزلة، وربما وافقهم، أخذ عنه الكلام: داود الظاهري، وكان يلقب كُلَّابا لأنه كان يجر الخصم إلى نفسه ببيانه وبلاغته. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١١/ ١٧٤).

الثاني: مذهب الأشاعرة، قالوا: إنه عبارة عن كلام الله.

والفَرق بين الحكاية والعبارة أن الحكاية كما تسمعون إذا كنتم بين الجبال وتَكَلَّم الإنسانُ بصوت مرتفع، فإنه يسمع صدًى.

أما العبارة فتختلف، يعني أنَّ الله خلَق أصواتًا تُعَبِّر عمَّا في نفسه، فانظر إلى التكلُّف والتَّهَوُّك:

وإذا قلنا: إن الكلام هو صوت الرَّبِّ عزَّ وجلَّ متعلِّقًا بمشيئته، ماذا يكون؟ الجواب: لا يكون شيئًا، هذا هو الحقُّ الموافق للطبيعة والفطرة.

٦٠٧- إِذْ كَانَ مَا يُحْكَى كَمَحْكِيٍّ وَهَـــ ـــذَا اللَّفْظُ وَالْـمَعْنَى فَمُخْتَلِفَانِ

٦٠٨- وَلِذَا يُقَالُ: حَكَى الْـحَدِيثَ بِعَيْنِهِ إِذْ كَانَ أَوَّلُهُ نَظِيرَ الثَّانِي

٦٠٩- فَلِذَاكَ قَالُوا: لَا نَقُولُ: حِكَايَةٌ وَنَقُولُ: ذَاكَ عِبَارَةُ الْفُرْقَانِ

فالأشاعرة قالوا: هو عبارة عن كلام الله، لأنك إذا قلت: حكاية، فإنَّ الحكاية تقتضي أن يكون المَحْكِيُّ هو المُحْكَى، وهذا لا يمكن، لأنَّ الكلام معنًى، والمسموع لفظٌ غير معنى، فالكلام غير مخلوق، والمسموع مخلوق، فلا يمكن أن نقول: إنه حكاية، لعدم الاتفاق، فأنا مثلًا إذا حكيتُ كلامَك فإني أَنقُلُه بلفظه بدون زيادة، ولا نقصان، كما يقال: حكى الحديثَ بعَيْنِه إذ كان أَوَّلُه -وهو المَحْكِيّ- نظيرَ الثاني، وهو ما يُحْكَى، وعلى هذا فلا يصح أن نقول: إنه حكاية.

٦١٠- وَالْآخَرُونَ يَرَوْنَ هَذَا الْبَحْثَ لَفْـــ ـــظِيًّا وَمَا فِيهِ كَبِيرُ مَعَانِ

فجاء قوم آخرون، وهم أهل الإصلاح، وقالوا: كُلُّ هذا النزاع نِزاعٌ لفظيّ، إن قلت: حكاية، أو عبارة فالمعنى واحد، لا تجعلوا بَأْسَكم بينكم فتُسَلِّطوا عليكم

خصومَكم، اصطلحوا، انحلَّت المشكلة، الآن يجري الصلح بين الأشاعرة والكُلَّابية، لا تنازعوا، فكُلُّ هذا الخلافِ لفظيٌّ، وما تحته كبيرُ مَعانٍ، وإذا كان لفظيًّا صار البحث فيه مُتْعِبًا للأفكار، مُضَيِّعًا للأوقات، فلا حاجة.

اتفقتم الآن أنَّ هذا المسموعَ ليس كلامَ الله، واتفقتم أنَّ كلامَ الله هو المعنى القائم بنفْسه، وتصالحوا، ولا تقولوا: هذا عبارة، وهذا حكاية، فقولوا: المعنى واحد، فالحكاية والعبارة معناهما واحد، لأننا جميعًا متفقون على أن ما يُسْمَع ليس كلامَ الله، بل هو مخلوقٌ، وعلى أنَّ كلام الله هو المعنى القائم بنفسه، وحينئذ يُجْرَى الصلح بيننا، ولا نختلف.

هؤلاء في الحقيقة أقربُ للصواب، يقولون: قل: عبارة، أو حكاية، لأنَّ المعنى عندهم واحد، وهو أنَّ كلامَ الله هو المعنى القائم بنفْسه فقط، والغريب أنك إذا تحدَّثْتَ هذا الحديث عند قوم لم يسمعوا به مِن قبلُ سيقولون: كيف يُتَصَوَّر أنَّ الكلام هو الذي في النفس؟! أين الكلام؟! لكن سبحان الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

ولا تظنوا أنَّ هذا الخلافَ -أي: اختلاف الناس في كلام الله- شيءٌ هَيِّن، فالخلاف في كلام الله مهم جدًّا، لأنه يترتب عليه الأحكام الكونية، والأحكام الشرعية، فكُلُّ الأحكام الكونية والأحكام الشرعية إنما ثبتت بكلام الله، فالأحكام الشرعية بالوحي، والأحكام الكونية بالتقدير ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧] فكُلُّها ثبتت بالكلام، فعلى كلام الله مَدار الأحكام الكونية ومَدار الأحكام الشرعية، فمعرفته ومعرفة اختلاف الناس فيه أمر مهم جدًّا.

* * *

فصل

فِي مَذْهَبِ الاقْتِرَانِيَّةِ

٦١١- وَالْفِرْقَةُ الأُخْرَى فَقَالَتْ: إِنَّهُ ... لَفْظٌ وَمَعْنًى لَيْسَ يَنْفَصِلَانِ

٦١٢- وَاللَّفْظُ كَالْمَعْنَى قَدِيمٌ قَائِمٌ ... بِالنَّفْسِ لَيْسَ بِقَابِلِ الْحِدْثَانِ

٦١٣- فَالسِّينُ عِنْدَ الْبَاءِ لَا مَسْبُوقَةٌ ... لَكِنْ هُمَا حَرْفَانِ مُقْتَرِنَانِ

٦١٤- وَالْقَائِلُونَ بِذَا يَقُولُوا: إِنَّمَا ... تَرْتِيبُهَا فِي السَّمْعِ بِالْآذَانِ

٦١٥- وَلَهَا اقْتِرَانٌ ثَابِتٌ لِذَوَاتِهَا ... فَاعْجَبْ لِذَا التَّخْلِيطِ وَالْهَذَيَانِ

٦١٦-لَكِنَّ زَاغُونِيَّهُمْ قَدْ قَالَ: إِنْ ... نَ ذَوَاتِهَا وَوُجُودَهَا غَيْرَانِ

٦١٧- فَتَرَتَّبَتْ بِوُجُودِهَا لَا ذَاتِهَا ... يَا لَلْعُقُولِ وَزَيْغَةِ الْأَذْهَانِ

٦١٨- لَيْسَ الْوُجُودُ سِوَى حَقِيقَتِهَا لِذِي الْـ ... أَذْهَانِ بَلْ فِي هَذِهِ الْأَعْيَانِ

٦١٩- لَكِنْ إِذَا أَخَذَ الْحَقِيقَةَ خَارِجًا ... وَوُجُودَهَا ذِهْنًا فَمُخْتَلِفَانِ

٦٢٠- وَالْعَكْسُ أَيْضًا مِثْلُ ذَا فَإِذَا هُمَا اتْـ ... ـتَحَدَا اعْتِبَارًا لَمْ يَكُنْ شَيْئَانِ

٦٢١- وَبِذَا تَزُولُ جَمِيعُ إِشْكَالَاتِهِمْ ... فِي ذَاتِهِ وَوُجُودِهِ الرَّحْمَنِ

الشرحُ

٦١١- وَالْفِرْقَةُ الأُخْرَى فَقَالَتْ: إِنَّهُ ... لَفْظٌ وَمَعْنًى لَيْسَ يَنْفَصِلَانِ

٦١٢- وَاللَّفْظُ كَالْمَعْنَى قَدِيمٌ قَائِمٌ ... بِالنَّفْسِ لَيْسَ بِقَابِلِ الْحِدْثَانِ

٦١٣- فَالسِّينُ عِنْدَ الْبَاءِ لَا مَسْبُوقَةٌ ... لَكِنْ هُمَا حَرْفَانِ مُقْتَرِنَانِ

هذه فِرْقَة الاقتِرَانِيَّة، قالوا أيضًا: إن الكلام لا يتعلَّق بمشيئته وإرادته، وإن اللفظ والمعنى قديمان، وإذا جعلوا اللفظ والمعنى قديمين لَزِمَ أن تكون الكلمات بعضُها لا يسبق بعضًا، لأنه لو سبق بعضُها بعضًا صار المتأخِّرُ حادثًا بعد الأول، وبطَلَ قولنا: إنه قديم.

لذلك قالوا: إن الكلمات مقترِنة، فالسينُ مِن قولك: (بسم الله الرحمن الرحيم) عند الباء، يعني: لم تَسبِقْها، فهي لاصِقة بها، لا تكون قَبلها، ولا بَعْدَها، لأنك لو قلت: إن السينَ بعد الباء لزِم أن يكونَ كلامُ الله حادثًا، فبَطَل قولُنا: إنه قديم.

قَوْلُهُ: «حَرْفَانِ مُقْتَرِنَانِ» أي: لا تستطيع حتى في الإمالة، فالذي يقول: ﴿مَجْرِبٰهَا﴾ [هود:٤١] بين الألف والياء صعب، ولا هي بياءٍ ولا ألفٍ.

إِذَنْ نقول على هذا القول المضحك: كُلُّ الكلمات مِن أول ما تكلَّم اللهُ إلى ما لا نهاية له جاءت واحدةً، لا يتقدَّم بعضُها على بعض، فالله عزَّ وجلَّ في القرآن قاله بحروفه، قاله بحرف واحد، لم يتقدَّمْ بعضُها على بعض، فـ(بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) في أول سورة البقرة وقوله: ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٥٠] وما بينهما كلّه جاء دفعةً واحدةً، فليس بعضٌ متقدِّمًا على بعضٍ، حَذَرًا مِن أن نقول: إنه حادث، بل نقول: إنه قديم.

وهؤلاء في الحقيقة أبعدُ وأبعدُ عن المعقول مِن الذين قَبْلَهم، ولهذا قال المؤلف -رحمه الله-: (فَاعْجَبْ لِذَا التَّخْلِيطِ وَالْهَذَيَانِ)، فهذا والله عَجَبٌ،

وهؤلاء يُسَمَّوْنَ بالاقترانية الذين يَرَوْنَ أن حروف الكلمات والكلمات بعضها مقترِنٌ ببعض، لا يتقدَّم، ولا يتأخَّر.

إِذَنْ هؤلاء الاقترانية، الذين قالوا: إنه حكاية، والذين قالوا: إنه عبارة، والذين قالوا: إنه معنًى واحدٌ، أو خمسةُ مَعانٍ، كُلُّهم فرُّوا مِن شيء واحد، قالوا: لو قلنا: إن الكلامَ حادِثٌ لزِم قيامُ الحوادث بذات الله عزَّ وجلَّ، وما قامت به الحوادث فهو حادث.

انظر كيف يقول الشيطان لـهم؟! ما قامت به الـحوادث فهو حادث، وحدوث الله ممتنِع، فلزِم أن تقوم به الحوادث.

وهل هذه القاعدة صحيحة أو باطلة؟

الجواب: هذه باطلة، فلا يلزم إذا قلنا: إن القرآنَ كلامُ الله باللفظ والمعنى، أن يكون حادثًا باعتبار أصله وجِنسه، لأن أصلَ الكلام وجنسَه أَزليٌّ قديم، لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لم يزَل، ولا يَزَال متكلِّمًا، ثُمَّ على فرض أننا قُلنا بالحدوث، فإنه لا يلزم مِن قيام الحادث بالموصوف به أن يكون الموصوف به حادثًا، فضرورةٌ أنَّ الموصوف بالكلام، أو بالفِعل متقدِّم على الوصف، ولهذا الآن أنا أتكلَّمُ، هل كلامي الذي حدَث الآن يَلزَم أن يكون موجودًا معي حين الولادة؟

الجواب: لا يلزم، فإذا كان لا يَلْزَمُ تَبَيَّنَ أن الحوادثَ قد تَقُوم بشيء سابق لها، هذا السابق أزليٌّ، فإذا قامت الحوادثُ بالله -بمعنى أنه حدَث منه فِعل أو قَول- لم يَلْزَمْ مِن ذلك أن تكون ذاتُ الله حادثةً.

٦١٤- وَالْقَـــائِلُونَ بِـــذَا يَقُولُـــوا: إِنَّـــمَا تَرْتِيبُهَـــا فِي السَّـــمْعِ بِـــالْآذَانِ

قَوْلُهُ: «**وَالْقَائِلُونَ بِذَا يَقُولُوا**» هل في كلام المؤلف -رحمه الله- لَحْنٌ، حيث قال: (**يَقُولُوا**) لأنه ليس فيها ناصب ولا جازم، ونون الأفعال الخمسة لا تُحْذَفُ إلَّا مع الناصب، أو الجازم، أو مع نُون الوِقاية، أو ما أشبه ذلك، يعني: لا بدّ مِن سبب؟

فأجابوا عنه بأن المؤلف -رحمه الله- حَذَفها لسبب، وهو ضرورةُ الشِّعر، لأن الشِّعر يُضطر الشاعر إلى أن يُغَيِّرَ، فقد يرفعُ المنصوبَ، وقد ينصبُ المرفوعَ، وقد يَصرف ما لا ينصرف، وقد يَحذف ما لا يُحْذَفُ، ولهذا قال الحريري في مُلحة الإعراب[1]:

وَجَائِزٌ فِي صَنْعَةِ الشِّعْرِ الصَّـلِفْ أَنْ يَصْرِفَ الشَّاعِرُ مَا لَا يَنْصَرِفْ

الشاهد قوله: (**وَجَائِزٌ فِي صَنْعَةِ الشِّعْرِ الصَّلِفْ**) فالشعر صَلِفٌ، يجعلك تَصرِف ما لا يَنصرِف.

قَوْلُهُ: «**إِنَّمَا تَرْتِيبُهَا بِالسَّمْعِ بِالآذَانِ**» يعني: نحن نسمعها مرتَّبةً، ولكن حقيقتها أنها غير مرتبة، لكن سمعك هو الذي يسمعها مرتبة، كيف هذا؟! هذا رأيهم.

٦١٥- وَلَـــهَا اقْـــتِرَانٌ ثَابِـــتٌ لِـــذَوَاتِهَا فَاعْجَبْ لِـذَا التَّخْلِيطِ وَالْـهَذَيَانِ

قَوْلُهُ: «**وَلَـهَا اقْتِرَانٌ ثَابِتٌ لِذَوَاتِهَا**» هي باعتبار الذات والحقيقة مقترِنة، لكن الترتيب باعتبار السمع.

---

(١) انظر: ملحة الإعراب (ص:٧٢).

٦١٦- لَكِـنَّ زَاغُـونِيَّهُمْ[1] قَـدْ قَـالَ: إِنْ نَ ذَوَاتِهَـا وَوُجُودَهَـا غَـيْرَانِ

قَوْلُهُ: «لَكِنَّ زَاغُونِيَّـهُم قَدْ قَالَ» الزاغوني: أحد علماء الكلام، اسمه ابن الزاغوني، لكنه ليس عليًّا ابن الزاغوني الفقيه المعروف بالأصول، الذي مِن أصحاب الإمام أحمد، ينقُلون عنه في الفقه فيقولون: قال ابن الزاغوني كذا، فهذا غيره.

قَوْلُهُ: «قَدْ قَالَ: إِنَّ ذَوَاتِهَا وَوُجُودَهَا غَيْرَانِ» هذا أيضًا غريب، يقول: إنَّ ذواتها ووجودها متغاير.

٦١٧- فَتَرَتَّبَـتْ بِوُجُودِهَـا لَا ذَاتِهَـا يَـا لَلْعُقُـولِ وَزَيْغَـةِ الْأَذْهَـانِ

قَوْلُهُ: «فَتَرَتَّبَتْ بِوُجُودِهَا لَا ذَاتِهَا» الأوَّلُون يقولون: ترتَّبت بالسمع، أما وجودها وذاتها فلم تترتب، لكن هذا جعل لها ذاتًا ووجودًا وسمعًا، لم يتكلَّم عن السمع، بل تكلَّم عن الذات والوجود.

وَقَوْلُهُ: «فَتَرَتَّبَتْ بِوُجُودِهَا لَا ذَاتِهَا» ويجوز: ذاتُها، فيجوز الوجهان.

قَوْلُهُ: «يَا لَلْعُقُولِ وَزَيْغَةِ الأَذْهَانِ» يَرْثِي لـهم -رحمه الله- بأنَّ عقولهم هواء، وأذهانهم زائغة.

٦١٨- لَيْسَ الْوُجُودُ سِوَى حَقِيقَتِهَا لِـذِي الْـ أَذْهَـانِ بَـلْ فِي هَـذِهِ الْأَعْيَـانِ

وجود هذه الحروف هو حقيقة في الواقع، فكيف تفرِّق يابن الزاغوني بين الوجود والحقيقة، والواقع أنَّ حقيقتها وجود؟! ولا يقال: هذه تاء إِلَّا إذا وُجِدَتْ، كيف نقول: لها حقيقة وهي لم توجد؟ فوجودُها وحقيقتُها سواء.

---

(١) الزاغوني: لم أعرفه، وأستبعد أن يكون هو علي بن عبيد الله، أحد أعيان الحنابلة، المولود سنة (٤٥٥هـ)، المتوفى سنة (٥٢٧هـ). [الشارح].

ولهذا قال المؤلف: «**لَيْسَ الْوُجُودُ سِوَى حَقِيقَتِهَا لِذِي الأَذْهَانِ بَلْ فِي هَذِهِ الأَعْيَانِ**» يعني أنَّ وجود الحرف هو حقيقته، سواء قَدَّرتَه في الذهن، أَم رأيته في الخارج.

يقول المؤلف -رحمه الله-:

٦١٩- لَكِنْ إِذَا أَخَذَ الْـحَقِيقَةَ خَارِجًا   وَوُجُودَهَا ذِهْنًا فَمُخْتَلِفَانِ

٦٢٠- وَالْعَكْسُ أَيْضًا مِثْلُ ذَا فَإِذَا هُمَا اتْـ   ـتَحَدَا اعْتِبَارًا لَمْ يَكُنْ شَيْئَانِ

يقول المؤلف -رحمه الله-: يمكن أن نُفَرِّق بين الحقيقة والوجود بأن نقول: إن الحقيقة قد تكون في الذهن والخارج في العين، بمعنى أن الإنسان قد يُقَدِّر في ذهنه حرفًا، فإذا بَرَز ونَطَق به، أو كتَبه، صار الآن موجودًا.

يقول: يمكن أن نُفَرِّق بين الحقيقة والوجود باعتبار الذهن والخارج، أَمَّا باعتبار الحقيقة، فلا يمكن أن نُفَرِّق، بل نقول: وجود الشيء هو عينُ ذاتِه، لكن باعتبار الذهن والوجود عَيْنًا.

فالمؤلف -رحِمه الله- منصِف، لما أنكر على ابن الزاغوني جَعْلَ الوجود غير الحقيقة، قال: ممكن أن نجعل الوجود غير الحقيقة باعتبار الذهن والخارج، لكن ما معنى الذهن والخارج؟

الذهن يعني: الذي عندك، وأما الخارج فهو ما وُجِدَ عينًا، يعني: عينَ الشيء، لأنَّ الشيءَ له وجودٌ في الذهن، ووجودٌ في الخارج، وُجودُه في الذهن هو تصوُّر الإنسان له، ووجوده في الخارج أن يكون مقروءًا إِنْ كان قولًا، أو مكتوبًا إِنْ كان كتابةً، أو مخلوقًا إِنْ كان مخلوقًا، المهم أنه يَبْرُز.

فهنا يقول: «**لَكِنْ إِذَا أَخَذَ الْـحَقِيقَةَ خَارِجًا وَوُجُودَهَا ذِهْنًا فَمُخْتَلِفَانِ**» صار الوجود غير الحقيقة إذا جعَلت المراد بالوجود وُجودَها في الذهن، والحقيقة وُجودها في الخارج.

قَوْلُهُ: «**وَالْعَكْسُ أَيْضًا مِثْلُ ذَا**» يعني: وجودها خارجًا، وحقيقتها ذهنًا، أيضًا ربما نقول: مختلفان.

قَوْلُهُ: «**فَإِذَا هُمَا اتَّحَدَا اعْتِبَارًا لَـمْ يَكُنْ شَيْئَانِ**» وهذا هو الذي أراد ابن الزاغوني، وأنكر عليه ابن القيم باعتبار الحقيقة والوجود، لا الذِّهن والخارج، هل يمكن أن نقول: هما شيئان؟ الجواب: لا.

٦٢١- وَبِـذَا تَـزُولُ جَمِيـعُ إِشْـكَالَاتِهِمْ فِي ذَاتِـهِ وَوُجُـودِهِ الـرَّحْمَنِ

يعني أنَّ الفلاسفة اختلفوا واضطربوا: هل وجودُ الله عينُ حقيقته، أو خلافُ حقيقته (الموجود شيء، والحقيقة شيء آخر)؟ فهُم اضطربوا في هذا وألَّفوا المجلدات والكتب، والذي يُراجِعُ كتب شيخ الإسلام ينظر كيف الخلاف في هذا؟

نقول: أما إذا أردت الأمر الواقع فالوجود هو الحقيقة، أما إذا أردت الذهن والخارج، فهما شيئان، وكذلك لو نَضرِب مثلًا في الإنسان: وُجوده هل هو حقيقته، أو لا؟

الجواب: نقول: في هذا تفصيل، إنْ أردتَ اعتبار الحقيقة، فهما شيء واحدٌ، لا يختلفان، فوجودك هو أنت، وإن أردتَ في الذهن بمعنى أن تُقَدِّر أن شيئًا يُوجد، ثم وُجد، فهما شيئان.

انتهى الكلام على القائلين بأنَّ الكلام لا يتعلَّقُ بالمشيئة، فصاروا ثلاث طوائف: الأشاعرة والكُلَّابِيَّة والاقترانية.

والفَرق بينهم أن الأشاعرة يقولون: إن الكلامَ المسموع عبارةٌ عن كلام الله، والكُلَّابيَّة يقولون: حكاية.

إِذَنْ ما هو الكلام؟

اتفقوا على أن الكلام هو المعنى الأَزَلِيّ القديمُ القائِمُ بنفس الله عزَّ وجلَّ، وما يُسْمَعُ فهو إما عبارة، وإما حكاية، ثم اختلفوا أيضًا هل هو شيء واحد، أو أشياء مختلِفة؟ وهل هذه أنواعٌ، أو أوصافٌ كما سبق؟

الاقترانية قالوا: كلام الله هو اللفظ والمعنى، لكن اللفظ والمعنى كلاهما قديم، ولما أَسَّسُوا هذه القاعدة اضطروا إلى أن يقولوا بالاقتران، لأنهم لو قالوا بالترتيب لَلَزِمَ الحدوث، إذن يقع الحرف الثاني بعد الأول، والكلمة الثانية بعد الأولى، فقالوا: نَسْلَمُ مِن هذا كلِّه، ونقول بقول المجانين، نقول: مقترنان، فالباء والسين شيء واحد، فهما مقترنان، ولا يمكن أن تكون السين بعد الباء.

فتقول لهم: لكن الآن في (بسم الله الرحمن الرحيم) وهي مكتوبة، الباء فيها قبل السين؟! فيقولون: هذا باعتبار الكتابة، فنقول: نسمع القارئ يقرأ، والرسول سمع جبريل، فقالوا: هذا باعتبار السمع.

أما ابن الزاغوني الذي تحذلق فقال: هذا باعتبار الحقيقة والوجود، فالوجود مترتِّب والحقيقة مقترِنة.

وهل هناك فرق بين الحقيقة والوجود؟

الجواب: لا فرق في الحقيقة إلَّا إذا اعتبرنا الوجود الذهني، والحقيقة خارجًا، أو بالعكس، فهذا يمكن أن يكون فيه اختلاف.

* * *

فصل

فِي مَذْهَبِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِالْمَشِيئَةِ وَالإِرَادَةِ

٦٢٢- وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ بِمَشِيئَةٍ ... وَإِرَادَةٍ أَيْضًا، فَهُمْ صِنْفَانِ
٦٢٣- إِحْدَاهُمَا جَعَلَتْهُ خَارِجَ ذَاتِهِ ... كَمَشِيئَةٍ لِلْخَلْقِ وَالْأَكْوَانِ
٦٢٤- قَالُوا: وَصَارَ كَلَامُهُ بِإِضَافَةِ التْـ ... ـتَشْرِيفِ مِثْلَ الْبَيْتِ ذِي الْأَرْكَانِ
٦٢٥- مَا قَالَ عِنْدَهُمُ وَلَا هُوَ قَائِلٌ ... وَالْقَوْلُ لَمْ يُسْمَعْ مِنَ الدَّيَّانِ
٦٢٦- فَالْقَوْلُ مَفْعُولٌ لَدَيْهِمْ قَائِمٌ ... بِالْغَيْرِ كَالْأَعْرَاضِ وَالْأَكْوَانِ[1]
٦٢٧- هَذِي مَقَالَةُ كُلِّ جَهْمِيٍّ وَهُمْ ... فِيهَا الشُّيُوخُ مُعَلِّمُو الصِّبْيَانِ
٦٢٨- لَكِنَّ أَهْلَ الْإِعْتِزَالِ قَدِيمَهُمْ ... لَمْ يَذْهَبُوا ذَا الْمَذْهَبَ الشَّيْطَانِي
٦٢٩- وَهُمُ الْأُلَى اعْتَزَلُوا عَنِ الْحَسَنِ الرِّضَى الْـ ... ـبَصْرِيِّ ذَاكَ الْعَالِمِ الرَّبَّانِي
٦٣٠- وَكَذَاكَ أَتْبَاعٌ عَلَى مِنْهَاجِهِمْ ... مِنْ قَبْلِ جَهْمٍ صَاحِبِ الْحِدْثَانِ
٦٣١- لَكِنَّمَا مُتَأَخِّرُوهُمْ بَعْدَ ذَ ... لِكَ وَافَقُوا جَهْمًا عَلَى الْكُفْرَانِ
٦٣٢- فَهُمُ بِذَا جَهْمِيَّةٌ أَهْلُ اعْتِزَا ... لٍ، ثَوْبُهُمْ أَضْحَى لَهُ عَلَمَانِ
٦٣٣- وَلَقَدْ تَقَلَّدَ كُفْرَهُمْ خَمْسُونَ فِي ... عَشْرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي الْبُلْدَانِ

---

(١) في نسخة الحلبي: «والألوان».

٦٣٤- وَاللَّالَكَائِيُّ الْإِمَامُ حَكَاهُ عَنْـ ـهُمْ بَلْ حَكَاهُ قَبْلَهُ الطَّبَرَانِي

الشرحُ

٦٢٢- وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ بِمَشِيئَةٍ وَإِرَادَةٍ أَيْضًا، فَهُمْ صِنْفَانِ

٦٢٣- إِحْدَاهُمَا جَعَلَتْهُ خَارِجَ ذَاتِهِ كَمَشِيئَةٍ لِلْخَلْقِ وَالْأَكْوَانِ

٦٢٤- قَالُوا: وَصَارَ كَلَامُهُ بِإِضَافَةِ التْـ ـتَشْرِيفِ مِثْلَ الْبَيْتِ ذِي الْأَرْكَانِ

٦٢٥- مَا قَالَ عِنْدَهُمُ وَلَا هُوَ قَائِلٌ وَالْقَوْلُ لَمْ يُسْمَعْ مِنَ الدَّيَّانِ

هؤلاء القائلون بأنَّ القرآن يتعلَّق بمشيئة الله صنفان: صنف جعلته مخلوقًا بائنًا عن الله عزَّ وجلَّ كسائر المخلوقات، وقالوا: إنَّ مشيئته لكلامه كمشيئته لخَلق السموات والأرض والجبال، وغير ذلك، قالوا: والإضافة في الكلام إضافة تشريف، كإضافة البيت إلى الله في قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج:٢٦] وإضافة الناقة إلى الله في قوله: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس:١٣].

فعن هؤلاء يقول المؤلف: (**مَا قَالَ عِنْدَهُمُ وَلَا هُوَ قَائِلٌ**) إذن لا أَمْرَ، ولا نَهْيَ، لأنَّ الأمر والنهي مِن صفات القول، وليس مِن صفات الفِعل، ولهذا إذا قالوا بهذا بطلت الشريعة كُلُّها، لأنه ليس بها أَمْرٌ، ولا نهي، إذ إنَّ الأمر معلوم مِن أوصاف القول، وكذلك النهي، والقول بمعنى مقول، فهو عندهم مفعول (مخلوق).

وحقيقة الأمر أنَّ هؤلاء نَفَوْا قول الله، لأنهم إذا جعلوه شيئًا بائنًا منفصِلًا عنه متعلِّقًا بمشيئته صار لا يُنسَب إلى الله على اعتبار أنه صِفة، فإذا كان لا يُنْسَبُ إليه على اعتبار أنه صِفة صار الله تعالى لم يقُل، ولا يقُول.

إِذَنْ فهو عندهم مُعَطَّل عن الكلام، لأنَّ الكلامَ شيءٌ منفصِلٌ بائِنٌ عن الله، وليس مِن وَصْف الله.

قَوْلُهُ: «**وَالْقَوْلُ لَـمْ يُسْمَعْ مِنَ الدَّيَّانِ**» إنما سُمِعَ مِن مخلوقات، فَسُمِعَ مِن جبريل، إذ خَلَقَ اللهُ فيه الصوت، أو مِن الشجرة حين نادى منها موسى، أو ما أشبهَ ذلك.

٦٢٦- فَالْقَوْلُ مَفعُولٌ لَدَيْهِمْ قَائِمٌ ... بِالْغَيْرِ كَالْأَعْرَاضِ وَالْأَكْوَانِ

قَوْلُهُ: «**فَالْقَوْلُ مَفْعُولٌ لَدَيْهِمْ قَائِمٌ**» القول مفعول لديهم.

وَقَوْلُهُ: «**مَفْعُولٌ لَدَيْهِمْ**» يعني: القول بمعنى مَقول أي: مخلوق.

قَوْلُهُ: «**قَائِمٌ بالْغَيْرِ كَالأَعْرَاضِ وَالأَكْوَانِ**» يعني: ليس قائمًا بالله، بل هو قائم بغَيْرِه.

لكن مِن أين سَمِعَ موسى الصوت؟ قالوا: سمِعه مِن الشجرة.

ومِن أين سمع محمدٌ الصوت؟ الجواب: مِن جبريل، خلق الله صوتًا في جبريل.

ومِن أين سمع جبريل الصوت؟ الجواب: مِن الهواء، خلق الله تعالى أصواتًا في الهواء، فسمِعها جبريل، أما قولٌ يُنْسَبُ إلى الله فلا، نسأل الله العافية.

٦٢٧- هَـذِي مَقَالَـةُ كُـلِّ جَهْمِـيٍّ وَهُـمْ ... فِيهَا الشُّيُوخُ مُعَلِّمُو الصِّبْيَانِ

ذكر المؤلف -رحِمه الله- أنَّ هذا القولَ قولُ كُلِّ جهمي، فكُلُّ جهمي فهو يقول بهذا القول.

والجهمية أتباع الجَهْمِ بنِ صَفْوَانَ، تلميذ الجَعْدِ بْنِ دِرْهَمٍ، وأصلُ مقاله في

التعطيل مِن الجَعد بن دِرْهم، فإنَّ الجعد خرج بمقالته البدعية، وقال: (إنَّ الله لم يُكَلِّم موسى تكليمًا، ولا اتخذ إبراهيمَ خليلًا)، وهذا ليس بصحيح، فالله -سبحانه وتعالى- لا يُحِبُّ ولا يتكلَّم! إنما خَلَق كلامًا سمِعه موسى! والخُلَّة التي أثبتها الله لإبراهيم هي خُلَّة الفقْر، ففي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ يعني: اتخذه فقيرًا إليه!

ولما أظهر هذه المقالة، لم يجعل له وُلاة الأمر فُسْحَة يَنشُرها، فحبسُوه، ثُمَّ قَتَلُوه، فخرج به خالد بن عبد الله القَسْرِيّ في يوم العيد، وخطب الناس، وأعْلَمهم بالأُضْحِيَّة وأحكامها، وقال في آخر خطبته: «ضحوا تَقَبَّلَ اللهُ ضحاياكم، فإني مُضَحٍّ بالجَعْدِ بنِ دِرْهَمٍ، فإنه زعم أنَّ الله لم يتخذ إبراهيمَ خليلًا، ولم يُكَلِّم موسى تكليمًا»[1]، ثم نزل فذبحه.

وهذا شأنُ وُلاة الأمور مِن الأمراء والسلاطين -فيما سبق- يخرجون بالضحايا في الخارج كما كان الرسول ﷺ يفعل[2]، وتُذْبَح في مُصلَّى العيد، وقد مضى قول ابن القيم في هذا:

وَلِأَجْلِ ذَا ضَحَّى بِجَعْدٍ خَالِدُ الْـ ... ـقَسْرِيُّ يَوْمَ ذَبَائِحِ القُرْبَانِ
إِذْ قَالَ: إِبْرَاهِيمُ لَيْسَ خَلِيلَهُ ... كَلَّا وَلَا مُوسَى الكَلِيمَ الدَّانِي
شَكَرَ الضَّحِيَّةَ كُلُّ صَاحِبِ سُنَّةٍ ... لله دَرُّكَ مِنْ أَخِي قُرْبَانِ

---

(١) الحكاية أوردها الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٩/ ٣٨٢).

(٢) كما في خطبة النبي ﷺ يوم العيد: «إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ مِنْ يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ، ثُمَّ نَرْجِعَ، فَنَنْحَرَ فَمَنْ فَعَلَ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا». أخرجه البخاري: كتاب العيدين، باب سنة العيدين لأهل الإسلام، رقم (٩٠٨).

صحيح، كل صاحبِ سُنَّةٍ يشكر الله أن جعل الله موت هذا الرجل على يد هذا الشجاع البطل.

والحاصل أن الـجَعْدَ بنَ دِرْهَمٍ نبا[١] بهذه الكلمة، والعياذ بالله، وأصلُ التعطيل مبنيٌّ على هاتين الكلمتين: نفيُ المحبة، ونفيُ الكلام، ثم أخذها عنه الجهم بن صفوان، وكان فصيحًا بليغًا، ونشر المذهب، فذهبت الجهمية إليه مع أنه ثاني مَن قال به.

قَوْلُهُ: «**فِيهَا الشُّيُوخُ مُعَلِّمِو الصِّبْيَانِ**» انظر كيف الانتقاد البليغ على مَن تَبِع الجهمية في قولهم؟!

قَوْلُهُ: «**صبيان**» يعني: ليس عندهم عقول، مثل الذي يقرأ في أَلِف باء تاء ثاء، لأنهم تبعوا هؤلاء، فصاروا بمنزلة البَبَّغاء يقول ما يُقال له، فهم معلمو الصبيان.

فهو -رحمه الله- لم يُرِدْ أن هؤلاء يُعَلِّمون الصبيان الصغار أبناءَ سبع سنين، وعشر سنين، بل يريد -رحمه الله- أنَّ الذين أخذوا بهذا القول صبيان، ما عندهم عقول، فهم كالصبي يقول ما قاله الأستاذ حسنًا كان أو سيِّئًا.

وَقَوْلُهُ: «**مُعَلِّمِو الصِّبْيَانِ**» يجوز فيها وجهان: (**مُعَلِّمُو**) و(**مُعَلِّمِي**)، فإن قلنا: (**مُعَلِّمُو**) صارت خبرًا ثانيًا، وإن قلنا: (**مُعَلِّمِي**) صارت حالًا، يعني: وهم الشيوخ حَالَ كَونِهم مُعَلِّمي الصبيان.

٦٢٨-لَكِــنَّ أَهْــلَ الْإِعْتِــزَالِ قَــدِيمَهُمْ   لَـمْ يَذْهَبُوا ذَا الْـمَذْهَبَ الشَّـيْطَانِي

(١) أي تجافَى وتَباعَد. انظر: لسان العرب، مادة: نبا.

٦٢٩- وَهُمُ الْأُلَى اعْتَزَلُوا عَنِ الْحَسَنِ الرِّضَى الْـ ـبَصْرِيِّ[١] ذَاكَ الْعَالِمِ الرَّبَّانِي

عمرُو بنُ عُبَيْد وواصِلُ بنُ عَطَاءٍ مِن أهل الاعتزال لم يذهبا هذا المذهَب في أَوَّل الأمر، يعني: ما ذهبوا إلى هذا التعطيل (تعطيل الكلام وتعطيل المحبة)، ولكن فيما بعد نَحَوَا هذا المنحى مثل الرافضة.

فالرافضة كانوا أول أمرهم مُشَبِّهة، فهِشام بنُ الحَكَم الرافضي هو أول مَن قال بالتشبيه، لكن فيما بعد تركوا التشبيه، وهو الغلو في الإثبات، وذهبوا إلى التعطيل، وهو الغُلُوُّ في التنزيه، وصاروا على مذهب المعتزِلة في نفي الصفات.

قَوْلُهُ: «الْـمَذْهَبَ الشَّيْطَانِي» يعني: مذهب جَهْم في أنَّ كلامَ الله مخلوقٌ.

٦٣٠- وَكَـذَاكَ أَتْبَـاعٌ عَـلَى مِنْهَـاجِهِمْ مِنْ قَبْلِ جَهْمٍ صَاحِبِ الْـحِدْثَانِ

يعني: أتباع الذين قبل جَهْم مِن أهل الاعتزال لم يقولوا بقول جَهْم بأنَّ كلامَ الله مخلوقٌ.

٦٣١- لَكِـنَّمَا مُتَـأَخِّرُوهُمْ بَعْـدَ ذَ لِـكَ وَافَقُـوا جَهْـمًا عَـلَى الْكُفْـرَانِ

قَوْلُهُ: «مُتَأَخِّرُوهُم» أي: متأخرو المعتزِلة.

قَوْلُهُ: «وَافَقُوا جَهْمًا عَلَى الْكُفْرَانِ» يدلُّ على أن ابنَ القَيِّم -رحِمه الله- يرى أنَّ مَنْ قال: (كلامُ الله مخلوقٌ) فهو كافر، وقد صرَّح بذلك الأئمةُ كالإمام أحمدَ -رحِمه الله- وغيرِه، أطلقوا على أن مَنْ قال: (القرآن مخلوق) فإنه كافر.

---

(١) الحسن البصري: أبو سعيد الحسن بن يسار، إمام أهل البصرة، وحَبر الأُمة في زمنه، ولد بالمدينة سنة (٢١هـ)، وشب في كنف علي بن أبي طالب، وتوفي بالبصرة سنة (١١٠هـ). [الشارح]. انظر ترجمته في: تهذيب الكمال (٦/ ٣٦٣).

وقولهم هذا يقصدون به الحُكْم دون الشخص، أما الشخص المعَيَّن فلا بدَّ أن تقومَ عليه الحُجَّة.

وقد سبَق أَن مَن قال: (إِنَّ القرآنَ مخلوقٌ) أبطَلَ الأمرَ والنهي، يعني: أنه لا أَمْرَ، ولا نَهْي، فالمخلوق مصنوعٌ على شكل مُعيَّن، والأمر (قل) والنهي (لا تقل) هذا مِن أوصاف الكلام، لا مِن أوصاف المخلوق.

٦٣٢- فَهُـمُ بِـذَا جَهْمِيَّـةٌ أَهْـلُ اعْتِـزَا ... لِ، ثَـوْبُهُمْ أَضْـحَى لَـهُ عَلَـمَانِ

قَوْلُهُ: «**فَهُمُ بِذَا جَهْمِيَّةٌ أَهْلُ اعْتِزَالٍ**» يعني: إذن هم معتزِلة مِن وَجه، وهُم أيضًا جهمية مِن وجهٍ آخر.

وَقَوْلُهُ: «**عَلَمَانِ**» أي: خطَّان: خط أحمر، وخط أسود، ولهذا كان المعتزِلة يوافقون الجهميةَ في نفي الصفات، لكن يخالفونهم في مسألة الوعيد والأحكام، ولذلك يفترق الجهمية والمعتزلة في مسألة القَدَر افتراقًا عظيمًا، وفي مسألة أسماء الإيمان والدين.

فالجهمية يَرَوْنَ في القَدَر أن الإنسانَ مُجبَرٌ على عمله، والمعتزِلة على العكس مِن ذلك، والجهمية يرون أن الأعمالَ لا تزيدُ في الإيمان، ولا تَنْقُص، وليست داخلة في الإيمان، وأن الإيمان هو مجرد الاعتراف.

فالجهمية يقولون: كُلُّ فاسقٍ ماردٍ شيطانٍ فهو مؤمنٌ كاملُ الإيمان، ولن يَمَسَّه عذابٌ.

وقولهم هذا يَصْلُحُ لفُسَّاق أهل العصر.

أمَّا المعتزلة فيقولون: لو فَعَل الإنسانُ كبيرةً واحدةً لَصَارَ مِن أهل النار.

فبينهما فَرْقٌ عظيم، هؤلاء يقولون: مؤمن كامل الإيمان، ولن يَمسَّه العذاب، وهو في الجنة، وهؤلاء يقولون: خارجٌ مِن الإيمان ومستوجِبٌ للخلود في النيران، والعياذ بالله.

فصار لهم ثوبان: ثوبُ جهمٍ في الصفات مُعَطِّلة، وثوبُ اعتزالٍ في مسألة الأسماء والأحكام.

والمعتزلة على العكس يقولون: الأعمال شرط في صحة الإيمان، ولهذا مَن فَعَل كبيرةً عندهم أخرجوه مِن الإيمان، إلَّا أنهم يقولون: في منزلةٍ بين المنزلتين، أما في الآخرة فمُخَلَّد في النار.

٦٣٣- وَلَقَدْ تَقَلَّدَ كُفْرَهُمْ خَمْسُونَ فِي ... عَشْرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي الْبُلْدَانِ

٦٣٤- وَاللَّالَكَائِيُّ[1] الْإِمَامُ حَكَاهُ عَنْـ ... ـهُمْ بَلْ حَكَاهُ قَبْلَهُ الطَّبَرَانِي[2]

قَوْلُهُ: «**تَقَلَّدَ كُفْرَهُمْ**» أي: حَكَمَ بكفرهم.

«**خَمْسُونَ فِي عَشْرٍ**» أي: خمسمئة عالِم، فخمسمئة عالِم كَفَّروا أهل الاعتزال والجهمية بقولهم: إن كلامَ الله مخلوق.

إِذَنْ الآن نقول مَن قال: (إن كلام الله مخلوق) فهو -على ما نقله ابن القيم- كافرٌ.

* * *

---

(١) **اللالكائي**: هو هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري، الرازي، حافظ للحديث، من فقهاء الشافعية، توفي كهلا في الدِّينَوَر سنة (٤١٨هـ).[الشارح]. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٣/ ١٣٦).

(٢) **الطبراني**: هو أبو القاسم سليمان بن أحمد اللخمي، الطبراني، صاحب المعاجم الثلاثة، ولد في عكا في الشام سنة (٢٦٠ هـ)، وتوفي بأصبهان سنة (٣٦٠هـ) إذن عمره -رحمه الله- مئة سنة. [الشارح]. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٢/ ٢٠١).

فصل

فِي مَذْهَبِ الْكَرَّامِيَّةِ

٦٣٥- وَالْقَـائِلُونَ بِأَنَّـهُ بِمَشِـيئَةٍ فِي ذَاتِـهِ أَيْضًـا، فَهُـمْ نَوْعَـانِ
٦٣٦- إِحْـدَاهُمَا: جَعَلَتْـهُ مَبْـدُوءًا بِـهِ نَوْعًـا حِـذَارَ تَسَلْسُـلِ الْأَعْيَـانِ
٦٣٧- فَيَسُـدُّ ذَاكَ عَلَـيْهِمُ فِي زَعْمِهِـمْ إِثْبَـاتَ خَـالِقِ هَـذِهِ الْأَكْـوَانِ
٦٣٨- فَلِـذَاكَ قَـالُوا: إِنَّـهُ ذُو أَوَّلٍ مَـا لِلْفَنـاءِ عَلَيْـهِ مِـنْ سُـلْطَانِ
٦٣٩- وَكَلَامُـهُ كَفِعَالِـهِ، وَكِلَاهُمَـا ذُو مَبْـدَأٍ، بَـلْ لَـيْسَ يَنْتَهِيَـانِ
٦٤٠- قَالُوا وَلَـمْ يُنْصِفْ خُصُومٌ جَعْجَعُوا وَأَتَـوْا بِتَشْـنِيعٍ بِـلَا بُرْهَـانِ
٦٤١- قُلْنَـا كَـمَا قَـالُوهُ فِي أَفْعَالِـهِ بَـلْ بَيْنَنَـا بَـوْنٌ مِـنَ الْفُرْقَـانِ
٦٤٢- بَلْ نَحْنُ أَسْعَدُ مِنْهُمُ بِالْـحَقِّ إِذْ قُلْنَـا: هُمَـا بِـالله قَائِمَتَـانِ
٦٤٣- وَهُـمُ فَقَـالُوا: لَـمْ يَقُـمْ بِـالله لَا فِعْـلٌ وَلَا قَـوْلٌ، فَتَعْطِـيلَانِ
٦٤٤- لِفِعَالِـهِ وَمَقَالِـهِ شَرٌّ وَأَبْـ ـطَلُ مِـنْ حُلُـولِ حَـوَادِثٍ بِبَيَـانِ
٦٤٥- تَعْطِيلُـهُ عَـنْ فِعْلِـهِ وَكَلَامِـهِ شَرٌّ مِـنَ التَّشْـنِيعِ بِالْـهَذَيَانِ
٦٤٦- هَـذِي مَقَـالَاتُ ابْـنِ كَـرَّامٍ وَمَـا رَدُّوا عَلَيْـهِ قَـطُّ بِالْبُرْهَـانِ
٦٤٧- أَنَّـى وَمَـا قَـدْ قَـالَ أَقْـرَبُ مِـنْهُمُ لِلْعَقْـلِ وَالْآثَـارِ وَالْقُـرْآنِ

٦٤٨- لَكِـــنَّهُمْ جَــاءُوا لَـــهُ بِجَعَــاجِعٍ وَفَرَاقِـــعٍ وَقَعَــاقِعٍ بِشِـــنَانِ

الشـرحُ

٦٣٥- وَالْقَـــائِلُونَ بِأَنَّـــهُ بِمَشِـــيئَةٍ فِي ذَاتِـــهِ أَيْضًـــا، فَهُـــمُ نَوْعَـــانِ

٦٣٦- إِحْــدَاهُمَا: جَعَلَتْــهُ مَبْــدُوءًا بِـــهِ نَوْعًــا حِــذَارَ تَسَلْسُــلِ الْأَعْيَــانِ

قَوْلُهُ: «وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ بِمَشِيئَةٍ» يعني: بأنَّ الله يتكلَّم بمشيئة.

قَوْلُهُ: «إِحْدَاهُمَا»: قال المؤلف -رحمه الله-: (إحداهما)، والصواب في اللغة العربية (أَحَدُهُمَا) لكن هداه إلى ذلك ضِيقُ النَّظْم.

قَوْلُهُ: «جَعَلَتْهُ مَبْدُوءًا بِهِ نَوْعًا حِذَارَ تَسَلْسُلِ الأَعْيَانِ»، وهذا هو النوع الأول، أنها جعلت كلامه -سُبحانَه وتعالَى- له ابتداء، وأنه كان في الأول لا يتكلَّم، لماذا؟ قالوا: لو قلنا بذلك لَزِمَ تسلسلُ الأعيان، وإذا لزِم تسلسلُ الأعيان امتنعَ إثباتُ الخالقِ عزَّ وجلَّ، لأنه يبقى التسلسل دائمًا لا نهاية له، يبقى النوع أَوَّلِيًّا، كما أن اللهَ أَوَّلٌ ليس قبلَه شيءٌ.

هذه الطائفة جعلت كلامَه حادثًا: حادِثَ النوع، ليس حادِثَ الآحاد، ولهذا قال: (مبدوءًا به نوعًا) يعني أنه -سبحانه وتعالى- في الأول لم يكن يتكلَّم، ثُمَّ صار يتكلَّم، فصار الكلام عندهم حادثًا نوعًا.

وهؤلاء لو قالوا: (إنه حادثٌ عينًا) لكان الأمر صحيحًا، لكن قالوا: إنه حادثٌ نوعًا، يعني أنَّ الله لم يكن يتكلَّم ثُمَّ صار يتكلَّم.

فعطَّلوا اللهَ عن كلامه في الأول، وأثبتوه له في ثاني الحال، وجعلوا كلامَه ليس خارجَ ذاتِه، بل في ذاته، فهذا هو الفَرق بينهم، وبين أهل الاعتزال الجهمية

والجهمية السابقة، لأنَّ أولئك جعلوه خارج ذاتِه، جعلوه مخلوقًا منفصلًا، مثل: السماء، والأرض، والشمس، والقمر، أما هؤلاء فقالوا: لا، هو مِن صفاته لكنه حادِثُ النوع والآحاد.

لكن لماذا؟ قال: (**حِذَارَ تَسَلْسُلِ الأَعْيَانِ**) إذن قالوا: لو أثبتنا أنه أزليُّ النوع لزِم أن تكونَ آحادُه أيضا أزليةً، وتسلسل، إذ ما مِن كلامٍ إلَّا وقَبلَه كلام إلى ما لا نهاية له، وظنُّوا أن هذا شيءٌ ممتنِعٌ، لكن ليس بممتنِع كما سيأتي -إن شاء الله- في الفِرقة الثانية.

٦٣٧- فَيَسُــدُّ ذَاكَ عَلَـيْهِمُ فِي زَعْمِهِـمْ　　　إِثْبَـاتَ خَـالِقِ هَـذِهِ الْأَكْـوَانِ

يقولون: إذا قلنا بالتسلسل الأزليِّ للأنواع لم نُثْبِتْ خالقًا، إذ مِن المعلوم أنَّ المخلوق يكون بعد الخالق، وهذا يمنع التسلسل.

فهم يقولون: إذا جعلنا الكلام لم يزل موجودًا نوعًا، وهو متعلِّقٌ بالمشيئة، لَزِمَ أن يكونَ الموصوفُ به أيضًا حادثًا، وجوده بمشيئته، وهذا يَسُدُّ علينا إثبات الله عزَّ وجلَّ، يعني إثبات أزليته -سبحانه وتعالى-.

ولكن هذا ليس بصحيح، لأنَّ مِن المعلوم أن الموصوفَ سابقٌ على الوصف وعلى الصفة، فالمتكلِّمُ لا بدَّ أن يكونَ سابقًا لكلامه، وإذا قلنا بأن الكلامَ أزليُّ النوع لم يَلْزَمْ أن يكونَ مقارِنًا للخالق، لأنه لا بدَّ أن يكون المتكلِّم سابقًا عن المسبوق.

فلذلك قالوا: إن الله لا يتكلَّم متى شاء كيف يشاء، ولا نهاية لأوَّله، بل هو مبتدأ، ولذا قال -رحمه الله-:

٦٣٨- فَلِـــذَاكَ قَـــالُوا: إِنَّـــهُ ذُو أَوَّلٍ　　　مَـا لِلْفَنَـاءِ عَلَيْـهِ مِـنْ سُـلْطَانِ

يعني: فرَّقوا بين التسلسل في الابتداء والتسلسل في الانتهاء.

قَوْلُهُ: «ذُو أوَّلٍ» يعني: ليس أزلِيًّا، بل له مبدأ.

قَوْلُهُ: «مَا لِلْفَناءِ عَلَيْهِ مِنْ سُلْطَانِ» أي: أنه أَبَدِيٌّ، وهذا على رأي مَن يرى أنَّ التسلسلَ في الماضي ممنوعٌ، وفي المستقبل جائز، وتقدَّم أنَّ القولَ الراجح أنَّ التسلسل جائز في الماضي والمستقبل.

فصار الفَرق بينه وبين أهل السُّنَّة بسيطًا، والفَرق أن أهل السُّنَّة يقولون: إنَّ كلامَ الله أَزليُّ النوع حادثُ الآحاد، وهم يقولون: إنه حادثُ النوع والآحاد، فهُم يتفقون مع أهل السُّنَّة على أنه أَبَدِيٌّ، فإنَّ كلامَ الله لن ينقطع أبدَ الآبدين، ولهذا قال (مَا لِلْفَناءِ عَلَيْهِ مِنْ سُلْطَانِ) إذن هو أَبَدِيٌّ.

٦٣٩- وَكَلَامُــهُ كَفِعَالِــهِ، وَكِلَاهُمَــا ذُو مَبْــدَأٍ، بَــلْ لَــيْسَ يَنْتَهِيَــانِ

قَوْلُهُ: «وَكِلَاهُمَا ذُو مَبْدَأٍ» أي: ذو مبدأ لكنهما أَبَدِيَّان، ولهذا قال: (بَلْ لَيْسَ يَنْتَهِيَانِ) و(بل) هنا عطف، لكنها ليست للإضراب، إلَّا أن يُقَال: إنَّها إضرابُ انتقال مِن كلام إلى كلام، لا مِن معنى إلى معنى، والمعنى: ذو مبدأ، وليس ينتهيان.

والخلاصة: أنهم قالوا: إن الله -سُبحانَه وتعالَى- يتكلَّمُ بمشيئته، ولكنَّ كلامَه حادثُ النوع، لئلا يَلْزَمَ مِن ذلك تسلسلُ الأعيان، إذ إنهم يجعلون الكلامَ كالفِعَال، فإذا قالوا بتسلسله في الماضي لزم قِدَمُ هذه الأعيان، وبذلك يَبْطُلُ إثباتُ الخالق.

٦٤٠- قَالُوا وَلَـمْ يُنْصِفْ خُصُومٌ جَعْجَعُوا وَأَتَــوْا بِتَشْــنِيعٍ بِــلَا بُرْهَــانِ

الجعجعة: هي الكلام الصاخب الذي لا يُرَادُ به إلَّا التنفير والتشنيع، وهم يَعْنُون بهؤلاء المعتزِلة والجهمية.

٦٤١- قُلْنَـــا كَــمَا قَـــالُوهُ فِي أَفْعَالِـــهِ ... بَـــلْ بَيْنَنَـا بَــوْنٌ مِـــنَ الْفُرْقَــانِ

هؤلاء يقولون في أفعاله: إنها ليست أزليَّة، بل كان فاعلًا بعد أن كان مُعَطَّلًا، وهؤلاء قالوا في كلامه كما قال هؤلاء في أفعاله، يعني أنَّ الكلامَ حادِثٌ بعد أنْ لم يكن، والأفعال حادثة بعد أن لم تكن، لكن يختلفون، فهؤلاء يقولون: إن أفعالَه وأقوالَه خارجُ ذاتِه، وهؤلاء يقولون: بل متعلِّقة بذاته.

ولكنَّ ابنَّ القيم -رحِمه الله- ردَّ عليهم فقال:

٦٤٢- بَلْ نَحْـنُ أَسْـعَدُ مِـنْهُمُ بِالْـحَقِّ إِذْ ... قُلْنَـــا: هُمَـــا بِـــالله قَائِمَتَـــانِ

قَوْلُهُ: «هُمَا» هذا الضمير يعود على الأقوال والأفعال.

هؤلاء يقولون: الكلام قائمٌ بالله، والفعل قائمٌ بالله، وأولئك يقولون: قائمٌ بغير الله منفصِل عن الله، فأيهما أقرب للصواب؟ الجواب: الكرَّامِيَّة الذين قالوا: إنَّ الأفعالَ والأقوالَ قائمةٌ بالله.

وَقَوْلُهُ: «أَسْعَدُ بِالحَقِّ» إذ قلنا: إنَّ الأفعالَ قائمةٌ بالله والأقوالَ قائمةٌ بالله، وليست مخلوقةً منفصلة كما قاله مَن يقولون: إن الكلامَ في نفسه، ولا يتعلَّقُ بمشيئته، لكنه يخلُق ما يُعَبِّر عن الكلام، أو يكون حكاية عنه.

٦٤٣- وَهُـمُ فَقَـالُوا: لَـــمْ يَقُـمْ بِـالله لَا ... فِعْــــلٌ وَلَا قَـــوْلٌ، فَتَعْطِـــيلَانِ

قَوْلُهُ: «فَتَعْطِيلَانِ» أي: تعطيل القول وتعطيل الفعل، لأنَّ السابقين لا يرون أنَّ الكلامَ يتعلَّق بمشيئته، بل هو وصف لازم له، لكن بدون حرفٍ ولا صوتٍ وبدون مشيئة.

٦٤٤- لِفِعَالِــهِ وَمَقَالِــهِ شَرٌّ وَأَبْــ ــطَلُ مِـنْ حُلُـولِ حَـوَادِثٍ بِبَيَـانِ

٦٤٥- تَعْطِيلُــهُ عَــنْ فِعْلِــهِ وَكَلَامِــهِ شَرٌّ مِــنَ التَّشْــنِيعِ بِالْــهَذَيَانِ

يعني: تعطيلُ أفعالِهِ وأقوالِهِ أَشَرُّ وأبطلُ مِن حُلول حوادث ببيان، لأنَّ الجهميةَ والمعتزلةَ إنما نَفَوْا قيامَ أفعاله الاختيارية بذاته، خوفًا مِن حُلول الحوادث بذاته، لأنَّ مِن أصول المعطِّلة أنه لا يقوم الحادثُ إلَّا بحادث، فإذا قامت الحوادثُ بذاته لزِم أن يكون حادثًا، ولهذا أنكروا أن تقومَ الأفعالُ الاختياريةُ بذاته، وقالوا: (ليس له فِعل، وليس له قول)، نسأل الله العافية.

وهذا الكلام في الحقيقة لا يستطيع الإنسان أن يتصوَّره، فَضلًا عن الذي يَقبله ويَهضمه.

إِذَنْ هؤلاء الكرَّامِيَّة يقولون: إن تعطيلَ أفعاله ومقاله شرّ وأبطل مِن حلول الحوادث به، يعني لو قالوا: إن الله يفعل فِعلًا يتعلَّق بذاته، ويقول قولًا يتعلَّق بذاته، لكان هذا أهون مِن أن نقول: إن الحوادث تتعلَّق بذاته، لأننا إذا قلنا: إن الحوادث تتعلَّق بذاته لم يلزم عليها شيء، وإذا قلنا: إنه مُعَطَّل مِن الفعل والقول، فهذا مِن أقبح ما يُوصَف به اللهُ عزَّ وجلَّ، وقد تقدَّم لنا القول أن قيامَ الحوادث لا يَستلزمُ حدوثَ مَن قامت به.

٦٤٦- هَـذِي مَقَـالَاتُ ابْـنِ كَـرَّامٍ[1] وَمَـا رَدُّوا عَلَيْــهِ قَــطُّ بِالْبُرْهَــانِ

يرى -رحمه الله- أن الكَرَّامِيَّة أقرب للصواب مِن الأشعرية، لأنَّ الأشعرية

(١) ابن كرام: هو محمد بن كرام بن عراق السجستاني، شيخ الكرامية، ولد بقرية في سِجِسْتان، ودخل خراسان، وكان له أتباع، توفي في القدس سنة (٢٥٥هـ). [الشارح]. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١١/ ٥٢٣).

لا يُثْبِتُون كلامًا مسموعًا أصلًا، فالكلام عندهم هو المعنى القائم بنفس الله عزَّ وجلَّ، ولا يتعلَّق بمشيئته، لكن الذي يتعلَّق بمشيئته عندهم هو المخلوق.

فالصوت يخلقه الله عزَّ وجلَّ في مكانٍ ما، أو في الهواء، أو في الشجرة حين نادى موسى منها، فهذا هو الكلام عندهم.

ابن القيم -رحمه الله- يقول: ما رَدُّوا عليه قطُّ بالبرهان.

فابن القيم يدافع عن ابن كَرَّام، ولا شك أن المدافعة عن شخص شَرُّه أهون مِن غيره أنها أمر طيِّب، وسيبين -إن شاء الله- في الفصل الثاني أنَّ كلامه ليس بصحيح.

٦٤٧- أَنَّى وَمَا قَدْ قَالَ أَقْرَبُ مِنْهُمُ ... لِلْعَقْلِ وَالْآثَارِ وَالْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «**أَنَّى**» يعني: يبعُد جدًّا أن يردُّوا عليه.

قَوْلُهُ: «**الآثَار**» يعني: آثار السنن.

قَوْلُهُ: «**أَنَّى وَمَا قَدْ قَالَ أَقْرَبُ مِنْهُمُ لِلْعَقْلِ وَالآثَارِ وَالْقُرْآنِ**» وهذا صحيح، فما قاله ابن كَرَّام أقربُ مما قاله المعتزِلة والجهمية للعقل، والآثار التي هي السنن، والقرآن كلام الله عزَّ وجلَّ، لأنَّ ابنَ كرَّام لم يختلف عن أهل السُّنَّة إلَّا في شيء واحد، وهو (حدوث الكلام نوعًا)، ولو قال: (حدوثه آحادًا) لَوَافَق أهلَ السنَّة، لأنَّ الكلام -كما هو معلوم- مترتِّب بعضُه على بعض.

فهو يخشى مِن القول بأزليته نوعًا تسلسلَ الحوادث، وهذا على ظنِّه يَستلزِم نَفْيَ أزليّة الخالقِ عزَّ وجلَّ، وقد سبق أنَّ هذا لا يستلزم ذلك، وأنه ليس بصحيح.

٦٤٨- لَكِـــنَّهُمْ جَـــاءُوا لَـــهُ بِجَعَـــاجِعٍ   وَفَرَاقِـــعٍ وَقَعَـــاقِعٍ بِشِـــنَانِ

قَوْلُهُ: «الجعاجع»: الأصوات الصاخبة التي يُراد بها التنفير، وإبعاد الناس عن هذا الشيء.

قَوْلُهُ: «وَفَرَاقِعٍ» الفراقع: إما فرقعة الأصابع، وإما الفراقع التي تفرقع مِن الصبيان ليلة العيد.

قَوْلُهُ: «شِنَان» ويُروى بالميم (بشمان)، وشِنان جمع شَنَّة، والشَّنَّة: القِرْبة اليابسة القديمة، يُضرَب عليها باليد فيصير لها صوت.

يعني يقول: هؤلاء ما رَدُّوا على ابن كَرَّام بشيء، بل هو أقرب إلى الحقِّ منهم.

* * *

فصل

فِي ذِكْرِ مَذْهَبِ أَهْلِ الْحَدِيثِ

٦٤٩- وَالْآخَرُونَ أُولُو الْحَدِيثِ كَأَحْمَدٍ ... وَمُحَمَّدٍ وَأَئِمَّةِ الْإِيمَانِ
٦٥٠- قَالُوا بِأَنَّ اللهَ حَقًّا لَمْ يَزَلْ ... مُتَكَلِّمًا بِمَشِيئَةٍ وَبَيَانِ
٦٥١- إِنَّ الْكَلَامَ هُوَ الْكَمَالُ فَكَيْفَ يَخْـ ... ـلُو عَنْهُ فِي أَزَلٍ بِلَا إِمْكَانِ؟!
٦٥٢- وَيَصِيرُ فِيمَا لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا ... مَاذَا اقْتَضَاهُ لَهُ مِنَ الْإِمْكَانِ؟
٦٥٣- وَتَعَاقُبُ الْكَلِمَاتِ أَمْرٌ ثَابِتٌ ... لِلذَّاتِ مِثْلُ تَعَاقُبِ الْأَزْمَانِ
٦٥٤- وَاللهُ رَبُّ الْعَرْشِ قَالَ حَقِيقَةً ... ﴿حمٓ﴾ مَعْ ﴿طه﴾ بِغَيْرِ قِرَانِ
٦٥٥- بَلْ أَحْرُفٌ مُتَرَتِّبَاتٌ مِثْلَمَا ... قَدْ رُتِّبَتْ فِي مَسْمَعِ الْإِنْسَانِ
٦٥٦- وَقْتَانِ فِي وَقْتٍ مُحَالٌ هَكَذَا ... حَرْفَانِ أَيْضًا يُوجَدَا فِي آنِ
٦٥٧- مِنْ وَاحِدٍ مُتَكَلِّمٍ بَلْ يُوجَدَا ... بِالرَّسْمِ أَوْ بِتَكَلُّمِ الرَّجُلَانِ
٦٥٨- هَذَا هُوَ الْمَعْقُولُ، أَمَّا الِاقْتِرَا ... نُ فَلَيْسَ مَعْقُولًا لِذِي الْأَذْهَانِ
٦٥٩- وَكَذَا كَلَامٌ مِنْ سِوَى مُتَكَلِّمٍ ... أَيْضًا مُحَالٌ لَيْسَ فِي إِمْكَانِ
٦٦٠- إِلَّا لِمَنْ قَامَ الْكَلَامُ بِهِ فَذَا ... كَ كَلَامُهُ الْمَعْقُولُ لِلْإِنْسَانِ

الشرحُ

٦٤٩- وَالْآخَرُونَ أُولُو الْـحَدِيثِ كَأَحْمَدٍ وَمُحَمَّـــدٍ وَأَئِمَّـــةِ الْإِيـــمَانِ

قَوْلُهُ: «وَالآخَرونَ أُولُو الْـحَدِيثِ» يعني: أصحاب الحديث، جعلنا الله وإِيَّاكم منهم، يعني: المُعتَنين بالحديث حِفظًا رِوايةً، وعِلمًا دِرايةً.

قَوْلُهُ: «كَأَحْمَدٍ ومُحَمَّدٍ» أحمد بن حنبل، ومحمد بن إسماعيل البُخَارِي، وغيرهما مِن الأئمة.

فذكر -رحمه الله- مذهبَ أهلِ الحديث، وأهلُ الحديث يُراد بهم صنفان: رُواة الحديث، وفُقَهاء الحديث.

ولا شكَّ أنَّ أحمد بن حنبل مِن رواة الحديث، وفقهاء الحديث، وأمَّا البخاري -رحِمه الله- فلا شكَّ أنه مِن رُواة الحديث، ولكنه في فِقه الحديث ليس كالإمام أحمد، ولهذا يُعتبر مِن المُحَدِّثين، والإمام أحمد يعتبر مِن الْـمُحَدِّثين الفقهاء.

٦٥٠- قَـالُوا بِـأَنَّ اللهَ حَقًّـا لَـمْ يَـزَلْ مُتَـكَلِّمًا بِمَشِيئَـــةٍ وَبَيَـــانِ

ولهذا قال: (وَأَئِمَّةِ الإِيمانِ قَالُوا بِأَنَّ اللهَ حَقًّا لَـمْ يَزَلْ مُتكَلِّمًا بِمَشِيئَةٍ وَبيَانِ) لم يزل عزَّ وجلَّ متكلِّمًا بمشيئة، إذا شاء تكلَّم، وإذا شاء لم يتكلَّم، ثم هو يتكلَّمُ ببيان، أي: بحروف، وأصوات مسموعة.

وأفصحُ الكلام، وأحسنُ الكلام، وأصدقُ الكلام كلامُ الله عزَّ وجلَّ، ولهذا قال: (بِبيَانِ) أي: بفصاحة، وإعراب، ووضوح.

ويا حبَّذا لو علمنا أدلة أن اللهَ لم يزل متكلِّمًا، ولا يزالُ متكلِّمًا.

نقول: لم يزل، ولا يزال متكلِّمًا، ودليل دَلالته عقلية، وذلك أن أفعالَ الله لم تَزَل، وكلُّ فِعل مِن أفعال الله، فإنه مقرون بقوله: (كن)، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

كذلك الكلام بمشيئة، وليس معنًى قائمًا بنَفْسه لا يتعلَّق بمشيئته، كما قالت الأشاعرة، بل هو بالمشيئة، وفي ذلك أدلة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا﴾ والمراد يكون بمشيئة.

إِذَنْ الكلام المقترِن بالمراد يكون كذلك بالمشيئة.

وهناك أيضًا أدلة واقعية: قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣] متى كان الكلام؟

الجواب: بعد مجيئه، انظر قوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣] ومتى كان القول الثاني؟ الجواب: بعد قول موسى.

ابن القيم يقول: (**وبَيَانِ**) وهذا يقتضي أن يكون كلامُ الله بحَرْفٍ وصوتٍ، لأنه لا يكون بيانًا إلَّا إذا سُمِع الكلام، ولا يُسْمَعُ إِلَّا بصوت، ولا يُفْهَمُ إِلَّا بحروف، فكلام الله أيضًا يكون بحرف وصوت، أما كونه بحرف فلأنَّ كُلَّ الكلام الذي تكلَّم اللهُ به حروف، فالقرآن حروف، ومَن قرأه فله بكل حرفٍ منه عشر حسنات.

وأيضًا لما قال الله تعالى لموسى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ اللام، والنون، والتاء، والراء والنون، والياء، هذه حروف بصوت، لأنَّ موسى سمع كلام الله، وكذلك النبيّ ﷺ سَمِعَ كلامَ الله في ليلة المعراج.

إِذَنْ كلام الله -سُبحانَه وتعالَى- بحرفٍ وصوتٍ مُتَعلِّق بمشيئته، ولم يزل، ولا يزال متكلمًا.

أما كونه مخلوقًا فهذا باطل، لأنَّ الله تعالى قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، والخلق والأمر قَسِيمان، وليسا قِسْمَيْن، فالأمرُ غيرُ الخَلق، لأنَّ الأصلَ في العطف المُغايَرة، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢] أي: مِن وَحْيِنا، فَدلَّ هذا على أنَّ القولَ ليس مخلوقًا.

هذا ما أردت أن أُبيِّنَه لأجْل أن نعرف أن أَهْلَ السُّنَّة والجماعة بَنَوْا اعتقادَهم على دليل.

٦٥١- إِنَّ الْكَلَامَ هَوَ الْكَمَالُ فَكَيْفَ يَخْـــلُو عَنْـهُ فِي أَزَلٍ بِـلَا إِمْكَـانِ؟!

قَوْلُهُ: «إِنَّ الْكَلَامَ هُوَ الكَمَالُ» صَدَق -رحمه الله- ما من أحدٍ يشكُّ في أنَّ المتكلِّمَ كاملٌ والأخرسَ ناقصٌ.

فالمتكلِّم يتكلَّم ليأمُرَ وينهى ويعظَ، فالله عزَّ وجلَّ من كمالِهِ كلامُه، ومن المعلوم أنَّ الأخرسَ لا يُعَدُّ كاملًا، ولذلك طلب زكريا -عليه الصلاة والسلام- من الله آيةً، فقال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران:٤١]، ولما كان هذا يُخشى منه العيب -وهو عيب- قال الله له في آيةٍ أخرى: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم:١٠]، يعني: ليس فيك عيب، لأنه لا شكَّ أنَّ عدمَ الكلام عيب، فالكلام كمال.

قَوْلُهُ: «فَكَيْفَ يَخْلُو عَنْهُ فِي أَزَلٍ بِلَا إِمْكَانِ» يعني: كيف يخلو الله من هذا الكمال في أزل بلا إمكان؟!

هؤلاء الذين قالوا: إنه يتكلَّمُ بغير مشيئةٍ، ومنعوا أن يكونَ أزليًّا، قالوا: إنه تكلَّم بعد أن لم يكن قادرًا على الكلام، وهذا نقص، ولهذا قال المؤلف -رحمه الله-:

٦٥٢- وَيَصِيرُ فِيمَا لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا   مَاذَا اقْتَضَاهُ لَهُ مِنَ الْإِمْكَانِ؟

يعني: ما الذي اقتضى أن يكون متكلِّمًا بعد أن كان غيرَ متكلِّم إلَّا المشيئة، وهو متى شاء تَكلَّم في أزلٍ وأبدٍ، ومتى شاء لم يتكلَّم، وهذا القول واضح ومعقول، وهو الذي تدلُّ عليه الأدلةُ السمعية.

وفي هذا رَدٌّ على الكَرَّامِيَّة الذين يقولون: في الأول لا يمكن، وفي الثاني صار ممكنًا، فما الذي جعله في الأول مستحيلًا، وفي الثاني ممكنًا؟!

ثم ذكَرَ المؤلف -أيضًا- أنَّ قولَه مترتِّبٌ، خلافًا لمن قال بالاقتران، الباء، والسين، والميم، في (بسم الله الرحمن الرحيم) وما بعدها من كلمات كلُّها واحدةٌ، خرجت بآنٍ واحد، ولا يمكن أن تترتَّب، لأنَّ الكلامَ عندهم ليس بمشيئته.

٦٥٣- وَتَعَاقُبُ الْكَلِمَاتِ أَمْرٌ ثَابِتٌ   لِلذَّاتِ مِثْلُ تَعَاقُبِ الْأَزْمَانِ

قَوْلُهُ: «**وَتَعَاقُبُ الْكَلِمَاتِ أَمْرٌ ثَابِتٌ لِلذَّاتِ**» أي: لذات الكلمات.

قَوْلُهُ: «**مِثْلُ**»، يجوز فيه أيضًا (مِثْلَ).

قَوْلُهُ: «**مِثْلُ تَعَاقُبِ الأَزْمَانِ**» أي: كما أنَّ الأزمانَ متعاقبةٌ الآن، فالصباح، ثُمَّ الضُّحى، ثُمَّ الظهيرة، ثُمَّ العصر، ثُمَّ المغرب متعاقبة، هل يمكن أن تكون ظهيرةٌ في وقت الضحى؟

الجواب: لا، ولا ضحى في وقت الصباح، فتعاقب الكلمات أمرٌ واقع لا بدَّ منه، كتعاقب الأزمان، أي: (**مِثْل تَعَاقُبِ الأَزْمَانِ**)، وفي هذا رَدٌّ على الاقترانية.

٦٥٤- وَاللهُ رَبُّ الْعَـرْشِ قَـالَ حَقِيقَـةً ﴿حمٓ﴾ مَـعْ ﴿طه﴾ بِغَـيْرِ قِـرَانِ

وهذا أيضًا ردٌّ على الجَهْمية والمعتزلة والاقترانية، وقال: (حَقِيقَةً)، أما عند المعتزلة والجهمية فلم يقل: (حَقِيقَةً)، قالوا: إضافة الكلام إليه على سبيل المجاز، لأنه خَلَقَ الكلام.

قَوْلُهُ: «﴿حمٓ﴾ مَعْ ﴿طه﴾ بِغَيْرِ قِرَانِ» صحيح، فـ(طه) في مكانها، و(حم) في مكانها لم تقترن.

و﴿طه﴾ حرفان هِجائيَّان، وليس من أسماء الرسول ﷺ، خلافًا لمن سَمَّاه (طه) وسمَّاه (يس)، فإنَّ هذا كَذِبٌ، وليس بصحيحٍ، فكُلُّ أسماء الرسول ﷺ يجب أن تعرفوا أنها مشتملة على المعاني، أمَّا أسماؤنا فجوامد، ليس فيها إلَّا تعيين المُسَمَّى فقط، فقد نُسَمِّي الرجلَ (صالحًا) وهو غيرُ صالح، أما أسماء الرسول -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- فإنها كلَّها مشتقةٌ من معانيها العظيمة.

فمثلًا (طه) هل هو مشتق أو غير مشتق؟

الجواب: ليس مشتقًا، قالوا: لأنَّ الله قال: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه:١-٢].

إِذَنْ نقول: سَمِّه (نون)، لأنَّ الله قال: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ [القلم:١-٢]، وسَمِّه بكُلِّ حرفٍ هِجائِيٍّ جاء بعده خطابٌ للرسول -عليه الصلاة والسلام- قال الله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ [إبراهيم:١]، سمِّه إذن (الر)، ولا أحد يقول بهذا.

فالحاصل أنَّ (يس) ليس من أسماء الرسول، وكذلك (طه).

مسألة: نجدُ بعض الناس مَنْ يُكنِّي نفسَه بـ(أبي الحاشر) مثلًا، فنقول: هذا لا يجوز، لأنَّ هذا اللقب للرسول -عليه الصلاة والسلام-.

٦٥٥- بَــلْ أَحْــرُفٌ مُتَرَتِّبَــاتٌ مِــثْلَمَا ... قَــدْ رُتِّبَــتْ فِي مَسْــمَعِ الْإِنْسَــانِ

قَوْلُهُ: «بَلْ أَحْرُفٌ» يعني: بل هي أحرف.

قَوْلُهُ: «مُتَرَتِّبَاتٌ» يعني: متعاقبة، وليست مقترنة.

الآن عندما أقول: (طه) فأول ما يرد على مسمعك (الطاء) ثُمَّ (الهاء)، فهي مترتِّبة، فهي -أيضا- في كلام الله مترتِّبة، بدأ بالطاء قبل الهاء في مسمع الإنسان.

٦٥٦- وَقْتَــانِ فِي وَقْــتٍ مُحَــالٌ هَكَــذَا ... حَرْفَــانِ أَيْضًــا يُوجَــدَا فِي آنِ

قَوْلُهُ: «وَقْتَانِ فِي وَقْتٍ مُحَالٌ» يعني: لا يمكن أن يكون الصبح وهو في نفس الوقت ضحى، ولا ضحى وهو في نفس الوقت ظهر، فهذا مستحيل.

قَوْلُهُ: «محالٌ هكذا حرفان أيضًا يوجدا في آن» يعني: وكذلك يستحيل أنْ يوجدَ حرفان في آنٍ واحدٍ، إذن لا بدَّ من ترتيب.

وَقَوْلُهُ: «يُوجَدَا» هكذا، حيث سَبَقَ نظيرُه، وأنَّ ابنَ القيم -رحمه الله- يرى جوازَ حذف النون التي هي علامةُ الرفع من أجل الشِّعر.

٦٥٧- مِــنْ وَاحِــدٍ مُــتَكَلِّمٍ بَــلْ يُوجَــدَا ... بِالرَّسْــمِ أَوْ بِــتَكَلُّمِ الــرَّجُلَانِ

٦٥٨- هَــذَا هُــوَ الْــمَعْقُولُ، أَمَّــا الِاقْــتِرَا ... نُ فَلَــيْسَ مَعْقُــولًا لِــذِي الْأَذْهَــانِ

قَوْلُهُ: «مِنْ وَاحِدٍ مُتَكَلِّمٍ» يعني: لا يمكن أن يوجد حرفان في آنٍ واحدٍ من واحد متكلِّم.

قَوْلُهُ: «بَلْ يُوجَدَا بِالرَّسْمِ أَوْ بِتَكَلُّمِ الرَّجُلَانِ» نعم بالرسم، ربما تكتب الحاء فوق النون، كذلك لو كان من رجلين مُتَكَلِّمَيْن، يمكن أن يتكلَّم الرجلان (بسم الله الرحمن الرحيم) في آنٍ واحدٍ، أما مِن متكلِّم واحدٍ ويوجد حرفان في آنٍ واحدٍ، فهذا مستحيل.

وقول المؤلف -رحمه الله-: (بِتَكَلُّمِ الرَّجُلَانِ)، ولم يقل: (الرجُلَيْن) فهذا إمَّا أن يكون للضرورة، وإما أن يكون على لغة من يُلزم المثنى الألف، ولو أتى على اللغة المشهورة، كقول الشاعر:

وَاهًــا لِرَيَّــا ثُــمَّ وَاهًــا وَاهَــا ... يَا لَيْـتَ عَيْنَاهَـا لَنَـا وَفَاهَـا[1]

وهذا صحيح، كيف نقول: القرآن كلام الله من غير متكلِّم؟! فلا يوجد كلامٌ إلَّا من متكلِّم، فمتى أقررتَ بأنَّ القرآنَ كلامُ الله لزمك أن تؤمنَ بأنَّ الله متكلِّمٌ، ولهذا يقول فيما بعد: (لَيْسَ فِي إِمْكَانِ... إلَّا لمَن قامَ الكلامُ به) يعني: لا يمكن أن يكون كلامٌ من غير متكلِّم، بل لا يكون إلَّا من المتكلِّم به.

٦٥٩- وَكَـذَا كَـلَامٌ مِـنْ سِـوَى مُـتَكَلِّمٍ ... أَيْضًــا مُحَــالٌ لَــيْسَ فِي إِمْكَــانِ
٦٦٠- إِلَّا لِــمَنْ قَــامَ الْكَــلَامُ بِــهِ فَــذَا ... كَ كَلَامُــهُ الْــمَعْقُولُ لِلْإِنْسَــانِ

فهو -رحمه الله- لما رَدَّ على مذهب الاقترانية ردَّ على مذهب المعتزلة فقال:

المعتزلة يقولون: إنَّ اللهَ له كلام لكن ليس هو الـمُتكلِّم، لأنَّ كلامه مخلوقٌ، إمَّا في الشجرة، وإمَّا في الهواء، وإمَّا في جِبْريل، وإمَّا في مُحمَّد، فكيف يصحُّ أن نقول: هو متكلِّمٌ والكلامُ ليس وصفًا، بل هو بائن منه؟! ولهذا قال:

---

(١) البيت من الرجز، وهو لأبي النجم، انظر: لسان العرب، مادة: ويه.

(**لَيْسَ فِي إِمْكَانِ... إِلَّا لِـمَنْ قَـامَ الْـكَلَامُ بِهِ**)، فمَنْ قام الكلام به فهو الذي يكون متكلِّمًا.

فإنْ قال قائلٌ: ألستم تقولون: إنَّ السمواتِ، والأرضَ، والإنسانَ، والشجرَ والحجرَ مخلوقٌ، فهو بائِنٌ عن الله عزَّ وجلَّ وليس من صفته؟!

قلنا: بلى، نقول بذلك، لكن هذه أعيانٌ قائمةٌ بنفسها، وأما الكلام فصفة، ولا يمكن أن يكون قائمًا بنفسه، فإذا وصف الله نفسَه بأنه متكلِّم، علمنا أنَّ الكلامَ وَصْفُه، وإذا وصَفَ نفسَه بأنه الخالق فقد يُلَبِّس هؤلاء، ويقولون: خالق يعني به المخلوق، وليس الخلقُ صفةً له.

لكن نقول في الردِّ عليهم: إنَّ المخلوقات أعيانٌ قائمة بنفسها، بخلاف الكلام فلا يمكن أن يُوصَفَ اللهُ بأنه متكلِّمٌ ويُعْنَى به أنَّ هناك كلامًا مخلوقًا خلقه الله، وإِلَّا للزم أن يكون كلامي وكلامُك وكلامُ فلانٍ وفلانٍ كلامًا لله، ولهذا صار قول الجهمية والمعتزلة بأنَّ كلام الله مخلوق سُلَّمًا سهلَ الصعود للقائلين بوَحْدة الوجودِ، قالوا: نحن نقول: كُلُّ كلامٍ في الوجود كلامُ الله.

***

٦٦١- أَيَكُـونُ حَيًّـا[1] سَـامِعًا أَوْ مُبْصِـرًا ... مِنْ غَـيْرِ مَـا سَـمْعٍ وَغَـيْرِ عِيَـانِ؟!

٦٦٢- وَالسَّـمْعُ وَالإِبْصَـارُ قَـامَ بِغَـيْرِهِ ... هَـذَا الْـمُحَالُ وَوَاضِـحُ الْبُهْتَـانِ

٦٦٣- وَكَـذَا مُرِيـدٌ وَالإِرَادَةُ لَـمْ تَكُـنْ ... وَصْـفًا لَـهُ، هَـذَا مِـنَ الْـهَذَيَانِ

٦٦٤- وَكَـذَا قَـدِيرٌ مَـا لَـهُ مِـنْ قُـدْرَةٍ ... قَامَـتْ بِـهِ مِـنْ أَوْضَـحِ الْـبُطْلَانِ

---

(١) في نسخة الحلبي: «حيٌّ».

٦٦٥- وَاللهُ جَلَّ جَلَالُهُ مُتَكَلِّمٌ بِالنَّقْلِ وَالْمَعْقُولِ وَالْبُرْهَانِ

٦٦٦- قَدْ أَجْمَعَتْ رُسُلُ الإِلَهِ عَلَيْهِ لَمْ يُنْكِرْهُ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ رَجُلَانِ

٦٦٧- فَكَلَامُهُ حَقًّا يَقُومُ بِهِ وَإِلَّا لَا لَمْ يَكُنْ مُتَكَلِّمًا بِقُرَانِ

الشرحُ

ضَرَب المؤلف أمثلةً تُبيِّنُ بطلانَ القول بأنَّ القرآنَ ليس كلامَ الله، وأنَّ الله لم يتكلَّم به، وذلك أنَّ المعتزلة يثبتون لله الأسماء، ولا يثبتون ما دَلَّت عليه من الصفات، فقال:

٦٦١- أَيَكُونُ حَيًّا سَامِعًا أَوْ مُبْصِرًا مِنْ غَيْرِ مَا سَمْعٍ وَغَيْرِ عِيَانِ؟!

أي: من غير معاينة ومن غير بصر، وهل هذا ممكن؟! لا يمكن، كيف يكون سامعًا بلا سمع؟! أو مبصرًا بلا بصر؟! هذا غير ممكن.

ولولا أنه سُوِّدت به الصحائف ما نُقِل ولا ذُكر، لكن مع الأسف أنه وُجد من فِرَق هذه الأمة مَنْ يقول بذلك الهذيان الباطل.

٦٦٢- وَالسَّمْعُ وَالإِبْصَارُ قَامَ بِغَيْرِهِ هَذَا الْمُحَالُ وَوَاضِحُ الْبُهْتَانِ

هم يقولون: إنَّ الله سميع، لكن ليس له سمع، وإنما خلق سمعًا في غيره، وبصيرٌ، يعني: خلق بصرًا في غيره.

كيف نقول: هو بصير، والبصير غيره؟! فهذا معناه أنَّ البصر لغيرِه، لا له، فكيف تكون صفةٌ مضافة إلى موصوف، ثُمَّ تكون هذه الصفة في غيرِه؟! هذا واضح البطلان كما يقول -رحمه الله-: (وَاضِحُ الْبُهْتَانِ).

٦٦٣- وَكَــذَا مُرِيــدٌ وَالإِرَادَةُ لَــمْ تَكُــنْ وَصْــفًا لَــهُ، هَــذَا مِــنَ الْــهَذَيَانِ

هم قالوا: إنَّ اللهَ مريدٌ، لكن ليس له إرادة، كيف؟ قالوا: له مراد، أو المعنى: مريدٌ خالقٌ للإرادة في غيره.

وأنا أعتقد أنَّ مَنْ لم يسمع هذا سيقول بمقتضى الفطرة: هذا لا يكون، ولولا ثقة النقل من ابن القيم، وابن تيمية، ومِن أشباهِهما لقلنا: هذا لا يقوله عاقل، إذ كيف يقول: هو مريد والإرادة لغيره؟! سبحان الله! هذا مستحيل، لكن هذا مذهب لأُناس يَدَّعون الذكاء.

٦٦٤- وَكَــذَا قَــدِيرٌ مَــا لَــهُ مِــنْ قُــدْرَةٍ قَامَــتْ بِــهِ مِــنْ أَوْضَــحِ الْـبُطْلَانِ

قَوْلُهُ: «قَدِيرٌ مَا لَهُ مِنْ قُدْرَةٍ» قدير ولكن ليست له قدرة، وهذا هذيان، فالقدير لا يمكن إلَّا أن تكونَ له قدرة، وهم يقولون: قدير بلا قدرة، لأنهم يَدَّعون أنَّ إثباتَ الصفاتِ القديمةِ يعني الإشراكَ بالله، فيقولون: ساويتم اللهَ تعالى بالقِدَم في هذه الصفات، لأنَّ أخصَّ وصف الإله عندهم هو القِدَم، وهذا من الغرائب.

ألسنا نصف غير الله بالقديم؟! الجواب: بلى، كيف يقولون: أخصُّ وصف الله ما لا يوصف به غيرُه مثل (ربّ العالمين) (الحيّ القيّوم) وما أشبه ذلك؟! وأما أن نقول: أخصُّ وصفٍ في الإله القِدَم، فمَن أثبتَ صفةً قديمة فقد أشرك بالله، لأنك لو أثبت له قدرة كانت القدرة قديمة، ولزم من ذلك تعدد القدماء، قدرة قديمة وقادر قديم، سمع قديم وسميع قديم، بصر قديم وبصير قديم، فصارت الآلهة بذلك ستة، وعلى هذا فقس.

قالوا: أنتم كَفَّرتم النصارى لَـمَّا قالوا: إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثة، وأنتم تقولون:

ملايين الملايين، فأنتم أكفرُ من النصارى إذا أثبتم أنَّ لله صفةً قديمةً، فهذا هو عين الكفر، والعياذ بالله.

والحقيقة أنَّ كلامَهم مخالفٌ للعقل، نقول له: تعالَ، هل أنت سميع؟ سيقول: نعم، نقول: ألك سمع؟ سيقول: نعم، بصير لك بصر، قدير لك قدرة؟ كم أنت؟ فيقول: واحد، فتعدد الأوصاف لا يستلزم تعدد الموصوف، فهذه دعوى لا حُجَّة لها.

٦٦٥-وَاللهُ جَــلَّ جَلَالُــهُ مُــتَكَلِّمٌ   بِالنَّقْـلِ وَالْــمَعْقُولِ وَالْبُرْهَــانِ

فهو متكلِّمٌ بالنقل، والأدلة في هذا كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤].

وفي السنة: «مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْكُمْ إِلَّا سَيُكَلِّمُه رَبُّه لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَان»(١).

أما العقل، فنقول: أيعقل أن يكون آمرًا ناهيًا بلا كلام؟! لا يُعقل، فالآمِرُ هو الذي يقول: (**افعل**)، والناهي هو الذي يقول: (**لا تفعل**)، وكلام الله تعالى ثابت بالعقل من وجوه منها:

- ما سبق أنَّ الكلام كمال.
- **ومنها**: أننا إذا قلنا بعدم الكلام بَطَلَ الأمرُ والنهيُ، إذ لا أمْرَ ولا نهي إلَّا بكلام، بل يبطل حتى القَدَر، لأنَّ كُلَّ شيءٍ كائنٍ من المخلوقات فهو بقول الله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧].

فالله متكلِّم بالنقل والعقل والبرهان، فالنقل والعقل كلاهما دليل، والبرهان وصف الدليل، ويُعْنَى بالبرهان ما هو برهان على الشيء، وأثبته بدون احتمال،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾، برقم (٧٠٠٥).

فكُلَّما كان الدليل صريحًا واضح الدلالة سُمِّي برهانًا.

٦٦٦-قَدْ أَجْمَعَتْ رُسُلُ الإِلَـهِ عَلَيْـهِ لَـمْ   يُنْكِـرْهُ مِـنْ أَتْبَـاعِهِمْ رَجُـلَانِ

ثُمَّ ذكر أنَّ الرسلَ أجمعوا على أنَّ الله متكلِّمٌ، وأنه لم ينكره من أتباعهم رجلان، والمراد بقوله: «لَـمْ يُنْكِرْهُ» يعني: لم يختلف فيه رجلان، وإنما قلنا ذلك لئلا يُقال: وأنكره رجل، لأنَّ نفي الاثنين لا يمنع، ولكنَّ مراده بقوله: «لَـمْ يُنْكِرْهُ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ رَجُلَانِ» أي: لم يختلف فيه رجلان، فكُلُّ أتباعِ الرسل مُجمِعون على أنَّ الله متكلِّم.

٦٦٧-فَكَلَامُـهُ حَقًّـا يَقُـومُ بِـهِ وَإِلَّـا   لَـمْ يَكُـنْ مُـتَكَلِّمًا بِقُـرَانِ

أي: كلام الله حقٌّ متعلِّقٌ بذاته قائم بذاته، ولو لم نقل: إنَّ كلامَه قائمٌ بذاته، لم يكن متكلِّمًا بالقرآن، وما صَحَّ أن نقول: إنَّ القرآنَ كلامُه، لأنَّ الذين يقولون: إنَّ كلامَه غيرُ قائمٍ به، يجعلون كلامَه إمَّا لجبريل أو مُحمَّد أو الهواء، فلا يجعلون الكلامَ كلامَ الله، وعلى رأيهم نقول: إنَّ القرآنَ ليس كلامَ الله عزَّ وجلَّ.

* * *

٦٦٨-وَاللهُ قَـالَ وَقَائِـلٌ وَكَـذَا يَقُـولُ   الْـحَقَّ لَـيْسَ كَلَامُـهُ بِالْفَـانِي

٦٦٩-وَيُكَلِّـمُ الثَّقَلَـيْنِ يَـوْمَ مَعَـادِهِمْ   حَقًّـا فَيَسْـمَعُ قَوْلَـهُ الـثَّقَلَانِ

٦٧٠-وَكَـذَا يُكَلِّـمُ حِزْبَـهُ فِي جَنَّـةِ الـ   حَيَـوَانِ بِالتَّسْـلِيمِ وَالرِّضْـوَانِ

٦٧١-وَكَـذَا يُكَلِّـمُ رُسْـلَهُ يَـوْمَ اللِّقَـا   حَقًّـا فَيَسْأَلُـهُمْ عَـنِ التِّبْيَـانِ

٦٧٢-وَيُرَاجِـعُ التَّكْلِـيمَ جَـلَّ جَلَالُـهُ   وَقْـتَ الْـجِدَالِ لَـهُ مِـنَ الإِنْسَـانِ

٦٧٣-وَيُكَلِّمُ الْكُفَّارَ فِي الْعَرَصَاتِ تَوْ بِيخًا وَتَقْرِيعًا بِلَا غُفْرَانِ
٦٧٤-وَيُكَلِّمُ الْكُفَّارَ أَيْضًا فِي الْجَحِيـ ـمِ أَنِ ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾ بِكُلِّ هَوَانِ
٦٧٥-وَاللهُ قَدْ نَادَى الْكَلِيمَ، وَقَبْلَهُ سَمِعَ النِّدَا فِي الْجَنَّةِ الأَبَوَانِ
٦٧٦-وَأَتَى النِّدَا فِي تِسْعِ آيَاتٍ لَهُ وَصْفًا فَرَاجِعْهَا مِنَ الْقُرْآنِ
٦٧٧-وَكَذَا يُكَلِّمُ جَبْرَئِيلَ بِأَمْرِهِ حَتَّى يُنَفِّذَهُ بِكُلِّ مَكَانِ
٦٧٨-وَاذْكُرْ حَدِيثًا فِي صَحِيحِ مُحَمَّدٍ ذَاكَ الْبُخَارِيِّ الْعَظِيمِ الشَّانِ
٦٧٩-فِيهِ نِدَاءُ اللهِ يَوْمَ مَعَادِنَا بِالصَّوْتِ يَبْلُغُ قَاصِيًا وَالدَّانِي
٦٨٠-هَبْ أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ لَيْسَ بِثَابِتٍ بَلْ ذِكْرُهُ مَعْ حَذْفِهِ سِيَّانِ
٦٨١-وَرَوَاهُ عِنْدَكُمُ الْبُخَارِيُّ الْمُجَسْـ ـسِمُ بَلْ رَوَاهُ مُجَسِّمٌ فَوْقَانِي
٦٨٢-أَيَصِحُّ فِي عَقْلٍ وَفِي نَقْلٍ نِدَا ءٌ لَيْسَ مَسْمُوعًا لَنَا بِأَذَانِ
٦٨٣-أَمْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ وَالْعُقَلَاءُ مِنْ أَهْلِ اللِّسَانِ وَأَهْلِ كُلِّ لِسَانِ
٦٨٤-أَنَّ النِّدَا الصَّوْتُ الرَّفِيعُ وَضِدُّهُ فَهُوَ النَّجَاءُ كِلَاهُمَا صَوْتَانِ
٦٨٥-وَاللهُ مَوْصُوفٌ بِذَاكَ حَقِيقَةً هَذَا الْحَدِيثُ وَمُحْكَمُ الْقُرْآنِ

الشرحُ

٦٦٨-وَاللهُ قَالَ وَقَائِلٌ وَكَذَا يَقُولُ الْحَقَّ لَيْسَ كَلَامُهُ بِالْفَانِي

قَوْلُهُ: «قَالَ» يشير إلى الزمن الماضي، يعني: أنه يتكلَّمُ في الزمن الماضي.

قَوْلُهُ: «قَائِلٌ» يعني: الزمن الحاضر.

قَوْلُهُ: «يَقُولُ» في الزمن المستقبل.

فالمؤلف -رحمه الله- أتى بالفعل والوصف، فالفعل: (قال) و(يقول) والوصف: (قَائِلٌ) فهو -سبحانه- فاعلٌ للقول موصوفٌ به.

قَوْلُهُ: «يَقُولُ الْحَقَّ لَيْسَ كَلَامُهُ بِالْفَانِي»، لأنه كما أنه لا أوَّلَ له يكون لا آخِرَ له، فالله عزَّ وجلَّ لم يزل ولا يزال متكلِّمًا، فالله لا يَفْنَى كلامُه، قال الله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧]، فلو جُمِعَ كُلُّ ما في الأرض من الأشجار وجُعل أقلامًا، وجُعل البحر ومن ورائه سبعةُ أبْحُر مِدادًا ما نَفِدت كلمات الله، فتتكسر الأقلام، وينفَد المِداد ولم تنفَد كلماتُ الله عزَّ وجلَّ لأنه لم يزل ولا يزال متكلمًا خالقًا بما يشاء.

وقد تقدَّم قولُ ابن القيم -رحمه الله- ما الذي جعله متكلِّمًا بعد أن كان لا يتكلَّم؟ وكذلك ما الذي جعله يشاء الكلام ويتكلَّم بعد أن لم يكن كذلك؟!

٦٦٩-وَيُكَلِّمُ الثَّقَلَيْنِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ حَقًّا فَيَسْمَعُ قَوْلَهُ الثَّقَلَانِ

قَوْلُهُ: «الثقلان» يعني: الجنَّ والإنسَ، يكلِّمهم اللهُ عزَّ وجلَّ ويَسْمعه الثقلان، وقد ورَدَ ذلك في أحاديث.

٦٧٠- وَكَذَا يُكَلِّمُ حِزْبَهُ فِي جَنَّةِ الـ حَيَوَانِ بِالتَّسْلِيمِ وَالرِّضْوَانِ

يُكَلِّم عزَّ وجلَّ أهلَ الجنَّة، ويسألُهم كما في الحديث: «إِنَّ اللهَ يَقُولُ لأَهْلِ

الْـجَنَّةِ يَا أَهْلَ الْـجَنَّةِ. فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَـمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ!! فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالُوا: يَا رَبَّنَا فَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»[(١)]. وهذا كلام صريحٌ.

٦٧١- وَكَـذَا يُكَلِّـمُ رُسْـلَهُ يَـوْمَ اللِّقَـا   حَقًّـا فَيَسْأَلُـهُمْ عَـنِ التِّبْيَـانِ

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦]، يسألُ الرسلَ حتى يقيمَ الحجَّةَ على الأمم، هل بيَّنتُم؟ هل بلَّغتُم؟ فيُجيبون.

٦٧٢-وَيُرَاجِـعُ التَّكْلِـيمَ جَـلَّ جَلَالُـهُ   وَقْـتَ الْـجِدَالِ لَـهُ مِـنَ الإِنْسَـانِ

فإنَّ الله تعالى يخلو بعبده المؤمن، ويقرره بذنوبه حتى يُقِرَّ بها.

وابن القيم -رحمه الله- هنا لم يذكر الدليل على أنه -سبحانه وتعالى- يراجعُ التكليمَ عند الجدال، لكن لعلنا نذكره فيما بعد إن شاء الله.

٦٧٣-وَيُكَلِّـمُ الْكُفَّـارَ فِي الْعَرَصَـاتِ تَـوْ   بِيخًـا وَتَقْرِيعًـا بِـلَا غُفْـرَانِ

قَوْلُهُ: «يُكَلِّمُ الْكُفَّارَ» أي: يكلمهم عزَّ وجلَّ كما قال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص:٦٢]، فيوبخهم، أين الشركاء الذين تزعمونهم مع الله؟ قال -سبحانه وتعالى-: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع أهل الجنة، برقم (٧٠٨٠)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة، برقم (٢٨٢٩).

٦٧٤- وَيُكَلِّمُ الْكُفَّارَ أَيْضًا فِي الْجَحِيـ ـمِ أَنِ اخْسَؤُوا فِيهَا بِكُلِّ هَوَانِ

وذلك حينما يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٧]، فيقول اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨]، اخسئوا: أي ذِلُّوا، حيث يُلْقَى عليهم الهَوانُ والذُّل، والعياذ بالله.

٦٧٥- وَاللهُ قَدْ نَادَى الْكَلِيمَ، وَقَبْلَهُ سَمِعَ النِّدَا فِي الْجَنَّةِ الأَبَوَانِ

قَوْلُهُ: «قَدْ نَادَى الْكَلِيمَ» يعني: موسى -عليه السلام- قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢].

قَوْلُهُ: «وَكَذَلِكَ الأَبَوَانِ» أي: آدمُ وحَوَّاءُ، قال الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:٢٢].

٦٧٦- وَأَتَى النِّدَا فِي تِسْعِ آيَاتٍ لَهُ وَصْفًا فَرَاجِعْهَا مِنَ الْقُرْآنِ

تسع مواضع كلُّها صرَّح الله فيها بالنداء في القرآن.

ابن القيم -رحمه الله- يقول: إنها تسع، وهي وإن كانت عندَ العَدِّ أحد عشر موضعًا، لكن لعلَّه -رحمه الله- يكتفي بمناداة موسى، وإن تعددت الآيات يجعلها واحدًا.

٦٧٧- وَكَذَا يُكَلِّمُ جَبْرَئِيلَ بِأَمْرِهِ حَتَّى يُنَفِّذَهُ بِكُلِّ مَكَانِ

يعني: أنَّ الله يناجي جِبْريل بأمره، فينفذه جبريلُ بكل مكان.

٦٧٨- وَاذْكُرْ حَدِيثًا فِي صَحِيحِ مُحَمَّدٍ ذَاكَ الْبُخَارِيِّ الْعَظِيمِ الشَّانِ

قَوْلُهُ: «محمد» يعني: ابن إسماعيل البخاري -رحمه الله- ووصَفَه المؤلف

بقوله: (ذَاكَ الْعَظِيمِ الشَّانِ) ويحتمل أنَّ هذا وصف للصحيح، فإن كان للصحيح فهو وصف للكتاب، وإذا كان الكتابُ عظيمَ الشان فالمؤلف كذلك، وإن كان الوصف للمؤلف بأنه عظيم الشان، فكذلك الكتاب، فهما متلازمان.

٦٧٩- فيـــه نِـــدَاءُ الله يَـــوْمَ مَعَادِنَـــا بالصَّـــوْتِ يَبْلُـــغُ قَاصيًا وَالـــدَّاني

وذلك أنَّ الله -تبارك وتعالى- يقول: «يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ. فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ. قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الْـحَامِلُ حَمْلَهَا، وَيَشِيبُ الْوَلِيدُ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى، وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ الله شَدِيدٌ». والحديث أخرجه البخاري، ولهذا قال ابن القيم في النونية:

يَا سِـلْعَةَ الـرَّحْمَنِ لَـيْسَ يَنَالُـهَا بِـــالأَلْفِ إِلَّا وَاحِـــدٌ لَا اثْنَـــانِ

قَوْلُهُ: «يا سلعةَ الرَّحْمنِ» يعني: الجنة.

لما حَدَّثَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- بهذا الحديثِ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى تَغَيَّرَتْ وُجُوهُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعَمِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ، ثُمَّ أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَبْيَضِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْـجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «ثُلُثَ أَهْلِ الْـجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «شَطْرَ أَهْلِ الْـجَنَّةِ»(١).

والشاهد أنه ينادي بصوت.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحج، برقم (٤٤٦٤).

٦٨٠- هَبْ أَنَّ هَـذَا اللَّفْـظَ لَـيْسَ بِثَابِـتٍ   بَــلْ ذِكْــرُهُ مَــعْ حَذْفِــهِ سِــيَّانِ

قَوْلُهُ: «هَذَا اللَّفْظَ» يعني: لفظ (بصوت) الذين أنكروا أن يكون كلام الله بصوت قالوا: (فينادي بصوت) هذا غير ثابت، وأنَّ الثابت (فينادي) فقط، لأنَّ الذين يقولون: إنَّ الكلام هو المعنى القائم بالنفس، لا يقولون: بصوت، والذين يقولون: إنه خلقه، لا يقولون: بصوت، هم يَدَّعُون أنَّ الله ليس له صوت.

فابن القيم يقول: «هَبْ أنه لَيْسَ بِثَابِتٍ بَلْ ذِكْرُهُ مَعْ حَذْفِهِ سِيَّانِ» يعني: حتى وإن لم يثبت فالصوت معلوم من النداء.

وَقَوْلُهُ: «هَبْ أَنَّ» يقول: النحويون -وعلى رأسهم الحريري-: إنَّ هذا من لحن الفقهاء -أي: قولهم: هَبْ أَنَّ- وأن الصوابَ حذفُ (أَنَّ)، يعني: لا تقل: (هَبْ أَنَّ زيدًا قائم)، ولكن قل: (هَبْ زيدًا قائمًا)، لأنَّ (هَبْ) من أخوات (ظَنَّ).

لكن هذا مطَّردٌ عند الفقهاء، بل عند العلماء، (هَبْ أنَّ هذا كذا) لا ينكره أحد، وإذا قُدِّر أن هذا لا يصحُّ لغةً، فهو حقيقة عرفية في لغة العلماء.

٦٨١- وَرَوَاهُ عِنْدَكُمُ الْبُخَـارِيُّ الْـمُجَسْـ   ـسِـمُ بَــلْ رَوَاهُ مُجَسِّـمٌ فَوْقَــانِي

قَوْلُهُ: «مُجَسِّمٌ فَوْقَانِي» المُجَسِّم الفَوقانِي هو أعلى طبقات السند، وهو الصحابي، فالصحابي عندهم مُجَسِّم، بل النَّبِيُّ ﷺ مُجَسِّم عندهم، لأنَّ النبيَّ ﷺ هو الذي حدَّث بهذا الحديث.

فهم يقولون: إذا أثبتنا أنَّ كلامَه بصوتٍ صار له جسم، فالبخاري مُجَسِّم.

نقول: لا، البخاري ليس وحْدَه مُجَسِّمًا، بل النَّبِيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- مُجَسِّمٌ، لأنه هو الذي قال ذلك.

والبخاري مُجَسِّمٌ، ولهذا يَصِفون أهلَ السُّنة بأنهم مُجَسِّمَةٌ حَشْوِيَّةٌ نَوابِت والمُجَسِّم هو الذي يقول: إنَّ الله جِسْم، والحَشْويُّ الذي على الحواشي والأطراف، يعني: ليسوا من صُلْب الأمة، بل هم حواشي الأمة لا خير فيهم، والنوابت هي ما يَنْبُتُ في الزرع من الشجيرات التي تُرْمَى وليس فيها خير، ويسمونهم الغُثاء.

لكن هل يُمنع هذا؟ الذين كَذَّبوا الرسلَ قالوا للرسل: **(ساحر ومجنون)** قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]، ولم يضروا الرسلَ شيئًا.

٦٨٢- أَيَصِــحُّ فِي عَقْــلٍ وَفِي نَقْــلٍ نِــدَا ءٌ لَــيْسَ مَسْــمُوعًا لَنَــا بِــأَذَانِ

الجواب: لا يَصِحُّ، لو فرضنا أننا حذفنا كلمة: **(بصوت)** وقلنا: **(فَيُنَادِي: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ)** فهذا كافٍ في إثبات الصوت، وليس لازمًا.

٦٨٣- أَمْ أَجْمَــعَ الْعُلَــمَاءُ وَالْعُقَــلَاءُ مِــنْ أَهْــلِ اللِّسَــانِ وَأَهْــلِ كُــلِّ لِسَــانِ

يعني: لسان العربية، وأهل كل لسان غير العربية.

٦٨٤- أَنَّ النِّــدَا الصَّــوْتُ الرَّفِيــعُ وَضِــدُّهُ فَهْــوَ النَّجَــاءُ كِلَاهُمَــا صَــوْتَانِ

٦٨٥- وَاللهُ مَوْصُــوفٌ بِــذَاكَ حَقِيقَــةً هَــذَا الْــحَدِيثُ وَمُحْكَــمُ الْقُــرْآنِ

فقد وصف الله نفسه بذلك في آيةٍ واحدةٍ، وهي قوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ [مريم:٥٢]، هذا من البُعْد ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم:٥٢]، هذا من الدُّنُوِّ، وهل يُعقل نداءٌ بلا صوت؟ أو مُناجاةٌ بلا صوتٍ؟ الجواب: لا، لكنَّ النداءَ صوتٌ رفيعٌ، والمناجاة صوتٌ خَفِيٌّ، إذن ثبت أنَّ الله يتكلَّم بصوت.

* * *

٦٨٦-وَاذْكُرْ حَدِيثًا لابْنِ مَسْعُودٍ صَرِيـ ـــحًا أَنَّـهُ ذُو أَحْـرُفٍ بِبَيَـانِ
٦٨٧-الْـحَرْفُ مِنْهُ فِي الْـجَزَا عَشْرٌ مِنَ الْـ ــحَسَنَاتِ مَا فِيهِنَّ مِنْ نُقْصَانِ
٦٨٨-وَانْظُرْ إِلَى السُّوَرِ الَّتِي افْتُتِحَتْ بِأَحـ ـــرُفِهَا تَرَى سِرًّا عَظِيمَ الشَّانِ
٦٨٩-لَمْ يَأْتِ قَطُّ بِسُورَةٍ إِلَّا أَتَى فِي إِثْرِهَا خَبَرٌ عَنِ الْقُرْآنِ
٦٩٠- إِذْ كَانَ إِخْبَارًا بِهِ عَنْهَا، وَفِي هَـذَا الشِّفَاءُ لِطَالِبِ الإِيمَانِ
٦٩١- وَيَدُلُّ أَنَّ كَلَامَهُ هُوَ نَفْسُهَا لَا غَيْرُهَا وَالْـحَقُّ ذُو تِبْيَانِ
٦٩٢-فَانْظُرْ إِلَى مَبْدَا الْكِتَابِ وَبَعْدَهَا الْـ أَعْرَافُ، ثُمَّ كَذَا إِلَى لُقْمَانِ
٦٩٣-مَعْ تِلْوِهَا أَيْضًا وَمَعْ ﴿حمٓ﴾ مَعْ ﴿يسٓ﴾ وَافْهَمْ مُقْتَضَى الفرقان

الشرحُ

٦٨٦-وَاذْكُرْ حَدِيثًا لابْنِ مَسْعُودٍ صَرِيـ ـــحًا أَنَّـهُ ذُو أَحْـرُفٍ بِبَيَـانِ
٦٨٧-الْـحَرْفُ مِنْهُ فِي الْـجَزَا عَشْرٌ مِنَ الْـ ــحَسَنَاتِ مَا فِيهِنَّ مِنْ نُقْصَانِ

يقول -رحمه الله- في الاستدلال على أنَّ كلام الله بحرف: اذكر هذا الحديث الذي رواه ابن مسعود[1] أنَّ القرآنَ ذو أحرفٍ، للحرف منه في الجزاء عشر من الحسنات ما فيهن من نقصان، ووجه ذلك أنَّ الحسنةَ بعَشْرِ أمثالها، وهو حديث:

(١) ابن مسعود: هو عبد الله بن مسعود الـهُذَلِيّ، الصحابي الجليل، أسلم قديمًا، ولازم النبيَّ ﷺ، وكان صاحبَ نعليه وسواكِه، ومِن أشبه الناس به في هديه وسمته وكلامه، توفي في المدينة سنة (٣٢هـ)، وذكر في مختصر صفوة الصفوة أنَّ عمرَه ثلاثٌ وستون سنة. [الشارح]. وانظر: تقريب التهذيب (ص:٥٣٣).

«مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ الله فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْـحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِـهَا، لَا أَقُولُ: ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ»(١)، وهذا صريح في أنَّ القرآن حروف.

٦٨٨- وَانْظُرْ إِلَى السُّوَرِ الَّتِي افْتُتِحَتْ بِأَحـ ... ـرُفِهَا تَـرَى سِرًّا عَظِـيمَ الشَّـانِ

يعني: انظر إلى السور التي افتُتِحت بالأحرف الهجائية ترى سِرًّا عظيمَ الشان، وهذه الأحرف اختلف العلماء فيها على أقوال:

القول الأول: الله أعلم بها، ولا نقول شيئًا.

ومنهم من قال: إنها رموز وإشارات، إما إلى بقاء الأمة الإسلامية، أو إلى حروب، أو غير ذلك.

ومنهم من قال: إنها أسماء للسور التي ابتدأت بها.

ومنهم من قال: إنه لا معنى لها.

والفرق بين هذا القول والأول: أنَّ الأول مُتوقِّف، ويقول: **(الله أعلم بما أراد)**، وهذا يجزم بأنه ليس لها معنى، وهذا القولُ أَصَحُّ الأقوال.

وجه رجحانه: أنَّ القرآن الكريم نزل بلغة العرب كما قال الله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥]، وأنَّ العربَ لا يجعلون لهذه الحروف الهجائية معنًى، وعلى هذا فنجزم بأنه لا معنى لها في حدِّ ذاتها، لكن لها مغزى.

أما إذا قلنا: (الله أعلم بما أراد) فمعنى ذلك أنه يحتمل أنَّ لها معنًى، وهذا الاحتمال غير وارد ما دام القرآن باللغة العربية.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر، برقم (٢٩١٠).

فإذا قال قائل: أيُّ فائدةٍ لنا بحروفٍ ليس لها معنى، والقرآنُ الكريم أعظمُ الكلام، فكيف يكون فيه ما ليس له معنى؟

الجواب: هنا يتبيَّن قولُ الناظم رحمه الله: (تَرَى سِرًّا عَظِيمَ الشَّانِ) يعني: أنَّ وجود هذه الحروف الهجائية له سِرٌّ عظيم، أشار إليه بقوله.

٦٨٩-لَـمْ يَـأْتِ قَـطُّ بِسُـورَةٍ إِلَّا أَتَـى　　فِي إِثْرِهَـا خَـبَرٌ عَـنِ الْقُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «لَـمْ يَأْتِ قَطُّ بِسُورَةٍ» يعني: لم تأتِ هذه الحروف إلَّا أتى في إثرها خبرٌ عن القرآن أي: ذكرٌ للقرآن.

ففي البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾ [البقرة:١-٢]، وفي آل عمران: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [آل عمران:١-٣]، وبعدها الأعراف: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف:١-٢]، بعد ذلك يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحِجْر، كلها يُذْكر بعدها الكتاب.

ثُمَّ في مريم وطه.

ففي مريم قوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ [مريم:١-٣] هنا قد تقول: أين ذكر القرآن؟

نقول: ذكر القرآن هو بهذا الخبر الذي لا يُعْلَم إلَّا بالوحي، فلا يعلم أحد قصص الأنبياء في عهد الرسول ﷺ إلَّا عن طريق الوحي؟!

وفي طه: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه:١-٢].

بعد ذلك (ذوات طس) ففي الشعراء: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ [الشعراء:١-٣]، وفي النمل: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾

[مريم:١]، وفي القصص: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [القصص:١-٢].

وكذلك في العنكبوت: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١-٢]، فهذا خبر عما مضى لا يُعْلَمَ إلَّا عن طريق الوحي.

ومثلها في الروم: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الروم:١-٣].

وكذلك لو قال قائل: في ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١-٢] وكذلك في أول سورة الروم: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الروم:١-٣] لم يأتِ فيها ذكر عن القرآن؟

نقول: نعم، فقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت:٢]، صحيح أنه ليس فيه ذكر القرآن، لكن فيه ذكرُ أهل القرآن أنهم يصبرون على الأذى، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [العنكبوت:٣].

أما قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ ففيه خبرٌ عن أمرٍ غيبي، وهذا لا يكون إلَّا عن طريق الوحي، والفُرْس في ذلك الوقت كانت لهم الدولة والقوة والعزة، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ [الروم:٣-٤]، وهذا لا يُعْلَم إلَّا عن طريق الوحي.

وفي لقمان: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [لقمان:١-٢]، وفي تنزيل السجدة: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة:١-٢] وهلمَّ جرًّا.

إِذَنْ هذا السر هو أنَّ هذا الكلام الذي أعجز العرب -وهم أمراء الفصاحة- والبلغاء إنما جاء بهذه الحروف، لم يأتِ بحروف جديدة، لئلا يقولوا: نحن -والله- لا نعرف الحروف التي جيء بها، بل جاء بهذه الحروف.

قال الناظم -رحمه الله-:

٦٩٠- إِذْ كَـانَ إِخْبَـارًا بِـهِ عَنْهَـا، وَفِي ... هَـذَا الشِّـفَاءُ لِطَالِـبِ الإِيـمَانِ

٦٩١- وَيَـدُلُّ أَنَّ كَلَامَـهُ هُـوَ نَفْسُـهَا ... لَا غَيْرُهَـا وَالْـحَقُّ ذُو تِبْيَـانِ

هذا هو السر العظيم الذي يجهله كثيرٌ من الناس.

٦٩٢- فَانْظُرْ إِلَى مَبْدَا الْكِتَابِ وَبَعْدَهَا الْـ ... أَعْـرَافُ، ثُـمَّ كَـذَا إِلَى لُقْـمَانِ

٦٩٣- مَعْ تِلْوِهَا أَيْضًـا وَمَـعْ ﴿حمٓ﴾ مَـعْ ... ﴿يسٓ﴾ وَافْهَـمْ مُقْتَضَـى الفرقـان

قَوْلُهُ: «مَبْدَا الْكِتَابِ» أي: (البقرة).

وَقَوْلُهُ: «بَعْدَهَا الأَعْرَافِ» يعني: انظر إلى الأعرافِ، وليس المعنى أنَّ (الأعراف) بعد البقرة، لأنَّ بينهما (آل عمران).

فالمؤلف ترك بعضًا مثل (آل عمران) إلَّا أن يُقال: إنَّ (آلَ عمران) مثل (البقرة) مبدوءة بـ (الم)، لكن الظاهر أنه -رحمه الله- ما أراد الاستقصاء، فهناك أيضًا في (ق)، و(ص)، و(ن).

إِذَنْ المؤلف -رحمه الله- ما أراد الحصر، إنما أتى بشيء للتمثيل فقط، لكن المعنى: إذا نظرت إلى هذه فانظر إلى هذه.

قَوْلُهُ: «إِلَى لُقْمَان مَعْ تِلْوِهَا أَيْضًا» وهي تنزيل السجدة.

قَوْلُهُ: «وَمَعْ ﴿حمٓ﴾ مَعْ ﴿يسٓ﴾» والمراد بـ (حم) الجنس، فيشمل كل ذوات (حم). وقوله: «مَعْ ﴿يسٓ﴾» أي: ففيها أيضًا.

* * *

فصـــل

فِي إِلْزَامِهِمُ الْقَوْلَ بِنَفْيِ الرِّسَالَةِ إِذَا انْتَفَتْ صِفَةُ الكَلامِ

٦٩٤- وَاللهُ عــزَّ وجــلَّ مُــوصٍ آمِــرٌ   نَــاهٍ مُنَــبٍّ مُرْسِــلٌ لِبَيَــانِ
٦٩٥- وَمُخَاطِــبٌ وَمُحَاسِــبٌ وَمُنَبِّــئٌ   وَمُحَــدِّثٌ وَمُخَــبِّرٌ بالشَّــانِ
٦٩٦- وَمُكَلِّــمٌ مُــتَكَلِّمٌ بَــلْ قَائِــلٌ   وَمُحَــذِّرٌ وَمُبَشِّــرٌ بِأَمَــانِ
٦٩٧- هَــادٍ يَقُــولُ الْــحَقَّ يُرْشِــدُ خَلْقَــهُ   بِكَلامِــهِ لِلْحَــقِّ وَالإِيــمَانِ
٦٩٨- فَإِذَا انْتَفَتْ صِفَةُ الْكَـلامِ فَكُـلُّ هَــ   ــذَا مُنْتَــفٍ مُتَحَقِّــقُ الْــبُطْلَانِ
٦٩٩- وَإِذَا انْتَفَتْ صفَةُ الْكَلام كَذَلكَ الْــ   إِرْسَــالُ مَنْفِــيٌّ بِــلا فُرْقَــان
٧٠٠- فَرِسَــالَةُ الْــمَبْعُوثِ تَبْلِيــغٌ كَــلا   مَ الْــمُرْسِلِ الــدَّاعِي بِـلا نُقْصَـانِ
٧٠١- وَحَقِيقَــةُ الإِرْسَــالِ نَفْـسُ خِطَابِـهِ   لِلْمُرْسَــلِينَ وَأَنَّــهُ نَوْعَــانِ
٧٠٢- نَــوْعٌ بغَــيْرِ وَسَــاطَةٍ كَكَلامِــهِ   مُوسَــى وَجِبْرِيــلَ الْقَرِيــبِ الــدَّانِي
٧٠٣- مِنْــهُ إِلَيْــهِ مِــنْ وَرَاءِ حِجَابِــهِ   إِذْ لا تَــرَاهُ هَــا هُنَــا الْعَيْنَــانِ
٧٠٤- وَالآخَــرُ التَّكْلِــيمُ مِنْــهُ بِالْوَسَــا   طَــةِ، وَهْــوَ أَيْضًــا عِنْدَهُ ضَرْبَــانِ
٧٠٥- وَحْيٌ وَإِرْسَــالٌ إِلَيْـهِ وَذَاكَ فِي الشْــ   ــشُــورَى أَتَــى فِي أَحْسَـنِ التِّبْيَــانِ

الشرحُ

٦٩٤- وَاللهُ عــزَّ وجــلَّ مُــوصٍ آمِــرٌ ... نَــاهٍ مُنَــبٍّ مُرْسِــلٌ لِبَيَــانِ

٦٩٥- وَمُخَاطِــبٌ وَمُحَاسِــبٌ وَمُنَبِّــئٌ ... وَمُحَــدِّثٌ وَمُخَــبِّرٌ بالشَّــانِ

٦٩٦- وَمُكَلِّــمٌ مُــتكَلِّمٌ بَــلْ قَائِــلٌ ... وَمُحَــذِّرٌ وَمُبَشِّــرٌ بِأَمَــانِ

قَوْلُهُ: «وَاللهُ عزَّ وجلَّ مُوصٍ» ففي القرآن قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥١].

قَوْلُهُ: «آمِرٌ» والأوامر في القرآن كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:٤٣].

قَوْلُهُ: «نَاهٍ» أيضا النواهي كثيرة، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ﴾ [النساء:٣٦].

قَوْلُهُ: «مُنَبٍّ» أي: مُخبِر من نَبَّأه إذا أخبره، وأخبار القرآن كثيرة، وفي نسخة (مُثيب) يعني: أنَّ مَن امتثل أمرَه أثابَه، ولكن (مثيب) لا علاقة لها بالكلام، ففي الواقع الذي يتعلَّق بالكلام هو الإنباء.

وَقَوْلُهُ: «مُنَبٍّ» مثل قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ:١-٢] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾ [ص:٦٧].

قَوْلُهُ: «مُرْسِلٌ» الدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة:١١٩].

قَوْلُهُ: «وَمُخَاطِبٌ» (مُخَاطِب) ليست في القرآن بلفظها، لكن بمعناها، فهو يَتكلَّم مع موسى، يقول تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذْهَا﴾ [طه:١٩-٢١] وهذا خطاب.

قَوْلُهُ: «وَمُحَاسِبٌ» (محاسب) هذه -عندي- محل إشكال، لأنَّ المحاسبة ليست في القرآن، يعني: أنه يحاسب الناس في القرآن، لكن قد يقول قائل: المُحاسَبة وإن كانت في الآخرة فهي قول، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٤].

قَوْلُهُ: «وَمُنَبِّئٌ» حينئذٍ يكون كلام المؤلف فيه تكرار على النسخة التي عندي، لأنَّ (مُنَبٌّ) هي (مُنَبِّئٌ) ولا فرق.

أما على النسخة التي عندنا (مُنَبٌّ) فيكون الفرق بين (مُنْبِئ، ومُنَبٌّ) أنَّ (مُنْبِئ) من أنبأ، و(مُنَبٌّ) من نَبَّأَ، وهما في اللغة العربية معناهما واحد، ولا مانع أن الإنسان يُكَرِّر اللفظةَ إذا اختلف اللفظ، أرأيتم قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق:١٧] هما كلمتان معناهما واحد لكن اختلفا في الحروف.

قَوْلُهُ: «مُحَدِّثٌ» قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧] فهو مُحَدِّث، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور:٣٤]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ﴾ [الأنبياء:٢].

لكن من أين أخذنا أنه مُحَدِّث من الآية؟ الجواب: مُحَدِّث مأخوذ من قوله: ﴿مُّحْدَثٍ﴾ أي: جديد، فهذا الذكر إنْ كان مُحْدَثا فقد قاله وحَدَّث به.

قَوْلُهُ: «وَمُخَبِّرٌ بِالشَّانِ» هو أيضا مُخَبِّر ومُخْبِر، لأنَّ جميع الجمل الخبرية تعتبر خبرًا من الله -تبارك وتعالى- مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج:٥].

قَوْلُهُ: «وَمُكَلِّمٌ مُتكَلِّمٌ» مُكَلِّم قال الله تعالى بالنسبة لموسى -عليه السلام-: ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣]، وقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤].

والغريب أن الذين ينكرون الكلام يقولون: معنى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ﴾ أي: جَرَحه بمعنى الجَرْح، أي: جَرَحه بمخالب الحكمة.

سبحان الله! وهذا لا شك أنه قولٌ على الله بلا علم، وليس بلائقٍ إطلاقا.

قَوْلُهُ: «مُتكلِّم» أيضا هو متكلِّم عمومًا، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

قَوْلُهُ: «بَلْ قَائِلٌ» قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح:١٥]، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، والآيات في هذا كثيرة.

قَوْلُهُ: «وَمُحَذِّرٌ» قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران:٢٨].

قَوْلُهُ: «وَمُبَشِّرٌ» قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات:١٠١]، (وعليم) أيضًا.

قَوْلُهُ: «بِأَمَانِ» أي: مُؤَمِّن لِمَن بَشَّره.

فإن قال قائل: وهل يجوز أن نُسمِّيَ شخصًا بـ(عبد المُخَبِّر) أو (عبد المبَشِّر) إلى آخر ذلك من هذه الأوصاف السابقة التي يُوصف الله بها؟

الجواب: الظاهر أنَّ هذا للأسماء فقط، إلَّا الوصف الذي لا يُوصف به سوى الله - عزّ وجلَّ- فيجوز كـ(رَبِّ العالمين)، و(أرحم الراحمين)، وما أشبه ذلك.

٦٩٧- هَادٍ يَقُولُ الْحَقَّ يُرْشِدُ خَلْقَهُ ... بِكَلامِهِ لِلْحَقِّ وَالإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «هَادٍ يَقُولُ الْحَقَّ يُرْشِدُ خَلْقَهُ» هادٍ، لقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣].

قَوْلُهُ: «يَقُولُ الْـحَقَّ» كقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ:٢٣] أي قالوا: قال الحقَّ.

قَوْلُهُ: «يُرْشِدُ خَلْقَهُ» لقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء:١٧٦]، وضد الضلال الرُّشْد.

قَوْلُهُ: «بِكَلامِهِ لِلْحَقِّ وَالإِيمَانِ» يعني: أنه عزَّ وجلَّ يُرشِد الخلقَ بكلامه، فيقول: افعلوا كذا، لا تفعلوا كذا.

٦٩٨- فَإِذَا انْتَفَتْ صِفَةُ الْكَلامِ فَكُلُّ هَـــذَا مُنْتَفٍ مُتَحَقِّقُ الْبُطْلَانِ

يعني: إذا لم يكن يتكلَّم فليس بمُحَدِّث، ولا مُخْبِر ولا مرشد... إلخ، كل هذا ينتفي عن الله عزَّ وجلَّ.

يقول -رحمه الله تعالى-: إذا انتفت صفة الكلام انتفى الوحي والرسالة، لأنَّ الوحي خبرٌ وإرسال ووصية وغير ذلك، فهذه كُلُّها تنتفي إذا انتفت صفة الكلام، ووجه ذلك: كيف يكون مخبرًا؟ كيف يكون آمرًا ناهيًا بلا كلام؟! هذا لا يمكن.

كذلك أيضا إذا انتفت صفة الكلام انتفت صفة الرسالة، لأنَّ الرسول يُبَلِّغُ كلامَ مَنْ أرسله، فيقول: قال ربكم، قال الله، فإذا انتفت صفة الكلام انتفت الرسالة.

٦٩٩- وَإِذَا انْتَفَتْ صفَةُ الْكَلام كَذَلِكَ الْـــإِرْسَالُ مَنْفِيٌّ بِلا فُرْقَان

يعني: ينتفي أيضا إرسال الرسل، لأنَّ إرسالَ الرسل لا بدَّ أن يكونَ بوحي، والوحي لا يكونُ إلَّا كلامًا.

٧٠٠- فَرِسَالةُ الْمَبْعُوثِ تَبْلِيغُ كَلا   مَ الْمُرْسِلِ الدَّاعِي بِلا نُقْصَانِ

هذه هي الرسالة: أن يُبَلِّغَ كلام الذي أرسله بلا نقصان، يعني: وبلا زيادة.

٧٠١- وَحَقِيقَةُ الإِرْسَالِ نَفْسُ خِطَابِهِ   لِلْمُرْسَلِينَ وَأَنَّهُ نَوْعَانِ

نعم، حقيقة الإرسال أنه يخاطبُ المرسَلين، ويقول: بَلِّغوا كذا وكذا، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، لكن يقول: إنه نوعان:

٧٠٢- نَوْعٌ بغَيْرِ وَسَاطَةٍ كَكَلامِهِ   مُوسَى وَجِبْرِيلَ الْقَرِيبِ الدَّانِي

هذا مثال، والمثال لا يقتضي الحصر، يكون بلا واسطة ككلامه موسى، قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، وقال: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢]، وكذلك أيضا كلام الله تعالى لمحمد -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- ليلةَ المِعْراج، فإنَّ الله كلَّمه بلا واسطة، وفرض عليه الصلوات خمسين صلاة بلا واسطة، وحصلت المراجعةُ بينه وبين الله عزَّ وجلَّ بلا واسطة.

٧٠٣- مِنْهُ إِلَيْهِ مِنْ وَرَاءِ حِجَابِهِ   إِذْ لا تَرَاهُ هَا هُنَا الْعَيْنَانِ

يعني أنَّ الله -سبحانه وتعالى- يكلِّمهم من وراء حجاب بلا واسطة، يسمعون كلامَه لكن «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ[1] مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[2]. أي: أحرقت كُلَّ شيء، لأنَّ بصرَه محيطٌ بكُلِّ شيء،

(١) أي: نُوره وَجَلاله وَبَهَاؤُهُ. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١/ ٣١٩).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله لا ينام» وفي قوله: «حجابه النور»، برقم (١٧٩).

فالمعنى أنها أحرقتْ كُلَّ شيء، وليس المعنى أنَّ هناك شيئًا لا ينتهي إليه بصرُ الله، لأننا نعلم علم اليقين أنَّ بصرَ الله محيط بكُلِّ شيء، فهذا من باب المبالغة.

قَوْلُهُ: «**إِذْ لا تَرَاهُ هَا هُنَا الْعَيْنَانِ**» إشارة إلى الدنيا يعني أنَّه في الدنيا لا يراه الناس، وأما في الآخرة فإنهم يرون الله، كما في الحديث: قَالَ أُنَاسٌ: يَا رَسُولَ الله، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟**». قَالُوا: لا يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟**». قَالُوا: لا يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ**»(١).

٧٠٤- وَالآخَرُ التَّكْلِيمُ مِنْهُ بِالْوَسَا ... طَةِ، وَهْوَ أَيْضًا عِنْدَهُ ضَرْبَانِ

٧٠٥- وَحْيٌ وَإِرْسَالٌ إِلَيْهِ وَذَاكَ فِي الشْـ ... ـشُورَى أَتَى فِي أَحْسَنِ التِّبْيَانِ

الآخر التكليم بواسطة، وهو نوعان: وحي، وإرسال، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ﴾ [الشورى:٥١].

قَوْلُهُ: «**وَحْيٌ**» أي: يُلْهَمُ الوحيَ بواسطة الرسول.

قَوْلُهُ: «**وَإِرْسَالٌ**» الإرسال: يأتيه الرسول الذي هو المَلَك يأتيه مباشرة، فأحيانًا يأتيه الملك على صورة إنسان أو على الصورة التي خُلِق عليها، فجبريل -عليه السلام- أتى النبيَّ ﷺ على الصورة التي خُلق عليها مرتين: مرة وهو في غار حراء، ومرة وهو عند سدرة المنتهى، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، برقم (٦٢٠٤).

عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم:١٣-١٤]، فصارت أنواع الوحي الآن ثلاثة:

الأول: وحي بلا واسطة.

الثاني: وحي بواسطة لكن بواسطة الرسول من غير أن يرى الرسول.

الثالث: أن يرى الرسول يتمثَّل له ويخاطبه على صفة البشر.

وعلى كُلٍّ فكلها كلام الله سواء أكان بلا واسطة أم كان بواسطة.

❊ ❊ ❊

فصل

فِي إِلْزَامِهِمُ التَّشْبِيهَ لِلرَّبِّ بِالجَمَادِ النَّاقِصِ إِذَا انْتَفَتْ صِفَةُ الكَلامِ

٧٠٦- فَإِذَا انْتَفَتْ صِفَةُ الْكَلامِ فَضِدُّهَا ... خَرَسٌ وَذَلِكَ غَايَةُ النُّقْصَانِ

٧٠٧- فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ ذَلِكَ فِي الَّذِي ... هُوَ قَابِلٌ مِنْ أُمَّةِ الْحَيَوَانِ

٧٠٨- وَالرَّبُّ لَيْسَ بِقَابِلٍ صِفَةَ الْكَلا ... مِ فَنَفْيُهَا مَا فِيهِ مِنْ نُقْصَانِ

٧٠٩- فَيُقَالُ: سَلْبُ كَلامِهِ وَقَبُولُهُ ... صِفَةَ الْكَلامِ أَتَمُّ لِلنُّقْصَانِ

٧١٠- إِذْ أَخْرَسُ الإِنْسَانِ أَكْمَلُ حَالَةً ... مِنْ ذَا الْجَمَادِ بِأَوْضَحِ الْبُرْهَانِ

٧١١- فَجَحَدْتَ أَوْصَافَ الْكَمَالِ مَخَافَةَ التْـ ... ـتَجْسِيمِ وَالتَّشْبِيهِ بِالإِنْسَانِ

٧١٢- وَوَقَعْتَ فِي تَشْبِيهِهِ بِالْجَامِدَا ... تِ النَّاقِصَاتِ، وَذَا مِنَ الخِذْلانِ

٧١٣- اللهُ أَكْبَرُ هُتِّكَتْ أَسْتَارُكُمْ ... حَتَّى غَدَوْتُمْ ضُحْكَةَ الصِّبْيَانِ

الشرحُ

يقول -رحمه الله-:

٧٠٦- فَإِذَا انْتَفَتْ صِفَةُ الْكَلامِ فَضِدُّهَا ... خَرَسٌ وَذَلِكَ غَايَةُ النُّقْصَانِ

قَوْلُهُ: «ذَلِكَ» أي: الخرس غاية النقصان.

٧٠٧- فَلَـئِنْ زَعَمْـتُمْ أَنَّ ذَلِـكَ فِي الَّـذِي   هُــوَ قَابِــلٌ مِــنْ أُمَّــةِ الْـــحَيَوَانِ

قَوْلُهُ: «هُوَ قَابِلٌ مِنْ أُمَّةِ الْـحَيَوَانِ» أي: قابل للكلام من بني الإنسان.

٧٠٨- وَالـرَّبُّ لَـيْسَ بِقَابِـلٍ صِـفَةَ الْكَـلا   مِ فَنَفْيُهَــا مَــا فِيــهِ مِــنْ نُقْصَــانِ

يعني: نفي الكلام عن الله ليس فيه نقص، لأنه أصلًا لا يقبل الكلام، فلو قلت: (الجدار لا يتكلَّم) فلا نقص، لأنه غيرُ قابلٍ للكلام.

٧٠٩- فَيُقَــالُ: سَــلْبُ كَلامِــهِ وَقَبُولُــهُ   صِــفَةَ الْكَــلامِ أَتَــمُّ لِلنُّقْصَــانِ

قَوْلُهُ: «لِلنُّقْصَانِ» أي: أشد نقصانًا، يعني: كونه يقول مثلًا: إنه لا يتكلَّم، لأنه غيرُ قابل للكلام، هذا أشدُّ من أن نقول: إنه لا يتكلَّم، لأنه أُصيب بالخَرَس، إذ إِنَّ من المعلوم أنَّ الإنسان خيرٌ من الجماد.

فمثلا الرجل الأعمى أكمل من الجدار، لأنه قابل للبصر، والجدار غير قابل للبصر، وما يقبل الكمالَ أكملُ من الذي لا يقبل الكمالَ، لا شكَّ، فكُلُّ واحد يعرف، ثُمَّ ضَرَب مثلا فقال:

٧١٠- إِذْ أَخْـرَسُ الإِنْسَـانِ أَكْمَـلُ حَالَـةً   مِـنْ ذَا الْــجَمَادِ بِأَوْضَـحِ الْبُرْهَـانِ

الإنسانُ الأخرسُ أكملُ حالًا من الجماد الذي لا يقبلُ الكلام، لأنَّ الإنسانَ الأخرسَ قابلٌ للكلام، وهو صفة كمال، والجماد ليس بقابلٍ أصلًا مهما قُلْتَ، فلا يمكن أن يقبل.

٧١١- فَجَحَدْتَ أَوْصَافَ الْكَمَالِ مَخَافَةَ التْـ ـتَجْسِيمِ وَالتَّشْبِيهِ بِالإِنْسَانِ

٧١٢- وَوَقَعْتَ فِي تَشْبِيهِهِ بِالْجَامِدَا تِ النَّاقِصَاتِ، وَذَا مِنَ الْخِذْلانِ

صدق -رحمه الله تعالى- هم يقولون: ننفي صفةَ الكلام عن الله، لأنه غيرُ قابل للكلام، فلا يكون نفيُ الكلام عنه نقصًا كما لو نفينا الكلامَ عن الجدار مثلًا.

فيقال: قولكم: (**إنه لا يقبل الكلام**) أشدُّ نقصًا من قولكم: (**إنه يقبل الكلام ولكنه لا يتكلَّم**) بلا شك.

يقول: أنت الآن نفيتَ صفة الكلام مخافةَ أن تُشبِّهُهُ بالإنسان، ووقعت بتشبيهه بالجماد.

وأيهما أولى أن يُشَبَّه الشيءُ بالإنسان أو يُشَبَّه الشيءُ بالجماد؟ الجواب: بالإنسان، لا شكَّ في هذا، ولهذا يقال: (فلان حجر) فهذا نقص، يعني: صُلْبًا لا يلين أبدًا، فلا يُشَبَّه بالجماد إلَّا من هو أنقص ممن يُشبَّه بالإنسان.

٧١٣- اللهُ أَكْبَرُ هُتِّكَتْ أَسْتَارُكُمْ حَتَّى غَدَوْتُمْ ضُحْكَةَ الصِّبْيَانِ

قَوْلُهُ: «هُتِّكَتْ أَسْتَارُكُمْ» هَتْكُ الشيء يعني تمزيقَه، والمعنى أنَّ ما كنتم تتسترون به الآن قد انكشف وبان، فقد هتك الله أستارهم حتى صاروا ضحكةً للناس، وعلى هذا فنقول: إذا انتفت صفة الكلام عن الله عزَّ وجلَّ انتفت صفة الكمال.

خلاصة هذا الفصل: أنه إذا انتفت صفة الكلام لله عزَّ وجلَّ لزم أن يكون مشابهًا للجماد الناقص، فالخَرَس نقصٌ، وليس كمالًا.

يقولون: نحن ننفي صفة الكلام ولا يكون نقصًا، لأنَّ كون نفي الكلام نقصًا فيها إذا كان يقبل الكلام، والرَّبُّ عندهم لا يقبل الكلام، ولذلك لو قلت للجدار: (إنه أخرس) ما ضَرَّه، فيقال: إنكم وقعتم في شرٍّ مما فررتم منه، لأنه إذا كان لا يقبل الكلامَ صار مشابهًا للجماد الذي لا يتكلَّم، فوقعتم في شرٍّ مما فررتم منه.

* * *

فصـــل

فِي إِلْزَامِهِم بِالْقَولِ بِأَنَّ كَلامَ الخَلْقِ ـ حَقُّهُ وَبَاطِلُهُ ـ عَيْنُ كَلامِ الله ـ سُبْحَانَه ـ

٧١٤- أَوَلَـيْسَ قَـدْ قَـامَ الـدَّلِيلُ بِـأَنَّ أَفْـ ــعَالَ الْعِبَـادِ خَلِيقَـةُ الـرَّحْمَنِ

٧١٥- مِنْ أَلْفِ وَجْهٍ أَوْ قَرِيبِ الأَلْفِ يُحْـ ــصِيهَا الَّـذِي يُعْنَـى بِهَـذَا الشَّـانِ

٧١٦- فَيَكُونُ كُلُّ كَلامِ هَذَا الْـخَلْقِ عَيْـ ــنَ كَلامِهِ، سُبْحَانَ ذِي السُّـلْطَانِ!

٧١٧- إِذْ كَـانَ مَنْسُـوبًا إِلَيْـهِ كَلامُـهُ خَلْقًـا كَبَيْـتِ الله ذِي الأَرْكَـانِ

٧١٨- هَـذَا وَلازِمُ قَـوْلِكُمْ قَـدْ قَالَـهُ ذُو الاتِّحَـادِ مُصَـرِّحًا بِبَيَـانِ

٧١٩- حَـذَرَ التَّنَـاقُضِ إِذْ تَنَاقَضْـتُمْ وَلَـ ــكِنْ طَـرْدُهُ فِي غَايَـةِ الْكُفْـرَانِ

٧٢٠- فَلَـئِنْ زَعَمْـتُمْ أَنَّ تَخْصِـيصَ الْقُرَا نِ كَبَيْتِـهِ وَكِلاهُمَـا خَلْقَـانِ

٧٢١- فَيُقَالُ ذَا التَّخْصِيصُ لا يَنْفِي الْعُمُو مَ ولا الخصوصَ كَرَبِّ ذِي الأَكْـوَانِ

٧٢٢- وَيُقَـالُ رَبُّ الْعَـرْشِ أَيْضًـا هَكَـذَا تَخْصِيصُـهُ لإِضَـافَةِ الْقُـرْآنِ

٧٢٣- لا يَمْنَـعُ التَّعْمِـيمَ فِي الْبَـاقِي وَذَا فِي غَايَـةِ الإِيضَـاحِ وَالتِّبْيَـانِ

الشـرحُ

يقول: هذا إلزام، لـمَّا ألزمناهم فيما سبق بأنَّ نفيَ الكلامِ يتضمنُ نفيَ الرسالة، وبأنَّ نفيَ الكلامِ يتضمن النقصَ، ألزمناهم بإلزام ثالث بأنَّ نفي الكلام يتضمن أن

يكونَ كلامُ الناس كلِّهم بل كلامُ الخلق كُلِّهم حتى نُباح الكلاب، ونَهيق الحمير، كلامَ الله، وهذا لازمٌ فاسد، لأنهم إذا قالوا: إنَّ كلامَه مخلوق، نقول: وكلامُ المخلوقات مخلوق، وإذا كان الكلام المخلوق يضاف إلى الله لزم أن يكون كلام المخلوقات كلامًا لله، لأنكم أنتم تقولون: يُضاف الكلامُ إلى الله وإن كان مخلوقًا له.

إِذَنْ كلام البشر، وكلام الطير، وكلام الحمير، وكلام الكلاب، كله كلام الله على زعمكم، لأنه مخلوق لله.

فهم إذا قالوا: إنَّ كلامَ الله عزَّ وجلَّ مخلوقٍ وليس صفةً له. لَزِم أن نقول: كُلُّ كلام في الوجود فهو كلام الله، لأنَّ كُلَّ كلام في الوجود فهو مخلوق لله.

فإذا قلتم: القرآن مخلوق. لَزِم أن نقول: كُلُّ ما خلقه الله فهو كلامُه، وكلام الآدمي مخلوق، فيكون -على قاعدتهم- كلامًا لله عزَّ وجلَّ.

يقول المؤلف -رحمه الله-:

٧١٤- أَوَلَيْسَ قَدْ قَامَ الدَّلِيلُ بِأَنَّ أَفْـ ... ـعَالَ الْعِبَادِ خَلِيقَةُ الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «**خَلِيقَةُ**» بمعنى: مخلوقة، قد قام الدليل على أنَّ أفعال العباد مخلوقة لله، وهل هو دليل واحد؟ قال المؤلف:

٧١٥- مِنْ أَلْفِ وَجْهٍ أَوْ قَرِيبِ الأَلْفِ يُحْـ ... ـصِيهَا الَّذِي يُعْنَى بِهَذَا الشَّانِ

الله أكبر، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ألف دليل على أنَّ أفعالَ العباد مخلوقة لله، لو أردنا أن نقرأها فقط لمللنا من ذلك، لكن مِثْل ابن القيم -رحمه الله- وشيخه ابن تيمية قد وهبهما الله عزَّ وجلَّ الفَهْمَ التامَّ والعلمَ والإخلاصَ، فيستطيعون أن يقيموا ألفَ دليلٍ أو قريبًا من الألفِ على أنَّ أفعالَ العباد مخلوقة.

لكننا نقول بكُلِّ بساطة، قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد:١٦]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦]، يكفينا دليلًا، فقد قام الدليل على هذا.

قَوْلُهُ: «الَّذِي يُعْنَى بِهَذَا الشَّانِ» أي: يقضي به ويلتمس الأدلة النقلية والعقلية من الكتاب والسنة والعقل والحسِّ، فهذا هو الذي يحصيها.

٧١٦- فَيَكُونُ كُلُّ كَلامِ هَذَا الْـخَلْقِ عَيْـ ... ـنَ كَلامِهِ، سُبْحَانَ ذِي السُّـلْطَانِ!

إذا قلتم: إنَّ كلام الله مخلوق، قلنا: وكلامُ الآدمي مخلوقٌ لله عزَّ وجلَّ فيكون عينَ كلامِ الله، فيكون كلامي وكلامُ فلان، وفلان، وفلان هو كلام الله عزَّ وجلَّ لأنه مخلوق، والقرآن كلام الله، لأنه مخلوق.

٧١٧- إِذْ كَـانَ مَنْسُـوبًا إِلَيْـهِ كَلامُـهُ ... خَلْقًـا كَبَيْـتِ الله ذِي الأَرْكَـانِ

يعني: أنَّ كلامَ الله منسوبٌ إلى الله خلقًا لا وصفًا كالبيت ذي الأركان، ويعني بذلك الكعبةَ، قال الله عزَّ وجلَّ لإبراهيمَ وابنه إسماعيل: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [البقرة:١٢٥].

إِذَنْ كلام الله -على رأيهم- ليس منسوبًا إلى الله وصفًا، بل هو منسوبٌ إلى الله خلقًا، أما كلام الآدميين فمنسوب إلى الله خلقًا، فيكون كلامَه.

قوله: «**سبحان ذي السلطان إذ كان منسوبا إليه كلامه** -يعني: كلام الخلق- **خلقًا**»، ويجوز أن يكون (كلامه) أي: كلام الله.

يعني: إذا كان كلام الله منسوبًا إليه لأنه خَلَقه، فليكن كلامُ البشر منسوبًا إلى الله، لأنه خَلَقَه.

فهم يقولون: نُسِبَ إلى الله لأنه خَلَقَه، وإضافته إليه كإضافة ناقة الله، وبيت الله إلى الله.

نقول: إذا كان منسوبًا إليه لأنه خلقه، فقولوا: أيضًا بأنَّ كلام الناس كلامُ الله منسوب إليه، لأنه خَلَقَه، فهذا يلزمهم.

فما داموا يجعلون القاعدة أنَّ كُلَّ كلامٍ خَلَقَه الله فهو يُنْسَبُ إليه، فليكن كلامُ الخلق منسوبًا إلى الله.

قَوْلُهُ: «**كَبَيْتِ الله ذِي الأَرْكَانِ**» بيت الله أضافه الله إليه خَلْقًا، لكنه أضافه للتشريف.

لما أضاف اللهُ البيتَ إليه خَلْقًا هل منع أن يكون غيرُ بيت الله خلقًا له؟ فهو خلق المساجد الأخرى، خلق الجبال، خلق الأنهار، فلمَّا أضاف الله البيت إلى نفسه خلقًا لم يكن هذا مانعًا بأن تُنْسَبَ إليه المخلوقات أيضًا، فكُلُّها مخلوقات الله، هذا الجبل خَلْقُ الله، هذه الشمس خَلْقُ الله، هذا البيت خَلْقُ الله.

فلما نُسب إلى الله خلقًا لم يمنع أن يُنْسَبَ إليه الآخر.

٧١٨- هَـذَا وَلازِمُ قَـوْلِكُمْ قَـدْ قَالَـهُ ... ذُو الاتِّحَـادِ مُصَـرِّحًا بِبَيَـانِ

٧١٩- حَـذَرَ التَّنَـاقُضِ إِذْ تَنَاقَضْـتُمْ وَلَـ ... ـكِنْ طَـرْدُهُ فِي غَايَـةِ الْكُفْـرَانِ

أهل الاتِّحاد الذين قالوا بوحدة الوجود، قالوا: إنَّ كلامَ المخلوق هو كلامُ الخالق، لأنَّ المخلوق هو الخالق، وطردوا هذا، لئلا يكونَ تناقضٌ، لأننا إذا فرَّقنا بين كلام الله الذي هو القرآن وكلام المخلوق صار هناك تناقض، لذلك قال أهل الاتحاد: (**كُلُّ كلامٍ في الوجود كلامُه**)، وفيه بيت يقول:

وَكُلُّ كَلامٍ فِي الوُجُودِ كَلامُـهُ سَوَاءٌ عَلَيْنَـا نَثْـرُهُ ونِظَامُـهُ(١)

أهل الاتِّحاد قالوا: كُلُّ الوجود اتَّحد وصار واحدًا، الرَّبُّ هو المربوب، فكلام المخلوق كلام الله عزَّ وجلَّ.

الجهمية تناقضوا، وأهل الاتِّحاد طردوا الباب، فقالوا: كلام الله هو كلام المخلوق، وكلام المخلوق هو كلام الله، ولا نتناقض.

فالجهمية لا يقولون: إنَّ كلامَ المخلوق كلامُ الله، لكن يقولون: (كلام الله مخلوق) ونلزمهم بأنكم إذا جعلتم كلام الله مخلوقًا أن تجعلوا كلامَ غير الله مخلوقًا، لأنه مخلوق لله عزَّ وجلَّ فأضفه إلى الله خلقًا، لكنهم يأبون ذلك إلا أننا نلزمهم بهذا.

لكنَّ ابن القيم -رحمه الله- احترز احترازًا واجبًا، فقال: (**ولكن طردُه في غاية الكفران**).

طرده بأن نقول: (كُلُّ كلامٍ فهو كلامُ الله) هذا في غاية الكفران.

ولا شك في ذلك، فنحن نكفِّره وأنتم تكفِّرونه، فالاتحاديُّ الذي يقول: (**إنَّ كلامَ الخلق هو عينُ كلامِ الخالق**) كافر، نحن نكفره وهم يكفرونه أيضًا، وهذا الاطِّراد اطِّراد في باطلٍ، وهو غير مقبول.

٧٢٠- فَلَـئِنْ زَعَمْـتُمْ أَنَّ تَخْصِـيصَ الْقُـرَا نِ كَبَيْتِـهِ وَكِلاهُمَـا خَلْقَـانِ

هم يزعمون هذا، فيقولون: إضافةُ الكلام إلى الله عزَّ وجلَّ كإضافة بيت الله، خَصَّصَهُ تشريفًا وتكريمًا له، لا لأنه وصفه.

(١) البيت من الطويل، وهو لابن عربي. انظر: منهاج السنة النبوية (٢/ ١٧٥).

٧٢١- فَيُقَالُ ذَا التَّخْصِيصُ لا يَنْفِي الْعُمُو مَ ولا الخصوصَ كَرَبِّ ذِي الأَكْوَانِ

قَوْلُهُ: «فَيُقَالُ ذَا التَّخْصِيصُ لَا يَنْفِي الْعُمُومَ وَلَا الْخُصُوصَ» يعني: لا ينفي العمومَ، وهو أن يكون كُلُّ كلامٍ في الوجود كلامَ الله.

قَوْلُهُ: «ولا الخصوص» بحيث نقول: إنه مختصٌّ بالله عزَّ وجلَّ كرَبِّ البيت مثلًا، فإذا كان الله عزَّ وجلَّ رَبَّ البيت هل ينفي أن يكون ربًّا لغيره؟ لا ينفي، وإذا كان القرآنُ كلامَ الله، لأنه خَلَقَه فلا ينفي أن يكونَ كلامُ الآدميين كلامَ الله، لأنه خلقه.

قَوْلُهُ: «كَرَبِّ ذِي الأَكْوَانِ» فإنه رَبٌّ للجميع ورَبُّ البيت أيضًا.

٧٢٢- وَيُقَالُ رَبُّ الْعَرْشِ أَيْضًا هَكَذَا تَخْصِيصُهُ لإِضَافَةِ الْقُرْآنِ

هل لما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩]، هل انتفى أن يكون ربًّا لغيره؟ الجواب: لا، كذلك إذا قلنا: القرآنُ كلامُ الله لا يمنع أن يكون كلامُ غيره كلامَه أيضًا، فيكون كلام زيد وكلام عمرو كلام الله، لأنَّ تخصيص بعض أفراد العموم لا يقتضي التخصيص.

٧٢٣- لا يَمْنَعُ التَّعْمِيمَ فِي الْبَاقِي وَذَا فِي غَايَةِ الإِيضَاحِ وَالتِّبْيَانِ

فكذلك إذا أضاف اللهُ الكلامَ -الذي زعمتم أنه مخلوق- إلى نفسه لا يمنع أن يكون غيرُه من الكلام منسوبًا إلى الله أيضًا، لأنه خَلَقَه، فالتخصيص لا يمنع التعميم.

إِذَنْ هؤلاء فرُّوا من شيء، ووقعوا في شيء شرٍّ منه، وهكذا كُلُّ مُبتدِع، بل كل مُخطئ على سبيل العموم فإنه يفرُّ من شيء ويقع في شيء شرٍّ منه.

وخلاصة هذا الفصل: أنه يلزم على قولهم: (**إنَّ كلامَ الله مخلوقٌ**) أن يكون كُلُّ كلام في الوجود كلامًا لله منسوبًا إليه، لأنَّ العلة في نسبة كلام الله إليه أنه مخلوق له.

فنقول: هذه العلة ثابتة في كلام الناس، فإِنَّ كلامَ الناس مخلوقٌ لله، فيلزمكم على هذا أن يكونَ كلامُ الناس كلامًا لله، كما قلتم في الكلام المخلوق: إنه منسوب إلى الله.

نقول أيضًا: هذا كلام مخلوق، فينسب إلى الله.

فإذا قالوا: إنَّ نسبته إلى الله كنسبة البيت إلى الله، قلنا لهم: ونسبة البيت إلى الله لا تقتضي التخصيص، فإنَّ الله تعالى أضاف البيتَ إليه على سبيل التشريف، وأَمَّا على سبيل الخَلْقِ، فإنَّ غيرَ البيت أيضًا داخلٌ في كونه مخلوقًا لله كـ(**رَبِّ العرش**) هل نقول: إنَّ الله لما أَضاف ربوبيته إلى العرش اقتضى ذلك أَلَّا يكون ربًّا لغيره؟ الجواب: لا، ما نقول هذا، فالتخصيص لا يمنع التعميم.

* * *

فصـــل

فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ الخَلْقِ وَالأَمْرِ

٧٢٤- وَلَقَدْ أَتَى الْفُرْقَانُ بَيْنَ الْـخَلْقِ وَالْـ ... أَمْـرِ الصَّـحِيحِ، وَذَاكَ فِي الْفُرْقَـانِ

٧٢٥- وَكِلَاهُمَـا عِنْـدَ الْـمُنَازِعِ وَاحِـدٌ ... وَالكُـلُّ خَلْـقٌ، مَـا هُنَـا شَـيْئَانِ

٧٢٦-وَالْعَطْفُ عِنْدَهُمُ كَعَطْفِ الْفَرْدِ مِنْ ... نَـوْعٍ عَلَيْــهِ، وَذَاكَ فِي الْقُـرْآنِ

٧٢٧- فَيُقَـالُ: هَـذَا ذُو امْتِنَـاعٍ ظَـاهِرٍ ... فِي آيَــةِ التَّفْرِيــقِ ذُو تِبْيَــانِ

٧٢٨- فَـاللهُ بَعْـدَ الْـخَلْقِ أَخْـبَرَ أَنَّهَـا ... قَـدْ سُـخِّرَتْ بِـالأَمْرِ لِلْجَرَيَـانِ

٧٢٩- وَأَبَانَ عَـنْ تَسْـخِيرِهَا -سُـبْحَانَهُ- ... بِـالأَمْرِ بَعْـدَ الْـخَلْقِ بِالتِّبْيَـانِ

٧٣٠- وَالأَمْـرُ إِمَّـا مَصْـدَرٌ أَوْ كَـانَ مَفْـ ... ـعُولًا، هُمَـا فِي ذَاكَ مُسْـتَوِيَانِ

٧٣١- مَـأْمُورُهُ هُـوَ قَابِـلٌ لِلأَمْـرِ كَالْـ ... ـمَصْنُوعِ قَابِـلُ صَـنْعَةِ الـرَّحْمَنِ

٧٣٢- فَإِذَا انْتَفَى الأَمْرُ انْتَفَى الْمَأْمُورُ كَالْـ ... ـمَخْلُوقِ يُنْفَى لانْتِفَا الْـحِدْثَانِ

٧٣٣- وَانْظُـرْ إِلَى نَظْـمِ السِّـيَاقِ تَجِـدْ بِـهِ ... سِرًّا عَجِيبًـا وَاضِـحَ الْبُرْهَـانِ

٧٣٤- ذَكَرَ الْـخُصُوصَ وَبَعْـدَهُ مُتَقَـدِّمًا ... وَالْوَصْـفَ وَالتَّعْمِـيمَ فِي ذَا الثَّـانِي

٧٣٥- فَـأَتَى بِنَـوْعَيْ خَلْقِـهِ وَبِـأَمْرِهِ ... فِعْـلًا وَوَصْـفًا مُـوجَزًا بِبَيَـانِ

٧٣٦-فَتَـدَبَّرِ الْقُـرْآنَ إِنْ رُمْـتَ الْـهُدَى ... فَـالْعِلْمُ تَحْـتَ تَـدَبُّرِ الْقُـرْآنِ

الشـرحُ

أراد المؤلف في هذا الفصل أن يُبيِّنَ أنَّ القرآنَ غيرُ مخلوق، وذلك في التفريق بين الخلق والأمر، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، والأمر هو الشرع والقرآن، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى:٥٢]، ففرَّق الله بين الخلق والأمر، فالخلق هو الصُّنع، والأمر هو طلب الفعل على وجه الاستعلاء، فبينهما فرقٌ عظيم، والفرق بين الأمر والخلق يظهر به أيضًا الفرق بين المأمور وبين المخلوق.

٧٢٤- وَلَقَدْ أَتَى الْفُرْقَانُ بَيْنَ الْـخَلْقِ وَالْـ ... أَمْـرِ الصَّـحِيحِ، وَذَاكَ فِي الْفُرْقَـانِ

قَوْلُهُ: «الفرقان» في الشطر الأول والثاني بينهما جِناس تام، وهما في المعنى متباينان، فـ(الفُرقان) الأول بمعنى: التفريق، و(الفُرقان) الثاني بمعنى: القرآن.

واللفظان متفقان في النوع والترتيب، وإذا اتفقت الكلمتان في نوع الحروف وترتيبها مع اختلاف المعنى يُسمَّى عندهم الجِنَاس التام.

٧٢٥- وَكِلَاهُمَـا عِنْـدَ الْـمُنَازِعِ وَاحِـدٌ ... وَالكُـلُّ خَلْـقٌ، مَـا هُنَـا شَـيْئَانِ

قَوْلُهُ: «**وَكِلَاهُمَا عِنْدَ الْـمُنَازِعِ وَاحِدٌ**» المراد بالمنازع هنا: مَنْ يقول: إنَّ القرآن مخلوق، فالأمر والخلق عنده سواء.

قَوْلُهُ: «**وَالكُلُّ خَلْقٌ مَا هُنَا شَيْئَانِ**» الكُلُّ خَلْقٌ أي: مخلوق، يعني: الأمر والخلق.

وأهل السُّنة والجماعة يقولون: هنا شيئان: خلق وأمر، فالأمر هو الوحي وهو صفته، والخلق هو مخلوقه وهو فعله.

٧٢٦-وَالْعَطْفُ عِنْدَهُمُ كَعَطْفِ الْفَرْدِ مِنْ نَـــوْعٍ عَلَيْـــهِ، وَذَاكَ فِي الْقُــرْآنِ

يقول: عطف الأمر على الخلق كعطف الفرد على النوع، يريد بذلك الخاص على العام، وهذا موجود في القرآن يعني: أن يُعْطَفَ شيءٌ على آخر أَعَمَّ منه، فيكون فردًا من أفراده، قال الله تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ ﴾ [القدر:٤]، والرُّوح مَلك من الملائكة، وليس مباينًا لهم، ومنه قوله تعالى: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨]، مع أنَّ الصلاة الوسطى من الصلوات، فهذا عطف على النوع.

فهم يقولون: قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، الخلق عام يشمل القرآن، والأمر: الشرع والقرآن، فهو عطف من باب عطف الخاصِّ على العامِّ، والكُلُّ شيء واحد.

فيُقَال في الرَّدِّ: الأصل في العطف المغايرةُ، يعني أنَّ المعطوفَ غيرُ المعطوف عليه إِلَّا بدليل، فإذا وُجد دليلٌ أخذنا به، فهنا في قوله تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ ﴾ [القدر:٤]، الرُّوح لا يمكن أن يكون غير الملائكة، لأنَّ جِبْريل معروف أنه من الملائكة.

أما قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فالأمر غير الخلق، لأنَّ الأصل في العطف المغايرة، ولهذا قال: (**فيُقَال:...**) وهذا جواب عليهم إذا قالوا: هذا من باب عطف الخاص على العام، والأمر مخلوق كالخلق، فقولهم هذا فاسد.

٧٢٧- فَيُقَــالُ: هَــذَا ذُو امْتِنَــاعٍ ظَــاهِرٍ فِي آيَـــةِ التَّفْرِيـــقِ ذُو تِبْيَـــانِ

قَوْلُهُ: «فِي آيَةِ التَّفْرِيقِ» التفريق يعني: بين الأمر والخلق في قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾، فيُقال: هذا ممتنع.

٧٢٨- فَــالله بَعْــدَ الْــخَلْقِ أَخْــبَرَ أَنَّهَــا ... قَــدْ سُــخِّرَتْ بِــالأمْرِ لِلْجَرَيَــانِ

يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف:٥٤]، و(**النجوم**) معطوفة على السموات التي هي مفعول (خَلَق)، فأتى بالأمر بعد أن خلق، خُلِقْنَ، ثُمَّ أُمِرْنَ، فالأمر توجيه للمخلوق، وهو غير الخلق.

قَوْلُهُ: «**قَدْ سُخِّرَتْ بِالأمْرِ لِلْجَرَيَانِ**» المراد النجوم تجري بأمر الله عزَّ وجلَّ.

وَقَوْلُهُ: «**مُسَخَّراتٍ**» حال من النجوم.

فإذن الأمر صار بعد الخلق، وليس هو الخلق، فإذا كان عندنا خلقٌ سابق وأمر لاحق، هل يمكن أن نجعل الأمرَ من الخلق؟ الجواب: لا يمكن، فهي خُلِقَتْ ثم وُجِّهَتْ وسُخِّرت بأمر الله، فدلَّ هذا على أنَّ الأمرَ غيرُ الخلق.

٧٢٩- وَأَبَانَ عَـنْ تَسْـخِيرِهَا -سُـبْحَانَهُ- ... بِــالأَمْرِ بَعْــدَ الْــخَلْقِ بِالتِّبْيَــانِ

إِذَنْ نقول:

أوَّلًا: جَعْلُنَا الأمرَ من الخلق خطأٌ، لوقوعه بعده، فهي قد خُلِقَتْ وانتهتْ، ثم أُمِرَت أمرًا جديدًا بالتسخير، فسُخِّرَت بأمر الله.

ثانيًا: من الرَّدِّ عليهم أن نقول: إنَّ الأصل في العطف المغايرةُ بالذات والنوع والجِنْس، ولا يمكن أن نجعل العطفَ من باب عطف الفرد على النوع، أو الخاصِّ على العامِّ إِلَّا بوجود دليل.

٧٣٠- وَالأَمْـرُ إِمَّـا مَصْـدَرٌ أَوْ كَـانَ مَفْـ ـــعُولًا، هُمَـا فِي ذَاكَ مُسْـتَوِيَانِ

قَوْلُهُ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ الأمر هنا هل هو مصدر أو اسم مفعول؟

يقول ابن القيم: اجعلها مصدرًا أو اجعلها اسمَ مفعولٍ، فكلاهما يدلُّ على أنَّ الأمرَ ليس هو الخلق.

وجه ذلك أنك إذا جعلت الأمرَ مصدرًا -وهو واحد الأوامر- إذا جعلته مصدرًا، وهو الأظهر، فإنه يدلُّ على أنَّ هذا الأمر حصل بالقول، يعني: خَلَق، ثُمَّ أَمر، وإِنْ جعلتَ الأمر بمعنى اسم المفعول -والمصدر يأتي بمعنى اسم المفعول- وهو رأي المعطِّلة فإنه ما مِن مأمورٍ إلَّا وقد وُجِّه إليه أمر، فمن لازم وجود المأمور وجود الأمر.

فإِذن عاد التأويل الثاني وهو أن تجعل الأمر اسمَ مفعول إلى المعنى الأول وهو إثبات الأمر لله عزَّ وجلَّ، والأمر كما تقرَّر عندنا الآن هو غير الخلق.

قَوْلُهُ: «هُمَا فِي ذَاكَ مُسْتَوِيَانِ» أي: في المعنى لا يختلفان.

٧٣١- مَـأْمُورُهُ هُـوَ قَابِـلٌ لِلأَمْـرِ كَالْـ ـمَصْنُوعِ قَابِـلُ صَـنْعَةِ الـرَّحْمَنِ

٧٣٢- فَإِذَا انْتَفَى الأَمْرُ انْتَفَى المَأْمُورُ كَالْـ ـمَخْلُوقِ يُنْفَـى لانْتِفَا الْـحِدْثَانِ

يريد أن يُبيِّنَ أنه لا فرقَ بين أن نقول: الأمر مصدر، أو نقول: اسم مفعول، مثل: صُنْع، يقال: الصُّنْع بمعنى المَصنوع وبمعنى الفعل.

فليس هناك مأمورٌ إلَّا وقد صَدَرَ إليه الأمرُ، فَقَبِل الأمر، فهو (قَابِلٌ لِلأَمْرِ كَالْـمَصْنُوعِ).

وهل يوجد مصنوع بدون صنعة؟

الجواب: لا، إذن لا يوجد مأمور بدون أمر، فإذا انتفى الأمر انتفى المأمور، وإذا لم يوجد مأمور لم يوجد أمر، فهما متلازمان، يعني لو قلنا: إنَّ الأمر هو الخلق. انتفى المأمور، لأنه حينئذٍ لا يوجد شيء يُوَجَّه إليه الأمر، فلا بُدَّ من إيجاد الشيء، ثُمَّ أمره بما يريد الله عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «**كَالمَخْلُوقِ يُنْفَى لانْتِفا الحِدْثان**» يعني: كما أننا لا يمكن أن نقول: (مخلوق) إلَّا لِـمَا حَدَث وكان، فلا يمكن أن يُؤْمَر إلَّا إذا كان موجودًا من قَبْلُ، ومخلوقًا من قَبْلُ.

٧٣٣- وَانْظُرْ إِلَى نَظْمِ السِّيَاقِ تَجِدْ بِهِ ... سِرًّا عَجِيبًا وَاضِحَ الْبُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «**نَظْمِ السِّيَاقِ**» يعني الآيةَ التي أشار إليها، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف:٥٤]، ما هو السِّرُّ العجيب؟ قال:

٧٣٤- ذَكَرَ الْـخُصُوصَ وَبَعْدَهُ مُتَقَدِّمًا ... وَالْوَصْفَ وَالتَّعْمِيمَ فِي ذَا الثَّانِي

قَوْلُهُ: «**ذَكَرَ الْـخُصُوصَ**» وهو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وهذا خاصٌّ، ولم يقل: خلق كُلَّ شيء.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ خاص أيضًا.

يقول: ذكر الخصوص.

قَوْلُهُ: «وبعده» يعني: أيضًا خصوصًا آخرَ متقدِّمًا.

قَوْلُهُ: «وَالْوَصْفَ وَالتَّعْمِيمَ فِي ذَا الثَّانِي»، ثُمَّ ذكر بعد ذلك الوصف والتعميم ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾ ولم يقل: خَلَق كذا. بخلاف الأول أتى بالفعل وخَصَّ المخلوق (المفعول)، وفي الثاني عَمَّ فقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾، والأمر في أول الآية مُقَيَّد أو عام؟

الجواب: مُقَيَّدٌ بالنجوم ﴿وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾.

وَقَوْلُهُ: «وَالْوَصْفَ وَالتَّعْمِيمَ فِي ذَا الثَّانِي» يعني: الأمر.

٧٣٥- فَأَتَى بِنَوْعَيْ خَلْقِهِ وَبِأَمْرِهِ ... فِعْلًا وَوَصْفًا مُوجزًا بِبَيَانِ

قَوْلُهُ: «فَأَتَى بِنَوْعَيْ خَلْقِهِ وَبِأَمْرِهِ» ما هما النوعان؟ قال: (فِعْلًا وَوَصْفًا) الفعل هو الخاص، والوصف هو العام.

فقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ هذا فعل، وقوله تعالى: ﴿وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ هذا أمرٌ مُتَعلِّقٌ بفعل خاص، وقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ هذا وصف عامٌّ.

فقَوْلُهُ: «فَأَتَى بِنَوْعَيْ خَلْقِهِ» وهما الخلق والتسخير لكن بأمر الله، فدلَّ هذا على أنَّ الأمر ليس داخلًا في الخلق ولا في التسخير.

قَوْلُهُ: «مُوجَزًا»، ويجوز (مُوجِزًا)، فكلاهما صحيح.

ثُمَّ قال -رحمه الله-:

٧٣٦- فَتَدَبَّرِ الْقُرْآنَ إِنْ رُمْتَ الْهُدَى ... فَالْعِلْمُ تَحْتَ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ

هذا بيت عظيم ينبغي أن يحفظه الإنسان، ويُمِرَّه على قلبه دائمًا.

قَوْلُهُ: «فَتَدَبَّرِ الْقُرْآنَ» يعني: تأمَّلْه وفكِّرْ فيه.

قَوْلُهُ: «إِنْ رُمْتَ» يعني: قَصَدْتَ.

قَوْلُهُ: «الـهُدَى» يعني: العلم والتوفيق.

يعني: إنْ كنت تريد الـهُدى فتدبر القرآنَ، ولا تتسرع، ولا تتعجَّل، ولا تَغْفُل، وأكثرُ الناسِ اليوم يقرؤون القرآنَ إمَّا للأجر بتلاوتِه، وإمَّا للتبرك بها، ولكنَّ أكثرهم لا يقرؤونه تدبُّرًا، ولهذا حُرِمُوا فائدتَه، وإِلَّا فالقرآن كنز عظيم، لأنه من الله عزَّ وجلَّ، ولا يحيط به أحد إلَّا الله، فهو كنز الكنوز في الواقع.

لو أنك إذا مشيتَ من بيتك إلى المسجد أخذت آية من القرآن تتدبرها وتتأملها لحَصَّلْتَ خيرًا كثيرًا، ومع ذلك أيضا إذا فتح اللهُ لك غُررًا[1] من الآيات لا تعتمد على حِفْظك لها الآن، لأنك ربما تنساها، وفي الأول كان كُلُّ طالب علم معه مفكرة يجعلها في جيبه، ويتأمل القرآن مثلًا، كلَّما فتح الله عليه شيئًا قيَّده بهذه المفكرة، فانتفع، لأنَّ الإنسان في الحقيقة في وقت من الأوقات قد يفتح الله عليه معانيَ كثيرةً من القرآن أو من السُّنة للتأمل والتدبر، ثُمَّ يتَّكل على نفسه، ويقول: هذا لا أنساه، وإن نسيتُها فهي قريبة، أتَذكَّرُ وأراجِعُ ما عندي، لكن سَرْعان ما ينسى، ولهذا لو استعمل الإنسان هذا الشيء لحصَّل خيرًا كثيرًا.

وكان بعض أهل العلم في رمضان وهو في وقت تلاوة القرآن يجعل معه دفترًا خاصًّا، كُلَّما قرأ شيئًا واستوقفته آية من كتاب الله فيها معانٍ كثيرة أو ما أشبه ذلك قيَّدها بالدفتر، فلا يخرج رمضان إلَّا وقد حصَّل خيرًا كثيرًا من معاني القرآن الكريم.

---

(١) جمع غُرة، وهي أول شيء وأكرمه. انظر: لسان العرب، مادة: غرر.

ولقد رأيتُ كُتيِّبًا صغيرًا للشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- يقول: إنه كتبه في رمضان وهو يقرأ القرآن، تمر به آيةٌ فيقف عندها، ويتدبرها، ويكتب عليها فوائد، لا تجدها في أيِّ تفسير.

فلهذا ابن القيم -رحمه الله- حَثَّ على تدبُّر القرآن لَمن أراد الهدى.

وشيخه ابن تيمية -رحمه الله- قال: «مَن تَدَبَّر القرآنَ طالبًا للهُدَى منه تبَيَّن له طريقُ الحقِّ»(١).

فاشترط شيخ الإسلام -رحمه الله- شرطين: التدبُّرَ، وطلبَ الهدى، لأنه ربما تَدَبَّر، ولم يقصد طلب الهدى، لكن يريد معرفة معاني القرآن فقط، ما تريد أن تَهْدِي به وتجعله نِبْراسًا لك تسير عليه، فإذا تدبَّرتَه، وأنت تريد الهدى منه، وتريد أن تجعل القرآن نبراسًا لك تسير عليه، تَبيَّنَ لك طريقُ الحقِّ.

أما الذي يَتَدبَّر القرآن لينصر به قولَه فهذا على خَطَر عظيم -والعياذ بالله- لأنه يكون مُتَّبعًا للهوى، لكن مَنْ تدبَّره مُتيقِّنًا أنه إذا دلَّ على شيء فإنه سيأخذ به ولو خالف رأيه، فهذا هو الذي يُوَفَّق ويَتبيَّن له طريقُ الحقِّ، ولا يمكن أن يخفى عليه أبدًا، إنما يخفى علينا إمَّا من قصور عِلْمنا أو تقصيرنا، أو أننا لا نريدُ الاهتداءَ به، بمعنى أننا نعلمُ الشيءَ ولا نعمل به، وهذه قاصمة الظَّهْر، وهي إذا علمنا الشيء ولم نعمل به، والجاهلُ حينئذٍ خيرٌ منا، لأننا إذا علمنا الشيء قامت علينا الحجَّة، ولكن نسأل الله أن يعيننا.

كل يوم نتكلَّم عن مثل هذا، ولا ننظر شيئًا، لكن على الإنسان أن يتقي الله ما استطاع.

---

(١) انظر: العقيدة الواسطية (ص:٨).

فصـــل

فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ مَا يُضَافُ إِلَى الرَّبِّ تعالى مِن الأَوْصَافِ والأَعْيَانِ

٧٣٧- وَاللهُ أَخْـــبَرَ فِي الْكِتَـــابِ بِأَنَّـــهُ ... مِنْـهُ وَمَجْـرورٌ بِـــ (مِـنْ) نَوْعَـانِ:

٧٣٨- عَـيْنٌ وَوَصْـفٌ قَـائِمٌ بِـالْعَيْنِ فَالْـ ... أَعْيَـانُ خَلْـقُ الْـــخَالِقِ الـرَّحْمَنِ

٧٣٩- وَالْوَصْـفُ بِالْـمَجْرُورِ قَـامَ لأَنَّـهُ ... أَوْلَى بِـــهِ فِي عُـرْفِ كُـلِّ لِسَـانِ

٧٤٠- وَنَظِـيرُ ذَا أَيْضًـا سَـوَاءٌ مَـا يُضَـا ... فُ إِلَيْـهِ مِـنْ صِـفَةٍ وَمِـنْ أَعْيَـانِ

٧٤١- فَإِضَـافَةُ الأَوْصَـافِ ثَابِتَـةٌ لِـمَنْ ... قَامَـــتْ بِـــهِ كَـــإِرَادَةِ الـرَّحْمَنِ

٧٤٢- وَإِضَـــافَةُ الأَعْيَـــانِ ثَابِتَـــةٌ لَـــهُ ... مِلْكًــا وَخَلْقًــا مَــا هُمَــا سِـيَّانِ

٧٤٣- فَـانْظُرْ إِلَى بَيْـتِ الإِلَـهِ وَعِلْمِـهِ ... لَـــمَّا أُضِـــيفَا كَيْـفَ يَفْتَرِقَـانِ؟

٧٤٤- وَكَلامُـــهُ كَحَيَاتِـــهِ وَكَعِلْمِـــهِ ... فِي ذِي الإِضَـافَةِ إِذْ هُمَـا وَصْـفَانِ

٧٤٥- لَكِـــنَّ نَاقَتَـــهُ وَبَيْـــتَ إِلَـــهِنَا ... فَكَعَبْـــدِهِ أَيْضًـــا هُمَـــا ذَاتَـــانِ

٧٤٦- فَانْظُرْ إِلَى الْـجَهْمِيِّ لَـمَّا فَاتَـهُ الْـ ... ـحَقُّ الْـمُبِينُ وَوَاضِـحُ الْفُرْقَـانِ

٧٤٧- كَـانَ الْـجَمِيعُ لَدَيْـهِ بَابًـا وَاحِـدًا ... وَالصُّـبْحُ لاحَ لِـمَنْ لَـهُ عَيْنَـانِ

الشـرحُ

قال المؤلف -رحمه الله تعالى- في التفريق بين ما يضاف إلى الله عزَّ وجلَّ من الأوصاف والأعيان: الله -سبحانه وتعالى- أضاف إلى نفسه أوصافًا، وأضاف إلى نفسه أعيانًا، فهل هما بمنزلة واحدة؟ أو بينهما فرق؟

في هذا الفصل بيَّن -رحمه الله- أنَّ ما يُضاف إلى الله إمَّا أن يكون عَيْنًا قائمة بنفسها، وإمَّا أن يكون وصفًا لا يقومُ إلَّا بغيره، وهذا نوعان: إمَّا أن يضاف إلى الله بالإضافة المعروفة، وإمَّا أن يضاف إليه بـ(مِنْ)، وهذا المضاف بـ(مِنْ) أو بالإضافة المعروفة إمَّا أن يكون عينًا قائمة بنفسها، وإمَّا أن يكون وصفًا لا يقوم إلَّا بغيره.

وكُلُّ واحدةٍ من هذه لها حكم.

قال -رحمه الله-:

٧٣٧- وَاللهُ أَخْـــبَرَ فِي الْكِتَـــابِ بِأَنَّـــهُ مِنْـهُ وَمَجْـرورٌ بِـــ (مِـنْ) نَوْعَـانِ:

٧٣٨- عَـيْنٌ وَوَصْـفٌ قَـائِمٌ بِـالْعَيْنِ فَالْـ أَعْيَـانُ خَلْـقُ الْـخَالِقِ الـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «**أَخْبَرَ... بِأَنَّهُ مِنْهُ**» يعني: القرآن من الله، قال الله تعالى: ﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجاثية:١-٢]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [فصلت:٢-٣].

وهنا أضاف القرآن إليه بـ(مِن)، والقرآن كلام، والكلام وصف المُتكلِّم، إذن فيكون المضاف إلى الله بـ(مِن) هنا غير مخلوق، لأنه صفة، والصفة قائمة بالموصوف، والموصوف هو الرَّبُّ عزَّ وجلَّ وهو الخالق، إذن فيكون القرآنُ صفةً من صفاتِه غيرَ مخلوق.

وإذا أضاف الله الشيء إلى نفسه بـ(مِن) وهي أعيان قائمة بنفسها فهي مخلوقة بلا شك، مثاله: قول الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣]، أي: من عنده ابتداءً، ولا يمكن أن نجعل (مِنْ) هنا للتبعيض، وأنَّ ما في السموات وما في الأرض بعضٌ من الله، هذا لا يمكن، ولا يمكن أن نجعل هذه الأعيان صفةً من صفات الله، لأنها بائنةٌ من الله، فهي عينٌ قائمةٌ بنفسها، فكيف تكون وصفًا لله؟!

وَقَوْلُهُ: «فَالأَعْيَانُ» يعني: فالأعيان المضافة إلى الله بـ(مِنْ) خلق الخالق الرحمن.

٧٣٩- وَالْوَصْفُ بِالْـمَجْرُورِ قَامَ لأَنَّـهُ ... أَوْلَى بِـهِ فِي عُـرْفِ كُـلِّ لِسَـانِ

قَوْلُهُ: «بِالْـمَجْرُورِ» متعلِّق بـ(قَامَ)، وليس متعلِّقًا بـ(الوصف)، يعني: الوصف إذا جُرَّ بـ(مِنْ) فهو بالمجرور قام.

يقول المؤلف -رحمه الله-: إنَّ الوصف قائمٌ بالمجرور، مثاله: **(القرآن)** فالقرآن هل هو شيء منفصلٌ بائِنٌ عن الله؟ أو هو كلام الله؟ فهو ليس عينًا قائمًا بنفسه فيكون قائمًا بالمجرور، والمجرور هو لفظ (الرحمن) وهو اسم الله عزَّ وجلَّ، قال الله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت:٢].

قَوْلُهُ: «أَوْلَى بِهِ فِي عُرْفِ كُلِّ لِسَانِ» يعني أنَّ المضافَ إلى الشيءِ الشيءُ المضافُ إليه أولى به من غيرِه، وهذا وصفٌ أُضيف إلى الله، فيكون الله تعالى أولى به من غيره.

إِذَنْ القاعدة: أنَّ المجرور بـ(مِنْ) المضاف إلى الله إن كان عَينًا قائمة بنفسها فهو مخلوق، وإن كان وصفًا لا يقوم بنفسه بل بغيره فهو صفةٌ من صفات الله غيرُ

مخلوقة، مثل قولنا: (**القرآنُ نازلٌ منه**) أي: من الله، إذن قام بالله عزَّ وجلَّ، فإذا كان قائمًا بالله وهو صفة، لزم أن يكونَ غيرَ مخلوق.

٧٤٠- وَنَظِيرُ ذَا أَيْضًا سَوَاءٌ مَا يُضَا ... فُ إِلَيْهِ مِنْ صِفَةٍ وَمِنْ أَعْيَانِ

المشار إليه في قوله: «وَنَظِيرُ ذَا» هو المجرور بـ(مِنْ).

٧٤١- فَإِضَافَةُ الأَوْصَافِ ثَابِتَةٌ لِمَنْ ... قَامَتْ بِهِ كَإِرَادَةِ الرَّحْمَنِ

أيضًا الأوصاف والأعيان إذا أُضيفت فعلى ما سبق، انظر إلى قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء:٩١]، أي: في مريم، الرُّوح هنا مضاف إلى الله، لكن هذه الروح التي حَلَّت في عيسى هل هي جزء من الله؟

الجواب: لا.

هل هي صفة من صفاته؟ الجواب: لا، بل هي مخلوقٌ بائن، لأنها قائمة بعين، بل الصحيح أنَّ الأرواحَ أعيانٌ مُشَاهَدة، تقبضها الملائكة عند الموت وتُحَنِّطها(١) وتُكفنها، والميت ينظر إلى روحه وقد خرجت من جسده.

فالروح ليست وصفًا كالحياة والعلم والقدرة، وليست عَرَضًا كالمرض ونحوه، فالروح عين تتخلَّل هذا الجسد كما يتخلَّل الماءُ المَدَر-يعني: الطين اليابس- أو الفحم تتخلله النار.

إِذَنْ الروح المضافة إلى الله عزَّ وجلَّ بالنسبة إلى عيسى -عليه السلام- مخلوقة، وكذلك بالنسبة لآدم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر:٢٩]، هي عينٌ قائمة بعين، فهي مخلوقة.

---

(١) أي تُطَيِّبُها بالحَنُوط، وهو طيب يخلط للميت خاصة. انظر: المصباح المنير حنط.

وَقَوْلُهُ: «فَإِضَافَةُ الأَوْصَافِ ثَابِتَةٌ لِـمَنْ قَامَتْ بِهِ كَإِرَادَةِ الرَّحْمَنِ» إذا قلنا: إرادة الله. فالإرادة وصف أضيفت إلى الله، وإذا كانت وصفًا فإنها لا تقوم بنفسها، لأنها ليست عينًا، إِذَنْ تكون صفةً لله عزَّ وجلَّ غيرَ مخلوقة، لأنَّ صفات الخالق غير مخلوقة، ولهذا قال: (فَإِضَافَةُ الأَوْصَافِ ثَابِتَةٌ لِـمَنْ قَامَتْ بِهِ)، ثُمَّ أتى بمثال فقال: (كَإِرَادَةِ الرَّحْمَنِ).

٧٤٢- وَإِضَـــافَةُ الأَعْيَـــانِ ثَابِتَـــةٌ لَـــهُ مِلْكًـــا وَخَلْقًـــا مَـــا هُمَـــا سِـــيَّانِ

يعني: إضافة الأعيان إلى الله ثابتة لله مِلْكًا وخلقًا، يعني: هو الذي ملكها وخلقها، ما هما سِيَّان.

قَوْلُهُ: «مَا هُمَا سِيَّانِ» يعني: الأوصاف والأعيان، فما هما سِيَّان، والفرق أنَّ الأوصاف صفة الله، والأعيان خلق الله، فبينهما فرق عظيم.

إِذَنْ إضافة الأوصاف إلى الله تقتضي أن تكون صفاتٍ له، وإضافةُ الأعيان على أنها خَلْق ومِلْك له، لكن يمتاز المضاف إليه -سبحانه- إضافةَ عينٍ أنه ازداد تشريفًا وتعظيمًا بإضافته إلى الله عزَّ وجلَّ.

٧٤٣- فَـــانْظُرْ إِلَى بَيْـــتِ الإِلَـــهِ وَعِلْمِـــهِ لَـــمَّا أُضِـــيفَا كَيْـــفَ يَفْتَرِقَـــانِ؟

فرق عظيم، فبيتُ الله في قول الله تعالى: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج:٢٦]، لما أضيف إلى الله هل أُضيف على أنه صفة له؟ الجواب: لا، لأنه عينٌ قائمة بائنةٌ من الله، فبيت الله مخلوقٌ، بناه إبراهيم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ [البقرة:١٢٧]، إذن ما فائدة الإضافة؟ فائدتها التشريف والتعظيم، وأنه من أعظم آياته.

وأمَّا إضافة العلم إلى الله كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء:١٦٦]، إضافةُ وصفٍ إلى موصوف، لأنَّ العلمَ ليس شيئًا قائمًا بنفسه، بل هو صفةٌ للعالم، فيكون ما أضافه إلى نفسه من الأوصاف وصفًا لله غيرَ مخلوق.

٧٤٤- وَكَلامُــــهُ كَحَيَاتِــــهِ وَكَعِلْمِــــهِ ... فِي ذِي الإِضَـافَةِ إِذْ هُمَـا وَصْـفَانِ

كلامُ الله مضافٌ إلى الله إضافةَ صفةٍ إلى موصوفها، حياةُ الله أيضًا مضافةٌ إلى الله إضافةَ صفةٍ إلى موصوفها، علمُ الله مضافٌ إلى الله إضافةَ صفةٍ إلى موصوفها.

قَوْلُهُ: «وَكَلامُهُ كَحَيَاتِهِ» نقول لهؤلاء المعتزلة والجهمية: **(كَلامُ الله كَحَيَاتِه)** هل تقولون: إنَّ حياة الله مخلوقة؟ يقولون: لا، نقول: وكلامُه كذلك غيرُ مخلوق، لأنَّ الكلام صفة، والحياة صفة، والكلام لا يقوم إلَّا بمتكلِّم، والحياة لا تقوم إلَّا بحيٍّ.

فالكلام كالعلم، والكلام كالحياة، لماذا؟ لأنهما وصفان، فالكلام لا يمكن أن يكون إلَّا من متكلِّم.

والحاصل أنَّ القاعدة: ما كان وصفًا غيرَ قائمٍ بنفسه فهو صفةٌ لله غيرُ مخلوقة، وما كان عينًا قائمًا بنفسه فهو مخلوق، وكذلك لو كان وصفًا في عين قائمة بنفسها فهو مخلوق، لأنَّ الأعيانَ القائمة بنفسها كُلَّها مخلوقة وأوصافها مخلوقة.

٧٤٥- لَكِــنَّ نَاقَتَــهُ وَبَيْــتَ إِلَــهِنَا ... فَكَعَبْــدِهِ أَيْضًــا هُمَــا ذَاتَــانِ

ناقة الله مضافة إلى الله، والدليل قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس:١٣]، هنا **(ناقة)** عين قائمة بنفسها، فتكون مضافةً إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى خالقه.

(بيت الله) كما قال -تبارك وتعالى-: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج:٢٦]، بيت الله عين قائمة بنفسها، فيكون إضافتها إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى خالقه.

(عبد الله) كذلك مضاف إلى الله إضافة تشريف وتكريم وخلقٍ إلى خالق ومخلوق إلى خالق، وليس العبد من صفات الله عزَّ وجلَّ.

فالمؤلف -رحمه الله- ذكر ثلاثة أمثلة: (**ناقة الله، بيت الله، عبد الله**).

هل نقول: إنَّ إضافة بيت الله كإضافة علم الله؟

الجواب: لا، لأنَّ البيت عين، والعلم وصف.

هل نقول: إنَّ الناقة كالحياة؟

الجواب: لا، لأنَّ الحياة وصف، والناقة عين.

وهل نقول: إنَّ العبد كالإرادة؟

الجواب: لا، لأنَّ الإرادة وصف، والعبد عين.

إِذَنْ هناك فرق ظاهر، فناقة الله، وبيت الله، وعبد الله يقول المؤلف: (**هما ذاتان**) أي: ذاتان قائمتان بأنفسهما، فلا تكونان وصفًا لله.

٧٤٦- فَانْظُرْ إِلَى الْـجَهْمِيِّ لَـمَّا فَاتَهُ الْـ   ـحَقُّ الْـمُبِينُ وَوَاضِحُ الْفُرْقَانِ

٧٤٧- كَانَ الْـجَمِيعُ لَدَيْهِ بَابًا وَاحِدًا   وَالصُّبْحُ لاحَ لِـمَنْ لَـهُ عَيْنَانِ

الجهمي يقول: الباب واحد، كلام الله، وعلم الله، وبيت الله، وناقة الله، كُلُّها سواء، فكُلُّها مضافة إلى الله إضافة خلق إلى خالقه.

وهذا من عماه وجهله، وإلَّا فالفرق واضح، الصفة إذا أُضيفت إلى الله لا يمكن أن تكون قائمةً بنفسها مخلوقة، والأعيان إذا أضيفت إلى الله فهي مخلوقة، لكن أضيفت إلى الله على وجه التشريف.

قَوْلُهُ: «وَالصُّبْحُ لَاحَ لِـمَنْ لَهُ عَيْنَانِ» لكن ومَنْ له عين واحدة؟ كذلك، لكنه إذا التفت يسيرًا لم يَتبيَّن له الصبح، ومَنْ لا عينَ له لا يتبينُ له، فالصبح لا يَتبينُ تمامًا إِلَّا لمن له عينان، وأمَّا الأعمى والأعور فلن يتبينَ له على وجه الكمال.

إِذَنْ خلاصة هذا الفصل أنَّ ما أضيف إلى الله بطريق الإضافة المعروفة أو بالجر بـ(مِنْ) ينقسم إلى قسمين: إمَّا عين، وإمَّا وصف، فإن كان عينًا فهو مخلوق وليس من صفات الله، وإنْ كان وصفًا فهو من صفات الله وهو غير مخلوق، والأمثلة ظاهرة **(فالحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة، والكلام)** نقول فيها: أوصافٌ غيرُ مخلوقة، أما **(البيت والناقة والعبد والمسجد)** فهي أعيان مخلوقة.

***

فصل

٧٤٨- وَأَتَى ابْنُ حَزْمٍ[١] بَعْدَ ذَاكَ فَقَالَ مَا ... لِلنَّاسِ قُرْآنٌ وَلا إِثْنَانِ

٧٤٩- بَلْ أَرْبَعٌ كُلٌّ يُسَمَّى بِالْقُرَا ... نِ وَذَاكَ قَوْلٌ بَيِّنُ الْبُطْلانِ

٧٥٠- هَذَا الَّذِي يُتْلَى، وَآخَرُ ثَابِتٌ ... فِي الرَّسْمِ يُدْعَى الْمُصْحَفَ الْعُثْمَانِي

٧٥١- وَالثَّالِثُ: الْمَحْفُوظُ بَيْنَ صُدُورِنَا ... هَذِي الثَّلاثُ خَلِيقَةُ الرَّحْمَنِ

٧٥٢- وَالرَّابِعُ: الْمَعْنَى الْقَدِيمُ كَعِلْمِهِ ... كُلٌّ يُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْقُرْآنِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «ابن حزم» هو ابن حزمٍ الظاهري، وانتقاده -رحمه الله- شديد لاذع جدًّا، فأحيانا يدعو على العلماء، ويسميه بعض العلماء مَنْجَنيق الغَرْب، والمنجنيق بمنزلة المِدْفع[٢]، وهو ليس هينًا، فكتابه (المُحَلَّى) فيه من الآثار الكثيرة ما لا تجده في كثير من الكتب، بل لا تجده إلَّا في القليل النادر، فهو في الحقيقة مرجع بقطع

(١) ابن حزم: هو عليّ بن أحمد بن سعيد، ابن حزم الظاهري، أحد أئمة الإسلام، ولد بقرطبة سنة (٣٨٤هـ)، كان له ولأبيه رئاسة الوزارة، ولكن زَهِد فيها، وأقبل على العلم، ولقد انتقد كثيرًا من العلماء فطاردته الملوك، فمات في بادية -يعني خارج المدن- ببلدة من بلاد الأندلس سنة (٤٥٦هـ). [الشارح].

(٢) المَنْجَنِيقُ بفَتْح المِيمِ وكَسْرِها، مَع فَتْح الجِيم: آلَةٌ تُرْمَى بِها الحِجارةُ على العَدُوِّ، وذَلِك بأَنْ تُشَدَّ سَوارٍ مُرتَفِعَةٌ جِدًّا مِن الخَشَب، يُوضَعُ عَلَيها مَا يُرادُ رَمْيُه، ثُمَّ يُضْرَبُ بسَارِيَةٍ تُوصِله لمَكانٍ بَعيدٍ جِدًّا، انظر: تاج العروس من جواهر القاموس (٢٥/ ١٣٢) مادة: جنق.

النظر عن آرائه، فآراؤه له، وقد يَرى أشياء شاذة جدًّا، لكن كتابه (المُحَلَّى) كنز عظيم لولا سلاطة لسانه لكان يثنى عليه بلا استثناء.

ولذلك تجد الشارح الشيخ أحمد بن إبراهيم بن عيسى -رحمه الله- أطنب عليه، ومدحه مدحًا عظيمًا، ولا شكَّ أنَّ الرجل عنده علمٌ كثير بالآثار، وكتابه (المُحَلَّى) من أجمع ما يكون، لكن عنده شذوذ في الرأي في مسائل كثيرة.

ابن حزم -رحمه الله- أتى بقول عجيب قال: ليس للناس قرآن، ولا قرآنان، بل أربعة قرآنات، فقلنا له: كيف ذلك؟ بَيِّن ذلك؟ فقال:

الأول: هذا الذي يُتْلى فهو قرآن، وهذا محله اللسان.

والثاني: الثابت في الرسم وهو المكتوب، ومحله المصحف.

والثالث: المحفوظ في الصدور يعني: محله القلب.

والرابع: المعنى القديم، وقوله: المعنى القديم. يوافق فيه الأشاعرة.

وكلامه صحيح في الثلاثة الأولى، فكُلُّها قرآن سواء تلوناه بألسنتنا، أو كتبناه في المصاحف، أو حفظناه في الصدور، كُلُّه قرآن.

وأما قوله عنها: (**هَذِي الثَّلاثُ خَلِيقَةُ الرَّحْمَنِ**)، فقد يعجب الإنسان إذا رأى مثل هذا الكلام من ابن حزم -رحمه الله-، لكن قد يقول قائل بالاعتذار عن ابن حزم، بأنه يُريد أن يُبيِّن ما هو المخلوق من غير المخلوق؟

فنقول قوله: «**آخر ثابت في الرسم، والذي في الصدور، والذي يتلى**» قوله: إنَّ هذه مخلوقة فيه نظر ظاهر، لأنَّ المحفوظ في الصدور، والمرسوم في المصحف، والذي يُتلى أي: المتلوُّ باللسان ليس بمخلوق إِلَّا على رأي الأشاعرة.

وأمَّا الرابع وهو قوله: «**المعنى القديم**» فهذا لا يُسَمَّى قرآنًا، المعنى القديم إنْ قلنا به فهو علم الله عزَّ وجلَّ وليس قرآنًا حتى يُسْمِعه اللهُ عزَّ وجلَّ جبريلَ، وجبريل يلقيه على قلب النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ: «**الرابع المعنى القديم**» فهو -رحمه الله- ذهب مذهب الأشاعرة، لكن خالفهم في بعض الوجوه، فاتَّفقَ مع الأشاعرة في أنَّ المعنى القديم قائمٌ بالله غير مخلوق، وأنَّ المحفوظَ والمقروءَ والمرسومَ مخلوقٌ.

وهذا تمامًا هو مذهب الأشاعرة، لكن الأشاعرة سبق أنهم يقولون: إِنَّ هناك قرآنين فقط، وهما المعنى واللفظ، أما هو فيقول: إنها أربعة: المعنى القديم، واللفظ، والكتابة، والمحفوظ.

ولكن نقول لابن حزم ولغير ابن حزم: المقروء غير مخلوق، والقراءة مخلوقة، والملفوظ به غير مخلوق، واللفظ مخلوق، والمكتوب غير مخلوق، والكتابة مخلوقة، هذا هو الصواب، وهذا هو الواقع.

وَقَوْلُهُ: «**المعنى القديم كعلمه**» أي: كعلم الله، (**كُلٌّ يُعَبَّرُ عنه بالقرآن**) فجعل كُلَّ واحدة من مراتب الوجود مستقلة، لأنَّ الشيء له وجود في الذهن، ووجود في الخارج، فالتبس عليه الأمر.

* * *

انظر إلى تحليل المؤلف لكلام ابن حزم حيث قال:

٧٥٣- وَأَظُنُّـهُ قَـدْ رَامَ شَـيْئًا لَـمْ يَجِـدْ　　عَنْـهُ عِبَـارَةَ نَـاطِقٍ بِبَيَـانِ

٧٥٤- إِنَّ الْـمُعَيَّنَ ذُو مَرَاتِـبَ أَرْبَـعٍ　　عُقِلَـتْ فَـلا تَخْفَـى عَـلَى إِنْسَـانِ

٧٥٥- فِي الْعَيْنِ، ثُمَّ الذِّهْنِ، ثُمَّ اللَّفْظِ ثُمْـ ـمَ الرَّسْمِ حِينَ تَخُطُّه بِبَنَانِ

٧٥٦-وَعَلَى الْـجَمِيعِ الاسْمُ يُطْلَقُ لَكِنِ الْـ أَوْلَى بِهِ الْـمَوْجُودُ فِي الأَعْيَانِ

٧٥٧- بِخِلافِ قَوْلِ ابْنِ الْـخَطِيبِ فَإِنَّهُ قَدْ قَالَ: إِنَّ الْوَضْعَ لِلأَذْهَانِ

٧٥٨- فَالشَّيْءُ شيْءٌ وَاحِدٌ لا أَرْبَعٌ فَدَهَى ابْنَ حَزْمٍ قِلَّةُ الْعِرْفَانِ

الشرحُ

يقول -رحمه الله تعالى-: إِنَّ ابن حزم لما قسَّم القرآنَ إلى أربعة أقسام، وهو شيء واحد في الحقيقة، سواء كُتِب، أو نُطِقَ به، أو أُوحِي به، فهو قرآن.

ثُمَّ قال:

٧٥٣- وَأَظُنُّهُ قَدْ رَامَ شَيْئًا لَمْ يَجِدْ عَنْهُ عِبَارَةَ نَاطِقٍ بِبَيَانِ

وهذا يقع كثيرًا، يكون في قلب الإنسان شيءٌ، لكن يَعْجِز عن التعبير عنه، وهذا يقع كثيرًا، ففي المسائل الذهنية يجد الإنسان في قلبه شيئًا، لكن لا يستطيع أن يُعبِّرَ عنه.

تجده مثلًا إذا قيل: له ما الفرق بين كذا وكذا وهو في نفسه يجد فرقًا، لكن لا يستطيع أن يُعَبِّر، وهذا يدلُّ على عمق تفكير الإنسان، وأنه وصل إلى فكر لا يستطيع أن يُعبِّرَ عنه اللسان.

فيقول ابن القيم: إِنَّ ابنَ حزم -رحمه الله- رام شيئًا، يعني قصد شيئًا، ولكن عَجَز عن التعبير عنه، ثُمَّ فَصَّلَ ابن القيم -رحمه الله- فقال:

٧٥٤- إِنَّ الْـمُعَيَّنَ ذُو مَرَاتِبَ أَرْبَعٍ عُقِلَتْ فَلا تَخْفَى عَلَى إِنْسَانِ

٧٥٥- فِي الْعَيْنِ، ثُمَّ الذِّهْنِ، ثُمَّ اللَّفْظِ ثُمْـ ـمَ الرَّسْمِ حِينَ تَخُطُّه بِبَنَانِ

قوله: «الـمُعَيَّن» يعني: المُسَمَّى.

قَوْلُهُ: «فِي العَيْنِ» يعني: وجود الشيء بعينه.

الشيء الـمُعَيَّن له أربع مراتب:

الأول: يقول (فِي العَيْنِ) يعني: وجوده عينًا، وهذا بالنسبة للكلام هو الذي يصدر من أول ناطقٍ به، فمثلا أنا إذا قلتُ خطبةً، فقد وُجِدت هذه الخطبة بالعين، وُجدت الآن سُمِعَت وقُرِئت، وتلوتها، فأنا أوجدتها بالعين، هذا يُسَمَّى الوجود العيني.

الثاني: ثُمَّ بعد ذلك (فِي الذِّهْـنِ)، أنتم إذا سمعتم الـخطبة انطبعت في أذهانكم.

الثالث: ثُمَّ بعد ذلك اللفظ، تَلْفِظون بها.

الرابع: ثُمَّ بعد ذلك الرسم، هذا بالنسبة للسامع.

وكذلك هو بالنسبة لمُوجِد للكلام، لكن مُوجِد الكلام يبدأ الكلام في الذهن أولًا، ثُمَّ اللفظ، ثُمَّ الرسم، وهو إذا وُجِدَ في اللفظ وُجد عينًا لا ذهنًا.

ففي الحقيقة أنَّ الوجود عن الكلام إن كان بالنسبة للمتكلِّم فالترتيب كما يلي: الذهن، ثُمَّ اللفظ، وبه تكون العين، ثمَّ الرسم.

وبالنسبة لغيره: أولًا: العين أي: وجوده من المتكلِّم، ثُمَّ انطباعه في الذهن، ثُمَّ نقله وإبلاغه باللفظ أو بالرسم، أي قد يلفظ فيُعبِّر عمَّا في ذهنه، وقد يرسم فيكتب ما في ذهنه.

إذا تأملت الكلام وجدته لا يخرج عن هذه المراتب، لكن هل هذه المراتب تستلزم تعدد العين أو أنها عين واحدة؟

الجواب: هي عين واحدة، لكن لها مراتب، وابن حزم -رحمه الله- ظنَّ أَنَّ اختلاف هذه المراتب كاختلاف الأعيان، وأنَّ كلَّ مرتبة تجعل الشيءَ عينًا مستقلة عن المرتبة التي قبلها، ولكنَّ الصواب: أنَّ المراتب لا تُخْرِج الواحد المعيَّن عن كونه واحدًا، لكن يترتب وجوده.

فالقرآن الكريم تكلَّم الله عزَّ وجلَّ به، فهذا وجوده عينًا، ثُمَّ سمعه جبريلُ ونقله إلى محمد -عليه الصلاة والسلام-، وبلَّغه محمدٌ، هذا وجوده لفظًا، ثُمَّ الناس الذين سمعوه أيضا حفظوه، فكان هذا وجودًا ذِهْنيًا، ثُمَّ تلوه فكان وجودًا لفظيًّا، أو رسموه في المصاحف فصار موجودًا رسمًا، ولكن هذه الأطوار التي تكون للكلام لا تستلزم أن يكون الكلام متعددًا.

فأنت تَتصوَّر إنسانًا، ثُمَّ تقرره في ذهنك، ثُمَّ تعبِّر عنه بلسانك، أو ترسمه ببنانك، وهل هو يتغيَّر باختلاف هذه الصور أو هو شيء واحد؟

الجواب: هو شيءٌ واحد، ولهذا قال.

٧٥٦-وَعَلَى الْـجَمِيعِ الاسْمُ يُطْلَقُ لَكِنِ الْـ   أَوْلَى بِـهِ الْـمَوْجُودُ فِي الأَعْيَـانِ

قَوْلُهُ: «**الأَوْلَى بِهِ الْـمَوْجُودُ**»، لأنَّ كُلَّ ما بعد الوجود ينبني عليه، وكلها يطلق عليه، فالقرآن هو القرآن حين وجوده، وحين تَصوُّره في الذهن، وحين اللفظ به، وحين الرسم.

٧٥٧- بِخِلافِ قَوْلِ ابْنِ الْـخَطِيبِ[1] فَإِنَّهُ قَـدْ قَـالَ: إِنَّ الْوَضْـعَ لِلأَذْهَـانِ

قَوْلُهُ: «ابن الخطيب» في شرح الهرَّاس أنه هو الفخر الرازي.

قَوْلُهُ: «إِنَّ الْوَضْعَ لِلأَذْهَانِ» يعني: أصل الشيء يكون في الذهن قبل أن يوجد.

وهذا غير صحيح، نعم يكون في الذهن قبل أن يوجد إذا كان ممَّن قاله أو فعله، أما إذا كان قولَ غيرِه أو فِعْلَ غيره فإنه يكون في الوجود في الأعيان قبل أن يكون في الذهن.

٧٥٨- فَالشَّـيْءُ شيْءٌ وَاحِـدٌ لا أَرْبَـعٌ فَـدَهَى ابْـنَ حَـزْمٍ قِلَّـةُ الْعِرْفَـانِ

فابن الخطيب مذهبه مذهب الأشاعرة، يقول: إنَّ الشيءَ شيءٌ واحدٌ، سواء قُرئ، أو كُتب، أو حُفظ، فهو شيء واحد مخلوق، والمعنى القائم بالنفس غير مخلوق.

ومعنى (دهاه) أي: أصابه بداهية يعني مهلكة، لأنه لم يعرف الفرق بين القراءة والمقروء، والكتابة والمكتوب، والحفظ والمحفوظ، فلما عَرَف الفرق، فلذلك فَرَّق، وقال: الجميع أربعة: ثلاثة مخلوقة، وواحد غير مخلوق.

* * *

(١) ابن الخطيب (إن كان هو الرازي، لأنه يقال له: ابن خطيب الرَّي)، فهو محمد بن عمر بن الحسن ابن الحسين التيمي، البكري، فخر الدين، ولد في الرَّي سنة (٥٤٤هـ)، وكان بارعًا في العلوم، مجيدًا للغة الفارسية والعربية، وتوفي في هَراة سنة (٦٠٦هـ). [الشارح]. وانظر: الأعلام للزركلي (٦/ ٣١٣).

٧٥٩- وَاللهُ أَخْـــبَرَ أَنَّـــهُ سُـــبْحَانَهُ مُـــتَكَلِّمٌ بـــالْوَحْيِ وَالْفُرْقَـــانِ
٧٦٠- وَكَـــذَاكَ أَخْبَرَنَـــا بِـــأَنَّ كلامــه بِصُـــدُورِ أَهْـــلِ الْعِلْـــمِ وَالإِيـــمَانِ
٧٦١- وَكَـذَاكَ أَخْـبَرَ أَنَّـهُ الْـمَكْتُوبُ فِي صُـــحُفٍ مُطَهَّـــرَةٍ مِـــنَ الـــرَّحْمَنِ
٧٦٢- وَكَـذَاكَ أَخْـبَرَ أَنَّـهُ الْـمَتْلُوُّ وَالْـــمَقْرُوءُ عِنْـدَ تِـلاوَةِ الإِنْسَـانِ
٧٦٣- وَالْكُـــلُّ شَيْءٌ وَاحِـــدٌ لا أَنَّـــهُ هُـــوَ أَرْبَـــعٌ وَثَلاثَـــةٌ وَاثْنَـــانِ
٧٦٤- وَتِـــلاوَةُ الْقُـــرْآنِ أَفْعَـــالٌ لَنَـــا وَكَـذَا الْكِتَابَـةُ فَهْـيَ خَـطُّ بَنَـانِ
٧٦٥- لَكِـنَّمَا الْـمَتْلُوُّ وَالْـمَكْتُوبُ وَالْـــمَحْفُوظُ قَـوْلُ الْوَاحِـدِ الـرَّحْمَنِ
٧٦٦- وَالْعَبْـدُ يَقْـرؤُهُ بِصَـوْتٍ طَيِّـبٍ وَبِضِـــدِّهِ فَهُـــمَا لَـــهُ صَـــوْتَانِ
٧٦٧- وَكَـــذَاكَ يَكْتُبُـــهُ بِخَـــطٍّ جَيِّـــدٍ وَبِضِـــدِّهِ فَهُـــمَا لَـــهُ خَطَّـــانِ
٧٦٨- أَصْـــوَاتُنَا وَمِـــدَادُنَا وَأَدَاؤُنَـــا وَالـــرَّقُّ، ثُـــمَّ كِتَابَـــةُ الْقُـــرْآنِ
٧٦٩- وَلَقَـدْ أَتَـى فِي نَظْمِـهِ مَـنْ قَـالَ قَـوْ لَ الْـــحَقِّ فيــه وَهْــوَ غَــيْرُ جَبَــانِ
٧٧٠- إِنَّ الَّذِي هُوَ فِي الْـمَصَاحِفِ مُثْبَـتٌ بِأَنَامِـــلِ الأَشْـــيَاخِ وَالشُّـــبَّانِ
٧٧١- هُــوَ قَــوْلُ رَبِّي آيُــهُ وَحُرُوفُــهُ وَمِـــدَادُنَا وَالـــرَّقُّ مَخْلُوقَـــانِ
٧٧٢- فَشَـفَى وَفَـرَّقَ بَـيْنَ مَتْلُـوٍّ وَمَصْـــنُوعٍ وَذَاكَ حَقِيقَـــةُ الْعِرْفَـــانِ
٧٧٣- الْكُـلُّ مَخْلُـوقٌ وَلَـيْسَ كَلامُـهُ الْـــمَتْلُـــوُّ مَخْلُوقًـــا هُمَـــا شَـــيْئَانِ
٧٧٤- فَعَلَيْـكَ بِالتَّفْصِـيلِ وَالتَّمْيِيـزِ فَالْـــإِطْـــلَاقُ وَالإِجْمَـــالُ دُونَ بَيَـــانِ

٧٧٥- قَدْ أَفْسَدَا هَذَا الْوُجُودَ وَخَبَّطَا الْـ أَذْهَانَ وَالآرَاءَ كُلَّ زَمَانِ

الشرحُ

٧٥٩- وَاللهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ مُتكَلِّمٌ بِالْوَحْيِ وَالْفُرْقَانِ

يبيِّنُ المؤلف -رحمه الله- أنَّ الله -سبحانه وتعالى- أخبر أنه متكلِّم بالوحي والفرقان، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، وقال: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية:٢٩].

٧٦٠- وَكَذَاكَ أَخْبَرَنَا بِأَنَّ كلامه بِصُدُورِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ

أخبر الله عزَّ وجلَّ أنَّ الكتاب في صُدور أهل العلم، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩].

٧٦١- وَكَذَاكَ أَخْبَرَ أَنَّهُ الْمَكْتُوبُ فِي صُحُفٍ مُطَهَّرَةٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ﴾ [عبس:١١-١٤]، يعني: القرآن، كذلك أيضا:

٧٦٢- وَكَذَاكَ أَخْبَرَ أَنَّهُ الْمَتْلُوُّ وَالْـ مَقْرُوءُ عِنْدَ تِلاوَةِ الإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «أَخْبَرَ أَنَّهُ الْمَتْلُوُّ» قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة:١٢١]، ولم يقل -رحمه الله تعالى-: إنه مكتوب في اللوح المحفوظ، فإمَّا أنْ يُقال: إنَّ ابن القيم -رحمه الله- يرى أنَّ المكتوب في اللوح المحفوظ هو ذِكْرُ القرآن فقط، وأنَّ قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج:٢١-٢٢]، أي: ذكره في اللوح المحفوظ، كما قال الله -تبارك وتعالى- عن

القرآن نفسه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦]، أي: في كتبهم، وليس القرآن هو الذي في كتبهم، ولكن ذكر القرآن والإشادة به.

وأكثر العلماء على أنَّ القرآنَ الكريمَ مكتوبٌ في اللوح المحفوظ، وأَنَّ الله تعالى كتبه في اللوح المحفوظ كما كتب جميع الكائنات إلى يوم القيامة، ثُمَّ لما أراد أن ينزله على محمدٍ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- تكلَّم به، فسمعه جبريل، فنزل به، وهذا الذي عليه أكثر العلماء.

فإغفال ابن القيم له يحتمل أنه يرى الرأي الأول، ويحتمل أنه أغفله سهوًا ونسيانًا، فالله أعلم.

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ أَخْبَرَ أَنَّهُ الْـمَقْرُوءُ» يعني: أخبر أنه يُقرأ، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٨-١٩].

٧٦٣-وَالْكُلُّ شَيْءٌ وَاحِدٌ لا أَنَّهُ ... هُوَ أَرْبَعٌ وَثَلاثَةٌ وَاثْنَانِ

يعني أنَّ المَتْلُوَّ والمكتوبَ كليهما شيءٌ واحد، لا أنه أربع أو ثلاثة أو اثنان كما ذهَبَ إليه ابن حزم -رحمه الله-.

٧٦٤- وَتِلاوَةُ الْقُرْآنِ أَفْعَالٌ لَنَا ... وَكَذَا الْكِتَابَةُ فَهْيَ خَطُّ بَنَانِ

يعني أنَّ التلاوة والكتابة هما أفعالنا، وهما مخلوقتان، فعندما آخذ ورقة، وأكتب فيها آية من كتاب الله فهذا فِعْلِي، وعندما أتكلَّم بالقرآن فهذا أيضًا فِعْلِي، فهناك شيء مكتوب، وهناك شيء مقروء، وهناك كتابة وقراءة، فالكتابة والقراءة مخلوقتان، لأنهما أفعالنا.

٧٦٥- لَكِنَّمَا الْمَتْلُوُّ وَالْمَكْتُوبُ وَالْـ ـمَحْفُوظُ قَوْلُ الْوَاحِدِ الرَّحْمَنِ

يعني أنَّ المقروء والمكتوب وهو القرآن غير مخلوق.

٧٦٦- وَالْعَبْدُ يَقْرَؤُهُ بِصَوْتٍ طَيِّبٍ وَبِضِدِّهِ فَهُمَا لَهُ صَوْتَانِ

والدليل على هذا أنَّ القرآن كُلَّه كاملٌ من كُلِّ وجه، ومع ذلك يقرؤه إنسان بصوت جيد وتلاوة طيبة، وآخر بالعكس، أي: يقرؤه شخص رديء الصوت ولا تلتذ بقراءته، فهل نقول: هذان قرآنان؟ الجواب: لا، أبدًا، لا نقول هذا، فالقرآن شيء واحد تُلي على هذا الوجه أو على هذا الوجه.

٧٦٧- وَكَذَاكَ يَكْتُبُهُ بِخَطٍّ جَيِّدٍ وَبِضِدِّهِ فَهُمَا لَهُ خَطَّانِ

وهو شيء واحد، مع أنه يكتبه شخص بخط جَيِّد، أو يكتبه شخص بخط رديء فلا تكاد تقرؤه، فالذي كان رديئًا هنا هل هو القرآن نفسه أو الصوت؟ الجواب: الصوت، وهل هو القرآن نفسه أو الكتابة؟ الجواب: الكتابة.

ولا نقول: لما اختلفت صورة الخط اختلف القرآن.

إِذَنْ هناك فرق بين الكتابة والمكتوب، وبين القراءة والمقروء.

٧٦٨- أَصْوَاتُنَا وَمِدَادُنَا وَأَدَاؤُنَا وَالرَّقُّ، ثُمَّ كِتَابَةُ الْقُرْآنِ

هذه كُلُّها مخلوقة، فصوتي مخلوقٌ، والمِداد الذي هو الحبر مخلوقٌ، والأداء مخلوقٌ، والرَّق مخلوقٌ.

قَوْلُهُ: «أَدَاؤُنَا» في نسخة (أداتنا) بالتاء، ولعلَّها أحسن، لأنَّ المراد بها القلم الذي يُكْتب به.

٧٦٩-وَلَقَدْ أَتَى فِي نَظْمِهِ مَنْ قَالَ قَوْ ... لَ الْـحَقِّ فيه وَهْوَ غَيْرُ جَبَانِ

ثُمَّ أثنى على مَنْ قال هذا القول الحقِّ، وهو القحطاني[1] -رحمه الله- في نونيته القحطانية المشهورة.

٧٧٠- إِنَّ الَّذِي هُوَ فِي الْـمَصَاحِفِ مُثْبَتٌ ... بِأَنَامِلِ الأَشْيَاخِ وَالشُّبَّانِ

٧٧١- هُوَ قَوْلُ رَبِّي آيُهُ وَحُرُوفُهُ ... وَمِدَادُنَا وَالرَّقُّ مَخْلُوقَانِ

٧٧٢- فَشَفَى وَفَرَّقَ بَيْنَ مَتْلُوٍّ وَمَصْـ ... ـنُوعٍ وَذَاكَ حَقِيقَةُ الْعِرْفَانِ

٧٧٣- الْكُلُّ مَخْلُوقٌ وَلَيْسَ كَلامُهُ الْـ ... مَتْلُوُّ مَخْلُوقًا هُمَا شَيْئَانِ

وهذا صحيح، فالكتابة تحتاج إلى خمسة أشياء: يد، وقلم، ومداد، ورَّق -يعني: قرطاسًا- ومكتوب، الأربعة الأولى مخلوقة، والخامسُ -وهو المكتوب- غيرُ مخلوق.

٧٧٤- فَعَلَيْكَ بِالتَّفْصِيلِ وَالتَّمْيِيزِ فَالْـ ... إِطْلَاقُ وَالإِجْمَالُ دُونَ بَيَانِ

٧٧٥- قَدْ أَفْسَدَا هَذَا الْوُجُودَ وَخَبَّطَا الْـ ... أَذْهَانَ وَالآرَاءَ كُلَّ زَمَانِ

قَوْلُهُ: «فَعَلَيْكَ بِالتَّفْصِيلِ» يعني: لو قال قائل: هل لفظي بالقرآن مخلوق؟ نقول: هذا يحتاج إلى تفصيل: إن قصدتَ لفظي (الملفوظ) فهو غير مخلوق، وإن أردتَ لفظي -أي: تلفُّظي- فهو مخلوق، إنما قلنا بالأول، لأنَّ (لفظي) مصدر،

---

(١) هو أبو محمد بن عبد الله بن محمد الأندلسي القحطاني السلفي المالكي، كان فقيهًا حافظًا جمع تاريخًا لأهل الأندلس، وقال أبو سعيد الإدريسي في تاريخ سمرقند: إنه كان من أفضل الناس ومن ثقاتهم. وقال السمعاني: كان فقيهًا حافظًا في طلب العلم إلى المشرق والمغرب له قصيدة نونية مطبوعة. المصدر: الموسوعة الشعرية.

والمصدر يجيء بمعناه، ويجيء بمعنى اسم المفعول، فإذا كان لفظي بمعنى ملفوظي فهو غير مخلوق، وإذا كان لفظي بمعنى تلفُّظي فهو مخلوق.

قَوْلُهُ: «فَالإِطْلَاقُ وَالإِجْمَالُ... قَدْ أَفْسَدَا هَذَا الْوُجُودَ» أحيانًا يأتي الإجمال والإبهام فيفسدان، انظر إلى أهل البدع، نَفَوْا تعطيلَ صفات الله عزَّ وجلَّ، بل قرَّروا نفيَ صفات الله بناءً على أنَّ إثباتها يستلزم التجسيمَ، والجسم في حقِّ الله عندهم ممنوع، وهذا فيه إبهام.

فنقول: ما الجسم الذي يكون ممنوعًا عندكم؟ لا بدَّ أن تفصِّلوا، إنْ أردتم بالجسم الجسم المُكَوَّن بعضه إلى بعض الذي قام بعضه ببعض، ولا يبقى بعضه مع فناء البعض الآخر، فهذا ممتنع على الله، وإن أردتم بالجسم ما يتصف بالصفات اللائقة به، فهذا غير مستحيل، فهذا ثابت لله.

فانظر إلى الإجمال كيف أفسد هؤلاء، قالوا: ليس بجسم فقط، كُلُّ شيء يستلزم أن يكون جسمًا فهو عندهم ممنوع.

وإن كنا لا نقول -ابتداءً-: إنَّ لله جسمًا، بل نقول: لله -سبحانه وتعالى- ذاتٌ متصفةٌ بالصفات اللائقة به.

* * *

٧٧٦- وَتِــلاوَةُ الْقُــرْآنِ فِي تَعْرِيفِهَــا ... بِــاللَّامِ قَــدْ يُعْنَــى بِهَــا شَــيْئَانِ

٧٧٧- يُعْنَــى بِهَــا الْــمَتْلُوُّ فَهْــوَ كَلامُــهُ ... هُــوَ غَــيْرُ مَخْلُــوقٍ كَــذِي الأَكْــوَانِ

٧٧٨- وَيُــرَادُ أَفْعَــالُ الْعِبَــادِ كَصَــوْتِهِمْ ... وَأَدَائِهِــمْ وَكِلاهُمَــا خَلْقَــانِ

٧٧٩- هَذَا الَّــذِي نَصَّــتْ عَلَيْـهِ أَئِمَّــةُ الْــ ... إِسْــلامِ أَهْــلُ الْعِلْــمِ وَالْعِرْفَــانِ

٧٨٠- وَهْوَ الَّذِي قَصَدَ الْبُخَارِيُّ الرِّضَا ... لَكِنْ تَقَاصَرَ قَاصِرُ الأَذْهَانِ

٧٨١- عَنْ فَهْمِهِ كَتَقَاصُرِ الأَفْهَامِ عَنْ ... قَوْلِ الإِمَامِ الأَعْظَمِ الشَّيْبَانِي

٧٨٢- فِي اللَّفْظِ لَمَّا أَنْ نَفَى الضِّدَّيْنِ عَنْـ ... ـهُ وَاهْتَدَى لِلنَّفْيِ ذُو عِرْفَانِ

٧٨٣- فَاللَّفْظُ يَصْلُحُ مَصْدَرًا هُوَ فِعْلُنَا ... كَتَلَفُّظٍ بِتِلاوَةِ الْقُرْآنِ

٧٨٤- وَكَذَاكَ يَصْلُحُ نَفْسُ مَلْفُوظٍ بِهِ ... وَهْوَ الْقُرَانُ فَذَانِ مُحْتَمِلانِ

٧٨٥- فَلِذَاكَ أَنْكَرَ أَحْمَدُ الإِطْلاقَ فِي ... نَفْيٍ وَإِثْبَاتٍ بِلا فُرْقَانِ

الشرحُ

٧٧٦- وَتِلاوَةُ الْقُرْآنِ فِي تَعْرِيفِهَا ... بِاللَّامِ قَدْ يُعْنَى بِهَا شَيْئَانِ

٧٧٧- يُعْنَى بِهَا الْمَتْلُوُّ فَهْوَ كَلامُهُ ... هُوَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ كَذِي الأَكْوَانِ

المؤلف -رحمه الله- هنا يقول: إنَّ تلاوة القرآن في تعريفها باللام -أي: المعرفة بأل (التلاوة) هكذا- يُراد بها المتلو، ويراد بها الفعل -أي: فعل التالي- إن أردتَ بها فعل التالي فهي مخلوقة، وإن أردت بها المتلوَّ فهي غير مخلوقة.

أمَّا إذا قيل: تلاوة القرآن، فهي غير ما أراده ابن القيم هنا.

إذا قيل: تلاوة القرآن، فإنها تنقسم إلى قسمين من وجه آخر: يُراد بتلاوته قراءته، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٢٩]، وقوله تعالى: ﴿يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ [آل عمران:١١٣].

ويراد بتلاوته اتِّباعه، كما تقول: تلا فلانٌ فلانًا، أي: تابعه، وأتى تاليًا له.

فعندنا الآن تلاوة القرآن، وعندنا التلاوة، فالتلاوة لها معنيان:

تلاوة بمعنى المَتلوِّ، فهي مصدر بمعنى اسم المفعول، فيكون المراد بها القرآن، وهو غير مخلوق.

و(**تلاوة**) بمعنى فعل التالي، وحينئذٍ تكون مخلوقة، لأنَّ الإنسان وأفعاله مخلوقان.

أما تلاوة القرآن بالإضافة، وهي غير محلاة بـ(**أل**) فُيراد بها معنيان: المعنى الأول: قراءته، أي: قراءة القرآن. والمعنى الثاني: اتِّبَاع القرآن.

قَوْلُهُ: «**هُوَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ كَذِي الأَكْوَانِ**» التمثيل هنا في قوله: «**كَذِي الأكوانِ**» هل هو للمنفي أو للنفي؟

الجواب: للمنفي، لأنَّ الأكوانَ مخلوقةٌ، والقرآنَ غيرُ مخلوق.

فقَوْلُهُ: «**غَيْرُ مَـخْلُوقٍ كَذِي الأَكْوَانِ**» هذا تمثيل للمخلوق، يعني: للمنفي، لا للنفي.

٧٧٨- وَيُـرَادُ أَفْعَـالُ الْعِبَـادِ كَصَـوْتِهِمْ   وَأَدَائِهِـمْ وَكِلاهُمَـا خَلْقَـانِ

قَوْلُهُ: «**وَيُرَادُ أَفْعَالُ الْعِبَادِ**» يعني: يُراد بالتلاوة أفعالُ العباد.

قَوْلُهُ: «**كَصَوْتِهِمْ وَأَدَائِهِمْ وَكِلاهُمَا خَلْقَانِ**» الصوت معروف، وهو ما يُسْمَع، و(**الأداء**) يعني: حسن القراءة، فهذا كُلُّه مخلوق.

٧٧٩- هَذَا الَّـذِي نَصَّـتْ عَلَيْـهِ أَئِمَّـةُ الْـ   إِسْــلامِ أَهْــلُ الْعِلْــمِ وَالْعِرْفَــانِ

٧٨٠- وَهْوَ الَّذِي قَصَدَ الْبُخَـارِيُّ الرِّضَـا   لَكِــنْ تَقَــاصَرَ قَــاصِرُ الأَذْهَــانِ

البخاري -رحمه الله- حصل بينه وبين محمد بن يحيى الذهلي[1] مناظرةٌ كبيرةٌ عظيمة في اللفظ في قول الإنسان: **(اللفظ بالقرآن هل هو مخلوقٌ أو غير مخلوق؟)** والبخاري -رحمه الله- فَصَّل كالتفصيل الذي سبق آنفا، وهو أنه إِنْ قُصِدَ باللفظ الملفوظ به فهو غير مخلوق، وإن قُصد باللفظ التلفظ الذي هو فعل الإنسان فهو مخلوق.

قَوْلُهُ: «الْبُخَارِيُّ الرِّضَا» هذا المؤلف -رحمه الله- أثنى على البخاري، ووصفه بالرضا، والرضا مصدر بدل عن الراضي أو المَرْضِي عنه.

٧٨١- عَـنْ فَهْمِـهِ كَتَقَـاصُرِ الأَفْهَـامِ عَـنْ   قَــوْلِ الإِمَــامِ الأَعْظَــمِ الشَّــيْبَانِي

قَوْلُهُ: «الإِمَامِ الأَعْظَمِ الشَّيْبَانِي» هو أحمد بن حنبل -رحمه الله-.

٧٨٢- فِي اللَّفْظِ لَـمَّا أَنْ نَفَى الضِّـدَّيْنِ عَنْـ   ـــهُ وَاهْتَــدَى لِلنَّفْــيِ ذُو عِرْفَــانِ

يعني يُقال: لا تقل: مخلوق ولا غير مخلوق، فالإمام أحمد -رحمه الله- قال: لا تقل: (لفظي بالقرآن مخلوق)، ولا تقل: (غير مخلوق)، فنفى عنه الضدين، وقال **(مَنْ قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جَهْمِيٌّ، ومَنْ قال: غيرُ مخلوقٍ فهو مبتدع)**.

---

(١) هو محمد بن يحيى بن عبد الله الذُّهْلي مولاهم النيسابوري، أبو عبد الله، من حُفَّاظ الحديث ثقة، من أهل نيسابور، رحل رحلة واسعة فزار بغداد والبصرة وغيرهما في طلب الحديث، واشتهر. وروى عنه البخاري أربعة وثلاثين حديثا، توفي (٢٥٨هـ). انظر: الأعلام للزركلي (٧/ ١٣٥).

إِذَنْ مقتضى هذا الكلام أَلَّا أقولَ: (مخلوق) ولا غير مخلوق، لأنَّ ذلك يُشكل، فإذا قلتُ: (مخلوق) صرتُ جهميًا، وإن قلت: (غير مخلوق) صرت مبتدعًا، إِذَنْ أسكت، ولا أقول هذا ولا هذا.

٧٨٣- فَاللَّفْظُ يَصْلُحُ مَصْدَرًا هُوَ فِعْلُنَا   كَتَلَفُّظٍ بِتِلاوَةِ الْقُرْآنِ

٧٨٤- وَكَذَاكَ يَصْلُحُ نَفْسُ مَلْفُوظٍ بِهِ   وَهْوَ الْقُرَانُ فَذَانِ مُحْتَمِلانِ

٧٨٥- فَلِذَاكَ أَنْكَرَ أَحْمَدُ الإِطْلاقَ فِي   نَفْيٍ وَإِثْبَاتٍ بِلا فُرْقَانِ

قَوْلُهُ: «**فَاللَّفْظُ يَصْلُحُ مَصْدَرًا هُوَ فِعْلُنَا**» يعني: اللفظ قد يُراد به المصدر الذي هو فعلنا: يعني التلفظ.

قَوْلُهُ: «**وَكَذَاكَ يَصْلُحُ نَفْسُ مَلْفُوظٍ بِهِ**» وهو القرآن، وعلى هذا يكون اللفظ بمعنى الملفوظ به.

وَقَوْلُهُ: «**فَذَانِ مُحْتَمِلانِ**» إذن أنت إذا قلت: (**لَفْظِي بالقرآنِ مَخْلُوقٌ**) قد يفهم السامعُ أنك تريد باللفظ اسمَ المفعول، وحينئذٍ يأخذ برأي الجهمية، لأنَّ الجهمية يقولون: الملفوظ به مخلوق، فهو محتمل لهذا المعنى الفاسد.

ومحتمل لمعنًى صحيحٍ وهو تلفُّظي بالقرآن مخلوق، وهذا صحيح، لكنَّ الإمام أحمد قال: إنه بدعة، لأنَّ السلف ما تكلَّموا به، فليس في كلام الصحابة ولا كلام التابعين أن يُقَال: (لَفْظِي بِالقُرْآنِ مَخْلُوقٌ أو غَيْرُ مَخْلُوقٍ)، فلهذا قال: إنه بدعة، فلا تُطْلِق، لكن عند التفصيل يزول الإشكال، فنقول للقائل: ماذا تريد بقولك: (**لَفْظِي بِالقُرْآنِ مَخْلُوقٌ**)؟ إن قال: أريد ما أَلفِظُ به، نقول: هو جهمي، لأنَّ معناه أنه أراد القرآن، فلا نصحح قولَه.

وإن قال: أريد بـ(**لَفْظِي بِالقُرْآنِ مَخْلُوقٌ**) صوتي وتلفظي بالشيء، وحركاتي، نقول: قولك هذا صحيح، ولكن لا تُطْلِق، لأنك إذا أطلقت أوهمت معنًى فاسدًا، ولهذا منع الإمامُ أحمدُ -رحمه الله- من هذا.

* * *

فصــل

فِي مَقَالاتِ الفَلاسِفَةِ وَالقَرامِطَةِ فِي كَلامِ الرَّبِّ ـ جَلَّ جَلالُهُ ـ

٧٨٦- وَأَتَى ابْنُ سِينَا الْقُرْمُطِيُّ مُصَانِعًا ... لِلْمُسْلِمِينَ بِإِفْكِ ذِي بُهْتَانِ
٧٨٧- فَرَآهُ فَيْضًا فَاضَ مِنْ عَقْلٍ هُوَ الْـ ... ـفَعَّالُ عِلَّةُ هَذِهِ الأَكْوَانِ
٧٨٨- حَتَّى تَلَقَّاهُ زَكِيٌّ فَاضِلٌ ... حَسَنُ التَّخَيُّلِ جَيِّدُ التِّبْيَانِ
٧٨٩- فَأَتَى بِهِ لِلْعَالَمِينَ خَطَابَةً ... وَمَوَاعِظًا عَرِيَتْ عَنِ الْبُرْهَانِ
٧٩٠- مَا صَرَّحَتْ أَخْبَارُهُ بِالْحَقِّ بَلْ ... رَمَزَتْ إِلَيْهِ إِشَارَةً لِمَعَانِ
٧٩١- وَخِطَابُ هَذَا الخَلْقِ وَالجُمْهُورِ بِالْـ ... ـحَقِّ الصَّرِيحِ فَغَيْرُ ذِي إِمْكَانِ
٧٩٢- لَا يَقْبَلُونَ حَقَائِقَ الْمَعْقُولِ إِلْـ ... ـلَا فِي مِثَالِ الْحِسِّ وَالأَعْيَانِ
٧٩٣- وَمَشَارِبَ الْعُقَلاءِ لا يَرِدُونَهَا ... إِلَّا إِذَا وُضِعَتْ لَهُمْ بِأَوَانِ
٧٩٤- مِنْ جِنْسِ مَا أَلِفَتْ طِبَاعُهُمُ مِنَ الْـ ... ـمَحْسُوسِ فِي ذَا الْعَالَمِ الْجُثْمَانِي
٧٩٥- فَأَتَوْا بِتَشْبِيهٍ وَتَمْثِيلٍ وَتَجْـ ... ـسِيمٍ وَتَخْيِيلٍ إِلَى الأَذْهَانِ
٧٩٦- وَلِذَاكَ يَحْرُمُ عِنْدَهُمْ تَأْوِيلُهُ ... لَكِنَّهُ حِلٌّ لِذِي الْعِرْفَانِ
٧٩٧- فَإِذَا تَأَوَّلْنَاهُ كَانَ جِنَايَةً ... مِنَّا وَخَرْقَ سِيَاجِ ذَا الْبُسْتَانِ

٧٩٨- لَكِنْ حَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ أَنْ قَدْ أَتَوْا ... بِالْكِذْبِ عِنْدَ مَصَالِحِ الإِنْسَانِ

٧٩٩- وَالْفَيْلَسُوفُ وَذَا الرَّسُولُ لَدَيْهِمُ ... مُتَفَاوِتَانِ، وَمَا هُمَا عِدْلانِ

٨٠٠- أَمَّا الرَّسُولُ فَفَيْلَسُوفُ عَوَامِّهِمْ ... وَالْفَيْلَسُوفُ نَبِيُّ ذِي الْبُرْهَانِ

٨٠١- وَالْحَقُّ عِنْدَهُمُ فَفِيمَا قَالَهُ ... أَتْبَاعُ صَاحِبِ مَنْطِقِ الْيُونَانِ

الشرحُ

هذه المقطوعة حكى فيها المؤلف -رحمه الله- قولَ الفلاسفة والقرامطة في كلام الرَّبِّ -جلَّ جلاله-.

قَوْلُهُ: «الفلاسفة» جمع فيلسوف، وهي كلمة يونانية مأخوذة من (فَيْل) و(سوف)، و(فَيْل) بمعنى: مُحِبّ، و(سوف) بمعنى الحكمة، أي: مُحِبّ الحكمة، هذا الفيلسوف عندهم.

يقول -رحمه الله-:

٧٨٦- وَأَتَى ابْنُ سِينَا الْقُرْمُطِيُّ مُصَانِعًا ... لِلْمُسْلِمِينَ بِإِفْكِ ذِي بُهْتَانِ

أمَّا القرامطة فهم أتباع القُرْمُطِي المشهور بالإلحاد، هؤلاء يقولون: إنَّ كلام الله عزَّ وجلَّ هو فيضٌ يُفِيضه العقل الفعَّال، والعقل الفعَّال -عندهم- هو علة الموجودات كلها، لأنهم لا يُقِرُّون بالخالق.

يقولون: هذه الموجودات لها علة فاعلة، علة معقولة لا محسوسة، هذه العلة فاض منها فيض على نفسٍ زكية قابلة لهذا الفيض، فانطبع هذا الفائض من العقل الفعَّال في قلب هذا الرجل الزكي.

وإنما قالوا هذا -كما قال ابن القيم- مُصناعةً للمسلمين، لأنهم يَدَّعون الإسلام، وليسوا كذلك.

وقد صرَّح شيخُ الإسلام وابن القيم بأنَّ ابن سينا كافرٌ، ليس من المسلمين، وإن كان مُقَدَّسًا عند القوميين العرب وأشباههم ممن لا يقيمون للدين وزنًا ولا للعقيدة اعتبارًا، فهو عندهم مُقَدَّس حتى إنهم قد يسمُّون بعضَ المدارس باسم هذا الرجل (**ابن سينا**) مع أنه كافر، والكافر لا يجوز أن يُنَوَّه باسمه إطلاقا، بل يُدفن ويُقْبَر، وإذا كان له من دعاية أو نشر كتب مضلة فيُذْكَر على سبيل الذم، لا على سبيل المدح، اسمع ما يقول مصانعة للمسلمين، يقول:

٧٨٧- فَرَآهُ فَيْضًا فَاضَ مِنْ عَقْلٍ هُوَ الْـ ـــفَعَّالُ عِلَّــةُ هَــذِهِ الأَكْــوَانِ

العقل الفَعَّال الذي هو علة هذه الأكوان، يعني العلة التي بها حَدَثَتْ الأكوان، وليس هناك رَبٌّ -والعياذ بالله- بل هذه الأكوان حدثت بعلَّة.

٧٨٨- حَتَّــى تَلَقَّــاهُ زَكِــيٌّ فَاضِــلٌ حَسَــنُ التَّخَيُّــلِ جَيِّــدُ التِّبْيَــانِ

يعني به: الرسول، فالنَّبِيُّ تلقى هذا الفيض.

وَقَوْلُهُ: «**زَكِيٌّ فَاضِلٌ**» أي: صافي العقيدة، حسن التخيل.

قَوْلُهُ: «**جَيِّدُ التِّبْيَانِ**» أي: يستطيع أن يعبرَ ببيان جيد، فيقول: هذا كلامُ رَبِّ العالمين.

٧٨٩- فَــأَتَى بِــهِ لِلْعَالَــمِينَ خَطَابَــةً وَمَوَاعِظًــا عَرِيَــتْ عَــنِ الْبُرْهَــانِ

يعني: ليس لها برهان ولا أصل إلَّا هذا الفيض الذي فاض من هذا العقل كما يَدَّعون.

٧٩٠- مَا صَرَّحَتْ أَخْبَارُهُ بِالْحَقِّ بَلْ   رَمَزَتْ إِلَيْهِ إِشَارَةً لِمَعَانِ

قال أيضًا: هذا الكلام الذي أتى به هذا الزَّكي، لا يريد بالقرآن ظاهره، بل المراد به إشارات خفيَّة، يعجز عنها عامة الناس، ولا يعرفها إِلَّا الخواصُّ منهم.

٧٩١- وَخِطَابُ هَذَا الخَلْقِ وَالجُمْهُورِ بِالْـ   ـحَقِّ الصَّرِيحِ فَغَيْرُ ذِي إِمْكَانِ

يقول: لو أنهم خُوطبوا -وأُرِيدَ بالخطاب صريحُ ما يدلُّ عليه- فإنَّ هذا ممتنع، لماذا؟ قال: لأنهم...

٧٩٢- لَا يَقْبَلُونَ حَقَائِقَ الْـمَعْقُولِ إِلْـ   ـلَا فِي مِثَالِ الْـحِسِّ وَالأَعْيَانِ

يعني: هذا القرآن الذي فاضه العقل على نفس هذا الزَّكِي هذا له معانٍ ظاهرة ومعانٍ باطنة مشارٌ إليها إشارة لا يفهمها الخلق ولا العوام، لأنَّ الخلق والعوام لا يفهمون إِلَّا الشيءَ المحسوس، أما الشيء المعقول فإنهم لا يدركونه، ومحالٌ أن يدركوه.

فالعوام لا يفهمون إِلَّا المحسوس، ولهذا قال: (**لَا يَقْبَلُونَ حَقَائِقَ الْـمَعْقُولِ إِلَّا فِي مِثَالِ الْحِسِّ وَالأَعْيَانِ**) يعني: إِلَّا إذا جُعِلَ على صورة شيء محسوس ومعانٍ، فالجنة والنار وما فيهما من عذاب ونعيم كُلُّ هذا غير مُراد، فكُلُّ هذا تخييل وليس بحقيقة، لكن صُوِّر للعامة بصورة المحسوس من أجل أن يقبلوه ويفهموه.

٧٩٣- وَمَشَارِبَ الْعُقَلَاءِ لا يَرِدُونَهَا   إِلَّا إِذَا وُضِعَتْ لَهُمْ بِأَوَانِ

٧٩٤- مِنْ جِنْسِ مَا أَلِفَتْ طِبَاعُهُمُ مِنَ الْـ   مَحْسُوسِ فِي ذَا الْعَالَمِ الْـجُثْمَانِي

وَقَوْلُهُ: «**وَمَشَارِبَ الْعُقَلَاءِ لَا يَرِدُونَهَا**» من الذين لا يردونها؟ الجواب: عامة الخلق، مشارب العقلاء لا يردونها، لأنَّ مشاربَ العقلاء للعقلاء، أما العامة

الهمج الرَّعاع فهؤلاء لا يمكن أن يَرِدُوا هذا، فَتُضْرَبُ لهم الأمثالُ المحسوسة رمزًا إلى أمورٍ معقولة.

قَوْلُهُ: «إِلَّا إِذَا وُضِعَتْ لَـهُمْ بِأَوَانِ» سبحان الله! تمثيل عجيب، يعني: لا يستطيع أن يشرب من الحوض والنهر، لكن إذا جئت له بالماء في آنية استطاع، فيقول: إنَّ المعقولات التي ترمز إليها هذه الكلمات هذه لا يَرِدُها العوام، إنما يرد العوام الأشياء المحسوسة التي يدركونها بحسِّهم.

٧٩٥- فَـأَتَوْا بِتَشْـبِيهٍ وَتَـمْثِيلٍ وَتَـجْـ ـسِيمٍ وَتَـخْيِيلٍ إِلَى الأَذْهَـانِ

يعني: أنَّ هذا الذي جاءت به الرسل من كلام الله ما هو إلا شيء وتخييل للأذهان من أجل تقريبه على العامة، وإلا فحقيقته غير ما يدلُّ عليه اللفظ.

٧٩٦-وَلِـذَاكَ يَحْـرُمُ عِنْـدَهُمْ تَأْوِيلُـهُ لَكِنَّـهُ حِـلٌّ لِـذِي الْعِرْفَـانِ

قَوْلُهُ: «وَلِذَاكَ يَحْرُمُ عِنْدَهُمْ تَأْوِيلُهُ» يعني: لا يجوز أن يُفَسَّرَ للعامة بالمعاني المعقولة المرادة، لماذا؟

الجواب: لأنَّ العامة لا يستطيعون أن يفهموا هذا، ولا يقبلون إلَّا بما شهد به الحسُّ.

قَوْلُهُ: «لَكِنَّهُ حِلٌّ لِذِي الْعِرْفَانِ» (ذو العِرْفان) هم علماؤهم الفلاسفة، هؤلاء فَسِّرْه لهم بالمعنى المراد، أما العامة فلا.

مثال: فـ (الحج) هو قصد مكةَ لأداء المناسك، هم قالوا: لا، الحج أن تقصد المشايخَ والأولياءَ، تطلب منهم المغفرة، ومسحةً يمسحون عليك بها تكون سعيدًا إلى يوم القيامة.

(**الصيام**): التعبد لله بالإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، قالوا: لا، ليس هذا الصيام، بل الصيام أن تكتم أسرارنا، ولا تخبر بما وراءنا، لأنَّ الصيام مشتق من الإمساك فأمْسِك أي: (**اسكت**) يعني: صُم عن هذا الكلام، لا تُخبِرْ به أحدًا.

و(**الصلاة**) فهي عبادة ذات ركوع وسجود، مُفْتَتَحة بالتكبير مُخْتَتَمة بالتسليم، هم قالوا: لا، الصلاة أن تعرف أسرارنا، لأنَّ الصلاة من الصلة يعني أن تكون ذا صلة بنا، فالصلاة بداية، والصيام نهاية، فصَلِّ يعني: تعلَّمْ أسرارَنا، و(**صُمْ**) يعني: اكتمها، فهذه الصلاة وهذا الصيام عندهم.

فنقول لهم: الصلاة والصيام معروفان عند المسلمين، فيقولون: لا، هذا الذي تقولون إسلامُ العامَّة، أمَّا نحن فإنَّ الكلمات عندنا رموز لمعانٍ لا يفهمها العامة.

٧٩٧- فَإِذَا تَأَوَّلْنَاهُ كَانَ جِنَايَةً مِنَّا وَخَرْقَ سِيَاجِ ذَا الْبُسْتَانِ

يعني: لو تأوَّلناه عند العامة كان هذا جنايةً، لأنَّ من شروط التَّنَسُّك عندهم أن تَكْتُمَ أسرارَهم، ولهذا العبادة عندهم -فيما أظنُّ- علي عشر مراحل ينزلها الإنسان مرحلةً مرحلةً حتى يَصِل إلى الغاية.

ثم قال:

٧٩٨- لَكِنْ حَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ أَنْ قَدْ أَتَوْا بِالْكِذْبِ عِنْدَ مَصَالِحِ الإِنْسَانِ

يعني: قيل لهم: إذا كان الأمر كما قلتم، فما تقولون فيما جاءت به الرسل، فالرسل جاءوا للناس، وقالوا: هذه الصلاة، وهذا الصيام، وهذا الحج، وقالوا: هناك جنة ونار، وعذاب ونعيم؟

قالوا: هذا كُلُّه كذب، فلا جنة ولا نار، ولا نعيم ولا عذاب، ولا شيء أبدًا، لكن هذا كَذِبٌ، كَذَبَ به الرسل من أجل المصلحة -أعوذ بالله- كذبوا لمصلحة؟! قالوا: نعم، لأنَّ الناس إذا قيل لهم: (**افعلوا كذا**)، قد لا يستجيبون، وإذا قيل: (**لا تفعلوا كذا**)، قد لا ينتهون، لكن إذا قيل لهم: إِنْ فعلتم كذا أسكناكم جنة فيها من النعيم المقيم ما لا يَخْطِر على البال، فإنهم يفعلون.

وإذا قيل لهم: إِنْ خالفتم أسكنَّاكم نارًا فيها من العذاب كذا وكذا، فإنهم ينتهون.

فالرسل كَذَبوا من أجل المصلحة كما تقول للصبي: (**افعل هذا أُعطيك حلاوة**)، (**ولا تفعل هذا فأكويك بالجمرة**) فيفعل الصبيُّ، ولا يفعل الثاني، مع أنه لا يعطيه حلاوة، ولن يكويَه بالجمرة.

فهذا هو -والعياذ بالله- رأيهم في الرسل أنهم كذبوا عند مصالح الإنسان.

ثُمَّ قال:

٧٩٩- وَالْفَيْلَسُوفُ وَذَا الرَّسُولُ لَدَيْهِمُ مُتَفَاوِتَانِ، وَمَا هُمَا عِدْلانِ

الفيلسوف والرسول متفاوتان أي: بينهما فرق عظيم، وما هما عدلان، والفرق ذكره بقوله:

٨٠٠- أَمَّا الرَّسُولُ فَفَيْلَسُوفُ عَوَامِّهِمْ وَالْفَيْلَسُوفُ نَبِيُّ ذِي الْبُرْهَانِ

يقولون: هؤلاء الرسل للعوام، أما الفيلسوف الذي هو فيلسوف عندهم فهو نبيُّ ذي البرهان، فهذا هو النَّبِيُّ الحقيقي، أما ذاك فهو رسول للعوام.

وهذا -والعياذ بالله- أكفر من كفر اليهود والنصارى بلا شك.

فإذا كانوا يقولون: الرسل: محمد -عليه الصلاة والسلام- وإبراهيم، وموسى، وعيسى، هؤلاء رسلُ عوامٍّ كذابون، ما صدقوا، والفلاسفة عندهم هم الأنبياء، هم الذين يتلقون من العقل الفعَّال، ويأتون بما فيه الخير.

٨٠١- وَالْـحَقُّ عِنْـدَهُمُ فَفِيمَا قَالَـهُ ... أَتْبَـاعُ صَـاحِبِ مَنْطِقِ الْيُونَـانِ

يعني: وليس فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

***

٨٠٢- وَمَضَـى عَـلَى هَـذِي الْـمَقَالَةِ أُمَّـةٌ ... خَلْـفَ ابْـنِ سِـينَا فَاغْتَـذَوْا بِلِبَـانِ

٨٠٣- مِـنْهُمْ نَصِـيرُ الْكُفْـرِ فِي أَصْـحَابِهِ ... النَّـاصِرِينَ لِـمِلَّةِ الشَّـيْطَانِ

٨٠٤- فَاسْـأَلْ بِهِـمْ ذَا خِـبْرَةٍ تَلْقَـاهُمُ ... أَعْـدَاءَ كُـلِّ مُوَحِّـدٍ رَبَّـانِي

٨٠٥- وَاسْـأَلْ بِهِـمْ ذَا خِـبْرَةٍ تَلْقَـاهُمُ ... أَعْـدَاءَ رُسْـلِ الله وَالْقُـرْآنِ

٨٠٦- صُوفِيُّهُمْ عَبَدَ الْوُجُودَ الْـمُطْلَقَ الْـ ... ـمَعْدُومَ عِنْـدَ الْعَقْـلِ فِي الأَعْيَـانِ

٨٠٧- أَوْ مُلْحِـدٌ بِالاتِّحَـادِ يَـدِينُ لَا التَّـ ... ـوْحِيدِ مُنْسَـلِخٌ مِـنَ الأَدْيَـانِ

٨٠٨- مَعْبُـودُهُ مَوْطُـوءُهُ فِيـهِ يَـرَى ... وَصْفَ الْـجَمَالِ وَمَظْهَرَ الإِحْسَـانِ

٨٠٩- اللهُ أَكْبَرُ كَمْ عَلَى ذَا الْـمَذْهَبِ الْـ ... مَلْعُـونِ بَـيْنَ النَّـاسِ مِـنْ شِـيخَانِ

٨١٠- يَبْغُـونَ مِـنْهُمْ دَعْـوَةً وَيُقَبِّلُـو ... نَ أَيَادِيًـا مِـنْهُمْ رَجَـا الْغُفْـرَانِ

٨١١- لَـوْ أَنَّهُـمْ عَرَفُـوا حَقِيقَـةَ أَمْـرِهِمْ ... رَجَمُـوهُمُ لَا شَـكَّ بِالصَّـوَّانِ

٨١٢- فَابْذُرْ لَـهُمْ إِنْ كُنْتَ تَبْغِي كَشْـفَهُمْ ... وَافْـرِشْ لَـهُمْ كَفًّـا مِـنَ الأَتْبَـانِ

٨١٣- وَاظْهَـرْ بِمَظْهَـرِ قَابِـلٍ مـنْهُمْ وَلَا ... تَظْهَـرْ بِمَظْهَـرِ صَـاحِبِ النُّكْـرَانِ

٨١٤- وَانْظُـرْ إِلَى أَنْهَـارِ كُفْـرٍ فُجِّـرَتْ ... وَتِهِـمٌّ لَـوْلَا السَّـيْفُ بِالْـجَرَيَانِ

الشـرحُ

يقول -رحمه الله- في هذه المقطوعة:

٨٠٢- وَمَضَـى عَـلَى هَـذِي الْـمَقَالَةِ أُمَّـةٌ ... خَلْـفَ ابْـنِ سِـينَا فَاغْتَـذَوْا بِلِبَـانِ

يعني أنَّ ابنَ سينا -والعياذ بالله- كان قائدًا إلى النار، لأنه مضى على مقالته أمةٌ اغتذوا بلبانٍ، وبئس اللبان فإنه لِبانٌ أنتن من لبان الحمير، لكن:

٨٠٣- مِـنْهُمْ نَصِـيرُ الْكُفْـرِ فِي أَصْـحَابِهِ ... النَّـاصِرِينَ لِـمِلَّةِ الشَّـيْطَانِ

قَوْلُهُ: «نصير الكفر» هذا هو نصير الدين الطوسي، الذي كان وزيرًا لهُولاكو ملك التتر، الذي قَتَلَ الخليفةَ العباسي في بغداد، وقتل من العلماء أُممًا لا يُحْصِيهم إِلَّا اللهُ، هذا الخبيث يُسمَّى نصير الدين، ولكن ابن القيم وصفه بما هو أهله فقال: (نَصيرُ الْكُفْرِ).

وصدق -رحمه الله-، نصير الكفر على مذهب ابن سينا وأتباعه الناصرين لـمِلَّة الشيطان لا لِملَّة مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم.

٨٠٤- فَاسْـأَلْ بِهِـمْ ذَا خِـبْرَةٍ تَلْقَـاهُمُ ... أَعْـدَاءَ كُـلِّ مُوَحِّـدٍ رَبَّـانِي

٨٠٥- وَاسْـأَلْ بِهِـمْ ذَا خِـبْرَةٍ تَلْقَـاهُمُ ... أَعْـدَاءَ رُسْـلِ اللهِ وَالْقُـرْآنِ

ومن أهل الخبرة في مذهبهم ابن القيم، فإنَّه درس المللَ والنِّحَلَ والمذاهبَ وعرفها كما درسها قبله شيخه ابن تيمية -رحمهما الله جميعًا-.

إِذَنْ هم أعداء التوحيد وأعداء الرسالة.

أعداء التوحيد يؤخذ من قوله: «**أَعْدَاءُ كُلِّ مُوَحِّدٍ**»، وأعداء الرسل يؤخذ من قوله: «**أَعْدَاءُ رُسْلِ اللهِ**».

٨٠٦- صُوفِيُّهُمْ عَبَدَ الْوُجُودَ الْـمُطْلَقَ الْـ ـــمَعْدُومَ عِنْـدَ الْعَقْـلِ فِي الأَعْيَـانِ

قَوْلُهُ: «**صوفيهم**» يعني الصوفي منهم مَنْ عبد الوجودَ المطلق، كيف عبد الوجودَ المطلق؟ لأنهم يرون أنَّ الله عزَّ وجلَّ هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق، ومعنى الوجود المطلق بشرط الإطلاق: أنه لا يمكن أن يُوصف بصفة، فلا تقل: موجود ولا معدوم.

لو قيل لـهم: مَنْ إلـهكم؟ مَنْ رَبُّكم؟ قالوا: ربنا لا موجود، ولا معدوم، ولا حيّ ولا ميت، ولا عالـم ولا جاهل، ولا سميع ولا أصمّ، ولا بصير ولا أعمى، لا يمكن أن يُوصف بصفة، هل هذا يمكن أن يكون موجودًا ويمكن أن يكون رَبًّا؟

الجواب: أبدًا، ولا يمكن أن يوجد هذا الرَّبُّ إِلَّا في الأذهان فقط، يعني: الذهن قد يفرض ذاتًا ليس لها صفات، أما الوجود في الخارج فلا، ولهذا قال:

(**عَبَدَ الْوُجُودَ الْـمُطْلَقَ الْـمَعْدُومَ عِنْدَ الْعَقْلِ**) فهذا معدوم، فنحن إذا قلنا: إنَّ الرَّبَّ المعبود ليس موجودًا ولا معدومًا، ولا حيًّا ولا ميتًا، ولا سميعًا ولا أصمَّ، ولا بصيرًا ولا أعمى، ولا عالمًا ولا جاهلًا، فإنه يكون عدمًا.

هم يعبدون هذا، يعبدون مَنْ لا يُوصف بسمع ولا بصرٍ، ولا حياة ولا موت، ولا غير ذلك، بل ولا وجود ولا عدم، نسأل الله العافية.

يعني: لولا أنها مذاهب كُتِبَتْ، ونقلها الثقات لقلنا: إِنَّ هذا لا يمكن أن يتصوَّره متصوِّر فضلًا أن يجعله مُعتقَدًا، ويطمئن إليه إلى أن يلقى الله، لكن نسأل اللهَ العافية.

٨٠٧- أَوْ مُلْحِدٌ بِالاتِّـحَادِ يَـدِينُ لَا التَّـــ ـــتَوْحِيدِ مُنْسَـلِخٌ مِـنَ الأَدْيَـانِ

قَوْلُهُ: «أَوْ مُلْحِدٌ بِالاتِّحَادِ يَدِينُ لَا التَّوْحِيدِ» يعني: يدين بالاتِّحاد لا التوحيد.

وفرق بين الاتحاد والتوحيد، فالتوحيد: توحيد الخالق، والاتِّحاد: جعلُ الخالق والمخلوق شيئًا واحدًا، هذا مذهبهم.

فهم يقولون: (الخلقُ والمخلوقُ شيءٌ واحدٌ) فالله هو زيد وعمرو وبكر وخالد، هو الجمل والناقة، هو الدجاجة والديك، هو الحمار والبغل -والعياذ بالله- هذا هو الإله عندهم.

يقولون: لأنَّ الخالق اتَّحدَ في المخلوق، فصارا شيئًا واحدًا.

هؤلاء -والله العظيم- أكفر من النصارى، لأنَّ النصارى لم يجعلوه اتِّحادًا عامًّا، بل جعلوه اتِّحادًا خاصًّا، فجعلوا الاتِّحادَ في رسولٍ هو أشرف جنس بني آدم، وهؤلاء جعلوه في الكتاب والحمير وكلِّ شيء، ولم ينزِّهوه عن شيء أبدًا، بل يقولون: زوجته هي الله، وهو الله، والعياذ بالله.

هؤلاء عبدوا الكونَ كُلَّه، ليس عندهم معبود، بل عُبَّادُ البقر أحسنُ من هؤلاء، فالبقر طَيِّب وحلال، وهؤلاء يعبدون الحمير، والكلاب، والخنزير، ولهذا يقول:

٨٠٨- مَعْبُـــودُهُ مَوْطُـــوءُهُ فِيـــهِ يَـــرَى وَصْفَ الْـجَمَالِ وَمَظْهَرَ الإِحْسَـانِ

قَوْلُهُ: «**مَعْبُودُهُ مَوْطُوءُهُ**» -أعوذ بالله- يعني: زوجته التي هو يطؤها هي معبوده، يطأ امرأةً يقول: هي رَبُّه، نسأل الله العافية.

قال ابن القيم:

٨٠٩- اللهُ أَكْبَرُ كَمْ عَلَى ذَا الْـمَذْهَبِ الْـ ... مَلْعُونِ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ شِيخَانِ

قَوْلُهُ: «**اللهُ أَكْبَرُ**» هذه الكلمة مثل قولنا: (الله حسيبك) يعني أنني أقابلك بكبرياء الله عزَّ وجلَّ وعظمته، كما تقول: (الله أكبر عليك)، ويحتمل أنه لا يريد هذا يعني: لا يريد التحسب عليهم، وإنما يريد تعظيمَ الله، وأنه أعظم مما وصفوه به.

قَوْلُهُ: «**كَمْ عَلَى ذَا الْـمَذْهَبِ الْـمَلْعُونِ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ شِيخَانِ**» كم هذه تكثيرية، يعني: هذا المذهب الملعون -وهو أدنى أوصافه أن يكون ملعونًا- كم عليه بين الناس من شيخان.

وَقَوْلُهُ: «**شِيخَانِ**» جمع (**شيخ**).

٨١٠- يَبْغُونَ مِنْهُمْ دَعْوَةً وَيُقَبِّلُو ... نَ أَيَادِيًا مِنْهُمْ رَجَا الْغُفْرَانِ

قَوْلُهُ: «**يَبْغُونَ مِنْهُمْ دَعْوَةً**» الضمير هنا في (**يَبْغُونَ**) يعود على الناس.

والضمير في (**مِنْهُمْ**) يعود على (**الشِّيخَان**).

ومعنى البيت: أنَّ الشِّيخانَ، والفلاسفةَ، والمَلاحدةَ، والاتِّحاديةَ هؤلاء يُنَصِّبون أنفسهم أولياءَ، وعامة الهمج الرَّعاع يأتون لهم، وينادونهم بـ (سيدي)، والعارف بالله، ولي الله... إلخ من الألقاب، ويهيلون عليهم هالة من الألقاب.

يقول ابن القيم: يأتونهم ويبغون منهم دعوة، وما أبعد إجابة الدعوة لهؤلاء! يقول: يا سيدي ادعُ الله لي، فليس عندي أولاد، وتجيء المرأة، وتقول:

سيدي لم أُخْطَب، وأنا بلغت ثلاثين سنة، ادعُ الله لي... إلخ، وهو يدعو، ولكن كما قال الله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣].

قَوْلُهُ: «وَيُقَبِّلُونَ أَيَادِيًا مِنْهُمْ رَجَا الْغُفْرَانِ» يعني: ربما يَمُدُّ الشيخُ يدَه مِن حين ما يُقْبِل العامَّة لأجل أن يقبلوها للتعظيم، وربما ينحنون له ويركعون ويسجدون، ولا يُهِمُّ هذا، قال ابن القيم:

٨١١- لَـوْ أَنَّهُـمْ عَرَفُـوا حَقِيقَـةَ أَمْـرِهِمْ ... رَجَمُـوهُمُ لَا شَـكَّ بِالصَّـوَّانِ

قَوْلُهُ: «لَوْ أَنَّهُمْ» الضمير يعود على الناس.

قَوْلُهُ: «عَرَفُوا حَقِيقَةَ أَمْرِهِمْ» أي: عرفوا حقيقة أمر الشِّيخانِ.

لو عرفوا أنَّ هؤلاء القوم لا يَعْبدون أحدًا، ولا يعتقدون وجودَ رَبٍّ إلَّا هذا الكون (**رَجَمُوهم بالصَّوَّان**) والصَّوَّان: الحَجَر القوي، وهو ما يُعرف عندنا بالمَرْو، وهم مستحقون لذلك، بل أكثر من هذا، ولهذا يقول -رحمه الله-:

٨١٢- فَابْذُرْ لَـهُمْ إِنْ كُنْتَ تَبْغِي كَشْـفَهُمْ ... وَافْـرِشْ لَـهُمْ كَفًّـا مِـنَ الأَتْبَـانِ

يعني: إذا كنت تريد أن تكشف حال هؤلاء لا تجادلهم، ولا تُعَنِّفْهم، فإنك إنْ عَنَّفت فهم في مقام رفيع -عند أنفسهم- يخاطبونك من منطق الاستعلاء والقوة، لأنَّ العامة كُلَّهم معهم، تجيء البيت أو المكان الذي حوله تجد عامةً مثل الجراد، لو تأتيه وتعنف عليه يُغري بك هؤلاء، مَنْ يفكك مِنْ هؤلاء العامة؟! والعوام كما يقولون: هوام.

لكن يقول: جادلهم، افرش لهم كفًّا من الأتبان، يعني: من الشيء السهل الليِّن، واستدرج بهم كأنك تريد أن تَفْهَمَ مذهَبَهم.

وهذه من الأساليب الجيدة، إذا أردت أن تستخرج ما عند الإنسان فلا تنكر عليه، إذا أنكرت عليه إن كان هو في مقام يرى نفسه أعلى منك زجرك ورحت بعيدًا، وإن كان لا يشعر بأنه أعلى منك نهرك أو كتم ما عنده، لكن استدرج به، وإن كان بعض الإخوة يقول: هذا من باب التجسُّس.

فنقول: ليس هذا من باب التجسُّس، بل هذا من باب العثور على الحقيقة، وقد فعله نبيٌّ من الأنبياء، كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت صاحبتها: إنما ذهب بابنك. وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك. فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينهما. فقالت الصغرى: لا تفعل -يرحمك الله- هو ابنها. فقضى به للصغرى[1]. لكن لماذا قضى به للصغيرة؟

الجواب: لأنه عرف أن الكبيرة لم ترحمه بدليل أنها وافقت على شقِّه، وأنه سيموت بذلك، فعرف أنها ليست أمَّه، والصغيرة عرف أنها أمُّه.

إِذَنْ هل نقول: هذا تجسس؟

الجواب: لا، أبدًا، إذا عمل الإنسان عملًا يدرك به الحقيقة مع وجود القرينة فهذا طَيِّب، فمثلًا إذا جئنا لإنسانٍ ملحد أو منافق واستدرجناه كأننا نريد أن ندخل في مذهبه فليس في هذا مانع.

الآن الذين يُرَوِّجون المخدرات يوجد بعض الناس الذين يستدرجونهم، ويعطونهم الدراهم حتى يبيعوا لهم، فهذا الاستدراج جائز لاستخراج الحقِّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، برقم (٣٢٤٤).

المهم أنَّ ابن القيم أعطانا هذه الطريقة وهي جيِّدة، يقول: (فَابْذُرْ لَهُمْ إِنْ كُنْتَ تَبْغِي كَشْفَهُمْ) باللِّين، افرش، والناس يقولون: أعطاه فرشه يعني: مَهَّد له الأمر حتى يستمكن منه.

٨١٣- وَاظْهَرْ بِمَظْهَرِ قَابِلٍ مِنْهُمْ وَلَا تَظْهَرْ بِمَظْهَرِ صَاحِبِ النُّكْرَانِ

وهذا صحيح، لأنك لو ظهرت بمظهر صاحب النكران -كما سبق- إن كان يرى أنه في مكان أعلى منك زجرك ونهرك حتى تَبْعُد، وإن كان له أتباع فمن يفكك منهم؟ وإن كان لا يرى ذلك فإنه يكتمك ولا يُخبرك، لكن أنت أعطه اللِّين.

٨١٤- وَانْظُرْ إِلَى أَنْهَارِ كُفْرٍ فُجِّرَتْ وَتَهِمُّ لَوْلَا السَّيْفُ بِالْجَرَيَانِ

قَوْلُهُ: «وَانْظُرْ إِلَى أَنْهَارِ كُفْرٍ فُجِّرَتْ» متى تنظر إليها؟

الجواب: إذا تمَكَّنْتَ، ولا تتمكن إلَّا بالطريقة التي ذكرها ابنُ القيم -رحمه الله-.

قَوْلُهُ: «وَتَهِمُّ لَوْلَا السَّيْفُ بِالْجَرَيَانِ» يعني: لولا أنَّ هؤلاء الفلاسفة يخشون سيف الولاة لجرت أنهارُ الكفر من أفواههم وكتبهم، لكنهم يتسترون، ويتعاملون مع الزمن، إن وجدوا فرصةً لإظهار باطلهم أظهروه، وإن لم يجدوا فرصة كتموه.

هذا هو مذهب ابن سينا وأتباعه والاتِّحاديين، الكفر البواح بالله عزَّ وجلَّ الذي هو أكفر من كفر اليهود والنصارى، وكما علمتم مذهب الاتِّحاديين كيف يؤدي إلى هذا اللازم الخبيث، وهم مقرون بهذا، ولا ينكرونه، والعياذ بالله.

* * *

فصل

فِي مَقَالاتِ طَوائِفِ الاتِّحَادِيةِ فِي كَلامِ الرَّبِّ ـ جَلَّ جَلالُهُ ـ

٨١٥- وَأَتَــتْ طَوَائِــفُ الاتِّحَــادِ بِمِلَّــةٍ ... طَمَّـتْ عَـلَى مَـا قَـالَ كُـلُّ لِسَـانِ

٨١٦- قَــالُوا: كَــلامُ اللهِ كُـلُّ كَـلامِ هَـــ ... ذا الْـخَلْقِ مِـنْ جِـنٍّ وَمِـنْ إِنْسَـانِ

٨١٧- نَظْـمًا وَنَثْـرًا زُورُهُ وَصَـحِيحُهُ ... صِـدْقًا وَكِـذْبًا وَاضِـحَ الْـبُطْلانِ

٨١٨- فَالسَّبُّ وَالشَّتْمُ الْقَبِيحُ وَقَـذْفُهُمْ ... لِلْمُحْصَنَاتِ وَكُلُّ نَوْعِ أَغَانِ

٨١٩- وَالنَّوْحُ وَالتَّعْزِيمُ وَالسِّحْرُ الْـمُبِيـ ... ـنُ وَسَـائِرُ الْبُهْتَـانِ وَالْـهَذَيَانِ

٨٢٠- هُـوَ عَـيْنُ قَـوْلِ اللهِ جَـلَّ جَلالُـهُ ... وَكَلامُــهُ حَقًّــا بِــلا نُكْــرَانِ

٨٢١- هَــذَا الَّــذِي أَدَّى إِلَيْـهِ أَصْـلُهُمْ ... وَعَلَيْـهِ قَـامَ مُكَسَّـحُ الْبُنْيَـانِ

٨٢٢- إِذْ أَصْـلُهُمْ أَنَّ الإِلَـهَ حَقِيقَـةً ... عَيْنُ الْوُجُـودِ وَعَـيْنُ ذِي الأَكْـوَانِ

٨٢٣- فَكَلامُهَـا وَصِـفَاتُهَا هُـوَ قَوْلُـهُ ... وَصِـفَاتُهُ مَـا هَـا هُنَـا قَـوْلانِ[1]

٨٢٤- وَكَذَاكَ قَالُوا: إِنَّهُ الْمَوْصُوفُ بِالضِّـ ... ـدَّينِ مِـنْ قُـبْحٍ وَمِـنْ إِحْسَـانِ

٨٢٥- وَكَذَاكَ قَـدْ وَصَـفُوهُ أَيْضًـا بِـالْكَمَا ... لِ وَضِـدِّهِ مِـنْ سَـائِرِ النُّقْصَـانِ

٨٢٦- هَـذِي مَقَـالاتُ الطَّوَائِـفِ كُلِّهَـا ... حُمِلَـتْ إِلَيْـكَ رَخِيصَـةَ الأَثْـمَانِ

---

(١) في نسخة الحلبي: «غيران».

٨٢٧- وَأَظُنُّ لَوْ فَتَّشْتَ كُتْبَ النَّاسِ مَا ... أَلْفَيْتَهَا أَبَدًا بِذَا التِّبْيَانِ

٨٢٨- زُفَّتْ إِلَيْكَ فَإِنْ يَكُنْ لَكَ نَاظِرٌ ... أَبْصَرْتَ ذَاتَ الْحُسْنِ وَالإِحْسَانِ

الشرحُ

هذه المقطوعة من كلام المؤلف يُبيِّن فيها المذهب الأخير من مذاهب الناس في كلام الله، وهو مذهب أهل الاتِّحاد القائلين بوحدة الوجود، وأنَّ الرَّبَّ عينُ المربوب، والخالقَ عينُ المخلوق.

قالوا: فإذا كان الرَّبُّ عينَ المربوب، والخالقُ عينَ المخلوق لَزِم أن يكون كلامُ المخلوق هو كلام الخالق، فجعلوا كلامَ الله كلامَ المخلوقين، فكلامي وكلامُ زيد وعمرو وغيرهم هو كلام الله، لماذا؟ لأنني وأنت، وزيدًا وغيره، كُلَّنا الله -عياذًا بالله-، ولا فرق بين الخالق والمخلوق، قالوا: إنَّ المخلوق اتَّحد بالخالق فصارا واحدًا، فإذا قيل: كلام الله، فهو كلامُ كُلِّ ذي كلام، واستمع إذ يقول:

٨١٥- وَأَتَتْ طَوَائِفُ الاتِّحَادِ بِمِلَّةٍ ... طَمَّتْ عَلَى مَا قَالَ كُلُّ لِسَانِ

قَوْلُهُ: «وَأَتَتْ طَوَائِفُ الاتِّحَادِ» والاتِّحاد يعني: اتحاد الخالق بالمخلوق، وأنهما شيءٌ واحد.

٨١٦- قَالُوا: كَلامُ اللهِ كُلُّ كَلامِ هَـ ... ـذا الْخَلْقِ مِنْ جِنٍّ وَمِنْ إِنْسَانِ

هذا كلام الله، فكلام الخلق هو كلام الله، يقول -رحمه الله-:

٨١٧- نَظْمًا وَنَثْرًا زُورُهُ وَصَحِيحُهُ ... صِدْقًا وَكِذْبًا وَاضِحَ الْبُطْلانِ

قَوْلُهُ: «نَظْمًا وَنَثْرًا» النظم كلام الله، والنثر كلام الله.

قَوْلُهُ: «زُورُهُ وَصَحِيحُهُ» يعني: الباطل والصحيح كله كلام الله.

قَوْلُهُ: «صِدْقًا وَكِذْبًا وَاضِحَ الْبُطْلانِ» أي: الصدق والكذب كُلُّه كلام الله.

٨١٨- فَالسَّبُّ وَالشَّتْمُ الْقَبِيحُ وَقَذْفُهُمْ لِلْمُحْصَنَاتِ وَكُلُّ نَوْعِ أَغَانِ

٨١٩- وَالنَّوْحُ وَالتَّعْزِيمُ وَالسِّحْرُ الْمُبِيـ ـنُ وَسَائِرُ الْبُهْتَانِ وَالْهَذَيَانِ

٨٢٠- هُوَ عَيْنُ قَوْلِ الله جَلَّ جَلالُهُ وَكَلامُهُ حَقًّا بِلا نُكْرَانِ

أعوذ بالله، قذف المحصنات هو كلام الله، فالرجل إذا قال لشخصٍ: يا زاني، فقوله: (يا زاني) هذا كلامُ الله، السَّبُّ والأغاني والشتم والسحر والعزائم كلها كلام الله.

٨٢١- هَذَا الَّذِي أَدَّى إِلَيْهِ أَصْلُهُمْ وَعَلَيْهِ قَامَ مُكَسَّحُ الْبُنْيَانِ

قَوْلُهُ: «هَذَا الَّذِي» يعني: كأنه قيل: لماذا؟ قال: هذا الذي أدَّى إليه أصلهم وعليه قام مُكَسَّح البنيان، يعني: البنيانُ المُكَسَّحُ الذي لا يستطيع أن يقوم، هذا قام على هذا الأصل.

٨٢٢- إِذْ أَصْلُهُمْ أَنَّ الإِلَهَ حَقِيقَةً عَيْنُ الْوُجُودِ وَعَيْنُ ذِي الأَكْوَانِ

هذا أصلهم أنَّ الإلهَ -سبحانه وتعالى- هو عينُ الوجود وعينُ هذه الأكوانِ، فالشمس هي الله، والقمر، والسماء، والأرض، والإنسان، والجن، كُلُّ شيء في الوجود فهو الله، فكلامه يكون هو كلام الله.

٨٢٣- فَكَلامُهَا وَصِفَاتُهَا هُوَ قَوْلُهُ وَصِفَاتُهُ مَا هَا هُنَا قَوْلانِ

قَوْلُهُ: «فَكَلامُهَا وَصِفَاتُهَا هُوَ قَوْلُهُ وَصِفَاتُهُ» يعني: كلامها هو قوله، وصفاتها هي صفاته.

قَوْلُهُ: «مَا هَا هُنَا قَوْلانِ» يعني: وما ها هنا صفتان، فما ها هنا قولان، لأنه قول واحد، كله قول الله، ولا هنا صفتان، لأنها كلها صفة لموصوف واحد.

٨٢٤- وَكَذَاكَ قَالُوا: إِنَّهُ المَوْصُوفُ بِالضْـ ـضِدَّينِ مِنْ قُبْحٍ وَمِنْ إِحْسَانِ

الموجودات فيها شيء قبيح، وفيها شيء حسن، كلها الله، إذن يوصف الله بالضدين: الحسن والقبح.

٨٢٥- وَكَذَاكَ قَدْ وَصَفُوهُ أَيْضًا بِالْكَمَا لِ وَضِدِّهِ مِنْ سَائِرِ النُّقْصَانِ

هذا مذهب الاتِّحاديين القائلين بأنَّ المخلوقَ والخالقَ شيءٌ واحد، فكلامُ المخلوق هو كلامُ الخالق، وكلامُ الخالق هو كلامُ المخلوق.

وهذا المذهب لولا أنه كما قال المؤلف ولولا أنه ذُكِر ما صَدَّقنا أنَّ أحدًا يذهب إليه.

٨٢٦- هَذِي مَقَالاتُ الطَّوَائِفِ كُلِّهَا حُمِلَتْ إِلَيْكَ رَخِيصَةَ الأَثْمَانِ

٨٢٧- وَأَظُنُّ لَوْ فَتَّشْتَ كُتْبَ النَّاسِ مَا أَلْفَيْتَهَا أَبَدًا بِذَا التِّبْيَانِ

٨٢٨- زُفَّتْ إِلَيْكَ فَإِنْ يَكُنْ لَكَ نَاظِرٌ أَبْصَرْتَ ذَاتَ الْحُسْنِ وَالإِحْسَانِ

نقول: جزى الله المؤلف خيرًا، جمعها لنا وَزَفَّها إلينا، ولو فتَّشنا في غير هذا الكتاب لم نجدها مجموعة هذا الجمع، لكن هذا من نعمة الله على المؤلف، ومن نعمة الله على مَن انتفع بمُؤلَّفِه أن جُمِعت الأقاويل وحُصِرَت.

* * *

ثُمَّ شرع المؤلف يَرُدُّ على هذه المذاهب، فقال:

٨٢٩- فَاعْطِفْ عَلَى الجَهْمِيَّةِ الْـمُغْلِ الأُلَى خَرَقُوا سِيَاجَ الْعَقْلِ وَالْقُرْآنِ
٨٣٠- شَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ وَاكْسِرْهُمُ بَلْ نَادِ فِي نَادِيهِمُ بِأَذَانِ
٨٣١- أَفْسَدْتُمُ الْـمَنْقُولَ وَالْـمَعْقُولَ وَالْـ ـمَسْمُوعَ مِنْ لُغَةٍ بِكُلِّ لِسَانِ
٨٣٢- أَيَصِحُّ وَصْفُ الشَّيْءِ بِالْـمُشْتَقِّ لِلْـ ـمَسْلُوبِ مَعْنَاهُ لِذِي الأَذْهَانِ
٨٣٣- أَيَصِحُّ صَبَّارٌ وَلَا صَبْرٌ لَهُ؟! وَيَصِحُّ شَكَّارٌ بِلَا شُكْرَانِ؟!
٨٣٤- وَيَصِحُّ عَلَّامٌ وَلَا عِلْمٌ لَهُ؟! وَيَصِحُّ غَفَّارٌ بِلَا غُفْرَانِ؟!
٨٣٥- وَيُقَالُ: هَذَا سَامِعٌ أَوْ مُبْصِرٌ وَالسَّمْعُ وَالإِبْصَارُ مَفْقُودَانِ
٨٣٦- هَذَا مُحَالٌ فِي الْعُقُولِ وَفِي النُّقُو لِ وَفِي اللُّغَاتِ وَغَيْرُ ذِي إِمْكَانِ
٨٣٧- فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ مُتَكَلِّمٌ لَكِنْ بِقَوْلٍ قَامَ بِالإِنْسَانِ
٨٣٨- أَوْ غَيْرِهِ، فَيُقَالُ: هَذَا بَاطِلٌ وَعَلَيْكُمُ فِي ذَاكَ مَحْذُورَانِ
٨٣٩- نَفْيُ اشْتِقَاقِ اللَّفْظِ لِلْمَوْجُودِ مَعْـ ـنَاهُ بِهِ وَثُبُوتُهُ لِلثَّانِي
٨٤٠- أَعْنِي الَّذِي مَا قَامَ مَعْنَاهُ بِهِ قَلْبُ الْحَقَائِقِ أَقْبَحُ الْبُهْتَانِ
٨٤١- وَنَظِيرُ ذَا أَخَوَانِ: هَذَا مُبْصِرٌ وَأَخُوهُ مَعْدُودٌ مِنَ الْعُمْيَانِ
٨٤٢- سَمَّيْتُمُ الأَعْمَى بَصِيرًا إِذْ أَخُو هُ مُبْصِرٌ وَبِعَكْسِهِ فِي الثَّانِي
٨٤٣- فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ ذَلِكَ ثَابِتٌ فِي فِعْلِهِ كَالْخَلْقِ لِلأَكْوَانِ

٨٤٤- وَالْفِعْلُ لَيْسَ بِقَائِمٍ بِإِلَهِنَا إِذْ لَا يَكُونُ مَحَلَّ ذِي حِدْثَانِ

٨٤٥- وَيَصِحُّ أَنْ يُشْتَقَّ مِنْهُ خَالِقٌ فَكَذَلِكَ الْمُتَكَلِّمُ الْوَحْدَانِ

٨٤٦- هُوَ فَاعِلٌ لِكَلَامِهِ وَكِتَابِهِ لَيْسَ الْكَلَامُ لَهُ بِوَصْفِ مَعَانِ

الشرحُ

شرع المؤلف -رحمه الله- في هذه المقطوعة يَرُدُّ على هؤلاء المنحرفين في عقيدتهم في كلام الله، فبدأ أولًا بالجهمية، وهم أتباع الجهم بن صفوان أول مَنْ قال بالتعطيل حينما قال: إنَّ الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يكلِّم موسى تكليمًا.

فالجهمية يقولون: إنَّ الله متكلِّم، أي: خالقٌ للكلام في غيره، أما هو نفسه فلم يتكلَّم، لكن يَخْلُقُ الكلام، فيضيفه إلى نفسه تشريفًا وتعظيمًا كما خلق الناقة وأضافها إلى نفسه، فقال: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف:٧٣] تشريفًا وتعظيمًا، وكما خلق البيت وأضافه إلى نفسه، فقال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج:٢٦] تشريفًا وتكريمًا، وكما أضاف محل عبادته إلى نفسه وهي المساجد، فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٤].

إِذَنْ كلام الله هو كلامٌ مخلوق خلقه في غيره، لكن أضافه إلى نفسه من باب التشريف، أما الله نفسه فلا يمكن أن يتكلَّم، وسيأتي بيان علتهم.

إِذَنْ كلامُ الله -عندهم- هو كلام مخلوق في غيره، أُضيف إلى نفسه على وجه التشريف والتعظيم، أما الله فلا يمكن أن يتكلَّم، فلا يمكن أن يقول الله أبدًا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، ولا يمكن أن يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، لكن خلق كلامًا بهذه الحروف، سمعه جبريل، فنزل به إلى محمد، وليس الله هو الذي قال لموسى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠

فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾ [طه:١٤]، لكنه خلقه في شيء، إما في الهواء، وإما في الشجرة، وإما في كذا وكذا، وسمعه موسى، أما الله فلم يتكلَّم.

يقول ابن القيم -رحمه الله-:

٨٢٩- فَاعْطِفْ عَلَى الجَهْمِيَّةِ الْـمُغْلِ الأُلَى　　　خَرَقُوا سِيَاجَ الْعَقْلِ وَالْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «فَاعْطِفْ عَلَى الْـجَهْمِيَّةِ الْـمُغْلِ الأُلَى» (الْـمُغْلِ): يعني: المغول، المغول هم التتار الذين خرجوا على المسلمين، فأفسدوا الدنيا والدين، وأصل طامَّة المغول من الجهمية، لأنَّ كُلَّ تعطيل فأصله من الجهمية، كما أنَّ كُلَّ خروج على الأئمة فأصله من الخوارج، وكما أن كُلَّ غلو في آل البيت فأصله من الرافضة، وهكذا فأصول البدع كلها معروفة والحمد لله.

فالجهمية هم أصل التعطيل، وكان على مذهبهم هؤلاء المغول الذين أفسدوا الدنيا والدين.

قَوْلُهُ: «خَرَقُوا سِيَاجَ الْعَقْلِ وَالْقُرْآنِ» سياج الشيء: ما أحاط به من سورٍ، فهم خرقوا سياج العقل والنقل.

نأخذ أنهم خرقوا سياج النقل من قوله: «**وَالْقُرْآنِ**».

٨٣٠- شَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ وَاكْسِرْهُمُ　　　بَلْ نَادِ فِي نَادِيهِمُ بِأَذَانِ

قَوْلُهُ: «شَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ وَاكْسِرْهُمُ» يعني: نَكِّل بهم نكالًا يهرب به مَنْ خلفهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأنفال:٥٧] فمعنى تشريد مَن خلفهم أن يُنكِّلَ بهم حتى يُشَرِّد مَنْ خلفهم من شدة ما يرى من التنكيل بهم، يخشى أن يصيبه ما أصابهم.

قَوْلُهُ: «بَلْ نَادِ فِي نَادِيهِمُ بِأَذَانِ» (نَادِيهم) أي: مجتمعهم، وقوله: «بأذان» أي: بإعلام.

٨٣١- أَفْسَدْتُمُ الْـمَنْقُولَ وَالْـمَعْقُولَ وَالْـ ـمَسْمُوعَ مِـنْ لُغَـةٍ بِكُـلِّ لِسَـانِ

يعني: كلامكم هذا أفسد المعقولَ والمنقولَ والمسموعَ من اللغات.

إِذَنْ أفسد العقل والنقل واللغة، ثُمَّ بَيَّن فسادَه فقال:

٨٣٢- أَيَصِحُّ وَصْفُ الشَّيْءِ بِالْـمُشْتَقِّ لِلْـ ـمَسْلُوبِ مَعْنَـاهُ لِـذِي الأَذْهَـانِ

يعني: كيف يصحُّ أن تصف الشيء بمشتق وهو لا يتضمن معناه؟! هل يصحُّ أن تقول للقاعد: (أنت قائم)؟ الجواب: لا، لأنك لو قلت للقاعد: قائم، وصفت هذا القاعد بوصف مسلوب منه، يعني منتفيًا عنه، فهل يصحُّ أن يوصف الشيء بالمشتق للمسلوب معناه لذي الأذهان؟ الجواب: كلا، لا يَصِحُّ أبدًا.

٨٣٣- أَيَصِحُّ صَبَّارٌ وَلَا صَبْرٌ لَهُ؟! وَيَصِحُّ شَكَّارٌ بِلَا شُكْرَانِ؟!

٨٣٤- وَيَصِحُّ عَلَّامٌ وَلَا عِلْمٌ لَهُ؟! وَيَصِحُّ غَفَّارٌ بِلَا غُفْرَانِ؟!

يعني: هل يصحُّ أن يوصف الشيء بالمشتق وليس فيه ذلك المشتقُّ فضلًا عن أن يُوصَفَ به غيرُه؟!

الجواب: لا يَصِحُّ أبدًا.

٨٣٥- وَيُقَالُ: هَـذَا سَامِعٌ أَوْ مُبْصِرٌ وَالسَّمْعُ وَالإِبْصَارُ مَفْقُودَانِ

لو رأيت أصمَّ فضربت المدفع عند أذنه ما سمع، فإذا قلت: ما شاء الله، هذا الرجل سَمْعُه يخرق الجدران، فلا يصحُّ هذا، فلا يصحُّ أن نقول: إنه سميع.

أيضًا هل يصح أن يقال: هذا مبصر، والبصر مفقود منه؟

فلو عندك رجل أعمى، فقلت: ما شاء الله، هذا الرجل يبصر النملة السوداء في الليلة الظلماء، نقول: هذا غير صحيح، فلو قلت هذا لرماك الناس بالجنون، لأنَّ هذا لا يمكن، ولهذا قال:

٨٣٦- هَـذَا مُحَـالٌ فِي الْعُقُـولِ وَفِي النُّقُـو ... لِ وَفِي اللُّغَـاتِ وَغَـيْرُ ذِي إِمْكَـانِ

مستحيل أن تصف شخصًا بالبصر وهو أعمى، وبالسمع وهو أصمُّ، وبالصبر وهو جزوع، وبالشكر وهو كفور، لا يمكن هذا أبدًا.

٨٣٧- فَلَـئِنْ زَعَمْـتُمْ أَنَّـهُ مُـتَكَلِّمٌ ... لَكِـنْ بِقَـوْلٍ قَـامَ بِالإِنْسَـانِ

٨٣٨- أَوْ غَـيْرِهِ، فَيُقَـالُ: هَـذَا بَاطِـلٌ ... وَعَلَـيْكُمُ فِي ذَاكَ مَحْـذُورَانِ

إذا قالوا نحن نقول: الله متكلِّم بكلامٍ قامَ بالإنسان، أو قامَ بغيرِ الإنسان مثل: جبريل، الشجرة، الهواء، المهم إذا قلتم: نُقِرُّ بأنَّ اللهَ متكلِّم لكن بكلامٍ قامَ بغيرِه، هل هذا صحيح؟!

يعني: لو قيَّد وقال: متكلِّم هو نفسه بكلامٍ قامَ بغيرِه، فيُقال: هذا باطل، يعني: هذا الكلام باطل، ولا يمكن أن نقول: إنه متكلِّم بكلامٍ قام بغيره.

قَوْلُهُ: «وَعَلَيْكُمُ فِي ذَاكَ مَحْذُورَانِ» في أيِّ شيء؟ يعني: إذا قلتم: إنه متكلِّم بكلامٍ قامَ بغيره عليكم بذلك محذوران: الأول: قال -رحمه الله-:

٨٣٩- نَفْيُ اشْتِقَاقِ اللَّفْظِ لِلْمَوْجُـودِ مَعْـ ... ـنَاهُ بِـهِ وَثُبُوتُـهُ لِلثَّـانِي

قَوْلُهُ: «نَفْيُ اشْتِقَاقِ اللَّفْظِ لِلْمَوْجُودِ مَعْنَاهُ بِهِ» هذا واحد، لأنهم نَفَوْا أن يكونَ الكلامُ قائمًا بالله.

قَوْلُهُ: «وَثُبُوتُهُ لِلثَّانِي» أي: جعلوا الكلام ثابتًا للمخلوق، يعني: لغيرِ الله فهو إِمَّا للإنسان، وإمَّا لجبريل أو لغيره، فصار في ذلك محذوران:

المحذور الأول: أنكم نَفَيْتُم الكلام عن الله، مع أنه هو الموصوف به.

المحذور الثاني: أنكم أثبتم الكلام لغير الله وهو لم يتكلَّم به.

فأخطأوا في الأمرين.

٨٤٠- أَعْنِـي الَّـذِي مَـا قَـامَ مَعْنَـاهُ بِـهِ قَلْـبُ الْـحَقَائِقِ أَقْـبَحُ الْبُهْتَـانِ

وهذه قاعدة مفيدة وهي: (قلب الحقائق أقبح البهتان)، وهذا الكلام الذي قاله الجهمية قلبٌ للحقائق، وليس مطابقًا لها.

فقلب الحقائق أقبح البهتان، وما أكثرَ قلبَ الحقائق في إذاعات العرب اليوم! يقولون أشياء ليس لها أصل، يقلبون الحقائق، فالحقائق تشاهد، وهم يقلبونها إلى أمور مخالفة للمُشَاهِد، لكن هذه القاعدة تفيدهم، ولهذا يحسن أن تستشهد بهذا الشطر على إذاعاتِ كثيرٍ من العرب اليوم، فتقول: (**قَلْبُ الْـحَقَائِقِ أَقْبَحُ الْبُهْتَانِ**).

ثُمَّ أراد المؤلف أن يمثل المعقول بالمحسوس فقال:

٨٤١- وَنَظِـيرُ ذَا أَخَـوَانِ: هَـذَا مُبْصِـرٌ وَأَخُـوه مَعْـدُودٌ مِـنَ الْعُمْيَـانِ

وأخوه إذا كان معدودًا من العميان فإنه يكون أعمى.

٨٤٢- سَـمَّيْتُمُ الأَعْمَـى بَصِـيرًا إِذْ أَخُـو هُ مُبْصِـرٌ وَبِعَكْسِـهِ فِي الثَّـانِي

قَوْلُهُ: «وَبِعَكْسِهِ فِي الثَّانِي» يعني: سمَّيتم البصيرَ أعمى.

فعندنا أخوان: أحدهما أعمى، والثاني: مبصر، فقلنا للأعمى: هَنَّأَكَ الله بالبصر القوي، وقلنا للبصير: جَبَرَ الله مصيبتك بالعمى، فوصفنا البصير بأنه أعمى، فقال: لستُ أعمى، فأنا بصير أرى، قالوا: لا، نقلنا الوصف من أخيك إليك، ونقلنا وصفك إلى أخيك، فأخوك نسمِّيه مبصرًا، وأنت نسمِّيك أعمى.

فهذا يقيم دعوى علينا، وأما أخوه فإنه يفرح، ويجعله عيدًا.

على كل حال ابن القيم -رحمه الله- يقول: هل هذا معقول أنك تسمِّي الأعمى بصيرًا والبصير أعمى؟!

الجواب: غير معقول، أنتم الآن تقولون: إنَّ الله متكلِّم والكلام لغيره! فإذا كان غير الله يتكلَّم فالله لا يتكلَّم، وإذا كان الله هو الذي يتكلَّم فغيرُه لا يتكلَّم، أمَّا أن تقول: الله متكلِّم وكلامه هو ما سُمِعَ من جبريل، وما سمع من الشجرة، وما سمع في الهواء، أما ذات الله فلا.

يقول ابن القيم:

٨٤٣- فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ ذَلِكَ ثَابِتٌ ... فِي فِعْلِهِ كَالْخَلْقِ لِلأَكْوَانِ

٨٤٤- وَالْفِعْلُ لَيْسَ بِقَائِمٍ بِإِلَهِنَا ... إِذْ لَا يَكُونُ مَحَلَّ ذِي حِدْثَانِ

هم قالوا: أنتم تقولون: لا يمكن أن يُوصفَ بالكلامِ الذي كان قائمًا بغيره، ولكننا لا نُسَلِّم بهذا، وعندنا مثال: الخَلْق فعل قائم بالمخلوق، انتبه للتنظير لتعرف هل هذا التنظير صحيح أو غير صحيح؟

هم يقولون: عندنا قاعدة، وهي: أنَّ الحوادث لا تقوم بالله، فكُلُّ شيء حادث لا يمكن أن يقوم بالله، يعني: لا يمكن أن يَتَّصِف به الله، فكُلُّ شيء

حادث، والكلام عندهم حادث، كما هو عند أهل السُّنة، يتعلَّق بالمشيئة، والخلق حادث يتعلَّق بالمشيئة لقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران:٤٧].

يقولون: الخلق لا يقوم بالله، والكلام لا يقوم بالله، والاستواء على العرش لا يقوم بالله، فكُلُّ شيء يتضمن الحدوث فإنه لا يقوم بالله، لماذا؟ قالوا: لأنَّ ما قام به الحادث فهو حادث، وهذه قاعدة عندهم.

فنقول: هذا غير صحيح، فهذه القاعدة باطلة من أصلها، لأنكم إذا قلتم بقيام الحوادث بالله لَزِم أن يكون الله حادثًا، فالحوادث فعل المُحْدِث، والفاعل لا بدَّ أن يَتقدَّم على الفعل، والفعل لا بدَّ أن يتقدَّم على المفعول أو على الأقل يكون مقارنًا له، أمَّا أن نقول: كُلُّ ما قام به حادث فهو حادث، فهذا ليس بصحيح.

وعندنا أيضًا دليل -من أنفسنا- مِنَّا مخلوق منذ عشرين سنة، ثُمَّ قام الآن الساعة السابعة والربع فهل يلزم أن يكون حادثًا الساعة السابعة والربع وهو منذ عشرين سنة؟

الجواب: لا يلزم، فصحَّ أنَّ الفاعلَ يسبقُ الفعلَ، وأنه لا يلزم من حدوث الفعل أن يكون الفاعلُ حادثًا، فهذا الإنسان بالنسبة لفعله قديم، لأنَّ له عشرين سنة، والفعل لم يحصل إلَّا في هذا الوقت.

إِذَنْ لا يلزم من حدوث الشيء أن يكون ما حدث به الشيءُ حادثًا، فليتقدم هذا بالزمان، فالله عزَّ وجلَّ تقوم به الحوادث بمعنى أنه يفعل ما يشاء فعلًا متجددًا حادثًا بعد أن لم يكن، ومع ذلك هو بنفسه قديم أزليٌّ.

قَوْلُهُ: «**وَالْفِعْلُ لَيْسَ بِقَائِمٍ بِإِلَـهِنَا... إلخ**» هذا قول الجهمية.

٨٤٥- وَيَصِحُّ أَنْ يُشْتَقَّ مِنْهُ خَالِقٌ فَكَذَلِكَ الْمُتَكَلِّمُ الْوَحْدَانِ

يعني: الفعل (الخلق) متعلِّق بالمخلوق، ويَصِحُّ أن يُشْتَقَّ منه خالق مع أنَّ الفعلَ قائمٌ بغيره، إذ إنَّ المخلوقَ منفصلٌ عن الله، فيقول: وكذلك الكلام، ولذا قال:

٨٤٦- هُوَ فَاعِلٌ لِكَلَامِهِ وَكِتَابِهِ لَيْسَ الْكَلَامُ لَهُ بِوَصْفِ مَعَانِ

فيدَّعون أنه إذا قيل: متكلِّم يعني: خالقًا للكلام، كما إذا قيل: خالق، فالمخلوق منفصل بائن.

ونحن نُجِيبهم على هذا بأنَّ الخلقَ غيرُ المخلوق، فالخلقُ فعلُ الخالق، والمخلوق مفعول الخالق، أنت الآن لو صنعت شيئًا فهذا مصنوع، وفعله صُنْع، ولو بنيت بيتًا، فهذا مَبْنِيٌّ وفعله بناء، إذن فالخلق بمعنى المخلوق منفصل بائن عن الخالق، والخلقُ وصفه القائم به، لكن لَـمَّا كان الكلام لا يتعدَّى، والخلق يتعدَّى، فيقال: خلق كذا، أما الكلام فصِفةٌ لازمة للمتكلِّم، لا يتعدَّى، صار لا يتعلَّق به مفعول، مع أنه يمكن أن نقول: إنَّه قد يتعلَّق به المفعول فيقال: إنَّ الله متكلِّم والرسول ﷺ مُكَلَّم، كما جاء في الحديث عن آدم: «أنه نَبِيٌّ مُكَلَّم»[1]، وحينئذٍ تكون (مُكَلَّم) من حيث المعنى على وزن مخلوق.

فعندنا متكلِّم وهو الله، وكلام وهو فعله، ومُكَلَّم وهم المخلوقون، ولا فرق بين الخلق وبين الكلام.

* * *

(١) أخرجه أحمد في المسند، حديث أبي ذر الغفاري، برقم (٢٢١٦٧).

٨٤٧- وَمُخَالِفُ الْـمَعْقُولِ وَالْـمَنْقُولِ وَالْـ ... ـفِطْرَاتِ وَالْـمَسْمُوعِ لِلإِنْسَانِ
٨٤٨- مَنْ قَالَ إِنَّ كَلَامَهُ سُبْحَانَهُ ... وَصْفٌ قَدِيمٌ أَحْرُفٌ وَمَعَانِ
٨٤٩- وَالسِّينُ عِنْدَ الْبَاءِ لَيْسَتْ بَعْدَهَا ... لَكِنْ هُمَا حَرْفَانِ مُقْتَرِنَانِ
٨٥٠- أَوْ قَالَ: إِنَّ كَلَامَهُ سُبْحَانَهُ ... مَعْنًى قَدِيمٌ قَامَ بِالرَّحْمَنِ
٨٥١- مَا إِنْ لَهُ كُلٌّ وَلَا بَعْضٌ وَلَا الْـ ... ـعَرَبِي حَقِيقَتُهُ وَلَا الْعِبْرَانِي
٨٥٢- وَالأَمْرُ عَيْنُ النَّهْيِ وَاسْتِفْهَامُهُ ... هُوَ عَيْنُ أَخْبَارٍ بِلَا فُرْقَانِ
٨٥٣- وَكَلَامُهُ كَحَيَاتِهِ مَا ذَاكَ مَقْـ ... ـدورًا لَهُ بَلْ لَازِمُ الرَّحْمَنِ
٨٥٤- هَذَا الَّذِي قَدْ خَالَفَ المَعْقُولَ وَالْـ ... ـمَنْقُولَ وَالْفِطْرَاتِ لِلإِنْسَانِ
٨٥٥- أَمَّا الَّذِي قَدْ قَالَ: إِنَّ كَلَامَهُ ... ذُو أَحْرُفٍ قَدْ رُتِّبَتْ بِبَيَانِ
٨٥٦- وَكَلَامُهُ بِمَشِيئَةٍ وَإِرادةٍ ... كَالْفِعْلِ مِنْهُ كِلَاهُمَا سِيَّانِ
٨٥٧- فَهْوَ الَّذِي قَدْ قَالَ قَوْلًا يَعْلَمُ الْـ ... ـعُقَلَاءُ صِحَّتَهُ بِلَا نُكْرَانِ
٨٥٨- فَلأَيِّ شَيْءٍ كَانَ مَا قَدْ قُلْتُمُ ... أَوْلَى وَأَقْرَبَ مِنْهُ لِلْبُرْهَانِ؟!
٨٥٩- وَلأَيِّ شَيْءٍ دَائِمًا كَفَّرْتُمُ ... أَصْحَابَ هَذَا الْقَوْلِ بِالْعُدْوَانِ؟!
٨٦٠- فَدَعُوا الدَّعَاوَى وَابْحَثُوا مَعْنا بِتَحْـ ... ـقِيقٍ وَإِنْصَافٍ بِلَا عُدْوَانِ
٨٦١- وَارْفُوا مَذَاهِبَكُمْ وَسُدُّوا خَرْقَهَا ... إِنْ كَانَ ذَاكَ الرَّفْوُ فِي الإِمْكَانِ
٨٦٢- فَاحْكُمْ -هَدَاكَ اللهُ- بَيْنَهُمُ فَقَدْ ... أَدْلَوْا إِلَيْكَ بِحُجَّةٍ وَبَيَانِ

٨٦٣- لَا تَنْصُرَنَّ سِوَى الْـحَدِيثِ وَأَهْلِـهِ ... هُـمْ عَسْـكَرُ الْقُـرْآنِ وَالإِيـمَانِ

٨٦٤- وَتَحَيَّـزَنَّ إِلَـيْهِمُ لَا غَـيْرِهِمْ ... لِتَكُـونَ مَنْصُـورًا لَـدَى الـرَّحْمَنِ

٨٦٥- فَنَقُولُ: هَـذَا الْقَـدْرُ قَـدْ أَعْيَا عَـلَى ... أَهْـلِ الْكَـلَامِ وقـاده أصـلان

٨٦٦- إِحْـدَاهُمَا: هَـلْ فِعْلُـهُ مَفْعُولُـهُ ... أَوْ غَـيْرُهُ فَهُـمَا لَـهُمْ قَـوْلَانَ

٨٦٧- وَالْقَـائِلُونَ بِأَنَّـهُ هُـوَ عَيْنُـهُ ... فَـرُّوا مِـنَ الأَوْصَـافِ بِالْـحِدْثَانِ

٨٦٨- لَكِـنْ حَقِيقَـةُ قَوْلِـهِمْ وَصَرِيحُـهُ ... تَعْطِيـلُ خَـالِقِ هَـذِهِ الأَكْـوَانِ

٨٦٩- عَـنْ فِعْلِـهِ إذ فِعْلُـه مَفْعُولُـه ... لكنَّـه مـا قـامَ بـالرَّحْمنِ

٨٧٠- فَعَلَى الْـحَقِيقَةِ مَـا لَـهُ فِعْـلٌ إِذِ الْـ ... ـمَفْعُولُ مُنْفَصِـلٌ عَـنِ الـدَّيَّانِ

الشرحُ

لما بَيَّن المؤلف -رحمه الله- أنَّ كلام الجهمية مخالفٌ للمعقول والمنقول والفطرة ذكَرَ أنَّ الجهمية قالوا: ليس كلامنا بمخالفٍ للفطرة، المخالف للفطرة مَنْ قال: إنَّ كلامه -سبحانه- هو وصف قديم، قال المؤلف:

٨٤٧- وَمُخَالِفُ الْـمَعْقُولِ وَالْـمَنْقُولِ وَالْـ ... ـفِطْرَاتِ وَالْـمَسْمُوعِ لِلإِنْسَـانِ

قَوْلُهُ: «وَالْـمَنْقُولِ» الكتاب، والسُّنة، وإجماع السلف.

قَوْلُهُ: «الْفِطْرَاتِ»: الفطرة التي فُطِرَ الإنسان عليها، وهي ما يهتدي الإنسان بها إلى الأمور البديهية.

قَوْلُهُ: «الْـمَسْمُوعِ لِلإِنْسَانِ» يعني: اللغة، لأنَّ اللغة ألفاظ تُنْقَل وتُسْمَع.

المخالف لهذه الأشياء الأربعة مَنْ هو؟ قال:

٨٤٨- مَـــنْ قَـــالَ إِنَّ كَلَامَـــهُ سُـــبْحَانَهُ وَصْـــفٌ قَـــدِيمٌ أَحْـــرُفٌ وَمَعَـــانِ

٨٤٩- وَالسِّينُ عِنْـدَ الْبَـاءِ لَيْسَـتْ بَعْـدَهَا لَكِـــنْ هُمَـــا حَرْفَـــانِ مُقْتَرِنَـــانِ

يشير إلى مذهب الاقترانية الذين قالوا: إنَّ كلام الله وصفٌ قديم لا يتعلَّق بمشيئته ولا بإرادته، وأنه أحرف ومعانٍ، لكن الأحرف مقترنة، فالسين في قولك (**بسم الله الرحمن الرحيم**) عند الباء مقارنة لها، ليست بعدها، لكن هما حرفان مقترنان.

هل هذا متصور؟!

كُلٌّ يعرف أنَّ السين بعد الباء في (**بسم الله الرحمن الرحيم**)، هم يقولون: لا، السين والباء واحدة.

هذا غير ممكن لا في العقل، ولا في النقل، ولا في اللغات كلها.

إِذَنْ هذا مذهب الاقترانية الذين يقولون: إنَّ كلام الله وصف قديم لا يتعلَّق بمشيئته، كلام الله معنًى وحرف، لكن الحروف مقترنة، كُلُّ كلامِ الله يخرج مقترنًا، فالباء، والسين، والميم، والألف، واللام، والراء، والحاء، والميم، والألف، والنون، كُلُّ الكلام يخرج مقترنًا، ولا يوجد فيه حرف قبل حرف.

وهذا مخالف للمعقول والمنقول والفطرة واللغات، كُلٌّ إذا خاطبته أو إذا قرأ كلام الله عَرَف أنَّ كُلَّ حرف يتلو الحرفَ الآخَرَ.

القول الثاني: الذي خالف المعقولَ، والمنقولَ، والفطرات، والكلام للجهمية الذين يريدون أن ينكروا على الاقترانية وعلى الطائفة الثانية وهم الأشاعرة.

٨٥٠- أَوْ قَالَ: إِنَّ كَلَامَهُ سُبْحَانَهُ مَعْنًى قَدِيمٌ قَامَ بِالرَّحْمَنِ

هؤلاء الأشاعرة يقولون: كلام الله معنى قديم قام به كقيام الحياة والعلم، الحياةُ والعلمُ معنًى قديم، لم يزل الله حيًّا عليمًا، هم يقولون: الكلام معنى قديم ليس بحرف، لم يتكلَّم الله بحروف إطلاقًا، ولا تكلَّم بكلامٍ يُسْمَعُ إطلاقًا، إنما كلامه هو المعنى القديم القائم بنفسه.

وهذا ضلال، ومذهب خاطئ، فهم يقولون: كلام الله هو المعنى القديم القائم بنفسه، أمَّا إنَّه المسموع بالآذان فكَلَّا، وأما إنه الحروف المتتابعة فكلَّا، فهو المعنى القائم بنفسه.

حقيقة الأمر أنهم فسَّروا الكلام بالعلم، هذا هو حقيقة مذهبهم، لأنه إذا كان الكلام هو المعنى القائم بنفسه، يعني المعنى الذي عَلِم الله أنه سيتكلَّم في يوم كذا، فهذا هو العلم حقيقةً، ولهذا مِنْ أَبْطَلِ ما يكون قولُ الأشاعرة في كلام الله، لأنَّ هذا ليس بكلام بل هذا علم، وانظر ماذا قال:

٨٥١- مَا إِنْ لَهُ كُلٌّ وَلَا بَعْضٌ وَلَا الْـ ـعَرَبِي حَقِيقَتُهُ وَلَا الْعِبْرَانِي

قَوْلُهُ: «مَا إِنْ لَهُ كُلٌّ وَلَا بَعْضٌ» يعني: لا تقل: (قرأتُ كُلَّ الفاتحة أو بعضها)، على أنها هي كلام الله، هذا مستحيل، فكلام الله لا يَتبَعَّض، وليس له كُلٌّ، وليس له بعض، لأنه معنًى قائم بالنفس، هذا هو السبب أنه لا يَتجزَّأ، يعني: ما له كُلٌّ ولا بعض، لأنه معنى قائم بالنفس، فهو وصف، هو متكلِّم، لكن بدون كلام يَتجزَّأ أو يَتبعَّض أو يُسْمَع.

قَوْلُهُ: «وَلا الْعَرَبِي حَقِيقَتُهُ وَلا الْعِبْرَانِي» أيضا العربي هو الذي نزل على محمد ﷺ، والعبراني هو التوراة، يقول: لا نقول: كلام الله عربي ولا كلام الله عبراني،

لأنَّ وصف العربي والعبراني إنما هو للمسموع، وكلام الله معنًى قائم بنفسه ولا يُسْمَع، فلا نقول: كلام الله عربي، ولا نقول عبراني، ولا سُرْياني، لأنَّ هذا الوصف إنما ينطبق على المسموع، وكلام الله لا يسمع، لأنه معنًى قائم بنفسِه.

٨٥٢- وَالأَمْـرُ عَـيْنُ النَّهْـيِ وَاسْـتِفْهَامُهُ   هُـوَ عَـيْنُ أَخْبَـارٍ بِـلَا فُرْقَـانِ

قَوْلُهُ: «وَالأَمْرُ عَيْنُ النَّهْيِ»: فقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الإسراء:٧٨] وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء:٣٢] هما شيء واحد.

الأمر عين النهي، سبحان الله! إذا قال الله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الإسراء:٧٨]، أو ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء:٣٢] فهما شيء واحد، إذا قرأت القرآن والتوراة فهما شيء واحد، لأنه لا يوصف بعربي ولا عبراني، إذ هو شيء واحد، ولا بأمر ولا بنهي.

قَوْلُهُ: «وَاسْتِفْهَامُهُ هُوَ عَيْنُ أَخْبَارٍ» ويجوز أيضًا: (إِخْبَارٍ).

قَوْلُهُ: «وَالأَمْرُ عَيْنُ النَّهْيِ وَاسْتِفْهَامُهُ... هُوَ عَيْنُ أَخْبَارٍ بِلَا فُرْقَانِ» هذه أربعة أشياء: الأمر، والنهي، والاستفهام، والرابع: الخبر، كُلُّها عندهم شيء واحد، فقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الإسراء:٧٨] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥] هاتان آيتان أو جملتان، الأولى: أمر، والثانية: خبر، فهما شيء واحد.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣] هذا استفهام، وهو كقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن:٥٠] خبر، فالخبر والاستفهام شيء واحد، والأمر والنهي شيء واحد، والأربعة كُلُّها شيء واحد.

وهذا بالنسبة لكلام الله شيء واحد، لأنهم يقولون: إنَّ الكلام وصف أو معنًى قائم بنفسه، والمعنى لا يتجزَّأ ولا يتنوَّع، كما أنَّ حياة الله هل هي تتبعَّض أو تتجزَّأ ؟ الجواب: لا، وهل هي تَتَنوَّع؟ الجواب: لا، كلامه كذلك هو معنى فقط، ويقال: متكلِّم لكن حقيقة الأمر أنْ لا كلام، ولهذا كان الجهمية خيرًا منهم من وجه، لأنهم يقولون: كلام الله حروف وأصوات متعلِّق بمشيئته، والقرآن الذي نقرؤه هو كلام الله، هؤلاء يقولون: لا، كلام الله لا يتعلَّق بمشيئته، وليس حروفًا ولا مسموعًا، ولا الذي تقرؤه كلام الله، بل هو عبارة عن كلام الله، أما كلام الله فهو المعنى القائم بنفسه.

٨٥٣- وَكَلَامُـــهُ كَحَيَاتِـــهِ مَـــا ذَاكَ مَقْـــ ... ـــدورًا لَـــهُ بَـــلْ لَازِمُ الـــرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «مَقْدُورًا»، وفي نسخة (مَقْدُورٌ)، والظاهر أنَّ الصواب (مقدورًا)، لأنَّ ابنَ القيم قرشِيُّ اللسان، وليس تَميمِيَّ اللسان، وقريش تقول: **(ما زيدٌ قائمًا)** وتميم تقول: **(ما زيدٌ قائمٌ)** وهم كلُّهم عرب، لأنَّ قريشًا تُعْمِل **(ما)** عمل (ليسَ)، وتميمٌ تقول: **(ما)** نافية، ولا يمكن أن تعمل، فيقولون: **(ما زيدٌ قائمٌ)**، واسمع إلى قول الشاعر في معشوقته: قال:

وَمُهَفْهَفِ الأَعْطَافِ قُلْتُ لَهُ: انْتَسِبْ ... فَأَجَابَ مَا قَتْلُ المُحِبِّ حَرَامُ[1]

فهو تميميٌّ، وليس قرشيًّا، إذ لو كان قرشيًا لقال: **(مَا قَتْلُ المُحِبِّ حَرَامًا)**.

وهذا من ذكاء العرب أن يستدلوا على نسب الإنسان بلغته، وإلى وقتنا هذا الآن تعرف لهجة القصيمي، من الرياضي، من الشرقي، فكما كان الأولون يَعرفون باللهجات فنحن الآن نَعرف باللهجات.

---

(١) البيت من الكامل، وقد ورد ذكره في كتاب نفح الطيب غير منسوب (٥/ ٢٢٧).

نرجع إلى كلام المؤلف -رحمه الله- (**وَكَلَامُهُ كَحَيَاتِهِ مَا ذَاكَ مَقْدُورًا لَهُ**) هذا هو الصواب، لأنَّ العلماء مثل ابن القيم بعد تَغيُّر اللسان، وإذا كان بعد تغيُّر اللسان فلا يمكن للإنسان أن يخرج عن اللغة الفصحى، ولهذا لو قال قائل: (**ضربتُ الزيدان**) لقلنا: هذا غلط، فإن قال: أنا على لغة من يلزم المثنى الألف، قلنا: لا نقبل منك هذا.

نقول له: لو جئنا للغتك فهي لغة عرفية لا تعرف رفعًا ولا نصبًا، فالمهم بعد تغيّر اللسان لا بد أن تكون الكتابة والنطق على لغة قريش خاصة، ولهذا جاء القرآن على لغة قريش، قال الله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يونس:٣١].

فحياة الله عزَّ وجلَّ لازمة.

وقول المؤلف: (**مَا ذَاكَ مَقْدُورًا لَهُ**)، لأنَّ الشيء المستحيل لا تتعلَّق به القدرة، فهل يمكن أن يكون اللهُ عزَّ وجلَّ حيًّا ميتًا؟

الجواب: كلا، فالموت مستحيل عليه، بل هو الحي الذي لا يموت، وأمَّا الكلام فيقول: الكلام مثل الحياة، ولا يمكن ألَّا يكون متكلِّمًا، لأنه وصفٌ لازمٌ لا يتعلَّق بمشيئته، ليس إن شاء تكلَّم وإن شاء لم يتكلَّم، إن كنت تقول: إن شاء صار حيًّا وإن شاء صار ميتًا، فقل: إنْ شاء تكلَّم وإن شاء لم يتكلَّم.

فانظر إلى كلام المؤلف يقول: (**وَكَلَامُهُ كَحَيَاتِهِ مَا ذَاكَ مَقْدُورًا لَهُ**) يعني: لا يُقَدَّر أن يتكلَّم إن شاء، وإن شاء لم يتكلَّم، كما لا يقدر أن يكون حيًّا وأن يكون ميتًا، فهو حيٌّ حياة لازمة له، وهو متكلِّم كلامًا لازمًا له، لأنه معنى.

فمذهب الأشاعرة أنَّ الكلامَ ليس مسموعًا، ولا هو بحروف، ولا صوت، ولكنه معنى يتصف به، كما هو حيّ نقول: هو متكلِّم، وقالوا: كلامه هو المعنى

القائم بنفسه، وليس بالذي يُسْمع، لكن هذا الذي سمعه محمد وسمعه موسى؟ قالوا: هذا عبارة عن كلام الله، خلقه الله ليعبر عمَّا في نفس الله، كما لو وضعت كلامًا مكتوبًا ووضعت مرآة فيخرج هذا الكلام المكتوب بالمرآة.

هم يقولون: هذا المعنى القائم بنفس الله ينطبع في الهواء، وينطبع في أيِّ مكان كان، ثم يُسْمع، أما أنه كلام يُسمع من الله نفسه فلا.

٨٥٤- هَذَا الَّذِي قَدْ خَالَفَ المَعْقُـولَ وَالـ ـــمَنْقُولَ وَالْفِطْـرَاتِ لِلإِنْسَـانِ

قائل هذا هم الجهمية.

فيقولون: كيف تقولون: كلامنا مخالف للمعقول والمنقول والفطرات واللغات؟! بل كلامكم هو المخالف للمعقول والمنقول والفطرات واللغات.

وصَدَقوا في هذا، نحن مع الجَهْمية في أنَّ هذا الذي ذهب إليه الأشاعرة لا يُسمَّى كلامًا، فالمعنى القائم بالنفس لا يُسَمَّى كلامًا أبدًا، فنحن نوافق الجهمية، لأنَّ الحقَّ يجب أن يُقْبَلَ مِمَّن قاله ولو كان كافرًا مشركًا، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف:٢٨]، فهم قالوا شيئين: الأول: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾، الشيء الثاني: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فقال الله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف:٢٨]، فكذَّبَ قولَهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، لأنه باطل، وأقرَّهم على قولِهم: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾.

إِذَنْ الحق يُقبل ولو مِن كافرٍ، والباطل يُرَدَّ ولو من مؤمن، وهذا هو العدل.

فقولُ الجهمية للأشاعرة: إنَّ قولهم خالفَ المعقولَ والمنقولَ والفطراتِ للإنسان هو قولٌ حقٌّ، فإنَّ هذا الذي ذَهَبوا إليه غيرُ معقولٍ، فلا يُعقل أن يُسمَّى

كلامًا وهو معنًى قائمٌ في النفس، ولا يُعقل أن يكون كلامًا غيرَ مُترتِّبٍ، فالباء والسين والجيم كلها في آن واحد، ولا هو منقول، وليس موافقًا للمنقول من الكتاب والسُّنة، ولا الفطرات تهتدي إليه، ولا واللغات تُقِرُّه.

فأيُّ إنسان تُحدِّثه -ولو كان عاميًّا بحتًا- عن الكلام والقول يَعرِف أنه الحروفُ المترتبةُ التي تأتي شيئًا فشيئًا.

٨٥٥- أَمَّـا الَّـذِي قَـدْ قَـالَ: إِنَّ كَلَامَـهُ ذُو أَحْـرُفٍ قَـدْ رُتِّبَـتْ بِبَيَـانِ

قائل هذا هم الجهمية، يقولون: كلامُه ذو أحرف مُرتبةٍ.

وقولُهم: (قَدْ رُتِّبَتْ) رَدٌّ على الاقترانية الذين يقولون: هو أحرف غير مرتبة.

٨٥٦-وَكَلَامُـهُ بِمَشِـيئَةٍ وَإِرادةٍ كَالْفِعْـلِ مِنْـهُ كِلاهُمَـا سِـيَّانِ

وهذا ردٌّ على الأشاعرة الذين يقولون: كلامُه ليس بإرادةٍ ومشيئةٍ منه، بل هو مثلُ الحياةِ والعِلْمِ.

فالحياة والعِلْم لا تتعلَّق بهما المشيئةُ.

أمَّا السلفُ الصالحُ ومَن تَبِعهم من الأئمة، وهو مذهبُ أهل السُّنة والجماعة فيقولون: إنَّ كلامَ الله -سبحانه وتعالى- أحرفٌ مرتبة، فقولُه تعالى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ نعلم أنَّ الباء قبل السين، وأنَّ السين قبل الميم... وهكذا، ثُمَّ نعلم أيضا أَنَّ الله لا مُكْرِهَ له، وأنه يتكلَّم متى شاء، وبما شاء، وكيف شاء، لأنَّ الكلام تتعلَّق به المشيئة، وهذا -والله- تمامُ الرُّبوبيةِ والسلطان، وهو أن يفعل ما يشاء، وأن يقول ما يشاء، على أنَّ القول في الحقيقة هو فعل، فالقول فعل، لأنه كلام مسموع بحروف مرتبة، فهو نوع من الأفعال.

ثُمَّ قال على لِسان الجهمية:

٨٥٧- فَهْوَ الَّذِي قَدْ قَالَ قَوْلًا يَعْلَمُ الْـ ـعُقَلَاءُ صِحَّتَهُ بِلَا نُكْرَانِ

من الذي قال قولًا يعلم العقلاءُ صِحَّتَه؟

الجواب: الجهمية القائلون بأنَّ كلامه ذو أحرف قد رُتِّبت، لكن كيف نُقِرُّهم على أنهم قد قالوا قولا يعلمُ العقلاءُ صحتَه؟ نعم، نحن نوافقهم على أنَّ كلام الله متعلِّق بمشيئته، وأنه مُرَتَّب، لكن نخالفهم في قولهم: إنه مخلوق، فهذا باطل، لأنَّ الكلام الذي يخلقه الله ليس كلامَ الله، بل كلام مَنْ تَكَلَّم به، قالوا:

٨٥٨- فَلأَيِّ شَيْءٍ كَانَ مَا قَدْ قُلْتُمُ أَوْلَى وَأَقْرَبَ مِنْهُ لِلْبُرْهَانِ؟!

يقولُ لهؤلاءِ الأشاعرةِ والاقترانيةِ: لأيِّ شيء كان ما قد قلتم أولى وأقرب منه للبرهان؟! وهذا صحيح، هذا الاستفهام للإنكار، يعني: ما قلتم ليس أقربَ للبرهانِ.

٨٥٩- وَلأَيِّ شَيْءٍ دَائِمًا كَفَّرْتُمُ أَصْحَابَ هَذَا الْقَوْلِ بِالْعُدْوَانِ؟!

لأنَّ الأشاعرة يرون الجهمية كفرة في قولهم في كتاب الله.

يقول:

٨٦٠- فَدَعُوا الدَّعَاوَى وَابْحَثُوا مَعْنا بِتَحْـ ـقِيقٍ وَإِنْصَافٍ بِلَا عُدْوَانِ

هذا البيت حَقٌّ، أنَّ الإنسان يَدَع الدعاوى ويَحْكمُ أو يبحث للتحقيقِ والإنصافِ، أما أن يقول: إنَّ الصوابَ معي، وقولي هو التحقيق، وقولي هو الإجماع، فهذه دعوى بلا دليلٍ لا تُقْبل، فابحث بإنصافٍ وعدلٍ.

فالتحقيق هو العلم، والإنصافُ هو العدل، فلا بدَّ من هذين الأمرين:

الأول: العلم، والثاني: الإنصاف والعدل.

فالجاهل كيف يحكم بأنَّ هذا هو الصواب وهذا هو الخطأ؟! والجاهل لا يمكن أن يحكم إلا بما يَرَى أنه صواب وإن كان باطلا.

فابن القَيِّم يقول: تعالوا نتحاكم وإيَّاكم بالعلم والإنصاف.

٨٦١- وَارْفُوا مَذَاهِبَكُمْ وَسُدُّوا خَرْقَهَا إِنْ كَانَ ذَاكَ الرَّفْوُ فِي الإِمْكَانِ

قَوْلُهُ: «**ارْفُوا**» يعني: رَقِّعوها وسُدُّوا الخَرْق.

قَوْلُهُ: «**إِنْ كَانَ ذَاكَ الرَّفْوُ**» يعني: إن كان الترقيع بالإمكان، وأنتم الآن هل تقولون: إنَّ الترقيع بالإمكان؟

الجواب: لا يمكن أبدًا، ما داموا يقولون: إنَّ الكلام هو المعنى القائم بالنفس، أو إنَّ الكلام هو المعنى المتعلِّق بالمشيئةِ، ولكنه مقترنٌ لا يسبق بعضُه بعضًا، فإنَّ هذا لا يمكن أن يُرفأ أبدًا.

ولكن هذا من باب التنزل مع الخصم، وعند المخاصمة لا بأس أن يقول قولًا غيرَ مقبول، تنزيلًا للخصم عن عليائه وكبريائه، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩]، وهل هناك مفاضلة بين الله وشركائهم؟ الجواب: لا، لكن نظرًا، لأنهم يعتقدون أنهم آلهة، يتكلَّم معهم بشيء يُنزلهم إلى الأسفل، هكذا أيضًا نحن مع هؤلاء المبتدعة نتكلَّم معهم.

ثُمَّ طلب المؤلف أن نحكم بينهم، فقال:

٨٦٢- فَاحْكُمْ -هَدَاكَ اللهُ- بَيْنَهُمُ فَقَدْ أَدْلَوْا إِلَيْكَ بِحُجَّةٍ وَبَيَانِ

احكم بين هؤلاء المختلفين في كلام الله.

والمذاهب الآن التي أمامنا ثلاثة، وقد سبق بيانها، وأنها ثمانية مذاهب، لكن الذي أمامنا الآن ثلاثة وهي مذهب الجهمية، ومذهب الاقترانية، ومذهب الأشاعرة، والفرق بينها سبق، فإذا حكمنا بينهم قلنا: أمَّا مذهب الاقترانية والأشعرية فهو غير معقول.

وأما مذهب الجهمية فهو معقول من وجهٍ مُنْكَرٌ من وجهٍ، أما كونه معقولًا فمن جهة أنه مُرَتَّبٌ مسموعٌ بصوتٍ مُتعلِّقٌ بمشيئتِه، كُلُّ هذا حقٌّ، فكلامُ الله بحرفٍ وصوتٍ مسموعٍ متعلِّقٍ بمشيئتِه، وأما ما هو مُنْكَرٌ من قولهم فقولهُم: إنه مخلوق، يعني: مثلًا إذا أراد الله أن يتكلَّم خَلَق كلامًا في أيِّ مَحَلٍّ كان، في الشجرة، في جبريل، في الهواء، في المكان الذي سُمِعَ منه كلامُ الله، فيقولون: هذا كلام الله.

وهذا لا شكَّ أنه مُنكَرٌ وباطلٌ، لأنه إذا خَرَج الكلامُ من هذا فهو وَصْفٌ لِـمَنْ خَرَجَ منه، لا للهَّ، وإلَّا لقلنا: إنَّ جميعَ كلامِ الناس من كلامِ الله، وهذا باطل، وهذا ليس إلَّا مذهبَ الاتِّحادية.

إِذَنْ نحكم بينهم فنقول: أمَّا ما ذهبت إليه الأشاعرة والاقترانية فهو مذهب باطل لا نُقِرُّه، وأمَّا ما ذهبتْ إليه الجهمية فهو مذهب باطل -أيضًا- لا نُقِرُّه بمَجموعِه، أما بعض فقرات منه فهي حقيقة وحق، ويأتي -إن شاء الله- التفصيل في هذا.

وَقَوْلُهُ: «فَاحْكُم... بينَهم» أي: بالحقِّ، وما هو الحقُّ؟ الحقُّ ما أشار إليه في قوله:

٨٦٣- لَا تَنْصُرَنَّ سِوَى الْـحَدِيثِ وَأَهْلِـهِ ... هُــمْ عَسْــكَرُ الْقُــرْآنِ وَالإِيــمَانِ

قَوْلُهُ: «لا تَنْصُرَنَّ» النصرُ: يعني: المساعدة والموالاة.

قَوْلُهُ: «سِوَى الْـحَدِيثِ وَأَهْلِهِ» يعني: حديث النَّبِيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- ومن المعلوم أنَّ القرآن أولى، ونَصْرُ الحديثِ نصرٌ للقرآن بلا شَكٍّ، لأنَّ الحديث فيه تعظيمُ القرآنِ من عِدَّة وُجوه، ووجوبُ التمسك به من عِدَّة وجوه، فنصرُ الحديث نصرٌ للقرآن.

قَوْلُهُ: « هُمْ عَسْكَرُ الإِيمانِ وَالقُرْآنِ» (هم) يعني: أهل الحديث.

(عَسْكَرُ الإِيمانِ) الذين يَذُودون عنه ويُدافعون عنه.

وهذا هو الواجب على كُلِّ مسلم ألَّا ينصر قولَ أحدٍ إلَّا قولَ أهلِ الحديثِ، لأنهم عسكر الإيمان والقرآن.

٨٦٤- وَتَحَيَّـــزَنَّ إِلَـــيْهِمُ لَا غَـــيْرِهِمْ ... لِتكُـونَ مَنْصُـورًا لَـدَى الـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «وَتَحَيَّزَنَّ» فعلُ أمرٍ مُؤكَّدٌ بالنون، ولهذا بُنِي على الفتح، ومعنى تَحَيَّزْ: أي مِلْ إليهم، وكُنْ من حِزْبِهم (لِتكُونَ مَنْصُورًا لَدَى الرَّحْمَنِ) فإنَّ الله تعالى يقول في القرآنِ الكريمِ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر:٥١]، فإنَّ أهل القرآن والحديثِ هم أهلُ الله وخاصَّتُه، وهم أهل نُصْرتِه.

٨٦٥- فَنَقُولُ: هَـذَا الْقَـدْرُ قَـدْ أَعْيَـا عَـلَى ... أَهْـــلِ الْكَـــلَامِ وقـــاده أصـــلان

٨٦٦- إِحْـــدَاهُمَا: هَـــلْ فِعْلُـــهُ مَفْعُولُـــهُ ... أَوْ غَـــيْرُهُ فَهُـــمَا لَـــهُمْ قَـــوْلَانِ

قَوْلُهُ: «هَذَا الْقَدْرُ» يعني -والله أعلم- أنه يريد هذا التقدير.

قَوْلُهُ: «**قد أعيا على أهل الكلام**» يعني: أتعبهم وأعجزهم.

قَوْلُهُ: «**وقاده أصلان**» يعني: هذا الخلاف بينَ الأشاعرةِ وبينَ المعتزلةِ والجهمية مَبْنِيٌّ على أصلينِ:

الأول: هل فعل الله هو مفعولُه أو غيرُه؟

فمنهم مَن قال: إنَّ الفعل هو المفعول، وليس للهِ فعلٌ هو فعلُه.

ومنهم مَنْ قال: إنَّ المفعول غيرُ الفِعْل.

إِذَنْ الأصلان هما:

١- هل الفِعْلُ عينُ المفعولِ؟

٢- هل الفِعْلُ غيرُ المفعول؟

نحن نعلَم بفطرتنا أنَّ المفعول غيرُ الفعلِ، يعني المصنوع غير صُنع الصانع، فالإنسان إذا بنى بيتًا فهذا البيت هل هو بناؤه أو أثرُ بنائِه؟

الجواب: أثر بنائه، فلا شكَّ أنَّ الفعل غير المفعول، لكن أهل البِدَع يُعْمِيهم الله عزَّ وجلَّ.

إِذَنْ فالصواب: أنَّ فعلَه غيرُ مفعولِه، ولكن المصدر قد يُطلق على المفعول كقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان:١١] أي: مخلوقُه، وإِلَّا فالأصل أنَّ الفعل غيرُ المفعولِ.

وأضرب لكم مثلًا: رجُلٌ نَجَرَ خشبًا وصَنَعَه بابًا، فعندَنا فاعل، وعندنا فعل، وعندنا مفعول، الفاعل هو النَّجَّار، والفعل النجارة، والمفعول الباب.

إِذَنْ فلا شكَّ أنَّ المفعول ليسَ هو الفعلَ، بل هو شيء آخر، لكن قد يطلق الفعلُ لفظًا على المفعول -كما مَثَّلْتُ لكم- في مثل قولِه تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان:١١].

٨٦٧-وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ هُوَ عَيْنُهُ فَرُّوا مِنَ الأَوْصَافِ بِالْحِدْثَانِ

قَوْلُهُ: «وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ هُوَ عَيْنُهُ» أي بأنَّ الفعل هو عينه، أي: عين المفعول، وهذا هو القول الأول.

قَوْلُهُ: «فَرُّوا مِنَ الأَوْصَافِ بِالْحِدْثَانِ» هذه حُجَّتهم، فهم يقولون: إنَّ الفعلَ عينُ المفعول، ولا نقول: إنَّ هناك فعلًا ومفعولًا، وحُجَّتهم: قالوا: لو قلنا: إنَّ الفعلَ غيرُ المفعول لَزِم أن تقوم الحوادثُ بالله، يعني أن يكون الله مَحلا للحوادثِ، ولا تقوم الحوادث إِلَّا بحادث، وحدوث الباري عزَّ وجلَّ ممتنع عقلًا وشرعًا وفطرةً وكل شيء.

إِذَنْ قُل: إِنَّ الفعلَ هو المفعول من أجل أن تسلم من حلول الحوادث بالله.

كُلنا يعلم أنَّ الفعل مقارن للمفعول، يعني: عندما أصنع شيئًا، فصُنْعي إيَّاه وعملي إِيَّاه مقارِنٌ له، والمفعولات تتجدد.

إِذَنْ لو قلنا: إنَّ مفعول الله غيرُ فعله لكان الفعل حادثًا متعلقا بذات الله فتتعلق به الحوادث، وهذا ممتنع، إذن نستريح من هذا، ونقول: إنَّ فعلَ الله هو مفعوله، والمفعول منفصلٌ بائنٌ عن الله.

فهم يقولون ذلك، وقالوا: نحن نقول ذلك، لأجل ألَّا نصف الله تعالى بالحوادث، لأننا إذا قلنا: إنَّ الله يتكلَّم متى شاء، لَزِم من هذا قيام الحوادث به، وأنه إذا شاء تكلَّم، وإذا شاء لم يتكلَّم.

وهذا عندهم محالٌ بناءً على قاعدة فاسدة وهي أنَّ الحادث لا يقوم إلَّا بحادث.

٨٦٨- لَكِنْ حَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ وَصَرِيحُهُ تَعْطِيلُ خَالِقِ هَذِهِ الأَكْوَانِ

٨٦٩- عَنْ فِعْلِهِ إذ فِعْلُه مَفْعُولُه لكنَّه ما قَامَ بالرَّحْمنِ

يعني: إذا قلنا: إنّ المفعول هو الفعل، لَزِم من هذا تعطيل الله عن الفعل، لأنه ليسَ في الله وصفٌ هو الفعل، لأنَّ الفعلَ -لو قدرنا أنَّ الفعلَ غيرُ المفعول- متجدِّد على هذا التقدير، والله تعالى يمتنع أن تتعلقَ به الحوادث، لأنَّ الحوادث لو تعلَّقت به لَزِم أن يكون حادثًا.

إذا قلتم هكذا لَزِم ألَّا يكون لله فعل، لأنكم تقولون: إنَّ الفعل هو عين المخلوق.

مثلًا السموات يقول: الله ليس له فعل هو الخلق، بل له مفعول وهو السموات، أمَّا أنَّ هناك فعلًا خلق به السموات فلا، بل فِعْلُه هو عينُ المفعول لئلا تقوم الحوادث بالله، لأنَّ قيام الحوادث بالشيء تجعله حادثًا، هذا الأصل مهم، يقولون: إنَّ الفعل عينُ المفعول، فَفِعْلُ الله يعني مفعوله، وليس لله فعلٌ يقوم به، لأنه لو كانت الأفعال تقوم به لكان محَلًّا للحوادث، وإذا كان محلا للحوادث لَزِم أن يكون حادثًا، وحدوث الله ممتنع.

فهم جعلوه لا يفعل، ولا يتكلَّم، ولا يخلق، وجعلوا الكلامَ مفعولًا، لأنه مخلوق عندهم، والسموات والأرض والجبال والنجوم كلها مخلوقة، لكن لا يوصف الله بالخلق، لأنَّ هذه المشاهدات متجددة، فإذا وصفنا الله بالخلق لَزِم أن يكون خلقُه متجددًا فيكون حادثًا قام به، والحادث لا يقوم إلَّا بحادث.

وكُلُّ هذا الكلام الذي قالوه هو كلامٌ في كلامٍ، يعني لا داعي له، ولا يلزم إثباتُ الخالق عزَّ وجلَّ عليه، لكن أهل الكلام أطالوا الكلام، ولهذا نقول: إنَّ أهل الكلام ضَلُّوا بهذه التقديرات، ولو سلكوا مسلك الصحابة لَسَلِمُوا من هذا كلِّه، أعني لَسَلِمُوا من هذا الذي قد لا يكون مفهومًا، فضلًا عن أن يكون معقولًا، وفضلًا عن أن يكون مُعْتَقَدًا، لكن الحمد لله الذي نَجَّانا من ذلك.

فابن القَيِّم يردُّ عليهم، فيقول: إذا جعلتم الفعلَ عينَ المفعول فلازمه ألَّا يكون لله فعل، لأنَّ المفعول مخلوق مُنْفصل عن الله، وليس من صفاتِه، فيلزمكم على تقديركم هذا ألَّا يكون لله فعلٌ.

٨٦٩-عَـــنْ فِعْلِـــهِ إذ فِعْلُـــه مَفْعُولُـــه لكنَّـــه مـــا قـــامَ بـــالرَّحْمنِ

يعني: ما قام بالرحمن فعل، وإنما هو مفعول، فإذا قيلَ: خَلَق السموات فإنه لم يقم به خَلْق، لكن حَدَث له مخلوق.

فيقال بكل سهولة: مَنْ أحدثَ هذا المخلوق؟ الجواب: الله، إذن هل يمكن أن يُوجِدَ مخلوقًا بدون أن يَخْلُق؟! الجواب: مستحيل.

إِذَنْ هل يمكن أن نَرُدَّ على قولِهم: **(لو قام به فعل لكان مَحَلا للحوادث، وما قامت به الحوادث فهو حادث)**؟

نعم، رَدَدْنا عليهم فيما سبق، وقلنا: لا يلزم من قيام الحوادث به أن يكون حادثًا، لأنَّ الفاعلَ متقدِّمٌ على فعله، ونحن الآن نفعل اليوم شيئًا، ونحن قد خُلِقنا قبل ذلك بسنوات، فالله تعالى يفعلُ الشيء، ويُحْدِثُ الشيء، ويقوم الفعل الحادث به، وهو ليس بحادث، وهذا شيء ظاهر ليس فيه إشكال، فكلامهم هذا غير صحيح.

٨٧٠- فَعَلَى الْـحَقِيقَةِ مَا لَـهُ فِعْـلٌ إِذِ الْـ ـمَفْعُولُ مُنْفَصِـلٌ عَـنِ الـدَّيَّانِ

قَوْلُهُ: «مَا لَهُ فِعْلٌ» يعني: ليس له فعل، والمعنى: إذا قلنا: الفعل هو المفعول، فعلى الحقيقة ليسَ لله فعل، لأنَّ المفعول مخلوق مُنفصِل عن الله، فالسموات منفصلة، والأرض منفصلة، والآدمي منفصل، فكل المخلوقات منفصلة عن الله، فليس لله فعلٌ يقوم به.

* * *

٨٧١- وَالْقَـائِلُونَ بِأَنَّـهُ غَـيْرٌ لَـهُ مُتَنَـازِعُونَ وَهُـمْ فَطَائِفَتَـانِ
٨٧٢- إِحْـدَاهُمَا قَالَـتْ قَـدِيمٌ قَـائِمٌ بِالـذَّاتِ وَهْـوَ كَقُـدْرَةِ الْـمَنَّانِ
٨٧٣- سَـمَّوْهُ تَكْوِينًـا قَـدِيمًا قَالَـهُ أَتْبَـاعُ شَـيْخِ الْعَالِـمِ الـنُّعْمَانِ
٨٧٤- وَخُصُـومُهُمْ لَـمْ يُنْصِـفُوا فِي رَدِّهِ بَـلْ كَـابَرُوهُمْ مَـا أَتَـوْا بِبَيَـانِ
٨٧٥- وَالآخَـرُونَ رَأَوْهُ أَمْـرًا حَادِثًـا بِالـذَّاتِ قَـامَ، وَأَنَّهُـمْ نَوْعَـانِ:
٨٧٦- إِحْـدَاهُمَا جَعَلَتْـهُ مُفْتَتَحًـا بِـهِ حَـذَرَ التَّسَلْسُـلِ لَـيْسَ ذَا إِمْكَـانِ
٨٧٧- هَـذَا الَّـذِي قَالَتْـهُ كَرَّامِيَّـةٌ فَفِعَالُـهُ وَكَلَامُـهُ سِـيَّانِ
٨٧٨- وَالآخَرُونَ أُولُو الْـحَدِيثِ كَأَحْمَـدٍ ذَاكَ ابْـنُ حَنْبَـلٍ الرِّضَـا الشَّـيْبَانِي
٨٧٩- قَـدْ قَـالَ: إِنَّ اللهَ حَقًّـا لَـمْ يَـزَلْ مُتَـكَلِّمًا إِنْ شَـاءَ ذُو إِحْسَـانِ
٨٨٠- جَعَلَ الْكَـلامَ صِـفَاتِ فِعْـلٍ قَـائِمٍ بِالـذَّاتِ لَـمْ يُفْقَـدْ مِـنَ الـرَّحْمَنِ
٨٨١- وَكَذَاكَ نَصَّ عَلَى دَوَامِ الْفِعْـلِ بِالْـ إِحْسَـانِ أَيْضًـا فِي مَكَـانٍ ثَـانِ

٨٨٢- وَكَـذَا ابْـنُ عَبَّـاسٍ فَرَاجِـعْ قَوْلَـهُ ... لَـمَّا أَجَـابَ مَسَـائِلَ الْقُـرْآنِ

٨٨٣- وَكَذَاكَ جَعْفَرٌ الإِمَامُ الصَّادِقُ الْـ ... ـمقبولُ عِنْدَ الْـخَلْقِ ذُو الْعِرْفَانِ

٨٨٤- قَدْ قَالَ لَـمْ يَـزَلِ الْـمُهَيْمِنُ مُحْسِنًا ... بَــرًّا جَــوَادًا عِنْــدَ كُــلِّ أَوَانِ

٨٨٥- وَكَــذَا الإِمَــامُ الــدَّارِمِيُّ فَإِنَّــهُ ... قَـدْ قَـالَ مَـا فيـهِ هُـدَى الْـحَيْرَانِ

٨٨٦- قَـالَ الْـحَيَاة مَـعَ الْفِعَـالِ كِلاهُمَـا ... مُتَلازِمَــانِ فَلَــيْسَ يَفْتَرِقَــانِ

٨٨٧- صَدَقَ الإِمَامُ فَكُلُّ حَـيٍّ فَهْـوَ فَعْـ ... ـالٌ، وَذَا فِي غَايَــةِ التِّبْيَــانِ

٨٨٨- إِلَّا إِذَا مَــا كَــانَ ثَــمَّ مَوَانِــعٌ ... مِــنْ آفَــةٍ أَوْ قَــاسِرِ الْـحَيَوَانِ

٨٨٩- وَالــرَّبُّ لَـيْسَ لِفِعْلِـهِ مِـنْ مَـانِعٍ ... مَــا شَــاءَ كَــانَ بقُــدْرَةِ الــدَّيَّانِ

الشـرحُ

٨٧١- وَالْقَــائِلُونَ بِأَنَّــهُ غَــيْرٌ لَــهُ ... مُتَنَــازِعُونَ وَهُــمْ فَطَائِفَتَــانِ

٨٧٢- إِحْــدَاهُمَا قَالَــتْ قَــدِيمٌ قَــائِمٌ ... بِالــذَّاتِ وَهْــوَ كَقُــدْرَةِ الْــمَنَّانِ

القائلون بأنَّ الفعل غير المفعول تنازعوا على قولين: هل الفعل مُقارِنٌ للمفعول؟ أو الفعل قديم كقِدَم القدرة، والعلم، والسمع، والبصر؟

قَوْلُهُ: «قَدِيم» خبر لمبتدأ محذوف أي: هو قديم، والضمير يعود على الفعل، لا على المفعول.

قَوْلُهُ: «**إِحْدَاهُمَا قَالَتْ قَدِيمٌ قَائِمٌ... بِالذَّاتِ وَهْوَ كَقُدْرَةِ الْـمَنَّانِ**» القدرة لله قديمة، وليست حادثة، قالوا: أيضا الفعل قديم، لماذا قالوا: قديم؟

الجواب: مداهنةً للمعتزلة والجهمية، لأنَّ الجهمية والمعتزلة يقولون: إذا كان الفعلُ حادثًا وقام بالله، لَزِم أنَّ يكون اللهُ حادثًا، وهؤلاء قالوا: الفعل قائم بالله لكنه قديم لئلا تقوم به الحوادث.

فهؤلاء قالوا: نعم الفعل غير المفعول، والفعل قائمٌ به قديم والذي حَدَث هو المفعول، يقولون: الفعل قائم بالله أزلِيّ، والذي تأخَّر المفعول.

مثال ذلك: إنسان أوقَد نارًا في الساعة الواحدة، وجعل دونكم ودونها حاجبًا، وفي الساعة الخامسة أزال هذا الحاجب فصار الفعل سابقًا، ومشاهدتكم إيَّاها حادثة.

فهم قالوا: قدرة الله قديمة، وليست حادثة، لكن تعلُّقها بالمقدور يكون عند وجود المقدور، ولم يزل عزَّ وجلَّ قادرًا على كلِّ شيء، لكن إذا فعل شيئًا تعلَّقت القدرة بهذا المفعول في حينها لا قبلها.

هم قالوا: إنَّ الفعل الذي هو فعله قديم أزليّ كالعلم والقدرة، والمُتَأخِّر المفعول، فالخلق قديم كالقدرة تمامًا.

وهذا -أيضًا- غير معقول، لأنه إذا وُجِدَ الفعل، لا بدَّ أن يوجد المفعول، ما الذي يؤخِّره؟! فإنَّ الفعل إذا كان قديمًا لَزِم أن يكون المفعول قديمًا، لأنَّ الفعل لا بدَّ أن يُنْتِج مفعولًا، فيَلْزَم على قولكم بأنَّ الفعل قديم أن يكون المفعولُ -أيضًا- قديمًا، هل يمكن أن يصنع الإنسان بابًا، ثُمَّ إذا أَتَمَّ صُنْعه لا يمكن أن يكون بابًا إِلَّا بعدَ مدة؟! لا يمكن، لكن نظرًا لأنهم يمنعون قيام الحوادث بالله صاروا إلى الذي ليسَ بمعقولٍ.

وقولهم: إنَّ الخلق قديم كالقدرة تمامًا، فهذا غير معقول، لأنَّ الخلق فعل، والفعل هو الذي يترتب عليه المفعول، والقدرة وصف.

لكن ماذا قالوا؟ يقول المؤلف:

٨٧٣- سَمَّوْهُ تَكْوِينًا قَدِيمًا قَالَهُ أَتْبَاعُ شَيْخِ الْعَالِمِ النُّعْمَانِ

قَوْلُهُ: «سَمَّوْهُ تَكْوِينًا قَدِيمًا»: (سَمَّوْهُ) يعني: سَمَّوا الفعل.

قالوا: لا نسميه فعلًا، بل نسميه التكوين، والتكوين: إن أردتم التقدير - يعني أنه قَدَّر أن يفعل كذا وكذا في يوم كذا وكذا مثلًا- فأنتم لم تُقِرُّوا بالفعل، بل جعلتم الفعلَ التقدير والقضاء، وإن جعلتم التكوين معناه فعل الشيء أو العمل بالشيء حتى يكون، فهذا لا بدَّ أن يكون المفعول مقارنًا للفعل، أي: المُكَوَّن مقارنًا للتكوين، ولذلك فهم متناقضون في الحقيقة.

وممن اشتهر عنه هذا القول الطحاوي[1] صاحب الطحاوية المشهورة.

يقول:

٨٧٤- وَخُصُومُهُمْ لَمْ يُنْصِفُوا فِي رَدِّهِ بَلْ كَابَرُوهُمْ مَا أَتَوْا بِبَيَانِ

قَوْلُهُ: «خصومهم»، أي: الذين قالوا: إنَّ الفعلَ عينُ المفعول، ولا نوافقكم على أنَّ الفعلَ غيرُ المفعول، ثُمَّ تقولون: إنَّ الفعلَ قديمٌ والمفعول حادث، حتى لو سميتموه تكوينًا فإننا لا نوافقكم، لكن لم ينصفوا في رَدِّه لماذا؟ لأنهم في ردِّهم على هؤلاء، وقولهم: (إنه لا يمكن تكوينٌ بلا كائن) هذا صحيح، لكن كيف تقولون: إِنَّه يمكن أن يوجد مفعول بلا فعل؟

(١) أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزدي الطحاوي، أبو جعفر: فقيه انتهت إليه رياسة الحنفية بمصر، ولد ونشأ في (طحا) من صعيد مصر، وتفقه على مذهب الشافعي، ثم تحول حنفيًا، ورحل إلى الشام سنة (٢٦٨ هـ)، فاتصل بأحمد بن طولون، فكان من خاصته، وتوفي بالقاهرة (٣٢١هـ).

فخصومهم هم القائلون بأنَّ المفعولَ عينُ الفعل، أو الفعل عين المفعول سواء عبَّر بهذا أو بهذا، لم ينصفوهم لما ردُّوا عليهم، كيف؟ أولًا: لا بد أن نعرف ما وجه الرَّدِّ؟

وجه الرَّدِّ عليهم: أنهم قالوا: أنتم تقولون: إنَّ الفعلَ غيرُ المفعول، ثُمَّ تقولون: إنَّ الفعل قديم كقدم القدرة، ولا يمكن أن يكون الفعل قديمًا والمفعول حادثًا.

وردُّهم هذا صحيح، لكنهم ما أنصفوا، لأنهم إذا قالوا: إنه لا يمكن أن يكون المفعولُ متأخرًا والفعلُ متقدمًا، قالوا أيضًا: لا يمكن أن يكون المفعول هو عين الفعل.

ولكنهم كابروا، أبوا إِلَّا أن يقولوا: إنَّ المفعول هو عين الفعل، فلم ينصفوا في الواقع.

٨٧٥- وَالآخَرُونَ رَأَوْهُ أَمْرًا حَادِثًا بِالذَّاتِ قَامَ، وَأَنَّهُمْ نَوْعَانِ:

قَوْلُهُ: «وَالآخَرُونَ» يعني بهم الذين قالوا: إنَّ الفعلَ غيرُ المفعول، لأنه قال في الأول: (**وَهُمْ فَطَائِفَتَانِ**):

فالطائفة الأولى: قالت: إِنَّ الفعلَ غيرُ المفعول، لكنَّ الفعلَ قديمٌ قائم بالذات والمفعول متأخر، وهذا لا يُتَصَوَّر.

الطائفة الثانية: رأوه أمرًا حادثًا بالذات قام، قالوا: إنَّ الفعلَ قام بالذات، وهو حادث بعد أن لم يكن، فإذا أراد الله تعالى أن يخلق جنينًا، متى يتعلَّق الفعل بهذا الجنين؟

الجواب: عند خلقه، وهذا الفعل حادث.

إِذَنْ فيقولون: الفعلُ غيرُ المفعول، والفعلُ حادثٌ عند إرادة فعل المفعول، أو مقارنٌ لفعل المفعول، وهذا معقول، وأيُّ مانعٍ يمنع أن يكون فعلُ الله حادثًا بعد أن لم يكن، لكن باعتبار هذا الشيء المعيَّن؟! ولهذا قال:

٨٧٦- إِحْـــدَاهُمَا جَعَلَتْـــهُ مُفْتَتَحًـــا بِـــهِ حَــذَرَ التَّسَلْسُــلِ لَــيْسَ ذَا إِمْكَــانِ

قَوْلُهُ: «**إِحْدَاهُمَا جَعَلَتْهُ مُفْتَتَحًا بِهِ**» يعني: جعلت الفعلَ ممكنًا بعد أن كان مستحيلًا.

فقالوا: إنَّ الله صار يفعل بعد أن لم يكن يفعل، هذا معنى قوله: (**مُفْتَتَحًا بِهِ**)، يعني: مبتَدَءًا به، فجعلت الفعلَ حادثًا في نوعه بعد أن لم يكن، وليس حادثًا في آحاده، ولهذا قال: (**مُفْتَتَحًا بِهِ حَذَرَ التَّسَلْسُلِ لَيْسَ ذَا إِمْكَانِ**).

يعني: لئلا نقول: إذا قلنا: إنَّه لم يزل يفعل، لزم من هذا التسلسل، وهو مستحيل، فالتسلسل فيما مضى مستحيل، وهؤلاء هم الكَرَّامِيَّة.

لكننا نقول: هل الله عزَّ وجلَّ لم يَزَل فاعلًا؟ الجواب: نعم، لم يزل فاعلًا، لكن يقولون: إنه لم يزل فاعلًا إِلَّا أنَّ فعلَه لا يتسلسل، لأننا لو قلنا: لم يزل فَعَّالًا لزم أن يكون المفعولُ مقارِنًا للفعل، وحينئذٍ تكون مفعولاتُه قديمة، وهذا -أيضًا- غيرُ معقول.

يعني يقولون: إذا قلنا: (**لم يزل فَعَّالًا**) لزم أن تكون المفعولات قديمة كالوصف، فيقال: لا يمكن، لأنه من المعلوم بالترتيب العقلي الواقع أنَّ هناك فاعلًا، ثُمَّ فعلًا، ثُمَّ مفعولًا، حتى لو قلنا: إنَّ المفعولات لم تزل فإنه لا يمكن أن تكون مقارنةً للفاعل أبدًا، فلا بدَّ أن يكون الفِعلُ بعد الفاعل والمفعولُ بعد الفعل.

٨٧٧- هَـذَا الَّـذِي قَالَتْـهُ كَرَّامِيَّـةٌ فَفِعَالُـهُ وَكَلَامُـهُ سِيَّانِ

يعني: كما قالوا في الكلام -كما سبق-: إنه حادث بعد أن لم يكن مقدورًا عليه، قالوا: أيضًا: إنَّ الفعل حادث بعد أن لم يكن مقدورًا عليه.

فهذه الطائفة قالت: إنَّ فعلَ الله غيرُ المفعول، وهو فعل قائم بنفسه حادثٌ بعد أن لم يكن، لكنهم انقسموا قسمين:

قسم قالوا: إنه حادث بعد أن لم يكن مقدورًا عليه، بل قالوا: إنه حادث بعد أن كان مستحيلًا، وهؤلاء هم الكَرَّاميَّة.

قالوا: لأننا لو قلنا: إنَّ الله لم يزل فَعَّالًا لزم تسلسل الحوادث، لأنَّ (لم يزل) معناه في الأزل الذي لا نهاية له، فيلزم تسلسل الحوادث، وهذا ممتنع على رأيهم.

والقسم الثاني من هذه الطائفة قالوا: إنَّه حادثٌ قائم به، ولم يزل يفعل، والتسلسل ليس بممتنع، يعني: أنَّ الله تعالى لم يزل ولا يزال فَعَّالًا، ولا نقول: إنه كان غيرَ قادرٍ على الفعل، ثُمَّ كان قادرًا عليه.

فخلاصة الكلام الآن قبل أن ندخل في كلام أهل الحديث: أنَّ أهل الكلام اختلفوا في فعل الله، أولًا: هل فعله مفعوله أو غيره؟

فجميع أتباعهم قالوا: فعله هو مفعوله، يعني: أنَّ الفعل عينُ المفعول، لماذا؟ قالوا، لأننا لو قلنا: إنَّ الفعلَ غيرُ المفعول، ونحن نشاهد تجدد المفعولات لزم أن يكون الفعل حادثًا قائمًا بالله، ولو قامت الحوادث بالله لزم أن يكون اللهُ حادثًا، لأنَّ الحوادث لا تقوم إلَّا بحادث، وهؤلاء هم الجهمية والمعتزلة وأتباعهم.

القول الثاني في المسألة: أنَّ الفعلَ غيرُ المفعول، ثُمَّ اختلف هؤلاء، فقالت

طائفة منهم: إنَّ الفعل قديمٌ كقدم القدرة والعلم، والمفعول متأخِّر عن الفعل، فقيل لهم: لا يمكن أن يكون الفعلُ قديمًا ويتأخر المفعول، لأنَّ الفعلَ مقارنٌ للمفعول، فعندما تصنع بابًا صار الحكم مقارنًا لتكوين هذا الباب، قالوا: نسمي هذا تكوينًا سابقًا، لكن هذا لا يخرجون به عن الإشكال.

الطائفة الثانية: من الذين قالوا: إنَّ الفعلَ غيرُ المفعول، انقسموا أيضًا إلى قسمين:

قسم قالوا: إنَّ الفعلَ غيرُ المفعول، لكنه ليس أزليًّا، فالفعل كان ممتنعًا، ثُمَّ كان ممكنًا، وهذا رأي الكرَّامِيَّة.

وقسم قالوا: لا، كان الفعل قائمًا به، وهو غيرُ المفعول، ولكنه يتجدد وهو أزلِـيٌّ، فلم يزل الله ولا يزال فَعَّالًا، وهذا هو مذهب أهل الحديث، ولهذا **قال**:

٨٧٨- وَالآخَرُونَ أُولُو الْـحَدِيثِ كَأَحْمَـدٍ ... ذَاكَ ابْـنُ حَنْبَـلٍ الرِّضَـا الشَّـيْبَانِي

٨٧٩- قَـدْ قَـالَ: إنَّ الله حَقًّـا لَـمْ يَـزَلْ ... مُتَـكَلِّمًا إنْ شَـاءَ ذُو إحْسَـانِ

٨٨٠- جَعَلَ الْكَـلامَ صِـفَاتِ فِعْـلٍ قَـائِمٍ ... بِالـذَّاتِ لَـمْ يُفْقَـدْ مِـنَ الـرَّحْمَنِ

فالكلام صفةُ فعل، وإذا كان لم يُفْقَدْ من الله معناه أنه لم يأتِ عليه زمن إلَّا وهو يتكلَّم كما أنه لم يأتِ زمن إلَّا وهو يفعل.

فالكلام صفة من صفاته الفعلية، وأنَّه متى شاء تكلَّم، ومتى شاء سكت، وأنه عزَّ وجلَّ يتكلَّم بما شاء، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، والمراد بالسكوت ليس عدم النطق، لأننا لا نستطيع أن

نثبت هذا، لكن هو ترك الكلام في شيء معيَّن، وأَمَّا أن نقول: إِنَّ الله يُوصف بالسكوت فلا، وأمَّا الحديث: «وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ»[(١)]. فالمعنى أنه لم يشرعها، أو لم يمنعها، ولا يلزم من هذا أن يكون ساكتًا، أو يقال: سكوت مُعَيَّن لا ينافي الكمال.

٨٨١- وَكَذَاكَ نَصَّ عَلَى دَوَامِ الْفِعْلِ بِالْـ ... إِحْسَانِ أَيْضًا فِي مَكَانٍ ثَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ نَصَّ» كذاك نَصَّ أي: الإمام أحمد على دوام الفعل بالإحسان أيضًا.

قَوْلُهُ: «فِي مَكَانٍ ثَانِ» يعني: في قولٍ آخر له.

٨٨٢- وَكَذَا ابْنُ عَبَّاسٍ[(٢)] فَرَاجِعْ قَوْلَهُ ... لَـمَّا أَجَابَ مَسَائِلَ الْقُرْآنِ

يعني: أنَّ ابنَ عباس نصَّ على أنَّ الفعلَ أزلِيٌّ، وأنَّ الله لم يزل ولا يزال فَعَّالًا، دائم الإحسان.

٨٨٣- وَكَذَاكَ جَعْفَرٌ[(٣)] الإِمَامُ الصَّادِقُ الْـ ... ـمقبولُ عِنْدَ الْـخَلْقِ ذُو الْعِرْفَانِ

٨٨٤- قَدْ قَالَ لَـمْ يَزَلِ الْـمُهَيْمِنُ مُحْسِنًا ... بَـرًّا جَـوَادًا عِنْـدَ كُـلِّ أَوَانِ

---

(١) أخرجه الدارقطني، كتاب الرضاع، برقم (٤٤٤٥).

(٢) **ابن عباس**: هو عبد الله بن عباس الصحابي الجليل، ترجمان القرآن، وحبر الأمة، ولد بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين، ولازم النبيَّ ﷺ، وكان من مكثري الحديث، سكن الطائف في آخر عمره، ومات بها سنة (٦٨هـ). [الشارح].

(٣) **جعفر الصادق**: هو جعفر بن محمد الباقر بن علي زيد العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه من أجلاء التابعين، أخذ عنه أبو حنيفة ومالك، لُقِّب بالصادق، لأنه لم يعرف عنه أنه كذب، كان جريئًا صدَّاعًا بالحق، ولد بالمدينة سنة (٨٠ هـ)، ومات بها سنة (١٤٨هـ). [الشارح].

٨٨٥- وَكَـذَا الإِمَـامُ الـدَّارِمِيُّ[1] فَإِنَّـهُ قَـدْ قَـالَ مَـا فيـهِ هُـدَى الْـحَيْرَانِ

قَوْلُهُ: «قد قال ما فيه هدى الحيران» يعني: أنَّ الدَّارمي -رحمه الله- أتى بقول يهتدي به الحيران، أي: المُتَحَيِّر.

٨٨٦- قَـالَ الْـحَيَاة مَـعَ الْفِعَـالِ كِلاهُمَـا مُتَلازِمَـانِ فَلَـيْسَ يَفْتَرِقَـانِ

الدَّارِمِيُّ -رحمه الله- قال: متى قلتَ: إنَّ الله حيٌّ، لزم أن يكون فَعَّالًا، وإذا كانت الحياة أزلية فالفعل أزليٌّ، إذ لا يُتَصَوَّر حيٌّ بدون فعل.

وهذا كلام جيد من الدارمي إذ يقول: إنَّ الفعلَ ملازمٌ للذات، فكما أنَّ الله لم يزل حيًّا فإنه لم يزل فَعَّالًا.

٨٨٧- صَدَقَ الإِمَامُ فَكُلُّ حَـيٍّ فَهْـوَ فَعْـ ـالٌ، وَذَا فِي غَايَـةِ التِّبْيَـانِ

٨٨٨- إِلَّا إِذَا مَـا كَـانَ ثَـمَّ مَوَانِـعٌ مِـنْ آفَـةٍ أَوْ قَـاسِرِ الْـحَيَوَانِ

قَوْلُهُ: «صَدَقَ الإِمَامُ» يعني: الدَّارِمِيَّ.

يقول: القاعدة أنَّ كُلَّ حيٍّ فَعَّال، إلَّا إذا كان هناك مانعٌ من آفة مثل أن يكون في الإنسان شلل، أو (قاسر الحيوان) كمكسور لا يقدر على الحركة، فهنا لا يلزم من الحياة الفعل.

٨٨٩- وَالـرَّبُّ لَـيْسَ لِفِعْلِـهِ مِـنْ مَـانِعٍ مَـا شَـاءَ كَـانَ بِقُـدْرَةِ الـدَّيَّانِ

قَوْلُهُ: «وَالرَّبُّ لَيْسَ لِفِعْلِهِ مِنْ مَانِعٍ» إذن فلم يَزَل فَعَّالًا كما أنه لم يَزَل حيًّا، فما شاء كان بقدرة الدَّيَّان.

---

(١) الدارمي: هو عثمان بن سعيد بن خالد الدارمي السجستاني، مُحَدِّث هَرَاة، له تصانيف في الرَّدِّ على الجهمية، ولد سنة (٢٠٠ هـ)، وتوفي بهراة سنة (٢٨٠ هـ). [الشارح].

الخلاصة: أننا نؤمن بأنَّ الله متكلِّمٌ بكلامٍ هو فعلُه بحرفٍ وصوتٍ، متى شاء بما شاء، هذا هو عقيدتنا، وهو الموافق تمامًا لما قاله السلف -رحمهم الله- وهو الموافق تمامًا لفطرة الإنسان، فكُلُّ إنسانٍ يعرِف أنَّ كُلَّ حَيٍّ فعَّال، وكلَّ فعَّال متكلِّم إلَّا أن يكون هناك مانِعٌ من خَرَس أو خوف أو ما أشبه ذلك، والله عزَّ وجلَّ ليس له مانع، فلا أحدَ يمنعه، بل هو يفعل ما يشاء، هذا هو العقيدة السليمة السلفية القوية.

***

٨٩٠- وَمَشِيئَةُ الرَّحْمَنِ لازِمَةٌ لَهُ ... وَكَذَاكَ قُدْرَةُ رَبِّنَا الرَّحْمَنِ

٨٩١- هَذَا وَقَدْ فَطَرَ الإِلَهُ عِبَادَهُ ... أَنَّ الْمُهَيْمِنَ دَائِمُ الإِحْسَانِ

٨٩٢- أَوَلَسْتَ تَسْمَعُ قَوْلَ كُلِّ مُوَحِّدٍ ... يَا دَائِمَ الْمَعْرُوفِ وَالسُّلْطَانِ

٨٩٣- وَقَدِيمَ الاحْسَانِ الْكَثِيرِ وَدَائِمَ الْـ ... جُودِ الْعَظِيمِ وَصَاحِبَ الْغُفْرَانِ

٨٩٤- مِنْ غَيْرِ إِنْكَارٍ عَلَيْهِمْ فِطْرَةً ... فُطِرُوا عَلَيْهَا لا تَوَاصٍ ثَانِ

٨٩٥- أَوَلَيْسَ فِعْلُ الرَّبِّ تَابِعَ وَصْفِهِ ... وَكَمَالِهِ أَفَذَاكَ ذُو حِدْثَانِ؟!

٨٩٦- وَكَمَالُهُ سَبَبُ الْفِعَالِ وَخَلْقُهُ ... أَفْعَالَهُمْ سَبَبُ الْكَمَالِ الثَّانِي

٨٩٧- أَوَمَا فِعَالُ الرَّبِّ عَيْنُ كَمَالِهِ ... أَفَذَاكَ مُمْتَنِعٌ عَلَى الْمَنَّانِ

٨٩٨- أَزَلًا إِلَى أَنْ صَارَ فِيمَا لَمْ يَزَلْ ... مُتَمَكِّنًا وَالْفِعْلُ ذُو إِمْكَانِ

٨٩٩- تَاللهِ قَدْ ضَلَّتْ عُقُولُ الْقَوْمِ إِذْ ... قَالُوا بِهَذَا الْقَوْلِ ذِي الْبُطْلَانِ

٩٠٠- مَاذَا الَّذِي أَضْحَى لَهُ مُتَجَدِّدًا ... حَتَّى تَمَكَّنَ فَانْطِقُوا بِبَيَانِ

٩٠١- وَالـرَّبُّ لَـيْسَ مُعَطَّـلًا عَـنْ فِعْلِـهِ ... بَــلْ كُــلَّ يَــوْمٍ رَبُّنَــا فِي شَــانِ

٩٠٢- وَالأَمْـرُ وَالتَّكْـوِينُ وَصْـفُ كَمَالِـهِ ... مَــا فَقْــدُ ذا وَوُجُــودُهُ سِــيَّان

٩٠٣- وَتَــخَلُّفُ التَّأْثِــيرِ بَعْـدَ تَــمَامِ مُـو ... جِبِــهِ مُحَــالٌ لَــيْسَ فِي الإِمْكَــانِ

٩٠٤- وَاللهُ رَبِّي لَــمْ يَــزَلْ ذَا قُــدْرَةٍ ... وَمَشِــيئَةٍ وَيَلِــيهِمَا وَصْــفَانِ

٩٠٥- الْعِلْمُ مَـعْ وَصْـفِ الْـحَيَاةِ وَهَـذِهِ ... أَوْصَــافُ ذَاتِ الْــخَالِقِ الْــمَنَّانِ

٩٠٦- وَبِهَــا تَمَـامُ الْفِعْـلِ لَـيْسَ بِـدُونِهَا ... فِعْــلٌ يَــتِمُّ بِوَاضِــحِ الْبُرْهَــانِ

٩٠٧- فَــلأَيِّ شَيءٍ قَــدْ تَــأَخَّرَ فِعْلُــهُ ... مَـعْ مُوجِـبٍ قَـدْ تَـمَّ بِالأَرْكَـانِ

٩٠٨- مَا كَـانَ مُمْتَنِعًـا عَلَيْـهِ الْفِعْـلُ؟ بَـلْ ... مَــا زَالَ فِعْــلُ الله ذَا إِمْكَــانِ

الشـرحُ

في هذه المقطوعة أراد المؤلف أن يردَّ على طائفة الكَرَّامِيَّة الذين قالوا: إِنَّ فِعْلَ الله تعالى حادثٌ متعلِّق بمشيئته، لكنه حادثٌ بعد أن لم يكن، فكان بالأول ممتنعًا، ثُمَّ صار حادثًا.

فنقول: ما الذي جعله في الأول مستحيلًا، وفي الثاني ممكنًا؟ قد يحتجون بهذا علينا أيضًا، ويقولون: إذا كان الله تعالى قبل خلق السموات والأرض لم يخلقها، فهل حدث له كمال فخلقها؟

الجواب: لا، هو كاملٌ من قبل أن يخلقها، لكن حيث اقتضت الحكمة أن يَخْلُقها خَلَقها، فكان إيجادُها كمالًا، وحيث لم تقتضِ الحِكْمة وُجودَها لم يخلقها، فكان عدمُ خلقها كمالًا، وفي هذا ينجلي عنك الإشكال.

فابن القيم -رحمه الله- رَدَّ عليهم بهذه الأبيات، وفيها شيء من التَّكرارِ لكن من أجل التوضيح، فقال:

٨٩٠- وَمَشِيئَةُ الرَّحْمَنِ لازِمَةٌ لَهُ ... وَكَذَاكَ قُدْرَةُ رَبِّنَا الرَّحْمَنِ

يعني: أنَّ الله لم يزل شائيًا، لم يزل مُريدًا للأشياء، ولم يزل قادرًا عليها، والقدرة باتفاق الجميع ليست حادثةً، والمشيئة كذلك ليست حادثةً.

٨٩١- هَذَا وَقَدْ فَطَرَ الإلَهُ عِبَادَهُ ... أَنَّ الْمُهَيْمِنَ دَائِمُ الإحْسَانِ

ثمَّ استدلَّ -رحمه الله- على أنَّ الله لم يزل ولا يزال فَعَّالًا بما فَطر الله عليه العباد، وهو أنَّ الله دائمُ الإحسان، والدوام يقتضي التسلسلَ في الأزَلِ والتسلسل في المستقبل، في الأزل يعني: في الماضي، وفي المستقبل ما دام دائمًا فإنه يقتضي أن يكون فاعلًا، ولم يزل فَعَّالًا في الماضي كما لا يزال فَعَّالًا في المستقبل.

٨٩٢- أَوَلَسْتَ تَسْمَعُ قَوْلَ كُلِّ مُوَحِّدٍ ... يَا دَائِمَ الْمَعْرُوفِ وَالسُّلْطَانِ

قَوْلُهُ: «أَوَلَسْتَ تَسْمَعُ»؟ هذا الاستفهام للتقرير، والجواب: بلى، نسمع، فكُلُّ واحد من أهل التوحيد يقول: يا دائم المعروف والسلطان، والدوام يقتضي التسلسلَ في الماضي والتسلسلَ في المستقبل وإلَّا لم يكن دائمًا.

٨٩٣- وَقَدِيمَ الاحْسَانِ الْكَثِيرِ وَدَائِمَ الْـ ... جُودِ الْعَظِيمِ وَصَاحِبَ الْغُفْرَانِ

كلُّ هذا نسمعه من المسلمين، وكلُّه يقتضي أنَّ الله لم يزل ولا يزال فَعَّالًا محسنًا.

٨٩٤- مِنْ غَيْرِ إِنْكَارٍ عَلَيْهِمْ فِطْرَةً ... فُطِرُوا عَلَيْهَا لا تَوَاصٍ ثَانِ

قَوْلُهُ: «مِنْ غَيْرِ إِنْكَارٍ عَلَيْهِمْ» يعني: لا أحد يُنكِر عليهم.

قَوْلُهُ: «فِطْرَةً فُطِرُوا عَلَيْهَا» ويجوز أن تقول: (فِطْرَةٌ فُطِرُوا عَلَيْهَا) فعلى الأول تكون (فطرة) مصدرًا مفعولا مطلقا لـ(فطروا)، وعلى الثاني تكون خبرًا لمبتدأ محذوف، والتقدير (هي فطرةٌ).

قَوْلُهُ: «لا تَوَاصِ ثَانِ» يعني: لا أحد وَصَّاهم، يعني: ليس بعضُهم يوصِي بعضًا ويقول: قل: يا دائم المعروف، قل: يا دائم السلطان، بل هي أمرٌ فطري.

٨٩٥- أَوَلَيْسَ فِعْلُ الرَّبِّ تَابِعَ وَصْفِهِ ... وَكَمَالِهِ أَفَذَاكَ ذُو حِدْثَانِ؟!

الجواب: بلى، فِعْلُ الرَّبِّ تابعٌ لكمالِه، وإذا كان تَابعَ كمالِه، فهل كمالُه حادثٌ؟

الجواب: لا، الفَعَّال أكملُ ممن لا يفعل، وإذا كان كمالُ الله تعالى لازمًا له أزلًا وأبدًا لَزِم أن يكون فعلُه لازمًا له أزلًا وأبدًا، فالله لم يَزَل ولا يَزَال فَعَّالًا.

٨٩٦-وَكَمَالُهُ سَبَبُ الْفِعَالِ وَخَلْقُهُ ... أَفْعَالَهُمْ سَبَبُ الْكَمَالِ الثَّانِي

قَوْلُهُ: «وَكَمَالُهُ سَبَبُ الْفِعَالِ» يعني: أنه لما كان كاملًا كان كمالُه سببًا لفعله، ومن المعلوم أن المُسَبَّب لا يتأخر عن السبب، فالكمال لازمٌ أبدًا، إذن الفعل لازمٌ أبدًا.

قَوْلُهُ: «وَخَلْقُه أَفْعَالَهُمْ» أي: وخَلْقُ أفعالِ العباد.

قَوْلُهُ: «سَبَبُ الْكَمَالِ الثَّانِي» يعني مثلًا: الله تعالى لم يزل خالقًا فاعلًا، فإذا خلَقَ الشيءَ صار هذا كمالًا ثانيًا تَبَيَّنَ به الكمالُ الأولُ، لأنه لا يظهر هنا كمالُ الله عزَّ وجلَّ إلَّا بمخلوقاتِه، فهذه المخلوقات إذا رأيناها كاملةً وهي من أثرِ فعلِه فهذا كمالٌ ثانٍ غيرُ الكمالِ الأولِ الذي هو وصفُه الدائمُ.

٨٩٧- أَوَمَـا فِعَـالُ الـرَّبِّ عَـيْنُ كَمَالِـهِ أَفَــذَاكَ مُمْتَنِــعٌ عَــلَى الْــمَنَّانِ

الجواب: لا، ليس بمُمتنعٍ، فإذا كانَ فعلُ الله هو عينَ كمالِه فهو لم يَزَل كاملًا.

٨٩٨- أَزَلًا إِلَى أَنْ صَـارَ فِـيمَا لَـمْ يَـزَلْ مُتَمَكِّنًــا وَالْفِعْــلُ ذُو إِمْكَــانِ

وهذا رأي الكَرَّاميَّة يقولون: إنَّ الله كان في الأزل لا يتمكن من الفعل، ثُمَّ صار متمكنًا، لأنهم يخشون إذا قالوا: بأنه لم يزل فاعلًا أن يُلْزَموا بتسلسل الحوادث في الماضي، وهذا يقتضي أنَّ هذا الكون لا خالقَ له.

وهذا خطأ، لأننا حتى لو قلنا بقدم الفعلِ، فإنَّ المفعول يكون بعد الفاعل أو معه؟

الجواب: بعده قطعًا، يعني: لو قلنا بأنَّ المخلوقات لم تَزَلْ فيما مضى، لكن نحن لا نعلم إِلَّا السموات والأرض فإنه لا يلزم أن تكون قديمةً قِدَمَ الله، لأنه من المعلوم أنَّ الفعل لا يكون إِلَّا بعد الفاعل، والمفعول لا يكون إِلَّا بعد الفعل، فكيف تقولون: إنَّ هذا ممتنع؟!

٨٩٩- تَـاللهِ قَـدْ ضَـلَّتْ عُقُـولُ الْقَـوْمِ إِذْ قَـالُوا بِهَـذَا الْقَـوْلِ ذِي الْـبُطْلَانِ

قَوْلُهُ: «تَاللهِ قَدْ ضَلَّتْ عُقُولُ الْقَوْمِ» أي: الكَرَّامِيَّة.

قَوْلُهُ: «إِذْ قَالُوا بِهَذَا الْقَوْلِ» يعني أنَّ الفعلَ كان بالأول ممتنعًا، ثُمَّ صار ممكنًا.

٩٠٠- مَـاذَا الَّـذِي أَضْـحَى لَـهُ مُتَجَـدِّدًا حَتَّــى تَمَكَّــنَ فَــانْطِقُوا بِبَيَــانِ

يعني: ما السبب أنه كان ممتنعًا، ثُمَّ صار ممكنًا؟

٩٠١- وَالـرَّبُّ لَـيْسَ مُعَطَّـلًا عَـنْ فِعْلِـهِ   بَـلْ كُـلَّ يَـوْمٍ رَبُّنَـا فِي شَـانِ

يعني: لو قلنا إنَّ الله في الأزل لم يكن قادرًا على الفعل، ثُمَّ كان قادرًا لَزِم أن يكون في الأول مُعَطَّلًا عن الفعل.

٩٠٢- وَالأَمْـرُ وَالتَّكْـوِينُ وَصْـفُ كَمَالِـهِ   مَـا فَقْـدُ ذا وَوُجُـودُهُ سِـيَّان

قَوْلُهُ: «وَالأَمْرُ وَالتَّكْوِينُ» ذكَرَه الله تعالى في قولِه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، التكوين: الخلق، والأمر هو الأمر، فالله له الأمر، وله التكوين، وهذان وصفان لكماله، ولهذا قال: (**وَصْفُ كَمَالِهِ ما فَقْدُ ذا وَوُجُودُهُ سِيَّانِ**)، لكن أيهما أكمل؟ الجواب: وجوده لا شكَّ.

٩٠٣- وَتَخَلُّـفُ التَّـأْثِيرِ بَعْـدَ تَمَـامِ مُـو   جِبِـهِ مُحَـالٌ لَـيْسَ فِي الإِمْكَـانِ

يَردُّ عليهم، ويقول: إذا قلتم: إنَّ الله تعالى لا مفعولَ له في الأزل، ثُمَّ صار له مفعول، إن قلتم: إنَّ الله قادر، ثُمَّ تَخَلَّفَ المقدور، فهذا مستحيل، لأنَّ تخلُّف التأثير بعد تمام موجِبِه مستحيلٌ، فإذا وُجد الموجِب لا بدَّ أن يوجد الموجَب ولا يتخلَّف، فإذا كان الله قادرًا فاعلًا فلماذا لا يكون المفعولُ أزليًّا كما كان الفعلُ أزليًّا؟! لكن معنى ذلك لو قلنا: بأنه أزليٌّ لا يلزم أن يكون مساويًا للفاعل، لأنَّ الفعل بعد الفاعل، والمفعول بعد الفعل.

٩٠٤- وَاللهُ رَبِّي لَـمْ يَـزَلْ ذَا قُـدْرَةٍ   وَمَشِـيئَةٍ وَيَلِـيهِمَا وَصْـفَانِ

٩٠٥- الْعِلْمُ مَـعْ وَصْـفِ الْـحَيَاةِ وَهَـذِهِ   أَوْصَـافُ ذَاتِ الْـخَالِقِ الْـمَنَّانِ

فهذه أربعة: الحياة، والعلم، والمشيئة، والقدرة، فهذه أوصاف ذات الخالق المنان.

٩٠٦- وَبِهَا تَمَامُ الْفِعْلِ لَيْسَ بِدُونِهَا فِعْلٌ يَتِمُّ بِوَاضِحِ الْبُرْهَانِ

وهذا صحيح، فلا يمكن أن يَتِمَّ فعلُ الفاعل إلَّا بهذه الأوصاف الأربعة: وهي الحياةُ، والعلمُ، والمشيئةُ، والقدرةُ، فالميت لا يفعلُ، والجاهل لا يفعلُ، لو جاءنا إنسانٌ وقال: أريد أن أصنعَ لكم مُسَجِّلًا الآن، وهو جاهل ما درس ولا جَرَّب هل يمكن أن يُنْتِج؟

الجواب: لا، بسببِ جهلِه.

الإرادة وهي المشيئة، أيضًا لو كان إنسانٌ حيًّا عالمًا قديرًا لكن لم يشأ أن يصنع هذا المسجل، هل يمكن أن يوجد؟

الجواب: لا.

ومثلًا إنسان حيٌّ عليمٌ شائيٌّ لكنه أشلُّ، لا يقدر، يعني: هذا الرجل قد درس وتعلَّم كيف يصنع، وأراد أن يصنع لكنه أشلُّ، لا يقدر، هل يمكن أن يُوجِد المصنوع؟

الجواب: لا يُوجِد.

فإذا تمت هذه الأوصاف الأربعة: الحياة، والعلم، والمشيئة، والقدرة فلا بدَّ أن يُوجَد المفعولُ.

وهل الله عزَّ وجلَّ فَقَدَ الحياةَ في يوم من الأيام؟

الجواب: لا، هل فقد العلم، أو فقد المشيئة، أو فقد القدرة؟ أبدًا.

فإذا كانت هذه الأوصاف تامةً في حقِّ الله فلماذا لا يوجد المفعول؟! لا بدَّ أن يوجد، ولهذا قال: (**وَبِهَا تَمَامُ الْفِعْلِ لَيْسَ بِدُونِهَا فِعْلٌ يَتِمُّ بِوَاضِحِ الْبُرْهَانِ**).

٩٠٧- فَــلأَيِّ شَيءٍ قَــدْ تَــأَخَّرَ فِعْلُــهُ ... مَــعْ مُوجِــبٍ قَـدْ تَـمَّ بِالأَرْكَـانِ

٩٠٨- مَا كَـانَ مُمْتَنِعًـا عَلَيْـهِ الْفِعْـلُ؟ بَـلْ ... مَـــا زَالَ فِعْـــلُ الله ذَا إِمْكَـــانِ

قَوْلُهُ: «فَلأَيِّ شَيْءٍ» يعني: إذا كانت قد تمَّت أسبابُ الفعل.

وخلاصة هذه الأبيات أنه أقام الدليل على الكَرَّامِيَّة بأنَّ الله لم يزل حيًّا، لم يزل عالمًا، لم يزل قادرًا، لم يزل شائيًا، فإذا تمت هذه الأمور الأربعة فلا بدَّ من وجود المقدور عليه، فلأي شيءٍ يتخلف؟!

إذ كيف نقول: الموجِب تامٌّ سابق، ثُمَّ لا يُوجَد الموجَب؟! هذا شيءٌ غير ممكن.

كُلُّ هذه الأبيات لتقريرِ هذه القاعدة: أنه متى تمت شروط الفعل وجَبَ وجود الفعل.

* * *

٩٠٩- وَاللهُ عَــابَ الْــمُشْرِكِينَ بِــأَنَّهُمْ ... عَبَدُوا الْحِجَارَةَ فِي رِضَـا الشَّـيْطَانِ

٩١٠- وَنَعَى عَلَـيْهِمْ كَوْنَهَـا لَيْسَـتْ بِخَـا ... لِقَــةٍ، وَلَيْسَــتْ ذَاتَ نُطْــقِ بَيَــانِ

٩١١- فَأَبَــانَ أَنَّ الْفِعْــلَ وَالتَّكْلِـيمَ مِــنْ ... أَوْثَــانِهِمْ لا شَــكَّ مَفْقُــودَانِ

٩١٢- فَــإِذَا هُمَــا فُقِــدَا فَــمَا مَسْــلُوبُهَا ... بِإِلَــهِ حَـــقٍّ وَهْـــوَ ذُو بُطْــلانِ

٩١٣- وَاللهُ فَهْـــوَ إِلَـــهُ حَـــقٍّ دَائِـــمًا ... أَفَعَنْـــهُ ذَا الْوَصْـــفَانِ مَسْـــلُوبَانِ

٩١٤- أَزَلًا؟! وَلَـيْسَ لِفَقْـدِهَا مِـنْ غَايَـةٍ ... هَـذَا الْــمُحَالُ وَأَعْظَـمُ الْـبُطْلانِ

الشـرحُ

٩٠٩- وَاللهُ عَـابَ الْـمُشْرِكِينَ بِـأَنَّهُمْ عَبَدُوا الْحِجَارَةَ فِي رِضَـا الشَّـيْطَانِ

٩١٠- وَنَعَى عَلَـيْهِمْ كَوْنَهَـا لَيْسَـتْ بِخَـا لِقَـةٍ، وَلَيْسَـتْ ذَاتَ نُطْـقِ بَيَـانِ

يقول المؤلف -رحمه الله-: إنَّ الله عابَ المشركين، لأنهم عَبَدوا الحجارةَ في رضا الشيطان، ونَعَى عليهم كونَها ليست بخالقةٍ، يعني: أنها لا تخلق، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴾ [النحل:٢٠].

قَوْلُهُ: «وَلَيْسَتْ ذَاتَ نُطْقِ بَيَانِ» يعني: أنها لا تتكلَّم كما قال إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء:٦٣].

٩١١- فَأَبَـانَ أَنَّ الْفِعْـلَ وَالتَّكْلِـيمَ مِـنْ أَوْثَـانِهِمْ لا شَـكَّ مَفْقُـودَانِ

٩١٢- فَـإِذَا هُمَـا فُقِـدَا فَـمَا مَسْـلُوبُهَا بِإِلَـهِ حَـقٍّ وَهْـوَ ذُو بُطْـلانِ

قَوْلُهُ: «مَسْلُوبُهَا» يعني: الذي انتفت عنه، إذا فُقدا من المعبود فليس بإله حقّ، إذن هي ليست بخالقة فلا تفعل، وليست بناطقة فلا تتكلَّم، فإذا فُقِدَ التكليمُ والخلق من المعبود فليس بإلهِ حقٍّ.

٩١٣- وَاللهُ فَهْـوَ إِلَـهُ حَـقٍّ دَائِـمًا أَفَعَنْـهُ ذَا الْوَصْـفَانِ مَسْـلُوبَانِ

٩١٤- أَزَلًا؟! وَلَـيْسَ لِفَقْـدِهَا مِـنْ غَايَـةٍ هَـذَا الْـمُحَالُ وَأَعْظَـمُ الْـبُطْلانِ

الجواب: لا، بل لم يزل فعَّالًا، ولم يزل مُتكلِّمًا، ولهذا قال: (أَفَعَنْهُ ذَا الْوَصْفَانِ مَسْلُوبَانِ) أي أفيكون هذان الوصفان مَسْلُوبَيْن عنه أزلًا كما قالت الكرَّامِيَّة؟! لأنَّ الكَرَّامِيَّة يقولون: في الأزل ليس بمتكلِّم، وليس بفاعل، ثُمَّ حَدَث له ذلك، وإذا

قلنا بهذا فإلى متى كان لا يتكلَّم ولا يفعل؟ ولهذا قال: (وَلَيْسَ لِفَقْدِهَا مِنْ غَايَةٍ) إلى أي زمنٍ لم يكن يتكلَّم، ولم يكن يفعل، ثُمَّ صار يتكلَّم ويفعل؟

* * *

٩١٥- إِنْ كَانَ رَبُّ الْعَرْشِ حَقًّا لَمْ يَزَلْ ... أَبَدًا إِلَهَ الْحَقِّ ذَا سُلْطَانِ

٩١٦- فَكَذَاكَ أَيْضًا لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا ... بَلْ فَاعِلًا مَا شَاءَ ذَا إِحْسَانِ

٩١٧- وَاللهِ مَا فِي الْعَقْلِ مَا يَقْضِي لِذَا ... بِالرَّدِّ وَالإِبْطَالِ وَالنُّكْرَانِ

٩١٨- بَلْ لَيْسَ فِي الْمَعْقُولِ غَيْرُ ثُبُوتِهِ ... لِلْخَالِقِ الأَزَلِيِّ ذِي الإِحْسَانِ

٩١٩- هَذَا وَمَا دُونَ الْمُهَيْمِنِ حَادِثٌ ... لَيْسَ الْقَدِيمُ سِوَاهُ فِي الأَكْوَانِ

٩٢٠- وَاللهُ سَابِقُ كُلِّ شَيْءٍ غَيْرِهِ ... مَا رَبُّنَا وَالْخَلْقُ مُقْتَرِنَانِ

٩٢١- وَاللهُ كَانَ وَلَيْسَ شَيْءٌ غَيْرُهُ ... سُبْحَانَهُ جَلَّ الْعَظِيمُ الشَّانِ

الشرحُ

قال المؤلف -رحمه الله-: إنَّ الله عزَّ وجلَّ ما كان حادثًا بل هو القديم، وهذا مُتابعةً للمناطقة، وإلَّا فليس من أسماء الله القديم، لأنَّ القديم لا يتضمَّن ما وصف الله به أسماءه في قولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠].

فالقديم قد يكون غيرُه أقدمَ منه، فلا يصحُّ أن يكون اسمًا، ثُمَّ القديم قد يكون في شيء مخلوق كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس:٣٩]، ولذلك لم يكن من أسمائه القديم، ويغني عنه قوله -تبارك وتعالى-: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣] فاسمه (الأوَّل) يغني عن القديم، لأنَّ (الأوَّل)

يدلُّ على أنه ليس شيءٌ قبله ولا شيءٌ معه، ويدلُّ على معنًى آخر وهو أنَّ مآلَ الأشياء إليه، فهو مشتقٌّ من الأولية، والآيلية، ولكن لا بأس أن نخاطب هؤلاء المتكلِّمين بما يقولون بدون أن نوافقهم عليه.

* * *

٩٢٢- لَسْنَا نَقُولُ كَمَا يَقُولُ الْـمُلْحِدُ الزْ ... زِنْـدِيقُ صَـاحِبُ مَنْطِـقِ الْيُونَـانِ

٩٢٣- بِدَوَامِ هَذَا الْعَالَـمِ الْـمَشْهُودِ وَالْـ ... أَرْوَاحِ فِي أَزَلٍ وَلَـيْسَ بِفَـانِ

٩٢٤- هَـذِي مَقَـالاتُ الْـمَلاحِدَةِ الأُلَى ... كَفَـرُوا بِخَـالِقِ هَـذِهِ الأَكْـوَانِ

٩٢٥- وَأَتَى ابْـنُ سِـينَا بَعْـدَ ذَاكَ مُصَـانِعًا ... لِلْمُسْـلِمِينَ فَقَـالَ بِالإِمْكَـانِ

٩٢٦- لَكِنَّـهُ الأَزَلِيُّ لَـيْسَ بِمُحْـدَثٍ ... مَـا كَـانَ مَعْـدُومًا وَلا هُـوَ فَـانِ

٩٢٧- وَأَتَـى بِصُـلْحٍ بَـيْنَ طَـائِفَتَيْنِ بَيْـ ... ـنَهُمَا الْـحُرُوبُ وَمَـا هُمَـا سِلْمَانِ

٩٢٨- أَنَّى يَكُونُ الْـمُسْلِمُونَ وَشِـيعَةُ الْـ ... ـيُونَانِ صُـلْحًا قَـطُّ فِي الإِيـمَانِ

٩٢٩- والسَّـيْفُ بَـيْنَ الأَنبِيَـاءِ وَبَيْـنَهُمْ ... وَالْـحَرْبُ بَيْـنَهُمُ فَحَـرْبُ عَـوَانِ

٩٣٠- وَكَذَا أَتَى الطُّوسِيُّ بِالْحَرْبِ الصَّرِيـ ... ـحِ بِصَـارِمٍ مِنْـهُ وَسَـلِّ لِسَـانِ

٩٣١- وَأَتَـى إِلَى الإِسْـلامِ يَهْـدِمُ أَصْـلَهُ ... مِـنْ أُسِّـهِ وَقَوَاعِـدِ الْبُنْيَـانِ

٩٣٢- عَمَـرَ الْـمَدَارِسَ لِلْفَلاسِـفَةِ الأُلَى ... كَفَـرُوا بِـدِينِ اللهِ وَالْقُـرْآنِ

٩٣٣- وَأَتَى إِلَى أَوْقَـافِ أَهْـلِ الـدِّينِ يَنْـ ... ـقُلُهَا إِلَـيْهِمْ فِعْـلَ ذِي أَضْـغَانِ

٩٣٤- وَأَرَادَ تَحْوِيـلَ الإِشَـارَاتِ الَّتِـي ... هِـيَ لابْـنِ سِـينَا مَوْضِـعَ الْفُرْقَـانِ

٩٣٥- وَأَرَادَ تَحْوِيلَ الشَّرِيعَةِ بِالنَّوَا مِيسِ الَّتِي كَانَتْ لَدَى الْيُونَانِ
٩٣٦- لَكِنَّهُ عَلِمَ اللَّعِينُ بِأَنَّ هَـ ـذَا لَيْسَ فِي الْـمَقْدُورِ وَالإِمْكَانِ
٩٣٧- إِلَّا إِذَا قَتَلَ الْـخَلِيفَةَ وَالْقُضَا ةَ وَسَائِرَ الْفُقَهَاءِ فِي الْبُلْدَانِ
٩٣٨- فَسَعَى لِذَاكَ وَسَاعَدَ الْـمَقْدُورُ بِالْـ أَمْرِ الَّذِي هُوَ حِكْمَةُ الرَّحْمَنِ
٩٣٩- فَأَشَارَ أَنْ يَضَعَ التَّتَارُ سُيُوفَهُمْ فِي عَسْكَرِ الإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ
٩٤٠- لَكِنَّهُمْ يُبْقُونَ أَهْلَ صَنَائِعِ الدْ دُنْيَا لأَجْلِ مَصَالِحِ الأَبْدَانِ
٩٤١- فَغَدَا عَلَى سَيْفِ التَّتَارِ الأَلْفُ فِي مِثْلٍ لَهَا مَضْرُوبَةً بِوِزَانِ
٩٤٢- وَكَذَا ثَمَانِ مِئِينِهَا فِي أَلْفِهَا مَضْرُوبَةً بِالْعَدِّ وَالْـحُسْبَانِ
٩٤٣- حَتَى بَكَى الإِسْلامَ أَعْدَاهُ الْيَهُو دُ كَذَا الْـمَجُوسُ وَعَابِدُو الصُّلْبَانِ
٩٤٤- فَشَفَى اللَّعِينُ النَّفْسَ مِنْ حِزْبِ الرَّ سُولِ وَعَسْكَرِ الإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ
٩٤٥- وَبِوُدِّهِ لَوْ كَانَ فِي أُحُدٍ وَقَدْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ مَعْ أَبِي سُفْيَانِ
٩٤٦- لأَقَرَّ أَعْيُنَهُمْ وَأَوْفَى نَذْرَهُ أَوْ أَنْ يُرَى مُتَمَزِّقَ اللَّحْمَانِ

الشرحُ

٩٢٢- لَسْنَا نَقُولُ كَمَا يَقُولُ الْـمُلْحِدُ الزْ زِنْدِيقُ صَاحِبُ مَنْطِقِ الْيُونَانِ

قَوْلُهُ: «الْـمُلْحِدُ الزِّنْدِيقُ صَاحِبُ مَنْطِقِ الْيُونَانِ» وهو أرسطو، لأنَّ أرسطو هو المعلم الأول للفلسفة اليونانية، يقول:

٩٢٣- بِدَوَامِ هَذَا الْعَالَـمِ الْـمَشْهُودِ وَالْـ ... أَرْوَاحِ فِي أَزَلٍ وَلَـيْسَ بِفَـانِ

هذا العالَـمُ المشهودُ الذي هو السمواتُ، والأرضُ، والأفلاكُ، والأرواحُ -وهي عَالَـمٌ خفيٌّ- يقول: إنه دائمٌ أزلًا، وليس بفانٍ، إذن فهو دائمٌ أزلًا وأبدًا.

وهذا الوصف لا يصحُّ إلا لله وحدَه، فهم يقولون -أعنى الفلاسفة-: هذا العالَـمُ ليس له أوَّل وليس له آخِر، يبقى ولا يَفْنَى أبدًا، وهو أزليٌّ فيما سبق، لم يسبقه عَدَم.

٩٢٤- هَـذِي مَقَـالاتُ الْـمَلاحِدَةِ الأُلَى ... كَفَـرُوا بِخَـالِقِ هَـذِهِ الأَكْـوَانِ

قَوْلُهُ: «هذي» الإشارة إلى القول بدوام العالَمِ المشهود أزلًا وأبدًا.

قَوْلُهُ: «مقالات الملاحدة الأُلَى» الألى يعني: الذين، فـ(الأُلَى) جمع (الذي) كما قال ابنُ مالكٍ في ألفيته: جَمْعُ الَّذِي: (الأُلَـى) (الَّذِينَ) مُطْلَقَا

إِذَنْ الفلاسفة يقولون: هذا الكون المشهود -وهو السموات، والأرض، والشمس، والقمر، والنجوم- أزليٌّ أَبَدِيٌّ، وكذلك العالَـمُ غير المشهود -وهي الأرواح- أزليٌّ أَبَدِيٌّ، لكن من أين يؤخذ أنه (الأزلي)؟ الجواب: من قوله: «بِدَوَامِ هَذَا الْعَالَـمِ... فِي أَزَلٍ»، وهو أيضًا أبديٌّ لقوله: «وَلَيْسَ بِفَانِ».

٩٢٥- وَأَتَى ابْـنُ سِـينَا بَعْـدَ ذَاكَ مُصَـانِعًا ... لِلْمُسْـلِمِينَ فَقَـالَ بِالإِمْكَـانِ

قَوْلُهُ: « مُصَانِعًا» أي: للمسلمين، يعني: مُتقرِّبًا إليهم، لأنَّ ابنَ سِينا يَدَّعِي أنه مسلم، وإذا كان مسلمًا بدعواه، فإنه لن يأتيَ بقولٍ يناقض ما عليه المسلمون، فأتى بقولٍ يُصانِعُهم فيه، فقال بالإمكان، يعني: بإمكان حُدوثِ هذا العالَمِ، وأَنَّ العالَمَ يمكن أن يكون حادثًا.

والفلاسفة الذين قبل أرسطو وأتباعه يقولون: إنَّ العالَـمَ أَزِلِيٌّ، لا يمكن أن يكون حادثًا، أما ابنُ سِينا فأتى **(فقال بالإمكان)**.

٩٢٦- لَكِنَّـــهُ الأَزَلِيُّ لَـــيْسَ بِمُحْـــدَثٍ مَــا كَــانَ مَعْــدُومًا وَلا هُــوَ فَــانِ

يقول: إنه ممكن أن يكون حادثًا لكنه أزليٌّ.

فما الفرق بينه وبين الفلاسفة؟ الجواب: الفلاسفة يقولون: يمتنع أن يكون حادثًا، وهو يقول: يمكن أن يكون حادثًا.

وأما المسلمون فيقولون: يجب أن يكون حادثًا، لأنَّ كُلَّ ما سوى الله فهو حادثٌ بعد أن كان عدمًا.

فصار هذا الرجل كالمنافقين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فلا هو بالذي يقول بقول الفلاسفة بأنَّ كونَه حادثًا ممكنٌ، ولا بقول المسلمين بأنَّ كونَه حادثًا واجبٌ، بل قال: يمكن، لكن مع ذلك هو أزليٌّ ليس بمُحْدَث.

قَوْلُهُ: «**مَا كَانَ مَعْدُومًا**» هذا التسلسل في الأول.

قَوْلُهُ: «**وَلا هُوَ فَانِ**» هذا التسلسل في المستقبل.

٩٢٧- وَأَتَــى بِصُــلْحٍ بَــيْنَ طَــائِفَتَيْنِ بَيْـــ ـــنَهُمَا الْــحُرُوبُ وَمَــا هُمَــا سِــلْمَانِ

قَوْلُهُ: «**وَأَتَى بِصُلْحٍ**» أي: بين المسلمين الذين قالوا: بوجوب حدوث العالَم، وبين الفلاسفة الذين قالوا باستحالة حدوث العالَم، وأنَّ العالَـمَ أَزَلِيٌّ، فقال: نجمع بينكما.

فقال: نقول: يمكن أن يكون حادثًا ولكن ليس بحادث، فقال: **(يمكن)** لأجل أن يدفع قول الفلاسفة، وقال: **(وليس بحادث)** ليدفع قول المسلمين.

فيقول: نصلح بينكما، نقول: الأمر أَزَلِيٌّ لأجل أن نوافق الفلاسفة، ونقول: إنه ممكن، وليس بواجب الأزلية ليوافق المسلمين.

لكن ابن القيم يقول: (**وَأَتَى بِصُلْحٍ بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ بَيْنَهُمَا الْـحُرُوبُ وَمَا هُمَا سِلْمَانِ**) فليس بين المسلمين والفلاسفة سِلْمٌ، بل بينهما حرب طاحنة، فكيف يقول: نجمع بينكما؟!

٩٢٨- أَنَّى يَكُونُ الْـمُسْلِمُونَ وَشِيعَةُ الْـ ... ـيُونَانِ صُلْحًا قَطُّ فِي الإِيمَانِ

هل يمكن أن يصطلح المسلمون الذين يؤمنون بالله وأنه خالقُ الأكوانِ مع اليونان الذين يقولون: إنَّ هذه الأكوان أزليةٌ أَبَدِيَّة ولا مُوجِدَ لها؟

الجواب: لا يمكن، ولهذا قال:

(**أَنَّى يَكُونُ الْـمُسْلِمُونَ وَشِيعَةُ الْيُونَانِ صُلْحًا قَطُّ فِي الإِيمَانِ**) لا يمكن أن يصطلحوا في الإيمان، فبينهما فرق عظيم.

ثُمَّ قال:

٩٢٩- والسَّيْفُ بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ وَبَيْنَهُمْ ... وَالْـحَرْبُ بَيْنَهُمُ فَحَرْبُ عَوَانِ

يعني أنَّ الحربَ بينهم ثائرة دائمة، ولذا لا يمكن الصُّلح.

٩٣٠- وَكَذَا أَتَى الطُّوسِيُّ بِالْحَرْبِ الصَّرِيـ ... ـحِ بِصَارِمٍ مِنْهُ وَسَلِّ لِسَانِ

قَوْلُهُ: «**الطُّوسِيُّ**» هو الخواجة نصير الدين الطوسي الذي استوزره هولاكو خان ملك التتر، هذا هو المُسَمَّى عندهم بنصير الدين، ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم يسمِّيانه نصير الكفر، وصدقا، فهو نصير الكفر مع مَنْ

وازره وهو ابن العلقمي[1]، وكانا من الرافضة.

والمعنى أنه أتى بسِلاحين: (**الصارم**) وهو السيف، و(**اللسان**) وهو القول لما عنده من الوِشاية حتى قضى على المسلمين في بغدادَ.

٩٣١- وَأَتَـى إِلَى الإِسْـلامِ يَهْـدِمُ أَصْـلَهُ ... مِـنْ أُسِّـهِ وَقَوَاعِـدِ الْبُنْيَـانِ

٩٣٢- عَمَـرَ الْـمَدَارِسَ لِلْفَلاسِـفَةِ الأُلَى ... كَفَـرُوا بِـدِينِ الله وَالْقُـرْآنِ

هذا الرجل الخبيث عَمَرَ المدارسَ لكن للفلاسفةِ، وصار يُدَرَّسُ فيها عِلْمُ الفلسفة الذي هو صَدٌّ عن سبيلِ الله، كما يوجد الآن في بلاد المسلمين من أدخل على منهج المسلمين وثقافتهم فلسفة الغرب، وشطحات الغرب، وفساد الغرب، حتى أُضْعِفَت المواد الشرعية من أجل إقحام هذه المعلومات التي تُدَمِّرُ الأديانَ والأخلاق، بل فُقدت العلوم الشرعية من بعض البلاد الإسلامية، فلم تكن في مناهجهم، والله أعلم، ربما لو حصل لهؤلاء الذين أَقحموا هذه العلوم في المناهج والمدارس أن يقضوا على المواد الدينية في البلاد التي فيها المواد الدينية لقضوا عليها، لكنهم يخشون من سطوة العامة، فَأَبْقَوْا شيئًا من المواد الدينية وأضعفوها، ثم أحلُّوا محلَّها هذه المقررات التي في بعضها كفر صريح -دعونا من المقررات التي تدعو إلى التحلل من الأخلاق، وإلى صور بعض النساء العاريات، وبعض الرجال الذين هم شبه عراة- لكن فيها أفكار مدمرة أفسدت العالم، فهذا في الحقيقة امتدادٌ لما سبق.

---

(١) هو محمد بن محمد بن أحمد بن علي أبو طالب، مؤيد الدين الأسدي البغدادي المعروف بابن العلقمي: وزير المستعصم العباسي، وصاحب الجريمة النكراء، في ممالاة (هولاكو) على غزو بغداد، في رواية أكثر المؤرخين، توفي سنة (٦٥٦هـ). انظر: الأعلام للزركلي (٥/ ٣٢١).

هذا الرجل الذي يُسمَّى نصير الدين عَمَر المدارس للفلاسفة الذين كفروا بدين الله والقرآن.

٩٣٣- وَأَتَى إِلَى أَوْقَافِ أَهْلِ الدِّينِ يَنْـ ـــقُلُهَا إِلَـيْهِمْ فِعْلَ ذِي أَضْغَانِ

أوقاف المسلمين التي وُقِفَتْ على المدارس الدينية التي فيها علم الحديث، والفقه، والنحو، أخذ هذه الأوقاف وصرفها إلى المدارس التي يُدَرَّس فيها علم الفلسفة.

٩٣٤- وَأَرَادَ تَحْوِيلَ الإِشَارَاتِ الَّتِي هِيَ لابْنِ سِينَا مَوْضِعَ الْفُرْقَانِ

أراد أن يجعل كتاب (الإشارات) لابن سينا يُدَرَّس بدل القرآن وألا يُدَرَّس القرآن، ومعلوم أنَّ الطُّغاة يريدون هذا.

٩٣٥- وَأَرَادَ تَحْوِيلَ الشَّرِيعَةِ بِالنَّوَا مِيسِ الَّتِي كَانَتْ لَدَى الْيُونَانِ

قَوْلُهُ: «**النواميس**» يعني: النُّظُم، وتُسَمَّى في عرفنا الحاضر بالقوانين، يعني: أراد أن يرفع الشريعة ويُحِلَّ محلَّها القانون.

وهذا واقع من أمثاله في عصرنا، فكثير من البلاد الإسلامية التي يُنادَى فيها بالأذان، وترسم في قانونها أنها دولة إسلامية حَلَّت فيها القوانين الوضعية مَحَلَّ الأحكام الشرعية، فرُفِعَت الأحكام الشرعية منها، وحَلَّت القوانين.

فنسأل الله أن ينجِّي المسلمين من هؤلاء وأمثالهم.

٩٣٦- لَكِنَّــهُ عَلِـمَ اللَّعِـينُ بِــأَنَّ هَــ ـذَا لَـيْسَ فِي الْـمَقْدُورِ وَالإِمْكَـانِ

٩٣٧- إِلَّا إِذَا قَتَـلَ الْـخَلِيفَةَ وَالْقُضَـا ةَ وَسَـائِرَ الْفُقَهَـاءِ فِي الْبُلْـدَانِ

قَوْلُهُ: «عَلِمَ اللَّعِينُ» يعني: نصير الدين الطوسي، ووصفه باللعين، لأنه ملعون في الحقيقة، لأنَّ فعله هذا فعل الشياطين.

وَقَوْلُهُ: «اللعين» يحتمل أن تكون دعاءً أو خبرًا، فَإِنْ كانت دعاءً فقد استحقَّ اللعنة، لأنه مات على الكفر، وإن كانت خبرًا فهو أهلٌ لذلك.

وقد يريد ابن القيم بـ(اللعين) البعيد عن رحمة الله وعن رضا الناس له، لأنَّ الرسول -عليه الصلاة والسلام- قال: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ»[(١)] فجعل السَّبَّ لعنًا.

٩٣٨- فَسَعَى لِذَاكَ وَسَاعَدَ الْـمَقْدُورُ بِالْـ أَمْـرِ الَّـذِي هُـوَ حِكْمَـةُ الَّـرحْمَنِ

قَوْلُهُ: «فَسَعَى لِذَاكَ» يعني: سعى لقتل الخليفة والقضاة والفقهاء، وقد أشار هو وابن العلقمي بأن يَتقدَّم الخليفة ومعه القضاة والأشراف والأعيان، وأنه لما أقبل على الملك هولاكو فصل بين الخليفة وبين هؤلاء القضاة والأشراف، وقضى عليهم، ثُمَّ فاوض الملك، ثُمَّ رجع، ثُمَّ حَصَلَت النهاية في الجولة الثانية.

قَوْلُهُ: «سَاعَدَ الْـمَقْدُورُ» أي: مقدور الله عزَّ وجلَّ الذي هو حكمة الرحمن، والله عزَّ وجلَّ لا يفعل شيئًا إِلَّا لحكمة، يعني: قد تقع المكاره والمصائب العظيمة، لكن الذي قَدَّرَها هو الله، والله عزَّ وجلَّ لا يُقَدِّر شيئًا إِلَّا لحكمة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه برقم (٥٦٢٨).

٩٣٩- فَأَشَارَ أَنْ يَضَعَ التَّتَارُ سُيُوفَهُمْ فِي عَسْكَرِ الإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ

٩٤٠- لَكِنَّهُمْ يُبْقُونَ أَهْلَ صَنَائِعِ الدْ دُنْيَا لأَجْلِ مَصَالِحِ الأَبْدَانِ

أشار أن يوضع السيف في أهل الإيمان، وأما أهل صنائع الدنيا مثل أصحاب الحرف، ومثلما سبق أنه أبقى اليهود والنصارى والرافضة وبعض التجار، فأهل صنائع الدنيا والحرف أبقاهم، واليهود والنصارى والرافضة أبقاهم، لأنَّ هؤلاء لا ضرر منهم، لأنهم لا يمكن أن يقوموا ضد عدوِّ الإسلام أبدًا، فلذلك أبقاهم.

٩٤١- فَغَدَا عَلَى سَيْفِ التَّتَارِ الأَلْفُ فِي مِثْلٍ لَهَا مَضْرُوبَةً بِوِزَانِ

قَوْلُهُ: «الأَلْفُ فِي مِثْلٍ لَهَا»: ألف في ألف بمليون، يعني قتل ألف ألف، هذا واحد.

٩٤٢- وَكَذَا ثَمَانِ مِئِينِهَا فِي أَلْفِهَا مَضْرُوبَةً بِالْعَدِّ وَالْحُسْبَانِ

قَوْلُهُ: «ثَمَانِ مِئِينِهَا فِي أَلْفِهَا» أي: ثمانمئة ألف.

يعني: مليونين إِلَّا مائتي ألف، كلهم قُتلوا في بلدٍ واحد وفي هجومٍ واحد مع أنَّ البشرَ في ذلك الوقت أقلُّ من البشر في هذا الوقت، يعني: يمكن أن يكون هذا العدد يُمَثِّل النصف أو أكثر من أهل بغداد كلهم قُتلوا، نسأل الله العافية.

٩٤٣- حَتَى بَكَى الإِسْلامَ أَعْدَاهُ الْيَهُو دُ كَذَا الْمَجُوسُ وَعَابِدُو الصُّلْبَانِ

قَوْلُهُ: «أَعْدَاهُ» يعني: أعداء الإسلام، والمعنى أنَّ أعداء الإسلام بكوا عليه من شدة ما وقع به.

وأمرٌ يحزن له الأعداء فادحٌ ما بعده فداحة، أعداء الإسلام صاروا يبكون الإسلام وأهله، كذا المجوس، وعابدو الصلبان، يعني النصارى.

٩٤٤- فَشَفَى اللَّعِينُ النَّفْسَ مِنْ حِزْبِ الرَّ سُولِ وَعَسْكَرِ الإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «شَفَى النَّفْسَ» يعني: نفسَه، (مِنْ حِزْبِ الرَّسُولِ وَعَسْكَرِ الإِيمَانِ وَالقُرْآنِ).

٩٤٥- وَبِوُدِّهِ لَوْ كَانَ فِي أُحُدٍ وَقَدْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ مَعْ أَبِي سُفْيَانِ[1]

يعني: هو يَوَدُّ أنه كان في أحد مع أبي سفيان مع المشركين، ويُحارب مَنْ؟

الجواب: الرسول -عليه الصلاة والسلام-.

٩٤٦- لأَقَرَّ أَعْيُنَهُمْ وَأَوْفَى نَذْرَهُ أَوْ أَنْ يُرَى مُتَمَزِّقَ اللَّحْمَانِ

يعني: أنه تمنَّى أن يكون في أُحُد حتى يُقِرَّ أعينهم، ويشفي صدرَه بقتل النَّبيِّ -عليه الصلاة والسلام- أو أن يتمزَّق لحمه دونهم.

نسأل الله العافية.

* * *

٩٤٧- وَشَوَاهِدُ الأَحْدَاثِ ظَاهِرَةٌ عَلَى ذَا الْعَالَمِ الْمَخْلُوقِ بِالْبُرْهَانِ

٩٤٨- وَأَدِلَّةُ التَّوْحِيدِ تَشْهَدُ كُلُّهَا بِحُدُوثِ كُلِّ مَا سِوَى الرَّحْمَنِ

٩٤٩- لَوْ كَانَ غَيْرُ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ مَعَهُ قَدِيمًا كَانَ رَبًّا ثَانِي

---

(١) أبو سفيان: هو صخر بن حرب بن أُميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف، من سادات قريش في الجاهلية ومن رؤساء المشركين في حرب الإسلام أول ظهوره، ثُمَّ أسلم عام الفتح، وشهد الطائف، ففُقئت عينه، ثم فُقئت الأخرى في اليرموك، ولد بمكة قبل الهجرة بـ(٧٥) سنة، ومات بالمدينة أو الشام سنة (٣١ هـ). [الشارح].

٩٥٠- إِذْ كَانَ عَنْ رَبِّ الْعُلَى مُسْتَغْنِيًا ... فَيَكُونَ حِينَئِذٍ لَنَا رَبَّانِ

٩٥١- وَالرَّبُّ بِاسْتِقْلالِهِ مُتَوَحِّدٌ ... أَفَمُمْكِنٌ أَنْ يَسْتَقِلَّ اثْنَانِ؟

٩٥٢- لَوْ كَانَ ذَاكَ تَنَافَيَا وَتَسَاقَطَا ... فَإِذَا هُمَا عَدَمَانِ مُمْتَنِعَانِ

٩٥٣- وَالْقَهْرُ وَالتَّوْحِيدُ يَشْهَدُ مِنْهُمَا ... كُلٌّ لِصَاحِبِهِ هُمَا عِدْلانِ

٩٥٤- وَلِذَلِكَ اقْتَرَنَا جَمِيعًا فِي صِفَا ... تِ الله، فَانْظُرْ ذَاكَ فِي الْقُرْآنِ

٩٥٥- فَالْوَاحِدُ الْقَهَّارُ حَقًّا لَيْسَ فِي الْـ ... إِمْكَانِ أَنْ تَحْظَى بِهِ ذَاتَانِ

الشرحُ

يَتحدَّث المؤلف -رحمه الله- في هذه المقطوعة عن أدلة وَحْدانية الله عزَّ وجلَّ وأنَّه سابقٌ على كلِّ موجود، فقال:

٩٤٧- وَشَوَاهِدُ الأَحْدَاثِ ظَاهِرَةٌ عَلَى ... ذَا الْعَالَمِ الْمَخْلُوقِ بِالْبُرْهَانِ

يعني أنَّها ظاهرةٌ بالدليل القاطع على أنَّ هذا العالَمَ مخلوقٌ.

٩٤٨- وَأَدِلَّةُ التَّوْحِيدِ تَشْهَدُ كُلُّهَا ... بِحُدُوثِ كُلِّ مَا سِوَى الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «بِحُدُوثِ كُلٍّ» أي: كُلِّ الموجودات، ويجوز (بِحُدُوثِ كُلِّ مَا سِوَى الرَّحْمَنِ) بالإضافة، لكن كيف ذلك؟ بَيَّن فقال:

٩٤٩- لَوْ كَانَ غَيْرُ الله جَلَّ جَلالُهُ ... مَعَهُ قَدِيمًا كَانَ رَبًّا ثَانِي

نعم، لو كان مع الله أحدٌ قديمٌ لكان رَبًّا ثانيًا، لأنه يجتمع عندنا قديمان: الرَّبُّ، وهذا القديم الثاني.

والقديم عند الفلاسفة وفي اصطلاح المتكلِّمين: هو ما ليس له أوَّل، وليس هو قديم في اللغة العربية، القديم في اللغة العربية: ما سبق غيرَه ولو كان مسبوقًا، والقديم عند الفلاسفة والمتكلِّمين هو ما ليس له أوَّل، فمثلًا الشيء العتيق يُسَمَّى في اللغة قديمًا كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس:٣٩]، وعند الفلاسفة: ليس كذلك، لأنه حادث، فالقديم عندهم هو الأزليُّ الذي ليس له أوَّل.

يقول ابن القيم: (لَوْ كَانَ غَيْرُ الله جَلَّ جَلَالُهُ مَعَهُ قَدِيمًا كَانَ رَبًّا ثَانِي) يعني: يكون ربَّان إذا كان كُلُّ منهما قديمًا.

٩٥٠- إِذْ كَانَ عَنْ رَبِّ الْعُلَى مُسْتَغْنِيًا فَيَكُونَ حِينَئِذٍ لَنَا رَبَّانِ

لأنه إذا قُدِّر شيئان قديمان كان كُلُّ واحدٍ منهما مستغنيًا عن الآخر، لأنَّ هذا قديم لا يحتاج إلى مُحْدِث، والثاني قديم لا يحتاج إلى مُحْدِث، فحينئذٍ يكون لنا رَبَّان، كُلٌّ منهما قديم مُستَغْنٍ عن الآخر.

٩٥١- وَالرَّبُّ بِاسْتِقْلَالِهِ مُتَوَحِّدٌ أَفَمُمْكِنٌ أَنْ يَسْتَقِلَّ اثْنَانِ؟

الجواب: لا، فالرَّبُّ لا بُدَّ أن يكون مستقلًا واحدًا، لا يمكن أن يكون رَبَّان ودليل ذلك ما يُعْرَفُ عند العلماء بدليل التمانع، مثاله: قال:

٩٥٢- لَوْ كَانَ ذَاكَ تَنَافَيَا وَتَسَاقَطَا فَإِذَا هُمَا عَدَمَانِ مُمْتَنِعَانِ

قَوْلُهُ: «**لَوْ كَانَ ذَاكَ**» يعني: لو كان هناك اثنان.

قَوْلُهُ: «**تَنَافَيَا وَتَسَاقَطَا**» يعني: لو كان هناك رَبَّان تنافيا، يعني تعاكسا وتساقطا.

قوله: «**فَإِذَا هُمَا عَدَمَانِ مُمْتَنِعَانِ**» لكن كيف ذلك؟ لو كان هناك رَبَّان اثنان مستقلان، لانفرد كُلُّ واحدٍ بمملكتِه ومخلوقاتِه، وحينئذٍ لا بدَّ أن يقع النزاع

بينهما، فإمَّا أن يَعْجِز كُلٌّ منهما عن الآخر، وإمَّا أن يغلب أحدُهما الآخر، فإن عجز كُلُّ واحدٍ منهما عن الآخر تساقطا، وصار كُلٌّ منهما لا يَصْلُح أن يكون رَبًّا، لأنَّ الرَّبَّ لا بدَّ أن يكون قاهرًا غالبًا، وإن غلب أحدُهما الآخرَ صار هو الرَّبَّ، والثاني ليس بِرَبٍّ.

فالحاصل أنه لو كان للعالَم خالقان للَزِم أحدُ أمرين: إما انتفاء الرُّبوبية عنهما جميعًا، وإما ثبوتها لأحدهما، أَمَّا أن تَثْبُتَ لهما جميعًا فهذا محال، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون:٩١]، وإذَا علا بعضُهم على بعض، فالعالي منهما هو الرَّبُّ، وهذا هو الذي أشار إليه ابن القيم -رحمه الله- بقوله: (**لَوْ كَانَ ذَاكَ تَنَافَيَا وَتَسَاقَطَا فَإِذَا هُمَا عَدَمَانِ مُمْتَنِعَانِ**).

بَقِي احتمال واحد وهو أن يغلب أحدُهما الآخر، فإذا غلب أحدُهما الآخر فهو الرَّبُّ.

٩٥٣- وَالْقَهْرُ وَالتَّوْحِيدُ يَشْهَدُ مِنْهُمَا كُلٌّ لِصَاحِبِهِ هُمَا عِدْلانِ

القهر والوَحْدانية كُلُّ واحدٍ منهما يَشْهَد على انفراد الله تعالى بذلك، فالقهَّار الذي يَقْهَر كُلَّ شيء يَدُلُّ على أنه لا يساويه شيء، لأنَّه لو ساواه شيءٌ لم يكن قهَّارًا على الإطلاق، لأنَّ مَنْ لا يقهر كُلَّ شيء، بل يُقْهَرُ أحيانًا لا يُوصف بأنَّه القهَّار على الإطلاق.

والواحد أيضًا القهرُ يشهد له، فإذا كان الله قاهرًا لكلِّ شيء لَزِم أن يكون متوحِّدًا في مُلكه، ونحن نرى الكون الآن أنَّه مقهورٌ بِرَبٍّ، فأيُّ واحدٍ في الدنيا من أوَّلِها إلى آخرها هل يمكنه أن يخرج عن تقدير الله وقضائه؟

الجواب: لا، إذن هو مقهور على كل حال، فلا يَصْلُح شيء من المخلوقات رَبًّا، ولهذا يقول: (**وَالْقَهْرُ وَالتَّوْحِيدُ يَشْهَدُ مِنْهُمَا كُلٌّ لِصَاحِبِهِ هُمَا عِدْلانِ**) أو (عَدْلان).

وَقَوْلُهُ: «**هُمَا عِدْلانِ**» أي: متعادلان، و(**هُمَا عَدْلانِ**) أي: في شهادتهما، وهذا مأخوذ من العدالة.

٩٥٤- وَلِــذَلِكَ اقْتَرَنَــا جَمِيعًــا في صِــفَا ... تِ الله، فَــانْظُرْ ذَاكَ فِي الْقُــرْآنِ

قَوْلُهُ: «**اقْتَرَنَا**» يعني: الوحدانية والقهر.

٩٥٥- فَالْوَاحِدُ الْقَهَّـارُ حَقًّـا لَـيْسَ فِي الْـ ... إِمْكَــانِ أَنْ تَحْظَــى بِــهِ ذَاتَــانِ

قَوْلُهُ: «**فَالْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**» وَرَدَ ذلك في القرآن، قال الله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، وفي قوله: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم:٤٨]، فالواحد القهار حقًّا ليس في الإمكان أن تَحْظَى به ذاتان.

خلاصة هذا الباب كلِّه: أنَّ مذهب أهل السُّنَّة والجماعة أنَّ الله تعالى لم يَزَل ولا يزال فَعَّالًا، وهذا يَستلزِمُ التسلسلَ في الماضي كما يَستلزمَ التسلسل في المستقبل.

أما التسلسل في المستقبل فقد دَلَّ عليه القرآن والسُّنَّة دَلالةً صريحةً، فكُلُّ نصٍّ فيه أبديَّة النار وأبديَّة الجنَّة فهو دليل على التسلسل في المستقبل، يعني: أنه لا نهاية له، فلا نهاية للجنة ونعيمها، ولا نهاية للنار وجحيمها، وهذا في القرآن.

وأمَّا التسلسل في الماضي فاشتبه على كثيرٍ من علماء السُّنَّة، فقالوا: لا يمكن التسلسل في الماضي، لأننا لو قلنا بجواز التسلسل في الماضي، للزم أن تكون

المخلوقاتُ أزليَّةً مقارنة للخالق، ومعلوم أنَّ هذا مستحيل، ومن قال: إِنَّ المخلوقات مقارِنَةٌ للخالق وأزليَّةٌ بأزليته كان كافرًا مشركًا.

لكنَّ شيخَ الإسلام -رحمه الله- وجماعةً من أهل العلم قالوا: نحن نقول بالإمكان، بل بوجوب أنَّ الله لم يزل ولا يزال فَعَّالًا، ولكن من المعقول الذي يدركه كُلُّ عاقل أنَّ المفعولَ نتيجةُ الفعل، وأنَّ الفعلَ صفةُ الفاعل، إذن فالفاعل متقدِّم حتى لو قلنا: بأزليَّة الحوادث، فإنَّ ذلك لا يلزم أن تكون مقارِنةً لله الواحد القهَّار، لأنَّ الله (فاعل)، ثُمَّ فِعْل، ثُمَّ مفعول، إذن فالحوادث غيرُ مقارنة لله في الوجود.

فهذا المحذور الذي فررتم منه ليس بلازم، لكن لو قلنا: إِنَّ الله تعالى مُعَطَّلٌ عن الفعل أزلًا، ثُمَّ فَعَل، فهذا تحكُّم من وجهين:

الوجه الأول: أنَّه في الوقت الذي يكون معطَّلًا عن الفعل يكون ناقصًا، فإن قالوا: لا نقص، لأنَّ الفعلَ يَتْبَعُ الحكمةَ، فإذا اقتضت الحكمةُ ألَّا يفعل فلم يفعل صار ذلك كمالًا لا نقصًا.

فنقول: نعم، أنتم إذا سَلَّمتم بهذا، وقلتم بجواز التسلسل لعذرناكم، لكن أنتم تقولون بامتناع التسلسل، فيكون الفعل في الأول ممتنعًا وليس متأخِّرًا، فنقول: ما الذي جعله ممتنعًا عن الله، ثُمَّ صار ممكنًا؟ وإلى متى كان ممتنعًا؟ ألف سنة، ألفي سنة، آلاف السنين، ثُمَّ صار ممكنًا؟!

إن قلتم: ألف سنة، ثُمَّ صار ممكنًا قلنا: أين الدليل؟ إن قلتم: عشر سنوات، ثُمَّ صار ممكنًا قلنا: أين الدليل؟ إن قلتم سنة، ثُمَّ صار ممكنًا قلنا: أين الدليل؟ إن قلتم: يومًا، ثُمَّ صار ممكنًا، قلنا: أين الدليل؟

إِذَنْ قولوا: بأنَّ الله لم يزل ولا يزال فعَّالًا، وأنَّ تسلسل الحوادث في الماضي ممكن بل هو من مقتضى كماله، وحينئذٍ لا يمكن أن تقولوا خطأً أو زللًا، لأننا نقول بذلك.

ولكننا نحن وأنتم نعلم أنَّ المفعول يقع بعد الفعل، وأنَّ الفعلَ وصف الفاعل فلا بدَّ أن يكون الموصوف متقدِّمًا.

وهذا في الحقيقة لا إشكال فيه مع أنه لما برز شيخ الإسلام -رحمه الله- في تقريره ثارت عليه الدنيا، وقالوا: هذا مشرك أشرك بالله، جعل مع الله إلهًا ثانيًا، وقامت عليه الدنيا، وقد قيل فيه قصائد ذُكِرَت في الطبعة الأولى من منهاج أهل السنة والجماعة، منها قصيدة طويلة فيها الرَّدُّ على شيخ الإسلام في هذا الرأي، وتوجد قصيدة أخرى مُعارِضة لها مناقضة لها.

لكن على كُلِّ حال إذا لم ندخل في هذه المعمعة فإنَّ فِطَرَنا تقتضي أنَّ الله لم يزل، ولا يزال فعَّالًا، هذا واحد.

عقولنا أيضًا تقتضي بأننا لو قلنا: بأزليَّة الحوادث فليست مقارِنةً للمُحْدِث وهو الله عزَّ وجلَّ، فهي لا بدَّ أن تكون بعده، وحينئذٍ ننفصل عن القول بأننا إذا قلنا: بأزليَّة الحوادث أثبتنا مع الله غيرَه أثبتنا رَبَّيْن.

وبعد هذا كلِّه فالبحث في هذا يُعتبر من فضول العلم إلَّا إذا خشي الإنسانُ على نفسه أن يعتقد في الله نقصًا، فيجب عليه أن يُحقِّق، لأنَّ الإنسان الذي لم تطرأ على باله المسألة لم تشكل عليه، لكن الذي يقرأ بحث العلماء، ثُمَّ يخشى إذا لم يقل بالقول حصل في قلبه شيءٌ من تنقُّص الخالق حينئذٍ يَجِب أن يبحث ويحقِّق.

* * *

فصل

فِي اعْتِرَاضِهِمْ عَلَى القَوْلِ بِدَوَامِ فَاعِلِيَّهِ الرَّبِّ تعالى وكَلامِهِ، والانْفِصَالِ عَنْهُ

٩٥٦- فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ ذَاكَ تَسَلْسُلٌ ... قُلْنَا: صَدَقْتُمْ، وَهْوَ ذُو إِمْكَانِ
٩٥٧- كَتَسَلْسُلِ التَّأْثِيرِ فِي مُسْتَقْبلٍ ... هَلْ بَيْنَ ذَيْنِكَ قَطُّ مِنْ فُرْقَانِ
٩٥٨- وَاللهِ مَا افْتَرَقَا لِذِي عَقْلٍ، وَلَا ... نَقْلٍ، وَلَا نَظَرٍ، وَلَا بُرْهَانِ
٩٥٩- فِي سَلْبِ إِمْكَانٍ وَلَا فِي ضِدِّهِ ... هَذِي الْعُقُولُ، وَنَحْنُ ذُو أَذْهَانِ
٩٦٠- فَلْيَأْتِ بِالْفُرْقَانِ مَنْ هُو فَارِقٌ ... فَرْقًا يَبِينُ لِصَالِحِ الأَذْهَانِ
٩٦١- وَكَذَاكَ سَوَّى الجَهْمُ بَيْنَهُمَا كَذَا الْـ ... ـعَلَّافُ فِي الإِنْكَارِ وَالْبُطْلَانِ
٩٦٢- وَلأَجْلِ ذَا حَكَمَا بِحُكْمٍ بَاطِلٍ ... قَطْعًا عَلَى الْجَنَّاتِ وَالنِّيرَانِ
٩٦٣- فَالْجَهْمُ أَفْنَى الذَّاتَ وَالْعَلَّافُ لِلْـ ... ـحَرَكَاتِ أَفْنَى قَالَهُ الثَّوْرَانِ
٩٦٤- وَأَبُو عَلِيٍّ وَابْنُهُ وَالأَشْعَرِيْ ... يُ وَبَعْدَهُ ابْنُ الطَّيِّبِ الرَّبَّانِي
٩٦٥- وَجَمِيعُ أَرْبَابِ الْكَلَامِ الْبَاطِلِ الْـ ... ـمَذْمُومِ عِنْدَ أَئِمَّةِ الإِيمَانِ
٩٦٦- فَرَقُوا وَقَالُوا: ذَاكَ فِيمَا لَمْ يَزَلْ ... حَقٌّ وَفِي أَزَلٍ بِلَا إِمْكَانِ
٩٦٧- قَالُوا لأَجْلِ تَنَاقُضِ الأَزَلِيِّ وَالْـ ... إِحْدَاثِ: مَا هَذَانِ يَجْتَمِعَانِ
٩٦٨- لَكِنْ دَوَامُ الْفِعْلِ فِي مُسْتَقْبَلٍ ... مَا فِيهِ مَحْذُورٌ مِنَ النُّكْرَانِ

٩٦٩- فَانْظُرْ إِلَى التَّلْبِيسِ فِي ذَا الْفَرْقِ تَرْ ... وِيجًا عَلَى الْعُورَانِ وَالْعُمْيَانِ
٩٧٠- مَا قَالَ ذُو عَقْلٍ بِأَنَّ الْفَرْدَ ذُو ... أَزَلٍ لِذِي ذِهْنٍ وَلَا أَعْيَانِ
٩٧١- بَلْ كُلُّ فَرْدٍ فَهْوَ مَسْبُوقٌ بِفَرْ ... دٍ قَبْلَهُ أَبَدًا بِلَا حُسْبَانِ
٩٧٢- وَنَظِيرُ هَذَا كُلُّ فَرْدٍ فَهْوَ مَلْـ ... ـحُوقٌ بِفَرْدٍ بَعْدَهُ حُكْمَانِ
٩٧٣- النَّوْعُ وَالآحَادُ مَسْبُوقٌ وَمَلْـ ... ـحُوقٌ وَكُلٌّ فَهْوَ مِنْهَا فَانِ
٩٧٤- وَالنَّوْعُ لَا يَفْنَى أَخِيرًا فَهْوَ لَا ... يَفْنَى كَذَلِكَ أَوَّلًا بِبَيَانِ
٩٧٥- وَتَعَاقُبُ الآنَاتِ أَمْرٌ ثَابِتٌ ... فِي الذِّهْنِ وَهْوَ كَذَاكَ فِي الأَعْيَانِ
٩٧٦- فَإِذَا أَبَيْتُمْ ذَا وَقُلْتُمْ: أَوَّلُ الْـ ... آنَاتِ مُفْتَتَحٌ بِلَا نُكْرَانِ
٩٧٧- مَا كَانَ ذَاكَ الآنَ مَسْبُوقًا يُرَى ... إِلَّا بِسَلْبِ وُجُودِهِ الْحَقَّانِي
٩٧٨- فَيُقَالُ: مَا تَعْنُونَ بِالآنَاتِ؟ هَلْ ... تَعْنُونَ مُدَّةَ هَذِهِ الأَزْمَانِ
٩٧٩- مِنْ حِينِ إِحْدَاثِ السَّمَوَاتِ الْعُلَى ... وَالأَرْضِ وَالأَفْلَاكِ وَالْقَمَرَانِ
٩٨٠- وَنَظُنُّكُمْ تَعْنُونَ ذَاكَ وَلَمْ يَكُنْ ... مِنْ قَبْلِهَا شَيْءٌ مِنَ الأَكْوَانِ
٩٨١- هَلْ جَاءَكُمْ فِي ذَاكَ مِنْ أَثَرٍ وَمِنْ ... نَصٍّ وَمِنْ نَظَرٍ وَمِنْ بُرْهَانِ؟
٩٨٢- هَذَا الْكِتَابُ وَهَذِهِ الآثَارُ وَالْـ ... ـمَعْقُولُ فِي الْفِطْرَاتِ وَالأَذْهَانِ
٩٨٣- إِنَّا نُحَاكِمُكُمْ إِلَى مَا شِئْتُمُ ... مِنْهَا فَحُكْمُ الْحَقِّ فِي تِبْيَانِ
٩٨٤- أَوَلَيْسَ خَلْقُ الْكَوْنِ فِي الأَيَّامِ كَا ... نَ، وَذَاكَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْقُرْآنِ

٩٨٥- أَوَلَـيْسَ ذَلِكُـمُ الزَّمَـانُ بِمُـدَّةٍ ... لِـحُدوثِ شَيْءٍ وَهْوَ عَـيْنُ زَمَـانِ؟
٩٨٦- فَحَقِيقَـةُ الأَزْمَـانِ نِسْـبَةُ حَـادِثٍ ... لِسِـوَاهُ تِلْـكَ حَقِيقَـةُ الأَزْمَـانِ
٩٨٧- وَاذْكُرْ حَدِيثَ السَّبْقِ لِلتَّقْلِيلِ وَالتَّـ ... ـوْقِيـتِ قَبْـلَ جَمِيـعِ ذِي الأَعْيَـانِ
٩٨٨- خَمْسِينَ أَلْفًـا مِـنْ سِنِينٍ عَـدَّهَا الْـ ... ـمُخْتَـارُ سَـابِقَةً لِـذي الأَكْـوَانِ
٩٨٩- هَذَا وَعَرْشُ الرَّبِّ فَوْقَ الْـمَاءِ مِـنْ ... قَبْـلِ السِّـنِينَ بِمُـدَّةٍ وَزَمَـانِ
٩٩٠- وَالنَّـاسُ مُخْتَلِفُـونَ فِي الْقَلَـمِ الَّـذِي ... كُتِـبَ الْقَضَـاءُ بِـهِ مِـنَ الـدَّيَّانِ
٩٩١- هَلْ كَانَ قَبْلَ الْعَرْشِ أَوْ هُـوَ بَعْـدَهُ ... قـولان عِنـدَ أَبِي الْعَـلا الْـهَمَذَانِي
٩٩٢- وَالْـحَقُّ أَنَّ الْعَـرْشَ قَبْـلُ لأَنَّـهُ ... قَبْـلَ الْكِتَابَـةِ كَـانَ ذَا أَرْكَـانِ
٩٩٣- وَكِتَابَـةُ الْقَلَـمِ الشَّـرِيفِ تَعَقَّبَـتْ ... إِيجَـادَهُ مِـنْ غَـيْرِ فَصْـلِ زَمَـانِ
٩٩٤- لَـمَّا بَـرَاهُ اللهُ قَـالَ: اكْتُـبْ كَـذَا ... فَغَـدَا بِـأَمْرِ اللهِ ذَا جَريَـانِ
٩٩٥- فَجَـرَى بِـمَا هُـوَ كَـائِنٌ أَبَـدًا إِلَى ... يَـوْمِ الْـمَعَادِ بِقُـدْرَةِ الـرَّحْمَنِ
٩٩٦- أَفَكَـانَ رَبُّ الْعَـرْشِ جَـلَّ جَلالُـهُ ... مِـنْ قَبْـلُ ذَا عَجْـزٍ وَذَا نُقْصَـانِ؟!
٩٩٧- أَمْ لَـمْ يَـزَلْ ذَا قُـدْرَةٍ وَالْفِعْـلُ مَقْـ ... ـدُورٌ لَـهُ أَبَـدًا وَذُو إِمْكَـانِ؟
٩٩٨- فَلَئِنْ سَأَلْتَ وَقُلْتَ: مَا هَـذَا الَّـذِي ... أَدَّاهُـمُ لِـخِلافِ ذَا التِّبْيَـانِ؟
٩٩٩- وَلأَيِّ شَيْءٍ لَـمْ يَقُولُـوا: إِنَّـهُ ... -سبحانه- هُـوَ دَائِمُ الإِحْسَـانِ
١٠٠٠- فَـاعْلَمْ بِـأَنَّ الْقَـوْمَ لَـمَّا أَسَّسُـوا ... أَصْـلَ الْكَـلامِ عَمُـوا عَـنِ الْقُـرْآنِ

١٠٠١- وَعَنِ الحَدِيثِ وَمُقْتَضَى الْـمَعْقُولِ ... بَـل عَـنْ فِطْـرَةِ الـرَّحْمَنِ وَالْبُرْهَـانِ

١٠٠٢-وبَنَـوْا قَوَاعِـدَهُمْ عَلَيْـهِ فَقَـادَهُمْ ... قَسْـــرًا إلى التَّعْطيــلِ والــبُطْلانِ

١٠٠٣-نَفْـيُ القِيـامِ لكـلِّ أمـرٍ حـادثٍ ... بـالربِّ خَـوْفَ تَسَلْسُـلِ الأعيـانِ

١٠٠٤- فَيَسُـــدُّ ذَاكَ عَلَـيْهِمُ فِي زَعْمِهِـمْ ... إِثْبَـاتَ صَـانِعِ هَـذِهِ الأَكْـوَانِ

١٠٠٥-إِذْ أَثْبَتُوهُ بِكَـوْنِ ذِي الأَجْسَـادِ حَـا ... دِثَـةً فَـلا تَنْفَـكُّ عَـنْ حِـدْثَانِ

١٠٠٦-فَإِذَا تَسَلْسَلَتِ الْـحَوَادِثُ لَـمْ يَكُنْ ... لِـــحُدُوثِهَا إِذْ ذَاكَ مِـــنْ بُرْهَـــانِ

١٠٠٧-فَلأَجْلِ ذَا قَـالُوا: التَّسَلْسُـلُ بَاطِـلٌ ... وَالْـجِسْمُ لا يَخْلُـو عَـنِ الْـحِدْثَانِ

١٠٠٨-فَيَصِحُّ حينَئِذٍ حدوثُ الجِسْـمِ مِـن ... هــذا الــدَّليلِ بوَاضِــحِ البُرْهــانِ

١٠٠٩-هَــذِي نِهَايَــاتٌ لإقْــدَامِ الْــوَرَى ... فِي ذَا الْـــمَقَامِ الضَّــيِّقِ الأَعْطَــانِ

١٠١٠- فَمَــنِ الَّــذِي يَــأْتِي بِفَــتْحٍ بَــيِّنٍ ... يُنْجِي الْوَرَى مِنْ غَمْـرَة الْـحَيْرَانِ

١٠١١- فَــاللهُ يَجْزِيــهِ الَّــذِي هُــوَ أَهْلُــهُ ... مِنْ جَنَّـةِ الْـمَأْوَى مَـعَ الرِّضْـوَانِ

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «**اعْتِرَاضِهِمْ**» يعني: أنهم اعترضوا على القول بدوام فاعليَّة الله عزَّ وجلَّ وقالوا: لا يمكن أن يكون الله دائم الفعل.

وَقَوْلُهُ: «**وَالانْفِصَالِ عَنْهُ**» أي: الانفصال عن هذا الاعتراض، وهو بمعنى كلمة الإجابة عنه.

وهذا الفصل فصلٌ عظيم، وقد تكلَّم فيه المؤلف -رحمه الله- عن التسلسل في الحوادث، وذكَرَ فيه للناس ثلاثةَ أقوالٍ:

القول الأول: بأنَّ التسلسل ممنوع في الماضي والمستقبل، وهذا قول الجهمية ومَن تَبِعهم من المعتزلة.

القول الثاني: جوازه في الماضي والمستقبل، وهذا الذي أيَّده ابن القيم -رحمه الله- وذكَرَ أدلَّتَه.

القول الثالث: جواز التسلسل في المستقبل وامتناعُه في الماضي، وهذا هو الذي عليه عامَّة علماءِ الكلام، وهو الذي لا يكاد يُعرف سواه عند المتأخرين، ولكنَّ الأدلة التي ذكرها ابُن القيم -رحمه الله- أدلةٌ واضحة.

وليس قولنا بإمكان التسلسل هو قولنا بوجوب التسلسل، يعني: إذا قلنا بجواز التسلسل فليس معناه أننا نقول بوجوبه، إذ لا شك أنَّ كُلَّ ما سوى الله فهو حادثٌ بعد أن لم يكن، فالأعيان ليست متسلسلةً إلى ما لا نهايةَ له، فكُلُّ شيء حادثٌ، والله تعالى قبل كُلِّ شيء.

وقد تقدَّم في أول الكلام على هذا هذه المسألة أنَّ لدينا فاعلًا وفعلًا ومفعولًا، وأنَّ ترتيبها هكذا: فاعلٌ سابقٌ على الفعل، وفعل سابقٌ على المفعول، وأننا وإن قلنا بجواز تسلسل الحوادث في الماضي، لا يمكن أن نقول: إنها مقارنةٌ لوجود الله أبدًا، بل لا بدَّ أن تكون مسبوقةً بوجوده، لكنها إلى ما لا نهايةَ له.

وابن القيم -رحمه الله- تكلَّم كلامًا كثيرًا حول هذا الموضوع، ثُمَّ قال: إنَّ هؤلاء القوم الذين قالوا: إنه ممكن في المستقبل، مستحيلٌ في الماضي، بَنَوا هذا على

قواعدَ أصَّلوها من علم الكلام، ليس عليها دليلٌ من معقولٍ ولا منقولٍ ولا فطرةٍ، وهذا هو الحقُّ، فإنَّ أهل الكلام بَنَوا عقيدتَهم في الله على عقولٍ ليست عاقلةً، بل هي عقول مضطربةٌ متناقضةٌ يَنْقُض بعضُها بعضًا، ويُفْسِد بعضُها بعضًا، وهي كما قيل:

حُجَجٌ تَهَافَتُ كَالزُّجَاجِ تَخَالُهَا حَقًّا وكُلٌّ كَاسِرٍ مَكْسُورُ

حتى إِنَّ زعماءهم ورُؤَساءهم أقرُّوا بالحَيْرة وبالرجوع إلى الحقِّ، يقول الرازي -وهو من عظمائهم وكبرائهم وأئمتهم- يقول: «لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلا، ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠]، وأقرأ في النفي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠] ومن جَرَّب مِثْلَ تَجْرِبتي عَرَف مثلَ مَعْرِفتي»[١]. هذا وهو من رؤسائهم.

وقال أبو المعالي الجويني: «لقد خُضْتُ البحر الخضم، وغصت في الذي نهي أهل الإسلام منها، كل ذلك في طلب الحق، وكنت أهرب في سالف الدهر من التقليد، والآن رجعت من الكل إلى كلمة الحقّ، عليكم بدين العجائز»[٢]. رجع إلى عقيدة العجائز، فالعجائز لا تتكلَّم بهذا الكلام وهذا التنطع، وهذا مِصداق قول النَّبِيِّ -عليه الصلاة والسلام-: «**هَلَكَ المُتَنَطِّعُون**[٣]»[٤]. قالها ثلاث مرات،

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٥٠١).
(٢) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٧/ ٣٣٢).
(٣) هم المتعمقون المغالون في الكلام المتكلمون بأقصى حلوقهم. انظر: النهاية (نطع).
(٤) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، برقم (٢٦٧٠).

ولهذا لا تجد أَحْسَنَ من عِلْم السلف، فعِلْمُ السلف بسيطٌ هادئ، ليس فيه تعمُّق ولا تكلُّف أبدًا.

جاء رجلٌ إلى ابنِ عُمَرَ وَسَأَلَهُ عَنْ دَمِ الْبَعُوضِ. فَقَالَ: مِـمَّنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ. قَالَ: انْظُرُوا إِلَى هَذَا، يَسْأَلُنِي عَنْ دَمِ الْبَعُوضِ وَقَدْ قَتَلُوا ابْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَسَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «هُمَا رَيْحَانَتَايَ مِنَ الدُّنْيَا»[1].

هذا ورع عظيم، أن يَسْأل عن دم البعوض ويَقْتُل مَنْ جدُّه رسولُ الله ﷺ!! فالتعمق هذا يفسد على الإنسان، ويوجب له الشك والقلق، بل كن بسيطًا في الأمور كلها حتى المسائل التي لم نُكَلَّف بها ولم يأتِ بها نصٌّ إذا أعيتك فاتركها ولا تُتْعِب نفسك بها حتى لا تتضرر.

فابن القيم -رحمه الله- ذكر أنَّ هؤلاء بَنَوْا عقيدتَهم على ما يدَّعونه معقولًا، ولكنها في الحقيقة جهالات، وضلالات، وشبهات، لا تُغْنِي من الحقِّ شيئًا أبدًا، بل هي توقع الإنسان في الحَيْرة، والشك، والقلق.

يقول -رحمه الله-:

٩٥٦- فَلَـئِنْ زَعَمْـتُمْ أَنَّ ذَاكَ تَسَلْسُـلٌ ... قُلْنَـا: صَـدَقْتُمْ، وَهْـوَ ذُو إِمْكَـانِ

قَوْلُهُ: «أَنَّ ذَاكَ تَسَلْسُلٌ» المشار إليه هو دوام فاعلية الرَّبِّ في الماضي، وقد سبق أنَّ للناس في التسلسل ثلاثةَ أقوالٍ:

القول الأول: جوازه في الماضي والمستقبل.

القول الثاني: امتناعه في الماضي والمستقبل.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، برقم (٥٦٤٨).

القول الثالث: امتناعه في الماضي دون المستقبل.

قَوْلُهُ: «فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ ذَاكَ تَسَلْسُلٌ» يعني: أنَّ دوام فاعلية الرَّبِّ عزَّ وجلَّ في المستقبل أو في الماضي تسلسل.

قَوْلُهُ: «قُلْنَا: صَدَقْتُمُ» يعني: التزمنا هذا، (وَهْوَ ذُو إِمْكَانِ) يعني: صدقتم، وهذا ممكن، ما الذي يمنع منه؟!

٩٥٧- كَتَسَلْسُلِ التَّأْثِيرِ فِي مُسْتَقْبَلٍ هَلْ بَيْنَ ذَيْنِكَ قَطُّ مِنْ فُرْقَانِ

يعني: كما أنكم تقولون: إنه يمكن التسلسل في المستقبل، وأنَّ الله لا يزالُ فَعَّالًا، لأنَّ الله قال في الجنة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:٥٧] وكذلك في النار، فأيُّ فرقٍ بين القول بإمكان التسلسل في المستقبل وإمكانه في الماضي؟

الجواب: لا فرق، لأنَّ من المعلوم أنَّ الله هو الأوَّل الذي ليس قبله شيء، وأنه الآخِر الذي ليس بعده شيء، فإذا قلنا بالتسلسل في المستقبل مع أنَّ الله هو الآخِر، فلماذا لا نقول بالتسلسل في الماضي مع أنَّ الله هو الأوَّل؟! فأيُّ فرق؟!

وهذا في الحقيقة قياسٌ لا مَحِيدَ عنه، مع أنه سبق أنَّ القول بدوام فاعلية الله عزَّ وجلَّ في الماضي هو من كماله وأنه لم يزل فَعَّالًا، والمحذور الذي يجبُ الحذرُ منه أن نقول بدوام عين المخلوق في الماضي، يعني مثلًا أن نقول: الخلق (الكون) لم يزل موجودًا فهذا غلط، فالكون مُحْدَث لا شك.

إِذَنْ المؤلف -رحمه الله- أورد اعتراضًا، وأجاب عنه، فقال: كما أنَّ التسلسل ممكن في المستقبل فما الذي يمنعه في الماضي؟!

ثُمَّ قال -رحمه الله-:

٩٥٨- وَالله مَا افْتَرَقَا لِذِي عَقْلٍ، وَلَا   نَقْلٍ، وَلَا نَظَرٍ، وَلَا بُرْهَانِ

٩٥٩- فِي سَلْبِ إِمْكَانٍ وَلَا فِي ضِدِّهِ   هَذِي الْعُقُولُ، وَنَحْنُ ذُو أَذْهَانِ

قَوْلُهُ: «سَلْبِ إِمْكَانٍ» يعني: نفي إمكان، يعني: ما افترقا في نفي الإمكان، ولا في ضدِّه، وهو إثبات الإمكان.

وكلام المؤلف يعني أنه لا فرق بين القول بدوامِ فاعلية الله في الماضي ودوامِ فاعليته في المستقبل، فالله لم يزل ولا يزال فَعَّالًا.

قَوْلُهُ: «هَذِي الْعُقُولُ وَنَحْنُ ذُو أَذْهَانِ» يعني: هاتوا الدليل العقلي.

قَوْلُهُ: «وَنَحْنُ ذُو أَذْهَانِ» يعني: عندنا أذهان نعرف كما تعرفون.

وهذا البحث -أعني في التسلسل- هو بحثٌ حادث لم يكن معروفًا عند السلف، وإنما أحدثه أهلُ المَنطِق، وأجلبوا عليه[1] وأجنبوا[2]، وأهل السنة لا بدَّ أن يدافعوا، لا بدَّ أن يخوضوا غمار الوغى، وإلَّا فالسلامة -بلا شك- أسلم من هذا ونقول: إنَّ الله عزَّ وجلَّ فَعَّال لما يريد في ماضي الأمر وحاضره ومستقبله، لكن إذا بُلينا بقومٍ يتكلَّمون في هذا، فلا بدَّ أن نجيب وندخل في غمار المعركة، والحقُّ منصورٌ ولا بدَّ، وإلَّا ما فائدة أن نقول: إنَّ الله لم يزل فَعَّالا في الأزل الذي لا ندري ما أوَّله، وكذلك في المستقبل الذي لا ندري ما آخره؟

إِذَنْ البحث في التسلسل في الماضي والمستقبل من فضول العلم، ومما لا دَاعِي

(١) أي: تجمعوا. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: جلب.
(٢) أي: دخلوا في ريح الجنوب. انظر: لسان العرب، مادة: جنب.

له، ولكن إذا حَلَّت الضرورة حَلَّ المُحرَّم، إذا اضطررنا إلى أنَّ هؤلاء عَطَّلوا الله عزَّ وجلَّ فيما مضى، وقالوا: إنه لم يكن قادرًا على أن يفعل شيئًا، ثُمَّ حَدَث له الفعل، سبحان الله ما الذي جعله ممكنًا بعد أن كان ممتنعًا؟!

٩٦٠- فَلْيَأتِ بِالْفُرْقَانِ مَنْ هُو فَارِقٌ فَرْقًا يَبِينُ لِصَالِحِ الأَذْهَانِ

اللام في قوله: «فَلْيَأتِ» هنا للأمر الذي يُقْصَدُ به التحدِّي، يعني: إنْ كان لديك فرقٌ بين التسلسل في الماضي والتسلسل في المستقبل فائتِ به.

قَوْلُهُ: «فَرْقًا يَبِينُ لِصَالِحِ الأَذْهَانِ» يعني: لا فرقًا دعويًّا، يَدَّعِي الفرق فقط، لأنه -مثلًا- إذن قال: لو جاز التسلسل في الماضي لَزِم قِدَمُ المخلوقات، نقول أيضًا: لو جاز التسلسل في المستقبل يلزم تأخر المخلوقات حتى تكون مثل الله، فإن امتنع هذا فليمتنع هذا، وإنْ جاز هذا فليَجُزْ هذا.

٩٦١- وَكَذَاكَ سَوَّى الجَهْمُ بَيْنَهُمَا كَذَا الْـ ـعَلَّافُ فِي الإِنْكَارِ وَالْبُطْلانِ

الجهم بن صفوان وكذلك العَلَّاف وأظنه من المعتزلة، سَوَّيا بينهما، أي: بين الماضي والمستقبل، فقالا: لا فَرْقَ بينهما، إنْ أمكن التسلسل في الماضي لم يمتنع في المستقبل، وإن أمكن في المستقبل لم يمتنع في الماضي.

لكنهما مَنَعَا من التسلسل في الماضي والمستقبل، ويقولان بأنَّ الله تعالى لم يكن فَعَّالًا في الماضي ولا يكون فَعَّالًا في المستقبل، وقالا بفناء الجنة وفناء النار، وعدم كل شيء إلَّا الله عزَّ وجلَّ فقالا بمنع التسلسل في الماضي ومنعه في المستقبل، فقولهما مطَّرد، لأنهما لم يُفَرِّقا بينهما، لكن المشكلة فيمن فَرَّق.

٩٦٢- وَلأَجْـلِ ذَا حَكَـمَا بِحُكْـمٍ بَاطِـلٍ   قَطْعًـا عَـلَى الْـجَنَّاتِ وَالنِّـيرَانِ

٩٦٣- فَالْـجَهْمُ أَفْنَى الذَّاتَ وَالْعَلَّافُ لِلْـ   ـحَرَكَاتِ أَفْنَـى قَالَـهُ الثَّـوْرَانِ

جعلهما ثَوْرَيْنِ، لأنهما حكما بحكمٍ باطل على الجنات والنيران، فحكما بأنَّ الجنةَ تفنى، والنارَ تفنى، طردًا للقاعدة، وهي امتناع التسلسل في المستقبل كما يمتنع في الماضي.

لكن الجهم أفنى الذات، والعلَّاف أفنى الحركات، والفرق أنَّ الجهم يقول: هذا العالَـم بجنته وناره، وإنسه وجِنِّه، وملائكتِه، وكلِّ شيء سيفنى، ولا يبقى إِلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ.

وأما العلَّاف فقال: لا، ما يفنى، بل تفنى الحركات فقط، وأمَّا الذوات فتبقى حتى إنه قال: إِنَّ الرجل إذا كان في الجنة، وقد أخذ شيئًا ليأكله فقَدَّر اللهُ الفنَاء فنيت حركاتُه، وبقي هذا الشيء بيده بين مكانه وبين فمه، هكذا إلى أبد الآبدين، وأنه لو كان على أهله في الجنة وقَدَّر اللهُ الفنَاء فَنِي، وَبقي على أهله أبد الآبدين، كأنهما حَجَران لاصقان.

وهذا غير معقول، فهذا الكلام يضحك منه السفهاء فضلًا عن العلماء، فأين عقول هؤلاء الرجال؟!

ولكن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف:١٨٦].

٩٦٤- وَأَبُـو عَـلِيٍّ[1] وَابْنُـهُ وَالأَشْـعَرِيْ ... يُ[2] وَبَعْدَهُ ابْنُ الطَّيِّـبِ[3] الرَّبَّـانِي

قَوْلُهُ: «أَبُو عَلِيٍّ» هو الجُبَّائِي، معتزلي.

قَوْلُهُ: «وَابْنُهُ» هو: أبو هاشم معتزليٌّ أيضًا.

قَوْلُهُ: «وَالأَشْعَرِي» هو أبو الحسن، وهو معروف، هؤلاء الثلاثة وبعدهم (ابنُ الطَّيِّب) وهو الباقلاني.

٩٦٥- وَجَمِيعُ أَرْبَابِ الْكَلَامِ الْبَاطِلِ الْـ ... ـمَذْمُومِ عِنْـدَ أَئِمَّـةِ الإِيـمَانِ

٩٦٦- فَرَقُوا وَقَالُوا: ذَاكَ فِيمَا لَـمْ يَـزَلْ ... حَـقٌّ وَفِي أَزَلٍ بِـلا إِمْكَـانِ

٩٦٧- قَالُوا لأَجْلِ تَنَاقُضِ الأَزَلِيِّ وَالْـ ... إِحْـدَاثِ: مَـا هَـذَانِ يَجْتَمِعَـانِ

٩٦٨- لَكِـنْ دَوَامُ الْفِعْـلِ فِي مُسْـتَقْبَلٍ ... مَـا فِيـهِ مَحْـذُورٌ مِـنَ النُّكْـرَانِ

هؤلاء فَرَّقوا، فكُلُّ أئمة الكلام فَرَّقوا بين التسلسل في الماضي والتسلسل في المستقبل، فقالوا: التسلسل في الماضي ممنوع، لماذا؟ قالوا: لأننا لو قلنا بالتسلسل لامتنع الحدوث، فلا يجتمع القول بالتسلسل والقول بالحدوث.

---

(١) أبو عليٍّ: هو الجُبَّائي: محمد بن عبد الوهاب من أئمة المعتزلة، ورئيس علماء الكلام في عصره، نسبته إلى جبى من قرى البصرة، ولد سنة (٢٣٥هـ)، وتوفي سنة (٣٠٣هـ) في جبى. [الشارح].

(٢) الأشعري: هو عليُّ بن إسماعيل، أبو الحسن، من نسل أبي موسى الأشعري، كان من أئمة المتكلِّمين المجتهدين، أسَّس مذهب الأشاعرة، ولد سنة (٢٦٠هـ) في البصرة، وتلقَّى مذهب المعتزلة، وتقدَّم فيهم، ثُمَّ رجع وجاهر بخلافهم، والتزم مذهب أحمد بن حنبل، وتوفي ببغداد سنة (٣٢٤هـ). [الشارح].

(٣) ابن الطيب: هو محمد بن الطَّيِّب بن محمد، أبو بكر الباقلاني، من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرئاسة في مذهب الأشاعرة، ولد في البصرة سنة (٣٣٨هـ)، وتوفي في بغداد سنة (٤٠٣هـ). [الشارح].

قَوْلُهُ: «قالوا: لأَجْلِ تَنَاقُضِ الأَزَلِيِّ وَالإِحْدَاثِ» كيف نقول: إنه أزليٌّ ونقول: إنه مُحْدَثٌ؟! لأنَّ الأزليَّ لا يمكن أن يكون مُحْدَثًا، فلذلك يمتنع التسلسل في الماضي، أما التسلسل في المستقبل فلا بأس، لأنَّ التسلسل في المستقبل يمنع الحدوث، ولكن سَيَرُدُّ عليهم ابن القيم.

إِذَنْ فالأقوال ثلاثة:

القول الأول: إمكان التسلسل في الماضي والمستقبل، أي: إمكانه أزلًا وأبدًا، وهذا قول أهل الحقِّ.

القول الثاني: امتناع التسلسل فيهما، أي: امتناع التسلسل أزلًا وأبدًا.

القول الثالث: التفصيل، وهو مذهب الأشاعرة وجميع أهل الكلام، وهو أنه يمكن في المستقبل، ولا يمكن في الماضي، يعني: إمكانه أبدًا لا أزلًا.

ولكن -الحمد لله- الحقُّ واضحٌ بأنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يزل ولا يزال فَعَّالًا، لكن من متى؟

الجواب: لا نهاية، لكن نعلم أنه لم يَزَل ولا يزال فَعَّالًا، كذلك أيضًا لا يزال فَعَّالًا، لأنَّ أهلَ الجنَّة خالدون فيها أبدًا، وكذلك أهل النار.

٩٦٩- فَانْظُرْ إِلَى التَّلْبِيسِ فِي ذَا الْفَرْقِ تَرْ وِيجًا عَلَى العُورَانِ وَالْعُمْيَانِ

قَوْلُهُ: «فَانْظُرْ إِلَى التَّلْبِيسِ» أي: انظر أيها المخاطب إلى التلبيس، والتلبيس معناه: التخليط وعدم التبيين.

قَوْلُهُ: «فِي ذَا الْفَرْقِ» الفرق يعني: بين التسلسل في الماضي والمستقبل.

قَوْلُهُ: «تَرْوِيجًا عَلَى العُورَانِ وَالْعُمْيَانِ» مَنْ له عينان فإنه لا يُرَوَّج عليه

هذا، إنما يُرَوَّج هذا على رجلٍ أعور لا ينظر إِلَّا بعينٍ واحدة، أو رجلٍ أعمى لا ينظر أبدًا.

وأهل الكلام في الحقيقة من باب العُورَان، لأنهم نظروا بعينٍ واحدة، وهي التسلسل في المستقبل، وعَمُوا عن التسلسل في الماضي.

٩٧٠- مَا قَالَ ذُو عَقْلٍ بِأَنَّ الْفَرْدَ ذُو   أَزَلٍ لِذِي ذِهْنٍ وَلَا أَعْيَانِ

يقول ابن القيم في الجواب عن كلامهم: نحن لا نقول بِقِدَم الشيء المعيَّن (**مَا قَالَ ذُو عَقْلٍ بِأَنَّ الْفَرْدَ**) يعني: الشيء المعيَّن.

قَوْلُهُ: «**ذُو أَزَلٍ لِذِي ذِهْنٍ وَلا أَعْيَانِ**» يعني: ما أحد قال لا في ذهنه ولا في عين الشيء لا تصوُّرًا ولا تحقيقًا: إنه أزلِيٌّ، فلم يَدَّعِ أحد بأنَّ الأعيان أزليَّة أبديَّة، فهذا لا يمكن، فنحن إذا قلنا بالتسلسل فليس معنى ذلك أنَّ الأفراد أعيان متسلسلة، لأنَّ هذا يكذبه الواقع، فابن عشرين سنة قبل عشرين سنة لم يكن شيئًا، وإذا مات لم يكن شيئًا إلا خبرًا من الأخبار.

٩٧١- بَلْ كُلُّ فَرْدٍ فَهْوَ مَسْبُوقٌ بِفَرْ   دٍ قَبْلَهُ أَبَدًا بِلا حُسْبَانِ

فخلق السموات مسبوق بخلقٍ آخر ما نعلمه، والخلق الآخر مسبوق بخلق آخر إلى ما لا نهاية له، وكان عرش الله على الماء، فكانت أرض، ثُمَّ السموات.

فنحن لا نقول: إنَّ الشيءَ المعيَّن من المخلوقات أَزَلِيٌّ، بل نقول: إِنَّ فعل الله الذي هو وَصْفُه أزليٌّ كذاتِ الله وحياة الله، أما المخلوقات فإنها حادثة، لكن كُلُّ مخلوق فهو مسبوق، مسبوق بمخلوقٍ قبلَه إلى ما لا نهايةَ له، ولا نَعرِف، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥].

كما أننا نقول:

٩٧٢- وَنَظِيرُ هَذَا كُلُّ فَرْدٍ فَهْوَ مَلْـ ... ـحُوقٌ بِفَرْدٍ بَعْدَهُ حُكْمَانِ

قَوْلُهُ: «وَنَظِيرُ هَذَا كُلُّ فَرْدٍ فَهْوَ مَلْحُوقٌ بِفَرْدٍ» هذا التسلسل في المستقبل، كُلُّ فردٍ فهو ملحوقٌ بفرد، يعني: يلحقه فردٌ، ويلحقه فرد، ويلحقه فرد، ويلحقه فرد، إلى ما لا نهاية له، بلا حسبان.

فإذا كنتم تُقِرُّون بأنَّ كُلَّ فردٍ يلحقه فردٌ آخر، فلماذا لا تُقِرُّون بأنَّ كُلَّ فردٍ يسبقه فردٌ آخر، وهل البابان إلَّا شيءٌ واحد؟!

٩٧٣- النَّوْعُ وَالآحَادُ مَسْبُوقٌ وَمَلْـ ... ـحُوقٌ وَكُلٌّ فَهْوَ مِنْهَا فَانِ

قَوْلُهُ: «النَّوْعُ» يعني: نوع المخلوقات، مثلًا: الآدمي نوع باعتبار بقية الحيوان، والحيوان جنس، والآدمي نوعٌ منه، أنا، وأنت، وزيد، وعمرو، هذا فرد.

قَوْلُهُ: «النَّوْعُ وَالآحَادُ مَسْبُوقٌ وَمَلْحُوقٌ» وهذا صحيح، فنحن قبلنا ناس، وبعدنا ناس (وَكُلٌّ فَهْوَ منْهَا فَانِ).

٩٧٤- وَالنَّوْعُ لَا يَفْنَى أَخِيرًا فَهْوَ لَا ... يَفْنَى كَذَلِكَ أَوَّلًا بِبَيَانِ

النوع لا يفنى أخيرًا، كذلك لا يفنى أوَّلًا، فما هو النوع؟ يعني نوع الفعل فعلِ الله عزَّ وجلَّ لا نهايةَ له لا أولًا، ولا آخرًا، أما النوع من الآحاد فلا شكَّ أنَّ له أوَّلًا بمعنى أنه مسبوقٌ بعدم.

فنحن -بني آدم- قد سُبقنا بعدم وسنفنى، والحور والولدان في الجَنَّة مسبوقة بعدم لكنها ستبقى، والأرواح مسبوقة بعدم لكنها ستبقى.

٩٧٥- وَتَعَاقُبُ الآنَاتِ أَمْرٌ ثَابِتٌ ... فِي الذِّهْنِ وَهْوَ كَذَاكَ فِي الأَعْيَانِ

هذا -أيضًا- دليلٌ لا محيصَ عنه، فالآناتُ -أي: الأوقات- هل هي متعاقبة أو غير متعاقبة؟

الجواب: متعاقبة، حتى لو فرضنا أنه لا شمس ولا قمر فهي متعاقبة، وهل لها بداية؟

الجواب: لم يزل الله عزَّ وجلَّ قد خلقها من الأزل، وهل تنتهي أو لا؟

الجواب: الأوقات لا تنتهي حتى إلى أبد الآبدين، لكن تَتَغيَّر الأحوال بلا شك من دنيا، إلى برزخ، إلى آخرة، إلى جنة أو نار.

قَوْلُهُ: «أَمْرٌ ثَابِتٌ فِي الذِّهْنِ وَهْوَ كَذَاكَ فِي الأَعْيَانِ»، يعني: يَتصَوَّر الإنسان ذهنًا ويراه عينًا أنَّ الأوقات تتعاقب، وهل هي مخلوقة أو غير مخلوقة؟

الجواب: مخلوقة، وهل لها أوَّل؟

الجواب: أبدًا، لم تزل الأوقات موجودة، ولا تزال كذلك، والذي خلق الوقت هو الله عزَّ وجلَّ.

٩٧٦- فَإِذَا أَبَيْتُمْ ذَا وَقُلْتُمْ: أَوَّلُ الْـ ... آنَاتِ مُفْتَتَحٌ بِلا نُكْرَانِ

يقول: إن أبيتم وقلتم: أَوَّلُ الآنات مُفْتَتَحٌ بلا نكران، يعني: أَوَّلُ الأوقات إن كان شيئًا لا نتصوَّره قبل أن توجد الأوقات، كانت الأوقات معدومة، ثُمَّ افْتُتِحت، وهذا نتصوَّره ذهنًا في الواقع، وإلَّا لا بدَّ من وقت، لكن اسمع الجواب:

٩٧٧- مَا كَانَ ذَاكَ الآنَ مَسْبُوقًا يُرَى ... إِلَّا بِسَلْبِ وُجُودِهِ الْحَقَّانِي

٩٧٨- فَيُقَالُ: مَا تَعْنُونَ بِالآنَاتِ؟ هَلْ ... تَعْنُونَ مُدَّةَ هَذِهِ الأَزْمَانِ

٩٧٩- مِنْ حِينِ إِحْدَاثِ السَّمَوَاتِ الْعُلى وَالأَرْضِ وَالأَفْلاكِ وَالقَمَرَانِ

٩٨٠- وَنَظُنُّكُمْ تَعْنُونَ ذَاكَ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِهَا شَيْءٌ مِنَ الأَكْوَانِ

إذا قالوا: الآناتُ مُحْدَثَة فهي غير متسلسلة.

يقول: ما تعنون بالآنات؟ هل تعنون بالآنات الأوقات منذ خُلقت السموات والأرض والشمس والقمر، أو تعنون الأوقات من قبل؟ لكن ابن القيم يقول: (**وَنَظُنُّكُمْ تَعْنُونَ ذَاكَ**) يعني: ما كان بعد خلق السماوات والأرض ولكن، (**وَلَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِهَا شَيْءٌ مِنَ الأَكْوَانِ**) فتنفون أن يكون شيءٌ من الأكوان موجودًا قبل خلق السموات والأرض.

فهو يقول: وأظنكم تعنون هذا، فليس الكلام في ذلك، الكلام في الآنات السابقة على خلق السموات والأرض لسنا نبلغ أولها، وهذا واضح.

أما الآنات التي وُجِدت بعد الشمس والقمر والسموات والأرض هذه نحن معكم أنها ليست قديمة، فالليل والنهار بتعاقب الشمس على الأرض وهي حادثةٌ لا شَكَّ، لكن هناك أشياء أخرى مخلوقة من قبل.

٩٨١- هَلْ جَاءَكُمْ فِي ذَاكَ مِنْ أَثَرٍ وَمِنْ نَصٍّ وَمِنْ نَظَرٍ وَمِنْ بُرْهَانِ؟

٩٨٢- هَذَا الْكِتَابُ وَهَذِهِ الآثَارُ وَالْـ ـمَعْقُولُ فِي الْفِطْرَاتِ وَالأَذْهَانِ

٩٨٣- إِنَّا نُحَاكِمُكُمْ إِلَى مَا شِئْتُمُ مِنْهَا فحُكْمُ الْحَقِّ فِي تِبْيَانِ

يقول: هل عندكم دليل على امتناع شيء قبل خلق السموات والأرض؟

الجواب: ليس عندهم دليل، وهذا هو الذي نريده.

٩٨٤- أَوَلَيْسَ خَلْقُ الْكَوْنِ فِي الأَيَّامِ كَا نَ، وَذَاكَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْقُرْآنِ

هل خلق الكون في الأيام مأخوذ من القرآن؟

الجواب: نعم، موجود في القرآن، قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف:٥٤]، قبل أن توجد الأيام المقدرة بالشمس يعني: قبل أن يوجد أحد واثنين وثلاثاء وأربعاء وخميس وجمعة، ومع ذلك قدَّر الله خَلْقها في ستة أيام.

٩٨٥- أَوَلَيْسَ ذَلِكُمُ الزَّمَانُ بِمُدَّةٍ لِحُدُوثِ شَيْءٍ وَهْوَ عَيْنُ زَمَانِ؟

الجواب: بلى، فالزمان الذي خُلِقَت فيه السموات والأرض قبل أن توجد السموات والأرض، وقبل أن توجد الشمس كان موجودًا زمانًا ومُدَّة، ولا شكَّ في هذا، إذن ما المانع؟!

٩٨٦- فَحَقِيقَةُ الأَزْمَانِ نِسْبَةُ حَادِثٍ لِسِوَاهُ تِلْكَ حَقِيقَةُ الأَزْمَانِ

نعم، حقيقة الأزمان نسبةُ حادثٍ لسواه، أي: لغيره، لأنَّ كُلَّ لحظة تأتي من الزمن فهي خَلَفٌ عن لحظة سابقة إلى ما لا نهاية، ولهذا لا تجدك تتصور أنَّ للزمن نهاية أبدًا مع أنَّ الزمنَ مخلوق من مخلوقات الله عزَّ وجلَّ ومع ذلك لا تَتَصوَّر له نهاية، حتى قبل خلق السموات والأرض يوجد زمن ومدَّة، ثُمَّ خُلِقَت السمواتُ والأرضُ في ستة أيام كما قال عزَّ وجلَّ.

٩٨٧- وَاذْكُرْ حَدِيثَ السَّبْقِ لِلتَّقْلِيلِ وَالتْـ تَوْقِيتِ قَبْلَ جَمِيعِ ذِي الأَعْيَانِ

٩٨٨- خَمْسِينَ أَلْفًا مِنْ سِنِينٍ عَدَّهَا الْـ مُخْتَارُ سَابِقَةً لِذِي الأَكْوَانِ

قَوْلُهُ: «حَدِيثَ السَّبْقِ» هو قول النبيِّ ﷺ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلائِقِ قَبْلَ

أَنْ يَخْلُقَ السَّمَواتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»[١]. إذن توجد مُدَّة قبل خلق السموات والأرض، والمدة مخلوقة، والقلم أيضًا مخلوق، واللوح المكتوب فيه مخلوق.

٩٨٩- هَذَا وَعَرْشُ الرَّبِّ فَوْقَ الْـمَاءِ مِنْ قَبْـلِ السِّـنِينَ بِمُـدَّةٍ وَزَمَـانِ

عرش الله عزَّ وجلَّ قبل الكتابة فوق الماء من قبل السنين التي هي خمسون ألفَ سنةٍ، فالأزمان لا تتناهى في الماضي، لكن إذا عنيتم بالأزمان التي تقدَّرت بخلق السموات والأرض فنحن معكم أنها ليست أزليَّة.

٩٩٠- وَالنَّـاسُ مُخْتَلِفُـونَ فِي الْقَلَـمِ الَّـذِي كُتِـبَ الْقَضَـاءُ بِـهِ مِـنَ الـدَّيَّانِ

٩٩١- هَلْ كَانَ قَبْلَ الْعَرْشِ أَوْ هُـوَ بَعْـدَهُ قولان عِندَ أَبِي الْعَـلا الْـهَمَذَانِي[٢]

يعني: أنَّ أهل العلم اختلفوا: هل العرش سابقٌ على خلق القلم أو القلم سابقٌ على خلق العرش؟ قولان لأهل السنة:

القول الأول: أنَّ الله تعالى كتب المقادير قبل العرش.

القول الثاني: أنَّ الله كتب المقادير بعد العرش.

لكن ابن القيم يقول:

٩٩٢- وَالْـحَقُّ أَنَّ الْعَـرْشَ قَبْـلُ لأَنَّـهُ قَبْـلَ الْكِتَابَـةِ كَـانَ ذَا أَرْكَـانِ

قَوْلُهُ: «وَالْـحَقُّ أَنَّ الْعَرْشَ قَبْلُ» أي: قبل القلم، لأنه قبل الكتابة كان ذا أركان، وإذا كان ذا أركان فهو سابق بلا شك.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، برقم(٢٦٥٣).
(٢) لعله الحسن بن أحمد، المولود سنة (٤٨٨هـ)، المتوفي سنة (٥٦٩هـ). [الشارح].

فهذا هو القول الحقُّ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]، ثُمَّ خلق القلم، وأمره أن يكتب في تلك الساعة عند خلقه ما هو كائن إلى يوم القيامة، فكتب.

وسبحان الله العظيم! أمر الله هذا الجماد أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة بأمر الله عزَّ وجلَّ، مع أنَّ القلم لا يعلم ولا يفهم إلَّا ما أمره الله به، فجرى في تلك الساعة بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئَه، وما أخطأه لم يكن ليصيبَه، وذكر -رحمه الله- أنَّ هذا هو الحقُّ.

أما حديث: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمُ»[1] فنوجهه على أنَّ المعنى: أَوَّل ما خلق الله القلم قال له: اكتب، فتكون الأوَّلية بالنسبة لقول الله له، يعني: من حين خلقه قال: اكتب، وهذا ظاهر كلام ابن القيم هنا.

المعنى الثاني: (**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمُ**) أي: بالنسبة للمشاهدات التي نشاهدها نحن.

فإن قيل على هذا القول: إنَّ القلمَ غيرُ مشاهد؟ فنقول: هذا من جنس الاستثناء المنقطع، وقد مَثَّل النُّحَاة له بقولهم: (**جَاءَ القومُ إِلَّا حمارًا**) فالحمار ليس من جنس القوم، فليس منهم، فالاستثناء المنقطع هو أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه، فقوله: «**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمُ**» أي: من هذه الموجودات مثل الاستثناء المنقطع، وإن كان القلم لا نشاهده في الواقع.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في القدر، برقم (٤٧٠٠)، وأخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، سورة ن، برقم (٣٣١٩).

فإن قال قائلٌ: في حديث النَّبِيِّ ﷺ «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمُ» بالإفراد، وفي حديث النَّبِيِّ ﷺ في الإسراء قال: «عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الأَقْلامِ»(١). بالجمع، فما الجواب؟

الجواب: أنَّ هذه هي الأقلام اليومية، يعني: أنَّ اللوح المحفوظ مرجع تُكْتَبُ منه الصحائف اليومية.

٩٩٣- وَكِتَابَةُ الْقَلَمِ الشَّرِيفِ تَعَقَّبَتْ ... إِيجَادَهُ مِنْ غَيْرِ فَصْلِ زَمَانِ

يعني: أنَّ الله -سبحانه وتعالى- لما خلق القلم قال له: اكتب، فبمجرد ما خلقه الله أمره أن يكتب فكتب، وفي حديث عِمْران بن الحُصَين: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ»(٢). فالكتابة أعقبت خلق القلم، وكان عرش الله على الماء، إذن فالعرش هو السابق.

٩٩٤- لَـمَّا بَرَاهُ اللهُ قَالَ: اكْتُبْ كَذَا ... فَغَدَا بِأَمْرِ اللهِ ذَا جَرَيَانِ

٩٩٥- فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ أَبَدًا إِلَى ... يَوْمِ الْمَعَادِ بِقُدْرَةِ الرَّحْمَنِ

الله أكبر، لَـمَّا خلق الله القلم، في نفس الساعة «قال له: اكْتُبْ، فَقَالَ: رَبِّ ومَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقادِيرَ كل شيء حتى تقومَ الساعةُ»(٣)، فجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُو كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَة لا يتغيَّر ولا يتبدَّل.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة، برقم (٣٤٢)، وأخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، برقم (١٦٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، برقم (٣٠١٩).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في القدر، برقم (٤٧٠٠)، وأخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، سورة ن، برقم (٣٣١٩).

٩٩٦- أَفَكَانَ رَبُّ الْعَرْشِ جَلَّ جَلالُهُ مِنْ قَبْلُ ذَا عَجْزٍ وَذَا نُقْصَانِ؟!

وهذا السؤالُ سؤالُ تقريرٍ، يسأل: هل كان الله قبل ذلك عاجزًا؟ لأننا إذا قلنا: يستحيل التسلسل في الماضي لَزِم أن تكون هذه الاستحالة من صفات الله، ويكون الله عاجزًا عن أن يخلق، ثُمَّ صار يخلق، وهذا شيء مستحيل ونقصٌ لله.

٩٩٧- أَمْ لَمْ يَزَلْ ذَا قُدْرَةٍ وَالْفِعْلُ مَقْـ ـدُورٌ لَـهُ أَبَدًا وَذُو إِمْكَانِ؟

ماذا نقول؟ هل نقول: (بلى) أو نقول: نعم؟

الجواب: نقول: (بلى) لم يزل ذا قدرة، والفعل مقدور له أبدًا وذو إمكان.

٩٩٨- فَلَئِنْ سَأَلْتَ وَقُلْتَ: مَا هَـذَا الَّذِي أَدَّاهُمُ لِخِلافِ ذَا التِّبْيَانِ؟

قَوْلُهُ: «فَلَئِنْ سَأَلْتَ» يعني: أيها المخاطب: وقلت ما هذا الذي أدَّاهم لخلاف ذا التبيان؟ الضمير في (أدَّاهم) يعود على أهل الكلام، ومنهم الأشاعرة.

٩٩٩- وَلأَيِّ شَيْءٍ لَمْ يَقُولُوا: إِنَّهُ -سبحانه- هُوَ دَائِمُ الإِحْسَانِ

١٠٠٠- فَاعْلَمْ بِأَنَّ الْقَوْمَ لَـمَّا أَسَّسُوا أَصْلَ الْكَلامِ عَمُوا عَنِ الْقُرْآنِ

١٠٠١- وَعَنِ الحَدِيثِ وَمُقْتَضَى الْـمَعْقُولِ بل عَنْ فِطْرَةِ الرَّحْمَنِ وَالْبُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «فَاعْلَمْ بِأَنَّ الْقَوْمَ» هذا الجواب لـما أَسَّسُوا أصل الكلام عَمُوا عن القرآن، فهؤلاء لـما صاروا يرجعون في عقائدهم إلى علم الكلام ويُحَكِّمون العقولَ التي ليست بعقول في الحقيقة، ولكنها تَعْقِل الإنسان عن الوصول إلى الحقيقة، عَمُوا عن القرآن وعن الحديث ومقتضى المعقول بل عن فطرة الرحمن والبرهان.

١٠٠٢-وبَنَـوْا قَوَاعِـدَهُمْ عَلَيْـهِ فَقَـادَهُمْ قَسْـرًا إلى التَّعْطيـلِ والـبُطْلانِ

هذا هو البلاء أنهم أسَّسوا عقائدهم على الكلام، فأسَّسوا علم الكلام، وجعلوه هو الأصل الذي عليه المدار.

فهم حكَّموا العقول، وأعرضوا عن الكتاب والسنة، فضلوا -والعياذ بالله- قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه:١٢٣] اللهم اجعلنا منهم يا ربِّ.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤]، قوله: ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ أي: لا يضل علمًا، ولا يشقى عملًا، وقيل: لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، والمعنيان صحيحان.

هؤلاء لَـمَّا أعرضوا عن الكتاب والسنة في أسماء الله وصفاته ضلُّوا وشَقُوا -والعياذ بالله- ضلُّوا عِلْمًا، وشَقُوا عملًا، فما اهتدوا لا في أسماء الله وصفاته، ولا في قَدَر الله -سبحانه وتعالى-، هذا هو السبب.

فالسبب إعراضهم عن الكتاب والسنة، واشتغالهم بعلم الكلام، فجدير بهم أن يُفْعَلَ بهم ما قاله الشافعي -رحمه الله- أن يُطافَ بهم في العشائر، ويُضْرَبوا بالجريد والنعال، ولو كانوا كبار العمائم وطوال الأردان، ويُقال: (هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأقبل على علم الكلام).

١٠٠٣-نَفْـيُ القِيـامِ لكـلِّ أمـرٍ حـادثٍ بـالربِّ خَـوْفَ تَسَلْسُـلِ الأعيـانِ

يقول: كُلُّ أمر حادث فإنه لا يقوم بالرَّبِّ، مثل الاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والمجيء إلى الفصل بين العباد، والفرح بتوبة العبد إذا تاب، والضحك إلى رجلين يقتل أحدهما صاحبه كلاهما يدخل الجنة، وهكذا كلُّ شيء

حادث فهو ممنوع أن يقوم بالرَّبِّ، قالوا: لأننا لو قلنا بقيامه بالرَّبِّ، للزم قِدمُ الحوادث أو حدوث الواجب بالقدم.

فهم يقولون: لو قلنا بأنَّ الحوادث تقوم به لزم أحد أمرين: إمَّا أن تكون هذه الحوادث لا أوَّل لها، وإمَّا أن يكون الله محلًّا للحوادث، وكُلُّ هذا -عندهم- ممتنع.

١٠٠٤- فَيَسُدُّ ذَاكَ عَلَيْهِمُ فِي زَعْمِهِمْ ... إِثْبَاتَ صَانِعِ هَذِهِ الأَكْوَانِ

١٠٠٥- إِذْ أَثْبَتُوهُ بِكَوْنِ ذِي الأَجْسَادِ حَا ... دِثَةً فَلا تَنْفَكُّ عَنْ حِدْثَانِ

١٠٠٦- فَإِذَا تَسَلْسَلَتِ الْحَوَادِثُ لَمْ يَكُنْ ... لِحُدُوثِهَا إِذْ ذَاكَ مِنْ بُرْهَانِ

يقولون: إننا لا نُثبتُ قِدَم الرَّبِّ إلَّا إذا أثبتنا حدوث الحوادث، وإلَّا فإننا لا نستطيع أن نثبت قِدَم الرَّبِّ.

فيُقال: إنَّ قِدَم الرَّبِّ لا شك ثابتٌ، فالله تعالى ليس قبلَه شيء، فهو لم يلد ولم يولد، والحوادث كلها كائنةٌ بعد أن لم تكن وإنْ تسلسلت في الأزل فإنها حادثة ولا بد.

١٠٠٧- فَلأَجْلِ ذَا قَالُوا: التَّسَلْسُلُ بَاطِلٌ ... وَالْجِسْمُ لا يَخْلُو عَنِ الْحِدْثَانِ

١٠٠٨- فَيَصِحُّ حينَئذٍ حدوثُ الجِسْمِ مِن ... هذا الدَّليلِ بوَاضِحِ البُرْهانِ

هذا الجسم لا يخلو عن الحدثان، وهذا صحيح، لكن بالنسبة للرَّبِّ العظيم لا يمكن أن نقول هذا، لأنَّ الكلامَ على الجسم نفيًا أو إثباتًا بالنسبة لله ممنوع، فلا نقول: إنَّ الله جسم، ولا نقول: إنه ليس بجسم، لكن نقول: إنَّ الله عزَّ وجلَّ ذاتٌ عَلِيَّة مَلِكٌ، قُدُّوسٌ، سلامٌ، عزيزٌ، حكيم إلى آخر ما وصف اللهُ به نفسَه.

١٠٠٩- هَذِي نِهَايَاتٌ لإِقْدَامِ الْوَرَى ... فِي ذَا الْمَقَامِ الضَّيِّقِ الأَعْطَانِ

١٠١٠- فَمَـــنِ الَّـــذِي يَـــأْتِي بِفَـــتْحٍ بَـــيِّنٍ يُنْجِي الْوَرَى مِنْ غَمْـرَةِ الْـحَيْرَانِ

١٠١١- فَـــاللهُ يَجْزِيـــهِ الَّـــذِي هُـــوَ أَهْلُـــهُ مِنْ جَنَّـةِ الْـمَأْوَى مَـعَ الرِّضْـوَانِ

انظر إلى وصف ابن القيم -رحمه الله- لهذا البحث بأنَّه مقامٌ ضيِّق الأعطان، والأعطان جمع عَطَن[1]، فإذا كان العَطَنُ ضيِّقًا لَزِم من ذلك الضِّيق، والانحصار والتعب.

وهذه الأبيات الثلاثة تحتمل أنَّ ابن القيم -رحمه الله- بعد أن رجَّح ما رجَّح من تسلسل الحوادث في الماضي كأنه لم يطمئن إليها تلك الطمأنينة، فلهذا قال: (**فَمَن الَّذِي يَأْتِي بِفَتْحٍ بَيِّنٍ يُنْجِي الْوَرَى مِنْ غَمْرَةِ الْـحَيْرَانِ**)، ويحتمل أنه يريد بذلك أنَّ ما أتى به فهو صريحٌ بَيِّنٌ يُنْجِي الوَرَى من غمرة الحيران.

فكلامه -رحمه الله- محتمل أن يكون بعد هذا البحث والمناقشة الطويلة صار عنده شيءٌ من التردد كما يوجد الآن تردد في هذه المسألة من بعض طلبة العلم، سواء من طلبة العلم الصغار أم من طلبة العلم الكبار.

ويحتمل أنه يريد أنه أتى -رحمه الله- بفتحٍ بَيِّن في هذه المسألة واضح كما يدلُّ على ذلك تأييده للقول بجواز أو بإمكان التسلسل للحوادث في الماضي.

قَوْلُهُ: « **فَمَن الَّذِي يَأْتِي بِفَتْحٍ بَيِّنٍ... فَاللهُ يَجْزِيهِ الَّذِي هُوَ أَهْلُهُ**». هذا من إخلاص ابن القيم -رحمه الله- ونصحه أنه دعا لمن أتى للمسلمين بالفتح البَيِّن والدليل الواضح، لأنَّ كُلَّ ناصح لله ولكتابه ولرسوله يحب أن يُبَيِّن للخلق ما جاء به النبيُّ ﷺ من الهدى ودين الحقِّ.

* * *

(١) هو مبرك الإبل حول الماء، النهاية عطن.

فصـــل

١٠١٢-فَاسْـمَعْ إِذَنْ وَافْهَـمْ فَـذَاكَ مُعَطِّـلٌ وَمُشَـــبِّهٌ وَهَـــذَاكَ ذُو الْغُفْـــرَانِ

١٠١٣-هَـذَا الـدَّلِيلُ هُـوَ الَّـذِي أَرْدَاهُـمُ بَـــلْ هَـــدَّ كُـــلَّ قَوَاعِـــدِ الْقُـــرْآنِ

١٠١٤- وَهْوَ الدَّلِيلُ الْبَاطِلُ الْـمَرْدُودُ عِنْـ ـــدَ أَئِمَّـــةِ التَّحْقِيـــقِ وَالْعِرْفَـــانِ

١٠١٥-مَـا زَالَ أَمْـرُ النَّـاسِ مُعْتَـدِلًا إِلَى أَنْ دَارَ فِي الأَوْرَاقِ وَالأَذْهَـــانِ

١٠١٦-وَتَـــمَكَّنَتْ أَجْـــزَاؤُهُ بِقُلُـــوبِهِم فَأَتَـــتْ لَوَازِمُـــهُ إِلَى الإِيـــمَانِ

١٠١٧-رَفَعَـتْ قَوَاعِـدَهُ وَنَحَّـتْ أُسَّـهُ فَهَـوَى الْبِنَـاءُ وَخَـرَّ لِلأَرْكَـانِ

١٠١٨- وَجَنَـوا عـلَى الإِسْـلامِ كُـلَّ جِنَايَـةٍ إِذْ سَـلَّطُوا الأَعْـدَاءَ بِالْعُـدْوَانِ

١٠١٩- حَمَلُوا بِأَسْـلِحَةِ الْـمُحَالِ فَخَانَهُمْ ذَاكَ السِّـلاحُ فَـمَا اشْـتَفَوْا بِطِعَـانِ

١٠٢٠-وَأَتَـى الْعَـدُوُّ إِلَى سِـلاحِهِمُ فَقَـا تَلَهُـمْ بِـهِ فِي غَيْبَـةِ الْفُرْسَـانِ

١٠٢١-يَـا مِحْنَـةَ الإِسْـلامِ وَالْقُـرْآنِ مِـنْ جَهْلِ الصَّـدِيقِ وَبَغْـيِ ذِي طُغْيَـانِ

١٠٢٢-وَاللهِ لَـــوْلا اللهُ نَـــاصِرُ دِينِـــهِ وَكِتَابِـــهِ بِالْـــحَقِّ وَالْبُرْهَـــانِ

١٠٢٣-لَتَخَطَّفَـــتْ أَعْـــدَاؤُهُ أَرْوَاحَنَـــا وَلَقُطِّعَـــتْ مِنَّـــا عُـــرَى الإِيـــمَانِ

١٠٢٤-أَيَكُونُ حَقًّا ذَا الدَّلِيلُ وَمَـا اهْتَـدَى خَــيْرُ الْقُـرُونِ لَـهُ؟! مُحَـالٌ ذَانِ!

١٠٢٥- وُفِّقْـتُمُ لِلْحَـقِّ إِذْ حُرِمُـوه في ... أَصْـلِ الْيَقِـينِ وَمَقعـدِ الْعِرْفَـانِ؟!

١٠٢٦-وَهَـدَيْتُمُونَا لِلَّـذِي لَـمْ يَهْتَـدُوا ... أَبَـدًا بِـهِ؟! وَاشِـدَّةَ الْـحِرْمَانِ!

١٠٢٧-وَدَخَلْتُمـوا لِلْحَـقِّ مِـنْ بَـابٍ وَمَـا ... دَخَلُوهُ؟! وَاعَجَبًا لِـذَا الْـخِذْلانِ!

١٠٢٨-وَسَلَكْتُمُ طُرُقَ الْـهُدَى وَالْعِلْـمِ دُو ... نَ الْقَـوْمِ؟! وَاعَجَبًـا لِـذَا الْبُهْتَـانِ!

١٠٢٩- وَعَـرَفْتُمُ الـرَّحْمَنَ بالأَجْسَـامِ وَالْـ ... أَعْـرَاضِ وَالْـحَرَكَاتِ وَالأَلْـوَانِ

١٠٣٠- وَهُمُ فَمَا عَرَفُـوهُ مِنْهَـا بَـلْ مِـنَ الْـ ... آيَـاتِ وَهْـيَ غَـيْرُ ذِي بُرْهَـانِ

١٠٣١- اللهُ أَكْـبَرُ أَنْـتُمُ أَوْ هُـمْ عَـلَى ... حَـقٍّ وَفِي غَـيٍّ وَفِي خُسْـرَانِ

الشرحُ

ذكر المؤلف -رحمه الله- في هذه المقطوعة أنَّ هذا الدليل الذي استدلوا به على نفي قيام الأفعال بالله عزَّ وجلَّ وهو أَنَّ الأفعال حادثة، والحادث لا يقوم إِلَّا بحادث، إذن فلا تقوم الأفعالُ به، ذكر أنَّ هذا دليل باطل.

قال -رحمه الله-:

١٠١٢- فَاسْـمَعْ إِذَنْ وَافْهَـمْ فَـذَاكَ مُعَطِّـلٌ ... وَمُشَـبِّهٌ وَهَـذَاكَ ذُو الْغُفْـرَانِ

١٠١٣- هَـذَا الـدَّلِيلُ هُـوَ الَّـذِي أَرْدَاهُـمُ ... بَـلْ هَـدَّ كُـلَّ قَوَاعِـدِ الْقُـرْآنِ

١٠١٤- وَهْوَ الدَّلِيلُ الْبَاطِلُ الْـمَرْدُودُ عِنْـ ... ـدَ أَئِمَّـةِ التَّحْقِيـقِ وَالْعِرْفَـانِ

فالقرآن مملوء بإثبات الأفعال لله عزَّ وجلَّ، ولو تدبَّرتموه لوجدتم فيه مئات الأدلة على إثبات الأفعال لله -سبحانه وتعالى-، وأنَّ الله لم يزل ولا يزالُ فَعَّالًا.

ولكنَّ ابن القيم -رحمه الله- يقول: إنَّ هذا الدليل باطل ومردودٌ عند أئمة التحقيق والعرفان.

١٠١٥- مَـا زَالَ أَمْـرُ النَّـاسِ مُعْتَـدِلًا إِلَى أَنْ دَارَ فِي الأَوْرَاقِ وَالأَذْهَـانِ
١٠١٦- وَتَـمَكَّنَتْ أَجْـزَاؤُهُ بِقُلُـوبِهِم فأتـت لَوَازِمُـهُ إِلَى الإِيـمَانِ
١٠١٧- رَفَعَـتْ قَوَاعِـدَهُ وَنَحَّـتْ أُسَّـهُ فَهَـوَى الْبِنَـاءُ وَخَـرَّ لَلأَرْكَـانِ
١٠١٨- وَجَنَـوا عـلَى الإِسْـلامِ كُـلَّ جِنَايَـةٍ إِذْ سَـلَّطُوا الأَعْـدَاءَ بِالْعُـدْوَانِ

ويقول: إنَّ الناس كانوا على الحقِّ، وأمْرُهم معتدلٌ حتى دار هذا الدليل في الأوراقِ والأذهانِ، فاضطرب الناس، وإلا فلو تُرِكَ الناسُ وفِطْرتَهم لكان كُلُّ إنسان يعلم بفطرتِه أنَّ الله لم يزل فعَّالًا، وأنَّ الفعلَ لم يكن مستحيلًا عليه في آنٍ، ثُمَّ صار ممكنًا بعد الاستحالة.

فلو تُرِكَ الناسُ وفطرتَهم ما عدلوا عن الحقِّ، لكن جاءت هذه العقول وأفسدت المنقول.

يقول: إنها تمكنت أجزاؤه بقلوبهم فأتت لوازمُه إلى الإيمان، فرفعت قواعده ونَحَّت أسَّه -أي: أساسه- حتى خَرَّ للأركان.

ثُمَّ ذكر أنهم جنوا على الإسلام كُلَّ جناية، لأنهم سَلَّطوا الأعداء، حيث صار كُلُّ إنسان يتكلَّم بما عنده، ويقول لخَصْمِه: هذا الذي قلت إنه محال.

فصار أهل التعطيل والتخييل الذين ينكرون البعث يقولون: هذا محال، مَنْ يُحيي العظام وهي رميم؟ وصار كُلُّ إنسانٍ مبطلٍ يقول لخَصْمه الذي يثبت ما ينفيه يقول: هذا محال، ولهذا يقول:

١٠١٩-حَمَلُوا بأَسْلِحَةِ الْـمُحَالِ فَخَانَهُمْ ذَاكَ السِّلاحُ فَمَا اشْتَفَوْا بِطِعَانِ

يعني: لم ينفعهم، بل غرَّهم حيث يقولون لِـمَا يُرِيدون: إِنَّ هذا ممكن، ولِـمَا لا يريدون: إِنَّ هذا محال، ولو أثبته الله ورسوله.

١٠٢٠-وَأَتَى الْعَدُوُّ إِلَى سِلاحِهِمُ فَقَا تَلَهُمْ بِهِ في غَيْبَةِ الْفُرْسَانِ

قَوْلُهُ: «وَأَتَى الْعَدُوُّ إِلَى سلاحِهِمُ...» كيف ذلك؟

قال أهل التخييل الذين يرون أنَّ اليوم الآخر ليس له حقيقة، فأجابهم أهل التعطيل في الصفات قالوا: كيف لا يكون له حقيقة وقد جاءت به الرسل، وليس هناك ما يمنعه، فوُجِدَ الدليلُ الموجِب، وانتفى المانع، وإذا وُجد الدليل الموجب وانتفى المانع وَجَبَ القولُ بما يقتضيه الدليل؟

فقال لهم أهل التخييل: توافقون على هذه القاعدة؟ قالوا: نعم، ونحتج بها عليكم. قالوا: إذن نحن نحتج عليكم بها، فإِنَّ القرآن والسُّنَّة جاءا بإثبات الصفات، وهو دليل مُوجِب، وليس هناك مانعٌ مقاوِم، فيجب عليكم أن تقولوا بإثبات الصفات.

فأنتم إِمَّا أن تقولوا بإثبات الصفات، وتجعلوا البابَ واحدًا، وإما أن تنفوا المعاد، ونحن لم ننفِ المعاد ونقول: إنه عبارة عن تخييل أو مجاز أو ما أشبه ذلك إِلَّا حيث وجدناكم نفيتم الصفات، مع أنَّ نصوص الصفات في القرآن والسنة أكثر بكثير من نصوص المعاد.

فكيف سوَّغتم لأنفسكم إنكارَ الصفات وتأويل نصوصها، بل على الأصحِّ وتحريف نصوصها، ومنعتمونا من تأويل آيات المعاد؟!

انظر كيف تسلط الأعداء الذين هم كفار بالإجماع، أخذوا سلاح المعتزلة وطعنوهم به.

فهذا معنى قول المؤلف -رحمه الله-: (**وَأَتَى الْعَدُوُّ إِلَى سِلاحِهِمُ فَقَاتَلَهُمْ بِهِ فِي غَيْبَةِ الْفُرْسَانِ**)، مَنْ هم الفرسان في هذا الباب؟

الجواب: أهل السنة الذين يثبتون هذا وهذا، ويقولون: نحن لا نتناقض، الكُلُّ حقٌّ، فصفاتُ ربِّنا حقٌّ، واليوم الآخر حقٌّ.

ثُمَّ قال نادبًا محنة الإسلام:

١٠٢١-يَـا مِحْنَـةَ الإِسْـلامِ وَالْقُـرْآنِ مِـنْ جَهْلِ الصَّـدِيقِ وبَغْـيِ ذي طُغْيـانِ

وهذا صحيح، فما يُبْتَلى الناس إِلَّا بهذا، فصديق جاهل يضرك أكثر مما ينفعك، صديق يحبك مثلما يحب نفسه قال لك: لا تذهب من هذا الطريق، لكن اذهب من هذا الطريق، وهو لا يدري أي الطريقين أحسن أو أسوأ؟ وبناءً على ما بينكما من الصداقة أطعته، وإذا في هذا الطريق قطَّاع طريق، ومَهْلَكة، ومَفازة[1] ورَمْضاء[2]، وعَطَش، وكلُّ شيء، والطريق الأول سليم، هذا الصديق هل نيته سيئة؟

الجواب: لا، ولكنه جاهل، فجهل الصديق بلاء، ولذلك يجب أن يكون الإنسان على ثقةٍ مِمَّن أشار إليه بشيء أن يكون عالمًا مخلصًا لك.

فإذا كان الصديقُ جاهلًا والعدوُّ باغيًا فعلى الإسلام السَّلام، وإذا كان الصديق عالمًا والعدوُّ مبغوتًا حصل المراد، ولهذا جعل ابن القيم -رحمه الله تعالى-

(١) هي البَرِّية القَفْر. انظر: النهاية في غريب الحديث الأثر، مادة: فوز.
(٢) هي شدة الحر. انظر: لسان العرب، مادة: رمض.

هذا من المحنة أن يسكت المسلمون عن هؤلاء المتكلِّمين ولا يبينوا عوارهم، جعل هذا من المحنة، وهو حقيقة، لكن نسأل الله تعالى أن ينصر الإسلام في كلِّ مكان.

قَوْلُهُ: «وبغي ذِي طُغْيَانِ» هذا العدو يبغي ولا يبالي وإن كان عالمًا.

١٠٢٢- وَاللهِ لَوْلا اللهُ نَاصِرُ دِينِهِ ... وَكِتَابِهِ بِالْحَقِّ وَالْبُرْهَانِ

١٠٢٣- لَتَخَطَّفَتْ أَعْدَاؤُهُ أَرْوَاحَنَا ... وَلَقُطِّعَتْ مِنَّا عُرَى الإِيمَانِ

وهذا صحيح، فلولا أنَّ اللهَ ناصرُ دينِه كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] لتقطَّعت عُرَى الإيمان، ولكنَّ الله قيَّض لدينه -ولله الحمد- مَنْ يُدافِعُ عنه ويَنْصُره.

ثُمَّ قال مُتَحدِّيًا:

١٠٢٤- أَيَكُونُ حَقًّا ذَا الدَّلِيلُ وَمَا اهْتَدَى ... خَيْرُ الْقُرُونِ لَهُ؟! مُحَالٌ ذَانِ!

قَوْلُهُ: «أَيَكُونُ حَقًّا ذَا الدَّلِيلُ وَمَا اهْتَدَى خَيْرُ الْقُرُونِ لَهُ»؟!

الجواب: (مُحَالٌ ذَانِ) والمشار إليه اثنان:

الأول: وهو كون هذا الدليل حقًّا.

والثاني -وهو مبنيٌّ عليه-: عدم اهتداء القرون المفضلة إليه، هل القرون المُفَضَّلة سلكوا هذا المسلك واستدلوا بهذا الدليل؟

الجواب: لا، إذن محال أن يكون حقًّا ولم يهتدوا إليه، وهذا حقٌّ، إذن كيف يكون دليلًا والسلف كلُّهم على خلافه؟!

١٠٢٥- وُفِّقْـــتُمُ لِلْحَـــقِّ إِذْ حُرِمُـــوه في أَصْـلِ الْيَقِـينِ وَمَقعـدِ الْعِرْفَـانِ؟!

ما الجواب؟ الجواب: لا، فلا يمكن أن تُوَفَّقُوا -وأنتم الخلف- للحقِّ ويُحْرَمُ منه السلف، هذا مستحيل، ولهذا لما أجاب بعض العلماء لشخصٍ مُعَطِّل في أمر من الأمور فقال له: هل قاله النبيُّ ﷺ وأصحابُه؟ قال: لا، قال: إذن يسعك ما وسع النبيَّ ﷺ وأصحابَه، ومن لم يسعه ما وسع رسول الله ﷺ وأصحابه فلا وسَّع الله عليه.

أما هؤلاء فيقولون: مَنْ لم يدرك علم الكلام فلا يقين له في عقيدته ويقولون: لا يمكن الوصول إلى اليقين إلَّا بطرق علم الكلام.

فيقال: أين هذه الطرق؟ أين هي من الصحابة والتابعين؟ ولكن كما قال ابن القيِّم -رحمه الله- سُلِّطوا على أهل الإسلام وحَصَلَ ما حصل من المحن.

١٠٢٦-وَهَـدَيْتُمُونَا لِلَّـذِي لَـمْ يَهْتَـدُوا أَبَـدًا بِـهِ؟! وَاشِـدَّةَ الْـحِرْمَانِ!

كذلك نقول: لا، هم لا يمكن أن يهدونا لشيءٍ لم يهتدِ إليه السلف الصالح.

١٠٢٧-وَدَخَلْتُمـوا لِلْحَـقِّ مِـنْ بَـابٍ وَمَـا دَخَلُوهُ؟! وَاعَجَبًا لِـذَا الْـخِذْلانِ!

قَوْلُهُ: «وَدَخَلْتُموا لِلحَقِّ مِنْ بَابٍ وَمَا دَخَلُوهُ»؟

الجواب: لا، لا يمكن، فكُلُّ بابٍ يدخله الخلف ولم يدخله السلف فهو باب شر، ولهذا قال: (**وَاعَجَبًا لِذَا الخِذْلَانِ!**).

١٠٢٨-وَسَلَكْتُمُ طُرُقَ الْـهُدَى وَالْعِلْـمِ دُو نَ الْقَـوْمِ؟! وَاعَجَبًـا لِـذَا الْبُهْتَـانِ!

قَوْلُهُ: «وَسَلَكْتُمُ طُرُقَ الْـهُدَى وَالْعِلْمِ دُونَ الْقَوْمِ؟!» الجواب: لا، ولهذا قال: (**وَاعَجَبًا لِذا الْبُهْتَانِ**).

أهل التعطيل يقولون: الحقُّ معنا، وأما السَّلف فهم جهَّال مفوِّضة، تسألهم ما معنى قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾؟ [طه:٥]، يقولون لك: لا ندري، لأنَّ عندهم أنَّ مذهب السلف هو التفويض والجهل، حتى الرسول ﷺ يتكلَّم بالكلام وهو لا يعرفُ معناه، يقول: «يَنْزِلُ رَبُّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا»(١). ولو سألته: يا رسول الله ما معنى ينزل؟ يقول: والله ما أدري، ينزل فقط، و«يَضْحَكُ اللهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ»(٢). ما معناه؟ فيقول: ما أدري، فهذا هو المذهب السَّلفي عند هؤلاء القوم.

وكذبوا -والله- على السلف، فالسلف يقولون: نحن نعرف المعنى، ولا يمكن أن يخاطبنا اللهُ عزَّ وجلَّ ورسولُه ﷺ بما لا نعلمه، لكننا نجهل الكيفية والحقيقة، لأننا أعجز من ذلك، ولم نُخْبَر عن الكيفية.

١٠٢٩- وَعَرَفْتُمُ الرَّحْمَنَ بالأَجْسَامِ وَالْـ أَعْرَاضِ وَالْحَرَكَاتِ وَالأَلْوَانِ

هم يقولون: إنَّ الله ليس بجسم، ولا عَرَض، ولا متحرِّك، وليس له لون، وليس له ريح، وليس له ملمس، ولا... إلخ.

عندهم أنَّ هذه هي الصفات الكاملة التي يُثْنَى على الله بها، لا يقولون: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:١-٤] يقرؤونها، لكن يُحَرِّفونها، أحسن شيء عندهم في الأوصاف هذه السلوب، يكيلون لك كيلًا، لكنه كيل لا حصر له من هذه السلوب.

---

(١) أخرجه البخاري: أبواب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، برقم (١٠٩٤)، وأخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر، برقم (٧٥٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الكافر يقتل المسلم ثم يسلم، برقم (٢٦٧١)، وأخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة، برقم (١٨٩٠).

والسلوب يعني: النفي، ليس بكذا، ليس بكذا، ليس بكذا، وقد بَيَّنا لكم فيما سبق أنَّ التفصيل في السلوب مَنْقَصة وسُخْرِيَة.

فلو جئت لَمِلِك من الملوك وقلت: والله أنت رجل لست بامرأة، ولست بَكسَّاح ولا كَنَّاس ولا حجَّام ولا بَيْطار، ولا شقاقًا لبطون الغنم إذا تعسرت في الولادة، وما أشبه ذلك من هذه الصفات، ماذا يقول لك؟

يقول: هات السيف، لكن لو تقول: أنت ملكٌ لا يساميك ملكٌ من ملوك الدنيا، فهذه كلمة واحدة، فيملأ جيبك وما معك من الدراهم، ويثني عليك.

فالحاصل أنَّ هؤلاء الجماعة لم يعرفوا الله إلَّا بهذه السلوب.

يقول -رحمه الله-:

١٠٣٠- وَهُمُ فَمَا عَرَفُوهُ مِنْهَا بَلْ مِنَ الْـ آيَاتِ وَهْيَ غَيْرُ ذِي بُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «وَهُمُ فَمَا عَرَفُوهُ مِنْهَا بَلْ مِنَ الآيَاتِ»، عرفوا ربَّهم بآياته الكونية والشرعية.

قَوْلُهُ: «وَهْيَ غَيْرُ ذِي بُرْهَانِ» عند مَنْ؟

الجواب: عند الخلف، يقولون: دلالة القرآن والسنة غير برهان، وليست قاطعة، فإذا أتيتَهم بدليل قالوا: هذا الدليل يحتمل عشرة أوجهٍ، ومع الاحتمال يسقط الاستدلال، هذا إذا كان لا يمكنهم دفع الدليل بالسند.

فإن كان يمكن دفع الدليل بالسند قالوا: هذا سنده ضعيف، هذا خبر آحاد لا نقبله في العقائد، لكن إذا جاء من القرآن يقولون: هذا يحتمل عدة معانٍ، ومع الاحتمال يبطل الاستدلال.

فجعلوا نصوص الكتاب والسُّنَّة مهزلة، طعنوا أحيانًا في الدلالة، وأحيانًا في الدليل، إن أمكنهم أن يطعنوا في الدليل بعدم ثبوته فعلوا، وإذا لم يمكنهم، لأنَّ القرآن لا يمكن أن يقدحوا فيه، طعنوا في الدلالة.

فصار طعنهم إما في الدليل ويتبعه الطَّعن في الدلالة، وإما في الدلالة إذا عجزوا عن الطعن في الدليل.

١٠٣١-اللهُ أَكْبَرُ أَنْتُمُ أَوْ هُمْ عَلَى حَقٍّ وَفِي غَيٍّ وَفِي خُسْرَانِ

الجواب: أنَّ السلف (أهل السُّنَّة) واللهِ على الحقِّ، وأَنَّ الخلق المخالفين لهم على ضلال وفي خسران.

لكن إذا قال قائل: كيف يقول ابن القيم -رحمه الله تعالى-: «**أَنْتُمُ أَوْ هُمْ عَلَى حَقٍّ**»؟

نقول: نعم، هذا من تعليم الله، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤]، وهذا هو الإنصاف، الإنصاف أن تقول: أنا أو أنت مخطئ، ثُمَّ الخطأ والصواب يتبيَّن، لأننا خَصْمَانِ مثلًا، لا يمكن أن أحكم بقولي عليك، ولا أنت تحكم بقولك عليَّ، فالحقُّ إما معي أو معك، ويكون المُرَجِّحَ دليلٌ من الخارج.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٠] في باب المناظرة أو باب المخاصمة فلا مانع، ونحن أعلم أنَّ الله أعلم.

وكقوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩] ومعلوم أنَّ الله خير، ولا خير فيما أشركوا به.

وكقوله تعالى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر:٢٨] هذا صحيح، فهو إما كاذب وإما صادق.

هذا هو الإنصاف، وليس الإنصاف أن يقول الواحد: القول قولي أنا، قولي هو الصواب، والقول الثاني خطأ، حتى يكون الحكم.

* * *

١٠٣٢- دَعْ ذَا أَلَيْسَ اللهُ قَدْ أَبْدَى لَنَا ... حَقَّ الأَدِلَّةِ؟ وَهْيَ فِي القُرْآنِ

١٠٣٣- مُتَنَوِّعَاتٌ صُرِّفَتْ وَتَظَاهَرَتْ ... فِي كُلِّ وَجْهٍ فَهْيَ ذُو أَفْنَانِ

١٠٣٤- مَعْلُومَةٌ لِلْعَقْلِ أَوْ مَشْهُودَةٌ ... لِلْحِسِّ أَوْ فِي فِطْرَةِ الرَّحْمَنِ

١٠٣٥- أَسَمِعْتُمُ لِدَلِيلِكُمْ فِي بَعْضِهَا ... خَبَرًا أَوَ احْسَسْتُم لَهُ بِبَيَانِ؟

١٠٣٦- أَيَكُونُ أَصْلُ الدِّينِ مَا تَمَّ الْهُدَى ... إِلَّا بِهِ وَبِهِ قُوَى الإِيمَانِ

١٠٣٧- وَسِوَاهُ لَيْسَ بِمُوجِبٍ مَنْ لَمْ يُحِطْ ... عِلْمًا بِهِ لَمْ يَنْجُ مِنْ كُفْرَانِ

١٠٣٨- وَاللهُ ثُمَّ رَسُولُهُ قَدْ بَيَّنَا ... طُرقَ الْهُدَى فِي غَايَةِ التِّبْيَانِ

١٠٣٩- فَلِأَيِّ شَيْءٍ أَعْرَضَا عَنْهُ وَلَمْ ... نَسْمَعْهُ فِي أَثَرٍ وَلَا قُرْآنِ؟

١٠٤٠- لَكِنْ أَتَانَا بَعْدَ خَيْرِ قُرُونِنَا ... بِظُهُورِ أَحْدَاثٍ مِنَ الشَّيْطَانِ

١٠٤١- وَعَلَى لِسَانِ الْجَهْمِ جَاءُوا حِزْبُهُ ... مِنْ كُلِّ صَاحِبِ بِدْعَةٍ حَيْرَانِ

١٠٤٢- وَلِذَلِكَ اشْتَدَّ النَّكِيرُ عَلَيْهِمُ ... مِنْ سَائِرِ الْعُلَمَاءِ فِي الْبُلْدَانِ

١٠٤٣-صَاحُوا بِهِمْ مِنْ كُلِّ قُطْرٍ بَلْ رَمَوْا ... فِي إِثْرِهِمْ بِثَوَاقِبِ الشُّهْبَانِ

١٠٤٤- عَرَفُوا الَّذِي يُفْضِي إِلَيْهِ قَوْلُهُمْ ... وَدَلِيلُهُمْ بِحَقِيقَةِ الْعِرْفَانِ

١٠٤٥-وَأَخُو الْجَهَالَةِ فِي خَفَارَةِ جَهْلِهِ ... وَالْجَهْلُ قَدْ يُنْجِي مِنَ الْكُفْرَانِ

الشرحُ

١٠٣٢-دَعْ ذَا أَلَيْسَ اللهُ قَدْ أَبْدَى لَنَا ... حَقَّ الأَدِلَّةِ؟ وَهْيَ فِي القُرْآنِ

١٠٣٣- مُتَنَوِّعَاتٌ صُرِّفَتْ وَتَظَاهَرَتْ ... فِي كُلِّ وَجْهٍ فَهْيَ ذُو أَفْنَانِ

١٠٣٤-مَعْلُومَةٌ لِلْعَقْلِ أَوْ مَشْهُودَةٌ ... لِلْحِسِّ أَوْ فِي فِطْرَةِ الرَّحْمَنِ

المؤلف -رحمه الله- يقول: دَعْ هذا النظر أو هذه المجادلة، وأسألك: هل قد أبدى الله لنا حقَّ الأدلة؟ لأنَّ الاستفهام في قوله: «**أَلَيْسَ اللهُ**»؟ للتقرير.

والجواب: بلى، فقد بَيَّن الله لنا الأدلة على وجوه متنوعة: أدلة عقلية، وحسِّية، وفطرية، فلهذا كان القرآن أحيانًا يحيل على العقل، وأحيانًا يحيل على الحِسِّ المشاهَد، وأحيانًا يحيل على الفطرة.

فمثلًا: (البعث) أحال الله -سبحانه وتعالى- فيه على الشيء الواقع المُشَاهَد، فأخبر -سبحانه وتعالى- في سورة (فُصِّلت) أنه يُنَزِّلُ الماءَ على الأرض الميتة الخاشعة فإذا هي حيَّة، فقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩]، فهذا دليلٌ حسيٌّ نُشاهِدُه.

ومثال الدليل العقلي قول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ

﴿فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق:١٥]، يعني: هل عجزنا عن الخلق الأول؟ فإذا لم نعجز فإنَّ الخلق الثاني من باب أولى كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧].

أما الفطرة فإنَّ الإنسانَ مجبولٌ بفطرته على أن يعرف ربَّه -سبحانه وتعالى- كما قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى الفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»[١]. ثُمَّ قال -رحمه الله-:

١٠٣٥- أَسَمِعْتُمُ لِدَلِيلِكُمْ فِي بَعْضِهَا ... خَبَرًا أَوَ احْسَسْتُم لَهُ بِبَيَانِ؟

ما الجواب؟

الجواب: لا، فأدلتهم التي استدلوا بها لا تستند على وحي، ولا على عقل، ولا على حِسٍّ، ولا على فطرة.

١٠٣٦-أَيَكُونُ أَصْلُ الدِّينِ مَا تَمَّ الْهُدَى ... إِلَّا بِهِ وَبِهِ قُوَى الإِيمَانِ

١٠٣٧-وَسِوَاهُ لَيْسَ بِمُوجِبٍ مَنْ لَمْ يُحِطْ ... عِلْمًا بِهِ لَمْ يَنْجُ مِنْ كُفْرَانِ

هذا يردُّ به على المنطقيين الذين قالوا: إنَّ مَنْ لم يُحِط علمًا بالمنطق فليس على يقينٍ من أمره، وهذا المنطق يقول عنه شيخُ الإسلام -رحمه الله-: «قد كنتُ أعلمُ دائمًا أنَّ المنطق اليونانيَّ لا يحتاج إليه الذكيُّ، ولا ينتفع به البليد»[٢]. إذن لا خير فيه ما دام البليد لا ينتفع به والذكي لا يحتاج إليه، إذن فلا ينبغي للإنسان أن يُضَيِّع عمره فيه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي هل يصلى عليه، برقم (١٢٩٢)، وأخرجه مسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، برقم (٢٦٥٨).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٩/ ٨٢).

١٠٣٨-وَاللهُ ثُمَّ رَسُولُهُ قَدْ بَيَّنَا ... طُرقَ الْهُدَى فِي غَايَةِ التِّبْيَانِ

١٠٣٩- فَلأَيِّ شَيْءٍ أَعْرَضَا عَنْهُ وَلَمْ ... نَسْمَعْهُ فِي أَثَرٍ وَلا قُرْآنِ؟

قَوْلُهُ: «عَنْهُ» يعني: عن الدليل الذي استندوا إليه فيما سبق، وهو الاعتماد على العقل والجدل، لماذا أعرض الله ورسوله عنه فلم يستدلا به؟!

١٠٤٠- لَكِنْ أَتَانَا بَعْدَ خَيْرِ قُرُونِنَا ... بِظُهُورِ أَحْدَاثٍ مِنَ الشَّيْطَانِ

١٠٤١- وَعَلَى لِسَانِ الْجَهْمِ جَاءوا حِزْبُهُ ... مِنْ كُلِّ صَاحِبِ بِدْعَةٍ حَيْرَانِ

قَوْلُهُ: «أَحْدَاثٍ»، ويجوز أيضًا (إِحْدَاث).

الجهم بن صفوان هو أصل التعطيل في الحقيقة، وهو تلميذٌ للجعد بن درهم، لكن نُسِبت المقالة للجهم، لأنه نشرها في العالم وأظهرها، فنسبت إليه.

١٠٤٢- وَلِذَلِكَ اشْتَدَّ النَّكِيرُ عَلَيْهِمُ ... مِنْ سَائِرِ الْعُلَمَاءِ فِي الْبُلْدَانِ

١٠٤٣- صَاحُوا بِهِمْ مِنْ كُلِّ قُطْرٍ بَلْ رَمَوْا ... فِي إِثْرِهِمْ بِثَوَاقِبِ الشُّهْبَانِ

١٠٤٤- عَرَفُوا الَّذِي يُفْضِي إِلَيْهِ قَوْلُهُمْ ... وَدَلِيلُهُمْ بِحَقِيقَةِ الْعِرْفَانِ

١٠٤٥- وَأَخُو الْجَهَالَةِ فِي خَفَارَةِ جَهْلِهِ ... وَالْجَهْلُ قَدْ يُنْجِي مِنَ الْكُفْرَانِ

المعنى: أنَّ العلماء صاروا ينكرون على الجهم، وعلى كلِّ مَنْ سار على نهجه من كلِّ الأقطار، وعرفوا أنَّ قولهم هذا يفضي إلى محاذيرَ عظيمة، فيُفضي إلى تعطيل الرَّبِّ عزَّ وجلَّ وإلى كونه كالجماد لا يفعل، ولا يشاء، ولا يتكلَّم، ولا يُنْزِلُ شرعًا، فهو غاية كل بلاء.

قَوْلُهُ: «وَالْـجَهْلُ قَدْ يُنْجِي مِنَ الْكُفْرَانِ» المعنى أنَّ الإنسان قد يصل بعلمه إلى الكفر الذي ينجو منه الجاهل.

وذلك لأنَّ الجاهلَ مُتَمَشٍّ على فطرته، وليس عنده تحريف للقرآن، وهؤلاء الذين يدَّعون أنهم العلماء وأنهم العقلاء بلغ بهم الهوى إلى ما بلغ.

ولهذا تجد عوامَّ المسلمين خيرًا من هؤلاء الْمُعَطِّلة مع ما عندهم من العلم، لكن لم يُوَفَّقوا للخير، أدركوا العلم ولكن لم ينالوا به خيرًا، أُعطوا علمًا، ولم يُعْطَوا ذَكاءً.

بفضل الله تعالى وتوفيقه تمَّ المجلد الأول

ويليه بمشيئة الله تعالى المجلد الثاني

وأوله: فصلٌ فِي الرَّدِّ عَلَى الجَهْمِيَّةِ المُعَطِّلَةِ، البيت رقم (١٠٤٦)

* * *

فهرس الآيات

الآية	الصفحة

* * *

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث **الصفحة**

* * *

فهرس الموضوعات والفوائد

الموضوع **الصفحة**

* * *

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٢٣)

شرح
الكافية الشافية
في الانتصار للفرقة الناجية

للحافظ المحقق
شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية
تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جناته

شرح فضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الثاني

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

شرح الكافية الشافية

في الانتصار للفرقة الناجية

٢

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
شرح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية لابن قيّم الجوزية./
محمد بن صالح العثيمين - الرياض، ١٤٣٤هـ
٤مج؛ (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٢٣)
ردمك: ٤ ـ ٦٢ ـ ٨٠٣٦ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (مجموعة)
٨ ـ ٦٤ ـ ٨٠٣٦ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (ج٢)
١ ـ العقيدة الإسلامية ٢ ـ التوحيد ٣ ـ أهل السنّة
أ. العنوان ب. السلسلة
ديوي ٢٤٠ ١٠٢٢٧/ ١٤٣٤

الطبعة الأولى
محرم ١٤٣٥هـ

يُطلب الكتاب من:
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص. ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٢٣)

شرح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية

للحافظ المحقق
شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية
تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جناته

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الثاني

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

فصــل

فِي الرَّدِّ عَلَى الجَهْمِيَّةِ المُعَطِّلَةِ القَائِلِينَ بِأَنَّهُ لَيْسَ عَلَى العَرْشِ إِلَهٌ يُعْبَدُ، وَلا فَوْقَ السَّمَوَاتِ إِلَهٌ يُصَلَّى له ويُسْجَدُ، وَبَيَانُ فَسَادِ قَوْلِهِمْ عَقْلاً وَنَقْلاً، وَلُغَةً وَفِطْرَةً

الشــرحُ

الـجَهْمِيَّةُ هم أتباعُ الـجَهْمِ بنِ صَفْوانَ[١] الذي أَخَذَ العِلْمَ عن الـجَعْد بنِ دِرْهم[٢] لكن نُسِبَ المذهبُ إلى الجَهْم، لأنه هو الذي نشَرَه وبَثَّه في الوَرَى، وإلَّا فإنَّ أصلَ التعطيل من الجَعْد، حيث قال: إنَّ اللهَ تعالى لم يتخذ إبراهيمَ خليلًا، ولم يكلِّم موسى تكليمًا.

وانظر إلى أوَّل التعطيل تَجِدْ أنَّ أوَّلَه نفيُ المحبَّةِ ونفيُ الكلامِ، ومعروفٌ أنه حَصَلَ انتشارٌ عظيمٌ لهذا المذهبِ الخبيثِ منسوبًا إلى الجَهْم بنِ صَفْوانَ، لأنه نشره.

١٠٤٦- وَاللهُ كَـــانَ وَلَــيْسَ شَيْءٌ غَــيْرُهُ   وَبَــرَى الْبَرِيَّــةَ وَهْــيَ ذُو حِــدْثَانِ

١٠٤٧- فَسَلِ المُعَطِّلَ هَلْ بَرَاهَا[٣] خارِجًـا   عَــنْ ذَاتِــهِ أَمْ فِيــهِ حَلَّــتْ ذَانِ؟

---

(١) جهم بن صفوان هو: أبو مُحْرِز السَّمَرْقَنْدِي، رأس الجَهْمِيَّة مِن أكذَبِ الناس على الله تعالى وأَعْظَمِهم فتنةً وضلالةً في الدِّين، وكان مِن أعظم الناس نفيًا لصفات الله تعالى وأسمائه، قال الذهبي في الميزان: ما علمته روى شيئًا، لكنه زرع شرًّا عظيمًا، هلكَ زمن التابعين سنة (١٢٨هـ). [الشارح]. وانظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٠٤).

(٢) الجعد بن درهم من الموالي، مبتدع، له أخبار في الزندقة، سكن الجزيرة -يعني العراق- وأخذ عنه مروان بن محمد، أو تَأَدَّب عليه في صغره، قُتِلَ (سنة ١١٨). انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٦/ ١٥١)، وتاريخ الإسلام (٤/ ٢٣٨)، وميزان الاعتدال (١/ ترجمة ١٤٨٢).

(٣) في نسخة برلين «يراها» بياء مثناة.

١٠٤٨- لَا بُــدَّ مِــنْ إِحْــدَاهُمَا أَوْ أَنَّهَــا ... هِــيَ عَيْنُــهُ مَــا ثَــمَّ مَوْجُــودَانِ

١٠٤٩- مَــا ثَــمَّ مَخْلُــوقٌ وَخَالِقُــهُ وَمَــا ... شَيْءٌ مُغَــايِرُ هَــذِهِ الأَعْيَــانِ

١٠٥٠- لَا بُدَّ مِنْ إِحْدَى ثَلَاثٍ مَا لَــهَا ... مِــنْ رَابِــعٍ خَلُّــوا عَــنِ الرَّوَغَــانِ

١٠٥١- وَلِـذَاكَ قَـالَ مُحَقِّقُ الْقَـوْمِ الَّـذِي ... رَفَـعَ الْقَوَاعِـدَ مُـدَّعِي الْعِرْفَـانِ:

١٠٥٢- هُوَ عَيْنُ هَذَا الْكَـوْنِ لَـيْسَ بِغَـيْرِهِ ... أَنَّــى وَلَــيْسَ مُبَـايِنَ الأَكْـوَانِ؟

١٠٥٣- كَــلَّا وَلَــيْسَ مُجَانِبًــا أَيْضًــا لَــهَا ... فَهْــوَ الْوُجُــودُ بِعَيْنِــهِ وَعِيَــانِ

١٠٥٤- إِنْ لَـمْ يَكُنْ فَوْقَ الْـخَلَائِقِ رَبُّهَـا ... فَـالْقَوْلُ هَـذَا الْقَـوْلُ فِي الْـمِيزَانِ

١٠٥٥- إِذْ لَــيْسَ يُعْقَــلُ بَعْــدُ إِلَّا أَنَّــهُ ... قَــدْ حَــلَّ فِيهَــا وَهْــيَ كَالأَبْـدَانِ

١٠٥٦- وَالرُّوحُ ذَاتُ الْـحَقِّ جَـلَّ جَلَالُـهُ ... حَلَّــتْ بِهَــا كَمَقَالَــةِ النَّصْرَانِــي

الشــرحُ

هذا الفصلُ أَرَادَ به -رَحِمَهُ اللهُ- الرَّدَّ على الجَهْمِيَّةِ المُعطِّلَةِ الذين يقولون: ليس اللهُ فوقَ العَرْشِ، فأرادَ -رَحِمَهُ اللهُ- أن يُلزِمَهم بأحدِ أمورٍ ثلاثةٍ، فقال:

١٠٤٦- وَاللهُ كَــانَ وَلَــيْسَ شَيْءٌ غَــيْرُهُ ... وَبَــرَى الْبَرِيَّــةَ وَهْــيَ ذُو حِــدْثَانِ

الله كان وليس شيءٌ غيرُه، وهذا صحيحٌ، يعني: كان ولم يكن شيءٌ معه -سبحانه وتعالى- ولا قبله.

قَوْلُهُ: «وَبَرَى الْبَرِيَّةَ» يعني: خلقَها، و(البَرِيَّة) فَعِيلةٌ بمعنى مَفْعُولةٍ.

١٠٤٧- فَسَلِ المُعَطِّلَ هَلْ بَرَاهَا خَارِجًا عَنْ ذَاتِهِ أَمْ فِيهِ حَلَّتْ ذَانِ؟

١٠٤٨- لَا بُدَّ مِنْ إِحْدَاهُمَا أَوْ أَنَّهَا هِيَ عَيْنُهُ مَا ثَمَّ مَوْجُودَانِ

قَوْلُهُ: «أَمْ فِيهِ حَلَّتْ» أي: كُلُّها، هل بَرَى البَرِيَّةَ خارجًا عن ذاتِهِ، أو بَرَى البَرِيَّةَ في ذاتِهِ؟ يقول: (ذَانِ لَا بُدَّ مِنْ إِحْدَاهُمَا)، (ذان) ما هما؟

الجَوَابُ: المشار إليه أنها خارجًا عنه، أو في ذاتِه، لا بُدَّ من إحداهما.

قَوْلُهُ: «أو أنَّهَا هِيَ عَيْنُهُ» هذا الاحتمالُ الثالثُ.

١٠٤٩- مَا ثَمَّ مَخْلُوقٌ وَخَالِقُهُ وَمَا شَيْءٌ مُغَايِرُ هَذِهِ الأَعْيَانِ

١٠٥٠- لَا بُدَّ مِنْ إِحْدَى ثَلَاثٍ مَا لَهَا مِنْ رَابِعٍ خَلُّوا عَنِ الرَّوَغَانِ

قَوْلُهُ: «لا بُدَّ مِنْ إِحْدَى ثَلاثٍ مَا لَهَا مِنْ رَابِعٍ» الثلاثُ هي: أن نقولَ: إنَّ المخلوقاتِ هي عينُ الخالِقِ، وهذا مذهبُ أهلِ وَحْدةِ الوُجودِ، أو نقولَ: خلَقَها في ذاتِهِ، أو خلَقَها خَارِجَ ذاتِهِ، قِسْمةٌ عَقْلِيَّةٌ، لا يُمْكِنُ أن تَجِدَ قسمًا رابعًا، ولهذا قال: (خَلُّوا عن الرَّوَغَانِ).

فلمَّا رأى أهلُ وَحْدةِ الوُجودِ أنَّ هذا التقسيمَ حاصلٌ قالوا: (هو عَيْنُ هذا الكَوْنِ)، ولذا قال:

١٠٥١- وَلِذَاكَ قَالَ مُحَقِّقُ القَوْمِ الَّذِي رَفَعَ الْقَوَاعِدَ مُدَّعِي الْعِرْفَانِ:

١٠٥٢- هُوَ عَيْنُ هَذَا الْكَوْنِ لَيْسَ بِغَيْرِهِ أَنَّى وَلَيْسَ مُبَايِنَ الأَكْوَانِ؟

١٠٥٣- كَلَّا وَلَيْسَ مُجَانِبًا أَيْضًا لَهَا فَهْوَ الْوُجُودُ بِعَيْنِهِ وَعِيَانِ

قَوْلُهُ: «هُوَ عَيْنُ هَذَا الكَوْنِ» يعني: قال: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو عينُ هذا الكونِ،

فلا خالِقَ ولا مَخْلوقَ، فالكونُ خالِقٌ مَخْلوقٌ، فالكونُ هو اللهُ -نسأَلُ اللهَ العافيةَ- وقد تقدَّمَ أنهم قالوا: إنَّ السمعَ هو اللهُ، والأرضَ هي اللهُ، والإنسانَ هو اللهُ، والبعيرَ هو اللهُ... وهكذا.

قَوْلُهُ: «**أَنَّى وَلَيْسَ مُبَايِنَ الأَكْوَانِ**» إذا قال: (**لَيْسَ مُبَايِنَ الأكوانِ**) يَعْنِي: ليس بائِنًا من الخلقِ، لَزِمَ أنْ يكونَ هو الخَلْقَ.

قال ابنُ القَيِّمِ:

١٠٥٤- إِنْ لَـمْ يَكُنْ فَوْقَ الْـخَلَائِقِ رَبُّهَـا فَـالْقَوْلُ هَـٰذَا الْقَـوْلُ فِي الْـمِيزَانِ

يعني: إن لم يَقُلْ: إِنَّ اللهَ فوقَ كُلِّ شيءٍ، صارَ هذا القولُ هو القولَ، يَعْنِي: هو القولُ الراجِحُ في المِيزانِ.

قَوْلُهُ: «**فَالْقَوْلُ هَذَا الْقَوْلُ**» المشارُ إليه: الذي قال: إنَّ اللهَ هو عينُ هذا الكونِ.

فالمعنى: إنْ لم نَقُلْ: إنَّ اللهَ فوقَ كُلِّ شيءٍ، لَزِمَ أنْ نَقُولَ: إنه عينُ كُلِّ شيءٍ، لأننا إذا قُلنا: إنَّ اللهَ ليس فَوْقَ الخلقِ، ولا عن يمينٍ، ولا شمالٍ، ولا تحت، ولا أَمَام، ولا خَلْف، لَزِمَ أنْ يكونَ هو عينَ الخلقِ، فإذا قُلْنَا: إنه فَوْقَ العرشِ سَلِمْنَا من هذا.

فصارَ قولُ الجَهْمِيَّةِ المُعطِّلةِ يَعُودُ تمامًا إلى قولِ الاتِّحادِيَّةِ (أهلِ وَحْدَةِ الوُجُودِ)، لِأَنَّهُم يقولون: إنَّ اللهَ لا فوق ولا تحت، ولا يَمِين ولا يَسار، ولا أَمَام ولا خَلْف، ولا مُبايِن، ولا مُتَّصِلٌ ولا مُنْفَصِلٌ، إذَنْ هو عَدَمٌ، إذَنْ هو هذا الكونُ، هو هذه المخلوقاتُ.

قَوْلُهُ: «**فِي الْـمِيزَانِ**» يعني: العَدْلُ، فالعَدْلُ ينبغي أن يكونَ هكذا، يعني: إِمَّا

أنْ تقولَ: إنَّ اللهَ فوق كُلِّ شَيْءٍ، وإِلَّا فقُلْ بهذا القولِ.

١٠٥٥- إِذْ لَيْسَ يُعْقَلُ بَعْدُ إِلَّا أَنَّهُ ... قَدْ حَلَّ فِيهَا وَهْيَ كَالأَبْدَانِ

١٠٥٦- وَالرُّوحُ ذَاتُ الْحَقِّ جَلَّ جَلَالُهُ ... حَلَّتْ بِهَا كَمَقَالَةِ النَّصْرَانِي

يعني: إذا قُلْنَا: إنه ليس فوقُ، ولا تحتُ، ولا يمينُ، ولا شمالُ، لَزِمَ أنْ يكون حالًّا في الْخَلْق، فيكون الْخَلْقُ بمنزلةِ الجَسَدِ، والخالِقُ بمنزلةِ الرُّوحِ، كمَقَالةِ النَّصْرانِيِّ، ماذا قال النَّصْرانِيُّ؟ قال: إنَّ اللهَ حلَّ في عيسى -والعياذ بالله- فجعلوا عيسى جَسَدًا، وجَعَلوا اللهَ رُوحًا.

* * *

١٠٥٧- فَاحْكُمْ عَلَى مَنْ قَالَ: لَيْسَ بِخَارِجٍ ... عَنْهَا، وَلَا فِيهَا بِحُكْمِ بَيَانِ

١٠٥٨- بِخِلَافِهِ الْوَحْيَيْنِ وَالإِجْمَاعَ وَالْـ ... ـعَقْلَ الصَّرِيحَ وَفِطْرَةَ الرَّحْمَنِ

١٠٥٩- فَعَلَيْهِ أَوْقَعَ حَدَّ مَعْدُومٍ وَذَا ... حَدُّ الْمُحَالِ بِغَيْرِ مَا فُرْقَانِ

١٠٦٠- يَا لِلْعُقُولِ إِذَا نَفَيْتُمْ مُخْبَرًا ... وَنَقِيضَهُ هَلْ ذَاكَ فِي إِمْكَانِ

١٠٦١- إِنْ كَانَ نَفْيُ دُخُولِهِ وَخُرُوجِهِ ... لَا يَصْدُقَانِ مَعًا لِذِي الإِمْكَانِ

١٠٦٢- إِلَّا عَلَى عَدَمٍ صَرِيحٍ نَفْيُهُ ... مُتَحَقِّقٌ بِبَدَاهَةِ الإِنْسَانِ

١٠٦٣- أَيَصِحُّ فِي الْمَعْقُولِ يَا أَهْلَ النُّهَى ... ذَاتَانِ لَا بِالْغَيْرِ قَائِمَتَانِ؟

١٠٦٤- لَيْسَتْ تُبَايِنُ مِنْهُمَا ذَاتٌ لأُخْـ ... ـرَى أَو تُحَايِثُهَا فَيَجْتَمِعَانِ

١٠٦٥- إِنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا مُحَالٌ فَهْوَ ذَا ... فَارْجِعْ إِلَى الْمَعْقُولِ وَالْبُرْهَانِ

الشـــرحُ

١٠٥٧- فَاحْكُمْ عَلَى مَنْ قَالَ: لَيْسَ بِخَارِجٍ عَنْهَـا، وَلَا فِيهَـا بِحُكْـمِ بَيَـانِ

١٠٥٨- بِخِلَافِهِ الْـوَحْيَيْنِ وَالإِجْمَاعَ وَالْـ عَقْـلَ الصَّـرِيحَ وَفِطْـرَةَ الـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «لَيْسَ بِخَارِجٍ عَنْهَا» أي: عن المخلوقاتِ، وفاعِلُ (خَارِجٍ) يَعُودُ على الله.

قَوْلُهُ: «وَلَا فِيهَا» يَعْنِي: داخِلٌ.

قَوْلُهُ: «فَاحْكُمْ عَلَى... بِحُكْمِ بَيَانِ» ما هذا الحُكْمُ؟ قال: (بِخِلَافِهِ الْوَحْيَيْنِ) يَعْنِي: بأنه مُخَالِفٌ للوَحْيَيْنِ، وهما الكِتَابُ والسُّنَّةُ.

قَوْلُهُ: «الوَحْيَيْنِ والإجْماعَ والعَقْلَ الصَّرِيحَ وفِطْرَةَ الرَّحْمَنِ»: خَمْسَةٌ، لأنَّ كُلَّ هذه الخمسةِ -وهي: الكتابُ والسُّنَّةُ والإجماعُ والعقلُ والفِطْرةُ- تَطابَقَتْ على إثباتِ عُلُوِّ الله عزَّ وجلَّ فوقَ كُلِّ شَيْءٍ.

١- فالقرآنُ مملوءٌ مِن ذِكْرِ عُلُوِّ الله قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، وقال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٧]، وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤]، وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة:٥]، والآياتُ كثيرةٌ أكثرُ من أنْ تُحْصَى.

٢- وأمَّا السُّنَّة فاجتمعتْ أنواعُ السُّنَّةِ الثلاثةِ: القَوْلُ والفِعْلُ والإقرارُ، أمَّا القولُ فإنَّ النَّبِيَّ -عليه الصلاة والسلام- كان يقولُ في سُجُودِهِ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى»[1]، وأمَّا الفِعْلُ: فإنه حينما سَأَلَ الناسَ وهو يَخْطُبُهم يومَ عَرَفَةَ فقال:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسلمين وقصرها، باب استحباب القراءة في الصلاة، برقم (٧٧٢).

«وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ». قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ. فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: «**اللَّهُمَّ اشْهَدِ اللَّهُمَّ اشْهَدْ**»[1]، وأمَّا الإقرارُ: فَسَأَلَ الجَارِيَةَ: «أَيْنَ اللهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «**أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**»[2].

٣- **وأمَّا الإجماعُ**: فقد أَجْمَعَ السَّلفُ مِن الصحابةِ والتابِعِينَ والأئمة بعدهم على أنَّ اللهَ تعالى فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وأنه استوى على العَرْشِ.

٤- **وأمَّا العَقْلُ الصَّرِيحُ**: وهو العَقْلُ السالمُ مِن الشُّبُهاتِ والشَّهَوَاتِ، لأنَّ صَرِيحَ كُلِّ شَيْءٍ هو الخالِصُ منه، فالعَقْلُ السالمُ مِن الشُّبُهاتِ والشَّهَواتِ يَشْهَدُ بأنَّ اللهَ تعالى فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وأنَّ العُلُوَّ مِن صِفَاتِهِ، وذلك لأَنَّنَا نَسْأَلُ: هل العُلُوُّ صِفَةُ كَمالٍ أو صِفَةُ نَقْصٍ؟

كُلُّ أحدٍ يقولُ: صِفةُ كَمالٍ، وإذا كان صِفَةَ كَمالٍ، فإِنَّ الرَّبَّ أَحَقُّ بالكَمالِ من غيرِهِ، فيكونُ العَقْلُ دالًّا على عُلُوِّ الله.

٥- **أمَّا الفِطْرةُ**: فكُلُّ إنسانٍ يقولُ: (يا اللهُ) لا يَرْتَفِعُ قَلْبُه إِلَّا إلى السَّماءِ، وهذا شَيْءٌ مُشاهَدٌ، لا يُمكِنُ أنْ يَمِيلَ قَلْبُكَ إذا قُلْتَ: (يا الله) إلى أسفل، ولا إلى يمين، ولا شمال.

يقول:

١٠٥٩- فَعَلَيْهِ أَوْقَعَ حَدَّ مَعْدُومٍ وَذَا ... حَدُّ الْمُحَالِ بِغَيْرِ مَا فُرْقَانِ

فالذي يقولُ: لا داخِلَ العالَمِ ولا خارِجَه، ولا فوقُ ولا تحتُ، ولا يمينُ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، برقم (١٢١٨).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).

ولا شمالٌ، ولا مُتَّصِلٌ ولا مُنْفَصِلٌ، أَوْقَعَ على الله حدَّ المعدومِ الذي لا وُجودَ له.

١٠٦٠- يَـا لِلْعُقُـولِ إِذَا نَفَيْـتُمْ مُخْـبَرًا ... وَنَقِيضَـهُ هَـلْ ذَاكَ فِي إِمْكَـانِ

قَوْلُهُ: «يَا لِلْعُقُولِ» عندنا مُسْتَغَاثٌ به، ومستغَاثٌ لَه، فاللام تدخل على المُسْتَغَاثِ بِه فتُفْتَح، وتُكْسَر في المُسْتَغَاثِ له، فتقول: (يَا لله لِلْمُسلِمِينَ) فهل هي هنا (يَا لَلْعُقول) أو أنها (يا لِلْعُقول)؟ يَعْنِي: هل هو يَسْتَغِيثُ بها أو لها؟ الظاهِرُ: أنه يَسْتَغِيثُ لها فتكون: (يا لِلْعُقُول).

والمعنى: أنه لا عُقُولَ لكم، فأَنَا أَسْتَغِيثُ اللهَ أَنْ يَهَبَكم عُقولًا.

قَوْلُهُ: «إذا نَفَيْتُم مُخْبَرًا ونَقِيضَه» مِثل: لا داخِلَ العالَمِ، ولا خارِجَه.

فَنَفَوْا كَوْنَه داخِلًا ونَفَوْا كَوْنَه خارِجًا، وهذا لا يَصِحُّ، لأنَّ نَفْيَ النَّقِيضَيْنِ مُحَالٌ، فهو إذا لم يَكُنْ داخِلًا لَزِمَ أنْ يكونَ خارِجًا، وإذا لم يكُنْ خارِجًا لَزِمَ أنْ يكونَ داخِلًا، فأيُّ عقلٍ يَقُولُ: لا داخِل ولا خارِج، ويُصَدِّقُ بهذه القَضِيَّةِ فلَيْسَ بعقلٍ إطلاقًا، ولهذا قال: (**يَا لِلْعُقُولِ**).

١٠٦١- إِنْ كَـان نَفْـيُ دُخُولِـهِ وَخُرُوجِـهِ ... لَا يَصْـدُقَانِ مَعًـا لِـذِي الإِمْكَـانِ

١٠٦٢- إِلَّا عَـلَى عَـدَمٍ صَرِيـحٍ نَفْيُـهُ ... مُتَحَقِّـقٌ بِبَدَاهَـةِ الإِنْسَـانِ

يعني: أنَّ نفيَ الدخولِ والخروجِ معًا لا يَصْدُقان إِلَّا على شَيْءٍ عَدَمٍ، فالذي ليس بداخلٍ ولا بخارجٍ معناه أنه عَدَمٌ.

قَوْلُهُ: «لا يَصْدُقانِ إلا عَلَى عَدَمٍ صَرِيحٍ نَفْيُهُ مُتَحَقِّقٌ» إذا جعلنا (**نَفْيُهُ مُتَحَقِّقٌ**) مبتدأً وخبرًا، صار (مُتَحقِّقٌ) بالرَّفع.

وإذا قُلْنَا: (**إِلَّا عَلَى عَدَمٍ صَرِيحٍ نَفْيُهُ مُتَحَقِّقٍ**): فتكون صفةً لـ(عدم)،

إذَنْ يجوزُ الوَجْهانِ: الجرُّ والرَّفعُ.

١٠٦٣- أَيَصِحُّ فِي الْـمَعْقُولِ يَا أَهْلَ النُّهَـى ذَاتَـــانِ لَا بِـــالْغَيْرِ قَائِمَتَـــانِ؟

الجَوَابُ: لا يَصِحُّ، هل يُمكِنُ أنْ نقول: ذاتانِ، وليست كُلُّ واحدةٍ قائِمةً بنفسها؟ إذَنْ معنى (لَا بِالْغَيْرِ) يَعْنِي: ليست كُلُّ واحدةٍ قائِمةً بغير الأخرى.

هل يَصِحُّ أنْ نقولَ: عندنا ذاتان: ذاتُ الخالِقِ وذاتُ المخلوقِ، وليست كُلُّ واحدةٍ قائِمةً بنفسها؟ الجواب: لا، لا يَصِحُّ أبدًا.

١٠٦٤- لَيْسَـتْ تُبَـايِنُ مِـنْهُمَا ذَاتٌ لِأُخْـ ـرَى أَو تُحَايِثُهَـا فَيَجْتَمِعَـانِ

١٠٦٥- إِنْ كَـانَ فِي الـدُّنْيَا مُحَـالٌ فَهْـوَ ذَا فَـارْجِعْ إِلَى الْـمَعْقُولِ وَالْبُرْهَـانِ

صحيح، فالمعنى: لا بُدَّ إذا أَثْبَتُّمْ لله ذَاتَيْنِ أنْ تكونَ إحداهما خارجةً عن الأُخْرَى أو داخلةً فيها، أَمَّا أنْ تقولَ: (لا داخِل ولا خارِج)، فهذا لا يمكنُ، هذا شَيْءٌ مستحيلٌ، إلَّا إذا قُلْتُم بقول أهلِ وَحْدةِ الوُجودِ: إنَّ الرَّبَّ عينُ العبدِ، فحينَئِذٍ تَسْلَمُونَ من المُحالِ، لكن تأتون بمحالٍ أَنْكَرَ منه وأَشَدَّ.

قَوْلُهُ: «تُحَايِثُهَا» المُحايَثَةُ ضِدُّ المُبَايَنَةِ، يَعْنِي: تَتَّصِلُ بها.

* * *

١٠٦٦- فَلَئِنْ زَعَمْـتُمْ أَنَّ ذَلِـكَ فِي الَّـذِي هُـوَ قَابِـلٌ مِـنْ جِسْـمٍ اوْ جُـثْمَانِ

١٠٦٧- وَالرَّبُّ لَـيْسَ كَـذَا فَنَفْـيُ دُخُولِـهِ وَخُرُوجِـهِ مَـا فِيـهِ مِـنْ بُطْـلَانِ

١٠٦٨- فَيُقَـالُ: هَـذَا أَوَّلًا مِـنْ قَـوْلِكُمْ دَعْـــوَى مُجَـــرَّدَةٌ بِـــلَا بُرْهَـــانِ

١٠٦٩- ذَاكَ اصْطِلَاحٌ مِنْ فَرِيقٍ فَارَقُوا الْـ ـوَحْيَ الْـمُبِينَ بِحِكْمَةِ الْيُونَـانِ

١٠٧٠- وَالشَّيْءُ يَصْدُقُ نَفْيُهُ عَنْ قَابِلٍ ... وَسِوَاهُ فِي مَعْهُودِ كُلِّ لِسَانِ
١٠٧١- أَنَسِيتَ نَفْيَ الظُّلْمِ عَنْهُ وَقَوْلَكَ: الظْ ... ظُلْمُ الْمُحَالُ وَلَيْسَ ذَا إِمْكَانِ؟!
١٠٧٢- وَنَسِيتَ نَفْيَ النَّوْمِ وَالسِّنَةِ الَّتِي ... لَيْسَتْ لِرَبِّ الْعَرْشِ فِي الإِمْكَانِ
١٠٧٣- وَنَسِيتَ نَفْيَ الطُّعْمِ عَنْهُ وَلَيْسَ ذَا ... مَقْبُولَهُ وَالنَّفْيُ فِي الْقُرْآنِ؟!
١٠٧٤- وَنَسِيتَ نَفْيَ وِلَادَةٍ أَوْ زَوْجَةٍ ... وَهُمَا عَلَى الرَّحْمَنِ مُمْتَنِعَانِ؟!

الشَّرحُ

يريدُ المؤلفُ -رحمه الله- في هذه القطعة أنْ يُبَيِّنَ أنَّ هؤلاء الذين نَفَوْا عُلوَّ الله على عرشِه، قالوا: إنَّ هذا التقسيمَ الذي ذكرتم بأنه إمَّا أنْ يكونَ العالَمُ خارجَ الله عزَّ وجلَّ أو داخلًا فيه، أو هو الله، قال: إنَّ هذا إنما يكونُ فيما هو قابلٌ، فهو الذي لا يَصِحُّ أنْ يُنْفَى عنه أَحَدُ الْمُتناقِضَيْنِ، أَمَّا ما ليس بقابلٍ فإنَّه يَصِحُّ أنْ يُنْفَى عنه النقيضانِ.

مثلًا (الجدار) هل يَصحُّ أنْ نقول: إنه لا يظلمُ أو لا يصحُّ؟

الجَوَابُ: لا يصحُّ، لِأَنَّهُ غيرُ قابلٍ، فإذَنْ نقول: ليس بظالم ولا غير ظالم، فننفي عنه الأمرين، لِأَنَّهُ ليس بقابل.

ابنُ القيِّمِ -رحمه الله- يقول: قولكم: (هذا الشيءُ قابلٌ أو غيرُ قابلٍ) هذه دعوى مجردة، ولذا قال:

١٠٦٦- فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ ذَلِكَ فِي الَّذِي ... هُوَ قَابِلٌ مِنْ جِسْمٍ اوْ جُثْمَانِ

قَوْلُهُ: «اوْ جُثْمَانِ» في نِسْخةٍ (أو جُسْمانِ) بالسين، والصواب (اوْ جُثْمَانِ) بالثاءِ.

١٠٦٧- وَالرَّبُّ لَيْسَ كَذَا فَنَفْيُ دُخُولِهِ وَخُرُوجِهِ مَا فِيهِ مِنْ بُطْلَانِ

يقول: إن زعمتم أنه لا يصحُّ نفيُ الدخولِ والخروجِ فيما هو قابل من الأجسامِ والجثمان.

١٠٦٨- فَيُقَالُ: هَذَا أَوَّلًا مِنْ قَوْلِكُمْ دَعْوَى مُجَرَّدَةٌ بِلَا بُرْهَانِ

يعني: قولكم: إنَّ الشيءَ يجوزُ نفيُ وجودِه وانتفاؤُه إذا كان مضافًا إلى غير قابل، نقولُ: هذه دعوى مُجَرَّدةٌ.

١٠٦٩- ذَاكَ اصْطِلَاحٌ مِنْ فَرِيقٍ فَارَقُوا الْـ ـوَحْيَ الْـمُبِينَ بِحِكْمَةِ الْيُونَانِ

يعني بذلك: أهلَ المنطق والفلسفة، فهم الذين قالوا: إنه يَصِحُّ أنْ يُقَالَ: لا داخل ولا خارج، لِأَنَّهُ ليس بقابلٍ للدخول والخروج، فيقال: إنَّ هذا اصطلاحٌ منكم، فإنه يصحُّ أنْ يُنْفَى الشيءُ عمَّا ليس بقابلٍ له كما سيأتي.

وَقَوْلُهُ: «فَارَقُوا الْوَحْيَ الْـمُبِينَ بِحِكْمَةِ الْيُونَانِ» الباء في قَوْلِهِ: «بِحِكْمِةِ» للمُعاوضةِ، يَعْنِي: فارقوا الوحيَ وأحلُّوا بدلَه حكمةَ اليونان.

١٠٧٠- وَالشَّيْءُ يَصْدُقُ نَفْيُهُ عَنْ قَابِلٍ وَسِوَاهُ فِي مَعْهُودِ كُلِّ لِسَانِ

يعني: يَصِحُّ أنْ يُنْفَى الشيءُ عمَّا يقبَلُه وما لا يَقْبَلُه في معهودِ كُلِّ لسانٍ.

١٠٧١- أَنَسِيتَ نَفْيَ الظُّلْمِ عَنْهُ وَقَوْلَكَ: الظْـ ـظُلْمُ الْـمُحَالُ وَلَيْسَ ذَا إِمْكَانِ؟!

قَوْلُهُ: «أَنَسِيتَ نَفْيَ الظُّلْمِ عَنْهُ» يَعْنِي: عن الله.

قَوْلُهُ: «وَقَوْلَكَ: الظُّلْمُ الْـمُحَالُ» الجَهْمِيُّ والمعتزليُّ يقولان: إنَّ الظلمَ محالٌ على الله، فلا يُتصوَّرُ وجودُ ظلمٍ، ومع ذلك فاللهُ -سبحانه وتعالى- نفاه عن نفسِه.

إذَنْ نَفَى الشيءَ عمَّا ليس بقابلٍ له، فَدَلَّ هذا على أنَّ الشيءَ يَصِحُّ نفيُه عمَّا ليس بقابلٍ له، حتى في إقرارِك، أنت تقولُ: إنَّ الظلمَ محالٌ على الله، ولا يمكنُ أنْ يتصفَ به اللهُ، ومع ذلك فقد نفاه اللهُ عن نفسه، ولهذا يقول: (**أَنَسِيتَ نَفْيَ الظُّلْمِ عَنْهُ وَقَوْلَكَ**) يَعْنِي: ونسيت قولَك: (الظُّلْم المُحالُ) يَعْنِي: أنَّ الظلمَ محالٌ أنْ يقعَ من الله.

فهم يقولون: إنَّ اللهَ لا يظلمُ ليس لكمال عدلِه، ولكن لعدمِ إمكانِ الظلم، فهو -أصلًا- غيرُ قادرٍ على أنْ يَظلِمَ، فالظلمُ عندهم محالٌ لذاته، لا لتَنَزُّه الله عنه، ومعَ ذلك تَنْفِي عنه الظلمَ مع أنَّ المحلَّ -على زعمك- ليس قابلًا لثُبوتِه أو نَفْيِه.

فهم يقولون: إنَّ الظلمَ هو تصرُّفُ الفاعلِ في غيرِ مُلكِه، واللهُ تعالى إذا تَصرَّفَ في مُلْكِه بأيِّ شَيْءٍ فهو ليسَ بظالمٍ.

١٠٧٢- وَنَسِيتَ نَفْيَ النَّـوْمِ وَالسِّـنَةِ الَّتِـي ... لَيْسَتْ لِرَبِّ الْعَـرْشِ فِي الإِمْكَـانِ

قَوْلُهُ: «**ونَسِيتَ نَفْيَ النَّوْمِ والسِّنَةِ**» نفي النومِ والسِّنَّةِ في قولِه تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، مع أنَّ اللهَ ليس بقابلٍ لذلك، ولهذا قال: (**الَّتِي لَيْسَتْ لِرَبِّ العَرْشِ بالإمكان**).

١٠٧٣- وَنَسِيتَ نَفْيَ الطُّعْمِ عَنْهُ وَلَـيْسَ ذَا ... مَقْبُولَــهُ وَالنَّفْــيُ فِي الْقُــرْآنِ؟!

قَوْلُهُ: «**ونَسِيتَ نَفْيَ الطُّعْمِ عَنْهُ**» قال سبحانه: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:١٤].

قَوْلُهُ: «**وَلَيْسَ ذَا مَقْبُولَهُ**» يَعْنِي: ليس ذا مقبولًا له، فلا يمكنُ أنْ يكونَ اللهُ تعالى مُحْتَاجًا إلى الطعامِ ولا طاعِمًا للطَّعامِ.

١٠٧٤- وَنَسِيتَ نَفْيَ وِلَادَةٍ أَوْ زَوْجَةٍ ... وَهُمَا عَلَى الرَّحْمَنِ مُمْتَنِعَانِ؟!

قَوْلُهُ: «وَنَسِيتَ نَفْيَ وِلَادَةٍ أَوْ زَوْجَةٍ» قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣] وقال أيضًا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام:١٠١]، وهما على الرَّحْمنِ مُمْتنعانِ.

***

١٠٧٥- وَاللهُ قَدْ وَصَفَ الْجَمَادَ بِأَنَّهُ ... مَيْتٌ أَصَمُّ وَمَا لَهُ عَيْنَانِ

١٠٧٦- وَكَذَا نَفَى عَنْهُ الشُّعُورَ وَنُطْقَهُ ... وَالْخَلْقَ نَفْيًا وَاضِحَ التِّبْيَانِ

١٠٧٧- هَذَا وَلَيْسَ لَهَا قَبُولٌ لِلَّذِي ... يُنْفَى وَلا مِنْ جُمْلَةِ الْحَيَوَانِ

١٠٧٨- وَيُقَالُ أَيْضًا: ثَانِيًا لَوْ صَحَّ هَـ ... ـذَا الشَّرْطُ لِمَا هُمَا ضِدَّانِ

١٠٧٩- لَا فِي النَّقِيضَيْنِ اللَّذَيْنِ كِلَاهُمَا ... لَا يَثْبُتَانِ وَلَيْسَ يَرْتَفِعَانِ

الشرح

١٠٧٥- وَاللهُ قَدْ وَصَفَ الْجَمَادَ بِأَنَّهُ ... مَيْتٌ أَصَمُّ وَمَا لَهُ عَيْنَانِ

قَوْلُهُ: «وَاللهُ قَدْ وَصَفَ الْجَمَادَ بِأَنَّهُ مَيْتٌ» قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل:٢٠-٢١]، مع أنَّ اللاَّتَ، والعُزَّى ومَنَاةَ جماداتٌ، فوَصفَها بأنها مَيْتَةٌ مع أنها غيرُ قابلةٍ لذلك.

إذَنْ فالشيءُ يَثْبُتُ فيما لا يَقْبَلُه، ويُنْفَى عمَّا لا يَقْبَلُه بنَصِّ القرآنِ، فكيف تَقُولُونَ: إننا إذا قُلْنَا: إنَّ اللهَ لا داخل ولا خارج، فإنَّ هذا وصفٌ صحيحٌ، لِأَنَّهُ غيرُ قابلٍ لأنْ يكونَ داخلًا أو خارجًا؟!

نقولُ لهم: حتى وإنْ كَانَ غيرَ قابِلٍ فإنَّ هذا لا يَصِحُّ.

قَوْلُهُ: «مَيْتٌ» ذَكَرَ بعضُهم أنَّ (المَيْتَ) هو الذي قد مات فعلًا واقعًا، والـ(مَيِّتُ) هو الذي سيموت، واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠]، أي: سيَمُوتُ، وبقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام:١٢٢]، وهذا هو الذي حَصَلَ له الموتُ فعلًا، والظاهِرُ أنَّ الصحيحَ أنه لا فَرْقَ.

١٠٧٦- وَكَذَا نَفَى عَنْهُ الشُّعُورَ وَنُطْقَهُ وَالْخَلْقَ نَفْيًا وَاضِحَ التِّبْيَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَا نَفَى عَنْهُ الشُّعُورَ وَنُطْقَهُ وَالْخَلْقَ» قال تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢٠-٢١].

١٠٧٧- هَذَا وَلَيْسَ لَهَا قَبُولٌ لِلَّذِي يُنْفَى وَلا مِنْ جُمْلَةِ الْحَيَوَانِ

يعني: هذه الأشياءُ جمادٌ، ليست مِن الحيوانِ الذي يُنْفَى عنه الموتُ أو الشعورُ، ومع ذلك نفاهُ اللهُ عنها.

١٠٧٨- وَيُقَالُ أَيْضًا: ثَانِيًا لَوْ صَحَّ هَذَا الشَّرْطُ لِمَا هُمَا ضِدَّانِ

١٠٧٩- لَا فِي النَّقِيضَيْنِ اللَّذَيْنِ كِلَاهُمَا لَا يَثْبُتَانِ وَلَيْسَ يَرْتَفِعَانِ

هذا هو الوجه الثاني.

الوجه الأول: عَرَفْنَا أنَّ دَعْواكم أنَّ هذا الشيءَ قابلٌ للشيءِ فيُنْفَى عنه أو يَثْبُتُ، هذه دعوى مُجرَّدةٌ غيرُ مقبولةٍ.

ثانيًا: لو سلَّمنا ذلك جدَلًا ما صَحَّ أنْ يكونا في النَّقِيضَيْنِ، وهما الوجود والعدم، هم يقولون: لا تَصِفوا اللهَ بأنه موجودٌ ولا بأنه معدومٌ.

نقول: باتفاقِ العَقْلاءِ لا بُدَّ من أنْ يكونَ إِمَّا موجودًا وإِمَّا معدومًا، لأنَّ التقابلَ بين الوجود والعدم تقابُلُ سلبٍ وإيجابٍ، لا تَقابُلُ عَدَمٍ ومَلَكَةٍ، فتَقَابُلُهُما من بابِ تقابُلِ النَّقيضَيْنِ، والنقيضانِ لا يَجْتَمِعانِ ولا يَرْتَفِعانِ، يَعْنِي: لا يمكن أنْ يجتمعا ولا يُمكن أنْ يرتفعا، إذَنْ لا بُدَّ من وجودِ أَحَدِهما، فأنت إذا قُلْتَ: إِنَّ اللهَ لا يُوصفُ بأنه موجودٌ ولا بأنه معدومٌ، ماذا صَنَعْتَ؟

الجَوَابُ: رَفَعْتَ عنه النَّقيضَيْنِ، وهذا مُحَالٌ، ولهذا قال: (**ويُقَالُ أَيْضًا: ثَانِيًا لَوْ صَحَّ هَذَا الشَّرْطُ كَانَ لِـمَا هُمَا ضِدَّانِ**)، ما هو الشَّرْطُ؟ الجَوَابُ: أنَّ الإثباتَ والنفيَ لا يَصِحُّ رَفْعُهُما فيما كان قابلًا لهما، لو صَحَّ أنه لا يَصِحُّ نَفْيُهما وإثباتُهما إلَّا لِـمَا كان قابلًا، فنقُولُ: هذا يَصِحُّ في الضِّدَّينِ، أمَّا في النَّقيضَيْنِ فلا.

إِذَنْ نَحْتَاجَ إلى معرفةِ الفَرْقِ بينَ الضِّدَّيْنِ والنقيضَيْنِ، الفَرْقُ بينهما أنَّ الضِّدَّينِ لا يَجْتَمِعانِ ولكنْ يُمكنُ أنْ يَرْتَفِعا جميعًا، وأنَّ النَّقِيضَيْنِ لا يَجتَمِعانِ، ولا يمكنُ أنْ يَرْتَفِعا جميعًا، بل لا بُدَّ مِن وُجُودِ أَحَدِهما.

مِثَالُ النَّقِيضْينِ: (الحَرَكةُ والسُّكُونُ) فهذانِ نَقِيضانِ، إذا انتَفَتِ الحَرَكةُ لَزِمَ وُجودُ السكونِ، وإذا انتَفَى السُّكونُ لَزِمَ وُجودُ الحَرَكةِ، ولهذا لا يَصْلُحُ أنْ تقولَ: هذا غيرُ مُتحرِّكٍ وغيرُ ساكِنٍ، فهذا مستحيلٌ.

(الوُجودُ والعَدَمُ) كذلك نَقِيضانِ، فلا يمكن أبدًا أنْ تقولَ: لا مَوْجُودَ، ولا مَعْدُومَ.

مِثَالُ الضِّدَّيْنِ: (السوادُ والبياضُ) ضدَّانِ، لِأَنَّهُما لا يَجتمعانِ، فإذا كان الشيءُ أسودَ، فليسَ بأَبْيَضَ، وإذا كان أبيضَ، فليس بأَسْوَدَ، فلا يُمْكِنُ أنْ يكونَ الشيءُ أسودَ وأبيضَ في آنٍ واحدٍ، لكن هل يُمْكِنُ أنْ يَرتَفِعا؟

الجَوَابُ: نعم. كيفَ؟ الجَوَابُ: يَعْنِي: يَرتَفِعُ السوادُ والبياضُ ويَحُلُّ بَدَلَهُ الأَحْمَرُ أو الأصفرُ مَثَلًا.

فمثلًا: (هذا الثَّوْبُ أَبيضُ أو أَسودُ أو أَحْمَرُ) إذا قُلْتَ: (إنه أَسْودُ) لم يكن (أبيضَ)، وإذا قُلْتَ: (أبيضُ) لم يكن أَسودَ، هل يُمْكِنُ أنْ تقولَ: ليس أسودَ ولا أبيضَ؟

الجَوَابُ: نعم، ويكون أحمرَ مثلًا، فهذانِ ضِدَّانِ.

لكن (وُجُودٌ وعَدَمٌ) فهذانِ نَقِيضانِ، والشيءُ إذا قُلْتَ فيه: (غيرُ موجودٍ) لَزِمَ أنْ يكونَ مَعْدُومًا، وإذا قُلْتَ فيه: (مَعْدُومٌ) لم يكن موجودًا، فإذا كان الشيءُ مَعْدُومًا لم يكن موجودًا، وإذا كان موجودًا لم يَكُنْ مَعْدُومًا، لكن إذا كان أسودَ ليس بلازمٍ أنْ يكونَ أبيضَ.

وهناك أيضًا (الخِلَافانِ): والخِلافانِ يَجْتَمِعانِ ويَرْتَفِعانِ لَكِنَّهُما مُتَبايِنانِ كـ(الحَرَكةِ والبَيَاضِ) يُمْكِنُ أنْ يَجْتَمِعا، فيكونَ الشيءُ مُتَحَرِّكًا أبيضَ، ويُمْكِنُ أنْ يَرْتَفِعا فيكونَ ساكنًا أَسْودَ، لَكِنَّهُما مُتَبايِنانِ، فهذا غيرُ هذا.

هناكَ أيضًا المُتوافِقاتُ أو المُتَرادِفاتُ، ومعناها أنْ يَتَّفِقا في الحقيقةِ، مِثل: (القِيامِ والوُقُوفِ) إذا جَعَلْنا الوُقوفَ بمعنى القِيامِ، فهما شَيْءٌ واحدٌ، و(الإنسانُ والبَشَرُ) شَيْءٌ واحدٌ.

إذَنْ صارت النِّسَبُ أربعةً: نِسبةٌ بين مُتناقِضَيْنِ، ونِسبةٌ بين ضِدَّيْنِ، ونِسبةٌ بين خِلافَيْنِ، ونِسبةٌ بين مُتَّفِقَيْنِ.

وقَوْلُنا: (داخِلُ العالَمِ) و(خارِجُ العالَمِ)، نِسْبةٌ بين مُتناقضَيْنِ، لِأَنَّهما لا يَجْتَمِعانِ ولا يَرْتَفِعانِ، فكُلُّ موجودٍ لا بُدَّ إِمَّا أنْ يكونَ داخلَ العالَمِ أو خارِجَ العالَمِ.

لكن لو قال قائِلٌ: (لا داخِلَ العالَمِ ولا خارِجَ العالَمِ)، فليس نِسْبةً بين مُتناقضَيْنِ، لِأَنَّهُ يُمْكِنُ أنْ يُقَالَ: هو نفسُهُ العالَمُ؟

قُلْنَا: إذا قُلْتَ: (هو نفسُهُ العالَمَ)، لم تُثْبِتْ مَوجودَيْنِ، إنما أَثْبَتَّ موجودًا واحدًا، ونحن نَتكلَّمُ عن مَوجودَيْنِ.

فابنُ القيِّمِ -رحمه الله- يقولُ: لو صَحَّ هذا الشرطُ وهو أنه يجوزُ نَفْيُ الضِّدَّيْنِ عمَّا ليسَ قابِلًا لهما ما صَحَّ في النَّقِيضَيْنِ اللذَيْنِ كِلاهُما لا يَثْبُتَانِ، أي: (لا يَجْتَمِعانِ)، وليس يَرْتَفِعانِ.

* * *

١٠٨٠- وَيُقَالُ أَيْضًا: نَفْيُكُمْ لِقَبُولِهِ ... لَهُمَا يُزِيلُ حَقِيقَةَ الإِمْكَانِ

١٠٨١- بَلْ ذَا كَنَفْيِ قِيَامِهِ بِالنَّفْسِ أَوْ ... بِالْغَيْرِ فِي الْفِطْرَاتِ وَالأَذْهَانِ

١٠٨٢- فَإِذَا الْمُعَطِّلُ قَالَ: إِنَّ قِيَامَهُ ... بِالنَّفْسِ أَوْ بِالْغَيْرِ ذُو بُطْلَانِ

١٠٨٣- إِذْ لَيْسَ يَقْبَلُ وَاحِدًا مِنْ ذَيْنِكَ الْـ ... أَمْرَيْنِ إِلَّا وَهْوَ ذُو إِمْكَانِ

١٠٨٤- جِسْمٌ يَقُومُ بِنَفْسِهِ أَيْضًا كَذَا ... عَرَضٌ يَقُومُ بِغَيْرِهِ أَخَوَانِ

١٠٨٥- فِي حُكْمِ إِمْكَانٍ وَلَيْسَ بِوَاجِبٍ ... مَا كَانَ فِيهِ حَقِيقَةُ الإِمْكَانِ

١٠٨٦- فَكِلَاكُمَا يَنْفِي الإِلَهَ حَقِيقَةً ... وَكِلَاكُمَا فِي نَفْيِهِ سِيَّانِ

١٠٨٧- مَاذَا يَرُدُّ عَلَيْهِ مَنْ هُوَ مِثْلُهُ ... فِي النَّفْيِ صِرْفًا إِذْ هُمَا عِدْلَانِ؟

١٠٨٨- وَالْفَرْقُ لَيْسَ بِمُمْكِنٍ لَكَ بَعْدَمَا ... ضَاهَيْتَ هَذَا النَّفْيَ فِي الْبُطْلَانِ

١٠٨٩- فَـوِزَانُ هَـذَا النَّفْـيِ مَـا قَـدْ قُلْتَـهُ حَرْفًـا بِحَـرْفٍ أَنْـتُمَا صِـنْوَانِ

١٠٩٠- وَالْـخَصْمُ يَزْعُمُ أَنَّ مَـا هُـوَ قَابِـلٌ لِكِلَـيْهِمَا فَكَقَابِـلٍ لِـمَكَانِ

١٠٩١- فَافْرُقْ لَنَـا فَرْقًـا يُبِـينُ مَوَاقِـعَ الْـ إِثْبَـاتِ وَالتَّعْطِيـلِ بِالْبُرْهَـانِ

١٠٩٢- أَوْ لَا فَأَعْطِ الْقَوْسَ بَارِيَهَا وَخَـلْ لِ الْفَشْرَ عَنْكَ وَكَثْرَةَ الْـهَذَيَانِ

الشـرحُ

١٠٨٠- وَيُقَـالُ أَيْضًـا: نَفْـيُكُمْ لِقَبُولِـهِ لَـهُمَا يُزِيـلُ حَقِيقَـةَ الإِمْكَـانِ

إذا قُلْتُم: إنَّ اللهَ ليس بقابِلٍ لهما، والضميرُ هنا يَعُودُ على كونِه داخِلَ العالَمِ وخارِجَ العالَمِ، يَعْنِي: ليس بقابِلٍ أنْ يكونَ داخلَ العالَمِ أو خارِجَ العالَمِ، وإذا كان ليس بقابِلٍ جازَ أنْ نَنْفِيَهُما عنه، فنقولَ: ليس بداخِلٍ وليسَ بخارِجٍ، كما يَصِحُّ أنْ نَقُولَ في الجِدارِ: ليس ظالِمًا ولا غيرَ ظالِمٍ، لِأَنَّهُ لا يَقْبَلُ.

فنَقُولُ لهم: إذا قُلْتُم: إنه ليس بقابِلٍ لهما، فإنَّ هذا يُزِيلُ حقيقةَ الإمكانِ، يَعْنِي: يجعلُ الشيءَ الممكنَ مستحيلًا، كيف ذلك؟ بَيَّنَ لهم النظيرَ فقالَ:

١٠٨١- بَـلْ ذَا كَنَفْـيِ قِيَامِـهِ بِـالنَّفْسِ أَوْ بِـالْغَيْرِ فِي الْفِطْـرَاتِ وَالأَذْهَـانِ

وذلك أننا نسألُ هذا الرجلَ المُعَطِّلَ الذي يقولُ: إنَّ اللهَ ليس بقابِلٍ أنْ يكونَ داخلَ العالَمِ أو خارِجَه، نسألُهُ: هل قامَ بنَفْسِهِ أو بغيرِه؟

لا يستطيعُ أنْ يقولَ: لم يَقُمْ بنَفْسِهِ ولا بغَيْرِه، لِأَنَّهُ إنْ قالَ: لم يَقُمْ بنَفْسِهِ، لَزِمَ أنْ يكونَ مُحْتَاجًا إلى الغَيْرِ، وحينئذٍ يكونُ قد وَصَفَ اللهَ بأَقْبَحَ ممَّا لو قالَ: إنه قائِمٌ بنَفْسِهِ، لذلك ليسَ له مَفَرٌّ، وهو سُؤَالٌ مُحْرِجٌ.

نَقُولُ له: إذا قُلْتَ: ليس بقَابِلٍ أنْ يكونَ داخِلَ العالَمِ أو خارِجَه يَجِبُ أنْ تقولَ: ليس بقَابِلٍ أنْ يكونَ قائِمًا بِنَفْسِه أو بِغَيْرِه.

وهذا لا أَحَدَ يقولُ به، لا بُدَّ أنْ يكونَ قائِمًا بِنَفْسِه أو بِغَيْرِه.

ونحن نقولُ: ما هذا التكلُّفُ وهذا التنطُّعُ؟ هل الصحابةُ سَلَكُوا هذا المَسْلَكَ؟

الجَوَابُ: لا، ما ناقشوا هذا النقاشَ، لكن علماء السَّلف -ولا سيما في العصور الوسطى- اضطروا إلى هذا البحثِ الذي قد يقولُ القائِلُ: إنه لا ينبغي أنْ نبحثَه في الله عزَّ وجلَّ وأنْ نَتكلَّفَ ونتنطَّعَ هذا التنطعَ، اضطروا إلى ذلك، لِأَنَّهُم ابْتُلوا بقومٍ يتكلَّمون بمثل هذه الأُمورِ مِن أَجْلِ نفيِ الله حقيقةً، لأنَّ حقيقةَ قولِهم أنه ليس هناك إلهٌ.

إذا قالوا: (**لَيسَ اللهُ بداخِلِ العالَمِ وَلَا خارِجِهِ**) فكُلُّ إنسانٍ يَفْهَمُ على فِطرتِهِ أنَّ الشيءَ الذي ليس داخلَ العالَمِ ولا خارِجَهُ شَيْءٌ مَعْدُومٌ، وهم يُخاطِبونَ الناسَ بعُقُولِهم وفِطَرِهِمْ، فإذا سَمِعُوا مِثْلَ هذا الكلامِ قالوا: إذَنْ ليس هناك رَبٌّ، لذلك اضطرَّ العلماءُ -كشيخِ الإسلامِ، وابنِ القيِّمِ وغيرِهما من العلماءِ- إلى الخوضِ في هذا الأمرِ، وإلَّا فإنَّ الإنسانَ يقولُ: ما لنا ولِهذا البحثِ، الذي قد يكونُ تصوُّرُه صعبًا فضلًا عن إقرارِه أو نفيِه؟

نقول: لأننا إذا ابتُلينا لا ينبغي أنْ نجعلَ الباطِلَ في الميدانِ يَرْكُضُ حيث شاءَ ويَنصرِفُ حيث شاء، بل لا بُدَّ أنْ ندخُلَ المعركةَ حتى يَتبيَّنَ الأمرُ.

فهنا -رَحِمَهُ اللهُ- يقول: (**بَلْ ذَا كَنَفْيِ قِيَامِهِ بِالنَّفْسِ أَوْ بِالْغَيْرِ**)، وهذا شَيْءٌ مستحيلٌ، لا يمكنُ لأحدٍ أنْ يقولَ: إنَّ اللهَ ليس بقائِمٍ بِنَفْسِه ولا بِغَيْرِه.

١٠٨٢- فَـإِذَا الْـمُعَطِّلُ قَـالَ: إِنَّ قِيَامَـهُ ... بِـالنَّفْسِ أَوْ بِـالْغَيْرِ ذُو بُطْـلَانِ

١٠٨٣- إِذْ لَيْسَ يَقْبَلُ وَاحِدًا مِنْ ذَيْنِكَ الْـ ... أَمْـرَيْنِ إِلَّا وَهْـوَ ذُو إِمْكَـانِ

إذا قال: (إِنَّ قِيَامَه بالنَّفْسِ أو بِالغَيْرِ ذُو بُطْلَانِ) يَعْنِي: معناه أننا لا يمكنُ أنْ نقولَ: إنه قائِمٌ بالغيرِ، لأنَّ هذا أمرٌ معلومُ البُطلانِ، إذ إنَّ اللهَ غَنِيٌّ عن كُلِّ أحَدٍ، ولو قُلْنَا: إنه قائِمٌ بِغَيْرِه، لَزِمَ أَلَّا يَصِحَّ أنْ يكونَ ربًّا، لِأَنَّهُ يَلْزَمُ منه -إذا كان قائِمًا بِغَيْرِه- أنْ يكونَ مُحْتَاجًا لذلك الغَيْرِ، بل وأن يكونَ مسبوقًا بذلك الغيرِ، لِأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إليه.

١٠٨٤- جِسْـمٌ يَقُـومُ بِنَفْسِـهِ أَيْضًـا كَـذَا ... عَـرَضٌ يَقُـومُ بِغَـيْرِهِ أَخَـوَانِ

١٠٨٥- فِي حُكْمِ إِمْكَـانٍ وَلَـيْسَ بِوَاجِـبٍ ... مَـا كَـانَ فِيـهِ حَقِيقَـةُ الإِمْكَـانِ

يقول: إِنَّ الشيءَ الذي يقومُ بِنَفْسِه جسمٌ، والذي يقومُ بِغَيْرِه عَرَضٌ، فالطولُ والقِصَرُ والصِّحَّةُ والمَرَضُ هذه تَقُومُ بالغيرِ، فهي عَرَضٌ، والذاتُ هذه جِسمٌ.

فإذا قُلْتَ: إنه قائِمٌ بِنَفْسِه شبَّهته بالجسم، وإن قُلْتَ: إنه غيرُ قائِمٍ بِنَفْسِه شبَّهته بالعَرَضِ.

هم يَقولونَ: إِنَّ اللهَ مُنَزَّهٌ عن الأجسامِ والأعراضِ، لا تَقُلْ: (إِنَّ اللهَ جِسمٌ) ولا تَقُلْ: (إنه عَرَضٌ)، ولا تَصِفْه بالصِّفاتِ التي تَستلزِمُ أنْ يكونَ جسمًا أو عَرَضًا على زعمِهم، فلهذا نفيُ الجسم عندهم ونفيُ العَرَض بالنسبة لله أمرٌ ممكنٌ، لِأَنَّهُ غيرُ قَابِلٍ لذلك.

قَوْلُهُ: «فِي حُكْمِ إِمْكَانٍ» أي: إنَّ هذا ممكنٌ، وليس بواجب، أي ممكن أنْ يقومَ بِغَيْرِه أو بِنَفْسِه وليس بواجب، أي: أنه يجوز أنْ نَنْفِيَ الأمريْنِ عنه.

ولكننا نقول: الواقعُ أنه يَجِبُ أنْ يكونَ إمَّا قائِمًا بِنَفْسِه، وإمَّا قائِمًا بِغَيْرِه، وليس في ذلك مَحِيدٌ، فكذلك أيضًا نقول: بالنسبة لكونه داخلَ العالَمِ أو خارجَه، لا بُدَّ من أحَدِ الأمرينِ: إمَّا داخلٌ وإمَّا خارجٌ، وإمَّا الأمر الثالثُ وهو: أنْ يكونَ هو عينَ الْـخَلْقِ، واسلُكْ مَسْلَكَ أهلِ وَحْدةِ الوُجودِ.

١٠٨٦- فَكِلاكُـما يَنْفِـي الإِلَـهَ حَقِيقَـةً ... وَكِلاكُـمَا فِي نَفْيِـهِ سِـيَّانِ

إذَنْ صار الخِطابُ مع قومٍ يقولون: (إنَّه لا قائِمٌ) على تقدير قول مَنْ يقولُ: (لا قائِمٌ بِنَفْسِه ولا بِغَيْرِه).

نقولُ لهم: إنَّ هذا يساوي تمامًا قولَ القائِلِ: (لا داخِلِ العالَمِ ولا خارِجه)، فإذا كان يستحيلُ ألَّا يكون قائِمًا بِنَفْسِه أو بِغَيْرِه، فيَستحيلُ ألَّا يكونَ داخلَ العالَمِ ولا خارِجَهُ، يَعْنِي: لا بُدَّ أنْ يكونَ قائِمًا بِنَفْسِه أو بِغَيْرِه، وإذا كان كذلك فلا بُدَّ أنْ يكونَ داخلَ العالَمِ أو خارجَه، فهذه كهذه.

فيكون قَوْلُهُ: «**فَكِلاكُما**» يشيرُ إلى الذي يقول: (لا داخل العالَمِ ولا خارِجه)، والذي يقول: (لا قائِمٌ بِنَفْسِه ولا بِغَيْرِه)، مع أنه لا أحدَ من الجَهْمِيَّة والمعتزلةِ الذين يُنكرون الأوَّل يقولون: (إنَّ اللهَ قائِمٌ بِنَفْسِه)، ويقولون: مستحيلٌ أنْ نقولَ: (لا قائِمٌ بِنَفْسِه ولا بِغَيْرِه).

فنقول: إذا جَعَلْتُم هذا مستحيلًا فاجعلوا الثانِـيَ -وهو: (لا داخل ولا خارج)- مستحيلًا، وإذا جعلتم (لا داخل العالَمِ ولا خارجه) ممكنًا، فاجعلوا (لا قائِمٌ بِنَفْسِه ولا بِغَيْرِه) ممكنًا، ولهذا قال:

١٠٨٦- فَكِلاكُـما يَنْفِـي الإِلَـهَ حَقِيقَـةً ... وَكِلاكُـمَا فِي نَفْيِـهِ سِـيَّانِ

١٠٨٧- مَـاذَا يَـرُدُّ عَلَيْـهِ مَـنْ هُـوَ مِثْلُـهُ ... فِي النَّفْـيِ صِرْفًـا إِذْ هُمَـا عِـدْلَانِ؟

صحيح، يعني: يُقال لِـمَن قال: (لا داخل العالَم ولا خارجه)، ماذا تَرُدُّ على مَنْ قال: (لا قائِمٌ بِنفْسِه ولا بِغَيْرِه)؟

لا يُمْكِنُ أنْ تَرُدَّ عليه أبدًا، لأنك إذا رَدَدْتَ عليه قال لك: إن كان ما أقولُ مستحيلًا، فكذلك ما تقولُه أنت مستحيلٌ.

١٠٨٨- وَالْفَرْقُ لَيْسَ بِمُمْكِنٍ لَكَ بَعْدَمَا ... ضَاهَيْتَ هَذَا النَّفْيَ فِي الْبُطْلَانِ

١٠٨٩- فَوِزَانُ هَذَا النَّفْيِ مَا قَدْ قُلْتَهُ ... حَرْفًا بِحَرْفٍ أَنْتُمَا صِنْوَانِ

صار الكلام أنْ نشبك بين هؤلاء وهؤلاء، يَعْنِي: بين مَنْ يقولونَ: إنه يُمْكِنُ أنْ يكونَ لا داخل العالَم ولا خارجه، وبين مَن يقول: لا يُمْكِنُ أنْ نقول: إنه لا قائِمٌ بِنفْسِه ولا بِغَيْرِه.

١٠٩٠- وَالْخَصْمُ يَزْعُمُ أَنَّ مَا هُوَ قَابِلٌ ... لِكِلَيْهِمَا فَكَقَابِلٍ لِمَكَانِ

قَوْلُهُ: «الخَصْمُ» يَعْنِي به أهلَ السُّنَّةِ الذين يقولون: إنَّ ما هو قابلٌ لكليهما فكقَابِلٍ لمكانٍ، ونحن نقولُ: إنه يقبلُ المكانَ أو لا يقبل؟

الجَوَابُ: يقبلُ، فاللهُ تعالى في مكانٍ، وهو فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، لَكِنَّهُ ليس مكانًا محيطًا به.

١٠٩١- فَافْرُقْ لَنَا فَرْقًا يُبِينُ مَوَاقِعَ الْـ ... إِثْبَاتِ وَالتَّعْطِيلِ بِالْبُرْهَانِ

يعني: يُبيِّن أنَّ هذا ممكنٌ وهذا غيرُ ممكنٍ.

١٠٩٢- أَوْ لَا فَأَعْطِ الْقَوْسَ بَارِيَهَا وَخَلْـ ... لِ الْفَشْرَ عَنْكَ وَكَثْرَةَ الْهَذَيَانِ

قَوْلُهُ: «أَوْ لَا» يَعْنِي: لا تَفْرُقْ فأَعْطِ القَوْسَ بارِيَها.

قَوْلُهُ: «فَأَعْطِ الْقَوْسَ بَارِيَهَا» وهذا مَثَلٌ يُضْرَبُ للشخصِ الذي لا يُحْسِنُ الشيءَ، فيُقال له: (أَعْطِ القوسَ باريَها)، لأنَّ بارِيَ القوسِ الذي يَبْرَاها ويَصْنَعُها أَعْلَمُ بها.

قَوْلُهُ: «وَخَلِّ الْفَشْرَ عَنْكَ وَكَثْرَةَ الْـهَذَيَانِ»: الفشر: الكلامُ اللغو الذي ليس فيه فائِدةٌ، فكلامُك إذَنْ لغوٌ.

خلاصةُ هذا الفصلِ كُلِّه: أنَّ ابنَ القَيِّمِ يريدُ أنْ يُلْزِمَ نُفَاةَ العُلُوِّ بالقولِ بالعُلُوِّ، لِأَنَّهُ يقولُ لهم: أَمامَكم ثلاثةُ احْتِمالاتٍ: إمَّا أنْ يكونَ داخِلَ العالَمِ، أو خارِجَ العالَمِ، أو هو العالَمُ بعَيْنِهِ، ليس فيه خروجٌ عن هذه الثلاثةِ.

هم لا يمكنُ أنْ يقولوا: إنه هو نفسُ العالَمِ، لِأَنَّهُم يُكفِّرونَ مَنْ يَقُولُ بذلك.

نقولُ: إذَنْ يَلْزَمُكُم أنْ يكونَ إمَّا داخلا، وإمَّا خارجًا.

هم يقولون: لا داخِلِ ولا خارِجِ، نَقُولُ: لا يمكنُ هذا، فلا يمكنُ أنْ تَرْفَعوا الدخولَ والخروجَ.

فيقولون: إنَّ ذلك ممكنٌ، لأنَّ اللهَ غيرُ قَابِلٍ لهذين الوصفَيْنِ، وما كان غيرَ قَابِلٍ صَحَّ نفيُهُما عنه، كما تقول: (الجِدارُ لا يَظْلِمُ ولا يَعْدِلُ) تنفي عنه النَّقيضينِ، لِأَنَّهُ غيرُ قابِلٍ.

بماذا نَرُدُّ عليهم؟ نَرُدُّ عليهم بثلاثةِ أوجهٍ كما قال ابنُ القيِّم:

الوجه الأول: قولُكم: (إنَّ النفيَ والإثباتَ إنما يكونُ فيما كان قابلًا)، هذه دعوى مُجَرَّدةٌ، لأنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- نَفَى الحياةَ وأَثْبَتَ الموتَ للجمادِ، وذلك في الأصنامِ التي تُعْبَدُ، والجمادُ ليس قابلًا للحياةِ التي هي حياةُ الحَيَوانِ، ومع ذلك نَفَى اللهُ عنه الحياةَ وأَثْبَتَ الموتَ، كما قال تعالى: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل:٢٠]،

ونَفَى الشعور مع أنَّ الجمادَ غيرُ قَابِلٍ للشعور.

كذلك أيضًا نفى -سبحانه وتعالى- عن نفسِه الموتَ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، وهو في حقِّه مستحيلٌ، فاللهُ لا يقبلُ الموتَ، وكذلك النَّومُ والسِّنَةُ والظُّلْمُ، مع أنَّ الظُّلْمَ عندكم مُحَالٌ لِذاتِهِ، ومع ذلك نَفَاه اللهُ عن نَفْسِهِ، فنَفَى اللهُ الشيءَ عمَّا ليس قابلًا له.

الوجه الثاني: أنْ نقولَ: إِنْ صَحَّ هذا فيما ذكرتُم من الموتِ، والسَّمع، والبصر، والأشياء التي لا يَتَّصِفُ بها إِلَّا ما له حياةٌ حَيَوانيَّة، فإنه لا يَصِحُّ في النقيضَيْنِ، وما هما النقيضان؟ الجَوَابُ: اللذان لا يَجْتمعانِ، ولا يَرْتفعانِ.

فأنتم نَفَيْتم الدخولَ والخروجَ، وهما نَقيضانِ، لأنَّ ما ليسَ بداخلٍ فهو خارجٌ قطعًا، فهما نقيضانِ كالوجودِ والعَدَم، فما ليس بمَوجودٍ فهو مَعْدُومٌ، وهذا باتِّفاقِ العُقَلاءِ.

الوجه الثالث: أنْ نقولَ: نفيُكم للدخولِ والخروجِ كنَفْيِ مَنْ يقولُ: إنه ليس قائِمًا بِنَفْسِه ولا بِغَيْرِه على حدٍّ سواء، وأنتم تَقُولُونَ: إنه قائِمٌ بِنَفْسِه، فإذا نَفَيْتُم أنه لا داخِلَ العالَمِ ولا خارِجه، فهو كقولِ مَنْ قال بنَفْيِ قيامِه بِنَفْسِه وقيامِه بِغَيْرِه، إِذَنْ فأنتم سواءٌ.

حينئذٍ نقولُ: إنَّ اللهَ تعالى قابلٌ لأن يكونَ فَوْقَ العالَمِ أو معَ العالَم، لكن مع العالَمِ مستحيل، فتَعيَّنَ أنْ يكونَ فَوْقَ العالَم، كما تَعيَّنَ أنْ يكونَ قائِمًا بِنَفْسِه، ولا فَرْقَ، فأنتم إِنْ أتيتم لنا بفرقٍ فحَسَنٌ، وإِلَّا فأعطوا القوسَ باريَها، نحن عندنا الفرق، ونَقُولُ: إنَّ اللهَ تعالى خارجُ العالَمِ، وهو -سبحانه وتعالى- فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وإنه قائِمٌ بِنَفْسِه.

فالنتيجة الآن: أنه سَيُلْزَمُ بالإقرارِ بأنه خارِجُ العالَمِ، وإذا أَثْبَتَ أنه خارجُ العالَمِ يَلْزَمُه أنْ يقولَ بالعُلُوِّ، لأنَّ ما سِوَى العُلُوِّ فهو صفةُ نقصٍ، وهو يُقِرُّ بأنَّ اللهَ مُنَزَّهٌ عن النقصِ.

وبذلك نَرُدُّ عليهم جميعَ شُبَهِهِم التي يدَّعونها مَعْقولاتٍ، وهي مجهولاتٌ في الواقعِ.

أنا أكرر وأقول: إنَّ الإنسانَ قد يقول: لا حاجةَ لهذه المباحثِ، وهو حقيقة بالنسبةِ للعامِّي، فما نقرؤه عليه من هذا الفصل من النونية ونشرحه لو فعلنا ذلك لرميناه ببحرٍ لا ساحلَ له، ولا يستطيعُ أنْ يَخْرُجَ أبدًا، لِأَنَّهُ لم يتعلَّم، فيغرق، لكن طلبة العلم يُمْكِنُ أنْ يقرؤوا مثلَ هذه المباحث، لِأَنَّهَا شَيْءٌ وَقَعَ.

* * *

فصل

فِي سِيَاقِ هَذَا الدَّلِيلِ عَلَى وَجْهٍ آخَرَ

١٠٩٣- وَسَلِ الْـمُعَطِّلَ عَنْ مَسَائِلَ خَمْسَةٍ ... تُـرْدِي قَوَاعِـدَهُ مِـنَ الأَرْكَـانِ

١٠٩٤- قُلْ لِلْمُعَطِّلِ: هَلْ تَقُولُ: إِلَـهُنَا الْـ ... ـمَعْبُودُ حَقًّـا خَـارِجَ الأَذْهَـانِ؟

١٠٩٥- فَـإِذَا نَفَـى هَـذَا فَـذَاكَ مُعَطِّـلٌ ... لِلــرَّبِّ حَقًّــا بَـالِغُ الْكُفْــرَانِ

١٠٩٦- وَإِذَا أَقَــرَّ بِــهِ فَسَــلْهُ ثَانِيًــا ... أَتُـرَاهُ غَـيْرَ جَمِيـعِ ذِي الأَكْـوَانِ؟

١٠٩٧- فَــإِذَا نَفَــى هَــذَا وَقَــالَ بِأَنَّــهُ ... هُـوَ عَيْنُهَـا مَـا هَـا هُنَـا غَـيْرَانِ

١٠٩٨- فَقَـدِ ارْتَـدَى بِالاتِّحَـادِ مُصَـرِّحًا ... بِـالْكُفْرِ جَاحِـدَ رَبِّـهِ الـرَّحْمَنِ

١٠٩٩- حَاشَا النَّصَارَى أَنْ يكُونُـوا مِثْلَـهُ ... وَهُمُ الْـحَمِيرُ وَعَابِـدُو الصُّـلْبَانِ

١١٠٠- هُـمْ خَصَّصُـوهُ بِالْـمَسِيحِ وَأُمِّـهِ ... وَأُولَاءِ مَـا صَـانُوهُ عَـنْ حَيَـوَانِ

١١٠١- وَإِذَا أَقَــرَّ بِأَنَّــهُ غَــيْرُ الْــوَرَى ... عَبْــدٌ وَمَعْبُــودٌ هُمَــا شَــيْئَانِ

١١٠٢- فَاسْأَلْهُ هَـلْ هَـذَا الْـوَرَى فِي ذَاتِـهِ ... أَمْ ذَاتُــهُ فِيــهِ؟ هُنَــا أَمْــرَانِ

١١٠٣- وَإِذَا أَقَـرَّ بِوَاحِـدٍ مِـنْ ذَيْنِـكَ الْــ ... أَمْــرَيْنِ قَبَّـلَ خَـدَّهُ النَّصْـرَانِـي

١١٠٤- وَيَقُـولُ: أَهْـلًا بِالَّـذِي هُـوَ مِثْلُنَـا ... خُشْدَاشُـنَا وَحَبِيبُنَـا الْـحَقَّانِـي

١١٠٥- وَإِذَا نَفَـى الأَمْـرَيْنِ فَاسْــأَلْهُ إِذَنْ ... هَلْ ذَاتُهُ اسْتَغْنَتْ عَـنِ الأَكْـوَانِ؟

١١٠٦- فَلِذَاكَ قَامَ بِنَفْسِهِ أَمْ قَامَ بِالْـ أَعْيَانِ كَالأَعْرَاضِ وَالأَلْوَانِ

١١٠٧- فَإِذَا أَقَرَّ وَقَالَ: بَلْ هُوَ قَائِمٌ بِالنَّفْسِ فَاسْأَلْهُ وَقُلْ: ذَاتَانِ

١١٠٨- بِالنَّفْسِ قَائِمَتَانِ أَخْبِرْنِي هُمَا مِثْلَانِ أَوْ ضِدَّانِ أَوْ غَيْرَانِ

١١٠٩- وَعَلَى التَّقَادِيرِ الثَّلَاثِ فَإِنَّهُ لَوْلَا التَّبَايُنُ لَمْ يَكُنْ شَيْئَانِ

١١١٠- ضِدَّيْنِ أَوْ مِثْلَيْنِ أَوْ غَيْرَيْنِ كَا نَا، بَلْ هُمَا لَا شَكَّ مُتَّحِدَانِ

١١١١- فَلِذَاكَ قُلْنَا: إِنَّكُمْ بَابٌ لِمَنْ بِالاتِّحَادِ يَقُولُ بَلْ بَابَانِ

١١١٢- نَقَّطْتُمُ لَهُمُ وَهُمْ خَطُّوا عَلَى نُقَطٍ لَكُمْ كَمُعَلِّمِ الصِّبْيَانِ

الشرحُ

في هذا الفصلِ أَرَادَ المؤلفُ -رَحِمَهُ اللهُ- أنْ يَستدِلَّ على عُلُوِّ الله عزَّ وجلَّ بنفسِ الدليلِ العَقْليِّ، لكن على وجهٍ آخَرَ، يقول:

١٠٩٣- وَسَلِ الْمُعَطِّلَ عَنْ مَسَائِلَ خَمْسَةٍ تُرْدِي قَوَاعِدَهُ مِنَ الأَرْكَانِ

قَوْلُهُ: «تُرْدِيها» أي: تُتْلِفُها.

قَوْلُهُ: «مِنَ الأَرْكَانِ» أي: من الأصل، والشيءُ إذا تَرَدَّى من أركانِه فإنَّ فُروعَه تَبَعٌ لأركانِه فتَنْهَدُّ.

١٠٩٤- قُلْ لِلْمُعَطِّلِ: هَلْ تَقُولُ: إِلَهُنَا الْـ ـمَعْبُودُ حَقًّا خَارِجَ الأَذْهَانِ؟

يعني: اسأَلْهُ هل اللهُ عزَّ وجلَّ خارجُ الأذهانِ أو لا؟ إِمَّا أنْ يقولَ: إنه خارج الأذهانِ، أو داخلُ الأذهانِ.

١٠٩٥- فَـإِذَا نَفَـى هَـذَا فَـذَاكَ مُعَطِّـلٌ لِلـرَّبِّ حَقًّـا بَـالِغُ الْكُفْـرَانِ

ماذا نَفَى؟ الجَوَابُ: قال: إنه ليس خارِجَ الأذهانِ، يَقُولُ: (**فَذَاكَ مُعَطِّلٌ لِلرَّبِّ**) يَعْنِي: إذا نفى هذا، وقال: لا أقولُ: إنه خارج الأذهان، فإنه يكونُ مُعطِّلًا للرَّبِّ، لأنَّ هذا هو إنكارُ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ.

١٠٩٦- وَإِذَا أَقَـرَّ بِـهِ فَسَـلْهُ ثَانِيًـا أَتُـرَاهُ غَـيْرَ جَمِيـعِ ذِي الأَكْـوَانِ؟

قَوْلُهُ: «**وَإِذَا أَقَرَّ بِهِ**» يَعْنِي: قال: إنه خارجُ الأذهانِ، يَعْنِي: إنه موجودٌ، (**فَسَلْهُ ثَانِيًا أَتُرَاهُ غَيْرَ جَمِيعِ ذِي الأَكْوَانِ**)؟ يَعْنِي: هل تعتقد أنه غيرُ الأكوانِ أم هو الأكوان؟

في الأوَّل: خاطبناه بأنه هل يراه في الذهن أو لا؟ فإذا قال: لا يوجدُ ولا في الذهن، فهذا مُعطِّلٌ لا شكَّ، وإذا قال: يوجدُ في الذهن نسأله ثانيًا: (**أَتُرَاهُ غَيْرَ جَمِيعِ ذِي الأَكْوَانِ**)؟

١٠٩٧- فَـإِذَا نَفَـى هَـذَا وَقَـالَ بِأَنَّـهُ هُـوَ عَيْنُهَـا مَـا هَـا هُنَـا غَـيْرَانِ

قَوْلُهُ: «**فَإِذَا نَفَى**» ماذا نفى؟ نفى أنْ يكونَ غيرَ الأكوان، وإذا نَفَى أنْ يكونَ غيرَ الأكوانِ مع إقرارِهِ بوُجودِهِ عينًا تَعَيَّنَ أنْ يكونَ هو الأكوان.

قَوْلُهُ: «**مَا هَا هُنَا غَيْرَانِ**» يَعْنِي: قال: ما ها هنا رَبٌّ ومربوب.

١٠٩٨- فَقَـدِ ارْتَـدَى بِالاتِّحَـادِ مُصَـرِّحًا بِـالْكُفْرِ جَاحِـدَ رَبِّـهِ الـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «**فَقَدِ ارْتَدَى بِالاتِّحَادِ مُصَرِّحًا بِالْكُفْرِ**» يَعْنِي: إذا قال: إنَّ الرَّبَّ هو عينُ المَرْبوبِ، فقد ارتدى بالاتحادِ مُصَرِّحًا بالكُفْرِ جاحِدَ ربِّه الرحمنِ.

فمضى الآن سؤالان:

السؤال الأول: هل هو في الذهن أو لا؟

السؤال الثاني: أن يكون موجودًا، لكن هل هو نفسُ المخلوق أو غيرُه؟ إذا قال: إنه عينُ المخلوق، يَقُولُ: (فقد ارتدى بالاتِّحادِ مُصَرِّحًا بالكُفْرِ جاحدَ ربِّه الرحمنِ).

١٠٩٩- حَاشَا النَّصَارَى أَنْ يكُونُـوا مِثْلَـهُ وَهُمُ الْـحَمِيرُ وَعَابِـدُو الصُّـلْبَانِ

قَوْلُهُ: «**حَاشَا النَّصَارَى أَنْ يَكُونُوا مِثْلَهُ**» يَعْنِي: يُنَزِّه النَّصارَى أَنْ يكونوا مثلَ هذا، لماذا؟ لأنَّ النَّصارى قالوا: إنَّ اللهَ حَلَّ في المَسيحِ فقط، وهذا قال: إنَّ اللهَ حلَّ في كُلِّ المخلوقاتِ حتَّى في الحيوانِ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

قَوْلُهُ: «**وَهُمُ الْـحَمِيرُ وَعَابِدُو الصُّلْبَانِ**» وصَفَهُم بأنهم حَمِيرٌ، لِأَنَّهُم يَستحِقُّون هذا، لِأَنَّهُم يَعْبُدونَ الصَّلِيبَ الذي صُلِبَ عليه نبيُّهم، ولو كانوا عقلاءَ لكان يَجِبُ أَنْ يَكْسِروا الصليبَ، لِأَنَّهُ صُلِبَ عليه نبيُّهم.

كيف تُعظِّمونَ الصليبَ وقد صُلِبَ عليه نبيُّكم؟! ولكن هذا لِبَلَادَتِهِم وضَلالِهم، قال الله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٧]، فهم يغلبُ عليهم الضلالُ والجهلُ، كالحِمار يَحْمِلُ أسفارًا ولا يَنتفِعُ منها.

فَلِضَلالِـهِم وبَلادَتِهم صاروا يَعْبُدونَ الصليبَ الذي صُلِبَ عليه نبيُّهم، أَدْنَى واحدٍ من الناسِ له عقلٌ إذا وَجَدَ الحُجْرةَ التي حُبِسَ فيها صديقُه ماذا يفعل؟ الجَوَابُ: يَهْدِمُها، لكن هؤلاء قالوا: لا، بل نعبدُ الصليبَ.

إذَنْ استحقُّوا الوصفَ الذي وَصَفَهم به ابنُ القيِّمِ وهو (الحمير)، وإنما كانوا كذلك لبلادتِهم، نسألُ اللهَ العافيةَ.

وأنت تَتعجَّبُ من هذه العقول، ذكاءٌ بلا زكاءٍ، ليس عندهم عقلٌ، وإلَّا لو تَأَمَّلوا قليلًا لقالوا: كيف يكونُ عيسى -عليه الصلاة والسلام- ربًّا وإلهًا، ثُمَّ يُقْتَلُ، ثُمَّ يُصْلَبُ، ثُمَّ يُعْبَدُ الصَّليبُ الذي صُلِبَ عليه؟! ولهذا يقولُ: (**وَهُمُ الْـحَمِيرُ وَعَابِدُو الصُّلْبَانِ**).

وكان من الوفاءِ له -لو كانوا صادِقِينَ- أنْ يَكْسِرُوا الصليبَ إذا رَأَوْهُ، لِأَنَّهُ صُلِبَ عليه نبيُّهم -عليه الصلاة والسلام- كما يَزْعُمُونَ، وهذا الصليبُ الذي يَدَّعونَ أنَّ المسيحَ صُلِبَ عليه قد كَذَّبه الله تعالى في القرآنِ، فقال: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٥٧-١٥٨]، لكنْ تَنَزُّلًا معهم وما يَعتقدون في نبيِّهم -عليه الصلاة والسلام- نقول: كيف تَعْبُدونَ الصليبَ وقد صُلِبَ عليه نبيُّكم؟! كان أَجْدَرَ بكم أنْ تكْسِرُوا الصليبَ إذا رأيتُمُوه، لا أنْ تَعْبُدُوه!

أما نحن فعَقيدتُنا في المسيح عيسى بنُ مَرْيَمَ: أنه عبدُ الله ورسولُه، وأنه آيةٌ من آياتِ الله عزَّ وجلَّ هو وأُمُّهُ، لِأَنَّها حَمَلَتْ بلا زوجٍ، وخُلِقَ بلا أبٍ، وتَكَلَّمَ في المَهْدِ، ورُفِعَ إلى السَّماءِ وهو حَيٌّ، وهو باقٍ إلى أنْ يَنْزِلَ في آخِرِ الدُّنْيا.

ونؤمن بأنه ما قُتِلَ وما صُلِبَ، بل رَفَعَه اللهُ إليه، وسينزلُ في آخِرِ الزمانِ يَحْكُمُ بشريعةِ النَّبِيِّ ﷺ إلَّا في الجِزْيةِ، فإنه لا يَقْبَلُ الجِزْيَةَ، فلا يَقْبَلُ إلَّا الإسلامَ قال ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلَ الْـخِنْزِيرَ وَيَضَعَ الْـجِزْيَةَ وَيَفِيضَ الْـمَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ**

أَحَدٌ»[(١)]. وليس هذا ابتداءَ شريعةٍ، ولَكِنَّهُ تقريرٌ لشريعةٍ أَخْبَرَ بها الرسولُ ﷺ، فكأَنَّ النَّبِيَّ -عليه الصلاة والسلام- يقول: سَتُقْبَلُ الجِزْيةُ إِلَّا إذا نَزَلَ عيسى.

هذا هو حاصِلُ الكلامِ على عيسى -عليه الصلاة والسلام- وما يَعْتَقِدُه المُسلمون فيه.

١١٠٠- هُـمْ خَصَّصُـوهُ بِالْـمَسِيحِ وَأُمِّـهِ وَأُولَاءِ مَـا صَـانُوهُ عَـنْ حَيَـوَانِ

قَوْلُهُ: «هُمْ خَصَّصُوهُ» أي: خصَّصوا اللهَ.

قَوْلُهُ: «وَأُولَاءِ مَا صَانُوهُ عَنْ حَيَوَانِ» يَعْنِي: قالوا: إِنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- هو كُلُّ شَيْءٍ: هو المرأةُ، والرَّجُلُ، والفَرَسُ، والبَعِيرُ، والحِمارُ -والعِيَاذُ بالله- وغير ذلك، لِأَنَّهُم يقولون: إِنَّ اللهَ هو عينُ الوُجُودِ.

١١٠١- وَإِذَا أَقَـرَّ بِأَنَّـهُ غَـيْرُ الْـوَرَى عَبْـدٌ وَمَعْبُـودٌ هُمَـا شَـيْئَانِ

قَوْلُهُ: «وَإِذَا أَقَرَّ بِأَنَّهُ غَيْرُ الْوَرَى» هذا هو السؤال الثالث، إذا قال: أنا لا أقولُ: إنه عينُ الْـخَلْقِ، بل هو غيره، قال ابنُ القيِّم:

١١٠٢- فَاسْأَلْهُ هَـلْ هَـذَا الْـوَرَى فِي ذَاتِـهِ أَمْ ذَاتُـهُ فِيـهِ؟ هُنَـا أَمْـرَانِ

قَوْلُهُ: «فَاسْأَلْهُ هَلْ هَذَا الْوَرَى فِي ذَاتِهِ؟» فيكونَ الْـخَلْقُ حالًا في ذاتِ الله؟!

قَوْلُهُ: «أَمْ ذَاتُهُ فِيهِ» يَعْنِي: ذات الله في الْـخَلْقِ.

يعني: هل الخالقُ حَلَّ في المخلوقِ؟ أو المخلوقُ حَلَّ في الخالِقِ؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب كسر الصليب وقتل الخنزير، برقم (٢٣٤٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب نزول عيسى -عليه السلام-، برقم (١٥٥).

١١٠٣- وَإِذَا أَقَرَّ بِوَاحِدٍ مِنْ ذَيْنِكَ الْـ ... أَمْرَيْنِ قَبَّلَ خَدَّهُ النَّصْرَانِي

قَوْلُهُ: «**وَإِذَا أَقَرَّ بِوَاحِدٍ مِنْ ذَيْنِكَ الأَمْرَيْنِ**» ما الأَمْرَانِ؟ إذا قال: إِنَّ الخالِقَ حَلَّ في المخلوقِ، أو قال: المخلوقُ حَلَّ في الخالِقِ.

فهذا يقول: (قَبَّلَ خَدَّهُ النَّصْرَانِي)، وذلك تعظيمًا له، لِأَنَّهُ مثلُه، وافقَه على حُلُولِ الله عزَّ وجلَّ في عيسى وأمِّه.

١١٠٤- وَيَقُولُ: أَهْلًا بِالَّذِي هُوَ مِثْلُنَا ... خُشْدَاشُنَا وَحَبِيبُنَا الْـحَقَّانِي

قَوْلُهُ: «**خُشْدَاشُنَا**» الظاهر أنها كلمةٌ أَعْجَمِيَّةٌ، لكن معناها -والله أعلم- أنه ناصِرُنا ووَلِيُّنا.

قَوْلُهُ: «**حَبِيبُنَا الْـحَقَّانِي**» يَعْنِي: الحبيبَ حقًّا.

والمعنى أنَّ مَنْ قال ذلك فقد صار حَبِيبًا لهم، غاليًا عليهم، يُرحِّبونَ به.

١١٠٥- وَإِذَا نَفَى الأَمْرَيْنِ فَاسْأَلْهُ إِذَنْ ... هَلْ ذَاتُهُ اسْتَغْنَتْ عَنِ الأَكْوَانِ؟

١١٠٦- فَلِذَاكَ قَامَ بِنَفْسِهِ أَمْ قَامَ بِالْـ ... أَعْيَانِ كَالأَعْرَاضِ وَالأَلْوَانِ

قَوْلُهُ: «**وَإِذَا نَفَى الأَمْرَيْنِ**» ما هما الأمران؟ قال: إنه لم يَحُلَّ في الوَرَى، ولم يَحُلَّ الوَرَى في ذاتِه.

قَوْلُهُ: «**فَاسْأَلْهُ**» أي: اسأَلْه هل قامَ بِنَفْسِه أو قام بِغَيْرِه؟

نحن وصلنا الآن -بعد المنازلة- إلى مرحلة أنه ذاتٌ مُنفردةٌ خارجُ الأكوانِ، نسأَلُهُ الآن هل قام بِنَفْسِه أو قامَ بِغَيْرِه؟ ولهذا قال: (**وإِذَا نَفَى الأَمْرَيْنِ فاسْأَلْه هل ذَاتُهُ اسْتَغْنَتْ عَنِ الأَكْوَانِ؟**)، وهذا عبارةٌ عن أنه قام بِنَفْسِه.

قَوْلُهُ: «أَمْ قَامَ بِالأَعْيَانِ كَالأَعْرَاضِ وَالأَلْوَانِ» الأعراضُ تقومُ بالأعيانِ، فالمَرَضُ مثلًا هذا عَرَضٌ يقومُ بعَيْنٍ، واللونُ كالبَيَاضِ والسَّوادِ عَرَضٌ أيضًا يقومُ بعينٍ.

١١٠٧- فَـإِذَا أَقَـرَّ وَقَـالَ: بَـلْ هُـوَ قَـائِمٌ بِـالنَّفْسِ فَاسْـأَلْهُ وَقُـلْ: ذَاتَـانِ

١١٠٨- بِـالنَّفْسِ قَائِمَتَـانِ أَخْبِرْنِـي هُمَـا مِـثْلَانِ أَوْ ضِـدَّانِ أَوْ غَـيْرَانِ

إذا قال: إنه قائِمٌ بِنَفْسِه، فقل له: هما ذاتان الآن: خالقٌ ومخلوقٌ.

قَوْلُهُ: «بِالنَّفْسِ قَائِمَتَانِ» أي: كُلُّ واحدٍ انفصلَ عن الآخَرِ وبايَنَ الآخَرَ، فاسْأَلْه: هل هما مِثْلانِ أو ضِدَّانِ أو غَيْرانِ؟

طبعًا: لن يقولَ: إنهما مِثْلانِ، لِأَنَّهُ إنَّما عَطَّلَ الصِّفَاتِ خَوْفًا مِن التَّمْثِيلِ.

وهل يقولُ: إنهما ضِدَّانِ؟ الجَوَابُ: قد يقولُ، وقد لا يقولُ، لأنَّ الضدَّ هو الذي يُخالِفُ ضِدَّه، ولكن رُبَّما يَرتَفِعانِ، وهنا الارتفاعُ غيرُ مُمكِنٍ، لأنَّ هنا خالِقًا ومخلوقًا، لا يمكنُ أَلَّا يُوجدَ خالقٌ ولا مخلوقٌ بخلافِ الضدَّيْنِ.

وهل هما غَيْرانِ؟ الجَوَابُ: نعم، كُلُّ ما سبق يَدُلُّنا على أنَّ الخالقَ غيرُ المَخلوقِ.

١١٠٩- وَعَـلَى التَّقَـادِيرِ الـثَّلَاثِ فَإِنَّـهُ لَـوْلَا التَّبَـايُنُ لَـمْ يَكُـنْ شَـيْئَانِ

يعني: حتى إن قُلْتَ: مِثْلُه، أو ضدُّه، أو غيرُه، فلا بُدَّ أنْ يكونَ مُبايِنًا له، لأنَّ مِثْلَ الشيءِ مُنفصِلٌ عنه، لِأَنَّهُ لو كان إِيَّاه ما صَحَّ أنْ نقولَ: مِثْلُه، وضدُّ الشيءِ منفصلٌ عنه أيضًا، وغيرُ الشيءِ منفصلٌ عنه أيضًا، فإذَنْ لولا التبايُنُ لم يَكُنْ شيئانِ.

١١١٠- ضِـدَّيْنِ أَوْ مِثْلَـيْنِ أَوْ غَـيْرَيْنِ كَـا نَـا، بَـلْ هُمَـا لَا شَـكَّ مُتَّحِـدَانِ

يعني: أنه لو لم يَكُنْ تباينٌ، لَلَزِمَ الاتحادُ، وعُدْنا إلى الأوَّل، وهَدَمْنا كُلَّ ما سَبَق من قَوْلِنا: إنه عينٌ قائِمٌ بِنَفْسِه، منفصلٌ عن المخلوق، مباينٌ له.

١١١١- فَلِـذَاكَ قُلْنَـا: إِنَّكُـمْ بَـابٌ لِـمَنْ بِالاتِّحَـادِ يَقُـولُ بَـلْ بَابَـانِ

يُخاطِبُ الذين يُنكِرونَ العُلُوَّ، لأنَّ لازِمَ إنكارِهم أنْ يقولوا في النهاية: إنهما مُتَّحدانِ، وحينئذٍ يفتحون البابَ لأهل الاتِّحادِ، بل يقولُ ابنُ القيِّم: بابان.

١١١٢- نَقَّطْـتُمُ لَـهُمُ وَهُـمْ خَطُّـوا عَـلَى نُقَـطٍ لَكُـمْ كَمُعَلِّـمِ الصِّـبْيَانِ

المُعَلِّمُ إذا أَرَادَ مِن الطالِبِ أنْ يَخُطَّ خطًّا مستقيمًا، فإِنَّه يَضَعُ نُقَطًا: نقطةً، ونقطتين، وثلاثًا، وأربعًا... إلى نهايةِ الوَرَقةِ، ثُمَّ يقولُ: (خُطَّ)، حينئذٍ يكونُ (خَطُّه) مستقيمًا، لكنْ لو قال: (خُطَّ) بدون أنْ يُنَقِّطَ له، ما استطاع، لِأَنَّهُ يكونُ مُعْوَجًّا.

على كُلِّ حالٍ يقولُ ابنُ القيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-: أنتم إذا لم تقولوا بمُبَايَنةِ الخالِقِ للمخلوقِ وعُلُوِّه، لا بُدَّ أنْ تَقَعُوا في الاتِّحادِ، وتقولوا: إنه هو والمخلوقُ شَيْءٌ واحدٌ، وحينئذٍ تكونون فتحتم الأبوابَ لأهل وَحْدَةِ الوُجودِ.

وصحيحٌ أنَّ المُعَطِّلَةَ يفتحون الأبوابَ لأهلِ وَحْدةِ الوُجُودِ، ومن ذلك ما سَبَقَ لنا في (الكلامِ)، حيث قالوا: إِنَّ كلامَ الله مخلوقٌ، فإذا قالوا: مخلوقٌ، لَزِمَ أنْ نقولَ: كُلُّ كلامٍ مخلوقٍ فهو كلامُ الله.

* * *

فصـــل

فِي الإِشَارَةِ إِلَى الطُّرُقِ النَّقْلِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ اللهَ تعالى فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ

١١١٣- وَلَقَدْ أَتَانَا عَشْرُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْـ ـمَنْقُولِ فِي فَوْقِيَّةِ الرَّحْمَنِ
١١١٤- مَعَ مِثْلِهَا أَيْضًا تَزِيدُ بِوَاحِدٍ هَا نَحْنُ نَسْرُدُهَا بِلَا كِتْمَانِ
١١١٥- مِنْهَا اسْتِوَاءُ الرَّبِّ فَوْقَ الْعَرْشِ فِي سَبْعٍ أَتَتْ فِي مُحْكَمِ الْقُرْآنِ
١١١٦- وَلِذَلِكَ اطَّرَدَتْ بِلَا لَامٍ وَلَوْ كَانَتْ بِمَعْنَى اللَّامِ فِي الأَذْهَانِ
١١١٧- لأَتَتْ بِهَا فِي مَوْضِعٍ كَيْ يُحْمَلَ الْـ ـبَاقِي عَلَيْهَا بِالْبَيَانِ الثَّانِي
١١١٨- وَنَظِيرُ ذَا إِضْمَارُهُمْ فِي مَوْضِعٍ حَمْلًا عَلَى الْمَذْكُورِ فِي التِّبْيَانِ
١١١٩- لَا يُضْمِرُونَ مَعَ اطِّرَادٍ دُونَ ذِكْـ ـرِ الْمُضْمَرِ الْمَحْذُوفِ دُونَ بَيَانِ
١١٢٠- بَلْ فِي مَحَلِّ الْحَذْفِ يَكْثُرُ ذِكْرُهُ فَإِذَا هُمُ أَلِفُوهُ إِلْفَ لِسَانِ
١١٢١- حَذَفُوهُ تَخْفِيفًا وَإِيجَازًا فَلَا يَخْفَى الْمُرَادُ بِهِ عَلَى الإِنْسَانِ
١١٢٢- هَذَا وَمِنْ عِشْرِينَ وَجْهًا يَبْطُلُ التَّـ ـفْسِيرُ بِـ(اسْتَوْلَى) لِذِي الْعِرْفَانِ
١١٢٣- قَدْ أُفْرِدَتْ بِمُصَنَّفٍ لِإِمَامِ هَـ ـذَا الشَّأْنِ بَحْرِ الْعَالِمِ الْحَرَّانِي

الشــرحُ

هذا الفصلُ أشارَ المؤلفُ فيه إلى الطُّرُقِ النقليَّة الدَّالَّةِ على عُلُوِّ الله عزَّ وجلَّ،

والفَصْلانِ السابِقانِ فيهما الأدلةُ العَقْليَّةُ.

الأدِلَّةُ النَّقْلِيَّةُ: ما كان مَنْشَؤُهُ النَّقْلَ من كِتابٍ، أو سُنَّةٍ، أو قولِ صَحابيٍّ، أو إمامٍ مِن الأئمةِ، يقولُ -رَحِمَهُ اللهُ-:

١١١٣- وَلَقَدْ أَتَانَا عَشْرُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْـ ـمَنْقُولِ فِي فَوْقِيَّةِ الرَّحْمَنِ

١١١٤- مَعَ مِثْلِهَا أَيْضًا تَزِيدُ بِوَاحِدٍ هَا نَحْنُ نَسْرُدُهَا بِلَا كِتْمَانِ

فيكون الجميع واحدًا وعشرين نوعًا.

قَوْلُهُ: «**هَا نَحْنُ نَسْرُدُهَا بِلَا كِتْمَانِ**» جزاه الله خيرًا، يسردُها بيانًا للحقِّ، وإظهارًا له.

١١١٥- مِنْهَا اسْتِوَاءُ الرَّبِّ فَوْقَ الْعَرْشِ فِي سَبْعٍ أَتَتْ فِي مُحْكَمِ الْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «**مِنْهَا**» أي: من هذه الأنواع.

والاستواءُ ذَكَرَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في سبعةِ مواضِعَ من القرآن: في سورة الأعراف، وفي سورة يونس، وفي سورة الرعد، وفي سورة طه، وفي سورة الفرقان، وفي سورة السجدة، وفي سورة الحديد.

سبعةُ مواضع ذكرها اللهُ كُلَّها بلفظ: (**استوى على العَرْشِ**)[1].

١١١٦- وَلِـذَلِكَ اطَّرَدَتْ بِلَا لَامٍ وَلَوْ كَانَتْ بِمَعْنَى اللَّامِ فِي الْأَذْهَانِ

١١١٧- لَأَتَتْ بِهَا فِي مَوْضِعٍ كَيْ يُحْمَلَ الْـ ـبَاقِي عَلَيْهَا بِالْبَيَانِ الثَّانِي

قَوْلُهُ: «**وَكَذَلِكَ اطَّرَدَتْ بِلَا لَامٍ**» يَعْنِي: أنَّ السبعةَ كُلَّها أتت بـ(**استوى**)،

(١) المواضع كلها استوى على العرش، لكن اللفظ الذي في سورة طه: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥].

ولم تأتِ باللام، يَعْنِي: لم يَقُلْ في موضعٍ منها: (استولى على العَرْشِ)، بل قال: (اسْتَوَى على العَرْشِ).

قَوْلُهُ: «وَلَوْ كَانَتْ بِمَعْنَى اللاَّمِ فِي الأَذْهَانِ لأَتَتْ بِهَا فِي مَوْضِعٍ» يَعْنِي: لو كانت (استوى) بمعنى (استولى) لأَتَتْ بها في موضِعٍ، يَعْنِي: في موضِعٍ واحدٍ مِن أَجْلِ أن (يُحْمَلَ الْبَاقِي عَلَيْهَا بِالْبَيَانِ الثَّانِي)، والمُرادُ بالبَيَانِ الثاني هنا الذي أَتَتْ فيه باللام، فتُحْمَلُ النصوصُ الأُخْرَى الخاليةُ مِن (اللام) على النَّصِّ الذي فيه (اللام).

١١١٨- وَنَظِيرُ ذَا إِضْمَارُهُمْ فِي مَوْضِعٍ حَمْلًا عَلَى الْمَذْكُورِ فِي التِّبْيَانِ

قَوْلُهُ: «وَنَظِيرُ ذَا» يَعْنِي: أنَّ هذه القاعدةَ التي قعَّدها -رَحِمَهُ اللهُ- أنها لو كانت بمعنى (استولى) لأتت به ولو في موضعٍ واحدٍ.

المعنى أنهم -أي العرب- يُضْمِرُون في مَوْضِعٍ حملًا على المذكورِ في مَوْضِعٍ آخَرَ، فيكونُ المُضمَرُ في هذا الموضِعِ هو المذكور في الموضِعِ الآخَرِ، مِن أَجْلِ أنْ يُحْمَلَ هذا الذي فيه المضمَرُ، ودلالته مُبْهَمةٌ -كما هو معلوم- فالشيءُ المُضْمَرُ مُبْهَمٌ، فَيُحْمَلُ هذا الذي فيه الإضمارُ، ودَلَالَتُه مُبْهَمَةٌ، على الذي فيه الذِّكْرُ لِيَكونَ مُبيَّنًا.

١١١٩- لَا يُضْمِرُونَ مَعَ اطِّرَادٍ دُونَ ذِكْـ ـرِ الْمُضْمَرِ المَحْذُوفِ دُونَ بَيَانِ

يعني: لا يمكنُ أنْ يُضْمِرَ العربُ شيئًا بدون بيانٍ أبدًا، بل لا بُدَّ من بيان.

والبيانُ إِمَّا أنْ يكونَ في نفسِ اللَّفظِ، وإِمَّا أنْ يكونَ من سياقٍ آخرَ يُبَيِّنُه، فمثلًا: (القرية) جاءت في القرآن الكريم أحيانًا تُضَافُ إليها كلمةُ (أهل)، وأحيانًا

تُحْذَفُ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ [العنكبوت:٣١]، فأُضِيفَت كلمة (أهل).

وقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ [الأعراف:٤]، كلمة ﴿قَرْيَةٍ﴾ هنا ما المرادُ بها؟ الجَوَابُ: أهلُها، على إضمارِ (أهل).

من أين عَرَفْتَ أنَّ فيها إضمارَ (أهل)؟ الجَوَابُ: من السِّياقِ، ومن آياتٍ أُخْرَى.

فلا يُمْكِنُ للعربِ أنْ يُضْمِرُوا بلا بيانٍ، بل لا بُدَّ من بيانٍ، إمَّا من نفسِ السِّياقِ، وإمَّا من سياقٍ آخرَ في موضعٍ آخرَ.

تقول: (بَنَى عَمْرُو بنُ العاصِ مدينةَ الفُسطاطِ في مِصرَ)، مَن الذي بناها مباشرةً؟ الجَوَابُ: العُمَّال، لَكِنَّهُ أمَرَ بِبنائِها، كُلٌّ يَعرِفُ أَنَّ مِثْلَ عَمْرِو بنِ العاصِ القائِدِ المشهورِ لا يمكنُ أنْ يُباشرَ البناءَ، إنما الذي بناه العمالُ بأمرِه.

وتقول مثلًا: (بَنَى المَلِكُ قَصْرَه)، هل هو الذي وَضَعَ اللَّبِنةَ على اللَّبِنَةِ؟ الجَوَابُ: لا، بل هو أَمَرَ بذلك.

إذَنْ لا يمكنُ للعربِ أبدًا أنْ يُضْمِرُوا شيئًا لا يَدُلُّ عليه اللفظُ في سياقِه، أو يدلُّ عليه لفظٌ آخرُ في موضعٍ آخَرَ.

١١٢٠- بَلْ فِي مَحَلِّ الْـحَذْفِ يَكْثُرُ ذِكْرُهُ ... فَإِذَا هُمُ أَلِفُوهُ إِلْفَ لِسَانِ

١١٢١- حَذَفُوهُ تَخْفِيفًا وَإِيجَازًا فَلَا ... يَخْفَى الْـمُرَادُ بِهِ عَلَى الإِنْسَانِ

إذَنْ الإضمارُ لا يمكنُ أبدًا أنْ يُدَّعى إلَّا إذا جاء، ولو في مَوْضِعٍ، حتى إذا أَلِفَهُ الناسُ سَهُلَ عليهم.

فهم يقولون: (استوى) فيها حذفٌ، والمحذوفُ هو اللامُ، وأصلُها عندهم (استولى).

وهذا باطِلٌ، ولا يُمْكِنُ أنْ يكونَ هذا هو الأصل، لأنَّ هذا الأصلَ لم يُذْكَرْ ولا بنصٍّ واحدٍ، ولا يمكنُ أنْ يُحْذَفَ حرفٌ من كلمةٍ إلَّا بدليلٍ، ولا دليلَ على هذا.

يقول: جَرَتْ عادةُ العربِ أنْ يَحْذِفوا من الكلمةِ ما يحذفون، أو من الجُملةِ ما يَحْذِفون إذا ذَكَرُوها أوَّلًا، حتىَّ يَأْلَفَها اللسانُ، وحتَّى تصير معروفةً عندهم، حينئذٍ رُبَّما يَحْذِفون ذلك اختصارًا، كمسألة الترخيم في النداء، وغير ذلك ممَّا هو معروفٌ عندهم في الحذف، أمَّا بدون دليلٍ، ولا قرينةٍ، ولا استعمالٍ، فهذا لا يُمْكِنُ.

١١٢٢- هَذَا وَمِنْ عِشْرِينَ وَجْهًا يَبْطُلُ التْـ تَفْسِيرُ بِـ(اسْتَوْلَى) لِـذِي الْعِرْفَـانِ

١١٢٣- قَدْ أُفْرِدَتْ بِمُصَـنَّفٍ لِإِمَـامِ[1] هَـ ـذَا الشَّأْنِ بَحْرِ العَالَـمِ الـحَرَّانِـي

قَوْلُهُ: «لِإِمَامِ هَذَا الشَّأْنِ بَحْرِ العَالَـمِ الـحَرَّانِي» المرادُ به أحمدُ ابنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللهُ- شيخُ الإسلامِ، يَعْنِي: أنه -رَحِمَهُ اللهُ- بحرٌ للعالَـم في العلوم.

وَقَوْلُهُ: «الـحَرَّانِي» في نسخة: **(الرَّبَّانِي)**.

وشيخُ الإسلامِ -رَحِمَهُ اللهُ- ذَكَرَ في رسالةٍ له أنَّ تَفْسِيرَ (استوى) بـ(استولى)

---

(١) يشير إلى شيخ الإسلام ابن تيمية، المولود في حرَّان سنة (٦٦١هـ) المتوفي في دمشق سنة (٧٢٨هـ)، وكان آيةً من آيات الله في العلوم النقليَّة والعقليَّة، وقد بارك اللهُ في عمره وعمله وتأليفاته. [الشارح].

باطِلٌ من عِشْرِينَ وَجْهًا، لكنني لا أدري هل هذه الرسالة موجودة أم لا؟ إنما يمكنُ للإنسانِ إذا تَأَمَّلَ هذا، وَجَدَ أنَّ هذا التفسيرَ باطِلٌ من عِدَّةِ أَوْجُهٍ.

إذَنْ هذا واحدٌ من الأنواع الدالة على عُلُوِّ الله، وهو ذِكْرُ استوائِه على عَرْشِهِ، ووَجْهُ كونِ هذا دالًّا على العُلُوِّ أنَّ عَرْشَ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ أَعْلَى المَخْلُوقاتِ على الإطلاقِ، فإذا كان اللهُ مستويًا عليه، لَزِمَ من ذلك أنْ يكونَ عاليًا.

* * *

فصل

١١٢٤- هَــذَا وَثَانِيهَــا: صَرِيــحُ عُلُــوِّهِ   وَلَــهُ بِحُكْــمِ صَرِيحِــهِ لَفْظَــانِ
١١٢٥- لَفْظُ (الْعَلِيِّ) وَلَفْظَةُ (الأَعْلَى) أَتَتْ   ذُكِـرَتْ مُعَرَّفَـةً لِقَصْـدِ بَيَـانِ[1]
١١٢٦- إِنَّ الْعُلُـوَّ لَـهُ بِمُطْلَقِـهِ عَـلَى التـْ   ـتَعْمِـيمِ وَالإِطْـلَاقِ بِالْبُرْهَــانِ
١١٢٧- وَلَـهُ الْعُلُـوُّ مِـنَ الْوُجُـوهِ جَمِيعِهَـا   ذَاتًـا، وَقَهْـرًا، مَـعْ عُلُـوِّ الشَّـانِ
١١٢٨- لَكِـنْ نُفَـاةُ عُلُـوِّهِ سَـلَبُوهُ إِكْــ   ـمَالَ الْعُلُــوِّ فَصَـارَ ذَا نُقْصَـانِ
١١٢٩- حَاشَاهُ مِنْ إِفْـكِ النُّفَـاةِ وَسَلْبِهِمْ   فَلَـهُ الْكَـمَالُ الْـمُطْلَقُ الرَّبَّانِـي
١١٣٠- وَعُلُــوُّهُ فَــوْقَ الْـخَلِيقَةِ كُلِّهَــا   فُطِـرَتْ عَلَيْـهِ الْـخَلْقُ وَالثَّقَلَانِ
١١٣١- لَا يَسْــتَطِيعُ مُعَطِّــلٌ تَبْــدِيلَهَا   أَبَــدًا وَذَلِــكَ سُــنَّةُ الــرَّحْمَنِ
١١٣٢- كُــلٌّ إِذَا مَــا نَابَــهُ أَمْــرٌ يُــرَى   مُتَوَجِّهًــا بِضَــرُورَةِ الإِنْسَــانِ
١١٣٣- نَحْوَ الْعُلُـوِّ فَلَـيْسَ يَطْلُـبُ خَلْفَـهُ   وَأَمَامَــهُ أَوْ جَانِــبَ الإِنْسَــانِ

الشــرحُ

١١٢٤- هَــذَا وَثَانِيهَــا: صَرِيــحُ عُلُــوِّهِ   وَلَــهُ بِحُكْــمِ صَرِيحِــهِ لَفْظَــانِ

(١) هكذا صحَّحه الشيخُ الشارح -رحمه الله-، وقال: «لعلَّ البيتَ هكذا حتَّى يستقيمَ الوزنُ» إذ هو في الأصل: لَفْظُ الْعَلِـيِّ وَلَفْظَةُ الأَعْلَى مُعَرْ   رَفَــةٌ ذكرت لِقَصْـدِ بَيَـانِ

١١٢٥- لَفْظُ (الْعَلِيِّ) وَلَفْظَةُ (الأَعْلَى) أَتَتْ ذُكِـرَتْ مُعَرَّفَـةً لِقَصْـدِ بَيَـانِ

قَوْلُهُ: «هَذَا وَثَانِيهَا» يَعْنِي: هذا هو النوع الثاني من الأدلة على عُلُوِّ الله عزَّ وجلَّ عُلوًّا ذاتيًّا، وهو التصريحُ بالعُلُوِّ، وله صِيغتان:

الصيغة الأولى: (العَلِـيُّ) كما في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وهي هنا صِفَةٌ مُشَبَّهةٌ تدلُّ على أنَّ العُلوَّ وَصْفُه الدائِمُ الثابتُ، لأنَّ مدلولَ الصِّفَةِ المُشَبَّهَةِ مع الحدثِ الثبوتُ والاستمرارُ.

الصيغة الثانية: فهي اسم التفضيل (الأعلى) ليفيد أنَّ علوَّه لا يشاركُه فيه أحدٌ، لأنَّ مطلقَ العُلُوِّ قد يشاركه فيه أحدٌ، فتقول مثلًا: (فلانٌ عَلِـيٌّ وفلان عَلِـيٌّ)، لكنَّ العلوَّ الذي اتَّصفَ اللهُ به لا يساويه فيه أحدٌ، ولا يُشارِكُه فيه أحدٌ، ولهذا جاء بلفظ (الأعلى)، دليله قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١].

إذَنْ فالتصريح بالعُلُوِّ يَشْمَلُ -كما قال ابنُ القَيِّم رحمه الله- العُلُوَّ المُطْلَقَ، فلفظ (العَلِـيُّ)، و(الأعلى) جِيءَ به مُعَرَّفًا بـ (أل) لِيَدُلَّ على العُلُوِّ المُطْلَقِ، ولهذا قال:

١١٢٦- إِنَّ الْعُلُـوَّ لَـهُ بِمُطْلَقِـهِ عَـلَى التـْ ـتَعْمِـيمِ وَالإِطْـلَاقِ بِالْبُرْهَـانِ

يعني: له العُلُوُّ المُطْلَقُ العامُّ، ثُمَّ ذَكَرَ المؤلفُ أنَّ العلوَّ ثلاثةُ أقسامٍ، فقال:

١١٢٧- وَلَـهُ الْعُلُـوُّ مِـنَ الْوُجُـوهِ جَمِيعِهَـا ذَاتًـا، وَقَهْـرًا، مَـعْ عُلُـوِّ الشَّـانِ

قَوْلُهُ: «وَلَهُ الْعُلُوُّ مِنَ الْوُجُوهِ جَمِيعِهَا» وهي: عُلُوُّ الذات، والثاني: عُلُوُّ القهر، والثالث: عُلُوُّ الشأن، يَعْنِي: عُلُوُّ القَدْرِ، هكذا قَسَّم المؤلفُ العُلوَّ ثلاثةَ أقسامٍ:

فالأوَّل: عُلُوُّ الذات، أي: أنه -سبحانه- فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ.

الثاني: عُلُوُّ القهر، والقهر يَعْنِي الغلبة، فهو غالبٌ لكُلِّ أحدٍ، ومن عُلُوِّ القهر قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ [محمد:٣٥]، لكن ما المراد بـ (الأعلون) هنا، هل هو عُلُوُّ المكان؟ الجَوَابُ: لا، بل هو عُلُوُّ القهرِ، لأنَّ المسلمين مع الكُفَّار في الأرض، فالمراد إذَنْ في الآيةِ عُلُوُّ القهر، يَعْنِي: أنتم الأعلون، قاهرون لهم.

إذَنْ عُلُوُّ الذات معناه أنه نفسَه فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وعُلُوُّ القهر، أنه قاهر لكُلِّ شَيْءٍ، لأنَّ العلوَّ يأتي بمعنى القهر.

الثالث: عُلُوُّ الشأن، أي: شأنُه عالٍ، وقَدْرُه عزَّ وجلَّ رفيعٌ، ولهذا قالوا: عُلُوُّ القَدْرِ.

وهذا -لا شكَّ- تَقْسِيمٌ جَيِّدٌ، لكن لو قال قائِلٌ: إنَّ العُلُوَّ نوعانِ: عُلُوُّ ذاتٍ، وعُلُوُّ صِفَةٍ، والصِّفَةُ إمَّا صِفَةُ قَهْرٍ، أو صِفَةُ قَدْرٍ وشَرَفٍ، أمَّا عُلُوُّ الذاتِ فهو العَلِـيُّ الأَعْلى بذاتِهِ، وأمَّا عُلُوُّ الصِّفَةِ فإنَّ له الوصفَ الأعلى من كُلِّ وجهٍ لقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]، إذا قُلْنَا بهذا صارَ أَخْصَرَ، وربَّما يكونُ أعمَّ أيضًا، لأنَّ القهرَ والقدرَ لم يُحِيطَا بجَمِيعِ الصِّفاتِ.

فنحن نقولُ: له عُلُوُّ القَدْرِ، وعُلُوُّ القَهْرِ، وعُلُوُّ السَّمْعِ، وعُلُوُّ البَصَرِ، فيكونُ قولُنا: عُلُوُّ الله نوعان: (عُلُوُّ ذاتٍ)، و(عُلُوُّ صِفَةٍ) أخصرُ وأشملُ.

١١٢٨- لَكِنْ نُفَاةُ عُلُوِّهِ سَلَبُوهُ إِكْـ ـمَالَ الْعُلُوِّ فَصَارَ ذَا نُقْصَانِ

الذين سلبوا إكمالَ العُلُوِّ قالوا: إنه عالٍ قهرًا وشأنًا، وليس عَلِيًّا ذاتًا، إذَنْ نَقَصُوا معنى العُلُوِّ.

١١٢٩- حَاشَاهُ مِنْ إِفْكِ النُّفَاةِ وَسَلْبِهِمْ فَلَـهُ الْكَمَالُ الْـمُطْلَقُ الرَّبَّانِـي

قَوْلُهُ: «فَلَهُ الْكَمَالُ الْـمُطْلَقُ الرَّبَّانِي» يَعْنِي: له -جلَّ وعلا- الكمالُ المُطْلَقُ من كُلِّ وجهٍ.

١١٣٠- وَعُلُوُّهُ فَوْقَ الْـخَلِيقَةِ كُلِّهَا فُطِرَتْ عَلَيْهِ الْـخَلْقُ وَالثَّقَلَانِ

هذا الدليلُ فِطْريٌّ، فالدليلُ الفِطْرِيُّ على عُلُوِّ الله لا أحدَ يُمارِي فيه، ولذلك الذين يُنْكِرونَ عُلُوَّ الله إذا دَعَوُا اللهَ فإنهم يَنْصَرِفونَ إلى العُلُوِّ.

تَجَادَلَ رَجُلانِ في مِنًى في يومِ العِيدِ في عُلُوِّ الله الذاتِيِّ، فقال النافي: إنه ليس فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ بذاتِهِ. فقَالَ له صاحِبُهُ: أنت -أمسِ- واقِفٌ بعَرَفَةَ تَدْعُو اللهَ؟ قال: نعم. قال: أين رَفَعْتَ يَدَيْكَ؟ هل قُلْتَ: (يا رَبِّ)، هكذا مشيرًا إلى الأرضِ، أو قُلْتَ: (يا ربِّ)، هكذا مشيرًا إلى السَّماءِ؟ قال: قُلْتُ: (يا ربِّ) مشيرًا إلى السَّماء، فقال: أنت الآن حكمتَ على نَفْسِكَ، كيف تُوَجِّهُ يَدَيْكَ إلى فوقُ، وأنت تدعو اللهَ وتقول: إنَّ اللهَ ليس فَوْقُ؟!

ولهذا لا يمكنُ أبدًا لهؤلاء النُّفَاةِ أنْ يَحِيدوا عن هذا الدليلِ الفِطْرِيِّ.

١١٣١- لَا يَسْتَطِيعُ مُعَطِّلٌ تَبْدِيلَهَا أَبَدًا وَذَلِكَ سُنَّةُ الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «سُنَّةُ الرَّحْمَنِ» أي: طريقتُه التي فَطَرَ الْـخَلْقَ عليها، فجميعُ الناس مَفْطورونَ على أنَّ اللهَ عالٍ بذاتِه، فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ.

١١٣٢- كُلٌّ إِذَا مَا نَابَهُ أَمْرٌ يُرَى مُتَوَجِّهًا بِضَرُورَةِ الإِنْسَانِ

١١٣٣- نَحْوَ الْعُلُوِّ فَلَيْسَ يَطْلُبُ خَلْفَهُ وَأَمَامَهُ أَوْ جَانِبَ الإِنْسَانِ

وهل هذا صحيحٌ أو غيرُ صحيحٍ؟ الجَوَابُ: صحيحٌ، فالكُلُّ يَدْعو مُتوجِّهًا إلى جِهةِ العُلُوِّ وَحْدَها.

ولذلك قَالَ أبو جَعْفَرٍ الهَمَذَانِيُّ[1] لأبي المَعَالي الجُوَيْنِيِّ[2] وهو يُقَرِّرُ نَفْيَ عُلُوِّ الله في قَوْلِهِ: «كان اللهُ ولا عَرْشَ، وَهُوَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ». فقَالَ له أبو جَعْفَرٍ الهَمَذَانِيُّ: «يا شيخُ، دَعْنا مِن ذِكْرِ العَرْشِ».

لماذا يقولُ: دَعْنَا منه؟ الجَوَابُ: لأنَّ دَلِيلَه سَمْعِيٌّ، وليس فِطْرِيًّا، والسَّمْعِيُّ قابِلٌ للتأويلِ ولو تحريفًا.

«أَخْبِرْنا عن هذه الضَّرورةِ التي نَجِدُها في قُلوبِنا، فإنه ما قال عَارِفٌ قَطُّ: يا اللهُ، إلا وَجَدَ من قلبِه ضَرورةً بطَلَبِ العُلُوِّ، ولا يَلْتَفِتُ يَمْنَةً ولا يَسْرَةً، فكيفَ نَدْفَعُ هذهِ الضَّرورةَ عن قُلوبِنَا؟».

فصَرَخَ أبو المَعالِي ولَطَمَ على رأسِهِ، وقال: «حَيَّرَني الهَمَذَانِيُّ حَيَّرَنِي الهَمَذَانِيُّ»[3].

تَحَيَّرَ، لأنَّ هذا دليلٌ فِطْرِيٌّ لا يُمْكِنُ النِّزاعُ فيه، كما قَالَ ابنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-.

قَوْلُهُ: «**نَحْوَ الْعُلُوِّ... إلخ**» وهذا صحيح، أين تطلبُ ربَّك إذا دعوتَه؟

---

(١) أبو جعفر الهمذاني الشيخ الإمام الحافظ الرحال الزاهد، بقية السلف والأثبات، أبو جعفر محمد بن أبي علي الحسن بن محمد بن عبد الله، الهمذاني توفي سنة (٥٣١هـ). ترجمته في سير أعلام النبلاء (٢٠/ ١٠١).

(٢) **أبو المعالي الجويني**: إمامُ الحرمين، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف، ولد في جوين من أعمال نَيْسَابُور سنة (٤١٩هـ)، وأقام مدةً بالحجاز (مكة والمدينة) كان من أعلم المتأخِّرين من الشافعية، تُوُفِّيَ بقرية من أعمال نيسابور سنة (٤٧٨هـ). انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٦٨).

(٣) انظر: كتاب الاستقامة (١/ ١٦٧).

هل تطلبُه من فَوْق أو من يسار أو من أمام أو من خلف؟! الجَوَابُ: من فوق.

لكن لو قَالَ قائِل: إذا قُلْت لهؤلاء: لماذا ترفعون أيديَكم إلى السَّماءِ؟ يقولون: لأنَّ السَّماءَ أفضلُ الجهاتِ؟

فنقولُ لهم: ماذا تَقُولُونَ: هل أنتم تَقُولُونَ: (يا سَمَاءُ)؟! أنتم تقولون: (يا الله)، إذَنْ هو في الجِهَةِ التي هي أفضلُ الجِهَاتِ، لأنكم أنتم -الآن- إذا رَفَعْتُم أَيْدِيَكم تُنادُون اللهَ عزَّ وجلَّ، ولا تَقُولُونَ: (يا سَمَاءُ)، وتَقُولُونَ: دَعَوْناها، لِأَنَّهَا أَفْضَلُ الجِهاتِ، إنما دَعَوْتُم اللهَ الذي هو في أَفْضَلِ الجِهاتِ.

لكن لو قَالَ قائِلٌ: ما الفَرْقُ بين قولِ مَنْ يقولُ: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ فَوْقُ في مكانٍ، وبين قولِ مَنْ يقولُ: إنَّ اللهَ فَوْقُ لا في مكانٍ؟

نَقُولُ: هذا تَناقُضٌ، إِلَّا إذا قَصَدَ بقَوْلِهِ: (لا في مَكانٍ) أي: ليس في مَكانٍ يَحْصُرُهُ، كما نحن الآن في المسجدِ، والجُدرانُ أَمَامَنا ويَمِينَنا وشِمالَنا ووراءَنا، أمَّا إنْ لم يَكُنْ يَقْصِدُ ذلك فهذا تَنَاقُضٌ واضِحٌ، ثُمَّ نقولُ لهم: أأنتم أَعْلَمُ أم الرسولُ -عليه الصلاة والسلام- الذي قَالَ للجاريةِ «أَيْنَ اللهُ؟»[1]، وهذه صِفَةٌ مُبَيِّنَةٌ عن المَكَانِ باتِّفاقِ أهلِ اللغةِ.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).

١١٣٤- وَنِهَايَةُ الشُّبُهَاتِ تَشْكِيكٌ وتَخْـ ـــمِيشٌ وتَغْبِيرٌ عَلَى الإِيمَانِ

١١٣٥- لَا يَسْتَطِيعُ تَعَارُضَ المَعْلُومِ والْـ ـــمَعْقُولِ عِنْدَ بَدَائِهِ الإِنْسَانِ

١١٣٦- فَمِنَ المُحَالِ القَدْحُ فِي المَعْلُومِ بِالشْـ ـــشُبُهَاتِ هَذَا بَيِّنُ الْبُطْلانِ

١١٣٧- وَإِذَا البَدَائِهُ قَابَلَتْهَا هَذِهِ الشْـ ـــشُبُهَاتُ لَمْ تَحْتَجْ إِلَى بُطْلانِ

١١٣٨- شَتَّانَ بَيْنَ مَقَالَةٍ أَوْصَى بِهَا بَعْضٌ لِبَعْضٍ أَوَّلٌ لِلثَّانِي

١١٣٩- وَمَقَالَةٍ فَطَرَ الإِلَهُ عِبَادَهُ حَقًّا عَلَيْهَا مَا هُمَا عِدْلانِ

الشَّرحُ

١١٣٤- وَنِهَايَةُ الشُّبُهَاتِ تَشْكِيكٌ وتَخْـ ـــمِيشٌ وتَغْبِيرٌ عَلَى الإِيمَانِ

هذه نهايةُ الشُّبُهَاتِ التشكيكُ والتَّخْمِيشُ وهو أَشَدُّ مِن التَّشْكِيكِ، والتَّغْبِيرِ، فالشُّبُهَاتُ -والعياذ بالله- إذا أُلْبِسَتْ في القَلْبِ -نَسْأَلُ اللهَ العافيةَ- فهذه نِهَايَتُها، يَبْقَى الإنسانُ في شَكٍّ وحَيْرةٍ، ولا يستطيعُ التخلُّصَ منها إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ.

١١٣٥- لَا يَسْتَطِيعُ تَعَارُضَ المَعْلُومِ والْـ ـــمَعْقُولِ عِنْدَ بَدَائِهِ الإِنْسَانِ

يعني: ما ثَبَتَ بِبَدَاهَةِ العُقُولِ أو مِن المَعْلومِ مِن المَنْقولِ هل يمكنُ لهذه الشُّبُهات التي تَرِدُ على الإنسانِ أنْ تُعَارِضَ ذلك؟ الجَوَابُ: لا.

فلا يُمْكِنُ أبدًا، لِأَنَّ الـمَعْلومَ تَزُولُ به الشُّبَهُ، والـمَعْقُولُ تَبْطُلُ به الشُّبَهُ أيضًا.

١١٣٦- فَمِنَ المُحَالِ القَدْحُ فِي المَعْلُومِ بِالشُّـ ـشُبُهَاتِ هَـذَا بَـيِّنُ الْـبُطْلانِ

يعني: الشيءُ المَعْلُومُ هل يُمْكِنُ أنْ تُبْطِلَه الشُّبُهَاتُ؟

الجَوَابُ: أبدًا، أنا إذا قيل لي: هذا فلانٌ، وأنا أَعْرِفُ أنه فلانٌ، وجاءَ إنسانٌ يُشَكِّكُني فيه، هل يَرِدُ على قلبي شَكٌّ؟

الجَوَابُ: أَبَدًا، مهما كان، فالشيءُ المعلومُ لا يُمْكِنُ أنْ تُبْطِلَه الشُّبُهَاتُ.

١١٣٧- وَإِذَا البَدَائِـهُ قَابَلَتْهَـا هَـذِهِ الشُّـ ـشُبُهَاتُ لَـمْ تَحْـتَجْ إِلَى بُطْـلانِ

أيضًا الشُّبُهاتُ هل يمكنُ أنْ تُبْطِلَ ما يُعْلَمُ بالبَدَاهَةِ؟

الجَوَابُ: لا يمكنُ أبدًا، ولذلك حُجَّةُ مَنْ أَنْكَرَ عُلُوَّ الله أنهم قالوا: لو كانَ فوقُ بذاتِهِ، لَزِمَ أنْ يكونَ محدودًا بحدٍّ، والله تعالى لا يَحُدُّه شَيْءٌ.

فهذه شُبْهةٌ لكن لا تُبْطِلُ أبدًا ما كان معلومًا بالسَّمعِ أو معقولًا بالبَدَاهةِ.

١١٣٨- شَـتَّانَ بَـيْنَ مَقَالَـةٍ أَوْصَى بِهَـا بَعْـضٌ لِـبَعْضٍ أَوَّلٌ لِلثَّانِـي

١١٣٩- وَمَقَالَـةٍ فَطَـرَ الإِلَـهُ عِبَـادَهُ حَقًّـا عَلَيْهَـا مَـا هُمَـا عِـدْلانِ

قَوْلُهُ: «مَقَالَةٍ أَوْصَى بِهَا» هي مَقَالَةُ المُعَطِّلَةِ الذين أَنْكَرُوا عُلُوَّ الله.

صحيحٌ، شَتَّانَ بينَ مَقَالَةٍ فطَرَ اللهُ الْـخَلْقَ عليها ومَقَالَةٍ أَوْصَى بها أَوَّلٌ للثاني مَبْنِيَّةٍ على الشُّبُهاتِ، فبَيْنَ المَقَالَتَيْنِ كما بينَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ، وكما بينَ السَّماءِ والأرضِ، لكن ما هي المَقَالَةُ التي فَطَرَ اللهُ العِبادَ عليها؟

الجَوَابُ: هي قولُنا: إنَّ اللهَ بذاتِه فَوْقَ جَميعِ المَخلوقاتِ.

وأَمَّا المَقَالَةُ التي أَوْصَى بها بعضُهم لبعضٍ قالوا: لا تقولوا: إِنَّ اللهَ فَوْقَ العالَمِ بذاتِه، لا تقولوا هذا أبدًا.

لكن ماذا نقولُ؟ لهم في ذلكَ طَرِيقانِ: إِمَّا أنْ تَقُولَ: إِنَّ اللهَ لا فَوْق ولا تَحْت، ولا يَمِين ولا شِمال، ولا داخِلَ العالَمِ ولا خارجَه، ولا مُتَّصِل بالعالَمِ ولا مُنْفَصِل عنه، هذا قولٌ، أو تَقُولَ: إِنَّ اللهَ بذاتِهِ في كُلِّ مكانٍ، هذانِ قولانِ.

القولُ الثالث -**وهو قولُ أهلِ الحقِّ**-: إِنَّ اللهَ بذاتِهِ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وهذا هو الذي ساق المؤلفُ الأدلةَ لإثباتِه.

* * *

فصـــل

١١٤٠- هَذَا وثَالِثُهَا: صَرِيحُ الْفَـوْقِ مَصْـ ـحُوبًا بِـ(مِنْ) وبِـدُونِهَا نَوْعَـانِ:

١١٤١- إِحْدَاهُمَا: هُوَ قَابِـلُ التَّأْوِيـلِ وَالْـ أَصْـلُ الْـحَقِيقَةُ وَحْـدَهَا بِبَيَـانِ

١١٤٢- فَـإِذَا ادَّعَـى تَأْوِيـلَ ذَلِـكَ مُـدَّعٍ لَـمْ تُقْبَـلِ الـدَّعْوَى بِـلَا بُرْهَـانِ

١١٤٣- لَكِنَّمَا الْـمَجْرُورُ لَيْسَ بِقَابِـلِ التْـ تَأْوِيـلِ فِي لُغَـةٍ وَعُـرْفِ لِسَـانِ

١١٤٤- وَأَصْـخِ لِفَائِـدَةٍ جَلِيـلٍ قَـدْرُهَا تَهْـدِيكَ لِلتَّحْقِيـقِ وَالْعِرْفَـانِ

١١٤٥- إِنَّ الْكَـلَامَ إِذَا أَتَـى بِسِـيَاقَةٍ يُبْـدِي الْـمُرَادَ لِـمَنْ لَـهُ أُذُنَـانِ

١١٤٦- أَضْحَى كَنَصٍّ قَاطِعٍ لَا يَقْبَـلُ التْـ تَأْوِيـلَ يَعْـرِفُ ذَا أُولُـو الْأَذْهَـانِ

١١٤٧- فَسِيَاقَةُ الْأَلْفَاظِ مِثْـلُ شَـوَاهِدِ الْـ أَحْـوَالِ إِنَّهُـمَا لَنَـا صِـنْوَانِ

١١٤٨- إِحْـدَاهُمَا لِلْعَـيْنِ مَشْـهُودٌ بِهَـا لَكِـنَّ ذَاكَ لِـمَسْمَعِ الْإِنْسَـانِ

١١٤٩- فَـإِذَا أَتَـى التَّأْوِيـلُ بَعْـدَ سِـيَاقَةٍ تُبْدِي الْـمُرَادَ أَتَى عَـلَى اسْتِهْجَانِ

١١٥٠- وإِذَا أَتَى الْكِتْمَانُ بَعْدَ شَـوَاهِدِ الْـ أَحْـوَالِ كَـانَ كَـأَقْبَحِ الْكِـتْمَانِ

الشـــرحُ

في هذه القطعة بيَّنَ المؤلفُ -رَحِمَهُ اللهُ- النوعَ الثالثَ من أدلة العُلُوِّ، وهو التَّصريحُ بالفوقيَّة، وذكَرَ أنها نوعان: إحداهما مقرونةٌ بـ(مِنْ)، والثانيةُ مطلقةٌ،

ففي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، هذه غيرُ مُقيَّدةٍ بـ(مِنْ)، فهي مطلقةٌ، وفي قَوْلِهِ تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠]، هذه مقيَّدةٌ بـ(مِنْ).

ويقولُ -رَحِمَهُ اللهُ-: إنَّ التي لم تُقيَّدْ بـ(مِنْ) تَحتمِلُ التأويلَ، أمَّا الـمُقَيَّدَةُ بـ(مِنْ) فإنها لا تَحتمِلُ التأويلَ.

الأُولى تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ، وهي أنْ تكونَ الفوقيَّةُ فَوْقيَّةَ الشأْنِ والصِّفَةِ، كما تقولُ مثلًا: (الـذهبُ فَوْقَ الفِضَّةِ)، يَعْنِي: في الشَّرَفِ والقِيمةِ.

أمَّا (مِنْ) في قَوْلِهِ تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥]، فإنها لا تحتملُ التأويلَ، لِأَنَّهَا صريحةٌ في أنَّ المرادَ فوقيَّةُ المكانِ، وأنَّ اللهَ تعالى فَوْقَ جَمِيعِ الْـخَلْقِ، فإنْ كانت هذه لا تحتملُ التأويلَ وَجَبَ أنْ تُحْمَلَ تلك على هذهِ حتَّى يَتَّفِقَ النَّصَّانِ.

ثُمَّ قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ- على التأويلِ الأوَّلِ أنَّ الْمُطْلَقَ يَحْتَمِلُ التأويلَ: لا نَقْبَلُ التأويلَ، لأنَّ الأصلَ الحقيقةُ، ثُمَّ ذَكَرَ قاعدةً مُهِمَّةً، وهي أنه إذا أتى اللفظُ بِسِياقِهِ مُبيِّنًا للمُرَادِ، فإنه لا يُقْبَلُ تأويلُه، لِأَنَّهُ يكون كالصريحِ، كما أنَّ شواهِدَ الأَحْوالِ كالصريحِ عندَ كِتْمانِ الشيءِ، إذا كَتَمَ الإنسانُ شيئًا، وكانت شَوَاهِدُ الأَحْوالِ تَدُلُّ على كَذِبِهِ صارت هذه الشَّوَاهِدُ كالصريحِ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-:

١١٤٠- هَذَا وثَالِثُهَا: صَرِيحُ الْفَـوْقِ مَصْـ ـحُوبًا بِـ(مِنْ) وبِـدُونِهَا نَوْعَـانِ:

قَوْلُهُ: «مَصْحُوبًا بـ(مِنْ) وبِدُونِها» كم يكون؟ الجَوَابُ: نَوْعَانِ.

١١٤١- إِحْدَاهُمَا: هُوَ قَابِلُ التَّأْوِيلِ وَالْـ   أَصْلُ الْـحَقِيقَةُ وَحْدَهَا بِبَيَانِ

قَوْلُهُ: «إِحْدَاهُمَا هُوَ قَابِلُ التَّأْوِيلِ» ما هو قَابِلُ التأويلِ؟

الجَوَابُ: الذي بدون (مِنْ).

قَوْلُهُ: «والأَصْلُ الحَقِيقَةُ وَحْدَهَا بِبَيَانِ» يَعْنِي: حتَّى على قَوْلِنا بأنه قابلُ التأويلِ فالأصلُ الحقيقةُ وعَدَمُ التَّأْوِيلِ.

١١٤٢- فَإِذَا ادَّعَى تَأْوِيلَ ذَلِكَ مُدَّعٍ   لَمْ تُقْبَلِ الدَّعْوَى بِلَا بُرْهَانِ

إذا ادَّعى تأويلَ ذلك مُدَّعٍ، وقال: إنَّ المُرَادَ بكذا كذا. على خِلَافِ اللَّفْظِ، فإنه يقولُ: لم تُقْبَل الدَّعْوى بلا بُرهانٍ، أي: بلا دليلٍ، يَعْنِي: أنه يُحْمَلُ الكلامُ على حَقيقتِهِ وأصلِه، ولا تُقْبَلُ دعوى التأويلِ إلَّا بدليلٍ.

١١٤٣- لَكِنَّمَا الْـمَجْرُورُ لَيْسَ بِقَابِلِ التْـ   تَأْوِيلِ فِي لُغَةٍ وَعُرْفِ لِسَانِ

قَوْلُهُ: «لَكِنَّمَا الْـمَجْرُورُ» أي: بـ(مِنْ)، كقَوْلِهِ تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠]، (لَيْسَ بِقَابِلِ التَّأْوِيلِ)، لأنَّ الفوقيَّةَ المَعْنَوِيَّةَ فوقيَّةَ الشَّأْنِ لا تأتي بـ(مِنْ)، فـ(مِنْ) تأتي لابتِداءِ المكانِ، فيكون مكانُ الله عزَّ وجلَّ فوقُ، ولا تَقْبَلُ غيرَ هذا.

١١٤٤- وَأَصْخِ لِفَائِدَةٍ جَلِيلٍ قَدْرُهَا   تَهْدِيكَ لِلتَّحْقِيقِ وَالْعِرْفَانِ

قَوْلُهُ: «وَأَصْخِ» يَعْنِي: استَمِعْ.

قَوْلُهُ: «لِفَائِدَةٍ جَلِيلٍ قَدْرُهَا تَهْدِيكَ لِلتَّحْقِيقِ وَالْعِرْفَانِ» بَيَّن هذه الفائِدَةَ بقَوْلِهِ:

١١٤٥- إِنَّ الْكَلَامَ إِذَا أَتَى بِسِيَاقَةٍ   يُبْدِي الْـمُرَادَ لِـمَنْ لَهُ أُذُنَانِ

١١٤٦- أَضْحَى كَنَصٍّ قَاطِعٍ لَا يَقْبَـلُ التْـ   تَأْوِيـلَ يَعْـرِفُ ذَا أُولُـو الْأَذْهَـانِ

يعني: إذا أتى الكلامُ بسياقةٍ مُعيَّنةٍ، أي: بصيغةٍ مُعيَّنةٍ، فإنه (يُبْدِي المُرَادَ)، يَعْنِي: يُظْهِرُهُ.

قَوْلُهُ: «أَضْحَى كَنَصٍّ قاطِعٍ لا يَقْبَلُ التَّأْوِيلَ» يَعْنِي: إذا كان سِياقُه يُبْدِي المُرَادَ فإنَّ هذا يكون كالنَّصِّ القاطعِ الصريحِ لا يَقْبَلُ التأويلَ.

وهذا واضحٌ، بل أَبْلَغُ من هذا نفسُ نَبَراتِ الإنسانِ يختلفُ بها المعنى، فإذا زَجَرَ الإنسانُ صَبِيًّا قائِلًا له: يا ولد كيف فعلتَ هذا الشيءَ؟ هل مثل أنْ يقول له: لماذا سوَّيتَ هذا؟

الجَوَابُ: لا، فالأوَّلُ أبلغُ في الزَّجْرِ.

فالسياقُ، والأحوالُ، وكذلك نَبَراتُ الأصواتِ، وغيرُ ذلك كُلُّها تدلُّ على المعنى المُرَادِ، وهذا شَيْءٌ قد فُطِرَ الناسُ عليه.

١١٤٧- فَسِيَاقَةُ الْأَلْفَاظِ مِثْـلُ شَـوَاهِدِ الْـ   أَحْـوَالِ إِنَّهُـمَا لَنَـا صِـنْوَانِ

يعني: أنَّ سِياقَةَ الأَلْفَاظِ مِثْلُ شَوَاهِدِ الأَحْوَالِ، كُلٌّ منهما يُعَيِّنُ المُرَادَ.

شَوَاهِدُ الأَحْوَالِ -أحيانًا- تكونُ كالصريحِ، ولعلَّه ليسَ ببعيدٍ عنكم قِصَّةُ عَمِّ حُيَيِّ بنِ أَخْطَبَ حينما أَنْكَرَ مالَ حُيَيِّ بنِ أَخْطَبَ(١)، فعن ابن عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أن رسولَ الله ﷺ قاتَلَ أهل خَيْبَرَ حتى أَلْـجَأَهُم إلى قَصْرِهم، فغَلَبَ على الأرضِ والزَّرْعِ والنَّخْلِ، فصَالَـحُوه على أنْ يُجْلَوْا مِنها ولهم ما حَمَلت رِكَابُهم،

(١) حيي بن أخطب بن سَعْية بن عامر بن عُبيد بن كعب بن الخزرج بن أبي حَبيب بن النَّضيرِ بن النَّحَّام بن يَنْحوم من بني إسرائيل. وهو والد صفية زوج النبي ﷺ، وسيد بني النضير. جاء ذكره في ترجمة صفية رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٨/ ١٢٠).

ولرَسُولِ الله ﷺ الصَّفْراءُ والبَيْضاءُ، ويَخْرُجونَ مِنْها، واشْتَرَطَ عليهم ألا يَكْتُموا ولا يُغَيِّبوا شيئًا، فإنْ فَعَلُوا فلا ذِمَّةَ لهم ولا عَهْدَ، فغَيَّبوا مَسْكًا فيه مالٌ وحُلِيٌّ لحُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ كانَ احْتَمَلَهُ معَه إلى خَيْبَرَ حين أُجْلِيَت النَّضِيرُ، فقال رسول الله ﷺ لعَمِّ حُيَيٍّ: «مَا فَعَلَ مَسْكُ حُيَيٍّ الَّذِي جاءَ به مِن النَّضيرِ؟». فقالَ: أَذْهَبَتْهُ النَّفَقاتُ والحُروبُ. فقال: «العَهْدُ قَرِيبٌ، والْمَالُ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ». فدَفَعَهُ رَسُولُ الله ﷺ إلى الزُّبَيْرِ فمَسَّه بعَذَابٍ، وقد كانَ حُيَيٌّ قبلَ ذلكَ دَخَلَ خَرِبَةً، فقال: قَدْ رَأَيْتُ حُيَيًّا يَطُوفُ فِي خَرِبَةٍ ههنا. فذَهَبُوا وطَافُوا فوَجَدُوا المَسْكَ في الخَرِبَةِ.[١] والمسك يَعْنِي: جلد الثور.

الشاهد من هذا أنَّ قَرائِنَ الأحوالِ صارت كالصريح، وكشواهدِ الألفاظ، يَعْنِي: كأنَّ هذه القرينةَ قالت لهم: إنَّ عنده مالًا، ولم يَنْفَدْ مالُه.

قَوْلُهُ: «صِنْوَانِ» الصِّنْوَانِ هما الفَرْعَانِ مِن أَصْلٍ واحِدٍ، قَالَ النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام- لعُمَرَ: «أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ»[٢].

١١٤٨- إِحْدَاهُمَا لِلْعَيْنِ مَشْهُودٌ بِهَا ... لَكِنَّ ذَاكَ لِمَسْمَعِ الْإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «إِحْدَاهُمَا لِلْعَيْنِ مَشْهُودٌ بِهَا» يَعْنِي: القَرائِنَ.

قَوْلُهُ: «لَكِنَّ ذَاكَ» يَعْنِي: سِيَاقَ الأَلْفَاظِ (لِمَسْمَعِ الْإِنْسَانِ) يَعْنِي: إذا سَمِعَ الإنسانُ شيئًا وتَفَهَّمَ السِّياقَ عَرَفَ دَلالَتَهُ على المُرادِ، والسِّياقُ يَجْعَلُ المُرادَ بالقرائِنِ كأنه صريحٌ.

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب السير، باب من رأى قسمة الأراضي، برقم (١٨٨٥١).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها، برقم (٩٨٣).

١١٤٩- فَـإِذَا أَتَـى التَّأْوِيـلُ بَعْـدَ سِـيَاقَةٍ تُبْدِي الْـمُرَادَ أَتَى عَـلَى اسْـتِهْجَانِ

وهذا صَحِيحٌ، إذا أتى التأويلُ وهو صَرْفُ اللفظِ عن ظاهِرِهِ بعدَ سِيَاقَةٍ تُبْدِي المُرَادَ، ماذا يكون هذا التأويلُ؟

الجَوَابُ: يَكُونُ مُسْتَهْجَنًا، مَرْدُودًا، لا يُقْبَلُ، لأنَّ السِّياقَ يُعَيِّنُ المعنى، حتَّى وإنِ احتَمَلَ مُجَرَّدُ اللَّفْظِ مَعْنًى آخَرَ فإنَّ السِّياقَ يَمْنَعُ هذا المَعْنَى الآخَرَ.

١١٥٠- وإِذَا أَتَى الْكِتْمَانُ بَعْدَ شَـوَاهِدِ الْـ أَحْـوَالِ كَـانَ كَـأَقْبَحِ الْكِـتْمَانِ

وهذا -أيضًا- صحيحٌ، فإذا أتى الكِتْمانُ بعدَ شَواهِدِ الأحوالِ صارَ مِن أقْبَحِ الكِتمانِ، كقضيةِ الرجُلِ الذي ذَكَرْنا، وهو حُيَيُّ بنُ أَخْطَبَ، فشَواهِدُ الأحوالِ تَدُلُّ على أنَّ له مالًا موجودًا.

والكتمانُ في هذا الموضعِ هو فوقيَّةُ الله عزَّ وجلَّ بذاتِهِ.

فإذا أَتَى الكِتْمانُ بعدَ شَواهِدِ الأَحْوَالِ كانَ مِن أَقْبَحِ الكِتْمانِ، لأنَّ الواجِبَ إجراءُ اللفظِ على ما يَقْتَضِيهِ السِّياقُ، وعلى ما تَقْتَضِيهِ الأحوالُ، وقد مَثَّلْنا فيما سَبَقَ بأنَّ الإنسانَ يَختلفُ معنى كلامهِ بِنَبَرَاتِ صوتِهِ ومُخَاطَبَةِ الناسِ، فالشواهِدُ لا بُدَّ منها.

* * *

١١٥١- فَتَأَمَّلِ الْأَلْفَـاظَ وَانْظُـرْ مَـا الَّـذِي سِـيقَتْ لَـهُ إِنْ كُنْـتَ ذَا عِرْفَـانِ

١١٥٢- وَالْفَوْقُ وَصْفٌ ثَابِتٌ بِالذَّاتِ مِـنْ كُـلِّ الْوُجُـوهِ لِفَـاطِرِ الْأَكْـوَانِ

١١٥٣- لَكِـنْ نُفَـاةُ الْفَـوْقِ مَـا وَافَـوْا بِـهِ جَحَـدُوا كَـمَالَ الْفَـوْقِ لِلـدَّيَّانِ

١١٥٤- بَـلْ فَسَّـرُوهُ بِـأَنَّ قَـدْرَ الله أَعْـ ـــلَى لَا بِفَـوْقِ الـذَّاتِ لِلـرَّحْمَنِ

١١٥٥- قَالُوا: وَهَذَا مِثْـلُ قَـوْلِ النَّـاسِ فِي ذَهَبٍ يُرَى مِنْ خَـالِصِ الْعِقْيَـانِ:

١١٥٦- هُوَ فَوْقَ جِنْسِ الفِضَّةِ الْبَيْضَـاءِ لَا بِالـذَّاتِ بَـلْ فِي مُقْتَضَـى الْأَثْـمَانِ

١١٥٧- وَالْفَـوْقُ أَنْـوَاعٌ ثَـلَاثٌ كُلُّهَـا لله ثَابِتَـةٌ بِـلَا نُكْـرَانِ

١١٥٨- هَذَا الَّذِي قَالُوا وَفَوْقُ الْقَهْرِ وَالْـ ـــفَوْقِيَّةُ الْعُلْيَـا عَـلَى الْأَكْـوَانِ

الشـرحُ

١١٥١- فَتَأَمَّلِ الْأَلْفَـاظَ وَانْظُـرْ مَـا الَّـذِي سِـيقَتْ لَـهُ إِنْ كُنْـتَ ذَا عِرْفَـانِ

يقولُ المؤلف -رَحِمَهُ اللهُ-: (تَأَمَّلِ الأَلْفَاظَ وَانْظُرْ مَا الَّذِي سِيقَتْ لَهُ) لأنك إذا تأمَّلْتَ الألفاظَ ونظرتَ ما الذي سيقت له عَيَّنَتْ لك المُرَادَ، وذلك لأنَّ الإنسانَ لا ينبغي أنْ ينظرَ إلى الألفاظِ مُجرَّدةً عن قرائِنِ السِّياقِ، لأنَّ الألفاظَ نفسَها مُجرَّدةٌ ليس لها معنًى إلَّا بالسِّياقِ، فالسِّياقُ هو الذي يُظْهِرُ معناها، ولهذا رُبَّ كلمةٍ تكونُ في هذا السِّياقِ لمَعْنًى، وفي سياقٍ آخَرَ لِمَعْنًى آخَرَ.

إذَنْ تأمَّلِ السِّياقَ، وانظُرْ لِأَيِّ شَيْءٍ جاءَ هذا السِّياقُ، فإذا جاءَ لإثباتِ الفَوقيَّةِ تَعَيَّنَ أَنْ يكونَ المُرَادُ بالفَوقيَّةِ فوقيَّةَ الذاتِ، وهذا مِثالٌ، وإلَّا فالقاعدةُ أنَّ السِّياقَ يُعَيِّنُ المُرَادَ.

١١٥٢- وَالْفَوْقُ وَصْفٌ ثَابِتٌ بِالذَّاتِ مِـنْ كُـلِّ الْوُجُـوهِ لِفَـاطِرِ الْأَكْـوَانِ

يعني: أنَّ الفوقَ وصفٌ ثابتٌ بالذاتِ مِن كُلِّ الوُجُوهِ لله فاطِرِ الأكوانِ، و(فاطِرُ الأَكْوَانِ) هو الذي خَلَقَها ابتداءً على غيرِ مِثالٍ سَبَقَ، ولـهذا قالـوا:

(فاطِرُ السَّمَوَات) أي: مُنْشِئُهَا على غيرِ مِثَالٍ سَبَقَ، يَعْنِي: مُنشِئَها لأوَّلِ مَرَّةٍ، فالذي فَطَرَ الأكوانَ مِنْ غيرِ مِثالٍ سابِقٍ هو اللهُ عزَّ وجلَّ.

١١٥٣- لَكِنْ نُفَاةُ الْفَوْقِ مَا وَافَوْا بِهِ جَحَدُوا كَمَالَ الْفَوْقِ لِلدَّيَّانِ

قَوْلُهُ: «لَكِنْ نُفَاةُ الْفَوْقِ مَا وَافَوْا بِهِ» يَعْنِي: ما أَتَوْا به وافيًا.

ونُفَاةُ الفَوْقِ هم: الجَهْميَّةُ[1]، والأشاعِرةُ[2]، ونَحْوُهُما ممَّن يُنْكِرونُ العُلُوَّ الذاتِيَّ، فهؤلاء جَحَدُوا كَمَالَ الفوقِ للدَّيَّانِ.

١١٥٤- بَلْ فَسَّرُوهُ بِأَنَّ قَدْرَ الله أَعْـ ـلَى لَا بِفَوْقِ الذَّاتِ لِلرَّحْمَنِ

إذَنْ فَسَّروا الفوقيَّةَ بالقَدْرِ، أي: فوقيَّة المعنى فَقَطْ.

١١٥٥- قَالُوا: وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِ النَّاسِ فِي ذَهَبٍ يُرَى مِنْ خَالِصِ الْعِقْيَانِ:

١١٥٦- هُوَ فَوْقَ جِنْسِ الفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ لَا بِالذَّاتِ بَلْ فِي مُقْتَضَى الْأَثْمَانِ

فالذهبُ فوقَ الفِضَّةِ، والبِلاتينُ فوقَ الذهَبِ، والصوفُ فوقَ القُطنِ، والمسجدُ فوقَ السورِ، هذه فَوْقِيَّةُ القَدْرِ.

---

(١) هم أصحاب جَهْم بن صفوان، وهو مِن الجَبرية الخالصة، ظهرت بدعته بِتِرْمِذَ، وقتَلَه سَلْم بن أَحْوَز المازني بِمَرْو في آخر مُلك بَني أُمية، وافق المُعْتَزِلَة في نفي الصفات الأزلية، وزاد عليهم بأشياء: منها قوله: لا يجوز أن يُوصف الباري تعالى بِصِفَةٍ يُوصَف بها خَلْقه، لأن ذلك يقضي تشبيهًا، فنفى كونَه حيًّا عالمًا، وأثبت كونَه: قادرًا، فاعلًا، خالقًا، لأنه لا يوصف شيء مِن خَلْقِه بالقُدْرَة والفِعل والخَلق. انظر: الملل والنِّحَل للشهرستاني (١/ ٨٦).

(٢) هم أصحاب الأشعري: عليُّ بن إسماعيل، أبو الحسن، من نسل أبي موسى الأشعري، كان من أئمة المتكلِّمين المجتهدين، أسَّس مذهب الأشاعرة، ولد سنة (٢٦٠هـ) في البصرة، وتلقَّى مذهب المعتزلة، وتقدَّم فيهم، ثُمَّ رجع وجاهر بخلافهم، والتزم مذهب أحمد بن حنبل، وتوفي ببغداد سنة (٣٢٤هـ).

فقالوا: هذه الفوقيَّةُ لله هي فوقيَّةُ القَدْرِ، أمَّا الذاتُ فلا.

قَوْلُهُ: «**العِقْيَان**» اسمٌ للذَّهَبِ.

ثُمَّ بَيَّنَ المؤلفُ أنَّ الفوقَ ثلاثةُ أَنْوَاعٍ كالعُلُوِّ، فقال:

١١٥٧- وَالْفَوْقُ أَنْوَاعٌ ثَلَاثٌ كُلُّهَا ۞ للهِ ثَابِتَةٌ بِلَا نُكْرَانِ

١١٥٨- هَذَا الَّذِي قَالُوا وَفَوْقُ الْقَهْرِ وَالْـ ۞ ـفَوْقِيَّةُ الْعُلْيَا عَلَى الْأَكْوَانِ

قَوْلُهُ: «**هَذَا الَّذِي قَالُوا**» يَعْنِي: فَوْقَ القَدْرِ.

قَوْلُهُ: «**والفَوْقِيَّةُ العُلْيَا عَلَى الْأَكْوَانِ**» أي: فَوْقُ الذَّاتِ.

فجَعَلَ المُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- فَوْقِيَّةَ الله كعُلُوِّ الله، فَوْقِيَّةَ قَدْرٍ، وقهرٍ، وذاتٍ، وهي كُلُّها ثابتةٌ لله عزَّ وجلَّ.

الآن إذا قُلْتُم: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى)، ما الذي يَتبَادَرُ إلى أَذْهانِكُم؟ الجَوَابُ: يَتبَادَرُ عُلُوُّ الذاتِ، أمَّا عُلُوُّ المَعْنَى فيَغِيبُ عن كثيرٍ من الناسِ، حتى طُلابُ العِلْمِ قد لا يَسْتَحْضِرُونَ عُلُوَّ المعنى عندَ قولِهِم: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى)، ولكن نَقُولُ: مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فلا هاديَ له.

* * *

فصل

١١٥٩- هَذَا وَرَابِعُهَا: عُرُوجُ الرُّوحِ وَالْـ أَمْـلَاكِ صَاعِدَةً إِلَى الرَّحْمَنِ
١١٦٠- وَلَقَدْ أَتَى فِي سُورَتَيْنِ كِلَاهُمَا اشْـ ـتَمَلَا عَلَى التَّقْدِيرِ بِالْأَزْمَانِ
١١٦١- فِي سُورَةٍ فِيهَا الْـمَعَارِجُ قُدِّرَتْ خَمْسِينَ أَلْفًا كَامِلَ الْـحُسْبَانِ
١١٦٢- وَبِسَجْدَةِ التَّنْزِيلِ أَلْفًا قُدِّرَتْ فَلِأَجْلِ ذَا قَالُوا: هُمَا يَوْمَانِ
١١٦٣- يَوْمُ الْـمَعَادِ بِذِي الْـمَعَارِجِ ذِكْرُهُ وَالْيَوْمُ فِي (تَنْزِيلُ) فِي ذَا الآنِ
١١٦٤- وَكِلَاهُمَا عِنْدِي فَيَوْمٌ وَاحِدٌ وَعُرُوجُهُمْ فِيهِ إِلَى الدَّيَّانِ
١١٦٥- فَالْأَلْفُ فِيهِ مَسَافَةٌ لِنُزُولِهِمْ وَصُعُودِهِمْ نَحْوَ الرَّفِيعِ الدَّانِي
١١٦٦- هَذِي السَّمَاءُ فَإِنَّهَا قَدْ قُدِّرَتْ خَمْسِينَ فِي عَشْرٍ وَذَا ضِعْفَانِ
١١٦٧- لَكِنَّمَا الْـخَمْسُونَ أَلْفَ مَسَافَةُ السْـ ـسَبْعِ الطِّبَاقِ وَبُعْدُ ذِي الأَكْوَانِ
١١٦٨- مِنْ عَرْشِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَى الثَّرَى عِنْدَ الحَضِيضِ الأَسْفَلِ التَّحْتَانِي
١١٦٩- وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ فِي تَفْسِيرِهِ الْـ ـبَغَوِيُّ ذَاكَ الْعَالِمُ الرَّبَّانِي
١١٧٠- وَمُجَاهِدٌ قَدْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ لَـ ـكِنَّ ابْنَ إِسْحَاقَ الْـجَلِيلَ الشَّانِ
١١٧١- قَالَ: الْـمَسَافَةُ بَيْنَنَا وَالعَرْشِ ذَا الْـ ـمِقْدَارُ فِي سَيْرٍ مِنَ الإِنْسَانِ

١١٧٢- وَالْقَوْلُ الاَوَّلُ قَوْلُ عِكْرِمَةٍ وَقَوْ ... لُ قَتَادَةٍ وَهُمَا لَنَا عَلَمَانِ
١١٧٣- وَاخْتَارَهُ الحَسَنُ الرِّضَا وَرَوَاهُ عَنْ ... بَحْرِ الْعُلُومِ مُفَسِّرِ الْقُرْآنِ
١١٧٤- وَيُرَجِّحُ الْقَوْلَ الَّذِي قَدْ قَالَهُ ... سَادَاتُنَا فِي فَرْقِهِمْ أَمْرَانِ:
١١٧٥- إِحْدَاهُمَا: مَا فِي الصَّحِيحِ لِمَانِعٍ ... لِزَكَاتِهِ مِنْ هَذِهِ الأَعْيَانِ
١١٧٦- يُكْوَى بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَهْرُهُ ... وَجَبِينُهُ وَكَذَلِكَ الْجَنْبَانِ
١١٧٧- خَمْسُونَ أَلْفًا قَدْرُ ذَاكَ الْيَوْمِ فِي ... هَذَا الْحَدِيثِ وَذَاكَ ذُو تِبْيَانِ
١١٧٨- فَالظَّاهِرُ الْيَوْمَانِ فِي الْوَجْهَيْنِ يَوْ ... مٌ وَاحِدٌ مَا إِنْ هُمَا يَوْمَانِ
١١٧٩- قَالُوا: وَإِيرَادُ السِّيَاقِ يُبَيِّنُ الْـ ... ـمَضْمُونَ مِنْهُ بِأَوْضَحِ التِّبْيَانِ
١١٨٠- فَانْظُرْ إِلَى الإِضْمَارِ ضِمْنَ (يَرَوْنَهُ) ... و(نَرَاهُ) مَا تَفْسِيرُهُ بِبَيَانِ
١١٨١- فَالْيَوْمُ بِالتَّفْسِيرِ أَوْلَى مِنْ عَذَا ... بٍ وَاقِعٍ لِلْقُرْبِ وَالْجِيرَانِ
١١٨٢- وَيَكُونُ ذِكْرُ عُرُوجِهِمْ فِي هَذِهِ الدْ ... دُنْيَا وَيَوْمَ قِيَامَةِ الأَبْدَانِ
١١٨٣- فَنُزُولُهُمْ أَيْضًا هُنَالِكَ ثَابِتٌ ... كَنُزُولِهِمْ أَيْضًا هُنَا لِلشَّانِ
١١٨٤- وَعُرُوجُهُمْ بَعْدَ الْقَضَا كَعُرُوجِهِمْ ... أَيْضًا هُنَا فَلَهُمْ إِذَنْ شَأْنَانِ
١١٨٥- وَيَزُولُ هَذَا السَّقْفُ يَوْمَ مَعَادِنَا ... فَعُرُوجُهُمْ لِلْعَرْشِ وَالرَّحْمَنِ
١١٨٦- هَذَا وَمَا اتَّضَحَتْ لَدَيَّ وَعِلْمُهَا الْـ ... ـمَوْكُولُ بَعْدُ لِمُنْزِلِ الْقُرْآنِ
١١٨٧- وَأَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْ جَزْمٍ بِلَا ... عِلْمٍ وَهَذَا غَايَةُ الإِمْكَانِ

١١٥٨- واللهُ أَعْلَـمُ بِالْـمُرَادِ بِقَوْلِـهِ وَرَسُـولُهُ الْـمَبْعُوثُ بِالْفُرْقَـانِ

الشـرحُ

هذا الفصلُ فيما يتعلّقُ بالنوع الرابع من الأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ على عُلُوِّ الله -جلَّ وعلا-، يقولُ -رَحِمَهُ اللهُ-:

١١٥٩- هَذَا وَرَابِعُهَا: عُرُوجُ الـرُّوحِ وَالْـ أَمْـلَاكِ صَـاعِدَةً إِلَى الـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «هَذَا وَرَابِعُهَا» يَعْنِي: رابعَ الأنواعِ الدَّالَّةِ على عُلُوِّ الله بذاتِهِ.

قَوْلُهُ: «عُرُوجُ الرُّوحِ والأَمْلَاكِ صاعِدَةً إِلَى الرَّحْمَنِ» كما قَالَ الله تعالى: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٣-٤] الملائكة معروفة.

قَوْلُهُ: «الرُّوح» هل هو (جِبريلُ)، فيكون عطفُه على (الملائكةِ) من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ، كما في قَوْلِهِ تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ [القدر:٤]، أو الرُّوحُ جِنْسُ أَرْواحِ بَنِي آدَمَ، كما صَحَّ بذلك الحديثُ عن النَّبِيِّ ﷺ بِأَنَّ الرُّوحَ إذا قُبِضَتْ صُعِدَ بِهَا إِلَى السَّماءِ، وذلك عند حديثه على رُوحِ المؤمن والكافر في قوله: «فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلأٍ مِنَ الْـمَلائِكَةِ إِلاَّ قَالُوا مَا هَذَا الرُّوحُ»(١).

سواء هذا أو هذا، فإنَّ في كُلٍّ منهما دلالةً على أنَّ اللهَ فوق، فهذا دليلٌ.

١١٦٠- وَلَقَدْ أَتَى فِي سُورَتَيْنِ كِلَاهُمَا اشْـ ـتَمَلَا عَـلَى التَّقْـدِيرِ بِالأَزْمَـانِ

الضميرِ في قَوْلِهِ: (أَتَى)، يعودُ على العُروجِ.

(١) أخرجه أحمد في مسنده برقم (١٨٥٥٧).

١١٦١- فِي سُورَةٍ فِيهَا الْـمَعَارِجُ قُدِّرَتْ   خَمْسِينَ أَلْفًا كَامِلَ الْـحُسْبَانِ

قَالَ الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [المعارج:١-٤].

١١٦٢- وَبِسَجْدَةِ التَّنْزِيلِ أَلْفًا قُدِّرَتْ   فَلِأَجْلِ ذَا قَالُوا: هُمَا يَوْمَانِ

هذا الأَلْف، قَالَ الله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة:٥]، وفي آية ثانية يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧].

لكنَّ المؤلف أتى بهذين اليومين فقط: في سورة المعارج، وفي سورة ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ [السجدة:١-٢].

قَوْلُهُ: «فَلِأَجْلِ ذَا قَالُوا: هُمَا يَوْمَانِ» (قالوا) أي: أهلُ العِلْم.

١١٦٣- يَوْمُ الْـمَعَادِ بِذِي الْـمَعَارِجِ ذِكْرُهُ   وَالْيَوْمُ فِي (تَنْزِيلُ) فِي ذَا الآنِ

قَوْلُهُ: «وَالْيَوْمُ فِي (تَنْزِيلُ) فِي ذَا الآنِ» هو يومُ القيامة، قَالَ الله تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ۝٩ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمۡ﴾ [المعارج:٤-١١].

والسِّياقُ واضحٌ جدًّا أنَّ المُرادَ بهذا يومُ القيامة، ويُؤيِّدُه ما ثبت في صحيح مسلم «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلا فِضَّةٍ لا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحَ مِنْ نَارٍ فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ

وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيُرَى سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَى الْـجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»[1]. فيكون الذي في المعارج هو يوم القيامة.

قَوْلُهُ: «وَالْيَوْمُ فِي (تَنْزِيلُ) فِي ذَا الآنِ» (في الآن) يَعْنِي: في الدنيا، فاليوم الذي فيه ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ [السجدة:١-٢]، ليس يومَ القيامة، بل هو يومٌ في الدنيا.

فقالوا: هما إِذَنْ يومان: أَحَدُهما: يومُ المَعادِ، والثاني: يومُ المَعاشِ في هذه الدنيا، وهذا هو الذي عليه جمهورُ أهل العلمِ، وهذا هو الحقُّ.

ذكَرَ المُؤلِّفُ رأيَه في هذه المسألةِ، ثُمَّ في النهايةِ ذكَرَ أنها لم تَتَّضِحْ له.

لكن لننظر إلى قولِ الجُمهورِ في هذه الآيةِ المَرْوِيِّ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن الحسن البصريِّ -رحمه الله- وغيرهما.

وذلك لأنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- قَالَ في ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ [السجدة:١-٢]: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة:٥]، وهذا يدلُّ على أنَّ هناك سماءً، وهناك أرضًا، وهناك تدبيرًا من السَّماء إلى الأرض، ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ﴾ [السجدة:٥]، يَعْنِي: في يومٍ واحدٍ، وفي لحظةٍ واحدة، ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة:٥]، مقدارُ هذا الذي يأتي مقدارُه في يومٍ، وقد يكونُ في لحظةٍ واحدةٍ، لأنَّ (في) للظرفيَّة، و(اليوم) ظرفٌ، والظرفُ أوسعُ من المظروفِ، يَعْنِي: هذا التدبير يكونُ في يوم، وقد يكونُ في لحظة، فاللحظةُ في يومٍ، ما خَرَجَت عن طَوْرِ اليوم، وذلك لأنَّ مسافةَ ما بينَ السَّماءِ والأرضِ خمسمائة عامٍ كما جاءت به الأحاديثُ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، برقم (٩٨٧).

فنزولُه من السَّماءِ في خمسائة عامٍ، وصعودُه من الأرضِ إلى السَّماءِ في خمسائة عامٍ، قَالَ الله -سبحانه وتعالى-: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة:٥]، فيكونُ الجميعُ ألْفًا ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة:٥-٧].

وهذا واضحٌ جدًّا من السِّياقِ أنه في الدنيا.

فالسِّياقُ -كما علَّمَنا ابنُ القَيِّمِ -رحمه الله- يُعيِّنُ أنَّ المُرادَ بهذا اليوم يومٌ في الدنيا، لِأَنَّهُ هو الذي فيه التدبيرُ، ثُمَّ العروج، وواضحٌ جدًّا من المعنى أنه ليس في الآخرة، لأنَّ الذي في الآخرة مقدارهُ خمسون ألفَ سنةٍ.

ولنأتِ إلى اليوم الثاني في الآخرة، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:١-٤] تعرجُ إلى مَنْ؟ الجَوَابُ: إلى ذي المعارج، ولم يُبيِّن -سبحانه وتعالى- في هذه الآية مدةَ عروجِها إلى الله.

وأما قَوْلُهُ: ﴿فِى يَوْمٍ﴾ فهذا متعلِّقٌ بـ(وَاقِعٍ)، يَعْنِي: (بعذابٍ واقِعٍ) قَالَ الله تعالى: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ [المعارج:٤-٨] وهذا واضحٌ أنه يومُ القِيامةِ.

وهذا في الطُّولِ، لا في المسافةِ، يَعْنِي: طُول هذا اليوم خمسون ألفَ سنةٍ، ويؤيِّدُ هذا ما رَواهُ مُسْلِمٌ في صحيحِهِ عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلا فِضَّةٍ لا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إلا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ

صَفَائِحَ مِنْ نَارٍ فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيُرَى سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَى الْـجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»(١)، فالآيةُ والحديثُ يَدُلاَّنِ دَلالةً صريحةً على أنَّ هذا اليومَ هو يومُ القيامةِ.

وأَمَّا ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ [السجدة:١-٢]، فواضحٌ من السِّياقِ أنَّ المُرَادَ به هذا اليوم الذي في الدنيا.

إذَنْ فالقولُ الراجحُ في الآيتين الكريمتين ما قالَه جُمهورُ أهلِ العِلم أنَّ الذي في سورة: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ [السجدة:١-٢] في الدنيا ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة:٥]، وأمَّا الذي في سورة المَعارِج هو يوم القيامة، وعلى هذا فيكون قولُه: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤]، منقطعًا عمَّا بعدَه، وهو كالتفسير لقَوْلِه: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ [المعارج:٣]، لكن لماذا وصف نفسَه بذي المعارج؟ قال: لأنَّ الملائِكةَ والروحَ ترجعُ إليه، فهذه الجملةُ كالتفسير والبيانِ لقَوْلِه: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ [المعارج:٣].

بَقِيَ علينا أنْ يُقالَ: هناك يومٌ ثالثٌ، لكن ليس فيه ذِكْرُ العُرُوجِ، وهو قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧].

نَقُولُ: اللهُ أعلمُ بهذا اليومِ، لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ فاختصَّ به، ولا ندري ما هذا اليوم؟ نَقُولُ: هذا يومٌ عندَ الله، ولا نَعْلَمُ عَيْنَه، لأنَّ اللهَ لم يَذكُرْ ما يدلُّ على تَعْيينِه، فإذا كان عنده ولم يخبرنا به، فالواجبُ علينا أنْ نُحْجِمَ عنه، وأنْ نقولَ: اللهُ أعلمُ بهذا اليومِ، لِأَنَّهُ ليس هو اليوم الذي في سورة

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، برقم (٩٨٧).

﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ﴾ [السجدة:١-٢]، لأنَّ الذي في ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ﴾ [السجدة:١-٢] هو يومٌ في الدنيا، أمَّا هذا فلا ندري، لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أَبْهَمَهُ ولم يُبَيِّنْهُ، وليس كما قَالَ بعضُهم: إنَّ الأيامَ عندَ الله كألفِ سنة، لأنَّ اللهَ نَكَّرَ اليوم فقال: ﴿يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ﴾، فهو يومٌ واحد، اللهُ أعلمُ به، ونحن لا يلزمُنا أنْ نعلمَ كُلَّ شَيْءٍ مِمَّا لا تَصِلُ إليه عقولُنا.

قَالَ المؤلفُ -رَحِمَهُ اللهُ-:

١١٦٤- وَكِلَاهُمَا عِنْدِي فَيَوْمٌ واحِدٌ وَعُرُوجُهُمْ فِيهِ إِلَى الدَّيَّانِ

قَوْلُهُ: «وَكِلَاهُمَا عِنْدِي فَيَوْمٌ واحِدٌ» (كلاهما) الضميرُ يعودُ إلى اليومِ الذي في ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ﴾ [السجدة:١-٢]، واليومِ الذي في ﴿سَأَلَ﴾ [المعارج:١].

١١٦٥- فَالْأَلْفُ فِيهِ مَسَافَةٌ لِنُزُولِهِمْ وَصُعُودِهِمْ نَحْوَ الرَّفِيعِ الدَّانِي

١١٦٦- هَذِي السَّمَاءُ فَإِنَّهَا قَدْ قُدِّرَتْ خَمْسِينَ فِي عَشْرٍ وَذَا ضِعْفَانِ

قَوْلُهُ: «خَمْسِينَ فِي عَشْرٍ» يَعْنِي: خمسَمائةٍ، هذا الصعودُ والنزولُ في خمسمائة، فهذا ألفٌ، ولذا قال: (وذا ضعفان)، لماذا صارا ضِعْفَيْنِ؟

الجَوَابُ: لِأَنَّهم بين صعود ونزول.

١١٦٧- لَكِنَّمَا الْخَمْسُونَ أَلْفَ مَسَافَةُ السْـ ـسَبْعِ الطِّبَاقِ وَبُعْدُ ذِي الأَكْوَانِ

١١٦٨- مِنْ عَرْشِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَى الثَّرَى عِنْدَ الحَضِيضِ الأَسْفَلِ التَّحْتَانِي

المعنى: (خَمْسونَ ألف) التي في (سأل)، يُرادُ بها ما بينَ قاعةِ الأرضِ السفلى إلى العَرْشِ، فيكون خمسين ألفًا، لكن كيف ذلك؟

الجَوَابُ: إذا قُلْنَا: إِنَّ الأَرَضِينَ سَبْعٌ، وكُلُّ أرضٍ مسافتُها خمسُمائة عامٍ، فإذا ضربتَ خمسَمائة في سبعِ أرَضِينَ فيكونُ الجميعُ ثلاثةَ آلافٍ وخَمسَمائةٍ.

والسموات سبعٌ، سَمْكُ كُلِّ سماءٍ خَمْسُمائة عامٍ، فالجميعُ يكونُ ثلاثةَ آلافٍ وخمسَمائةٍ، بينَ كُلِّ سماءٍ وسماءٍ خمسُمائةٍ، فيكونُ سبعٌ في خمسِمائةٍ، فيكونُ الجميعُ ثلاثةَ آلافَ وخمسَمائةٍ، إذَنْ الجميعُ سبعةُ آلافٍ، وعندنا بالأرض ثلاثةُ آلاف وخَمْسُمائةٍ، فهذه عَشَرَةُ آلافٍ وخَمْسُمائة.

وبعضُ العلماءِ يقول: سَمْك كُلِّ أرضٍ خَمْسُمائةٍ، فيكون الجميعُ أربعةَ عَشَرَ ألْفًا، ويقولون: ما بينَ السَّماءِ السابعةِ والعَرْشِ ستةٌ وثلاثونَ.

لكن من أين لنا هذا؟! يَعْنِي: من أين لنا أنَّ ما بينَ السَّماءِ السابعةِ والعَرْشِ ستةٌ وثلاثون؟! وهل كانوا يُرِيدون تكميلَ العددِ فيكون خَمْسِينَ ألفَ سنةٍ؟!

لا ندري، ولهذا كُلَّما تأمَّلْتَ هذا القولَ وجَدْتَه ضعيفًا جدًّا، فخمسون أَلْفًا المُقَدَّر بها في ﴿سَأَلَ﴾ [المعارج:١] ليست للمسافةِ، ولكن للمُدَّةِ (لطول الزمن)، يَعْنِي: مقداره خمسون ألف سنة، هذا باعتبار الطول، لا باعتبار المسافة، وهذا الأمرُ واضحٌ.

ولهذا ابنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ- في النهايةِ تَرَدَّد، وقال: إنه قد أُشْكِلَ عليه، ولننظر:

١١٦٩- وَاخْتَارَ هَذَا القَوْلَ فِي تَفْسِيرِهِ الْـ ... ـبَغَوِيُّ[1] ذَاكَ العَالَـمُ الرَّبَّانِـي

(١) **البغوي هو:** الحسين بن مسعود، محيي السُّنَّة، البغوي، نسبة إلى بغا من قرى خراسان، المولود سنة (٤٣٦هـ) المتوفى بمرو الروذ سنة (٥١٦هـ). [الشارح]. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤٣٩).

١١٧٠- وَمُجَاهِدٌ[1] قَدْ قَالَ هَـذَا الْقَـوْلَ لَـ ـكِنَّ ابْنَ إِسْحَاقَ[2] الجَلِيلَ الشَّانِ

١١٧١- قَالَ: الْـمَسَافَةُ بَيْنَنَا وَالعَرْشِ ذَا الْـ ـمِقْدَارُ فِي سَـيْرٍ مِـنَ الإِنْسَـانِ

المعنى أنَّ ابنَ إسحاقَ قال: «اختلافُ الزَّمَنِ أو اختلافُ التقديرِ ما بينَ ألفٍ إلى خَمْسِينَ ألفًا باعتبار السَّيْرِ، فلو أنَّ الإنسانَ سارَ من تُخُومِ الأرض السُّفلى إلى العَرْشِ لكان مقدارُه خمسين ألفَ سنةٍ، وأَمَّا الملائِكةُ فألفُ سنةٍ».

فجَعَل الفرق بين هذين العددين -وهو فرقٌ كبير- باعتبار السَّيْرِ.

وهذا -أيضًا- ضعيف، لأنَّ هذا الجمعَ مُسْتكْرَهٌ في الواقعِ، لا نلجأُ إلى مثل هذا الجمع إِلَّا عند الضرورة، وليس هناك ضرورةٌ تجعلُنا نجعلُ اليومين يومًا واحدًا.

ننفكُّ عن كُلِّ هذه التأويلاتِ المُستكرَهةِ بأن نَقُولَ: هما يومان: يومُ القيامةِ، واليومُ في الدنيا.

١١٧٢- وَالْقَوْلُ الاَوَّلُ قَوْلُ عِكْرِمَةٍ[3] وَقَوْ لُ قَتَـادَةٍ[4] وَهُمَـا لَنَـا عَلَـمَانِ

---

(١) **مجاهد هو**: مجاهد بن جبر، أبو الحجَّاج المكي، مولى بني مخزوم، أخذ التفسيرَ عن ابن عباس، ولد سنة (٢١هـ) واستقرَّ بالكوفة ومات سنة (١٠٤هـ)، وقيل: مات بمكةَ وهو ساجدٌ سنة (١٠٢هـ). [الشارح]. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٤٩).

(٢) **ابن إسحاق هو**: محمد بن إسحاق بن يسار، المطلبي، مولاهم المدني، سكن بغدادَ، ومات فيها، قال ابن حبان: «لم يكن بالمدينة أحدٌ يقاربُ ابنَ إسحاق في علمه، أو يوازيه في جمعه». [الشارح]. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٧/ ٣٣).

(٣) **عكرمة هو**: عكرمة أبو عبد الله البربري، المدني، مولى ابن عباس، ولد سنة (٢٥هـ)، ومات بالمدينة سنة (١٠٥هـ). [الشارح]. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٥/ ١٢).

(٤) **قتادة هو**: قتادة بن دعامة السدوسي، البصري، المولود سنة (٦١هـ)، كان من أحفظ أهل البصرة، مات بواسط في الطاعون سنة (١١٨هـ). [الشارح]. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٩).

١١٧٣- وَاخْتَارَهُ الحَسَنُ[1] الرِّضَا وَرَوَاهُ عَنْ ... بَحْرِ الْعُلُومِ مُفَسِّرِ الْقُرْآنِ[2]

كُلُّ هؤلاء الذين اختاروا هذا القولَ أئمةٌ أَجَلُّ من الذين اختاروا ما ذهَبَ إليه ابنُ القيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-.

١١٧٤- وَيُرَجِّحُ الْقَوْلَ الَّذِي قَدْ قَالَهُ ... سَادَاتُنَا فِي فَرْقِهِمْ أَمْرَانِ:

قَوْلُهُ: «يُرَجِّحُ» أي: قولُ الجمهورِ، وهذا مِن عَدْلِ ابنِ القيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ- وإنصافِه، حيثُ ذَكَرَ ما له وما عليه.

١١٧٥- إِحْدَاهُمَا: مَا فِي الصَّحِيحِ لِمَانِعٍ ... لِزَكَاتِهِ مِنْ هَذِهِ الأَعْيَانِ

قَوْلُهُ: «الأَعْيَانِ» جمع (عَيْن)، وهما الذَّهَبُ والفِضَّةُ.

١١٧٦- يُكْوَى بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَهْرُهُ ... وَجَبِينُهُ وَكَذَلِكَ الْجَنْبَانِ

١١٧٧- خَمْسُونَ أَلْفًا قَدْرُ ذَاكَ الْيَوْمِ فِي ... هَذَا الْحَدِيثِ وَذَاكَ ذُو تِبْيَانِ

وهذا يُؤَيِّدُ قولَ الجمهور، وأنَّ المُرَاد بخمسين ألف سنة في سورة ﴿سَأَلَ﴾ [المعارج:١] يومُ القيامةِ، ولهذا قال:

١١٧٨- فَالظَّاهِرُ الْيَوْمَانِ فِي الْوَجْهَيْنِ يَوْ ... مٌ وَاحِدٌ مَا إِنْ هُمَا يَوْمَانِ

قَوْلُهُ: «الظَّاهِرُ الْيَوْمَانِ فِي الْوَجْهَيْنِ يَوْمٌ وَاحِدٌ» يَعْنِي بذلك: اليومَ الذي في ﴿سَأَلَ﴾ [المعارج:١]، واليومَ الذي في الحديثِ أنهما يومٌ واحدٌ.

---

(١) لعله **الحسن البصري**: أبو سعيد الحسن بن يسار، إمام أهل البصرة، وحَبر الأُمة في زمنه، ولد بالمدينة سنة (٢١هـ)، وشب في كنف علي بن أبي طالب، وتوفي بالبصرة سنة (١١٠هـ). انظر ترجمته في: تهذيب الكمال (٦/ ٣٦٣).

(٢) لعله عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، ابن عم رسول الله ﷺ بحر العلم وترجمان القرآن.

قَوْلُهُ: «مَا إِنْ هُمَا يَوْمَانِ»، (ما) نافية، و(إنْ) زائِدة، ونظيرُ هذا قولُ الشاعر العربي:

بَنِـي غُدَانَـةَ مَـا إِنْ أَنْـتُمُ ذَهَبًـا وَلَا صَرِيفًا وَلَكِنْ أَنْتُمُ الـخَزَفُ[1]

الشاهد قَوْلُهُ: «مَا إِنْ أَنْتُمُ ذَهَبًا»، (إِنْ) هنا زائِدة، والتقدير: (ما أنتم ذهب).

١١٧٩- قَـالُوا: وَإِيـرَادُ السِّـيَاقِ يُبَـيِّنُ الْـ ـمَضْمُونَ مِنْـهُ بِأَوْضَـحِ التِّبْيَـانِ

قَوْلُهُ: «قَالُوا» أي: الجمهورُ.

قَوْلُهُ: «وَإِيرَادُ السِّيَاقِ يُبَيِّنُ الْـمَضْمُونَ مِنْهُ بِأَوْضَحِ التِّبْيَانِ» وسبقتْ هذه القاعدة في كلامِ ابنِ القَيِّم: أنَّ السِّياقَ يُعَيِّنُ المعنى المُرادَ.

١١٨٠- فَانْظُرْ إِلَى الإِضْمَارِ ضِمْنَ (يَرَوْنَـهُ) و(نَـرَاهُ) مَـا تَفْسِـيرُهُ بِبَيَـانِ

١١٨١- فَالْيَوْمُ بِالتَّفْسِـيرِ أَوْلَـى مِـنْ عَـذَا بٍ وَاقِـعٍ لِلْقُـرْبِ وَالـجِيرَانِ

نقرأ دائِمًا قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج:١-٧]، الضمير في (يرونه) هل يعود على (العَذاب) أو يعود على (اليومِ)؟ ابنُ القَيِّم يقولُ: إنه يعودُ إلى (اليوم).

قَوْلُهُ: «فَالْيَوْمُ بِالتَّفْسِيرِ أَوْلَى مِنْ عَذَابٍ وَاقِعٍ» لماذا؟ الجَوابُ: للقُرْبِ، لأنَّ الضميرَ يَعُودُ إلى أقربِ مَذْكورٍ، ولكننا نقولُ في الجَوابِ عن هذا: حتَّى وإن قُلْنَا:

(١) البيت من البسيط، وهو غير منسوب، انظر: مختار الصحاح، مادة: صرف.

إنه عائِدٌ إلى (اليوم) ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج:٦-٧] نقولُ: نعم، حتى لو عاد إلى (اليوم) لا إلى (العذاب)، فإنَّ العذابَ أين يقع؟ الجَوَابُ: في اليوم، فإذا قَرُبَ العذابُ قَرُبَ اليومُ، وإذا بَعُدَ العذابُ بَعُدَ اليومُ.

وعندي أنه لا فرقَ بين أنْ نقولَ: إنَّ الضميرَ يعودُ على (اليوم)، أو إنه يعودُ على (العذاب)، فهو على كُلِّ تقديرٍ لا يَدُلُّ على ما ذَهَبَ إليه ابنُ القَيِّم -رَحِمَهُ اللهُ- بل إنهم يَرَوْنَ هذا اليومَ بَعِيدًا ونَرَاه قَرِيبًا، بل إنهم أَنْكَرُوا هذا اليومَ، قَالَ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس:٤٨]، أو إنهم يرون العذابَ بعيدًا، ونراه قريبًا، بل هم أنكروه، واستبعدوه، ولا فرق، ولكن الذي يَتَبَيَّنُ به المعنى أنْ نَقُولَ: قَوْلُهُ: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ﴾ [السجدة:٥] هل هو متعلِّقٌ بـ﴿تَعْرُجُ﴾ [المعارج:٤] أو متعلِّقٌ بـ﴿وَاقِعٍ﴾ [المعارج:١]؟

الجَوَابُ: نَقُولُ: متعلِّقٌ بـ(واقع) أي: واقع في هذا اليوم ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:١-٤]، وقولُه تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ تبعٌ لقَوْلِه: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾، وانقطع الكلامُ بها.

وحتَّى لو قُلْنَا: إنَّ قولَه: ﴿إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ﴾ متعلِّقٌ بـ(تَعْرُجُ)، فإنه لا يَتعيَّنُ به ما ذَهَبَ إليه ابنُ القيِّمِ، لأنَّ من الجائِز أنَّ قَوْلَه تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ في ذلك اليوم، يَعْنِي: يوم القيامة، ولا مانع، فإنَّ الملائِكةَ في ذلك اليوم قد تعرجُ إلى الله عزَّ وجلَّ بما شاء الله.

وعلى كُلِّ تقديرٍ فإنَّ ما ذَهَبَ إليه ابنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ- يدلُّ على أنَّ الإنسانَ مهما بلغ في العلم فإنه لا يخلو من الخطأ -فيما نرى- والعِلْمُ عندَ الله.

١١٨٢- وَيَكُونُ ذِكْرُ عُرُوجِهِمْ فِي هَذِهِ الـدْ دُنْيَـا وَيَـوْمَ قِيَامَـةِ الأَبْـدَانِ

قَوْلُهُ: «**وَيَكُونُ ذِكْرُ عُرُوجِهِمْ**» أي: عُروجِ الملائِكةِ.

قَوْلُهُ: «**فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ قِيَامَةِ الْأَبْدَانِ**»، يَعْنِي: أنَّ عروجَهم في الدنيا ويوم القيامة خَمْسون ألفَ سنةٍ.

لكن نَقُولُ له -رَحِمَهُ اللهُ-: أين في الآيةِ أنها تَعْرُجُ في الدنيا إلى الله في يومٍ كان مقدارُه خَمْسين ألفَ سنةٍ؟!

إذا جعلْنا قولَه تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ﴾ متعلِّقٌ بـ(**تعرُج**)، لَزِمَ أنْ يكونَ العروجُ يومَ القيامةِ، فكيف يقولُ -رَحِمَهُ اللهُ-: (**ذِكْرُ عُرُوجِهِمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ قِيَامَةِ الْأَبْدَانِ**)؟! لأنَّ الله لم يَذْكُر أنهم يَعْرُجونَ في هذه الدنيا خَمْسين ألفَ سنةٍ، والذي في سورة: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ [السجدة:١-٢] ما الذي يعرج؟

الجَوَابُ: الأمر، وليس الملائِكة، ولا ذُكِرَت الملائِكةُ إطلاقًا كما قَالَ تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة:٥].

١١٨٣- فَنُزُولُـهُمْ أَيْضًـا هُنَالِـكَ ثَابِـتٌ كَنُزُولِـهِمْ أَيْضًـا هُنَـا لِلشَّـانِ

قَوْلُهُ: «**هُنَالِكَ**» الإشارة إلى يومِ القيامةِ.

قَوْلُهُ: «**ثَابِتٌ**»، لِأَنَّهُ ثَبَتَ أنَّ الملائِكةَ تَنْزِلُ من السَّماء، كما قَالَ تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢].

قَوْلُهُ: «**كَنُزُولِـهِمْ أَيْضًا هُنَا لِلشَّانِ**» أي: في الدنيا كما قَالَ تعالى في نزولهم في الدنيا: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر:٤].

١١٨٤- وَعُرُوجُهُمْ بَعْدَ القَضَا كَعُرُوجِهِمْ أَيْضًا هُنَا فَلَهُمْ إِذَنْ شَأْنَانِ

قَوْلُهُ: «عُرُوجُهُمْ» أي: يوم القيامة.

قَوْلُهُ: «بَعْدَ القَضَا» يَعْنِي: بعد أنْ يَقْضِيَ اللهُ تعالى بين الخلائِقِ، والملائِكةُ صفوفٌ، وينتهي الأمرُ، تَعرُجُ الملائِكةُ كما قَالَ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥].

قَوْلُهُ: «كَعُرُوجِهِمْ أَيْضًا هُنَا» وهل هم يَعْرُجُونَ هنا؟

الجَوَابُ: نعم، الملائكةُ يَعْرُجُونَ من الأرضِ إلى السَّماءِ، ومن ذلك الملائِكةُ الموكَّلونَ بحفظِ الإنسانِ، فإنَّ للإنسانَ ملائِكةً مُوَكَّلِينَ به في الليلِ، وملائِكةً في النهارِ، إذا جاءت ملائِكةُ النهارِ عَرَجَتْ ملائِكةُ الليلِ، وإذا جاءت ملائِكةُ الليلِ عَرَجَتْ ملائِكةُ النهارِ.

١١٨٥- وَيَزُولُ هَذَا السَّقْفُ يَوْمَ مَعَادِنَا فَعُرُوجُهُمْ لِلْعَرْشِ وَالرَّحْمَنِ

يقول: إنَّ السقفَ الذي هو السَّماء يزولُ، ودليلُ هذا قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، وإذا كان كذلك، يَبْقَى عُروجُهم من الأرضِ إلى العَرْشِ رأسًا، ولهذا قال: (فَعُرُوجُهُمْ لِلْعَرْشِ وَالرَّحْمَنِ).

١١٨٦- هَذَا وَمَا اتَّضَحَتْ لَدَيَّ وَعِلْمُهَا الْـ ـمَوْكُولُ بَعْدُ لِمُنْزِلِ القُرْآنِ

أكثرُ النسخِ (وَمَا اتَّضَحَتْ)، لكن توجد نسخة، وعليها شرح ابن عيسى -رَحِمَهُ اللهُ-: (هَذَا وَمَا نَضِجَتْ لَدَيَّ) والنُّضْجُ بمعنى الكمال، ومنه نَضِجَتِ اللحمةُ، ونَضِجَ الطعامُ، يَعْنِي: كَمُلَ واستوى.

كَأَنَّ المؤلِّفَ -رَحِمَهُ اللهُ- في النهايةِ شَكَّ في الأمرِ، وقال: إنها ما نَضِجَتْ.

والحقيقةُ أنَّ هذه تُعْتَبَرُ مرتبةً ثانيةً بعدَ أن بَحَثَ وناقَشَ -رَحِمَهُ اللهُ-، ففي النهاية تَرَدَّدَ.

فعندَنا الآن ثلاثةُ مَقاماتٍ:

جَزْمٌ بأنَّ اليومين واحدٌ، وجَزْمٌ بأنَّ اليومين مختلفان، وتَرَدُّدٌ كما في حالِ ابنِ القَيِّمِ أخيرًا.

والصوابُ الجَزْمُ بأنهما يومان، والسِّياقانِ لا يَتَّفِقانِ أصلًا، بل يختلفان في أُمور:

أولًا: يختلفان في العَدَد: هذا ألفٌ، وهذا خمسون ألفًا.

ثانيًا: يختلفان في الذي يَعْرُجُ: ففي ﴿الٓمٓ ① تَنزِيلُ﴾ [السجدة:١-٢] الذي يَعْرُجُ الأَمْرُ، وفي ﴿سَأَلَ﴾ [المعارج:١] الذي يَعْرُجُ الملائِكةُ.

ثالثًا: يشهد لِلَّذِي في ﴿سَأَلَ﴾ الحديثُ الصحيحُ أنَّ المُرَادَ بذلك يومُ القيامة (يوم المعاد).

فإذا كان كذلك فكيف يُشْكِلُ الأمرُ؟!

فالصوابُ المقطوعُ به أَنَّ ما ذُكِرَ في ﴿الٓمٓ ① تَنزِيلُ﴾ [السجدة:١-٢]، هو يومٌ في الدنيا، أي: أَنَّ اللهَ يُدَبِّرُ الأمرَ من السَّماءِ الدنيا إلى الأرضِ، ثُمَّ يَعْرُجُ إليه في يومٍ كان مقدارُه ألفَ سنة: خمسمائة للنزول، وخمسمائة للعروجِ، وينتهي الأمر.

وفي يوم القيامة يُعَذَّبُ الكافرون، أو يقعُ بهم العذابُ في يومٍ كان مقدارُه خمسين ألفَ سنةٍ، وإن شِئتَ فقُلْ: تعرجُ الملائِكةُ والرُّوحُ إلى اللهِ في ذلك اليومِ الذي مقداره خمسون ألفَ سنةٍ، ولا مانعَ أنْ يكونَ لهم عروجٌ في ذلك اليوم.

لكن مع ذلك نحن نرى أنَّ الذي في سورةِ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ [السجدة:١-٢] هو مقدار المسافة ما بين الأرضِ والسَّماءِ، وأنَّ ما في سورة المعارجِ هو مقدارُ الزمنِ، يَعْنِي: أنَّ اليومَ طويلٌ، لا أنَّ المساحةَ كبيرةٌ، بل اليوم طويلٌ مقدارُه خمسون ألفَ سنةٍ، ثُمَّ بعدَ ذلك ينتهي كُلُّ شَيْء، ويعود أهلُ الجنةِ إلى الجنة، وأهلُ النار إلى النار.

قَوْلُهُ: «بَعْدُ» أي: بعد أنْ ناقَشَ هذه المناقشة. ثُمَّ قال:

١١٨٧- وَأَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْ جَزْمٍ بِلا ۞ عِلْمٍ وَهَذَا غَايَةُ الإِمْكَانِ

قَوْلُهُ: «وَأَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْ جَزْمٍ بِلَا عِلْمٍ»، استعاذَ بالله من أنْ يَجْزِمَ بأحدِ القولينِ بلا علم، وهذا هو الواجِبُ على كُلِّ مسلمٍ، فكُلُّ مؤمنٍ إذا كان عندَه تَرَدُّدٌ في الأمرِ لا يجوزُ أنْ يَجزِمَ به، وهذا دَأْبُ السَّلَفِ: الإمامُ أحمد -رَحِمَهُ اللهُ- وهو من أئمةِ السَّلفِ، إذا سُئِلَ عن شَيْءٍ، قال: أرجو، أو يُعْجِبُني، أو لا يُعْجِبُني، أو لا أقولُ، أو أجبنُ عن هذا، أو ما أَشْبَهَ ذلك من الكلمات التي تدلُّ على وَرَعِه -رَحِمَهُ اللهُ-.

لكن عندنا في الوقت الحاضر -ما شاء الله- شبابٌ في أوَّل درجةٍ من طلب العلم يقولُ عن مسألة يَتردَّدُ فيها الفحولُ من أهل العلم: هذه حرامٌ قطعًا، وهذا واجبٌ قطعًا، ويجبُ الموالاةُ والمعاداةُ على هذه المسألةِ.

وهذا خطأ عظيم، والواجبُ أنَّ الإنسانَ يَتأدَّبُ معَ الله، لأنَّ الذي يُفتي أو يقولُ يتكلَّمُ عن الله وعن شريعةِ الله، والعلماءُ ورثةُ الأنبياء، وخلفاءُ الأنبياء، فيَجِبُ أنْ يتأنَّى، وألا يَجْزِمَ بالشيء إلَّا بعلمٍ، ولهذا أعوذُ بالله من جزمٍ بلا علمٍ.

الجزمُ لا بُدَّ له من عِلم، ولا يكفي الظنُّ، بل لا بُدَّ من عِلمٍ، ولكنَّ الإنسانَ بَشَرٌ قد لا يستوعبُ الأدلةَ، وقد لا يستوعبُ فَهْمَها، ففي مثل هذه الحال يقولُ:

هذا فيما أَعلمُ، هذا في غالب ظنِّي. وما أشبه ذلك، أمَّا أنْ يَجْزِمَ بلا علم وتكون بضاعتُه من العلم مزجاةً[١]، لم يعرف إلَّا حديثًا أو حَدِيثَيْنِ، أو تفسيرَ آيةٍ أو آيَتَيْنِ، ثُمَّ يقولُ على لِسان حالِهِ: (أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَاَّعُ الثَّنَايَا)[٢] هذا ليس بصحيح، والواجب أنَّ الإنسانَ يتأدَّبُ في شَرْعِ الله عزَّ وجلَّ، ونسألُ اللهَ أنْ يجعلنا كذلك.

قَوْلُهُ: «وَهَذَا غَايَةُ الْإِمْكَانِ» جزاه الله خيرًا، يَعْنِي: هذا غايةُ ما تمكَّنْتُ منه، عَرَضتُ عليك البحثَ والمناقشةَ، وأنا مع ذلك لَمْ تَنْضَجْ عندي، وَلَمْ تَتَّضِح لي.

وهذا -والله- غايةُ الوَرَع، وغايةُ التقوى، رجلٌ بهذا المِقْدارِ من العلم، والفهم، وحفظ النَصوص يَصِلُ إلى حدِّ التوقُّفِ، ويستعيذُ بالله عزَّ وجلَّ أنْ يجزمَ بلا علمٍ، وهؤلاء هم العلماء الأخيار الأطهار، فعلى الإنسانِ أنْ يتوقَّفَ عند منتهى علمه، والشيء الذي لا يعلمُه لا يُكَلَّفُ به، وحسبه أنْ يقولَ: اللهُ أعلمُ بما أرادَ في كلامه، ولذا قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-:

١١٨٨- واللهُ أَعْلَمُ بِالْمُرَادِ بِقَوْلِهِ وَرَسُولُهُ الْمَبْعُوثُ بِالْفُرْقَانِ

قَوْلُهُ: «اللهُ أَعْلَمُ بِالْمُرَادِ بِقَوْلِهِ» صحيحٌ -والله- فاللهُ أعلمُ، ولهذا نَجِدُ أنَّ المُحرِّفينَ لكلامِ الله عن ظاهرِه ادَّعَوْا لأنفسِهم أنهم أعلمُ بالله من الله.

فمثلًا قالوا: ليسَ لله عينٌ مع أنَّ اللهَ قال: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤].

وقالوا: ليس لله يدٌ، مع أنَّ اللهَ قال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥].

---

(١) أي: قليلة. انظر: لسان العرب، مادة: زجا.

(٢) هذا شطر بيت من الوافر، وهو لسحيم بن وثيل، وشطره الثاني: متى أضع العمامة تعرفوني. انظر: لسان العرب، مادة: جلا.

وقالوا: ليس لله وجهٌ، مع أنَّ اللهَ قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧] وهَلُمَّ جَرًّا.

فهؤلاء نقولُ لهم: اللهُ أعلمُ أم أنتم؟ فإن قالوا: نحن، فيا وَيْلَهُم، وإن قالوا: اللهُ أعلمُ، قُلْنَا: الْزَمُوا ما أَخْبَرَ اللهُ به، ولا تَتَعَدَّوْه.

قَوْلُهُ: «وَرَسُولُهُ الْـمَبْعُوثُ بِالْفُرْقَانِ» لماذا لم يَقُلْ بالقرآنِ؟ الجَوَابُ: لأنَّ المَقامَ مَقامُ فرقٍ وتفريقٍ، فكان ذِكْرُ الفرقانِ أولى من ذِكْرِ القرآنِ، ولا شكَّ أنَّ القرآنَ فرقانٌ، قَالَ اللهُ -تبارك وتعالى-: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، وقَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥]، فالقرآنُ فرقانٌ، والله لو تمسَّكنا به ورَجَعْنا إليه ما بَقِي عندنا مشكلةٌ، لكن المشكلة في الإعراض الَّذي هو التقصير، أو من عدم الآلة الذي هو القصور، فالإنسانُ يُؤْتَى إمَّا من تقصيره، أو قصوره، أو سوء نِيَّته، أمَّا إذا اجتمَعَ حسنُ النِّيةِ، وقوةُ الفَهْم، وكثرةُ العلم فإنَّ الغالبَ أنْ يُوفَّقَ الإنسانُ للصوابِ.

* * *

فصل

١١٨٩- هَـذَا وَخَامِسُـهَا: صُـعُودُ كَلَامِنَـا ... بِالطَّيِّبَــاتِ إِلَيْــهِ وَالْإِحْسَــانِ

١١٩٠- وَكَذَا صُعُودُ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِــحَا ... تِ إِلَيْـهِ مِـنْ أَعْـمَالِ ذِي الْإِيـمَانِ

١١٩١- وَكَذَا صُـعُودُ تَصَـدُّقٍ مِـنْ طَيِّـبٍ ... أَيْضًــا إِلَيْــهِ عِنْــدَ كُـلِّ أَوَانِ

١١٩٢- وَكَذَا عُـرُوجُ مَلَائِـكٍ قَـدْ وُكِّلُـوا ... مِنَّــا بِــأَعْمَالٍ وَهُــمْ بَــدَلَانِ

١١٩٣- فَإِلَيْــهِ تَعْــرُجُ بُكْــرَةً وَعَشِــيَّةً ... وَالصُّـبْحُ يَجْمَعُهُـمْ عَـلَى الْقُـرْآنِ

١١٩٤- كَيْ يَشْهَدُونَ وَيَعْرُجُونَ إِلَيْـهِ بِالْــ ... أَعْـمَالِ سُـبْحَانَ الْعَظِـيمِ الشَّـانِ!

١١٩٥- وَكَذَاكَ سَعْيُ اللَّيْلِ تَرْفَعُهُ إِلَى الرَّ ... رَحْمَـنِ مِـنْ قَبْـلِ النَّهَـارِ الثَّانِـي

١١٩٦- وَكَـذَاكَ سَـعْيُ الْيَـوْمِ يَرْفَعُـهُ لَـهُ ... مِـنْ قَبْـلِ لَيْـلٍ حَـافِظُ الْإِنْسَـانِ

١١٩٧- وَكَذَاكَ مِعْرَاجُ الرَّسُولِ إِلَيْـهِ حَـقْ ... قٌ ثَابِـتٌ مَـا فِيـهِ مِـنْ نُكْـرَانِ

١١٩٨- بَلْ جَاوَزَ السَّبْعَ الطِّبَاقَ وَقَـدْ دَنَـا ... مِنْــهُ إِلَى أَنْ قُــدِّرَتْ قَوْسَــانِ

١١٩٩- بَلْ عَادَ مِـنْ مُوسَـى إِلَيْـهِ صَـاعِدًا ... خَمْسًا عِدَادَ الْفَرْضِ فِي الْـحُسْبَانِ

١٢٠٠- وَكَذَاكَ رَفْعُ الرُّوحِ عِيسَى الْمُرْتَضَى ... حَقًّــا إِلَيْــهِ جَــاءَ فِي الْقُــرْآنِ

١٢٠١- وَكَذَاكَ تَصْعَدُ رُوحُ كُـلِّ مُصَـدِّقٍ ... لَــمَّا تَفُــوزُ بِفُرْقَــةِ الْأَبْــدَانِ

١٢٠٢- حَقًّـا إِلَيْـهِ كَـيْ تَفُـوزَ بِقُرْبِـهِ وَتَعُـودَ يَـوْمَ الْعَـرْضِ لِلْجُـثْمَانِ

١٢٠٣- وَكَذَا دُعَا الْـمُضْطَرِّ أَيْضًا صَاعِدٌ أَبَـدًا إِلَيْـهِ عِنْـدَ كُـلِّ أَوَانِ

١٢٠٤- وَكَذَا دُعَا الْـمَظْلُومِ أَيْضًا صَاعِدٌ حَقًّـا إِلَيْـهِ قَـاطِعَ الْأَكْـوَانِ

الشـرحُ

في هذا الفصلِ ذَكَرَ المؤلفُ -رَحِمَهُ اللهُ تعالى- بعض أنواعِ أَدِلَّةِ العُلُوِّ، ومنها صعودُ الأشياءِ إلى الله عزَّ وجلَّ والصعودُ إلى الشيء يَدُلُّ على علوِّه، لأنَّ الصعودَ يكونُ من أسفل إلى أعلى، فإذا أضاف اللهُ الشيءَ إلى نفسِه صاعدًا، عُلِمَ أنَّ اللهَ تعالى في العُلُوِّ.

قَالَ المؤلفُ -رَحِمَهُ اللهُ-:

١١٨٩- هَـذَا وَخَامِسُـهَا: صُـعُودُ كَلَامِنَـا بِالطَّيِّبَـاتِ إِلَيْـهِ وَالْإِحْسَـانِ

ذكَرَ أوَّلًا صعودَ كلامِنا بالطيِّباتِ إليهِ والإحسانِ، قَالَ الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠].

الكَلِمُ الطيِّبُ: كُلُّ ما طَابَ، وضِدُّه الكَلِمُ الخبيثُ، فالذِّكْرُ، وقراءةُ القرآنِ، والأمرُ بالمعروفِ، والنهيُ عن المُنكرِ، وتعليمُ العلمِ الشرعيِّ، كُلُّ هذا من الكَلِمِ الطيِّبِ. والسَّبُّ، والشَّتمُ، واللعنُ، والقذفُ، وما أَشْبَهَه من الكَلِمِ الخبيثِ.

١١٩٠- وَكَذَا صُعُودُ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِـحَا تِ إِلَيْـهِ مِـنْ أَعْـمَالِ ذِي الْإِيـمَانِ

قَوْلُهُ: «الْبَاقِيَاتِ الصَّالِـحَاتِ» هي كُلُّ عملٍ صالحٍ، قَالَ اللهُ -سبحانه وتعالى-: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا

وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف:٤٦]، فالباقياتُ الصالحاتُ كُلُّ الأعمالِ الصالحةِ، ويدخُلُ في ذلكَ الذِّكْرُ، والصومُ، والحجُّ والصلاةُ، وغيرُ ذلك.

يقول المؤلف: إنها تُرْفَعُ إلى الله لقَوْلِه: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾، مَنْ يَرْفَعُه؟ الجَوَابُ: اللهُ عزَّ وجلَّ، فيَصْعَدُ إليه الكَلِمُ الطيِّبُ، والعملُ الصالحُ يَرْفَعُه اللهُ إليه ويقبَلُه.

١١٩١- وَكَذَا صُعُودُ تَصَدُّقٍ مِنْ طَيِّبٍ أَيْضًا إِلَيْهِ عِنْدَ كُلِّ أَوَانِ

قَوْلُهُ: «تَصَدُّقٍ مِنْ طَيِّبٍ» التَّصَدُّقُ من الطيِّبِ، أي: من الكَسْبِ الطَّيِّبِ، وقد جاء في الحديث: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ -وَلاَ يَصْعَدُ إِلَى اللهِ إِلاَّ الطَّيِّبُ- فَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْـجَبَلِ»(١)، هذا إذا تَصَدَّقَ من طَيِّبٍ، أمَّا إذا تَصَدَّقَ من غيرِ طَيِّبٍ، فإنَّ اللهَ لا يَقْبَلُه كما قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»(٢).

١١٩٢- وَكَذَا عُرُوجُ مَلَائِكٍ قَدْ وُكِّلُوا مِنَّا بِأَعْمَالٍ وَهُمْ بَدَلَانِ

قَوْلُهُ: «عُرُوجُ مَلَائِكٍ» أشار إليه النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام- في قَوْلِهِ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤]، رقم (٦٩٩٣)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم (١٠١٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب لا يقبل الله صدقة من غلول، ولا يقبل إلا من كسب طيب، برقم (١٣٤٤).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، برقم (٦٣٢).

١١٩٣- فَإِلَيْهِ تَعْرُجُ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً وَالصُّبْحُ يَجْمَعُهُمْ عَلَى الْقُرْآنِ

١١٩٤- كَيْ يَشْهَدُونَ وَيَعْرُجُونَ إِلَيْهِ بِالْـ أَعْمَالِ سُبْحَانَ الْعَظِيمِ الشَّانِ!

ولهذا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨]، يجتمعُ في صلاةِ الصبحِ ملائِكةُ الليلِ وملائِكةُ النهارِ، ثُمَّ تَصْعَدُ ملائِكةُ الليلِ، وتبقى ملائِكةُ النهارِ.

وهذا من عظمة الله عزَّ وجلَّ أنَّ هؤلاء الملائِكةَ المُوكَّلونَ بحفظِ بني آدمَ يتعاقبون بانتظامٍ عندَ صلاةِ الصبحِ وعندَ صلاةِ العصرِ، ولهذا ينبغي للإنسانِ أنْ يستحضرَ هذا وهو يصلِّي الفجرَ، وهو أنَّ الملائِكةَ المُوكَّلينَ بحفظِ بني آدم مجتمعون في هذه الصلاةِ، وكذلك عندَ صلاةِ العصرِ، لكننا -والله- نَغْفُل كثيرًا حتَّى تمَّرَّ بنا هاتانِ الصلاتانِ، وكأنهما بقيةُ الصلواتِ، وهذا أمرٌ سَبَبُه الغفلةُ عن هذه الأمورِ العظيمةِ، وإلَّا فإنك لو استحضرتَ وأنت تصلِّي الفجرَ أنَّ ملائِكةَ الليلِ وملائِكةَ النهارِ شاهدون معك في هذه الصلاة، وكذلك في العصر، لوجدتَ لِهاتيْنِ الصلاتينِ شأنًا كبيرًا، وأمرًا عظيمًا، لا تَجِدُه في غيرِهما.

١١٩٥- وَكَذَاكَ سَعْيُ اللَّيْلِ تَرْفَعُهُ إِلَى الرَّ حْمَنِ مِنْ قَبْلِ النَّهَارِ الثَّانِي

١١٩٦- وَكَذَاكَ سَعْيُ الْيَوْمِ يَرْفَعُهُ لَهُ مِنْ قَبْلِ لَيْلٍ حَافِظُ الْإِنْسَانِ

هذا فيه أنَّ الملائِكةَ السابِقِينَ يَحْفظونَ الإنسانَ، وهناك ملائِكةٌ أُخْرَى تَحْفَظُ عملَ كُلِّ إنسانٍ بِنَفْسِه قَالَ الله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٧]، كُلُّ هؤلاء يَرْفعونَ ما كَتَبوا إلى الله عزَّ وجلَّ.

١١٩٧- وَكَذَاكَ مِعْرَاجُ الرَّسُولِ إِلَيْهِ حَقْ ... قٌ ثَابِتٌ مَا فِيهِ مِنْ نُكْرَانِ

معراجُ الرسول إلى الله عزَّ وجلَّ، وذلك ليلة الإسراء، وكان في ربيعٍ الأوَّل على المشهور قبل الهجرة بنحو ثلاث سنوات.

عُرِجَ بالنَّبِيِّ ﷺ إلى السموات السَّبعِ ببَدنِه ورُوحِه، ليسَ بالرُّوحِ فقطْ، لو كان بالرُّوحِ فقطْ ما أنْكَرَتْه قريشٌ، لأنَّ المناماتِ لا تُنْكَرُ، لكنَّه عُرِجَ به بجَسَدِه وروحِه ﷺ، أوَّلًا أُسْرِيَ به من المسجد الحرام من الحِجْر الذي هو الحَطِيم على البُرَاقِ بصُحْبةِ جِبْريلَ -عليهما السلام-.

وهذا البُرَاقُ دونَ البغلِ وفوقَ الحِمارِ، فهو دابةٌ عجيبةٌ، يَضَعُ خَطْوَه عند مُنْتَهَى طَرْفِهِ، الخَطْوةُ مَدُّ بَصرِهِ، وبَصَرُه قويٌّ بلا شكٍّ، ولذلك وَصَلَ إلى بيتِ المَقْدِسِ، وصلَّى بالأنبياءِ -عليهم الصلاة والسلام-، وَعَرَجَ به جِبْرِيلُ إلى السموات -سبحان الله- مسافاتٍ عظيمةً لا يعلمُها إلَّا اللهُ، وكان هذا في ليلةٍ واحدةٍ، يَستفتِحُ جبريلُ، فيقال: «مَن هذا؟ فيَقولُ: جِبْرِيلُ. قيل: ومنَ معَكَ؟ قال: مُحَمَّدٌ. قيل: وَقَدْ أُرسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ»[1]، ومرَّ على الأنبياء والرُّسلِ في كُلِّ سماءٍ حتَّى وَصَلَ إلى السَّماءِ السَّابعةِ، إلى سِدْرةِ المُنتَهى، قال النبي ﷺ: «ثم عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوًى أَسْمَعُ صَرِيفَ الأَقْلامِ»[2]، التي تكتب ما يكونُ في اليوم والليلة، سَمِعَه النَّبيُّ -عليه الصلاة والسلام- وصَلَ إلى مكانٍ ما وصَلَ إليه بَشَرٌ، عُرِجَ به إلى الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم:٢]. برقم (٣٢٤٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأنبياء، باب ذكر إدريس -عليه السلام-، برقم (٣١٦٤). وصريف الأقلام: أي صوت جريانها. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: صرف.

قَوْلُهُ: «وكَذَاكَ مِعْرَاجُ الرَّسُولِ إِلَيْهِ حَقٌّ ثَابِتٌ» أي: بدَلَالةِ الكِتابِ والسُّنَّةِ، ففي سورة الإسراء دليلُ الإسراء، قَالَ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء:١]، وفي أول سورة النجم قصةُ المِعْراجِ، قَالَ -سبحانه وتعالى-: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم:١-١٨] هذه الآياتُ كُلُّها في المعراج.

١١٩٨- بَلْ جَاوَزَ السَّبْعَ الطِّبَاقَ وَقَدْ دَنَا مِنْهُ إِلَى أَنْ قُدِّرَتْ قَوْسَانِ

يُقرِّرُ المؤلفُ -رَحِمَهُ اللهُ- أيضًا: أنَّ الرسولَ عُرِجَ به إلى ما فَوْقَ السموات السَّبعِ، حتَّى دنا من الرحمنِ عزَّ وجلَّ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾، يَعْنِي: قَدْرَ قوسين أو أدنى من ذلك.

وهذا الذي ذَهَبَ إليه المؤلفُ ذَهَبَ إليه كثيرٌ من المفسِّرين، وهو أنَّ المُرَادَ بقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ اللهُ عزَّ وجلَّ.

ولكنَّ القولَ الصحيحَ أنَّ المُرَادَ به جبريلُ، وليس اللهَ -سبحانه وتعالى-، وأنَّ اللهَ لم يَدْنُ فيتدلَّى حتَّى كان قابَ قوسينِ أو أدنى، لأنَّ اللهَ تعالى قد ثبت له العُلُوُّ المُطْلَقُ، والتدلِّي ضدُّ العُلُوِّ، أمَّا الدنوُّ فليسَ ضِدَّ العُلُوِّ، لكنَّ التدلِّيَ مأخوذٌ من الدَّلْو إذا هَبَطَ في البئرِ، فهذا ينافي العلوَّ، ولهذا ذكَرَ المؤلفُ في هذه النونيَّة هذا

القولَ الذي مَشَى عليه، وذكَرَ في موضعٍ آخَرَ في (**التبيان فِي أقسام القرآن**) أنَّ الذي دنا فتدلَّى هو جبريل، وهذا هو الصحيح بل هو مُتَعَيِّنٌ، لأنَّ الدلالةَ اللفظيةَ والمعنويةَ كُلَّها تؤيِّدُ ذلك.

أمَّا الدلالةُ اللفظيَّةُ فسياقُ الكلامِ يرجعُ فيه الضميرُ إلى مرجعٍ واحدٍ، ولنقرأ قولَه تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ وهو جبريل، ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ جبريل أيضًا ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ جبريل، ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ من الأفق الأعلى ﴿فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾، الذي دنا فتدلَّى هو جبريلُ، فجبريلُ دنا من محمد، لِأَنَّهُ قال: ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ ولو كان الدنو من الله لقال: (فصَعِدَ).

بَقِي علينا قولَه تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾، ليس هناك مانعٌ أنْ يكونَ المعنى: أوحى جبريلُ إلى عبد الله، فيكون فاعِلَ (أَوْحَى) جبريلُ، والضمير في ﴿عَبْدِهِۦ﴾ يعودُ إلى الله عزَّ وجلَّ، واختلافُ الضميرَيْنِ هنا قد تَبَيَّن من السِّياقِ، لأنَّ محمدًا ﷺ لا يمكنُ أنْ يكون عبدًا لجبريلَ، أمَّا الوحيُ فيمكنُ أنْ يكونَ من الله، ويُمْكِنُ أنْ يكونَ من جبريلَ، ولهذا يُمْكِنُ أنْ نَقُولَ: إنَّ الضميرَ في (**أَوْحَى**) يَحْتَمِلُ أنْ يعودَ إلى جبريلَ كبقيةِ الضمائِرِ السابقةِ، ويَحْتَمِلُ أنْ يعودَ إلى (**الله**) (**فأَوْحَى اللهُ إلى عبدِه**).

ويجوز ذلك أيضًا من حيثُ المعنى، فقوله: ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾، لا يليقُ بالله، لأنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- لا يتدلَّى، لأنَّ التدلِّيَ هو السُّفول من الأعلى، ويؤيِّدُ ذلك من حيث المعنى قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾ [النجم:١٣-١٤]، يَعْنِي: مَرَّةً أُخْرَى، رأى النَّبيُّ ﷺ جبريلَ عندَ سِدْرة المنتهى، ولهذا ثبت في الحديث الصحيح أنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ لم يَرَهُ في صورتِه إلا مَرَّتَيْنِ:

مَرَّةً عندَ سِدْرةِ المُنْتَهى، ومَرَّةً في جِيادٍ، له سِتُّمائةِ جَنَاحٍ، قد سَدَّ الأُفُقَ(١).

وبهذا يَتبيَّنُ أنَّ ما ذَهَبَ إليهِ ابنُ القَيِّمِ في هذهِ المسألةِ قولٌ ضعيفٌ، وإن كان قد قَالَ به كثيرٌ من المفسِّرين.

لكن لا شكَّ أنَّ الرسولَ ﷺ عُرِج به إلى الله حتَّى جاوَزَ السَّبعَ الطِّباقَ، كما قَالَ المؤلف.

١١٩٩- بَلْ عَادَ مِنْ مُوسَى إِلَيْهِ صَاعِدًا خَمْسًا عِدَادَ الْفَرْضِ فِي الْحُسْبَانِ

عاد من موسى إلى الله، لأنَّ الرسولَ ﷺ فَرَضَ اللهُ عليه خمسين صلاةً، فَقبِلَ ورَضِيَ، وأسلمَ لله ظاهرًا وباطنًا، ولما نَزَلَ إلى جبريلَ إلى الأرض مَرَّ بموسى، وكان موسى -عليه الصلاة والسلام- قد غَبَطَ النَّبِيَّ -عليه الصلاة والسلام- على ما أعطاه الله من الفضائِلِ، فقَالَ له: ما الذي فرض اللهُ عليك وعلى أمتك؟ قال: فرض عَلَيَّ خمسينَ صلاةً في كُلِّ يومٍ وليلةٍ، قال: لا، إِنَّ أُمَّتَك لا تُطيق ذلك، إني قد جَرَّبْتُ الناسَ وعالَجْتُ بني إسرائِيل أشدَّ المعالجة، فاذهبْ إلى ربِّك فاسأله التخفيفَ لأمتك.

وهذا من توفيق الله عزَّ وجلَّ، لا في فرضها خمسين، ولا في تنبيه موسى للرسول ﷺ فرجَعَ إلى الله، صَعِدَ من موسى إلى الله، لأنَّ موسى في السَّماءِ السادسةِ، فرَجَعَ إلى الله عزَّ وجلَّ، وما زال يَتَردَّدُ بينَ موسى وبينَ الله، حتى صارت خمسًا في الفعلِ، وخمسين في الميزانِ(٢).

(١) أخرجه الترمذي: تفسير القرآن، سورة والنجم، برقم (٣٢٧٨).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء، رقم (٣٤٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، رقم (١٦٣).

والحمد لله، هل هي خمسون في الميزانِ لأنَّ الحسنةَ بعَشْرِ أمثالها؟ الجَوَابُ: لا، لِأَنَّهُ لو كان كذلك لم يَكُنْ للصلواتِ مَزِيَّةٌ، لكنَّ خمسين في الميزان على أننا نصلِّي خمسين بالفعلِ، وليس المُرَادُ الثوابَ، لأنَّ ثوابَ كُلِّ الحسنات هكذا، الحسنةُ بعشرِ أمثالها، فالخمسُ بخمسين، لكن المُراد أنها خمسٌ في الميزان، أي: أننا نُعْطَى أجرَ خمسين صلاةً، وهذا -والحمد لله- من نعمة الله، وهو أنَّ اللهَ خَفَّفَ عنَّا، وأعطانا ما فرَضَه علينا أوَّلًا.

١٢٠٠- وَكَذَاكَ رَفْعُ الرُّوحِ عِيسَى الْمُرْتَضَى حَقًّا إِلَيْهِ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ

وهذا موجودٌ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء:١٥٨]، وفي قَوْلِهِ: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [آل عمران:٥٥]، وفي هذا دليلٌ على أنَّ اللهَ في العُلُوِّ.

١٢٠١- وَكَذَاكَ تَصْعَدُ رُوحُ كُلِّ مُصَدِّقٍ لَـمَّا تَفُوزُ بِفُرْقَةِ الْأَبْدَانِ

نعم، تَصْعَدُ رُوحُ كُلِّ مُصَدِّقٍ -أي: مؤمن- إلى الله وتَخْرِق السموات حتَّى تَصِلَ إلى الله عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «لَـمَّا تَفُوزُ بِفُرْقَةِ الْأَبْدَانِ» أي: روحُ المؤمنِ تفوزُ إذا فارقت البدنَ، لكن كيف تفوزُ وكُلٌّ يكرهُ الموتَ؟!

نَقُولُ: هذا الإشكالُ أوردتْه عائِشةُ على النَّبِيِّ -عليه الصلاة والسلام-، حَدَّثَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- أنَّ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ» قَالَتْ: يَا رَسُولَ الله كُلُّنَا يَكْرَهُ الموْتَ. قَالَ: «لَيْسَ ذَاكَ»، يَعْنِي: لَيْسَ الأمرُ ما تظنِّينَ «المُؤْمِنُ إِذَا حَضَرَهُ الموتُ وبُشِّرَ بالجَنَّةِ

أَحَبَّ لِقَاءَ الله»[١] لِأَنَّهُ يُبَشَّرُ بنعيمٍ أكثرَ من الدنيا بآلافِ المراتِ ولا يُقَاسُ، فتُحِبُّ رُوحُه لقاءَ الله، وتَخْرُجُ وقد سَهُلَ عليها الخروجُ، حتَّى إنها تُسَلُّ من بَدَنِه كما تُسَلُّ الشعرةُ من العَجينِ، والشعرةُ من العجينِ سَلُّها سهلٌ.

لكنَّ روحَ الكافرِ -والعياذ بالله- إذا بُشِّرَتْ بالغضبِ والسَّخَطِ تفَرَّقَتْ في البَدَنِ -يَعْنِي: هَرَبَت- من سُوءِ ما بُشِّرَتْ به، فيَنْتزِعُها مَلَكُ الموتِ كما يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ من الصوفِ المَبْلولِ، والسَّفُّودُ: هو الذي يُغْزَلُ به، وهو عِبارةٌ عن خَشَبتين فيهما مساميرٌ يكون فيها الصوفُ، إذا نَشِبَ الصوفُ في هذا السَّفُّودِ لا يُستطاعُ أن يُنْزَع، فيَنْتَزِعُها الشخص بأشد ما يكون -والعياذ بالله- فتكرهُ لقاءَ الله[٢]، لِأَنَّهَا بُشِّرتْ بالعذاب والغَضَبِ وما يسوءُها، فلهذا قَالَ المؤلف: (**لَـمَّا تَفُوزُ بِفُرْقَةِ الْأَبْدَانِ**).

فهي إذا بُشِّرت بِرَوْحٍ ورَيْحانٍ وربٍّ غيرِ غَضْبَانَ تَفْرَحُ وَتُسَرُّ، يأخُذُها مَلَكُ الموتِ، ويُعطيها الملائِكةَ الذين حَضَروا، ومعَهم كفنٌ من الجَنَّة، وحَنُوطٌ من الجنة، فيجعلونها في هذا الكفنِ والحنوط، ثُمَّ يَصْعَدون بها إلى الله، فتُفْتَحُ لها أبوابُ السَّماءِ، بخلافِ المُكَذِّبِ، فإنهم يَصْعَدُونَ بها إلى السَّماءِ، ثم تُغْلَقُ أبوابُ السَّماءِ دونَها، وتُطْرَحُ على الأرضِ طَرْحًا -والعياذُ بالله- وهذا أشدُّ مـمَّا لو لم يَصْعَدُوا بها، لِأَنَّهَا لو بَقِيت في الأرضِ كان أهونَ من أنْ يَصْعَدُوا بها إلى السَّماءِ، ثُمَّ تُرَدُّ من هناك[٣].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، رقم (٦١٤٢)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، رقم (٢٦٨٣).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧، رقم ١٨٥٥٧).

(٣) أخرجه النسائي: كتاب الجنائز، باب ما يلقى به المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه، رقم (١٨٣٣)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، رقم (٤٢٦٢).

إذَنْ رُوحُ الْمُؤمِنِينَ -اللَّهُمَّ اجعلنا وإِيَّاكم منهم- تفوزُ إذا فارقتِ البدنَ، لِأَنَّهَا تَنْتَقِلُ إلى خيرٍ مِمَّا انتقلتْ منه.

١٢٠٢- حَقًّا إِلَيْهِ كَيْ تَفُوزَ بِقُرْبِهِ وَتَعُودَ يَوْمَ الْعَرْضِ لِلْجُثْمَانِ

تفوزُ بقربِه، لِأَنَّهَا في الجنة تَسْرَحُ في أنهارِها وأشجارِها هناك، فإذا كان يومُ القيامةِ ونُفِخَ في الصُّورِ خرجت أرواحُ المؤمنين من هذا الصور، وعليها نورٌ، حتَّى تكونَ في الأبدانِ، فتَحُلَّ بالأبدانِ حُلولًا أبديًّا، ولا تخرجُ من هذا بَعْدُ.

١٢٠٣- وَكَذَا دُعَا الْمُضْطَرِّ أَيْضًا صَاعِدٌ أَبَدًا إِلَيْهِ عِنْدَ كُلِّ أَوَانِ

وهذا من رحمتِه عزَّ وجلَّ، أنه يُجِيبُ المضطرَّ إذا دعاه كُلَّ أوانٍ، حتَّى لو كان كافرًا، فإنَّ اللهَ يُجيبُه، لأنَّ رحمةَ الله سبقتْ غضبَه، والدليلُ على أنَّ الكافرَ تُجابُ دعوتُه عند الضرورة قولُ الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢]، ولم يَقُلْ: (الْمُؤمِن)، بل جَعَلَ سببَ الإجابةِ الاضطرارَ.

ومثالٌ واقعيٌّ أنهم إذا كانوا في الفُلْك، وهاجت بهم الأمواج، دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ له الدِّينَ، فيُنَجِّيهم، مع أنه يعلمُ أنهم سيُشْركون، قَالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥]، لكن مِن أَجْلِ اضطرارهم فإنَّ رحمةَ الله عزَّ وجلَّ تسبقُ غضبَه، فالمضطرُّ تَصْعَدُ دعوتُه إلى الله حتَّى يُجِيبَها عزَّ وجلَّ.

١٢٠٤- وَكَذَا دُعَا الْمَظْلُومِ أَيْضًا صَاعِدٌ حَقًّا إِلَيْهِ قَاطِعَ الْأَكْوَانِ

دعاءُ الْمَظْلومِ أيضًا يَصْعَدُ إلى الله، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِمُعَاذِ بنِ جَبَلٍ: «اتَّقِ دَعْوَةَ

المَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجَابٌ»[١].

تُرْفَعُ فَوْقَ السَّحابِ، ويُجِيبُ اللهُ تعالى دعاءَه، حتَّى وإن كان كافرًا، فالمظلومُ وإن كان كافرًا فإنَّ الله تعالى يُجِيبُ دعاءَه، لماذا؟ هل لأنَّ اللهَ يحبُّه؟ الجَوَابُ: لا، ولكن لأنَّ اللهَ يحبُّ العدلَ والإنصافَ، والإنصافُ للمظلوم من الظالم عدلٌ، وليس جَوْرًا، فلمَحبَّةِ الله للعدلِ يَقْبلُ اللهُ دعوةَ المظلومِ ولو كانَ كافرًا على مَنْ ظَلَمَه، ولهذا **يقولُ العلماءُ**: إننا نُعامِلُ الكافرَ والمؤمنَ على حدٍّ سواءٍ في بابِ القضاءِ والحُكْمِ مع أننا بشرٌ.

إذا جاء مؤمنٌ وكافرٌ يَخْتصمانِ إلى القاضي، فإنه لا يَجوزُ أنْ يُحابِيَ المُسلِمَ أبدًا، بل يَدْخُلانِ جميعًا، ويجلسان أمامَ القاضي جميعًا، ويَنْظُرُ إليهما نظرًا واحدًا، فلا ينظرُ إلى الكافر بوجهِ الغضبِ وإلى المسلمِ بوجهِ الرِّضا، لأنَّ المقامَ مَقامُ عدلٍ.

وهل يجوز أنْ يقومَ للمؤمنِ ولا يقومَ للكافر في باب المحاكمة؟

الجَوَابُ: لا، لأنَّ هذا خلافُ العدلِ، فإذا كنا نحن المنفِّذين لأحكامِ الله فيَجِبُ علينا العدلُ حتَّى مع الكُفَّار، فما بالك بالرَّبِّ الذي هو أعدلُ العادلينَ، فإنه إذا ظُلِمَ أحدٌ -ولو من الكُفَّار- فدعا اللهَ استجابَ له.

ويُذْكَرُ أنَّ بعضَ القُضاةِ كانَ له صِهرٌ -والصِّهرُ: هو قريبُ الزوجةِ- وكان هذا الصِّهرُ له خَصْمٌ، فجاء الصِّهْر ودخَلَ بيتَ القاضي، لِأَنَّ فيه ابنته، أو أخته، أو ما أشْبَهَ ذلك، وذلك لما أَحَسَّ بمجيء الخصمِ للمُخاصمةِ، وجاء القاضي ودخل البيت، ولم يكن يظنُّ أنَّ هناك خصومةً، فقال لصِهْره: ما الذي جاء بك؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، رقم (١٤٢٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩).

قال: بيني وبين فلانٍ خصومةٌ، قال: الخصومة مجلسُها غدًا -يَعْنِي: ليس في هذا اليوم الذي جئتَ فيه إلى بيتي- حتى أَفْصِلَ بينكما.

وهكذا يَجِب، لأنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ المُقْسطِينَ.

إذَنْ نقول: المظلومُ والمضطرُّ يجيبُ اللهُ دعوتَهما ولو كانا كافِرَيْنِ، أمَّا إجابة المضطرِّ، فلأنَّ رحمةَ الله سبقتْ غضبَه، وأمَّا إجابة المظلومِ فلأنَّ اللهَ حَكَمٌ عدلٌ، لا يَدَعُ للظالمين فرصةً.

****

فصل

١٢٠٥- هَذَا وَسَادِسُهَا وَسَابِعُهَا: النُّزُو ... لُ، كَذَلِكَ التَّنْزِيلُ لِلْقُرآنِ
١٢٠٦- وَاللهُ أَخْبَرَنَا بِأَنَّ كِتَابَهُ ... تَنْزِيلُهُ بِالْحَقِّ وَالْبُرْهَانِ
١٢٠٧- أَيَكُونُ تَنْزِيلًا وَلَيْسَ كَلَامَ مَنْ ... فَوْقَ الْعِبَادِ؟! أَذَاكَ ذُو إِمْكَانِ؟!
١٢٠٨- أَيَكُونُ تَنْزِيلًا مِنَ الرَّحْمَنِ وَالرْ ... رَحْمَنُ لَيْسَ مُبَايِنَ الْأَكْوَانِ؟!
١٢٠٩- وَكَذَا نُزُولُ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ ... فِي النِّصْفِ مِنْ لَيْلٍ وَذَاكَ الثَّانِي
١٢١٠- فَيَقُولُ: لَسْتُ بِسَائِلٍ غَيْرِي بِأَحْـ ... ـوَالِ الْعِبَادِ، أَنَا الْعَظِيمُ الشَّانِ
١٢١١- مَنْ ذَاكَ يَسْأَلُنِي فَيُعْطَى سُؤْلَهُ؟ ... مَنْ ذَا يَتُوبُ إِلَيَّ مِنْ عِصْيَانِ؟
١٢١٢- مَنْ ذَاكَ يَسْأَلُنِي فَأَغْفِرَ ذَنْبَهُ؟ ... فَأَنَا الْوَدُودُ الْوَاسِعُ الْغُفْرَانِ
١٢١٣- مَنْ ذَا يُرِيدُ شِفَاءَهُ مِنْ سُقْمِهِ؟ ... فَأَنَا الْقَرِيبُ مُجِيبُ مَنْ نَادَانِي
١٢١٤- ذَا شَأْنُهُ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ ... حَتَّى يَكُونَ الْفَجْرُ فَجْرًا ثَانِي
١٢١٥- يَا قَوْمِ لَيْسَ نُزُولُهُ وَعُلُوُّهُ ... حَقًّا لَدَيْكُمْ بَلْ هُمَا عَدَمَانِ
١٢١٦- وَكَذَا يَقُولُ لَيْسَ شَيْئًا عِنْدَكُمْ ... لَا ذَا، وَلَا قَوْلٌ سِوَاهُ ثَانِي
١٢١٧- كُلٌّ مَجَازٌ لَا حَقِيقَةَ تَحْتَهُ ... أَوِّلْ وَزِدْ وَانْقُصْ بِلَا بُرْهَانِ

الشـرحُ

في هذا الفصل ذكَرَ المؤلفُ نوعينِ من الْأَدِلَّةِ على عُلُوِّ الله -جلَّ وعلا- وهما: النزولُ والتنزيلُ، ولذا قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-:

١٢٠٥- هَـذَا وَسَادِسُـهَا وَسَـابِعُهَا: النُّـزُو ... لُ، كَـذَلِكَ التَّنْزِيـلُ لِلْقُـرَآنِ

قَوْلُهُ: «التَّنْزِيلُ لِلْقُرَآنِ» قَالَ تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [فصلت:١-٣]، وقَالَ تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [يس:٥]، والآياتُ في هذا كثيرةٌ.

١٢٠٦- وَاللهُ أَخْبَرَنَـا بِـأَنَّ كِتَابَـهُ ... تَنْزِيلُـهُ بِالْـحَقِّ وَالْبُرْهَـانِ

أَخْبَرَ في عِدَّة آياتٍ بأنَّ كتابَه الكريمَ تنزيلٌ من عنده.

١٢٠٧- أَيَكُونُ تَنْـزِيلًا وَلَـيْسَ كَـلَامَ مَـنْ ... فَوْقَ الْعِبَـادِ؟! أَذَاكَ ذُو إِمْكَـانِ؟!

قَوْلُهُ: «أَيَكُونُ تَنْزِيلًا وَلَيْسَ كَلَامَ مَنْ فَوْقَ الْعِبَادِ»؟ الجَوَابُ: لا يمكنُ.

قَوْلُهُ: «أَذَاكَ ذُو إِمْكَانِ» الجَوَابُ: لا.

١٢٠٨- أَيَكُونُ تَنْـزِيلًا مِـنَ الـرَّحْمَنِ وَالـرْ ... رَحْمَـنُ لَـيْسَ مُبَـايِنَ الْأَكْـوَانِ؟!

الجَوَابُ: لا، فهذا التنزيلُ، فإذا أَخْبَرَ اللهُ بأنَّ القرآنَ تنزيلٌ منه، وهو كلامُه، لَزِمَ أنْ يكونَ اللهُ عزَّ وجلَّ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، لأنَّ القرآنَ كلامُه، فإذا كان تنزيلَه لَزِمَ أنْ يكونَ فوقُ.

وأمَّا النزولُ فقَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-:

١٢٠٩- وَكَـذَا نُـزُولُ الـرَّبِّ جَـلَّ جَلَالُـهُ ... فِي النِّصْفِ مِنْ لَيْـلٍ وَذَاكَ الثَّانِـي

يعني: يَنْزِلُ اللهُ تعالى في النصفِ الأخيرِ من الليلِ، إمَّا حين يَبْقَى الثُّلثُ[١]، وإمَّا من حيثُ انتصافُ الليلِ، على روايتين في هذا.

والمشهورُ أنه من الثلث، لكن توجدُ روايةٌ أنه من النصفِ، وليس ببعيد أنْ يكون من النصف، لكن إلى أنْ يَطْلُعَ الفجرُ[٢].

ونزولُ الرَّبِّ جاء متواترًا عن الرسولِ -عليه الصلاة والسلام- أنه يَنْزِلُ إلى السَّماءِ الدُّنيا.

لكن من الذي ينزلُ؟ الجَوَابُ: ينزلُ هو نفسُه، وذلك لأنَّ القاعدةَ العامَّةَ أنَّ ما أضافه اللهُ إلى نفسه من الأفعالِ والصفاتِ فهو له نفسُه، لا لغيرِه.

فمثلًا: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأعراف:٥٤] مَنْ خلقها؟ هو نفسُه.

وقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:٩٩]، مَن الذي أَنْزَلَ؟ هو نفسُه، ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] مَن الذي استوى؟ هو نفسُه، وهَلُمَّ جَرًّا.

فكُلُّ فعلٍ أَضَافَه اللهُ إلى نفسِه فهو له نفسُه، لا يعودُ إلى غيرِه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، مَن الفاعل؟ الجَوَابُ: اللهُ، فهو الخالقُ وهو المستوي، وكذلك كُلُّ الضمائرِ في أيِّ آيةٍ من القرآنِ.

فإذا كان النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام- يقول: «يَنْزِلُ رَبُّنَا»[٣] مَن النَّازِلُ؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١٠٩٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذِّكر في آخر الليل، رقم (٧٥٨).

(٢) أخرجه ابن حبان (٣/ ١٩٩، رقم ٩٢٠).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١٠٩٤)، ومسلم:

الجَوَابُ: اللهُ عزَّ وجلَّ لا غَيْرُه، ولا يجوزُ أنْ نقولَ: إنَّ النازلَ غيرُه أبدًا، لأننا إذا قُلْنَا: إنَّ النازلَ غيرُه، فقد قدَّمنا بين يَدَيِ الله ورسولِه، وقد قَالَ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات:١]، فإذا كان اللهُ يَنْزِلُ، فإنَّ جميعَ اللغاتِ تَقْتضي أنَّ النزولَ إنما يكونُ من أعلى إلى ما دونَه.

لكن يَبْقَى علينا أنْ نعلمَ أنْ نزولَ الله عزَّ وجلَّ لا يَستلزِمُ ألَّا يكونَ عاليًا فَوْقَ الْـخَلْقِ، فهو نازلٌ إلى السَّماءِ الدنيا، وعالٍ فَوْقَ الْـخَلْقِ كما أنه قريبٌ مع العبادِ، وعالٍ فَوْقَ عرشِه، حتَّى قَالَ الرسولُ -عليه الصلاة والسلام-: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُوَن أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنقِ رَاحِلَتِهِ»(١). ومكانُه فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، فهو معنا أيضًا وهو فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، فينزلُ إلى السَّماءِ الدنيا، وهو فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، فَوْقَ السموات السَّبعِ، وفوقَ العَرْشِ، ونَقُولُ: إنَّه نازِلٌ إلى السَّماءِ الدنيا.

قد تقول: إنَّ هذا غيرُ معقولٍ، كيف يكونُ فوقَ كُلِّ شَيْءٍ وهو نازلٌ إلى السَّماءِ الدنيا؟!

نَقُولُ: هذا غيرُ معقولٍ بالنسبةِ للمخلوقِ الذي تُحيطُ به الأفلاكُ، أمَّا بالنسبةِ للخالقِ الْمُحِيطِ بكُلِّ شَيْءٍ، فإنه معقولٌ ومنقولٌ، لأنَّ اللهَ ليسَ كمثلِه شيءٌ، وأنت إذا حاولتَ أنْ تقيسَ صفاتِ الله بصفاتِكَ فاعلَمْ أنك سَتضِلُّ، إمَّا بتَحريفِ النَّصِّ وتعطيلِ الصِّفَةِ، وإمَّا بالتمثيلِ ولا بُدَّ، فهذه قاعدةٌ، ولهذا نقولُ: هو ينزلُ حقًّا كما أضافَ ذلك أعلَمُ الْـخَلْقِ بِهِ إلى الله، وهو محمدٌ -عليه الصلاة والسلام- لكن

كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، رقم (٧٥٨).

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٢) واللفظ له، البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير، رقم (٢٩٩٢)، ومسلم: كتاب الذكر، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٤).

نُؤمِنُ بأنه معَ نزولِه ما زالَ عاليًا فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، ولا نقولُ: إنَّ هذا مُتناقِضٌ، لأنَّ الخالقَ لا يُماثلُه شَيْءٌ من مخلوقاتِه.

وهنا ليس مُرَادُ المؤلفِ أنْ يُثْبِتَ النزولَ، وأن يَتكلَّمَ عن النزولِ، إنما أَرَادَ أنْ يُثْبِتَ العلوَّ، لأنَّ النزولَ لا يكونُ إلَّا من علوٍّ.

١٢١٠- فَيَقُولُ: لَسْتُ بِسَائِلٍ غَيْرِي بِأَحْـ ـوَالِ الْعِبَادِ، أَنَا الْعَظِيمُ الشَّانِ

يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: مَنْ يسألُ عن عبادي غيري؟ فهو عزَّ وجلَّ الذي يسألُ عن عبادِه، وليسَ يسألُ سؤالَ استرشادٍ أو جَهْلٍ، لِأَنَّهُ عالِـمٌ، لكن يسألُ سؤالَ عنايةٍ، ما حَوائِجُهْم؟ فيقولُ:

١٢١١- مَنْ ذَاكَ يَسْأَلُنِي فَيُعْطَى سُؤْلَهُ؟ مَنْ ذَا يَتُوبُ إِلَيَّ مِنْ عِصْيَانِ؟

١٢١٢- مَنْ ذَاكَ يَسْأَلُنِي فَأَغْفِرَ ذَنْبَهُ؟ فَأَنَا الْوَدُودُ الْوَاسِعُ الْغُفْرَانِ

١٢١٣- مَنْ ذَا يُرِيدُ شِفَاءَهُ مِنْ سُقْمِهِ؟ فَأَنَا الْقَرِيبُ مُجِيبُ مَنْ نَادَانِي

كُلُّ هذه يقولُها اللهُ عزَّ وجلَّ، فهو نفسُه يَعرِضُ لعبادِه أنْ يَتوبوا إليه ويَسْتغفِرُوه، وأن يسألوه، كما عَرَضَ على نفسِه أنْ يؤمنوا، فقَالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف:١٠]، يَعْنِي: هل تُحبُّون أنْ أدلَّكم على تجارةٍ تُنجيكم من عذابٍ أليمٍ؟ الجَوَابُ: نعم، دُلَّنا يا ربَّنا، ووَفِّقْنا إليها، فهو عزَّ وجلَّ يَعرِضُ، وفي قَوْلِهِ تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ تشويقٌ، وعَرْضٌ للعبادِ، ثُمَّ ذَكَرَ التجارةَ فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الصف:١١]، وهذا أيضًا يقولُه اللهُ تعالى في آخِرِ الليلِ -اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا وإِيَّاكم ممَّن يَقومُه- فيقولُ هكذا: مَنْ يتوبُ؟ مَنْ يَستغفِرُ؟ مَنْ يسألُ؟ مَنْ يُرِيدُ الشِّفاءَ: شفاءَ القلبِ وشفاءَ البَدَنِ؟

١٢١٤- ذَا شَــأْنُهُ سُــبْحَانَهُ وَبِحَمْــدِهِ حَتَّى يَكُــونَ الْفَجْـرُ فَجْـرًا ثَانِــي

يعني: إلى أنْ يَطْلُعَ الفجرُ الثاني، لأنَّ الفجرَ فجرانِ، وقد سَبَقَ ذلك.

١٢١٥- يَــا قَــوْمِ لَــيْسَ نُزُولُــهُ وَعُلُــوُّهُ حَقًّــا لَــدَيْكُمْ بَــلْ هُمَــا عَــدَمَانِ

قَوْلُهُ: «يَا قَوْمِ» يُخاطِبُ هنا المُنْكِرِينَ للعلوِّ، لكن كيف يقولُ: (يَا قومِ)، وهو يُضَلِّلُهم؟! نَقُولُ: نعم: يقولُ ذلك مثلَ الأنبياءِ، فهم يَقولونَ لأقوامِهم: (يا قومِ)، وهم يُكَذِّبُونهم، ويُشرِكون بالله.

قَوْلُهُ: «بَلْ هُمَا عَدَمَانِ»، لِأَنَّهُم لا يُقِرُّون بعلوِّ الله ولا بنُزولِه.

يقولونَ: عُلُوُّ الله هو عُلُوُّ القَدْر والقَهْرِ، ويقولونَ في النُّزولِ: نزولُ الأمرِ والرحمةِ، فإذا قُلْتَ فِي «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا»[1]: هو نفسُه عزَّ وجلَّ ينزلُ. ضَرَبَ بيدَيْهِ على رأسِه وصَرَخَ بكَ: آللهُ يَنْزِلُ؟! فتقولُ له: نعم، فيقولُ لك: لا، أنتَ مخطئٌ، بل الذي ينزلُ إلى السَّماءِ الدنيا في ثُلُثِ الليلِ هو أمْرُه.

لكن إذا سألتَه: هل الأمْرُ يقولُ: مَنْ يَدْعوني فأستجيبَ له؟ يقول: لا، ويقول إذَنْ تنزلُ رحمتُه، وهل الرحمةُ تقولُ هذا الكلامَ؟ يقولُ: لا، فتقولُ: ثُمَّ ما الفائِدةُ لنا بنزول الرحمةِ إلى السَّماءِ الدنيا؟! ثُمَّ الأمْرُ ليسَ منتهاه إلى السَّماءِ الدنيا، بل منتهاه إلى الأرضِ، قَالَ تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [السجدة:٥].

فيَقُولُ ثالث: وَجدْتُ المعنى الصحيحَ، ينزل مَلَكٌ من ملائِكتِه.

نَقُولُ: سبحان الله! المَلَك يدعو الناسَ إلى الإشراكِ، ويقول: مَنْ يَدْعُوني

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١٠٩٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، رقم (٧٥٨).

فأستجيبَ له؟! وحينئذٍ تَنْقَطِعُ عنه السُّبُلُ، ويُصْبِحُ ابنَ سبيلٍ مُنْقَطِعًا به، ونَقُولُ: سَلِّم واسْلَم، سَلِّم الأمرَ إلى الله ورسولِه، وقل: ينزلُ ربُّنا نزولًا حقيقيًّا يَلِيقُ به عزَّ وجلَّ، وحينئذٍ تَسْلَمُ، لكن هم يقولون: لا نزولَ ولا علوَّ.

١٢١٦- وَكَذَا يَقُولُ لَيْسَ شَيْئًا عِنْدَكُمْ ... لَا ذَا، وَلَا قَوْلٌ سِوَاهُ ثَانِي

قَوْلُهُ: «**وَكَذَا يَقُولُ لَيْسَ شَيْئًا عِنْدَكُمْ**» لِأَنَّهُم يقولون: إنَّ القرآنَ مخلوقٌ، وليس قولَ ربِّ العالَمِينَ، وإنَّ اللهَ لا يقولُ، لكن يَخْلُقُ قولًا.

قَوْلُهُ: «**لَا ذَا، وَلَا قَوْلٌ سِوَاهُ ثَانِي**» يَعْنِي: لا يقولُ لا هذا ولا غيرَه، فاللهُ لا يقولُ، ولا يمكنُ أنْ يقولَ: مَنْ يدعوني؟ وإنما يخلقُ صوتًا مثلَه.

١٢١٧- كُلٌّ مَجَازٌ لَا حَقِيقَةَ تَحْتَهُ ... أَوِّلْ وَزِدْ وَانْقُصْ بِلَا بُرْهَانِ

يَتهكَّمُ بهم، فيقول: (**أَوِّلْ**) والتأويلُ بالنسبةِ للمعطِّلةِ حقيقتُه التحريفُ.

قَوْلُهُ: «**وزِدْ وانْقُصْ**» يقول: (يَنْزِلُ رَبُّنَا) يَعْنِي: ينزلُ أمرُ ربِّنا، وهذا زائِدٌ، و(انقُصْ): يَعْنِي: يمكنُ أنْ تأتِيَ صِفَةٌ فيَنْقُصها، ويقول: هذا زائِد، فمثلًا قولُه تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٧]، بعضُهم يقولُ: ويَبْقَى رَبُّك، لكن ماذا نفعَلُ بكلمةِ (وجه)؟ يقول: هذه صلةٌ، فتَحَاشَى أنْ يقولَ: زائِدٌ في القرآنِ، وهي زيادةٌ لَفْظيَّةٌ، وجَسَرَ[1] أنْ يقولَ: زائِدٌ زيادةً مَعْنويَّة.

اللَّهُمَّ اهْدِنَا فيمَن هَدَيْت.

* * *

---

(١) جَسَرَ يَجْسُرُ جُسُورًا وجَسارَةً: مَضَى ونفَذ. وجَسَرَ عَلَى كَذَا يَجْسُر جَسارَةً وتَجاسَر عَلَيْهِ: أَقدم. والجَسُورُ: المِقْدامُ. وَرَجُلٌ جَسْر وجَسُورٌ: ماضٍ شجاعٌ. انظر: لسان العرب، مادة: جسر.

فصـــل

١٢١٨- هَــذَا وَثَامِنُــهَا بِسُــورَةِ غَــافِرٍ: هُــوَ رِفْعَــةُ الـدَّرَجَاتِ لِلـرَّحْمَنِ
١٢١٩- دَرَجَاتُــهُ مَرْفُوعَــةٌ كَمَعَــارِجٍ أَيْضًــا لَــهُ، وَكِلَاهُمَــا رَفْعَــانِ
١٢٢٠- وَفَعِيـلُ فِيهَـا لَـيْسَ مَعْنَـى فَاعِـلٍ وَسِــيَاقُهَا يَأْبَــاهُ ذُو التِّبْيَــانِ
١٢٢١- لَكِنَّهَــا مَرْفُوعَــةٌ دَرَجَاتُــهُ لِكَـمَالِ رِفْعَتِـهِ عَـلَى الْأَكْـوَانِ
١٢٢٢- هَذَا هُوَ الْقَوْلُ الصَّحِيحُ فَلَا تَحِـدْ عَنْـهُ، وَخُـذْ مَعْنَـاهُ فِي الْقُـرْآنِ
١٢٢٣- فَنَظِيرُهَـا الْـمُبْدِي لَنَـا تَفْسِـيرَهَا فِي ذِي الْـمَعَارِجِ لَـيْسَ يَفْتَرِقَـانِ
١٢٢٤- وَالرُّوحُ وَالْأَمْلَاكُ تَصْـعَدُ فِي مَعَـا رِجِـهِ إِلَيْـهِ جَـلَّ ذُو السُّـلْطَانِ
١٢٢٥- ذَا رِفْعَـةُ الـدَّرَجَاتِ حَقًّـا مَـا هُـمَا إِلَّا سَــوَاءً أَوْ هُمَــا شِــبْهَانِ
١٢٢٦- فَخُذِ الْكِتَابَ بِبَعْضِـهِ بَعْضًـا كَـذَا تَفْسِــيرُ أَهْــلِ الْعِلْــمِ لِلْقُــرْآنِ

الشـــرحُ

١٢١٨- هَــذَا وَثَامِنُــهَا بِسُــورَةِ غَــافِرٍ: هُــوَ رِفْعَــةُ الـدَّرَجَاتِ لِلـرَّحْمَنِ

هذا هو النوعُ الثامنُ من أَدِلَّةِ عُلُوِّ الله عزَّ وجلَّ، وهو ما جاءَ في سورةِ غافرٍ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر:١٥]، فـ (رفيع) واضحٌ أنها صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ، يَعْنِي: أنَّ درجاتِه عزَّ وجلَّ رفيعةٌ، فالوصفُ هنا عائدٌ إلى الله عزَّ وجلَّ.

لكنَّ بعضَ الناسِ قال: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ أي: رافعُ الدرجاتِ، فجعَلَ (رفيعًا) صيغةَ مبالغةٍ مضافةً إلى المفعولِ، والصوابُ المقطوعُ به أنها صِفَةٌ مُشبَّهَةٌ مضافةٌ إلى الفاعلِ كما تقولُ: (زيدٌ جميلُ الظاهِرِ، طيِّبُ القلبِ) أي: جميلٌ ظاهرُه طيِّبٌ قلبُه، فهكذا (رَفِيعُ الدَّرجاتِ) صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ مضافةٌ إلى الفاعلِ.

أما مَنْ فَسَّر (رفيع) بمعنى: رافع، وجعَلَها مضافةً إلى المفعولِ به، فهذا خطأٌ، ويَدُلُّ على ذلك ما أشارَ إليه ابنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ- بأنَّ القرآنَ يُفسِّرُ بعضُه بعضًا، وقد قَالَ اللهُ تعالى في سورة سأل: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٢-٤]، فـ(ذِي المَعَارِجِ) يَعْنِي: صاحِبَ المعارجِ، فهي بمعنى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ سواءً بسواءٍ، أو شِبْهًا بشِبْهٍ.

ويُؤيِّدُ ذلكَ أيضًا أنه عزَّ وجلَّ قال: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر:١٥] أي: صاحبُ العَرْشِ، ومعلومٌ أنَّ العَرْشَ أعلى المخلوقاتِ، فإذا كانَ هو صاحبَ العَرْشِ الذي لم يستوِ على عرشِه غيرُه، لَزِمَ أنْ يكونَ (رفيعُ) بمعنى الصِّفَة المُشَبَّهَةِ.

إذَنْ فتَفسيرُ الآيةِ من الآيةِ، ومن الآيةِ الثانيةِ التي في سُورةِ المَعارِجِ.

١٢١٩- دَرَجَاتُــهُ مَرْفُوعَــةٌ كَمَعَــارِجٍ   أَيْضًــا لَــهُ، وَكِلَاهُمَــا رَفْعَــانِ

قَوْلُهُ: «دَرَجاتُهُ مَرْفُوعةٌ كمَعَارِجٍ أَيْضًا لَهُ» أين المعارجُ التي له؟ الجَوابُ: قولُه في سأل: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾.

١٢٢٠- وَفَعِيــلُ فِيهَــا لَــيْسَ مَعْنَــى فَاعِــلٍ   وَسِــيَاقُهَا يَأْبَــاهُ ذُو التِّبْيَــانِ

قَوْلُهُ: «وفَعِيلُ فِيهَا لَيْسَ مَعْنَى فَاعِلٍ» هذا رَدٌّ لقولِ مَنْ قالَ: إنها بمعنى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾.

قَوْلُهُ: «وَسِيَاقُهَا يَأْبَاهُ ذُو التِّبْيَانِ» يَعْنِي: يأباه صاحبُ التِّبْيانِ، أي: يَمْنَعُه، لأنَّ مَنْ قرَأَ الآيةَ عرَفَ تمامًا أنَّ الوصفَ يعودُ فيها إلى الله -سبحانه وتعالى- بأنه هو نفسُه رفيعُ الدَّرَجاتِ.

١٢٢١- لَكِنَّهَا مَرْفُوعَةٌ دَرَجَاتُهُ ... لِكَمَالِ رِفْعَتِهِ عَلَى الْأَكْوَانِ

١٢٢٢- هَذَا هُوَ الْقَوْلُ الصَّحِيحُ فَلَا تَحِدْ ... عَنْهُ، وَخُذْ مَعْنَاهُ فِي الْقُرْآنِ

١٢٢٣- فَنَظِيرُهَا الْـمُبْدِي لَنَا تَفْسِيرَهَا ... فِي ذِي الْـمَعَارِجِ لَيْسَ يَفْتَرِقَانِ

قَوْلُهُ: «فَنَظِيرُهَا الْـمُبْدِي لَنَا تَفْسِيرَهَا» يَعْنِي: الذي يُظْهِرُ لنا تفسيرَها، ما هو؟ قال: (فِي ذِي الْـمَعَارِجِ) أي: كائِنٌ في ذي المَعارِجِ.

١٢٢٤- وَالرُّوحُ وَالْأَمْلَاكُ تَصْعَدُ فِي مَعَا ... رِجِهِ إِلَيْهِ جَلَّ ذُو السُّلْطَانِ

قَوْلُهُ: «الرُّوح» أي: جِبْريلُ، أو أرواحُ أهلِ العلمِ والإيمانِ.

١٢٢٥- ذَا رِفْعَةُ الدَّرَجَاتِ حَقًّا مَا هُمَا ... إِلَّا سَوَاءً أَوْ هُمَا شِبْهَانِ

قَوْلُهُ: «ذا رِفْعَةُ الدَّرَجَاتِ» أي: المذكورةِ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ [غافر:١٥].

قَوْلُهُ: «مَا هُمَا إِلَّا سَوَاءً أَوْ هُمَا شِبْهَانِ» الضميرُ في (هما) يعودُ على (رفيع الدرجات)، و(ذي المعارج).

١٢٢٦- فَخُذِ الْكِتَابَ بِبَعْضِهِ بَعْضًا كَذَا ... تَفْسِيرُ أَهْلِ الْعِلْمِ لِلْقُرْآنِ

أحسنُ التفسيرِ تفسيرُ القرآنِ بالقرآنِ بِلا شكٍّ، ووَجْهُ ذلك أنَّ القرآنَ تَكَلَّمَ به واحدٌ، فإذا فَسَّرَ المُتكلِّمُ كلامَه بعضَه ببعضٍ صارَ أدْرَى به من غيرِه، فإذا لم نَجِد

تفسيرَ القرآنِ بالقرآنِ، رَجَعْنَا إلى تفسيرِ أعلمِ الْـخَلْقِ بالقرآنِ، وهو النَّبيُّ ﷺ، ولا يمكنُ أنْ نَحِيدَ عنه.

ففي قَوْلِهِ تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] فسَّرها النَّبِيُّ ﷺ بأنها «النَّظَرُ إلى وَجْهَ الله»(١)، فلا نَحِيدُ عن هذا، لأنَّ الرسولَ فسَّرها.

وفي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]، قال: «أَلَا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ»(٢)، فنقف على هذا التفسيرِ.

ولذلك الرَّمْيُ هو السِّلاحُ الفَعَّالُ الآن في الوقت الحديثِ في أساليبِ الحربِ المتطورة،، مثل: القنابل، والصواريخ من فوق أو من جنب، كُلُّ هذا السِّلاحِ أشدُّ من الدبابات.

إذا لم نَجِد في السُّنَّة، فمَنْ أعلم الناس بتفسيرِ القرآنِ فيما يَتعلَّق بالعباداتِ؟

الجَوَابُ: الصحابةُ بلا شكٍّ، فلا شكَّ أنهم أعلمُ الناسِ فيما يَتعلَّقُ بالعباداتِ من غيرِهم.

فهم أعلمُ الناسِ بتفسيرِ القرآنِ، فنَرجِعُ إلى أقوالِ الصحابةِ، فإن اخْتَلَفوا على قوليْنِ، طَلَبْنا المُرَجِّحَ.

فإذا اختلفَ العلماءُ ولم نَعْلَم، فهل نأخُذُ بأقوالِ التابِعِينَ أو لا؟

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في رؤية الرب -تبارك وتعالى-، رقم (٢٥٥٢)، وابن ماجه: كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٧)

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، وذم من علمه ثم نسيه، رقم (١٩١٧).

فمِنهم مَن قال: لا نأخذُ بأقوالِ التابعِينَ، لأنَّ التابعين لم يشهدوا الوحيَ حين نُزولِه، وما كانوا مع الرسول -عليه الصلاة والسلام- حتى نَقُولَ: فَهِموا من الرسول معنى الآيةِ وعَبَّروا عنه بألسنتِهم، فهم كغيرِهم.

ومنهم مَنْ فَصَّلَ وقال: مَن عُرِفَ عنه أنه تَلقَّى التفسيرَ من الصحابةِ، فإننا نَرجِعُ إلى تفسيرِه، مثل مجاهدٍ، فقد تلقَّى عن ابنِ عَبَّاسٍ، ومَنْ لا، فهو كغيرِه.

لكن يَجِبُ أنْ نعلمَ قاعدةً مهمةً، وهي أنه كُلَّما كان الناسُ أقربَ إلى زَمَنِ النُّبوةِ كانوا أقربَ إلى الصوابِ فيما يَتعلَّقُ بالعقائِدِ والعباداتِ، وهذا شَيْءٌ معروفٌ، ولهذا قَالَ الرسول ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلْونَهُمْ»[(١)]. وهذا شَيْءٌ مُشَاهَدٌ، لأنَّ القَرِيبِينَ من عَهدِ النبوة ليس بينهم وبين النبوة وسائِطُ إلَّا وسائِطَ قليلةً، فالتابعون بينَهم وبينَ الرسولِ واسطةٌ واحدةٌ، وتابعو التابعين بينهم وبين الرسولِ واسِطَتانِ، وتابعو تابعي التابعين بينهم وبين الرسولِ ثلاث وسائط... وهلمَّ جرًّا.

ثُمَّ إنه من بعدِ القرون المفضَّلة كَثُرت الفتنُ والأهواءُ، وصارت بضاعةُ كثيرٍ من الناسِ قليلةً بالنسبةِ للعلومِ الشرعيةِ.

قَوْلُهُ: «أَهْلِ الْعِلْمِ لِلْقُرْآنِ» المُرَاد بهم المُفسِّرونَ الذين يُفسِّرونَ الكتابَ بعضَه ببعضٍ، وهذا هو الواجبُ، لأنَّ المُتكلِّمَ بالقرآنِ واحدٌ، فهو أعلمُ بما أَرَادَ في كلامِه.

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور، رقم (٢٦٥٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣).

فصل

١٢٢٧- هَـذَا وَتَاسِـعُهَا: النُّصُـوصُ بِأَنَّـهُ فَـوْقَ السَّـمَاءِ وَذَا بِـلَا حُسْـبَانِ
١٢٢٨- فَاسْتَحْضِرِ الْوَحْيَيْنِ وَانْظُـرْ ذَاكَ تَلْـ ـقَاهُ مُبِينًـا وَاضِـحَ التِّبْيَـانِ
١٢٢٩- وَلَسَوْفَ نَذْكُرُ بَعْضَ ذَلِكَ عَنْ قَرِيـ ـبٍ كَـيْ تَقُـومَ شَـوَاهِدُ الْإِيـمَانِ
١٢٣٠- وَإِذَا أَتَتْـكَ فَـلَا تَكُـنْ مُسْتَوْحِشًـا مِنْهَـا وَلَا تَـكُ عِنْـدَها بِجَبَـانِ
١٢٣١- لَيْسَتْ تَدُلُّ عَـلَى انْحِصَـارِ إِلَـهِنَا عَقْـلًا وَلَا عُرْفًـا وَلَا بِلِسَـانِ
١٢٣٢- إِذْ أَجْمَعَ السَّلَفُ الْكِـرَامُ بِـأَنَّ مَعْـ ـنَاهَا كَمَعْنَـى الْفَـوْقِ بِالْبُرْهَـانِ
١٢٣٣- أَوْ أَنَّ لَفْـظَ سَـمَائِهِ يَعْنِـي بِـهِ نَفْسَ الْعُلُوِّ الْـمُطْلَقَ الْـحَقَّانِـي
١٢٣٤- وَالرَّبُّ فِيهِ وَلَيْسَ يَحْصُـرُهُ مِنَ الْـ ـمَخْلُوقِ شَيْءٌ عَـزَّ ذُو السُّـلْطَانِ
١٢٣٥- كُـلُّ الْـجِهَاتِ بِأَسْرِهَـا عَدَمِيَّـةٌ فِي حَقِّـهِ هُـوَ فَوْقَهَـا بِبَيَـانِ
١٢٣٦- قَدْ بَانَ عَنْهَا كُلِّهَـا فَهْـوَ الْـمُحِيـ ـطُ وَلَا يُحَاطُ بِخَـالِقِ الْأَكْـوَانِ
١٢٣٧- مَا ذَاكَ يَنْقِمُ بَعْدُ ذُو التَّعْطِيـلِ مِـنْ وَصْـفِ الْعُلُـوِّ لِرَبِّنَـا الـرَّحْمَنِ
١٢٣٨- أَيَـرُدُّ ذُو عَقْـلٍ سَـلِيمٍ قَـطُّ ذَا بَعْدَ التَّصَوُّرِ يَا أُولِـي الْأَذْهَـانِ؟!
١٢٣٩- وَاللهِ مَـا رَدَّ امْـرُؤٌ هَـذَا بِغَيْـ ـرِ الْـجَهْلِ أَوْ بِحَمِيَّـةِ الشَّـيْطَانِ

الشـــرحُ

١٢٣٧- مَا ذَاكَ يَنْقِمُ بَعْدُ ذُو التَّعْطِيـلِ مِـنْ ... وَصْـفِ الْعُلُـوِّ لِرَبِّنَـا الـرَّحْمَنِ

صحيح، ماذا يَنقِمُ مُنكرو العُلُوِّ؟ وسبحانَ الله على هذه العقولِ التي تُنْكِرُ العلوَّ، والذي يُقِرُّ كُلُّ أحدٍ بأنه صِفَةُ كمالٍ، وأنه لو لم يَثْبُت لله لكانَ اللهُ -تعالى وحاشاه- مُتَّصِفًا بالنقصِ!

فتَعَجَّب للعبِ الشياطينِ بعقولِ هؤلاءِ! هم يُقِرُّونَ -وكُلُّ أحدٍ يُقِرُّ- بأَنَّ العُلُوَّ صِفَةُ كمالٍ، ومعَ ذلك يُنكرونها مع وضوحِها عقلًا ونقلًا.

١٢٣٨- أَيَــرُدُّ ذُو عَقْــلٍ سَــلِيمٍ قَــطُّ ذَا ... بَعْدَ التَّصَوُّرِ يَا أُولِي الْأَذْهَـانِ؟!

قَوْلُهُ: «أَيَرُدُّ ذُو عَقْلٍ سَلِيمٍ قَطُّ ذَا بَعْدَ التَّصَوُّرِ؟» الجَوَابُ: لا.

١٢٣٩- وَاللهِ مَــا رَدَّ امْــرُؤٌ هَــذَا بِغَيْــ ... ـرِ الْـجَهْلِ أَوْ بِحَمِيَّـةِ الشَّـيْطَانِ

يعني: الذي يَرُدُّ علوَّ الله فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ لا تَخْلُو حالُه من أمرينِ:

الأول: (الْـجَهْلِ)، وهذا قصورٌ، قد يكونُ ناشئًا عن تقصيرٍ، لكن كيفَ عن تقصيرٍ؟ يَعْنِي: أنه لم يَطْلُب الحقَّ.

الثاني: (حَمِيَّة الشَّيْطَانِ): وهي التَّعَصُّب وسوءُ القصدِ والنيَّة، وإِلَّا لا يمكنُ أنْ يردَّه أبدًا.

فَرَدُّ الحقِّ أسبابُه ثلاثة: قصورٌ، وتقصيرٌ، وسوءُ قصدٍ ونية، يَعْنِي: هَوًى، فالقصورُ هو الجهلُ، والتقصيرُ هو التفريطُ في طَلَبِ الحقِّ، والثالث: سوءُ القصد، يَعْنِي: لا يَقْصِدُ الحقَّ، إنما هو مُتعصِّبٌ صاحبُ هَوًى، أمَّا شخصٌ عنده علمٌ وجِدٌّ في طَلَبِ العلم، وحُسْنُ نيَّةٍ وقَصْدٍ، فإنه لا يمكنُ أنْ يَرُدَّ الحقَّ إطلاقًا.

فصل

١٢٤٠- هَذَا وَعَاشِرُهَا: اخْتِصَاصُ الْبَعْضِ مِنْ ... أَمْلَاكِهِ بِالْعِنْدِ لِلرَّحْمَنِ

١٢٤١- وَكَذَا اخْتِصَاصُ كِتَابِ رَحْمَتِهِ بِعِنْـ ... ـدِ الله فَوْقَ الْعَرْشِ ذُو تِبْيَانِ

١٢٤٢- لَوْ لَمْ يَكُنْ سُبْحَانَهُ فَوْقَ الْوَرَى ... كَانُوا جَمِيعًا عِنْدَ ذِي السُّلْطَانِ

١٢٤٣- وَيَكُونُ عِنْدَ الله إِبْلِيسٌ وَجِبْـ ... ـرِيلٌ هُمَا فِي الْعِنْدِ مُسْتَوِيَانِ

١٢٤٤- وَتَمَامُ ذَاكَ الْقَوْلِ أَنَّ مَحَبَّةَ الرْ ... رَحْمَنِ عَيْنُ إِرَادَةِ الْأَكْوَانِ

١٢٤٥- وَكِلَاهُمَا مَحْبُوبُهُ وَمُرَادُهُ ... وَكِلَاهُمَا هُوَ عِنْدَهُ سِيَّانِ

١٢٤٦- إِنْ قُلْتُمُ: عِنْدِيَّةُ التَّكْوِينِ فَالذْ ... ذَاتَانِ عِنْدَ الله مَخْلُوقَانِ

١٢٤٧- أَوْ قُلْتُمُ: عِنْدِيَّةُ التَّقْرِيبِ تَقْـ ... ـرِيبُ الْحَبِيبِ وَمَا هُمَا عِدْلَانِ

١٢٤٨- فَالْحُبُّ عِنْدَكُمُ الْمَشِيئَةُ نَفْسُهَا ... وَكِلَاهُمَا فِي حُكْمِهَا مِثْلَانِ

١٢٤٩- لَكِنْ مُنَازِعُكُمْ يَقُولُ بِأَنَّهَا ... عِنْدِيَّةٌ حَقًّا بِلَا رَوَغَانِ

١٢٥٠- جَمَعَتْ لَهُ حُبَّ الْإِلَهِ وَقُرْبَهُ ... مِنْ ذَاتِهِ وَكَرَامَةَ الْإِحْسَانِ

١٢٥١- وَالْحُبُّ وَصْفٌ وَهْوَ غَيْرُ مَشِيئَةٍ ... وَالْعِنْدُ قُرْبٌ ظَاهِرُ التِّبْيَانِ

الشرحُ

ذكر المؤلفُ -رَحِمَهُ اللهُ- في هذا الفصلِ نوعًا عاشرًا من أَدِلَّةِ عُلُوِّ الله -سبحانه

وتعالى- وذلك بأنَّ اللهَ تعالى ذكَرَ عن بعضِ مخلوقاتِه أنه عندَ الله، قال:

١٢٤٠- هَذَا وَعَاشِرُهَا: اخْتِصَاصُ الْبَعْضِ مِنْ أَمْلَاكِــهِ بِالْعِنْــدِ لِلــرَّحْمَنِ

وذلك مثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء:١٩]، وقولِه -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٦]، ووَجْهُ ذلك أنه قال: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، فدَلَّ ذلك على أنَّ هناك خَلْقًا آخَرَ، ليسوا عندَ الله، أي: بَعِيدينَ منه، وإلَّا لولا هذه الدَّلالةُ لكانت المخلوقاتُ سواءً في العِنْديَّة، ولكانَ إبليسُ وجبريلُ سواءً عندَ الله، وهذا مستحيلٌ.

إذَنْ فكونُ بعضِ المخلوقاتِ عندَ الله يدلُّ على أنه -سبحانه وتعالى- فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ وهؤلاء عندَه وقَرِيبونَ منه، والآخرون بَعِيدونَ عنه، ولهذا قال:

١٢٤١- وَكَذَا اخْتِصَاصُ كِتَابِ رَحْمَتِهِ بِعِنْــدِ الله فَــوْقَ الْعَــرْشِ ذُو تِبْيَــانِ

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ كِتَابًا فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»(١).

١٢٤٢- لَوْ لَــمْ يَكُنْ سُبْحَانَهُ فَوْقَ الْــوَرَى كَــانُوا جَمِيعًــا عِنْــدَ ذِي السُّــلْطَانِ

فهذا دليلٌ صحيحٌ، فلولا أنه فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ ما صار هؤلاء عندَه وهؤلاءِ ليسوا عندَه، ولكانَ الناسُ كُلُّهم عندَ الله.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، رقم (٣٠٢٢)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم (٢٧٥١).

١٢٤٣- وَيَكُـونُ عِنْـدَ الله إِبْلِـيسٌ وَجِبْـ ـرِيلٌ هُمَـا فِي الْعِنْـدِ مُسْـتَوِيَانِ

مع أنَّ اللهَ قَالَ لإبليسَ: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الأعراف:١٨]، أبْعَدَه اللهُ عزَّ وجلَّ.

١٢٤٤- وَتَمَـامُ ذَاكَ الْقَـوْلِ أَنَّ مَحَبَّـةَ الـرْ رَحْمَـنِ عَـيْنُ إِرَادَةِ الْأَكْـوَانِ

١٢٤٥- وَكِلَاهُمَـا مَحْبُوبُـهُ وَمُـرَادُهُ وَكِلَاهُمَـا هُـوَ عِنْـدَهُ سِـيَّانِ

قَوْلُهُ: «وَتَمَامُ ذَاكَ القَوْلِ»، ويَجوزُ (وَتَمَامُ ذَاكَ القَوْلُ).

يعني: أنَّ هؤلاء القوم قالوا: المَحبَّة هي الإرادةُ، وكُلُّ الكونِ مُرَادٌ له، وعلى ذلك فالنتيجةُ: كُلُّ الكونِ محبوبٌ له، ولهذا قالوا: إنَّ اللهَ يُحِبُّ الكُفْرَ، والمَعاصِيَ، والفسوقَ، والغَيَّ، والجهلَ، والظلمَ، والعُدْوان. لماذا؟

قالوا: لأنَّ الكلَّ مُرَادُه، بل إنَّ بعضَهم -خاصَّة بعض الصُّوفية- جعلوا هذا غايةَ المُشاهِد، وهو أنْ يَشْهَدَ بأنَّ الكونَ كُلَّه مُرَادٌ لله، وكلَّه محبوبٌ لله، فهم قالوا: المَحبَّةُ والإرادةُ سواءٌ، كما قالوا: العِنْدُ والبُعْدُ سواءٌ.

ثُمَّ قَالَ المُؤلف:

١٢٤٦- إِنْ قُلْـتُمْ: عِنْدِيَّـةُ التَّكْـوِينِ فَالـذْ ذَاتَـانِ عِنْـدَ الله مَخْلُوقَـانِ

قالوا: (عِنْدَهُ) أي: أنه خَلَقَ هذا وخَلَقَ هذا، فيُرادُ بالعِنْديَّة عنديَّةُ التكوينِ والـخَلْقِ.

١٢٤٧- أَوْ قُلْـتُمْ: عِنْدِيَّـةُ التَّقْرِيـبِ تَقْـ ـرِيبُ الْـحَبِيبِ وَمَـا هُمَـا عِـدْلَانِ

العنديَّةُ يَعْنِي بذلك: أنه قَرَّبَه ولو كانَ بعيدَ المكانِ، (فعنده) يَعْنِي: أنهم

قَرِيبونَ منه بطَاعَتِه ولو كانوا بَعِيدِي المكانِ.

١٢٤٨- فَالْحُبُّ عِنْدَكُمُ الْمَشِيئَةُ نَفْسُهَا   وَكِلَاهُمَا فِي حُكْمِهَا مِثْلَانِ

قَوْلُهُ: «كِلَاهُمَا» أي: المشيئةُ والمَحبَّةُ في الحُكْمِ مثلان، أي: شاء هذا فأحبَّه.

١٢٤٩- لَكِنْ مُنَازِعُكُمْ يَقُولُ بِأَنَّهَا   عِنْدِيَّةٌ حَقًّا بِلَا رَوَغَانِ

قَوْلُهُ: «لَكِنْ مُنَازِعُكُمْ» المُنازِعُ أي: أهلُ السُّنَّةِ يقولون بأنها عِنديَّةٌ حقًّا.

قَوْلُهُ: «عِنْدِيَّةٌ حَقًّا بِلَا رَوَغَانِ» هل هي عِنْدِيَّةُ خَلْقٍ وتَكْوِينٍ، أو تقريبٍ وإرادةٍ، أو مكانٍ؟

الجَوابُ: مكانٍ.

١٢٥٠- جَمَعَتْ لَهُ حُبَّ الْإِلَهِ وَقُرْبَهُ   مِنْ ذَاتِهِ وَكَرَامَةَ الْإِحْسَانِ

فالذين عندَ الله جَمَعوا بينَ محبَّةِ الله لهم، لِأَنَّهُ أدناهم وقرَّبهم، وكذلك قرَّبهم إلى ذاتِه عزَّ وجلَّ، والثالثُ: الكرامةُ التي أكْرَمَهم بها، لأنَّ مَنْ كانوا قَرِيبِينَ منه -جلَّ وعلا- فهم عندَه أكرمُ ممَّن كانوا بَعِيدينَ عنه بلا شكٍّ.

١٢٥١- وَالْحُبُّ وَصْفٌ وَهْوَ غَيْرُ مَشِيئَةٍ   وَالْعِنْدُ قُرْبٌ ظَاهِرُ التِّبْيَانِ

قَوْلُهُ: «والحُبُّ وَصْفٌ وَهْوَ غَيْرُ مَشِيئَةٍ» أي: الحبُّ غيرُ المشيئةِ، فقد يشاءُ ما لا يُحِبُّه، وقد يُحِبُّ ما لا يَشاؤُه، فقد يشاءُ ما لا يحبُّه، لأنَّ المشيئةَ كونيَّةٌ، وليس فيها شرعيَّةٌ.

فقد شاءَ الكفرَ وهو لا يُحبُّه، قَالَ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقد يُحِبُّ ما لا يشاؤه، وهذا صحيحٌ.

فيُحبُّ من الفاسقِ أنْ يكونَ عدلًا، ويُحبُّ من الكافرِ أنْ يكونَ مؤمنًا، ولكنَّه لا يشاؤه لِحِكْمةٍ، ولهذا قَالَ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [هود:١١٨-١١٩]، فلو كان الناسُ كُلُّهم مؤمنين لكان خَلْقُ النارِ عَبَثًا، لكنَّ اللهَ حقٌّ، وَعَدَ النَّارَ أنْ يَمْلأها والجنَّةَ أنْ يملأها، ولا تُمْلأُ النَّارُ إلَّا مِن أهلِها، فلا بُدَّ أنْ يكونَ هناك كُفَّارٌ.

قَوْلُهُ: «**والعِنْدُ قربٌ**» هل العِنْدُ قُرْبٌ أو تَكْوينٌ؟

الجَوَابُ: العندُ قُرْبٌ، وليسَ تكوينًا، فإذا قُلْتَ: (العند تكوينٌ) فهذا خلافُ الظاهِرِ.

***

فصل

١٢٥٢- هَـذَا وَحَـادِيَ عَشْـرَهُنَّ: إِشَـارَةٌ نَحْـوَ الْعُلُـوِّ بِإِصْـبَعٍ وَبَنَـانِ
١٢٥٣- لله جَـلَّ جَلَالُـهُ لَا غَـيْرِهِ إِذْ ذَاكَ إِشْرَاكٌ مِـنَ الْإِنْسَـانِ
١٢٥٤- وَلَقَدْ أَشَارَ رَسُولُهُ فِي مَجْمَعِ الْـ ـحَجِّ الْعَظِيمِ بِمَوْقِفِ الْغُفْرَانِ
١٢٥٥- نَحْوَ السَّمَاءِ بِإِصْبَعٍ قَدْ كُرِّمَتْ مُسْتَشْـهِدًا لِلْوَاحِـدِ الـرَّحْمَنِ
١٢٥٦- يَـا رَبِّ فَاشْـهَدْ أَنَّنِـي بَلَّغْـتُهُمْ وَيُشِـيرُ نَحْـوَهُمُ لِقَصْـدِ بَيَـانِ
١٢٥٧- فَغَـدَا الْبَنَـانُ مُرَفَّعًـا وَمُصَـوَّبًا صَـلَّى عَلَيْـكَ اللهُ ذُو الْغُفْـرَانِ
١٢٥٨- أَدَّيْـتَ ثُـمَّ نَصَـحْتَ إِذْ بَلَّغْتَنَـا حَـقَّ الْـبَلَاغِ الْوَاجِـبِ الشُّـكْرَانِ

الشرحُ

هذا الفصلُ أَرَادَ به المؤلفُ -رَحِمَهُ اللهُ- أَنَّ يُبَيِّنَ الدليلَ الحادِيَ عَشَرَ على عُلُوِّ الله -سبحانه وتعالى-، وذلك بالدلالة الفعليَّةِ من رسولِ الله ﷺ، حيث خَطَبَ النَّاسَ يومَ عَرَفَةَ في حَجَّةِ الوَدَاعِ في ذلك المَجْمَع الذي لم يُوجَدْ في الإسلام أكثرُ جمعًا منه، وقال: «هَلْ بَلَّغْتُ؟» قالوا: نعم، قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» يُشِيرُ إِلَى السَّمَاءِ، وينْكُتُ بِإِصْبَعِهِ عَلَى النَّاسِ[1]، قَالَ ﷺ ذلك ثلاثًا، وهذه دَلالةٌ بالفِعْلِ وليستْ بالقولِ على أنَّ اللهَ سبحانه فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وعلى أنَّ اللهَ في العُلُوِّ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، برقم (١٢١٨).

فصل

١٢٥٩- هَذَا وَثَانِيَ عَشْرَهَا: وَصْفُ الظُّهُو ... رِ لَـهُ كَـمَا قَـدْ جَـاءَ فِي الْقُـرْآنِ
١٢٦٠- وَالظَّاهِرُ الْعَالِـي الَّـذِي مَـا فَوْقَـهُ ... شَيْءٌ كَـمَا قَـدْ قَـالَ ذُو الْبُرْهَـانِ
١٢٦١- حَقًّـا رَسُـولُ الله ذَا تَفْسِـيرُهُ ... وَلَقَـدْ رَوَاهُ مُسْـلِمٌ بِضَـمَانِ
١٢٦٢- فَاقْبَلْـهُ لَا تَقْبَـلْ سِـوَاهُ مِـنَ التَّفَـا ... سِـيرِ الَّتِـي قِيلَـتْ بِـلَا بُرْهَـانِ
١٢٦٣- وَالشَّـيْءُ حِـينَ يَـتِمُّ مِنْـهُ عُلُـوُّهُ ... فَظُهُـورُهُ فِي غَايَـةِ التِّبْيَـانِ
١٢٦٤- أَوَمَا تَـرَى هَـذِي السَّـمَا وَعُلُوَّهَـا ... وَظُهُورَهَـا، وَكَـذَلِكَ الْقَمَـرَانِ؟
١٢٦٥- وَالْعَكْـسُ أَيْضًـا ثَابِـتٌ فَسُـفُولُهُ ... وَخَفَـاؤُهُ إِذْ ذَاكَ مُصْـطَحِبَانِ
١٢٦٦- فَانْظُرْ إِلَى عُلْوِ الْـمُحِيطِ وَأَخْـذِهِ ... صِـفَةَ الظُّهُـورِ، وَذَاكَ ذُو تِبْيَـانِ
١٢٦٧- وَانْظُرْ خَفَاءَ الْمَرْكَـزِ الْأَدْنَـى وَوَصْـ ... ـفَ السُّفْلِ فِيـهِ وَكَوْنَـهُ تَحْتَانِـي
١٢٦٨- وَظُهُـورُهُ سُـبْحَانَهُ بِالـذَّاتِ مِثْـ ... ـلُ عُلُـوِّهِ فَهُـمَا لَـهُ صِـفَتَانِ
١٢٦٩- لَا تَجْحَـدَنَّهُمَا جُحُـودَ الْـجَهْمِ أَوْ ... صَـافَ الْكَـمَالِ تَكُـونُ ذَا بُهْتَـانِ
١٢٧٠- وَظُهُـورُهُ هُـوَ مُقْـتَضٍ لِعُلُـوِّهِ ... وَعُلُـوُّهُ لِظُهُـورِهِ بِبَيَـانِ
١٢٧١- وَكَذَاكَ قَدْ دَخَلَتْ هُنَـاكَ الْفَـاءُ لِلتْـ ... ـتَسْـبِيبِ مُؤْذِنَـةً بِهَـذَا الشَّـانِ
١٢٧٢- فَتَـأَمَّلَنْ تَفْسِـيرَ أَعْلَـمِ خَلْقِـهِ ... بِصِـفَاتِهِ مَـنْ جَـاءَ بِـالْقُرْآنِ

١٢٧٣- إِذْ قَالَ: أَنْتَ كَـذَا، فَلَـيْسَ لِضِـدِّهِ أَبَـــدًا إِلَيْــكَ تطَــرُّقُ الْإِتْيَـــانِ

الشــرحُ

هذا أيضًا من الْأَدِلَّة على عُلُوِّ الله عزَّ وجلَّ وهو المستفادُ من اسمِه (الظَّاهِرِ)، قَالَ الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣].

وتفسيرُ (الظَّاهِر) فسَّره أهلُ التعطيل الْمُنْكرونَ للعُلوِّ بأنه الظاهرُ بآياتِه، يَعْنِي: الذي يُعْرَفُ بآياتِه، فجَعَلوا الظهورَ ظهورًا مَعْنويًّا، ولكنَّ أعلمَ الْـخَلْقِ بالله فسَّره على خلافِ ذلكَ فقال: «أَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيءٌ»[١]. وأتى بالفاءِ الدَّالَّة على التفريعِ، يَعْنِي: أنت فوقَ كُلِّ شَيْءٍ، فليسَ فوقَكَ شَيْءٌ.

وقال: «أَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيءٌ»[٢] هم عندهم أنَّ الباطنَ هو ما لَطُفَ[٣] حتَّى لم يَكُنْ له جِسْمٌ -والعياذُ بالله- فوَصَفوا اللهَ بأنه لا شَيْءَ.

ولكن نقولُ: إنَّ معنَى (لَيْسَ دُونَكَ شَيءٌ)، أي: أنك محيطٌ بكُلِّ شَيْءٍ، فلا يحولُ دونَك شَيْءٌ.

وعلى هذا فنقولُ: (الظاهر) بمعنى العالي، وكُلُّ ما علا فقد ظَهَرَ، انْظُر إلى النجومِ في السَّماء، فهي ظاهرةٌ لماذا؟ الجَوَابُ: لعُلوِّها، فلو كانت في الأرض لم يَرَها أحدٌ، والقمران -الشَّمس والقَمْرُ- ظاهران لعُلوِّهما، وظهرُ الحيوان لماذا سُمِّي ظهرًا؟ الجَوَابُ: لِأَنَّهُ أعلى ما فيه، فإذَنْ (الظاهر) هو الذي ليسَ فوقَه شَيْءٌ.

***

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٣).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٣).
(٣) أي: صغر. انظر: مختار الصحاح، مادة: لطف.

فصل

١٢٧٤- هَـذَا وَثَالِـثَ عَشْـرَهَا: إِخْبَـارُهُ أَنَّـا نَـرَاهُ بِجَنَّـةِ الْـحَيَوَانِ
١٢٧٥- فَسَلِ الْـمُعَطِّلَ هَلْ يُرَى مِنْ تَحْتِنَـا أَمْ عَـنْ شَـمَائِلِنَا وَعَـنْ أَيْـمَانِ
١٢٧٦- أَمْ خَلْفَنَـا وَأَمَامَنَـا سُـبْحَانَهُ أَمْ هَـلْ يُـرَى مِـنْ فَوْقِنَـا بِبَيَـانِ؟
١٢٧٧- يَا قَـوْمِ مَـا فِي الْأَمْـرِ شَيْءٌ غَـيْرُ ذَا أَوْ أَنَّ رُؤْيَتَـهُ بِـلَا إِمْكَـانِ
١٢٧٨- إِذْ رُؤْيَـةٌ لَا فِي مُقَابَلَـةٍ مِـنَ الـرْ رَائِـي مُحَـالٌ لَـيْسَ فِي الْإِمْكَـانِ
١٢٧٩- وَمَنِ ادَّعَى شَيْئًا سِوَى ذَا كَانَ دَعْـ ـوَاهُ مُكَـابَرَةً عَـلَى الْأَذْهَـانِ
١٢٨٠- وَلِـذَاكَ قَـالَ مُحَقِّـقٌ مِـنْكُمْ لِأَهْـ ـلِ الِاعْتِـزَالِ مَقَالَـةً بِأَمَـانِ
١٢٨١- مَا بَيْنَنَا خُلْفٌ وَبَيْـنَكُمُ لِـذِي التْـ تَحْقِيـقِ فِي مَعْنًـى فَيَـا إِخْوَانِـي
١٢٨٢- شُـدُّوا بِأَجْمَعِنَـا لِنَحْمِـلَ حَمْلَـةً تَـذَرُ الْـمُجَسِّمَ فِي أَذَلِّ هَـوَانِ
١٢٨٣- إِذْ قَـالَ: إِنَّ إِلَـهَنَا حَقًّـا يُـرَى يَـوْمَ الْـمَعَادِ كَمَا يُـرَى الْقَمَـرَانِ
١٢٨٤- وَتَصِـيرُ أَبْصَـارُ الْعِبَـادِ نَـوَاظِرًا حَقًّـا إِلَيْـهِ رُؤْيَـةً بِعِيَـانِ
١٢٨٥- لَا رَيْـبَ أَنَّهُـمُ إِذَا قَـالُوا بِـذَا لَـزِمَ الْعُلُـوُّ لِفَـاطِرِ الْأَكْـوَانِ
١٢٨٦- وَيَكُونُ فَوْقَ العَرْشِ جَـلَّ جَلَالُـهُ فَلِـذَاكَ نَحْـنُ وَحِـزْبُهُمْ خَصْـمَانِ

١٢٨٧- لَكِنَّنَا سِلْمٌ وَأَنْتُمْ إِذْ تَسَا ... عَدْنَا عَلَى نَفْيِ الْعُلَا الرَّحْمَنِ

١٢٨٨- فَعُلُوُّهُ عَيْنُ الْمُحَالِ وَلَيْسَ فَوْ ... قَ الْعَرْشِ مِنْ رَبٍّ وَلَا دَيَّانِ

١٢٨٩- لَا تَنْصِبُوا مَعَنَا الْخِلَافَ فَمَا لَهُ ... طَعْمٌ، فَنَحْنُ وَأَنْتُمُ سِلْمَانِ

١٢٩٠- هَذَا الَّذِي -وَاللهِ- مُودَعُ كُتْبِهِمْ ... فَانْظُرْ تَرَى يَا مَنْ لَهُ عَيْنَانِ

الشرح

١٢٧٤- هَذَا وَثَالِثَ عَشْرَهَا: إِخْبَارُهُ ... أَنَّا نَرَاهُ بِجَنَّةِ الْحَيَوَانِ

هذا أيضًا من الْأَدِلَّة على عُلُوِّ الله عزَّ وجلَّ أنه أَخْبَرَ بأننا نراه في جنَّة الحَيَوانِ.

قَوْلُهُ: «الحَيَوان» يَعْني: الحياة، وليس المُرَادُ بالحيوانِ الحيَّ، كما قَالَ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت:٦٤]، و(الحَيَوان) هنا فيه صِيغَةُ مُبالغةٍ، يَعْنِي: الحياةَ الكاملةَ، فنحن نراه في جنَّةِ الحَيَوانِ -وأسأَلُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَني وإِيَّاكم مِمَّن يَراهُ- كما ثَبَتَ ذلك في الكتابِ والسُّنَّةِ وإجماعِ السَّلف، يَعْنِي: أنَّ اللهَ تعالى يُرَى بالعَينِ، لكن لا يُحاطُ به لقولِ الله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣]، كما نَرَى الشَّمْسَ الآن ولا نُدْرِكُها.

١٢٧٥- فَسَلِ الْمُعَطِّلَ هَلْ يُرَى مِنْ تَحْتِنَا ... أَمْ عَنْ شَمَائِلِنَا وَعَنْ أَيْمَانِ

١٢٧٦- أَمْ خَلْفَنَا وَأَمَامَنَا سُبْحَانَهُ ... أَمْ هَلْ يُرَى مِنْ فَوْقِنَا بِبَيَانِ؟

يقول: اسألِ المُعطِّلَ الذي يُنكِرُ عُلُوَّ الله، هل نراه مِن تحت أو مِن يمين أو شمال أو خلف أو أمام؟ يَعْنِي: اسأله عن كُلِّ الجهاتِ السِّت، هل نراه من تحتنا؟

الجَوَابُ: مستحيل، لأننا لو رأيناه مِن تَحتِنا لكان ناقصًا، وهل نراه عن يمينٍ أو شمالٍ أو أمامٍ أو خلفٍ، أربع جهات؟ الجَوَابُ: محالٌ، لِأَنَّهُ يستلزمُ أنْ يكونَ ناقصًا كذلك، فبَقِيَ أنْ نراه من فوق، وهذا هو المطلوبُ، ولهذا قال:

١٢٧٧- يَا قَـوْمِ مَـا فِي الْأَمْـرِ شَيْءٌ غَـيْرُ ذَا   أَوْ أَنَّ رُؤْيَتَـــهُ بِـــلَا إِمْكَـــانِ

١٢٧٨- إِذْ رُؤْيَـــةٌ لَا فِي مُقَابَلَـــةٍ مِـــنَ الـــرْ   رَائِـــي مُحَـــالٌ لَـــيْسَ فِي الْإِمْكَـــانِ

١٢٧٩- وَمَنِ ادَّعَى شَيْئًا سِوَى ذَا كَانَ دَعْـ   ـــوَاهُ مُكَـــابَرَةً عَـــلَى الْأَذْهَـــانِ

معلومٌ في الرؤيةِ أنه لا بُدَّ من مقابلةٍ بينَ الرائِي والمرئيِّ، فأنتم إن قُلْتُم: يقابُلنا من أسفلَ تنقَّصْتُم اللهَ، وإن قُلْتُم: مِن يَمينٍ، أو شِمالٍ، أو أمامٍ، أو خلفٍ، كذلك تنقَّصتُمُ اللهَ بإقرارِكم، فلم يَبْقَ إلَّا أنْ يُرَى مِن فوقُ، وهذا هو المطلوبُ.

ثُمَّ قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-:

١٢٨٠- وَلِـذَاكَ قَـالَ مُحَقِّـقٌ مِـنْكُمْ لِأَهْــ   ـلِ الِاعْتِـــزَالِ مَقَالَـــةً بِأَمَـــانِ

١٢٨١- مَا بَيْنَنَا خُلْفٌ وَبَيْـنَكُمُ لِـذِي التْــ   ـتَحْقِيـــقِ فِي مَعْنًـــى فَيَـــا إِخْوَانِـــي

قال: إنَّ المحقِّقَ منكم قَالَ للمُعتزلةِ -وهو الآن يَتكلَّمُ على الأشاعرةِ-: إنه لا فرقَ بينَنا وبينكم، دَعُونا نكن إخوانًا سِلْمًا فيما بينَنا، حَرْبًا على المُجسِّم الذي يُثْبِتُ أنَّ اللهَ يُرَى بعِيانٍ.

١٢٨٢- شُـــدُّوا بِأَجْمَعِنَـــا لِنَحْمِـــلَ حَمْلَـــةً   تَـــذَرُ الْـــمُجَسِّمَ فِي أَذَلِّ هَـــوَانِ

مَن المجَسِّم؟ الجَوَابُ: يقولُ -رَحِمَهُ اللهُ-:

١٢٨٣- إِذْ قَـــالَ: إِنَّ إِلَـــهَنَا حَقًّـــا يُـــرَى   يَـــوْمَ الْـــمَعَادِ كَـــمَا يُـــرَى الْقَمَـــرَانِ

ومَن الذي قَالَ ذلك؟ الجَوَابُ: الرسولُ -عليه الصلاة والسلام-، فهو على زَعْمِهم مُجَسِّمٌ، وهم حَرْبٌ عليه، نَعوذُ بالله.

انظر كيف الهوى؟! لِأَنَّهُم قالوا: مُستحيلٌ أنْ يُرَى اللهُ بالعينِ، وقد ذَكَرَ شيخُ الإسلامِ أنَّ جمهورَ أهل السُّنَّة كفَّروا مَنْ يُنكِرُ رُؤْيَةَ الله في الآخرةِ.

قال: لأنَّ الكتابَ والسُّنَّةَ وإجماعَ السَّلَفِ كُلَّها تَطَابَقَت على إثباتِها. وهل أبينُ من أنْ يقولَ الرسولُ ﷺ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ لَا تُضَامُونَ**»[١] أو قال: «**كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ**»[٢]؟!

لو قَالَ لنا: (إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ) فقطْ، لثَبَتَت الرؤيةُ، فكيف إذا أكَّدها بقَوْلِهِ: «**كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ**»؟!

ومن العجب أنَّ الذين أنكروا ذلك، قالوا: لأنَّ اللهَ قَالَ لموسى لـمَّا قَالَ له: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣]، كيف يقولُ اللهُ في القرآن: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، وتأتي أنت وتقولُ: إنَّ اللهَ يُرَى؟

فنقولُ في الرَّدِّ عليهم: إننا نحن لا نقولُ: إننا نراه في الدنيا، وإنما نراه في الآخرةِ، وما قولُكم هذا إلَّا كقولِ مُنْكِرِي البَعْثَ ﴿فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الدخان:٣٦]، الذين ينكرون البعثَ قالوا: كيف يُبْعَثُ الناسُ؟ فَائتوا بآبائِنا إن كنتم صادقين؟ فنَقُولُ لهم: نحن ما قُلْنَا نأتي بآبائِكم الآن، متى يُبْعَثُون؟ الجَوَابُ: يومَ القيامةِ، فتَحَدِّيكُم هذا لا وَجْهَ له.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، رقم (٧٤٣٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، رقم (٦٢٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢).

كذلك الذين استدلُّوا بقَوْلِهِ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ نَقُولُ: هذا لا دليلَ فيه لكم، لأننا لا نقولُ: إننا نراه في الدنيا، وإنها نراه في الآخرة.

بل قَالَ أهلُ السُّنَّة: إنَّ طلبَ موسى -عليه الصلاة والسلام- رؤيةَ الله تعالى في قَوْلِهِ: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف:١٤٣]، يَدُلُّ على إمكانِ الرؤيةِ، لأنَّ الرؤيةَ لو كانت رؤيةً مستحيلةً لكانت من النواقصِ، ولا يمكنُ لموسى -عليه الصلاة والسلام- أنْ يَعتقِدَ في الله تعالى صِفَةً ناقصةً.

الدليلُ الثاني لهم: قولُه تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فنقولُ: هذا حُجَّةٌ عليكم، وليس دليلًا لكم، لأنَّ الإدراكَ أخصُّ من الرؤية، فإنَّ الإنسانَ قد يَرَى الشيءَ، ولا يُدرِكُه، ولكنَّه إذا أدرَكَه فقد رآه، أو لَمَسَه، أو ما أشْبَهَ ذلك.

المهم أنَّ اللهَ قال: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ولم يَقُلْ: **(لا تَراهُ)**، فيكون في نفي الإدراكِ للإبصارِ دليلٌ على أنها تراه، لِأَنَّهَا لو كانت لا تراه لكان نفيُ إدراكِها له تلبيسًا، إذ إننا نَقُولُ: ما دامَ الأعمُّ لا يُوجَدُ، فالواجبُ نفيُ الأعمِّ، ولقال: **(لا تَرَاهُ الأبصارُ)**، لأننا نعلَمُ أنها إذا كانتْ لا تراه فلن تُدْرِكَه.

إذَنْ ففي الآيةِ دليلٌ عليهم، لا دليلٌ لهم.

وقد ذكَرَ شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّة -رَحِمَهُ اللهُ- في كتابِه: **(العَقْلِ والنَّقْلِ)** الذي قَالَ عنه ابنُ القَيِّم: **(مَا فِي الوُجُودِ لَهُ نَظِيرٌ ثَانِي)**، قال: «**أنا مُلْتَزِمٌ لكُلِّ مُبْتَدِعٍ أو مُعَطِّلٍ يأتي بدليلٍ من الكِتابِ والسُّنَّةِ أنْ أَجْعَلَ دَلِيلَه دليلًا عليه**»[1].

(١) انظر: مقدمة درء تعارض العقل والنقل.

وهذا صحيحٌ واضحٌ، لأنَّ هذا المُبْطِلَ لم يَستدِلَّ بالنَّصِّ إلَّا وهو يَجِدُ فيه أو يَشَمُّ منه رائِحةً لِـمَا يُريدُ، لَكِنَّهَا ليستِ الرائِحةُ التي يَتَعطَّرُ بها، ولَكِنَّهَا الرائِحةُ التي تَزْكُمُ أنفَه وتَرُدُّ عليه.

إذَنْ قَوْلُهُ تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ ليس فيها دليلٌ، لماذا؟ لِأَنَّهَا في الدنيا، ونحن نُوافِقُ على هذا، وقَوْلُهُ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ ليسَ فيها دليلٌ، بل هو دليلٌ عليهم.

فهم يُحرِّفون الكَلِمَ عن مواضِعِه، ويقولونَ: المُرَادُ بالرؤيةِ رؤيةُ العِلْم واليَقينِ، وليست رؤيةَ البَصَرِ، ولكن كيف يقول الرسولُ -عليه الصلاة والسلام-: «كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»(١)، و«كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ»(٢)، ونَقُولُ: المُرَادُ رؤيةُ العِلْمِ؟!

فرؤيةُ العِلْم -حتَّى في الدُّنيا- فإنَّ أهلَ اليقينِ يَعْبُدونَ اللهَ كأنهم يَرَوْنَه، كما قَالَ النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام- في الإحسانِ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَـمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(٣).

فإذا كان النَّصُّ لا يُمْكِنُ إنكارُه حَرَّفوه، مثلُ القرآنِ وغَيْرُه مِمَّا تَواتَرَ، وإذا كان آحادًا قَعَّدوا قاعدتَهم الفاسدةَ الباطِلَةَ بأنَّ الآحادَ ليسَ فيه حُجَّةٌ في إثباتِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، رقم (٦٢٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، رقم (٧٤٣٥).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، وعلم الساعة، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (٩).

العقائِدِ، معَ أنَّنا نَقُولُ: إنَّ حديثَ الرؤيةِ مُتواترٌ، قَالَ الناظم:

مِمَّا تَوَاتَرَ حَدِيثُ مَنْ كَذَبْ وَمَنْ بَنَى للهِ بَيْتًا وَاحْتَسَبْ

وَرُؤْيَةٌ شَفَاعَةٌ وَالْحَوْضُ وَمَسْحُ خُفَّيْنِ، وَهَذِي بَعْضُ

ثُمَّ قَالَ المؤلفُ:

١٢٨٤- وَتَصِيرُ أَبْصَارُ الْعِبَادِ نَوَاظِرًا حَقًّا إِلَيْهِ رُؤْيَةً بِعِيَانِ

قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، فقولُه تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣] أي: تَنْظُرُ إليه.

١٢٨٥- لَا رَيْبَ أَنَّهُمُ إِذَا قَالُوا بِذَا لَزِمَ الْعُلُوُّ لِفَاطِرِ الْأَكْوَانِ

يعني: إذا قالوا بثبوتِ الرؤية لَزِمَهم لزومًا لا محيدَ عنه أنْ يكونَ اللهُ تعالى عاليًا، كما سَبَقَ في الجهاتِ الخمسِ أنها ممتنعةٌ.

١٢٨٦- وَيَكُونُ فَوْقَ العَرْشِ جَلَّ جَلَالُهُ فَلِذَاكَ نَحْنُ وَحِزْبُهُمْ خَصْمَانِ

قَوْلُهُ: «نَحْنُ» يَعْنِي: المعتزلة والأشاعرة.

قَوْلُهُ: «وَحِزْبُهم» أي: المُجَسِّم -على زَعْمِهم- ومنهم الرسولُ -عليه الصلاة والسلام- وهم أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ.

١٢٨٧- لَكِنَّنَا سِلْمٌ وَأَنْتُمْ إِذْ تَسَا عَدْنَا عَلَى نَفْيِ الْعُلَا الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «لَكِنَّنَا سِلْمٌ وَأَنْتُمْ» يَعْنِي: نحن وإيَّاكم بيننا سِلْمٌ، لا حربٌ، لأننا تَساعَدْنا على نَفْيِ العُلُوِّ للهِ عزَّ وجلَّ.

والمساعدُ للمُبطِلِ على باطِله بينَه وبينَه سِلْمٌ، لكنَّه يومَ القيامةِ يكون بينه

وبينَه حربٌ، كما قَالَ تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذِۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧]، وقَالَ تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨].

١٢٨٨- فَعُلُوُّهُ عَيْنُ الْـمُحَالِ وَلَيْسَ فَوْ ... قَ الْعَرْشِ مِنْ رَبٍّ وَلَا دَيَّانِ

أعوذ بالله، يقولون: (**عُلُوُّه عَيْنُ الْـمُحَالِ**)، ونحن نقولُ: عُلوُّه عينُ الكمالِ، فعُلوُّ الله عزَّ وجلَّ لا شكَّ أنه عينُ الكمال، وأنه من كمالِه عزَّ وجلَّ أنه فَوْقَ كُلِّ شَيْء، لا إلهَ إِلَّا هو.

١٢٨٩- لَا تَنْصِبُوا مَعَنَا الْـخِلَافَ فَمَا لَـهُ ... طَعْـمٌ، فَنَحْنُ وَأَنْتُمُ سِلْمَانِ

١٢٩٠- هَذَا الَّذِي -وَاللهِ- مُودَعُ كُتْبِهِمْ ... فَانْظُرْ تَرَى يَا مَنْ لَـهُ عَيْنَانِ

يعني: لا تُخالفونا، ولا تُنازِعُونا، لأنَّ الخلافَ ليسَ له طعمٌ، إذ إنه ليسَ بخلافٍ.

قَوْلُهُ: «**فَنَحْنُ... سِلْمَانِ**» أي: مُسالمٌ بعضُنا بعضًا.

وهنا مسألة: هل هؤلاء يكُفَّرونَ إن كانوا مُتأوِّلينَ أو لا؟

الجَوَابُ: هم مثلُ غيرِهم، فكُلُّ قولٍ مُكفرٍ لا بُدَّ أنْ تقومَ الحُجَّةُ على مَنْ قَالَ بِهِ مثلُ غيرِهم، يَعْنِي: لو فَرَضْنا أنَّ عندَهم شُبهاتٍ يُعْذَرونَ بها ما كفَّرناهم، لِأَنَّ هناك فرقًا بينَ التكفيرِ بالعينِ والتكفيرِ بالوصفِ، وكذلك كُلُّ شَيْءٍ يُفَرَّقُ فيه بينَ العينِ والوصفِ، فلو قُلْتَ: (**مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ الله فهو شهيدٌ**)، فهذا صحيحٌ، لكن لا تَقُلْ عن الذي قُتِلَ في المعركةِ: إنَّه شهيدٌ، بل تقول: يُرْجَى أنْ يكونَ من الشُّهداءِ، أَمَّا أنْ تَشْهَدَ له بعينِه بأنه شهيدٌ، فلا تَدْرِي.

فهذا الرجلُ الذي قَالَ الرسولُ -عليه الصلاة والسلام-: «إِنَّه مِنْ أَهْلِ النَّارِ»(١)، مع أنه كان لا يَدَعُ فاذَّةً ولا شَاذَّةً للعدوِّ إِلَّا أتى بها، ومع ذلك قال: «إِنَّهُ فِي النَّارِ».

وخطَبَ عمرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وقال: «إِنَّكُمْ تَقُولُونَ: فُلَانٌ شَهِيدٌ، فُلَانٌ شَهِيدٌ، وَلَعَلَّهُ يَكُونُ قَدْ أَوْقَرَ رَاحِلَتَهُ -يَعْنِي: مِنَ الغُلُولِ- أَلَا لَا تَقُولُوا ذَلِكَ، وَلَكِنْ قُولُوا كما قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ الله أَوْ مَاتَ فهو شَهِيدٌ»(٢)، فقال: (من مات) على سبيلِ العُمومِ.

ولهذا نَقُولُ: كُلُّ مؤمنٍ في الجَنَّةِ، ونَشْهَدُ بذلك، لكن لو رَأَيْنَا رجلًا مؤمنًا في ظاهِرِه هل نَشْهَدُ له بالجَنَّةِ؟ الجَوَابُ: لا، فقد بَيَّنَ الرسولُ -عليه الصلاة والسلام- «أَنَّ الرَّجُلَيْنِ يُهاجِرَان أَحَدُهُمَا: هِجْرَتُهُ إِلَى الله وَرَسُولِهِ، وَالثَّانِي: هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا»(٣) وما يُدْرِينا لعلَّ هذا الذي يُقاتِلُ يُقَاتِلُ لأجلِ الدنيا.

ولهذا قَالَ شيخُ الإسلامِ في عكس هذه المسألة لـمَّا سُئِلَ عن قومٍ من الجنود توقَّفوا عن قتال التتارِ، قالوا: لأنَّ التتارَ معهم قومٌ مسلمون ومُكْرَهون، فقال: يَجِبُ قتالُهم، حتَّى المسلمون يُقْتَلُونَ، وقال: إنَّ هؤلاء الذين أُكْرِهُوا على الخروج

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب لا يقول فلان شهيد، رقم (٢٧٤٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، رقم (١١٢).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في قتال اللصوص، رقم (٤٧٧٢). والترمذي: كتاب الديات، باب ما جاء فيمن قُتِلَ دون ماله فهو شهيد، رقم (١٤٢١)، وقال: حسن صحيح. والنسائي: كتاب تحريم الدم، باب من قاتل دون دينه، رقم (٤٠٩٥). وأحمد: (١/ ١٩٠، رقم ١٦٥٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟ رقم (١)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية». رقم (١٩٠٧).

يَجوزُ أنْ نقتلَهم لصالحِ الإسلامِ، لأننا لو تركناهم فإننا لا نَعْلَمُ المُكْرَه من غيرِ المُكْرَه، فيكونُ حسابُهم على ما في قلوبِهم على الله، أمَّا بالنسبة لنا، فإننا نُقاتِلُ مَن وَجَدْناه في صَفِّ عدوِّنا، قاتلناه ولو كان مسلمًا، حتَّى وإنْ قال: إنه مُكْرَهٌ.

يقولُ شيخُ الإسلام: «ويكونُ هؤلاء الذين جاءوا مُكْرَهِينَ، وقاتَلوا في صفِّ الكُفَّار -وهو يَتكلَّمُ عن التَّتارِ- عندَ الله شهداءَ، بِناءً على ما في قلوبِهم، أمَّا بالنسبةِ لنا فليسَ لنا إِلَّا الظاهرُ، وذكَرَ أثرًا عن العباسِ بنِ عبدِ المطلب لما أُسِرَ في بَدْرٍ قَالَ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي قَدْ كُنْتُ مُسْلِمًا، فَقَالَ: «**أَعْلَمُ بِإِسْلَامِكَ فَإِنْ يَكُنْ كَمَا تَقُولُ فَاللهُ يَجْزِيكَ بِذَلِكَ، فَأَمَّا ظَاهِرًا مِنْكَ فَكَانَ عَلَيْنَا**»[1].

فكونُ كُلِّ واحدٍ يقولُ: أنا -والله- مُكْرَهٌ، فمِثْلُ هذه المسائِلِ لا يُمْكِنُ الإحاطةُ بها، لِأَنَّهَا مَبْنِيَّةٌ على ما في القلوبِ، ولا يَعْلَمُ ما في القُلوبِ إِلَّا عَلَّامُ الغيوب، ولهذا قال: «باتِّفاقِ عُلماءِ المُسلمينَ أنَّ الكُفَّارَ إذا تَتَرَّسوا بالأَسْرَى المُسْلِمِينَ وَخِيفَ على المُسْلِمِينَ من الكُفَّارِ أنْ يَنْدَفِعوا بواسطةِ الأَسْرَى -لأَنَّ المُسْلِمِينَ لا يَقْتُلونَ أسراهم الذين عندَ الكُفَّارِ- فإنه يُقْتَلُ المسلمُ الذي تَتَرَّسَ به الكافرُ»[2]، فإننا إذا قتلناه فإننا مَعْذُورونَ، وليسَ علينا إثمٌ، وهو بِنَفْسِه أيضًا يكون شهيدًا، لِأَنَّهُ قُتِلَ لنُصرةِ الحقِّ.

فهذه المَسائِلُ -في الحقيقةِ- مَسائِلُ دقيقةٌ، يَنْبَغِي للإنسانِ ألا تَأْخُذَه العاطفةُ في الحُكْمِ على هذهِ الأمورِ، بل يَرْجِعُ إلى كلامِ العلماءِ، وما قاله أهلُ العلمِ في هذه المسائِلِ حتَّى لا يَحْكُمَ بالضلالِ، وهذه مَسائِلُ خطيرةٌ جدًّا، خصوصًا في أحداثِنا

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ١٤٢).
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٥٥٢).

هذه، فإنَّ كثيرًا من الناسِ صار يَنْسَى بعضَ المصائِبِ التي أصابتِ المُسلمينَ ويَتأوَّه لقومٍ تَتَرَّسَ بهم العَدُوُّ، نَقُولُ: هؤلاء شهداءُ إذا قُتِلُوا -إن شاء الله- وهم على الإسلامِ، لكن أنْ نَدَعَ هذا العدوَّ يَتَترَّسُ بما يَتترَّسُ به من المُسلمِينَ، فهذا لا يمكنُ، وإلَّا ضاعت الأمورُ.

المُهِمُّ أنْ نقولَ: إنَّ هؤلاء الذين يُنكرونَ رؤيةَ الله لا نُكَفِّرُ كُلَّ واحدٍ بعينِه، ولكن نقولُ: مَنْ أَنْكَرَ رُؤيةَ الله بعدَ بُلوغِ الحُجَّةِ، فإنه يكونُ كافرًا، لِأَنَّهُ مُكَذِّبٌ لله ورسولِه، ولِـمَا أجْمَعَ عليه الصحابةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

* * *

فصل

١٢٩١- هَذَا وَرَابِعَ عَشْرَهَا: إِقْرَارُ سَا ئِلِهِ بِلَفْظِ الـْ(أَيْنَ) لِلرَّحْمَنِ
١٢٩٢- وَلَقَدْ رَوَاهُ أَبُو رَزِينٍ بَعْدَمَا سَأَلَ الرَّسُولَ بِلَفْظِهِ بِوِزَانِ
١٢٩٣- وَرَوَاهُ تَبْلِيغًا لَهُ وَمُقَرِّرًا لَمَّا أَقَرَّ بِهِ بِلَا نُكْرَانِ
١٢٩٤- هَذَا وَمَا كَانَ الجَوَابُ جَوَابَ (مَنْ) لَكِنْ جَوَابُ اللَّفْظِ بِالْمِيزَانِ
١٢٩٥- كَلَّا وَلَيْسَ لِـ(مَنْ) دُخُولٌ قَطُّ فِي هَذَا السِّيَاقِ لِمَنْ لَهُ أُذُنَانِ
١٢٩٦- دَعْ ذَا فَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ بِنَفْسِهِ: أَيْنَ الْإِلَهُ؟ لِعَالِمٍ بِلِسَانِ
١٢٩٧- وَاللهِ مَا قَصَدَ الْمُخَاطِبُ غَيْرَ مَعْـ ـنَاهَا الَّذِي وُضِعَتْ لَهُ الْحَقَّانِي
١٢٩٨- وَاللهِ مَا فَهِمَ الْمُخَاطَبُ غَيْرَهُ وَاللَّفْظُ مَوْضُوعٌ لِقَصْدِ بَيَانِ
١٢٩٩- يَا قَوْمُ لَفْظُ الـْ(أَيْنَ) مُمْتَنِعٌ عَلَى الرْ رَحْمَنِ عِنْدَكُمُ وَذُو بُطْلَانِ
١٣٠٠- وَيَكَادُ قَائِلُكُمْ يُكَفِّرُنَا بِهِ بَلْ قَدْ وَهَذَا غَايَةُ الْعُدْوَانِ
١٣٠١- لَفْظٌ صَرِيحٌ جَاءَ عَنْ خَيْرِ الْوَرَى قَوْلًا وَإِقْرَارًا هُمَا نَوْعَانِ
١٣٠٢- وَاللهِ مَا كَانَ الرَّسُولُ بِعَاجِزٍ عَنْ لَفْظِ (مَنْ) مَعَ أَنَّهَا حَرْفَانِ
١٣٠٣- وَالـْ(أَيْنَ) أَحْرُفُهَا ثَلَاثٌ وَهْيَ ذُو لَبْسٍ وَ(مَنْ) هِيَ غَايَةُ التِّبْيَانِ
١٣٠٤- وَاللهِ مَا الْمَلَكَانِ أَفْصَحُ مِنْهُ إِذْ فِي الْقَبْرِ مَنْ رَبُّ السَّمَا يَسَلَانِ

١٣٠٥- وَيَقُولُ: أَيْنَ اللهُ؟ يَعْنِي: (مَنْ) فَلَا وَاللهِ مَـــا اللَّفْظَـــانِ مُتَّحِـــدَانِ
١٣٠٦- كَـــلَّا وَلَا مَعْنَاهُمَـــا أَيْضًـــا لِـــذِي لُغَـــةٍ وَلَا شَرْعٍ وَلَا إِنْسَـــانِ

الشَّـــرحُ

١٢٩١- هَذَا وَرَابِعَ عَشْـــرَهَا: إِقْـــرَارُ سَـــا ئِلِـــهِ بِلَفْـــظِ الْـــ(أَيْنَ) لِلـــرَّحْمَنِ
١٢٩٢- وَلَقَـــدْ رَوَاهُ أَبُـــو رَزِيـــنٍ بَعْـــدَمَا سَـــأَلَ الرَّسُـــولَ بِلَفْظِـــهِ بِـــوِزَانِ
١٢٩٣- وَرَوَاهُ تَبْلِيغًـــا لَـــهُ وَمُقَـــرِّرًا لَـــمَّا أَقَـــرَّ بِـــهِ بِـــلَا نُكْـــرَانِ

هذا أيضًا من الْأَدِلَّةِ على عُلُوِّ الله -سبحانه وتعالى- وهو إقرارُ سائِلِه بلفظِ الـ(أين) يَعْنِي: إقرارُ النَّبِيِّ ﷺ مَنْ سَأَلَهُ: أَيْنَ رَبُّنَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ؟ فَأَجَابَهُ النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام- قَالَ: «كَانَ فِي عَمَاءٍ»[1] يَعْنِي: فِي شَيْءٍ من جنس الغَمامِ ونحوِه.

فهذا السائِلُ قال: أين رَبُّنا؟ والـ(أين) يُسْتَفْهَمُ بها عن المكانِ، فأقَرَّه النَّبِيُّ ﷺ على هذا السؤالِ، وأجابه بأنه في عَماءٍ، يَعْنِي: أنه -سبحانه وتعالى- فوقَ كُلِّ شيءٍ، وحولَه هذا الذي يكونُ في عَماءٍ من جنسِ السَّحَابِ الخفيفِ.

وكذلك أيضًا هو نفسُه سألَ الجاريةَ فقَالَ لها: «أَيْنَ اللهُ؟» فقَالَتْ: فِي السَّماءِ. فَأَقَرَّها[2].

فالنَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام- أجاب السائِلَ بـ(أين)، وهو نفسُه أيضًا وَجَّه سؤالًا بـ(أين)، (وأين) يُسْتَفْهَمُ بها عن المكانِ.

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة هود، رقم (٣١٠٩).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).

قَوْلُهُ: «مُقَرِّرًا لَـمَّا أَقَرَّ بِهِ» ويَحتمل أنْ تقول: (مُقَرِّرًا لِـمَا أَقرَّ به) يَعْنِي: أنَّ الرسولَ قرَّرَ ما أقرَّ به.

١٢٩٤- هَذَا وَمَا كَانَ الجَوَابُ جَوَابَ (مَـنْ) لَكِـنْ جَـوَابُ اللَّفْـظِ بِالْـمِيزَانِ

قَوْلُهُ: «هَذَا ومَا كانَ الجَوَابُ جَوَابُ (مَن)» لِأَنَّهُ لو كان الجَوَابُ جواب (مَنْ) كان الاستفهامُ هنا ليس عن المكان، بل عن الذاتِ (مَنِ الله)؟ مثلًا، فيقول: رَبُّ السموات والأرضِ، لكن (أين الله)؟ استفهامٌ عن المكانِ.

١٢٩٥- كَلَّا وَلَيْسَ لِـ(مَنْ) دُخُـولٌ قَـطُّ فِي هَــذَا السِّـيَاقِ لِــمَنْ لَـهُ أُذُنَـانِ

لـمَّا قالَ: أين اللهُ؟ فقال: في السماءِ، ما يصحُّ أبدًا أنْ تكون (أين) هنا بمعنى (مَنْ)، فالاستفهامُ ليسَ بلفظِ (مَنْ)، و(أين) لا تَصِحُّ أنْ تكونَ بمعنى (مَنْ).

ثُمَّ قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-:

١٢٩٦- دَعْ ذَا فَقَـدْ قَـالَ الرَّسُـولُ بِنَفْسِـهِ: أَيْــنَ الْإِلَـهُ؟ لِعَالِــمٍ بِلِسَــانِ

قَوْلُهُ: «أَيْنَ الإِلَهُ» يُخَاطِبُ مَنْ يَعرِفُ اللغةَ، أي: مَنْ هو عَالِـمٌ باللسانِ، يُخاطِبُ امرأةً عربيَّةً ويقول لها: «أين الله؟»(١).

١٢٩٧- وَاللهِ مَا قَصَدَ الْـمُخَاطِبُ غَيْرَ مَعْـ ـنَاهَا الَّذِي وُضِعَتْ لَهُ الْـحَقَّانِـي

١٢٩٨- وَاللهِ مَـا فَهِـمَ الْــمُخَاطَبُ غَـيْرَهُ وَاللَّفْـظُ مَوْضُـوعٌ لِقَصْـدِ بَيَـانِ

قَوْلُهُ: «الْـمُخَاطِب» هو الرسولُ -عليه الصلاة والسلام-.

قَوْلُهُ: «والْـمُخاطَب» يَعْنِي: المرأة.

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).

قَوْلُهُ: «وَاللَّفْظُ مَوْضُوعٌ لِقَصْدِ بَيَانِ» وهو بَيِّنٌ، فهناك فرقٌ بين (أَيْنَ) وبينَ (مَنْ).

١٢٩٩- يَا قَوْمُ لَفْظُ الـْ(أَيْنَ) مُمْتَنِعٌ عَلَى الـرْ رَحْمَـــنِ عِنْــدَكُمُ وَذُو بُطْـلَانِ

يعني: أنَّ الذين يُنكرونَ عُلوَّ الله يقولونَ: لا يَجوزُ أنْ تَقولَ: أين اللهُ؟ وإذا قُلْتَ: أين اللهُ؟ فهذا حَرَامٌ عليكَ، بل يقول:

١٣٠٠- وَيَكَــادُ قَــائِلُكُمْ يُكَفِّرُنَــا بِــهِ بَــلْ قَــدْ وَهَــذَا غَايَــةُ الْعُــدْوَانِ

قَوْلُهُ: «يَكَادُ» يَعْنِي: يَقْرُبُ أنْ يُكَفِّرَنا به.

قَوْلُهُ: «بَلْ قَدْ» يَعْنِي: بل قد كَفَّرنا، وقال: مَنْ قال: (أين اللهُ؟) فهو كافرٌ، وعلى رأيِهم يكونُ الرسولُ -عليه الصلاة والسلام- كافرًا، ويكونُ مُقَرِّرًا للكُفْرِ.

١٣٠١- لَفْظٌ صَرِيحٌ جَاءَ عَنْ خَيْرِ الْـوَرَى قَــوْلًا وَإِقْــرَارًا هُمَــا نَوْعَــانِ

قَوْلُهُ: «قَوْلًا» في قَوْلِهِ: «أينَ اللهُ؟».

قَوْلُهُ: و«إِقْرَارًا» أي: في جوابِه للسائِلِ.

١٣٠٢- وَاللهِ مَــا كَــانَ الرَّسُــولُ بِعَــاجِزٍ عَنْ لَفْظِ (مَـنْ) مَـعَ أَنَّهَـا حَرْفَـانِ

١٣٠٣- وَالـْ(أَيْنَ) أَحْرُفُهَا ثَلَاثٌ وَهْـيَ ذُو لَـبْسٍ وَ(مَـنْ) هِـيَ غَايَـةُ التِّبْيَـانِ

ذكَرَ -رَحِمَهُ اللهُ- ثلاثةَ أُمورٍ:

الأول: كيف تَقُولُونَ: إِنَّ (أين) بمعنى (مَنْ)؟ هل الرسولُ الذي يَستطِيعُ أنْ يقولَ: (أين) يَعْجِزُ عن (مَنْ)؟ الجَوَابُ: لا، وإذا كان كذلك، فأَيُّهما أكثرُ حروفًا (أين) أو (مَنْ)؟

الجَوَابُ: (أَيْنَ)، كيف يَعدِلُ عن (مَنْ)، وهي أقلُّ حروفًا، إلى (أَيْنَ) وهي أكثرُ حروفًا، وهذا هو الثاني.

الثالث: (مَنْ) واضحةٌ في المعنَى، (وأَيْنَ) إذا قُصِدَ بها (مَنْ) صارت ذا لَبْسٍ، لأنَّ حملَ (أَيْنَ) على (مَنْ) بعيدٌ، فلو قَصَدَ المُخاطِبُ بها (مَنْ) لكان مُلَبِّسًا غيرَ مُبيِّنٍ.

فذكَرَ -رَحِمَهُ اللهُ- ثلاثةَ موانِعَ، كُلُّها تَمنَعُ أنْ تكونَ (أَيْنَ) بمعنى (مَنْ).

١٣٠٤- وَاللهِ مَا الْـمَلَكَانِ أَفْصَحُ مِنْهُ إِذْ ... فِي الْقَبْرِ مَنْ رَبُّ السَّمَا يَسَلَانِ

لما أَرَادَ النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام- (مَنْ) بيَّنها، وقال: إِنَّ المَلَكَيْنِ يَسْأَلَانِ العَبْدَ فِي قَبْرِهِ، يَقُولَانِ لَهُ: «مَنْ رَبُّكَ»[1]؟ ولا يقولان: أَيْنَ ربُّكَ؟

فلمَّا أُرِيدَ معنى (مَنْ) عُبِّر بـ(مَنْ)، وإذا أُريد معنى (أَيْنَ) عُبِّر بـ(أَيْنَ).

فهل تَقُولُونَ أنتم: إِنَّ المَلَكَيْنِ أفصحُ من الرسول -عليه الصلاة والسلام-؟! لأنَّ هؤلاء -والعياذُ باللهِ- يقولون: إِنَّ معنَى (أَيْنَ اللهُ)؟ يَعْنِي: مَن اللهُ؟ ولا شكَّ أنَّ هذا مُمتنِعٌ، لكن هذا معنَى كلامِهم، فيُقَالُ: كيف يُعَبِّر الرسولُ بـ(أين) بدلًا عن (مَنْ)؟!

إذَنْ -على زَعْمِكم- المَلَكَانِ أفصحُ من الرسولِ وأَبْيَنُ، مع العِلْمِ بأنَّ الملَكَيْنِ يُخاطبانِ المَيِّتَ، وهو غيرُ مُكَلَّفٍ، والرسولُ يُبيِّنُ للأحياءِ المُكَلَّفِينَ، فكيف يُعَبِّرُ بـ(أين) عن (مَنْ)؟!

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السُّنَّة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣).

١٣٠٥- وَيَقُولُ: أَيْنَ اللهُ؟ يَعْنِي: (مَنْ) فَلَا   وَاللهِ مَـــا اللَّفْظَـــانِ مُتَّحِـــدَانِ

قَوْلُهُ: «ويَقولُ: أينَ اللهُ؟ يَعْنِي: مَنْ؟» يَعْنِي: هم يَدَّعون أنَّ معنى قولِ الرسولِ: «أين اللهُ»؟ يَعْنِي: مَن الله؟ كيف يريدُ (مَن الله)، وهو يقولُ: أين؟!

قَوْلُهُ: «وَاللهِ مَا اللَّفْظَانِ مُتَّحِدَانِ» صَدَقَ، فبَيْنَهما فرقٌ.

١٣٠٦- كَــلَّا وَلَا مَعْنَاهُمَــا أَيْضًــا لِــذِي   لُغَـــةٍ وَلَا شَرْعٍ وَلَا إِنْسَـــانِ

فهما مُتباينانِ لفظًا ومعنًى.

وخلاصةُ هذا الفصلِ أنَّ مِن الْأَدِلَّةِ على عُلُوِّ الله: أنَّ الرسولَ -عليه الصلاة والسلام- سأل: «أين اللهُ؟»[1] فقيلَ: في السَّماءِ، وسُئِلَ: «أين اللهُ؟»، فقال: في السَّماءِ، إذَنْ اللفظُ واضحٌ بأنَّ اللهَ تعالى بذاتِهِ فوقَ كُلِّ شَيْءٍ.

* * *

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).

فصل

١٣٠٧- هَذَا وَخَامِسَ عَشْرَهَا: الْإِجْمَاعُ مِنْ ... رُسُلِ الْإِلَهِ الْوَاحِدِ الْمَنَّانِ

١٣٠٨- فَالْمُرْسَلُونَ جَمِيعُهُمْ مَعَ كُتْبِهِمْ ... قَدْ صَرَّحُوا بِالْفَوْقِ لِلرَّحْمَنِ

١٣٠٩- وَحَكَى لَنَا إِجْمَاعَهُمْ شَيْخُ الْوَرَى ... وَالدِّينِ عَبْدُ الْقَادِرِ الْجِيلَانِي

١٣١٠- وَأَبُو الْوَلِيدِ الْمَالِكِي أَيْضًا حَكَى ... إِجْمَاعَهُمْ أَعْنِي ابْنَ رُشْدِ الثَّانِي

١٣١١- وَكَذَا أَبُو الْعَبَّاسِ أَيْضًا قَدْ حَكَى ... إِجْمَاعَهُمْ عَلَمُ الْهُدَى الْحَرَّانِي

١٣١٢- وَلَهُ اطِّلَاعٌ لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِهِ ... لِسِوَاهُ مِنْ مُتَكَلِّمٍ بِلِسَانِ

١٣١٣- هَذَا وَنَقْطَعُ نَحْنُ أَيْضًا أَنَّهُ ... إِجْمَاعُهُمْ قَطْعًا عَلَى الْبُرْهَانِ

١٣١٤- وَكَذَاكَ نَقْطَعُ أَنَّهُمْ جَاءُوا بِإِثْـ ... ـبَاتِ الصِّفَاتِ لِخَالِقِ الْأَكْوَانِ

١٣١٥- وَكَذَاكَ نَقْطَعُ أَنَّهُمْ جَاءُوا بِإِثْـ ... ـبَاتِ الْكَلَامِ لِرَبِّنَا الرَّحْمَنِ

١٣١٦- وَكَذَاكَ نَقْطَعُ أَنَّهُمْ جَاءُوا بِإِثْـ ... ـبَاتِ الْمَعَادِ لِهَذِهِ الْأَبْدَانِ

١٣١٧- وَكَذَاكَ نَقْطَعُ أَنَّهُمْ جَاءُوا بِتَوْ ... حِيدِ الْإِلَهِ وَمَا لَهُ مِنْ ثَانِ

١٣١٨- وَكَذَاكَ نَقْطَعُ أَنَّهُمْ جَاءُوا بِإِثْـ ... ـبَاتِ الْقَضَاءِ وَمَا لَهُمْ قَوْلَانِ

١٣١٩- فَالرُّسْلُ مُتَّفِقُونَ قَطْعًا فِي أُصُو ... لِ الدِّينِ دُونَ شَرَائِعِ الْإِيمَانِ

١٣٢٠- كُلٌّ لَهُ شَرْعٌ وَمِنْهَاجٌ وَذَا ... فِي الْأَمْرِ لَا التَّوْحِيدِ فَافْهَمْ ذَانِ

١٣٢١- فَالدِّينُ فِي التَّوْحِيدِ دِينٌ وَاحِدٌ ... لَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ عَلَيْهِ اثْنَانِ
١٣٢٢- دِينُ الْإِلَهِ اخْتَارَهُ لِعِبَادِهِ ... وَلِنَفْسِهِ هُوَ قَيِّمُ الْأَدْيَانِ
١٣٢٣- فَمِنَ الْمُحَالِ بِأَنْ يَكُونَ لِرُسْلِهِ ... فِي وَصْفِهِ خَبَرَانِ مُخْتَلِفَانِ
١٣٢٤- وَكَذَاكَ نَقْطَعُ أَنَّهُمْ جَاءُوا بِعَدْ ... لِ اللهِ بَيْنَ طَوَائِفِ الْإِنْسَانِ
١٣٢٥- وَكَذَاكَ نَقْطَعُ أَنَّهُمْ أَيْضًا دَعَوْا ... لِلْخَمْسِ وَهْيَ قَوَاعِدُ الْإِيمَانِ
١٣٢٦- إِيمَانُنَا بِاللهِ ثُمَّ بِرُسْلِهِ ... وَبِكُتْبِهِ وَقِيَامَةِ الْأَبْدَانِ
١٣٢٧- وَبِجُنْدِهِ وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ الْأُلَى ... هُمْ رُسْلُهُ لِمَصَالِحِ الْأَكْوَانِ
١٣٢٨- هَذِي أُصُولُ الدِّينِ حَقًّا لَا أُصُو ... لُ الخَمْسِ لِلْقَاضِي هُوَ الْهَمْدَانِي
١٣٢٩- تِلْكَ الْأُصُولُ لِلاعْتِزَالِ وَكَمْ لَهَا ... فَرْعٌ فَمِنْهُ الْخَلْقُ لِلْقُرْآنِ
١٣٣٠- وَجُحُودُ أَوْصَافِ الْإِلَهِ وَنَفْيُهُمْ ... لِعُلُوِّهِ وَالْفَوْقِ لِلرَّحْمَنِ
١٣٣١- وَكَذَاكَ نَفْيُهُمُ لِرُؤْيَتِنَا لَهُ ... يَوْمَ اللِّقَاءِ كَمَا يُرَى الْقَمَرَانِ
١٣٣٢- وَنَفَوْا قَضَاءَ الرَّبِّ وَالْقَدَرَ الَّذِي ... سَبَقَ الْكِتَابُ بِهِ هُمَا حَتْمَانِ
١٣٣٣- مِنْ أَجْلِ هَاتِيكَ الْأُصُولِ وَخَلَّدُوا ... أَهْلَ الْكَبَائِرِ فِي لَظَى النِّيرَانِ
١٣٣٤- وَلِأَجْلِهَا نَفَوُا الشَّفَاعَةَ فِيهِمُ ... وَرَمَوْا رُوَاةَ حَدِيثِهَا بِطِعَانِ
١٣٣٥- وَلِأَجْلِهَا قَالُوا بِأَنَّ اللهَ لَمْ ... يَقْدِرْ عَلَى إِصْلَاحِ ذِي الْعِصْيَانِ
١٣٣٦- وَلِأَجْلِهَا قَالُوا بِأَنَّ اللهَ لَمْ ... يَقْدِرْ عَلَى إِيمَانِ ذِي الْكُفْرَانِ

١٣٣٧- وَلِأَجْلِهَا حَكَمُوا عَلَى الرَّحْمَنِ بِالشْـ ـشَرْعِ الْـمُحَالِ شَرِيعَةِ الْبُهْتَانِ

١٣٣٨- وِلِأَجْلِهَا هُمْ يُوجِبُونَ رِعَايَةً لِلْأَصْلَحِ الْـمَوْجُودِ فِي الْإِمْكَانِ

١٣٣٩- حَقًّا عَلَى رَبِّ الْوَرَى بِعُقُولِهِمْ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ذَا السُّبْحَانِ!

الشرحُ

١٣٠٧- هَذَا وَخَامِسَ عَشْرَهَا: الْإِجْمَاعُ مِنْ رُسُلِ الْإِلَهِ الْوَاحِدِ الْـمَنَّانِ

١٣٠٨- فَالْـمُرْسَلُونَ جَمِيعُهُمْ مَعَ كُتْبِهِمْ قَدْ صَرَّحُوا بِالْفَوْقِ لِلرَّحْمَنِ

١٣٠٩- وَحَكَى لَنَا إِجْمَاعَهُمْ شَيْخُ الْوَرَى وَالدِّينِ عَبْدُ الْقَادِرِ الْـجِيلَانِي

هذا هو الدليلُ الخامسَ عشرَ في إثباتِ عُلُوِّ الله، وهو إجماعُ الرُّسلِ على إثباتِه.

قَوْلُهُ: «وخَامِسَ عَشْرَها» يجوزُ في مثل هذا التركيب ثلاثةُ أوجه:

الوَجْه الأوَّل: إعرابُ الطرفين، فنقولُ: (هذا وخَامِسُ عَشْرِهَا)، وهذا هو مَذْهَبُ الكُوفِيِّينَ.

الوَجْه الثاني: إعرابُ الثاني، وبناءُ الأوَّل، فنَقُولُ: (هذا وَخَامِسَ عَشْرِهَا) (وخَامِسَ) مُضافٌ، و(عَشْرِ) مُضافٌ إليه.

الوَجْه الثالث: البناءُ على الفتح في الجُزْءَيْنِ، فتقولُ: (هذا وَخَامِسَ عَشْرَهَا).

إذَنْ يجوزُ أنْ تقولَ: (خامِسُ عَشْرِهَا) أو (خَامِسَ عَشْرِهَا) أو (وَخَامِسَ عَشْرَهَا).

قَوْلُهُ: «عَبْدُ القَادِرِ الجِيلانِي[١]» عبدُ القادِرِ الجِيلانِيُّ إمامٌ مشهورٌ معروفٌ، زاهدٌ ناسكٌ، من أصحابِ الإمامِ أحمدَ بن حَنْبلٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعَالَى- فقد حَكَى أنَّ استواءَ الله على العَرْشِ مذكورٌ في كُلِّ كتابٍ أنزله اللهُ على كُلِّ نَبيٍّ.

ولا شكَّ أنَّ علوَّ الله موجودٌ في الشرائِعِ السابقةِ، فهذا فِرْعونُ يقولُ لهامانَ: ﴿ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر:٣٦-٣٧] وهذا يَدُلُّ على أنَّ موسى قَالَ له: إنَّ اللهَ في السَّماءِ.

١٣١٠- وَأَبُو الْوَلِيدِ الْمَالِكِي[٢] أَيْضًا حَكَى إِجْمَاعَهُمْ أَعْنِي ابْنَ رُشْدِ الثَّانِي

ابنُ رشدٍ الثَّاني -رَحِمَهُ اللهُ- مالكيُّ المذهب، وهو رجلٌ مذهبُه مذهبٌ سَلَفِيٌّ، أمَّا ابنُ رشدٍ الأوَّلُ فقد دخَلَ عليه شَيْءٌ من مذاهبِ الفلاسفةِ.

١٣١١- وَكَذَا أَبُو الْعَبَّاسِ أَيْضًا قَدْ حَكَى إِجْمَاعَهُمْ عَلَمُ الْهُدَى الْحَرَّانِي

قَوْلُهُ: «أَبُو الْعَبَّاسِ» هو شيخُ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ اللهُ- يُكْنَى أبا العبَّاسِ، وهل يُكنى بذلك لِأَنَّهُ أَكْبَرُ أولادِه؟

الجَوَابُ: لا، لِأَنَّهُ لم يَتزَوَّجْ، لكنَّ المُزَوِّرينَ زَوَّجوه، فإذا ذهبتَ إلى المسجد الأمويِّ، قالوا: أترغبُ أنْ تَزورَ شيخَ الإسلام ابن تيمية وابنَه؟ فإذا قُلْتَ: أرغبُ أن أسلِّمَ عليه، وأدْعُوَ له، قالوا: هذا قَبْرُه، وهذا قَبْرُ ابنه، ولم يَعْلَموا أنَّ الرجلَ لم

(١) انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٣٩).

(٢) **أبو الوليد المالكي هو**: محمد بن أحمد، من أهل قرطبة، ولد سنة (٥٢٠هـ)، كان المنصور المؤمنيُّ يُجله، فرماه خصومه عنده بالزندقة، فنفاه إلى مراكش، ثُمَّ رضي عنه، وأذن له بالعودة إلى وطنه، فعاجلته الوفاة بمراكش سنة (٥٩٥هـ) ونُقلت جثتُه إلى قرطبة. [الشارح]. انظر: ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٠٧).

يَتزوَّجْ إطلاقًا، ولكن هذا ليسَ بغريبٍ على المُزَوِّرينَ الذين جَعَلوا الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في العراق، وجَعَلوه في الشامِ، وجعلوه في مِصْرَ.

١٣١٢- وَلَـهُ اطِّـلَاعٌ لَـمْ يَكُـنْ مِـنْ قَبْلِـهِ لِسِـوَاهُ مِـنْ مُـتَكَلِّمٍ بِلِسَـانِ

قَوْلُهُ: «له» أي: لشيخِ الإسلامِ ابنِ تَيْميَّةَ -رَحِمَهُ اللهُ- فله اطِّلاعٌ لم يَكُنْ من قبلِه لسواه مِن مُتكلِّمٍ بلسانٍ.

وصَدَقَ ابنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ- فإنَّ مَنْ راجَعَ كُتُبَ شيخِ الإسلامِ ابن تَيْميَّةَ يأخذه العجبُ العُجابُ في كَثْرةِ ما يَنْقِلُ عنه من الكتب، وهذا من هِبَةِ الله - سبحانه وتعالى- له، أن وَهَبَه حِفْظًا راسخًا، وكأنه -والله أعلم- لا يَنْسَى، لأنَّ الإنسانَ لو أَرَادَ أنْ يَعُدَّ هذه الكتبَ التي يَنْقِلُ منها لَنَسِيَها فضلًا عن أنه هو يَنْقِلُ عباراتِها، لكنَّ فضلَ الله يُؤتِيهِ مَنْ يشاء، نسألُ اللهَ الذي أعطاه من فَضْلِه ألَّا يَحْرِمَنا.

١٣١٣- هَـذَا وَنَقْطَـعُ نَحْـنُ أَيْضًـا أَنَّـهُ إِجْمَـاعُهُمْ قَطْعًـا عَـلَى الْبُرْهَـانِ

أيضًا هو -رَحِمَهُ اللهُ- يَقْطَعُ بإجماعِ الرُّسل السابِقِينَ على أنَّ اللهَ في السَّماءِ.

١٣١٤- وَكَـذَاكَ نَقْطَـعُ أَنَّهُـمْ جَـاءُوا بِإِثْـ ـبَاتِ الصِّفَاتِ لِـخَالِقِ الْأَكْـوَانِ

أي: أنهم مُجْمِعونَ على إثباتِ صِفاتِ الكمالِ لله عزَّ وجلَّ.

١٣١٥- وَكَـذَاكَ نَقْطَـعُ أَنَّهُـمْ جَـاءُوا بِإِثْـ ـبَاتِ الْكَـلَامِ لِرَبِّنَـا الـرَّحْمَنِ

مُجْمِعون أيضًا على أنَّ اللهَ مُتكلِّمٌ، يَتكلَّمُ بصوتٍ مسموعٍ يَسمعونَه، فاللهُ تعالى يُناديهم، ويَسْمعون نداءَه.

١٣١٦- وَكَذَاكَ نَقْطَعُ أَنَّهُمْ جَاءُوا بِإِثْـ ... ـبَاتِ الْمَعَادِ لِهَذِهِ الْأَبْدَانِ

ولهذا لا يُنْكِرُ المَعادَ أحدٌ يَنتسِبُ إلى دينٍ سَماويٍّ أبدًا، حتَّى اليهودُ والنصارى يُقِرُّونَ بالمَعادِ، وأنَّ هناكَ جَنَّةً ونارًا، وأنَّ الجنةَ لَمن أطاع، والنارَ لَمن عَصَى.

١٣١٧- وَكَذَاكَ نَقْطَعُ أَنَّهُمْ جَاءُوا بِتَوْ ... حِيدِ الْإِلَهِ وَمَا لَهُ مِنْ ثَانِ

لا شكَّ في هذا أيضًا، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

١٣١٨- وَكَذَاكَ نَقْطَعُ أَنَّهُمْ جَاءُوا بِإِثْـ ... ـبَاتِ الْقَضَاءِ وَمَا لَهُمْ قَوْلَانِ

قَوْلُهُ: «**إثباتِ القَضَاءِ**» أي: إثباتِ قضاءِ الله، وأنَّ ما شاءَ اللهُ كان، وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ، ولهذا تَجِدُهم يَذْكُرون هذا في مُحاجَّة قومِهم، وأنَّ هذا من الله -سبحانه وتعالى- وهو الذي قدَّره.

١٣١٩- فَالرُّسْلُ مُتَّفِقُونَ قَطْعًا فِي أُصُو ... لِ الدِّينِ دُونَ شَرَائِعِ الْإِيمَانِ

أصولُ الدينِ التي لا تَتِمُّ العبادةُ إلَّا بها مُتَّفِقونَ عليها، وأمَّا الشرائِعُ والمنهاجُ الذي يَسِيرُ الناسُ عليه في عباداتِهم من كَيْفِيَّةٍ، أو عددٍ، أو نحوِ ذلك، فإنَّ الرُّسلَ مختلفون فيها، كما قَالَ الله تعالى في سورةِ المائِدة، وهي من آخِرِ ما نَزَلَ، قال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

١٣٢٠- كُلٌّ لَهُ شَرْعٌ وَمِنْهَاجٌ وَذَا ... فِي الْأَمْرِ لَا التَّوْحِيدِ فَافْهَمْ ذَانِ

وهذه فائِدةٌ عظيمةٌ، فاختلافُهم في المأمورِ، لا في الخَبَرِ، أمَّا في التوحيدِ فلم يَخْتلِفوا، بمعنى أنَّ بعضَهم يُؤْمَرُ بشيءٍ، ويُؤمَرُ الآخَرُ بخلافِه، يَحِلُّ له شَيْءٌ،

ويُحَرِّمُه الآخَرُ، قَالَ عيسى -عليه السلام- لبني إسرائيلَ: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

قَوْلُهُ: «فافْهَم ذان» (ذان) المشارُ إليه الأصولُ والفروعُ، أو إنْ شِئْتَ فقُل: الأخبارُ والأوامرُ، فالأخبارُ مُتَّفقونَ عليها، وهي أصولُ الإيمانِ السِّتَّةُ، لكنَّ الأوامرَ تَختلِفُ.

١٣٢١- فَالدِّينُ فِي التَّوْحِيدِ دِينٌ وَاحِدٌ ... لَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ عَلَيْهِ اثْنَانِ

١٣٢٢- دِينُ الْإِلَهِ اخْتَارَهُ لِعِبَادِهِ ... وَلِنَفْسِهِ هُوَ قَيِّمُ الْأَدْيَانِ

يعني: أنَّ اللهَ -سبحانَه وتعالى- يَختارُ الدينَ للعِبادِ حَسَبَ ما يُصْلِحُهم، وذلك في الشرائعِ والمِنهاجِ، وأمَّا في الأصلِ الذي هو تَوحيدُ الله فإنه واحدٌ.

١٣٢٣- فَمِنَ الْمُحَالِ بِأَنْ يَكُونَ لِرُسْلِهِ ... فِي وَصْفِهِ خَبَرَانِ مُخْتَلِفَانِ

وهذا صحيحٌ، فمِن المُحالِ أنْ يُوجَدَ في كُتُبِ الله، أو فيما جاءت به الرُّسل خَبَرانِ مُختلفانِ في صفاتِ الله، فهذا لا يمكنُ أبدًا، وهذه قاعدةٌ في الحقيقةِ.

فمثلًا لو قَالَ قائِلٌ: إذا كانَ اللهُ يَنْزِلُ إلى السَّماءِ الدنيا حين يَبْقَى ثلثُ الليلِ الآخِرُ، فهذا يُنافِي العُلُوَّ؟

قُلْنَا: لا ينافيه، لأنَّ كونَه في العُلُوِّ ثابتٌ بخبرٍ، ونزولُه إلى السَّماءِ الدنيا ثابتٌ بخبرٍ، والخبرانِ لا يَتناقضانِ، لأننا لو جَوَّزنا تناقضَ الخَبَرَيْنِ لجوَّزنا أنَّ أحدَهما كاذبٌ، وهذا محالٌ، ولكن يُقَالُ: إنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- ليس كمِثْلِه شَيْءٌ، فلا يَلْزَمُ من نُزولِه إلى السَّماءِ الدنيا أنْ يكونَ غيرَ عالٍ على خَلْقِه.

١٣٢٤- وَكَذَاكَ نَقْطَعُ أَنَّهُمْ جَاءُوا بِعَدْ لِ اللهِ بَيْنَ طَوَائِفِ الْإِنْسَانِ

هذا أيضًا نقطعُ به، فالعدلُ بين الْـخَلْقِ في الشرعِ، وفي القضاءِ الدنيويِّ والأُخرويِّ.

فهذه ثلاثةُ أمورٍ: عَدْلٌ في الشرعِ، وعَدْلٌ في القضاء الدنيويِّ، وفي القضاء الأُخرويِّ.

فالغنيُّ إذا سَرَقَ يُقْطَعُ كما يُقْطَعُ الفَقِيرُ، والشريفُ إذا سَرَق يُقْطَعُ كما يُقْطَعُ الوَضيعُ، وكُلُّ إنسانٍ تَجِبُ عليه الصلواتُ الخمسُ مثلًا، وكُلُّ غَنِيٍّ تَجِبُ عليه الزكاةُ، وكُلُّ فَقيرٍ مُستحِقٍّ للزكاةِ يُعْطَى من الزكاةِ.

وفي الآخرةِ كذلك، الجزاءُ بحَسَبِ الأعمالِ، لا بحَسَبِ الشرفِ والجاه، وهذا عَدْلٌ.

ولهذا لا يُوجَدُ شَيْءٌ -أبدًا- من الشريعةِ يَخْتَصُّ بشخصٍ لعَيْنِه حتَّى قول الرسول -عليه الصلاة والسلام- لأبي بُرْدةَ بْنِ نِيَارٍ[1] لـمَّا قال: إنَّ عِنْدَهُ عَنَاقًا[2] أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ شَاتَيْنِ، وكَانَ قَدَ ذَبَحَ أُضْحِيَّتَهُ قَبْلَ الصَّلَاةِ، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام- أنَّ مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَلَا نُسُكَ لَهُ، وَكَانَ جَاهِلًا، فذَبَحَ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَأْكُلَ هُو وَأَهْلُهُ وَجِيرانُهُ، فَقَالَ: «لَيْسَ لَكَ نُسُكٌ، شَاتُكَ شَاةُ لَـحْمٍ»، وهذا فيه فائِدةٌ عظيمةٌ أنَّ مَنْ فعَلَ العبادةَ المُؤَقَّتَةَ قبلَ وقتِها -ولو كان جاهلًا- فإنَّ ذِمَّتَه لا تَبْرَأُ بذلك، ولا ينافي هذا قولَه تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، لأنَّ هذا انتفى عنه الإثمُ، وهو المؤاخذةُ، لكن هو لا زال الآن مُطالَبًا بفعلِ العبادةِ، فيَفْعَلُها ولا بُدَّ.

(١) انظر ترجمته في: الإصابة في تمييز الصحابة (٧/ ٣١).
(٢) هي الأنثى من أولاد المعز ما لم يتم له سَنَة. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: عنق.

المُهِمُّ أنَّ الرسولَ -عليه الصلاة والسلام- لـمَّا قَالَ له: «شَاتُكَ شَاةُ لَـحْمٍ»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، فَإِنَّ عِنْدَنَا عَنَاقًا -يَعْنِي: عَنْزًا لها أربعةُ أَشْهُرٍ أو نَحْوُ ذلكَ- هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ شَاتَيْنِ، أَفَتُجْزِئُ عَنِّي، قَالَ: «نَعَمْ، وَلَنْ تُجْزِئَ عَنْ أَحَدٍ بَعْدَكَ»(١).

لو أنَّ أحدًا ضَحَّى بعَنَاقٍ فإنَّ أُضْحِيَّتَه لا تُجْزِئُ، لِأَنَّهَا لم تَبْلُغِ السِّنَّ، فلم تكن ثَنِيَّةً(٢)، لكن هذا قَالَ له الرسولُ ﷺ: «لَنْ تُجْزِئَ عَنْ أَحَدٍ بَعْدَكَ»، فقَالَ بعضُ العلماء: إنَّ هذا حكمٌ خاصٌّ بالرجلِ لا يَتعدَّاهُ إلى غيرِه، لأنَّ قولَ الرسول ﷺ: «لَنْ تُجْزِئَ عَنْ أَحَدٍ بَعْدَكَ» صريحٌ في ذلك.

ولكنَّ بَحْرَ العلومِ ابنَ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللهُ- أَبى ذلك، وقال: أيُّ سببٍ يَخْتَصُّ بهذا الرجل بعينِه؟! هذا شرعٌ، وليسَ جزاءً، حتَّى الجزاءُ يَتساوَى فيه الناسُ، فكيف؟ قال: إنَّ المُرَادَ بقَوْلِهِ: «لَنْ تُجْزِئَ عَنْ أَحَدٍ بَعْدَكَ» أي: بعدَ حالِكَ، يَعْنِي: لن تُجْزِئَ عن أحدٍ إلَّا مَنْ كانت حالُه مثلَ حالِك، فإذا وُجِدَ شخصٌ انْطَبَقَتْ حالُه على حالِ أبي بُرْدَةَ أجزأتْ عنه العَنَاقُ.

وكلامُه -رَحِمَهُ اللهُ- أَصحُّ، لِأَنَّهُ هو المُوافِقُ للقاعدةِ الشَّرْعيةِ العامَّةِ.

١٣٢٥- وَكَذَاكَ نَقْطَعُ أَنَّهُمْ أَيْضًا دَعَوْا ... لِلْخَمْسِ وَهْيَ قَوَاعِدُ الْإِيمَانِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العيدين، باب كلام الإمام والناس في خطبة العيد، وإذا سئل الإمام عن شيء وهو يخطب، رقم (٩٤٠)، ومسلم: كتاب الأضاحي، باب وقتها، رقم (١٩٦١).

(٢) الثَّنِيَّة من الغنم ما دخل في السنه الثالثة، ومن البقر كذلك، ومن الإبل في السادسة، والذكر ثنى، وعلى مذهب أحمد بن حنبل: ما دخل من المعز في الثانية، ومن البقر في الثالثة. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: ثنا.

ثُمَّ ذَكَرَها بقَوْلِهِ:

١٣٢٦- إِيمَانُنَا بِاللهِ ثُمَّ بِرُسْلِهِ ... وَبِكُتْبِهِ وَقِيَامَةِ الْأَبْدَانِ

١٣٢٧- وَبِجُنْدِهِ وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ الْأُلَى ... هُمْ رُسْلُهُ لِمَصَالِحِ الْأَكْوَانِ

فهذه خمسُ قَواعِدَ للإيمانِ، لكن قد يَقولُ قائِلٌ: إِنَّ ابنَ القَيِّمِ مُقَصِّرٌ، لِأَنَّهُ لم يَذْكُرِ القاعدةَ السَّادسةَ، وهي الإيمانُ بالقَدَر، فماذا نُجِيبُ؟

الجَوَابُ: نقولُ: ذكَرَها -رَحِمَهُ اللهُ- من قَبْلُ في قَوْلِهِ:

وَكَذَاكَ نَقْطَعُ أَنَّهُمْ جَاءُوا بِإِثْـ ... ـبَاتِ الْقَضَاءِ وَمَا لَهُمْ قَوْلانِ

لَكِنَّهُ اقْتَصَرَ على هذه الخمسِ لِيَرُدَّ بها على قواعدَ خمسٍ للمعتزلةِ، فخمسٌ بخمسٍ، ولهذا قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-:

١٣٢٨- هَذِي أُصُولُ الدِّينِ حَقًّا لَا أُصُو ... لُ الخَمْسِ لِلْقَاضِي هُوَ الهَمْدَانِي(١)

١٣٢٩- تِلْكَ الْأُصُولُ لِلاعْتِزَالِ وَكَمْ لَهَا ... فَرْعٌ فَمِنْهُ الْخَلْقُ لِلْقُرْآنِ

أصولُ المُعتزلةِ عندَهم خمسةٌ، وهي:

الأول: التوحيدُ، فقالوا: هذه قاعدةٌ من قواعدِ الدِّينِ، وهذا صحيحٌ، فالتوحيدُ هو أصلُ الأصولِ.

الثاني: العدلُ، وهذا صحيحٌ، فالعدلُ من قواعدِ الإسلامِ.

الثالث: المَنْزِلةُ بينَ مَنْزِلَتَيْنِ، يَعْنِي: أَنَّ الإنسانَ لا يكونُ مؤمنًا، ولا يكونُ

---

(١) القاضي الهمداني هو: عبد الجبار بن أحمد الهمداني، شيخ المعتزلة في عصره، يلقِّبونه قاضي القضاة، ولي القضاء بالري، ومات فيها سنة (٤١٥هـ). [الشارح]. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٤٤).

كافرًا، لأنَّ فيه خصالَ كفرٍ، فلا نقولُ له: أنت مؤمنٌ، ولا نقولُ له: أنت كافرٌ، بل أنت بينَهما.

الرابع: إنفاذُ الوعيد، قالوا: لأنَّ خبرَ الله صِدْقٌ، وخبرَ رسولِهِ صِدْقٌ، فإذا كانَ مُدمِنُ الخَمْرِ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ[1] فصِدْقٌ، هكذا قَالَ الرسولُ -عليه الصلاة والسلام-.

الخامس: الأمرُ بالمَعْروفِ والنهيُ عن المُنكَرِ، وهذا صحيحٌ، فهذا من القواعدِ أيضًا.

قُلْنَا: والله هذه قواعدُ جَيِّدة، إذا قرَأَها الإنسانُ قال: ما أحسنَ هذه القَوَاعِدَ! لكنَّهم يَعْنُونَ بالتوحيدِ ألا تُثْبَتَ لله صِفَةٌ، فأيُّ إنسانٍ يُثْبِتُ لله صِفَةً فهو مُشرِكٌ، فليسَ لله سمعٌ، ولا بصرٌ، ولا قدرةٌ، ولا كلامٌ، ولا شَيْءٌ، لأنك إذا أثبتَّ صِفَةً أثبتَّ معَ الله إلـهًا، إذ إنَّك إذا قُلْتَ: هذه الصِّفَةُ قديمةٌ -يَعْنِي: لم تزل- فقد جعلتَها معَ الله إلـهًا، وأنت الآن كم صِفاتُ الله عندَكَ؟ يقول: صفاتُ الله لا تُحْصَى، فيقول: أنت أكفرُ من النصارى، لأنَّ النصارى جعلوا اللهَ ثلاثةً، وأنت جعلتَه ثلاثين ألفًا أو أكثر، فأنت أكفرُ منهم، إذَنْ أنْكَرَ الصِّفَةَ.

فَإِنْ قُلْتَ: إنَّ لله صِفاتٍ غيرَ قديمةٍ، لَزِمَكَ أنْ تقولَ بوُقوعِ الحوادثِ في الله أو بحُلولِ الحوادثِ بالله، وحينئذٍ نقولُ: الحوادثُ لا تقومُ إلَّا بحادثٍ، فتكونُ قد أنكرتَ أزليَّةَ الله.

فصار توحيدُهم تعطيلًا وجَحْدًا للخالِقِ عزَّ وجلَّ، لأنَّ وجودَ ذاتٍ مُجَرَّدةٍ عن الصفاتِ أمرٌ مُستحيلٌ، إذَنْ وُجودُ الله على قَاعدتِهم مُستحِيلٌ.

---

(١) أخرجه النسائي: كتاب الأشربة، باب الرواية في المدمنين في الخمر، رقم (٥٦٧٢)، وابن ماجه: كتاب الأشربة، باب مدمن الخمر، رقم (٣٣٧٦).

انظر ماذا يعنون؟ مع أنك أوَّل ما تسمع (**التوحيد**) تقول: ما شاءَ اللهُ، مِن أَحْسَنِ شَيْءٍ.

الثاني: العدلُ، يَعْنِي: أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عَدْلٌ، فنقولُ: صحيحٌ، لكن أَتَدْرُونَ ماذا يقولون؟ يقولون: إنَّ اللهَ عدلٌ، إذَنْ ليس له عَلاقةٌ بفِعْلِ العَبْدِ، لِأَنَّهُ ليسَ من العَدْلِ أنْ يُدَبِّرَ للعبدِ ثُمَّ يعاقبُه، وبِناءً على العدلِ أنْكَرُوا القَدَرَ، وقالوا: إنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- لم يُقَدِّر أعمالَ العبادِ، ولا يَقْدِر على أنْ يَجْعَلَ الكافِرَ مؤمنًا، ولا المؤمنَ كافرًا، ولا العاصيَ عدلًا، ولا العدلَ عاصيًا، فلا يَقْدِرُ على هذا، لأنك لو قُلْتَ: إنَّ اللهَ قادرٌ على ذلك، وأنَّ اللهَ هو المدُبِّرُ، فقد وَصَفْتَ اللهَ بالجَوْر، وأنشدوا على ذلك:

أَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ مَكْتُوفًا وَقَالَ لَهُ ... إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالْمَاءِ[1]

(**واليَمُّ**) يَعْنِي: البحر، والدليلُ قولُه تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ﴾ [الأعراف:١٣٦].

وهذا محالٌ، فلا بدَّ أنْ يَبْتَلَّ، إِلَّا إذا كانَ عليه كِيسٌ من البلاستيك، فهذا يُمْكِنُ ألا يبتلَّ، لكنَّ هذا غيرُ موجودٍ.

هم يقولون: كيف يأمُرُنا اللهُ بشيءٍ، ويكونُ فعلُنا لهذا الشيءِ أو تَرْكُنا لهذا الشيءِ بتقديرِه ثُمَّ يُعاقِبُنا؟ يقولون: هذا ظُلْمٌ، وهو مُحالٌ على الله، إذَنْ فيَلْزَمُ أنْ تكونَ أفعالُنا مُستقلةً، ليسَ لله فيها تَدَخُّلٌ، هذا يُسمُّونَه العَدْلَ.

إذَنْ الذي يَنْبَنِي على العدلِ عندهم إنكارُ القَدَرِ بالنسبةِ لفعلِ العَبْدِ، وغريبٌ هذا العَدْلُ، لأنَّ هذا العدلَ يَتضمَّنُ تكذيبَ الله عزَّ وجلَّ، وهل من العَدْلِ أنْ يُكَذِّبَ اللهُ ورسلُه؟! الجَوَابُ: أبدًا.

---

(١) البيت في نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لشهاب الدين التلمسان (٥/ ٢٩٢) بلا نسبة.

الثالث: المنزلةُ بينَ مَنْزِلَتَيْنِ -وأظنُّ بعضَهم يَجْعَلُ بدلَـها وُجوبَ فِعْلِ الأصلحِ، أو الصَّلاحِ على الله- يَعْنِي: أنَّ العاصِيَ الذي لا تَصِلُ مَعْصِيَتُه إلى الكُفْرِ لا يَجوزُ أنْ نَقولَ: إنه مؤمنٌ، ولا أنْ نقولَ: إنه كافرٌ، بل هو في منزلةٍ بينَ مَنْزِلَتَيْنِ، كرَجُلٍ سَافَرَ من المدينةِ إلى مَكَّةَ، فهو في أثناءِ الطريقِ لا نَقُولُ: إنَّه من أهلِ مَكَّةَ، ولا من أهلِ المدينةِ، بل هو في منزلةٍ بينَ مَنْزِلتَيْنِ.

هذا الإنسانُ لَـمَّا فَعَلَ الكبيرةَ خَرَجَ من الإيمانِ، لكن لـمَّا كانَ معَه بعضُ الإيمانِ لم يَصِلْ إلى الكفرِ، فكان في منزلةٍ بينَ مَنزلتَيْنِ.

وبَنَوْا على هذا أنَّه لا تَنْفَعُ فيه الشفاعةُ، لِأَنَّهُم يُنْفِذُونَ الوعيدَ، كما سيأتي -إن شاء اللهُ- في إنفاذِ الوَعِيدِ.

أمَّا في مسألةِ وُجوبِ الصلاحِ والأَصْلَحِ على الله، فهذا أيضًا من أُصولِهم، يقولون: يَجِبُ على الله أنْ يَفْعَلَ الأصلحَ، قالوا: لِأَنَّهُ حَكِيمٌ، والحكيمُ لا يَفْعَلُ إلَّا الأصلحَ، لأنَّ العُدولَ عن الأصلحِ إلى ما دونَه يُنافِي الحِكْمةَ، إذَنْ يَجِبُ على الله أنْ يَفْعَلَ الأصلحَ، ويَجِبُ عليه أنْ يفعلَ الصَّلاحَ.

وهذا القولُ -وإن كانَ ظاهرُه حقًّا- لكنَّهم لا يُرِيدونَ الحقَّ، لأننا نَقُولُ: ما مِيزانُ الأصلحِ أو الصَّلاحِ؟ إن كان عقولَكم، فإنَّ قولَكم هذا باطِلٌ، لأنكم لا تَعْلَمونَ ما هو الأصلحُ من غيرِه؟ وإن كان الأصلحُ هو ما تَقْتضيهِ حِكْمةُ الله، فهذا ليس إليكم، ولَسْتُم الذين أوجبتموه على الله، بل إنَّ اللهَ هو الذي أَوْجَبَه على نفسِه، فإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ، ويُحِبُّ المُصْلِحِينَ، ويُجازِيهم.

ولهذا نَقُولُ هم: رجل له ثلاثةُ أولادٍ: مات الولدُ الأوَّلُ، وهو لم يَبْلُغْ، ومات الثاني بعدَ البلوغِ، ومات الثالثُ بعدَ أن عُمِّرَ طويلًا، موتُ الأوَّلِ بالنسبةِ

للوَلَدَيْنِ الآخَرَيْنِ ليسَ فيه صلاحٌ ولا أصْلَحُ، فهو ولدٌ مِسْكِينٌ، ما جاءَه صلاحٌ ولا أصْلَحَ، غاية ما هنالك أنَّه سَلِمَ من الإثْمِ، وهذا هو الأوَّلُ.

الثاني: الذي ماتَ بعدَ البلوغِ لكن ما بَقِيَ إلَّا سَنَةً أو سنتين، فهذا حَصَلَ له الصَّلاحُ.

الثالث: الذي طال عُمُرُه في طاعةِ الله، هذا حَصَلَ له الصلاحُ وأَصْلَحَ.

إذَنْ المعنى -على زَعْمِكم- لم يَقُمِ اللهُ بشيءٍ من الوَاجِبِ عليهِ عندَكم إلَّا في الابنِ الثالثِ فَقَطْ.

وهذا قولٌ مُنْكَرٌ، لأنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- يفعلُ ما يشاءُ، ونحن نعلمُ أنه لا يفعلُ الشيءَ إلَّا لحكمةٍ، لكنَّ الحِكْمَةَ لَسْنَا نحن مَنْ يَفْرِضُها على الله، بل الحِكْمةُ يكونُ علمُها عندَ الله عزَّ وجلَّ، ويأتي -إن شاء الله- بقيةُ الكلامِ على أصولِهم الخمسةِ، وهذا هو السِّرُّ في أنَّ ابنَ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ- جَعَلَ القواعدَ الخمسَ هي خمسة من أركانِ الإيمانِ.

١٣٢٩- تِلْكَ الْأُصُولُ لِلاعْتِزَالِ وَكَمْ لَهَا ... فَرْعٌ فَمِنْهُ الْخَلْقُ لِلْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «وكَمْ لَهَا فَرْعٌ فَمِنْهُ الْخَلْقُ للقُرْآنِ» يَعْنِي: يقولون: القرآنُ مخلوقٌ كغيرِهِ من المخلوقاتِ، بائِنٌ عن الله كغيرِه من البائِناتِ، وليسَ وَصْفًا له، وإنما أُضيفَ إليه إضافةَ المَخلوقِ إلى خَالقِه، فـ(بيتُ الله)، و(كلامُ الله) عندَهم سواءٌ، لأنَّ كلامَ الله مخلوقٌ، وبيتَ الله مخلوقٌ أيضًا، وبَنَوا على هذه الأصولِ.

١٣٣٠- وَجُحُودُ أَوْصَافِ الْإِلَهِ وَنَفْيُهُمْ ... لِعُلُوِّهِ وَالْفَوْقِ لِلرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «وَجُحُودُ أَوْصَافِ الإِلَهِ» هذا أيضًا مِـمَّا بَنَوْهُ على أُصولِهم، أو على

قَوَاعِدِهم الخمسِ، فجحودُ أوصافِ الإلَهِ مَبنيٌّ على التوحيدِ.

قَوْلُهُ: «**وَنَفْيُهُمْ لِعُلُوِّهِ وَالْفَوْقِ للرَّحْمَنِ**» هذا أيضًا مَبنيٌّ على التوحيدِ، لِأَنَّهم يَرَوْنَ أنَّ إثباتَ هذا العُلُوِّ يستلزِمُ التجسيمَ والتمثيلَ.

١٣٣١- وَكَذَاكَ نَفْيُهُمُ لِرُؤْيَتِنَا لَهُ ... يَوْمَ اللِّقَاءِ كَمَا يُرَى الْقَمَرَانِ

قَوْلُهُ: «**وكَذَاكَ نَفْيُهُمُ لِرُؤْيَتِنَا لهُ يَوْمَ اللِّقاءِ**» أيضًا بَنَوْه على ذلك، لِأَنَّهم يقولون: لو رُئِي لكان جسمًا، وهذا شِركٌ.

١٣٣٢- وَنَفَوْا قَضَاءَ الرَّبِّ وَالْقَدَرَ الَّذِي ... سَبَقَ الْكِتَابُ بِهِ هُمَا حَتْمَانِ

١٣٣٣- مِنْ أَجْلِ هَاتِيكَ الْأُصُولِ وَخَلَّدُوا ... أَهْلَ الْكَبَائِرِ فِي لَظَى النِّيرَانِ

قَوْلُهُ: «**وَنفَوْا قَضَاءَ الرَّبِّ وَالْقَدَرَ**» وهذا بِناءً على العَدْلِ.

وَقَوْلُهُ: «**هُمَا حَتْمَانِ مِنْ أَجْلِ هَاتِيكَ الأُصُولِ**» يَعْنِي: أنَّ هذا حتمٌ لبنائِه على هذه الأصولِ.

قَوْلُهُ: «**وَخَلَّدُوا أَهْلَ الكَبائِرِ فِي لَظَى النِّيرانِ**» وهذا بِناءً على إنفاذِ الوَعيدِ.

١٣٣٤- وَلِأَجْلِهَا نَفَوُا الشَّفَاعَةَ فِيهِمُ ... وَرَمَوْا رُوَاةَ حَدِيثِهَا بِطِعَانِ

قَوْلُهُ: «**وَلأَجْلِهَا نَفَوُا الشَّفَاعَةَ فِيهِمُ**» هذا أيضًا مِن أَجْلِ إنفاذِ الوَعيدِ، لأنَّ الوعيدَ إذا كان نافذًا فلا فائِدةَ من الشفاعةِ فيه.

قَوْلُهُ: «**ورَمَوْا رُوَاةَ حَدِيثِهَا بِطِعَانِ**» الذين رَوَوْا أحاديثَ الشفاعةِ طَعَنُوا فيهم، وقالوا: إنَّ هذه أخبارُ آحادٍ تُنافي المَقطوعَ به عقلًا، فلا تكونُ مقبولةً.

وهذا -كما علمتم- أساسٌ بَنَى عليه جميعُ أهلِ البِدَعِ ما يَذْهَبُونَ إليه من

البِدَعِ، فكُلُّ شَيْءٍ يُخالِفُ بِدَعَهم يقولون: هذا خبرُ آحادٍ، ونحن نَتكلَّمُ عن أمورِ القَطعيَّاتِ، فلا نَقْبَلُ، مع أنَّ أحاديثَ الشفاعةِ مُتواترةٌ، وهذا بالنسبةِ للشفاعةِ في أهلِ الكبائِرِ.

أمَّا الشفاعةُ بينَ أهلِ المَوْقِفِ أنْ يُقْضَى بينَهم، فإنهم لا يُنكِرونها، لِأَنَّهَا شفاعةٌ عامةٌ للمؤمنين، والكُفَّارِ، والفُسَّاقِ، والمُنافقين.

١٣٣٥- وَلِأَجْلِهَا قَالُوا بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى إِصْلَاحِ ذِي الْعِصْيَانِ

لماذا؟ لأنَّ فِعْلَ العبدِ لا عَلاقةَ له بالله، فالعبدُ إذا كان يُرِيدُ المعصيةَ فليسَ لله تعالى تَعلُّقٌ فيه، فلا يَقْدِرُ اللهُ -على زعمهم- أنْ يَصْرِفَه إلى الطَّاعةِ، وإذا كانَ يُرِيدُ الطاعةَ لم يَقْدِرِ اللهُ على أنْ يَجْعلَه عاصيًا، إذَنْ هذا مَبْنِيٌّ على العدلِ.

١٣٣٦- وَلِأَجْلِهَا قَالُوا بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى إِيمَانِ ذِي الْكُفْرَانِ

لا يَقْدِرُ اللهُ على إيمانِ الكافِرِ إطلاقًا، فلا يَقْدِرُ اللهُ أنْ يَجْعَلَ الكافرَ مؤمنًا، ولا الفَاسِقَ مُطِيعًا، لماذا؟ لأنَّ فعلَ العبدِ لا تَعَلُّقَ له بالله، فالعبدُ مُستقِلٌّ بعَمَلِه، ليسَ له دَخْلٌ في القضاءِ والقَدَرِ.

١٣٣٧- وَلِأَجْلِهَا حَكَمُوا عَلَى الرَّحْمَنِ بِالشْـ ـشَرْعِ الْـمُحَالِ شَرِيعَةِ الْبُهْتَانِ

١٣٣٨- وَلِأَجْلِهَا هُمْ يُوجِبُونَ رِعَايَةً لِلْأَصْلَحِ الْـمَوْجُودِ فِي الْإِمْكَانِ

كذلك أيضًا حَكَمُوا على الرحمنِ بالشَّرْعِ المُحالِ، وهو أنه يَجِبُ على الله أنْ يَفْعَلَ الأصلحَ أو يَفْعَلَ الصَّلاحَ، قالوا: فإذا خَالَفَ فهو ظالمٌ؛ لِأَنَّهُ ترَكَ الواجبَ عليه.

فحَكَمُوا على الله بالشريعةِ، والذي يَحْكُمُ بالشريعةِ هو اللهُ، فهو الذي يَحْكُمُ بها على العبادِ، لا العبادُ بها على الله.

ونحن نَقُولُ: أمَّا وُجوبُ الأصلحِ، فنحن نؤمنُ به، لكن لا نُوجِبُه، بل نؤمنُ به لِأَنَّهُ مُقْتَضَى الحِكْمة، ولا شكَّ أنه إذا كان أمامَ الإنسانِ صالحٌ وأصْلَحُ، فالحِكْمةُ أنْ يَتْبعَ الأصلحَ، وإذا كان أمامه صالحٌ وفاسدٌ فَلْيَتَّبِعِ الصَّالحَ، لكن لا نوجبهُ على الله.

نقولُ: هذا كان واجبًا بمُقْتَضَى حِكْمتِه، وبِناءً على ذلك يختلفُ الفرقُ بينَ قَوْلِنا هذا وقولِ المعتزلةِ، فالمعتزلةُ يَرَوْنَ أنَّ الأصلحَ والصالحَ مَوكولٌ إلى عقولِهم، فإذا وقَعَ فعلُ الله خلافَ ما يَرَوْنَه أصلحَ، قالوا: هذا ظلمٌ، أمَّا نحن فنقولُ: إنَّ مِيزانَ الصَّلاحِيَةِ والأصلحيَّةِ ليستْ عقولَنا، بل مِيزانُهما حِكْمةُ الله عزَّ وجلَّ.

فمثلًا لو أنَّ الناسَ أُصِيبوا بقَحْطٍ وجَدْبٍ -القَحْط: امتناعُ المَطَر، والجَدْبُ: عَدَمُ النَّبَاتِ- وهَلَكَت المواشي، فنحن إذا نظرنا إلى مقتضى العقولِ القاصرةِ نَقُولُ: هذا ليسَ بأصلحَ، بل هذا فسادٌ، ولكنَّ حكمةَ الله تأبَى أنْ يكونَ هو الأصلحَ، لِـمَا يَتَرتَّبُ عليهِ من المصالحِ العَظيمةِ التي قد تَظْهَرُ الآن لنا، وقد لا تَظْهَرُ، وقد تَظْهَرُ بعدَ زمنٍ، وقد لا تَظْهَرُ، ونحن قَاصِرُونَ، فهذا هو الفرقُ بينَ قَوْلِنا وقولِ المعتزلةِ.

١٣٣٩- حَقًّا عَلَى رَبِّ الْوَرَى بِعُقُولِهِمْ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ذَا السُّبْحَانِ!

لو قالوا: يَجِبُ على الله فِعْلُ الأصلحِ بمُقْتَضَى الحِكْمةِ لا بمُقْتَضَى ما تَفرِضُه عقولُنا، لقُلْنَا: هذا صحيحٌ، أمَّا بمُقْتضَى العَقْلِ فنَقُولُ: هذا هو الأصلحُ، فيَجِبُ على الله أنْ يفعلَه، فهذا لا شكَّ أنه قولٌ باطِلٌ.

* * *

فصل

١٣٤٠- هَذَا وَسَادِسَ عَشْرَهَا: إِجْمَاعُ أَهْـ ـلِ الْعِلْمِ أَعْنِي: حُجَّةَ الْأَزْمَانِ
١٣٤١- مِنْ كُلِّ صَاحِبِ سُنَّةٍ شَهِدَتْ لَهُ أَهْلُ الْحَدِيثِ وَعَسْكَرُ الْقُرْآنِ
١٣٤٢- لَا عِبْرَةً بِمُخَالِفٍ لَهُمُ وَلَوْ كَانُوا عَدِيدَ الشَّاءِ وَالْبُعْرَانِ
١٣٤٣- أَنَّ الَّذِي فَوْقَ السَّمَوَاتِ الْعُلَى وَالْعَرْشِ وَهْوَ مُبَايِنُ الْأَكْوَانِ
١٣٤٤- هُوَ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ حَقًّا عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى الرَّحْمَنِ
١٣٤٥- فَاسْمَعْ إِذَنْ أَقْوَالَهُمْ وَاشْهَدْ عَلَيْـ ـهِمْ بَعْدَهَا بِالْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ
١٣٤٦- وَاقْرَأْ تَفَاسِيرَ الْأَئِمَّةِ ذَاكِرِي الْـ إِسْنَادِ فَهْيَ هِدَايَةُ الْحَيْرَانِ
١٣٤٧- وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِتَفْـ ـسِيرِ (اسْتَوَى) إِنْ كُنْتَ ذَا عِرْفَانِ
١٣٤٨- وَانْظُرْ إِلَى أَصْحَابِهِ مِنْ بَعْدِهِ كَمُجَاهِدٍ وَمُقَاتِلٍ حَبْرَانِ
١٣٤٩- وَانْظُرْ إِلَى الْكَلْبِيِّ أَيْضًا وَالَّذِي قَدْ قَالَهُ مِنْ غَيْرِ مَا نُكْرَانِ
١٣٥٠- وَكَذَا رُفَيْعُ التَّابِعِيُّ أَجَلُّهُمْ ذَاكَ الرِّيَاحِيُّ الْعَظِيمُ الشَّانِ
١٣٥١- كَمْ صَاحِبٍ أَلْقَى إِلَيْهِ عِلْمَهُ فَلِذَاكَ مَا اخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ اثْنَانِ
١٣٥٢- فَلْيَهْنِ مَنْ قَدْ سَبَّهُ إِذْ لَمْ يُوَا فِقْ قَوْلُهُ تَحْرِيفَ ذِي الْبُهْتَانِ
١٣٥٣- فَلَهُمْ عِبَارَاتٌ عَلَيْهَا أَرْبَعٌ قَدْ حُصِّلَتْ لِلْفَارِسِ الطَّعَّانِ

١٣٥٤- وَهْيَ: (اسْتَقَرَّ) وَقَدْ (عَلَا) وَكَذَلِكَ (ارْ   تَفَعَ) الَّذِي مَا فِيهِ مِنْ نُكْرَانِ

١٣٥٥- وَكَذَاكَ قَدْ (صَعِدَ) الَّذِي هُوَ رَابِعٌ   وَأَبُو عُبَيْدَةَ صَاحِبُ الشَّيْبَانِي

١٣٥٦- يَخْتَارُ هَذَا الْقَوْلَ فِي تَفْسِيرِهِ   أَدْرَى مِنَ الْجَهْمِيِّ بِالْقُرْآنِ

الشرحُ

١٣٤٠- هَذَا وَسَادِسَ عَشْرَهَا: إِجْمَاعُ أَهْـ   ـلِ الْعِلْمِ أَعْنِي: حُجَّةَ الْأَزْمَانِ

١٣٤١- مِنْ كُلِّ صَاحِبِ سُنَّةٍ شَهِدَتْ لَهُ   أَهْلُ الْحَدِيثِ وَعَسْكَرُ الْقُرْآنِ

في هذه المقطوعةِ بَيَّنَ المؤلفُ -رَحِمَهُ اللهُ- أنَّ مِن الْأَدِلَّةِ على أنَّ اللهَ تعالى عالٍ بذاتِهِ فوقَ كُلِّ شَيْءٍ إجماعَ أهلِ العلمِ -أعني: حُجَّةَ الأزمان- لأنَّ إجماعَ أهل العلم حُجَّةٌ في كُلِّ زمانٍ، فإذا أجْمَعوا من غيرِ خلافٍ سَبَقَ، فإجْماعُهم حُجَّةٌ على مَنْ بعدَهم، أما إذا أجْمَعوا بعدَ اختلافِهم، فهذا الإجماعُ ليسَ بحُجَّةٍ.

فإذا اختلَفَ الصحابةُ على قوليْنِ ثُمَّ أجْمَعَ التابعون على أحَدِهما، فليسَ هذا الإجماعُ بحُجَّةٍ، لِأَنَّهُ مَسبوقٌ بخلافٍ، أمَّا لو أَجْمَعوا على شَيْءٍ، ثُمَّ نَشَأَ الخلافُ مِن بعدِهم، فهذا الخلافُ مَرْفوضٌ، لأنَّ الحُجَّةَ ثَبَتَتْ بالإجماعِ السَّابقِ.

قَوْلُهُ: «أَهْلُ الْحَدِيثِ وَعَسْكَرُ الْقُرْآنِ» ويجوزُ النصبُ، أي: أعني: أهلَ الحديثِ وعَسْكرَ القرآنِ.

١٣٤٢- لَا عِبْرَةَ بِمُخَالِفٍ لَهُمُ وَلَوْ   كَانُوا عَدِيدَ الشَّاءِ وَالْبُعْرَانِ

يعني: الذي يُخالِفُ أهلَ الحديثِ وأهلَ القرآنِ فلا عِبْرةَ بقولِه، ولو كانوا عديدَ الشاءِ والبُعْران، و(الشَّاءُ) جمع: (شاةٍ)، و(البُعْرانُ) جَمْعُ (بَعيرٍ) وهي الإبلُ،

وفي هذا من تحْقيرِ هؤلاءِ ما هو ظاهرٌ، حيث شَبَّههم بالنِّعاج -أي: بالضَّأْن- وشبَّههم أيضًا بالبُعْرانِ.

١٣٤٣- أَنَّ الَّـذِي فَـوْقَ السَّـمَوَاتِ الْعُـلَى   وَالْعَـرْشِ وَهْـوَ مُبَـايِنُ الْأَكْـوَانِ

١٣٤٤- هُـوَ رَبُّنَـا سُـبْحَانَهُ وَبِحَمْـدِهِ   حَقًّا عَلَى الْعَرْشِ اسْـتَوَى الـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «أنَّ الَّذِي...» مُتعلِّقٌ بقَوْلِهِ: (إجماع).

قَوْلُهُ: «الرَّحْمَنِ» هنا فيها إشكالٌ من جِهَةِ الإعرابِ، فإِمَّا أنْ نقولَ: إنَّ المؤلفَ -رَحِمَهُ اللهُ- كَسَرَها من أجْلِ الرَّوِيِّ، يَعْنِي: من أجْلِ القافيةِ، وقد أجازَ بعضُ النَّحْويينَ تغييرَ الإعرابِ من أجْلِ الرَّويِّ.

وإمَّا أنْ نقولَ: إنَّ كلمةَ (الرحمنِ) هنا ليستْ فَاعِلَ (اسْتَوَى)، بل هي بَدَلٌ، أو عَطْفُ بيانٍ من الضَّميرِ في (سبحانَه)، أي: هو رَبُّنَا سبحانَه الرحمنِ، أو من الضَّمِيرِ في (بِحَمْدِهِ).

١٣٤٥- فَاسْمَعْ إِذَنْ أَقْوَالَـهُمْ وَاشْهَدْ عَلَيْـ   ـهِمْ بَعْـدَهَا بِـالْكُفْرِ وَالْإِيـمَانِ

قَوْلُهُ: «بالكُفْرِ والإِيمانِ» يَعْنِي: إذا سَمِعْتَ أقوالَـهم فحينئذٍ قل: إنهم إمَّا كافرون، وإمَّا مؤمنون.

١٣٤٦- وَاقْرَأْ تَفَاسِيرَ الْأَئِمَّـةِ ذَاكِـرِي الْـ   إِسْـنَادِ فَهْـيَ هِدَايَـةُ الْـحَيْرَانِ

التفاسيرُ تَنْقَسِمُ إلى قِسْمينِ: قِسْمٌ يُذْكَرُ فيه السَّنَدُ، مثلُ تفسيرِ ابنِ جَرِيرٍ[1] -رَحِمَهُ اللهُ- لكن يُؤْخَذُ عليه أنه لم يُمَحِّصِ الإسنادَ، يَعْنِي: أَتَى بكُلِّ ما حَصَّلَ،

(١) هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري، الإمام العلم المجتهد، عالم العصر، أبو جعفر الطبري، صاحب التصانيف البديعة. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٧٨).

فهو كَحَاطِبِ ليلٍ، وعُذْرُه -رَحِمَهُ اللهُ- في ذلك أنه حَرِصَ على جَمْعِ الآثارِ، وجَعَلَ تَمحِيصَها مَوْكولًا إلى مَنْ بعدَه، إلى مَنْ يقرأ هذا التفسيرَ، لِأَنَّهُ لو اشتغلَ بالتَّمحيصِ لفاتَه الوقتُ ولم يَتمكَّنْ من استكمالِ هذا.

فهو -رَحِمَهُ اللهُ- خافَ أنْ يُبادِرَه الأجلُ، فجَمَعَ التفاسيرَ بأسانيدِها، ووَكَلَ الأمرَ إلى القارئِ بعدَه.

فمثلًا التفاسيرُ التي تَذْكُرُ الإسنادَ هي غايةُ ما يكونُ من التفسيرِ، وبعدَها التي تَذْكُرُ القولَ بدونِ إسنادٍ، فيقولُ مثلًا: قَالَ ابنُ عبَّاسٍ: كذا، قَالَ مجاهدٌ: كذا، قَالَ مقاتلٌ: كذا، قَالَ قتادةُ: كذا، وما أشْبَهَها.

وهذا مُشكِلٌ في الحقيقةِ، ولكن مع ذلك اصْطَلَح عليه المُفسِّرونَ اليومَ، وصاروا يَذْكُرونَ هذا بدونِ إسنادٍ، مثلُ ابنِ كثيرٍ -رَحِمَهُ اللهُ- وغيرِه.

١٣٤٧- وَانْظُرْ إِلَى قَـوْلِ ابْـنِ عَبَّـاسٍ بِتَفْـ ... ـسِيرِ (اسْتَوَى) إِنْ كُنْتَ ذَا عِرْفَانِ

فإنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، يَعْنِي: علا على العَرْشِ، وارتفع، وابنُ عبَّاسٍ -كما نعلم- هو حَبْرُ الأُمَّةِ، وتُرْجُمانُ القرآنِ.

١٣٤٨- وَانْظُـرْ إِلَى أَصْـحَابِهِ مِـنْ بَعْـدِهِ ... كَمُجَاهِـدٍ وَمُقَاتِـلٍ[1] حَـبْرَانِ

مُجاهدٌ هو أخَصُّ أصحابِه به في عِلْمِ التفسيرِ، حتَّى إنه قرَأَ عليه القرآنَ من فاتحتِه إلى خاتمتِه، يُوقِفُهُ عندَ كُلِّ آيةٍ، ويسألُه عن معناها.

قَوْلُهُ: «كمُجَاهِدٍ ومُقَاتِلٍ حَبْرَان» يَعْنِي: هما حَبْرَانِ[2].

---

(١) هو مقاتل بن سليمان البلخي أبو الحسن، كبير المفسرين، أبو الحسن مقاتل بن سليمان البلخي. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٠١).

(٢) مثنى حبر، والحبر أي: العالِـمُ. انظر: القاموس المحيط، مادة: حبر.

١٣٤٩- وَانْظُرْ إِلَى الْكَلْبِيِّ[١] أَيْضًا وَالَّذِي ... قَدْ قَالَهُ مِنْ غَيْرِ مَا نُكْرَانِ

١٣٥٠- وَكَذَا رُفَيْعُ[٢] التَّابِعِيُّ أَجَلُّهُمْ ... ذَاكَ الرِّيَاحِيُّ الْعَظِيمُ الشَّانِ

١٣٥١- كَمْ صَاحِبٍ أَلْقَى إِلَيْهِ عِلْمَهُ ... فَلِذَاكَ مَا اخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ اثْنَانِ

قَوْلُهُ: «كَمْ صَاحِبٍ أَلْقَى إِلَيْهِ عِلْمَهُ» أي: إلى رُفَيْعٍ، ويجوز: ألقى رُفَيعٌ إليه علمَه.

قَوْلُهُ: «فَلِذَاكَ مَا اخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ اثْنَانِ» يَعْنِي: اتَّفَقَ العلماءُ على أنه -رَحِمَهُ اللهُ- كَبِيرُ الشأنِ، واسعُ العلمِ، كثيرُ الاطِّلاعِ.

١٣٥٢- فَلْيَهْنِ مَنْ قَدْ سَبَّهُ إِذْ لَمْ يُوَا ... فِقْ قَوْلُهُ تَحْرِيفَ ذِي الْبُهْتَانِ

لأنَّ الذين يُنْكِرونَ العلوَّ، ويقولون: (استوى) بمعنى (استولى)، يُنكرون على رُفَيْع وغيرِه من السَّلفِ الذين يفسِّرون ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، بأنه علا عليه.

١٣٥٣- فَلَهُمْ عِبَارَاتٌ عَلَيْهَا أَرْبَعٌ ... قَدْ حُصِّلَتْ لِلْفَارِسِ الطَّعَّانِ

١٣٥٤- وَهْيَ: (اسْتَقَرَّ) وَقَدْ (عَلَا) وَكَذَلِكَ (ارْ ... تَفَعَ) الَّذِي مَا فِيهِ مِنْ نُكْرَانِ

(١) الكلبيُّ: يحتمل أنه محمد بن أحمد بن جَزْيٍ الكلبي، من أهل غرناطة، ولد سنة (٦٣٩هـ)، وتوفي سنة (٧٤١هـ) مفقودًا وهو يحرض الناسَ يوم معركة طريف، ويحتمل أنه محمد بن السائب بن بشر الكلبي كان نسَّابةً، راويةً، عالمًا بالتفسير، وُلِدَ بالكوفة ومات بها سنة (١٤٦هـ) وهذا أقرب. [الشارح].

(٢) رُفَيْع -بضم الفاء، مُصغَّرًا- هو ابن مهران الرِّياحيّ، أبو العالية من أئمة التابعين، اخْتُلف في سنة وفاته، فقيل: سنة (٩٠هـ)، وقيل: سنة (١١١هـ)، وقيل غير ذلك، وقولُ الشارح -يقصد الهرَّاس- إنه الحسن البصري فخطأٌ. [الشارح]. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٠٧).

١٣٥٥- وَكَذَاكَ قَدْ (صَعِدَ) الَّذِي هُوَ رَابِعٌ   وَأَبُو عُبَيْدَةَ(١) صَاحِبُ الشَّيْبَانِي

١٣٥٦- يَخْتَارُ هَذَا الْقَوْلَ فِي تَفْسِيرِهِ   أَدْرَى مِنَ الْجَهْمِيِّ بِالْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «فَلَهُمْ عِبَارَاتٌ عَلَيْهَا أَرْبَعٌ» وهي: (استقرَّ)، (وقد علا) اثنان، وكذلك (ارْتَفَعَ الَّذِي مَا فِيهِ مِنْ نُكْرَانِ) هذه ثلاثة، وكذاك (قَدْ صَعِدَ) الذي هو رابعٌ.

فصار الواردُ عن السَّلفِ في معنَى قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، أربعةَ معانٍ: علا، وارتفع، واستقرَّ، وصَعِدَ.

فأمَّا (عَلَا، وارتَفَعَ، وصَعِدَ)، فمعناها متقاربٌ، و أمَّا (الاستقرار) فشيءٌ زائِدٌ على العُلُوِّ، فهو أخصُّ مِن مُجرَّدِ العُلُوِّ، ولهذا لو أرَدْنا أنْ نَختصِرَ لقُلْنَا: معناها: (علا) و(استقرَّ)، وبهذا نَنْتَظِمُ المَعانِيَ الأربعةَ.

* * *

١٣٥٧- وَالْأَشْعَرِيُّ يَقُولُ: تَفْسِيرُ (اسْتَوَى)   بِحَقِيقَةِ (اسْتَوْلَى) مِنَ الْبُهْتَانِ

١٣٥٨- هُوَ قَوْلُ أَهْلِ الِاعْتِزَالِ وَقَوْلُ أَتْـ   ـبَاعٍ لِجَهْمٍ وَهْوَ ذُو بُطْلَانِ

١٣٥٩- فِي كُتْبِهِ قَدْ قَالَ ذَا مِنْ (مُوجَزٍ)   وَ(إِبَانَةٍ) وَ(مَقَالَةٍ) بِبَيَانِ

١٣٦٠- وَكَذَلِكَ الْبَغَوِيُّ أَيْضًا قَدْ حَكَا   هُ عَنْهُمُ بِـ(مَعَالِمِ) الْقُرْآنِ

١٣٦١- وَانْظُرْ كَلَامَ إِمَامِنَا هُوَ مَالِكٌ   قَدْ صَحَّ عَنْهُ قَوْلُ ذِي إِتْقَانِ

(١) أبو عبيدة هو: معمر بن المُثَنَّى التيمي، مولاهم، من أئمة العلم باللغة والأدب، ولد بالبصرة سنة (١١٠هـ)، ومات بها سنة (٢٠٩هـ) على أحد الأقوال. [الشارح]. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٩/ ٤٤٥).

١٣٦٢- فِي الِاسْتِوَاءِ بِأَنَّهُ الْـمَعْلُومُ لَـ ... ـكِنْ كَيْفُهُ خَافٍ عَلَى الْأَذْهَانِ
١٣٦٣- وَرَوَى ابْنُ نَافِعٍ الصَّدُوقُ سَمَاعَهُ ... مِنْهُ عَلَى التَّحْقِيقِ وَالْإِتْقَانِ
١٣٦٤- اللهُ حَقًّا فِي السَّمَاءِ وَعِلْمُهُ ... سُبْحَانَهُ حَقًّا بِكُلِّ مَكَانِ
١٣٦٥- فَانْظُرْ إِلَى التَّفْرِيقِ بَيْنَ الذَّاتِ وَالْـ ... ـمَعْلُومِ مِنْ ذَا الْعَالِمِ الرَّبَّانِي
١٣٦٦- فَالذَّاتُ خُصَّتْ بِالسَّمَاءِ وَإِنَّمَا الْـ ... ـمَعْلُومُ عَمَّ جَمِيعَ ذِي الْأَكْوَانِ
١٣٦٧- ذَا ثَابِتٌ عَنْ مَالِكٍ مِنْ رَدِّهِ ... فَلَسَوْفَ يَلْقَى مَالِكًا بِهَوَانِ
١٣٦٨- وَكَذَاكَ قَالَ التِّرْمِذِيُّ بِـ(جَامِعٍ) ... عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ:
١٣٦٩- اللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ لَكِنْ عِلْمُهُ ... مَعَ خَلْقِهِ تَفْسِيرَ ذِي إِيمَانِ
١٣٧٠- وَكَذَاكَ أَوْزَاعِيُّهُمْ أَيْضًا حَكَى ... عَنْ سَائِرِ الْعُلَمَاءِ فِي الْبُلْدَانِ
١٣٧١- مِنْ قَرْنِهِ وَالتَّابِعِينَ جَمِيعِهِمْ ... مُتَوَافِرِينَ وَهُمْ أُولُو الْعِرْفَانِ
١٣٧٢- إِيمَانَهُمْ بِعُلُوِّهِ سُبْحَانَهُ ... فَوْقَ الْعِبَادِ وَفَوْقَ ذِي الْأَكْوَانِ
١٣٧٣- وَكَذَاكَ قَالَ الشَّافِعِيُّ حَكَاهُ عَنْـ ... ـهُ الْبَيْهَقِيُّ وَشَيْخُهُ الرَّبَّانِي
١٣٧٤- حَقًّا قَضَى اللهُ الْـخِلَافَةَ رَبُّنَا ... فَوْقَ السَّمَاءِ لِأَصْدَقِ الْعُبْدَانِ
١٣٧٥- حِبُّ الرَّسُولِ وَقَائِمٌ مِنْ بَعْدِهِ ... بِالْـحَقِّ لَا فَشِلٌ وَلَا مُتَوَانِ
١٣٧٦- فَانْظُرْ إِلَى الْمَقْضِيِّ فِي ذِي الْأَرْضِ لَـ ... ـكِنْ فِي السَّمَاءِ قَضَاءُ ذِي السُّلْطَانِ
١٣٧٧- وَقَضَاؤُهُ وَصْفٌ لَهُ لَمْ يَنْفَصِلْ ... عَنْهُ وَهَذَا وَاضِحُ الْبُرْهَانِ

الشــرحُ

١٣٥٧- وَالْأَشْعَرِيُّ يَقُولُ: تَفْسِيرُ (اسْتَوَى) بِحَقِيقَةِ (اسْتَوْلَى) مِنَ الْبُهْتَانِ

١٣٥٨- هُوَ قَوْلُ أَهْلِ الِاعْتِزَالِ وَقَوْلُ أَتْـ ـبَاعٍ لِـجَهْمٍ وَهْوَ ذُو بُطْلَانِ

ذكَرَ المؤلفُ -رَحِمَهُ اللهُ- في هذه المقطوعةِ أنَّ الأشعرِيَّ يقول: إنَّ تفسيرَ (استوى) بـ(استولى) من البُهتانِ، يَعْنِي: من الكَذِب.

إذَنْ تفسيرُ (استوى) بـ(استولى) هو قولُ المُعتزلةِ والجَهْميَّةِ.

١٣٥٩- فِي كُتْبِهِ قَدْ قَالَ ذَا مِنْ (مُوجَزٍ) وَ(إِبَانَةٍ) وَ(مَقَالَةٍ) بِبَيَانِ

قَوْلُهُ: «فِي كُتْبِهِ قَدْ قَالَ ذَا» الضميرُ يعودُ على الأشعريِّ -رَحِمَهُ اللهُ-.

قَوْلُهُ: «مِنْ مُوجَزٍ» اسمُ كتابٍ، (وإبانةٍ) اسمُ كتابٍ أيضًا وهو (الإبانةُ عن أصولِ الدِّيانةِ)، (ومَقَالَةٍ) اسمُ كتابٍ -أيضًا- وهو كتابُ (مَقالات الإِسْلامِيِّينَ).

١٣٦٠- وَكَذَلِكَ الْبَغَوِيُّ أَيْضًا قَدْ حَكَا هُ عَنْهُمُ بِـ(مَعَالِمِ) الْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «بِمَعَالِمِ الْقُرْآنِ» يَعْنِي: (معالم التنزيل)، فكتابُ تفسيرِ البَغَويِّ -رَحِمَهُ اللهُ- اسمه: (مَعَالمُ التنزيل)، لكن المؤلف قال: بـ(مَعالِم القرآن) مِن أَجْلِ القافية.

١٣٦١- وَانْظُرْ كَلَامَ إِمَامِنَا هُوَ مَالِكٌ[1] قَدْ صَحَّ عَنْهُ قَوْلُ ذِي إِتْقَانِ

---

(١) **مالك هو**: مالك بن أنس بن مالك الأصبحي، الحميري، أحد الأئمة الأربعة، ولد بالمدينة سنة (٩٣هـ) وتوفي بها سنة (١٧٩هـ). [الشارح]. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٨).

١٣٦٢- فِي الِاسْتِوَاءِ بِأَنَّهُ الْمَعْلُومُ لَـ ... ـكِنْ كَيْفُهُ خَافٍ عَلَى الْأَذْهَانِ

الإمامُ مالكٌ -رَحِمَهُ اللهُ- إمامُ أهلِ المدينةِ، وابنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ- ينتسبُ في المذهبِ إلى الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ، لكن مع ذلك نحن نَرَى، وابنُ القَيِّمِ يَرَى أنَّ الإمامَ مالكًا إمامٌ له، والإمامَ الشافعيَّ إمامٌ له، والإمامَ أبا حنيفةَ إمامٌ له، والإمامَ أحمدَ إمامٌ له، فهم أَئِمَّتُنا لا شكَّ، ولهذا قال: (**كَلامَ إمامِنَا هو مَالِكٌ**).

وأظنُّ العبارةَ عنه معروفةً، فلمَّا سُئِلَ عن الاستواء، وقال: له رجل: يا أبا عبدِ الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] كيف استوى؟ فأطْرَقَ برأسه[١] هكذا، حتى جَعَل يَتصبَّبُ عَرَقًا مِن شِدَّةِ ما وَقَعَ على نفسِه مِن هذا السؤالِ العظيمِ، ثُمَّ رَفَعَ رأسَه، وقال: «**يَا هَذَا، الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مُبْتَدِعًا**»[٢]، ثُمَّ قال: «**أَخْرِجُوهُ**»، فأَخْرَجوه من المسجد، لأنَّ أهلَ البِدَعِ لا يَنْبَغِي أنْ تُجْلِسَهم في مجلسِ حَديثِكَ، لِأَنَّهُم أهلُ شَرٍّ، يُلْقونَ الشُّبهَ من أجلِ أنْ يَلْبِسُوا الحقَّ بالباطِلِ، ولهذا أمَرَ -رَحِمَهُ اللهُ- أنْ يُخْرَجَ، فَأُخْرِجَ.

١٣٦٣- وَرَوَى ابْنُ نَافِعٍ[٣] الصَّدُوقُ سَمَاعَهُ ... مِنْهُ عَلَى التَّحْقِيقِ وَالْإِتْقَانِ

١٣٦٤- اللهُ حَقًّا فِي السَّمَاءِ وَعِلْمُهُ ... سُبْحَانَهُ حَقًّا بِكُلِّ مَكَانِ

---

(١) أي أماله. انظر: لسان العرب، مادة: طرق.

(٢) ذكره البيهقي في الأسماء والصفات (٥١٥)، عن الإمام مالك بإسناد جوَّده الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٠٧).

(٣) **ابن نافع**: يحتمل أن يكونَ أبا بكر بن نافع، أو عمرَ بن نافع، وكلاهما ثقةٌ، وأمَّا نافع فهو أبو عبد الله مولى ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو ديلميُّ الأصل، كان أحدَ الأعلامـ، مات سنة (١١٧هـ) أو سنة (١٢٠هـ). [الشارح].

هذا، كأنه يُشيرُ إلى قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، فإنَّ هذه الآيةَ لَبَّس بها الحُلوليَّةُ الذين قالوا: إنَّ اللهَ تعالى في الأرضِ كما أنه في السَّماءِ، وقالوا: إنه مَعَكم أينما كُنتم.

فردَّ عليهم الأئمةُ، وقالوا: إنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- في السَّماءِ، ولا يمكنُ أنْ يكونَ في الأرضِ، وأمَّا قولُه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، يَعْنِي: أنه يَعْلَمُكم وأنتم في الأرضِ، فالمُرَادُ بالمَعِيَّةِ علمُه بكم، وليسَ المعنى أنه هو ذاتُه معنا، لأنَّ هذا شَيْءٌ مستحيلٌ على الله، قَالَ تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، فكيف تُحِيطُ به الأرضُ؟! ولهذا يقولُ:

١٣٦٥- فَانْظُرْ إِلَى التَّفْرِيقِ بَيْنَ الذَّاتِ وَالْـ ... ـمَعْلُومِ مِنْ ذَا الْعَالِمِ الرَّبَّانِي

١٣٦٦- فَالذَّاتُ خُصَّتْ بِالسَّماءِ وَإِنَّما الْـ ... ـمَعْلُومُ عَمَّ جَمِيعَ ذِي الْأَكْوَانِ

قَوْلُهُ: «الْـمَعْلُوم» هم الْـخَلْقُ. لكن أين هم؟ الجَوَابُ: في الأرضِ، فمعلومُه في الأرضِ، وأما ذاتُه ففي السَّماءِ.

١٣٦٧- ذَا ثَابِتٌ عَنْ مَالِكٍ مِنْ رَدِّهِ ... فَلَسَوْفَ يَلْقَى مَالِكًا بِهَوَانِ

قَوْلُهُ: «ذَا» يَعْنِي: هذا الذي قُلْتُ من أنَّ اللهَ في السَّماء، وعلمُه في كُلِّ مكانٍ ثابتٌ عن مالكٍ، ومَنْ ردَّه فلَسَوْفَ يَلْقَى مالكًا بهوانٍ.

قَوْلُهُ: «مَالِكًا» يَعْنِي: مالكًا خَازِنَ النارِ، يَعْنِي: مَنْ رَدَّ ما قيلَ عن مالكٍ الإمامِ، فإنه سيكونُ في النار، وسيَلْقَى مالكًا خَازِنَ النارِ بهوانٍ.

إذَنْ (مالكٌ) الثانيةُ غيرُ (مالكٍ) الأولى، فـ(مالك) الأولى يَعْنِي بها الإمامَ مالكًا، والثانية يعني بها خازن النار.

وهل نقولُ: إنَّ هذه مبالغةٌ من المؤلف، أو نقولُ: إنَّ مَن ادَّعى أنَّ اللهَ في الأرضِ فهو كافرٌ؟ الظاهرُ الثَّاني، وأنَّ مَنْ قال: إنَّ اللهَ في الأرض فهو كافرٌ، لِأَنَّهُ يُنكِرُ عُلوَّ الله -سبحانه وتعالى- ويَلْزَمُ من قولِه أنْ يكونَ اللهُ في كُلِّ مكانٍ قَذِرٍ، وفي كُلِّ مكانٍ مَكْروهٍ، وأنَّ اللهَ تعالى مُتجزِّئٌ، وأنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- مُتعدِّدٌ، وهذا كُلُّه يُفْضِي إلى الكُفْرِ.

١٣٦٨- وَكَذَاكَ قَالَ التِّرْمِذِيُّ[1] بِـ(جَامِعٍ) عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ:

١٣٦٩- اللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ لَكِنْ عِلْمُهُ مَعَ خَلْقِهِ تَفْسِيرَ ذِي إِيمَانِ

قَوْلُهُ: «بِجَامِعٍ» يَعْنِي: بجامعِ الإمامِ التِّرمذيِّ، وهو معروف، ورُبَّما سُمِّي (سنن التِّرمذي).

قَالَ عن بعضِ أهلِ العلمِ: إنَّ اللهَ فوقَ العَرْشِ، وعلمُه مع خلقِه، فيَجْعلون المَعيَّةَ مَعيَّةَ العلم، وأمَّا الذاتُ فهي في السَّماءِ.

والقول الثاني في المسألةِ -كما سبق في التوحيد-: أنَّ المعيَّةَ معيَّةُ المُصاحَبةِ، ولكن لا يَلْزَمُ أنْ يكونَ اللهُ في الأرضِ، بل هو مَعَنا حقيقةً، وهو في السَّماءِ.

وذَكَرْنا أنَّ شيخَ الإسلام ابن تيميةَ -رَحِمَهُ اللهُ- في (العقيدةِ الوسطيةِ) ضَرَبَ مثلًا بالقَمَرِ، وقال: (إنه مَعَنا وهو في السَّماءِ).

المُهِمُّ أنَّ العلماءَ مُتَّفِقونَ على أنَّ اللهَ فوقَ السَّماءِ، وأنه لا يمكنُ أنْ يكونَ تحت السَّماءِ أبدًا، ولا يمكن أنْ يكونَ في الأرضِ.

---

(١) هو محمد بن عيسى بن يزيد بن سورة بن السكن: الحافظ العلَم الإمام البارع، ابن عيسى السلمي، الترمذي الضرير، مصنف (الجامع)، وكتاب (العلل)، وغير ذلك. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٧٠).

١٣٧٠- وَكَذَاكَ أَوْزَاعِيُّهُمْ[1] أَيْضًا حَكَى عَنْ سَائِرِ الْعُلَمَاءِ فِي الْبُلْدَانِ

١٣٧١- مِنْ قَرْنِهِ وَالتَّابِعِينَ جَمِيعِهِمْ مُتَوَافِرِينَ وَهُمْ أُولُو الْعِرْفَانِ

١٣٧٢- إِيمَانُهُمْ بِعُلُوِّهِ سُبْحَانَهُ فَوْقَ الْعِبَادِ وَفَوْقَ ذِي الْأَكْوَانِ

الذي نَقَلَ عنه شيخُ الإسلامِ -رَحِمَهُ اللهُ- أنه قال: (**كُنَّا نقولُ والتابعون متوافرون**)، ولكنْ كلامُ ابنِ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ- له وَجْهٌ.

قَوْلُهُ: «**مِن قَرْنِهِ وَالتَّابِعِينَ جَمِيعِهِمْ مُتَوَافِرِينَ**» يَعْنِي: حال كونهم مُتوافرين، وهم أولو العِرْفانِ، نقَلَ أو حَكَى (**إيمانَهم بعُلُوِّه سُبْحانَه**).

١٣٧٣- وَكَذَاكَ قَالَ الشَّافِعِيُّ حَكَاهُ عَنْـ ـهُ الْبَيْهَقِيُّ وَشَيْخُهُ الرَّبَّانِي

١٣٧٤- حَقًّا قَضَى اللهُ الْخِلَافَةَ رَبُّنَا فَوْقَ السَّمَاءِ لِأَصْدَقِ الْعُبْدَانِ

يشيرُ إلى: قولِ الشافعيِّ: «**خلافة أبي بكر حق قضاها الله فِي سمائه، وجمع عليها قلوب أصحاب نَبِيِّه ﷺ**»[2] وهذا إثباتٌ لعُلُوِّ الله -سبحانَه وتعالى-.

١٣٧٥- حِبُّ الرَّسُولِ وَقَائِمٌ مِنْ بَعْدِهِ بِالْحَقِّ لَا فَشِلٌ وَلَا مُتَوَانِ

قَوْلُهُ: «**حِبُّ الرَّسُولِ**» الحِبُّ بمعنى: المَحْبوبِ.

قَوْلُهُ: «**وقَائِمٌ مِن بَعْدِه بالحَقِّ**» ويعني بذلك: أبا بكرٍ الصِّدِّيق -رضي الله تعالى عنه-؟

---

(١) نسبة إلى الأوزاعي، وهو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد، شيخ الإسلام، وعالم أهل الشام، أبو عمرو الأوزاعي. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٧/ ١٠٧).

(٢) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد للمقدسي (ص:٩٥).

١٣٧٦- فَانْظُرْ إِلَى المَقْضِيِّ فِي ذِي الْأَرْضِ لَـ ... ـكِنْ فِي السَّماءِ قَضَاءُ ذِي السُّلْطَانِ

١٣٧٧- وَقَضَاؤُهُ وَصْفٌ لَهُ لَمْ يَنْفَصِلْ ... عَنْهُ وَهَذَا وَاضِحُ الْبُرْهَانِ

القضاءُ في السَّماءِ، لِأَنَّهُ من الله، والمَقْضِيُّ في الأرضِ.

***

١٣٧٨- وَكَذَلِكَ النُّعْمَانُ[1] قَالَ وَبَعْدَهُ ... يَعْقُوبُ[2] وَالْأَلْفَاظُ لِلنُّعْمَانِ

١٣٧٩- مَنْ لَمْ يُقِرَّ بِعَرْشِهِ سُبْحَانَهُ ... فَوْقَ السَّماءِ وَفَوْقَ كُلِّ مَكَانِ

١٣٨٠- وَيُقِرَّ أَنَّ اللهَ فَوْقَ العَرْشِ لَا ... تَخْفَى عَلَيْهِ هَوَاجِسُ الْأَذْهَانِ

١٣٨١- فَهُوَ الَّذِي لَا شَكَّ فِي تَكْفِيرِهِ ... للهِ دَرُّكَ مِنْ إِمَامِ زَمَانِ

١٣٨٢- هَذَا الَّذِي فِي (الفِقْهِ الاكْبَرِ) عِنْدَهُمْ ... وَلَهُ شُرُوحٌ عِدَّةٌ لِبَيَانِ

الشرحُ

الإمامُ أبو حَنِيفةَ -رَحِمَهُ اللهُ- صَرَّح بأنَّ مَنْ لم يُقِرَّ بعُلوِّ الله عزَّ وجلَّ وعُمومِ عِلمِه فإنه كافرٌ، لا شَكَّ في تكفيرِه، وهذا يدلُّ على أنه كافرٌ عندَه يقينًا، وقد أثْنَى عليه ابنُ القَيِّم بقَوْلِهِ: (للهِ دَرُّكَ مِنْ إِمَامِ زَمَانِ) وهذا يدُلُّ على ارتضاءِ ابنِ القَيِّمِ لهذا القولِ، وهو حقٌّ، فإنَّ الذي يُنْكِرُ عُلوَّ الله مُكَذِّبٌ للقرآنِ والسُّنَّةِ وإجماعِ السَّلفِ، ومُخَالِفٌ للمعقولِ، والمَفطورِ عليه الناسِ.

(١) هو أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زُوطَى التيمي، الكوفي، مولى بني تيم الله بن ثعلبة. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٩٠).

(٢) هو القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، العلَّامة المحدث، قاضي القضاة. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٨/ ٥٣٥).

١٣٨٣- وَانْظُـرْ مَقَالَـةَ أَحْمَـدٍ وَنُصُوصَـهُ ... فِي ذَاكَ تَلْقَاهَـا بِـلَا حُسْبَانِ
١٣٨٤- فَجَمِيعُهَـا قَـدْ صَرَّحَـتْ بِعُلُـوِّهِ ... وَبِالِاسْـتِوَا وَالْفَـوْقِ لِلـرَّحْمَنِ
١٣٨٥- وَلَـهُ نُصُـوصٌ وَارِدَاتٌ لَـمْ تَقَـعْ ... لِسِـوَاهُ مِـنْ فُرْسَـانِ هَـذَا الشَّـانِ
١٣٨٦- إِذْ كَانَ مُـمْتَحَنًا بِأَعْـدَاءِ الْـحَدِيـ ... ـثِ وَشِيعَةِ التَّعْطِيـلِ وَالْكُفْـرَانِ
١٣٨٧- وَإِذَا أَرَدْتَ نُصُوصَـهُ فَـانْظُرْ إِلَى ... مَا قَدْ حَكَى الْـخَلَّالُ ذُو الْإِتْقَانِ
١٣٨٨- وَكَـذَاكَ إِسْـحَاقُ الْإِمَـامُ فَإِنَّـهُ ... قَدْ قَـالَ مَـا فِيـهِ هُـدَى الْـحَيْرَانِ
١٣٨٩- وَابْنُ الْـمُبَارَكِ قَـالَ قَـوْلًا شَـافِيًا ... إِنْكَـارُهُ عَلَـمٌ عَـلَى الْبُهْتَـانِ
١٣٩٠- قَـالُوا لَـهُ: مَـا ذَاكَ نَعْـرِفُ رَبَّنَـا ... حَقًّـا بِـهِ لِنَكُـونَ ذَا إِيـمَانِ
١٣٩١- فَأَجَـابَ نَعْرِفُـهُ بِوَصْـفِ عُلُـوِّهِ ... فَـوْقَ السَّـمَاءِ مُبَـايِنَ الْأَكْـوَانِ؟
١٣٩٢- وَبِأَنَّـهُ سُـبْحَانَهُ حَقًّـا عَـلَى الْـ ... ـعَرْشِ الرَّفِيعِ فَجَلَّ ذُو السُّلْطَانِ
١٣٩٣- وَهُوَ الَّذِي قَدْ شَجَّعَ ابْـنَ خُزَيْمَـةَ ... إِذْ سَـلَّ سَيْفَ الْـحَقِّ وَالْعِرْفَـانِ
١٣٩٤- وَقَضَـى بِقَتْـلِ الْـمُنْكِرِينَ عُلُـوَّهُ ... بَعْـدَ اسْـتِتَابَتِهِمْ مِـنَ الْكُفْـرَانِ
١٣٩٥- وَبِـأَنَّهُمْ يُلْقَـوْنَ بَعْـدَ الْقَتْـلِ فَـوْ ... قَ مَزَابِـلِ الْـمَيْتَاتِ وَالْأَنْتَـانِ
١٣٩٦- فَشَفَى الْإِمَامُ الْعَالِـمُ الْـحَبْرُ الَّذِي ... يُـدْعَى إِمَـامَ أَئِمَّـةِ الْأَزْمَـانِ
١٣٩٧- وَلَقَدْ حَكَاهُ الحَاكِمُ الْعَدْلُ الرِّضَـا ... فِي كُتْبِـهِ عَنْـهُ بِـلَا نُكْـرَانِ
١٣٩٨- وَحَكَى ابْنُ عَبْدِ الْـبَرِّ فِي (تَمْهِيـدِهِ) ... وَكِتَابِ (الِاسْتِذْكَارِ) غَـيْرَ جَبَـانِ

١٣٩٩- إِجْمَاعَ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ اللهَ فَوْ قَ الْعَرْشِ بِالْإِيضَاحِ وَالْبُرْهَانِ
١٤٠٠- وَأَتَى هُنَاكَ بِمَا شَفَى أَهْلَ الْهُدَى لَكِنَّهُ مَرَضٌ عَلَى الْعُمْيَانِ
١٤٠١- وَكَذَا عَلِيُّ الْأَشْعَرِيُّ فَإِنَّهُ فِي كُتْبِهِ قَدْ جَاءَ بِالتِّبْيَانِ
١٤٠٢- مِنْ (مُوجَزٍ) وَ(إِبَانَةٍ) وَ(مَقَالَةٍ) وَ(رَسَائِلٍ لِلثَّغْرِ) ذَاتِ بَيَانِ
١٤٠٣- وَأَتَى بِتَقْرِيرِ اسْتِوَاءِ الرَّبِّ فَوْ قَ الْعَرْشِ بِالْإِيضَاحِ وَالْبُرْهَانِ
١٤٠٤- وَأَتَى بِتَقْرِيرِ الْعُلُوِّ بِأَحْسَنِ التْـ ـتَقْرِيرِ فَانْظُرْ كُتْبَهُ بِعِيَانِ
١٤٠٥- وَاللهِ مَا قَالَ الْمُجَسِّمُ مِثْلَ مَا قَدْ قَالَهُ ذَا الْعَالِمُ الرَّبَّانِي
١٤٠٦- فَارْمُوهُ وَيْحَكُمُ بِمَا تَرْمُوا بِهِ هَذَا الْمُجَسِّمَ يَا أُولِي الْعُدْوَانِ
١٤٠٧- أَوْ لَا فَقُولُوا: إِنَّ ثَمَّ حَزَازَةً وَتَنَفُّسَ الصُّعَدَاءِ مِنْ حَرَّانِ
١٤٠٨- فَسَلُوا الْإِلَهَ شِفَاءَ ذَا الدَّاءِ الْعُضَا لِ مُجَانِبَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ
١٤٠٩- وَانْظُرْ إِلَى حَرْبٍ وَإِجْمَاعٍ حَكَى لله دَرُّكَ مِنْ فَتًى كِرْمَانِي
١٤١٠- وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ ابْنِ وَهْبٍ أَوْحَدِ الْـ ـعُلَمَاءِ مِثْلِ الشَّمْسِ فِي الْمِيزَانِ
١٤١١- وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَ عَبْدُ اللهِ فِي تِلْكَ الرِّسَالَةِ مُفْصِحًا بِبَيَانِ
١٤١٢- مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ بِالذَّاتِ فَوْقَ الْعَرْشِ وَالْأَكْوَانِ
١٤١٣- وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ الْكَرْخِيُّ فِي شَرْحٍ لِتَصْنِيفِ امْرِئٍ رَبَّانِي
١٤١٤- وَانْظُرْ إِلَى الْأَصْلِ الَّذِي هُوَ شَرْحُهُ فَهُمَا الْهُدَى لِمُلَدَّدٍ حَيْرَانِ

١٤١٥- وَانْظُرْ إِلَى تَفْسِيرِ عَبْدٍ مَا الَّذِي ... فِيهِ مِنَ الْآثَارِ فِي ذَا الشَّانِ

١٤١٦- وَانْظُرْ إِلَى تَفْسِيرِ ذَاكَ الْفَاضِلِ الثْـ ... ـثَبَتِ الرِّضَا الْـمُتَضَلِّعِ الرَّبَّانِي

١٤١٧- ذَاكَ الْإِمَامُ ابْنُ الْإِمَامِ وَشَيْخُهُ ... وَأَبُوهُ سُنِّيَّانِ رَازِيَّانِ

١٤١٨- وَانْظُرْ إِلَى النَّسَائِي فِي (تَفْسِيرِهِ) ... هُوَ عِنْدَنَا سِفْرٌ جَلِيلُ مَعَانِ

١٤١٩- وَاقْرَأْ كِتَابَ (الْعَرْشِ) لِلْعَبْسِيِّ وَهْـ ... ـوَ مُحَمَّدُ الْـمَوْلُودُ مِنْ عُثْمَانِ

١٤٢٠- وَاقْرَأْ لِـ(مُسْنَدِ) عَمِّهِ وَ(مُصَنَّفٍ) ... أَتَرَاهُمَا نَجْمَيْنِ بَلْ شَمْسَانِ

١٤٢١- وَاقْرَأْ كِتَابَ (الِاسْتِقَامَةِ) لِلرِّضَا ... ذَاكَ ابْنُ أَصْرَمٍ حَافِظٌ رَبَّانِي

١٤٢٢- وَاقْرَأْ كِتَابَ الْـحَافِظِ الثِّقَةِ الرِّضَا ... فِي السُّنَّةِ الْعُلْيَا فَتَى الشَّيْبَانِي

١٤٢٣- ذَاكَ ابْنُ أَحْمَدَ أَوْحَدُ الْـحُفَّاظِ قَدْ ... شَهِدَتْ لَهُ الْـحُفَّاظُ بِالْإِتْقَانِ

١٤٢٤- وَاقْرَأْ كِتَابَ الْأَثْرَمِ الْعَدْلِ الرِّضَا ... فِي السُّنَّةِ الْأُولَى إِمَامِ زَمَانِ

١٤٢٥- وَكَذَا الْإِمَامُ ابْنُ الْإِمَامِ الْـمُرْتَضَى ... حَقًّا أَبِي دَاوُدَ ذِي الْعِرْفَانِ

١٤٢٦- تَصْنِيفُهُ نَظْمًا وَنَثْرًا وَاضِحٌ ... فِي السُّنَّةِ الْـمُثْلَى هُمَا نَجْمَانِ

١٤٢٧- وَاقْرَأْ كِتَابَ (السُّنَّةِ) الْأُولَى الَّذِي ... أَبْدَاهُ مُضْطَلِعٌ مِنَ الْإِيمَانِ

١٤٢٨- ذَاكَ النَّبِيلُ ابْنُ النَّبِيلِ كِتَابُهُ ... أَيْضًا نَبِيلٌ وَاضِحُ الْبُرْهَانِ

١٤٢٩- وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ ابْنِ أَسْبَاطِ الرِّضَا ... وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ الرِّضَا سُفْيَانِ

١٤٣٠- وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ ابْنِ زَيْدٍ ذَاكَ حَمْـ ... ـمَادٌ وَحَمَّادِ الْإِمَامِ الثَّانِي

١٤٣١- وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ عَلَمُ الْـهُدَى عُـثْمَانُ ذَاكَ الـدَّارِمِي الرَّبَّانِـي
١٤٣٢- فِي (نَقْضِهِ) وَ(الرَّدِّ) يَا لَـهُمَا كِتَا بَـا سُـنَّةٍ وَهُمَـا لَنَـا عَلَـمَانِ
١٤٣٣- هَـدَمَتْ قَوَاعِـدَ فِرْقَـةٍ جَهْمِيَّـةٍ خَرَّتْ سُـقُوفُهُمُ عَـلَى الْـحِيطَانِ
١٤٣٤- وَانْظُرْ إِلَى مَا فِي (صَـحِيحِ) مُحَمَّـدٍ ذَاكَ الْبُخَـارِيُّ الْعَظِـيمِ الشَّـانِ
١٤٣٥- مِنْ رَدِّهِ مَـا قَالَـهُ الْـجَهْمِيُّ بِالنْـ ـنَقْلِ الصَّـحِيحِ الْوَاضِـحِ الْبُرْهَـانِ
١٤٣٦- وَانْظُرْ إِلَى تِلْكَ التَّرَاجِمِ مَـا الَّـذِي فِي ضِـمْنِهَا إِنْ كُنْـتَ ذَا عِرْفَـانِ
١٤٣٧- وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ الطَّبَرِيُّ فِي (الشْـ ـشَرْحِ) الَّذِي هُوَ عِنْدَكُمْ سِـفْرَانِ
١٤٣٨- أَعْنِـي: الْفَقِيـهَ الشَّـافِعِيَّ اللَّالَكَـا ئِـيَّ الْـمُسَدَّدَ نَـاصِرَ الإِيـمَانِ
١٤٣٩- وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ عَلَمُ الْهُـدَى التَّـ ـيْمِـيُّ فِي إِيضَـاحِهِ وَبَيَـانِ
١٤٤٠- ذَاكَ الَّذِي هُوَ صَاحِبُ (التَّرْغِيـبِ وَالتْـ ـتَرْهِيـبِ) مَمْـدُوحٌ بِكُـلِّ لِسَـانِ
١٤٤١- وَانْظُرْ إِلَى مَـا قَالَـهُ فِي (السُّـنَّةِ الْـ ـكُبْرَى) سُـلَيْمَانٌ هُـوَ الطَّبَرَانِـي
١٤٤٢- وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَـهُ شَـيْخُ الْـهُدَى يُـدْعَى بِطَلَمَنْكِـيِّهِمْ ذُو شَـانِ
١٤٤٣- وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ الطَّحَـاوِيِّ الرِّضَـا وَأَجِـرْهُ مِـنْ تَحْرِيـفِ ذِي بُهْتَـانِ
١٤٤٤- وَكَذَلِكَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ هُـوَ ابْـ ـنُ الْبَاقِلَانِـي قَائِـدُ الْفُرْسَـانِ
١٤٤٥- قَـدْ قَـالَ فِي (تَمْهِيـدِهِ) وَ(رَسَـائِلٍ) وَ(الشَّـرْحِ) مَـا فِيـهِ جَلِـيٌّ بَيَـانِ
١٤٤٦- فِي بَعْضِهَا حَقًّا عَلَى الْعَرْشِ اسْـتَوَى لَكِنَّـهُ اسْـتَوْلَى عَـلَى الأَكْـوَانِ

١٤٤٧- وَأَتَى بِتَقْرِيرِ الْعُلُوِّ وَأَبْطَلَ الْـ   ـلَامَ الَّتِي زِيدَتْ عَلَى القُرْآنِ

١٤٤٨- مِنْ أَوْجُهٍ شَتَّى وَذَا فِي كُتْبِهِ   بَادٍ لِمَنْ كَانَتْ لَهُ عَيْنَانِ

١٤٤٩- وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ ابْنِ كُلَّابٍ وَمَا   يَقْضِي بِهِ لِمُعَطِّلِ الرَّحْمَنِ

١٤٥٠- أَخْرِجْ مِنَ النَّقْلِ الصَّحِيحِ وعَقْلِهِ   مَنْ قَالَ قَوْلَ الزُّورِ وَالْبُهْتَانِ

١٤٥١- لَيْسَ الإِلَهُ بِدَاخِلٍ فِي خَلْقِهِ   أَوْ خَارِجٍ عَنْ جُمْلَةِ الأَكْوَانِ

الشرحُ

على كُلِّ حالٍ هذه الكتبُ التي ذكرها ابنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ- تدلُّ على سَعَةِ اطِّلاعِه، ولم نُحِبَّ أنْ نَقِفَ عندَ كُلِّ واحدٍ، لأنَّ الفائِدَةَ قليلةٌ، لكنْ كُلُّها تقرِّرُ أنَّ اللهَ تعالى فوقَ السَّماءِ، وأنَّ القولَ بأنه ليسَ بداخلٍ ولا خارجٍ قولٌ مُنْكَرٌ، لا يُقِرُّه العَقْلُ ولا يُقِرُّه النقلُ.

إذا قُلْنَا: ليسَ بداخلِ العالَـمِ ولا بخارجِ العالَـمِ فأين يكون؟! لا شيءَ، لأنَّ النسبةَ بينَ لا دَاخِل ولا خَارِجَ نسبةٌ بينَ نَقِيضَيْنِ، والنقيضان لا بدَّ من وُجودِ أحدِهما، فلا يُمكِنُ أنْ يَرتِفعا أبدًا، فإذا قُلْنَا: لا داخل ولا خارج فهذا هو النفيُ المحضُ، ولذلك لا شكَّ أنَّ ما ذَكَرَه ابنُ القَيِّمِ من هذه الكتبِ العظيمةِ من هؤلاء الأئمة يدُلُّ دَلالةً واضحةً على أنَّ السَّلفَ -رضي الله عنهم وجعلنا منهم- لا يَشُكُّونَ في أنَّ اللهَ تعالى فوقَ كُلِّ شَيْءٍ كما دَلَّت على ذلكَ العقولُ والفِطَرُ السَّليمةُ.

وقولُ المؤلف -رَحِمَهُ اللهُ-: **(لَكِنَّهُ اسْتَوْلَى على الأكوانِ)** هذا صحيحٌ، فهو مستولٍ على الجميعِ، على كُلِّ شَيْءٍ، ولا يَعْنِي أننا إذا قُلْنَا: إنَّ (استولى) تدلُّ على أن

ما استولى عليه كان مملوكًا لغيره من قَبْلُ، بل تكون الولايةَ، فإذا قُلْتَ: (استولى فلانٌ على هذا اليتيم)، لا يَلْزَمُ أنْ يكونَ من قبلُ قد سُبِقَ بولايةٍ، كما أنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن:٦] لا يلزمُ أنْ يكونَ مسبوقًا بفقرٍ.

* * *

١٤٥٢- وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ الطَّبَرِيُّ فِي (التـ ... تَفْسِيرِ) وَ(التَّهْذِيبِ) قَوْلَ مَعَانِـي

١٤٥٣- وَانْظُـرْ إِلَى مَـا قَالَـهُ فِي سُـورَةِ الْـ ... أَعْرَافِ مَعْ (طَهَ) وَمَـعْ (سُـبْحَانِ)

١٤٥٤- وَانْظُـرْ إِلَى مَـا قَالَـهُ الْبَغَـوِيُّ فِي ... (تَفْسِيرِهِ) وَ(الشَّـرْحِ) بِالْإِحْسَـانِ

١٤٥٥- فِي سُورَةِ الْأَعْـرَافِ عِنْـدَ الْإِسْتِوَا ... فِيهَـا وَفِي الْأُولَى مِـنَ الْقُـرْآنِ

١٤٥٦- وَانْظُـرْ إِلَى مَـا قَالَـهُ ذُو سُـنَّةٍ ... وَقِـرَاءَةٍ ذَاكَ الْإِمَـامُ الدَّانِـي

١٤٥٧- وَكَذَاكَ (سُنَّةُ) الِاصْبَهَانِي أَبِي الشَّـ ... ـيْخِ الرِّضَا الْـمُسْتَلِّ مِـنْ حَيَّـانِ

١٤٥٨- وَانْظُـرْ مَـا قَالَـهُ ابْـنُ سُرَيْـجٍ الْـ ... ـبَحْرُ الْـخِضَمُّ الشَّـافِعِيُّ الثَّانِـي

١٤٥٩- وَانْظُرْ إِلَى مَـا قَالَـهُ عَلَـمُ الْـهُدَى ... أَعْنِـي: أَبَا الْـخَيْرِ الرِّضَـا الـنُّعْمَانِ

١٤٦٠- وَكِتَابُـهُ فِي الْفِقْـهِ وَهْـوَ بَيَانُـهُ ... يُبْـدِي مَكَانَتَـهُ مِـنَ الْإِيـمَانِ

١٤٦١- وَانْظُرْ إِلَى السُّنَنِ الَّتِي قَدْ صَنَّفَ الْـ ... ـعُلَمَاءُ بِالْآثَـارِ وَالْقُـرْآنِ

١٤٦٢- زَادَتْ عَلَى الْـمِئَتَيْنِ مِنْهَـا مُفْـرَدًا ... أَوْفَى مِنَ الْـخَمْسِينَ فِي الْـحُسْبَانِ

١٤٦٣- مِنْهَـا لِأَحْمَـدَ عِـدَّةٌ مَوْجُـودَةٌ ... فِينَـا رَسَـائِلُهُ إِلَى الْإِخْـوَانِ

١٤٦٤- وَاللَّاءِ فِي ضِمْنِ التَّصَانِيفِ الَّتِي ... شُهِرَتْ فَلَمْ تَحْتَجْ إِلَى حُسْبَانِ

١٤٦٥- فَكَثِيرَةٌ جِدًّا فَمَنْ يَكُ رَاغِبًا ... فِيهَا يَجِدُ فِيهَا هُدَى الْحَيْرَانِ

١٤٦٦- أَصْحَابُهَا هُمْ حَافِظُو الْإِسْلَامِ لَا ... أَصْحَابُ جَهْمٍ حَافِظُو الْكُفْرَانِ

١٤٦٧- وَهُمُ النُّجُومُ لِكُلِّ عَبْدٍ سَائِرٍ ... يَبْغِي الْإِلَهَ وَجَنَّةَ الْحَيَوَانِ

١٤٦٨- وَسِوَاهُمْ وَاللهِ قُطَّاعُ الطَّرِيـ ... ـقِ أَئِمَّةٌ تَدْعُو إِلَى النِّيرَانِ

١٤٦٩- مَا فِي الَّذِينَ حَكَيْتُ عَنْهُمْ آنِفًا ... مِنْ حَنْبَلِيٍّ وَاحِدٍ بِضَمَانِ

١٤٧٠- بَلْ كُلُّهُمْ وَاللهِ شِيعَةُ أَحْمَدٍ ... فَأُصُولُهُ وَأُصُولُهُمْ سِيَّانِ

١٤٧١- وَبِذَاكَ فِي كُتُبٍ لَهُمْ قَدْ صَرَّحُوا ... وَأَخُو الْعِمَايَةِ مَا لَهُ عَيْنَانِ

الشـرحُ

إِنَّما قَالَ المؤلفُ -رَحِمَهُ اللهُ-: **(مَا فِي الَّذِينَ حَكَيْتُ عَنْهُمْ آنِفًا مِنْ حَنْبَلِيٍّ)**، لأنَّ أهلَ الشَّرِّ والباطِلِ كانوا يرمون الحنابلةَ بالمجسِّمَة، ولا يقبلون منهم شيئًا، كما رمى المتأخِّرون أهلَ هذه البلاد بالوهابيَّة، لِأَنَّهُم يتَّبعون محمدَ بنَ عبد الوهَّاب، ويقولون: إنهم متشددون، وإنهم يكفِّرون النَّاسَ، وما أشبهَ هذا، وكُلُّ هذا كَذِبٌ.

كذلك في أصحابِ الإمامِ أحمدَ، كانوا يقولون: إنَّ أصحابَ الإمامِ أحمدَ حنابلةٌ مُجَسِّمَةٌ، فابنُ القَيِّمِ يقولُ: إنَّ مَن حكى عنهم ليس فيهم حنبليٌّ واحدٌ، حتَّى يُقَالَ: إنهم مُجَسِّمةٌ، بل هم من الحنفيَّة، والشافعيَّة، والمالكيَّة، وغيرِهم، ومن التابعين والصحابة، فالمسألةُ واضحةٌ والحمدُ لله، كُلُّهم يُثبِتون أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- على عرشِه فوقَ سمواته.

١٤٧٢- أَتَظُنُّهُمْ لَفْظِيَّةً جَهْلِيَّةً ... مِثْلَ الْحَمِيرِ تُقَادُ بِالْأَرْسَانِ؟

١٤٧٣- حَاشَاهُمْ مِنْ ذَاكَ بَلْ وَالله هُمْ ... أَهْلُ الْعُقُولِ وَصِحَّةِ الْأَذْهَانِ

١٤٧٤- فَانْظُرْ إِلَى تَقْرِيرِهِمْ لِعُلُوِّهِ ... بِالنَّقْلِ وَالْمَعْقُولِ وَالْبُرْهَانِ

١٤٧٥- عَقْلَانِ: عَقْلٌ بِالنُّصُوصِ مُؤَيَّدٌ ... وَمُؤَيَّدٌ بِالْمَنْطِقِ الْيُونَانِي

١٤٧٦- وَالله مَا اسْتَوَيَا وَلَنْ يَتَلَاقَيَا ... حَتَّى تَشِيبَ مَفَارِقُ الْغِرْبَانِ

١٤٧٧- أَفَتَقْذِفُونَ أُولاءِ بَلْ أَضْعَافَهُمْ ... مِنْ سَادَةِ الْعُلَمَاءِ كُلَّ زَمَانِ

١٤٧٨- بِالجَهْلِ وَالتَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ وَالتْـ ... ـتَبْدِيعِ وَالتَّضْلِيلِ وَالْبُهْتَانِ؟!

١٤٧٩- يَا قَوْمَنَا أَللهَ فِي إِسْلَامِكُمْ ... لَا تُفْسِدُوهُ بِنَخْوَةِ الشَّيْطَانِ

١٤٨٠- يَا قَوْمَنَا اعْتَبِرُوا بِمَصْرَعِ مَنْ خَلَا ... مِنْ قَبْلِكُمْ فِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ

١٤٨١- لَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ كِذْبُهُمْ وَمِحَالُهُمْ ... وَقِتَالُهُمْ بِالزُّورِ وَالْبُهْتَانِ

١٤٨٢- كَلَّا وَلَا التَّدْلِيسُ وَالتَّلْبِيسُ عِنْـ ... ـدَ النَّاسِ وَالْحُكَّامِ وَالسُّلْطَانِ

١٤٨٣- وَبَدَا لَهُمْ عِنْدَ انْكِشَافِ غِطَائِهِمْ ... مَا لَمْ يَكُنْ لِلْقَوْمِ فِي حُسْبَانِ

١٤٨٤- وَبَدَا لَهُمْ عِنْدَ انْكِشَافِ حَقَائِقِ الْـ ... ـإِيمَانِ أَنَّهُمُ عَلَى الْبُطْلَانِ

١٤٨٥- مَا عِنْدَهُمْ -وَالله- غَيْرُ شِكَايَةٍ ... فَأْتُوا بِعِلْمٍ وَانْطِقُوا بِبَيَانِ

١٤٨٦- مَا يَشْتَكِي إِلَّا الَّذِي هُوَ عَاجِزٌ ... فَاشْكُوا لِنَعْذِرَكُمْ إِلَى الْقُرْآنِ

١٤٨٧- ثُمَّ اسْمَعُوا مَاذَا الَّذِي يَقْضِي لَكُمْ ... وَعَلَيْكُمُ؟ فَالْحَقُّ فِي الْفُرْقَانِ

الشــرحُ

يقول المؤلفُ -رَحِمَهُ اللهُ- في هذه المقطوعَةِ:

١٤٧٢- أَتَظُنُّهُمْ لَفْظِيَّةً جَهْلِيَّةً ... مِثْلَ الْحَمِيرِ تُقَادُ بِالْأَرْسَانِ؟

قَوْلُهُ: «**أَتَظُنُّهُمْ لَفظِيَّةً جَهْلِيَّةً**» لأنَّ مِن الناس مَن ادَّعى أنَّ مذهبَ السَّلفِ الإيمانُ باللفظ فقط فيما يتعلَّقُ بأسماءِ الله وصفاتِه، دونَ فهمٍ لمعناه، فيقولون: إنَّ السَّلف يقرءون اللفْظَ، ويجهلون المعنى كالحمار يُقَادُ بالرَّسَنِ[1]، ولا يدري أين يُذْهَبُ به؟

وهذا القولُ الذي يظنُّ كثيرٌ من المتأخِّرين أنَّه مذْهَبُ السَّلف إن هو إلا كَذِبٌ على السَّلف، بل هذا القولُ يقولُ عنه شيخُ الإسلام ابنُ تيمية -رَحِمَهُ اللهُ- في كتابه (العَقْل والنقل)[2]: «**إنه شَرُّ أقوالِ أهل البدع والإلحاد**». وإنه هو الذي فتح البابَ على مصراعيه لأهل الفلسفة والمنطق، فقالوا: إذا كان مذهبُكم أيها السَّلفيُّون أنَّكم لا تفهمون إلَّا اللفظَ، فأنتم جُهَّالٌ أُمِّيُّون، لأنَّ اللهَ قَالَ في القرآن: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ [البقرة:٧٨] يَعْنِي: إلَّا قراءةً، ونحن أهلَ العقول ندري المعانيَ ونعرفُها، ولو بالتحريف الذي يُسمُّونَه تأويلًا.

فالحقيقةُ أنَّهم فتحوا على المسلمين بابًا لا يمكنُ سَدُّه لأهل البدعِ والكلامِ، يَعْنِي: لو أنَّ مذهبَ السَّلف -كما يقول هؤلاء- أنْ تقرأ: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] ولا تدري ما معنى (**استوى**) لكنتَ أجهلَ من حَمَارِك، كيف تقرأ (استوى) ولا تدري ما معناها؟!

---

(١) الحبل، والجمع (أَرْسَانٌ)، و(أَرْسُنٌ)، وربما قيل: (رُسُنٌ) بضمتين، انظر: المصباح المنير (ص:١١٩).
(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٠٥).

هم يقولون: نحن ندري معنى (استوى)، فمعنى (استوى): (استولى)، وكونُنا نُثبتُ للنُّصوص معنىً، ولو بالتأويل، خيرٌ من كوننا لا نُثبتُ لها معنىً، لِأَنَّهَا إذا لم يَكُنْ لها معنىً بَقِيَتْ ألفاظًا لا فائِدةَ منها؛ كالأحجار.

فالمهم أنَّ ابنَ القَيِّمِ -رَحِمَه الله- يُنكرُ هذا الظنَّ الخاطئَ بالنسبة للسَّلف، وهو أنهم لفظيَّةٌ جهليَّةٌ، ولذا قال:

١٤٧٣- حَاشَاهُمْ مِنْ ذَاكَ بَلْ وَالله هُمْ ... أَهْلُ الْعُقُولِ وَصِحَّةِ الْأَذْهَانِ

١٤٧٤- فَانْظُرْ إِلَى تَقْرِيرِهِمْ لِعُلُوِّهِ ... بِالنَّقْلِ وَالْمَعْقُولِ وَالْبُرْهَانِ

١٤٧٥- عَقْلَانِ: عَقْلٌ بِالنُّصُوصِ مُؤَيَّدٌ ... وَمُؤَيَّدٌ بِالْمَنْطِقِ الْيُونَانِي

قَوْلُهُ: «عَقْلَانِ» العَقْل الأول: عقلُ أهل السُّنَّةِ والجماعة، والثاني: عقلُ أهل البدع.

يقول:

١٤٧٦- وَالله مَا اسْتَوَيَا وَلَنْ يَتَلَاقَيَا ... حَتَّى تَشِيبَ مَفَارِقُ الْغِرْبَانِ

قَوْلُهُ: «حَتَّى تَشِيبَ مَفَارِقُ الْغِرْبَانِ» ومتى تشيبُ؟

الجَوَابُ: لا يمكنُ أنْ تشيبَ أبدًا، ولهذا يقولُ الشاعرُ الذي لا يحبُّ أهلَه[1]:

إِذَا شَابَ الغُرَابُ أَتَيْتُ أَهْلِي ... وَصَارَ القَارُ كَاللَّبَنِ الحَلِيبِ

وهذه المدةُ هل هي قريبةٌ أو بعيدةٌ؟

الجَوَابُ: بعيدةٌ، لأنَّ الغرابَ لا يَشيبُ.

---

(١) البيت في النكت والعيون للماوردي (٢/ ٢٢٣)، الدر المصون (٥/ ٣٢٠)، المغني لابن قدامة (١٠/ ٤٧٥) غير منسوب.

قَوْلُهُ: «وَصَارَ الْقَارُ كَاللَّبَنِ الـحَلِيبِ» ومتى يصير؟

الجَوَابُ: لا يصيرُ، فلو غليناه بالنَّار، لا يمكنُ أنْ يكونَ كاللَّبَن الحليب.

فالمؤلف يقول: (لَنْ يَتَلَاقَيَا حَتَّى تَشِيبَ مَفَارِقُ الْغِرْبَانِ)، وهذا أمرٌ مستحيلٌ.

١٤٧٧- أَفَتَقْـذِفُونَ أُوْلاءِ بَـلْ أَضْـعَافَهُمْ ... مِـنْ سَـادَةِ الْعُلَـمَاءِ كُـلَّ زَمَـانِ

١٤٧٨- بِالجَهْلِ وَالتَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ وَالتْـ ... تَبْـدِيعِ وَالتَّضْـلِيلِ وَالْبُهْتَـانِ؟!

قَوْلُهُ: «بِالْـجَهْلِ» أي: يقول: هؤلاء جُهَّالٌ، لا يعرفون المعنى.

قَوْلُهُ: «وَالتَّشْبِيهِ» هذا لِـمَنْ يُثبتون الصفاتِ، يَقُولُ: أنتم مُشَبِّهَةٌ.

قَوْلُهُ: «التَّجْسِيم» أيضًا يقول: أنتم مُجَسِّمَةٌ، تَقُولُونَ: إنَّ اللهَ جسمٌ.

قَوْلُهُ: «والتَّبْدِيع» يقولون: أنتم مبتدعةٌ.

قَوْلُهُ: «والتَّضْلِيل» يقولون: أنتم ضُلاَّلٌ.

قَوْلُهُ: «والبُهْتَانِ» أي: الكَذِب.

يصفونهم بكُلِّ ما يستطيعون من تنفير، ويقولون: حَشَوِيَّةٌ، نَوَابِتُ، بُسَطَاء، وما أشبه ذلك من الكلمات التي يُنَفِّرون بها الناس.

١٤٧٩- يَـا قَوْمَنَـا اللهَ فِي إِسْـلَامِكُمْ ... لَا تُفْسِـدُوهُ بِنَخْـوَةِ الشَّـيْطَانِ

نَدَبهم إلى أنْ يتَّقوا اللهَ تعالى في إسلامهم.

١٤٨٠- يَا قَوْمَنَا اعْتَبِرُوا بِمَصْرَعِ مَنْ خَـلَا ... مِـنْ قَـبْلِكُمْ فِي هَـذِهِ الأَزْمَـانِ

١٤٨١- لَـمْ يُغْنِ عَنْهُمْ كِـذْبُهُمْ وَمِحَالُـهُمْ ... وَقِتَالُـهُمْ بِـالزُّورِ وَالْبُهْتَـانِ

١٤٨٢- كَلَّا وَلَا التَّدْلِيسُ وَالتَّلْبِيسُ عِنْـ ـدَ النَّاسِ وَالْـحُكَّامِ وَالسُّلْطَانِ

لأنَّه يوجدُ من أهل البدع مَنْ صار له اتِّصالٌ بالحكَّام والسَّلاطين، وصاروا يسُبُّون أهلَ السُّنَّة.

والغالبُ منذُ انقراضِ الْقُرونِ الثَّلاثة أنَّ الحكَّامَ قلِيلُو البضاعة من العلْمِ، فيأتِيهِمْ هؤلاءِ الَّذين يدَّعُون العلمَ، ويلتصِقون بهم، ويَسُبُّون عندهم أهلَ السُّنَّة، ويقولون: هم مُجَسِّمَةٌ، مُشَبِّهَةٌ، وما أشبهَ ذلك، والحاكمُ لقلَّةِ علمِه يظنُّ أنَّ ما قاله هؤلاء حقٌّ، وأهلُ السُّنَّةِ قد يكونون بعيدِينَ عن السَّلاطين، ولا يُحبُّون أنْ يلتصقوا بهم، أو يَقْربُوا منهم، إلَّا إذا دعت الضرورةُ لبيانِ حقٍّ أو دفعِ باطِلٍ.

١٤٨٣- وَبَدَا لَـهُمْ عِنْدَ انْكِشَافِ غِطَائِهِمْ مَا لَـمْ يَكُنْ لِلْقَوْمِ فِي حُسْبَانِ

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٧].

١٤٨٤- وَبَدَا لَـهُمْ عِنْدَ انْكِشَافِ حَقَائِقِ الْـ إِيمَانِ أَنَّهُـمُ عَلَى الْـبُطْلَانِ

١٤٨٥- مَا عِنْدَهُمْ -وَاللهِ- غَيْرُ شِكَايَةٍ فَأْتُوا بِعِلْمٍ وَانْطِقُوا بِبَيَانِ

الذي ليس عنده إلَّا الشِّكايةُ يقولُ: والله إمَّا أنْ ترجعَ عن قولِك، وإلَّا أخبرتُ عنك الأميرَ، ولا يقولُ له: ماذا عندك؟ ما الدليلُ؟ فما عنده إلَّا الشِّكايةُ.

كثيرٌ من الناس ليس عنده شكايةٌ، ولا يقْدِرُ أنْ يصلَ إلى الأمير، لكن عنده كلمة «**ولو**»، تقولُ له: (يا ابن الحلال هذا لا يجوز) قال: (**ولو**)، وكلمة (**ولو**) هذه تُشْبِهُ الشِّكايةَ عند السلطان والحكَّام، ولهذا وَشَوْا بالإمام أحمدَ بنِ حنبل -رَحِمَهُ اللهُ-، ووَشَوْا بشيخ الإسلام ابن تيميةَ، وبِغَيْرِهما من الْعُلماءِ، وعُذِّبُوا، وهذا كُلُّه مِن أَجْلِ الوِشَايةِ مِن هؤلاء.

١٤٨٦- مَا يَشْتكِي إِلَّا الَّذِي هُوَ عَاجِزٌ فَاشْكُوا لِنَعْذِرَكُمْ إِلَى الْقَرْآنِ
١٤٨٧- ثُمَّ اسْمَعُوا مَاذَا الَّذِي يَقْضِي لَكُمْ وَعَلَيْكُمُ؟ فَالْحَقُّ فِي الْفُرْقَانِ

يعني: أنتم إذا شكيتم الأمرَ (إلى القرآنِ)، عرفتم ماذا يَقضي لكم القرآنُ أو يقضي عليكم؟ (فالحقُّ في الفرقان).

***

١٤٨٨- لَبَّسْتُمُ مَعْنَى النُّصُوصِ وَقَوْلَنَا فَغَدَا لَكُمْ لِلْحَقِّ تَلْبِيسَانِ
١٤٨٩- مَنْ حَرَّفَ النَّصَّ الصَّرِيحَ فَكَيْفَ لَا يَأْتِي بِتَحْرِيفٍ عَلَى إِنْسَانِ؟!
١٤٩٠- يَا قَوْمُ وَاللهِ الْعَظِيمِ أَسَأْتُمُ بِأَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ ظَنَّ الشَّانِ
١٤٩١- مَا ذَنْبُهُمْ وَنَبِيُّهُمْ قَدْ قَالَ مَا قَالُوا، كَذَاكَ مُنَزِّلُ الْفُرْقَانِ؟!
١٤٩٢- مَا الذَّنْبُ إِلَّا لِلنُّصُوصِ لَدَيْكُمُ إِذْ جَسَّمَتْ بَلْ شَبَّهَتْ صِنْفَانِ
١٤٩٣- مَا ذَنْبُ مَنْ قَدْ قَالَ مَا نَطَقَتْ بِهِ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا عُدْوَانِ؟
١٤٩٤- هَذَا كَمَا قَالَ الْخَبِيثُ لِصَحْبِهِ كَلْبُ الرَّوَافِضِ أَخْبَثُ الْحَيَوَانِ
١٤٩٥- لَمَّا أَفَاضُوا فِي حَدِيثِ الرَّفْضِ عِنْـ ـدَ الْقَبْرِ لَا تَخْشَوْنَ مِنْ إِنْسَانِ
١٤٩٦- يَا قَوْمُ أَصْلُ بَلَائِكُمْ وَمُصَابِكُمْ مِنْ صَاحِبِ الْقَبْرِ الَّذِي تَرَيَانِ
١٤٩٧- كَمْ قَدَّمَ ابْنَ أَبِي قُحَافَةَ بَلْ غَدَا يُثْنِي عَلَيْهِ ثَنَاءَ ذِي شُكْرَانِ
١٤٩٨- وَيَقُولُ فِي مَرَضِ الْوَفَاءِ: يَؤُمُّكُمْ عَنِّي أَبُو بَكْرٍ بِلَا رَوَغَانِ
١٤٩٩- وَيَظَلُّ يَمْنَعُ مِنْ إِمَامَةِ غَيْرِهِ حَتَّى يُرَى فِي صُورَةِ الْغَضْبَانِ

١٥٠٠- وَيَقُولُ: لَوْ كُنْتُ الْـخَلِيلَ لِوَاحِـدٍ فِي النَّاسِ كَانَ هُوَ الْـخَلِيلَ الـدَّانِي
١٥٠١- لَكِنَّـهُ الْأَخُ وَالرَّفِيـقُ وَصَـاحِبِي وَلَـهُ عَلَيْنَـا مِنَّـةُ الْإِحْسَـانِ
١٥٠٢- وَيَقُـولُ لِلصِّـدِّيقِ يَـوْمَ الْغَـارِ: لَا تَحْـزَنْ فَـنَحْنُ ثَلَاثَـةٌ لَا اثْنَـانِ
١٥٠٣- اللهُ ثَالِثُنَـا وَتِلْـكَ فَضِـيلَةٌ مَـا حَازَهَـا إِلَّا فَتَـى عُـثْمَانِ
١٥٠٤- يَا قَوْمُ مَا ذَنْبُ النَّوَاصِبِ بَعْدَ ذَا؟ لَـمْ يَـدْهَكُمْ إِلَّا كَبِـيرُ الشَّـانِ
١٥٠٥- فَتَفَرَّقَـتْ تِلْـكَ الـرَّوَافِضُ كُلُّهُـمْ قَـدْ أَطْبَقَـتْ أَسْـنَانَهُ الشَّـفَتَانِ
١٥٠٦- وَكَذَلِكَ الْـجَهْمِيُّ ذَاكَ رَضِـيعُهُمْ فَهُـمَا رَضِـيعَا كُفْـرِهِمْ بِلِبَـانِ
١٥٠٧- ثَوْبَانِ قَدْ نُسِجَا عَلَى الْـمِنْوَالِ يَـا عُرْيَـانُ لَا تَلْـبَسْ فَـمَا ثَوْبَـانِ
١٥٠٨- وَاللهِ شَرٌّ مِـنْهُمَا فَهُـمَا عَـلَى أَهْـلِ الضَّـلَالَةِ وَالشَّـقَا عَلَـمَانِ

الشـرحُ

١٤٨٨- لَبَّسْـتُمُ مَعْنَـى النُّصُـوصِ وَقَوْلَنَـا فَغَـدَا لَكُـمْ لِلْحَـقِّ تَلْبِيسَـانِ

لما ذكر -رَحِمَهُ اللهُ- أنَّ هؤلاء ليس عندهم إلَّا الوشايةُ للحكَّام والسَّلاطين، وأنَّ هذا إنما يكونُ دأبَ العاجز، ودعاهم إلى الشِّكَاية إلى القرآن الكريم، فيحكم لهم أو عليهم، ذكر أنهم لَبَّسوا معنى النصوص وقَوْلَنا، يَعْنِي: أنهم حرَّفوا النصوص وحرَّفوا أقوالَنا أيضًا، وقالوا علينا ما لم نَقُل، فغدا لهم بالحقِّ تلبيسان:

التلبيس الأول: للنصوص.

والتلبيس الثاني: لأقوال أهل السُّنَّة.

ثُمَّ قال:

١٤٨٩- مَنْ حَرَّفَ النَّصَّ الصَّرِيحَ فَكَيْفَ لَا   يَـأْتِي بِتَحْرِيـفٍ عَـلَى إِنْسَـانِ؟!

يعني: أنَّ الذي يتجاسرُ على تحريفِ كلام الله وكلامِ رسوله لا يهمُّه أنْ يتجاسرَ على تحريف كلامِ غيرِهما منَ النَّاس.

١٤٩٠- يَـا قَـوْمُ وَاللهِ الْعَظِـيمِ أَسَـأْتُمُ   بِأَئِمَّـةِ الْإِسْـلَامِ ظَـنَّ الشَّـانِ

قَوْلُهُ: «الشَّان» أي: المُبْغِضِ، يَعْنِي: أنكم ظننتم بأهل السُّنَّةِ، بل بأهل الإسلام ظَنَّ المبْغِض.

١٤٩١- مَـا ذَنْـبُهُمْ وَنَبِـيُّهُمْ قَـدْ قَـالَ مَـا   قَـالُوا، كَـذَاكَ مُنَـزِّلُ الْفُرْقَـانِ؟!

يعني: هل لهؤلاء الذين يقولون ما قَالَ اللهُ ورسولُه هل لهم أيُّ ذنبٍ؟! الجَوَابُ: أبدًا، هم على الحقِّ.

١٤٩٢- مَا الـذَّنْبُ إِلَّا لِلنُّصُـوصِ لَـدَيْكُمُ   إِذْ جَسَّـمَتْ بَـلْ شَـبَّهَتْ صِـنْفَانِ

هم يقولون: إنَّ ظاهرَ النصوص التجسيمُ، فيجبُ صرفُها عن ظاهرِها، ظاهرُ النصوص التشبيهُ فيجبُ صرفُها عن ظاهرِها.

يعني: مثلًا، قالوا: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] اللهُ عزَّ وجلَّ، ظاهرُ النَّصِّ عندهم أنَّ هاتَيْنِ اليدين مُشْبِهتان لأيدي المخلوقين، وأنه لا يمكنُ إثباتُ هذه الحقيقة إلَّا بالتشبيه، والتشبيهُ باطِلٌ، فإذا كان لا يمكنُ إثباتُ هذه الحقيقة إلَّا بالتشبيهِ والتشبيهُ باطِلٌ كانت الحقيقةُ باطِلةً، فيجبُ أنْ نصرفَ معنى (اليد) إلى النعمة أو القوة.

وفي قَوْلِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، قالوا: لا يستوِي شَيْءٌ

على شَيْءٍ إلَّا وهو جسمٌ، والجسمُ على الله -عندهم- مستحيلٌ، وإذا كان مستحيلًا وَجَبَ أنْ نصْرِفَ معنى (الاستواء) إلى (الاستيلاء)، وهو المُلك والْغَلَبةُ والقهر، وهكذا يقولون.

فلذلك قالوا: إنَّ النصوصَ ظاهرُها التشبيهُ، أو ظاهرُها التجسيمُ، فيجبُ علينا أنْ نصْرِفَها عن هذا الظاهر، فأساءوا إساءتين:

الإساءة الأولى: ظنُّهم أنها تستلزمُ التشبيهَ والتجسيمَ.

الإساءة الثانية: صرفُهم إيَّاها عن معانيها التي أرادها اللهُ بها ورسولُه.

١٤٩٣- مَا ذَنْبُ مَنْ قَدْ قَالَ مَا نَطَقَتْ بِهِ ... مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا عُدْوَانِ؟

الجَوابُ: لا ذنبَ له.

١٤٩٤- هَذَا كَمَا قَالَ الْخَبِيثُ لِصَحْبِهِ ... كَلْبُ الرَّوَافِضِ أَخْبَثُ الْحَيَوَانِ

هذا رجلٌ رافضيٌّ قَالَ لأصحابِه وهم واقفون عند قبر النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ لهم ما سيذكره ابنُ القَيِّم.

قَوْلُهُ: «**كَلْبُ الرَّوَافِضِ أَخْبَثِ**» بالجرِّ صِفَة للروافض؛ فابنُ القَيِّم -رَحِمَهُ اللهُ- وصَفَ الروافضَ بأنهم أخبثُ الحيوان، والمُرَادُ بذلك الروافضُ الذين تصلُ بدعتُهم إلى الْكُفْر، لأنَّ مَنْ كان كافرًا فإنه شرُّ الدوابِّ عند الله كما قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال:٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤].

ماذا قَالَ هذا الخبيثُ لصحبه؟ وهذا الخبيث لم أجده لا في شرح (**الهراس**)، ولا في شرح (**إبراهيم بن عيسى**)، فلعلَّه منقولٌ لابن القيّم، أو كان في عصرِه

والله أعلم، وعلى كُلِّ حالٍ لا يهمُّنَا شخصُ الرَّجُل، بل الذي يهمُّنَا هو الفعل والقول.

١٤٩٥- لَـمَّا أَفَاضُوا فِي حَدِيثِ الرَّفْضِ عِنْـ ـدَ الْقَـبْرِ لَا تَخْشَـوْنَ مِـنْ إِنْسَـانِ

يعني: لما صاروا يتكلَّمون عن أصول الروافض، ومن أصولهم أنَّ أبا بكرٍ وعمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ظالمان، معتديان، وأنَّ عليَّ بنَ أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحقُّ بالخلافة منهما، حتَّى إني رأيتُ عجبًا عجابًا قال: إنَّ أبا بكر، وعمرَ، وعليًّا، كُلٌّ منهم كافرٌ.

فأمَّا أبو بكر وعمرَ فلاغتصابهما الخلافةَ، وأما عليٌّ، فِلأَنَّهُ لم يُدافع عن حقِّ الخلافة، فكفَر بتفريطه، وعدم مدافعتِه عن الحقِّ الذي يَرَوْنَ أنه من أَوْجَبِ الواجبات.

لما أفاضوا بهذا الحديث، قال: (**لَا تَخْشَوْنَ مِنْ إِنْسَانِ**) يَعْنِي: لا تخشَوْنَ من أيِّ إنسانٍ، لأنَّ البلاءَ ليسَ من إنسانٍ، بل البلاءُ من هذا الذي أشار إليه في قَوْلِهِ:

١٤٩٦- يَا قَوْمُ أَصْـلُ بَلَائِكُـمْ وَمُصَـابِكُمْ مِنْ صَـاحِبِ الْقَـبْرِ الَّـذِي تَرَيَـانِ

قَوْلُهُ: «**صَاحِبِ الْقَبْرِ**» أي: الرسول -عليه الصلاة والسلام-.

يقول: أصلُ بلائِكم ومصيبتِكم من صاحب هذا القبر، ثم كيف ذلك؟ فقال:

١٤٩٧- كَمْ قَدَّمَ ابْـنَ أَبِي قُحَافَـةَ بَـلْ غَـدَا يُثْنِـي عَلَيْـهِ ثَنَـاءَ ذِي شُـكْرَانِ

فلمَّا قَدَّمَه وأثنى عليه صار هو الخليفةَ بعدَه، فالذَّنبُ إذَنْ ذنبُ الرسولِ -صلوات الله وسلامه عليه-، وحاشاه من الذَّنب الذي يدَّعونه.

١٤٩٨- وَيَقُولُ فِي مَرَضِ الْوَفَـاءِ: يَـؤُمُّكُمْ عَنِّـي أَبُـو بَكْـرٍ بِـلَا رَوَغَـانِ

قَوْلُهُ: «**ويقول**» أي: الرسولُ ﷺ، إذَنْ هو الذي رفع من شأن أبي بكر، فهو

بليَّتكم ومُصابُكم.

١٤٩٩- وَيَظَـلُّ يَمْنَـعُ مِـنْ إِمَامَـةِ غَـيْرِهِ حَتَّـى يُـرَى فِي صُـورَةِ الْغَضْـبَانِ

لـمَّا خاطبته عائِشةُ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا قالت: «إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ، إِنَّ يَقُمْ مَقَامَكَ يَبْكِي»، فَلَا يَقْدِرُ عَلَى القِرَاءَةِ، واللهُ أعلمُ بما أرادت؛ لكن هكذا اعتذرتْ أمامَ النَّبيِّ -عليه الصلاة والسلام-، فقال: «إِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ» -يَعْنِي: إنَّ هذا كَيْدٌ مِنْ كَيْدِكُنَّ- «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ»[1]، وغَضِبَ -عليه الصلاة والسلام-، ولهذا قال: (حَتَّى يُرَى فِي صُورةِ الغَضْبَانِ).

١٥٠٠- وَيَقُولُ: لَوْ كُنْتُ الْـخَلِيلَ لِوَاحِـدٍ فِي النَّاسِ كَانَ هُوَ الْـخَلِيلَ الـدَّانِي

قَوْلُهُ: «ويقول» أي: الرسولُ ﷺ حيث قال: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ»[2].

١٥٠١- لَكِنَّـهُ الْأَخُ وَالرَّفِيـقُ وَصَـاحِبِي وَلَـهُ عَلَيْنَـا مِنَّـةُ الْإِحْسَـانِ

قَوْلُهُ: «وَلَهُ عَلَيْنَا مِنَّةُ الْإِحْسَانِ»، لِأَنَّهُ قَالَ على المِنْبَرِ في مَرَضِ موتِه: «إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ»[3]؛ فأبو بكرٍ أَمَنُّ النَّاسِ عليه، لا عمُّه، ولا ابنُ عمِّه، ولا أيُّ واحدٍ من الناس.

١٥٠٢- وَيَقُـولُ لِلصِّـدِّيقِ يَـوْمَ الْغَـارِ: لَا تَحْـزَنْ فَـنَحْنُ ثَلَاثَـةٌ لَا اثْنَـانِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب حد المريض أن يشهد الجماعة، رقم (٦٦٤)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض، رقم (٤١٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلا»، رقم (٣٦٥٦)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، رقم (٢٣٨٣).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، رقم (٢٣٨٢).

١٥٠٣- اللهُ ثَالِثُنَـــا وَتِلْـــكَ فَضِـــيلَةٌ   مَـــا حَازَهَـــا إِلَّا فَتَـــى عُـــثْمَانِ

لـمَّا قَالَ أبو بكر وهما في الغار: يا رسولَ الله لَوْ أَنَّ أَحَدُهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ قَالَ لَهُ: «مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا»(١)، وَقَالَ لَهُ: «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا»(٢)، ولا شَكَّ أَنَّ حفظَ الله لا يمكنُ أَنْ يُخْرَقَ سياجُه أبدًا، ولهذا يقول: (الله ثالثنا).

قَوْلُهُ: «فَتَى عُثْمَانِ» هو أبو بكر، لأَنَّ اسمَه عبدُ الله بن عثمان، فأبوه اسمُه عثمان، وهذه الفضيلةُ ما حازها إِلَّا أبو بكرٍ، فانظر إلى الفضائِل العظيمة!

فيقولُ هذا الرافضيُّ الخبيثُ: هذه بليَّتُكم التي جَعَلَتْ أبا بكر مُقَدَّمًا على غيرِه من الصحابة، وليست البليَّة أَنْ يقولَ واحدٌ من الناس: إنَّ أبا بكرٍ أفضلُ من عليٍّ، بل البليَّة مِن صاحب هذا القبر.

١٥٠٤- يَا قَوْمُ مَا ذَنْبُ النَّوَاصِبِ بَعْـدَ ذَا؟   لَـــمْ يَـــدْهَكُمْ إِلَّا كَبِـــيرُ الشَّـــانِ

قَوْلُهُ: «يَا قَوْمُ مَا ذَنْبُ النَّوَاصِبِ بَعْدَ ذَا؟» النَّواصِبُ أي: الذين يُفَضِّلون أبا بكرٍ، ولكنَّهم يُبغِضون عليًّا، يقول: ما ذنبُهم إذا قدَّموا أبا بكر؟

قَوْلُهُ: «لَـمْ يَدْهَكُمْ إِلَّا كَبِيرُ الشَّانِ»، والرسولُ -عليه الصلاة والسلام- هُوَ كبيرُ الشأن، يَعْنِي: هذا هو الذي دَهاكم، هو الذي ضربكم بداهيةٍ، حيثُ فَضَّلَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾ [التوبة:٤٠]، رقم (٤٦٦٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦١٥)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب في حديث الهجرة ويقال له حديث الرحل، رقم (٢٠٠٩).

أبا بكرٍ، وأنتم تُفَضِّلون عليًّا.

١٥٠٥- فَتَفَرَّقَتْ تِلْكَ الرَّوَافِضُ كُلُّهُمْ   قَدْ أَطْبَقَتْ أَسْنَانَهُ الشَّفَتَانِ

يعني: أنهم ممتلئون غيظًا، فليس على وجوههم ابتسامةٌ إطلاقًا، لِأَنَّهُم دُهوا بهذه الداهيةِ التي ذكرها خبيثُهم.

١٥٠٦- وَكَذَلِكَ الْجَهْمِيُّ ذَاكَ رَضِيعُهُمْ   فَهُمَا رَضِيعَا كُفْرِهِمْ بِلِبَانِ

فكذلك الجَهْميُّ أيضًا يقولُ: الذَّنبُ ذنبُ النصوصِ في إثبات التجسيمِ، لأنَّ الجَهْميَّ يقولُ: كُلُّ صِفَةٍ فإنها تستلزمُ التجسيمَ، فَالاستواءُ يستلزمُ التجسيمَ، و(اليدُ) تستلزمُ التجسيمَ، و(الوجهُ) يستلزمُ التجسيمَ، وهذا على رأي الجَهْميِّ بليَّةٌ ومصيبةٌ أنْ تكونَ النصوصُ التي هي كلامُ الله وكلامُ رسولِهِ تقتضي -على زعمِه- التجسيمَ.

فهو والرَّافضيُّ على حدٍّ سواء، لكنَّه هو أعظمُ من الرَّافضيِّ، لأنَّ الجَهْميَّ جعل هذا في أسماء الله وصفاته، والرَّافضيُّ جعله في مسألةِ الإمامة، وإن كان كُلٌّ منهما خبيثًا، لكنَّ الجهميَّ أشدُّ.

١٥٠٧- ثَوْبَانِ قَدْ نُسِجَا عَلَى الْمِنْوَالِ يَا   عُرْيَانُ لَا تَلْبَسْ فَمَا ثَوْبَانِ

١٥٠٨- وَالله شَرٌّ مِنْهُمَا فَهُمَا عَلَى   أَهْلِ الضَّلَالَةِ وَالشَّقَا عَلَمَانِ

قَوْلُهُ: «**لا تَلْبَسْ**» أي: لا تلبس ثوبَ الجَهْميِّ، ولا ثوبَ الرَّافضيِّ.

أَقْسَمَ ابنُ القَيِّمِ أنه لا يوجدُ ثوبان شرًّا من هذين الثَّوبَيْنِ: ثوبِ الرَّفض، وثوبِ التَّجهُّم، (فهُمَا على أهل الضَّلالة) والشَّقاء (عَلَمَانِ).

* * *

فصل

١٥٠٩- هَـذَا وَسَـابِعَ عَشْـرَهَا: إِخْبَـارُهُ سُـبْحَانَهُ فِي مُحْكَـمِ الْقُـرْآنِ
١٥١٠- عَنْ عَبْدِهِ مُوسَى الْكَلِيمِ وَحَرْبِـهِ فِرْعَـوْنَ ذِي التَّكْـذِيبِ وَالطُّغْيَـانِ
١٥١١- تَكْذِيبَـهُ مُوسَـى الْكَلِـيمَ بِقَوْلِـهُ: اللهُ رَبِّي فِي السَّـمَا نَبَّانِـي
١٥١٢- وَمِنَ الْمَصَائِبِ قَوْلُـهُمْ: إِنَّ اعْتِقَـا دَ الْفَوْقِ مِنْ فِرْعَوْنَ ذِي الْكُفْـرَانِ
١٥١٣- فَـإِذَا اعْتَقَـدْتُمْ ذَا فَأَشْـيَاعٌ لَـهُ أَنْـتُمْ وَذَا مِـنْ أَعْظَـمِ الْبُهْتَـانِ
١٥١٤- فَاسْمَعْ إِذَنْ مَنْ ذَا الَّذِي أَوْلَى بِفِرْ عَوْنَ الْـمُعَطِّلِ جَاحِدِ الرَّحْمَنِ؟
١٥١٥- وَانْظُرْ إِلَى مَا جَاءَ فِي الْقَصَصِ الَّتِي تَحْكِـي مَقَـالَ إِمَـامِهِمْ بِبَيَـانِ
١٥١٦- وَاللهُ قَـدْ جَعَـلَ الضَّـلَالَةَ قُـدْوَةً بِأَئِمَّـةٍ تَـدْعُو إِلَى النِّـيرَانِ
١٥١٧- فَإِمَـامُ كُـلِّ مُعَطِّـلٍ فِي نَفْيِـهِ فِرْعَـوْنُ مَـعْ نَمْـرُودَ مَـعْ هَامَـانِ
١٥١٨- طَلَبَ الصُّعُودَ إِلَى السَّمَاءِ مُكَذِّبًا مُوسَـى وَرَامَ الصَّـرْحَ بِالْبُنْيَـانِ
١٥١٩- بَلْ قَالَ: مُوسَى كَاذِبٌ فِي زَعْمِهِ فَوْقَ السَّمَاءِ الـرَّبُّ ذُو السُّلْطَانِ
١٥٢٠- فَابْنُوا لِـيَ الصَّرْحَ الرَّفِيـعَ لَعَلَّنِـي أَرْقَـى إِلَيْـهِ بِحِيلَـةِ الْإِنْسَـانِ
١٥٢١- وَأَظُـنُّ مُوسَـى كَاذِبًـا فِي قَوْلِـهِ: اللهُ فَـوْقَ الْعَـرْشِ ذُو السُّـلْطَانِ

١٥٢٢- وَكَــذَاكَ كَذَّبــهُ بِــأَنَّ إِلَــهَهُ نَــادَاهُ بِــالتَّكْلِيمِ دُونَ عِيَــانِ

١٥٢٣- هُـوَ أَنْكَـرَ التَّكْلِيمَ وَالْفَوْقِيَّـةَ الْـ ـعُلْيَا كَقَوْلِ الْـجَهْمِ ذِي صَـفْوَانِ

١٥٢٤- فَمَـنِ الَّـذِي أَوْلَـى بِفِرْعَـوْنٍ إِذَنْ مِنَّــا وَمِــنْكُمْ بَعْــدَ ذَا التِّبْيَــانِ؟

الشــرحُ

هذه المقطوعةُ فيها الدليلُ السابعَ عشرَ على عُلُوِّ الله، وذلك فيما أخبر اللهُ به عن موسى وفرعونَ، يقول المؤلِّفُ:

١٥٠٩- هَــذَا وَسَــابِعَ عَشْــرَهَا: إِخْبَـارُهُ سُــبْحَانَهُ فِي مُحْكَــمِ الْقُــرْآنِ

١٥١٠- عَنْ عَبْدِهِ مُوسَـى الْكَلِيمِ وَحَرْبِـهِ فِرْعَـوْنَ ذِي التَّكْـذِيبِ وَالطُّغْيَـانِ

قَوْلُهُ: «وَحَرْبِهِ فِرْعَوْنَ» يَعْنِي: وعن حربه فرعون، «**ذِي التَّكْذِيبِ وَالطُّغْيَانِ**»، فإنَّ فرعونَ جَمَع بين التكذيب، والطغيان، والاستكبار، وقصَّتُه في القرآنِ معروفةٌ.

١٥١١- تَكْذِيبَـهُ مُوسَـى الْكَلِيمَ بِقَوْلِـهِ: اللهُ رَبِّي فِي السَّــــمَا نَبَّانِــــي

قَوْلُهُ: «بِقَوْلِهِ» أي: بقول موسى.

قَوْلُهُ: «اللهُ رَبِّي فِي السَّمَا نَبَّانِي» يَعْنِي: أرسلني، وفرعونُ كذَّب موسى، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص:٣٨] يَعْنِي: وإنِّي لأظنُّه كاذبًا في دعواه أنَّ اللهَ أرسلَه، وأنَّ اللهَ في السَّماء.

وواضحٌ أنَّ المراد بها أنَ فرعونَ يُنكرُ علوَّ الله، بل يُنكر اللهَ رأسًا، يَقُولُ: وإني لأظنُّه كاذبًا.

والعجيبُ أنَّ أهلَ التعطيلِ قالوا: إنكم أنتم -أيها المثْبِتُون للعلوِّ- أنتم الذين جعلتم فرعونَ إمامًا لكم، لأنَّ فرعونَ مُقِرٌّ بالعُلُوِّ، والدليلُ على إقراره أنه قَالَ لوزيره هامان: ﴿ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر:٣٦-٣٧]، وهذا يدلُّ على تصديقِه، فأنتم إذا قُلْتُم: (إنَّ اللهَ في السَّماء) فقدْ جعلتم فرعونَ إمامًا لكم.

وهذا لا شكَّ أنه مِن الطغيان على أهلِ السُّنَّة، لأنَّ قولَهم هذا كقول القائلِ[1]:

مَا قَالَ رَبُّكَ وَيْلٌ لِلأُلَى سَكِرُوا ... بَلْ قَالَ رَبُّكَ: وَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَا

واحدٌ ينهى شخصًا عن شرب الخمر -ينهاه مثلًا وقتَ صلاةٍ- يقول: اترك الخمرَ، واذهب للصلاة، فيقول له الشاربُ هذا البيتَ والعياذ بالله.

فهذا ترك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٥]، وهؤلاء تركوا قولَ فرعون: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [القصص:٣٨] ووقفوا على قوله: ﴿أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [القصص:٣٨] ولم يقولوا: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [القصص:٣٨] فجعلوا فرعونَ يُقِرُّ بعلوِّ الله، رجل يُنْكِرُ اللهَ، ويقولُ: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص:٣٨] كيف نَقُولُ: إنه يُقِرُّ بعلوِّه؟! فالذي يُنكرُ نفسَ العالي هل يُمْكِنُ أنْ يُقِرَّ بعلوِّه؟ الجَوَابُ: لا يمكنُ، ولهذا قال:

١٥١٢- وَمِنَ المَصَائِبِ قَوْلُهُمْ: إِنَّ اعْتِقَا ... دَ الْفَوْقِ مِنْ فِرْعَوْنَ ذِي الْكُفْرَانِ

١٥١٣- فَإِذَا اعْتَقَدْتُمْ ذَا فَأَشْيَاعٌ لَهُ ... أَنْتُمْ وَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْبُهْتَانِ

(١) البيت غير منسوب في أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٩/ ١٢٤).

قَالَ ابنُ القيِّم: «فَإِذَا اعْتَقَدْتُمْ ذَا فَأَشْيَاعٌ لَهُ» ثُمَّ قال: «وَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْبُهْتَانِ» (ذا) يَعْنِي: قولـهم: إننا نحن أشياعٌ لفرعونَ بإثبات العُلُوِّ.

١٥١٤- فَاسْمَعْ إِذَنْ مَنْ ذَا الَّذِي أَوْلَى بِفِرْ ... عَوْنَ الْـمُعَطِّلِ جَاحِـدِ الـرَّحْمَنِ؟

قَوْلُهُ: «مَنْ ذَا الَّذِي أَوْلَى بِفِرْعَوْنَ؟» مَن الأَوْلى؟ والجَوَابُ: المعطِّلَةُ أَوْلَى، لِأَنَّهُ هو معطِّلٌ، بل هو إمامُ المعطِّلة.

١٥١٥- وَانْظُرْ إِلَى مَا جَاءَ فِي الْقَصَصِ الَّتِي ... تَحْكِـي مَقَـالَ إِمَـامِهِمْ بِبَيَـانِ

١٥١٦- وَاللهُ قَـدْ جَعَـلَ الضَّـلَالَةَ قُـدْوَةً ... بِأَئِمَّـةٍ تَـدْعُو إِلَى النِّـيرَانِ

لقولِ الله تعالى عن آل فرعون: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص:٤١-٤٢]، فهم أئمَّةُ الْكُفْر، يَدْعُون إلى النيرانِ.

١٥١٧- فَإِمَـامُ كُـلِّ مُعَطِّـلٍ فِي نَفْيِـهِ ... فِرْعَـوْنُ مَـعْ نَمْـرُودَ مَـعْ هَامَـانِ

١٥١٨- طَلَبَ الصُّعُودَ إِلَى السَّمَاءِ مُكَـذِّبًا ... مُوسَـى وَرَامَ الصَّـرْحَ بِالْبُنْيَـانِ

قَوْلُهُ: «مُكَذِّبًا مُوسَى» يَعْنِي: غيرَ مُصَدِّقٍ له، لكن يريدُ أنْ يوهِمَ قومَه ببناء الصَّرح العالي، ويقولُ لصحبه وأتباعِه: أنا -والله- رقيتُ أبحثُ عن إله موسى، ولكن ما لَقِيتُه، هذا هو مُرَادهُ بما طلب.

١٥١٩- بَلْ قَالَ: مُوسَى كَـاذِبٌ فِي زَعْمِـهِ ... فَوْقَ السَّـمَاءِ الـرَّبُّ ذُو السُّـلْطَانِ

قَوْلُهُ: «بَلْ قَالَ: مُوسَى كَاذِبٌ فِي زَعْمِهِ» الذي يقولُ ذلك هو فرعونُ، «فَوْقَ السَّمَاءِ الرَّبُّ» يَعْنِي: قال: إنَّ موسى كاذبٌ في زعمِه أَنَّ الرَّبَّ فوقَ السَّماء.

١٥٢٠- فَابْنُوا لِـيَ الصَّرْحَ الرَّفِيعَ لَعَلَّنِـي   أَرْقَـى إِلَيْـهِ بِحِيلَـةِ الْإِنْسَـانِ

قَوْلُهُ: «أَرْقَى إِلَيْهِ» أي: إلى إله موسى لا إلى الله، فهو لا يُقِرُّ به، فيَقُولُ: (إلى إله موسى).

١٥٢١- وَأَظُـنُّ مُوسَـى كَاذِبًـا فِي قَوْلِـهِ:   اللهُ فَـوْقَ الْعَـرْشِ ذُو السُّـلْطَانِ

١٥٢٢- وَكَـذَاكَ كَذَّبَـهُ بِـأَنَّ إِلَـهَهُ   نَـادَاهُ بِـالتَّكْلِيمِ دُونَ عِيَـانِ

١٥٢٣- هُـوَ أَنْكَـرَ التَّكْلِيمَ وَالْفَوْقِيَّةَ الْـ   ـعُلْيَا كَقَوْلِ الْـجَهْمِ ذِي صَفْوَانِ

الجَهْمُ بن صفوان يُنْكِرُ التَّكليمَ، وفرعونْ يُنْكِرُ التَّكليمَ، يقول لموسى: ما كلَّمك اللهُ وما أرسلك، الجَهْم يُنْكِرُ العلوَّ، وفرعونُ يُنْكِرُ العلوَّ.

١٥٢٤- فَمَـنِ الَّـذِي أَوْلَـى بِفِرْعَـوْنٍ إِذَنْ   مِنَّـا وَمِـنْكُمْ بَعْـدَ ذَا التِّبْيَـانِ؟

قَوْلُهُ: «فَمَنِ الَّذِي أَوْلَى بِفِرْعَوْنٍ مِنَّا وَمِنْكُمْ؟» والمنصف سيقول: هؤلاء الجهمية وأمثالهم أولى.

* * *

١٥٢٥- يَـا قَوْمَنَـا وَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِنَـا   أَلْفًـا تَـدُلُّ عَلَيْـهِ بَـلْ أَلْفَـانِ

١٥٢٦- عَقْلًا وَنَقْلًا مَعْ صَرِيحِ الْفِطْرَةِ الْـ   أَوْلَى وَذَوْقِ حَـلَاوَةِ الْقُـرْآنِ

١٥٢٧- كُـلٌّ يَـدُلُّ بِأَنَّـهُ سُـبْحَانَهُ   فَـوْقَ السَّـمَاءِ مُبَـايِنُ الْأَكْـوَانِ

١٥٢٨- أَتَـرَوْنَ أَنَّـا تَـارِكُو ذَا كُلِّـهُ   لِـجَعَاجِعِ التَّعْطِيلِ وَالْـهَذَيَانِ؟!

١٥٢٩- يَـا قَـوْمُ مَـا أَنْـتُمْ عَـلَى شَيْءٍ إِلَى   أَنْ تَرْجِعُـوا لِلْـوَحْيِ بِالْإِذْعَـانِ

١٥٣٠- وَتُحَكِّمُــوهُ فِي الْــجَلِيلِ وَدِقِّــهِ ... تَحْكِـيمَ تَسْـلِيمٍ مَـعَ الرِّضْـوَانِ
١٥٣١- قَــدْ أَقْسَــمَ اللهُ الْعَظِـيمُ بِنَفْسِــهِ ... قَسَــمًا يُبِــينُ حَقِيقَــةَ الْإِيــمَانِ
١٥٣٢- أَنْ لَيْسَ يُـؤْمِنُ مَنْ يَكُـونُ مُحَكِّـمًا ... غَـيْرَ الرَّسُـولِ الوَاضِـحِ الْبُرْهَـانِ
١٥٣٣- بَلْ لَيْسَ يُؤْمِنُ غَيْرَ مَنْ قَدْ حَكَّمَ الْـ ... ـوَحْيَـيْنِ حَسْـبُ، فَـذَاكَ ذُو إِيـمَانِ
١٥٣٤- هَـذَا وَمَـا ذَاكَ الْــمُحَكِّمُ مُؤْمِنًـا ... إِنْ كَـانَ ذَا حَـرَجٍ وَضِـيقِ بِطَـانِ
١٥٣٥- هَـذَا وَلَـيْسَ بِمُـؤْمِنٍ حَتَّـى يُسَلْـ ... ـلِمْ لِلَّـذِي يَقْضِـي بِـهِ الْوَحْيَـانِ

الشَّرحُ

١٥٢٥- يَــا قَوْمَنَــا وَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِنَــا ... أَلْفًــا تَــدُلُّ عَلَيْــهِ بَــلْ أَلْفَــانِ
١٥٢٦- عَقْلًا وَنَقْلًا مَعْ صَرِيحِ الْفِطْرَةِ الْـ ... أَوْلَى وَذَوْقِ حَــلَاوَةِ الْقُــرْآنِ(١)
١٥٢٧- كُــلٌّ يَــدُلُّ بِأَنَّــهُ سُــبْحَانَهُ ... فَــوْقَ السَّــمَاءِ مُبَـايِنُ الْأَكْـوَانِ

هذه الأبياتُ المقطوعة أيضًا يقولُ المؤلفُ -رَحِمَهُ اللهُ- فيها: إِنَّ لقَوْلِنا في عُلُوِّ الله عزَّ وجلَّ فوقَ كُلِّ شَيْء أَلْفَ دليلٍ، بل أَلْفَان مِن الأَدِلَّة، كُلُّها تدلُّ على عُلُوِّ الله: مِن العَقْل، والنقل، والفِطْرة، والذوق، كُلُّها تدلُّ على عُلُوِّ الله -سبحانه وتعالى- فوقَ كُلِّ شَيْءٍ.

١٥٢٨- أَتَــرَوْنَ أَنَّــا تَــارِكُو ذَا كُلِّــهُ ... لِـجَعَاجِعِ التَّعْطِيلِ وَالْـهَذَيَانِ؟!

قَوْلُهُ: «أَتَرَوْنَ» أي: أتظنُّون؟

(١) في نسخة: «حلاوة الإيمان». [الشارح].

قَوْلُهُ: «جَعَاجِعِ» هي في الأصل: صوت الرَّحَى، هدير قد يكونُ فيه طحنٌ وقد لا يكونُ، فلا يمكنُ أنْ ندعَ هذه الأدلَّةَ مِن أَجْلِ جعاجعِكم أَيُّها المعطِّلة، وهذيانِكم.

١٥٢٩- يَا قَوْمُ مَا أَنْتُمْ عَلَى شَيْءٍ إِلَى ... أَنْ تَرْجِعُوا لِلْوَحْيِ بِالْإِذْعَانِ

وهذا حَقٌّ، فكُلُّ مَنْ خالفَ الوحيَيْن فليس على شَيْءٍ.

١٥٣٠- وَتُحَكِّمُوهُ فِي الْجَلِيلِ وَدِقِّهِ ... تَحْكِيمَ تَسْلِيمٍ مَعَ الرِّضْوَانِ

قَوْلُهُ: «تُحَكِّمُوهُ فِي الْجَلِيلِ وَدِقِّهِ» الجليلُ: الأمورُ العظيمة، والدِّقُّ: الأمورُ التي ليست من عظائِم الأصول.

وكذلك حتَّى تحكِّموه في العبادات، وفي المعاملات، في الأمور الاجتماعية، والأمور الاقتصاديَّة، فَمَنْ حَكَّم الوحيَ في شَيْء دونَ شَيْء فقد كفَر بالوحي كُلِّه، وليس بمؤمنٍ، لِأَنَّهُ إذا قال: (أرضى بهذا، وأحكمُ به، ولا أرضى بهذا، ولا أحكمُ به) لم يَكُنْ مُتَّبِعًا لشرع الله، وإنما هو مُتَّبِعٌ لهواه، إذ إِنَّ المتَّبعَ للشَّرع يقولُ: سَمِعْنَا وأطعنا في أمور العبادات، والمعاملات، والاقتصاديات، والاجتماعيات، وفي جميع شؤون الحياة.

١٥٣١- قَدْ أَقْسَمَ اللهُ الْعَظِيمُ بِنَفْسِهِ ... قَسَمًا يُبِينُ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ

١٥٣٢- أَنْ لَيْسَ يُؤْمِنُ مَنْ يَكُونُ مُحَكِّمًا ... غَيْرَ الرَّسُولِ الْوَاضِحِ الْبُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «قَدْ أَقْسَمَ اللهُ الْعَظِيمُ بِنَفْسِهِ» وذلك في قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥].

انظر إلى المؤكِّداتِ في هذه الآية ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هذه الآيةُ مُؤكَّدةٌ بالقَسَم، وبـ«لا»، وبإضافة الربوبيَّة إلى الرسولِ -عليه الصلاة والسلام-، لِأَنَّهُ صاحبُ الشَّريعة.

فقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ ﴾ «لا» هنا زائِدة للتنبيه والتأكيد، القسم ﴿وَرَبِّكَ ﴾ أُضِيفَت الربوبيَّةُ إلى الرسول ﷺ، لِأَنَّهُ صاحبُ الشريعة، وهذا نوعٌ من التأكيد، لأنَّ ربوبيَّةَ الله -سبحانه وتعالى- لرسولِهِ ليست كربوبيَّتِهِ العامة.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ أي: أنت وحدك، ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي: فيما حصل بينهم من نِزاعٌ، وهذا هو **الأوَّل**.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾ أي: ضِيقًا، بمعنى: أنْ تَتَقَبَّلَ نفوسُهم هذا الحكمَ بانشراحٍ وفرحٍ وسرورٍ، لا بضيقٍ وحرجٍ، وهذا **هو الثاني**.

الثالث: ﴿وَيُسَلِّمُواْ ﴾ أي: ينقادوا، ويُذْعِنُوا، ويستسلموا تمامًا.

الرابع: ﴿تَسۡلِيمًا ﴾ وهذا تأكيدٌ بالمصدر، يَعْنِي: تسليمًا تامًا.

كُلُّ هذه المؤكِّدات وهذه الشروطُ تدُلُّ على أنه لا يمكنُ الإيمانُ إِلَّا بهذه الأمورِ، فلو حَكَّمَ غيرَ الرسول فليس بمؤمنٍ، ولو حكَّم الرسولَ لكن ضاق صدرُه بِحُكْمه وكَرِهَه لكنَّه يُنَفِّذُه فليس بمؤمنٍ، ولو قَبِلَه ورَضِيَ به لكن لم يُسَلِّم التَّسليمَ التَّام، فصار يُماطِلُ فليس بمؤمنٍ، إذَنْ لا بُدَّ من هذه الأمور كُلِّها.

١٥٣٣- بَلْ لَيْسَ يُؤْمِنُ غَيْرَ مَنْ قَدْ حَكَّمَ الْـ ... ـوَحْيَيْنِ حَسْبُ، فَذَاكَ ذُو إِيمَانِ

قَوْلُهُ: «حَسْبُ» يَعْنِي: فقط.

ودليلُ تحكيمِ الْوَحْيَيْن قولُه تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء:٥٩] يَعْنِي: فإن لم تردُّوه إلى الله والرسولِ فلسْتُم بمؤمنين.

١٥٣٤- هَـذَا وَمَـا ذَاكَ الْـمُحَكِّمُ مُؤْمِنًـا ... إِنْ كَـانَ ذَا حَـرَجٍ وَضِـيقِ بِطَـانِ

يعني: لو حكَّم الوحيين وقَبِل حكمَهما، لكن لم يرتَحْ له، وصار عنده ضيقٌ فإنه ليس بمؤمنٍ -نسأل الله العافية-، فلا بدَّ أنْ يقبلَ، وينشرحَ صدرُه بذلك.

١٥٣٥- هَـذَا وَلَـيْسَ بِمُـؤْمِنٍ حَتَّـى يُسَلْـ ... ـلِمْ لِلَّـذِي يَقْضِـي بِـهِ الْوَحْيَـانِ

أيضًا لا يكفي أنْ ينشرحَ صدرُه، بل لا بُدَّ أنْ يُسَلِّمَ، ولْنَضْرِبْ لهذا أمثلةً:

المثال الأول: رجلٌ لم يتحاكمْ إلى الشَّرع، بل تحاكَمَ إلى القانون، ولم يرضَ بالشَّرع أصلًا، فهذا ليسَ بمؤمنٍ.

المثال الثاني: رجلٌ تحاكم إلى الشَّرع، وحَكَمَ الشَّرعُ عليه، فليس له بُدٌّ مِن تنفيذِه، لكن مع الشدة، والحرج والضيق والكراهة، هذا أيضًا ليس بمؤمنٍ، لكنَّه أهونُ مِن الأول.

المثال الثالث: رجلٌ تحاكم إلى الشَّرع، وانشرحَ صدره له، لكن صار يماطِلُ، ولم يسلِّمِ التَّسليمَ التَّامَّ، هذا أيضًا ليس بمؤمن، لكنَّه دون الثَّاني.

فلا بُدَّ مِن أمورٍ ثلاثةٍ: التَّحكيمُ، والرضى والانشراحُ، والتَّسليمُ التَّامُّ.

أيضًا رجلٌ آخرُ احتلم في ليلةٍ باردةٍ، وليس عنده ما يُسَخِّنُ به الماءَ، لكن يستطيعُ أنْ يستعملَ الماءَ الباردَ مع شَيْء مِن المَشَقَّة، فقال: ليس هناك داعٍ اليومَ للاغتسال، لأنَّ الجوَّ بردٌ، فهذا لا يكون حكَّم الشَّرع، إذَنْ ليس بمؤمن.

الثاني: احتلم في الليلةِ الباردة، واغتسل لكن على كراهةٍ، تجدُه يتكرَّه للدِّين، أو لهذا العملِ الواجبِ في الدين، هذا أيضًا ليس بمؤمنٍ، وإن كان نَفَّذَ واغتسل.

الثالث: رضي، وانقاد للاغتسال، لكن صار يماطِلُ، ويململ حتَّى خرج الوقت، هذا أيضًا ليس بمؤمنٍ، لِأَنَّهُ لم يُسَلِّم التَّسليمَ التامَّ.

ففَتِّشْ في نفسِك الآن هل أنت في جميع العبادات والمعاملات، تُحَكِّمُ الشريعةَ وينشرحُ صدرُك لها، وتُسَلِّمُ تسليمًا تامًّا؟ إن كان الأمر كذلك فأنت سعيدٌ مؤمنٌ، وإن كان هناك عراقيلُ فأصلح أحوالَك، فلستَ بمؤمنٍ.

فلا بدَّ أنْ يكونَ انقيادٌ تامٌّ، ورضى، وتسليمٌ.

وهناك مَنْ يصومُ رمضانَ ولا يتأخَّرُ، لكن مع ثقلٍ عظيمٍ وكراهة، وربَّما -نسألُ اللهَ العافيةَ- يعترِض، فهذا ليس بمؤمنٍ، بل لا بُدَّ أنْ يُسَلِّمَ، ويصومَ بانشراحٍ، وصيامٍ تامٍّ، حسب ما يُؤْمَرُ به، فيكون بذلك تامَّ الإيمان.

* * *

١٥٣٦- يَا قَوْمُ بِاللهِ الْعَظِيمِ نَشَدْتُكُمْ ... وَبِحُرْمَةِ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ

١٥٣٧- هَلْ حَدَّثَتْكُمْ قَطُّ أَنْفُسُكُمْ بِذَا؟ ... فَسَلُوا نُفُوسَكُمُ عَنِ الْإِيمَانِ

١٥٣٨- لَكِنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ وَجُنْدَهُ ... وَرَسُولَهُ الْمَبْعُوثَ بِالْقُرْآنِ

١٥٣٩- هُمْ يَشْهَدُونَ بِأَنَّكُمْ أَعْدَاءُ مَنْ ... ذَا شَأْنُهُ أَبَدًا بِكُلِّ زَمَانِ

١٥٤٠- وَلِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ أَحْمَدُ خَصْمَكُمْ ... أَعْنِي: ابْنَ حَنْبَلٍ الرِّضَا الشَّيْبَانِي؟

١٥٤١- وَلِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ بَعْدُ خُصُومَكُمْ ... أَهْلُ الْحَدِيثِ وَعَسْكَرُ الْقُرْآنِ؟

١٥٤٢- وَلِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ أَيْضًا خَصْمَكُمْ ... شَيْخُ الْوُجُودِ الْعَالِمُ الْحَرَّانِي؟

١٥٤٣- أعني: أَبَا الْعَبَّاسِ نَاصِرَ سُنَّةِ الْـ ... ـمُخْتَارِ قَامِعَ سُنَّةِ الشَّيْطَانِ

١٥٤٤- وَالله لَمْ يَكُ ذَنْبُهُ شَيْئًا سِوَى ... تَجْرِيدِهِ لِحَقِيقَةِ الْإِيمَانِ

١٥٤٥- إِذْ جَرَّدَ التَّوْحِيدَ عَنْ شِرْكٍ، كَذَا ... تَجْرِيدُهُ لِلْوَحْيِ عَنْ بُهْتَانِ

١٥٤٦- فَتَجَرَّدَ الْمَقْصُودُ عَنْ قَصْدٍ لَهُ ... فَلِذَاكَ لَمْ يُنْصِتْ إِلَى إِنْسَانِ

١٥٤٧- مَا مِنْهُمُ أَحَدٌ دَعَا لِمَقَالَةٍ ... غَيْرِ الْحَدِيثِ وَمُقْتَضَى الْفُرْقَانِ

١٥٤٨- فَالْقَوْمُ لَمْ يَدْعُوا إِلَى غَيْرِ الْهُدَى ... وَدَعَوْتُمُ أَنْتُمْ لِرَأْيِ فُلَانِ

١٥٤٩- شَتَّانَ بَيْنَ الدَّعْوَتَيْنِ فَحَسْبُكُمْ ... يَا قَوْمُ مَا بِكُمُ مِنَ الْخِذْلَانِ

١٥٥٠- قَالُوا لَنَا لَـمَّا دَعَوْنَاهُمْ إِلَى ... هَذَا مَقَالَةُ ذِي هَوًى مَلْآنِ

١٥٥١- ذَهَبَتْ مَقَادِيرُ الشُّيُوخِ وَحُرْمَةُ الْـ ... ـعُلَمَاءِ بَلْ عَبَرَتْهُمُ الْعَيْنَانِ

١٥٥٢- وَتَرَكْتُمُ أَقْوَالَهُمْ هَدَرًا وَمَا ... أَصْغَتْ إِلَيْهَا مِنْكُمْ أُذُنَانِ

١٥٥٣- لَكِنْ حَفِظْنَا نَحْنُ حُرْمَتَهُمْ وَلَمْ ... نَعْدُ الَّذِي قَالُوهُ قَدْرَ بَنَانِ

١٥٥٤- يَا قَوْمُ وَالله الْعَظِيمِ كَذَبْتُمُ ... وَأَتَيْتُمُ بِالزُّورِ وَالْبُهْتَانِ

١٥٥٥- وَنَسَبْتُمُ الْعُلَمَاءَ لِلْأَمْرِ الَّذِي ... هُمْ مِنْهُ أَهْلُ بَرَاءَةٍ وَأَمَانِ

١٥٥٦- وَالله مَا أَوْصَوْكُمُ أَنْ تَتْرُكُوا ... قَوْلَ الرَّسُولِ لِقَوْلِهِمْ بِلِسَانِ

١٥٥٧- كَلَّا وَلَا فِي كُتْبِهِمْ هَذَا، بَلَى ... بِالْعَكْسِ أَوْصَوْكُمْ بِلَا كِتْمَانِ

١٥٥٨- إِذْ قَدْ أَحَاطَ الْعِلْمُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمَعْصُومِينَ بِالْبُرْهَانِ
١٥٥٩- كَلَّا وَمَا مِنْهُمْ أَحَاطَ بِكُلِّ مَا قَدْ قَالَهُ الْمَبْعُوثُ بِالْقُرْآنِ
١٥٦٠- فَلِذَاكَ أَوْصَوْكُمْ بِأَنْ لَا تَجْعَلُوا أَقْوَالَهُمْ كَالنَّصِ فِي الْمِيزَانِ
١٥٦١- لَكِنْ زِنُوهَا بِالنُّصُوصِ فَإِنْ تُوَا فِقْهَا فَتِلْكَ صَحِيحَةُ الْأَوْزَانِ
١٥٦٢- لَكِنَّكُمْ قَدَّمْتُمُ أَقْوَالَهُمْ أَبَدًا عَلَى النَّصِّ الْعَظِيمِ الشَّانِ
١٥٦٣- وَاللهِ لَا لِوَصِيَّةِ الْعُلَمَاءِ نَفَـ ـفَذْتُمْ وَلَا لِوَصِيَّةِ الرَّحْمَنِ
١٥٦٤- وَرَكِبْتُمُ الْجَهْلَيْنِ ثُمَّ تَرَكْتُمُ النَّـ ـنَصَّيْنِ مَعْ ظُلْمٍ وَمَعْ عُدْوَانِ

الشرحُ

يقول -رَحِمَهُ اللهُ-:

١٥٣٦- يَا قَوْمُ بِاللهِ الْعَظِيمِ نَشَدْتُكُمْ وَبِحُرْمَةِ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «نَشَدْتُكُمْ» المناشدةُ: الطَّلبُ بإلحاح؛ أي: أنا أُناشدُكم بالله، وبحُرْمة الإيمان، والقرآن.

١٥٣٧- هَلْ حَدَّثَتْكُمْ قَطُّ أَنْفُسُكُمْ بِذَا؟ فَسَلُوا نُفُوسَكُمُ عَنِ الْإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «هَلْ حَدَّثَتْكُمْ قَطُّ أَنْفُسُكُمْ بِذَا» يَعْنِي: بأن ترجعوا إلى الكتاب والسُّنَّةِ، وتحكِّموا كتابَ الله وسُنَّةَ رسولِه.

الذي يبدو من أفعالِهم أنهم لم تُحدِّثْهم أنفسُهم يومًا من الدهر أنْ يرجعوا إلى الكتاب والسُّنَّة، ولهذا إذا رجعتَ إلى كلام المتكلِّمين في العقائِد لا تجدُ فيها

(قَالَ اللهُ)، ولا (قَالَ رسولُ الله)، كُلُّها تعليلاتٌ، ونظرياتٌ، وعقليَّاتٌ تخالفُ البدهيَّات، فضلًا عن العقول.

ولهذا يقول:

١٥٣٨- لَكِـنَّ رَبَّ الْعَالَـمِينَ وَجُنْـدَهُ ... وَرَسُـولَهُ الْـمَبْعُوثَ بِـالْقُرْآنِ

١٥٣٩- هُمْ يَشْـهَدُونَ بِـأَنَّكُمْ أَعْـدَاءُ مَـنْ ... ذَا شَـأْنُهُ أَبَـدًا بِكُـلِّ زَمَـانِ

أمَّا كونُ الله عزَّ وجلَّ يشهدُ بأنَّ هؤلاءِ أعداءٌ لكُلِّ مَنْ يرجعُ إلى الكتاب والسُّنَّةِ فظاهرٌ، وكذلك جندُ الله تشهدُ بأنَّ هؤلاءِ أعداءٌ لكُلِّ مَنْ يُحَكِّمُ الكتابَ والسُّنَّةَ، لأنَّ هؤلاءِ المتكلِّمين أعداءٌ للسَّلف، والسَّلفُ يُحكِّمون الكتابَ والسُّنَّةَ.

لكنَّ رسولَ الله كيف يشهدُ وهو ميِّتٌ؟

نقولُ: يشهدُ بما جاءت به سُنَّته، فكُلُّ إنسانٍ لا يُحَكِّمُ الكتابَ والسُّنَّةَ فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَعْلَمُ أنه عدوٌّ لمن يُحَكِّمُ الكتابَ والسُّنَّة.

١٥٤٠- وَلِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ أَحْمَدُ خَصْـمَكُمْ ... أَعْنِي: ابْنَ حَنْبَلٍ الرِّضَا الشَّيْبَانِي؟

قَوْلُهُ: «كَانَ أَحْمَدُ خَصْمَكُمْ» هل كان خصمَهم؟ الجَوَابُ: نعم، كان خصمَهم، وَشَوْا به إلى المأمونُ، وآذاه المأمون وحبسه، وناظروا أحمدَ -رَحِمَهُ اللهُ-، وكتب في الرَّدِّ عليهم رسائِلَ، فكان خصمًا لهم.

١٥٤١- وَلِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ بَعْـدُ خُصُـومَكُمْ ... أَهْلُ الْـحَدِيثِ وَعَسْكَرُ الْقُـرْآنِ؟

كُلُّ مَنْ قال: (قَالَ اللهُ ورسولُه) فهو عدوٌّ لهؤلاء المتكلِّمين الذين يُثبتون العقائِدَ بالعقول التي يدَّعون أنها عقولٌ، وليست عقولًا.

١٥٤٢- وَلِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ أَيْضًا خَصْمَكُمْ ... شَيْخُ الْوُجُودِ الْعَالِمُ الْحَرَّانِي؟

١٥٤٣- أَعْنِي: أَبَا الْعَبَّاسِ نَاصِرَ سُنَّةِ الْـ ... ـمُخْتَارِ قَامِعَ سُنَّةِ الشَّيْطَانِ

قَوْلُهُ: «أَعْنِي أَبَا الْعَبَّاسِ» أي: ابنَ تيمية -رَحِمَهُ اللهُ-.

١٥٤٤- وَاللهِ لَمْ يَكُ ذَنْبُهُ شَيْئًا سِوَى ... تَجْرِيدِهِ لِحَقِيقَةِ الْإِيمَانِ

وهل هذا ذنبٌ؟! قَالَ الله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [البروج:٨]، فشيخُ الإسلامِ -رَحِمَهُ اللهُ- لا ذنبَ له، وهم يعادونه، حتَّى إنهم قالوا: (مَنْ قال: إنَّ ابنَ تيمية شيخُ الإسلام فهو كافرٌ مباحُ المال والدَّم)، وأعوذ بالله، إلى هذا الحدِّ، يَعْنِي: الذي يصفُ ابنَ تيميةَ بشيخ الإسلام كافرٌ مرتدٌّ، وشيخُ الإسلام يصيرُ أكفرَ، فإذا كان مَنْ يصفُه بشيخ الإسلام كافرًا عندهم، فابنُ تيميةَ عِنْدَهم أكفرُ.

١٥٤٥- إِذْ جَرَّدَ التَّوْحِيدَ عَنْ شِرْكٍ، كَذَا ... تَجْرِيدُهُ لِلْوَحْيِ عَنْ بُهْتَانِ

قَوْلُهُ: «إِذْ جَرَّدَ التَّوْحِيدَ عَنْ شِرْكٍ» فكتبُه كثيرةٌ جدًّا، وكلُّها مملوءةٌ بذلك في تقرير توحيد الألوهيَّة، والربوبيَّة، والأسماء والصفات،

وكذلك تجريده للوحي عن بهتان، و(البُهْتان) في الوحي، أمَّا بالنسبة للفظ فهذا لا يمكنُ، إذ لا يمكنُ لأحدٍ أنْ يُغَيِّرَ شيئًا من القرآن (لفظًا)، وأما معنىً فما أكثرَ الذين حَرَّفوا القرآن بالمعنى! وشيخُ الإسلام -رَحِمَهُ اللهُ- جَرَّد الوحيَ عن البهتانِ، والمُرَادُ بالبهتان هنا بهتانُ المعنى، لِأَنَّهُ لا يجرؤُ أحدٌ على أنْ يُغَيِّرَ لفظةً من كتابِ الله أبدًا.

١٥٤٦- فَتَجَرَّدَ الْـمَقْصُودُ عَـنْ قَصْـدٍ لَـهُ فَلِـذَاكَ لَـمْ يُنْصِـتْ إِلَى إِنْسَـانِ

قَوْلُهُ: «فَتَجَرَّدَ الْـمَقْصُودُ عَنْ قَصْدٍ لَهُ» (المقصود) هو توحيدُ الله وكذلك توحيدُ الرسول -عليه الصلاة والسلام-، أمَّا توحيدُ الله فهو بالإخلاص له، وأمَّا توحيدُ الرسول ﷺ فهو متابعتُه، وعدمُ اتِّباع هدي غيرِه.

قَوْلُهُ: «لَـمْ يُنْصِتْ»، وفي نسخة: (لَـمْ يُنْصِفْ)، وفي ثالثة: (لَـمْ يَنْضَفْ).

فأما على نسخة: «فَلِذَاكَ لَـمْ يُنْصِتْ إِلَى إِنْسَانِ» هذه النسخةُ هي أصحُّ النُّسخِ، وأقربُها للصواب وللمعنى، يَعْنِي: أنَّ شيخَ الإسلامِ -رَحِمَهُ اللهُ- ما أنصتَ إلى أحدٍ، ولم يمنعْه أحدٌ من نشر ما هو عليه من الحقِّ، ولم يَتْبَعْ أحدًا فيقلده تقليدَ الأعمى أبدًا.

وعلى نسخة (لَـمْ يُنْصِفْ إِلَى إِنْسَانِ) والإنصاف يأتي بمعنى الخشوع، يَعْنِي: لم يخشعْ ولم يخضعْ لإنسانٍ، وهذا أيضًا معنى صحيح.

وعلى نسخة (لم يَنْضَف) ولا أدري هل هذه النقطة زائِدة أو غير زائِدة؟ لكن إن كانت صحيحةً فهو من الإضافة، (لم ينضف إلى إنسان) يَعْنِي: لم يَتْبَعْ إنسانًا، كما تقول: (انضافَ هذا الشيءُ إلى هذا الشيء).

١٥٤٧- مَـا مِـنْهُمْ أَحَـدٌ دَعَـا لِـمَقَالَةٍ غَيْرِ الْـحَدِيثِ وَمُقْتَضَى الْفُرْقَـانِ

قَوْلُهُ: «مِنْهُمْ» يَعْنِي: ابن حنبل، وأهل الحديث، وابن تيمية، رحمهم الله جميعًا.

١٥٤٨- فَالْقَوْمُ لَـمْ يَدْعُوا إِلَى غَيْرِ الْـهُدَى وَدَعَـوْتُمُ أَنْـتُمْ لِـرَأْيِ فُـلَانِ

١٥٤٩- شَـتَّانَ بَـيْنَ الـدَّعْوَتَيْنِ فَحَسْـبُكُمْ يَـا قَـوْمُ مَـا بِكُـمُ مِـنَ الْـخِذْلَانِ

قَوْلُهُ: «شَتَّانَ» بمعنى بَعُدَ، وصحيحٌ أنَّ ما بين الدعوتين متباعدٌ، ولهذا قال:

(فَحَسْبُكُمْ يَا قَوْمُ مَا بِكُمُ مِنَ الْـخُذْلَانِ).

١٥٥٠- قَـالُوا لَنَـا لَـمَّا دَعَوْنَـاهُمْ إِلَى هَـذَا مَقَالَـةَ ذِي هَـوًى مَـلْآنِ

لـمَّا دَعَوْنَاهم إلى الكتاب والسُّنَّةِ قالوا لنا مَقَالَةَ صاحبِ (هوًى مَلْآنِ) أي: ملآن مِن الهوى.

١٥٥١- ذَهَبَتْ مَقَادِيرُ الشُّيُوخِ وَحُرْمَةُ الْـ ـعُلَمَاءِ بَـلْ عَـبَرَتْهُمُ الْعَيْنَـانِ

يعني: قالوا لنا: أنتم تَدْعُون إلى الكتابِ والسُّنَّة، وهذا استهانةٌ بالعلماء، ما للعلماءِ عندكم قدرٌ ولا حرمُة، كيف تَقُولُونَ: اذهبوا إلى الكتاب والسُّنَّة، والشيخُ الفلانِيُّ يقول: كذا وكذا، ما له حرمة عندكم؟!

فنقولُ: حرمةُ الكتاب والسُّنَّةِ عندنا أعظمُ من حرمة هذا وأمثالِه وكُلِّ إنسانٍ، هذا جوابُنا.

١٥٥٢- وَتَـرَكْتُمُ أَقْوَالَـهُمْ هَـدَرًا وَمَـا أَصْـغَتْ إِلَيْهَـا مِـنْكُمْ أُذُنَـانِ

قَوْلُهُ: «وَتَرَكْتُمُ أَقْوَالَـهُمْ هَدَرًا...» قائل هذا هم هؤلاء المتكلِّمون الذين يرجعون إلى أقوالِ الشيوخ.

يقولون لنا: تركتم أقوالَهم هدرًا، وما أصغتْ إليها منكم أذنان، نَقُولُ: أبدًا، ما تركناها هدرًا، بل ننظرُ إليها، فَإِنْ وافقت الكتابَ والسُّنَّةَ فهي حَقٌّ وقبِلْنَاها، وإِنْ خَالَفَتْ فهي باطِلٌ، ولا نقبلُها.

١٥٥٣- لَكِنْ حَفِظْنَا نَحْنُ حُـرْمَتَهُمْ وَلَـمْ نَعْـدُ الَّـذِي قَـالُوهُ قَـدْرَ بَنَـانِ

يعني: نحنُ الذين عرفنا حَقَّ الشيوخ، وحُرْمَتهم، ما نتعدَّى أقوالَهم ولو خالفتِ الكتابَ والسُّنَّة.

قَالَ ابنُ القَيِّمِ ردًّا عليهم:

١٥٥٤- يَـا قَـوْمُ وَاللهِ الْعَظِـيمِ كَـذَبْتُمُ ... وَأَتَيْـتُمُ بِـالزُّورِ وَالْبُهْتَـانِ

١٥٥٥- وَنَسَـبْتُمُ الْعُلَـمَاءَ لِلْأَمْـرِ الَّـذِي ... هُـمْ مِنْـهُ أَهْـلُ بَـرَاءَةٍ وَأَمَـانِ

ابنُ القَيِّمِ يُكَذِّبُ هؤلاء، يَقُولُ: أنتم ما احترمتم العلماءَ، ولا رجعتم إلى أقوالهم.

١٥٥٦- وَاللهِ مَـا أَوْصَـوْكُمُ أَنْ تَتْرُكُـوا ... قَـوْلَ الرَّسُـولِ لِقَوْلِـهِمْ بِلِسَـانِ

وهذا صحيحٌ، ولن تجدَ من الأئمة مَنْ قال: (اتبعوني، ولا تتبعوا الكتابَ والسُّنَّةَ؟) أبدًا، فما أحدٌ منهم يقولُ بهذا.

١٥٥٧- كَـلَّا وَلَا فِي كُتْـبِهِمْ هَـذَا، بَـلَى ... بِـالْعَكْسِ أَوْصَـوْكُمْ بِـلَا كِـتْمَانِ

ما الذي أَوْصَى به الأئمةُ؟ أوصوا جميعًا أنه إذا كانت أقوالُهم تخالفُ أقوالَ الله ورسولِه فاضربوا بها عرْضَ الحائِط، فكُلُّهم متفقون على هذا المعنى، جزاهم الله خيرًا.

١٥٥٨- إِذْ قَـدْ أَحَـاطَ الْعِلْـمُ مِـنْهُمْ أَنَّهُـمْ ... لَيْسُـوا بِمَعْصُـومِينَ بِالْبُرْهَـانِ

فإذا كانوا غيرَ معصومين رجعنا إلى المعصومِ: كتابُ الله وسُنَّةُ رسولِه -صلى الله عليه وسلم-.

١٥٥٩- كَـلَّا وَمَـا مِـنْهُمْ أَحَـاطَ بِكُـلِّ مَـا ... قَـدْ قَالَـهُ الْـمَبْعُوثُ بِـالْقُرْآنِ

وهذا صحيحٌ، فليس كُلُّ واحدٍ من العلماء أحاط بكُلِّ حديثٍ قاله الرسولُ أو فعله أو أقرَّه.

١٥٦٠- فَلِذَاكَ أَوْصَوْكُمْ بِأَنْ لَا تَجْعَلُوا أَقْوَالَهُمْ كَالنَّصِ فِي الْمِيزَانِ

١٥٦١- لَكِنْ زِنُوهَا بِالنُّصُوصِ فَإِنْ تُوَا فِقْهَا فَتِلْكَ صَحِيحَةُ الْأَوْزَانِ

١٥٦٢- لَكِنَّكُمْ قَدَّمْتُمُ أَقْوَالَهُمْ أَبَدًا عَلَى النَّصِّ الْعَظِيمِ الشَّانِ

١٥٦٣- وَاللهِ لَا لِوَصِيَّةِ الْعُلَمَاءِ نَفْـ ـفَذْتُمُ وَلَا لِوَصِيَّةِ الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «وَاللهِ لَا لِوَصِيَّةِ الْعُلَمَاءِ نَفَّذْتُمْ» ووصيتهم هي الرجوعُ إلى الكتابِ والسُّنَّة.

قَوْلُهُ: «وَلَا لِوَصِيَّةِ الرَّحْمَنِ» وصيةُ الرحمن هي قولُه تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩].

١٥٦٤- وَرَكِبْتُمُ الْجَهْلَيْنِ ثُمَّ تَرَكْتُمُ النْـ ـنَصَّيْنِ مَعْ ظُلْمٍ وَمَعْ عُدْوَانِ

قَوْلُهُ: «وَرَكِبْتُمُ الْجَهْلَيْنِ» الجَهْلَيْنِ يَعْنِي: الجهلَ البسيطَ، والجهلَ المُرَكَّب.

قَوْلُهُ: «تَرَكْتُمُ النَّصَّيْنِ» النصَّانِ هما الكتابُ والسُّنَّة.

قَوْلُهُ: «مَعْ ظُلْمٍ وَمَعْ عُدْوَانِ» يَعْنِي: ليْتكُم تركتُم هذا وسَكَتُّم، لكن تعتَدون على مَنْ خالَفكم، وتَقُولُونَ: أنتَ امتهنتَ العلماءَ، أنتَ احتقرتَ العلماء، أنتَ ضَلَلْتَ، وما أشبه ذلك.

* * *

١٥٦٥- قُلْنَا لَكُمْ: فتَعَلَّمُوا، قُلْتُم: أَمَا نَحْنُ الْأَئِمَّةُ فَاضِلُو الْأَزْمَانِ

١٥٦٦- مِنْ أَيْنَ وَالْعُلَمَاءُ أَنْتُمْ فَاسْتَحُوا أَيْنَ النُّجُومُ مِنَ الثَّرَى التَّحْتَانِي؟!

١٥٦٧- لَـــمْ يُشْــبِهِ الْعُلَـمَاءَ إِلَّا أَنْــتُمُ	أَشْـــبَهْتُمُ الْعُلَـمَاءَ فِي الْأَذْقَـــانِ
١٥٦٨- وَاللهِ لَا عِلْـــمٌ وَلَا دِيـــنٌ وَلَا	عَقْـــلٌ وَلَا بِمُـــرُوءَةِ الْإِنْسَـــانِ
١٥٦٩- عَـامَلْتُمُ الْعُلَـمَاءَ حِـينَ دَعَـوْكُمُ	لِلْحَـقِّ بَـلْ بِـالْبَغْيِ وَالْعُـدْوَانِ
١٥٧٠- إِنْ أَنْــتُمُ إِلَّا الــذُّبَابُ إِذَا رَأَى	طُعْـمًا فَيَـا لَمَسَـاقِطِ الـذُّبَّانِ
١٥٧١- وَإِذَا رَأَى فَزَعًـا تَطَـايَرَ قَلْبُـهُ	مِثْـلَ الْبُغَـاثِ يُسَـاقُ بِالْعِقْبَـانِ
١٥٧٢- وَإِذَا دَعَوْنَـاكُمْ إِلَى الْبُرْهَـانِ كَـا	نَ جَـوَابُكُمْ جَهْـلًا بِـلَا بُرْهَـانِ
١٥٧٣- نَحْـنُ الْــمُقَلِّدَةُ الْأُلَى أَلْفَـوْا كَـذَا	آبَـاءَهُمْ فِي سَـالِفِ الْأَزْمَـانِ
١٥٧٤- قُلْنَا: فَكَيْـفَ تَكَفِّـرُونَ وَمَـا لَكُـمْ	عِلْـمٌ بِتَكْفِـيرٍ وَلَا إِيـمَانٍ؟!
١٥٧٥- إِذْ أَجْمَـعَ الْعُلَـمَاءُ أَنَّ مُقَلِّـدًا	لِلنَّـاسِ كَـالْأَعْمَى هُمَـا أَخَـوَانِ
١٥٧٦- وَالْعِلْـمُ مَعْرِفَـةُ الْـهُدَى بِدَلِيلِـهِ	مَـا ذَاكَ وَالتَّقْلِيـدُ مُسْـتَوِيَانِ
١٥٧٧- حِرْنَـا بِكُـمْ وَاللهِ لَا أَنْـتُمْ مَـعَ الْـ	ـعُلَمَاءِ تَنْقَـادُونَ لِلْبُرْهَـانِ
١٥٧٨- كَـلَّا وَلَا مُتَعَلِّمُـونَ فَمَـنْ تُـرَى	تُـدْعَونَ؟ نَحْسَـبُكُمْ مِـنَ الثِّـيرَانِ
١٥٧٩- لَكِنَّهَـا وَاللهِ أَنْفَـعُ مِـنْكُمُ	لِـلْأَرْضِ فِي حَـرْثٍ وَفِي دَوَرَانِ
١٥٨٠- نَالَـتْ بِهِمْ خَيْرًا وَنَالَـتْ مِـنْكُمُ الْـ	ـمَعْهُودَ مِـنْ بَغْـيٍ وَمِـنْ عُـدْوَانِ
١٥٨١- فَمَنِ الَّـذِي خَـيْرٌ وَأَنْفَـعُ لِلْـوَرَى	أَنْـتُمْ أَمِ الثِّـيرَانُ بِالْبُرْهَـانِ؟

الشـرحُ

يقولُ -رَحِمَهُ اللهُ-:

١٥٦٥- قُلْنَا لَكُمْ: فَتَعَلَّمُوا، قُلْتُم: أَمَا نَحْنُ الْأَئِمَّةُ فَاضِلُو الْأَزْمَانِ

يعني: دعوناهم للعلْمِ، ولكنَّهم استكبروا، وقالوا: إننا نحن الأئمةُ فضلًا عن العلماء.

١٥٦٦- مِنْ أَيْنَ وَالْعُلَمَاءُ أَنْتُمْ فَاسْتَحُوا أَيْنَ النُّجُومُ مِنَ الثَّرَى التَّحْتَانِي؟!

قَالَ ابن القيم: «مِنْ أَيْنَ وَالْعُلَمَاءُ أَنْتُمْ؟» يَعْنِي: أين أنتم من العلماء؟! فكيف تَدَّعون أنكم أئمةٌ؟

قَوْلُهُ: «أَيْنَ النُّجُومُ مِنَ الثَّرَى التَّحْتَانِي؟!» والنجومُ من الثرى التحتاني بعيدٌ بعضُها من بعض.

١٥٦٧- لَمْ يُشْبِهِ الْعُلَمَاءَ إِلَّا أَنْتُمُ أَشْبَهْتُمُ الْعُلَمَاءَ فِي الْأَذْقَانِ

يعني: أنتم تُشبهون العلماءَ في اللحى فقط، لحيةٌ وهيكلُ عالمٍ، ولكن لستم علماءَ، ولا شكَّ أنَّ هذا من باب التَّهكُّم بهم.

١٥٦٨- وَالله لَا عِلْمٌ وَلَا دِينٌ وَلَا عَقْلٌ وَلَا بِمُرُوءَةِ الْإِنْسَانِ

انتفت عنهم كُلُّ هذه الأربعة: العلمُ، والدينُ، والعَقْلُ، والمروءةُ.

١٥٦٩- عَامَلْتُمُ الْعُلَمَاءَ حِينَ دَعَوْكُمُ لِلْحَقِّ بَلْ بِالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ

قَوْلُهُ: «عَامَلْتُمُ الْعُلَمَاءَ حِينَ دَعَوْكُمْ لِلْحَقِّ» هل عاملتموهم بالحسنى؟ الجَوَابُ: لا، ولهذا قال: «بَلْ بِالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ».

١٥٧٠- إِنْ أَنْــتُمُ إِلَّا الــذُّبَابُ إِذَا رَأَى طُعْــمًا فَيَــا لَمِسَــاقِطِ الــذُّبَّانِ

يعني: أنتم مثلُ الذُّبَّان، إذا رأى طعمًا: حلاوةً، أو لحمًا وجدتَه يتساقطُ، ولكن إذا نفختَ عليه نفخةً واحدةً يطيرُ، أو حَرَّكْتَ أدنى شَيْءٍ من الخُوصِ هَرَب، ولهذا قال:

١٥٧١- وَإِذَا رَأَى فَزَعًــا تَطَــايَرَ قَلْبُــهُ مِثْــلَ الْبُغَــاثِ يُسَــاقُ بِالْعِقْبَــانِ

قَوْلُهُ: «الْبُغَاثِ» طائِرٌ معروفٌ لكنَّه جبانٌ.

قَوْلُهُ: «الْعُقْبَانِ» بالكسر، وهي جمع (عُقَاب) والعُقَابُ طائِرٌ معروفٌ.

فالبُغَاث إذا رأى العُقابَ طار قلبُه، وهرب، ثُمَّ يأتي العُقابُ وراءه، يضربُه ضربةً بمنقارِه وإذا هو بالأرض، فيُشَبِّههم أيضًا بأنهم مثل البُغَاث يسوقه العُقَابُ.

١٥٧٢- وَإِذَا دَعَوْنَــاكُمْ إِلَى الْبُرْهَــانِ كَــا نَ جَــوَابُكُمْ جَهْــلًا بِــلَا بُرْهَــانِ

١٥٧٣- نَحْــنُ الْــمُقَلِّدَةُ الْأُلَى أَلْفَــوْا كَــذَا آبَــاءَهُمْ فِي سَــالِفِ الْأَزْمَــانِ

يعني: نحن مقلِّدةٌ، نُقَلِّدُ فلانًا وفلانًا كما قَالَ الله تعالى: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣].

١٥٧٤- قُلْنَا: فَكَيْــفَ تُكَفِّــرُونَ وَمَــا لَكُــمْ عِلْــمٌ بِتَكْفِــيرٍ وَلَا إِيــمَانِ؟!

يعني: ما دُمْتُم مُقَلِّدَةً، فليس عندكم علمٌ، كيف تكفِّروننا وأنتم لا تعرفون التكفيرَ ولا الإيمانَ؟! هذا عدوانٌ وليس حقًّا، ولهذا قال: (فَكَيْفَ تُكَفِّرُونَ وَمَا لَكُمْ عِلْمٌ بِتَكْفِيرٍ وَلَا إِيمَانٍ)؟!.

١٥٧٥- إِذْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ مُقَلِّدًا   لِلنَّاسِ كَالأَعْمَى هُمَا أَخَوَانِ

قَوْلُهُ: «إِذْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ» هذا تعليلٌ لقَوْلِه: «**وَمَا لَكُمْ عِلْمٌ بِتكْفِيرٍ وَلَا إِيمَانٍ**».

يقول: إنَّ العلماءَ أجمعوا بأنَّ المقلِّدَ كالأعمى، لا يهتدي للطريق، وإنما يُقَادُ، فهما أَخَوَانِ.

يقول بعض الشعراء[1]:

لَا فَرْقَ بَيْنَ مُقَلِّدٍ وَبَهِيمَةٍ   تَنْقَادُ بَيْنَ جَنَادِلٍ وَدَعَاثِرِ

لا فرقَ بين المقلِّد والبهيمة، فالبهيمةُ إذا وضعتَ الرَّسَنَ فيها، وجررتها مع الدعاثر[2] والجنادل، تقطع رجليها وهي لا تدري، فالمقلِّدُ كذلك.

وقد أجمع العلماءُ على أنَّ المُقَلِّدَ لا يُعَدُّ من العلماء، ذكر هذا ابنُ عبد البرِّ وغيرُه[3]، قال: «**أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْـمُقَلِّدَ لَيْسَ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَفْتَى، لِأَنَّهُ لَيْسَ مِن أَهْلِ العِلْمِ**»، **وقد قَالَ الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾** [النحل:٤٣] لكنْ عند الضرورةِ إذا لم يوجد عالـمٌ مجتهدٌ يأخذُ من الكتابِ والسُّنَّةِ فنسألُ المقلِّدَ.

ثُمَّ بَيَّنَ العلمَ الحقيقيَّ فقال:

١٥٧٦- وَالْعِلْمُ مَعْرِفَةُ الْـهُدَى بِدَلِيلِهِ   مَا ذَاكَ وَالتَّقْلِيدُ مُسْتَوِيَانِ

---

(١) البيت لأبي عمر بن عبد البر، في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٥).

(٢) الدعاثر، والدعاثير: جمع (الدُّعْثُور)، بالضَّمّ، وهو حَوْضٌ لم يُتَنَوَّق في صَنْعَتِه، ولم يُوَسَّع، أو هو المُتَهَدِّم المُتَثَلِّم، انظر: تاج العروس من جواهر القاموس (١١/ ٢٩٧).

(٣) انظر: جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٢٣٣).

قَوْلُهُ: «وَالْعِلْمُ مَعْرِفَةُ الْـهَدَى بِدَلِيلِهِ» هذا العلمُ، أنْ تعرفَ الهدى -يَعْنِي: الحقَّ- بالدليل، وإلَّا فلستَ بعالـمٍ.

١٥٧٧- حِرْنَـا بِكُـمْ وَالله لَا أَنْـتُمْ مَـعَ الْـ ـــعُلَمَاءِ تَنْقَــادُونَ لِلْبُرْهَــانِ

قَوْلُهُ: «حِرْنَا بِكُمْ» يَعْنِي: أنتم حيرَّتمونا، ما ندري ما أنتم؟!

قَوْلُهُ: «وَالله لَا أَنْتُمْ مَعَ الْعُلَمَاءِ تَنْقَادُونَ لِلْبُرْهَانِ»، لأنَّ العالمَ حقيقةً هو الذي ينقادُ إلى الحقِّ أين وَجَدَه.

١٥٧٨- كَــلَّا وَلَا مُتَعَلِّمُــونَ فَمَــنْ تُــرَى تُــدْعَونَ؟ نَحْسَــبُكُمْ مِــنَ الثِّــيرَانِ

قَوْلُهُ: «كَلَّا وَلَا مُتَعَلِّمُونَ» أي: لا علماء ولا متعلِّمون.

قَوْلُهُ: «فَمَا تَرَى تُدْعَونَ» يَعْنِي: ماذا نسمِّيكم؟

قَالَ: «نَحْسَبُكُمْ مِنَ الثِّيرَانِ» وهذا أحسنُ وصفٍ لكم، أنْ نقولَ: أنتم ثيرانٌ.

ثُمَّ قال:

١٥٧٩- لَكِنَّهَــا وَالله أَنْفَــعُ مِــنْكُمُ لِــلْأَرْضِ فِي حَــرْثٍ وَفِي دَوَرَانِ

قَوْلُهُ: «لَكِنَّهَا» يَعْنِي: الثيران.

قَوْلُهُ: «دَوَرَانِ» الدوران: كانوا يدْرُسُون الحَبَّ بالبقر، يضعون خشبةً قائِمةً في وسط السُّنبُل، ثُمَّ يربطون بها البقرَ، ثُمَّ يسوقون البقرَ فتدور على هذه الخشبةِ، فتَدْرُسُ السُّنبُلَ حتَّى يكون حبًّا، فيقول: هي أحسنُ منكم في الحرث وفي الدوران.

١٥٨٠- نَالَتْ بِهِمْ خَيْرًا وَنَالَتْ مِنْكُمُ الْـ ـمَعْهُودَ مِنْ بَغْيٍ وَمِنْ عُدْوَانِ

قَوْلُهُ: «نَالَتْ بِهِمْ خَيْرًا» يَعْنِي: الأرض.

١٥٨١- فَمَنِ الَّذِي خَيْرٌ وَأَنْفَعُ لِلْوَرَى أَنْتُمْ أَمِ الثِّيرَانُ بِالْبُرْهَانِ؟

قَوْلُهُ: «فَمَنِ الَّذِي خَيْرٌ وَأَنْفَعُ لِلْوَرَى؟» الجَوَابُ: الثِّيرانُ.

* * *

فصل

١٥٨٢- هَـذَا وَثَـامِنَ عَشْـرَهَا: تَنْزِيهُـهُ ... سُبْحَانَهُ عَنْ مُوجِبِ النُّقْصَانِ

١٥٨٣- وَعَنِ الْعُيُوبِ وَمُوجِبِ التَّمْثِيلِ وَالتْـ ... ـتَشْبِيهِ، جَلَّ اللهُ ذُو السُّلْطَانِ!

١٥٨٤- وَلِذَاكَ نَزَّهَ نَفْسَهُ سُبْحَانَهُ ... عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ ثَانِي

١٥٨٥- أَوْ أَنْ يَكُونَ لَهُ ظَهِيرٌ فِي الْوَرَى ... سُبْحَانَهُ عَنْ إِفْكِ ذِي بُهْتَانِ!

١٥٨٦- أَوْ أَنْ يُوَالِيَ خَلْقَهُ سُبْحَانَهُ ... مِنْ حَاجَةٍ أَوْ ذِلَّةٍ وَهَوَانِ

١٥٨٧- أَوْ أَنْ يَكُونَ لَدَيْهِ أَصْلًا شَافِعٌ ... إِلَّا بِإِذْنِ الْوَاحِدِ الْمَنَّانِ

١٥٨٨- وَكَذَاكَ نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ وَالِدٍ ... وَكَذَاكَ عَنْ وَلَدٍ هُمَا نَسَبَانِ

١٥٨٩- وَكَذَاكَ نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ زَوْجَةٍ ... وَكَذَاكَ عَنْ كُفْءٍ يَكُونُ مُدَانِي

١٥٩٠- وَلَقَدْ أَتَى التَّنْزِيهُ عَمَّا لَمْ يَقُمْ ... كَيْ لَا يَدُورَ بِخَاطِرِ الْإِنْسَانِ

١٥٩١- فَانْظُرْ إِلَى التَّنْزِيهِ عَنْ طُعْمٍ وَلَمْ ... يَنْسُبْ إِلَيْهِ قَطُّ مِنْ إِنْسَانِ

١٥٩٢- وَكَذَلِكَ التَّنْزِيهُ عَنْ مَوْتٍ وَعَنْ ... نَوْمٍ وَعَنْ سِنَةٍ وَعَنْ غَشَيَانِ

١٥٩٣- وَكَذَلِكَ التَّنْزِيهُ عَنْ نِسْيَانِهِ ... وَالرَّبُّ لَمْ يُنْسَبْ إِلَى نِسْيَانِ

١٥٩٤- وَكَذَلِكَ التَّنْزِيهُ عَنْ ظُلْمٍ وَفِي الْـ ... أَفْعَالِ عَنْ عَبَثٍ وَعَنْ بُطْلَانِ

١٥٩٥- وَكَذَلِكَ التَّنْزِيهُ عَنْ تَعَبٍ وَعَنْ ... عَجْزٍ يُنَافِي قُدْرَةَ الرَّحْمَنِ

١٥٩٦- وَلَقَدْ حَكَى الرَّحْمَنُ قَوْلًا قَالَهُ فِنْحَاصُ ذُو الْبُهْتَانِ وَالْكُفْرَانِ
١٥٩٧- إِنَّ الْإِلَهَ هُوَ الْفَقِيرُ وَنَحْنُ أَصْـ ـحَابُ الْغِنَى ذُو الْوَجْدِ وَالْإِمْكَانِ
١٥٩٨- وَكَذَاكَ أَضْحَى رَبُّنَا مُسْتَقْرِضًا أَمْوَالَنَا، سُبْحَانَ ذِي الْإِحْسَانِ!
١٥٩٩- وَحَكَى مَقَالَةَ قَائِلٍ مِنْ قَوْمِهِ أَنَّ الْعُزَيْرَ ابْنٌ مِنَ الرَّحْمَنِ
١٦٠٠- هَذَا وَمَا الْقَوْلَانِ قَطُّ مَقَالَةٌ مَنْصُورَةٌ فِي مَوْضِعٍ وَزَمَانِ
١٦٠١- لَكِنْ مَقَالَةُ كَوْنِهِ فَوْقَ الْوَرَى والعَرْشِ وَهْوَ مُبَايِنُ الْأَكْوَانِ
١٦٠٢- قَدْ طَبَّقَتْ شَرْقَ الْبِلَادِ وَغَرْبَهَا وَغَدَتْ مُقَرَّرَةً لِذِي الْأَذْهَانِ
١٦٠٣- فَلِأَيِّ شَيْءٍ لَمْ يُنَزِّهْ نَفْسَهُ سُبْحَانَهُ فِي مُحْكَمِ الْقُرْآنِ
١٦٠٤- عَنْ ذِي الْمَقَالَةِ مَعْ تَفَاقُمِ أَمْرِهَا وَظُهُورِهَا فِي سَائِرِ الْأَدْيَانِ؟!
١٦٠٥- بَلْ دَائِمًا يُبْدِي لَنَا إِثْبَاتَهَا وَيُعِيدُهُ بِأَدِلَّةِ التِّبْيَانِ
١٦٠٦- لَا سِيَّمَا تِلْكَ الْمَقَالَةُ عِنْدَكُمْ مَقْرُونَةٌ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ
١٦٠٧- أَوْ أَنَّهَا كَمَقَالَةٍ لِمُثَلِّثٍ عَبَدَ الصَّلِيبَ الْمُشْرِكُ النَّصْرَانِي
١٦٠٨- إِذْ كَانَ جِسْمًا كُلُّ مَوْصُوفٍ بِهَا لَيْسَ الْإِلَهُ مُنَزِّلُ الْفُرْقَانِ
١٦٠٩- فَالْعَابِدُونَ لِمَنْ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى بِالذَّاتِ لَيْسُوا عَابِدِي الدَّيَّانِ
١٦١٠- لَكِنَّهُمْ عُبَّادُ أَوْثَانٍ لَدَى هَذَا الْمُعَطِّلِ جَاحِدِ الرَّحْمَنِ
١٦١١- وَلِذَاكَ قَدْ جَعَلَ الْمُعَطِّلُ كُفْرَهُمْ هُوَ مُقْتَضَى الْمَعْقُولِ وَالْبُرْهَانِ

١٦١٢- هَــذَا رَأَيْنَــاهُ بِكُتْــبِكُمُ وَلَــمْ   نَكْذِبْ عَلَـيْكُمْ فِعْـلَ ذِي الْبُهْتَـانِ
١٦١٣- وَلِأَيِّ شَيْءٍ لَــمْ يُحَــذِّرْ خَلْقَــهُ   عَنْهَــا وَهَـــذَا شَــأْنُهَا بِبَيَــانِ
١٦١٤- هَــذَا وَلَـيْسَ فَسَــادُهَا بِمُبِــيَّنٍ   حَتَّــى يُحَـالَ لَنَـا عَـلَى الْأَذْهَـانِ
١٦١٥- وَلِذَاكَ قَدْ شَهِدَتْ أَفَاضِلُكُمْ لَــهَا   بِظُهُورِهَــا لِلْـوَهْمِ فِي الْإِنْسَــانِ
١٦١٦- وَخَفَاءِ مَا قَالُوهُ مِنْ نَفْـيٍ عَـلَى الْـ   أَذْهَــانِ بَــلْ تَحْتَــاجُ لِلْبُرْهَــانِ

الشـــرحُ

في هذا الفصلِ الدليلُ الثامنَ عشرَ في الدلالة على عُلُوِّ الله عزَّ وجلَّ، ووجهُ ذلك باختصار: أَنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- نَزَّه نفسَه عن كُلِّ نقصٍ وعيب، وذكر المؤلِّفُ على هذا أمثلةً.

والعلوُّ عند هؤلاءِ القومِ نقصٌ وعيبٌ، فلماذا لم يُنَزِّهْ نفسَه عنه في آيةٍ واحدةٍ من القرآن؟ مع أَنَّ الأشياءَ التي نَزَّه اللهُ نفسَه عنها انقسمت إلى ثلاثةِ أقسام: قسمٌ لم يَقُلْ به أحدٌ، وقسمُ قَالَ به أفرادٌ، وقسمٌ قَالَ به طوائِفُ.

وكُلُّها نفاها اللهُ عن نفسِه، لكنَّ عُلُوَّ الله الذي قَالَ كُلُّ الْـخَلْقِ، ولم ينزِّه نفسَه عنه مرةً واحدة، فَدَلَّ هذا على أنَّ العُلُوَّ صِفَةُ كمالٍ لا صِفَةُ نقصٍ، وإِلَّا لو كان صِفَةَ نقصٍ -كما يزعمُ هؤلاءِ- لبيَّنه اللهُ عزَّ وجلَّ ونفاه عن نفسِه.

وهذا استدلالٌ خفيٌّ يخفى على كثيرٍ من الناس.

كيف نَقُولُ: إِنَّ نفيَ النقائِصِ عن الله يدُلُّ على ثبوت علوِّه؟

والجَوَابُ: وجهُه لو كان العلوُّ نقصًا كما ذكرتم لنزَّه اللهُ نفسَه عنه.

يقولُ -رَحِمَهُ اللهُ-:

١٥٨٢- هَـذَا وَثَـامِنَ عَشْـرَهَا: تَنْزِيهُـهُ سُـبْحَانَهُ عَـنْ مُوجِـبِ النُّقْصَـانِ

فهو مُنَزَّهٌ عن كُلِّ شيء يُوجِبُ النقصَ، قَالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [ق:٣٨] وهذه تحتاجُ إلى قدرةٍ وقوةٍ ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]، وهذا نفيٌ للنقص.

١٥٨٣- وَعَنِ الْعُيُوبِ وَمُوجِبِ التَّمْثِيلِ وَالتْـ ـتَشْبِيهِ، جَـلَّ اللهُ ذُو السُّـلْطَانِ!

قَوْلُهُ: «وَعَنِ الْعُيُوبِ» قَالَ النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام- في الدَّجَّال: «إِنَّهُ أَعْوَرُ، وإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ»(١)، والعَوَرُ عَيْبٌ.

قَوْلُهُ: «وَعَنِ الْعُيُوبِ وَمُوجِبِ والتَّشْبِيهِ» قَالَ الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، والمرادُ بالتشبيهُ هنا التمثيلُ لا مطلقُ التشبيه؛ كما مَرَّ بنا كثيرًا.

١٥٨٤- وَلِـذَاكَ نَـزَّهَ نَفْسَـهُ سُـبْحَانَهُ عَـنْ أَنْ يَكُـونَ لَـهُ شَرِيـكٌ ثَانِـي

قَالَ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء:١١١].

١٥٨٥- أَوْ أَنْ يَكُـونَ لَـهُ ظَهِـيرٌ فِي الْـوَرَى سُـبْحَانَهُ عَـنْ إِفْـكِ ذِي بُهْتَـانِ!

قَوْلُهُ: «أَوْ أَنْ يَكُونَ لَهُ ظَهِيرٌ فِي الْوَرَى» قَالَ الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢]، أي: من مُعِين.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب كيف يعرض الإسلام على الصبي، رقم (٣٠٥٧)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، رقم (٢٩٣٣).

١٥٨٦- أَوْ أنْ يُوَالِـــيَ خَلْقَــهُ سُــبْحَانَهُ مِــنْ حَاجَــةٍ أَوْ ذِلَّـــةٍ وَهَـــوَانِ

يعني: أنه ليس له وليٌّ من الذُّلِّ، كما قَالَ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء:١١١]، أما وليٌّ من العزِّ والإكرامِ فله أولياء، قَالَ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢].

١٥٨٧- أَوْ أَنْ يَكُـونَ لَدَيْـهِ أَصْـلًا شَـافِعٌ إِلَّا بِـــإِذْنِ الْوَاحِـــدِ الْـــمَنَّانِ

قَالَ الله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وذلك لكمال سلطانه -جلَّ وعلا-، فلا أحدَ يتكلَّمُ، ولا بالشفاعة التي فيها نفعٌ للغير، إِلَّا بإذنه.

١٥٨٨- وَكَــذَاكَ نَــزَّهَ نَفْسَــهُ عَــنْ وَالِــدٍ وَكَــذَاكَ عَــنْ وَلَــدٍ هُمَــا نَسَــبَانِ

قَالَ اللهُ تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣].

١٥٨٩- وَكَــذَاكَ نَــزَّهَ نَفْسَــهُ عَــنْ زَوْجَــةٍ وَكَذَاكَ عَنْ كُفْءٍ يَكُـونُ مُدَانِـــي

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ نَزَّهَ نَفْسَهَ عَنْ زَوْجَةٍ» كما قَالَ الله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام:١٠١].

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ عَنْ كُفْءٍ» كما قَالَ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤].

١٥٩٠- وَلَقَدْ أَتَـى التَّنْزِيـهُ عَـمَّا لَـمْ يَقُـمْ كَـيْ لَا يَـدُورَ بِخَـاطِرِ الْإِنْسَـانِ

قَوْلُهُ: «لَـمْ يُقَلْ» في نسخة (لَـمْ يَقُمْ)، والصواب: (لَـمْ يُقَلْ) باللام.

يعني: أتى التَّنزيهُ عن شَيْءٍ لم يُقَلْ، يَعْنِي: لم يَقُلْ به أحدٌ.

مثل ماذا؟ قال:

١٥٩١- فَانْظُرْ إِلَى التَّنْزِيهِ عَنْ طُعْمٍ وَلَمْ ... يَنْسُبْ إِلَيْهِ قَطُّ مِنْ إِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «فَانْظُرْ إِلَى التَّنْزِيهِ عَنْ طُعْمٍ» قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:١٤].

قَوْلُهُ: «وَلَمْ يَنْسُبْ إِلَيْهِ قَطُّ مِنْ إِنْسَانِ» يَعْنِي: ليس أحدٌ من الناس قال: إنَّ اللهَ يأكلُ، ومع هذا قال: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:١٤].

وهذا هو القسمُ الأوَّلُ الذي ذكرنا قبل قليل.

١٥٩٢- وَكَذَلِكَ التَّنْزِيهُ عَنْ مَوْتٍ وَعَنْ ... نَوْمٍ وَعَنْ سِنَةٍ وَعَنْ غَشَيَانِ

كُلُّ هذا مُنَزَّهٌ عنه عزَّ وجلَّ.

١٥٩٣- وَكَذَلِكَ التَّنْزِيهُ عَنْ نِسْيَانِهِ ... وَالرَّبُّ لَمْ يُنْسَبْ إِلَى نِسْيَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَلِكَ التَّنْزِيهُ عَنْ نِسْيَانِهِ» قَالَ تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢].

قَوْلُهُ: «وَالرَّبُّ لَمْ يُنْسَبْ إِلَى نِسْيَانِ» يَعْنِي: لا أحدَ من الناس قال: إنه ينسى، ومع ذلك نَزَّه نفسَه عنه.

١٥٩٤- وَكَذَلِكَ التَّنْزِيهُ عَنْ ظُلْمٍ وَفِي الْـ ... أَفْعَالِ عَنْ عَبَثٍ وَعَنْ بُطْلَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَلِكَ التَّنْزِيهُ عَنْ ظُلْمٍ» قَالَ تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

قَوْلُهُ: «وَفِي الْأَفْعَالِ عَنْ عَبَثٍ، وَعَنْ بُطْلَانِ» قَالَ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ

وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ﴾ [ص:٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨].

١٥٩٥- وَكَذَلِكَ التَّنْزِيهُ عَنْ تَعَبٍ وَعَنْ عَجْزٍ يُنَافِي قُدْرَةَ الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَلِكَ التَّنْزِيهُ عَنْ تَعَبٍ» قَالَ تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨].

قَوْلُهُ: «وَعَنْ عَجْزٍ يُنَافِي قُدْرَةَ الرَّحْمَنِ» قَالَ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:٤٤].

إذَنْ نَفَى اللهُ -سبحانه وتعالى- عن نفسِه في هذه الأبيات ما قِيل وما لم يُقَل.

إذَنْ هذان قسمان:

قسمٌ قيل، فنفاه اللهُ، مثل: الولد، قَالَ تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠]، فنفاه اللهُ.

قسمٌ لم يُقَل، مثل: الطُّعم، والموت، الظلم، والنسيان وما أشبهها، وهذا نفاه اللهُ عن نفسِه.

وقسمٌ قيل، لكن قاله أفرادٌ، قال:

١٥٩٦- وَلَقَدْ حَكَى الرَّحْمَنُ قَوْلًا قَالَهُ فِنْحَاصُ ذُو الْبُهْتَانِ وَالْكُفْرَانِ

قَوْلُهُ: «فِنْحَاصٌ» فنحاص رجلٌ من اليهود، قال:

١٥٩٧- إنَّ الْإِلَهَ هُوَ الْفَقِيرُ وَنَحْنُ أَصْـ ـحَابُ الْغِنَى ذُو الْوَجْدِ وَالْإِمْكَانِ

قَوْلُهُ: «ذُو الْوَجْدِ» أو (ذو الجِدِّ)، (الجِدِّ) يَعْنِي: الحظَّ، و(الوجد) يَعْنِي: الكثرةَ والْغِنَى.

وهذا في قولهِ تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١].

١٥٩٨- وَكَذَاكَ أَضْحَى رَبُّنَا مُسْتَقْرِضًا ... أَمْوَالَنَا، سُبْحَانَ ذِي الْإِحْسَانِ!

قالوا: إنَّ اللهَ فقيرٌ، لِأَنَّهُ طلب منَّا القرضَ، فقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة:٢٤٥] فهو فقيرٌ، ونحن الأغنياءُ، فهذا قيل، لكنَّ الذي قاله أفرادٌ.

ثُمَّ قَالَ المؤلف:

١٥٩٩- وَحَكَى مَقَالَةَ قَائِلٍ مِنْ قَوْمِهِ ... أَنَّ الْعُزَيْرَ ابْنٌ مِنَ الرَّحْمَنِ

وهؤلاءِ هُم اليهود.

١٦٠٠- هَذَا وَمَا الْقَوْلَانِ قَطُّ مَقَالَةٌ ... مَنْصُورَةٌ فِي مَوْضِعٍ وَزَمَانِ

يعني: أنَّ هذا القولَ لم يَتبعْه أحدٌ، ما قاله إلَّا أفرادٌ من الناس، والعلوُّ قاله كُلُّ الناسِ، فكُلُّ الفِطَر تشهدُ به، فهو قولٌ منصورٌ في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ، ولهذا قال:

١٦٠١- لَكِنْ مَقَالَةُ كَوْنِهِ فَوْقَ الْوَرَى ... والعَرْشِ وَهْوَ مُبَايِنُ الْأَكْوَانِ

١٦٠٢- قَدْ طَبَّقَتْ شَرْقَ الْبِلَادِ وَغَرْبَهَا ... وَغَدَتْ مُقَرَّرَةً لِذِي الْأَذْهَانِ

١٦٠٣- فَلِأَيِّ شَيْءٍ لَمْ يُنَزِّهْ نَفْسَهُ ... سُبْحَانَهُ فِي مُحْكَمِ الْقُرْآنِ

١٦٠٤- عَنْ ذِي الْمَقَالَةِ مَعْ تَفَاقُمِ أَمْرِهَا ... وَظُهُورِهَا فِي سَائِرِ الْأَدْيَانِ؟!

فصارَ تقريرُ هذا الدليلِ أنْ يُقَالَ: إنَّ العُلُوَّ الذاتِيَّ عندكم صِفَةُ نقصٍ، وإذا كان صِفَةَ نقصٍ مع ظهورِه وانتشارِه، وأنه طَبَّقَ الأرضَ شرقًا وغربًا، فلماذا لم يُنَزِّه اللهُ نفسَه عنه مع أنه -سبحانه وتعالى- يُنَزِّهُ نفسَه عن العيب الذي قيل،

والعيبِ الذي قالتْه طوائِفُ، والعيبِ الذي لم يَقُلْه إِلَّا أفرادٌ، فكُلُّها نَزَّه اللهُ نفسَه عنها، فلماذا لم يُنَزِّه نفسَه عن العُلُوِّ؟!

١٦٠٥- بَـلْ دَائِـمًا يُبْـدِي لَنَـا إِثْبَاتَهَـا ... وَيُعِيـدُهُ بأَدِلَّـةِ التِّبْيَـانِ

يُبدي لنا إثباتَ العُلُوِّ، ويُعيدُه على وجوهٍ متنوعةٍ، قَالَ تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الشورى:١٧].

والأَدِلَّةُ متنوعةٌ في القرآنِ والسُّنَّة، كيف يُبْدِي ويُعيدُ في إثبات هذه الصِّفَةِ وهي -على زعْمِكم- نقصٌ، مع أنَّ صفاتِ النقص ينفيها عن نفسِه حتَّى التي لم تُقَلْ، خوفًا من أنْ تدورَ في الذهن؟

١٦٠٦- لَا سِيَّمَا تِلْـكَ الـمَقَالَةُ عِنْـدَكُمْ ... مَقْرُونَـةٌ بِعِبَـادَةِ الْأَوْثَـانِ

يقولون: إنَّ الذي يُقِرُّ بعلوِّ الله يعبدُ الوثَنَ، لأنَّ الإقرارَ بالعُلُوِّ التزامٌ بأنَّ اللهَ جسمٌ، فأنتَ تعبدُ جسمًا كالذي يعبدُ اللاَّتَ والعُزَّى، فالذي يُقِرُّ بالعُلُوِّ مشركٌ -نعوذ بالله-، لِأَنَّهُ عَبَدَ جسمًا، ولهذا قال: «**لَا سِيَّمَا تِلْكَ المَقَالَةُ عِنْدَكُمْ مَقْرُونَةٌ...**» يَعْنِي: لا سيَّما وأنَّ تلك المَقَالَةَ مقرونةٌ بعبادة الأوثان.

١٦٠٧- أَوْ أَنَّهَـا كَمَقَالَـةٍ لِـمُثَلِّثٍ ... عَبَدَ الصَّلِيبَ المُشْـرِكُ النَّصْرَانِـي

قَوْلُهُ: «**أَوْ أَنَّهَا كَمَقَالَةٍ لِـمُثَلِّثٍ عَبْدَ الصَّلِيبَ**»، ويجوز (**عَبْدِ الصليبِ**). من هو؟ قال: (**الـمُشْرِك النصرانـي**).

المُشركُ النصرانيُّ -وعلى النَّصارى لعنةُ الله إلى يوم القيامة- يقولُ: إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ، ويقول: إنَّه موحِّدٌ، لأنَّ الثلاثةَ صاروا واحدًا.

سُبْحَانَ الله! مَنْ قال: إنَّ الثلاثةَ يكونُونَ واحدًا؟! لا يمكنُ هذا، لكن لجهلهم، لِأَنَّهُم ضالُّون كما قَالَ اللهُ عنهم.

١٦٠٨- إِذْ كَانَ جِسْمًا كُـلُّ مَوْصُـوفٍ بِهَـا ... لَـيْسَ الْإِلَـهُ مُنَـزِّلُ الْفُرْقَـانِ

١٦٠٩- فَالْعَابِدُونَ لِـمَنْ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى ... بِالـذَّاتِ لَيْسُـوا عَابِـدِي الـدَّيَّانِ

١٦١٠- لَكِـنَّهُمُ عُبَّـادُ أَوْثَـانٍ لَـدَى ... هَـذَا الْـمُعَطِّلِ جَاحِـدِ الـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «إِذْ كَانَ جِسْمًا كُلُّ مَوْصُوفٍ بِهَا» أي: بالعُلُوِّ.

يعني: أنَّ كُلَّ موصوفٍ بالعُلُوِّ فهو جسمٌ على زعمهم، فإذا كان جسمًا فالذي يعبدُ هذا الجسمَ كالذي يعبدُ الوثنَ.

١٦١١- وَلِذَاكَ قَدْ جَعَلَ الْـمُعَطِّلُ كُفْرَهُمْ ... هُوَ مُقْتَضَـى الْـمَعْقُولِ وَالْبُرْهَـانِ

أعوذ بالله، يَعْنِي: المُعَطِّل الذي يُنْكِرُ عُلُوَّ الله يقول: إنَّ كُفْرَ المُقِرِّين بعلوِّه «هُوَ مُقْتَضَى الْـمَعْقُولِ وَالْبُرْهَانِ»، يَعْنِي: دَلَّ عليه العَقْلُ والبرهانُ.

١٦١٢- هَـذَا رَأَيْنَـاهُ بِكُتْـبِكُمُ وَلَـمْ ... نَكْذِبْ عَلَـيْكُمْ فِعْـلَ ذِي الْبُهْتَـانِ

١٦١٣- وَلِأَيِّ شَيْءٍ لَـمْ يُحَـذِّرْ خَلْقَـهُ ... عَنْهَـا وَهَـذَا شَـأْنُهَا بِبَيَـانِ

قَوْلُهُ: «وَلِأَيِّ شَيْءٍ لَـمْ يُحَذِّرْ خَلْقَهُ عَنْهَا» أي: عن هذهِ المَقَالَةِ، وهي مَقَالَةُ العُلُوِّ.

قَوْلُهُ: «ذَا شَأْنُهَا بِبيَانِ» يَعْنِي: أنَّ شأنَها -على زعمِكم- خطيرٌ جدًّا، لِأَنَّهَا هي الكفرُ.

١٦١٤- هَــذَا وَلَـيْسَ فَسَــادُهَا بِمُبِــيَّنٍ حَتَّــى يُحَــالَ لَنَــا عَــلَى الْأَذْهَــانِ

يعني: أنَّ اللهَ تعالى لم يُبَين فسادَها -على زعمِهم-، بل أحالها على الأذهانِ، وجعلَها هي التي تحكمُ على أنها صِفَةُ نقصٍ أو صِفَةُ مدح.

١٦١٥- وَلِذَاكَ قَدْ شَهِدَتْ أَفَاضِلُكُمْ لَـهَا بِظُهُورِهَــا لِلْــوَهْمِ فِي الْإِنْسَــانِ

١٦١٦- وَخَفَاءِ مَا قَالُوهُ مِنْ نَفْيٍ عَـلَى الْـ أَذْهَــانِ بَــلْ تَحْتَــاجُ لِلْبُرْهَــانِ

يعني: أنَّ أفاضلَ هؤلاء قالوا: إنَّ دلالةَ الأدلة عَلَى العُلوِّ أظهرُ، وأبْينُ من الأدلة عَلَى عدم العُلُوِّ، بل نحن نقولُ: لا أدلةَ، بل ولا دليلٌ واحدٌ عَلَى نفي صِفة العلوِّ.

* * *

فصل

١٦١٧- هَذَا وَتَاسِعَ عَشْرِهَا: إِلْزَامُ ذِي التْـ ... تَعْطِيلِ أَفْسَدُ لَازِمٍ بِبَيَانِ
١٦١٨- وَفَسَادُ لَازِمِ قَوْلِهِ هُوَ مُقْتَضٍ ... لِفَسَادِ ذَاكَ الْقَوْلِ بِالْبُرْهَانِ
١٦١٩- فَسَلِ الْـمُعَطِّلَ عَنْ ثَلَاثِ مَسَائِلٍ ... تَقْضِي عَلَى التَّعْطِيلِ بِالْبُطْلَانِ
١٦٢٠- مَاذَا تَقُولُ: أَكَانَ يَعْرِفُ رَبَّهُ ... هَذَا الرَّسُولُ حَقِيقَةَ الْعِرْفَانِ
١٦٢١- أَمْ لَا؟ وَهَلْ كَانَتْ نَصِيحَتُهُ لَنَا ... كُلَّ النَّصِيحَةِ لَيْسَ بِالْـخَوَّانِ
١٦٢٢- أَمْ لَا؟ وَهَلْ حَازَ الْبَلَاغَةَ كُلَّهَا؟ ... فَاللَّفْظُ وَالْـمَعْنَى لَهُ طَوْعَانِ؟
١٦٢٣- فَإِذَا انْتَهَتْ هَذِي الثَّلَاثَةُ فِيهِ كَا ... مِلَةً مُبَرَّأَةً مِنَ النُّقْصَانِ
١٦٢٤- فَلِأَيِّ شَيْءٍ عَاشَ فِينَا كَاتِمًا ... لِلنَّفْيِ وَالتَّعْطِيلِ فِي الْأَزْمَانِ
١٦٢٥- بَلْ مُفْصِحًا بِالضِّدِّ مِنْهُ حَقِيقَةَ الْـ ... إِفْصَاحِ مُوضِحَةً بِكُلِّ بَيَانِ؟
١٦٢٦- وَلِأَيِّ شَيْءٍ لَمْ يُصَرِّحْ بِالَّذِي ... صَرَّحْتُمُ فِي رَبِّنَا الرَّحْمَنِ؟
١٦٢٧- أَلِعَجْزِهِ عَنْ ذَاكَ أَمْ تَقْصِيرِهِ ... فِي النُّصْحِ أَمْ لِخَفَاءِ هَذَا الشَّانِ؟
١٦٢٨- حَاشَاهُ، بَلْ ذَا وَصْفُكُمْ يَا أُمَّةَ التْـ ... تَعْطِيلِ لَا الْـمَبْعُوثِ بِالْقُرْآنِ
١٦٢٩- وَلِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ يَذْكُرُ ضِدَّ ذَا ... فِي كُلِّ مُجْتَمَعٍ وَكُلِّ زَمَانِ؟
١٦٣٠- أَتَرَاهُ أَصْبَحَ عَاجِزًا عَنْ قَوْلِهِ اسْـ ... ـتَوْلَى وَيَنْزِلُ أَمْرُهُ وَفُلَانِ؟

١٦٣١- وَيَقُولُ: أَيْنَ اللهُ؟ يَعْنِي: «مَنْ» بِلَفْـ ـظِ الْـ«أَيْنَ» هَلْ هَذَا مِنَ التِّبْيَانِ؟

١٦٣٢- وَاللهِ مَا قَالَ الْأَئِمَّةُ كُلَّ مَا قَدْ قَالَهُ مِنْ غَيْرِ مَا كِتْمَانِ

١٦٣٣- لَكِنْ لِأَنَّ عُقُولَ أَهْلِ زَمَانِهِمْ ضَاقَتْ بِحَمْلِ دَقَائِقِ الْإِيمَانِ

١٦٣٤- وَغَدَتْ بَصَائِرُهُمْ كَخُفَّاشٍ أَتَى ضَوْءُ النَّهَارِ فَكَفَّ عَنْ طَيَرَانِ

١٦٣٥- حَتَّى إِذَا مَا اللَّيْلُ جَاءَ ظَلَامُهُ أَبْصَرْتَهُ يَسْعَى بِكُلِّ مَكَانِ

١٦٣٦- وَكَذَا عُقُولُكُمُ لَوِ اسْتَشْعَرْتُمُ يَا قَوْمِ كَالْحَشَرَاتِ وَالْفِيرَانِ

١٦٣٧- أَنِسَتْ بِإِيحَاشِ الظَّلَامِ وَمَا لَهَا بِمَطَالِعِ الْأَنْوَارِ قَطُّ يَدَانِ

١٦٣٨- لَوْ كَانَ حَقًّا مَا يَقُولُ مُعَطِّلٌ لِعُلُوِّهِ وَصِفَاتِهِ الرَّحْمَنِ

١٦٣٩- لَزِمَتْكُمُ شُنَعٌ ثَلَاثٌ فَارْتَؤُوا أَوْ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ أَوْ ثِنْتَانِ

١٦٤٠- تَقْدِيمُهُمْ فِي الْعِلْمِ أَوْ فِي نُصْحِهِمْ أَوْ فِي الْبَيَانِ أَذَاكَ ذُو إِمْكَانِ؟!

١٦٤١- إِنْ كَانَ مَا قَدْ قُلْتُمُ حَقًّا فَقَدْ ضَلَّ الْوَرَى بِالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ

١٦٤٢- إِذْ فِيهِمَا ضِدُّ الَّذِي قُلْتُمْ وَمَا ضِدَّانِ فِي الْمَعْقُولِ يَجْتَمِعَانِ

١٦٤٣- بَلْ كَانَ أَوْلَى أَنْ يُعَطَّلَ مِنْهُمَا وَيُحَالَ فِي عِلْمٍ وَفِي عِرْفَانِ

١٦٤٤- إِمَّا عَلَى جَهْمٍ وَجَعْدٍ أَوْ عَلَى النْـ ـنَظَامِ أَوْ ذِي الْمَذْهَبِ الْيُونَانِي

١٦٤٥- وَكَذَاكَ أَتْبَاعٌ لَهُمْ فَقْعُ الْفَلَا صُمٌّ وَبُكْمٌ تَابِعُو الْعُمْيَانِ

١٦٤٦- وَكَذَاكَ أَفْرَاخُ الْقَرَامِطَةِ الْأُلَى قَدْ جَاهَرُوا بِعَدَاوَةِ الرَّحْمَنِ

١٦٤٧- كَالْــحَاكِمِيَّةِ وَالْأُلَى وَالُــوهُمُ كَــأَبِي سَــعِيدٍ ثُــمَّ آلِ سَــنَانِ
١٦٤٨- وَكَذَا ابْنُ سِينَا وَالنَّصِيرُ نَصِيرُ أَهْـ ـلِ الشِّرْكِ وَالتَّكْـذِيبِ وَالْكُفْـرَانِ
١٦٤٩- وَكَذَاكَ أَفْرَاخُ الْـمَجُوسِ وَشِـبْهُهُمْ وَالصَّــابِئِينَ وَكُــلُّ ذِي بُهْتَــانِ
١٦٥٠- إِخْـوَانُ إِبْلِـيسَ اللَّعِـينِ وَجُنْـدُهُ لَا مَرْحَبًــا بِعَسَــاكِرِ الشَّــيْطَانِ
١٦٥١- أَفَمَنْ حَوَالَتُـهُ عَـلَى التَّنْزِيـلِ وَالْـ ـوَحْيِ الْـمُبِينِ وَمُحْكَـمِ الْقُـرْآنِ
١٦٥٢- كَمُحَـيَّرٍ أَضْـحَتْ حَوَالَتُـهُ عَـلَى أَمْثَالِــهِ؟ أَمْ كَيْــفَ يَسْــتَوِيَانِ؟
١٦٥٣- أَمْ كَيْـفَ يَشْـعُرُ تَائِـهٌ بِمُصَـابِهِ؟ وَالْقَلْـبُ قَـدْ جُعِلَـتْ لَـهُ قُفْـلَانِ
١٦٥٤- قُفْلٌ مِنَ الْـجَهْلِ الْـمُرَكَّبِ فَوْقَـهُ قُفْلُ التَّعَصُّـبِ كَيْـفَ يَنْفَتِحَـانِ؟
١٦٥٥- وَمَفَاتِحُ الْأَقْفَالِ فِي يَدِ مَنْ لَـهُ التْــ تَصْرِيفُ، سُبْحَانَ الْعَظِيمِ الشَّـانِ!
١٦٥٦- فَاسْأَلْهُ فَتْحَ الْقُفْلِ مُجْتَهِدًا عَـلَى الْـ أَسْــنَانِ إِنَّ الْفَــتْحَ بِالْأَسْــنَانِ

الشــرحُ

١٦١٧- هَذَا وَتَاسِعَ عَشْرِهَا: إِلْـزَامُ ذِي التْــ تَعْطِيــلِ أَفْسَــدُ لَازِمٍ بِبَــيَانِ

قوله: «هَذَا وَتَاسِعَ عَشْرَهَا»، ويجوزُ «وَتَاسِعَ عَشْرِهَا»، ويجوزُ «وَتَاسِعُ عَشْرِهَا».

قَوْلُهُ: «إِلْزَامُ ذِي التَّعْطِيلِ أَفْسَدُ لَازِمٍ بِبَيَانٍ» يعني أن: يُحَاجَّ صاحبُ التعطيل الَّذِي أنكر علوَّ الله -سبحانه وتعالى- بالإلزام.

١٦١٨- وَفَسَادُ لَازِمِ قَوْلِهِ هُوَ مُقْتَضٍ لِفَسَادِ ذَاكَ الْقَوْلِ بِالْبُرْهَانِ

فسادُ اللازم يدلُّ عَلَى فسادِ المَلزوم، وهذه قاعدةٌ مفيدةٌ؛ لأنَّ القاعدةَ المقرَّرةَ عند جميع العقلاءِ أنَّ فسادَ اللازمِ مقتضٍ لفسادِ الملزوم؛ ولهذا نقولُ لكُلِّ إنسانٍ: يلزمُ من قولك كذا، وهذا لازمٌ فاسدٌ، فيدلُّ عَلَى فساد قوله، وجه ذلك يقول:

١٦١٩- فَسَلِ الْمُعَطِّلَ عَنْ ثَلَاثِ مَسَائِلٍ تَقْضِي عَلَى التَّعْطِيلِ بِالْبُطْلَانِ

١٦٢٠- مَاذَا تَقُولُ: أَكَانَ يَعْرِفُ رَبَّهُ هَذَا الرَّسُولُ حَقِيقَةَ الْعِرْفَانِ

١٦٢١- أَمْ لَا؟........................... ....

اسأل هَذَا المعطِّلَ، وقل: إنَّ الرسولَ -عليه الصلاة والسلام- لـمَّا وصف ربَّه بالعُلُوِّ، هل كان يعرفُ رَبَّه؟ الجواب: إمَّا أن يقولَ: نعم، أو يقولَ: لا.

إن قال: (لا)، يعني: إذا قال: الرسولُ لا يعرفُ ربَّه، فقد آذن عَلَى نفسِه بالكفر، وإن قال: يعرفُه، يقول:

١٦٢١- .... وَهَلْ كَانَتْ نَصِيحَتُهُ لَنَا كُلَّ النَّصِيحَةِ لَيْسَ بِالْخَوَّانِ

١٦٢٢- أَمْ لَا؟........................... ....

اسأله مرة ثانية، وقل له: إذا كان يعرفُ رَبَّه -سبحانه وتعالى- فهل كان ناصحًا لأمته أو خائنًا؟ إن قال: خائنًا فقد كفر، وإن قال: ناصحًا، نقول:

١٦٢٢- .... وَهَلْ حَازَ الْبَلَاغَةَ كُلَّهَا؟ فَاللَّفْظُ وَالْمَعْنَى لَهُ طَوْعَانِ؟

يعني: أم لا؟ اسأله إذا قال: إنَّ الرسولَ -عليه الصلاة والسلام- ناصحٌ، قل له: هل كان فصيحًا أم عييًّا يعني: أنه يريد معنًى لا يطاوعه فيه اللفظُ؟ اسأله؛

لأنَّ العييَّ هُوَ الَّذِي يريدُ المعنى، لكن لا يطاوعه اللفظُ، دائمًا الإنسانُ يكون في قلبه شيءٌ، لكن يعجزُ أن يُعَبِّرَ عنه، فسَلْه: هل النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام- فصيحٌ أم لا؟ ما أظنُّه يقولُ: إنه عَيِيٌّ، سيقولُ: إنه فصيحٌ.

إِذَنْ اجتمع في كلامه: العِلمُ، والنُّصحُ، والبلاغةُ، وهذه ثلاثةُ أمورٍ إذا اجتمعت وجب العملُ بمقتضى قوله.

١٦٢٣- فَإِذَا انْتَهَتْ هَذِي الثَّلَاثَـةَ فِيـهِ كَـا　　　مِلَـةً مُـبَرَّأَةً مِـنَ النُّقْصَـانِ

١٦٢٤- فَـلِأَيِّ شَيْءٍ عَـاشَ فِينَـا كَاتِـمًا　　　لِلنَّفْـيِ وَالتَّعْطِيـلِ فِي الْأَزْمَـانِ

قَوْلُهُ: «فإذا انتَهت» يعني: كَمُلَتْ فيه هَذِهِ الثلاثةُ.

إذا كانت هَذِهِ الثلاثةُ كُلُّها تامةً في حقِّه أعني: العلمَ، والنصحَ، والبيانَ، فلماذا يكتمُ ما كان يعرفُه عن الله عزَّ وجلَّ بل عَلَى الضدِّ مِن ذلك، كان يُفصِحُ بخلافه؛ ولهذا قال:

١٦٢٥- بَلْ مُفْصِحًا بِالضِّدِّ مِنْهُ حَقِيقَةَ الْـ　　　إِفْصَـاحِ مُوضِـحَةً بِكُـلِّ بَيَـانِ؟

هل النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام- قَالَ للناس يومًا من الدهر: إِنَّ ربَّكم ليس فوقكم؟ بل كان بالعكس؛ ولذا قال: **(بالضد)** يعني: يُفْصِحُ، ويُبَيِّنُ في كُلِّ موضعٍ بأنه فوقَ كُلِّ شيء.

١٦٢٦- وَلِأَيِّ شَيْءٍ لَـمْ يُصَـرِّحْ بِالَّـذِي　　　صَرَّحْـتُمُ فِي رَبِّنَـا الـرَّحْمَنِ؟

قَوْلُهُ: «صَرَّحْتُمُ فِي رَبِّنَا الرَّحْمَنِ» ما الَّذِي صرَّحوا به؟ الجواب: نفي العلوِّ، وما صَرَّحَ به يومًا من الدَّهر.

١٦٢٧- أَلِعَجْـزِهِ عَـنْ ذَاكَ أَمْ تَقْصِـيرِهِ فِي النُّصْحِ أَمْ لِخَفَـاءِ هَـذَا الشَّـانِ؟

كُلُّ هَذِهِ الثلاثة مُنْتَفِيَةٌ، فهو ليس بعاجزٍ عن الإفصاح به؛ لأنه أفصحُ الخَلق، وليس مُقَصِّرًا في النصح؛ لأنه أنصحُ الخلق، وليس خافيًا عليه هذا؛ لأنه أعلمُ الخلق.

١٦٢٨- حَاشَاهُ، بَلْ ذَا وَصْفُكُمْ يَا أُمَّةَ التْـ ـتَعْطِيـلِ لَا الْـمَبْعُوثِ بِـالْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «ذَا» المشارُ إليه يعودُ عَلَى هَذِهِ العيوب الثلاثة: العجز، أو التقصير، أو الخفاء، لكنَّ الغالبَ عَلَى أهل التعطيل هُوَ التقصيرُ، وعدمُ البحث والنظرِ بالعدل.

قَوْلُهُ: «لَا الْـمَبْعُوثِ» يعني: لا وصف المبعوث بالْقُرْآن.

١٦٢٩- وَلِأَيِّ شَيْءٍ كَـانَ يَـذْكُرُ ضِـدَّ ذَا فِي كُـلِّ مُجْتَمَـعٍ وَكُـلِّ زَمَـانِ؟

قَوْلُهُ: «ضِدَّ ذَا» أي: ضدَّ تعطيلِ عُلوِّه، فكان دائمًا يُفْصِحُ بضدِّه.

١٦٣٠- أَتَرَاهُ أَصْبَحَ عَاجِزًا عَنْ قَوْلِـه اسْـ ـتَوْلَى وَيَنْـزِلُ أَمْـرُهُ وَفُـلَانِ؟

قَوْلُهُ: «أَتَرَاهُ أَصْبَحَ عَاجِزًا عَنْ قَوْلِهِ اسْتَوْلَى» أي: بدل: (اسْتَوَى)، فالذي يقول: (اسْتَوَى) يستطيعُ أن يقولَ: (استولى)، فليس عاجزًا عنه.

قَوْلُهُ: «وَيَنْزِلُ أَمْرُهُ وَفُلَانِ» وهذا في تحريفِهم لحديث النزول: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا»[1]، قالوا: إِنَّ الَّذِي ينزلُ: أمرُ الله، وبعضُهم قال: الَّذِي ينزلُ مَلَكٌ من الملائكة، وهذا معنى قوله: (فلان).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١٠٩٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، رقم (٧٥٨).

هل الرسولُ ﷺ لـمَّا قال: يَنْزِلُ رَبُّنا، هل هُوَ عاجزٌ عن أن يقولَ: (ينزل أمرُه)؟ أبدًا، ليس بعاجزٍ، هل هُوَ عاجز أن يقولَ: (**يَنْزِلُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَيَقُولُ**؟) الجواب: لا، فلماذا لم يَقُل هذا؟ لماذا لم يقل: (أمره)؟ لماذا يأتي بكلمة مُوهِمةٍ للكُفر عَلَى زعمهم؟! هَذَا شيءٌ مستحيلٌ.

١٦٣١- وَيَقُولُ: أَيْنَ اللهُ؟ يَعْنِي: «مَنْ» بِلَفْـظِ الْـ«أَيْنَ» هَلْ هَذَا مِنَ التِّبْيَـانِ؟

قَوْلُهُ: «**وَيَقُولُ: أَيْنَ اللهُ؟**» حيث قَالَ للجارية: «**أَيْنَ اللهُ؟**»[1]، «**يَعْنِي: (مَنْ) بِلَفْظِ الـْ(أَيْنَ)**» يعني: هُوَ يريدُ أن يقولَ للجارية: مَنِ اللهُ؟ فتقولُ: اللهُ خالقُ كُلِّ شيءٍ مَثلًا، لكن قوله: أينَ اللهُ؟ يريدُ مَن اللهُ؟

وسبحان الله! أيُّهما أسهلُ (مَنْ) أو (أين)؟

الجَوَابُ: (مَنْ)؛ لأنها حرفان، (وأين) ثلاثُة حروف، (ومَنْ) أدلُّ عَلَى المقصود مِن (أين) إذا كان يريدُ أن يسألَ: مَن اللهُ.

١٦٣٢- وَاللهِ مَا قَالَ الْأَئِمَّةُ كُلَّ مَا قَدْ قَالَهُ مِنْ غَيْرِ مَا كِتْمَانِ

وصدق -رحمه الله-، يعني: الأئمة ما قالوا كُلَّ ما قَالَ الرسولُ؛ لأنَّ كثيرًا من الناس يخفاه كُلُّ ما قَالَ الرسولُ، ويا حَبَّذا (أمره) إذا كان يعرفُ أكثرَ ما قَالَ الرسولُ، أمَّا أن يعرفَ كُلَّ ما قَالَ الرسولُ، فهذا شيءٌ بعيدٌ.

١٦٣٣- لَكِنْ لِأَنَّ عُقُولَ أَهْلِ زَمَانِهِمْ ضَاقَتْ بِحَمْلِ دَقَائِقِ الْإِيمَانِ

وهذا صحيحٌ، فالأئمةُ جُوبِهُوا بمبتدعةٍ مُعَطِّلةٍ ممثِّلةٍ من كُلِّ عيب، فكانوا يُحدِّثون الناسَ بما يعرفونه ويوافقُ عقولَهم.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).

١٦٣٤- وَغَدَتْ بَصَائِرُهُمْ كَخُفَّاشٍ أَتَى ضَوْءُ النَّهَارِ فَكَفَّ عَنْ طَيَرَانِ
١٦٣٥- حَتَّى إِذَا مَا اللَّيْلُ جَاءَ ظَلَامُهُ أَبْصَرْتَهُ يَسْعَى بِكُلِّ مَكَانِ

قَوْلُهُ: «وَغَدَتْ بَصَائِرُهُمْ كَخُفَّاشٍ» الخُفَّاشُ طائرٌ لا يطيرُ إِلَّا بالليل، فإذا جَاءَ النهارُ توقَّفَ.

١٦٣٦- وَكَذَا عُقُولُكُمْ لَوِ اسْتَشْعَرْتُمُ يَا قَوْمِ كَالْحَشَرَاتِ وَالْفِيرَانِ
١٦٣٧- أَنِسَتْ بِإِيحَاشِ الظَّلَامِ وَمَا لَهَا بِمَطَالِعِ الْأَنْوَارِ قَطُّ يَدَانِ

الحشراتُ لا تخرجُ إِلَّا بالليل في الغالب؛ لأَنَّ النهارَ يُوحشُها، وتخافُ منه، فتندَسُّ في جحورها، فإذا جَاءَ الليلُ انتشرت.

والفئرانُ لا تخرجُ وهي تسمعُ صوتًا في المكان أبدًا، وإن اضطرت للخروج خرجت بسرعة، لكن إذا غاب الناسُ عن المطبخ وجدتَها تقرض الخبز، والكيك، وكلَّ شيء؛ لأنه ليس حولها أحدٌ، فهي لا تعيشُ إِلَّا في الانفراد.

١٦٣٨- لَوْ كَانَ حَقًّا مَا يَقُولُ مُعَطِّلٌ لِعُلُوِّهِ وَصِفَاتِهِ الرَّحْمَنِ
١٦٣٩- لَزِمَتْكُمْ شُنَعٌ ثَلَاثٌ فَارْتَؤُوا أَوْ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ أَوْ ثِنْتَانِ
١٦٤٠- تَقْدِيمُهُمْ فِي الْعِلْمِ أَوْ فِي نُصْحِهِمْ أَوْ فِي الْبَيَانِ أَذَاكَ ذُو إِمْكَانِ؟!

يعني: لو كان الحقُّ فيما قَالَ هؤلاء المعطِّلةُ لَلَزِم أن يكونوا أعلمَ بالله من رسولِهِ؛ لأَنَّ الرسولَ أَثبتَ، وهم نَفَوْا، والحقُّ معهم، يعني: عَلَى فرض أنه معهم، لزم أن يكونوا أعلمَ بالله من رسول الله، ولزم أن يكونوا أنصحَ لعباد الله من رسول الله.

ولزم أن يكونوا أفصحَ في التعبير من رسولِ الله، وحينئذٍ نقول: الحقُّ إمَّا فيما قُلْتُم أيها المعطِّلة، أو فيما قاله الرسولُ -عليه الصلاة والسلام-، فإن كان فيما قاله الرسولُ، فأنتم عَلَى باطلٍ يجبُ أن تتركوه، وإنْ كان فيما قُلْتُم لزمتكم هَذِهِ اللوازمُ الثلاثة، وهي:

الأول: أن يكونوا أعلمَ بالله من رسول الله.

الثانية: أن يكونوا أنصحَ لعباد الله من رسول الله.

الثالثة: أن يكونوا أفصحَ وأبينَ في التعبير من رسول الله ﷺ.

وكُلُّ هَذَا لا أحدَ يقولُ به.

١٦٤١- إنْ كَانَ مَا قَدْ قُلْتُمُ حَقًّا فَقَدْ ... ضَلَّ الْوَرَى بِالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ

وهذا صحيحٌ، فلو كان ما يقولون حقًّا لكان الوحيُ -يعني: الْقُرْآن والسُّنَّة- ضلالًا.

فمثلًا: في السُّنَّةِ حديثُ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاء الدُّنْيَا**»[1]، وظاهر الحديثِ أنه نزولُ ذاتٍ، وهم يقولون: إنَّ مَنْ أثبتَ لله نزولَ ذاتٍ فقد كفَر، إذَنْ يكونُ مدلولُ السُّنَّةِ كُفرًا.

وفي الْقُرْآنِ قولُه تعالى: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] يعني: اسْتَوَى اللهُ عزَّ وجلَّ عَلَى العرش بذاته استواءً يليقُ به -تبارك وتعالى-، هم يقولون: لو فسَّرنا (اسْتَوَى) بمعناها الظاهر مِن لَفْظِها لكان هَذَا كُفرًا، فعلى زعمهم يكونُ مدلولُ الْقُرْآنِ كفرًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١٠٩٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، رقم (٧٥٨).

فانظر إِلَى هَذَا القولِ الخبيثِ الَّذِي يقتضي أن يكونَ مدلولُ كلامِ الله ورسوله كُفرًا؛ ولهذا قال:

١٦٤٢- إِذْ فِيهِمَا ضِدُّ الَّذِي قُلْتُمْ وَمَا ضِدَّانِ فِي الْمَعْقُولِ يَجْتَمِعَانِ

وهذا صحيحٌ.

١٦٤٣- بَلْ كَانَ أَوْلَى أَنْ يُعَطَّلَ مِنْهُمَا وَيُحَالَ فِي عِلْمٍ وَفِي عِرْفَانِ

قَوْلُهُ: «بَلْ كَانَ أَوْلَى أَنْ يُعَطَّلَ مِنْهُمَا» أي: من الكتاب والسُّنَّة.

قَوْلُهُ: «وَيُحَالَ فِي عِلْمٍ وَفِي عِرْفَانِ» يعني: عَلَى هَذَا نقولُ: الأَوْلَى بالناس ألا يأخذوا عقيدتَهم في ربِّهم من كتابِ الله وسُنَّة رسولِه، لكن من أين يأخذونها؟ قَالَ في الجواب عن ذلك:

١٦٤٤- إِمَّا عَلَى جَهْمٍ وَجَعْدٍ أَوْ عَلَى النْـ ـنَظَامِ أَوْ ذِي الْمَذْهَبِ الْيُونَانِي

الجَوَابُ: إما عَلَى الجهم بن صفوان، والجعد بن درهم، أو عَلَى النَّظَّام، وذي المذهبِ اليونانِيِّ.

قَوْلُهُ: «ذي المذهب اليونان» وَهُوَ أرسطو أو ابن سينا، وغيرهما فكُلُّهم عَلَى المذهب اليونانِيِّ.

١٦٤٥- وَكَذَاكَ أَتْبَاعٌ لَهُمْ فَقْعُ الْفَلَا صُمٌّ وَبُكْمٌ تَابِعُو الْعُمْيَانِ

قَوْلُهُ: «الْفَلَا»: جَمْعُ فلاة، و«الْفَقْعُ»: معروف، كمأةٌ ليِّنةٌ رقيقةٌ تُداسُ بالأرجل فتفسد، يُضْرَبُ به المثلُ لكُلِّ إنسانٍ لا يصبرُ ولا يقاومُ، يقال له: (أَنْتَ فَقْعُ فَلَاةٍ) يعني: كمأةً رقيقةً لا تتحمَّلُ، فهؤلاء فَقْعُ الفَلا.

قَوْلُهُ: «صُمٌّ وَبُكْمٌ» مَنْ يقودُهم؟ قال: «تَابِعُو الْعُمْيَانِ»، أصمُّ وأبكمُ يقودهما أعمى! والدلالة واضحة، فكُلٌّ ضائعٌ، والعياذ بالله.

١٦٤٦- وَكَـذَاكَ أَفْـرَاخُ الْقَرَامِطَـةِ الْأُلَى   قَـدْ جَـاهَرُوا بِعَـدَاوَةِ الـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «أَفْرَاخُ» جمعُ فَرْخ، وَهُوَ ولدُ الطيرِ الصغير.

ومعلومٌ أنَّ الفرخَ يُضْرَبُ به المثلُ في الضعف والمهانة، هؤلاء أفراخُ القرامطة.

والقرامطةُ أصحابُ رجلٍ يُقَالَ له: (قِرْمِط)[1]، رجلٌ مذهبُه مذهبٌ باطِنيٌّ خبيثٌ، حصل مِنْهُ عدوانٌ كثيرٌ -والعياذ بالله- عَلَى المسلمين حتَّى إنه دخل مكةَ في أيام الحجِّ، وقتَّل النَّاسَ وهم يطوفون بالكعبة، وجَرَّهم، ووضعهم في بئر زمزم، فأفسد ماءَها، وأخذ الحجرَ الأسودَ، ونصبَه عَلَى بيتٍ له في الأحساء مِن أجل أن يَحُجَّ الناسُ إليه، ويدَعوا الكعبةَ، وبقي عنده هناك نحوَ ثنتين وعشرين سنةً، وَهُوَ مُسْتَولٍ عليه، حتَّى أنقذه اللهُ منه، فهؤلاء القرامطةُ من أشدِّ الناس عداوةً للمؤمنين.

١٦٤٧- كَالْـحَاكِمِيَّةِ وَالْأُلَى وَالُـوهُمُ   كَـأَبِي سَـعِيدٍ ثُـمَّ آلِ سَـنَانِ

قَوْلُهُ: «كَالْـحَاكِمِيَّةِ» الحاكمية: أتباعُ الحاكمِ العُبَيْدِيِّ، الَّذِي حكم مصرَ، وادَّعى أنه من ذرِّيَّة الرسولِ -عليه الصلاة والسلام- وقصتُه معروفةٌ، مذكورةُ في

---

(١) بكسر القاف وسكون الراء وكسر الميم وفي آخرها الطاء، هذه النسبة إلى المذهب المذموم، والرأي الخبيث، وهم جماعة من أهل هجر والبحرين والأحساء، قيل لهم القرامطة، قتلوا حَاجَّ بيت الله في الحرم، وفي رمل زهير، نُسِبوا إلى رجل من سواد الكوفة يقال له قِرْمِط، وقيل: حمدان بن قِرْمط، وكان ممن قبل دعوتهم ثم صار رأسًا في الدعوة، وقد دمر الله تعالى عليه وألحقه بإخوته عاد وثمود. انظر: الأنساب للسمعاني (١٠/ ٣٨٧).

كتب التاريخ[١].

١٦٤٨- وَكَذَا ابْنُ سِينَا وَالنَّصِيرُ نَصِيرُ أَهْـ ـلِ الشِّرْكِ وَالتَّكْذِيبِ وَالْكُفْرَانِ

١٦٤٩- وَكَذَاكَ أَفْرَاخُ الْمَجُوسِ وَشِبْهُهُمْ وَالصَّابِئِينَ وَكُلُّ ذِي بُهْتَانِ

١٦٥٠- إِخْوَانُ إِبْلِيسَ اللَّعِينِ وَجُنْدُهُ لَا مَرْحَبًا بِعَسَاكِرِ الشَّيْطَانِ

ابنُ القيِّم -رحمه الله- شدَّد عَلَى هؤلاء الجماعة؛ لأنهم أساؤوا إِلَى الإسلام أعظمَ إساءة، ليس في الأعمال البدنيَّة، ولكن في الأمور العقديَّة، أفسدوا عقيدةَ الناس حتَّى إنَّ الَّذِي يعتقدُ ما قالوه، يُصْبِحُ الرَّبُّ عزَّ وجلَّ عنده عدمًا، ليس بشيء.

١٦٥١- أَفَمَنْ حَوَالَتُهُ عَلَى التَّنْزِيلِ وَالْـ ـوَحْيِ الْمُبِينِ وَمُحْكَمِ الْقُرْآنِ

١٦٥٢- كَمُحَيَّرٍ أَضْحَتْ حَوَالَتُهُ عَلَى أَمْثَالِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَسْتَوِيَانِ؟

مُحَيَّرٌ حُوِّلَ عَلَى حائرٍ، كَيْفَ الهدايَةُ؟ ليس هناك هدايةٌ.

قَوْلُهُ: «أَمْ كَيْفَ يَسْتَوِيَانِ» لا شكَّ أنه لا يستوي مَنْ إحالتُه عَلَى الكتاب والسُّنَّة مِمَّن إحالته عَلَى متحيِّرٍ مثله.

وتحيُّرُ أهلِ الكلام معلومٌ من إقرار رؤسائهم، كما قَالَ الشهرستانِيُّ[٢] وَهُوَ

---

(١) هو الحاكم بأمر الله منصور بن العزيز بن المعز صاحب مصر العبيدي الرافضي، بل الإسماعيلي الزنديق المدعي الربوبية. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٧٣).

(٢) هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني، أبو الفتح، شيخ أهل الكلام والحكمة، وصاحب التصانيف، قال ابن أرسلان في (تاريخ خوارزم): عالم كيِّس متفنن، ولولا مَيله إلى أهل الإلحاد وتخبطه في الاعتقاد، لكان هو الإمام، وكثيرًا ما كنا نتعجب من وفور فضله كيف مال إلى شيء لا أصل له؟! نعوذ بالله من الخذلان، وليس ذلك إلا لإعراضه عن علم الشرع، واشتغاله بظلمات الفلسفة. انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٢٨٦).

من رؤسائهم:

لَعَمْرِي لَقَدْ طُفْتُ الـمَعَاهِدَ كُلَّهَا وَسَيَّرْتُ طَرْفِي بَيْنَ تِلْكَ الـمَعَالِـمِ
فَلَـمْ أَرَ إِلَّا وَاضِـعًا كَـفَّ حَـائِرٍ عَـلَى ذَقَـنٍ أَوْ قَارِعًـا سِـنَّ نَـادِمِ[1]

يقولُ: إنه طاف عَلَى جميع المعالم في علم الكلام، ووجدهم عَلَى قسمين: (وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ عَلَى ذَقَنٍ)، أو (قَارِعًا سِنَّ نَادِمٍ).

وقال الرازِيُّ وَهُوَ من رؤسائهم أيضًا[2]:

نِهَايَـةُ إِقْـدَامِ العُقُـولِ عِقَـالُ وَأَكْثَـرُ سَـعْيِ العَالَـمِينَ ضَـلَالُ
وَأَرْواحُنَا فِي وَحْشَـةٍ مِـنْ جُسُـومِنَا وَغَايَـةُ دُنْيَانَـا أَذًى وَوَبَـالُ
وَلَـمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَـا سِوَى أَنْ جَمَعْنَـا فِيـهِ: قِيـلَ وَقَـالُوا

فبحثُهم طول عمرِهم جمعوا فيه: قيل: كذا، وقالوا: كذا، وقال الآخرون: كذا، وقال الثالث: كذا، وقال الرابع: كذا، وهَكَذَا.

على كُلِّ حالٍ هم حَيَارى، كما قَالَ ابنُ القيِّم هنا.

١٦٥٣- أَمْ كَيْـفَ يَشْـعُرُ تَائِـهٌ بِمُصَـابِهِ؟ وَالْقَلْـبُ قَـدْ جُعِلَـتْ لَـهُ قُفْـلَانِ

نسألُ اللهَ العافيةَ، التائِهُ لا يعرفُ مُصابَه وَهُوَ التِّيه، وقد جُعِل عَلَى قلبه قفلان.

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص:١٧٨).
(٢) الأبيات قالها أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي، وانظر: طبقات الشافعية للسبكي (٨/ ٩٦)، وعيون الأنباء (٢/ ٢٨).

١٦٥٤- قُفْلٌ مِنَ الْـجَهْلِ الْـمُرَكَّبِ فَوْقَـهُ قُفْلُ التَّعَصُّـبِ كَيْـفَ يَنْفَتِحَـانِ؟

أعوذ بالله، جهلٌ مُركَّبٌ وتَعَصُّبٌ، مَنْ يَقْوَى هذا؟ لو أتيتَ إِلَى عامِّي تُحَدِّثُه بحديث الرسول ﷺ وله شيخٌ متبوعٌ يُجِلُّه، ويُقَدِّرُه، يقولُ لك: أبدًا، أنت جاهلٌ، الشيخُ الفلانِيُّ يقولُ: كَذَا وكذا، فهذا جهلٌ مُرَكَّبٌ ومعه تعصُّبٌ، فإذا اجتمعَ الجهلُ المرَكَّبُ والتَّعَصُّبُ فإنه يَبعُد جدًّا أن يهتديَ مَنِ اتَّصف بهما.

١٦٥٥- وَمَفَاتِحُ الْأَقْفَالِ فِي يَدِ مَنْ لَـهُ التَّـ ـصْرِيفُ، سُبْحَانَ الْعَظِيمِ الشَّـانِ!

نعم، وَهُوَ الله عزَّ وجلَّ فمفاتِحُ الأقفال بيده -سبحانه وتعالى-، فلا تَتَّجِه لسواه، ولا تعتمد عَلَى نفسِك، ولا تقُل: أنا عَلَى بصيرةٍ، فلن يُضلَّني أحدٌ، فالرسولُ -عليه الصلاة والسلام- أمَر مَنْ سَمِعَ بالدَّجَّال أن ينأى عنه، فإِنَّ الرجلَ يأتيه، فيرى أنه مؤمنٌ، ولكنَّه يزيغُ بما معه من الشبهات[1].

فلا تعتمدْ عَلَى قلبك، واسأل اللهَ دائمًا الثباتَ، اسأل اللهَ أن يهديَكَ؛ ولهذا قال:

١٦٥٦- فَاسْأَلْهُ فَتْحَ الْقُفْلِ مُجْتَهِدًا عَـلَى الْـ أَسْـنَانِ إِنَّ الْفَـتْحَ بِالْأَسْـنَانِ

يعني: اسألِ اللهَ دائمًا أن يفتحَ قلبَك، وأن يعينَكَ عَلَى الأعمال الصالحة التي هي أسنانُ هَذَا القفل.

ولـمَّا قيل لبعضهم[2]: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «مِفْتَاحُ الجَنَّةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[3]، قال: نعم، صدق الرسولُ، لكنَّ المِفْتَاحَ يحتاجُ إِلَى أسنانٍ، إن كان فيه أسنانٌ فتح، وإِلَّا فلا يفتحُ، وهذا صحيحٌ، اللهُمَّ اهدنا فيمن هديت.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣١)، أبو داود: كتاب الملاحم، باب خروج الدجال، رقم (٤٣١٩).
(٢) هو وهب بن منبه، كما في تخريج الحديث بعده.
(٣) أخرجه البخاري تعليقًا: كتاب الجنائز، باب ما جاء في الجنائز، ومن كان آخر كلامه: لا إله إلا الله.

فصل

١٦٥٧- هَذَا وَخَاتَمُ هَذِهِ الْعِشْرِينَ وَجْـ ـــهًا وَهْوَ أَقْرَبُهَا إِلَى الْأَذْهَانِ

١٦٥٨- سَرْدُ النُّصُوصِ فَإِنَّهَا قَدْ نَوَّعَتْ طُرُقَ الْأَدِلَّةِ فِي أَتَمِّ بَيَانِ

١٦٥٩- وَالنَّظْمُ يَمْنَعُنِي مِنَ اسْتِيفَائِهَا وَسِيَاقَةِ الْأَلْفَاظِ بِالْمِيزَانِ

١٦٦٠- فَأُشِيرُ بَعْضَ إِشَارَةٍ لِمَوَاضِعٍ مِنْهَا وَأَيْنَ الْبَحْرُ مِنْ خُلْجَانِ؟

١٦٦١- فَاذْكُرْ نُصُوصَ الْإِسْتِوَاءِ فَإِنَّهَا فِي سَبْعِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ

١٦٦٢- وَاذْكُرْ نُصُوصَ الْفَوْقِ أَيْضًا فِي ثَلَا ثٍ قَدْ غَدَتْ مَعْلُومَةَ التِّبْيَانِ

١٦٦٣- وَاذْكُرْ نُصُوصَ عُلُوِّهِ فِي خَمْسَةٍ مَعْلُومَةٍ بَرِئَتْ مِنَ النُّقْصَانِ

الشرحُ

١٦٥٧- هَذَا وَخَاتَمُ هَذِهِ الْعِشْرِينَ وَجْـ ـــهًا وَهْوَ أَقْرَبُهَا إِلَى الْأَذْهَانِ

١٦٥٨- سَرْدُ النُّصُوصِ فَإِنَّهَا قَدْ نَوَّعَتْ طُرُقَ الْأَدِلَّةِ فِي أَتَمِّ بَيَانِ

١٦٥٩- وَالنَّظْمُ يَمْنَعُنِي مِنَ اسْتِيفَائِهَا وَسِيَاقَةِ الْأَلْفَاظِ بِالْمِيزَانِ

١٦٦٠- فَأُشِيرُ بَعْضَ إِشَارَةٍ لِمَوَاضِعٍ مِنْهَا وَأَيْنَ الْبَحْرُ مِنْ خُلْجَانِ؟

فِي هَذَا الفصلِ يقولُ المؤلفُ -رحمه الله-: خاتمُ العشرين أن تُذْكَرَ النصوصُ الدالةُ عَلَى عُلُوِّ الله، وهي أنواعٌ متنوعةٌ، وليست نوعًا واحدًا، لكنَّ

المؤلفَ اعتذر عن سياقِها بلفظها؛ لأنَّ النَّظمَ يمنعُه، ولا يمكنُه أن يأتيَ بالآيات الكريمة عَلَى حسب ميزان النَّظم؛ لأن النَّظمَ كما قَالَ الحريريُّ -رحمه الله-[1]:

وَجَـائِزٌ فِي صَـنْعَةِ الشِّـعْرِ الصَّـلِفْ أَنْ يَصْرِفَ الشَّاعِرُ مَـا لَا يَنْصَـرِفْ

فالشِّعْر صَلِفٌ، لا يستطيعُ الإنسانُ أن يتحكَّمَ فيه، ولذا فإنَّه يشيرُ بعضَ إشارةٍ لمواضع منها.

قَوْلُهُ: «وَأَيْنَ الْبَحْرُ مِنْ خُلْجَانِ» أيهما أعظم؟

الجَوَابُ: البحرُ أعظمُ من الخليج لا شكَّ.

١٦٦١- فَـاذْكُرْ نُصُـوصَ الْإِسْتِوَاءِ فَإِنَّهَـا فِي سَـبْعِ آيَـاتٍ مِـنَ الْقُـرْآنِ

هذا نوعٌ من أنواع أدلة العلوِّ، وَهُوَ الِاسْتِوَاءُ، فإنَّ اللهَ قد صرَّحَ أنه -سبحانه- اسْتَوَى عَلَى عرشه في سبع آياتٍ من الْقُرْآن، وهي معلومةٌ، وقد سبق ذِكرُها.

١٦٦٢- وَاذْكُرْ نُصُوصَ الْفَوْقِ أَيْضًا فِي ثَـلَا ثٍ قَـدْ غَـدَتْ مَعْلُومَـةَ التِّبْيَـانِ

هذا نوعٌ آخر، وَهُوَ التَّصريحُ بذكر الفوقيَّة في ثلاث آيات: في سورة الأنعام آيتان قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام:٦١]، وفي النحل قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠].

١٦٦٣- وَاذْكُـرْ نُصُـوصَ عُلُـوِّهِ فِي خَمْسَـةٍ مَعْلُومَـةٍ بَرِئَـتْ مِـنَ النُّقْصَـانِ

قَوْلُهُ: «وَاذْكُرْ نُصُوصَ عُلُوِّهِ فِي خَمْسَةٍ» وهي قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَهُوَ

(١) انظر: ملحة الإعراب (ص:٧٢).

﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥] من آية الكرسيِّ ومن سورة الشورى أيضًا [الشورى:٤].

وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى:١]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣] وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾ [الرعد:٩]، وقوله تعالى: ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ [غافر:١٢] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء:٣٤]، فهذه خمسةٌ.

* * *

١٦٦٤- وَاذْكُرْ نُصُوصًا فِي الْكِتَابِ تَضَمَّنَتْ ... تَنْزِيلَهُ مِنْ رَبِّنَا الرَّحْمَنِ

١٦٦٥- فَتَضَمَّنَتْ أَصْلَيْنِ قَامَ عَلَيْهِمَا الْـ ... إِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ كَالْبُنْيَانِ

١٦٦٦- كَوْنَ الْكِتَابِ كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ ... وَعُلُوَّهُ مِنْ فَوْقِ كُلِّ مَكَانِ

١٦٦٧- وَعِدَادُهَا سَبْعُونَ حِينَ تُعَدُّ أَوْ ... زَادَتْ عَلَى السَّبْعِينَ فِي الْحُسْبَانِ

١٦٦٨- وَاذْكُرْ نُصُوصًا ضُمِّنَتْ رَفْعًا وَمِعْـ ... ـرَاجًا وَإِصْعَادًا إِلَى الدَّيَّانِ

١٦٦٩- هِيَ خَمْسَةٌ مَعْلُومَةٌ بِالْعَدِّ وَالْـ ... ـحُسْبَانِ فَاطْلُبْهَا مِنَ الْقُرْآنِ

١٦٧٠- وَلَقَدْ أَتَى فِي سُورَةِ الْمُلْكِ الَّتِي ... تُنْجِي لِقَارِئِهَا مِنَ النِّيرَانِ

١٦٧١- نَصَّانِ: أَنَّ اللهَ فَوْقَ سَمَائِهِ ... عِنْدَ الْمُحَرِّفِ مَا هُمَا نَصَّانِ

الشرحُ

١٦٦٤- وَاذْكُرْ نُصُوصًا فِي الْكِتَابِ تَضَمَّنَتْ ... تَنْزِيلَهُ مِنْ رَبِّنَا الرَّحْمَنِ

١٦٦٥- فَتَضَمَّنَتْ أَصْلَيْنِ قَامَ عَلَيْهِمَا الْـ ... إِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ كَالْبُنْيَانِ

١٦٦٦- كَـوْنَ الْكِتَـابِ كَلَامَـهُ سُـبْحَانَهُ   وَعُلُـوَّهُ مِـنْ فَـوْقِ كُـلِّ مَكَـانِ
١٦٦٧- وَعِـدَادُهَا سَـبْعُونَ حِـينَ تُعَـدُّ أَوْ   زَادَتْ عَلَى السَّبْعِينَ فِي الْـحُسْبَانِ

هذه أيضًا ثلاثُة أنواعٍ، وقد سبق الِاسْتِوَاءُ، والفوقيَّةُ، والعُلُوّ.

الرابع: كونُ الْقُرْآن تنزيلًا من عند الله، وهذا في آياتٍ كثيرةٍ بلغت سبعينَ آيةً أو تزيدُ، أنَّ الْقُرْآنَ تنزيلٌ من عند الله، وهذا كما قَالَ المؤلفُ تضمَّنت أَصْلَيْنِ قام عليهما الإسلامُ والإيمانُ كالبنيانِ، وهما:

الأصلُ الأول: كونُ الكتابِ كلامَه سبحانه، فإنَّ الْقُرْآنَ نزل من عند الله، والْقُرْآنُ كلامٌ، والكلامُ صفةُ المتكلِّم، فإذا كان الكلامُ نزل مِن عنده وَهُوَ صفتُه لزم أن يكونَ اللهُ فوقًا؛ لأنه إذا كان صفتَه، وقد نزل من فوق لزم أن يكونَ الموصوفُ فوقًا.

الأصلُ الثاني: أنَّ الْقُرْآنَ كلامُه غيرُ مخلوق؛ لأنَّ الْقُرْآنَ صفةٌ، إذ هُوَ كلامٌ، والكلامُ لا يقومُ إِلَّا بمتكلِّم، فالْقُرْآنُ غيرُ مخلوقٍ؛ لأنه صفةُ الله.

فتضمَّن ذكرُ تنزيلِ الْقُرْآن من عند الله أمرين:

الأمر الأول: علوُّ الله عزَّ وجلَّ لأنَّ النزولَ يكونُ من أعلى.

الأمر الثاني: أنَّ الْقُرْآنَ كلامُ الله، لا كلامَ غيره؛ لأنه نزل منه، وَهُوَ صفةٌ، فلزم أن يكونَ كلامَ الله.

ثُمَّ ذكر النوعَ الخامس فَقَالَ:

١٦٦٨- وَاذْكُرْ نُصُوصًا ضُمِّنَتْ رَفْعًا وَمِعْـ   ـرَاجًا وَإِصْـعَادًا إِلَى الـدَّيَّانِ

قَوْلُهُ: «ضُمِّنَتْ رَفْعًا» قَالَ الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، وقال عن عيسى -عليه الصلاة والسلام-: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء:١٥٨].

قَوْلُهُ: «وَمِعْرَاجًا» كما في قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤].

قَوْلُهُ: «وَإِصْعَادًا» الإصعادُ كما في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾.

١٦٦٩- هِـيَ خَمْسَـةٌ مَعْلُومَـةٌ بِالْعَـدِّ وَالْـ ـــحُسْبَانِ فَاطْلُبْهَـا مِـنَ الْقُـرْآنِ

إِذَنْ الصعودُ يستلزمُ أن يكونَ المصعودُ إليه عاليًا، والعروجُ كذلك، والرَّفْعُ كذلك، وهذا هُوَ النوعُ الخامسُ من الأدلة.

النوعُ السادس: أنَّ اللهَ في السَّماء، وهذا جَاءَ في سورة الملك، قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [الملك:١٦] ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك:١٧]؛ ولهذا قال:

١٦٧٠- وَلَقَدْ أَتَى فِي سُورَةِ الْـمُلْكِ الَّتِي تُنْجِـي لِقَارِئِهَـا مِـنَ النِّـيرَانِ

١٦٧١- نَصَّـانِ: أَنَّ اللهَ فَـوْقَ سَـمَائِهِ عِنْـدَ الْـمُحَرِّفِ مَـا هُمَـا نَصَّـانِ

قَوْلُهُ: «نَصَّانِ» النَّصُّ يعني: الدَّلِيلَ الواضح؛ ولهذا قيل: «فيه نصٌّ» مأخوذٌ من مِنَصَّة العروس التي تجلسُ عليها ليلة الزفاف، وهي منصوبةٌ رفيعةٌ، فالنَّصُّ معناه: المعنى الظاهر للفظ، لكن عند المحرِّف ما هما نصان؛ لأنه يقول: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: مُلْكُه، وليس هو، وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: سلطانه، وليس هو.

ولا شكَّ أنَّ هَذَا تحريفٌ؛ لأنَّ قولَه: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ضميرُ الصلة يعودُ إِلَى الله لا إِلَى غيره، فإذا قلنا: (مَنْ في السَّماء مُلْكُه) فمعناه أنَّ الصلةَ عادت إِلَى غير موصولها، فالصلةُ تعودُ إِلَى الموصول، والموصولُ هُوَ الله ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

فـ(مَنْ) اسمٌ موصولٌ يعود عَلَى الله عزَّ وجلَّ، فالذي في السَّماء ليس مُلْكَه، بل هُوَ اللهُ نفسُه، أما مُلْكُه فلله مُلكُ السَّموات والأرض، فملكُه في السَّموات وفي الأرض، وسلطانُه في السَّموات وفي الأرض.

لكنَّ المحرِّفَ -والعياذ بالله- لـمَّا طبع اللهُ عَلَى قلبه صار لا يرى الحقَّ حقًّا، بل يرى الباطلَ حقًّا، وإلَّا فإنَّ الأمرَ واضحٌ ولله الحمد، فتكونُ هَذِهِ الآيةُ نوعًا سادسًا في الدلالة عَلَى عُلوِّ الله.

* * *

١٦٧٢- وَلَقَدْ أَتَى التَّخْصِيصُ بِالْعِنْدِ الَّذِي ... قُلْنَا بِسَبْعٍ بَلْ أَتَى بِثَمَانِ

١٦٧٣- مِنْهَا صَرِيحٌ مَوْضِعَانِ بِسُورَةِ الْـ ... أَعْرَافِ ثُمَّ الْأَنْبِيَاءِ الثَّانِي

١٦٧٤- فَتَدَبَّرِ التَّعْيِينَ وَانْظُرْ مَا الَّذِي ... لِسِوَاهُ لَيْسَتْ تَقْتَضِي النَّصَّانِ

١٦٧٥- وَبِسُورَةِ التَّحْرِيمِ أَيْضًا ثَالِثٌ ... بَادِي الظُّهُورِ لِمَنْ لَهُ أُذُنَانِ

١٦٧٦- وَلَدَيْهِ فِي مُزَّمِّلٍ قَدْ بَيَّنَتْ ... نَفْسَ الْمُرَادِ وَقَيَّدَتْ بِبَيَانِ

١٦٧٧- لَا تَنْقُضُ الْبَاقِي فَمَا لِمُعَطِّلٍ ... مِنْ رَاحَةٍ فِيهَا وَلَا تِبْيَانِ

١٦٧٨- وَبِسُورَةِ الشُّورَى وَفِي مُزَّمِّلٍ ... سِرٌّ عَظِيمٌ شَأْنُه ذُو شَانِ

١٦٧٩- فِي ذِكْرِ تَفْطِيرِ السَّمَاءِ فَمَنْ يُرِدْ ... عِلْمًا بِهِ فَهْوَ الْقَرِيبُ الدَّانِي

١٦٨٠- لَمْ يَسْمَحِ الْمُتَأَخِّرُونَ بِنَقْلِهِ   جُبْنًا وَضَعْفًا عَنْهُ فِي الْإِيمَانِ
١٦٨١- بَلْ قَالَهُ الْمُتَقَدِّمُونَ فَوَارِسُ الْـ   إِسْلَامِ هُمْ أُمَرَاءُ هَذَا الشَّانِ
١٦٨٢- وَمُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ فِي   «تَفْسِيرِهِ» حُكِيَتْ بِهِ الْقَوْلَانِ

الشرحُ

هذا أيضًا من الأدلة عَلَى عُلُوِّ الله عزَّ وجلَّ وَهُوَ أنه جاءت آياتٌ متعددة في إثبات (العنديَّة)، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٢٠٦]، ومثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩] ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ [المزمل:١٢]، وأمثال ذلك.

فـ(العنديَّةُ) تدلُّ عَلَى العلوِّ؛ لأنه لو لم يكن عاليًا لكان كلُّ الخلق عنده، وحينئذٍ لا يتميَّزُ القريبُ من البعيد، فالنصوصُ التي فيها إثباتُ (العنديَّة) تدلُّ عَلَى أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- عالٍ فوق عرشه.

يقولُ المؤلفُ:

١٦٧٢- وَلَقَدْ أَتَى التَّخْصِيصُ بِالعِنْدِ الَّذِي   قُلْنَا بِسَبْعٍ بَلْ أَتَى بِثَمَانِ

أي: في ثماني آياتٍ أو ثمانية مواضع.

١٦٧٣- مِنْهَا صَرِيحٌ مَوْضِعَانِ بِسُورَةِ الْـ   أَعْرَافِ ثُمَّ الْأَنْبِيَاءِ الثَّانِي

قَوْلُهُ: «بِسُورَةِ الْأَعْرَافِ» في سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الأعراف:٢٠٦].

قَوْلُهُ: «ثُمَّ الْأَنْبِيَاءِ الثَّانِي» وَهُوَ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩].

١٦٧٤- فَتَدَبَّرِ التَّعْيِينَ وَانْظُرْ مَا الَّذِي ... لِسِوَاهُ لَيْسَتْ تَقْتَضِي النَّصَّانِ

التعيينُ لمن عنده يدلُّ عَلَى أنَّ سوى هؤلاء ليسوا عنده، إِذَنْ فهو -سبحانه وتعالى- عالٍ، ولولا ذلك لكان النَّاسُ كُلُّهم عنده.

١٦٧٥- وَبِسُورَةِ التَّحْرِيمِ أَيْضًا ثَالِثٌ ... بَادِي الظُّهُورِ لِمَنْ لَهُ أُذُنَانِ

قَوْلُهُ: «وَبِسُورَةِ التَّحْرِيمِ» كما قالت امرأةُ فرعون: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم:١١].

١٦٧٦- وَلَدَيْهِ فِي مُزَّمِّلٍ قَدْ بَيَّنَتْ ... نَفْسَ الْمُرَادِ وَقَيَّدَتْ بِبَيَانِ

قَوْلُهُ: «وَلَدَيْهِ فِي مُزَّمِّلٍ قَدْ بَيَّنَتْ نَفْسَ الْمُرَادِ» وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ [المزمل:١٢].

١٦٧٧- لَا تَنْقُضُ الْبَاقِي فَمَا لِمُعَطِّلٍ ... مِنْ رَاحَةٍ فِيهَا وَلَا تِبْيَانِ

يعني: أنَّ (لدى)، (وعند) لا يتناقضان؛ لأنك تقول: (فلانٌ لَدَيَّ، وفلانٌ عندي)، وهما سواءٌ في اللغة العربية، فلا يتناقضان.

١٦٧٨- وَبِسُورَةِ الشُّورَى وَفِي مُزَّمِّلٍ ... سِرٌّ عَظِيمٌ شَأْنُه ذُو شَانِ

١٦٧٩- فِي ذِكْرِ تَفْطِيرِ السَّمَاءِ فَمَنْ يُرِدْ ... عِلْمًا بِهِ فَهْوُ الْقَرِيبُ الدَّانِي

قَوْلُهُ: «وَبِسُورَةِ الشُّورَى» يعني: قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ [الشورى:٥].

قَوْلُهُ: «وَفِي مُزَّمِّلٍ» يعني: قوله تعالى في سورة المزَّمِّل: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل:١٨].

قَوْلُهُ: «فَمَنْ يُرِدْ عِلْمًا بِهِ فَهْوَ الْقَرِيبُ الدَّانِي» يعني: مَنْ يُرِدْ علمًا بهذا الشأن العظيم في سورة الشورى، وفي سورة المزَّمِّل فهو قريبٌ، فقولُه -سبحانه وتعالى-: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّ﴾ فقوله: ﴿مِن فَوۡقِهِنَّ﴾ يدلُّ عَلَى أنَّ اللهَ تعالى فوق، فمن عظمته تكادُ السَّموات تتفطَّرُ من فوق، ولم يقل: (من تحتهن) ممَّا يدلُّ عَلَى أنَّ الَّذِي تُعظِّمُه هَذِهِ السَّموات وتكاد تتفطَّرُ مِنْهُ فوقها.

١٦٨٠- لَمْ يَسْمَحِ الْـمُتَأَخِّرُونَ بِنَقْلِهِ جُبْنًا وَضَعْفًا عَنْهُ فِي الْإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «الْـمُتَأَخِّرُونَ» يعني بهم: أهلَ الكلام؛ لأنَّ أهلَ الكلام يكرهون كُلَّ نصٍّ يخالفُ بدعتَهم وما هم عليه، حتَّى قَالَ بعضُهم: (أتمنى أن أتمكنَ مِن حَكِّ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] في قوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١]؛ لأنه إذا قال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ فهذه صفةُ نفي، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] صفةُ إثباتٍ)، فيقولُ: أنا أتمنى أن أتمكنَ من حَكِّ ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] لماذا؟ لأنها جاءت عَلَى خلافِ مرادِه.

١٦٨١- بَلْ قَالَهُ الْـمُتَقَدِّمُونَ فَوَارِسُ الْـ إِسْلَامِ هُمْ أُمَرَاءُ هَذَا الشَّانِ

١٦٨٢- وَمُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» حُكِيَتْ بِهِ الْقَوْلَانِ

يعني: قالوا ما دَلَّ عليه قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّ﴾.

* * *

فصل

١٦٨٣- هَـذَا وَحَادِيهَـا وَعِشْـرِينَ الَّـذِي ... قَـدْ جَـاءَ فِي الْأَخْبَـارِ وَالْقُـرْآنِ

١٦٨٤- إِتْيَـانُ رَبِّ الْعَـرْشِ جـلَّ جَلَالُـهُ ... وَمَجِيئُـهُ لِلْفَصْـلِ بِالْـمِيزَانِ

١٦٨٥- فَانْظُرْ إِلَى التَّقْسِيمِ وَالتَّنْوِيعِ فِي الْـ ... ـقُرْآنِ تُلْفِيهِ صَرِيحَ بَيَانِ

١٦٨٦- إِنَّ الْـمَجِيءَ لِذَاتِـهِ لَا أَمْـرِهِ ... كَـلَّا وَلَا مَلَـكٌ عَظِـيمُ الشَّـانِ

١٦٨٧- إِذْ ذَانِكَ الْأَمْـرَانِ قَـدْ ذُكِـرَا وَبَيْـ ... ـنَهُمَا مَجِيءُ الـرَّبِّ ذِي الْغُفْـرَانِ

١٦٨٨- وَاللهِ مَا احْتَمَلَ الْمَجِيءُ سِوى مَجِي ... ءِ الـذَّاتِ بَعْـدَ تَبَـيُّنِ الْبُرْهَـانِ

١٦٨٩- مِنْ أَيْنَ يَأْتِي يَا أُولِي الْـمَعْقُولِ إِنْ ... كُنْـتُمْ ذَوِي عَقْـلٍ مَـعَ الْعِرْفَـانِ

١٦٩٠- مِـنْ فَوْقِنَـا أَوْ تَحْتِنَـا أَوْ عَـنْ شَـمَا ... ئِلِنَـا وَمِـنْ خَلْـفٍ وَعَـنْ أَيْـمَانِ؟

١٦٩١- وَاللهِ لَا يَـأْتِيهِمُ مِـنْ تَحْـتِهِمْ ... أَبَـدًا، تَعَـالَى اللهُ ذُو السُّـلْطَانِ

١٦٩٢- كَـلَّا وَلَا مِـنْ خَلْفِهِـمْ وَأَمَـامِهِمْ ... وَعَـنِ الشَّـمَائِلِ أَوْ عَـنِ الْأَيْـمَانِ

١٦٩٣- وَاللهِ لَا يَـأْتِيهِمُ إِلَّا مِـنَ الْـ ... ـعُلْوِ الَّذِي هُـوَ فَـوْقَ كُـلِّ مَكَـانِ

الشـرحُ

المؤلفُ -رحمه الله- ذكر هنا الدَّليلَ الحاديَ والعشرين من الأدلة الدالة عَلَى عُلُوِّ الله عزَّ وجلَّ وَهُوَ ما ثبت في الْقُرْآن والسُّنَّة من أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى-

يجيءُ للفصل بين عباده يومَ القيامة، فإذا ثبت هَذَا فمن أين يجيءُ؟ هل يجيءُ من تحت؟ لا يمكن، وهل يجيء من يمينٍ، أو شمالٍ، أو خلفٍ، أو أمامٍ؟ لا يمكنُ أيضًا؛ لأنه يقتضي أن يكونَ مساويًا للمخلوق، إِذَنْ لا يمكنُ إِلَّا من فوق.

قال المؤلف:

١٦٨٣- هَـذَا وَحَادِيهَـا وَعِشْـرِينَ الَّـذِي ... قَـدْ جَـاءَ فِي الْأَخْبَـارِ وَالْقُـرْآنِ

١٦٨٤- إِتْيَـانُ رَبِّ الْعَـرْشِ جِـلَّ جَلَالُـهُ ... وَمَجِيئُـهُ لِلْفَصْـلِ بِالْـمِيزَانِ

قَوْلُهُ: «**وَمَجِيئُهُ لِلْفَصْلِ بِالْـمِيزَانِ**» وهذا يكونُ يومَ القيامة.

١٦٨٥- فَانْظُرْ إِلَى التَّقْسِيمِ وَالتَّنْوِيعِ فِي الْـ ... ـقُرْآنِ تُلْفِيـهِ صَرِيـحَ بَيَـانِ

١٦٨٦- إِنَّ الْـمَجِيءَ لِذَاتِـهِ لَا أَمْـرِهِ ... كَـلَّا وَلَا مَلَـكٌ عَظِـيمُ الشَّـانِ

١٦٨٧- إِذْ ذَانِكَ الْأَمْـرَانِ قَـدْ ذُكِـرَا وَبَيْـ ... ـنَهُمَا مَجِـيءُ الـرَّبِّ ذِي الْغُفْـرَانِ

قَوْلُهُ: «**إِنَّ الْـمَجِيءَ**» ويجوز: «أنَّ المجيء».

وهذا في قولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢١-٢٢] فهنا لا يستقيمُ أن يُقَالَ: (جاء أمرُ ربِّك)، ولا (جاء مَلَكٌ من الملائكة)؛ لأنَّ الملائكةَ قد ذُكِرتْ.

والآية الثانية قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:١٥٨] وهذا تقسيمٌ وتنويعٌ واضحٌ أنَّ المرادَ إتيانُ الله -سبحانه وتعالى- بنفسِه، فإذا كان يأتي فيقول:

١٦٨٨- وَاللهِ مَا احْتَمَلَ المَجِيءُ سِوى مَجِي ... ءِ الـذَّاتِ بَعْـدَ تَبَـيُّنِ الْبُرْهَـانِ

ثُمَّ قَالَ -رحمه الله-:

١٦٨٩- مِنْ أَيْنَ يَأْتِي يَا أُولِي الْـمَعْقُولِ إِنْ   كُنْتُمْ ذَوِي عَقْلٍ مَعَ الْعِرْفَانِ

١٦٩٠- مِنْ فَوْقِنِا أَوْ تَحْتِنَا أَوْ عَنْ شَمَا   ئِلِنَا وَمِنْ خَلْفٍ وَعَنْ أَيْمَانِ؟

١٦٩١- وَالله لَا يَأْتِيهِمُ مِنْ تَحْتِهِمْ   أَبَدًا، تَعَالَى اللهُ ذُو السُّلْطَانِ

١٦٩٢- كَلَّا وَلَا مِنْ خَلْفِهِمْ وَأَمَامِهِمْ   وَعَنِ الشَّمَائِلِ أَوْ عَنِ الْأَيْمَانِ

١٦٩٣- وَالله لَا يَأْتِيهِمُ إِلَّا مِنَ الْـ   ـعُلْوِ الَّذِي هُوَ فَوْقَ كُلِّ مَكَانِ

وهذا واضحٌ.

* * *

فصل

فِي الإِشَارَةِ إِلَى ذَلِكَ مِنَ السُّنَّةِ

١٦٩٤- وَاذْكُرْ حَدِيثًا فِي الصَّحِيحِ تَضَمَّنَتْ ... كَلِمَاتُهُ تَكْذِيبَ ذِي الْبُهْتَانِ

١٦٩٥- لَمَّا قَضَى اللهُ الْخَلِيقَةَ رَبُّنَا ... كَتَبَتْ يَدَاهُ كِتَابَ ذِي الإِحْسَانِ

١٦٩٦- وَكِتَابُهُ هُوَ عِنْدَهُ وَضْعٌ عَلَى الْـ ... ـعَرْشِ الْمَجِيدِ الثَّابِتِ الأَرْكَانِ

١٦٩٧- إِنِّي أَنَا الرَّحْمَنُ تَسبِقُ رَحْمَتِي ... غَضَبِي وَذَاكَ لِرَأْفَتِي وَحَنَانِي

١٦٩٨- وَلَقَدْ أَشَارَ نَبِيُّنَا فِي خُطْبَةٍ ... نَحْوَ السَّمَاءِ بِأُصْبُعٍ وَبَنَانِ

١٦٩٩- مُسْتَشْهِدًا رَبَّ السَّمَوَاتِ الْعُلَى ... لِيَرَى وَيَسْمَعَ قَوْلَهُ الثَّقَلَانِ

١٧٠٠- أَتُرَاهُ أَمْسَى لِلسَّمَا مُسْتَشْهِدًا ... أَمْ لِلَّذِي هُوَ فَوْقَ ذِي الأَكْوَانِ؟

١٧٠١- وَلَقَدْ أَتَى فِي رُقْيَةِ الْمَرْضَى عَنِ الْـ ... ـهَادِي الْمُبِينِ أَتَمَّ مَا تِبْيَانِ

١٧٠٢- نَصٌّ بِأَنَّ اللهَ فَوْقَ سَمَائِهِ ... فَاسْمَعْهُ إِنْ سَمَحَتْ لَكَ الأُذُنَانِ

١٧٠٣- وَلَقَدْ أَتَى خَبَرٌ رَوَاهُ عَمُّهُ الْـ ... عَبَّاسُ صِنْوُ أَبِيهِ ذُو الإِحْسَانِ

١٧٠٤- أَنَّ السَّمَوَاتِ الْعُلَى مِن فَوْقِهَا الْـ ... ـكُرْسِي عَلَيْهِ الْعَرْشُ لِلرَّحْمَنِ

١٧٠٥- وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ يَنْظُرُ خَلْقَهُ ... فَانْظُرْهُ إِنْ سَمَحَتْ لَكَ الْعَيْنَانِ

١٧٠٦- وَاذْكُرْ حَدِيثَ حُصَيْنِ بْنِ الْمُنْذِرِ الثْـ ... ـثِقَةِ الرِّضَى أَعْنِي: أَبَا عِمْرَانِ

١٧٠٧- إِذْ قَالَ: رَبِّي فِي السَّمَاءِ لِرَغْبَتِي   وَلِرَهْبَتِي أَدْعُوهُ كُلَّ أَوَانِ
١٧٠٨- فَأَقَرَّهُ الْهَادِي الْبَشِيرُ وَلَمْ يَقُلْ:   أَنْتَ الْمُجَسِّمُ قَائِلٌ بِمَكَانِ
١٧٠٩- حَيَّزْتَ بَلْ جَهَّيْتَ بَلْ شَبَّهْتَ بَلْ   جَسَّمْتَ لَسْتَ بِعَارِفِ الرَّحْمَنِ
١٧١٠- هَذِي مَقَالَتُهُمْ لِمَنْ قَدْ قَالَ: مَا   قَدْ قَالَهُ حَقًّا أَبُو عِمْرَانِ
١٧١١- فَاللهُ يَأْخُذُ حَقَّهُ مِنْهُمْ ومِنْ   أَتْبَاعِهِمْ فَالْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ
١٧١٢- وَاذْكُرْ شَهَادَتَهُ لِمَنْ قَدْ قَالَ رَبْـ   ـبِي فِي السَّمَا بِحَقِيقَةِ الإِيمَانِ
١٧١٣- وَشَهَادَةِ العَدْلِ الْمُعَطِّلِ لِلَّذِي   قَدْ قَالَ ذَا بِحَقِيقَةِ الْكُفْرَانِ
١٧١٤- وَاحْكُمْ بِأَيِّهِمَا تَشَاءُ وَإِنَّنِي   لَأَرَاكَ تَقْبَلُ شَاهِدَ الْبُطْلَانِ
١٧١٥- إِنْ كُنْتَ مِن أَتْبَاعِ جَهْمٍ صَاحِبِ   التَّعْطِيلِ وَالْعُدْوَانِ وَالْبُهْتَانِ

الشرحُ

هذه المقطوعةُ أشار المؤلفُ -رحمه الله- فيها إلَى أحاديثَ متعددة فقال:

١٦٩٤- وَاذْكُرْ حَدِيثًا فِي الصَّحِيحِ تَضَمَّنَتْ   كَلِمَاتُهُ تَكْذِيبَ ذِي الْبُهْتَانِ
١٦٩٥- لَـمَّا قَضَى اللهُ الْخَلِيقَةَ رَبُّنَا   كَتَبَتْ يَدَاهُ كِتَابَ ذِي الإِحْسَانِ
١٦٩٦- وَكِتَابُهُ هُوَ عِنْدَهُ وَضْعٌ عَلَى الْـ   ـعَرْشِ الْمَجِيدِ الثَّابِتِ الأَرْكَانِ
١٦٩٧- إِنِّي أَنَا الرَّحْمَنُ تَسْبِقُ رَحْمَتِي   غَضَبِي وَذَاكَ لِرَأْفَتِي وَحَنَانِي

قَوْلُهُ: «وَاذْكُرْ حَدِيثًا...» هَذَا حديثٌ أخبر به النَّبِيُّ ﷺ عن ربِّه تعالى أنه سبحانه وبحمده لـمَّا قَضَى الخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ

غَضَبِي»[1]، فقوله: «عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ» يدلُّ عَلَى العلوِّ، وأنَّ اللهَ تعالى فوقَ كُلِّ شيءٍ، وإلَّا لكان هَذَا الكتابُ وغيرُه عَلَى حدٍّ سواء.

١٦٩٨- وَلَقَـدْ أَشَـارَ نَبِيُّنَـا فِي خُطْبَـةٍ ... نَحْـوَ السَّـمَاءِ بِأُصْـبُعٍ وَبَنَـانِ

١٦٩٩- مُسْتَشْهِدًا رَبَّ السَّمَوَاتِ الْعُلَـى ... لِـيَرَى وَيَسْـمَعَ قَوْلَـهُ الـثَّقَلَانِ

١٧٠٠- أَتُـرَاهُ أَمْسَـى لِلسَّـمَا مُسْتَشْـهِدًا ... أَمْ لِلَّذِي هُوَ فَـوْقَ ذِي الأَكْـوَانِ؟

يشيرُ المؤلفُ -رحمه الله- بِهَذِهِ الأبيات إِلَى ما ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر أنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ عَرَفَةَ، فَقَالَ لَـهُمْ: «هَلْ بَلَّغْتُ» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» يَرْفَعُ أَصْبُعَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا لِلنَّاسِ[2]، فهل النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام- يستشهدُ السَّماءَ، أو يستشهدُ مَنْ فوقَ السَّماء؟

الجَوَابُ: الثاني بلا شكٍّ؛ ولهذا قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» ولـم يقل: «يَا سَمَاءُ اشْهَدِي» وهذا شيءٌ معلومٌ، عَلِمَهُ كُلُّ الصحابة الذين سمعوا خطبةَ النَّبِيِّ -عليه الصلاة والسلام-.

١٧٠١- وَلَقَدْ أَتَى فِي رُقْيَةِ المَرْضَى عَـنِ الْـ ... ـهَادِي الْـمُبِينِ أَتَـمَّ مَـا تِبْيَـانِ

١٧٠٢- نَـصٌّ بِـأَنَّ اللهَ فَـوْقَ سَـمَائِهِ ... فَاسْمَعْهُ إِنْ سَمَحَتْ لَكَ الأُذُنَـانِ

وهذا في رقية المريض، حيث كان يقولُ ﷺ وَهُوَ يرقي المرضى: «رَبُّنَا اللهُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، رقم (٣٠٢٢)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم (٢٧٥١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب، رقم (١٠٥)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، رقم (١٦٧٩) واللفظ له.

الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ، فَاجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا، وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الوَجَعِ فَيَبْرَأ»(١).

الشاهد قوله: «رَبُّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ»، فإنه صريح بِأَنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- في السَّماء.

١٧٠٣- وَلَقَدْ أَتَى خَبَرٌ رَوَاهُ عَمُّهُ الْـ ... عَبَّاسُ صِنْوُ أَبِيهِ ذُو الْإِحْسَانِ

١٧٠٤- أَنَّ السَّمَوَاتِ الْعُلَى مِن فَوْقِهَا الْـ ... ـكُرْسِي عَلَيْهِ الْعَرْشُ لِلرَّحْمَنِ

١٧٠٥- وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ يَنْظُرُ خَلْقَهُ ... فَانْظُرْهُ إِنْ سَمَحَتْ لَكَ الْعَيْنَانِ

قَوْلُهُ: «خَبَرٌ» أي: حديث.

قَوْلُهُ: «فَانْظُرْهُ» يعني: انظر الحديثَ إن سمحت لك العينان.

وهذا حديثٌ رواه العبَّاسُ عن النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام- «أَنَّ السَّمواتِ السَّبْعِ بَيْنَهَا مَسِيرَةُ كَذَا وَكَذَا» وَذَكَرَها، «وأَنَّ الكُرْسِيَّ فَوْقَ ذَلِكَ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ الكُرْسِيِّ، وأَنَّ اللهَ تعالى فَوْقَ العَرْشِ يَنْظُرُ إِلَى عِبَادِهِ»(٢)، فهذا حديثٌ دَلَّ عَلَى العلوِّ.

١٧٠٦- وَاذْكُرْ حَدِيثَ حُصَيْنِ بْنِ الْمُنْذِرِ الثِّـ ... ـقَةِ الرِّضَى أَعْنِي: أَبَا عِمْرَانِ

١٧٠٧- إِذْ قَالَ: رَبِّي فِي السَّمَاءِ لِرَغْبَتِي ... وَلِرَهْبَتِي أَدْعُوهُ كُلَّ أَوَانِ

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى، رقم (٢١٨٦).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب التفسير، باب ومن سورة الحاقة، رقم (٣٣٢٠)، وقال: هذا حديث حسن غريب.

١٧٠٨- فَأَقَرَّهُ الْهَادِي الْبَشِيرُ وَلَمْ يَقُلْ: أَنْتَ الْمُجَسِّمُ قَائِلٌ بِمَكَانِ

عمران بن حصين معروفٌ مشهورٌ، وأبوه «حُصَيْن» سأله النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام-: «كم إِلـهًا تَعْبُدُ» قَالَ: أَعْبُدُ سَبْعَةَ آلِهَةٍ: وَاحِدًا في السَّماء، وَسِتَّةً فِي الأَرْضِ، قَالَ: «مَنْ تَعُدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ» قال: الَّذِي فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «فَاعْبُدِ الذِي فِي السَّمَاءِ»[1] فأقرَّه عَلَى قوله: «فِي السَّماء».

وأمَّا أهلُ التعطيل الذين يُنكرونَ العلوَّ فيقولون: مَنْ قال: إِنَّ اللهَ في السَّماء فهو مُجَسِّمٌ.

١٧٠٩- حَيَّزْتَ بَلْ جَهَّيْتَ بَلْ شَبَّهْتَ بَلْ جَسَّمْتَ لَسْتَ بِعَارِفِ الرَّحْمَنِ

يعني: هم يقولون فيمن قال: إنَّ اللهَ تعالى في السَّماء: (حَيَّزت) أي: جعلتَ الله تعالى في حَيِّزٍ، وهذا نقصٌ في حقِّ الله؛ لأنَّ اللهَ وسِعَ كُرسيُّه السَّموات والأرض؛ فيقولون: هؤلاء محيِّزةٌ، أي: القائلون: إِنَّ اللهَ في حَيِّزٍ تحوزه المخلوقاتُ.

نحن نقول لهم: كلمة (حَيِّز) لم تَرِدْ لا في الْقُرْآن ولا في السُّنَّة، لا نفيًا ولا إثباتًا، فأنتم لا تلزمونا لا بنفيها ولا بإثباتها، ومع ذلك نحن نتنزَّلُ معكم، ونقول: ماذا تريدون بالحيِّز الَّذِي شوَّهتم به سمعتنا؟ هل تريدون بالحيِّز أنَّ اللهَ منحازٌ عن المخلوقات بائِنٌ منها؟ فنحن نقول به، هل تريدون بالحيِّز أنَّ اللهَ تعالى منحازٌ في المخلوقات، يعني: أنها تحوزه وتُحيط به؟ فنحن لا نقولُ به.

وحينئذٍ نقول: لَنَا نظران في الحيِّز.

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٧٧)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة (٤/ ٧٢١، رقم ١١٨٤).

أولًا: من جهة لفظه، فالواجبُ علينا أن لا نثبتَه ولا ننفيَه؛ لأنه لم يَرِدْ إثباتُه ولا نفيُه.

ثانيًا: من جهة معناه: فإن أردت أنَّ اللهَ في حيِّزٍ يحوزه، فهذا قولٌ منكر، ولا نقول به، وإن أردت أنَّ اللهَ منحازٌ عن المخلوقات بائِنٌ منها ليس حالًّا فيها، فهذا حقٌّ.

قَوْلُهُ: «بَلْ جَهَّيْتَ» يعني: قلتَ: إِنَّ اللهَ في جهة -ويا ويل مَنْ قال: إِنَّ اللهَ في جهة- مع أنَّ الرسولَ -عليه الصلاة والسلام- قال: «أَيْنَ اللهُ؟» و(أَيْنَ) يُسْتَفْهَمُ بها عن المكان، لكن هم يقولون: أيُّ إنسانٍ يُثبتُ العلوَّ لله فهو مُثبتٌ للجهة.

نقول في الجهة كما قلنا في الحيِّز تمامًا، فبالنسبة للفظ لا ننفيه ولا نثبته، فلا نقولُ: اللهُ في جهةٍ ولا في غيرِ جهة، هَذَا لا تلزمونا به؛ لأنَّ اللهَ لم يثبتْه لنفسه، ولا نفاه عن نفسه، ونحن في غنًى عن الكلام فيه.

لكن تنزُّلًا معك نقولُ: إن أردتَ جهةً تُحيطُ بالله فهذا مُنْكَرٌ ولا نقولُ به، وإن أردتَ أنَّ اللهَ في العلوِّ، فالعلوُّ عدمٌ، يعني: لا يوجدُ شيءٌ يحيطُ بالله، فليس فَوْقَ العالَمِ إِلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ، فإذا أردتَ أنَّ اللهَ في جهة، أي: في جهة العلوِّ الَّذِي لا يُحيط به شيءٌ من مخلوقاتِه فهذا حقيقةٌ نوافقُكَ عليها، وهذا باعتبار المعنى.

أمَّا في اللفظ فليس علينا، بل وليس لَنَا أن نثبتَه أو ننفيَه؛ لأنه لم يَرِدْ إثباتُه ولا نفيُه.

قَوْلُهُ: «بَلْ شَبَّهْتَ» شَبَّهت يعني: إذا قلتَ: إِنَّ اللهَ في العلوِّ فأنت مُشَبِّهٌ؛ لأنَّ العلوَّ الذاتيَّ لا يقومُ إِلَّا بجسمٍ، والأجسامُ متماثلةٌ.

هنا نقول: لا نوافقُكم عَلَى هذا، نحن لا ننفي التشبيهَ المطلقَ ولا نثبتُه؛ لأنَّ التشبيهَ المطلقَ لم يَقُل به أحدٌ من النَّاس أبدًا حتَّى الكُفَّار ما يقولون به، فالتشبيهُ

المطلقُ معناه: التساوي من كُلِّ وجه، وهذا لا أحدَ يقولُ به، يعني: لا أحدَ من الناس قال: إِنَّ الخالقَ مشابهٌ للمخلوق من كُلِّ وجه، حتَّى المجوس الثنويَّة الذين يقولون: (إنَّ للعالَمِ خالِقَيْن) لا يقولون بتساويهما، أي: بتساوي هَذَيْنِ الخالِقَيْن، ماذا يقول المجوس؟

يقولون: إِنَّ الخيرَ يخلقُه النَّوُر، والشَّرَّ تخلقُه الظلمةُ؛ لأنَّ الشَّرَّ عدمٌ، والظلمةَ عدمُ نورٍ، والنَّور وجود، والخير وجود، لكن مع ذلك لا يقولون: إِنَّ الظلمةَ والنورَ سواء، يقول بعضهم: النورُ قديمٌ، والظلمةُ حادثةٌ، إِذَنْ لا تساوي، النور لا شكَّ أنه أمرٌ مرغوب والظلمةُ مكروهةٌ، إِذَنْ لا تساوي، النور يُنتجُ الخيرَ، والظلمةُ تُنتج الشَّرَّ، فلا يتساويان في آثارهما وتأثيرهما.

إِذَنْ لم يَقُل أحدٌ من الخَلق: إِنَّ الخالقَ والمخلوقَ متشابهان من كُلِّ وجهٍ تشابهًا مطلقًا.

وإن أردتم بالتشبيه الاشتراك في أصل المعنى فهذا حَقٌّ، فالخالق والمخلوق بينهما اشتراكٌ في أصل المعنى في الصِّفَات، فـ(الحَيَاة) في الأصل معنى مشترك، (السَّمع) في الأصل معنى مشترك، لكن فرقٌ بين حياة الخالق وحياة المخلوق، وفرقٌ بين سمع الخالق وسمع المخلوق، حينئذٍ رميُكم إِيَّانا بالمشَبِّهَة غيرُ مقبولٍ، فهذه دعوى منكم.

قَوْلُهُ: «بَلْ جَسَّمْتَ» يعني: قلت: إِنَّ اللهَ جسمٌ، الَّذِي يثبتُ لله صفةً يقول: هُوَ مُجَسِّمٌ، فإذا قلتَ: (إِنَّ لله يدين) قالوا: هَذَا تجسيمٌ، (لله وجهٌ) قالوا: هَذَا مُجَسِّم هَذَا تجسيمٌ.

فنقول لهم: أوَّلًا ليس لكم أن تلزمونا بالقول بالجسم أو بنفيه؛ لأنه لم يَرِدْ

نفيًا ولا إثباتًا، وليس علينا، بل ولا لَنَا أن نثبتَ أو ننفيَ، لكن في المعنى نقول: ماذا تريدون بالجسم الَّذِي شوَّهتمونا به؟ هل تريدون أن نقولَ: إنَّ اللهَ جسمٌ مشابهٌ للأجسام، أي: مُرَكَّبٌ من عظم، وعصب، ولحم، ودم؟ فهذا مُنْكَرٌ، ولا نقول به، أو تريدون بأنَّ اللهَ جسمٌ، تريدون به أنَّ اللهَ تعالى موصوفٌ بالصِّفَات وقابلٌ للصفات فهذا حَقٌّ لا شَكَّ، فهو -سبحانه وتعالى- موصوفٌ بالصِّفَات: يستوي عَلَى العرش، وينزلُ، ويأخذ بيده عزَّ وجلَّ، ويضحكُ، وله وجهٌ، وله يدٌ، وله عينان، فهذا حَقٌّ، ونقولُ به، وما الَّذِي يضرنا من هذا؟!

فإذن هم -والعياذ بالله- يشوِّهون مذهبَ أهل السُّنَّة بمثل هَذِهِ الكلمات؛ لأنَّ اللهَ تعالى لـمَّا أرسل الرسلَ جعل أعداءَهم ينابذونهم بِهَذِهِ الزخارف من القول، ففي سورة الأنعام يقول اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفُرْقَان:٣١]، ولاحِظوا أنَّ عدوَّ الرسول عدوٌّ لأتباع الرسول، فالمشركون في عهد الرسول أعداءٌ له، وكذلك مَنْ خالفوا هديَه إِلَى يومنا هَذَا هم أعداءٌ لنا، يقولون مثل ما قَالَ الأوَّلون.

قَوْلُهُ: «لَسْتَ بِعَارِفِ الرَّحْمَنِ» إِذَنْ من العارف عَلَى زعمهم؟

الجَوَابُ: هم العارفون، هم الذين يعرفون اللهَ، وأنه لا يُوصَفُ بصفةِ كمالٍ، هَذَا معرفتُهم لربِّهم، يعني: لا يسمعُ، ولا يُبصرُ، ولا يتكلَّمُ، ولا يُحِبُّ، ولا يكرهُ، ولا يرضى، هل الَّذِي يصفُ اللهَ بهذا النَّفي عارفٌ لله؟! أبدًا والله، بل هُوَ أجهلُ الخَلق بالله.

١٧١٠- هَذِي مَقَالَتُهُمْ لِـمَنْ قَـدْ قَـالَ: مَـا قَـدْ قَالَـهُ حَقًّـا أَبُـو عِمْـرَانِ

قَوْلُهُ: «أَبُو عِمْرَانِ» أي: حُصَين بن المنذر.

١٧١١- فَـاللهُ يَأْخُـذُ حَقَّـهُ مِـنْهُمْ ومِـنْ أَتْبَـاعِهِمْ فَالْـحَقُّ لِلـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «فَاللهُ يَأْخُذُ حَقَّهُ مِنْهُمْ وَمِنْ أَتْبَاعِهِمْ» هَذَا يجوز أن يكون خبرًا، ويجوز أن يكون دعاءً من المؤلف، يعني: يسأل اللهَ أن يأخذ حقَّه من هؤلاء، أو أنه يُخبرُ بأنَّ اللهَ سوف يأخذُ حقَّه منهم، والمعنيان متلازمان.

١٧١٢- وَاذْكُرْ شَهَادَتَهُ لِـمَنْ قَدْ قَـالَ رَبْـ ـبِـي فِي السَّـمَا بِحَقِيقَـةِ الإِيـمَانِ

ويعني بذلك: الجاريةَ التي سألها النَّبِيُّ ﷺ: «أَيْنَ اللهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، فقال: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»[1].

١٧١٣- وَشَهَادَةِ العَـدْلِ الـمُعَطِّلِ لِلَّـذِي قَـدْ قَـالَ ذَا بِحَقِيقَـةِ الْكُفْـرَانِ

اللهُ المستعانُ، النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام- قال: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»، وعند المعطِّل الَّذِي يقول: إنَّ اللهَ في السَّماء، يقول: لا تعتقْه، فإنه كافرٌ.

فهؤلاء يشهدون بالكفر لمن أقرَّ بأنَّ اللهَ في السَّماء، والنَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام- شَهِدَ بالإيمان لمن أقرَّ بأنَّ اللهَ في السَّماء.

١٧١٤- وَاحْكُـمْ بِـأَيِّهِمَا تَشَـاءُ وَإِنَّنِـي لَأَرَاكَ تَقْبَـلُ شَـاهِدَ الْـبُطْلَانِ

قَوْلُهُ: «وَاحْكُمْ بِأَيِّهِمَا تَشَاءُ» يعني: هل تحكمُ عَلَى مَنْ قال: إنَّ اللهَ في السَّماء بالإيمان أو بالكفر؟

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).

الجَوَابُ: بالإيمان كما حكم الرسولُ -عليه الصلاة والسلام-.

قَوْلُهُ: «وَإِنَّنِي لَأَرَاكَ تَقْبَلُ شِاهِدَ الْبُطْلَانِ» متى تقبله؟ قال:

١٧١٥- إِنْ كُنْتَ مِن أَتْبَاعِ جَهْمٍ صَاحِبِ ... التَّعْطِيلِ وَالْعُدْوَانِ وَالْبُهْتَانِ

إِذَنْ سوف تَقْبَلُ مَنْ حكم عَلَى مَنْ قَالَ بأنَّ اللهَ في السَّماء بالكفر إذا كنت من أتباع جَهْم، وبالإيمان إذا كنت من أتباع محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-.

* * *

١٧١٦- واذْكُرْ حديثًا لابنِ إسحاقَ الرِّضَى ... ذاكَ الصَّدُوقُ الحَافِظُ الرَّبَّانِي

١٧١٧- فِي قِصَّةِ اسْتِسْقَائِهِم يَسْتَشْفِعُو ... نَ إِلَى الرَّسُولِ بِرَبِّهِ المَنَّان

١٧١٨- فَاسْتَعْظَمَ المُخْتَارُ ذاكَ وقال: شَأْ ... نُ الله رَبِّ العَرشِ أَعْظَمُ شَان

١٧١٩- اللهُ فَوْقَ العَرْشِ فَوْقَ سَمائِه ... سُبْحانَ ذِي المَلَكُوتِ والسُّلْطان!

١٧٢٠- وَلِعَرْشِه منهُ أَطِيطٌ مِثلَ مَا ... قَدْ أَطَّ رَحْلُ الرَّاكِبِ العَجْلَان

١٧٢١- لله مَا لَقِيَ ابنُ إسحاقٍ مِنَ الـ ... ـجَهْمِيِّ إِذْ يَرْمِيهِ بِالعُدْوَان

١٧٢٢- وَيَظَلُّ يَمْدَحُهُ إذا كانَ الذي ... يَروِي يُوافِقُ مَذْهَبَ الطَّعَّان

١٧٢٣- كَمْ قَدْ رَأَيْنا مِنْهُمُ أَمْثَالَ ذا ... فالحُكْمُ لله العَلِيِّ الشَّان

١٧٢٤- هَذَا هُوَ التَّطْفِيفُ لا التَّطْفِيفُ في ... ذَرْعٍ وَلَا كَيْلٍ وَلَا مِيزَان

الشرحُ

١٧١٦- واذْكُرْ حديثًا لابنِ إسحاقَ الرِّضَى ... ذاكَ الصَّدُوقُ الحافظُ الرَّبَّانِي

١٧١٧- فِي قِصَّـة اسْتِسْـقَائِهم يَسْتَشْـفِعُو نَ إِلَى الرَّسُـولِ بِرَبِّـهِ الـمَنَّان

١٧١٨- فَاسْتَعْظَمَ الـمُخْتَارُ ذاكَ وقال: شَأْ نُ الله رَبِّ العَـرشِ أَعْظَـمُ شَـان

١٧١٩- اللهُ فَـوْقَ العَـرْشِ فَـوْقَ سَـمائِه سُبْحانَ ذِي المَلَكُوتِ والسُّلْطان!

١٧٢٠- وَلِعَرْشِـه منـهُ أَطِـيطٌ مِثْـلَ مَـا قَـدْ أَطَّ رَحْـلُ الرَّاكِـبِ العَجْـلَان

أشار المؤلفُ أيضًا إِلَى حديثٍ رُوي من طريق ابنِ إسحاقَ، ووصف ابنُ القيِّمِ ابنَ إسحاقَ بأنه صدوقٌ حافظٌ رَبَّاني.

والمعروف أنَّ ابنَ إسحاقَ -رحمه الله- من المدلِّسين، وأنه إذا لم يُصَرِّحْ بالتحديث فحديثُه مُدَلَّسٌ ضعيفٌ، وإنْ صَرَّحَ بالتحديث فاختلف العلماء فيه: فمنهم مَنْ ضَعَّفَ الرجلَ، وقال: إنه لا يُحْتَجُّ به عَلَى أنهم يحتجُّون به في التاريخ والأخبار، ومنهم مَنْ قال: إنَّ حديثَه حسنٌ مُحْتَجٌّ به، ومنهم مَنْ قال: بل هُوَ ثقةٌ إذا صَرَّحَ بالتحديث.

فللعلماء فيه ثلاثةُ أقوالٍ فيما إذا صَرَّح بالتحديث: ثقةٌ مقبولٌ، حديثُه حسنٌ، الثالث: ضعيفٌ.

أمَّا إذا لم يُصَرِّح بالتحديث فإنه -رحمه الله- ممَّن عُرِف بالتدليس، والمدلِّسُ إذا عنعن يكون حديثُه غيرَ متصلٍ، يعني: ضعيفًا.

على كُلِّ حالٍ أشار المؤلفُ إِلَى حديث أنَّ رجلًا جَاءَ يَسْتَسْقِي بالنَّبِيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- يقولُ: «إِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى الله، وَنَسْتَشْفِعُ بِالله عَلَيْكَ»[1].

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السُّنَّة، باب في الجهمية، رقم (٤٧٢٦).

فذكر الأعرابيُّ جملتين: «نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى الله»، «وَنَسْتَشفِعُ بالله عَلَيْكَ»، الجملةُ الأولى صحيحةٌ، والجملةُ الثانيةُ خطأٌ عظيمٌ؛ ولهذا سَبَّح النَّبيُّ ﷺ أي: جعل يُسَبِّحُ سبحان الله! سبحان الله! سبحان الله! حتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِالله عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ الله أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا اللهُ؟ إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَوَاتِهِ لَـهَكَذَا»، وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ القُبَّةِ عَلَيْهِ «وَإِنَّهُ -أي: العَرْشِ- لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ»[1].

الأطيط: الصَّرير، والرَّحْل: ما يُشَدُّ عَلَى البعير، فتجدُ البعيرَ إذا كان مُحَمَّلًا يكون للرَّحل صريرٌ يصرصرُ.

وهذا الحديثُ ضَعَّفه أكثرُ أهلِ العلم، لكن لَعَلَّ ابن القيِّم -رحمه الله- صحَّحَه لشواهده.

على كُلِّ حالٍ نقولُ: إنه لا يجوزُ لأحدٍ أن يقولَ: «إني أستشفعُ بالله عليك» لماذا؟ لأنَّ الشافعَ منزلتُه دونَ المشفوع إليه؛ لأنه لو كانت منزلتُه أعلى لكان يأمرُ، ولا يشفعُ، فإذا قلت: «أستشفعُ بالله عليك» فقد جعلتَ مرتبةَ الله -جلَّ وعلا- دون مرتبة المشفوع عنده، وهذا شيءٌ عظيمٌ؛ ولهذا قَالَ الرسول: «إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِالله عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ» لكن إذا قلتَ: «أَسْتَشْفِعُ بك عَلَى الله»، وكان حيًّا يقدرُ أن يدعوَ لك، فهذا لا بأسَ به، قَالَ النَّبيُّ -عليه الصلاة والسلام-: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِالله شَيْئًا إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ»[2] يعني: جَعَلَهم شفعاءَ.

(١) أخرجه الطبراني (٨/ ٢٤٦، رقم ٧٩٦٦) قال الهيثمي (١٠/ ٣٩٨): فيه جعفر بن الزبير وهو متروك. والحاكم (٢/ ٤٠٢، رقم ٣٤٠٢).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب من صلى عليه أربعون شفعوا فيه، رقم (٩٤٨).

وهذا ممَّا يدلُّ أيضًا عَلَى العلوِّ.

قَوْلُهُ: «فَاسْتَعْظَمَ المُخْتَارُ ذَاكَ» أي: استعظم كونهم يستشفعون بالله إِلَى الرسول.

ثُمَّ قال:

١٧٢١- لله مَا لَقِيَ ابنُ إسحاقٍ مِنَ الـ ـجَهْمِيِّ إِذْ يَرْمِيهِ بِالعُدْوَان

١٧٢٢- وَيَظَلُّ يَمْدَحُهُ إذا كانَ الذي يَرْوِي يُوافِقُ مَذْهَبَ الطَّعَّان

يقول: إِنَّ ابنَ إسحاقَ إذا روى ما يخالفُ مذهبَ المعطِّل رماه بالقدح والسَّبِّ والشَّتم، وإذا روى ما يوافِقُه قال: هَذَا هُوَ الرجلُ الثقةُ العدلُ الثَّبْتُ؛ لأنه يوافقُ هواه، فيقول ابنُ القيِّم:

١٧٢٣- كَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْهُمُ أَمْثَالَ ذا فالحُكْمُ لله العَلِيِّ الشَّان

١٧٢٤- هَذَا هُوَ التَّطْفِيفُ لا التَّطْفِيفُ في ذَرْعٍ وَلَا كَيْلٍ وَلَا مِيزَان

قال اللهُ تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين:١-٣].

فالذي لا يقبلُ الحقَّ إِلَّا إذا وافقَ هواه وَيَرُدُّه إذا خالفَ هواه، هَذَا مُطَفِّفٌ، هَذَا أعظمُ من تطفيف الكيل، والوزن، والذرع.

* * *

١٧٢٥- وَاذْكُرْ حَدِيثَ نُزُولِهِ نِصْفَ الدُّجَى في ثُلْثِ لَيْلٍ آخِرٍ أَوْ ثَانِي

١٧٢٦- فَنُزُولُ رَبٍّ لَيْسَ فَوْقَ سَمَائِهِ فِي العَقْلِ مُمْتَنِعٌ وَفِي القُرْآنِ

١٧٢٧- وَاذْكُرْ حَدِيثَ الصَّادِقِ ابْنِ رَوَاحَةٍ ... فِي شَأْنِ جَارِيَةٍ لَدَى الغَشَيَانِ
١٧٢٨- فِيهِ الشَّهَادَةُ أَنَّ عَرْشَ الله فَوْ ... قَ الْماءِ خَارِجَ هَذِهِ الأَكْوَانِ
١٧٢٩- وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ جَلَّ جَلَالُهُ ... سُبْحَانَهُ عَنْ نَفْيِ ذِي البُهْتَانِ
١٧٣٠- ذَكَرَ ابْنُ عَبْدِ البَرِّ فِي «اسْتِيعَابِهِ» ... هَذَا وَصَحَّحَهُ بِلَا نُكْرَانِ

الشَّرحُ

هذان أيضًا حديثان ذكرهما المؤلفُ، الأوَّل: حديثُ النزول إِلَى السَّماء الدنيا في نصف الليل(١)، والنزول عقلًا لا يكون إِلَّا من أعلى؛ لأنه لا يمكنُ أن يُقَالَ: «نزل» إِلَّا إذا كان عاليًا.

يقول:

١٧٢٥- وَاذْكُرْ حَدِيثَ نُزُولِهِ نِصْفَ الدُّجَى ... فِي ثُلْثِ لَيْلٍ آخِرٍ أَوْ ثَانِي
١٧٢٦- فَنُزُولُ رَبٍّ لَيْسَ فَوْقَ سَمَائِهِ ... فِي العَقْلِ مُمْتَنِعٌ وَفِي القُرْآنِ

قَوْلُهُ: «نِصْفَ الدُّجَى» يعني: نصفَ الليل، لا يمكنُ أن ينزلَ إِلَّا من أعلى، ولكن يجبُ أن نعلمَ أنَّ نزولَ الله من السَّماء الدنيا لا يعني: أنه يزولُ وصفُه بالعُلُوِّ، فهو عزَّ وجلَّ نازلٌ عالٍ؛ لأنَّ اللهَ ليس كمثله شيء في جميع صفاته.

ولكن هل يخلو مِنْهُ العرشُ؛ لأنَّ الِاسْتِوَاءَ ليس صفةً ذاتيَّة أو لا يخلو مِنْهُ العرشُ؟

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١٠٩٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، رقم (٧٥٨).

في هَذَا ثلاثةُ أقوالٍ لأهل العلم:

القول الأول: يخلو مِنْهُ العرشُ.

القول الثاني: لا يخلو مِنْهُ العرشُ.

القول الثالث: التوقف.

فلدينا مسألتان:

المسألة الأولى: هل إذا نزل ينتفي عنه العلوُّ؟ الجواب: لا، لا يمكنُ؛ لأنَّ العلوَّ صفةُ ذاتٍ، والصفةُ الذاتيَّةُ لازمةٌ، لا ينفكُّ اللهُ عنها.

المسألة الثانية: هل يخلو مِنْهُ العرشُ؛ لأنَّ الإسْتِوَاءَ عَلَى العرش صفةُ فعلٍ يفعلُها متى شاء؟ نقول: في المسألة ثلاثةُ أقوال للعلماء: فمنهم مَنْ قال: نعم يخلو مِنْهُ العرشُ، ومنهم مَنْ قال: لا، وهذا الثاني اختيارُ شيخِ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أنه لا يخلو مِنْهُ العرش، والله عَلَى كُلِّ شيءٍ قدير، يكون نازلًا إِلَى السَّماء الدنيا وَهُوَ عَلَى عرشه؛ لأنَّ اللهَ لا يُشْبِهُه شيءٌ، ومنهم مَنْ قال: بل نتوقَّفُ أو نسكت.

والصوابُ عندي: أننا نسكتُ، ولا نتكلَّم بهذا إطلاقًا؛ لأنَّ هَذَا لو كان التفصيلُ فيه خيرٌ لكان الصحابةُ أوَّلَ مَنْ يسألُ الرسولَ ﷺ، فالصوابُ أن نسكتَ عن هذا، ونُعرِضَ عنه.

١٧٢٧- وَاذْكُرْ حَدِيثَ الصَّادِقِ ابْنِ رَوَاحَةٍ ... فِي شَأْنِ جَارِيَةٍ لَدَى الغَشَيَانِ

١٧٢٨- فِيهِ الشَّهَادَةُ أَنَّ عَرْشَ اللهِ فَوْ ... قَ الْمَاءِ خَارِجَ هَذِهِ الأَكْوَانِ

١٧٢٩- وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ جَلَّ جَلَالُهُ ... سُبْحَانَهُ عَنْ نَفْيِ ذِي الْبُهْتَانِ

حديثُ ابن رواحةَ[١] هُوَ أنَّ عبدَ الله بن رواحة عنده جاريةٌ، فدخلت عليه امرأتُه، فأخذت السِّكِّينَ؛ لأنها غارت، كَيْفَ تجامعُ الجارية؟! فغارت منها فقال: عَلَى مهلك، أَتُحِبين أن أقرأ عليك؟ والمعروف أنَّ الجنبَ لا يقرأُ الْقُرْآنَ، قالت: نعم، اقرأ، فقال:

شَهِدْتُ بِأَنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ... وَأَنَّ النَّارَ مَثْوَى الكَافِرِينَا

وَأَنَّ العَرْشَ فَوْقَ السَّماءِ طَافٍ ... وَفَوْقَ العَرْشِ رَبُّ العَالَمِينَا

الشاهدُ قولُه: «وَفَوْقَ العَرْشِ رَبُّ العَالَمِينَا» لما قرأ عليها البيتين قالت: إِذَنْ، لا جماع؛ لأنَّ الجنبَ لا يقرأُ الْقُرْآنَ، فَظَنَّت أنَّ هذين البيتين قرآنٌ، فهدأ غضبُها، فأخبر عبدُ الله بنُ رواحةَ النَّبِيَّ ﷺ بذلك فأقرَّه عَلَى قوله:

وَأَنَّ العَرْشَ فَوْقَ السَّماءِ طَافٍ ... وَفَوْقَ العَرْشِ رَبُّ العَالَمِينَا[٢]

١٧٣٠- ذَكَرَ ابْنُ عَبْدِ البَرِّ فِي «اسْتِيعَابِهِ» ... هَذَا وَصَحَّحَهُ بِلَا نُكْرَانِ

قَوْلُهُ: «ابْنُ عَبْدِ البَرِّ فِي (اسْتِيعَابِهِ)» أي: كتاب **(الاستيعاب فِي معرفة الأصحاب)** لابن عبد البَرِّ -رحمه الله- وَهُوَ يُشْبِهُ كتاب **(الإصابة فِي معرفة الصحابة)** لابن حجرٍ العسقلاني، وإن كان كُلٌّ منهما له ميزةٌ، لكنَّ ابنَ حجر متأخِّرٌ عن ابن عبد البَرِّ؛ ولذلك صار أجمعَ وأكثرَ بالنسبة لتراجم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

* * *

(١) أخرجه الدارقطني (١/ ٢١٦، رقم ٤٣٢).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الإشراف في منازل الأشراف، رقم (٢٣٩).

١٧٣١- وَحَدِيثُ مِعْرَاجِ الرَّسُولِ فَثَابِتٌ وَهُوَ الصَّرِيحُ بِغَايَةِ التِّبْيَانِ
١٧٣٢- وَإِلَى إِلَهِ الْعَرْشِ كَانَ عُرُوجُهُ لَمْ يَخْتَلِفْ مِنْ صَحْبِهِ رَجُلَانِ
١٧٣٣- وَاذْكُرْ بِقِصَّةِ خَنْدَقٍ حُكْمًا جَرَى لِقُرَيْظَةٍ مِنْ سَعْدٍ الرَّبَّانِي
١٧٣٤- شَهِدَ الرَّسُولُ بِأَنَّ حُكْمَ إِلَهِنَا مِنْ فَوْقِ سَبْعٍ وَفْقُهُ بِوِزَانِ
١٧٣٥- وَاذْكُرْ حَدِيثًا لِلْبَرَاءِ رَوَاهُ أَصْـ ـحَابُ الْمَسَانِدِ مِنهمُ الشَّيْبَانِي
١٧٣٦- وَأَبُو عَوَانَةَ ثُمَّ حَاكِمُنَا الرِّضَى وَأَبُو نُعَيْمٍ الحَافِظُ الرَّبَّانِي
١٧٣٧- قَدْ صَحَّحُوهُ وَفِيهِ نَصٌّ ظَاهِرٌ مَا لَمْ يُحَرِّفْهُ أُولُو العُدْوَانِ
١٧٣٨- فِي شَأْنِ رُوحِ الْعَبْدِ عِنْدَ وَدَاعِهَا وَفِرَاقِهَا لِمَسَاكِنِ الْأَبْدَانِ
١٧٣٩- فَتَظَلُّ تَصْعَدُ فِي سَمَاءٍ فَوْقَهَا أُخْرَى إِلَى خَلَّاقِهَا الرَّحْمَنِ
١٧٤٠- حَتَّى تَصِيرَ إِلَى سَمَاءٍ رَبُّهَا فِيهَا وَهَذَا نَصُّهُ بِأَمَانِ
١٧٤١- وَاذْكُرْ حَدِيثًا فِي الصَّحِيحِ وَفِيهِ تَحْـ ـذِيرٌ لِذَاتِ الْبَعْلِ مِنْ هِجْرَانِ
١٧٤٢- مِنْ سُخْطِ رَبٍّ فِي السَّمَاءِ عَلَى الَّتِي هَجَرَتْ بِلَا ذَنْبٍ وَلَا عُدْوَانِ

الشرحُ

حديثُ معراجِ النَّبيِّ ﷺ إِلَى الله من الأحاديث الدالة عَلَى عُلُوِّ الله عزَّ وجلَّ، فهو من الأدلة النقليَّة الدالة عَلَى العلوِّ.

يقولُ ابنُ القيِّم -رحمه الله-:

١٧٣١- وَحَدِيثُ مِعْرَاجِ الرَّسُولِ فَثَابِتٌ وَهُوَ الصَّرِيحُ بِغَايَةِ التِّبْيَانِ

١٧٣٢- وَإِلَى إِلَـهِ الْعَـرْشِ كَـانَ عُرُوجُـهُ ... لَـمْ يَخْتَلِـفْ مِـنْ صَـحْبِهِ رَجُـلَانِ

حديثُ المعراج ثابتٌ بالصِّحاح، والمسانيد، وغيرها، وَهُوَ ثابتٌ بالْقُرْآنِ أيضًا، فاللهُ -سبحانه وتعالى- عرج بنبيِّه ﷺ والعروجُ يكونُ من أسفلَ إِلَى أعلى.

وقد ثبت الإسراءُ والمعراجُ في الْقُرْآن فالإسراءُ ثبت بقوله -سبحانه وتعالى-: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء:١]، والمعراجُ ثبت بقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم:١-٢] إِلَى آخر الآيات.

ومن الأدلة قولُه:

١٧٣٣- وَاذْكُرْ بِقِصَّةِ خَنْدَقٍ حُكْـمًا جَـرَى ... لِقُرَيْظَـةٍ مِـنْ سَـعْدٍ الرَّبَّانِـي

١٧٣٤- شَهِدَ الرَّسُـولُ بِـأَنَّ حُكْـمَ إِلَـهِنَا ... مِـنْ فَـوْقِ سَـبْعٍ وَفْقُـهُ بِـوِزَانِ

هذا الحديثُ يُشيرُ إِلَى حكمِ سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بني قريظَةَ؛ لأنَّ بني قريظَةَ كانوا حلفاءً للأوس، ولـمَّا حاصرهم النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام- نحو خمسٍ وعشرين ليلةً نزلوا عَلَى حكم سعد بن معاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان سَعْدٌ قد أُصِيبَ فِي أَكْحَلِهِ فِي غَزْوَةِ الخَنْدَقِ، فَضَرَبَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ خَيْمَةً فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-؛ لِيَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ؛ لأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ يُحِبُّهُ وَيُجِلُّهُ؛ لأَنَّهُ سَيِّدُ الأَوْس، وَقَالَ النَّبِيُّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «لَمَنَادِيلُ سَعْدٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ هَذِه»(١)، فَشهَد له بأنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَهُ مَنَادِيلُ فِي الجَنَّةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب، رقم (٢٤٧٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٤٦٩).

لَـمَّا أُصيبَ فِي أَكْحَلِهِ، قَالَ: «اللَّهُمَّ لَا تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِي مِنْ قُرَيْظَةَ» حُلَفَائِهِ، فَأَجَابَ اللهُ دَعْوَتَهُ.

نَزَلَتْ بَنُو قريظةَ عَلَى حُكْمِهِ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام- إِلَيْهِ فَأُتِيَ بِهِ مِنْ مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى حِمَارٍ فَلَمَّا أَقْبَلَ، قَال النَّبِيُّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ فَأَنْزِلُوهُ» فَقَامُوا إِلَيْهِ، فَأَنْزَلُوه من الحِمَارِ، وَجَلَسَ.

فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ حَكَّمُوه فِيهِمْ، فَقَالَ: أَحُكْمِي نَافِذٌ فِيهِم؟ قَالَ بَنُو قُرَيْظَةَ: نَعَمْ، قَالَ: وعلى هؤلاء، ويشير إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، ولكنه قد غَضَّ طَرْفَه احْتِرَامًا لِرَسُولِ الله ﷺ، قَالَ: «وَعَلَى هَؤلاءِ» قال: أَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِأَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمُ، وتُسْبَى نِسَاؤهُم وَذُرِّيَّتُهُم، وَتُقْسَمَ أَمْوَالُـهُمْ، فقال النَّبِيُّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِم بِحُكْمِ الله مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ».

ثُمَّ فَعَلَ بِهِم مَا حَكَمَ بِه سَعْدٌ -رضي الله عنه وأرضاه-، وقَتَلَ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ سَبْعَمِائَة رَجُلٍ، ثُمَّ عَادَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ إِلَى خَيْمَتِهِ فِي المَسْجِدِ، فَانْبَعَثَ الدَّمُ مِنْ جُرْحِهِ، فَمَاتَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1] لما انقضت المهمةُ التي أُقِرَّت بها عينُه انتقلَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى رحمة الله.

المهمُّ أَنَّ هَذَا يدلُّ عَلَى أَنَّ اللهَ فوق؛ لقوله: «مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ».

١٧٣٥- وَاذْكُرْ حَدِيثًا لِلْبَرَاءِ رَوَاهُ أَصْـ ـحَابُ الْمَسَانِدِ مِنهمُ الشَّيْبَانِي

١٧٣٦- وَأَبُو عَوَانَةَ ثُمَّ حَاكِمُنَا الرِّضَى وَأَبُو نُعَيْمِ الحَافِظُ الرَّبَّانِي

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب سعد بن معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، رقم (٣٥٩٣)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد، وجواز إنزال أهل الحصن على حكم حاكم عدل أهل للحكم، رقم (١٧٦٨).

١٧٣٧- قَدْ صَحَّحُوهُ وَفِيهِ نَصٌّ ظَاهِرٌ ... مَا لَمْ يُحَرِّفْهُ أُولُو العُدْوَانِ

١٧٣٨- فِي شَأْنِ رُوحِ الْعَبْدِ عِنْدَ وَدَاعِهَا ... وَفِرَاقِهَا لِمَسَاكِنِ الْأَبْدَانِ

١٧٣٩- فَتَظَلُّ تَصْعَدُ فِي سَمَاءٍ فَوْقَهَا ... أُخْرَى إِلَى خَلَّاقِهَا الرَّحْمَنِ

١٧٤٠- حَتَّى تَصِيرَ إِلَى سَمَاءٍ رَبُّهَا ... فِيهَا وَهَذَا نَصُّهُ بِأَمَانِ

قَوْلُهُ: «مِنهمُ الشَّيْبَانِي» يعني: الإمامَ أحمدَ -رحمه الله-.

قَوْلُهُ: «تَصِيرَ إِلَى سَمَاءٍ رَبُّهَا فِيهَا» أي: تصيرُ إِلَى سماءٍ فيها ربُّها، وهذا نصُّ الحديث.

يعني: أنَّ المؤمنَ إذا قُبِضَتْ رُوحُه صُعِدَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الأُولَى، ثُمَّ الثَّانِيَةِ، ثُمَّ الثَّالِثَةِ، ثُمَّ الرَّابِعَةِ، إِلَى أَنْ تَصِلَ إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللهُ عزَّ وجلَّ.

أَمَّا الكَافِرُ فَإِنَّهُ لَا تُفْتَحُ لِرُوحِهِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، بَلْ تُطْرَحُ فِي الأَرْضِ طَرْحًا -والعياذ بالله- ثُمَّ قَرَأَ النَّبِيُّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قوله تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠](١).

١٧٤١- وَاذْكُرْ حَدِيثًا فِي الصَّحِيحِ وَفِيهِ تَحْـ ... ـذِيرٌ لِذَاتِ الْبَعْلِ مِنْ هِجْرَانِ

قَوْلُهُ: «وَفِيهِ تَحْذِيرٌ لِذَاتِ الْبَعْلِ مِنْ هِجْرَانِ» يعني: للمرأة ذات الزَّوج، حذَّرها الرسولُ -عليه الصلاة والسلام- مَنْ هَجْرِ زَوْجِهَا، لكن من أَيِّ شيءٍ حَذَّرَها؟ قال:

---

(١) أخرجه النسائي: كتاب الجنائز، باب ما يلقى به المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه، رقم (١٨٣٣)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، رقم (٤٢٦٢).

١٧٤٢- مِنْ سُخْطِ رَبٍّ فِي السَّمَاءِ عَلَى الَّتِي ... هَجَرَتْ بِلَا ذَنْبٍ وَلَا عُدْوَانِ

فإنَّ الرسول -عليه الصلاة والسلام- قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهَا فَتَأْبَى عَلِيهِ إِلَّا كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا»(١).

فَقَالَ: «الَّذِي فِي السَّمَاءِ» وَهُوَ اللهُ عزَّ وجلَّ.

***

١٧٤٣- وَاذْكُرْ حَدِيثًا قَدْ رَوَاهُ جَابِرٌ ... فِيهِ الشِّفَاءُ لِطَالِبِ الإِيمَانِ

١٧٤٤- فِي شَأْنِ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْعُلْيَا وَمَا ... يَلْقَوْنَ مِنْ فَضْلٍ وَمِنْ إِحْسَانِ

١٧٤٥- بَيْنَا هُمُ فِي عَيْشِهِمْ وَنَعِيمِهِمْ ... وَإِذَا بِنُورٍ سَاطِعِ الغَشَيَانِ

١٧٤٦- لَكِنَّهُمْ رَفَعُوا إِلَيْهِ رُؤُوسَهُمْ ... فَإِذَا هُوَ الرَّحْمَنُ ذُو الغُفْرَانِ

١٧٤٧- فَيُسَلِّمُ الجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ ... حَقًّا عَلَيْهِمْ وَهْوَ ذُو الإِحْسَانِ

١٧٤٨- وَاذْكُرْ حَدِيثًا قَدْ رَوَاهُ الشَّافِعِيْ ... يُ طَرِيقُهُ فِيهِ أَبُو اليَقْظَانِ

١٧٤٩- فِي فَضْلِ يَوْمِ الجُمْعَةِ اليَومِ الَّذِي ... بِالفَضْلِ قَدْ شَهِدَتْ لَهُ النَّصَّانِ

١٧٥٠- يَوْمِ اسْتِوَاءِ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ ... حَقًّا عَلَى العَرْشِ العَظِيمِ الشَّانِ

١٧٥١- وَاذْكُرْ مَقَالَتَهُ: أَلَسْتُ أَمِينَ مَنْ ... فَوْقَ السَّمَاءِ الوَاحِدِ الرَّحْمَنِ؟

١٧٥٢- وَاذْكُرْ حَدِيثَ أَبِي رَزِينٍ ثُمَّ سُقْـ ... ـهُ بِطُولِهِ كَمْ فِيهِ مِن عِرْفَانِ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب النكاح، باب تحريم امتناعها من فراش زوجها، رقم (١٤٣٦).

١٧٥٣- وَاللهِ مَا لِمُعَطِّلٍ بِسَمَاعِهِ ... أَبَدًا قُوًى إِلَّا عَلَى النُّكْرَانِ

١٧٥٤- فَأُصُولُ دِينِ نَبِيِّنَا فِيهِ أَتَتْ ... فِي غَايَةِ الإِيضَاحِ وَالتِّبْيَانِ

١٧٥٥- وَبِطُولِهِ قَدْ سَاقَهُ ابْنُ إِمَامِنَا ... فِي «سُنَّةٍ» وَالْحَافِظُ الطَّبَرَانِي

١٧٥٦- وَكَذَا أَبُو بَكْرٍ بِـ«تَارِيخٍ» لَهُ ... وَأَبُوهُ ذَاكَ زُهَيْرٌ الرَّبَّانِي

الشرحُ

هذه أيضًا أحاديثُ أشار إِلَيْهَا المؤلفُ -رحمه الله-، الأول: قال:

١٧٤٣- وَاذْكُرْ حَدِيثًا قَدْ رَوَاهُ جَابِرٌ ... فِيهِ الشِّفَاءُ لِطَالِبِ الإِيمَانِ

١٧٤٤- فِي شَأْنِ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْعُلْيَا وَمَا ... يَلْقَوْنَ مِنْ فَضْلٍ وَمِنْ إِحْسَانِ

١٧٤٥- بَيْنَا هُمُ فِي عَيْشِهِمْ وَنَعِيمِهِمْ ... وَإِذَا بِنُورٍ سَاطِعِ الغَشَيَانِ

١٧٤٦- لَكِنَّهُمْ رَفَعُوا إِلَيْهِ رُؤُوسَهُمْ ... فَإِذَا هُوَ الرَّحْمَنُ ذُو الغُفْرَانِ

١٧٤٧- فَيُسَلِّمُ الجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ ... حَقًّا عَلَيْهِمْ وَهْوَ ذُو الإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «وَاذْكُرْ حَدِيثًا قَدْ رَوَاهُ جَابِرٌ...» هَذَا حديثٌ رواه جابرٌ وَهُوَ «بَيْنَا أَهْلُ الجَنَّةَ فِي نَعِيمِهِمْ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ فَرَفَعُوا رُؤوسَهُمْ، فَإِذَا الرَّبُّ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِم مِنْ فَوْقِهِمْ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الجَنةِ...»[1] فهذا دليلٌ عَلَى علوِّه -سبحانه وتعالى-؛ ولهذا قال: «لكنهم رفعوا إِلَيْهِ رؤوسهم» والرَّفْعُ لا يكونُ إِلَّا إِلَى أعلى.

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الإيمان، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٤).

١٧٤٨- وَاذْكُرْ حَدِيثًا قَدْ رَوَاهُ الشَّافِعِيْ ... يُ طَرِيقُهُ فِيهِ أَبُو اليَقْظَانِ

١٧٤٩- فِي فَضْلِ يَوْمِ الجُمْعَةِ اليَومِ الَّذِي ... بِالفَضْلِ قَدْ شَهِدَتْ لَهُ النَّصَّانِ

ومن ذلك أيضًا حديثٌ رواه الشافعيُّ في فضل يوم الجمعة الَّذِي هُوَ يومُ المزيد، وأنَّ أهلَ الجنةِ يزورون اللهَ عزَّ وجلَّ في ذلك اليوم، هَذَا اليومُ (يوم الجمعة) فيه استواءُ الله عَلَى العرش(١) كما قَالَ المؤلف:

١٧٥٠- يَوْمِ اسْتِوَاءِ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ ... حَقًّا عَلَى العَرْشِ العَظِيمِ الشَّانِ

ووجهُ ذلك أنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، وهذه الأيامُ أوَّلُها الأحد والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة، تَمَّتَ يوم الجمعة، ففي يوم الجمعة اسْتَوَى اللهُ عزَّ وجلَّ عَلَى عرشه.

١٧٥١- وَاذْكُرْ مَقَالَتَهُ: أَلَسْتُ أَمِينَ مَنْ ... فَوْقَ السَّمَاءِ الوَاحِدِ الرَّحْمَنِ؟

هَذَا قَالَهُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- حِينَمَا قَسَّم ذُهَيْبَةً بَيْنَ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: كُنَّا أَحَقَّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلَاءِ، فَقَالَ رسول الله ﷺ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»(٢). والذي في السَّماءِ هُوَ اللهُ.

١٧٥٢- وَاذْكُرْ حَدِيثَ أَبِي رَزِينٍ ثُمَّ سُقْـ ... ـهُ بِطُولِهِ كَمْ فِيهِ مِن عِرْفَانِ

١٧٥٣- وَاللهِ مَا لِمُعَطِّلٍ بِسَمَاعِهِ ... أَبَدًا قُوَى إِلَّا عَلَى النُّكْرَانِ

(١) انظر: مسند الشافعي (ص:٧٠).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وخالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى اليمن، رقم (٤٣٥١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم (١٠٦٤).

١٧٥٤- فَأُصُولُ دِينِ نَبِيِّنَا فِيهِ أَتَتْ ... فِي غَايَةِ الإِيضَاحِ وَالتِّبْيَانِ

١٧٥٥- وَبِطُولِهِ قَدْ سَاقَهُ ابْنُ إِمَامِنَا ... في «سُنَّةٍ» وَالْحَافِظُ الطَّبَرَانِي

قَوْلُهُ: «في سُنَّةٍ» والسُّنَّة: لعبد الله بن الإمام أحمد -رحمه الله-.

١٧٥٦- وَكَذَا أَبُو بَكْرٍ بِـ«تَارِيخٍ» لَهُ ... وَأَبُوهُ ذَاكَ زُهَيْرٌ الرَّبَّانِي

فهؤلاء كُلُّهم ساقوا الحديثَ بتمامِه[1].

* * *

١٧٥٧- وَاذْكُرْ كَلَامَ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ... أَقِمِ الصَّلَاةَ وتَلِكَ فِي سُبْحَانِ

١٧٥٨- فِي ذِكْرِ تَفْسِيرِ الْمَقَامِ لِأَحْمَدٍ ... مَا قِيلَ ذَا بِالرَّأْيِ وَالْحُسْبَانِ

١٧٥٩- إِنْ كَانَ تَجْسِيمًا فَإِنَّ مُجَاهِدًا ... هُوَ شَيْخُهُم بَلْ شَيْخُهُ الفَوْقَانِي

١٧٦٠- وَلَقَدْ أَتَى ذِكْرُ الْجُلُوسِ بِهِ وَفِي ... أَثَرٍ رَوَاه جَعْفَرُ الرَّبَّانِي

١٧٦١- أَعْنِي ابْنَ عَمِّ نَبِيِّنَا وَبِغَيْرِهِ ... أَيْضًا أَتَى وَالْحَقُّ ذُو التِّبْيَانِ

١٧٦٢- وَالدَّارَقُطْنِيُّ الإِمَامُ يُثَبِّتُ الْـ ... آثَارَ فِي ذَا البَابِ غَيْرَ جَبَانِ

١٧٦٣- وَلَهُ قَصِيدٌ ضُمِّنَتْ هَذَا وَفِيـ ... ـهَا لَسْتُ لِلْمَرْوِيِّ ذَا نُكْرَانِ

---

(١) وَهُوَ حديث أبي رزين العقيلي، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَيْنَ كَانَ رَبُّنَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ؟ قَالَ: «كَانَ فِي عَمَاءٍ، مَا فَوْقَ هَوَاءٌ وَمَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ، ثُمَّ خَلَقَ العَرْشَ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَيْهِ».
أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة هود، رقم (٣١٠٩)، وابن ماجه: كتاب الإيمان، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٢)، وعبد الله بن أحمد في السُّنَّة (١/ ٢٤٥، رقم ٤٥٠)، والطبراني (١٩/ ٢٠٧، رقم ٤٦٨).

١٧٦٤- وَجَـرَتْ لِـذَلِك فِتْنَـةٌ فِي وَقْتِـهِ   مِـنْ فِرْقَـةِ التَّعْطِيـلِ وَالعُـدْوَانِ
١٧٦٥- وَاللهُ نَـاصِرُ دِينِـهِ وَكِتَابِـهِ   وَرَسُـولِه فِي سَـائِرِ الأَزْمَـانِ
١٧٦٦- لَكِـنْ بِمِحْنَـةِ حِزْبِـهِ مِـنْ حَرْبِـهِ   ذَا حُكْمُـهُ مُـذْ كانَـتِ الفِئَتَـانِ
١٧٦٧- وَقَدِ اقْتَصَرْتُ عَلَى يَسِيرٍ مِن كَثِيـ   ـرٍ فَائِـتٍ لِلعَـدِّ والـحُسْبَانِ
١٧٦٨- مَا كُلُّ هَـذَا قَابِـلُ التَّأْوِيـلِ بِالتَّـ   حْرِيـفِ فَاسْتَحْيُوا مِـنَ الـرَّحْمَنِ

الشـرحُ

١٧٥٧- وَاذْكُـرْ كَـلَامَ مُجَاهِـدٍ فِي قَولِـهِ:   أَقِـمِ الصَّـلَاةَ وتَلِـكَ فِي سُـبْحَانِ
١٧٥٨- فِي ذِكْـرِ تَفْسِـيرِ الْـمَقَامِ لِأَحْمَـدٍ   مَـا قِيـلَ ذَا بِـالرَّأْيِ وَالـحُسْبَانِ
١٧٥٩- إنْ كَـانَ تَجْسِـيمًا فَـإِنَّ مُجَاهِـدًا   هُوَ شَيْخُهُم بَلْ شَيْخُهُ الفَوْقَانِـي
١٧٦٠- وَلَقَدْ أَتَى ذِكْرُ الـجُلُوسِ بِـهِ وَفِي   أَثَـرٍ رَوَاه جَعْفَـرُ الرَّبَّانِـي
١٧٦١- أَعْنِـي ابْـنَ عَـمِّ نَبِيِّنَـا وَبِغَـيْرِهِ   أَيْضًـا أَتَـى وَالْـحَقُّ ذُو التِّبْيَـانِ
١٧٦٢- وَالدَّارَقُطْنِـيُّ الإِمَـامُ يُثْبِّـتُ الْـ   آثَـارَ فِي ذَا البَـابِ غَـيْرَ جَبَـانِ
١٧٦٣- وَلَـهُ قَصِيـدٌ ضُـمِّنَتْ هَـذَا وَفِيـ   ـهَا لَسْـتُ لِلْمَـرْوِيِّ ذَا نُكْـرَانِ

هذا أيضًا من الأدلة، وهُوَ ما ذكره مجاهدٌ في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٨-٧٩] ذكر أنَّ

من المقام المحمود أنَّ الله -سبحانه وتعالى- يُجْلِسُ نبيَّه محمدًا ﷺ عَلَى عرشه[(١)]، وذكر في هَذَا أثرًا، والله أعلم بصحة هَذِهِ الآثار، لكن بعضُ العلماء حسَّنها لكثرة طرقها.

وذكر أنَّ الدارقطنِيَّ أثبت هَذِهِ الآثارَ، وأنَّ له قصيدةً ضُمِّنت هذا، وفيها: (لست للمروي ذَا نكران) والذي يقولُ هذا الدارقطنِيُّ.

١٧٦٤- وَجَـرَتْ لِـذَلِك فِتْنَـةٌ فِي وَقْتِـهِ مِـنْ فِرْقَـةِ التَّعْطِيـلِ وَالعُـدْوَانِ

وهذه الفتنةُ، يقولُ الشارحون للقصيدة: إنهم لم يعلموا عنها شيئًا.

ثُمَّ قَالَ المؤلفُ هَذِهِ الأبياتَ المفيدةَ المهمةَ، قال:

١٧٦٥- وَاللهُ نَـاصِرُ دِينِـهِ وَكِتَابِـهِ وَرَسُـولِه فِي سَـائِرِ الأَزْمَـانِ

لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١]، ولكن قال:

١٧٦٦- لَكِـنْ بِمِحْنَـةِ حِزْبِـهِ مِـنْ حَرْبِـهِ ذَا حُكْمُـهُ مُـذْ كانَـتِ الفِئَتَـانِ

قَوْلُهُ: «بِمِحْنَةِ حِزْبِهِ مِنْ حَرْبِهِ» يعني: لا بُدَّ أنَّ حربَه يمتحنون حزبَه بالعداوات، والبغضاء، والقتال، وغير ذلك.

(١) كما في حديث الأنصاري الذي سأل النبي ﷺ فقال: وَمَا ذَاكَ الْـمَقَامُ الْـمَحْمُودُ؟ قَالَ: «ذَاكَ إِذَا جِيءَ بِكُمْ عُرَاةً حُفَاةً غُرْلًا، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُكْسَى إِبْرَاهِيمُ يَقُولُ: اكْسُوا خَلِيلِي، فَيُؤْتَى بِرَيْطَتَيْنِ بَيْضَاوَيْنِ، فَلَيَلْبَسْهُمَا، ثُمَّ يَقْعُدُ فَيَسْتَقْبِلُ الْعَرْشَ، ثُمَّ أُوتَى بِكِسْوَتِي، فَأَلْبَسُهَا، فَأَقُومُ عَنْ يَمِينِهِ مَقَامًا لَا يَقُومُهُ أَحَدٌ غَيْرِي، يَغْبِطُنِي بِهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ». أخرجه أحمد (١/ ٣٩٨، رقم ٣٧٨٦).

قَوْلُهُ: «ذَا حُكْمُهُ مُذْ كَانَتِ الفِئَتَانِ» يعني أنَّ: هَذَا النزاعَ وهذه المحنَ حكمةٌ من الله مذ كانت الفئتان كما قَالَ اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفُرْقَان:٣١] ثُمَّ قال:

١٧٦٧- وَقَدِ اقْتَصَرْتُ عَلَى يَسِيرٍ مِن كَثِيـ ـرٍ فَائِتٍ لِلَعَدِّ والحُسْبَانِ

١٧٦٨- مَا كُلُّ هَذَا قَابِلُ التَّأْوِيلِ بِالتْـ ـحْرِيفِ فَاسْتَحْيُوا مِنَ الرَّحْمَنِ

ابنُ القيِّم يقولُ: إني اقتصرتُ عَلَى يسيرٍ من كثيرٍ من الأدلة عَلَى عُلُوِّ الله -سبحانه وتعالى-.

* * *

فصل

فِي جِنَايَةِ التَّأْوِيلِ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَالفَرْقُ بَيْنَ المَرْدُودِ مِنْهُ وَالمَقْبُولِ

١٧٦٩- هَـذَا وَأَصْـلُ بَلِيَّـةِ الإِسْـلَامِ مِـنْ ... تَأْوِيـلِ ذِي التَّحْرِيـفِ وَالـبُطْلَانِ

١٧٧٠- وَهُوَ الَّذِي قَدْ فَـرَّقَ السَّبْعِينَ بَـلْ ... زَادَتْ ثَلاثًـا قَـوْلَ ذِي البُرْهَـانِ

١٧٧١- وَهُوَ الَّذِي قَتَلَ الـخَلِيفَةَ جَامِعَ الْـ ... ـقُرآنِ ذَا النُّـورَيْنِ وَالإِحْسَـانِ

١٧٧٢- وَهُوَ الَّـذِي قَتَـلَ الـخَلِيفَةَ بَعْـدَه ... أَعْنِـي عَلِيًّـا قَاتِـلَ الأَقْـرَانِ

١٧٧٣- وَهُوَ الَّذِي قَتَلَ الـحُسَيْنَ وأَهْلَـهُ ... فَغَـدَوْا عَلَيْـهِ مُـمَزَّقِي اللُّحْـمَانِ

١٧٧٤- وَهُـوَ الَّـذِي فِي يَـوْمِ حَـرْبِهِمُ أَبَـا ... حَ حِمَـى المَدِينَـةِ مَعْقِـلِ الإِيـمَانِ

١٧٧٥- حَتَّى جَـرَتْ تِلْـكَ الـدِّمَاءُ كَأَنَّهَـا ... فِي يَـوْمِ عِيـدٍ سُـنَّةُ الْقُرْبَـانِ

١٧٧٦- وَغَدَا لَهُ الـحَجَّاجُ يَسْـفِكُهَا وَيَقْـ ... ـتُلُ صَاحِبَ الإِيـمَانِ وَالْقُـرْآنِ

١٧٧٧- وَجَرَى بِمَكَّةَ مَا جَرَى مِـنْ أَجْلِـهِ ... مِنْ عَسْكَرِ الـحَجَّاجِ ذِي العُدْوَانِ

١٧٧٨- وَهُوَ الَّذِي أَنْشَا الـخَوَارِجَ مِثْلَ إِنْـ ... ـشَاءِ الرَّوَافِضِ أَخْبَثِ الـحَيَوَانِ

١٧٧٩- وَلِأَجْلِهِ شَتَمُوا خِيَارَ الْـخَلْقِ بَعْـ ... ـدَ الرُّسْـلِ بِالْعُـدْوَانِ وَالبُهْتَـانِ

١٧٨٠- وَلِأَجْلِـهِ سَـلَّ البُغَـاةُ سُـيُوفَهُمْ ... ظَنًّـا بِـأَنَّهُمُ ذَوُو إِحْسَـانِ

١٧٨١- وَلِأَجْلِـهِ قَـدْ قَـالَ أَهْـلُ الِاعْتِـزَا ... لِ مَقَالَـةً هَـدَّتْ قُـوَى الإِيـمَانِ

١٧٨٢- وَلِأَجْلِـهِ قَـالُوا بِـأَنَّ كَلَامَـهُ ... سُـبحَانَهُ خَلْـقٌ مِـنَ الأَكْـوَانِ
١٧٨٣- وَلِأَجْلِـهِ قَـدْ كَـذَّبَتْ بِقَضَـائِهِ ... شِبْهُ الْـمَجُوسِ العَابِـدِي النِّـيرَانِ
١٧٨٤- وَلِأَجْلِـهِ قَـدْ خَلَّـدُوا أَهْـلَ الكَبَـا ... ئِرِ فِي الـجَحِيمِ كَعَابِـدِي الأَوْثَـانِ
١٧٨٥- وَلِأَجْلِهِ قَـدْ أَنْكَـرُوا لِشَـفَاعَةِ الْـ ... ـمُخْتَارِ فِـيهِمْ غَايَـةَ النُّكْـرَانِ
١٧٨٦- وَلِأَجْلِهِ ضُرِبَ الإِمَـامُ بِسَـوْطِهِمْ ... صِـدِّيقُ أَهْـلِ السُّـنَّةِ الشَّيْبَانِـي
١٧٨٧- وَلِأَجْلِهِ قَدْ قَالَ جَهْـمٌ: لَـيْسَ رَبْ ... بُ الْعَرْشِ خَـارِجَ هَـذِهِ الأَكْـوَانِ
١٧٨٨- كَـلَّا وَلَا فَـوْقَ السَّـمَوَاتِ العُـلَى ... والعَـرْشِ مِـنْ رَبٍّ وَلَا رَحْمَـنِ
١٧٨٩- مَـا فَوْقَهَـا رَبٌّ يُطَـاعُ جِبَاهُنَـا ... تَهْـوِي لَـهُ بِسُـجُودِ ذِي خُضْـعَانِ
١٧٩٠- وَلِأَجْلِهِ جُحِـدَتْ صِـفَاتُ كَمَالِـهِ ... وَالْعَـرْشُ أَخْلَـوْهُ مِـنَ الـرَّحْمَنِ
١٧٩١- وَلِأَجْلِهِ أَفْنَى الـجَحِيمَ وَجَنَّـةَ الْـ ... ـمَأْوَى مَقَالَـةَ كَـاذِبٍ فَتَّـانِ
١٧٩٢- وَلِأَجْلِـهِ قَـالُوا: الإِلَـهُ مُعَطَّـلٌ ... أَزَلًا بِغَـيْرِ نِهَايَـةٍ وَزَمَـانِ
١٧٩٣- وَلِأَجْلِـهِ قَـدْ قَـالَ: لَـيْسَ لِفِعْلِـهِ ... مِـنْ غَايَـةٍ هِـيَ حِكْمَـةُ الـدَّيَّانِ
١٧٩٤- وَلِأَجْلِـهِ قَـدْ كَـذَّبُوا بِنُزُولِـهِ ... نَحْوَ السَّمَاءِ بِنِصْـفِ لَيْـلٍ ثَانِـي
١٧٩٥- وَلِأَجْلِـهِ زَعَمُـوا الْكِتَـابَ عِبَـارَةً ... وَحِكَايَـةً عَـنْ ذَلِـكَ القُـرْآنِ
١٧٩٦- مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ سِوَى المَخْلُوقِ وَالْـ ... ـقُرْآنُ لَـمْ يُسْـمَعْ مِـنَ الـرَّحْمَنِ
١٧٩٧- مَـا ذَا كَـلَامَ اللهِ قَـطُّ حَقِيقَـةً ... لكِـنْ مَجَـازٌ وَيْـحَ ذَا البُهْتَـانِ

١٧٩٨- وَلِأَجْلِهِ قَتَلَ ابْنَ نَصْرٍ أَحْمَدٌ ذَاكَ الخُزَاعِيُّ الْعَظِيمُ الشَّانِ

١٧٩٩- إِذْ قَالَ: ذَا الْقُرْآنُ نَفْسُ كَلَامِهِ مَا ذَاكَ مَخْلُوقٌ مِنَ الأَكْوَانِ

١٨٠٠- وَهُوَ الَّذِي جَرَّ ابْنَ سِينَا وَالأُلَى قَالُوا مَقَالَتَهُ عَلَى الكُفْرَانِ

١٨٠١- فَتَأَوَّلُوا خَلْقَ السَّمَوَاتِ العُلَى وَحُدُوثَها بِحَقِيقَةِ الإِمْكَانِ

١٨٠٢- وَتَأَوَّلُوا عِلْمَ الإِلَهِ وَقَوْلَهُ وَصِفَاتِهِ بِالسَّلْبِ والبُطْلَانِ

١٨٠٣- وَتَأَوَّلُوا الْبَعْثَ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ رُسُلُ الإِلَهِ لِهَذِهِ الأَبْدَانِ

١٨٠٤- بِفِرَاقِهَا لِعَنَاصِرٍ قَدْ رُكِّبَتْ حَتَّى تَعُودَ بَسِيطَةَ الأَرْكَانِ

١٨٠٥- وَهُوَ الَّذِي جَرَّ القَرَامِطَةَ الأُلَى يَتَأَوَّلُونَ شَرَائِعَ الإِيمَانِ

١٨٠٦- فَتَأَوَّلُوا العَمَلِيَّ مِثْلَ تَأَوُّلِ الْـ ـعِلْمِيِّ عِنْدَكُمُ بِلَا فُرْقَانِ

١٨٠٧- وَهُوَ الَّذِي جَرَّ النَّصِيرَ وَحِزْبَهُ حَتَّى أَتَوْا بِعَسَاكِرِ الكُفْرَانِ

١٨٠٨- فَجَرَى عَلَى الإِسْلَامِ أَعْظَمُ مِحْنَةٍ وَخُمَارُهَا فِينَا إِلَى ذَا الآنِ

الشرحُ

١٧٦٩- هَذَا وَأَصْلُ بَلِيَّةِ الإِسْلَامِ مِنْ تَأْوِيلِ ذِي التَّحْرِيفِ وَالبُطْلَانِ

أصلُ بَليَّةِ الإسلام وما حصل فيه من مخالفاتٍ، ومعاصٍ، وبدعٍ، وقتلٍ، وسلبٍ، ونهبٍ، كُلُّه من التأويل، هَذَا فيمن ينتسبُ للإسلام.

أمَّا مَنْ لم ينتسبْ فأصلُ بَليَّة الإسلام مِنْهُ أنه عدوٌّ للإسلام، لكن المنتسب للإسلام ما جاءت البليَّة للإسلام إِلَّا بسبب تأويلِه.

قَوْلُهُ: «ذِي التَّحْرِيفِ وَالبُطْلَانِ» أمَّا تأويل مَنْ ليس بمحرِّف -كما سيأتي إن شاء الله- فليس في الإسلام مِنْهُ بليَّة.

١٧٧٠- وَهُوَ الَّذِي قَدْ فَرَّقَ السَّبْعِينَ بَلْ زَادَتْ ثَلاثًا قَوْلَ ذِي البُرْهَانِ

يعني: فَرَّق الأمَّةَ إِلَى ثلاثٍ وسبعين فِرْقَةً مع أنَّ الواجبَ أنَّ هَذِهِ الأمَّةَ الإسلاميةَ تكونُ فِرْقَةً واحدةً، لكن التأويل الَّذِي هُوَ تأويل أهل التَّحريف فرَّق الأمةَ إِلَى ثلاثٍ وسبعين فِرقة.

١٧٧١- وَهُوَ الَّذِي قَتَلَ الخَلِيفَةَ جَامِعَ الْـ ـقُرآنِ ذَا النُّورَيْنِ وَالإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «وَهُوَ الَّذِي قَتَلَ الخَلِيفَةَ» يعني بذلك: عثمانَ بن عفَّان الَّذِي قتله التَّأويلُ؛ لأنَّ الذين ثاروا عليه وألَّبوا عليه شعبَه وأُمَّتَه كانوا مُتأوِّلين يَدَّعون أنه فَسَقَ -بزعمهم- أنه وَلَّى مَنْ لا يصلحُ للولاية مثل: عبد الله بن أبي سرح وغيره، فقالوا: إنَّ هَذَا الرجلَ فَسَقَ، وبعضُهم قال: إنه كَفَرَ، فجمعوا عليه الناسَ واقتحموا بيتَه، وقتلوه وَهُوَ يقرأُ كتابَ الله، رضي الله عنه وأرضاه.

قَوْلُهُ: «جَامِعَ الْقُرْآنِ» نعم، هُوَ الَّذِي جمع الْقُرْآنَ الجمعَ الثاني؛ لأنَّ الجمعَ الأوَّلَ كان في عهد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لكنَّه جمعه، وكان الناسُ يقرؤونه عَلَى سبعةِ أحرفٍ، ويختلفون في قراءته، فلمَّا خاف عثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الفتنة بذلك جمعهم عَلَى حرفٍ واحدٍ وَهُوَ حرفُ قريشٍ أي: لغة قريش، وأحرق ما سواه من المصاحف، وأوجب عَلَى الأمة أن يقتصروا عَلَى لغة قريش فقط، فكان في هَذَا جمعٌ للأمة، وائتلافٌ بينها يُشْكَرُ عليه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجزاه عن أمة محمدٍ خيرًا.

قَوْلُهُ: «ذَا النُّورَيْنِ» يعني: صاحبَ النورين؛ وذلك أنَّ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- زوَّجه ابنتيه رُقَيَّة وأمَّ كلثوم؛ ولهذا قَالَ بعضُ أهلِ السُّنَّة:

إذا افتخر الرافضةُ بأنَّ عليَّ بن أبي طالب زوَّجه النَّبِيُّ ﷺ ابنتَه فإنَّ عثمانَ يفتخرُ بأنه زوَّجه ابنتيه الثنتين.

قَوْلُهُ: «**وَالإِحْسَانِ**» نعم؛ لأنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَهَّز جيشَ العُسْرَةِ[(١)]: مِئَةَ بَعِيرٍ بأَحْلَاسِهَا[(٢)] وَأَقْتَابِهَا[(٣)]، ولـمَّا قَالَ النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام-: «**مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ فَيَجْعَلُ دَلْوَهُ فِيهَا مَعَ دِلَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي الجَنَّةِ**»، فَاشْتَرَاهَا عُثْمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)] بِحُرِّ مَالِهِ، فقد أحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الأمَّة الإسلامية بتجهيز الجيوش، واستعذاب الماء لهم.

١٧٧٢- وَهُوَ الَّـذِي قَتَـلَ الـخَلِيفَةَ بَعْـدَه   أَعْنِـي عَلِيًّـا قَاتِـلَ الأَقْـرَانِ

عليُّ بن أبي طالب قتله الخوارجُ الذين خرجوا عليه، بعد أن كانوا معه في صَفِّه، لكنَّهم تَنكَّروا -والعياذ بالله- له، وخرجوا عليه، وقتلوه في الكوفة وَهُوَ خارجٌ إِلَى صلاة الصبح يدعو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الصلاة، فقتلوه، فَقُتِلَ شهيدًا وُدفِنَ في قصر الإمارة في الكوفة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب إذا وقف أرضًا أو بئرًا، واشترط لنفسه مثل دلاء المسلمين، رقم (٢٦٢٦).

(٢) جمع حِلْس، بالكسْرِ، وهو كُلُّ شيءٍ وَلِيَ ظهرَ البعيرِ والدَّابَّةِ تحتَ الرَّحْلِ والسَّرْجِ والقَتَبِ. انظر: تاج العروس، مادة: حلس.

(٣) جمع القِتْبُ والقَتَبُ، وهو إِكاف الْبَعِيرِ؛ وقيل: هو الإكاف الصغير الذي على قَدْرِ سَنام الْبَعِيرِ. انظر: لسان العرب، مادة: قتب.

(٤) أخرجه البخاري تعليقًا: كتاب المساقاة، باب في الشرب، ومن رأى صدقة الماء وهبته ووصيته جائزة، مقسوما كان أو غير مقسوم، والترمذي: كتاب المناقب، باب في مناقب عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وله كنيتان، يقال: أبو عمرو، وأبو عبد الله، رقم (٣٧٠٣)، والنسائي: كتاب الجهاد، باب فضل من جهز غازيًا، رقم (٣١٨٢).

ومن نعمة الله أنَّ قبرَه لم يكن معروفًا؛ لأنه دُفِنَ في قصر الإمارة؛ خوفًا عليه من أن يُخرجَه الخوارجُ من قبره في المقبرة ويمثِّلُوا به.

وَقَوْلُهُ: «وَهُوَ الَّذِي قَتَلَ الـخَلِيفَةَ» قتله بأيِّ شيء؟ الجواب: بالتأويل؛ لأنهم قالوا: إنك لما قبلت التحكيمَ مع معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَفَرْتَ، وحَلَّ دَمُك، فقتلوه بهذا التأويل.

١٧٧٣- وَهُوَ الَّذِي قَتَلَ الـحُسَيْنَ وأَهْلَـهُ   فَغَـدَوْا عَلَيْـهِ مُـمَزِّقِي اللُّحْـمَانِ

الحسينُ بن عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قصَّتُه معروفةٌ مع أهل العراق، غدروا به، وقتلوه حتَّى مَزَّقوه تمزيقًا -والعياذ بالله- وَمثَّلُوا به.

ولكنَّه ليس كما يزعم بعضُ الناس أنَّ رأسَهُ دُفِنَ في دمشق، وبعضهم قال: دُفِنَ في العراق، وبعضهم قال: دُفِنَ في مصر، فكان لهذا الرجل ثلاثةُ رؤوس: رأسٌ في الشام، ورأسٌ في العراق، ورأسٌ في مصر، فتبارك اللهُ أحسنَ الخالقين، هَذَا الرجلُ ليس له إلَّا رأسٌ واحدة، ولم يُنْقَلْ رأسُهُ أبدًا إِلَى غير مكانه.

وكما هُوَ معلومٌ أنَّ المواصلات صعبةٌ في الزمن السَّابق، ثُمَّ إنه في ذلك الوقت بالذات فتنٌ عظيمةٌ، مَن الَّذِي يستطيع أن ينقلَ رأسَه إِلَى الشام أو إِلَى مصر؟!

١٧٧٤- وَهُـوَ الَّـذِي فِي يَـوْمِ حَـرْبِهِمُ أَبَـا   حَ حِمَـى المَدِينَـةِ مَعْقِـلِ الإِيـمَانِ

١٧٧٥- حَتَّى جَـرَتْ تِلْـكَ الـدِّمَاءُ كَأَنَّـهَا   فِي يَـوْمِ عِيـدٍ سُـنَّةُ الْقُرْبَـانِ

الله أكبر، هَذَا يوم الحرَّة، استُبِيحَت المدينةُ واستُحِلَّت ثلاثةَ أيامٍ، وقُتِلَ فيها عالَـمٌ كثيرٌ من الأنصار الذين آووا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونصروه، واستُبِيحَت مدينةُ

الرسولِ ﷺ، وانتُهِكَت الأعراضُ، كُلُّ ذلك بالتَّأويل، وأنه يجوزُ الخروجُ عَلَى يزيد، فحصل بذلك الشَّرُّ العظيمُ، والفتنةُ العظيمةُ، وكذلك يقولُ:

١٧٧٦- وَغَدَا لَهُ الـحَجَّاجُ يَسْـفِكُهَا وَيَقْـ ـــتُلُ صَـاحِبَ الإِيـمَانِ وَالْقُـرْآنِ

١٧٧٧- وَجَرَى بِمَكَّةَ مَا جَرَى مِـنْ أَجْلِـهِ مِنْ عَسْكَرِ الـحَجَّاجِ ذِي العُدْوَانِ

أيضًا من التأويل ما جرى في مكةَ عَلَى يد الحجَّاج بن يوسف الثقفيِّ، فإنه قَاتَلَ أهلَ مكةَ وحاصرَهم، ونصبَ المنجنيقَ، ورمى به الكعبةَ، وانهدم بعضُ جدرانِها، ودخل مكةَ، وقَتَلَ مَنْ قَتَلَ فيها حتَّى قتل عبدَ الله بنَ الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ومَثَّلَ به، وعلَّقَه، كُلُّ هَذَا بسبب التَّأويل، ما هُوَ التَّأويل؟ هو أنهم فئةٌ خارجةٌ عن الإمام، والفئةُ الخارجةُ عن الإمام تُقْتَلُ.

١٧٧٨- وَهُوَ الَّذِي أَنْشَا الـخَوَارِجَ مِثْلَ إِنْـ ـشَاءِ الرَّوَافِضِ أَخْبَثِ الـحَيَوَانِ

قَوْلُهُ: «وَهُو» الضميرُ يعودُ عَلَى التَّأويل الَّذِي أنشأ الخوارجَ، والخوارجُ فرقةٌ ضالةٌ كَفَّرَت كثيرًا من الصحابة، واستباحت دماءَ المسلمين بغير حُجَّةٍ لكن بما معها -والعياذ بالله- من التَّسَرُّع، والاستكبار، والاعتداد بالنفس، حتَّى رَأَوْا أنَّ مَنْ سواهم فهو كافرٌ، وكَفَّروا بالفسق والكبائر، وقالوا: مَنْ شَرِبَ قطرةً من خمرٍ فهو كافرٌ مُخَلَّدٌ في النار، يجبُ قتالُه، ويَحِلُّ دمُه، والعياذ بالله.

هذه الفرقةُ الضالةُ من أشدِّ الناس خطرًا عَلَى الأمَّة الإسلامية.

كذلك «الرَّوَافِضِ» ووصفهم ابنُ القيِّم بأنهم أخبثُ الحيوان، فالروافضُ أيضًا فرقةٌ ضالةٌ، فرقةٌ مشركةٌ، والمرادُ بذلك الغلاةُ منهم، فِرقةٌ يدَّعونَ أنَّ لهم أئمةً يُدَبِّرون الكونَ، وأنه ما من ذرةٍ تكون في الكون إِلَّا ويُدبِّرها الإمامُ المعصومُ

عندهم، وأنَّ مَنْ سوى أئمتهم فهم أئمةُ ضلالٍ، وكتبُهم معروفةٌ، وهم أكثرُ فرق أهل البدع في الأمة الإسلامية، حتَّى قَسَّمَ الناسُ الأمةَ الإسلاميةَ إِلَى قسمين: سُنَّة، وشيعة، والشيعةُ هم الروافض.

١٧٧٩- وَلِأَجْلِهِ شَتَمُوا خِيَارَ الْـخَلْقِ بَعْـ ـدَ الرُّسْـلِ بِالْعُـدْوَانِ وَالبُهْتَـانِ

قَوْلُهُ: «لِأَجْلِهِ» أي: لأجل التأويل.

قَوْلُهُ: «شَتَمُوا» أي: الروافض.

قَوْلُهُ: «خِيَارَ الخَلْقِ بَعْدَ الرُّسْلِ» أي: الصحابة.

فالروافض يُكَفِّرون الصحابةَ إِلَّا نفرًا قليلًا وآلَ البيت، والبقيةُ كُلُّهم كُفَّارٌ، حتَّى إِنَّ بعضَهم يُصَرِّحُ بأنَّ أبا بكرٍ وعمرَ كافران وماتا عَلَى النفاق.

ولا شكَّ أنَّ هَذَا القولَ لازمُه من أبطل اللوازم؛ لأنه قدحٌ في الله، وقدحٌ في الرسول -عليه الصلاة والسلام-، وقدحٌ في الشريعة، وقدحٌ في خيار الخلق.

هذا المذهبُ يلزمُ مِنْهُ هَذِهِ اللوازمُ الباطلةُ، قدحٌ في الله: حيث جعل أصحابَ رسولِهِ هؤلاء القومَ الفسقةَ الفجرةَ الخونةَ -والعياذ بالله- هَكَذَا اعتقادُهم.

قدحٌ في الرسول: حيث كان أخدانُه وأحبَّاؤه هؤلاء الفسقةَ، وكما هُوَ معلومٌ أنَّ المرءَ عَلَى دين خليله، وأنَّ الإنسانَ يُعْرَفُ بصاحبه، يُقَالُ: ماذا تقولُ في فلان؟ قال: والله فلانٌ يَصحبُ أناسًا أسافل، فهذا قدحٌ فيه، إِذَنْ القدح في الصحابة يستلزمُ القَدحَ في رسول الله ﷺ.

وهو قدحٌ في الشريعة؛ لأنَّ الوسيلةَ التي نَقلت إلينا الشريعةَ هم الصحابة، فإذا كانوا فجرةً فسقةً، أو كُفَّارًا، فكيف نَثِقُ بالشريعة؟! إِذَنْ لا ثقة لَنَا بها.

هو قدحٌ أيضًا في الصحابة الذين هم خير القرون بشهادة النَّبِيِّ ﷺ لهم(١).

وسبحان الله العظيم! أعمى اللهُ بصائرَهم، كَيْفَ تمرُّ بهم الآياتُ الْقُرْآنيةُ الواضحةُ في أنَّ الصحابةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ خيرُ الأمة، قَالَ الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح:٢٩] وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد:١٠]، والآياتُ في هَذَا كثيرةٌ.

والأحاديثُ كثيرةٌ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لـ«أُحُدٍ» لما اهتزَّ به ومعه أبو بكرٍ وعمر وعثمان: «اثْبُتْ أُحُدُ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ»(٢). لكن -نسألُ اللهَ العافيةَ- الهوى يُعمِي ويُصِمُّ.

١٧٨٠- وَلِأَجْلِهِ سَلَّ الْبُغَاةُ سُيُوفَهُمْ ظَنًّا بِأَنَّهُمُ ذَوُو إِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «الْبُغَاةُ» أي: الخارجون عَلَى الأئمة سَلُّوا سيوفَهم ظنُّوا أنهم محسنون، فيأتي لإنسان، ويقول: هَذَا الخليفةُ يشربُ الخمَر، فيقول الثاني: الله أكبر إنه لكافرٌ، فيقول الثالث: جهِّز السيفَ، ويقول الرابع: انفروا خفافًا وثقالًا، فيخرجون عَلَى الإمام بمثل هَذَا التأويل.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور، رقم (٢٦٥٢)، مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا»، رقم (٣٦٧٥).

والإمامُ الَّذِي يشربُ الخمرَ، والذي يزني، والذي يُعاقِرُ النساءَ، هل يكونُ كافرًا؟ الجواب: أبدًا، لا يكون كافرًا، لكنَّه فاسقٌ لا شكَّ، ولكنَّه لا يجوز أن يُخْرَجَ عليه؛ لأنَّ النَّبِيَّ -عليه الصلاة والسلام- قال: «لَا إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ فِيهِ مِنَ الله بُرْهَانٌ»(١).

فالشروط ثلاثةٌ: «تَرَوْنَ»، «كُفْرًا بَوَاحًا»، «عِنْدَكُم فِيهِ مِنَ الله بُرْهَانٌ».

فالظنُّ لا يكفي حتَّى ترى بعينك كفرًا بواحًا صريحًا، والذي فيه احتمالٌ أنه كفرٌ أو فسق لا يُبيحُ الخروجَ عليه.

وَقَوْلُهُ: «بَوَاحًا» هل ذلك بمقتضى ظَنِّك أو بمقتضى الدَّلِيل الشرعيِّ؟ الجواب: بمقتضى الدَّلِيل الشرعيِّ.

وَقَوْلُهُ: «عِنْدَكُمْ فِيهِ مِنَ الله بُرْهَانٌ» قَالَ العلماءُ: الْبُرْهَانُ هُوَ الدَّلِيلُ القاطعُ.

فالمسألةُ عظيمةُ جدًّا، ثُمَّ الخروج أيضًا مع تمام الشروط المجيزة له، لا بُدَّ فيه من شرطٍ رابعٍ: وَهُوَ أنه يزولُ هَذَا الشيءُ بالخروج، وإذا كان لا يزولُ بل يزيدُ حَرُمَ الخروجُ لا لعدم وجود المبيح له، ولكن لعدم الجدوى منه، فلو خرج عشرةٌ من الناس عَلَى دولة بعد أن رَأَوْا كفرًا بواحًا عندهم فيه من الله بُرْهَانٌ، واحد معه سكينٌ، والثاني: سيفٌ، والثالث: مخلبٌ، والرابع: عصا، والخامس: حجر، وهَكَذَا، وقالوا: نخرج عَلَى دولةٍ عندها دبَّاباتٌ وقنابلُ وصواريخُ ماذا يكونُ خروجُهم؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «سترون بعدي أمورًا تنكرونها»، رقم (٦٦٤٧)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية رقم (١٧٠٩).

الجَوَابُ: يكون خروجُهم جنونًا، ولا يَحِلُّ لهم لا بشرعٍ ولا بعقل، فلا بُدَّ من تهيئةٍ يكونُ بها زوالُ هَذَا المنكرِ الَّذِي رأينا أنه كفرٌ بواحٌ عندنا فيه من الله بُرْهَانٌ، أمَّا أن تخرجَ طائفةٌ ثُمَّ تُطْحَنُ ويُطْحَنُ مَنْ وراءها مِمَّن هُوَ خيرٌ فلا شَكَّ أَنَّ هَذَا سفهٌ وضررٌ؛ ولهذا أنكر الإمامُ أبو حنيفة -رحمه الله- مثلَ هذا، فقيل: إنهم يخرجون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: نعم، ولكن ما يفعلونه أكبرُ مِـمَّا يخرجون من أجله.

فالحاصل أنَّ التأويلَ هُوَ كُلُّ بَلِيَّةٍ، فهو الَّذِي جعل البُغَاةَ يخرجونَ عَلَى الأئمةِ حتَّى حصلت الشرورُ والفتنُ.

قَوْلُهُ: «ظَنًّا بِأَنَّهُمْ ذَوُو إِحْسَانِ» ولكنَّهم والله ذوو إساءةٍ عَلَى أنفسهم وعلى غيرِهم.

١٧٨١- وَلِأَجْلِهِ قَـدْ قَـالَ أَهْـلُ الْإِعْتِـزَا ... لِ مَقَالَـةً هَـدَّتْ قُـوَى الإِيـمَانِ

١٧٨٢- وَلِأَجْلِـهِ قَـالُوا بِـأَنَّ كَلَامَـهُ ... سُـبحَانَهُ خَلْـقٌ مِـنَ الأَكْـوَانِ

قَوْلُهُ: «قَدْ قَالَ أَهْلُ الإِعْتِزَالِ مَقَالَةً هَدَّتْ قُوَى الإِيمَانِ» ما الَّذِي قالوا؟ قالوا: إنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- لا يتكلَّمُ، وإنَّ اللهَ لا يُحِبُّ، ولا يرضى، فأنكروا المحبَّةَ، وأنكروا الكلامَ، وأنكروا كُلَّ الصِّفَات؛ لأنهم يَدَّعون أنَّ إثباتها يستلزمُ التمثيلَ، أو التَّجْسِيمَ، أو الإشراكَ، عَلَى خلافٍ بينهم.

١٧٨٣- وَلِأَجْلِـهِ قَـدْ كَـذَّبَتْ بِقَضَـائِهِ ... شِبْهَ الْـمَجُوسِ العَابِـدِي النِّـيرَانِ

قَوْلُهُ: «وَلِأَجْلِهِ قَدْ كَذَّبَتْ بِقَضَائِهِ» وهم القدرِيَّةُ كَذَّبُوا بقضاء الله، والقدرِيَّةُ طَائِفةٌ من الأمَّة ينتسبون للأمة، يقولون: إنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- لا عَلاقةَ له بفعل العبد، ولا يدري عن العبد إلَّا إذا فعل العبدُ.

يقولون: إنَّ اللهَ لا يدري عن العبد إطلاقًا، وليس له تصرُّفٌ فيه، ولا يعلمُ عن فعله إلَّا إذا فَعَلَه، فأنكروا العلمَ، وأنكروا الكتابةَ، وأنكروا المشيئةَ، وأنكروا الخلقَ، وهذا رأيُ غلاتهِم، فالغلاةُ قالوا: لا يعلمَ، ولا يشاءُ، ولا يخلقُ، فليس له دخلٌ بالعبد.

أمَّا المقتصدون منهم فقالوا: إنَّ اللهَ يعلمُ لكن لا يشاءُ، ولا يخلقُ، فهو يعلمُ أنَّ العبدَ يفعلُ كذا، لكن لا يقدرُ أن يُغَيِّرَ؛ لأنَّ فعلَ العبدِ بمشيئة العبد، وليس بمشيئة الله، فليس لله فيه عَلاقةٌ.

إِذَنْ أيهما خير: هؤلاء أم الغلاة؟ الجواب: كلاهما شَرٌّ في الحقيقة.

على كُلِّ حالٍ هؤلاء القدرِيَّةُ يقول المؤلفُ: إنهم شِبْهُ المجوس، كَيْفَ كانوا شِبْهَ المجوس؟ ما وجه المشابهة؟

المجوسُ يقولون: إنَّ الكونَ له خالقان اثنان، فكُلُّ ما يحدثُ فيه فهو إمَّا مِن خَلق النور وإمَّا مِن خَلق الظلمة، فكُلُّ ما يحدث في الكون فهو إمَّا من الظلمة وإمَّا من النور؟ إن كان خيرًا فهو من النور، وإن كان شرًّا فهو من الظلمة، فجعلوا للخلق خالِقَيْن.

وهؤلاء القدرِيَّةُ جعلوا للحوادث خالِقَيْن: حوادث من فعل الله كإنزال المطر، وإنبات الأرض، والإحياء والإماتة، وحوادث من فعل العبد، فالأولى تختصُّ بالله، والثانيةُ تختصُّ بالعبد، إِذَنْ للحوادثِ خالقان؛ ولهذا قال: «**شِبْهَ الْـمَجُوسِ العَابِدِي النِّيرَانِ**».

١٧٨٤- وَلِأَجْلِهِ قَدْ خَلَّدُوا أَهْلَ الكَبَا ... ئِرِ فِي الجَحِيمِ كَعَابِدِي الأَوْثَانِ

قَوْلُهُ: «**قَدْ خَلَّدُوا أَهْلَ الكَبَائِرِ فِي الجَحِيمِ**» خلَّدوا أي: المعتزلةُ والخوارجُ

كلاهما يُخَلِّدُ أهلَ الكبائر في الجحيم كما يُخَلَّدُ عابدو الأوثان، رجل زنى ولكن لم يتب من الزِّنى، وفي نفسه أنه لو حَصَّل امرأةً ثانية زنى بها، ومات قبل أن يتوبَ، ورجلٌ مشركٌ بالله منذ مَيَّز حتَّى مات، عند الخوارج والمعتزلة كلاهما مخلَّدٌ في النار كعابدي الأوثان.

١٧٨٥- وَلِأَجْلِهِ قَدْ أَنْكَرُوا لِشَفَاعَةِ الْـ ـمُخْتَارِ فِيهِمْ غَايَةَ النُّكْرَانِ

هم يقولون: ليس لأهل الكبائر شفاعةٌ كما أنَّ أهلَ الإشراك ليس فيهم شفاعةٌ، بناءً عَلَى أنَّ أهلَ الكبائر مخلَّدون في النار، والمخلَّدُ في النار لا تنفعُ فيه الشفاعةُ، وهذا واضحُ.

١٧٨٦- وَلِأَجْلِهِ ضُرِبَ الإِمَامُ بِسَوْطِهِمْ صِدِّيقُ أَهْلِ السُّنَّةِ الشَّيْبَانِي

قَوْلُهُ: «ضُرِبَ الإِمَامُ بِسَوْطِهِمْ» أي: الإمامُ أحمدُ ضُرِب بالسَّوط؛ لأنه أَصَرَّ عَلَى قول الحقِّ أنَّ الْقُرْآنَ كلامُ الله مُنَزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ، وهم يضربونه بالسِّياط حتَّى يُغشى عليه، يُجَرُّ بالبغلة في السوق ويُضْرَبُ حتَّى يُغمى عليه ليقول: إنَّ الْقُرْآنَ مخلوقٌ، ولكنَّه أصرَّ فقال: الْقُرْآنُ مُنَزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ، افعلوا ما شئتم، وهذا كما قَالَ السَّحرةُ لفرعون: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه:٧٢].

وهَكَذَا مقامُ أهلِ الحقِّ، لاسيَّما في هَذَا المقام الضَّنك؛ لأنَّ الإمامَ أحمدَ لو قال: (الْقُرْآنُ مخلوقٌ) ولو بالتأويل، انقلبت الأمةُ كُلُّها معتزلةً جهميةً، فمقامُه هنا ليس من باب مقام الإكراه.

يعني: لو قَالَ قائل: لماذا لم يتأوَّل، والمُكْرَه ليس عليه ذنبٌ؟ نقول: لا، هَذَا مقامُ جهادٍ، ففرقٌ بين شخصٍ يُكْرَهُ عَلَى أن يسجدَ لصنم ولكن لا يقتدي به الناسُ هَذَا له أن يفعل ما أُكْرِه عليه إذا كان قلبُه مطمئنًا بالإيمان، وبين شخصٍ

يكون إمامًا، هَذَا لا يجوزُ أن يفعلَ ما أُكْرِه عليه؛ لأنَّ هَذَا الإمامَ إذا فعل ما أُكْرِه عليه من الكفر سيتبعه النَّاسُ ويكفرون، فمقامُه مقامُ جهادٍ، لكن شخص عادي قيل له: اسجد للصنم، فسجد، ولا يهتمُّ به أحدٌ، بل الناسُ ينكرون عليه أنه سجد، هَذَا نقول: إذا سجد دفعًا للإكراه فإنه لا حرجَ عليه، ويكونُ معذورًا ما دام قلبُه مطمئنًا بالإيمان.

١٧٨٧- وَلِأَجْلِهِ قَدْ قَالَ جَهْمٌ: لَيْسَ رَبْـ ... ـبُ الْعَرْشِ خَارِجَ هَذِهِ الأَكْوَانِ

١٧٨٨- كَلَّا وَلَا فَوْقَ السَّمَوَاتِ العُلَى ... والعَرْشِ مِنْ رَبٍّ وَلَا رَحْمَنِ

١٧٨٩- مَا فَوْقَهَا رَبٌّ يُطَاعُ جِبَاهُنَا ... تَهْوِي لَهُ بِسُجُودِ ذِي خُضْعَانِ

جهمُ بنُ صفوانٍ إمامُ الجهميَّة يقولُ: إنَّ اللهَ ليس فَوْقَ العرش، وليس فوقَ السَّموات، وليس فوقَ السَّموات من رَبٍّ فأين اللهُ؟

انقسمت الجهميَّةُ إِلَى قسمين:

قسم قالوا: إِنَّ اللهَ بذاته في كُلِّ مكان، في المسجد، في السُّوق، في البَرِّ، في كُلِّ مكان، لا تقل: فَوْقَ السَّموات.

قسمٌ آخر: قالوا: إنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- ليس فوقُ ولا تحتُ، ولا يمينُ ولا شمالُ، ولا داخلًا ولا خارجًا، ولا متصلًا ولا منفصلًا، أين هُوَ إِذَنْ؟ الجواب: غير موجود.

فأولئك -والعياذ بالله- جعلوه في كُلِّ مكانٍ، وهؤلاء أَخْلَوْا مِنْهُ كُلَّ مكان.

لكن ما هُوَ تأويلُ الجهميَّةِ في ذلك؟ يقولون: لو قلنا: إنَّ اللهَ فوقُ لزم أن يكونَ في جهة، فيكون محدودًا، ويكونُ جسمًا، ويكون في حيِّز، وما أشبه ذلك.

ونقولُ لهم -كما سبق- في الرَّدِّ عليهم بأنَّ كُلَّ هَذَا ليس بلازمٍ بالنسبة لعلوِّ الله إِلَّا ما كان لائقًا به عزَّ وجلَّ.

١٧٩٠- وَلِأَجْلِهِ جُحِدَتْ صِفَاتُ كَمَالِهِ وَالْعَرْشُ أَخْلَوْهُ مِنَ الرَّحْمَنِ

صفاتُ الكمال أُنْكِرَتْ بالتأويل، لماذا؟ قالوا: لأننا لو أثبتنا صفةً لزم أن يكونَ جسمًا، والأجسامُ متماثلةٌ.

وقال بعضُهم: لو أثبتنا صفةً قديمةً لزم تعدُّدُ القدماء، وهذا أعظمُ من شرك النصارى، فالنصارى جعلوا الآلهةَ ثلاثةً، وأنت إذا أثبتَّ لله صفةً قديمةً جعلتَه آلافًا، مثلًا إذا أثبت لله سمعًا قديمًا، وبصرًا قديمًا، وقُدرةً قديمةً، وحياةً قديمةً، وقوةً قديمةً، وعِزَّةً قديمةً، صار ستةً، وهَكَذَا كُلَّما زدتَ صفةً زدت ربًّا، فيقولون: هَذَا شركٌ، إِذَنْ يجبُ أن ننكرَ كُلَّ صفةٍ، فلأجل هَذَا التأويل أنكروا صفاتِ الكمال.

١٧٩١- وَلِأَجْلِهِ أَفْنَى الجَحِيمَ وَجَنَّةَ الْـ ـمَأْوَى مَقَالَةَ كَاذِبٍ فَتَّانِ

١٧٩٢- وَلِأَجْلِهِ قَالُوا: الإِلَهُ مُعَطَّلٌ أَزَلًا بِغَيْرِ نِهَايَةٍ وَزَمَانِ

قَوْلُهُ: «**وَلِأَجْلِهِ أَفْنَى الجَحِيمَ وَجَنَّةَ المَأْوَى**» أي: لأجل التأويل أفنى الجحيمَ وأفنى جنَّةَ المأوى.

فهؤلاء الجهميَّةُ يقولون: إِنَّ أفعالَ الله ليس لها استمرارٌ أزليٌّ، ولا أبديٌّ فهم يقولون: إِنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- ليس له فعلٌ مستمرٌّ لا أزلًا ولا أبدًا، وعلى هذا، فالنَّارُ تفنى، والجنَّةُ تفنى، وقد سبق أنهم يقولون بفناء الجنَّة وفناء النار، وبعضُهم قال: تفنى الحركاتُ دون الذوات، حتَّى إِنَّ الإنسانَ إذا كان يريدُ أن

يأكلَ ثمرةً من الجنَّة وأخذ الثمرةَ ليوصلَها إِلَى فمه، وجاء وقتُ الفناء بَقِيَ هَكَذَا، بقيت الثمرةُ في يده إِلَى أبد الآبدين، نسأل اللهَ العافيةَ، عقولٌ غريبةٌ.

على كُلِّ حالٍ هم يقولون بفناء الجنَّة والنَّار تأويلًا باطلًا.

١٧٩٣- وَلِأَجْلِهِ قَدْ قَالَ: لَيْسَ لِفِعْلِهِ مِنْ غَايَةٍ هِيَ حِكْمَةُ الدَّيَّانِ

من مذهب جهم إنكارُ الحكمة أيضًا، يقولُ: إِنَّ أفعالَ الله غيرُ معلَّلةٍ، ليس لها حكمةٌ، يفعلُ هَكَذَا، ليس لها غايةٌ حميدةٌ؛ لأنك لو جعلتَ لأفعاله حكمةً صَيَّرته يفعلُ لغرضٍ، والذي يفعلُ لغرضٍ ناقصٌ؛ لأنه لا يَكْمُل إِلَّا بهذا الغرض؛ ولهذا من قواعدهم الفاسدة أنَّ اللهَ مُنَزَّهٌ عن الأعْرَاضِ والأَبْعَاضِ والأَغْرَاضِ.

وهي كلمةٌ مسجوعةٌ حلوةٌ في لفظها لكنَّها مُرَّةٌ في معناها، فـ **(مُنَزَّهٌ عن الأعْرَاض)** يعني: عن الصِّفَات.

«**والأبعاض**» يعني: عن اليدين، والوجه، والعين.

«**والأغراض**» يعني: عن الحكمة، فليس لفعله حكمةٌ.

فأهدروا جميعَ ما يدلُّ عليه اسمُ الحكيم، فهو حكيمٌ بلا حكمةٍ.

وأنكروا كُلَّ ما جعله اللهُ سببًا؛ لأنَّ الأسبابَ من العِلل، والْقُرْآنُ مملوءٌ بإثبات الحكمة لله، لكن هم يقولون: يفعلُ بغير حكمة، يفعلُ لمجرد المشيئة، نسألُ اللهَ العافيةَ.

١٧٩٤- وَلِأَجْلِهِ قَدْ كَذَّبُوا بِنُزُولِهِ نَحْوَ السَّمَاءِ بِنِصْفِ لَيْلٍ ثَانِي

قَوْلُهُ: «**وَلِأَجْلِهِ**» أي: لأجل التأويل كذَّبوا بنزول الله تعالى إِلَى السَّماء الدنيا

في النصف الثاني من الليل، فقالوا: إِنَّ معنى قولِه -عليه الصلاة والسلام-: «يَنْزِلُ رَبُّنَا»[1] أي: يَنْزِلُ أمرُ ربِّنا، أو رحمةُ ربِّنا، أو مَلَكُ ربِّنا، وقد سبق الجواب عَلَى هَذَا التحريف.

١٧٩٥- وَلِأَجْلِهِ زَعَمُوا الْكِتَابَ عِبَارَةً وَحِكَايَةً عَنْ ذَلِكَ الْقُرْآنِ

١٧٩٦- مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ سِوَى المَخْلُوقِ وَالْـ ـقُرْآنُ لَمْ يُسْمَعْ مِنَ الرَّحْمَنِ

لأجله زعموا أَنَّ الْقُرْآنَ عبارةٌ وحكايةٌ عن كلام الله، وهؤلاء هم الكُلَّابِيَّةُ والأشعريَّةُ، قالوا: إِنَّ كلامَ الله لا يُسْمَعُ، وليس بحروفٍ، لكنَّه هُوَ المعنى القائم بنفسِه، وأَنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- خَلَقَ أصواتًا تُسْمَعُ عبارة عن هَذَا الكلام، أو حكاية عن هَذَا الكلام؛ ولهذا قَالَ المؤلف:

١٧٩٧- مَا ذَا كَلَامَ الله قَطُّ حَقِيقَةً لكِنْ مَجَازٌ وَيْحَ ذَا الْبُهْتَانِ

قَوْلُهُ: «وَيْحَ» كلمةُ توجُّعٍ ووعيدٍ لهذا البهتان الَّذِي ذهب إليه هؤلاء، هم إذا جعلوا الكلامَ عبارةً عن المعنى القائم بالنفس فهل يُسَمَّى المعنى القائمُ بالنفس هل يُسَمَّى كلامًا؟ الجواب: أبدًا، وأمَّا قولُ القائلِ[2]:

إِنَّ الكَلَامَ لَفِي الفُؤَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الفُؤَادِ دَلِيلَا

يقولون: إِنَّ القائلَ لهذا البيت هُوَ الأخطلُ النصرانِيُّ المشهورُ، وبعضُهم أنكر أن يكونَ قاله؛ لأنه لم يوجد في ديوانه، وأَيًّا كان فإنه لا حُجَّةَ فيه؛ لأَنَّ معنى

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١٠٩٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، رقم (٧٥٨).
(٢) انظر: البيان والتبيين للجاحظ (١/ ١٨٧).

قوله: «إِنَّ الكَلَامَ لَفِي الفُؤَادِ» يعني: أنَّ الكلامَ الرَّصِينَ الَّذِي يُعتبرُ ما كان خارجًا من القلب، وأمَّا الكلامُ الهذيان فهو الَّذِي يكون عَلَى اللِّسان، فالكلامُ الرَّصِينُ الحقيقيُّ المفيدُ هُوَ الَّذِي يخرجُ من القلب، فالإنسانُ يُقَدِّرُ أوَّلًا بقلبه، ثُمَّ ينطقُ بلسانه، لكن لا يمكنُ أن يُقالَ: إنه متكلِّمٌ حتَّى ينطقَ باللِّسان.

١٧٩٨- وَلِأَجْلِهِ قَتَلَ ابْنَ نَصْرٍ أَحْمَدٌ ذَاكَ الخُزَاعِيُّ الْعَظِيمُ الشَّانِ

١٧٩٩- إِذْ قَالَ: ذَا الْقُرْآنُ نَفْسُ كَلَامِهِ مَا ذَاكَ مَخْلُوقٌ مِنَ الأَكْوَانِ

قَوْلُهُ: «ابْنَ نَصْرٍ أَحْمَدٌ» هُوَ أحمدُ بنُ نصرٍ -رحمه الله[1]- وَهُوَ الرجلُ الثاني الَّذِي وقف أمامَ المحنة في عهد الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله-، فإنَّ هذين الرَّجُلَيْن أصرَّا عَلَى أن يقولا: إنَّ الْقُرْآنَ كلامُ الله غيرُ مخلوق، فقُتِل أحمدُ بن نصرٍ -رحمه الله-، وأمَّا الإمام أحمد فنجى.

١٨٠٠- وَهُوَ الَّذِي جَرَّ ابْنَ سِينَا وَالأُلَى قَالُوا مَقَالَتَهُ عَلَى الكُفْرَانِ

١٨٠١- فتَأَوَّلُوا خَلْقَ السَّمَوَاتِ العُلَى وَحُدُوثَها بِحَقِيقَةِ الإِمْكَانِ

ابنُ سينا وشيعتُه من الفلاسفة قالوا: ليس هناك خالقٌ ومخلوقٌ، وأمَّا خلقُ السموات فمعناه إمكانُ حدوثِها، وأنها وُجِدَتْ، ووجودُها دليلٌ عَلَى الإمكان، أمَّا أن يكونَ هناك خالقٌ فلا، وتأوَّلوا الخلقَ بمعنى إمكان الحدوث.

١٨٠٢- وَتَأَوَّلُوا عِلْمَ الإِلَهِ وَقَوْلَهُ وَصِفَاتِهِ بِالسَّلْبِ والبُطْلَانِ

قالوا: إنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- ليس له صفةٌ هي وجوديَّة، بل كُلُّ صفاتِه

(١) هو الإمام الكبير، الشهيد، أبو عبد الله أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي، المروزي، ثم البغدادي، كان أمَّارًا بالمعروف، قوَّالًا بالحق. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١١/ ١٦٦).

سلبيَّةٌ، حتَّى قالوا: لا يصحُّ أن تقولَ بأنَّ اللهَ موجود، فهذا غيرُ صحيحٍ؛ لأنه لا يجوزُ أن يُثْبَتَ لله صفةٌ وجوديَّةٌ، بل كُلُّ صفاتِه سلبيَّةٌ، ومع هَذَا أيضًا يقولون: إنه تخييلٌ لا حقيقةَ له، لكنَّ الرسلَ جاؤوا بهذا التخييل من أجل أن يستقيمَ النَّاسُ عَلَى ما أُرِيدَ منهم، وإلَّا فلا رَبَّ، ولا صفاتِ رَبٍّ، ولا جنةَ ولا نارَ، ولا يومَ آخرَ، وإنما الرسل صَوَّرت هَذَا تصويرًا قصصيًّا من أجل أن يستقيمَ الناسُ عَلَى ما طَلَبَتْ منهم الرسلُ.

١٨٠٣- وَتَأَوَّلُوا الْبَعْثَ الَّـذِي جَـاءَتْ بِـهِ ... رُسُـلُ الإِلَـهِ لِـهَذِهِ الأَبْـدَانِ

١٨٠٤- بِفِرَاقِهَـا لِعَنَـاصِرٍ قَـدْ رُكِّبَـتْ ... حَتَّـى تَعُـودَ بَسِـيطَةَ الأَرْكَـانِ

البعثُ الَّذِي هُوَ إخراجُ الناس من قبورهم لربِّ العالمين أحياءً بعد الموت، قالوا: ليس هَذَا المرادَ بالبعث، المرادُ بالبعثُ بعثُ الروح من عالَمِ المادة إِلَى عالَمِ الرُّوحِ، أي: أنها تخرجُ من عناصر المادة من البدن إِلَى عالم الأرواح.

والحقيقةُ أنَّ هَذَا تحريفٌ ليس بعده تحريفٌ؛ لأننا إذا قلنا: إِنَّ هَذَا هُوَ البعثُ فحقيقتُه أنَّ هَذَا هُوَ الموتُ، فالموت أن تفارقَ الرُّوحُ البدنَ، تفارقَ العنصرَ الماديَّ إِلَى عنصر الأرواح الغيبِيِّ، وهذا ليس ببعث، هَذَا حقيقتُه أنه الموت، لكن لتحريفهم زعموا أنَّ هَذَا هُوَ البعثُ، وأنكروا أن يكونَ هناك بعثٌ للأبدان، قالوا: الأبدانُ تفنى وتذهبُ، ولا يمكنُ أن تُبْعَثَ مرةً أخرى.

١٨٠٥- وَهُـوَ الَّـذِي جَـرَّ القَرَامِطَـةَ الأُلَى ... يَتَـأَوَّلُونَ شَرَائِـعَ الإِيـمَانِ

القرامطةُ أصلُهم شيعةٌ روافض، لكن تطورت بدعتُهم -والعياذ بالله- حتَّى قالوا: إِنَّ للإسلام ظاهرًا وباطنًا، الظاهرُ ما نعرفه من الصلاة والزكاة

والصيام والحجِّ، وهذا لا يُؤْمَرُ به إِلَّا العامةُ، ولا يقومُ به إِلَّا العامةُ، فالأنبياءُ عوام، وتابعوهم عَلَى هَذَا الدين الظاهر عوام، والدينُ الحقيقِيُّ هُوَ الدين الباطِنِيُّ، ولهذا يُسمَّون الباطنيَّة، وهذا الدين الباطِنِيُّ لا يُؤْمَرُ به إِلَّا خواصُّ الناس وهم أولياؤهم ولهذا تأوَّلوا، حتَّى الشريعة العملية تأوَّلوها كما تأوَّل هؤلاء الشريعةَ العلميَّةَ في صفات الله وغيره، تأوَّلوها أي: حرَّفوها.

هؤلاء حَرَّفوا حتَّى الأمور العمليَّة، قالوا: الصلاةُ ليست هي ذات الركوع والسجود، بل الصلاةُ معرفةُ أسرارِ القوم.

والصيام: هل هُوَ الإمساك عن الطعام والشراب والمفطرات؟ لا، فهذا صوم العوام، أمَّا صومُ الخواصِّ فهو كتمانُ أسرارهم؛ ولهذا لا يَبُوحون بأسرار مذهبهم إِلَّا بعد أن يتربَّى الإنسانُ عَشْرَ مراتبٍ معروفة عندهم، يعني: يُرَحِّلونه مرحلةً مرحلةً حتَّى يصل إِلَى الغاية.

وأمَّا الحجُّ فقالوا: إنه زيارةُ أوليائِهم، أمَّا أن تزورَ الكعبةَ، فهذا حجُّ العوام، حجُّ الخواصِّ أن تذهبَ إِلَى الوليِّ الفلانيِّ حيًّا كان أو ميتًا وتقصده، هَذَا هُوَ الحجُّ.

الزكاةُ ليست بذلَ المال للفقراء، والمساكين، والعاملين عليها... إلخ، ولكنَّها بذلُ المال في تنمية مذاهبهم، والبناء عَلَى قبور أوليائهم، وما أشبه ذلك.

١٨٠٦- فَتَأَوَّلُوا العَمَلِــيَّ مِثْـلَ تَـأَوُّلِ الْـ ـــعِلْمِيِّ عِنْــدَكُمْ بِــلَا فُرْقَــانِ

قَوْلُهُ: «العِلْمِيّ» هُوَ ما يتعلَّقُ بالعقائد.

قَوْلُهُ: «العَمَلِيّ» هُوَ ما يتعلَّق بأعمال الجوارح.

الباطنيَّةُ القرامطةُ تأوَّلوا الأمرَيْن جميعًا، هم في مذهبهم العلميِّ كمذهب الفلاسفة تمامًا، يقولون: كُلُّ اليوم الآخر، وأسماء الله، وصفات الله، بل والله عزَّ وجلَّ كُلُّه تخييلٌ.

هم زادوا عَلَى ذاك، وقالوا: العمليُّ أيضًا تخييلٌ للعوام فقط دون الخواصِّ.

١٨٠٧- وَهُوَ الَّـذِي جَـرَّ النَّصِـيرَ وَحِزْبَـهُ حَتَّـى أَتَـوْا بِعَسَـاكِرِ الكُفْـرَانِ

قَوْلُهُ: «النَّصِير» هُوَ نَصيرُ الدين الطُّوسِيُّ -عليه من الله ما يستحقُّ- هَذَا الرجلُ رافضِيٌّ، استبطنه الخليفةُ، وجعله من بطانته، فخانه أعظمَ خيانة، وقاد التتارَ إِلَى دخول بغداد، فدخل التتارُ بغدادَ، وقتلوا الخليفةَ، وقتلوا أممًا لا يحصيهم إِلَّا اللهُ من العلماء، والعُبَّاد، والزُّهَّادِ، وغيرهم.

حتَّى إِنَّ ابنَ الأثير -رحمه الله- لما أراد أن يتكلَّمَ عَلَى محنتهم قال: «**لقد بقيت عدة سنين مُعرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها، كارها لِذِكرها، فأنا أقدم إِلَيْهِ رجلا وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عَلَيْهِ أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عَلَيْهِ ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل حدوثها وكنت نسيا منسيا، إلا أنني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعا**»(١).

وكان يقول: من محنتهم أنَّ العشرةَ منهم، أو الخمسةَ، أو الرجلَيْنِ أو الثلاثةَ يدخلون السوق، ويدُقُّون البيوتَ، ويُخرجونَ الرجالَ، ويأتون بحجر بل بحجرين، ويقولون للرجل: ضع رأسَك عَلَى هَذَا الحجر، ويقولون لأخيه: اضرب رأس أخيك بالحجر الثاني، ويفعل ذلك، لا يدافعون عن أنفسهم، يعني:

---

(١) انظر: الكامل في التاريخ (١٠/ ٣٣٣).

أنزل اللهُ في قلوبهم الرعبَ، ويخرجون المرأةَ وهي حاملٌ فيبقرون بطنها، ويُخرجون ولدَها يتحرَّك أمامها، ثُمَّ يقتلونه -نسأل اللهَ العافيةَ- فإذا رأيت ما جرى تقولُ: سبحان الحليم الَّذِي لا يُؤاخِذُ عبادَه بما صنعوا!

يقول ابن القيم:

١٨٠٨- فَجَرَى عَلَى الإِسْلَامِ أَعْظَمُ مِحْنَةٍ وَخُمَارُهَا فِينَا إِلَى ذَا الآنِ

يعني: جرى عَلَى الإسلام محنةٌ عظيمةٌ سقطت به الدولةُ العباسيَّةُ.

قَوْلُهُ: «**وخُمَارُها فِينَا**» يعني: ما زالت هَذِهِ الفتنةُ إِلَى وقت ابن القيِّم في القرن الثامن، وهي كانت في سنة ستمئة وخمسين، يعني: قبل مائة سنة، وما زالت آثارُها.

إِذَنْ عرفنا الآن أنَّ أساسَ البلاء في الإسلام هُوَ التأويلُ سواء في الأمور العلميَّة، أو في الأمور العمليَّة حتَّى في مسائل الفقه الذين يخالفون الأقوالَ الصحيحةَ التي دلَّت عليها النصوصُ إنما خالفوها من أجل التأويل، يؤوِّلون النصوصَ، فيخالفون مرادَ الشَّارع.

* * *

١٨٠٩- وَجَمِيعُ مَا فِي الكَوْنِ مِن بِدَعٍ وَأَحْـ ـدَاثٍ تُخَالِفُ مُوجَبَ القُرْآنِ

١٨١٠- فَأَسَاسُهَا التَّأْوِيلُ ذُو البُطْلَانِ لَا تَأْوِيلُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ

١٨١١- إِذْ ذَاكَ تَفْسِيرُ المُرَادِ وَكَشْفُهُ وَبَيَانُ مَعْنَاهُ إِلَى الأَذْهَانِ

١٨١٢- قَدْ كَانَ أَعْلَمَ خَلْقِهِ بِكَلَامِهِ صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ كُلَّ أَوَانِ

١٨١٣- يَتَـأَوَّلُ الْقُـرْآنَ عِنْـدَ رُكوعِـهِ وَسُـجُودِهِ تَأويـلَ ذِي بُرْهَـانِ
١٨١٤- هَـذَا الَّـذِي قالَتْـهُ أُمُّ المُؤْمِنِيـ ـنَ حِكَايَـةً عَنْـهُ لَـهَا بِلِسَـانِ
١٨١٥- فَـانْظُرْ إِلَى التَّأْوِيـلِ مَـا تَعْنِـي بِـهِ خَـيْرُ النِّسَـاءِ وأَفْقَـهُ النِّسْـوَانِ؟
١٨١٦- أَتَظُنُّهـا تَعْنِـي بِـهِ صَرْفًـا عَـنِ الْـ ـمَعْنَى القَوِيِّ لِغَيْرِ ذِي الرُّجْحَانِ
١٨١٧- وَانْظُرْ إِلَى التَّأْوِيلِ حِينَ يَقُولُ: عَلْـ ـلِـمْهُ لِعَبْـدِ اللهِ فِي القُـرْآنِ
١٨١٨- مَـاذَا أَرَادَ بِـهِ سِـوَى تَفْسِـيرِهِ وَظُهُـورِ مَعْنَـاهُ لَـهُ بِبَيَـانِ
١٨١٩- قَوْلُ ابـنِ عَبَّـاسٍ هُـوَ التَّأْوِيـلُ لَا تَأْوِيـلُ جَهْمِـيٍّ أَخِـي بُهْتَـانِ
١٨٢٠- وَحَقِيقَـةُ التَّأْوِيـلِ مَعْنَـاهُ الرُّجُـو عُ إِلَى الـحَقِيقَةِ لَا إِلَى الـبُطْلَانِ
١٨٢١- وَكَذَاكَ تَأْوِيلُ الـمَنَامِ حَقِيقَـةُ الْـ ـمَرْئِيِّ لَا التَّحْرِيـفُ بِالبُهْتَـانِ
١٨٢٢- وَكَذَاكَ تَأْوِيلُ الَّـذِي قَـدْ أَخْـبَرَتْ رُسُـلُ الإِلَـهِ بِـهِ مِـنَ الإِيـمَانِ
١٨٢٣- نَفْسُ الـحَقِيقَةِ إِذْ تُشَاهِدُها لَـدَى يَـومِ المَعَـادِ بِرُؤْيَـةٍ وَعِيَـانِ
١٨٢٤- لا خُلْـفَ بَـيْنَ أَئِمَّـةِ التَّفْسِـيرِ فِي هَـذَا وَذَلِـكَ وَاضِـحُ البُرْهَـانِ
١٨٢٥- هَـذَا كَـلَامُ اللهِ ثُـمَّ رَسُـولِهِ وَأَئِمَّـةِ التَّفْسِـيرِ لِلْقُـرْآنِ
١٨٢٦- تَأْوِيلُـهُ هُـوَ عِنـدَهُم تَفْسِـيرُهُ بِالظَّـاهِرِ الْـمَفْهُومِ لِلأَذْهَـانِ
١٨٢٧- مَا قَالَ مِنْهُمْ قَطُّ شَخْصٌ وَاحِـدٌ: تَأْوِيلُـهُ صَرْفٌ عَـنِ الرُّجْحَـانِ
١٨٢٨- كَـلَّا وَلَا نَفْـيُ الـحَقِيقَةِ لَا وَلَا عَزْلُ النُّصُوصِ عَنِ اليَقِـينِ فَـذَانِ

١٨٢٩- تَأْوِيلُ أَهْلِ الْبَاطِلِ الـمَرْدُودِ عِنْـ ـــدَ أَئِمَّــةِ العِرْفَـانِ وَالإِيـمَانِ

١٨٣٠- وَهُـوَ الَّـذِي لَا شَـكَّ فِي بُطْلَانِـهِ وَاللهُ يَقْضِـي فيـهِ بِـالبُطْلَانِ

١٨٣١- فَجَعَلْـتُمُ لِلَّفْـظِ مَعْنًـى غَـيْرَ مَعْـ ـنَاهُ لَـدَيْهِمْ بِاصْـطِلَاحٍ ثَانِـي

١٨٣٢- وَحَمَلْتُمُ لَفْـظَ الْكِتَـابِ عَلَيْـهِ حَتْـ ـتَـى جَـاءَكُمْ مِـنْ ذَاكَ مَحْـذُورَانِ:

١٨٣٣- كَذِبٌ عَلَى الأَلْفَاظِ مَعْ كَذِبٍ عَـلَى مَـنْ قَالَـهَا، كَـذِبَانِ مَقْبُوحَـانِ

١٨٣٤- وَتَلَاهُمَـا أَمْـرَانِ أَقْـبَحُ مِـنْهُمَا جَحْـدُ الـهُدَى وَشَـهَادَةُ البُهْتَـانِ

١٨٣٥- إِذْ يَشْـهَدُونَ الـزُّورَ أَنَّ مُـرَادَهُ غَـيْرُ الْـحَقِيقَةِ وَهْـيَ ذُو بُطْـلَانِ

الشـرحُ

١٨٠٩- وَجَمِيعُ مَا فِي الكَوْنِ مِن بِدَعٍ وَأَحْـ ـدَاثٍ تُخَـالِفُ مُوجَـبَ القُـرْآنِ

١٨١٠- فَأَسَاسُهَا التَّأْوِيـلُ ذُو الـبُطْلَانِ لَا تَأْوِيـلُ أَهْـلِ الْعِلْـمِ وَالإِيـمَانِ

ذكر المؤلفُ -رحمه الله- أَنَّ أساسَ البلاءِ في الإسلام هُوَ التأويلُ الَّذِي أبطلَه، وَهُوَ الَّذِي حصلت به كُلُّ البدع والأحداث.

ثُمَّ ذكر أنَّ هناك تأويلًا صحيحًا، وَهُوَ التأويلُ الَّذِي قاله أهلُ العلم والإيمان.

١٨١١- إِذْ ذَاكَ تَفْسِـيرُ الـمُرَادِ وَكَشْـفُهُ وَبَيَـانُ مَعْنَـاهُ إِلَى الأَذْهَـانِ

هذا التأويلُ -وَهُوَ تأويلُ أهلِ العلم والإيمان- بمعنى التفسير؛ لأنَّ التأويلَ الَّذِي ذكرنا أنه أصلُ البلاء هُوَ صرفُ اللفظ عن المعنى الراجح إِلَى المعنى المرجوح، وهذا هُوَ التأويل الَّذِي أبطله ابنُ القيِّم، وحقيقةُ أمرِه أنه تحريفٌ.

هناك تأويلٌ بمعنى التفسير، وَهُوَ كشفُ المعنى، وإيضاحُه، وبيانُه، وهذا التأويلُ صحيحٌ.

وهذا يستعملُه العلماءُ أهلُ العلم والإيمانِ، فمثلًا يقولُ ابنُ جريرٍ -وَهُوَ إمامُ المفسِّرين بالأثر- يقولُ عندما يتكلَّمُ عَلَى تفسير الآية: القولُ في تأويلِ قوله تعالى: كَذَا وكذا، «**القول فِي تأويل**» يعني: في تفسير.

وسُمِّيَ التفسيرُ تأويلًا؛ لأنه بيانٌ لما يؤولُ إليه اللفظُ، فإنَّ تفسيرَ اللفظ بمعناه بيانٌ لما يؤول إليه، وأصلُ التأويل مأخوذٌ من الأَوْل وَهُوَ الرجوع.

١٨١٢- قَـدْ كَـانَ أَعْلَـمَ خَلْقِـهِ بِكَلامِـهِ صَلَّـى عَلَيْـهِ اللهُ كُـلَّ أَوَانِ

١٨١٣- يَتَـأَوَّلُ الْقُـرْآنَ عِنْـدَ رُكوعِـهِ وَسُـجُودِهِ تَأويـلَ ذِي بُرْهَـانِ

قَوْلُهُ: «**قَدْ كَانَ أَعْلَمَ خَلْقِهِ بِكَلَامِهِ**» فمحمدٌ رسولُ الله ﷺ هُوَ أعلمُ الخلقِ بكلام الله، لا شَكَّ في هذا.

قَوْلُهُ: «**يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ**» فإنه -عليه الصلاة والسلام- لـمَّا نزل قولُ الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر:١-٣] عرف -عليه الصلاة والسلام- أنَّ هَذَا دنوُّ أجلِه، وأنَّ اللهَ أمَره أن يختمَ عمرَه بهذا الدعاءِ: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُ﴾ فكَانَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي**»(١).

وَقَوْلُهُ: «**تَأْوِيل ذِي بُرْهَانِ**» أي: ذِي علمٍ ودليلٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب التسبيح والدعاء في السجود، رقم (٧٨٤)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٤).

١٨١٤- هَـذَا الَّـذِي قالَتْـهُ أُمُّ المُؤْمِنِيـ ـنَ حِكَايَـةً عَنْـهُ لَـهَا بِلِسَـانِ

١٨١٥- فَـانْظُرْ إِلَى التَّأْوِيـلِ مَـا تَعْنِـي بِـهِ خَـيْرُ النِّسَـاءِ وأَفْقَـهُ النِّسْـوَانِ؟

قَوْلُهُ: «هَذَا الَّذِي قالَتْهُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ» ماذا قالت؟ لـمَّا قالت: كان يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ» قالت: «يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ»(١) ماذا تعني بالتأويل هنا؟ هل تعني: أنه يصرفُ الْقُرْآنَ عن ظاهره إِلَى معنى يخالف الظاهر؟ الجواب: لا، بل قولها: «يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ» أي: يعملُ به؛ لأنَّ حقيقةَ المأمورِ ومآلَه العملُ به.

فمثلًا إذا أمر اللهُ بشيءٍ فلنا فيه تأويلان: التأويلُ الأَوَّلُ: تفسير، والتأويلُ الثاني: فعلُه والعملُ به.

فقول عائشة: «يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ» ليس معناه يُفسِّره، لا يُفَسِّرُ معنى ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾ لكنَّ المعنى: يَعْمَلُ به، والعملُ بالمأمور به يُعتبر تأويلًا؛ لأنه إظهارٌ للمأمور به حتَّى يكونَ مُشَاهَدًا كما أَنَّ تأويلَ الخبر إذا وقع يُسَمَّى تأويلًا؛ لأنه ظهورٌ للمُخْبَرِ به أو للمْخَبرِ عنه حتَّى يُشَاهَدَ ويُرَى.

فالحاصلُ أنَّ التأويل يُرادُ به التفسيرُ، ويُرادُ به عَيْنُ المؤوَّل، فإن كان مأمورًا به فتأويلُه فعلُ المأمور به، وإذا كان مُخْبرًا عنه فتأويلُه وقوعُ المُخْبَرِ عنه حتَّى يُشاهَدَ ويُرَى.

قَوْلُهُ: «خَيْرُ النِّساءِ وأَفْقَهُ النِّسْوَانِ» أما كونُ عائشةَ أفقهَ النسوان فهذا أمرٌ يعرفه مَنْ عرف حالَها، وأنَّها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تُعْتَبُر فقيهة النساء.

(١) هو جزء من الحديث السابق.

وأمَّا كونُها خيرَ النساء فهذا من الأمور المختلَف فيها عند أهل السُّنَّة، فمنهم مَنْ قال: إنَّ خيرَ النساء عائشةُ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يكَمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِد، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»(١).

قالوا: فذكر أنه كَمُلَ من النساء فلانةٌ، وفلانةٌ، وفلانةٌ، وفلانة «وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ» وهذا عام «كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ».

وكأَنَّ ابنَ القيِّم في هَذَا الكلام يذهبُ هَذَا المذهبَ، ولكن تقدَّم في العقيدة أنَّ الصحيحَ أنَّ عائشةَ لها مَزِيَّةٌ، وخديجةَ لها مَزِيَّةٌ، وفاطمةَ لها مَزِيَّةٌ، ومريمَ لها مَزِيَّةٌ، كُلُّ واحدةٍ من الأخرى خيرٌ من الأخرى من وجهٍ آخر.

١٨١٦- أَتَظُنُّهَا تَعْنِي بِهِ صَرْفًا عَنِ الْـ ... ـمَعْنَى القَوِيِّ لِغَيْرِ ذِي الرُّجْحَانِ

الجَوَابُ: لا، لا تريدُ بالتأويل صرفَ اللفظ عن المعنى القويِّ، يعني: الظاهر، للمعنى الَّذِي ليس براجح؛ ولهذا قال: «لِغَيْرِ ذِي الرُّجْحَانِ».

١٨١٧- وَانْظُرْ إِلَى التَّأْوِيلِ حِينَ يَقُولُ: عَلْـ ... ـلِمْهُ لِعَبْدِ اللهِ فِي القُرْآنِ

١٨١٨- مَاذَا أَرَادَ بِهِ سِوَى تَفْسِيرِهِ ... وَظُهُورِ مَعْنَاهُ لَهُ بِبَيَانِ

من القائل؟ الجواب: الرسولُ ﷺ حيث قَالَ لعبد الله بن عبَّاسٍ: «اللَّهُمَّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم:١١]، رقم (٣٢٣٠)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رقم (٢٤٣١).

فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ»[1]، يعني: التفسيرَ.

١٨١٩- قَوْلُ ابنِ عَبَّاسٍ هُوَ التَّأْوِيلُ لَا   تَأْوِيلُ جَهْمِيٍّ أَخِي بُهْتَانِ

قَوْلُهُ: «قَوْلُ ابنِ عَبَّاسٍ هُوَ التَّأْوِيلُ» يعني: هُوَ التأويل حقيقةً، أي: التفسير.

قَوْلُهُ: «لَا تَأْوِيلُ جَهْمِيٍّ أَخِي بُهْتَانِ» الجهميُّ يعني بالتأويل التَّحريف، فمعناه عنده صرفُ اللفظ عن المعنى الراجح إِلَى المعنى المرجوح لدليلٍ يرى أنه صارفٌ، فيرى الجهميُّ وغيرُه من أهل التَّحريف أنَّ هَذَا الدَّلِيلَ صارفٌ، والدَّلِيلُ الصَّارفُ عندهم هُوَ العقلُ كما سبق.

١٨٢٠- وَحَقِيقَةُ التَّأْوِيلِ مَعْنَاهُ الرُّجُو   عُ إِلَى الحَقِيقَةِ لَا إِلَى البُطْلَانِ

أَمَّا الجهميُّ وغيرُه فحقيقةُ التأويل عنهم هُوَ الرجوعُ إِلَى المعنى الباطلِ الَّذِي يخالفُ ظاهرَ اللفظ.

١٨٢١- وَكَذَاكَ تَأْوِيلُ المَنَامِ حَقِيقَةُ الْـ   ـمَرْئِيِّ لَا التَّحْرِيفُ بِالبُهْتَانِ

قَوْلُهُ: «تَأْوِيلُ المَنَامِ حَقِيقَةُ المَرْئِي» لـمَّا رفعُ يوسفُ -عليه السلام- أبويه عَلَى العرش وخرُّوا له سُجَّدًا، ماذا قال؟ قال تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسف:١٠٠] معنى (**هذا تأويلُها**) أي: هَذَا وقوعُها، وقوع هَذِهِ الرؤيا؛ لأنَّ الرؤيا التي كانت كما قال -سبحانه وتعالى-: ﴿رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف:٤] هَذِهِ الرؤيا تصويرُ فقط، لما وقع الأمر، ورفع أبويه عَلَى العرش، وخرُّوا له سُجَّدًا قال: هَذَا تأويل، أي: وقوع ما رآه في منامه مُشَاهَدًا.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٩، رقم ٢٤٢٢).

١٨٢٢- وَكَذَاكَ تَأْوِيلُ الَّذِي قَدْ أَخْبَرَتْ ... رُسُلُ الإِلَهِ بِهِ مِنَ الإِيمَانِ

١٨٢٣- نَفْسُ الحَقِيقَةِ إِذْ تُشَاهِدُها لَدَى ... يَومِ المَعَادِ بِرُؤْيَةٍ وَعِيَانِ

الرُّسُل -عليهم الصلاةُ والسلَام- أخبرت بما يكونُ يوم القيامة، فمتى تأويلُه الَّذِي هُوَ وقوعُ هَذَا المُخْبَرِ به؟ الجواب: يوم القيامة كما قَالَ الله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف:٥٣].

فقَوْلُهُ: ﴿نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ يعني: تركوه، وليس النسيان الَّذِي هُوَ الذهول عن الشيء المعلوم، بل المراد تركوه.

١٨٢٤- لا خُلْفَ بَيْنَ أَئِمَّةِ التَّفْسِيرِ فِي ... هَذَا وَذَلِكَ وَاضِحُ البُرْهَانِ

١٨٢٥- هَذَا كَلَامُ اللهُ ثُمَّ رَسُولِهِ ... وَأَئِمَّةِ التَّفْسِيرِ لِلْقُرْآنِ

١٨٢٦- تَأْوِيلُهُ هُوَ عِندَهُم تَفْسِيرُهُ ... بِالظَّاهِرِ الْمَفْهُومِ لِلأَذْهَانِ

١٨٢٧- مَا قَالَ مِنْهُمْ قَطُّ شَخْصٌ وَاحِدٌ: ... تَأويلُهُ صَرْفٌ عَنِ الرُّجْحَانِ

١٨٢٨- كَلَّا وَلَا نَفْيُ الحَقِيقَةِ لَا وَلَا ... عَزْلُ النُّصُوصِ عَنِ اليَقِينِ فَذَانِ

١٨٢٩- تَأْوِيلُ أَهْلِ الْبَاطِلِ الْمَرْدُودِ عِنْـ ... ـدَ أَئِمَّةِ العِرْفَانِ وَالإِيمَانِ

مَن الَّذِي قال: إنَّ التأويلَ صرفٌ عن الرُّجْحان؟ الجواب: الجهميَّةُ وأهلَ البدع، أمَّا كلامُ الله وكلامُ رسولِه وكلامُ أئمةِ التفسير وكلامُ أئمة المسلمين فالتأويلُ عندهم له معنيان لا ثالثَ لهما، وهما: التفسيرُ، والحقيقةُ التي يؤولُ إِلَيْهَا

الكلام، إِنْ كان خبرًا فبوقوع المُخْبَرِ به، مثالُه: قولُه -سبحانه وتعالى-: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٥٣].

وإن كان طلبًا فبامتثاله والعمل به، مثالُه: قولُ عائشةَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ...» يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ»[1].

١٨٢٨- كَلَّا وَلَا نَفْيُ الحَقِيقَةِ لَا وَلَا ... عَزْلُ النُّصُوصِ عَنِ اليَقِينِ فَذَانِ

١٨٢٩- تَأْوِيلُ أَهْلِ الْبَاطِلِ المَرْدُودِ عِنْـ ... ـدَ أَئِمَّةِ العِرْفَانِ وَالإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «كَلَّا وَلَا نَفْيُ الحَقِيقَةِ» يعني: لم يَقُل شخصٌ منهم قطُّ: إنَّ التأويلَ نفيُ الحقيقة.

قَوْلُهُ: «وَلَا عَزْلُ النُّصوصِ عَنِ اليَقِينِ» أهلُ الباطلِ عزلوا النُّصوصَ عن اليقين، وقالوا: إنَّ دلالَتها عَلَى المعنى لا تفيدُ اليقينَ، وإذا لم تُفِد اليقينَ فلنا الحقُّ في تأويلِها وصرفِها عن ظاهرها.

وهذه مكابرةٌ؛ لأنَّ في النُّصوص ما يُفيدُ اليقينَ قطعًا، فاستواءُ الله عَلَى العرش أي: علوُّه عليه تدلُّ عليه النُّصوصُ يقينًا؛ لأنه ذُكِرَ في الْقُرْآن في سبعة مواضعٌ، وليس هناك موضعٌ واحدٌ أبدًا قَالَ الله فيه: «إنه استولى عَلَى العرش» بل في كُلِّ المواضع بلفظ «اسْتَوَى» قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب التسبيح والدعاء في السجود، رقم (٧٨٤)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٤).

١٨٣٠- وَهُـوَ الَّـذِي لَا شَـكَّ فِي بُطْلَانِـهِ وَاللهُ يَقْضِـي فيـهِ بِـالبُطْلَانِ

قَوْلُهُ: «وَاللهُ يَقْضِي فيهِ بِالبُطْلَانِ» الظاهرُ أنَّ ابنَ القيِّم -رحمه الله- سأل اللهَ أن يقضيَ ببطلان هَذَا التأويل حتَّى لا يغترَّ الناسُ به، فالظاهرُ أنها جملةٌ دُعائيَّةٌ.

١٨٣١- فَجَعَلْـتُمُ لِلَّفْـظِ مَعْنًـى غَـيْرَ مَعْـ ـنَاهُ لَـدَيْهِمْ بِاصْـطِلَاحٍ ثَانِـي

قَوْلُهُ: «لَدَيْهِم» أي: لدى أئمة العرفان.

١٨٣٢- وَحَمَلْتُمُ لَفْـظَ الْكِتَـابِ عَلَيْـهِ حَتْـ ـتَـى جَـاءَكُمْ مِـنْ ذَاكَ مَحْـذُورَانِ:

١٨٣٣- كَذِبٌ عَلَى الأَلْفَاظِ مَعْ كَذِبٍ عَـلَى مَـنْ قَالَـهَا، كَـذِبَانِ مَقْبُوحَـانِ

قَوْلُهُ: «جَاءَكُمْ مِنْ ذَاكَ مَحْذُورَانِ» المحذور الأول: «كذبٌ عَلَى الألفاظ» حيث قالوا: إنها تدلُّ عَلَى كذا.

المحذور الثاني: «كَذِبٌ عَلَى مَنْ قَالَـهَا» حيث قالوا: إنَّ مرادَه كذا، فعندنا الآن في تأويل أهل التَّحريف محذوران:

الأول: الكذب عَلَى الألفاظ، مثلًا قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢] ظاهرُ اللفظ جَاءَ هُوَ بنفسِه، لكن هم كَذَبُوا عَلَى اللفظ، وقالوا: المراد به: «جاء أمر ربك».

الثاني: وكذبوا عَلَى من تكلَّم بهذا اللفظ وَهُوَ الله، فقالوا: إنَّ اللهَ أراد بقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي: «جاء أمر ربك»، فكذبوا عَلَى الله.

إِذَنْ هنا كذبان: الكذب الأول: عَلَى النصوص (اللفظ)، والثاني: عَلَى مَنْ قالها، فهذان كذبان مقبوحان.

١٨٣٤- وَتَلَاهُمَا أَمْرَانِ أَقْبَحُ مِنْهُمَا   جَحْدُ الهُدَى وَشَهَادَةُ البُهْتَانِ

صحيح، ترتَّب عَلَى هَذَا أنهم جحدوا الحقَّ، وأشادوا بالباطل، فقالوا مثلًا: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] ليس معناها **(علا)**، فجحدوا الحقَّ، وأشادوا بالمعنى الباطل وَهُوَ **(استولى)**.

ونحن الآن نُبَيِّنُ هَذِهِ المحاذير الأربعة:

الأول: في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ما ظاهرُ اللفظ؟ ظاهرُه أنه اسْتَوَى استواءً حقيقيًّا عَلَى العرش، هم قالوا: المراد بـ**(اسْتَوَى)** أي: **(استولى)**، فكذبوا عَلَى اللفظ.

الثاني: ثُمَّ إِنَّ اللهَ أراد بقوله: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ الِاسْتِوَاءَ الحقيقيَّ (العلوَّ عليه)، وهم قالوا: إنَّ اللهَ لم يُرِدْ ذلك، ولكن أرادَ الاستيلاءَ، فكذبوا عَلَى الله.

الثالث والرابع: الَّذِي تلا هذين الأمرين: كَذَّبوا بالحقِّ الَّذِي هُوَ الِاسْتِوَاء عَلَى العرش، وجحدوه، ثُمَّ أثبتوا معنًى باطلًا وَهُوَ الاستيلاء، فكذَّبوا بالحقِّ وأشادوا بالباطل، ولهذا قال: «**وتلاهما أمران أقبح منهما جحد الهدى وشهادة البهتان**» أي: شهدوا بأنه **(استولى)** ولم (يَسْتَوِ).

١٨٣٥- إِذْ يَشْهَدُونَ الزُّورَ أَنَّ مُرَادَهُ   غَيْرُ الحَقِيقَةِ وَهْيَ ذُو بُطْلَانِ

يعني: يَرَوْنَ أنَّ الحقيقةَ باطلةٌ، وأنَّ المرادَ سواها، نسألُ اللهَ السلامةَ والهدايةَ.

* * *

فصل

(فِيمَا يَلْزَمُ مُدَّعِيَ التَّأْوِيلِ لِتَصِحَّ دَعْوَاهُ)

١٨٣٦- وَعَلَيْكُمُ فِي ذَا وَظَائِفُ أَرْبَعٌ ... وَاللهِ لَيْسَ لَكُمْ بِهِنَّ يَدَانِ

١٨٣٧- مِنْهَا دَلِيلٌ صارفٌ لِلَّفْظِ عَنْ ... مَوْضُوعِهِ الأَصْلِيِّ بِالْبُرْهَانِ

١٨٣٨- إِذْ مُدَّعِي نَفْسِ الحَقِيقَةِ مُدَّعٍ ... لِلأَصْلِ لَمْ يَحْتَجْ إِلَى بُرْهَانِ

١٨٣٩- فَإِذَا اسْتَقَامَ لَكُمْ دَلِيلُ الصَّرْفِ يَا ... هَيْهَاتَ طُولِبْتُمْ بِأَمْرٍ ثَانِي

١٨٤٠- وَهُوَ احْتِمَالُ اللَّفْظِ لِلْمَعْنَى الَّذِي ... قُلْتُمْ هُوَ المَقْصُودُ بِالتِّبْيَانِ

١٨٤١- فَإِذَا أَتَيْتُمْ ذَاكَ طُولِبْتُمْ بِأَمْـ ... ـرٍ ثَالِثٍ مِنْ بَعْدِ هَذَا الثَّانِي

١٨٤٢- إِذْ قُلْتُمُ: إِنَّ المُرَادَ كَذَا فَمَا ... ذَا دَلَّكُمْ أَتَخَرُّصُ الكُهَّانِ؟!

١٨٤٣- هَبْ أَنَّهُ لَمْ يَقْصِدِ المَوْضُوعَ لَـ ... ـكِنْ قَدْ يَكُونُ القَصْدُ مَعْنًى ثَانِي

١٨٤٤- غَيْرَ الَّذِي عَيَّنْتُمُوهُ وَقَدْ يَكُو ... نُ اللَّفْظُ مَقْصُودًا بِدُونِ مَعَانِي

١٨٤٥- كَتَعَبُّدٍ وَتِلَاوَةٍ وَيَكُونُ ذَا ... كَ القَصْدُ أَنْفَعَ وَهْوَ ذُو إِمْكَانِ

١٨٤٦- مِنْ قَصْدِ تَحْرِيفٍ لَهَا يُسْمَى بِتَأْ ... وِيلٍ مَعَ الإِتْعَابِ لِلأَذْهَانِ

١٨٤٧- وَاللهِ مَا القَصْدَانِ فِي حَدٍّ سَوَا ... فِي حِكْمَةِ المُتَكَلِّمِ المَنَّانِ

١٨٤٨- بل حِكْمَةُ الرَّحْمَنِ تُبطِلُ قَصْدَهُ التَّـ ... ـحْرِيفَ حَاشَى حِكْمَةَ الرَّحْمَنِ

١٨٤٩- وَكَـذَاكَ تُبْطِـلُ قَصْـدَهُ إِنْزَالَـها مِـن غَـيرِ مَعْنًـى وَاضِـحِ التِّبْيَـانِ

١٨٥٠- وهُمَـا طَرِيقَـا فِـرْقَتَيْنِ كِلَاهُمَـا عَـن مَقْصِـدِ القُـرآنِ مُنْحَرِفَـانِ

الشـرحُ

هذا الفصلُ فصلٌ عظيمٌ جدًّا، وذلك أنَّ كُلَّ مَن ادَّعى التَّأويلَ الَّذِي هُوَ صرفُ اللفظ عن ظاهره إِلَى معنى مرجوحٍ فلا بُدَّ أن يأتِيَ بأمورٍ أربعة:

الأمر الأول قال:

١٨٣٦- وَعَلَـيْكُمُ فِي ذَا وَظَـائِفُ أَرْبَـعٌ وَاللهِ لَـيْسَ لَكُـمُ بِهِـنَّ يَـدَانِ

١٨٣٧- مِنْهَـا دَلِيـلٌ صـارفٌ لِلَّفْـظِ عَـنْ مَوْضُـوعِهِ الأَصْلِـيِّ بِالْبُرْهَـانِ

قَوْلُهُ: «يَدَانِ» بمعنى قدرة.

قَوْلُهُ: «مِنْهَا» يعني: وَهُوَ الأَوَّل.

يعني: لا بُدَّ أن يأتِيَ مَن ادَّعى التأويلَ بدليلٍ صارفٍ عن المعنى الأصليِّ، فلابدَّ أن يأتِيَ بدليلٍ، هَذَا الدَّلِيلُ إمَّا من الْقُرْآن، أو السُّنَّة، أو الإجماع، أو العقل الصريح.

فإن قَالَ هَذَا الَّذِي طالبناه بالدَّلِيل الَّذِي صرف اللفظ عن ظاهره، وقلنا له: هاتِ الدَّلِيلَ عَلَى أنه مصروفٌ عن ظاهره، لو أنه قلب علينا ذلك، وقال: أنتم الذين تأتون بالدَّلِيل، فبماذا نُجيبُه؟ قَالَ المؤلفُ في الجواب عنه:

١٨٣٨- إِذْ مُـدَّعِي نَفْـسِ الـحَقِيقَةِ مُـدَّعٍ لِلأَصْـلِ لَـمْ يَحْـتَجْ إِلَى بُرْهَـانِ

نقول: نحن ما صرفناه عن ظاهِره حتَّى تطالبَنا بالدَّلِيل.

١٨٣٩- فَإِذَا اسْتَقَامَ لَكُمْ دَليلُ الصَّرْفِ يَا هَيْهَاتَ طُولِبْتُمْ بِأَمْرٍ ثَانِي

قَوْلُهُ: «فَإِذَا اسْتَقَامَ لَكُمْ دَليلُ الصَّرْفِ يَا هَيْهَاتَ» يعني: ما أبعده؟! ما أبعد أن تأتوا بدليلٍ بَيِّنٍ يدلُّ عَلَى صرف اللفظ عن ظاهره، لكن عَلَى فرض أن يستقيمَ لكم طولبتم بأمرٍ ثاني.

١٨٤٠- وَهُوَ احْتِمَالُ اللَّفْظِ لِلْمَعْنَى الَّذِي قُلْتُمْ هُوَ المَقْصُودُ بِالتِّبْيَانِ

لا بُدَّ أن يأتوا بدليل عَلَى أنَّ المعنى يحتملُ ما ذكروه، فإن كان لا يحتملُ لم يُقْبَلْ منهم.

فمثلًا: هل يمكن أن يحتملَ قولُ الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] أن يحتملَ معنى (استولى)؟ الجواب: لا؛ لأنه يلزم عليه لوازمُ باطلةٌ تمنعُ أن يكونَ اللفظُ محتملًا لهذا المعنى.

فإذن إذا قالوا: عندنا دليلٌ يصرفُ اللفظَ عن ظاهره، قلنا: نريدُ دليلًا آخرَ، وَهُوَ احتمالُ اللفظ لهذا المعنى الَّذِي قُلْتُم؛ لأنكم قد تَدَّعون معنًى لا يحتملُه اللفظُ، فلا يُقْبَلُ منكم.

١٨٤١- فَإِذَا أَتَيْتُمْ ذَاكَ طُولِبْتُمْ بِأَمْـرٍ ثَالِثٍ مِنْ بَعْدِ هَذَا الثَّانِي

قَوْلُهُ: «فَإِذَا أَتَيْتُمْ ذَاكَ» يعني: أتيتم به، طولبتم بأمرٍ ثالث من بعد هَذَا الثاني.

١٨٤٢- إِذْ قُلْتُمُ: إِنَّ المُرَادَ كَذَا فَمَا ذَا دَلَّكُمْ أَتَخَرُّصُ الكُهَّانِ؟!

إذا أَتَوْا بدليلٍ عَلَى أنَّ اللفظَ يحتملُ ما ذكروه، نقولُ: نريدُ منكم دليلًا آخرَ،

وَهُوَ هل يتعيَّنُ ما ذكرتموه معنًى لهذا اللفظ؟ قد لا يتعيَّنُ، فقد يكونُ اللفظُ محتملًا لمعنًى آخر غير الَّذِي عيَّنتموه، ما دمتم صرفتموه عن ظاهره وقُلْتُم: المرادُ كذا، نقولُ: هَذَا الَّذِي عيَّنتم يحتملُ أنَّ المرادَ غيرُه؛ ولهذا قَالَ -رحمه الله-: «**إذ قُلْتُم: إنَّ المراد كَذَا فماذا دلكم**»؟ يعني: ما الَّذِي دلَّكم أنَّ المرادَ ما قُلْتُم؟ «**أتخرص الكهان**»؟! وهذا الاستفهام للإنكار.

١٨٤٣- هَبْ أَنَّهُ لَـمْ يَقْصِدِ الـمَوْضُوعَ لَـ ـكِنْ قَدْ يَكُونُ القَصْدُ مَعْنًى ثَانِـي

١٨٤٤- غَـيْرَ الَّـذِي عَيَّنْتُمُـوهُ وَقَـدْ يَكُـو نُ اللَّفْظُ مَقْصُـودًا بِـدُونِ مَعَانِـي

قَوْلُهُ: «**المَوْضُوعَ**» يعني: الحقيقةَ.

إِذَنْ رَدَّ المؤلفُ عليهم إذا عيَّنوا المعنى بأنه يحتمل أن يكونَ المرادُ معنًى آخر، ويحتمل أن لا يُرَادَ معنًى لهذا اللفظ، لا المعنى الَّذِي قُلْتُم، ولا المعنى الآخر، إِذَنْ ما المراد باللفظ؟ يقول:

١٨٤٥- كَتَعَبُّـدٍ وَتِـلَاوَةٍ ويَكُـونُ ذَا كَ القَصْـدُ أَنْفَـعَ وَهْـوَ ذُو إِمْكَـانِ

فصار -رحمه الله- يقول: إذا عيَّنوا معنًى طالبناهم بالدَّلِيل عَلَى تعيين هَذَا المعنى الَّذِي ذكروه؛ لاحتمال أن يكونَ المرادُ معنًى آخر، ولاحتمال أن يكونَ هَذَا اللفظُ لا يُرادُ به معنى، وإنما نزل لمجرد اللفظ.

فإذا قَالَ قائل: ما الفائدةُ من اللفظ؟ يقول: «**كَتَعَبُّدٍ وَتِلَاوَةٍ**»: وهذا في الْقُرْآن.

قَوْلُهُ: «**وَيَكُونُ ذَاكَ القَصْدُ أَنْفَعَ**» أي: أنفعَ مما عيَّنوه من المعنى المخالف للظاهر.

١٨٤٦- مِنْ قَصْدِ تَحْرِيفٍ لَهَا يُسْمَى بِتَأْ وِيلٍ مَعَ الإِتْعَابِ لِلأَذْهَانِ

إِذَنْ كونُنا نقرأُ هَذِهِ الألفاظَ ولا نتعرَّضُ لمعناها خيرٌ من كونِنا نُحَرِّفُها عن ظاهرها مع إتعاب أذهانِنا والإتيان بالأدلة الدالة عَلَى التجوز إِلَى هَذَا المعنى، وما أشبه ذلك؛ لأنَّ كونَها مجردةً عن المعنى لمجرد التعبد بالتلاوة أولى من كونها محرَّفَة.

ثُمَّ قَالَ -رحمه الله-:

١٨٤٧- وَاللهِ مَا القَصْدَانِ فِي حَدٍّ سَوَا فِي حِكْمَةِ المُتَكَلِّمِ المَنَّانِ

قَوْلُهُ: «مَا القَصْدَانِ فِي حَدٍّ سَوَا» ما المرادُ بالقصدين؟ المرادُ: التَّحريفُ الَّذِي هُوَ خلافُ الظاهر، أو كونها ليس لها معنى.

لكن أيُّهما أولى: أن يُنزِلَ اللهُ علينا كتابًا نتعبَّدُ بتلاوته دون أن نتعرَّضَ لمعناه أو كتابًا يريدُ منَّا أن نُحرِّفَه عن ظاهرِه وأن نُتعبَ أذهانَنا في تحريفه والمعنى الَّذِي نُعيِّنه؟

الجَوَابُ: الأوَّلُ لا شكَّ؛ لأنَّ الأوَّلَ ليس عند نافيه تعبٌ، وإنما نُسَلِّمُ الأمرَ إِلَى الله.

١٨٤٨- بل حِكْمةُ الرَّحْمَنِ تُبطِلُ قَصْدَهُ التَّـ ـحْرِيفَ حَاشَى حِكْمَةَ الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «حَاشَى حِكْمَةَ الرَّحْمَنِ» يعني: تنزيهًا لها، وليس هَذَا من باب الاستثناء حتَّى نقولَ: إنها تُجَرُّ، بل (**حكمةُ الرحمن**) هنا فاعل.

١٨٤٩- وَكَذَاكَ تُبْطِلُ قَصْدَهُ إِنْزَالَهَا مِن غَيرِ مَعْنًى وَاضِحِ التِّبْيَانِ

يعني: أنَّ حكمةَ الله تأبى أن يُريدَ بكلامه خلافَ الظاهر كما زعمتم، وتأبى أن يكونَ كلامُه ليس له معنى كما قَدَّرنا.

إِذَنْ ابنُ القيِّم -رحمه الله- رَدَّ القولين جميعًا، وهما: أن يُقْصَدَ باللفظ مجرد اللفظ من أجلِ التعبد بالتلاوة فقط، أو أن يُقْصَدَ به معنًى يخالفُ الظاهرَ؛ لأنَّ اللهَ لم يُنْزِلْ علينا الْقُرْآنَ لمجرد أن نقرأَه فقط، بل أنزل علينا الْقُرْآنَ لفهم معناه وتدبُّره واعتقادِ موجَبه؛ ولهذا قال: (**بل حكمة الرحمن تبطل قصده التحريف**) ما هُوَ التحريف الَّذِي عنى؟ الجواب: تأويل هؤلاء للكلام عن ظاهره.

١٨٥٠- وهُمَـا طَرِيقَـا فِـرْقَتَيْنِ كِلَاهُمَـا ... عَـن مَقْصِـدِ القُـرآنِ مُنْحَرِفَـانِ

قَوْلُهُ: «**وَهُمَا**» يعني: التَّحريفَ، وتفويضَ المعنى، أي: القول بأنَّ اللهَ أنزل هَذَا الْقُرْآنَ من غير معنى، هما طريقا فرقتين كلاهما منحرفٌ عن طريق الْقُرْآن.

إِذَنْ قولهُ: (**هما**) أي: المفوِّضة والمؤوِّلة.

وقد ادَّعى كثيرٌ من المتأخِّرين الذين لا يعرفون مذهبَ السَّلف حقيقةً ادَّعى أنَّ مذهبَ السَّلف هُوَ التفويض، أي: أننا نقرأُ ولا نتكلَّمُ عن المعنى، وقال: هَذَا هُوَ مذهبُ السَّلف، وقال: إنَّ مذهبَ أهلِ السُّنَّة ينقسمُ إِلَى قسمين: تفويضٌ، وتأويلٌ.

نقول: ولكنَّه أخطأ في ذلك، فمذهبُ أهلِ السُّنَّة لا هَذَا ولا هذا، فأهلُ السُّنَّة يُثبتون المعنى، ويقولون: حاشى لله أن يُنزِلَ علينا قرآنًا لمجرد التلاوة ليس له معنى؛ لأنَّ هَذَا شِبْهُ عبثٍ، ولكنَّه أنزل علينا الْقُرْآنَ ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩] فلا بُدَّ من فهم معناه، وإن خفي عَلَى بعض الناس فإنَّ الراسخين في العلم يعلمونه.

فهؤلاء الذين قَسَّموا مذهبَ أهل السُّنَّة إِلَى قسمين نقول: أخطأتم.

أولًا: في جعلكم المؤوِّلةَ من أهل السُّنَّة، فإِنَّ المؤوِّلَةَ خالفوا السُّنَّةَ في تأويلِهم.

ثانيًا: جعلكم التفويضَ من مذهب أهل السُّنَّة، فإنَّ أهلَ السُّنَّة بريئون من ذلك حتَّى إنَّ شيخَ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- قال: «**إنَّ قولَ أهل التَّفويض من شرِّ أقوالِ أهلِ البدعِ والإلحاد**»(١).

وقال: إنه هُوَ الَّذِي فتح البابَ للفلاسفة والمناطقة الذين أنكروا المعادَ وأنكروا اليومَ الآخر؛ لأنَّ هؤلاء الفلاسفةَ قالوا: إذا كنتم أنتم يا أهلَ السُّنَّة لا تعرفون معانيَ الْقُرْآن وإنما تقرؤونه تعبُّدًا بتلاوته، فأنتم بمنزلة العجائز والأمِّيين، ونحنُ أصحابُ الميدان الذين نعرفُ معانيَ ما أنزل اللهُ ولو بالتأويل؛ فلهذا فتح هؤلاء المفوِّضةُ البابَ لأهل التأويل حتَّى للفلاسفة وشبههم.

ومِن ثَمَّ نجدُ في كلام بعض العلماء المحقِّقين كالنوويِّ -رحمه الله- «**أنَّ طريقةَ السَّلفِ أسلمُ، وطريقةَ الخلفِ أعلمُ وأحكمُ**»، وهذه العبارةُ وصف شيخُ الإسلام مَنْ قالها بالغباوة، فقال -رحمه الله-: «**ولا يجوز أيضًا أن يكون الخالفون أعلم من السالفين كما يقوله بعض الأغبياء ممن لم يُقَدِّر قَدْرَ السلف، بل وَلَا عرف الله ورسوله والمؤمنين بِهِ حقيقة المعرفة المأمور بها من أن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم**»(٢)، ولا شكَّ أنَّ هَذِهِ عبارةُ كذب، وفيها تناقض.

أمَّا كونُها متناقضةً: فلأنه إذا كانت طريقةُ السَّلفِ أسلمَ لزم أن تكونَ أعلمَ وأحكمَ؛ لأننا لا نعلمُ سلامةً إِلَّا بعلمٍ وحكمةٍ، بعلمٍ بمعرفة أسباب السلامة، وحكمةٍ في سلوك هَذِهِ الأسباب.

وثانيًا: كَيْفَ تكونُ طريقةُ الخلفِ أعلمَ وأحكمَ وهم الذين حرَّفوا الكَلِمَ عن مواضعِه؟! وكيف تكونُ طريقةُ الخلفِ أعلمَ من طريق النَّبِيِّ ﷺ والصحابة

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٠٥).
(٢) انظر: الفتوى الحموية الكبرى (ص:١٨٥).

وخلفائه الراشدين؟! وكيف تكونُ أعلمَ وهذه أقوالُ السَّلف كُلُّها طافحةٌ متضافرةٌ ظاهرةٌ في إثبات المعنى؟!

من العبارات المشهورة عنهم أنهم قالوا في آيات الصِّفَات وأحاديثِها: «**أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ بِلَا كَيْفٍ**» فإنَّ هَذِهِ العبارةَ تدلُّ دلالةً ظاهرةً عَلَى أنهم يُثبتون المعنى؛ لأنَّ قولهم: «**أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ**» يقتضي إبقاءَ دلالتها عَلَى ما هي عليه، ومعلومٌ أنها ألفاظٌ جاءت لمعنى، وليست ألفاظًا جوفاءَ لا معنى لها، وحاشى لله أن يصفَ نفسَه، ويسمِّيَ نفسَه بأسماء وصفات في كتابه وهي عندهم ألفاظٌ جوفاءُ ليس لها معنى، هي جاءت لإثبات المعنى، فإمرارُها كما جاءت أن تُثْبَتَ معانيها التي دلَّت عليها.

وأيضًا قولُهم: (**بلا كَيْفٍ**) يدلُّ عَلَى إثبات أصل المعنى؛ لأنَّ نفيَ التكييف يدلُّ عَلَى ثبوتِ أصل المعنى؛ لأنه لو لم يكن الأصلُ ثابتًا لكان ذِكْرُ نفي التكليف لغوًا لا فائدةَ منه.

إِذَنْ فطريقةُ السَّلفِ أسلمُ وأعلمُ وأحكمُ.

والمؤلف هنا ذكرَ ثلاثةَ أوجهٍ مع أنه في أوَّل الكلام يقول: «**وظائف أربع**» فأين الرابعُ؟ لم يذكر إِلَّا ثلاثة.

رابعًا: أن يُثبتوا أنَّ اللفظَ يحتملُ المعنى الَّذِي عيَّنوه في السِّياق المعيَّن؛ لأنَّ احتمالَ اللفظ للمعنى عَلَى سبيل الإطلاق لا يعني: أنه يحتملُه في كُلِّ سياق، فلا بُدَّ أن يُثبتوا دليلًا عَلَى أنَّ المعنى الَّذِي عيَّنوه صالحٌ في هَذَا السِّياق المعيَّن؛ لأنَّ احتمالَ اللفظ للمعنى عَلَى سبيل الإطلاق لا يستلزمُ أن يحتملهَ في كُلِّ سياق، فقد يكون في السِّياق ما يمنع المعنى الَّذِي يحتملُه اللفظ في غير هَذَا السِّياق، وهذا كثيرٌ.

ففي الْقُرْآنِ والسُّنَّةِ ألفاظٌ لها معانٍ لكنها لا تصلحُ للمعاني المطلقة في هَذَا السياق المعيَّن، فمثلًا: إذا قالوا: إنَّ (**اسْتَوَى**) يمكنُ أن تأتيَ بمعنى (**استولى**)، نقول: لكن نحتاجُ إِلَى دليلٍ يدلُّ عَلَى أنها تحتملُه في هَذَا السِّياق المُعَيَّن، دعنا من كونها تحتملُه عَلَى سبيل الإطلاق، هَذَا قد نُقِرُّ به، لكن لا بُدَّ أن تقيموا دليلًا عَلَى احتمالها لهذا المعنى في هَذَا السِّياق المُعَيَّن.

وأضربُ لكم مثلًا: (**القريةُ**) تُطْلَقُ عَلَى المساكن، وعلى السَّاكن، لكنَّها في موضعٍ لا تصلحُ للساكن، وفي موضعٍ لا تصلحُ للمساكن، ففي قوله تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ [الحج:٤٥] هل تصلحُ (القريةُ) هنا للمساكن؟

الجَوَابُ: لا؛ لأنها لا تظلمُ ولا تُهْلَكُ، فالذي يُهْلَكُ أهلُها كما قَالَ تعالى في قومِ هود: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾ [الأحقاف:٢٥].

أمَّا في قوله -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ [العنكبوت:٣١] هل (القريةُ) هنا تصلحُ للسَّاكن؟ الجواب: لا، بل تتعيَّنُ للمساكن.

فقَوْلُهُ: ﴿أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ [العنكبوت:٣١] (**أهل**) مضاف لـ(القرية)، فلو قلنا: (القرية) هنا للسَّاكن صار المعنى: إنَّا مهلكو أهلِ أهل، فـ(أهل القرية) الآن (**أهل**) هم السَّاكن، (**والقرية**): المساكن، فهنا القريةُ لا تصلحُ للسَّاكن.

إِذَنْ نقول لهؤلاء المؤوِّلين: الوظيفةُ الرابعةُ عليكم: أن تُثبتوا أنَّ اللفظَ صالحٌ للمعنى الَّذِي عيَّنتموه في هَذَا السِّياق المعيَّن، فصارت الوظائفُ التي يُطالَبون بها أربعًا.

* * *

فصــل

فِي طَرِيقَةِ ابْنِ سِينَا وَذَوِيهِ مِنَ المَلاحِدَةِ فِي التَّأْوِيلِ

١٨٥١- وَأَتَى ابْنُ سِينَا بَعْدَ ذَا بِطَرِيقَةٍ أُخْرَى وَلَمْ يَأْنَفْ مِنَ الكُفْرَانِ

١٨٥٢- قَالَ: المُرَادُ حَقَائِقُ الأَلْفَاظِ تَخْـ ـييلًا وَتَقْرِيبًا إِلَى الأَذْهَانِ

١٨٥٣- عَجَزَتْ عَنِ الإِدْرَاكِ لِلْمَعْقُولِ إِلْـ ـلَا فِي مِثَالِ الحِسِّ كَالصِّبْيَانِ

١٨٥٤- كَيْ يُبْرِزَ المَعْقُولَ فِي صُوَرٍ مِنَ الْـ ـمَحْسُوسِ مَقْبُولًا لِذِي الأَذْهَانِ

١٨٥٥- فَتَسَلُّطُ التَّأْوِيلِ إِبْطَالٌ لِهَـ ـذَا القَصْدِ وَهْوَ جِنَايَةٌ مِنْ جَانِي

١٨٥٦- هَـذَا الَّذِي قَدْ قَالَهُ مَعَ نَفْيِهِ لِحَقَائِقِ الأَلْفَاظِ فِي الأَذْهَانِ

١٨٥٧- وَطَرِيقَةُ التَّأْوِيلِ أَيْضًا قَدْ غَدَتْ مُشْتَقَّةً مِنْ هَذِهِ الخُلْجَانِ

١٨٥٨- وَكِلَاهُمَا اتَّفَقَا عَلَى أَنَّ الحَقِيـ ـقَةَ مُنْتَفٍ مَضْمُونُهَا بِبَيَانِ

١٨٥٩- لَكِنْ قَدِ اخْتَلَفَا فَعِنْدَ فَرِيقِكُمْ مَا إِنْ أُرِيدَتْ قَطُّ بِالتِّبْيَانِ

١٨٦٠- لَكِنَّ عِنْدَهُمُ أُرِيدَ ثُبُوتُهَا فِي الذِّهْنِ إِذْ عُدِمَتْ مِنَ الإِحْسَانِ

١٨٦١- إِذْ ذاكَ مَصْلَحَةُ المُخَاطَبِ عِنْدَهُمْ وَطَرِيقَةُ البُرْهَانِ أَمْرٌ ثَانِي

١٨٦٢- فَكِلاهُمَا ارْتَكَبَا أَشَدَّ جِنَايَةٍ جُنِيَتْ عَلَى القُرْآنِ وَالإِيمَانِ

١٨٦٣- جَعَلُوا النُّصُوصَ لِأَجْلِهَا غَرَضًا لَهُمْ قَدْ خَرَّقُوهُ بِأَسْهُمِ الهَذَيَانِ

١٨٦٤- وَتَسَلَّطَ الأَوْغَادُ وَالأَوْقَاحُ وَالْـ أَرْذَالُ بِـالتَّحْرِيفِ وَالبُهْتَـانِ
١٨٦٥- كُـلٌّ إِذَا قَابَلْتَـهُ بِـالنَّصِّ قَـا بَلَـهُ بِتَأْوِيـلٍ بِـلَا بُرْهَـانِ
١٨٦٦- وَيَقُـولُ: تَأْوِيلِـي كَتَأْوِيـلِ الَّذِيـ ـنَ تَـأَوَّلُوا فَوْقِيَّـةَ الـرَّحْمَنِ
١٨٦٧- بَلْ دُونَهُ فَظُهُورُها فِي الوَحْيِ بِالنْـ ـنَصَّيْنِ مِثْـلُ الشَّـمْسِ فِي التِّبْيَـانِ
١٨٦٨- أَيَسُـوغُ تَأْوِيـلُ العُلُـوِّ لَكُـمْ وَلَا تَتَـأَوَّلُوا البَـاقِي بِـلَا فُرْقَـانِ؟!
١٨٦٩- وَكَذَاكَ تَأْوِيلُ الصِّـفاتِ مَـعَ انَّهَـا مِلْءُ الْـحَدِيثِ وَمِـلْءُ ذَا الْقُرْآنِ
١٨٧٠- وَاللهِ تَأْوِيـلُ العُلُـوِّ أَشَـدُّ مِـنْ تَأْوِيلِنَـا لِقِيَامَـةِ الأَبْـدَانِ
١٨٧١- وَأَشَـدُّ مِـنْ تَأْوِيلِنَـا لِـحَيَاتِهِ وَلِعِلْمِـهِ وَمَشِـيئَةِ الأَكْـوَانِ
١٨٧٢- وَأَشَدُّ مِنْ تَأْوِيلِنَا لِـحُدُوثِ هَـ ـذَا العَالَـمِ المَحْسُوسِ بالإِمْكَـانِ
١٨٧٣- وَأَشَدُّ مِنْ تَأْوِيلِنَا بَعْـضَ الشَّـرَا ئِعِ عِندَ ذِي الإِنْصَـافِ وَالـمِيزَانِ
١٨٧٤- وَأَشَـدُّ مِـنْ تَأْوِيلِنَـا لِكَلَامِـهِ بِالْفَيْضِ مِـنْ فَعَّـالِ ذِي الأَكْـوَانِ
١٨٧٥- وَأَشَدُّ مِنْ تَأْوِيل أَهْلِ الرَّفْضِ أَخْـ ـبَارَ الفَضَـائِلِ حَازَهَـا الشَّـيْخَانِ
١٨٧٦- وأَشَـدُّ مِـنْ تأويـلِ كُـلِّ مُـؤَوِّلٍ نَصًّـا أَبَـانَ مُـرَادَهُ الوَحْيَـانِ
١٨٧٧- إِذْ صَرَّحَ الوَحْيَانِ مَعْ كُتْبِ الإِلَـ ـهِ جَمِيعِهَـا بِـالْفَوْقِ لِلـرَّحْمَنِ
١٨٧٨- فَلِأَيِّ شَيْءٍ نَحْـنُ كُفَّـارٌ بِـذَا التَّـ ـأْوِيـلِ بَـلْ أَنـتُمْ عَـلَى الإِيـمَانِ؟!
١٨٧٩- إِنَّـا تَأَوَّلْنَـا وَأَنْـتُمْ قَـدْ تَـأَوْ وَلْـتُمْ فَهَـاتُوا وَاضِـحَ الفُرْقَـانِ

١٨٨٠- أَلَكُمْ عَلَى تَأْوِيلِكُمْ أَجْرَانِ حَيْـ ـــثُ لَنَا عَلَى تَأْوِيلِنَا وِزْرَانِ؟!

١٨٨١- هَـذِي مَقَالَتُهُمْ لَكُمْ فِي كُتْبِهِمْ مِنْهَا نَقَلْنَاهَا بِلَا عُدْوَانِ

١٨٨٢- رُدُّوا عَلَيْهِمْ إِنْ قَدَرْتُمْ أَوْ فَنَحْـ ـحُوا عَنْ طَرِيقِ عَسَاكِرِ الإِيمَانِ

١٨٨٣- لا تَحْطِمَنَّكُمُ جُنُودُهُمُ كَحَطْـ ـمِ السَّيْلِ مَا لَاقَى مِنَ الدِّيدَانِ

الشــرحُ

قال المؤلفُ -رحمه الله-: «**فَصْلٌ فِي طَرِيقَةِ ابْنِ سِينَا وَذَوِيهِ مِنَ الْمَلَاحِدَةِ فِي التَّأْوِيلِ**» سبق لَنَا التَّأويلُ الَّذِي أَوَّلَه أهلُ البدع من الجهميَّة والمعتزلة وغيرهما في باب الصِّفَات، وكذلك أيضًا الذين أَوَّلوا نصوصَ المعاد، وقالوا: إِنَّ المعادَ لا حقيقةَ له، وأَوَّلوا الأعمالَ أيضًا، وقالوا: إِنَّ العباداتِ لا حقيقةَ لها، وأَنَّ الحقيقةَ هي ما هُوَ موجودٌ عندهم، وأنَّ للإسلامِ ظاهرًا وباطنًا.

أمَّا عن ابن سينا فقال:

١٨٥١- وَأَتَى ابْنُ سِينَا بَعْدَ ذَا بِطَرِيقَةٍ أُخْرَى وَلَمْ يَأْنَفْ مِنَ الكُفْرَانِ

ابن سينا من المتفلسفة الإسلاميين الَّذِي ينتمي إِلَى الإسلام، ويقول: إنه مسلمٌ، ولكنَّه -نسألُ اللهَ العافيةَ- عَلَى خلاف ذلك، وقد صَرَّح ابنُ القيِّمِ وشيخُ الإسلام ابن تيمية -رحمها الله- بأنه كافرٌ.

صحيحٌ أنه طبيبٌ، وله معرفةٌ في الطبِّ، ولكنَّه من جهة العقيدة فاسدُ العقيدة، ولهذا قال: «**أتى بطريقة أخرى ولم يأنف من الكفران**» يعني: أنه لم يترفَّعْ عن الكفر، بل وقع فيه.

١٨٥٢- قَالَ: الـمُرَادُ حَقَائِقُ الأَلْفَاظِ تَـخْـ ـــيِيلًا وَتَقْرِيبًـــا إِلَى الأَذْهَـــانِ

يقول: إنَّ المرادَ بالألفاظ حقيقتُها، لكن من باب التَّخييل والتقريب للأذهان، وإلَّا فإنَّ الأمرَ شيءٌ وراء ذلك، فالصلاةُ مثلًا يُراد بها حقيقتُها، والزكاةُ، والصومُ، وكذلك آياتُ الصِّفَات وأحاديثُها، لكنَّه عَلَى سبيل التقريب إِلَى الأذهان فقط؛ لتدركَ الأذهانُ أنَّ لله سمعًا وبصرًا وقدرةً، لتدرك أنها تُصَلِّي وتصومُ وتُزكي وتحجُّ، لكن تقريبًا للأذهان فقط، وإلَّا فالأمرُ شيءٌ وراء ذلك.

١٨٥٣- عَجَزَتْ عَنِ الإِدْرَاكِ لِلْمَعْقُولِ إِلْـ ـلَا فِي مِثَـالِ الـحِسِّ كَالصِّـبْيَانِ

يعني: أنَّ النفوسَ أو الأفكارَ عجزت عن إدراك المعقول إلَّا إذا صُوِّر بصورة المحسوس، يعني: مثلًا: «اللهُ سميعٌ» يعني: أنه لا سمع، لكن ذُكِرَ هَذَا من باب التقريب.

وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣] ليس هناك شيءٌ مكتوبٌ يُسمَّى صيامًا، لكن من باب التقريب أوجبَ اللهُ الصيامَ عَلَى النَّاس، وإلَّا فَإِنَّ الحقائقَ شيءٌ وراء ذلك، هَذَا معنى كلامِ ابن سينا.

١٨٥٤- كَيْ يُبْرِزَ المَعْقُولَ فِي صُوَرٍ مِـنَ الْـ ـمَحْسُوسِ مَقْبُولًا لِذِي الأَذْهَـانِ

١٨٥٥- فَتَسَـلُّطُ التَّأْوِيـلِ إِبْطَـالٌ لِـهَـ ـذَا القَصْدِ وَهْوَ جِنَايَةٌ مِنْ جَانِـي

يعني: الَّذِي يقول: إنَّ هَذِهِ النُّصوصَ لا يُرادُ بها حقائِقُها، وإنَّما المرادُ بها خلافُ الظاهر، فيجبُ تأويلُها، يقول: هَذَا تسلُّطٌ من المؤوِّل، وجنايةٌ عَلَى النُّصوص، بل المرادُ حقائِقُها، لكنَّها رموزٌ لأشياءَ لا تُدْرَكُ من أجل تقريب الأمور للأذهان فقط، وحينئذٍ تبقى العباداتُ ليس منها فائدةٌ إلَّا مثل ما ترسم

للصبيِّ رسمًا، وتقول مثلًا: (هذه مثلًا سيارةٌ)، وهي ليست (سيارةً)، تقول: (هذا إنسانٌ)، (وهو ليس بإنسان)، لكن طبعًا رسمُ الإنسانِ ليس بجائزٍ إلَّا إذا كان عَلَى وجهٍ لا تبقى معه الحَيَاةُ.

١٨٥٦- هَـذَا الَّـذِي قَـدْ قَالَـهُ مَـعَ نَفْيِـهِ لِـحَقَائِقِ الأَلْفَـاظِ فِي الأَذْهَـانِ

إذا كان قَالَ هَذَا القولَ، ونفى أن يكونَ للألفاظِ حقيقةٌ يتصوَّرُها الذِّهنُ، فهذا في الواقع إبطالُ النُّصوص تمامًا، فما دمتَ تقول: إنها حقيقةٌ، ثُمَّ تقولُ: إنَّ الأمرَ شيءٌ وراءَ ذلك، إِذَنْ لا فائدةَ من النُّصوص، سواء قلنا: حقيقةٌ أو إنها مؤوَّلةٌ ومجازٌ.

١٨٥٧- وَطَرِيقَةُ التَّأْوِيلِ أَيْضًـا قَـدْ غَـدَتْ مُشْـتَقَّةً مِـنْ هَـذِهِ الـخُلْجَانِ

١٨٥٨- وَكِلَاهُمَـا اتَّفَقَـا عَـلَى أَنَّ الـحَقِيـقَةَ مُنْتَـفٍ مَضْـمُونُها بِبَـيَانِ

طريقةُ التأويلِ السَّابق الَّذِي سلكه المبتدعةُ، وسلكه الفلاسفةُ مأخوذةٌ من كلام ابن سينا وأمثالِه أنَّ الألفاظَ لا حقائقَ لها، وإنما هي مجازاتٌ عن أمورٍ يُرْمَزُ لها بها.

١٨٥٩- لَكِـنْ قَـدِ اخْتَلَفَـا فَعِنْـدَ فَـرِيقِكُمْ مَـا إِنْ أُرِيـدَتْ قَـطُّ بِالتِّبْيَـانِ

١٨٦٠- لَكِـنَّ عِنْـدَهُمُ أُرِيـدَ ثُبُوتُهـا فِي الذِّهْنِ إِذْ عُدِمَتْ مِنَ الإِحْسَانِ

١٨٦١- إِذْ ذاكَ مَصْلَحَةُ الْمُخَاطَبِ عِنْدَهُمْ وَطَرِيقَـةُ البُرْهَـانِ أَمْـرٌ ثَانِـي

قَوْلُهُ: «مَا إِنْ أُرِيدَتْ» «إِنْ» زائدة، يعني: ما أُرِيدَتْ.

إِذَنْ الفَرْقُ بين طريقة ابن سينا وبين طريقة هؤلاء: أنَّ هؤلاء يقولون: إنه لا يُرَادُ من النصوص حقيقتُها، إنما المرادُ معنًى آخر.

نضربُ لكم مثلًا بـ(اليد) يقولون: إِنَّ اللهَ لم يُرِدْ إثباتَ اليد، وإنما أرادَ القُدرة والقوة، هَذَا التأويل.

ابن سينا يقول: أراد حقيقةَ (اليد) لكن ليس له يدٌ إطلاقًا، ولا قُدرة، لكنَّه ذَكَر (اليدَ) من باب التقريب للأذهان أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- له يدٌ، له سمعٌ، له بصرٌ، لكن ليس له شيءٌ من ذلك إطلاقًا، لكن ذكره من أجل التقريب.

١٨٦٢- فَكِلاهُمَا ارْتَكَبَا أَشَدَّ جِنَايَةٍ   جُنِيَتْ عَلى القُرْآنِ وَالإِيمَانِ

١٨٦٣- جَعَلُوا النُّصُوصَ لِأَجْلِهَا غَرَضًا لَهُمْ   قَدْ خَرَّقُوهُ بِأَسْهُمِ الهَذَيَانِ

هؤلاء جعلوا النصوصَ غرضًا لهم؛ كما يرمي الرُّماةُ الغرضَ فيتخرقُ لأنَّهم لو أنكروا النصوصَ رأسًا لأعلنوا كفرَهم وقامت عليهم الأمةُ، لكنَّهم تحيَّلوا هَذِهِ الحيلَ بالتأويل سواء عَلَى طريقة ابن سينا، أو عَلَى طريقة الآخرين، لئلا ينفرَ الناسُ منهم، ولا يخرجوهم من الإسلام.

١٨٦٤- وَتَسَلَّطَ الأَوْغَادُ وَالأَوْقَاحُ وَالْـ   أَرْذَالُ بِالتَّحْرِيفِ وَالبُهْتَانِ

يعني: أنَّ هؤلاء تَسَلَّطوا بالتحريف والبهتان من أجل القواعد التي أَصَّلوها، فابنُ سينا وأمثالُه يُنكرون حقيقةَ الذات حقيقةَ الله عزَّ وجلَّ، ويقولون: إِنَّ هَذِهِ الأسماءَ وهذه الصِّفَات وهذه الأحكام كُلَّها من باب التقريب للأذهان، وأولئك لا يُنكرون وجودَ الخالق، لكن ينكرونَ حقائقَ صفاته، ويقولون: إِنَّ المرادَ بهذا النَّصِ كَذَا وكذا ممَّا يخالفُ الظاهرَ.

١٨٦٥- كُلٌّ إِذَا قَابَلْتَهُ بِالنَّصِّ قَا   بَلَهُ بِتَأْوِيلٍ بِلَا بُرْهَانِ

ولو قابله بتأويلٍ عَلَى بُرْهَان لَقُبِلَ منه.

١٨٦٦- وَيَقُولُ: تَأْوِيلِي كَتَأْوِيلِ الَّذِيـ ... ـنَ تَأَوَّلُوا فَوْقِيَّةَ الرَّحْمَنِ

الذين أنكروا العلوَّ أوَّلوا كُلَّ نصٍّ يدلُّ عَلَى العلوِّ، فقالوا في مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨] المرادُ فوقيَّةُ النوع، كما تقول: مثلًا (الذهبُ فوق النُّحاس) أو (فوق الفضة) فهي فوقيَّةٌ معنويَّةٌ، وليست فوقيَّةً حسِّيَّةً، أمَّا العلوُّ فيقولون: إنه علوُّ المعاني، وليس علوَّ الذات، فتأوَّلوا.

فابنُ القيِّم -رحمه الله- يقول:

١٨٦٧- بَلْ دُونَهُ فَظُهُورُها فِي الوَحْيِ بِالنْـ ... ـنَصَّيْنِ مِثْلُ الشَّمْسِ فِي التِّبْيَانِ

١٨٦٨- أَيَسُوغُ تَأْوِيلُ العُلُوِّ لَكُمْ وَلَا ... تَتَأَوَّلُوا البَاقِي بِلَا فُرْقَانِ؟!

١٨٦٩- وَكَذَاكَ تَأْوِيلُ الصِّفاتِ مَعَ انَّهَا ... مِلْءُ الْـحَدِيثِ وَمِلْءُ ذَا الْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «ذا» وفي بعض النسخ (ذي) وهذا لا يصح؛ لأنَّ (ذا» هنا اسمُ إشارةٍ.

يعني: يقول هؤلاء الملاحدة من ابن سينا وأمثاله: نحن أوَّلنَا، ولكنَّا أوَّلنَا نصوصًا ليست كالعلوِّ في كثرتِها وتنوُّعِها وظهورِها، وأنتم تأوَّلتم العلوَّ، فكيف تُنكرون علينا ولا تُنكرون عَلَى أنفسكم؟!

١٨٧٠- وَاللهِ تَأْوِيلُ العُلُوِّ أَشَدُّ مِنْ ... تَأْوِيلِنَا لِقِيَامَةِ الأَبْدَانِ

القائلُ هم الفلاسفةُ الذين يقولون: إنَّ القيامةَ لا حقيقةَ لها، وإنما هي تخييلٌ، فهم يقولون: تأويلُ العلوِّ أشدُّ من تأويلنا لقيامة الأبدان.

١٨٧١- وَأَشَدُّ مِنْ تَأْوِيلِنَا لِـحَيَاتِهِ ... وَلِعِلْمِهِ وَمَشِيئَةِ الأَكْوَانِ

هذا يقوله الفلاسفةُ وغيرُهم مِمَّن يُنكرون حياةَ الله وعلمَه.

١٨٧٢- وَأَشَدُّ مِنْ تَأْوِيلِنَا لِحُدُوثِ هَـ ـذَا العَالَمِ المَحْسُوسِ بالإِمْكَانِ

وهم الفلاسفةُ الذين يقولون بِقِدَمِ العالَم، وأنَّ العالَمَ لا أوَّلَ له، فهو أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ.

١٨٧٣- وَأَشَدُّ مِنْ تَأْوِيلِنَا بَعْضَ الشَّرَا ئِعِ عِنْدَ ذِي الإِنْصَافِ وَالمِيزَانِ

يوجد أيضًا مَنْ أَوَّلَ الشَّرائعَ، قالوا: إنَّ المرادَ بالحجِّ زيارة شيوخهم والمرادُ بالصوم كتمانُ أسرارهم، والمرادُ بالصلاة معرفةُ أسرارهم، وهَكَذَا.

هم يجادلون، ويقولون: تأويلُ العلوِّ أشدُّ من تأويلِنا بعضَ الشرائعِ عند ذِي الإِنْصَاف والميزان.

١٨٧٤- وَأَشَدُّ مِنْ تَأْوِيلِنَا لِكَلَامِهِ بِالْفَيْضِ مِنْ فَعَّالِ ذِي الأَكْوَانِ

هذا أيضًا قولُ الفلاسفة، يقولون: إنَّ الكلامَ لا حقيقةَ له، لكنَّه فيضٌ من العقل الفعَّال، فالعقلُ الفعَّالُ هُوَ الَّذِي خلق هَذِهِ الأشياءَ، جعل الطبيعةَ تتحرَّكُ ويتولَّد بعضُها من بعض، ويكون بعضُها سببًا لبعض، وهَكَذَا.

١٨٧٥- وَأَشَدُّ مِنْ تَأْوِيل أَهْلِ الرَّفْضِ أَخْـ ـبَارَ الفَضَائِلِ حَازَهَا الشَّيْخَانِ

قَوْلُهُ: «الشَّيْخَان» يعني: أبا بكرٍ وعمرَ، فلَهُما من الأحاديث الكثيرة الدالة عَلَى الفضائل ما هُوَ معلومٌ، لكنَّ أهلَ الرَّفْضِ أوَّلوا هذه الأحاديث وحرَّفوها، ولهم فيها تحريفاتٌ غريبةٌ؛ لهذا يقولُ: إنَّ تأويلَ العُلوِّ أشدُّ من تأويل أهل الرفض أخبار الفضائل حازها الشيخان.

١٨٧٦- وأَشَدُّ مِنْ تأويلِ كُلِّ مُؤَوِّلٍ نَصًّا أَبَانَ مُرَادَهُ الوَحْيَانِ

١٨٧٧- إِذْ صَرَّحَ الوَحْيَانِ مَعْ كُتْبِ الإِلَـ ـــهِ جَمِيعِهَـا بِـالْفَوْقِ للـرَّحْمَنِ

إِذَنْ هم يقولون: إِنَّ تأويلَ العلوِّ أشدُّ من كُلِّ شيء، ولننظر.

١٨٧٨- فَلِأَيِّ شَيْءٍ نَحْـنُ كُفَّـارٌ بِـذَا التْـ ـــأْوِيـلِ بَـلْ أَنـتُمْ عَـلَى الإِيـمَانِ؟!

قَوْلُهُ: «بَل» هنا بمعنى الواو، يعني: لأيِّ شيء نكونُ نحن كُفَّارًا وأنتم مؤمنون؟!

١٨٧٩- إِنَّـا تَأَوَّلْنَـا وَأَنْـتُمْ قَـدْ تَـأَوْ وَلْـتُمْ فَهَـاتُوا وَاضِـحَ الفُرْقَـانِ

يعني: أنتم مؤوِّلون ونحن مؤوِّلون، فهاتوا واضحَ الْفُرْقَان أن يكونَ تأويلُكم جائزًا، وتأويلُنا غيرَ جائز.

١٨٨٠- أَلَكُمْ عَـلَى تَـأْوِيلِكُمْ أَجْـرَانِ حَيْـ ـــثُ لَنَـا عَـلَى تَأْوِيلِنَـا وِزْرَانِ؟!

الجَوَابُ: لا؛ لأنَّ هؤلاء المؤوِّلةَ يقولون: نحن اجتهدنا فأصبنا الحقَّ، وأنتم أخطأتم، فلنا أجران؛ لأننا تأوَّلنا وأصبنا الحقَّ، وأنتم عليكم وزران؛ لأنه عُرِضَ عليكم الحقُّ ولكن أنكرتموه.

١٨٨١- هَـذِي مَقَـالَتُهُمْ لَكُـمْ فِي كُتْـبِهِمْ مِنْهَـا نَقَلْنَاهَـا بِـلَا عُـدْوَانِ

ابنُ القيِّم -رحمه الله- يُحيلُ في هَذَا البيت عَلَى كتب الفلاسفة الذين أنكروا عَلَى المعطِّلة وخصوصًا مَنْ أنكروا علوَّ الله، يقولون: إنهم ألجموكم بلجامٍ لا تستطيعونَ معه فكَّ الحَنَك.

١٨٨٢- رُدُّوا عَلَـيْهِمْ إِنْ قَـدَرْتُمْ أَوْ فَنَحْـ ـــحُوا عَـنْ طَرِيـقِ عَسَـاكِرِ الإِيـمَانِ

وهذا تحدٍّ، يقولُ ابنُ القيِّم: رُدُّوا عليهم، ويخاطِبُ الذين أَوَّلوا العلوَّ،

يقول: رُدُّوا عليهم ما قالوا لكم «**أو فنَحُّوا عن طريق عساكر الإيمان**» إذا نحَّينا عن طريق عساكر الإيمان ماذا يقولون؟ يقولون: نحن لا نؤوِّل لا في هَذَا ولا في هَذَا ونقولُ: الكُلُّ حقٌّ عَلَى حقيقتِه، فعلوُّ الله ثابتٌ، وأمرُ المعاد ثابتٌ، وما جاءت به النصوصُ من كُلِّ خبرٍ فهو ثابتٌ.

١٨٨٣- لا تَحْطِمَـنَّكُمُ جُنُـودُهُمُ كَحَطْـ ـمِ السَّيْلِ مَـا لَاقَـى مِـنَ الدِّيـدَانِ

وهذا تشبيهٌ في غاية ما يكونُ من الدقة، عساكرُ الإيمانِ فيهم الحَيَاةُ، والسَّيلُ فيه الحَيَاةُ، والديدانُ فيها الضعفُ والعفونةُ والفسادُ، فكأنه بهذا شَبَّه عساكرَ الإيمان بالسَّيل، وهؤلاء بالديدان، ومعروفٌ أنَّ السَّيلَ إذا مَرَّ بالديدان حَطَّمها.

* * *

١٨٨٤- وَكَـذَا نُطَـالِبُكُمْ بِـأَمْرٍ رَابِـعٍ وَاللهِ لَـيْسَ لَكُـمْ بِـذَا إِمْكَـانِ

١٨٨٥- وهُوَ الجَوابُ عَنِ المُعَارِضِ إِذْ بِهِ الـدْ دَعْـوَى تَـتِمُّ سَـلِيمَةَ الأَرْكَـانِ

١٨٨٦- لَكِنَّ ذَا عَـيْنُ الـمُحَالِ وَلَـوْ يُسَـا عِـدُكُمْ عَلَيْـهِ رَبُّ كُـلِّ لِسَـانِ

١٨٨٧- فَأَدِلَّـةُ الإِثْبَـاتِ حَقًّـا لَا يَقُـو مُ لَـهَا الـجِبَالُ وَسَـائِرُ الأَكْـوَانِ

١٨٨٨- تَنْزِيـلُ رَبِّ العَالَـمِينَ وَوَحْيُـهُ مَـعَ فِطْـرَةِ الـرَّحْمَنِ وَالبُرْهَـانِ

١٨٨٩- أَنَّـى يُعَارِضُـهَا كُنَاسَـةُ هَـذِهِ الْـ أَذْهَـانِ بِالشُّـبُهَاتِ وَالـهَذَيَانِ؟

١٨٩٠- وَجَعَـاجِعٍ وَفَرَاقِـعٍ مَـا تَحْتَهَـا إِلَّا السَّـرَابُ لِـوَارِدٍ ظَمْـآنِ

١٨٩١- فَلْتَهْنِكُمْ هَذِي العُلُـومُ الـلَّاءِ قَـدْ ذُخِرَتْ لَكُمْ عَنْ تَابِعِي الإِحْسَانِ

١٨٩٢- بَلْ عَنْ مَشَـايِخِهِمْ جَمِيعًـا ثُـمَّ وُفْـ ـقْتُمْ لَـهَا مِـنْ بَعْـدِ طُـولِ زَمَـانِ

١٨٩٣- وَاللهِ مَا ذُخِرَتْ لَكُمْ لِفَضِيلَةٍ ... لَكُمُ عَلَيْهِمْ يَا أُولِي النُّقْصَانِ
١٨٩٤- لَكِنْ عُقُولُ القَوْمِ كَانَتْ فَوْقَ ذَا ... قَدْرًا وَشَأْنُهُمُ فَأَعْظَمُ شَانِ
١٨٩٥- وَهُمُ أَجَلُّ وَعِلْمُهُمْ أَعْلَى وأَشْـ ... ـرَفُ أَنْ يُشَابَ بِزُخْرُفِ الهَذَيَانِ
١٨٩٦- فَلِذَاكَ صَانَهُمُ الإِلَهُ عَنِ الَّذِي ... فِيهِ وَقَعْتُمْ صَوْنَ ذِي إِحْسَانِ
١٨٩٧- سَمَّيْتُمُ التَّحْرِيفَ تَأْوِيلًا كَذَا التْـ ... ـتَعْطِيلَ تَنْزِيهًا هُمَا لَقَبَانِ
١٨٩٨- وَأَضَفْتُمُ أَمْرًا إِلَى ذَا ثَالِثًا ... شَرًّا وَأَقْبَحَ مِنْهُ ذَا بُهْتَانِ
١٨٩٩- فَجَعَلْتُمُ الإِثْبَاتَ تَجْسِيمًا وَتَشْـ ... ـبِيهًا وَذَا مِنْ أَقْبَحِ العُدْوَانِ
١٩٠٠- فَقَلَبْتُمُ تِلْكَ الحَقَائِقَ مِثْلَمَا ... قُلِبَتْ قُلُوبُكُمُ عَنِ الإِيمَانِ
١٩٠١- وَجَعَلْتُمُ المَمْدُوحَ مَذْمُومًا كَذَا ... بِالعَكْسِ حَتَّى اسْتُكْمِلَ اللَّبْسَانِ
١٩٠٢- وأَرَدْتُمُ أَنْ تُحْمَدُوا بِالإِتِّبَا ... عِ نَعَمْ لِمَنْ يا فِرْقَةَ البُهْتَانِ؟
١٩٠٣- وبَغَيْتُمُ أَنْ تَنْسِبُوا لِلإبْتِدَا ... عِ عَسَاكِرَ الآثَارِ وَالقُرْآنِ
١٩٠٤- وَجَعَلْتُمُ الوَحْيَيْنِ غَيْرَ مُفِيدَةٍ ... لِلْعِلْمِ وَالتَّحْقِيقِ وَالبُرْهَانِ
١٩٠٥- لَكِنْ عُقُولُ النَّاكِبِينَ عَنِ الهُدَى ... لَهُمَا تُفِيدُ وَمَنْطِقُ اليُونَانِ
١٩٠٦- وَجَعَلْتُمُ الإِيمَانَ كُفْرًا وَالهُدَى ... عَيْنَ الضَّلَالِ وَذَا مِنَ الطُّغْيَانِ
١٩٠٧- ثُمَّ اسْتَخَفَّيْتُمْ عُقُولًا مَا أَرَا ... دَ اللهُ أَنْ تَزْكُو عَلَى القُرْآنِ
١٩٠٨- حَتَّى اسْتَجَابُوا مُهْطِعِينَ لِدَعْوَةِ التْـ ... ـتَعْطِيلِ قَدْ هَرَبُوا مِنَ الإِيمَانِ

١٩٠٩- يَا وَيْحَهُمْ لَوْ يَشْعُرُونَ بِمَنْ دَعَا ... وَلِمَا دَعَا قَعَدُوا قُعُودَ جَبَانِ

الشَّرحُ

فِي هَذِهِ الأبيات ذكر المؤلفُ -رحمه الله- أنه يلزمُ المتأوِّلين أمرٌ رابع، وَهُوَ الجوابُ عن المُعَارِض؛ لأنَّ الدعوى لا تتمُّ إِلَّا بأمرين: إثباتُ الحُجَّة، والجوابُ عن حُجَّة المُعَارِض، فلا يكفي إذا أردتَ أن تُرجِّحَ قولًا عَلَى قولٍ أن تذكرَ حُجَّةَ قولِك، بل لا بُدَّ من أن تذكرَ حُجَّةَ قولك، والجواب عن حُجَّة المُعَارِض وإِلَّا بقيت حُجَّةُ المُعَارِض قائمةً.

فمثلًا: إذا قالوا المراد بـ(اليد): (القوة) نقولُ: لزم عليكم أمورٌ خمسةٌ:

الأول: وجودُ الصارف عن المعنى الحقيقيِّ.

الثاني: احتمالُ اللفظ لمعنى القوة.

الثالث: تعيُّن المعنى الَّذِي ذكرتموه، إذ يحتملُ ألا يكونَ به لا (اليد) الحقيقية ولا القوة، فيكون هناك معنى آخر غير الَّذِي عيَّنتم.

الرابع: احتمال اللفظ للمعنى فِي هَذَا السِّياق المعيَّن، وهذا لم يذكره المؤلف هنا، لكن ذكره في (مختصر الصواعق).

الخامس: الجواب عن المُعَارِض.

المُعَارِضُ يقول: المرادُ (اليدُ) الحقيقيَّة، هم يقولون: المرادُ بـ(اليد) القوةُ، لكن ما جوابُكم عن دليل المُعَارِض؟ قالوا: لأنَّ دليلَ المُعَارِض لو أخذنا به للزم من ذلك التَّجْسِيمُ أي: أن يكونَ اللهُ جسمًا، أو التبعيضُ أي: أن يكونَ اللهُ له بعضٌ وأعضاء.

نقولُ لهم: مَنْ قال: إنَّ هَذَا لازمٌ؟ إن كان لازمًا فهو حقٌّ، وإن لم يكن لازمًا فهو باطلٌ، ولا يلزمُنا أن نلتزمَ به، ونقولُ لهم: إِنَّ البعضَ والجزءَ إنما يكون هَذَا بالنسبة للمخلوق، أمَّا الخالق فلا نقولُ هَكَذَا؛ لأنَّ المعروفَ أنَّ البعضَ أو الجزءَ هُوَ ما يبقى الكُلُّ بعد فقدِه، وأمَّا الخالقُ فكُلُّ صفاتِه الذاتيَّة لا يمكنُ أن تنفكَّ عنه؛ لأنَّ الصِّفَاتِ الذاتيَّةَ لازمةٌ لا ينفكُّ عنها، لا أزلًا ولا أبدًا، فأين اللازمُ الباطلُ الَّذِي ذكرتم أنه يلزمُ لو أثبتنا النصوصَ عَلَى حقيقتها؟!

كُلُّ هَذِهِ الأمورِ الخمسةِ -والحمد لله- مُنْتَفِيَةٌ فيما ادَّعوْه من التأويل الَّذِي خالفوا به طريقَ السَّلف.

١٨٨٤- وَكَـذَا نُطَـالِبُكُمْ بِـأَمْرٍ رَابِـعٍ ... وَاللهِ لَـيْسَ لَكُـمْ بِـذَا إِمْكَـانِ

قَوْلُهُ: «**وَكَذَا نُطَالِبُكُمْ بِأَمْرٍ رَابِعٍ**» أي: نطالبُ أهلَ التأويل بأمرٍ رابع، وذكرنا في الشرح أنه يمكنُ أن نجعلَه أمرًا خامسًا؛ لأنَّ الأمورَ السابقةَ أربعةٌ: الدَّلِيلُ الصارفُ، احتمالُ اللفظ للمعنى الَّذِي ذكروه، احتمالُه في هَذَا السِّياق المعيَّن، تعيُّن أن يكونَ هُوَ المراد لاحتمال أن يكونَ المرادُ غيرَه، والخامسُ هُوَ هذا.

قَوْلُهُ: «**وَاللهِ لَيْسَ لَكُمْ بِذَا إِمْكَانِ**» كان المفروضُ أن يُقَالَ: (إمكانُ) يعني: ليس لكم بهذا (إمكانٌ) بالرفع، لكنَّه جعلها بالكسر لضرورة الشعر، أمَّا إذا قلنا: (**بذي إمكان**)، فالأمر واضح.

ذكر هَذَا الأمرَ الرابعَ فقال:

١٨٨٥- وهُوَ الجَوابُ عَنِ المُعَارِضِ إِذْ بِهِ الـدْ ... دَعْـوَى تَـتِمُّ سَـلِيمَةَ الأَرْكَـانِ

قَوْلُهُ: «**الجَوابُ عَنِ المُعَارِضِ**» مَنْ المُعَارِضُ للتأويل؟ الجواب: هم أهلُ السُّنَّة الذين جعلوا النصوصَ عَلَى ظاهرِها، ولم يؤوِّلوها.

فمثلًا إذا قالوا: المرادُ بـ«اليد» حقيقةُ اليد، نقول لهم: أجيبوا هؤلاء الذين عارضوكم بالتأويل حيث قُلْتُم أنتم: إِنَّ المرادَ بـ(اليد) القوة، نقول: أجيبوا عن معارضتهم إيَّاكم وقولهم: إِنَّ المرادَ بها حقيقةُ اليد؛ لأننا نقولُ: ما المانع مِن أن يُرَادَ بذلك حقيقةُ اليد؟ فإن أتوا بمانعٍ فحينئذٍ يُقْبَلُ منهم، ولكنَّهم لا يمكنُ أن يأتوا بمانعٍ يمنعُ من إرادة الحقيقة؛ ولهذا قال:

١٨٨٦- لَكِنَّ ذَا عَيْنُ الـمُحَالِ وَلَوْ يُسَا ... عِدُكُمْ عَلَيْهِ رَبُّ كُلِّ لِسَانِ

قَوْلُهُ: «لَكِنَّ ذَا عَيْنُ الـمُحَالِ» ما هُوَ المحال؟ الجواب: أن يجيبوا عن دليل المُعَارِض.

١٨٨٧- فَأَدِلَّةُ الإِثْبَاتِ حَقًّا لَا يَقُو ... مُ لَهَا الجِبَالُ وَسَائِرُ الأَكْوَانِ

لأنها أدلةٌ من كتاب الله، وسُنَّة رسوله -عليه الصلاة والسلام-، ومن العقل، والفطرة، وإجماع السَّلف، خمسة أنواع من الأدلة لا يمكنُ أن تقومَ لها الجبالُ الرَّاسيات.

١٨٨٨- تَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ وَوَحْيُهُ ... مَعَ فِطْرَةِ الرَّحْمَنِ وَالبُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «تَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ» أي: الْقُرْآن.

قَوْلُهُ: «وَوَحْيُهُ» أي: السُّنَّة، وهذا مَبْنِيٌّ عَلَى أنَّ السُّنَّةَ وحيٌ.

وقد تأمَّلتُ السُّنَّةَ، ووجدتُ أنَّ منها ما هُوَ وحيٌ، ومنها ما هُوَ إقرارٌ من الله لاجتهاد النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم-.

قَوْلُهُ: «مَعَ فِطْرَةِ الرَّحْمَنِ» أي: الفطرة.

قَوْلُهُ: «والْبُرْهَان» يحتمل أن يُرادَ به دليلُ العقل، فيكون ابنُ القيِّم -رحمه الله- ذكر هنا أربعةَ أنواعٍ من الأدلة: الْقُرْآن، والسُّنَّة، والفطرة، والعقل، وبقي أمرٌ خامسٌ، وَهُوَ إجماعُ السَّلف عَلَى هذا.

١٨٨٩- أَنَّـى يُعَارِضُـهَا كُنَاسَـةُ هَـذِهِ الْـ   أَذْهَـانِ بِالشُّـبُهَاتِ وَالْـهَذَيَانِ؟

هذا الاستفهام للنفي، يعني: لا يمكنُ أن يُعارِضَ هَذِهِ الأدلةَ كُنَاسَةُ الأذهان بالشُّبهات.

١٨٩٠- وَجَعَـاجِعٍ وَفَرَاقِـعٍ مَـا تَحْتَهَـا   إِلَّا السَّـرَابُ لِـوَارِدٍ ظَمْـآنِ

الجعجعة والفرقعة عبارة عن أصوات لا معنى لها، أي: كلام هذيان ليس فيه فائدةٌ؛ ولهذا قال: «**مَا تَحْتَهَا إِلَّا السَّرابُ لِوَارِدٍ ظَمْآنِ**» والسَّرابُ للوارد الظمآن لا يزيدُه إِلَّا عطشًا وهلاكًا؛ لأنه إذا رأى السَّرابَ وكأَنَّه الماءُ أقبل إليه مسرعًا، فإذا رآه السَّرابُ صار ذلك أشدَّ وقعًا عليه ممَّا لو لم يفرح ويُؤَمِّل النجاةَ من العطش.

١٨٩١- فَلْتَهْنِكُمْ هَذِي العُلُومُ الـلَّاءِ قَـدْ   ذُخِرَتْ لَكُمْ عَنْ تَابِعِي الإِحْسَـانِ

هذا من باب التَّهكُّم، واللام في قوله: (**فلتهنكم**) للدعاء، لكنَّه دعاءُ تهكُّمٍ، يعني: هنيئًا لكم هَذِهِ العلوم التي ذُخِرَتْ لكم عن تابعي الإحسان، يعني: عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، كَيْفَ ذُخِرَتْ لكم هَذِهِ العلوم وهُمْ لم يعلموها؟!

١٨٩٢- بَلْ عَنْ مَشَـايِخِهِمْ جَمِيعًـا ثُـمَّ وُفْـ   فِقْتُمْ لَـهَا مِـنْ بَعْـدِ طُـولِ زَمَـانِ

لأنَّ هَذِهِ البدعَ لم تنتشرْ إِلَّا بعد مُضِيِّ القرونِ الثلاثة المفضَّلَةِ.

١٨٩٣- وَاللهِ مَا ذُخِرَتْ لَكُمْ لِفَضِيلَةٍ لَكُمُ عَلَيْهِمْ يَا أُولِي النُّقْصَانِ

فأنتم أصحابُ النقصِ، ولا يمكنُ أن تُدَّخَرَ لكم الفضيلةُ وتُحْجَبَ عن الصحابة والتابعين.

١٨٩٤- لَكِنْ عُقُولُ القَوْمِ كَانَتْ فَوْقَ ذَا قَدْرًا وَشَأْنُهُمُ فَأَعْظَمُ شَانِ

قَوْلُهُ: «عُقُولُ القَوْمِ» يُشيرُ إِلَى عقول الصحابة والتابعين.

قَوْلُهُ: «كَانَتْ فَوْقَ ذَا قَدْرًا» أي: فوق ما أنتم عليه من العقول التي هي في الحقيقة سفاهاتٌ.

قَوْلُهُ: «وَشَأْنُهُمْ» أي: قدرهم وفضلُهم ومرتبتهم فأعظمُ شان.

١٨٩٥- وَهُمُ أَجَلُّ وَعِلْمُهُمْ أَعْلَى وأَشْـ ـرَفُ أَنْ يُشَابَ بِزُخْرُفِ الـهَذَيَانِ

وصدق -رحمه الله-، فعلومُ الأوَّلين أعمقُ، وكلامُهم أقلُّ، ليس فيه تعقيدٌ ولا هذيان ولا احتمالات، وإنما هُوَ كلامٌ مَبْنِيٌّ عَلَى السَّليقة والطبيعة، تجده سهلًا يخرجُ بدون تكلُّفٍ، ويُفْهَمُ بدون تكلُّفٍ مع العمق.

١٨٩٦- فَلِذَاكَ صَانَهُمُ الإِلَهُ عَنِ الَّذِي فِيهِ وَقَعْتُمْ صَوْنَ ذِي إِحْسَانِ

الذي وقعوا فيه هَذِهِ الشُّبهات التي يدَّعونها معقولات.

١٨٩٧- سَمَّيْتُمُ التَّحْرِيفَ تَأْوِيلًا كَذَا التْـ ـتَعْطِيلَ تَنْزِيهًا هُمَا لَقَبَانِ

التأويلُ بالنسبة للنصوص، والتعطيلُ بالنسبة لصفات الله المتَّصف بها، فمثلًا يقولون: المرادُ بـ(الِاسْتِوَاء) الاستيلاءُ، فهذا تحريفٌ، وهم يسمُّونه تأويلًا، ويقولون: إنَّ اللهَ لم يَسْتَوِ عَلَى العرش حقيقةً، يُنَزَّهُ أن يكونَ مستويًا عَلَى العرش حقيقةً، فعطَّلوا الصفةَ وهي صفة الِاسْتِوَاء، وسمَّوها تنزيهًا.

١٨٩٨- وَأَضَفْتُمُ أَمْرًا إِلَى ذَا ثَالِثًا شَرًّا وَأَقْبَحَ مِنْهُ ذَا بُهْتَانِ

إِذَنْ عندنا جنايتُهم عَلَى النصوص، وعلى البارئ -جلَّ وعلا-، أمَّا عَلَى النصوص فحرَّفوها، وأمَّا عَلَى الله فعطَّلوه من صفاتِه.

وهناك أمرٌ ثالث جَنوه؛ ولذا قال:

١٨٩٩- فَجَعَلْتُمُ الإِثْبَاتَ تَجْسِيمًا وَتَشْـ ـبِيهًا وَذَا مِنْ أَقْبَحِ العُدْوَانِ

قالوا: إنَّ الَّذِي يُثبتُ هَذِهِ الصِّفَاتِ لله يكونُ مُجَسِّمًا مُشَبِّهًا، لله بالخَلق، فاعتدوا عدوانًا ثالثًا عَلَى مَنْ أثبتَ الصِّفَات، وسَمَّوه مُجَسِّمًا ومُشَبِّهًا.

فهذه ثلاثُ جناياتٍ: عَلَى النصوص وهي الخبر، وعلى المُخْبَرِ عنه وَهُوَ الله، وعلى قابل الخبر وهم الذين أخذوا بالنصوص عَلَى ظاهِرِها، الأَوَّل: بالتحريف، والثاني: بالتعطيل، والثالث: بالتَّجْسِيم والتشبيه، اعتدوا عليهم، وقالوا: أنتم مُشَبِّهَةٌ مُجَسِّمَةٌ.

١٩٠٠- فَقَلَبْتُمُ تِلْكَ الحَقَائِقَ مِثْلَمَا قُلِبَتْ قُلُوبُكُمُ عَنِ الإِيمَانِ

نعوذ بالله، يعني: قلبتم الحقيقةَ فَسَمَّيتم التَّعطيلَ تنزيهًا وَهُوَ تعطيلٌ، والتَّحريفَ تأويلًا وَهُوَ تحريفٌ، وإثباتَ الصِّفَاتِ تجسيمًا وَهُوَ إثباتٌ للحقيقة، لكنَّكم قلبتم الحقائقَ مثلما قُلِبَتْ قلوبُكم عن الإيمان.

قَوْلُهُ: «مِثْلَمَا قُلِبَتْ قُلُوبُكُمُ عَنِ الإِيمَانِ» القلوب -والعياذ بالله- تُقَلَّبُ كما قَالَ الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠].

١٩٠١- وَجَعَلْتُمُ الـمَمْدُوحَ مَذْمُومًا كَـذَا بِالعَكْسِ حَتَّى اسْتُكْمِلَ اللَّبْسَانِ

المدوح جعلوه مذمومًا، ما هُوَ المدوح في هَذَا الباب؟ الجواب: هُوَ إثباتُ الصِّفَاتِ والأخذُ بظاهرِ النصوص، فهذا جعلوه مذمومًا، وجعلوا المذمومَ وَهُوَ التَّحريف جعلوه ممدوحًا.

١٩٠٢- وأَرَدْتُــمُ أَنْ تُحْمَــدُوا بِالإِتِّبَـا عِ نَعَـمْ لِـمَنْ يـا فِرْقَـةَ البُهْتَـانِ؟

أردتم أن يَحْمَدَكُم الناسُ بالاتباع، نعم تُحْمَدُون لكن لمن؟ الجواب: للشَّياطين، فأنتم تتَّبعون الشَّيطانَ وخطواتِ الشَّيطان.

قَوْلُهُ: «لِـمَنْ يا فِرْقَةَ البُهْتَانِ»؟ وجواب (لمن)؟ للشَّيطان، يعني: أردتم من الناس أن يَحمدوكم عَلَى أنكم المتَّبِعون، ولكن للشَّيطان.

١٩٠٣- وبَغَيْــتُمُ أَنْ تَنْسِــبُوا لِلإِبْتَــدَا عِ عَسَــاكِرَ الآثَــارِ وَالقُــرْآنِ

وهذا لا شكَّ أنه قلبٌ للحقائق، قالوا لعساكر الآثارِ والْقُرْآنِ قالوا: هؤلاء مبتدعةٌ، والحقيقةُ أنَّ الابتداعَ فيهم، وليس في هؤلاء.

١٩٠٤- وَجَعَلْـتُمُ الـوَحْيَيْنِ غَـيْرَ مُفِيـدَةٍ لِلْعِلْـمِ وَالتَّحْقِيـقِ وَالبُرْهَــانِ

قَوْلُهُ: «وَجَعَلْتُمُ الوَحْيَيْنِ» يعني: الكتابَ والسُّنَّةَ.

قَوْلُهُ: «غَيْرَ مُفِيدَةٍ للعلم والتَّحْقِيق والْبُرْهَان»؟ يقولون: إِنَّ السُّنَّةَ لا تُفيدُ العلمَ؛ لأنها خبرُ آحاد، والْقُرْآنُ لا يفيدُ العلمَ لا من حيث ثبوتِه، لكن من حيث دلالته، وجعلوا للألفاظِ معانيَ متعددة، وقالوا: هَذَا اللفظُ يحتمل كذا، ويحتملُ كذا، ويحتملُ كذا، إِذَنْ فدلالتُه غيرُ قطعِيَّةٍ، ولا تفيدُ العلمَ.

١٩٠٥- لَكِنْ عُقُولُ النَّاكِبِينَ عَنِ الـهُدَى لَـهُمَا تُفِيدُ وَمَنْطِقُ اليُونَانِ

قَوْلُهُ: «لَـهُمَا» يعني: للعلم والتَّحْقِيق.

قَوْلُهُ: «وَمَنْطِقُ اليُونَانِ» أي: هُوَ الَّذِي يفيدُ.

يقول: عقولُ هؤلاء الناكبين ومنطق اليونان هما اللذان يفيدان العلمَ والتَّحْقِيقَ.

١٩٠٦- وَجَعَلْتُمُ الإِيمَانَ كُفْرًا وَالـهُدَى عَيْنَ الضَّلَالِ وَذَا مِنَ الطُّغْيَانِ

الإيمانُ جعلوه كفرًا، يعني: قالوا: المثبتُ كافرٌ؛ لأنه مُجَسِّم جعل اللهَ جسمًا، فيكون إيمانهُ هَذَا كفرًا.

قَوْلُهُ: «وَالـهُدَى عَيْنَ الضَّلَالِ» يعني: أنَّ العلمَ جعلوه هُوَ الضلال والجهل، «وَذَا مِنَ الطُّغْيَانِ» ولا شكَّ.

١٩٠٧- ثُمَّ اسْتَخَفَّيْتُمْ عُقُولًا مَا أَرَا دَ اللهُ أَنْ تَزْكُو عَلَى القُرْآنِ

قَوْلُهُ: «اسْتَخَفَّيْتُمْ عُقُولًا» يعني: أنكم تهكَّمتم بها واسْتَخْفَفْتموها فهي كقوله تعالى عن فرعون: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف:٥٤].

قَوْلُهُ: «مَا أَرَادَ اللهُ أَنْ تَزْكُو عَلَى الْقُرْآن»؛ لأنَّ اللهَ لو أراد أن تزكوَ هَذِهِ العقولُ عَلَى الْقُرْآن ما أجابتكم ولا أطاعتكم، ولكن قال:

١٩٠٨- حَتَّى اسْتَجَابُوا مُهْطِعِينَ لِدَعْوَةِ التَّـ ـعْطِيلِ قَدْ هَرَبُوا مِنَ الإِيمَانِ

أي: مسرعين لدعوة التعطيل، وهذا واضح أنَّ المرادَ استخفافُ عقولِ الناس، وما أكثرَ الذين اتَّبعوا أهلَ التحريف! وقالوا: إنَّ قولَهم هُوَ الحقُّ وَهُوَ التنزيهُ.

١٩٠٩- يَا وَيْحَهُمْ لَوْ يَشْعُرُونَ بِمَنْ دَعَا ... وَلِـمَا دَعَا قَعَدُوا قُعُودَ جَبَانِ

قَوْلُهُ: «يَا وَيْحَهُمْ» يعني: يا ويح هؤلاء الذين استُخِفُّوا وتابعوا.

قَوْلُهُ: «لَوْ يَشْعُرُونَ بِمَنْ دَعَا» أي: بهؤلاء الذين دَعَوْهم وأنَّهم مُحرِّفَةٌ ومضلِّلةٌ.

قَوْلُهُ: «وَلِـمَا دَعَا» لأيِّ شيءٍ دعا هؤلاء؟ الجواب: لتحريف النصوص وتعطيل الله -سبحانه وتعالى- عن صفاته التي أثبتها لنفسه، لو شعروا بهذا يقول: (قَعَدُوا قُعُودَ جَبَانِ)، وأظنكم تعلمون أنَّ (قعود الجبان) لا قيامَ بعدَه؛ لأنَّ الجبانَ لا تُقِلُّه رجلاه، فإذا قعد لا يقومُ.

فهؤلاء لو شعروا بما يدعوا هؤلاء إليه، وشعروا بحالهم ما أجابوهم، ولا تبعوهم مُهْطِعين، بل قعدوا قعودَ جبان، وتبرَّؤوا منهم.

* * *

فصــل

فِي شَبَهِ المُحَرِّفِينَ لِلنُّصُوصِ بِاليَهُودِ، وَإِرْثِهِمُ التَّحْرِيفَ مِنْهُمْ، وَبَرَاءَةِ أَهْلِ الإِثْبَاتِ مِمَّا رَمَوْهُمْ بِهِ مِنْ هَذِهِ الشُّبَهِ

١٩١٠- هَــذَا وَثَــمَّ بَلِيَّــةٌ مَسْــتُورَةٌ ... فِــيهِمْ سَــأُبْدِيهَا لَكُــمْ بِبَيَــانِ

١٩١١- وَرِثَ المُحَرِّفُ مِنْ يَهُودَ وَهُمْ أُولُو التَّـ ... ـحْرِيفِ والتَّبْــدِيلِ وَالْكِــتْمَانِ

١٩١٢- فَــأَرَادَ مِــيرَاثَ الثَّلَاثَــةِ مِــنْهُمُ ... فَعَصَــتْ عَلَيْــهِ غَايَــةَ العِصْــيَانِ

١٩١٣- إِذْ كَانَ لَفْظُ النَّصِّ مَحْفُوظًا فَمَا التَّـ ... ـبْــدِيلُ والكِــتْمَانُ فِي الإِمْكَــانِ؟

١٩١٤- فَأَرَادَ تَبْدِيلَ الـمَعَانِـي إِذْ هِـيَ الْـ ... ـمَقْصُودُ مِـنْ تَعْبِـيرِ كُـلِّ لِسَـانِ

١٩١٥- فَأَتَى إِلَيْهَـا وَهْـيَ بَـارِزَةٌ مِـنَ الْـ ... أَلْفَــاظِ ظَــاهِرَةٌ بِــلَا كِــتْمَانِ

١٩١٦- فَنَفَـى حَقَائِقَهَـا وَأَعْطَـى لَفْظَهَـا ... مَعْنًى سِوَى مَوْضُوعِهِ الـحَقَّانِـي

١٩١٧- فَجَنَى عَلَى الـمَعْنَى جِنَايَةَ جَاحِـدٍ ... وَجَنَـى عَـلَى الأَلْفَـاظِ بِالعُـدْوَانِ

١٩١٨- وَأَتَى إِلَى حِزْبِ الـهُدَى أَعْطَـاهُمُ ... شَــبَهَ اليَهُــودِ وَذَا مِــنَ البُهْتَــانِ

١٩١٩- إِذْ قَــالَ: إِنَّهُــمُ مُشَــبِّهَةٌ وَأَنْــ ... ــتُمْ مِثْلُهُمْ فَمَنِ الَّـذِي يَلْحَانِـي

١٩٢٠- فِي هَتْكِ أَسْـتَارِ اليَهُـودِ وشِـبْهِهِمْ ... مِــنْ فِرْقَــةِ التَّحْرِيــفِ لِلْقُــرْآنِ؟

١٩٢١- يَا مُسْلِمُونَ بِحَقِّ رَبِّكُـمُ اسْـمَعُوا ... قَوْلِــي وَعُــوهُ وَعْــيَ ذِي عِرْفَـانِ

١٩٢٢- ثُمَّ احْكُمُوا مِنْ بَعْدُ مَنْ هَذَا الَّذِي ... أَوْلَى بِهَـــذَا الشِّــبْهِ بِالْبُرْهَـــانِ؟
١٩٢٣- أَمَـرَ اليَهُـودَ بِـأَنْ يَقُولُـوا: حِطَّـةٌ ... فَــأَبَوْا وقَــالُوا: حِنْطَــةٌ لِــهَوَانِ
١٩٢٤- وَكَذَلِكَ الجَهْمِيُّ قِيلَ لَهُ: اسْتَوَى ... فَــأَبَى وَزَادَ الــحَرْفَ لِلنُّقْصَــانِ
١٩٢٥- قَالَ: اسْتَوَى اسْتَوْلَى وَذَا مِنْ جَهْلِهِ ... لُغَــةً وعَقْــلًا مَــا هُمَــا سِــيَّانِ
١٩٢٦- عِشْرُونَ وَجْهًا تُبْطِلُ التَّأْوِيلَ بِاسْـ ... ـــتَوْلَى فَـلَا تَخْــرُجْ عَــنِ الْقُــرْآنِ
١٩٢٧- قَدْ أُفْـرِدَتْ بِمُصَـنَّفٍ هُـوَ عِنْـدَنَا ... تَصْــنِيفُ حَــبْرٍ عَالِــمٍ رَبَّانِــي
١٩٢٨- وَلَقَــدْ ذَكَرْنَــا أَرْبَعِــينَ طَرِيقَــةً ... قَــدْ أَبْطَلَــتْ هَــذَا بِحُسْــنِ بَيَــانِ
١٩٢٩- هِيَ فِي «الصَّوَاعِقِ» إِنْ تُرِدْ تَحْقِيقَهَا ... لَا تَخْتَفِــي إِلَّا عَــلَى العُمْيَــانِ
١٩٣٠- نُــونُ اليَهُــودِ ولَامُ جَهْمِــيٍّ هُمَــا ... فِي وَحْــيِ رَبِّ العَــرْشِ زَائِــدَتَانِ
١٩٣١- وَكَذَلِكَ الـجَهْمِيُّ عَطَّـلَ وَصْـفَهُ ... وَيَهُــودُ قَــدْ وَصَــفُوهُ بِالنُّقْصَــانِ
١٩٣٢- فَهُـمَا إِذَنْ فِي نَفْـيِهِمْ لِصِـفَاتِهِ الْـ ... ـــعُلْيَا كَــمَا بَيَّنْتُــهُ أَخَــوَانِ

الشـــرحُ

هذا الفصلُ بَيَّنَ المؤلفُ -رحمه الله- أَنَّ المحرِّفين يُشابهونَ اليهودَ والنصارى ويرثونهم التحريفَ، وأَنَّ أهلَ الإثبات بريئون مما وصمهم به هؤلاء المحرِّفون؛ لأَنَّ هؤلاء المحرِّفين قالوا: إنَّ أهلَ الإثباتِ هم الذين يُشبهون اليهودَ؛ لأَنَّ اليهودَ مُشبِّهَةٌ، وأهلَ الإثبات -عَلَى زعمهم- مُشَبِّهَةٌ.

قال المؤلف -رحمه الله-:

١٩١٠- هَــــذَا وَثَــــمَّ بَلِيَّــــةٌ مَسْــــتُورَةٌ فِــــيهِمْ سَــــأُبْدِيهَا لَكُــــمْ بِبَيَــــانِ

قَوْلُهُ: «هذا» يعني: هَذَا المذكورُ السَّابقُ.

قَوْلُهُ: «وثَمَّ» أي: هناك.

قَوْلُهُ: «فِيهِم» الضميرُ يعودُ عَلَى أهل التأويل المحرِّفة.

١٩١١- وَرِثَ المُحَرِّفُ مِنْ يَهُودَ وَهُمْ أُولُو التْـ ـــتَحْرِيفِ والتَّبْــدِيلِ وَالْكِــتْمَانِ

يعني: أنَّ المحرِّفَ وَرِثَ من اليهود، واليهودُ هم أولو التحريف والتبديل والكتمان، لا شكَّ أنَّ اليهودَ من أعظم الأمم تحريفًا لنصوص الكتاب، حَرَّفوا التوراةَ، وخرَّقوها، ومزَّقوا العملَ بها، وكفروا بها، فمن كان من هَذِهِ الأمة محرِّفًا فقد وَرِثَهم.

١٩١٢- فَــأَرَادَ مِــيرَاثَ الثَّلَاثَــةِ مِــنْهُمُ فَعَصَــتْ عَلَيْــهِ غَايَــةَ العِصْــيَانِ

١٩١٣- إِذْ كَانَ لَفْظُ النَّصِّ مَحْفُوظًا فَمَا التْـ ـــتَبْــدِيلُ والكِــتْمَانُ فِي الإِمْكَــانِ؟

١٩١٤- فَأَرَادَ تَبْدِيلَ الـمَعَانِـي إِذْ هِـيَ الْـ ـــمَقْصُودُ مِــنْ تَعْبِــيرِ كُــلِّ لِسَــانِ

عندنا تحريفٌ وتبديلٌ وكتمانٌ، أراد أهلُ التأويل أن يَرِثُوا الثلاثةَ وهي التحريفُ، والتبديلُ، والكتمانُ.

أمَّا الكتمانُ فإنه لا يمكنُهم؛ لأنَّ هَذَا الْقُرْآنَ محفوظٌ.

وأمَّا التبديلُ فكذلك لا يمكنُهم؛ لأنَّ الْقُرْآنَ محفوظٌ، ولو بَدَّلوا كلمةً مِنْهُ لثارت عليهم الأمةُ، فلو أنهم قرؤوا قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]،

وبدَّلوا بـ (اسْتَوَى) (استولى) لثارت عليهم الأمةُ، ولو أنَّهم كتموا ومَحَوْا من المصحف ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] وجميعَ آيات الإِسْتِوَاء ما أمكنهم ذلك أيضًا، إِذَنْ عمدوا إِلَى تحريف المعنى؛ لأنه يمكنُ أن يُلَبِّسوا عَلَى الناس، ويقولوا: (اسْتَوَى) بمعنى (استولى).

قَوْلُهُ: «فَمَا التَّبْدِيلُ وَالكِتْمَانُ فِي الإِمْكَانِ؟» إِذَنْ بقي التحريفُ؛ ولذا قال: «فَأَرَادَ تَبْدِيلَ المَعَانِي» وهي التحريف.

إِذَنْ بقي التحريف وهو: إبقاءُ اللفظ وتحريفُ المعنى؛ لأنهم لا يستطيعون كتمانَ اللفظ ولا تبديلَه، فسلكوا الطريقَ الثالثَ وَهُوَ التحريف، فأتوا إِلَى الألفاظ، وقالوا: تبقى الألفاظُ لكن ليس معناها ما دلَّت عليه، بل معناها شيءٌ آخر، ومشوا عَلَى هذا.

فيقول مثلًا في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢] يقول: (وجاءَ أمرُ ربِّك)، فكأنه محى قولَ الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ وأبدله (وجاء أمر ربك)، لكن لفظًا لا يستطيعُ، فعمد إِلَى المعنى، وقال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي: جَاءَ أمرُ رَبِّك؛ ولذلك يقول:

١٩١٥- فَأَتَى إِلَيْهَا وَهْيَ بَارِزَةٌ مِنَ الْـ ... أَلْفَاظِ ظَاهِرَةٌ بِلَا كِتْمَانِ

قَوْلُهُ: «فَأَتَى إِلَيْهَا» أي: إِلَى المعاني.

يعني: أتى إِلَيْهَا وهي واضحةٌ بيِّنةٌ يدلُّ عليها اللفظُ بلا كتمان.

١٩١٦- فنَفَى حَقَائِقَهَا وَأَعْطَى لَفْظَهَا ... مَعْنًى سِوَى مَوْضُوعِهِ الحَقَّانِي

قَوْلُهُ: «نَفَى حَقَائِقَهَا» ففي المثالِ الأخيرِ الَّذِي ذكرناه، وَهُوَ قولُه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ قال: ليس المرادُ جَاءَ هُوَ نفسُه، بل المرادُ: جَاءَ أمرُه.

إِذَنْ نفى الحقيقةَ، وأعطى لفظَها معنًى سوى موضوعه، ما موضوع ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾؟ أنه جَاءَ هُوَ نفسُه حقيقةً، هُوَ قال: لا، (جاء أمرُه)، فأعطى الحقيقةَ معنًى آخر سوى موضوعه الحقَّاني.

١٩١٧- فَجَنَى عَلَى الـمَعْنَى جِنَايَةَ جَاحِدٍ وَجَنَى عَلَى الأَلْفَاظِ بِالعُدْوَانِ

قَوْلُهُ: «جَنَى عَلَى المَعْنَى جِنَايَةَ جَاحِدٍ»؛ لأنه إذا قَالَ معنى ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾: «جاء أمرُه»، فقد جحدَ المعنى الأصليَّ وَهُوَ مجيءُ الله -سبحانه وتعالى- نفسُه.

قَوْلُهُ: «وَجَنَى عَلَى الأَلْفَاظِ بالعُدْوَانِ» حيث حَرَّفها، وقال: إنَّ معناها كذا، فهذه جنايةٌ عليها؛ لأنه حمَّلها معنًى لم تحتملْه.

١٩١٨- وَأَتَى إِلَى حِزْبِ الـهُدَى أَعْطَاهُمُ شَبَهَ اليَهُودِ وَذَا مِنَ البُهْتَانِ

١٩١٩- إِذْ قَالَ: إِنَّهُمُ مُشَبِّهَةٌ وَأَنْـ ـتُمْ مِثْلُهُمْ فَمَنِ الَّذِي يَلْحَانِي

١٩٢٠- فِي هَتْكِ أَسْتَارِ اليَهُودِ وشِبْهِهِمْ مِنْ فِرْقَةِ التَّحْرِيفِ لِلْقُرْآنِ؟

أتى إِلَى حزب الهدى وقال: أنتم الذين تُشْبِهون اليهودَ؛ لأنَّ اليهودَ مُجَسِّمَةٌ؛ لأنهم قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران:١٨١] وقالوا: إنَّ اللهَ بخيلٌ، وقالوا: إنَّ الله بكى وحزن، وقالوا: إنَّ اللهَ تعالى تَعِبَ، فجَسَّموا، وأنتم كذلك جَسَّمتم، فأنتم الذين أشبهتم اليهودَ، انظر كَيْفَ الطغيان والعياذ بالله؟!

وَقَوْلُهُ: «إِنَّهُمُ مُشَبِّهَةٌ» إنهم أي: اليهود.

وَقَوْلُهُ: «فَمَنِ الَّذِي يَلْحَانِي» أي: فَمَنْ يلومني إذا قلتُ: إنَّكم مُشَبِّهَةٌ كاليهود.

١٩٢١- يَا مُسْلِمُونَ بِحَقِّ رَبِّكُمُ اسْمَعُوا ... قَوْلِي وَعُوهُ وَعْيَ ذِي عِرْفَانِ

ابنُ القيِّم -رحمه الله- لـمَّا قال: (من الَّذِي يلحاني فِي هتك أستار اليهود وشبههم من فرقة التحريف للقرآن؟) نادى المسلمين، فقال: (يا مسلمون)، فالمنادِي هُوَ ابنُ القيِّم.

قَوْلُهُ: «اسْمَعُوا قَوْلِي وَعُوهُ»؛ لأنَّ السَّمعَ بدون وعيٍ لا فائدةَ منه، لا بُدَّ أن يسمعَ الإنسانُ ويعيَ قولَ مُخَاطِبِهِ، فإنْ سَمِعَ بلا وعيٍ فلا فائدةَ من سمعِه، والسَّمعُ في الأذن، والوعيُ في القلب.

١٩٢٢- ثُمَّ احْكُمُوا مِنْ بَعْدُ مَنْ هَذَا الَّذِي ... أَوْلَى بِهَذَا الشِّبْهِ بِالْبُرْهَانِ؟

ذكر المثال فَقَالَ:

١٩٢٣- أَمَرَ اليَهُودَ بِأَنْ يَقُولُوا: حِطَّةٌ ... فَأَبَوْا وقَالُوا: حِنْطَةٌ لِهَوَانِ

قَوْلُهُ: «أَمَرَ اليَهُودَ» وذلك حين قيل لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ [النساء:١٥٤] وقولوا: «حطة» يعني: بابَ القرية التي أُمِرُوا بقتال أهلها، وقولوا: (حِطَّة) ماذا فعلوا؟ «دَخَلُوا الْبَابَ يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ»، أي كُلُّ وَاحِدٍ يَزْحَفُ عَلَى اسْتِهِ، يعني: عَلَى دُبُرِه «فَبَدَّلُوا وَقَالُوا حِنْطَةٌ حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ»(١) بدَل حِطَّة، يعني: نريدُ حِنْطَةً، أمَّا حِطَّة الذنوبِ فلا نريدُها، نريدُ حِنْطَةً؛ لأنهم يريدون المالَ، ومَلءَ البطون، ولا يهمُّهم أن يحطَّ اللهُ ذنوبَهم أو لا يحطَّها، نسألُ اللهَ العافيةَ.

قَوْلُهُ: «حِطَّة» يعني: احططْ عنَّا ذنوبنا، ولكنهم قالوا: (حِنْطَة) يريدون الأكلَ.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى: كتاب التفسير، سورة البقرة، باب قوله تعالى: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ [البقرة:٥٨]، رقم (١٠٩٢٢).

فإن قَالَ قائل: وهل اليهود يتكلّمون باللغة العربية؟

الجَوَابُ: لا، وأمَّا كَيْفَ يقولون: حنطة؟ فالجواب: لقد حكى اللهُ عزَّ وجلَّ عن آدمَ إِلَى محمدٍ أي: عن الأنبياءِ كُلِّهم حكى بالعربية، وكُلُّ الأنبياءِ لغتُهم غيرُ عربية، فيحكى اللهُ عنهم، يقول: «قال فرعون»، «قال موسى» باللغة العربية، فهو يحكى كلامهم بالمعنى، فهم قالوا معنى لفظ حنطة.

١٩٢٤- وَكَذَلِكَ الجَهْمِيُّ قِيلَ لَهُ: اسْتَوَى فَأَبَى وَزَادَ الحَرْفَ لِلنُّقْصَانِ

الجهميُّ قيل له: ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف:٥٤] قال: لا، بل معناه (استولى عَلَى العرش)، فزاد حرفًا كما زادت اليهودُ حرفًا، مَنْ المُشَابِه؟ الجواب: الجهميَّةُ، فهم المشابهون لليهود، فهؤلاء زادوا حرفًا وَهُوَ النون، وهؤلاء زادوا حرفًا وَهُوَ اللام.

وَقَوْلُهُ: «زَادَ الحَرْفَ لِلنُّقْصَانِ» أي: زاد حرفًا فنقص المعنى، فصار العرشُ وغيرُه سواءً، فإذا كان ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ بمعنى: (استولى عليه)، فهو أيضًا مُستولٍ عَلَى الأرض، وحينئذٍ لا فضلَ للعرش عَلَى الأرض، فزاد حرفًا ولكنَّه نقص في المعنى، فنقص قدرَ العرش.

١٩٢٥- قَالَ: اسْتَوَى اسْتَوْلَى وَذَا مِنْ جَهْلِهِ لُغَةً وعَقْلًا مَا هُمَا سِيَّانِ

قَوْلُهُ: «وَذَا مِنْ جَهْلِهِ» صدق -رحمه الله- ففرقٌ بين ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ وبين (استولى عَلَى العرش).

١٩٢٦- عِشْرُونَ وَجْهًا تُبْطِلُ التَّأْوِيلَ بِاسْـ ـتَوْلَى فَلَا تَخْرُجْ عَنِ الْقُرْآنِ

اللَّهُمَّ ارزقْنَا عدمَ الخروج عنه.

لو كان اللهُ يريد (استولى) ما الَّذِي يمنعُه أن يقولَ: (استولى)؟ لا أحدَ يمنعُه أبدًا، بل أراد (اسْتَوَى) غير (استولى)؛ ولهذا قال: (لا تخرج عن الْقُرْآن).

يقول: (عِشْرُونَ وَجْهًا...).

١٩٢٧- قَدْ أُفْرِدَتْ بِمُصَنَّفٍ هُوَ عِنْدَنَا ... تَصْنِيفُ حَبْرٍ عَالِمٍ رَبَّانِي

قَوْلُهُ: «تَصْنِيفُ حَبْرٍ عَالِمٍ رَبَّانِي» هُوَ شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وله كتابٌ أبطل فيه أنَّ (اسْتَوَى) بمعنى (استولى) من عشرين وجهًا، فرحمه الله وجزاه عن أمة محمدٍ خيرًا.

فهو عالِمٌ حَبْرٌ، و(الحبرُ) مُثَلَّث الحاء أي: (حِبْرٌ، حَبْرٌ، حُبْرٌ) ومعناه: العالِمُ الواسعُ العِلم، وَهُوَ مُشتقٌّ من البحر، لكنَّه اشتقاقٌ أكبر؛ لأنَّ الاشتقاقَ الأصغر ما تساوت فيه الحروفُ، وهنا مختلفةٌ.

١٩٢٨- وَلَقَدْ ذَكَرْنَا أَرْبَعِينَ طَرِيقَةً ... قَدْ أَبْطَلَتْ هَذَا بِحُسْنِ بَيَانِ

١٩٢٩- هِيَ فِي «الصَّوَاعِقِ» إِنْ تُرِدْ تَحْقِيقَهَا ... لَا تَخْتَفِي إِلَّا عَلَى العُمْيَانِ

ذكر ابنُ القيِّم أيضًا أربعين طريقةً (الصَّوَاعِقُ الْمُرْسَلَةُ عَلَى غَزْوِ الجَهْمِيَّةِ وَالْمُعَطِّلَةِ) فهذا -ما شاء الله- عنوانٌ قويٌّ، فإذا كان صواعقَ مرسلةً ما بقي لهم أثرٌ، والكتابُ -والحمد لله- الآن مطبوعٌ، وكان لا يوجدُ إِلَّا مختصرُه، وَهُوَ كتابٌ إذا قرأه الإنسانُ استفاد مِنْهُ فائدةً كبيرةً.

١٩٣٠- نُونُ اليَهُودِ ولَامُ جَهْمِيٍّ هُمَا ... فِي وَحْيِ رَبِّ العَرْشِ زَائِدَتَانِ

قَوْلُهُ: «نُونُ اليَهُودِ» أي: في حنطة، فالله عزَّ وجلَّ قال: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة:٥٨] لكنهم قالوا: (حِنطة).

كذلك «لَامُ جَهْمِيٍّ» في (اسْتَوَى)، اللهُ عزَّ وجلَّ قال: ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ [البقرة:٢٩] وَهُوَ قال: (استولى)، فهما في وحي ربِّ العرش زائدتان.

ثُمَّ ذكر شَبَهًا آخرَ فقال:

١٩٣١- وَكَذَلِكَ الجَهْمِيُّ عَطَّلَ وَصْفَهُ ... وَيَهُودُ قَدْ وَصَفُوهُ بِالنُّقْصَانِ

١٩٣٢- فَهُمَا إِذَنْ فِي نَفْيِهِمْ لِصِفَاتِهِ الْـ ... ـعُلْيَا كَمَا بَيَّنْتُهُ أَخَوَانِ

اليهودُ وصفوا اللهَ بالنقصان، قالوا: يدُ الله مغلولةٌ، وقالوا: إنَّ اللهَ فقيرٌ، وقالوا: إنَّ اللهَ تَعِبَ يوم السبت، فاستراح -نعوذ بالله- ووصفوا الله بكُلِّ عيبٍ.

والجهميُّ سَلَبَ مِنْهُ وَصْفَه بالكمال، وإذا سَلَبَ وَصْفَهُ بالكمال لزم أن يكونَ متَّصفًا بالنقص، ووجهُ التلازم: أنَّك إذا نفيتَ صِفةَ الكمالِ عن الله لزم أن يكونَ متَّصفًا بالنقص؛ لأنه ما من موجودٍ إلَّا وله صفةٌ، فإذا انتفت عنه صفةُ الكمالِ لزم ثبوتُ صفةِ النقص، فاليهودُ وصفوه بالنقص، والجهميُّ وصفَه بالنقص، فمن أحقُّ أن يكونَ مشابهًا لليهود؟ الجواب: الجهميُّ المعطِّلُ، وليس المُثْبِت.

* * *

فصل

فِي بَيَانِ بُهْتَانِهِمْ فِي تَشْبِيهِ أَهْلِ الإِثْبَاتِ بِفِرْعَوْنَ، وَقَوْلِهِمْ: إِنَّ مَقَالَةَ العُلُوِّ عَنْهُ أَخَذُوهَا، وَأَنَّهُمْ أَوْلَى بِفِرْعَوْنَ، وَهُمْ أَشْبَاهُهُ

١٩٣٣- وَمِنَ العَجَائِبِ قَوْلُهُمْ: فِرْعَونُ مَذْ ... هَبُهُ العُلُوُّ وَذَاكَ فِي الْقُرْآنِ

١٩٣٤- وَلِذَاكَ قَدْ طَلَبَ الصُّعُودَ إِلَيْهِ بِالصْ ... صَرْحِ الَّذِي قَدْ رَامَ مِنْ هَامَانِ

١٩٣٥- هَـذَا رَأَيْنَاهُ بِكُتْبِهِمُ وَمِنْ ... أَفْوَاهِهِمْ سَمْعًا إِلَى الآذَانِ

١٩٣٦- فَاسْمَعْ إِذَنْ مَنْ ذَا الَّذِي أَوْلَى بِفِرْ ... عَوْنَ الْمُعَطِّلِ جَاحِدِ الرَّحْمَنِ

١٩٣٧- وَانْظُرْ إِلَى مَنْ قَالَ: مُوسَى كَاذِبٌ ... حِينَ ادَّعَى فَوْقِيَّةَ الرَّحْمَنِ

١٩٣٨- فَمِنَ المَصَائِبِ أَنَّ فِرْعَوْنِيَّكُمْ ... أَضْحَى يُكَفِّرُ صَاحِبَ الإِيمَانِ

١٩٣٩- وَيَقُولُ: ذَاكَ مُبَدِّلٌ لِلدِّينِ سَا ... عٍ بِالفَسَادِ وَذَا مِنَ البُهْتَانِ

١٩٤٠- إِنَّ المُوَرِّثَ ذَا لَهُمْ فِرْعَونُ حِيـ ... ـنَ رَمَى بِهِ المَوْلُودَ مِنْ عِمْرَانِ

١٩٤١- فَهُوَ الإِمَامُ لَهُمْ وَهَادِيهِمْ وَمَتْـ ... ـبُوعٌ يَقُودُهُمُ إِلَى النِّيرَانِ

١٩٤٢- هُوَ أَنْكَرَ الوَصْفَيْنِ وَصْفَ الفَوْقِ وَالتْـ ... ـتَكْلِيمَ إِنْكَارًا عَلَى البُهْتَانِ

١٩٤٣- إِذْ قَصْدُهُ إِنْكَارُ ذَاتِ الرَّبِّ فَالتْـ ... ـتَعْطِيلُ مِرْقَاةٌ لِذَا النُّكْرَانِ

١٩٤٤- وَسِوَاهُ جَاءَ بِسُلَّمٍ وَبِآلَةٍ ... وَأَتَى بِقَانُونٍ عَلَى بُنْيَانِ

١٩٤٥- وَأَتَـى بِـذَاكَ مُفَكِّـرًا وَمُقَـدِّرًا ... وَرِثَ الوَلِيـدَ العَابِـدَ الأَوْثَـانِ

١٩٤٦- وَأَتَـى إِلَى التَّعْطِيـلِ مِـنْ أَبْوَابِـهِ ... لَا مِـنْ ظُهُـورِ الـدَّارِ وَالـجُدْرَانِ

١٩٤٧- وَأَتَـى بِـهِ فِي قَالَـبِ التَّنْزِيـهِ وَالتْـ ... ـتَعْظِيمِ تَلْبِيسًـا عَـلَى العُمْيَـانِ

١٩٤٨- وَأَتَى إِلَى وَصْفِ العُلُوِّ فَقَالَ: ذَا التْـ ... ـتَجْسِيمُ لَـيسَ يَلِيـقُ بِـالرَّحْمَنِ

١٩٤٩- فَـاللَّفْظُ قَـدْ أَنْشَـاهُ مِـنْ تِلْقَائِـهِ ... وَكَسَاهُ وَصْـفَ الوَاحِـدِ الـمَنَّانِ

١٩٥٠- وَالنَّاسُ كُلُّهُمُ صَبِيُّ العَقْـلِ لَـمْ ... يَبْلُـغْ وَلَـوْ كَـانُوا مِـنَ الشِّـيخَانِ

١٩٥١- إِلَّا أُنَاسًـا سَـلَّمُوا لِلْـوَحْيِ هُـمْ ... أَهْـلُ البُلُـوغِ وَأَعْقَـلُ الإِنْسَـانِ

١٩٥٢- فَـأَتَى إِلَى الصِّـبْيَانِ فَانْقَـادُوا لَـهُ ... كَالشَّـاءِ إِذْ تَنْقَـادُ لِلْجُوبَـانِ

١٩٥٣- فَـانْظُرْ إِلَى عَقْـلِ صَـغِيرٍ فِي يَـدَيْ ... شَيْطَانِ مَـا يَلْقَـى مِـنَ الشَّـيْطَانِ؟

الشـرحُ

هذا أيضًا من المصائب، أنهم قالوا: إنَّ أهلَ السُّنَّةِ فِرْعَوْنِيَّة.

فمرة قالوا: يُشْبِهونَ اليهودَ، ومرة قالوا: يُشْبِهونَ فرعون.

لماذا يُشْبِهُون فرعونَ؟ قالوا: لأنَّ أهلَ السُّنَّةَ أثبتوا أنَّ اللهَ فوق كُلِّ شيءٍ، وفرعونَ أثبت العلوَّ لله، فشابهوا فرعونَ من هَذَا الوجه، وعَمُوا عن أنَّ موسى هُوَ الَّذِي قال: إنَّ اللهَ في السَّماء؛ ولهذا قَالَ فرعونُ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر:٣٦-٣٧] فهل فرعونُ أثبت العلوَّ أو أنكره؟

الجَوَابُ: أنكره، ولكنَّه أمرَ وزيرَه (هامان) أن يبنيَ هَذَا الصَّرحَ إيهامًا لقومه؛ لأنه سوف يصعدُ عَلَى هَذَا الصَّرح، ويقول: بحثتُ فلم أجد، فيكون قد مَوَّه عَلَى قومه، فالجهمُ موافقٌ تمامًا لفرعون، هَذَا هُوَ الحقُّ.

قال المؤلف رحمه الله تعالى:

١٩٣٣- وَمِنَ العَجَائِبِ قَوْلُهُمْ: فِرْعَونُ مَذْ ... هَبُهُ العُلُوُّ وَذَاكَ فِي الْقُرْآنِ

قالوا: إنَّ فرعونَ مذهبُه إثباتُ العلوِّ لله، وذلك في الْقُرْآن، وهذه دعوى بدليلٍ لكنَّها باطلٌة، والاستدلالُ بها باطلٌ.

١٩٣٤- وَلِذَاكَ قَدْ طَلَبَ الصُّعُودَ إِلَيْهِ بِالصْ ... صَرْحِ الَّذِي قَدْ رَامَ مِنْ هَامَانِ

مَنْ الَّذِي طلب الصعودَ إليه؟ فرعونُ طلبَ الصعودَ إِلَى الله، وهذا يدلُّ -عَلَى زعمهم- أنه يُقِرُّ بأنَّ اللهَ في السَّماء.

١٩٣٥- هَذَا رَأَيْنَاهُ بِكُتْبِهِمُ وَمِنْ ... أَفْوَاهِهِمْ سَمْعًا إِلَى الآذَانِ

١٩٣٦- فَاسْمَعْ إِذَنْ مَنْ ذَا الَّذِي أَوْلَى بِفِرْ ... عَونَ الْمُعَطِّلِ جَاحِدِ الرَّحْمَنِ

أيُّهما أولى بفرعون هل هم أهل السُّنَّة المثبتون للعلوِّ أم هم هؤلاء المنكرون لعلوِّ الله؟!

١٩٣٧- وَانْظُرْ إِلَى مَنْ قَالَ: مُوسَى كَاذِبٌ ... حِينَ ادَّعَى فَوْقِيَّةَ الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «مَنْ قَالَ مُوسَى كَاذِبٌ» مَن الَّذِي قاله؟ الجواب: فرعون.

ففرعونُ قَالَ لموسى: إنه كاذبٌ أنَّ اللهَ في السَّماء؛ لأنَّ فرعونَ يُنكرُ وجودَ الله نهائيًّا، ويقول لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:٣٨] لا فوق ولا في غير فوق.

فإذن هل أهلُ السُّنَّةِ أولى بفرعونَ أم هؤلاء المعطِّلة؟ الجواب: هؤلاء المعطِّلةُ، لكنَّهم يقلبون الحقائقَ تلبيسًا وترويجًا، نسألُ اللهَ العافيةَ.

١٩٣٨- فَمِـنَ المَصَـائِبِ أَنَّ فِرْعَـوْنِيَّكُمْ ... أَضْـحَى يُكَفِّـرُ صَـاحِبَ الإِيـمَانِ

يقول: مَنْ قال: إنَّ اللهَ في السَّماء فهو كافرٌ، هَذَا كلامُ أهلِ التعطيل.

١٩٣٩- وَيَقُـولُ: ذَاكَ مُبَـدِّلٌ لِلـدِّينِ سَـا ... عٍ بِالفَسَـادِ وَذَا مِـنَ البُهْتَـانِ

فرعونيُّهم يقولُ: إنَّ الَّذِي يقولُ: (إنَّ اللهَ فِي السَّماء) مُبَدِّلٌ للدين كما قَالَ فرعون: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾ [غافر:٢٦].

قَوْلُهُ: «سَاعٍ بِالفَسَادِ» كما قَالَ فرعون: ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦] وفي قراءة (أَوْ أَنْ يَظْهَرَ فِي الأَرْضِ الفَسَادُ)[١].

١٩٤٠- إِنَّ الـمُوَرِّثَ ذَا لَـهُمْ فِرْعَونُ حِيـ ... ـنَ رَمَى بِهِ الـمَوْلُودَ مِنْ عِمْـرَانِ

١٩٤١- فَهُوَ الإِمَـامُ لَـهُمْ وَهَـادِيهِمْ وَمَتْـ ... ـبُوعٌ يَقُـودُهُمُ إِلَى النِّـيرَانِ

قَوْلُهُ: «إِنَّ المُوَرِّثَ ذَا» يعني: إنكارَ العلوِّ.

قَوْلُهُ: «إِنَّ المُوَرِّثَ ذَا لَـهُمْ فِرْعَوْن» يعني: الَّذِي ورَّثهم إنكارَ العلوِّ هُوَ فرعون.

١٩٤٢- هُوَ أَنْكَرَ الوَصْفَيْنِ وَصْفَ الفَوْقِ وَالتْـ ... ـتَكْلِيمَ إِنْكَـارًا عَـلَى البُهْتَـانِ

قَوْلُهُ: «هُوَ أَنْكَر... وَصْف الفَوْق» فأنكر وصفَ الله بالعُلُوِّ؛ لأنه إنما قَالَ

(١) يقرأ بأو، وبالواو، وبضم الياء وفتحها، وبنصب (الفساد) ورفعه. انظر: الحجة في القراءات السبع (ص:٣١٣).

لهامان: ﴿ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾ [غافر:٣٦] من باب التهكُّم بموسى من وجه، ومن باب التضليل لقومه من وجهٍ آخر؛ لأنه سيقول: صعدتُ ولم أجد، فأنكر الفوقيَّةَ.

قَوْلُهُ: «والتَّكْلِيم» أي: وأنكر التَّكليمَ، كَيْفَ أنكر التَّكليمَ؟ لأنه أنكرَ رسالةَ موسى، ورسالةُ موسى ثبتت بالوحي، وَهُوَ تكليمُ الله.

ففرعونُ أنكر الفوقيَّةَ والتَّكليمَ، وهؤلاء المعطِّلةُ أنكروا الفوقيَّةَ والتَّكليمَ جميعًا.

١٩٤٣- إِذْ قَصْدُهُ إِنْكَارُ ذَاتِ الـرَّبِّ فَالتْــ ـــتَعْطِيلُ مِرْقَــاةٌ لِــذَا النُّكْــرَانِ

قصدُ فرعونَ إنكارُ ذاتِ الرَّبِّ، والتعطيلُ من هؤلاء المعطِّلةِ مرقاةٌ لذا النكران؛ لأنَّ هؤلاء المعطِّلة إذا حقَّقت مذهبَهم صارت نتيجتُه أن لا رَبَّ موجود، نسألُ اللهَ العافيةَ.

١٩٤٤- وَسِــوَاهُ جَــاءَ بِسُــلَّمٍ وَبِآلَــةٍ وَأَتَــى بِقَــانُونٍ عَــلَى بُنْيَــانِ

١٩٤٥- وَأَتَــى بِــذَاكَ مُفَكِّــرًا وَمُقَــدِّرًا وَرِثَ الوَلِيــدَ العَابِــدَ الأَوْثَــانِ

قَوْلُهُ: «سِوَاه» يريد بذلك: أهلَ التعطيل، أتوا بِسُلَّمٍ، وآلةٍ، وقانونٍ، والمراد به: قانون الكلام، إذا كان كَذَا لزم مِنْهُ كذا، إذا كان اللهُ فوقُ لزم أن يكونَ جسمًا، إذا كان جسمًا لزم أن يكونَ مماثلًا للمخلوق، وهَكَذَا.

فأتوا بقانون، وفرعون ما أتى بهذا القانون، ماذا صنع؟ أنكر رأسًا، قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص:٣٨] فهو أحسنُ سيرةً منهم؛ لأنه أصرحُ منهم، أمَّا هؤلاء فأتوا بِهَذِهِ القوانين يلعبون بها عَلَى الناس.

قَوْلُهُ: «وَرِثَ الوَلِيدَ العَابِدَ الأَوْثَانِ» مَنْ هُوَ الوليد؟ الوليد بن المغيرة الَّذِي

قَالَ الله عنه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ والنتيجةُ ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر:١٨-٢٥].

هؤلاء المتكلِّمون المعطِّلون صاروا يُفكِّرون، ويُقَدِّرون، ويأتون بقوانين، ويأتون بحججٍ واهية يدَّعونها عقليات وهي وَهْمِياتٌ وليست بحقيقة، فهم وَرِثُوا فرعونَ صاحبَ موسى، ووَرِثُوا الوليدَ أحدَ زعماء الكفر في هَذِهِ الأمة.

١٩٤٦- وَأَتَـى إِلَى التَّعْطِيـلِ مِـنْ أَبْوَابِـهِ ... لَا مِـنْ ظُهُـورِ الـدَّارِ وَالـجُدْرَانِ

أتى إِلَى التعطيل من أبوابه من أجل أن يَلِجَ التَّعطيلَ ولوجًا محكمًا؛ لأنَّ الَّذِي يأتي الشيءَ من بابه يدخلُه دخولًا محكمًا، أمَّا الَّذِي يأتي من ظهور البيوت يتسلَّقها تسلُّقًا فقد يسقطُ ويموتُ ولا يصلُ إِلَى مراده، لكن هؤلاء أتوا إِلَى التعطيل من أبوابه بما كَسَوْهُ من هَذِهِ الحجج الواهية التي قَالَ واصفها:

حُجَجٌ تَهَافَتُ كَالزُّجَاجِ تَخَالُـهَا ... حَقًّـا وَكُـلٌّ كَـاسِرٌ مَكْسُـورُ[1]

١٩٤٧- وَأَتَـى بِـهِ فِي قَالَـبِ التَّنْزِيـهِ وَالتْـ ... ـتَعْظِيمِ تَلْبِيسًـا عَـلَى العُمْيَـانِ

قال مثلًا: حاشا وكلَّا أن يكونَ اللهُ تعالى فوقُ، لماذا؟ قال: لو أثبتنا أنه فوقُ أثبتنا أنه جسمٌ، وإذا أثبتنا أنه جسمٌ أثبتنا أنه مُماثِلٌ للمخلوق، فحاشا ربِّنا من مماثلة المخلوق؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، إذا سمعها العامي و أشباهُ العوام صدَّق، وقال: هَذَا هُوَ الحقُّ: إنَّ الله مُنَزَّهٌ؛

(١) انظر: غاية الأماني في الرد على النبهاني (٢/ ٢٢٨).

ولهذا قال:

١٩٤٨- وَأَتَى إِلَى وَصْفِ العُلُوِّ فَقَالَ: ذَا التْـ ـتَجْسِيمُ لَـيسَ يَلِيـقُ بِـالرَّحْمَنِ

١٩٤٩- فَـاللَّفْظُ قَـدْ أَنْشَـاهُ مِـنْ تِلْقَائِـهِ وَكَسَاهُ وَصْـفَ الوَاحِـدِ الـمَنَّانِ

اللفظ الَّذِي هُوَ التَّنزيهُ قد أنشاه من تلقائه، ويجوز أن يكونَ المرادُ باللفظ: (التَّجسيم) وأنه كساه وصف الواحد المنان من أجل أن يُرَتِّبَ عَلَى ذلك إنكارَ العلوِّ.

١٩٥٠- وَالنَّاسُ كُلُّهُمُ صَبِيُّ العَقْلِ لَـمْ يَبْلُـغْ وَلَـوْ كـانُوا مِـنَ الشِّـيخَانِ

هذا الوصفُ للناس مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦] فالناسُ كُلُّهم صبيُّ العقل وإن كان من الشيخان جمع (شيوخ)، حتَّى لو كانوا شيوخًا فعقولُهم عقولُ الصبيان.

١٩٥١- إِلَّا أُنَاسًـا سَـلَّمُوا لِلْـوَحْيِ هُـمْ أَهْـلُ البُلُـوغِ وَأَعْقَـلُ الإِنْسَـانِ

فالذين سَلَّموا للوحي هم العقلاءُ، وهم أهلُ البلوغ.

١٩٥٢- فَـأَتَى إِلَى الصِّـبْيَانِ فَانْقَـادُوا لَـهُ كَالشَّـاءِ إِذْ تَنْقَـادُ لِلْجُوبَـانِ

قَوْلُهُ: «أَتَى إِلَى الصِّبْيَانِ» أي: صبيان العقول فانقادوا له كالشاة إذ تنقاد للجوبان أي: للراعي، فالغنمُ تنقادُ للراعي وَهُوَ يقودُها إِلَى المَنْحر بل إِلَى المذبح، ولا تدري، وهؤلاء مثلُهم.

١٩٥٣- فَـانْظُرْ إِلَى عَقْـلٍ صَـغِيرٍ فِي يَـدَيْ شَيْطَانِ مَـا يَلْقَـى مِـنَ الشَّـيْطَانِ؟

عقلٌ صغيرٌ بين يدي شيطان ماذا يلقى؟ الجواب: يلقى كُلَّ شَرٍّ ولَا شَكَّ.

فصـــل

فِي بَيَانِ تَدْلِيسِهِمْ، وَتَلْبِيسِهِمُ الحَقَّ بِالبَاطِلِ

١٩٥٤- قَالُوا: إِذَا قَالَ الـمُجَسِّمُ: رَبُّنَا ... حَقًّا عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى بِلِسَانِ
١٩٥٥- فَسَلُوهُ كَمْ لِلْعَرْشِ مَعْنًى وَاسْتَوَى ... أَيْضًا لَهُ فِي الوَضْعِ خَمْسُ مَعَانِي؟
١٩٥٦- وَ«عَلَى» فَكَمْ مَعْنًى لَهَا أَيْضًا لَدَى ... عَمْرٍو؟ فَذَاكَ إِمَامُ هَذَا الشَّانِ
١٩٥٧- بَيِّنْ لَنَا تِلْكَ المَعَانِيَ والَّذِي ... مِنْهَا أُرِيدَ بِوَاضِحِ التِّبْيَانِ
١٩٥٨- فَاسْمَعْ فَذَاكَ مُعَطِّلٌ هَذِي الجَعَا ... جِعَ مَا الَّذِي فِيهَا مِنَ الهَذَيَانِ؟
١٩٥٩- قُلْ لِلْمُجَعْجِعِ: وَيْحَكَ اعْقِلْ ذَا الَّذِي ... قَدْ قُلْتَهُ إِنْ كُنْتَ ذَا عِرْفَانِ
١٩٦٠- العَرْشُ عَرْشُ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ ... وَاللَّامُ لِلْمَعْهُودِ فِي الأَذْهَانِ
١٩٦١- مَا فِيهِ إِجْمَالٌ وَلَا هُوَ مُوهِمٌ ... نَقْلَ المَجَازِ وَلَا لَهُ وَضْعَانِ
١٩٦٢- وَمُحَمَّدٌ وَالأَنْبِيَاءُ جَمِيعُهُمْ ... شَهِدُوا بِهِ لِلْخَالِقِ الرَّحْمَنِ
١٩٦٣- مِنْهُمْ عَرَفْنَاهُ وَهُمْ عَرَفُوهُ مِنْ ... رَبٍّ عَلَيْهِ قَدِ اسْتَوَى دَيَّانِ
١٩٦٤- لَمْ تَفْهَمِ الأَذْهَانُ مِنْهُ سَرِيرَ بِلْـ ... ـقِيسٍ وَلَا بَيْتًا عَلَى الأَرْكَانِ
١٩٦٥- كَلَّا وَلَا عَرْشًا عَلَى بَحْرٍ وَلَا ... عَرْشًا لِجِبْرِيلٍ بِلَا بُنْيَانِ
١٩٦٦- كَلَّا وَلَا العَرْشَ الَّذِي إِنْ ثُلَّ مِنْ ... عَبْدٍ هَوَى تَحْتَ الحَضِيضِ الدَّانِي

١٩٦٧- كَلَّا وَلَا عَرْشَ الكُرُومِ وَهَـذِه الْـ ... أَعْنَـابِ فِي حَـرْثٍ وَفِي بُسْـتَانِ

١٩٦٨- لَكِنَّهَـا فَهِمَـتْ بِحَمْـدِ الله عَـرْ ... شَ الرَّبِّ فَوْقَ جَمِيعِ ذِي الأَكْـوَانِ

١٩٦٩- وَعَلَيْهِ رَبُّ العَالَـمِينَ قَـدِ اسْـتَوَى ... حَقًّـا كَـمَا قَـدْ جَـاءَ فِي الْقُـرْآنِ

١٩٧٠- وَكَذَا اسْتَوَى المَوْصُولُ بِالحَرْفِ الَّذِي ... ظَهَـرَ الـمُرَادُ بِـهِ ظُهُـورَ بَيَـانِ

١٩٧١- لَا فِيـهِ إِجْمَـالٌ وَلَا هُـوَ مُفْهِـمٌ ... لِلإِشْـتِرَاكِ وَلَا مَجَـازٍ ثَانِـي

١٩٧٢- تَرْكِيبُهُ مَعَ حَرْفِ الِاسْتِعْلَاءِ نَصْ ... صٌ فِي العُلُـوِّ بِوَضْـعِ كُـلِّ لِسَـانِ

١٩٧٣- فَإِذَا تَرَكَّبَ مَعْ «إِلَى» فَالْقَصْدُ مَعْ ... مَعْنَـى العُلُـوِّ لِوَضْـعِهِ بِبَيَـانِ

١٩٧٤- وَإِلَى السَّـمَاءِ قَـدِ اسْـتَوَى فَمُقَيَّـدٌ ... بِـتَمَامِ صَـنْعَتِهَا مَـعَ الإِتْقَـانِ

١٩٧٥- لَكِنْ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى هُوَ مُطْلَقٌ ... مِـنْ بَعْـدِهَا قَـدْ تَـمَّ بِالأَرْكَـانِ

١٩٧٦- لَكِـنَّمَا الـجَهْمِيُّ يَقْصُـرُ فَهْمُـهُ ... عَـنْ ذَا فَتِلْـكَ مَوَاهِـبُ الـمَنَّانِ

١٩٧٧- فَإِذَا اقْتَضَى وَاوَ الـمَعِيَّةِ كَـانَ مَعْـ ... ـنَاهُ اسْـتَوَى مُتَقَـدِّمٌ وَالثَّانِـي

١٩٧٨- فَإِذَا أَتَى مِنْ غَيْرِ حَرْفٍ كَـانَ مَعْـ ... ـنَاهُ الكَـمَالَ فَلَـيْسَ ذَا نُقْصَـانِ

١٩٧٩- لَا تَلْبِسُوا بِالبَاطِـلِ الـحَقَّ الَّـذِي ... قَـدْ بَـيَّنَ الـرَّحْمَنُ فِي الفُرْقَـانِ

١٩٨٠- وَ«عَلَى» لِلاسْـتِعْلَاءِ فَهْـيَ حَقِيقَـةٌ ... فِيـهِ لَـدَى أَرْبَـابِ هَـذَا الشَّـانِ

١٩٨١- وَكَـذَلِكَ «الـرَّحْمَنُ» جَـلَّ جَلَالُـهُ ... لَـمْ يَحْتَمِلْ مَعْنًـى سِـوَى الـرَّحْمَنِ

١٩٨٢- يَا وَيْحَهُ بِعَمَاهُ لَـوْ وَجَـدَ اسْـمَهُ الـرْ ... رَحْمَـنَ مُحْـتَمِلًا لِـخَمْسِ مَعَانِـي

١٩٨٣- لَقَضَى بِأَنَّ اللَّفْظَ لَا مَعْنَى لَهُ إِلَّا التِّلَاوَةُ عِنْدَنَا بِلِسَانِ
١٩٨٤- فَلِذَاكَ قَالَ أَئِمَّةُ الإِسْلَامِ فِي مَعْنَاهُ مَا قَدْ سَاءَكُمْ بِبَيَانِ
١٩٨٥- وَلَقَدْ أَحَلْنَاكُمْ عَلَى كُتُبٍ لَهُمْ هِيَ عِنْدَنَا -وَاللهِ- بِالْكِيمَانِ

الشَّرحُ

ذكر المؤلفُ -رحمه الله تعالى- في هَذَا الفصل تلبيسَ أهلِ التعطيل في مسألة (الإِسْتِوَاء).

١٩٥٤- قَالُوا: إِذَا قَالَ الـمُجَسِّمُ: رَبُّنَا حَقًّا عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى بِلِسَانِ

من هُوَ المجُسِّمُ؟ الجواب: هُوَ الَّذِي يُثبتُ العلوَّ حقيقةً، بل هُوَ الَّذِي يُثبتُ الإِسْتِوَاءَ عَلَى العرش حقيقةً؛ ولهذا يُسَمُّون أهلَ السُّنَّة المُجَسِّمَة.

١٩٥٥- فَسَلُوهُ كَمْ لِلْعَرْشِ مَعْنًى وَاسْتَوَى أَيضًا لَهُ فِي الوَضْعِ خَمْسُ مَعَانِي؟
١٩٥٦- وَ«عَلَى» فَكَمْ مَعْنًى لَهَا أَيضًا لَدَى عَمْرٍو؟ فَذَاكَ إِمَامُ هَذَا الشَّانِ

إذا قال: ربُّنَا حقًّا عَلَى العرش اسْتَوَى فسلوه عن هَذِهِ الأشياء، اسألوه عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] اسألوه كم لـ(لعرش) من معنى؟ اسألوه كم لـ(الإِسْتِوَاء) من معنى؟ اسألوه كم لـ(عَلَى) من معنى؟

والغرضُ من هَذَا السؤال أنه إذا ثبتت المعاني صار اللفظُ محتملًا، واللفظُ المحتملُ يَسقطُ الاستدلالُ به، والقاعدةُ المشهورةُ: (**إذا وُجِدَ الاحتمالُ بطلَ الاستدلالُ**).

قَوْلُهُ: «**لَدَى عَمرٍو**» وَهُوَ سيبويه.

فـ (على) لها معانٍ، و(اسْتَوَى) لها معانٍ، و(العرش) له معانٍ، فاسألوه: أيُّ المعاني يُرَادُ؟

١٩٥٧- بَيِّنْ لَنَا تِلْكَ الْمَعَانِيَ والَّذِي مِنْهَا أُرِيدَ بِوَاضِحِ التِّبْيَانِ

قَوْلُهُ: «بَيِّنْ لَنَا تِلْكَ المَعَانِيَ...» يقول هَذَا تحدِّيًا، وليس استفهامًا واستخبارًا، لكن يريدون أن يَتَحدّوا هذا، يقول ابنُ القيِّم:

١٩٥٨- فَاسْمَعْ فَذَاكَ مُعَطِّلٌ هَذِي الجَعَا جِعَ مَا الَّذِي فِيهَا مِنَ الهَذَيَانِ؟

قَوْلُهُ: «الجَعَاجِع» الأصواتُ غيرُ المعلومة.

قَوْلُهُ: «ما الَّذِي فِيهَا مِنَ الهَذَيَانِ؟» الهذيان: كلامُ الرجلِ المُخَرِّف الَّذِي ليس له ضابطٌ ولا معنى.

١٩٥٩- قُلْ لِلْمُجَعْجِعِ: وَيْحَكَ اعْقِلْ ذَا الَّذِي قَدْ قُلْتَهُ إِنْ كُنْتَ ذَا عِرْفَانِ

وهذا تهكُّمٌ به، يعني: إن كنتَ صادقًا وتعرف فاعقلْ ما تقولُ.

١٩٦٠- العَرْشُ عَرْشُ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَاللَّامُ لِلْمَعْهُودِ فِي الأَذْهَانِ

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] كلٌّ يعرف أنَّ المرادَ بالعرشِ عرشُ الله، وَهُوَ العرشُ المجيدُ، هل فيه إجمالٌ؟

الجواب: أبدًا، ليس فيه إجمالٌ، ولا إيهامٌ، ولا اشتراكٌ، ولا مجازٌ، ولا شيءٌ أبدًا، فاللام يقول: (للمعهود فِي الأذهان).

١٩٦١- مَا فيه إِجْمَالٌ وَلَا هُوَ مُوهِمٌ نَقْلَ المَجَازِ وَلَا لَهُ وَضْعَانِ

قَوْلُهُ: «مَا فيه إِجْمَالٌ» يعني: أنه واضحُ المعنى.

قَوْلُهُ: «وَلَا هُوَ مُوهِمٌ نَقْلَ المَجَازِ» يعني: ليس فيه مجازٌ؛ لأنه حقيقة.

قَوْلُهُ: «وَلَا لَهُ وَضْعَانِ» أي: مُشْتَرَك، يعني: أنه بإضافته إِلَى الله ليس مشتركًا يصلحُ لهذا وهذا.

١٩٦٢- وَمُحَمَّدٌ وَالأَنْبِيَاءُ جَمِيعُهُمْ شَهِدُوا بِهِ لِلْخَالِقِ الرَّحْمَنِ

فكُلُّ الأنبياءِ جاؤوا بأنَّ اللهَ اسْتَوَى عَلَى العرش، وقد سبق أنَّ عبدَ القادر الجيلانِيَّ -رحمه الله[1]- قال: إنه مذكورٌ في كُلِّ كتابٍ أنزله اللهُ عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ.

١٩٦٣- مِنْهُمْ عَرَفْنَاهُ وَهُمْ عَرَفُوهُ مِنْ رَبٍّ عَلَيْهِ قَدِ اسْتَوَى دَيَّانِ

نحن عرفناه من الأنبياءِ، والأنبياءُ عرفوه من الله، وفي هَذَا إشارةٌ إِلَى أنَّ دلالةَ الِاسْتِوَاءِ دلالةٌ سمعيَّةٌ محضةٌ بخلاف العلوِّ فإنَّ دلالتَه سمعيَّةٌ عقليَّةٌ فطريَّةٌ، أمَّا الِاسْتِوَاءُ فدلالتُهُ سمعيَّةٌ، ما عرفناه إِلَّا عن الأنبياءِ، والأنبياء عرفوه عن الله عزَّ وجلَّ.

١٩٦٤- لَمْ تَفْهَمِ الأَذْهَانُ مِنْهُ سَرِيرَ بِلْـ ـقِيسٍ وَلَا بَيْتًا عَلَى الأَرْكَانِ

قَوْلُهُ: «لَمْ تَفْهَمِ الأَذْهَانُ مِنْهُ سَرِيرَ بِلْقِيسٍ» المعطِّلُ يقولُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] يعني: عَلَى عرش بلقيس التي قَالَ الله عنه: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣] هل أحدٌ يفهمُ هذا؟ الجواب: أبدًا.

قَوْلُهُ: «وَلَا بَيْتًا عَلَى الأَرْكَانِ» العرشُ يُطْلَقُ عَلَى السَّقفِ، عَلَى الأعمدة، هل يَفهمُ الناسُ من قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] أنه اسْتَوَى عَلَى سقفٍ، عَلَى أعمدة؟ الجواب: أبدًا، لا يفهمون ذلك.

---

(١) تقدمت ترجمته في التعليق على البيت رقم (١٣٠٩).

١٩٦٥- كَـلَّا وَلَا عَرْشًـا عَـلَى بَحْـرٍ وَلَا   عَرْشًـا لِـجِبْرِيلٍ بِـلَا بُنْيَـانِ

قَوْلُهُ: «كَلَّا وَلَا عَرْشًا عَلَى بَحْرٍ» العرشُ عَلَى البحر هَذَا عرشُ الشَّيطان، فالشَّيطانُ ينصبُ عرشَه عَلَى البحر، ويرسلُ جنودَه لإضلال الناس، فهل أحدٌ يفهمُ أنَّ المرادَ بالعرش الَّذِي اسْتَوَى عليه الرحمنُ هُوَ عرشُ الشَّيطان الَّذِي عَلَى البحر؟ الجواب: كلَّا.

قَوْلُهُ: «وَلَا عَرْشًا لِجِبْرِيلٍ بِلَا بُنْيَانِ» أيضًا لا يفهمون مِنْهُ عرش جبريل، وذلك أنَّ جبريلَ -عليه الصلاة والسلام- لـمَّا تأخَّر الوحيُ عن النَّبِيِّ -عليه الصلاة والسلام- أول ما نزل عليه، سَمِعَ صوتًا فرفع رأسَه فإذا هُوَ جبريلُ عَلَى كرسيٍّ بين السَّماء والأرض، هَذَا عرشُ جبريل.

١٩٦٦- كَلَّا وَلَا العَرْشَ الَّذِي إِنْ ثُـلَّ مِـنْ   عَبْدٍ هَوَى تَحْتَ الحَضِيضِ الدَّانِـي

قَوْلُهُ: «ثُلَّ» يعني: هُدِمَ.

قَوْلُهُ: «مِنْ عَبْدٍ هَوَى تَحْتَ الحَضِيضِ الدَّانِي» من هُوَ عرشُه هذا؟ الجواب: عرشُ السُّلطان، فالمَلِكُ له عرشٌ، لكن لو جَاءَ واحدٌ من تحته يجرُّه سقط.

هل يفهمُ الناسُ أنَّ قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] أنه اسْتَوَى عَلَى عرش السُّلطان؟

١٩٦٧- كَلَّا وَلَا عَرْشَ الكُرُومِ وَهَـذِه الْـ   أَعْنَـابِ فِي حَـرْثٍ وَفِي بُسْـتَانِ

ما فهموا أنه اسْتَوَى عَلَى عرش الكروم (**الأعناب**) أبدًا.

إِذَنْ هَذِهِ الأسماء للعرش كُلُّها لا يمكنُ أن تُفْهَمَ من قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] إِذَنْ ترديدُهم لهذا الكلام، وقولُهم: (**العرشُ**) يحتملُ معانيَ

كثيرةً باطلٌ؛ لأنَّ كُلَّ هَذِهِ المعاني التي يذكرونها لا تُفْهَمُ من قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥].

١٩٦٨- لَكِنَّهَا فَهِمَتْ بِحَمْدِ اللهِ عَرْ ... شَ الرَّبِّ فَوْقَ جَمِيعِ ذِي الأَكْوَانِ

١٩٦٩- وَعَلَيْهِ رَبُّ العَالَمِينَ قَدِ اسْتَوَى ... حَقًّا كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «لَكِنَّهَا فَهِمَتْ بِحَمْدِ اللهِ» هَذَا معطوف عَلَى قوله: «لَمْ تَفْهَمُ الأَذْهَانُ».

انتهينا الآن من العرش وتشكيكهم في معناه، وتَبَيَّنَ لَنَا أنَّ ما ذكروا من المعاني لا يَرِدُ عَلَى قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] وأشباهها؛ لأنَّ العرشَ هنا المرادُ به العرشُ المعهودُ، وَهُوَ عرشُ الله عزَّ وجلَّ.

بقي لنا: (اسْتَوَى)، فـ(اسْتَوَى) لها عدة معانٍ، فإذن تبقى مُجْمَلَةً، لا يُعْرَفُ المقصودُ منها، فيقول -رحمه الله-:

١٩٧٠- وَكَذَا اسْتَوَى المَوْصُولُ بِالحَرْفِ الَّذِي ... ظَهَرَ المُرَادُ بِهِ ظُهُورَ بَيَانِ

قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف:٥٤] (اسْتَوَى) مقيَّدٌ بحرف يُعْرَفُ معناه به، فمعنى (اسْتَوَى عَلَى الشيء) يعني: علا عليه، وهذا واضحٌ، لا يحتملُ سواه؛ ولهذا قال:

١٩٧١- لَا فِيهِ إِجْمَالٌ وَلَا هُوَ مُفْهِمٌ ... لِلإِشْتِرَاكِ وَلَا مَجَازٍ ثَانِي

هذه الثلاثةُ نفاها بالأوَّل بالنسبة لـ(العرش)، ونفاها بالثاني بالنسبة لـ(اسْتَوَى) ليس فيه إجمالٌ حتىَّ يكون موهمًا، ولا فيه اشتراكٌ يعني: أنه موضوع لمعنيين عَلَى السَّواء، ولا فيه مجازٌ، بل هُوَ حقيقةٌ في سياقِه.

١٩٧٢- تَرْكِيبُهُ مَعَ حَرْفِ الِاسْتِعْلَاءِ نَصْ ... صٌ فِي العُلُوِّ بِوَضْعِ كُلِّ لِسَانِ

قَوْلُهُ: «تَرْكِيبه» يعني: (اسْتَوَى).

قَوْلُهُ: «مَعَ حَرْفِ الِاسْتِعْلَاءِ» وَهُوَ (على).

قَوْلُهُ: «نَصٌّ فِي العُلُوِّ بِوَضْعِ كُلِّ لِسَانِ» فإذا قيل: (اسْتَوَى عَلَى كذا) يعني: علا عليه، فلا أحدَ يُشْكِلُ عليه هَذَا الشيءُ.

بقي علينا أنه قد يتركَّبُ مع غير (على)، قَالَ -رحمه الله-:

١٩٧٣- فَإِذَا تَرَكَّبَ مَعْ «إِلَى» فَالْقَصْدُ مَعْ ... مَعْنَى العُلُوِّ لِوَضْعِهِ بِبَيَانِ

إذا قيل: «اسْتَوَى إِلَى كذا» صار معناه: قصد إِلَى كذا، مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:١١] معناه: قصد إِلَى السَّماء، لكن قَصَدَ بإرادةٍ كاملةٍ مع علوٍّ، ولا يمكنُ أن نقولَ: (اسْتَوَى) هنا بمعنى ارتفع؛ لأنَّ (إلى) للغاية، فإذا قلنا: (ارتفع إِلَى السَّماء) لزم أن يكونَ في الأوَّل سافلًا تحت السَّماء، وهذا غيرُ مرادٍ قطعًا؛ ولهذا فسَّرها ابنُ كثيرٍ بأنَّ المرادَ بها (قَصَدَ إِلَى السَّمَاءِ)، وليس المعنى (علا إِلَى السَّماء)؛ لأنَّ هناك فرقًا بين (اسْتَوَى عَلَى السَّماء) وبين (اسْتَوَى إِلَى السَّماء).

١٩٧٤- وَإِلَى السَّمَاءِ قَدِ اسْتَوَى فَمُقَيَّدٌ ... بِتَمَامِ صَنْعَتِهَا مَعَ الإِتْقَانِ

قَوْلُهُ: «وَإِلَى السَّمَاءِ قَدِ اسْتَوَى» قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ﴾ [البقرة:٢٩] وهذا واضحٌ بأنَّ المرادَ قصد إِلَيْهَا ليسويها ويُحسِّنَها، قال -سبحانه وتعالى-: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت:١١] من أجل إتمامِها، لكن ما قال: (اسْتَوَى إِلَى العرش) ليتمَّه، فالعرشُ تامٌّ

من قبل، ثُمَّ اسْتَوَى عليه بعد تمامه، بخلاف استوائه إِلَى السَّماء، فإنه من أجل إتمامِها كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٩]؛ ولهذا قال:

١٩٧٥- لَكِنْ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى هُوَ مُطْلَقٌ ... مِنْ بَعْدِهَا قَدْ تَمَّ بِالأَرْكَانِ

ففرقٌ بين (اسْتَوَى إِلَى السَّماء)، و(اسْتَوَى عَلَى العرش).

١٩٧٦- لَكِنَّمَا الجَهْمِيُّ يَقْصُرُ فَهْمُهُ ... عَنْ ذَا فَتِلْكَ مَوَاهِبُ المَنَّانِ

الجهميُّ يقصرُ فهمُه عن التفريق بين (على) وبين (إلى)، ومواهبُ المَنَّان عزَّ وجلَّ تختلفُ من شخصٍ لآخر، فمن الناسِ مَنْ يهبهُ اللهُ عزَّ وجلَّ فهمًا وعلمًا، ومن الناس من لا يهبُه فهمًا ولا علمًا، ومن الناس من يهبه علمًا بلا فهمٍ، ومن الناس من يهبُه فهمًا بلا علمٍ.

١٩٧٧- فَإِذَا اقْتَضَى وَاوَ المَعِيَّةِ كَانَ مَعْـ ... ـنَاهُ اسْتَوَى مُتَقَدِّمٌ والثَّانِي

قَوْلُهُ: «فَإِذَا اقْتَضَى وَاوَ المَعِيَّةِ» يعني: إذا اقترنَ بها، كان معناه **(اسْتَوَى متقدمٌ والثاني)** كقولهم: (اسْتَوَى الماءُ والخشبةَ) يعني: أنَّ الماءَ حاذى الخشبةَ، فمعنى **(الِاسْتِوَاء)** هنا: التساوي؛ ولهذا قال: **(كان معناه اسْتَوَى متقدمٌ والثاني)**.

ففي قولنا: (اسْتَوَى الماءُ والخشبةَ) أين المُتَقَدِّم؟ المُتَقَدِّمُ: الماءُ، معناه: أنه تساوى ما قبل **(الواو)** وما بعدها.

إِذَنْ إذا أتت **(اسْتَوَى)** مقرونة بـ**(على)** فمعناها العلوُّ، وإذا أتت مقرونة بـ**(إلى)** فمعناها القصدُ، وإذا أتت مقرونة بواو المعيَّة فالمعنى المحاذاة والمساواة.

الرابعُ: قَالَ -رحمه الله-:

١٩٧٨- فَإِذَا أَتَى مِنْ غَيْرِ حَرْفٍ كَانَ مَعْـ ـنَاهُ الكَمَالَ فَلَيْسَ ذَا نُقْصَانِ

مثل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤] هَذَا لم يُقَيَّدْ بشيء، فمعناه (كَمُلَ).

فصارت (اسْتَوَى) تُسْتَعْمَلُ في اللغة العربية عَلَى أربعة وجوه:

مقرونة بـ(على)، و(إلى)، مقرونة بواو المعيَّة، مجردة لم تقترن بشيء، وكُلُّ واحدةٍ يُعْرَفُ معناها بما اقترن بها.

١٩٧٩- لَا تَلْبِسُوا بِالبَاطِلِ الحَقَّ الَّذِي قَدْ بَيَّنَ الرَّحْمَنُ فِي الفُرْقَانِ

انتهى الآن من الكلام عَلَى (العرش) وعلى (اسْتَوَى).

بقي عندنا (على) فقال -رحمه الله-:

١٩٨٠- وَ«عَلَى» لِلاسْتِعْلَاءِ فَهْيَ حَقِيقَةٌ فِيهِ لَدَى أَرْبَابِ هَذَا الشَّانِ

«على» الأصلُ فيها أنها للاستعلاء، كما قَالَ ابنُ مالكٍ في الألفيَّة: (عَلَى لِلاِسْتِعْلَاءِ) فهي دائمًا للاستعلاء.

فإذا قيل: (اسْتَوَى عَلَى كذا) يعني: علا عليه، و(اطَّلَع عَلَى كذا) يعني: علا عليه باطِّلاعه، و(ركب عَلَى كذا) يعني: علا عليه، فهي تدلُّ عَلَى العلوِّ، هَذَا هُوَ الأصلُ فيها.

قَوْلُهُ: «لَدَى أَرْبَابِ هَذَا الشَّانِ» والأوَّل: الجهميُّ يقول: (عند عمروٍ) أي: عند سيبويه، كأنَّ ابنَ القيِّم يقولُ: أنت إذا نقلتَ عن عالم من علماء النحو، فأنا

أنقلُ عن جميع علماء النحو؛ ولهذا قال: (**لدى أرباب هَذَا الشان**) يعني: بالإجماع.

١٩٨١- وَكَـذَلِكَ «الـرَّحْمَنُ» جَـلَّ جَلَالُـهُ   لَـمْ يَحْتَمِلْ مَعْنًـى سِـوَى الـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَلِكَ الرَّحْمَنُ جَلَّ جَلَالُهُ» وَهُوَ الرابعُ: (**الرحمن**) هل يحتملُ معنًى سوى الرَّبِّ عزَّ وجلَّ؟ ولهذا قال: (**لم يحتمل معنًى سوى الرحمن**) فأين الإجمالُ، وأين الاشتراك، وأين الإيهام في قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾؟ [طه:٥] الجواب: لا يوجد شيءٌ لا في (**اسْتَوَى**) ولا في (**على**) ولا في (**العرش**) ولا في (**الرحمن**).

١٩٨٢- يَا وَيْحَهُ بِعَمَاهُ لَـوْ وَجَـدَ اسْـمَهُ الـرْ   رَحْمَـنَ مُحْـتَمِلًا لِـخَمْسِ مَعَانِـي

١٩٨٣- لَقَضَـى بِـأَنَّ اللَّفْـظَ لَا مَعْنَـى لَـهُ   إِلَّا الـتِّلَاوَةُ عِنْـدَنَا بِلِسَـانِ

لو قال: (الرحمن) -والله- يحتملُ خمسةَ معانٍ ماذا يصيرُ؟ يقول: (**يا ويحه**) يعني: يصيرُ مشركًا، فالرحمنُ لا يحتملُ إلَّا معنًى واحدًا، وَهُوَ ربُّ العزَّة -جلَّ وعلا-، ولذلك لا يُسَمَّى به غيرُه أبدًا، ولا يُوصَفُ به غيرُه، فلا يجوزُ أن تقولَ عن أيِّ شخصٍ: «إنه رحمنٌ» حتَّى النَّبِيِّ -عليه الصلاة والسلام- لا يصحُّ أن تقولَ: إنه بالمؤمنين رحمنٌ، بل قل: رحيمٌ؛ ولهذا نقولَ: (اللهُ) و(الرحمنُ) اسمان خاصَّان بالله لا يُسَمَّى بهما غيرُه أبدًا.

١٩٨٤- فَلِـذَاكَ قَـالَ أَئِمَّـةُ الإِسْـلَامِ فِي   مَعْنَـاهُ مَـا قَـدْ سَـاءَكُمْ بِبَـيَانِ

١٩٨٥- وَلَقَدْ أَحَلْنَـاكُمْ عَـلَى كُتُـبٍ لَـهُمْ   هِـيَ عِنْـدَنَا -وَاللهِ- بِـالْكِيمَانِ

قَوْلُهُ: «فَلِذَاكَ قَالَ أَئِمَّةُ الإِسْلَامِ فِي مَعْنَاهُ» أي: في معنى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] قالوا ما قد ساءكم.

قَوْلُهُ: «**الكِيمَان**» جمع (أكوام)، والأكوامُ جمعُ كومةٍ وهي الشيءُ المجتمعُ؛ ولهذا إذا أراد الناسُ أن يقولوا عن الشيء: إنه كثيرٌ، قالوا: عندنا كومةٌ من الإبل، كومةٌ من الغنم، كومةٌ من الطعام، فالكيمان هنا (فِعْلَان) جمعُ (أكوام)، وأكوامٌ جمعُ كومة.

* * *

فصــل

فِي بَيَانِ سَبَبِ غَلَطِهِمْ فِي الأَلْفَاظِ، وَالحُكْمِ عَلَيْهَا بِاحْتِمَالِ عِدَّةِ مَعَانٍ؛ حَتَّى أَسْقَطُوا الاسْتِدْلالَ بِهَا

١٩٨٦- وَاللَّفْظُ مِنْهُ مُفْرَدٌ وَمُرَكَّبٌ ... فِي الإِعْتِبَارِ فَمَا هُمَا سِيَّانِ

١٩٨٧- وَاللَّفْظُ فِي التَّرْكِيبِ نَصٌّ فِي الَّذِي ... قَصَدَ المُخَاطِبُ مِنْهُ فِي التِّبْيَانِ

١٩٨٨- أَوْ ظَاهِرٌ فِيهِ وَذَا مِنْ حَيْثُ نِسْـ ... ـبَتُهُ إِلَى الأَفْهَامِ وَالأَذْهَانِ

١٩٨٩- فَيَكُونُ نَصًّا عِنْدَ طَائِفَةٍ وَعِنْـ ... ـدَ سِوَاهُمُ هُوَ ظَاهِرُ التِّبْيَانِ

١٩٩٠- وَلَدَى سِوَاهُمْ مُجْمَلٌ لَمْ يَتَّضِحْ ... لَهُمُ المُرَادُ بِهِ اتِّضَاحَ بَيَانِ

١٩٩١- فَالأَوَّلُونَ لِإِلْفِهِمْ ذَاكَ الخِطَا ... بَ وَإِلْفِهِمْ مَعْنَاهُ طُولَ زَمَانِ

١٩٩٢- طَالَ المِرَاسُ لَهُمْ لِمَعْنَاهُ كَمَا اشْـ ... ـتَدَّتْ عِنَايَتُهُمْ بِذَاكَ الشَّانِ

١٩٩٣- والعِلْمُ مِنْهُمْ بِالمُخَاطِبِ إِذْ هُمُ ... أَوْلَى بِهِ مِنْ سَائِرِ الإِنْسَانِ

١٩٩٤- وَلَهُمْ أَتَمُّ عِنَايَةٍ بِكَلَامِهِ ... وَقُصُودِهِ مَعَ صِحَّةِ العِرْفَانِ

١٩٩٥- فَخِطَابُهُ نَصٌّ لَدَيْهِمْ قَاطِعٌ ... فِيمَا أُرِيدَ بِهِ مِنَ التِّبْيَانِ

١٩٩٦- لَكِنَّ مَنْ هُوَ دُونَهُمْ فِي ذَاكَ لَمْ ... يَقْطَعْ بِقَطْعِهِمُ عَلَى البُرْهَانِ

١٩٩٧- وَيَقُولُ: يَظْهَرُ ذَا وَلَيْسَ بِقَاطِعٍ ... فِي ذِهْنِهِ لَا سَائِرِ الأَذْهَانِ

١٩٩٨- وَلِإِلْفِـهِ بِكَـلَامِ مَـنْ هُـوَ مُقْتَـدٍ بِكَلَامِـهِ مِـنْ عَالِـمِ الأَزْمَـانِ
١٩٩٩- هُـوَ قَـاطِعٌ بِمُـرَادِهِ وَكَلَامُـهُ نَـصٌّ لَدَيْـهِ وَاضِـحُ التِّبْيَـانِ

الشـرحُ

يقول المؤلفُ -رحمه الله- في بيان سببِ غلطِ هؤلاء الذين يَدَّعونَ أنَّ للفظ الواحد احتمالاتٍ كثيرةً من أجل أن يُبْطِلوا دلالتهَ عَلَى المراد؛ لأنَّ من القواعدِ المقرَّرةِ أنه عند الاحتمالِ يسقطُ الاستدلالُ، فإذا قالوا: هَذَا يحتملُ كذا، وهذا يحتملُ كَذَا وكذا وكذا، فأيُّ الوجوه تريدون؟ إذا قلت: نُريد كذا، قَالَ لك: من أين الدَّلِيلُ أنَّ المرادَ كَذَا دون الاحتمالات الأخرى؟ وحينئذٍ يسقطُ الاستدلالُ.

فالمؤلفُ -رحمه الله- يريدُ أن يُبيِّنَ السببَ، وأنه ليس كُلُّ لفظٍ يحتملُ معنًى في سياقٍ يكونُ محتملًا له في سياقٍ آخر، فاللفظُ قد يحتملُ معنًى في سياق من السِّياقات لكن لا يحتملُ هَذَا المعنى في سياقٍ آخر، بل يكونُ من القرائن الحاليَّة أو اللفظيَّة ما يمنعُ إرادةَ هَذَا المعنى بحسب القرينةِ الحاليَّة وسياقِ الكلام وتركيبِهِ؛ ولهذا قال:

١٩٨٦- وَاللَّفْـظُ مِنْـهُ مُفْـرَدٌ وَمُرَكَّـبٌ فِي الإِعْتِبَـارِ فَـمَا هُمَـا سِـيَّانِ

يعني: قد يكونُ للفظ معنى عند انفرادِه ومعنى آخرُ عند اقترانهِ في سياقٍ آخر، ومن أبرز الأمثلة عَلَى ذلك: (**القرية**)، فأحيانًا يكونُ المرادُ بها أهلَ القرية، وأحيانًا يكونُ المرادُ بها نفسَ القرية.

فإذا سمعتَ قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج:٤٥] فالمرادُ: أهلُ القرية، وإذا سمعتَ اللهَ يقول: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ

هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت:٣١] فالمرادُ: القريةُ نفسُها، وليس المرادُ هنا أهلَ القرية؛ لأنَّ (أهلَ) موجودةٌ مذكورةٌ، فالمرادُ نفسُ القرية، يعني: إنا مهلكو سَاكِني هَذِهِ القرية.

فتجد أنَّ الكلمةَ الواحدةَ صار لها معنًى قاطعٌ في سياقٍ، ومعنًى قاطعٌ في سياقٍ آخر.

١٩٨٧- وَاللَّفْظُ فِي التَّرْكِيبِ نَصٌّ فِي الَّـذِي ... قَصَدَ الـمُخَاطِبُ مِنْهُ فِي التِّبْيَـانِ

قَوْلُهُ: «**اللَّفْظُ فِي التَّرْكِيبِ نَصٌّ**» والنَّصُّ عندهم ما لا يحتملُ إِلَّا معنًى واحدًا فهو بمعنى الصَّريح، ومنه قولهم: (**مِنَصَّةُ العروس**) وَهُوَ الكرسِيُّ الَّذِي تأتي وتجلسُ عليه، فلو سألتَ الجمعَ مَنْ هذه؟ لقالوا: هي العروس (**المرأة**) ما يحتملُ غيرَها، كذلك أيضًا النَّصُّ في الكلام هُوَ الَّذِي لا يحتملُ سوى معناه، فهو صريحٌ فيه.

قَوْلُهُ: «**نَصٌّ فِي الَّذِي قَصَدَ المُخَاطِبُ مِنْهُ فِي التِّبْيَانِ**» فالتركيبُ يجعلُه نصًّا، ومن هنا قَالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية: (إنه لا مجازَ في الْقُرْآن، ولا في اللغة العربية؛ لأنَّ السِّياقَ يجعلُ اللفظَ صريحًا في المعنى ونصًّا في المعنى، ولا يحتملُ المجازَ، فقولُه تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤] غيرُ قولِ القائل: (**اكْسِرْ جَنَاحَ الطَّيْرِ**)؛ لأنَّ الكُلَّ يعرفُ أنَّ (**اكْسِرْ جَنَاحَ الطَّيْرِ**) المرادُ به الجناحُ الَّذِي يطيرُ به الطَّيرُ، وأمَّا ﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ معناه: مرتفع الذل، يعني: أنك لا ترتفعُ عليهما، بل اخفض لهما، ذِلَّ لهما، كالجناح إذا خُفِضَ فإنَّ الطائرَ لا يطيرُ.

إِذَنْ الكلامُ نصٌّ في سياقه، وحينئذٍ نقولُ: لا مجازَ في اللغة العربية؛ لأنَّ السِّياقَ يُعَيِّنُ المعنى ويمنعُ المجازَ.

وهذه المسألةُ -أعني: مسألةَ المجاز- اختلف النَّاسُ فيها، فمنهم مَنْ أقرَّه في اللغة والْقُرْآن، ومنهم مَنْ قال: هُوَ مُنْكَرٌ في الْقُرْآن وغيرُ مُنْكَرٍ في اللغة، وهذا رأي الشيخ الشنقيطِيِّ[1] -رحمه الله- وعللَّ ذلك بقوله: إنَّ أكبرَ علاماتِ المجاز صحةُ نفيه، وليس في الْقُرْآن ما يَصِحُّ نفيُه، فإذا قلت: (**أَقْبَلَ أَسَدٌ يَحْمِلُ الحَقِيبَةَ**) فللمخاطَب أن يقولَ: ليس بأسدٍ، وإذا قال: ليس بأسدٍ، فصحيحٌ هُوَ ليس بأسدٍ.

لكن أردُّ عليه بسهولة، وأقول: لـمَّا قلنا: (**يحملُ حقيبتهَ**) علمنا أنَّ معنى (أسدٍ) شجاعٌ، فصرنا لا نقصدُ لفظَه الدالَّ عَلَى جسده، لكن نقصدُ اللفظَ الدالَّ عَلَى المعنى، وَهُوَ الشجاعة، وهذا ليس فيه إشكالٌ، ولا يمكنُ لأحدٍ أن يتبادرَ إِلَى ذهنه إذا قلت: (**أقبلَ رجلٌ يحملُ الحقيبةَ**) أنه الأسدُ الضرغام.

لكن هل هَذَا الاختلافُ اختلافٌ لفظِيٌّ فقط؟

الجَوَابُ: ليس بصحيح؛ لأنه يترتَّبُ عَلَى هَذَا مسألةُ تحريف آيات الصِّفَات وأحاديثها، وكذلك أيضًا تحريف النصوص الدالة عَلَى الأحكام الفقهية، فقد يُحَرِّفُها ويقولُ: المرادُ من هَذَا المجازُ، كذلك أيضًا في الحِنث في اليمين مثلًا: إذا قال: والله لا أتكلَّمُ بكلامٍ مجازٍ، ثُمَّ تكلَّم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف:٨٢] عَلَى رأي مَنْ يقولُ: فيه مجازٌ، فإنه يحنثُ؛ لأنه تكلَّمَ بالمجاز، فيَحْنثُ، وتلزمه الكفارةُ، وعلى رأي مَنُ لا يرى ذلك لا يحنثُ؛ لأنَّ هَذَا الكلامَ حقيقةٌ في سياقه.

ولا يطمئنُ القلبُ إِلَّا إِلَى هَذَا أي: إِلَى القول بنفي المجاز في اللغة العربية، لكن الـحقيقة قد تُلْبَسُ ثوبًا جذابًا يـجذبُ من أجل صيغة اللـفظ، فمثلًا:

---

(١) انظر كلام الشيخ الشارح -رحمه الله- في شرح العقيدة السفارينية (ص:٢٥٧).

قول القائل:

وَإِذَا الـــمِنيَّةُ أَنْشَــبَتْ أَظْفَارَهَـــا أَلْفَيْــتَ كُــلَّ تَمِيمَــةٍ لَا تَنْفَــعُ[١]

وهذا يُعطِي المعنى قوةً وهيبةً، حيث شَبَّه المنيَّةَ بأسدٍ يُنْشِبُ أظفارَه، لا يمكنُ أن يفكَّه.

وكذلك قوله تعالى:﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الإسراء:٢٤]، معلوم أنَّ الذُّلَّ ليس له جَناحٌ، لكن لـمَّا كان الذُّلُّ يُقابِلُ التَّعالِيَ والعلوَّ والتَّرفُّعَ عَلَى والديه، قال: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ بمعنى تَطَامَنْ لهما مع التَّذَلُّل.

وهذه المسألُة لها غورٌ، ولا شَكَّ أنَّ ما قاله شيخُ الإسلام -رحمه الله- هُوَ الحقُّ؛ أنه لا مجازَ في اللغة العربية؛ لأنَّ الكلمات في حدِّ ذاتِها لا يُعَيِّن معناها تمامًا إِلَّا السِّياقُ، فإذا تَعيَّن معنى الكلمة في سياقها، حينئذٍ يكونُ احتمالُ إرادة الحقيقة الأصلية في الوضع غيرَ واردٍ، فيبقى الكلامُ حقيقةً في سياقه، نصًّا في معناه.

وَقَوْلُهُ: «وَاللَّفْظُ فِي التَّرْكِيبِ نَصٌّ فِي الَّذِي قَصَدَ الْمُخَاطَبُ مِنْهُ فِي التِّبْيَانِ» وهذا واحد.

١٩٨٨- أَوْ ظَاهِرٌ فِيهِ وَذَا مِـنْ حَيْـثُ نِسْــ ـــبَتُهُ إِلَى الأَفْهَـــامِ وَالأَذْهَـــانِ

قَوْلُهُ: «أَوْ ظَاهِرٌ فِيهِ» الظاهرُ: هُوَ الَّذِي يحتملُ معنيين هُوَ في أحدهما أظهرُ، فمرتبتُه دون النَّصِّ، يكونُ ظاهرًا ولكنَّه ليس نصًّا، فهو أقلُّ دلالةً من النَّصِّ.

وهناك مُجْمَلٌ يكونُ فيه اللفظُ محتملًا لمعنيَيْن عَلَى السَّواء.

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهُذلي، كما في الكامل للمبرد (٢/ ١٢٧).

إِذَنْ الكلامُ ثلاثةُ أقسامٍ:

- ما لا يحتملُ إِلَّا معنًى واحدًا، فهذا نَصٌّ.
- ما يحتملُ معنَيَيْن هُوَ في أحدهما أظهرُ، فهذا ظاهرٌ، الأظهرُ هُوَ الظاهرُ.
- ما يحتمل معنَيَين عَلَى السَّواء، فهذا مُجْمَلٌ يحتاجُ إِلَى بيانٍ.

فالمؤلفُ بَيَّن هَذَا كُلَّه، فقال: **(أو ظاهرٌ فيه وذا من حيث نسبته إِلَى الأفهام والأذهان)** يعني: أَنَّ الظهورَ والنَّصِّيَّةَ بحسب الأفهام والأذهان، ثُمَّ بَيَّن ذلك، فقال:

١٩٨٩- فَيَكُونُ نَصًّا عِنْدَ طَائِفَةٍ وَعِنْـ ... ـدَ سِوَاهُمُ هُوَ ظَاهِرُ التِّبْيَانِ

يعني: يكونُ اللفظُ الواحدُ نصًّا عند طائفةٍ لا يحتملُ غيرَ معنى واحد، ويكونُ ظاهرًا عند طائفة أخرى، يعني: يحتملُ معنَيْين هُوَ في أحدهما أظهرُ، وهناك طائفةٌ ثالثةٌ يكونُ عندها مُجْمَلًا، وسيذكره؛ ولهذا تجد الآن المفتين: يُفْتيك رجلٌ، فيقول: الظاهرُ والله أَنَّ هَذَا جائزٌ؛ لقوله تعالى: كَذَا وكذا، فيكون هَذَا الرجلُ فاهمًا للدليل فهمَ نصٍّ أو فهمَ ظاهر؟

الجَوَابُ: فَهْمٌ ظاهر.

ويأتيك مُفْتٍ آخر، فيقول: هَذَا حرامٌ؛ لقوله تعالى: كَذَا وكذا، فيكون هَذَا الرجلُ فاهمًا للدليل فهمَ نصٍّ، والله يُؤتي فضلَه مَنْ يشاءُ، فكثيرٌ من الناس تكون الأدلةُ عنده واضحةٌ كأنها نصوصٌ صريحةٌ، وعند بعض الناس تكون ظاهرةً، وبعضُ الناس تكونُ عنده مُشْتَبِهَةً، لا يستطيعُ أنْ يعطيَك حكمًا من أيِّ دليل؛ لأنَّ الأدلةَ عنده مُشْتَبِهَةٌ.

١٩٩٠- وَلَدَى سِوَاهُمْ مُجْمَلٌ لَمْ يَتَّضِحْ ... لَهُمُ المُرَادُ بِهِ اتِّضَاحَ بَيَانِ

قَوْلُهُ: «**وَلَدَى سِوَاهُمْ**» يعني: لدى سوى الطائفتين الأوليَيْن.

فَقسَّم -رحمه الله- الناسَ باعتبار الدَّلِيل إِلَى ثلاثةِ أقسامٍ:

القسم الأول: يكونُ له الدَّلِيلُ نصًّا ظاهرًا لا يحتملُ معنًى آخر.

القسمُ الثاني: يكونُ عندهم الدَّلِيلُ ظاهرًا مع احتمال معنًى مرجوحٍ.

القسم الثالث: يكونُ مُجْمَلًا لا يتضحُ به المرادُ.

ثُمَّ بَيَّنَ السببَ، لماذا كان هَذَا الدَّلِيلُ الواحدُ نصًّا عند قوم، وظاهرًا عند قوم ومُجْمَلًا عند آخرين؟ فقال:

١٩٩١- فَالأَوَّلُونَ لِإِلْفِهِمْ ذَاكَ الخِطَا ... بَ وَإِلْفِهِمْ مَعْنَاهُ طُولَ زَمَانِ

هؤلاء أَلِفوا خطابَ الله ورسولِه، وأَلِفُوا معناه، وصار المعنى الظاهرُ لغيرهم نصًّا عندهم، حتَّى إِنَّ بعضَهم يُمَيِّزُ صحةَ الحديث من ضعفه بمجرد أن يسمعَه وإن لم يرَ سندَه، لماذا؟ لأنهم أَلِفوا كلامَ الرسول -عليه الصلاة والسلام- واختلط بدمائِهم، حتَّى كانوا يعرفون أنَّ هَذَا كلامُ الرسولِ من كلام غيرِه، كما أننا نحن الآن إذا طالعنا كتبَ عالمٍ من العلماء ثُمَّ مَرَّت بنا عبارةٌ من عباراتِهِ وإن لم تُنْسَبْ إليه عرفنا أنها من كلامه.

وكثيرًا يمرُّ بنا شيءٌ من كلام شيخِ الإسلام نعرفُ أنه من كلامِهِ وإِنْ لم يكن منسوبًا إليه؛ لأننا طالعنا كلامَه كثيرًا وأَلِفْناه، وكذلك ابنُ القيِّم وغيرُه.

فالحاصلُ أنَّ هؤلاء الذين أَلِفُوا كلامَ الرسول -عليه الصلاة والسلام- وفهموه يكونُ المعنى عندهم نصًّا، اللَّهُمَّ اجعلنا منهم.

١٩٩٢- طَالَ المِرَاسُ لَـهُمْ لِـمَعْنَاهُ كَمَا اشْـ ... ــتَدَّتْ عِنَـايَتُهُمْ بِـذَاكَ الشَّـانِ

١٩٩٣- والعِلْمُ مِنْهُمْ بِالـمُخَاطِبِ إِذْ هُـمُ ... أَوْلَى بِـهِ مِـنْ سَـائِرِ الإِنْسَـانِ

١٩٩٤- وَلَـهُمْ أَتَـمُّ عِنَايَـةٍ بِكَلَامِـهِ ... وَقُصُـودِهِ مَـعَ صِـحَّةِ الْعِرْفَـانِ

١٩٩٥- فَخِطَابُـهُ نَـصٌّ لَـدَيْهِمْ قَـاطِعٌ ... فِـيمَا أُرِيـدَ بِـهِ مِـنَ التِّبْيَـانِ

ذكر -رحمه الله- أمورًا متعددةً:

أولًا: أنهم ألفوا خطابَ الرسول -عليه الصلاة والسلام- وألفوا معناه من كثرة ممارستهم له.

ثانيًا: أنَّ لهم عنايةً تامةً في معرفة كلام النَّبِيِّ ﷺ وتدبُّرِ معناه حتَّى يكونَ عندهم نصًّا قاطعًا.

ثالثًا: أنهم يعلمون بحالِ الرسول -عليه الصلاة والسلام- ومرادِه ومقصدِه؛ لأنهم يعرفون الغاياتِ الحميدةَ من الشريعة الإسلامية، فتجدهم يعرفون مرادَ النَّبِيِّ ﷺ بخطابه نصًّا قاطعًا؛ لأنهم يعرفون مقاصدَ الشريعة.

فلأجل هَذِهِ الأمور الثلاثة كانوا يعلمون مرادَ النَّبِيِّ ﷺ بكلامه علمًا قاطعًا نصًّا.

١٩٩٦- لَكِنَّ مَـنْ هُـوَ دُونَهُـمْ فِي ذَاكَ لَـمْ ... يَقْطَـعْ بِقَطْعِهِـمُ عَـلَى البُرْهَـانِ

الذين دون هؤلاء إِمَّا في إِلْفِهم لكلام الرسولِ وكونهم لا يمارسونه دائمًا، وكون أكثر ما يقرؤون كتبَ العلماء دون الأدلة، أو لأشياء أخرى تكون في نفوسِهم تمنعُهم من أن يكونَ الكلامُ نصًّا لديهم.

١٩٩٧- وَيَقُولُ: يَظْهَرُ ذَا وَلَيْسَ بِقَاطِعٍ فِي ذِهْنِهِ لَا سَائِرِ الأَذْهَانِ

قَوْلُهُ: «وَيَقُولُ: يَظْهَرُ ذَا وَلَيْسَ بِقَاطِعٍ فِي ذِهْنِهِ»؛ لأنه لو كان قاطعًا لكان نصًّا، لكنَّه يقولُ: يظهر كذا.

قَوْلُهُ: «فِي ذِهْنِهِ لَا سَائِرِ الأَذْهَانِ» لأنَّ هناك مَنْ يقولُ: إنه نصٌّ، بل وهناك من هُوَ دونه يقولُ: إنه مُجْمَلٌ؛ ولهذا قال: «لَا سَائِرِ الأَذْهَانِ».

١٩٩٨- وَلِإِلْفِهِ بِكَلَامِ مَنْ هُوَ مُقْتَدٍ بِكَلَامِهِ مِنْ عَالِمِ الأَزْمَانِ

١٩٩٩- هُوَ قَاطِعٌ بِمُرَادِهِ وَكَلَامُهُ نَصٌّ لَدَيْهِ وَاضِحُ التِّبْيَانِ

يقول: هَذَا الرجلُ الَّذِي كان لا يفهمُ الأدلةَ؛ لأنه مُشْتَغِلٌ بكلام متبوعِه ومُقَلَّدِه، فتجده يفهمُ من خطاب مقلَّدِه نصَّ المُقَلَّد فهمًا قاطعًا (نصًّا) لكن كلام الرسول ﷺ لا يفهمُه هَذَا الفهمَ.

وما قاله ابنُ القيِّم -رحمه الله- واقعٌ، فإنَّ كثيرًا من الناس ولاسِّيما المكبُّون عَلَى الكتب المهتمون بالتقليد تجدهم إذا جاءتهم النُّصوصُ يقفون حيارى، لكن في كتب مُقَلِّدِيهم عندهم علمٌ كاملٌ يفهمون النصوصَ منطوقًا ومفهومًا وإيماءً وإشارة بخلاف النصوص الشرعية.

والذي ينبغي لطالبِ العلمِ أن يُرَكِّزَ عَلَى فهم كتابِ الله وسُنَّة رسوله ﷺ قبل كُلِّ شيء، وأن يستعينَ عَلَى فهمهما بكتب أهل العلم، يعني: لا يطرحُ كتبَ أهلِ العلمِ جانبًا، ولا يعتمدُ عليها ويدع الكتابَ والسُّنَّةَ، بل يأخذُ من هَذَا وهذا ويجعل العمدةَ الكتابَ والسُّنَّة.

***

٢٠٠٠- وَالْفِتْنَةُ العُظْمَى مِنَ الـمُتَسَلِّقِ الْـ مَخْدُوعِ ذِي الدَّعْوَى أَخِي الهَذَيَانِ

٢٠٠١- لَمْ يَعْرِفِ الْعِلْمَ الَّذِي فِيهِ الكَلَا مُ وَلَا لَهُ إِلْفٌ بِهَذَا الشَّانِ

٢٠٠٢- لَكِنَّهُ مِنْهُ غَرِيبٌ لَيْسَ مِنْ سُكَّانِهِ كَلَّا وَلَا الجِيرَانِ

٢٠٠٣- فَهُوَ الزَّنِيمُ دَعِيُّ قَوْمٍ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ وَلَمْ يَصْحَبْهُمُ بِمَكَانِ

٢٠٠٤- وكَلَامُهُمْ أَبَدًا لَدَيْهِ مُجْمَلٌ وَبِمَعْزِلٍ عَنْ إِمْرَةِ الإِيقَانِ

٢٠٠٥- نَشَدَ التِّجَارَةَ بِالزُّيُوفِ يَخَالُهَا نَقْدًا صَحِيحًا وَهْوَ ذُو بُطْلَانِ

٢٠٠٦- حَتَّى إِذَا رُدَّتْ إِلَيْهِ نَالَهُ مِنْ رَدِّهَا خِزْيٌ وسُوءُ هَوَانِ

٢٠٠٧- فَأَرَادَ تَصْحِيحًا لَهَا إِذْ لَمْ يَكُنْ نَقْدُ الزُّيُوفِ يَرُوجُ فِي الأَثْمَانِ

٢٠٠٨- ورَأَى اسْتِحَالَةَ ذَا بِدُونِ الطَّعْنِ في بَاقِي النُّقُودِ فَجَاءَ بِالعُدْوَانِ

٢٠٠٩- وَاسْتَعْوَضَ الثَّمَنَ الصَّحِيحَ بِجَهْلِهِ وَبِظُلْمِهِ يَبْغِيهِ بِالْبُهْتَانِ

٢٠١٠- عِوَجًا لِيَسْلَمَ نَقْدُهُ بَيْنَ الوَرَى وَيَرُوجُ فِيهِمْ كَامِلُ الأَوْزَانِ

٢٠١١- وَالنَّاسُ لَيْسُوا أَهْلَ نَقْدٍ لِلَّذِي قَدْ قِيلَ إِلَّا الفَرْدَ فِي الأَزْمَانِ

٢٠١٢- وَالزَّيْفُ بَيْنَهُمُ هُوَ النَّقْدُ الَّذِي قَدْ رَاجَ فِي الأَسْفَارِ وَالبُلْدَانِ

٢٠١٣- إِذْ هُمْ قَدِ اصْطَلَحُوا عَلَيْهِ وَارْتَضَوْا بِجَوَازِهِ جَهْرًا بِلَا كِتْمَانِ

٢٠١٤- فَإِذَا أَتَاهُمْ غَيْرُهُ وَلَوَ انَّهُ ذَهَبٌ مُصَفًّى خَالِصُ الْعِقْيَانِ

٢٠١٥- رَدُّوهُ وَاعْتَذَرُوا بِأَنَّ نُقُودَهُمْ مِنْ غَيْرِهِ بِمَرَاسِمِ السُّلْطَانِ

٢٠١٦- فَـإِذَا تَعَامَلْنَا بِنَقْدٍ غَيْرِهِ قُطِعَتْ جَوَامِكُنَا مِنَ الدِّيوانِ

٢٠١٧- وَاللهِ مِنْهُمْ قَدْ سَمِعْنَا ذَا وَلَمْ نَكْذِبْ عَلَيْهِمْ وَيْحَ ذِي البُهْتَانِ

٢٠١٨- يا مَنْ يُرِيدُ تِجَارَةً تُنْجِيهِ مِنْ غَضَبِ الإِلَهِ وَمَوْقِدِ النِّيرَانِ

٢٠١٩- وَتُفِيدُهُ الأَرْبَاحَ بِالجَنَّاتِ وَالْـ ـحُورَ الحِسَانَ وَرُؤْيَةَ الرَّحْمَنِ

٢٠٢٠- فِي جَنَّةٍ طَابَتْ وَدَامَ نَعِيمُهَا مَا لِلْفَنَاءِ عَلَيْهِ مِنْ سُلْطَانِ

٢٠٢١- هَيِّئْ لَهَا ثَمنًا يُبَاعُ بِمِثْلِهَا لَا تُشْتَرَى بِالزَّيْفِ مِنْ أَثْمَانِ

٢٠٢٢- نَقْدًا عَلَيْهِ سِكَّةٌ نَبَوِيَّةٌ ضَرْبَ المَدِينَةِ أَشْرَفِ البُلْدَانِ

٢٠٢٣- أَظَنَنْتَ يَا مَغْرُورُ بَائِعَهَا الَّذِي يَرْضَى بِنَقْدٍ ضَرْبِ جِنْكِزْخَانِ؟

٢٠٢٤- مَنَّتْكَ -وَاللهِ- المُحَالَ النَّفْسُ إِنْ طَمِعَتْ بِذَا وخُدِعْتَ بِالشَّيْطَانِ

الشرحُ

٢٠٠٠- وَالْفِتْنَةُ العُظْمَى مِنَ المُتَسَلِّقِ الْـ ـمَخْدُوعِ ذِي الدَّعْوَى أَخِي الهَذَيَانِ

وهذا هُوَ القسم الثالث الَّذِي تكون الأدلةُ عنده من باب المُجْمَل؛ لأنه لا يعرف، فالفتنةُ العظمى من المتسلِّق المخدوع ذِي الدعوى أخي الهذيان.

٢٠٠١- لَمْ يَعْرِفِ الْعِلْمَ الَّذِي فِيهِ الكَلَا مُ وَلَا لَهُ إِلْفٌ بِهَذَا الشَّانِ

وهذا هُوَ الصحيح، فالبلاءُ كُلُّ البلاءِ ممنَّ لا يعرفُ الدَّلِيلَ ولا يهتمُّ به، وَهُوَ عنده غيرُ قاطعِ الدلالة ولا ظاهر الدلالة أيضًا.

٢٠٠٢- لَكِنَّـــهُ مِنْـــهُ غَرِيـــبٌ لَـــيْسَ مِـــنْ سُـــكَّانِهِ كَـــلَّا وَلَا الــــجِيرَانِ

قَوْلُهُ: «لَكِنَّهُ مِنْهُ» أي: من الكلام الَّذِي هُوَ الكتابُ والسُّنَّة وَهُوَ الدَّلِيلُ.

قَوْلُهُ: «مِنْهُ غَرِيبٌ لَيْسَ مِنْ سُكَّانِهِ كَلَّا وَلَا الجِيرَانِ»، فهو غريبٌ، ليس من سكان هَذَا المحلِّ، ولا من جيرانه حتَّى يفهم.

٢٠٠٣- فَهُوَ الزَّنِيمُ دَعِيُّ قَـوْمٍ لَـمْ يَكُـنْ مِـنْهُمْ وَلَـمْ يَصْـحَبْهُمُ بِمَكَـانِ

قَوْلُهُ: «فَهُوَ الزَّنِيمُ» والزَّنِيم هُوَ الَّذِي يَنْتَسِبُ إِلَى قومٍ وليس منهم، كما قال -سبحانه وتعالى-: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم:١٣] فهو يَدَّعِي العلمَ، ولكنَّه ليس من العلماء.

٢٠٠٤- وكَلَامُهُـــمْ أَبَـــدًا لَدَيْـــهِ مُجْمَـــلٌ وَبِمَعْـــزِلٍ عَـــنْ إِمْـــرَةِ الإِيقَـــانِ

قَوْلُهُ: «كَلَامُهُمْ» الضميرُ يعودُ عَلَى كلام القومِ الَّذِي هُوَ الكتابُ والسُّنَّةُ لدى هَذَا الرجل، (مُجْمَل) لا يَبِينُ المرادُ به؛ ولهذا يقول: (بِمَعْزِلٍ عَنْ إِمْرَةِ الإِيقَانِ)؛ ولهذا يقولون: النصوصُ دلالتُها ظنيَّةٌ، والعقلُ دلالتُه قطعيَّةٌ، ولا معارضةَ بين الظَّنِّيِّ والقطعِيِّ؛ لأننا نُقَدِّمُ القطعِيَّ عَلَى الظَّنِّيِّ؛ ولهذا قدَّموا العقولَ وأنكروا المنقولَ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

فبعضُهم مثلًا يقولُ في الْقُرْآن: الْقُرْآنُ دلالتُه عَلَى المعنى ظَنِّيَّةٌ؛ لأنه لا يستطيعُ أن يطعنَ في سنده، والأحاديثُ إن كانت من قسم المتواتر الَّذِي لا يمكنُ ردُّه، يقول: دلالتُها ظَنِّيَّةٌ كالْقُرْآن، وإن كان مما يمكن ردُّه -وَهُوَ عندهم خبر الآحاد ولو صَحَّ- يقول: هُوَ ظَنِّيُّ الثبوت فلا يُعارِضُ القطعِيَّ؛ ولهذا ضلُّوا -والعياذ بالله- ضلالًا بعيدًا.

فالقاعدةُ عندهم أنَّ الأدلةَ الشرعيةَ لا تفيدُ اليقينَ؛ لأنها إمَّا ظَنِّيَّة الثبوت، وإما ظَنِّيَّة الدلالة، ما الَّذِي يفيدُ اليقينَ عندهم؟ الجواب: العقل، هَذَا العقلُ الَّذِي اضطربوا فيه أعظمَ اضطراب، لم يختلفوا في شيءٍ كما اختلفوا في مدلولات العقول، حتَّى إنَّ بعضَهم -كما قَالَ شيخ الإسلام- يقول: «**هذا واجبٌ عقلًا**»، ويأتي آخر يقول: «**هذا مستحيلٌ عقلًا**» وهذان طرفا نقيضٍ، بل إِنَّ بعضَهم في مؤلفاته القديمة والحديثة يرى امتناعَ ما رأى وجوبه من قبل.

فأين اليقينُ في دلالة العقل بين قومٍ يرى بعضُهم أنَّ هَذَا واجبٌ عقلًا، والثاني يرى أنه مستحيلٌ عقلًا؟! أو أنَّ الرجلَ الواحدَ نفسَه يقولُ في موضع: هَذَا مستحيلٌ، ويقولُ في موضعٍ آخر: هَذَا واجبٌ، فأين الدلالةُ القطعيَّةُ في الأمور العقليَّة، ولكن كلام الله وكلام رسوله حسب ما أَلِف الإنسانُ من كتاب الله وكلام الرسول -عليه الصلاة والسلام- يعرفُ أنَّ هَذَا نصٌّ قاطعٌ في دلالته، والآخر الَّذِي دونه يرى أنه ظاهرٌ، أما المُتَسَلِّق الَّذِي يدَّعِي المعرفةَ وليس بعارفٍ فهذا يرى أنه مُجْمَلٌ وليس فيه شيءٌ يقينيٌّ.

٢٠٠٥- نَشَدَ التِّجَارَةَ بِالزُّيُوفِ يَخَالُهَا نَقْدًا صَحِيحًا وَهْوَ ذُو بُطْلَانِ

إنسان صَلَّحوا له قِطَعًا من الحديد مموَّهة بفضة، مصوَّرة صورة الدرهم، وقالوا: هَذِهِ دراهم، وَهُوَ لا يعرفُ، ماذا يكونُ قبولُه لها؟ يقبلُها عَلَى أنها نقدٌ صحيح.

٢٠٠٦- حَتَّى إِذَا رُدَّتْ إِلَيْهِ نَالَهُ مِنْ رَدِّهَا خِزْيٌ وسُوءُ هَوَانِ

إذا رُدَّت إليه هَذِهِ الزِّيوفُ قيل: أنت أعطيتنا دراهمَ مُزَيَّفَةً، حينئذٍ يبوءُ بالخزي والهوان.

٢٠٠٧- فَأَرَادَ تَصْحِيحًا لَـهَا إِذْ لَـمْ يَكُـنْ ... نَقْـدُ الزُّيُـوفِ يَـرُوجُ فِي الأَثْـمَانِ

٢٠٠٨- ورَأَى اسْتِحَالَةَ ذَا بِدُونِ الطَّعْنِ فِي ... بَـاقِي النُّقُـودِ فَجَـاءَ بِالعُـدْوَانِ

لـمَّا أراد أن يُصحِّحَ نقودَه الزائفةَ ماذا قال؟ قال: لماذا تقولُ: زائفةٌ؟ قال: لأنَّ التي بين يدي الناس تخالفُ نقودَك، قال: كُلُّ النقود التي في أيدي الناس كُلُّها زائفةٌ، وليست بصحيحةٍ، والصحيحُ عندي.

طَبِّق هَذَا عَلَى مذهب أهل التعطيل مع أهل السُّنَّة، يقول لأهل السُّنَّة: كُلُّ ما قُلْتُم خطأٌ، والصوابُ ما نحن عليه، فهذه تنطبقُ عَلَى هَذَا المثال الَّذِي ذكره المؤلفُ.

٢٠٠٩- وَاسْتَعْوَضَ الثَّمَنَ الصَّحِيحَ بِجَهْلِهِ ... وَبِظُلْمِـهِ يَبْغِيـهِ بِالْبُهْتَـانِ

يعني: أنه يريدُ النقودَ الصحيحةَ السَّليمةَ، لماذا؟ قال:

٢٠١٠- عِوَجًـا لِيَسْـلَمَ نَقْـدُهُ بَـيْنَ الـوَرَى ... وَيَـرُوجُ فِـيهِمْ كَامِـلُ الأَوْزَانِ

وهذا يروجُ عَلَى الناس أو لا؟ الجواب: نعم، يروج؛ ولهذا قال:

٢٠١١- وَالنَّاسُ لَيْسُوا أَهْـلَ نَقْـدٍ لِلَّـذِي ... قَـدْ قِيـلَ إِلَّا الفَـرْدَ فِي الأَزْمَـانِ

قَوْلُهُ: «إِلَّا الفَرْدَ» يجوز الوجهان (الفردَ)، و(الفردُ).

وصدق -رحمه الله-، يعني: أنَّ الناسَ يَقِلُّ فيهم مَنْ يعرفُ الصحيحَ من الزَّيف، فلا يوجدُ إِلَّا الفردُ في الأزمان.

٢٠١٢- وَالزَّيْفُ بَيْـنَهُمُ هُـوَ النَّقْـدُ الَّـذِي ... قَـدْ رَاجَ فِي الأَسْـفَارِ وَالبُلْـدَانِ

يعني: أكثرُ الناس وعامةُ الناس ليسوا أهلًا للنقد، فلا يُفَرِّقون بين الزَّيف وَهُوَ

المعيبُ وبين الخالص النقيِّ إِلَّا الفرد، يعني: الواحد في المائة، أو الواحد في الألف.

فأكثرُ ما يروج عند الناس هُوَ الشيء المزيَّف.

٢٠١٣- إِذْ هُمْ قَدِ اصْطَلَحُوا عَلَيْهِ وَارْتَضَوْا ... بِجَوَازِهِ جَهْرًا بِلَا كِتْمَانِ

قَوْلُهُ: «إِذْ هُمْ» أي: الناس الذين اغترُّوا بالزَّيف، وأخذوا به.

قَوْلُهُ: «قَدِ اصْطَلَحُوا عَلَيْهِ وَارْتَضَوْا بِجَوَازِهِ جَهْرًا بِلَا كِتْمَانِ» وكتبهم مملوءةٌ بهذا، تجدهم يقرِّرون التعطيلَ ونفيَ صفات الله عزَّ وجلَّ بِهَذِهِ التعليلات التي يرونها معقولاتٍ وهي مجهولاتٌ في الحقيقة.

٢٠١٤- فَإِذَا أَتَاهُمْ غَيْرُهُ وَلَوَ انَّهُ ... ذَهَبٌ مُصَفًّى خَالِصُ الْعِقْيَانِ

٢٠١٥- رَدُّوهُ وَاعْتَذَرُوا بِأَنَّ نُقُودَهُمْ ... مِنْ غَيْرِهِ بِمَرَاسِمِ السُّلْطَانِ

يردُّون النقدَ الصحيحَ الخالصَ بحُجَّة أنَّ نقودَهم من غير هَذَا النقد ولو كان النقد الَّذِي ردَّوه من الذهب الخالص؛ لأنَّ مراسمَ السُّلطان قرَّرت هَذَا النقدَ المزيَّف.

والمؤلفُ -رحمه الله- إنما ضرب مثلًا بالنقد، وإِلَّا فهو يريدُ كلامَ أهل الكلام الذين يتَّبعون علماءَهم وأئمتَهم، ويقولون: لا نخرجُ عمَّا قاله أئمتنا مهما كان، فهو المقبولُ عندهم، وسواه مردودٌ.

٢٠١٦- فَإِذَا تَعَامَلْنَا بِنَقْدٍ غَيْرِهِ ... قُطِعَتْ جَوَامِكُنَا مِنَ الدِّيوانِ

يعني: لو أننا تعاملنا بنقدٍ غير الَّذِي ضربه السُّلطان قُطِعَت الجوامك، و«الجوامك» هي عبارة عمَّا يُسَمَّى عندنا بالعوائد التي يُهديها السُّلطانُ للناس،

ويُسَمِّيها بعضُ الناس بـ (الشَّرْهَات)، وتختلف الأسماءُ لكن المعنى واحد، يعني: ما يُجعل في بيت المال للناس إِمَّا سنويًّا، أو شهريًّا، أو كُلَّ ستة أشهر، وما أشبه ذلك، فالجوامُك هي عبارة عمَّا يأخذه الإنسانُ من بيت المال.

يقولون: نحن لو قبلنا هَذَا النقدَ الصحيحَ السَّليمَ وتركنا نقدَ السُّلطان ماذا يصنع؟ الجواب: تُقْطَعُ الجوامكُ، ولا يأتينا رِزْقٌ من السُّلطان.

٢٠١٧- وَاللهِ مِنْهُمْ قَدْ سَمِعْنَا ذَا وَلَمْ ... نَكْذِبْ عَلَيْهِمْ وَيْحَ ذِي البُهْتَانِ

المؤلفُ -رحمه الله- يُقْسِمُ من غير أن يُسْتَقْسَمَ؛ لأنَّ المقامَ مقامٌ تجب العنايةُ به، والقَسَمُ عند الحاجة إليه جائزٌ وإن لم يُطْلَبْ من الإنسانِ، قال تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧] وإذا كان كذلك فلا حرجَ عَلَى الإنسان أن يُقْسِمَ بالله عزَّ وجلَّ عَلَى شيءٍ من الأشياء وإن لم يُسْتَقْسَمْ إذا كان المقامُ ذا أهميةٍ.

٢٠١٨- يا مَنْ يُرِيدُ تِجَارَةً تُنْجِيهِ مِنْ ... غَضَبِ الإِلَهِ وَمَوْقِدِ النِّيرَانِ

٢٠١٩- وَتُفِيدُهُ الأَرْبَاحَ بِالجَنَّاتِ وَالْـ ... ـحُورَ الحِسَانَ وَرُؤْيَةَ الرَّحْمَنِ

٢٠٢٠- فِي جَنَّةٍ طَابَتْ وَدَامَ نَعِيمُهَا ... مَا لِلْفَنَاءِ عَلَيْهِ مِنْ سُلْطَانِ

٢٠٢١- هَيِّئْ لَهَا ثَمَنًا يُبَاعُ بِمِثْلِهَا ... لَا تُشْتَرَى بِالزَّيْفِ مِنْ أَثْمَانِ

٢٠٢٢- نَقْدًا عَلَيْهِ سِكَّةٌ نَبَوِيَّةٌ ... ضَرْبَ المَدِينَةِ أَشْرَفِ البُلْدَانِ

قَوْلُهُ: «**من سلطان**» يعني: من قدرة.

هذا أيضًا كما سبق من ضرب المثل، يعني: الَّذِي يُرِيدُ النَّجاةَ من النيران ودخولَ الجنات فليشترِ هَذِهِ الجنةَ بالثمن المُهَيَّأ لها، والنقدُ الَّذِي يكونُ ثمنًا لها هُوَ

النقدُ الَّذِي عليه السِّكَّةُ النبويَّةُ (ضرب المدينة)، وماذا يريدُ بهذا النقدِ الَّذِي عليه السِّكَّة؟ الجواب: الكتاب والسُّنَّة، فالذي يريدُ النجاةَ عليه بالكتاب والسُّنَّة وليدعْ علمَ الكلام وهذيان أهله.

٢٠٢٣- أَظَنَنْتَ يَا مَغْرُورُ بَائِعَهَا الَّذِي ... يَرْضَى بِنَقْدِ ضَرْبِ جِنْكِزْخَانِ؟

هذا أحد ملوك التتار له سِكَّةٌ مضروبٌ عليها اسمُه، هَذَا رضي بالنقد، وترك النقدَ السَّليمَ الصحيحَ، والمرادُ بذلك أيضًا كما سبق ما عند أهل الكلام من الكلام الفارغ الَّذِي رضيه هَذَا لنفسه وترك الكلامَ الصحيحَ السَّليم.

٢٠٢٤- مَنَّتْكَ -وَالله- الـمُحَالَ النَّفْسُ إِنْ ... طَمِعَتْ بِذَا وخُدِعْتَ بِالشَّيْطَانِ

صدق -رحمه الله-، فالعاجزُ مَنْ أتبعَ نفسَه هواها وتمنَّى عَلَى الله الأمانِيَّ، فالإنسانُ الَّذِي يغترُّ بظاهرِ الحال، ولا يلتفتُ إِلَى الكتاب والسُّنَّة ويزعمُ أنه هُوَ الموحِّد قد غرَّته نفسُه وغرَّه الشَّيطانُ.

* * *

٢٠٢٥- فَاسْمَعْ إِذَنْ سَبَبَ الضَّلَالِ وَمَنْشَأَ ... التَّخْلِيطِ إِذْ يَتَنَاظَرُ الـخَصْمَانِ

٢٠٢٦- يَحْتَجُّ بِاللَّفْظِ الـمُرَكَّبِ عَارِفٌ ... مَضْمُونَهُ بِسِيَاقِهِ لِبَيَانِ

٢٠٢٧- وَاللَّفْظُ حِينَ يُسَاقُ بِالتَّرْكِيبِ مَحْـ ... ـفُوفٌ بِهِ لِلْفَهْمِ وَالتِّبْيَانِ

٢٠٢٨- جُنْدٌ يُنَادِي بِالبَيَانِ عَلَيْهِ مِثْـ ... ـلَ نِدَائِنَا بِإِقَامَةٍ وأَذَانِ

٢٠٢٩- كَيْ يَحْصُلَ الإِعْلَامُ بِالمَقْصُودِ مِنْ ... إِيرَادِهِ وَيَصِيرَ فِي الأَذْهَانِ

٢٠٣٠- فَيَفُكُّ تَرْكِيبَ الكَلَامِ مُعَانِدٌ ... حَتَّى يُقَلْقِلَهُ مِنَ الأَرْكَانِ

٢٠٣١- وَيَـرُومَ مِنْـهُ لَفْظَـةً قَـدْ حُمِّلَـتْ ... مَعْنًـى سِـوَاهَا فِي كَـلَامٍ ثَانِـي

٢٠٣٢- فَيَكُـونُ دَبُّـوسَ الشِّـقَاقِ وعُـدَّةً ... لِلـدَّفْعِ فِعْـلَ الْـجَاهِلِ الفَتَّـانِ

٢٠٣٣- فَيَقُولُ: هَـذَا مُجْمَـلٌ وَاللَّفْـظُ مُحْـ ... ـتَمِلٌ، وَذَا مِـنْ أَعْظَـمِ البُهْتَـانِ

٢٠٣٤- وَبِذَاكَ يَفْسُدُ كُلُّ عِلْـمٍ فِي الـوَرَى ... وَالفَهْـمُ مِـنْ خَـبَرٍ وَمِـنْ قُـرْآنِ

٢٠٣٥- إِذْ أَكْثَرُ الأَلْفَـاظِ تَقْبَـلُ ذَاكَ فِي الْـ ... إِفْـرَادِ قَبْـلَ الْعَقْـدِ وَالتِّبْيَـانِ

٢٠٣٦- لَكِـنْ إِذَا مَـا رُكِّبَـتْ زَالَ الَّـذِي ... قَدْ كَانَ مُحْتَمِلًا لَـدَى الوَحْدَانِـي

٢٠٣٧- فَـإِذَا تَجَـرَّدَ كَـانَ مُحْـتَمِلًا لِغَيْـ ... ـرِ مُـرَادِهِ أَوْ فِي كَـلَامٍ ثَانِـي

٢٠٣٨- لَكِـنَّ ذَا التَّجْرِيـدَ مُـمْتَنِعٌ فَـإِنْ ... يُفْرَضْ يَكُنْ لَا شَـكَّ فِي الأَذْهَـانِ

٢٠٣٩- وَالـمُفْرَدَاتُ بِغَـيْرِ تَرْكِيـبٍ كَمِثْـ ... ـلِ الصَّوْتِ تَنْعِقُـهُ بِتِلْـكَ الضَّـانِ

٢٠٤٠- وَهُنَالِكَ الإِجْمَالُ وَالتَّشْكِيكُ وَالتْـ ... ـتَجْهِيـلُ والتَّحْرِيـفُ بِـالبُطْلَانِ

٢٠٤١- فَـإِذَا هُـمُ فَعَلُـوهُ رَامُـوا نَقْلَـهُ ... لِـمُرَكَّبٍ قَـدْ حُـفَّ بِالتِّبْيَـانِ

٢٠٤٢- وَقَضَوْا عَلَى التَّرْكِيبِ بِالحُكْمِ الَّذِي ... حَكَمُـوا بِـهِ لِلْمُفْـرَدِ الوَحْدَانِـي

٢٠٤٣- جَهْـلًا وَتَجْهِـيلًا وَتَدْلِيسًـا وتَلْـ ... ـبِيسًا وَتَرْوِيجًـا عَـلَى العُمْيَـانِ

الشـــرحُ

هذه الأبيات مفيدةٌ ومهمةٌ، خلاصتُها أنَّ اللفظَ وإن كان محتملًا من حيث هُوَ لفظ لمعانٍ متعددة، فإنَّه عند التركيب لا يحتملُ إلَّا المعنى الَّذِي دَلَّ عليه السِّياقُ.

فـ(العرشُ) -كما سبق- يحتملُ معانيَ كثيرة، لكن عند التركيبِ لا يحتملُ إِلَّا معنًى واحدًا، و(الإِسْتِوَاءُ) يحتملُ معانيَ متعددة، لكن عند التركيبِ لا يحتملُ إِلَّا معنًى واحدًا، وهَكَذَا.

يقول:

٢٠٢٥- فَاسْمَعْ إِذَنْ سَبَبَ الضَّلَالِ وَمَنْشَأَ ... التَّخْلِيطِ إِذْ يَتَنَاظَرُ الخَصْمَانِ

ثُمَّ ذكر السَّببَ، فقال:

٢٠٢٦- يَحْتَجُّ بِاللَّفْظِ المُرَكَّبِ عَارِفٌ ... مَضْمُونَهُ بِسِيَاقِهِ لِبَيَانِ

الإنسانُ الَّذِي يعرفُ مضمونَ الكلام إنما يَحتجُّ به حين يكونُ مركَّبًا، فأمَّا إذا وُزِّع ومُزِّق وأُتي بكُلِّ كلمة عَلَى وحدة فإنه لا يكونُ كلامًا في الواقع، فلو قلنا: (**جاء زيدٌ راكبًا**) وفصلنا هَذِهِ الكلمات الثلاث، قلنا: (**جاء**) وحدها، وجعلنا (**زيد**) وحدها، (وراكبًا) وحدها هل يفيدُ؟ الجواب: لا يفيدُ، فالكلماتُ في حدِّ ذاتِها لا تفيدُ إِلَّا بالتركيبُ، والتركيب يُعَيِّنُ المعنى، بحيث لا يجوزُ معنًى آخر سوى هَذَا الَّذِي دَلَّ عليه التركيبُ.

٢٠٢٧- وَاللَّفْظُ حِينَ يُسَاقُ بِالتَّرْكِيبِ مَحْـ ... ـفُوفٌ بِهِ لِلْفَهْمِ وَالتِّبْيَانِ

٢٠٢٨- جُنْدٌ يُنَادِي بِالبيَانِ عَلَيْهِ مِثْـ ... ـلَ نِدَائِنَا بِإِقَامَةٍ وأَذَانِ

قَوْلُهُ: «جُنْدٌ يُنَادِي بِالبيَانِ» يعني: اللفظُ إذا سيق بالتركيب مركَّبًا، فإنه يحتفُّ به جندٌ ينادي بالبيان عليه مثل ندائنا بإقامةٍ وأذان.

وهذا الجندُ هُوَ الكلماتُ التي حوله: واحتفَّت به تُنادِي عَلَى هَذَا اللفظ بالبيان بأنَّ المرادَ به كذا، قَالَ الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ

خَبِيرًا ﴾ [الفُرْقان:٥٩] كلمة (العرش) تصلحُ لكُلِّ عرشٍ لكن ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ هَذَا التركيبُ أو هَذِهِ الكلماتُ التي احتفَّت بالعرش تُعَيِّنُ أن يكونَ معناه عرشَ الرَّبِّ لا غير.

فالقرائنُ يعني: الكلمات التي تحتفُّ باللفظ، جُنْد ينادي عليه، يقولُ: هنا ما تريدُ، هنا ما تريدُ، لا يتعدَّاه إِلَى غيره.

٢٠٢٩- كَيْ يَحْصُلَ الإِعْلَامُ بِالمَقْصُودِ مِنْ　　　إِيــرَادِهِ وَيَصِــيرَ فِي الأَذْهَــانِ

وهذا صحيحٌ، تنادي هَذِهِ الكلماتُ المحتفَّةُ بالكلمة، تنادي بالبيان بأنَّ المرادَ كَذَا وكذا، حتَّى يصير معلومًا لا يتعدَّاه إِلَى معنًى آخر.

٢٠٣٠- فَيَفُـكُّ تَرْكِيـبَ الكَـلَامِ مُعَانِـدٌ　　　حَتَّـى يُقَلْقِلَـهُ مِـنَ الأَرْكَـانِ

قَوْلُهُ: «فَيَفُكُّ تَرْكِيبَ الكَلَامِ مُعَانِدٌ» مثل أهل التعطيل يفكِّكونه، يقولونَ: (اسْتَوَى) له عدَّةُ معانٍ، و(العرش) له عدَّةُ معانٍ، فأيُّ المعاني تريدون؟ فيشكِّكون.

نقول: هَذَا الكلامُ إنما يكونُ لو أُفرِدَت كُلُّ كلمةٍ، أمَّا مع ضمٍّ بعضها إِلَى بعض فإِنَّ المعنى يتعيَّن، لكن أنتم تفكِّكون الكلامَ، وتُجزِّئونه، وتمزِّقونه؛ تضليلًا للخلق.

٢٠٣١- وَيَـرُومَ مِنْـهُ لَفْظَـةً قَـدْ حُمِّلَـتْ　　　مَعْنًـى سِـوَاهَا فِي كَـلَامٍ ثَانِـي

قَوْلُهُ: «يَرُومُ» يعني: يقصد.

قَوْلُهُ: «لَفْظَةً قَدْ حُمِّلَتْ مَعْنًى سِوَاهَا فِي كَلَامٍ ثَانِي» يعني: هَذِهِ اللفظة التي يُشكِّكُنا فيها الآن تحتملُ هَذَا المعنى الَّذِي قَالَ لكن في كلامٍ آخر، أمَّا في هَذَا الكلام فلا تحتملُ المعنى الَّذِي رامه.

٢٠٣٢- فَيَكُـونُ دَبُّـوسَ الشِّـقَاقِ وعُـدَّةً لِلـدَّفْعِ فِعْـلَ الْـجَاهِلِ الفَتَّـانِ

قَوْلُهُ: «الدَّبُّوس» معروفٌ وَهُوَ ما يُنْقَرُ به مثل المسمار أو شبهه.

قَوْلُهُ: «فَيَكُونُ دَبُّوسَ الشِّقَاقِ» يعني: هُوَ الَّذِي يضربُ المُجْتَمِع حتىَّ يُشقِّقَه.

وفي نسخة ثانية: «دبوس السِّلاق» يعني: العظام؛ لأنها إذا دُقَّت بالدبوس تفرَّقت؛ فيكون هَذَا القولُ الَّذِي أراد أن يُمَزِّقَ الأدلةَ به مثلَ دبوس السِّلاق أو الشقاق.

٢٠٣٣- فَيَقُولُ: هَـذَا مُجْمَـلٌ وَاللَّفْـظُ مُحْـ ـتَمِلٌ، وَذَا مِـنْ أَعْظَـمِ البُهْتَـانِ

قَوْلُهُ: «فَيَقُولُ: هَذَا مُجْمَلٌ وَاللَّفْظُ مُحْتَمِلٌ» قَالَ ابنُ القيم: «وذا من أعظم البهتان»؛ لأنه بسياقه ليس مُجْمَلًا ولا محتملًا.

٢٠٣٤- وَبِذَاكَ يَفْسُدُ كُلُّ عِلْـمٍ فِي الـوَرَى وَالفَهْـمُ مِـنْ خَـبَرٍ وَمِـنْ قُـرْآنِ

يعني: بهذا الطريق الَّذِي سلكها هَذَا المبتدع يفسدُ كُلُّ لفظٍ في الورى؛ لأنَّ كُلَّ لفظٍ إذا أردنا أن نُمزِّقَه ونمزِّقَ كلماتِه كلمةً كلمةً، ونقولُ: هَذِهِ الكلمةُ تحتملُ كَذَا وكذا، تبقى كُلُّ الألفاظ لا يمكنُ أن يُسْتَدَلَّ بها لشيء؛ لأنَّ كُلَّ واحدٍ يستطيعُ أن يُجَزِّئَ الكلامَ، ويقولُ: هَذِهِ الكلمةُ تحتملُ كذا.

فنقول: نعم، هي تحتملُه في غير هَذَا السِّياق، أمَّا في هَذَا السِّياق فإنه جملةٌ واحدةٌ لا يمكنُ أن يُفَكَّكَ، ولو أننا سلكنا ما تذهبُ إليه لكان كُلُّ إنسانٍ يتكلَّمُ يفسدُ كلامُه، حتىَّ لو قَالَ الرجلُ لزوجته: (أنت طالقٌ)، لقلنا: فُكَّ تركيب الكلام: (أنتِ) مبتدأ، والخبر ليس (طالق)؛ بل مثلًا: (أنت جميلةٌ)، وأمَّا (طالق) فيحتملُ: طالقًا مِن قَيد، طالقًا من نكاحٍ، طالقًا من الغمِّ، هل يكونُ لهذه الجملة

(أنتِ طالقٌ) فائدة الآن؟ الجواب: لا يكونُ، فلو أردنا أن نُجَزِّئ كلامَ الناس جزءًا جزءًا لفسد الكلامُ كُلُّه، وفسد الفهمُ، ولم يبقَ للناس فهمٌ صادقٌ.

٢٠٣٥- إِذْ أَكْثَرُ الأَلْفَاظِ تَقْبَلُ ذَاكَ فِي الْـ ... إِفْرَادِ قَبْلَ الْعَقْدِ وَالتِّبْيَانِ

أكثرُ الأفرادِ تقبلُ ذاك، أي: تقبلُ التعددَ والاحتمالَ.

قَوْلُهُ: «قَبْلَ الْعَقْدِ» يعني: قبل أن يُعْقَدَ بينها وَيُبَيَّن، كُلُّ الكلماتِ غالبُها يحتملُ معنيَيْن لكن السِّياقُ يُعَيِّن.

٢٠٣٦- لَكِنْ إِذَا مَا رُكِّبَتْ زَالَ الَّذِي ... قَدْ كَانَ مُحْتَمِلًا لَدَى الوَحْدَانِي

إذا رُكِّبت الكلماتُ بعضُها مع بعض، فإنَّ الاحتمالَ الَّذِي يكونُ فيما لو أُفرِدَت يزولُ ولا يبقى.

٢٠٣٧- فَإِذَا تَجَرَّدَ كَانَ مُحْتَمِلًا لِغَيْـ ... ـرِ مُرَادِهِ أَوْ فِي كَلَامٍ ثَانِي

قَوْلُهُ: «إِذَا تَجَرَّدَ» يعني: فُصِلَ بعضُه عن بعض، كان محتملًا لغير المراد، أو محتملًا لكلامٍ ثانٍ مُعَيَّن.

٢٠٣٨- لَكِنَّ ذَا التَّجْرِيدَ مُمْتَنِعٌ فَإِنْ ... يُفْرَضْ يَكُنْ لَا شَكَّ فِي الأَذْهَانِ

قَوْلُهُ: «لَكِنَّ ذَا التَّجْرِيدَ مُمْتَنِعٌ» «التجريد» يعني: أنَّ تجريدَ الكلماتِ بعضها من بعض ممتنعٌ، كُلُّ كلامِ العرب تجده لا بُدَّ أن يكونَ مركَّبًا حقيقةً أو حُكمًا، يعني: لا تجدُ أبدًا في كلام العرب كلمةَ (زيد) فقط، لا تجدُ فيه أبدًا (قام) فقط، لا بُدَّ في كلام العرب من أن يكون مركَّبًا، ولهذا فإن علماءُ النحو يقولون: الكلامُ هُوَ اللفظ المركَّب، وليس في كلام العرب شيءٌ غيرُ مركَّبٍ، بل إذا وُجِدَ غير مركَّب قيل: هَذَا ليس بكلامٍ ولا عبرةَ به.

قَوْلُهُ: «فَإِنْ يُفْرَضْ يَكُنْ لَا شَكَّ فِي الأَذْهَانِ» يعني: إن فُرِضَ كلامٌ مفردٌ فهو فرضٌ ذهنيٌّ.

قَوْلُهُ: «فَإِنْ يُفْرَضْ» يعني: يُفْرَضُ التجريدُ يكن -لا شكَّ- في الأذهان.

وَقَوْلُهُ: «لَا شَكَّ» جملة معترضة.

يعني: إن فُرِضَ تجريدُ الكلام بعضه من بعض فهذا في الأذهان، يعني: أنَّ الذهنَ يُقَدِّرُ أنَّ الكلامَ متمزِّقٌ متفرِّقٌ، لكن في الواقع لا يمكنُ.

٢٠٣٩- وَالـمُفْرَدَاتُ بِغَيْرِ تَرْكِيبٍ كَمِثْـ ـلِ الصَّوْتِ تَنْعِقُهُ بِتِلْكَ الضَّانِ

وهذا صحيحٌ، فالمفرداتُ بغير تركيب مثل الصوت لِلَّذِي يَنْعِق بالضأن، فالضأن تفهمُ صوتَه وتأتي، أو حسب تعليمه لها، هل هَذِهِ كلماتٌ مفيدة؟ الجواب: أبدًا، فهي تفيدُ الضأنَ، لكن لا تفيدُ الإنسانَ.

فإذا قدَّرنا كلمةً موجودةً بلا تركيبٍ فهي كصوت الناعق بالبهيمة، لا فائدةَ منها، وليست واردةً.

٢٠٤٠- وَهُنَالِكَ الإِجْمَالُ وَالتَّشْكِيكُ وَالتْـ ـتَجْهِيلُ والتَّحْرِيفُ بِالبُطْلَانِ

يعني: أننا لو فرضنا إفرادَ الكلماتِ بعضها من بعض وتمزيق الكلام حينئذٍ يأتي التشكيكُ.

٢٠٤١- فَإِذَا هُمُ فَعَلُوهُ رَامُوا نَقْلَهُ لِـمُرَكَّبٍ قَدْ حُفَّ بِالتِّبْيَانِ

قَوْلُهُ: «فَإِذَا هُمُ» الضميرُ يعودُ عَلَى أهل التعطيل، يعني: إذا فعلوا ذلك وجَرَّدوا الكلماتِ من معناها عند تمزيقها وتفريدها نقلوا ذلك إِلَى المركَّب؛ ولهذا

قال: (نقلوه لمركبٍ قد حف بالتبيان)، فجعلوا المعنى الَّذِي يُحتملُ عند الإفراد هُوَ المعنى الَّذِي يُحتمل عند التركيب، فضلَّلوا الناسَ بِهَذِهِ الطريقة.

٢٠٤٢- وَقَضَوْا عَلَى التَّرْكِيبِ بِالْحُكْمِ الَّذِي حَكَمُوا بِهِ لِلْمُفْرَدِ الوَحْدَانِي

٢٠٤٣- جَهْلًا وَتَجْهِيلًا وَتَدْلِيسًا وتَلْبِيسًا وَتَرْوِيجًا عَلَى العُمْيَانِ

قَوْلُهُ: «**جَهْلًا**» أي: منهم.

قَوْلُهُ: «**وَتَجْهِيلًا**» أي: لغيرهم، وتدليسًا وتلبيسًا وترويجًا عَلَى العميان؛ لأنهم إذا جاؤوا بِهَذِهِ الطريق لَبَّسوا عَلَى الأعمى، يقولُ مثلًا: أليس العرشُ اسمًا لعرش المَلِك؟ سنقولُ: بلى، اسمًا لعرش الكروم والعنب؟ سنقولُ: بلى، اسمًا لعرش بلقيس؟ سنقول: بلى، اسمًا للسَّقف عَلَى الأعمدة؟ سنقولُ: بلى، إِذَنْ ما المرادُ بـ(العرش) الَّذِي اسْتَوَى عليه الله؟ ماذا نقولُ له؟

نقول: الاحتمالاتُ التي ذكرناها إنما هُوَ في (العرش) عند الإفراد، أمَّا إذا جَاءَ في سياق مركَّبٍ فإنَّ هَذَا السِّياقَ يُعَيِّنُ المرادَ، فقولُه تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] (العرشُ) هنا لا يحتملُ هَذِهِ المعانيَ التي ذُكِرَتْ، إنَّما يدلُّ عَلَى عرشٍ خاصٍ بالله عزَّ وجلَّ فقط، لا عرش بلقيس، ولا عرش الكروم، ولا سقف البيت، بل هُوَ عرشُ الله عزَّ وجلَّ والذي عيَّنه هُوَ السِّياقُ، لكن هم يأتون للعامة وأشباهِهم فيقولُون: (العرشُ) له عدَّةُ معانٍ فأيَّ معنًى تريدُ؟ نقولُ: هَذَا الاحتمالُ إنما هُوَ عند الإفراد، أمَّا عند الضمِّ، فإنَّ الكلماتِ إذا ضُمَّ بعضُها مع بعض تَعَيَّنَ المرادُ بالسِّياق.

* * *

فصل

فِي بَيَانِ شَبَهِ غَلَطِهِمْ فِي تَجْرِيدِ الأَلْفَاظِ بِغَلَطِ الفَلَاسِفَةِ فِي تَجْرِيدِ المَعَانِي

٢٠٤٤- هَـذَا هَـدَاكَ اللهُ مِـنْ إِضْلَالِـهِـمْ ... وَضَلَالِـهِـمْ فِي مَنْطِـقِ الإِنْسَـانِ

٢٠٤٥- كَمُجَرَّدَاتٍ فِي الـخَيَالِ وَقَـدْ بَنَـى ... قَـوْمٌ عَلَيْهَـا أَوْهَـنَ البُنْيَـانِ

٢٠٤٦- ظَنُّـوا بِـأَنَّ لَـهَا وُجُـودًا خَارِجًـا ... وَوُجُودُهـا لَـوْ صَـحَّ فِي الأَذْهَـانِ

٢٠٤٧- أَنَّى وَتِلْكَ مُشَخَّصَـاتٌ حُصِّـلَتْ ... فِي صُـورَةٍ جُزْئِيَّـةٍ بِعِيَـانِ؟!

٢٠٤٨- لَكِنَّهَـا كُلِّيَّـةٌ إِنْ طَابَقَـتْ ... أَفْرَادَهَـا كَـاللَّفْظِ فِي الـمِيزَانِ

٢٠٤٩- يَدْعُونَـهُ الكُلِّـيَّ وهْـوَ مُعَـيَّنٌ ... فَـرْدٌ كَـذَا الـمَعْنَى هُمَـا سِيَّانِ

٢٠٥٠- مُتَجَـرِّدًا فِي الـذِّهْنِ أَوْ فِي خَـارِجٍ ... عَـنْ كُـلِّ قَيْـدٍ لَـيْسَ فِي الإِمْكَـانِ

٢٠٥١- لَا الـذِّهْنُ يَعْقِلُـهُ وَلَا هُـوَ خَـارِجٌ ... هُـوَ كَالـخَيَالِ لِطَيْفِـهِ سُـكْرَانِ

٢٠٥٢- لَكِـنْ تَجَرُّدُهَـا الـمُقَيَّدُ ثَابِـتٌ ... وَسِـوَاهُ مُـمْتَنِعٌ بِـلَا إِمْكَـانِ

٢٠٥٣- فَتَجَرُّدُ الأَعْيَانِ عَنْ وَصْـفٍ وَعَـنْ ... وَضْعٍ وَعَـنْ وَقْـتٍ لَـهَا وَمَكَـانِ

٢٠٥٤- فَرْضٌ مِنَ الأَذْهَـانِ يَفْرِضُـهُ كَفَـرْ ... ضِ الـمُسْتَحِيلِ هُمَا لَـهَا فَرْضَـانِ

٢٠٥٥- اللهُ أَكْـبَرُ كَـمْ دَهَـى مِـنْ فَاضِـلٍ ... هَـذَا التَّجَـرُّدُ مِـنْ قَـدِيمِ زَمَـانِ!

٢٠٥٦- تَجْرِيدُ ذِي الأَلْفَـاظِ عَـنْ تَرْكِيبِهَـا ... وَكَذَاكَ تَجْرِيدُ الـمَعَانِـي الثَّانِـي

٢٠٥٧- وَالـحَقُّ أَنَّ كِلَيْهِمَا فِي الـذِّهْنِ مَفْـ ـرُوضٌ فَلَا تَحْكُمْ عَلَيْهِ فِي الأَذْهَانِ

٢٠٥٨- فَيَقُودَكَ الـخَصْمُ الـمُعَانِدُ بالَّذِي سَـــلَّمْتَهُ لِلْحُكْـــمِ فِي الأَعْيَـــانِ

٢٠٥٩- فَعَلَيْكَ بِالتَّفْصِيلِ إِنْ هُـمْ أَطْلَقُـوا أَوْ أَجْمَلُـــوا فَعَلَيْـــكَ بِالتِّبْيَـــانِ

الشـــرحُ

يقولُ المؤلفُ في هَذَا الفصل: إِنَّ هؤلاء الذين جرَّدوا الألفاظَ عن معانيها، ولم يُعَيِّنوا المعنى بالسِّياق يُشْبِهونَ مَنْ جَرَّدُوا الأعيانَ عن أوصافها وهم الفلاسفة؛ لأنَّ الفلاسفةَ -كما هُوَ معلومٌ- قالوا: إِنَّ اللهَ تعالى لا يُوصَفُ بصفاتٍ ثبوتيَّة ولا صفاتٍ سلبيَّة، يعني: لا تصفه بوجودٍ ولا عدم، وعِلَّةُ ذلك عندهم أنك لو وصفتَه بالإثبات شبَّهته بالموجودات، ولو وصفتَه بالنفي شبَّهته بالمعدومات، إِذَنْ فلا تصفه بنفيٍ ولا إثبات.

فقيل لهم: لا يمكنُ أن تُوجَدَ عينٌ لا تُوصَفُ بإثبات ولا نفي إِلَّا ما يتخيَّلُه الذهنُ فرضًا أمَّا في الخارج، يعني: بأن تُوجدَ عَيْنٌ مستقلَّةٌ مُجَسَّدةٌ، فإنه لا يمكنُ أن تُوجدَ عينٌ إِلَّا موصوفة إِمَّا بنفي وإِمَّا بإثبات.

والفروضُ الذهنيَّةُ لا تدلُّ عَلَى حقيقة المفروض، فالإنسان قد يفرض الجمعَ بين الضدَّين، ولكن هل الجمعُ بين الضدَّين ممكنٌ؟ الجواب: لا.

يقول المؤلفُ -رحمه الله-: إِنَّ غلطَ هؤلاء في تجريد الكلمات عن المعنى كغلط هؤلاء في تجريد الأعيان عن الأَوْصَاف.

يقول -رحمه الله-:

٢٠٤٤- هَــذَا هَــدَاكَ اللهُ مِــنْ إِضْلَالِــهِمْ وَضَلَالِـــهِمْ فِي مَنْطِـــقِ الإِنْسَـــانِ

قَوْلُهُ: «فِي مَنْطِقِ الإِنْسَانِ» أي: في النطق؛ لأنَّ المعروفَ أنَّ الإنسانَ إذا تكلَّم فإنها يعني ما يتكلَّمُ به بحسب السِّياق، ولا يعني غيرَه، ويكون السِّياقُ معيِّنًا للمعنى المراد من المتكلِّم.

وَقَوْلُهُ: «فِي مَنْطِقِ الإِنْسَانِ»، وفي نسخة **«في المَنطِق اليُوناني»** فيشير إِلَى مذهب الفلاسفة الذين قالوا بتجريد الأعيان عن أوصافها، هؤلاء جرَّدوا الكلماتِ عن معانيها، وأولئك جرَّدوا الأعيانَ عن أوصافها.

٢٠٤٥- كَمُجَرَّدَاتٍ فِي الخَيَالِ وَقَدْ بَنَى ... قَومٌ عَلَيْهَا أَوْهَنَ البُنْيَانِ

يُشيرُ إِلَى الفلاسفة الذين أنكروا أن يكونَ اللهُ موصوفًا بالإثبات أو موصوفًا بالنفي.

٢٠٤٦- ظَنُّوا بِأَنَّ لَهَا وُجُودًا خَارِجًا ... وَوُجُودُها لَوْ صَحَّ فِي الأَذْهَانِ

قَوْلُهُ: «ظَنُّوا» أي: هؤلاء القوم.

قَوْلُهُ: «بِأَنَّ لَهَا وُجُودًا خَارِجًا» يعني: ظنُّوا أنه تُوجَدُ ذاتٌ لا تُوصَفُ بإثباتٍ ولا نفي.

فيقول ابنُ القيِّم: «وَوُجُودُها لَوْ صَحَّ» في أيِّ شيءٍ؟

الجواب: في الأذهان، يعني: أنَّ الذهنَ هُوَ الَّذِي يفرضُ ذاتًا ليس لها صفاتٌ، أمَّا في الخارج فإنه لا يمكنُ أن تُوجَدَ ذاتٌ بلا صفات، لو لم يكن من صفاتها إِلَّا الوجود لكان كافيًا، مثلًا أمامنا عصا قائمة، هل يمكنُ أن نقولَ: هَذِهِ العصا ليست موجودةً ولا معدومةً؟ الجواب: لا يمكنُ، لكنَّ الذهنَ قد يفرضُ أشياءَ مستحيلةً.

٢٠٤٧- أَنَّى وَتِلْكَ مُشُخَّصَاتٌ حُصِّلَتْ ... في صُورَةٍ جُزْئِيَّةٍ بِعِيَانِ؟!

يعني: كَيْفَ يمكنُ أن ننفيَ وجودَ صفةٍ في الأعيان أو وجودَ معنى في الكلمات وهي قد شُخِّصت في صورةٍ جزئيَّة، والمُشَخَّص في صورة جزئيَّة لا بُدَّ أن تكونَ له صفةٌ، المُشَخَّص في سياق مُعَيَّن لا بُدَّ أن يكونَ له معنى لا يحتملُ غيرَه، فهذا مثلُ هذا.

٢٠٤٨- لَكِنَّهَا كُلِّيَّةٌ إِنْ طَابَقَتْ ... أَفْرَادَهَا كَاللَّفْظِ فِي المِيزَانِ

المعاني كُلِّيَّةٌ إذا طابقت أفرادَها، لكن الفرد منها المعيَّن هَذَا جزئِيٌّ لا بُدَّ أن يكونَ موصوفًا بصفة، مثال ذلك: كلمة **(الإنسان)** نحن نعلمُ أنَّ جميعَ البشر يشتركون في معنى كُلِّيٍّ وَهُوَ الإنسانيَّة، هل الإنسانيَّةُ شيءٌ مُشَخَّصٌ يُرَى ويُشَاهدُ؟ الجواب: لا، لكنَّه معنى كُلِّيٌّ عام تتساوى فيه الأفرادُ.

(الحيوان) مثلًا: اسم لكُلِّ ذِي روح من الإنسان وغير الإنسان، فهل الحيوانيَّة هَذَا المعنى الكُلِّيُّ، هل هُوَ شيءٌ مُشَخَّص يُرَى بالعين؟

الجواب: لا، لكن أفراده مُشَخَّصة تُرَى بالعين، كذلك المعاني الكُلِّيَّة، الَّذِي قالوا مثلًا: **(العرش)** له معنى كَذَا وكذا وكذا، نقول: هَذَا معنى كُلِّيٌّ، ولا يتعيَّنُ المعنى إِلَّا بالسِّياق.

٢٠٤٩- يَدْعُونَهُ الكُلِّيَّ وهُوَ مُعَيَّنٌ ... فَرْدٌ كَذَا المَعْنَى هُمَا سِيَّانِ

يعني: أَنَّ المعانيَ الكُلِّيَّةَ كُلِّيَّةٌ في الأذهان لا في الخارج، فعندما تكونُ في الخارج تكونُ معيَّنةً مُشَخَّصَةً فرديةً، كذلك يكونُ اللفظُ له معنى كُلِّيٌّ عام لكن عندما تضعُه في مكانه يكونُ له معنى خاص يعيِّنه السِّياقُ.

٢٠٥٠- مُتَجَـرِّدًا فِي الـذِّهْنِ أَوْ فِي خَـارِجٍ ... عَـنْ كُـلِّ قَيْـدٍ لَـيْسَ فِي الإِمْكَـانِ

يعني: أنه مستحيلٌ، فمستحيلٌ أن تُجَرِّدَ اللفظَ عن المعنى في حال السِّياق، مستحيلٌ أن تجرِّدَ الأعيانَ عن المعنى الكُلِّيِّ إذا كانت في الخارج.

فخلاصةُ كلام المؤلف: أنَّ هؤلاء غلطوا في اللفظ كما غلط الفلاسفةُ في الأعيان، فجعلوا اللفظَ لا معنى له، وجعلوه محتملًا لكُلِّ معنى وإنْ قُيِّد بالسِّياق كما أنَّ هؤلاء جعلوا المعنى الكُلِّيَّ ثابتًا في كل جزء وفي كل فرد، فقالوا: يمكنُ أن يكونَ الخالقُ غيرَ موصوفٍ لا بإثبات ولا بنفي، فنقول: هَذَا شيءٌ غيرُ ممكنٌ.

٢٠٥١- لَا الـذِّهْنُ يَعْقِلُـهُ وَلَا هُـوَ خَـارِجٌ ... هُـوَ كَالـخَيَالِ لِطَيْفِهِ سُـكْرَانِ

قَوْلُهُ: «لِطَيْفِهِ» بالهاء، وهي ليست بواضحةٍ تمامًا، وممَّا لا شكَّ أنَّ الطَّيْفَ هُوَ ما يمرُّ بخيال الإنسان وَهُوَ لا حقيقةَ له، قد تمرُّ بتفكير الإنسان أشياءُ ليست بحقيقة، فهؤلاء الذين فرضوا كلماتٍ ليس لها معنى، أو لها معانٍ متعددة لا تتعيَّن كالذين فرضوا أعيانًا ليس لها صفاتٌ، وهذا إنما يقدِّرُه الذهنُ، ولا حقيقةَ له في الخارج.

٢٠٥٢- لَكِـنْ تَجَرُّدُهَـا الـمُقَيَّدُ ثَابِـتٌ ... وَسِـوَاهُ مُـمْتَنِعٌ بِـلَا إِمْكَـانِ

قَوْلُهُ: «تَجَرُّدُهَا المُقَيَّدُ» بماذا؟ الجواب: بالمعنى بالنسبة للكلام، وبالصفة بالنسبة للأعيان، فتجرُّدُهَا المقيَّدُ ثابتٌ.

قَوْلُهُ: «وَسِوَاهُ مُمْتَنِعٌ» يعني: سوى التجرُّد المقيَّد ممتنعٌ، لا يوجدُ أبدًا إِلَّا في الذهن كما مَرَّ.

٢٠٥٣- فَتَجَرُّدُ الأَعْيَانِ عَنْ وَصْـفٍ وَعَـنْ ... وَضْعٍ وَعَـنْ وَقْـتٍ لَـهَا وَمَكَـانِ

٢٠٥٤- فَرْضٌ مِنَ الأَذْهَانِ يَفْرِضُهُ كَفَرْ   ضِ الـمُسْتَحِيلِ هُمَا لَـهَا فَرْضَانِ

وهذا صحيحٌ، يعني: أن تُوجَدَ عينٌ مجرَّدةٌ عن الوصف، مجرَّدةٌ عن الوضع، لا يشغلُها مكانٌ ولا زمانٌ، هَذَا شيءٌ مفروضٌ فرضًا، إذ ما من عينٍ إلَّا ولها وصفٌ، ما من عينٍ إلَّا وهي مشغولةٌ بزمانٍ أو مكانٍ، وأمَّا ما يفرضه الذهنُ أنه تُوجَدُ عينٌ لا وصفَ لها ولا مكان ولا زمان فهذا لا حقيقةَ له.

٢٠٥٥- اللهُ أَكْبَرُ كَمْ دَهَى مِنْ فَاضِلٍ   هَذَا التَّجَرُّدُ مِنْ قَدِيمِ زَمَانِ!

صحيحٌ، وَهُوَ أنهم يحكمون بالمفروضات الذهنية عَلَى الموجودات العينيَّة، ويقولون: إنَّ الإنسانَ يمكنُ أن يتصوَّرَ ذاتًا ليس لها صفاتٌ، وأن يتصوَّرَ كلمةً ليس لها معنًى محدَّدٌ، وكُلُّ هَذِهِ من الفروض التي -كما قَالَ المؤلف- أصابت الفضلاءَ بالدَّواهي.

٢٠٥٦- تَجْرِيدُ ذِي الأَلْفَاظِ عَنْ تَرْكِيبِهَا   وَكَذَاكَ تَجْرِيدُ الـمَعَانِي الثَّانِي

قَوْلُهُ: «**تَجْرِيدُ ذِي الأَلفاظِ عَنْ تَرْكِيبِهَا**» يعني: أنَّ تجريدَ الكلمات عن تركيبها، مستحيلٌ، فلا تُوجَدُ كلمةٌ مُجَرَّدةٌ عن تركيب إلَّا فيمن يَنْعِقُ للحيوان والشَّاءِ والبعران.

قَوْلُهُ: «**وَكَذَاكَ تَجْرِيدُ المَعَانِي الثَّانِي**» كذلك لا تُوجَدُ عينٌ مجرَّدةٌ من المعاني.

إِذَنْ لا بُدَّ لكُلِّ عينٍ من معنى ووصفٍ، ووجودُ عينٍ بلا معنى ولا وصفٍ مستحيلٌ.

٢٠٥٧- وَالـحَقُّ أَنَّ كِلَيْهِمَا فِي الـذِّهْنِ مَفْـ   ـرُوضٌ فَلَا تَحْكُمْ عَلَيْهِ فِي الأَذْهَانِ

قَوْلُهُ: «**الـحَقُّ أَنَّ كِلَيْهِمَا فِي الذِّهْنِ**» الإشارةُ إِلَى الألفاظ المجرَّدة عن

التركيب، وإلى الأعيان المجرَّدة عن الأَوْصَاف، كلاهما في الذهن مفروضٌ فلا تحكم عليه في الأذهان.

قَوْلُهُ: «**فِي الأَذْهَانِ**» يجبُ أن تكونَ متعلِّقةً بقوله: (**مفروض**)، لا بقوله: (**تحكم**) يعني: الحقُّ أنَّ كليهما في الذِّهنِ مفروضٌ في الأذهان.

وفي نسخة: «**فلا تحكم عَلَيْهِ وَهُوَ فِي الأذهان**» وهي في المعنى أوضح، لا شكَّ، لكن يَنْكَسِرُ البيتُ، وفي الثاني يكون فيها تكرار؛ لأننا نقول: (**الحق أن كليهما فِي الذهن مفروضٌ فِي الأذهان**) فيه تكرار، إِلَّا أن يُقال: إنه يريدُ بذلك التوكيدَ.

على كُلِّ حالٍ المعنى: أنَّ تجريدَ الكلمات من التركيب مستحيلٌ، وتجريدَ الأعيان من الصِّفَات مستحيلٌ، وأنَّ دعوى تجريدِ الكلمات كدعوى تجريدِ الأعيان من الأَوْصَاف.

٢٠٥٨- فَيَقُودَكَ الخَصْمُ المُعَانِدُ بالَّذِي ... سَلَّمْتَهُ لِلْحُكْمِ فِي الأَعْيَانِ

قَوْلُهُ: «**فلا تحكم عَلَيْهِ وَهُوَ فِي الأذهان فيقودك الخصم المعاند...**» يعني: أنَّ المخَاصِمَ كالفلاسفة مثلًا يقولُ لهؤلاء: كما أنتم تصوَّرتم وجودَ كلماتٍ مجرَّدة عن التركيب فلتتصوَّروا أعيانًا مجرَّدةً عن الأَوْصَاف؛ ولهذا يقول:

٢٠٥٩- فَعَلَيْكَ بِالتَّفْصِيلِ إِنْ هُمْ أَطْلَقُوا ... أَوْ أَجْمَلُوا فَعَلَيْكَ بِالتِّبْيَانِ

ولهذا ما أكثرَ الغلط في الإطلاقات، وما أكثرَ الغلط في الإجمالات، ودائمًا يكونُ التفصيلُ هُوَ الَّذِي يُبَيِّن الحقَّ، ويأتي بالتحصيل؛ ولهذا يُقَالُ: (**بالتفصيل التحصيلُ**).

* * *

فصل

فِي بَيَانِ تَنَاقُضِهِمْ وعَجزِهِمْ عَنِ الفرْقِ بيْنَ مَا يَجِبُ تَأْوِيلُهُ وَمَا لا يَجِبُ

٢٠٦٠- وَتَمَسَّكُوا بِظَوَاهِرِ المَنْقُولِ عَنْ ... أَشْيَاخِهِمْ كَتَمَسُّكِ العُمْيَانِ

٢٠٦١- وَأَبَوْا بِأَنْ يَتَمَسَّكُوا بِظَوَاهِرِ النْـ ... ـنَصَّيْنِ، وَاعَجَبَا مِنَ الخُذْلَانِ!

٢٠٦٢- قَوْلُ الشُّيُوخِ مُحَرَّمٌ تَأْوِيلُهُ ... إِذْ قَصْدُهُمْ لِلشَّرْحِ وَالتِّبْيَانِ

٢٠٦٣- فَإِذَا تَأَوَّلْنَا عَلَيْهِم كَانَ إِبْـ ... ـطَالًا لِمَا رَامُوا بِلَا بُرْهَانِ

٢٠٦٤- فَعَلَى ظَوَاهِرِهَا تَمُرُّ نُصُوصُهُمْ ... وَعَلَى الْحَقِيقَةِ حَمْلُهَا لِبَيَانِ

٢٠٦٥- يَا لَيْتَهُمْ أَجْرَوْا نُصُوصَ الوَحْيِ ذَا ... الْمَجْرَى مِنَ الآثَارِ وَالْقُرْآنِ

٢٠٦٦- بَلْ عِنْدَهُمْ تِلْكَ النُّصُوصُ ظَوَاهِرٌ ... لَفْظِيَّةٌ عُزِلَتْ عَنِ الإِيقَانِ

٢٠٦٧- لَمْ تُغْنِ شَيْئًا طَالِبَ الْحَقِّ الَّذِي ... يَبْغِي الدَّلِيلَ وَمُقْتَضَى البُرْهَانِ

٢٠٦٨- وسَطَوْا عَلَى الوَحْيَيْنِ بِالتَّحْرِيفِ إِذْ ... سَمَّوْهُ تَأْوِيلًا بِوَضْعٍ ثَانِي

٢٠٦٩- فَانْظُرْ إِلَى الأَعْرَافِ ثُمَّ لِيُوسُفٍ ... وَالْكَهْفِ وَافْهَمْ مُقْتَضَى الْقُرْآنِ

٢٠٧٠- فَإِذَا مَرَرْتَ بِآلِ عِمْرَانٍ فَهِمْـ ... ـتَ القَصْدَ فَهْمَ مُوَفَّقٍ رَبَّانِي

٢٠٧١- وَعَلِمْتَ أَنَّ حَقِيقَةَ التَّأْوِيلِ تَبْـ ... ـيِينُ الْحَقِيقَةِ لَا الْمَجَازِ الثَّانِي

٢٠٧٢- وَرَأَيْتَ تَأْوِيلَ النُّفَاةِ مُخَالِفًا ... لِلجَمِيعِ هَذَا لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ

٢٠٧٣- اللَّفْظُ هُمْ أَنْشَوْا لَهُ مَعْنًى بِذَا ... كَ الإِصْطِلَاحِ وَذَاكَ أَمْرٌ دَانِي

٢٠٧٤- وَأَتَوْا إِلَى الإِلْحَادِ فِي الأَسْمَاءِ وَالتَّـ ... ـحْرِيفِ لِلأَلْفَاظِ بِالبُهْتَانِ

٢٠٧٥- فَكَسَوْهُ هَذَا اللَّفْظَ تَلْبِيسًا وَتَدْ ... لِيسًا عَلَى العُمْيَانِ وَالعُورَانِ

٢٠٧٦- فَاسْتَنَّ كُلُّ مُنَافِقٍ وَمُكَذِّبٍ ... مِنْ بَاطِنِيٍّ قِرْمِطِيٍّ جَانِي

٢٠٧٧- فِي ذَا بِسُنَّتِهِم وَسَمَّى جَحْدَهُ ... لِلْحَقِّ تَأْوِيلًا بِلَا فُرْقَانِ

٢٠٧٨- وَأَتَى بِتَأْوِيلٍ كَتَأْوِيلَاتِهِمْ ... شِبْرًا بِشِبْرٍ صَارِخًا بِأَذَانِ

٢٠٧٩- إِنَّا تَأَوَّلْنَا كَمَا أَوَّلْتُمُ ... فَأْتُوا نُحَاكِمْكُمْ إِلَى الوَزَّانِ

٢٠٨٠- فِي الكِفَّتَيْنِ نَحُطُّ تَأْوِيلَاتِنَا ... وَكَذَاكَ تَأْوِيلَاتِكُمْ بِوِزَانِ

٢٠٨١- هَذَا وَقَدْ أَقْرَرْتُمُ أَنَّا بِأَيْـ ... ـدِينَا صَرِيحُ العَدْلِ وَالمِيزَانِ

٢٠٨٢- وَغَدَوْتُمُ فِيهِ تَلَامِيذًا لَنَا ... أَوَلَيْسَ ذَلِكَ مَنْطِقَ اليُونَانِ؟

٢٠٨٣- مِنَّا تَعَلَّمْتُمْ وَنَحْنُ شُيُوخُكُمْ ... لَا تَجْحَدُونَا مِنَّةَ الإِحْسَانِ

٢٠٨٤- فَسَلُوا مَبَاحِثَكُمْ سُؤَالَ تَفَهُّمٍ ... وَسَلُوا القَوَاعِدَ رَبَّةَ الأَرْكَانِ

٢٠٨٥- مِنْ أَيْنَ جَاءَتْكُمْ؟ وَأَيْنَ أُصُولُهَا؟ ... وَعَلَى يَدَيْ مَنْ يَا أُولِي النُّكْرَانِ

٢٠٨٦- فَلِأَيِّ شَيْءٍ نَحْنُ كُفَّارٌ وَأَنْـ ... ـتُمْ مُؤْمِنُونَ وَنَحْنُ مُتَّفِقَانِ

٢٠٨٧- أَنَّ النُّصُوصَ أَدِلَّةٌ لَفْظِيَّةٌ ... لَمْ تُفْضِ قَطُّ بِنَا إِلَى إِيقَانِ؟!

٢٠٨٨- فَلِذَاكَ حَكَّمْنَا العُقُولَ وَأَنْتُمُ ... أَيْضًا كَذَاكَ فَنَحْنُ مُصْطَلِحَانِ

٢٠٨٩- فَـلِأَيِّ شَيْءٍ قَـدْ رَمَيْـتُمْ بَيْنَنَـا ... حَرْبَ الحُرُوبِ وَنَحْنُ كَـالأَخَوَانِ

٢٠٩٠- الأَصْلُ مَعْقُولٌ وَلَفْظُ الوَحْيِ مَعْـ ... ـزُولٌ وَنَحْـنُ وَأَنْـتُمْ صِـنْوَانِ

٢٠٩١- لَا بِالنُّصُوصِ نَقُـولُ نَحْـنُ وَأَنْـتُمُ ... أَيْضًـا كَـذَاكَ فَـنَحْنُ مُصْـطَلِحَانِ

٢٠٩٢- فَـذَرُوا عَـدَاوَتَنَا فَـإِنَّ وَرَاءَنَـا ... ذَاكَ العَـدُوَّ الثِّقْـلَ ذَا الأَضْـغَانِ

٢٠٩٣- فَهُـمْ عَـدُوُّكُمْ وَهُـمْ أَعْـدَاؤُنَا ... فَجَمِيعُنَـا فِي حَـرْبِهِمْ سِـيَّانِ

٢٠٩٤- تِلْكَ الْـمُجَسِّمَةُ الأُلَى قَـالُوا بِـأَنْ ... نَ اللهَ فَـوْقَ جَمِيـعِ ذِي الأَكْـوَانِ

٢٠٩٥- وَإِلَيْـهِ يَصْـعَدُ قَوْلُنَـا وَفِعَالُنَـا ... وَإِلَيْـهِ تَرْقَـى رُوحُ ذِي الإِيـمَانِ

٢٠٩٦- وَإِلَيْهِ قَـدْ عَـرَجَ الرَّسُـولُ حَقِيقَـةً ... وَكَذَا ابْـنُ مَـرْيَمَ مُصْـعَدَ الأَبْـدَانِ

٢٠٩٧- وَكَـذَاكَ قَـالُوا إِنَّـهُ بِالـذَّاتِ فَـوْ ... قَ العَـرْشِ قُدْرَتُـهُ بِكُـلِّ مَكَـانِ

٢٠٩٨- وَكَـذَاكَ يَنْـزِلُ كُـلَّ آخِـرِ لَيْلَـةٍ ... نَحْـوَ السَّـمَاءِ فَهَـا هُنَـا جِهَتَـانِ:

٢٠٩٩- لِلْإِبْتِـدَاءِ وَالِانْتِهَـاءِ وَذَانِ لِلْـ ... أَجْسَـامِ أَيْـنَ اللهُ مِـنْ هَـذَانِ؟!

٢١٠٠- وَكَـذَاكَ قَـالُوا: إِنَّـهُ مُـتَكَلِّمٌ ... قَـامَ الكَـلَامُ بِـهِ فَيَـا إِخْوَانِـي

٢١٠١- أَيَكُـونُ ذَاكَ بِغَـيْرِ حَـرْفٍ أَمْ بِـلَا ... صَوْتٍ؟! فَهَذَا لَـيْسَ فِي الإِمْكَـانِ

٢١٠٢- وَكَـذَاكَ قَـالُوا مَـا حَكَيْنَـا عَـنْهُمُ ... مِـنْ قَبْـلُ قَـوْلَ مُشَـبِّهِ الـرَّحْمَنِ

٢١٠٣- فَذَرُوا الـحِرَابَ لَنَا وَشُـدُّوا كُلُّنَـا ... جَمْعًـا عَلَـيْهِمْ حَمْلَـةَ الفُرْسَـانِ

٢١٠٤- حَتَّـى نَسُـوقَهُمُ بِأَجْمَعِنَـا إِلَى ... وَسَطِ العَـرِينِ مُـمَزَّقِي اللُّحْـمَانِ

الشـــرحُ

يريدُ المؤلفُ -رحمه الله- في هَذَا الفصل بيانَ تناقضِ هؤلاء الذين يُنكرون صفاتِ الله، ويثبتون بعضًا منها وينكرون بعضًا، وكذلك تناقضِ مَنْ يثبتون الأسماءَ دون الصِّفَات، فهم أيضًا متناقضون بلا شكٍّ، فيقول المؤلفُ -رحمه الله-:

٢٠٦٠- وَتَمَسَّكُوا بِظَوَاهِرِ المَنْقُولِ عَنْ أَشْيَاخِهِمْ كَتَمَسُّكِ العُمْيَانِ

المنقولُ عن أشياخِهم يتمسَّكون به تمسُّكًا قويًّا جدًّا كتمسُّك الأعمى الَّذِي لا يُبْصِرُ، والأعمى الَّذِي لا يُبْصِرُ يتمسَّكُ بالشيء وإن كان لا يراه ولا يعرفُه، أمَّا ظواهرُ النصوص فلم يتمسَّكوا بها؛ ولهذا قال:

٢٠٦١- وَأَبَوْا بِأَنْ يَتَمَسَّكُوا بِظَوَاهِرِ النْـ ـنَصَّيْنِ، وَاعَجَبَا مِنَ الخُذْلَانِ!

والله هَذَا الخذلان، أنَّ أقوالَ شيوخِهم يتمسَّكون بظواهرِها، ولا يخرجونها عن ظاهرها، ويَرَوْنَ أنها دالَّةٌ دلالةً يقينيَّة عَلَى المراد بها، وأمَّا الْقُرْآنُ والسُّنَّةُ وهما النصَّان فإنهم لا يتمسَّكون بالظواهر، ويحُرِّفونها.

٢٠٦٢- قَوْلُ الشُّيُوخِ محُرَّمٌ تَأْوِيلُهُ إِذْ قَصْدُهُمْ لِلشَّرْحِ وَالتِّبْيَانِ

سبحان الله! يقول: إنَّ قولَ الشيوخ عندهم محرَّمٌ تأويلُه؛ لأنهم يأتون بالكلام يريدون به البيانَ، وإذا أتى الإنسانُ بالكلام وَهُوَ يريدُ خلافَ ظاهرِه كان ذلك خلافَ البيان، فشيوخُنا يريدون البيانَ، فإذا كانوا يريدون البيانَ فالواجبُ أن نحملَ كلامَهم عَلَى ظاهرِه؛ لأنَّ مَنْ أراد البيانَ لا يمكنُ أن يريدَ خلافَ الظاهر.

والْقُرْآنُ والسُّنَّةُ عندهم يُراد بهما خلاف الظاهر، إِذَنْ فهي ليست بيانًا، البيانُ قولُ شيوخِهم، والكتابُ والسُّنَّة ليسا ببيان.

٢٠٦٣- فَـإِذَا تَأَوَّلْنَـا عَلَـيْهِم كَـانَ إِبْـــ ـــطَالًا لِـمَا رَامُـوا بِـلَا بُرْهَـانِ

يقولون: لو تأوَّلنا كلامَ الشيوخ كان إبطالًا لما قصدوا بلا بُرْهَان، أمَّا الكتابُ والسُّنَّةُ فواجبٌ أن نؤوِّلَهما بلا بُرْهَان أيضًا.

٢٠٦٤- فَعَلَى ظَوَاهِرِهَا تَـمُرُّ نُصُوصُـهُمْ وَعَـلَى الْـحَقِيقَةِ حَمْلُهَـا لِبَيَـانِ

يقولون: إنَّ الواجبَ في كلامِ شيوخِنا إمرارُها عَلَى ظاهرِها، ولا نتعرَّضُ لها بتأويل، وعلى الحقيقة نحملُها.

٢٠٦٥- يَا لَيْتَهُمْ أَجْرَوْا نُصُوصَ الوَحْيِ ذَا الـمَجْرَى مِـنَ الآثَـارِ وَالْقُـرْآنِ

يقول: ليتهم أَجْرَوْا نصوصَ الْقُرْآنِ والسُّنَّةِ هَذَا الْمُجْرَى وأَجْرَوْهَا عَلَى ظاهرِها.

السَّلف كانوا يُجْرون نصوصَ الكتابِ والسُّنَّةِ عَلَى ظاهرِها، ومن عباراتهم الشهيرةِ العميمةِ قولُـهم: (أَمِرُّوها كَمَا جاءَتْ بِلَا كَيْفٍ).

٢٠٦٦- بَلْ عِنْدَهُمْ تِلْكَ النُّصُوصُ ظَوَاهِرٌ لَفْظِيَّـةٌ عُزِلَـتْ عَـنِ الإِيقَـانِ

قَوْلُهُ: «تِلْكَ» المشارُ إليه نصوصُ الكتابِ والسُّنَّة.

قَوْلُهُ: «تِلْكَ النُّصُوصُ ظَوَاهِرٌ لَفْظِيَّةٌ عُزِلَتْ عَنِ الإِيقَانِ» يعني: لا تدلُّ عَلَى اليقينِ بوجهٍ من الوجوه، بل دلالتُها لفظيَّةٌ قابلةٌ للتأويل.

٢٠٦٧- لَـمْ تُغْنِ شَيْئًا طَالِبَ الْـحَقِّ الَّذِي يَبْغِي الدَّلِيلَ وَمُقْتَضَـى البُرْهَـانِ

وهذا كلامُهم، ولا يبعدُ أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- طبع عَلَى قلوبهم؛ لأنهم لم يريدوا الحقَّ، وقد قَالَ الله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]

فالإنسانُ الَّذِي لا يريدُ الحقَّ لا يمكنُ أن يهتديَ بنصوص الكتاب والسُّنَّة، وكيف يصطلي بالنار مَنْ يرى أنها ليست بنار؟! لا يمكنُ، فلا يمكنُ أن ينتفعَ إنسانٌ بالكتاب والسُّنَّة إِلَّا مَنْ عَلَمَ أنهما حقٌّ، وأنهما يدلاَّن عَلَى ما يَقْتَضِيهِ ظاهرُهما.

٢٠٦٨- وسَطَوْا عَلَى الوَحْيَيْنِ بِالتَّحْرِيفِ إِذْ   سَمَّوْهُ تَأويلًا بِوَضْعٍ ثَانِي

سبحان الله! سَطَوْا عَلَى الوحيَيْن بالتحريف، والتحريفُ يعني: صرفُ اللفظ عن ظاهرِه إِلَى معنًى يخالفُ الظاهر، ولكنهم سَمَّوْه تأويلًا، لكن بأيِّ وضع؟ هل هُوَ بالوضع اللغويِّ أو بالوضع الشَّرعيِّ؟ قال: «بوضعٍ ثاني» أي: من عندهم.

فالتحريفُ الَّذِي سَمَّوْه تأويلًا هُوَ في الحقيقة تحريفٌ، لكنَّهم لَبَّسوا عَلَى العامة وعلى صغار العلم، وقالوا: إنه تأويلٌ، وَهُوَ في الحقيقة تحريفٌ؛ لأنَّ التأويلَ في الْقُرْآن والسُّنَّة لا يتعدَّى معنَيَين: إِمَّا التفسيرُ، وإِمَّا الحقيقةُ التي يؤول إِلَيْهَا الأمرُ؛ ولهذا قَالَ المؤلفُ:

٢٠٦٩- فَانْظُرْ إِلَى الأَعْرَافِ ثُمَّ لِيُوسُفٍ   وَالْكَهْفِ وَافْهَمْ مُقْتَضى الْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «فَانْظُرْ إِلَى الأَعْرَافِ» قَالَ الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٥٣] ما المرادُ بالتأويل هنا؟

الجواب: الحقيقةُ التي أُخْبِرُوا عنها، وليس المرادُ بالتأويل هنا التفسيرَ، وعلى هَذَا فقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ بمعنى ما ينتظرون، فـ(**هل**) استفهام بمعنى النفي، (**وينظرون**) بمعنى ينتظرون، أي: ما ينتظرُ هؤلاء إِلَّا وقوعَ ما أُخْبِرُوا به من البعث والجزاء، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ﴾ يعني: عاقبته ومآله، وقولُه

تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ﴾ [الأعراف:٥٣] أي: تركوا العملَ له ﴿قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف:٥٣] هَذَا في سورة الأعراف.

قَوْلُهُ: «ثُمَّ لِيُوسُفٍ» يعني: ثُمَّ انظر لسورة يوسف، ففيها ذِكْرُ التأويل، وَهُوَ قولُ يوسفَ لأبيه وإخوته ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسف:١٠٠] فـ(تأويل) هنا معناه: وقوعُ الرؤية؛ لأنه قالها بعد أن سجدوا له، هُوَ رأى في المنام أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر ساجدين له، ولما قدم مصرَ أبوه وأمُّه وإخوتُه رفع أبويه عَلَى العرش وخَرُّوا له جميعًا سُجَّدًا فقال: ﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسف:١٠٠] يعني: وقوع ما رأيته في المنام.

قَوْلُهُ: «وَالكَهْف» أيضًا، فيها ذِكْرُ التأويل، قَالَ الخَضِرُ لموسى: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾ [الكهف:٧٨] سأنبئك بتأويله يعني: بوقوعه إذا وقع؛ ولهذا قَالَ في آخر القصة ﴿ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾ [الكهف:٨٢] أي: وقوعه، حين رأيتَه بعينِك.

إِذَنْ التأويل في المواضع الثلاثة بمعنى وقوع الشيء ومآل الشيء، وهذا المعنى كثيرٌ في الْقُرْآن، ومنه قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء:٥٩] أي: عاقبة.

٢٠٧٠- فَـإِذَا مَـرَرْتَ بِـآلِ عِمْـرَانٍ فَهِمْــ ـتَ القَصْـدَ فَهْـمَ مُوَفَّـقٍ رَبَّانِــي

يعني: بعد هَذَا ننظر إِلَى آل عمران، و(آلُ عمران) هي مُعْتَرَكُ الأقوالِ والخلاف، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عمران:٧] أمُّ الكتاب يعني: أصلَه الَّذِي يرجع إليه الكتابُ.

قوله تعالى: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ [آل عمران:٧] أي: تشتبهُ عَلَى الناس، وليست مُحْكَمَةً، فالمُحكَمةُ أي: الواضحةُ التي يعرفها الكُلُّ.

فقوله تعالى: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ ينقسمُ الناسُ في هَذِهِ المتشابهات إِلَى قسمين: زائغ القلب، وراسخ العلم، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٧] أي: لا يأخذون بالْمُحْكَمِ ويحملون المتشابهَ عليه، بل يأتون بالمتشابه من الْقُرْآن من أجل أن يفتنوا الناسَ، فيأتون بالآيات التي ظاهرُها التعارض، ويقولون: انظر هَذَا الْقُرْآنُ متناقضٌ، فيقولون ذلك ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران:٧]، أي: تحريفه عمَّا أراد اللهُ به، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧] أي: تأويلَ المتشابه.

ما المراد (بتأويله)؟ الجواب: فيه قولان مبنيَّان عَلَى الوقف في الآية، فمَنْ وقف عَلَى قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وهذا وقفُ أكثرِ السَّلفِ، قال: المراد بالتأويل: العاقبة والمآل، يعني: لا يعلمُ مآلَ هَذَا المتشابه وعاقبَته إِلَّا اللهُ.

وأمَّا الراسخون في العلم فلا يعلمون، لكنهم يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧]، فنؤمنُ بالمستقبلِ كما نؤمنُ بالحاضر، فكُلُّه من عند الله، وكُلُّه يجبُ الإيمانُ به.

القراءةُ الثانية للسَّلف: الوصل ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا﴾ [آل عمران:٧] وعلى هَذَا الوجه في القراءة يكونُ المرادُ بالتأويل: التفسيرَ، يعني: لا يعلمُ تفسيرَ هَذَا المتشابهِ إِلَّا اللهُ والراسخون في العلم يعلمونه، وهذا أحدُ القولين في المسألة.

قال ابنُ عباس عن نفسه: «أَنَا مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ الَّذينَ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ»[1]، يعني: تفسيرَه.

(١) انظر قوله في: تفسير الطبري (٣/ ١٨٣).

فصار التأويلُ في آية (آل عمران) محتملًا للمآل والعاقبة التي لا يعلمُها إِلَّا اللهُ، وللتفسير الَّذِي يعلمه اللهُ والراسخون في العلم.

ننتقل الآن إِلَى إعراب الآية، يقول اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا﴾ [آل عمران:٧] ما هُوَ محلُّ قولِه: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ إذا لم نقف؟ الجواب: الواو حرف عطف، ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ معطوف عَلَى لفظ الجلالة وجملة: ﴿يَقُولُونَ﴾ تكون حاليَّةً، يعني: وما يعلم تأويلَه إِلا اللهُ والراسخون في العلم يقولون، يعني: حال كونهم قائلين: آمنا به.

وعلى قراءة الوقف تكون (الواوُ) استئنافيةً، **(والراسخون)** مبتدأً، وجملةُ **(يقولون)** خبرًا.

ذكر ابنُ القيِّم -رحمه الله- أنَّ التأويلُ في المواضع الثلاثة: في (الأعراف)، و(يوسف)، و(الكهف)، بمعنى العاقبة والمآل.

وأمَّا التأويل في (آل عمران) يقول: امرر عليه ويتبيَّن لك الأمرُ، إن وقفنا عَلَى ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فالتأويلُ فيها كالتأويل في (الأعراف)، و(يوسف)، و(الكهف)، وإن وصلنا فالتأويلُ بمعنى التفسير.

٢٠٧١- وَعَلِمْتَ أَنَّ حَقِيقَةَ التَّأْوِيلِ تَبْـ ـيينُ الْحَقِيقَةِ لَا الْمَجَازِ الثَّانِي

قَوْلُهُ: «المَجَازِ الثَّانِي» أهل التحريف يقولون: إنَّ التأويلَ صرفُ اللفظ عن ظاهره إِلَى المعنى المخالف للظاهر، وبه نعرفُ أنَّ أقسامَ التأويل ثلاثة:

الأول: تأويلٌ بمعنى التفسير.

الثاني: تأويلٌ بمعنى الحقيقة والمآل.

الثالث: تأويلٌ بمعنى صرف اللفظ عن ظاهره إِلَى المعنى المخالف للظاهر، هَذَا المعنى هُوَ المجاز الثاني الَّذِي ذكره المؤلف، لكنَّه اصطلاحُ المتأخِّرين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-(١): هذا التقسيم هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة لم يتكلم به أحد من الصحابة، ولا التابعين لهم بإحسان، ولا أحد من الأئمة المشهورين في العلم كمالك والثوري والأوزاعي وأبي حنيفة والشافعي، بل ولا تكلم به أئمة اللغة والنحو كالخليل وسيبويه وأبي عمرو بن العلاء ونحوهم، وأول من عرف أنه تكلم بلفظ (المجاز) أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه، ولكن لم يَعْنِ بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة، وإنما عَنى بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية.

وما قاله -رحمه الله- صحيحٌ فإنَّ معنى التأويل المشهور عند كثيرٍ من المتأخِّرين معنى حادثٌ لم يكن معروفًا من قبل.

٢٠٧٢- وَرَأَيْتَ تَأْوِيلَ النُّفَاةِ مُخَالِفًا ... لِجَمِيعِ هَذَا لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ

لأنَّ تأويلَ النفاةِ معناه تحريفُ الحقيقة، فهو صرفُ اللفظ عن ظاهرِه إِلَى معنى يخالفُ الظاهرَ لدليلٍ، والدَّليلُ عندهم هُوَ العقلُ.

٢٠٧٣- اللَّفْظُ هُمْ أَنْشَوْا لَهُ مَعْنًى بِذَا ... كَ الإِصْطِلَاحِ وَذَاكَ أَمْرٌ دَانِي

قَوْلُهُ: «**اللَّفْظُ**» يعني: التأويل، هم الذين أنشأوا معناه بهذا الاصطلاح، وَهُوَ صرفُ اللفظ عن ظاهرِه إِلَى المعنى المخالف للظاهر، ولكنَّه كما قال: «**أمرٌ داني**» أي: أمرٌ متأخِّرٌ، لا يُعْرَفُ في عهد الصحابة والتابعين.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٨٨).

٢٠٧٤- وَأَتَوْا إِلَى الإِلْـحَادِ فِي الأَسْمَاءِ وَالتْـ ... تَحْرِيــفِ لِلأَلْفَــاظِ بِالبُهْتَــانِ

قَوْلُهُ: «وَأَتَوْا إِلَى الإِلْـحَادِ فِي الأَسْمَاءِ» كَيْفَ ألحدوا فيها؟ قالوا: إنها لا تدلُّ عَلَى المعنى، فـ(الرحمنُ) لا يدلُّ عَلَى الرحمة، بل يدلُّ عَلَى الإحسانِ أو إرادة الإحسان، أما عَلَى رحمةٍ يكونُ بها الإحسانُ وإرادةُ الإحسان فلا، وهَكَذَا بقيَّةُ الأسماءِ التي لا يُثبتون منها الصِّفَات، أتوا إِلَيْهَا بالإلحاد.

قَوْلُهُ: «التَّحْرِيف لِلأَلْفَاظِ» يعني: حرَّفوا معناها إِلَى معنى يخالفُ ظاهرَها.

٢٠٧٥- فَكَسَوْهُ هَـذَا اللَّفْـظَ تَلْبِيسًـا وَتَـدْ ... لِيسًـا عَـلَى العُمْيَـانِ وَالعُـورَانِ

فقَوْلُهُ: «هَذَا اللَّفْظَ» يعني: التأويلَ، سَمَّوْا هَذَا التحريفَ والإلحادَ سَمَّوه تأويلًا وتلبيسًا وتدليسًا عَلَى العميان والعُوران.

الخلاصة أنَّ المؤلفَ -رحمه الله- يردُّ عَلَى الأشاعرة الذين أنكروا ظواهرَ النصوص، وحرَّفوها إِلَى معنى يخالفُ الظاهرَ، وأحدثوا للتأويل معنًى جديدًا لم يكن معروفًا من قبل، وَهُوَ في الحقيقة عندنا -معشر أهل السُّنَّة- تحريفٌ وليس تأويلًا؛ لأنَّ التأويلَ بهذا المعنى لم يَرِدْ في الكتاب ولا في السُّنَّة ولا في كلام السَّلف.

٢٠٧٦- فَاسْـتَنَّ كُـلُّ مُنَـافِقٍ وَمُكَـذِّبٍ ... مِـنْ بَاطِنِـيٍّ قِرْمِطِـيٍّ جَانِـي

٢٠٧٧- فِي ذَا بِسُـنَّتِهِم وَسَـمَّى جَحْـدَهُ ... لِلْحَـقِّ تَـأْوِيلًا بِـلَا فُرْقَـانِ

٢٠٧٨- وَأَتَـى بِتَأْوِيـلٍ كَتَـأْوِيلَاتِهِمْ ... شِـبْرًا بِشِـبْرٍ صَـارِخًا بِـأَذَانِ

قَوْلُهُ: «استَنَّ» بمعنى اتَّبَع، أي: اتَّبع هَذَا الطريقَ -وَهُوَ التحريف- كُلُّ منافقٍ ومكذِّبٍ من باطِنيٍّ قِرْمِطيٍّ جَانِي.

الباطِنِيَّةُ تَقَدَّم لَنَا مذهبُهم، وَهُوَ أنهم يقولون: كُلُّ ما جاءت به الرُّسلُ فهو عَلَى الظاهر، أمَّا باطنُ الأمر فليس كذلك، فباطنُ الأمر ليس كما جاءت به الرُّسلُ؛ ولهذا ديُنهم بَاطِنِيٌّ، لا يعرفه أحدٌ، يقولون: لا توجد جَنَّةٌ -نسألُ اللهَ العافيةَ- ولا نار، ولا ربٌّ ولا يومٌ آخِر، لا يوجد شيء، حتَّى قَالَ بعضهم: ولا عبادات: لا صلاة، ولا صيام، ولا حج،...إلخ.

نقول لهم: إنَّ الرُّسلَ جاؤوا بهذا، قالوا: الرُّسل جاؤوا يخاطبون العامةَ، ويذكرون هَذِهِ الأشياءَ من أجل أنَّ العامةَ تستقيمُ عَلَى ما جاءت به الرُّسل، والرُّسل أيضًا ليس لهم مُرْسِلٌ، لكنَّهم قومٌ عباقرةٌ أذكياء، رأوا أنَّ الناسَ لا يصلحهم إِلَّا هَذَا الطريقُ فَسَنُّوا هَذِهِ الطريقَ، وأهالوها بهالةٍ من الترغيب والترهيب من أجل أن يستقيمَ الناس.

فالصَبِيُّ إذا أراد أن يذهبَ معك إِلَى السوق، فقلت له: هناك ذئب، فإنه يعدلُ عن الطريق.

وإذا أراد أن ينكُصَ عَلَى عقبيه من طريق، وأنت تُحِبُّ أن يذهبَ معك، فقلت له: هناك إنسانٌ يُوزِّع تفاحًا، فإنه يذهبُ معك.

فهم يقولون: لا توجد جنَّةٌ ولا نارٌ، لكن الرُّسلُ عباقرةٌ أذكياء، قالوا للناس: توجد جنَّةٌ، وتوجد نارٌ، الَّذِي يطيعُنا يدخلُ الجنَّةَ، والذي يعصينا يدخلُ النَّارَ، هَذَا مذهب القرامطةِ والباطِنِيَّة، حتَّى الصلاة لا يُقِرُّون بها، يقولون: هَذِهِ الصلاةُ عبارةٌ عن رياضاتٍ بدنِيَّة يُؤْمَرُ بها العامَّة دون الخاصة، فالحجُّ إِلَى مكةَ يُؤْمَرُ به العوامُ دون الخواصِّ، والصومُ: الإمساكُ عن الأكل والشرب والشهوات يُؤْمَرُ به العوامُ دون الخواصِّ.

لكن ما هُوَ حجُّ الخواصِّ وصيامهم وصلاتهم؟ قالوا: حجُّ الخواصِّ السفرُ إِلَى زيارة الأولياء، أي: أوليائهم أولياء الطاغوت، والصلاة: معرفة الأسرار؛ لأنَّ الصلاةَ من الصلة يتَّصلُ الإنسان بالأولياء، ويعرفُ أسرارَهم.

الصيام: كتمانُ الأسرار؛ لأنَّ الصومَ بمعنى الإمساك يعني: يمسك الإنسان، فلا يُخبر عن مذهبه، ولهذا هم باطِنِيَّةٌ، ولا يسمحون لأحدٍ أن يدخلَ في المذهب إِلَّا بعد أن يُمَرِّنوه.

وقد ذكر السَّفَّارينِيُّ في شرح (**العقيدة السَّفَّارينيَّة**) أنَّ لهم عشرَ مراتب يصعدُها الإنسانُ، بل الحقيقةُ نقول: ما يصعدُها، بل ينزلُ بها مرتبةً مرتبةً حتَّى يصلَ إِلَى الحضيض، وَهُوَ عندهم يصلُ إِلَى القمة، وحينئذٍ يدخل.

هؤلاء القرامطةُ الباطِنِيَّةُ الملحدون بأيِّ طريقٍ توصَّلوا إِلَى هذا؟ الجواب: بالتأويل، قالوا: كُلُّ ما جاءت به الرُّسلُ فهو مجازٌ، والحقيقةُ كَذَا وكذا.

هؤلاء الأشاعرةُ وغيرُهم من الذين أنكروا الصِّفَاتِ قالوا: ما جاءت به الرُّسلُ من الصِّفَات فهو مجازٌ، والحقيقةُ كَذَا وكذا، خلاف ما جاءت به الرُّسلُ.

٢٠٧٩- إِنَّا تَأَوَّلْنَا كَمَا أَوَّلْتُمُ ... فَأْتُوا نُحَاكِمْكُمْ إِلَى الوَزَّانِ

قَوْلُهُ: «إِنَّا تَأَوَّلْنَا كَمَا أَوَّلْتُمُ» القائلُ هنا الباطِنِيَّةُ حيث يخاطبون الأشاعرةَ ومَنْ عَلَى شاكلتِهم، يقولون: إنا تأوَّلنا كما أوَّلتم فأتوا نحاكمْكم إِلَى الوزَّان.

٢٠٨٠- فِي الكِفَّتَيْنِ نَحُطُّ تَأْوِيلَاتِنَا ... وَكَذَاكَ تَأْوِيلَاتِكُمْ بِوِزَانِ

وطلبُ المحاكمةِ عَلَى هَذَا الوجه حقٌّ؛ لأنَّ هؤلاء أَوَّلوا في الصِّفَات، وهؤلاء أَوَّلوا فيما جاءت به الرُّسلُ كُلِّهم.

ويقولُ شيخُ الإسلام -رحمه الله-: إِنَّ تأويلَ هؤلاء في الصِّفَات أعظمُ بكثير من تأويل أولئك في المعاد، في الجنة والنار، يقول: لأنَّ إقرارَ النفوس بما لله تعالى من صفات الكمال أقوى بإقرارِها من المعاد، وأيضًا نصوصُ الكتاب والسُّنَّة في إثبات الصِّفَات وتقريرِها أكثر من نصوص الكتاب والسُّنَّة في تقرير المعاد؛ فلهذا كان هؤلاء أشدَّ من أولئك المؤوِّلين، وإن كان أولئك أعظمَ من وجه.

٢٠٨١- هَــذَا وَقَــدْ أَقْــرَرْتُمُ أَنَّــا بِأَيْــ ... ــدِينَا صَرِيــحُ العَــدْلِ وَالــمِيزَانِ

٢٠٨٢- وَغَــدَوْتُمُ فِيــهِ تَلَامِيــذًا لَنَــا ... أَوَلَــيْسَ ذَلِــكَ مَنْطِــقَ اليُونَــانِ؟

مَنْ الَّذِي أقرَّ بذلك؟ الجواب: الأشاعرة؛ لأنَّ الأشاعرةَ بَنَوْا عقيدتَهم عَلَى علم الكلام، وأصلُ علم الكلام علمُ المنطق، وعلمُ المنطق متلقَّى من الفلاسفة الذين منهم هؤلاء الباطِنِيَّة، فلذلك يُعتبر الأشاعرةُ والمعتزلةُ ومَنْ عَلَى شاكلتهم يعتبرون تلاميذًا للفلاسفة.

٢٠٨٣- مِنَّــا تَعَلَّمْــتُمْ وَنَحْــنُ شُــيُوخُكُمْ ... لَا تَجْحَــدُونَا مِنَّــةَ الإِحْسَــانِ

قَوْلُهُ: «**مِنَّا تَعَلَّمْتُمْ**» الَّذِي يقولُ ذلك هم القرامطةُ والباطِنِيَّة الذين بُنِي مذهبُهم عَلَى الفلسفة.

وَقَوْلُهُ: «**لَا تَجْحَدُونَا مِنَّةَ الإِحْسَانِ**» يعني: لا تجحدون ما مَنَنَّا به عليكم وأحسنَّا به إليكم، وتعادوننا.

وإنما قَالَ ابنُ القَيِّم هذا؛ لأنَّ الظاهرَ الآن أنَّك لو أتيتَ إِلَى الأشاعرة أو المعتزلة لوجدتَهم يُكَفِّرون هؤلاء الباطِنِيَّة وينكرون عليهم إنكارًا عظيمًا، لكن في الحقيقة أصولُهم متشابهةٌ أو متقاربةٌ كما سيبيِّنه المؤلف.

٢٠٨٤- فَسَلُوا مَبَاحِثَكُمْ سُؤَالَ تَفَهُّمٍ وَسَلُوا القَوَاعِدَ رَبَّةَ الأَرْكَانِ

٢٠٨٥- مِنْ أَيْنَ جَاءَتْكُمْ؟ وَأَيْنَ أُصُولُهَا؟ وَعَلَى يَدَيْ مَنْ يَا أُولِي النُّكْرَانِ

قَوْلُهُ: «مِنْ أَيْنَ جَاءَتْكُمْ» الجواب: من عند الفلاسفة؛ لأنَّ علمَ الكلامِ مَبْنِيٌّ عَلَى علم المنطق، فهي جاءت منهم.

قَوْلُهُ: «وَأَيْنَ أُصُولُهَا؟ وَعَلَى يَدَيْ مَنْ يَا أُولِي النُّكْرَانِ؟» تأخذون مِنَّا الأصولَ والقواعدَ وتبنون عليها عقيدتَكم في الله، ثُمَّ بعد ذلك تُكَفِّروننا، وتقولون: أنتم كُفَّارٌ.

٢٠٨٦- فَلِأَيِّ شيْءٍ نَحْنُ كُفَّارٌ وَأَنْـ ـتُمْ مُؤمِنُونَ وَنَحْنُ مُتَّفِقَانِ

٢٠٨٧- أَنَّ النُّصُوصَ أَدِلَّةٌ لَفْظِيَّةٌ لَمْ تُفْضِ قَطُّ بِنَا إِلَى إِيقَانِ؟!

هذا تناقضٌ، ولا شكَّ أنَّ هَذِهِ حُجَّةٌ للفلاسفة ومَنْ عَلَى شاكلتهم عَلَى الأشاعرة. لكن الحقيقة أنَّ الأشاعرةَ أجابوهم بجوابٍ حَقٍّ قالوا: نحن نعلمُ بأَنَّ الرُّسلَ جاؤوا بإثبات الإله وإثبات المعاد وإثبات الجنة والنار، وقد علمنا أنَّ الشُّبهةَ المانعةَ مِنْهُ باطلةٌ، فثبت بالدَّلِيل السالم عن المعارِض، وإذا ثبت بالدَّلِيل السالم عن المعارِض فوجب القولُ به.

هذه حُجَّةٌ يدفع بها الأشاعرةُ والمعتزلةُ وشِبْهُهم مذهبَ القرامطة والباطِنِيَّة وأشباهِهم.

يقولون: أنتم أنكرتم البعثَ والجنةَ والنارَ والرَّبَّ والرُّسلَ، وقُلْتُم: هؤلاء عباقرةٌ، جاؤوا لإصلاح الناس عَلَى زعمهم، ولكنَّ هَذَا ليس بصحيح؛ لأننا علمنا أنَّ هَذَا جاءت به الرُّسلُ وثبت به الحُجَّةُ، وقد علمنا الشُّبهةَ المانعةَ منه، إذ

لا توجدُ شبهةٌ تمنعُ، فالذي خلق الخلقَ هُوَ الله، والذي يعيدُه هُوَ الله، فإذا ثبت بالدَّلِيل وانتفى المعارِض وجب القولُ به.

أهل السُّنَّة والجماعة قالوا: هَذَا دليلٌ جَيِّدٌ، ونحن نوافقُكم عَلَى هَذَا الدَّلِيل ونردُّ به قولَ الفلاسفة، لكننا نحتجُّ به عليكم؛ لأنَّ صفاتِ الله عزَّ وجلَّ قد ثبتت بالدَّلِيل السالم عن المعارِض الصحيح؛ لأنه لا معارِضَ لأدلة الصِّفَات إِلَّا ما زعمتم أنه أدلةٌ عقليَّةٌ وهي وهميَّةٌ، فوجب القولُ بثبوتها.

فاحتجَّ أهلُ السُّنَّة عَلَى الأشاعرة والمعتزلة بما احتجَّ به الأشاعرةُ والمعتزلةُ عَلَى الفلاسفة والقرامطة، وهذا هُوَ الحقُّ.

٢٠٨٨- فَلِـذَاكَ حَكَّمْنَـا العُقُـولَ وَأَنْـتُمُ   أَيْضًـا كَـذَاكَ فَـنَحْنُ مُصْـطَلِحَانِ

سبحان الله! القرامطةُ والباطِنِيَّةُ يقولون: نحن نُحَكِّمُ العقلَ، والمعتزلةُ والأشاعرةُ يقولون: نحن أيضًا نُحَكِّمُ العقلَ، فيقول: ما دمنا نحن وأنتم نرجعُ إِلَى العقل، ونقول: إِنَّ الْقُرْآنَ والسُّنَّةَ أدلةٌ لفظيَّةٌ غيرُ قابلةٍ للإيقان، فلماذا تعادوننا؟ نحن إخوان، ومصطلحان.

٢٠٨٩- فَـلِأَيِّ شَيْءٍ قَـدْ رَمَيْـتُمْ بَيْنَنَـا   حَرْبَ الحُرُوبِ وَنَحْنُ كَـالأَخَوَانِ

قَوْلُهُ: «فَلِأَيِّ شَيْءٍ قَدْ رَمَيْتُمْ بَيْنَنَا حَرْبَ الحُرُوبِ» أو البَسُوس، وهي حربٌ معروفةٌ في الجاهلية، ونحن كالأَخَوَانِ.

٢٠٩٠- الأَصْلُ مَعْقُولٌ وَلَفْظُ الوَحْيِ مَعْـ   ـزُولٌ وَنَحْـنُ وَأَنْـتُمُ صِـنْوَانِ

٢٠٩١- لَا بِالنُّصُوصِ نَقُـولُ نَحْـنُ وَأَنْـتُمُ   أَيْضًـا كَـذَاكَ فَـنَحْنُ مُصْـطَلِحَانِ

قَوْلُهُ: «الأَصْلُ مَعْقُولٌ» الأصلُ المشتركُ بيننا وبينكم هُوَ العقلُ، يعني: هُوَ المعقول.

قَوْلُهُ: «وَلَفْظُ الوَحْيِ مَعْزُولٌ وَنَحْنُ وَأَنْتُمُ صِنْوَانِ» سبحان الله! لفظُ الوحي معزولٌ عن اليقين؛ لأنَّ النصوصَ في الْقُرْآنِ والسُّنَّةِ عندهم ظواهرُ لفظيَّةٌ لا تفيدُ اليقينَ، والعقلُ هُوَ الَّذِي يفيدُ اليقينَ.

قَوْلُهُ: «فَنَحْنُ وَأَنْتُمُ صِنْوَانِ» الصنوان: هما الغصنان في أصلٍ واحد.

٢٠٩٢- فَذَرُوا عَدَاوَتَنَا فَإِنَّ وَرَاءَنَا ... ذَاكَ العَدُوَّ الثِّقْلَ ذَا الأَضْغَانِ

يعني: لَنَا عدوٌّ ثالثٌ، فدعونا -جميعًا- يُقَوِّي بعضُنا بعضًا عليه من أجل أن نقضيَ عليه.

٢٠٩٣- فَهُمْ عَدُوُّكُمْ وَهُمْ أَعْدَاؤُنَا ... فَجَمِيعُنَا فِي حَرْبِهِمْ سِيَّانِ

مَنْ هَذَا العدوُّ؟ الجوابُ: هم أهلُ السُّنَّة؛ ولذا قال: (**تلك المجسمة...**).

لـمَّا ذكر ابنُ القيِّم -رحمه الله- المصارعةَ والمجادلةَ بين المتأوِّلين في صفات الله والمتأوِّلين في نصوص المعاد، وأنَّ كُلَّ واحدةٍ من الطائفتَيْن دعت الأخرى إِلَى المصالحة ولاسيَّما الذين تأوَّلوا في المعاد؛ لأنَّ الذين تأوَّلوا في الصِّفَات شَنُّوا عليهم الغارةَ، وقالوا: إنكم كُفَّارٌ.

فدعاهم هؤلاء إِلَى المسالمة، وقالوا: إنَّنا أخوان، وإنَّنا مصطلحان، فلنكن عَلَى عدوِّنا المشترك وهم المُجسِّمَة، فقال:

٢٠٩٤- تِلْكَ الْـمُجَسِّمَةُ الأُلَى قَالُوا بِأَنْ ... نَ اللهَ فَوْقَ جَمِيعِ ذِي الأَكْوَانِ

الذين يُعطِّلون اللهَ من صفاتِه يُسَمُّون كُلَّ مَنْ أثبتَ صفةً يسمُّونه مُجَسِّمًا؛ وهذا من أجل أن يشوِّهوا طريقَهم عند العامة حتَّى لا يسلكوا طريقَهم؛ لأنهم إذا قالوا: (مُجَسِّمَة)، قالوا: إِذَنْ هم يعبدون جسمًا، والذي يعبدُ جسمًا يعبدُ صنمًا،

لا فرق بين معبودِه وبين اللَّات والعُزَّى.

فيشوِّهون سُمعتَهم بِهَذِهِ الألقاب السَّيِّئة، وسَمَّوْهم حَشْوِيَّة من حاشية المتاع، يعني: ليسوا بشيء، وسَمَّوْهم نَوَابِت، والنوابتُ هي التي تكونُ في الزرع، لا تنفعُ، وتفسدُ الزرعَ.

وهذه الألقابُ السَّيِّئةُ قد وَرِثُوها من أئمتهم أعداءِ الرُّسل الذين قالوا للرُّسل: إنهم سحرةٌ مجانين، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذريات:٥٢]. هؤلاء يُسَمُّون أهلَ السُّنَّة الذين يُثبتون الصِّفَات بالمُجَسِّمَة.

قَوْلُهُ: «**فَالأُلَى قَالُوا**» «**الأُلَى**» يعني: الذين قالوا، كما قَالَ ابنُ مالك -رحمه الله-(١):

جَمْعُ الَّذِي (الأُلَى).............. ....

فـ(الأُلَى) بمعنى الذين، ومنه قولُ الشاعر(٢):

وتُبْلِـي الأُلَى يَسْتَلْئِمُونَ عَلَى الأُلَى ... تَرَاهُنَّ يَوْمَ الـرَّوْعِ كَالـحِدَأ القُبْـلِ

فقَوْلُهُ: «**فالأُلَى يَسْتَلْئِمُونَ**» يعني: الذين يستلئمون، ومعنى «**يَسْتَلْئِمُونَ**» أي يلبسون لأَمةَ الحرب.

وَقَوْلُهُ: (**عَلَى الأُلَى تَرَاهُنَّ**) (الأُلَى) الثانية بمعنى اللائي، يعني: عَلَى الخيل اللائي تَراهُنَّ يومَ الحرب كالحِدَأ القُبْل، والحِدَأ جمعُ حِدَأَة، (**القُبْل**) يعني: التي تنظر من جانبٍ واحدٍ فتنقضُّ عَلَى الفريسة.

---

(١) انظر: شرح ابن عقيل (١/ ١٤١).

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، كما في خزانة الأدب (١١/ ٢٤٩).

٢٠٩٥- وَإِلَيْــهِ يَصْــعَدُ قَوْلُنَــا وَفِعَالُنَــا ... وَإِلَيْــهِ تَرْقَــى رُوحُ ذِي الإِيــمَانِ

قَوْلُهُ: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ» و«ترقى» ولا يكونُ مثل هَذَا التعبير إِلَّا فيما هُوَ فوق.

٢٠٩٦- وَإِلَيْهِ قَـدْ عَـرَجَ الرَّسُـولُ حَقِيقَـةً ... وَكَذَا ابْـنُ مَـرْيَمَ مُصْـعَدَ الأَبْـدَانِ

عرج الرسولُ حقيقةً إِلَى الله ببدنه؛ ولهذا قال: (**مصعد الأبدان**).

وعرج ابنُ مريمَ إِلَى الله حقيقةً ببدنه، وليس بروحه كما ادَّعاه بعضُ المتأخِّرين، وقالوا: إِنَّ عيسى لم يُرْفَعْ ببدنه، وإنه لا ينزلُ إِلَى الدنيا في آخر الزمان، ولكنَّ هَذَا قولٌ باطلٌ مخالفٌ للقرآنِ والسُّنَّةِ وإجماعِ السَّلفِ، بل إِنَّ ابنَ مريمَ رفعه اللهُ إليه ببدنه لا بروحه؛ لأنَّ الأرواحَ لا يختصُّ بها ابنُ مريم، فكُلُّ مؤمنٍ فإِنَّ روحَه تُرْفَعُ إِلَى الله.

والنَّبيُّ -عليه الصلاة والسلام- كذلك عرج إِلَى الله ببدنه، عرج فوق سبع سموات حتَّى وصل إِلَى مكانٍ سَمِعَ فيه صريفَ الأقلام: أقلام القضاء، فوصل إِلَى سدرة المنتهى، وصعد هَذِهِ السمواتِ العظيمةَ الواسعةَ البعيدةَ في ليلة واحدة، صعدها ورجع إِلَيْهَا، وحصل مِنْهُ صلاةٌ بالأنبياء وسلامٌ عَلَى الأنبياء، وكذلك أيضًا حصل مراجعةٌ بينه وبين رَبِّه عزَّ وجلَّ في فرض الصلوات الخمس، كُلُّ هَذَا في ليلة.

وجاء إِلَى مكَة من بيت المقدس في ليلته، واستيقظ من يومه، وصار يُحدِّثُ الناسَ بما رأى، فكذَّبه المكذِّبون، وأنكروا، وقالوا: نحن نذهبُ إِلَى الشام مسيرةَ شهرٍ، ونرجعُ من الشام مسيرةَ شهرٍ، ومحمدٌ يَدَّعِي أَنَّه وصلَ الشامَ ووصل إِلَى العرش في ليلة، هَذَا كَذِبٌ، فاجتمعوا عنده وكذَّبوه، وذهبوا إِلَى أبي بكر، وقالوا: إِنَّ صاحبَك يقول: كَذَا وكذا، فانظر ماذا أَفِكَ؟ فقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنْ كَانَ قَدْ قَالَ

ذَلِكَ فَقَدْ صَدَقَ» فمن ذلك اليوم سُمِّي الصِّدِّيق[1].

فالحاصل أنَّ الرسولَ ﷺ عُرِجَ ببدنه، وأمَّا قولُ مَنْ قال: إنه عُرِجَ بروحه فهو قولٌ باطلٌ؛ لأنَّ اللهَ يقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء:١] فقال: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ ولم يقل: (بروح عبده)، وقال في المعراج في سورة النجم: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم:١٧-١٨] رأى بنفسه، ولو كان قد عُرِج بروحه لم تكن قريشٌ لتكذِّبه؛ لأنَّ قريشًا لا تُكذِّبُ بالرُّؤيا، فكُلُّ إنسانٍ يرى ما لا يمكنُ في ليلة ولا في شهر، ويراه في منامه في ساعة، فلو كان منامًا ما كذَّبته قريشٌ.

المهم أنَّ هؤلاء المعطِّلةَ الذين عطَّلوا اللهَ عن صفاتِهِ، والذين عطَّلوا نصوصَ المعاد عن معانيها، سوَّوْا هجومًا عَلَى ما يقول أهل السُّنَّة (**المُجسِّمَة**).

٢٠٩٧- وَكَــذَاكَ قَــالُوا إِنَّــهُ بِالــذَّاتِ فَــوْ ... قَ العَــرْشِ قُدْرَتُــهُ بِكُــلِّ مَكَــانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ قَالُوا»: الضميرُ يعودُ عَلَى أهل السُّنَّة الذين سمَّاهم هؤلاء مُجَسِّمَة.

قَوْلُهُ: «إِنَّهُ بِالذَّاتِ فَوْقَ العَرْشِ» هُوَ -سبحانه وتعالى- فوقَ العرشِ بذاته، وإنما قالوا: (**فوق العرش بذاته**) رَدًّا لمن قالوا: إنه لم يكن فوق العرش بذاته، ولكنَّه فوق العرش بنوعه، كما يُقَالُ: (**الذهبُ فَوْقَ الفضةِ**)، لكن قالوا: (بذاته) رَدًّا عليهم، وإلَّا فلا حاجة أن يُقَالَ: (**بذاته**)؛ لأنَّ كُلَّ فعلٍ أضافه اللهُ إِلَى نفسِه فهو إليه ذاته، فقوله تعالى: ﴿خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤] لا حاجة إلى أن

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٥، رقم ٤٤٠٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

نقولَ: (بذاته)، فهو خلقها نفسه، وهَكَذَا جميع ما أُضِيفَ إِلَى الله فهو يُضَافُ إليه نفسه.

قَوْلُهُ: «قُدْرَتُهُ بِكُلِّ مَكَانِ» هم قالوا: (اسْتَوَى عَلَى العرش) أي: ملَك العرشَ وقهره، فقال ابنُ القَيِّم: قدرتُه لا تختصُّ بالعرش، بل قدرتُه في كُلِّ مكان، وليست عَلَى العرش فقط.

٢٠٩٨- وَكَــذَاكَ يَنْــزِلُ كُــلَّ آخِــرِ لَيْلَــةٍ نَحْــوَ السَّمَاءِ فَهَــا هُنَــا جِهَتَــانِ:

٢٠٩٩- لِلْإِبْتِــدَاءِ وَالِانْتِهَــاءِ وَذَانِ لِلْــ أَجْسَــامِ أَيْــنَ اللهُ مِــنْ هَــذَانِ؟!

يعني: قالوا: إنَّ هؤلاء المُجَسِّمَةَ يقولون: إنَّ اللهَ ينزلُ كُلَّ ليلة إِلَى السَّماء، ينزلُ حين يبقى ثلثُ الليل الآخر حتَّى يطلعَ الفجرُ.

قَوْلُهُ: «فَهَا هُنَا جِهَتَانِ»: جهة للابتداء من نصف الليل، وجهة للانتهاء إِلَى طلوع الفجر.

قَوْلُهُ: «وَذَانِ لِلأَجْسَامِ» يعني: لا يمكنُ أن يكونَ نزولٌ وطلوعٌ مؤقتٌ بوقتٍ إِلَّا للأجسام.

قَوْلُهُ: «أَيْنَ اللهُ مِنْ هَذَانِ؟!» قائلُ ذلك هم المعطِّلةُ، يقولون: أين اللهُ أن يكون جسمًا؟ أن يكون له ابتداءٌ بنزوله وابتداءٌ في انتهاء النزول؟

٢١٠٠- وَكَــذَاكَ قَــالُوا: إِنَّــهُ مُــتَكَلِّمٌ قَــامَ الكَــلَامُ بِــهِ فَيَــا إِخْوَانِــي

٢١٠١- أَيَكُــونُ ذاكَ بِغَــيْرِ حَــرْفٍ أَمْ بِــلَا صَوْتٍ؟! فَهَذَا لَــيْسَ فِي الإِمْكَــانِ

هذا أيضًا ممَّا شَنَّعوا به عَلَى أهل السُّنَّة قالوا: إِنَّ اللهَ يتكلَّمُ بكلامٍ قام بذاته، فهل يمكنُ كلامٌ بلا حرفٍ ولا صوت؟!

الجواب: لا، إِذَنْ تقومُ به الحروفُ والأصواتُ، فيكون حادثًا؛ لأنَّ الحوادثَ لا تقومُ إِلَّا بحادثٍ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

٢١٠٢- وَكَـذَاكَ قَـالُوا مَـا حَكَيْنَـا عَـنْهُمُ مِـنْ قَبْـلُ قَـوْلَ مُشَـبِّهِ الـرَّحْمَنِ

يعني: قالوا أيضًا سوى هَذَا من كُلِّ ما يدلُّ عَلَى التشبيه، وهذا لا شكَّ أنَّه رَمْيٌ بالبهتان لأهل السُّنَّة والجماعة.

٢١٠٣- فَذَرُوا الـحِرَابَ لَنَا وَشُـدُّوا كُلُّنَـا جَمْعًـا عَلَـيْهِمْ حَمْلَـةَ الفُرْسَـانِ

٢١٠٤- حَتَّـــى نَسُـــوقَهُمُ بِأَجْمَعِنَـــا إِلَى وَسَطِ العَـرِينِ مُـمَزَّقِي اللُّحْـمَانِ

قَوْلُهُ: «نَسُوقُهُمْ» أي: نسوقُ أهلَ السُّنَّة.

«إِلَى وَسَطِ العَرِينِ» أي: مَقَرِّ الأسد.

قَوْلُهُ: «مُمَزَّقِي اللُّحْمَانِ» يعني: أنَّ الأسودَ تأكلُهم وتُمَزِّقُهم، ولكن هل يحصل لهم هذا؟ الجواب: لا، ما يحصل؛ ولهذا هم أقرُّوا، فقالوا: (ولقد كَوَّنا بالنصوص... إلخ).

يعني: أعاننا اللهُ عليهم، يقول: اجعلونا جميعًا، ونشنُّ عليهم الغارةَ جميعًا من أجل أن نقضيَ عليهم.

ولكننا نقول: والله لن يقضوا عَلَى الحقِّ بباطلهم؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الانبياء:١٨].

* * *

٢١٠٥- فَلَقَدْ كَوَوْنَا بِالنُّصُوصِ وَمَا لَنَا ... بِلِقَائِهَا أَبَدَ الزَّمَانِ يَدَانِ

٢١٠٦- كَمْ ذَا بِقَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ ... مِنْ فَوْقِ أَعْنَاقٍ لَنَا وَبَنَانِ!

٢١٠٧- إِنْ نَحْنُ قُلْنَا: قَالَ آرِسْطُو الْمُعَلْـ ... ـلِمُ أَوَّلًا أَوْ قَالَ ذَاكَ الثَّانِي

٢١٠٨- وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا: ابْنُ سِينَا قَالَ ذَا ... أَوْ قَالَهُ الرَّازِيُّ ذُو التِّبْيَانِ

٢١٠٩- قَالُوا لَنَا: قَالَ الرَّسُولُ: وَقَالَ فِي الْـ ... ـقُرْآنِ: كَيْفَ الدَّفْعُ لِلْقُرْآنِ؟

٢١١٠- وَكَذَاكَ أَنْتُمْ مِنْهُمُ أَيْضًا بِهَـ ... ـذَا الْمَنْزِلِ الضَّنْكِ الَّذِي تَرَيَانِ

٢١١١- إِنْ جِئْتُمُوهُمْ بِالعُقُولِ أَتَوْكُمُ ... بِالنَّصِّ مِنْ أَثَرٍ وَمِنْ قُرْآنِ

٢١١٢- فَتَحَالَفُوا إِنَّا عَلَيْهِمْ كُلَّنَا ... حَرْبٌ وَنَحْنُ وَأَنْتُمُ سِلْمَانِ

٢١١٣- فَإِذَا فَرَغْنَا مِنْهُمُ فَخِلَافُنَا ... سَهْلٌ فَنَحْنُ وَأَنْتُمُ أَخَوَانِ

٢١١٤- فَالْعَرْشُ عِنْدَ فَرِيقِنَا وَفَرِيقِكُمْ ... مَا فَوْقَهُ أَحَدٌ بِلَا كِتْمَانِ

٢١١٥- مَا فَوْقَهُ شَيْءٌ سِوَى العَدَمِ الَّذِي ... لَا شَيْءَ فِي الأَعْيَانِ وَالأَذْهَانِ

٢١١٦- مَا اللهُ مَوْجُودًا هُنَاكَ وَإِنَّمَا الْـ ... ـعَدَمُ الْمُحَقَّقُ فَوْقَ ذِي الأَكْوَانِ

٢١١٧- وَاللهُ مَعْدُومٌ هُنَاكَ حَقِيقَةً ... بِالذَّاتِ عَكْسَ مَقَالَةِ الدِّيصَانِ

٢١١٨- هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ عِنْدَ فَرِيقِنَا ... وَفَرِيقِكُمْ وَحَقِيقَةُ العِرْفَانِ

٢١١٩- وَكَذَا جَمَاعَتُنَا عَلَى التَّحْقِيقِ فِي التَّـ ... ـوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالفُرْقَانِ

٢١٢٠- لَيْسَتْ كَلَامَ اللهِ بَلْ فَيْضٌ مِنَ الْـ ... ـفَعَّالِ أَوْ خَلْقٌ مِنَ الأَكْوَانِ

٢١٢١- فَـالأَرْضُ مَـا فِيهَـا لَـهُ قَـوْلٌ وَلَا   فَـوْقَ السَّـمَا لِلْخَلْـقِ مِـنْ دَيَّـانِ

٢١٢٢- بَشَـرٌ أَتَـى بِـالْوَحْيِ وَهْـوَ كَلَامُـهُ   فِي ذاكَ نَحْـنُ وَأَنْـتُمُ مِـثْلَانِ

الشـرحُ

٢١٠٥- فَلَقَدْ كَوَوْنَا بِالنُّصُـوصِ وَمَـا لَنَـا   بِلِقَائِهَـا أَبَـدَ الزَّمَـانِ يَـدَانِ

قَوْلُهُ: «كَوَوْنَا» يعني: أذاقونا حرَّ النصوص، فلم نستطع أن نتخلَّصَ.

قَوْلُهُ: «وَمَا لَنَا... يَدَانِ» يعني: مالنا فيها قوةٌ؛ لأنَّ الكُلَّ يقبلُ النصوصَ، حتَّى العامة يقبلونها، فإذا قيل لهم: قَالَ اللهَ وقال رسولُه توقَّفوا، وأخذوا بها.

٢١٠٦- كَـمْ ذَا بِقَـالَ اللهُ قَـالَ رَسُـولُهُ   مِـنْ فَـوْقِ أَعْنَـاقٍ لَنَـا وَبَنَـانِ!

يعني: ما أكثر ما يُقَالُ: قَالَ اللهُ وقال رسولُه من فوق أعناقنا وبناننا، وإنما قال: «مِنْ فَوْقِ أَعْنَاقٍ لَنَا وَبَنَانِ» تشبيهًا بقول الله تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [لأنفال:١٢] يعني: أنَّ هَذَا القولَ منَّا بمنزلة ما فعلت الملائكةُ بالكُفَّار يوم بدر.

٢١٠٧- إِنْ نَحْنُ قُلْنَا: قَالَ آرِسْطُو الْـمُعَلْـ   ـلِمُ أَوَّلًا أَوْ قَـالَ ذَاكَ الثَّانِـي

يعني: إننا نحتجُّ عليهم بأنَّ هَذَا قولُ (أرسطو)، ويسمُّونه المعلِّمَ الأوَّلَ، لكنَّه معلِّمُ الشرِّ والفساد، والعياذ بالله، ومَنْ دعا إِلَى ضلالةٍ فعليه وزرُها ووزرُ مَنْ عَمِلَ بها إِلَى يوم القيامة.

أمَّا المعلِّمُ الثاني فهو (الفارابِيُّ)، فـ(الفارابِيُّ) أيضًا من أساطين الفلاسفة، فقوله: (**الثاني**) أي: (الفارابِيُّ).

٢١٠٨- وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا: ابْنُ سِينَا قَالَ ذَا ... أَوْ قَالَهُ الرَّازِيُّ ذُو التِّبْيَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا: ابْنُ سِينَا قَالَ ذَا» «ابنُ سينا» يُسَمَّى الرئيس عندهم، وقد صرَّح شيخُ الإسلام ابنُ تيمية وابنُ القيِّم بأنَّ الرجلَ كافرٌ، وَهُوَ عند المتأخِّرين القوميين مؤمنٌ، ولكنَّه عند ابن تيمية وابن القيِّم مؤمنٌ بالطاغوت كافرٌ بالله؛ ولهذا لا يجوزُ أن يُبَجَّلَ أو يعظَّمَ أو تُنْسَبَ المدارسُ إليه أو ما أشبه ذلك، ولا يفعلُ هَذَا إِلَّا رجلٌ جاهلٌ.

قَوْلُهُ: «أَوْ قَالَهُ الرَّازِيُّ ذُو التِّبْيَانِ» أيضًا «الرازِيُّ»[1] من أساطينهم، وَهُوَ معروفٌ، رجلٌ طبيبٌ، ولا أظنُّه (الرازِيَّ) الَّذِي له التفسيرُ المشهور الَّذِي يُلَقَّبُ (فخر الدين)، لا أظنَّه هذا.

٢١٠٩- قَالُوا لَنَا: قَالَ الرَّسُولُ: وَقَالَ فِي الْـ ... ـقُرْآنِ: كَيْفَ الدَّفْعُ لِلْقُرْآنِ؟

قال: **إذا قلنا**: قَالَ أرسطو، الفارابِيُّ، ابنُ سينا، قالوا لنا: قَالَ الرسولُ، وقال في الْقُرْآن، الله أكبر، ما الفرق بين القولين؟ عظيمٌ؛ ولهذا قال: **(كيف الدفع للقرآن)**؟ إذا قالوا: قَالَ اللهُ وقال الرسولُ، كَيْفَ ندفعُ هذا؟

٢١١٠- وَكَذَاكَ أَنْتُمْ مِنْهُمُ أَيْضًا بِهَـ ... ـذَا الْمَنْزِلِ الضَّنْكِ الَّذِي تَرَيَانِ

قَوْلُهُ: «أَنْتُمْ» يخاطبون الأشاعرةَ وأشباهَهم ممَّن نفوا الصِّفَات، يقولون: إنَّكم إذا قُلْتُم: دَلَّ العقلُ عَلَى كذا، قالوا: دَلَّ الْقُرْآنُ والسُّنَّةُ عَلَى كذا، فهذا معتركٌ ضنكٌ.

---

(١) هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب، صاحب التصانيف، من أذكياء أهل زمانه، وكان كثير الأسفار، وافر الحرمة، صاحب مروءة وإيثار ورأفة بالمرضى، وكان واسع المعرفة، مُكِبًّا على الاشتغال، مليح التأليف، توفي ببغداد، سنة إحدى عشرة وثلاثمئة. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٥٤).

٢١١١- إِنْ جِئْتُمُوهُمْ بِالعُقُولِ أَتَوْكُمُ   بِالنَّصِّ مِنْ أَثَرٍ وَمِنْ قُرْآنِ

ونحن أيضًا إذا جئناهم بكلام أرسطو، والفارابيِّ، وابن سينا، أتونا بالْقُرْآن.

إِذَنْ أنتم تستدلُّون بالعقل فيدمغونكم بالْقُرْآن والسُّنَّة، نحن نستدلُّ بأرسطو وأشباهِه، ويأتوننا بالكتابِ والسُّنَّة، فصاروا عدوًّا لَنَا جميعًا.

انظر صاروا عدوًّا لهؤلاء وهؤلاء.

٢١١٢- فَتَحَالَفُوا إِنَّا عَلَيْهِمْ كُلَّنَا   حَرْبٌ وَنَحْنُ وَأَنْتُمُ سِلْمَانِ

قَوْلُهُ: «فَتَحَالَفُوا إِنَّا عَلَيْهِمْ كُلَّنَا حَرْبٌ» أي: لِنُجْرِ حِلْفًا بيننا وبينكم أنَّنا حربٌ عليهم، وأنَّنا فيما بيننا سِلْمَان.

٢١١٣- فَإِذَا فَرَغْنَا مِنْهُمُ فَخِلَافُنَا   سَهْلٌ فَنَحْنُ وَأَنْتُمُ أَخَوَانِ

يعني: دعونا نقضي عليهم جميعًا، وإذا انتهينا فالخلافُ بيننا وبينكم سهلٌ.

٢١١٤- فَالْعَرْشُ عِنْدَ فَرِيقِنَا وَفَرِيقِكُمْ   مَا فَوْقَهُ أَحَدٌ بِلَا كِتْمَانِ

لأنَّ المعتزلةَ والأشاعرةَ وأشباهَهم يُنكرون استواءَ الله عَلَى العرش، ويقولون: أبدًا، ليس اللهُ فوق العرش، ما فوق العرشِ أحدٌ، والفلاسفةُ كذلك؛ لأنَّ الفلاسفةَ يُنكرون اللهَ رأسًا.

٢١١٥- مَا فَوْقَهُ شَيْءٌ سِوَى العَدَمِ الَّذِي   لَا شَيْءَ فِي الأَعْيَانِ وَالأَذْهَانِ

٢١١٦- مَا اللهُ مَوْجُودًا هُنَاكَ وَإِنَّمَا الْـ   ـعَدَمُ الْـمُحَقَّقُ فَوْقَ ذِي الأَكْوَانِ

٢١١٧- وَاللهُ مَعْدُومٌ هُنَاكَ حَقِيقَةً   بِالذَّاتِ عَكْسَ مَقَالَةِ الدِّيصَانِ

قَوْلُهُ: «عَكْسَ مَقَالَةِ الدِّيصَانِ» الدَّيْصَان: أُمَّةٌ ضالةٌ شَبَّهوا بهم أهلَ السُّنَّة.

أهلُ السُّنَّةِ يقولون: نحن نقولُ: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ موجودٌ فوق العرش، وهم يقولون: ليس موجودًا فوق العرش، ما فوقه أحدٌ؛ لأنَّ الأشاعرةَ والمعتزلةَ ينكرون استواءَ الله عَلَى العرش، والفلاسفة ينكرون وجودَ الله أصلًا.

إِذَنْ ليس فوق العرشِ أحدٌ عَلَى رأي هؤلاء وعلى رأي هؤلاء.

٢١١٨- هَـذَا هُـوَ التَّوْحِيـدُ عِنْـدَ فَرِيقِنَـا ... وَفَـرِيقِكُمْ وَحَقِيقَـةُ العِرْفَـانِ

فإذن نحن وأنتم سواءٌ.

٢١١٩- وَكَذَا جَمَاعَتُنَا عَلَى التَّحْقِيقِ فِي التْـ ... ـوْرَاةِ وَالإِنْجِيـلِ وَالفُرْقَـانِ

٢١٢٠- لَيْسَتْ كَلَامَ اللهِ بَلْ فَيْضٌ مِـنَ الْـ ... ـفَعَّالِ أَوْ خَلْـقٌ مِـنَ الأَكْـوَانِ

يعني: ونحن أيضًا متفقون معكم عَلَى أنَّ التوراةَ التي أنزلها اللهُ عَلَى موسى، والإنجيلَ عَلَى عيسى، والْفُرْقَانَ عَلَى محمدٍ -عليهم الصلاة والسلام- ليست كلامَ الله.

المعتزلةُ يقولون: الْقُرْآنُ ليس كلامَ الله بالمعنى الَّذِي يريدُه أهلُ السُّنَّة.

الأشاعرة يقولون: هَذَا الْقُرْآنُ ليس كلامَ الله.

الفلاسفة أيضًا يقولون: ليس كلامَ الله؛ لأنه لا إله، لكن يوجدُ عقلٌ فعَّالٌ يُدَبِّرُ الكونَ وليس هُوَ الله، وهذا الكلامُ كلامُهم؛ ولهذا يقولُ: (ليست كلام الله بل فيضٌ من الفعَّال)، (هذا مذهب الفلاسفة)، (أو خلقٌ من الأكوان) وهذا مذهبُ المعتزلةِ والأشاعرة.

الفلاسفة يقولون: هَذَا الكلامُ فَيْضٌ من العقل الفعَّال يُفيضه هَذَا العقلُ عَلَى بشرٍ قابلٍ له فيتكيَّف بكيفية هَذَا النور الَّذِي ألقاه عليه العقلُ الفعَّالُ ثُمَّ ينطقُ بالكلام.

الأشاعرةُ والمعتزلةُ يقولون: هَذَا الكلامُ المسموعُ المكتوبُ ليس كلامَ الله، لماذا؟ المعتزلة يقولون: هُوَ خَلْقٌ خَلَقه اللهُ مثلما يخلقُ السَّماءَ والأرضَ، لكن أضافه إِلَى نفسِه من باب التشريف.

والأشاعرةُ يقولون: كلامُ الله هُوَ المعنى القائمُ بنفسه، وخلق أصواتًا تدلُّ عليه وتُعبِّرُ عنه.

فإذن هَذَا الْقُرْآنُ -عَلَى كلا القولين- مخلوقٌ؛ ولهذا يقولُ: **(أو خلقٌ من الأكوان)**.

٢١٢١- فَـالأَرْضُ مَـا فِيهَـا لَـهُ قَـوْلٌ وَلَا ... فَـوْقَ السَّـمَا لِلْخَلْـقِ مِـنْ دَيَّـانِ

٢١٢٢- بَشَـرٌ أَتَـى بِـالْوَحْيِ وَهْـوَ كَلَامُـهُ ... فِي ذاكَ نَحْـنُ وَأَنْـتُمْ مِـثْلَانِ

قَوْلُهُ: «الأَرْضُ مَا فِيهَا لَهُ قَوْلٌ» لأنَّه ما فيها إِلَّا شيءٌ مخلوقٌ.

* * *

٢١٢٣- وَلِـذَاكَ قُلْنَـا: إِنَّ رُؤْيَتَنَـا لَـهُ ... عَيْنُ الـمُحَالِ وَلَـيْسَ فِي الإِمْكَـانِ

٢١٢٤- وَزَعَمْـتُمُ أَنَّـا نَـرَاهُ رُؤْيَـةَ الْــ ... ـمَعْدُومِ لَا الـمَوْجُودِ فِي الأَعْيَـانِ

٢١٢٥- إِذْ كُـلُّ مَرْئِـيٍّ يَقُـومُ بِنَفْسِـهِ ... أَوْ غَـيْرِهِ، لَا بُـدَّ فِي البُرْهَـانِ

٢١٢٦- مِـنْ أَنْ يُقَابِـلَ مَـنْ يَـرَاهُ حَقِيقَـةً ... مِـنْ غَـيْرِ بُعْـدٍ مُفْـرِطٍ وَتَدَانِـي

٢١٢٧- وَلَقَـدْ تَسَـاعَدْنَا عَـلَى إِبْطَـالِ ذَا ... أَنْـتُمْ ونَحْـنُ فَـمَا هُنَـا قَـوْلَانِ

٢١٢٨- أَمَّـا الْبَلِيَّـةُ فَهْـيَ قَـوْلُ مُجَسِّـمٍ ... قَـالَ: الْقُـرَانُ بَـدَا مِـنَ الـرَّحْمَنِ

٢١٢٩- هُـوَ قَوْلُـهُ وَكَلَامُـهُ مِنْـهُ بَـدَا ... لَفْظًـا وَمَعْنًـى لَـيْسَ يَفْتَرِقَـانِ

٢١٣٠- سَمِعَ الأَمِينُ كَلَامَهُ مِنْهُ وَأَدْ ... دَاهُ إِلَى الْمُخْتَارِ مِنْ إِنْسَانِ

٢١٣١- فَلَهُ الأَدَاءُ كَمَا الأَدَا لِرَسُولِهِ ... وَالقَوْلُ قَوْلُ الله ذِي السُّلْطَانِ

٢١٣٢- هَذَا الَّذِي قُلْنَا وَأَنْتُمْ: إِنَّهُ ... عَيْنُ الْمُحَالِ وَذَاكَ ذُو بُطْلَانِ

٢١٣٣- فَإِذَا تَسَاعَدْنَا جَمِيعًا أَنَّهُ ... مَا بَيْنَنَا لله مِنْ قُرْآنِ

٢١٣٤- إِلَّا كَبَيْتِ الله تِلْكَ إِضَافَةُ الْـ ... مَخْلُوقِ لَا الأَوْصَافِ لِلدَّيَّانِ

٢١٣٥- فَعَلَامَ هَذَا الحَرْبُ فِيمَا بَيْنَنَا ... مَعْ ذَا الْوِفَاقِ وَنَحْنُ مُصْطَلِحَانِ؟

٢١٣٦- فَإِذَا أَبَيْتُمْ سِلْمَنَا فَتَحَيَّزُوا ... لِمَقَالَةِ التَّجْسِيمِ بِالإِذْعَانِ

٢١٣٧- عُودُوا مُجَسِّمَةً وَقُولُوا: دِينُنَا الْـ ... إِثْبَاتُ دِينِ مُشَبِّهِ الدَّيَّانِ

٢١٣٨- أَوْ لَا فَلَا مِنَّا وَلَا مِنْهُمْ وَذَا ... شَأْنُ الْمُنَافِقِ إِذْ لَهُ وَجْهَانِ

٢١٣٩- هَذَا يَقُولُ مُجَسِّمٌ وَخُصُومُهُ ... تَرْمِيهِ بِالتَّعْطِيلِ وَالكُفْرَانِ

٢١٤٠- هُوَ قَائِمٌ هُوَ قَاعِدٌ هُوَ جَاحِدٌ ... هُوَ مُثْبِتٌ تَلْقَاهُ ذَا أَلْوَانِ

٢١٤١- يَوْمًا بِتَأْوِيلٍ يَقُولُ وَتَارَةً ... يَسْطُو عَلَى التَّأْوِيلِ بِالنُّكْرَانِ

الشرحُ

قال ابنُ القيِّم -رحمه الله تعالى- في بيان الخصومة الواقعة بين أهل التعطيل وبين الفلاسفة، وأنَّهم يتفقون في أصول متعددة، منها، قال:

٢١٢٣- وَلِذَاكَ قُلْنَا: إِنَّ رُؤْيَتَنَا لَهُ ... عَيْنُ الْمُحَالِ وَلَيْسَ فِي الإِمْكَانِ

قال الفلاسفةُ وقال أهلُ التعطيل أيضًا من الأشاعرة وغيرهم: إِنَّ رؤيتَنا لله عينُ المحال، يعني: أنه من المستحيل أن نرى اللهَ عزَّ وجلَّ.

وقد سبق لَنَا أنَّ رؤيةَ الله قد دلَّ عليها الكتابُ والسُّنَّةُ وإجماعُ السَّلف، وأنها رؤيةٌ حقيقيةٌ بالعين.

٢١٢٤- وَزَعَمْـتُمُ أَنَّـا نَـرَاهُ رُؤْيَـةَ الْـــ ـمَعْدُومِ لَا الـمَوْجُودِ فِي الأَعْيَـانِ

يعني: أنَّ الرؤيةَ التي جاءت في الكتاب والسُّنَّة يُرَادُ بها رؤيةُ المعدوم، ورؤيةُ المعدوم الَّذِي لا يُرَى بالعين يعني: العلمَ به؛ ولهذا يُفسِّرون الرؤيةَ بأنها تمامُ اليقين، فيقولون: إنهم يَرَوْنَ اللهَ أي: يتيقَّنونه حقًّا كما يتيقَّنُ الرائِيُّ مَنْ رآه حقًّا، لكن لماذا لا يَرَوْنَهُ رؤيةَ الموجود؟

قال:

٢١٢٥- إِذْ كُـلُّ مَرْئِـيٍّ يَقُـومُ بِنَفْسِـهِ أَوْ غَيْرِهِ، ....

يعني: كُلُّ مَرْئِيٍّ فلا بُدَّ أن يكونَ قائمًا بنفسه أو قائمًا بغيره، فالجسم مثلًا إذا رأيناه رأينا قائمًا بنفسه، واللون في الجسم إذا رأيناه رأينا قائمًا بغيرٍه، فلا بُدَّ في الْبُرْهَان.

٢١٢٥- ....، لَا بُـدَّ فِي البُرْهَـانِ

٢١٢٦- مِـنْ أَنْ يُقَابِـلَ مَـنْ يَـرَاهُ حَقِيقَـةً مِـنْ غَـيْرِ بُعْـدٍ مُفْـرِطٍ وَتَدَانِـي

يعني: لا بُدَّ أيضًا من نسبةٍ بين الرائِيِّ والمرئِيِّ وهي المقابلة، لا بُدَّ من ذلك، أمَّا بغير المقابلة فلا تمكنُ الرؤية.

٢١٢٧- وَلَقَدْ تَسَاعَدْنَا عَلَى إِبْطَالِ ذَا أَنْتُمْ ونَحْنُ فَمَا هُنَا قَوْلَانِ

إِذَنْ الأشاعرةُ يُنكرونَ أنَّ اللهَ يُرَى -نسألُ اللهَ العافيةَ- مع أنَّ شيخَ الإسلام -رحمه الله- قال: إنَّ هَذِهِ البدعةَ بدعةٌ مُكَفِّرةٌ، حتَّى إنه نقل في بعض مواضعَ من كلامه اتفاقَ السَّلف عَلَى تكفير مَنْ أنكر رؤيةَ الله، قال: لأنها جاءت في الكتاب والسُّنَّة وأجمع عليها السَّلفُ، والنَّبيُّ ﷺ قال: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُوْنَهَا سَحَابٌ، وَكَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ»(١)، وهل أبلغُ من هَذَا الكلام في أنَّ الرؤيةَ رؤيةُ عين؟ الجواب: أبدًا، فلا أبلغ من هَذَا الكلام، ولا أوضح من هَذَا الكلام، فمن أنكره فقد أنكر ما مدلولُه أمرٌ قَطْعِيٌّ لا شَكَّ فيه.

٢١٢٨- أَمَّا الْبَلِيَّةُ فَهْيَ قَوْلُ مُجَسِّمٍ قَالَ: الْقُرانُ بَدَا مِنَ الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «مُجَسِّم» المُجَسِّمُ أي: المُثْبِتُ لصفات الله، فكُلُّ مَنْ أثبتَ صفاتٍ لله فهو عندهم مُجَسِّمٌ.

٢١٢٩- هُوَ قَوْلُهُ وَكَلَامُهُ مِنْهُ بَدَا لَفْظًا وَمَعْنًى لَيْسَ يَفْتَرِقَانِ

وهذا قد تقدَّم الكلامُ عليه أنَّ أهلَ السُّنَّة والجماعة يَرَوْنَ أنَّ الْقُرْآنَ كلامُ الله لفظه ومعناه، وأنه مِنْهُ بدأ وَإِلَيْهِ يعود.

٢١٣٠- سَمِعَ الأَمِينُ كَلَامَهُ مِنْهُ وَأَدْ دَاهُ إِلَى الْمُخْتَارِ مِنْ إِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «سَمِعَ الأَمِينُ كَلَامَهُ مِنْهُ» «الأمين» هُوَ جبريلُ -عليه السلام- ائتمنه اللهُ عَلَى وحيه، وجعله سفيرًا بينه وبين رسلِه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، رقم (٦٢٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢).

قَوْلُهُ: «وَأَدَّاهُ إِلَى الْمُخْتَارِ مِنْ إِنْسَانِ» وَهُوَ محمدٌ صلوات الله وسلامه عليه.

٢١٣١- فَلَــهُ الأَدَاءُ كَــمَا الأَدَا لِرَسُــولِهِ وَالقَــوْلُ قَــوْلُ الله ذِي السُّــلْطَانِ

قَوْلُهُ: «لَهُ» أي: لجبريلَ الأمين.

قَوْلُهُ: «الأَدَاء» أي: يؤدِّيه إِلَى محمدٍ ﷺ.

قَوْلُهُ: «كَمَا الأَدَا لِرَسُولِهِ» يؤدِّيه إِلَى الأمة.

قَوْلُهُ: «وَالقَوْلُ قَوْلُ الله ذِي السُّلْطَانِ»، فها هنا ثلاثةٌ: اللهُ عزَّ وجلَّ فالْقُرْآنُ قولُه، مِنْهُ ابتدأ، وجبريلُ مُبلِّغٌ إِلَى الرسول محمدٌ ﷺ، ومحمد ﷺ مبلِّغ إِلَى الأمة؛ ولهذا أضاف اللهُ الْقُرْآنَ إِلَى جبريلَ، وإلى محمدٍ، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ [الحاقة:٤٠-٤١] المراد بالرسول هنا (محمد)، لأنه قال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢٠] هَذَا جبريلُ، ومحالٌ أن يكونَ القولُ من قائِلَيْن.

إِذَنْ فنسبةُ القولِ إِلَيْهما نسبةُ أداءٍ وتبليغ، أمَّا الأصلُ الَّذِي قاله أصلًا وابتدأه فهو اللهُ عزَّ وجلَّ، قَالَ الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦].

٢١٣٢- هَــذَا الَّــذِي قُلْنَــا وَأَنْــتُمْ: إِنَّــهُ عَــيْنُ الْــمُحَالِ وَذَاكَ ذُو بُطْــلَانِ

هم يقولون: مستحيلٌ أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- يتكلَّمُ بكلامٍ يُسْمَعُ، يسمعُه جبريلُ فيؤدِّيه إِلَى محمد، هَذَا شيءٌ مستحيلٌ، كَيْفَ ذلك؟ لأنَّ الفلاسفةَ يقولون: إنَّ الْقُرْآنَ فَيْضٌ من العقل الفعَّال، وليس كلامَ ذِي الجلال والإكرام، والأشاعرةُ

يقولون: إنَّ الكلامَ هُوَ المعنى القائمُ بنفس الله، وأمَّا هَذِهِ الحروفُ والأصواتُ التي سمعها جبريلُ فهي مخلوقةٌ؛ ولهذا اتفقوا عَلَى أنه من المستحيل أن يكونَ الْقُرْآنُ كلامَ الله.

٢١٣٣- فَإِذَا تَسَاعَدْنَا جَمِيعًا أَنَّهُ   مَا بَيْنَنَا لله مِنْ قُرْآنِ

٢١٣٤- إِلَّا كَبَيْتِ الله تِلْكَ إِضَافَةُ الْـ   مَخْلُوقِ لَا الأَوْصَافِ لِلدَّيَّانِ

قَوْلُهُ: «إِلَّا كَبَيْتِ الله تِلْكَ إِضَافَةُ» يعني: بيتُ الله مخلوقٌ، وليس صفةً من صفاته، أضافه اللهُ إليه عَلَى سبيل التشريف والتعظيم.

٢١٣٥- فَعَلَامَ هَذَا الحَرْبُ فِيمَا بَيْنَنَا   مَعْ ذَا الْوِفَاقِ وَنَحْنُ مُصْطَلِحَانِ؟

٢١٣٦- فَإِذَا أَبَيْتُمْ سِلْمَنَا فَتَحَيَّزُوا   لِمَقَالَةِ التَّجْسِيمِ بِالإِذْعَانِ

يعني: إن أبيتم سِلْمَنَا، وقُلْتُم: أنتم حربٌ علينا، ولا نكونُ معكم ولا في صفِّكم، فتحيَّزوا لمقالة التَّجْسِيم بالإذعان، وهي مقالةُ السَّلفِ وأهلِ السُّنَّة والجماعة.

٢١٣٧- عُودُوا مُجَسِّمَةً وَقُولُوا: دِينُنَا الْـ   إِثْبَاتُ دِينِ مُشَبِّهِ الدَّيَّانِ

عودوا مُجَسِّمَة، وقولوا: ديننُا الإثبات، فمن كان مُثْبِتًا فهو عندهم مُجَسِّمٌ مُشَبِّهٌ؛ ولهذا قال: «دين مُشَبِّه الدَّيَّانِ».

٢١٣٨- أَوْ لَا فَلَا مِنَّا وَلَا مِنْهُمْ وَذَا   شَأْنُ الْمُنَافِقِ إِذْ لَهُ وَجْهَانِ

قَوْلُهُ: «أَوْ لَا» يعني: أو لا تتحيزَّوا إِلَى أهل التَّجْسِيم أو مقالة التَّجْسِيم.

قَوْلُهُ: «فَلَا مِنَّا وَلَا مِنْهُمْ» أي: مذبذبين بين ذلك، لا إِلَى هؤلاء ولا إِلَى هؤلاء.

قَوْلُهُ: «**وَذَا شَأْنُ الْـمُنَافِقِ إِذْ لَهُ وَجْهَانِ**» المنافقُ له وجهان: يلقى المؤمنين بوجهٍ ويقولُ: نحن معكم آمنَّا بالله، ويلقى الكافرين بوجهٍ فيقول: إنَّا معكم إنما نحن مستهزئون، فله وجهان -والعياذ بالله- نسألُ اللهَ أن يحمينَا وإيَّاكم من ذلك.

٢١٣٩- هَــذَا يَقُــولُ مُجَسِّــمٌ وَخُصُــومُهُ ... تَرْمِيــهِ بِالتَّعْطِيــلِ وَالكُفْــرَانِ

فهو تارةً يقول هَكَذَا، وتارةً يقول هَكَذَا.

٢١٤٠- هُــوَ قــائِمٌ هُــوَ قَاعِـدٌ هُـوَ جَاحِـدٌ ... هُــوَ مُثْبِــتٌ تَلْقَــاهُ ذَا أَلْــوَانِ

قَوْلُهُ: «**هُوَ قَائِمٌ هُوَ قَاعِدٌ**» قائمٌ مع القائمين، وقاعدٌ مع القاعدين.

قَوْلُهُ: «**هُوَ جَاحِدٌ هُوَ مُثْبِتٌ**» جاحدٌ مع الجاحدين، مُثْبِتٌ مع المثبتين، ليس له قاعدةٌ يستقيمُ عليها.

٢١٤١- يَوْمًــا بِتَأْوِيــلٍ يَقُــولُ وَتَــارَةً ... يَسْــطُو عَــلَى التَّأْوِيــلِ بِــالنُّكْرَانِ

أحيانًا يُؤوِّلُ ويُحرِّفُ، وأحيانًا لا يؤوِّلُ ولا يحرِّفُ بل ينكرُ التأويلَ، وهَكَذَا هؤلاء مذبذبون؛ ولذلك لا تكادُ تجدُ أحدًا من أهل الكلام يثبتُ عَلَى قدمٍ راسخة، بل إنه ينقدُ نفسَه بنفسِه، فتجده في موضع من كلامه يقولُ: هَذَا واجبٌ لله، وفي موضعٍ آخر يقولُ: هَذَا ممتنعٌ عَلَى الله، وفي موضعٍ ثالثٍ يقولُ: هَذَا جائزٌ، هَذَا وَهُوَ واحد منهم بقطع النظر عن مجموعهم، لو نظرنا إِلَى مجموعهم لوجدنا بعضَهم يُكَذِّبُ بعضًا.

***

فصل

فِي المُطَالَبَةِ بِالفَرْقِ بَيْنَ مَا يُتَأَوَّلُ وَمَا لا يُتَأَوَّلُ

٢١٤٢- فَنَقُولُ: فَرْقٌ بَيْنَ مَا أَوَّلْتَهُ ... وَمَنَعْتَهُ تَفْرِيقَ ذِي بُرْهَانِ

٢١٤٣- فَيَقُولُ: مَا يُفْضِي إِلَى التَّجْسِيمِ أَوْ ... وَلْنَاهُ مِنْ خَبَرٍ وَمِنْ قُرْآنِ

٢١٤٤- كَالإِسْتِوَاءِ مَعَ التَّكَلُّمِ هَكَذَا ... لَفْظُ النُّزُولِ كَذَاكَ لَفْظُ يَدَانِ

٢١٤٥- إِذْ هَذِهِ أَوْصَافُ جِسْمٍ مُحْدَثٍ ... لَا يَنْبَغِي لِلْوَاحِدِ الْمَنَّانِ

٢١٤٦- فَنَقُولُ: أَنْتَ وَصَفْتَهُ أَيْضًا بِمَا ... يُفْضِي إِلَى التَّجْسِيمِ وَالْحِدْثَانِ

٢١٤٧- فَوَصَفْتَهُ بِالسَّمْعِ وَالإِبْصَارِ مَعْ ... نَفْسِ الحَيَاةِ وَعِلْمِ ذِي الأَكْوَانِ

٢١٤٨- وَوَصَفْتَهُ بِمَشِيئَةٍ مَعَ قُدْرَةٍ ... وَكَلَامِهِ النَّفْسِيِّ وَهْوَ مَعَانِي

٢١٤٩- أَوْ وَاحِدٌ وَالجِسْمُ حَامِلُ هَذِهِ الْـ ... أَوْصَافِ حَقًّا فَأْتِ بِالْفُرْقَانِ

٢١٥٠- بَيْنَ الَّذِي يُفْضِي إِلَى التَّجْسِيمِ أَوْ ... لَا يَقْتَضِيهِ بِوَاضِحِ الْبُرْهَانِ

٢١٥١- وَاللهِ لَوْ نُشِرَتْ شُيُوخُكَ كُلُّهُمْ ... لَمْ يَقْدِرُوا أَبَدًا عَلَى الْفُرْقَانِ

الشرحُ

هَذَا الفصلُ يتحدَّى فيه هؤلاء الذين يُحرِّفون أو يؤوِّلون بعضَ النصوص ويتركون بعضًا، فيقول لهم: فَرِّقوا لَنَا بين ما يؤوَّلُ وبين ما لا يؤوَّلُ، أَمَّا أن تتحكَّموا فتقولوا: هَذَا يُؤوَّلُ وهذا لا يؤوَّلُ، فهذا غيرُ مُسَلَّمٍ لكم.

٢١٤٢- فَنَقُـولُ: فَـرْقٌ بَـيْنَ مَـا أَوَّلْتَـهُ ... وَمَنَعْتَـهُ تَفْرِيـقَ ذِي بُرْهَـانِ

٢١٤٣- فَيَقُولُ: مَا يُفْضِـي إِلَى التَّجْسِيمِ أَوْ ... وَلْنَـاهُ مِـنْ خَـبَرٍ وَمِـنْ قُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «فَيَقُولُ» أي: في الجواب.

«ما يُفْضِي إِلَى التَّجْسِيم أولناه» يعني: وما لا يُفْضِي لا نُؤوِّلُه.

قَوْلُهُ: «مِنْ خَبَرٍ وَمِنْ قُرْآنِ» أي: من خبرٍ عن الرسول -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

«وَمِنْ قُرْآنِ» أي: من كلامِ الله -سبحانه وتعالى-.

٢١٤٤- كَالإِسْـتِوَاءِ مَـعَ الـتَّكَلُّمِ هَكَـذَا ... لَفْـظُ النُّـزُولِ كَـذَاكَ لَفْـظُ يَـدَانِ

قَوْلُهُ: «كَالِاسْتِوَاء» هَذَا مثالٌ لما يُفْضِي إِلَى التَّجْسِيم، «كالِاسْتِوَاء»، مع «التكلم» هَكَذَا لفظ «النزول»، كذلك لفظ «يدان» هَذِهِ أربعةُ أمثلة.

يقول: إذا أثبتنا (الِاسْتِوَاء) بمعناه الحقيقي كان ذلك مُفْضِيًا إِلَى التَّجْسِيم؛ لأنك إذا قلتَ: «اسْتَوَى كَذَا عَلَى كذا» لزم أن يكونَ الأوَّلُ جسمًا كما أنَّ الثاني جسمٌ، وهذا يُفضي إِلَى التَّجْسِيم.

كذلك (الكلام)، لو أثبتنا الكلامَ بحرفٍ وصوت لزم من ذلك التَّجْسِيمُ؛ لأنَّ الكلامَ بحرفٍ وصوت يحتاجُ إِلَى آلة: لسان، وشفتين، ومخارج حروف، وما أشبه ذلك، وهذا يقتضي أن يكونَ اللهُ جسمًا.

كذلك أيضًا (النزول)، يقولون: لا يكونُ النزولُ من شيء إِلَى شيء إِلَّا إذا كان هَذَا النازلُ جسمًا، فإذا أثبتَ نزولَ الله إِلَى السَّماء الدنيا مثلًا لزم أن تكونَ مُجَسِّمًا.

وكذلك **(اليدان)**، أثبتَ اللهُ لنفسه يَدَيْن، فقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة:٦٤] وقال يخاطبُ إبليسَ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص:٧٥] فيقولون: محالٌ أن يُثْبَتَ لله يدان حقيقيَّتان؛ لأنَّ ذلك يقتضي التَّجْسِيمَ.

وكُلُّ هَذِهِ مؤوَّلةٌ عندهم، فـ**(الِاسْتِوَاء)** يعني: الاستيلاء، و**(الكلام)** يعني: الكلامَ النفسيَّ أو كلامَ مخلوق عَلَى رأي المعتزلة، و**(النزول)** أي: نزولُ الأمر، فـ«يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا»، يعني: ينزلُ أمرُه إِلَى السَّماء الدنيا، أو تنزل رحمتُه، أو ينزلُ مَلَكٌ من ملائكته.

وسبحان الله العظيم! كَيْفَ يتجرَّؤون أن يقولوا هَذَا الكلامَ مع أنَّ الَّذِي نطق به محمدٌ رسولُ الله ﷺ، حيث قال: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِيْنَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟**»[(١)] هل يمكنُ للأمر أن يقولَ: مَنْ يَدْعُوني فأستجيبَ له؟ فالذي يتصوَّر أنَّ الأمرَ يقولُ هَذَا الكلامَ وَهُوَ أمر، لا شكَّ أنَّ عقلَه ليس معه.

هل يمكنُ أن يقول المَلَكُ من ملائكة الله مَنْ يدعوني فأستجيبَ له؟ من يستغفرُني فأغفرَ له؟ لو أنَّ مَلَكًا من الملائكة قَالَ هَذَا لادَّعى لنفسه أنه إلهٌ، وهذا مستحيلٌ أن تقولَ الملائكةُ وهم عبادُ الله المكرَمون ما يقتضي أن يكونوا آلهةً، لكن -والعياذ بالله- إذا صار للإنسان الهوى ضلَّ عن الهدى.

كذلك **(اليدان)**: يقولُ: المرادُ باليد: **(القوة)**، تقولُ العربُ: **(مَا لِي بذلك يَدَان)** أي: ما لي به من قوة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١٠٩٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، رقم (٧٥٨).

ولكن كَيْفَ نقولُ هَذَا واللهُ يقولُ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥] بيدَيَّ؟ لو كانت (اليدُ) هي القوة لم يكن هناك فرقٌ بين آدمَ وإبليسَ، فإنَّ إبليسَ خُلِقَ بقوة الله، ثُمَّ القوة لا يمكنُ أن تُثَنَّى، قوةُ الله وصفٌ عظيمٌ يُقَدَّرُ بالكَيْف لا بالكمِّ و(اليدان) مُقَدَّرةٌ بالكَمِّ، هل اللهُ عزَّ وجلَّ له قوتان؟! له قوةٌ مقدَّرةٌ بالكيفية لا يقهرُها شيءٌ، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥].

وإبطالُ كلامِهم مَرَّ علينا كثيرًا، وواضحٌ جدًّا، لكن هم يقولون: هَذِهِ يمكنُ تأويلُها فنؤوِّلها.

٢١٤٥- إِذْ هَـذِهِ أَوْصَافُ جِسْمٍ مُحْدَثٍ   لَا يَنْبَغِي لِلْوَاحِدِ الْـمَنَّانِ

قَوْلُهُ: «إِذْ هَذِهِ أَوْصَافُ جِسْمٍ مُحْدَثٍ» يشيرُ إِلَى (الِاسْتِوَاء)، وإلى (الكلام)، وإلى (النزول)، وإلى (اليد).

قَوْلُهُ: «لَا يَنْبَغِي» أي: الجسمُ، للواحد المنان «لَا يَنْبَغِي» هنا بمعنى: لا يمكنُ، يعني: يستحيلُ، فنقولُ له مناقضين لكلامه: أنت وصفتَه أيضًا بما **يُفْضِي إِلَى التَّجْسِيمِ وَالْـحِدْثَانِ**؛ ولذا قال:

٢١٤٦- فَنَقُولُ: أَنْتَ وَصَفْتَهُ أَيْضًا بِـمَا   يُفْضِي إِلَى التَّجْسِيمِ وَالْـحِدْثَانِ

٢١٤٧- فَوَصَفْتَهُ بِالسَّمْعِ وَالإِبْصَارِ مَعْ   نَفْسِ الْـحَيَاةِ وَعِلْمِ ذِي الأَكْوَانِ

٢١٤٨- وَوَصَفْتَهُ بِمَشِيئَةٍ مَعَ قُدْرَةٍ   وَكَلَامِهِ النَّفْسِيِّ وَهْوَ مَعَانِي

يعني: أنت وصفتَه بالسَّمع، والإبصار، والحَيَاة، والعلم، والمشيئة، والقدرة، وكلامِه النفسيِّ، فهذه سبعُ صفات.

وهذه هي الصِّفَاتُ التي يثبتُها الأشاعرةُ مُدَّعين أنَّ العقلَ دَلَّ عليها، لكن كَيْفَ دَلَّ عليها؟ يقولون: إِنَّ التخصيصَ دلَّ عَلَى الإرادة، لكن كَيْفَ التخصيص دلَّ عَلَى الإرادة؟

يقولون: تخصيصُ المخلوقاتِ بحقائقها وذواتها وأعيانها وأوصافها دَلَّ عَلَى الإرادة، السَّماءُ لماذا كانت سماءً، الأرضُ لماذا كانت أرضًا؟ الَّذِي اقتضت ذلك هي الإرادة، أراد اللهُ أن تكونَ السَّماءُ سماءً فكانت، وأراد أن تكونَ الأرضُ أرضًا فكانت، وهلمَّ جرًّا.

«**الإحكام**» يعني: كون هَذِهِ المخلوقات مُحْكَمَةً متقنةً يدلُّ عَلَى العلم؛ لأنَّ الجاهلَ لا يأتي بالشيء مُحْكَمًا، لو أراد إنسانٌ أن يصلحَ (مذياعًا) مثلًا، وَهُوَ لا يعرفُ الصنعةَ، فهل يمكنُ أن يصنع لَنَا (مذياعًا) محكمًا لا يمكن، إِذَنْ الإحكامُ دَلَّ عَلَى العلم.

الإيجاد: إيجادُ المخلوقاتِ دليلٌ عَلَى القدرة؛ لأنَّ العاجزَ لا يوجد.

هذه الصِّفَاتُ الثلاث يقولون: محالٌ أن تقومَ إِلَّا بحيٍّ، فحياةُ الله عزَّ وجلَّ استدلُّوا عليها بالملازمة، أنه من لازم اتصافه بِهَذِهِ الصِّفَات الثلاث أن يكون حيًّا.

أثبتنا الآن أربعَ صفات.

والحيُّ إِمَّا أن يكونَ سميعًا بصيرًا متكلمًا أو أصمَّ أعمى أخرس، والأَوْصَافُ الثلاثةُ الأخيرة نقصٌ، والله مُنَزَّهٌ عن النقص، فوجب له ثبوتُ السَّمع والبصر والكلام، ومع ذلك يقولُ ابنُ القيِّم -رحمه الله-: (**كلامه النفسي وهو معاني أو واحد**» يعني: الأشاعرة أيضًا ليتهم يُثبتون الكلامَ عَلَى ما يُثبتُه أهلُ السُّنَّة، يقولون: إنَّ كلامَ الله هُوَ المعنى القائم بالنفس وَهُوَ أَزَلِـيٌّ، وَهُوَ واحدٌ أو متعدد؟

فبعضهم يقول: إنه واحدٌ، فيجعلون قولَه تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [المائدة:٧٢] هي ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف:٣٣].

يقولون: قولُه تعالى: ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام:٧٢] هي ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء:٣] شيءٌ واحد، الإنجيلُ والتوراةُ والْقُرْآنُ شيءٌ واحد.

وبعضهمُ يقولُ: لا، ليس شيئًا واحدًا، بل هُوَ متعددٌ: خبرٌ، واستخبارٌ، وأمرٌ، ونهيٌ، أربعةُ أشياء.

وهؤلاء أهونُ من الأوَّلين، وأقربُ إِلَى المعقول، وكُلُّهم مخالفون للمعقول، فكلامُ الله ليس هُوَ المعنى النفسيَّ، بل هُوَ ما سمعه جبريلُ -عليه السلام- وأدَّاه إِلَى محمد ﷺ وما يتكلَّم اللهُ به في الأمور الكونيَّة التي لا منتهى لها.

٢١٤٩- أَوْ وَاحِدٌ وَالجِسْمُ حَامِلُ هَذِهِ الْـ ... أَوْصَافِ حَقًّا فَأْتِ بِالْفُرْقَانِ

٢١٥٠- بَيْنَ الَّذِي يُفْضِي إِلَى التَّجْسِيمِ أَوْ ... لَا يَقْتَضِيهِ بِوَاضِحِ الْبُرْهَانِ

يقولون: السَّمعُ لا نعقلُه إِلَّا في الأجسام، والبصرُ لا نعقلُه إِلَّا في الأجسام، الإرادةُ والقدرةُ كُلُّها في الأجسام، فأنت الآن أثبتَّ أوصافًا لا تقومُ إِلَّا بأجسام، وقلتَ: إِنَّ هَذِهِ الأَوْصَافَ حقيقةٌ، وأما (الإِسْتِوَاءُ) و(النزولُ) و(الكلامُ) و(اليدُ) فهي غيرُ حقيقة؛ لأنَّ هَذِهِ الأربعةَ لا تقومُ إِلَّا بجسمٍ، وأثبتَّ سبعةَ أوصافٍ لا تقومُ إِلَّا بجسمٍ، فهذا لا شكَّ أنه تناقضٌ؛ ولهذا قال: (فأتِ بِالْفُرْقَانِ بين الَّذِي يُفْضِي إِلَى التَّجْسِيمِ أو لا يَقْتَضِيهِ).

ثُمَّ أَقْسَمَ -رحمه الله- فقال:

٢١٥١- وَاللهِ لَوْ نُشِرَتْ شُيُوخُكَ كُلُّهُمْ ... لَمْ يَقْدِرُوا أَبَدًا عَلَى الْفُرْقَانِ

وحينئذٍ يكونون متناقضين متحكِّمين، هَذِهِ صفةٌ لا تقتضي التَّجْسِيمَ فنثبتُها، وهَذِهِ صفةٌ تقتضي التَّجْسِيمَ فلا نثبتُها.

ثُمَّ يجبُ أن نعلمَ أنَّ كلمة (الجسم) لها في اللغة العربية معانٍ متعددة، ولم يَرِدْ وصفُ الله بها لا نفيًا ولا إثباتًا، فليس في الْقُرْآن ولا في السُّنَّةِ أنَّ اللهَ قَالَ عن نفسه: إنه جسمٌ، ولا نفى عن نفسِه أنه جسمٌ، فما الَّذِي يلزمُنا؟

الجَوَابُ: يلزمُنا أن نتوقَّفَ بالنسبة للفظ، فلا نقولُ: إنَّ اللهَ جسمٌ، ولا إنَّ اللهَ ليس بجسمٍ، نحن في عافيةٍ من هذا، لكن مِن حيث المعنى نحن نؤمنُ بأنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- له ذاتٌ متصفةٌ بالصِّفَات، هَذِهِ الصفةُ موصوفةٌ بالوجه، بالعين، باليد، بالقدم، بالسَّاق، بالنزول، بالِاسْتِوَاء، بالمجيء، بالإتيان، نؤمنُ بهذا، لكن لا نطلقُ جسمًا من باب التأدُّب مع الكتاب والسُّنَّة؛ لأنه لم يأتِ في الكتاب والسُّنَّة أنَّ اللهَ جسمٌ، فمن باب التأدُّب مع الله ألا نقولَ: جسمٌ، لكننا نُثبتُ صفاتٍ ثابتةً لله حقيقةً قائمةً به، ونُثبتُ أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- شيءٌ مُتَّحِدٌ بنفسه، مستقلٌ بنفسِه، بائنٌ مِن خلقِه كما قَالَ السَّلفُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

* * *

فصل

فِي ذِكْرِ فَرْقٍ لَهُمْ آخَرَ، وَبَيَانِ بُطْلَانِهِ

٢١٥٢- فَلِـذَاكَ قَـالَ زَعِـيمُهُمْ فِي نَفْسِـهِ ... فَرْقًـا سِـوَى هَـذَا الَّـذِي تَرَيَـانِ:

٢١٥٣- هَذِي الصِّفَاتُ عُقُولُنَا دَلَّـتْ عَـلَى ... إِثْبَاتِهَـا مَـعَ ظَـاهِرِ الْقُـرْآنِ

٢١٥٤- فَلِذَاكَ صُنَّاهَا عَـنِ التَّأْوِيـلِ فَاعْـ ... ـجَبْ يَا أَخَا التَّحْقِيـقِ وَالْعِرْفَـانِ

٢١٥٥- كَيْفَ اعْتِرَافُ القَوْمِ أَنَّ عُقُولَـهُمْ ... دَلَّـتْ عَـلَى التَّجْسِـيمِ بِالْبُرْهَـانِ؟

٢١٥٦- فَيُقَالُ: هَلْ فِي العَقْلِ تَجْسِيمٌ أَمِ الْـ ... ـمَعْقُولُ يَنْفِيـهِ كَـذَا النُّقْصَـانِ؟

٢١٥٧- إِنْ قُلْـتُمْ: نَنْفِيـهِ فَـانْفُوا هَـذِهِ الْـ ... أَوْصَـافَ وَانْسَـلِخُوا مِـنَ الْقُـرْآنِ

٢١٥٨- أَوْ قُلْـتُمْ: نَقْضِـي بِإِثْبَـاتٍ لَـهُ ... فَفِـرَارُكُمْ مِنْهَـا لِأَيِّ مَعَانِـي؟

٢١٥٩- أَوْ قُلْـتُمْ: نَنْفِيـهِ فِي وَصْـفٍ وَلَا ... نَنْفِيـهِ فِي وَصْـفٍ بِـلَا بُرْهَـانِ

٢١٦٠- فَيُقَالُ: مَا الْفُرْقَانُ بَيْـنَهُمَا وَمَـا الْـ ... ـبُرْهَانُ؟ فَـأْتُوا الآنَ بِالْفُرْقَـانِ

الشرح

هذا الفصلُ عقده المؤلفُ -رحمه الله- لبيان شُبهةٍ أخرى للمعطِّلة، لكن ما هَذِهِ الشُّبهةُ؟ يقول:

٢١٥٢- فَلِـذَاكَ قَـالَ زَعِـيمُهُمْ فِي نَفْسِـهِ ... فَرْقًـا سِـوَى هَـذَا الَّـذِي تَرَيَـانِ:

في الفصلِ السَّابق زعموا أنَّ بعضَ الصِّفَات يستلزمُ التَّجْسِيمَ فنفوه، وبعضَها لا يستلزمُ التَّجْسِيمَ فأثبتوه.

هذا الفصلُ جاؤوا بدليلٍ آخر، فقالوا: ما أثبتناه دَلَّ عليه العقلُ، وما نفيناه لم يدلَّ عليه العقلُ، فجعلوا عمدتَهم في إثبات الصِّفَات أو نفيها عن الله العقلَ.

قَوْلُهُ: «تَرَيَان» يتخيَّلُ المؤلفُ في مثل هَذِهِ العبارة أنه يخاطبُ خَلِيلَيْن له كما تجدون في القصائد الجاهلية، يقول الشاعر: (خَلِيلَـيَّ)[1] ويخاطبُ خَلِيلَيْه.

٢١٥٣- هَذِي الصِّفَاتُ عُقُولُنَا دَلَّـتْ عَـلَى إِثْبَاتِهَـا مَـعَ ظَـاهِرِ الْقُـرْآنِ

يعني: فاجتمع في الدلالة عليها العقلُ والسَّمعُ.

٢١٥٤- فَلِذَاكَ صُنَّاهَا عَنِ التَّأْوِيلِ ....

قَوْلُهُ: «فَلِذَاكَ صُنَّاهَا عَنِ التَّأْوِيلِ» يعني: لـمَّا كانت العقولُ تدلُّ عليها وظاهرُ الْقُرْآنِ يدلُّ عليها، صُنَّاها عن التأويل، مع أنها عَلَى طريقتهم الأولى تقتضي التَّجْسِيمَ، وهذا عَلَى المعنى الأول في الفصل السَّابق، ولهذا قَالَ المؤلف:

٢١٥٤- .... فَاعْـ ـجَبْ يَا أَخَا التَّحْقِيـقِ وَالْعِرْفَـانِ

٢١٥٥- كَيْفَ اعْتِرَافُ الْقَوْمِ أَنَّ عُقُولَـهُمْ دَلَّـتْ عَـلَى التَّجْسِـيمِ بِالْبُرْهَـانِ؟

وهذا صحيحٌ، محلُّ عجب، أنتم تقولون: إننا نمنعُ الصِّفَات؛ لأنها تقتضي التَّجْسِيمَ، ثُمَّ الآن تقولون: نُثْبِتُ الصِّفَات التي دلَّ عليها العقلُ وإن اقتضت التَّجْسِيمَ.

---

(١) يعني قول امرئ القيس:
خليليّ مَا فى اليوم مَصْحًى لشارب وَلَا فِي غد إِذْ كان مَا كان مشرب

٢١٥٦- فيُقَالُ: هَلْ فِي العَقْلِ تَجْسِيمٌ أَمِ الْـ ـمَعْقُولُ يَنْفِيهِ كَذَا النُّقْصَانِ؟

٢١٥٧- إِنْ قُلْتُمُ: نَنْفِيهِ فَانْفُوا هَذِهِ الْـ أَوْصَافَ وَانْسَلِخُوا مِنَ الْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «إِنْ قُلْتُمُ نَنْفِيهِ» يعني: إن قُلْتُم: ننفي النقصانَ وننفي التَّجْسِيمَ.

«فَانْفُوا هَذِهِ الأَوْصَاف» يعني: الأَوْصَاف التي أثبتوها، وزعموا أَنَّ العقلَ دَلَّ عليها مع ظاهرِ الْقُرْآن.

وَقَوْلُهُ: «فَانْفُوا هَذِهِ الأَوْصَافَ وَانْسَلِخُوا مِنَ الْقُرْآنِ» هَذَا هُوَ الاحتمالُ الأَوَّلُ.

٢١٥٨- أَوْ قُلْتُمُ: نَقْضِي بِإِثْبَاتٍ لَهُ فَفِرَارُكُمْ مِنْهَا لِأَيِّ مَعَانِي؟

قَوْلُهُ: «أَوْ قُلْتُمُ: نَقْضِي بِإِثْبَاتٍ لَهُ» هَذَا الاحتمال الثاني.

يعني: قُلْتُم: نقضي بإثبات التَّجْسِيم ففراركم من هَذِهِ الصِّفَات التي نفيتموها لأيِّ معنى نفيتموها ما دمتم قضيتم بالتَّجْسِيم؟

٢١٥٩- أَوْ قُلْتُمُ: نَنْفِيهِ فِي وَصْفٍ وَلَا نَنْفِيهِ فِي وَصْفٍ بِلَا بُرْهَانِ

وهذا هُوَ الثالث، وهذا هُوَ الَّذي يقولون، يقولون: ننفي التَّجْسِيمَ في وصفٍ، ولا ننفيه في وصف، ففي الصِّفَاتِ التي نُثبتُها وإن كانت تقتضي التَّجْسِيمَ فإننا نثبتُها، وفي الصِّفَات التي ننفيها فإننا ننفي التَّجْسِيمَ.

فصارت الآن الاحتمالاتُ ثلاثةً:

- إمَّا أن يثبتوا التَّجْسِيمَ في الصِّفَات كُلِّها، ويلتزموا بإثبات الصِّفَات.
- وإما أن ينفوا التَّجْسِيمَ، ويلتزموا بنفي الصِّفَات كُلِّها.

- وإما أن يقولوا: ننفي التَّجْسِيمَ في صفاتٍ ولا ننفيه في صفات، ففي الصِّفَات التي أثبتناها لا ننفي التَّجْسِيمَ، وفي الصِّفَات التي نفيناها ننفي التَّجْسِيمَ.

فيقول المؤلف -رحمه الله-:

٢١٦٠- فَيُقَالُ: مَا الْفُرْقَانُ بَيْـنَهُمَا وَمَـا الْـ ـــبُرْهَانُ؟ فَـأْتُوا الآنَ بِالْفُرْقَـانِ

والجَوَابُ: أنهم لن يأتوا بِالْفُرْقَانِ بين ما أثبتوه وما نفوه، فما الَّذِي يُفَرِّقُ بينهما؟ لا فرق، فإمَّا أن يُثبتوا التَّجْسِيمَ بناءً عَلَى ثبوت الصِّفَات التي أثبتوها ويطَّردوا ذلك في جميع الصِّفَات، وإمَّا أن ينفوا التَّجْسِيمَ ويطردوه أيضًا في جميع الصِّفَات، فينفوا ما أثبتوه.

ولكن مع الأسف أنهم يتناقضون، فيقولون: هَذِهِ الصفةُ تقتضي التَّجْسِيمَ فيجبُ نفيُها، وهذه الصفةُ لا تقتضي التَّجْسِيمَ فيجبُ إثباتُها.

* * *

٢١٦١- وَيُقَـالُ: قَـدْ شَـهِدَ العِيَـانُ بِأَنَّـهُ ذُو حِكْمَـــةٍ وَعِنَايَـــةٍ وَحَنَــانِ

٢١٦٢- مَــعَ رَأْفَـــةٍ وَمَحَبَّـــةٍ لِعِبَـــادِهِ أَهْـلِ الوَفَـاءِ وتَـابِعِي الْقُـرْآنِ

٢١٦٣- وَلِذَاكَ خُصُّوا بِالْكَرَامَـةِ دُونَ أَعْـ ـــدَاءِ الإِلَـــهِ وَشِـــيعَةِ الكُفْـرَانِ

٢١٦٤- وَهُوَ الدَّلِيلُ لَنَا عَلَى غَضَـبٍ وَبُغْـ ـضٍ مِنْهُ مَعْ مَقْتٍ لِذِي الْعِصْـيَانِ

٢١٦٥- وَالنَّصُّ جَاءَ بِهَذِهِ الأَوْصَـافِ مَـعْ مِثْـلِ الصِّـفَاتِ السَّبْعِ فِي الْقُرْآنِ

٢١٦٦- وَيُقَـالُ: سَـلَّمْنَا بِـأَنَّ العَقْـلَ لَا يُفْضِـــي إِلَيْهَـا فَهْـيَ فِي الْفُرْقَـانِ

٢١٦٧- أَفَنَفْيُ آحَادِ الدَّلِيل يَكُونُ لِلْـ ... ـمَدْلُولِ نَفْيًا يَا أُولِي العِرْفَانِ؟!

٢١٦٨- أَوْ نَفْيُ مُطْلَقِهِ يَدُلُّ عَلَى انْتِفَا الْـ ... ـمَدْلُولِ فِي عَقْلٍ وَفِي قُرْآنِ

٢١٦٩- أَفَبَعْدَ ذَا الإِنْصَافِ وَيُحَكُمُ سِوَى ... مَحْضِ العِنَادِ وَنَخْوَةِ الشَّيْطَانِ؟

٢١٧٠- وَتَحَيُّزٍ مِنْكُمْ إِلَيْهِمْ لَا إِلَى الْـ ... ـقُرْآنِ وَالآثَارِ وَالإِيمَانِ

الشَّرحُ

٢١٦١- وَيُقَالُ: قَدْ شَهِدَ العِيَانُ بِأَنَّهُ ... ذُو حِكْمَةٍ وَعِنَايَةٍ وَحَنَانِ

٢١٦٢- مَعَ رَأْفَةٍ وَمَحَبَّةٍ لِعِبَادِهِ ... أَهْلِ الوَفَاءِ وتَابِعِي الْقُرْآنِ

٢١٦٣- وَلِذَاكَ خُصُّوا بِالْكَرَامَةِ دُونَ أَعْـ ... ـدَاءِ الإِلَهِ وَشِيعَةِ الكُفْرَانِ

قَوْلُهُ: «يُقَالُ: قَدْ شَهِدَ العِيَانُ بِأَنَّهُ ذُو حِكْمَةٍ» بأنه أي: بأنَّ اللهَ ذو حكمةٍ، فأراد أن يُثبتَ حكمةَ الله بالدَّليل العقليِّ.

نحن نَشهدُ ما في المخلوقات من الحِكَمِ العظيمة والغايات الحميدة، ونشهدُ كذلك ما في المشروعات التي شرعها اللهُ من الحِكَمِ العظيمة والغايات الحميدة، وهذا يدلُّنا عَلَى ثبوت الحكمة لله مع أنهم يُنكرون الحكمةَ.

كذلك أيضًا شهد العيان بأنه ذو عنايةٍ وحنان، أي: ذو عنايةٍ بخلقه، وحنانٍ عليهم، وذلك بما يجلبُ لهم من الخير والمنفعة، ويدفعُ عنهم من الشرِّ والمضرَّة، وهذا يدلُّ عَلَى عنايته -سبحانه وتعالى- وحنانِه.

قَوْلُهُ: «مَعَ رَأْفَةٍ وَمَحَبَّةٍ لِعِبَادِهِ» الشَّاهدُ يدلُّنا عَلَى رأفة الله، وذلك بما نشاهدُه من ألطافه في مواضعِ الشدة، فإنَّ هَذَا يدلُّ عَلَى رأفتِهِ -سبحانه وتعالى-.

قَوْلُهُ: «وَمَحَبَّةٍ لِعِبَادِهِ أَهْلِ الوَفَاءِ» من أين نعرف أنه يحبُّ العبادَ أهلَ الوفاء؟ الجواب: بإثابتهم، وتيسيرِ أمورِهم، ونصرِهم عَلَى أعدائهم، وغيرِ ذلك.

٢١٦٤- وَهُوَ الدَّلِيلُ لَنَا عَلَى غَضَبٍ وَبُغْـ ... ـضٍ مِنْهُ مَعْ مَقْتٍ لِذِي الْعِصْيَانِ

يعني: أيضًا نستدلُّ عَلَى غضبِ الإله، وبغضِه، ومَقْتِهِ بعقوبة أهل العصيان، فإِنَّ العقوبةَ دليلٌ عَلَى الغضب وعلى بُغْضِ العملِ الَّذِي أوجبَ العقوبةَ والانتقامَ.

٢١٦٥- وَالنَّصُّ جَاءَ بِهَذِهِ الأَوْصَافِ مَعْ ... مِثْلِ الصِّفَاتِ السَّبْعِ فِي الْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «وَالنَّصُّ جَاءَ بِهَذِهِ الأَوْصَافِ» يشيرُ إِلَى ما ذكره من الحكمة، والعناية، والرأفة، والمحبَّة، والغضب، والبغض، والمقت وَهُوَ أشدُّ البغض.

قَوْلُهُ: «الصِّفَات السَّبْع» أي: الصِّفَات السَّبع التي أثبتها الأشاعرةُ، وهي: الحَيَاة، والعلم، والقدرة والسَّمع، والبصر، والإرادة، والكلام، وهذه لا شكَّ أنها ثابتةٌ لله، فقد جَاءَ بها السَّمعُ، وكذلك الحكمةُ، والمحبَّةُ، والرأفةُ، والغضبُ كُلُّها جَاءَ بها السَّمعُ أيضًا.

٢١٦٦- وَيُقَالُ: سَلَّمْنَا بِأَنَّ العَقْلَ لَا ... يُفْضِي إِلَيْهَا فَهْيَ فِي الْفُرْقَانِ

يعني: لو سَلَّمْنَا أنَّ العقلَ لا يدلُّ عَلَى هَذِهِ الصِّفَات فهي في الْفُرْقَان، يعني: في الْقُرْآن، يعني: فقد دَلَّ عليها الْقُرْآنُ.

٢١٦٧- أَفَنَفْيُ آحَادِ الدَّلِيل يَكُونُ لِلْـ ... ـمَدْلُولِ نَفْيًا يَا أُولِي العِرْفَانِ؟!

يستفهمُ استفهامَ إنكارٍ، يقولُ: هل إذا انتفى الدَّلِيلُ أو الواحد من الأدلة هل يقتضي أن ينتفيَ المدلولُ؟ الجواب: لا، إذا انتفى دليلٌ واحدٌ، فإنه يجوزُ أن يَثْبُتَ المدلولُ بدليلٍ آخرَ، فانتفاءُ الدَّلِيلِ المعيَّنِ لا يقتضي انتفاءَ المدلول.

قَوْلُهُ: «يَا أُولِـي العِرْفَانِ» هَذَا من باب التهكُّم بهم، يعني: أين معرفتُكم؟ فإنَّ انتفاءَ الدَّلِيلِ الواحدِ لا يدلُّ عَلَى انتفاءِ المدلول.

٢١٦٨- أَوْ نَفْيُ مُطْلَقِهِ يَدُلُّ عَـلَى انْتِفَـا الْـ ـــمَدْلُولِ فِي عَقْـلٍ وَفِي قُـرْآنِ

يعني أيضًا انتفاء مطلقِ الدَّلِيل لا يدلُّ عَلَى أنَّ المدلولَ لا يَثْبُتُ، فقد يثبتُ بغير دليلٍ معلومٍ لنا؛ فلهذا متى وُجِدَ الشيءُ وثَبَتَ فإنَّنا لا نحتاجُ إِلَى طلب دليلِهِ ما دام واقعًا.

٢١٦٩- أَفَبَعْدَ ذَا الإِنْصَافِ وَيْحَكُمُ سِـوَى مَحْضِ العِنَـادِ وَنَخْـوَةِ الشَّـيْطَانِ؟

يعني: ليس بعد هَذَا الإِنْصَافِ معكم إِلَّا العنادُ، أي: أنهم يعاندون، ويَنْتَخُون بِنَخْوَة الشَّيطان، ويعتزُّون به.

٢١٧٠- وَتَـحَيُّزٍ مِـنْكُمْ إِلَـيْهِمْ لَا إِلَى الْـ ـــقُرْآنِ وَالآثَـارِ وَالإِيـمَانِ

يعني: يتحيَّزون إِلَى شيوخِهم، ويَدَعُون الْقُرْآنَ والآثارَ والإيمانَ.

* * *

فصل

فِي بَيَانِ مُخَالَفَةِ طَرِيقِهِمْ لِطَرِيقِ أَهْلِ الاسْتِقَامَةِ عَقْلاً وَنَقْلاً

٢١٧١- وَاعْلَمْ بِأَنَّ طَرِيقَهُمْ عَكْسُ الطَّرِيـ ـقِ الْـمُسْتَقِيمِ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ

٢١٧٢- جَعَلُوا كَلَامَ شُيُوخِهِمْ نَصًّا لَهُ الْـ إِحْكَامُ مَوْزُونًا بِهِ النَّصَّانِ

٢١٧٣- وَكَلَامَ بَارِيهِمْ وَقَوْلَ رَسُولِهِمْ مُتَشَابِهًا مُتَحَمِّلًا لِمَعَانِ

٢١٧٤- فَتَوَلَّدَتْ مِنْ ذَيْنِكَ الْأَصْلَيْنِ أَوْ لَادٌ أَتَتْ لِلْغَيِّ وَالْبُهْتَانِ

٢١٧٥- إِذْ مِنْ سِفَاحٍ لَا نِكَاحٍ كَوْنُهَا بِئْسَ الْوَلِيدُ وَبِئْسَتِ الْأَبَوَانِ

٢١٧٦- عَرَضُوا النُّصُوصَ عَلَى كَلَامِ شُيُوخِهِمْ فَكَأَنَّهَا جَيْشٌ لِذِي سُلْطَانِ

٢١٧٧- وَالْعَزْلُ وَالْإِبْقَاءُ مَرْجِعُهُ إِلَى السُّـ ـلْطَانِ دُونَ رَعِيَّةِ السُّلْطَانِ

٢١٧٨- وَكَذَاكَ أَقْوَالُ الشُّيُوخِ فَإِنَّهَا الْـ ـمِيزَانُ دُونَ النَّصِّ وَالْقُرْآنِ

٢١٧٩- إِنْ وَافَقَا قَوْلَ الشُّيُوخِ فَمَرْحَبًا أَوْ خَالَفَتْ فَالدَّفْعُ بِالْإِحْسَانِ

٢١٨٠- إِمَّا بِتَأْوِيلٍ فَإِنْ أَعْيَا فَتَفْـ ـوِيضٌ وَنَتْرُكُهَا لِقَوْلِ فُلَانِ

٢١٨١- إِذْ قَوْلُهُ نَصٌّ لَدَيْنَا مُحْكَمٌ فَظَوَاهِرُ الْمَنْقُولِ ذَاتُ مَعَانِ

٢١٨٢- وَالنَّصُّ فَهْوَ بِهِ عَلِيمٌ دُونَنَا وَبِحَالِهِ مَا حِيلَةُ الْعُمْيَانِ

٢١٨٣- إِلَّا تَمَسُّكُهُمْ بِأَيْدِي مُبْصِرٍ حَتَّى يَقُودَهُمُ كَذِي الْأَرْسَانِ

٢١٨٤- فَاعْجَبْ لِعُمْيَانِ الْبَصَائِرِ أَبْصَرُوا كَوْنَ الْـمُقَلِّدِ صَاحِبَ الْبُرْهَانِ

٢١٨٥- وَرَأَوْهُ بِالتَّقْلِيدِ أَوْلَى مِنْ سِوَا هُ بِغَيْرِ مَا بَصَرٍ وَلَا بُرْهَانِ

٢١٨٦- وَعَمُوا عَنِ الْوَحْيَيْنِ إِذْ لَمْ يَفْهَمُوا مَعْنَاهُمَا عَجَبًا لِذِي الْـحِرْمَانِ!

٢١٨٧- قَوْلُ الشُّيُوخِ أَتَمُّ تِبْيَانًا مِنَ الْـ وَحْيَيْنِ لَا وَالْوَاحِدِ الرَّحْمَنِ

٢١٨٨- النَّقْلُ نَقْلٌ صَادِقٌ وَالْقَوْلُ مِنْ ذِي عِصْمَةٍ فِي غَايَةِ التِّبْيَانِ

٢١٨٩- وَسِوَاهُ إِمَّا كَاذِبٌ أَوْ صَحَّ لَمْ يَكُ قَوْلَ مَعْصُومٍ وَذِي تِبْيَانِ

٢١٩٠- أَفَيَسْتَوِي النَّقْلَانِ يَا أَهْلَ النُّهَى؟! وَاللهِ لَا يَتَمَاثَلُ النَّقْلَانِ

٢١٩١- هَذَا الَّذِي أَلْقَى الْعَدَاوَةَ بَيْنَنَا فِي اللهِ، نَحْنُ لِأَجْلِهِ خَصْمَانِ

٢١٩٢- نَصَرُوا الضَّلَالَةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِمْ لَكِنْ نَصَرْنَا مُوجَبَ الْقُرْآنِ

٢١٩٣- وَلَنَا سُلُوكٌ ضِدَّ مَسْلَكِهِمْ فَمَا رَجُلَانِ مِنَّا قَطُّ يَلْتَقِيَانِ

٢١٩٤- إِنَّا أَبَيْنَا أَنْ نَدِينَ بِمَا بِهِ دَانُوا مِنَ الْآرَاءِ وَالْبُهْتَانِ

٢١٩٥- إِنَّا عَزَلْنَاهَا وَلَمْ نَعْبَأْ بِهَا يَكْفِي الرَّسُولُ وَمُحْكَمُ الْفُرْقَانِ

٢١٩٦- مَنْ لَمْ يَكُنْ يَكْفِيهِ ذَانِ فَلَا كَفَا هُ اللهُ شَرَّ حَوَادِثِ الْأَزْمَانِ

٢١٩٧- مَنْ لَمْ يَكُنْ يَشْفِيهِ ذَانِ فَلَا شَفَا هُ اللهُ فِي قَلْبٍ وَلَا أَبْدَانِ

٢١٩٨- مَنْ لَمْ يَكُنْ يُغْنِيهِ ذَانِ رَمَاهُ رَبُّ الْعَرْشِ بِالْإِعْدَامِ وَالْـحِرْمَانِ

٢١٩٩- مَنْ لَمْ يَكُنْ يَهْدِيهِ ذَانِ فَلَا هَدَا هُ اللهُ سُبْلَ الْـحَقِّ وَالْإِيمَانِ

٢٢٠٠- إِنَّ الْكَلَامَ مَعَ الْكِبَارِ وَلَيْسَ مَعْ ... تِلْكَ الْأَرَاذِلِ سِفْلَةِ الْـحَيَوَانِ
٢٢٠١- أَوْسَاخِ هَذَا الْـخَلْقِ بَلْ أَنْتَانِهِ، ... جِيَفِ الْوُجُودِ، وَأَخْبَثِ الْأَنْتَانِ
٢٢٠٢- الطَّالِبِينَ دِمَاءَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْـ ... ـكُفْرَانِ وَالْعُدْوَانِ وَالْبُهْتَانِ
٢٢٠٣- الشَّاتِمِي أَهْلِ الْـحَدِيثِ عَدَاوَةً ... لِلسُّنَّةِ الْعُلْيَا مَعَ الْقُرْآنِ
٢٢٠٤- جَعَلُوا مَسَبَّتَهُمْ طَعَامَ حُلُوقِهِمْ، ... فَاللهُ يَقْطَعُهَا مِنَ الْأَذْقَانِ
٢٢٠٥- كِبْرًا وَإِعْجَابًا وَتِيهًا زَائِدًا ... وَتَجَاوُزًا لِـمَرَاتِبِ الْإِنْسَانِ
٢٢٠٦- لَوْ كَانَ هَذَا مِنْ وَرَاءِ كِفَايَةٍ ... كُنَّا حَمَلْنَا رَايَةَ الشُّكْرَانِ
٢٢٠٧- لَكِنَّهُ مِنْ خَلْفِ كُلِّ تَخَلُّفٍ ... عَنْ رُتْبَةِ الْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ
٢٢٠٨- مَنْ لِي بِشِبْهِ خَوَارِجٍ قَدْ كَفَّرُوا ... بِالذَّنْبِ تَأْوِيلًا بِلَا إِحْسَانِ
٢٢٠٩- وَلَهُمْ نُصُوصٌ قَصَّرُوا فِي فَهْمِهَا، ... فَأُتُوا مِنَ التَّقْصِيرِ فِي الْعِرْفَانِ
٢٢١٠- وَخُصُومُنَا قَدْ كَفَّرُونَا بِالَّذِي ... هُوَ غَايَةُ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ

الشـرحُ

٢١٧١- وَاعْلَمْ بِأَنَّ طَرِيقَهُمْ عَكْسُ الطَّرِيـ ... ـقِ الْـمُسْتَقِيمِ لِـمَنْ لَهُ عَيْنَانِ
٢١٧٢- جَعَلُوا كَلَامَ شُيُوخِهِمْ نَصًّا لَهُ الْـ ... إِحْكَامُ مَوْزُونًا بِهِ النَّصَّانِ
٢١٧٣- وَكَلَامَ بَارِيهِمْ وَقَوْلَ رَسُولِهِمْ ... مُتَشَابِهًا مُتَحَمِّلًا لِـمَعَانِ
٢١٧٤- فَتَوَلَّدَتْ مِنْ ذَيْنِكَ الْأَصْلَيْنِ أَوْ ... لَادٌ أَتَتْ لِلْغَيِّ وَالْبُهْتَانِ

٢١٧٥- إِذْ مِـنْ سِـفَاحٍ لَا نِكَـاحٍ كَوْنُهَـا بِـئْسَ الْوَلِيـدُ وَبِئْسَـتِ الْأَبَـوَانِ

٢١٧٦- عَرَضُوا النُّصُوصَ عَلَى كَلَامِ شُيُوخِهِمْ فَكَأَنَّهَـا جَـيْشٌ لِـذِي سُـلْطَانِ

٢١٧٧- وَالْعَزْلُ وَالْإِبْقَاءُ مَرْجِعُهُ إِلَى السُّـ ـلْطَانِ دُونَ رَعِيَّـةِ السُّـلْطَانِ

قَوْلُهُ: «وَالْعَزْلُ وَالْإِبْقَاءُ مَرْجِعُهُ إِلَى السُّلْطَانِ»؛ المراد بالسلطان هنا هو كلامُ الشيوخ.

قَوْلُهُ: «دُونَ رَعِيَّةِ السُّلْطَانِ» وهي نصوصُ الكِتابِ والسُّنَّة.

٢١٧٨- وَكَذَاكَ أَقْـوَالُ الشُّـيُوخِ فَإِنَّهَـا الْـ ـمِيزَانُ دُونَ الـنَّصِّ وَالْقُـرْآنِ

هذا وجهُ الشَّبَه.

٢١٧٩- إِنْ وَافَقَـا قَـوْلَ الشُّـيُوخِ فَمَرْحَبًـا أَوْ خَالَفَـتْ فَالـدَّفْعُ بِالْإِحْسَـانِ

إن وافقتْ نصوصُ الكتابِ والسُّنَّةِ قولَ الشيوخ فمرحبًا بها، فمثلًا الكتابُ والسُّنَّةُ دَلَّا على وصفِ الله بالسَّمع، فماذا قال هؤلاء؟ قالوا: مرحبًا، لله سمعٌ؛ لأنه وافقَ كلامَ الشيوخ.

لكن لما دلَّ الكتابُ والسُّنَّةُ على أنَّ لله تعالى رحمةً، قالوا: لا مرحبًا؛ لأنَّ كلامَ الشيوخِ يقولُ: ليس لله رحمةٌ، والرحمةُ هي الإحسانُ أو إرادةُ الإحسان، وأمَّا رحمةٌ سوى ذلك فلا.

قَوْلُهُ: «أَوْ خَالَفَتْ فَالدَّفْعُ بِالْإِحْسَانِ» الدفعُ ينقسم عندهم إلى قسمين: «إِمَّا بِتَأْوِيلٍ»، فَإِنْ أعيا «فَتَفْوِيضٌ»؛ ولذا قال -رحمه الله-:

٢١٨٠- إِمَّـا بِتَأْوِيـلٍ فَـإِنْ أَعْيَـا فَتَفْـ ـوِيضٌ وَنَتْرُكُهَـا لِقَـوْلِ فُـلَانِ

إِذَنْ دفعُهم للنصوص إِمَّا بتأويلٍ، فإن عجزوا فتفويضٌ، ولكنَّ ابنَ القيِّم - رحمه الله- اقتصر على بعض الطُّرُق.

فالطرق عندهم:

أوَّلًا: رَدُّ النصوصِ؛ وهذا قبلَ كُلِّ شيء؛ لأنهم إذا رَدُّوها ما بَقِيَ كلامٌ في معناها؛ ولهذا قالوا: إنه لا يُحْتَجُّ بالآحادِ في مسائل العقيدة، فإذا لم يمكنْ رَدُّها بأن تكونَ من القرآن أو من السُّنَّةِ المتواترة لجؤُوا إلى التأويل، فإذا لم يمكنْ رجعوا إلى التفويض، وقالوا: اللهُ أعلمُ بمراده بها.

٢١٨١- إِذْ قَوْلُــهُ نَــصٌّ لَــدَيْنَا مُحْكَــمٌ ... فَظَــوَاهِرُ الْـــمَنْقُولِ ذَاتُ مَعَــانِ

هذا هو السَّببُ في أنهم يَرجِعون إلى قول شيوخِهم؛ لأنه نصٌّ لديهم، أمَّا المنقولُ -وهو الكتابُ والسُّنَّةُ- فظواهرُ تحتملُ معانيَ متعددةً.

٢١٨٢- وَالــنَّصُّ فَهْــوُ بِــهِ عَلِـيمٌ دُونَنَــا ... وَبِحَالِــهِ مَـــا حِيلَــةُ الْعُمْيَـــانِ

٢١٨٣- إِلَّا تَمَسُّـــكُهُمْ بِأَيْـــدِي مُبْصِـــرٍ ... حَتَّـى يَقُـودَهُمُ كَـذِي الْأَرْسَـانِ

يقولون: إِنَّ الشيخَ أعلمُ بالنَّصِّ منَّا وأعلمُ بحاله، وما حيلتُنا ونحن بالنسبة للشيوخ عُميان؟

قَوْلُهُ: «**مَا حِيلَةُ الْعُمْيَانِ إِلَّا تَمَسُّكُهُمْ بِأَيْدِي مُبْصِرٍ حَتَّى يَقُودَهُمُ**» وهذا صحيحٌ، فالأعمى ليس له حيلةٌ إِلَّا أن يمسكَ يدَ مُبْصرٍ حتَّى يقودَه كذي الأرسان.

قَوْلُهُ: «**كَذِي الْأَرْسَانِ**» ذو الأرسان هو: البعير، والخيل، والحمير، والبغال، فكُلُّها تُقَادُ بالأرسان، فيقولون: نحن مقلِّدةٌ، ما لنا حيلةٌ إِلَّا التمسُّك بأقوال شيوخِنا.

شبَّههم ابنُ القيِّم بذوات الأرسان، والأرسان جمع (رَسَن)، وهو مِقْوَدُ البهيمة(١).

٢١٨٤- فَاعْجَبْ لِعُمْيَانِ الْبَصَائِرِ أَبْصَرُوا كَوْنَ الْـمُقَلَّدِ صَاحِبَ الْبُرْهَانِ

٢١٨٥- وَرَأَوْهُ بِالتَّقْلِيدِ أَوْلَى مِنْ سِوَا هُ بِغَيْرِ مَا بَصَرٍ وَلَا بُرْهَانِ

صحيح، اعجب! كيف عرفوا أنَّ مقلَّدَهم هو صاحبُ البرهان، ولم يعرفوا أنَّ محمدًا ﷺ هو صاحبُ البرهان؟!

فإذا جاءهم حديثٌ عن رسول الله ﷺ فليس برهانًا؛ لأنه يَحْتَمِلُ، وإذا جاءت أقوالُ شيوخِهم فهي البرهان!!

٢١٨٦- وَعَمُوا عَنِ الْوَحْيَيْنِ إِذْ لَمْ يَفْهَمُوا مَعْنَاهُمَا عَجَبًا لِذِي الْـحِرْمَانِ!

قَوْلُهُ: «وَعَمُوا عَنِ الْوَحْيَيْنِ إِذْ لَمْ يَفْهَمُوا مَعْنَاهُمَا» وهذا من عقوبة الله -سبحانه وتعالى- لمن تعصَّب لهواه، وتركَ الكتابَ والسُّنَّةَ؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]؛ ولهذا يجبُ عليك الحذرُ إذا مَرَّ بك الدليل ألَّا تحاولَ معارضَته، بل قل: سمعنا وأطعنا؛ لأنك لو حاولتَ معارضَته فإنه ربُّما تُحْرَم الهدايةَ في المستقبل.

٢١٨٧- قَوْلُ الشُّيُوخِ أَتَمُّ تِبْيَانًا مِنَ الْـ ـوَحْيَيْنِ لَا وَالْوَاحِدِ الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «قَوْلُ الشُّيُوخِ أَتَمُّ تِبْيَانًا مِنَ الْوَحْيَيْنِ» وذلك عند هؤلاء، قال ابنُ القيِّم: «لَا وَالْوَاحِدِ الرَّحْمَنِ» يعني: ليست أقوالُ الشيوخِ أتمَّ بيانًا من الوحيَيْن.

---

(١) الرَّسَنُ: الحبل والرَّسَنُ ما كان من الأَزِمَّة على الأنف والجمع أَرْسانٌ وأَرْسُنٌ. انظر: لسان العرب (١٣/ ١٨٠)

٢١٨٨- النَّقْلُ نَقْلٌ صَادِقٌ وَالْقَوْلُ مِنْ ذِي عِصْمَةٍ فِي غَايَةِ التِّبْيَانِ

قَوْلُهُ: «النَّقْلُ نَقْلٌ صَادِقٌ» يعني: عن رسولِ الله -عليه الصلاة والسلام-.

قَوْلُهُ: «وَالْقَوْلُ مِنْ ذِي عِصْمَةٍ فِي غَايَةِ التِّبْيَانِ» يعني: مِن الرسول ﷺ المعصوم، بخلافِ شيوخِهم.

٢١٨٩- وَسِوَاهُ إِمَّا كَاذِبٌ أَوْ صَحَّ لَمْ يَكُ قَوْلَ مَعْصُومٍ وَذِي تِبْيَانِ

قَوْلُهُ: «سِوَاهُ» أي: سوى قولِ الرسول -عليه الصلاة والسلام- إِمَّا كاذبٌ، يعني: أنَّه منقولٌ عن القائل كذبًا، وإمَّا صحيحٌ لكنَّه ليس قولَ معصوم، فليس معصومًا من الخطأ.

٢١٩٠- أَفَيَسْتَوِي النَّقْلَانِ يَا أَهْلَ النُّهَى؟! وَاللهِ لَا يَتَمَاثَلُ النَّقْلَانِ

٢١٩١- هَذَا الَّذِي أَلْقَى الْعَدَاوَةَ بَيْنَنَا فِي اللهِ، نَحْنُ لِأَجْلِهِ خَصْمَانِ

وفي هذا دليلٌ على أنَّ ابنَ القيِّم -رحمه الله- يَدِينُ اللهَ عزَّ وجلَّ بعداوةِ أهل البدع، وهو حقٌّ، فيجبُ على الإنسان أن يُبْغِضَ أهلَ البدع ويعاديَهم بحسب ما معهم من البدعة، خلافًا لمن قال: إنَّ الأُمَّةَ الإسلاميَّةَ أمةٌ واحدةٌ، فيجبُ أن يكونَ بينها مودةٌ ومحبَّةٌ؛ حتَّى مع البِدَع المكفِّرة تجبُ المحبَّة.

ولكن هذا خطأٌ، بل يجبُ علينا أن نُبْغِضَ المبتدِعَ على بدعته، ولكن إذا كان فيه خيرٌ -يعني: بدعةً وسُنَّةً، وهدًى وضلالةً- فالعدلُ أن نحبَّه على ما معه من الـهُدى والسُّنَّة، ونبغضَه على ما معه من البدعة والضلالة.

٢١٩٢- نَصَرُوا الضَّلَالَةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِمْ لَكِنْ نَصَرْنَا مُوجَبَ الْقُرْآنِ

٢١٩٣- وَلَنَا سُلُوكٌ ضِدَّ مَسْلَكِهِمْ فَمَا رَجُلَانِ مِنَّا قَطُّ يَلْتَقِيَانِ

وكُلُّ هذا واضحٌ.

٢١٩٤- إِنَّا أَبَيْنَا أَنْ نَدِينَ بِمَا بِهِ دَانُوا مِنَ الْآرَاءِ وَالْبُهْتَانِ

يعني: أَبَيْنَا أن نَدِينَ لله ونعملَ له ونعبدَه بما دانوا به من الآراء والبهتان.

٢١٩٥- إِنَّا عَزَلْنَاهَا وَلَمْ نَعْبَأْ بِهَا يَكْفِي الرَّسُولُ وَمُحْكَمُ الْفُرْقَانِ

قَوْلُهُ: «**إِنَّا عَزَلْنَاهَا وَلَمْ نَعْبَأْ بِهَا**» يعني: عزلنا الآراءَ التي دانوا بها، ولم نعبأ بها، بل «**يَكْفِي الرَّسُولُ وَمُحْكَمُ الْفُرْقَانِ**».

٢١٩٦- مَنْ لَمْ يَكُنْ يَكْفِيهِ ذَانِ فَلَا كَفَاهُ اللهُ شَرَّ حَوَادِثِ الْأَزْمَانِ

بدأ -رحمه الله- يدعو عليه، قال: «**مَنْ لَمْ يَكُنْ يَكْفِيهِ ذَانِ، فَلَا كَفَاهُ اللهُ شَرَّ حَوَادِثِ الْأَزْمَانِ**» يعني: بل أصابه بها.

٢١٩٧- مَنْ لَمْ يَكُنْ يَشْفِيهِ ذَانِ فَلَا شَفَاهُ اللهُ فِي قَلْبٍ وَلَا أَبْدَانِ

الذي لا يشفيه القرآنُ والسُّنَّة فاللهُ لا يشفي قلبَه ولا بدنَه.

ولكنَّا قد لا نوافقُ ابنَ القيِّم -رحمه الله تعالى- على هذا، قد نقولُ: مَن لم يَشْفِهِ هذان إذا عانَد، وإلا فإننا نسألُ اللهَ أن يشفيَه من عِلَّته، لا سيَّما شفاءُ القلب فهو المهِمُّ، أمَّا شفاءُ المرض فأمرُه سهلٌ، يعني: هل لنا إذا رأينا شخصًا مبتَدِعًا عرضنا عليه الكتابَ والسُّنَّةَ، ولكنَّه أبى إلَّا أن يبقى على بدعَتِه، هل نقولُ له: لا شفاكَ الله من مرضِ قلبك؟ ابنُ القيِّم -رحمه الله- يقول: لا شفاه اللهُ، ولكنِّي أرى أن نقولَ: نسألُ اللهَ لك الهدايةَ.

ولكنَّ ابنَ القيِّم نظرًا لما حصل منهم مِن أذيَّةٍ على أهل السُّنَّة رأى أنهم ظالمون، وأنه يجوزُ للمظلوم أن يدعوَ على ظالمه.

٢١٩٨- مَنْ لَـمْ يَكُنْ يُغْنِيـهِ ذَانِ رَمَـاهُ رَبْ بُ الْعَرْشِ بِالْإِعْـدَامِ وَالْـحِرْمَانِ

إذا كان لا يُغنيه الكتابُ والسُّنَّةُ، فإنَّ اللهَ يرميه بالإعدام والحرمان.

٢١٩٩- مَنْ لَـمْ يَكُنْ يَهْدِيـهِ ذَانِ فَـلَا هَـدَا هُ اللهُ سُـبْلَ الْـحَقِّ وَالْإِيـمَانِ

فكُلُّ شيء أتى -رحمه الله- بضدِّه.

٢٢٠٠- إِنَّ الْكَلَامَ مَعَ الْكِبَـارِ وَلَـيْسَ مَـعْ تِلْـكَ الْأَرَاذِلِ سِـفْلَةِ الْـحَيَوَانِ

الكلامُ مع الكبارِ العقلاءِ الذين يطلبون الحقَّ بصدقٍ، أمَّا هؤلاء فهم أراذلُ، وسِفْلَةُ الحيوان.

٢٢٠١- أَوْسَاخِ هَـذَا الْـخَلْقِ بَـلْ أَنْتَانِـهِ، جِيَفِ الْوُجُـودِ، وَأَخْبَـثِ الْأَنْتَـانِ

وهنا شدَّد -رحمه الله- عليهم جدًّا؛ لأنهم أيضًا أشدَّاءُ على أهل السُّنَّة.

٢٢٠٢- الطَّـالِبِينَ دِمَـاءَ أَهْـلِ الْعِلْـمِ بِالْـ ـكُفْرَانِ وَالْعُـدْوَانِ وَالْبُهْتَـانِ

قَوْلُهُ: «**الطَّالِبِينَ دِمَاءَ أَهْلِ الْعِلْمِ**» أي: بالقتل، والحبس، والضرب، وغير ذلك؛ فلهذا كان ابنُ القيِّم شديدًا عليهم؛ لأنهم أيضًا أشدَّاءُ على أهل السُّنَّة.

٢٢٠٣- الشَّاتِـمِي أَهْلِ الْـحَدِيثِ عَـدَاوَةً لِلسُّـنَّةِ الْعُلْيَـا مَـعَ الْقُـرْآنِ

يشتمون أهلَ الحديث لمعاداتهم للسُّنَّة، لا لشخصياتهم؛ ولهذا لو كان هذا الشخصُ منهم لكان من أوليائِهم، لا من أعدائِهم، لكن يُعادُونَه؛ لأنه متمسِّكٌ بالسُّنَّة.

٢٢٠٤- جَعَلُوا مَسَبَّتَهُمْ طَعَامَ حُلُوقِهِمْ، فَاللهُ يَقْطَعُهَا مِنَ الْأَذْقَانِ

يعني: جعلوا مسبَّةَ أهلِ السُّنَّةِ طعامَ حُلُوقهم، يعني: يتمتَّعون بالكلام عن أهل السُّنَّة، ويتَلَذَّذونَ به.

قَوْلُهُ: «**فَاللهُ يَقْطَعُهَا مِنَ الْأَذْقَانِ**»، وإذا قطَعَها مِنَ الأذقان لا يَبْقَى شيءٌ.

٢٢٠٥- كِبْرًا وَإِعْجَابًا وَتِيهًا زَائِدًا وَتَجَاوُزًا لِمَرَاتِبِ الْإِنْسَانِ

يعني: أنَّ لديهم كِبرًا وإعجابًا وتِيهًا بأنفسهم، كأنهم هم الملائكةُ والناس هم الحيوان.

قَوْلُهُ: «**وَتَجَاوُزًا لِمَرَاتِبِ الْإِنْسَانِ**» أي: إلى مراتب الربوبيَّة أو الملائكة، فهم يَرَوْنَ أنَّهم فوقَ البشر.

٢٢٠٦- لَوْ كَانَ هَذَا مِنْ وَرَاءِ كِفَايَةٍ كُنَّا حَمَلْنَا رَايَةَ الشُّكْرَانِ

٢٢٠٧- لَكِنَّهُ مِنْ خَلْفِ كُلِّ تَخَلُّفٍ عَنْ رُتْبَةِ الْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ

يعني: لو أن هذا كان «**من وراء كفاية**» لكُنَّا «**حملنا رايةَ الشكران**»، و«**لكنَّه من خَلْفِ كُلِّ تَخَلُّفٍ**»، يعني أنَّ هذا القولَ ليسَ عن كفايةٍ وجدارة، ولو كانَ عن كفايةٍ وجدارة لكُنَّا نشكرُهم، لكنَّه ليس كذلِكَ، بل عن عنادٍ وإعجابٍ وكِبرٍ؛ ولهذا قال:

٢٢٠٨- مَنْ لِي بِشِبْهِ خَوَارِجٍ قَدْ كَفَّرُوا بِالذَّنْبِ تَأْوِيلًا بِلَا إِحْسَانِ

يعني أنَّ هؤلاء أشدُّ من الخوارج؛ لأنَّ الخوارجَ كفَّروا المسلمين (بالذنب) بالكبيرة (تأويلًا بلا إحسانٍ)؛ لأنهم لو أوَّلوا بالإحسانِ لعَلِمُوا أنَّ فاعلَ الكبيرةِ

لا يُكفَّر، لكنْ هم تأوَّلوا نُصوصَ التكفيرِ، وغفلوا عن النصوص الأخرى المقابلة، فكفَّروا المسلمين بالذَّنْب.

٢٢٠٩- وَلَـهُمْ نُصُوصٌ قَصَّرُوا فِي فَهْمِهَا، فَـأُتُوا مِـنَ التَّقْصِـيرِ فِي الْعِرْفَـانِ

قَوْلُهُ: «وَلَـهُمْ نُصُوصٌ» أي: للخوارجِ نصوصٌ قَصَّروا في فَهْمِها، «فَأُتُوا من التقصيرِ في العِرفان».

٢٢١٠- وَخُصُـومُنَا قَـدْ كَفَّرُونَـا بِالَّـذِي هُـوَ غَايَـةُ التَّوْحِيـدِ وَالْإِيـمَانِ

قَوْلُهُ: «وَخُصُومُنَا» أي: هؤلاءِ المعطِّلةُ، قد كفَّرونا بالذي هو غايةُ التوحيدِ والإيمانِ، فهُمُ الآن أشدُّ من الخوارجِ؛ لأنَّ الخوارجَ كفَّروا المسلمين بذُنُوبٍ ومعاصٍ، وهؤلاء كَفَّروهم بالتزامِهم بالكتابِ والسُّنَّة، ففرقٌ عظيم، فصارَ هؤلاءِ المبتدِعةُ الذين كفَّروا أهلَ السُّنَّة، ووَشَوْا إلى السُّلطان بهم أشدَّ على المسلمينَ مِن الخوارِجِ.

* * *

فصـــل

فِي بَيَانِ كَذِبِهِم ورَمْيِهِمْ أَهْلَ الحَقِّ بِأَنَّهُمْ أَشْبَاهُ الخَوَارِجِ، وبَيَانِ شَبَهِهِمُ المُحَقَّقِ بِالخَوَارِجِ

٢٢١١- وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّهُمْ قَالُوا لِمَنْ ... قَدْ دَانَ بِالْآثَارِ وَالْقُرْآنِ:

٢٢١٢- أَنْتُمْ بِذَا مِثْلُ الْخَوَارِجِ، إِنَّهُمْ ... أَخَذُوا الظَّوَاهِرَ مَا اهْتَدَوْا لِمَعَانِ

٢٢١٣- فَانْظُرْ إِلَى ذَا الْبُهْتِ، هَذَا وَصْفُهُمْ ... نَسَبُوا إِلَيْهِ شِيعَةَ الْإِيمَانِ

٢٢١٤- سَلُّوا عَلَى سُنَنِ الرَّسُولِ وَحِزْبِهِ ... سَيْفَيْنِ: سَيْفَ يَدٍ، وَسَيْفَ لِسَانِ

٢٢١٥- خَرَجُوا عَلَيْهِمْ مِثْلَمَا خَرَجَ الْأُلَى ... مِنْ قَبْلِهِمْ بِالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ

٢٢١٦- وَاللهِ مَا كَانَ الْخَوَارِجُ هَكَذَا ... وَهُمُ الْبُغَاةُ أَئِمَّةُ الطُّغْيَانِ

٢٢١٧- كَفَّرْتُمُ أَصْحَابَ سُنَّتِهِ وَهُمْ ... فُسَّاقُ مِلَّتِهِ، فَمَنْ يَلْحَانِي

٢٢١٨- إِنْ قُلْتُ: هُمْ خَيْرٌ وَأَهْدَى مِنْكُمُ ... وَاللهِ مَا الْفِئَتَانِ مُسْتَوِيَانِ

٢٢١٩- شَتَّانَ بَيْنَ مُكَفِّرٍ بِالسُّنَّةِ الْـ ... ـعُلْيَا، وَبَيْنَ مُكَفِّرِ الْعِصْيَانِ

٢٢٢٠- قُلْتُمْ: تَأَوَّلْنَا، كَذَاكَ تَأَوَّلُوا ... وَكِلَاكُمَا فِئَتَانِ بَاغِيَتَانِ

٢٢٢١- وَلَكُمْ عَلَيْهِمْ مِيزَةُ التَّعْطِيلِ وَالتْـ ... ـتَحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ وَالْبُهْتَانِ

٢٢٢٢- وَلَهُمْ عَلَيْكُمْ مِيزَةُ الْإِثْبَاتِ وَالتْـ ... ـتَصْدِيقِ مَعْ خَوْفٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

٢٢٢٣- أَلَكُــمْ عَــلَى تَــأْوِيلِكُمْ أَجْــرَانِ إِذْ لَـــهُمُ عَــلَى تَــأْوِيلِهِمْ وِزْرَانِ؟!

٢٢٢٤- حَاشَا رَسُولَ اللهِ مِنْ ذَا الحُكْمِ، بَلْ أَنْــتُمْ وَهُــمْ فِي حُكْمِــهِ سِــيَّانِ

٢٢٢٥- وَكِلَاكُــمَا لِلــنَّصِّ فَهْــوَ مُخَــالِفٌ هَــذَا وَبَيْــنَكُمَا مِــنَ الْفُرْقَــانِ

٢٢٢٦- هُــمْ خَــالَفُوا نَصًّــا لِــنَصٍّ مِثْلِــهِ لَــمْ يَفْهَمُــوا التَّوْفِيــقَ بِالْإِحْسَــانِ

٢٢٢٧- لَكِنَّكُمْ خَالَفْتُمُ الْـمَنْصُوصَ لِلشْـ ـشُبَهِ الَّتِـي هِـيَ فِكْـرَةُ الْأَذْهَـانِ

٢٢٢٨- فَــلِأَيِّ شَيْءٍ أَنْــتُمُ خَــيْرٌ وَأَقْــ ــرَبُ مِــنْهُمُ لِلْحَــقِّ وَالْإِيـمَانِ؟!

٢٢٢٩- هُمْ قَدَّمُوا الْمَفْهُومَ مِنْ لَفْظِ الْكِتَا بِ عَلَى الحَدِيثِ الْمُوجِـبِ التِّبْيَـانِ

٢٢٣٠- لَكِــنَّكُمْ قَــدَّمْتُمُ رَأْيَ الرِّجَــا لِ عَلَــيْهِمَا، أَفَــأَنْتُمَا عِــدْلَانِ؟

٢٢٣١- أَمْ هُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ أَقْـرَبُ مِـنْكُمُ لَاحَ الصَّـبَاحُ لِـمَنْ لَـهُ عَيْنَـانِ

٢٢٣٢- وَاللهُ يَحْكُــمُ بَيْــنَكُمْ يَــوْمَ الْــجَزَا بِالْعَــدْلِ وَالْإِنْصَــافِ وَالْــمِيزَانِ

٢٢٣٣- هَـذَا وَنَحْـنُ فَمِـنْهُمُ بَـلْ مِـنْكُمُ بُــرَآءُ إِلَّا مِــنْ هُــدًى وَبَيَــانِ

٢٢٣٤- فَاسْمَعْ إِذَنْ قَوْلَ الْـخَوَارِجِ ثُمَّ قَوْ لَ خُصُومِنَا، وَاحْكُـمْ بِـلَا مَـيَلَانِ

٢٢٣٥- مَـنْ ذَا الَّـذِي مِنَّـا إِذَنْ أَشْـبَاهُهُمْ إِنْ كُنْـتَ ذَا عِلْـمٍ وَذَا عِرْفَـانِ؟

٢٢٣٦- قَالَ الخَوَارِجُ لِلرَّسُولِ: اعْدِلْ فَلَـمْ تَعْـدِلْ، وَمَـا ذِي قِسْـمَةَ الـدَّيَّانِ

٢٢٣٧- وَكَذَلِكَ الْـجَهْمِيُّ قَـالَ نَظِـيرَ ذَا لَكِنَّــهُ قَــدْ زَادَ فِي الطُّغْيَــانِ

٢٢٣٨- قَالَ: الصَّوَابُ بِأَنَّهُ «اسْتَوْلَى»، فَلِمْ قُلْتَ: «اسْتَوَى» وَعَدَلْتَ عَنْ تِبْيَانِ

٢٢٣٩- وَكَـــذَاكَ يَنْــزِلُ أَمْــرُهُ سُــبْحَانَهُ لِـمَ قُلْتَ: يَنْزِلُ صَاحِبُ الْغُفْرَانِ؟

٢٢٤٠- مَا ذَا بِعَـدْلٍ فِي الْعِبَـارَةِ وَهْـيَ مُـو هِمَــةُ التَّحَــرُّكِ وَانْتِقَــالِ مَكَــانِ

٢٢٤١- وَكَذَاكَ قُلْتَ بِـأَنَّ رَبَّـكَ فِي السَّـمَا أَوْهَمْــتَ حَيِّـزَ خَـالِقِ الْأَكْـوَانِ

٢٢٤٢- كَـانَ الصَّـوَابُ بِـأَنْ يُقَـالَ بِأَنَّــهُ فَوْقَ السَّمَا سُـلْطَانُ ذِي السُّـلْطَانِ

٢٢٤٣- وَكَذَاكَ قُلْتَ: إِلَيْهِ يَعْرُجُ وَالصَّـوَا بُ إِلَى كَرَامَــةِ رَبِّنَــا الْـــمَنَّانِ

٢٢٤٤- وَكَذَاكَ قُلْـتَ بِـأَنَّ مِنْـهُ يُنَـزَّلُ الْـ ـــقُرْآنُ تَنْــزِيلًا مِــنَ الــرَّحْمَنِ

٢٢٤٥- كَانَ الصَّـوَابُ بِـأَنْ يُقَـالَ: نُزُولُـهُ مِــنْ لَوْحِــهِ أَوْ مِــنْ مَحَــلٍّ ثَــانِ

٢٢٤٦- وَتَقُولُ: أَيْنَ اللهُ؟ ذَاكَ الْـ«أَيْنُ» مُمْـ ـــتَنِعٌ عَلَيْـهِ، وَلَـيْسَ فِي الْإِمْكَـانِ

٢٢٤٧- لَوْ قُلْتَ: مَنْ؟ كَانَ الصَّوَابَ كَمَا تَرَى فِي الْقَـبْرِ يَسْـأَلُ ذَلِـكَ الْـــمَلَكَانِ

٢٢٤٨- وَتَقُولُ: أَللَّهُـمَّ أَنْـتَ الشَّـاهِدُ الْـ أَعْـلَى تُشِــيرُ بِأُصْـبَعٍ وَبَنَــانِ

٢٢٤٩- نَحْـوَ السَّـمَاءِ وَمَـا إِشَـارَتُنَا لَـهُ حِسِّــيَّةً، بَــلْ تِلْــكَ فِي الْأَذْهَــانِ

٢٢٥٠- وَاللهِ مَـا نَـدْرِي الَّـذِي نُبْدِيـهِ فِي هَــذَا مِــنَ التَّأْوِيــلِ لِلْإِخْــوَانِ

٢٢٥١- قُلْنَا لَـهُمْ: إِنَّ السَّمَا هِيَ قِبْلَـةُ الـدْ دَاعِــي كَبَيْــتِ اللهِ ذِي الأَرْكَــانِ

٢٢٥٢- قَــالُوا لَنَــا: هَــذَا دَلِيــلٌ أَنَّــهُ فَـوْقَ السَّـمَاءِ بِأَوْضَـحِ الْبُرْهَـانِ

٢٢٥٣- فَالنَّــاسُ طُــرًّا إِنَّــمَا يَدْعُونَــهُ مِـنْ فَـوْقُ، هَـذِي فِطْـرَةُ الـرَّحْمَنِ

٢٢٥٤- لَا يَسْــأَلُونَ الْقِبْلَــةَ الْعُلْيَـا وَلَــ ـكِنْ يَسْأَلُونَ الــرَّبَّ ذَا الإِحْسَـانِ

٢٢٥٥- قَالُوا: وَمَا كَانَتْ إِشَارَتُهُ إِلَى ... غَيْرِ الشَّهِيدِ مُنَزِّلِ الْفُرْقَانِ

٢٢٥٦- أَتُرَاهُ أَمْسَى لِلسَّمَا مُسْتَشْهِدًا؟! ... حَاشَاهُ مِنْ تَحْرِيفِ ذِي الْبُهْتَانِ

الشرحُ

٢٢١١- وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّهُمْ قَالُوا لِمَنْ ... قَدْ دَانَ بِالْآثَارِ وَالْقُرْآنِ:

٢٢١٢- أَنْتُمْ بِذَا مِثْلُ الْخَوَارِجِ، إِنَّهُمْ ... أَخَذُوا الظَّوَاهِرَ مَا اهْتَدَوْا لِمَعَانِ

هذا الفصلُ عقده المؤلفُ لأنهم قالوا: أنتم يا أهلَ السُّنَّةِ أشبهتم الخوارجَ في التمسُّكِ بالظاهر؛ لأنَّ أهلَ السُّنَّةِ فيما يتعلَّقُ بالأسماء والصفات يتمسَّكون بالظاهر، فقالوا: أنتم أشبهتم الخوارجَ؛ لأنَّ الخوارجَ أخذوا بظواهر النصوص التي تُفيدُ الكفرَ في بعض الكبائر، فابنُ القيِّم -رحمه الله- يقول: أنتم الذين أشبهتموهم.

٢٢١٣- فَانْظُرْ إِلَى ذَا الْبُهْتِ، هَذَا وَصْفُهُمْ ... نَسَبُوا إِلَيْهِ شِيعَةَ الْإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «الْبُهْت»: الكذب.

٢٢١٤- سَلُّوا عَلَى سُنَنِ الرَّسُولِ وَحِزْبِهِ ... سَيْفَيْنِ: سَيْفَ يَدٍ، وَسَيْفَ لِسَانِ

قَوْلُهُ: «سَيْفَ يَدٍ» وذلك بالضَّرْب، وربَّما بالقتل.

قَوْلُهُ: «وَسَيْفَ لِسَانِ» بالكلام، بالسَّبِّ، بالقدح، فيقولون لهم: أنتم حَشْوِيَّةٌ، أنتم نَوَابِت، أنتم غُثَاء، أنتم مُمَثِّلَةٌ، وما أشبهَ ذلك.

٢٢١٥- خَرَجُوا عَلَيْهِمْ مِثْلَمَا خَرَجَ الْأُلَى ... مِنْ قَبْلِهِمْ بِالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ

قَوْلُهُ: «خَرَجُوا» الضميرُ يعودُ على أهل التعطيل.

قَوْلُهُ: «عَلَيْهِمْ» أي: على حزب الرسول -عليه الصلاة والسلام-.

قَوْلُهُ: «مِثْلَمَا خَرَجَ الْأُلَى مِنْ قَبْلِهِمْ بِالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ» وهم الذين خرجوا على عليِّ بنِ أبي طالبٍ وغيره من الصحابة وقاتلوهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

٢٢١٦- وَاللهِ مَا كَانَ الْـخَوَارِجُ هَكَذَا ... وَهُمُ الْبُغَاةُ أَئِمَّةُ الطُّغْيَانِ

هنا أقسمَ ابنُ القيِّم -رحمه الله- أنَّ الخوارجَ أهونُ من هؤلاء، وما كانوا هكذا.

قَوْلُهُ: «وَهُمْ» الضميرُ يعودُ على الخوارج.

لكن ما وجهُ أنَّهم أقلُّ من هؤلاء؟ قال:

٢٢١٧- كَفَّرْتُمُ أَصْحَابَ سُنَّتِهِ وَهُمْ ... فُسَّاقُ مِلَّتِهِ، ....

يعني: أنتم كَفَّرتم أصحابَ السُّنَّة، كيف ذلك؟ قالوا: إنهم مُجَسِّمَةٌ، وإنَّ التجسيمَ كُفْرٌ، فكفَّروهم بإثبات السُّنَّة، وأمَّا الخوارجُ فكفَّروا فُسَّاقَ المِلَّةِ، وعلى ذلك فالخوارجُ أهون؛ لأنَّ الخوارجَ إنما كَفَّروا أصحابَ الكبائر، وهؤلاء كَفَّروا أصحابَ السُّنَّة.

٢٢١٧- ....فَمَنْ يَلْحَانِي

٢٢١٨- إِنْ قُلْتُ: هُمْ خَيْرٌ وَأَهْدَى مِنْكُمُ ... وَاللهِ مَا الْفِئَتَانِ مُسْتَوِيَانِ

٢٢١٩- شَتَّانَ بَيْنَ مُكَفِّرٍ بِالسُّنَّةِ الْـ ... ـعُلْيَا، وَبَيْنَ مُكَفِّرِ الْعِصْيَانِ

قَوْلُهُ: «فَمَنْ يَلْحَانِي» أي: مَن يلومُنِي.

قَوْلُهُ: «شَتَّان» بمعنى بَعُدَ، يعني: فرقٌ بعيدٌ بين مَن كَفَّر بالسُّنَّة ومَنْ كَفَّر

بالعصيانِ، فالأعظمُ؟ هو من كَفَّر بالسُّنَّة، يعني: الذي يُكَفِّرُ الناسَ لاتباعهم السُّنَّةَ أَشَدُّ من الذي يُكَفِّرُهُم بقيامهم بالمعصية.

٢٢٢٠- قُلْتُمْ: تَأَوَّلْنَا، كَذَاكَ تَأَوَّلُوا وَكِلَاكُمَا فِئَتَانِ بَاغِيَتَانِ

قَوْلُهُ: «**قُلْتُمْ: تَأَوَّلْنَا كَذَاكَ تَأَوَّلُوا**» يعني: قلتم مدافعين عن أنفسِكم: إنَّنا ذَهَبْنا هذا المذهبَ متأوِّلين، فنقول لهم: «**كَذَاكَ تَأَوَّلُوا**»؛ هم أيضًا -هؤلاء الخوارج- تأوَّلوا، وأخذوا بالنُّصوص التي ظاهرُها الوعيدُ.

ثم قال ابنُ القيِّم: «**وَكِلَاكُمَا فِئَتَانِ بَاغِيَتَانِ**»، ولكنْ تأوُّلكم أنتم أشدُّ.

٢٢٢١- وَلَكُمْ عَلَيْهِمْ مِيزَةُ التَّعْطِيلِ وَالتَّـ ـحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ وَالْبُهْتَانِ

قَوْلُهُ: «**وَلَكُمْ عَلَيْهِمْ مِيزَةُ التَّعْطِيلِ**» لكم عليهم ميزةٌ، وهي التعطيلُ، أي: تعطيل صفات الله عزَّ وجلَّ، والتحريف للنصوص، والتبديل، والبُهتان.

٢٢٢٢- وَلَهُمْ عَلَيْكُمْ مِيزَةُ الْإِثْبَاتِ وَالتَّـ ـصْدِيقِ مَعْ خَوْفٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

وهذا فرقٌ، فالخوارجُ لهم شدةُ تمسُّك بالظواهر، ويُثبِتون الصفات ويُصدِّقون بها، وعندهم مِن خوف الله ما ليس عند هؤلاء؛ ولهذا تجدُ الخوارجَ سُرُجَ الليالي، يبيتون لربهم سُجَّدًا وقيامًا، يصومون، يتلون الكتابَ، لا يوجدُ أحدٌ مثلهم في الظاهر، لكنَّ إيمانَهم -والعياذ بالله- لا يتجاوزُ حناجرَهم كما قال النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام-: «**يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»(١). نسألُ اللهَ العافيةَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٤١٥)، ومسلم: كتاب الزكاة باب التحريض على قتل الخوارج، رقم (١٠٦٦).

٢٢٢٣- أَلَكُمْ عَلَى تَأْوِيلِكُمْ أَجْرَانِ إِذْ ... لَهُمُ عَلَى تَأْوِيلِهِمْ وِزْرَانِ؟!

هذا الاستفهامُ للإنكار، يعني: أنتم تؤوِّلون، وتقولون: إنَّنا مُؤَوِّلون مُصيبون فلنا أجران، أما هم فهم غيرُ مؤوِّلين، بل معانِدون، فلهم وِزرانِ.

٢٢٢٤- حَاشَا رَسُولَ الله مِنْ ذَا الحُكْمِ، بَلْ ... أَنْتُمْ وَهُمْ فِي حُكْمِهِ سِيَّانِ

٢٢٢٥- وَكِلَاكُمَا لِلنَّصِّ فَهْوَ مُخَالِفٌ ... هَذَا وَبَيْنَكُمَا مِنَ الْفُرْقَانِ

٢٢٢٦- هُمْ خَالَفُوا نَصًّا لِنَصٍّ مِثْلِهِ ... لَمْ يَفْهَمُوا التَّوْفِيقَ بِالْإِحْسَانِ

٢٢٢٧- لَكِنَّكُمْ خَالَفْتُمُ الْمَنْصُوصَ لِلشْـ ... ـشُبَهِ الَّتِي هِيَ فِكْرَةُ الْأَذْهَانِ

أيُّها أعظمُ مخالفةً؟ الخوارجُ خالفوا النصوصَ الدالَّةَ على أنَّ المؤمنَ لا يَكْفُر بالمعاصي والكبائر، لكنَّهم خالفوها لنصوصٍ أخرى اشتبهتْ عليهم، دَلَّت على كفر بعض فاعلي الكبائر.

فإذن هم خالفوا النصوصَ لنصوصٍ أخرى، ولكنَّهم لم يُوَفَّقوا للتوفيق بينها، أمَّا أنتم فخالفتم النصوصَ للآراء والأفكار، وما زعمتموه عقولًا؛ ولهذا قال:

٢٢٢٨- فَلِأَيِّ شَيْءٍ أَنْتُمُ خَيْرٌ وَأَقْـ ... ـرَبُ مِنْهُمُ لِلْحَقِّ وَالْإِيمَانِ؟!

هذا الاستفهام للإنكار، يعني: لا يمكنُ أن تكونوا أقربَ منهم للحقِّ والإيمان.

٢٢٢٩- هُمْ قَدَّمُوا المَفْهُومَ مِنْ لَفْظِ الْكِتَا ... بِ عَلَى الحَدِيثِ المُوجِبِ التِّبْيَانِ

الخوارجُ يعتنون بالقرآن، ولكنَّهم لا يأخذونَ بالحديث، كما قال ابنُ القيِّم

هنا، ولعلَّ هذا قولٌ لطائفةٍ منهم، وأنَّ بعضَهم يأخذُ بالحديث إذا صَحَّ سندُه، لكنَّهم يتشدَّدون في الأحاديث.

٢٢٣٠- لَكِـــنَّكُمْ قَـــدَّمْتُمْ رَأْيَ الرِّجَـــا   لِ عَلَـــيْهِمَا، أَفَـــأَنْتُمَا عِـــدْلَانِ؟

قَوْلُهُ: «لَكِنَّكُمْ قَدَّمْتُمْ رَأْيَ الرِّجَالِ عَلَيْهِمَا» يعني: على الكتاب وعلى الحديث.

قَوْلُهُ: «أَفَأَنْتُمَا عِدْلَانِ؟» الجواب: لا، لستما عِدْلَيْن؛ لأنَّه على تقدير أنَّهم أخذوا بالقرآن دون الحديث فأنتم لا أخذتم لا بهذا ولا بهذا.

٢٢٣١- أَمْ هُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ أَقْـرَبُ مِـنْكُمُ   لَاحَ الصَّــبَاحُ لِــمَنْ لَــهُ عَيْنَــانِ

قَوْلُهُ: «أَمْ هُمْ» بمعنى: بَلْ هم، فـ(أم) هنا للإضراب.

قَوْلُهُ: «لَاحَ الصَّبَاحُ» (لاح) بمعنى: اتَّضَحَ وبَانَ.

٢٢٣٢- وَاللهُ يَحْكُــمُ بَيْــنَكُمْ يَــوْمَ الْـــجَزَا   بِالْعَــدْلِ وَالْإِنْصَــافِ وَالْـــمِيزَانِ

يحكمُ اللهُ عزَّ وجلَّ يومَ القيامة بين الخلائق بالعدل والميزان؛ لأنَّ الخلائقَ يوم القيامة يختصمون، أي: يختصمُ أهلُ الحقِّ وأهلُ الباطل، فمثلًا الآن في عصرنا يوجدُ أهلُ باطلٍ، نقولُ لهم: هذا باطلٌ، فيقولون: لا، يوم القيامة هم خُصُومنا، نخاصمُهم، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر:٣١] فالمؤمنُ يخاصمُ الكافرَ يوم القيامة؛ لأجل أن يُقيمَ الحُجَّةَ عليه في يومٍ لا يستطيع أن يتهرَّبَ؛ ولهذا تجدون في آيات كثيرة: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة:٤٨] فلا بُدَّ من المخاصمة.

وهذه تُفرِحُ الإنسانَ، فالمؤمنُ الذي لا يُؤخذُ قولُه في الدنيا يفرحُ بأنَّ هناك

موقفًا آخرَ، سوف يكون قولُه هو المتَّبَع وهو العالي، وربَّما يعلو في الدنيا، فربما يُعَجِّلُ اللهُ النصرَ للإنسان في الدنيا كما ينصرُه في الآخرة، أمَّا في الآخرة فالنصرُ مضمونٌ للمؤمنين، سيكونُ تخاصمٌ، ويحكمُ اللهُ عزَّ وجلَّ بينهم بالعدل.

٢٢٣٣- هَـذَا وَنَحْـنُ فَمِـنْهُمُ بَـلْ مِـنْكُمُ   بُـرَآءُ إِلَّا مِـنْ هُـدًى وَبَيَـانِ

جزاه الله خيرًا، يقول: نحن بُرَاءُ منك، وبُرَاءُ منهم، أي: من الخوارج؛ لأنَّهم كُلَّهم ليسوا على حقٍّ.

قَوْلُهُ: «إِلَّا مِنْ هُدًى وَبَيَانِ» وهذا أيضًا من إنصاف ابنِ القيِّم، يعني: نتبرَّأ منكم، إلَّا ما كان منكم من هدًى وبيان فإننا نقبَلُه؛ ولهذا لا يجوزُ للإنسان أنْ يحملَه بُغْضُ الشخص على ردِّ قولِه مطلقًا كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨].

فالواجبُ أن يقبلَ الإنسانُ الحقَّ من أيِّ إنسانٍ جاء به، ويَرُدَّ الباطلَ من أيِّ إنسانٍ جاء به، أمَّا أن يَزِنَ الحقَّ بالرجال، ويقول: كُلُّ ما جاء به هذا الشخصُ فهو حقٌّ، فهذا غلطٌ؛ ولهذا قال: (هَذَا وَنَحْنُ فَمِنْهُمُ بَلْ مِنْكُمُ) يعني: ومنكم أيضًا، (بُرَآءُ إِلَّا مِنْ هُدًى وَبَيَانِ).

٢٢٣٤- فَاسْمَعْ إِذنْ قَوْلَ الْـخَوَارِجِ ثُمَّ قَوْ   لَ خُصُومِنَا، وَاحْكُـمْ بِـلَا مَيَلَانِ

٢٢٣٥- مَـنْ ذَا الَّـذِي مِنَّـا إِذَنْ أَشْـبَاهُهُمْ   إِنْ كُنْـتَ ذَا عِلْـمٍ وَذَا عِرْفَـانِ؟

٢٢٣٦- قَالَ الخَوَارِجُ لِلرَّسُولِ: اعْدِلْ فَلَـمْ   تَعْـدِلْ، وَمَـا ذِي قِسْـمَةَ الـدَّيَّانِ

بدأ المؤلفُ بالمقارنة بين الخوارج، وبين أهل التعطيل، فهل هم أولى أن يكونوا مشابهين بالخوارج أو نحن؟

يقول: أنتم الذي أشبهتموهم، ثُمَّ رَكَّزَ على نقطة واحدة، وهي قولُ الخارجيِّ للرسول -عليه الصلاة والسلام-: «اعْدِلْ يَا مُحَمَّدُ، فَإِنَّكَ لَـمْ تَعْدِلْ»[1]، يعني: كان الصوابَ أنْ تقسمَها على غير هذه القسمة، فقوله: «اعدِل» يعني: إِذَنْ قَسْمُكَ خطأٌ، والصوابُ أنْ تقسمَها على غير هذا الوجه، وهذه خَصلةٌ من خصال الخوارج.

قال: أنتم -الآن- قلتم في النصوص الدالة على الصفات: إنه لا يُرادُ بها كذا، وإنَّ الرسولَ -عليه الصلاة والسلام- لم يَعْدِلْ حين عبَّر بها يفيدُ الصفات، والصوابُ أن يُعَبِّر بكذا وكذا.

ثُمَّ ذكر -رحمه الله- أمثلةً، فقال:

٢٢٣٧- وَكَذَلِكَ الْـجَهْمِيُّ قَـالَ نَظِيرَ ذَا ... لَكِنَّـهُ قَـدْ زَادَ فِي الطُّغْيَـانِ

٢٢٣٨- قَالَ: الصَّوَابُ بِأَنَّهُ «اسْتَوْلَى»، فَلِمْ ... قُلْتَ: «اسْتَوَى» وَعَدَلْتَ عَنْ تِبْيَـانِ

يعني: كأنه يخاطبُ الرسولَ فيقول: إنَّ الصوابَ في قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ الصواب: (استولى) لماذا قلتَ يا محمد: (استوى) والصوابُ: (استولى)؟

إِذَنْ الخوارج قالوا: هذه القسمةُ خطأٌ، والصوابُ القسمةُ التي يُريدون، وهذا قال: (استوى) خطأٌ، والصوابُ (استولى).

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣/ ١٢٣، رقم ١٤٨٢٠).

٢٢٣٩- وَكَـذَاكَ يَنْـزِلُ أَمْـرُهُ سُـبْحَانَهُ لِـمَ قُلْتَ: يَنْزِلُ صَاحِبُ الْغُفْـرَانِ؟

يُخَاطِبُ النَّبِيَّ، يقول: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا»[1] الصواب: ينزلُ أمرُه، لكنَّك أنت يا محمد عَدَلْتَ عن الصواب وقلت: (يَنْزِلُ صَاحِبُ الغُفْرَانِ)، فأنت يا محمد لم تَعْدِلْ في اللفظ، بل أتيت بلفظٍ آخرَ مخالف للعدل.

٢٢٤٠- مَا ذَا بِعَـدْلٍ فِي الْعِبَـارَةِ وَهْـيَ مُـو هِمَـةُ التَّحَـرُّكِ وَانْتِقَـالِ مَكَـانِ

يقول: إنَّك لم تَعْدِلْ في العبارة، بل أتيتَ بعبارةٍ تُوهمُ الانتقالَ والتحرُّك، فقلت: إنَّ اللهَ ينزلُ، وهذا يُوهم أنه انتقلَ من العرش إلى السَّماء، وأنه تحرَّكَ، وهذا ليس بعدلٍ.

ما الذي ينزل على رأي الجهمِيِّ؟ الجواب: ينزلُ أمرُه، لماذا لَـمْ تقل يا محمد: (يَنزِلُ أمرُه) حتَّى تَعْدِلَ في العبارة، وتصيبَ الصوابَ؟

٢٢٤١- وَكَذَاكَ قُلْتَ بِـأَنَّ رَبَّـكَ فِي السَّـمَا أَوْهَمْـتَ حَيِّـزَ خَـالِقِ الْأَكْـوَانِ

الآن يخاطبُ الرسولَ، لَـمَّا قال: إنَّ اللهَ في السَّماءِ، يقول: هذا غلطٌ، لكن ما الصوابُ؟ قال:

٢٢٤٢- كَـانَ الصَّـوَابُ بِـأَنْ يُقَـالَ بِأَنَّـهُ فَوْقَ السَّمَا سُـلْطَانُ ذِي السُّـلْطَانِ

يقول: الذي في السَّماء هو سلطانُه، أما هو فلا، فلا تقلْ: إنَّ اللهَ في السَّماء، بل قُلْ: سلطانُه في السَّماء؛ لأنك إذا قلتَ: إنَّ اللهَ في السَّماء فقد جُرْتَ في التعبير، وما أتيتَ بالعدل، وهذه مشابهةٌ تمامًا للخوارج.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١٠٩٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، رقم (٧٥٨).

٢٢٤٣- وَكَذَاكَ قُلْتَ: إِلَيْهِ يَعْرُجُ وَالصَّوَا ... بُ إِلَى كَرَامَةِ رَبِّنَا الْـمَنَّانِ

يعني: قلت: رُوحُ المؤمن يُعْرَجُ بها إلى الله عزَّ وجلَّ إذا قُبِضَتْ، والصوابُ أنها لا تَعْرُجُ إليه، وإنما تَعْرُجُ إلى كرامته، لكنَّك لم تَعْدِلْ، وأتيتَ بلفظٍ مُوهِمٍ.

٢٢٤٤- وَكَذَاكَ قُلْتَ بِأَنَّ مِنْهُ يُنَزَّلُ الْـ ... ـقُرْآنُ تَنْزِيلًا مِنَ الرَّحْمَنِ

٢٢٤٥- كَانَ الصَّوَابُ بِأَنْ يُقَالَ: نُزُولُهُ ... مِنْ لَوْحِهِ أَوْ مِنْ مَحَلٍّ ثَانِ

نسألُ اللهَ العافيةَ، يقول: أنت يا محمد قلتَ: إنَّ القرآنَ ينزلُ من الله، وهذا جَوْرٌ في العبارة، والصوابُ أنه ينزلُ من اللَّوح المحفوظ، ولا ينزلُ من الله، فهو ينزلُ من لوحه، أو من محلٍّ ثانٍ، يُقَدِّرُه الجهميُّ.

٢٢٤٦- وَتَقُولُ: أَيْنَ اللهُ؟ ذَاكَ الْـ«أَيْنُ» مُمْـ ... ـتَنِعٌ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ فِي الْإِمْكَانِ

٢٢٤٧- لَوْ قُلْتَ: مَنْ؟ كَانَ الصَّوَابَ كَمَا تَرَى ... فِي الْقَبْرِ يَسْأَلُ ذَلِكَ الْـمَلَكَانِ

يقول: الرسولُ محمدٌ ﷺ لَـمَّا قال للجارية: «أَيْنَ اللهُ؟»[1] أخطأ ولم يَعْدِلْ، بل كان الواجبُ عليه أن يقولَ: (مَن اللهُ؟) كما يقول الملَكان في القبر للميت: «مَنْ رَبُّكَ؟»[2] ولا يقولان: (أين رَبُّك؟)، فمحمدٌ جَارَ، وعَدَلَ عن الصواب.

٢٢٤٨- وَتَقُولُ: أَللَّهُمَّ أَنْتَ الشَّاهِدُ الْـ ... أَعْلَى تُشِيرُ بِأُصْبَعٍ وَبَنَانِ

٢٢٤٩- نَحْوَ السَّمَاءِ وَمَا إِشَارَتُنَا لَهُ ... حِسِّيَّةً، بَلْ تِلْكَ فِي الْأَذْهَانِ

متى قال هذا؟ قاله في حَجَّة الوداع، لَـمَّا قرَّر -صلواتُ الله وسلامه عليه-

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).
(٢) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣).

ما قرَّر من الأصول العظيمة، قال: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟». قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يَرْفَعُ أُصْبَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَيَنْكُتُهَا لِلنَّاسِ(١). ثلاث مرات وهو يُشْهِدُ اللهَ عزَّ وجلَّ على الصحابة أنَّهم أقرُّوا بالبلاغ.

أين يرفعُ أصبعَه؟ الجواب: للسَّماء، قال: هذا لا يجوزُ، هذا خطأٌ، فإنَّ اللهَ تعالى لا يُشَارُ إليه إشارةً حِسِّيَّةً، وإنما يُشارُ إليه إشارةً معنويَّةً بالقلب؛ ولهذا قال بعضُهم: لو أنَّ أحدًا من الناس أشار إليه بأصبعه لقطعتُ أصبعَه -أعوذ بالله- لأنَّ هذا عندهم كفرٌ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

قال ابنُ القيِّم:

٢٢٥٠- وَاللهِ مَا نَدْرِي الَّذِي نُبْدِيهِ فِي ... هَذَا مِنَ التَّأْوِيلِ لِلْإِخْوَانِ

يعني أنَّ الرسولَ لـمَّا أشارَ إلى السَّماء يُشْهِدُ اللهَ عزَّ وجلَّ كان هذا نصًّا قاطعًا في أنَّ اللهَ تعالى في السماء، كذلك الدَّاعِي إذا دعا يرفعُ يديه إلى السماء، وهذا نصٌّ قاطعٌ؛ لأنه فطرةٌ.

٢٢٥١- قُلْنَا لَهُمْ: إِنَّ السَّمَا هِيَ قِبْلَةُ الدْ ... دَاعِي كَبَيْتِ اللهِ ذِي الأَرْكَانِ

يقول: إنَّ الدَّاعيَ إذا رفع يديه إلى السَّماء إنما يرفعُ يديه إلى قبلة الدعاء، لا إلى الله، كما أنَّ المصلِّيَ إذا صلَّى يتَّجهُ إلى الكعبة التي هي قبلة المصلِّي، فإذا قلنا: (يا الله) ليس معناه أنَّنا نرفعُ أيديَنا إلى الله، إنما نرفعُ أيديَنا إلى قبلة الدَّاعي كما يتَّجه المصلِّي إلى الكعبة التي هي قبلة المصلِّي.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما-.

٢٢٥٢- قَـالُوا لَنَـا: هَـذَا دَلِيـلٌ أَنَّـهُ ... فَـوْقَ السَّـمَاءِ بِأَوْضَـحِ الْبُرْهَـانِ

٢٢٥٣- فَالنَّـاسُ طُـرًّا إِنَّـمَا يَدْعُونَـهُ ... مِـنْ فَـوْقُ، هَـذِي فِطْـرَةُ الـرَّحْمَنِ

٢٢٥٤- لَا يَسْـأَلُونَ الْقِبْلَـةَ الْعُلْيَـا وَلَـ ... ـكِنْ يَسْأَلُونَ الـرَّبَّ ذَا الإِحْسَانِ

صحيح، لو أنّك سألتَ عجوزًا ما قرأتِ العقيدةَ، ولا قرأت أيَّ كتابٍ وهي ترفعُ يديها تسألُ اللهَ: إلى أيِّ شيءٍ رَفَعْتِ يديك؟ فلن تقول: إلى السَّماء قبلة الدَّاعي، ولا تعرفُ هذا، بل تقولُ: رفعتُها إلى الله.

كيف تقولون أنتم: إنَّ رفعَ اليدين إلى السَّماء لأنها قبلةَ الدَّاعي؟ مَن قال لكم هذا؟! إنما يرفعُ الدُّعاةُ أيديَهم إلى السَّماء لأنهم يعلمون أنَّ ربَّهم في السَّماء.

٢٢٥٥- قَـالُوا: وَمَـا كَانَـتْ إِشَـارَتُهُ إِلَى ... غَـيْرِ الشَّـهِيدِ مُنَـزِّلِ الْفُرْقَـانِ

قَوْلُهُ: «قَالُوا: وَمَا كَانَتْ إِشَارَتُهُ» الذين يقولون هذا أهلُ السُّنَّة والجماعة ردًّا على القائلين بأنهم إنما يرفعون أيديَهم إلى السَّماء التي هي قبلة الدَّاعي على زعمهم.

قَوْلُهُ: «قَالُوا: وَمَا كَانَتْ إِشَارَتُهُ إِلَى غَيْرِ الشَّهِيدِ» وهو الله -سبحانه وتعالى- مُنَزِّل الفرقان.

٢٢٥٦- أَتُـرَاهُ أَمْسَـى لِلسَّـمَا مُسْتَشْـهِدًا؟! ... حَاشَـاهُ مِـنْ تَحْرِيـفِ ذِي الْبُهْتَـانِ

قَوْلُهُ: «أَتُرَاهُ أَمْسَى لِلسَّمَا مُسْتَشْهِدًا؟!» يعني: أتظُنُّ الرسولَ ﷺ.

***

٢٢٥٧- وَكَـذَاكَ قُلْـتَ بِأَنَّـهُ مُـتَكَلِّمٌ ... وَكَلَامُـهُ الْـمَسْمُوعُ بِـالْآذَانِ

٢٢٥٨- نَادَى الْكَلِيمَ بِنَفْسِهِ وَكَـذَاكَ قَـدْ ... سَـمِعَ النِّـدَا فِي الْـجَنَّةِ الْأَبَـوَانِ

٢٢٥٩- وَكَذَا يُنَادِي الْـخَلْقَ يَوْمَ مَعَـادِهِمْ ... بِالصَّوْتِ يَسْمَعُ صَـوْتَهُ الـثَّقَلَانِ:

٢٢٦٠- إِنِّـي أَنَـا الـدَّيَّانُ آخُـذُ حَـقَّ مَظْـ ... ـلُومٍ مِنَ الْعَبْدِ الظَّلُّـومِ الْـجَانِـي

٢٢٦١- وَتَقُــولُ: إِنَّ اللهَ قَــالَ وَقَائِــلٌ ... وَكَذَا يَقُـولُ، وَلَـيْسَ فِي الْإِمْكَـانِ

٢٢٦٢- قَوْلٌ بِلَا حَرْفٍ وَلَا صَـوْتٍ يُـرَى ... مِـنْ غَـيْرِ مَـا شَـفَةٍ وَغَـيْرِ لِسَـانِ

٢٢٦٣- أَوْقَعْتَ فِي التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ مَـنْ ... لَـمْ يَنْفِ مَا قَـدْ قُلْـتَ فِي الـرَّحْمَنِ

٢٢٦٤- لَوْ لَـمْ تَقُلْ: فَوْقَ السَّمَاءِ وَلَـمْ تُشِرْ ... بِإِشَــــارَةٍ حِسِّـــيَّةٍ بِبَنَــــانِ

٢٢٦٥- وَسَكَتَّ عَنْ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي ... قَـدْ صَرَّحَـتْ بِـالْفَوْقِ لِلـدَّيَّانِ

٢٢٦٦- وَذَكَـرْتَ أَنَّ اللهَ لَـيْسَ بِـدَاخِلٍ ... فِينَـا وَلَا هُـوَ خَـارِجَ الْأَكْـوَانِ

٢٢٦٧- كُنَّا انْتَصَفْنَا مِنْ أُولِي التَّجْسِيمِ بَـلْ ... كَـانُوا لَنَـا أَسْرَى عَبِيـدَ هَـوَانِ

٢٢٦٨- لَكِــنْ مَنَحْــتَهُمْ سِــلَاحًا كُلَّــهَا ... شَـاءُوا لَنَـا مِـنْهُمْ أَشَـدَّ طِعَـانِ

٢٢٦٩- وَغَدَوْا بِأَسْـهُمِكَ الَّتِـي أَعْطَيْـتَهُمْ ... يَرْمُونَنَـا غَرَضًـا بِكُـلِّ مَكَـانِ

٢٢٧٠- لَـوْ كُنْـتَ تَعْـدِلُ فِي الْعِبَـارَةِ بَيْنَنَـا ... مَـا كَـانَ يُوجَـدُ بَيْنَنَـا رجفَـانِ

٢٢٧١- هَذَا لِسَانُ الْـحَالِ مِـنْهُمْ وَهْـوُ فِي ... ذَاتِ الصُّــدُورِ يُغَــلُّ بِــالْكِتْمَانِ

٢٢٧٢- يَبْـدُو عَـلَى فَلَتَـاتِ أَلْسُـنِهِمْ وَفِي ... صَـفَحَاتِ أَوْجُهِهِـمْ يُـرَى بِعِيَـانِ

٢٢٧٣- سِيمَا إِذَا قُـرِئَ الْـحَدِيثُ عَلَـيْهِمُ ... وَتَلَـوْتَ شَـاهِدَهُ مِـنَ الْقُـرْآنِ

٢٢٧٤- فَهُنَـاكَ بَـيْنَ النَّازِعَـاتِ وَكُـوِّرَتْ ... تِلْـكَ الْوُجُـوهُ كَثِـيرَةُ الْأَلْـوَانِ

٢٢٧٥- وَيَكَادُ قَائِلُهُمْ يُصَرِّحُ لَوْ يَرَى ... مِنْ قَابِلٍ فَتَرَاهُ ذَا كِتْمَانِ

٢٢٧٦- يَا قَوْمُ شَاهَدْنَا رُءُوسَكُمُ عَلَى ... هَذَا وَلَمْ نَشْهَدْهُ مِنْ إِنْسَانِ

٢٢٧٧- إِلَّا وَحَشْوُ فُؤَادِهِ غِلٌّ عَلَى ... سُنَنِ الرَّسُولِ وَشِيعَةِ الْقُرْآنِ

٢٢٧٨- وَهُوَ الَّذِي فِي كُتْبِهِمْ لَكِنْ بِلُطْـ ... ـفِ عِبَارَةٍ مِنْهُمْ وَحُسْنِ بَيَانِ

٢٢٧٩- وَأَخُو الْجَهَالَةِ نِسْبَةٌ لِلَّفْظِ وَالْـ ... ـمَعْنَى فنسبُ الْعَالِمِ الرَّبَّانِي

٢٢٨٠- يَا مَنْ يَظُنُّ بِأَنَّنَا حِفْنَا عَلَيْـ ... ـهِمْ كُتْبُهُمْ تُنْبِيكَ عَنْ ذَا الشَّانِ

٢٢٨١- فَانْظُرْ تَرَى لَكِنْ نَرَى لَكَ تَرْكَهَا ... حَذَرًا عَلَيْكَ مَصَايِدَ الشَّيْطَانِ

٢٢٨٢- فَشِبَاكُهَا وَاللهِ لَمْ يَعْلَقْ بِهَا ... مِنْ ذِي جَنَاحٍ قَاصِرِ الطَّيَرَانِ

٢٢٨٣- إِلَّا رَأَيْتَ الطَّيْرَ فِي قَفَصِ الرَّدَى ... يَبْكِي لَهُ نَوْحٌ عَلَى الْأَغْصَانِ

٢٢٨٤- وَيَظَلُّ يَخْبِطُ طَالِبًا لِخَلَاصِهِ ... فَيَضِيقُ عَنْهُ فُرْجَةُ الْعِيدَانِ

٢٢٨٥- وَالذَّنْبُ ذَنْبُ الطَّيْرِ خَلَّى أَطْيَبَ الثْـ ... ـثَمَرَاتِ فِي عَالٍ مِنَ الأَفْنَانِ

٢٢٨٦- وَأَتَى إِلَى تِلْكَ الْمَزَابِلِ يَبْتَغِي الْـ ... ـفَضَلَاتِ كَالْحَشَرَاتِ وَالدِّيدَانِ

الشرحُ

سبق أنَّ المؤلفَ -رحمه الله- ذكر أنَّ الجهميَّةَ، بل المعطِّلة عمومًا، هم الذين يُشْبِهونَ الخوارجَ، حيث قالوا: إنَّ الرسولَ ﷺ لم يَعْدِلْ فيما وصفَ اللهُ به نفسَه، حتَّى قالوا: إنَّ قوله: «أَيْنَ اللهُ؟» ليس بِعَدْلٍ، والصواب أن يقولَ: مَن اللهُ؟ أمَّا «أَيْنَ اللهُ؟» فلا.

هذا القولُ على لسان الجهميِّ المعطِّل، ويخاطبُ النَّبِيَّ ﷺ فيقول:

٢٢٥٧- وَكَذَاكَ قُلْتَ بِأَنَّهُ مُتَكَلِّمٌ ... وَكَلَامُهُ الْمَسْمُوعُ بِالْآذَانِ

٢٢٥٨- نَادَى الْكَلِيمَ بِنَفْسِهِ وَكَذَاكَ قَدْ ... سَمِعَ النِّدَا فِي الْجَنَّةِ الْأَبَوَانِ

قَوْلُهُ: «نَادَى الْكَلِيمَ بِنَفْسِهِ» «نادى» أي: اللهُ عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «الكَلِيمَ» موسى -عليه الصلاة والسلام-.

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ قَدْ سَمِعَ النِّدَا فِي الْجَنَّةِ الْأَبَوَانِ» «الأبوان» أي: آدمُ وحواء، قال اللهُ تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:٢٢-٢٣].

٢٢٥٩- وَكَذَا يُنَادِي الْخَلْقَ يَوْمَ مَعَادِهِمْ ... بِالصَّوْتِ يَسْمَعُ صَوْتَهُ الثَّقَلَانِ:

٢٢٦٠- إِنِّي أَنَا الدَّيَّانُ آخُذُ حَقَّ مَظْـ ... ـلُومٍ مِنَ الْعَبْدِ الظَّلُومِ الْجَانِي

وذلك كما جاء في الحديث الصحيح أنه يُنَادِي بِصَوْتٍ، قال رسولُ الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ! فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ»(١).

٢٢٦١- وَتَقُولُ: إِنَّ اللهَ قَالَ وَقَائِلٌ ... وَكَذَا يَقُولُ، وَلَيْسَ فِي الْإِمْكَانِ

٢٢٦٢- قَوْلٌ بِلَا حَرْفٍ وَلَا صَوْتٍ يُرَى ... مِنْ غَيْرِ مَا شَفَةٍ وَغَيْرِ لِسَانِ

كُلُّ هذا كلامُ أهل التعطيل يُخَاطِبون الرسولَ -عليه الصلاة والسلام-

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم (٣٣٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله يقول الله لآدم أخرج بعث النار، رقم (٢٢٢).

ويَرَوْنَ أنَّ هذا القولَ ليس بِعَدْلٍ، وأنَّ العدلَ أن يأتيَ بما يدَّعونَ أنه التَّنزيه، وهو نفيُ الصفات.

٢٢٦٣- أَوْقَعْتَ فِي التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ مَنْ ... لَمْ يَنْفِ مَا قَدْ قُلْتَ فِي الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «أَوْقَعْتَ» أي: الرسولُ -عليه الصلاة والسلام-.

قَوْلُهُ: «فِي التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ مَنْ لَمْ يَنْفِ» (مَنْ) مفعول (أوقعت).

قَوْلُهُ: «لَمْ يَنْفِ مَا قَدْ قُلْتَ فِي الرَّحْمَنِ» ويعنون به أهلَ السُّنَّة الذين أثبتوا الصفات.

فهذا الرجلُ المعطِّلُ يقول للرسول ﷺ: إنك أوقعتَ مَنْ لم ينفِ ما قلت في التشبيه والتجسيم.

٢٢٦٤- لَوْ لَمْ تَقُلْ: فَوْقَ السَّمَاءِ وَلَمْ تُشِرْ ... بِإِشَارَةٍ حِسِّيَّةٍ بِبَنَانِ

٢٢٦٥- وَسَكَتَّ عَنْ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي ... قَدْ صَرَّحَتْ بِالْفَوْقِ لِلدَّيَّانِ

٢٢٦٦- وَذَكَرْتَ أَنَّ اللهَ لَيْسَ بِدَاخِلٍ ... فِينَا وَلَا هُوَ خَارِجَ الْأَكْوَانِ

٢٢٦٧- كُنَّا انْتَصَفْنَا مِنْ أُولِي التَّجْسِيمِ بَلْ ... كَانُوا لَنَا أَسْرَى عَبِيدَ هَوَانِ

قَوْلُهُ: «لو لَمْ تَقُلْ» كُلُّ الكلامِ الآن يحكيه ابنُ القيِّم على لسان أهل التعطيل يخاطبون الرسولَ ﷺ.

قَوْلُهُ: «فَوْقَ السَّمَاءِ وَلَمْ تُشِرْ بِإِشَارَةٍ حِسِّيَّةٍ بِبَنَانِ» كما أشار في حال خُطبة حجَّةِ الوداع.

فهو يقول: لو فعلت هذا (كُنَّا انْتَصَفْنَا مِنْ أُولِي التَّجْسِيمِ).

يعني: يقول: لو أنَّك ما قلتَ هذا الكلامَ، ولا وصفتَ اللهَ بها وصفتَ لكنَّا انتصفنا من أولي التجسيم، يعني: أننا أخذنا بالنَّصَفِ منهم فغلبناهم وكانت الحُجةُ لنا، لكنَّك قلتَ ذلك فصار الانتصافُ لأهل التجسيم على زعمهم، ويعني بهم: الذين يثبتون الصفات.

٢٢٦٨- لَكِنْ مَنَحْتَهُمْ سِلَاحًا كُلَّمَا ... شَاءُوا لَنَا مِنْهُمْ أَشَدَّ طِعَانِ

٢٢٦٩- وَغَدَوْا بِأَسْهُمِكَ الَّتِي أَعْطَيْتَهُمْ ... يَرْمُونَنَا غَرَضًا بِكُلِّ مَكَانِ

قَوْلُهُ: «**لَكِنْ مَنَحْتَهُم**» الخطاب للنَّبيِّ -عليه الصلاة والسلام-.

والمعنى أنَّه كُلَّما أرادوا أن يطعنونا بهذا السِّلاح وجدنا منهم أشدَّ شيء.

٢٢٧٠- لَوْ كُنْتَ تَعْدِلُ فِي الْعِبَارَةِ بَيْنَنَا ... مَا كَانَ يُوجَدُ بَيْنَنَا رجفَانِ

أعوذ بالله، يقولون للرسول: لو كنتَ عادلًا ما كان بيننا هذا الرَّجَفَان وهذا الخوف من أن يسطوَ علينا أهلُ الإثبات.

٢٢٧١- هَذَا لِسَانُ الْحَالِ مِنْهُمْ وَهْوُ فِي ... ذَاتِ الصُّدُورِ يُغَلُّ بِالْكِتْمَانِ

قَوْلُهُ: «**هَذَا لِسَانُ الْحَالِ مِنْهُم**» ابنُ القيِّم -رحمه الله- احترز لـمَّا ذكر أنَّهم يقولون كذا، ويقولون كذا، قال: (**هَذَا لِسَانُ الْحَالِ**) يعني أنهم لم يقولوا ذلك بألسنتهم، لكن هذا لسانُ حالهم.

والفرقُ بين لسان الحال ولسان المقال: أنَّ لسانَ المقالِ هو النطقُ باللسان، ولسانَ الحالِ هو شواهدُ القرائن؛ ولهذا قال: (**هَذَا لِسَانُ الْحَالِ مِنْهُمْ وَهْوُ فِي ذَاتِ الصُّدُورِ يُغَلُّ بِالْكِتْمَانِ**) ذات الصدور هي القلوب.

قَوْلُهُ: «**يُغَلُّ بِالْكِتْمَانِ**» يعني: يُحْبَسُ ويُمْنَع بالكتمان، فلا يُصَرِّحون به.

٢٢٧٢- يَبْـدُو عَـلَى فَلَتَـاتِ أَلْسُـنِهِمْ وَفِي صَـفَحَاتِ أَوْجُهِهِـمْ يُـرَى بِعِيَـانِ

يعني: هذا القولُ الذي قلناه عنهم بناءً على لسان الحال يبدو على فلتات ألسنهم، أي أنَّهم أحيانًا يطلقونه فلتةً.

قَوْلُهُ: «وَفِي صَفَحَاتِ أَوْجُهِهِمْ يُرَى بِعِيَانِ» وهذا صحيحٌ، فالإنسانُ قد تشعرُ بأنه رَدَّ قولَك من صفحات وجهه، أنت إذا قلتَ قولًا يُناسُبه تجد وجهَه يستنيرُ وينتشرُ وينبسطُ، وإذا قلتَ قولًا يكرهه تجده بالعكس، وهذا لا يشعرُ به إلَّا مَن أعطاه اللهُ فراسةً وفطنةً.

٢٢٧٣- سِيمَا إِذَا قُـرِئَ الْـحَدِيثُ عَلَـيْهِمُ وَتَلَـوْتَ شَـاهِدَهُ مِـنَ الْقُـرْآنِ

يعني: إذا قرأتَ الحديثَ، وأيَّدتَه بشاهدٍ من القرآن، فانظر ماذا يكونُ على وجوهِهم من الانقباض والكراهة.

٢٢٧٤- فَهُنَـاكَ بَـيْنَ النَّازِعَـاتِ وَكُـوِّرَتْ تِلْـكَ الْوُجُـوهُ كَثِـيرَةُ الْأَلْـوَانِ

قَوْلُهُ: «بَيْنَ النَّازِعَاتِ وَكُوِّرَتْ» (النازعات) و(وكورت) بينهما سورة (عَبَسَ).

قَوْلُهُ: «تِلْكَ الْوُجُوهُ كَثِيرَةُ الْأَلْوَانِ» أي: تجد العبوسَ، وتجد قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس:٤١] يعني: إذا تلوتَ عليهم الحديثَ، وأتيتَ بشاهدٍ له من القرآن، فإنَّك تجد عُبُوسًا وغَبَرَةً وقَتَرَةً. نسألُ اللهَ العافيةَ.

٢٢٧٥- وَيَكَادُ قَـائِلُهُمْ يُصَـرِّحُ لَـوْ يَـرَى مِـنْ قَابِـلٍ فَـتَرَاهُ ذَا كِـتْمَانِ

يُصَرِّحُ بكراهته لِـمَا سمِع لو رأى قابِلًا، ولكنَّه لا يرى أحدًا يَقْبَلُ قولَه وحينئذٍ يكتم.

٢٢٧٦- يَا قَوْمُ شَاهَدْنَا رُءُوسَكُمُ عَلَى هَذَا وَلَمْ نَشْهَدْهُ مِنْ إِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «يا قومِ» يجوز (يا قومُ) ويجوز (يا قومِ)، فعلى لفظ (قومِ) يكون على اعتبار أنَّ الياء حُذِفَتْ وبقيت الكسرةُ دليلًا عليها، وعلى لفظ (يا قومُ) على اعتبار أنه مقطوعٌ عن الإضافة ويكونُ نكرةً مقصودة، والنكرةُ المقصودةُ يُبْنَى فيها المنادَى على الضم.

قَوْلُهُ: «شَاهَدْنَا رُءُوسَكُمُ» ليس المرادُ رأسَ الجسد، المرادُ رءوسُكم في العلم، يعني: رؤساءَكم شاهدناهم على هذا، إذا تُلِـي عليهم الحديثُ وأُيِّد بشاهدٍ من القرآن تجد وجوهًا عابسةً عليها غبرةٌ، ترهقُها قترةٌ، والعياذ بالله.

٢٢٧٧- إِلَّا وَحَشْوُ فُؤَادِهِ غِلٌّ عَلَى سُنَنِ الرَّسُولِ وَشِيعَةِ الْقُرْآنِ

يعني: لم يُشَاهَدْ هذا الشيءُ من إنسان إلَّا وحَشْوُ فؤادِه غِلٌّ على سنن الرسول.

قَوْلُهُ: «حَشْوُ» أي: مِلْء، يعني أنَّ قلبَه مملوءٌ من الغِلِّ على سنن الرسول وشِيعة القرآن.

٢٢٧٨- وَهُوَ الَّذِي فِي كُتْبِهِمْ لَكِنْ بِلُطْـ ـفِ عِبَارَةٍ مِنْهُمْ وَحُسْنِ بَيَانِ

قَوْلُهُ: «وَهُوَ الَّذِي فِي كُتْبِهِمْ» أي: في كتب الرؤوس.

قَوْلُهُ: «لَكِنْ بِلُطْفِ عِبَارَةٍ مِنْهُمْ وَحُسْنِ بَيَانِ» يعني: أنهم لا يُصَرِّحون، ولكنَّهم يأتون بعباراتٍ لا يفهمُها إلَّا الحُذَّاقُ؛ ولهذا قال بعضُ العلماء في تفسير الزَّمَخْشَرِيّ الذي إذا قرأتَه قلتَ: هذا التفسيرُ في القمَّة، يقول: إنَّك تستخرجُ منه الاعتزالَ بالمناقيش. يعني أنه خَفِيٌّ، ما تستخرجه بالأصبع، فالشَّوكةُ إذا كانت ضعيفةً تستخرجُها بالمِنقاش لا بالإصبع، أمَّا لو كان مِسمارًا بَيِّنًا فستخرجه بالإصبع.

الحاصلُ أنَّ هذه الكتبَ يأتون بها بعبارات موهِمَةٍ مُزَخْرَفةٍ، يَحْسَبُها الجاهلُ حقًّا وهي باطلٌ؛ ولهذا قال -رحمه الله تعالى-: **(لَكِنْ بِلُطْفِ عِبَارَةٍ مِنْهُمْ وَحُسْنِ بَيَانِ)**.

٢٢٧٩- وَأَخُو الْـجَهَالَةِ نِسْبَةٌ لِلَّفْظِ وَالْـ ... ـمَعْنَى فنسبُ الْعَالِـمِ الرَّبَّانِـي

قَوْلُهُ: «**وَأَخُو الْـجَهَالَةِ نِسْبَةٌ لِلَّفْظِ**» يعني أنَّ الجاهلَ يَغْتَرُّ بالألفاظ، وينخدِعُ بها.

قَوْلُهُ: «**وَالْـمَعْنَى فنسبُ الْعَالِـمِ الرَّبَّانِـي**» يعني: أنَّ العالمَ هو الذي ينظرُ للمعنى ولا يغترُّ باللفظ، والجاهلُ يغترُّ باللفظ والظاهر، فهو صاحبُ اللفظ، أمَّا العالِـمُ فهو صاحبُ المعاني.

٢٢٨٠- يَا مَنْ يَظُنُّ بِأَنَّنَا حِفْنَا عَلَيْـ ... ـهِمْ كُتْبُهُمْ تُنْبِيكَ عَنْ ذَا الشَّانِ

وهذا إنصافٌ من المؤلف، يقول: الذي يظنُّ أنَّنا حِفْنَا عليهم فلينظر إلى كتبهم تُنْبِيكَ عن ذا الشان.

٢٢٨١- فَانْظُرْ تَرَى لَكِنْ نَرَى لَكَ تَرْكَهَا ... حَذَرًا عَلَيْكَ مَصَايِدَ الشَّيْطَانِ

يعني: انظر كتبَهم ترى أنَّ ما قلناه حَقٌّ، ولكنَّه -رحمه الله- لنصحه قال: نرى ألا تقرأَها، لماذا؟ خوفًا عليك من مصائد الشَّيطان؛ لأنَّ الإنسانَ إذا قرأ في كتب أهل الزَّيْغِ، سواءً في العقيدة، أو في الأخلاق، أو في السلوك، أو في أيِّ شيء، إذا قرأ فيها، وليس عنده حصيلةٌ مِن العلم الصحيح، فإنه يغترُّ؛ ولهذا يجبُ أن يحذرَ الشبابُ، وأن نحذِّرَهم أيضًا من الكتب التي فيها الضلالُ، حتَّى لو قالوا: إنَّنا نعرِفُ الحقَّ ولن ننخدعَ، فإنهم على خطر؛ ولهذا حَذَّر النبيُّ ﷺ مَن سَمِعَ

الدَّجَّالَ بأنْ يَنْأَى عنه، يعني: يَبْعُد عنه، فقال: «مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ مِنْهُ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ يَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَلَا يَزَالُ بِهِ لِـمَا مَعَهُ مِنَ الشُّبَهِ حَتَّى يَتَّبِعَهُ»(١)، والعياذُ بالله؛ فلهذا يجبُ على الإنسان أن يبتعدَ عن الشرِّ، ولكنه إذا ابتُلي فليصبر، قال النبي ﷺ: «لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، واسْأَلُوا اللهَ العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ»(٢).

٢٢٨٢- فَشِبَاكُهَا وَاللهِ لَمْ يَعْلَقْ بِهَا ... مِنْ ذِي جَنَاحٍ قَاصِرِ الطَّيَرَانِ

شِبَاكُ هذه الكتبِ لم يَعْلَقْ بها من ذي جناحٍ قاصر الطيران، مَنْ هو صاحبُ الجناحِ القاصر الطيران؟ الجواب: هو المبتدئ الذي لم يكن عنده حصيلةٌ مِن العِلم يدفعُ بها ما يجدُ في هذه الكتب.

٢٢٨٣- إِلَّا رَأَيْتَ الطَّيْرَ فِي قَفَصِ الرَّدَى ... يَبْكِي لَهُ نَوْحٌ عَلَى الْأَغْصَانِ

قَوْلُهُ: «قَفَص الرَّدَى» القفصُ معروفٌ، وهو الذي يُجْعَلُ فيه الطيرُ، فهل يكونُ الطيرُ في القفص طليقًا؟! لكنه ينوح على الأغصان؛ يبكي على الأغصان التي في الأشجار، فهو في البداية كان على الأغصان طليقًا، ثُمَّ دخل في هذا القفص فبدأ يَنُوحُ على الأغصان؛ ولهذا قال: (لَهُ نَوْحٌ عَلَى الْأَغْصَانِ).

٢٢٨٤- وَيَظَلُّ يَخْبِطُ طَالِبًا لِخَلَاصِهِ ... فَيَضِيقُ عَنْهُ فُرْجَةُ الْعِيدَانِ

قَوْلُهُ: «وَيَظَلُّ» يعني: يستمر يخبطُ بجناحه يريد أن يطيرَ، لكن كُلَّما أرادَ

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣١)، أبو داود: كتاب الملاحم، باب خروج الدجال، رقم (٤٣١٩).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس، رقم (٢٨٠٤)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم (١٩٠٢).

أن يخرجَ ضاقتْ عليه فُرْجةُ العِيدان، أي: عيدان القفص، فالفتحاتُ ضيِّقةٌ لا يستطيعُ أن يخرجَ منها.

٢٢٨٥- وَالذَّنْبُ ذَنْبُ الطَّيْرِ خَلَّى أَطْيَبَ الثْـ ـــ ثَـــمَرَاتِ فِي عَـــالٍ مِـــنَ الأَفْنَـــانِ

قَوْلُهُ: «وَالذَّنْبُ ذَنْبُ الطَّيْرِ» يعني: نقولُ لهذا الطير الذي وقع في القفص: الذَّنْبُ ذَنْبُك.

قَوْلُهُ: «خَلَّى أَطْيَبَ الثَّمَرَاتِ فِي عَالٍ مِنَ الأَفْنَانِ» الأفنان: أي: الأغصان، الذَّنْبُ ذَنْبُكَ أيُّها الطيرُ، لماذا تترك الثمراتِ في أعلى الأغصان وتأتي إلى هذا القفص؟!

٢٢٨٦- وَأَتَى إِلَى تِلْكَ الْـمَزَابِلِ يَبْتَغِي الْـ ـــ ـفَضَلَاتِ كَالْـحَشَرَاتِ وَالدِّيدَانِ

يعني: وخَلَّى الثمراتِ على الأغصان العالية.

* * *

٢٢٨٧- يَـا قَـوْمِ وَاللهِ الْعَظِـيمِ نَصِـيحَةً ـــ مِـنْ مُشْـفِقٍ وَأَخٍ لَكُـمْ مِعْـوَانِ

٢٢٨٨- جَرَّبْـتُ هَـذَا كُلَّـهُ وَوَقَعْـتُ فِي ـــ تِلْـكَ الشِّـبَاكِ وَكُنْـتُ ذَا طَـيَرَانِ

٢٢٨٩- حَتَّـى أَتَـاحَ لِـيَ الْإِلَـهُ بِفَضْـلِهِ ـــ مَـنْ لَـيْسَ تَجْزِيـهِ يَـدِي وَلِسَانِـي

٢٢٩٠- حَـبْرٌ أَتَـى مِـنْ أَرْضِ حَـرَّانٍ فَيَـا ـــ أَهْـلًا بِمَـنْ قَـدْ جَـاءَ مِـنْ حَـرَّانِ

٢٢٩١- فَـاللهُ يَجْزِيـهِ الَّـذِي هُـوَ أَهْلُـهُ ـــ مِنْ جَنَّةِ الْـمَأْوَى مَـعَ الرِّضْـوَانِ

٢٢٩٢- أَخَذَتْ يَدَاهُ يَدِي وَسَارَ فَلَمْ يَـرِمْ ـــ حَتَّـى أَرَانِـي مَطْلَـعَ الإِيـمَانِ

٢٢٩٣- وَرَأَيْتُ أَعْلَامَ الْـمَدِينَةِ حَوْلَـهَا ... نَـزَلَ الْـهُدَى وَعَسَاكِرُ الْقُرْآنِ

٢٢٩٤- وَرَأَيْـتُ آثَـارًا عَظِـيمًا شَـأْنُهَا ... مَحْجُوبَـةً عَـنْ زُمْـرَةِ الْعُمْيَـانِ

٢٢٩٥- وَوَرَدْتُ رَأْسَ الْـمَاءِ أَبْيَضَ صَافِيًا ... حَصْـبَاؤُهُ كَلَآلِـئِ التِّيجَـانِ

٢٢٩٦- وَرَأَيْـتُ أَكْـوَازًا هُنَـاكَ كَثِـيرَةً ... مِثْـلَ النُّجُـومِ لِـوَارِدٍ ظَمْـآنِ

٢٢٩٧- وَرَأَيْتُ حَوْضَ الْكَوْثَرِ الصَّافِي الَّذِي ... لَا زَالَ يَشْـخَبُ فِيـهِ مِيزَابَـانِ:

٢٢٩٨- مِيـزَابُ سُـنَّتِهِ، وَقَـوْلُ إِلَـهِهِ ... وَهُمَـا مَـدَى الْأَيَّـامِ لَا يَنِيَـانِ

٢٢٩٩- وَالنَّـاسُ لَا يَرِدُونَـهُ إِلَّا مِـنَ الْـ ... آلَافِ أَفْـرَادٌ ذَوُو إِيـمَانِ

٢٣٠٠- وَرَدُوا عِـذَابَ مَنَاهِـلٍ أَكْـرِمْ بِهَـا ... وَوَرَدْتُـمُ أَنْـتُمْ عَـذَابَ هَـوَانِ

٢٣٠١- فَبِحَقِّ مَنْ أَعْطَاكُمُ ذَا الْعَدْلَ وَالْـ ... إِنْصَـافَ وَالتَّخْصِـيصَ بِالْعِرْفَـانِ

٢٣٠٢- مَنْ ذَا عَلَى دِينِ الْـخَوَارِجِ بَعْـدَ ذَا ... أَنْـتُمْ أَمِ الْـحَشْوِيُّ؟ مَـا تَرَيَـانِ

٢٣٠٣- وَاللهِ مَا أَنْتُمْ لَدَى الْـحَشْوِيِّ أَهْـ ... ـلًا أَنْ يُقَـدِّمَكُمْ عَـلَى عُـثْمَانِ

٢٣٠٤- فَضْلًا عَنِ الْفَارُوقِ وَالصِّدِّيقِ فَضْـ ... ـلًا عَـنْ رَسُـولِ اللهِ وَالْقُـرْآنِ

٢٣٠٥- وَاللهِ لَـوْ أَبْصَـرْتُمُ لَـرَأَيْتُمُ الْـ ... ـحَشْوِيَّ حَامِـلَ رَايَـةِ الإِيـمَانِ

٢٣٠٦- وَكَـلَامُ رَبِّ الْعَالَـمِينِ وَعَبْـدِهِ ... فِي قَلْبِـهِ أَعْـلَى وَأَكْـبَرُ شَـانِ

٢٣٠٧- مِنْ أَنْ يُحَرَّفَ عَـنْ مَوَاضِـعِهِ وَأَنْ ... يُقْضَى لَـهُ بِـالْعَزْلِ عَـنْ إِيقَـانِ

٢٣٠٨- وَيَرَى الْوِلَايَةَ لِابْنِ سِينَا أَوْ أَبِـي ... نَصْـرٍ أَوِ الْـمَوْلُودِ مِـنْ صَفْوَانِ

٢٣٠٩- أَوْ مَـنْ يُتَـابِعُهُمْ عَـلَى كُفْـرَانِهِمْ ... أَوْ مَـنْ يُقَلِّـدُهُمْ مِـنَ الْعُمْيَـانِ

٢٣١٠- يَـا قَوْمَنَـا بِـالله قُومُـوا وَانْظُـرُوا ... وَتَفَكَّـرُوا فِي السِّـرِّ وَالإِعْـلَانِ

٢٣١١- نَظَـرًا وَإِنْ شِـئْتُمْ مُنَـاظَرَةً فَمِـنْ ... مَثْنَـى عَـلَى هَـذَا وَمِـنْ وُحْـدَانِ

٢٣١٢- أَيُّ الطَّوَائِـفِ بَعْـدَ ذَا أَدْنَـى إِلَى ... قَـوْلِ الرَّسُـولِ وَمُحْكَـمِ الْقُـرْآنِ؟

٢٣١٣- فَـإِذَا تَبَـيَّنَ ذَا فَإِمَّـا تَتْبَعُـوا ... أَوْ تُعْـذِرُوا أَوْ تُؤْذِنُـوا بِطِعَـانِ

الشـرحُ

٢٢٨٧- يَـا قَـوْمِ وَالله الْعَظِـيمِ نَصِـيحَةً ... مِـنْ مُشْـفِقٍ وَأَخٍ لَكُـمْ مِعْـوَانِ

جزاه الله خيرًا، أقسم بأنه سَيُهْدِي إلينا نصيحةً من مشفِقٍ خائفٍ **(وأخٍ مِعوان)** أي: مُعين على الحقِّ.

٢٢٨٨- جَرَّبْـتُ هَـذَا كُلَّـهُ وَوَقَعْـتُ فِي ... تِلْـكَ الشِّـبَاكِ وَكُنْـتُ ذَا طَـيَرَانِ

ابنُ القيِّم -رحمه الله- كان في أول أمرِه صُوفيًّا مبتدعًا، وقع في شباك المبتدعة، لكن مَن أَرَادَ اللهُ هدايتَه يَسَّر له الهدايةَ، حتى كان يَعْمَدُ إلى الخَلَوَات بعيدًا عن الناس، ويتعبَّدُ بعباداتٍ طبعًا ليست من عبادات أهل التصوف، فكانت هذه حاله -رحمه الله-، ولكنَّه يقولُ:

٢٢٨٩- حَتَّـى أَتَـاحَ لِـيَ الْإِلَـهُ بِفَضْـلِهِ ... مَـنْ لَـيْسَ تَجْزِيـهِ يَـدِي وَلِسَانِـي

هيَّأ اللهُ له مَن لا تجزيه يدُه ولا لسانُه، يعني: لو أعطيتُه مِن يدي ما أعطيتُه، وأثنيتُ عليه بلساني ما أثنيتُ عليه، فلن أكافِئَه على معروفه عليه، فمن هو؟

قال -رحمه الله-:

٢٢٩٠- حَـبْرٌ أَتَـى مِـنْ أَرْضِ حَـرَّانٍ فَيَـا أَهْـلًا بِمَـنْ قَـدْ جَـاءَ مِـنْ حَـرَّانِ

قَوْلُهُ: «حَبْرٌ أَتَى» وهو شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ الحَرَّاني -رحمه اللهُ-، يَسَّره اللهُ لابن القيِّم فاهتدى على يديه.

قَوْلُهُ: «أَهْلًا بِمَنْ قَدْ جَاءَ» (مَن) هذه من صيغ العموم، لكنه عامٌّ أُريد به الخاص، أُريدَ به شيخُ الإسلام، وليس كل مَنْ جاء من حرَّان، فحرَّان فيها الصابئةُ وفيها الفُسَّاقُ، لكن يريدُ بذلك شيخَ الإسلام فقط.

٢٢٩١- فَـاللهُ يَجْزِيـهِ الَّـذِي هُـوَ أَهْلُـهُ مِنْ جَنَّةِ الْـمَأْوَى مَـعَ الرِّضْـوَانِ

وهذا من بعض حقوق الشيوخ على تلاميذهم، أن يدعوَ اللهَ لهم، فهو دعا لشيخه، ونِعْمَ الشيخُ، ونحن نسألُ اللهَ تعالى أن يجزيَ الجميعَ ما هو أهله من جنة المأوى مع الرضوان.

٢٢٩٢- أَخَذَتْ يَدَاهُ يَدِي وَسَارَ فَلَـمْ يَـرِمْ حَتَّـى أَرَانِـي مَطْلَـعَ الإِيـمَانِ

قَوْلُهُ: «أَخَذَتْ يَدَاهُ يَدِي» يعني: أمسك بيدي.

٢٢٩٣- وَرَأَيْتُ أَعْـلَامَ الْـمَدِينَةِ حَوْلَـهَا نُـزُلَ الْـهُدَى وَعَسَـاكِرُ الْقُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «أعلامَ المدينةِ» يعني المدينةَ النبويَّةَ، مدينة الرسول -عليه الصلاة والسلام-، حولَها نُزُلُ الـهُدَى وعساكرُ القرآن.

٢٢٩٤- وَرَأَيْـتُ آثَـارًا عَظِـيمًا شَـأْنُهَا مَحْجُوبَـةً عَـنْ زُمْـرَةِ الْعُمْيَـانِ

كان -رحمه الله- في أوَّل أمرِه يَتَّبِعُ كلامَ الشيوخ، لكن لَـمَّا وفَّقه اللهُ لشيخ

الإسلام صار مُنهمكًا بالآثار.

٢٢٩٥- وَوَرَدْتُ رَأْسَ الْـمَاءِ أَبْيَضَ صَافِيًا حَصْبَاؤُهُ كَلَآلِئِ التِّيجَانِ

٢٢٩٦- وَرَأَيْتُ أَكْوَازًا هُنَاكَ كَثِيرَةً مِثْلَ النُّجُومِ لِوَارِدٍ ظَمْآنِ

٢٢٩٧- وَرَأَيْتُ حَوْضَ الْكَوْثَرِ الصَّافِي الَّذِي لَا زَالَ يَشْخَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ:

قَوْلُهُ: «يَشْخَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ» ذكرهما بقوله:

٢٢٩٨- مِيزَابُ سُنَّتِهِ، وَقَوْلُ إِلَهِهِ وَهُمَا مَدَى الْأَيَّامِ لَا يَنِيَانِ

يعني أنَّه -رحمه الله- أخذ بيده حتَّى أورده هذا الماءَ الصافيَ الذي يَصُبُّ فيه ميزابان: الأوَّلُ: كتابُ الله، والثاني: سُنَّةُ رسولِ الله ﷺ.

٢٢٩٩- وَالنَّاسُ لَا يَرِدُونَهُ إِلَّا مِنَ الْـ آلافِ أَفْرَادٌ ذَوُو إِيمَانِ

يعني: لا يَرِدُ هذا الحوضَ الذي يصبُّ فيه هذان الميزابان إلَّا أفرادٌ ذوو إيمانٍ.

٢٣٠٠- وَرَدُوا عِذَابَ مَنَاهِلٍ أَكْرِمْ بِهَا وَوَرَدْتُمُ أَنْتُمْ عَذَابَ هَوَانِ

قَوْلُهُ: «عِذَابَ»، و«عَذَابَ» بينهما جِناسٌ تامّ، أو غيرُ تامٍّ؟

نقول: إذا اتَّفقَ اللفظان في الحركات والحروف فهو تام، وإنِ اختلفا فهو ناقص، وهنا اختلفا: (عِذَاب وعَذَاب).

٢٣٠١- فَبِحَقِّ مَنْ أَعْطَاكُمُ ذَا الْعَدْلَ وَالْـ إِنْصَافَ وَالتَّخْصِيصَ بِالْعِرْفَانِ

٢٣٠٢- مَنْ ذَا عَلَى دِينِ الْـخَوَارِجِ بَعْدَ ذَا أَنْتُمْ أَمِ الْـحَشْوِيُّ؟ مَا تَرَيَانِ

قَوْلُهُ: «فَبِحَقِّ مَنْ أَعْطَاكُمُ ذَا الْعَدْلَ» يعني: أنه ناشدهم بحقِّ الله عزَّ وجلَّ.

وَقَوْلُهُ: «مَنْ أَعْطَاكُمْ ذَا الْعَدْلَ وَالإِنْصَافَ وَالتَّخْصِيصَ بِالْعِرْفَانِ» هذا نوعٌ من التهكُّم، لكن مع ذلك أنتم تَدَّعون أنَّكم أهلُ العدل وأهلُ التخصيص والتحقيق.

فمَن الذي على دين الخوارج أنتم أم الحَشْوِيُّ؟ والحَشْوِيّة هم أهل الإثبات، فكلُّ أهلِ الإثبات يُسَمَّوْنَ حَشْوِيَّةً عندهم.

٢٣٠٣- وَاللهِ مَا أَنْتُمْ لَدَى الْـحَشْوِيِّ أَهْـ ـلًا أَنْ يُقَدِّمَكُمْ عَلَى عُثْمَانِ

يخاطبُ هؤلاء الذين يتَّبعونَ شيوخَهم ورؤساءَهم، يقول: ما أنتم أهلًا بأن نقدمكم على عثمانَ.

٢٣٠٤- فَضْلًا عَنِ الْفَارُوقِ وَالصِّدِّيقِ فَضْـ ـلًا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَالْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «فضلًا عن الفارُوقِ» أي: عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَوْلُهُ: «عثمان» و«الفاروق» و«الصِّدِّيق» هؤلاء ثلاثةٌ من الخلفاء: عثمان وعمر وأبو بكر، ولا يمكنُ أن نُقَدِّمَكم عليهم، فضلًا عن كلامِ الله وكلامِ رسول -صلى الله عليه وسلم-.

٢٣٠٥- وَاللهِ لَوْ أَبْصَرْتُمُ لَرَأَيْتُمُ الْـ ـحَشْوِيَّ حَامِلَ رَايَةِ الإِيمَانِ

٢٣٠٦- وَكَلامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَعَبْدِهِ فِي قَلْبِهِ أَعْلَى وَأَكْبَرُ شَانِ

٢٣٠٧- مِنْ أَنْ يُحَرَّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَأَنْ يُقْضَى لَهُ بِالْعَزْلِ عَنْ إِيقَانِ

وطريقُ أهل النفي والتعطيل أنَّ القرآنَ والسُّنَّةَ مُحَرَّفان عن مواضعهما، فيقولون: (استوى) يعني (استولى)، و(يد) يعني (قوة)، وهكذا.

وأيضًا يقولون: هي معزولة عن الإيقان؛ أي: لا تفيدُ إلَّا الظنَّ فقط.

٢٣٠٨- وَيَرَى الْوِلايَةَ لِابْنِ سِينَا أَوْ أَبِي ... نَصْرٍ أَوِ الْمَوْلُودِ مِنْ صَفْوَانِ

٢٣٠٩- أَوْ مَنْ يُتَابِعُهُمْ عَلَى كُفْرَانِهِمْ ... أَوْ مَنْ يُقَلِّدُهُمْ مِنَ الْعُمْيَانِ

قَوْلُهُ: «وَيَرَى الْوِلايَةَ لِابْنِ سِينَا» يعني: يتولَّى ابنَ سينا(١) وأتباعَه، ويتركُ وَلايةَ الله ورسوله.

قَوْلُهُ: «أو أبي نَصْرٍ» أي: أبي نصرٍ الفَارَابِيّ(٢).

قَوْلُهُ: «أَوِ المَوْلُودِ مِنْ صَفْوَانِ» أي: الجَهْم بن صَفْوان.

٢٣١٠- يَا قَوْمَنَا بِاللهِ قُومُوا وَانْظُرُوا ... وَتَفَكَّرُوا فِي السِّرِّ وَالإِعْلَانِ

٢٣١١- نَظَرًا وَإِنْ شِئْتُمْ مُنَاظَرَةً فَمِنْ ... مَثْنَى عَلَى هَذَا وَمِنْ وُحْدَانِ

يقول -رحمه الله-: قوموا وانظروا، فكِّروا أيُّنا أولى بالخوارج، هل هو الحَشْوِيُّ -على زعمهم- أو هؤلاء الرؤساءُ؟

إن شئتم أن تنظروا بأنفسِكم فانظروا، وإنْ شئتم مناظرةً ومنازلةً، فنحن مستعِدون لمناظرتِكم ومنازلتِكم.

٢٣١٢- أَيُّ الطَّوَائِفِ بَعْدَ ذَا أَدْنَى إِلَى ... قَوْلِ الرَّسُولِ وَمُحْكَمِ الْقُرْآنِ؟

---

(١) ابن سِينَا: هو الحسين بن عبد الله بن سينا، فيلسوف، له تصانيف في الطِّبِّ وغيره، كان مِن أهل دعوة الحاكم العُبَيْدِي، معروفًا بالإلحاد، وُلِد في إحدى قُرَى بُخَارَى (سنة ٣٧٠هـ)، وتوفي في سَفَرِه إلى هَمَذَانَ (سنة ٤٢٨هـ). انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٣١).

(٢) الفارابي: هو محمد بن طرخان، تركي الأصل، سمي بذلك لشرحه مؤلفات أرسطو (المعلم الأول) وُلد في فاراب على نهر جيحون سنة (٢٦٠هـ)، كان فيلسوفًا، وتوفي بدمشق سنة (٣٣٩هـ). انظر ترجمته في: مرآة الجنان (٢/ ٢٤٦).

٢٣١٣- فَــإِذَا تَبَــيَّنَ ذَا فَإِمَّــا تَتْبَعُــوا أَوْ تُعْــذِرُوا أَوْ تُؤْذِنُــوا بِطِعَــانِ

يعني: إذا تَبَيَّن فإمَّا أن تَتْبَعُوا وهذا هو الخير، **(أو تُعْذِروا)** وهذا وَقْفٌ سِلْمِيٌّ، تعذروننا ولا تتكلَّمون فينا، **(أَوْ تُـؤْذِنُوا بِطِـعَانِ)** يعني: ونتكلَّم وتتكلَّمون.

والواقع أنهم لا اتَّبعوا ولا عذروا، بل كانوا يَسبُّون أهلَ الإثبات، ويقولون: هم حَشْوِيَّةٌ، هم نَوَابِت، هم غُثاء، هم عامة وليس عندهم علم، وهكذا، وحينئذٍ يكونون قد آذنوا بِطِعَان، وإذا آذنوا بِطِعَان، فلا تلوموننا، إذا قلنا فيهم ما يستحقُّونه مِن أوصافٍ ذميمة.

* * *

فصل

فِي تَلْقِيبِهِمْ أَهْلَ السُّنَّةِ بِالحَشْوِيَّةِ، وَبَيَانِ مَنْ أَوْلَى بِالوَصْفِ المَذْمُومِ مِنْ هَذَا اللَّقَبِ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ، وَذِكْرِ أَوَّلِ مَنْ لَقَّبَ بِهِ أَهْلَ السُّنَّةِ مِنْ أَهْلِ البِدَعِ

٢٣١٤- وَمِنَ الْعَجَائِبِ قَوْلُهُمْ لِمَنِ اقْتَدَى ... بِالْوَحْيِ مِنْ أَثَرٍ وَمِنْ قُرْآنِ:

٢٣١٥- حَشْوِيَّةٌ، يَعْنُونَ حَشْوًا فِي الْوُجُو ... دِ وَفَضْلَةً فِي أُمَّةِ الإِنْسَانِ

٢٣١٦- وَيَظُنُّ جَاهِلُهُمْ بِأَنَّهُمْ حَشَوْا ... رَبَّ الْعِبَادِ بِدَاخِلِ الأَكْوَانِ

٢٣١٧- إِذْ قَوْلُهُمْ: فَوْقَ الْعِبَادِ وَفِي السَّمَا ... ءِ الرَّبُّ ذُو الْمَلَكُوتِ وَالسُّلْطَانِ

٢٣١٨- ظَنَّ الحَمِيرُ بِأَنَّ «فِي» لِلظَّرْفِ، وَالرْ ... رَحْمَنُ مَحْوِيٌّ بِظَرْفِ مَكَانِ

٢٣١٩- وَاللهِ لَمْ يُسْمَعْ بِذَا مِنْ فِرْقَةٍ ... قَالَتْهُ فِي زَمَنٍ مِنَ الأَزْمَانِ

٢٣٢٠- لا تَبْهَتُوا أَهْلَ الحَدِيثِ بِهِ فَمَا ... ذَا قَوْلُهُمْ تَبًّا لِذِي الْبُهْتَانِ

٢٣٢١- بَلْ قَوْلُهُمْ: إِنَّ السَّمَوَاتِ الْعُلَى ... فِي كَفِّ خَالِقِ هَذِهِ الأَكْوَانِ

٢٣٢٢- حَقًّا كَخَرْدَلَةٍ تُرَى فِي كَفِّ مُمْـ ... ـسِكِهَا تَعَالَى اللهُ ذُو السُّلْطَانِ

٢٣٢٣- أَتَرَوْنَهُ الْمَحْصُورَ بَعْدُ أَمِ السَّمَا؟ ... يَا قَوْمَنَا ارْتَدِعُوا عَنِ الْعُدْوَانِ

٢٣٢٤- كَمْ ذَا مُشَبِّهَةٌ وَكَمْ حَشْوِيَّةٌ ... فَالْبُهْتُ لا يَخْفَى عَلَى الرَّحْمَنِ

٢٣٢٥- يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ الْكِتَابُ وَسُنَّةُ الْـ ... ـمُخْتَارِ حَشْوًا فَاشْهَدُوا بِبَيَانِ

٢٣٢٦- أَنَّـا بِحَمْـدِ إِلَـهِنَا حَشْـوِيَّةٌ ... صِرْفٌ بِـلَا جَحْـدٍ وَلا كِـتْمَانِ

٢٣٢٧- تَدْرُونَ مَنْ سَمَّتْ شُـيُوخُكُمُ بِهَـ ... ذَا الإِسْمِ فِي المَاضِي مِنَ الأَزْمَانِ

٢٣٢٨- سَـمَّى بِـهِ ابْـنُ عُبَيْـدٍ عَبْـدَ الله ذَا ... كَ ابْنُ الـخَلِيفَةِ طَارِدُ الشَّيْطَانِ

٢٣٢٩- فَـوَرِثْتُمُ عَمْـرًا كَـمَا وَرِثُـوا لِعَبْـ ... ـدِ الله أَنَّـى يَسْـتَوِي الإِرْثَـانِ؟

٢٣٣٠- تَدْرُونَ مَنْ أَوْلَى بِهَذَا الإِسْـمِ وَهْـ ... ـوَ مُنَاسِـبٌ أَحْوَالَـهُ بِـوِزَانِ؟

٢٣٣١- مَنْ قَدْ حَشَا الأَوْرَاقَ وَالأَذْهَانَ مِـنْ ... بِـدَعٍ تُخَـالِفُ مُوجَـبَ الْقُـرْآنِ

٢٣٣٢- هَذَا هُوَ الحَشْـوِيُّ لا أَهْـلُ الحَدِيـ ... ـثِ أَئِمَّـةُ الإِسْـلامِ وَالإِيـمَانِ

٢٣٣٣- وَرَدُوا عِذَابَ مَنَاهِلِ السُّـنَنِ الَّتِـي ... لَيْسَـتْ زُبَالَـةَ هَـذِهِ الأَذْهَـانِ

٢٣٣٤- وَوَرَدْتُمُ الْقَلُّوطَ مَجْرَى كُلِّ ذِي الْـ ... أَوْسَـاخِ وَالأَقْـذَارِ وَالأَنْتَـانِ

٢٣٣٥- وَكَسِلْتُمُ أَنْ تَصْـعَدُوا لِلْـوِرْدِ مِـنْ ... رَأْسِ الشَّـرِيعَةِ خَيْبَـةَ الكَسْـلانِ

الشـــرحُ

ذكر المؤلفُ -رحمه الله- في هذا الفصل أنَّ أهلَ البدع لقَّبوا أهلَ الحديث -وهم السَّلفُ- بلقبٍ سيِّءٍ، حيث سمَّوْهم حَشْوِيَّةً، والحشو: معناه الشيءُ الزائدُ الذي لا خيرَ فيه، فهم يقولون: هؤلاء حَشْوِيَّةٌ، يعني أنهم من أطراف الناس، وليسوا من رؤسائهم، ولا من أهل العلم منهم، وإنَّما هم فَضْلَةٌ، فيقولُ -رحمه الله-: لننظرْ مَن هو أَوْلَى باللَّقَب منَّا أو منكم؟ فيقول -رحمه الله-:

٢٣١٤- وَمِنَ الْعَجَائِبِ قَوْلُـهُمْ لِـمَنِ اقْتَدَى ... بِـالْوَحْيِ مِـنْ أَثَـرٍ وَمِـنْ قُـرْآنِ:

٢٣١٥- حَشْوِيَّةٌ، يَعْنُونَ حَشْوًا فِي الْوُجُو دِ وَفَضْلَةً فِي أُمَّةِ الإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «حَشْوِيّة» يعني: هم حَشْوِيَّةٌ.

إِذَنْ أهلُ الحديث عندهم جُهَّالٌ، من أطراف الناس، لا يُؤبَهُ لهم، ولا يُرَدُّ لقولهم، ومع هذا يقول:

٢٣١٦- وَيَظُنُّ جَاهِلُهُمْ بِأَنَّهُمْ حَشَوْا رَبَّ الْعِبَادِ بِدَاخِلِ الأَكْوَانِ

يظنُّ بعضُ مَن يسمعُ تلقيبَ هؤلاء لأهل السُّنَّة بأنَّهم حَشْوِيَّةٌ بأنَّهم يُريدون أنهم حَشَوُا الإلهَ في السَّماء بداخل الأكوان، يعني: جعلوا السَّماءَ حَشْوًا له، أي: محيطةً به.

٢٣١٧- إِذْ قَوْلُهُمْ: فَوْقَ الْعِبَادِ وَفِي السَّمَا ءِ الرَّبُّ ذُو الْمَلَكُوتِ وَالسُّلْطَانِ

أهلُ الحديث يقولون: إنَّ اللهَ في السَّماء، فظنَّ هؤلاء الجُهَّالُ أنَّ المتكلِّمين الذي سَمَّوْا أهلَ السُّنَّةِ حَشْوِيَّةً أنَّهم سَمَّوْهم حَشْوِيَّةً لأنهم قالوا: إنَّ اللهَ حَشْوٌ في السَّماء، يعني أنَّ السَّماءَ تُحيطُ به.

٢٣١٨- ظَنَّ الحَمِيرُ بِأَنَّ «فِي» لِلظَّرْفِ، وَالرْ رَحْمَنُ مَحْوِيٌّ بِظَرْفِ مَكَانِ

قَوْلُهُ: «ظَنَّ الْحَمِيرُ بِأَنَّ «فِي» لِلظَّرْفِ» وصفهم بأنَّهم حميرٌ، ولا غرابةَ أن يُوصَفَ مَن لم يفهم النصَّ بأنه حمارٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ﴾ [الجمعة:٥] وقال النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام-: «مَنْ تَكَلَّمَ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَالإِمامُ يَخْطُبُ فَهُوَ كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا»[1].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٤٥٨، رقم ٥٣٠٥)، وأحمد (١/ ٢٣٠، رقم ٢٠٣٣)، والطبراني (١٢/ ٩٠، رقم ١٢٥٦٣)، وشطره الأخير لفظه: «والذي يقول له أنصت لا جمعة له».

فلا غَرابةَ أن يُسَمِّيَ ابنُ القيِّم -رحمه الله- هؤلاء حميرًا؛ لأنهم لم يفهموا قولَ الله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] لم يفهموه على حقيقتِه، بل حرَّفوه، ثُمَّ أنكروا أن يكونَ اللهُ في السَّماء.

فصار هؤلاء الذين لَقَّبوا أهلَ الحديثِ بالحَشْوِيَّة لهم طريقان:

الطريق الأول: أنَّهم فَضْلَةٌ من حَشْوِ الناس، وليسوا من اللُّبِّ، وليسوا من الأصل.

الطريق الثاني: أنَّهم حَشْوِيَّةٌ؛ لأنهم حَشَوُا اللهَ في السَّماء، يعني: جعلوا السَّماءَ محيطةً بالله عزَّ وجلَّ.

٢٣١٩- وَالله لَـمْ يُسْـمَعْ بِـذَا مِـنْ فِرْقَـةٍ ... قَالَتْـهُ فِي زَمَـنٍ مِـنَ الأَزْمَـانِ

يعني: ما سمِعنا أبدًا أنَّ فِرقةً من أهل الحديث قالوا بأنَّ السَّماءَ تحيطُ بالله.

٢٣٢٠- لا تَبْهَتُوا أَهْـلَ الـحَدِيثِ بِـهِ فَـمَا ... ذَا قَوْلَـهُـمْ تَبًّـا لِـذِي الْبُهْتَـانِ

هل أهلُ الحديث يقولون: إنَّ اللهَ في السَّماء أي: في جوف السَّماء؟ الجواب: أبدًا، بل يقولون: إنَّ اللهَ في السَّماءِ يعني: في العلوِّ، أو إنَّ اللهَ في السَّماء يعني: على السَّماء، ولم يقل أحدٌ منهم: إنَّ اللهَ في السَّماءِ أي: تُحيط به كما تُحيط الحجرةُ بمن فيها.

أنت لو قلت: إن فلانًا في الحجرة عرفنا أنه حشوُها، وأنه داخلها، وأنها محيطةٌ به، لكن ليس هذا كما إذا قلت: (**إنَّ اللهَ فِي السَّماء**) فبينهما فرقٌ عظيمٌ.

و(في) يختلف معناها باختلاف متعلَّقِها، فأنت تقول مثلًا: (**الماء فِي الكأس**)، (**الرجل فِي الحجرة**)، هذا واضح، أنَّ الماءَ كان حَشْوًا في الكأس، والرجلَ كان حشوًا في الحجرة.

أمَّا لو قلتَ: (الوجه فِي المرآة) فيختلف هذا عن هذا، (الكتابة فِي الورق) تختلف، (الروح فِي الجسد) تختلف، فتختلف معاني مدخول (في) باختلاف المتعلَّق، أي: ما تعلَّقت به.

٢٣٢١- بَلْ قَوْلُـهُمْ: إِنَّ السَّمَوَاتِ الْعُلَى فِي كَفِّ خَالِقِ هَذِهِ الأَكْوَانِ

٢٣٢٢- حَقًّا كَخَرْدَلَةٍ تُرَى فِي كَفِّ مُمْـ ـسِكِهَا تَعَالَى اللهُ ذُو السُّلْطَانِ

قَوْلُهُ: «**بَلْ قَوْلُـهُمْ**» أي: قول أهل الحديث.

السموات السبع والأَرَضُون كُلُّها في كَفِّ الله -سبحانه وتعالى- مثل الخَرْدَلَة في كَفِّ أحدنا، وهذا أيضًا على سبيل التقريب، وإلَّا فالأمرُ أعظمُ من هذا.

الخردلةُ حَبَّةٌ صغيرةٌ جدًّا يُضْرَبُ بها المَثَلُ في الصِّغر، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الانبياء:٤٧] ومع ذلك هي في كَفِّ الرحمن كخردلة، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ أي: كُلُّها ﴿مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر:٦٧]، وقال تعالى: ﴿نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤] مثلما يطوي صاحبُ السجل الكتابَ إذا أنهاه، وكان في الزمن الماضي ليس عندهم ظروفٌ، إذا انتهَوْا من الكتاب طَوَوْه بقدر ما يمكنُ من الطيِّ ثم أغلقوه.

فهل يُعقلُ أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ يقولون: إنَّ السَّماءَ تُحيطُ بالله، وإنَّ اللهَ حَشْوُها؟ الجواب: أبدًا، ولا قاله أحدٌ، لكن هؤلاء يبهتون أهلَ السُّنَّة.

٢٣٢٣- أَتَرَوْنَهُ الْـمَحْصُورَ بَعْدُ أَمِ السَّمَا؟ يَا قَوْمَنَا ارْتَدِعُوا عَنِ الْعُدْوَانِ

أيُّها المحصورُ؟ الجواب: السَّماء، فالسَّماءُ يُحيط اللهُ بها من كل جانب، والأرضُ كذلك، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء:١٢٦].

٢٣٢٤- كَمْ ذَا مُشَبِّهَةٌ وَكَمْ حَشْوِيَّةٌ فَالْبُهْتُ لا يَخْفَى عَلَى الرَّحْمَنِ

يعني: كم من مرة تقولون عن أهل الحديث: إنَّهم مُشَبِّهَةٌ، وتقولون: إنَّهم حَشْوِيَّةٌ، مُجَسِّمَةٌ، نوابتُ، غُثاءٌ، وهلمَّ جرًّا من ألقاب السوء، وكُلُّها لا تخفى على الله عزَّ وجلَّ.

٢٣٢٥- يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ الْكِتَابُ وَسُنَّةُ الْـ ـمُخْتَارِ حَشْوًا فَاشْهَدُوا بِبَيَانِ

٢٣٢٦- أَنَّا بِحَمْدِ إِلَهِنَا حَشْوِيَّةٌ صِرْفٌ بِلَا جَحْدٍ وَلا كِتْمَانِ

يقول: إن كان ما دَلَّ عليه الكتابُ والسُّنَّةُ حَشْوًا فنحن -بحمد الله- حَشْوِيَّةٌ، اشهدوا على ذلك أنَّنا حَشْوِيَّةٌ. قال الشَّافِعِيُّ -رحمه اللهُ-[1]:

إِنْ كَانَ رَفْضًا حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ فَلْيَشْهَدِ الثَّقَلَانِ أَنِّي رَافِضِي

المهم أنَّ ابنَ القيِّم -رحمه الله- يقولُ: إن كان حَشْوًا القولُ بما دَلَّ عليه الكتابُ والسُّنَّة فإنَّنا بحمد الله حَشْوِيَّةٌ.

٢٣٢٧- تَدْرُونَ مَنْ سَمَّتْ شُيُوخُكُمُ بِهِـ ذَا الإِسْمِ فِي المَاضِي مِنَ الأَزْمَانِ

٢٣٢٨- سَمَّى بِهِ ابْنُ عُبَيْدٍ عَبْدَ الله ذَا كَ ابْنُ الـخَلِيفَةِ طَارِدُ الشَّيْطَانِ

قَوْلُهُ: «ابنُ عُبَيْد» هو عمرو بن عبيد إمامُ أهلِ الاعتزال.

(١) انظر: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، لابن عساكر (ص:٣٦٣).

قَوْلُهُ: «سَمَّى به» أي: سمَّى عبدَ الله بنَ الخليفة، أيُّ خليفة؟ قال: (طارِدُ الشيطان) وهو عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، يعني أنَّ عمرَو بنَ عُبيدٍ سَمَّى عبدَ الله بنَ عمر حَشْوًا.

فإذن هذا اللَّقبُ من هؤلاء المتكلِّمين المعطِّلة كان قديمًا من عهد الصحابة.

٢٣٢٩- فَـوَرِثْتُمُ عَمْـرًا كَـمَا وَرِثُـوا لِعَبْـ ـدِ الله أَنَّـى يَسْـتَوِي الإِرْثَـانِ؟

قَوْلُهُ: «فَوَرِثْتُمُ عَمْرًا» فقلتم: إنَّ أهلَ الحديث حَشْوِيَّةٌ (كَمَا وَرِثُوا لِعَبْدِ الله) ورثوا لعبد الله فالتزموا بالكتاب والسُّنَّة.

قَوْلُهُ: «أَنَّى يَسْتَوِي الإِرْثَانِ؟» الاستفهامُ هنا للنفي والإنكار، لا يستوي الإرثان، فلا يستوي مَن وَرِثَ عبدَ الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ومَنْ وَرِثَ عمرو بن عُبيد المعتزلِـيَّ.

٢٣٣٠- تَدْرُونَ مَنْ أَوْلَى بِهَذَا الإِسْـمِ وَهْـ ـوَ مُنَاسِـبٌ أَحْوَالَـهُ بِـوِزَانِ؟

قَوْلُهُ: «تَدْرُونَ مَنْ أَوْلَى بِهَذَا الإِسْمِ» يقول: الأَوْلَى به هو (مَن قد حشا الأوراق والأذهان من بِدَعٍ....)؛ ولذا قال:

٢٣٣١- مَنْ قَدْ حَشَا الأَوْرَاقَ وَالأَذْهَانَ مِـنْ بِـدَعٍ تُخَـالِفُ مُوجَـبَ الْقُـرْآنِ

صحيح، والله هذا هو الحَشْوِيُّ، حشوِيُّ الأوراق والأذهان من البدع والكلام الفارغ، تقرأ كلامًا طويلًا ولا تحصل على فائدة، هؤلاء هم الحَشْوِيَّة حقًّا؛ ولذا قال:

٢٣٣٢- هَذَا هُوَ الحَشْـوِيُّ لا أَهْـلُ الحَدِيـ ـثِ أَئِمَّـةُ الإِسْـلامِ وَالإِيـمَانِ

٢٣٣٣- وَرَدُوا عِذَابَ مَنَاهِلِ السُّـنَنِ الَّتِي لَيْسَـتْ زُبَالَـةَ هَـذِهِ الأَذْهَـانِ

قَوْلُهُ: «وَرَدُوا عِذَابَ مَنَاهِلِ السُّنَنِ» ونِعْمَ المورد، مناهل السُّنن، وليست زبالة هذه الأذهان، أمَّا المعطِّلة وأهل الكلام فقال عنهم:

٢٣٣٤- وَوَرَدْتُمُ الْقَلُّوطَ مَجْرَى كُلِّ ذِي الْـ أَوْسَـاخِ وَالأَقْـذَارِ وَالأَنْتَـانِ

القَلُّوط سبق الكلامُ عليه، وهو المجاري، مجاري في الشام معروفةٌ تُسَمَّى القَلُّوط، كُلُّ الأوساخ من الأبوال والعَذِرَات كُلُّها تدبُّ فيه وتمشى.

فإِذَنْ أهلُ السُّنَّة وردوا المناهلَ العذبةَ: كتابَ الله وسُنَّةَ رسولِه ﷺ، أمَّا هؤلاء فوردوا القَلُّوط مجرى كُلِّ ذي الأوساخ والأقذار والأنتان.

٢٣٣٥- وَكَسِلْتُمُ أَنْ تَصْعَدُوا لِلْوِرْدِ مِنْ رَأْسِ الشَّـرِيعَةِ خَيْبَـةَ الكَسْـلانِ

قَوْلُهُ: «خَيْبَةَ الكَسْلانِ» يعني: يا خيبةَ الكسلان.

وصدق -رحمه الله-، هذا هو الواقع، فإذن مَنْ أَحَقُّ بالوصف؟ هم أحقُّ بلا شكٍّ، حَشَوُا الأوراقَ والأذهانَ من الكلام الفارغ، أمَّا نحن -والحمد لله- فلم نقل إلَّا بما دَلَّ عليه كتابُ الله وسُنَّةُ رسولِه ﷺ.

* * *

فصل

فِي بَيَانِ عُدْوَانِهِمْ فِي تَلْقِيبِ أَهْلِ القُرْآنِ وَالحَدِيثِ بِالمُجَسِّمَةِ، وَبَيَانِ أَنَّهُمْ أَوْلَى بِكُلِّ لَقَبٍ خَبِيثٍ

٢٣٣٦- كَمْ ذَا مُشَبِّهَةٌ مُجَسِّمَةٌ نَوَا ... بِتَةٌ مَسَبَّةَ جَاهِلٍ فَتَّانِ

٢٣٣٧- أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمْ بِهَا أَهْلَ الحَدِيـ ... ـثِ وَنَاصِرِي الْقُرْآنِ وَالإِيمَانِ

٢٣٣٨- سَمَّيْتُمُوهُمْ أَنْتُمُ وَشُيُوخُكُمْ ... بُهْتًا بِهَا مِنْ غَيْرِ مَا سُلْطَانِ

٢٣٣٩- وَجَعَلْتُمُوهَا سُبَّةً لِتُنَفِّرُوا ... عَنْهُمْ كَفِعْلِ السَّاحِرِ الشَّيْطَانِ

٢٣٤٠- مَا ذَنْبُهُمْ وَاللهِ إِلَّا أَنَّهُمْ ... أَخَذُوا بِوَحْيِ اللهِ وَالْفُرْقَانِ

٢٣٤١- وَأَبَوْا بِأَنْ يَتَحَيَّزُوا لِمَقَالَةٍ ... غَيْرِ الحَدِيثِ وَمُقْتَضَى القُرْآنِ

٢٣٤٢- وَأَبَوْا يَدِينُوا بِالَّذِي دِنْتُمْ بِهِ ... مِنْ هَذِهِ الآرَاءِ وَالهَذَيَانِ

٢٣٤٣- وَصَفُوهُ بِالأَوْصَافِ فِي النَّصَّيْنِ مِنْ ... خَبَرٍ صَحِيحٍ ثُمَّ مِنْ قُرْآنِ

٢٣٤٤- إِنْ كَانَ ذَا التَّجْسِيمَ عِنْدَكُمُ فَيَا ... أَهْلًا بِهِ مَا فِيهِ مِنْ نُكْرَانِ

٢٣٤٥- إِنَّا مُجَسِّمَةٌ بِحَمْدِ اللهِ لَمْ ... نَجْحَدْ صِفَاتِ الخَالِقِ الرَّحْمَنِ

٢٣٤٦- وَاللهِ مَا قَالَ امْرُؤٌ مِنَّا بِأَنْ ... نَ اللهَ جِسْمٌ يَا أُولِي الْبُهْتَانِ

٢٣٤٧- وَاللهُ يَعْلَمُ أَنَّنَا فِي وَصْفِهِ ... لَمْ نَعْدُ مَا قَدْ قَالَ فِي القُرْآنِ

٢٣٤٨- أَوْ قَالَهُ أَيْضًا رَسُولُ اللهِ فَهْـ ... ـوَ الصَّادِقُ الـمَصْدُوقُ بِالْبُرْهَانِ

٢٣٤٩- أَوْ قَالَهُ أَصْحَابُهُ مِنْ بَعْدِهِ ... فَهُمُ النُّجُومُ مَطَالِعُ الإِيمَانِ

٢٣٥٠- سَمَّوْهُ تَجْسِيمًا وَتَشْبِيهًا فَلَسْـ ... ـنَا جَاحِدِيهِ لِذَلِكَ الـهَذَيَانِ

٢٣٥١- بَلْ بَيْنَنَا فَرْقٌ لَطِيفٌ بَلْ هُوَ الْـ ... ـفَرْقُ الْعَظِيمُ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ

٢٣٥٢- إِنَّ الـحَقِيقَةَ عِنْدَنَا مَقْصُودَةٌ ... بِالنَّصِّ وَهْيَ مُرَادَةُ التِّبْيَانِ

٢٣٥٣- لَكِنْ لَدَيْكُمْ فَهْيَ غَيْرُ مُرَادَةٍ ... أَنَّى يُرَادُ مُحَقَّقُ الـبُطْلَانِ؟!

٢٣٥٤- فَكَلَامُهُ فِيمَا لَدَيْكُمْ لَا حَقِيـ ... ـقَةَ تَحْتَهُ تَبْدُو إِلَى الأَذْهَانِ

٢٣٥٥- فِي ذِكْرِ آيَاتِ الْعُلُوِّ وَسَائِرِ الْـ ... أَوْصَافِ وَهْيَ الْقَلْبُ لِلْقُرْآنِ

٢٣٥٦- بَلْ قَوْلُ رَبِّ النَّاسِ لَيْسَ حَقِيقَةً ... فِيمَا لَدَيْكُمْ يَا أُولِي الْعِرْفَانِ

٢٣٥٧- وَإِذَا جَعَلْتُمْ ذَا مَجَازًا صَحَّ أَنْ ... يُنْفَى عَلَى الإِطْلَاقِ وَالإِمْكَانِ

٢٣٥٨- وَحَقَائِقُ الأَلْفَاظِ بِالْعَقْلِ انْتَفَتْ ... فِيمَا زَعَمْتُمْ فَاسْتَوَى النَّفْيَانِ:

٢٣٥٩- نَفْيُ الـحَقِيقَةِ، وَانْتِفَاءُ اللَّفْظِ إِنْ ... دَلَّتْ عَلَيْهِ فَحَظُّكُمْ نَفْيَانِ

٢٣٦٠- وَنَصِيبُنَا إِثْبَاتُ ذَاكَ جَمِيعِهِ ... لَفْظًا وَمَعْنًى ذَاكَ إِثْبَاتَانِ

٢٣٦١- فَمَنِ الْمُعَطِّلُ فِي الحَقِيقَةِ غَيْرُكُمْ؟! ... لَقَبٌ بِلَا كَذِبٍ وَلَا عُدْوَانِ

٢٣٦٢- وَإِذَا سَبَبْتُمْ بِالـمُحَالِ فَسَبُّنَا ... بِأَدِلَّةٍ وَحِجَاجِ ذِي بُرْهَانِ

٢٣٦٣- تُبْدِي فَضَائِحَكُمْ وَتَهْتِكُ سِتْرَكُمْ ... وَتُبِينُ جَهْلَكُمُ مَعَ العُدْوَانِ

٢٣٦٤- يَا بُعْدَ مَا بَيْنَ السِّبَابِ بِذَاكُمُ ... وَسِبَابِكُمْ بِالْكِذْبِ وَالطُّغْيَانِ

٢٣٦٥- مَنْ سَبَّ بِالبُرْهَانِ لَيْسَ بِظَالِمٍ ... وَالظُّلْمُ سَبُّ العَبْدِ بِالبُهْتَانِ

٢٣٦٦- فَحَقِيقَةُ التَّجْسِيمِ إِنْ يَكُ عِنْدَكُمْ ... وَصْفُ الإِلَهِ الخَالِقِ الدَّيَّانِ

٢٣٦٧- بِصِفَاتِهِ العُلْيَا الَّتِي شَهِدَتْ بِهَا ... آيَاتُهُ وَرَسُولُهُ الْعَدْلانِ

٢٣٦٨- فَتَحَمَّلُوا عَنَّا الشَّهَادَةَ وَاشْهَدُوا ... فِي كُلِّ مُجْتَمَعٍ وَكُلِّ مَكَانِ

٢٣٦٩- أَنَّا مُجَسِّمَةٌ بِفَضْلِ اللهِ وَلْـ ... ـيَشْهَدْ بِذَلِكَ مَعْكُمُ الثَّقَلانِ

٢٣٧٠- اللهُ أَكْبَرُ كَشَّرَتْ عَنْ نَابِهَا الْـ ... ـحَرْبُ الْعَوَانُ وَصِيحَ بِالأَقْرَانِ

٢٣٧١- وَتَقَابَلَ الصَّفَّانِ وَانْقَسَمَ الْوَرَى ... قِسْمَيْنِ وَاتَّضَحَتْ لَنَا الْقِسْمَانِ

الشرحُ

٢٣٣٦- كَمْ ذَا مُشَبِّهَةٌ مُجَسِّمَةٌ نَوَا ... بِتَةٌ مَسَبَّةَ جَاهِلٍ فَتَّانِ

قَوْلُهُ: «كَمْ ذَا مُشَبِّهَةٌ مُجَسِّمَةٌ» يعني: كم ذا يقولون لأهل السُّنَّة والجماعة: إنَّهم مُشَبِّهَةٌ ومُجَسِّمَةٌ.

قَوْلُهُ: «وَنَوَابِت» النَّوابِتُ: قال العلماء: إنها هي الزرع الذي يَنْبُتُ في وسط الزرع المقصود، وهو الزرعُ الذي لا قيمةَ له، والذي يضرُّ الزرعَ المقصودَ، وليس فيه فائدةٌ.

قَوْلُهُ: «مَسَبَّةَ جَاهِلٍ فَتَّانِ» المسبَّة يعني: القدح والعيب.

٢٣٣٧- أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمْ بِهَا أَهْلَ الحَدِيـ ـثِ وَنَاصِرِي الْقُرْآنِ وَالإِيمَانِ

حيث ذكر أنَّهم سمَّوهم مُشَبِّهَةً، مُجَسِّمَةً، نوابتَ.

٢٣٣٨- سَمَّيْتُمُوهُمْ أَنْتُمْ وَشُيُوخُكُمْ بُهْتًا بِهَا مِنْ غَيْرِ مَا سُلْطَانِ

يعني: أنكم سَمَّيتم أهلَ السُّنَّة بهذه الألقابِ كذِبًا وبهتانًا عليهم.

٢٣٣٩- وَجَعَلْتُمُوهَا سُبَّةً لِتُنَفِّرُوا عَنْهُمْ كَفِعْلِ السَّاحِرِ الشَّيْطَانِ

أي: وصفتموهم بهذه الأوصاف المنفِّرَةِ مِن أَجْلِ أن ينفرَ الناسُ عنهم.

قَوْلُهُ: «كفِعْلِ الساحِرِ» أي: الذي يَسْحَرُ الناسَ فيصرفهم؛ لأنَّ السحرَ أنواعٌ، منه الصَّرف، ومنه العطف، الصَّرف: أن يَصْرِفَ الشَّخصَ عمَّن يحبُّه كما قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة:١٠٢] والمحبَّةُ من أشدِّ العلاقات بين الزوجين كما قال تعالى: ﴿لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١]، فهم يأتون بهذه الكلمات لتنفِّرَ الناسَ عن أهل السُّنَّة والجماعة ويُبغضوهم.

٢٣٤٠- مَا ذَنْبُهُمْ وَاللهِ إِلَّا أَنَّهُمْ أَخَذُوا بِوَحْيِ اللهِ وَالْفُرْقَانِ

ما ذنبُهم إِلَّا أنَّهم أخذوا بوحي الله والقرآن، وهذا ذمٌّ أو مدحٌ؟ الجواب: هذا مدحٌ، ومثل هذه الصيغة تُسَمَّى عند أهل البلاغة: تأكيدُ المدحِ بما يُشْبِهُ الذمَّ؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج:٨] وكقول الشاعر[1]:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

(١) البيت للنابغة، كما في الكامل للمبرد (١/ ٤٦).

وهذا مدحٌ للشجاعة والإقدام.

وقولُ ابنِ القيِّم هذا كفعل مَن سبقهم، قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج:٨].

٢٣٤١- وَأَبَـوْا بِـأَنْ يَتَحَيَّـزُوا لِـمَقَالَةٍ ... غَيْرِ الحَدِيثِ وَمُقْتَضَـى القُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «أبوا» أي: أهلُ السُّنَّة، فأبوا أن يتحيَّزوا لكُلِّ مقالةٍ إلَّا ما جاء به الحديثُ ومقتضى القرآن.

٢٣٤٢- وَأَبَـوْا يَـدِينُوا بِالَّـذِي دِنْـتُمْ بِـهِ ... مِـنْ هَـذِهِ الآرَاءِ وَالـهَذَيَانِ

قَوْلُهُ: «أَبَوْا يَدِينُوا» يدينوا: منصوبة بـ(أن) محذوفةً مِن أَجْلِ الرَّوِيِّ، والأصل: وأَبَوْا أَنْ يدينوا بالذي دنتم به من هذه الآراءِ والهذيان.

٢٣٤٣- وَصَفُوهُ بِالأَوْصَافِ فِي النَّصَّيْنِ مِنْ ... خَـبَرٍ صَـحِيحٍ ثُـمَّ مِـنْ قُـرْآنِ

يعني أنَّ أهلَ الحديث وصفوا اللهَ عزَّ وجلَّ بالأوصاف الواردة في النَّصَّيْن من الأخبار الصحيحة والقرآن الكريم.

٢٣٤٤- إِنْ كَـانَ ذَا التَّجْسِـيمَ عِنْـدَكُمُ فَيَـا ... أَهْـلًا بِـهِ مَـا فِيـهِ مِـنْ نُكْـرَانِ

قَوْلُهُ: «إِنْ كان ذا» الإشارةُ تعودُ إلى وصفِ الله تعالى بما جاء في القرآن والسُّنَّة.

إن كان هذا هو التجسيمَ فيا أهلًا به ما فيه من نُكران، بل إنَّ الواجبَ قَبُولُه وعدمُ إنكاره.

٢٣٤٥- إِنَّـا مُجَسِّـمَةٌ بِحَمْـدِ الله لَـمْ ... نَجْحَدْ صِفَاتِ الـخَالِقِ الـرَّحْمَنِ

يقول: إِنَّا مُجَسِّمَةٌ على حدِّ قولِ هؤلاء، فإذا كانوا يقولون: كُلُّ مَنْ أثبتَ لله

صفةً فهو مُجَسِّمٌ، فنقول: نحن مُجَسِّمَةٌ.

٢٣٤٦- وَاللهِ مَـا قَـالَ امْـرُؤٌ مِنَّـا بِـأَنْ ... نَ اللهَ جِسْـمٌ يَـا أُولِـي الْبُهْتَـانِ

كيف يقولُ: إنَّا مُجَسِّمَةٌ، ثُمَّ يقولُ: واللهِ ما قال امرؤٌ منَّا بأنَّ اللهَ جسمٌ؟ يقول: قال بأنَّا مُجَسِّمَةٌ على حدِّ تعبيرهم، حيثَ قالوا: كُلُّ مَنْ أثبت لله صفةً فهو مُجَسِّمٌ، فنحن نُثبتُ لله كُلَّ صفةٍ وصفَ اللهُ بها نفسَه، ونحن -على قاعدتهم- مُجَسِّمَةٌ، أما أنَّنا قلنا بأنَّ اللهَ جسمٌ فما من أحدٍ من أهل السُّنَّة قال: إنَّ اللهَ جسمٌ أبدًا، ولا قال: إنَّ اللهَ ليس بجسم أيضًا، بل هم يتوقَّفون في هذا اللفظ.

فلو قال لهم قائل: أتقولون: إنَّ اللهَ جسمٌ؟ قالوا: لا نقولُ، أتقولُون: إنَّ اللهَ ليس بجسمٍ؟ قالوا: لا نقولُ؛ لأنَّ اللهَ ما قال عن نفسه: إنه جسمٌ، ولا قال عن نفسه: إنه ليس بجسمٍ، لكنَّنا نقولُ إنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- بائِنٌ من خلقه، موصوفٌ بصفاتِه.

٢٣٤٧- وَاللهُ يَعْلَـمُ أَنَّنَـا فِي وَصْـفِهِ ... لَـمْ نَعْـدُ مَـا قَـدْ قَـالَ فِي القُـرْآنِ

٢٣٤٨- أَوْ قَالَـهُ أَيْضًـا رَسُـولُ اللهِ فَهْـ ... ـوَ الصَّادِقُ الـمَصْدُوقُ بِالْبُرْهَـانِ

يعني: لم نتجاوز ما قاله اللهُ في القرآن، أو قاله الرسولُ -عليه الصلاة والسلام-، (فهو الصادِقُ) فيما أَخْبَرَ به، (المصدوقُ) فيما أُخْبِرَ به، أمَّا الكُهَّان فكاذبون مَكْذُوبون، كاذبون فيما أَخْبروا به، مَكْذوبون فيما أُخْبِروا به، إن أخبرتهم الشَّياطينُ فبالكذب، فالرسولُ -عليه الصلاة والسلام- صادقٌ مصدوقٌ.

٢٣٤٩- أَوْ قَالَـهُ أَصْـحَابُهُ مِـنْ بَعْـدِهِ ... فَهُـمُ النُّجُـومُ مَطَـالِعُ الإِيـمَانِ

إِذَنْ عُمْدَتُنا فيما نُثْبِتُه لله: كلامُ الله، وكلامُ رسوله، وكلامُ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

٢٣٥٠- سَمَّوْهُ تَجْسِيمًا وَتَشْبِيهًا فَلَسْـ ـنَا جَاحِدِيهِ لِذَلِكَ الْهَذَيَانِ

قَوْلُهُ: «سمَّوه»: يخاطبُ هؤلاء المعتدين.

الحمدُ لله، هذا من تثبيت الله لنا، أنَّ هؤلاء الذين يرموننا بهذه الألقاب السِّيِّئة يُريدون منَّا أن نتحولَ عن رأينا، ولكنَّنا لن نتحولَ، ولن نخضعَ لهذا الهذيان.

٢٣٥١- بَلْ بَيْنَنَا فَرْقٌ لَطِيفٌ بَلْ هُوَ الْـ ـفَرْقُ الْعَظِيمُ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ

يعني: بيننا وبينكم (فرقٌ لطيف) لكنَّه عظيمٌ، ما هو؟ قال:

٢٣٥٢- إِنَّ الْحَقِيقَةَ عِنْدَنَا مَقْصُودَةٌ بِالنَّصِّ وَهْيَ مُرَادَةُ التِّبْيَانِ

نحن نقولُ: إنَّ الحقيقةَ مقصودةٌ بالنَّصِّ، ومرادةٌ بالنَّصِّ أيضًا، أمَّا أنتم فقال:

٢٣٥٣- لَكِنْ لَدَيْكُمْ فَهْيَ غَيْرُ مُرَادَةٍ أَنَّى يُرَادُ مُحَقَّقُ الْبُطْلانِ؟!

هذا الفرقُ لطيفٌ، لكنَّه عظيمٌ جدًّا، فمثلًا قولُه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢] عندنا مرادٌ بها حقيقتها، وهي مجيئُه حقًّا، وعندكم هذا غيرُ مرادٍ، ولا يمكنُ أن يُرادَ؛ لأنه عندكم محقَّقُ البطلان، وما كان محقَّقَ البطلان فإنه لا يمكنُ أن يُرادَ بكلام الله وكلام الرسول، فهذا هو الفرقُ بيننا وبينكم أنَّنا نُجري النصوصَ على حقيقتها وأنتم لا تُجرونها.

٢٣٥٤- فَكَلامُهُ فِيمَا لَدَيْكُمْ لا حَقِيـ ـقَةَ تَحْتَهُ تَبْدُو إِلَى الأَذْهَانِ

كلامُ الله عندكم ليس فيه حقيقةٌ تبدو لأحدٍ.

٢٣٥٥- فِي ذِكْرِ آيَاتِ الْعُلُوِّ وَسَائِرِ الْـ ... أَوْصَافِ وَهْيَ الْقَلْبُ لِلْقُرْآنِ

نسألُ اللهَ العافيةَ، يعني: هؤلاء عمدوا إلى قلب القرآن النابض كما يقولون، وهو ما تحدَّث اللهُ به عن نفسِه من العلوِّ وغيره من الصفات، وقالوا: إنَّ هذه لا يُرَادُ بها حقيقتُها، وليست حقيقةً، فكُلُّها مجازٌ؛ ولهذا سَمَّى ابنُ القيِّم -رحمه الله- المجازَ بالطاغوت؛ لأنَّهم طَغَوْا به، وتجاوزوا به الحدَّ، وسلَّطوه على آيات الصفات وأحاديثِها، وقالوا: إنَّه لا يُرادُ بها حقيقتُها لا في العلوِّ ولا في غيره.

٢٣٥٦- بَلْ قَوْلُ رَبِّ النَّاسِ لَيْسَ حَقِيقَةً ... فِيهَا لَدَيْكُمْ يَا أُولِي الْعِرْفَانِ

قَوْلُهُ: «قَوْلُ رَبِّ النَّاسِ» يعني القرآن.

قَوْلُهُ: «لَيْسَ حَقِيقَةً»؛ لأنَّ الجهميَّة يقولون: إنَّ القرآنَ مخلوقٌ بائِنٌ من الله، والأشاعرةُ يقولون: إنَّ القرآنَ مخلوقٌ، وكلامُ الله هو المعنى القائمُ بنفسه.

فالجميعُ اتَّفقوا على أنَّ ما بين دفتي القرآن مخلوقٌ، لكنَّ الجهميَّةَ قالوا: هو كلامُ الله، والأشاعرةُ قالوا: هو عبارةٌ عن كلامِ الله.

٢٣٥٧- وَإِذَا جَعَلْتُمْ ذَا مَجَازًا صَحَّ أَنْ ... يُنْفَى عَلَى الإِطْلَاقِ وَالإِمْكَانِ

إذا جعلتم هذا مجازًا فإنَّ من علاماتِ المجاز صحةَ نفيه، فالمجازُ له علاماتٌ كثيرةٌ، ومِن أبرزِها شيئان:

الأوَّل: تبادرُ غيره لولا القرينة، وهذه هي الحُجَّةُ التي يحتجُّ بها شيخُ الإسلام ويقولُ: لا مجازَ في اللغة؛ لأنه بالاتفاق أنَّ المجازَ لا بدَّ له مِن قَرِينةٍ، هذه القَرِينةُ تجعلُ الكلمةَ في هذا الموضع حقيقةً في مدلولها.

الثاني: صحةُ نفيه.

فإذا قلتَ: (**رأيتُ أسدًا**) ما الذي يتبادرُ إلى ذهنك؟ الجواب: الأسدُ الحقيقيُّ المفترسُ، فإذا قلت: (**رأيتُ أسدًا يحملُ كتابَه**)، أو (**يقرأُ كتابَه**) فالمرادُ بالأسد هنا الرجلُ الشجاعُ، وهذا بالقرينة.

هل يصحُّ أن أقولَ: (**هذا ليس بأسد؟**) نعم، يصحُّ أن ننفيَه، فالمجاز يصحُّ نفيُه؛ ولهذا -عندهم وعلى القاعدة المتفق عليها- يَصِحُّ أن يقولَ القائلُ: (**ما جاء ربُّك**)؛ لأنَّ ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢] عندهم مجازٌ عن مجيء أمرِه، وبناءً عليه يَصِحُّ أن أقولَ: (**ما جاء ربُّك**).

و﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] عندهم مجازٌ عن الاستيلاء، فيصحُّ -على زعمهم- أن يُنفَى، فيقال: (**إِنَّ اللهَ لم يَسْتَوِ على العرش**).

وهذا هو الذي جعل بعض العلماء يقولُ: إنَّ المجازَ موجودٌ في اللغة، ممنوعٌ في القرآن، قال: لأنَّ القرآنَ لا يمكنُ أن يصحَّ نفيُ شيءٍ منه أبدًا بخلاف اللغة، فكلامُ امرئ القيس وغيره من أئمة اللغة يصحُّ أن ننفيَه، لكن كلامُ الله لا يصحُّ.

على كُلِّ حالٍ يقولُ ابنُ القيِّم -رحمه الله-: «**وَإِذَا جَعَلْتُمْ ذَا مَجَازًا صَحَّ أَنْ يُنْفَى عَلَى الإِطْلَاقِ وَالإِمْكَانِ**» يعني: صَحَّ أن نقولَ: (**لم يستوِ على العرش**)، ليس له يدٌ، لا يجيءُ، لا يأتي، لا يعجبُ، وما أشبه ذلك.

٢٣٥٨- وَحَقَائِقُ الأَلْفَاظِ بِالْعَقْلِ انْتَفَتْ ... فِيمَا زَعَمْتُمْ فَاسْتَوَى النَّفْيَانِ:

قَوْلُهُ: «**وَحَقَائِقُ الأَلْفَاظِ بِالْعَقْلِ انْتَفَتْ**»؛ لأنهم يدَّعون أنَّ العقلَ ينفي حقائقَ اللفظ، كيف ذلك؟ هم يعتمدون في إثباتِ الصفات ونفيِها على العقل، فيقولون: انتفت حقيقةُ (**المجيء**) بدلالة العقل، انتفت حقيقةُ (**الاستواء**) بدلالة العقل، انتفت حقيقةُ (**اليد**) بدلالة العقل.

قَوْلُهُ: «بالعَقْلِ انْتَفَتْ»، (بالعقل): جارّ ومجرور متعلِّق بـ(انتفت)، يعني: انتفت بالعقل عندكم فيما زعمتم.

قَوْلُهُ: «فاسْتَوَى النَّفيانِ» ما النفيان؟ الجواب: نفيُ الحقيقة باعتبار الصفة، ونفيُ أن يكونَ القرآنُ كلامَ الله عزَّ وجلَّ.

٢٣٥٩- نَفْيُ الـحَقِيقَةِ، وَانْتِفَـاءُ اللَّفْـظِ إِنْ   دَلَّـتْ عَلَيْـهِ فَحَظُّكُـمْ نَفْيَـانِ

قَوْلُهُ: «نَفْيُ الحَقِيقَةِ» يعني أنَّهم يقولون: كُلُّ ما ورد من آياتِ الصفات مجازٌ لا حقيقةَ له.

قَوْلُهُ: «وَانْتِفَاءُ اللَّفْظِ» حيث قالوا: إنَّ القرآنَ ليس كلامَ الله.

فصار عندهم نفيان: النفيُ الأول: أنَّ القرآنَ ليس كلامَ الله، والنفيُ الثاني: أنَّ ما فيه من الصفات ليس حقيقةً.

٢٣٦٠- وَنَصِـيبُنَا إِثْبَـاتُ ذَاكَ جَمِيعِـهِ   لَفْظًـا وَمَعْنًـى ذَاكَ إِثْبَاتَـانِ

نصيبُنا نحن -والحمد لله- نُثبتُ اللفظَ والمعنى، ونقولُ: كُلُّه كلامُ الله.

٢٣٦١- فَمَنِ المُعَطِّلُ فِي الحَقِيقَةِ غَيْرُكُمْ؟!   لَقَـبٌ بِـلَا كَـذِبٍ وَلا عُـدْوَانِ

وصدق -رحمه الله- فهم المعطِّلةُ، لا نقولُ ذلك كذبًا ولا اعتداءً عليهم، وإنَّما نقولُ ذلك بدلالة حالهم التي تشهدُ لهم بذلك.

٢٣٦٢- وَإِذَا سَـبَبْتُمْ بِالمُحَـالِ فَسَـبُّنَا   بِأَدِلَّـةٍ وَحِجَـاجِ ذِي بُرْهَـانِ

قَوْلُهُ: «إِذَا سَبَبْتُمْ بِالمُحَالِ فَسَبُّنَا بِأَدِلَّةٍ» يعني: إذا سببتمونا بأنَّ هذا محالٌ وأنَّ إثباتَه تجسيمٌ فنحن نسبُّكم بأدلةٍ؛ لأنكم لم تثبتوا ما أثبتَ اللهُ لنفسِه، وفرقٌ بين الإثباتَيْن.

٢٣٦٣- تُبْدِي فَضَائِحَكُمْ وَتَهْتِكُ سِتْرَكُمْ وَتُبِينُ جَهْلَكُمُ مَعَ العُدْوَانِ

٢٣٦٤- يَا بُعْدَ مَا بَيْنَ السِّبَابِ بِذَاكُمُ وَسِبَابِكُمْ بِالْكِذْبِ وَالطُّغْيَانِ

٢٣٦٥- مَنْ سَبَّ بِالبُرْهَانِ لَيْسَ بِظَالِمٍ وَالظُّلْمُ سَبُّ العَبْدِ بِالبُهْتَانِ

هذا البيت الأخير ينبغي أن يكونَ قاعدةً، وهو مَن سَبَّ بالبرهان فليس بظالمٍ؛ لأنَّ لديه برهانًا، ولكنَّ الظلمَ سَبُّ العبد بالبُهتان.

وصدق -رحمه الله-، فمَن سَبَّ غيرَه بدليلٍ فليس بظالم، ومَن سَبَّ غيرَه بلا دليلٍ فهو ظالـمٌ.

٢٣٦٦- فَحَقِيقَةُ التَّجْسِيمِ إِنْ يَكُ عِنْدَكُمْ وَصْفُ الإِلَهِ الخَالِقِ الدَّيَّانِ

٢٣٦٧- بِصِفَاتِهِ العُلْيَا الَّتِي شَهِدَتْ بِهَا آيَاتُهُ وَرَسُولُهُ الْعَدْلانِ

قَوْلُهُ: «حقيقةُ التَّجْسِيم» إن كان هناك حقيقةٌ فهي وصفُ الإله الخالق الدَّيَّانِ، لكن بماذا؟ قال: (بِصِفَاتِهِ العُلْيَا الَّتِي شَهِدَتْ بِهَا آيَاتُهُ وَرَسُولُهُ الْعَدْلانِ).

فالتجسيمُ إِذَنْ عند هؤلاء هو وصفُ الإله بما جاء في الكتابِ والسُّنَّةِ، لكنَّهم يُلَبِّسون ويُقولون: مُجَسِّمَةٌ، وجَسَّموا اللهَ، وجعلوه جسمًا مِن أَجْلِ التنفير.

٢٣٦٨- فَتَحَمَّلُوا عَنَّا الشَّهَادَةَ وَاشْهَدُوا فِي كُلِّ مُجْتَمَعٍ وَكُلِّ مَكَانِ

٢٣٦٩- أَنَّا مُجَسِّمَةٌ بِفَضْلِ اللهِ وَلْـ ـيَشْهَدْ بِذَلِكَ مَعْكُمُ الثَّقَلانِ

قَوْلُهُ: «أَنَّا مُجَسِّمَةٌ» وذلك بناءً على كلامِهم، أَمَّا نحن فحقيقةُ الأمرِ أنه لم يقل أحدٌ من أهل السُّنَّةِ: إنَّ اللهَ جسمٌ أبدًا، لكن على زعمِهم أنَّ إثباتَ الصفاتِ تجسيمٌ، فنحن نُثبتُ الصفاتِ وليكن ذلك تجسيمًا.

٢٣٧٠- اللهُ أَكْبَرُ كَشَّرَتْ عَنْ نَابِهَا الْـ ... ـحَرْبُ الْعَوَانُ وَصِيحَ بِالأَقْرَانِ

قَوْلُهُ: «كَشَّرَتْ عَنْ نَابِهَا» يعني: أبانته، وفسرت عنه حتى بان.

قَوْلُهُ: «الْـحَرْبُ العَوَانُ» أي: الشديدة المستمرة بيننا وبينكم.

٢٣٧١- وَتَقَابَلَ الصَّفَّانِ وَانْقَسَمَ الْوَرَى ... قِسْمَيْنِ وَاتَّضَحَتْ لَنَا الْقِسْمَانِ

إِذَنْ فالانقسامُ واضحٌ، إثباتٌ ونفيٌ، ولا شيءَ أوضحُ من الفرق بين الإثبات والنفي، وأيضًا فرقٌ بَيِّنٌ بين رميٍ بِسَبٍّ ببرهان، ورمي بسبٍّ بعدوان، فهم رمَوْنا بالسَّبِّ بالعدوان، ونحن رميناهم بالسَّبِّ بالبرهان، وفرق بين هذا وهذا.

* * *

فصل

فِي بَيَانِ مَوْرِدِ أَهْلِ التَّعْطِيلِ، وأَنَّهُمْ تَعَوَّضُوا بِالقَلُّوطِ عَنْ مَوْرِدِ السَّلْسَبِيلِ

٢٣٧٢- يَا وَارِدَ الْقَلُّوطِ وَيْحَكَ لَوْ تَرَى ... مَاذَا عَلَى شَفَتَيْكَ وَالأَسْنَانِ؟

٢٣٧٣- أَوَمَا تَرَى آثَارَهَا فِي القَلْبِ وَالنْـ ... ـنِيَّاتِ وَالأَعْمَالِ وَالأَرْكَانِ؟

٢٣٧٤- لَوْ طَابَ مِنْكَ الوِرْدُ طَابَتْ كُلُّهَا ... أَنَّى تَطِيبُ مَوَارِدُ الأَنْتَانِ؟

٢٣٧٥- يَا وَارِدَ القَلُّوطِ طَهِّرْ فَاكَ مِنْ ... خَبَثٍ بِهِ وَاغْسِلْهُ مِنْ أَنْتَانِ

٢٣٧٦- ثُمَّ اشْتُمِ الحَشْوِيَّ حَشْوَ الدِّينِ وَالْـ ... ـقُرْآنِ وَالآثَارِ وَالإِيمَانِ

٢٣٧٧- أَهْلًا بِهِمْ حَشْوَ الهُدَى وَسِوَاهُمُ ... حَشْوُ الضَّلالِ فَمَا هُمَا سِيَّانِ

٢٣٧٨- أَهْلًا بِهِمْ حَشْوَ الْيَقِينِ وَغَيْرُهُمْ ... حَشْوُ الشُّكُوكِ فَمَا هُمَا صِنْوَانِ

٢٣٧٩- أَهْلًا بِهِمْ حَشْوَ المَسَاجِدِ وَالسِّوَى ... حَشْوُ الكَنِيفِ فَمَا هُمَا عِدْلانِ

٢٣٨٠- أَهْلًا بِهِمْ حَشْوَ الجِنَانِ وَغَيْرُهُمْ ... حَشْوُ الجَحِيمِ أَيَسْتَوِي الحَشْوَانِ؟!

٢٣٨١- يَا وَارِدَ القَلُّوطِ وَيْحَكَ لَوْ تَرَى الْـ ... ـحَشْوِيَّ وَارِدَ مَنْهَلَ الْفُرْقَانِ

٢٣٨٢- وَتَرَاهُ مِنْ رَأْسِ الشَّرِيعَةِ شَارِبًا ... مِنْ كَفِّ مَنْ قَدْ جَاءَ بِالْقُرْآنِ

٢٣٨٣- وَتَرَاهُ يَسْقِي النَّاسَ فَضْلَةَ كَأْسِهِ ... وَخِتَامُهَا مِسْكٌ عَلَى رَيْحَانِ

٢٣٨٤- لَعَذَرْتَهُ إِنْ بَالَ فِي القَلُّوطِ لَمْ ... يَشْرَبْ بِهِ مَعَ جُمْلَةِ الْعُمْيَانِ

٢٣٨٥- يَـا وَارِدَ القَلُّـوطِ لا تَكْسَـلْ فَـرَأْ ... سُ الـسَّمَاءِ فَاقْصِـدْهُ قَرِيـبٌ دَانِ

٢٣٨٦- هُـوَ مَنْهَـلٌ سَـهْلٌ قَرِيـبٌ وَاسِـعٌ ... كَـافٍ إِذَا نَزَلَـتْ بِـهِ الـثَّقَلانِ

٢٣٨٧- وَاللهِ لَيْسَ بِأَصْـعَبِ الـوِرْدَيْنِ بَـلْ ... هُـوَ أَسْـهَلُ الْـوِرْدَيْنِ لِلظَّمْـآنِ

الشـرحُ

في هذا الفصل بَيَّن -رحمه الله- موردَ أهل التعطيل، وأنهم تَعَوَّضُوا بالقَلُّوط عن السلسبيل، والقَلُّوط سبق أنه مجاري المياه والأنتان، والأبوال والعَذِرَة، وهو يجري في دِمَشق كالنهر.

٢٣٧٢- يَا وَارِدَ الْقَلُّـوطِ وَيْحَـكَ لَـوْ تَـرَى ... مَـاذَا عَـلَى شَـفَتَيْكَ وَالأَسْـنَانِ؟

قَوْلُهُ: «مَاذَا عَلَى شَفَتَيْكَ وَالأَسْنَانِ؟» لو رآه لرأى أنتانًا وأوساخًا؛ لأنه من العادة أنَّ الأنتانَ والأوساخَ تطفو على سطح الماء، فإذا شَرِبَ منه لصِقت بشفاهه.

٢٣٧٣- أَوَمَا تَرَى آثَارَهَا فِي القَلْـبِ وَالنْـ ... ـنِـيَّاتِ وَالأَعْـمَالِ وَالأَرْكَـانِ؟

وهذا صحيحٌ، فآثارُ البدع تظهرُ على القلب، وعلى النيات، يعني: الإرادات، وعلى الأعمال، والأركان يعني: الجوارح، فالبدعةُ لها آثارٌ سيِّئةٌ عظيمةٌ على القلب، واللسان، والجوارح، والأعمال، وآثارٌ سيِّئةٌ على المجتمع كُلِّه؛ لأنه ينقلبُ من اتِّباع الرسول ﷺ إلى الابتداع في دين الله.

٢٣٧٤- لَوْ طَابَ مِنْكَ الوِرْدُ طَابَـتْ كُلُّهَـا ... أَنَّـى تَطِيـبُ مَـوَارِدُ الأَنْتَـانِ؟

٢٣٧٥- يَـا وَارِدَ القَلُّـوطِ طَهِّـرْ فَـاكَ مِـنْ ... خَبَـثٍ بِـهِ وَاغْسِـلْهُ مِـنْ أَنْتَـانِ

قَوْلُهُ: «لَوْ طَابَ مِنْكَ الوِرْدُ طَابَتْ كُلُّهَا» يعني: الآثار التي هي على القلب

والنيات والأعمال والأركان لو طاب منك الوِرْدُ طابت كُلُّها.

قَوْلُهُ: «**أَنَّى تَطِيبُ مَوَارِدُ الأَنْتَانِ؟**» الاستفهام هنا للنفي، يعني: لا يمكنُ أن تطيبَ مواردُ الأنتان.

٢٣٧٦- ثُمَّ اشْتُمِ الحَشْوِيَّ حَشْوَ الدِّينِ وَالْـ ـــقُرْآنِ وَالآثَـارِ وَالإِيـمَانِ

قَوْلُهُ: «**ثُمَّ اشْتُمِ الحَشْوِيَّ...إلخ**»؛ لأنَّ هذا هو دأْبُه -والعياذ بالله- أن يشتُمَ أهلَ العلمِ والإيمان.

٢٣٧٧- أَهْلًا بِهِمْ حَشْوَ الـهُدَى وَسِـوَاهُمُ حَشْـوُ الضَّـلالِ فَـمَا هُمَـا سِـيَّانِ

قَوْلُهُ: «**أَهْلًا بِهِمْ حَشْوَ الـهُدَى**» ويجوز (حشوُ) بالضم، فعلى قراءة الضم يكون (حشو) خبرًا لمبتدأ محذوف، أي: هم حَشْوُ، وعلى الفتح يكونُ حالًا من الضمير في قوله: «**أَهْلًا بِهِمْ**» يعني: حالَ كَوْنِهم حَشْوَ الهدى.

٢٣٧٨- أَهْلًا بِهِمْ حَشْـوَ الْيَقِـينِ وَغَـيْرُهُمْ حَشْوُ الشُّـكُوكِ فَـمَا هُمَـا صِـنْوَانِ

فرقٌ بين مَن مَنَّ اللهُ عليه باليقين في قلبه والثبات ومَن مَنَّ اللهُ عليه بالشَّكِّ والحَيرة؛ ولهذا قال العلماءُ: أكثرُ الناس شكًّا وحيرةً عند الموت أهلُ الكلام، والعياذ بالله! ذكر ذلك شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّة في (الفتوى الحَمَوِيَّة).

وهذا صحيحٌ؛ ولهذا مَن وُفِّق منهم أَقَرَّ عند موته بأنه على دين العجائز اللائي لا يعرفن شيئًا؛ لأنَّ دينَ العجائز دينُ فِطرة، لم يعرفن ما قاله هؤلاء المتكلِّمون من الأخذ والجدل، لكن هؤلاء المتكلِّمون أخذوا يقولون، ولكنَّهم لم يستفيدوا من القول إلَّا أن جمعوا قيل وقالوا، وآلَ أمرُهُم إلى الحيرة والشَّكِّ، والعياذ بالله.

٢٣٧٩- أَهْلًا بِهِمْ حَشْوَ المَسَاجِدِ وَالسِّوَى   حَشْـوُ الكَنِيـفِ فَـمَا هُمَـا عِـدْلانِ

الذين يملئون المساجدَ والذين يملئون الكُنُفَ، واضحٌ أنَّ بينهما فرقًا.

٢٣٨٠- أَهْلًا بِهِمْ حَشْوَ الـجِنَانِ وَغَـيْرُهُمْ   حَشْوُ الجَحِيمِ أَيَسْتَوِي الحَشْـوَانِ؟!

قَوْلُهُ: «أَيَسْتَوِي الحَشْوَانِ؟!» لا والله، لا يستويان، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر:٢٠].

٢٣٨١- يَا وَارِدَ القَلُّوطِ وَيْحَكَ لَوْ تَرَى الْـ   ـحَشْوِيَّ وَارِدَ مَنْهَـلَ الْفُرْقَـانِ

٢٣٨٢- وَتَرَاهُ مِـنْ رَأْسِ الشَّـرِيعَةِ شَـارِبًا   مِـنْ كَـفِّ مَـنْ قَـدْ جَـاءَ بِـالْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «شَارِبًا مِنْ كَفِّ مَنْ قَدْ جَاءَ بِالْقُرْآنِ» يعني: من كفِّ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم-.

٢٣٨٣- وَتَرَاهُ يَسْقِي النَّاسَ فَضْـلَةَ كَأْسِـهِ   وَخِتَامُهَـا مِسْـكٌ عَـلَى رَيْحَـانِ

قَوْلُهُ: «وَتَرَاهُ يَسْقِي النَّاسَ فَضْلَةَ كَأْسِهِ» يعني: يَفيضُ عِلمُه على الناس.

قَوْلُهُ: «وَخِتَامُهَا مِسْكٌ عَلَى رَيْحَانِ» ونِعْمَ الختام.

٢٣٨٤- لَعَذَرْتَـهُ إِنْ بَـالَ فِي القَلُّـوطِ لَـمْ   يَشْـرَبْ بِـهِ مَـعَ جُمْلَـةِ الْعُمْيَـانِ

قَوْلُهُ: «لَعَذَرْتَهُ» هذا جوابُ (لو) في قوله: (لو ترى الحَشْوِيَّ وارِدَ مَنْهَلَ القرآنِ)، الجواب: (لعذرتَه إنْ بال في القَلُّوط).

فَفَرْقٌ بين الحَشْوِيِّ الذي يشربُ من هذا الموردِ العذبِ من يدِ النَّبِيِّ ﷺ، ويأتي إلى القَلُّوط فيبول فيه، وبين الإنسان الذي يشربُ من القَلُّوط، فبينهما فرقٌ عظيمٌ.

٢٣٨٥- يَـا وَارِدَ القَلُّـوطِ لا تَكْسَـلْ فَـرَأْ ... سُ الـمَاءِ فَاقْصِـدْهُ قَرِيـبٌ دَانِ

يعني أنَّ رأسَ الماءِ قريبٌ دانٍ، وهوَ الكتابُ والسُّنَّةُ، فهو أقربُ من كتب هؤلاء المتبوعين.

٢٣٨٦- هُـوَ مَنْهَـلٌ سَـهْلٌ قَرِيـبٌ وَاسِـعٌ ... كَـافٍ إِذَا نَزَلَـتْ بِـهِ الـثَّقَلانِ

٢٣٨٧- وَاللهِ لَيْسَ بِأَصْـعَبِ الـوِرْدَيْنِ بَـلْ ... هُـوَ أَسْـهَلُ الْـوِرْدَيْنِ لِلظَّمْـآنِ

وهذا واضحٌ، فإذا جئتَ للقرآن وقرأتَه وجدتَه سهلًا قريبَ المأخَذِ، وإذا رجعتَ إلى كتب هؤلاء المتكلِّمين وجدتَها من أصعب ما يكون.

وكذلك أيضًا إذا قرأتَ القرآنَ انتفعتَ به، وازددتَ يقينًا، وإذا قرأتَ كلامَ المتكلِّمين ازددتَ شكًّا وحَيرة، نسألُ اللهَ العافيةَ.

* * *

فصــل

فِي بَيَانِ هَدْمِهِمْ لِقَوَاعِدِ الإِسْلامِ وَالإِيمَانِ بِعَزْلِهِمْ نُصُوصَ السُّنَّةِ وَالقُرْآنِ

٢٣٨٨- يَـا قَـوْمُ بِـالله انْظُـرُوا وَتَفكَّـرُوا ... فِي هَــذِهِ الأَخْبَــارِ وَالْقُــرْآنِ

٢٣٨٩- مِثْــلَ التَّــدَبُّرِ وَالتَّفَكُّــرِ لِلَّــذِي ... قَـدْ قَالَـهُ ذُو الـرَّأْيِ وَالـحُسْبَانِ

٢٣٩٠- فَأَقَــلُّ شَيْءٍ أَنْ يَكُونَــا عِنْــدَكُمْ ... حَـدًّا سَـوَاءً يَـا أُولِـي الْعُـدْوَانِ

٢٣٩١- وَالله مَــا اسْـتَوَيَا لَـدَى زُعَمَائِكُـمْ ... فِي الْعِلْـمِ وَالتَّحْقِيـقِ وَالْعِرْفَـانِ

٢٣٩٢- عَزَلُوهُمَا بَلْ صَرَّحُوا بِـالْعَزْلِ عَنْ ... نَيْــلِ اليَقِــينِ وَرُتْبَــةِ البُرْهَــانِ

٢٣٩٣- قَــالُوا: وَتِلْــكَ أَدِلَّــةٌ لَفْظِيَّــةٌ ... لَسْــنَا نُحَكِّمُهَــا عَـلَى الإِيقَــانِ

٢٣٩٤- مَا أُنْزِلَتْ لِيُنَـالَ مِنْهَـا الْعِلْـمُ بِالْـ ... إِثْبَــاتِ لِلأَوْصَــافِ لِلــرَّحْمَنِ

٢٣٩٥- بَــلْ بِــالْعُقُولِ يُنَـالُ ذَاكَ وَهَـذِهِ ... عَنْـهُ بِمَعْـزِلِ غَـيْرِ ذِي السُّـلْطَانِ

٢٣٩٦- فَبِجُهْـدِنَا تَأْوِيلُهَــا وَالـدَّفْعُ فِي ... أَكْتَافِهَـا دَفْعًـا لِـذِي الصَّـوَلانِ

٢٣٩٧- كَكَبِيرِ قَوْمٍ جَـاءَ يَشْـهَدُ عِنْدَ ذِي ... حُكْــمٍ يُرِيــدُ دِفَاعَــهُ بِلَيَــانِ

٢٣٩٨- فَيَقُـولُ: قَـدْرُكَ فَـوْقَ ذَا وَشَـهَادَةٌ ... لِسِـوَاكَ تَصْـلُحُ فَـاذْهَبَنْ بِأَمَـانِ

٢٣٩٩- وَبِـوُدِّهِ لَـوْ كَـانَ شَيْءٌ غَـيْرُ ذَا ... لَكِــنْ مَخَافَـةَ صَـاحِبِ السُّـلْطَانِ

٢٤٠٠- فَلَقَــدْ أَتَانَــا عَــنْ كَبِــيرٍ فِــيهِمُ ... وَهُــوَ الــحَقِيرُ مَقَالَـةُ الكُفْـرَانِ

٢٤٠١- لَوْ كَانَ يُمْكِنُنِي وَلَيْسَ بِمُمْكِنٍ ... لَحَكَكْتُ مِنْ ذَا الْمُصْحَفِ الْعُثْمَانِي

٢٤٠٢- ذِكْرُ اسْتِوَاءِ الرَّبِّ فَوْقَ الْعَرْشِ لَـ ... ـكِنْ ذَاكَ مُمْتَنِعٌ عَلَى الإِنْسَانِ

٢٤٠٣- وَاللهِ لَوْلا هَيْبَةُ الإِسْلامِ وَالْـ ... ـقُرْآنِ وَالأُمَرَاءِ وَالسُّلْطَانِ

٢٤٠٤- لَأَتَوْا بِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَلَدَكْدَكُوا الْـ ... إِسْلامَ فَوْقَ قَوَاعِدِ الأَرْكَانِ

الشَّرحُ

في هذه الأبيات يقولُ المؤلفُ -رحمه الله- مُناديًا لهؤلاء القوم الذين قَدَّموا نُصوصَ أئمتِهم وشيوخِهم على الكتابِ والسُّنَّة، يقولُ:

٢٣٨٨- يَا قَوْمُ بِاللهِ انْظُرُوا وَتَفَكَّرُوا ... فِي هَذِهِ الأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ

٢٣٨٩- مِثْلَ التَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ لِلَّذِي ... قَدْ قَالَهُ ذُو الرَّأْيِ وَالحُسْبَانِ

يعني: أَقلُّ ما نطلبُ منكم العدلُ بأن تنظروا في نصوص الكتاب والسُّنَّة كما تنظرون في مقالات شيوخِكم.

والمؤلفُ -رحمه الله- في عدة مواضع يذكرُ السُّنَّةَ قبل القرآن مِن أَجْلِ مناسبة الرَّويِّ (**القافية**)، كما أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- قَدَّم ذِكْرَ هارون على موسى مِن أَجْلِ تناسب رءوس الآيات في سورة طه، حيث قال السَّحَرَةُ: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠] فقدَّم هارونَ مِن أَجْلِ أن تتناسبَ رءوسُ الآيات.

٢٣٩٠- فَأَقَلُّ شَيْءٍ أَنْ يَكُونَا عِنْدَكُمْ ... حَدًّا سَوَاءً يَا أُولِي الْعُدْوَانِ

قَوْلُهُ: «**فأَقَلّ شيءٍ**» يعني: أقل شيءٍ نطالبكم به أن يكون عندكم حدٌّ سواء يا أولي العدوان، وما هو أعلى شيء؟

الجواب: تقديمُ الكتابِ والسُّنَّة أعلى شيء، أقلُ شيء أن يكونَ الكتابُ والسُّنَّةُ عندكم مِثْلَ كلامِ شيوخِكم.

٢٣٩١- وَاللهِ مَا اسْتَوَيَا لَدَى زُعَمَائِكُمْ ... فِي الْعِلْمِ وَالتَّحْقِيقِ وَالْعِرْفَانِ

قَوْلُهُ: «ما اسْتَوَيَا» يعني: نصوصُ الكتاب والسُّنَّة وكلامُ الشيوخ.

قَوْلُهُ: «مَا اسْتَوَيَا لَدَى زُعَمَائِكُمْ فِي الْعِلْمِ وَالتَّحْقِيقِ وَالْعِرْفَانِ» لأنَّ نصوصَ الكتابِ والسُّنَّة عندهم لا تفيدُ العلمَ ولا العرفانَ والتحقيقَ؛ لأنهم يقولون: إن كان النَّصُّ من كتاب الله فالدلالةُ لفظيَّةٌ، ودلالةُ اللفظ ظَنِّيَّةٌ وليست قطعِيَّةً، وإن كانت من السُّنَّة فإن كانت أخبارَ آحاد فأخبارُ الآحاد لا تفيدُ اليقينَ والقطع، بل تفيدُ الظنَّ، وإن كانت متواترةً فهي لفظيَّةٌ، والدلالةُ اللفظيَّةُ لا تفيدُ اليقينَ.

وأمَّا الذي يفيدُ اليقينَ فكلامُ شيوخِهم؛ ولهذا قال:

٢٣٩٢- عَزَلُوهُمَا بَلْ صَرَّحُوا بِالْعَزْلِ عَنْ ... نَيْلِ اليَقِينِ وَرُتْبَةِ البُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «عَزَلُوهُمَا» الضميرُ يعودُ على الكتابِ والسُّنَّة.

٢٣٩٣- قَالُوا: وَتِلْكَ أَدِلَّةٌ لَفْظِيَّةٌ ... لَسْنَا نُحَكِّمُهَا عَلَى الإِيقَانِ

قَوْلُهُ: «تلك» المُشَارُ إليه نصوصُ الكتاب والسُّنَّة، فهي أدلةٌ لفظيَّةٌ لا تفيدُ اليقينَ، ولا يصلُ الحكمُ بها إلى اليقين.

٢٣٩٤- مَا أُنْزِلَتْ لِيُنَالَ مِنْهَا الْعِلْمُ بِالْـ ... إِثْبَاتِ لِلأَوْصَافِ لِلرَّحْمَنِ

يعني: ما أنزلها اللهُ لِنَنَالَ بها عِلمَ أوصاف ربِّنا عزَّ وجلَّ، إِذَنْ لماذا نزلت؟

قالت فرقةٌ منهم: للتعبُّد بلفظها، وتسليمِ معناها لله.

وقالت فرقةٌ أخرى: نزلت للتعبُّد بلفظها، ونيلِ الأجور بحمل معانيها على مجازها؛ لأنَّ حمَلَ اللفظ على مجازه يحتاجُ إلى شواهدَ وأدلةٍ وتعب بخلاف الظاهر، قالوا: فتُحْمَلُ على المجازات، وعلى المعاني الغريبة، وكونُ الإنسانِ يتعبُ في تخريجها على هذه المجازات ينالُ بذلك أجرًا؛ لقول النَّبيِّ ﷺ لعائشةَ في عمرتها بَعْدَ حجِّها: «أَجْرُكِ عَلَى قَدْرِ نَصَبِكِ»(١).

فصار الذي يُرادُ بالكتاب والسُّنَّة عندهم: إمَّا التعبُّدُ باللفظ وتسليمُ المعنى لله، وهؤلاء هم المفوِّضةُ، أو التعبُّدُ باللفظ ونيلُ الأجر بالتعب في تخريج الكلام على مجازاته وشواذ اللغة العربية، أمَّا أن يُرادَ بذلك العلمُ فلا، فلا يُرادُ بهذا العلمُ بإثبات أوصاف الله عزَّ وجلَّ.

٢٣٩٥- بَـلْ بِـالْعُقُولِ يُنَـالُ ذَاكَ وَهَـذِهِ عَنْـهُ بِمَعْـزِلِ غَـيْرِ ذِي السُّـلْطَانِ

قَوْلُهُ: «**بَلْ بِالْعُقُولِ يُنَالُ ذَاكَ**» يُنَالُ: نائب الفاعل يعودُ على (**العلم**)، يُنَالُ العلمُ بدلالة العقل.

قَوْلُهُ: «**وهذه**» يعني نصوصَ الكتابِ والسُّنَّة.

قَوْلُهُ: «**غَيْرِ ذِي السُّلْطَانِ**» يعني: ليس لها سلطانٌ وقدرةٌ وقوةٌ تُوصِلُ إلى العلم.

يعني أنَّ نصوصَ الكتاب والسُّنَّة بمَعْزِلٍ عن الاستدلال وعن الدلالة، وليس لها سلطانٌ حتَّى نستدلَّ بها على إثبات الشيء أو على نفيه؛ لأنَّ السلطانَ للعقل.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب أجرة العمرة على قدر النصب، رقم (١٧٨٧)، ومسلم: كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام، رقم (١٢١١).

٢٣٩٦- فَبِجُهْـــدِنَا تَأْوِيلُهَـــا وَالـــدَّفْعُ في أَكْتَافِهَـــا دَفْعًـــا لِـــذِي الصَّـــوَلانِ

يعني أنَّنا نبذلُ الجهدَ في تأويلِها ونتعبُ؛ لأجل أن ننالَ الأجرَ.

لـمَّا قيل لهم: إذا كان ليس المرادُ الظاهرَ لماذا لم يأتِ اللهُ بالمراد وأتى بظاهرِ خلاف المراد؟ قالوا: لأجل أن نتعبَ في حمل هذا الظاهر على مجازه وتَتَبُّعِ شواذِّ اللغة حتَّى ننالَ بذلك أجرًا.

ثُمَّ ذكر مثالًا فقال:

٢٣٩٧- كَكَبِيرِ قَوْمٍ جَـاءَ يَشْـهَدُ عِنْـدَ ذِي حُكْـــمٍ يُرِيـــدُ دِفَاعَـــهُ بِلَيَـــانِ

٢٣٩٨- فَيَقُـولُ: قَـدْرُكَ فَـوْقَ ذَا وَشَـهَادَةٌ لِسِـــوَاكَ تَصْـــلُحُ فَـــاذْهَبَنْ بِأَمَـــانِ

قَوْلُهُ: «فيقولُ» أي: الحاكم.

هذا رجلٌ كبير شيخٌ جاء يشهدُ عند القاضي، والقاضي أراد عدم قَبولِ شهادتِه، فقال له: يا سيدي، قَدْرُكَ عندي أكبرُ من أن تأتيَ تشهد، فالشهادةُ لغيرك، فأنت شيخٌ كبيرٌ مُوقَّرٌ محترمٌ لا تأتي تشهدُ عندي، فالشهادةُ لغيرك، فاذهب، هؤلاء نزَّلوا نصوصَ الكتابِ والسُّنَّة كذلك، فقالوا: القرآنُ عندنا محترمٌ وعظيمٌ، والسُّنَّةُ كذلك، لكن الشهادة لغيرها، فهي للعقول.

وهذا مَثَلٌ غريبٌ قَلَّ أن يتفطَّنَ الإنسانُ لِمِثْلِ هذا المَثَلِ.

أحيانًا يأتي الإنسانُ بمثالٍ يكون أبعدَ ما يكونُ عن الذهن في تَصَوُّرِه، ومن ذلك قولُ الشاعر:

بَلِيتُ بِلَى الأَطْـلَالِ إِنْ لَـمْ أَقِـفْ بِهَـا وُقُوفَ شَحِيحٍ ضَاعَ فِي الـتُّرْبِ خَاتَمُـهْ

قَوْلُهُ: **(الأطلال)** يعني المساكنَ المُهَدَّمَةَ لمعشوقته.

قَوْلُهُ: **(شحيح)** أي: بخيلٍ. ضاع خاتمه في التراب.

فهذا الشَّحيحُ لا يذهبُ أبدًا عن مكانه، فلو وصل إلى الأرض السابعة لا يذهبُ، فهو يبحثُ عن الخاتم.

على كُلِّ حالٍ أقولُ: بعضُ الناس يكونُ عنده خيالٌ واسعٌ، فمَن يتخيَّلُ أنَّ هؤلاء جعلوا نصوصَ الكتابِ والسُّنَّةِ بمنزلة هذا الشيخِ الكبيرِ المعظَّمِ عند الحاكم الذي جاء يشهدُ، فقال له: والله يا سيدي أنت رجلٌ كبيرٌ عندنا، وعظيمٌ، ومحترمٌ، وأنت أكبرُ من أن تشهدَ عندنا، ولكن اذهب بأمان، والشهادةُ عند غيرك.

٢٣٩٩- وَبِــوُدِّهِ لَــوْ كَــانَ شَيْءٌ غَــيْرُ ذَا ... لَكِــنْ مَخَافَــةَ صَــاحِبِ السُّــلْطَانِ

يعني: بوُدِّه أنَّ الأمرَ كان فوق ذلك.

ويَحتمِلُ أن يكون قوله: (**بِوُدِّهِ**) يعني الحاكم الذي طرد هذا الشيخ، أو بودِّ هذا المحرِّف الذي حَرَّف نصوصَ الكتاب والسُّنَّة، فبودِّه لو كان شيءٌ غيرُ ذا.

٢٤٠٠- فَلَقَــدْ أَتَانَــا عَــنْ كَبِــيرٍ فِــيهِمُ ... وَهُــوَ الــحَقِيرُ مَقَالَــةُ الكُفْــرَانِ

٢٤٠١- لَوْ كَانَ يُمْكِنُنِي وَلَـيْسَ بِمُمْكِـنٍ ... لَـحَكَكْتُ مِنْ ذَا المُصْحَفِ الْعُثْمَانِي

٢٤٠٢- ذِكْرُ اسْتِوَاءِ الرَّبِّ فَوْقَ الْعَرْشِ لَـ ... ـكِنْ ذَاكَ مُمْتَنِعٌ عَـلَى الإِنْسَـانِ

هذا رجلٌ مِن المعطِّلة الذين ينكرون الصفاتِ، يقولُ: لو كان يمكنني أن أَحُكَّ قولَ الله تعالى في القرآن: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الفرقان:٥٩] لفعلتُ؛ لأنه لا يريدُ أن يسمعَ أحدًا يقولُ: (**إنَّ اللهَ استوى على العرشِ**)، ولكن هل يمكنُ هذا

والمسلمون يقرؤونه في كُلِّ يومٍ وليلة؟ الجواب: لا؛ ولهذا قال: (لَكِنْ ذاك مُمْتَنِعٌ على الإنسانِ).

٢٤٠٣- وَاللهِ لَـوْلا هَيْبَـةُ الإِسْـلامِ وَالْـ ـــقُرْآنِ وَالأُمَــرَاءِ وَالسُّــلْطَانِ

٢٤٠٤- لَأَتَوْا بِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَلَدَكْـدَكُوا الْـ إِسْـلامَ فَـوْقَ قَوَاعِـدِ الأَرْكَـانِ

المؤلفُ -رحمه الله- يعرفُ هذا منهم؛ لأنه ابتُلِـي في زمنه وفي عهد شيخِه ابن تيميَّة -رحمه الله-، ابتُلِـي بهم، وابتُلِـي الناسُ من قبل، ماذا فعل هؤلاء المعطِّلةُ بالأئمة؟ وَشَوْا بهم إلى الحكَّام حتَّى حبسوهم وضربوهم وقتلوهم، هؤلاء لو تمكَّنوا من أن يهدموا الإسلامَ كُلَّه لفعلوا، لكنَّهم يخافون هيبةَ الأمراء، والسُّلطانِ، والإسلام عند العامة، وإلَّا لفعلوا.

* * *

٢٤٠٥- فَلَقَدْ رَأَيْـتُمْ مَـا جَـرَى لِأَئِمَّـةِ الْـ إِسْـلامِ مِـنْ مِحَـنٍ عَـلَى الأَزْمَـانِ

٢٤٠٦- لا سِـيمَا لَـمَّا اسْـتَمَالُوا جَـاهِلًا ذَا قُـدْرَةٍ فِي النَّـاسِ مَـعْ سُـلْطَانِ

٢٤٠٧- وَسَـعَوْا إِلَيْـهِ بِكُـلِّ إِفْـكٍ بَـيِّنٍ بَــلْ قَاسَــمُوهُ بِــأَغْلَظِ الأَيْــمَانِ

٢٤٠٨- أَنَّ النَّصِيحَةَ قَصْدُهُمْ كَنَصِيحَةِ الشْـ شَـيْطَانِ حِـينَ خَـلَا بِـهِ الأَبَـوَانِ

٢٤٠٩- فَـيَرَى عَمَائِـمَ ذَاتَ أَذْنَـابٍ عَـلَى تِلْـكَ الْقُشُـورِ طَوِيلَـةِ الأَرْدَانِ

٢٤١٠- وَيَرَى هَيُولَـى لا تَهُـولُ لِـمُبْصِرٍ وَتَهُـولُ أَعْمَـى فِي ثِيَـابِ جَبَـانِ

٢٤١١- فَـإِذَا أَصَـاخَ بِسَمْعِهِ مَلَئُـوهُ مِـنْ كَـذِبٍ وَتَلْبِـيسٍ وَمِـنْ بُهْتَـانِ

٢٤١٢- فَيَرَى وَيَسْمَعُ فَشْرَهُمْ وَفشَارَهُمْ يَـا مِحْنَـةَ العَيْنَـيْنِ وَالأُذُنَـانِ

٢٤١٣- فَتَحُوا جِرَابَ الجَهْلِ مَعْ كَذِبٍ فَخُذْ ... وَاحْمِلْ بِلَا كَيْلٍ وَلَا مِيزَانِ
٢٤١٤- وَأَتَوْا إِلَى قَلْبِ الـمُطَاعِ فَفَتَّشُوا ... عَمَّا هُنَاكَ لِيَدْخُلُوا بِأَمَانِ
٢٤١٥- فَإِذَا بَدَا غَرَضٌ لَهُمْ دَخَلُوا بِهِ ... مِنْهُ إِلَيْهِ كَحِيلَةِ الشَّيْطَانِ
٢٤١٦- فَإِذَا رَأَوْهُ هَشَّ نَحْوَ حَدِيثِهِمْ ... ظَفِرُوا وَقَالُوا: وَيْحَ آلِ فُلَانِ
٢٤١٧- هُوَ فِي الطَّرِيقِ يَعُوقُ مَوْلَانَا عَنِ الْـ ... ـمَقْصُودِ وَهْوَ عَدُوُّ هَذَا الشَّانِ
٢٤١٨- فَإِذَا هُمُ غَرَسُوا الْعَدَاوَةَ وَاظَبُوا ... سَقْيَ الْغِرَاسِ كَفِعْلِ ذِي الْبُسْتَانِ
٢٤١٩- حَتَّى إِذَا مَا أَثْمَرَتْ وَدَنَا لَهُمْ ... وَقْتُ الـجُذَاذِ وَصَارَ ذَا إِمْكَانِ
٢٤٢٠- رَكِبُوا عَلَى جُرْدٍ لَهُمْ وَحَمِيَّةٍ ... وَاسْتَنْجَدُوا بِعَسَاكِرِ الشَّيْطَانِ
٢٤٢١- فَهُنَالِكَ ابْتُلِيَتْ جُنُودُ اللهِ مِنْ ... جُنْدِ اللَّعِينِ بِسَائِرِ الأَلْوَانِ
٢٤٢٢- ضَرْبًا وَحَبْسًا ثُمَّ تَكْفِيرًا وَتَبْـ ... ـدِيعًا وَشَتْمًا ظَاهِرَ الْبُهْتَانِ
٢٤٢٣- فَلَقَدْ رَأَيْنَا مِنْ فَرِيقٍ مِنْهُمُ ... أَمْرًا تَهُدُّ لَهُ قُوَى الإِيمَانِ
٢٤٢٤- مِنْ سَبِّهِمْ أَهْلَ الـحَدِيثِ وَدِينُهُمْ ... أَخْذُ الـحَدِيثِ وَتَرْكُ قَوْلِ فُلَانِ

الشرحُ

في هذه الأبيات يقول المؤلفُ -رحمه الله- مُبيِّنًا ما جرى لأئمة الإسلام مِن مِحَنٍ مِن هؤلاء المعطِّلة، يقول:

٢٤٠٥- فَلَقَدْ رَأَيْتُمْ مَا جَرَى لِأَئِمَّةِ الْـ ... إِسْلَامِ مِنْ مِحَنٍ عَلَى الأَزْمَانِ

ولا سيما إمامُ أهلِ السُّنَّة الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ -رحمه الله-.

٢٤٠٦- لا سيما لَمَّا اسْتَمالُوا جَاهِلًا ذَا قُدْرَةٍ فِي النَّاسِ مَعْ سُلْطَانِ

يعني بذلك الخلفاءَ الجُهَّالَ الذين لهم قدرةٌ وسلطانٌ على الناس، استمالهم هؤلاء المعتزلةُ أو المعطِّلةُ.

٢٤٠٧- وَسَعَوْا إِلَيْهِ بِكُلِّ إِفْكٍ بَيِّنٍ بَلْ قَاسَمُوهُ بِأَغْلَظِ الأَيْمَانِ

قَوْلُهُ: «قَاسَمُوهُ» يعني: حلفوا له، كما قال الله تعالى عن الشَّيطان: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٢١] على أي شيء قاسموه؟

قال:

٢٤٠٨- أَنَّ النَّصِيحَةَ قَصْدُهُمْ كَنَصِيحَةِ الشْ شَيْطَانِ حِينَ خَلَا بِهِ الأَبَوَانِ

قَوْلُهُ: «أَنَّ النَّصِيحَةَ قَصْدُهُمْ» يعني: يأتون للخليفة يقولون: الأمرُ كذا وكذا وكذا، والله ما قصدنا إلَّا النصيحةَ.

قَوْلُهُ: «كَنَصِيحةِ الشَّيْطَانِ حِينَ خَلَا بِهِ الأَبَوَانِ» ماذا قال لهما؟ ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٢١].

والخليفةُ الجاهلُ الذي له السُّلطانُ يغترُّ.

٢٤٠٩- فَيَرَى عَمَائِمَ ذَاتَ أَذْنَابٍ عَلَى تِلْكَ الْقُشُورِ طَوِيلَةِ الأَرْدَانِ

صَوَّر هؤلاء الشيوخَ بأنَّهم جاءوا وعليهم عمائمُ طويلةُ الأردان، يعني: لها رُدْنٌ طويلٌ يصل إلى الفَخِذَيْن، هي طويلة الأردان لكنَّها على قشورٍ من الناس، لكنَّ الخليفةَ الجاهلَ يظنُّ أنَّ هؤلاء شيوخٌ كبارٌ فيأخذ بقولِهم.

٢٤١٠- وَيَرَى هَيُولَــى لا تَهُولُ لِــمُبْصِرٍ وَتَهُــولُ أَعْمَــى فِي ثِيَــابِ جَبَــانِ

الهيولى يعني: الهيئة، يرى هيئةً عظيمةً، شيوخًا كبارًا، جاءوا بهذه الأُبَّهةِ لكنَّها لا تَهولُ لُمبْصِرٍ؛ لأنه يعرفُ أنه ليس تحت الثياب إلَّا الخراب، وإنما تَهولُ الأعمى الجبان.

٢٤١١- فَــإِذَا أَصَــاخَ بِسَــمْعِهِ مَلَئُــوهُ مِــنْ كَــذِبٍ وَتَلْبِــيسٍ وَمِــنْ بُهْتَــانِ

قَوْلُهُ: «أصاخَ بِسَمْعِه» يعني: اسْتَمَعَ إليهم وأَنْصَتَ.

٢٤١٢- فَيَرَى وَيَسْمَعُ فَشْرَهُمْ وَفشَــارَهُمْ يَــا مِحْنَــةَ العَيْنَــيْنِ وَالأُذُنَــانِ

الفشرُ والفُشارُ[1] هو الحديثُ الطويلُ المُنَمَّقُ، ولكنَّه ليس تحته فائدةٌ، إذا سَمِعَه الإنسانُ ظنَّه حسنًا صوابًا، ولكنَّه بالعكس.

٢٤١٣- فَتَحُوا جِرَابَ الجَهْلِ مَعْ كَذِبٍ فَخُــذْ وَاحْمِــلْ بِــلَا كَيْــلٍ وَلَا مِيــزَانِ

قَوْلُهُ: «فخُذْ واحْمِلْ» أي: واحمل جهلًا وكذبًا.

وَقَوْلُهُ: «بِلَا كَيْلٍ وَلَا مِيزَانِ» يعني: من كثرة الكذب والبهتان والجهل.

٢٤١٤- وَأَتَوْا إِلَى قَلْبِ الــمُطَاعِ فَفَتَّشُــوا عَــمَّا هُنَــاكَ لِيَــدْخُلُوا بِأَمَــانِ

قَوْلُهُ: «وَأَتَوْا إِلَى قَلْبِ الـمُطَاعِ» مَن المطاعُ؟ الجوابُ: الخليفةُ.

أتوا إلى قلبه ففتَّشوا عمَّا هناك ليدخلوا بأمان.

(١) الفُشَارُ، كغُرابٍ: الذي تستعمله العامة بمعنى الهذيان، وكذا التَّفْشِيرُ ليس من كلام العرب، وإنما هو من استعمال العامة. انظر: تاج العروس، مادة: فشر.

٢٤١٥- فَإِذَا بَدَا غَـرَضٌ لَـهُمْ دَخَلُـوا بِـهِ مِنْـهُ إِلَيْـهِ كَحِيلَـةِ الشَّـيْطَانِ

يعني: أنهم ينتهزون الفرصةَ كُلَّما بدا غرضٌ، والغرضُ فيما يظهر لي أنه الذي يُرْمَى إليه، وليس الغرض الحاجة، بل الغرض الذي يُرمى إليه بالسِّهام، كُلَّما بدا غرض دخلوا به منه إليه.

ويَحتملُ أنَّ المرادَ بالغرض هنا الحاجة، يعني: كُلَّما بَدَتْ لهم حاجة دخلوا منها إلى هذا الخليفة.

٢٤١٦- فَـإِذَا رَأَوْهُ هَـشَّ نَحْـوَ حَـدِيثِهِمْ ظَفِـرُوا وَقَـالُوا: وَيْـحَ آلِ فُـلانِ

قَوْلُهُ: «فَإِذَا رَأَوْهُ هَشَّ نَحْوَ حَدِيثِهِمْ» يعني: إذا رَأَوْه قد هَشَّ نحو حديثِهم وأصاخ إليه «ظَفِرُوا وَقَالُوا: وَيْحَ آلِ فُلانِ» يعني: ظفِروا بمطلوبهم، وقالوا فيما بينهم: ويح آل فلان، ويعنون بآل فلان: أهلَ الحديث، يعني: ويحهم؛ لأنَّ الخليفةَ هَشَّ لقولهم.

٢٤١٧- هُوَ فِي الطَّرِيقِ يَعُوقُ مَوْلانَا عَنِ الْـ ـمَقْصُودِ وَهْوَ عَـدُوُّ هَـذَا الشَّـانِ

يقول أيضًا هؤلاء الجماعةُ: هذا يعوق أمرَك، ويُؤلِّبُ الناسَ عليك، ويفعل ويفعل ويفعل.

٢٤١٨- فَإِذَا هُمُ غَرَسُـوا الْعَـدَاوَةَ وَاظَبُـوا سَقْيَ الْغِرَاسِ كَفِعْلِ ذِي الْبُسْـتَانِ

إذا غرسوا العداوةَ من السُّلطان على أهل الحديث لم يتركوه بل يتابعونه كما يتابعُ الرجلُ شجرتَه إذا غرسها.

٢٤١٩- حَتَّـى إِذَا مَـا أَثْمَـرَتْ وَدَنَـا لَـهُمْ وَقْتُ الـجُذَاذِ وَصَـارَ ذَا إِمْكَـانِ

٢٤٢٠- رَكِبُوا عَلَى جُرْدٍ لَهُمْ وَحَمِيَّةٍ وَاسْتَنْجَدُوا بِعَسَاكِرِ الشَّيْطَانِ

قَوْلُهُ: «رَكِبُوا عَلَى جُرْدٍ لَهُمْ وَحَمِيَّةٍ» يعني الخيلَ الجردَ، ويجوز (عَلَى حَرْدٍ) يعني: على حَنَق.

٢٤٢١- فَهُنَالِكَ ابْتُلِيَتْ جُنُودُ اللهِ مِنْ جُنْدِ اللَّعِينِ بِسَائِرِ الأَلْوَانِ

لماذا؟ لأنَّ السُّلطانَ صار معهم، وآذى أهلَ الحديث.

٢٤٢٢- ضَرْبًا وَحَبْسًا ثُمَّ تَكْفِيرًا وَتَبْـ ـدِيعًا وَشَتْمًا ظَاهِرَ الْبُهْتَانِ

يعني: يأتون بكُلِّ مَسَبَّةٍ لأهلِ الحديث إلى أن يقولوا: هم كُفَّارٌ، والعياذ بالله.

٢٤٢٣- فَلَقَدْ رَأَيْنَا مِنْ فَرِيقٍ مِنْهُمُ أَمْرًا تَهُدُّ لَهُ قُوَى الإِيمَانِ

٢٤٢٤- مِنْ سَبِّهِمْ أَهْلَ الحَدِيثِ وَدِينُهُمْ أَخْذُ الحَدِيثِ وَتَرْكُ قَوْلِ فُلانِ

قَوْلُهُ: «ودينُهم» أي: دينُ أهلِ الحديث.

والمعنى أنَّهم يسبُّون أهلَ الحديث؛ لأنَّ دينَهم أخذُ الحديث وتركُ رأي فلانٍ وفلان، ومع ذلك يسبُّونهم.

فابنُ القيمِّ -رحمه الله- كما سبق كثيرًا يظهرُ من كلامه أنَّ في قلبه عليهم من الحنق والعداوة ما هم السَّببُ فيه؛ لأنهم آذَوْا أهلَ الحديث، آذَوْا أهلَ السُّنَّة، صاحوا بهم ظاهرًا وباطنًا وفي كُلِّ مكان، وهذا الذي جعل بعضَ التعطيلِ منتشرًا في العالمِ الإسلامِيِّ أنَّهم كانوا -والعياذ بالله- يُضَيِّقون الخِناقَ على أهل الحديث وأهل السُّنَّة، نسألُ اللهَ السلامةَ.

فهؤلاء آذَوْا أهلَ السُّنَّةِ، ولا بُدَّ من صراعٍ بين الحقِّ والباطل، وأهلُ الحقِّ قد يُؤْذَوْنَ من هؤلاء لكن لحكمةٍ يريدُها اللهُ عزَّ وجلَّ مِن أَجْلِ أن ينالوا درجةَ الصابرين؛ لأنَّ الصبرَ درجةٌ عاليةٌ، ولا تُنَالُ درجتُه إلَّا بشيءٍ يُصْبَرُ عليه كما قال الشاعر:

وَالصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ مُرٌّ مَذَاقَتُهُ ... لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ

* * *

٢٤٢٥- يَا أُمَّةً غَضِبَ الإِلَهُ عَلَيْهِمُ ... أَلِأَجْلِ هَذَا تَشْتُمُوا بِهَوَانِ؟!

٢٤٢٦- تَبًّا لَكُمْ إِذْ تَشْتُمُونَ زَوَامِلَ الْـ ... إِسْلَامِ حِزْبَ اللهِ وَالْقُرْآنِ

٢٤٢٧- وَسَبَبْتُمُوهُمْ ثُمَّ لَسْتُمْ كُفْأَهُمْ ... فَرَأَوْا مَسَبَّتَكُمْ مِنَ النُّقْصَانِ

٢٤٢٨- هَذَا وَهُمْ قَبِلُوا وَصِيَّةَ رَبِّهِمْ ... فِي تَرْكِهِمْ لِمَسَبَّةِ الأَوْثَانِ

٢٤٢٩- حَذَرَ المُقَابَلَةِ القَبِيحَةِ مِنْهُمُ ... بِمَسَبَّةِ القُرْآنِ وَالرَّحْمَنِ

٢٤٣٠- وَكَذَاكَ أَصْحَابُ الحَدِيثِ فَإِنَّهُمْ ... ضُرِبَتْ لَهُمْ وَلَكُمْ بِذَا مَثَلَانِ

٢٤٣١- سَبُّوكُمْ جُهَّالُهُمْ فَسَبَبْتُمُ ... سُنَنَ الرَّسُولِ وَعَسْكَرَ الإِيمَانِ

٢٤٣٢- وَصَدَدْتُمُ سُفَهَاءَكُمْ عَنْهُمْ وَعَنْ ... قَوْلِ الرَّسُولِ وَذَا مِنَ الطُّغْيَانِ

٢٤٣٣- وَدَعَوْتُمُوهُمْ لِلَّذِي قَالَتْهُ أَشْـ ... ـيَاخٌ لَكُمْ بِالخَرْصِ وَالحُسْبَانِ

٢٤٣٤- فَأَبَوْا إِجَابَتَكُمْ وَلَمْ يَتَحَيَّزُوا ... إِلَّا إِلَى الآثَارِ وَالقُرْآنِ

٢٤٣٥- وَإِلَى أُولِي العِرْفَانِ مِنْ أَهْلِ الحَدِيـ ... ـثِ خُلَاصَةِ الإِنْسَانِ وَالأَكْوَانِ

٢٤٣٦- قَـوْمٌ أَقَـامَهُمُ الإِلَـهُ لِـحِفْظِ هَـ ... ـذَا الدِّينِ مِـنْ ذِي بِدْعَـةٍ شَـيْطَانِ

٢٤٣٧- وَأَقَامَهُمْ حَرَسًا مِنَ التَّبْدِيلِ وَالتْـ ... تَحْرِيــفِ وَالتَّتْمِـيمِ وَالنُّقْصَـانِ

٢٤٣٨- يَزَكٌ عَلَى الإِسْلامِ بَـلْ حِصْـنٌ لَـهُ ... يَــأْوِي إِلَيْــهِ عَسَــاكِرُ الفُرْقَــانِ

٢٤٣٩- فَهُمُ الـمِحَكُّ فَمَنْ يُـرَى مُتَنَقِّصًـا ... لَــهُمُ فَزِنْـدِيقٌ خَبِيــثُ جَنَـانِ

٢٤٤٠- إِنْ تَتَّهِمْـهُ فَقَبْلَـكَ السَّـلَفُ الأُلَى ... كَـانُوا عَـلَى الإِيـمَانِ وَالإِحْسَـانِ

٢٤٤١- أَيْضًا قَدِ اتَّهَمُوا الخَبِيثَ عَلَى الهُدَى ... وَالْعِلْـــمِ وَالآثَــارِ وَالْقُــرْآنِ

٢٤٤٢- وَهُوَ الـحَقِيقُ بِذَاكَ إِذْ عَـادَى رُوَا ... ةَ الـدِّينِ وَهْــيَ عَـدَاوَةُ الـدَّيَّانِ

٢٤٤٣- فَـإِذَا ذَكَـرْتَ النَّاصِـحِينَ لِـرَبِّهِمْ ... وَكِتَابِــهِ وَرَسُــولِهِ بِلِسَــانِ

٢٤٤٤- فَاغْسِلْهُ وَيْلَكَ مِنْ دَمِ التَّعْطِيـلِ وَالتْ ... تَكْــذِيبِ وَالْكُفْـرَانِ وَالْبُهْتَــانِ

الشــرحُ

٢٤٢٥- يَــا أُمَّــةً غَضِــبَ الإِلَــهُ عَلَـيْهِمُ ... أَلِأَجْـلِ هَـذَا تَشْـتُمُوا بِهَـوَانِ؟!

قَوْلُهُ: «يا أُمَّةً» يخاطبُ أهلَ التعطيل الذين عطَّلوا صفاتِ الله عزَّ وجلَّ ومنعوا كمالَ الله -سبحانه وتعالى-.

قَوْلُهُ: «غَضِبَ الإِلَهُ عَلَيْهِم» بسبب مجانبتهم لِـهَدْيِ النَّبيِّ ﷺ وأصحابه وأهلِ الحديثِ مِن بعدهم.

قَوْلُهُ: «أَلِأَجْلِ هَذَا تَشْتُمُوا بِهَوَانٍ؟!» يعني: أَلِأَجْلِ أن خالفتم أهلَ السُّنَّةِ تشتمونهم؟!

٢٤٢٦- تَبًّا لَكُمْ إِذْ تَشْتُمُونَ زَوَامِلَ الْـ ... إِسْلَامِ حِزْبَ الله وَالْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «زَوَامِل» جمع (زاملة)، وهي الناقةُ التي تَحْمِلُ المتاعَ أو الجملُ الذي يحملُ المتاعَ، والمراد أنَّ هؤلاء أهلَ الحديث هم الذين يحملونَ السُّنَّةَ كما تحملُ الإبلُ الزواملُ أمتعةَ المسافرين.

٢٤٢٧- وَسَبَبْتُمُوهُمْ ثُمَّ لَسْتُمْ كُفْأَهُمْ ... فَرَأَوْا مَسَبَّتَكُمْ مِنَ النُّقْصَانِ

قَوْلُهُ: «وَسَبَبْتُمُوهُمْ ثُمَّ لَسْتُمْ كُفْأَهُمْ» يعني: لستم مكافِئين لهم، بل أنتم أحقرُ منهم، وأدنى، وأذلُّ، ومع ذلك تَسُبُّونهم، ولكنَّ العقلَاء منهم أعرضوا عن سَبِّكم؛ ولهذا قال: «فَرَأَوْا مَسَبَّتَكُمْ مِنَ النُّقْصَانِ» يعني أنهم لم يتنزَّلوا ويَنْزِلُوا بأنفسهم حتى يسبُّوكم، بل جانَبُوكُم وتركوكم.

٢٤٢٨- هَذَا وَهُمْ قَبِلُوا وَصِيَّةَ رَبِّهِمْ ... فِي تَرْكِهِمْ لِمَسَبَّةِ الأَوْثَانِ

٢٤٢٩- حَذَرَ الْمُقَابَلَةِ القَبِيحَةِ مِنْهُمُ ... بِمَسَبَّةِ القُرْآنِ وَالرَّحْمَنِ

يعني: تركوا سبَّكم؛ لأنهم لو سبُّوكم لسببتم القرآنَ والحديثَ، كما أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- نهى عن سَبِّ الآلهة التي تُعْبَدُ من دونه؛ خوفًا من أن يُسَبَّ اللهُ عزَّ وجلَّ، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨] أمَّا أنتم إذا سببتم الذين يدعون من دون الله فإنكم تسبُّونهم بحقٍّ وبعلم، لكن هم إذا سَبُّوا اللهَ فإنما يسبُّون الله عَدْوًا بغير علم.

٢٤٣٠- وَكَذَاكَ أَصْحَابُ الحَدِيثِ فَإِنَّهُمْ ... ضُرِبَتْ لَهُمْ وَلَكُمْ بِذَا مَثَلَانِ

قَوْلُهُ: «بِذَا» أي: بالنهي عن سَبِّ آلهة المشركين؛ لئلا يَسبُّوا اللهَ، فكذلك أهلُ السُّنَّةِ (أهل الحديث) تركوا مسبَّتهم لئلا تَسبُّوا مِنهاجهم وتسبُّوا أدلَّتَهم من

كتاب الله وسُنَّةِ رسولِه.

٢٤٣١- سَبُّوكُمْ جُهَّالُهُمْ فَسَبَبْتُمُ سُنَنَ الرَّسُولِ وَعَسْكَرَ الإِيمَانِ

يعني أنَّ الجُهَّالَ من أهل السُّنَّة صاروا يسبُّون أئمةَ أهل البدعة سبًّا قبيحًا، فإلى أيِّ شيء أدى ذلك؟ قال: (فَسَبَبْتُمُ سُنَنَ الرَّسُولِ وَعَسْكَرَ الإِيمَانِ) أي: سببتم السُّننَ وأصحابَ السُّنن.

٢٤٣٢- وَصَدَدْتُمُ سُفَهَاءَكُمْ عَنْهُمْ وَعَنْ قَوْلِ الرَّسُولِ وَذَا مِنَ الطُّغْيَانِ

يعني: صددتم سفهاءكم عنهم، أي: عن أهل الحديث وعن قول الرسول، وذا من الطغيان وتجاوز الحدِّ بلا شكٍّ.

٢٤٣٣- وَدَعَوْتُمُوهُمْ لِلَّذِي قَالَتْهُ أَشْـ ـيَاخُ لَكُمْ بِالخَرْصِ وَالحُسْبَانِ

٢٤٣٤- فَأَبَوْا إِجَابَتَكُمْ وَلَمْ يَتَحَيَّزُوا إِلَّا إِلَى الآثَارِ وَالقُرْآنِ

٢٤٣٥- وَإِلَى أُولِي العِرْفَانِ مِنْ أَهْلِ الحَدِيـ ـثِ خُلاصَةِ الإِنْسَانِ وَالأَكْوَانِ

قَوْلُهُ: «دَعَوْتُمُوهُم» يعني: دعوتم سفهاءَكم، وصددتموهم عن الحقِّ، ودعوتموهم للباطل، وهو قول الشيوخ (فأَبَوْا إجابتكم).

ويَحْتَمِلُ أنَّ قولَ المؤلفِ: (وَدَعَوْتُمُوهُمْ) أي: دعوتم جُهَّالَ أهلِ السُّنَّة إلى ما أنتم عليه، وهذا الاحتمالُ الذي ذكرتُه هو الظاهر؛ لأنَّ قوله: (فَأَبَوْا إِجَابَتَكُم) لا يعني به سفاءَهم؛ إذ إنَّ سفهاءَهم قد أجابوهم.

٢٤٣٦- قَوْمٌ أَقَامَهُمُ الإِلَهُ لِحِفْظِ هَـ ـذَا الدِّينِ مِنْ ذِي بِدْعَةٍ شَيْطَانِ

قَوْلُهُ: «قَوْمٌ» يعني أهلَ الحديثِ.

قَوْلُهُ: «أَقَامَهُمُ الإلهُ» أي: مَنَّ عليهم حتَّى قاموا بحفظ هذا الدين، مِن كلِّ ذي بدعةٍ شيطان. **اللَّهُمَّ اجعلنا منهم.**

٢٤٣٧- وَأَقَامَهُمْ حَرَسًا مِنَ التَّبْدِيلِ وَالتْـ ... ـحْرِيـفِ وَالتَّتْمِـيمِ وَالنُّقْصَـانِ

قوله: «حَرَسًا مِنَ التَّبْدِيلِ والتَّحْرِيفِ» التحريفُ تغييرُ المعنى، والتبديلُ: تغييرُ اللفظ، وإذا أُفرِدَ التحريفُ صار شاملًا لتحريف اللفظ وتحريف المعنى.

كذلك أيضًا «وَالتَّتْمِيمِ وَالنُّقْصَانِ» التتميمُ يعني الزيادةَ، والنقصانُ يعني النَّقصَ (الحذفَ).

ومن المعلوم أنَّ القرآنَ لا يحتاجُ إلى تتميمٍ، لكن على قاعدة هؤلاء أنَّ فيه مجازًا فإنه يحتاجُ إلى تتميمٍ، مثلًا قولُه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢] يحتاجُ عندهم إلى أن يُقَالَ: (جاء أمرُ ربِّك) فالكلامُ لم يتمَّ.

وقولُ الرسولِ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ»(١) هذا عندهم يحتاجُ إلى تتميمٍ، فيُقَالُ: (ينزل أمرُ ربِّنا).

لكن أهل الحديث وقاهم اللهُ الشَّرَّ، أهلُ الحديث هم الذين أقامهم اللهُ لحفظِ هذا الدين، ودفعِ شُبَه الضالِّين، سواءً كان ذلك عن طريق التتميم أو النقصان.

٢٤٣٨- يَزَكٌ عَلَى الإِسْلامِ بَـلْ حِصْـنٌ لَـهُ ... يَـأْوِي إِلَيْـهِ عَسَـاكِرُ الفُرْقَـانِ

ظَنَّ الهرَّاسُ -رحمه الله- أنَّ اليَزَكَ يعني النَّيَازِك التي يُرْمَى بها، ولكن ليس هذا هو الظاهر؛ لأنَّ النَّيَازِك اسمٌ حادثٌ، لكن الظاهر أنَّ اليَزَكَ أي: السِّهام، أو

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١٠٩٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، رقم (٧٥٨).

اليَزَك: هو المشي الضعيف، يعني أنَّهم بالنسبة للإسلام لا يَعْدُونَ عليه عَدْوًا، أمَّا على المعنى الأول (أنهم يزكٌ عليه) فبمعنى أنهم يَزَكٌ له، أي: سهامٌ للإسلام.

٢٤٣٩- فَهُمُ المِحَكُّ فَمَنْ يُرَى مُتَنَقِّصًا لَهُمُ فَزِنْدِيقٌ خَبِيثُ جَنَانِ

قَوْلُهُ: «فَهُمُ المِحَكُّ» أي: أهلُ الحديثِ هم المِحَكُّ.

معنى (المحك): الذين يُخْتَبَرُ بهم الإنسان، مَن أحبَّهم فهو مِن أهل السُّنَّة، ومَنْ أبغضهم أو تنقَّصهم فهو من أهل البدعة؛ ولهذا يُقَالُ مثلًا: إذا رأيت الإنسانَ يُحِبُّ الإمامَ أحمد فهو سُنِّيٌّ، وإذا رأيتَه يُبْغِضُه فهو بِدْعِيٌّ.

قَوْلُهُ: «فَمَنْ يُرَى مُتَنَقِّصًا لَهُمُ فَزِنْدِيقٌ خَبِيثُ جَنَانِ» وهذا حقيقةٌ، فلا يُبْغِضُ أولياءَ الله إلَّا أعداءُ الله، لا شكَّ في هذا، فأولياءُ الله وأعداءُ الله الحربُ بينهما عَوَانٌ دائمًا وأبدًا، قال الله تعالى في الحديث القدسيِّ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ»[1].

فأهلُ الحديثِ هم المَحَكُّ، مَن تَنَقَّصَهم فهو زِنْدِيقٌ.

قَوْلُهُ: «خَبِيثُ جَنَانِ» أي: خبيثُ قلبٍ.

٢٤٤٠- إِنْ تَتَّهِمْهُ فَقَبْلَكَ السَّلَفُ الأُلَى كَانُوا عَلَى الإِيمَانِ وَالإِحْسَانِ

٢٤٤١- أَيْضًا قَدِ اتَّهَمُوا الخَبِيثَ عَلَى الهُدَى وَالْعِلْمِ وَالآثَارِ وَالْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «إنْ تَتَّهِمْهُ» يعني: تتهم البِدعِيَّ في زمنك، فإنَّ قبلَك مَن اتَّهم جنسَه؛ ولهذا قال: فإن فقبلك السلف الأُلَى أيضًا قد اتهموا الخبيث على الهدى. مثل اتهامِ ابن عُمَرَ للقَدَرِيَّة، واتهامِ التابعين الذين أدركوا الجهمَ بنَ صَفْوَان لجهمٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦١٣٧).

فالمهم أنَّ الرجلَ إذا اتَّهم الرجلَ بكراهة أهل السُّنَّة لأنه بدعِيٌّ، فإِنَّ هذا حقٌّ؛ لأنَّ السَّلَفَ الصالحَ اتَّهموا مَن كان على شاكلتِه بذلك.

٢٤٤٢- وَهُوَ الـحَقِيقُ بِذَاكَ إِذْ عَـادَى رُوَا ... ةَ الـدِّينِ وَهْـيَ عَـدَاوَةُ الـدَّيَّانِ

قَوْلُهُ: «الـحَقِيقُ بِذَاكَ» أي: بالخبث، فهو حقيقٌ بأن يكونَ خبيثًا؛ لأنه عادى رواةَ الدين، ومعاداةُ رواةِ دين الله معاداةٌ لله عزَّ وجلَّ.

٢٤٤٣- فَـإِذَا ذَكَـرْتَ النَّاصِـحِينَ لِـرَبِّهِمْ ... وَكِتَابِـــهِ وَرَسُـــولِهِ بِلِسَـــانِ

٢٤٤٤- فَاغْسِلْهُ وَيْلَكَ مِنْ دَمِ التَّعْطِيـلِ وَالتْـ ... ـتَكْــذِيبِ وَالْكُفْــرَانِ وَالْبُهْتَــانِ

يعني: إذا ذكرتَ الناصحين لله وكتابِه ورسولِه بلسانك فاغسِلْ لسانَك من دم التعطيل والتكذيب، أي: سِرْ على منواهم؛ لتغسلَ لسانَكَ من هذه الأوصافِ القبيحةِ، وهي التعطيل، والتكذيب، والكفران، والبهتان.

وهنا إيرادٌ واردٌ؛ إذ كيف يقولُ -رحمه الله- بأنَّهم جُهَّالٌ، وسَبُّوا أهلَ السُّنَّة، وهو نفسُه يَسُبُّهم، ووصفهم فيما سبق بأنَّهم حميرٌ، وأنهم يَلِجُونَ القَلُّوطَ ويشربون منه، وتظهرُ على شفاههم وأسنانهم الأخباثُ والأنتانُ؟

الجواب عن هذا أن يُقَالَ: السَّبُّ المواجِهُ هو الذي تَحْصُلُ به الفتنةُ، أمَّا السَّبُّ غيرُ المواجِه مِن أَجْلِ التحذير منهم فلا بأس به؛ ولهذا لَـمَّا استأذنَ رجلٌ على النَّبِيِّ ﷺ وقالوا: فلانٌ، قال: «بِئْسَ أَخُو العَشِيرَةِ»[1] فَسَبَّه، ولـمَّا دخل أعطاه سماحةً في الوجه، فَفَرْقٌ بين المقابلة وبين المدابرة، بمعنى أنك تَسُبُّ الرجلَ تحذيرًا من طريقته، لكن أمامَه إذا سببتَه ربَّما تُثير حفيظتَه فيسُبُّ ما أنت عليه من الدين.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب «لم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا»، رقم (٥٦٨٥)، ومسلم: كتاب البر والآداب والصلة، باب مداراة من يتقى فحشه، رقم (٢٥٩١).

٢٤٤٥- أَتَسُبُّهُمْ عَدْوًا وَلَسْتَ بِكُفْئِهِمْ؟! فَاللهُ يَفْدِي حِزْبَهُ بِالْجَانِي
٢٤٤٦- قَوْمٌ هُمُ بِاللهِ ثُمَّ رَسُولِهِ أَوْلَى وَأَقْرَبُ مِنْكَ لِلإِيمَانِ
٢٤٤٧- شَتَّانَ بَيْنَ التَّارِكِينَ نُصُوصَهُ حَقًّا لِأَجْلِ زُبَالَةِ الأَذْهَانِ
٢٤٤٨- وَالتَّارِكِينَ لِأَجْلِهَا آرَاءَ مَنْ آرَاؤُهُمْ ضَرْبٌ مِنَ الهَذَيَانِ
٢٤٤٩- لَمَّا فَسَا الشَّيْطَانُ فِي آذَانِهِمْ ثَقُلَتْ رُءُوسُهُمْ عَنِ القُرْآنِ
٢٤٥٠- فَلِذَاكَ نَامُوا عَنْهُ حَتَّى أَصْبَحُوا يَتَلَاعَبُونَ تَلَاعُبَ الصِّبْيَانِ
٢٤٥١- وَالرَّكْبُ قَدْ وَصَلُوا الْعُلَى وَتَيَمَّمُوا مِنْ أَرْضِ طَيْبَةَ مَطْلَعِ الإِيمَانِ
٢٤٥٢- وَأَتَوْا إِلَى رَوْضَاتِهَا وَتَيَمَّمُوا مِنْ أَرْضِ مَكَّةَ مَطْلَعِ الْقُرْآنِ
٢٤٥٣- قَوْمٌ إِذَا مَا نَاجِذُ النَّصِّ بَدَا طَارُوا لَهُ بِالجَمْعِ وَالْوُحْدَانِ
٢٤٥٤- وَإِذَا بَدَا عِلْمُ الهُدَى اسْتَبَقُوا لَهُ كَتَسَابُقِ الفُرْسَانِ يَوْمَ رِهَانِ
٢٤٥٥- وَإِذَا هُمُ سَمِعُوا بِمُبْتَدِعٍ هَذَى صَاحُوا بِهِ طُرًّا بِكُلِّ مَكَانِ
٢٤٥٦- وَرِثُوا رَسُولَ اللهِ لَكِنْ غَيْرُهُمْ قَدْ رَاحَ بِالنُّقْصَانِ وَالحِرْمَانِ
٢٤٥٧- وَإِذَا اسْتَهَانَ سِوَاهُمُ بِالنَّصِّ لَمْ يَرْفَعْ بِهِ رَأْسًا مِنَ الخُسْرَانِ
٢٤٥٨- عَضُّوا عَلَيْهِ بِالنَّوَاجِذِ رَغْبَةً فِيهِ وَلَيْسَ لَدَيْهِمُ بِمُهَانِ
٢٤٥٩- لَيْسُوا كَمَنْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَقِيقَةً وَتِلَاوَةً قَصْدًا بِتَرْكِ فُلَانِ
٢٤٦٠- عَزَلُوهُ فِي المَعْنَى وَوَلَّوْا غَيْرَهُ كَأَبِي الرَّبِيعِ خَلِيفَةِ السُّلْطَانِ

٢٤٦١- ذَكَــرُوهُ فَــوْقَ مَنَــابِرٍ وَبِسِــكَّةٍ رَقَمُــوا اسْــمَهُ فِي ظَـاهِرِ الأَثْــمَانِ

٢٤٦٢- وَالأَمْـرُ وَالنَّهْـيُ الـمُطَاعُ لِغَـيْرِهِ وَلِـمُهْتَدٍ ضُرِبَـتْ بِـذَا مَـثَلانِ

٢٤٦٣- يَا لَلْعُقُولِ أَيَسْتَوِي مَنْ قَـالَ بِالْـ ـــقُرْآنِ وَالآثَــارِ وَالْبُرْهَــانِ

٢٤٦٤- وَمُخَــالِفٌ هَــذَا وَفِطْـرَةَ رَبِّـهِ؟ اللهُ أَكْــبَرُ كَيْــفَ يَسْــتَوِيَانِ؟

الشــرحُ

هذه الأبيات يقولُ فيها المؤلفُ -رحمه الله-:

٢٤٤٥- أَتَسُبُّهُمْ عَدْوًا وَلَسْـتَ بِكُفْـئِهِمْ؟! فَـاللهُ يَفْـدِي حِزْبَـهُ بِالْـجَانِـي

تَسُبُّ أهلَ الحديث عَدْوًا، يعني اعتداءً وطغيانًا عليهم، (وَلَسْتَ بِكُفْئِهِم)؛ لأنهم خيرٌ منك.

قَوْلُهُ: «فَاللهُ يَفْدِي حِزْبَهُ بِالْـجَانِي» يعني: سأل اللهَ أن يجعلَ الجانِيَ فِداءً لحزب الله، وهذا لا بأسَ به.

وفداءُ الجاني لحزب الله إِمَّا أن يكونَ فِداءً حِسِّيًّا بأن يُهْلِكَه اللهُ على يده، أو فداءً معنويًّا بأن يُظْهِرَ أهلَ الحديث على هؤلاء الجُناة.

٢٤٤٦- قَــوْمٌ هُــمُ بِــاللهِ ثُــمَّ رَسُــولِهِ أَوْلَى وَأَقْــرَبُ مِنْــكَ للإِيــمَانِ

قَوْلُهُ: «قومٌ» يعني أهلَ الحديث.

قَوْلُهُ: «هُمُ بِاللهِ ثُمَّ رَسُولِهِ أَوْلَى وَأَقْرَبُ مِنْكَ للإِيمَانِ» يعني: هم أَوْلَى بالله ورسولِهِ منك، وأقربُ للإيمان منك.

٢٤٤٧- شَـتَّانَ بَـيْنَ التَّـارِكِينَ نُصُوصَـهُ حَقًّـا لِأَجْـلِ زُبَالَـةِ الأَذْهَـانِ

٢٤٤٨- وَالتَّـارِكِينَ لِأَجْلِهَـا آرَاءَ مَـنْ آرَاؤُهُـمْ ضَرْبٌ مِـنَ الـهَذَيَانِ

قَوْلُهُ: «شَتَّانَ» أي: بَعُدَ ما بين هؤلاء وهؤلاء.

شَتَّان بين هؤلاء وبين هؤلاء، أي: بين التاركين نصوصَه وبين الآخذين بنصوصِه، وهم أهلُ الحديث، بين الذين تركوا لأجلها آراءَ مَن آراؤهم ضَرْبٌ من الهَذَيان وبين مَن أخذوا بهذه الآراء.

٢٤٤٩- لَـمَّا فَسَـا الشَّـيْطَانُ فِي آذَانِهِـمْ ثَقُلَـتْ رَءُوسُـهُمْ عَـنِ القُـرْآنِ

٢٤٥٠- فَلِذَاكَ نَامُوا عَنْـهُ حَتَّـى أَصْـبَحُوا يَتَلَاعَبُـونَ تَلَاعُـبَ الصِّـبْيَانِ

هذان البيتان مأخوذان من قول النَّبِيِّ ﷺ حين قيل له: إِنَّ فلانًا نام عن صلاة الصُّبحِ، قال: «ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنِهِ»[1] فانسدَّتْ ببول الشَّيطان عن سَماع الأذان.

هؤلاء أيضًا تَلطَّف بهم ابنُ القيِّم، فجعل بدلَ البول فَسْوًا.

٢٤٥١- وَالرَّكْبُ قَدْ وَصَلُوا الْعُـلَى وَتَيَمَّمُـوا مِـنْ أَرْضِ طَيْبَـةَ مَطْلَـعِ الإِيـمَانِ

٢٤٥٢- وَأَتَـوْا إِلَى رَوْضَـاتِهَا وَتَيَمَّمُـوا مِـنْ أَرْضِ مَكَّـةَ مَطْلَـعِ الْقُـرْآنِ

وفرقٌ بين هؤلاء وهؤلاء، هؤلاء قصدوا المدينةَ لأجل الإيمان، ومكةَ لأجل القرآن.

واختلف التعبيران في كلام المؤلف؛ لأنَّ مكةَ بها ابتداءُ نزولِ القرآن، وأكثرُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب إذا نام ولم يصلِّ بال الشيطان في أذنه، رقم (١٠٩٣)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح، رقم (٧٧٤).

ما نزل من السور في مكة.

وأمَّا المدينة فهي مَقَرُّ الإيمانِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر:٩] يعني الأنصارَ الذين في المدينة، فجعل المؤلفُ المدينةَ مَطْلَعَ الإيمان، ومكةَ مطلعَ القرآن.

٢٤٥٣- قَـوْمٌ إِذَا مَـا نَاجِـذُ الـنَّصِّ بَـدَا ... طَـارُوا لَـهُ بِالـجَمْعِ وَالْوُحْـدَانِ

إذا بدا ناجذُ النَّصِّ طاروا له جُمُوعًا ومنفرِدين.

٢٤٥٤- وَإِذَا بَدَا عِلْمُ الـهُدَى اسْـتَبَقُوا لَـهُ ... كَتَسَـابُقِ الفُرْسَـانِ يَـوْمَ رِهَـانِ

وهؤلاء هم الذين لهم الفخرُ في الحقيقة.

٢٤٥٥- وَإِذَا هُـمُ سَـمِعُوا بِمُبْتَـدِعٍ هَـذَى ... صَـاحُوا بِـهِ طُـرًّا بِكُـلِّ مَكَـانِ

صاحوا به يُبيِّنون بدعتَه ويُحذِّرون منها.

٢٤٥٦- وَرِثُـوا رَسُـولَ الله لَكِـنْ غَـيْرُهُمْ ... قَـدْ رَاحَ بِالنُّقْصَـانِ وَالـحِرْمَانِ

قَوْلُهُ: «ورِثوا رسولَ الله» يعني أهلَ الحديث.

قَوْلُهُ: «لَكِنْ غَيْرُهُمْ قَدْ رَاحَ بِالنُّقْصَانِ وَالحِرْمَانِ» يعني بذلك أهلَ التعطيل.

٢٤٥٧- وَإِذَا اسْتَهَانَ سِوَاهُمُ بِـالنَّصِّ لَـمْ ... يَرْفَـعْ بِـهِ رَأْسًـا مِـنَ الـخُسْرَانِ

٢٤٥٨- عَضُّـوا عَلَيْـهِ بِالنَّوَاجِـذِ رَغْبَـةً ... فِيـهِ وَلَـيْسَ لَـدَيْهِمُ بِمُهَـانِ

أهلُ الحديث إذا استهانَ سواهم بالنَّصِّ، ولم يرفعْ به رأسًا، تلقَّوْه هم بالقَبول وعَضُّوا عليه بالنواجذ، وقالوا: نحن -بحمد الله- أهلُه، وهذا يدلُّ على أنهم ليسوا إِمَّعَةً يتبعون الناسَ على كُلِّ شيء، ولكن يأخذون بالحقِّ أينما كان.

٢٤٥٩- لَيْسُوا كَمَنْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَقِيقَةً وَتِلَاوَةً قَصْدًا بِتَرْكِ فُلَانِ

يعني: ليس أهلُ الحديث كَمَنْ نَبَذ الكتابَ حقيقةً وتلاوةً.

قَوْلُهُ: «حقيقةً» يعني: لم يأخذوا بمعانيه، وما دَلَّ عليه.

قَوْلُهُ: «وتلاوةً» يعني: اشتغلوا بغيره حتى عن تلاوة القرآن، فاشتغلوا بكتب هؤلاء المتبوعين والأشياخ، وتركوا القرآنَ حقيقةً وتلاوةً.

٢٤٦٠- عَزَلُوهُ فِي الْمَعْنَى وَوَلَّوْا غَيْرَهُ كَأَبِي الرَّبِيعِ خَلِيفَةِ السُّلْطَانِ

قَوْلُهُ: «عَزَلُوه فِي المعنَى» فنصبوه إمامًا في اللفظ، وَوَلَّوْا غيرَه القيادةَ.

هؤلاء مثلًا قالوا: القرآنُ أشرفُ الأشياءِ، وكلامُ الله -إن كانوا يقولون بأنه كلامُ الله- لكنَّهم لا يَتَّبِعُونه، فهذا عَزْلٌ له في المعنى.

قَوْلُهُ: «كَأَبِي الرَّبِيعِ خَلِيفَةِ السُّلْطَانِ» أبو الربيع يبدو أنه خليفةٌ لسلطانٍ سابقٍ تولَّى الخلافةَ، لكنَّه تولَّى الخلافةَ اسمًا، والتدبيرُ لغيرِه، فهذا لو سُمِّي خليفةً وسلطانًا، هل له سلطانٌ؟ الجواب: لا، لكن له شيءٌ خاصٌّ به؛ ولذا قال:

٢٤٦١- ذَكَرُوهُ فَوْقَ مَنَابِرٍ وَبِسِكَّةٍ رَقَمُوا اسْمَهُ فِي ظَاهِرِ الأَثْمَانِ

قَوْلُهُ: «ذَكَرُوهُ فَوْقَ مَنَابِر» قالوا مثلًا: اللَّهُمَّ أَيِّد سلطانَنا فلانَ بنَ فلانٍ، اللَّهُمَّ أَيِّد خليفتَنا فلانَ بنَ فلانٍ، وهو في الحقيقة ليس بسلطانٍ ولا خليفة لهم، فالأمرُ لغيرِه.

قَوْلُهُ: «وبِسِكَّةٍ رَقَمُوا اسْمَهُ فِي ظَاهِرِ الأَثْمَانِ» كان الخلفاءُ فيما سبق وإلى الآن يكتبون أسماءَهم على الدنانير والدراهم تعظيمًا لهم، فأبو الربيع هذا كُتِبَ اسمُه على الدنانير والدراهم، ويُدْعَى له فوق المنابر، ولكن لا سلطةَ له، بل السلطةُ لغيرِه.

المهم أنَّ ابنَ القيم -رحمه الله- ضرب مثلًا للقرآن عند هؤلاء بخليفةٍ ليس له أمرٌ ولا نهيٌ، إنما يُذْكَرُ اسمُه فوق المنابر، ويُدْعَى له، ويُكْتَبُ اسمُه على السِّكك، يعني: على النقود: الذهب والفضة.

٢٤٦٢- وَالأَمْـرُ وَالنَّهْـيُ الـمُطَاعُ لِغَـيْرِهِ ... وَلِـمُهْتَدٍ ضُرِبَـتْ بِـذَا مَـثَلانِ

قَوْلُهُ: «وَالأَمْرُ وَالنَّهْيُ المُطَاعُ لِغَيْرِهِ» أي: لغير هذا الحاكم.

قَوْلُهُ: «وَلِـمُهْتَدٍ ضُرِبَتْ بِذَا مَثَلانِ» أي: مَثَلُنا ومَثَلُكُمْ بالنسبة للقرآن كمثل خليفةٍ ليس له أمرٌ ولا نهيٌ عند أهل التعطيل، لكن عند أهل الحديث الأمرُ والنهيُ كُلُّه للقرآن والسُّنَّة.

٢٤٦٣- يَا لَلْعُقُولِ أَيَسْتَوِي مَـنْ قَـالَ بِالْـ ... ـقُرْآنِ وَالآثَـارِ وَالْبُرْهَـانِ

٢٤٦٤- وَمُخَـالِفٌ هَـذَا وَفِطْـرَةَ رَبِّـهِ؟ ... اللهُ أَكْـبَرُ كَيْـفَ يَسْـتَوِيَانِ؟

قَوْلُهُ: «أَيَسْتَوِي مَنْ قَالَ بالقُرآنِ... وَمُخالِفٌ هَذَا؟» الجَوابُ: لا يستويان.

قَوْلُهُ: «كَيْفَ يَسْتَوِيَانِ؟» يعني: لا يستويان، وصدق -رحمه الله-.

* * *

٢٤٦٥- بَـلْ فِطْـرَةُ اللهِ الَّتِـي فُطِـرُوا عَـلَى ... مَضْـمُونِهَا وَالْعَقْـلُ مَقْبُـولانِ

٢٤٦٦- وَالْوَحْيُ جَاءَ مُصَـدِّقًا لَـهُمَا فَـلَا ... تُلْـقِ الْعَـدَاوَةَ مَـا هُمَـا حَرْبَـانِ

٢٤٦٧- سِـلْمَانِ عِنْـدَ مُوَفَّـقٍ وَمُصَـدِّقٍ ... وَاللهُ يَشْـهَدُ أَنْ هُمَـا سِـلْمَانِ

٢٤٦٨- فَـإِذَا تَعَـارَضَ نَـصُّ لَفْـظٍ وَارِدٍ ... وَالْعَقْـلُ حَتَّـى لَـيْسَ يَلْتَقِيَـانِ

٢٤٦٩- فَالْعَقْـلُ إِمَّـا فَاسِـدٌ وَيَظُنُّـهُ الـرْ ... رَائِـي صَـحِيحًا وَهْـوَ ذُو بُطْـلَانِ

٢٤٧٠- أَوْ أَنَّ ذَاكَ النَّصَّ لَيْسَ بِثَابِتٍ مَا قَالَهُ المَعْصُومُ بِالبُرْهَانِ

٢٤٧١- وَنُصُوصُهُ لَيْسَتْ تُعَارِضُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَسَلْ عَنْهَا عَلِيمَ زَمَانِ

٢٤٧٢- وَإِذَا ظَنَنْتَ تَعَارُضًا فِيهَا فَذَا مِنْ آفَةِ الأَفْهَامِ وَالأَذْهَانِ

٢٤٧٣- أَوْ أَنْ يَكُونَ البَعْضُ لَيْسَ بِثَابِتٍ مَا قَالَهُ المَبْعُوثُ بِالْقُرْآنِ

الشرحُ

يقول المؤلف -رحمه الله-:

إنَّ الفِطرةَ التي فُطِرَ الناسُ عليها والعقلَ لا يمكنُ أنْ يَتَعَارَضَا؛ ولذا قال:

٢٤٦٥- بَلْ فِطْرَةُ الله الَّتِي فُطِرُوا عَلَى مَضْمُونِهَا وَالْعَقْلُ مَقْبُولَانِ

٢٤٦٦- وَالْوَحْيُ جَاءَ مُصَدِّقًا لَهُمَا فَلَا تُلْقِ الْعَدَاوَةَ مَا هُمَا حَرْبَانِ

عندنا ثلاثةُ أشياء: الفِطرةُ، والعقلُ الصريحُ، والنقلُ الصحيحُ، هذه الأشياءُ الثلاثةُ لا يمكنُ أن تتعارضَ إلَّا لآفةٍ.

فالفطرةُ رُبَّما تُعارِضُ العقلَ الصريحَ، لأنها فسدت؛ كما قال النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم-: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»[1].

فأمَّا فِطرةٌ سليمةٌ فإنها لا يمكنُ أن تُعارِضَ العقلَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام، رقم (١٣٥٨)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، رقم (٢٦٥٨).

العقلُ هل يعارضُ النقلَ؟

الجَوَابُ: لا، لا يمكنُ أبدًا، فالعقلُ الصريحُ -يعني السَّالِـم من الشُّبهات والشهوات- لا يمكنُ أبدًا أن يُعارِضَ النقلَ الصحيحَ.

ولشيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة كتابٌ سمَّاه: (**دَرْءُ تَعَارُضِ العقلِ والنقل**) واشتهر بين العلماء باسم (**العقل والنقل**)، وقد سبق ثَناءُ ابن القيِّمِ عليه، حتَّى قال فيه:

وَلَهُ كِتَابُ العَقْلِ وَالنَّقْـلِ الَّـذِي ... مَـا فِي الوُجُـودِ لَـهُ نَظِـيرٌ ثَـانِ

إِذَنْ لا يمكنُ أن يَتعارَضَ العقلُ والنقلُ، ولكن كيف نعملُ إذا تعارضا؟ يقول المؤلفُ -رحمه الله-:

٢٤٦٧- سِـلْطَانِ عِنْـدَ مُوَفَّـقٍ وَمُصَـدِّقٍ ... وَاللهُ يَشْـهَدُ أَنْ هُمَـا سِـلْطَانِ

قَوْلُهُ: «**سِلْطَانِ**» لكن هما سِلطان عند مَن؟ الجواب: عند الموفَّق المصدِّق، أمَّا المنكِر فهو يَدَّعِي أنَّ العقلَ يُعارِضُ النقلَ، والذي لم يوفَّق للجمع بينهما يظنُّ أيضًا تعارُضَ العقلِ والنقلِ.

٢٤٦٨- فَـإِذَا تَعَـارَضَ نَـصُّ لَفْـظٍ وَارِدٍ ... وَالْعَقْـلُ حَتَّـى لَـيْسَ يَلْتَقِيَـانِ

٢٤٦٩- فَالْعَقْـلُ إِمَّـا فَاسِـدٌ وَيَظُنُّـهُ الـرْ ... رَائِـي صَـحِيحًا وَهْـوَ ذُو بُطْـلَانِ

٢٤٧٠- أَوْ أَنَّ ذَاكَ الـنَّصَّ لَـيْسَ بِثَابِـتٍ ... مَـا قَالَـهُ الـمَعْصُومُ بِالبُرْهَـانِ

قَوْلُهُ: «**فَـإِذَا تَعَـارَضَ نَـصُّ لَـفْظٍ وَارِدٍ وَالْـعَقْلُ**» يعني: تعـارض النَّـصُّ والعقل.

يقول: إذا تعارضَ عقلٌ ونقلٌ في نظر الرَّائِي فلا يخلو من حالين:

الحال الأولى: إمَّا أنَّ العقلَ فاسدٌ أفسدتْه الشُّبهةُ أو الشَّهوةُ، ولستُ أريدُ بالشهوة هنا شهوةَ الجنس (**الجماع**)، بل الشَّهوة هنا تعني سوءَ القصد.

الحال الثانية: أو أنَّ النصَّ ليس بثابتٍ عن المعصوم.

فأمَّا أن يكونَ النَّصُّ ثابتًا والعقلُ صحيحًا فإنَّ التعارضَ لا يمكنُ أبدًا.

إِذَنْ إذا وجدتَ من نفسِك أنَّ النَّصَّ معارِضٌ للعقل فاتَّهِمْ عقلَك أو النَّصَّ.

واتِّهامُ النَّصِّ ليس معناه اتِّهامه أنه صدقٌ أو كذبٌ، إنما تتهم هل هو ثابتٌ أو غيرُ ثابتٍ؟ فإذا ثبت عن المعصوم فإنه لن يعارضَ العقلَ أبدًا.

ثُمَّ انتقل المؤلفُ -رحمه الله تعالى- إلى تعارض النصوص بعضِها مع بعضٍ، فقال:

٢٤٧١- وَنُصُوصُهُ لَيْسَتْ تُعَارِضُ بَعْضُهَا ... بَعْضًا فَسَلْ عَنْهَا عَلِيمَ زَمَانِ

أيضًا النصوصُ لا يمكنُ أن تتعارضَ أبدًا، ولاحظوا أنَّ المرادَ بالتعارض هنا ليس التعارضَ بين النصوص في العموم والخصوص فإنَّ هذا واردٌ، لكن التعارض أن تتقابلَ من كُلِّ وجه بحيث لا يمكنُ أن يجتمعَ بعضُها مع بعضٍ.

فالتعارضُ الذي هو التقابلُ من كُلٍّ لا يمكن أن يوجدَ في النصوص أبدًا.

فإن قال قائل: أليس قد ثبتَ النسخُ فعارضَ الناسخُ المنسوخَ؟ فالجواب: بلى، لكن إذا ثبت النسخُ فلا تعارضَ؛ لأنَّ المنسوخَ غيرُ قائم، فالمنسوخُ نُسِخَ وذهب، لكن كلامُنا على النصوص التي ليست بمنسوخةٍ لا يمكنُ أن تتعارضَ أبدًا.

٢٤٧٢- وَإِذَا ظَنَنْتَ تَعَارُضًا فِيهَا فَذَا ... مِنْ آفَةِ الأَفْهَامِ وَالأَذْهَانِ

٢٤٧٣- أَوْ أَنْ يَكُونَ البَعْضُ لَيْسَ بِثَابِتٍ ... مَا قَالَهُ الْمَبْعُوثُ بِالْقُرْآنِ

إذا رأيتَ تعارضًا بين نصَّيْن، سواء كان ذلك من نصوص القرآن أو من السُّنَّة فاعلم أنَّ ذلك من قُصور فَهْمِكَ وذهنك، وإلَّا فلا يمكنُ أن تتعارَض، أو أنَّ النصَّ ليس بثابتٍ، وهذا لا يكونُ إلَّا في تعارض السُّنَّةِ بعضها مع بعض التي تُنْسَبُ إلى الرسول -عليه الصلاة والسلام-.

***

٢٤٧٤- لَكِنَّ قَوْلَ مُحَمَّدٍ وَالْجَهْمِ فِي ... قَلْبِ الْمُوَحِّدِ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ

٢٤٧٥- إِلَّا وَيَطْرُدُ كُلُّ قَوْلٍ ضِدَّهُ ... فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا فَمُقْتَتِلانِ

٢٤٧٦- وَالنَّاسُ بَعْدُ عَلَى ثَلاثٍ: حِزْبُهُ ... أَوْ حَرْبُهُ أَوْ فَارِغٌ مُتَوَانِ

٢٤٧٧- فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ أَيْنَ تَجْعَلُهَا؟ فَلَا ... وَاللهِ لَسْتَ بِرَابِعِ الأَعْيَانِ

٢٤٧٨- مَنْ قَالَ بِالتَّعْطِيلِ فَهْوَ مُكَذِّبٌ ... بِجَمِيعِ رُسْلِ اللهِ وَالْفُرْقَانِ

٢٤٧٩- إِنَّ الْمُعَطِّلَ لا إِلَهَ لَهُ سِوَى الْـ ... ـمَنْحُوتِ بِالأَفْكَارِ فِي الأَذْهَانِ

٢٤٨٠- وَكَذَا إِلَهُ الْمُشْرِكِينَ نَحِيتَةُ الْـ ... أَيْدِي هُمَا فِي نَحْتِهِمْ سِيَّانِ

٢٤٨١- لَكِنْ إِلَهُ الْمُرْسَلِينَ هُوَ الَّذِي ... فَوْقَ السَّمَاءِ مُكَوِّنُ الأَكْوَانِ

٢٤٨٢- تَاللهِ قَدْ نَسَبَ الْمُعَطِّلُ كُلَّ مَنْ ... بِالْبَيِّنَاتِ أَتَى إِلَى الكِتْمَانِ

٢٤٨٣- وَاللهِ مَا فِي الْمُرْسَلِينَ مُعَطِّلٌ ... نَافِي صِفَاتِ الْوَاحِدِ الرَّحْمَنِ

٢٤٨٤- كَــلَّا وَلَا فِي الــمُرْسَلِينَ مُشَــبِّهٌ حَاشَـاهُمُ مِـنْ إِفْـكِ ذِي بُهْتَـانِ

٢٤٨٥- فَخُذِ الـهُدَى مِـنْ عَبْـدِهِ وَكِتَابِـهِ فَهُـمَا إِلَى سُـبُلِ الـهُدَى سَـبَبَانِ

الشــرحُ

لـمَّا ذكر المؤلفُ -رحمه الله- أنَّ العقلَ والفطرةَ، والشَّرعَ لا يتناقضان أبدًا ولا يتعارضان؛ ذكر أنَّ الذي يتعارضُ مع قول الرسول ﷺ هو عقلُ جهمٍ وأتباعِه؛ ولهذا قال:

٢٤٧٤- لَكِــنَّ قَــوْلَ مُحَمَّــدٍ وَالــجَهْمِ فِي قَلْـبِ الــمُوَحِّدِ لَـيْسَ يَجْتَمِعَـانِ

٢٤٧٥- إِلَّا وَيَطْــرُدُ كُــلُّ قَــوْلٍ ضِــدَّهُ فَــإِذَا هُمَــا اجْتَمَعَــا فَمُقْتَــتِلانِ

قَوْلُهُ: «قولَ محمدٍ» يعني رسولَ الله ﷺ.

٢٤٧٦- وَالنَّاسُ بَعْـدُ عَـلَى ثَـلاثٍ: حِزْبُـهُ أَوْ حَرْبُــهُ أَوْ فَــارِغٌ مُتَــوَانِ

قَوْلُهُ: «والناسُ بَعْدُ» يعني: الناس بعد هذا التقسيم على ثلاث طوائف: حزبٍ، وحربٍ، وفارغٍ متوانٍ.

فحزبُ الله هم أتباعُ رسلِه، وحربُ الله هم أعداءُ رسله، والثالثُ: فارغٌ لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء؛ لأنه لا ينظرُ إلى الحياة بجِدٍّ، وإنما ينظرُ إلى الحياة وكأنه بهيمةٌ.

٢٤٧٧- فَاخترْ لِنَفْسِكَ أَيْـنَ تَجْعَلُهَـا؟ فَـلَا وَالله لَسْــــتَ بِرَابِــعِ الأَعْيَـــانِ

قَوْلُهُ: «فَاخترْ لِنَفْسِكَ أَيْنَ تَجْعَلُهَا؟» من الحزبِ، أو من الحربِ، أو من الفارغِ المُتواني.

قَوْلُهُ: «وَاللهِ لَسْتَ بِرَابِعِ الأَعْيَانِ» فليس هناك قسمٌ رابعٌ، فالناسُ ثلاثُ طوائفَ.

٢٤٧٨- مَنْ قَالَ بِالتَّعْطِيلِ فَهْوَ مُكَذِّبٌ   بِجَمِيعِ رُسْلِ اللهِ وَالْفُرْقَانِ

الذي يقولُ بالتعطيل مُكَذِّبٌ لجميع الرُّسل؛ لأنَّ جميعَ الرُّسلِ يُثْبِتُون لله تعالى ما أثبته لنفسِه من صفات الكمال، وكذلك أتباعُهم، فلا تجدُ في كلامِ الرُّسلِ نفيًا لأيِّ صفةٍ كمالٍ من صفات الله.

٢٤٧٩- إِنَّ الـمُعَطِّلَ لا إِلَهَ لَـهُ سِـوَى الْـ   ـمَنْحُوتِ بِالأَفْكَارِ فِي الأَذْهَانِ

أراد -رحمه الله- أن يجعلَ المعطِّلَةَ كالمشركين، فالمشركون نحتوا أصنامًا يعبدونها من دون الله، والمعطِّلُ نحت شيئًا يعبدُه من دون الله؛ لأنَّ حقيقةَ قولِ المعطِّلِ أنه لا إله، لا سيما الذين يعطِّلون الأسماءَ والصفات.

يوجد أناسٌ يقولون: لا تقل: (إِنَّ اللهَ موجودٌ)، ولا تقل: (إِنَّ اللهَ غيرُ موجودٍ)؛ لأنك إِنْ قلتَ: (إِنَّ اللهَ موجودٌ) شَبَّهْتَه بالموجودات، وإن قلتَ: (إِنَّ اللهَ غيرُ موجودٍ) شبَّهْتَه بالمعدومات.

نقول لهم: سبحان الله! أنتم إذا قلتم: لا موجودٌ ولا معدومٌ شَبَّهتموه بالممتنِعات المستحيلات؛ لأنه لا يمكنُ أبدًا أن يكونَ شيءٌ لا موجودًا ولا معدومًا.

فهم نحتوا إلـهًا وقالوا: هذا الإلهُ، نحتوه بالأفكار والأذهانِ الفاسدةِ الباطلة.

والمشركون نحتوا أيضًا؛ ولذا قال:

٢٤٨٠- وَكَذَا إِلَـهُ الـمُشْرِكِينَ نَحِيتَـةُ الْـ   أَيْـدِي هُمَـا فِي نَحْـتِهِمْ سِـيَّانِ

هؤلاء إلـهُهُم نَحِيتَةُ الأفكار، وهؤلاء إلـهُهم نَحِيتَةُ الأيدي، فهما في نحتهم سِيَّانِ.

٢٤٨١- لَكِنْ إِلَـهُ الـمُرْسَلِينَ هُوَ الَّذِي فَوْقَ السَّمَاءِ مُكَوِّنُ الأَكْوَانِ

إلهُ المرسلين -سبحانه وتعالى- هو الذي فوق السَّماء مكوِّنُ الأكوان، نسأَلُ اللهَ أن يجعلَنا من أتباعِهم.

٢٤٨٢- تَاللهِ قَدْ نَسَبَ الـمُعَطِّلُ كُلَّ مَنْ بِالْبَيِّنَاتِ أَتَى إِلَى الكِتْمَانِ

المعطِّلُ يقولُ: الحقُّ عندي، نقولُ له: إذا كان الحقُّ عندك فهل أتت به الرُّسلُ الذين جاءوا بالبينات؟ ماذا يقول؟ يقول: لا، إِذَنْ كتموا الحقَّ وأَتَوْا بالباطل.

فَكُلُّ إنسانٍ يُعطِّل صفاتِ الله فقد اتَّهم الرُّسلَ كُلَّهم بالكتمان.

٢٤٨٣- وَاللهِ مَا فِي الـمُرْسَلِينَ مُعَطِّلٌ نَافِي صِفَاتِ الْوَاحِدِ الرَّحْمَنِ

٢٤٨٤- كَلَّا وَلَا فِي الـمُرْسَلِينَ مُشَبِّهٌ حَاشَاهُمُ مِنْ إِفْكِ ذِي بُهْتَانِ

وكذلك -ولله الحمد- أتباعُ المرسلين ليس فيهم معطِّلٌ وليس فيهم مُشَبِّهٌ، بل يقولون: آمنَّا بالله كما أرادَ اللهُ عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قال الرَّازيُّ -وهو من زعماء المعطِّلة-: «**لَقَدْ تَأَمَّلْتُ الطُّرُقَ الْكَلَامِيَّةَ، وَالْـمَنَاهِجَ الْفَلْسَفِيَّةَ، فَمَا رَأَيْتُهَا تَشْفِي عَلِيلًا، وَلَا تُرْوِي غَلِيلًا، وَرَأَيْتُ أَقْرَبَ الطُّرُقِ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ، اقْرَأْ فِي الْإِثْبَاتِ:** ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠]، **وأقرأ في النفي** ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، **ومَن جَرَّب مثل تَجرِبتي عرَف مثلَ معرفتي**»[1].

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص:١٧٨).

وهذا الكلامُ حقٌّ، فكُلُّ كلامِ أهل الكلام والفلسفة هُراء، لم يستفيدوا من بحثهم طُولَ أعمارِهم إلَّا قِيل وقال.

٢٤٨٥- فَخُذِ الـهُدَى مِنْ عَبْدِهِ وَكِتَابِهِ   فَهُمَا إِلَى سُبُلِ الـهُدَى سَبَبَانِ

قَوْلُهُ: «**خُذ الـهُدَى**» يعني: العلمَ والحقَّ.

قَوْلُهُ: «**مِن عَبْدِهِ**» وهو محمدٌ صلوات الله وسلامه عليه.

قَوْلُهُ: «**وَكِتَابِهِ**» أي: القرآن العظيم.

* * *

فصــل

فِي بُطْلانِ قَوْلِ المُلْحِدِينَ: إنَّ الاسْتِدْلالَ بِكَلامِ اللهِ وَرَسُولِهِ لا يُفِيدُ العِلْمَ وَاليَقِينَ

٢٤٨٦- وَاحْـذَرْ مَقَـالَاتِ الَّـذِينَ تَفَرَّقُـوا ... شِـيَعًا وَكَـانُوا شِـيعَةَ الشَّـيْطَانِ

٢٤٨٧- وَاسْأَلْ خَبِيرًا عَنْهُمْ يُنْبِيكَ عَنْ ... أَسْرَارِهِـمْ بِنَصِـيحَةٍ وَبَيَـانِ

٢٤٨٨- قَـالُوا: الـهُدَى لا يُسْتَفَادُ بِسُنَّةٍ ... كَـلَّا وَلا أَثَـرٍ وَلا قُـرْآنِ

٢٤٨٩- إِذْ كُـلُّ ذَاكَ أَدِلَّـةٌ لَفْظِيَّـةٌ ... لَـمْ تُبْـدِ عَـنْ عِلْـمٍ وَلا إِيقَـانِ

٢٤٩٠- فِيهَـا اشْـتِرَاكٌ ثُـمَّ إِجْمَـالٌ يُـرَى ... وَتَجَـوُّزٌ بِالزَّيْـدِ وَالنُّقْصَـانِ

٢٤٩١- وَكَذَلِكَ الإِضْمَارُ وَالتَّحْقِيقُ وَالْـ ... ـحَذْفُ الَّذِي لَـمْ يُبْـدِ عَـنْ تِبْيَـانِ

٢٤٩٢- وَالنَّقْـلُ آحَـادٌ فَمَوْقُـوفٌ عَـلَى ... صِـدْقِ الـرُّوَاةِ وَلَـيْسَ ذَا بُرْهَـانِ

٢٤٩٣- إِذْ بَعْضُهُمْ فِي الْبَعْضِ يَقْـدَحُ دَائِمًا ... وَالْقَـدْحُ فِـيهِمْ فَهْـوَ ذُو إِمْكَـانِ

٢٤٩٤- وَتَـوَاتُرٌ وَهْـوَ الْقَلِيـلُ وَنَـادِرٌ ... جِـدًّا فَـأَيْنَ الْقَطْـعُ بِالْبُرْهَـانِ؟

٢٤٩٥- هَـذَا وَيَحْتَـاجُ السَّـلَامَةَ بَعْـدُ مِـنْ ... ذَاكَ الْمُعَارِضِ صَاحِبِ السُّلْطَانِ

٢٤٩٦- وَهْوَ الَّذِي بِالْعَقْلِ يُعْـرَفُ صِـدْقُهُ ... وَالنَّفْـيُ مَظْنُـونٌ لَـدَى الإِنْسَـانِ

٢٤٩٧- فَلِأَجْلِ هَـذَا قَـدْ عَزَلْنَاهَـا وَوَلْـ ... ـيْنَـا الْعُقُـولَ وَمَنْطِـقَ الْيُونَـانِ

الشـــرحُ

هذه الأبياتُ يُبيِّنُ فيها المؤلفُ -رحمه الله- طريقةَ هؤلاء المعطِّلةِ، وخلاصةُ كلامهم: أنَّ نصوصَ الكتابِ والسُّنَّةِ لا تفيدُ اليقينَ، وأنَّ العقلَ هو الذي يفيدُ اليقينَ، والقاعدةُ المتفقُ عليها بين جميع الفرق أنه إذا تعارضَ اليقينُ والظنُّ قُدِّم اليقينُ، فإذا تعارضت دلالةُ الكتاب والسُّنَّة، ودلالةُ العقل، وَجَبَ أن نُقَدِّمَ دلالةَ العقل. لكن ما هو السَّببُ؟ يقول:

٢٤٨٦- وَاحْـذَرْ مَقَـالَاتِ الَّـذِينَ تَفَرَّقُـوا شِـيَعًا وَكَـانُوا شِـيعَةَ الشَّـيْطَانِ

احذر هذه المقالات؛ لأنَّ الذين تفرَّقوا شِيَعًا ليسوا على حقٍّ؛ بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٥٩] وإذا كان النَّبيُّ ﷺ ليس منهم في شيءٍ، فهم ليسوا على حقٍّ.

٢٤٨٧- وَاسْأَلْ خَبِيرًا عَـنْهُمْ يُنْبِيكَ عَـنْ أَسْرَارِهِـمْ بِنَصِـيحَةٍ وَبَيَـانِ

قَوْلُهُ: «اسأَلْ خَبيرًا» يريدُ بذلك نفسَه؛ لأنه -رحمه الله- يعرفُ مِن أقوالِهم الشيءَ الكثيرَ.

٢٤٨٨- قَـالُوا: الـهُدَى لا يُسْـتَفَادُ بِسُـنَّةٍ كَـلَّا وَلا أَثَـرٍ وَلا قُـرْآنِ

الهدى لا يُستفادُ لا بالسُّنَّةِ، ولا بالأثرِ عن الصحابة، ولا بالقرآن، لماذا؟ قال:

٢٤٨٩- إِذْ كُـلُّ ذَاكَ أَدِلَّـةٌ لَفْظِيَّـةٌ لَـمْ تُبْـدِ عَـنْ عِلْـمٍ وَلا إِيقَـانِ

قَوْلُهُ: «أدلةٌ لفظيةٌ» أي: لا تفيدُ العلمَ واليقينَ، لماذا؟ قال -رحمه الله-:

٢٤٩٠- فِيهَـا اشْـتِرَاكٌ ثُـمَّ إِجْمَـالٌ يُـرَى وَتَجَـوُّزٌ بِالزَّيْـدِ وَالنُّقْصَـانِ

٢٤٩١- وَكَذَلِكَ الإِضْمَارُ وَالتَّحْقِيقُ وَالْـ ـحَذْفُ الَّذِي لَمْ يُبْدِ عَنْ تِبْيَانِ

قَوْلُهُ: «**فِيهَا اشتراكٌ**» أي: ألفاظٌ مشتركةٌ بين معنيين فأكثر، واللفظُ المشتركُ عند العلماء هو اللفظُ الصالحُ لِمَعْنَيَيْنِ فأكثر، مثل كلمة: (**عين**) فهي لفظٌ مشتركٌ بين الشَّمس، والذهب، وعين الماء الجارية.

فإذن في القرآن والسُّنَّة ألفاظٌ مشتركةٌ، واللفظُ المشتَرَكُ محتمِلٌ لكُلِّ معانيه، إِذَنْ فلا يفيدُ اليقينَ.

قَوْلُهُ: «**إجمالٌ**» أي: فيها أيضًا إجمالٌ، والإجمالُ يقتضي الإبهامَ؛ لأنَّ المُجْمَلَ ضدُّ المُبَيَّن.

قَوْلُهُ: «**وَتَجَوُّزٌ**» أي: فيها أيضًا تَجَوُّزٌ، يعني: مجازًا.

قَوْلُهُ: «**بالزَّيد والنُّقْصَانِ**» يعني: تارَةً يكونُ هناك مجازٌ بالحذف، وهو النَّقصُ، وتارةً يكونُ مجازٌ بالزيادة.

فمثلًا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] قالوا: الكافُ زائدةٌ، هذا مجازٌ بالزيادة، وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢] قالوا: التقدير: (**جاء أمرُ رَبِّك**) فهذا مجازٌ بالنَّقص.

قَوْلُهُ: «**كذلكَ الإِضْمَارُ**» أي: فيها إضمارٌ يقتضي الإبهامَ، أحيانًا يَحتملُ عَوْدَ الضمير إلى كذا، وأحيانًا يَحتملُ عودَه إلى كذا.

قَوْلُهُ: «**التَّحْقِيق**» وفي نسخة (**التخصيص**)، ولعلَّ النسخةَ الثانية: (**التخصيص**) أصحُّ.

يعني: فيها التخصيص، بمعنى أنَّ اللفظَ العامَّ يدخلُه التخصيصُ، ومعلوم أنَّ اللفظَ العامَّ إذا دخله التخصيصُ انتفت دلالُته على العموم، وهذا نقصٌ فيها.

قَوْلُهُ: «الحَذْفُ الَّذِي لَـمْ يُبْدِ عَنْ تِبْيَانِ» أي: فيها حذفٌ، ولا يُعْرَفُ ما هو المحذوف ولم يتبيَّنْ.

كُلُّ هذه يَرَوْنَ أنها عيوبٌ تمنعُ من العلم والإيقان.

كذلك أيضًا عيوبٌ أخرى من نوع ثانٍ، قال:

٢٤٩٢- وَالنَّقْـلُ آحَـادٌ فَمَوْقُـوفٌ عَـلَى ... صِـدْقِ الـرُّوَاةِ وَلَـيْسَ ذَا بُرْهَـانِ

النقل إمَّا آحادٌ وإما متواتِر، نقلُ الآحاد موقوفٌ على صدق الرواة، وليس ذا برهان، وصدق الرواة ليس متيقَّنًا؛ إذ كُلُّ أحدٍ يمكنُ أن يكذبَ، كُلُّ أحدٍ يمكنُ أن ينسى، كُلُّ أحدٍ يمكنُ أن يتوهمَ؛ ولهذا قال:

٢٤٩٣- إِذْ بَعْضُهُمْ فِي الْبَعْضِ يَقْـدَحُ دَائِـمًا ... وَالْقَـدْحُ فِـيهِمْ فَهْـوَ ذُو إِمْكَـانِ

قَوْلُهُ: «إِذْ بَعْضُهُمْ فِي الْبَعْضِ يَقْدَحُ دَائِمًا» فإذا طالعنا كُتبَ الرجال وجدنا أنَّ الرُّواةَ يُقَالُ فيهم: هذا ضعيفُ الحفظِ، هذا سيِّئُ الحفظ، هذا فيه بدعةٌ، هذا فيه كذا، فيقدحُ بعضُهم بعضًا.

قَوْلُهُ: «وَالْقَدْحُ فِيهِمْ فَهْوَ ذُو إِمْكَانِ» يعني أنَّ القدحَ في الرواة ليس ممتنِعًا عقلًا، بل هو ممكنٌ.

٢٤٩٤- وَتَـوَاتُرٌ وَهْـوَ الْقَلِيـلُ وَنَـادِرٌ ... جِـدًّا فَـأَيْنَ الْقَطْـعُ بِالْبُرْهَـانِ؟

قَوْلُهُ: «وتواترٌ وَهْوَ القليلُ» يعني: النقلُ آحاد، و(تواتر) معطوفة على (آحاد) يعني: والنقلُ أيضًا تواترٌ.

قَوْلُهُ: «وَهْوَ الْقَلِيلُ وَنَادِرٌ جِدًّا فَأَيْنَ الْقَطْعُ بِالْبُرْهَانِ؟» فهنا عابوا النصوصَ أيضًا مِن وجهٍ آخر، وهو السَّندُ، قالوا: إنها تأتي عن طريقِ الآحاد، وطريقُ الآحاد

غيرُ مقطوعٍ بصدقه؛ لأنَّ الرواةَ يحصل فيهم الوهمُ والنسيانُ والكَذِبُ، وما أشبه ذلك.

أيضًا العلةُ الثالثةُ من نوعٍ ثالثٍ، قال:

٢٤٩٥- هَـذَا وَيَحْتَـاجُ السَّـلَامَةَ بَعْـدُ مِـنْ ... ذَاكَ المُعَارِضِ صَـاحِبِ السُّـلْطَانِ

٢٤٩٦- وَهْوَ الَّذِي بِالْعَقْلِ يُعْـرَفُ صِـدْقُهُ ... وَالنَّفْـيُ مَظْنُـونٌ لَـدَى الإِنْسَـانِ

٢٤٩٧- فَلِأَجْـلِ هَـذَا قَـدْ عَزَلْنَاهَـا وَوَلْـ ... لَيْنَـا الْعُقُـولَ وَمَنْطِـقَ الْيُونَـانِ

قَوْلُهُ: «يُعْرَفُ» في نسخة (يُفْرَضُ) وفي نسخة ثالثة (يَعْرِضُ) وأقربُها -والله أعلم-: (يُعْرَفُ).

يوجدُ أيضًا النوعُ الثالثُ، فيقول: هذه النقولُ تحتاجُ إلى أن تكونَ سالمةً من المعارِضِ الذي له السُّلطةُ، وهو العقلُ؛ لأنَّهم يَرَوْنَ أنَّ العقلَ مُقَدَّمٌ على النقل، فإذا عارضها العقلُ وجبَ الرجوعُ إليه.

ولكن سيأتي ردُّ المؤلف -رحمه الله- على هذه الشُّبَه على وجه التفصيل.

* * *

٢٤٩٨- فَـانْظُرْ إِلَى الإِسْـلَامِ كَيْـفَ بَقَـاؤُهُ ... مِنْ بَعْدِ هَذَا الْقَوْلِ ذِي الْـبُطْلَانِ؟

٢٤٩٩- وَانْظُـرْ إِلَى الْقُـرْآنِ مَعْـزُولًا لَدَيْـ ... ـهِمْ عَـنْ نُفُـوذِ وِلَايَـةِ الإِيقَـانِ

٢٥٠٠- وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ الرَّسُولِ كَذَاكَ مَعْـ ... ـزُولًا لَـدَيْهِمْ لَـيْسَ ذَا سُـلْطَانِ

٢٥٠١- وَاللهِ مَـا عَزَلُـوهُ تَعْظِـيمًا لَـهُ ... أَيَظُـنُّ ذَلِـكَ قَـطُّ ذُو عِرْفَـانِ؟!

٢٥٠٢- يَـا لَيْـتَهُمْ إِذْ يَحْكُمُـونَ بِعَزْلِـهِ ... لَـمْ يَرْفَعُـوا رَايَـاتِ جَنْكِزْخَـانِ

٢٥٠٣- يَـا وَيْلَهُـمْ وَلَّـوْا نِتَـائِجَ فِكْـرِهِمْ وَقَضَـوْا بِهَـا قَطْعًـا عَـلَى الْقُـرْآنِ
٢٥٠٤- وَرُذَالُـهُمْ وَلَّوْا إِشَارَاتِ ابْـنِ سِيـ ـنَا حِـينَ وَلَّـوْا مَنْطِـقَ الْيُونَـانِ
٢٥٠٥- وَانْظُرْ إِلَى نَصِّ الْكِتَـابِ مُـجَدَّلًا وَسْـطَ الْعَـرِينِ مُـمَزَّقَ اللُّحْـمَانِ
٢٥٠٦- بِالطَّعْنِ بِالإِجْمَالِ وَالإِضْـمَارِ وَالتَّـ ـخْصِـيصِ وَالتَّأْوِيـلِ بِالْبُهْتَـانِ
٢٥٠٧- وَبِالِاشْتِرَاكِ وَبِالْـمَجَازِ وَحَذْفِ مَـا شَـاءُوا بِـدَعْوَاهُمْ بِـلَا بُرْهَـانِ
٢٥٠٨- وَانْظُـرْ إِلَيْـهِ لَـيْسَ يَنْفُـذُ حُكْمُـهُ بَيْنَ الْـخُصُومِ وَمَـا لَـهُ مِـنْ شَـانِ
٢٥٠٩- وَانْظُـرْ إِلَيْـهِ لَـيْسَ يُقْبَـلُ قَوْلُـهُ فِي العِلْـمِ بِالأَوْصَـافِ لِلـرَّحْمَنِ
٢٥١٠- لَكِنَّـمَا الـمَقْبُولُ حُكْـمُ الْعَقْـلِ لَا أَحْكَامُـهُ لا يَسْـتَوِي الـحُكْمَانِ
٢٥١١- يَبْكِـي عَلَيْـهِ أَهْلُـهُ وَجُنُـودُهُ بِـدِمَائِهِمْ وَمَـدَامِعِ الأَجْفَـانِ
٢٥١٢- عَهِـدُوهُ قِـدْمًا لَـيْسَ يَحْكُـمُ غَـيْرُهُ وَسِـوَاهُ مَعْـزُولٌ عَـنِ السُّـلْطَانِ
٢٥١٣- إِنْ غَابَ نَابَتْ عَنْهُ أَقْـوَالُ الرَّسُـو لِ هُمَا لَـهُمْ دُونَ الْـوَرَى حَكَـمَانِ
٢٥١٤- فَأَتَـاهُمُ مَـا لَـمْ يَكُـنْ فِي ظَـنِّهِمْ فِي حُكْمِ جَنْكِزْخَـانِ ذِي الطُّغْيَـانِ
٢٥١٥- بِجُنُـودِ تَعْطِيـلٍ وَكُفْـرَانٍ مِـنَ الْـ مَنْغُـولِ ثُـمَّ الـلاصِ وَالْعَـلَّانِ
٢٥١٦- فَعَلُـوا بِمِلَّتِـهِ وَسُـنَّتِهِ كَـمَا فَعَلُـوا بِأُمَّتِـهِ مِـنَ الْعُـدْوَانِ
٢٥١٧- وَاللهِ مَا انْقَادُوا لِـجِنْكِزْخَانِ حَتْـ ـتَى أَعْرَضُوا عَنْ مُـحْكَمِ الْقُـرْآنِ
٢٥١٨- وَاللهِ مَـا وَلَّـوْهُ إِلَّا بَعْـدَ عَـزْ لِ الْوَحْيِ عَـنْ عِلْـمٍ وَعَـنْ إِيقَـانِ

٢٥١٩- عَزَلُوهُ عَنْ سُلْطَانِهِ وَهْوَ الْيَقِيـ ـنُ الْمُسْتَفَادُ لَنَا مِنَ السُّلْطَانِ
٢٥٢٠- هَذَا وَلَمْ يَكْفِ الَّذِي فَعَلُوهُ حَتْـ ـتَى تَمَّمُوا الْكُفْرَانَ بِالْبُهْتَانِ
٢٥٢١- جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ إِذْ عَضَهُوهُ أَنْـ ـوَاعًا مُعَدَّدَةً مِنَ النُّقْصَانِ
٢٥٢٢- مِنْهَا انْتِفَاءُ خُرُوجِهِ مِنْ رَبِّنَا لَمْ يَبْدُ مِنْ رَبٍّ وَلَا رَحْمَنِ
٢٥٢٣- لَكِنَّهُ خَلْقٌ مِنَ اللَّوْحِ ابْتَدَا أَوْ جِبْرَئِيلَ أَوِ الرَّسُولِ الثَّانِي
٢٥٢٤- مَا قَالَهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ الْعُلَى لَيْسَ الْكَلَامُ بِوَصْفِ ذِي الْغُفْرَانِ
٢٥٢٥- تَبًّا لَهُمْ سَلَبُوهُ أَكْمَلَ وَصْفِهِ عَضَهُوهُ عَضْهَ الرَّيْبِ وَالْكُفْرَانِ
٢٥٢٦- هَلْ يَسْتَوِي -بِالله- نِسْبَتُهُ إِلَى بَشَرٍ وَنِسْبَتُهُ إِلَى الرَّحْمَنِ؟
٢٥٢٧- مِنْ أَيْنَ لِلْمَخْلُوقِ عَيْنُ صِفَاتِهِ؟ اللهُ أَكْبَرُ لَيْسَ يَسْتَوِيَانِ
٢٥٢٨- بَيْنَ الصِّفَاتِ وَبَيْنَ مَخْلُوقٍ كَمَا بَيْنَ الإِلَهِ وَهَذِهِ الأَكْوَانِ

الشرحُ

تقدَّم أنَّ أهلَ التعطيل والإلحاد عزلوا القرآنَ عن إفادة العلم واليقين، وجعلوا الذي يفيدُ العلمَ واليقينَ هو العقل، وتعلَّلوا بتعاليلَ كُلُّها عليلةٌ، وكُلُّها إن صدقوا في دعواها، فإنما لُبِّسَت عليهم؛ لأنَّ قلوبَهم مغمورةٌ بمعاصيهم وسوء قصودِهم، كما قال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم:١٥] وكما قال: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤].

فالذي لا يعرفُ للقرآنِ حُرْمَتَه ولا للسُّنَّةِ حرمَتَها فالبلاءُ في قلبه.

يقول -رحمه الله-:

٢٤٩٨- فَـانْظُرْ إِلَى الإِسْـلَامِ كَيْـفَ بَقَـاؤُهُ ... مِنْ بَعْدِ هَذَا الْقَوْلِ ذِي الْـبُطْلَانِ؟

وصدق، كيف يبقى الإسلامُ ونحن نقولُ: إنَّ الأصلَيْن العظيمَيْن اللذَيْن ترتكز عليهما أحكامُه لا يُفيدان العِلمَ واليقينَ، بل لا يفيدان شيئًا على زعمهم؟! إذا قالوا: إنها تَحتملُ كذا وتحتملُ كذا، وهي مُجْمَلَةٌ وتحتاجُ إلى بيانٍ وما أشبَهَ ذلك، معناه أنَّ الدلالةَ رُفِعَتْ فيهما إطلاقًا، فأين يبقى الإسلامُ؟ الجواب: لا يبقى شيءٌ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

٢٤٩٩- وَانْظُـرْ إِلَى الْقُـرْآنِ مَعْـزُولًا لَدَيْـ ... ـهِمْ عَـنْ نُفُـوذِ وِلَايَـةِ الإِيقَـانِ

فهو -عندهم- معزولٌ عن اليقين، لا يمكنُ أن يدلَّ على اليقين أبدًا.

٢٥٠٠- وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ الرَّسُولِ كَذَاكَ مَعْـ ... ـزُولًا لَـدَيْهِمْ لَـيْسَ ذَا سُـلْطَانِ

٢٥٠١- وَاللهِ مَـا عَزَلُـوهُ تَعْظِـيمًا لَـهُ ... أَيَظُـنُّ ذَلِـكَ قَـطُّ ذُو عِرْفَـانِ؟!

ما عزلوا القرآنَ والسُّنَّةَ تعظيمًا لهما عن دلالة اليقين، ولكن استهانةً بهما؛ لأنهم لو عظَّموا القرآنَ والسُّنَّةَ حقَّ التعظيم؛ لأخذوا بما دلَّا عليه، وعَلِمُوا أنَّ فيهما من اليقين والعلوم ما ليس في عقولهم.

٢٥٠٢- يَـا لَيْـتَهُمْ إِذْ يَحْكُمُـونَ بِعَزْلِـهِ ... لَـمْ يَرْفَعُـوا رَايَـاتِ جَنْكِزْخَـانِ

يعني أنهم جمعوا -والعياذ بالله- بين التفريط والتنقيص للكتاب والسُّنَّة وبين رفعِ راية الكفر والطغيان، فصاروا ينادون بما قاله جنكيز خان وغيرُه من أئمة الملاحدة، ويَدَعُونَ ما جاء به الكتابُ والسُّنَّة.

٢٥٠٣- يَـا وَيْلَهُـمْ وَلَّـوْا نِتَـائِجَ فِكْـرِهِمْ وَقَضَـوْا بِهَـا قَطْعًـا عَـلَى الْقُـرْآنِ

يعني: أنَّهم رجعوا إلى الأفكار وتركوا القرآنَ وجعلوها هي الـحاكمة عليه.

٢٥٠٤- وَرُذَالُـهُمْ وَلَّوْا إِشَارَاتِ ابْـنِ سِيـ ـنَا حِيـنَ وَلَّـوْا مَنْطِـقَ الْيُونَـانِ

الأراذلُ منهم صاروا مقلِّدين لابن سينا في إشاراته وتابعين للمنطق اليونانيِّ، وإنما نسبه إلى اليونان؛ لأنَّ هذا البلاءَ الذي أصاب الأُمَّةَ الإسلاميةَ إنما جاء حين عُرِّبَت الكتبُ اليونانية والرومانيَّةُ كما قال ذلك شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ -رحمه الله-.

٢٥٠٥- وَانْظُرْ إِلَى نَصِّ الْكِتَـابِ مُـجَدَّلًا وَسْـطَ الْعَـرِينِ مُـمَزَّقَ اللُّحْـمَانِ

قَوْلُهُ: «مجدَّلًا» في نسخة: «مجندلًا» بالنون، وكلاهما لغةٌ، فيصحُّ.

يعني أنَّ القرآنَ مُجَدَّلٌ كما تُجَدَّلُ المَيْتاتُ عند عَرين الأسد ممزَّقة اللُّحْمان، أي أنهم لم يرفعوا به رأسًا، ولم يبالوا به، ولم يرجعوا إليه.

٢٥٠٦- بِالطَّعْنِ بِالإِجْمَالِ وَالإِضْـمَارِ وَالتْـ ـتَخْصِـيصِ وَالتَّأْوِيـلِ بِالْبُهْتَـانِ

٢٥٠٧- وَبِالِاشْتِرَاكِ وَبِالْـمَجَازِ وَحَذْفِ مَـا شَـاءُوا بِـدَعْوَاهُمْ بِـلَا بُرْهَـانِ

كُلُّ هذه عيوبٌ في الكلام يرمون بها القرآنَ والسُّنَّةَ، مرةً يقولُ: مُجْمَلٌ، ومرةً يقولُ: يحتاجُ إلى إضمار، ومرةً يقولُ: هذا خاصٌّ أو عامٌّ مخصوصٌ، مرةً يقولُ بالتأويل، وليس بتأويل حَقٍّ، بل هو تأويلُ بهتانٍ وكذبٍ، ومرةً يقول: هذا مشتَرَكٌ يَحتملُ معنيين، ومرةً يقولُ: هذا مجازٌ لا يُرادُ به الحقيقة، وهكذا.

٢٥٠٨- وَانْظُـرْ إِلَيْـهِ لَـيْسَ يَنْفُـذُ حُكْمُـهُ بَيْنَ الْـخُصُومِ وَمَـا لَـهُ مِـنْ شَـانِ

قَوْلُهُ: «وانظُرْ إليه» يعني: إلى القرآن.

قَوْلُهُ: «لَيْسَ يَنفُذُ حُكْمُهُ بين الخُصُومِ»؛ لأنَّ الحكمَ عندهم للعقل، فالقرآنُ ليس بحاكمٍ، بل معزولٌ عن الحكم.

٢٥٠٩- وَانْظُـرْ إِلَيْـهِ لَـيْسَ يُقْبَـلُ قَوْلُـهُ فِي العِلْـمِ بِالأَوْصَـافِ لِلـرَّحْمَنِ

يعني: لا يُقْبَلُ ما جاء به القرآنُ من أوصاف الله عزَّ وجلَّ.

٢٥١٠- لَكِنَّـمَا الـمَقْبُولُ حُكْـمُ الْعَقْـلِ لَا أَحْكَامُـهُ لا يَسْـتَوِي الــحُكْمَانِ

قَوْلُهُ: «لَكِنَّمَا المَقْبُولُ حُكْمُ الْعَقْلِ لَا أَحْكَامُه» يعني: لا أحكام القرآن.

قَوْلُهُ: «لا يَسْتَوِي الحُكْمَانِ» وفي نسخة: «الحَكَمان» وكلاهما صحيحٌ؛ لأنَّ الحَكَمَ حَاكمٌ، وإذا كان حَكَمان صار الحُكْمُ حُكْمَيْن.

٢٥١١- يَبْكِـي عَلَيْـهِ أَهْلُـهُ وَجُنُـودُهُ بِـدِمَائِهِمْ وَمَـدَامِعِ الأَجْفَـانِ

قَوْلُهُ: «يَبكِي عليه» يعني: على القرآنِ أو الإسلامِ الذي مصدرُه القرآنُ.

٢٥١٢- عَهِـدُوهُ قِـدْمًا لَـيْسَ يَحْكُـمُ غَـيْرُهُ وَسِـوَاهُ مَعْـزُولٌ عَـنِ السُّـلْطَانِ

قَوْلُهُ: «عهِدُوه» الضميرُ يعودُ على القرآن.

قَوْلُهُ: «لَيْسَ يَحْكُمُ غيرُه» وكان هذا في زمن الصحابة والتابعين وتابعي التابعين؛ لأنَّ الكتبَ الروميَّةَ واليونانيَّةَ إنما عُرِّبَت بعد انقضاء تابعي التابعين، وكان الناسُ في الزمن الأول على النهج المستقيم لا يرجعون إلَّا إلى القرآن والسُّنَّة.

٢٥١٣- إِنْ غَابَ نَابَتْ عَنْهُ أَقْـوَالُ الرَّسُـو   لِ هُمَا لَـهُـمْ دُونَ الْـوَرَى حَكَـمَانِ

قَوْلُهُ: «إِنْ غابَ» يعني القرآنَ.

قَوْلُهُ: «نَابَتْ عَنْهُ أَقْوَالُ الرَّسُولِ هُمَا لَـهُمْ دُونَ الْوَرَى حَكَمَانِ» يعني: إذا لم يجدوا في كتاب الله رجعوا إلى سُنَّةِ رسولِ الله -عليه الصلاة والسلام-.

٢٥١٤- فَأَتَـاهُمُ مَـا لَـمْ يَكُـنْ فِي ظَـنِّهِمْ   فِي حُكْمِ جَنْكِزْخَـانِ ذِي الطُّغْيَـانِ

أتاهم ما لم يكن في ظنِّهم وحُسْبَانهم مع جنود جنكيز خان وأحكامِه.

٢٥١٥- بِجُنُـودِ تَعْطِيـلٍ وَكُفْـرَانٍ مِـنَ الْـ   مَنْغُـولِ ثُـمَّ الـلاصِ وَالْعَـلَّانِ

المنغولُ هم المغولُ الذين خرجوا على الأمة الإسلامية، وهم التَّتَر، وحصل منهم شرٌّ عظيمٌ، تحدَّث عنه ابنُ الأثير -رحمه الله- في كتابه: (**الكامل في علم التاريخ**) ويُسَمَّى (**النهاية**) وذكر أشياءَ مُوجِعةً جدًّا.

٢٥١٦- فَعَلُـوا بِمِلَّتِـهِ وَسُـنَّتِهِ كَـمَا   فَعَلُـوا بِأُمَّتِـهِ مِـنَ الْعُـدْوَانِ

يعني أنَّ هؤلاء الطوائف الثلاث: المنغول، واللاص، والعلان، فعلوا بملة الرسول ﷺ وسنَّته كما فعلوا بأُمَّته من العُدوان.

٢٥١٧- وَالله مَا انْقَادُوا لِـجِنْكِزْخَانِ حَتْـ   تَى أَعْرَضُوا عَنْ مُـحْكَمِ الْقُـرْآنِ

وصدق -رحمه الله تعالى-، فما انقاد هؤلاء لمتابعة جنكيز خان إلَّا بعد أن أعرضوا عن القرآن؛ وذلك لأنَّ قلوبَهم لو كانت مشغولةً بالقرآن ما انشغلتْ بغيرِه، لكن إذا كان القلبُ فارغًا -والعياذ بالله- صارت الأهواءُ تتقاذفُه حتى يضلَّ.

٢٥١٨- وَاللهِ مَـا وَلَّـوْهُ إِلَّا بَعْـدَ عَـزْ لِ الْوَحْيِ عَـنْ عِلْـمٍ وَعَـنْ إِيقَـانِ

يعني: ما جعلوا الولايةَ له والاتِّباعَ له إلَّا بعد عزل الوحي عن علمٍ وعن إيقان.

٢٥١٩- عَزَلُوهُ عَـنْ سُـلْطَانِهِ وَهْـوَ الْيَقِيـ ـنُ الـمُسْتَفَادُ لَنَـا مِـنَ السُّـلْطَانِ

قَوْلُهُ: «**عَزَلُوهُ عَنْ سُلْطَانِهِ**» أي: عزلوا الوحي.

٢٥٢٠- هَذَا وَلَـمْ يَكْفِ الَّذِي فَعَلُوهُ حَتْـ ـتَـى تَـمَّمُوا الْكُفْـرَانَ بِالْبُهْتَـانِ

يعني: أنَّهم نَفَوْا أن يكونَ القرآنُ حَكَمًا في باب الصفات، وجعلوا الحَكَم هو العقل، وعلَّلوا ذلك بأنَّ النصوصَ لا يُستفاد منها اليقينُ -كما سبق- لثلاثة احتمالات؛ لأنَّ الدلالةَ تختلف، ولأنَّ الإسنادَ قد يكون ضعيفًا، ولأنه قد يُعَارَض بالعقل.

هنا يقولُ: إنَّهم تمَّموا الكفرانَ بالبهتان.

٢٥٢١- جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ إِذْ عَضَهُوهُ أَنْـ ـوَاعًا مُعَـدَّدَةً مِـنَ النُّقْصَـانِ

قَوْلُهُ: «**جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ إِذْ عَضَهُوهُ**» يعني: جعلوه أعضاءً.

٢٥٢٢- مِنْهَـا انْتِفَـاءُ خُرُوجِـهِ مِـنْ رَبِّنَـا لَـمْ يَبْـدُ مِـنْ رَبٍّ وَلَا رَحْمَـنِ

٢٥٢٣- لَكِنَّـهُ خَلْـقٌ مِـنَ اللَّـوْحِ ابْتَـدَا أَوْ جِبْرَئِيـلَ أَوِ الرَّسُـولِ الثَّانِـي

قَوْلُهُ: «**منها**»: أي: من هذه الأنواع.

إذا قالوا: إنَّ القرآنَ ليس كلامَ الله، إنما هو مأخوذٌ من اللوح المحفوظ، أو إنَّ جبريلَ تكلَّم به، أو إنَّ محمدًا تكلَّم به فهذا بلا شكٍّ تنقُّصٌ للقرآن، وجهُهُ:

ذكره المؤلفُ بقوله:

٢٥٢٤- مَـا قَالَـهُ رَبُّ السَّـمَوَاتِ الْعُـلَى ... لَيْسَ الْكَلامُ بِوَصْفِ ذِي الْغُفْـرَانِ

٢٥٢٥- تَبًّـا لَـهُمْ سَـلَبُوهُ أَكْمَـلَ وَصْـفِهِ ... عَضَهُوهُ عَضْهَ الرَّيْـبِ وَالْكُفْـرَانِ

٢٥٢٦- هَـلْ يَسْـتَوِي -بِـالله- نِسْبَتُهُ إِلَى ... بَشَـرٍ وَنِسْـبَتُهُ إِلَى الـرَّحْمَنِ؟

الجَوَابُ: لا، إذا قالوا: القرآنُ كلامُ جبريل، القرآنُ كلامُ الرسولِ الثاني وهو محمد -عليه الصلاة والسلام-، القرآنُ أُخِذَ من اللوح المحفوظ وليس كلامَ الله، لا شكَّ أَنَّ هذا تنقُّصٌ له، فلا يستوي كلامُ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ وكلامُ الخلق مهما كانوا.

لـمَّا بَيَّن المؤلف -رحمه الله- أنَّ الذين ينسُبون القرآنَ إلى كلام البشر أو الملَك أنَّ هذا تنقُّصٌ للقرآن؛ لأنه لا يستوي أن يُنْسَبَ القرآنُ لله، وأن يُنْسَب للبشر، فإنَّه إذا نُسِبَ للبشر -وهو من الله- فهذا تنقُّصٌ لله، لـمَّا بَيَّن ذلك قال:

٢٥٢٧- مِنْ أَيْنَ لِلْمَخْلُوقِ عَـيْنُ صِـفَاتِهِ؟ ... اللهُ أَكْـبَرُ لَـيْسَ يَسْـتَوِيَانِ

قَوْلُهُ: «مِنْ أَيْنَ لِلْمَخْلُوقِ عَيْنُ صِفَاتِهِ؟» يعني: كيف ينالُ المخلوقُ عينَ صفة الخالق، وهو هنا كلامُه.

وَقَوْلُهُ: «عَيْن صِفاته» وفي نسخة: «عِزّ صِفَاته» أي: عزُّ صفاتِ الله وعظمةُ صفاتِ الله لا يمكنُ أن تكون لكلام المخلوق.

قَوْلُهُ: «اللهُ أَكْبَرُ لَيْسَ يَسْتَوِيَانِ»؛ ولهذا قال الله -سبحانه وتعالى- لِلَّذِي قال: إنه قولُ البشر: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ [المدثر:٢٨] نعوذُ بالله.

٢٥٢٨- بَـيْنَ الصِّـفَاتِ وَبَـيْنَ مَخْلُـوقٍ كَـمَا بَـيْنَ الإِلَــهِ وَهَــذِهِ الأَكْــوَانِ

يعني: بينَ صفاتِ البشر وصفات الخالق كما بينَ الخالقِ والمخلوق؛ ولهذا كان من القواعد المقرَّرةِ عند أهل السُّنَّة أنَّ الصفات يُحذَى بها حذو الذات، يعني أنَّ صفاتِ الخالقِ تليقُ به وتختصُّ به، وصفات المخلوقِ تليقُ به وتختصُّ به.

خلاصةُ هذا البحثِ كُلِّه: أَنَّ ابنَ القيِّم -رحمه الله تعالى- بيَّنَ أنَّ هؤلاء عزلوا دلالةَ الكتاب والسُّنَّة عن اليقين، وقالوا: اليقينُ ما دلَّ عليه العقلُ، هذه واحدة.

أيضًا نفَوْا أن يكونَ القرآنُ كلامَ الله، وقالوا: إنما أخذه جبريلُ من اللوح المحفوظ، أو إنَّ جبريل تكلَّم به تعبيرًا عن كلامِ الله، أو إنَّ محمدًا تكلَّم به؛ لأنَّ اللهَ يقول: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢٠] وهو جبريل، ويقول: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ [الحاقة:٤٠-٤١] فالرسول الكريم هنا محمدٌ -صلى الله عليه وسلم-.

* * *

٢٥٢٩- هَـذَا وَقَـدْ عَضَـهُوهُ أَنَّ نُصُوصَـهُ مَعْزُولَــةٌ عَــنْ إِمْــرَةِ الإِيقَــانِ

٢٥٣٠- لَكِــنَّ غَايَتَهَــا الظُّنُــونُ وَلَيْتَــهُ ظَنًّــا يَكُــونُ مُطَابِقًــا بِبَيَــانِ

٢٥٣١- لَكِــنْ ظَـوَاهِرُ مَـا يُطَـابِقُ ظَنُّهَـا مَـا فِي الـحَقِيقَةِ عِنْـدَنَا بِـوِزَانِ

٢٥٣٢- إِلَّا إِذَا مَــا أُوِّلَــتْ فَمَجَازُهَــا بِزِيَــادَةٍ فِيهَــا أَوِ النُّقْصَــانِ

٢٥٣٣- أَوْ بِالْكِنَايَـةِ وَاسْـتِعَارَاتٍ وَتَشْـ ـبِيهٍ وَأَنْـوَاعِ المَجَـازِ الثَّانِـي

٢٥٣٤- فَالْقَطْعُ لَيْسَ يُفِيدُهُ وَالظَّنُّ مَنْـ ـفِيٌّ كَذَلِكَ فَانْتَفَى الأَمْرَانِ

٢٥٣٥- فَلِمَ الْـمَلامَةُ إِذْ عَزَلْنَاهَا وَوَلْـ لَيْنَا الْعُقُولَ وَفِكْرَةَ الأَذْهَانِ؟!

٢٥٣٦- فَاللهُ يُعْظِمُ فِي النُّصُوصِ أُجُورَكُمْ يَا أُمَّةَ الآثَارِ وَالْقُرْآنِ

٢٥٣٧- مَاتَتْ لَدَى الأَقْوَامِ لا يُحْيُونَهَا أَبَدًا وَلا تُحْيِيهُمُ لِـهَوَانِ

الشرحُ

٢٥٢٩- هَذَا وَقَدْ عَضَهُوهُ أَنَّ نُصُوصَهُ مَعْزُولَةٌ عَنْ إِمْرَةِ الإِيقَانِ

كُلُّ هذا في الحقيقة كرَّره المؤلفُ لأهميته، أي: أنَّها لا تدلُّ على اليقين.

٢٥٣٠- لَكِنَّ غَايَتَهَا الظُّنُونُ وَلَيْتَهُ ظَنًّا يَكُونُ مُطَابِقًا بِبَيَانِ

يعني: هي دلالتُها ظنيَّةٌ، ومع ذلك ليتها تكونُ مطابقةً.

٢٥٣١- لَكِنْ ظَوَاهِرُ مَا يُطَابِقُ ظَنُّهَا مَا فِي الْـحَقِيقَةِ عِنْدَنَا بِوِزَانِ

فمثلًا يقولون: قولُه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢] ظاهرُه أنَّ اللهَ هو الذي يجيءُ، وهذا ليس بمرادٍ، بل المرادُ **(جاء أمرُ ربِّك)** هذا هو الحقيقة.

٢٥٣٢- إِلَّا إِذَا مَا أُوِّلَتْ فَمَجَازُهَا بِزِيَادَةٍ فِيهَا أَوِ النُّقْصَانِ

٢٥٣٣- أَوْ بِالْكِنَايَةِ وَاسْتِعَارَاتٍ وَتَشْـ ـبِيهٍ وَأَنْوَاعِ المَجَازِ الثَّانِي

هنا ذكر المؤلفُ -رحمه الله- أنواعَ المجاز.

قَوْلُهُ: «**فَمَجَازُهَا بِزِيَادَةٍ فِيهَا أَوِ النُّقْصَانِ**» أي: أنَّ المجازَ يكونُ بالزيادة أحيانًا، ويكونُ بالنقص أحيانًا.

فقولُه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢] -على زعمهم- فيه مجازٌ بالنقص، وقولُه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١] فيه مجازٌ بالزيادة، وهي **الكاف**، قالوا: والتقدير: (**ليس مثلَه**).

قَوْلُهُ: «**أو بالكِنَايَةِ**» يعني: كنايةً عن كذا، فـ(**اليدُ**) عندهم كنايةٌ عن القدرة أو النعمة.

قَوْلُهُ: «**أوِ اسْتِعَارَات**» وهذا أيضًا نوعٌ من أنواع المجاز، والاستعارةُ أن يُجْعَلَ المُشَبَّهُ عينَ المُشَبَّهِ به، فتقولُ مثلًا: (**رأيتُ بحرًا لا تنقضي نقودُه**) يعني كريمًا، هذا يسمُّونه استعارة.

قَوْلُهُ: «**أوِ التَّشْبِيه**» يعني: وليس على سبيل الحقيقة.

قَوْلُهُ: «**وأنواع المَجَازِ الثَّانِي**» هل هناك مجازٌ أوَّلٌ وثانٍ؟

الجواب: لا، لكن المجاز هو الثاني بالنسبة للحقيقة، فـ (**الثاني**) في قوله: (**المجاز الثاني**) صفةٌ كاشفةٌ؛ لأنَّ المجازَ في المرتبة الثانية في الدلالة.

٢٥٣٤- فَالْقَطْعُ لَيْسَ يُفِيدُهُ وَالظَّنُّ مَنْـــ ـــفِيٌّ كَـذَلِكَ فَـانْتَفَى الأَمْـرَانِ

إِذَنْ القطعُ ليس يفيدُه، والظنُّ ليس يفيدُه أيضًا، فإذا كانت الدلالةُ الآن ليست قطعيَّةً ولا ظنِّيَّةً لم تَثْبُتْ إطلاقًا، وليس فيه دلالةٌ على أيِّ شيء.

٢٥٣٥- فَلِـمَ الْـمَلامَةُ إِذْ عَزَلْنَاهَـا وَوَلْـــ ـــلَيْنَـا الْعُقُـولَ وَفِكْـرَةَ الأَذْهَـانِ؟!

يعني: إذا كانت لا تدلُّ على شيءٍ فلماذا تلوموننا إذا قلنا: إذا كانت النصوصُ لا تدلُّ على شيءٍ، فالواجبُ الرجوعُ إلى العقل؟!

٢٥٣٦- فَاللهُ يُعْظِمُ فِي النُّصُوصِ أُجُورَكُمْ ... يَـا أُمَّـةَ الآثَـارِ وَالْقُـرْآنِ

٢٥٣٧- مَاتَـتْ لَـدَى الأَقْـوَامِ لا يُحْيُونَهَـا ... أَبَـدًا وَلا تُحْيِـيهُمُ لِـهَوَانِ

يُعَزِّي أُمَّةَ القرآن والآثار، ويقولُ لها: اللهُ يُعْظِمُ أجرَكم؛ لأنَّ النصوصَ ماتت؛ لأنه إذا كان لا يُسْتَدَلُّ بها على شيءٍ وهي لا تدلُّ على شيءٍ في نفس الواقع فهذا موتُها.

قَوْلُهُ: «لا يُحْيُونَهَا أَبَدًا وَلا تُحْيِيهُمُ لِـهَوَانِ» هم لا يحيونها ولا يرفعونها، وهي أيضًا لا تُحييهم، بل تُهينُهم؛ لأنَّ مَن لم يرفعْ رأسًا بالقرآن لم يرفعْه اللهُ.

***

٢٥٣٨- هَذَا وَقَوْلُـهُمْ خِلَافُ الْـحِسِّ وَالْـ ... ـمَعْقُولِ وَالْـمَنْقُولِ وَالبُرْهَـانِ

٢٥٣٩- مَعَ كَوْنِهِ أَيْضًا خِلافَ الْفِطْرَةِ الْـ ... أُولَى وَسُـنَّةِ رَبِّنَـا الـرَّحْمَنِ

٢٥٤٠- فَـاللهُ قَـدْ فَطَـرَ الْعِبَـادَ عَـلَى التَّفَـا ... هُمِ بِالْـخِطَابِ لِـمَقْصَدِ التِّبْيَـانِ

٢٥٤١- كُـلٌّ يَـدُلُّ عَـلَى الَّـذِي فِي نَفْسِـهِ ... بِكَلامِـهِ مِـنْ أَهْـلِ كُـلِّ لِسَـانِ

٢٥٤٢- فَتَرَى الْـمُخَاطَبَ قَاطِعًـا بِمُـرَادِهِ ... هَـذَا مَـعَ التَّقْصِـيرِ فِي الإِنْسَـانِ

٢٥٤٣- إِذْ كُـلُّ لَفْـظٍ غَـيْرِ لَفْـظِ نَبِيِّنَـا ... هُـوَ دُونَـهُ فِي ذَا بِـلَا نُكْـرَانِ

٢٥٤٤- حَاشَـا كَـلامَ اللهِ فَهْـوَ الْغَايَـةُ الْـ ... ـقُصْوَى لَـهُ أَعْـلَى ذُرَى التِّبْيَـانِ

٢٥٤٥- لَـمْ يَفْهَمِ الـثَّقَلَانِ مِـنْ لَفْـظٍ كَـمَا ... فَهِمُـوا مِـنَ الأَخْبَـارِ وَالْقُـرْآنِ

٢٥٤٦- فَهْوَ الَّذِي اسْتَوْلَى عَلَى التِّبْيَانِ كَاسْـ ... ـتِيلائِهِ حَقًّـا عَـلَى الإِحْسَـانِ

٢٥٤٧- مَا بَعْدَ تِبْيَانِ الرَّسُولِ لِنَاظِرٍ ... إلا الْعَمَى وَالْعَيْبُ فِي الْعُمْيَانِ

٢٥٤٨- فَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ الرَّسُولِ لِسَائِلٍ ... مِنْ صَحْبِهِ عَنْ رُؤْيَةِ الرَّحْمَنِ:

٢٥٤٩- حَقًّا تَرَوْنَ إِلَهَكُمْ يَوْمَ اللِّقَا ... رُؤْيَا الْعِيَانِ كَمَا يُرَى الْقَمَرَانِ

٢٥٥٠- كَالْبَدْرِ لَيْلَ تَمَامِهِ وَالشَّمْسِ فِي ... نَحْرِ الظَّهِيرَةِ مَا هُمَا مِثْلانِ

٢٥٥١- بَلْ قَصْدُهُ تَحْقِيقُ رُؤْيَتِنَا لَهُ ... فَأَتَى بِأَظْهَرِ مَا يُرَى بِعِيَانِ

٢٥٥٢- وَنَفَى السَّحَابَ وَذَاكَ أَمْرٌ مَانِعٌ ... مِنْ رُؤْيَةِ الْقَمَرَيْنِ فِي ذَا الآنِ

٢٥٥٣- فَأَتَى إِذَنْ بِالْمُقْتَضِي وَنَفَى الْمَوَا ... نِعَ خَشْيَةَ التَّقْصِيرِ فِي التِّبْيَانِ

٢٥٥٤- صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ، مَا هَذَا الَّذِي ... يَأْتِي بِهِ مِنْ بَعْدِ ذَا بِبَيَانِ؟

٢٥٥٥- مَاذَا يَقُولُ الْقَاصِدُ التِّبْيَانِ يَا ... أَهْلَ الْعَمَى مِنْ بَعْدِ ذَا التِّبْيَانِ؟

٢٥٥٦- فَبِأَيِّ لَفْظٍ جَاءَكُمْ قُلْتُمْ لَهُ: ... ذَا اللَّفْظُ مَعْزُولٌ عَنِ الإِيقَانِ

٢٥٥٧- وَضَرَبْتُمُ فِي وَجْهِهِ بِعَسَاكِرِ التْـ ... ـتَأْوِيلِ دَفْعًا مِنْكُمُ بِلِيَانِ

٢٥٥٨- لَوْ أَنَّكُمْ وَاللهِ عَامَلْتُمْ بِذَا ... أَهْلَ الْعُلُومِ وَكُتْبَهُمْ بِوِزَانِ

٢٥٥٩- فَسَدَتْ تَصَانِيفُ الْوُجُودِ بِأَسْرِهَا ... وَغَدَتْ عُلُومُ النَّاسِ ذَاتَ هَوَانِ

٢٥٦٠- هَذَا وَلَيْسُوا فِي بَيَانِ عُلُومِهِمْ ... مِثْلَ الرَّسُولِ وَمُنْزِلِ الْقُرْآنِ

الشرحُ

٢٥٣٨- هَذَا وَقَوْلُهُمْ خِلَافُ الْحِسِّ وَالْـ ... ـمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ وَالْبُرْهَانِ

٢٥٣٩- مَعَ كَوْنِهِ أَيْضًا خِلافَ الْفِطْرَةِ الْـ أُولَى وَسُـنَّةِ رَبِّنَـا الـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «قَوْلُـهُم» يعني أنَّ أدلةَ الكتابِ والسُّنَّةِ ظنِّيَّةٌ، وهي أيضًا ظواهرُ لا تفيدُ اليقينَ، يقولُ: إنَّ قولَهم هذا خلافُ العقلِ، والنقلِ، والفِطرةِ.

٢٥٤٠- فَاللهُ قَدْ فَطَرَ الْعِبَادَ عَلَى التَّفَا هُمِ بِالخِطَابِ لِـمَقْصَدِ التِّبْيَانِ

الناس مفطورون على التفاهم ليُعبِّروا عمَّا في نفوسهم بطريق التفاهم، أي: بالخطاب.

٢٥٤١- كُلٌّ يَدُلُّ عَلَى الَّذِي فِي نَفْسِهِ بِكَلامِهِ مِنْ أَهْلِ كُلِّ لِسَانِ

فأنت لا تعلمُ ما في نفسي إلَّا بما أُعَبِّرُ به، وأنا لا أعلمُ ما في نفسِك إلَّا بما تُعَبِّرُ به، فالمُعَبِّرُ يريدُ أن يَدُلَّ الناسَ على ما في قلبه.

٢٥٤٢- فَتَرَى الـمُخَاطَبَ قَاطِعًا بِمُرَادِهِ هَـذَا مَـعَ التَّقْصِيرِ فِي الإِنْسَانِ

المخاطَبُ (المتكلِّم) حينما يتكلَّمُ فهو قاطعٌ بمراده، يعني: يعلمُ ما أراد ويقطعُ به، وليس عنده شكٌّ في ذلك.

ويجوزُ أن يكونَ المرادُ: فترى المخاطَبَ قاطعًا بمراد المتكلِّم، هذا مع التقصير في الإنسان.

والمعنيان كلاهما صحيحٌ: فالمتكلِّمُ يقطعُ بمراده، ويريدُ المعنى الذي يقوله إذا كان عاقلًا، والمخاطَبُ كذلك يقطعُ -أحيانًا- بمراد المتكلِّم، مع أنَّ الإنسانَ قاصرٌ في الفهم، هذا إذا قلنا: (**المخاطَب**)، وإذا قلنا: (**المخاطِب**) فالمتكلِّمُ قاصرٌ في التعبير، قد لا يستطيعُ أن يُعَبِّرَ عَمَّا في نفسه، والمخاطَبُ قاصرٌ في الفهم، قد لا يستطيعُ فهمَ كلام المتكلِّم، ومع ذلك يقطعُ المخاطِبُ والمخاطَبُ بمراد المتكلِّم.

٢٥٤٣- إِذْ كُلُّ لَفْظٍ غَيْرِ لَفْظِ نَبِيِّنَا هُوَ دُونَهُ فِي ذَا بِلَا نُكْرَانِ

وصدق -رحمه الله-، فجميعُ كلامِ الوَرَى دون كلامِ رسولِ الله ﷺ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ أفصحُ الخلقِ بلا منازعٍ، ثُمَّ استثنى فقال:

٢٥٤٤- حَاشَا كَلَامَ الله فَهْوَ الْغَايَةُ الْـ ـقُصْوَى لَهُ أَعْلَى ذُرَى التِّبْيَانِ

صدق، يعني: إلَّا كلامَ الله، فإنه أَبْيَنُ من كلام الرسول ﷺ؛ لأنَّ كلامَ الله أَبْيَنُ الكلام، وأفصحُ الكلام، وأوضحُ الكلام، لكنَّ أفهامَنا قاصرةٌ ضعيفةٌ، لا نفهمُ هذا الكلامَ العظيمَ حَقَّ الفهم؛ ولذلك قد يظنُّ بعضُ الناس أنَّ كلامَ الله عزَّ وجلَّ ليس أَبْيَنَ الكلام.

وهذا لاشكَّ أنه قد يكونُ صادقًا، وذلك من قصوره أو تقصيره، أمَّا حقيقةُ الأمر فوالله إنَّ كلامَ الله أَبْيَنُ الكلام، بل إنَّ اللهَ تعالى قال في كتابه مُخْبِرًا مُلْتَزِمًا: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧] أي: فادَّكروا؛ فإنَّ القرآنَ مُيَسَّرٌ، لكن مع الأسف فإنَّنا -ولا سيما في هذا العصر- إنما يتلو القرآنَ أكثرُنا للتبرُّكِ به، ونيلِ الثواب بقراءته، لا للتدبُّر، وتَفَهُّم المعنى؛ ولذلك حُجِبَ عنَّا معناه العظيمُ، وصار صعبًا علينا.

٢٥٤٥- لَمْ يَفْهَمِ الثَّقَلَانِ مِنْ لَفْظٍ كَمَا فَهِمُوا مِنَ الأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ

وهذا صحيحٌ، يعني: لم يفهم الثقلان: (الجنُّ والإنس) كما فهموا من القرآنِ والأخبارِ، وذلك فيمَنْ فَهْمُه صحيحٌ، ولغتُه صحيحةٌ، أمَّا العامِّيُّ فإنه يأتيه عامِّيٌّ متعجرِفٌ ويفهمُ من كلامه أكثرَ ممَّا يفهمُ من كلامِ الله ورسولِهِ؛ لأنه عامِّيٌّ لا يعرفُ، لكن مراده بالناس: الذين أعطاهم الله تعالى صحةَ الفهم ومعرفةَ اللغة.

٢٥٤٦- فَهوَ الَّذِي اسْتَوْلَى عَلَى التِّبْيَانِ كَاسْـ ـــتِيلائِهِ حَقًّا عَلَى الإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «اسْتَوْلَى عَلَى التِّبْيَانِ» أي: التوضيح.

قَوْلُهُ: «كَاسْتِيلائِهِ حَقًّا عَلَى الإِحْسَانِ» أي: الفصاحة والكمال، فالقرآنُ كاملٌ في تِبيانه، وفي فصاحتِهِ وبلاغتِهِ.

٢٥٤٧- مَا بَعْدَ تِبْيَانِ الرَّسُولِ لِنَاظِرٍ إلا الْعَمَى وَالْعَيْبُ فِي الْعُمْيَانِ

وهذا صحيحُ، فهل بعد بيان الرسول بيانٌ؟ الجواب: أبدًا، لكن الأعمى لا يُحِسُّ به.

قَوْلُهُ: «وَالْعَيْبُ فِي الْعُمْيَانِ» يعني: عميان البصائر، لا عميان البصر.

٢٥٤٨- فَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ الرَّسُولِ لِسَائِلٍ مِنْ صَحْبِهِ عَنْ رُؤْيَةِ الرَّحْمَنِ:

٢٥٤٩- حَقًّا تَرَوْنَ إِلَـهَكُمْ يَوْمَ اللِّقَا رُؤْيَا الْعِيَانِ كَمَا يُرَى القَمَرَانِ

قَوْلُهُ: «انظُر» يعني: انظر أيُّها الإنسانُ نظرَ تأمُّلٍ.

انظر إلى قول الرسول لمن؟ قال: (لسائلٍ من صَحْبِه) يعني: من الصحابة.

قَوْلُهُ: «عَنْ رُؤْيَة» متعلِّق بسائل.

رَجُلٌ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: يَا رَسُولَ الله: هَلْ نَرَى رَبَّنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، وَكَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»(١)، وهل هناك شيءٌ أبينُ من هذا؟

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، رقم (٦٢٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢).

٢٥٥٠- كَالْبَدْرِ لَيْلَ تَمَامِهِ وَالشَّمْسِ فِي   نَحْرِ الظَّهِيرَةِ مَا هُمَا مِثْلانِ

قَوْلُهُ: «وَالشَّمْسِ» يعني: وكالشَّمسِ.

قَوْلُهُ: «فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ مَا هُمَا مِثْلانِ»؟ قوله: «ما هما»، أي: المرئيَّان، يعني: إنَّكم ستَرَوْنَ رَبَّكم كالقمرِ والشَّمسِ، لا على أنَّ اللهَ مثلُ الشَّمس أو مثلُ القمر؛ ولذا قال:

٢٥٥١- بَلْ قَصْدُهُ تَحْقِيقُ رُؤْيَتِنَا لَهُ   فَأَتَى بِأَظْهَرِ مَا يُرَى بِعِيَانِ

قَوْلُهُ: «بَلْ قَصْدُهُ تَحْقِيقُ رُؤْيَتِنَا لَهُ» أي: قصدُ النَّبيِّ ﷺ حين قال: «تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ»، تحقيقُ الرؤية؛ ولهذا دخلت الكاف على المصدر المؤوَّل من الفعل: «تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ» أي: كرؤيتكم، ولم تدخل على المُشَبَّه به، يعني: لم يقل: إنكم ترون ربَّكم كالقمر، بل قال: «كَمَا تَرَوْنَ»، فالتشبيهُ إِذَنْ للرؤيةِ بالرؤيةِ، لا للمرئِيِّ بالمرئيِّ.

٢٥٥٢- وَنَفَى السَّحَابَ وَذَاكَ أَمْرٌ مَانِعٌ   مِنْ رُؤْيَةِ الْقَمَرَيْنِ فِي ذَا الآنِ

قَوْلُهُ: «نَفَى السَّحَابَ» أي: في قوله: «صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ».

قَوْلُهُ: «فِي ذَا الآن» أي في حال وجود السَّحاب، فإنَّ السَّحابَ يمنعُ من رؤية الشَّمس ومن رؤية القمر.

٢٥٥٣- فَأَتَى إِذَنْ بِالْمُقْتَضِي وَنَفَى المَوَا   نِعَ خَشْيَةَ التَّقْصِيرِ فِي التِّبْيَانِ

قَوْلُهُ: «أَتَى إِذَنْ بِالْمُقْتَضِي» أي: أتى بالمقتضِي للرؤية، وهو الصَّحْو.

قَوْلُهُ: «وَنَفَى المَوَانِعَ» وهو قوله: «لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ».

ومعلومٌ أنه إذا وُجِدَ المقتضِي وانتفى المانعُ ثَبَتَ الحُكْمُ.

قَوْلُهُ: «خَشْيَةَ التَّقْصِيرِ فِي التِّبْيَانِ» يعني: لئلا يكونَ هناك تقصيرٌ في البيان.

٢٥٥٤- صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ، مَا هَذَا الَّذِي ... يَأْتِي بِهِ مِنْ بَعْدِ ذَا بِبَيَانِ؟

قَوْلُهُ: «مِنْ بَعْدِ ذَا بِبَيَانِ» وفي نسخة: (مِن بعدِ ذَا التِّبيانِ).

يعني: هل يمكنُ لأحدٍ أن يأتيَ ببيانٍ أحسنَ من هذا البيان؟ الجواب: لا.

٢٥٥٥- مَاذَا يَقُولُ الْقَاصِدُ التِّبْيَانِ يَا ... أَهْلَ الْعَمَى مِنْ بَعْدِ ذَا التِّبْيَانِ؟

ماذا يقولُ؟ الجوابُ: لا يقولُ شيئًا، فليس هناك أَبْيَنُ من هذا.

٢٥٥٦- فَبِأَيِّ لَفْظٍ جَاءَكُمْ قُلْتُمْ لَهُ: ... ذَا اللَّفْظُ مَعْزُولٌ عَنِ الإِيقَانِ

قَوْلُهُ: «جاءَكُم» يعني محمدًا -عليه الصلاة والسلام-.

قَوْلُهُ: «قُلْتُم له: ذَا اللَّفْظُ مَعْزُولٌ عَنِ الإِيقَانِ» حتى لو قاله النَّبِيُّ ﷺ مباشرةً وجهًا لوجهٍ، قالوا: هذا الكلامُ معزولٌ عن اليقين، هذا يفيدُ الظنَّ ولا يفيدُ اليقينَ.

٢٥٥٧- وَضَرَبْتُمُ فِي وَجْهِهِ بِعَسَاكِرِ التْـ ... ـتَأْوِيلِ دَفْعًا مِنْكُمُ بِلِيَانِ

قَوْلُهُ: «دَفْعًا مِنْكُمُ بِلِيَانِ» يعني: تسهيلًا للأمر؛ لأنهم لا يستطيعون أن يقولوا: لا، بل هم يقولون: نعم، لكن المرادُ كذا.

فمثلًا في قول النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»[1]، أو «كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ»[2]، لا يستطيعون أن

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، رقم (٦٢٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، رقم (٧٤٣٥).

يقولوا: لا نرى رَبَّنا، بل يقولون: نعم نرى ربَّنا، لكن رؤية بصيرة لا رؤية بصر، وإنما ضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ هذا المَثَلَ مِن أَجْلِ تحقيق رؤيةِ البصيرة، لا رؤية البصر.

ولا شكَّ أنَّ هذا قلبٌ للحقائق؛ ولهذا يدفعونها بالتأويل تليينًا للرَّدِّ؛ لأنَّهم لو كَذَّبوا ما قُبِلَتْ أقوالُهم، ولكفَّرهم الناسُ، لكن يأتون بالتأويلات المستكرَهةِ مِن أَجْلِ لِين الرَّدِّ؛ ولهذا قال: (**دَفْعًا مِنْكُمُ بِلِيَانِ**).

٢٥٥٨- لَـوْ أَنَّكُـمْ وَاللهِ عَـامَلْتُمْ بِـذَا ... أَهْـلَ الْعُلُـومِ وَكُتْـبَهُمْ بِـوِزَانِ

٢٥٥٩- فَسَدَتْ تَصَانِيفُ الْوُجُودِ بِأَسْرِهَـا ... وَغَدَتْ عُلُومُ النَّـاسِ ذَاتَ هَـوَانِ

يعني: لو أنَّكم قلتم في جميع كلام الناس: هذا لا يفيدُ اليقينَ، هذا ليس على ظاهرِهِ، هذا مُؤوَّل، لو قلتم ذلك فسدت الكتبُ، وصار كُلُّ كتابٍ لا يمكنُ أن تأخذَ منه الكلامَ واليقين.

٢٥٦٠- هَـذَا وَلَيْسُـوا فِي بَيَـانِ عُلُـومِهِمْ ... مِثْـلَ الرَّسُـولِ وَمُنْـزِلِ الْقُـرْآنِ

ليسوا مثلَ كلامِ الرسول ولا كلام الله، ومع ذلك يحترمون كلامَ شيوخِهم، ويأخذون بظاهره، ولا يأخذون بظاهرِ القرآنِ والسُّنَّة.

* * *

٢٥٦١- وَاللهِ لَـوْ صَـحَّ الَّـذِي قَـدْ قُلْـتُمُ ... قُطِعَـتْ سَـبِيلُ الْعِلْـمِ وَالإِيـمَانِ

٢٥٦٢- فَالْعَقْـلُ لا يَهْـدِي إِلَى تَفْصِـيلِهَا ... لَكِـنَّ مَـا جَـاءَتْ بِـهِ الْوَحْيَـانِ

٢٥٦٣- فَإِذَا غَـدَا التَّفْصِـيلُ لَفْظِيًّـا وَمَعْـ ... ـزُولًا عَـنِ الإِيقَـانِ وَالرُّجْحَـانِ

٢٥٦٤- فَهُنَـاكَ لا عِلْـمًا أَفَـادَتْ لَا وَلَا ... ظَنًّـا وَهَـذَا غَايَـةُ الْـحِرْمَانِ

٢٥٦٥- لَوْ صَحَّ ذَاكَ الْقَوْلُ لَمْ يَحْصُلْ لَنَا ... قَطْعٌ بِقَوْلٍ قَطُّ مِنْ إِنْسَانِ

٢٥٦٦- وَغَدَا التَّخَاطُبُ فَاسِدًا وَفَسَادُهُ ... أَصْلُ الْفَسَادِ لِنَوْعِ ذَا الإِنْسَانِ

٢٥٦٧- مَا كَانَ يَحْصُلُ عِلْمُنَا بِشَهَادَةٍ ... وَوَصِيَّةٍ كَلَّا وَلا أَيْمَانِ

٢٥٦٨- وَكَذَلِكَ الإِقْرَارُ يُصْبِحُ فَاسِدًا ... إِذْ كَانَ مُحْتَمِلًا لِسَبْعِ مَعَانِ

٢٥٦٩- وَكَذَا عُقُودُ الْعَالَمِينَ بِأَسْرِهَا ... بِاللَّفْظِ إِذْ يَتَخَاطَبُ الرَّجُلانِ

٢٥٧٠- أَيَسُوغُ لِلشُّهَدَا شَهَادَتُهُمْ بِهَا ... مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُمُ بِبَيَانِ؟!

٢٥٧١- إِذْ تِلْكُمُ الأَلْفَاظُ غَيْرُ مُفِيدَةٍ ... لِلْعِلْمِ بَلْ لِلظَّنِّ ذِي الرُّجْحَانِ

٢٥٧٢- بَلْ لا يَسُوغُ لِشَاهِدٍ أَبَدًا شَهَا ... دَتُهُ عَلَى مَدْلُولِ نُطْقِ لِسَانِ

٢٥٧٣- بَلْ لا يُرَاقُ دَمٌ بِلَفْظِ الْكُفْرِ مِنْ ... مُتَكَلِّمٍ بِالظَّنِّ وَالْحُسْبَانِ

٢٥٧٤- بَلْ لا يُبَاحُ الْفَرْجُ بِالإِذْنِ الَّذِي ... هُوَ شَرْطُ صِحَّتِهِ مِنَ النِّسْوَانِ

٢٥٧٥- أَيَسُوغُ لِلشُّهَدَاءِ جَزْمُهُمْ بِأَنْ ... رَضِيَتْ بِلَفْظٍ قَابِلٍ لِمَعَانِ؟

٢٥٧٦- هَذَا وَجُمْلَةُ مَا يُقَالُ بِأَنَّهُ ... فِي ذَا فَسَادُ الْعَقْلِ وَالأَدْيَانِ

الشرح

٢٥٦١- وَاللهِ لَوْ صَحَّ الَّذِي قَدْ قُلْتُمُ ... قُطِعَتْ سَبِيلُ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ

ما الذي قالوا؟ قالوا: إنَّ ألفاظَ الكتابِ والسُّنَّةِ ظنِّيَّةٌ لا تفيدُ اليقينَ، لو صَحَّ هذا يقول -رحمه الله-: «قُطِعَتْ سَبِيلُ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ».

٢٥٦٢- فَالْعَقْــلُ لا يَهْـدِي إِلَى تَفْصِــيلِهَا لَكِــنَّ مَــا جَــاءَتْ بِــهِ الْوَحْيَــانِ

العقلُ لا يهدي إلى تفصيل صفاتِ الله عزَّ وجلَّ وأسمائِهِ، وإنما الذي يهدي إلى ذلك ما جاءت به الوحيانِ.

فإذا قلنا: إنَّ العقلَ لا يهدي إلى تفصيلها وإنَّ ما جاء به الوحيان ظنِّيٌّ، إِذَنْ أين العقيدةُ؟! كيف نبني عقيدتَنا على ظنٍّ ووهمٍ؛ ولهذا قال: يفسُدُ كُلُّ شيء.

٢٥٦٣- فَإِذَا غَـدَا التَّفْصِـيلُ لَفْظِيًّـا وَمَعْـ ـــزُولًا عَـنِ الإِيقَـانِ وَالرُّجْحَـانِ

٢٥٦٤- فَهُنَـاكَ لا عِلْــمًا أَفَــادَتْ لَا وَلَا ظَنًّــا وَهَــذَا غَايَــةُ الْــحِرْمَانِ

قَوْلُهُ: «فَإِذَا غَدَا التَّفْصِيلُ لَفْظِيًّا» (التفصيل): يعني: في أسماءِ الله وصفاتِهِ؛ لأنَّ العقلَ لا يهدي إلى التفصيل، إنما يَعْرِفُ الإجمالَ، والتفصيلُ جاء في الكتاب والسُّنَّة، فإذا غدا لفظيًّا معزولًا عن الإيقان، فهناك لا نستفيدُ لا عِلمًا ولا ظنًّا.

إِذَنْ إذا قلنا بما قال هؤلاء: العقلُ لا يهدي إلى التفصيل، والقرآنُ والسُّنَّةُ لا يدلَّان على اليقين، إِذَنْ ليس عندنا علمٌ، بل ولا ظنٌّ؛ لأنَّ ما كان على خلاف الظاهرِ مرجوحٌ، والمرجوحُ لا يُظَنُّ، فضلًا عن أن يُعتَقَدَ ويقال: إنه هو اليقين.

٢٥٦٥- لَوْ صَحَّ ذَاكَ الْقَوْلُ لَـمْ يَحْصُلْ لَنَـا قَطْــعٌ بِقَــوْلٍ قَــطُّ مِــنْ إِنْسَــانِ

٢٥٦٦- وَغَدَا التَّخَاطُـبُ فَاسِـدًا وَفَسَـادُهُ أَصْــلُ الْفَسَــادِ لِنَــوْعِ ذَا الإِنْسَــانِ

قَوْلُهُ: «لَوْ صَحَّ ذَاكَ الْقَوْلُ» ما المرادُ بهذا القول؟ الجواب أنَّ دلالةَ الألفاظ ظنِّيَّةٌ لا تفيدُ اليقينَ.

قَوْلُهُ: «وَغَدَا التَّخَاطُبُ فَاسِدًا» أي: التخاطبُ بين الناس؛ لأنهم يقولون: دلالةُ الألفاظِ ظنِّيَّةٌ، فيبقى التخاطبُ بين الناس ظنِّيًّا، فيكون فاسدًا.

قَوْلُهُ: «وَفَسَادُهُ» أي: فسادُ التخاطب.

قَوْلُهُ: «وَفَسَادُهُ أَصْلُ الْفَسَادِ لِنَوْعِ ذَا الإِنْسَانِ» إذا كان التخاطبُ بين الناس فاسدًا، ولا يفيدُ اليقينَ ولا العلمَ، فكيف يَثِقُ الناسُ بعضُهم ببعض؟ كيف يتعاملون؟ وكيف تُعْقَدُ البيوعُ، والإقراراتُ، والشَّهاداتُ، والأنكحةُ، والوُقُوف وغيرها؟ والمسألةُ كُلُّها مبنيَّةٌ على الظنِّ؛ ولهذا قال:

٢٥٦٧- مَا كَانَ يَحْصُلُ عِلْمُنَا بِشَهَادَةٍ وَوَصِيَّةٍ كَلَّا وَلا أَيْمَانِ

قَوْلُهُ: «مَا كَانَ يَحْصُلُ عِلْمُنَا بِشَهَادَةٍ» إذا شهد الشاهدان نقول: والله شهادتُهما ظنِّيَّةٌ، ما نعلمُ، فيها احتمالٌ، بل فيها ألفُ احتمالٍ.

قَوْلُهُ: «وَوَصِيَّةٍ» كذلك الوصية، فهذا إنسانٌ أوصى، نقولُ: كلامُه ظنِّيٌّ، لا يفيدُ اليقينَ، فيه احتمالٌ، يَحْتَمِلُ أنه أراد أن يُوصِيَ بالثلث، أو ثلث الثلث... وهكذا، ما يبقى هناك ثقةٌ بأيِّ كلام.

قَوْلُهُ: «كَلَّا وَلَا أَيمانٍ» حتى الأيمان (الحلفُ بالله) فيه احتمالات، إذا قال: (والله لا أتغدَّى إلَّا على وتد) سبحان الله! هل هو عصفورٌ يقفُ على الوتد ويأكل؟! يقول: إنَّ الجبالَ جعلها اللهُ أوتادًا.

على كُلِّ حال لو أننا جعلنا دلالات اللفظ ظَنِّيَّةً، وقلنا: هذا يحتملُ، ما بقي أن نَثِقَ بشيءٍ إطلاقًا.

٢٥٦٨- وَكَذَلِكَ الإِقْرَارُ يُصْبِحُ فَاسِدًا إِذْ كَانَ مُحْتَمِلًا لِسَبْعِ مَعَانِ

قَوْلُهُ: «وكَذَلِك الإقرارُ» (أَقَرَّ) له عدة معانٍ، يعني: نطق بالإقرار، أَقَرَّ الشيءَ: أبقاه مستقرًّا، وهكذا سبعةُ معانٍ للإقرار.

إِذَنْ لا نحكمُ بأنَّ الرجلَ إذا قال: (أقررتُ بكذا وكذا) فإنه مُقِرٌّ؛ لأنَّ اللفظَ محتملٌ.

٢٥٦٩- وَكَـذَا عُقُـودُ الْعَالَـمِينَ بِأَسْرِهَـا ... بِـاللَّفْظِ إِذْ يَتَخَاطَـبُ الـرَّجُلانِ

كُلُّ العقودِ مبنيةٌ على أنَّ الدلالةَ ظنِّيَّةٌ على كلامهم، إِذَنْ لا نَثِقُ بأيِّ عقلٍ كان؛ لأنَّ دلالتَه ظنِّيَّةٌ.

٢٥٧٠- أَيَسُـوغُ لِلشُّـهَدَا شَـهَادَتُهُمْ بِهَـا ... مِـنْ غَـيْرِ عِلْـمٍ مِـنْهُمُ بِبَـيَانِ؟!

الجَوَابُ: لا، ومع ذلك إذا شَهِدَ الشاهدان على الرجلين بأنَّهما تبايعا نحكمُ بالشهادة، مع أنَّ الشهادةَ لا تكون إلَّا عن علمٍ، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦] ويُذْكَرُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ: «تَرَى الشَّمْسَ؟». قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «عَلَى مِثْلِهَا فَاشْهَدْ أَوْ دَعْ»[1].

إِذَنْ الشهادةُ مبنيةٌ على علم، وأنتم تقولون: إنَّ الألفاظَ دلالتُها ظنِّيَّةٌ، كيف يمكنُ أن نشهدَ على ظنٍّ إذا تعاقد الرجلان عقدَ بيعٍ، أو عقدَ إجارةٍ، أو عقدَ رهنٍ.

٢٥٧١- إِذْ تِلْكُـمُ الأَلْفَـاظُ غَـيْرُ مُفِيـدَةٍ ... لِلْعِلْـمِ بَـلْ لِلظَّـنِّ ذِي الرُّجْحَـانِ

٢٥٧٢- بَـلْ لا يَسُـوغُ لِشَـاهِدٍ أَبَـدًا شَـهَا ... دَتُـهُ عَـلَى مَـدْلُولِ نُطْـقِ لِسَـانِ

لماذا؟ لأنَّ الشهادةَ لا بُدَّ أن تكونَ عن عِلمٍ ويقينٍ، فإذا جعلنا الألفاظَ ظنِّيَّةً صار كُلُّ ما يَثْبُتُ بالنطق ظنِّيًّا لا تجوزُ الشهادةُ عليه.

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ١١٠، رقم ٧٠٤٥)، والبيهقي في الشعب (٧/ ٤٥٥، رقم ١٠٩٧٤).

٢٥٧٣- بَلْ لا يُـرَاقُ دَمٌ بِلَفْـظِ الْكُفْـرِ مِـنْ مُـتَكَلِّمٍ بِـالظَّنِّ وَالْـحُسْبَانِ

يعني: على زعمكم أنَّ دلالةَ الألفاظِ ظنِّيَّةٌ، لو أنَّ رجلًا نطق بكلمة الكفر فإنَّه لا يجوزُ أن نُريقَ دمَه؛ لأنَّ دمَ المسلمِ حرامٌ، لا تجوزُ استباحتُه إلَّا بعلمٍ، ونحن الآن نقولُ: إنَّ دلالةَ الألفاظِ ظنِّيَّةٌ، فكيف نستبيحُ دمَه بلفظٍ دلالتُه ظنِّيَّةٌ؟

على هذا نقول: هنيئًا للمرتدين؛ لأنَّ كلامَهم ظَنِّيٌّ؛ إذ لا يجوزُ أن نُريقَ دماءَهم به بناءً على كلام هؤلاء أنَّ الألفاظَ دلالتُها ظَنِّيَّةٌ.

٢٥٧٤- بَلْ لا يُبَـاحُ الْفَـرْجُ بِـالإِذْنِ الَّـذِي هُـوَ شَرْطُ صِـحَّتِهِ مِـنَ النِّسْـوَانِ

وهذه مشكلة، رجل تَمَّ له العقدُ على امرأة بشهادة الشهود على إِذْنِ المرأة وعلى العقد، هل يجوزُ أن نستبيحَ الفرجَ بأمرٍ ظَنِّيٍّ؟ الجواب: لا يجوزُ.

هم يقولون: دلالةُ الألفاظِ ظنِّيَّةٌ، إذَنْ إِذْنُ المرأة لولِيِّها بالعقد دلالتُه ظنِّيَّةٌ، وقولُ الوليِّ للزوج: (زوَّجتُك بنتي) فيقول: (قبلتُ) ظَنِّيٌّ أيضًا، كيف نستبيحُ به الفرجَ الذي تحريمُه قطعيٌّ بأمرٍ دلالتُه ظَنِّيَّةٌ؛ لأنَّ من المعروف أنَّ القطعِيَّ لا يُزيلُه إلَّا ما كان قطعيًّا.

فانظر إلى هذا القول -والعياذ بالله- الذي يترتَّبُ عليه فسادُ الدين والدنيا.

٢٥٧٥- أَيَسُـوغُ لِلشُّـهَدَاءِ جَـزْمُهُمْ بِـأَنْ رَضِـيَتْ بِلَفْـظٍ قَابِـلٍ لِـمَعَانِ؟

٢٥٧٦- هَـذَا وَجُمْلَـةُ مَـا يُقَـالُ بِأَنَّـهُ فِي ذَا فَسَـادُ الْعَقْـلِ وَالأَدْيَـانِ

قَوْلُهُ: «أَيَسُوغُ لِلشُّهَدَاءِ جَزْمُهُمْ... إلخ؟» الجَوَابُ: لا؛ لأنه يحتمل أنه لما قيل: أَتَرْضَيْنَ أن نزوِّجَكِ فلانًا؟ فقالت: نعم أرضى، يعني: أرضى بسواه، على تقدير شيءٍ محذوفٍ، فهناك احتمالٌ.

إذا جعلنا الاحتمالاتِ العقليَّةَ داخلةً في الدلالات اللفظيَّة ما بقي كلامٌ يُوثَقُ به إطلاقًا.

***

٢٥٧٧- هَــذَا وَمِــنْ بُهْتَــانِهِمْ أَنَّ اللُّغَــا ... تِ أَتَــتْ بِنَقْــلِ الْفَــرْدِ وَالْوُحْـدَانِ

٢٥٧٨- فَــانْظُرْ إِلَى الأَلْفَــاظِ فِي جَرَيَانِهَــا ... فِي هَــذِهِ الأَخْبَــارِ وَالْقُــرْآنِ

٢٥٧٩- أَتَظُنُّهَــا تَحْتَــاجُ نَقْــلًا مُسْــنَدًا ... مُتَــوَاتِرًا أَوْ نَقْــلَ ذِي وُحْــدَانِ؟

٢٥٨٠- أَمْ قَدْ جَرَتْ مَجْرَى الضَّرُورِيَّاتِ لا ... تَحْتَــاجُ نَقْــلًا وَهْــيَ ذَاتُ بَيَــانِ

٢٥٨١- إِلَّا الْأَقَــلَّ فَإِنَّــهُ يَحْتَــاجُ لِلنَّــــ ... ـقْــلِ الصَّحِيحِ وَذَاكَ ذُو تِبْيَــانِ؟

٢٥٨٢- وَمِنَ الْـمَصَائِبِ قَوْلُ قَائِلِهِمْ بِـأَنْ ... نَ «اللهُ» أَظْهَــرُ لَفْظَــةٍ بِلِسَــانِ

٢٥٨٣- وَخِلَافُهُــمْ فِيــهِ كَثِــيرٌ ظَــاهِرٌ ... عَرَبِــيٌّ وَضْــعٍ ذَاكَ أَمْ سُرْيَانِــي؟

٢٥٨٤- وَكَــذَا اخْــتِلافُهُمْ أَمُشْــتَقًّا يُــرَى ... أَمْ جَامِــدًا؟ قَــوْلانِ مَشْــهُورَانِ

٢٥٨٥- وَالأَصْلُ مَاذَا؟ فِيـهِ خُلْـفٌ ثَابِـتٌ ... عِنْــدَ النُّحَــاةِ وَذَاكَ ذُو أَلْــوَانِ

٢٥٨٦- هَــذَا وَلَفْــظُ «اللهُ» أَظْهَــرُ لَفْظَــةٍ ... نَطَقَ اللِّسَــانُ بِهَــا مَــدَى الأَزْمَــانِ

٢٥٨٧- فَــانْظُرْ بِحَــقِّ اللهِ مَــاذَا فِي الَّــذِي ... قَــالُوهُ مِــنْ لَــبْسٍ وَمِــنْ بُهْتَــانِ؟

٢٥٨٨- هَــلْ خَــالَفَ الْعُقَــلاءُ أَنَّ اللهَ رَبْ ... بُ الْعَالَــمِينَ مُــدَبِّرُ الأَكْــوَانِ؟

٢٥٨٩- مَــا فِيــهِ إِجْمَــالٌ وَلا هُــوَ مُــوهِمٌ ... نَقْــلَ الْــمَجَازِ وَلا لَــهُ وَضْــعَانِ

٢٥٩٠- وَالْـخُلْفُ فِي أَحْوَالِ ذَاكَ اللَّفْظِ لا ... فِي وَضْــعِهِ لَــم يَخْتَلِــفْ رَجُــلانِ

٢٥٩١- وَإِذَا هُـمُ اخْتَلَفُـوا بِلَفْظِـةِ «مَكَّـةٍ» فِيـهِ لَـهُمْ قَـوْلانِ مَعْرُوفَـانِ

٢٥٩٢- أَفَبَيْـنَهُمْ خُلْـفٌ بِـأَنَّ مُـرَادَهُمْ حَـرَمُ الإِلَـهِ وَقِبْلَـةُ البُلْـدَانِ؟

٢٥٩٣- وَإِذَا هُمُ اخْتَلَفُـوا بِلَفْظَـةِ «أَحْمَـدٍ» فِيـهِ لَـهُمْ قَـوْلانِ مَـذْكُورَانِ

٢٥٩٤- أَفَبَيْـنَهُمْ خُلْـفٌ بِـأَنَّ مُـرَادَهُمْ مِنْـهُ رَسُـولُ الله ذُو الْبُرْهَـانِ؟

٢٥٩٥- وَنَظِيرُ هَـذَا لَـيْسَ يُـحْصَرُ كَثْـرَةً يَـا قَـوْمُ فَاسْـتَحْيُوا مِـنَ الـرَّحْمَنِ

٢٥٩٦- أَبِمِثْلِ ذَا الْـهَذَيَانِ قَدْ عُزِلَتْ نُصُو صُ الْوَحْيِ عَنْ عِلْمٍ وَعَـنْ إِيقَـانِ

٢٥٩٧- فَالـحَمْدُ لله الـمُعَافِي عَبْـدَهُ مِـمَّا بَلاكُـمْ يَـا ذَوِي العِرْفَـانِ

٢٥٩٨- فَلِأَجْلِ ذَا نَبَذُوا الكِتَابَ وَرَاءَهُـمْ وَمَضَـوْا عَـلَى آثَـارِ كُـلِّ مُهَـانِ

٢٥٩٩- وَلِأَجْلِ ذَاكَ غَدَوْا عَلَى السُّنَنِ الَّتِي جَـاءَتْ وَأَهْلِيهَـا ذَوِي أَضْـغَانِ

٢٦٠٠- يَرْمُـونَهُمْ كِـذْبًا بِكُـلِّ عَظِيمَـةٍ حَاشَـاهُمُ مِـنْ إِفْـكِ ذِي بُهْتَـانِ

الشَّـرحُ

٢٥٧٧- هَـذَا وَمِـنْ بُهْتَـانِهِمْ أَنَّ اللُّغَـا تِ أَتَـتْ بِنَقْـلِ الْفَـرْدِ وَالْوُحْـدَانِ

قَوْلُهُ: «هَذَا وَمِنْ بُهْتَانِهِمْ» أي: مِنْ كَذِب هؤلاء القومِ الذين قالوا: إنَّ دلالةَ القرآنِ والسُّنَّةِ دلالةٌ لفظيَّةٌ في سَنَدِها؛ لأنَّها آحاد، وفي مدلولها؛ لأنَّها ظواهرُ.

قَوْلُهُ: «أن اللُّغاتِ أَتَتْ بِنَقْلِ الْفَرْدِ وَالْوُحْدَانِ» يعني أنَّ اللغات نُقِلَت إلينا عن طريق الأفراد، وهذا من أكبرِ البُهتانِ بلا شكٍّ، هل اللغاتُ نُقِلَت إلينا بالأفرادِ؟ الجواب: لا، فاللغات نُقِلَتْ بالتواتر الذي ليس بعده تواترٌ.

اللغةُ الآن بين الأمة العربية منذ نشأت إلى اليوم، والناس ينقُلونها أُمةً أُمةً، وليس فردًا ينقلُها إلى فرد، بل أمة تنقلُها إلى أمة، لكن هذا مِن بُهتانهم أنَّ اللغاتِ تُنْقَلُ عن طريق الآحاد، فهذا من البهتان العظيم.

٢٥٧٨- فَـانْظُرْ إِلَى الأَلْفَـاظِ فِي جَرَيَانِهَـا ... فِي هَـذِهِ الأَخْبَـارِ وَالْقُـرْآنِ

٢٥٧٩- أَتَظُنُّهَـا تَحْتَـاجُ نَقْـلًا مُسْـنَدًا ... مُتَـوَاتِرًا أَوْ نَقْـلَ ذِي وُحْـدَانِ؟

الجَوَابُ: لا، الألفاظُ في جَرَيَانها بين الأمم، سواءً أكان في خبر أم في القرآن المنقول بالمتواتر كُلُّها لا تحتاجُ نقلًا مسندًا.

لو قال مثلًا: معنى (أكل): تناولَ الطعامَ فأدخلَه في فمه، هل نحتاجُ أن نقولَ: مَنِ الذي نَقَلَ (أَكَلَ) إلى معناها هذا في اللغة؟ الجواب: لا نحتاجُ ذلك؛ لأنَّها معروفةٌ، فهي من الضروريات؛ ولهذا قال في البيت الثالث:

٢٥٨٠- أَمْ قَدْ جَرَتْ مَجْرَى الضَّرُورِيَّاتِ لا ... تَحْتَـاجُ نَقْـلًا وَهْـيَ ذَاتُ بَيَـانِ

لا نحتاجُ أن نقولَ: إنَّ اللغاتِ المنقولة بخبر الآحاد تحتاجُ إلى إسناد، ثم يُنْظَرُ في السَّند هل هم ثقاتٌ أو غيرُ ثقاتٍ؟ لا، هذا شيءٌ يجري في الألفاظ جريانَ الهواء والريح، ولا يحتاجُ إلى نقلٍ، فهي جاريةٌ مجرى الضروريات.

ثُمَّ قال:

٢٥٨١- إِلَّا الأَقَـلَّ فَإِنَّـهُ يَحْتَـاجُ لِلنْـ ... ـنَقْـلِ الصَّـحِيحِ وَذَاكَ ذُو تِبْيَـانِ؟

يعني: صحيح أنه توجدُ كلماتٌ غريبةٌ في اللغة العربية، غريبةٌ لا تُسْتَعْمَلُ إلَّا نادرًا، هذه الكلماتُ الغريبةُ تحتاجُ إلى نقلٍ بحيثُ ينقُلُها إمامٌ من أئمة العربية كـ(سيبويه) أو غيره، ويقولُ: هذه نطق بها العربُ، أمَّا عامةُ اللغة العربية فإنَّها

لا تحتاجُ إلى سندٍ؛ لأنها جرت بين الناس مجرى الأمور الضرورية، تنقُلها الأمةُ بكاملها، أمةً عن أمةٍ، قرنًا عن قرن.

٢٥٨٢- وَمِنَ الْـمَصَائِبِ قَوْلُ قَائِلِهِمْ بِـأَنْ نَ «اللهُ» أَظْهَــرُ لَفْظَــةٍ بِلِسَــانِ

٢٥٨٣- وَخِلَافُهُــمْ فِيــهِ كَثِيــرٌ ظَــاهِرٌ عَرَبِــيٌّ وَضْــعٍ ذَاكَ أَمْ سُرْيَانِــي؟

قوله: «الله» يعني لفظ (الله)، أي: كلمة (الله).

يقول: أظهرُ لفظةٍ في القرآن تدلُّ على مدلولها هي كلمة (الله)، فكلٌّ يعرِفُ أنَّ المرادَ بها رَبُّ العالمين، هم يحتجُّون علينا فيقولون: أظهرُ لفظةٍ هي (الله)، ومع ذلك فيها خِلافٌ، فإذا كان أظهرُ لفظةٍ في القرآن وهي (الله) فيها خلافٌ، فما بالُك بالكلمات الأخرى التي لا توازنها في الظهور؟!

وقصدُهم بذلك أنَّ جميعَ القرآن مشكوكٌ في دلالته، نسألُ اللهَ العافيةَ.

قَوْلُهُ: «**وَخِلَافُهُمْ فِيهِ كَثِيرٌ ظَاهِرٌ**» يعني أنَّ الناسَ مختلِفون في كلمة (الله)، كيف الاختلاف؟ قال: (**عربي وضع ذاك أم سُرْيَاني؟**)، يعني: هل هذا اللفظ (الله) عربِيٌّ أم سُرْيَانِيٌّ، أي: باللغة السُّريانيَّة لغة الإنجيل؟

٢٥٨٤- وَكَــذَا اخْــتِلافُهُمْ أَمُشْــتَقًّا يُــرَى أَمْ جَامِــدًا؟ قَــوْلانِ مَشْــهُورَانِ

إِذَنْ عندنا اختلافان:

الأول: هل هو عربِيٌّ أو سُرْيَانِيٌّ؟

الثاني: إذا قلنا: إنه عربيٌّ، هل هو مشتقٌّ أو جامد؟

مع أنَّ كلمةَ (الله) أظهرُ لفظةٍ في القرآن، ومع ذلك الخلافُ فيها موجودٌ، فما بالُكَ بما دونها في الظهور؟! يكونُ الخلافُ فيه من باب أَولى.

النتيجةُ بعد هذا أنَّ مدلولاتِ ألفاظ القرآن غيرُ معلومةٍ ولا متيقَّنة؛ لأنَّ الخلافَ فيها كثيرٌ.

وكلامهم هذا يُشَكِّك الواحد.

إذا جاءنا إنسانٌ عِفْرِيتٌ في المناظرة، وقام يتكلَّم بمثل هذا الكلام، نقول: والله صحيحٌ، كلمةُ (الله) التي هي أوضحُ شيءٍ في القرآن يختلفُ فيها الناسُ، هل هي عربيَّةٌ أو سُرْيَانِيَّةٌ؟ ثُمَّ إذا كانت عربيةً هل هي مشتقةٌ أو جامدةٌ؟ إِذَنْ ما سواها من الكلمات من باب أَولى، فيبقى القرآنُ كُلُّه غيرَ معتمَدٍ على دلالته، نسألُ اللهَ العافيةَ.

وهذا إجرامٌ، والعياذ بالله، فإذا كان القرآنُ غيرَ معتمَدٍ على دلالته فالأحاديثُ من باب أَولى؛ لأنَّ الأحاديثَ فيها آفةٌ أخرى، فلعلَّ الرواة نقلوها بالمعنى فأخطئوا، بخلاف القرآن فإنه متواترٌ، ولا يمكنُ وجودُ خطأٍ في النقل فيه.

فالحاصل أنَّ هؤلاء -والعياذ بالله- شياطين الإنس يأتون بمثل هذا الكلام ليُلبِّسوا على الناس دينَهم، ولولا أنَّ اللهَ حفِظ دينَه بما قيَّض من العلماء الربَّانِيِّين لَضاع الدينُ وضاعَ كُلُّ شيء.

٢٥٨٥- وَالأَصْلُ مَاذَا؟ فِيهِ خُلْفٌ ثَابِتٌ عِنْدَ النُّحَاةِ وَذَاكَ ذُو أَلْوَانِ

قَوْلُهُ: «**الأصلُ ماذا**»؟ يعني: ما أصلُ الله، هل هو الإلهُ، أو كلمةٌ مرتجَلةٌ، أو ماذا؟ هذا أيضًا فيه خِلاف: بعضُهم يقول: (**اللهُ**) أصلُها (**الإله**) فَحُذِفَتِ الهمزةُ لكثرة الاستعمال، كما حُذِفَت الهمزةُ من (**الناس**)، وأصلها (**أُنَاس**)، وحُذِفَت من (شر) و(خير)؛ تقولُ: (**هذا خيرٌ من هذا**)، و(**هذا شرٌّ من هذا**)، والأصلُ: أخيرُ وأشرُّ، فهذا فيه أيضًا خلافٌ.

٢٥٨٦- هَـذَا وَلَفْـظُ «اللهُ» أَظْهَـرُ لَفْظَـةٍ نَطَقَ اللِّسَانُ بِهَا مَدَى الأَزْمَانِ

وصدق -رحمه اللهُ-، فأظهرُ لفظةٍ في الوجود لفظةُ (الله)، فما من إنسانٍ تقولُ أمامَه: (الله) إلَّا وينصرفُ ذِهنُه إلى ربِّ العالمين عزَّ وجلَّ، لا ينصرفُ يمينًا ولا شِمالًا، لا إلى صنمٍ، ولا إلى مَلَكٍ، ولا إلى رسولٍ، ولا إلى ولِيٍّ، إنما ينصرفُ إلى الله؛ ولهذا كان اسم (الله) من الأشياء الخاصة بالله عزَّ وجلَّ.

٢٥٨٧- فَـانْظُرْ بِحَـقِّ الله مَـاذَا فِي الَّـذِي قَـالُوهُ مِـنْ لَـبْسٍ وَمِـنْ بُهْتَـانِ؟

قَوْلُهُ: «فانْظُرْ» انظُرْ نَظَرَ تعجُّبٍ وإنكار!

قَوْلُهُ: «مَاذَا فِي الَّذِي قَالُوهُ مِنْ لَبْسٍ وَمِنْ بُهْتَانِ؟» لكن ما هو اللبس الذي قالوه؟

قالوا: كلمةُ (الله) الآن مختلَفٌ في مدلولها، لا ندري هل هي عربيَّةٌ أو سُرْيَانِيَّةٌ؟ وهل هي مشتقةٌ أو جامدةٌ؟ وهل هي مرتجَلةٌ أو منقولةٌ؟ ما ندري.

ومعنى (مرتجَل) أي: الذي وُضِعَ ابتداءً، والمنقول هو الذي نُقِلَ عن غيره.

٢٥٨٨- هَـلْ خَـالَفَ الْعُقَـلاءُ أَنَّ اللهَ رَبْـ بُ الْعَالَـمِينَ مُـدَبِّرُ الأَكْـوَانِ؟

قَوْلُهُ: «هَلْ خَالَفَ الْعُقَلاءُ أَنَّ اللهَ ربُّ الْعَالَـمِينَ؟» يعني أنَّ لفظةَ (الله) يُرادُ بها رَبُّ العالمين، يعني: مع اختلافهم في الكلمة هل اختلفوا في المراد؟

هؤلاء جعلوا اختلافَ الكلمة سببًا لاختلاف المراد، لكن يقولُ -رحمه الله-: هل خالف العقلاءُ أنَّ (الله) رَبُّ العالمين؟ المراد بـ(الله) هنا هل هو مدلولُ الكلمة أو اللفظ؟ الجواب: اللفظ، يعني أنَّ لفظَ (الله) هو ربُّ العالمين.

٢٥٨٩- مَا فِيهِ إِجْمَالٌ وَلا هُوَ مُوهِمٌ نَقْلَ الـمَجَازِ وَلا لَهُ وَضْعَانِ

وهذا مُتَّفَقٌ عليه، فأنتم حين تُلَبِّسُون على العامة وتقولون: (الله) مختلَفٌ فيه: عربيٌّ أو سُرْيَانِيٌّ؟ هل هو مشتقٌّ أو جامدٌ؟ هل هو منقولٌ أو مرتَجَلٌ؟ إنما تريدون بهذا التمويهَ، أمَّا المرادُ منه فإنَّ العقلاءَ متَّفِقون على أنَّ المرادَ رَبُّ العالمين.

٢٥٩٠- وَالـخُلْفُ فِي أَحْوَالِ ذَاكَ اللَّفْظِ لا فِي وَضْعِهِ لـم يَخْتَلِفْ رَجُلانِ

الخُلْفُ الذي قالوا يعودُ إلى أحوال اللفظ هل هو سُرْيَانِيٌّ عربِيٌّ؟ أمَّا لِـمَنْ وُضِعَ فليس فيه اختلافٌ؛ ولهذا قال: «لا فِي وَضْعِهِ لم يَخْتَلِفْ رَجُلانِ».

٢٥٩١- وَإِذَا هُمُ اخْتَلَفُوا بِلَفْظِةِ «مَكَّةٍ» فِيهِ لَهُمْ قَوْلانِ مَعْرُوفَانِ

٢٥٩٢- أَفَبَيْنَهُمْ خُلْفٌ بِأَنَّ مُرَادَهُمْ حَرَمُ الإِلَهِ وَقِبْلَةُ البُلْدَانِ؟

يعني: الناسُ اختلفوا أيضًا في لفظ (مكَّة)، لماذا سُمِّيت (مكة)؟ وأحيانًا تُسَمَّى (بَكَّة)، وقد سمَّاها اللهُ في القرآن بالاسمين: (بَكَّة) و(مكَّة)، ولكن هذا الخلاف الذي وقع هل اختلف الناسُ في المراد به؟ الجواب: لا.

٢٥٩٣- وَإِذَا هُمُ اخْتَلَفُوا بِلَفْظَةِ «أَحْمَدٍ» فِيهِ لَهُمْ قَوْلانِ مَذْكُورَانِ

٢٥٩٤- أَفَبَيْنَهُمْ خُلْفٌ بِأَنَّ مُرَادَهُمْ مِنْهُ رَسُولُ الله ذُو الْبُرْهَانِ؟

فهم اختلفوا في لفظ (أحمد) لماذا سُمِّي (أحمد)؟ هل لأنه أحمدُ الناسِ لله؟ أو لأنه أحقُّ الناسِ أن يُحْمَدَ؟ فهم اختلفوا في هذا، لكن هل الذين اختلفوا في هذا هل هو أحمدُ الناسِ لله؟ أو هو أحقُّ الناس أن يُحْمَدَ؟ هؤلاء الذين اختلفوا هل اختلفوا في أنَّ المرادَ به رسولُ الله؟ الجواب: لا، إِذَنْ الاختلاف في اللفظ لا فيما وُضِعَ له.

فهذه ثلاثةُ أمثلةٍ جيِّدة يختلفُ الناسُ فيها في اللفظ ولا يختلفون في المراد: (الله)، (مكة)، (أحمد) يعني الرسولَ -عليه الصلاة والسلام-، يختلفون في اللفظ ولا يختلفون في المراد.

٢٥٩٥- وَنَظِيرُ هَـذَا لَـيْسَ يُـحْصَرُ كَثْـرَةً   يَـا قَـوْمُ فَاسْـتَحْيُوا مِـنَ الـرَّحْمَنِ

يعني: نظير هذا يختلفون في اللفظ واشتقاقِه، لكن لا يختلفون في المراد منه، وهذا كثيرٌ، لكن أحيانًا أيضًا يتفقون على اللفظ ويختلفون في المراد، مثل: (قُرُوء) جمع (قُرْء)، هل المرادُ بها الحيضُ أو الطُّهْرُ؟ خِلاف، مع أنَّهم متفقون على اللفظ.

٢٥٩٦- أَبِمِثْلِ ذَا الْـهَذَيَانِ قَدْ عُزِلَتْ نُصُو   صُ الْوَحْيِ عَنْ عِلْمٍ وَعَـنْ إِيقَـانِ

الجَوَابُ: لا والله لا تُعْزَلُ، وهذا هَذَيَان، وكونُهم يُلَبِّسون على الناس ويقولون: (الله) هل هو عربِيٌّ أو سُرْيَانِيٌّ؟ هل هو مشتقٌّ أو جامدٌ؟ هل هو مُرْتَجَلٌ أو منقولٌ؟ هذا لا يؤثر؛ لأنَّ المدلولَ متفَقٌ عليه.

٢٥٩٧- فَالـــحَمْدُ لله الـــمُعَافِي عَبْـــدَهُ   مِـــمَّا بَلاكُـــمْ يَـــا ذَوِي العِرْفَـــانِ

إي والله، الحمدُ لله الذي عافنا ممَّا ابتلاهم به.

وفي قوله: «يَا ذَوِي العِرْفَانِ» تهكُّمٌ واضحٌ؛ لأنهم أبعدُ الناسِ عن المعرفةِ وعن العرفان.

٢٥٩٨- فِلأَجْلِ ذَا نَبَذُوا الكِتَابَ وَرَاءَهُـمْ   وَمَضَـوْا عَـلَى آثَـارِ كُـلِّ مُهَـانِ

نعم، نبذوا كتابَ الله وراءَ ظهورِهم، ولكنَّهم ساروا على آثار كُلِّ مُهَانٍ، يعني: من شيوخهم الذين يُعظِّمونهم ويُقدِّمون أقوالَهم على قولِ الله ورسوله -عليه الصلاة والسلام-.

٢٥٩٩- وَلِأَجْلِ ذَاكَ غَدَوْا عَلَى السُّنَنِ الَّتِي ... جَـاءَتْ وَأَهْلِيهَـا ذَوِي أَضْـغَانِ

قَوْلُهُ: «غَدَوْا... ذَوِي أَضْغَانِ» (غدوا) تعملُ عملَ (كان)، والواو اسمُها، و(ذوي أضغان) خبرُها.

يعني: صاروا ذوي أضغان على السُّنن وعلى أهل السُّنن.

٢٦٠٠- يَرْمُـونَهُمْ كِـذْبًا بِكُـلِّ عَظِيمَـةٍ ... حَاشَـاهُمُ مِـنْ إِفْـكِ ذِي بُهْتَـانِ

هؤلاء يرمون أهلَ الحديث كذبًا بكُلِّ عظيمة، وقالوا عنهم: مُجَسِّمَةٌ، مُشَبِّهَةٌ، حَشْوِيَّةٌ، نوابتُ، غُثاءٌ، عامةٌ... وهكذا.

إِذَنْ هذا الفصلُ كُلُّه للرَّدِّ عليهم في قولهم: إنَّ دلالةَ الكتابِ والسُّنة ظَنِّيَّةٌ غيرُ يقينيةٍ؛ لأنَّ كُلَّ لفظٍ -على كلامهم- يَحتملُ معانيَ، فيُلَبِّسون، ويأتونَ بالألفاظِ التي اختُلِف فيها في أصلها لأجل أن يلبسوا على الناس، ولفظُ (الله) أظهرُ لفظ.

* * *

فصل

فِي تَنْزِيهِ أَهْلِ الحَدِيثِ وَالشَّرِيعَةِ عَنِ الأَلْقَابِ القَبِيحَةِ الشَّنِيعَةِ

٢٦٠١- فَرَمَوْهُمْ بَغْيًا بِمَا الرَّامِي بِهِ ... أَوْلَى لِيَدْفَعَ عَنْهُ فِعْلَ الجَانِي

٢٦٠٢- يَرْمِي البَرِيءَ بِمَا جَنَاهُ مُبَاهِتًا ... وَلِذَاكَ عِنْدَ الْغِرِّ يَشْتَبِهَانِ

٢٦٠٣- سَمَّوْهُمْ حَشْوِيَّةً وَنَوَابِتًا ... وَمُجَسِّمِينَ وَعَابِدِي أَوْثَانِ

٢٦٠٤- وَكَذَاكَ أَعْدَاءُ الرَّسُولِ وَصَحْبِهِ ... وَهُمُ الرَّوَافِضُ أَخْبَثُ الحَيَوَانِ

٢٦٠٥- نَصَبُوا الْعَدَاوَةَ لِلصَّحَابَةِ ثُمَّ سَمْـ ... ـمَوْا بِالنَّوَاصِبِ شِيعَةَ الرَّحْمَنِ

٢٦٠٦- وَكَذَا المُعَطِّلُ شَبَّهَ الرَّحْمَنَ بِالْـ ... ـمَعْدُومِ فَاجْتَمَعَتْ لَهُ الْوَصْفَانِ

٢٦٠٧- وَكَذَاكَ شَبَّهَ قَوْلَهُ بِكَلامِنَا ... حَتَّى نَفَاهُ وَذَانِ تَشْبِيهَانِ

٢٦٠٨- وَكَذَاكَ شَبَّهَ وَصْفَهُ بِصِفَاتِنَا ... حَتَّى نَفَاهَا عَنْهُ بِالْبُهْتَانِ

٢٦٠٩- وَأَتَى إِلَى وَصْفِ الرَّسُولِ لِرَبِّهِ ... سَمَّاهُ تَشْبِيهًا، فَيَا إِخْوَانِي

٢٦١٠- بِاللهِ مَنْ أَوْلَى بِهَذَا الإِسْمِ مِنْ ... هَذَا الخَبِيثِ المُخْبِثِ الشَّيْطَانِي؟

٢٦١١- إِنْ كَانَ تَشْبِيهًا ثُبُوتُ صِفَاتِهِ ... سُبْحَانَهُ فَبِأَكْمَلِ[1] ذِي شَانِ

٢٦١٢- لَكِنَّ نَفْيَ صِفَاتِهِ تَشْبِيهُهُ ... بِالجَامِدَاتِ وَكُلِّ ذِي نُقْصَانِ

(١) في نسخة برلين والتيمورية والظاهرية والإفتاء والسفارينية ونسخة ابن سحمان: «فبكامل»، وأشار شيخنا -رحمه الله- في شرحه إلى نسخة ثالثة: «أكمل به ذي شان».

٢٦١٣- بَلْ بِالَّذِي هُوَ غَيْرُ شَيْءٍ وَهْوَ مَعْـ ـدُومٌ وَإِنْ يُفْـرَضْ فَفِـي الأَذْهَـانِ

٢٦١٤- فَمَـنِ الـمُشَبِّهُ بِالْـحَقِيقَةِ أَنْـتُمُ أَمْ مُثْبِـتُ الأَوْصَـافِ لِلـرَّحْمَنِ؟

الشــرحُ

٢٦٠١- فَرَمَـوْهُمْ بَغْيًـا بِـمَا الرَّامِـي بِـهِ أَوْلَـى لِيَدْفَعَ عَنْهُ فِعْـلَ الـجَانِـي

قَوْلُهُ: «رَمَوْهُم» يعني أنَّ هؤلاء المعطِّلةَ رَمَوْا أهلَ الحديث بما هم أَوْلَى به من الألفاظ القبيحة الشَّنيعة، كما رمَى المنافقون رسولَ الله ﷺ وأصحابَه بما هم أَوْلَى به، قال المنافقون: «مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤلَاءِ أَرْغَبَ بُطُونًا، ولَا أَكْذَبَ أَلْسُنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ»(١). ويعنون بذلك الرسولَ ﷺ وأصحابَه.

وفي الحقيقة أنَّ هذه الأوصافَ تنطبقُ عليهم، فما رأينا أكذبَ ألسنًا من المنافقين؛ ولهذا من علامات المنافق: الكذب.

ولا رأينا أجبنَ منهم حتَّى في غير اللقاء، قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون:٤] لو صاح أحدٌ من الناس لأولاده، أو طفل في السوق ظنُّوا أنه يصيحُ عليهم.

قوله: «ولا أرغبَ بُطُونًا» (أرغب) يعني: أوسع؛ لكثرة الأكل وأنه ليس لهم هَمٌّ إلَّا ملء هذه البطون، ونحن نعلمُ أنَّ الذين ليس لهم همٌّ إِلَّا ملء البطون هم المنافقون، ما نافقوا إلَّا ليبقوا حتَّى لا يقتلهم المؤمنون.

إِذَنْ هؤلاء المعطِّلةُ رَمَوْا أهلَ السُّنَّة بما هم أَوْلَى به.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٢٩، رقم ١٠٠٤٤)، والطبري (١٤/ ٣٣٣).

قَوْلُهُ: «لِيَدْفَعَ عَنْهُ فِعْلَ الجَانِي» يعني: ليدفع عن نفسِه السوءَ برمي غيره، ومن أمثال العوامّ: «ضَرَبني وبَكَى وسَبَقَنِي واشتكَى».

٢٦٠٢- يَرْمِي الـبَرِيءَ بِـمَا جَنَـاهُ مُبَاهِتًـا وَلِـذَاكَ عِنْـدَ الْغِـرِّ يَشْـتَبِهَانِ

يعني: أنه يرمى البُرَآءَ بما جناه هو بنفسه، فالغِرُّ الذي لا يدري يَشتبهُ عليه الأمرُ، ويقولُ: لعلَّ الصوابَ مع أهل التعطيل.

٢٦٠٣- سَـمَّوْهُمْ حَشْـوِيَّةً وَنَوَابِتًـا وَمُجَسِّـمِينَ وَعَابِـدِي أَوْثَـانِ

أعوذ بالله، يعني: سَمَّوْا أهلَ الحديث بهذه الألقاب:

- «حَشْوِيَّة»، وقد تقدَّم معنى الحَشْوِيَّة.
- «نوابتًا» أي: نوابت الزروع، وهي نوابت تنبتُ في الزرع ليس لها فائدةٌ.
- «مجسِّمِينَ» يعني: يقولون: إِنَّ اللهَ جسمٌ، وقد سبق في هذه القصيدة أنه لم يقل أحدٌ من أهل الحديث: إنَّ اللهَ جسمٌ.
- كذلك أيضًا «عَابِدِي أَوْثَان» قالوا: أنتم تقولون: إنَّ اللهَ موصوفٌ بهذه الصفات، وهذا يقتضي أن يكونَ جسمًا، وحينئذٍ تكونون عابدي أوثان، جعلتم اللهَ وَثَنًا.

٢٦٠٤- وَكَذَاكَ أَعْدَاءُ الرَّسُولِ وَصَحْبِهِ وَهُمُ الرَّوَافِضُ أَخْبَثُ الـحَيَوَانِ

قَوْلُهُ: «أَعْدَاءُ الرَّسُولِ وَصَحْبِهِ» هم الروافض.

قَوْلُهُ: «أَخْبَثُ الحَيَوَانِ» هذا كقول القحطانِيِّ -رحمه الله- في نُونِيَّتِه:

إِنَّ الرَّوَافِضَ شَرُّ مَنْ وَطِئَ الـحَصَى مِـن كُـلِّ إنـسٍ نـاطِقٍ أو جَـانِ

والذي يطأُ الحصى كُلُّ شيء من بني آدم، والحيوانات، وغيرُها، فهم شرٌّ من وَطِئَ الحصى، وهنا يقولُ: (**همُ الروافضُ أخبَثُ الحَيوانِ**).

٢٦٠٥- نَصَبُوا الْعَدَاوَةَ لِلصَّحَابَةِ ثُمَّ سَمْـ ... ـمَوْا بِالنَّوَاصِبِ شِيعَةَ الرَّحْمَنِ

الله المستعان، نصبوا العداوةَ للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لأنهم يُكَفِّرون الصحابةَ إِلَّا آلَ البيتِ ونفرًا قليلًا من غيرهم، يُكَفِّرون أبا بكرٍ، وعمرَ، وعثمانَ، وبقيةَ الصحابةِ، إِلَّا آلَ البيت ونفرًا قليلًا من غيرهم، كسَلمان الفارسيّ وما أشبهَه.

ويُسمُّون أهلَ الحديث الذين هم شِيعة الرحمن نواصِبَ، لماذا؟ قالوا: لأنكم تحبُّون هؤلاء الصحابةَ، ومن القواعدِ المقرَّرةِ عندهم: (**كُلُّ مَنْ أحبَّ أبا بكرٍ وعمرَ فقد أبغض عليًّا**).

وكَذَبوا وَربِّ العرش، بل إنَّنا نُحبُّ عليًّا وأبا بكرٍ وعمرَ وعثمانَ، ولا ينافي هذا هذا، لكن هم يقولون: مَن أَحَبَّ الصحابةَ فقد نَصَبَ العداوةَ لآل البيت.

٢٦٠٦- وَكَذَا الـمُعَطِّلُ شَبَّهَ الرَّحْمَنَ بِالْـ ... ـمَعْدُومِ فَاجْتَمَعَتْ لَهُ الْوَصْفَانِ

قَوْلُهُ: «الوصفانِ»: شَبَّه الخالقَ بالمعدوم؛ ولهذا عطَّله عن صفاته، فاجتمع له الوصفان؛ أي: وصفُ العدوان، ووصفُ التشبيه، فقد اعتدى على أهل الحديث ووَصَفَهم بهذه الأوصاف الشَّنيعة، وشَبَّه.

٢٦٠٧- وَكَذَاكَ شَبَّهَ قَوْلَهُ بِكَلامِنَا ... حَتَّى نَفَاهُ وَذَانِ تَشْبِيهَانِ

قَوْلُهُ: «شَبَّهَ قَوْلَهُ بِكَلامِنَا» يعني: قال: لو أثبتنا لله كلامًا لَزِمَ أن يكونَ مُشَابِهًا للمخلوقِ، فنفى الكلامَ، فصار عنده تشبيهان: تشبيهُ كلامِ الله بكلامنا، ثُمَّ تشبيهُ الله بالأخرس الذي لا يتكلَّمُ.

٢٦٠٨- وَكَـذَاكَ شَـبَّهَ وَصْـفَهُ بِصِـفَاتِنَا حَتَّـى نَفَاهَـا عَنْـهُ بِالْبُهْتَـانِ

أتدرون لماذا أنكر هؤلاء المعطِّلةُ لصفاتِ الله؟ الجواب: لأنَّهم تصوَّروا أنَّ إثباتها يَسْتَلْزِمُ التشبيهَ، فلما تصوَّروا هذا قالوا: إِذَنْ يجب أن ننفيَها لئلا نقعَ في التشبيه، فشبَّهوا أوَّلًا وعطَّلوا ثانيًا؛ ولهذا قال شيخُ الإسلام -رحمه الله- في الفتوى الحَمَوِيَّة(١): «**كل واحد من فريقي التعطيل والتمثيل فهو جامعٌ بين التعطيل والتمثيل**».

وصدق -رحمه الله-، فالمعطِّلُ ممثِّلٌ؛ لأنه إنَّما عَطَّلَ لاعتقاده أنَّ إثبات الصفات يَسْتَلْزِمُ التمثيلَ، فَمَثَّل أوَّلًا في تصوُّره، ثم عطَّلَ ثانيًا، ثم نقول: هو أيضًا في تعطيله مُمَثِّلٌ؛ لأنه إذا أنكر الصفاتِ شبَّه اللهَ بالمعدومات، فَمَثَّل بالمعدوم.

وكُلُّ مُمَثِّلٍ معطِّلٌ؛ لأنَّ الممثِّلَ عَطَّلَ كُلَّ نصٍّ يدلُّ على نفي المماثلة، فالممثِّلُ عطَّلَ قولَه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، والمُمثِّلُ عَطَّلَ اللهَ من كماله الواجب؛ لأنَّ تمثيلَ الخالق بالمخلوق يجعلُه ناقصًا، فيكون في هذه الحال معطِّلًا لكمال صفاتِ الله عزَّ وجلَّ.

فالحاصل أنَّ المؤلفَ -رحمه الله- يقول: إنَّ هؤلاء الذين شبَّهوا وصفه بصفاتِنا حتَّى نَفَوْهَا، نفوا ذلك بالبهتان، وهم في الحقيقة لم يَسْلَمُوا من التمثيل.

٢٦٠٩- وَأَتَـى إِلَى وَصْـفِ الرَّسُـولِ لِرَبِّـهِ سَـمَّاهُ تَشْـبِيهًا، فَيَـا إِخْوَانِـي

سبحان الله! أتى إلى وصف الرسول لربِّه فقال: إنَّ الرسولَ ﷺ مُشَبِّهٌ لله بخَلقه، وهذا قد يقولهُ بعضُهم وقد لا يقولُه، لكن يكونُ هذا من لازمِ قولهم.

(١) انظر: الفتوى الحموية (٢٧٦).

٢٦١٠- بِـالله مَـنْ أَوْلَى بِهَـذَا الإِسْـمِ مِـنْ هَذَا الخَبِيثِ المُخْبِثِ الشَّيْطَانِـي؟

الجَوَابُ: هم أَولى بذلك من أهل الحديث.

٢٦١١- إِنْ كَـانَ تَشْـبِيهًا ثُبُـوتُ صِـفَاتِهِ سُـبْحَانَهُ فَبِأَكْمَـلِ ذِي شَـانِ

قَوْلُهُ: «فبِأَكْمَلِ ذِي شَانِ» في نسخة «أَكْمِلْ بِهِ ذِي شَانِ» والمعنى: إذا كان ثبوتُ صفاتِ الله تشبيهًا فإنَّ ذلك تشبيهٌ بالأكمل، يعني إنما تُثْبَتُ على أنَّ لله المثلَ الأعلى.

معنًى آخر تَبيَّن لي: إن كان إثباتُ الصفات تشبيهًا فقد مَثَّلناه بالأكمل؛ لأنَّ المتصفَ بصفات الكمال أَوْلَى مِمَّن لم يتصفْ بها.

فهو يقولُ: إنْ كان هذا تشبيهًا فإنَّما شبَّهناه بمَنْ يتصفُ بالصفات، وأنتم شبَّهتموه بمَنْ لا يتصفُ، مثلًا إذا قلنا: لله سمعٌ، أثبتنا له السَّمع، شبَّهناه -على زعمهم- بالكامل، لكن هم يقولون: لا سمعَ له، فشبَّهوه بالناقص.

فعلى كلام هؤلاء المعطِّلةِ أنَّ اللهَ تعالى لا يسمعُ بسمعٍ، ولا يعلمُ بعِلمٍ، ولا يُبْصِرُ ببصرٍ.

فنقولُ: هذا كلامٌ غيرُ معقولٍ، وإنما هو في الحقيقة مُصانَعة ومُداهَنة، وإلَّا فحقيقةُ قولِكم أنه لا يسمعُ، لكن تخشَوْن من ثورة العامة، وتقولون: يسمع بلا سمعٍ، ويُبْصِرُ بلا بَصَرٍ، ويتكلَّمُ بلا كلامٍ، وهكذا.

٢٦١٢- لَكِـنَّ نَفْـيَ صِـفَاتِهِ تَشْـبِيهُهُ بِالـجَامِدَاتِ وَكُـلِّ ذِي نُقْصَـانِ

يعني: إذا نفينا صفاتِهِ فقد شَبَّهناه بالأنقص، وليس بالأكمل؛ ولهذا يقول: «بِالـجَامِدَاتِ وَكُلِّ ذِي نُقْصَانِ».

٢٦١٣- بَلْ بِالَّذِي هُوَ غَيْرُ شَيْءٍ وَهْوَ مَعْـ ـدُومٌ وَإِنْ يُفْـرَضْ فَفِـي الأَذْهَـانِ

قَوْلُهُ: «بَلْ بِالَّذِي هُوَ غَيْرُ شَيْءٍ»؛ لأنك إذا نفيتَ الصفاتِ عن الله مطلقًا فهذا هو العَدَمُ، وإذا كان هو العدم فقد وَصَفْتَ اللهَ بالعدم بأنَّه لا موجود.

قَوْلُهُ: «وَإِنْ يُفْرَضْ فَفِي الأَذْهَانِ» يعني: إِنْ فُرِضَ وجودُ ذاتٍ لا تتصفُ بصفاتٍ فإنَّ هذا يُقَدَّرُ في الذِّهْن، أمَّا في الواقع فلا، فلا تُوجَدُ ذاتٌ خاليةٌ من الصفات.

٢٦١٤- فَمَـنِ الـمُشَبِّهُ بِالْـحَقِيقَةِ أَنْـتُمُ أَمْ مُثْبِـتُ الأَوْصَـافِ لِلـرَّحْمَنِ؟

الجَوَابُ: هم! فإذا قُدِّرَ أنَّ المثبتين شبَّهوه فقد شبَّهوه بالأكمل؛ لأنَّ مَن يتصفُ بصفات الكمالِ أكملُ، وأمَّا هؤلاء فقد شبَّهوه بالأنقص، بما لا صفة له، بل إنَّهم في الحقيقة شبَّهوه بالعدم.

* * *

فصل

فِي نُكْتَةٍ بَدِيعَةٍ تُبَيِّنُ مِيرَاثَ الْمُلَقِّبِينَ وَالْمُلَقَّبِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُوَحِّدِينَ

٢٦١٥- هَـذَا وَثَـمَّ لَطِيفَـةٌ عَجَـبٌ سَأُبْـ ... ـدِيهَا لَكُـمْ يَـا مَعْشَـرَ الإِخْـوَانِ

٢٦١٦- فَاسْـمَعْ فَـذَاكَ مُعَطِّـلٌ وَمُشَـبِّهٌ ... وَاعْقِلْ فَـذَاكَ حَقِيقَـةُ الإِنْسَـانِ(١)

٢٦١٧- لا بُدَّ أَنْ يَـرِثَ الرَّسُـولَ، وَضِـدَّهُ ... فِي النَّـاسِ طَائِفَتَـانِ مُـخْتَلِفَانِ

٢٦١٨- فَـالْوَارِثُونَ لَـهُ عَـلَى مِنْهَاجِـهِ ... وَالْوَارِثُـونَ لِضِـدِّهِ فِئَتَـانِ:

٢٦١٩- إِحْـدَاهُمَا حَـرْبٌ لَـهُ وَلِـحِزْبِهِ ... مَـا عِنْـدَهُمْ فِي ذَاكَ مِـنْ كِـتْمَانِ

٢٦٢٠- فَرَمَـوْهُ مِـنْ أَلْقَـابِهِمْ بِعَظَـائِمٍ ... هُـمْ أَهْلُهَـا لا خِـيرَةُ الـرَّحْمَنِ

٢٦٢١- فَأَتَى الأُلَـى وَرِثُـوهُمْ فَرَمَـوْا بِهَـا ... وُرَّاثَـهُ بِـالْبَغْيِ وَالْعُـدْوَانِ

٢٦٢٢- هَـذَا يُحَقِّـقُ إِرْثَ كُـلٍّ مِـنهُمَا ... فَاسْـمَعْ وَعِـهْ يَـا مَـنْ لَـهُ أُذُنَـانِ

٢٦٢٣- وَالآخَرُونَ أُولُو النِّفَاقِ فَأَضْـمَرُوا ... شَـيْئًا وَقَـالُوا غَـيْرَهُ بِلِسَـانِ

٢٦٢٤- وَكَـذَا الـمُعَطِّلُ مُضْـمِرٌ تَعْطِيلَـهُ ... قَـدْ أَظْهَـرَ التَّنْزِيـهَ لِلـرَّحْمَنِ

٢٦٢٥- هَـذِي مَوَارِيـثُ العِبَـادِ تَقَسَّـمَتْ ... بَـيْنَ الطَّوَائِـفِ قِسْـمَةَ الـمَنَّانِ

٢٦٢٦- هَـذَا وَثَـمَّ لَطِيفَـةٌ أُخْـرَى بِهَـا ... سُـلْوَانُ مَـنْ قَـدْ سُـبَّ بِالْبُهْتَـانِ

---

(١) في نسخة السفاريني: «الله».

٢٦٢٧- تَجِدُ الـمُعَطِّلَ لاعِنًا لِـمُجَسِّمٍ ... وَمُشَبِّهٍ لله بِالإِنْسَانِ

٢٦٢٨- وَاللهُ يَصْرِفُ ذَاكَ عَنْ أَهْلِ الـهُدَى ... كَمُحَمَّدٍ وَمُذَمَّمٍ إِسْمَانِ

٢٦٢٩- هُمْ يَشْتُمُونَ مُذَمَّمًا، وَمُحَمَّدٌ ... عَنْ شَتْمِهِمْ فِي مَعْزِلٍ وَصِيَانِ

٢٦٣٠- صَانَ الإِلَهُ[1] مُحَمَّدًا عَنْ شَتْمِهِمْ ... فِي اللَّفْظِ والمَعْنَى هُمَا صِنْوَانِ[2]

٢٦٣١- كَصِيَانَةِ الأَتْبَاعِ عَنْ شَتْمِ الـمُعَطْ ... طِلْ لِلْمُشَبِّهِ هَكَذَا الإِرْثَانِ[3]

٢٦٣٢- وَالسَّبُّ مَرْجِعُهُ عَلَيْهِمْ إِذْ هُمُ ... أَهْلٌ لِكُلِّ مَذَمَّةٍ وَهَوَانِ

٢٦٣٣- وَكَذَا الـمُعَطِّلُ يَلْعَنُ اسْمَ مُشَبِّهٍ ... وَاسْمُ الـمُوَحِّدِ فِي حِمَى الرَّحْمَنِ

٢٦٣٤- هَذِي حِسَانُ عَرَائِسٍ زُفَّتْ لَكُمْ ... وَلَدَى الـمُعَطِّلِ هُنَّ غَيْرُ حِسَانِ

٢٦٣٥- وَالْعِلْمُ يَدْخُلُ قَلْبَ كُلِّ[4] مُوَفَّقٍ ... مِنْ غَيْرِ بَوَّابٍ وَلا اسْتِئْذَانِ

٢٦٣٦- وَيَرُدُّهُ المَحْرُومُ مِنْ خُذْلَانِهِ ... لا تُشْقِنَا اللَّهُمَّ بِالحِرْمَانِ

٢٦٣٧- يَا فِرْقَةً نَفَتِ الإِلَهَ وَقَوْلَهُ ... وَعُلُوَّهُ بِالجَحْدِ وَالْكُفْرَانِ

٢٦٣٨- مُوتُوا بِغَيْظِكُمُ فَرَبِّي عَالِمٌ ... بِسَرَائِرٍ مِنْكُمْ وَخُبْثِ جَنَانِ

---

(١) في نسخة السفارينية: «الإيمان».

(٢) في نسخة برلين والظاهرية وابن سحمان والإفتاء: «صونان».

(٣) في نسخة ابن سحمان: «الأوثان».

(٤) في نسخ السفارينية والتيمورية والظاهرية والإفتاء ونسختي ابن سحمان وبقية النسخ: «قلب كل»، والمثبت في نسخة برلين، وكلاهما صحيح، كما في آية غافر: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٥].

٢٦٣٩- فَـالله نَـاصِرُ دِينِـهِ وَكِتَابِـهِ وَرَسُـولِهِ بِـالْعِلْمِ وَالسُّـلْطَانِ

٢٦٤٠- وَالـحَقُّ رُكْـنٌ لا يَقُـومُ لِـهَدِّهِ أَحَـدٌ وَلَـوْ جُمِعَـتْ لَـهُ الـثَّقَلانِ

٢٦٤١- تُوبُـوا إِلَى الـرَّحْمَنِ مِـنْ تَعْطِيلِكُمْ فَـالرَّبُّ يَقْبَـلُ تَوْبَـةَ النَّـدْمَانِ

٢٦٤٢- مَنْ تَابَ مِنْكُمْ فَالجِنَـانُ مَصِيرُهُ(١) أَوْ مَـاتَ جَهْمِيًّـا فَفِـي النِّـيرَانِ

الشــرحُ

هذه نكتةٌ بديعةٌ ذكرها المؤلفُ -رحمه الله-، وهي بديعةٌ في الواقع، يقولُ:

٢٦١٥- هَـذَا وَثَـمَّ لَطِيفَـةٌ عَجَـبٌ سَأُبْـ ـدِيهَا لَكُـمْ يَـا مَعْشَـرَ الإِخْـوَانِ

جزاه الله خيرًا، فألفاظُه -رحمه الله- مُشَوِّقةٌ، فالإنسانُ إذا سَمِعَ هذا البيتَ يقول: هاتِ ما عندك.

٢٦١٦- فَاسْـمَعْ فَـذَاكَ مُعَطِّـلٌ وَمُشَـبِّهٌ وَاعْقِـلْ فَـذَاكَ حَقِيقَـةُ الإِنْسَـانِ

قَوْلُهُ: «اعْقِلْ فَذَاكَ حَقِيقَةُ الإِنْسَانِ» يعني: العقلُ حقيقةُ الإنسان؛ ولهذا لا يتميَّزُ الإنسانُ عن الحيوان إلَّا بالعقل، فإذا فَقَد العقلَ -والمراد عقل الرشد- صار أَخْبَثَ من الحيوان؛ كما قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:١٧٩].

٢٦١٧- لا بُدَّ أَنْ يَـرِثَ الرَّسُـولَ، وَضِـدَّهُ فِي النَّـاسِ طَائِفَتَـانِ مُـخْتَلِفَانِ

وهذا صحيحٌ، فالرسولُ ﷺ له أعداء، ووُرَّاثُ الرسول كذلك لا بُدَّ أن

(١) في نسخة الإفتاء وبعض النسخ: «نصيبه».

يكونَ لهم أعداءٌ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يُعَادَ لشخصه، وإنَّما عُودِيَ لشرعه، فمَن تمسَّك بشرعه فسيجد له أعداءً كما وَجد النَّبيُّ ﷺ له أعداءً.

٢٦١٨- فَالْوَارِثُونَ لَهُ عَلَى مِنْهَاجِهِ وَالْوَارِثُونَ لِضِدِّهِ فِئَتَانِ:

الوارثون للرسول ﷺ وأسألُ اللهَ أن يجعلنَا وإيَّاكم منهم على مِنهاجه، لا يَحِيدون عنه.

٢٦١٩- إِحْدَاهُمَا حَرْبٌ لَهُ وَلِحِزْبِهِ مَا عِنْدَهُمْ فِي ذَاكَ مِنْ كِتْمَانِ

قَوْلُهُ: «إِحْدَاهُمَا حَرْبٌ لَهُ وَلِحِزْبِهِ» وهم الكُفَّارُ الخُلَّص الذين يُعلنون الكفرَ، هؤلاء حربٌ للرسول وحزبِه، يُعلنونها إعلانًا صريحًا، ما عندهم في ذاك من كِتمان.

٢٦٢٠- فَرَمَوْهُ مِنْ أَلْقَابِهِمْ بِعَظَائِمٍ هُمْ أَهْلُهَا لا خِيرَةُ الرَّحْمَنِ

يعني: رَمَوُا النَّبيَّ ﷺ من ألقابهم بالعظائم، فقالوا: ساحرٌ، ومجنونٌ، وشاعرٌ، وكاهنٌ، وكذَّابٌ.

٢٦٢١- فَأَتَى الأُلَى وَرِثُوهُمْ فَرَمَوْا بِهَا وُرَّاثَهُ بِالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ

الذين وَرِثوا الكُفَّارَ رَمَوْا بهذه العظائم وُرَّاثَ النَّبيِّ ﷺ، وهم أتباعُه.

٢٦٢٢- هَذَا يُحَقِّقُ إِرْثَ كُلٍّ مِنْهُمَا فَاسْمَعْ وَعِهْ يَا مَنْ لَهُ أُذُنَانِ

الفريق الثالث، وهو الثاني ممن ضادَّ الرسول -عليه الصلاة والسلام-، قال عنهم:

٢٦٢٣- وَالآخَرُونَ أُولُو النِّفَاقِ فَأَضْمَرُوا شَيْئًا وَقَالُوا غَيْرَهُ بِلِسَانِ

قَوْلُهُ: «فَأَضْمَرُوا شَيْئًا» ماذا أضمروا؟ الجوابُ: الكفرَ.

قَوْلُهُ: «وَقَالُوا غَيْرَهُ بِلِسَانٍ» أي: الإسلام، فأظهروا الإسلامَ وأبطنوا الكفرَ.

٢٦٢٤- وَكَذَا الـمُعَطِّلُ مُضْمِرٌ تَعْطِيلَهُ   قَدْ أَظْهَرَ التَّنْزِيهَ لِلرَّحْمَنِ

المعطِّلُ يُنكرُ الصفاتِ ويكفرُ بها؛ مدَّعِيًا أنَّ ذلك تنزيهٌ لله عزَّ وجلَّ وتوحيدٌ له، ويقولُ: إنَّ أهلَ الإثبات مشرِكون كما سبق، عابدو أوثان، مُجَسِّمَةٌ.

٢٦٢٥- هَذِي مَوَارِيثُ العِبَادِ تَقَسَّمَتْ   بَيْنَ الطَّوَائِفِ قِسْمَةَ الـمَنَّانِ

واللهُ -سبحانه وتعالى- يُؤْتِي فضلَه مَن يشاء، فمِن الناس مَنْ حُرِم، ومِن الناس مَنْ أُعطِيَ ومُنِحَ، وهذه لطيفةٌ.

٢٦٢٦- هَذَا وَثَمَّ لَطِيفَةٌ أُخْرَى بِهَا   سُلْوَانُ مَنْ قَدْ سُبَّ بِالْبُهْتَانِ

قَوْلُهُ: «سُلْوَان» يعني التَّسَلِّيَ، ما هذه اللطيفة؟ قال -رحمه الله-:

٢٦٢٧- تَجِدُ الـمُعَطِّلَ لاعِنًا لِـمُجَسِّمٍ   وَمُشَبِّهٍ لله بِالإِنْسَانِ

المعطِّلُ يلعنُ المجسِّمَ والمشبِّهَ لله بالإنسان.

والحقيقة أنَّ لعنَه يعودُ عليه؛ لأنَّ المعطِّلَ مشبِّهٌ -كما مرَّ علينا آنفًا- فإذا لعن المُمَثِّلَ قال: (اللَّهُمَّ العَنِ المُمَثِّلَ وَالمُشَبِّهَ) فقد لعن نفسَه؛ لأنَّ أهلَ الحديث ينكرون هذا، فلا يُشَبِّهون اللهَ بخلقه، ويقولون: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ولا يُجَسِّمون، فلم يقولوا: إنه جسمٌ.

٢٦٢٨- وَاللهُ يَصْرِفُ ذَاكَ عَنْ أَهْلِ الـهُدَى   كَمُحَمَّدٍ وَمُذَمَّمٍ إِسْمَانِ

قَوْلُهُ: «يَصْرِفُ ذَاكَ» أي: اللَّعْنَ.

قَوْلُهُ: «عَنْ أَهْلِ الـهُدَى» أي: لفظًا ومعنًى؛ لأنَّهم ليسوا -ولله الحمد- مُجَسِّمَةً، وليسوا مُشَبِّهَةً.

مثاله: «كَمُحَمَّدٍ وَمُذَمَّم إِسْمَانِ» يجوز قطعُ الهمزة للضرورة. يشيرُ إلى أنَّ المشركين سمَّوُا النَّبِيَّ ﷺ مُذَمَّـمًا[1]، وقالوا: هو مُذَمَّمٌ، لا مُحَمَّدٌ؛ لأنَّ (مُحَمَّدًا) مِن الحمد، و(مُذَمَّـمًا) مِن الذَّمِّ، فيشتُمون مُذَمَّـمًا فيقولون: مُذَمَّمٌ لا حيَّاه اللهُ ولا بَيَّاه.

٢٦٢٩- هُـمْ يَشْـتُمُونَ مُذَمَّـمًا، وَمُحَمَّـدٌ ... عَـنْ شَـتْمِهِمْ فِي مَعْـزِلٍ وَصِـيَانِ

انظر، هم يشتمون مُذَمَّـمًا، ومُحَمَّدٌ الذي هو رسولُ الله ﷺ عن شتمهم في مَعْزِلٍ وصيان، إِذَنْ يَنْصَبُّ الشَّتْمُ إليهم؛ لأنَّهم هم أهلُ الذَّمِّ.

٢٦٣٠- صَـانَ الإِلَـهُ مُحَمَّـدًا عَـنْ شَـتْمِهِمْ ... فِي اللَّفْـظِ والمَعْنَـى هُمَـا صِـنْوَانِ

فرسولُ الله -عليه الصلاة والسلام- في اللفظ اسمُه (مُحَمَّد)، وفي المعنى كذلك (مُحَمَّد)، وليس مُذَمَّمًا، لا باللفظ ولا بالمعنى.

٢٦٣١- كَصِيَانَةِ الأَتْبَاعِ عَنْ شَتْمِ الـمُعَطْـ ... ـطِـلْ لِلْمُشَـبِّهِ هَكَـذَا الإِرْثَـانِ

٢٦٣٢- وَالسَّـبُّ مَرْجِعُـهُ عَلَـيْهِمْ إِذْ هُـمُ ... أَهْـلٌ لِكُـلِّ مَذَمَّـةٍ وَهَـوَانِ

قَوْلُهُ: «وَالسَّبُّ مَرْجِعُهُ عَلَيْهِمْ» في نسخة: (إليهم) والمعنى واحد.

الله أكبر، هذا الإرثُ مُتَّفِقٌ تمامًا.

المشركون يَسُبُّون الرسولَ ﷺ ويلعنون مُذَمَّمًا، فتعودُ اللعنةُ في الحقيقة إليهم.

---

(١) وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: «أَلاَ تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ وَلَعْنَهُمْ، يَشْتِمُونَ مُذَمَّـمًا، وَيَلْعَنُونَ مُذَمَّـمًا وَأَنَا مُحَمَّدٌ». أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ، رقم (٣٣٤٠).

وهؤلاء أهلُ التعطيل يَسبُّون أهلَ الإثبات ويلعنونهم، وفي الحقيقة أنَّ الأمرَ يعودُ إليهم.

٢٦٣٣- وَكَذَا الـمُعَطِّلُ يَلْعَنُ اسْـمَ مُشَـبِّهٍ وَاسْمُ الـمُوَحِّدِ فِي حِمَى الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَا الـمُعَطِّلُ يَلْعَنُ اسْمَ مُشَبِّهٍ» يقول: لعن اللهُ الـمُشَبِّهَ، فيُقَال: بل هو المُشَبِّهُ.

قَوْلُهُ: «وَاسْمُ المُوَحِّدِ فِي حِمَى الرَّحْمَنِ» يعني: أهل الحديث الذين يثبتون هل هم مُشَبِّهون؟ الجواب: أبدًا، فهم أهلُ التوحيد الذين قالوا: إنَّ اللهَ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى:١١].

٢٦٣٤- هَذِي حِسَانُ عَرَائِسٍ زُفَّـتْ لَكُـمْ وَلَدَى الـمُعَطِّلِ هُنَّ غَـيْرُ حِسَـانِ

لا يوجد شَكٌّ، فالحِسانُ عند أهلِ الإثبات غيرُ حِسانٍ عند أهل التعطيل.

٢٦٣٥- وَالْعِلْمُ يَـدْخُلُ قَلْـبَ كُـلِّ مُوَفَّـقٍ مِـنْ غَـيْرِ بَـوَّابٍ وَلا اسْـتِئْذَانِ

قَوْلُهُ: «مِنْ غَيْرِ بَوَّابٍ» في نسخة: (من غير أبواب)، والأُولى أحسنُ، وأيضًا نسخة (الأبواب) تصحُّ؛ لأَنَّ الغالبَ أنَّ الأبوابَ لا تُجْعَلُ إلَّا لتمنعَ الدخول.

وصدق -رحمه الله-، فالموفَّقُ يدخلُ العلمُ قلبَه من غير بَوَّابٍ ولا استئذان؛ لأنَّ القلبَ هو الذي يطلبُ العلمَ، فبمجرد ما يَرِدُ إليه العلمُ يَقْبَلُه، ولا يحتاجُ إلى بَوَّابٍ ولا إلى استئذان، واقرأ قولَ الله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [محمد:١٦].

يحضرون مجلسَ الرسولِ ﷺ يُعلِّمُهم، ولكنَّهم لا يَعُونَ، ولا يفهمون، فإذا خرجوا قالوا: ماذا قال آنفًا؟ يَحتمل أنَّهم يقولون ذلك على سبيل التحقير؛ يعني:

إننا لم نُبالِ به ماذا قال؟ ويحتمل أن يكونَ على سبيل الاستخبار، لكن لم يصل العلمُ إلى قلوبهم؛ لأنهم ليسوا أهلًا للعلم، قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [محمد:١٦] نعوذُ بالله.

أيضًا ابنُ القيِّم -رحمه الله- يقولُ: إنَّ العلمَ يدخلُ قلبَ كُلِّ مُوَفَّقٍ من غير بَوَّاب ولا استئذان.

قد يكون عندنا في الحقيقة مشكلةُ دخولِ العلم، هذه واحدة.

وهناك مشكلةٌ أخرى: إذا دخل العلمُ من بابٍ مفتوح عندنا يخرجُ من ذلك الباب المفتوح، ولا ينغلقُ عليه البابُ حتَّى يحفظَه؛ ولهذا تجدنا نقرأُ كثيرًا، ونحفظُ ولكن يطير العلم، فالعلم يخرج من البابِ، والنافذة، والسقف أيضًا، بل لا يوجدُ سقفٌ، فهو يخرجُ من كُلِّ جانبٍ حتى لو دخل.

فالعلمُ في الحقيقة يحتاجُ إلى أمرين: إلى بابٍ مفتوحٍ لقَبوله، وإلى بابٍ مغلَقٍ لمنعه من الخروج، نسألُ اللهَ أن يوفِّقَنا إلى هذا.

٢٦٣٦- وَيَــرُدُّهُ المَحْــرُومُ مِــنْ خُذْلَانِــهِ ... لا تُشْــقِنَا اللَّهُــمَّ بِالْــحِرْمَانِ

المحرومُ -نسألُ اللهَ العافيةَ- يَرُدُّ العِلمَ؛ لأنه مخذولٌ.

٢٦٣٧- يَــا فِرْقَــةً نَفَــتِ الإِلَــهَ وَقَوْلَــهُ ... وَعُلُــوَّهُ بِالْــجَحْدِ وَالْكُفْــرَانِ

قَوْلُهُ: «يا فِرقةً»؛ لأنه ينادِي نكرةً غير مقصودةٍ.

٢٦٣٨- مُوتُــوا بِغَــيْظِكُمْ فَرَبِّــي عَالِــمٌ ... بِسَــرَائِرٍ مِــنْكُمْ وَخُبْــثِ جَنَــانِ

قَوْلُهُ: «مُوتُوا بِغَيْظِكُمُ» يعني: اغتاظوا غيظًا يقتلكم ويهلككم، وقد أمر اللهُ نبيَّه بذلك فقال: ﴿قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران:١١٩].

٢٦٣٩- فَـــاللهُ نَـــاصِرُ دِينِـــهِ وَكِتَابِـــهِ وَرَسُـــولِهِ بِـــالْعِلْمِ وَالسُّـــلْطَانِ

قَوْلُهُ: «فاللهُ ناصِرُ دِينِه... بِالْعِلْمِ وَالسُّلْطَانِ»؛ لأنَّ الدينَ يقومُ بالعِلم، وبثِّ الدين، وبالسُّلطان أي: بالقوة: بالجهاد بالسِّنان والسِّلاح.

٢٦٤٠- وَالـــحَقُّ رُكْـــنٌ لا يَقُـــومُ لِـــهَدِّهِ أَحَـــدٌ وَلَـــوْ جُمِعَـــتْ لَـــهُ الـــثَّقَلانِ

وصدق -رحمه الله-، فالحقُّ ركنٌ لا يمكنُ أن يَهُدَّه أحدٌ مهما كان؛ ولهذا تجدُ على كثرة المبتدعة وكثرة الأعداء هل غابت شمسُ الهدى؟ الجواب: أبدًا، لم تَغِبْ -ولله الحمد- شمسُ الهدى، قال رسول الله ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَـهُمْ حَتَّى يَأْتِـيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»[1]، فلا يمكنُ أن يُهَدَّ الحقُّ أبدًا.

٢٦٤١- تُوبُـوا إِلَى الـرَّحْمَنِ مِـنْ تَعْطِيلِكُمْ فَـــالرَّبُّ يَقْبَـــلُ تَوْبَـــةَ النَّـــدْمَانِ

قَوْلُهُ: «تُوبُوا إِلَى الرَّحْمَنِ مِنْ تَعْطِيلِكُمْ» ابنُ القيِّم -جزاه الله خيرًا- لـمَّا ذَكَرَ ما هم عليه من العدوان والبغي، لم يؤيِّسْهم من رحمة الله، دعاهم إلى التوبة، ومَن تابَ تابَ اللهُ عليه.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفرقان:٦٨]، وضدُّ هذا الشِّركُ، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الفرقان:٦٨] هذا اعتداءٌ على الأنفس، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزۡنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨] اعتداءٌ على الأعراض.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ: «لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين»، رقم (٧٣١١)، مسلم: كتاب الإيمان، باب نزول عيسى بن مريم حاكما بشريعة نبينا، رقم (١٥٦).

فأكبرُ اعتداء على الأعراض الزنا، وأكبرُ اعتداء على الأنفس القتلُ، وأكبرُ عدوان على حقِّ الله الشِّركُ.

هؤلاء: ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠] فاللهُ عزَّ وجلَّ يقبلُ التوبةَ؛ ولهذا قال ابن القيِّم: **توبوا إلى الرحمن من تعطيلكم، فالرب يقبل توبة الندمان.**

فالتوبةُ المبنيَّةُ على الندم هي التوبةُ الحقيقيةُ، أما التوبةُ المبنيَّةُ على غير ذلك فهي توبةٌ ناقصةٌ، بل إنَّ العلماءَ جعلوا من شروط قَبول التوبة الندمَ.

٢٦٤٢- مَنْ تَابَ مِنْكُمْ فَالجِنَانُ مَصِيرُهُ ... أَوْ مَاتَ جَهْمِيًّا فَفِي النِّيرَانِ

قَوْلُهُ: «مَنْ تَابَ مِنْكُمْ فَالجِنَانُ مَصِيرُهُ» أي: وإن كان في البداية كافرًا؛ ولهذا نحن نعلمُ حسب التاريخ ما حصل من عمرَ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أوَّل الدعوةِ الإسلاميَّة من المنابذة والمضادة، لو مات على هذا الحال لكان من أهل النار، لكن مَنَّ اللهُ عليه بالتوبة، فصار من أهل الجنة، فصار هو الثالث من القبور التي في بيت الرسول -عليه الصلاة والسلام-.

قَوْلُهُ: «أَوْ مَاتَ جَهْمِيًّا فَفِي النِّيرَانِ» يعني: مَن مات على مذهب الجَهْمِ بنِ صَفْوَان فإنَّه في النار؛ لأنَّ أكثرَ السَّلف كَفَّروا الجهميَّةَ، والكافرُ مصيرُه إلى النار، نعوذ بالله من ذلك.

* * *

فصل

فِي بَيَانِ اقْتِضَاءِ التَّجَهُّمِ وَالجَبْرِ وَالإِرْجَاءِ لِلْخُرُوجِ عَنْ جَمِيعِ دِيانَاتِ الأَنْبِيَاءِ

٢٦٤٣- وَاسْمَعْ وَعِهْ سِرًّا عَجِيبًا كَانَ مَكْـ ـتُومًا مِـنَ الأَقْـوَامِ مُنْـذُ زَمَـانِ

٢٦٤٤- فَأَذَعْتُـهُ بَعْـدَ اللَّتَيَّـا وَالَّتِـي نُصْـحًا وَخَـوْفَ مَعَـرَّةِ الكِـتْمَانِ

٢٦٤٥- جِـيمٌ وَجِـيمٌ ثُـمَّ جِـيمٌ مَعْهُـمَا مَقْرُونَـةٌ مَـعْ أَحْـرُفٍ بِـوِزَانِ

٢٦٤٦- فِيهَـا لَـدَى الأَقْـوَامِ طِلَّسْـمٌ مَتَـى تَحْلُلْـهُ تَحْلُـلْ ذُرْوَةَ العِرْفَـانِ

٢٦٤٧- فَإِذَا رَأَيْتَ الثَّوْرَ فِيهِ تَقَـارَنَ[1] الْـ ـجِيمَاتُ بِالتَّثْلِيـثِ شَرَّ قِـرَانِ

٢٦٤٨- دَلَّـتْ عَـلَى أَنَّ النُّحُـوسَ جَمِيعَهَـا سَهْمُ الَّـذِي قَـدْ فَـازَ بِالْـخُذْلانِ

٢٦٤٩- جَـبْرٌ وَإِرْجَـاءٌ وَجِـيمُ تَجَهُّـمٍ فَتَأَمَّـلِ الْـمَجْمُوعَ فِي الْـمِيزَانِ

٢٦٥٠- فَاحْكُمْ بِطَالِعِهَا لِـمَنْ حَصَلَتْ لَهُ بِخَلاصِـهِ مِـنْ رِبْقَـةِ الإِيـمَانِ

٢٦٥١- فَاحْمِـلْ عَـلَى الأَقْـدَارِ ذَنْبَـكَ كُلَّـهُ حَمْلَ الْـجُذُوعِ عَلَى قُوَى الْـجُدْرَانِ

٢٦٥٢- وَافْتَحْ لِنَفْسِكَ بَابَ عُذْرِكَ إِذْ تَرَى الْـ أَفْعَـالَ فِعْـلَ الْـخَالِقِ الـدَّيَّانِ

٢٦٥٣- فَالْـجَبْرُ يُشْهِدُكَ الذُّنُوبَ جَمِيعَهَـا مِثْلَ ارْتِعَاشِ الشَّيْخِ ذِي الرَّجَفَـانِ

٢٦٥٤- لا فَاعِـلٌ أَبَـدًا وَلا هُـوَ قَـادِرٌ كَالْـمَيْتِ أُدْرِجَ دَاخِـلَ الأَكْفَـانِ

---

(١) في نسخة برلين والإفتاء والتيمورية: «مقارن».

٢٦٥٥- وَالأَمْـرُ وَالنَّهْـيُ اللَّـذَانِ تَوَجَّهَـا ... فَهُـمَا كَـأَمْرِ العَبْـدِ بِـالطَّيَرَانِ

٢٦٥٦- وَكَأَمْرِهِ الأَعْمَى[1] بِـنَقْطِ مَصَـاحِفٍ ... أَوْ شَـكْلِهَا حَـذَرًا مِـنَ الأَلْـحَانِ

٢٦٥٧- وَإِذَا ارْتَفَعْتَ دُرَيْجَـةً أُخْـرَى رَأَيْـ ... ـتَ الكُـلَّ طَاعَـاتٍ بِـلَا عِصْـيَانِ

٢٦٥٨- إِنْ قِيلَ: قَدْ خَالَفْتَ أَمْرَ الشَّرْعِ قُلْ ... لَكِـنْ أَطَعْـتُ إِرَادَةَ الـرَّحْمَنِ

٢٦٥٩- وَمُطِيـعُ أَمْـرِ اللهِ مِثْـلُ مُطِيـعِ مَـا ... يَقْضِـي بِـهِ وَكِلَاهُمَـا عَبْـدَانِ

٢٦٦٠- عَبْـدُ الأَوَامِـرِ مِثْـلُ عَبْـدِ مَشِـيئَةٍ ... عِنْـدَ الـمُحَقِّقِ لَـيْسَ يَفْتَرِقَـانِ

٢٦٦١- فَانْظُرْ إِلَى مَا قَادَتِ الجِيمُ الَّـذِي[2] ... لِلْجَـبْرِ مِـنْ كُفْـرٍ وَمِـنْ بُهْتَـانِ

٢٦٦٢- وَكَذَلِكَ الإِرْجَاءُ حِـينَ تُقِـرُّ بِالْـ ... ـمَعْبُودِ تُصْـبِحُ كَامِـلَ الإِيـمَانِ

٢٦٦٣- فَارْمِ المَصَاحِفَ فِي الحُشُوشِ وَخَـرِّبِ الْـ ... ـبَيْتَ الْعَتِيـقَ وَجِـدَّ فِي العِصْـيَانِ

٢٦٦٤- وَاقْتُلْ إِذَا مَا اسْطَعتَ[3] كُلَّ مُوَحِّدٍ ... وَتَمَسَّـحَنْ بِـالْقَسِّ وَالصُّـلْبَانِ

٢٦٦٥- وَاشْتُمْ جَمِيعَ الـمُرْسَلِينَ وَمَنْ أَتَـوْا ... مِـنْ عِنْـدِهِ جَهْـرًا بِـلَا كِـتْمَانِ

٢٦٦٦- وَإِذَا رَأَيْتَ حِجَارَةً فَاسْـجُدْ لَـهَا ... بَـلْ خِـرَّ لِلأَصْـنَامِ وَالأَوْثَـانِ[4]

٢٦٦٧- وَأَقِـرَّ أَنَّ اللهَ جَـلَّ جَلالُـهُ ... هُوَ وَحْدَهُ الْبَارِي لِذِي الأَكْـوَانِ

٢٦٦٨- وَأَقِـرَّ أَنَّ رَسُـولَهُ حَقًّـا أَتَـى ... مِـنْ عِنْـدِهِ بِـالْوَحْيِ وَالْقُـرْآنِ

---

(١) في نسخة برلين: «أعمى».
(٢) في نسخة برلين والتيمورية والسفارينية والإفتاء والظاهرية: «التي».
(٣) في نسخة السفارينية والإفتاء ونسختي ابن سحمان: «اسطعت» بدون تاء في أوله.
(٤) في نسختي ابن سحمان: «والصلبان».

٢٦٦٩- فَتَكُـونَ حَقًّـا مُؤْمِنًـا وَجَمِيـعُ ذَا ... وِزْرٌ عَلَيْـكَ وَلَـيْسَ بِـالْكُفْرَانِ

٢٦٧٠- هَـذَا هُـوَ الإِرْجَـاءُ عِنْـدَ غُلاتِهِـمْ ... مِنْ كُـلِّ جَهْمِـيٍّ أَخِـي الشَّـيْطَانِ

٢٦٧١- فَأَضِفْ إِلَى الـجِيمَيْنِ جِيمَ تَجَهُّـمٍ ... وَانْفِ الصِّـفَاتِ وَأَلْـقِ بِالأَرْسَـانِ

٢٦٧٢- قُلْ: لَيْسَ فَوْقَ العَرْشِ رَبٌّ عَالِـمٌ ... بِسَـــرَائِرٍ مِنَّـــا وَلا إِعْـــلانِ

٢٦٧٣- بَلْ لَيْسَ فَوْقَ العَرْشِ ذُو سَـمْعٍ وَلَا ... بَصَـــرٍ وَلا عَـــدْلٍ وَلا إِحْسَـــانِ

٢٦٧٤- بَلْ لَيْسَ فَوْقَ العَرْشِ مَعْبُودٌ سِوَى الْـ ... ـعَدَمِ الَّـذِي لا شَيْءَ فِي الأَعْيَـانِ

٢٦٧٥- بَلْ لَيْسَ فَوْقَ الْعَرْشِ مِـنْ مُتَكَلِّمٍ ... بِــأَوَامِرٍ وَزَوَاجِــرٍ وَقُــرَانِ

٢٦٧٦- كَـلَّا وَلَا كَلِـمٌ إِلَيْـهِ صَـاعِدٌ ... أَبَـدًا وَلا عَمَـلٌ لِـذِي شُـكْرَانِ

٢٦٧٧- أَنَّى وَحَظُّ العَرْشِ مِنْـهُ كَحَـظِّ مَـا ... تَحْتَ الثَّرَى عِنْدَ الحَضِيضِ الـدَّانِي

٢٦٧٨- بَـلْ نِسْـبَةُ الـرَّحْمَنِ عِنْـدَ فَـرِيقِهِمْ ... لِلْعَــرْشِ نِسْــبَتُهُ إِلَى الْبُنْيَــانِ

٢٦٧٩- فَعَلَـيْهِمَا اسْـتَوْلَى جَمِيعًـا قُـدْرَةً ... وَكِلاهُمَـا مِــنْ ذَاتِــهِ خِلْــوَانِ

٢٦٨٠- هَـذَا الَّـذِي أَعْطَتْـهُ جِـيمُ تَجَهُّـمٍ ... حَشْـوًا بِـلَا كَيْـلٍ وَلا مِيـزَانِ

٢٦٨١- تَاللهِ مَـا اسْـتَجْمَعْنَ عِنْـدَ مُعَطِّلٍ ... جِيمَاتُهَـــا وَلَدَيْـــهِ مِـــنْ إِيمَـانِ

٢٦٨٢- وَالـجَهْمُ أَصَّلَهَا جَمِيعًـا فَاغْتَـدَتْ ... مَقْسُــومَةً فِي النَّــاسِ بِالْـــمِيزَانِ

٢٦٨٣- وَالْوَارِثُونَ لَهُ عَـلَى التَّحْقِيقِ هُـمْ ... أَصْــحَابُهَا لا شِــيعَةُ الإِيــمَانِ

٢٦٨٤- لَكِـنْ تَقَسَّـمَتِ الطَّوَائِـفُ قَوْلَـهُ ... ذُو السَّـهْمِ وَالسَّـهْمَيْنِ وَالسُّـهْمَانِ

٢٦٨٥- لَكِنْ نَجَا أَهْلُ الحَدِيثِ المحْضِ أَتْـ ـبَاعُ الرَّسُولِ وَتَابِعُو القُرْآنِ
٢٦٨٦- عَرَفُوا الَّذِي قَدْ قَالَ مَعْ عِلْمٍ بِمَا قَالَ الرَّسُولُ فَهُمْ أُولُو العِرْفَانِ
٢٦٨٧- وَسِوَاهُمُ فِي الجَهْلِ وَالدَّعْوَى مَعَ الْـ ـكِبْرِ العَظِيمِ وَكَثْرَةِ الهَذَيَانِ
٢٦٨٨- مَدُّوا يَدًا نَحْوَ العُلَى بِتَكَلُّفٍ وَتَخَلُّفٍ وَتَكَبُّرٍ وَتَوَانِ
٢٦٨٩- أَتُرَى يَنَالُوهَا وَهَذَا شَأْنُهُمْ؟ حَاشَا العُلَى مِنْ ذَا الزَّبُونِ الْفَانِي

الشرحُ

هذا الفصلُ عجيبٌ غريبٌ، ذكر المؤلفُ -رحمه الله- فيه أنَّ الجهمَ والجبرَ والإرجاءَ يقتضي الخروجَ من جميع ديانات الأنبياء.

فالتجهُّمُ، والجبرُ، والإرجاءُ، ثلاثُ جيماتٍ تقتضي الخروجَ عن جميع ديانات الأنبياء.

قال المؤلف -رحمه الله-:

٢٦٤٣- وَاسْمَعْ وَعِهْ سِرًّا عَجِيبًا كَانَ مَكْـ ـتُومًا مِنَ الأَقْوَامِ مُنْذُ زَمَانِ

قَوْلُهُ: «**سرًا عجيبًا كان مَكْتومًا**» يعني: ما أبداه أحدٌ ولا أظهره، وإن كان عند التأمُّل معلومًا، لكنه لم يُظْهَرْ، هذا السِّرُّ يقول:

٢٦٤٤- فَأَذَعْتُهُ بَعْدَ اللَّتَيَّا وَالَّتِي نُصْحًا وَخَوْفَ مَعَرَّةِ الكِتْمَانِ

قَوْلُهُ: «**فَأَذَعْتُهُ بَعْدَ اللَّتَيَّا وَالَّتِي**» هذا التركيبُ تأتي به العربُ للدلالة على معاناة الشيء، وأنه لم يحصل بسهولة.

يقول: إنه أذاعه -رحمه الله- بعد اللَّتَيَّا والَّتِي، أذاعه لماذا؟ قال: (نُصحًا وخوفَ معرَّة الكتمان).

٢٦٤٥- جِـيمٌ وَجِـيمٌ ثُـمَّ جِـيمٌ مَعْهُـمَا   مَقْرُونَـةٌ مَـعْ أَحْـرُفٍ بِـوِزَانِ

ثلاثةُ جيماتٍ مقرونةٌ مع حروفٍ تُكَمِّلُها، جيم الجبر يُكَمِّلُها الباء والراء، التجهُّم يُكَمِّلُها الهاء والميم، الإرجاء يُكَمِّلُها الهمزتان والرَّاء.

هذه ثلاثة جيمات، يقول:

٢٦٤٦- فِيهَـا لَـدَى الأَقْـوَامِ طِلَّسْـمٌ مَتَـى   تَحْلُلْـهُ تَحْلُـلْ ذُرْوَةَ العِرْفَـانِ

قَوْلُهُ: «طلسم» الطِّلَّسْمُ هو عبارة عن قراءاتٍ مُعَيَّنةٍ تُقْرَأ على المرضى تكونُ سببًا للشِّفاء، وتُجمع على (طَلَاسِم).

٢٦٤٧- فَإِذَا رَأَيْـتَ الثَّـوْرَ فِيـهِ تَقَـارَنَ الْـ   ـجِيمَاتُ بِالتَّثْلِيـثِ شَرَّ قِـرَانِ

قَوْلُهُ: «الثور» أحدُ البروج الاثني عشر، الذين يقولون بعلم النجوم يتكهَّنون في مثل هذه الأمور باقتران النَّجْم الفلانِـيِّ بالنَّجْمِ الفلانِـيِّ وما أشبه ذلك، وهو علمٌ باطلٌ لاشكَّ، لكن المؤلفُ -رحمه الله تعالى- أرد أن يضربَ مثلًا فقط.

٢٦٤٨- دَلَّـتْ عَـلَى أَنَّ النُّحُـوسَ جَمِيعَهَـا   سَهْمُ الَّـذِي قَـدْ فَـازَ بِالْـخُذْلانِ

٢٦٤٩- جَـبْرٌ وَإِرْجَـاءٌ وَجِـيمُ تَجَهُّـمٍ   فَتَأَمَّـلِ الـمَجْمُوعَ فِي الـمِيزَانِ

قَوْلُهُ: «جَبْر» فيها جيم، «إرجاء» فيها جيم، «تجهم» فيها جيم، هذه الثلاثة مجموعة إذا اجتمعت خرج الإنسانُ من الإسلام.

٢٦٥٠- فَاحْكُمْ بِطَالِعِهَا لِـمَنْ حَصَلَتْ لَهُ   بِخَلاصِـهِ مِـنْ رِبْقَـةِ الإِيـمَانِ

يعني: تَخَلَّصَ من رِبْقَةِ الإيمان وفَصَلَها، ودخل في الكفر والعياذ بالله.

٢٦٥١- فَاحْمِـلْ عَـلَى الأَقْـدَارِ ذَنْبَـكَ كُلَّـهُ   حَمْلَ الـجُذُوعِ عَلَى قُوَى الـجُدْرَانِ

بدأ المؤلفُ بالجبر، وأهلُ الجبر يقولون: إنَّ الإنسانَ مُجْبَرٌ على عمله، ليس له حولٌ ولا قوة، فاحمل جميعَ الذنوب على الأقدار، إذا أحدٌ عَاتَبَكَ على ذنبٍ فقل: هذا قَدَرُ الله، كُلُّ ذنوبِك احْمِلْها على القَدَر.

قَوْلُهُ: «حَمْلَ الجُذُوعِ عَلَى قُوَى الجُدْرَان» الجِذع إذا أسندتَه إلى الجدار اتَّكَأَ عليه؛ لأنه لا يقومُ بنفسه.

٢٦٥٢- وَافْتَحْ لِنَفْسِكَ بَابَ عُذْرِكَ إِذْ تَرَى الْـ   أَفْعَـالَ فِعْـلَ الـخَالِقِ الـدَّيَّانِ

هؤلاء الغلاةُ من الجَبْرِيَّة يقولون: إنَّ فِعلَ العبد فِعلُ الله، ولا شكَّ أنَّ هذا البابَ يفتحُ علينا بابَ وَحدة الوجود الذين يقولون: إنَّ الخلقَ عينُ الخالق، فإذن فِعْلُ الخلقِ هو فعلُ الخالقِ.

٢٦٥٣- فَالـجَبْرُ يُشْهِدُكَ الذُّنُوبَ جَمِيعَهَـا   مِثْلَ ارْتِعَاشِ الشَّيْخِ ذِي الرَّجَفَـانِ

رجلٌ ذهب إلى مُجَمَّعِ بغايا، وفَعَلَ الفاحشةَ ورجعَ، حركاتُه وخطواتُه وأفعالُه كُلُّها بغيرِ اختياره، كشيخ فانٍ كبيرٍ قد ذهبت قُواه، فهو يرتعشُ هكذا، هذا الفعلُ وهو (الارتعاش) اختيارِيٌّ أو اضطرارِيٌّ؟ الجواب: اضطرارِيٌّ.

هو يقول: هذا الرجلُ الذي ذهب إلى سوق البغايا وقضى حاجتَه ورجع، كُلُّ فعلِه هذا اضطرارِيٌّ، ليس له فيه حول لا قوة كارتعاش الشيخ الفاني.

٢٦٥٤- لا فَاعِــلٌ أَبَــدًا وَلا هُــوَ قَــادِرٌ   كَالــمَيْتِ أُدْرِجَ دَاخِــلَ الأَكْفَـانِ

قَوْلُهُ: «لا فَاعِلٌ أَبَدًا وَلا هُوَ قَادِرٌ» الإنسانُ ليس بفاعلٍ، وليس بقادرٍ على الفعل، عَلَّل ذلك بأنَّه مُجْبَرٌ.

قَوْلُهُ: «كَالمَيْتِ أُدْرِجَ دَاخِلَ الأَكْفَانِ» فالميتُ يُحْمَلُ من سَرير الغسل ويُوضَعُ على الكفن، وهذا ليس باختياره.

لو اختار ما اختارَ أن يُغَسَّلَ ولا أن يُدْخَلَ في الأكفان، بل لاختار الحياةَ.

٢٦٥٥- وَالأَمْــرُ وَالنَّهْــيُ اللَّــذَانِ تَوَجَّهَــا   فَهُــمَا كَــأَمْرِ العَبْــدِ بِــالطَّيَرَانِ

لـمَّا قيل لهم: كيف تقولون هذا واللهُ تعالى يُوجِّهُ الأمرَ إلى العباد، يقول: افعلوا، أقيموا الصلاةَ، آتوا الزكاةَ، كيف تقولون هذا؟ قال: هذا أمرٌ كما يُؤْمَرُ العبدُ -أي: الإنسانُ- الذي ليس عنده جَناحٌ يُؤْمَرُ بالطيران.

توجيهُ الأمرِ بالطيران إلى مَن لا جَناح له، هذا غيرُ ممكنٍ، يعني: لو أنَّ أحدًا وجَّه الأمرَ بالطيران إلى شخصٍ لا جَناحَ له، قيل: هذا جنونٌ وسَفَهٌ.

٢٦٥٦- وَكَـأَمْرِهِ الأَعْمَـى بِـنَقْطِ مَصَـاحِفٍ   أَوْ شَـكْلِهَا حَـذَرًا مِـنَ الأَلْــحَانِ

أعطينا أعمى مصحفًا مكتوبًا بالحروف، وقلنا له: نَقِّطْه، وإذا انتهى من التنفيط قلنا: شَكِّلْه، وهو أعمى، فهذا لا يمكن إلَّا على طريقة (برايل)، لكن هذا ليس التشكيل المعهود المعروف.

على كُلِّ حالٍ هم يقولون-والعياذ بالله-: إنَّ أوامرَ الله وأوامرَ رسولِهِ الموجَّهةَ إلى الناس كأوامر العبد الذي ليس له جَناحٌ بالطيران، أو أمر الأعمى بأن يُنَقِّطَ المصحفَ و يُشَكِّلَه.

٢٦٥٧- وَإِذَا ارْتَفَعْتَ دُرَيْجَةً أُخْرَى رَأَيْـ ـتَ الكُلَّ طَاعَاتٍ بِلَا عِصْيَانِ

ارتفع نسبيًّا أيضًا في قول أهل الجبر، إذا ارْتَفَعْتَ رأيتَ الكُلَّ طاعاتٍ، فالمعاصي طاعاتٌ، فالزنا طاعةٌ، شربُ الخمرِ طاعةٌ، السَّرِقةُ طاعةٌ!

٢٦٥٨- إِنْ قِيلَ: قَدْ خَالَفْتَ أَمْرَ الشَّرْعِ قُلْ لَكِنْ أَطَعْتُ إِرَادَةَ الرَّحْمَنِ

أعوذُ بالله، إن قيل: أنت شرِبتَ الخمرَ، وخالفتَ أمرَ الشرعِ، قال: لكن وافقتُ الإرادةَ، أليس اللهُ قد أراد أن أشربَ الخمرَ؟ الجواب: بلى، قال: إِذَنْ أنا مطيعٌ؛ لأنِّي وافقتُ إرادةَ الله.

٢٦٥٩- وَمُطِيعُ أَمْرِ الله مِثْلُ مُطِيعِ مَا يَقْضِي بِهِ وَكِلاهُمَا عَبْدَانِ

قَوْلُهُ: «وَمُطِيعُ أَمْرِ الله» يعني أمرَ الله الكونيَّ.

الذي يطيعُ أمرَ الله الكونِيَّ كالمطيعِ أمرَه فيما يقضي به من الشَّرعِ.

قَوْلُهُ: «وكلاهما» أي: مطيعُ الأمرِ ومطيعُ الشَّرعِ، كلاهما عبدان.

وهذا صحيحٌ، فهما عبدان، لكنَّ الكافرَ عبدٌ بالعبوديَّة القَدَرِيَّة، والمؤمنَ عبدٌ بالعبوديَّة القَدَرِيَّة الشَّرعيَّة.

٢٦٦٠- عَبْدُ الأَوَامِرِ مِثْلُ عَبْدِ مَشِيئَةٍ عِنْدَ المُحَقِّقِ لَيْسَ يَفْتَرِقَانِ

قَوْلُهُ: «عَبْدُ الأَوَامِرِ» عبدُ الأوامر هو المؤمنُ الذي يطيعُ أمرَ الله.

قَوْلُهُ: «مِثْلُ عَبْدِ مَشِيئَةٍ» المشيئةُ لا تنقسمُ إلى شرعيَّةٍ وكونيَّةٍ، بل كُلُّها كونيَّةٌ.

يقول: أمرُ الشَّرعِ طاعتُه واضحةٌ؛ لأنها طاعةٌ لله، أيضًا مشيئةُ الله طاعتُها طاعةٌ، ليس يفترقان.

٢٦٦١- فَانْظُرْ إِلَى مَا قَادَتِ الجِيمُ الَّذِي ... لِلْجَبْرِ مِنْ كُفْرٍ وَمِنْ بُهْتَانِ

وهذا صحيحٌ، فقد أَدَّت إلى ثلاث فظائعَ عظيمة كبيرة:

الأُولى: أدَّت إلى أنَّ الإنسانَ مُجْبَرٌ على العمل.

الثانية: أدَّت إلى أنَّ أمرَ الله الخلقَ بالعبادة والطاعة عَبَثٌ، وهو أمرٌ بما لا يُطَاقُ، كأمر العبد بالطيران، والأعمى بنقط المصاحف.

الثالثة: أدَّت إلى أنَّ موافقةَ الأمر الكونِيِّ كموافقة الأمر الشرعيِّ.

فجعلوا المعاصيَ طاعاتٍ، أيُّ دينٍ لشخص يقول: إنَّ الزنا، والخمرَ والسرقةَ، وقتلَ النفس؛ كل هذا طاعةً، بل الشركُ يكون طاعةً؛ لأنه إِنْ خالف الأمرَ الشرعِيَّ فقد وافقَ الأمرَ الكونِيَّ؟!

٢٦٦٢- وَكَذَلِكَ الإِرْجَاءُ حِينَ تُقِرُّ بِالْـ ... ـمَعْبُودِ تُصْبِحُ كَامِلَ الإِيمَانِ

هؤلاء المرجئةُ يقولون: الإيمانُ: الإقرارُ بالمعبود، أَقِرَّ بالله فأنت مؤمنٌ كاملُ الإيمانِ، إيمانُك مثلُ رسولِ الله ومثلُ جِبريل، لكن أَقِرَّ بالمعبود، فأنت مؤمنٌ كاملُ الإيمان.

٢٦٦٣- فَارْمِ المَصَاحِفَ فِي الحُشُوشِ وَخَرِّبِ الْـ ... ـبَيْتَ الْعَتِيقَ وَجِدَّ فِي العِصْيَانِ

قَوْلُهُ: «فَارْمِ المَصَاحِفَ فِي الحُشُوشِ» أعوذ بالله، فطالما تُقِرُّ بأنَّ اللهَ موجودٌ فخذِ المصحفَ وارمِهِ في الحُشِّ؛ أخبث مكان.

قَوْلُهُ: «وخرِّب البيتَ العَتيقَ»: اذهب إلى الكعبةَ واهدمها.

قَوْلُهُ: «وَجِدَّ فِي العِصْيَانِ» أيُّ معصيةٍ تُذْكَرُ لك اجتَهِدْ في الحصول عليها.

٢٦٦٤- وَاقْتُلْ إِذَا مَا اسْطَعتَ كُلَّ مُوَحِّدٍ وَتَمَسَّحَنْ بِالْقَسِّ وَالصُّلْبَانِ

قَوْلُهُ: «وَاقْتُلْ إِذَا مَا اسْطَعتَ كُلَّ مُوَحِّدٍ» يعني: لا تقتُلْ أيَّ نفسٍ، لكن انظر للموحِّدين واقتلهم.

قَوْلُهُ: «وَتَمَسَّحَنْ بِالْقَسِّ وَالصُّلْبَانِ» القَسُّ هو القِسِّيسُ عالمُ النصارى.

قَوْلُهُ: «الصُّلْبَان»: الصليب الذي يعبدُه النصارى، يقول: تَمَسَّحَنْ بهما.

٢٦٦٥- وَاشْتُمْ جَمِيعَ الـمُرْسَلِينَ وَمَنْ أَتَوْا مِنْ عِنْدِهِ جَهْرًا بِلَا كِتْمَانِ

قَوْلُهُ: «وَاشْتُمْ جَمِيعَ الـمُرْسَلِينَ» أعوذ بالله، كُلُّ رسولٍ اشْتُمْه.

قَوْلُهُ: «وَمَنْ أَتَوْا من عِنده» أي: الله عزَّ وجلَّ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

٢٦٦٦-وَإِذَا رَأَيْتَ حِجَارَةً فَاسْجُدْ لَهَا بَلْ خِرَّ لِلأَصْنَامِ وَالأَوْثَانِ

إذا رأيت حجرًا مُلْقًى في السوق فاسجدْ له، بل إذا رأيتَ معبودًا من دون الله من الأوثان وغيرها فاسجدْ له.

٢٦٦٧-وَأَقِرَّ أَنَّ اللهَ جَلَّ جَلالُهُ هُوَ وَحْدَهُ الْبَارِي لِذِي الأَكْوَانِ

٢٦٦٨-وَأَقِرَّ أَنَّ رَسُولَهُ حَقًّا أَتَى مِنْ عِنْدِهِ بِالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ

٢٦٦٩- فَتكُونَ حَقًّا مُؤْمِنًا وَجَمِيعُ ذَا وِزْرٌ عَلَيْكَ وَلَيْسَ بِالْكُفْرَانِ

٢٦٧٠- هَذَا هُوَ الإِرْجَاءُ عِنْدَ غُلاتِهِمْ مِنْ كُلِّ جَهْمِيٍّ أَخِي الشَّيْطَانِ

قَوْلُهُ: «الباري» في نسخةٍ (البادي)، والصوابُ: (الباري) يعني الخالقَ.

أعوذ بالله، فهو قادنا إلى أن تؤمنَ بوجود الله فقط، وافعل ما شئت.

فإذا قال: أنا مؤمنٌ بالله بأنَّه الرَّبُّ خالقُ المخلوقات، وأنَّه الباري، ثُمَّ فعل ما قال المؤلف؛ أخذ المصاحفَ ورمى بها في الحشوش، أو ذهب إلى الكعبة ودمَّرها، أو ذهب إلى كُلِّ موحِّدٍ وقتلَه، أو تمسَّح بالقَسِّ والصلبان....إلى آخر ما قال المؤلف فهو عندهم مؤمنٌ كاملُ الإيمان، هذا هو إرجاءُ الجهميَّة، فالإيمانُ عندهم أن تُقِرَّ بوجود الله فقط، والباقي افعل ما شئتَ.

فلو سببتَ اللهَ ليس هناك مانعٌ عندهم، سُبَّ الله لكن تؤمن بأنه موجودٌ.

الرُّسل سُبَّهم، وقلْ فيهم ما شئتَ، ولكن آمن بأنَّهم رسلٌ من عند الله فقط؛ ولهذا قال: «**فتكون حقًّا مؤمنًا وجميع ذَا وِزْرٌ عليك**» كُلُّ هذه الأفعال وزرٌ ولكن ليست بكفر؛ لأنك مؤمنٌ كاملُ الإيمان.

٢٦٧١- فَأَضِفْ إِلَى الجِيمَيْنِ جِيمَ تَجَهُّمٍ وَانْفِ الصِّفَاتِ وَأَلْقِ بِالأَرْسَانِ

قَوْلُهُ: «**فَأَضِفْ إِلَى الجِيمَيْنِ**» اللذين سبقا؛ جيمُ الجبر وجيمُ الإرجاء، وبقيت جيمُ التجهُّم.

قَوْلُهُ: «**جيم التجهُّم**» هي عبارة عن تعطيل الباري عزَّ وجلَّ من أوصافه، فجيمُ التجهُّم هي نفيُ الصفات.

٢٦٧٢- قُلْ: لَيْسَ فَوْقَ العَرْشِ رَبٌّ عَالِمٌ بِسَرَائِرٍ مِنَّا وَلا إِعْلانِ

أعوذ بالله، إذا كان لا يعلمُ سرائرَنا ولا إعلاننا إِذَنْ هو جاهلٌ، فلا يُوجَدُ مانعٌ عندهم؛ لأنه يقول: اشتُمِ اللهَ ولا يُهِمُّك ما دمتَ مؤمنًا بوجوده.

٢٦٧٣- بَلْ لَيْسَ فَوْقَ العَرْشِ ذُو سَمْعٍ وَلَا بَصَرٍ وَلا عَدْلٍ وَلا إِحْسَانِ

يقولون ذلك لأنَّهم ينفون الصفاتِ كُلَّها.

٢٦٧٤- بَلْ لَيْسَ فَوْقَ العَرْشِ مَعْبُودٌ سِوَى الْـ ... ـعَدَمِ الَّـذِي لا شَيْءَ فِي الأَعْيَـانِ

لأنهم إذا قالوا: إنَّ اللهَ لا داخلَ العالـمِ ولا خارجَه ولا فوقَ، ولا تحتَ، ولا يمينَ، ولا شمال، ولا متصل، ولا منفصل، صار عدمًا.

٢٦٧٥- بَلْ لَيْسَ فَوْقَ الْعَرْشِ مِـنْ مُـتَكَلِّمٍ ... بِـأَوَامِرٍ وَزَوَاجِـرٍ وَقُـرَانِ

لأنهم يقولون: الكلامُ مخلوقٌ، واللهُ لا يتكلَّمُ.

٢٦٧٦- كَـلَّا وَلَا كَلِـمٌ إِلَيْـهِ صَـاعِدٌ ... أَبَـدًا وَلا عَمَـلٌ لِـذِي شُـكْرَانِ

لأنهم لو أثبتوا أنَّ العملَ يصعدُ إلى الله لأثبتوا أنَّ اللهَ فوق، وهم لا يُقِرُّون بهذا.

٢٦٧٧- أَنَّى وَحَظُّ العَرْشِ مِنْـهُ كَحَـظِّ مَـا ... تَحْتَ الثَّرَى عِنْدَ الحَضِيضِ الـدَّانِي

قَوْلُهُ: «أَنَّى» يعني: كيف يكونُ ذلك؟! يقولون: الذي عند العرش والذي في أسفل السَّافلين هما عند الله في القرب سواءٌ.

سبحان الله! هل يمكنُ هذا؟ قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء:١٩] وقال تعالى: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير:٢٠] لو كانوا سواءً لكان الذي في الأرض السُّفلى عند العرش، وكان الذي في الأرض السُّفلى عند الله، فلا يُفرِّقون؛ لأنَّهم لا يَرَوْنَ العلوَّ.

٢٦٧٨- بَـلْ نِسْـبَةُ الـرَّحْمَنِ عِنْـدَ فَـرِيقِهِمْ ... لِلْعَـرْشِ نِسْـبَتُهُ إِلَى الْبُنْيَـانِ

٢٦٧٩- فَعَلَـيْهِمَا اسْـتَوْلَى جَمِيعًـا قُـدْرَةً ... وَكِلاهُمَـا مِـنْ ذَاتِـهِ خِلْـوَانِ

يقولون: إنَّ اللهَ استوى على العرش، يعني: استولى عليه، وكذلك البُنْيَان

الذي في الأرض استولى عليه.

إِذَنْ نسبةُ البنيانِ إلى الله كنسبةِ العرشِ إلى الله، كلاهما قد استولى عليه اللهُ عزَّ وجلَّ.

٢٦٨٠- هَـذَا الَّـذِي أَعْطَتْـهُ جِـيمُ تَجَهُّـمٍ حَشْـوًا بِـلَا كَيْـلٍ وَلا مِيـزَانِ

إِذَنْ ما الذي أعطته جيم التجهُّم؟ الجواب: لا شيء، أي: تعطيلُ الله حقيقةً.

لكن أيُّهُنَّ أشدُّ: جيمُ الجبرِ، أو جيمُ الإرجاءِ، أو جيمُ التجهُّمِ؟ الجواب: كُلُّهُنّ ظُلُماتٌ بعضُها فوق بعض، كُلُّ واحدةٍ يكونُ الكفرُ عندها، نسألُ اللهَ لنا ولكم الحمايةَ، الحمدُ لله الذي عافانا ممَّا ابتلاهم به.

٢٦٨١- تَاللهِ مَـا اسْـتَجْمَعْنَ عِنْـدَ مُعَطِّـلٍ جِيمَاتُهَـا وَلَدَيْـهِ مِـنْ إِيـمَانِ

ونحن نُقْسِمُ كما أَقْسَمَ -رحمه الله- أنَّه ما من إنسانٍ يعتقدُ هذا الاعتقادَ إلَّا وهو كافرٌ بالله بلا شَكٍّ، ولا نَشُكُّ في هذا.

٢٦٨٢- وَالـجَهْمُ أَصَّلَهَا جَمِيعًـا فَاغْتَـدَتْ مَقْسُـومَةً فِي النَّـاسِ بِالـمِيزَانِ

هو أَصَّلَ هذه الأصولَ الثلاثةَ، ومع ذلك تقسَّمَت بين الناس، فمثلًا: التعطيلُ هل اختصَّ به الجهميَّةُ؟ الجواب: لا، والإرجاء والجبر كذلك، فيوجد أناسٌ أخذوا من الجبر شيئًا، وأُناس أخذوا من الإرجاء شيئًا، وأناسٌ أخذوا من التعطيل شيئًا، فتقسَّمها الناس، لكن أصل الثلاثة من عند الجهم -نسألُ اللهَ العافيةَ- فعليه وِزْرُها ووِزْرُ مَن عَمِلَ بها إلى يوم القيامة.

٢٦٨٣- وَالْوَارِثُونَ لَهُ عَـلَى التَّحْقِيـقِ هُـمْ أَصْـحَابُهَا لا شِـيعَةُ الإِيـمَانِ

وهذا صحيحٌ، أمَّا شيعةُ الإيمانِ فسالمون منها، ولله الحمد.

٢٦٨٤- لَكِـنْ تَقَسَّـمَتِ الطَّوَائِـفُ قَوْلَـهُ ذُو السَّـهْمِ وَالسَّـهْمَيْنِ وَالسُّـهْمَانِ

قَوْلُهُ: «لَكِنْ تَقَسَّمَتِ الطَّوَائِفُ قَوْلَهُ» أي: طوائفُ أهل البدع تَقَسَّموا قوله.

قَوْلُهُ: «ذُو السَّهْم والسَّهْمَيْنِ والسُّهْمَانِ» يعني أنَّ الناسَ أخذوا من هذا التعطيل، منهم مَن عَطَّلَ سهمًا، سهمين، ثلاثة، أكثر، لكن أَصْلُ البلاء من الجهم.

٢٦٨٥- لَكِنْ نَجَا أَهْلُ الحَدِيثِ المحْضِ أَتْـ ـبَاعُ الرَّسُـولِ وَتَـابِعُو القُـرْآنِ

٢٦٨٦- عَرَفُوا الَّذِي قَدْ قَالَ مَـعْ عِلْـمٍ بِـمَا قَالَ الرَّسُولُ فَهُـمْ أُولُـو العِرْفَـانِ

٢٦٨٧- وَسِوَاهُمُ فِي الجَهْلِ وَالدَّعْوَى مَـعَ الْـ ـكِبْرِ العَظِـيمِ وَكَثْـرَةِ الـهَذَيَانِ

قَوْلُهُ: «وسِواهم» يعني: سوى أهلِ الحديث.

قَوْلُهُ: «في الجَهْل والدَّعْوَى» هاتان خَصلتان ذميمتان: جهلٌ، ودعوى كمالٍ.

فأهلُ التعطيل بل أهلُ البدع كُلُّهم عندهم الجهلُ العظيمُ، وعندهم دعوى الكمال، تجدُ الصوفِيَّ مثلًا -ولا أجهلَ من الصوفِـيِّ- يدَّعِي أنَّه هو العالِـمُ، وهو صاحبُ الكمال، وهو العابدُ لله، وأنَّ مَن سواه ليس عنده رِقَّةُ قلبٍ ولا لينُ قلبٍ ولا توجُّهٍ إلى الله، وهكذا أهلُ البدع كُلُّهم عندهم جهلٌ ودعوى.

قَوْلُهُ: «مَعَ الكِبْرِ العَظِيم» هذه هي الخَصْلَةُ الثالثةُ، وبئسها خَصلة.

قَوْلُهُ: «وَكَثْرةِ الـهَذَيَان» هذه هي الخصلةُ الرابعةُ، تجدُ كلامًا طويلًا عريضًا مُزَخْرَفًا، وليس فيه فائدة.

فهذه أربعةُ أوصافٍ: الجهل، الدعاوَى الباطلة، الكِبْر، الهذيان، هذه سماتُ أهلِ البدع، نسأَلُ اللهَ أن يسلِّمَنا وإيَّاكم منهم.

٢٦٨٨- مَـدُّوا يَـدًا نَحْـوَ العُـلَى بِتكَلُّـفٍ وَتَخَلُّـــفٍ وَتكَـــبُّرٍ وَتَـــوَانِ

يعني: هم يدَّعون أنهم هم أصحابُ العُلَى، ويمدُّون أيديَهم إليها، لكن مع هذه الأوصاف لا يمكنُ أن ينالوها؛ ولهذا قال:

٢٦٨٩- أَتُــرَى يَنَالُوهَــا وَهَــذَا شَــأْنُهُمْ؟ حَاشَا العُلَى مِنْ ذَا الزَّبُونِ الْفَانِــي

العُلَى لا ينالُه مِثْلُ هؤلاء الزبائن، فلا ينالُ العُلَى إلَّا أصحابُ العُلَى، أمَّا هؤلاء فلن ينالوها.

والحقيقةُ أنَّ هذا الكتابَ -سبحان الله- بَيَّنَ لنا أحوالًا كثيرةً من أحوال البدع، ما كُنَّا نظنُّ أنَّها تصلُ إلى هذا الـحدِّ، خصوصًا في هذا الفصل؛ ولهذا نقول: جزاه اللهُ خيرًا، هو أذاعها بعد اللَّتَيَّا والَّتي، والحمد لله أنه أذاعها، وصار فيها عبرةٌ، وتَعَجَّبْ كيف تصلُ الـحالُ بهؤلاء القوم إلى ما وصف ابنُ القيِّم -رحمه الله-؟!

* * *

فصل

فِي جَوَابِ الرَّبِّ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ يَوْمَ القِيَامَةِ إِذَا سَأَلَ المُعَطِّلَ وَالمُثْبِتَ عَنْ قَوْلِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا

٢٦٩٠- وَسَلِ الـمُعَطِّلَ مَا تَقُولُ إِذَا أَتَى ... فِئَتَانِ عِنْدَ الله يَخْتَصِمَانِ؟

٢٦٩١- إِحْدَاهُمَا حَكَمَتْ عَلَى مَعْبُودِهَا ... بِعُقُولِهَا وَبِفِكْرَةِ الأَذْهَانِ

٢٦٩٢- سَمَّتْهُ مَعْقُولًا وَقَالَتْ: إِنَّهُ ... أَوْلَى مِنَ الـمَنْصُوصِ بِالْبُرْهَانِ

٢٦٩٣- وَالنَّصُّ قَطْعًا لا يُفِيدُ فَنَحْنُ أَوْ ... وَلْنَا وَفَوَّضْنَا لَنَا قَوْلانِ

٢٦٩٤- قَالَتْ: وَقُلْنَا فِيكَ: لَسْتَ بِدَاخِلٍ ... فِينَا وَلَسْتَ بِخَارِجِ الأَكْوَانِ

٢٦٩٥- وَالْعَرْشَ أَخْلَيْنَاهُ مِنْكَ فَلَسْتَ فَوْ ... قَ الْعَرْشِ، لَسْتَ بِقَابِلٍ لِـمَكَانِ

٢٦٩٦- وَكَذَاكَ لَسْتَ بِقَائِلِ الْقُرْآنِ بَلْ ... قَدْ قَالَهُ بَشَرٌ عَظِيمُ الشَّانِ

٢٦٩٧- وَنِسْبَتُهُ حَقًّا إِلَيْكَ بِنِسْبَةِ التَّـ ... ـشْرِيفِ تَعْظِيمًا لِذِي[1] الْقُرْآنِ

٢٦٩٨- وَكَذَاكَ قُلْنَا: لَسْتَ تَنْزِلُ فِي الدُّجَى ... إِنَّ النُّزُولَ صِفَاتُ ذِي الـجُثْمَانِ

٢٦٩٩- وَكَذَاكَ قُلْنَا: لَسْتَ ذَا وَجْهٍ وَلا ... سَمْعٍ وَلا بَصَرٍ فَكَيْفَ يَدَانِ؟!

٢٧٠٠- وَكَذَاكَ قُلْنَا: لا تُرَى فِي هَذِهِ الدُّ ... نْيَا وَلا يَوْمَ المَعَادِ الثَّانِي

---

(١) كذا في الأصول، وفي نسخة الإفتاء: «لذا».

٢٧٠١- وَكَذَاكَ قُلْنَا: مَا لِفِعْلِكَ حِكْمَةٌ ... مِنْ أَجْلِهَا خَصَّصْتَهُ بِزَمَانِ

٢٧٠٢- مَا ثَمَّ غَيْرُ مَشِيئَةٍ قَدْ رَجَّحَتْ ... مِثْلًا عَلَى مِثْلٍ بِلَا رُجْحَانِ

٢٧٠٣- لَكِنَّ مِنَّا مَنْ يَقُولُ بِحِكْمَةٍ ... لَيْسَتْ بِوَصْفٍ قَامَ بِالرَّحْمَنِ

٢٧٠٤- هَذَا وَقُلْنَا مَا اقْتَضَتْهُ عُقُولُنَا ... وَعُقُولِ أَشْيَاخٍ ذَوِي عِرْفَانِ

٢٧٠٥- قَالُوا لَنَا: لا تَأْخُذُوا بِظَوَاهِرِ الْـ ... ـوَحْيَيْنِ تَنْسَلِخُوا مِنَ الإِيمَانِ

٢٧٠٦- بَلْ فَكِّرُوا بِعُقُولِكُمْ إِنْ شِئْتُمُ ... أَوْ فَاقْبَلُوا آرَاءَ عَقْلِ فُلانِ

٢٧٠٧- فَلأَجْلِ هَذَا لَمْ نُحَكِّمْ لَفْظَ آ ... ثَارٍ وَلا خَبَرٍ وَلا قُرْآنِ

٢٧٠٨- إِذْ كُلُّ تِلْكَ أَدِلَّةٌ لَفْظِيَّةٌ ... مَعْزُولَةٌ عَنْ مُقْتَضَى الْبُرْهَانِ

الشَّرحُ

يقول ابنُ القيِّم -رحمه الله- في هذا الفصل:

٢٦٩٠- وَسَلِ الْمُعَطِّلَ مَا تَقُولُ إِذَا أَتَى ... فِئَتَانِ عِنْدَ الله يَخْتَصِمَانِ؟

إنه سيجتمعُ عند الله يوم القيامة فئتان تختصمان في الله: فئةٌ معطِّلةٌ، وفئةٌ مُثْبِتَةٌ، أمَّا المعطِّلةُ فحكَّموا العقلَ، وتركوا النقلَ؛ ولذا قال:

٢٦٩١- إِحْدَاهُمَا حَكَمَتْ عَلَى مَعْبُودِهَا ... بِعُقُولِهَا وَبِفِكْرَةِ الأَذْهَانِ

٢٦٩٢- سَمَّتْهُ مَعْقُولًا وَقَالَتْ: إِنَّهُ ... أَوْلَى مِنَ الْمَنْصُوصِ بِالْبُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «سَمَّتْهُ مَعْقُولًا» أي: موصوفًا بمقتضى العقل.

قَوْلُهُ: «وَقَالَتْ: إِنَّهُ» أي: ما دلَّت عليه العقول (أَوْلَى مِنَ المَنْصُوصِ بِالْبُرْهَانِ) يعني أنَّ المعقولَ عندهم أَوْلَى من المنقول.

٢٦٩٣- وَالنَّصُّ قَطْعًا لا يُفِيدُ فَنَحْنُ أَوْ وَلْنَا وَفَوَّضْنَا لَنَا قَوْلانِ

قَوْلُهُ: «وَالنَّصُّ قَطْعًا لا يُفِيدُ» ماذا يفيدُ؟ الجوابُ: يفيدُ الظنَّ، يعني: والنصُّ لا يفيدُ قطعًا، هذا معنى البيت.

قَوْلُهُ: «فنحنُ أَوَّلْنَا وَفَوَّضْنَا لَنَا قَوْلانِ» يعني: سَلَكْنا في هذه النصوص أحدَ مسلكَيْن: إمَّا التأويل، وإمَّا التفويض، مع أنَّ ما يُسَمُّونه تأويلًا هو في الحقيقة تحريفٌ؛ لأنَّ اللفظَ لا يدلُّ عليه.

٢٦٩٤- قَالَتْ: وَقُلْنَا فِيكَ: لَسْتَ بِدَاخِلٍ فِينَا وَلَسْتَ بِخَارِجِ الأَكْوَانِ

٢٦٩٥- وَالْعَرْشَ أَخْلَيْنَاهُ مِنْكَ فَلَسْتَ فَوْ قَ الْعَرْشِ، لَسْتَ بِقَابِلٍ لِمَكَانِ

٢٦٩٦- وَكَذَاكَ لَسْتَ بِقَائِلِ الْقُرْآنِ بَلْ قَدْ قَالَهُ بَشَرٌ عَظِيمُ الشَّانِ

قَوْلُهُ: «بلْ قَدْ قَالَهُ بَشَرٌ عَظِيمُ الشَّانِ» أي: محمدٌ -صلواتُ الله وسلامُه عليه-.

وهذا كقول إمامِهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥].

٢٦٩٧- وَنِسْبَتُهُ حَقًّا إِلَيْكَ بِنِسْبَةِ التَّـ ـشْرِيفِ تَعْظِيمًا لِذِي القُرْآنِ

يعني: نَسَبْتَ القرآنَ إليك نسبةَ تشريفٍ فقط، لا على أنَّه صفةٌ من صفاتِك، فقولنا: (القرآنُ كلامُ الله) كقولنا: (ناقةُ صالحٍ ناقةُ الله).

٢٦٩٨- وَكَذَاكَ قُلْنَا: لَسْتَ تَنْزِلُ فِي الدُّجَى إِنَّ النُّزُولَ صِفَاتُ ذِي الجُثْمَانِ

٢٦٩٩- وَكَذَاكَ قُلْنَا: لَسْتَ ذَا وَجْهٍ وَلا سَمَعٍ وَلا بَصَرٍ فَكَيْفَ يَدَانِ؟!

وكُلُّ هذا سبق.

٢٧٠٠- وَكَذَاكَ قُلْنَا: لَا تُرَى فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَلا يَوْمَ المَعَادِ الثَّانِي

هاهنا مسألتان:

المسألة الأولى: قوله: «لَا تُرَى فِي هَذِهِ الدُّنْيَا»، وهذه المسألةُ اختلف فيها علماءُ السَّلف، هل يُرَى اللهُ في الدنيا أو لا؟

واختلافهم ليس لكُلِّ أحدٍ، بل للنَّبيِّ ﷺ هل رأى ربَّه أو لا؟

والراجح أنه لم يرَ اللهَ -سبحانه وتعالى-، وقد سُئِل هو نفسُه -صلوات الله وسلامه عليه-: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قال: «رَأَيْتُ نُورًا»[1]، وفي لفظ قال: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»[2]؛ لأنَّ بيننا وبين الله حُجُبًا عظيمةً من النور، لا يُرَى مِن ورائِها الرَّبُّ -جَلَّ وعلا-؛ ولهذا لـمَّا قال موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكࣰّا﴾ [الأعراف:١٤٣] اندكَّ الجبلُ لعظمة الله ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقࣰا﴾ [الأعراف:١٤٣] أي: غُشِي عليه ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣] ففي الدنيا لا أحدَ يقومُ برؤية الله أبدًا، ولا يستطيعُ.

وأمَّا قولُه تعالى في سورة النجم: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ [النجم:٨-٩] فالمرادُ به جِبريلُ على القولِ الراجح.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «نور أنى أراه»، رقم (١٧٨).

(٢) هو رواية من الحديث السابق.

وما ورد من أنَّ بعضَ السَّلف يرى اللهَ في المنام، فاللهُ أعلم، فأنا متوقِّفٌ في هذا، وإلَّا فقد نُسِبَ هذا القول للإمام أحمد، أمَّا النَّبِيُّ ﷺ فقد رأى ربَّه في المنام[1].

المسألة الثانية: قوله: «**وَلا يَوْمَ المَعَادِ الثَّانِي**» يعني: في الآخرة لا يُرَى، وهذا لم يقلْ به أحدٌ من أهل السُّنَّة، بل اتَّفقَ أهلُ السُّنَّةِ على أنَّ اللهَ تعالى يُرَى يوم القيامة عِيانًا بالبصر كما تُرَى الشَّمسُ.

٢٧٠١- وَكَذَاكَ قُلْنَا: مَا لِفِعْلِكَ حِكْمَةٌ   مِنْ أَجْلِهَا خَصَّصْتَهُ بِزَمَانِ

يعني: ليس لفعل الله حكمةٌ، مِن أَجْلِ هذه الحكمة خصَّ الفعلَ بهذا الزمان المعيَّن.

فأفعالُ الله عزَّ وجلَّ تتجدَّد، يفعلُ هذا في يومٍ، ولا يفعلُه في يومٍ آخر.

لماذا فعله في هذا اليوم؟ الجوابُ: لحكمةٍ اقتضت تخصيصَه في هذا اليوم.

لماذا رَضِي عن هذا الرجلِ دون ذاك الرجل؟ الجواب: لحكمةٍ اقتضت الرِّضى؛ ولهذا قال: (**مَا لِفِعْلِكَ حِكْمَةٌ مِن أَجْلِها**)، أي: مِن أَجْلِ هذه الحكمة (**خصَّصته**) أي: الفعل خصَّصْتَهُ بزمان، يعني: نحن نؤمنُ بأنَّ اللهَ خصَّ هذا الزمنَ بهذا الفعل لحكمة.

فمثلًا: النزول إلى السَّماء الدنيا متى يكون؟ الجواب: في ثلث الليل الآخر، لماذا خصَّه اللهُ بهذا؟ الجواب: لحكمةٍ؛ لأنَّ هذا الجزءَ من الليل أطيبُ ما يكونُ الإنسانُ فيه نومًا ولذةَ نوم، فإذا هجر الإنسانُ فراشَه وقام يناجي اللهَ في صلاته كان هذا دليلًا على كمالِ إيمانه.

---

(١) كما في حديث: «إِنِّي نَعَسْتُ فَاسْتَثْقَلْتُ نَوْمًا فَرَأَيْتُ رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ؟ فَقَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلَأُ الأَعْلَى؟». أخرجه الترمذي: كتاب التفسير، باب ومن سورة (ص)، رقم (٣٢٣٤).

٢٧٠٢- مَا ثَمَّ غَيْرُ مَشِيئَةٍ قَدْ رَجَّحَتْ مِثْلًا عَلَى مِثْلٍ بِلَا رُجْحَانِ

يقولون: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يفعلُ الشيءَ بمشيئته لمجرد المشيئة، شاء أن يكونَ هذا فكان، وشاء ألَّا يكون الثاني فلم يكن، لكن ليس هناك حكمةٌ.

٢٧٠٣- لَكِنَّ مِنَّا مَنْ يَقُولُ بِحِكْمَةٍ لَيْسَتْ بِوَصْفٍ قَامَ بِالرَّحْمَنِ

هذا قولٌ آخر لهم، يقولون: إنَّ اللهَ يفعلُ لحكمةٍ، لكن ليست الحكمةُ وصفًا له؛ لأنه لا تقومُ به الصفاتُ، فهي شيءٌ منفصلٌ بَائِنٌ يتعلَّقُ بالمفعول لا بالفعل.

فمثلًا: الأنعام خلقها اللهُ عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل:٥] فيقولون: الحكمةُ ليست صفةً الله، ولكن في نفس المفعول، لا في فعل الفاعل.

٢٧٠٤- هَذَا وَقُلْنَا مَا اقْتَضَتْهُ عُقُولُنَا وَعُقُولِ أَشْيَاخٍ ذَوِي عِرْفَانِ

٢٧٠٥- قَالُوا لَنَا: لا تَأْخُذُوا بِظَوَاهِرِ الْـ ـوَحْيَيْنِ تَنْسَلِخُوا مِنَ الإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «قالوا لنا» مَن الذين قالوا لهم؟ الجوابُ: الأشياخُ.

قَوْلُهُ: «لا تَأْخُذُوا بِظَوَاهِرِ الوَحْيَيْنِ تَنْسَلِخُوا مِنَ الإِيمَانِ» أعوذ بالله، يقولُ هؤلاء الأشياخُ: إنْ أخذتم بظواهر الوحيَيْن، وقلتم: لله يدٌ، ولله وجهٌ، ولله عينٌ، ولله نزولٌ، انسلختم من الإيمان؛ لأنَّهم يدَّعون أنَّ هذا القولَ يستلزمُ تمثيلَ الله بالخلق، ومَن مَثَّلَ اللهَ بخلقه فهو كافرٌ.

٢٧٠٦- بَلْ فَكِّرُوا بِعُقُولِكُمْ إِنْ شِئْتُمُ أَوْ فَاقْبَلُوا آرَاءَ عَقْلِ فُلانِ

٢٧٠٧- فَلِأَجْلِ هَـذَا لَـمْ نُحَكِّـمْ لَفْـظَ آ ثَـــارٍ وَلا خَـــبَرٍ وَلا قُـــرْآنِ

٢٧٠٨- إِذْ كُـــلُّ تِلْـــكَ أَدِلَّـــةٌ لَفْظِيَّـــةٌ مَعْزُولَـةٌ عَـنْ مُقْتَضَـــى البُرْهَـانِ

يعني: لا ترجعوا للقرآنِ والسُّنَّة في إثبات الصفات لله، أو نفيها عنه، بل فَكِّرْ بعقلك، كأنك لا تقدر، إِذَنْ قَلِّدْ عقلَ فلان.

وكُلُّ هذا الفصلِ للخصمِ، والخصمُ هنا هم المعطِّلةُ.

* * *

فصل

٢٧٠٩- وَالآخَـرُونَ أَتَـوْا بِـمَا قَـدْ قَالَـهُ ... مِـنْ غَـيْرِ تَحْرِيـفٍ وَلا كِـتْمَانِ
٢٧١٠- قَـالُوا: تَلَقَّيْنَـا عَقِيـدَتَنَا عَـنِ الْـ ... ـوَحْيَيْنِ بِالأَخْبَـارِ وَالقُـرْآنِ
٢٧١١- فَالـحُكْمُ مَا حَكَمَا بِـهِ لا رَأْيُ أَهْـ ... ـلِ الاختِلافِ وَظَنُّ ذِي الـحُسْبانِ
٢٧١٢- آراؤُهُـمْ أَحْـدَاثُ هَـذَا الـدِّينِ نَـا ... قِضَـةٌ لِأَصْـلِ طَهَـارَةِ[1] الإِيـمَانِ
٢٧١٣- آرَاؤُهُمْ رِيـحُ الـمَقَاعِدِ أَيْـنَ تِلْـ ... ـكَ الرِّيحُ مِنْ رَوْحٍ وَمِنْ رَيحَانِ؟
٢٧١٤- قَالُوا: وَأَنْـتَ رَقِيبُنَـا وَشَـهِيدُنَا[2] ... مِنْ فَوْقِ عَرْشِكَ يَا عَظِيمَ الشَّـانِ
٢٧١٥- إِنَّـا أَبَيْنَـا أَنْ نَـدِينَ بِبِدْعَـةٍ ... وَضَـلالَةٍ أَوْ إِفْـكِ ذِي بُهْتَـانِ
٢٧١٦- لَكِـنْ بِـمَا قَـدْ قُلْتَـهُ أَوْ قَالَـهُ ... مَـنْ قَـدْ أَتَانَـا عَنْـكَ بِالفُرْقَـانِ
٢٧١٧- وَكَـذَاكَ فَارَقْنَـاهُمْ حِـينَ احْتِيَـا ... جِ النَّـاسِ لِلأَنْصَـارِ وَالأَعْـوَانِ
٢٧١٨- كَـيْلا نَصِـيرَ مَصِـيرَهُمْ فِي يَوْمِنَـا ... هَـذَا وَنطْمَـعُ مِنْـكَ بِـالْغُفْرَانِ
٢٧١٩- فَمَـنِ الَّـذِي مِنَّـا أَحَـقُّ بِأَمْنِـهِ؟ ... فَـاخْتَرْ لِنَفْسِـكَ يَـا أَخَـا العِرْفَـانِ
٢٧٢٠- لا بُـدَّ أَنْ نَلْقَـاهُ نَحْـنُ وَأَنْـتُمُ ... فِي مَوْقِفِ العَرْضِ العَظِيمِ الشَّـانِ

---

(١) في نسختي ابن سحمان: «ظاهر».
(٢) في نسختي ابن سحمان: «قالوا: وأين رقيبنا وشهيد».

٢٧٢١- وَهُنَـاكَ يَسْـأَلُنَا جَمِيعًـا رَبُّنَـا ... وَلَدَيْـهِ قَطْعًـا نَحْـنُ مُخْتَصِـمَانِ

٢٧٢٢- فَنَقُـولُ: قُلْـتَ كَـذَا وَقَـالَ نَبِيُّنَـا ... أَيْضًـا كَـذَا فَإِمَامُنَـا الوَحْيَـانِ

٢٧٢٣- فَافْعَلْ بِنَـا مَـا أَنْـتَ أَهْـلٌ بَعْـدَ ذَا ... نَحْنُ العَبِيـدُ وَأَنْـتَ ذُو الإِحْسَـانِ

٢٧٢٤- أَفَتَقْـدِرُونَ عَـلَى جَـوَابٍ مِثْـلِ ذَا ... أَمْ تَعْـدِلُونَ إِلَى جَـوَابٍ ثَـانِ

٢٧٢٥- مَـا فِيـهِ قَـالَ اللهُ قَـالَ رَسُـولُهُ ... بَـلْ فِيـهِ قُلْنَـا مِثْـلَ قَـوْلِ فُـلانِ

٢٧٢٦- وَهْـوَ الَّـذِي أَدَّتْ إِلَيْـهِ عُقُولُنَـا ... لَـمَّا وَزَنَّـا الْـوَحْيَ بِالْـمِيزَانِ

٢٧٢٧- إِنْ كَانَ ذَلِكُـمُ الـجَوَابُ مُخَلِّصًـا ... فَامْضُـوا عَلَيْـهِ يَـا ذَوِي العِرْفَـانِ

٢٧٢٨- تَاللهِ مَـا بَعْـدَ البَيَـانِ[1] لِـمُنْصِفٍ ... إلا العِنَـادُ ومَرْكَـبُ الـخِذْلانِ

الشـرحُ

هذا الفريقُ الثاني، نسألُ اللهَ أن يجعَلَنا وَإيَّاكم منهم.

٢٧٠٩- وَالآخَـرُونَ أَتَـوْا بِـمَا قَـدْ قَالَـهُ ... مِـنْ غَـيْرِ تَحْرِيـفٍ وَلا كِـتْمَانِ

قَوْلُهُ: «قاله» الضمير في (قال) يعوُد على الله عزَّ وجلَّ.

٢٧١٠- قَـالُوا: تَلَقَّيْنَـا عَقِيـدَتَنَا عَـنِ الْـ ... ـوَحْيَيْنِ بِالأَخْبَـارِ وَالقُـرْآنِ

هذا مصدرُ تلقِّي العقيدة من الكتاب والسُّنَّة، وليس هناك مصدرُ تلقٍّ سواهما.

٢٧١١- فَالـحُكْمُ مَا حَكَمَا بِـهِ لا رَأْيُ أَهْـ ... ـلِ الاختِلافِ وَظَنُّ ذِي الحُسْبانِ

قَوْلُهُ: «الحُكْمُ مَا حَكَمَا بِهِ» أي: الكتاب والسُّنَّة.

(١) في نسخة برلين: «الزمان».

٢٧١٢- آراؤُهُمْ أَحْدَاثُ هَذَا الدِّينِ نَا قِضَةٌ لِأَصْلِ طَهَارَةِ الإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «آراؤُهُمْ أَحْدَاثٌ» (أَحْدَاثٌ): جمع (حَدَث)، والحَدَثُ ينقضُ الوضوءَ، وآراءُ هؤلاء تنقُضُ أصلَ طهارة الإيمان.

والحَدَث هو البول والغائط، فالبولُ والغائطُ ينقضان الوضوء، وهذه الأحداثُ التي أَتَوْا بها تنقضُ أصلَ طهارة الإيمان.

٢٧١٣- آرَاؤُهُمْ رِيحُ المَقَاعِدِ أَيْنَ تِلْـ ـكَ الرِّيحُ مِنْ رَوْحٍ وَمِنْ رَيحَانِ؟

قَوْلُهُ: «آرَاؤُهُمْ رِيحُ المَقَاعِدِ» ريحُ المقاعدِ طيِّبةٌ أو خبيثةٌ؟ الجواب: خبيثةٌ.

قَوْلُهُ: «أين تِلْكَ الرِّيحُ مِنْ رَوْحٍ وَمِنْ رَيحانٍ؟!» الله أكبر، بينهما كما بين السَّماء والأرض.

٢٧١٤- قَالُوا: وَأَنْتَ رَقِيبُنَا وَشَهِيدُنَا مِنْ فَوْقِ عَرْشِكَ يَا عَظِيمَ الشَّانِ

قَوْلُهُ: «قَالُوا» أي: الآخرون.

قَوْلُهُ: «وَأَنْتَ» يخاطبونَ اللهَ -سبحانه وتعالى-.

وفي قولهم: «مِنْ فَوْقِ عَرْشِكَ» إثباتُ الاستواءِ على العرش، وأولئك القوم السَّابقون في الفصل الأول لا يُقِرُّون بهذا.

٢٧١٥- إِنَّا أَبَيْنَا أَنْ نَدِينَ بِبِدْعَةٍ وَضَلالَةٍ أَوْ إِفْكِ ذِي بُهْتَانِ

٢٧١٦- لَكِنْ بِمَا قَدْ قُلْتَهُ أَوْ قَالَهُ مَنْ قَدْ أَتَانَا عَنْكَ بِالفُرْقَانِ

قَوْلُهُ: «لَكِنْ بِمَا قَدْ قُلْتَه» يعني: نَدينُ بما قد قلتَه.

قَوْلُهُ: «أَوْ قَالَهُ مَنْ قَدْ أَتَانَا عَنْكَ بِالفُرْقَانِ» يعني الرسولَ ﷺ.

يعني: لا ندينُ إلَّا بقولِ الله أو قولِ رسولِه.

٢٧١٧- وَكَذَاكَ فَارَقْنَاهُمْ حِينَ احْتِيَا ... جِ النَّاسِ لِلأَنْصَارِ وَالأَعْوَانِ

قَوْلُهُ: «فَارَقْنَاهُم» أي: فارقنا الفريقَ الأوَّلَ، وهم أهل التعطيل.

قَوْلُهُ: «حِينَ احتياجِ النَّاسِ لِلأَنْصَارِ وَالأَعْوَانِ» يعني: مع حاجتنا إليهم فارقناهم؛ لأنَّنا فارقناهم لله، فنحن مستَغنون بالله عنهم.

٢٧١٨- كَيْلا نَصِيرَ مَصِيرَهُمْ فِي يَوْمِنَا ... هَذَا وَنطْمَعُ مِنْكَ بِالْغُفْرَانِ

يعني: فارقناهم مع الحاجة إليهم؛ لئلا يصيرَ مصيرُنا كمصيرهم في هذا اليوم، فنحن نطمَعُ منك بالغفران.

ثُمَّ قال يخاطِبُ الفريقَ السَّابقَ ذكرُه:

٢٧١٩- فَمَنِ الَّذِي مِنَّا أَحَقُّ بِأَمْنِهِ؟ ... فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ يَا أَخَا العِرْفَانِ

قَوْلُهُ: «فَمَنِ الَّذِي مِنَّا أَحَقُّ بِأَمْنِهِ؟» أي: مَن: أولئك القوم أو هؤلاء؟ الجواب: هؤلاء القوم -بلا شَكٍّ- أحقُّ بذلك، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢].

٢٧٢٠- لا بُدَّ أَنْ نَلْقَاهُ نَحْنُ وَأَنْتُمُ ... فِي مَوْقِفِ العَرْضِ العَظِيمِ الشَّانِ

نعم، والله لا بُدَّ أنْ نَلْقَى خصومَنا يومَ العرضِ على الله في ذلك اليوم العظيم الشأن، قال اللهُ -سبحانه وتعالى-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦].

٢٧٢١- وَهُنَاكَ يَسْأَلُنَا جَمِيعًا رَبُّنَا ... وَلَدَيْهِ قَطْعًا نَحْنُ مُخْتَصِمَانِ

٢٧٢٢- فَنَقُولُ: قُلْتَ كَذَا وَقَالَ نَبِيُّنَا أَيْضًا كَذَا فَإِمَامُنَا الوَحْيَانِ

٢٧٢٣- فَافْعَلْ بِنَا مَا أَنْتَ أَهْلٌ بَعْدَ ذَا نَحْنُ العَبِيدُ وَأَنْتَ ذُو الإِحْسَانِ

يعني: نحن حَكَّمْنَا الكتابَ والسُّنَّةَ فافعلْ بنا ما أنت أهلُه بعد هذا، وما هو الذي أهلُه؟ هو أهلُ التقوى، وأهلُ المغفرة، وأهلُ الفضل والإحسان.

٢٧٢٤- أَفَتَقْدِرُونَ عَلَى جَوَابٍ مِثْلِ ذَا أَمْ تَعْدِلُونَ إِلَى جَوَابٍ ثَانِ

٢٧٢٥- مَا فِيهِ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ بَلْ فِيهِ قُلْنَا مِثْلَ قَوْلِ فُلانِ

قَوْلُهُ: «أفتقدِرون» يخاطبُ الفئةَ السابِقَ ذِكْرُها.

٢٧٢٦- وَهُوَ الَّذِي أَدَّتْ إِلَيْهِ عُقُولُنَا لَـمَّا وَزَنَّا الْوَحْيَ بِالْـمِيزَانِ

يعني: وزنَّا بين الوحي وبين العقل فرجَّحنا العقلَ.

٢٧٢٧- إِنْ كَانَ ذَلِكُمُ الـجَوَابُ مُخَلِّصًا فَامْضُوا عَلَيْهِ يَا ذَوِي العِرْفَانِ

والجواب ليس بِمُخَلِّصٍ، لكنَّ ابنَ القيِّم -رحمه الله- يتهكَّمُ بهم، فيقول: (يا ذوي العِرفانِ) وما أبعدَهُم عن العِرفان!

٢٧٢٨- تَاللهِ مَا بَعْدَ البَيَانِ لِـمُنْصِفٍ إلا العِنَادُ ومَرْكَبُ الـخِذْلانِ

إِذَنْ هذان الخَصمان حَسَبَ ما تقتضيه الأدلةُ الشرعيَّةُ الرابحُ منهما هو الخصمُ الثاني ذكرًا، السَّابقُ مرتبةً، والخاسرُ هو الأوَّلُ ذِكْرًا الآخِر مرتبةً.

فأنت الآن اخترْ لنفسك أن تكون مثلَ هؤلاء أو مثلَ هؤلاء، وكُلُّ عاقلٍ سوف يختارُ أن يكونَ مِـمَّن حكَّموا كتابَ الله وسُنَّـةَ رسولهِ ﷺ.

* * *

فصل

فِي تَحْمِيلِ أَهْلِ الإِثْبَاتِ لِلْمُعَطِّلِينَ شَهَادَةً تُؤَدَّى عِنْدَ رَبِّ العَالَمِينَ

٢٧٢٩- يَا أَيُّهَا الْبَاغِي عَلَى أَتبَاعِهِ ... بِالظُّلْمِ وَالْبُهْتَانِ وَالْعُدْوَانِ

٢٧٣٠- قَدْ حَمَّلُوكَ شَهَادَةً فَاشْهَدْ بِهَا ... إِنْ كُنْتَ مَقْبُولًا لَدَى الرَّحْمَنِ

٢٧٣١- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ إِنْ سُئِلْتَ بِأَنَّهُمْ ... قَالُوا: إِلَهُ الْعَرْشِ وَالأَكْوَانِ

٢٧٣٢- فَوْقَ السَّمَوَاتِ الْعُلَى حَقًّا عَلَى الْـ ... عَرْشِ اسْتَوَى سُبْحَانَ ذِي السُّلْطَانِ!

٢٧٣٣- وَالأَمْرُ يَنْزِلُ مِنْهُ ثُمَّ يَسِيرُ فِي الْـ ... أَقْطَارِ سُبْحَانَ الْعَظِيمِ الشَّانِ!

٢٧٣٤- وَإِلَيْهِ يَصْعَدُ مَا يَشَاءُ بِأَمْرِهِ ... مِنْ طَيِّبَاتِ الْقَوْلِ وَالشُّكْرَانِ

٢٧٣٥- وَإِلَيْهِ قَدْ صَعِدَ الرَّسُولُ وَقَبْلَهُ ... عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ كَاسِرُ الصُّلْبَانِ

٢٧٣٦- وَكَذَلِكَ الأَمْلاكُ تَصْعَدُ دَائِمًا ... مِنْ هَاهُنَا حَقًّا إِلَى الدَّيَّانِ

٢٧٣٧- وَكَذَاكَ رُوحُ الْعَبْدِ بَعْدَ مَمَاتِهَا ... تَرْقَى إِلَيْهِ وَهْوَ ذُو إِيمَانِ

٢٧٣٨- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ ... مُتَكَلِّمٌ بِالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ

٢٧٣٩- سَمِعَ الأَمِينُ كَلامَهُ مِنْهُ وَأَدْ ... دَاهُ إِلَى الْمَبْعُوثِ بِالْفُرْقَانِ

٢٧٤٠- هُوَ قَوْلُ رَبِّ العَالَمِينَ حَقِيقَةً ... لَفْظًا وَمَعْنًى لَيْسَ يَفْتَرِقَانِ

٢٧٤١- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ ... قَدْ كَلَّمَ الْمَوْلُودَ مِنْ عِمْرَانِ

٢٧٤٢- سَمِعَ ابْنُ عِمْرَانَ الرَّسُولُ كَلامَهُ ... مِنْهُ إِلَيْهِ مَسْمَعَ الآذَانِ

٢٧٤٣- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا بِأَنْ ... نَ اللهَ نَادَاهُ[1] بِلَا كِتْمَانِ

٢٧٤٤- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا بِأَنْ ... نَ اللهَ نَادَى قَبْلَهُ الأَبَوَانِ

٢٧٤٥- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا بِأَنْ ... نَ اللهَ يَسْمَعُ صَوْتَهُ الثَّقَلانِ

٢٧٤٦- وَاللهُ قَالَ بِنَفْسِهِ لِرَسُولِهِ: ... إِنِّي أَنَا اللهُ الْعَظِيمُ الشَّانِ

٢٧٤٧- واللهُ قَال بِنَفْسِهِ لِرَسُولِهِ: ... اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ ذِي الطُّغْيَانِ

٢٧٤٨- وَاللهُ قَالَ بِنَفْسِهِ: ﴿حم﴾ مَعْ ... ﴿طه﴾ وَمَعَ ﴿يس﴾ قَوْلَ[2] بَيَانِ

الشَّرحُ

في هذه الأبيات يقولُ المؤلفُ -رحمه الله-: إنَّ أهلَ السُّنَّة حَمَّلوا أهلَ البِدعة إن كانت تُقْبَلُ شهادتهم هذا الحِمل، حَمَّلوهم الشَّهادةَ، يقولُ:

٢٧٢٩- يَا أَيُّهَا الْبَاغِي عَلَى أَتبَاعِهِ ... بِالظُّلْمِ وَالْبُهْتَانِ وَالْعُدْوَانِ

الباغي على أتباعِ الرسول -عليه الصلاة والسلام- بالظلمِ والبُهتانِ والعُدوانِ، وهذا وصفُ أهلِ البِدَع بالنسبة لأهلِ السُّنَّة.

٢٧٣٠- قَدْ حَمَّلُوكَ شَهَادَةً فَاشْهَدْ بِهَا ... إِنْ كُنْتَ مَقْبُولًا لَدَى الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «إِنْ كُنْتَ مَقْبُولًا» وهو غيرُ مقبول.

---

(١) في نسخ برلين والظاهرية والإفتاء وابن سحمان والتيمورية زيادة «ناداه وناجاه».

(٢) في نسختي ابن سحمان «بقول».

٢٧٣١- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ إِنْ سُئِلْتَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا: إِلَهُ الْعَرْشِ وَالأَكْوَانِ
٢٧٣٢- فَوْقَ السَّمَوَاتِ الْعُلَى حَقًّا عَلَى الْـ عَرْشِ اسْتَوَى سُبْحَانَ ذِي السُّلْطَانِ!

قَوْلُهُ: «وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ» لعلَّها بالفاء أحسن للتفريع أي: فاشهد.

قَوْلُهُ: «قَالُوا: إِلَهُ الْعَرْشِ وَالأَكْوَانِ فَوْقَ السَّمَوَاتِ الْعُلَى» هذا العلوُّ، يعني: اشهد عليهم أنهم وصفوا اللهَ بالعلوِّ.

قَوْلُهُ: «حَقًّا عَلَى العَرْشِ استَوَى» هذا فيه إثباتُ العلوِّ وإثباتُ الاستواء، فهو فوق السموات؛ لقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، وهو استوى على العرش لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥].

٢٧٣٣- وَالأَمْرُ يَنْزِلُ مِنْهُ ثُمَّ يَسِيرُ فِي الْـ أَقْطَارِ سُبْحَانَ الْعَظِيمِ الشَّانِ!

قَوْلُهُ: «الأمرُ يَنْزِلُ منه» ولا نزولَ إلَّا من أعلى، قال عزَّ وجلَّ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة:٥].

٢٧٣٤- وَإِلَيْهِ يَصْعَدُ مَا يَشَاءُ بِأَمْرِهِ مِنْ طَيِّبَاتِ الْقَوْلِ وَالشُّكْرَانِ

قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠].

٢٧٣٥- وَإِلَيْهِ قَدْ صَعِدَ الرَّسُولُ وَقَبْلَهُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ كَاسِرُ الصُّلْبَانِ

الرسولُ محمدٌ ﷺ صَعِدَ إلى الله ليلةَ المِعراج إلى السموات السَّبع، إلى موضعٍ سَمِعَ فيه صَرِيفَ الأقلامِ، لم يَصِلْه أحدٌ من البشر فيما نعلم.

قَوْلُهُ: «وقبلَهُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ كَاسِرُ الصُّلْبَانِ» كاسر الصُّلبان، وذلك إذا نزلَ -عليه السلام- في آخر الزمان، فإنه «يَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ

الجِزْيَةَ»[(١)]، فلا يَقْبَلُ إلَّا الإِسْلامَ.

٢٧٣٦- وَكَـذَلِكَ الأَمْـلاكُ تَصْـعَدُ دَائِـمًا مِـنْ هَاهُنَـا حَقًّـا إِلَى الـدَّيَّانِ

قَوْلُهُ: «من هاهنا» أي: من الأرض.

الملائكةُ تصعدُ إلى الله عزَّ وجلَّ في كُلِّ آنٍ وحِينٍ، فهي تصعدُ إلى الله -سبحانه وتعالى- بالأعمال، بالأرواح، وبغير ذلك من أوامره، قال اللهُ تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤] أي: تعرجُ دائمًا وأبدًا.

٢٧٣٧- وَكَـذَاكَ رُوحُ الْعَبْـدِ بَعْـدَ مَـمَاتِهَا تَرْقَـى إِلَيْـهِ وَهْـوَ ذُو إِيـمَانِ

إذا قَبض مَلَكُ الموتِ الرُّوحَ أخذتها الملائكةُ، فصعِدوا بها إلى السَّماء، فإن كان من المؤمنين -أسألُ اللهَ أن يجْعَلَنا وإِيَّاكم منهم- فُتِّحَت لها أبوابُ السَّماء حتَّى تصعدَ إلى الرَّبِّ عزَّ وجلَّ، وإن كان من الكافرين فلا تُفَتَّحُ له أبوابُ السَّماء، وتُطْرَحُ رُوحُه طرحًا، وتُرْمَى على الأرض رَمْيًا، وقرأ النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام- قولَه تعالى: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[(٢)] [الحج:٣١].

٢٧٣٨- وَاشْـهَدْ عَلَـيْهِمْ أَنَّـهُ سُـبْحَانَهُ مُـتَكَلِّمٌ بِـالْوَحْيِ وَالْقُـرْآنِ

نعم، هذا القرآنُ الذي بين أيدينا كلامُ رَبِّنا عزَّ وجلَّ تكلَّمَ به حقيقةً لفظًا ومعنًى.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب قتل الخنزير، رقم (٢١٠٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب نزول عيسى بن مريم حاكما بشريعة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٥).

(٢) أخرجه النسائي: كتاب الجنائز، باب ما يلقى به المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه، رقم (١٨٣٣)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، رقم (٤٢٦٢).

٢٧٣٩- سَـمِعَ الأَمِـينُ كَلامَـهُ مِنْـهُ وَأَدْ دَاهُ إِلَى الـمَبْعُوثِ بِالْفُرْقَـانِ

قَوْلُهُ: «سَمِعَ الأَمِينَ» أي: جبريلُ -عليه السَّلام-.

وَقَوْلُهُ: «سَمِعَ الأَمِينُ كَلامَهُ مِنْهُ...إلخ» هذا يدلُّ على أنَّ نزولَ القرآنِ من الله إلى جبريلَ إلى محمَّدٍ، وليس من اللَّوْح المحفوظ كما هو مشهورٌ عند كثير من العلماء، بل إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يتكلَّمُ بالقرآن حين إنزالِه فيسمعُه جبريلُ، ثُمَّ ينزلُ به إلى محمَّدٍ ﷺ.

٢٧٤٠- هُـوَ قَـوْلُ رَبِّ العَالَـمِينَ حَقِيقَـةً لَفْظًـا وَمَعْنًـى لَـيْسَ يَفْتَرِقَـانِ

وقد مرَّ علينا هذا كثيرًا، وبيَّنَّا اختلافَ الناسِ في كلام الله.

٢٧٤١- وَاشْـهَدْ عَلَـيْهِمْ أَنَّـهُ سُـبْحَانَهُ قَـدْ كَلَّـمَ الـمَوْلُودَ مِـنْ عِمْـرَانِ

قَوْلُهُ: «قَدْ كَلَّمَ الـمَوْلُودَ مِنْ عِمْرَانِ» وهو موسى عليه الصلاةُ والسَّلامُ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء:١٦٤].

٢٧٤٢- سَمِعَ ابْنُ عِمْرَانَ الرَّسُـولُ كَلامَـهُ مِنْـهُ إِلَيْـهِ مَسْـمَعَ الآذَانِ

قَوْلُهُ: «سَمِعَ ابْنُ عِمْرَانَ الرَّسُولُ كَلامَهُ» يعني: سَمِعَه بأذنيه، وهذا يدلُّ على أنه بصوتٍ.

٢٧٤٣- وَاشْـهَدْ عَلَـيْهِمْ أَنَّهُـمْ قَـالُوا بِـأَنْ نَ اللهَ نَـادَاهُ بِـلَا كِـتْمَانِ

قال اللهُ تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم:٥٢].

٢٧٤٤- وَاشْـهَدْ عَلَـيْهِمْ أَنَّهُـمْ قَـالُوا بِـأَنْ نَ اللهَ نَـادَى قَبْلَـهُ الأَبَـوَانِ

قَوْلُهُ: «الأَبَوَانِ» يعني آدمَ وحواء، قال اللهُ تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا

عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف:٢٢].

والتزم المؤلفُ -رحمه الله- في هذا البيت لغةَ مَنْ يُلْزِمُ المثنى الألفَ مطلقًا؛ لأنه قال: (نادى قبله الأبوانِ) ولو جرى على اللغة المشهورة لقال: (الأبوينِ).

٢٧٤٥- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا بِأَنْ ... نَ اللهَ يَسْمَعُ صَوْتَهُ الثَّقَلانِ

يوم القيام يتكلَّمُ عزَّ وجلَّ بكلامٍ، «**فَيُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ -الثَّقَلانِ- مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ، فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ**»[1].

٢٧٤٦- وَاللهُ قَالَ بِنَفْسِهِ لِرَسُولِهِ: ... إِنِّي أَنَا اللهُ الْعَظِيمُ الشَّانِ

قَوْلُهُ: «وَاللهُ قَالَ بِنَفْسِهِ لِرَسُولِهِ» وهو موسى عليه السَّلامُ، قال الله تعالى له: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه:١٤] يزعمُ القائلون بأنَّ موسى سَمِعَ الصَّوتَ من الشَّجرة، فهل يمكنُ أن تقولَ الشَّجرةُ: إني أنا اللهُ؟ الجوابُ: لا يمكنُ.

٢٧٤٧- واللهُ قَالَ بِنَفْسِهِ لِرَسُولِهِ: ... اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ ذِي الطُّغْيَانِ

قَوْلُهُ: «اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ ذِي الطُّغْيَانِ» قال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه:٢٤].

٢٧٤٨- وَاللهُ قَالَ بِنَفْسِهِ: ﴿حم﴾ مَعْ ... ﴿طه﴾ وَمَعَ ﴿يس﴾ قَوْلَ بَيَانِ

هذا القرآنُ، قال: حتَّى الحروف الهجائيَّة قالها اللهُ عزَّ وجلَّ، معَ أنَّ الحروفَ الهجائيَّةَ ليس لها معنًى، ومع ذلك قالها الرَّبُّ عزَّ وجلَّ.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٥، رقم ١٦١٣٨)، والبخاري تعليقًا: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣].

٢٧٤٩- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ وَصَفُوا الإِلَـ ... ـهَ بِكُلِّ مَا قَدْ جَاءَ فِي القُرْآنِ

٢٧٥٠- وَبِكُلِّ مَا قَالَ الرَّسُولُ حَقِيقَةً ... مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلا عُدْوَانِ

٢٧٥١- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّ قَوْلَ نَبِيِّهِمْ ... وَكَلامَ رَبِّ الْعَرْشِ ذَا التِّبْيَانِ

٢٧٥٢- نَصٌّ يُفِيدُ لَدَيْهِمْ عِلْمَ الْيَقِيـ ... ـنِ إِفَادَةَ الـمَعْلُومِ بِالْبُرْهَانِ

٢٧٥٣- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ قَابَلُوا التْـ ... ـتَعْطِيلَ وَالتَّمْثِيلَ بِالنُّكْرَانِ

٢٧٥٤- إِنَّ الـمُعَطِّلَ وَالـمُمَثِّلَ مَا هُمَا ... مُتَيَقِّنَيْنِ عِبَادَةَ الرَّحْمَنِ

٢٧٥٥- ذَا عَابِدُ الـمَعْدُومِ لا سُبْحَانَهُ ... أَبَدًا وَهَذَا عَابِدُ الأَوْثَانِ

٢٧٥٦- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ أَثْبَتُوا الْـ ... أَسْمَاءَ وَالأَوْصَافَ لِلدَّيَّانِ

٢٧٥٧- وَكَذَلِكَ الأَحْكَامُ أَحْكَامُ الصِّفَا ... تِ وَهَذِهِ الأَرْكَانُ لِلإِيمَانِ

٢٧٥٨- قَالُوا: عَلِيمٌ وَهْوَ ذُو عِلْمٍ وَيَعْـ ... ـلَمُ غَايَةَ الإِسْرَارِ وَالإِعْلانِ

٢٧٥٩- وَكَذَا بَصِيرٌ وَهْوَ ذُو بَصَرٍ وَيُبْـ ... ـصِرُ كُلَّ مَرْئِيٍّ وَذِي الأَكْوَانِ

٢٧٦٠- وَكَذَا سَمِيعٌ وَهْوَ ذُو سَمْعٍ وَيَسْـ ... ـمَعُ كُلَّ مَسْمُوعٍ مِنَ الأَكْوَانِ

٢٧٦١- مُتَكَلِّمٌ وَلَهُ كَلامٌ وَصْفُهُ ... وَيُكَلِّمُ الـمَخْصُوصَ بِالرِّضْوَانِ

٢٧٦٢- وَهُوَ الْقَوِيُّ بِقُوَّةٍ هِيَ وَصْفُهُ ... وَعَلَيْكَ يَقْدِرُ يَا أَخَا السُّلْطَانِ

٢٧٦٣- وَهُوَ الـمُرِيدُ لَهُ[1] الإِرَادَةُ هَكَذَا ... أَبَدًا يُرِيدُ صَنَائِعَ الإِحْسَانِ

---

(١) في نسخة برلين «وله».

٢٧٦٤- وَالْوَصْفُ مَعْنًى قَائِمٌ بِالذَّاتِ، وَالْـ   أَسْـمَاءُ أَعْـلامٌ لَـهُ بِـوِزَانِ

الشــرحُ

ذكر المؤلفُ -رحمه الله تعالى- مِن جملة ما حَمَّلَ أهلُ الإثبات أهلَ التعطيل ليشهدوا به عند الله عزَّ وجلَّ، قال:

٢٧٤٩- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ وَصَفُوا الإِلَـ   ـهَ بِكُلِّ مَا قَدْ جَاءَ فِي القُرْآنِ

وهذه -ولله الحمد- هي عقيدتُنا، أنَّنا نَصِفُ اللهَ بكُلِّ وصفٍ جاء في القرآن، ولا نَجْبُنُ عن وصف الله به إذا كان اللهُ قد وَصَفَ نفسَه بذلك.

٢٧٥٠- وَبِكُلِّ مَا قَالَ الرَّسُولُ حَقِيقَةً   مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلا عُدْوَانِ

أيضًا كُلُّ ما قاله النَّبِيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- في وصفِ الله فإنَّنا نصفُ اللهَ به، ولا نتوقَّفُ، ولا نَجْبُنُ، بل نقولُه صريحًا عَلَنًا ونحن مطمئنون ولله الحمد.

٢٧٥١- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّ قَوْلَ نَبِيِّهِمْ   وَكَلامَ رَبِّ الْعَرْشِ ذَا التِّبْيَانِ

٢٧٥٢- نَصٌّ يُفِيدُ لَدَيْهِمْ عِلْمَ الْيَقِيـ   ـنِ إِفَادَةَ الْمَعْلُومِ بِالْبُرْهَانِ

قولُ الله ورسولِه نَصٌّ يفيدُ لديهم علمَ اليقين إفادةَ المعلوم بالبرهان، وعند أولئك المعطِّلة أنَّه لا يفيدُ القطعَ ولا اليقينَ، فلا يفيدُ إلَّا الظنَّ، وعرفتم شُبُهاتِهم السَّابقة، وردَّ المؤلفُ -رحمه الله- عليهم، قالوا: إنَّ (الرسولَ) يَحْتَمِلُ معانيَ كثيرة، وقالوا: إنَّ (العرشَ) يَحتملُ معانيَ كثيرة، و(الاستواءَ) يَحتملُ معانيَ كثيرة، وَرَدَّ عليهم -رحمه الله- بِرَدٍّ مُقْنِعٍ سبق.

٢٧٥٣- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ قَابَلُوا التْـ تَعْطِيلَ وَالتَّمْثِيلَ بِالنُّكْرَانِ

التعطيلُ والتمثيلُ طرفان، فالتعطيلُ نفيُ الصفاتِ، والتمثيلُ إثباتُها مع التمثيل، فهما ضِدَّان، أمَّا أهلُ الإثباتِ فأنكروا التعطيلَ والتمثيلَ.

٢٧٥٤- إِنَّ الـمُعَطِّلَ وَالـمُمَثِّلَ مَا هُمَا مُتَيَقِّنَيْنِ عِبَادَةَ الرَّحْمَنِ

وصدق -رحمه الله-، فالمعطِّلُ لم يَعْبُدْ إلهًا يَقِينًا، والممثِّلُ لم يعبدْ اللهَ يقينًا، فكلاهما لم يَعْبُدِ اللهَ يقينًا، لماذا؟ قال:

٢٧٥٥- ذَا عَابِدُ الـمَعْدُومِ لا سُبْحَانَهُ أَبَدًا وَهَذَا عَابِدُ الأَوْثَانِ

قَوْلُهُ: «ذَا عَابِدُ المَعْدُومِ» (ذا) المُشارُ إليه المعطِّلُ، قال عنه: (عَابِدُ المعدومِ).

قَوْلُهُ: «لا سُبْحَانَهُ أَبَدًا» يعني: لا عابدَ مَنْ يُنَزَّه عن النقائص.

قَوْلُهُ: «وَهَذَا عَابِدُ الأَوْثَانِ» هذا هو الثَّاني وهو الممثِّلُ.

٢٧٥٦- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ أَثْبَتُوا الْـ أَسْمَاءَ وَالأَوْصَافَ لِلدَّيَّانِ

يعني: أنَّ أهلَ الإثبات (أهل الحديث) أثبتوا الأسماءَ والأوصافَ، فيُثْبِتُون الاسمَ وما دلَّ عليه من صفةٍ.

٢٧٥٧- وَكَذَلِكَ الأَحْكَامُ أَحْكَامُ الصِّفَا تِ وَهَذِهِ الأَرْكَانُ لِلإِيمَانِ

فأثبتوا الأسماءَ وما تَضَمَّنَتْهُ من الأوصاف، وما تضمَّنته هذه الأوصافُ من الأحكام، هذه أركانُ الإيمان باسم الله.

فالإيمانُ باسم الله لا بُدَّ فيه من ثلاثة أركان:

١- أن تؤمنَ به اسمًا لله.

٢- أن تؤمنَ بما تضمَّنه من الصفة.

٣- أن تؤمنَ بالـحُكْمِ الذي يترتَّبُ على هذه الصفة.

وضرب -رحمه الله- لنا أمثلةً، فقال:

٢٧٥٨- قَالُوا: عَلِيمٌ وَهْوَ ذُو عِلْمٍ وَيَعْـ ـــلَمُ غَايَــةَ الإِسْرَارِ وَالإِعْــلانِ

قَوْلُهُ: «**قَالُوا: عَلِيمٌ**» (عليم) اسم.

قَوْلُهُ: «**وَهْوَ ذُو عِلْمٍ**» هذه صفة.

قَوْلُهُ: «**ويَعْلَمُ غَايَةَ الإِسْرَارِ وَالإِعْلانِ**» هذا الحكم؛ لأنَّ العلمَ يقتضي أن يكونَ هناك معلومٌ.

٢٧٥٩- وَكَذَا بَصِيرٌ وَهْوَ ذُو بَصَرٍ وَيُبْـ ـــصِرُ كُـلَّ مَرْئِـيٍّ وَذِي الأَكْـوَانِ

قَوْلُهُ: «**وَكَذَا بَصِيرٌ**» أي: قالوا: (بصير)وهذا اسم.

قَوْلُهُ: «**وهو ذُو بَصَرٍ**» هذه صفة.

قَوْلُهُ: «**ويُبْصِرُ كُـلَّ مَرْئِـيٍّ وَذِي الأَكْوَانِ**» هذا الـحُكْمُ، والحكمُ والأثرُ معناهما واحدٌ، لكن الحكمُ أحسنُ.

٢٧٦٠- وَكَذَا سَمِيعٌ وَهْوَ ذُو سَـمْعٍ وَيَسْـ ـــمَعُ كُـلَّ مَسْـمُوعٍ مِـنَ الأَكْـوَانِ

قَوْلُهُ: «**وكذا سَمِيعٌ**»: (سميع) اسمٌ.

قَوْلُهُ: «**وهو ذُو سَمْعٍ**» هذه صفةٌ.

قَوْلُهُ: «**ويسمَعُ كُلَّ مَسْمُوعٍ مِنَ الأَكْوَانِ**» هذا الـحُكْمُ.

٢٧٦١- مُـتَكَلِّمٌ وَلَـهُ كَـلامٌ وَصْـفُهُ وَيُكَلِّمُ الـمَخْصُوصَ بِالرِّضْوَانِ

قَوْلُهُ: «متكلِّم» هذا اسمٌ، لكنَّه في الحقيقة ليس اسمًا، بل هذا خبرٌ، يعني: تُخبِرُ بأنَّه متكلِّمٌ؛ ولهذا ليس من أسماء الله (المتكلِّمُ)؛ لأنَّ الكلامَ يَنْقَسِمُ إلى محمود ومذموم، وأسماءُ الله كُلُّها حُسْنَى، وليس فيها ما يقتضي الذَّمَّ إطلاقًا، لكن يُخْبَرُ عن الله بأنَّه متكلِّمٌ، ولا يُسَمَّى متكلِّمًا.

قَوْلُهُ: «**وَلَهُ كَلامٌ وَصْفُهُ**»: الكلامُ هو الوصفُ والحكمُ.

قَوْلُهُ: «**ويكلِّمُ الـمَخْصُوصَ بالرِّضْوَانِ**» وهذا واضحٌ، والذي لم يرضَ عنه هل يُكلِّمُه؟ الجواب: نعم، يكلِّمُه كلامَ توبيخٍ، فإنَّ اللهَ أخبرَ عن أهل النار أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٧] فيقول اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨].

٢٧٦٢- وَهُـوَ الْقَـوِيُّ بِقُـوَّةٍ هِـيَ وَصْـفُهُ وَعَلَيْـكَ يَقْـدِرُ يَـا أَخَـا السُّـلْطَانِ

قَوْلُهُ: «**وَهُوَ الْقَوِيُّ بِقُوَّةٍ هِيَ وَصْفُهُ**» (القوي): اسم، الوصف: القوة، لكن القوة ليس لها حكمٌ إلَّا إذا كانت قوةَ قدرةٍ؛ ولهذا قال: «**وَعَلَيْكَ يَقْدِرُ يَا أَخَا السُّلْطَانِ**» المؤلفُ -رحمه الله- ما أتي بحكمٍ للقوة؛ لأنَّ (**القوةَ**) من الأوصاف التي لا تتعدَّى.

(**الحياة**) كذلك من الأوصاف التي لا تتعدَّى، وأمَّا (**العِزَّة**) فهي من الأوصاف التي تتعدَّى.

على كُلِّ حالٍ تُوجَدُ أوصافٌ لا تتعدَّى الموصوف، و(**القوة**) من الأوصاف التي لا تتعدَّى الموصوفَ، وإنْ تَعَدَّته صارت بمعنى القدرة، فتقول: (يقوى عليك)؛ فلهذا قال المؤلف: (**وَعَلَيْكَ يَقْدِرُ يَا أَخَا السُّلْطَانِ**).

لماذا قال: (يَا أَخَا السُّلْطَانِ) لأنه -سبحانه- إذا قدر على صاحبِ السُّلطان فمن ليس له سلطانٌ من باب أَوْلَى، فهو يقدِرُ على المِلك، يقدرُ على الرئيس، يقدرُ على الوزير، فهو ذو سلطانٍ، ومَن دونه مِن باب أَولى.

٢٧٦٣- وَهُوَ المُرِيدُ لَهُ الإِرَادَةُ هَكَذَا أَبَدًا يُرِيدُ صَنَائِعَ الإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «المُرِيدُ» ليس من أسمائه، لكنَّه مما يُخْبَرُ به عن الله، فيقال: إنَّ الله مريدٌ، لكن لا يُسَمَّى به.

واعلَمْ أنَّ الأسماءَ ثلاثةُ أقسامٍ:

١- قِسْمٌ لا يَحْمِلُ إلَّا معنًى حسنًا، فهذا يكونُ من أسمائِه.

٢- قِسْمٌ لا يحملُ إلَّا معنًى قبيحًا، فهذا لا يكونُ من أسمائِه، ولا يُخْبَرُ به عنه.

٣- قِسْمٌ يكونُ منقسمًا: يَحْمِلُ هذا وهذا، أو لا يحملُ لا هذا ولا هذا، فهذا يُخْبَرُ به عنه، ولا يُسَمَّى به، فـ(مريدٌ)، (متكلِّمٌ)، (صانعٌ)، وما أشبهها، هذه يُخْبَرُ بها عن الله، ولا يُسَمَّى بها.

(شيء) يُخْبَرُ به عن الله، ولا يُسَمَّى به، كذلك (ذات) يُخْبَرُ به عن الله، ولا يُسَمَّى به.

وَقَوْلُهُ: «وهوَ المُريد» الإرادةُ وصفٌ.

وَقَوْلُهُ: «ويُريد» هذا حُكْمٌ.

٢٧٦٤- وَالوَصْفُ مَعْنًى قَائِمٌ بِالذَّاتِ، وَالْـ أَسْمَاءُ أَعْلامٌ لَهُ بِوِزَانِ

يقول -رحمه الله-: إنَّ أسماءَ الله مِن جهةٍ أعلامٌ، ومِن جهةٍ أوصافٌ، فمِن حيثُ دلالتُها على ذاتِ الله أعلامٌ، ومن حيثُ دلالتُها على الوصف القائم به أوصافٌ.

فمثلًا: اسم (القدير) من حيثُ دلالتُه على الله عَلَمٌ، ومن حيثُ دلالتُه على القُدرة وصفٌ؛ ولهذا نقول: أسماءُ الله أعلامٌ وأوصافٌ.

ينبني على ذلك هل هي مترادِفةٌ أو متبايِنةٌ؟ الجواب: من حيثُ دلالتُها على الذات مترادِفةٌ، ومن حيثُ دلالتُها على المعنى متبايِنةٌ.

فمثلًا: الحيُّ، العليمُ، القديرُ، السَّميعُ، البصيرُ تدلُّ على ذاتٍ واحدة، لكن من حيثُ الأوصافُ كُلُّ واحدٍ يدلُّ على وصفٍ غير ما يدلُّ عليه الآخرُ.

إِذَنْ أسماءُ الله أعلامٌ وأوصافٌ، أسماءُ الله متبايِنةٌ ومترادِفةٌ، وهي أعلامٌ من حيثُ دلالتُها على الذات، وأوصافٌ من حيثُ دلالتها على الوصف الذي قام به.

مترادِفةٌ من حيثُ دلالتها على الذات، ومتبايِنةٌ من حيثُ دلالتها على الوصف والمعنى.

وأمَّا أسماءُ غير الله -يعني: أسماء الناس- فقد تكونُ أعلامًا محضةً، فيُسَمَّى هذا الرجلُ مثلًا (عبد الله) وتجده يعبدُ الشَّيطانَ، ولا يعبدُ اللهَ.

إِذَنْ هل دَلَّ الاسمُ على ما اشتقَّ منه؟ الجواب: لا، فيُسَمَّى الشخصُ محمَّدًا، وتجده مذمَّمًا لا خيرَ فيه، وليس فيه خَصلةٌ تُحْمَدُ، ويُسَمَّى الرجلُ خالدًا وهو سيموتُ؛ لأنه لا يمكنُ أن يكونَ خالدًا، وهكذا، لكن أسماءُ الله كُلُّها أعلامٌ وأوصافٌ.

* * *

٢٧٦٥- أَسْـمَاؤُهُ دَلَّـتْ عَلَى أَوْصَافِهِ ... مُشْتَقَّةً مِنْهَا اشْتِقَاقَ مَعَانِ

٢٧٦٦- وَصِفَاتُهُ دَلَّتْ عَلَى أَسْمَائِهِ ... وَالْفِعْلُ مُرْتَبِطٌ بِهِ الأَمْرَانِ

٢٧٦٧- وَالْحُكْمُ نِسْبَتُهَا إِلَى مُتَعَلَّقَا ... تٍ تَقْتَضِي آثَارَهَا بِبَيَانِ

٢٧٦٨- وَلَرُبَّمَا يُعْنَى بِهِ الإِخْبَارُ عَنْ ... آثَارِهَا يُعْنَى بِهِ أَمْرَانِ

٢٧٦٩- وَالْفِعْلُ إِعْطَاءُ الإِرَادَةِ حُكْمَهَا ... مَعَ قُدْرَةِ الْفَعَّالِ وَالإِمْكَانِ

٢٧٧٠- فَإِذَا انْتَفَتْ أَوْصَافُهُ سُبْحَانَهُ ... فَجَمِيعُ هَذَا بَيِّنُ الْبُطْلَانِ

٢٧٧١- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا بِهَـ ... ـذَا كُلِّهِ جَهْرًا بِلَا كِتْمَانِ

٢٧٧٢- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنْ ... تَأْوِيلِ كُلِّ مُحَرِّفٍ شَيْطَانِ

٢٧٧٣- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ يَتَأَوَّلُو ... نَ حَقِيقَةَ التَّأْوِيلِ فِي الْقُرْآنِ

٢٧٧٤- هُمْ فِي الحَقِيقَةِ أَهْلُ تَأْوِيلِ الَّذِي ... يُعْنَى بِهِ لا قَائِلُ الهَذَيَانِ

٢٧٧٥- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّ تَأْوِيلاتِهِمْ ... صَرْفٌ عَنِ المَرْجُوحِ لِلرُّجْحَانِ

٢٧٧٦- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ حَمَلُوا النُّصُو ... صَ عَلَى الحَقِيقَةِ لا المَجَازِ الثَّانِي

٢٧٧٧- إِلَّا إِذَا مَا اضْطَرَّهُمْ لِمَجَازِهَا الْـ ... ـمُضْطَرُّ مِنْ حِسٍّ وَمِنْ بُرْهَانِ

٢٧٧٨- فَهُنَاكَ عِصْمَتُهَا أَبَاحَتْهُ[1] بِغَيْـ ... ـرِ تَجَانُفٍ لِلإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ

٢٧٧٩- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ لا يُكْفِرُو ... نَكُمْ بِمَا قُلْتُمْ مِنَ الكُفْرَانِ

---

(١) في نسخة برلين: «أباحتها له».

٢٧٨٠- إِذْ أَنْتُمُ أَهْلُ الـجَهَالَةِ عِنْدَهُمْ لَسْتُمْ أُولِـي كُفْرٍ وَلا إِيمَانِ

٢٧٨١- لا تَعْرِفُونَ حَقِيقَةَ الْكُفْرَانِ بَلْ لا تَعْرِفُونَ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ

٢٧٨٢- إِلَّا إِذَا عَانَدْتُمُ وَرَدَدْتُمُ قَوْلَ الرَّسُولِ لِأَجْلِ قَوْلِ فُلانِ

٢٧٨٣- فَهُنَاكَ أَنْتُمْ أَكْفَرُ الثَّقَلَيْنِ مِنْ إِنْسٍ وَجِنٍّ سَاكِنِي النِّيرَانِ

٢٧٨٤- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ أَثْبَتُوا الْـ أَقْدَارَ وَارِدَةً[1] مِنَ الرَّحْمَنِ

٢٧٨٥- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّ حُجَّةَ رَبِّهِمْ قَامَتْ عَلَيْهِمْ وَهْوَ ذُو غُفْرَانِ

٢٧٨٦- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ هُمْ فَاعِلُو نَ حَقِيقَةَ الطَّاعَاتِ وَالْعِصْيَانِ

٢٧٨٧- وَالْجَبْرُ عِنْدَهُمُ مُحَالٌ هَكَذَا نَفْيُ الْقَضَاءِ فَبِئْسَتِ الرَّأْيَانِ

٢٧٨٨- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّ إِيمَانَ الْوَرَى قَوْلٌ وَفِعْلٌ ثُمَّ عَقْدُ جَنَانِ

٢٧٨٩- وَيَزِيدُ بِالطَّاعَاتِ قَطْعًا هَكَذَا بِالضِّدِّ يُمْسِي وَهْوَ ذُو نُقْصَانِ

٢٧٩٠- وَاللهِ مَا إِيمَانُ عَاصِينَا كَإِيـ ـمَانِ الأَمِينِ مُنَزِّلِ الْقُرْآنِ

٢٧٩١- كَلَّا وَلا إِيمَانُ مُؤْمِنِنَا كَإِيـ ـمَانِ الرَّسُولِ مُعَلِّمِ الإِيمَانِ

٢٧٩٢- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُخْلِدُوا أَهْلَ الْكَبَائِرِ فِي حَمِيمٍ[2] آنِ

٢٧٩٣- بَلْ يَخْرُجُونَ بِإِذْنِهِ بِشَفَاعَةٍ وَبِدُونِهَا لِمَسَاكِنٍ بِجِنَانِ

٢٧٩٤- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّ رَبَّهُمُ يُرَى يَوْمَ المَعَادِ كَمَا يُرَى القَمَرَانِ

(١) في نسخة السفاريني: «وإرادة».
(٢) في نسخة برلين: «جحيم».

٢٧٩٥- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّ أَصْحَابَ الرَّسُو ... لِ خِيَارُ خَلْقِ اللهِ مِنْ إِنْسَانِ

٢٧٩٦- حَاشَا النَّبِيِّينَ الْكِرَامَ فَإِنَّهُمْ ... خَيْرُ البَرِيَّةِ خِيرَةُ الرَّحْمَنِ

٢٧٩٧- وَخِيَارُهُمْ خُلَفَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ ... وَخِيَارُهُمْ حَقًّا هُمَا الْعُمَرَانِ

٢٧٩٨- وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ أَحَقُّ بِالتْـ ... ـتَقْدِيمِ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ بِبَيَانِ

٢٧٩٩- كُلٌّ بِحَسْبِ السَّبْقِ أَفْضَلُ رُتْبَةً ... مِنْ لاحِقٍ وَالْفَضْلُ لِلْمَنَّانِ

الشرحُ

٢٧٦٥- أَسْمَاؤُهُ دَلَّتْ عَلَى أَوْصَافِهِ ... مُشْتَقَّةً مِنْهَا اشْتِقَاقَ مَعَانِ

٢٧٦٦- وَصِفَاتُهُ دَلَّتْ عَلَى أَسْمَائِهِ ... وَالْفِعْلُ مُرْتَبِطٌ بِهِ الأَمْرَانِ

تقدَّمَ أنَّ المؤلفَ -رحمه الله- يقول: إنَّ أسماءَ الله تعالى متضمِّنةٌ للأوصاف وأحكامِها، وضربَ أمثلةً لذلك، ثُمَّ ذكر أنَّ صفاتِه دلَّت على أسمائِه، وأمَّا الفعلُ فقال: (**وَالْفِعْلُ مُرْتَبِطٌ بِهِ الأَمْرَانِ**) أي: الأسماء والصفات، فمثلًا: (**السَّميعُ**) اسمٌ دلَّ على السمعِ وهو صفة، والفعلِ يسمعُ، ويُسَمَّى الحكمَ، ويُسَمَّى الأثرَ.

كذلك (الخَلَّاق) دلَّ على الصفةِ، وهي الخلق، وعلى الفعلِ، وهو أنه يَخْلُقُ.

٢٧٦٧- وَالْحُكْمُ نِسْبَتُهَا إِلَى مُتَعَلَّقَا ... تٍ تَقْتَضِي آثَارَهَا بِبَيَانِ

قَوْلُهُ: «والحُكْمُ» ما معنى الحكم؟ يقول: (**نِسْبَتُهَا إِلَى مُتَعَلَّقَاتٍ تَقْتَضِي آثَارَهَا بِبَيَانِ**) هذا الحكمُ، أن تُنْسَبَ إلى متعلَّقاتها التي تقتضي الآثار، وعلى هذا فلنا أن نُعَبِّرَ بالأحكام، ولنا أن نُعَبِّرَ بالآثار.

٢٧٦٨- وَلَـرُبَّمَا يُعْنَـى بِـهِ الإِخْبَـارُ عَـنْ آثَارِهَـا يُعْنَـى بِـهِ أَمْـرَانِ

قَوْلُهُ: «ولَرُبما يُعْنَى بِهِ» أي: بالحكم.

قَوْلُهُ: «يُعْنَى بِهِ أَمْرَانِ» إِذَنْ الحُكْمُ أحيانًا يُعْنَى به ما يدلُّ على متعلَّقاتٍ تقتضي آثارها، وأحيانًا يُعْنَى به الآثار نفسها.

فالمؤلفُ يقولُ: لا بُدَّ لكُلِّ اسم من صفة، ثم هذه الصفة قد تقتضي الآثارَ، أي: تقتضي أن يكونَ لها أثرٌ، وحينئذٍ يكونُ لها حكمٌ، وقد لا تقتضي ذلك، وحينئذٍ لا يكونُ لها حكمٌ، فما كان لازمًا فإنه لا حكمَ له، وما كان متعدِّيًا فله حكمٌ، هذا الضابط.

فمثلًا: (الحيُّ) لازمٌ، لا يتعدَّى إلى الغير، فليس له حكمٌ؛ ولهذا نقولُ: اسمُه (الحيُّ) ووصفُه الحياة، ولا نقولُ: الحكمُ يُحيي؛ لأنَّ (يُحيي) فعلٌ للمحيي، وليس فعلًا للحيِّ، فالحيُّ وصفٌ لازمٌ.

وأمَّا (البصير) فهو متعدٍّ، فالبصير متضمِّنٌ لصفةٍ تتعدَّى وهو أنه يُبصرُ.

وأمَّا (العظيم) فهو لازمٌ، فإذن يدلُّ على الاسم وعلى الصفة وليس له حكمٌ، وهَلُمَّ جَرًّا.

٢٧٦٩- وَالْفِعْـلُ إِعْطَـاءُ الإِرَادَةِ حُكْمَهَـا مَـعَ قُـدْرَةِ الْفَعَّـالِ وَالإِمْكَـانِ

الفعلُ ناتجٌ عن إرادةٍ وقدرة، ولا يمكنُ أن يوجدَ فعلٌ بلا إرادةٍ، ولا فعلٌ بلا قدرة؛ ولهذا لو أردتَ أن تسافرَ إلى بلد ولكن ليس عندك راحلةٌ ما استطعت السَّفر، لماذا؟ لعدم القُدرة، ولو كان عندك راحلةٌ لكن الطريق مَخُوفٌ، فلم تُرِد السَّفرَ، فإنَّ السفر لا يكون، لماذا؟ لعدم الإرادة، ولو وُجِدَت الإرادةُ و القدرةُ حينئذٍ يتحقَّقُ الفعلُ.

٢٧٧٠- فَـإِذَا انْتَفَـتْ أَوْصَـافُهُ سُـبْحَانَهُ   فَجَمِيـعُ هَـذَا بَـيِّنُ الْـبُطْلَانِ

إذا لم يكن لله أوصافٌ فأين أحكامُ هذه الأوصاف؟ إِذَنْ لا يكونُ له خَلْقٌ ولا سمعٌ ولا بصرٌ، حتَّى المخلوقات ليست خلقًا لله؛ لأننا نعلمُ أنَّ الخلَّاقَ متضمِّنٌ لوصفٍ هو الخلق، ومتضمِّنٌ لحكمٍ وهو يخلُق، وأنَّ (يخلق) لا يمكنُ أن تكونَ إلَّا بإرادةٍ وقدرةٍ، فإذا انتفت الإرادةُ والقدرةُ والخلْقُ والحكمُ ماذا يبقى؟ الجواب: انتفى كُلُّ شيءٍ عن الله، نسألُ اللهَ العافيةَ.

٢٧٧١- وَاشْـهَدْ عَلَـيْهِمْ أَنَّـهُـمْ قَـالُوا بِهَـ   ـذَا كُلِّـهِ جَهْـرًا بِـلَا كِـتْمَانِ

قَوْلُهُ: «بهذا» المشارُ إليه إثباتُ الأسماءِ والأوصافِ والأحكامِ.

٢٧٧٢- وَاشْـهَدْ عَلَـيْهِمْ أَنَّـهُـمْ بُـرَآءُ مِـنْ   تَأْوِيـلِ كُـلِّ مُحَـرِّفٍ شَـيْطَانِ

قَوْلُهُ: «مِن تَأْوِيلِ كُلِّ مُحَرِّفٍ» ولم يقل: (كُلِّ مُؤَوِّلٍ)؛ لأنَّ التأويلَ قد يكونُ حقًّا، أمَّا التحريفُ فهو باطلٌ.

٢٧٧٣- وَاشْـهَدْ عَلَـيْهِمْ أَنَّـهُـمْ يَتَـأَوَّلُو   نَ حَقِيقَـةَ التَّأْوِيـلِ فِي الْقُـرْآنِ

والـمرادُ بالتأويل هنا غير تأويل التحريف، بل الـمرادُ به التفسيرُ الـمطابقُ لمرادِ الله ورسولِه.

٢٧٧٤- هُمْ فِي الـحَقِيقَةِ أَهْلُ تَأْوِيلِ الَّـذِي   يُعْنَـى بِـهِ لا قَائِـلُ الـهَذَيَانِ

قَوْلُهُ: «قَائِلُ الـهَذَيَانِ» هو الذي يتأوَّل تأويلَ التحريف، أمَّا هم فيتأوَّلون التأويلَ الذي يُعْنى به الكلام، أي: التفسير.

٢٧٧٥- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّ تَأْوِيلاتِهِمْ ... صَرْفٌ عَنِ الْمَرْجُوحِ لِلرُّجْحَانِ

وتأويلُ المُحَرِّفِ بالعكس، صَرْفٌ عن الراجح للمرجوح.

٢٧٧٦- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ حَمَلُوا النُّصُو ... صَ عَلَى الحَقِيقَةِ لا المَجَازِ الثَّانِي

خلافًا لأهل التحريف الذين حملوها على المجاز، أمَّا أهلُ الحديثِ فحملوها على الحقيقةِ لا على المجاز.

٢٧٧٧- إِلَّا إِذَا مَا اضْطَرَّهُمْ لِمَجَازِهَا الْـ ... ـمُضْطَرُّ مِنْ حِسٍّ وَمِنْ بُرْهَانِ

٢٧٧٨- فَهُنَاكَ عِصْمَتُهَا أَبَاحَتْهُ بِغَيْـ ... ـرِ تَجَانُفٍ لِلإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ

يقول: إذا وُجِدَتْ ضرورةٌ تُوجِبُ أن يُؤوِّلوا أوَّلوا؛ لأنَّ النصوصَ معصومةٌ من مخالفةِ المحسوس والمعقول، فإذا كانت معصومةً من مخالفة المحسوس والمعقول وجاء فيها ما ظاهرُه مخالفةُ المحسوس والمعقول حينئذ يتأوَّلونها؛ ولذا قال: «**فهُناك عِصْمَتُها أَبَاحَتْه**» أي: أباحتْ تلك التأويل.

مثلًا قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ [النحل:٩٨] يتأوَّلون: (إذا قرأت) أي: إذا أردتَ أن تقرأ، وليس المعنى: إذا أتممتَ القراءة، لماذا يصرفون اللفظَ عن ظاهره؟ الجواب: لأنَّ هديَ النَّبِيِّ ﷺ الاستعاذة قبل القراءة.

وقوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف:٢٥] أي: ريح عاد، يقولون: نؤوِّلُ هذا عن ظاهره، فالمراد: تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ يُمكنُ تدميرُه بالرِّيح؛ ولهذا قال: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٥] فالمساكنُ لم تُدَمَّر، والأرضُ لم تُدَمَّر، والسَّماءُ لم تُدَمَّر، والنجومُ لم تُدَمَّر، إذَنْ فالعمومُ هنا يُرادُ به الخاص، هم يتأوَّلون هذا لكن بحقٍّ بلا شَكٍّ.

٢٧٧٩- وَاشْـهَدْ عَلَـيْهِمْ أَنَّهُـمْ لا يُكْفِـرُو   نَكُـمْ بِـمَا قُلْـتُمْ مِـنَ الكُفْـرَانِ

يعني: لا يقولون: أنتم كُفَّارٌ، وإن كان قولُكم كفرًا لكن لا يُكَفِّرونكم، لماذا؟ يقول:

٢٧٨٠- إِذْ أَنْـتُمُ أَهْـلُ الـجَهَالَةِ عِنْـدَهُمْ   لَسْـتُمْ أُولِـي كُفْـرٍ وَلا إِيـمَانِ

يعني: أنتم جُهَّالٌ لا تعرفون الكفرَ والإيمانَ؛ لذلك لا يقولون: أنتم كُفَّارٌ، وإن كان ما قلتم كفرًا.

٢٧٨١- لا تَعْرِفُـونَ حَقِيقَـةَ الْكُفْـرَانِ بَـلْ   لا تَعْرِفُــونَ حَقِيقَــةَ الإِيـمَانِ

يعني: أنتم جُهَّالٌ بهذا وهذا.

٢٧٨٢- إِلَّا إِذَا عَانَـــدْتُمُ وَرَدَدْتُـــمُ   قَوْلَ الرَّسُولِ لِأَجْلِ قَـوْلِ فُـلانِ

٢٧٨٣- فَهُنَـاكَ أَنْـتُمْ أَكْفَـرُ الثَّقَلَـيْنِ مِـنْ   إِنْـسٍ وَجِـنٍّ سَـاكِنِي النِّـيرَانِ

وهذه مسألةُ العذر بالجهل، هل يُعْذَرُ الإنسانُ بالجهل في أصول الدين أو لا يُعْذَرُ؟ الصواب أنه يُعْذَرُ بالجهل في أصول الدين وفروعه؛ لأنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥] فقوله: ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥] لماذا؟ الجواب: ليُعَلِّمَ الناسَ، فإذا كان الإنسانُ جاهلًا ولا يعرفُ شيئًا فإننا لا نكفِّره بذنبه إلَّا إذا كان ينتسبُ إلى الكفر فهو كافرٌ وحسابُه في الآخرة على الله، يعني: مثلًا: إنسان لم تبلغه الدعوةُ الإسلاميَّةُ لكنَّه يعيشُ على النصرانيَّة مثلًا، ولا يعرفُ عن الإسلام شيئًا، فهذا وإن كان جاهلًا نعاملُه في الدنيا معاملَةَ الكافر النصراني، وفي الآخرة حسابُه على الله، كأهل الفَتْرَة، أمَّا إذا كان ينتسبُ إلى الإسلام، ويقول: إنه مسلمٌ، لكن يفعلُ ما هو كفرٌ جاهلًا أنه كفرٌ،

ولم يخبرْه أحدٌ بأنه كفرٌ فهذا لا نُكفِّره؛ للجهل، لكن إذا عاند وَرَدَّ قولَ الرسولِ لقول فلانٍ، حينئذٍ قامت عليه الحُجَّةُ، فلو أخبرناه وقلنا: هذا كفرٌ لأنه سجودٌ لغيرِ الله، والسجودُ لغيرِ الله كفرٌ، فقال: لا أقبلُ هذا لأنَّ الشيخَ الفلانِيَّ يشاهدُني أفعلُ هذا ولا يقولُ لي شيئًا، فأنا أتبعُ شيخي.

قلنا له: إنَّ سبَّ أبي بكر وعمر كفرٌ، فقال: لا أقبلُ ذلك؛ لأنَّ شيخي الفلانِـيَّ يقولُ: سَبُّ أبي بكرٍ وعمرَ قُربةٌ. فهذا يَكْفُرُ؛ لأنَّ الحقَّ بلغه.

٢٧٨٤- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ أَثْبَتُوا الْـ أَقْـدَارَ وَارِدَةً مِـنَ الـرَّحْمَنِ

خِلافًا للقَدَرِيَّة الذين يقولون: إنَّ اللهَ لا يُقَدِّر أعمالَ العباد.

٢٧٨٥- وَاشْـهَدْ عَلَـيْهِمْ أَنَّ حُجَّـةَ رَبِّهِـمْ قَامَـتْ عَلَـيْهِمْ وَهْـوَ ذُو غُفْـرَانِ

قَوْلُهُ: «حُجَّةَ رَبِّهِمْ قَامَتْ عَلَيْهِمْ» بماذا قامت؟ الجواب: بإرسال الرُّسل، فالجبرُ غيرُ واردٍ، فلا يمكنُ أن يحتجَّ الإنسانُ بالجبر؛ لأنَّ الحُجَّةَ قامتْ عليه.

٢٧٨٦- وَاشْهَدْ عَلَـيْهِمْ أَنَّهُـمْ هُـمْ فَـاعِلُو نَ حَقِيقَـةَ الطَّاعَـاتِ وَالْعِصْـيَانِ

٢٧٨٧- وَالْـجَبْرُ عِنْـدَهُمُ مُحَـالٌ هَكَـذَا نَفْـيُ الْقَضَـاءِ فَبِئْسَـتِ الرَّأْيَـانِ

إذنِ المؤلفُ يقولُ: اشهَد بأنَّ أهلَ الحديث براءٌ من أهل القدر (القَدَرِيَّة) ومن أهل الجبر (الجبريَّة)، ويَذُمُّ هذين الرأيَيْن؛ ولذا قال: (فبِئْسَتِ الرأيانِ).

٢٧٨٨- وَاشْـهَدْ عَلَـيْهِمْ أَنَّ إِيمَانَ الْـوَرَى قَـوْلٌ وَفِعْـلٌ ثُـمَّ عَقْـدُ جَنَـانِ

خِلافًا للمرجئة وللخوارج، فالخوارجُ يَرَوْنَ أنَّ الإيمانَ قولٌ وفعلٌ واعتقادٌ، لكن يفارقون أهلَ الحديث بأنهم يُكفِّرون أهلَ المعاصي.

٢٧٨٩- وَيَزِيـدُ بِالطَّاعَـاتِ قَطْعًـا هَكَـذَا   بِالضِّدِّ يُمْسِـي وَهْـوَ ذُو نُقْصَـانِ

قَوْلُهُ: «يَزِيدُ بِالطَّاعَاتِ قَطْعًا» وفي النقص لم يقل: (قطعًا)؛ لأنَّ الزيادةَ جاءت في القرآنِ صريحةً، قال تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر:٣١] وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة:١٢٤] أمَّا النقصُ فلم يَرِدْ صريحًا في القرآن، إنما جاء في السُّنَّة: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ»(١)، فقال: «مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ».

ولكن نقولُ: إذا ثبتت الزيادةُ فلا زيادةَ إلَّا بنقصٍ، فالزيادةُ يقابلُها النقصُ قطعًا، فإذا قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة:١٢٤] نقولُ: هم قبل ذلك أنقص من الآن، فما دامت الزيادةُ ثبتتْ في القرآن فالنقصُ قد ثبت؛ ولهذا نقول: إنَّ مَنْ فَرَّق بين الزيادة وبين النقص فقولُه مرجوحٌ، إذنِ الصَّوابُ أنَّ الإيمانَ يَزيدُ ويَنْقُصُ.

٢٧٩٠- وَاللهِ مَـا إِيـمَانُ عَاصِـينَا كَإِيـ   ـمَانِ الأَمِـينِ مُنَـزِّلِ الْقُـرْآنِ

٢٧٩١- كَـلَّا وَلا إِيـمَانُ مُؤْمِنِنَـا كَإِيـ   ـمَانِ الرَّسُـولِ مُعَلِّـمِ الإِيـمَانِ

والأوَّلُ خِلافًا للمرجئة الذين قالوا: إنَّ الإيمانَ هو المعرفة، وهم الجَهْمِيَّةُ كما مَرَّ، وإنَّ إيمانَ أفسقِ عباد الله وأتقى عباد الله على حَدٍّ سواء، وإنَّ إيمانَنا كإيمان جبريل، والمؤمنُ منَّا كإيمان محمَّدٍ -عليه الصلاة والسَّلام-.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم (٣٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات، وبيان إطلاق لفظ الكفر على غير الكفر بالله، رقم (٨٠).

٢٧٩٢- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُخْلَدُوا أَهْلَ الْكَبَائِرِ فِي حَمِيمٍ[(١)] آنِ

خِلافًا للخوارج والمعتزلة، الذين يقولون: إنَّ فاعلَ الكبيرةِ مُخَلَّدٌ في النار.

٢٧٩٣- بَلْ يَخْرُجُونَ بِإِذْنِهِ بِشَفَاعَةٍ وَبِدُونِهَا لِمَسَاكِنٍ بِجِنَانِ

خلافًا للخوارج والمعتزلة.

٢٧٩٤- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّ رَبَّهُمْ يُرَى يَوْمَ المَعَادِ كَمَا يُرَى القَمَرَانِ

خلافًا للجهميَّة، والمعتزلة، وكذلك الأشاعرة.

٢٧٩٥- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّ أَصْحَابَ الرَّسُو لِ خِيَارُ خَلْقِ اللهِ مِنْ إِنْسَانِ

٢٧٩٦- حَاشَا النَّبِيِّينَ الْكِرَامَ فَإِنَّهُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ خِيرَةُ الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «**أصحابَ الرسولِ خِيَارُ خَلْقِ الله**» خلافًا للرَّوافض.

٢٧٩٧- وَخِيَارُهُمْ خُلَفَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ وَخِيَارُهُمْ حَقًّا هُمَا الْعُمَرَانِ

قَوْلُهُ: «**وخِيارُهم**» أي: خيارُ أصحابِ الرسول (**خُلَفاؤُه مِن بعدِه**).

قَوْلُهُ: «**وخيارهم**» أي: خيار الخلفاء (**حَقًّا هُمَا الْعُمَرَانِ**).

إذَنْ أفضلُ الأُمَّةِ أبو بكر، ثُمَّ عمرُ، ثُمَّ عثمانُ، ثُمَّ عليٌّ، هذا الذي أجمع عليه أهلُ السُّنَّة وإن كان بينهم خلافٌ في التفاضل بين عثمان وعليٍّ، ولكن استقرَّ أمرُهم على أنَّ ترتيبَهم في الفضيلة كترتيبِهم في الخلافة.

(١) في نسخة برلين: «جحيم».

٢٧٩٨- وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ أَحَقُّ بِالتْـ تَقْدِيمِ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ بِبَيَانِ

لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد:١٠].

٢٧٩٩- كُلٌّ بِحَسْبِ السَّبْقِ أَفْضَلُ رُتْبَةً مِنْ لاحِقٍ وَالْفَضْلُ لِلْمَنَّانِ

اللَّهُمَّ إنَّا نسألُكَ من فضلك العظيم.

* * *

فصـــل

فِي عُهُودِ المُثْبِتِينَ مَعَ رَبِّ العَالَمِينَ

٢٨٠٠- يَا نَـاصِرَ الإِسْـلَامِ وَالسُّـنَنِ الَّتِـي ... جَاءَتْ عَنِ الـمَبْعُوثِ بِالْفُرْقَـانِ

٢٨٠١- يَا مَنْ هُوَ الـحَقُّ الـمُبِينُ وَقَوْلُـهُ ... وَلِقَـاؤُهُ وَرَسُـولُهُ بِبَـيَانِ

٢٨٠٢- اشْرَحْ لِدِينِكَ صَـدْرَ كُـلِّ مُوَحِّـدٍ ... شَرْحًـا يُنَـالُ بِـهِ ذُرَى الإِيـمَانِ

٢٨٠٣- وَاجْعَلْـهُ مُؤْتَـمًّا بِوَحْيِـكَ لا بِـمَا ... قَـدْ قَالَـهُ ذُو الإِفْـكِ وَالْبُهْتَـانِ

٢٨٠٤- وَانْصُرْ بِهِ حِزْبَ الهُدَى وَاكْبِتْ بِـهِ ... حِزْبَ الضَّلالِ وَشِـيعَةَ الشَّـيْطَانِ

٢٨٠٥- وَانْعَـشْ بِـهِ مَـنْ قَصْـدُهُ إِحْيَـاؤُهُ ... وَاعْصِـمْهُ مِـنْ كَيْـدِ امْـرِئٍ فَتَّـانِ

٢٨٠٦- وَاضْرِبْ بِحَقِّكَ عُنَقَ[1] أَهْلَ الزَّيْـغِ وَالتْـ ... ـتَبْـدِيلِ وَالتَّكْـذِيبِ وَالطُّغْيَـانِ

٢٨٠٧- فَوَحَـقِّ نِعْمَتِـكَ الَّتِـي أَوْلَيْتَنِـي ... وَجَعَلْـتَ قَلْبِـي وَاعِـيَ الْقُـرْآنِ

٢٨٠٨- وَكَتَبْتَ فِي قَلْبِـي مُتَابَعَـةَ الـهُدَى ... فَقَـرَأْتُ فِيـهِ أَسْـطُرَ الإِيـمَانِ

٢٨٠٩- وَنَشَلْتَنِي مِنْ حُبِّ أَصْحَابِ الهَـوَى ... بِحَبَائِـلٍ مِـنْ مُحْكَـمِ الْفُرْقَـانِ

٢٨١٠- وَجَعَلْتَ شِرْبِي المَنْهَلَ الْعَذْبَ الَّـذِي ... هُـوَ رَأْسُ مَـاءِ الـوَارِدِ الظَّمْـآنِ

٢٨١١- وَعَصَمْتَنِي مِنْ شُرْبِ سِفْلِ المَاءِ تَحْـ ... ـتَ نَجَاسَـةِ الآرَاءِ وَالأَذْهَـانِ

(١) في نسخ برلين والظاهرية والسفارينية والتيمورية: «واصرف بحقك عنه».

٢٨١٢- وَحَفِظْتَنِي مِـمَّا ابْتَلَيْتَ بِـهِ الأُلَى ... حَكَمُوا عَلَيْكَ بِشِـرْعَةِ البُهْتَانِ

٢٨١٣- نَبَذُوا كِتَابَكَ مِنْ وَرَاءِ ظُهُورِهِمْ ... وَتَمَسَّكُوا بِزَخَارِفِ الـهَذَيَانِ

٢٨١٤- وَأَرَيْتَنِي الْبِدَعَ الـمُضِلَّةَ كَيْفَ يُلْـ ... ـقِيهَا مُزَخْرَفَةً إِلَى الإِنْسَانِ

٢٨١٥- شَـيْطَانُهُ فَيَظَـلُّ يَنْقُشُـهَا لَـهُ ... نَقْشَ الـمُشَبِّهِ صُورَةً بِـدِهَانِ

٢٨١٦- فَيَظُنُّهَا المَغْرُورُ حَقًّا وَهْيَ فِي التْـ ... ـتَحْقِيقِ مِثْلُ الـآلِ فِي القِيعَانِ

٢٨١٧- لَأُجَاهِدَنَّ عِـدَاكَ مَـا أَبْقَيْتَنِـي ... وَلَأَجْعَلَـنَّ قِتَالَهُمْ دَيْدَانِـي

٢٨١٨- وَلَأَفْضَحَنَّهُمْ عَلَى رُوسِ الْـمَلَا ... وَلَأَفْـرِيَنَّ أَدِيمَهُـمْ بِلِسَانِـي

٢٨١٩- وَلَأَكْشِفَنَّ سَرَائِرًا خَفِيَتْ عَلَى ... ضُعَفَاءِ خَلْقِكَ مِنْهُمُ بِبَيَانِ

٢٨٢٠- وَلَأَتْبَعَنَّهُمُ إِلَى حَيْثُ انْتَهَوْا ... حَتَّى يُقَالَ: أَبَعْدَ عَبَّادَانِ؟

٢٨٢١- وَلَأَرْجُمَنَّهُمْ بِـأَعْلَامِ الـهُدَى ... رَجْمَ الـمَرِيدِ بِثَاقِبِ الشُّهْبَانِ

٢٨٢٢- وَلَأَقْعُدَنَّ لَـهُمْ مَرَاصِدَ كَيْدِهِمْ ... وَلَأَحْصُرَنَّهُمُ بِكُلِّ مَكَانِ

٢٨٢٣- وَلَأَجْعَلَنَّ لُحُومَهُمْ وَدِمَاءَهُمْ ... فِي يَوْمِ نَصْرِكَ أَعْظَمَ القُرْبَانِ

٢٨٢٤- ولَأَحْمِلَنَّ عَلَيْهِمْ بِعَسَاكِرٍ ... لَيْسَتْ تَفِرُّ إِذَا الْتَقَى الزَّحْفَانِ

٢٨٢٥- بِعَسَاكِرِ الْوَحْيَيْنِ وَالْفِطْرَاتِ وَالْـ ... ـمَعْقُولِ وَالْـمَنْقُولِ بِالإِحْسَانِ

٢٨٢٦- حَتَّى يَبِينَ لِـمَنْ لَهُ عَقْلٌ مِنَ الْـ ... أَوْلَى بِحُكْمِ الْعَقْلِ وَالْبُرْهَانِ؟

٢٨٢٧- وَلَأَنْصَحَنَّ اللهَ ثُمَّ رَسُولَهُ ... وَكِتَابَهُ وَشَرَائِعَ الإِيمَانِ

٢٨٢٨- إِنْ شَاءَ رَبِّي ذَا يَكُونُ بِحَوْلِهِ   إِنْ[1] لَمْ يَشَأْ فَالأَمْرُ لِلرَّحْمَنِ

الشرحُ

يقول المؤلفُ -رحمه الله تعالى-: «فَصْلٌ فِي عُهُودِ المُثْبِتِينَ مَعَ رَبِّ العَالَمِينَ» يعني: ما عاهدوا به الله، وعاهدوه عليه من بيانِ الحقِّ ومحاربةِ الباطلِ وأهله.

توسَّل المؤلفُ -رحمه الله تعالى- في هذا الفصل أوَّلًا بما يكونُ وسيلةً من صفات الله عزَّ وجلَّ على هذا الهدفِ العظيمِ النبيلِ، فقال:

٢٨٠٠- يَا نَاصِرَ الإِسْلَامِ وَالسُّنَنِ الَّتِي   جَاءَتْ عَنِ المَبْعُوثِ بِالْفُرْقَانِ

قَوْلُهُ: «يَا نَاصِرَ الإِسْلامِ...» النداءُ موجَّهٌ لله عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «المَبْعُوثِ بِالْفُرْقَانِ» وهو محمد -عليه الصلاة والسلام-.

قَوْلُهُ: «بِالْفُرْقَانِ» في نسخة: (بالقرآن) والفرقانُ هو القرآنُ.

٢٨٠١- يَا مَنْ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ وَقَوْلُهُ   وَلِقَاؤُهُ وَرَسُولُهُ بِبَيَانِ

قَوْلُهُ: «يَا مَنْ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ» وهو اللهُ، قال اللهُ -تبارك وتعالى-: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور:٢٥].

قَوْلُهُ: «وَقَوْلُهُ وَلِقَاؤُهُ وَرَسُولُهُ بِبَيَانِ» أي: ولقاؤه حقٌّ، ورسولُه حقٌّ، أقولُ ذلك ببيانٍ وعن يقين.

---

(١) في نسخ برلين والسفارينية والظاهرية والتيمورية وابن سحمان: «أو».

٢٨٠٢- اشْرَحْ لِدِينِكَ صَدْرَ كُلِّ مُوَحِّدٍ ... شَرْحًا يُنَالُ بِهِ ذُرَى الإِيمَانِ

جزاه الله خيرًا، وتَقَبَّلَ منه، يعني: سأل اللهَ بنُصرته الإسلام، وبأنه الحقُّ المبينُ أن يشرحَ لدِينه صدرَ كُلِّ مُوحِّدٍ إلى يوم القيامة.

٢٨٠٣- وَاجْعَلْهُ مُؤْتَمًّا بِوَحْيِكَ لا بِمَا ... قَدْ قَالَهُ ذُو الإِفْكِ وَالْبُهْتَانِ

قَوْلُهُ: «مؤتمًّا» يعني: جاعلًا وَحْيَكَ إمامًا له، لا ما قاله ذو الإفك والبهتان من أهل البِدَعِ والتعطيل.

٢٨٠٤- وَانْصُرْ بِهِ حِزْبَ الهُدَى وَاكْبِتْ بِهِ ... حِزْبَ الضَّلالِ وَشِيعَةَ الشَّيْطَانِ

قَوْلُهُ: «وَانْصُرْ بِهِ» أي: بالموحِّد.

٢٨٠٥- وَانْعَشْ بِهِ مَنْ قَصْدُهُ إِحْيَاؤُهُ ... وَاعْصِمْهُ مِنْ كَيْدِ امْرِئٍ فَتَّانِ

قَوْلُهُ: «انْعَشْ بِهِ» يعني: أَحْيِهِ وقَوِّه.

قَوْلُهُ: «مَنْ قَصْدُهُ إِحْيَاؤُهُ» أي: إحياء الهدى.

قَوْلُهُ: «كَيْدِ» الكيدُ والمكرُ معناهما متقاربٌ، وهو أن يتوصلَ إلى الإيقاع بعدوِّه من غير أن يَشْعُرَ به.

٢٨٠٦- وَاضْرِبْ بِحَقِّكَ عُنقَ أَهْلَ الزَّيْغِ وَالتْـ ... ـتَبْدِيلِ وَالتَّكْذِيبِ وَالطُّغْيَانِ

أيضًا توسلَ بالحقِّ الذي جاء من عند الله أن يضربَ به عنقَ أهلِ الزَّيْغِ والتبديل؛ لأنَّ أهلَ الزَّيْغِ والتبديل على باطلٍ، وقد قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء:١٨].

٢٨٠٧- فَوَحَــقِّ نِعْمَتِــكَ الَّتِــي أَوْلَيْتَنِــي وَجَعَلْــتَ قَلْبِــي وَاعِــيَ الْقُــرْآنِ

قَوْلُهُ: «فَوَحَقِّ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَوْلَيْتَنِي» الواوُ هنا قَسَمٌ، وحقُّ النعمة شكرُها، والشُّكرُ من حقوق الله عزَّ وجلَّ، لكنَّه فعلُ العبد، فهل يجوزُ أن يُقْسِمَ الإنسانُ بفعل العبد، فيقول: (وحَقِّ نعمتك)؟

ربَّما نقولُ: إنه يجوزُ على أساس أنَّ حقَّ النعمةِ وهو الشُّكرُ أمرٌ واجبٌ، يعني: فبتأكُّد هذا الأمر الواجب لأفعلنَّ كذا وكذا.

ويحتملُ أن يكونَ المرادُ: (فَبِنِعْمَتِكَ الحقّ) فيكون من بابِ إضافة الصفة إلى موصوفها، وإذا كان: (فَبِنِعْمِتكَ الحقّ) فنعمةُ الله التي هي إنعامُه من فعلِه، والقَسَمُ به لا بأسَ به.

إِذَنْ الأوَّلُ فيه شيءٌ من الإشكال، وهو أنه كيف يحلفُ بشكرِ نعمة الله وهي من فعل العبد، ولا يجوزُ أن تحلفَ بفعلك حتَّى لو كان عبادةً، فلو قلتَ: (فبعبادتي لك) أو (بصلاتي لك) لا يجوزُ.

فأنا أقول توجيهًا لكلام المؤلفِ: أن نجعلَ (حقّ) صفة، فنجعلها من باب إضافةِ الصفة إلى موصوفها، ويكون المعنى: (فبنعمتك الحق) الثابتة التي أوليتني، ونعمةُ الله التي هي إنعامُه من فِعل الله عزَّ وجلَّ، وفعلُ الله يجوزُ الإقسامُ به.

ومِثْلُ هذا أيضًا قولُ بعضهِم: (بِحَقِّ هذا الأذان) يعني الأذانَ الحقَّ، وإلَّا فالأذانُ نفسُه ليس له حقٌّ.

وَقَوْلُهُ: «فَوَحَقِّ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَوْلَيْتَنِي وَجَعَلْتَ قَلْبِي وَاعِيَ الْقُرْآنِ» كونُه يُثْنِي على الله -سبحانه وتعالى- بأنَّ اللهَ أولاه النعمةَ واضحٌ، لكن قوله: (جَعَلْتَ قَلْبِي وَاعِيَ الْقُرْآنِ) لا يريدُ المؤلفُ بها أن يفتخرَ بالنعمة افتخارَ علوٍّ وتكبُّرٍ،

وإنما يُريد بهذا أن يتحدَّثَ بنعمة الله.

٢٨٠٨- وَكَتَبْتَ فِي قَلْبِي مُتَابَعَةَ الـهُدَى فَقَـرَأْتُ فِيـهِ أَسْـطُرَ الإِيـمَانِ

هذا أيضًا من باب التحدُّث بنعمة الله عزَّ وجلَّ.

٢٨٠٩- وَنَشَلْتَنِي مِنْ حُبِّ أَصْحَابِ الهَوَى بِحَبَائِـلٍ مِـنْ مُحْكَـمِ الْفُرْقَـانِ

وقد سبق أنَّ ابنَ القيِّم -رحمه الله- كان في أوَّل الأمر بدعيًّا حتَّى مَنَّ اللهُ عليه بشيخ الإسلام ابنِ تَيْمِيَّةَ -رحمه الله-.

٢٨١٠- وَجَعَلْتَ شِرْبِي المَنْهَلَ الْعَذْبَ الَّـذِي هُـوَ رَأْسُ مَـاءِ الـوَارِدِ الظَّمْـآنِ

قَوْلُهُ: «المَنْهَلَ الْعَذْبَ» أي: الكتاب والسُّنَّة.

٢٨١١- وَعَصَمْتَنِي مِنْ شُرْبِ سِفْلِ المَاءِ تَحْـ ـتَ نَجَاسَـةِ الآرَاءِ وَالأَذْهَـانِ

قَوْلُهُ: «سِفْلِ المَاءِ» هو ما اعتنقه هؤلاء النُّفاةُ من تحكيم العقل على رَبِّ العالمين وصفاتِه ودعواهم أنَّ هذه الصفةَ حَقٌّ؛ لأنَّ العقلَ يدلُّ عليها، وهذه باطلٌ؛ لأنَّ العقلَ نفاها.

٢٨١٢- وَحَفِظْتَنِي مِـمَّا ابْتَلَيْـتَ بِـهِ الأُلَى حَكَمُوا عَلَيْـكَ بِشِـرْعَةِ البُهْتَـانِ

قَوْلُهُ: «مِـمَّا ابْتَلَيْتَ بِهِ الأُلَى» أي: النُّفاة.

قَوْلُهُ: «بِشِرْعَةِ البُهْتَانِ» أي: بالعقل، فإنَّ العقلَ الفاسدَ لا شكَّ أنَّه بهتانٌ، وأمَّا العقلُ الصحيح فلا يخالفُ النقلَ.

وَقَوْلُهُ: «الأُلَى» يعني: الذين، قال ابن مالك -رحمه الله-:

جَمْعُ الَّذِي: «الأُلَى» «الَّذِينَ» مُطْلَقَـا وَبَعْضُـهُمْ بِـالوَاوِ رَفْعًـا نَطَقَـا

٢٨١٣- نَبَذُوا كِتَابَكَ مِنْ وَرَاءِ ظُهُورِهِمْ وَتَمَسَّكُوا بِزَخَارِفِ الـهَذَيَانِ

هذه حالُهم والعياذُ بالله، أنَّهم لا يرجعون إلى الكتابِ والسُّنَّةِ في إثبات الصفات أو نفيها، وإنما يرجعون إلى زخارف الهذيان الذي أَصَّلوه.

٢٨١٤- وَأَرَيْتَنِي الْبِدَعَ الـمُضِلَّةَ كَيْفَ يُلْـ ـقِيهَا مُزَخْرَفَةً إِلَى الإِنْسَانِ

٢٨١٥- شَيْطَانُهُ فَيَظَلُّ يَنْقُشُهَا لَهُ نَقْشَ الـمُشَبِّهِ صُورَةً بِدِهَانِ

وهذا من نعمة الله عزَّ وجلَّ أن يجعلَ اللهُ -سبحانه وتعالى- للإنسان نورًا يهتدي به، فيرى الحقَّ حقًّا ويرى الباطلَ باطلًا، ومن سُوء الطالعِ أنَّ الإنسانَ تَعْمَى عليه الحقائقُ، فلا يرى الباطلَ باطلًا ولا الحقَّ حقًّا، نسألُ اللهَ السَّلامةَ.

قَوْلُهُ: «**فَيَظَلُّ يَنْقُشُهَا لَهُ نَقْشَ الْمُشَبِّهِ صُورَةً بِدِهَانِ**» نفرض أنه يرسمُ صورةَ شجرةٍ، تجده يحرصُ أن تخرجَ هذه الصورةُ تامةً، إذا نظرْتَها كأنما تنظرُ إلى الشَّجرة الأصليَّة، هؤلاء شياطينُهم ترسمُ لهم هذا الباطلَ هذا الرَّسمَ الدقيقَ.

٢٨١٦- فَيَظُنُّهَا المَغْرُورُ حَقًّا وَهْيَ فِي التْـ ـحْقِيقِ مِثْلُ الـلَّالِ فِي القِيعَانِ

قَوْلُهُ: «**اللَّال**» أي: السَّراب، والسَّرابُ إذا رآه الإنسانُ يظنُّه ماءً، لنفرض أنَّك في البَرِّيَّة عطشانُ، وأمامك أرض سَبِخَة يكون فيها السَّرابُ كأنه ماءٌ، فتجدك تشعرُ بنفسك أنك حَيِيتَ؛ لأنَّ الماءَ الكثيرَ أمامك، ولكنَّك إذا جئتَه وجدتَه سرابًا كما قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور:٣٩].

٢٨١٧- لَأُجَاهِـدَنَّ عِـدَاكَ مَـا أَبْقَيْتَنِـي   وَلَأَجْعَلَـنَّ قِتَالَـهُمْ دَيْدَانِـي

قَوْلُهُ: «لأُجاهدنَّ» هذه الجملةُ جوابُ القَسَمِ في قوله: (فَوَحَقِّ نِعْمَتِكَ) يعني: بما أنعمتَ عليَّ أفعلُ كذا وكذا.

قَوْلُهُ: «لَأُجَاهِدَنَّ عِدَاكَ مَا أَبْقَيْتَنِي وَلَأَجْعَلَنَّ قِتَالَـهُمْ دَيْدَانِي» جزاه اللهُ خيرًا، وهذه علامةُ الإيمان، أن يجاهدَ الإنسانُ أعداءَ الله، وألَّا يُكِنَّ لهم حُبًّا أبدًا؛ لأنك إذا أحببتَ أعداءَ الله لَزِمَ من ذلك معاداةُ أولياء الله، كما قال ابن القيم -رحمه الله-[1]:

أَتُحِبُّ أَعْدَاءَ الـحَبِيبِ وَتَـدَّعِي   حُبًّـا لَـهُ مَـا ذَاكَ فِي إِمْكَـانِ

فلا بُدَّ أن نُضْمِرَ العِداءَ لكُلِّ عدوٍّ لله عزَّ وجلَّ، فإن لم نفعلْ فإنَّ ولاءَنا لله غيرُ صادقٍ.

٢٨١٨- وَلَأَفْضَحَنَّهُمْ عَلَى رُوسِ الْـمَلَا   وَلَأَفْـرِيَنَّ أَدِيمَهُـمْ بِلِسَانِـي

قَوْلُهُ: «وَلَأَفْرِيَنَّ أَدِيمَهُمْ» أديمهم يعني: جلودهم.

قَوْلُهُ: «بلِساني» يعني: بما أُبيِّنُه من الحقِّ الذي يَدْحَضُ باطلَهم.

٢٨١٩- وَلَأَكْشِفَنَّ سَرَائِرًا خَفِيَتْ عَلَى   ضُـعَفَاءِ خَلْقِـكَ مِـنْهُمُ بِبَيَـانِ

وقد فَعل -رحمه الله-، أبدى من معايبهم ما لم يُبْدِه إلَّا شيخُه ابنُ تيميَّة.

٢٨٢٠- وَلَأَتْبَعَـنَّهُمْ إِلَى حَيـثُ انْتَهَـوْا   حَتَّـى يُقَـالَ: أَبَعْـدَ عَبَّـادَانِ؟

قَوْلُهُ: «وَلَأَتْبَعَنَّهُمْ إِلَى حَيثُ انْتَهَوْا» هل سيقف أم يتبعهم؟ الجواب: يتبعهم إلى حيث انتهَوْا.

(١) البيت لابن القيم في هذه النونية، برقم (٣٥٠٣).

قَوْلُهُ: «حَتَّى يُقَالَ: أَبَعْدَ عَبَّادَانِ؟» عَبَّادَان: بَلَدٌ معروفٌ في إيران، والمؤلفُ من أهل الشَّام، يقولُ: أَتْبَعُهُمْ حتَّى يُقالَ: أَبَعْدَ عَبَّادَانَ تَتْبَعُهُمْ؟ يعني: من وراء عَبَّادَان، فهو يقولُ: أَتْبَعُهم إلى حيثُ انتهَوْا ولو يصلون إلى الصِّين.

٢٨٢١- وَلَأَرْجُمَنَّهُمْ بِأَعْلَامِ الـهُدَى   رَجْمَ الـمَرِيدِ بِثَاقِبِ الشُّهْبَانِ

أَرْجُمَنَّهُم بثاقبِ الشُّهْبَانِ رَجْمَ المَرِيدِ، والمريد: يعني الشَّياطين، فالشُّهُبُ ترمي مَرَدَةَ الشَّياطين.

٢٨٢٢- وَلَأَقْعُدَنَّ لَـهُمْ مَرَاصِدَ كَيْدِهِمْ   وَلَأَحْصُرَنَّهُمْ بِكُلِّ مَكَانِ

قَوْلُهُ: «مَرَاصِد» المراصد جمع: مرصد، يعني: المكان الذي يُتَحَرَّى وجودُهم فيه أقعدَنَّ لهم.

٢٨٢٣- وَلَأَجْعَلَنَّ لُحُومَهُمْ وَدِمَاءَهُمْ   في يَوْمِ نَصْرِكَ أَعْظَمَ القُرْبَانِ

أتقرَّبُ إليك بذبحهم كما يتقرَّبُ الناسُ بذبح الهدايا والقربان.

وقد ذكر -رحمه الله- في النونية أنَّ خالدَ بنَ عبد الله القَسْرِيَّ لَـمَّا خرج بالجَعْدِ بنِ دِرْهَمٍ مؤسس مقالة التعطيل، أَسَرَهُ ثُمَّ خرج به في عيد الأضحى فخطب الناسَ، وقال: «**أَيُّها الناسُ ضحوا تَقَبَّلَ اللهُ ضحاياكم، فإنِّي مُضَحٍّ بالجعد ابن درهم، فإنه زعمَ أَنَّ اللهَ لم يتخذْ إبراهيمَ خليلًا، ولم يُكَلِّمْ موسى تكليمًا**»[1]. ثُمَّ نزل مِنْ على المنبر فذبحه، وهذه الأُضْحِيَّةُ يقولُ ابنُ القيِّم عنها في النونية:

وَلِأَجْلِ ذَا ضَحَّى بِجَعْدٍ خَالِدُ الـ   ـقَسْرِيُّ يَومَ ذَبَائِحِ القُرْبَانِ

(١) الحكاية أوردها الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٩/ ٣٨٢).

إِذْ قَـالَ: إِبْـرَاهِيمُ لَـيْسَ خَلِيلَـهُ ... كَـلَا وَلَا مُوسَـى الكَلِـيمُ الدَّانِـي

شَكَرَ الضَّـحِيَّةَ كُـلُّ صَـاحِبِ سُـنَّةٍ ... لله دَرُّكَ مِـنْ أَخِـي قُرْبَـانِ

ونحن نشكرُه على تضحيتِه بهذا الرجلِ، ونرى أنها أقربُ قُرْبانٍ يتقرَّبُ به الإنسانُ إلى الله.

٢٨٢٤- ولَأَحْمِلَـنَّ عَلَـيْهِمْ بِعَسَـاكِرٍ ... لَيْسَـتْ تَفِـرُّ إِذَا الْتَقَـى الزَّحْفَـانِ

قَوْلُهُ: «بِعَسَاكِرٍ لَيْسَتْ تَفِرّ» لماذا؟ لأنَّها قويَّةٌ مُريدةٌ للقتال تمامًا.

٢٨٢٥- بِعَسَاكِرِ الْوَحْيَيْنِ وَالْفِطْرَاتِ وَالْـ ... ـمَعْقُولِ وَالْـمَنْقُولِ بِالإِحْسَـانِ

٢٨٢٦- حَتَّى يَبِينَ لِـمَنْ لَهُ عَقْـلٌ مِـنَ الْـ ... أَوْلَـى بِحُكْـمِ الْعَقْـلِ وَالْبُرْهَـانِ؟

جزاه الله خيرًا، يعني: بعدما يُبَيِّنُ بطلانَهم يَبِينُ للناس مَنِ الأَوْلَى بالعقل، هل هم أم أهلُ الحديث؟ ولا شكَّ أنَّ أهلَ الحديثِ هم أَوْلَى.

٢٨٢٧- وَلَأَنْصَـحَنَّ اللهَ ثُـمَّ رَسُـولَهُ ... وَكِتَابَـهُ وَشَرَائِـعَ الإِيـمَانِ

قَوْلُهُ: «وَلَأَنْصَحَنَّ اللهَ» يعني: أنصحنَّ لله، ولو كان البيتُ هكذا:

وَلأَنْصَـحَنْ لله ثُـمَّ رَسُـولِهِ ... وَكِتَابِـهِ وَشَرَائِـعِ الإِيـمَانِ

لاستقام.

وقوله: «ولأنصحنْ لله» ليوافقَ لفظَ الحديث: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِـمَنْ؟ قَالَ: «لله...»[1]، أمَّا على النسخ الموجودة في أيدينا (ولأنصحنَّ اللهَ) فالمعنى: لأنصحنَّ له، فيكون منصوبًا بنزع الخافض.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، رقم (٥٥).

٢٨٢٨- إِنْ شَـاءَ رَبِّي ذَا يَكُـونُ بِحَوْلِـهِ إِنْ لَـمْ يَشَـأْ فَـالأَمْرُ لِلـرَّحْمَنِ

وَقَوْلُهُ: «إِنْ لَـمْ يَشَأْ» في نسخة: (أَوْ لَـمْ يَشَأْ)، على كُـلِّ حـالٍ المعنيانِ صحيحان.

قَوْلُهُ: «إِنْ شَاءَ رَبِّي» الحمدُ لله أنَّ المؤلفَ -رحمه الله- قال: (إِنْ شَاءَ رَبِّي)؛ لأنَّ كُلَّ أَقْسَامِهِ الأُولى لو لم يَقْرِنْهَا بالمشيئة لذهبت جفاءً؛ لأنَّ الرسولَ -عليه الصلاة والسلام- قال في سليمان: «لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ لَـمْ يَحْنَثْ وَكَانَ دَرَكًا لِـحَاجَتِهِ»[1].

والإنسانُ إذا أقسمَ على شيء فينبغي له أن يَقْرِنَ قَسَمَهُ بالمشيئة ليسهل ذلك؛ ولهذا قال: (إِنْ شَاءَ رَبِّي ذَا يَكُونُ بِحَوْلِهِ).

قَوْلُهُ: «إِنْ لَـمْ يَشَأْ -وفي النسخة الثانية: أَوْ لَـمْ يَشَأْ- فَالأَمْرُ لِلرَّحْمَنِ» لأنه إذا شاء اللهُ -سبحانه وتعالى- أن يهدِيَ عبدَه فذلك بفضلِهِ وحولِه، أو لم يشاء مَنِ الأمرُ إليه؟ الجوابُ: الأمرُ له عزَّ وجلَّ، فنسأل اللهَ أن يهديَنا وإيَّاكم صِراطَه المستقيم.

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب كفارات الأيمان، باب الاستثناء في الأيمان، رقم (٦٣٤١)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب الاستثناء، رقم (١٦٥٤).

فصــل

فِي شَهَادَةِ أَهْلِ الإِثْبَاتِ عَلَى أَهْلِ التَّعْطِيلِ أَنَّه لَيْسَ فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ يُعْبَدُ، وَلا لله بَيْنَنَا كَلامٌ، وَلا فِي القَبْرِ رَسُولٌ

٢٨٢٩- إِنَّـا تَحَمَّلْنَـا الشَّـهَادَةَ بِالَّـذِي ... قُلْـتُمْ نُؤَدِّيهَـا لَـدَى[1] الـرَّحْمَنِ

٢٨٣٠- مَا عِنْـدَكُمْ فِي الأَرْضِ قُـرْآنٌ كَـلَا ... مُ الله حَقًّـا يَـا أُولِـي الْعُـدْوَانِ

٢٨٣١- كَـلَّا وَلا فَـوْقَ السَّـمَوَاتِ الْعُـلَى ... رَبٌّ يُطَـاعُ بِوَاجِـبِ الشُّـكْرَانِ

٢٨٣٢- كَـلَّا وَلا فِي القَـبْرِ أَيْضًـا عِنْـدَكُمْ ... مِـنْ مُرْسَـلٍ وَالله عِنْـدَ لِسَـانِ

٢٨٣٣- هَاتِيكَ عَوْرَاتٌ ثَـلاثٌ قَـدْ بَـدَتْ ... مِـنْكُمْ فَغَطُّوهَـا بِـلَا رَوَغَـانِ

٢٨٣٤- فَالرُّوحُ عِنْدَكُمْ مِنَ الأَعْـرَاضِ قَـا ... ئِمَـةٌ بِجِسْـمِ الـحَيِّ كَـالأَلْوَانِ

٢٨٣٥- وَكَـذَا صِـفَاتُ الـحَيِّ قَائِمَـةٌ بِـهِ ... مَشْـرُوطَةٌ بِحَيَـاةِ ذِي الـجُثْمَانِ

٢٨٣٦- فَإِذَا انْتَفَتْ تِلْـكَ الـحَيَاةُ فَيَنْتَفِـي ... مَشْـرُوطُهَا بِالْعَقْـلِ وَالْبُرْهَـانِ

٢٨٣٧- وَرِسَالَةُ الـمَبْعُوثِ مَشْـرُوطٌ بِهَـا ... كَصِـفَاتِهِ بِـالْعِلْمِ وَالإِيـمَانِ

٢٨٣٨- فَإِذَا انْتَفَتْ تِلْكَ الـحَيَاةُ فَكُلُّ مَشْـ ... ـرُوطٍ بِهَـا عَـدَمٌ لِـذِي الأَذْهَـانِ

---

(١) في نسخة برلين وابن سحمان: «إلى».

الشــرحُ

يقولُ المؤلفُ -رحمه الله-: إنَّ أهلَ الإثبات يشهدون عند الله على أهل التعطيل بهذه الأمور الثلاثة:

أوَّلًا: أنه ليس في السماء إلهٌ يُعْبَدُ.

ثانيًا: أنه ليس في الأرض كلامٌ لله.

ثالثًا: أنه ليس في القبر رسولٌ.

يقول -رحمه الله-:

٢٨٢٩- إِنَّـا تَحَمَّلْنَـا الشَّـهَادَةَ بِالَّـذِي قُلْـتُمْ نُؤَدِّيهَـا لَـدَى[1] الـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «**قُلْتُمْ نُؤَدِّيهَا لَدَى الرَّحْمَنِ**» لكن متى؟ الجواب: نؤديها في الدنيا وفي الآخرة؛ لأنَّ الإنسانَ إذا تكلَّم بشيءٍ في الدنيا فقد شَهِدَ به عند الله؛ ولهذا جاء في الحديث: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ أُشْهِدُكَ وَأُشْهِدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ...**»[2] وأمَّا في الآخرة فظاهرٌ.

٢٨٣٠- مَا عِنْـدَكُمْ فِي الأَرْضِ قُـرْآنٌ كَـلَا مُ الله حَقًّـا يَـا أُولِـي الْعُـدْوَانِ

لماذا؟ لأنهم يقولون: إنَّ القـرآنَ عبـارةٌ عن كلام الله، أو يقولون: إنَّ القرآنَ مخلوقٌ من مخلوقات الله.

٢٨٣١- كَـلَّا وَلا فَـوْقَ السَّـمَوَاتِ الْعُـلَى رَبٌّ يُطَـاعُ بِوَاجِـبِ الشُّـكْرَانِ

وذلك لأنَّهم ينكرون علوَّ الله عزَّ وجلَّ، ويقولون إمَّا بالتعطيل المحض وإمَّا

---

(١) في نسخة برلين وابن سحمان: «إلى».

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، رقم (٥٠٦٩).

بالحلول، يقولون: إنَّ اللهَ ليس فَوْقَ العالَـمِ، ولا تحتَ العالَـمِ، ولا يمينٌ ولا شمالٌ، ولا متصلًا ولا منفصلًا، ولا مباينًا ولا محايدًا، وهذا تعطيلٌ مَحْضٌ، ومضمونه: أنَّ اللهَ ليس في السَّماء. أو يقولون: إنَّ اللهَ بذاتِه في كُلِّ مكان، وهذا أيضًا مضمونُه: أنَّ اللهَ ليس في السَّماء، فإذن ليس فوقَ السموات العُلَى رَبٌّ يُطَاعُ بواجب الشكران.

٢٨٣٢- كَـلَّا وَلا فِي القَـبْرِ أَيْضًـا عِنْـدَكُمْ ... مِـنْ مُرْسَـلٍ وَاللهُ عِنْـدَ لِسَـانِ

قَوْلُهُ: «كَلَّا وَلا فِي القَبْرِ أَيْضًا عِنْدَكُمْ مِنْ مُرْسَلٍ» يعني: لا يوجد أيضًا رسولٌ في القبر.

قَوْلُهُ: «وَاللهُ عِنْدَ لِسَانِ» يعني: أَنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- عند قولِ كُلِّ قائلٍ، فَكُلُّ مَن شَهِدَ لله فاللهُ تعالى عند شهادتِه يحاسبُه عليها.

٢٨٣٣- هَاتِيكَ عَوْرَاتٌ ثَـلاثٌ قَـدْ بَـدَتْ ... مِـنْكُمْ فَغَطُّوهَـا بِـلَا رَوَغَـانِ

قَوْلُهُ: «هاتِيكَ» اسمُ إشارةٍ، والمشارُ إليه ما سبق من أنه ليس في الأرض كلامٌ لله، وليس فوق السموات إلهٌ يُعْبَدُ، وليس في القبر رسولٌ.

قَوْلُهُ: «قَدْ بَدَتْ مِنْكُمْ فَغَطُّوهَا بِلَا رَوَغَانِ» يعني: إن استطعتم فغَطُّوا هذه العوراتِ، ولكنَّهم لا يستطيعون.

أما العورتان الأوليان: أنه ليس في الأرضِ كلامٌ لله، وأنه ليس فوق السموات إلهٌ يُعْبَدُ، فقد سبق وجهها.

أَمَّا الثالثةُ فوجهُها ما ذكره -رحمه الله- في قوله:

٢٨٣٤- فَالرُّوحُ عِنْدَكُمْ مِنَ الأَعْـرَاضِ قَـا ... ئِمَـةٌ بِجِسْـمِ الْـحَيِّ كَـالأَلْوَانِ

الرُّوحُ عند هؤلاء عَرَضٌ من الأعراض: كالحرارة، والبرودة، والحركة، هذه الأشياءُ عَرَضٌ، إذا مات الإنسانُ زالت؛ ولهذا عندهم الرُّوحُ عَرَضٌ من أعراض الجسم، كاللون، وحرارة الجسم، وبرودته، ورطوبته، ويُبُوسته، وما أشبهَ ذلك، فإذا مات أين تذهبُ الرُّوحُ؟ الجواب: تزولُ كزوالِ بقيَّة الصفات.

٢٨٣٥- وَكَذَا صِفَاتُ الحَيِّ قَائِمَةٌ بِهِ   مَشْرُوطَةٌ بِحَيَاةِ ذِي الجُثْمَانِ

صفاتُ الحيِّ قائمةٌ به، لكنَّها مشروطةٌ بأيِّ شيء؟ الجوابُ: بحياته، لا يمكنُ أن يتحرَّكَ، ولا يأكل، ولا يشرب، ولا يغضب، ولا يرضى، إلَّا إذا كان حيًّا.

إِذَنْ لا رُوحَ فيه إلَّا إذا كان حيًّا، وإذا كان ميتًا فُقِدَت الرُّوحُ تمامًا كما تُفْقَدُ بقيَّةُ الصفات، وهذا أحدُ أقوالِ القائلين في الرُّوح: إنها عَرَضٌ من أعراض الجِسم، تذهبُ بذَهاب الجِسم.

فـ «صِفَاتُ الحَيِّ قَائِمَةٌ بِهِ» الرسالةُ مشروطةٌ بالحياة، كُلُّ الصفاتِ مشروطةٌ بالحياة، فالرسالةُ وصفٌ مشروطٌ بحياة الرسول، فإذا ماتَ زالت الرسالةُ، كما أنَّ صفات الجسم إذا مات ماتت.

إِذَنْ هذه الجُثَّةُ التي في القبر هل هي رسولٌ أو لا؟ الجوابُ: على قولهم ليست برسولٍ؛ لأنَّ صفات الحيِّ مشروطةٌ بحياته، والحياةُ من الرسول ﷺ قد فُقِدَتْ وزالت، إِذَنْ فالصفاتُ التي لا بُدَّ فيها من الحياة زالت؛ ولهذا قال:

٢٨٣٦- فَإِذَا انْتَفَتْ تِلْكَ الحَيَاةُ فَيَنْتَفِي   مَشْرُوطُهَا بِالْعَقْلِ وَالْبُرْهَانِ

إذا انتفت هذه الحياةُ انتفى مشروطُها وهو الصفات؛ لأنَّ الصفاتِ من شرطها الحياةُ، فإذا فُقِدَت فُقِدَت الصفاتُ.

٢٨٣٧- وَرِسَالَةُ الـمَبْعُوثِ مَشْـرُوطٌ بِهَـا   كَصِـفَاتِهِ بِـالْعِلْمِ وَالإِيـمَانِ

قَوْلُهُ: «وَرِسَالَةُ المَبْعُوثِ مَشْرُوطٌ بِهَا» أي: من شرط كونه رسولًا أن يكون حيًّا على زعمهم، فإذا مات قال:

٢٨٣٨- فَإِذَا انْتَفَتْ تِلْكَ الـحَيَاةُ فَكُلُّ مَشْـ   ـرُوطٍ بِهَـا عَـدَمٌ لِـذِي الأَذْهَـانِ

قَوْلُهُ: «كلُّ مَشْرُوطٍ بها عَدَمٌ» (كُلُّ): مبتدأ مضافة إلى (مشروط)، و(عدم): خبر المبتدأ.

إِذَنْ -على قولهم- (ليس فِي السَّماء إِلَهٌ يُعْبَدُ)؛ لماذا؟ لأنهم ينكرون علوَّ الله.

- (ليس فِي الأرض كلامٌ لله)؛ لأنهم يقولون: كلامُ الله مخلوقٌ، فهو كوجود البعير والإنسان، ولا فرق.

- (ليس فِي القبر رسول)؛ لأنَّ الرسالةَ وصفٌ مشروطٌ بالحياة، والحياةُ مفقودةٌ؛ لأنَّ الرُّوحَ عندهم عَرَضٌ من الأعراض تفوتُ بموت الجسم، فإذا فُقِدَت الرُّوحُ التي هي شرطٌ للرسالة فُقِدَت الرسالةُ، وعلى هذا فالنَّبِيُّ ﷺ في قبره ليس برسولٍ، يعني: انتفى عنه وصفُ الرسالة، هذا معنى قولهم: (ليس فِي القبر رسول).

هؤلاء لو قالوا: (ليس فِي القبرِ حَيٌّ) نقول: هذا صحيحٌ إن أرادوا الحياةَ الدنيا، أمَّا إن أرادوا الحياةَ البرزخيَّةَ فغيرُ صحيح؛ ولهذا جاء المؤلفُ في الفصل الذي يليه بالكلام عن حياةِ الأنبياءِ في قبورِهم.

* * *

فصــل

فِي الكَلامِ فِي حَيَاةِ الأَنْبِيَاءِ فِي قُبُورِهِمْ

٢٨٣٩- وَلِأَجْلِ هَـذَا رَامَ نَـاصِرُ قَـوْلِكُمْ ... تَرْقِيعَــهُ يَــا كَثْـرَةَ الـــخُلْقَانِ

٢٨٤٠- قَـالَ: الرَّسُـولُ بِقَـبْرِهِ حَـيٌّ كَـمَا ... قَدْ كَـانَ فَـوْقَ الأَرْضِ وَالرُّجْمَـانِ

٢٨٤١- مِنْ فَوْقِهِ أَطْبَاقُ ذَاكَ التُّرْبِ وَاللْـ ... ـلَبِنَـاتُ قَدْ عُرِضَتْ عَلَى الجُـدْرَانِ

٢٨٤٢- لَوْ كَانَ حَيًّـا فِي الضَّـرِيحِ حَيَاتَـهُ ... قَبْـلَ الـمَمَاتِ بِغَـيْرِ مَـا فُرْقَـانِ

٢٨٤٣- مَا كَانَ تَحْتَ الأَرْضِ بَلْ مِنْ فَوْقِهَا ... وَاللهِ هَـــذِي سُـــنَّةُ الـــرَّحْمَنِ

٢٨٤٤- أَتُـرَاهُ تَحْـتَ الأَرْضِ حَيًّـا ثُـمَّ لَا ... يُفْتِــيهِمُ بِشَــرَائِعِ الإِيــمَانِ؟

٢٨٤٥- وَيُـرِيحُ أُمَّتَـهُ مِـنَ الآرَاءِ وَالْـ ... ـخُلْفِ[1] العَظِيمِ وَسَائِرِ البُهْتَـانِ

٢٨٤٦- أَمْ كَـانَ حَيًّـا عَـاجِزًا عَـنْ نُطْقِـهِ ... وَعَنِ الـجَوَابِ لِسَائِلٍ لَــهْفَانِ؟

٢٨٤٧- وَعَنِ الحَرَاكِ، فَمَا الحَيَاةُ اللَّاتِ قَـدْ ... أَثْبَتُّمُوهَـــا؟ أَوْضِـــحُوا بِبَيَـــانِ

٢٨٤٨- هَــذَا وَلِــمَ لا جَــاءَهُ أَصْــحَابُهُ ... يَشْـكُونَ بَـأْسَ الفَـاجِرِ الفَتَّـانِ؟

٢٨٤٩- إِذْ كَــانَ ذَلِــكَ دَأْبُهُــمْ وَنَبِــيُّهُمْ ... حَــيٌّ يُشَـاهِدُهُمْ شُـهُودَ عِيَـانِ

٢٨٥٠- هَـلْ جَـاءَكُمْ أَثَـرٌ بِـأَنَّ صِـحَابَهُ ... سَــأَلُوهُ فُتْيَـا وَهْـوَ فِي الأَكْفَـانِ

(١) في نسخة السفاريني: «السخف».

٢٨٥١- فَأَجَابَهُمْ بِجَوَابِ حَيٍّ نَاطِقٍ ... فَأْتُوا إِذَنْ بِالحَقِّ وَالبُرْهَانِ
٢٨٥٢- هَلَّا أَجَابَهُمُ جَوَابًا شَافِيًا ... إِنْ كَانَ حَيًّا نَاطِقًا بِلِسَانِ؟
٢٨٥٣- هَذَا وَمَا شُدَّتْ رَكَائِبُهُ عَنِ الْـ ... ـحُجُرَاتِ لِلْقَاصِي مِنَ البُلْدَانِ
٢٨٥٤- مَعَ شِدَّةِ الحِرْصِ العَظِيمِ لَهُ عَلَى ... إِرْشَادِهِمْ بِطَرَائِقِ التِّبْيَانِ
٢٨٥٥- أَتُرَاهُ يَشْهَدُ رَأْيَهُمْ وَخِلافَهُمْ ... وَيَكُونُ لِلتِّبْيَانِ ذَا كِتْمَانِ؟!
٢٨٥٦- إِنْ قُلْتُمُ: سَبَقَ الْبَيَانُ صَدَقْتُمُ ... قَدْ كَانَ بِالتَّكْرَارِ ذَا إِحْسَانِ
٢٨٥٧- هَذَا وَكَمْ مِنْ أَمْرٍ اشْكَلَ بَعْدَهُ ... أَعْنِي: عَلَى عُلَمَاءِ كُلِّ زَمَانِ
٢٨٥٨- أَوَمَا تَرَى الْفَارُوقَ وَدَّ بِأَنَّهُ ... قَدْ كَانَ مِنْهُ الْعَهْدُ ذَا تِبْيَانِ
٢٨٥٩- بِالْجَدِّ فِي مِيرَاثِهِ وَكَلالَةٍ ... وَبِبَعْضِ أَبْوَابِ الرِّبَا الْفَتَّانِ
٢٨٦٠- قَدْ قَصَّرَ الفَارُوقُ عِنْدَ فَرِيقِكُمْ ... إِذْ لَمْ يَسَلْهُ وَهْوَ فِي الأَكْفَانِ
٢٨٦١- أَتُرَاهُمُ يَأْتُونَ حَوْلَ ضَرِيحِهِ ... لِسُؤَالِ أُمِّهِمُ أَعَزِّ حَصَانِ
٢٨٦٢- وَنَبِيُّهُمْ حَيٌّ يُشَاهِدُهُمْ وَيَسْـ ... ـمَعُهُمْ وَلا يَأْتِي لَهُمْ بِبَيَانِ؟!
٢٨٦٣- أَفَكَانَ يَعْجِزُ أَنْ يُجِيبَ بِقَوْلِهِ ... إِنْ كَانَ حَيًّا دَاخِلَ الْبُنْيَانِ؟!
٢٨٦٤- يَا قَوْمَنَا اسْتَحْيُوا مِنَ العُقَلاءِ وَالْـ ... ـمَبْعُوثِ بِالْقُرْآنِ وَالرَّحْمَنِ
٢٨٦٥- وَاللهِ لَا قَدْرَ الرَّسُولِ عَرَفْتُمُ ... كَلَّا وَلا لِلنَّفْسِ وَالإِنْسَانِ[1]

---

(١) في نسختي ابن سحمان: «الإيمان».

٢٨٦٦- مَنْ كَانَ هَـذَا الْقَـدْرُ مَبْلَـغَ عِلْمِـهِ ... فَلْيَسْـتَتِرْ بِالصَّـمْتِ وَالْكِتْمَانِ

٢٨٦٧- وَلَقَـدْ أَبَـانَ اللهُ أَنَّ رَسُـولَهُ ... مَيْـتٌ كَـمَا قَـدْ جَـاءَ فِي الْقُـرْآنِ

٢٨٦٨- أَفَجَـاءَ أَنَّ اللهَ بَاعِثُـهُ لَنَـا ... فِي الْقَـبْرِ قَبْـلَ قِيَامَـةِ الأَبْـدَانِ؟

٢٨٦٩- أَثَـلاثُ مَوْتَـاتٍ تَكُـونُ لِرُسْـلِهِ ... وَلِغَـيْرِهِمْ مِـنْ خَلْقِـهِ مَوْتَـانِ؟!

٢٨٧٠- إِذْ عِنْدَ نَفْخِ الصُّورِ لا يَبْقَـى امْـرُؤٌ ... فِي الأَرْضِ حَيًّـا قَـطُّ بِالبُرْهَـانِ

٢٨٧١- أَفَهَلْ يَمُوتُ الرُّسْـلُ أَمْ يَبْقَـوا إِذَا ... مَاتَ الْوَرَى أَمْ هَلْ لَكُـمْ قَـوْلانِ؟

٢٨٧٢- فَتَكَلَّمُوا بِالْعِلْمِ لا الدَّعْوَى وَجِيـ ... ـئُوا بِالـدَّلِيلِ فَـنَحْنُ ذُو أَذْهَـانِ

٢٨٧٣- أَوَلَـمْ يَقُلْ مَنْ قَبْلَكُمْ لِلرَّافِعِي الْـ ... أَصْـوَات حَـوْلَ القَـبْرِ بِـالنُّكْرَانِ:

٢٨٧٤- لا تَرْفَعُوا الأَصْوَاتَ حُرْمَـةَ عَبْـدِهِ ... مَيْتًـا كَحُرْمَتِـهِ لَـدَى الـحَيَوَانِ[1]

٢٨٧٥- قَـدْ كَـانَ يُمْكِـنُهُمْ يَقُولُـوا: إِنَّـهُ ... حَيٌّ فَغُضُّوا الصَّـوْتَ بِالإِحْسَـانِ

٢٨٧٦- لَكِـنَّهُمْ بِـالله أَعْلَـمُ مِـنْكُمُ ... وَرَسُـولِهِ وَحَقَـائِقِ الإِيـمَانِ

٢٨٧٧- وَلَقَدْ أَتَوْا يَوْمًـا إِلَى العَبَّـاسِ يَسْـ ... ـتَسْقُونَ مِنْ قَحْطٍ وَجَدْبِ زَمَـانِ

٢٨٧٨- هَـذَا وَبَيْـنَهُمْ وَبَـيْنَ نَبِـيِّهِمْ ... عَرْضُ الـجِدَارِ وَحُجْرَةُ النِّسْـوَانِ

٢٨٧٩- فَنَبِـيُّهُمْ حَـيٌّ وَيَسْتَسْـقُونَ غَيْـ ... ـرَ نَبِيِّهِمْ حَاشَـا أُولِـي الإِيـمَانِ

---

(١) في نسختي ابن سحمان «الحولان».

الشـــرحُ

المؤلفُ -رحمه الله- تكَلَّم في حياة الأنبياء في قبورهم بعد أن ذكر شهادةَ أهل الإثبات على أهل التعطيل أنه ليس في السَّماءِ إِلَهٌ يُعْبَدُ، ولا بيننا كلامٌ لله، ولا في القبرِ رسولٌ لله، وبَيَّن وجهَ قولنا: إنه يَلْزَمُ على قولهم بأن لا يكونَ في القبر رسولٌ لله هو أنهم يقولون: إنَّ الموتَ عَرَضٌ من الأعـراض، فالموتُ كفقدِ اللون، وفقدِ الصحة، وما أشبهَ ذلك، فهو عَرَضٌ من الأعراض، إذا مات الإنسانُ ذهبت رُوحُه، وإذا ذهبت رُوحُه زال عنه وصفُ الرسالة؛ لأنَّ الرسالةَ مشروطةٌ بوجود الروح، وهذا تقدَّم. بعد أن ذكر ذلك بَيَّنَ -رحمه الله- حياةَ الأنبياء في قبـورهم، وقال: إنَّ النَّبيَّ ﷺ ليس حيًّا في قبره كحياتنا هذه؛ ولذا قال: «**فَصْلٌ فِي الكَلَامِ فِي حَيَاةِ الأَنْبِيَاءِ فِي قُبُورِهِمْ**» يعني: هل هم أحياءٌ؟ وما نوعُ الحياة؟ قال المؤلف:

٢٨٣٩- وَلِأَجْـلِ هَـذَا رَامَ نَـاصِرُ قَـوْلِكُمْ   تَرْقِيعَــهُ يَــا كَثْــرَةَ الــخُلْقَانِ

يعني: أنَّ مَن نَصَرَ قولَكم رَامَ أَنْ يُرَقِّعَه، ولكنَّ الترقيعَ لا ينفعُ؛ لأنَّ الثوبَ الخَلَقَ خَلَقٌ سواءٌ رُقِّعَ أم لم يُرَقَّعْ.

٢٨٤٠- قَـالَ: الرَّسُـولُ بِقَـبْرِهِ حَـيٌّ كَـمَا   قَدْ كَـانَ فَـوْقَ الأَرْضِ وَالرُّجْمَـانِ

سبق قبل قليل أنَّهم يَرَوْنَ أنَّ الـرُّوحَ والحياةَ عَرَضٌ، وأنه لـمَّا مات الرسولُ ﷺ زالت الرسالةُ، فكان في القبر غير رسول.

رام مَن ينصرُ قولَهم أن يقولَ: إنَّ الرسولَ ﷺ لم يمت، بل هو حَيٌّ في قبره، مِن أَجْلِ ترقيع هذا القول، لكن لا تنفعُ الرُّقَعُ.

قَوْلُهُ: «والرُّجمان» يعني: الحصى التي يُرْجَمُ بها.

٢٨٤١- مِنْ فَوْقِهِ أَطْبَاقُ ذَاكَ التُّرْبِ وَاللْـ ... لَبِنَـاتُ قَدْ عُرِضَتْ عَلَى الجُـدْرَانِ

يعني: فيكون حيًّا ولو كان تحتَ التراب مِن أَجْلِ أَلَّا يُسْلَبَ عنه وصفُ الرسالة.

قال المؤلف ردًّا عليهم:

٢٨٤٢- لَوْ كَانَ حَيًّـا فِي الضَّـرِيحِ حَيَاتَـهُ ... قَبْـلَ الـمَمَاتِ بِغَـيْرِ مَـا فُرْقَـانِ

٢٨٤٣- مَا كَانَ تَحْتَ الأَرْضِ بَلْ مِنْ فَوْقِهَا ... وَاللهِ هَـذِي سُـنَّةُ الـرَّحْمَنِ

وصدق -رحمه الله-، فلو كانت حياتُه في قبره كحياتِه في الدنيا ما كان تحت الأرض، بل كان فوقها، بل ولا ما دفنَه أصحابُه؛ لأنه لو كان حيـًّا كحياته بالدنيا ودفنَه أصحابُه لكانوا أكبرَ الجُنَاةِ عليه، وهذا أمرٌ معلومٌ؛ فلو أمسكتَ شخصًا حيًّا يُرْزَقُ يَأكلُ ويَشربُ ثُمَّ رَمَسْتَهُ بالتُّرْبِ لكان هذا أعظمَ الجناية عليه، فلو كان حيًّا في قبـره كحياته بالدنيـا ما كان تحت الأرض، بل كان فوقها.

٢٨٤٤- أَتُـرَاهُ تَحْـتَ الأَرْضِ حَيًّـا ثُـمَّ لَا ... يُفْتِيـهِمُ بِشَـرَائِعِ الإِيـمَانِ؟

الجَوَابُ: لا، لو كان حيًّا تحت التراب كحياته بالدنيا لكان يُفتيهم إِذَا أَشْكَلَ عليهم الأمرُ مع أنه لم يُفْتِهِم.

قد يقولون: هو مدفونٌ ولا يسمعُ، قد يقولون هكذا، فنقول: حتَّى وإِنْ كان الأمرُ كذلك فلا بُدَّ أن يسمعَ إذا اسْتَفْتَوْهُ لدعاء الحاجة.

٢٨٤٥- وَيُـرِيحُ أُمَّتَـهُ مِـنَ الآرَاءِ وَالْـ ... ـخُلْفِ العَظِـيمِ وَسَـائِرِ البُهْتَـانِ

لأنه لو كان حيًّا لأراح الأمةَ من هذا الخلافِ العظيمِ الثابتِ بينها في العقائد والأحكام.

٢٨٤٦- أَمْ كَـانَ حَيًّـا عَـاجِزًا عَـنْ نُطْقِـهِ   وَعَنِ الـجَوَابِ لِسَـائِلٍ لَـهْفَانِ؟

٢٨٤٧- وَعَنِ الحَرَاكِ، فَمَا الحَيَاةُ اللَّاتِ قَـدْ   أَثْبَتُّمُوهَـــا؟ أَوْضِـحُوا بِبَيَـانِ

قَوْلُهُ: «أَمْ كَانَ حَيًّا عَاجِزًا عَنْ نُطْقِهِ؟» الجواب: لا؛ لأنه لو كان حيًّا لكان لصار ناطقًا، فمن أهم الأوصاف الحياتيَّة النطقُ.

قَوْلُهُ: «وَعَنِ الحَرَاكِ» يعني: لو كان حيًّا لكان قادرًا على الحركة.

يعني: إن قلتم: إنه حَيٌّ لكن لا يستطيعُ أن يتكلَّمَ، ولا يستطيعُ أن يتحرَّكَ، نقولُ لكم: أيُّ نوعٍ من الحياة كانت؟! إِذَنْ لا بُدَّ أن تكونَ الحياةُ -وإن كانَ في قبره حيًّا- حياةً مُفْارِقةً للحياة الدنيا.

٢٨٤٨- هَـذَا وَلِـمَ لا جَـاءَهُ أَصْـحَابُهُ   يَشْـكُونَ بَـأْسَ الفَـاجِرِ الفَتَّـانِ؟

يعني: لماذا لم يجئه أصحابُه إذا أصابهم بأسٌ (حربٌ) أو غير حرب يشكون إليه؟ ومن أعظم ما أصابهم ما حصل في أيام الـحَرَّة من القتلِ العظيم، والنهبِ، والسَّلب، وانتهاكُ الـحُرُمات، ومع ذلك لم يأتوا إلى النَّبِيِّ ﷺ يشكون إليه، ولو كان حيًّا لأَتَوْا إليه يشكون إليه هذا البأس.

٢٨٤٩- إِذْ كَـانَ ذَلِـكَ دَأْبُهُـمْ وَنَبِـيُّهُمْ   حَـيٌّ يُشَـاهِدُهُمْ شُـهُودَ عِيَـانِ

قَوْلُهُ: «دأبهم» (الدأب) أي: العادة.

يعني: كانت عادتهم والنَّبِيُّ ﷺ حيٌّ أن يلجئوا إلى النَّبِيِّ ﷺ في الأحكام والفُتيا بينهم، وحين يحين البأسُ يرجعون إلى النَّبِيِّ -عليه الصلاة والسلام-.

٢٨٥٠- هَـلْ جَـاءَكُمْ أَثَـرٌ بِـأَنَّ صِحَابَهُ   سَـأَلُوهُ فُتْيَـا وَهْـوَ فِي الأَكْفَـانِ

٢٨٥١- فَأَجَابَهُمْ بِجَوَابِ حَيٍّ نَاطِقٍ فَأْتُوا إِذَنْ بِالْحَقِّ وَالْبُرْهَانِ

٢٨٥٢- هَلَّا أَجَابَهُمُ جَوَابًا شَافِيًا إِنْ كَانَ حَيًّا نَاطِقًا بِلِسَانِ؟

يعني: هل جاء هذا؟ هل جاء أثرٌ بأنَّ الصحابةَ يستفتونه وهو مُدْرَجٌ في أكفانِه فأفتاهم؟ الجواب: أبدًا.

اختلف الصحابةُ رَضِيَاللَّهُعَنْهُمْ أين يُدْفَنُ؟ وهل يُغَسَّلُ كما يُغَسَّلُ الموتى؟ وهل يُكَفَّنُ كما يُكَفَّنُ الموتى؟ اختلفوا في ذلك، ومع ذلك ما رجعوا إليه يسألونه، وهو بينهم لم يُدْفَنْ، فكيف يكونُ حيًّا؟!

٢٨٥٣- هَذَا وَمَا شُدَّتْ رَكَائِبُهُ عَنِ الْـ ـحُجُرَاتِ لِلْقَاصِي مِنَ الْبُلْدَانِ

صحيحٌ، لو كان حيًّا لَشُدَّت ركائِبُهُ من حُجُراته إلى أقاصي البلدان ولَشارَكَ النَّاسَ في الغزوات والحروب.

٢٨٥٤- مَعَ شِدَّةِ الْحِرْصِ الْعَظِيمِ لَهُ عَلَى إِرْشَادِهِمْ بِطَرَائِقِ التِّبْيَانِ

ولا شكَّ أنَّ الرسولَ -صلوات الله وسلامه عليه- شديدُ الحرصِ على إرشاد الأمة، وأنه لا يألو جهدًا في إرشادِهم في كُلِّ طريق.

٢٨٥٥- أَتُرَاهُ يَشْهَدُ رَأْيَهُمْ وَخِلافَهُمْ وَيَكُونُ لِلتِّبْيَانِ ذَا كِتْمَانِ؟!

ما الجوابُ؟ الجواب: لا، لا يمكنُ، وكُلُّ هذا يدلُّ على أنه ليس حيًّا في قبره كحياته في الدنيا؛ لأنه لو كان حيًّا كحياته بالدنيا لرجعوا إليه في هذه الأمور.

٢٨٥٦- إِنْ قُلْتُمُ: سَبَقَ الْبَيَانُ صَدَقْتُمُ قَدْ كَانَ بِالتَّكْرَارِ ذَا إِحْسَانِ

لو قالوا: إنما لم يفعلِ النَّبيُّ ﷺ ذلك؛ لأنه سبق أن بَيَّنَ البيانَ المبينَ وتركَ

أُمَّتَه على محجَّةٍ بيضاءَ، نقولُ: صدقتم، إنَّه قد بَيَّنَ وترك أُمته على المحجَّة البيضاء، لكن ما الذي يضيرُه من تَكرارِ البيان؟ تكرارُ البيانِ يكونُ زيادةَ إحسانٍ للأُمة؛ ولهذا قال: «إِنْ قُلْتُمْ: سَبَقَ الْبَيَانُ» يعني: فلا حاجةَ إليه (صدقتم) وهذه جواب (إن).

قَوْلُهُ: «قَدْ كَانَ بِالتَّكْرَارِ ذَا إِحْسَانِ» يعني: لو كَرَّرَ لكان زيادةَ خيرٍ وإحسانٍ للأُمة.

٢٨٥٧- هَذَا وَكَمْ مِنْ أَمْرٍ اشْكَلَ بَعْدَهُ أَعْنِي: عَلَى عُلَمَاءِ كُلَّ زَمَانِ

وهذا صحيحٌ، فما أكثرَ الأمورَ التي أَشْكَلَتْ على الأمة بعد الرسول ﷺ!

فَمِن أَوَّلِ ما أشكل: اختلف الصحابةُ بعد أن اختلفوا في غسله وتكفينه وأين يُدْفَنُ؛ اختلفوا في إنفاذ جيش أسامةَ بنِ زيدٍ، وهذه مسألةٌ مهمةٌ، فجيشُ أسامةَ بن زيد كَوَّنَه الرسولُ -صلوات الله وسلامه عليه- في حياته، وعقد اللواءَ لأسامةَ بن زيد، وخرج الجيشُ إلى ظاهر المدينة، ولـمَّا مرِض النَّبيُّ ﷺ لم يَسِرْ هذا الجيشُ حتَّى تُوُفِّيَ صلوات الله وسلامه عليه.

لـمَّا تُوُفِّيَ اختلف الصحابةُ؛ لأنه لَـمَّا تُوفي ارتدَّ بعضُ العرب، فاختلف الصحابةُ هل يُنْفِذون هذا الجيشَ أو يبقونه يستعينون به على قتال المرتدين، فمانَعَ عمرُ وجماعةٌ من الصحابة، وقالوا: يبقى الجيشُ نستعينُ به، ولكنَّ أبا بكر قال: والله لا أَغمِد سيفًا سَلَّه النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام-، ولا أَحُلُّ لواءً عقده النَّبيُّ ﷺ. أَقسمَ على ذلك. قال عمر: فوالله ما هو إلا أنْ رأيتُ اللهَ قد شَرَحَ صدرَ أبي بكرٍ للقتال، فعرفت أنه الحقُّ[1].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم (١٣٣٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، رقم (٢٠).

هذا الخلافُ الذي حصل، هل رجعوا فيه إلى الرسول ﷺ في قبره؟ الجواب: أبدًا.

٢٨٥٨- أَوَمَــا تَــرَى الْفَــارُوقَ وَدَّ بِأَنَّــهُ قَــدْ كَــانَ مِنْــهُ الْعَهْــدُ ذَا تِبْيَــانِ

٢٨٥٩- بِالْـــجَدِّ فِي مِيرَاثِـــهِ وَكَلالَـــةٍ وَبِـــبَعْضِ أَبْـــوَابِ الرِّبَـــا الْفَتَّـــانِ

قَوْلُهُ: «أَوَمَا تَرَى الْفَارُوقَ» يعني عمرَ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَدَّ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن قد كان عنده عهدٌ من الرسول -عليه الصلاة والسلام- في أمورٍ ثلاثة: الجَدِّ، وَالكَلَالَةِ، وَشَيْءٍ مِنْ أَبْوَابِ الرِّبَا(١).

الأَوَّلُ: (الجدُّ) يُريد ميراثَه مع الإخوة، وكما هو معلومٌ من اختلاف الصحابة ومَنْ بعدهم في ميراث الجدِّ مع الإخوة على أقوالٍ كثيرة، والصحيح أنَّه بمنزلة الأب وأنه يُسقط الإخوةَ الأشقاءَ أو لأبٍ أو لأُمّ.

الثاني: (الكَلَالَة) ما الكَلَالَة؟ أشكلت على عمر، لكنَّها في الحقيقةِ واضحةٌ عند التأمُّل، الكَلَالَةُ مَنْ ليس له ولدٌ ولا والدٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾ [النساء:١٢] الإخوة من الأم لا يرثون مع وجود الأصول الذكور أو الفروع مطلقًا. وكذلك في آخر سورة النساء قال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾ [النساء:١٧٦].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأشربة، باب ما جاء في أن الخمر ما خامر العقل من الشراب، رقم (٥٢٦٦)، ومسلم: كتاب التفسير، باب في نزول الخمر، رقم (٣٠٣٢).

قَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ هذا شرطٌ من شروط الكلالَةِ، فالشرطُ أن لا يكونَ له ولدٌ، ولا يكونَ له والدٌ، وهذا الشرطُ مأخوذٌ من القسمة، قال الله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ [النساء:١٧٦]، وهذا لا يُتصوَّرُ مع وجود الوالد.

فإذن الكلَالَةُ واضحةٌ في القرآن لِمَن تأمَّل، لكنَّ عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يُريدُ بذلك بيانًا واضحـًا لا جدالَ فيه إطلاقـًا.

الثالث ممَّا تمنَّاه عمرُ: شيءٌ من أبواب الرِّبا، أبوابُ الرِّبا كثيرةٌ، وقد وردَ في الحديث أنه «بِضْعٌ وَسَبْعُونَ بَابًا»[1] أشكلت على عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ هذه الأبوابَ فتمنَّى أنَّ النَّبِيَّ بَيَّـنَ ذلك، ولم يرجعوا إليه في قبره.

٢٨٦٠- قَدْ قَصَّـرَ الفَارُوقُ عِنْـدَ فَـرِيقِكُمْ ... إِذْ لَـمْ يَسَـلْهُ وَهْـوَ فِي الأَكْفَـانِ

معناه: أنَّ ابنَ القيِّم -رحمه الله- يقولُ: أنتم تقولون: إنَّ عمرَ مُقَصِّرٌ؛ لأنه ما سأله بعد موته، لو سأله لوجده حيًّا فأجابه.

٢٨٦١- أَتُـرَاهُمُ يَـأْتُونَ حَـوْلَ ضَرِيحِـهِ ... لِسُـؤَالِ أُمِّهِـمُ أَعَـزِّ حَصَـانِ

٢٨٦٢- وَنَبِـيُّهُمْ حَـيٌّ يُشَـاهِدُهُمْ وَيَسْـ ... ـمَعُهُمْ وَلا يَـأْتِي لَـهُمْ بِبَيَـانِ؟!

الجَوَابُ: لا، يعني أنَّ الصحابةَ يأتون إلى حجرة النَّبِيِّ ﷺ وفيها عائشةُ أمُّ المؤمنين، يسـألون عـائشةَ، فهل تَظُنُّ أن يوجِّهوا السؤالَ إلى عائشةَ والنَّبِيُّ ﷺ يشاهدُهم ويسمعُهم؟ الجوابُ: لا، لا يمكنُ أن يسألوا عائشةَ في الحجرة، والنَّبِيُّ ﷺ في الحجرة حيٌّ ويَدَعُوا سؤالَ النَّبِيِّ إلى سـؤال عائشةَ، هذا محالٌ.

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب التجارات، باب التغليظ في الربا، رقم (٢٢٧٥).

٢٨٦٣- أَفَكَانَ يَعْجِزُ أَنْ يُجِيبَ بِقَوْلِهِ   إِنْ كَانَ حَيًّا دَاخِلَ الْبُنْيَانِ؟!

الجَوَابُ: لا يعجز؛ لأنه في الحجرة، فلو كان حيًّا داخل البنيان لأجابَهم، ولم تجبْهم عائشةُ.

٢٨٦٤- يَا قَوْمَنَا اسْتَحْيُوا مِنَ العُقَلاءِ وَالْـ   ـمَبْعُوثِ بِالْقُرْآنِ وَالرَّحْمَنِ

استحيوا من العقلاء، ثُمَّ من الرسولِ -عليه الصلاة والسَّلام-، ثُمَّ من الله، استحيوا من الله، ما هذا الكلامُ الذي صدر منكم؟!

٢٨٦٥- وَاللهِ لَا قَدْرَ الرَّسُولِ عَرَفْتُمُ   كَلَّا وَلا لِلنَّفسِ وَالإِنْسَانِ

نعم، ما عرفوا قَدْرَ الرسولِ ﷺ حيث زعموا أنه حيٌّ في قبره كحياته في الدنيا، ولا عَرَفوا أيضًا قدرًا للنفس والإنسان؛ لأنه يجبُ على الإنسان أن يترفَّعَ بنفسه عن هذه السَّفاسفِ وهذه المقولاتِ التي يضحكُ منها السُّفهاء، بل والله ما عرفوا قدرًا للصحابة؛ لأنه لو كان حيًّا على زعمهم لكان الصحابةُ قد دفنوا نبيَّهم وهو حَيٌّ، وإذا كانت المَوْءُودةُ تُسأَلُ يوم القيامة عمَّن وَأَدَها، فكيف بالرسول أن يدفنَه الصحابةُ وهو حيٌّ؟! هذا أكبرُ قدحٍ في الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

٢٨٦٦- مَنْ كَانَ هَذَا الْقَدْرُ مَبْلَغَ عِلْمِهِ   فَلْيَسْتَتِرْ بِالصَّمْتِ وَالْكِتْمَانِ

يعني: من كان هذا مبلغَ عِلمه بأنَّ الرسولَ حيٌّ في قبره فعليه أن يستحييَ من نفسِه، وأن يستترَ عن بيان عيبه بالصمت والكتمان؛ حتَّى لا يفتضِحَ أمام الناس.

٢٨٦٧- وَلَقَدْ أَبَانَ اللهُ أَنَّ رَسُولَهُ   مَيْتٌ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي القُرْآنِ

وهذا في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠].

٢٨٦٨- أَفَجَــاءَ أَنَّ اللهَ بَاعِثُــهُ لَنَــا   فِي الْقَـبْرِ قَبْـلَ قِيَامَـةِ الأَبْـدَانِ؟

الجَوَابُ: لا. إِذَنْ ثبت أنه مَيِّتٌ، ولم يثبت أنه مبعوثٌ الآن، والأصلُ بقاءُ ما كان على ما كان عليه.

٢٨٦٩- أَثَـلاثُ مَوْتَـاتٍ تَكُـونُ لِرُسْـلِهِ   وَلِغَـيْرِهِمْ مِـنْ خَلْقِـهِ مَوْتَـانِ؟!

الجَوَابُ: لا يمكنُ، لكن على زعمهـم تكونُ الموتاتُ ثلاثًا: مات النَّبِيُّ قبل وجودِه، قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة:٢٨]، ومات بعد وجوده في الدنيا، ثُمَّ بُعِثَ في القبر فأُحْيِيَ، ثم يموتُ يوم القيامة الموتة الأولى، الثانية: الموتة التي يَصْعَقُ فيها الناسُ يوم القيامة، ثُمَّ يُنْفَخُ في الصُّور مرةً ثانية ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

٢٨٧٠- إِذْ عِنْدَ نَفْخِ الصُّورِ لا يَبْقَـى امْـرُؤٌ   فِي الأَرْضِ حَيًّـا قَـطُّ بِالبُرْهَـانِ

الدليلُ قولُ الله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر:٦٨].

٢٨٧١- أَفَهَلْ يَمُوتُ الرُّسْـلُ أَمْ يَبْقُـوا إِذَا   مَاتَ الْوَرَى أَمْ هَلْ لَكُـمْ قَـوْلانِ؟

٢٨٧٢- فَتَكَلَّمُوا بِالْعِلْمِ لا الدَّعْوَى وَجِيـ   ـئُوا بِالـدَّلِيلِ فَـنَحْنُ ذُو أَذْهَـانِ

لله دَرُّه، أحرجهم تمامًا، يقولُ: هل يموتُ الرُّسلُ أم يبقون إذا مات الورى؟ إن قلتم: يموتُ الرُّسلُ فقد ماتوا ثلاثَ مراتٍ، وإن قلتم: يبقون، نقولُ: أين الدليلُ؟ أو لكم في هذا قولان، قولٌ يقولُ: إنَّهم يبقون، وقولٌ يقولُ: إنَّهم يموتون؟ وهكذا الإنسانُ إذا أُحْرِجَ يقولُ: في المسألة قولان، فيستريح.

٢٨٧٣- أَوَلَـمْ يَقُلْ مَنْ قَبْلَكُمْ لِلرَّافِعِي الْـ   أَصْـوَات حَـوْلَ القَـبْرِ بِـالنُّكْرَانِ:

٢٨٧٤- لا تَرْفَعُوا الأَصْوَاتَ حُرْمَـةَ عَبْـدِهِ   مَيْتًـا كَحُرْمَتِـهِ لَـدَى الـحَيَوَانِ

قَوْلُهُ: «لَدَى الـحَيَوَانِ» أي: لدى الحياة.

جاء هذا في أثرٍ عن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه جـاء قومٌ من أهل الطائف إلى مسجد النَّبِيِّ -عليه الصلاة والسلام- فجعلوا يتكلَّمون ويرفعونَ أصواتَهم، فدعاهم، وقال: «لَوْلَا أَنَّكُمْ مِنْ غَيْرِ هَذَا البَلَدِ لأَوْجَعْتُكُمْ ضَرْبًا»(١). هذا ما قال أو معناه، أترفعون أصواتَكم عند قَبْرِ النَّبِيِّ -عليه الصلاة والسلام-؟ ولكن هذا على سبيل الاحترام والأدب.

٢٨٧٥- قَـدْ كَـانَ يُمْكِـنُهُمْ يَقُولُـوا: إِنَّـهُ   حَيٌّ فَغُضُّوا الصَّـوْتَ بِالإِحْسَـانِ

قد كان يمكنهم أن يقولوا: إنه حيٌّ، فغُضُّوا الصوتَ، ولا يقولوا: لماذا ترفعونَ أصواتَكم عند قبرِ الرسول، فإنَّ حُرْمتَه ميِّتـًا كحُرمته حيًّا؟

٢٨٧٦- لَكِـنَّهُمْ بِـالله أَعْلَـمُ مِـنْكُمُ   وَرَسُـولِهِ وَحَقَـائِقِ الإِيـمَانِ

الصحابةُ أعلمُ بالله وبرسولِه وبحقائقِ الإيمان منكم.

٢٨٧٧- وَلَقَدْ أَتَوْا يَوْمًـا إِلَى العَبَّـاسِ يَسْـ   ـتَسْقُونَ مِنْ قَحْطٍ وَجَدْبِ زَمَـانِ

٢٨٧٨- هَـذَا وَبَيْـنَهُمْ وَبَـيْنَ نَبِـيِّهِمْ   عَرْضُ الـجِدَارِ وَحُجْرَةُ النِّسْوَانِ

أَتَوْا إلى العباس يستسقون، وذلك أنه لـما أُصيبَ النَّاسُ بالقحط في عهد عمرَ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجمع الناسَ للاستسقاء قال: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب رفع الصوت في المساجد، رقم (٤٥٨).

بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا، فَاسْقِنَا»[١]، قُمْ يَا عَبَّاسُ فَادْعُ اللهَ. فَقَامَ العَبَّاسُ فَدَعَا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ. ولو كان الرسولُ حيًّا لاستسقَوْا به، ما ذهبوا إلى العباس؛ لأنه ليس بينهم وبين نبيِّهم إلَّا عرضُ الجِدار وحجرةُ النسوان.

٢٨٧٩- فَنَبِيُّهُمْ حَيٌّ وَيَسْتَسْقُونَ غَيْـ ـرَ نَبِيِّهِمْ حَاشَا أُولِي الإِيمَانِ

يعني: هل يمكنُ أن يستسقوا بأحدٍ دون النَّبيِّ ﷺ وهو حيٌّ؟ الجواب: لا.

والحديث فيه أنه لا بأسَ بالتوسُّلِ بدعاءِ الصالحين في حياتهم، يعني: مثلًا: يوجد رجلٌ صالحٌ تَتَوَسَّمُ فيه الخيرَ، فتقول له: ادعُ اللهَ لنا.

وكَرِهَ شيخُ الإسلامِ طلبَ الدعاء من الغير في الأمور الخاصة، أمَّا الأمور العامَّة كالاستسقاء العام للناس، فلا أظنُّ أحدًا يكرهُه.

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، رقم (١٠١٠).

فصل

فِيمَا احْتَجُّوا بِهِ عَلَى حَيَاةِ الرُّسُلِ فِي القُبُورِ

٢٨٨٠- فَإِنِ احْتَجَجْتُمْ بِالشَّهِيدِ بِأَنَّهُ ... حَيٌّ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي القُرْآنِ

٢٨٨١- وَالرُّسْلُ أَكْمَلُ حَالَةً مِنْهُ بِلا ... شَكٍّ وَهَذَا ظَاهِرُ التِّبْيَانِ

٢٨٨٢- فَلِذَاكَ كَانُوا بِالحَيَاةِ أَحَقَّ مِنْ ... شُهَدَائِنَا بِالعَقْلِ وَالبُرْهَانِ

٢٨٨٣- وَبِأَنَّ عَقْدَ نِكَاحِهِ(١) لَمْ يَنْفَسِخْ ... فَنِسَاؤُهُ فِي عِصْمَةٍ وَصِيَانِ

٢٨٨٤- وَلأَجْلِ هَذَا لَمْ يَحِلَّ لِغَيْرِهِ ... مِنْهُنَّ وَاحِدَةٌ مَدَى الأَزْمَانِ

٢٨٨٥- أَفَلَيْسَ فِي هَذَا دَلِيلٌ أَنَّهُ ... حَيٌّ لِمَنْ كَانَتْ لَهُ أُذُنَانِ؟

٢٨٨٦- أَوَلَمْ يَرَ المُخْتَارُ مُوسَى قَائِمًا ... فِي قَبْرِهِ لِصَلاةِ ذِي القُرْبَانِ؟

٢٨٨٧- أَفَمَيِّتٌ يَأْتِي الصَّلاةَ؟ وَإِنَّ ذَا ... عَيْنُ المُحَالِ وَوَاضِحُ البُطْلانِ

٢٨٨٨- أَوَلَمْ يَقُلْ: إِنِّي أَرُدُّ عَلَى الَّذِي ... يَأْتِي بِتَسْلِيمٍ مَعَ الإِحْسَانِ؟

٢٨٨٩- أَيَرُدُّ مَيِّتٌ السَّلامَ عَلَى الَّذِي ... يَأْتِي بِهِ؟ هَذَا مِنَ البُهْتَانِ

٢٨٩٠- هَذَا وَقَدْ جَاءَ الحَدِيثُ بِأَنَّهُمْ ... أَحْيَاءُ فِي الأَجْدَاثِ ذَا تِبْيَانِ

٢٨٩١- وَبِأَنَّ أَعْمَالَ العِبَادِ عَلَيْهِ تُعْـ ... ـرَضُ دَائِمًا فِي جُمْعَةٍ يَوْمَانِ

---

(١) في نسختي الإفتاء وابن سحمان: «نسائه».

٢٨٩٢- يَوْمَ الـخَمِيسِ وَيَوْمَ الاثْنَيْنِ الَّذِي قَدْ خُصَّ بِالْفَضْلِ العَظِيمِ الشَّانِ

الشَّــرحُ

٢٨٨٠- فَـإِنِ احْتَجَجْـتُمْ بِالشَّـهِيدِ بِأَنَّـهُ حَـيٌّ كَـمَا قَـدْ جَـاءَ فِي القُـرْآنِ

٢٨٨١- وَالرُّسْـلُ أَكْمَـلُ حَالَـةً مِنْـهُ بِـلا شَـكٍّ وَهَــذَا ظَـاهِرُ التِّبْيَـانِ

استدلَّ هؤلاء الذين يقولون بـأنَّ الأنبياءَ أحياءٌ في قبورِهم بأدلَّةٍ، منها: أنَّه لا شكَّ أنَّ الشُّهداءَ أحياءٌ في قبورِهم، قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩]، ومقامُ الأنبياءِ أعلى من مقام الشُّهداء بلا شَكٍّ، فإذا كانوا أعلى مقامًا من الشُّهداء صارت حياتُهم في قبورهم أَوْلَى من حياة الشُّهداء، وهذا هو الدليلُ الأوَّلُ.

٢٨٨٢- فَلِذَاكَ كَـانُوا بِالـحَيَاةِ أَحَـقَّ مِـنْ شُـهَدَائِنَا بِالعَقْـلِ وَالبُرْهَـانِ

وهذا دليلٌ بقياس الأَوْلَى، وهو أنَّهم أحقُّ بالحياة من الشُّهداء.

الدليل الثاني ذكره بقوله:

٢٨٨٣- وَبِـأَنَّ عَقْـدَ نِكَاحِـهِ لَـمْ يَنْفَسِـخْ فَنِسَـاؤُهُ فِي عِصْـمَةٍ وَصِـيَانِ

٢٨٨٤- وَلِأَجْـلِ هَـذَا لَـمْ يَـحِلَّ لِغَـيْرِهِ مِـنْهُنَّ وَاحِـدَةٌ مَـدَى الأَزْمَـانِ

قَوْلُهُ: «وَلِأَجْلِ هَذَا» يعني: مِـمَّا يدُلُّ على أنَّ عقدَ نكاحِ الرسول -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- بـاقٍ بالنسبة لزوجاتِه قولُ الله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٣] قالوا: وهذا دليلٌ على أنَّ نِكاحَه باقٍ،

وإلَّا مَا حَرُمَتْ نساؤه على مَنْ بعده، وإذا كان نكاحُه باقيًا دَلَّ على أنه حيٌّ كحياته في الدنيا.

٢٨٨٥- أَفَلَيْسَ فِي هَذَا دَلِيلٌ أَنَّهُ حَيٌّ لِمَنْ كَانَتْ لَهُ أُذُنَانِ؟

هم يستدلُّون بهذا، لكن هم يقولون: هو دليلٌ، ونحن نقولُ: إنه لا دليل، وسنُجيبُ عنه إن شاءَ اللهُ.

٢٨٨٦- أَوَلَمْ يَرَ الـمُخْتَارُ مُوسَى قَائِمًا فِي قَبْرِهِ لِصَلاةِ ذِي القُرْبَانِ؟

قَوْلُهُ: «أَوَلَمْ يَرَ الـمُخْتَارُ» وهو النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام-.

قَوْلُهُ: «أَوَلَمْ يَرَ الـمُخْتَارُ مُوسَى قَائِمًا فِي قَبْرِهِ لِصَلاةِ ذِي القُرْبَانِ؟» الجواب: بلى، فالنَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام- رَأَى مُوسَى قَائِمـًا يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ، هكذا جاء الحديثُ [1] وصَحَّ.

٢٨٨٧- أَفَمَيِّتٌ يَأْتِي الصَّلاةَ؟ وَإِنَّ ذَا عَيْنُ الـمُحَالِ وَوَاضِحُ البُطْلانِ

يقولون: إذا كان النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام- رأى موسى حيًّا يُصَلِّي في قبره، فهل يمكنُ أن يُصلِّيَ وهو غيرُ حيٍّ؟ الجوابُ: لا، وهذا الجوابُ تَمَشِّيًا معهم، لكن سنردُّ عليهم إن شاءَ اللهُ.

٢٨٨٨- أَوَلَمْ يَقُلْ: إِنِّي أَرُدُّ عَلَى الَّذِي يَأْتِي بِتَسْلِيمٍ مَعَ الإِحْسَانِ؟

نعم، الرسولُ أخبرَ بأنَّ مَنْ سَلَّم عليه رَدَّ -عليه السَّلام- [2].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ، رقم (٢٣٧٥).

(٢) كما في حديث: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللهُ إِلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ». أخرجه أبو داود: كتاب المناسك، باب زيارة القبور، رقم (٢٠٤١)..

٢٨٨٩- أَيَـرُدُّ مَيِّـتٌ السَّـلامَ عَـلَى الَّـذِي   يَأْتِـي بِـهِ؟ هَـذَا مِـنَ البُهْتَـانِ

هم يقولون لك: الرسولُ -عليه الصلاة والسلام- يسمعُ السَّلامَ عليه، ويردُّ، هل الميت يَردُّ؟ ستقولُ: لا، يقولون: إِذَنْ هو حيٌّ.

لكنَّنا نقولُ في الجوابِ عن ذلك: لا يلزمُ من السَّماعِ أن يكون حيًّا، فهذا الإنسانُ إذا دُفِنَ وتولَّى عنه أصحابُه يَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ[1].

وهل يسمعُ النَّبيُّ مطلقًا؟ هذا فيه خلاف، فمن العلماء مَنْ قال: يسمعُ، والصحيح أنَّ الأصلَ أنه لا يسمعُ إلَّا ما جاء به النصُّ؛ مثل السَّلام عليه، فإنه يسمعُ ويردُّ.

٢٨٩٠- هَذَا وَقَدْ جَاءَ الـحَدِيثُ بِـأَنَّهُمْ   أَحْيَـاءُ فِي الأَجْـدَاثِ ذَا تِبْيَـانِ

قَوْلُهُ: «فِي الأَجْدَاثِ» أي: في القبور.

يعني: ورد حديثٌ عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «الأَنبِيَاءُ أَحْيَـاءٌ فِي قُبُورِهِمْ»[2].

٢٨٩١- وَبِـأَنَّ أَعْـمَالَ العِبَـادِ عَلَيْـهِ تُعْـ   ـرَضُ دَائِـمًا فِي جُمْعَـةٍ يَوْمَـانِ

٢٨٩٢- يَوْمَ الـخَمِيسِ وَيَوْمَ الاثْنَيْنِ الَّذِي   قَدْ خُصَّ بِالْفَضْلِ العَظِيمِ الشَّـانِ

قَوْلُهُ: «جمعة» أي: أسبوع، يُعَبَّرُ بالجمعة عن الأسبوع، كما يُعَبَّرُ عن السَّنة بالخريف، والخريفُ فصلٌ من فصول السَّنة، لكن يُعَبَّرُ به عن السَّنة كُلِّها، فيُعَبَّرُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال، رقم (١٣٣٨). ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، رقم (٢٨٧٠).

(٢) أخرجه أبو يعلى (٦/ ١٤٧، رقم ٣٤٢٥)، والديلمي (١/ ١١٩، رقم ٤٠٣)، وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٨٧): أخرجه البيهقي في كتاب حياة الأنبياء في قبورهم وصححه.

بالجمعة عن الأسبوع؛ كما جاء في حديث الدَّجَّال: «يَوْمٌ كَجُمُعَةٍ»[١].

فهم يستدلُّون بحديث: «تُعْرَضُ الأَعْمَالُ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الخَمِيسِ»[٢].

لكن في النفس شيءٌ من مسألة عرض الأعمال على الرسول ﷺ في يوم الاثنين والخميس، فإِنْ وَرَدَ فيه حديثٌ فلعلَّه انقلب على الرَّاوي، وأراد أن ينقُل ما يعرض على الله يوم الاثنين والخميس إلى ما يعرض على الرسول ﷺ؛ لأنه قد صَحَّ أَنَّ الأَعْمَالَ تُعْرَضُ عَلَى اللهِ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الخَمِيسِ[٣].

* * *

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته، رقم (٢٩٣٧).

(٢) عزاه السيوطي في جامع الأحاديث (١١/ ٢٩٢، رقم ١٠٨٠٨) للحكيم، وقال الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٢٤٤٦): موضوع.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن الشحناء والتهاجر، رقم (٢٥٦٥).

فصل

فِي الجَوَابِ عَمَّا احْتَجُّوا بِهِ فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ

٢٨٩٣- فَيُقَالُ: أَصْلُ دَلِيلِكُمْ فِي ذَاكَ حُجَـ ... جَتُنَا عَلَيْكُمْ وَهْيَ ذَاتُ بَيَانِ

٢٨٩٤- إِنَّ الشَّهِيدَ حَيَاتُهُ مَنْصُوصَةٌ ... لَا بِالْقِيَاسِ القَائِمِ الأَرْكَانِ

٢٨٩٥- هَذَا مَعَ النَّهْيِ المُؤَكَّدِ أَنَّنَا ... نَدْعُوهُ مَيْتًا ذَاكَ فِي القُرْآنِ

٢٨٩٦- وَنِسَاؤُهُ حِلٌّ لَنَا مِنْ بَعْدِهِ ... وَالمَالُ مَقْسُومٌ عَلَى السُّهْمَانِ

٢٨٩٧- هَذَا وَأَنَّ الأَرْضَ تَأْكُلُ لَحْمَهُ ... وَسِبَاعُهَا مَعَ أُمَّةِ الدِّيدَانِ

٢٨٩٨- لَكِنَّهُ مَعَ ذَاكَ حَيٌّ فَارِحٌ ... مُسْتَبْشِرٌ بِكَرَامَةِ الرَّحْمَنِ

٢٨٩٩- فَالرُّسْلُ أَوْلَى بِالحَيَاةِ لَدَيْهِ مَعْ[(١)] ... مَوْتِ الجُسُومِ وَهَذِهِ الأَبْدَانِ

٢٩٠٠- وَهِيَ الطَّرِيَّةُ فِي التُّرَابِ وَأَكْلُهَا ... فَهْوَ الحَرَامُ عَلَيْهِ بِالبُرْهَانِ

٢٩٠١- وَلِبَعْضِ أَتْبَاعِ الرَّسُولِ يَكُونُ ذَا ... أَيْضًا وَقَدْ وَجَدُوهُ رَأْيَ عِيَانِ

٢٩٠٢- فَانْظُرْ إِلَى قَلْبِ الدَّلِيلِ عَلَيْهِمُ ... حَرْفًا بِحَرْفٍ ظَاهِرَ التِّبْيَانِ

الشَّرحُ

المؤلفُ -رحمه الله- كغيرِه من أهل العلم إذا ذكر دليلَ الخصم فلا بُدَّ أن

(١) في نسختي ابن سحمان: «من».

يُجيبَ عن هذا الدليلِ؛ لأنَّ الخصمَ لا بُدَّ له في مقابلة خصمِه من أمرين: مدافعة لأدلة خصمه، وإثبات لأدلته، يقول:

٢٨٩٣- فَيُقَالُ: أَصْلُ دَلِيلِكُمْ فِي ذَاكَ حُجْـ ... ـتُنَـا عَلَـيْكُمْ وَهْـيَ ذَاتُ بَيَـانِ

يعني أنَّ ما احتججتم به علينا هو حُجَّةٌ لنا عليكم، فنقلبُ الدليلَ عليكم بعد أن جعلتموه لكم.

٢٨٩٤- إِنَّ الشَّـهِيدَ حَيَاتُـهُ مَنْصُوصَـةٌ ... لَا بِالْقِيَـاسِ القَـائِمِ الأَرْكَـانِ

قَوْلُهُ: «إِنَّ الشَّهِيدَ حَيَاتُهُ مَنْصُوصَةٌ» والدليلُ قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ [آل عمران:١٦٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ [البقرة:١٥٤] فنفى اللهُ عزَّ وجلَّ هذا الظَّنَّ، ونهى أن نقولَ: إنَّهـم أمواتٌ بالنَّصِّ.

أمَّا حياةُ الأنبياءِ عندكم فهي بالقياس، وأمورُ الغيبِ ليس فيها قياسٌ.

٢٨٩٥- هَـذَا مَـعَ النَّهْـيِ الـمُؤَكَّدِ أَنَّنَـا ... نَـدْعُوهُ مَيْتًـا ذَاكَ فِي القُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «هذا» أي: ثبوتُ كونه حيًّا بالنَّصِّ مع أنه إضافة إلى ذلك ورد النهيُ المؤكَّد عن تسميته ميِّتًا، وهذا مأخوذٌ مِن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ [البقرة:١٥٤] هذا نهي، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾ [آل عمران:١٦٩]. وهذا نهيٌ أيضًا أبلغُ من الأوَّل؛ لأنَّ الأوَّلَ نهيٌ عن اللفظ، والثانيَ نهيٌ عن التقدير والظَّنِّ.

٢٨٩٦- وَنِسَـاؤُهُ حِـلٌّ لَنَـا مِـنْ بَعْـدِهِ ... وَالـمَالُ مَقْسُـومٌ عَـلَى السُّـهْمَانِ

قَوْلُهُ: «وَنِسَاؤُهُ» أي: نساءُ الشهيدِ المقتول في سبيل الله حِلٌّ لنا من بعده،

ولو كان حيًّا حياةَ دنيا لم تكن نساؤه حِلًّا لنا.

قَوْلُهُ: «وَالْـمَالُ مَقْسُومٌ عَلَى السُّهْمَانِ» أي: بعد موته، ولو كان حيًّا حياةَ دنيا لم يُقْسَمْ مالُه، ولم يَحِلَّ الاعتداءُ عليه.

٢٨٩٧- هَـذَا وَأَنَّ الأَرْضَ تَأْكُـلُ لَـحْمَهُ ... وَسِـبَاعُهَا مَـعَ أُمَّـةِ الدِّيْـدَانِ

قَوْلُهُ: «وَأَنَّ الأَرْضَ تَأْكُلُ لَـحْمَهُ» والحيُّ لا تـأكلُه الأرضُ، وعلى ظهر الأرض ليس في بطنها مأكولًا.

٢٨٩٨- لَكِنَّـهُ مَـعَ ذَاكَ حَـيٌّ فَـارِحٌ ... مُسْتَبْشِـرٌ بِكَرَامَـةِ الـرَّحْمَنِ

قال اللهُ تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [آل عمران:١٧٠]، فهم أمواتُ أجسامٍ، أحياءُ أرواحٍ.

٢٨٩٩- فَالرُّسْـلُ أَوْلَى بِالْـحَيَاةِ لَدَيْـهِ مَـعْ ... مَـوْتِ الْـجُسُومِ وَهَـذِهِ الأَبْـدَانِ

قَوْلُهُ: «فَالرُّسْلُ أَوْلَى بِالْـحَيَاةِ لَدَيْهِ مَعْ مَوْتِ الْـجُسُومِ» الرُّسلُ -صلى الله عليهم وسلم- أَوْلَى بالحياة عند الله مع موت الـجسوم، فهم أولى بالحياة من الشُّهداء.

٢٩٠٠- وَهِـيَ الطَّرِيَّـةُ فِي الـتُّرَابِ وَأَكْلُهَـا ... فَهْـوَ الْـحَرَامُ عَلَيْـهِ بِالبُرْهَـانِ

قَوْلُهُ: «وَهِيَ الطَّرِيَّةُ» أي: أجسامُهم وأبدانُهم، أعني الأنبياءَ.

قَوْلُهُ: «وأكلُها فَهْوَ الْـحَرَامُ عَلَيْهِ» أي: على التراب.

قَوْلُهُ: «وأكلُها فَهْوَ الْـحَرَامُ عَلَيْهِ بِالبُرْهَانِ»؛ لأنَّ الرسولَ ﷺ أمرَ بالإكثارِ

عليه من الصلاة[1]، وأخبرَ -عليه الصلاة والسلام- أنَّ الصلاةَ تُعْرَضُ عليه، قالوا: كيف تُعْرَضُ عَلَيْكَ صَلَاتُنَا وَقَدْ أَرِمْتَ، قَالَ: «إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ»[2].

فقال النَّبيُّ ﷺ: «حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ» مع أنَّها ليست مُكَلَّفةً حتَّى تُخَاطَبَ بالتحريم، فيَحتمِل أن يُقَالَ: إنَّ التحريمَ هنا تحريمٌ لُغَوِيٌّ بمعنى المنع، لا بمعنى التحريم الذي يترتَّبُ عليه التكليفُ؛ لأنَّ التحريمَ الذي يترتَّب عليه التكليفُ مُنْتَفٍ بالنسبة للأرض، منتفٍ بقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب:٧٢].

وقال بعضُهم: إنَّه يصحُّ أن يُوَجَّهَ إليها التحريمُ والإيجابُ، وإن لم تكن مُكَلَّفةً تكليفًا تُعاقَبُ بالمخالفة فيه، بدليلِ قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١]، فأثبتَ لهما طواعيةً وكراهيةً، ووَجَّه إليهما الخطابَ.

وعلى كُلِّ حالٍ المسألةُ في هذا لا تكادُ تكونُ ذاتَ أهمية جدًّا؛ لأنَّ الجميعَ متفقون على أنَّ تكليفَ الأرضِ والسموات ليس تكليفًا يترتَّبُ عليه الثوابُ والعقابُ؛ لأنهما لن يخالفا أمرَ الله.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦/ ٨٤، رقم (١٦١٦٢). وأبو داود: كتاب الصلاة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، رقم (١٠٤٧). والنسائي: كتاب الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة، رقم (١٣٧٤).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، رقم (١٠٤٧). والنسائي: كتاب الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة، رقم (١٣٧٤). وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في فضل الجمعة، رقم (١٠٨٥). وأحمد (٤/ ٨)، رقم (١٦٢٠٧).

٢٩٠١- وَلِبَعْضِ أَتْبَاعِ الرَّسُولِ يَكُونُ ذَا أَيْضًا وَقَدْ وَجَدُوهُ رَأْيَ عِيَانِ

قَوْلُهُ: «وَلِبَعْضِ أَتْبَاعِ الرَّسُولِ يَكُونُ ذَا» يعني: أنَّ الأرضَ لا تأكلُ أجسادَهم.

قَوْلُهُ: «وَقَدْ وَجَدُوهُ رَأْيَ عِيَانِ» يعني: رَأَوْا بالعِيان أنَّ بعضَ الناسِ لا تأكلُهم الأرضُ، وهم ليسوا من الشُّهداء، وليسوا من الأنبياء، لكن قد يُكْرِمُ اللهُ الإنسانَ فلا تأكلُه الأرضُ.

وقد حدَّثني بعضُ الناس أنهم كانوا في هذا البلد في عُنَيْزَةَ يحفِرون لسور البلد، وأنَّهم مَرُّوا على قبر، فلمَّا انفتحَ القبرُ خرج منه رائحةُ مسكٍ لا يُوجد لها نظيرٌ، ووجدوا شيخًا لم تأكلْه الأرضُ قد خضَّب لحيتَه بالحناء، وكان يابسًا كاللحم اليابس، أمَّا كفنُه فقد صار رَمَادًا، فانبهروا منه، وتوقَّفوا، وجاءوا إلى الشيخ، وأظنُّه عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين -رحمه الله-؛ لأنه كان قاضيًا في هذا البلد، جاءوا إليه يخبرونه، فقال لهم: رُدُّوا القبرَ على ما هو عليه، وانحرِفوا بالشَّقِّ للسور يمينًا أو شمالًا. ففعلوا.

فهذا شيءٌ مثل ما قال ابنُ القيِّم: وُجِد بالعِيان أنَّ من الناسِ مَنْ لا تأكلُه الأرضُ، وهذا من كرامةِ الله -سبحانه وتعالى- للإنسان.

٢٩٠٢- فَانْظُرْ إِلَى قَلْبِ الدَّلِيلِ عَلَيْهِمُ حَرْفًا بِحَرْفٍ ظَاهِرَ التِّبْيَانِ

نعم، انقلبَ الدليلُ عليهم، صارت حياةُ الشُّهداء ليست كحياة الدنيا، والدليلُ على ذلك أنَّ أعمالَهم قُسِمَتْ، ونساءَهم نُكِحَتْ وأُحِلَّتْ، والديدان تأكلُ أجسادَهم، فكيف تكونُ حياتُهم كحياةِ الدنيا؟!

إِذَنْ فالذي استدللتم به وجعلتموه أصلًا وهو حياةُ الشُّهداء صار عليكم، لم يكونوا أحياءً حياةً دنيويةً، كذلك حيـاةُ الأنبياء التي هي الفرعُ عندكم لن تكونَ حياةً دنيويَّةً، فبذلك انقلبَ الدليلُ عليهم.

يعني: هم قالوا: حياةُ الأنبياء فرعٌ عن حياةِ الشُّهداء؛ لأنه من باب قياس الأَوْلَى، ومعلومٌ أنَّ المَقِيسَ فرعٌ عن المقيسِ عليه.

نقول لهم: حياةُ الشُّهداء هي موتٌ، والدليلُ: نكاحُ نسائه من بعده، اعتدادُ النساءِ، قَسْمُ الأموالِ، أكلُ الأرض للأجساد، كُلُّ هذه مُنْتَفِيَةٌ في الحياة الدنيا، فإذن يكون موتُ الأنبياء حقيقةً، كما أنَّ موتَ الشُّهداء حقيقة، وتكونُ حياةُ الأنبياءِ حياةً بَرْزَخِيَّةً، لا كحياة الدنيا، كما أنَّ حياةَ الشُّهداءِ حياةٌ برزخيَّةٌ وليست حياةَ دنيا، فانقلب الدليلُ عليهم الآن.

بقي عندنا أنهم احتجُّوا بأنَّ نساءَ الرسول -عليه الصلاة والسلام- حرامٌ من بعده، وهذا يدلُّ على أنه حَيٌّ، وإلَّا لكان نساؤه حلالًا، وسيأتي الرَّدُّ على هذا إن شاء الله تعالى.

* * *

٢٩٠٣- لَكِـنْ رَسُـولُ الله خُـصَّ نِسَـاؤُهُ ... بِخَصِيصَـةٍ عَـنْ سَـائِرِ النِّسْـوَانِ

٢٩٠٤- خُيِّرْنَ بَيْنَ رَسُولِهِ وَسِوَاهُ فَاخْـ ... ـتَرْنَ الرَّسُـولَ لِصِـحَّةِ الإِيـمَانِ

٢٩٠٥- شَـكَرَ الإِلَـهُ لَـهُنَّ ذَاكَ وَرَبُّنَـا ... سُـبْحَانَهُ لِلْعَبْـدِ ذُو شُـكْرَانِ

٢٩٠٦- قَصْرُ الرَّسُولِ عَلَى أُولَئِكَ رَحْمَةٌ ... مِنْـهُ بِهِـنَّ وَشُـكْرُ ذِي الإِحْسَـانِ

٢٩٠٧- وَكَذَاكَ أَيْضًا قَصْرُهُنَّ عَلَيْهِ مَعْـ ... ـلُومٌ بِـلَا شَـكٍّ وَلا حُسْـبَانِ

٢٩٠٨- زَوْجَاتُهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَفِي الْـ   أُخْرَى يَقِينًا وَاضِحَ البُرْهَانِ

٢٩٠٩- فَلِذَا حَرُمْنَ عَلَى سِوَاهُ بَعْدَهُ   إِذْ ذَاكَ صَوْنٌ عَنْ فِرَاشٍ ثَانِ

٢٩١٠- لَكِنْ أَتَيْنَ بِعِدَّةٍ شَرْعِيَّةٍ   فِيهَا الحِدَادُ وَمَلْزَمُ الأَوْطَانِ

الشَّرحُ

يقول المؤلفُ -رحمه الله- في الإجابة عن استدلالهم بأنَّ النَّبِيَّ ﷺ حيٌّ في قبرِه بأنَّ نساءَه حرامٌ على مَنْ بعدَه، يقولُ -رحمه الله- في الجواب عنه:

٢٩٠٣- لَكِنْ رَسُولُ الله خُصَّ نِسَاؤُهُ   بِخَصِيصَةٍ عَنْ سَائِرِ النِّسْوَانِ

٢٩٠٤- خُيِّرْنَ بَيْنَ رَسُولِهِ وَسِوَاهُ فَاخْـ   ـتَرْنَ الرَّسُولَ لِصِحَّةِ الإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «وَسِوَاهُ» سوى الرسولِ يعني الحياةَ الدنيا وزينتَها.

وهذا بأمر الله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٨].

الآن لو اختَرْنَ الدنيا فإنَّ الرسولَ لن يَغْضَبَ عليهنَّ، وانظُر إلى لُطْف الله بالمرأة، إذا اختارت الدنيا تُمَتَّعُ وتُسَرَّحُ سَراحًا جميلًا، ولا تُوَبَّخُ، ولا يُقَالُ: كيف اخترتِ الدنيا على الرسول؟ لماذا؛ لأنَّ المرأةَ ناقصةُ عقلٍ ودين، ربَّما تنخدِعُ وتختارُ الدنيا على الرسول، فلا نقابلُها بمقتضى عقلِها، بل نقابلُها بالحسنى، قال تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٨].

الظاهر الآن لو قيل لشخص: خَيِّرْ زوجَك، قل لها: هل تريدني أو تريدين غيري؟ لقال: إن كنت تريديني فاللهُ يحييك، وإن كنتِ تريدين غيري فاذهبي

بعيدًا عنِّي. هذا الذي يقعُ من كثيرٍ من الناس؛ لأنها إذا قالت: لا أريدُك، بل أختارُ غيرَك هل يقابلُها بالإكرام والتمتيع والسَّراح الجميل؟ الجواب: أبدًا، بالعكس، لكن لكمالِ خلق الرسول -عليه الصلاة والسلام- أمره اللهُ أن يقول هذا ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٨] ثُمَّ ذكر المقابل فقال: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٩]. يعني: فأنتنَّ محسِناتٌ، وقد أعدَّ اللهُ للمحسنات مِنْكُنَّ أجرًا عظيمًا.

فبدأ -صلوات الله وسلامه عليه- بعائشةَ، وهي أحبُّ النساء إليه؛ لأنه يريدُ امتثالَ أمرِ الله، فقدَّم ما يُرضي اللهَ على ما تهواه نفسُه، وعائشةُ أحبُّ النساء إليه، وكان مقتضى الطبيعة البشرية أن يبدأ بالنساء الأخريات، لكنَّه بدأ بعائشة لتكون مِقياسًا، وقال لها لـمَّا خيَّرها: «**لَا عَلَيْكِ أَلَّا تَعْجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ**» يعني: لك الحقُّ أن تشاوري أبويك في هذا، فقالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يَا رَسُولَ الله، أَفِي هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ؟! وَالله لَا أُرِيدُ إِلَّا اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ. فَمَشَى أَزْوَاجُهُ على هذا[1].

فَلَمَّا حصل منهنَّ هذا الأمرُ شكر اللهُ لهنَّ، وقال له: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ [الأحزاب:٥٢]، فمنعه اللهُ من نكاح نساءٍ عليهنَّ، ومنعه أن يطلقهُنَّ وأن يتزوَّجَ غيرَهُنَّ، قال تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ [الأحزاب:٥٢]، فشكر اللهُ لهنَّ هذه الحالَ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٨]، رقم (٤٥٠٧)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقًا إلا بالنية، رقم (١٤٧٥).

٢٩٠٥- شَكَرَ الإِلَهُ لَهُنَّ ذَاكَ وَرَبُّنَا ... سُبْحَانَهُ لِلْعَبْدِ ذُو شُكْرَانِ

واللهُ عزَّ وجلَّ أعظمُ شكرًا منَّا، إذا تقرَّب الإنسانُ إليه شِبرًا تقرَّب إليه ذِراعًا، وإن تقرَّب إليه ذِراعًا تقرَّب إليه باعًا، وإن أتاه يمشي أتاه هَرولةً، فاللهُ -سبحانه وتعالى- يشكرُ العبدَ أكثرَ ممَّا يشكرُ العبدُ ربَّه؛ ولهذا قال -رحمه الله-: «وربُّنا سُبْحَانَهُ لِلْعَبْدِ ذُو شُكْرَانِ»، وقد ذكر الله تعالى أنَّ من أسمائِه (الشَّكُورَ) في عدَّة آياتٍ من القرآن.

٢٩٠٦- قَصْرُ الرَّسُولِ عَلَى أُولَئِكَ رَحْمَةٌ ... مِنْهُ بِهِنَّ وَشُكْرُ ذِي الإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «قَصْرُ الرَّسُولِ» ويجوز (قَصَرَ الرَّسُولَ) بالفتح، لكن قوله في البيت الذي بعده: (وَكَذَاكَ أَيْضًا قَصْرُهُنَّ عَلَيْهِ) هذا يؤيِّد بأنَّ الأوَّلَ مصدرٌ أيضًا (قَصْرُ).

قَوْلُهُ: «قَصْرُ الرَّسُولِ عَلَى أُولَئِكَ» يعني أنه لا يتزوَّجُ سِواهُنَّ، ولا يستبدلُ بِهِنَّ.

قَوْلُهُ: «رحمةٌ مِنه» أي: من الله.

قَوْلُهُ: «بهنّ» أي: بالزوجات.

قَوْلُهُ: «وَشُكْرُ ذِي الإِحْسَانِ» يعني: من شكرِ الله عزَّ وجلَّ، فهذا رحمةٌ وشكرٌ.

٢٩٠٧- وَكَذَاكَ أَيْضًا قَصْرُهُنَّ عَلَيْهِ مَعْـ ... ـلُومٌ بِلَا شَكٍّ وَلا حُسْبَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ أَيْضًا قَصْرُهُنَّ عَلَيْهِ معلومٌ» أيضًا قُصِرْنَ عليه فلا يتزوَّجْنَ بعدَه، وهذا معلومٌ؛ ولذا يقولُ: «بلا شكٍّ وَلَا حُسبانٍ»، وهو معلومٌ من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٣].

فصار الرسولُ مقصورًا عليهنَّ وهنَّ مقصوراتٍ عليه.

٢٩٠٨- زَوْجَاتُـهُ فِي هَـذِهِ الـدُّنْيَا وَفِي الْـ أُخْـرَى يَقِينًـا وَاضِـحَ البُرْهَـانِ

هنَّ زوجاتُه في الدنيا وزوجاتُه في الآخرة، فهنيئًا لهنَّ؛ ولهذا لـمَّا خافت سَوْدَةُ بنتُ زَمْعَةَ أن يُطلِّقَها الرسولُ ﷺ وتُحْرَم من هذه الخصيصة وَهَبَتْ يومَها لعائشةَ[1]، فصار الرسولُ يَقْسِمُ لثمانٍ بعد أن كان يَقْسِمُ لتسعٍ.

٢٩٠٩- فَلِـذَا حَـرُمْنَ عَـلَى سِـوَاهُ بَعْـدَهُ إِذْ ذَاكَ صَـوْنٌ عَـنْ فِـرَاشٍ ثَـانِ

حَرُمَ أن يتزوَّجْنَ من بعده لِئلا يَكُنَّ فِراشًا لغيره ﷺ، هذه الخصيصةُ لا لأنَّه حيٌّ، ولكن لأنَّ اللهَ شَكَرَ لـهُنَّ، فخَصَّهُنَّ بهذه الخصيصة؛ ولذلك كانت زوجاتُ الشُّهداءِ حلالًا مع أنَّهم أحياءٌ، والدليل على أنَّهُنَّ -أي: زوجات الرسول ﷺ انفصَلْنَ عنه وحُكِمَ بموته -صلوات الله وسلامه عليه- ما ذكره بقوله:

٢٩١٠- لَكِـنْ أَتَـيْنَ بِعِـدَّةٍ شَرْعِيَّـةٍ فِيهَـا الحِـدَادُ وَمَلْـزَمُ الأَوْطَـانِ

قَوْلُهُ: «**لَكِنْ أَتَيْنَ بِعِدَّةٍ شَرْعِيَّةٍ**» بعد موتِه اعتدَدْنَ لموته أربعةَ أشهرٍ وعشَرةَ أيام.

قَوْلُهُ: «**فِيهَا الحِدَادُ وَمَلْزَمُ الأَوْطَانِ**» يعني: لزوم البيت؛ لأنَّ المرأةَ المُحِدَّ يجبُ عليها أمورٌ:

أوَّلًا: ألَّا تخرجَ من بيتها إلَّا لضرورة، كما لو تَصَدَّع وخِيف أَنْ يَسقُطَ عليها، أو استعرت فيه النارُ، أو جاءت أمطارٌ ويُخْشَى من سقوطها عليها، أو ما أشبهَ ذلك، المهم للضرورة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب هبة المرأة لغير زوجها، رقم (٢٥٩٤)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، رقم (٢٧٧٣).

ثانيًا: ألَّا تلبسَ الجميلَ من الثياب، فلا تلبسُ ثيابًا جميلةً يقال: إنها مُتَزَيِّنَةٌ، ولا يَلْزَمُها أن تلزمَ لونًا واحدًا كما يقول العوامّ بأنه لا بُدَّ أن تلبسَ ثوبًا أخضرَ أو ثوبًا أسودَ، لا، بل الْـمُحَرَّمُ ألَّا تلبسَ ثوبًا يُعَدُّ تجمُّلًا.

ثالثًا: ألَّا تَلبَسَ الـحُلِـيَ بجميع أنواعه، لا في اليد، ولا في الرِّجل، ولا في الأذن، ولا في الرأس، ولا في النحر.

رابعًا: ألَّا تتطيَّبَ بجميع أنواع الطِّيب، لا بخورًا ولا دُهنًا، إلَّا أَنَّ الشَّارِعَ رَخَّص لها في قُسْطٍ من أظفار، مثل العُود المعروف إذا طهرت من الحيض؛ إزالةً للنَّتْن الذي يكون بسبب الحيض؛ لأنَّ هذا حاجة.

خامسًا: ألَّا تتزيَّنَ بوجهها أو يديها أو أيِّ شيءٍ من أجزائها، فلا تكتحلُ ولا تُحمِّر الشَّفَتَيْن ولا تتحنَّى، ولا تختضب، فهذه خمسةُ أشياء.

وأمَّا ما يزعمه العوامُّ ويقولون: لا تُقابل القمرَ وقت الإبدار، فهذا ليس بصحيحٍ، وحُجَّتُهم في ذلك يقولون: إنَّ القمرَ رجلٌ، ولا يجوزُ أن تُكْشَفَ عند الرجال، أمَّا الشَّمسُ فإنَّها أنثى؛ ولهذا يجوزُ أن تظهرَ في النهار للشَّمس.

يقول العامةُ أيضًا: إنه لا يجوز أن تصعدَ إلى السَّطح، أو تخرجَ إلى فِناء البيت. وكُلُّ هذا ليس له أصلٌ، ويقولون أيضًا: لا يجوز أن تُكَلِّمَ أحدًا، وهذا أيضًا ليس له أصلٌ.

الغريب أيضًا عند العامة أنَّهم يقولون: لا بُدَّ أن تكونَ صلاتُها موافقةً لصلاة الإمام، يعني: لا تصلِّي قبلَه ولا بعدَه، وأنه يجبُ أن تغتسلَ كُلَّ جمعة، وأشياء من هذا غريبة.

وأمَّا الصابون فهل يجوزُ أن تستعملَه المُحِدُّ؟ فنقول: إن كان طِيبًا فإنه لا يجوزُ، وإن كان زكاءً فهذا لا بأسَ به، والزَّكاءُ كالتفاح مثلًا له رائحةٌ طيِّبةٌ، النعناعُ له رائحةٌ طيِّبةٌ، الأُتْرُجُّ له رائحةٌ طيِّبةٌ، هذا لا يضرُّ؛ لأنه ليس بطِيبٍ.

وأيضًا مَشْطُ الشَّعر لا بأسَ به، وتغسيلُه بالصابون غير المُطَيَّب لا بأسَ به.

وأما كلامها في الهاتف فلا حرج فيه، وأمَّا خروجُها للقاضي فيجوزُ أيضًا؛ لأنه قد يكونُ للحاجة، وليس ضروريًّا؛ لأنها تستطيعُ أن تُوكِّلَ ولكنَّه يجوزُ في النهار.

المهم الإحدادُ معروفٌ بالأشياء الخمسة التي ذكرناها.

* * *

٢٩١١- هَـذَا وَرُؤْيَتُـهُ الْكَلِـيمَ مُصَـلِّيًا ... فِي قَـبْرِهِ أَثَـرٌ عَظِـيمُ الشَّـانِ

٢٩١٢- فِي القَلْبِ مِنْهُ حُسَيْكَةٌ هَـلْ قَالَـهُ؟ ... فالـحَقُّ مَـا قَـدْ قَـالَ ذُو البُرْهَـانِ

٢٩١٣- وَلِذَاكَ أَعْرَضَ فِي «الصَّحِيحِ» مُحَمَّـدٌ ... عَنْـهُ عَـلَى عَمْـدٍ بِـلَا نِسْـيَانِ

٢٩١٤- وَالـدَّارَقُطْنِي الإِمَـامُ أَعَلَّـهُ ... بِرِوَايَـةٍ مَعْلُومَـةِ التِّبْيَـانِ

٢٩١٥- أَنَسٌ يَقُـولُ: رَأَى الكَلِـيمَ مُصَـلِّيًا ... فِي قَبْرِهِ فَاعْجَـبْ لِـذَا الفُرْقَـانِ![1]

٢٩١٦- فَـرَوَاهُ مَوْقُوفًـا عَلَيْـهِ وَلَـيْسَ بِالْـ ... ـمَرْفُوعِ وَاشَـوَاقًا إلى العِرْفَـانِ

٢٩١٧- بَـيْنَ السِّـيَاقِ إلى السِّيَاقِ تَفَـاوُتٌ ... لا تَطْرَحَنْـهُ[2] فَـمَا هُمَـا سِـيَّانِ

(١) في نسخة برلين والتيمورية «العرفان».
(٢) في النُّسخ المخطوطة كلها «لا تطرحه» بدون نون.

٢٩١٨- لَكِنْ تُقَلِّدُ مُسْلِمًا وَسِوَاهُ مِمْـ ... ـمَنْ صَحَّ هَذَا عِنْدَهُ بِبَيَانِ

٢٩١٩- فَرُوَاتُهُ الأَثْبَاتُ أَعْلامُ الهُدَى ... حُفَّاظُ هَذَا الدِّينِ فِي الأَزْمَانِ

٢٩٢٠- لَكِنَّ هَذَا لَيْسَ مُخْتَصًّا بِهِ ... واللهُ ذُو فَضْلٍ وَذُو إِحْسَانِ

٢٩٢١- فَرَوَى ابْنُ حِبَّانَ الصَّدُوقُ وَغَيْرُهُ ... خَبَرًا صَحِيحًا عِنْدَهُ ذَا شَانِ

٢٩٢٢- فِيهِ صَلاةُ الْعَصْرِ فِي قَبْرِ الَّذِي ... قَدْ مَاتَ وَهْوَ مُحَقِّقُ الإِيمَانِ

٢٩٢٣- فَتُمَثَّلُ الشَّمْسُ الَّتِي قَدْ كَانَ يَرْ ... عَاهَا لِأَجْلِ صَلاةِ ذِي الْقُرْبَانِ

٢٩٢٤- عِنْدَ الْغُرُوبِ يَخَافُ فَوْتَ صَلاتِهِ ... فَيَقُولُ لِلْمَلَكَيْنِ: هَلْ تَدَعَانِي

٢٩٢٥- حَتَّى أُصَلِّيَ الْعَصْرَ قَبْلَ فَوَاتِهَا؟ ... قَالا: سَتَفْعَلُ ذَاكَ بَعْدَ الآنِ

٢٩٢٦- هَذَا مَعَ المَوْتِ المُحَقَّقِ لا الَّذِي ... حُكِيَتْ لَنَا بِثُبُوتِهِ القَوْلانِ

الشرحُ

سبق أنَّ الذين قالوا بحياة النَّبِيِّ ﷺ، بل بحياة الأنبياء في قبورهم استدلوا بأنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى مُوسَى يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ[1] فتكلَّم المؤلفُ -رحمه الله- على هذا الحديث فقال:

٢٩١١- هَذَا وَرُؤْيَتُهُ الْكَلِيمَ مُصَلِّيًا ... فِي قَبْرِهِ أَثَرٌ عَظِيمُ الشَّانِ

٢٩١٢- فِي القَلْبِ مِنْهُ حُسَيْكَةٌ هَلْ قَالَهُ؟ ... فالحَقُّ مَا قَدْ قَالَ ذُو البُرْهَانِ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ، رقم (٢٣٧٥).

قَوْلُهُ: «فِي القَلْبِ مِنْهُ حُسَيْكَةٌ» تصغير حَسَكَة، والحَسَكُ في الأصل نوعٌ من الشَّجرِ له شوكٌ، ويجوز أن تكونَ (حَسِيكة) للعداوة، إِذَنْ يجوز فيها وجهان:

الوجه الأول: (حُسَيْكَةٌ) أي: بعض القلق؛ لأنه ليس المرادُ بكلام ابن القيِّم لـمَّا قال: (في القلبِ مِنه حُسَيْكَة) العداوة، بل المرادُ فيه قلقٌ وشكٌّ. الوجه الثاني: (حَسِيكَةٌ).

فالمعنى أنَّ قلبَ المؤلفِ لم يَرْتَحْ لهذا الحديث الذي رواه مسلمٌ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى مُوسَى يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ، ووجهُ هذا الشيءِ الذي في قلب المؤلف يقول: (هل قاله؟)، يعني: هل قاله النَّبِيُّ ﷺ.

قَوْلُهُ: «فالحَقُّ مَا قَدْ قَالَ ذُو البُرْهَانِ» يعني: فإنْ كان قد قاله فهو حقٌّ، ولا عِبرةَ بما في قلبي؛ لأنَّ الإنسانَ يجبُ أن ينقادَ انقيادًا تامًّا لِـمَا جاء في كتابِ الله، ولِمَا صحَّ عن رسولِ الله ﷺ، وألَّا يَتَرَدَّدَ في تنفيذه إِنْ كان حُكْمًا، ولا في قَبولِهِ إن كان خَبرًا، ثُمَّ استدلَّ المؤلفُ -رحمه الله- لِـمَا في قلبه عن هذا الأثر فقال:

٢٩١٣- وَلِذَاكَ أَعْرَضَ فِي «الصَّحِيحِ» مُحَمَّدٌ عَنْهُ عَلَى عَمْدٍ بِلَا نِسْيَانِ

قَوْلُهُ: «محمدٌ» هو محمد بن إسماعيل البُخارِيُّ.

يقول: إنَّ هذا الحديثَ مِمَّا انفرد به مسلمٌ، والبخاريُّ أعرضَ عنه، مع أنَّ إعراضَه عنه ليس نسيانًا، ولكن كأنَّه -رحمه الله- لم يكن على شرطه؛ فلذلك أعرضَ عنه، فجعل المؤلفُ -رحمه الله- هذا علَّةً.

والحقيقة أنَّ هذا ليس بعِلَّةٍ؛ لأنَّ كونَ البخاريِّ لم يروِ الحديثَ ويرويه مسلمٌ لا يدلُّ على أنَّ الحديثَ ضعيفٌ، فكم من أحاديثَ كثيرةٍ أعرض عنها البخاريُّ -رحمه الله-، ولكنَّ غيرَه صحَّحها!

٢٩١٤- وَالــدَّارَقُطْنِي الإِمَــامُ أَعَلَّــهُ بِرِوَايَــةٍ مَعْلُومَــةِ التِّبْيَــانِ

٢٩١٥- أَنَسٌ يَقُـولُ: رَأَى الكَلِـيمَ مُصَـلِّيًا فِي قَـبْرِهِ فَاعْجَـبْ لِـذَا الفُرْقَـانِ!

قَوْلُهُ: «وَالدَّارَقُطْنِي الإِمَامُ أَعَلَّهُ» أي: أعلَّ الحديثَ. أعلَّه بماذا؟ الجواب: بالوقف، أي أنَّ الذي قال: إنَّ الرسولَ -عليه الصلاة والسلام- رأى موسى يُصلِّي في قبره هو أنس، فيكون منتهى الحديث الصحابِيَّ، وما كان منتهيًا إلى الصحابيِّ فإنه يكونُ موقوفًا.

وعندي أنَّ هذا ليس بعِلَّةٍ، حتَّى لو ثبت أنَّه لم يَصِلْ إلَّا إلى أنس فليس بعِلَّة؛ لأنَّ هذا من أمور الغيب التي لا يمكنُ أن تُقَالَ بالرَّأي، وأنسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليس من الذين عُرِفُوا بالأخذ عن بني إسرائيل حتَّى نشكَّ فيما أَخبر به من هذه الأمور، وقد نَصَّ المحقِّقون من أهل العلم بالحديث أنَّه إذا قال الصحابيُّ قولًا ليس للرَّأي فيه مجالٌ فله حكمُ الرَّفع، إلَّا أن يكونَ هذا القائلُ مِمَّن عُرِفَ بالأخذ عن بني إسرائيل، فحينئذٍ لا يُحْكَمُ لقوله بالرفع؛ لاحتمال أنه أخذه عن بني إسرائيل.

قَوْلُهُ: «فَاعْجَبْ لِذَا الفُرْقَانِ» أي: لهذا الفرقان، فـ(ذا) هنا ليست من الأسماء الخمسة، بل هي اسم إشارة، فالمعنى: لهذا الفرقان.

٢٩١٦- فَـرَوَاهُ مَوْقُوفًـا عَلَيْـهِ وَلَـيْسَ بِالْــ ـــمَرْفُوعِ وَاشَــوَاقًا إِلَى العِرْفَــانِ

جزاه الله خيرًا، كُلُّنا نشتاقُ إلى العِرفان، لكن واعجبًا أن تفوتَ ابنَ القيِّم هذه المسألةُ؛ لأننا نقولُ: وإن كان موقوفًا على أنس فإنَّه في حُكْم الرَّفع.

على أنه من المعروف أيضًا عند علماء الحديث أنه إذا تعارَضَ الوقفُ والرَّفعُ، وكُلٌّ من الواقف والرافع ثِقَةٌ، فالمُقَدَّمُ الرَّافِعُ؛ لأنَّ معه زيادةَ علمٍ. ولأنَّ

الإنسانَ قد يَرفعُ الحديثَ إلى الرسول ﷺ في مجلسٍ من المجالس، ثم يُحدِّثُ به من غير رفعٍ في مجلسٍ آخر، فيسمعه في المجلس الأول أناسٌ، ويروونه عنه مرفوعًا، ويسمعه في المجلس الثاني أناسٌ ويروونه عنه موقوفًا.

أرأيتم الآن لو أنَّ أحدًا أسندَ حديثَ «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»(١) إلى عمرَ بن الخطاب إلى النَّبِيِّ ﷺ صار مرفوعًا، ولو أنَّ أحدًا في مجلس من المجالس قال: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**» فرواه عنه أحدٌ، فالذي سمعه في المجلس الأول سيرويه مرفوعًا، والثاني سيرويه موقوفًا؛ لأنه لم يُسْنِدْه، وهذا يقعُ دائمًا، فمِنْ ثَمَّ نقولُ: إنَّه إذا تعارضَ الرَّفعُ والوقفُ وكلا الرَّاوِيَيْن ثِقَةٌ يُقَدَّمُ الرَّافعُ لسببين:

السبب الأول: أنَّ معه زيادةَ علمٍ.

السبب الثاني: أنَّ الرَّاويَ للحديث المرفوعِ قد يُحدِّثُ به غيرَ معزوٍّ إلى الرسول -عليه الصلاة والسلام- في بعض المجالس، فيرويه عنه أحدٌ دون عزوٍ إلى الرسول -عليه الصلاة والسلام-، وهذا لا ينفي أن يكونَ مرفوعًا.

قَوْلُهُ: «**وَاشَوَاقًا إلى العِرْفَانِ**» إذا كان ابنُ القيِّم -رحمه الله- يقول: «**وَاشَوَاقًا إلى العِرْفَانِ**» فما بالنا نحن؟! اللَّهُمَّ اغفِرْ لنا وله.

٢٩١٧- بَيْنَ السِّيَاقِ إلى السِّيَاقِ تَفَاوُتٌ ... لا تَطْرَحَنْهُ فَمَا هُمَا سِيَّانِ

قَوْلُهُ: «**بَيْنَ السِّيَاقِ إلى السِّيَاقِ تَفَاوُتٌ**» يعني: بين هذا السِّياق وبين السِّياق الآخر تفاوتٌ، فـ(إلى) هنا بمعنى (بَيْنَ).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟ رقم (١)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية». رقم (١٩٠٧).

قَوْلُهُ: «لا تَطْرَحَنْهُ» وفي نسخة: (لا تَطَّرِحْه) بدون نون، إِذَنْ هما نسختان: (لا تَطَّرِحْهُ فَمَا هُمَا سِيَّانِ)، أو (لَا تَطْرَحَنْهُ فَمَا هُمَا سِيَّانِ).

٢٩١٨- لَكِنْ تُقَلِّدُ مُسْلِمًا وَسِوَاهُ مِمْـ ... ـمَنْ صَحَّ هَذَا عِنْدَهُ بِبَيَانِ

المعنى: أنَّ مَنْ قَلَّدَ مسلمًا في هذا الحديث وصحَّحه، وأخذ به، فليس بملومٍ، لماذا؟ قال:

٢٩١٩- فَرُوَاتُهُ الأَثْبَاتُ أَعْلامُ الهُدَى ... حُفَّاظُ هَذَا الدِّينِ فِي الأَزْمَانِ

فكأنَّ المؤلفَ -رحمه الله- بعد أن ألقى الشَّكَّ على هذا الحديث رجع وبَيَّنَ أنَّ مَنْ قَلَّدَ مسلمًا في تصحيحه فقد سلك مسلكًا صحيحًا؛ لأنَّ رواته أثباتٌ ثقاتٌ أعلامٌ، فلا حرجَ علينا أن نُقَلِّدَ.

والعِلَّةُ التي أشار إليها الدارَقُطْنِيُّ تُبَيِّنُ لكم أنها ليست بعِلَّةٍ، لكن يقول المؤلف:

٢٩٢٠- لَكِنَّ هَذَا لَيْسَ مُخْتَصًّا بِهِ ... واللهُ ذُو فَضْلٍ وَذُو إِحْسَانِ

يعني: كونُ الإنسان يصلِّي في القبر ليس مختصًّا بموسى -عليه السلاة-، بل قد يكونُ لغيره.

٢٩٢١- فَرَوَى ابْنُ حِبَّانَ الصَّدُوقُ وَغَيْرُهُ ... خَبَرًا صَحِيحًا عِنْدَهُ ذَا شَانِ

٢٩٢٢- فِيهِ صَلاةُ الْعَصْرِ فِي قَبْرِ الَّذِي ... قَدْ مَاتَ وَهْوَ مُحَقِّقُ الإِيمَانِ

٢٩٢٣- فَتُمَثَّلُ الشَّمْسُ الَّتِي قَدْ كَانَ يَرْ ... عَاهَا لِأَجْلِ صَلاةِ ذِي الْقُرْبَانِ

٢٩٢٤- عِنْدَ الْغُرُوبِ يَخَافُ فَوْتَ صَلاتِهِ ... فَيَقُولُ لِلْمَلَكَيْنِ: هَلْ تَدَعَانِي

٢٩٢٥- حَتَّى أُصَلِّي الْعَصْـرَ قَبْـلَ فَوَاتِهَـا؟ قَـالا: سَـتَفْعَلُ ذَاكَ بَعْـدَ الآنِ

قَوْلُهُ: «فَتُمَثَّلُ الشَّمسُ» يعني: تُمَثَّلُ له الشَّمسُ، وكأنَّها عند الغروب.

الله أكبر! ورد في هذا حديثٌ: أنَّ الميِّتَ إِذَا دُفِنَ وَأَتَاهُ المَلَكَانِ فَإِنَّ الشَّمْسَ تُمَثَّلُ لَهُ وَكَأَنَّهَا عِنْدَ الغُرُوبِ[1]، وهذا المَيِّتُ مُحَقَّقُ الإيمانِ، فهو مؤمنٌ إيمانًا حقيقيًّا، يرعى الشمسَ مِن أَجْلِ الأوقات التي يُصلِّي فيها، وصلاةُ العصر -كما نعلمُ- هي أفضلُ الصلوات، فَتُمَثَّلُ له الشَّمسُ عند الغروب كأنها تريدُ أن تغربَ، فإذا أتاه المَلَكَان يقولُ لهما: دَعَانِي حَتَّى أُصَلِّيَ العَصْرَ قَبْلَ أَنْ تَغْرُبَ الشَّمْسُ.

فهذا رجلٌ ليس برسول، ويُصلِّي في قبره، فيقولُ له الملكان: «إِنَّكَ سَتَفْعَلُ» يعني: ستُصلِّي بعد السُّؤال.

والشَّاهد قوله: «كانَ يَرْعَاها لِأَجْلِ صَلاةِ ذِي الْقُرْبَانِ» كان الأوَّلون قد يجدون مشقةً في مراعاة الشَّمسِ، وذلك عند الزوال، وإذا صار ظِلُّ كُلِّ شيءٍ مِثْلَه، وعند مَغيب الشَّفَق، وعند طلوع الفجر، لكن نحن الآن -والحمد لله- بما أنعم الله علينا من السَّاعات صارت مراعاةُ الأوقات سهلةً علينا.

وقَوْلُهُ: «فَيَقُولُ لِلْمَلَكَيْنِ: هَلْ تَدَعَانِي؟» أي: المَلَكَان اللذان يأتيانه في قبره

---

(١) يعني حديث: «إِنَّ الْـمَيِّتَ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِـهِمْ حِينَ يُوَلُّونَ عَنْهُ مُدْبِرِينَ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا، كَانَتِ الصَّلَاةُ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَكَانَ الصِّيَامُ عَنْ يَمِينِهِ، وَكَانَتِ الزَّكَاةُ عَنْ يَسَارِهِ، وَكَانَ فِعْلُ الْـخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ، وَالْـمَعْرُوفِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ، فَيُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ، فَتَقُولُ الصَّلَاةُ: مَا قِبَلِـي مَدْخَلٌ. ثُمَّ يُؤْتَى عَنْ يَمِينِهِ، فَيَقُولُ الصِّيَامُ: مَا قِبَلِـي مَدْخَلٌ، ثُمَّ يُؤْتَى عَنْ يَسَارِهِ، فَتَقُولُ الزَّكَاةُ: مَا قِبَلِـي مَدْخَلٌ، ثُمَّ يُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ فَيَقُولُ فِعْلَ الْـخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ، وَالصَّلَاةِ، وَالْـمَعْرُوفِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ: مَا قِبَلِـي مَدْخَلٌ. فَيُقَالُ لَهُ: اجْلِسْ. فَيَجْلِسُ، قَدْ مُثِّلَتْ لَهُ الشَّمْسُ قَدْ مَثُلَتْ لِلْغُرُوبِ، فَيُقَالُ لَهُ: أَخْبِرْنَا عَمَّا نَسْأَلُكَ عَنْهُ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: دَعُونِي أُصَلِّي. قَالُوا: إِنَّكَ سَتَفْعَلُ». أخرجه الخلال في السُّنَّة (٤/ ٦٤، رقم ١١٧٦).

يسألانه عن ربِّه ودينِه ونبيِّه.

وقَوْلُهُ: «حَتَّى أُصَلِّي الْعَصْرَ قَبْلَ فَوَاتِهَا؟ قَالا: سَتَفْعَلُ ذَاكَ بَعْدَ الآنِ» فصارت الصلاةُ الآن في القبر حتى لغيرِ الأنبياء.

٢٩٢٦- هَذَا مَعَ المَوْتِ الـمُحَقَّقِ لا الَّـذِي ... حُكِيَـتْ لَنَـا بِثُبُوتِـهِ القَـوْلانِ

يعني: مع أنَّ هذا الرجلَ قد مات موتًا مُحَقَّقًا، ليس شهيدًا، حتى نقول: إنَّه حيٌّ، وليس نبيًّا حتى نقولَ: إنه حيٌّ، ومع ذلك فإنه يُصَلِّي العصر، حتَّى لو مات في غير وقت العصر، حتى لو مات الضُّحَى، فإنه يصلِّي العصر فقط.

وهل يُؤْجَرُ على صلاتِه هذه؟ الجواب: لا يُؤْجَرُ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا مات انقطعَ عملُه، فصلاتُه في القبر ليست صلاةَ ثواب، لكن تلذُّذ فقط، يعني: يرى أنها نعيمٌ، إِذَنْ هو لا يُؤْجَرُ، لكن هذا دليلٌ على شِدَّةِ تعلُّقِه بها.

إِذَنْ فصلاةُ العصر التي جاءت من موسى -عليه الصلاة والسلام- لا تدلُّ على أنَّه حيٌّ كما زعم هؤلاء.

* * *

٢٩٢٧- هَذَا وَثَابِتٌ الْبُنَانِي قَدْ دَعَا الـرْ ... رَحْمَـنَ دَعْـوَةَ صَـادِقِ الإِيقَـانِ

٢٩٢٨- أَنْ لَا يَـزَالَ مُصَـلِّيًا فِي قَـبْرِهِ ... إِنْ كَـانَ أُعْطِـيَ ذَاكَ مِـنْ إِنْسَـانِ

٢٩٢٩- لَكِـنَّ رُؤْيَتَـهُ لِـمُوسَى لَيْلَـةَ الْـ ... ـمِعْرَاجِ فَوْقَ جَمِيعِ ذِي الأَكْـوَانِ

٢٩٣٠- يَرْوِيهِ أَصْحَابُ الصِّحَاحِ جَمِيعُهُمْ ... وَالْقَطْـعُ مُوجَبُـهُ بِـلَا نُكْـرَانِ

٢٩٣١- وَلِـذَاكَ ظُـنَّ مُعَارِضًـا لِصَـلاتِهِ ... فِي قَـبْرِهِ إِذْ لَـيْسَ يَجْتَمِعَـانِ

٢٩٣٢- وَأُجِيبَ عَنْهُ بِأَنَّهُ أُسْرِى بِهِ لِيَرَاهُ ثَمَّ مُشَاهَدًا بِعِيَانِ

٢٩٣٣- فَرَآهُ ثَمَّ وَفِي الضَّرِيحِ وَلَيْسَ ذَا بِتَنَاقُضٍ إِذْ أَمْكَنَ الْوَقْتَانِ

الشَّرحُ

٢٩٢٧- هَذَا وَثَابِتٌ الْبُنَانِي قَدْ دَعَا الرْ رَحْمَنَ دَعْوَةَ صَادِقِ الإِيقَانِ

٢٩٢٨- أَنْ لَا يَزَالَ مُصَلِّيًا فِي قَبْرِهِ إِنْ كَانَ أُعْطِيَ ذَاكَ مِنْ إِنْسَانِ

ذكر المؤلفُ -رحمه الله- أنَّ ثابتًا البُنَانِيَّ -رحمه الله[1]- قد دعا الرحمن دعوة أن لا يزالَ مصلِّيًا؛ لأنه -رحمه الله- كثيرُ الصلاة، وكانت قد ملكت قلبَه، وجعلها اللهُ قُرَّةَ عينِه، فسأل اللهَ إذا أماته أن يجعلَه مُصلِّيًا في قبره.

واللهُ أعلمُ هل أجابَ اللهُ دعوته أم لا؟ لكنَّ الرجلَ لم يسأل شيئًا مُحَالًا؛ لأنَّ هذا لو كان شيئًا محالًا لكان سؤالُه اللهَ عدوانًا؛ لأنَّ الإنسانَ لا يجوزُ أن يسألَ اللهَ الشيءَ المحالَ؛ ولهذا قال: «إِنْ كَانَ أُعْطِيَ ذَاكَ مِنْ إِنْسَانِ» يعني: سأل اللهَ قائلًا: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ أَعْطَيْتَ أَحَدًا الصَّلَاةَ فِي قَبْرِهِ فَأَعْطِنِي الصَّلَاةَ فِي قَبْرِي[2]. والله أعلم، ومع ذلك فالأَوْلَى أَلَّا يدعوَ الإنسانُ بهذا؛ لأنَّ هذا لم يدعُ به الرسولُ ولا الصحابةُ، وهم أفضلُ مِن ثابتٍ، والرسولُ -عليه الصلاة والسلام- نفسُه يقولُ: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»[3].

---

(١) هو ثابت بن أسلم أبو محمد البناني، الإمام، القدوة، شيخ الإسلام، أبو محمد البناني مولاهم، البصري. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٢٠).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٢٤٠، رقم ٣٥٦٧٧).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٨، رقم ١٢٣١٥)، والنسائي: كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، رقم (٣٩٣٩).

ثُمَّ أورد المؤلفُ إشكالًا على الحديث الذي رواه مسلمٌ في صحيحه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى مُوسَى قَائِمًا يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ»[1] إشكالًا في الحقيقة قد يُقَالُ: إنه أَولَى بتعليل الحديث مِـمَّا ذكره المؤلفُ سابقًا، فالمؤلِّفُ سابقًا أَعَلَّ الحديثَ بأنه رُوِي موقوفًا، لكن هذا الذي أورده الآن قد يكونُ أَولى بتعليل الحديث مِـمَّا سبق، وهو أنَّ بعضَهم أَعَلَّ الحديثَ فقال: كيف يراه يُصلِّي في قبره، ثُمَّ يراه في السَّماء السَّادسةِ في ليلةٍ واحدةٍ؟ هذا شيءٌ مستحيلٌ، أجاب عنه ابنُ القيِّمِ فقال:

٢٩٢٩- لَكِـنَّ رُؤْيَتَـهُ لِـمُوسَى لَيْلَـةَ الْـ ... ـمِعْرَاجِ فَوْقَ جَمِيعِ ذِي الأَكْـوَانِ

٢٩٣٠- يَرْوِيهِ أَصْحَابُ الصِّحَاحِ جَمِيعُهُمْ ... وَالْقَطْـعُ مُوجَبُـهُ بِـلَا نُكْـرَانِ

قَوْلُهُ: «وَالْقَطْعُ مُوجَبُهُ بِلَا نُكْرَانِ» يعني أنَّ هذا يُوجِبُ القطعَ بلا نكران.

٢٩٣١- وَلِـذَاكَ ظُـنَّ مُعَارِضًـا لِصَـلَاتِهِ ... فِي قَـبْرِهِ إِذْ لَـيْسَ يَجْتَمِعَـانِ

كيف يراه مُصلِّيًا في قبره ويراه بعد ذلك في السَّماء السَّادسة؟! لكن أجاب عنه ابنُ القيِّم فقال:

٢٩٣٢- وَأُجِيـبَ عَنْـهُ بِأَنَّـهُ أُسْرِي بِـهِ ... لِـيَرَاهُ ثَـمَّ مُشَـاهَدًا بِعِيَـانِ

يعني أنَّ اللهَ أَسْرَى بمحمدٍ لِيَرى موسى، وهما متلازمان، لكن رآه في الأرض في قبره يُصلِّي، ورآه في السَّماء السَّادسة، ولا تعارضَ؛ ولهذا قال:

٢٩٣٣- فَرَآهُ ثَـمَّ وَفِي الضَّـرِيحِ وَلَـيْسَ ذَا ... بِتَنَـاقُضٍ إِذْ أَمْكَـنَ الْوَقْتَـانِ

قَوْلُهُ: «الضَّرِيحِ» يعني القبر.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ، رقم (٢٣٧٥).

قَوْلُهُ: «وَلَيْسَ ذَا بِتَنَاقُضٍ إِذْ أَمْكَنَ الْوَقْتَانِ»؛ لأنَّ الليلَ طويلٌ، وهو لم يرَ موسى في آنٍ هو الذي رآه فيه في السَّماء السَّادسة، وما دام الوقتان مُخْتَلِفَيْن فإنه يمكنُ أن يراه أوَّلًا في الأرض ثُمَّ يراه ثانيًا في السَّماء لاختلاف الوقتَيْن.

***

٢٩٣٤- هَـذَا وَرَدُّ نَبِيِّنَـا التَّسْـلِيمَ[1] مَـنْ ... يَـأْتِي بِتَسْـلِيمٍ مَـعَ الإِحْسَـانِ

٢٩٣٥- مَـا ذَاكَ مُخْتَصًّـا بِـهِ أَيْضًـا كَـمَا ... قَـدْ قَالَـهُ الْـمَبْعُوثُ بِـالقُرْآنِ

٢٩٣٦- مَـنْ زَارَ قَـبْرَ أَخٍ لَـهُ فَـأَتَى بِتَسْـ ... ـلِيمٍ عَلَيْـهِ وَهْـوَ ذُو إِيـمَانِ

٢٩٣٧- رَدَّ الإِلَـهُ عَلَيْـهِ حَقًّـا رُوحَـهُ ... حَتَّـى يَـرُدَّ عَلَيْـهِ رَدَّ بَيَـانِ

٢٩٣٨- وَحَدِيثُ ذِكْـرِ حَيَـاتِهِمْ بِقُبُـورِهِمْ ... لَـمَّا يَصِـحَّ وَظَـاهِرُ النُّكْـرَانِ

٢٩٣٩- فَـانْظُرْ إِلَى الإِسْنَادِ تَعْـرِفْ حَالَـهُ ... إِنْ كُنْـتَ ذَا عِلْـمٍ بِهَـذَا الشَّـانِ

٢٩٤٠- هَذَا وَنَحْنُ نَقُولُ: هُـمْ أَحْيَـاءُ لَـ ... ـكِنْ عِنْـدَنَا كَحَيَـاةِ ذِي الأَبْـدَانِ

٢٩٤١- وَالتُّرْبُ تَحْـتَهُمُ وَفَـوْقَ رُءُوسِـهِمْ ... وَعَـنِ الشَّـمَائِلِ ثُـمَّ عَـنْ أَيْـمَانِ

٢٩٤٢- مِثْـلَ الَّـذِي قَـدْ قُلْتُمُـوهُ مَعَاذَنَـا ... بِـاللهِ مِـنْ إِفْـكٍ وَمِـنْ بُهْتَـانِ

٢٩٤٣- بَـلْ عِنْـدَ رَبِّهِـمُ تَعَـالَى مِثْـلَ مَـا ... قَـدْ قَـالَ فِي الشُّـهَدَاءِ فِي القُـرْآنِ

٢٩٤٤- لَكِـنْ حَيَـاتُهُمْ أَجَـلُّ وَحَالُـهُمْ ... أَعْلَى وَأَكْمَـلُ عِنْـدَ ذِي الإِحْسَـانِ

٢٩٤٥- هَـذَا وَأَمَّـا عَـرْضُ أَعْـمَالِ العِبَـا ... دِ عَلَيْـهِ فَهْـوَ الْـحَقُّ ذُو إِمْكَـانِ

---

(١) في النُّسخ المخطوطة كلها: «لسلام».

٢٩٤٦- وَأَتَى بِهِ أَثَرٌ فَإِنْ صَحَّ الحَدِيـ ـثُ بِهِ فَحَقٌّ لَيْسَ ذَا نُكْرَانِ
٢٩٤٧- لَكِنَّ هَذَا لَيْسَ مُخْتَصًّا بِهِ أَيْضًا بِآثَارٍ رُوِينَ حِسَانِ
٢٩٤٨- فَعَلَى أَبِي الإِنْسَانِ يُعْرَضُ سَعْيُهُ وَعَلَى أَقَارِبِهِ مَعَ الإِخْوَانِ
٢٩٤٩- إِنْ كَانَ سَعْيًا صَالِحًا فَرِحُوا بِهِ وَاسْتَبْشَرُوا يَا لَذَّةَ الْفَرْحَانِ
٢٩٥٠- أَوْ كَانَ سَعْيًا سَيِّئًا حَزِنُوا وَقَا لُوا: رَبِّ رَاجِعْهُ إِلَى الإِحْسَانِ
٢٩٥١- وَلِذَا اسْتَعَاذَ مِنَ الصَّحَابَةِ مَنْ رَوَى هَذَا الحَدِيثَ عَقِيبَهُ بِلِسَانِ
٢٩٥٢- يَا رَبِّ إِنِّي عَائِذٌ مِنْ خِزْيَةٍ أَخْزَى بِهَا عِنْدَ الْقَرِيبِ الدَّانِي
٢٩٥٣- ذَاكَ الشَّهِيدُ الْمُرْتَضَى ابْنُ رَوَاحَةَ الْـ ـمَحْبُوُّ بِالْغُفْرَانِ وَالرِّضْوَانِ
٢٩٥٤- لَكِنَّ هَذَا ذُو اخْتِصَاصٍ وَالَّذِي لِلْمُصْطَفَى مَا يَعْمَلُ الثَّقَلَانِ
٢٩٥٥- هَذِي نِهَايَاتٌ لِإِقْدَامِ الْوَرَى فِي ذَا الْمَقَامِ الضَّنْكِ صَعْبِ الشَّانِ
٢٩٥٦- وَالحَقُّ فيه لَيْسَ تَحْمِلُهُ عُقُو لُ بني الزَّمَانِ لِغِلْظَةِ الأَذْهَانِ
٢٩٥٧- وَلِجَهْلِهِمْ بِالرُّوحِ مَعْ أَحْكَامِهَا وَصِفَاتِهَا لِلإِلْفِ بِالأَبْدَانِ
٢٩٥٨- فَارْضَ الَّذِي رَضِيَ الإِلَهُ لَهُمْ بِهِ أَتُرِيدُ تَنْقُضُ حِكْمَةَ الدَّيَّانِ؟!

الشرحُ

قال المؤلف -رحمه الله-:

٢٩٣٤- هَذَا وَرَدُّ نَبِيِّنَا التَّسْلِيمَ مَنْ يَأْتِي بِتَسْلِيمٍ مَعَ الإِحْسَانِ

٢٩٣٥- مَـا ذَاكَ مُخْتَصًّـا بِـهِ أَيْضًـا كَـمَا ... قَـدْ قَالَـهُ الْـمَبْعُوثُ بِـالقُرْآنِ

يعني: كون الرسولِ -عليه الصلاة والسلام- إذا سَلَّمَ أحدٌ عليه رَدَّ اللهُ عليه روحَه فردَّ -عليه السَّلام-[١] -وهذا الحديثُ أخرجه أبو داود- يقول ابنُ القيِّم: هذا ليس مختصًّا به، بل قد قاله المبعوثُ بالقرآن، لكن ماذا قال المبعوثُ بالقرآن؟

قال:

٢٩٣٦- مَـنْ زَارَ قَـبْرَ أَخٍ لَـهُ فَـأَتَى بِتَسْـ ... ـلِيمٍ عَلَيْـهِ وَهْـوَ ذُو إِيـمَانِ

٢٩٣٧- رَدَّ الإِلَـهُ عَلَيْـهِ حَقًّـا رُوحَـهُ ... حَتَّـى يَـرُدَّ عَلَيْـهِ رَدَّ بَيَـانِ

فقد روى ابنُ عبد البَرِّ[٢] من حديثِ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَا مِنْ أَحَدٍ مَرَّ بِقَبْرِ أَخِيهِ الْـمُؤْمِنِ كَانَ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا فَسَلَّمَ عَلَيْهِ إِلَّا عَرَفَهُ وَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ**». قال ابنُ عبدِ البرِّ: إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ. لكن هذا الرَّدُّ هل يقتضي أن يكون حيًّا كحياته على ظهر الأرض؟ الجواب: لا، بل هو حيٌّ حياةً برزخيَّةً لا نعلمُ كيفيتها.

أنت الآن في منامك حيٌّ لكنَّها حياةُ نومٍ، وهي وفاة، وفي القبر تكون حيًّا حياةً برزخيَّة وأنت مَيِّت، أي: وفاة، فالرُّوحُ لها شأنٌ عظيم في تعلُّقِها بالبدن، لا أحدَ يُدْرِكُه، فهذا الحديثُ صحيحٌ، وإن كان بعضُ العلماء المتأخِّرين حمل عليه وقال: إنه ضعيفٌ ولا يصحُّ.

---

(١) كما في حديث: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللهُ إِلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ». أخرجه أبو داود: كتاب المناسك، باب زيارة القبور، رقم (٢٠٤١)..

(٢) انظر: الاستذكار (١/ ١٨٥).

ولا شكَّ أنَّهم أرادوا بهذا دفعَ كُلِّ شُبْهَةٍ يتعلَّقُ بها البطَّالون الذين يتعلَّقون بأصحاب القبور، ويقولون: إنَّهم يسمعون، وإننا نأتي إليهم نسألُهم أن يشفعوا لنا عند الله، وما أشبهَ ذلك.

لكنَّ هذا لا يَستلزِم أن نُضَعِّفَ الأحاديثَ الصحيحةَ التي لا ترمي إلى هذا بصلةٍ، فكونُ الميت تُرَدُّ عليه رُوحُه لِيَرُدَّ السَّلامَ لا يَستلزِمُ أن تبقى رُوحُه حتَّى يخاطبَه هذا المُسَلِّم بكُلِّ ما يريد، والحديثُ إنما ورد بأنه يَرُدُّ السَّلامَ فقط، فنَقتصِرُ على هذا، ونقول: بعد هذا لا يمكنُ أن يسمعَ شيئًا؛ لأنَّ الأصلَ فيما يُدَّعى من سماع أهل القبور الرجوعُ إلى السَّمع؛ لأنه من الأمور الغيبيَّة؛ فإذا كان الميتُ يسمعُ قَرْعَ نِعالهم إذا انصرفوا منه عند الدفن لم يلزمْ أن يكونَ يسمعُ ذلك إذا جاءوا إليه مرةً أخرى؛ لأنَّ الميِّتَ مَيِّتٌ، ولا نُثبِتُ من أحواله إلَّا ما جاء به النَّصُّ.

فلو جاء أحدٌ إلى القبور وجعل يمشي بنعاله، فهل يمكنُ أن نقولَ: إنَّ أهلَ القبور يسمعون قرعَ النعال كما يسمعه مَنْ دُفِنَ؟ الجواب: لا، وهكذا كُلُّ الأمورِ الغيبية يجبُ أن يُقْتَصَر فيها على النَّصِّ.

فنقول في دَرْءِ مفسدةِ تعلُّق أصحابِ القبور بحديث ردِّ الروح على المُسَلَّم عليه لِيَرُدَّ على مَنْ سَلَّم عليه؛ درءُ ذلك بأن نقولَ: إنَّ النَّصَّ إنما جاء في ردِّ السَّلام فقط، ولا تعلُّقَ لكم بها سوى ذلك؛ ولهذا جزم به ابنُ القيِّم -رحمه الله- هنا، ونَقَلَ عن ابن عبد البرِّ تصحيحَه في كتاب (**الروح**)[1] ولم يتعقَّبْه.

٢٩٣٨- وَحَدِيثُ ذِكْرِ حَيَاتِهِمْ بِقُبُورِهِمْ   لَـمَّا يَصِحَّ وَظَاهِرُ النُّكْرَانِ

(١) انظر: كتاب الروح (ص:١٢).

٢٩٣٩- فَـانْظُرْ إِلَى الإِسْـنَادِ تَعْـرِفْ حَالَـهُ ... إِنْ كُنْـتَ ذَا عِلْــمٍ بِهَـذَا الشَّــانِ

قَوْلُهُ: «وَحَدِيثُ ذِكْرِ حَيَاتِهِمْ بِقُبُورِهِمْ» وهو حديث: «الأَنْبِيَاءُ أَحْيَاءٌ فِي قُبُورِهِمْ»[1]، لكن ابن القيِّم يقولُ: إنَّه ليس بصحيحٍ، وإنَّه لا يَلْزَمُ من ردِّ الروح عند السَّلام أن تكونَ مستقرَّةً في البدن دائمًا.

٢٩٤٠- هَذَا وَنَحْنُ نَقُولُ: هُـمْ أَحْيَـاءُ لَـ ... ـكِنْ عِنْـدَنَا كَحَيَـاةِ ذِي الأَبْـدَانِ

٢٩٤١- وَالتُّرْبُ تَحْـتَهُمُ وَفَـوْقَ رُءُوسِـهِمْ ... وَعَــنِ الشَّــمَائِلِ ثُــمَّ عَــنْ أَيْــمَانِ

٢٩٤٢- مِثْـلَ الَّـذِي قَـدْ قُلْتُمُـوهُ مَعَاذَنَـا ... بِــاللهِ مِــنْ إِفْـكٍ وَمِــنْ بُهْتَــانِ

يعني أنَّنا نقول: هم أحياءٌ، لكن هل نقولُ: إنَّهم أحياءٌ كحياتنا والتُّرْبُ تحتهم، وفوق رءوسهم، وعن الشَّمائل، ثُمَّ عن أيمان، مثل الذي قد قلتموه؟! لأنَّ هؤلاء يقولون: إنَّهم أحياءٌ كحياة الدنيا، فنحن نقولُ: هم أحياءٌ لكن ليس كحياة الدنيا، (**مَعَاذَنَا باللهِ مِن إفكٍ ومِن بُهتانٍ**).

٢٩٤٣- بَـلْ عِنْـدَ رَبِّهِـمُ تَعَـالَى مِثْـلَ مَـا ... قَـدْ قَـالَ فِي الشُّـهَدَاءِ فِي القُـرْآنِ

كُلُّ هذا يريدُ أن يَرُدَّ عليهم، حيث قال في أوَّل الكلام: إنَّه يلزمُ على قولهم أَنَّ الرُّسلَ في قبورهم ليسوا برسلٍ، لماذا؟ قالوا: لأنَّ الحياةَ عَرَضٌ من أعراض الجسم، ومعلومٌ أنه لا رسالةَ إلَّا بحياة، فإذا كانت الحياةُ عَرَضًا وفُقِدَت بالموت لَزِم من ذلك فَقْدُ الرِّسالة.

هم دفعوا هذا، وقالوا: إنَّ الأنبياءَ أحياءٌ، فقلنا لهم: هم أحياءٌ لكن ليست

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٦/ ١٤٧، رقم ٣٤٢٥)، والديلمي (١/ ١١٩، رقم ٤٠٣)، وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٨٧): أخرجه البيهقي في كتاب حياة الأنبياء في قبورهم وصححه.

حياتُهم كحياة الدنيا، بل هي حياةٌ برزخيَّةٌ، وعلى هذا فإنَّه لا يُمْكِنُكُم دَفْعُ ما قلناه من إلزامكم ببُطلان الرِّسالة بموت الرسول؛ لأنَّ الحياةَ في البَرْزَخِ غيرُ الحياة في الدنيا، لكنَّه يقولُ:

٢٩٤٤- لَكِــنْ حَيَــاتُهُمْ أَجَــلُّ وَحَالُــهُمْ   أَعْلَى وَأَكْمَـلُ عِنْـدَ ذِي الإِحْسَـانِ

الحياةُ البرزخيَّةُ أعلى وأكملُ من الحياة الدنيا، وكذلك مَقامُ الأنبياء في الآخرة أعلى وأكملُ عند الله عزَّ وجلَّ، فالإنسانُ إذا فارقتْ رُوحُه بدنَه في الدنيا مات، وانتقل من الدنيا بما فيها من الكَدَرِ والصَّفْو، والنعيم والبُؤْس، إلى دار النعيم؛ لأنَّ المؤمنَ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الجَنَّةِ[1]، ويأتيه من رَوْحِها ونعيمها وَيُسَرُّ؛ ولهذا تقولُ رُوحُه عند حمله: «قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي»[2]؛ لأنها قَدْ بُشِّرت بنعيمٍ أعلى من نعيم الدنيا بكثير، نسألُ اللهَ أن يجعلني وإيَّاكم منهم؛ فلهذا اختلفُ الحالُ، فحياةُ البرزخِ وحياةُ الدنيا بينهما فرقٌ عظيمٌ.

٢٩٤٥- هَــذَا وَأَمَّــا عَـرْضُ أَعْـمَالِ الْعِبَـا   دِ عَلَيْــهِ فَهْــوَ الــحَقُّ ذُو إِمْكَــانِ

٢٩٤٦- وَأَتَى بِهِ أَثَــرٌ فَــإِنْ صَــحَّ الـحَدِيـ   ــثُ بِــهِ فَحَــقٌّ لَـيْسَ ذَا نُكْـرَانِ

عرضُ أعمالِ العباد على الرَّسول[3] -عليه الصلاة والسلام- يقولُ المؤلف: «حقٌّ ذُو إمكانٍ» لكن إِنْ صَحَّ الحديثُ فعَرْضُ الأعمالِ على الرسول ممكنٌ عقلًا، لكن يبقى النظرُ هل صَحَّ سمعًا أم لم يصحَّ؟ ولهذا فقوله: «فَهْوَ الحقُّ ذُو إمْكَانِ»

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السُّنَّة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب كلام الميت على الجنازة، رقم (١٣١٤).
(٣) عزاه السيوطي في جامع الأحاديث (١١/ ٢٩٢، رقم ١٠٨٠٨) للحكيم، وقال الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٢٤٤٦): موضوع.

يعني: ليس مستحيلًا عقلًا؛ فإنَّ صَحَّ الأثرُ فإنَّه حقٌّ.

وقول المؤلف: «إِنْ صَحَّ» هذا طعنٌ في الحديث وتوقُّفٌ في صحته، وعليه فإِنَّ كلامَ الشَّارح الهرَّاس[1] -رحمه الله- على ابن القيِّم في هذا المقام فيه نظرٌ؛ لأنَّ ابنَ القيِّم لم يصحح الحديثَ، بل قال: «إِنْ صَحَّ الحديثُ بِهِ فحقٌّ» والذي يقول: «إِنْ صَحَّ» هل هو كالذي يقولُ: قد صَحَّ؟ الجواب: أبدًا، بل إنَّ هذا طعنٌ وعِلَّةٌ في الحديث.

٢٩٤٧- لَكِـنَّ هَـذَا لَـيْسَ مُخْتَصًّـا بِـهِ أَيْضًـا بِآثَـارٍ رُوِيـنَ حِسَـانِ

يعني: إذا صحَّ فهو ممكنٌ، وأيضًا ليس بمختصٍّ به، بل تُعْرَضُ الأعمالُ على غير الرسولِ -عليه الصلاة والسَّلام-؛ ولذا قال:

٢٩٤٨- فَعَلَى أَبِـي الإِنْسَانِ يُعْرَضُ سَـعْيُهُ وَعَـلَى أَقَارِبِـهِ مَـعَ الإِخْـوَانِ

٢٩٤٩- إِنْ كَانَ سَعْيًا صَالِـحًا فَرِحُـوا بِـهِ وَاسْتَبْشَـرُوا يَـا لَـذَّةَ الْفَرْحَـانِ

٢٩٥٠- أَوْ كَـانَ سَـعْيًا سَـيِّئًا حَزِنُـوا وَقَـا لُـوا: رَبِّ رَاجِعْـهُ إِلَى الإِحْسَـانِ

قَوْلُهُ: «فَعَلَى أَبِي الإِنْسَانِ يُعْرَضُ سَعْيُهُ» يعني: أنَّ أبا الإنسان يُعْرَضُ سعيُ ابنه عليه في قبره بعد مماته، يعني: يُعْرَضُ عملُه.

أشار المؤلفُ إلى أنَّ هناك آثارًا تدلُّ على أنَّ أعمالَ الإنسانِ تُعْرَضُ على أبيه وعلى أقاربه، فإنْ كان حسنًا فَرِحُوا واستبشروا، وإنْ كان سَيِّئًا حزِنوا لذلك، وسألوا اللهَ أن يَرُدَّه إلى الأعمال الصالحة[2].

---

(١) انظر: شرح القصيدة النونية (٢/ ٢٤)، للشَّيخ محمد خليل هرَّاس -رحمه الله-.
(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٦٤، رقم ١٢٧٠٦).

لكنَّ الظاهرَ أنَّ هذه الأحاديثَ وإن كانت حِسانًا عنده لكنَّها لا تصحُّ؛ وذلك لأنَّ أعمالَ العباد التي لا ليس لها صلةٌ بالميت لا فائدةَ من عرضِها على الميت؛ لأنها إذا كانت سيِّئةً فسوف يحزنُ ويتألمُ، وإنما قلنا: (التي لا صِلةَ لها بالميت) احترازًا من البكاء على الميت، فإنَّ البكاءَ على الميت يُعَذَّبُ به الميتُ، ويتألمُ منه كما يتعذَّب المسافرُ بالسفر؛ كما صحَّ في الحديث: «**إِنَّ الميِّتَ يُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ**»[1]، «**وَبِمَا نِيحَ عَلَيْهِ**»[2] أما كونُ الأعمالِ تُعْرَضُ على الأموات في القبور فهذا فيه نظرٌ.

والذي يظهرُ أنَّ الأحاديثَ كُلَّها لا تصلُ إلى درجة الحسن كما قال ابنُ القيِّم -رحمه الله-، يعني أنَّ ابنَ القيِّم يرى أنَّ هذه الآثارَ تصلُ إلى درجة الحسن، والظاهرُ خلاف ذلك.

٢٩٥١- وَلِذَا اسْتَعَاذَ مِنَ الصَّحَابَةِ مَـنْ رَوَى ... هَـذَا الـحَدِيثَ عَقِيبَـهُ بِلِسَـانِ

قَوْلُهُ: «**ولذا**» أي: ولأجل كونِ أعمال القرابة تُعْرَضُ على أقاربهم استعاذ مِن الصحابة مَنْ روى هذا الحديثَ عَقِيبَه، يعني أنَّ الصحابِيَّ الذي روى حديث عرض أعمال الإنسان على أقاربه استعاذ لَـمَّا ذكر هذا الحديثَ فقال:

٢٩٥٢- يَـا رَبِّ إِنِّي عَائِـذٌ مِـنْ خِزْيَـةٍ ... أَخْزَى بِهَا عِنْدَ الْقَرِيـبِ الدَّانِـي

استعاذ بالله أن يُخْزَى عند قريبِه، وقريبُه يقولُ ابنُ القيِّم:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه». إذا كان النوح من سنته، رقم (١٢٨٦)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه، رقم (٩٢٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت، رقم (١٢٣٠)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه، رقم (٩٢٧).

٢٩٥٣- ذَاكَ الشَّهِيدُ الْمُرْتَضَى ابْنُ رَوَاحَةَ الْـ ـــمَحْبُوُّ بِـالْغُفْرَانِ وَالرِّضْـوَانِ

قَوْلُهُ: «ذَاكَ الشَّهِيدُ» الإشارةُ إلى القريب الداني.

والقائلُ هو أبو الدرداء، وكلام الهرَّاس -رحمه الله- في هذا الموضع فيه نظرٌ؛ لأنه ذكر أنَّ الذي استعاذ هو ابنُ رَواحةَ، وليس كذلك؛ إنما الذي استعاذ أبو الدرداء، اسْتَعَاذَ مِنْ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلًا سَيِّئًا يُخْزَى بِهِ عِنْدَ عَبْدِ الله بنِ رَوَاحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]؛ لأنه كان من أقاربه؛ ولهذا يقول: (**ولذا استعاذَ مِن الصحابةِ مَن رَوَى هذا الحديثَ عَقِيبَهُ**) متعلِّقةٌ بـ(**استعاذَ**) فالذي استعاذ هو أبو الدرداء.

٢٩٥٤- لَكِنَّ هَـذَا ذُو اخْتِصَـاصٍ وَالَّـذِي لِلْمُصْـطَفَى مَـا يَعْمَـلُ الـثَّقَلانِ

قَوْلُهُ: «لَكِنَّ هَذَا» المشارُ إليه عرضُ الأعمالِ على الأموات سوى النَّبيِّ ﷺ، فإنَّ هذا مختصٌّ بالأقارب، فعرضُ الأعمالِ على غيرِ النَّبيِّ مختصٌّ بالأقارب، إن صحَّتِ الآثار، أمَّا النَّبيُّ ﷺ فالعرضُ عليه يكونُ عامًّا من جميع الثَّقَلَيْنِ.

والخلاصة أنَّ أهلَ التعطيل استدلُّوا على حياة النَّبيِّ ﷺ في قبره بأنَّ الأعمالَ تُعْرَضُ عليه، فابنُ القيِّم -رحمه الله- يقولُ: هذا الحديثُ إنْ صَحَّ فهو ممكنٌ، ومع هذا فلا يَلْزَمُ أن تكونَ حياتُه كحياة الدنيا، ثُمَّ قال: وليس هذا خاصًّا بالرسول؛ فإنَّ أعمالَ العِبَاد تُعْرَضُ على أقاربهم، ثُمَّ فَرَّق بين عرضِ أعمالِ العباد على الأقارب وبين عرضِ أعمالِ الأُمَّة على الرسول بأنَّ عرضَ أعمال الأمة على الرسول عامٌّ، وعرضَ أعمال الأقارب خاصٌّ بالأقارب.

---

(١) يعني حديث أبي الدرداء: «إِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَى مَوْتَاكُمْ، فَيُسَرُّونَ وَيُسَاءُونَ». وكان أَبُو الدَّرْدَاءِ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَعْمَلَ عَمَلًا يُخْزَى بِهِ عَبْدُ الله بْنُ رَوَاحَةَ». أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢/ ٤٢).

٢٩٥٥- هَــذِي نِهَايَــاتُ لِإِقْــدَامِ الْــوَرَى   فِي ذَا المَقَامِ الضَّنْكِ صَعْبِ الشَّانِ

المؤلفُ -رحمه الله- بعد أن ذكر هذا قال: إنَّ هذا ما انتهت إليه أَقدامُ الناس في هذا الزمان الضنك الصعب الدقيق.

٢٩٥٦- وَالــحَقُّ فيــه لَــيْسَ تَحْمِلُــهُ عُقُــو   لُ بنــي الزَّمَــانِ لِغِلْظَــةِ الأَذْهَــانِ

يعني: لأنَّ أذهانَهم غليظةٌ لا تتحمَّلُ الأشياءَ الدقيقةَ والفُرُوقَ الدقيقةَ، فنحن الآن فرَّقنا بين حياة الدنيا وحياة البرزخ، ونفرِّقُ أيضًا بين حياة البرزخ وحياة القيامة؛ فإنَّ بينهما فرقًا عظيمًا كبيرًا؛ لأنَّه في حياةِ القيامة تعودُ الرُّوحُ إلى الجسد عَوْدًا كاملًا، ويبقى الجسدُ متحرِّكًا، لكن في الحياةِ البَرْزَخِيَّةِ عَوْدُ الرُّوح إلى البدن ليس كاملًا، ولذلك لا يتحرَّكُ البدنُ ولا يتغيَّرُ عن حاله، أمَّا في الآخرة فإنَّ عودَ الرُّوح إلى البدن عَوْدٌ كاملٌ حقيقيٌّ، يتحرَّكُ البدنُ، ويمشي الناس، ويكونُ الناسُ أجسامًا بأرواح.

٢٩٥٧- وَلِــجَهْلِهِمْ بِالرُّوحِ مَــعْ أَحْكَامِهَــا   وَصِـــفَاتِهَا لِلإِلْـــفِ بِالأَبْـــدَانِ

يعني: ولأنَّ عقولَ بني الزمان يجهلون بالروح وأحكامها؛ ولهذا اختلفوا في الروح، ما هي الروح؟ على خلاف كثير، وأحكامُ الروحِ وتعلُّقاتها بالبدن أيضًا اختلفوا فيها اختلافًا كثيرًا؛ لأنهم إنما أَلِفوا الأبدانَ وأحكامَها، أمَّا الأرواح فهم عنها بِمَعْزِلٍ؛ ولهذا قال:

٢٩٥٨- فَارْضَ الَّذِي رَضِيَ الإِلَهُ لَــهُمْ بِــهِ   أَتُرِيــدُ تَــنْقُضُ حِكْمَــةَ الــدَّيَّانِ؟!

معناه: ارضَ بحالهم، وتكلَّم معهم على مقتضى حالهم.

قَوْلُهُ: «أَتُرِيدُ تَنْقُضُ حِكْمَةَ الدَّيَّانِ؟!» الجوابُ: لا، فلا أحدَ يريدُ ذلك،

واللهُ عزَّ وجلَّ حكيمٌ يَهَبُ فضلَه مَنْ يشاءُ، فمِن الناس مَنْ يعطيه من الحكمة ما تَتبَيَّنُ له بها الأشياءُ، ومِن الناس مَنْ يكونُ غليظَ الطبع متينَ الذهن، لا يفهمُ الفروقَ ولا يعرفُها.

* * *

٢٩٥٩- هَـلْ فِي عُقُولِـهِمُ بِـأَنَّ الـرُّوحَ فِي ... أَعْـلَى الرَّفِيـقِ مُقِيمَـةٌ بِجِنَـانِ

٢٩٦٠- وَتَـرُدُّ أَوْقَـاتَ السَّـلامِ عَلَيْـهِ مِـنْ ... أَتْبَاعِـهِ فِي سَـائِرِ الأَزْمَـانِ؟

٢٩٦١- وَكَـذَاكَ إِنْ زُرْتَ القُبُـورَ مُسَـلِّمًا ... رُدَّتْ لَـهُمْ أَرْوَاحُهُـمْ لِـلآنِ

٢٩٦٢- فَهُـمْ يَـرُدُّونَ السَّـلامَ عَلَيْـكَ لَـ ... ـكِنْ لَسْتَ تَسْمَعُهُ بِـذِي الأُذُنَـانِ

٢٩٦٣- هَذَا وَأَجْوَافُ الطُّيُورِ الخُضْرِ مَسْـ ... ـكَنُهَا لَـدَى الجَنَّـاتِ وَالرِّضْـوَانِ

٢٩٦٤- مَنْ لَـيْسَ يَحْمِـلُ عَقْلُـهُ هَـذَا فَـلا ... تَظْلِمْـهُ وَاعْـذُرْهُ عَـلَى النُّكْـرَانِ

٢٩٦٥- لِلرُّوحِ شَأْنٌ غَـيْرُ ذِي الأَجْسَـامِ لا ... تُهْمِلْهُ شَأْنُ الـرُّوحِ أَعْجَـبُ شَـانِ

٢٩٦٦- وَهُوَ الَّذِي حَارَ الْـوَرَى فِيـهِ فَلَـمْ ... يَعْرِفْـهُ غَـيْرُ الْفَـرْدِ فِي الأَزْمَـانِ

٢٩٦٧- هَـذَا وَأَمْـرٌ فَـوْقَ ذَا لَـوْ قُلْتُـهُ ... بَـادَرْتَ بِالإِنْكَـارِ وَالْعُـدْوَانِ

٢٩٦٨- فَلِذَاكَ أَمْسَكْتُ الْعِنَـانَ وَلَـوْ أَرَى ... ذَاكَ الرَّفِيـقَ جَرَيْـتُ فِي الـمَيْدَانِ

٢٩٦٩- هَـذَا وَقَوْلِـي أَنَّهَـا مَخْلُوقَـةٌ ... وَحُـدُوثُهَا الـمَعْلُومُ بِالْبُرْهَـانِ

٢٩٧٠- هَـذَا وَقَوْلِـي أَنَّهَـا لَيْسَـتْ كَـمَا ... قَـدْ قَـالَ أَهْـلُ الإِفْـكِ وَالْبُهْتَـانِ

٢٩٧١- لا دَاخِـلٌ فِينَـا وَلا هِـيَ خَـارِجٌ ... عَنَّـا كَـمَا قَـالُوهُ فِي الـدَّيَّانِ

٢٩٧٢- وَاللهِ لا الـرَّحْمَنَ أَثْبَتُّمْ وَلا ... أَرْوَاحَكُمْ يَا مُدَّعِي الْعِرْفَانِ

٢٩٧٣- عَطَّلْتُمُ الأَبْدَانَ مِنْ أَرْوَاحِهَا ... وَالْعَرْشَ عَطَّلْتُمْ مِنَ الرَّحْمَنِ

الشَّرحُ

بَيَّنَ المؤلفُ -رحمه الله- أنَّ شأنَ الروح لا مدخلَ للعقل فيه؛ لأنَّ شأنَها أعظمُ مِن أن تدركَه العقولُ؛ ولهذا قال:

٢٩٥٩- هَلْ فِي عُقُولِهِمُ بِأَنَّ الرُّوحَ فِي ... أَعْلَى الرَّفِيقِ مُقِيمَةٌ بِجِنَانِ

٢٩٦٠- وَتَرُدُّ أَوْقَاتَ السَّلامِ عَلَيْهِ مِنْ ... أَتْبَاعِهِ فِي سَائِرِ الأَزْمَانِ؟

يعني بذلك أنَّ رُوحَ النَّبِيِّ ﷺ في أعلى عِلِّيِّين، كما كان يقولُ عند موته صلوات الله وسلامه عليه: «اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى»[1]، ومع ذلك إذا سَلَّم عليه أحدٌ ردَّ اللهُ عليه هذه الروحَ من أعلى عِلِّيِّين إلى مكانه في القبر وبلحظة؛ لأنَّ شأنَ الروح عظيمٌ، لا يمكن أن يُقَاسَ بشأن الجسم الكثير، فشأنُها عظيمٌ لا يدركُه العقلُ إطلاقًا.

٢٩٦١- وَكَذَاكَ إِنْ زُرْتَ القُبُورَ مُسَلِّمًا ... رُدَّتْ لَهُمْ أَرْوَاحُهُمْ لِلآنِ

يعني: عند سلامك إذا مررت فقلتَ: (السَّلامُ عليكم دارَ قومٍ مؤمنينَ) رَدَّ اللهُ عليهم أرواحَهم فردُّوا عليك السَّلامَ؛ ولهذا قال:

٢٩٦٢- فَهُمْ يَرُدُّونَ السَّلامَ عَلَيْكَ لَـ ... ـكِنْ لَسْتَ تَسْمَعُهُ بِذِي الأُذُنَانِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، رقم (٤١٧٢)، ومسلم: كتاب السلام، باب استحباب رقية المريض، رقم (٢١٩١).

قَوْلُهُ: «لَسْتَ تَسْمَعُهُ بِذِي الأُذُنَانِ» يعني: لا تسمعُه، وهذا معلومٌ، لكن هم يسمعون؛ ولهذا تقول: (السَّلامُ عليكم) بحرف الخطاب (دارَ قومٍ مؤمنين).

وزعم بعضُ العلماء أنَّ الخِطابَ هنا يُرادُ به خطابُ الحاضرِ، لا الفاهم، وأنَّه كقول عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لِلحَجَر: «إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ»[1]، فقال: «أَنَّكَ» بكاف الخطاب، ومعلومٌ أنَّه لا يصحُّ خطابُه؛ لأنه حَجَرٌ، قال: فخطابُ هؤلاء الموتى بقولك: «السَّلامُ عَلَيْكُمْ» كخطاب عمرَ للحجر بقوله: «إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ»، ولكن فيه نظرٌ؛ لأنه لا يصحُّ أن يُقَاسَ الموتى بالحجر، فالموتى أبدانٌ لها أرواحٌ، وإذا كان اللهُ يردُّ رُوحَ نبيِّه محمدٍ ﷺ إذا سَلَّم عليه المُسَلِّم فما المانعُ مِن أن يَرُدَّ أرواحَ هؤلاء إذا سَلَّمَ عليهم المُسَلِّمُ لِيَرُدُّوا عليه؟! ولكن ليُعْلَم أنَّ هذا الرَّدَّ ليس ردَّ تكليفٍ، يعني: أنَّه ليس يُثَابُ عليه؛ لأنَّ الإنسانَ «إِذَا مَاتَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ»[2]، لكنَّ الفائدة منه للحيِّ المُسَلِّم، حيث يقولون: (عليك السَّلام).

وليس معنى أنهم يردُّون السَّلامَ أن نذهبَ إليهم ونؤانسَهم، ونُحَدِّثَهم، نقولُ مثلًا: اليوم حصل في البلد الفلاني كذا، حصل فيضانات، حصل اضطرابات، فهذا يحتاجُ إلى توقيفٍ، ولا أظنُّ هذا يَثْبُتُ، فالظاهرُ أنَّ الأموات لا يُؤْذَنُ لهم إلَّا بردِّ السَّلامِ فقط.

فأرى أنَّ هذا يُقَيَّدُ بما جاءت به السُّنَّةُ، وكثرة التَّرداد على الأموات ربما تُخِلُّ بالإنسان عقليًّا؛ لأنه مع كثرة التَّرداد ربما تنفعلُ نفسُه حتَّى يكونَ كأنه في عالم

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب ما ذكر في الحجر الأسود، رقم (١٥٩٧). ومسلم: كتاب الحج، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف، رقم (١٢٧٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١).

الأموات فيتأثر بهذا، ثُمَّ هل كان الرسولُ -عليه الصلاة والسلام- يزورُ المقبرةَ كُلَّ يوم؟ إذا كان يزورها فعلى العينِ والرأس.

٢٩٦٣- هَذَا وَأَجْوَافُ الطُّيُورِ الخُضْرِ مَسْـ ـكَنُهَا لَـدَى الجَنَّـاتِ وَالرِّضْـوَانِ

أرواحُ المؤمنين في أجواف طيورٍ خضر، وهم الشُّهَداء عند الله -سبحانه وتعالى-، فهي في هذه الأجواف كرامةً لها.

٢٩٦٤- مَنْ لَـيْسَ يَحْمِـلُ عَقْلُـهُ هَـذَا فَـلا تَظْلِمْـهُ وَاعْـذُرْهُ عَـلَى النُّكْـرَانِ

وهذا صحيحٌ، فالإنسانُ عدوٌّ ما لا يعرفُ، فإذا كانت عقولُ هؤلاء لا تتحمَّلُ هذه المعاني ولا يمكنُها أن تجمعَ بين هذا وهذا فلا تظلمْه واعذرْه على النكران.

ومرادُ المؤلف -رحمه الله- بهذا: تهوينُ شأن هؤلاء والحطُّ من قدرِهم، يعني أنهم ليسوا أهلًا لأن يُدْرِكُوا الجمعَ بين هذه النصوص، وإنما هم بُلْهٌ فاعذرهم على بلاهتهم، وليس المراد أنَّ لهم عذرًا في عدم التصديق بالنصوص، بل هم غيرُ معذورين، لكن إذا كانوا بُلْهًا لا يستطيعون الجمعَ بين ما ورد فهؤلاء معذورون كما يُعْذَرُ الطفلُ.

٢٩٦٥- لِلرُّوحِ شَأْنٌ غَيْرُ ذِي الأَجْسَامِ لا تُهْمِلْهُ شَأْنُ الرُّوحِ أَعْجَبُ شَانِ

٢٩٦٦- وَهُوَ الَّذِي حَارَ الْوَرَى فِيهِ فَلَمْ يَعْرِفْـهُ غَـيْرُ الْفَـرْدِ فِي الأَزْمَـانِ

من الذي يعرفه؟ الفردُ في الأزمان هو الذي أَقرَّ بما جاء به الرسولُ ﷺ في شأنِ الأرواح؛ لأنه عرفه من طريقه الصحيح، وهو طريقُ الوحي؛ إذ إنَّه لا مدخلَ للعقول فيه.

٢٩٦٧- هَـذَا وَأَمْـرٌ فَـوْقَ ذَا لَـوْ قُلْتُـهُ بَـادَرْتَ بِالإِنْكَـارِ وَالْعُـدْوَانِ

٢٩٦٨- فَلِذَاكَ أَمْسَكْتُ الْعِنَانَ وَلَوْ أَرَى ... ذَاكَ الرَّفِيقَ جَرَيْتُ فِي الْمَيْدَانِ

يقول: هناك شيءٌ فوق الذي ذكرتُ، ولو قلتُه لبادرتَ بالإنكار؛ لأنه فوق مستواك، ويقول: فلذاك أمسكتُ العِنان، ونقول: ليتَه أعلمنا به -رحمه الله-.

قَوْلُهُ: «ولو أَرَى ذَاكَ الرَّفِيقَ» يعني: لو أرى أحدًا يكون رفيقًا لي في فهم ما أقولُ جريتُ في الميدان، ولكنَّه لا يرى أحدًا يجاريه على ما فهِم من النصوص؛ فلهذا أمسك عن الخوض والقول؛ لأنه يرى أنَّ عقولَ هؤلاء لا تبلُغُه، وقد قال ابنُ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً**»(١)؛ لأنه إذا لم يتحمَّلْه عقلُه، فإنه يبادرُ إلى الإنكارِ فيكون في هذا فتنة.

٢٩٦٩- هَذَا وَقَوْلِي أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ ... وَحُدُوثُهَا الْمَعْلُومُ بِالْبُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «**هَذَا وَقَوْلِي أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ**» (أنها) يتعيَّنُ الفتح؛ لأنَّ (أَنَّها) خبر (قول) وليست مقولَ القول، و(إنَّ) إنَّما تُكْسَرُ إذا كانت مقولَ القول، وهنا هي خبر، يعني: (هذا وأقول: إِنَّها مخلوقةٌ) هذا معنى الكلام.

قَوْلُهُ: «**وَقَوْلِي أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ**» أي: كونُها مخلوقةً هو قولي الذي أقولُ به وأَدينُ اللهَ به.

قَوْلُهُ: «**وَحُدُوثُهَا الْمَعْلُومُ بِالْبُرْهَانِ**» يعني أنَّ الأرواحَ مخلوقةٌ حادثةٌ، لكن متى تُخْلَقُ؟ الظاهرُ -واللهُ أعلمُ- أَنَّها تُخْلَقُ حين يُريدُ اللهُ -سبحانه وتعالى- نفخَها في الجسد؛ لأنَّنا لا نعلمُ لها حالًا قبل ذلك كما جاء في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه «**إِذَا بَلَغَ أَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِينَ أَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا فَيَنْفُخُ فِيهِ**

---

(١) أخرجه مسلم: المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع.

الرُّوحَ»(١)، فالظاهرُ أنَّ الأرواحَ تُخْلَقُ عند نفخ الروح في الجسد؛ لأنه قبل ذلك ليس لها ذِكْرٌ، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]، إِذَنْ فهي حادثةٌ مخلوقةٌ، خِلافًا لِـمَن قال بِقِدَمِهَا.

٢٩٧٠- هَـذَا وَقَوْلِـي أَنَّهَـا لَيْسَـتْ كَـمَا ... قَـدْ قَـالَ أَهْـلُ الإِفْـكِ وَالْبُهْتَـانِ

٢٩٧١- لا دَاخِـلٌ فِينَـا وَلا هِـيَ خَـارِجٌ ... عَنَّـا كَـمَا قَـالُوهُ فِي الـدَّيَّانِ

يعني: وكذلك أقولُ: ليستِ الروحُ كما قال أهل الإفك والبُهتان: «لا دَاخِلٌ فِينَا وَلا هِيَ خَارِجٌ عَنَّا كَمَا قَالُوهُ فِي الدَّيَّانِ» سبحان الله!

يقول: الروحُ ليست داخلَ العالم، ولا خارجَ العالم، كما أنَّ اللهَ ليس داخلَ العالم ولا خارجَ العالم، إِذَنْ أين تذهبُ الروحُ؟ إذا كانت الروحُ لا داخلَ العالم ولا خارجَه فأين تذهبُ؟! إِذَنْ هي عدمٌ، وأيضًا قولُهم: الرحمنُ ليس بداخل العالم ولا خارجه إِذَنْ هو أيضًا عَدَمٌ؛ ولهذا قال:

٢٩٧٢- وَاللهِ لا الـرَّحْمَنَ أَثْبَـتُّمْ وَلا ... أَرْوَاحَكُـمْ يَـا مُـدَّعِي الْعِرْفَـانِ

قَوْلُهُ: «وَاللهِ لا الرَّحْمَنَ أَثْبَتُّمْ» لماذا لم يُثْبِتُوا الرحمن؟ لأنهم يقولون: إنَّ اللهَ لا داخلَ العالم ولا خارجَه.

قَوْلُهُ: «ولا أَرْوَاحَكُمْ» ولا أرواحهم؛ لأنهم يقولون: لا داخلَ العالم ولا خارجَ العالم، سبحان الله!

قَوْلُهُ: «يَا مُدَّعِي الْعِرْفَانِ» ما أبلغَ هذا التهكُّمَ بهم! تهكُّمٌ شديدٌ، وهذا كما

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته، رقم (٣٣٣٢)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٣).

قال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] إنَّ هذا من باب التهكُّم الذي يُرادُ به الإهانةُ التامةُ.

إن أحدهم يقول: والله إنَّ روحي لا داخلَ العالم ولا خارجَه، فنقول: أليست بجسمك الآن؟ هل أنت لا داخلَ العالم ولا خارجَه؟ فأنت الآن لا عرفتَ اللهَ ولا عرفتَ نفسك، ومع ذلك تَدَّعِي أنت أنَّك صاحبُ الفلسفة، وصاحبُ الحكمة، وصاحبُ العقل، وصاحبُ النظر، ولهذا يُسَمُّون أنفسَهم النُّظَّار، جمع (ناظر) يعني أنهم هم أهلُ النظر والمعرفة، وهذا مُنتهَى عقولِهم.

٢٩٧٣- عَطَّلْتُمُ الأَبْدَانَ مِنْ أَرْوَاحِهَا وَالْعَرْشَ عَطَّلْتُمْ مِنَ الرَّحْمَنِ

الأبدان عطَّلوها من الأرواح؛ لأنه إذا كانت رُوحُ الإنسانِ لا داخلَ ولا خارجَ العالم فمعناه أنَّ جسدَه ليست به روحٌ، وإذا كان الرحمنُ لا داخلَ العالم ولا خارجَه فمعناه: أنه ليس هناك رحمنٌ على العرش.

لكن هل الأَوْلى التوقُّف في مسألة الروح أو الأَولى إذا بدا له شيءٌ واستنباطٌ من الكتاب والسُّنَّة أن يقولَ به؟

نقول: الواجبُ على مَنْ بدا له شيءٌ من الكتاب والسُّنَّة أن يعتقدَه، أمَّا نَشْرُه بين الناس فهذا يُنْظَرُ فيه للمصلحة، فقد يكونُ من المصلحة أن تُبْقِي الناسَ على ما هم عليه من فِطرهم، وتدعَ هذا الخوضَ والتفاصيلَ في هذا الشيء، وقد يكونُ من المصلحة أن تُبيِّنَ، فإذا كنَّا وسط قوم قد صار عندهم بحثٌ في حقيقة الروح وكيفيتها، وما أشبه ذلك، فالواجب أن تُبيِّنَ هذه الأشياء، ولا سيما إذا كنت ترى مثلًا أنَّ هؤلاء يتكلَّمون فيها بباطل، أمَّا إذا كنت عند قوم لم يعرفوا إلَّا ما فُطِروا عليه على وجه الإجمال فقد يكونُ في التفصيل فتنةٌ.

فصل

فِي كَسْرِ المَنْجَنِيقِ الَّذِي نَصَبَهُ أَهْلُ التَّعْطِيلِ عَلَى مَعَاقِلِ الإِيمَانِ وَحُصُونِه(١) جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ

٢٩٧٤- لَا يُفْزِعَنَّكَ قَعَاقِعٌ وَفَرَاقِعٌ ... وَجَعَاجِعٌ عَرِيَتْ عَنِ الْبُرْهَانِ

٢٩٧٥- مَا عِنْدَهُمْ شَيْءٌ يَهُولُكَ غَيْرُ ذَا ... كَ الْمَنْجَنِيقِ مُقَطِّعِ الأَرْكَانِ

٢٩٧٦- وَهُوَ الَّذِي يَدْعُونَهُ التَّرْكِيبَ مَنْـ ... ـصُوبًا عَلَى الإِثْبَاتِ مُنْذُ زَمَانِ

٢٩٧٧- أَرَأَيْتَ هَذَا الْمَنْجَنِيقَ فَإِنَّهُمْ ... نَصَبُوهُ تَحْتَ مَعَاقِلِ الإِيمَانِ؟

٢٩٧٨- بَلَغَتْ حِجَارَتُهُ الحُصُونَ فَهَدَّتِ(٢) الْـ ... ـشُرُفَاتِ وَاسْتَوْلَتْ عَلَى الجُدْرَانِ

٢٩٧٩- لله كَمْ حِصْنٍ عَلَيْهِ اسْتَوْلَتِ الْـ ... ـكُفَّارُ مِنْ ذَا الْمَنْجَنِيقِ الْجَانِي!

٢٩٨٠- وَاللهِ مَا نَصَبُوهُ حَتَّى عَبَّرُوا(٣) ... قَصْدًا عَلَى الحِصْنِ الْعَظِيمِ الشَّانِ

٢٩٨١- وَمِنَ الْبَلِيَّةِ أَنَّ قَوْمًا بَيْنَ أَهْـ ... ـلِ الْحِصْنِ وَاطَوْهُمْ عَلَى العُدْوَانِ

٢٩٨٢- وَرَمَوْا بِهِ مَعَهُمْ وَكَانَ مُصَابُ أَهْـ ... ـلِ الحِصْنِ مِنْهُمْ فَوْقَ ذِي الْكُفْرَانِ

٢٩٨٣- فَتَرَكَّبَتْ مِنْ كُفْرِهِمْ وَوِفَاقِ مَنْ ... فِي الْحِصْنِ أَنْوَاعٌ مِنَ الطُّغْيَانِ

---

(١) في نسخة التيمورية: «وخصومه» بالخاء المعجمة.

(٢) في نسختي ابن سحمان: «فهزت» بالزاي المعجمة.

(٣) في نسخة برلين والإفتاء والتيمورية وابن سحمان: «غيروا» بغين بعدها ياء معجمتين.

٢٩٨٤- وَجَرَتْ عَلَى الْإِسْلَامِ أَعْظَمُ مِحْنَةٍ ... مِنْ ذَيْنِ تَقْدِيرًا مِنَ الرَّحْمَنِ
٢٩٨٥- وَاللهِ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَ دِينَهُ الرْ ... رَحْمَنُ كَانَ كَسَائِرِ الْأَدْيَانِ
٢٩٨٦- لَكِنْ أَقَامَ لَهُ الْإِلَهُ بِفَضْلِهِ ... يَزَكًا مِنَ الْأَنْصَارِ وَالأَعْوَانِ
٢٩٨٧- فَرَمَوْا عَلَى ذَا الْمَنْجَنِيقِ صَوَاعِقًا ... وَحِجَارَةً هَدَّتْهُ لِلْأَرْكَانِ
٢٩٨٨- فَاسْأَلْهُمْ مَا ذَا الَّذِي يَعْنُونَ بِالتْـ ... تَرْكِيبِ فَالتَّرْكِيبُ سِتُّ مَعَانِ؟
٢٩٨٩- إِحْدَى[1] مَعَانِيهِ هُوَ التَّرْكِيبُ مِنْ ... مُتَبَايِنٍ كَتَرَكُّبِ الْحَيَوَانِ
٢٩٩٠- مِنْ هَذِهِ الْأَعْضَا، كَذَا أَعْضَاؤُهُ ... قَدْ رُكِّبَتْ مِنْ أَرْبَعِ الْأَرْكَانِ
٢٩٩١- أَفَلَازِمٌ ذَا لِلصِّفَاتِ لِرَبِّنَا ... وَعُلُوِّهِ مِنْ فَوْقِ كُلِّ مَكَانِ؟
٢٩٩٢- وَلَعَلَّ جَاهِلَكُمْ يَقُولُ مُبَاهِتًا: ... ذَا لَازِمُ الْإِثْبَاتِ بِالْبُرْهَانِ
٢٩٩٣- فَالْبُهْتُ عِنْدَكُمْ رَخِيصٌ سِعْرُهُ ... حَثْوًا بِلَا كَيْلٍ وَلَا مِيزَانِ

الشرحُ

يقول المؤلفُ: «**فَصْلٌ فِي كَسْرِ الْمَنْجَنِيقِ الَّذِي نَصَبَهُ أَهْلُ التَّعْطِيلِ عَلَى مَعَاقِلِ الإِيمَانِ وَحُصُونِهِ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ**» المَنْجَنِيقُ والمِنْجَنِيقُ هو آلةٌ حربيَّةٌ تُسْتَعْمَلُ في القتال تُشْبِهُ ما يَسَمَّى الآن بالمدافع، والمراد بالمنجنيق هنا هو التركيب الذي جعله أهلُ التعطيل مُسْتَنَدَهم، وقالوا: إنَّ إثباتَ الصفاتِ يَستلزِمُ التركيبَ، والتركيبُ ممتنِعٌ؛ لأنه يستلزمُ الحدوثَ من وجه، وافتقارَ المركَّب إلى ما معه من المركَّب، وإذا

---

(١) في نسخة التيمورية: «أهذى».

كان اللازمُ باطلًا كان الملزومُ باطلًا؛ فلذلك لا نُثْبِتُ الصفاتِ خوفًا من التركيب.

قال المؤلف -رحمه الله-:

٢٩٧٤- لَا يُفْزِعَنَّكَ قَعَاقِعٌ وَفَرَاقِعٌ وَجَعَاجِعٌ عَرِيَتْ عَنِ الْبُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «لَا يُفْزِعَنَّكَ قَعَاقِعٌ وَفَرَاقِعٌ» القَعْقَعَةُ: هي صوتُ الجِلد اليابس وما أشبَهَهُ يقعقع.

والفراقع: هي صوتٌ أضعفُ من هذا، ومنه قولهم: (فرقعةُ الأصابع).

والجعاجع: بالقول، أو هو الصوت، ومنه قولهم: «تَسْمَعُ جَعْجَعَةً وَلَا تَرَى طِحْنًا».

يقول: هذه الأصواتُ مِن الفَراقع والقَعاقع والجعاجع كُلُّها عاريةٌ عن البرهان.

٢٩٧٥- مَا عِنْدَهُمْ شَيْءٌ يَهُولُكَ غَيْرُ ذَا كَ الْـمَنْجَنِيقِ مُقَطَّعِ الأَرْكَانِ

يعني أنَّه منجنيقٌ، لكنَّه ليس له أركانٌ فلا يَثْبُتُ.

٢٩٧٦- وَهُوَ الَّذِي يَدْعُونَهُ التَّرْكِيبَ مَنْـ ـصُوبًا عَلَى الْإِثْبَاتِ مُنْذُ زَمَانِ

قَوْلُهُ: «يَدْعُونَهُ التَّرْكِيبَ» يعني: يُسَمُّونه التركيبَ، هذا هو الذي عندهم، فيقولُ ابنُ القيِّم:

٢٩٧٧- أَرَأَيْتَ هَذَا الْـمَنْجَنِيقَ فَإِنَّهُمْ نَصَبُوهُ تَحْتَ مَعَاقِلِ الْإِيمَانِ؟

قَوْلُهُ: «معاقل» المَعَاقِل: جمع (مَعْقِل)، وهو المكانُ الذي ينعقلُ به الإنسانُ ويتحصَّنُ به.

يقول: أَخْبِرْنِي عن هذا المنجنيق فإِنَّهم نصبوه على أي شيءٍ؟ الجواب: نصبوه تحتَ معاقلِ الإيمان.

٢٩٧٨- بَلَغَتْ حِجَارَتُهُ الحُصُونَ فَهَدَّتِ الْـ ـشُرُفَاتِ وَاسْتَوْلَتْ عَلَى الجُدْرَانِ

قَوْلُهُ: «بَلَغَتْ حِجَارَتُهُ الْـحُصُونَ» يعني: أنه يبلغ، وليس منجنيقًا سهلًا، لكن سَيُبَيِّن المؤلفُ -رحمه الله- أنَّ أثرَه ضعيفٌ.

٢٩٧٩- لله كَمْ حِصْنٍ عَلَيْـهِ اسْـتَوْلَتِ الْـ ـكُفَّارُ مِنْ ذَا الْـمَنْجَنِيقِ الْـجَانِي!

هذا الحصنُ الذي نصبوه على معاقل الإيمان صار سُلَّمًا للكفَّار يُنكرون به ما ثبت بالتواتر، فمثلًا أهلُ التخييل أنكروا حقائقَ الإيمان باليوم الآخر، مستندِين بذلك إلى العِلَّة التي أنكر بها أهلُ التعطيل صفاتِ الله؛ لأنهم يقولون: إنَّ الإيمانَ باليوم الآخر لا يقبلُه العقلُ، فهم يقولون: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾؟ [يس:٧٨] والذين أنكروا صفاتِ الله قالوا: إنَّ العقلَ لا يقبلُها أيضًا، وإذا كان لا يقبلُها فإنَّنا لا نثبتُها.

فصار هذا المنجنيقُ[١] الذي نصبوه على معاقل الإيمان سُلَّمًا للكفَّار يَسْتَنِدُون إليه في كفرهم.

٢٩٨٠- وَالله مَـا نَصَـبُوهُ حَتَّـى عَـبَّرُوا قَصْدًا عَلَى الحِصْنِ الْعَظِيمِ الشَّـانِ

يعني أنهم لم ينصِبوا هذا المنجنيقَ إلَّا لِيَعْبُرُوا إلى الحِصن العظيم الشانِ، وهو ما جاءت به الرُّسلُ، مِن أَجْلِ أن يهدِموه ويقضوا عليه.

---

(١) المَنْجَنِيقُ بفَتْح المِيم وكَسْرها، مَع فَتْح الجِيم: آلَةٌ تُرْمَى بِها الحِجارةُ على العَدُوِّ، وذَلِك بأَنْ تُشَدَّ سَوارٍ مُرْتَفِعَةٌ جِدًّا مِن الخشَب، يُوضَعُ عَلَيها مَا يُرادُ رَمْيُه، ثُمَّ يُضْرَبُ بسَارِيَةٍ تُوصِله لمَكانٍ بَعيدٍ جِدًّا، انظر: تاج العروس من جواهر القاموس (٢٥/ ١٣٢) مادة: جنق.

٢٩٨١- وَمِـنَ الْبَلِيَّـةِ أَنَّ قَوْمًـا بَـيْنَ أَهْـ ـلِ الْـحِصْنِ وَاطَوْهُمْ عَلَى العُدْوَانِ

من البَلِيَّةِ أَنَّ أهلَ الحِصن الذين يرميهم هؤلاء بالمنجنيق واطئوا أهلَ المنجنيق على العدوان، وكأنَّه يشيرُ إلى أهل التعطيل الذين قاموا ضد أهل الإثبات؛ لأنَّ الكفارَ ينصبون المنجنيقَ على أهل الإثبات والإيمان، فجاء قومٌ ممَّن يَدَّعون أنَّهم مسلمون فنصبوا على أهل الإثبات نفسَ المنجنيق.

٢٩٨٢- وَرَمَوْا بِهِ مَعَهُمْ وَكَانَ مُصَابُ أَهْـ ـلِ الحِصْنِ مِنْهُمْ فَوْقَ ذِي الْكُفْـرَانِ

يعني: الذي أصابَ أهلَ الحصن من هؤلاء الذين واطئوا الكفَّار صار أشدَّ ممَّا أصابهم من الكفَّار؛ لأنَّ الكافرَ إذا رمى أهلَ السُّنَّة بشيء فكُلٌّ يردُّ قولَه وكلٌّ يَنْفِرُ منه، لكن إذا جاءنا إنسانٌ من أهل الملة ينصِبُ المنجنيقَ على أهل السُّنَّة صار ذلك أشدَّ؛ لأنَّ الذي من أهل الملة يُقْبَلُ أكثر من الإنسان الكافر.

٢٩٨٣- فَتَرَكَّبَتْ مِنْ كُفْرِهِمْ وَوِفَـاقِ مَـنْ فِي الْـحِصْنِ أَنْـوَاعٌ مِـنَ الطُّغْيَـانِ

لأنَّ العدوَّ الآن صار من الداخل ومن الخارج.

٢٩٨٤- وَجَرَتْ عَلَى الْإِسْلَامِ أَعْظَـمُ مِحْنَـةٍ مِـنْ ذَيْـنِ تَقْـدِيرًا مِـنَ الـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «مِنْ ذَيْنِ» المشارُ إليه: مَنْ كان خارجَ الحصن، ومَنْ كان داخلَ الحصن.

٢٩٨٥- وَاللهِ لَـوْلَا أَنْ تَـدَارَكَ دِينَـهُ الـرْ رَحْمَـنُ كَـانَ كَسَـائِرِ الْأَدْيَـانِ

فالحمد لله، يعني: لولا أنَّ اللهَ تداركَ دينَه بِمَنْ مَنَّ بهم مِنْ أهل السُّنَّة الذين يناضلون ويدافعون لكان كسائرِ الأديان التي حُرِّفَتْ، وكُتِمَتْ، وتلاعبَ بها الناسُ.

٢٩٨٦- لَكِـنْ أَقَـامَ لَـهُ الْإِلَـهُ بِفَضْلِهِ   يَزَكًا مِـنَ الْأَنْصَـارِ وَالأَعْـوَانِ

أقام اللهُ -سبحانه وتعالى- لهذا الدين يَزَكًا، واليَزَكُ: الظاهرُ -والله أعلم- أنَّ معناه الجُنْدُ القويُّ من الأنصار والأعوان حتَّى رَدُّوا كيدَ الحاقدين من داخل الحصن وخارجه.

٢٩٨٧- فَرَمَوْا عَلَى ذَا الْـمَنْجَنِيقِ صَـوَاعِقًا   وَحِجَـارَةً هَدَّتْـهُ لِلْأَرْكَـانِ

الحمد لله، رَمَوْا على هذا المنجنيق صواعقَ من فوق، وحجارةً من تحت، حتَّى هدموه وأزالوه، وذلك بما يأتي:

٢٩٨٨- فَاسْأَلْـهُمْ مَا ذَا الَّذِي يَعْنُونَ بِالتْـ   ـتَرْكِيبِ فَالتَّرْكِيـبُ سِـتُّ مَعَـانِ؟

يعني: اسألهم ما هو التركيبُ الممتنِعُ الذي جعلوه وسيلةً إلى إنكار صفاتِ الله؛ لأنَّه -على حدِّ زعمهم- باطلٌ، وما استلزمَ الباطلَ فهو باطلٌ.

يقول: التركيب له ستّة معانٍ، ذكرها قائلًا:

٢٩٨٩- إِحْدَى مَعَانِيهِ هُـوَ التَّرْكِيـبُ مِـنْ   مُتَبَـايِنٍ كَتَرَكُّـبِ الْـحَيَوَانِ

يعني: المعنى الأول للتركيب ما تركَّب من أشياءَ متباينةٍ، مثل: الحيوان، فهو مُركَّبٌ من أعضاء متباينة في حقيقتِها، وفي شَكْلِها، وفي منافعِها، فاللحمُ غيرُ العظمِ، والعظمُ غيرُ الجلدِ، والكَبِدُ غيرُ الكَرِش، والكَرِشُ غيرُ الأمعاء... وهكذا.

جسمٌ واحدٌ لكنَّه مركَّبٌ من أشياءَ عديدةٍ لا يعلمُها إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ، يعني: ففي الجسمِ مركَّباتٌ عظيمةٌ وغريبةٌ وعجيبةٌ، هذا تركيبٌ، هل تقولون: إنَّ الجسمَ بهذا التركيب صار أجسامًا؟ الجواب: لا، هو جسمٌ واحدٌ، وهو مركَّبٌ من أشياءَ متباينةٍ.

٢٩٩٠- مِنْ هَذِهِ الْأَعْضَا، كَذَا أَعْضَاؤُهُ قَدْ رُكِّبَتْ مِنْ أَرْبَعِ الْأَرْكَانِ

الأعضاءُ أيضًا مركَّبةٌ من أربعة أركان: يدٌ يُمنى، ويدٌ يسرى، ورِجْلٌ يمنى، ورِجْلٌ يسرى.

٢٩٩١- أَفَلَازِمٌ ذَا لِلصِّفَاتِ لِرَبِّنَا وَعُلُوِّهِ مِنْ فَوْقِ كُلِّ مَكَانِ؟

يعني: هل يلزمُ أن يكونَ الإنسانُ بهذا التركيب متعددًا؟ الجواب: لا.

فإذا كان هذا لا يلزمُ في المخلوق فكيف يلزمُ في الخالق؟! فالرَّبُّ عزَّ وجلَّ له صفاتٌ متعددةٌ: سمعٌ، وبَصَرٌ، وعِلمٌ، وقُدرةٌ، وغيرُ ذلك من الصفات، وهذا لا يلزمُ التعدد.

٢٩٩٢- وَلَعَلَّ جَاهِلَكُمْ يَقُولُ مُبَاهِتًا: ذَا لَازِمُ الْإِثْبَاتِ بِالْبُرْهَانِ

يعني: ربَّما يقولُ الجاهلُ منكم: إنَّ هذا لازمٌ، يعني أنَّ هذا التركيبَ يَلْزَمُ منه التعددُ، ولكن يقولُ: هذا من باب المباهتة والمكابرة والمراوغة، وإلَّا فحقيقةُ الأمر أنه ليس كذلك.

٢٩٩٣- فَالْبُهْتُ عِنْدَكُمُ رَخِيصٌ سِعْرُهُ حَثْوًا بِلَا كَيْلٍ وَلَا مِيزَانِ

البهت: يعني: **الكذب**، سعرُه رخيصٌ أو بلا شيءٍ، ومع ذلك: **(حَثْوًا بِلَا كَيْلٍ وَلَا مِيزَانِ)** مَنْ جاء قال: «**الكيس بقِرش وهات**» وهذا لا شكَّ أنه بئسَ المطيَّةُ، بئس مطيَّةُ الرجل زعموا.

فهؤلاء -والعياذ بالله- لا يُهِمُّهم أن يبهَتوا أو يكذبوا أو يقولوا شيئًا لا يدخلُ في العقل بحُجَّة أنَّه هو العقل.

* * *

٢٩٩٤- هَـذَا وَثَانِيهَـا: فَتَرْكِيـبُ الْـجِوَا ... رِ وَذَاكَ بَـيْنَ اثْنَـيْنِ يَفْتَرِقَـانِ[1]

٢٩٩٥- كَالْـجِسْرِ وَالْبَـابِ الَّـذِي تَرْكِيبُـهُ ... بِجِـوَارِهِ لِـمَحَلِّهِ مِـنْ بَانِـي[2]

٢٩٩٦- وَالْأَوَّلُ الْـمَدْعُوُّ تَرْكِيـبَ امْتِـزَا ... جٍ وَاخْـتِلَاطٍ وَهْـوَ ذُو تِبْيَـانِ

٢٩٩٧- أَفَـلَازِمٌ ذَا مِـنْ ثُبُـوتِ صِـفَاتِهِ؟ ... أَيْضًـا تَعَـالَى اللهُ ذُو السُّـلْطَانِ!

٢٩٩٨- وَالثَّالِـثُ: التَّرْكِيـبُ مِـنْ مُتَمَاثِـلٍ ... يُـدْعَى الْـجَوَاهِرَ فَـرْدَةَ الْأَكْـوَانِ

٢٩٩٩- وَالرَّابِعُ: الجِسْمُ المُرَكَّبُ مِـنْ هَيُـو ... لَاهُ وَصُـورَتِهِ لَـدَى الْيُونَـانِ

٣٠٠٠- وَالجِسْمُ فَهْوَ مُرَكَّبٌ مِنْ ذَيْنِ عِنْـ ... ـدَ الْفَيْلَسُـوفِ، وَذَاكَ ذُو بُطْـلَانِ

٣٠٠١- وَمِنَ الْـجَوَاهِرِ عِنْدَ أَرْبَابِ الْكَـلَا ... مِ وَذَاكَ أَيْضًـا وَاضِـحُ الْـبُطْلَانِ

٣٠٠٢- فَالْـمُثْبِتُونَ الْـجَوْهَرَ الْفَرْدَ الَّـذِي ... زَعَمُـوهُ أَصْـلَ الـدِّينِ وَالإِيـمَانِ

٣٠٠٣- قَـالُوا بِـأَنَّ الْـجِسْمَ مِنْـهُ مُرَكَّـبٌ ... وَلَــهُمْ خِـلَافٌ وَهْـوَ ذُو أَلْـوَانِ

٣٠٠٤- هَلْ يُمْكِنُ التَّرْكِيبُ مِنْ جُزْأَيْنِ أَوْ ... مِـنْ أَرْبَـعٍ أَوْ سِـتَّةٍ وَثَـمَانِ

٣٠٠٥- أَوْ سِتَّ عَشْرَةَ قَدْ حَكَاهُ الْأَشْعَرِي ... يُ لِـذِي مَقَـالَاتٍ عَـلَى التِّبْيَـانِ

٣٠٠٦- أَفَـلَازِمٌ ذَا مِـنْ ثُبُـوتِ صِـفَاتِهِ ... وَعُلُـوِّهِ؟ سُـبْحَانَ ذِي السُّـبْحَانِ!

٣٠٠٧- وَالْـحَقُّ أَنَّ الْـجِسْمَ لَـيْسَ مُرَكَّبًـا ... مِـنْ ذَا وَلَا هَـذَا هُـمَا عَـدَمَانِ

٣٠٠٨- وَالْـجَوْهَرُ الْفَرْدُ الَّـذِي قَـدْ أَثْبَتُـو ... هُ فِي الْـحَقِيقَةِ لَـيْسَ ذَا إِمْكَـانِ

---

(١) في نسختي برلين والسفارينية: «يقترنان» بقاف مثناة.

(٢) في نسخة الإفتاء: «ثاني».

٣٠٠٩- لَوْ كَانَ ذَلِكَ ثَابِتًا لَزِمَ الْـمُحَا ... لُ لِوَاضِحِ[1] الْـبُطْلَانِ وَالْبُهْتَانِ

٣٠١٠- مِنْ أَوْجُهٍ شَتَّى وَيَعْسُرُ نَظْمُهَا ... جِدًّا لِأَجْلِ صُعُوبَةِ الْأَوْزَانِ

٣٠١١- أَتَكُونُ خَرْدَلَةٌ تُسَاوِي الطَّوْدَ فِي الْـ ... أَجْزَاءِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَذْهَانِ؟!

٣٠١٢- إِذْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا أَجْزَاؤُهُ ... لَا تَنْتَهِي بِالْعَدِّ وَالْـحُسْبَانِ

٣٠١٣- وَإِذَا وَضَعْتَ الْـجَوْهَرَيْنِ وَثَالِثًا ... فِي الْوَسْطِ وَهْوَ الْحَاجِزُ الْوَسْطَانِي

٣٠١٤- فَلِأَجْلِهِ افْتَرَقَا فَلَا يَتَلَاقَيَا[2] ... حَتَّى يَزُولَ إِذَنْ فَيَلْتَقِيَانِ

٣٠١٥- مَا مَسَّهُ إِحْدَاهُمَا مِنْهُ هُوَ الْـ ... ـمَمْسُوسُ[3] لِلثَّانِي بِلَا فُرْقَانِ

٣٠١٦- هَذَا مُحَالٌ أَوْ تَقُولُوا غَيْرَهُ ... فَهْوَ انْقِسَامٌ وَاضِحُ التِّبْيَانِ

الشرحُ

٢٩٩٤- هَذَا وَثَانِيهَا: فَتَرْكِيبُ الْـجِوَا ... رِ وَذَاكَ بَيْنَ اثْنَيْنِ يَفْتَرِقَانِ

يعني: تركيبٌ بين شيئَيْن متباينَيْن لكنَّهما متجاوران، مثل: تركيب الباب، فالبابُ مع الجدار هذا تركيبٌ، والبابُ مع المحمل الدائر عليه (البرواز) هذا تركيبٌ، لكن كُلُّ واحدٍ منهما منفصِلٌ عن الثاني؛ ولهذا قال:

٢٩٩٥- كَالْـجِسْرِ وَالْبَابِ الَّذِي تَرْكِيبُهُ ... بِجِوَارِهِ لِـمَحَلِّهِ مِنْ بَانِي

(١) في نسخة الإفتاء وابن سحمان: «الواضح».
(٢) في نسخة التيمورية: «يتواليا».
(٣) في نسختي ابن سحمان: «المحسوس».

يعني: الجسر والباب، الجسرُ الذي نسمِّيه نحن السَّقف الذي على الباب، ثُمَّ يُرَكَّبُ البابُ، وهذا نوعٌ من التركيب، ويُسَمَّى تركيبَ الجوار، وتركيبُ الجوار بالاتفاق لا يعني أنَّهما شيءٌ واحد، فكلٌّ يَعرِفُ أنَّ المتجاورَيْن متباينان.

٢٩٩٦- وَالْأَوَّلُ الْــمَدْعُوُّ تَرْكِيــبَ امْتِــزَا ... جٍ وَاخْــتِلَاطٍ وَهْــوَ ذُو تِبْيَــانِ

قَوْلُهُ: «والأول» ما هو الأوَّلُ؟ الجواب: هو تركيبُ الواحدِ من متباينَيْن.

٢٩٩٧- أَفَــلَازِمٌ ذَا مِــنْ ثُبُــوتِ صِــفَاتِهِ؟ ... أَيْضًــا تَعَــالَى اللهُ ذُو السُّــلْطَانِ!

هل يلزمُ من ثبوت صفاتِ الله أن يكون مركَّبًا بالمعنى الأوَّل أو بالثاني يعني: تركيبَ جوار أو تركيبَ تباين؟ الجوابُ: لا.

٢٩٩٨- وَالثَّالِــثُ: التَّرْكِيــبُ مِــنْ مُتَمَاثِــلٍ ... يُــدْعَى الْــجَوَاهِرَ فَــرْدَةَ الْأَكْــوَانِ

الثالثُ: تركيبُ الفرد أو الجوهر، وهو أن يتركَّبَ شيءٌ مع آخرَ مماثلٍ له، وهذا وإن كان ابنُ القيِّم -رحمه الله- وشيخُ الإسلام قد تكلَّما به منذ قرون فقد أثبته العلمُ الحديثُ.

وقضيةُ علم الذرة أو القنابل الذرية من هذا الباب؛ لأنَّ كلَّ شيء وإن كان متماثلًا فإنَّه يدورُ حولَ شيء، فكُلُّ شيء في الإنسان وفي غير الإنسان ذرات يدورُ بعضُها حولَ بعض، وتتكون هذه الأجسامُ، منها اللَّيِّن وهو الذي لا يلتصقُ بغيره كثيرًا، ومنها القاسي: وهو الذي يكون منضمًّا بقوة وكثرة مع الآخر؛ ولهذا نجدُ فرقًا بين لِين القطن وقسوة الحديد أو الحجارة؛ وذلك لأنَّ كُلَّ واحدةٍ في الحديد والحجارة قد شُدَّت إلى الأخرى بقوة بخلافها في الشيء اللَّيِّن، هذا يسمُّونه فيما سبق عند الفلاسفة الجوهر الفرد، وهو الآن ثابتٌ، وأساسُ القنابل الذريَّة على

هذا؛ لأنَّ النظرية فيها أنَّ هذه المكونات للأجسام للقنبلة تتمزَّقُ وتتفرَّقُ فيحصلُ التَّصدُّعُ للجبال والجدران حتَّى في الإنسان نفسِه.

٢٩٩٩- وَالرَّابِعُ: الجِسْمُ المُرَكَّبُ مِنْ هَيُولَاهُ وَصُورَتِهِ لَدَى الْيُونَانِ

الرابع: تركيبُ الـهَيُولَى والصورة، وهذا التركيبُ العام لكُلِّ مركَّبٍ، مثلًا: الإنسان: زيد، عمرو، خالد...إلخ، هو في جسمه مركَّبٌ، يسمُّونه المركَّب من الـهَيُولى والصورة، الـهَيُولَى يعني كما نقول: الجسم، والصورة: الشَّكل، فيكون كُلُّ شيءٍ مركَّبًا من هَيُولَاه وصورته.

٣٠٠٠- وَالجِسْمُ فَهْوَ مُرَكَّبٌ مِنْ ذَيْنِ عِنْـدَ الْفَيْلَسُوفِ، وَذَاكَ ذُو بُطْلَانِ

الفلاسفة يقولون: الجسمُ مركَّبٌ من الهَيُولَى والصورة، لكنَّ ابنَ القيِّم يقولُ: إنَّه ذو بطلان، وليس كذلك، فالجسمُ لا بُدَّ له من صورة، فلا نقولُ: إنَّ الصورةَ مركَّبةٌ معه، فكُلُّ جسمٍ لا بُدَّ له من صورة، ولا يصحُّ أن نقولَ: إنَّه مركَّبٌ من شيئَيْن، هو نفسُه شيءٌ واحد، ولا بُدَّ لكُلِّ شيء موجودٍ بالفعل أن يكونَ له صورةٌ على حسب ما يليقُ به، فأنتم تقولون: إنَّ الجسمَ مركَّبٌ من الهَيُولَى والصورة مِن أَجْلِ إنكار صفات الله وغيرها؛ لأنكم إذا جعلتم الجسمَ مركَّبًا من شيئَيْن صارت الصفاتُ غيرَ الموصوف، وهذا هو الذي جعلهم يُنكرون صفاتِ الله؛ لأنَّهم يقولون: لو أثبتنا لله صفةً لزِم تعددُ القدماء، وأن تكونَ هذه الصفاتُ قديمةً، ونفسُ الله عزَّ وجلَّ قديمٌ، فيلزم من ذلك تعددُ القدماء.

شيخُ الإسلامِ وابنُ القيِّم أنكرا هذا، وقالا: لا يمكنُ أن نقولَ: إنَّ الجسمَ مركَّبٌ من شيئَيْن، بل هو شيءٌ واحدٌ، ولكن لا بُدَّ لكُلِّ شيءٍ موجودٍ من صورة.

قالوا: الجسمُ أيضًا مركَّبٌ من الجواهر؛ ولذا قال:

٣٠٠١- وَمِنَ الْـجَوَاهِرِ عِنْدَ أَرْبَابِ الْكَـلَا ... مِ وَذَاكَ أَيْضًـا وَاضِـحُ الْـبُطْلَانِ

الجسم عند الفلاسفة من القسم الرابع من التركيب، وعند أهل الكلام من القسم الثالث.

وابنُ القيِّم ذكر بطلانَ الأوَّل، ثُمَّ ذكر بطلانَ الثاني فقال: «**وذاك أيضًا واضِحُ البُطلانِ**».

٣٠٠٢- فَالْـمُثْبِتُونَ الْـجَوْهَرَ الْفَرْدَ الَّـذِي ... زَعَمُـوهُ أَصْـلَ الـدِّينِ وَالإِيـمَانِ

٣٠٠٣- قَـالُوا بِـأَنَّ الْـجِسْمَ مِنْـهُ مُرَكَّـبٌ ... وَلَــهُمْ خِـلَافٌ وَهْـوَ ذُو أَلْـوَانِ

هؤلاء الذين يدَّعون أنَّ الجسمَ مركَّبٌ من الجواهر الفردة، العلمُ الحديثُ يُؤيِّدُ قولَهم في الواقع، لكن ابن تَيْمِيَّة وابن القيِّم صارا ينكران هذا؛ لأنه لم يكن العلمُ المادِيُّ قد انتهى إلى ما انتهى إليه اليوم، فقالا: إنَّ الجوهرَ الفردَ -وهو الذي لا ينقسمُ- شيءٌ ممتنِعٌ، ما من شيءٍ إلَّا وهو قابلٌ للانقسام، حتَّى رأس الإبرة قابلٌ للانقسام، فلا يوجدُ شيء إلَّا وهو قابلٌ للانقسام، فإذا قلتم: المركَّب كُلُّ قابلٍ للانقسام لزِم أن تصفوا اللهَ بأنَّه لا شيء، ولزِم أن تصفوا الإنسانَ أيضًا بأنَّه لا شيء، أو يلزمكم ثُبُوتُ الإنسانِ وادِّعاء أنَّه مركَّبٌ من الجواهر الفردة؛ ولهذا (**قالُوا بِأَنَّ الْـجِسْمَ مِنْهُ مُرَكَّبٌ وَلَـهُمْ خِلَافٌ وَهْوَ ذُو أَلْوَانِ**) أي: أنواعٌ من الخلاف.

٣٠٠٤- هَلْ يُمْكِنُ التَّرْكِيبُ مِنْ جُزْأَيْنِ أَوْ ... مِـنْ أَرْبَـعٍ أَوْ سِـتَّةٍ وَثَـمَانِ

٣٠٠٥- أَوْ سِتَّ عَشْرَةَ قَدْ حَكَاهُ الْأَشْعَرِ   يُ لِـذِي مَقَـالَاتٍ عَـلَى التِّبْيَـانِ

فالأقوالُ إِذَنْ خمسةٌ: جزآن، أربعةُ أجزاءٍ، ستةُ أجزاءٍ، ثمانيةُ أجزاءٍ، ستة عَشَرَ جزءًا.

قَوْلُهُ: «قَدْ حَكَاهُ الْأَشْعَرِي لِذِي مَقَالَاتٍ عَلَى التِّبْيَانِ» (المقالات) أي: كتابٌ اسمُه: (مقالات الإسلاميين) للأَشْعَرِيِّ -رحمه الله-، ذكر هذه الأنواعَ من التراكيب، وفَنَّدَ الباطلَ منها.

٣٠٠٦- أَفَـلَازِمٌ ذَا مِـنْ ثُبُـوتِ صِـفَاتِهِ   وَعُلُـوِّهِ؟ سُبْحَانَ ذِي السُّـبْحَانِ!

يعني: هذا التركيبُ الذي هو تركيبُ الجواهرِ الفردة هل يَلْزَمُ من إثبات صفاته أَن نقولَ: إنَّه مركَّبٌ من الجواهر الفردة؟ الجواب: أبدًا؛ لأنَّ جنسَ الخالق يخالفُ جنسَ المخلوق، ولا يمكنُ أن يُوافقَ المخلوقَ في أيِّ شيءٍ من الأشياء.

فإذا كان بنو آدمَ مخلوقين من تراب، والملائكةُ من نور، والشَّياطينُ والجنُّ من نار، ومع ذلك فكُلُّها أجسامٌ تُرَى، واختلفتْ في أصلِها ومادتِها، فكيف تُلزمون بأَنَّ مَنْ أثبتَ لله صفةً لزِمه أَنْ يجعلَ اللهَ مركَّبًا من الجواهر الفردة، أو الـهَيُولَى والصورة، أو ما أشبه ذلك؟!

٣٠٠٧- وَالْـحَقُّ أَنَّ الْـجِسْمَ لَـيْسَ مُرَكَّبًـا   مِـنْ ذَا وَلَا هَـذَا هُمَـا عَـدَمَانِ

ابنُ القيِّم -رحمه الله- ينكرُ أَن يكونَ الجسمُ مركَّبًا من الهيولى والصورة، ويقول: إنَّ كلَّ جسمٍ فهو مقارنٌ لصورته، وليس مركَّبًا منها، وكذلك الجوهر الفرد.

٣٠٠٨- وَالْـجَوْهَرُ الْفَرْدُ الَّـذِي قَـدْ أَثْبَتُـو   هُ فِي الْـحَقِيقَةِ لَـيْسَ ذَا إِمْكَـانِ

٣٠٠٩- لَوْ كَانَ ذَلِكَ ثَابِتًا لَزِمَ الْمُحَا ... لُ لِوَاضِحِ الْبُطْلَانِ وَالْبُهْتَانِ

٣٠١٠- مِنْ أَوْجُهٍ شَتَّى وَيَعْسُرُ نَظْمُهَا ... جِدًّا لِأَجْلِ صُعُوبَةِ الْأَوْزَانِ

يعني: أنَّ إثباتَ الجوهر الفرد هذا مستحيلٌ، وليس في الحقيقة ممكنًا من أوجهٍ متعددة، لكن اعتذر المؤلفُ عن سردِها مِن أَجْلِ صعوبة الأوزان، يعني النظمَ، ولكنَّها مذكورٌة في كتب شيخ الإسلام -رحمه الله- كثيرًا، وكذلك في بعض كتب ابنِ القيِّم، لكن من جملة بطلانه ما ذكره في قوله:

٣٠١١- أَتَكُونُ خَرْدَلَةٌ تُسَاوِي الطَّوْدَ فِي الْـ ... أَجْزَاءِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَذْهَانِ؟!

٣٠١٢- إِذْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا أَجْزَاؤُهُ ... لَا تَنْتَهِي بِالْعَدِّ وَالْحُسْبَانِ

وهذا ليس بممكنٍ، لكن عندهم ممكنٌ؛ لأنَّهم يقولون: إنَّ الخردلةَ -وهي حبَّةٌ صغيرةٌ جدًّا- تنقسمُ إلى أجزاء، ولا بُدَّ أن تنقسمَ، وإذا كانت تنقسمُ إلى أجزاء لا نهايةَ لها لزِم أن تكونَ مساويةً للجبل الطَّوْد العظيم.

وهذا شيءٌ لا يمكنُ لا في شرعٍ ولا في حِسٍّ ولا في عقل، أن تكون الخردلةُ مثلَ الطَّوْد، بناءً على أنَّه ما من شيءٍ إلَّا وهو قابلٌ للانقسام، فيكون هذا مساويًا لهذا؛ لأنَّك حتَّى لو قلتَ: قَسِّم الجبلَ إلى ألف، وقَسِّم الخردلةَ إلى ألف، والواحدُ من ألفٍ في الجبل أكثرُ من الخردلة قَسِّمه أيضًا إلى ألف، ثُمَّ قَسِّم كُلَّ واحدٍ منه إلى ألف، والنهاية أنَّها لا تنقسمُ كما أنَّ الخردلةَ كذلك.

٣٠١٣- وَإِذَا وَضَعْتَ الْجَوْهَرَيْنِ وَثَالِثًا ... فِي الْوَسْطِ وَهْوَ الْحَاجِزُ الْوَسْطَانِي

٣٠١٤- فَلِأَجْلِهِ افْتَرَقَا فَلَا يَتَلَاقَيَا ... حَتَّى يَزُولَ إِذَنْ فَيَلْتَقِيَانِ

٣٠١٥- مَا مَسَّهُ إِحْدَاهُمَا مِنْهُ هُوَ الْـ ـمَمْسُوسُ لِلثَّانِي بِلَا فُرْقَانِ

٣٠١٦- هَذَا مُحَالٌ أَوْ تَقُولُوا غَيْرَهُ فَهْوَ انْقِسَامٌ وَاضِحُ التِّبْيَانِ

هذا في الرَّدِّ على المتكلِّمين الذين أثبتوا الجوهرَ الفردَ، والفلاسفة أثبتوا التركيبَ من الهيولى والصورة، والعجب أنَّ كُلَّ واحدٍ من هؤلاء رَدَّ على الآخر، وقال: إنَّ الجوهرَ الفردَ غيرُ ممكنٍ، وإنما هو شيءٌ في الخيال، ولو أنَّنا قلنا به للزِم أن تتساوى الذرةُ الصغيرةُ التي لا منتهى لأجزائها بالجبل الكبير؛ لأنَّ كُلًّا منهما ينتهي إلى لا شيء.

وهذا شيءٌ محالٌ ومكابرةٌ للحِسِّ، فلذلك كفى اللهُ المؤمنين القتالَ بردٍّ بعض هؤلاء على بعض.

وأولئك المتكلِّمون أيضًا رَدُّوا على هؤلاء بأنَّ الهَيُولَى هي الصورة، وأنَّه لا يمكنُ وجودُ هيولَى بلا صورةٍ، والهيولَى ماهيَّةُ الشيء، لا بُدَّ أن يكونَ الهيولَى على صورة معيَّنة لا تنفكُّ إحداهما عن الأخرى.

***

٣٠١٧- وَالخَامِسُ: التَّرْكِيبُ مِنْ ذَاتٍ مَعَ الْـ أَوْصَافِ هَذَا بِاصْطِلَاحٍ ثَانِ

٣٠١٨- سَمَّوْهُ تَرْكِيبًا وَذَلِكَ وَضْعُهُمْ مَا ذَاكَ فِي عُرْفٍ وَلَا قُرْآنِ

٣٠١٩- لَسْنَا نُقِرُّ[1] بِلَفْظَةٍ مَوْضُوعَةٍ بِالْاِصْطِلَاحِ لِشِيعَةِ الْيُونَانِ

٣٠٢٠- أَوْ مَنْ تَلَقَّى عَنْهُمْ مِنْ فِرْقَةٍ جَهْمِيَّةٍ لَيْسَتْ بِذِي عِرْفَانِ

---

(١) في نسختي برلين وابن سحمان: «نفر» بالفاء الموحدة.

٣٠٢١- مِنْ[1] وَصْفِهِ سُبْحَانَهُ بِصِفَاتِهِ الْـ ـعُلْيَا وَنَتْرُكُ مُقْتَضَى الْقُرْآنِ

٣٠٢٢- وَالْعَقْلِ وَالْفِطْرَاتِ أَيْضًا كُلِّهَا قَبْلَ الْفَسَادِ وَمُقْتَضَى الْبُرْهَانِ

٣٠٢٣- سَمُّوهُ مَا شِئْتُمْ فَلَيْسَ الشَّأْنُ فِي الْـ أَسْمَاءِ بِالْأَلْقَابِ ذَاتِ الشَّانِ

٣٠٢٤- هَلْ مِنْ دَلِيلٍ يَقْتَضِي إِبْطَالَ ذَا التْـ ـتَرْكِيبِ مِنْ عَقْلٍ وَمِنْ فُرْقَانِ؟

٣٠٢٥- وَاللهِ لَوْ نُشِرَتْ شُيُوخُكُمُ لَمَا قَدَرُوا عَلَيْهِ وَلَوْ أَتَى الثَّقَلَانِ

٣٠٢٦- وَالسَّادِسُ: التَّرْكِيبُ مِنْ مَاهِيَّةٍ وَوُجُودِهَا مَا هَاهُنَا شَيْئَانِ

٣٠٢٧- إِلَّا إِذَا اخْتَلَفَ اعْتِبَارُهُمَا فَذَا فِي الذِّهْنِ وَالثَّانِي فَفِي الْأَعْيَانِ

٣٠٢٨- فَهُنَاكَ يُعْقَلُ كَوْنُ ذَا غَيْرًا لِذَا فَعَلَى اعْتِبَارِهِمَا هُمَا غَيْرَانِ

٣٠٢٩- أَمَّا إِذَا اتَّحَدَا اعْتِبَارًا كَانَ نَفْـ ـسُ وُجُودِهَا هُوَ ذَاتَهَا لَا ثَانِي

٣٠٣٠- مَنْ قَالَ شَيْئًا غَيْرَ ذَا كَانَ الَّذِي قَدْ قَالَهُ ضَرْبًا مِنَ الْفُعْلَانِ[2]

الشرحُ

٣٠١٧- وَالْخَامِسُ: التَّرْكِيبُ مِنْ ذَاتٍ مَعَ الْـ أَوْصَافِ هَذَا بِاصْطِلَاحٍ ثَانِ

الخامس: التركيبُ من الذات والأوصاف؛ فالإنسانُ مثلًا إنسانٌ بشرٌ ذاتٌ، أوصافُه: الحياةُ، والعلمُ، والقدرة، والسَّمعُ، والبصرُ، وما أشبهَ ذلك، قالوا: فهذا تركيبٌ، كيف كان تركيبًا؟ قالوا: هذا تركيبٌ من الذات ومن الصفات، فسمَّوْا

(١) في نسخة الإفتاء: «في».

(٢) في نسخة الإفتاء: «الغفلان» بغين معجمة ثم فاء موحدة.

هذا تركيبًا، ومِنْ ثَمَّ أنكروا صفاتِ الله، قالوا: لأننا لو أثبتنا لله صفةً لزِم التركيبُ، ولكنَّ ابنَ القيِّم رَدَّ عليهم فقال:

٣٠١٨- سَمَّوْهُ تَرْكِيبًا وَذَلِكَ وَضْعُهُمْ مَا ذَاكَ فِي عُرْفٍ وَلَا قُرْآنِ

قَوْلُهُ: «سَمَّوْهُ تَرْكِيبًا وَذَلِكَ وَضْعُهُمْ» يعني: اصطلاحًا، وليس من وضع اللغة.

قَوْلُهُ: «مَا ذَاكَ فِي عُرْفٍ وَلَا قُرْآنِ» يعني: ليس هذا في عُرف أهل اللغة ولا في القرآن الكريم العربيِّ أن يكونَ الموصوفُ وصفتُه مُرَكَّبَيْنِ أبدًا، بل الموصوفُ لا يمكنُ أن يُوجدَ بلا صفةٍ، كُلُّ موجودٍ فلا بُدَّ له من صفةٍ.

٣٠١٩- لَسْنَا نُقِرُّ بِلَفْظَةٍ مَوْضُوعَةٍ بِالْإِصْطِلَاحِ لِشِيعَةِ الْيُونَانِ

يعني أنَّ ابنَ القيِّم أنكر هذا النوعَ من التركيب، وقال: هذا ليس بتركيبٍ؛ لأنَّ كُلَّ ذاتٍ فهي ملازمةٌ للصفات، فكُلُّ ذاتٍ لا بُدَّ أن يكونَ لها صفةٌ، وهل يمكنُ أن يكونَ الموصوفُ بصفاته مركَّبًا من ذاته وصفاته؟ الجواب: لا؛ إذ إنَّ الصفاتِ ملازمةٌ للذات، فلا وجودَ لذاتٍ بلا صفةٍ أبدًا.

قَوْلُهُ: «لَسْنَا نُقِرُّ» في النسخ التي عندنا: (**لَسْنَا نُقِرُّ**)، لكن يقولُ الشَّارحُ ابنُ عيسى -رحمه الله تعالى-: الصوابُ: (**لَسْنَا نَفِرُّ**) بدليل قوله: «**مِن وَصْفِه سبحانه بصفاته العليا**»[1] يعني: لَسْنَا نَفِرُّ من وصفه مِن أَجْلِ لفظةٍ موضوعة باصطلاحٍ ليس معروفًا في اللغة العربية، ولا في لغة القرآن.

(١) انظر: توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة ابن القيم (٢/ ١٨٦)، ط. المكتب الإسلامي.

وعلى هذا فلعلَّها (نَفِرُّ) بدليل قوله: «من وصفه سبحانه» فيكون البيتُ «لَسْنَا نَفِرُّ بِلَفْظَةٍ مَوْضُوعَةٍ» أي: بسبب لفظةٍ موضوعةٍ بالاصطلاح من وصفه سبحانه.

قَوْلُهُ: «بلفظةٍ مَوْضُوعَةٍ بِالْإِصْطِلَاحِ» ما هي اللفظة الموضوعة؟ هي التركيب من الذات والصفات، وأَنَّ وجودَ الصفاتِ مضافةً إلى الذات يُعْتَبَرُ تركيبًا.

قَوْلُهُ: «لشِيعة اليُونانِ» شيعة اليونان هم المتفلسِفة.

٣٠٢٠- أَوْ مَــنْ تَلَقَّــى عَــنْهُمْ مِــنْ فِرْقَــةٍ جَهْمِيَّــةٍ لَيْسَــتْ بِــذِي عِرْفَــانِ

هنا -رحمه الله- وصف الجهميَّةَ بأنَّهم مثل الببغاوات تُتَابعُ بدون معرفة، فهم أخذوا عن الفلاسفة هذا المعنى، وقالوا: إنَّ هذا تركيبٌ؛ ولهذا يُنكرون صفاتِ الله عزَّ وجلَّ.

٣٠٢١- مِنْ وَصْـفِهِ سُـبْحَانَهُ بِصِـفَاتِهِ الْــ ــعُلْيَا وَنَـتْرُكُ مُقْتَضَــى الْقُــرْآنِ

٣٠٢٢- وَالْعَقْـلِ وَالْفِطْـرَاتِ أَيْضًــا كُلِّهَــا قَبْلَ الْفَسَـادِ وَمُقْتَضَــى الْبُرْهَــانِ

يقولُ ابنُ القيِّم: إنَّ هذا التركيبَ -تركيب الذات مع الأوصاف- اصطلاحٌ حادثٌ، وهذا لا يُلْزِمُنَا بأن نَفِرَّ من وصف الله -سبحانه وتعالى- بصفاته ونتركُ مقتضى القرآن، ومقتضى العقل، ومقتضى الفطرة قبل تغيُّرها وفسادِها، ومقتضى البرهان.

فلا يمكنُ أن نتركَ هذا مِن أَجْلِ اصطلاحٍ حادثٍ مأخوذٍ عن اليونان، أو عمَّن أخذ منهم من فرقة الجهميَّة الجاهلة، بل نقولُ: إنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- ذو ذاتٍ وصفاتٍ حتَّى وإن سَمَّيتموه تركيبًا فإنَّ ذلك لا يُهِمُّنا.

٣٠٢٣- سَمُّوهُ مَا شِئْتُمْ فَلَيْسَ الشَّأْنُ فِي الْـ أَسْـمَاءِ بِالْأَلْقَـابِ ذَاتِ الشَّـانِ

قَوْلُهُ: «سَمُّوهُ مَا شِئْتُمْ» يعني: سَمُّوا إثباتَ الصفاتِ ما شئتم تركيبًا أو غير تركيب.

قَوْلُهُ: «فَلَيْسَ الشَّأْنُ فِي الأَسْمَاءِ بِالْأَلْقَابِ ذَاتِ الشَّانِ» يعني: ليس الشأن بأن تسمُّوه شيئًا مكروهًا فيكون مكروهًا، لا، بل الشَّأنُ بالمعاني، لو سمَّيتم هذا تركيبًا ونَفَّرتم الناسَ منه، وقلتم: إنَّ هذا يَسْتَلْزِمُ أن يكونَ الباري عزَّ وجلَّ مركَّبًا من ذاتٍ وصفاتٍ فإنَّ هذا لا يَقْلِبُ الحقَّ باطلًا.

٣٠٢٤- هَلْ مِنْ دَلِيلٍ يَقْتَضِي إِبْطَالَ ذَا التْـ ـرْكِيبِ مِـنْ عَقْـلٍ وَمِـنْ فُرْقَـانِ؟

قَوْلُهُ: «هَلْ مِنْ دَلِيلٍ يَقْتَضِي إِبْطَالَ ذَا التَّرْكِيبِ؟» الجواب: لا، ليس هناك دليلٌ يمنعُ هذا التركيبَ، ونحن إنما نقولُ: إنَّه تركيبٌ بناءً على تسميتكم إيَّاه، وإلَّا فنعلمُ أنَّ الإنسانَ بصفاتِه لا يكونُ مركَّبًا من شيئَيْن، بل هو بصفاتِه واحدٌ وليس متعددًا، إِذَنْ فلا تركيبَ، لكن أنتم إذا سمَّيتموه تركيبًا فنقول: سَمُّوه ما شئتم، نحن سنثبتُه لله عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «من عقلٍ» أي: دليل عقلي.

قَوْلُهُ: «من فرقان» أي: من قرآن: أي: دليلٍ سمعيٍّ.

٣٠٢٥- وَاللهِ لَـوْ نُشِـرَتْ شُـيُوخُكُمُ لَـمَا قَـدَرُوا عَلَيْـهِ وَلَـوْ أَتَـى الـثَّقَلَانِ

يعني: لَا يَقْدِرُ شيوخُكم لو نُشِرُوا أي: بُعثوا بعد موتهم، ما قَدروا على أن يأتوا بدليلٍ.

خلاصةُ هذا التركيبِ، وهو تركيبُ الذات مع الأوصاف:

أوَّلًا: نحن نمنعُ أن يكونَ تركيبًا؛ لأنَّ الموصوفَ لا يرى تعددًا بتعدد الصفات، وكُلُّ إنسانٍ عاقلٍ لا يرى أنَّ الموصوفَ إذا وُصِفَ تعدَّدَ بتعدُّد الصفات، فمثلًا (زيد) إذا قلنا: (إنَّ زيدًا سميعٌ) فهل (زيدٌ) يكونُ واحدًا؟ فإذا قلنا: (سميعٌ) صار اثنين، فإذا قلنا: (قدير) صار ثلاثةً؟ الجواب: أبدًا، لا أحدَ يقولُ بهذا.

ثانيًا: لو سَلَّمنا جدلًا أنَّ هذا تركيبٌ فهل من مانعٍ منه؟ الجواب: أبدًا، لا مانع، بل إنَّ الكتابَ والسُّنَّةَ والنظرَ دَلَّ على وجوده، أي: على وجود ذاتٍ موصوفة بالصفات، ولا يُعَدُّ هذا تركيبًا، ولو سمَّيتموه تركيبًا فإنَّه لا يكونُ تركيبًا.

٣٠٢٦- وَالسَّادِسُ: التَّرْكِيبُ مِنْ مَاهِيَّةٍ وَوُجُودِهَا مَا هَاهُنَا شَيْئَانِ

السادس: التركيبُ من الماهيَّة والوجودِ، هذا أيضًا يُسَمَّى تركيبًا عند الفلاسفة، ولكنَّه عند التأمُّلِ ليس بتركيبٍ، فماهيَّةُ الشيء هي ما يُسْأَلُ عنه بـ(ما) فتقول: ما هو؟ الجوابُ: إنسانٌ، هذا الماهيَّة.

يقولون: وجودُ الماهيَّة شيءٌ، والماهيَّةُ نفسُها شيءٌ آخر، فإذا قلت: «ماهيَّة ووجود ماهيَّة» صار مركَّبًا من الماهيَّة ووجودِها، ولكن هل هذا صحيح؟ لا يمكنُ أن يكونَ ماهيَّة إلَّا بوجود، ووجودُ ماهيَّة بلا وجود إنما هو في الذهن لا في الخارج.

يعني: قد يتصوَّرُ الإنسانُ إنسانيَّةً بلا إنسان، كالتي يُسمُّونها الكُلِّيَّات، لكن حقيقة الأمر هل يمكنُ أن يوجدَ إنسانٌ بلا وجود؟ الجواب: أبدًا، لا يمكن، ولذلك يقول المؤلف: «**وَالسَّادِسُ التَّرْكِيبُ مِنْ مَاهِيَّةٍ وَوُجُودِهَا**» أي من: ماهيَّة

ووجود ماهيَّة، ثُمَّ قال: «**مَا هَاهُنَا شَيْئَانِ**» وهذا رَدٌّ لهذا التركيب، يقولُ: إنَّ هذا التركيبَ لا يمكنُ أن يُسَمَّى تركيبًا؛ لأنه ليس هناك فرقٌ بين الماهيَّة ووجودِ الماهيَّة إلَّا في الذهن، فقد يُتَصوَّرُ مثلًا ماهيَّةٌ بلا وجود، وهذا لا يُعْتَدُّ به؛ لأنَّ الذهنَ قد يفرضُ الشيءَ المستحيلَ على أنَّه ممكنٌ فقد يتصوَّرُ اجتماعَ النقيضين وارتفاعِهما مع أنَّ ذلك في الخارج لا يمكنُ.

٣٠٢٧- إِلَّا إِذَا اخْتَلَفَ اعْتِبَارُهُمَا فَذَا ... فِي الذِّهْنِ وَالثَّانِي فَفِي الْأَعْيَانِ

٣٠٢٨- فَهُنَاكَ يُعْقَلُ كَوْنُ ذَا غَيْرًا لِذَا ... فَعَلَى اعْتِبَارِهِمَا هُمَا غَيْرَانِ

يعني: يقولُ -رحمه الله-: إنَّ الماهيَّةَ هي وجودُ الشيء إلَّا إذا اختلف الاعتبار بحيث يُقَالُ: إنَّ الذهنَ قد يَفْرِضُ وجودَ ماهيَّةٍ بلا وجودٍ، كَأَنْ يفرضُ الذهنُ إنسانًا لكن بلا وجود إنسان، هذا ممكنٌ، فممكن أن نقولَ: إنَّ الماهيَّةَ الذهنيَّة غيرُ الماهيَّة الخارجيَّة، أمَّا الماهيَّةُ الخارجيَّة فإنَّ وجودَها هو وجودُها في الحقيقة، فليس هناك تركيبٌ.

٣٠٢٩- أَمَّا إِذَا اتَّحَدَا اعْتِبَارًا كَانَ نَفْـ ... ـسُ وُجُودِهَا هُوَ ذَاتَهَا لَا ثَانِي

صحيحٌ، هذا أمرٌ واضح؛ لأنَّ الأوَّلَ تركيبُ ذاتٍ وصفاتٍ، والصفاتُ غيرُ الوجود، لكن هنا تركيب الذات والوجود، ماهيَّةُ الشيء ووجود الشيء، نقول: لا يمكنُ أن توجدَ ماهيَّةٌ بلا وجودٍ أبدًا، صحيحٌ توجد مثلًا (ذاتٌ) بلا سمعٍ وبلا بصر، لكن (ذات) بلا وجودٍ، هذا شيءٌ لا يُوجَدُ، إلَّا إذا قَدَّرْتَها اعتبارًا بالذهن، وقلتَ: يمكنُ أن يتصوَّرَ الإنسانُ ماهيَّةً بلا وجود، أمَّا في الخارج فلا توجدُ ماهيَّةٌ إلَّا بوجود، ولهذا قال: «**أَمَّا إِذَا اتَّحَدَا اعْتِبَارًا**» اعتبارًا يعني: باعتبار الخارج فهنا (**كان نفسُ وُجُودِهَا هُوَ ذَاتَهَا لَا ثَانِي**).

٣٠٣٠- مَنْ قَالَ شَيْئًا غَيْرَ ذَا كَانَ الَّذِي ... قَدْ قَالَهُ ضَرْبًا مِنَ الْفُعْلَانِ

قَوْلُهُ: «ضَرْبًا مِنَ الفُعْلَانِ» أي: من الوصف الذي على وزن «فُعْلَان» مثل: البُهتان، وهذا يفتحُ لنا بابًا إذا أردنا أن نُكَنِّيَ، مثلًا: تريدُ أن تسألَ عن شخص لا تحبُّ أن يُعْرَفَ اسمُه عند الحاضرين واسمهُ مثلًا: (أحمد) تقولُ: (ما رأيتَ أَفْعَلَ؟) فهذا يصلح تكنيةً.

وتقول: (ما رأيتُ مُفَعَّلًا) يعني: محمدًا، تريدُ أن لا يعرفَ الحاضرون اسمَه، وهذا جَيِّدٌ، أن يُكَنَّى عن الاسم بوزنه اللُّغَوِيّ، فيَعْرِفُ المخاطَبُ المقصودَ، والسَّامعُ لا يعرفُ المقصودَ.

* * *

٣٠٣١- هَذَا وَكَمْ خَبْطٍ هُنَا قَدْ زَالَ بِالتْـ ... ـتَفْصِيلِ وَهْوَ الْأَصْلُ فِي الْعِرْفَانِ

٣٠٣٢- وَابْنُ الْخَطِيبِ وَحِزْبُهُ مِنْ بَعْدِهِ ... لَمْ يَهْتَدُوا لِمَوَاقِعِ الْفُرْقَانِ[1]

٣٠٣٣- بَلْ خَبَّطُوا نَقْلًا وَبَحْثًا أَوْجَبَا ... شَكًّا لِكُلِّ مُلَدَّدٍ حَيْرَانِ

٣٠٣٤- هَلْ ذَاتُ رَبِّ الْعَالَمِينَ وُجُودُهُ ... أَمْ غَيْرُهُ فَهُمَا إِذَنْ شَيْئَانِ؟

٣٠٣٥- فَيَكُونُ تَرْكِيبًا مُحَالًا ذَاكَ إِنْ ... قُلْنَا بِهِ فَيَصِيرُ ذَا إِمْكَانِ

٣٠٣٦- وَإِذَا نَفَيْنَا ذَاكَ صَارَ وُجُودُهُ ... كَالْمُطْلَقِ الْمَوْجُودِ فِي الْأَذْهَانِ

٣٠٣٧- وَحَكَوْا أَقَاوِيلًا ثَلَاثًا ذَيْنِكَ الْـ ... ـقَوْلَيْنِ إِطْلَاقًا بِلَا فُرْقَانِ

٣٠٣٨- وَالثَّالِثُ: التَّفْرِيقُ بَيْنَ الْوَاجِبِ الْـ ... أَعْلَى وَبَيْنَ وُجُودِ ذِي الْإِمْكَانِ

(١) في نسخ التيمورية والإفتاء وابن سحمان: «العرفان».

٣٠٣٩- وَسَطَوْا عَلَيْهَا كُلِّهَا بِالنَّقْضِ وَالْـ ... إِبْطَالِ وَالتَّشْكِيكِ لِلْإِنْسَانِ[1]

٣٠٤٠- حَتَّى أَتَى مِنْ أَرْضِ آمِدَ آخِرًا ... ثَوْرٌ كَبِيرٌ بَلْ حَقِيرُ الشَّانِ

٣٠٤١- قَالَ: الصَّوَابُ الْوَقْفُ فِي ذَا كُلِّهِ ... وَالشَّكُّ فِيهِ ظَاهِرُ التِّبْيَانِ

٣٠٤٢- هَذَا قُصَارَى بَحْثِهِ وَعُلُومِهِ ... أَنْ شَكَّ فِي اللهِ الْعَظِيمِ الشَّانِ

الشرحُ

هذا تكميلٌ لِـمَا سبق في النوع السَّادس من التركيب وهو التركيبُ من الوجود والماهيَّة، وهو رأيُ الفلاسفة، يقولون: إِنَّ الشيءَ مركَّبٌ من وجودِه وماهيَّته، ونحن نقولُ: إِنَّ الوجودَ هو الماهيَّة، ولا يُتَصوَّرُ انفكاكُ أحدِهما عن الآخر إِلَّا في الذهن، أَمَّا في الواقع والحقيقة والخارج فإِنَّهُ لا يمكنُ أن يفترقا.

٣٠٣١- هَذَا وَكَمْ خَبْطٍ هُنَا قَدْ زَالَ بِالتْـ ... تَفْصِيلِ وَهْوَ الْأَصْلُ فِي الْعِرْفَانِ

(الخَبْطُ) معناه التَّحدُّث بالشيء على غير رَوِيَّةٍ، بل يَخْبِطُ خَبْطَ عَشْوَاء.

قَوْلُهُ: «كَمْ خَبْطٍ هُنَا قَدْ زَالَ بالتفصيل وَهْوَ الْأَصْلُ» ولهذا نجدُ أَنَّ التفصيلَ دائمًا في الأقوال المضطربة يكونُ حَلًّا للنزاع، مثالُ ذلك: اختلافُهم في الجسم، هل يوصف اللهُ بأنه ذو جسمٍ أو لا؟ فمنهم مَنْ أنكر ذلك، ومنهم مَنْ أثبتَه، ومنهم مَنْ فَصَّل.

وكذلك (الحيِّز) و(الحدُّ)، وما أشبه ذلك من الكلمات المُحْدَثَة التي اختلف الناس في إثباتها أو نفيها، فيأتي التفصيلُ فيقضي عليها، ويُبَيِّنُ الحقَّ، فالأصلُ في هذه المُجْمَلات المشتَبِهَة الأصل أنها تُحَلُّ بالتفصيل.

---

(١) في نسخ برلين والتيمورية والإفتاء والسفارينية: «للأذهان»، وهو أولى.

٣٠٣٢- وَابْنُ الْـخَطِيبِ وَحِزْبُهُ مِـنْ بَعْـدِهِ لَــمْ يَهْتَـدُوا لِـمَوَاقِعِ الْفُرْقَـانِ

٣٠٣٣- بَـلْ خَبَّطُـوا نَقْـلًا وَبَحْثًـا أَوْجَبَـا شَـكًّا لِكُـلِّ مُلَـدَّدٍ حَـيْرَانِ

قَوْلُهُ: «**ابنُ الخَطيبِ**» هو الرازي المفسِّر المشهورُ، والمتكلِّمُ الصوفيُّ الفلسفيُّ، وهو معروفٌ، ويُعتبر من أذكياء العلماء، وله شَطَحَاتٌ كثيرةٌ في التفسير وغيره، ولكن يُقَالُ: إنَّه في آخر عُمُره تاب إلى الله، واللهُ أعلمُ، لكن مؤلفاتُه معروفةٌ شهيرةٌ.

قَوْلُهُ: «**خبَّطوا نقلًا**» أي: فيما نقلوه عن غيرهم.

قَوْلُهُ: «**وبحثًا**» أي: فيما ناقشوه من آراء غيرهم؛ ولهذا يقولون: إنَّ الرازِيَّ من خصائص بحثه أنه يُوردُ المشكلاتِ على وجهٍ يُوقِعُ في الحَيرة ولا يأتي بحلِّها، فهو كما قال بعضُ المغاربة فيه: «إنه يَعْرِضُ المشكلاتِ نقدًا ولكن يكونُ حلُّها نسيئةً» يعني: يعطيك المشكلاتِ حالَّةً وأمَّا الحَلُّ فلا يعطيك إِيَّاه، بل يأتي به نسيئةً.

وهذا لا شكَّ أنَّ فيه مصلحةً من وجه، وهو أنه يسدُّ على الخصم كُلَّ أبواب الإيرادات، لكنَّه إذا لم ينتصر لقوله صار فيه نقصٌ من هذه الناحية؛ لأنه يُقَالُ للإنسان: إِمَّا أن تأتيَ بِحُجج الغير كاملة وتَردَّ عليها وإِمَّا أن تسكتَ، أَمَّا أن تفتحَ على قولك بابَ الثغرات ثُمَّ تعجِز عن سدِّ هذه الأبواب فهذا يُعتبر نقصًا.

يقول المؤلف -رحمه الله-: إنهم خَبَّطُوا نقلًا وبحثًا، نقلًا فيما نقلوه عن غيرهم، وبحثًا فيما ناقشوه.

قَوْلُهُ: «**أوجبا**» الضميرُ يعودُ على المنقول والمبحوث.

قَوْلُهُ: «شَكًّا لِكُلِّ مُلَدَّدٍ حَيْرَانِ» المُلَدَّد معناه الذي لم تُيَسَّر له الأمورُ، بل يُلَدِّد اللهُ أمرَه، ولا يُيَسِّر له أمرَه، والحيران أي: المتحيِّر.

٣٠٣٤- هَلْ ذَاتُ رَبِّ الْعَالَـمِينَ وُجُودُهُ   أَمْ غَيْرُهُ فَهُمَا إِذَنْ شَيْئَانِ؟

وهذا مَبْنِيٌّ على ما سبق وهو (التركيب السَّادس)، هل ذاتُ الله هي عينُ وجودِه أم هناك ذاتٌ ثُمَّ وجود، أي: الوجود شيءٌ آخر؟ إِنْ قلنا بالثاني صار هناك تركيبٌ بين الذات والوجود.

٣٠٣٥- فَيَكُونُ تَرْكِيبًا مُحَالًا ذَاكَ إِنْ   قُلْنَا بِهِ فَيَصِيرُ ذَا إِمْكَانِ

معلومٌ إذا قلنا: إنَّ وجودَه غيرُ ذاتِه لَزِمَ من هذا التركيبِ التعدُّدُ بأن يكونَ هناك وجودٌ وهناك ذاتٌ، وقد سبق لنا أنَّ هذا التركيبَ باطلٌ، وأَنَّ وجودَ كُلِّ شيءٍ هو ذاتُه، هذا باعتبار الأمرِ الخارج، لا باعتبار ما يفرضه الذهنُ، فالذهنُ قد يفرضُ أشياءَ مستحيلةً.

قَوْلُهُ: «إن قُلْنَا بِهِ فَيَصِيرُ ذَا إِمْكَانِ» يعني: إِنْ قلنا به صار ذا إمكان مع أَنَّه شيءٌ محالٌ.

٣٠٣٦- وَإِذَا نَفَيْنَا ذَاكَ صَارَ وُجُودُهُ   كَالْـمُطْلَقِ الْـمَوْجُودِ فِي الْأَذْهَانِ

يعني: أو نقول بنفي ذلك، يعني: أَنَّ ذاتَ الله ليست هي عينَ وجودِه، فيكون وجودُه كالمطلق الموجود في الأذهان، ومعنى (المطلق) إذا قالوا: (الشيء المطلق في الذهن): الذي لا يتقيَّدُ بصفةٍ، بل هو موجودٌ بشرط الإطلاق، ليس له صفةٌ، لا وجود، ولا حياة، ولا غيرها من الصفات.

فهم الآن ذكروا قولين: هل ذاتُه هي عين وجوده أو هما شيئان؟ وإذا نفينا

الشَّيئَيْن صارت الذاتُ موجودةً وجودًا مطلقًا بشرط الإطلاق، ومعنى مطلقًا يعني: غيرَ متصفةٍ بصفة، وهذا لا يمكنُ أن يُوجدَ في الخارج أبدًا، فلا يوجد شيءٌ موجودٌ إلَّا وهو متصفٌ بصفة.

٣٠٣٧- وَحَكَوْا أَقَاوِيلًا ثَلَاثًا ذَيْنِكَ الْـ ... ـقَوْلَيْنِ إِطْلَاقًا بِلَا فُرْقَانِ

قَوْلُهُ: «**وحَكَوْا أقاويلًا**»: (أقاويلًا): صرفها المؤلفُ مِن أَجْلِ استقامة الوزن، وإلَّا فإنَّها ممنوعةٌ من الصرف لصيغة منتهى الجموع.

قَوْلُهُ: «**بِلَا فُرْقَانِ**» الفرقانُ هو ما أشار إليه المؤلفُ أوَّلًا بأنه يُقَالُ: إن كان المرادُ الفردَ الذهنِيَّ فيمكنُ أَن تنفكَّ الذاتُ عن الوجود، وأمَّا إذا كان الحقيقةَ الواقعةَ فلا يمكنُ أن تنفردَ الذاتُ عن الوجود؛ إذ إنَّ الذاتَ هي عينُ وجودِها.

٣٠٣٨- وَالثَّالِثُ: التَّفْرِيقُ بَيْنَ الْوَاجِبِ الْـ ... أَعْلَى وَبَيْنَ وُجُودِ ذِي الْإِمْكَانِ

يعني: يُفَرِّقون بين الواجب الوجود وهو الله، وبين الممكن الوجود وهو المخلوق، فيُقَالُ: الرَّبُّ ذاتُه عينُ وجودِه بخلاف المخلوق.

فتكون الأقاويلُ الآن ثلاثةً: إمَّا نفي أن يكونَ الوجودُ هو عين الذات، أو يكون هو عين الذات، ويكون مركَّبًا، أو يُفَرَّق بين وجود الممكن ووجود الواجب.

٣٠٣٩- وَسَطَوْا عَلَيْهَا كُلِّهَا بِالنَّقْضِ وَالْـ ... إِبْطَالِ وَالتَّشْكِيكِ لِلْإِنْسَانِ

يعني: لـمَّا ذكروا الأقاويلَ الثلاثةَ نقضوها كُلَّها، وهل أتوا ببدلها؟ الجواب: لا، فبقي الإنسانُ متحيِّرًا، تُذْكَرُ الأقاويلُ عنده ثُمَّ تُنْقَضُ ولا يُذْكَرُ عنها بديلٌ، فيكون هذا هو غاية ما يكون من التشكيك للإنسان.

٣٠٤٠- حَتَّى أَتَى مِنْ أَرْضِ آمِدَ آخِرًا ثَوْرٌ كَبِيرٌ بَلْ حَقِيرُ الشَّانِ

وهو الآمِدِيُّ الأصولِيُّ المشهورُ، أتى من أرض آمِد، وقال:

٣٠٤١- قَالَ: الصَّوَابُ الْوَقْفُ فِي ذَا كُلِّهِ وَالشَّكُّ فِيهِ ظَاهِرُ التِّبْيَانِ

قال: «الصَّوَابُ الْوَقْفُ فِي ذَا كُلِّهِ» أي: نتوقَّف، فلا نقولُ: ذاتُه عينُ وجودِه، ولا غيرَه، ولا نُفَرِّقُ بين الواجب والممكن، بل نتوقَّف.

قَوْلُهُ: «وَالشَّكُّ فِيهِ ظَاهِرُ التِّبْيَانِ» الشَّكُّ في هذا القولِ ظاهرُ التبيان؛ لأنَّ المتوقِّفَ شاكٌّ، لم يجزِمْ برجحان شيءٍ على شيء.

٣٠٤٢- هَذَا قُصَارَى بَحْثِهِ وَعُلُومِهِ أَنْ شَكَّ فِي اللهِ الْعَظِيمِ الشَّانِ

قَوْلُهُ: «هَذَا قُصَارَى بَحْثِهِ وَعُلُومِهِ أَنْ شَكَّ» قولُه: «أَنْ شكَّ» بدل من «قُصارى» يعني: قصارى بحثه أَنْ شَكَّ في الله العظيم الشان، فصار غايةُ أمر الآمِدِيِّ الشَّكَّ في الله -والعياذ بالله- وهذا غايةُ ما يكونُ من الضَّلال.

* * *

فصل

فِي أَحْكَامِ هَذِهِ التَّرَاكِيبِ السِّتَّةِ

٣٠٤٣- فَالْأَوَّلَانِ حَقِيقَةُ التَّرْكِيبِ لَا ... تَعْدُوهُمَا فِي اللَّفْظِ وَالْأَذْهَانِ

٣٠٤٤- وَكَذَلِكَ الْأَعْيَانُ أَيْضًا إِنَّمَا التْـ ... ـتَرْكِيبُ فِيهَا ذَانِكَ النَّوْعَانِ

٣٠٤٥- وَالْأَوْسَطَانِ هُمَا اللَّذَانِ تَنَازَعَا الْـ ... ـعُقَلَاءُ فِي تَرْكِيبِ ذِي الْجُثْمَانِ

٣٠٤٦- وَلَهُمْ أَقَاوِيلٌ ثَلَاثٌ قَدْ حَكَيْـ ... ـنَاهَا وَبَيَّنَّا أَتَمَّ بَيَانِ

٣٠٤٧- وَالْآخَرَانِ هُمَا اللَّذَانِ عَلَيْهِمَا ... دَارَتْ رَحَى الْحَرْبِ الَّتِي تَرَيَانِ

٣٠٤٨- أَنْتُمْ جَعَلْتُمْ وَصْفَهُ سُبْحَانَهُ ... بِعُلُوِّهِ مِنْ فَوْقِ ذِي الْأَكْوَانِ

٣٠٤٩- وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا الَّتِي ثَبَتَتْ لَهُ ... بِالْعَقْلِ وَالْمَنْقُولِ ذِي الْبُرْهَانِ

٣٠٥٠- مِنْ جُمْلَةِ التَّرْكِيبِ ثُمَّ نَفَيْتُمُ ... مَضْمُونَهَا مِنْ غَيْرِ مَا بُرْهَانِ

٣٠٥١- فَجَعَلْتُمُ الْمِرْقَاةَ لِلتَّعْطِيلِ هَـ ... ـذَا الِاصْطِلَاحَ وَذَا مِنَ الْعُدْوَانِ

٣٠٥٢- لَكِنْ إِذَا قِيلَ: اصْطِلَاحٌ حَادِثٌ ... لَا حَجْرَ فِي هَذَا عَلَى إِنْسَانِ

٣٠٥٣- فَنَقُولُ: نَفْيُكُمْ بِهَذَا الِاصْطِلَا ... حِ صِفَاتِهِ هُوَ أَبْطَلُ الْبُطْلَانِ

٣٠٥٤- وَكَذَاكَ نَفْيُكُمْ بِهِ لِعُلُوِّهِ ... فَوْقَ السَّمَاءِ وَفَوْقَ كُلِّ مَكَانِ

٣٠٥٥- وَكَذَاكَ نَفْيُكُمْ بِهِ لِكَلَامِهِ ... بِالْوَحْيِ كَالتَّوْرَاةِ وَالْقُرْآنِ

٣٠٥٦- وَكَــذَاكَ نَفْــيُكُمْ لِرُؤْيَتِنَــا لَــهُ ... يَـوْمَ الْـمَعَادِ كَـمَا يُـرَى الْقَمَـرَانِ

٣٠٥٧- وَكَـذَاكَ نَفْـيُكُمُ لِسَـائِرِ مَـا أَتَـى ... فِي النَّقْلِ مِـنْ وَصْـفٍ بِغَـيْرِ مَعَـانِ

٣٠٥٨- كَالْوَجْهِ وَالْيَدِ وَالْأَصَـابِعِ وَالَّـذِي ... أَبَــدًا يَسُــوءُكُمُ بِــلَا كِــتْمَانِ

٣٠٥٩- وَبِــوُدِّكُمْ لَـوْ لَـمْ يَقُلْـهُ رَبُّنَـا ... وَرَسُــولُهُ الْـمَبْعُوثُ بِالْبُرْهَـانِ

٣٠٦٠- وَبِــوُدِّكُمْ وَاللهِ لَـمَّا قَالَــهُ ... أَنْ لَيْسَ يَـدْخُلُ مَسْـمَعَ الْإِنْسَـانِ

الشـرحُ

بَيَّن المؤلفُ -رحمه الله- أحكامَ هذه التراكيبِ السِّتَّة، فقال:

٣٠٤٣- فَـالْأَوَّلَانِ حَقِيقَــةُ التَّرْكِيــبُ لَا ... تَعْــدُوهُمَا فِي اللَّفْــظِ وَالْأَذْهَــانِ

٣٠٤٤- وَكَذَلِكَ الْأَعْيَـانُ أَيْضًـا إِنَّـمَا التْـ ... ـتَرْكِيــبُ فِيهَــا ذَانِـكَ النَّوْعَــانِ

قَوْلُهُ: «فَالْأَوَّلَانِ حَقِيقَةُ التَّرْكِيبُ لَا تَعْدُوهُما» وهما: التركيب بين مُتَبَايِنَيْنِ والتركيب بين مُتَجَاوِرَيْنِ، فهنا التركيبُ فيهما واضحٌ، فالجسمُ مثلًا مركَّبٌ من عظم، ولحم، وعصب، وجلد، وما أشبهَ ذلك، والبابُ في إطاره مركَّبٌ من الباب، والإطار، والسَّارية، وما أشبه ذلك.

٣٠٤٥- وَالْأَوْسَطَانِ هُمَا اللَّذَانِ تَنَازَعَا الْـ ... ـعُقَلَاءُ فِي تَرْكِيبِ ذِي الْـجُثْمَانِ

قَوْلُهُ: «والأوسطانِ» ما هما؟ الثالث: المركَّبُ من متماثلٍ يُدْعَى الجواهر، والرابع: المركَّبُ من الـهَيُولَى والصورة، يعني: مذهب الفلاسفة: الـهَيُولَى والصورة، ومذهبُ المتكلِّمين الجواهرُ الفردة.

٣٠٤٦- وَلَـهُمْ أَقَاوِيـلُ ثَـلَاثٌ قَـدْ حَكَيْـ ـــنَاهَا وَبَيَّنَّـــا أَتَـــمَّ بَيَـــانِ

وهذه الأقاويلُ هي التي أشار إليها عن ابن الخَطيب.

٣٠٤٧- وَالْآخَـــرَانِ هُمَـــا اللَّـــذَانِ عَلَـــيْهِمَا دَارَتْ رَحَى الْـحَرْبِ الَّتِي تَرَيَـانِ

قَوْلُهُ: «وَالْآخَرَانِ...» وهما: التركيبُ من الذات والصفات، ومن الماهيَّة والوجود؛ لأنَّ الماهيَّةَ والوجودَ في الحقيقة لا يعدو أن يكونَ من باب التركيب من الذات والصفات؛ إذ إنَّ الوجودَ صفةُ الموجود.

ثُمَّ قال المؤلف:

٣٠٤٨- أَنْـــتُمْ جَعَلْـــتُمْ وَصْـــفَهُ سُـــبْحَانَهُ بِعُلُـــوِّهِ مِـــنْ فَـــوْقِ ذِي الْأَكْـــوَانِ

٣٠٤٩- وَصِـــفَاتِهِ الْعُلْيَـــا الَّتِـــي ثَبَتَـــتْ لَـــهُ بِالْعَقْـلِ وَالْـــمَنْقُولِ ذِي الْبُرْهَـــانِ

٣٠٥٠- مِـــنْ جُمْلَـــةِ التَّرْكِيـــبِ ثُـــمَّ نَفَيْـــتُمُ مَضْـــمُونَهَا مِـــنْ غَـــيْرِ مَـــا بُرْهَـــانِ

قَوْلُهُ: «جَعَلْتُمْ وَصْفَهُ بِعُلُوِّه وصفاتِه العُليا» يعني: جعلتم ذلك من جملة التركيب.

فجعلوا اتِّصافَ الله بالصفات من باب التركيب، وقالوا: التركيبُ في حقِّ الباري ممتنعٌ، وقد ذكرنا أوَّلًا ما قاله ابنُ القيِّم من أننا نُثْبِتُ هذا التركيبَ وإن سمَّيتموه تركيبًا فإننا لن نَفِرَّ منه بمجرد ما سمَّيتموه، سمُّوه ما شئتم، فنحن نُثْبِتُ لله ذاتًا ونُثبتُ له صفاتٍ، أنتم سمَّيتموه تركيبًا أم لم تُسمُّوه لا يُهِمُّنا.

٣٠٥١- فَجَعَلْـــتُمُ الْـــمِرْقَاةَ لِلتَّعْطِيـــلِ هَـــ ـــذَا الِاصْطِلَاحَ وَذَا مِـــنَ الْعُـــدْوَانِ

قَوْلُهُ: «جَعَلْتُمُ الْـمِرْقَاةَ لِلتَّعْطِيلِ» أي: لتعطيل الرَّبِّ عزَّ وجلَّ من صفاتِه.

٣٠٥٢- لَكِنْ إِذَا قِيلَ: اصْطِلَاحٌ حَادِثٌ لَا حَجْرَ فِي هَذَا عَلَى إِنْسَانِ

يعني: في مسألة ما إذا قيل: إنَّ من التركيب تركيبَ الذات والصفات، فإذا قال إنسانٌ: لا تُنكروا علينا هذا التركيبَ لأنَّ هذا اصطلاحٌ، ولا مُشَاحَّة في الاصطلاح، ولا حَجْرَ على الإنسان فيما اصطلح عليه؛ فإن المؤلف يقول:

٣٠٥٣- فَنَقُولُ: نَفْيُكُمْ بِهَذَا الِاصْطِلَا حِ صِفَاتِهِ هُوَ أَبْطَلُ الْبُطْلَانِ

يعني: سلَّمنا أنَّ هذا اصطلاحُكم، ولا ننكرُ عليكم الاصطلاحَ، لكن الذي نُنكرُه هو نفيكم للصفات مِن أَجْلِ هذا الاصطلاح، حيث تقولون: إنَّ إثباتَ الصفاتِ يستلزمُ التركيبَ، والتركيبُ في حقِّ الخالق مُحَالٌ، وحينئذٍ يكون إثباتُ الصفات مُحالًا.

٣٠٥٤- وَكَذَاكَ نَفْيُكُمْ بِهِ لِعُلُوِّهِ فَوْقَ السَّمَاءِ وَفَوْقَ كُلِّ مَكَانِ

يعني: فإنَّ من أبطل البطلان أن تنكروا عُلوَّ الله مِن أَجْلِ دعواكم أنَّ هذا يستلزمُ التركيبَ، فهذا باطلٌ.

٣٠٥٥- وَكَذَاكَ نَفْيُكُمُ بِهِ لِكَلَامِهِ بِالْوَحْيِ كَالتَّوْرَاةِ وَالْقُرْآنِ

أي: ننكره عليكم، ونقولُ: إنه باطلٌ وإن وافقناكم على تسمية هذا تركيبًا.

قَوْلُهُ: «**كَالتَّوْرَاةِ**» المشهورُ عند السَّلف أنَّها من كلام الله، بل ولا أعلمُ أحدًا منهم إلَّا ويقول: إنَّها كلامُ الله، وقد كان الناسُ زمن المأمون يُمتحَنون في القرآن والتوراة والإنجيل والزبور، فالمتأوِّلون منهم تَأَوُّلًا صادقًا يشيرون إلى أيديهم ويقولون: هذه مخلوقةٌ، والمؤلفُ أيضًا كلامُه هنا يدلُّ عليه؛ ولذا قال: (**لِكلامِهِ بِالْوَحْيِ كَالتَّوْرَاةِ وَالْقُرْآنِ**).

لكن الذي ورد في القرآن أنَّ اللهَ كتبها وأنزلها، وليس هناك شيءٌ صريحٌ أنَّها كلامُ الله، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ [البقرة:٧٥] فهذا يحتملُ أنهم يسمعون التوراةَ، أو أنهم سمعوا كلامَ الله حين كلَّم موسى، وقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥]، أو يسمعون كلامَ الله، يعني: يسمعون القرآنَ ويحرِّفونه.

٣٠٥٦- وَكَــذَاكَ نَفْــيُكُمُ لِرُؤْيَتِنَــا لَــهُ ... يَـوْمَ الْــمَعَادِ كَـمَا يُـرَى الْقَمَـرَانِ

٣٠٥٧- وَكَـذَاكَ نَفْـيُكُمُ لِسَـائِرِ مَـا أَتَـى ... فِي النَّقْلِ مِـنْ وَصْـفٍ بِغَـيْرِ مَعَـانِ

كُلُّ هذا واضحٌ، يعني أنَّ الذي نُنكرُ عليكم ليس تسميتكم هذا تركيبًا، بل إنكاركم للصفات من أجله.

٣٠٥٨- كَالْوَجْهِ وَالْيَدِ وَالْأَصَـابِعِ وَالَّـذِي ... أَبَــدًا يَسُــوءُكُمُ بِــلَا كِــتْمَانِ

(الوجهُ) ثابتٌ لله عزَّ وجلَّ بالقرآن والسُّنَّةِ وإجماعِ السَّلف، وكذلك **(اليد)**، و**(الأصابع)** أيضًا ثبتت بالسُّنَّة، وكذلك الذي يسوءكم أبدًا كنزوله إلى السَّماء الدنيا، وما أشبه ذلك.

٣٠٥٩- وَبِـوُدِّكُمْ لَـوْ لَـمْ يَقُلْـهُ رَبُّنَـا ... وَرَسُــولُهُ الْــمَبْعُوثُ بِالْبُرْهَــانِ

يعني أنَّكم تَوَدُّون أنَّ اللهَ لم يصف نفسَه بهذه الصفات، وهذا من أغرب ما يكونُ، أن يكونوا أشدَّ غَيْرَةً من الله على الله، فيكرهون أن يَصِفَ اللهُ نفسَه بهذه الصفاتِ؛ خوفًا من التركيب على زعمهم.

٣٠٦٠- وَبِـــوُدِّكُمْ وَاللهِ لَــــوْ لَـمَّا قَالَـــهُ ... أَنْ لَيْسَ يَـدْخُلُ مَسْـمَعَ الْإِنْسَـانِ

يعني أنكم تودُّون أوَّلًا أنَّ اللهَ لم يقلْه ولا رسوله، ثُمَّ تودُّون ثانيًا ألَّا تدخلَ مسمعَ الإنسانِ، ولا يسمعَها الناسُ ولا تبلغهم.

***

٣٠٦١- قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى اسْتِنَادِ الْكَوْنِ أَجْـ ... ـــمَعِهِ إِلَى خَلَّاقِـــهِ الـــرَّحْمَنِ

٣٠٦٢- مَـا قَـامَ قَـطُّ عَـلَى انْتِفَـاءِ صِـفَاتِهِ ... وَعُلُـوِّهِ مِـنْ فَـوْقِ ذِي الْأَكْـوَانِ

٣٠٦٣- هُـوَ وَاحِـدٌ[1] فِي وَصْـفِهِ وَعُلُـوِّهِ ... مَــا لِلْــوَرَى رَبٌّ سِــوَاهُ ثَــانِ

٣٠٦٤- فَـلِأَيِّ مَعْنًــى تَجْحَــدُونَ عُلُــوَّهُ ... وَصِــفَاتِهِ بِالْفَشْــرِ وَالْــهَذَيَانِ؟

٣٠٦٥- هَـذَا وَمَـا الْــمَحْذُورُ إِلَّا أَنْ يُقَـا ... لَ: مَــعَ الإِلَـــهِ لَنَـــا إِلَـــهٌ ثَـــانِ

٣٠٦٦- أَوْ أَنْ يُعَطَّـلَ عَـنْ صِـفَاتِ كَمَالِـهِ ... هَـــذَانِ مَحْـــذُورَانِ مَحْظُـــورَانِ

٣٠٦٧- أَمَّـــا إِذَا مَـــا قِيـــلَ: رَبٌّ وَاحِـــدٌ ... أَوْصَـافُهُ أَرْبَـتْ عَـلَى الْــحُسْبَانِ

٣٠٦٨- وَهُـوَ الْقَـدِيمُ فَلَـمْ يَـزَلْ بِصِـفَاتِهِ ... مُتَوَحِّـــدًا بَـــلْ دَائِـــمُ الإِحْسَـــانِ

٣٠٦٩- فَبِـــأَيِّ بُرْهَـــانٍ نَفَيْـــتُمْ ذَا وَقُلْــــ ... ـتُمْ: لَيْسَ هَـذَا قَـطُّ فِي الْإِمْكَـانِ؟

٣٠٧٠- فَلَـئِنْ زَعَمْــتُمْ أَنَّــهُ نَقْــصٌ فَـذَا ... بُهْــتٌ فَــمَا فِي ذَاكَ مِــنْ نُقْصَــانِ

٣٠٧١- الـنَّقْصُ فِي أَمْـرَيْنِ: سَـلْبِ كَمَالِـهِ ... أَوْ شِرْكَـــةٍ بِالْوَاحِـــدِ الـــرَّحْمَنِ

٣٠٧٢- أَتَكُـونُ أَوْصَـافُ الْكَـمَالِ نَقِيصَـةً ... فِي أَيِّ عَقْـــلٍ ذَاكَ أَمْ قُـــرْآنِ؟!

(١) في نسخة ابن سحمان: «شيء» وما في المتن أَوْلَى.

٣٠٧٣- إِنَّ الْكَمَالَ بِكَثْرَةِ الأَوْصَافِ لَا ... فِي سَلْبِهَا ذَا وَاضِحُ الْبُرْهَانِ

٣٠٧٤- مَا النَّقْصُ غَيْرَ السَّلْبِ حَسْبُ وَكُلُّ نَقْـ ... ـصٍ أَصْلُهُ ذَا وَاضِحُ التِّبْيَانِ

٣٠٧٥- فَالْجَهْلُ سَلْبُ الْعِلْمِ وَهْوَ نَقِيصَةٌ ... وَالظُّلْمُ سَلْبُ الْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ

٣٠٧٦- مُتَنَقِّصُ الرَّحْمَنِ سَالِبُ وَصْفِهِ ... حَقًّا تَعَالَى اللهُ عَنْ نُقْصَانِ

٣٠٧٧- وَكَذَا الثَّنَاءُ عَلَيْهِ ذِكْرُ صِفَاتِهِ ... وَالْحَمْدُ وَالتَّمْجِيدُ كُلَّ أَوَانِ

٣٠٧٨- وَلِذَاكَ أَعْلَمُ خَلْقِهِ أَدْرَاهُمُ ... بِصِفَاتِهِ مَنْ جَاءَ بِالْقُرْآنِ

٣٠٧٩- وَلَهُ صِفَاتٌ لَيْسَ يُحْصِيهَا سِوَا ... هُ مِنْ مَلَائِكَةٍ وَلَا إِنْسَانِ

٣٠٨٠- وَلِذَاكَ يُثْنِي فِي الْقِيَامَةِ سَاجِدًا ... لَمَّا يَرَاهُ الْمُصْطَفَى بِعِيَانِ

٣٠٨١- بِثَنَاءِ حَمْدٍ لَمْ يَكُنْ فِي هَذِهِ الدْ ... دُنْيَا لِيُحْصِيَهُ مَدَى الأَزْمَانِ

٣٠٨٢- وَثَنَاؤُهُ بِصِفَاتِهِ لَا بِالسُّلُو ... بِ(١) كَمَا يَقُولُ الْعَادِمُ الْعِرْفَانِ

٣٠٨٣- وَالْعَقْلُ دَلَّ عَلَى انْتِهَاءِ الْكَوْنِ أَجْـ ... ـمَعِهِ إِلَى رَبٍّ عَظِيمِ الشَّانِ

٣٠٨٤- وَثُبُوتُ أَوْصَافِ الْكَمَالِ لِذَاتِهِ ... لَا يَقْتَضِي إِبْطَالَ ذَا الْبُرْهَانِ

٣٠٨٥- وَالْكَوْنُ يَشْهَدُ أَنَّ خَالِقَهُ تَعَا ... لَى ذُو الْكَمَالِ وَدَائِمُ السُّلْطَانِ

٣٠٨٦- وَكَذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ ... فَوْقَ الْوُجُودِ وَفَوْقَ كُلِّ مَكَانِ

٣٠٨٧- وَكَذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ الْـ ... ـمَعْبُودُ لَا شَيْءٌ مِنَ الأَكْوَانِ

(١) في نسخ التيمورية وابن سحمان: «بالسكوت» بالتاء المثناة.

٣٠٨٨- وَكَـذَاكَ يَشْـهَدُ أَنَّـهُ سُـبْحَانَهُ ذُو حِكْمَـةٍ فِي غَايَـةِ الْإِتْقَـانِ
٣٠٨٩- وَكَـذَاكَ يَشْـهَدُ أَنَّـهُ ذُو قُدْرَةٍ حَيٌّ عَلِيمٌ دَائِمُ الإِحْسَانِ
٣٠٩٠- وَكَـذَاكَ يَشْـهَدُ أَنَّـهُ الْفَعَّـالُ حَقْـ ـقًا كُـلَّ يَـوْمٍ رَبُّنَـا فِي شَـانِ
٣٠٩١- وَكَـذَاكَ يَشْـهَدُ أَنَّـهُ الْـمُخْتَارُ فِي أَفْعَالِـهِ حَقًّـا بِـلَا نُكْـرَانِ
٣٠٩٢- وَكَذَلِكَ يَشْهَدُ أَنَّـهُ الْـحَيُّ الَّـذِي مَـا لِلْمَـمَاتِ عَلَيْـهِ مِـنْ سُـلْطَانِ
٣٠٩٣- وَكَـذَاكَ يَشْـهَدُ أَنَّـهُ الْقَيُّـومُ قَـا مَ بِنَفْسِـهِ وَمُقِـيمُ ذِي الْأَكْـوَانِ
٣٠٩٤- وَكَـذَاكَ يَشْـهَدُ أَنَّـهُ ذُو رَحْمَـةٍ وَإِرَادَةٍ وَمَحَبَّـةٍ وَحَنَـانِ
٣٠٩٥- وَكَـذَاكَ يَشْـهَدُ أَنَّـهُ سُـبْحَانَهُ مُـتَكَلِّمٌ بِـالْوَحْيِ وَالْقُـرْآنِ
٣٠٩٦- وَكَـذَاكَ يَشْـهَدُ أَنَّـهُ سُـبْحَانَهُ الْـ خَـلَّاقُ بَاعِـثُ هَـذِهِ الْأَبْـدَانِ
٣٠٩٧- لَا تَجْعَلُـوهُ شَـاهِدًا بِـالزُّورِ وَالتْـ ـتَعْطِيلِ تِلْـكَ شَـهَادَةُ الْـبُطْلَانِ

الشـرحُ

٣٠٦١- قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى اسْتِنَادِ الْكَوْنِ أَجْـ ـمَعِهِ إِلَى خَلَّاقِـهِ الـرَّحْمَنِ

يعني أنَّ الكونَ كُلَّه مفتقِرٌ إلى الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه هو الخلَّاق الذي خلقه، وأتى بـ(الرحمن) لأنَّ الكونَ مفتقِرٌ لرحمة الله عزَّ وجلَّ، فلولا رحمةُ الله ما قام هذا الكونُ بأجمعِه.

٣٠٦٢- مَـا قَـامَ قَـطُّ عَـلَى انْتِفَـاءِ صِـفَاتِهِ وَعُلُـوِّهِ مِـنْ فَـوْقِ ذِي الْأَكْـوَانِ

قَوْلُهُ: «مَا قَامَ قَطُّ» يعني الدليل.

قَوْلُهُ: «قَطُّ عَلَى انْتِفَاءِ صِفَاتِهِ وَعُلُوِّهِ» يعني: ليس في القرآن ولا في السُّنَّة نفيُ صفاتِ الله، بل الذي فيهما نفيُ المماثلة؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] وكقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤] وكقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥] وهذا لا يدلُّ على انتفاء الصفاتِ وإنما يدلُّ على كمالِه، وأنه لكماله لا يوجدُ له مثيلٌ.

٣٠٦٣- هُوَ وَاحِدٌ فِي وَصْفِهِ وَعُلُوِّهِ ... مَا لِلْوَرَى رَبٌّ سِوَاهُ ثَانِ

٣٠٦٤- فَلِأَيِّ مَعْنًى تَجْحَدُونَ عُلُوَّهُ ... وَصِفَاتِهِ بِالْفَشْرِ وَالْهَذَيَانِ؟

قَوْلُهُ: «الْفَشْر» الكلامُ اللَّغْو.

قَوْلُهُ: «الْهَذَيَانِ» الكلامُ الذي لا يقصدُه صاحبُه، بل يأتي من كِبَرٍ أو نحوِه.

٣٠٦٥- هَذَا وَمَا الْمَحْذُورُ إِلَّا أَنْ يُقَا ... لَ: مَعَ الإِلَهِ لَنَا إِلَهٌ ثَانِ

وهذا هو الشِّركُ، هذا هو المحذور، أمَّا أن يُقالَ: إنَّ اللهَ واحدٌ مُتَّصفٌ بالصفات اللائقة به فهذا ليس بمحذورٍ، المحذورُ أن تجعلَ مع الله إلهًا آخرَ.

٣٠٦٦- أَوْ أَنْ يُعَطَّلَ عَنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ ... هَذَانِ مَحْذُورَانِ مَحْظُورَانِ

قَوْلُهُ: «هَذَانِ مَحْذُورَانِ مَحْظُورَانِ» هما: الشِّركُ، والثاني: التعطيلُ.

وقَوْلُهُ: «مَحْذُورَانِ» أي: يجبُ الحذرُ منهما.

وقَوْلُهُ: «مَحْظُورَانِ» أي: ممنوعان شرعًا، بل وعقلًا أيضًا؛ فإنَّ العقلَ قد دَلَّ على أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- متصفٌ بصفات الكمال، وأنه لا شريكَ له في ذلك.

٣٠٦٧- أَمَّا إِذَا مَا قِيلَ: رَبٌّ وَاحِدٌ ... أَوْصَافُهُ أَرْبَتْ عَلَى الْحُسْبَانِ

قَوْلُهُ: «أَرْبَت» يعني: زادت.

قَوْلُهُ: «على الحسبان» يعني الحساب.

إذا قيل: هو رَبٌّ واحدٌ لكن صفاته لا تُحْصَى فإنَّ هذا ليس بمُنكرٍ.

٣٠٦٨- وَهُوَ الْقَدِيمُ فَلَمْ يَزَلْ بِصِفَاتِهِ ... مُتَوَحِّدًا بَلْ دَائِمُ الإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «وَهُوَ الْقَدِيمُ» أي: وهو القديمُ وصفًا وليس اسمًا، فإنَّ (القديم) ليس من أسماء الله؛ لأنَّ ذلك لم يَرِدْ لا في القرآنِ ولا في السُّنَّة، ولكن يُوصَف بأنَّه قديمٌ، والقِدَم عندهم ليس هو القِدَمَ في اللغة العربية، القِدَمُ في اللغة العربية: سَبْقُ الغير ولو كان حادثًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس:٣٩] أمَّا القديمُ عند الفلاسفةِ والمتكلِّمين فهو الذي لم يُسْبَقْ بعدمٍ، ومع ذلك لا نُسَمِّي اللهَ به، وإن كان معناه صحيحًا، لكنَّنا لا نُسَمِّي اللهَ به؛ لأنَّ الأسماءَ توقيفيَّةٌ.

وقد ذكر أهلُ العلم أنَّه يُغني عنه (الأوَّل) الذي جاءت به النصوصُ، وفيه دلالةٌ صريحةٌ على أنَّه لم يسبقْه أحدٌ، ولم يقارنْه أحدٌ في وجوده عزَّ وجلَّ، وأنَّ الأمورَ تؤولُ إليه؛ لأنَّ (الأوَّل) قد يكون مشتقًّا من (الأَوْل) أيضًا.

إنما قول المؤلف: «وَهُوَ الْقَدِيمُ» هذا من باب الوصف لا الاسم.

٣٠٦٩- فَبِأَيِّ بُرْهَانٍ نَفَيْتُمْ ذَا وَقُلْـ ... ـتُمْ: لَيْسَ هَذَا قَطُّ فِي الإِمْكَانِ؟

الاستفهامُ هنا للنفي والتحدِّي، يعني: أَيُّ برهان ينفي ذلك وأنَّه لا يمكنُ أَنْ يتصف بالصفات؟ إن كان فأتوا به.

٣٠٧٠- فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ نَقْصٌ فَذَا بُهْتٌ فَمَا فِي ذَاكَ مِنْ نُقْصَانِ

يعني: لو قلتم: ننفي ثبوتَ الصفاتِ له؛ لأنَّه يقتضي أن يكونَ مركَّبًا من ذاتٍ وصفاتٍ وهذا نقصٌ، ماذا نقولُ؟ نقولُ: هذا كذبٌ وبهتٌ، فأيُّ نقصٍ يكونُ في اتِّصاف الله عزَّ وجلَّ بالصفات الكاملة، النقصُ في الحقيقة بسلبِ الصفاتِ عنه؛ ولهذا قال:

٣٠٧١- النَّقْصُ فِي أَمْرَيْنِ: سَلْبِ كَمَالِهِ أَوْ شِرْكَةٍ بِالْوَاحِدِ الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «سَلْبِ كَمَالِهِ» بدل.

النقصُ في أمرين: إمَّا سلبُ كماله كما زعم أهلُ التعطيل، وإمَّا الإشراكُ به كما زعم أهلُ التمثيل، فإنَّ أهلَ التمثيل يثبتون لله المثيلَ، وهذا شركٌ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢] إِذَنْ فالنقصُ فيمن غلا في الإثبات فمثَّل، أو غلا في النفي فعطَّل.

٣٠٧٢- أَتَكُونُ أَوْصَافُ الْكَمَالِ نَقِيصَةً فِي أَيِّ عَقْلٍ ذَاكَ أَمْ قُرْآنِ؟!

الجَوَابُ: لا تكونُ، لا بدلالة العقل، ولا بدلالة السَّمع الذي أشار إليه المؤلفُ بقوله: (أم قرآن).

٣٠٧٣- إِنَّ الْكَمَالَ بِكَثْرَةِ الأَوْصَافِ لَا فِي سَلْبِهَا ذَا وَاضِحُ الْبُرْهَانِ

وقَوْلُهُ: «إِنَّ الْكَمَالَ بِكَثْرَةِ الأَوْصَافِ فِي سَلْبِهَا» (سلبها) أي: نفيها.

وهذا صحيحٌ، فالكمالُ بكثرة الأوصاف، يعني الكاملة، وكُلَّما كَثُرَت أوصافُ الكمالِ كَثُرَ الكمالُ، وكُلَّما قَلَّتْ قَلَّ الكمالُ؛ ولذلك نجدُ الرجلَ يكونُ أكملَ إذا كان عنده علمٌ في التفسيرِ، والحديثِ، والعقيدةِ، والفقهِ، والحساب،

وغير ذلك، فيكون أكملَ ممَّا ليس عنده إِلَّا علمُ فنٍّ واحد، فكُلَّما كثرت الأوصافُ صار ذلك أكملَ في الموصوف.

٣٠٧٤- مَا النَّقْصُ غَيْرَ السَّلْبِ حَسْبُ وَكُلُّ نَقْـ ـصٍ أَصْلُهُ ذَا وَاضِحُ التِّبْيَانِ

يقول: النقصُ -حقيقةً- هو السَّلبُ، وكُلُّ نقصٍ فأصلُه السَّلبُ، يعني النفي؛ لأنَّ النفيَ عدمٌ، فإذا نَفَيْتَ سَلَبْتَ المنفيَّ عنه صفةَ الكمال، وهذا نقصٌ؛ ولهذا قال -رحمه الله- ممثِّلًا:

٣٠٧٥- فَالْـجَهْلُ سَلْبُ الْعِلْمِ وَهْوَ نَقِيصَةٌ وَالظُّلْمُ سَلْبُ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ

إذا قلنا: إنَّ اللهَ لا يُوصَفُ بالعلم لزِم أن يُوصَفَ بالجهل، وإذا قلنا: إنَّه لا يُوصَفُ بأنَّه عدلٌ لزِم أن يكونَ ظالمًا ولا بُدَّ.

٣٠٧٦- مُتَنَقِّصُ الرَّحْمَنِ سَالِبُ وَصْفِهِ حَقًّا تَعَالَى اللهُ عَنْ نُقْصَانِ

قَوْلُهُ: «**مُتَنَقِّصُ الرَّحْمَنِ سَالِبُ وَصْفِهِ**» (مُتَنَقِّص) خبر مُقَدَّم، و(سَالِبُ وَصْفِهِ) مبتدأٌ مؤخَّرٌ، يعني: سالبُ وصفِ الرحمن هو المتنقِّصُ له، وليس المثبت لوصف الرحمن.

٣٠٧٧- وَكَذَا الثَّنَاءُ عَلَيْهِ ذِكْرُ صِفَاتِهِ وَالْـحَمْدُ وَالتَّمْجِيدُ كُلَّ أَوَانِ

قَوْلُهُ: «**وَكَذَا الثَّنَاءُ عَلَيْهِ**» أي: الثناء على الله.

إذا قال: أَثْنَى على الله يعني: كرَّر أوصافَه الحميدةَ كما يدلُّ لذلك الحديث: «**إِذَا قَالَ العَبْدُ: الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ، قَالَ اللهُ تعالى: حَمِدَنِي عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قَالَ اللهُ تعالى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٤).

٣٠٧٨- وَلِــذَاكَ أَعْلَــمُ خَلْقِــهِ أَدْرَاهُــمُ ... بِصِــفَاتِهِ مَــنْ جَــاءَ بِــالْقُرْآنِ

أعلمُ خلقِه أدراهُم بصفاتِه، وهو الذي جاء بالقرآن، يعني بذلك محمَّدًا -عليه الصلاة والسلام-.

٣٠٧٩- وَلَهُ صِـفَاتٌ لَـيْسَ يُحْصِيهَا سِـوَا ... هُ مِـنْ مَلَائِكَـةٍ وَلَا إِنْسَـانِ

إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يفتحُ على النَّبيِّ ﷺ صفاتٍ لا يُحصيها أحدٌ سوى الرسولِ -عليه الصلاة والسَّلام-، وذلك في يوم القيامة؛ ولهذا قال:

٣٠٨٠- وَلِـذَاكَ يُثْنِـي فِي الْقِيَامَـةِ سَـاجِدًا ... لَـمَّا يَـرَاهُ الْـمُصْطَفَى بِعِيَـانِ

يعني: إذا رأى اللهَ عزَّ وجلَّ يوم القيامة عند طلب الشَّفاعة للعباد سجد، فأثنى عليه[1]، لكن بماذا؟ قال -رحمه الله-:

٣٠٨١- بِثَنَاءِ حَمْـدٍ لَـمْ يَكُـنْ فِي هَـذِهِ الـدْ ... دُنْيَـا لِيُحْصِـيَهُ مَـدَى الْأَزْمَـانِ

٣٠٨٢- وَثَنَـاؤُهُ بِصِـفَاتِهِ لَا بِالسُّـلُو ... بِ كَـمَا يَقُـولُ الْعَـادِمُ الْعِرْفَـانِ

محامدُ عظيمةٌ يفتحها اللهُ عليه في ذلك الوقت لا يساويها شيءٌ من المحامد، ولم يكن يعرفها في الدنيا.

٣٠٨٣- وَالْعَقْلُ دَلَّ عَلَى انْتِهَاءِ الْكَوْنِ أَجْـ ... ـمَعِهِ إِلَى رَبٍّ عَظِـيمِ الشَّـانِ

وهذا كالبيت الذي سبق أنَّ كُلَّ الكونِ يعودُ إلى الله ابتداءً وانتهاءً كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [البقرة:٢١٠].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣]، رقم (٤٤٣٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٤).

٣٠٨٤- وَثُبُوتُ أَوْصَافِ الْكَمَالِ لِذَاتِهِ لَا يَقْتَضِي إِبْطَالَ ذَا الْبُرْهَانِ

يعني أنَّ أوصافَ الكمالِ لا تقتضي إبطالَ هذا البرهانِ، وهو أنَّه موصوفٌ بالمحامد، وكل الأشياءِ ترجعُ إليه.

٣٠٨٥- وَالْكَوْنُ يَشْهَدُ أَنَّ خَالِقَهُ تَعَا لَى ذُو الْكَمَالِ وَدَائِمُ السُّلْطَانِ

الكونُ يشهدُ شهادةً قوليَّةً فيمن ينطق، وفعليَّة فيمن لا ينطق، يشهدُ بأنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- خالقُه، قال اللهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج:١٨].

٣٠٨٦- وَكَذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ الْوُجُودِ وَفَوْقَ كُلِّ مَكَانِ

الكونُ يشهدُ أنه فوق الوجود، أمَّا بالنسبة للعقلاء فنعم يشهدون بذلك، أمَّا الجمادات فلا نعلمُ في هذا شيئًا يدلُّ على أنَّها تشهدُ بأنَّ اللهَ فَوْقَ الكون، ولَعلَّ المؤلفَ اطَّلع على أشياءَ أو على أحاديثَ أو آثارٍ تدلُّ على هذا.

٣٠٨٧- وَكَذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ الْـ ـمَعْبُودُ لَا شَيْءٌ مِنَ الْأَكْوَانِ

٣٠٨٨- وَكَذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ ذُو حِكْمَةٍ فِي غَايَةِ الْإِتْقَانِ

يشهدُ الكونُ أيضًا بلسان الحال أو بلسان المقال، فإذا تدبَّر الإنسانُ هذه المخلوقاتِ وما فيها من الإبداع والانتظام عَلِمَ أَنَّ الذي خلقها ذو حكمةٍ في غاية الإتقان.

٣٠٨٩- وَكَذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ ذُو قُدْرَةٍ حَيٌّ عَلِيمٌ دَائِمُ الْإِحْسَانِ

٣٠٩٠- وَكَـذَاكَ يَشْـهَدُ أَنَّـهُ الْفَعَّـالُ حَقْـ ... ـقًـا كُـلَّ يَـوْمٍ رَبُّنَـا فِي شَـانِ

يشهدُ أنَّه هو الفعَّال؛ وذلك لأنَّ الكونَ كما نشاهدُه يتجدَّدُ شيئًا فشيئًا، هذا يُولَدُ، وهذا يموتُ، وهذا يُمْرَضُ، وهذا يشفى، وهكذا، ولا يقومُ هذا إلَّا بالله.

٣٠٩١- وَكَـذَاكَ يَشْـهَدُ أَنَّـهُ الْـمُخْتَارُ فِي ... أَفْعَالِـهِ حَقًّـا بِـلَا نُكْـرَانِ

فإِنَّ اللهَ لا مُكْرِهَ له، بل يفعلُ الشيءَ باختياره.

٣٠٩٢- وَكَذَلِكَ يَشْهَدُ أَنَّـهُ الْـحَيُّ الَّـذِي ... مَـا لِلْمَمَاتِ عَلَيْـهِ مِـنْ سُـلْطَانِ

٣٠٩٣- وَكَـذَاكَ يَشْـهَدُ أَنَّـهُ الْقَيُّـومُ قَـا ... مَ بِنَفْسِـهِ وَمُقِـيمُ ذِي الْأَكْـوَانِ

أتى المؤلفُ -رحمه الله- في تفسير (القَيُّوم) على المعنيين: أنَّه القائمُ بنفسِه، وأنَّه القائمُ به غيرُه؛ ولهذا قال: (**القَيُّومُ قَامَ بِنَفْسِهِ وَمُقِيمُ ذِي الأَكْوَانِ**» يعني: هو الذي أقام الأكوانَ وبه تقومُ، وهو الذي قام بنفسه، والنتيجةُ أنَّه لا يحتاجُ إلى أحدٍ، وأنَّ كُلَّ أحدٍ محتاجٌ إليه.

٣٠٩٤- وَكَـذَاكَ يَشْـهَدُ أَنَّـهُ ذُو رَحْمَـةٍ ... وَإِرَادَةٍ وَمَحَبَّـةٍ وَحَنَـانِ

٣٠٩٥- وَكَـذَاكَ يَشْـهَدُ أَنَّـهُ سُـبْحَانَهُ ... مُـتَكَلِّمٌ بِـالْوَحْيِ وَالْقُـرْآنِ

٣٠٩٦- وَكَـذَاكَ يَشْـهَدُ أَنَّـهُ سُـبْحَانَهُ الْـ ... ـخَلَّاقُ بَاعِـثُ هَـذِهِ الْأَبْـدَانِ

والمعنى في هذا واضحٌ.

٣٠٩٧- لَا تَجْعَلُـوهُ شَـاهِدًا بِـالزُّورِ وَالتْـ ... ـتَعْطِيلِ تِلْـكَ شَـهَادَةُ الْـبُطْلَانِ

قَوْلُهُ: «**لَا تَجْعَلُوهُ**» أي: لا تجعلوا الكونَ (**شَاهِدًا بِالزُّورِ والتَّعْطِيلِ**)، والخطابُ في قوله: (**لَا تَجْعَلُوهُ**) لهؤلاء المعطِّلة الذين أنكروا ما شهدَ الكونُ بثبوته لله.

٣٠٩٨- وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الْوُجُودَ رَأَيْتَهُ إِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ زُمْرَةِ الْعُمْيَانِ

٣٠٩٩- بِشَهَادَةِ الْإِثْبَاتِ حَقًّا قَائِمًا لله لَا بِشَهَادَةِ النُّكْرَانِ

٣١٠٠- وَكَذَاكَ رُسْلُ الله شَاهِدَةٌ بِهِ أَيْضًا فَسَلْ عَنْهُمْ عَلِيمَ زَمَانِ

٣١٠١- وَكَذَاكَ كُتْبُ الله شَاهِدَةٌ بِهِ أَيْضًا فَهَذَا مُحْكَمُ الْقُرْآنِ

٣١٠٢- وَكَذَلِكَ الْفِطَرُ الَّتِي مَا غُيِّرَتْ عَنْ أَصْلِ خِلْقَتِهَا بِأَمْرٍ ثَانِ

٣١٠٣- وَكَذَا الْعُقُولُ الْمُسْتَنِيرَاتُ الَّتِي فِيهَا مَصَابِيحُ الْهُدَى الرَّبَّانِي

٣١٠٤- أَتَرَوْنَ أَنَّا تَارِكُو ذَا كُلِّهِ لِشَهَادَةِ الْجَهْمِيِّ وَالْيُونَانِي؟!

٣١٠٥- هَذِي الشُّهُودُ فَإِنْ طَلَبْتُمْ شَاهِدًا مِنْ غَيْرِهَا سَيَقُومُ بَعْدَ زَمَانِ

٣١٠٦- إِذْ يَنْجَلِي هَذَا الْغُبَارُ فَيَظْهَرُ الْـ ـحَقُّ الْمُبِينُ مُشَاهَدًا بِعِيَانِ

٣١٠٧- فَإِذَا نَفَيْتُمْ ذَا وَقُلْتُمْ: إِنَّهُ مَلْزُومُ تَرْكِيبٍ فَمَنْ يَلْحَانِي

٣١٠٨- إِنْ قُلْتُ: لَا عَقْلَ وَلَا سَمْعَ لَكُمْ وَصَرَخْتُ فِيهَا بَيْنَكُمْ بِأَذَانِ

٣١٠٩- هَلْ يُجْعَلُ الْمَلْزُومُ عَيْنَ اللَّازِمِ الْـ ـمَنْفِيِّ؟ هَذَا بَيِّنُ الْبُطْلَانِ

٣١١٠- فَالشَّيْءُ لَيْسَ لِنَفْسِهِ يَنْفِي لَدَى عَقْلٍ سَلِيمٍ يَا ذَوِي الْعِرْفَانِ

٣١١١- قُلْتُمْ: نَفَيْنَا وَصْفَهُ وَعُلُوَّهُ مِنْ خَشْيَةِ التَّرْكِيبِ وَالْإِمْكَانِ

٣١١٢- لَوْ كَانَ مَوْصُوفًا لَكَانَ مُرَكَّبًا فَالْوَصْفُ وَالتَّرْكِيبُ مُتَّحِدَانِ

٣١١٣- أَوْ كَانَ فَوْقَ الْعَرْشِ كَانَ مُرَكَّبًا فَالْفَوْقُ[1] وَالتَّرْكِيبُ مُتَّفِقَانِ

---

(١) في نسخ الظاهرية والتيمورية والسفارينية: «فالعرش».

٣١١٤- فَنَفَيْتُمُ التَّرْكِيبَ بِالتَّرْكِيبِ مَعْ ... تَغْيِيرِ إِحْدَى اللَّفْظَتَيْنِ بِشَانِ

٣١١٥- بَلْ صُورَةُ الْبُرْهَانِ أَصْبَحَ شَكْلُهَا ... شَكْلًا عَقِيمًا لَيْسَ ذَا بُرْهَانِ

٣١١٦- لَوْ كَانَ مَوْصُوفًا لَكَانَ كَذَاكَ مَوْ ... صُوفًا وَهَذَا حَاصِلُ الْبُرْهَانِ

٣١١٧- فَإِذَا جَعَلْتُمْ لَفظَةُ التَّرْكِيبِ بِالْـ ... ـمَعْنَى الصَّحِيحِ أَمَارَةَ الْبُطْلَانِ

٣١١٨- جِئْنَا إِلَى الْـمَعْنَى فَخَلَّصْنَاهُ مِنْـ ... ـهَا وَاطَّرَحْنَاهَا اطِّرَاحَ مُهَانِ

٣١١٩- هِيَ لَفْظَةٌ مَقْبُوحَةٌ بِدْعِيَّةٌ ... مَذْمُومَةٌ مِنَّا بِكُلِّ لِسَانِ

٣١٢٠- وَاللَّفْظُ بِالتَّوْحِيدِ نَجْعَلُهُ مَكَا ... نَ اللَّفْظِ بِالتَّرْكِيبِ فِي التِّبْيَانِ

٣١٢١- وَاللَّفْظُ بِالتَّوْحِيدِ أَوْلَى بِالصِّفَا ... تِ وَبِالْعُلُوِّ لِمَنْ لَهُ أُذُنَانِ

٣١٢٢- هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ عِنْدَ الرُّسْلِ لَا ... أَصْحَابِ جَهْمٍ شِيعَةِ الْكُفْرَانِ

الشرحُ

٣٠٩٨- وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الْوُجُودَ رَأَيْتَهُ ... إِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ زُمْرَةِ الْعُمْيَانِ

٣٠٩٩- بِشَهَادَةِ الْإِثْبَاتِ حَقًّا قَائِمًا ... لله لَا بِشَهَادَةِ النُّكْرَانِ

إذا تأمَّلْتَ الوجودَ رأيتَه -إِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ زُمْرَةِ العُمْيَانِ، يعني أعمى- بشهادة الإثبات حقًّا قائمًا، يعني: قائمًا بشهادة إثبات الصفات لله، فمثلًا: وجودُ النِّعم التي لا تُحصَى على الخلق يدلُّ على الرحمة، ودفعُ النِّقم كذلك يدلُّ على الرحمة، وإتقانُ المخلوقاتِ والشَّرائع يدلُّ على الحكمة، وتُجدُّدُ الأشياءِ يدلُّ على الخلق، وهلمَّ جرًّا.

فإذا تأمَّلْتَ الوجودَ رأيتَه قائمًا بشهادة الإثبات، إلَّا أن تكون من العُمْيان، فالأعمى لا يُبْصِرُ الشَّمسَ.

٣١٠٠- وَكَـذَاكَ رُسْـلُ اللهِ شَـاهِدَةٌ بِـهِ ... أَيْضًـا فَسَـلْ عَـنْهُمْ عَلِـيمَ زَمَـانِ

٣١٠١- وَكَـذَاكَ كُتْـبُ اللهِ شَـاهِدَةٌ بِـهِ ... أَيْضًـا فَهَـذَا مُحْكَـمُ الْقُـرْآنِ

٣١٠٢- وَكَذَلِكَ الْفِطَـرُ الَّتِي مَـا غُـيِّرَتْ ... عَـنْ أَصْـلِ خِلْقَتِهَـا بِـأَمْرٍ ثَـانِ

٣١٠٣- وَكَذَا الْعُقُولُ الْـمُسْتَنِيرَاتُ الَّتِي ... فِيهَـا مَصَـابِيحُ الْـهُدَى الرَّبَّانِـي

قَوْلُهُ: «شَاهِدَةٌ بِهِ» أي: بالإثبات.

فالأدلةُ الآن خمسةٌ:

الأول: الحِسُّ، وهذا سبق في قوله: **(وإذا تأملتَ الوجودَ رأيتَه بشهادة الإثبات حقًّا قائمًا)**، الثاني: الرُّسلُ، الثالث: الكتب، الرابع: الفِطَر، الخامس: العقول، فكُلُّها تشهدُ بإثبات الصفاتِ لله تعالى حقًّا.

٣١٠٤- أَتَـرَوْنَ أَنَّـا تَـارِكُو ذَا كُلِّـهِ ... لِشَهَادَةِ الْـجَهْمِيِّ وَالْيُونَانِـي؟!

الجَوَابُ: لا، فلا يمكنُ أن تُتْرَكَ هذه الأدلةُ والبراهينُ القاطعةُ مِن أَجْلِ هذه الشُّبهة التي أوردها اليونانيُّ أو الجهمِيُّ.

٣١٠٥- هَذِي الشُّهُودُ فَإِنْ طَلَبْتُمْ شَـاهِدًا ... مِـنْ غَيْرِهَـا سَيَقُومُ بَعْـدَ زَمَـانِ

٣١٠٦- إِذْ يَنْجَلِي هَذَا الْغُبَارُ فَيَظْهَـرُ الْـ ... ـحَقُّ الْـمُبِينُ مُشَـاهَدًا بِعِيَـانِ

قَوْلُهُ: «هذي الشهود» أي: في الدنيا.

قَوْلُهُ: «إِنْ طَلَبْتُمْ شَاهِدًا مِنْ غَيْرِهَا سَيَقُومُ بَعْدَ زَمَانِ» متى يقومُ؟ الجوابُ: يوم القيامة، حين تشهدُ عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجلُهم بما كانوا يعملون، وحين لا يتمكَّنون من التَّمَلُّصِ ممَّا شَهِدَتْ به عليهم.

٣١٠٧- فَإِذَا نَفَيْتُمْ ذَا وَقُلْتُمْ: إِنَّهُ مَلْزُومُ تَرْكِيبٍ فَمَنْ يَلْحَانِي

٣١٠٨- إِنْ قُلْتُ: لَا عَقْلَ وَلَا سَمْعَ لَكُمْ وَصَرَخْتُ فِيمَا بَيْنَكُمْ بِأَذَانِ

٣١٠٩- هَلْ يُجْعَلُ الْمَلْزُومُ عَيْنَ اللَّازِمِ الْـ ـمَنْفِيِّ؟ هَذَا بَيِّنُ الْبُطْلَانِ

٣١١٠- فَالشَّيْءُ لَيْسَ لِنَفْسِهِ يَنْفِي لَدَى عَقْلٍ سَلِيمٍ يَا ذَوِي الْعِرْفَانِ

قَوْلُهُ: «فَإِذَا نَفَيْتُمْ ذَا» المشار إليه يعني: هذا الإثبات، وهو إثباتُ الصفات، وقلتم: إنه ملزومُ التركيب.

قَوْلُهُ: «فَمَنْ يَلْحَانِي» يعني: مَن يلومني إن قلتُ: إنَّه ليس عندكم عقلٌ ولا سمعٌ.

قَوْلُهُ: «وَصَرَخْتُ فِيمَا بَيْنَكُمْ بِأَذَانِ» يعني: بإعلامٍ بأنَّكم ليس عندكم سمعٌ ولا عقلٌ.

قَوْلُهُ: «هَلْ يُجْعَلُ الْمَلْزُومُ عَيْنَ اللَّازِمِ؟» الجواب: لا، وهم جعلوا الملزومَ عينَ اللازم، فقالوا: إثباتُ الصفاتِ تركيبٌ، وهو يَستلزِمُ التركيبَ.

سبحان الله! كيف تقولون: تركيبٌ يستلزمُ التركيبَ، وكُلُّ العقلاء يقولون: إنَّ اللازمَ غيرُ الملزوم؟! أمَّا أن تجعلوا اللازمَ هو عينَ الملزوم، وتقولوا: إثباتُ الصفات تركيبٌ وهو مستلزمٌ للتركيب، فهذا باطلٌ.

قَوْلُهُ: «فَالشَّيْءُ لَيْسَ لِنَفْسِهِ يَنْفِي» يعني: ليس ينفي نفسَه.

قَوْلُهُ: «يَا ذَوِي الْعِرْفَانِ» فيه تهكُّمٌ بهؤلاء الذين يَدَّعونَ أنَّهم أصحابُ المعرفة، فيقولُ: أين معرفتُكم؟ كيف تجعلون اللازمَ عينَ الملزوم، وهذا مخالفٌ لما عليه العقلاءُ كُلُّهم؟!

فحقيقةُ قولهم: أنَّ اللازمَ هو عينُ الملزوم، أليس الذين قالوا: إنَّ اللهَ بذاته في كُلِّ مكانٍ، قلنا لهم: يلزمكم أن يكونَ في الحشوش والقاذورات، وبطونِ الكلاب، وبطون الحمير، وما أشبه ذلك؟ هم لا يقولون بهذا، لو قالوا بهذا كَفَّرهم العالَمُ، ورموهم بالحجارة، لكنَّه لازمُ قولهم، فلا يلزمُ أن يكونَ لازمُ القولِ قولًا لقائله.

ونحن ذكرنا فيما سبق في كتاب: (القواعد المُثْلَى)[1] هل لازمُ القولِ قولٌ أو لا؟ وقلنا: إنَّه إذا كان القولُ قولَ الله ورسولِه فلازمُه حقٌّ؛ لأنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- يعلمُ ما يترتَّبُ على قولِه من اللوازم، أمَّا البشر فلازمُ قولِه إمَّا أن ينفيَه ويصرِّح بنفيه فهذا لا يُنْسَبُ إليه، وإِمَّا أن يَسكتَ عنه ولو ذُكِّرَ به لرجع عن قوله، وإِمَّا أن يسكتَ عنه ولو ذُكِّرَ به لأجاب؛ فالإنسانُ قد يقولُ القولَ وهو لا يشعرُ بلوازمه، فإذا ذُكِرَتْ له لوازمُه إمَّا أن يجيبَ عنها، أو يلتزمَها وهي باطلةٌ، أو يقول: هذه ليست بلازمةٍ فينكرها.

فنحن نقولُ وكُلُّ النَّاسِ يقولون: إنَّ الصفاتِ ليست مع الذاتِ تركيبًا أبدًا.

٣١١١- قُلْتُمْ: نَفَيْنَا وَصْفَهُ وَعُلُوَّهُ ... مِنْ خَشْيَةِ التَّرْكِيبِ وَالْإِمْكَانِ

٣١١٢- لَوْ كَانَ مَوْصُوفًا لَكَانَ مُرَكَّبًا ... فَالْوَصْفُ وَالتَّرْكِيبُ مُتَّحِدَانِ

٣١١٣- أَوْ كَانَ فَوْقَ الْعَرْشِ كَانَ مُرَكَّبًا ... فَالْفَوْقُ وَالتَّرْكِيبُ مُتَّفِقَانِ

(١) انظر: القواعد المثلى للشارح (ص:١٣).

٣١١٤- فَنَفَيْتُمُ التَّرْكِيبَ بِالتَّرْكِيبِ مَعْ تَغْيِيرِ إِحْدَى اللَّفْظَتَيْنِ بِشَانِ

قَوْلُهُ: «فَنَفَيْتُمُ التَّرْكِيبَ بِالتَّرْكِيبِ» يعني: نفيتم التركيبَ؛ لأنه يستلزمُ التركيبَ، فصار الدليلُ هو عينَ المدلول.

٣١١٥- بَلْ صُورَةُ الْبُرْهَانِ أَصْبَحَ شَكْلُهَا شَكْلًا عَقِيمًا لَيْسَ ذَا بُرْهَانِ

لأنَّ المعروفَ في الأدلة العقليَّة المرتَّبة أن يكونَ اللازمُ غيرَ الملزوم، أمَّا أن يكونَ اللازمُ هو الملزوم، فتقول: إثباتُ الصفاتِ تركيبٌ يلزمُ منه التركيبُ، فهذا لا شكَّ أنَّه غيرُ صحيحٍ، وشكلُ القضية أو الاستدلال على هذا ليس بشيء.

٣١١٦- لَوْ كَانَ مَوْصُوفًا لَكَانَ كَذَاكَ مَوْ صُوفًا وَهَذَا حَاصِلُ الْبُرْهَانِ

هذا حاصلُ دليلِك، لو كان متَّصفًا بالصفات لكان متَّصفًا بالصفات، لو كان مركَّبًا لكان مركَّبًا.

٣١١٧- فَإِذَا جَعَلْتُمْ لَفظَةُ التَّرْكِيبِ بِالْـ ـمَعْنَى الصَّحِيحِ أَمَارَةَ الْبُطْلَانِ

٣١١٨- جِئْنَا إِلَى الْـمَعْنَى فَخَلَّصْنَاهُ مِنْـ ـهَا وَاطَّرَحْنَاهَا اطِّرَاحَ مُهَانِ

قَوْلُهُ: «إِذَا جَعَلْتُمْ لَفظَةُ التَّرْكِيبِ بالمَعْنَى الصَّحِيحِ أَمَارَةَ الْبُطْلَانِ جِئْنَا إِلَى الْـمَعْنَى فَخَلَّصْنَاهُ مِنْهَا» فنقول: التركيبُ بين الموصوف والصفة غيرُ ممتنعٍ، وليس هناك تركيبٌ بين شيئين مُتَبَايِنَيْنِ؛ لأنَّ الصفةَ لازمةٌ للموصوف، وما من موصوفٍ إلَّا وله صفةٌ، وحينئذٍ نُخَلِّصُ هذه الشُّبهةَ ونقول: إنَّ الصفةَ بالنسبة للموصوف لا تُعتبرُ تركيبًا، ولا يُعتبر هذا تعدُّدًا؛ لأنَّها من ماهيَّة الموصوف، مثلما قلنا: إنَّ وجودَ الشيء هو عينُ ماهيَّته.

٣١١٩- هِـيَ لَفْظَـةٌ مَقْبُوحَـةٌ بِدْعِيَّـةٌ ... مَذْمُومَـةٌ مِنَّـا بِكُـلِّ لِسَـانِ

قَوْلُهُ: «هِيَ لَفْظَةٌ مَقْبُوحَةٌ بِدْعِيَّةٌ» الضميرُ (هي) يعودُ على لفظة التركيب.

٣١٢٠- وَاللَّفْـظُ بِالتَّوْحِيـدِ نَجْعَلُـهُ مَكَـا ... نَ اللَّفْـظِ بِالتَّرْكِيـبِ فِي التِّبْيَـانِ

٣١٢١- وَاللَّفْـظُ بِالتَّوْحِيـدِ أَوْلَى بِالصِّـفَا ... تِ وَبِـالْعُلُوِّ لِـمَنْ لَـهُ أُذُنَـانِ

٣١٢٢- هَذَا هُوَ التَّوْحِيـدُ عِنْـدَ الرُّسْـلِ لَا ... أَصْـحَابِ جَهْـمٍ شِـيعَةِ الْكُفْـرَانِ

يعني: بدل أن نقول: (التركيب) نقولُ: (التوحيد)، فنقولُ: إثباتُ الصفاتِ لله تعالى ليس بتركيبٍ ولكنَّه توحيدٌ، ولا يمكنُ قيامُ ذاتٍ بدون صفةٍ إطلاقًا، فإذا قلنا: إنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- مُتَّصفٌ بالصفات اللائقة به من غير تمثيلٍ، فهذا توحيدٌ وليس بتركيبٍ.

والحاصل أنَّ المؤلفَ -رحمه الله- أبطلَ دليلَهم الذي اعتمدوا عليه، وهو أنَّ إثباتَ الصفاتِ يستلزمُ التركيبَ، والتركيبُ ممتنِعٌ، وبَيَّن أنَّ التركيبَ ستةُ أنواعٍ، ومنه: تركيبُ الصفةِ مع موصوفها عندهم.

ونحن نقول: عن ذلك جوابان:

الجوابُ الأوَّل: أن نمنعَ كونَه تركيبًا.

الجوابُ الثاني: أن نقولَ: هو تركيبٌ باصطلاحكم، لكن أين الدليلُ على بطلانه؟

بفضل الله تعالى وتوفيقه تمَّ المجلد الثاني

ويليه بمشيئة الله تعالى المجلد الثالث

وأوله: فصلٌ فِي أَقْسَامِ التَّوْحِيدِ، البيت رقم (٣١٢٣)

فهرس الآيات

* * *

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث **الصفحة**

* * *

فهرس الموضوعات والفوائد

* * *

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٢٣)

شرح

الكافية الشافية
في الانتصار للفرقة الناجية

للحافظ المحقق
شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية
تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جنانه

شرح فضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الثالث

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

شرح
الكافية الشافية
في الانتصار للفرقة الناجية

٣

ⓗ مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
شرح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية لابن قيّم الجوزية./
محمد بن صالح العثيمين - الرياض، ١٤٣٤هـ
٤مج؛ (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٢٣)
ردمك: ٤ ـ ٦٢ ـ ٨٠٣٦ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (مجموعة)
٥ ـ ٦٥ ـ ٨٠٣٦ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (ج٣)
١ ـ العقيدة الإسلامية ٢ ـ التوحيد ٣ ـ أهل السنّة
أ. العنوان ب. السلسلة
ديوي ٢٤٠ ١٤٣٤/١٠٢٢٧

الطبعة الأولى
محرم ١٤٣٥هـ

يُطلب الكتاب من:
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص. ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٢٣)

شرح
الكافية الشافية
في الانتصار للفرقة الناجية

للحافظ المحقق

شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية

تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جناته

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الثالث

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل

فِي أَقْسَامِ التَّوْحِيدِ[1] وَالْفَرْقِ بَيْنَ تَوْحِيدِ الْمُرْسَلِينَ وَتَوْحِيدِ النُّفَاةِ الْمُعَطِّلِينَ

٣١٢٣- فَاسْمَعْ إِذَنْ أَنْوَاعَهُ هِيَ خَمْسَةٌ ... قَدْ حُصِّلَتْ أَقْسَامُهَا بِبَيَانِ

٣١٢٤- تَوْحِيدُ أَتْبَاعِ ابْنِ سِينَا وَهْوَ مَنْـ ... ـسُوبٌ لِآرِسْطُو مِنَ الْيُونَانِ

٣١٢٥- مَا لِلْإِلَـٰهِ لَدَيْهِمُ مَاهِيَّةٌ ... غَيْرُ الْوُجُودِ الْمُطْلَقِ الْوَحْدَانِي

٣١٢٦- مَسْلُوبُ أَوْصَافِ الْكَمَالِ جَمِيعِهَا ... لَكِنْ وُجُودٌ حَسْبُ لَيْسَ بِفَانِ

٣١٢٧- مَا إِنْ لَهُ ذَاتٌ سِوَى نَفْسِ الْوُجُو ... دِ الْمُطْلَقِ الْمَسْلُوبِ كُلَّ مَعَانِ

٣١٢٨- فَلِذَاكَ لَا سَمْعٌ، وَلَا بَصَرٌ، وَلَا ... عِلْمٌ، وَلَا قَوْلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ

٣١٢٩- وَلِذَاكَ[2] قَالُوا لَيْسَ ثَمَّ مَشِيئَةٌ ... وَإِرَادَةٌ لِوُجُودِ ذِي الْأَكْوَانِ

٣١٣٠- بَلْ تِلْكَ لَازِمَةٌ لَهُ بِالذَّاتِ، لَمْ ... تَنْفَكَّ عَنْهُ قَطُّ فِي الْأَزْمَانِ

٣١٣١- مَا اخْتَارَ شَيْئًا قَطُّ يَفْعَلُهُ، وَلَا ... هَذَا لَهُ أَبَدًا بِذِي إِمْكَانِ

٣١٣٢- وَبَنَوْا عَلَى هَذَا اسْتِحَالَةَ خَرْقِ ذِي الْـ ... أَفْلَاكِ يَوْمَ قِيَامَةِ الْأَبْدَانِ

٣١٣٣- وَلِذَاكَ قَالُوا: لَيْسَ يَعْلَمُ قَطُّ شَيْـ ... ـئًا مَا مِنَ الْمَوْجُودِ فِي الْأَعْيَانِ

---

(١) هذا التفسير بسطه الناظم -رحمه الله- في الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (٣/ ٩٢٩)، وانظر: مختصر الصواعق (١/ ١٠٦).

(٢) في نسخة الإفتاء والسفارينية: «وكذاك».

٣١٣٤- لَا يَعْلَـمُ الْأَفْـلَاكَ كَـمْ أَعْـدَادُهَا ... وَكَـذَا النُّجُـومُ، وَذَانِـكَ الْقَمَـرَانِ

٣١٣٥- بَلْ لَيْسَ يَسْمَعُ صَوْتَ كُلِّ مُصَوِّتٍ(١) ... كَـلَّا وَلَـيْسَ يَـرَاهُ رَأْيَ عِيَـانِ

٣١٣٦- بَلْ لَيْسَ يَعْلَمُ حَالَةَ الْإِنْسَـانِ تَفْـ ... ـصِيلًا مِـنَ الطَّاعَـاتِ وَالْعِصْـيَانِ

٣١٣٧- كَـلَّا وَلَا عِلْـمٌ لَـهُ بِتَسَـاقُطِ الْـ ... أَوْرَاقِ، أَوْ بِمَنَابِـتِ الْأَغْصَـانِ

٣١٣٨- عِلْمًا عَـلَى التَّفْصِـيلِ هَـذَا عِنْـدَهُمْ ... عَـيْنُ الْـمُحَالِ وَلَازِمُ الْإِمْكَـانِ

٣١٣٩- بَلْ نَفْسُ آدَمَ عِنْدَهُمْ عَيْنُ الْـمُحَا ... لِ وَلَـمْ يَكُـنْ فِي سَـالِفِ الْأَزْمَـانِ

٣١٤٠- مَا زَالَ نَـوْعُ النَّـاسِ مَوْجُـودًا وَلَا ... يَفْنَـى كَـذَاكَ الـدَّهْرُ وَالْـمَلَوَانِ

الشـــرحُ

سَبَقَ أن بيَّنَّا في الفصلِ السَّابقِ أنَّ خُلاصةَ بُرهانِهم يدورُ على معنى لا يرضى به عاقلٌ، وهو أنَّهم يقولون: إنَّ هذا تركيبٌ يَسْتَلْزِمُ التَّركيبَ، وهذا لا معنى له عند العُقَلاءِ، وذكرنا أنَّ ابنَ القيِّم -رحِمه الله- قال: إنْ أَبَيْتُمْ إلَّا هذه اللفظةَ فإنَّنا نُخَلِّصُهَا، ونقولُ: إنَّ اللهَ تعالى بذاتِه وصفاتِه، ونستبدلُ كلمةَ (تركيب) بكلمة (توحيد)، فنقول: هو واحدٌ في ذاتِه وصفاتِه، ونطرحُ هذه اللفظةَ البِدعيَّةَ المرفوضة طرحَ مُهَانٍ، ونقول: لا نُسَلِّمُ بها ولا نُقِرُّ بها. ثم استطردَ المؤلِّفُ -رحِمه الله- إلى ذِكرِ أنواعِ التَّوحيدِ، والمرادُ بذلك أنواعُ التَّوحيدِ عند البشرِ جميعًا، لا عند أهلِ الإسلامِ، قال رحمه الله:

٣١٢٣- فَاسْـمَعْ إِذَنْ أَنْوَاعَـهُ هِـيَ خَمْسَـةٌ ... قَـدْ حُصِّـلَتْ أَقْسَـامُهَا بِبَيَـانِ

---

(١) في نسخة الإفتاء: «وكذا ابن آدم ليس يسمع صوته».

قَوْلُهُ: «فَاسْمَعْ إِذَنْ»؛ أي: في هذه الحالِ.

قَوْلُهُ: «أنواعَه»؛ يعني: أنواعَ التَّوحيدِ، والأنواعُ والأقسامُ بمعنى واحد عند أهلِ العلمِ؛ فأحيانًا يُقَالُ: خمسةُ أنواعٍ، وأحيانًا يُقَالُ: خمسةُ أقسامٍ.

أمَّا في الاصطلاحاتِ الكلاميَّةِ فإنَّهم يُفرِّقون بين الأنواعِ وبين الأقسامِ، فالنَّوعُ فردٌ بالنِّسبة للجنسِ، والواحدُ فردٌ بالنِّسبة للنَّوعِ، فإذا قالوا مثلًا: (حَبٌّ، وبُرٌّ، وحِنْطَةٌ)، فالأوَّلُ: جنسٌ، والثَّاني: جنسٌ باعتبارِ ما تحته، ونوعٌ باعتبارِ ما فوقه.

٣١٢٤- تَوْحِيدُ أَتْبَاعِ ابْنِ سِينَا وَهْوَ مَنْـ ... ـسُوبٌ لِآرِسْطُو مِنَ الْيُونَانِ

٣١٢٥- مَا لِلْإِلَـهِ لَـدَيْهِمُ مَاهِيَّـةٌ ... غَيْرُ الْوُجُودِ الْـمُطْلَقِ الْوَحْدَانِي

يقولون: إنَّ اللهَ تعالى هو الوجودُ وجودًا مطلقًا، ومعنى **(وجودًا مطلقًا)** أنَّه لا يُثْبَتُ له صفاتٌ، ولا يُنْفَى عنه صفاتٌ، فلا يُوصَفُ بنفيٍ ولا إثباتٍ، بل هو الوجودُ المطلَقُ بشرطِ الإطلاقِ، فلا يَصِحُّ أن تقولَ: إنَّه سميعٌ ولا إنَّه أصمُّ، ولا موجودٌ ولا غيرُ موجودٍ، هذا هو الإلهُ عندهم، وسيأتي أنَّهم فرُّوا من الإثباتِ أو النَّفي خوفًا من التَّركيبِ والتَّجسيمِ كما سيأتي -إن شاء اللهُ- في كلامِ المؤلِّفِ.

وهذا قولٌ لا يستطيعُ الإنسانُ أَنْ يَتصوَّرَه، فضلًا عن أن يَعتقدَه بربِّه، كيف يكونُ ربٌّ ليس له ماهيَّةٌ؟! وليس له وجودٌ إلَّا الوجود بشرط الإطلاق، ومعنى شرطِ الإطلاقِ ألا يَتَّصِفُ بصفةٍ لا سلبيَّةٍ ولا ثبوتيَّةٍ؛ ولهذا قال:

٣١٢٦- مَسْلُوبُ أَوْصَافِ الْكَمَالِ جَمِيعِهَا ... لَكِنْ وُجُودٌ حَسْبُ لَيْسَ بِفَانِ

قَوْلُهُ: «لَكِنْ وُجُودٌ حَسْبُ»؛ أي: فقط، وجودٌ بلا أيِّ صفةٍ، كُلُّ أوصافِ

الكمالِ مسلوبٌ إيَّاها، بل وأوصافُ النَّقصِ، لكن لا نقولُ: أوصافُ النَّقصِ؛ لأنَّهم لا يُثبِتون لله نقصًا.

وَقَوْلُهُ: «**لَكِنْ وُجُودٌ حَسْبُ**» يعني: قُلْ: هو موجودٌ وجودًا مُطلَقًا.

قَوْلُهُ: «**لَيْسَ بِفَانٍ**»؛ يعني: وأَزَلِيّ.

٣١٢٧- مَا إِنْ لَهُ ذَاتٌ سِوَى نَفْسِ الْوُجُو ... دِ الْـمُطْلَقِ الْـمَسلُوبِ كُلَّ مَعَانِ

قَوْلُهُ: «**مَا إِنْ لَهُ ذاتٌ**» (إِنْ) هنا زائدةٌ، والتَّقدير: (مَا لَهُ ذاتٌ).

قَوْلُهُ: «**سِوَى نَفْسِ الوُجُودِ**»، وهل الوجودُ ذاتٌ أو معنى؟

الجوابُ: هو معنى، ومع ذلك يقولُ: الرَّبُّ هو الوجودُ المطلقُ.

٣١٢٨- فَلِذَاكَ لَا سَمْعٌ، وَلَا بَصَرٌ، وَلَا ... عِلْمٌ، وَلَا قَوْلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ

كُلُّ هذه منتفيةٌ عن الله، فليس له سمعٌ، ولا بصرٌ، ولا علمٌ، ولا قولٌ.

٣١٢٩- وَلِذَاكَ قَالُوا لَيْسَ ثَمَّ مَشِيئَةٌ ... وَإِرَادَةٌ لِوُجُودِ ذِي الْأَكْوَانِ

هذه الأكوانُ الموجودةُ هل وُجِدَت بمشيئةِ الله وإرادتِه؟ الجوابُ: لا، لم تُوجَد بمشيئةِ الله وإرادتِه؛ لأنَّك لو قلت: إنَّها وُجِدَت بمشيئتِهِ وإرادتِه لأَثْبَتَّ له صفةً، وهي الوجودُ بشرطِ الإطلاقِ، لا صفة له.

٣١٣٠- بَلْ تِلْكَ لَازِمَةٌ لَهُ بِالذَّاتِ، لَمْ ... تَنْفَكَّ عَنْهُ قَطُّ فِي الْأَزْمَانِ

يعني: هذه الأكوان لازِمةٌ له لزومَ الذَّاتِ، ليست منفصلةً بائنةً مرادةً، بل هي كما لو قلنا بالحياةِ، والعلمِ، والقدرةِ، وما أشبهها، وهم لا يَرَوْنَ هذا كُلَّه؛ يعني: لا يصفون اللهَ بعلمٍ، ولا قدرةٍ، ولا سمعٍ.

٣١٣١- مَا اخْتَارَ شَيْئًا قَطُّ يَفْعَلُهُ، وَلَا هَذَا لَهُ أَبَدًا بِذِي إِمْكَانِ

سبحان الله! كُلُّ ما يحدثُ في الكونِ فهو بغيرِ إرادةِ الله وبغيرِ مشيئتِهِ؛ لأنَّه لا يختارُ شيئًا يفعلُه، فليس له إرادةٌ ولا اختيارٌ.

٣١٣٢- وَبَنَوْا عَلَى هَذَا اسْتِحَالَةَ خَرْقِ ذِي الْـ أَفْلَاكِ يَوْمَ قِيَامَةِ الْأَبْدَانِ

يقولون: إنَّ الأفلاكَ لا يمكنُ أن تتغيَّرَ؛ لأنَّها عظيمةٌ، ومَن يستطيعُ أن يُغَيِّرَها؟ الجوابُ: لا أحد؛ لأنَّها لا تتغيَّرُ إلَّا بإرادةٍ ومشيئةٍ، واللهُ عندهم ليس له إرادةٌ ولا مشيئةٌ؛ ولهذا أنكروا أنَّ اللهَ يطوي السَّماواتِ بيمينه ويقبِضُ الأرضَ، وأنكروا أن تتغيَّرَ الأفلاكُ، ومِن ثَمَّ أنكر بعضُ الكُتَّابِ المسلمين أن يكونَ القمرُ قد انشقَّ آيةً للنَّبيِّ ﷺ، وقالوا: إنَّ الأفلاكَ لا يمكنُ أن تتغيَّرَ، وهم -أعني: الذين يقولون بعدمِ انشقاقِ القمرِ- لا شكَّ ضالُّون مكذِّبون لظاهرِ القرآنِ؛ لأنَّ انشقاقَ القمرِ من المتواترِ عن النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

٣١٣٣- وَلِذَاكَ قَالُوا: لَيْسَ يَعْلَمُ قَطُّ شَيْـ ـئًا مَا مِنَ الْـمَوْجُودِ فِي الْأَعْيَانِ

لماذا قالوا ذلك؟ للقاعدةِ: أنَّه هو الوجودُ المطلَقُ، فلا يَعْلَمُ شيئًا من الموجودِ في الأعيانِ.

٣١٣٤- لَا يَعْلَمُ الْأَفْلَاكَ كَمْ أَعْدَادُهَا وَكَذَا النُّجُومُ، وَذَانِكَ الْقَمَرَانِ

٣١٣٥- بَلْ لَيْسَ يَسْمَعُ صَوْتَ كُلِّ مُصَوِّتٍ كَلَّا وَلَيْسَ يَرَاهُ رَأْيَ عِيَانِ

٣١٣٦- بَلْ لَيْسَ يَعْلَمُ حَالَةَ الْإِنْسَانِ تَفْـ ـصِيلًا مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْعِصْيَانِ

٣١٣٧- كَلَّا وَلَا عِلْمٌ لَهُ بِتَسَاقُطِ الْـ أَوْرَاقِ، أَوْ بِمَنَابِتِ الْأَغْصَانِ

٣١٣٨- عِلْمًا عَلَى التَّفْصِيلِ هَذَا عِنْدَهُمْ عَيْنُ الْمُحَالِ وَلَازِمُ الْإِمْكَانِ

يعني: أنَّ اللهَ لا يعلمُ كُلَّ هذا، مع أنَّ اللهَ يقول: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام:٥٩]، أمَّا هم فيقولون: لا، فلا يعلمُ بتساقطِ الأوراقِ، ولا بمنابتِ الأغصانِ.

٣١٣٩- بَلْ نَفْسُ آدَمَ عِنْدَهُمْ عَيْنُ الْمُحَا لِ وَلَمْ يَكُنْ فِي سَالِفِ الْأَزْمَانِ

يقول: إن آدمَ لم يُخْلَقْ من ترابٍ ثُمَّ صار بشرًا، بل النَّوعُ الإنسانِيُّ لم يزل موجودًا.

٣١٤٠- مَا زَالَ نَوْعُ النَّاسِ مَوْجُودًا وَلَا يَفْنَى كَذَاكَ الدَّهْرُ وَالْمَلَوَانِ

قَوْلُهُ: «المَلَوَانِ» تُطْلَقُ في الغالبِ على الليلِ والنَّهارِ.

يعني: أنَّ نوعَ الإنسانِ ما زَالَ هكذا منذ الأزلِ، ولا يزالُ هكذا أيضًا إلى الأبدِ.

* * *

٣١٤١- هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ عِنْدَ فَرِيقِهِمْ مِثْلِ ابْنِ سِينَا وَالنَّصِيرِ الثَّانِي

٣١٤٢- قَالُوا وَأَلْجَأَنَا إِلَى ذَا خَشْيَةُ التَّـ ـرْكِيبِ وَالتَّجْسِيمِ ذِي الْبُطْلَانِ

٣١٤٣- وَلِذَاكَ قُلْنَا: مَا لَهُ سَمْعٌ وَلَا بَصَرٌ وَلَا عِلْمٌ فَكَيْفَ يَدَانِ؟!

٣١٤٤- وَكَذَاكَ قُلْنَا لَيْسَ فَوْقَ الْعَرْشِ إِلَـ ـهٌ لَا الْمُسْتَحِيلُ وَلَيْسَ ذَا إِمْكَانِ

٣١٤٥- جِسْمٌ عَلَى جِسْمٍ كِلَا الجِسْمَيْنِ مَحْـ ـدُودٌ يَكُونُ، كِلَاهُمَا صِنْوَانِ

٣١٤٦- فَبِـذَاكَ حَقًّـا صَرَّحُـوا فِي كُتْبِهِمْ ... وَهُـمُ الْفُحُـولُ أَئِمَّـةُ الْكُفْـرَانِ

٣١٤٧- لَيْسُوا مَخَانِيثَ الْوُجُودِ فَـلَا إِلَى الْـ ... ـكُفْرَانِ يَنْحَـازُوا وَلَا الْإِيـمَانِ

٣١٤٨- وَالشِّرْكُ عِنْدَهُمْ ثُبُوتُ الذَّاتِ وَالْـ ... أَوْصَـافِ إِذْ يَبْقَـى هُنَـاكَ اثْنَـانِ

٣١٤٩- غَـيْرُ الْوُجُـودِ فَصَـارَ ثَـمَّ ثَلَاثَـةٌ ... فَلِـذَا نَفَيْنَـا اثْنَـيْنِ بِالْبُرْهَـانِ

٣١٥٠- بَقِيَ الْوُجُودُ فَلَا يُضَـافُ إِلَيْـهِ شَيْ ... ءٌ غَـيْرُهُ فَيَصِـيرُ ذَا إِمْكَـانِ

الشرحُ

قال المؤلِّف -رحِمه الله- مُبيِّنًا توحيدَ الفلاسفةِ، وأنَّ حقيقةَ توحيدِهم أنَّه ليس هناك ما يُسَمَّى إلهًا؛ لأنَّهم يقولون: هو الوجودُ المطلَقُ، وهو في الحقيقةِ ليس بموجودٍ؛ لأنَّ الوجودَ المطلقَ على وجهِ الإطلاقِ لا حقيقةَ له، بل هو شيءٌ يَتَخَيَّلُه الذِّهنُ بدون أن يكونَ له حقيقةٌ.

يقولُ المؤلِّفُ -رحمه الله-:

٣١٤١- هَـذَا هُـوَ التَّوْحِيـدُ عِنْـدَ فَـرِيقِهِمْ ... مِثْـلِ ابْـنِ سِـينَا وَالنَّصِـيرِ الثَّـانِي

قَوْلُهُ: «ابْنِ سِينَا» ابنُ سِينَا هو رجلٌ معروفٌ في الطِّبِّ؛ ولهذا يُمَجِّدُه القوميُّون العربُ، ويَرَوْنَ أنَّه هو العالِـمُ، ويُحْيُونَ ذِكراه بنسبةِ بعضِ المنشآتِ إليه، وهو كما تَرَوْنَ من أكفرِ عِبادِ الله والعياذُ بالله.

قَوْلُهُ: «النَّصِيرِ الثَّانِي» الذي يُسَمَّى نصيرَ الدِّين الطُّوسيَّ، وهو في الحقيقةِ مُذِلُّ الدِّينِ، وليس نصيرًا للدِّينِ.

٣١٤٢- قَالُوا وَأَلْـجَأَنَا إِلَى ذَا خَشْيَةُ التْـ ... ـتَرْكِيبِ وَالتَّجْسِيمِ ذِي الْـبُطْلَانِ

هذه شُبهتُهم، أنَّهم لجئوا إلى قولِ هذا الإلهِ المفروضِ ذهنًا، المعدومِ واقعًا؛ لأنَّهم يَخْشَوْنَ مِنَ التَّركيبِ والتَّجسيمِ.

٣١٤٣- وَلِـذَاكَ قُلْنَـا: مَـا لَـهُ سَـمْعٌ وَلَا ... بَصَــرٌ وَلَا عِلْـمٌ فَكَيْـفَ يَـدَانِ؟!

فَنَفَوُا الصِّفاتِ المعنويَّةَ، وقالوا: «فَكَيْفَ يَدَانِ؟!»؛ يعني: الصِّفاتِ الخبريَّةَ، فَنَفَوْا جميعَ الصِّفاتِ لله عزَّ وجلَّ، بل حقيقةُ الأمرِ أنَّهم نَفَوْا وجودَه؛ لأنَّ ما يذكرون أنَّه اللهُ إنَّما هو موجودٌ في الذِّهنِ فقط.

٣١٤٤- وَكَذَاكَ قُلْنَا لَيْسَ فَوْقَ الْعَرْشِ إِلْـ ... لَا الْـمُسْتَحِيلُ وَلَـيْسَ ذَا إِمْكَـانِ

أيضًا ليس فوق العرشِ إلهٌ؛ لأنَّه هو الموجودُ المطلَقُ بشرطِ الإطلاقِ كما سَبَقَ.

٣١٤٥- جِسْمٌ عَلَى جِسْمٍ كِلَا الجِسْمَيْنِ مَحْـ ... ـدُودٌ يَكُـونُ، كِلَاهُمَـا صِـنْوَانِ

يعني: لو قلنا: (إنَّ على العرشِ إلهًا) لَكَانَ جِسمًا على جسمٍ، وكلاهما محدودٌ، فيكونان صِنْوَيْنِ؛ يعني: يكونان شَبِيهَيْنِ.

وكلمةُ (الحدِّ) بالنِّسبةِ للرَّبِّ عزَّ وجلَّ كلمةٌ لم تَرِدْ لا نفيًا ولا إثباتًا، لا في القرآنِ ولا في السُّنَّةِ؛ ولهذا كان القولُ فيها أَنْ يُقَالَ: لو قال لنا قائلٌ: هل اللهُ محدودٌ؟ فنقول: ماذا تَعنِي بالحدِّ؟ إنْ أَرَدْتَ أنَّه مُتَّحِدٌ بَائِنٌ من خلقِه فهو بهذا المعنى محدودٌ، وإنْ أردْتَ بكلمة (محدود) أَنَّ له حدًّا ينتهي إليه ويُحيطُ به شيءٌ من مخلوقاتِه فهذا ممتنِعٌ؛ ولهذا وَرَدَ في كلامِ السَّلَفِ نَفيُ الحدِّ وإثباتُ الحدِّ، وهذا الاختلافُ ينبني على التَّفصيلِ الذي ذكرنا.

فَمَن نَفَى الحدَّ أَرَادَ الحدَّ الذي يَحْصُرُ الخالقَ عزَّ وجلَّ، ومَن أَثْبَتَهُ أَرَادَ الحدَّ الذي يُبِينُه عن خلقِه ويجعلُه بائنًا منهم.

٣١٤٦- فَبِذَاكَ حَقًّا صَرَّحُوا فِي كُتْبِهِمْ وَهُمُ الْفُحُولُ أَئِمَّةُ الْكُفْرَانِ

وبئس الفحوليَّةُ! هم الفحولُ ولكن فحولُ شرٍّ؛ لأنَّهم أئمَّةُ كفرٍ.

٣١٤٧- لَيْسُوا مَخَانِيثَ الْوُجُودِ فَلَا إِلَى الْـ ـكُفْرَانِ يَنْحَازُوا وَلَا الْإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «لَيْسُوا مَخَانِيثَ» المخانيثُ يُرِيدُ بهم مَنْ ليسوا ذكورًا ولا إناثًا، وهو ما يُعْرَفُ عند الفقهاءِ بالخُنْثَى.

وَقَوْلُهُ: «لَيْسُوا مَخَانِيثَ الوُجُودِ» كأنَّه يشيرُ إلى ما سيأتينا من توحيدِ الجهميَّةِ الذين أخذوا من هذا وهذا، وصاروا مذبذبين، لا إلى الكفرانِ ينحازوا، ولا إلى الإيمانِ، وهنا حَذَفَ النُّونَ في (يَنْحَازُوا)، وأصلُها: (ينحازون) من أجلِ ضرورةِ الشِّعرِ.

٣١٤٨- وَالشِّرْكُ عِنْدَهُمْ ثُبُوتُ الذَّاتِ وَالْـ أَوْصَافِ إِذْ يَبْقَى هُنَاكَ اثْنَانِ

يعني: إذا أثبتنا ذاتًا وصفاتٍ صارا اثنين، فيكونُ ذلك شركًا؛ لأنَّ عندهم أنَّ اللهَ هو الوجودُ المطلَقُ بشرطِ الإطلاقِ، وإذا قلت: (ذاتٌ ووجودٌ)، فهذا شِركٌ لأنه اثنان.

٣١٤٩- غَيْرُ الْوُجُودِ فَصَارَ ثَمَّ ثَلَاثَةٌ فَلِذَا نَفَيْنَا اثْنَيْنِ بِالْبُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «فَلِذَا» لعلَّها: «فَإِذَا»[1].

(١) في نسخ السفارينية والظاهرية والتيمورية: «فكذا»، وفي بقية النسخ الخطية كما في الأصل: «فلذا».

قَوْلُهُ: «غَيْرُ الوُجُودِ» الذي يَرَوْنَ أنَّه هو اللهُ، وحينئذٍ يكونُ الجميعُ ثلاثةً؛ ولذا قال: «**فَصَارَ ثَمَّ ثَلَاثَةٌ فَلِذَا نَفَيْنَا اثْنَيْنِ بِالبُرْهَانِ**».

قَوْلُهُ: «اثْنَيْنِ» هما الذَّاتُ والأوصافُ.

٣١٥٠- بَقِيَ الْوُجُودُ فَلَا يُضَافُ إِلَيْهِ شَيْ ... ءٌ غَيْرُهُ فَيَصِيرُ ذَا إِمْكَانِ

قَوْلُهُ: «فَيَصِيرُ ذَا إِمْكَانِ»؛ أي: يصيرُ ممكنًا.

فعندهم الآن: الذَّاتُ منفيَّةٌ، والصِّفاتُ منفيَّةٌ، والوجودُ ثابتٌ، وهو اللهُ عندهم، وهو الوجودُ المطلقُ بشرطِ الإطلاقِ.

حقيقةُ الأمرِ أنَّنا إذا تأمَّلنا كلامَهم وَجَدْنَا أنَّه ليس هناك رَبٌّ، فلا يثبتون لله ذاتًا ولا صفاتٍ، بل هو الوجودُ بشرطِ الإطلاقِ، فإذا نَفَيْتَ الذَّاتَ، ونَفَيْتَ الصِّفاتِ، يبقى من الثَّلاثةِ واحدٌ، وهو الوجودُ.

والخلاصة أنَّهم يقولون: إنَّ التوحيدَ هو إثباتُ الوجودِ المطلَقِ، هذا هو اللهُ، وجودٌ مطلقٌ، ما ثَمَّ ذاتٌ ولا صفاتٌ، ولا سمعٌ، ولا بصرٌ، ولا كونٌ باختيارِه، الكونُ صَارَ هكذا معلولًا لعلَّةٍ فاعلةٍ، والعِلَّةُ إذا ثَبَتَتْ ثَبَتَ المعلولُ؛ ولهذا منعوا حدوثَ البشرِ، وقالوا: إنَّ الإنسانَ قديمُ النَّوعِ وليس هناك شيءٌ يُقَالُ له: آدمُ خُلِقَ من ترابٍ، وكذلك اللهُ لا يعلمُ سقوطَ الأوراقِ من الأشجارِ ومَنابتِ الأغصانِ، كُلُّ هذا لا يعلمُه؛ لأنَّه هو الوجودُ المطلَقُ، فإذا أَثْبَتَّ شيئًا من الصِّفاتِ لله، أو أَثْبَتَّ له ذاتًا صِرْتَ مُشرِكًا.

وحقيقةُ الأمرِ: أنَّ مذهبَهم لا يمكنُ للإنسانِ أن يتصوَّرَه، فيعجِز عن تصوُّرِه؛ لأنَّه باطلٌ من أبطلِ البطلانِ.

فصــل

فِي النَّوْعِ الثَّانِي مِنْ أَنْوَاعِ التَّوْحِيدِ لأَهْلِ الإِلْحَادِ(١)

٣١٥١- هَـذَا وَثَانِيهَـا فَتَوْحِيـدُ ابْـنِ سَبْـ ـعِينٍ وَشِـيعَتِهِ أُولِي الْبُهْتَـانِ
٣١٥٢- كُـلُّ اتِّـحَادِيٍّ خَبِيـثٍ عِنْـدَهُ مَعْبُـودُهُ مَوْطُـوءُهُ الْـحَقَّانِي
٣١٥٣- تَوْحِيـدُهُمْ أَنَّ الْإِلَـهَ هُـوَ الْوُجُـو دُ الْـمُطْلَقُ الْـمَبْثُوثُ فِي الْأَعْيَانِ
٣١٥٤- هُـوَ عَيْنُهَـا لَا غَيْرُهَـا مَـا هَاهُنَـا رَبٌّ وَعَبْـدٌ كَيْـفَ يَفْتَرِقَـانِ؟!
٣١٥٥- لَكِـنَّ وَهْـمَ الْعَبْـدِ ثُـمَّ خَيَالَـهُ فِي ذِي الْـمَظَاهِرِ دَائِـمًا يَلِجَـانِ
٣١٥٦- فَلِـذَاكَ حُكْمُهُـمَا عَلَيْـهِ نَافِـذٌ فَـابْنُ الطَّبِيعَـةِ ظَـاهِرُ النُّقْصَـانِ
٣١٥٧- فَـإِذَا تَجَـرَّدَ عِلْمُـهُ عَـنْ حِسِّـهِ وَخَيَالِـهِ بَـلْ ثُـمَّ تَجْرِيـدَانِ
٣١٥٨- تَجْرِيـدُهُ عَـنْ عَقْلِـهِ أَيْضًـا فَـإِنْ نَ الْعَقْـلَ لَا يُدْنِيـهِ مِـنْ ذَا الشَّـانِ
٣١٥٩- بَلْ يَخْرِقُ الْـحُجُبَ الْكَثِيفَةَ كُلَّهَـا وَهْمًـا وَحِسًّـا ثُـمَّ عَقْـلٌ وَانِي
٣١٦٠- فَـالْوَهْمُ مِنْـهُ وَحِسُّـهُ وَخَيَالُـهُ وَالْعِلْـمُ وَالْـمَعْقُولُ فِي الْأَذْهَـانِ
٣١٦١- حُجُبٌ عَلَى ذَا الشَّانِ فَاخْرِقْهَا وَإِلْ لَا كُنْـتَ مَحْجُوبًـا عَـنِ الْعِرْفَـانِ
٣١٦٢- هَذَا وَأَكْثَفُهَا حِجَابُ الْـحِسِّ وَالْـ ـمَعْقُولِ ذَانِكَ صَاحِبُ الْفُرْقَانِ

(١) في نسخ السفارينية: «الاتحاد».

٣١٦٣- فَهُنَاكَ صِرْتَ مُوَحِّدًا حَقًّا تَرَى هَـذَا الْوُجُـودَ حَقِيقَـةَ الـدَّيَّانِ

٣١٦٤- وَالشِّرْكُ عِنْدَهُمُ فَتَنْوِيعُ[1] الْوُجُـو دِ وَقَوْلُنَـا: إِنَّ الْوُجُـودَ اثْنَـانِ

٣١٦٥- وَاحْـتَجَّ يَوْمًـا بِالْكِتَـابِ عَلَـيْهِمُ شَخْصٌ فَقَالُوا الشِّـرْكُ فِي الْقُـرْآنِ

٣١٦٦- لَكِـنَّمَا التَّوْحِيـدُ عِنْـدَ الْقَائِلِيـ ـنَ بِالِاتِّحَادِ فَهُـمْ أُولُـو الْعِرْفَـانِ

٣١٦٧- رَبٌّ وَعَبْـدٌ كَيْـفَ ذَاكَ وَإِنَّـمَا الْـ ـمَوْجُودُ فَـرْدٌ مَـا لَـهُ مِـنْ ثَـانِ

الشـرحُ

هذا أيضًا توحيدٌ من نوعٍ آخرَ، وهو توحيدُ أهلِ وَحدةِ الوجودِ الذين يقولون: إنَّ الوجودَ شيءٌ واحدٌ، فالعبدُ هو الرَّبُّ، والرَّبُّ هو العبدُ، نسألُ اللهَ العافيةَ؛ يعني: لا يُوجَدُ ربٌّ ولا عبدٌ بائنٌ أحدُهما عن الآخرِ، بل الكُلُّ رَبٌّ، وفي نفسِ الوقتِ الكُلُّ عبدٌ، ما هناك شيئان.

٣١٥١- هَـذَا وَثَانِيهَـا فَتَوْحِيـدُ ابْـنِ سَبْـ ـعِينٍ وَشِـيعَتِهِ أُولِي الْبُهْتَـانِ

٣١٥٢- كُـلُّ اتِّـحَادِيٍّ خَبِيـثٍ عِنْـدَهُ مَعْبُـودُهُ مَوْطُـوءُهُ الْـحَقَّانِي

قَوْلُهُ: «اتِّـحَادِيٍّ»؛ يعني: مَنْ يقولُ باتِّحادِ الخالقِ والمخلوقِ، وأنَّهما شيءٌ واحدٌ.

وسُبحان اللهَ العظيم! هم يجدون أنَّ زيدًا غيرُ عمرٍو، وأَنَّ الأبَ غيرُ الابنِ، هذا الحِسُّ والواقعُ، لكنَّهم يقولون: لا، لا تَسْتَعْمِلِ الحسَّ في الموجوداتِ، إِنِ اسْتَعْمَلْتَ الحِسَّ أو الوهمَ أو الخيالَ أو العقلَ فإنَّك لن تصلَ إلى الحقيقةِ؛ لأنَّ

(١) في نسخ السفارينية والظاهرية والتيمورية: «فتقسم».

هذه الأربعةَ كُلَّها حُجُبٌ تَحْجُبُك عن الوصولِ إلى الحقيقةِ، تَجَرَّدْ من العقلِ، والوهمِ، والحسِّ، والخيالِ، فضلًا عن الشَّرعِ، وحينئذٍ يَبِينُ لك التَّوحيدُ، أعوذ بالله؛ يعني: صِر مجنونًا حتَّى تكونَ موحِّدًا.

قَوْلُهُ: «**عِنْدَهُ مَعْبُودُهُ مَوْطُوءُهُ الحَقَّانِي**»؛ يعني: هو يطأُ زوجتَه ويَرَى أنَّها رَبُّه، نسألُ اللهَ العافيةَ، ويذبحَ شاتَه ويَرَى أنَّها ربُّه، ويركبُ حِمارَه ويَرَى أنَّه ربُّه، ويَزْجُرُ كلبَه ويَرَى أنَّه ربُّه، وهكذا فالشَّيءُ شيءٌ واحِدٌ؛ ولهذا يقول:

٣١٥٣- تَوْحِيـدُهُمْ أَنَّ الْإِلَـهَ هُـوَ الْوُجُـو دُ الْـمُطْلَقُ الْـمَبْثُوثُ فِي الْأَعْيَـانِ

هذا هو الفصلُ بين توحيدِهم وتوحيدِ الفلاسفةِ السَّابقِ؛ لأنَّ الفلاسفةَ لا يقولون: إنَّ الرَّبَّ هو المربوبُ، بل يقولون: هو الرَّبُّ وحدَه، لكنَّه هو الوجودُ الذي لا ذاتَ له ولا صفات.

وهؤلاء يقولون: الرَّبُّ هو المربوبُ، فهما شيءٌ واحدٌ موجودٌ، فاختلافُ النَّاسِ، واختلافُ الأنواعِ من الحيوانِ، ومن الأشجارِ، ومن الجبالِ، ومن الأنهار، اختلافُ مَظاهِرٍ، كما يبدو الإنسانُ وهو غضبان على وجهٍ، وهو مسرورٌ على وجهٍ آخرَ، وإلَّا فإنَّ الكُلَّ شيءٌ واحدٌ.

٣١٥٤- هُـوَ عَيْنُهَـا لَا غَيْرُهَـا مَـا هَاهُنَـا رَبٌّ وَعَبْـدٌ كَيْـفَ يَفْتَرِقَـانِ؟!

قَوْلُهُ: «**هُوَ عَيْنُهَا لَا غَيْرُهَا**» «**هُوَ**»؛ أي: اللهُ عزَّ وجلَّ، و«**عَيْنُهَا**»؛ أي: عينُ الموجوداتِ لا غيرُها.

قَوْلُهُ: «**مَا هَاهُنَا رَبٌّ وَعَبْدٌ كَيْفَ يَفْتَرِقَانِ؟!**» عرفتم الآن هذا المذهبَ، فهؤلاء يقولون: إنَّ الرَّبَّ هو عينُ العبدِ، والعبدَ عينُ الرَّبِّ، ولا يمكنُ أن يكونَ هذا وهذا شيئَيْنِ أبدًا.

٣١٥٥- لَكِــنَّ وَهْــمَ الْعَبْــدِ ثُــمَّ خَيَالَــهُ ... فِي ذِي الْـــمَظَاهِرِ دَائِـــمًا يَلِجَـــانِ

قَوْلُهُ: «يَلِجَانِ»؛ أي: يتداخلان.

الوهمُ ثُمَّ الخيالُ يتداخلان.

٣١٥٦- فَلِــذَاكَ حُكْمُهُــمَا عَلَيْــهِ نَافِــذٌ ... فَــابْنُ الطَّبِيعَــةِ ظَــاهِرُ النُّقْصَــانِ

٣١٥٧- فَــإِذَا تَجَــرَّدَ عِلْمُــهُ عَــنْ حِسِّــهِ ... وَخَيَالِــهِ بَــلْ ثُــمَّ تَجْرِيــدَانِ

٣١٥٨- تَجْرِيــدُهُ عَــنْ عَقْلِــهِ أَيْضًــا فَــإِنْ ... نَ الْعَقْــلَ لَا يُدْنِيــهِ مِــنْ ذَا الشَّــانِ

يقولُ: إِنَّ الإنسانَ يتوهَّمُ التَّعدُّدَ، فأنا مثلًا -على زعمِهم- بعقلي أتوهَّمُ أنَّ زيدًا غَيْرُ، ثُمَّ بعد ذلك يتخيَّلُ، ثُمَّ يُدْرِكُ بالحِسِّ أنَّ الابنَ غيرُ الأبِ، وأنَّ الخشبَ غيرُ الحديدِ، ثُمَّ العقلُ أيضًا يَدْرِكُ أنَّ المُحْدَثَ لا بُدَّ له من مُحْدِثٍ وأنَّ المُحْدَثَ شيءٌ والمُحْدِثَ شيءٌ آخرُ.

فكُلُّ هذه الأربعة، وهي: الوهمُ، ثُمَّ الخيالُ، ثُمَّ الحِسُّ، ثُمَّ العقلُ، كُلُّها تُوجِبُ التَّعدُّدَ، لكن هم يقولون: هذا التَّعدُّدُ إشراكٌ، وإذا أردتَ أن تصلَ إلى التَّوحيدِ فاكسِر كُلَّ هذه الحواجزِ حتَّى تصلَ إلى الحقيقةِ.

قَوْلُهُ: «فَإِنَّ العَقْلَ لَا يُدْنِيهِ مِنْ ذَا الشَّانِ»؛ أي: من هذا التَّوحيدِ -فالمقصود بالشَّان: التَّوحيد- لماذا؟ الجوابُ: لأنَّ العقلَ يَقضي حتمًا بأنَّ المُحْدَثَ غيرُ المُحْدِثِ، وأنَّ الأعيانَ أنفسَها متباينةٌ، وليست شيئًا واحدًا، فـ(محمَّدٌ) ليس (زيدًا)، و(زيدٌ) ليس (عَمْرًا)، لكن هم يقولون: هذا كُلُّه شيءٌ واحدٌ.

فالعقلُ لا يُدْنِيه من ذا الشَّأنِ؛ لأنَّه معلومٌ أنَّه يحكمُ بأنَّ الأعيانَ متباينةٌ متغايرةٌ، وأن المُحْدَثَ لا بُدَّ له من مُحْدِثٍ، وهكذا.

٣١٥٩- بَلْ يَخْرِقُ الْـحُجُبَ الْكَثِيفَةَ كُلَّهَا   وَهْمًا وَحِسًّا ثُمَّ عَقْلٌ وَانِي

معناه: أنَّه يجبُ أن يَخْرِقَ هذه الحُجُبَ التي هي: الوهمُ، والخيالُ، والحِسُّ، والعقلُ، حتَّى تَتَبَيَّنَ له الحقيقةُ.

٣١٦٠- فَالْوَهْمُ مِنْهُ وَحِسُّهُ وَخَيَالُهُ   وَالْعِلْمُ وَالْـمَعْقُولُ فِي الْأَذْهَانِ

٣١٦١- حُجُبٌ عَلَى ذَا الشَّانِ فَاخْرِقْهَا وَإِلْ   لَا كُنْتَ مَحْجُوبًا عَنِ الْعِرْفَانِ

قَوْلُهُ: «اخْرِقْهَا»؛ يعني: مَزِّقْها، وكأنَّها لا شيء.

يعني: لا تَرْجِع إلى حسٍّ، ولا وهمٍ، ولا خيالٍ، ولا عقلٍ، حتَّى تُدْرِكَ الحقيقةَ.

٣١٦٢- هَذَا وَأَكْثَفُهَا حِجَابُ الْـحِسِّ وَالْـ   ـمَعْقُولِ ذَانِكَ صَاحِبُ الْفُرْقَانِ

وذلك لأنَّ الحِسَّ لا يمكنُ أَنْ يُنْكَرَ، والعقلَ كذلك لا يُمكنُ أَنْ يُنْكَرَ، لكن المُدْرَكُ بالحِسِّ مُشَاهَدٌ يُدْرَكُ بالأعيانِ؛ أي: بعين البصرِ، والمُدْرَكُ بالعقلِ يُدْرَكُ بعينِ البصيرةِ.

فالحِسُّ والعقلُ هما أكثفُها؛ لأنَّهما الأقوى دلالةً، أمَّا الخيالُ والوهمُ فهذا سهلٌ؛ لأنَّ الإنسانَ رُبَّما يَتوهَّمُ أشياءَ غيرُ معقولةٍ، وأشياءَ لا يمكنُ أن توجدَ في الحِسِّ.

لكن الحِسُّ هو المشكلةُ، كيف يكونُ الحسُّ؟ الحِسُّ يُدْرِكُ أنَّ الشَّاةَ غيرُ البعيرِ، وأنَّ الولدَ غيرُ الوالدِ، وأنَّ الحَجَرَ غيرُ الحديدِ، فهذا يُشَاهَدُ بالحِسِّ.

العقلُ كذلك يُدْرِكُ أنَّ المصنوعَ غيرُ الصَّانعِ، وأنَّ المُحْدَثَ غيرُ المُحْدِثِ، وهكذا؛ لهذا كانت دلالةُ الحسِّ والعقلِ على امتناعِ ما ذهب إليه هؤلاء أمرًا واضحًا جدًّا فصارت هي أَكْثَفَها عندهم.

٣١٦٣- فَهُنَاكَ صِرْتَ مُوَحِّدًا حَقًّا تَرَى ... هَـذَا الْوُجُودَ حَقِيقَةَ الدَّيَّانِ

يعني: إذا كسرتَ هذه الحُجُبَ فهناك صِرْتَ موحِّدًا حقًّا، ترى هذا الوجودَ حقيقةَ الدَّيَّانِ، نسألُ اللهَ العافيةَ؛ يعني: حينئذٍ تكونُ موحِّدًا حقيقةً، ترى أنَّ هذا الوجودَ هو حقيقةُ الدَّيَّانِ (الله) عزَّ وجلَّ.

٣١٦٤- وَالشِّرْكُ عِنْدَهُمُ فَتَنْوِيعُ الْوُجُو ... دِ وَقَوْلُنَا: إِنَّ الْوُجُودَ اثْنَانِ

هذا الشِّركُ، إِذَنْ التَّوحيدُ عندهم جَعْلُ الخالقِ والمخلوقِ واحدًا، والشِّركُ جَعْلُهُما اثنين.

٣١٦٥- وَاحْتَجَّ يَوْمًا بِالْكِتَابِ عَلَيْهِمُ ... شَخْصٌ فَقَالُوا الشِّرْكُ فِي الْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «بِالكِتَابِ»؛ أي: بالقرآنِ.

قال: القرآنُ يُفَرِّقُ بين الخالقِ والمخلوقِ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١]، فهناك عابِدٌ ومعبودٌ، وهناك خالِقٌ ومخلوقٌ، فكان جوابُهم: القرآنُ كُلُّه شركٌ، كُلُّ القرآنِ شركٌ، أعوذُ باللهِ.

فالقرآنُ يدعو إلى التَّوحيدِ، ويأمرُ بقتالِ المشركين؛ قال -سبحانه وتعالى-: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة:٣٦]، هم يقولون: القرآنُ كُلُّه شركٌ.

وأنا لا أَظُنُّ شيئًا أكفَرُ من هذا، نسألُ اللهَ العافيةَ، أَيُّ كفرٍ أعظمُ من هذا الكفرِ؟!

٣١٦٦- لَكِنَّمَا التَّوْحِيدُ عِنْدَ الْقَائِلِيـ ... ـنَ بِالِاتِّحَادِ فَهُمْ أُولُو الْعِرْفَانِ

٣١٦٧- رَبٌّ وَعَبْدٌ كَيْفَ ذَاكَ وَإِنَّمَا الْـ ـمَوْجُودُ فَرْدٌ مَا لَهُ مِنْ ثَانِ

هذا خلاصةُ التَّوحيدِ عند أهلِ الاتِّحادِ، والفرقُ بينهم وبين سلفِهم الفلاسفة: أَنَّ الفلاسفةَ يَرَوْنَ أنَّ الرَّبَّ شيءٌ والمربوبَ شيءٌ آخرُ، لكنَّ الرَّبَّ حقيقةً عندهم لا وجود له، لأنَّهم يقولون: هو الوجودُ المطلَقُ، وهؤلاء يقولون: الرَّبُّ والعبدُ شيءٌ واحدٌ، فَمَنْ أَثْبَتَ اثنين فقد أَشْرَكَ.

* * *

فصل

فِي النَّوْعِ الثَّالِثِ مِنَ التَّوْحِيدِ لأَهْلِ الإِلْحَادِ

٣١٦٨- هَـذَا وَثَالِثُهَـا هُـوَ التَّوْحِيـدُ عِنْـ ... ـدَ الْـجَهْمِ تَعْطِيـلٌ بِـلَا إِيـمَانِ

٣١٦٩- نَفْيُ الصِّفَاتِ مَعَ الْعُلُوِّ كَذَاكَ نَفْـ ... ـيُ كَلَامِـهِ بِـالْوَحْيِ وَالْقُـرْآنِ

٣١٧٠- فَـالْعَرْشُ لَـيْسَ عَلَيْـهِ شَيْءٌ بَتَّـةً ... لَكِنَّـهُ خِلْـوٌ مِـنَ الـرَّحْمَنِ

٣١٧١- مَـا فَوْقَـهُ رَبٌّ يُطَـاعُ وَلَا عَلَيْـ ... ـهِ لِلْـوَرَى مِـنْ خَـالِقٍ رَحْمَـنِ[1]

٣١٧٢- بَلْ حَظُّ عَرْشِ الرَّبِّ عِنْدَ فَرِيقِهِمْ ... مِنْـهُ كَحَـظِّ الْأَسْـفَلِ التَّحْتَـانِي

٣١٧٣- فَهُوَ الْـمُعَطَّلُ عَـنْ نُعُـوتِ كَمَالِـهِ ... وَعَـنِ الْكَـلَامِ وَعَـنْ جَمِيعِ مَعَـانِ

٣١٧٤- وَانْظُـرْ إِلَى مَـا قَـدْ حَكَيْنَـا عَنْـهُ فِي ... مَبْـدَا الْقَصِـيدِ حِكَايَـةَ التِّبْيَـانِ

٣١٧٥- هَـذَا هُـوَ التَّوْحِيـدُ عِنْـدَ فَـرِيقِهِمْ ... تِلْـوَ الْفُحُـولِ مُقَـدَّمِي الْبُهْتَـانِ[2]

٣١٧٦- وَالشِّرْكُ عِنْـدَهُمْ فَإِثْبَـاتُ الصِّـفَا ... تِ لِرَبِّنَـــا وَنِهَايَـــةُ الْكُفْــرَانِ

٣١٧٧- إِنْ كَانَ شِرْكًا ذَا فَكُلُّ الرُّسْـلِ قَـدْ ... جَـاؤُوا بِـهِ يَـا خَيْبَـةَ الْإِنْسَـانِ

الشرح

هذا النَّوعُ الثَّالثُ من أنواعِ التَّوحيدِ، وهو توحيدُ الجهميَّةِ، وتوحيدُ الجهميَّةِ

(١) في نسخة السفارينية: «ديان»، وفي التيمورية: «ربان».

(٢) في نسخ السفارينية والتيمورية: «سبحانك اللهم ذا السبحان».

إفرادُ الذَّاتِ عن الصِّفاتِ، قالوا: لأَنَّ إثباتَ الصِّفاتِ إن كانت صفاتٍ قديمةً لَزِمَ تعدُّدُ القدماءِ، وهذا شركٌ، وإنْ أثبتَّ صفاتٍ حادثةً لَزِمَ قِيَامُ الحوادثِ به، والحادثُ لا يقومُ إلَّا بحادثٍ، لذلك ننفي عنه الصِّفاتِ الذَّاتيَّةَ والفعليَّةَ؛ لأنَّ الذَّاتيَّةَ إذا أثبتَّها فهي قديمةٌ، فيَلْزَمُ تعدُّدُ القدماءِ، فاللهَ قديمٌ، علمُه قديمٌ، عزَّتُه قديمةٌ، حكمتُه قديمةٌ، وهكذا، فيلزم أنْ يكونَ هناك قُدَماء متعدِّدون، وهذا عندهم أعظمُ من شركِ النَّصارى؛ لأنَّ النَّصارى قالوا: إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ، وأنت إذا أَثْبَتَّ له الصِّفاتِ القديمةَ جَعَلْتَهُ واحدًا من آلافٍ، فلذلك يُمْنَعُ تعدُّدُ الصِّفاتِ القديمةِ، أمَّا الصِّفاتُ الحادثةُ التي هي الصِّفاتُ الفعليَّةُ، فقالوا: إذا أَثْبَتَّهَا لَزِمَ قيامُ الحوادثِ به، والحوادثُ لا تقومُ إلَّا بحادثٍ، إِذَنْ فالتَّوحيدُ عند الجهميَّةِ هو إفرادُ الذَّاتِ عن الصِّفاتِ.

٣١٦٨- هَـذَا وَثَالِثُهَـا هُـوَ التَّوْحِيـدُ عِنْـ ـــدَ الْـجَهْمِ تَعْطِيـلٌ بِـلَا إِيـمَانِ

٣١٦٩- نَفْيُ الصِّفَاتِ مَعَ الْعُلُوِّ كَذَاكَ نَفْـ ـــيُ كَلَامِـهِ بِـالْوَحْيِ وَالْقُـرْآنِ

لأنَّهم يُنكِرون علوَّ الله، ويُنكرون صفاتِه، ويُنكرون كلامَه، ويقولون: إنَّ هذا الكلامَ المسموعَ صوتٌ مخلوقٌ، خَلَقَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في الهواءِ، فَسَمِعَهُ جبريلُ، فأخذه وألقاه إلى محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.

٣١٧٠- فَـالْعَرْشُ لَـيْسَ عَلَيْـهِ شَيْءٌ بَتَّـةً لَكِنَّـــهُ خِلْـــوٌ مِـــنَ الـــرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «فَالعَرْشُ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ بَتَّةً»؛ يعني: قطعًا، لكنَّه خِلْوٌ من الرَّحمنِ.

٣١٧١- مَـا فَوْقَـهُ رَبٌّ يُطَـاعُ وَلَا عَلَيْـ ـــهِ لِلْـوَرَى مِـنْ خَـالِقٍ رَحْمَـنِ

لأنَّهم يُنكرون العلوَّ، ومن باب أولى يُنكرون الاستواءَ.

٣١٧٢- بَلْ حَظُّ عَرْشِ الرَّبِّ عِنْدَ فَرِيقِهِمْ ... مِنْهُ كَحَظِّ الْأَسْفَلِ التَّحْتَانِي

يقول: أسفلُ الأرضِ والعرشُ عند الله على حَدٍّ سواء، وعلى هذا تبطُلُ النَّصوصُ الدَّالَّةُ على الفوقيَّةِ والدَّالَّةُ على العِنديَّة ﴿ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف:٢٠٦]، يقولُ: كُلُّ النَّاسِ عند الله، لا فرقَ بين الأعلى والأسفلِ؛ لأنَّهم لا يَرَوْنَ أنَّ اللهَ فوق كُلِّ شيءٍ.

٣١٧٣- فَهُوَ الْمُعَطَّلُ عَنْ نُعُوتِ كَمَالِهِ ... وَعَنِ الْكَلَامِ وَعَنْ جَمِيعِ مَعَانِ

٣١٧٤- وَانْظُرْ إِلَى مَا قَدْ حَكَيْنَا عَنْهُ فِي ... مَبْدَا الْقَصِيدِ حِكَايَةَ التِّبْيَانِ

وقد سَبَقَ هذا مبسوطًا في كلامِ المؤلِّفِ رحمه اللهُ.

٣١٧٥- هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ عِنْدَ فَرِيقِهِمْ ... تِلْوَ الْفُحُولِ مُقَدِّمِي الْبُهْتَانِ

قَوْلُهُ: «تِلْوَ الْفُحُولِ مُقَدِّمِي الْبُهْتَانِ»؛ يعني: أنَّهم فحولٌ، لكنَّهم فحولُ بهتانٍ وكذبٍ.

٣١٧٦- وَالشِّرْكُ عِنْدَهُمُ فَإِثْبَاتُ الصِّفَا ... تِ لِرَبِّنَا وَنِهَايَةُ الْكُفْرَانِ

الشِّركُ إثباتُ الصِّفاتِ، فكُلُّ مَنْ أَثْبَتَ لله صفةً فهو عندهم مشركٌ.

يقولُ المؤلِّفُ:

٣١٧٧- إِنْ كَانَ شِرْكًا ذَا فَكُلُّ الرُّسْلِ قَدْ ... جَاؤُوا بِهِ يَا خَيْبَةَ الْإِنْسَانِ

المعنى: أنَّ كُلَّ الرُّسلِ قد جاؤوا بإثباتِ الصِّفاتِ لله، فإن كان هذا شِركًا فيا خيبةَ الإنسانِ.

* * *

فصــل

فِي النَّوْعِ الرَّابِعِ مِنْ أَنْوَاعِهِ

٣١٧٨- هَـــذَا وَرَابِعُهَــا فَتَوْحِيــدٌ لَــدَى ... جَــبْرِيِّهِمْ هُـــوَ غَايَــةُ الْعِرْفَــانِ

٣١٧٩- الْعَبْــدُ مَيْــتٌ مَــا لَــهُ فِعْــلٌ وَلَـــ ... ـكِنْ مَا تَرَى هُوَ فِعْلُ ذِي السُّلْطَانِ

٣١٨٠- وَاللهُ فَاعِــلُ فِعْلِنَــا مِــنْ طَاعَــةٍ ... وَمِـنَ الْفُسُـوقِ وَسَـائِرِ الْعِصْيَانِ

٣١٨١- هِيَ فِعْلُ رَبِّ الْعَالَـمِينَ حَقِيقَةً ... لَيْسَــتْ بِفِعْــلٍ قَــطُّ لِلْإِنْسَــانِ

٣١٨٢- فَالْعَبْــدُ مَيْــتٌ وَهْــوَ مَجْبُــورٌ عَــلَى ... أَفْعَالِــهِ كَالْــمَيْتِ[1] فِي الْأَكْفَــانِ

٣١٨٣- وَهُــوَ الْــمَلُومُ عَــلَى فِعَــالِ إِلَــهِهِ ... فِيــهِ وَدَاخِــلُ جَــاحِمِ النِّــيرَانِ

٣١٨٤- يَا وَيْحَهُ الْــمِسْكِينُ مَظْلُـومٌ يُـرَى ... فِي صُورَةِ الْعَبْـدِ الظَّلُّـومِ الْـجَانِي

٣١٨٥- لَكِــنْ نَقُــولُ بِأَنَّــهُ هُــوَ ظَالِــمٌ ... فِي نَفْسِــهِ أَدَبًــا مَــعَ الــرَّحْمَنِ

٣١٨٦- هَـذَا هُـوَ التَّوْحِيـدُ عِنْـدَ فَـرِيقِهِمْ ... مِنْ كُـلِّ جَـبْرِيٍّ خَبِيـثٍ جَنَـانِ[2]

٣١٨٧- وَالْكُـــلُّ عِنْـــدَ غُلَاتِهِـــمْ طَاعَاتُنَـــا ... مَــا ثَــمَّ فِي التَّحْقِيــقِ مِــنْ عِصْيَانِ

٣١٨٨- وَالشِّرْكُ عِنْـدَهُمُ اعْتِقَـادُكَ فَـاعِلًا ... غَـــيْرَ الْإِلَـــهِ الْـــمَالِكِ الـــدَّيَّانِ

---

(١) في نسخة الإفتاء: «حركاته كالجسم».

(٢) في نسخة برلين والإفتاء والتيمورية: «جاني».

٣١٨٩- فَانْظُرْ إِلَى التَّوْحِيدِ عِنْدَ الْقَوْمِ مَا … فِيهِ مِنَ الْإِشْرَاكِ وَالْكُفْرَانِ

٣١٩٠- مَا عِنْدَهُمْ وَاللهِ شَيْءٌ غَيْرُهُ … هَاتِيكَ كُتْبُهُمُ بِكُلِّ مَكَانِ

٣١٩١- أَتَرَى أَبَا جَهْلٍ وَشِيعَتَهُ رَأَوْا … مِنْ خَالِقٍ ثَانٍ لِذِي الْأَكْوَانِ

٣١٩٢- أَمْ كُلُّهُمْ جَمْعًا أَقَرُّوا أَنَّهُ … هُوَ وَحْدَهُ الْـخَلَّاقُ لِلْإِنْسَانِ؟

٣١٩٣- فَإِذَا ادَّعَيْتُمْ أَنَّ هَذَا غَايَةُ التْـ … ـتَوْحِيدِ صَارَ الشِّرْكُ ذَا بُطْلَانِ

٣١٩٤- فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ أَقَرُّوا أَنَّهُ … هُوَ وَحْدَهُ الْـخَلَّاقُ لَيْسَ اثْنَانِ

٣١٩٥- إِلَّا الْـمَجُوسَ فَإِنَّهُمْ قَالُوا بِأَنْ … نَ الشَّرَّ خَالِقُهُ إِلَهٌ ثَانِ

الشرحُ

٣١٧٨- هَذَا وَرَابِعُهَا فَتَوْحِيدٌ لَدَى … جَبْرِيِّهِمْ هُوَ غَايَةُ الْعِرْفَانِ

٣١٧٩- الْعَبْدُ مَيْتٌ مَا لَهُ فِعْلٌ وَلَـ … ـكِنْ مَا تَرَى هُوَ فِعْلُ ذِي السُّلْطَانِ

قَوْلُهُ: «**العَبْدُ مَيْتٌ**»؛ أي: لا تُنْسَبُ حركاتُه إليه، فكما أنَّ الميتَ لا يتحرَّكُ فالحيُّ لا يتحرَّكُ، حركاتُه منسوبةٌ إليه، فإذا رَفَعْتَ يدَكَ إلى فمِك فهي كما لو رَفَعَ الغاسلُ يدَ الميتِ إلى فمِه، ولا فرقَ.

قَوْلُهُ: «**وَلَكِنْ مَا تَرَى هُوَ فِعْلُ ذِي السُّلْطَانِ**»؛ ذو السُّلطانِ هو اللهُ عزَّ وجلَّ.

هذا هو النَّوعُ الرَّابعُ من أنواعِ التَّوحيدِ، وهو: إفرادُ الله تعالى بالأفعالِ؛ فأيُّ فعلٍ كان فاللهُ تعالى مُنْفَرِدٌ به، فَمَنْ أَضَافَ فِعلًا لغيرِ الله فهو مشركٌ، هذا هو التَّوحيدُ عند الجبريَّةِ.

يقولون: إنَّ فعلَ العبدِ هو نفسُ فعلِ الرَّبِّ، فحركاتُنا حركاتُ الله، والمعصيةُ الواقعةُ من الإنسانِ معصيةٌ واقعةٌ من الله، الطَّاعةُ من الإنسانِ طاعةٌ من الله.

يُقَالُ لهم: أليس يُقَالُ: إنَّ الرَّجلَ ظَلَمَ نفسَه؟ قالوا: بلى يُقَالُ، لكن هذا تأدُّبٌ مع الله، وإلَّا فإنَّ الظَّالـمَ حقيقةً هو اللهُ.

فانظر -والعياذُ بالله- إلى هذا القولِ الخبيثِ، ثُمَّ جاءت الغُلاةُ منهم وقالوا: إنَّنا نخرجُ من هذا ونتخلَّصُ، فنقول: جميعُ الأفعالِ طاعةٌ، فالزِّنا طاعةٌ، والسَّرقةُ طاعةٌ، وشربُ الخمرِ طاعةٌ، وقتلُ النَّفسِ طاعةٌ؛ وذلك لأنَّ هذه الأفعالَ إن خرجت عن الإرادةِ الشرعيَّةِ فهي واقعةٌ بالإرادةِ الكونيَّةِ؛ ولهذا يقولون: كُلُّ مرادٍ لله فهو محبوبٌ له، والكونُ كُلُّه مرادٌ، فيكونُ الكونُ كُلُّه بما فيه من طاعاتٍ ومعاصٍ محبوبًا لله؛ ولهذا ليس عندهم معصيةٌ، فَمَنِ استكبر عن الأمرِ الشَّرعيِّ فهو خاضعٌ للأمرِ الكونيِّ، وحينئذٍ لا يكونُ عاصيًا.

٣١٨٠- وَاللهُ فَاعِلُ فِعْلِنَا مِنْ طَاعَةٍ ... وَمِنَ الْفُسُوقِ وَسَائِرِ الْعِصْيَانِ

٣١٨١- هِيَ فِعْلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقَةً ... لَيْسَتْ بِفِعْلٍ قَطُّ لِلْإِنْسَانِ

٣١٨٢- فَالْعَبْدُ مَيْتٌ وَهْوَ مَجْبُورٌ عَلَى ... أَفْعَالِهِ كَالْـمَيْتِ فِي الْأَكْفَانِ

سُبحان الله! أنا أتعجَّبُ كيف يستقيمُ قَدَمُ الإنسانِ على هذا القولِ أن يجعلَ أفعالَنا بمنزلةِ حركاتِ الميِّتِ؟! وهذا شيءٌ ينكرُه المعقولُ والمحسوسُ، لكن ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ [آل عمران:٨].

٣١٨٣- وَهُوَ الْـمَلُومُ عَلَى فِعَالِ إِلَـهِهِ ... فِيهِ وَدَاخِلُ جَاحِمِ النِّيرَانِ

قَوْلُهُ: «وَهُوَ الـمَلُومُ عَلَى فِعَالِ إِلَـهِهِ» اللهُ يفعلُ والملومُ العبدُ؛ لأنَّ فعلَ

الإنسانِ عندهم هو فعلُ الله حقيقةً، وهذا لا شكَّ أنَّك إذا تأمَّلته وجدتَه فرعًا من قولِ أهلِ وَحدةِ الوجودِ؛ لأنَّ القائلين بوحدةِ الوجودِ يقولون: إنَّ الإنسانَ هو اللهُ وفعلَه فعلُ الله، هؤلاء لا يقولون بذلك، ولكن يقولون: فعلُ العبدِ هو فعلُ الله.

قَوْلُهُ: «**وَدَاخِلُ جَاحِمِ النِّيرَانِ**»، وهذا غريبٌ، الفعلُ فعلُ غيرِه والمُعَذَّبُ هو!!

٣١٨٤- يَا وَيْحَهُ الْـمِسْكِينُ مَظْلُومٌ يُرَى　　　فِي صُورَةِ الْعَبْدِ الظَّلُومِ الْـجَانِي

٣١٨٥- لَكِـنْ نَقُـولُ بِأَنَّـهُ هُـوَ ظَالِـمٌ　　　فِي نَفْسِـهِ أَدَبًـا مَـعَ الـرَّحْمَنِ

فهم يقولون: إنَّ الذَّنبَ أُضِيفَ إليهم تأدُّبًا مع الله، وإلَّا فالذَّنبُ ذنبُ الله عزَّ وجلَّ، والعياذُ بالله! يقولُ قائلُهم:

أَلْقَاهُ فِي اليَمِّ مَكْتُوفًـا وَقَـالَ لَـهُ:　　　إِيَّـاكَ إِيَّـاكَ أَنْ تَبْتَـلَّ بِالمَـاءِ(١)

فلو أنَّ إنسانًا ألقى شخصًا مَكتُوفًا في الماء، وقال: أنا ألقيتُك بالبحرِ، لكن لا تبتلَّ بالماءِ، فهل هذا يمكنُ؟

الجوابُ: لا يمكنُ، إِذَنْ يقولون: لا بُدَّ أن يكونَ اللهُ ظالمًا.

فالحقيقةُ أنَّ الظالـمَ -على زعمِهم- هو اللهُ عزَّ وجلَّ، يفعلُ الفعلَ ويُنْسَبُ إلى غيرِه، ثُمَّ يُعَذِّبُ غيرَه فيدخل جاحمَ النِّيرانِ.

٣١٨٦- هَـذَا هُـوَ التَّوْحِيـدُ عِنْـدَ فَـرِيقِهِمْ　　　مِـنْ كُـلِّ جَـبْرِيٍّ خَبِيـثِ جَنَـانِ

إي والله، إنَّهم خبثاءُ الجَنَانِ، والجَنَانُ هو القلبُ، وسُمِّيَ به لأنَّه مستترٌ،

(١) البيت في نفح الطيب (٥/ ٢٩٢) بلا نسبة.

وأصلُ هذه المادة (الجيم والنُّون) من الاستِتارِ؛ ولذلك تجد جميعَ مواردِها تحومُ حولَ الاستتارِ.

٣١٨٧- وَالْكُلُّ عِنْدَ غُلَاتِهِمْ طَاعَاتُنَا مَا ثَمَّ فِي التَّحْقِيقِ مِنْ عِصْيَانِ

وهذا أَخْبَثُ؛ فكُلُّ ما نفعلُه طاعةٌ، فالزِّنا طاعةٌ، والنِّكاحُ بالعقدِ الصَّحيحِ طاعةٌ، وقتلُ النَّفسِ بغيرِ حقٍّ طاعةٌ، وقتلُ الجاني قِصاصًا طاعةٌ، فكُلُّها طاعاتٌ؛ وذلك لأنَّ القاعدةَ عندهم أنَّ كُلَّ مرادِ الرَّبِّ محبوبٌ له، والكونُ كُلُّه مُرادُه، فيكون الكونُ كُلُّه محبوبًا لله طاعةً، ويكونُ أيضًا إذا استكبر عن الأمرِ الشَّرعيِّ فقد خَضَعَ للأمرِ الكونيِّ، فهو مطيعٌ.

٣١٨٨- وَالشِّرْكُ عِنْدَهُمُ اعْتِقَادُكَ فَاعِلًا غَيْرَ الْإِلَهِ الْمَالِكِ الدَّيَّانِ

الشِّركُ أنْ تعتقدَ أنَّ هناك فاعلًا سوى الله، فإذا اعْتَقَدْتَ أنَّ الإنسانَ فاعلٌ فهذا شركٌ؛ ولذلك قلنا: إنَّ التَّوحيدَ عند هؤلاء إفرادُ الله بالأفعالِ أيًّا كانت.

٣١٨٩- فَانْظُرْ إِلَى التَّوْحِيدِ عِنْدَ الْقَوْمِ مَا فِيهِ مِنَ الْإِشْرَاكِ وَالْكُفْرَانِ

يعني: انظُر إلى ما فيه من الإشراكِ والكُفرانِ.

٣١٩٠- مَا عِنْدَهُمْ وَالله شَيْءٌ غَيْرُهُ هَاتِيكَ كُتْبُهُمُ بِكُلِّ مَكَانِ

يعني: ولم نَكْذِبْ عليهم، فكتبُهم موجودةٌ ويصرِّحون بذلك.

٣١٩١- أَتَرَى أَبَا جَهْلٍ وَشِيعَتَهُ رَأَوْا مِنْ خَالِقٍ ثَانٍ لِذِي الْأَكْوَانِ

٣١٩٢- أَمْ كُلُّهُمْ جَمْعًا أَقَرُّوا أَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الْخَلَّاقُ لِلْإِنْسَانِ؟

والجوابُ: كُلُّهم أقرُّوا بأنَّ اللهَ هو الخالقُ، حتَّى أبو جهلٍ الملعون الذي قُتِلَ

في بدرٍ، هو يُقِرُّ بأنَّ اللهَ وحده هو الـخلَّاقُ، لكن يُقِرُّ بأنَّ فعلَه غيرُ فعلِ الله عزَّ وجلَّ.

٣١٩٣- فَــإِذَا ادَّعَيْــتُمْ أَنَّ هَــذَا غَايَــةُ التَّــ ـــوْحِيدِ صَــارَ الشِّــرْكُ ذَا بُطْــلَانِ

إذا ادَّعيتم أنَّ هذا غايةُ التَّوحيدِ وهو توحيدُ الله بالأفعالِ صار الشِّركُ ذا بطلانٍ، فلم يُوجَدْ شركٌ؛ لأنَّ الكُلَّ فعلُ الله.

٣١٩٤- فَالنَّـــاسُ كُلُّهُـــمْ أَقَـــرُّوا أَنَّـــه هُوَ وَحْـدَهُ الْـخَلَّاقُ لَـيْسَ اثْنَـانِ

٣١٩٥- إِلَّا الْــمَجُوسَ فَـإِنَّهُمْ قَـالُوا بِـأَنْ نَ الشَّـــرَّ خَالِقُـــهُ إِلَـــهٌ ثَـــانِ

المجوسُ يقولون: إنَّ العَالَـمَ له صانعان: نورٌ وظُلمةٌ؛ فما فيه من خَيْرٍ فهو مخلوقٌ من النُّورِ، وما فيه من شرٍّ فهو مخلوقٌ من الظُّلمةِ، ومع هذا فإنَّهم لا يُقِرُّون بأنَّ هذين الإلهين سواء، بل يقولون: إنَّ النُّورَ خيرٌ من الظُّلمةِ، ويقولون أيضًا: إنَّ النُّورَ قديمٌ؛ يعني: ليس بحادثٍ، والظُّلمةُ حادثةٌ، وبعضُهم يقولُ: إنَّها قديمةٌ، فلذلك لم يُوجَدْ أحدٌ من الخلقِ يقولُ: إنَّ العَالَـمَ له صانعان متكافئان أبدًا.

* * *

فصل

فِي بَيَانِ تَوْحِيدِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، وَمُخَالَفَتِهِ لِتَوْحِيدِ المَلَاحِدَةِ وَالمُعَطِّلِينَ

٣١٩٦- فَاسْمَعْ إِذَنْ تَوْحِيدَ رُسْلِ اللهِ ثُمْ ... مَ اجْعَلْهُ دَاخِلَ كِفَّةِ الْـمِيزَانِ

٣١٩٧- مَعَ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ وَانْظُرْ أَيُّهَا ... أَوْلَى[1] لَدَى الْـمِيزَانِ بِالرُّجْحَانِ

٣١٩٨- تَوْحِيدُهُمْ نَوْعَانِ قَوْلِيٌّ وَفِعْـ ... ـلِيٌّ كِلَا نَوْعَيْهِ ذُو بُرْهَانِ

٣١٩٩- فَالْأَوَّلُ الْقَوْلِيُّ ذُو نَوْعَيْنِ أَيْـ ... ـضًا فِي كِتَابِ اللهِ مَوْجُودَانِ

٣٢٠٠- إِحْدَاهُمَا سَلْبٌ وَذَا نَوْعَانِ أَيْـ ... ـضًا فِي كِتَابِ اللهِ مَذْكُورَانِ

٣٢٠١- سَلْبُ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ جَمِيعِهَا ... عَنْهُ هُمَا نَوْعَانِ[2] مَعْقُولَانِ

٣٢٠٢- سَلْبٌ لِـمُتَّصِلٍ وَمُنْفَصِلٍ هُمَا ... نَوْعَانِ مَعْرُوفَانِ أَمَّا الثَّانِي

٣٢٠٣- سَلْبُ الشَّرِيكِ مَعَ الظَّهِيرِ مَعَ الشَّفِيـ ... ـعِ بِدُونِ إِذْنِ الْـخَالِقِ الدَّيَّانِ

٣٢٠٤- وَكَذَاكَ سَلْبُ الزَّوْجِ وَالْوَلَدِ الَّذِي ... نَسَبُوا إِلَيْهِ عَابِدُو الصُّلْبَانِ

٣٢٠٥- وَكَذَاكَ نَفْيُ الْكُفْءِ أَيْضًا وَالْوَلِيْـ ... ـيِ لَنَا سِوَى الرَّحْمَنِ ذِي الْغُفْرَانِ

٣٢٠٦- وَالْأَوَّلُ التَّنْزِيهُ لِلرَّحْمَنِ عَنْ ... وَصْفِ الْعُيُوبِ وَكُلِّ ذِي نُقْصَانِ

(١) في نسخ برلين والسفارينية والظاهرية والإفتاء والتيمورية: «أوفى».
(٢) في نسخة السفارينية: «سلبان».

٣٢٠٧- كَالْـمَوْتِ وَالْإِعْيَاءِ وَالتَّعَبِ الَّذِي ... يَنْفِـي اقْتِـدَارَ الْـخَالِقِ الـدَّيَّانِ

٣٢٠٨- وَالنَّـوْمُ وَالسِّـنَةُ الَّتِي هِـيَ أَصْـلُهُ ... وَعُـزُوبِ شَيْءٍ عَنْـهُ فِي الْأَكْـوَانِ

٣٢٠٩- وَكَذَلِكَ الْعَبَثُ الَّذِي تَنْفِيـهِ حِكْـ ... ـمَتُهُ وَحَمْـدُ الله ذِي الْإِتْقَـانِ

٣٢١٠- وَكَذَاكَ تَرْكُ الْـخَلْقِ إِهْمَالًا سُدًى ... لَا يُبْعَثُـونَ إِلَى مَعَـادٍ ثَـانِ

٣٢١١- كَـلَّا وَلَا أَمْـرٌ وَلَا نَهْـيٌ عَلَيْـ ... ـهِمْ مِـنْ إِلَـهٍ قَـادِرٍ دَيَّـانِ

٣٢١٢- وَكَذَاكَ ظُلْـمُ عِبَـادِهِ وَهْـوَ الْغَنِـيْ ... يُ فَـمَا لَـهُ وَالظُّلْـمِ لِلْإِنْسَـانِ

٣٢١٣- وَكَـذَاكَ غَفْلَتُـهُ تَعَـالَى وَهْـوَ عَلْـ ... لَامُ الْغُيُـوبِ فَظَـاهِرُ الْـبُطْلَانِ

٣٢١٤- وَكَـذَلِكَ النِّسْـيَانُ جَـلَّ إِلَـهُنَا ... لَا يَعْتَرِيـهِ قَـطُّ مِـنْ نِسْـيَانِ

٣٢١٥- وَكَـذَاكَ حَاجَتُـهُ إِلَى طُعْـمٍ وَرِزْ ... قٍ وَهْـوَ رَزَّاقٌ بِـلَا حُسْـبَانِ

٣٢١٦- هَذَا وَثَـانِي نَـوْعَيِ السَّـلْبِ الَّـذِي ... هُـوَ أَوَّلُ الْأَنْـوَاعِ فِي الْأَوْزَانِ

٣٢١٧- تَنْزِيهُ أَوْصَافِ الْكَمَالِ لَهُ عَـنِ التْـ ... ـتَشْبِيهِ وَالتَّمْثِيـلِ وَالنُّكْـرَانِ

٣٢١٨- لَسْـنَا نُشَـبِّهُ وَصْـفَهُ بِصِـفَاتِنَا ... إِنَّ الْـمُشَبِّهَ عَابِـدُ الْأَوْثَـانِ

٣٢١٩- كَـلَّا وَلَا نُخْلِيـهِ مِـنْ أَوْصَـافِهِ ... إِنَّ الْـمُعَطِّلَ عَابِـدُ الْبُهْتَـانِ

٣٢٢٠- مَـنْ مَثَّـلَ اللهَ الْعَظِـيمَ بِخَلْقِـهِ ... فَهْوَ النَّسِيبُ لِـمُشْرِكٍ نَصْـرَانِي(١)

٣٢٢١- أَوْ عَطَّـلَ الـرَّحْمَنَ مِـنْ أَوْصَـافِهِ ... فَهْـوَ الْكَفُـورُ وَلَـيْسَ ذَا إِيـمَانِ

---

(١) في التيمورية والسفارينية (لعابد الصلبان).

الشــرحُ

ذكَر -رحِمه الله- أربعةَ أنواعٍ للتَّوحيدِ بالنِّسبة لأهلِ التَّعطيلِ والملاحدةِ وغيرِهم، وأمَّا الخامسُ فهو توحيدُ الأنبياءِ والمرسَلين المخالفُ لتوحيدِ الملاحدةِ والمعطِّلين، وذكره -رحمه الله- هنا.

واعلم أنَّ التَّوحيدَ مصدر (**وَحَّدَ يُوَحِّدُ**)؛ بمعنى: جَعَلَ الشَّيءَ واحدًا عقيدةً أو عملًا.

وقَسَّمَه العُلَماءُ -رحمهم الله- إلى ثَلاثةِ أقسامٍ: توحيدِ الرُّبوبيَّةِ، وتوحيدِ الألوهيَّةِ، وتوحيدِ الأسماءِ والصِّفاتِ، ودليلُهم في ذلك قولُ الله -تبارك وتعالى-: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥].

فتوحيدُ الرُّبوبيَّة في قولِه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [مريم:٦٥].

وتوحيدُ الألوهيَّة في قولِه: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم:٦٥]، وهذا يُسَمَّى توحيدَ الألوهيَّةِ بالنِّسبة لله عزَّ وجلَّ، ويُسَمَّى توحيدَ العبادةِ بالنِّسبة للعبدِ أنَّه لا يَعْبُدُ غيرَ الله.

وتوحيدُ الأسماءِ والصِّفاتِ في قولِه تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]؛ لأنَّ الاستفهام في قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ الاستفهام بمعنى النَّفي؛ يعني: لا تجدُ له مُضاهيًا ومُماثلًا في جميعِ صفاتِه، وهذا هو توحيدُ الأسماءِ والصِّفاتِ.

وهناك توحيدٌ ضَمَّهُ بعضُ النَّاسِ وقال: (**توحيدُ الحاكميَّةِ**)، وهذا قسمٌ باطلٌ؛ لأنَّه مُبْتَدَعٌ، فلم يكن ممَّا ذَكَرَه السَّلفُ الصَّالحُ، ولو كان صحيحًا لقلنا: لا مُشاحَّةَ في الاصطلاحِ، لكنَّه غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّ توحيدَ الحاكميَّةِ يدخلُ ضمنَ توحيدِ الرُّبوبيَّةِ باعتبارِه حُكْمًا لله، وفي توحيدِ الألوهيَّةِ باعتبارِ أنَّ العبدَ مُتَعَبِّدٌ به

ومفروضٌ عليه، إِذَنْ لا حاجةَ إلى أن نجعلَه قسمًا برأسِه؛ لأنَّه يترتَّبُ على كونِه قسمًا برأسِه أشياءُ مخالفةٌ للشَّرعِ، ومنها: التَّسرُّع بتكفيرِ الحُكَّام، فيقولون: إذا خَالَفَ في مسألةٍ واحدةٍ -قد تحتملُ التَّأويلَ- يقولون: هذا كافرٌ؛ لأنه أَخَلَّ بالتَّوحيدِ؛ لذلك وضعوا هذا القسمَ الرَّابعَ.

وقال بعضُهم: نزيد أيضًا قسمًا خامسًا، وهو: توحيدُ المتابعةِ للرَّسولِ ﷺ، وهذا غلطٌ أيضًا؛ لأنَّ العبادةَ لا تتمُّ إلَّا بالمتابعةِ، فما دمنا نقولُ: توحيدُ الألوهيَّةِ هو العبادة فنستغني به عن توحيدِ المتابعةِ، ثُمَّ توحيدُ المتابعةِ ليس كتوحيدِ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ توحيدَ الرَّبِّ بالقصدِ، وتوحيدَ المتابعةِ بالتَّأسِّي به.

فعليك يا أخي بالعتيقِ، عليك بالعتيقِ، عليك بالعتيقِ، واحذر المُحْدَثَاتِ؛ فإنَّها قد تكونُ سُمًّا في دَسَمٍ.

إِذَنْ التَّوحيدُ ثلاثةُ أنواعٍ: **أوَّلـها**: توحيدُ الرُّبوبيَّة، **والثَّاني**: توحيدُ الألوهيَّة، **والثَّالثُ**: توحيدُ الأسماءِ والصِّفاتِ، ولم يُشْرِكْ أحدٌ في توحيدِ الرُّبوبيَّةِ من بني آدمَ -فيما نعلمُ- إلَّا على وجهِ المكابرةِ أو الضَّلالِ البعيدِ، كما فعل المجوسُ الثَّنويَّةُ الذين يقولون: إنَّ للحوادثِ خَالِقَيْنِ: ظلمةً ونورًا، فما كان من شرٍّ فهو من ربوبيَّةِ الظُّلمةِ، وما كان من خيرٍ فهو من ربوبيَّةِ النُّورِ، لكنَّهم لم يُوَافِقُوا على هذا.

أمَّا توحيدُ الألوهيَّة فهو الذي حصَلت فيه المعاركُ الكلاميَّة والقتاليَّة بين الرُّسلِ وأعدائِهم، فمثلًا المشركون الذين بُعِثَ فيهم الرَّسولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- واستَحَلَّ دماءَهم وأموالَهم ونساءَهم وذرِّيَّاتِهم لا ينكرون الرُّبوبيَّةَ، يُقِرُّون بأنَّ اللهَ واحدٌ في ربوبيَّته، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥]، وإذا سُئِلُوا: مَنْ يُدَبِّرُ الأمرَ؟ يقولون: اللهُ عزَّ وجلَّ،

أمَّا في الألوهيَّةِ فلا، فيقولون في حقِّ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص:٥]، وهذا إنكارٌ، ثُمَّ رَشَّحُوا هذا الإنكارَ بقولِهم: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾، وعُجَابٌ بمعنى: عجيب، لكن فيه نوعٌ من المبالغةِ، والحقيقةُ أنَّ العُجَابَ قولُهم بتعدُّدِ الآلـهةِ.

وأمَّا توحيدُ الأسماءِ والصِّفاتِ فقد خَالَفَ فيه ممَّن يدينون بالإسلام مَنْ خَالَفَ بين الغالي في الإثباتِ والجافي، الغالي في الإثباتِ: المُشَبِّهَة المُمَثِّلَة، غَلَوْا في إثباتِ صفاتِ الله عزَّ وجلَّ حتَّى أشركوا بهذا الغلوِّ، كيف ذلك؟ قالوا: إنَّ صفاتِ الله مثلُ صفاتِ المخلوقِ: الوجه، واليد، والعين، كُلُّها مثلُ صفاتِ المخلوقِ، فجعلوا مع الله إلـهًا آخرَ مماثلًا له.

والقسم الثَّاني: جَفَوْا، وأنكروا الصِّفاتِ، وهؤلاء أشركوا بالله عزَّ وجلَّ، حيث شبَّهوا اللهَ تعالى بالمعدومِ وبالنَّاقصِ، وهذا نوعٌ من الشِّركِ.

فالحاصل: أنَّ توحيدَ الرُّبوبيَّةِ لم ينكره المشركون الذين قاتلهم الرَّسولُ ﷺ، وأنَّ توحيدَ الألوهيَّةِ أنكروه، لكن لم ينكره مَنْ ينتسبُ للإسلامِ إلَّا مَنْ دخل عليهم الشِّركُ في القبورِ، وما أشبه ذلك، يدَّعون أنَّهم شفعاء.

وأمَّا توحيدُ الأسماءِ والصِّفاتِ فهو الذي حَصَلَ فيه الخلافُ بين أهلِ القبلةِ، فبعد أن ظهرت الكتبُ اليونانيَّةُ والرُّومانيَّة، وعُرِّبَتْ، وانتشرت في زمن المأمونِ، صارت محنةٌ عظيمةٌ على أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، لكنَّهم صبروا وصابروا، فكانت العاقبةُ للمتَّقين، ولله الحمدُ.

ولعلَّكم تعلمون ما جَرَى للإمامِ أحمدَ -رحمه الله- في محنتِهِ كيف كان أمرُه وصبرُه حتَّى جعل اللهُ العاقبةَ له ولله الحمدُ، وهكذا في كُلِّ عصرٍ وفي كُلِّ مِصْرٍ

يظهرُ أعداءٌ للدِّينِ من وجوهٍ مختلفةٍ؛ فعلينا نحن -معشر المسلمين- طلبة العلمِ المتمسِّكين بالسُّنَّةِ واتِّباعِ السَّلفِ؛ علينا أن نعرفَ كَوامنَ هؤلاء وندرُسَها تمامًا حتَّى يكونَ لردِّنا أثرٌ؛ ولذلك نجدُ أنَّ عُلَماءَنا -رحمهم الله- الذين تَصَدَّوْا لردِّ أهلِ التَّعطيلِ، وأهلِ المنطقِ والكلامِ قرؤوا هذه الكتبَ، وقرؤوا هذه الآراءَ وعرفوها، لكن متى يكونُ؟ الجوابُ: إذا كان عند الإنسانِ حصيلةٌ جيِّدةٌ يتحصَّنُ بها من سمِّ كتب هؤلاء، أمَّا طالبُ العلم المبتدئ فهذا قد يغترُّ بكلامِهم.

يقولُ ابنُ القيِّم -رحمه الله-:

٣١٩٦- فَاسْمَعْ إِذَنْ تَوْحِيدَ رُسْلِ اللهِ ثُـمْ ... مَ اجْعَلْـهُ دَاخِـلَ كِفَّـةِ الْـمِيزَانِ

٣١٩٧- مَـعَ هَـذِهِ الْأَنْـوَاعِ وَانْظُـرْ أَيُّهَـا ... أَوْلَى لَـدَى الْـمِيزَانِ بِالرُّجْحَـانِ

يعني: زِنِ الأشياءَ بما يُقابلُها، وهذا ممَّا جاءت به الشَّريعةُ، قال اللهُ -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠]، وقال اللهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الشورى:١٧]، فلا بُدَّ من الموازنةِ، فإذا جعلنا توحيدَ الرُّسلِ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- وتوحيدَ مَنْ سَبَقَ ذِكْرُهم في كِفَّةِ الميزانِ، قال ابنُ القيِّم -رحمه الله-: انظر أيُّها أَوْلَى لدى الميزانِ بالرُّجحانِ؟ وهذا لا شَكَّ أنَّه من العدلِ والإنصافِ؛ كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ [آل عمران:٦٤]، فمن العدلِ أنْ تُوازِنَ بين الأقوالِ وبين الأحوالِ أيضًا، وتنظُرَ أيُّها أرجحُ، لكن ما هو الأرجح؟ الجوابُ: لا شَكَّ أنَّه توحيدُ الرُّسُلِ؛ لأنَّه مُطابِقٌ تمامًا لصريحِ المعقولِ وصحيحِ المنقولِ، فالعقلُ السَّليمُ لا يمكنُ أن يُنْكِرَ توحيدَ الرُّسلِ أبدًا، بل يشهدُ بصحَّتِه ويقرُّه ويطمئنُ إليه.

ثُمَّ قسَّم المؤلِّفُ هذا التَّوحيدَ إلى أقسامٍ كثيرةٍ، لكن مع التَّأنِّي سوف تتبيَّنُ، قال رحمه الله:

٣١٩٨- تَوْحِيدُهُمْ نَوْعَانِ قَوْلِيٌّ وَفِعْـ ـلِيٌّ كِلَا نَوْعَيْهِ ذُو بُرْهَانِ

ذكر -رحِمه الله- أنَّ التَّوحيدَ نوعان: قوليٌّ وفعليٌّ، كُلٌّ منهما له برهانٌ؛ أي: دليلٌ واضحٌ قاطعٌ.

فالتَّوحيد نوعان: قوليٌّ وفعليٌّ، فالقوليُّ يكونُ باللِّسانِ وبالقلبِ، والفعليُّ يكونُ بالجوارحِ وبالقلبِ، فالتَّوحيدُ بالقلبِ أن يقولَ القائلُ مثلًا: (**لا إلهَ إلَّا الله**)، هذا توحيدٌ بالقولِ، وبالقلبِ أن يُقِرَّ بأنَّ اللهَ وحدَه هو الإلهُ.

والتَّوحيدُ بالفعلِ: ألَّا يُشْرِكَ أحدًا في فعلٍ، فلا يسجدُ لصنمٍ، ولا لأحدٍ من المخلوقين.

والتَّوحيدُ الفعليُّ بالقلبِ هو التَّوكُّلِ على الله، والاعتمادُ عليه، وما أشبه ذلك، وكُلُّها سوف تتبيَّنُ في كلامِ المؤلِّفِ إن شاء الله.

٣١٩٩- فَالْأَوَّلُ الْقَوْلِيُّ ذُو نَوْعَيْنِ أَيْـ ـضًا فِي كِتَابِ اللهِ مَوْجُودَانِ

٣٢٠٠- إِحْدَاهُمَا سَلْبٌ وَذَا نَوْعَانِ أَيْـ ـضًا فِي كِتَابِ اللهِ مَذْكُورَانِ

٣٢٠١- سَلْبُ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ جَمِيعِهَا عَنْهُ هُمَا نَوْعَانِ مَعْقُولَانِ

٣٢٠٢- سَلْبٌ لِمُتَّصِلٍ وَمُنْفَصِلٍ هُمَا نَوْعَانِ مَعْرُوفَانِ ....

القوليُّ نوعان: **أحدهما**: سلبٌ، والسَّلبُ، يعني: النَّفيَ، إِذَنْ **الثَّاني**: ثبوتٌ؛ لأنَّ ضدَّ السَّلبِ هو الإثبات.

إِذَنْ التَّوحيدُ القوليُّ ينقسمُ إلى قسمين: القسم الأوَّل: سلبيٌّ، القسم الثَّاني: ثبوتيٌّ.

وكَثَّرَ المؤلِّفُ -رحِمه الله تعالى- التَّنويعَ، فذكر أنَّ السَّلبَ نوعان أيضًا، وهذا التَّقسيمُ يُرَادُ به تقريبُ الأشياءِ للمخاطَبِ، وهي واضحةٌ، فكُلُّها تَصُبُّ في كونِ الله -سبحانه وتعالى- واحدًا في جميعِ صفاتِه منتفيًا عنه جميعُ النَّقائصِ والعيوبِ.

والسَّلبُ الذي هو النَّفيُ نوعان أيضًا، وهما: متَّصلٌ ومنفصلٌ.

أمَّا الثَّاني وهو المنفصلُ فهو سلبُ الشَّريكِ، فالشَّريكُ منفصلٌ عن الخالقِ عزَّ وجلَّ، لكن سلبُ اللُّغوبِ -وهو: التَّعَب- متَّصلٌ، وسيأتي إن شاء الله.

أمَّا عن السَّلبِ المنفصل فقال:

٣٢٠٢- .... أَمَّـا الثَّـانِي

٣٢٠٣- سَلْبُ الشَّرِيكِ مَعَ الظَّهِيرِ مَعَ الشَّفِيـ ـعِ بِـدُونِ إِذْنِ الْـخَالِقِ الـدَّيَّانِ

٣٢٠٤- وَكَذَاكَ سَلْبُ الزَّوْجِ وَالْوَلَدِ الَّذِي نَسَـبُوا إِلَيْـهِ عَابِـدُو الصُّـلْبَانِ

قَوْلُهُ: «سَلْبُ الشَّرِيكِ»؛ وذلك كما في مثلِ قولِه تعالى: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام:١٦٣]، فاللهُ تعالى لا شريكَ له في ربوبيَّتِه، ولا ألوهيَّتِه، ولا أسمائِه وصفاتِه، وعلى هذا ينتفي التَّمثيلُ في الصِّفاتِ، وينتفي المُشَارِكُ في الخلقِ، والمُشَارِكُ في العبادةِ.

قَوْلُهُ: «مَعَ الظَّهِيرِ»؛ يعني: المُعِينَ، وذلك كما في قولِه تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢].

قَوْلُهُ: «مَعَ الشَّفِيعِ بِدُونِ إِذْنِ المَالِكِ الدَّيَّانِ» أيضًا نفيُ الشَّفيعِ إلَّا بإذنِه، وكُلُّها مذكورةٌ في قولِ الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٢-٢٣]، أربعةُ أشياءَ ذَكَرَها اللهُ في هذه الآيةِ، وهذا كُلُّه سلبٌ لمنفصلٍ.

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ سَلْبُ الزَّوْجِ»، نفى الله تعالى أن يكونَ له زوجةٌ في قولِه تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام:١٠١]، ونفى الولدَ فقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣]، ونفيُ الزَّوجةِ ونفيُ الولدِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن:٣].

قَوْلُهُ: «الَّذِي نَسَبُوا إِلَيْهِ عَابِدُو الصُّلْبَانِ» «نَسَبُوا إِلَيْهِ عَابِدُو» فيها شذوذٌ لغويٌّ، وهو: الجمعُ بين ضميرِ الفاعلِ والاسمِ الظَّاهرِ، وتُسَمَّى عند النَّحويين لغةَ (أَكَلُونِي البَرَاغِيثُ)، فهنا لو أردنا أن نُطَبِّقَ البيتَ على اللُّغةِ المشهورةِ لقلنا: (نَسَبَ إِلَيْهِ عَابِدُو الصُّلْبَانِ)، لكن المؤلِّفُ -رحمه الله- يرتكبُ بعضَ اللغاتِ الضَّعيفةِ أو المجازاتِ للضَّرورةِ.

وَقَوْلُهُ: «عَابِدُو الصُّلْبَان» هم النَّصارى الذين قالوا: إنَّ عيسى ابنُ الله.

٣٢٠٥- وَكَذَاكَ نَفْيُ الْكُفْءِ أَيْضًا وَالْوَلِي ... ي لَنَا سِوَى الرَّحْمَنِ ذِي الْغُفْرَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ نَفْيُ الكُفْءِ أَيْضًا وَالوَلِي»؛ نفيُ الكُفْءِ، وذلك في قولِه تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤].

وأمَّا نفيُ الوليِّ فكما ففي قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة:٢٥٧]، وكقولِه تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:٢٦]،

وهذا أيضًا سلبٌ منفصلٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء:١١١]؛ يعني: لا أحدَ أبدًا ينصرُ اللهَ عزَّ وجلَّ لوصفِه بالذُّلِّ، فالوليُّ النَّاصرُ من الذُّلِّ؛ يعني: أنَّ اللهَ ذليلٌ يحتاجُ إلى ناصرٍ، وهذا لا يمكنُ، بل هو وليُّ عبادِه كُلِّهم.

٣٢٠٦- وَالْأَوَّلُ التَّنْزِيهُ لِلرَّحْمَنِ عَنْ ... وَصْفِ الْعُيُوبِ وَكُلِّ ذِي نُقْصَانِ

قَوْلُهُ: «**الْأَوَّلُ**»؛ يعني: سلب النَّقص المتَّصل، وهو التَّنزيهُ للرَّحمنِ عن وصفِ العيوبِ؛ يعني: لا يُوصَفُ بعيبٍ (**وكُلِّ ذي نقصانٍ**)؛ يعني: أنَّ صفةَ الكمالِ لا يلحقُها نقصٌ.

فهذان نوعان:

أوَّلًا: أن يُنْفَى عنه كُلُّ عيبٍ.

ثانيًا: أن يُنْفَى عنه كُلُّ نقصٍ في صفةِ كمالِه.

مثلًا: (السَّمعُ) صفةُ كمالٍ، هل يفوتُ اللهَ شيءٌ من المسموعِ؟ الجوابُ: لا.

هل يمكنُ أن يعتريَه الصَّممُ؟ الجوابُ: لا.

(**الكلامُ**) صفةُ كمالٍ، هل يمكنُ أن يلحقَ اللهَ تعالى شيءٌ من العِيِّ؟ الجوابُ: لا، وهل يمكنُ أن يكونَ أخرسَ لا يتكلَّمُ؟ الجوابُ: لا.

إِذَنْ: كُلُّ صفةِ كمالٍ فيها نقصٌ فهذه ممنوعةٌ.

٣٢٠٧- كَالْمَوْتِ وَالْإِعْيَاءِ وَالتَّعَبِ الَّذِي ... يَنْفِي اقْتِدَارَ الْخَالِقِ الدَّيَّانِ

قَوْلُهُ: «**الَّذِي يَنْفِي اقْتِدَارَ الخَالِقِ الدَّيَّانِ**»، وفي نسخةٍ: (**المنَّانِ**).

فالموتُ ممتنعٌ عن الله، قال اللهُ تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، والإعياءُ أيضًا، قال اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ [الأحقاف:٣٣]، والتَّعَبُ كذلك، قال اللهُ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [قٓ:٣٨]؛ أي: من تعبٍ.

٣٢٠٨- وَالنَّـوْمُ وَالسِّـنَةُ الَّتِي هِـيَ أَصْـلُهُ وَعُـزُوبِ شَيْءٍ عَنْـهُ فِي الْأَكْـوَانِ

قَوْلُهُ: «النَّوْمِ وَالسِّنَةِ»؛ يعني: نفي النَّومِ عن الله والسِّنَةِ التي هي أصلُ النَّومِ، قال اللهُ تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥].

فالسِّنَةُ أصلُ النَّومِ؛ لأنَّها النُّعاسُ، والنُّعاسُ هو الدَّرجةُ الأولى من النَّومِ، وتأمَّل قولَه تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]؛ يعني: لن تغلبَه السِّنَةُ التي تغلبُ غيرَه، فإنَّ الإنسانَ إذا سهر طويلًا غلبه النَّومُ حتَّى إنَّه يُكلِّمُ النَّاسَ وهو نائمٌ، ويصعدُ الدَّرَجَ وهو نائمٌ، وينزلُ وهو نائمٌ، وهذا شيءٌ مُشَاهَدٌ، أمَّا اللهُ عزَّ وجلَّ فإنَّه ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥].

قَوْلُهُ: «وَعُزُوبِ شَيْءٍ عَنْهُ فِي الأَكْوَانِ» كما في قولِ الله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ:٣]، والعزوبُ بمعنى الغَيْبَة؛ يعني: لا يغيبُ عنه.

٣٢٠٩- وَكَذَلِكَ الْعَبَثُ الَّذِي تَنْفِيـهِ حِكْـ ـمَتُهُ وَحَمْـدُ الله ذِي الْإِتْقَـانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَلِكَ العَبَثُ الَّذِي تَنْفِيهِ حِكْمَتُهُ»؛ يعني: تأباه الحكمةُ، قال اللهُ تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ [الأنبياء:١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ﴾ [ص:٢٧]، فالحكمةُ تنفي أن يكونَ ذلك باطلًا، أو أن يكونَ عَبَثًا، أو أن يخلقَ اللهُ العبدَ سُدًى؛ لقولِه تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا

خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥] لماذا؟ لكمالِ الحكمةِ؛ لأنَّ العابثَ سَفِيهٌ، لا حكمةَ عنده، فإذا نَفَى اللهُ عن نفسِه العبثَ فذلك لحكمتِهِ الكاملةِ.

قَوْلُهُ: «وَحَمْدُ اللهِ ذِي الإِتْقَانِ» حمدُ الله هو وصفُه بالكمالِ، وهذا ينافي العبثَ أيضًا.

٣٢١٠- وَكَذَاكَ تَرْكُ الْـخَلْقِ إِهْمَالًا سُدًى ... لَا يُبْعَثُونَ إِلَى مَعَادٍ ثَانِ

٣٢١١- كَلَّا وَلَا أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ عَلَيْـ ... ـهِمْ مِنْ إِلَهٍ قَادِرٍ دَيَّانِ

كذلك أيضًا لا يُمكنُ أن يتركَ الخلقَ سُدًى؛ يعني: هَمَلًا، ليس لهم مَرجِعٌ وليس عليهم حسابٌ، فلو كَانَ هذا الخلقُ يُوجَدُ ثُمَّ يَفْنَى ولا يعودُ لَكَانَ هذا من أعبَثِ العبَثِ بلا شكٍّ؛ ولهذا قال اللهُ -سبحانه وتعالى-: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ﴾؛ يعني: لا يحسبُ؛ يعني: لا يُؤْمَرُ ولا يُنْهَى ولا يُبْعَثُ ولا يُحَاسَبُ، وهذا تفسيرٌ لقولِه: ﴿سُدًى﴾؛ يعني: هل يمكنُ أن يخلقَهم ويتركَهم ولا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يبعثهم ولا يجازيهم؟ الجوابُ: لا يمكنُ؛ لأنَّه لو كان كذلك لكان عبثًا، وهذا تأباه حكمةُ الله وحمدُه، وكُلُّ هذا من السَّلبِ المتَّصل.

٣٢١٢- وَكَذَاكَ ظُلْمُ عِبَادِهِ وَهْوَ الْغَنِيْ ... يُ فَمَا لَهُ وَالظُّلْمِ لِلْإِنْسَانِ

وكذلك يُسْلَبُ عنه عزَّ وجلَّ الظُّلمُ؛ لأنَّه غنيٌّ، فما له وللظُّلمِ! قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، الظُّلمُ لا يرتكبُه إلَّا مَنْ كان محتاجًا، فيظلم ليأخذَ، أو يظلم لِيُنْكِرَ ما عليه، والرَّبُّ عزَّ وجلَّ غنيٌّ، وهذا من الأدلَّةِ على

امتناعِ الظُّلمِ عن الله، وهو أنَّه غنيٌّ، كيف يظلمُ؟ فهو لا يحتاجُ إلى شيءٍ حتَّى يظلمَ العبادَ؛ ولهذا قال: «فَمَا لَهُ وَالظُّلْمِ للإِنْسَانِ؟!»، وهذا نفيٌ لمتَّصلٍ.

٣٢١٣- وَكَذَاكَ غَفْلَتُهُ تَعَالَى وَهْوَ عَلْـ ... ـلَامُ الْغُيُوبِ فَظَاهِرُ الْبُطْلَانِ

الغفلةُ نفاها اللهُ عن نفسِه، فقال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٨٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم:٤٢].

٣٢١٤- وَكَذَلِكَ النِّسْيَانُ جَلَّ إِلَهُنَا ... لَا يَعْتَرِيهِ قَطُّ مِنْ نِسْيَانِ

النِّسيانُ أيضًا، قالُ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢].

ولكن قد يقولُ قائلٌ: كيف نجمعُ بين هذه وبين قولِه تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]؟ الجمعُ أن نقولَ: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ من بابِ نسيانِ التَّركِ؛ يعني: تركوا اللهَ وتركوا أوامرَه فتركهم اللهُ عزَّ وجلَّ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ [السَّجدة:١٤].

٣٢١٥- وَكَذَاكَ حَاجَتُهُ إِلَى طُعْمٍ وَرِزْ ... قٍ وَهْوَ رَزَّاقٌ بِلَا حُسْبَانِ

أيضًا من السَّلبِ المتَّصلِ حاجتُه إلى طُعمٍ ورِزقٍ؛ لقولِ الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذريات:٥٦-٥٨]، فلا يحتاجُ إلى رِزْقٍ ولا إلى طعامٍ، ولقولِه تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:١٤]؛ لأنَّه غنيٌّ بذاتِه عن جميعِ مخلوقاتِه، ولأنَّه -سبحانه وتعالى- أحدٌ صَمَدٌ لا يحتاجُ إلى طعامٍ ولا إلى شرابٍ، إذَنْ لا يحتاجُ

لطعامٍ ولا شرابٍ لكمالِ غناه، فهو غنيٌّ بذاتِه عن جميعِ مخلوقاتِه، هذا النَّوع الثَّاني من أنواع السَّلبِ.

إِذَنْ المسلوبُ عن الله عزَّ وجلَّ متَّصلٌ ومنفصلٌ، فالمنفصلُ مثل: الولدِ والشَّريكِ والمعينِ والشَّفيعِ، وما أشبه ذلك، والمتَّصل مثل: التَّعبِ، والنِّسيانِ، والظُّلمِ، والغفلةِ، وأشياءَ كثيرةٍ.

وعندنا قاعدةٌ في صفاتِ النَّفي، وهي: أنَّ ما نَفاه اللهُ عن نفسِه يُرَادُ به شيئان: **الأوَّل**: نفيُ هذا، **والثَّاني**: إثباتُ ضدِّه على الكمالِ، فإذا قيل: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩] فهل المرادُ انتِفاءُ الظُّلمِ فقط، أو إثباتُ العدلِ الذي لا ظُلمَ فيه؟ الجوابُ: الثَّاني، هذا هو المرادُ؛ لأَنَّه لا يمكنُ أن تقولَ: لا يظلمُ لأنَّه يعجِزُ عن أن يظلمَ، لا؛ لأَنَّه لو شَاءَ لَظَلَمَ، لكنَّه حَرَّمَ الظُّلمَ على نفسِه، كذلك لا تقولُ: لا يظلمُ لأَنَّه ينتفي عنه الظُّلمُ فقط، دون ثبوتِ العدلِ؛ لأنَّ النَّفيَ المحضَ عَدَمٌ محضٌ، والعدمَ المحضَ ليس كمالًا، بل ليس بشيءٍ فضلًا عن أن يكونَ كمالًا.

إِذَنْ كُلُّ صفةٍ نَفَاهَا اللهُ عن نفسِه فليس المرادُ مجرَّدَ النَّفيِ، بل المرادُ ثبوتُ ضِدِّها على الكمالِ، فلكمالِ عدلِه لا يَظلِمُ.

فإذا قيل: علِّل؟ فقُلْ: لأنَّ نفيَ الظُّلمِ المجرَّدِ عدمٌ؛ يعني: لا ظلمَ، فهذا عَدَمٌ، والعَدَمُ ليس بشيءٍ، المعدومُ غيرُ موجودٍ وليس بشيءٍ، وما ليس بشيءٍ فليس مدحًا ولا كمالًا؛ لأَنَّه لا شيءَ؛ ولأنَّنا لو لم نقل بذلك؛ أي لو لم نقل بأنَّ نفيَ صفةِ الظُّلمِ بإثباتِ العدلِ على الكمالِ، لو لم نقل بهذا لكان محتملًا أن يكونَ نفيُ الظُّلمِ لعجزِه عن الظُّلمِ، وهذا مستحيلٌ.

فإن قال قائلٌ: أَثبِتوا لنا شاهدًا يدلُّ على أنَّ نفيَ الظُّلمِ للعجزِ عن الظُّلمِ، قلنا: هو في قولِ الشَّاعرِ:

قُبَيِّلَــةٌ لَا يَغْــدِرُونَ بِذِمَّــةٍ وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَـرْدَلِ(١)

لماذا؟ لأنَّهم عاجزون، فهم قُبَيِّلَةٌ وليسوا بشيءٍ، فلا يغدرون بذمَّةٍ إذا عاهدوا، ولا يظلمون النَّاسَ حبَّةَ خردلٍ؛ لأنَّهم عاجزون.

وكذلك قول الحماسيِّ:

لَكِـنَّ قَـوْمِي وَإِنْ كَـانُوا ذَوِي عَـدَدٍ لَيْسُوا مِنَ الشَّــرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَـا

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْـمِ مَغْفِـرَةً وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّـوءِ إِحْسَـانَا(٢)

يعني: بدل الظلمِ يَجزون مغفرةً، وبدل الإساءةِ يجزون إحسانًا، لماذا؟ الجوابُ: لعَجزِهم، ولهذا قال:

فَلَيْــتَ لِي بِهِــمْ قَوْمًــا إِذَا رَكِبُــوا شَـنُّوا الإِغَـارَةَ رُكْبَانًـا وَفُرْسَـانَا(٣)

لذلك نقولُ: نفيُ الظُّلمِ لا بُدَّ أن يتضمَّنَ كمالًا، أيضًا إذا قلنا: إنَّ نفيَ الظُّلمِ يُرَادُ به إثباتُ العدلِ على وجهِ الكمالِ، لو لم نقل بهذا لكان احتمال أنْ يكونَ نفيُ الظُّلمِ لعدمِ قابليَّتِهِ للظُّلمِ؛ لأنَّك يمكنُ أن تقولَ: (**الجدارُ لا يَظْلِمُ**)، فهل تكون إذا قلت: (**الجدارُ لا يظلمُ**) مادحًا للجدار؟الجوابُ: لا، لعدم قابليَّتِه، إِذَنْ خُذْ

(١) البيت قاله النجاشي في رهط تميم بن مقبل، انظر: العقد الفريد (٢/ ٣٣٢).
(٢) الأبيات لشاعر من بني العنبر، كما في العقد الفريد (٢/ ٣٣٢).
(٣) ذُكر ضمن أبيات غير منسوبة في شرح الحماسة للتبريزي (١/ ١٠)، وخزانة الأدب (٣/ ٣٣٢). وذُكر منسوبًا لقريط بن أنيف العنبري في الحماسة لأبي تمام (١/ ٥٨)، والجنى الداني (١٠٥).

هذه القاعدةَ المفيدةَ: كُلَّما رَأَيْتَ صفةً نَفَاهَا اللهُ عن نفسِه فالمرادُ بها إثباتُ ضدِّها على وجهِ الكمالِ.

وكذلك نفى اللهُ عزَّ وجلَّ عن نفسِه التَّعبَ والإعياءَ، فيكونُ المقصودُ بذلك إثباتَ القُدرةِ على وجهِ الكمالِ.

الآن إذا قلت: (فلانٌ صادقٌ) فهنا وَصَفْتَهُ بالصِّدقِ، لكن أَلَا يَحتملُ أن يكذبَ؟ يحتملُ، لكن إذا قلت: (فلانٌ صادقٌ لا يكذبُ) جاء هذا النَّفيُ مُقَرِّرًا صِدْقَه على وجهِ الكمالِ، وأنَّه لا يمكنُ أن يكذبَ.

٣٢١٦- هَذَا وَثَانِي نَوْعَيِ السَّلْبِ الَّذِي ... هُوَ أَوَّلُ الْأَنْوَاعِ فِي الْأَوْزَانِ

قَوْلُهُ: «فِي الأَوْزَانِ»؛ يعني: في النَّظمِ؛ لأنَّ النَّظمَ كلامٌ موزونٌ مُقَفًّى، والمؤلِّفُ -رحِمه الله- جعل ذلك غيرَ مرتَّبٍ، يقولُ:

٣٢١٧- تَنْزِيهُ أَوْصَافِ الْكَمَالِ لَهُ عَنِ التْـ ... ـتَشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ وَالنُّكْرَانِ

٣٢١٨- لَسْنَا نُشَبِّهُ وَصْفَهُ بِصِفَاتِنَا ... إِنَّ الْمُشَبِّهَ عَابِدُ الأَوْثَانِ

٣٢١٩- كَلَّا وَلَا نُخْلِيهِ مِنْ أَوْصَافِهِ ... إِنَّ الْمُعَطِّلَ عَابِدُ الْبُهْتَانِ

٣٢٢٠- مَنْ مَثَّلَ اللهَ الْعَظِيمَ بِخَلْقِهِ ... فَهْوَ النَّسِيبُ لِمُشْرِكٍ نَصْرَانِي

٣٢٢١- أَوْ عَطَّلَ الرَّحْمَنَ مِنْ أَوْصَافِهِ ... فَهْوَ الْكَفُورُ وَلَيْسَ ذَا إِيمَانِ

قَوْلُهُ: «النَّسِيبُ»؛ يعني: الماثلَ له؛ لأنَّ النَّسبَ يُقَرِّبُ النَّاسَ بعضهم لبعضٍ، فهو يُطْلَقُ على القريبِ، لكن المرادُ به هنا المُشْبِه.

أوصافُ كمالِه عزَّ وجلَّ كعلمِه، وقُدرتِه، وسمعِه، وبصرِه، ووجهِه، وغيرِ

ذلك، السَّلبُ فيها تنزيهُه عن شيئين: التَّمثيلِ ومثلُه التَّشبيهُ، والنُّكرانِ؛ يعني: الجحدَ والتَّعطيلَ.

فأوصافُ كمالِه مُنَزَّهةٌ عن هذين الشَّيئين، وهما: التَّمثيلُ والتَّعطيلُ؛ أي: **(النُّكران)**.

واعلم أنَّ أكثرَ ما تجده في كتبِ الكلامِ وغيرِها نفيُ التَّشبيهِ، فَيُقَالُ: **(بِلَا تشبيهٍ)** أو لا نُشَبِّهُ اللهَ، وما أشبهَ ذلك، ولكنَّ التَّعبيرَ بالتَّمثيلِ أَوْلَى؛ لأنَّ هذا هو الذي عبَّر اللهُ به عن نفسِه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] ولم يقل: **(لَيْسَ كَشِبْهِهِ)** فهو أَولى؛ لأنَّه التَّعبيرُ القرآنيُّ، ولأنَّ التَّشبيهَ صار عند بعضِ النَّاسِ بمعنى إثبات الصِّفاتِ، ويقولون: مَنْ أَثْبَتَ الصِّفاتِ فهو مُشَبِّهٌ، ويرمون أهلَ السُّنَّةِ الذين يثبتون الصِّفاتِ بأنَّهم مُشَبِّهةٌ، فإذا قلت: **(بلا تشبيهٍ)** تخاطبُ مَنْ قَرَأَ أنَّ التَّشبيهَ إثباتُ الصِّفاتِ، صار المعنى عنده: **(التَّعطيل)**، لكن **(بلا تمثيلٍ)** هو الحقُّ.

أيضًا: **(بِلَا تَشْبِيه)** إن أَرَادَ نفيَ التَّشبيهِ المُطْلَقِ؛ يعني: المشابهةَ من كُلِّ وجهٍ، فهذا لا حاجةَ إليه؛ لأنَّه لم يقل أحدٌ من الخلقِ: إنَّ اللهَ مشابهٌ للمخلوقاتِ من كُلِّ وجهٍ، وإذا لم يقل به أحدٌ فنفيُه عَبَثٌ لا فائدةَ منه، فهو كقولِ القائلِ:

كَأَنَّنَا وَالمَاءُ مِنْ حَوْلِنَا ... قَوْمٌ جُلُوسٌ حَوْلَهُمْ مَاءُ[1]

ما هذه الفائدةُ العظيمةُ؟! حتَّى إنَّ بعضَ النَّحْوِيِّين قال: مثلُ هذا التَّركيبِ لا يُعَدُّ كلامًا في اللُّغةِ العربيَّة؛ لأنَّه لم يُفِدْ فائدةً، وكقولِ القائلِ: **(السَّماءُ فوقنا والأرضُ تحتنا)**.

(١) البيت في الكشكول (١/ ٢٦١) بلا نسبة.

فإذا قال: أنا أريدُ بنفي التَّشبيهِ التَّشبيهَ المطلقَ، قلنا: هذا غلطٌ، ولا حاجةَ إلى أن تنفيَه؛ لأنَّه لم يقل به أحدٌ.

وإن أَرَادَ نفيَ مُطْلَقِ التَّشبيهِ فهذا غلطٌ أيضًا؛ لأنَّه لا بُدَّ من مُطْلَقِ المشابهةِ، فمثلًا: سَمْعُ الله -سبحانه وتعالى- يشتركُ مع سَمْعِ المخلوقِ في إدراكِ الأصواتِ، لكن يختلفُ اختلافًا عظيمًا.

وحياةُ الله عزَّ وجلَّ تشتركُ مع حياة المخلوقِ في أصلِ الحياةِ، لكن تختلفُ في كيفيَّة الحياةِ، وهلمَّ جرًّا.

فصار نفيُ التَّشبيهِ فيه مُؤاخَذاتٌ، لكن إذا قلت: (**بلا تمثيلٍ**)، لا يقولُ لك أحدٌ شيئًا.

فنفي التَّمثيل أَوْلَى لهذه الوجوه:

أوَّلًا: أنَّه التَّعبيرُ القرآنيُّ.

ثانيًا: أنَّ التَّشبيهَ صار عند كثيرٍ من النَّاسِ هو إثباتَ الصِّفاتِ.

وثالثًا: أنَّه إنْ أراد بذلك نفيَ التَّشبيهِ المُطْلَقِ فهو كلامُ لغوٍ لا فائدةَ منه، وإن أَرَادَ نفيَ مُطْلَقِ التَّشبيهِ فهذا خطأٌ؛ لأنَّه ما من شيئين اشتركا في صفةٍ إلَّا وبينهما مشابهةٌ في أصلِها.

بقي عندنا (**النُّكران**)؛ يعني: التَّعطيلَ، فُتَنَزَّهُ صفاتُ الله عن شيئين: عن التَّمثيلِ وعن التَّعطيلِ.

وهل وقع أحدٌ ممَّن يدَّعي الإسلامَ في التَّمثيلِ؟ الجوابُ: نعم، يوجدُ أناسٌ مُمَثِّلَةٌ، وهل وقع أحدٌ ممَّن ينتسبُ إلى الإسلامِ في التَّعطيلِ؟ نعم، وهو كثيرٌ.

واعلَمْ أنَّ كُلَّ ممثِّلٍ معطِّلٌ، وأنَّ كُلَّ مُعطِّلٍ ممثِّلٌ، وهذا ضابطٌ كُلِّيٌّ، فكُلُّ مُمثِّلٍ معطِّلٌ؛ لأنَّه عَطَّلَ اللهَ تعالى من كَمالِه الواجبِ؛ وجهُ ذلك أنَّه شَبَّهَه بالنَّاقصِ، وتمثيلُ الكاملِ بالنَّاقصِ يجعلُه ناقصًا؛ ولهذا قال الشَّاعرُ:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ السَّـيْفَ يَـنْقُصُ قَـدْرُهُ   إِذَا قِيلَ: إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِنَ العَصَا(١)

ثانيًا: أنَّ الـمُمَثِّلَ عَطَّلَ جميعَ النُّصوصِ التي تنفي المماثلةَ، فَعَطَّلَ قولَه -سبحانه وتعالى-: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشُّورى:١١]، وعَطَّلَ قولَه تعالى: ﴿لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٧]، وعَطَّلَ قولَه تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص:٤].

وكُلُّ معطِّلٍ ممثِّلٌ؛ فمثلًا: الذي ينكرُ استواءَ الله على عَرشِه، أو يُنكرُ نزولَه للسَّماءِ الدُّنيا، أو ينكرُ أن يكونَ له يدٌ، نقولُ: أنت ممثِّلٌ من وجهين:

الوجه الأوَّل: لأنَّه إنَّما عطَّلَ بِناءً على أنَّ إثباتَ الصِّفاتِ يَستلزِمُ التَّمثيلَ، فَمَثَّلَ أوَّلًا وعَطَّلَ ثانيًا؛ فصار كُلُّ مُعَطِّلٍ ممثِّلًا.

الوجه الثَّاني: أنَّه إذا عَطَّلَ اللهَ عزَّ وجلَّ عن صفاتِه مَثَّلَه بالمعدومِ أو بالنَّاقصِ، فإذا قال: لا يفعلُ الشَّيءَ باختيارِه، ولا يَشاءُ أفعالَ العبادِ، ولا ينزلُ إلى السَّماءِ الدُّنيا، فلا شكَّ أنَّه ممثِّلٌ؛ لأنَّه إذا انتفت صفاتُ الكمالِ لزم ثبوتُ ضدِّها فيكونُ ممثِّلًا لله تعالى بما هو ناقصٌ، وهنا نقولُ: الأفضلُ أن يُقَالَ:

لَسْنَا نُمَثِّـلُ وَصْـفَهُ بِصِـفَاتِنَا   إِنَّ الْمُمَثِّـلَ عَابِـدُ الأَوْثَـانِ

إذا مَثَّلَ اللهَ بخلقِه صار وَثَنًا، مثل: اللَّاتِ والعُزَّى ومَنَاة وهُبَل وما أَشْبَهَها،

(١) البيت في السحر الحلال (ص:٧٣) بلا نسبة.

فيكون الممثِّلُ عابدًا للأصنامِ، أمَّا المعطِّلُ فلم يُثْبِتْ وجودَ إلهٍ؛ لأنَّه إذا انتفت عنه الصِّفاتُ بَقِيَ معدومًا، فيكون عابدَ البهتانِ؛ يعني: عابدَ الكذبِ، يعني: لا يُوجَدُ ربٌّ يُعْبَدُ، فلم يعبدُ ربًّا؛ لأنَّه إذا سَلَبَهُ أوصافَه صار عَدَمًا، وهذا من أحسنِ ما يكونُ ممَّا شَبَّهَه المؤلِّفُ رحمه الله.

فالممثِّلُ يعبدُ الصَّنمَ، والمعطِّلُ يعبدُ عَدَمًا، فهو كذبٌ، وأمَّا المُوَحِّدُ فيعبدُ إلهَ الأرضِ والسَّماءِ سبحانه وتعالى.

إِذَنْ ابنُ القيِّم -رحِمه الله- يرى أنَّ الممثِّلَ مُشرِكٌ، وأنَّ المعطِّلَ كافرٌ، لكن هذا على سبيلِ الإجمالِ، أمَّا عند التَّفصيلِ فَيُحْكَمُ على كُلٍّ واحدٍ منهما بما يقتضيه تمثيلُه أو تعطيلُه.

* * *

فصل

فِي النَّوْعِ الثَّانِي مِنَ النَّوْعِ الأَوَّلِ وَهُوَ الثُّبُوتُ(١)

٣٢٢٢- هَـذَا وَمِـنْ تَوْحِيـدِهِمْ إِثْبَـاتُ أَوْ ... صَـافِ الْكَـمَالِ لِرَبِّنَـا الـرَّحْمَنِ
٣٢٢٣- كَعُلُـوِّهِ سُـبْحَانَهُ فَـوْقَ السَّـمَا ... وَاتِ الْعُلَى بَـلْ فَـوْقَ كُـلِّ مَكَـانِ
٣٢٢٤- فَهْـوَ الْعَـلِيُّ بِذَاتِـهِ سُـبْحَانَهُ ... إِذْ يَسْـتَحِيلُ خِـلَافُ ذَا بِبَيَـانِ
٣٢٢٥- وَهُوَ الَّذِي حَقًّا عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ... قَـدْ قَـامَ بِالتَّـدْبِيرِ لِلْأَكْـوَانِ
٣٢٢٦- حَـيٌّ مُرِيـدٌ قَـادِرٌ مُـتَكَلِّمٌ ... ذُو رَحْمَـةٍ وَإِرَادَةٍ وَحَنَـانِ
٣٢٢٧- هُـوَ أَوَّلٌ هُـوَ آخِـرٌ هُـوَ ظَـاهِرٌ ... هُـوَ بَـاطِنٌ هِـيَ أَرْبَـعٌ بِـوِزَانِ
٣٢٢٨- مَـا قَبْلَـهُ شَيْءٌ كَـذَا وَمَـا بَعْـدَهُ ... شَيْءٌ تَعَـالَى اللهُ ذُو السُّـلْطَانِ
٣٢٢٩- مَـا فَوْقَـهُ شَيْءٌ كَـذَا مَـا دُونَـهُ ... شَيْءٌ وَذَا تَفْسِـيرُ ذِي الْبُرْهَـانِ
٣٢٣٠- فَـانْظُرْ إِلَى تَفْسِـيرِهِ بِتَـدَبُّرٍ ... وَتَبَصُّـرٍ وَتَعَقُّـلٍ لِـمَعَانِ
٣٢٣١- وَانْظُرْ إِلَى مَا فِيهِ مِـنْ أَنْـوَاعِ مَعْـ ... ـرِفَةٍ لِـخَالِقِنَا الْعَظِـيمِ الشَّـانِ

الشـرحُ

سبق الكلامُ على التَّوحيدِ السَّلبيِّ، وأنَّ التَّوحيدَ السَّلبيَّ متَّصلٌ ومنفصلٌ،

(١) في الأصول الخطية: «الثبوتي».

فالمتَّصلُ: ما لا يعدو ذاتَ الله عزَّ وجلَّ، مثل: سلبِ الموتِ، والنَّومِ، والسِّنَةِ، والظُّلمِ، والغفلةِ، وما أَشْبَهَ ذلك، والمنفصلُ: ما كان خارجًا عنه، مثل: الزَّوجةِ، والولدِ، والكُفْءِ، والنَّظيرِ، وما أَشْبَهَ ذلك، وسبق لنا أيضًا أنَّ المتَّصلَ نوعان:

الأوَّل: نفيُ العيوبِ كُلِّها، **والثَّاني:** نفيُ التَّمثيلِ، وكذلك التَّعطيل، والنُّكران؛ فإنَّ هذا من التَّوحيدِ السَّلبيِّ.

والحقيقةُ أنَّ نفيَ التَّمثيلِ يَرجِعُ إلى نفيِ النَّقصِ؛ لأنَّ التَّمثيلَ نقصٌ؛ فإنَّ إلحاقَ الكاملِ بالنَّاقصِ يجعلُه ناقصًا، أمَّا الثَّاني فهو الثُّبوتيُّ، والثُّبوتيُّ هو إفرادُ الله -سبحانه وتعالى- وتوحيدُه بما يجبُ له من الأسماءِ والصِّفاتِ، قال:

٣٢٢٢- هَـذَا وَمِـنْ تَوْحِيـدِهِمْ إِثْبَـاتُ أَوْ صَـافِ الْكَـمَالِ لِرَبِّنَـا الـرَّحْمَنِ

فكُلُّ أوصافِ الكمالِ ثابتةٌ له، ودليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرُّوم:٢٧]، فقولُه: ﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ يعني: الوصفَ الأكملَ من كُلِّ وجهٍ، وفي الأسماءِ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠]؛ ولهذا لا تجدُ اسمًا من أسماءِ الله يتضمَّنُ نقصًا بوجهٍ من الوجوهِ، ولا صفةً من صفاتِ الله تتضمَّنُ نقصًا بوجهٍ من الوجوهِ، ولذلك تجدُ أنَّ بعضَ الصِّفاتِ مثل: الكيد، والخداع، لا تُقَالُ له على وجهِ الإطلاقِ.

فالثُّبوتيُّ إِذَنْ إثباتُ أوصافِ الكمالِ لله عزَّ وجلَّ، ولكن لا بُدَّ أن يُضَافَ إليها شيءٌ آخرُ، وهو مع نفيِ المماثلةِ؛ لأنَّ الإثباتَ بدون نفيِ المَثِيلِ ليس بتوحيدٍ؛ فإنَّ التَّوحيدَ يقومُ على النَّفيِ والإثباتِ، مثالٌ على ذلك يتَّضحُ به المقالُ: إذا قلت: **(فلانٌ جَيِّدٌ)**، فهذا وصفٌ له بالجُودِ، والجُودُ كمالٌ، لكن هل هذا يستلزمُ التَّوحيدَ؟ الجوابُ: لا؛ لأنَّه قد يكونُ هو جيِّدًا وآخر جيِّدًا أيضًا، فإذا قلت: **(لا جَيِّدَ**

إِلَّا فلانٌ)، أو (**إِنَّمَا الجيِّدُ فلانٌ**) فحينئذٍ وحَّدته بالجودِ.

فقولُ المؤلِّفِ: «**إِثْبَاتُ أَوْصَافِ الكَمَالِ لِرَبِّنَا**» يحتاجُ إلى إضافةٍ، وهي: (مَعَ نَفْيِ الـمُمَاثَلَةِ)؛ حتَّى يتمَّ التَّوحيدُ.

إِذَنْ من توحيد الرُّسلِ: إثباتُ أوصافِ الكمال التي تتضمَّنها أسماؤه؛ لأنَّ كُلَّ اسمٍ من أسماءِ الله متضمِّنٌ لصفةِ كمالٍ، وقد يكونُ الاسمُ متضمِّنًا لصفتين أو أكثر، فـ(**الخَلَّاق**) من أسماءِ الله، ولا خَلْقَ إلَّا بعلمٍ وقدرةٍ، وعلى هذا فيكونُ (**الخلَّاق**) دالًّا على الخلقِ، ودالًّا على العلمِ، ودالًّا على القدرةِ.

ولهذا نقولُ في هذا البابِ: القاعدةُ في الأسماءِ أنَّه إذا كان الاسمُ لازمًا لم يتمَّ الإيمانُ به إلَّا بإثباتِه اسمًا لله عزَّ وجلَّ، وبإثباتِ ما دَلَّ عليه من الصِّفةِ، هذا إذا كان لازمًا، فالواجبُ إثباتُ الشَّيئين: الاسمِ، وما دَلَّ عليه من الصِّفةِ.

وإن كان متعدِّيًا لم يتمَّ الإيمانُ به إلَّا بإثباتِ الاسمِ، وما دَلَّ عليه من الصِّفةِ، وما يترتَّبُ على تلك الصِّفةِ مـمَّا يتعدَّى إلى غيرِه، فمثلًا: (**الحيُّ**) اسمٌ من أسماءِ الله، لكنَّه لازمٌ غيرُ مُتعدٍّ، ولهذا الحيُّ فعلُه (حَيِيَ)، وليس فعلُه (أَحْيَا)، ولا يتمُّ الإيمانُ به حتَّى تُثْبِتَ أنَّ الحيَّ من أسماءِ الله، والثَّاني: تُثبتَ ما دَلَّ عليه من الصِّفةِ، وهي الحياةُ.

(**السَّميعُ**) من أسماءِ الله، ولا يتمُّ الإيمانُ به حتَّى تُثْبِتَه اسمًا من أسماءِ الله، وتُثْبِتَ السَّمعَ الذي دَلَّ عليه، وتُثْبِتَ المسموعَ الذي يسمعُه اللهُ؛ يعني: أنَّ اللهَ يسمعُ كُلَّ صوتٍ، لو قلت: أنا أُثْبِتُ (**السَّميع**) اسمًا من أسماءِ الله، وأُثْبِتُ السَّمعَ صفةً له، لكن لا أُثْبِتُ أنَّه يسمعُ، فهل تكونُ آمَنتَ بالاسمِ؟ لا، لا بُدَّ أن تُثْبِتَ إذا كان متعدِّيًا ما يتعدَّى إليه الاسم، وهذه قاعدةٌ مهمَّةٌ.

فكُلُّ اسمٍ من أسماءِ الله لا يتمُّ الإيمانُ به إلَّا بإثباتِ الاسمِ، والصِّفةِ، وما دَلَّ عليه هذا الاسمُ إذا كان مُتعدِّيًا، وإن كان لازمًا فتثبت الاسمَ والصِّفةَ.

من ذلك يقولُ:

٣٢٢٣- كَعُلُـوِّهِ سُـبْحَانَهُ فَـوْقَ السَّـمَا وَاتِ الْعُلَى بَـلْ فَـوْقَ كُـلِّ مَكَـانِ

٣٢٢٤- فَهْـوَ الْعَـلِيُّ بِذَاتِـهِ سُـبْحَانَهُ إِذْ يَسْـتَحِيلُ خِـلَافُ ذَا بِبَيَـانِ

من توحيدِ الرُّسلِ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- إثباتُ علوِّ الله؛ ووجهُ ذلك أنَّ العلوَّ صفةُ كمالٍ، فَوَجَبَ ثبوتُه لله، ووجهٌ آخرُ: أنَّ ضدَّ العلوِّ السُّفلُ، والسُّفلُ نقصٌ، واللهُ تعالى منزَّهٌ عن النَّقصِ.

وقد جاء اسمُ **(العليِّ)** و**(الأعلى)**، **(العَلِيُّ)**: صفةٌ مشبَّهةٌ لازمةٌ، و**(الأعلى)**: اسمُ تفضيلٍ، وذُكِرَ **(الأعلى)** غيرَ مقيَّدٍ؛ يعني: لم يقل: **(أَعْلَى من كذا)**، بل جُعِلَ وصفًا لازمًا.

فتبيَّن بهذا إثباتُ العلوِّ وأنَّه أَعْلَى من كُلِّ شيءٍ، هذا العلوُّ يقولُ رحمه الله: «**فَوْقَ السَّمَاوَاتِ العُلَى بَلْ فَوْقَ كُلِّ مَكَانٍ**»، والذي فوق السَّماواتِ: العرشُ والكرسيُّ، واللهُ تعالى فوق العرشِ وفوق الكرسيِّ.

وَقَوْلُهُ: «**بِذَاتِهِ**» إنَّما نَصَّ على هذا؛ لأنَّ من أهلِ القبلةِ الذين ينتسبون للإسلامِ مَنْ يقولُ: إنَّه عَلِيٌّ بصفاتِه لا بذاتِه، سبحان الله! المؤلِّفُ -رحمه الله- يقولُ: **(بِذَاتِهِ)**.

قد يقولُ قائلٌ: لماذا جاء **(بِذَاتِه)** واللهُ عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ولم يقل: **(بِذَاتِهِ)**؟ وكذلك السُّنَّةُ ليس فيها لفظُ **(بِذَاتِهِ)**؟

نقولُ: أتى بها لسبَبَيْنِ:

أوَّلًا: أنَّ كُلَّ ما أُضِيفَ إلى الله من الصِّفاتِ فهو متعلِّقٌ بذاتِه، فإذا قيل: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأنعام:١]؛ يعني: هو نفسُه، و﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:١٦٤]؛ يعني: هو نفسُه، و﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]؛ يعني: هو نفسُه؛ لأنَّه فعلٌ مضافٌ إلى فاعلِه.

ثانيًا: للرَّدِّ على الذين يقولون: إنَّ اللهَ ليس عليًّا بذاتِه، ويجعلون العلوَّ علوَّ صفةٍ فقط.

إِذَنْ السَّلفُ اضطرُّوا إلى أنْ يُلحقوا كلمةَ (بِذَاتِهِ) من أجل الرَّدِّ على أولئك القوم الذين يقولون: إنَّ اللهَ ليس عاليًا بذاتِه، لكن علوُّه علوُّ صفةٍ.

ثُمَّ انقسم هؤلاء المبطِلون -وأعني بالمبطلين: الذين أنكروا علوَّ الذَّاتِ- إلى قسمين:

- قسم قال: إنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- في كُلِّ مكانٍ.
- قسم آخر قال: لا يجوزُ أن نُثْبِتَ أنَّ اللهَ في مكانٍ، لا فوقُ، ولا تحتُ، ولا يمينٌ، ولا يسارُ.

وكلا القولين باطلٌ؛ باطلٌ بالسَّمعِ والعقلِ والفِطرةِ، وسنذكُر -إن شاء الله- الأدلَّةَ على هذا.

الذين قالوا: إنَّه في كُلِّ مكانٍ، لا شكَّ أنَّهم لم يُنزِّهوه عن الأقذارِ والأنتانِ، فهو في المراحيضِ -والعياذُ بالله- في المساجدِ، في الأسواقِ، في كُلِّ مكانٍ، وهؤلاء يلزمُهم هذا اللَّازمُ ولا بُدَّ، أو أنْ يتراجعوا عن قولِهم، هذه واحدةٌ، أنَّهم لم يُنزِّهوه عن الأقذارِ والأنتانِ والرَّوائحِ الكريهةِ.

ثانيًا أنْ نقولَ لهم: إذا كان عزَّ وجلَّ بذاتِه في كُلِّ مكانٍ فالذين في المسجدِ فهو عندهم، وكذلك عند الذين في السُّوقِ، والذين في البحرِ، والذين في الجوِّ، كم يكونُ من إلهٍ؟ الجوابُ: لا يُحْصَى، أو يلزمُهم أن يقولوا: بتجزُّئِه سبحانه وتعالى، جزءٌ منه هنا، وجزءٌ هنا، وجزءٌ هناك، يلزمُهم هذا ولا بُدَّ.

والذين قالوا: إنَّه ليس له مكانٌ، ولا يمكنُ أن نقولَ: فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا يسار، هؤلاء وصفوه بالعدمِ؛ ولهذا أَلْزَمَ الأميرُ المظفَّرُ محمود بن سبكتكين الكلاميَّ المنطقيَّ محمد بن فُورَك، وقال له: صِفْ لنا ربَّك. فقال: ليس فوق ولا تحت... إلى آخره، قال له: إنَّك وَصَفْتَ ربَّك بالعدمِ. ألزمه بهذا.

فصار كلا القولين باطلًا، لكن ما هو الصَّحيحُ؟

الصَّحيحُ أن يكون عاليًا، بل يستحيلُ ألَّا يكونَ عاليًا؛ لأنَّ ضدَّ العلوِّ السُّفلُ، وهذا نقصٌ، وإذا قلنا: هو السُّفلُ، فإمَّا أن يكونَ حالًّا في المخلوقاتِ، وإمَّا أن يكونَ عينَ المخلوقاتِ، وكلاهما باطلٌ، فهذا حلولٌ واتِّحادٌ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

إِذَنْ يستحيلُ ألَّا يكونَ عاليًا بذاتِه؛ لأنَّنا إذا لم نقل: (**عَالِيًا بذاتِه**) لَزِمَ أن يكونَ في كُلِّ مكانٍ، وإمّا ألَّا يكونَ له مكانٌ، وكلاهما مستحيلٌ، ولهذا قال: (**إِذْ يَسْتَحِيلُ خِلَافُ ذَا**)؛ أي: خلافُ علوِّه بذاتِه، ويبقى علوُّه بذاتِه ثابتًا بمقتضى العقلِ.

ثُمَّ إنَّ عُلُوَّ الله عزَّ وجلَّ بذاتِه دَلَّتْ عليه أنواعُ الأدلَّةِ الخمسةِ: القرآن، والسُّنَّة، والإجماع، والعقل، والفِطرة.

أمَّا القُرآنُ فمَملوءٌ من ذِكرِ عُلوِّ الله عزَّ وجلَّ بعِباراتٍ مُتنوِّعةٍ؛ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النَّحل:٥٠]، وقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ

﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، وقال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السَّجدة:٥]، والأمثلةُ على هذا كثيرةٌ لا تُحْصَى.

وأمَّا السُّنَّةُ فجاءت بأنواعِها الثَّلاثة: القول، والفعل، والإقرار؛ أمَّا القولُ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ -لا شكَّ- أنَّه أخبر بأنَّ اللهَ تعالى في السَّماءِ فقال: «**رَبُّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُه**»[1]، وكان يقولُ في صلاتِه: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى**»[2].

وأمَّا الفعلُ فَأَثْبَتَهُ ﷺ في أكبرِ تجمُّعٍ للمسلمين في عهدِه؛ ففي خطبته في حجَّةِ الوداعِ وهو بعَرَفَةَ قال لأصحابِه: «**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟**» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ**»، يرفعُ أُصْبعَه إلى السَّماءِ ويردُّها إلى النَّاسِ، ثلاثَ مرَّاتٍ، وهو يقولُ: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ**»[3]، هذا إثباتٌ لِعُلُوِّه بالفعلِ، وهو الإشارةُ.

وأمَّا الإقرارُ ففي حديثِ معاويةَ بنِ الحَكَمِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حين أتى بجاريته التي صكَّها وأراد أن يُعْتِقَها، فدعا بها النَّبيُّ -صَلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم- فجاءت، فقَالَ لها: «**أَيْنَ اللهُ؟**» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. قَالَ: «**أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**»[4].

فثبت في السُّنَّة بأنواعِها الثَّلاثةِ: القوليَّة، والفعليَّة، والإقراريَّة، ولا أعظمَ من أدلَّةٍ تجتمعُ على معنًى واحد.

أمَّا الإجماعُ فإجماعُ السَّلفِ، لم يقل أحدٌ من الصَّحابةِ: إنَّ اللهَ ليس في السَّماءِ،

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى، رقم (٢١٨٦).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب الخطبة في منى، رقم (١٧٤١)، مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).

ولا التَّابعين ولا الأئمَّة من بعدهم، ما قالوا أبدًا: إنَّ اللهَ ليس في السَّماءِ، وسكوتُهم وهم يتلون كتابَ الله ويسمعون سُنَّةَ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- عن إثباتِ معنًى يخالفُ ظاهرَها يدلُّ على إجماعِهم على ظاهرِها.

أمَّا دلالةُ العقلِ على علوِّ الله بذاتِه فأن نتساءلَ: هل العلوُّ من صفاتِ الكمالِ أو صفاتِ النَّقصِ؟ الجوابُ: من صفاتِ الكمالِ عقلًا، ولا أحدَ ينكرُ هذا، وإذا كان من صفاتِ الكمالِ لَزِمَ أن يكونَ اللهُ متَّصفًا به؛ إذ إنَّنا لو وصفناه بالسُّفلِ -وحاشاه من ذلك- لَزِمَ أن يكونَ إمَّا مع الخلقِ وإمَّا تحت الخلقِ، نسألُ اللهَ العافيةَ، وكُلُّ هذا مستحيلٌ.

وأمَّا الفِطرةُ: فكُلُّ إنسانٍ مفطورٌ على أنَّ اللهَ في السَّماءِ؛ يعني: الذي لم يدرس كلامَ المتكلِّمين والمناطقةِ لا يطرأُ على بالِه أبدًا أنَّ اللهَ تعالى ليس فوق السَّماواتِ.

لو تأتي إلى العجوزِ التي لم تقرأ أبدًا، وتقولُ: أين اللهُ؟ لقالت: في السَّماءِ، ثُمَّ إنَّ كُلَّ إنسانٍ يدعو اللهَ عزَّ وجلَّ فإنَّه يجد من نفسِه ضرورةً بطلبِ العلوِّ، فأنت عندما تريدُ أن تدعوَ اللهَ ترفعُ يديك، هل توجِّهُها يمينًا أو يسارًا أو أسفلَ؟ الجوابُ: لا، لكنَّك تُوجِّهُها إلى فوق، فِطرة تغلبُك على أن تتَّجهَ إلى السَّماءِ؛ ولهذا لما كان أبو المعالي الجُوَيْنِيُّ -رحمه الله وعفا عنه- يتكلَّمُ عن الاستواءِ، يريدُ أن يقولَ: إنَّ اللهَ لم يستوِ على العرشِ، قال له أبو العلاء الهَمْدَانِيُّ رحمه الله: يا أستاذ، دَعْنَا من ذكرِ العرشِ والاستواءِ على العرشِ، لكن أَخْبِرْنَا عن هذه الضَّرورةِ التي نجدُها في نفوسِنا، ما قال عارفٌ قطُّ: (**يا الله**) إلَّا وَجَدَ من قلبِه ضرورةً بطلبِ العلوِّ، فجعل يضربُ على رأسِه قائلًا: حيَّرني، حيَّرني، حيَّرني. لأنَّه لا يستطيعُ أن ينفيَ الفطرةَ أبدًا.

فالحاصل: أنَّ من عقيدتِنا التي نَدِينُ اللهَ بها -ونسألُ اللهَ أن يتوفَّانا عليها- أنَّ اللهَ تعالى نفسَه في السَّماءِ فوق كُلِّ شيءٍ، وما السَّماواتُ السَّبعُ والأَرَضُون السَّبعُ في كفِّه إلَّا كخردلةٍ في كفِّ أحدِنا، وكما هو معلومٌ أنَّ الخردلةَ بالنِّسبة لليدِ لا تُساوي شيئًا، فكُلُّ المخلوقاتِ ليست بشيءٍ عند الرَّبِّ عزَّ وجلَّ، فله العلوُّ المطلقُ.

وهنا المؤلِّفُ -رحِمه الله- ذكر أنَّه العَلِيُّ بذاتِه، ولم يذكر العلوَّ الآخرَ المتَّفقَ عليه بين الأُمَّةِ وهو العلوُّ بصِفاتِه؛ لأنَّه إنَّما يريدُ الرَّدَّ على أهلِ التَّعطيلِ؛ ولهذا نقولُ: إنَّ علوَّ الله عزَّ وجلَّ نوعان: علوٌّ ذاتيٌّ، وعلوٌّ وصفيٌّ، وهو علوُّ الصِّفةِ، وهذا متَّفقٌ عليه بين أهلِ الملَّةِ الإسلاميَّةِ، ولم يجوِّز أحدٌ منهم أن يُوصَفَ اللهُ تعالى بالنَّقصِ، ولكن ما ميزانُ النَّقصِ والكمالِ؟ هذا هو المحطُّ الرَّحبُ.

أهلُ البدعِ يَرَوْنَ أنَّ الميزانَ هو العقلُ؛ فما اقتضى العقلُ أنَّه كمالٌ أثبَتُوه، وما اقتضى أنَّه نقصٌ نفَوْه، وما لا يقتضي هذا ولا هذا فمنهم مَنْ تَوَقَّفَ فيه، ومنهم مَنْ نَفَاهُ، ولكن نقولُ: إنَّ مَرجِعَ الوصفِ -أي: ما يُوصَفُ اللهُ به من الكمالِ- هو الكتابُ والسُّنَّة، والعقلُ يهتدي إلى أنَّ اللهَ تعالى موصوفٌ بالكمالِ على سبيلِ العمومِ، أمَّا على سبيلِ التَّفصيلِ فلا.

وحينئذٍ نقولُ: العلوُّ ينقسم إلى قسمين: علوُّ صفةٍ: وهو متَّفقٌ عليه بين فرق الأُمَّة، لكن يبقى الخلافُ ما هو العلوُّ في الصِّفاتِ؟

والثَّاني: علوُّ الذَّاتِ، وهذا تنكرُه جميعُ الطَّوائفِ إلَّا السَّلف الصَّالح ومَنْ كان على منهجِهم.

لـمَّا ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحِمه الله- العلوَّ، والعلوُّ كما سبق دليلُه سمعيٌّ وعقليٌّ

وفطريٌّ ذَكَرَ الاستواءَ فقال:

٣٢٢٥- وَهُوَ الَّذِي حَقًّا عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى قَدْ قَامَ بِالتَّدْبِيرِ لِلْأَكْوَانِ

قَوْلُهُ: «وَهُوَ الَّذِي حَقًّا عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى» «حَقًّا»: صفةٌ لمحذوفٍ، والتَّقديرُ: (استواءً حَقًّا).

قَوْلُهُ: «عَلَى العَرْشِ» العرشُ مخلوقٌ عظيمٌ خَلَقَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ، وبَيَّنَ لنا النَّبيُّ ﷺ عظمتَه، وأخبر الرَّسولُ ﷺ أنَّ السَّماواتِ السَّبعَ والأرضين السَّبعَ بالنِّسبةِ للكرسيِّ كَحَلْقَةٍ أُلْقِيَتْ في فَلَاةٍ من الأرضِ[1]، فَحَلْقَةُ المِغْفَرِ بالنِّسبة للفلاةِ ليست بشيءٍ، وأخبر أنَّ فَضْلَ العرشِ على الكرسيِّ كفضلِ الفَلَاةِ على هذه الحَلْقَةِ، إِذَنْ لا نستطيعُ أن نتصوَّرَ عظمةَ الكرسيِّ ولا عظمةَ العرشِ.

ثم هل لنا أن نسألَ عن مادةِ العرشِ؛ هل هي من خشبٍ، من حديدٍ، من ذهبٍ، من فضةٍ، من زمرُّدٍ... إلخ؟

الجوابُ: ليس لنا أن نسألَ عن هذا، بل لو سَأَلْنَا لدخلنا في قولِ الرَّسولِ ﷺ: «هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ»[2]؛ لأنَّ قادتَنا حقيقةً وهم الصَّحابةُ ما سألوا النَّبيَّ ﷺ عن ذلك، ولا بَيَّنَه الرَّسولُ ﷺ بدون سؤالٍ، فليس لنا أن نسألَ، لكن نقولُ: هو مخلوقٌ عظيمٌ لا يَقْدُرُ قدرَه إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ كما جاء عن ابن عبَّاسٍ أنَّ الكُرْسِيَّ مَوْضِعُ قَدَمَيِ الرَّحمن عزَّ وجلَّ[3]، وأنَّ العرشَ لا يقدُرُ قدرَه إلَّا اللهُ -تبارك وتعالى-.

(١) أخرجه ابن حبان (٢/ ٧٧، رقم ٣٦١).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، رقم (٢٦٧٠).
(٣) يعني قوله: «الْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ، وَالْعَرْشُ لَا يُقْدَرُ قَدْرُهُ». أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٤٨).

قَوْلُهُ: «اسْتَوَى»؛ بمعنى: علا وارتفع، وبعضُهم أضاف: (اسْتَقَرَّ) إلى هذا المعنى؛ يعني: قال: إنَّ اللُّغةَ تقتضي بقولِك: (اسْتَوَى عَلَى كَذَا) العلوَّ والاستقرارَ، وذَكَرُوا لهذا أمثلةً، منها قولُ الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون:٢٨]، وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:١٢-١٣]؛ يعني: علوتم واستقررتم عليه، وهذا العلوُّ الذي اختصَّ به العرشُ علوٌّ خاصٌّ، ليس هو العلوَّ على جميعِ المخلوقاتِ، بل علوٌّ يختصُّ بالعرشِ، ولا يُقَالُ إلَّا للعرشِ، فلا يجوزُ أن تقولَ: (اسْتَوَى اللهُ على الأرضِ)، ولا (اسْتَوَى اللهُ على السَّماءِ).

فإن قال قائلٌ: هو عالٍ على كُلِّ شيءٍ؟ قلنا: نعم، هو عالٍ على كُلِّ شيء، لكن الاستواءُ على العرشِ علوٌّ خاصٌّ بالعرشِ؛ أرأيت لو أنَّ شخصًا فوق السَّطحِ على الكرسيِّ، فهو عالٍ على السَّطحِ وعلى مَنْ تحته، لكنَّه مستوٍ على الكرسيِّ خاصَّةً، فالاستواءُ خاصٌّ بالعرشِ كاستواءِ الإنسانِ على الكرسيِّ فوق السَّطحِ، فهو عالٍ على الكرسيِّ وعلى مَنْ تحته، لكنَّ الاستواءَ خاصٌّ بالكرسيِّ؛ إذَنْ علوُّه على العرشِ أو استواؤه على العرشِ علوٌّ خاصٌّ، وليس هو العلوَّ الشَّاملَ لكُلِّ المخلوقاتِ.

وهذا دليلُه سمعيٌّ، لا مجالَ للعقلِ فيه، ولا للفطرةِ؛ لأنَّ العقلَ لا يدري هل خَلَقَ اللهُ عرشًا أم لا؟ ولا يدري هل استوى عليه لـمَّا خَلَقَهُ أم لا؟ وكذلك الفطرة.

بَقِيَ عندنا الدَّليلُ السَّمعيُّ، وقد ذكره اللهُ عزَّ وجلَّ في القرآنِ الكريمِ في سبعةِ مواضعَ: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، أو ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] ...ويكفي في إثباتِه والإيمانِ به والجزمِ به موضعٌ واحدٌ، فكيف وهو في سبعةِ مواضعَ من كتابِ الله عزَّ وجلَّ؟! وما جاء في القرآنِ فالسُّنَّةُ مثبِتةٌ له، كيف ذلك؟

لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ يقرأُ القرآنَ ويؤمنُ بما فيه ويقرُّه بلا شكٍّ، وما جاء في القرآنِ فالصَّحابةُ مُجمِعون عليه؛ لأنَّه لم يَرِدْ أبدًا عن الصَّحابةِ ولا حرفٌ واحدٌ أنَّهم قالوا: إنَّ اللهَ لم يستوِ على العرشِ، وحينئذٍ يمكنُ أن نقولَ: استواءُ الله على العرشِ بالقرآنِ والسُّنَّةِ وإجماعِ الصَّحابةِ.

ووجهُ كونِه ثابتًا في السُّنَّةِ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يقرؤه مؤمنًا به مقرِّرًا له، ولم يأتِ عنه حرفٌ واحدٌ بنفيه ولا بتحريفِه، إِذَنْ مذهبُ السَّلفِ وأهلِ السُّنَّةِ الإيمانُ بأنَّ اللهَ قد استوى على عرشِه، ولكن لا يعلمون كيف استوى؟ إِذَنْ يعلمون أنَّه استوى عليه؛ أي: عَلَا عليه، لكن لا يعلمون كيف استوى، ولا يحاولون أن يعلموا كيف استوى، وليس السُّؤالُ عن كيفيَّةِ الاستواءِ من واجبِ دينِهم، ولا من كَمالِ دِينِهم، وما أَحْسَنَ ما قال الإمامُ مالكٌ -رحِمه الله- حين سأله رجلٌ فقال: يا أبا عبد الله، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] كيف استوى؟ فأطرق مالكٌ -رحِمه الله- برأسِه حتَّى علاه الرُّحَضَاءُ؛ يعني: العرقَ، وجعل يتصبَّبُ عرقًا من شدَّةِ وقع السُّؤالِ على قلبِه. ومع الأسف يمرُّ بنا هذا السُّؤالُ وكأنَّه ماءٌ باردٌ على جسدٍ محمومٍ، لا نحسُّ به، لكن الذين يَقْدُرُون اللهَ حقَّ قدرِه يعرفون مدى خطورةِ هذا السُّؤالِ، ثُمَّ رَفَعَ رأسَه وقال: يا هذا: «الاستواءُ غيرُ مجهولٍ، والكيفُ غيرُ معقولٍ، والإيمانُ به واجبٌ، والسُّؤالُ عنه بدعةٌ، وما أُرَاكَ إلَّا مبتدعًا»، ثُمَّ أَمَرَ به فأُخْرِجَ من مسجدِ النَّبِيِّ ﷺ[1]؛ لأنَّ هذا ساعٍ في الأرضِ فسادًا، وأقلُّ ما يُعَامَلُ السَّاعي في الأرضِ فسادًا أن يُنْفَى من الأرضِ، فنفاه مالكٌ -رحِمه الله- من مسجدِ النَّبِيِّ -صلَّى الله عليه وعلى آله وسلم- لئلا يفسدَ الخلقَ.

---

(١) ذكره البيهقي في الأسماء والصفات (٥١٥)، عن الإمام مالك بإسناد جوَّده الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٠٧).

إِذَنْ نقولُ: (**الاستواءُ معلومٌ**) وهو العلوُّ والاستقرارُ، (**والكيفُ مجهولٌ**)؛ أي: عقولُنا تجهلُه، ولم يَرِدْ في القرآنِ والسُّنَّةِ ذِكْرُه، فَيَجِبُ علينا أن نُعْرِضَ عنه، (**والإيمانُ بالاستواءِ واجبٌ**)؛ أي: بالاستواءِ على الوصفِ السَّابقِ، وهو علمُ معناه وجهْلُ كيفيَّته، فالإيمانُ به واجبٌ، (**والسُّؤالُ عنه -أي: عن كيفيَّته- بدعةٌ**)، لا تسأل عنه، وإنَّما كان بدعةً لوجهين:

الوجه الأوَّل: أنَّ الصَّحابة -وهم أحرصُ منَّا على العلمِ- لم يسألوا عنه، والنَّبيُّ ﷺ لم يبيِّنه.

الوجه الثَّاني: أنَّه من ديدنِ أهلِ البدعِ؛ أي: من دأبِهم وشأنِهم، فأهلُ البدعِ دائمًا يسألون عن كيفيَّةِ الصِّفاتِ لتعجيزِ أهلِ الحقِّ، من أجل أن يقولوا: أنتم لا تعرفون شيئًا.

وَقَوْلُهُ: (**وَمَا أُرَاكَ إلَّا مبتدعًا**)، هذه فراسةٌ من الإمامِ مالك رحمه الله، حيث اسْتَدَلَّ بهذا السُّؤالِ على أنَّه رجلٌ مُبْتَدِعٌ، فَحَكَمَ على الرَّجلِ بظاهرِ حالِه من سؤالِه.

إِذَنْ هذا مذهبُهم، نؤمنُ بالله عزَّ وجلَّ أنَّه مستوٍ على عرشِه استواءً لا تُعْلَمُ كيفيَّتُه.

وهنا مسألةٌ: هل يجوزُ أن تأخذَ العلمَ عن رجلٍ مبتدعٍ؟

الجوابُ: هذا فيه تفصيلٌ: إن كان عند الإنسانِ علمٌ يدفعُ به ما يدسُّه هذا المبتدعُ في تعليمِه، هذا شرطٌ، ولم يكن بحضورِه إلى حلْقاتِ هذا المبتدعِ فتنةٌ يَفتتنُ بذلك النَّاسُ، ويقولون: هذا رجلٌ يحضرُه فلانٌ وفلانٌ وفلانٌ، فهو على حقٍّ، هذا الشَّرطُ الثَّاني.

الثَّالث: ولم يتعرَّض لتثبيتِ بدعته في حَلْقَاتِه، فهذا لا بأسَ به، فهذه شروطٌ ثلاثةٌ لا بُدَّ منها، وإلَّا فاجتنبْه؛ لأنَّ بعضَ المبتدعةِ ذكيٌّ كما قال شيخُ الإسلامِ رحمه الله: «إنَّ هؤلاء المتكلِّمين أوتوا ذكاءً ولم يؤتوا زكاءً»، فهو ذكيٌّ يستطيعُ أن يُدْخِلَ عليك البدعةَ من حيث لا تشعرُ، حتَّى إنَّ البُلْقَيْنِيَّ -رحمه الله- قال: إنِّي استخرجتُ شيئًا من تفسيرِ الكشَّافِ للزمخشريِّ من اعتزاليَّاتِه بالمناقيشِ، والزَّمخشريُّ إمامُ المفسِّرين في الحقيقةِ فيما يتعلَّقُ باللُّغةِ العربيَّةِ والفصاحةِ، لكنَّه معتزليٌّ، ولذلك لـمَّا جاء إلى قولِ الله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥]، فقال: أيُّ فوزٍ أعظمُ من النَّجاةِ من النَّارِ ودخولِ الجنَّةِ[1]؟! فقال: أيُّ فوزٍ أعظمُ؟! الذي يقرأ هذا يقولُ: هذا صحيحٌ، لكنَّه أراد أن ينفيَ ما هو أعظمُ من هذا وهو رؤيةُ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ رؤيةَ الله أعظمُ عند أهلِ الجنَّةِ من حلول سكنى الجنَّةِ، ورُبَّما هذا المبتدعُ الذي تدرسُ عنده في اللُّغةِ العربيَّةِ يُمَثِّلُ لك بأنَّ المضافَ إليه يقومُ مقامَ المضافِ عند حذفِه، ويقولُ: مثالُ ذلكِ قولُ الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢].

لو قال قائلٌ: أنا أقولُ: إنَّ اللهَ استوى على عرشِه استواءً يليقُ بجلالِه هل يكفي هذا؟

الجوابُ: لا يكفي؛ لأنَّنا نقولُ: ما معنى الاستواء عندك؟ أمَّا أن تقول: استوى استواءً يليقُ بجلالِه، دون معرفةِ المعنى، فهذا لا يكفي، فحتى الاستيلاء على العرشِ يليقُ بجلالِه، الآن لم نفهم هل أنت على طريقة السَّلفِ أو على طريقة الخلفِ؟ لا بُدَّ أن تقولَ: **(استوى)** بمعنى علا علوًّا يليقُ بجلالِه.

---

(١) الكشاف للزمخشريِّ عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] (١/ ٤٤٩).

وقد خَالَفَ في ذلك أهلُ التَّحريفِ والتَّعطيلِ الذين يسمُّون أنفسَهم أهلَ التَّأويلِ تزلُّفًا وتقرُّبًا إلى العامَّةِ؛ لأنَّهم لو وصَفوا أنفسَهم بحقيقة أمرِهم -وهي التَّحريفُ- لنفر النَّاسُ عنهم، ولم يَقبَلوه، لكن يقولون: أهلُ التَّأويلِ، وهذه العبارةُ أهونُ بلا شكٍّ، ويقولون: إنَّ الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- قال لابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**عَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»[1]، ونحن أهلُ التَّأويلِ.

المشكلة أنَّ أهلَ التَّأويلِ يُسمُّون أهلَ السُّنَّةِ أهلَ التَّفويضِ، فهم يقولون: أهلُ السُّنَّةِ لا يعرفون المعاني، لو تسأله معنى (**استوى**) قال: لا أدري، معنى: (**ينزلُ إلى السَّماءِ الدُّنيا**)؟ قال: لا أدري، معنى (**الوجه**)؟ قال: لا أدري، فيشبِّهون على العامَّةِ، يقولون: هؤلاء جُهَّالٌ لا يعرفون، والعلمُ عندنا، المرادُ بكذا: كذا وكذا.

أهلُ التَّحريفِ قالوا: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]؛ يعني: استولى عليه، والحقيقةُ أنَّ قولَهم هذا باطلٌ من وجوهٍ:

أوَّلًا: أنَّه مخالفٌ لظاهرِ النَّصِّ؛ لأنَّ القرآنَ نزل باللِّسانِ العربيِّ، واللُّغةُ العربيَّةُ لا يمكنُ أن تُفَسِّرَ (**استوى**) بمعنى (**استولى**) أبدًا، فهو مخالفٌ لظاهرِ النَّصِّ.

ثانيًا: مخالفٌ لإجماعِ السَّلفِ؛ إذ إنَّ السَّلفَ مُجمِعون على أنَّ استواءَ الله على عرشِه هو المعنى اللُّغويُّ، لم يَرِدْ عنه تحريفٌ في ذلك.

ثالثًا: أنَّه يلزمُ على هذا التَّفسيرِ لوازمُ باطلةٌ، منها أن يكونَ العرشُ قبل استواءِ الله عليه لغيرِ الله، فحصلت مصارعةٌ بين الله وبين الآخر، ثُمَّ استولى عليه اللهُ

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٩، رقم ٢٤٢٢).

عزَّ وجلَّ، وهذا لازمٌ باطلٌ بلا شكٍّ، مَنْ مَلَكَ العرشَ قبل الله حتَّى يستويَ اللهُ عليه من بعد؟! لا أحدَ، ثُمَّ لو قال قائلٌ: لا نلتزمُ بذلك، نقولُ: إِذَنْ لِـمَن مُلْكُ العرشِ قبل استيلاءِ الله عليه؟ يعني: لو قال: لو ألزَمتُمونا لا نلتزمُ، نقولُ: إِذَنْ لِـمَن كان ملكُه؟ إذا كنتم تقولون: ثم استوى على العرشِ، فقبل ذلك لمن؟

ومن اللَّوازمِ الباطلةِ أنَّه يلزمُ على كلامِهم أن يصحَّ قولُ القائلِ: إنَّ اللهَ استوى على الأرضِ؛ لأنَّ المعنى (**استولى**) يشملُ الأرضَ وجميعَ ملكِ الله، وهذا لا شكَّ أنَّه معنًى باطل.

فصار الصَّوابُ -وهو الواجبُ اعتقادُه- أنَّ استواءَ الله على العرشِ؛ يعني: علوَّه عليه، فإن قال قائلٌ: أليس قد جاء في النَّظمِ قولُ القائلِ:

قَدِ اسْتَوَى بِشْـرٌ عَـلَى العِـرَاقِ ... مِنْ غَـيْرِ سَـيْفٍ أَوْ دَمٍ مُهْـرَاقِ[1]

و(**اسْتَوَى عَلَى العِرَاقِ**) ليس معناه: علا على العراقِ، بل معناه: استولى عليه؟ فيقال: سبحان الله! كيف يُسْتَدَلُّ بهذه اللُّكْنَةِ على اللُّغةِ العربيَّةِ الفصحى؟! من قال هذا البيتَ؟

الجوابُ: غيرُ معروفٍ، وإذا كان غيرَ معروفٍ فكيف يُسْتَدَلُّ به على اللُّغةِ العربيَّةِ أُمِّ اللُّغاتِ ولغةِ القرآنِ؟! ثُمَّ نقولُ: يَمْنَعُ أن يكونَ (**استوى على العراقِ**) بمعنى: علا عليه علوًّا حِسِّيًّا؛ يمنعُ هذا أنه لا يمكنُ في العقلِ.

ثالثًا: نقولُ: (**استوى على العراقِ**) استواءً معنويًّا؛ يعني: علوًّا معنويًّا وهو الاستيلاء، وحينئذٍ يكون (**استوى على العراق**) بمعناها الحقيقيِّ، لكنَّه استواءٌ معنويٌّ.

---

(١) الأزمنة والأمكنة لأبي علي الأصفهاني (١/ ٣٦).

إِذَنْ اللهُ تعالى مستوٍ على عرشِه -حقيقةً- استواءً يليقُ بجلالِه وعظمتِه، والاستواء بمعنى العلوِّ والاستقرارِ كما تفيدُه اللُّغةُ العربيَّةُ التي جاء بها القُرآنُ، قال اللهُ -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف:٣]؛ يعني: صيَّرناه باللُّغةِ العربيَّة ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٧٣]، أي: تفهَمون معناه، وبَيَّنَّا أَنَّ الذين فسَّروه بـ(**استولى**) ضالُّون، وأنَّهم ارتكبوا جنايتين، فكُلُّ مَنْ فَسَّرَ النُّصوصَ بغيرِ ظاهرِها فقد ارتكب خطيئتَيْنِ عظيمَتَيْنِ:

الأُولى: أنَّه صَرَفَ النُّصوصَ عن مُرادِ الله بها، وهذا عُدوانٌ سلبيٌّ، وهذه جنايةٌ لا شكَّ.

الثَّانية: أنَّه أَثْبَتَ لها معنًى غير مرادٍ، فقد ضَلَّ وأخطأ في السَّلبِ والإيجابِ؛ في السَّلبِ حيث نفى ظاهرَها المرادَ، وفي الإيجابِ حيث أَثْبَتَ لها معنًى غير مرادٍ، وهذا عدوانٌ إيجابيٌّ.

إِذَنْ عقيدتُنا التي نَدينُ اللهَ بها ونسألُ اللهَ أن نموتَ عليها أنَّ اللهَ -جلَّ وعلا- استوى على عرشِه حقيقةً استواءً يليقُ بجلالِه، وأنَّ الاستواءَ هو العلوُّ والاستقرارُ، والمجهولُ لنا من ذلك هو الكيفيَّةُ.

ولكنِّي أقولُ: إنَّ الهوى يُعْمِي ويُصِمُّ، الإنسانُ إذا اعتقد الشَّيءَ وذَهَبَ يستدلُّ حَاوَلَ أن يَلوِيَ أعناقَ النُّصوصِ إلى ما يعتقدُ، وهذه وَصمةُ عارٍ في الواقعِ، ليست على المتكلِّمين في العقائدِ فقط، بل وحتَّى المتكلِّمين في الفقهِ، تجدُ الواحدَ منهم إذا كان على مذهبٍ حَاوَلَ أن يلويَ أعناقَ النُّصوصِ إلى مذهبِه، وهذا -والعياذُ بالله- محرَّمٌ؛ لأنَّ الواجبَ أن يكونَ الإنسانُ تابعًا للنُّصوصِ وليس متبوعًا لها، ولهذا قيل: استدلَّ ثم احكُمْ، ولا تحكمْ ثم تستدلّ؛ لأنَّك إن حَكَمْتَ أَوَّلًا ثُمَّ اسْتَدْلَلْتَ فإنَّك رُبَّما تخطئ.

إِذَنْ نقولُ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]؛ أي: علا عليه، واستقرَّ عليه علوًّا واستقرارًا يليقُ بجلالِ الله عزَّ وجلَّ.

وأمَّا قولُه تعالى في سورة فُصِّلَتْ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:١١]، وقولُه تعالى في سورة البقرة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:٢٩]، فهاتان الآيتان من عُلَماءِ السُّنَّةِ مَنْ قال: (إلى) بمعنى (على)، لكن هذا لا يستقيمُ، ومنهم مَنْ قال: إنَّها على بابِها وإنَّها تفيدُ الغايةَ، وهذا أيضًا لا يستقيمُ؛ لأنَّنا إذا قلنا: (استوى إلى السَّماءِ) بمعنى: ارتفع إليها، صار في الأوَّل نازلًا، وهذا لا يستقيمُ؛ ولهذا كان القولَ الرَّاجحَ أنَّ (استوى) بمعنى (قَصَدَ)، وليس هذا من بابِ التَّحريفِ؛ لأنَّ تعلُّقَ المجرورِ الذي بعده يفيدُ هذا؛ فـ(إلى) للغايةِ، وليست للاستعلاءِ، فالعلماءُ -رحمهم الله- اختلفوا في هذا، والصَّوابُ أنَّه بمعنى (قَصَدَ)؛ يعني: أراد -سبحانه وتعالى- إرادةً تامَّةً كاملةً لخلقِ السَّماءِ وأنَّ القصدَ التَّامَّ استواءٌ في الواقعِ كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤]؛ أي: كَمُلَ.

فإن قال قائلٌ: هل يَلزمُ من استواءِ الله على العرشِ أنَّه لو زال العرشُ يُعْدَمُ علوُّ الله عزَّ وجلَّ؟ الجوابُ: لا؛ لأنَّ استواءَ الله على العرشِ لا لحاجتِه للعرشِ؛ لأنَّ العرشَ وغيرَه محتاجٌ إلى الله عزَّ وجلَّ، بخلاف استواءِ الإنسانِ على السَّريرِ أو على البَعيرِ؛ فإنَّه إذا زال السَّريرُ سقط، وإذا عثر البعيرُ سقط؛ لأنَّ الإنسانَ محتاجٌ لذلك، لكن استواءُ الله على العرشِ ليس استواءَ حاجةٍ، ولكنَّه استواءُ كمالٍ، فلكمالِ السُّلطانِ والعظمةِ استوى على العرشِ، وحينئذٍ يكونُ الرَّبُّ -جلَّ وعلا- غيرَ محتاجٍ إلى العرشِ.

وهنا إذا قلنا: إنَّ اللهَ مُستوٍ على العرشِ هل يلزمُ منه أن يكونَ العرشُ محيطًا به، وهذا مستحيلٌ وفاسدٌ، ولازمُ الفاسدِ فاسدٌ؟

الجوابُ أن نقولَ: هذا في حقِّ المخلوقِ، مع أنَّه في حقِّ المخلوقِ أيضًا قد يكونُ، فقد تستوي على عتبةٍ صغيرةٍ أقلَّ منك، فإذا صارت ثابتةً يمكنُ أنْ تجلسَ عليها مُستقِرًّا، ولو كنت أكبرَ منها، المهمُّ أنَّ هذا لا يلزمُ في حقِّ المخلوقِ، وإذا قُدِّرَ أنَّه لازمٌ في حقِّ المخلوقِ فليس لازمًا في حقِّ الخالقِ؛ لأنَّ اللهَ لا يُقَاسُ بخلقِه.

قَوْلُهُ: «**قَدْ قَامَ بِالتَّدْبِيرِ لِلأَكْوَانِ**» أشار -رحِمه الله- بقولِه: (**قَدْ قَامَ بِالتَّدْبِيرِ لِلأَكْوَانِ**) بعد ذكرِ استوائِه على العرشِ إلى أنَّ هذا من كمالِ عظمتِه وسُلطانِه، أنَّه استوى على عرشِ المُلكِ، فيكون هذا من كمالِ العظمةِ والسُّلطانِ، وفيه إشارةٌ إلى ردِّ قولِ مَنْ قال: إنَّ (**استوى**) بمعنى (**استولى وملك وقهر**)، فيشيرُ المؤلِّفُ -رحِمه الله- إلى أنَّ ملكَه وقهرَه واستيلاءَه على جميعِ الأكوانِ، أمَّا الاستواءُ فهو خاصٌّ بالعرشِ.

٣٢٢٦- حَيٌّ مُرِيدٌ قَادِرٌ مُتَكَلِّمٌ ذُو رَحْمَةٍ وَإِرَادَةٍ وَحَنَانِ

قَوْلُهُ: «**حَيٌّ**»؛ أي: من الحياةِ؛ يعني: من أسمائِه عزَّ وجلَّ (**الحيُّ**)، فيجبُ علينا أن نُثبتَ (**الحيَّ**) اسمًا من أسمائِه، وأن نثبتَ صفةَ الحياةِ له؛ إذ لا يمكنُ حيٌّ بلا حياةٍ، وحياةٌ لا يُوصَفُ من اتَّصفَ بها بالحيِّ لا تمكنُ أيضًا، فهو حيٌّ ذو حياةٍ كاملةٍ أزلًا وأبدًا، وحياتُه لم يسبقْها عدمٌ ولا يلحقها زوالٌ، بخلاف حياتِنا، فحياتُنا مسبوقةٌ بالعَدَمِ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]، فالإنسانُ قبل أن يكونَ في بطن أُمِّه ليس بشيءٍ، والنِّهايةُ العَدَمُ

كما قال -سبحانه وتعالى-: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرَّحمن:٢٦-٢٧]، لكنَّه ليس عدمًا محضًا؛ لأنَّ الرُّوحَ تبقى، فالرُّوحُ من الأشياءِ التي خلقها اللهُ للبقاء، فالرُّوحُ تبقى، وأمَّا الجسدُ فإمَّا أن يبقى وإمَّا ألَّا يبقى، فمثلًا أجسادُ الأنبياءِ باقيةٌ لا شكَّ؛ لأنَّ اللهَ حَرَّمَ على الأرضِ أن تأكلَ أجسادَ الأنبياءِ، فهي باقيةٌ، وتُعَادُ يومَ القيامةِ، أمَّا الرَّبُّ عزَّ وجلَّ فإنَّه لم يزل ولا يزالُ موجودًا؛ ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، فهو لا يموتُ لكمالِ حياتِه، وهي أيضًا حياةٌ كاملةُ الأوصافِ، ليس فيها نقصٌ بوجهٍ من الوجوه؛ فهي كاملةٌ من النَّاحيتين: من ناحية الكمالِ الذَّاتيِّ، ومن ناحيةِ الكمالِ الزَّمنيِّ، فحياةُ المخلوقين ناقصةٌ من ناحيةِ الكمالِ الزَّمنيِّ ومن ناحية الكمالِ الذَّاتيِّ.

فحياةُ المخلوقينِ مَسبوقةٌ بعَدَمٍ وملحوقةٌ بزوالٍ، وهذا نقصٌ زمانيٌّ، أيضًا حياةُ المخلوقِ ليست كاملةً، بل يلحقُها النَّقصُ؛ فيمرض الإنسانُ، ويجوعُ، ويعطشُ، ويدخلُه البردُ، ويؤلِمُه الحرُّ، بخلاف حياةِ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ، فهي كاملةٌ.

وقد ذكر اللهُ تعالى (الحيَّ القيُّومَ) في ثلاثةِ مواضع:

١- في آية الكرسيِّ من سورة البقرة، حيث قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥].

٢- وفي سورة آل عمران، حيث قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران:١-٢].

٣- وفي سورة (طه)، حيث قال تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه:١١١].

وهذان الاسمان جَمَعَا كُلَّ صفاتِ الله عزَّ وجلَّ الذَّاتيَّةِ والفعليَّةِ؛ لأنَّ (الحيَّ) هو مَن اتَّصَفَ بالحياةِ، و(القيُّوم) مَنِ اتَّصَفَ بالقيُّوميَّةِ، فهو قَائِمٌ بنفسِه قَائِمٌ على

غيرِه، وهذه تضمَّنت جميعَ الصِّفاتِ؛ ولهذا كان هذان الاسمان هما الاسم الأعظم الذي إذا دُعِيَ اللهُ به أَجَابَ، وإذا سُئِلَ به أَعْطَى.

قَوْلُهُ: «مُرِيدٌ»؛ يعني: له الإرادةُ.

فهو مُريدٌ لكلِّ ما في الكونِ من أفعالِه وأفعالِ عبادِه، فكُلُّ ما في الكونِ فهو مرادُ الله عزَّ وجلَّ بالإرادةِ الكونيَّةِ، أفعالُه -لا شكَّ- أنَّها صادرةٌ عن إرادةٍ؛ إذ لا أحَد يُكْرِهُهُ، ولا أحَد يُجْبِرُه عزَّ وجلَّ، وأفعالُ العبادِ أيضًا عن إرادتهِ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠].

ثُمَّ اعلم أنَّ الإرادةَ نوعان: إرادةٌ كونيَّةٌ، وإرادةٌ شرعيَّةٌ، الإرادةُ الكونيَّةُ هي التي بمعنى المشيئة، والإرادةُ الشَّرعيَّةُ هي التي بمعنى المحبَّة، والفرقُ بينهما من وجهين:

الوجه الأوَّل: أنَّ المرادَ كونًا لا بُدَّ أن يقعَ بخلافِ المرادِ شرعًا.

الوجه الثَّاني: أنَّ المرادَ كونًا يكونُ مـمَّا يحبُّه اللهُ وممَّا لا يحبُّه اللهُ، والمرادَ شرعًا لا يكونُ إلَّا فيما يحبُّه اللهُ.

وهذا بابٌ مهمٌّ جدًّا، فنطلبُ أوَّلًا الدَّليلَ على تقسيمِ الإرادةِ، الدَّليلُ في القرآنِ، قال اللهُ -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النِّساء:٢٧] هذه الإرادةُ شرعيَّةٌ؛ لأنَّها لو كانت كونيَّةً لَتَابَ اللهُ على جميعِ النَّاسِ، وقال اللهُ تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٢٦] وهذه إرادةٌ شرعيَّةٌ، ومنها أيضًا قولُه تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وهذه إرادةٌ شرعيَّةٌ.

وأمَّا الإرادةُ في قولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣] فهي إرادةٌ كونيَّةٌ؛ لأنَّ اللهَ لا يريدُ شرعًا الاقتتالَ، ولا يريدُ الكفرَ، وفي قولِ الله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٦] كونيَّةٌ أيضًا.

بعد أنْ عرفنا ذلك نقولُ: الإرادةُ الشَّرعيَّةُ قد يقعُ المرادُ فيها وقد لا يقعُ؛ لأنَّ ما يحبُّه اللهُ عزَّ وجلَّ قد يقعُ وقد لا يقعُ، أليس اللهُ يريد منَّا أن نكونَ صالحين؟ الجوابُ: بلى، ومع ذلك يصلحُ بعضٌ منَّا وبعضٌ لا يصلحُ، إذَنْ هذه الإرادةُ شرعيَّةٌ، ولا يمكنُ أن نقولَ: إنَّ اللهَ يريدُ الكفرَ بمعنى الإرادة الشَّرعيَّة، لا يمكنُ ذلك؛ لأنَّ الكفرَ مكروهٌ إلى الله عزَّ وجلَّ.

الإرادةُ الكونيَّةُ لا بُدَّ فيها من وقوعِ المرادِ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٦]، ويقولُ: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ [الرَّعد:١١]، ولهذا قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، إذا أراد شيئًا بالإرادةِ الكونيَّةِ.

ثانيًا: تتعلَّقُ أيضًا بما يحبُّ وما لا يحبُّ، فلو قال قائلٌ: هل أراد اللهُ عزَّ وجلَّ الشَّرَّ أو لا؟ الجوابُ: بالإرادةِ الشَّرعيَّةِ: لا، وبالإرادةِ الكونيَّةِ: نعم؛ لأنَّ كُلَّ ما وقع فإنَّه بإرادتِه؛ ولهذا نقولُ: كيف يكونُ الشَّرُّ مرادًا لله كونًا؟ نقولُ: نعم؛ لأنَّه لكمالِ سلطانِه قد يريدُ الشَّيءَ وهو لا يحبُّه لكن لحكمةٍ بالغةٍ أرادَ ذلك، مثلًا: هل يريدُ اللهُ -عزَّ و جلَّ- أن يُعذِّبَ عبادَه بالكوارثِ السَّماويَّةِ والأرضيَّةِ أو لا يريدُ؟ الجوابُ: كونًا يريدُ، لكنَّه لا يحبُّ ذلك، إنَّما هو أراده لمصلحةٍ عظيمةٍ بيَّنها اللهُ تعالى بقولِه: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الرُّوم:٤١] هذا السَّببُ، والغايةُ: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الرُّوم:٤١]، وهذه غايةٌ حميدةٌ.

وأضربُ لكم مثلًا: رجلٌ عنده ابنٌ يحبُّه محبَّةً شديدةً، فمرِض الابنُ، وطلب له الطَّبيبَ، فقرَّر الطَّبيبُ أن يَكْوِيَ هذا الابنَ، وقال: لا بُدَّ أن يُكْوَى وإلَّا فما يشْفَى، فهل الوالدُ يحبُّ أن يحترقَ شيءٌ من جسمِ طفلِه هذا أو لا؟ الجوابُ: لا، لكن إذا ترتَّب عليه الشِّفاءُ أحبَّه لغيرِه، فهو مرادٌ محبوبٌ لغيرِه، هكذا أيضًا ما يفعلُه اللهُ عزَّ وجلَّ ممَّا لا يتلاءَمُ وطبيعة البشرِ، إنَّما يفعلُه -تبارك وتعالى- لحكمةٍ بالغةٍ، وكم من إنسانٍ اهتدى لمصيبةٍ حصلت له، أو لمرضٍ حصل له! نُحَدَّثُ عن هذا كثيرًا، أنَّ من الأبناء مَنْ هو زائغٌ بمعنى الكلمة، يقولُ لي أحدُ النَّاس: لـمَّا مات أبوه وخرج مع النَّاسِ في جنازته ورجع -سبحان الله!- تاب اللهُ عليه، واهتدى بهذه المصيبةِ، فالمصائبُ قد تكونُ عواقبُها حميدةً إلى أبعدِ الحدودِ.

بَقِيَ علينا هل (المريدُ) من أسماءِ الله؟ أو (المريدُ) ممَّا يُخْبَرُ به عن الله؟ الجوابُ: الثَّاني؛ وذلك لأنَّ الإرادةَ تنقسمُ، فأمَّا الأسماءُ فكُلُّها حُسْنَى ليس فيها انقسامٌ، وأمَّا الإرادةُ فتنقسم إلى إرادةِ خيرٍ وإرادةِ شرٍّ، ولأنَّ أسماءَ الله وَصَفَهَا اللهُ تعالى بأنَّها حُسْنَى في ثلاثةِ مواضعَ من القرآنِ: في سورة الأعراف، وفي سورة (طه)، وفي سورة الحشر، فقال جلَّ وعلا في سورة الأعراف: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، وقال في سورة (طه): ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه:٨]، وقال في سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الحشر:٢٢]، إلى أن قال: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر:٢٤]، ولا يمكنُ أن يكونَ في أسمائِه احتمالُ النَّقصِ بأيِّ وجهٍ؛ ولذلك لم يكن (المريدُ) من أسمائِه، لكن من صفاتِه، والصِّفةُ أوسعُ من الاسمِ، الصِّفةُ يُخْبِرُ اللهُ بها عن الله ولكن لا يُسَمَّى بمدلولِها مريدًا.

قَوْلُهُ: «قَادِرٌ» هذا اسمٌ من أسماءِ الله، والقدرةُ هي فعلُ الفعلِ، أو هي وصفٌ يقومُ بالفاعلِ بلا عجزٍ، وقد وَصَفَ اللهُ نفسَه بأنَّه قادرٌ، وبأنَّه قديرٌ، وبأنَّه مقتدرٌ،

وكُلُّ هذا يعودُ إلى معنًى واحدٍ، وهو فعلُ الفعلِ بلا عجزٍ، قال اللهُ -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤]، والعجزُ قد يكونُ للجهلِ، لو قلت لواحدٍ لا يعرفُ الهندسةَ: أصلِح لي المسجلَ، وهو قادرٌ لكنَّه لا يعلمُ، هل يمكنُ أن يفعلَ؟ الجوابُ: لا يمكنُ، ولو قلت لمهندسٍ لكنَّه أشلُّ: أصلح لي المسجلَ؟ هل يمكنُ أن يفعلَ؟ الجوابُ: لا؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤]، فلعلمِه وقدرتِه لا يُعْجِزُه شيءٌ في السَّماواتِ ولا في الأرضِ، سبحانه وتعالى!

وهل في القُرآنِ ما يدلُّ على أنَّ اللهَ قادرٌ على كُلِّ شيءٍ؟ الجوابُ: نعم، في آياتٍ كثيرةٍ، قال اللهُ تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ [المائدة:١٢٠]، فكُلُّ شيءٍ فاللهُ قادرٌ عليه، إعدامًا للموجودِ وإيجادًا للمعدومِ، ولا تَسْتَثْنِ.

لو قال قائلٌ: إنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- قال للرَّجلِ الذي يكونُ آخرَ أهلِ الجنَّةِ دخولًا: «وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»[1]، وقال اللهُ تعالى في القرآنِ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩]، أفلا يدلُّ هذا على أنَّ القدرةَ مقرونةٌ بالمشيئةِ؛ يعني: أنَّه قادرٌ على ما يشاءُ، وما لا يشاءُ ليس قادرًا عليه؟

الجوابُ: لا، لكن نقولُ: المشيئةُ عائدةٌ إلى الفعلِ لا إلى القدرةِ؛ ولذا قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشُّورى:٢٩]؛ أي: إذا يشاءُ جمعَهم ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يمتنعُ عليه، فالقيدُ هنا للجمعِ، إذا شاءُ اللهُ جَمَعَهم وإذا شاء لم يجمعْهم، وليس عائدًا على القدرةِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٢٠٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجا، رقم (١٨٧).

وكذلك في قصَّةِ الرَّجلِ الذي قال اللهُ له: «**وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ**»، يعني: إنِّي قد شئتُ وأنا قادرٌ عليه، وإلَّا فالقدرةُ عامَّةٌ في كُلِّ شيءٍ، وبهذا نعرفُ خطأَ مَنْ يختمون كلامَهم أحيانًا فيقولون: (إنَّه على ما يشاءُ قديرٌ)؛ لأنَّ مفهومَه خطرٌ من جهة العقيدةِ؛ ففي قولِهم: (عَلَى مَا يَشَاءُ) قدَّم المعمولَ فاقتضى الحصرَ، وأنَّه ليس قادرًا إلَّا على ما يشاءُ، وهذا غلطٌ، بل نقولُ: هو على كُلِّ شيءٍ قديرٍ كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ، ونقولُ لمن قال: (إنَّه على ما يشاءُ قديرٌ): لا تستعملْ هذه العبارةَ.

فإذا قال قائلٌ: يجبُ علينا أن نؤمنَ بالقُدرة، وبإيمانِنا بها نحترزُ من الذُّنوبِ؛ لأنَّنا نعلمُ أنَّ اللهَ قادرٌ على عقوبتِنا، لو قال قائلٌ: يونسُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- قال اللهُ تعالى فيه: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ [الأنبياء:٨٧]، هل يمكنُ أن يَظُنَّ أحدُ الأنبياءِ والرُّسلِ الكرامِ أنَّ اللهَ لا يقدرُ عليه؟ الجوابُ: لا يمكنُ، لكن نقولُ: القدرةُ هنا بمعنى التَّضييق؛ كقولِه تعالى: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ [الشورى:١٢]، وكقولِه: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ [الطَّلاق:٧]؛ يعني: ضُيِّقَ ﴿فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطَّلاق:٧]؛ يعني: ظنَّ أنَّ اللهَ يعفو عنه ولا يُضَيِّقُ عليه، ولم يظنَّ أنَّ اللهَ لا يستطيعُ أن يُدْرِكَه.

فإذا قال قائلٌ: أليس الرَّسولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- قَالَ: «**كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَمَّا حَضَرَهُ المَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اطْحَنُونِي، ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا، فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ، فَأَمَرَ اللهُ الأَرْضَ فَقَالَ: اجْمَعِي مَا فِيكِ مِنْهُ. فَفَعَلَتْ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: يَارَبِّ خَشْيَتُكَ. فَغَفَرَ لَهُ**»(١) نقولُ: هذا

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم (٣٤٧٩)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، رقم (٢٧٥٦).

الرَّجلُ متأوِّلٌ، وإلَّا فلا شكَّ أنَّه يعلمُ أنَّ اللهَ قادرٌ على أن يعاقبَه، لكنَّه تأوَّل فأخطأ، فَغَفَرَ اللهُ له.

قَوْلُهُ: «مُتَكَلِّمٌ» هذا وصفٌ، وليس باسمٍ؛ لأنَّ الكلامَ ينقسمُ إلى لغوٍ، وإثمٍ، وخيرٍ، واللهُ عزَّ وجلَّ لا يتكلَّمُ إلَّا بالخيرِ، ولذلك نقولُ: هو وصفٌ، وليس باسمٍ.

وَقَوْلُهُ: «مُتَكَلِّمٌ» هذا أيضًا من الصِّفات التي خاض فيها النَّاسُ خَوْضًا عظيمًا، فأين الدَّليلُ على أنَّ اللهَ متكلِّمٌ؟ الدَّليلُ في القرآنِ الكريمِ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء:١٦٤]، فأكَّدَ الفعلَ بالمصدرِ؛ ولهذا يُسَمِّي النُّحاةُ ﴿تَكۡلِيمٗا﴾ مصدرًا مؤكِّدًا، وقال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣]، هذا الكلامُ الذي وقع من الله عزَّ وجلَّ هل وقع بصوتٍ يُسْمَعُ وحرفٍ مرتَّبٍ أو لا؟ الجوابُ: نعم، وقع هكذا بصوتٍ يُسْمَعُ، وحروفٍ مرتَّبةٍ، قال اللهُ -تبارك وتعالى-: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾؛ أي: البعيدِ، ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم:٥٢] جعل الله عزَّ وجلَّ يُناجيه، وقرَّبه. فوصف كلامَه -تبارك وتعالى- بأمرين: نداء، ومناجاة، وهذا وصفٌ للصَّوتِ، أمَّا الحرف فكُلُّ ما كلَّمه اللهُ به فهو حروفٌ مرتَّبةٌ بعد بعضٍ.

هذا كلامُ الله عزَّ وجلَّ نحن نؤمنُ به، ونؤمنُ بأنَّ ربَّنا عزَّ وجلَّ يتكلَّمُ متى شاء زمنًا، وبما شاء؛ أي: في أيِّ موضوعٍ يُريدُه، وكيف شاء؛ أي: على أيِّ كيفيَّةٍ؛ إنْ شاء مناداةً وإن شاء مناجاةً، نؤمنُ بهذا، وهو عقيدتُنا التي نرجو اللهَ أن نموتَ عليها وألَّا يزيغَنا عنها، وهل وَصْفُ الله بهذا الوصفِ يُعْتَبَرُ نقصًا في حقِّه؟ الجوابُ: لا، والله هو كمالٌ؛ لأنَّ ضدَّ الكلامِ هو الخرسُ، والخرسُ نقصٌ، فالكلامُ كمالٌ.

والنَّاسُ اختلفوا في كلامِ الله على سبعةِ أقوالٍ أو ثمانيةٍ ذكرها في (**مختصر الصَّواعق المرسلة**)، لكن المشتهرُ منها ثلاثةٌ:

الأوَّل: مذهبُ السَّلفِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أنَّ اللهَ تعالى يتكلَّمُ كلامًا حقيقيًّا مسموعًا بالآذان، وبأيِّ صوتٍ شاء، وبأيِّ لغةٍ شاء، ومتى شاء.

الثَّاني: مذهبُ الجهميَّةِ، يقولون: إنَّ كلامَ الله حقٌّ، لكنَّه ليس من أوصافِه، بل هو من أفعالِه، فهو مخلوقٌ من المخلوقاتِ، فكما خَلَقَ الشَّمسَ والقمرَ والنُّجومَ والأرضَ والسَّماءَ خَلَقَ الكلامَ، واللهُ تعالى على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، فالجوُّ يخلقُ اللهُ فيه كَلامًا يسمعُه مَنْ يكلِّمُه اللهُ، ولا تستغرب، الآن يقولون: إنَّ الجوَّ مملوءٌ من أصواتِ النَّاسِ، حتَّى حدَّثنا شيخُنا عبدُ الرحمن بن سِعدي -رحمه الله، المتوفَّى عام (١٣٧٦هـ)- أنَّهم الآن يُحاولون أن يَرْجِعوا كلامَ النَّاسِ المخزون في الجوِّ حتَّى يُسْمَعَ؛ ويعني هذا: أنَّه يمكنُ أن نسمعَ كلامَ الرَّسولِ ﷺ بين أصحابِه، ولا تَسْتَغْرِبْ، فالآن الاتِّصالات بَيَّنَت لنا أشياءَ عظيمةً في هذا الكونِ، وفي أنَّ بين السَّماواتِ والأرضِ أشياءَ عجيبةً عجيبةً عجيبةً اقتضت أن يجعلَ اللهُ ما بين السَّماواتِ والأرضِ قسيمًا للسَّماواتِ والأرضِ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الفرقان:٥٩].

فالمهمُّ أنَّ هؤلاء الجهميَّة يقولون: كلامُ الله مخلوقٌ كسائرِ المخلوقاتِ، خَلَقَ اللهُ في هذا الجوِّ أصواتًا، ونسبها إليه تشريفًا وتكريمًا، أمَّا هو نفسُه فلا يتكلَّمُ.

الثَّالث: مذهبُ الأشاعرةِ الذي عليه كثيرٌ من النَّاسِ، ولا سيَّما المتكلِّمون في أصولِ الفقِه حتَّى ممَّن هو على مذهبِ أهلِ السُّنَّة يخطئون في هذا خطًا عظيمًا، يقولون: إنَّ اللهَ تعالى يتكلَّمُ، وكلامُه من صفاتِه، لكنَّه لا يتكلَّمُ بصوتٍ ولا يتكلَّمُ

بحرفٍ، كلامُه هو المعنى القَائِمُ بنفسِه، فهو شيءٌ في نفسِه، ثُمَّ يخلقُ عزَّ وجلَّ أصواتًا مسموعةً وحروفًا مرتَّبةً تدلُّ على ما في نفسِه.

وحقيقةُ الأمرِ أنَّهم نَفَوُا الكلامَ كما قال بعضُ المحقِّقين المنصِفين منهم، قال: «**إنَّه ليس بيننا وبين الجهميَّةِ فرقٌ، فكُلُّنا متَّفقون على أنَّ ما في المصحفِ ليس كلامَ الله، لكن نحن نقول: إنَّه مخلوقٌ، وأنتم تقولون: إنَّه عبارةٌ عن كلامِ الله، وليس كلامَ الله**».

هذان مذهبان، ولا شكَّ في بطلانِهما؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، ولـمَّا حرَّف بعضُهم هذه الآيةَ وقال: إنَّ صوابَها (**وَكَلَّمَ اللهَ مُوسَى تَكْلِيمًا**)، قال ذلك حتَّى ينقلبَ المعنى، فيكون المتكلِّمُ موسى، فقال له بعضُ علماءِ السَّلفِ: وماذا تقولُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣]؟ فَبُهِتَ الرَّجلُ، وما استطاع أن يجيبَ؛ لأنَّه لا أحدَ يدَّعي أنَّ الهاءَ في (**كلَّمه**) فاعلٌ، لا يمكن أن يقولَ ذلك أحدٌ.

فالحاصلُ أنَّ هؤلاء حرَّفوا، وإذا سَأَلْتَهُم: ما معنى ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ﴾ [النِّساء:١٦٤]؟ قالوا: الكَلْمُ في اللُّغةِ: الجرح.

واقرأ قولَ النَّبيِّ ﷺ: «**لَا يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ الله -وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ- إِلَّا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَجُرْحُهُ يَثْعَبُ دَمًا، اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ، وَالرِّيحُ رِيحُ مِسْكٍ**»[1]، ومعنى «**يُكْلَمُ**»: يُجْرَحُ، قال: وأمَّا قولُه: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ فاستعارةٌ، فـ(**كَلَّمَه**)؛ أي: جَرَّحَه بمخالبِ الحكمةِ، سبحان الله! ما معنى جَرَّحَه؟ معقولٌ هذا؟ لكن نسألُ اللهَ لنا ولكم الهدايةَ، ومن أزاغ اللهُ قلبَه رأى الباطلَ حقًّا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم (٥٥٣٣).

فنقولُ: إنَّ اللهَ كَلَّمَ موسى، وكَلَّم محمَّدًا ﷺ، وكلَّم آدمَ، ويُكَلِّمُ مَنْ شاء، هذه عقيدتُنا في كلامِ الله عزَّ وجلَّ؛ ولذلك قال المؤلِّفُ: (مُتكَلِّمٌ).

وهل الكلامُ يتعلَّقُ بمشيئتِه؟ نقولُ: أمَّا على مذهبِ الجهميَّةِ والمعتزلةِ وأهلِ السُّنَّةِ فإنَّه يتعلَّقُ بمشيئتِه، وأمَّا على مذهبِ الأشعريَّة فلا يتعلَّقُ بمشيئتِه؛ لأنَّه معنًى قَائِمٌ بنفسِه كقيامِ العلمِ بها، لا يتعلَّقُ بمشيئتِه.

قَوْلُهُ: «ذُو رَحْمَةٍ»؛ يعني: صاحب رحمةٍ، وواضحٌ أنَّ هذا وصفٌ، ورحمةُ الله عزَّ وجلَّ نوعان: عامَّةٌ، وخاصَّةٌ، فبالعامَّةِ رَحِمَ جميعَ الخلقِ حتَّى الكُفَّارَ والفُسَّاقَ والفُجَّارَ، رَحِمَهم اللهُ برحمته العامَّةِ، والخاصَّة رَحِمَ بها المؤمنين، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

قَوْلُهُ: «وَإِرَادَةٍ» سبقت الإرادةُ في قوله: (مُرِيدٌ).

قَوْلُهُ: «وَحَنَانٍ» الحنانُ هو العطفُ والرَّأفةُ والإشفاقُ، فهو -جلَّ وعلا- ذو حنانٍ، ولكن هل يُوصَفُ بأنَّه (حَنَّانٌ)؟ هذا لم يثبت عن النَّبيِّ ﷺ، وأمَّا ما نسمعُه في دعاء بعضِ النَّاسِ: (يا حَنَّانُ، يا مَنَّانُ) فلا أصلَ له، أمَّا (مَنَّان) فثَبَتَت[1] لا شكَّ فيها.

٣٢٢٧- هُوَ أَوَّلٌ هُوَ آخِرٌ هُوَ ظَاهِرٌ هُوَ بَاطِنٌ هِيَ أَرْبَعٌ بِوِزَانِ

وهذه مذكورةٌ في قولِه تعالى في سورةِ الحديد: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣]، وهذا من أسماءِ الله عزَّ وجلَّ المزدوجة، الاسمان الأوَّلان

(١) كما في حديث أنس بن مالك، قال: مَرَّ رَسُولُ الله ﷺ بِأَبِي عَيَّاشٍ زَيْدِ بْنِ صَامِتٍ الزُّرَقِيِّ وَهُوَ يُصَلِّي، وَهُوَ يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، يَا مَنَّانُ، يَا بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَقَدْ دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى». أخرجه أحمد (٣/ ٢٦٥، رقم ١٣٨٣٤).

أحاطا بالزَّمانِ، والاسمان الآخِرانِ أحاطا بالمكانِ، فهو -سبحانه وتعالى- محيطٌ بكُلِّ شيءٍ زمنًا وبكُلِّ شيءٍ مكانًا، و(**الأوَّلُ**) ضدُّه (**الآخِرُ**)، و(**الظَّاهرُ**) ضدُّه (**البَاطِنُ**)، واقرأ لتفسيرها، قال:

٣٢٢٨- مَـا قَبْلَـهُ شَيْءٌ كَـذَا وَمَـا بَعْـدَهُ   شَيْءٌ تَعَـالَى اللهُ ذُو السُّـلْطَانِ

قَوْلُهُ: «**مَا قَبْلَهُ شَيْءٌ**»، هذا تفسيرٌ لـ(**الأَوَّل**)، فالأوَّلُ ليس قبلَه شيءٌ.

قَوْلُهُ: «**كَذَا مَا بَعْدَهُ شَيْءٌ**»، وهذا تفسيرٌ لـ(**الآخِر**).

قَوْلُهُ: «**تَعَالَى اللهُ ذُو السُّلْطَانِ**» (**تَعَالَى اللهُ**)؛ أي: تَرَفَّعَ عن كُلِّ نقصٍ، و(**تَعَالَى**) قد تكونُ أبلغَ من (**عَلَا**)؛ لأنَّ التَّعاليَ تَرَفُّعٌ، فهو -سبحانه وتعالى- متعالٍ عن كُلِّ نقصٍ.

٣٢٢٩- مَـا فَوْقَـهُ شَيْءٌ كَـذَا مَـا دُونَـهُ   شَيْءٌ وَذَا تَفْسِـيرُ ذِي الْبُرْهَـانِ

قَوْلُهُ: «**مَا فَوْقَهُ شَيْءٌ**» هذا تفسيرٌ لـ (**الظَّاهِر**).

قَوْلُهُ: «**كَذَا مَا دُونَهُ شَيْءٌ**» ما معنى ما دونه شيء؟ أي: إنَّه عزَّ وجلَّ لا يحولُ بينه وبين سلطانِه وعلمِه وقُدرتِه وبصرِه وسمعِه شيءٌ، فكُلُّ شيءٍ عنده معلومٌ مرئيٌّ مبصَرٌ مُحَاطٌ به من كُلِّ ناحيةٍ.

يقول النَّاسُ: (**أنا ما أقطع دونَك شيئًا**)، (**دونك**)؛ أي: دون علمِك وأمرِك وما أشبهَ ذلك، وليس معنى (**ما دونه**) في الصِّغرِ كما يقولُ بعضُ أهلِ التَّحريفِ، (**ما دونه**)؛ أي أنَّه لا يُرَى؛ لأنَّه لطيفٌ خَفِيٌّ، أعوذُ بالله، فهذا لـم يُرِدْهُ الرَّسولُ، ولا يمكنُ أن يُرَادَ، إذا كانت السَّماواتُ والأرضُ في كفِّ الرَّحمنِ كخردلةٍ، فكيف يُقَالُ: إنَّه لا يُرَى؟! نسألُ اللهَ العافيةَ.

إِذَنْ هو الباطنُ (لَيْسَ دُونَهُ شَيْءٌ)؛ أي: إنَّه محيطٌ بكُلِّ شيءٍ، ولا يخفى عليه شيءٌ، ولا يُعجزُه شيءٌ، وليس معنى الباطن الخفيّ؛ لأنَّ الخفاءَ يضادُّه الظُّهورُ، فهو -سبحانه وتعالى- أبينُ الأشياءِ، وأوضحُ الأشياءِ، كيف وفي كُلِّ شيءٍ له آيةٌ، لكن معنى الباطن أنَّه محيطٌ بكُلِّ شيءٍ، لا يخفى عليه شيءٌ، فليس دونَه؛ أي: ليس دونَ علمِه، ولا قُدرتِه، ولا سُلطانِه، ولا سَمعِه، ولا بصرِه، ولا جميع صفاتِه، ليس دونَه شيءٌ.

قَوْلُهُ: «**وَذَا تَفْسِيرُ ذِي الْبُرْهَانِ**»؛ يعني: الرَّسولَ -عليه الصلاة والسلام-.

٣٢٣٠- فَـانْظُرْ إِلَى تَفْسِـيرِهِ بِتَـدَبُّرٍ وَتَبَصُّـرٍ وَتَعَقُّـلٍ لِـمَعَانِ

قَوْلُهُ: «**فَانْظُرْ إِلَى تَفْسِيرِهِ**»؛ أي: تفسيرِ النَّبِيِّ ﷺ، وقد فسَّرها النَّبِيُّ ﷺ بنفسِه، وهو أعلمُ الخلقِ بكلامِ الله عزَّ وجلَّ، فقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ**»(١)، هذا هو المعنى الذي لا يمكنُ سواه؛ لأنَّه (**تَفْسِيرُ ذِي الْبُرْهَانِ**) كما قال المؤلِّفُ رحمه الله.

قَوْلُهُ: «**بِتَدَبُّرٍ**»، وهذا محلُّه القلبُ.

قَوْلُهُ: «**وَتَبَصُّرٍ وَتَعَقُّلٍ لِـمَعَانِ**»، هذا محلُّه العقلُ.

يعني: انظُر بعين البصيرة متدبِّرًا متعقِّلًا للمعاني حتَّى يتبيَّنَ لك عِظَمُ هذه الأسماءِ الأربعةِ، فانظر إلى تفسيرِه تجد أنَّه أعظمُ التَّفاسيرِ وأبينُها وأوضحُها؛ ولهذا يقول:

٣٢٣١- وَانْظُرْ إِلَى مَا فِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ مَعْـ ـرِفَةٍ لِـخَالِقِنَا الْعَظِيمِ الشَّانِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٣).

فإنَّ هذه الأسماءَ الأربعةَ تتضمَّنُ الإحاطةَ العامَّةَ زمانًا ومكانًا، زمانًا في (الأوَّل) و(الآخِر)، ومكانًا في (الظَّاهِر) و(البَاطِن).

***

٣٢٣٢- وَهُوَ العَلِيُّ فَكُلُّ أَنْوَاعِ العُلُوْ ... وِ لَهُ فَثَابِتَةٌ بِلا نُكْرَانِ

٣٢٣٣- وَهُوَ العَظِيمُ بِكُلِّ مَعْنًى يُوجِبُ التْـ ... ـتَعْظِيمُ لا يُحْصِيهِ مِنْ إِنْسَانِ

٣٢٣٤- وَهُوَ الجَلِيلُ فَكُلُّ أَوْصَافِ الجَلا ... لِ لَهُ مُحَقَّقَةٌ بِلا بُطْلانِ

٣٢٣٥- وَهُوَ الجَمِيلُ عَلَى الحَقِيقَةِ كَيْفَ لا ... وَجَمَالُ سَائِرِ هَذِهِ الأَكْوَانِ

٣٢٣٦- مِنْ بَعْضِ آثَارِ الجَمِيلِ فَرَبُّهَا ... أَوْلَى وَأَجْدَرُ عِنْدَ ذِي[1] العِرْفَانِ

٣٢٣٧- فَجَمَالُهُ بِالذَّاتِ وَالأَوْصَافِ وَالـ ... أَفْعَالِ وَالأَسْمَاءِ بِالبُرْهَانِ

٣٢٣٨- لا شَيْءَ يُشْبِهُ ذَاتَهُ وَصِفَاتِهِ ... سُبْحَانَهُ عَنْ إِفْكِ ذِي بُهْتَانِ

٣٢٣٩- وَهُوَ المَجِيدُ صِفَاتُهُ أَوْصَافُ تَعْـ ... ـظِيمٍ فَشَأْنُ الوَصْفِ أَعْظَمُ شَانِ

الشرحُ

٣٢٣٢- وَهُوَ العَلِيُّ فَكُلُّ أَنْوَاعِ العُلُوْ ... وِ لَهُ فَثَابِتَةٌ بِلا نُكْرَانِ

قَوْلُهُ: «العَلِيُّ» سبق لنا أنَّه عزَّ وجلَّ عليٌّ، وذكرنا الأدلَّةَ على هذا مثل قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقولِه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١]، وذكرنا أدِلَّةَ العلوِّ الخمسةَ.

---

(١) في نسخة الإفتاء «يا ذوي».

قَوْلُهُ: «فَكُلُّ أَنْوَاعِ العُلُوِّ لَهُ فَثَابِتَةٌ بِلَا نُكْرَانِ» كُلُّ أنواعِ العلوِّ ثابتةٌ له بلا نكرانٍ، وذكرنا فيما سَبَقَ علوَّ الذَّاتِ وعلوَّ الصِّفةِ، وهذا التَّقسيمُ الذي ذكرناه محيطٌ بكُلِّ شيءٍ من أنواع العلوِّ، لكنَّ بعضَهم قال: إنَّ له علوَّ الذَّاتِ، وعلوَّ القدرِ، وعلوَّ القهرِ، فعلوُّ الذَّاتِ؛ يعني: أنَّه بذاتِه فوق كُلِّ شيءٍ، وعلوُّ القهرِ؛ يعني: أنَّه قاهرٌ لكُلِّ شيءٍ غالبٌ له، وعلوُّ القدرِ؛ يعني: أنَّ قَدْرَه فوق كُلِّ قدرٍ، لا ينالُه أحدٌ في قدرِه، لكن ما ذكرناه أولى؛ لأنَّه أشملُ وأعمُّ أنَّ له علوَّ الذَّاتِ وعلوَّ الصِّفاتِ، وهذا أخصرُ، فيشملُ جميعَ الصِّفاتِ، فهو عالٍ في سمعِه، عالٍ في بصرِه، عالٍ في جميعِ صفاتِه.

٣٢٣٣- وَهُوَ العَظِيمُ بِكُلِّ مَعْنًى يُوجِبُ التْـ ـتَعْظِيمُ لا يُحْصِيهِ مِنْ إِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «**وَهْوَ العَظِيمُ بِكُلِّ مَعْنًى**»، فهو عزَّ وجلَّ عظيمٌ في ذاتِه، عظيمٌ في صفاتِه، عظيمٌ في أفعالِه، قال اللهُ تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]، وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٩٨].

فـ«**العظيم**» من أسماءِ الله، وقد تكرَّرَ في القرآنِ الكريمِ كثيرًا، ويجمعُ اللهُ بينه وبين «**العَلِيّ**»؛ لما في العلوِّ من الكمالِ الذَّاتيِّ والوصفيِّ، ولما في «**العظيم**» من العظمةِ، فكُلُّ أوصافِ التَّعظيمِ فهي ثابتةٌ لله عزَّ وجلَّ، والعظمةُ تكونُ لله وتكونُ لغيرِه، لكنَّ العظمةَ لله لا يشبهُها شيءٌ، قال اللهُ تعالى عن الهدهدِ: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل:٢٢]، وقال عن عرشِ بلقيس: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النَّمل:٢٣]، وقال عن العرشِ: ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون:٨٦]، فهذا العِظَمُ يكونُ لله ولغيرِه، لكنَّ العظمةَ الخاصَّةَ بالله عظمةٌ لا تساويها عظمةٌ.

فهو عظيمٌ بكُلِّ معنى يُوجِبُ التَّعظيمَ، هذا العِظَمُ يوجبُ للإنسانِ شَيْئَيْنِ: الاجتهادَ في الطَّلَبِ، والاجتهادَ في الهربِ، كيف ذلك؟ الاجتهادُ في الطَّلَبِ أنَّ الإنسانَ لِعِظَمِ ربِّه يلجأُ إليه ويحبُّه عزَّ وجلَّ، ويعلمُ أنَّه لا أحدَ أعظمُ منه، وفي الهربِ يخاف منه؛ لأنَّه عظيمٌ فيتجنَّب مخالفتَه سبحانه وتعالى، ويبتعد عن مخالفتِه؛ لأنَّه أعظمُ من كُلِّ شيءٍ؛ ولهذا قال: «**بِكُلِّ مَعْنًى يُوجِبُ التَّعْظِيمَ**»، فكُلُّ معنًى يوجبُ التَّعظيمَ فاللهُ -سبحانه وتعالى- مُتَّصِفٌ به.

قَوْلُهُ: «**لَا يُحْصِيهِ مِنْ إِنْسَانِ**»؛ يعني: لا أحدَ يُحْصِي تعظيمَ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه شاملٌ عامٌّ.

٣٢٣٤- وَهُوَ الجَلِيلُ فَكُلُّ أَوْصَافِ الجَلا ... لِ لَــهُ مُحَقَّقَــةٌ بِــلا بُطْــلانِ

قَوْلُهُ: «**الجَلِيلُ**»؛ يعني: المُعَظَّمَ؛ ولهذا يقولُ النَّاسُ: فلانٌ أجلَّه؛ يعني: أعظَّمه، فالجلالُ بمعنى التَّعظيم، ولكن هل من أسماءِ الله «**الجليل**»؟

بحثت فلم أجد شيئًا[1]، ولكن فوق كُلِّ ذي علمٍ عليمٌ، إنَّما الذي جاء في القرآنِ والسُّنَّةِ هو ذو الجلالِ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرَّحمن:٢٧]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرَّحمن:٧٨]، وهنا نسألُ: لماذا قال في الأولى: ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾، وفي الثَّانية: ﴿ذِي الْجَلَالِ﴾؟ الجوابُ: أنَّ ﴿ذُو﴾ الأولى صفةٌ للوجهِ، و﴿ذِي﴾ الثَّانية صفةٌ للرَّبِّ وليس للاسمِ.

وهل يجوزُ أن نقولَ: «**جَلَّ فلانٌ**» أو «**تَقَدَّسَ فلانٌ**»؟ الجوابُ: أمَّا «**جَلَّ فلانٌ**» فيصحُّ؛ لأنَّ «**جَلَّ**»؛ أي: صار ذا جلالةٍ، فهذا ممكنٌ، فتقول: «**فلانٌ جليلٌ**»، فهذا يُوصَفُ به غيرُ الخالقِ.

---

(١) انظر: القاعدة السادسة من قواعد الأسماء من كتاب القواعد المثلى للشَّارح رحمه الله.

أَمَّا «تَقَدَّسَ فلانٌ» فلا يصحُّ؛ لأنَّ «تَقَدَّسَ» ما يُوصَفُ بها إلَّا اللهُ؛ ولأنَّ التَّقدُّسَ معناه التَّطهُّرُ من كُلِّ عيبٍ، وهذا لا يليقُ إلَّا بالله.

إِذَنْ هو -سبحانه وتعالى- ذو الجلال؛ أي: المستحقُّ للتَّعظيمِ غاية التَّعظيمِ، والجلالُ هو كمالُ السُّلطانِ، فالجلالُ كُلُّه ثابتٌ لله عزَّ وجلَّ، وإذا آمنت بذلك لَزِمَك أن تخشى اللهَ وتخافَه؛ لأنَّه جليلٌ.

و﴿وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ له معنيان: إكرامُ الطَّائعين من عبادِه، وإكرامُ عبادِه له، فهو ذو كرمٍ على عبادِه، وعبادُه مكرمون له عزَّ وجلَّ، قال اللهُ تعالى: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦] يكرمُهم اللهُ، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار:١٠-١١]، وهو -سبحانه وتعالى- مكرِمٌ لمن يستحقُّ الإكرامَ من عبادِه، فكُلُّ أوصافِ الجلالِ له محقَّقةٌ بلا بطلانٍ.

٣٢٣٥- وَهُوَ الجَمِيلُ عَلَى الحَقِيقَةِ كَيْفَ لا ... وَجَمَالُ سَائِرِ هَذِهِ الأَكْوَانِ

٣٢٣٦- مِنْ بَعْضِ آثَارِ الجَمِيلِ فَرَبُّهَا ... أَوْلَى وَأَجْدَرُ عِنْدَ ذِي العِرْفَانِ

قَوْلُهُ: «وَهْوَ الجَمِيلُ» الجميلُ من أسماءِ الله، وصفتُه الجمالُ، لـمَّا تحدَّث النَّبيُّ ﷺ عن الكِبْرِ **«قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً»** وهذا صحيحٌ، فالصَّحابةُ يحبُّون أن تكونَ ثيابُهم حسنةً ونعالُهم حسنةً، وبعضُ الزُّهَّادِ والمتصوِّفةِ يقولُ: البس الخياشَ والصُّوفَ، لا تكن ثيابُك حسنةً ولا نعلُك حسنةً، وأيُّهما أهدى؟ الجوابُ: الصَّحابةُ بلا شكٍّ، قال النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- جوابًا لسؤالِهم: **«إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ»**(١)؛ يعني: يحبُّ أن يتجمَّلَ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١).

الإنسانُ، فتجمَّلوا بثيابِكم ونعالِكم وسياراتِكم، وكُلِّ ما يتَّصلُ بكم، فإنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ، لكن لا تصلوا إلى حدِّ الإسرافِ.

إِذَنْ «الجميلُ» من أسماءِ الله، والجمالُ وصفٌ محمودٌ مطلوبٌ، كُلٌّ يبتغي الجمالَ حتَّى في المصنوعاتِ، فكُلٌّ يحبُّ أن يكونَ معه ساعةٌ جميلةٌ، قلمٌ جميلٌ، كتابٌ جميلٌ، فالجمالُ مرادٌ حتَّى في المركوباتِ: الإبل، والبقر، والغنم، فالنَّاسُ يميلون إلى الجميلِ، حتَّى الأشجار بعضها جميلٌ وبعضها غيرُ جميلٍ.

قَوْلُهُ: «**كَيْفَ لَا وَجَمَالُ سَائِرِ هَذِهِ الأَكْوَانِ مِنْ بَعْضِ آثَارِ الجَمِيلِ**»؛ أي: كيف لا يكونُ جميلًا، وجمالُ سائرِ هذه الأكوانِ من بعضِ آثارِ الجميلِ؟! كُلُّ جمالٍ في الكونِ فهو من آثارِ جمالِ الله عزَّ وجلَّ، لكنَّه ليس هو جمالَ الله، بل هو جمالٌ في مخلوقٍ، لكنَّه من آثارِ الجميلِ عزَّ وجلَّ.

فهو عزَّ وجلَّ جميلٌ، ولكنَّ جمالَه ليس كجمالِ المخلوقين، بل هو أعظمُ، شيءٌ لا يدورُ بالخيال، ولا يمكنُ أن يدركَه الفكرُ؛ ولهذا تجد أنعمَ ما يكونُ لأهلِ الجنَّةِ أن ينظروا إلى وجهِ الله عزَّ وجلَّ، هذا يفوقُ النَّعيمَ الذي كانوا فيه، وهم في نعيمٍ، قال اللهُ تعالى عنه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السَّجدة:١٧]، وقال في الحديث القدسيِّ: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»(١).

قَوْلُهُ: «**فَرَبُّهَا أَوْلَى وَأَجْدَرُ عِنْدَ ذِي العِرْفَانِ**»؛ يعني: معطي الجميلِ أولى بالجمالِ، هذا معنى كلام المؤلِّف رحمه الله؛ ولذلك لا ترى أهلَ الجنَّةِ -جعلني اللهُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٠٧٢)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤).

وإيَّاكم منهم- لا ترى عندهم ألذَّ من رؤيةِ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّهم يَرَوْنَ أحبَّ الأشياءِ إليهم وأجملَ الأشياءِ وأعظمَ الأشياءِ، وهل يمكنُ أن يتصوَّرَ الإنسانُ جمالَ الله عزَّ وجلَّ؟ لا يمكنُ أبدًا، ولا يمكنُ أن يحيطَ به؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه:١١٠].

يقول شيخُنا عبد الرحمن السِّعديُّ رحمه الله: إنَّ المؤلِّفَ -رحمه الله تعالى- جَمَعَ بين «**الجميل**» و«**الجليل**»؛ لأنَّ «**الجميلَ**» يستلزمُ الطَّلبَ والوصولَ إليه عزَّ وجلَّ، و«**الجليل**»؛ يعني: المعظَّمَ، وهذا يستلزمُ الخوفَ منه والهربَ من معاصيه، وأصلُ هذا أنَّ الشَّرائعَ كُلَّها مَبْنيَّةٌ على الخوفِ والرَّجاءِ، العملُ الصَّالحُ يفعلُه الإنسانُ؛ ليصلَ إلى الله عزَّ وجلَّ والمعاصي «**المنهيات**» يتركُها؛ خوفًا من الله عزَّ وجلَّ.

٣٢٣٧- فَجَمَالُهُ بِالذَّاتِ وَالأَوْصَافِ وَالـــ أَفْعَـــالِ وَالأَسْـــمَاءِ بِالبُرْهَـــانِ

قَوْلُهُ: «**فَجَمَالُهُ بِالذَّاتِ**»؛ يعني: أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جميلٌ بذاتِه؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَضَافَ الجمالَ إلى الله، والأصلُ أنَّ الوصفَ المضافَ إلى الموصوفِ يكونُ متعلِّقًا بذاتِه، فجمالُه بالذَّاتِ.

قَوْلُهُ: «**الأَوْصَافِ**» كُلُّ أوصافِه حُسْنَى، وحُسْنُ الأوصافِ جمالُها، فهو عزَّ وجلَّ جميلٌ بصفاتِه كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم:٢٧]، فجمالُ الصِّفاتِ أنَّها صفاتٌ كاملةٌ لا نقصَ فيها بوجهٍ من الوجوهِ.

قَوْلُهُ: «**الأَفْعَالِ**»، وكذلك أفعالُه، فكُلُّ أفعالِه جميلةٌ، ليس فيها شيءٌ مكروهٌ، ليس فيها شيءٌ مُبْغَضٌ؛ لأنَّ أفعالَ الله عزَّ وجلَّ دائرةٌ بين أمرين لا ثالثَ لهما: العدل، والإحسان، العدلُ والإحسانُ هل فيهما قبيحٌ؟ الجوابُ: لا، إمَّا عدلٌ

بلا ظلمٍ، وإمَّا إحسانٌ وإفضالٌ، وهذا ليس فيه شيءٌ من القبحِ، هذا هو جمالُ الفعلِ، وأفعالُه كُلُّها حميدةٌ، كُلُّها لحكمةٍ وغايةٍ.

قَوْلُهُ: «الأَسْمَاءِ» أيضًا أسماؤه كُلُّها جميلةٌ، ولهذا وَصَفَهَا اللهُ تعالى بالحُسْنَى في أربعةِ مواضعَ، و«الحُسْنَى» مؤنَّث: «أحسن»، و«أَحْسَنُ»: صيغةُ اسمُ تفضيلٍ؛ إِذَنْ كُلُّ ما تتصوَّر من حسنٍ في أسماءٍ فأسماءُ الله فوقه، له الأسماءُ الحُسْنَى، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، فهو جميلٌ في هذه الأمورِ الأربعة: الذَّاتِ، والأوصافِ، والأفعالِ، والأسماءِ.

٣٢٣٨- لا شَيْءَ يُشْبِهُ ذَاتَهُ وَصِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ عَنْ إِفْكِ ذِي بُهْتَانِ

قَوْلُهُ: «لَا شَيْء يُشْبِهُ ذَاتَهُ وَصِفَاتِهِ» «لَا»: نافيةٌ للجنسِ، واسمُها أعمُّ الأسماءِ وهو كلمةُ «شَيْءَ».

يقول رحمه اللهُ: لا شيءَ من المخلوقاتِ كُلِّها يُشْبِهُ ذاتَه بالنِّسبة للذَّواتِ وصفاتِه بالنِّسبة للصِّفاتِ، فكُلُّ ما في الكونِ من ذواتٍ لا يمكنُ أن تُشْبِهَ الخالقَ، وكُلُّ ما في الكونِ من صفاتٍ لا يمكنُ أن تُشْبِهَ صفاتِ الخالقِ.

قَوْلُهُ: «سُبْحَانَهُ عَنْ إِفْكِ ذِي البُهْتَانِ»؛ أي: تنزيهًا له عن إفكِ ذي البُهْتَانِ، وهم المُشَبِّهةُ والمعطِّلةُ أيضًا، حتَّى المعطِّلة يُشَبِّهونَ اللهَ، لماذا عَطَّلَ المعطِّلةُ صفاتِ اللهِ؟ الجوابُ: إِذَنْ شبَّهوا أوَّلًا حيث اعتقدوا أنَّ الإثباتَ يستلزمُ التَّشبيهَ، وعطَّلوا ثانيًا، إِذَنْ اللهُ منزَّهٌ عن تعطيلِ المعطِّلين، وعن تمثيلِ الممثِّلين.

٣٢٣٩- وَهُوَ المَجِيدُ صِفَاتُهُ أَوْصَافُ تَعْـ ـظِيمٍ فَشَأْنُ الوَصْفِ أَعْظَمُ شَانِ

من أسمائِه عزَّ وجلَّ المجيدُ، قال اللهُ تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج:١٥]،

و﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ بالرَّفع صفةٌ لـ«ذو»؛ يعني: أنَّ اللهَ من أسمائِه «المجيد»، والمجدُ هو العظمةُ والسُّلطانُ؛ ولهذا تجدون في سورة «البروج» أنَّه ذَكَرَ «المجيدَ» من أسماءِ الله، وذَكَرَ وَصْفَ القرآنِ بأنَّه مجيدٌ؛ لأنَّ المقامَ يقتضي ذِكْرَ ما فيه العظمةُ والسُّلطانُ حتَّى لا يتقدَّمَ أحدٌ بمثل ما تقدَّم به مَنْ نكَّلوا بأصحابِ الأخدودِ، فالسُّورة كُلُّها تدلُّ على عظمةٍ وعلوٍّ وارتفاعٍ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج:١]، أي: العالية، وامشِ مع السُّورةِ تجد أنَّها كُلَّها تُوجِبُ قوَّةَ عظمةِ الله تعالى وسلطانِه.

و«المَجِيدُ» هو كاملُ القوَّةِ والسُّلطانِ، واقرأ الحديثَ الصَّحيحَ في سورةِ الفاتحة: «...فَإِذَا قَالَ العَبْدُ: الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَـمِينَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي...»(١)؛ لأنَّ العظمةَ والسُّلطانَ لربِّ العالمين، وتكونُ في يومِ القيامةِ أظهرَ وأولى وأبينَ وأجلى، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، المَلِكُ وأدنى واحدٍ من الفرَّاشين أو من الكنَّاسين كُلُّهم في صعيدٍ واحدٍ لا يخفى على الله منهم شيءٌ، ويقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ لا يجيبُه أحدٌ، ليس هناك ملكٌ، فيجيب نفسَه: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

فتأمَّل قوله: «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» قال: «مَجَّدَنِي عَبْدِي»، فهو قوَّةُ العظمةِ والسُّلطانِ، فهو عزَّ وجلَّ مجيدٌ، له قوَّةُ العظمةِ والسُّلطان؛ ولهذا قال المؤلِّفُ: «صِفَاتُهُ أَوْصَافُ تَعْظِيمٍ فَشَأْنُ الوَصْفِ أَعْظَمُ شَانِ»؛ ولهذا نقولُ: أسماءُ الله كُلُّها دالَّةٌ على أوصافِه، ليس فيها اسمٌ جامدٌ، بل هي مشتملةٌ على أوصافٍ عظيمةٍ يتبيَّنُ بها كمالُ الرَّبِّ -جلَّ وعلا- بخلافِ أسمائِنا، فأسماؤنا أسماءٌ جامدةٌ، أو مشتقَّةٌ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٤).

لا تدلُّ على معناها، منَّا مَنْ يُسَمَّى «**خالدًا**»، وهل يُخَلَّدُ؟ لا، ومنَّا مَنْ يُسَمَّى «**محمَّدًا**»، وقد يكونُ مذممًّا، ومنَّا مَنْ يُسَمَّى «**عبد الله**»، وقد يكونُ أكفرَ عبادِ الله، فالمهمُّ أنَّ أسماءَ الله تعالى متضمِّنةٌ لأوصافِه الجليلةِ العظيمةِ، ليس فيها اسمٌ جامدٌ أبدًا، ولا اسمٌ لم يتحقَّق معناه الذي دَلَّ عليه بخلافِ أسماءِ غيرِه.

ولهذا قال المؤلِّف: «**فَشَأْنُ الوَصْفِ أَعْظَمُ شَانِ**»؛ يعني: إيَّاك أن تُثْبِتَ أسماءً بلا أوصافٍ، لولا ما تحملُه هذه الأسماءُ من المعاني والأوصاف لكانت أسماءً جامدةً لا تدلُّ إلَّا على الذَّاتِ فقط.

اجعل قولَه: «**فَشَأْنُ الوَصْفِ أَعْظَمُ**» اجعله قاعدةً، أنَّ من أَبْلَغِ ما يكونُ في أسماءِ الله اشتمالَها على الأوصافِ العظيمةِ.

***

٣٢٤٠- وَهُوَ السَّمِيعُ يَرَى وَيَسْمَعُ كُلَّ مَا ... فِي الكَوْنِ مِنْ سِرٍّ وَمِنْ إِعْلانِ[١]

٣٢٤١- وَلِكُلِّ صَوْتٍ مِنْهُ سَمْعٌ حَاضِرٌ ... فَالسِّرُّ وَالإِعْلانُ[٢] مُسْتَوِيَانِ

٣٢٤٢- وَالسَّمْعُ مِنْهُ وَاسِعُ الأَصْوَاتِ لا ... يَخْفَى عَلَيْهِ بَعِيدُهَا وَالدَّانِي

٣٢٤٣- وَهُوَ البَصِيرُ يَرَى دَبِيبَ النَّمْلَةِ السْـ ... ـسَوْدَاءِ تَحْتَ الصَّخْرَةِ الصَّوَّانِ

٣٢٤٤- وَيَرَى مَجَارِي القُوتِ فِي أَعْضَائِهَا ... وَيَرَى نِيَاطَ عُرُوقِهَا[٣] بِعِيَانِ

٣٢٤٥- وَيَرَى خِيَانَاتِ العُيُونِ بِلَحْظِهَا ... وَيَرَى كَذَاكَ تَقَلُّبَ الأَجْفَانِ

(١) في نسخة الإفتاء «في الكون عالي مع التحتاني»
(٢) في نسخة السفارينية والتيمورية «فالجهر والإسرار».
(٣) في نسخة السفارينية والتيمورية والإفتاء «عروق نياطها».

الشـــرحُ

في هذه الأبياتِ ذَكَرَ -رحمه الله- اسمين من أسماءِ الله، وهما: «**السَّميعُ**»، و«**البصير**»، وما أكثر ما يقترنُ هذان الاسمان في كتابِ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ بـ«**السَّميع**» إدراكَ المسموعاتِ، وبـ«**البصير**» إدراكَ المرئيَّاتِ.

٣٢٤٠- وَهُوَ السَّمِيعُ يَرَى وَيَسْمَعُ كُلَّ مَا ... فِي الكَوْنِ مِنْ سِرٍّ وَمِنْ إِعْلانِ

قَوْلُهُ: «**وَهْوَ السَّمِيعُ**»، **ثُمَّ قال بعد ذلك**: «**وَهُوَ البَصِيرُ**»، وإنَّما قَدَّمَ المؤلِّفُ: «**يَرَى**» وهي متعلِّقةٌ بالبصرِ؛ إمَّا لضيقِ النَّظمِ، أو لغيرِ ذلك، المهمُّ أنَّه عزَّ وجلَّ سميعٌ يسمعُ بسمعٍ، و«**يسمعُ**» هذا هو الحكم، والأثر النَّاتج عن اتِّصافهِ بالسَّمعِ.

وسَمْعُ الله عزَّ وجلَّ ثابتٌ في القرآنِ والسُّنَّةِ وإجماعِ الأُمَّةِ، وما أكثَرَ ما نقرأُ في القرآنِ قولَه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٧]، وقولَه: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، وقولَه: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ [المجادلة:١]، والنَّبِيُّ ﷺ يُكَرِّرُ في كُلِّ صلاةٍ قولَ: «**سَمِعَ اللهُ لِـمَنْ حَمِدَهُ**»[١].

واعلم أنَّ سمعَ الله عزَّ وجلَّ ينقسمُ إلى قسمين: **أحدهما**: ما ذَكَرَهُ المؤلِّفُ -رحمه الله- وهو إدراكُ المسموعاتِ، **والثَّاني**: إجابةُ الدَّعواتِ، فهو سميعٌ بمعنى مجيب الدَّعواتِ، أمَّا السَّمعُ الذي هو إدراكُ المسموعاتِ فإنَّه ينقسمُ إلى ثلاثةِ أقسام:

قسمٌ يُرَادُ به النَّصرُ والتَّأييدُ، وقسمٌ يُرَادُ به التَّهديدُ والوعيدُ، وقسمٌ يُرَادَ به بيانُ إحاطة الله -تبارك وتعالى- بكُلِّ مسموعٍ من خيرٍ وشرٍّ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢).

القسم الأوَّل: يُرَادُ به النَّصرُ والتَّأييدُ، ومنه قولُ الله -تبارك وتعالى- لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، قال ﴿أَسْمَعُ﴾ السَّمعُ هنا يُرَادُ به النَّصرُ والتَّأييدُ، فليس اللهُ تعالى يخبرُهما أنَّه يسمعُ بمجرَّدِ أن يعلمَ بذلك لكن ليطمئنَّا ويعلما أنَّ اللهَ سوف ينصرُهما ويؤيِّدُهما.

الثَّاني: بالعكس، وهو ما يُرَادُ به الوعيدُ والتَّهديدُ مثل قولِ الله -تباركَ وتعالى-: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠]، ومثل قولِ الله -تبارك وتعالى-: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ [آل عمران:١٨١]، فقال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ [آل عمران:١٨١] تهديدًا لهم.

وهذان القسمان متقابلان.

القسم الثَّالث: ما يُرَادُ به بيانُ إحاطةِ سمعِ الله تعالى بكُلِّ شيءٍ، ومنه قولُه تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١]، هذه المرأةُ جاءت تشتكي إلى الرَّسولِ ﷺ زوجَها؛ لأنَّه قد ظَاهَرَ منها بعد أن كَبِرَتْ سِنُّها، والظِّهارُ في الجاهليةِ طلاقٌ بَائِنٌ، فجاءت تشتكي إلى الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- وتُحاورُه، تراجُعه في الكلامِ، أين أذهب؟ كَبِرَت سنُّها وكثُرَ عيلُها، فماذا تصنعُ؟ ذكر المفسِّرون أنَّ الرَّسولَ ﷺ قال لها: «مَا أَرَى زَوْجَكِ إِلَّا قَدْ طَلَّقَكِ» بناءً على المعروفِ عند النَّاسِ؛ لأنَّ الألفاظَ تُحْمَلُ على العرفِ، والنَّبِيُّ ﷺ لم ينزل عليه في ذلك قرآنٌ، فأنزل اللهُ هذه الآيةَ[1]: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾ [المجادلة:١] مصدَّرةً بالتَّحقيقِ في قولِه: ﴿قَدْ﴾،

---

(١) أخرجه البيهقي (٧/ ٦٢٩، رقم ١٥٢٤٥).

ثُمَّ أكَّد هذا بأنَّه لم يزل يسمعُ، قال: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة:١]، تقولُ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «الحَمْدُ لله الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتِ المُجَادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُكَلِّمُهُ وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ البَيْتِ مَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ [المجادلة:١]»(١)، وهي جنبُها، والرَّبُّ عزَّ وجلَّ من فوق سبعِ سمواتٍ لا يخفى عليه حديثُها، هذا المرادُ به بيانُ إحاطةِ سمعِ الله تعالى بكُلِّ مسموعٍ.

وإنَّنا إذا آمَنَّا بهذا -ونحن إنْ شاء اللهُ تعالى مؤمنون به- إذا آمنَّا بهذا، فإنَّ إيمانَنا به يستلزمُ أن نتأدَّبَ مع الله، فلا نُسْمِعُ اللهَ عزَّ وجلَّ ما يكرهُه، بل لا نُسْمِعُه إلَّا ما يَرْضَى به -تبارك وتعالى-، وهذا هو ثمرةُ الإيمانِ بهذا الاسمِ وهذه الصِّفةِ.

إِذَنْ سمعُ الإدراكِ ينقسمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ، احذر أن يكونَ سماعُ الله لك من القسم الثَّاني، احذر هذا.

أمَّا القسم الثَّاني من السَّمعِ فهو سمعُ الإجابةِ، فيكون معنى «سَمِعَ»؛ أي: اسْتَجَابَ، ومنه قولُ الله -تبارك وتعالى- عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، معنى «سميع»: مجيبٌ؛ لأنَّه لم يُرِدْ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أنَّ اللهَ يسمعُ دعاءَه فقط، بل تَوَسَّلَ إلى الله بإجابتهِ للدُّعاءِ ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، هذا سَمْعٌ بمعنى الإجابة، ومنه أيضًا قولُ المصلِّي: «**سَمِعَ اللهُ لِـمَنْ حَمِدَهُ**»؛ يعني: اسْتَجَابَ لِـمَنْ حَمِدَه.

قَوْلُهُ: «**يَرَى**» فهنا «**يَرَى**» تأتي بمعنى «**الرُّؤية**» التي هي رؤيةُ العينِ، وتأتي

---

(١) أخرجه البخاري معلقا: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء:١٣٤]، وابن ماجه: كتاب المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨).

بمعنى «**العلم**»، فمثل قولِه تعالى: ﴿يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج:٦-٧] هذه بمعنى العلم؛ لأنَّ يومَ الحسابِ لم يأتِ بعدُ، ولكنَّه معلومٌ عند الله عزَّ وجلَّ، ومن ذلك في شعرِ العربِ قولُ الشَّاعرِ:

رَأَيْتُ اللهَ أَكْبَرَ كُلِّ شَيْءٍ ... مُحَاوَلَةً وَأَكْثَرَهُمْ جُنُودًا(١)

فَقَوْلُهُ: «**رَأَيْتُ اللهَ**»؛ يعني: عَلِمْتُه؛ لأنَّه لم يرَ ربَّه، فهذا في اللُّغةِ العربيَّةِ.

ومثل قولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق:١٤]، هذه رؤيةٌ للعلمِ ورؤيةٌ للبصرِ أيضًا، فهو يرى ويُشَاهِدُ هؤلاء الذين يُؤذون النَّبيَّ ﷺ.

والرُّؤية التي بمعنى إدراك المرئيِّ منها عامٌّ ومنها خاصٌّ؛ يعني: يقتضي النَّصرَ والتَّأييدَ مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، المرادُ بذلك الرُّؤيةُ التي تقتضي النَّصرَ والتَّأييدَ.

قَوْلُهُ: «**يَسْمَعُ كُلَّ مَا فِي الكَوْنِ مِنْ سِرٍّ وَمِنْ إِعْلَانِ**» قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ [الزخرف:٨٠]، إن تَكَلَّمْتَ بصوتٍ مسموعٍ سَمِعَهُ اللهُ، بصوتٍ لا يسمعُه إلَّا جارُك سَمِعَه اللهُ عزَّ وجلَّ، بصوتٍ تُحَدِّثُ به نفسَك يسمعُه اللهُ عزَّ وجلَّ، وما تُحَدِّثُ به نفسَك من غير نطقٍ يعلمُه اللهُ عزَّ وجلَّ.

٣٢٤١- وَلِكُلِّ صَوْتٍ مِنْهُ سَمْعٌ حَاضِرٌ ... فَالسِّرُّ وَالإِعْلَانُ مُسْتَوِيَانِ

قَوْلُهُ: «**وَلِكُلِّ صَوْتٍ مِنْهُ سَمْعٌ حَاضِرٌ**» كُلُّ صوتٍ فللَّهِ منه سمعٌ، وهذه الكلمةُ من ابن القيِّم -رحمه الله- يحتملُ أنَّ معناها لكُلِّ صوتٍ سمعٌ؛ يعني:

---

(١) البيت لخداش بن زهير في المقاصد النحوية (٢/ ٣٧١)، وبلا نسبة في شرح ابن عقيل (٢/ ٢٩).

لا يخفى عليه أيُّ صوتٍ، كُلُّ صوتٍ فسمعُ الله حاضرٌ له، ويحتملُ أنَّ المعنى أنَّ سَمْعَ الله -سبحانه وتعالى- إذا تجَدَّدَ المسموعُ فهذا السَّمعُ الذي سَمِعَه اللهُ متجدِّدٌ لكنَّ أصلَ السَّمعِ أَزَلِيٌّ، فمثلًا صوتُ المتكلِّم متى سَمِعَه اللهُ؟ الجوابُ: حين تكلَّم به، لم يسمعه من قبلُ بخلافِ العلمِ، فالعلمُ يتعلَّقُ بالمستقبلِ، لكنَّ السَّمعَ لا يكونُ إلَّا بعد حدوثِ المسموعِ، فكلامُه -رحمه الله- يحتملُ هذا وهذا، يحتملُ أنَّه أراد الشُّمولَ أنَّ كُلَّ صوتٍ فسمعُ الله حاضرٌ له، ويحتملُ أنَّ المعنى: أنَّ لكُلِّ صوتٍ سمعًا خاصًّا يكونُ عند حدوثِ ذلك الصَّوتِ، والحدوثُ هنا للصِّفةِ أو للمسموعِ؟ الجوابُ: للمسموعِ، أمَّا السَّمعُ فلا يزالُ اللهُ تعالى سميعًا.

قَوْلُهُ: «**فَالسِّرُّ وَالإِعْلَانُ مُسْتَوِيَانِ**» هذا يُؤَيِّدُ أنَّ المعنى: أنَّ كُلَّ صوتٍ سواء أكان سرًّا أم إعلانًا فاللهُ يسمعُه.

٣٢٤٢- وَالسَّمْعُ مِنْهُ وَاسِعُ الأَصْوَاتِ لا يَخْفَى عَلَيْهِ بَعِيدُهَا وَالدَّانِي

قَوْلُهُ: «**وَالسَّمْعُ مِنْهُ وَاسِعُ الأَصْوَاتِ**» «**وَاسِعُ**» بمعنى شامل؛ يعني: أنَّ السَّمعَ يشملُ كُلَّ الأصواتِ.

قَوْلُهُ: «**لَا يَخْفَى عَلَيْهَا بَعِيدُهَا وَالدَّانِي**» المؤلِّفُ ذكر في البيتِ الأوَّلِ نبرةَ الصَّوتِ، فإنَّها تكونُ سرًّا و إعلانًا، والثَّاني قربَ الصوتِ، فإنَّه يكونُ قريبًا ويكونُ بعيدًا، فصوتُ النَّبِيِّ ﷺ حين أُسْرِيَ به وكَلَّمَهُ ربُّه عزَّ وجلَّ فوق السَّماواتِ العُلَى قريبٌ، وصوتُ ذي النُّونِ في بطنِ الحوتِ بعيدٌ، إِذَن المؤلِّف -رحمه الله- ذكر أمرين:

الأَوَّل: نبرةُ الصَّوتِ هل هي سرٌّ أو إعلانٌ، فاللهُ يعلمُها.

الثَّاني: قربُ الصَّوتِ وبعدُه، كلاهما عند الله سواءٌ.

ثُمَّ انتقل المؤلِّفُ إلى الاسم الآخر وهو «البَصِيُر»، وذكر المؤلِّفُ -رحمه الله- معنىً واحدًا للبصيرِ كما أنَّه لم يذكر للسَّمعِ إلَّا معنًى واحدًا وهو سمعُ الإدراكِ، وفي البصر -أيضًا- ذكر بصرَ الإدراكِ فقال:

٣٢٤٣- وَهُوَ البَصِيرُ يَرَى دَبِيبَ النَّمْلَةِ السْـ ـسَوْدَاءِ تَحْتَ الصَّخْرَةِ الصَّوَّانِ

اللهُ أكبر، نملةٌ صغيرةٌ سوداءُ في ظلمةِ الليلِ تحت الصَّخرةِ يراها عزَّ وجلَّ، لا تخفى عليه، فهذا من أخفى ما يكونُ، ومع ذلك فلا يَعْزُبُ عنه سبحانه وتعالى، وهذا دليلٌ على عمومِ بصرِ الله -تبارك وتعالى-.

٣٢٤٤- وَيَرَى مَجَارِي القُوتِ فِي أَعْضَائِهَا وَيَرَى نِيَاطَ عُرُوقِهَا[1] بِعِيَانِ

قَوْلُهُ: «وَيَرَى مَجَارِي القُوتِ» «مَجَارِي»، والأصلُ أن يقولَ: «مَجَارِيَ» لكن لأجل النَّظمِ سَكَّنَ الياءَ.

قَوْلُهُ: «وَيَرَى مَجَارِي القُوتِ فِي أَعْضَائِهَا» الله أكبر! أعضاءُ النَّملةِ دقيقةٌ جدًّا، وهذه الأعضاءُ لها نصيبٌ من قُوتِ النَّملةِ، إذا أَكَلَتْ شيئًا لا بُدَّ أن ينالَ أعضاءَها شيءٌ من هذا القوتِ، هذا القوتُ يجري في أعضائِها، واللهُ عزَّ وجلَّ يراه، وفي هذا أيضًا قال الأوَّلُ:

يَا مَنْ يَرَى مَدَّ البَعُوضِ جَنَاحَهَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ البَهِيمِ الأَلْيَلِ
وَيَرَى نِيَاطَ عُرُوقِهَا فِي نَحْرِهَا وَالمُخَّ فِي تِلْكَ العِظَامِ النُّحَّلِ
امْنُنْ عَلَيَّ بِتَوْبَةٍ تَمْحُو بِهَا مَا كَانَ مِنِّي فِي الزَّمَانِ الأَوَّلِ[2]

(١) في نسخة السفارينية والتيمورية والإفتاء «عروق نياطها».
(٢) الأبيات في الحماسة البصرية (٢/ ٤٣٢) بلا نسبة.

وهذا توسَّلٌ إلى الله عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «**وَيَرَى نِيَاطَ عُرُوقِهَا بِعِيَانِ**» نياط عروقها: تحرُّكها بِعِيَانٍ؛ لأنَّه عزَّ وجلَّ واسعُ البصرِ لا يخفى عليه شيءٌ.

٣٢٤٥- وَيَرَى خِيَانَاتِ العُيُونِ بِلَحْظِهَا وَيَرَى كَذَاكَ تَقَلُّبَ الأَجْفَانِ

قَوْلُهُ: «**وَيَرَى خِيَانَاتِ العُيُونِ بِلَحْظِهَا**» الإنسانُ قد يخونُ في النَّظرِ، فينظرُ إلى امرأةٍ والنَّاسُ لا يعلمون، فهذه خيانةٌ؛ لأنَّه لم يُشْخِصْ بصرَه ويسلِّطه على المرأةِ والنَّاس ينظرون، بل يخالسُ النَّظرَ، فهو يرى خياناتِ العيونِ فيما لو أشار أحدٌ بعينهِ إلى عدوانٍ على شخصٍ؛ ولهذا مُنِعَ الأنبياءُ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- من اللَّحظِ بالعينِ والإشارةِ بالعينِ؛ لأنَّ هذا خيانةٌ، واللهُ عزَّ وجلَّ يعلمُ خائنةَ الأعينِ، وواضحَ الأعينِ من بابِ أولى، فإيَّاك إيَّاك أن تخونَ بعينِك وتنظرَ إلى ما لا يحلُّ لك النَّظرُ إليه، فإنَّه وإن خَفِيَ ذلك على النَّاسِ لا يَخْفَى على الله عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «**وَيَرَى كَذَاكَ تَقَلُّبَ الأَجْفَانِ**» فالأجفانُ تتقلَّبُ، تنفتحُ أحيانًا، وتُغمضُها أحيانًا، فاللهُ تعالى يَرَى ذلك كُلَّه.

فالمؤلِّفُ -رحمه الله- اقتصر على معنى واحدٍ من معنى «**البصير**»، وهو البصرُ في المحسوساتِ والمبصراتِ.

إذا آمَنْتَ بذلك ما الذي يُوجِبُ لك هذا الإيمانُ؟ ألَّا تفعلَ فعلًا لا يرضاه اللهُ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ إيمانَك بأنَّ اللهَ محيطٌ بكُلِّ شيءٍ بصرًا إذا لم يكن له تأثيرٌ على سلوكِك ومنهجِك فلا فائدةَ من هذا الإيمانِ.

إِذَنْ إذا آمَنْتَ بذلك لَزِمَ من هذا أن تراقبَ اللهَ عزَّ وجلَّ فلا يراك حيث نهاك، ولا يفقدُك حيث أمرك.

وهناك معنى آخَر للبصرِ، وهو معنى معنويٌّ وهو العلمُ، فالبصيرُ له معنيان: بصرُ البصرِ «النَّظر» في المحسوساتِ، وبصرُ العلمِ، واللهُ تعالى له هذا وهذا، فهو بصيرٌ بما نعملُ، لا يخفى عليه -سبحانه وتعالى- شيءٌ من أعمالِنا؛ حركاتُنا معلومةٌ، أقوالُنا معلومةٌ، هواجسُنا معلومةٌ لله عزَّ وجلَّ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، لكن من لُطفِ الله أنَّ الهواجسَ في القلوبِ، لا نُعَاقَبُ عليها مهما عظمت إذا لم يطمئنَّ الإنسانُ إليها، قال النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَـمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»(١)، وإلَّا فَيَرِدُ على القلبِ من الشُّبهاتِ والشَّهواتِ ما لولا لُطْفُ الله لهلك الإنسانُ، ولكن إذا أَحْسَسْتَ بمثلِ هذه الأمورِ فعليك بشيئين أَرْشَدَ إليهما النَّبِيُّ ﷺ وهما: الاستعاذةُ بالله من الشَّيطانِ الرَّجيمِ(٢)، والانتهاءُ والإعراضُ والغفلةُ عن هذا الشَّيء فيزول؛ لأنَّ الانتهاءَ عن الشَّيء يُبْطِلُ أثرَه؛ يعني: التَّغافلَ عنه، لو أصابك جرحٌ في رجلِك وهو يسيلُ، إذا غَفَلْتَ عنه لا تحسُّ بألِمه ولا كأنَّه شيءٌ، لكن لو تَذَكَّرْتَهُ أَحْسَسْتَ بألِمه، هكذا هواجسُ القلبِ اغفلْ عنها، لا تلتفت إليها، امشِ على ما أنت مأمورٌ به، ودَعْ عنك هذه الخيالاتِ فيذهبها اللهُ عزَّ وجلَّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العتق، باب الخطإ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه، رقم (٢٥٢٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١٢٧).

(٢) ودليله قوله ﷺ: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا، مَنْ خَلَقَ كَذَا، حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ». أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣١٠٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٤).

إِذَنْ «البصيرُ» له معنيان هما: الإحاطة بالْمُبْصَرَات وهذا يتعلَّقُ بالمحسوسِ، والثَّاني: الإحاطةُ بالمعلوماتِ وهذا ليس إدراكًا، بل هو بصرٌ معنويٌّ.

* * *

٣٢٤٦- وَهُوَ العَلِيمُ أَحَاطَ عِلْـمًا بِالَّـذِي ... فِي الكَـوْنِ مِـنْ سِرٍّ وَمِـنْ إِعْـلَانِ

٣٢٤٧- وَبِكُـلِّ شَيْءٍ عِلْمُــهُ سُـبْحَانَهُ ... فَهُـوَ المُحِـيطُ وَلَـيْسَ ذَا نِسْـيَانِ

٣٢٤٨- وَكَذَاكَ يَعْلَمُ مَا يَكُـونُ غَـدًا وَمَـا ... قَـدْ كَـانَ وَالمَوْجُـودَ فِي ذَا الآنِ

٣٢٤٩- وَكَذَاكَ أَمْرٌ لَـمْ يَكُنْ لَوْ كَـانَ كَيْـ ... ـفَ يَكُـونُ ذَاكَ الأَمْـرُ ذَا إِمْكَـانِ

الشـــرحُ

٣٢٤٦- وَهُوَ العَلِيمُ أَحَاطَ عِلْـمًا بِالَّـذِي ... فِي الكَـوْنِ مِـنْ سِرٍّ وَمِـنْ إِعْـلَانِ

من أسماءِ الله عزَّ وجلَّ «العليمُ»، و«عَلَّامُ الغيوبِ»، و«العَالِـم» كما قال: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨١]، والعلمُ قال النَّاسُ في تعريفِه: إدراكُ الشَّيءِ على ما هو عليه على وجهٍ ليس فيه شكٌّ ولا ظنٌّ؛ أي: إدراكُ الشَّيءِ إدراكًا جازمًا مطابقًا، فَمَنْ لم يُدْرِكْ فهو جاهلٌ، ومن لم يجزمْ فليس بعالمٍ، هو شاكٌّ أو ظانٌّ، ومَنْ أدركه على وجهٍ غير مطابق فهو جاهلٌ جهلًا مُركَّبًا، والجهلُ المركَّبُ أسوأُ من الجهلِ البسيطِ؛ لأنَّ الجاهلَ جهلًا مُرَكَّبًا جاهلٌ بالأمرِ وجاهلٌ أنَّه يجهلُ؛ ولهذا قال الشَّاعرُ وهو رجلٌ يُسَمَّى «توما» ويُلَقَّبُ بالحكيمِ، ويُفْتِي النَّاسَ بالعلمِ وبالجهلِ، يقولُ الشَّاعرُ:

قَـالَ حِمَـارُ الـحَكِيمِ تُومَـا ... لَوْ أَنْصَفَ الدَّهْرُ كُنْتُ أَرْكَبْ

يعني: الحمار يركبُ على صاحبِه.

لأنَّنِـــي جَاهِـــلٌ بَسِـــيطٌ وَصَـاحِبِي جَاهِـلٌ مُرَكَّـبْ[١]

على كُلِّ حالٍ قوله: «**لَوْ أَنْصَفَ الدَّهْرُ**» هذا ممَّا يقولُه الشُّعراءُ، ولا يُوافِقُونَ عليه، لكن الشَّاهدُ أنَّ هذا الحمارَ صار عالمًا، يقولُ: إنَّه جاهلٌ بسيطٌ وصاحبُه جاهلٌ مُرَكَّبٌ، وأيُّهما أشدُّ؟ الجوابُ: الثَّاني، فالجاهلُ المركَّبُ هو البلاءُ، يَضِلُّ ويُضِلُّ.

على كُلِّ حالٍ الرَّبُّ عزَّ وجلَّ عليمٌ مُدْرِكٌ للأمورِ على ما هي عليه إدراكًا تامًّا جملةً وتفصيلًا، وعلمُه عزَّ وجلَّ من أوسعِ ما يكونُ من الصِّفاتِ؛ لأنَّه يتعلَّقُ بالواجبِ والممكنِ والمستحيلِ والدَّقيقِ والجليلِ، فالعلمُ من أوسعِ الأسماءِ والصِّفاتِ مُتَعلَّقًا، فلننظر، ذَكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّه بكُلِّ شيءٍ عليمٌ، وأنَّه أَحَاطَ بكُلِّ شيءٍ علمًا، والملائكةُ قالوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧]، وهل هذا عامٌّ أو مفصَّلٌ؟ هذا عامٌّ، فهو بكُلِّ شيءٍ عليمٌ؛ ولهذا قال أهلُ أصولِ الفقهِ: ليس في القرآنِ عامٌّ إلَّا أمكن تخصيصُه إلَّا هذه الآية ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٨٢]، فهذا لا يمكنُ تخصيصُه؛ لأنَّه متعلِّقٌ بكُلِّ شيءٍ.

وأخبَرَ عزَّ وجلَّ أنَّه عليمٌ بالأشياءِ على وجهِ التَّفصيلِ في قولِه -تبارك وتعالى-: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام:٥٩]، فما تسقطُ من ورقةٍ من الأشجارِ إلَّا يعلمُها، فإذا كان عزَّ وجلَّ، يعلمُ سقوطَ الورقةِ، فوجودُ الورقةِ من بابٍ أولى؛ لأنَّ وجودَها خَلْقٌ، إِذَنْ وجودُ الورقةِ خَلْقٌ، وسقوطُها خلقٌ، فهو عزَّ وجلَّ يعلمُ

---

(١) البيتان في نهاية الأرب (١٠/ ١٠٠) بلا نسبة.

الورقةَ متى تسقطُ؟ وأين تسقطُ؟ وكيف تسقطُ؟ ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:٥٩]، فأيُّ حبَّةٍ كبيرةٍ أو صغيرةٍ في ظُلُماتِ الأرضِ إلَّا يعلمُها عزَّ وجلَّ، وهل في الأرضِ ظلمةٌ واحدةٌ وظلماتٌ؟ نعم، فيه ظلمات الأرضِ، لنفرضَ أنَّ حبَّةً صغيرةً في قاعِ البحرِ في ليلةٍ مظلمةٍ في سحابٍ متراكمٍ، في وابلٍ هطَّالٍ، كم الظُّلماتُ الآن؟ ستُّ ظلماتٍ، أوَّلًا: ظلمة البحر؛ يعني: ظلمة الطِّينِ الذي على الحبَّة، ثانيًا: ظلمة الماءِ، ثالثًا: ظلمة الجوِّ، رابعًا: ظلمة السَّحابِ، خامسًا: ظلمة المطرِ، سادسًا: ظلمة اللَّيلِ، هذا الذي ندركُه، وقد تُوجَدُ ظلماتٌ أخرى، لكن هذا الذي أدركناه، ستُّ ظلماتٍ أَحَاطَتْ بحبَّةٍ صغيرةٍ يعلمُها اللهُ عزَّ وجلَّ.

ثُمَّ جاء آخِرُ الآيةِ: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]، كُلُّ الأشياءِ إمَّا رطبٌ وإمَّا يابسٌ، سبحان الله! ولم يُكْتَبْ إلَّا بعد علمِ الله عزَّ وجلَّ، هذا من التَّفصيلِ.

ومفاتحُ الغيبِ مذكورةٌ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان:٣٤] هذه مفاتحُ الغيبِ؛ لأنَّ السَّاعةَ مِفْتَاحُ الآخرةِ، ونزولَ الغيثِ مِفْتَاحُ حياةِ الأرضِ، وما في الأرحامِ مِفْتَاحُ حياةِ الحيوانِ، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ مِفْتَاحُ العملِ في المستقبلِ، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ مِفْتَاحُ البرزخِ، هذه مفاتحُ لا يعلمُها إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ.

إِذَنْ علمُ الله محيطٌ بكُلِّ شيءٍ جملةً وتفصيلًا، وذكرنا أنَّ متعلَّقَه إمَّا واجبٌ أو ممكنٌ أو مستحيلٌ، فعلمُ الله تعالى بما له من الصِّفاتِ والأسماءِ والأفعالِ علمٌ بواجبٍ، فكُلُّ ما أخبر اللهُ به عن كمالاتِه فهو علمٌ بواجبٍ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يجبُ له

الكمالُ المطلقُ، علمُه بأنَّه لو كان في السَّماواتِ والأرضِ آلهةٌ إلَّا الله لَفَسَدَتَا بالمستحيلِ، ومع ذلك أخبر عزَّ وجلَّ أنَّه لو كان لفسدت السَّماواتُ والأرضُ.

وأمَّا علمُه بالمخلوقاتِ فهو بالممكنِ؛ لأنَّ كُلَّ المخلوقاتِ من قسمِ الممكنِ؛ لأنَّها كانت معدومةً فوُجِدَتْ، فهي من قسمِ الممكنِ.

٣٢٤٧- وَبِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمُهُ سُبْحَانَهُ فَهُوَ الْمُحِيطُ وَلَيْسَ ذَا نِسْيَانِ

قَوْلُهُ: «فَهْوَ الْمُحِيطُ» «فَهْوَ»؛ أي: العِلْمُ.

قَوْلُهُ: «وَلَيْسَ ذَا نِسْيَانِ»؛ يعني: أنَّ اللهَ لا يَنْسَى، فعلمُه تامٌّ لا يلحقُه نسيانٌ، وعلمُه تامٌّ لم يسبقْه جهلٌ، قال موسى عليه الصَّلاة والسَّلام: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢] فقولُه: ﴿لَّا يَضِلُّ﴾؛ أي: لا يجهلُ، وقولُه: ﴿وَلَا يَنسَى﴾؛ أي: لا يغيبُ عنه ما ذَكَرَهُ.

٣٢٤٨- وَكَذَاكَ يَعْلَمُ مَا يَكُونُ غَدًا وَمَا قَدْ كَانَ وَالْمَوْجُودَ فِي ذَا الآنِ

قَوْلُهُ: «وَمَا قَدْ كَانَ»؛ يعني: في الماضي.

ذَكَرَ المؤلِّفُ أقسامَ الزَّمانِ الثَّلاثة؛ لأنَّ الزمانَ إمَّا مستقبلٌ وإمَّا ماضٍ وإمَّا حاضرٌ، فعلمُ الله متعلِّقٌ بالزَّمانِ الماضي والمستقبلِ والحاضرِ، فهو **«يَعْلَمُ مَا يَكُونُ»** هذا في المستقبل، **«وَمَا قَدْ كَانَ»** هذا في الماضي، **«وَالْمَوْجُودَ فِي ذَا الآنِ»** هذا في الحاضر، وأيضًا علمٌ آخرُ؛ ولذا قال:

٣٢٤٩- وَكَذَاكَ أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْـ ـفَ يَكُونُ ذَاكَ الأَمْرُ ذَا إِمْكَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ»؛ يعني: الشَّيءَ المستقبلَ يعلمُ متى يكونُ؛ وكيف يكونُ؟ وهذا دليلٌ على سَعَةِ علمِ الله -تبارك وتعالى-،

وأنت إذا آمَنْتَ بهذا أَوْجَبَ لك خشيةَ الله عزَّ وجلَّ وخوفَه، والحذر أن تُخْفِيَ في قلبِك ما يكرهُه ربُّك عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ ذلك معلومٌ عند الله.

إِذَنْ ينبغي لنا أن نعرفَ أنَّ علمَنا بهذه المعاني من أسماءِ الله يجبُ أن يؤثِّرَ علينا، فمثلًا إذا عَلِمْنَا إحاطةَ الله بكُلِّ شيءٍ علمًا يستلزمُ منَّا ألَّا نخالفَ أمرَ الله؛ لأنَّنا لو خَالَفْنَا أمرَ الله لكان يعلمُ بنا، وألَّا نقعَ فيما نَهَى اللهُ عنه؛ لأنَّه يعلمُ، وأن نعلمَ أنَّنا مهما كُنَّا في أخفى مكانٍ من الأرضِ فاللهُ عالمٌ بنا، وأن نعلمَ أيضًا أنَّنا لو نظرنا نظرًا محرَّمًا لا يعلمُ به الخلقُ لكان اللهُ تعالى يعلمُ به، فإِذَن ينبغي أن يكونَ لنا فائدةٌ مسلكيَّةٌ من معرفةِ معاني أسماءِ الله وصفاتِه، لا أن يكونَ علمُنا بها مجرَّدَ نظرٍ، إذا لم نتأثَّر بمدلولاتِها لم ننتفعْ بها كثيرًا.

* * *

فصل

٣٢٥٠- وَهُوَ الحَمِيدُ فَكُلُّ حَمْدٍ وَاقِعٍ ... أَوْ كَانَ مَفْرُوضًا مَدَى[1] الأَزْمَانِ

٣٢٥١- مَلأَ الوُجُودَ جَمِيعُهُ وَنَظِيرُهُ ... مِنْ غَيْرِ مَا عَدٍّ وَلا حُسْبَانِ[2]

٣٢٥٢- هُوَ أَهْلُهُ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ ... كُلُّ المَحَامِدِ وَصْفُ ذِي الإِحْسَانِ

الشرحُ

من أسماءِ الله تعالى «**الحميدُ**»، وكثيرًا ما يَقْرِنُ اللهُ تعالى «**الحميدَ**» بـ«**الغنيِّ**» أو بـ«**الوليِّ**»، قال اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشُّورى:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥]، فما معنى «**الحميد**»؟ «**الحميدُ**» زنتُه الصَّرفيَّةُ «**فَعِيلٌ**»، وهل هو بمعنى «**فاعل**» أو بمعنى «**مفعول**»؟ الجوابُ: هو بمعناهما جميعًا، فهو حميدٌ بمعنى محمود على كمالِ صفاتِه، وعلى إحسانِه وإنعامِه، وعلى جميعِ أفعالِه، فله الحمدُ كُلُّه، وهو محمودٌ على كُلِّ حالٍ؛ لأنَّ كُلَّ الكونِ يُثْني على الله، قال اللهُ تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]، لا يَشِذُّ عن ذلك إلَّا الكفرةُ من بني آدمَ ومن الجنِّ، فإنَّ هؤلاء لا يحمدون اللهَ، وإلَّا فكُلُّ شيءٍ يحمدُ اللهَ بلسانِ الحالِ والمقالِ، أمَّا الكفرةُ من بني آدمَ ومن الجنِّ فإنَّهم لا يحمدونَ اللهَ بلسان المقالِ، لكن يحمدونه بلسانِ

(١) في نسخة برلين «بذي».

(٢) في نسخة برلين «إحسان» والأصح ما في أعلاه.

الحالِ، فإنَّ حالَهم تشهدُ لله تعالى بالكمالِ؛ يعني: حالُهم تُثْنِي على الله عزَّ وجلَّ، فما أَوْدَعَ اللهُ فيهم من كمال الخِلْقَةِ والصَّنعةِ والذَّكاءِ، وغيرِ ذلك، كُلُّه من الله، وكُلُّ هذا يشهدُ لله بالكمالِ.

كذلك هو «**حامد**»، حامدٌ مَنْ يستحقُّ الحمدَ من عبادِه، يُثْنِي عليهم ويصفُهم بالأخيارِ، ويحبُّهم، فهو يُثْنِي على مَنْ يستحقُّ الثَّناءَ من الخلقِ كما أَثْنَى على رسلِه، وأنبيائِه، وعلى عبادِه الصَّالحين، إِذَنْ «**حميدٌ**» بمعنى «**حامد**»، وبمعنى «**محمود**».

والمؤلِّف -رحمه الله- لم يُشِرْ إلى المعنى الأوَّل الذي هو «**حامد**»، بل أشار إلى المعنى الذي هو «**محمود**»، فقال: «**فَكُلُّ حَمْدٍ وَاقِعٍ... إلخ**»، فاللهُ تعالى هو أهلُه.

فإذا قال قائلٌ: ما هو الحمدُ؟

فالجوابُ: «**الحمدُ**» وصفُ المحمودِ بالكمالِ مع المحبَّةِ والتَّعظيمِ، واللهُ تعالى موصوفٌ بالكمالِ، محبوبٌ على هذا الوصفِ، مُعَظَّمٌ عليه، فمتى وَصَفْتَ شيئًا بالكمالِ فقد حَمِدْتَهُ، إذا قلت: «**فلانٌ غنيٌّ**» فقد حَمِدْتَهُ، وإذا قلت: «**فلانٌ شجاعٌ**» فقد حَمِدْتَهُ، فكُلُّ وصفٍ بالكمالِ فهو حمدٌ، فإذا ثنَّيْتَه وكرَّرْتَه صار ثناءً، وقد يكون الحمدُ في مقابلِ نعمةٍ فيكون بمعنى الشُّكر، وقد يكونُ في مقابلِ كمالِ المحمودِ فيختلفُ عن الشُّكرِ، قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم: «**إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يشْرَبَ الشَّرْبَةَ فيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا**»[1]، هذا حمدٌ على نعمةٍ، فهو بمعنى الشُّكر، وقال اللهُ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، رقم (٢٧٣٤).

﴿وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١]، هذا حمدٌ على صفةٍ، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء:١١١]، هذا حمدٌ على كمالِ صفاتِه عزَّ وجلَّ.

والمصلِّي يقولُ: «رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ [حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ] مِلْءَ السَّمَاءِ وَمِلْءَ الأَرْضِ»(١)، مِلْءَ السَّماءِ وَمِلْءَ الأرضِ كيف ذا؟ قال بعضُ العلماءِ: هذه استعارةٌ تخييليَّةٌ؛ يعني: أنَّه جُعِلَ أجسامًا تملأُ السَّماءَ والأرضَ، لكن هذا القولُ ضعيفٌ، والصَّوابُ أنَّ الله تعالى مستحقٌّ للحمدِ الذي يملأُ السَّماءَ والأرضَ؛ لأنَّ السَّماءَ والأرضَ من آثارِ كمالِه فيكون محمودًا على ذلك، هذا هو المعنى الصَّحيحُ لهذه الجملةِ العظيمةِ.

ولقد كان النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- إذا أتاه الأمرُ يَسُرُّهُ قَالَ: «الحَمْدُ لله الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ»، وإذا أتاه الأمرُ يكرهُه قال: «الحَمْدُ لله عَلَى كُلِّ حَالٍ»(٢)، فإذا ضَاعَ لك شيءٌ وبَحَثْتَ عنه فوجدته، تقولُ: «الحمدُ لله الذي بنعمتِه تتمُّ الصَّالحاتُ»، وإذا لم تجده قلت: «الحمدُ لله على كُلِّ حالٍ»، هذا هو المشروعُ.

وسَمِعْنَا أخيرًا من أفواهِ النَّاسِ أنَّهم يقولون: الحمدُ لله الذي لا يُحْمَدُ على مكروهٍ سواه، وهذا غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّ المعلِّمَ وهو رسولُ الله ﷺ لم يكن يقولُ هذا، بل يقول: «الحَمْدُ لله عَلَى كُلِّ حَالٍ»؛ ولأنَّ قولَك: «على مكروهٍ سواه» يُشْعِرُ بنوعٍ من الجزعِ والسَّخطِ؛ ولأنَّ قولَك: «على مكروهٍ» يُنافي الحمدَ؛ لأنَّ الطَّبيعةَ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب اعتدال أركان الصلاة وتخفيفها في تمام، رقم (٤٧١).
(٢) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، رقم (٣٨٠٣).

تنفرُ من أن يكونَ الشَّيءُ المكروهُ محمودًا عليه؛ فلهذه الأوجُهِ الثَّلاثةِ نقولُ: اعدل عن هذا، وقُلْ: «الحَمْدُ لله عَلَى كُلِّ حَالٍ»؛ لأنَّ الأشياءَ المكروهةَ -وإن كان كُلُّ شيءٍ من الله- على وجه التَّفصيلِ من سوءِ الأدبِ أن تضيفَها إلى الله عزَّ وجلَّ؛ ولذلك نحن نقولُ: «اللهُ خالقُ كُلِّ شيءٍ»، لكن لو أَضَفْتَ خَلْقَهُ إلى شيءٍ مكروهٍ مُسْتَقْبَحٍ لكان ذلك غيرَ لائقٍ، ففرقٌ بين التَّعميمِ وبين التَّخصيصِ، على كُلِّ حالٍ اللهُ عزَّ وجلَّ محمودٌ على كُلِّ حالٍ، على إنعامِه الذي لا يُحْصَى، وعلى كمالِه الذي لا يُسْتَقْصَى.

* * *

فصل

٣٢٥٣- وَهُوَ الْمُكَلِّمُ عَبْدَهُ مُوسَى بِتكْـ ـلِيمِ الخِطَابِ وَقَبْلَهُ الأَبَوَانِ

٣٢٥٤- كَلِمَاتُهُ جَلَّتْ عَنِ الإِحْصَاءِ وَالتْـ ـتَعْدَادِ بَلْ عَنْ حَصْرِ ذِي الحُسْبَانِ

٣٢٥٥- لَوْ أَنَّ أَشْجَارَ البِلادِ جَمِيعَهَا الـ أَقْلامُ تَكْتُبُهَا بِكُلِّ بَنَانِ

٣٢٥٦- وَالبَحْرُ تُلْقَى فِيهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ لِكِتَابَةِ الكَلِمَاتِ كُلَّ زَمَانِ

٣٢٥٧- نَفِدَتْ وَلَمْ تَنْفَدْ بِهَا كَلِمَاتُهُ لَيْسَ الكَلامُ مِنَ الإِلَهِ بِفَانِي

٣٢٥٨- وَهُوَ القَدِيرُ وَلَيْسَ يُعْجِزُهُ إِذَا مَا رَامَ شَيْئًا قَطُّ ذُو سُلْطَانِ

٣٢٥٩- وَهُوَ القَوِيُّ لَهُ القُوَى جَمْعًا تَعَا لَى اللهُ[1] ذُو الأَكْوَانِ وَالسُّلْطَانِ

٣٢٦٠- وَهُوَ الغَنِيُّ بِذَاتِهِ فَغِنَاهُ ذَا تِيٌّ لَهُ كَالجُودِ وَالإِحْسَانِ

٣٢٦١- وَهُوَ العَزِيزُ فَلَنْ يُرَامَ جَنَابُهُ أَنَّى يُرَامُ جَنَابُ ذِي السُّلْطَانِ

٣٢٦٢- وَهُوَ العَزِيزُ القَاهِرُ الغَلَّابُ لَمْ يَغْلِبْهُ شَيْءٌ هَذِهِ صِفَتَانِ

٣٢٦٣- وَهُوَ العَزِيزُ بِقُوَّةٍ هِيَ وَصْفُهُ فَالعِزُّ حِينَئِذٍ ثَلاثُ مَعَانِي

٣٢٦٤- وَهِيَ الَّتِي كَمُلَتْ لَهُ سُبْحَانَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ عَادِمِ النُّقْصَانِ

(١) في أكثر النسخ «رب ذي».

الشرحُ

٣٢٥٣- وَهُوَ المُكَلِّمُ عَبْدَهُ مُوسَى بِتكْـ ـلِيمِ الخِطَابِ وَقَبْلَهُ الأَبَوَانِ

هذه الأبياتُ في «الكلامِ»، و«الكلامُ» من صفاتِ الله عزَّ وجلَّ لا شَكَّ، فهو -جلَّ وعلا- متكلِّمٌ ويتكلَّم متى شاء بما شاء كيف شاء، وكلامُه عزَّ وجلَّ بحرفٍ وصوتٍ مسموعٍ من قريبٍ ومن بعيدٍ، وبحروفٍ مُرتَّبةٍ، فقولُه -تبارك وتعالى-: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:١] سَمِعَها جبريلُ من الله بصوتٍ، وهذه البسملةُ بحروفٍ مُرتَّبةٍ، إِذَنْ كلامُ الله بحرفٍ وصوتٍ، فهو بحروفٍ مرتَّبةٍ، والصوتُ يكونُ من قريبٍ ومن بعيدٍ؛ ولهذا قال اللهُ تعالى عن موسى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم:٥٢]، هذا من بعيدٍ، وقال: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢] هذا من قريبٍ، و في الحديثِ الصَّحيحِ: «**يَقُولُ اللهُ عزَّ وجلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادِي بِصَوْتٍ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ**»[(١)]، فقولُه: «**بِصَوْتٍ**» هذا من بابِ التَّوكيد، وإلَّا فإنَّ قولَه: «**يُنَادِي**» تُفِيدُ الصَّوْتَ لا شكَّ، فاللهُ عزَّ وجلَّ يتكلَّمُ بما شاء متى شاء كيف شاء، وقد سبق أنْ ذَكَرْنَا أنَّ النَّاسَ اختلفوا في كلامِ الله على ثمانيةِ أقوالٍ أو سبعةٍ، وذَكَرْنَا ثلاثةً منها الأصول، فهو -سبحانه وتعالى- مكلِّمٌ عبدَه موسى.

قَوْلُهُ: «**بِتكْلِيمِ الخِطَابِ**»؛ يعني: بتكليمٍ يخاطبُه فيه، قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النِّساء:١٦٤].

قَوْلُهُ: «**وَقَبْلَهُ الأَبَوَانِ**»؛ أي: آدمُ وحوَّاء، قال اللهُ تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم (٣٣٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله يقول الله لآدم أخرج بعث النار، رقم (٢٢٢).

أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:٢٢]، فهذا نداءٌ للأبوين.

وكذلك كَلَّمَ محمَّدًا ﷺ حين عرج به.

٣٢٥٤- كَلِمَاتُهُ جَلَّتْ عَنِ الإِحْصَاءِ وَالتْـ ـتَعْدَادِ بَلْ عَنْ حَصْرِ ذِي الحُسْبَانِ

قَوْلُهُ: «جَلَّتْ»؛ يعني: عَظُمَتْ أن تُحْصَى.

فكلماتُه -سبحانه وتعالى- لا مُنْتَهَى لها، ولا حصرَ لها، ثُمَّ ذَكَرَ المؤلِّفُ ما دَلَّ عليه القرآنُ فقال:

٣٢٥٥- لَوْ أَنَّ أَشْجَارَ البِلادِ جَمِيعَهَا الـ أَقْلامُ تَكْتُبُهَا بِكُلِّ بَنَانِ

أي: تكتبُ كلماتِه.

٣٢٥٦- وَالبَحْرُ تُلْقَى فِيهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ لِكِتَابَةِ الكَلِمَاتِ كُلَّ زَمَانِ

٣٢٥٧- نَفِدَتْ وَلَمْ تَنْفَدْ بِهَا كَلِمَاتُهُ لَيْسَ الكَلامُ مِنَ الإِلَهِ بِفَانِي

قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ [لقمان:٢٧]؛ يعني: لو كان أقلامًا ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧]، فقولُه تعالى: «أَنَّ»: حرفُ توكيدٍ ينصبُ المبتدأَ ويرفعُ الخبرَ، و«مَا»: اسمُها؛ يعني: ولو أنَّ الَّذي في الأرضِ من الشَّجرِ، «أقلامٌ»: خبر «أنَّ»؛ يعني: لو أنَّ جميعَ أشجارِ الأرضِ جُعِلَتْ أقلامًا وجُعِلَ البحرُ مِدَادًا ومِنْ بعده سبعةُ أبحرٍ ما نفدت كلماتُ الله؛ لأنَّه لا مُنْتَهى لفعلِه، فلا مُنْتَهَى لقولِه، فكُلُّ شيءٍ يريدُه يقولُ له: «كن»، وهل مرادُ الله تعالى له مُنْتَهى؟ الجوابُ: لا.

إِذَنْ كلماتُ الله غيرُ محصورةٍ، وهل هي أَزَلِيَّةٌ أَبَدِيَّةٌ أو هي حادثةٌ بعد أنْ

لم تكن؟ الجوابُ: الأوَّل، هي أزليَّةٌ أبديَّةٌ، فلم يزل ولا يزالُ -جلَّ وعلا- متكلِّمًا؛ لأنَّه -سبحانه وتعالى- لم يأتِ زمنٌ وهو -سبحانه وتعالى- قبل الأزمان سبحانه وتعالى لم يأتِ زمنٌ وهو أخرسُ، حاشاه من ذلك، بل لم يزل ولا يزالُ متكلِّمًا، من يُحْصِي هذا؟ الجوابُ: لا أحدَ يُحْصِيه.

إذا قال قائلٌ: هل الكلامُ يتعلَّقُ بمشيئتِهِ إن شاء تكلَّم وإن شاء لم يتكلَّم؟ فالجوابُ: نعم، لا شكَّ، هو لا يتكلَّمُ قهرًا، بل يتكلَّمُ بإرادةٍ ومشيئةٍ، قال النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا**»(١)، فقوله: «سَكَتَ»؛ يعني: لم يتكلَّم بها، وإلَّا فإنَّه يتكلَّمُ بأشياءَ أخرى، لكن سَكَتَ عن أشياءَ، فسكوتُه ليس سُكوتًا مطلقًا.

فإذا قال قائلٌ: إذا قلت: إنَّ الكلامَ يتعلَّقُ بمشيئتِهِ فإن كان كمالًا فقد كمل بعد أن كان ناقصًا، وإن كان نقصًا فالنَّقصُ ممتنعٌ عن الله؛ إِذَنْ يجبُ عليك ألَّا تؤمنَ بأنَّ اللهَ يتكلَّمُ، كيف تقولُ: «**يتكلَّمُ**» يتعلَّقُ بمشيئته؟

هذا جوابُه سهلٌ بأن نقولَ: الكلامُ في موضعِه كمالٌ، وفي غيرِ موضعِه ليس كمالًا، فإذا اقتضت حكمةُ الله تعالى أن يتكلَّمَ في شيءٍ من الأشياءِ وتكلَّم به فهو في هذه الحالِ كمالٌ، وقبله ليس كمالًا، وهل كلامُ الله تعالى لآدمَ وحوَّاء كان بعد خلقِهما أو قبله؟ الجوابُ: بعد خلقِهما وبعد أكلِهما من الشَّجرةِ، فهو في وقتِه وموضعِه كمالٌ، لا شكَّ، فتبيَّن بهذا أنَّ كونَ الكلامِ يتعلَّقُ بمشيئةِ الله ليس نقصًا في حقِّ الله.

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨/ ٣٨١).

٣٢٥٨- وَهُوَ القَدِيرُ وَلَيْسَ يُعْجِزُهُ إِذَا مَا رَامَ شَيْئًا قَطُّ ذُو سُلْطَانِ

قَوْلُهُ: «**وَهْوَ القَدِيرُ**» «**القديرُ**» من أسماءِ الله؛ أي: ذو القدرةِ التَّامَّةِ، والقدرةُ وَصْفٌ يتعلَّقُ بالفاعلِ بحيث يفعلُ الفعلَ بلا عجزٍ، وضدُّها «**العجزُ**»، وقد جاءت «**القدرةُ**» في القُرآنِ الكريمِ في مواضعَ كثيرةٍ، قال اللهُ تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرُۢ﴾ [المائدة:١٢٠]؛ ولهذا يقولُ: «**وَلَيْسَ يُعْجِزُهُ إِذَا مَا رَامَ شَيْئًا**»، «**إِذَا مَا رَامَ**»؛ أي: أَرَادَ شيئًا.

قَوْلُهُ: «**إِذَا مَا رَامَ شَيْئًا**» «**مَا**» هنا زائدةٌ، قال الرَّاجِزُ:

يَا طَالِبًا خُذْ فَائِدَهْ بَعْدَ «إِذَا» «مَا» زَائِدَهْ(١)

قَوْلُهُ: «**قَطُّ ذُو سُلْطَانِ**»؛ أي: لا أحدَ يعجزُه مهما كان سلطانُه كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

٣٢٥٩- وَهُوَ القَوِيُّ لَهُ القُوَى جَمْعًا تَعَا لَى اللهُ ذُو الأَكْوَانِ وَالسُّلْطَانِ

هو عزَّ وجلَّ القويُّ، فالقوَّةُ لله جميعًا، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذَّاريات:٥٨]، وهي فعلُ الفعلِ بلا ضعفٍ، فاللهُ تعالى قويٌّ بذاتِه، قويٌّ في سُلطانِه، قويٌّ في جميعِ صفاتِ العظمةِ؛ ولهذا قال: «**لَهُ القُوَى جَمْعًا**»؛ أي: قوَّةُ الذَّاتِ، وقوَّةُ السُّلطانِ، وقوَّةُ العظمةِ، كُلُّ ما يتعلَّقُ بهذه الصِّفاتِ فهو قويٌّ فيها، والقوَّةُ يقابلُها الضَّعفُ، وقد افتخرت عادٌ بقوَّتِها، وقالوا: مَنْ أشدُّ منَّا قوَّةً؟ فقال اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصِّلت:١٥]، ومع

---

(١) البيت في فتح رب البرية في شرح نظم الآجرومية (ص:١٧٢) بلا نسبة.

ذلك أهلكهم اللهُ بشيءٍ لطيفٍ لا يُرَى وهو الرِّيحُ.

وهذا غايةُ القوَّةِ، فاللهُ عزَّ وجلَّ قويٌّ، خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ، ولم يعيَ بخلقهِنَّ، خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ في ستَّة أيامٍ وما مسَّه من لُغُوبٍ؛ أي: ضعفٍ يَلْحَقُ مَنْ يقولُ للشَّيءِ: «كُنْ فَيَكُونُ».

وجميعُ القُوَى في المخلوقاتِ من آثارِ قُوَّةِ الله عزَّ وجلَّ؛ بمعنى: أنَّ الذي أعطاها القُوَى هو أولى بالقوَّةِ منها، فإيمانُك بأنَّه عزَّ وجلَّ قويٌّ، وبأنَّه قديرٌ يفتحُ لك آفاقًا بعيدًة في أنَّ اللهَ تعالى سينصرُ دينَه، وأنَّ قوى الخلقِ وقدرةَ الخلقِ مهما بلغت تضمحلُّ أمام قدرةِ الله وقوَّتِه.

إنَّ الأحزابَ تحزَّبوا على رسولِ الله ﷺ واجتمع نحوُ عشرة آلافٍ من قبائلَ شتَّى من العربِ، وأحاطوا بالمدينةِ، وبلغت القلوبُ الحناجرَ، وسَلَّطَ اللهُ عليهم ريحًا وجنودًا لم يَرَوْهَا، أرسل اللهُ عليهم ريحًا وجنودًا لم يرها النَّبِيُّ ﷺ ولا أصحابُه، فَزُلْزِلُوا وقد نَدَبَ النَّبِيُّ ﷺ رجلًا في ليلةٍ من ليالي الأحزابِ -وكانت ليلةً شديدةَ البردِ- ليسْبُرَ خبرَهم، ولم يَقُمْ أحدٌ، فكُلُّهم خائفٌ، فهي ليلةٌ باردةٌ شديدةُ الرِّيحِ، يَقُولُ حُذَيْفَةَ: فَلَمَّا لَـمْ يَقُمْ أَحَدٌ دَعَانِي رَسُولُ الله ﷺ، فَلَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ مِنْ القِيَامِ حِينَ دَعَانِي، فَقَالَ: «يَا حُذَيْفَةُ فَاذْهَبْ فَادْخُلْ فِي القَوْمِ فَانْظُرْ مَاذَا يَفْعَلُونَ؟...» فقام إلى القومِ، وجعل اللهُ هذه الرِّيحَ الباردةَ بالنِّسبة لحذيفةَ دافئةً وبدون إزعاجٍ حتَّى وَصَلَ إلى قريبٍ من أبي سفيان، وكان زعيمَ القومِ في ذلك الوقتِ قبل أن يُسْلِمَ، وكان يصطلي على النَّارِ من شدَّةِ البرد، يقولُ حذيفةُ: وَلَوْلَا عَهْدُ رسولِ الله ﷺ: «لَا تُحْدِثْ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي»، وَلَوْ شِئْتُ لَقَتَلْتُهُ بِسَهْمٍ[1]، لكنَّه امتنع.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم (١٧٨٨).

انظُر إلى الحكمةِ والامتثالِ لأمرِ الله ورسولِه، لو كان من هؤلاء العاطفيِّين الذين لا يُقَدِّرون الأمورَ لقال: هذا رئيسُ القومِ أجعلُ السَّهمَ في نحرِه وأستريحُ منه، لكنَّه عَلِمَ أنَّ الرَّسولَ ﷺ أحكمُ منه، ويقولُ: إنَّه لـمَّا رجع للنَّبيِّ ﷺ وانتهت المهمَّةُ أَحَسَّ بالبردِ، سبحان الله! وهذا من آياتِ الله عزَّ وجلَّ، هذا من آثارِ قوَّةِ الله وقدرتِه، أنت إذا آمَنت بالقُدرةِ وبالقوَّةِ ماذا يُحْدِثُ لك هذا الإيمانُ؟ يُحْدِثُ لك -كما سبق- أنَّه يفتحُ لك آفاقًا بعيدةً، بأنَّ اللهَ تعالى قادرٌ على أن يُهْلِكَ عدوَّه كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم﴾ [محمد:٤]، كذلك أيضًا يُوجِبُ لك الخوفَ من الله، وأنَّ اللهَ قادرٌ على أن يُنْزِلَ بك عقوبتَه، وقويٌّ في ذلك، فإن قال قائلٌ: ما الفرقُ بين القوَّةِ والقدرةِ؟ فالفرقُ بينهما يُعْرَفُ من تعريفِهما، القدرةُ: صفةٌ يتمكَّنُ بها الفاعلُ من الفعلِ بلا عجزٍ، والقوَّةُ: صفةٌ يتمكَّنُ بها الفاعلُ من الفعلِ بلا ضعفٍ، هذا فرقٌ في التَّعريفِ.

ثانيًا: القدرةُ لا يُوصَفُ بها إلَّا مَنْ له إرادةٌ، والقوَّةُ يُوصَفُ بها مَنْ له إرادةٌ ومَن لا إرادةَ له، فمثلًا تقولُ: «**الحديدُ قويٌّ**»، ولا تقولُ: «**قادرٌ**»، والإنسانُ يُقَالُ له: قادرٌ؛ لأنَّه مختارٌ، فلو أنَّ رجلًا قلنا له: احمل هذه الصَّخرةَ، فجعل يزحزحُها ثُمَّ حملها لكن بكُلِّ تعبٍ، احمرَّ وجهُه وصار نَفَسُه يتكرَّرُ بسرعةٍ، لكنَّه حملها، نقولُ عنه: قادرٌ لكنَّه ضعيفٌ، أمَّا إن لم يستطع حملَها فيُقَالُ عنه: عاجزٌ، وإن قلنا لآخَرَ: احمل هذه الصَّخرةَ، فحملها فوق رأسِه، نقول: قَوِيٌّ.

٣٢٦٠- وَهُوَ الغَنِيُّ بِذَاتِهِ فَغِنَاهُ ذَا ... تِيٌّ لَهُ كَالجُودِ وَالإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «**وَهْوَ الغَنِيُّ**»؛ أي: واسعُ الإنفاقِ، لا ينفدُ ما عنده كما أخبر بذلك النَّبيُّ ﷺ حين قال: «**يَدُ الله مَلأَى، لا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا**

أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَـمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ»[(١)]، فهو غنيٌّ.

قَوْلُهُ: «بِذَاتِهِ»؛ يعني: ليس أحدٌ مَنَّ عليه بغنًى، ولكنَّه غنيٌّ بذاتِه؛ لأَنَّه عزَّ وجلَّ مُوجِدُ كُلِّ شيءٍ، فهو -سبحانه وتعالى- غنيٌّ بذاتِه عن جميعِ مخلوقاتِه، لا يحتاجُ لشيءٍ، وغيرُه غنيٌّ بغيرِه، فالإنسانُ ليس غنيًّا بذاتِه بل يحتاجُ إلى أكلٍ وشربٍ ولباسٍ وسَكَنٍ وغيرِ ذلك، أمَّا اللهُ فهو غنيٌّ بذاتِه؛ ولهذا قال: «غِنَاهُ ذَاتِيٌّ»، إِذَنْ الغنى من صفاتِه الذَّاتيَّةِ التي لم يزلْ ولا يزالُ متَّصفًا بها.

قَوْلُهُ: «كَالجُودِ وَالإِحْسَانِ» وهذا هو التَّفضُّلُ على الغيرِ، إِذَنْ هو غَنِيٌّ وجوادٌ ومحسنٌ، ولا يلزمُ من الغنى الجودُ ولا الإحسانُ، لكن بالنِّسبةِ للرَّبِّ عزَّ وجلَّ يلزمُ من غناه جودُه وإحسانُه، فهو غنيٌّ بذاتِه، وهو -سبحانه وتعالى- جائدٌ على مخلوقاتِه.

٣٢٦١- وَهُوَ العَزِيزُ فَلَنْ يُرَامَ جَنَابُهُ ... أَنَّى يُرَامُ جَنَابُ ذِي السُّلْطَانِ

٣٢٦٢- وَهُوَ العَزِيزُ القَاهِرُ الغَلَّابُ لَمْ ... يَغْلِبْهُ شَيْءٌ هَذِهِ صِفَتَانِ

٣٢٦٣- وَهُوَ العَزِيزُ بِقُوَّةٍ هِيَ وَصْفُهُ ... فَالعِزُّ حِينَئِذٍ ثَلاثُ مَعَانِي

٣٢٦٤- وَهِيَ الَّتِي كَمُلَتْ لَهُ سُبْحَانَهُ ... مِنْ كُلِّ وَجْهٍ عَادِمِ النُّقْصَانِ

«العزيزُ» من أسماءِ الله عزَّ وجلَّ، وهو كثيرٌ في القرآنِ، وله ثلاثةُ معانٍ:

الأوَّل: أنَّه لا يستطيعُ أحدٌ أن ينالَه بسوءٍ لقولِه: «فَلَنْ يُرَامَ جَنَابُهُ»؛ يعني: لن يُدْرَكَ ولم يوصل إليه عزَّ وجلَّ، ولا يستطيعُ أحدٌ أن ينالَه بسوءٍ، مأخوذٌ من

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب سورة هود باب قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]، رقم (٤٦٨٤)، مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة، رقم (٩٩٣).

قولِهم «أَرْضٌ عَزَازٌ»، والأرضُ العَزَازُ هي الأرضُ الصَّلبةُ القويَّة التي لا تنالُها الفؤوسُ لصلابتِها بخلافِ الرَّملِ فإنَّه سهلٌ، تَرْكِزُ العصا به ويغيص، أمَّا الأرضُ الصَّلبةُ فتحتاج إلى معاولَ، هذا أصلُ المادةِ، لكن بالنِّسبة لله عزَّ وجلَّ لا نُفَسِّرُ عزَّتَه بذلك، بل نقولُ: هو العزيزُ الذي لن يصلَ إليه سوءٌ من أيِّ أحدٍ، وهذه عزَّةُ القَدْرِ.

هو أيضًا العزيزُ القاهرُ الغلَّابُ من عَزَّ يَعَزُّ إذا قَوِيَ وغَلَبَ، ومنه قولُ الله -تبارك وتعالى- عن المنافقين: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]، يريدون بـ﴿ٱلْأَعَزُّ﴾ أنفسَهم، وبـ﴿ٱلْأَذَلَّ﴾ رسولَ الله -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- وأصحابَه، فماذا أُجيبوا؟ أُجيبوا بقولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨]، ولم يَقُلْ: واللهُ أعزُّ، بل قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون:٨]، فهذا يعني: أنَّ المنافقين عليهم الذُّلُّ والمهانةُ والخزيُ، وليس لهم من العزَّةِ شيءٌ.

فهو العزيزُ الغالبُ لكُلِّ شيءٍ، قال الشَّاعرُ الجاهليُّ:

أَيْنَ المَفَرُّ وَالإِلَـهُ الطَّالِبُ ... وَالأَشْرَمُ المَغْلُوبُ لَيْسَ الغَالِبُ[(١)]

قَوْلُهُ: «وَهْوَ العَزِيزُ بِقُوَّةٍ هِيَ وَصْفُهُ»، فله عزَّةُ القوَّةِ، ولا أحدَ أقوى منه، فهو -جلَّ وعلا- له العزَّةُ بمعانيها الثَّلاثة: عزَّةُ القوَّةِ، عزَّةُ القهرِ، عزَّةُ الامتناعِ، فهذه ثلاثةُ مَعانٍ لاسمِ «العزيز».

* * *

(١) البيت في همع الهوامع (١/ ٤٢٤) بلا نسبة، ونسبه في الحيوان للجاحظ (٧/ ١١٩) لأبرهة الأشرم.

٣٢٦٥- وَهُوَ الحَكِيمُ وَذَاكَ مِنْ أَوْصَافِهِ ... نَوْعَانِ أَيْضًا مَا هُمَا عَدَمَانِ
٣٢٦٦- حُكْمٌ وَإِحْكَامٌ فَكُلٌّ مِنْهُمَا ... نَوْعَانِ أَيْضًا ثَابِتَا البُرْهَانِ
٣٢٦٧- وَالحُكْمُ شَرْعِيٌّ وَكَوْنِيٌّ وَلا ... يَتَلازَمَانِ وَمَا هُمَا سِيَّانِ
٣٢٦٨- بَلْ ذَاكَ يُوجَدُ دُونَ هَذَا مُفْرَدًا ... وَالعَكْسُ أَيْضًا ثُمَّ يَجْتَمِعَانِ
٣٢٦٩- لَنْ يَخْلُوَ المَرْبُوبُ مِنْ إِحْدَاهُمَا ... أَوْ مِنْهُمَا بَلْ لَيْسَ يَنْتَفِيَانِ
٣٢٧٠- لَكِنَّمَا الشَّرْعِيُّ مَحْبُوبٌ لَهُ ... أَبَدًا وَلَنْ[1] يَخْلُو مِنَ الأَكْوَانِ
٣٢٧١- هُوَ أَمْرُهُ الدِّينِيُّ جَاءَتْ رُسْلُهُ ... بِقِيَامِهِ فِي سَائِرِ الأَزْمَانِ
٣٢٧٢- لَكِنَّمَا الكَوْنِيُّ فَهْوَ قَضَاؤُهُ ... فِي خَلْقِهِ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ
٣٢٧٣- هُوَ كُلُّهُ حَقٌّ وَعَدْلٌ ذُو رِضًا ... وَالشَّأْنُ فِي المَقْضِيِّ كُلَّ الشَّانِ
٣٢٧٤- فَلِذَاكَ نَرْضَى بِالقَضَاءِ وَنَسْخَطُ الـ ... ـمَقْضِيَّ حِينَ يَكُونُ بِالعِصْيَانِ
٣٢٧٥- فَاللهُ يَرْضَى بِالقَضَاءِ وَيَسْخَطُ الـ ... ـمَقْضِيَّ مَا الأَمْرَانِ مُتَّحِدَانِ
٣٢٧٦- فَقَضَاؤُهُ صِفَةٌ بِهِ قَامَتْ وَمَا الـ ... ـمَقْضِيُّ إِلَّا صَنْعَةُ الإِنْسَانِ[2]
٣٢٧٧- وَالكَوْنُ مَحْبُوبٌ وَمَبْغُوضٌ لَهُ ... وَكِلاهُمَا بِمَشِيئَةِ الرَّحْمَنِ
٣٢٧٨- هَذَا البَيَانُ يُزِيلُ لَبْسًا طَالَمَا ... هَلَكَتْ عَلَيْهِ النَّاسُ كُلَّ[3] زَمَانِ

---

(١) في نسخ برلين والإفتاء والتيمورية ونسخة ابن سحمان «ولو».
(٢) في نسخة ابن سحمان «الرحمن» وتأتي مفاضلة شيخنا بين النسختين مع التوجيه.
(٣) في نسخ السفارينية والتيمورية «منذ».

٣٢٧٩- وَيَحِلُّ مَا قَدْ عَقَدُوا بِأُصُولِهِمْ وَبُحُوثِهِمْ فَافْهَمْهُ فَهْمَ بَيَانِ

٣٢٨٠- مَنْ وَافَقَ الكَوْنِيَّ وَافَقَ سُخْطَهُ إِنْ لَمْ يُوَافِقْ طَاعَةَ الدَّيَّانِ

٣٢٨١- فَلِذَاكَ لا يَعْدُوهُ ذَمٌّ أَوْ فَوَا تُ الحَمْدِ مَعْ أَجْرٍ وَمَعْ رِضْوَانِ

٣٢٨٢- وَمُوَافِقُ الدِّينِيِّ لا يَعْدُوهُ أَجْـ ـرٌ بَلْ لَهُ عِنْدَ الصَّوَابِ اثْنَانِ

الشَّرحُ

«الحكيمُ» من أسماءِ الله سبحانه وتعالى، وقد جاء كثيرًا في القرآنِ الكريمِ مُعرَّفًا ومُنكَّرًا، ومرفوعًا ومنصوبًا ومجرورًا، على أوجهٍ متعدِّدةٍ، و«الحكيمُ» من أوسعِ الأسماءِ تَعلُّقًا؛ لأنَّه مشتقٌّ من الحُكْمِ والإحكامِ، الإحكامُ الذي هو الحكمةُ والإتقانُ، فيقولُ المؤلِّفُ رحمه الله:

٣٢٦٥- وَهُوَ الحَكِيمُ وَذَاكَ مِنْ أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ أَيْضًا مَا هُمَا عَدَمَانِ

٣٢٦٦- حُكْمٌ وَإِحْكَامٌ فَكُلٌّ مِنْهُمَا نَوْعَانِ أَيْضًا ثَابِتَا البُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «وَهُوَ الحَكِيمُ وَذَاكَ مِنْ أَوْصَافِهِ»؛ يعني: أنَّ «الحكيمَ» اسمٌ يدلُّ على وصفين، وليس المعنى أنَّ «الحكيمَ» من أوصافِه؛ لأنَّ «الحكيمَ» من أسمائِه بالاتِّفاق؛ يعني: أنَّ الوصفَ الذي اشتمل عليه اسمُ «الحكيم» نوعان: حُكْمٌ، وإحكامٌ.

قَوْلُهُ: «مَا هُمَا عَدَمَانِ»؛ أي: بل مَوْجودان ثابتان دَلَّ عليهما هذا الاسمُ.

إِذَنْ هو مشتقٌّ من شيئين: من الحُكْمِ، والإحكام، ومنه قولُ الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التِّين:٨]، فهذا شاملٌ للأمرين معًا؛ أي: للحُكْمِ

والإحكامِ، من «**الحُكْم**» على أنَّه مشتقٌّ من «**حَكَمَ**»، ومن «**الإحكام**» على أنَّه مشتقٌّ «**أَحْكَمَ**»، إِذَنْ «**حكيمٌ**» مأخوذةٌ من «**حَكَمَ**» الثُّلاثيِّ، ومن «**أَحْكَمَ**» الرُّباعيِّ؛ إذ إنَّ مصدرَ «**أَحْكَمَ**» إحكامًا، وكونُها مَأخوذةً من الثَّلاثيِّ أمرٌ لا إشكالَ فيه؛ لأنَّ «**فعيل**» بمعنى فاعل تأتي كثيرًا من «**فَعَلَ**»، تقولُ: «**سميعٌ**» من «**سَمِعَ**» بمعنى: سامع، و«**عليمٌ**» بمعنى: عالم، و«**حكيمٌ**» بمعنى: حاكم، لكن «**فعيل**» من «**أَفْعَلَ**» قليلةٌ، فيكون «**حكيم**» بمعنى «**مُحْكِم**» كـ«**سميع**» بمعنى «**مُسْمِع**»، وهذا واردٌ في اللغة العربيَّة في قولِ الشَّاعرِ:

أَمِــنْ رَيْحَانَــةَ الــدَّاعِي السَّــمِيعُ ... يُـؤَرِّقُنِي وَأَصْـحَابِي هُجُـوعُ؟[1]

فَقَوْلُهُ: «**السَّمِيعُ**»؛ أي: المُسْمِع.

وعلى هذا فـ«**الحكيمُ**» مشتقٌّ من الحُكْمِ والإحكامِ، فعلى تقديرِ اشتقاقِه من الحُكْمِ يكون بمعنى «**حاكم**»، وعلى تقديرِ اشتقاقِه من «**الإحكام**» يكون بمعنى «**مُحْكِم**»، وقد عرفتم أنَّ «**فعيل**» يأتي بمعنى «**فاعل**»، ويأتي بمعنى «**مُفْعِل**»، فهو حُكْمٌ وإحكامٌ، وكُلٌّ منهما نوعان أيضًا ثابتا البرهانِ.

والحكمُ نوعان، والإحكامُ نوعان، فالحكمُ نوعان، وبَيَّنَ ذلك فقال:

٣٢٦٧- وَالــحُكْمُ شَرْعِــيٌّ وَكَــوْنِيٌّ وَلا ... يَتَلازَمَــانِ وَمَــا هُمَــا سِــيَّانِ

الحكمُ كونيٌّ وشرعيٌّ، فكونُ الله تعالى يقولُ: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأنعام:٧٢]، هذا حكمٌ شرعيٌّ، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ [الإسراء:٣٢] شرعيٌّ، أمرٌ ونهيٌ، الكونيُّ يقولُ للشَّيءِ: كُنْ إيجادًا فيكون، هذا حكمٌ كونيٌّ، يقولُ للشَّيءِ الموجودِ «**كن**»؛

(١) البيت لعَمْرو بن معد يكرب، كما في الأصمعيات (ص:١٧٢).

يعني: عَدَمًا، فيكون عدمًا، ويقولُ: للشَّيءِ المعدومِ: «كن»؛ يعني: وجودًا، فيكون موجودًا، هذا حكمٌ كونيٌّ.

قضاءُ الله -تبارك وتعالى- بالمعاصي والفُسوقِ والفجورِ والكفرِ وما أشبهها من الحكمِ الكونيِّ، وقضاؤه بالأمراضِ والفقرِ والجدبِ والجنون وما أشبه ذلك هو كونيٌّ، أمَّا الحكمُ الشَّرعيُّ فهو الأوامرُ والنَّواهي الشَّرعيَّةُ، وكذلك المباحات.

فالحُكْمُ شرعيٌّ وكونيٌّ ولا يتلازمان، فقد يُوجَدُ الحكمُ الشَّرعيُّ دون الكونيِّ، وقد يوجدُ الكونيُّ دون الشَّرعيِّ، فالمرضُ والفقرُ والموتُ وما أشبهها كونيٌّ وليس شرعيًّا، إيجابُ الصَّلاةِ وتحريمُ الزِّنا شرعيٌّ وليس كونيًّا؛ لأنَّه رُبَّما يقومُ به المرءُ وقد لا يقومُ بخلافِ ما قضاه اللهُ عزَّ وجلَّ كونًا فلا بُدَّ أن يكونَ؛ إِذَنْ لا يتلازمُ الحكمُ الكونيُّ والحكمُ الشَّرعيُّ، فقد يُوجَدُ حكمٌ شرعيٌّ ولكنَّه لا يكونُ حُكْمًا كونيًّا وذلك إذا لم يقع، وقد يُوجَدُ حكمٌ كونيٌّ وليس بشرعيٍّ؛ وذلك إذا وقع وهو ممَّا لا يرضاه اللهُ.

٣٢٦٨- بَـلْ ذَاكَ يُوْجَـدُ دُونَ هَـذَا مُفْـرَدًا وَالعَكْـسُ أَيْضًـا ثُـمَّ يَجْتَمِعَـانِ

قَوْلُهُ: «بَلْ ذَاكَ يُوجَدُ دُونَ هَذَا مُفْرَدًا»؛ يعني: قد يُوجَدُ الكونيُّ دون الشَّرعيِّ كالمعصيةِ، والفسوقُ والعصيانُ يقعُ من الإنسانِ بالحُكْمِ الكونيِّ لا بالحُكْمِ الشَّرعيِّ؛ لأنَّ الحكمَ الشَّرعيَّ ينفي ذلك.

قَوْلُهُ: «وَالعَكْسُ أَيْضًا»؛ أي: قد يُوجَدُ الشَّرعيُّ دون الكونيِّ كالحُكْمِ بوجوبِ الصَّلاةِ ولكنَّه لم يُصَلِّ، فهذا ثَبَتَ في حقِّه الحكمُ الشَّرعيُّ وهو وجوبُ الصَّلاةِ دون الحُكْمِ الكونيِّ، والطَّاعةُ والعدالةُ ثابتةٌ بالحُكْمِ الشَّرعيِّ، لكن بالحُكْمِ الكونيِّ قد تثبتُ وقد لا تثبتُ، فقد يُطِيعُ الإنسانُ وقد يَعْصِي، وقد يعدلُ وقد يجورُ.

قَوْلُهُ: «ثُمَّ يَجْتَمِعَانِ» هذا القسمُ الثَّالثُ؛ يعني: وقد يجتمعان، فإذا قال اللهُ تعالى: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام:٧٢]، ثُمَّ قَامَ رجلٌ وصَلَّى فأيُّ الحكمين فيه؟ الجوابُ: كلاهما، اجتمع في هذا الرَّجلِ الحكمُ الكونيُّ؛ لأنَّه صَلَّى، والحكمُ الشَّرعيُّ؛ لأنَّه امتثل أمرَ الله، وقد يجتمعان أيضًا كرجلٍ تزوَّج فعلًا، فهذا فيه الحكمُ الكونيُّ والشَّرعيُّ، وكامرأةٍ حائضٍ لم تُصَلِّ، هنا انتفت صلاتُها بالحكمين الكونيِّ والشَّرعيِّ؛ إِذَنْ اجتمعا في حقِّها.

٣٢٦٩- لَنْ يَخْلُوَ المَرْبُوبُ مِنْ إِحْدَاهُمَا أَوْ مِنْهُمَا بَلْ لَيْسَ يَنْتَفِيَانِ

المربوبُ لن يخلوَ من الحكمِ الكونيِّ قطعًا؛ لأنَّ كُلَّ مخلوقٍ وُجِدَ بحكمِ الله عزَّ وجلَّ، يفعلُ بحكمِ الله، يتركُ بحكمِ الله، كُلُّ مخلوقٍ -وهو المربوب- لا بُدَّ أن يكونَ قد مضى فيه حكمُ الله عزَّ وجلَّ الكونيُّ.

ورُبَّما يُوجَدُ الشَّرعيُّ مع الكونيِّ، وقد يُوجَدُ الحكمُ الشَّرعيُّ على الشَّخصِ ولا يُوجَدُ الكونيُّ؛ فمثلًا يُوجِبُ اللهُ على العبدِ أن يُقِيمَ الصَّلاةَ، ولا يقيمُ الصَّلاةَ، هذا حكمٌ شرعيٌّ ولم يُوجَد الكونيُّ.

وهل الكُفَّارُ فيهم أحكامُ الله الكونيَّةُ أو الشَّرعيَّةُ؟ الجوابُ: الكونيَّةُ؛ لأنَّهم لم يمتثِلوا حُكمَ الشَّرعِ.

لكن هل يمكنُ أنْ ينتفيَ الحكمان الكونيُّ والشَّرعيُّ؟ الجوابُ: لا يمكنُ، فالإنسانُ لا بُدَّ أن يكونَ محكومًا بحكمٍ كونيٍّ أو شرعيٍّ؛ ولذا قال: «بَلْ لَيْسَ يَنْتَفِيَانِ».

ثُمَّ شرع المؤلِّفُ -رحمه الله- في الفرقِ بينهما من حيث المحبَّةُ والكراهةُ فقال:

٣٢٧٠- لَكِنَّمَا الشَّرْعِيُّ مَحْبُوبٌ لَهُ أَبَدًا وَلَنْ يَخْلُو مِنَ الأَكْوَانِ

سواءٌ كان إيجابًا أو عَدَمًا؛ فمثلًا: الصَّلاةُ حكمٌ شرعيٌّ إيجابيٌّ لكنَّها محبوبةٌ لله، اجتنابُ الزِّنا حكمٌ شرعيٌّ عدميٌّ سلبيٌّ محبوبٌ لله عزَّ وجلَّ، فكُلُّ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ الإيجابيَّةِ والسَّلبيَّةِ كُلُّها محبوبةٌ إلى الله عزَّ وجلَّ، لكن هل تقعُ أو لا تقعُ؟ الجوابُ: قد تقعُ وقد لا تقعُ.

قَوْلُهُ: «وَلَنْ يَخْلُو مِنَ الأَكْوَانِ»؛ يعني: لا بُدَّ أن يكونَ حكمُه الشَّرعيُّ موجودًا، لكن قد يُمْتَثَلُ وقد لا يُمْتَثَلُ؛ إِذَنْ لا يخلو الحكمُ الشَّرعيُّ من الأكوانِ أبدًا، ولا يمكنُ أن يخلوَ عصرٌ من الأعصارِ عن آثارِ الرِّسالةِ أبدًا؛ لأنَّه لو خلا عصرٌ من الأعصارِ عن آثارِ الرِّسالةِ لكان للخلقِ على الله حُجَّةٌ، واللهُ عزَّ وجلَّ قد أعذر الخلقَ وأرسل إليهم الرُّسلَ؛ قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤].

وقد يُشْكِلُ على هذا ما جاء من الأحاديثِ في آخِرِ الزَّمانِ من رفعِ العلمِ ورفعِ القرآنِ، وحينئذٍ لا تبقى حُجَّةٌ؟ فنقول: هذا العمومُ السَّابقُ نفسُه مخصَّصٌ بهذا، أو يُقَالُ: هذا فيما سبق، أمَّا فيما يأتي فرُبَّما؛ لأنَّه لا نبيَّ بعد محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ثُمَّ إنَّ هؤلاء الذين في آخرِ الزَّمانِ لن يبقوا كثيرًا؛ أي: لن يعيشوا كثيرًا؛ لأنَّه يكونُ عندهم إيمانٌ ثُمَّ ارتدُّوا، وبقوا مثل الحميرِ وماتوا، ولا تأتي ذُرِّيَّةٌ جديدةٌ.

٣٢٧١- هُوَ أَمْرُهُ الدِّينِيُّ جَاءَتْ رُسْلُهُ ... بِقِيَامِهِ فِي سَائِرِ الأَزْمَانِ

قَوْلُهُ: «هُوَ أَمْرُهُ الدِّينِيُّ» هذا تفسيرٌ للحُكْمِ الشَّرعيِّ، أمرُه الدِّينيُّ أو حُكمُه الدِّينيُّ كُلُّه بمعنى واحد، فصار الحكمُ الشَّرعيُّ هو حُكمَه الدِّينيَّ، الأوامرُ والنَّواهي والإباحاتُ، وهذا ما جاءَتْ به الرُّسُلُ، ولن يخلوَ منه زمانٌ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]، والحكمُ الشَّرعيُّ يجبُ

الرِّضا به على كُلِّ حالٍ، ويجبُ تنفيذُه على كُلِّ حالٍ، ولا يجوزُ كراهتُه بأيِّ حالٍ من الأحوالِ، والكونيُّ سيأتي.

٣٢٧٢- لَكِنَّما الكَوْنِيُّ فَهْوَ قَضَاؤُهُ فِي خَلْقِهِ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «لَكِنَّما الكَوْنِيُّ» وهذا القسمُ الثَّاني، «فَهْوَ قَضَاؤُهُ فِي خَلْقِهِ» وكيف قضاؤه في خلقِه؟ ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحمه الله- أنَّ قضاءَ الله في خلقِه يدورُ على شيئين لا ثالثَ لهما: عدل وإحسان، بخلاف الظُّلمِ فإنَّه يمكنُ أن يكونَ من غيرِ الله، أمَّا اللهُ عزَّ وجلَّ فلا ظُلمَ في قضائِه أبدًا، إمَّا عدلٌ وإمَّا إحسانٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠] هذا إحسانٌ، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام:١٦٠]، هذا عدلٌ؛ ولذلك قال: «بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ»، فمجازاةُ السَّيِّء على سيِّئتِه عدلٌ، والمحسنِ على إحسانِه إحسانٌ، أمَّا الظَّلمُ فلا يمكنُ أن يقعَ، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢].

٣٢٧٣- هُوَ كُلُّهُ حَقٌّ وَعَدْلٌ ذُو رِضًا وَالشَّأْنُ فِي المَقْضِيِّ كُلَّ الشَّانِ

قَوْلُهُ: «هُوَ كُلُّهُ حَقٌّ وَعَدْلٌ ذُو رِضًا» كُلُّ قضاءِ الله حقٌّ، كُلُّ قضاءِ الله عدلٌ، إذا أُصِيبَ النَّاسُ بحروبٍ، أُصيبوا بجدبٍ، أُصيبوا بأمراضٍ، هل هذا عدلٌ أو إحسانٌ أو ظلمٌ؟ الجوابُ: هو عدلٌ لا شكَّ، لكنَّه إحسانٌ من جهةٍ أخرى، بَيَّنَه اللهُ تعالى في قولِه: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الرُّوم:٤١]، إِذَنْ هذا عدلٌ ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الرُّوم:٤١]، إِذَنْ النَّتيجةُ إحسانٌ، حتَّى جَزاء السَّيِّئاتِ في الدُّنيا هو في الحقيقةِ إحسانٌ؛ ولهذا جاء في الحديثِ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا -حتَّى يوافيَ ربَّه وما

عليه ذنبٌ- وإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِي بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[1]، وعذابُ الآخرةِ أشدُّ وأبقى.

إِذَنْ قضاءُ الله -سبحانه وتعالى- دائرٌ بين العدلِ والإحسانِ، كُلُّه حقٌّ، كُلُّه عدلٌ، كُلُّه مرضيٌّ، وهذا بالنِّسبةِ للقضاءِ.

قَوْلُهُ: «وَالشَّأْنُ فِي المَقْضِيِّ كُلَّ الشَّانِ» المقضيُّ هو الذي فيه التَّفصيلُ؛ ولذا قال:

٣٢٧٤- فَلِذَاكَ نَرْضَى بِالقَضَاءِ وَنَسْخَطُ الـ ـمَقْضِيَّ حِينَ يَكُونُ بِالعِصْيَانِ

قَوْلُهُ: «فَلِذَاكَ نَرْضَى بِالقَضَاءِ»؛ أي: نَرْضَى بقضاءِ الله، حتَّى قضاء الله بالمعاصي نَرْضَى به، قضاءُ الله بالجدبِ، والفقرِ، والمرضِ، والموتِ، والزَّلزلةِ، وكُلِّ شيءٍ، نرضى به، ولا يمكنُ أن نسخطَه؛ لأنَّك لو لم ترضَ بالقضاءِ لم تكن رَضِيتَ بالله ربًّا.

إِذَنْ يبقى علينا المقضيُّ، وهو الذي فيه التَّفصيلُ؛ ولهذا قال: «وَنَسْخَطُ المَقْضِيَّ حِينَ يَكُونُ بِالعِصْيَانِ»، فالمقضيُّ هو الذي يكونُ محلًا للرِّضا والسخطِ والصَّبرِ والجزعِ.

هل يجبُ علينا أن نرضى بكُلِّ مَقْضِيٍّ؟ الجوابُ: فيه تفصيل أمَّا المقضيُّ الشرعيُّ فيجب علينا أن نرضى به؛ فيجبُ علينا أن نؤمنَ بوجوبِ الصَّلاةِ، وتحريمِ الزِّنا، وما أشبه ذلك، لكن في الكونيِّ لا يلزمُ علينا الرِّضا بكُلِّ مقضيٍّ؛ وذلك أنَّ المقضيَّ إمَّا أن يكونَ ممَّا يكرهُه اللهُ أو ممَّا يحبُّه، فإن كان ممَّا يكرهُه اللهُ وَجَبَ علينا أن نكرهَه؛ فمثلًا كفرُ الكافرينِ لا شكَّ بالنِّسبة لقضاءِ الله له حقٌّ وعدلٌ وحكمةٌ، لكن المقضيُّ وهو الكفرُ لا يلزمُنا أن نرضى به، بل لا يجوزُ أن

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم (٢٣٩٦).

نرضى بهذا بالمقضيِّ، لكنَّنا لا نعترضُ على الله ونقولُ: لماذا يُقَدِّرُ الكفرَ؟ لماذا لم يجعل النَّاسَ كُلَّهم على الإيمانِ؟ هذا حرامٌ، إنَّما المقضيُّ فيه أقسامٌ:

ما كَرِهَهُ اللهُ يجبُ علينا أن نكرهَه، وما أحبَّه اللهُ يجبُ علينا أن نحبَّه، هذا في الأمورِ الشَّرعيَّةِ.

أمَّا في الأمورِ الكونيَّةِ كالمصائبِ مثلًا، فإذا أُصِيبَ الإنسانُ بمصيبةٍ يكون له أربعُ مراتبِ: الجزع، الصَّبر، الرِّضا، الشُّكر، فإذا أُصِيبَ الإنسانُ بمصيبةٍ كونيَّةٍ كالمرضِ مثلًا، أو موتِ الأحبابِ، أو فقدِ الأموالِ، وما أشبه ذلك، فله أربعُ مراتب:

الأولى: الجَزَعُ، أن يجزعَ من قضاءِ الله إمَّا بلسانِه وإمَّا بفعالِه وإمَّا بقلبِه، إمَّا بلسانِه مثل أن يدعوَ بالويل والثُّبور كما يدعو أهلُ الجاهلية: يا ويلاه، ياثبوراه، وانقطاع ظهراه، وما أشبه ذلك، وبالفعلِ كشقِّ الجيبِ أو نتفِ الشَّعرِ أو خمشِ الخدودِ، وإمَّا بقلبِه بأن يجزعَ من الله؛ يعني: يقولُ في قلبِه: كيف ابتلاني اللهُ عزَّ وجلَّ وقد عافى فلانًا وفلانًا فيتسخَّط على الله عزَّ وجلَّ ما حُكْمُ هذا؟ هذا محرَّمٌ حتَّى إنَّ النَّبِيَّ ﷺ تبرَّأ من فاعلِه فقال: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ**»[1]، ولما مرَّ بامرأةٍ عند قبرٍ تبكي على ولدِها قال لها: «**اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي**»، ولكنَّها لم تفعل، وقالت: **إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي**، فانصرف الرَّسولُ ﷺ فقيل لها: **إِنَّهُ رَسُولُ الله، فَجَاءَتْ تَعْتَذِرُ، فَقَالَ لَهَا**: «**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى**»[2]، وصدق الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ليس منا من شق الجيوب، رقم (١٢٩٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية، رقم (١٠٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، رقم (١٢٢٣)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب في الصبر على المصيبة عند أول الصدمة، رقم (٩٢٦).

الثَّانية: الصَّبرُ، وهو حبسُ النَّفسِ عن الجزعِ، بمعنى: أنَّ الإنسانَ يتألَّمُ جدًّا جدًّا من المصيبةِ، ويتمنَّى أنَّها لم تكن حَدَثَتْ، لكنَّه صابرٌ لم يتَسخَّط لا بقولِه ولا بفعلِه ولا بقلبِه، فهو صابرٌ يقولُ: «**إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون**»، ويصبرُ، فهذا واجبٌ؛ لأنَّه صبرٌ عن المحرَّمِ، والصَّبرُ عن المحرَّمِ واجبٌ.

الثَّالثة: الرِّضا، أنْ تكونَ المصيبةُ عند الإنسانِ ليس بين وجودِها وعدمِها فرقٌ؛ يعني: هو ما تألَّمَ ذاكَ التَّألُّمِ؛ لأنَّه يقولُ في نفسِه: أنا عبدٌ لله عزَّ وجلَّ يفعلُ بي ما شاء، إنْ أعطاني شَكَرْتُ، وإنِ ابتلاني صَبَرْتُ، فالكُلُّ عنده سواءٌ، هذه لا شكَّ أنَّها أعلى مرتبةً من الصَّبرِ؛ ولهذا اختلف العلماءُ -رحمهم الله تعالى- هل الرِّضا بالمصائبِ واجبٌ أو مستحبٌّ؟ والجمهورُ على أنَّه مستحبٌّ وليس بواجبٍ، وهذا اختيارُ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ وجماعةٍ من المحقِّقين، وهو الصَّحيحُ، وهذا بالنِّسبة للمَقضِيِّ.

أمَّا القضاءُ فيجبُ الرِّضا به على كُلِّ حالٍ، والرِّضا بالقضاءِ من مقتضى قولِ القائلِ: «**رَضِيتُ بِالله رَبًّا**».

لكن هذا الذي رَضِيَ هل نقولُ إذا بَكَى: دَلَّ ذلك على عدمِ رضاه؟ الجوابُ: لا، فقد يبكي رحمةً، أو يبكي يتذكَّرُ مثلًا اجتماعَه بهذا الشَّخصِ وما أشبه ذلك، فيتجدَّد له الحزنُ، فهذا لا يُنافي الرِّضا.

الرَّابعة: الشُّكرُ، وهو فوق هذا كُلِّه؛ إذ كُلُّ شاكرٍ صابرٌ راضٍ، وكُلُّ راضٍ صابرٌ، وليس كُلُّ صابرٍ راضيًا ولا شاكرًا، والشُّكرُ أنْ تشكرَ اللهَ على هذا البلاءِ، وهذا أمرٌ قد يبدو للإنسانِ مستحيلًا؛ إذ كيف يشكرُ اللهَ على مرضٍ، أو على فقرٍ، أو على موتِ أولادٍ، أو على قلقٍ وخوفٍ؟

قال العلماء: يُتَصَوَّرُ هذا بأن يذكرَ أنَّ هذه المصيبةَ تُكفِّرُ السَّيِّئاتِ، ومع الاحتسابِ تُرْفَعُ الدَّرجاتُ، وأيضًا هذه المصيبةُ عقوبةٌ عُجِّلت له في الدُّنيا، والعقوبةُ إذا عُجِّلت في الدُّنيا فهي أهونُ من تأخيرِها في الآخرِة، فيشكرُ من هذه النَّاحيةِ.

فهذه أحوالُ النَّاسِ عند وجودِ ما يُكْرَهُ من المقضيِّ، أمَّا بالنِّسبةِ لصدورِه من الله -سبحانه وتعالى- فالرِّضا به واجبٌ؛ لأنَّك إن لم ترضَ بذلك فإنَّك لم ترضَ بالله ربًّا، وهذا بالنِّسبة للمصائبِ التي من الله.

أمَّا بالنَّسبة للأفعالِ فهل نرضى بأفعالِ النَّاسِ؟ نقولُ: فيها عدَّةُ أمورٍ: إذا كانت معصيةً لا نرضى بها، ولا يجوزُ الرِّضا بها، وإذا كانت طاعةً وَجَبَ الرِّضا بها؛ لأنَّك لو لم ترضَ بفعلِ العبدِ إذا كان طاعةً فقد كَرِهْتَ حُكْمَ الله، وكراهةُ حُكْمِ الله لا شكَّ أنَّها حرامٌ وقد تكونُ كفرًا، فيجبُ علينا أن نرضى بالطَّاعاتِ، وبذلك نعرفُ الخطورةَ العظيمةَ على أولئك الذين يكرهون من النَّاسِ أن يتطوَّعوا بالعباداتِ، يُوجَدُ من النَّاسِ مَن يمنعون أبناءَهم وبناتِهم من فعلِ الطَّاعِة، يقول مثلًا: لا تَقُمْ باللَّيلِ حتَّى لا تسهر فتتعبَ نفسَك، لا تصم الإثنين والخميس، لا تصم الأيامَ البيضَ؛ لأنَّ هذا تعبٌ، وهذا يشكو منه بعضُ النَّاسِ، فبعضُ النَّاسِ يتَّصلون علينا ويقولون: إنَّ أُمَّنا مَنَعَتْنَا من الصِّيامِ، مَنَعَتْنَا من قيامِ اللَّيلِ، أبونا يقولُ: لا تصوموا، يقولُ: لا تطلبوا العلمَ، لا تذهبوا مع الرِّجالِ الخيِّرين الطَّيِّبين، وهذا خطيرٌ جدًّا؛ لأنَّ هذا مضمونُه كراهةُ الطَّاعِة، وهو خطيرٌ على الإنسانِ.

ولا شكَّ أنَّ الذين يفعلون مثلَ هذا الفعلِ أنَّهم سُفَهاءُ عقولٍ ضِعَافُ دينٍ؛ لأنَّ الذي ينبغي للإنسانِ إذا مَنَّ اللهُ على أبنائِه وبناتِه بالاستقامِة أن يشكرَ اللهَ

ويشجِّعَهم على ذلك؛ لأنَّ هذا خيرٌ له، وقد قال النَّبيُّ ﷺ «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(١).

فصار عندنا الآن بالنِّسبةِ للحكمِ الكونيِّ هل نرضى به أو لا؟ الجوابُ: باعتبارِ صدورِه من الله نرضى به وجوبًا؛ لأنَّه قضاءُ الله، وهو ربُّنا يفعلُ ما يشاءُ، وبالنِّسبةِ للمقضيِّ فيه تفصيلٌ: فإن كان مصائبَ فالنَّاسُ فيها مراتبُ أربعٍ، وإن كان فعلًا من العبدِ فإن كان معصيةً حَرُمَ الرِّضا به، وإن كان طاعةً وَجَبَ الرِّضا به.

فإذا قال قائلٌ: قال اللهُ تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦] الصَّحابةُ كَرِهُوا القتالَ، والقتالُ جهادٌ في سبيلِ الله، كيف يكونُ كُرْهًا؟ نقولُ: إنَّ كُرْهَهم ليس لكتابتِه عليهم، فهم بالنِّسبةِ للكتابةِ راضون وسينفِّذون، لكن هذا كرهٌ طبيعيٌّ، كُلُّ إنسانٍ يكرهُ أنْ يموتَ، لكن من النَّاحيةِ الشَّرعيَّةِ وفرضِ الله إيَّاه ما كَرِهُوا هذا أبدًا، بل يتسابقون إليه، ومن هذا النَّوعِ كونُ النَّبيِّ ﷺ «يَكْرَهُ النَّوْمَ قَبْلَ صَلَاةِ العِشَاءِ وَالحَدِيثَ بَعْدَهَا»(٢)، فإنَّ بعضَ أهلِ العلمِ يقولُ: هذه الكراهةُ ليست كراهةً شرعيَّةً وهي ككراهتِه أكلَ البصلِ والثُّومِ، لكن هذا فيه نظرٌ وفيه تردُّدٌ.

الخلاصةُ: أنَّ الحكمَ نوعان: شرعيٌّ وكونيٌّ؛ فالشَّرعيُّ هو أمرُه الدِّينيُّ الذي جاءت به الرُّسلُ، والكونيُّ ما يقضيه اللهُ تعالى في خَلْقِه وهو دائرٌ بين أمرين لا ثالثَ لهما هما: العدلُ والإحسانُ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الهبات، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب وقت العصر، رقم (٥٢٢)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب استحباب التبكير بالصبح في أول وقتها، رقم (٦٤٧).

الحكمُ بالنِّسبةِ للشَّرعيِّ يجبُ علينا أن نرضىَ به سواءٌ كان مأمورًا به أم منهيًّا عنه، أمَّا الكونيُّ فنقول: أمَّا أصلُ القضاءِ فيجب علينا أن نرضى به؛ لأنَّ هذا من مقتضى رضا الإنسانِ بالله ربًّا، والمقضيُّ فيه التَّفصيلُ؛ فللإنسانِ أربعةُ مقاماتٍ كما سبق، أمَّا المقضيُّ الشَّرعيُّ يجبُ الرِّضا به على كُلِّ حالٍ، لكن إذا وقع من شخصٍ زنا، فوقوع الزِّنا منه حكمٌ كونيٌّ لا شرعيٌّ، فيجبُ علينا أن نرضى بأنَّ اللهَ حرَّمه، ولكن لا نرضى بفعلِ هذا الرَّجلِ له؛ لأنَّ المقضيَّ كما قال ابنُ القيِّم رحمه الله: «**والشَّأَنُ فِي المَقْضِيِّ كُلَّ الشَّانِ**».

٣٢٧٥- فَاللهُ يَرْضَى بِالقَضَاءِ وَيَسْخَطُ الـ ... ـمَقْضِيَّ مَا الأَمْرَانِ مُتَّحِدَانِ

قَوْلُهُ: «**فَاللهُ يَرْضَى بِالقَضَاءِ وَيَسْخَطُ المَقْضِيَّ**»، فهو عزَّ وجلَّ يرضى أنَّه قَضَى على عبادِه بالكفرِ والإيمانِ، ويسخطُ الكفرَ، يرضى -جلَّ وعلا- بكونِه حرَّم الزِّنا، ويكرهُ أن يقعَ الزِّنا، كيف يكرهُ أن يقعَ الزِّنا؟ نعم، يكرهُه شرعًا، لو قال قائلٌ: إذا كان عزَّ وجلَّ يكرهُ الزِّنا فلماذا قَضَى به كونًا؟ نقولُ: قضى به كونًا لحكمةٍ عظيمةٍ كما أنَّه جعل الخلقَ منهم كافرٌ ومنهم مؤمنٌ لحكمةٍ عظيمةٍ، وهو لا يَرْضَى الكفرَ.

قَوْلُهُ: «**مَا الأَمْرَانِ مُتَّحِدَانِ**» هل هذا الإعرابُ مخالفٌ للمشهورِ من لغة العربِ أو موافقٌ؟ الجوابُ: نقولُ: إذا قال لك: إنَّه تميميٌّ انتهى الإشكالُ، وإذا قال لك: إنَّه قرشيٌّ لكنَّه يرى أنَّ المثنىَّ يلزمُ الألفَ مطلقًا، إِذَنْ لها مخرجٌ، إمَّا أن يُقَالَ: إنَّ المؤلِّفَ -رحمه الله- مشى على لغةِ بني تميمٍ، وإمَّا أن يُقَالَ: إنَّه مشى على لغة مَنْ يُلزمون المثنَّى الألفَ مطلقًا، لكنِّي أقول: بالنِّسبة للمؤلِّفين الذين ألَّفوا بعد تغيُّرِ هذا اللِّسانِ يجبُ أن يمشوا على لغةِ قريشٍ التي هي لغةُ القرآنِ، لكن إذا أتاك رجلٌ يريد أن يجادلَ فله مخرجٌ.

٣٢٧٦- فَقَضَاؤُهُ صِفَةٌ بِـهِ قَامَـتْ وَمَـا الــ ـــمَقْضِيُّ إِلَّا صَـــنْعَةُ الإِنْسَـــانِ

قَوْلُهُ: «**فَقَضَاؤُهُ صِفَةٌ بِهِ قَامَتْ**» قضاؤه الذي هو فعلُه عزَّ وجلَّ أو تشريعُه للشَّيءِ صفةٌ قَامَتْ به، وهذا يجبُ الرِّضا به على كُلِّ حالٍ، وليُعْلَم أنَّ قضاءَ الله وإن كان المقضيُّ شرًّا فهو خيرٌ؛ لأنَّ اللهَ وإنْ قَضَى الشَّرَّ فإنَّما يقضيه لحكمةٍ بالغةٍ وغايةٍ محمودةٍ، فهو خيرٌ.

قَوْلُهُ: «**وَمَا المَقْضِيُّ إِلَّا صَنْعَةُ الإِنْسَانِ**»، وفي نسخةٍ: «**صَنْعَةُ الرَّحْمَنِ**»؛ يعني: إلَّا مصنوعٌ، فـ«صنعة» هنا بمعنى مصنوع، أمَّا على نسخة: «**وَمَا المَقْضِيُّ إِلَّا صَنْعَةُ الإِنْسَانِ**» فالمعنى: ما المقضيُّ إلَّا فعلُ الإنسانِ، وهذا صحيحٌ، فيكون المقضيُّ فعلَ الإنسانِ من طاعاتٍ ومعاصٍ.

وعلى نسخة: «**وَمَا المَقْضِيُّ إِلَّا صَنْعَةُ الرَّحْمَنِ**» فصحيحٌ أيضًا كما سبق في المصائبِ، فالمصائبُ من فعلِ الله، وكذلك الطَّاعاتُ والمعاصي من فعلِ العبدِ، ولكنَّها بإرادةِ الله.

٣٢٧٧- وَالكَـوْنُ مَحْبُـوبٌ وَمَبْغُـوضٌ لَـهُ وَكِلاهُمَـــا بِمَشِـــيئَةِ الـــرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «**وَالكَوْنُ مَحْبُوبٌ وَمَبْغُوضٌ لَهُ**»؛ يعني: الواقع كونًا منه ما هو محبوبٌ لله مثل: الطَّاعاتِ، ومنه ما هو مبغوضٌ له كالمعاصي، قال اللهُ تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ كَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةَ المَالِ**»(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة:٢٧٣]، وكم الغنى، رقم (١٤٧٧). ومسلم: كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، رقم (١٧١٥).

قَوْلُهُ: «**وَكِلَاهُمَا بِمَشِيئَةِ الرَّحْمَنِ**»؛ أي: المحبوبُ والمبغوضُ كلاهما بمشيئتِهِ، اجتمع رجلان: أحدهما مبتدعٌ[1]، فلمَّا جلس أو جاء قال: «سُبْحَانَ مَنْ تنزَّه عن الفحشاءِ!»، فهذا الكلامُ ظاهرُه أنَّه صحيحٌ، ففطن له الآخرُ وهو من أهلِ السُّنَّةِ، فقال: «سُبْحَانَ مَنْ لا يكونُ في ملكِه إلَّا ما يشاءُ!»[2]، معنى كلام الأوَّلِ: أنَّ المعاصيَ غيرُ مرادةٍ لله، وهذا أحدُ القولين من مذهب القدريَّةِ؛ لأنَّ القدريَّةَ منهم مَنْ يقولُ: جميعُ أفعالِ العبدِ لا تدخلُ في مشيئةِ الله، ومنهم مَنْ يقولُ: المعاصي لا تدخلُ في مشيئةِ الله؛ لأنَّ اللهَ لا يرضاها، والطَّاعاتُ تدخلُ في مشيئةِ الله.

فقوله: «سُبْحَانَ مَنْ تَنَزَّه عن الفحشاءِ!»؛ يعني: أنَّ المعاصيَ غيرُ مخلوقةٍ لله، وغيرُ مرادةٍ لله، فقال الآخر: «سُبْحَانَ مَنْ لا يكونُ في ملكِه إلَّا ما يشاءُ!»، فقال له الأوَّلُ: أَرَأَيْتَ إنْ منعني الهدى -يعني: لم يهدِني- وقضى عليَّ بالرَّدى أَحْسَنَ إليَّ أم أَسَاءَ؟ السُّؤالُ محرجٌ، فأجابه قائلًا: «**إنْ منعك ما هو لك فقد أَسَاءَ، وإن منعك ما هو فضلُه فذلك فضلُ الله يؤتيه مَن يشاءُ**»، فانقطع الرَّجلُ؛ يعني: قال له: هل لك على الله حقٌّ حتَّى تقولَ: منعني حقِّي؟ الجوابُ: لا، هو فضلُه، واللهُ -سبحانه وتعالى- يُؤتِي فضلَه مَنْ يشاءُ، فيهدي هذا ويهدي هذا، ويُضِلُّ هذا، ولكن اعلم أنَّ اللهَ لا يُضِلُّ إلَّا مَنْ عَلِمَ سبحانه أنَّه أهلٌ للإضلالِ، فيكون قولُه تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام:٣٩] مقيَّدًا بما إذا كان الذي أضلَّه اللهُ غيرَ أهلٍ للهدايةِ، أعاذَنا اللهُ وإيَّاكم من هذا، والدَّليلُ قولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف:٥].

---

(١) هو القاضي عبد الجبار الهمذاني المعتزلي، والآخر هو أبو إسحاق الإسفراييني من أئمة أهل السنة.

(٢) انظر: لوامع الأنوار البهية للسفاريني (١/ ٣٣٩).

فإذا قال قائلٌ: المحبوبُ وقوعُه بمشيئةِ الله لا إشكالَ فيه؛ لأنَّ اللهَ يحبُّه فأوقعه، ولكن المكروهُ كيف يكونُ بمشيئةِ الله؟ نقولُ: من هنا ضَلَّ مَنْ ضَلَّ من النَّاسِ، وقالوا: إنَّ المكروهَ لله لا يقعُ بمشيئتهِ وإنَّ المعاصيَ ليست بمشيئةِ الله، وكيف يشاءُ اللهُ شيئًا لا يرضاه؟

ولكنَّا نقولُ: بل إنَّ اللهَ لا يكونُ في مُلكِه ما لا يريدُ، كُلُّ شيءٍ في ملكِه فهو بإرادةِ الله عزَّ وجلَّ، ولا يخرجُ عن ملكِه شيءٌ، ولكنَّ المرادَ نوعان: مرادٌ لذاتِه، ومرادٌ لغيرِه، فالمحبوبُ مرادٌ لذاتِه، والمكروهُ «المبغوضُ» لله مرادٌ لغيرِه؛ لأنَّ في وقوعِ هذا الشَّيءِ الذي يبغضُه اللهُ ويكرهُه من المصالحِ العظيمةِ ما اقتضت الحكمةُ أن يقعَ من أجلِها، لولا وقوعُ ما يكرهُ اللهُ عزَّ وجلَّ لم يُعْرَف المؤمنُ من الكافرِ ولا المتَّقي من الفاسقِ، فلولا الكفرُ ما عُرِفَ قدرُ الإيمانِ، ولولا الكفرُ ما قامت الدُّنيا والآخرةُ؛ لأنَّ اللهَ خَلَقَ النَّارَ وخلق لها أقوامًا، ولم يقم عَلَمُ الجهادِ ولا الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكرِ، ولم يعرف الإنسانُ قدرَ نعمةِ الله عليه بالإيمانِ، إلى غير ذلك من المصالحِ العديدةِ في وقوعِ الأشياءِ المكروهةِ لله، لكنَّها مرادةٌ لغيرِها؛ أي: لما يترتَّبُ عليها من المصالحِ، وإلَّا فإنَّ اللهَ يريدُ منَّا أن نقضيَ على هذه المعاصي؛ ولهذا أمر بحدِّ الزَّاني، وقطعِ يد السَّارقِ، ورجمِ الزَّاني المُحْصَن، وهكذا، كُلُّ هذا قطعًا لدابرِ هذا الشَّيءِ، لكن الحكمةُ تقتضي وجودَه لما فيه من المصالحِ العظيمةِ.

ونضربُ لهذا مثلًا برجلٍ له طفلٌ يحبُّه حبًّا شديدًا، ويكرهُ أن يخرجَ به إلى الشَّمسِ؛ خوفًا من حرِّها، فمرض الطِّفلُ، فجاء الطَّبيبُ، وقال: لا بُدَّ أن نكويَه في بطنِهِ أو في رأسِه، كيف ذلك مع أنَّ النَّارَ حارَّةٌ، فالرَّجلُ يتَّقي الشَّمسَ خوفًا من أن تحتميَ على ولدِه؟! فهل يَكْرَهُ أبو الطِّفلِ أن يُكْوَى أو لا يَكْرَهُ؟ الجوابُ: يَكْرَهُ

بدون سببٍ، لكن للغايةِ يُحِبُّ أن يُكْوَى، فيقول: اكوِه، فاللهُ عزَّ وجلَّ قد يريدُ الكفرَ والمعاصيَ لغايةٍ حميدةٍ.

٣٢٧٨- هَـذَا البَيَـانُ يُزِيـلُ لَبْسًـا طَالَـمَا هَلَكَـتْ عَلَيْـهِ النَّـاسُ كُـلَّ زَمَـانِ

يبقَى محـيِّرًا للنَّاسِ؛ كيف يريدُ اللهُ ما يكرهُ؟ وكيف يريدُ ما لا يحبُّه؟ لكن المؤلِّفُ -رحمه الله- شَرَحَ هذا البابَ شرحًا وافيًا، وبَيَّنَ أنَّ هناك فرقًا بين القضاءِ والمقضيِّ، وأنَّ القضاءَ كُلَّه محبوبٌ لله تعالى، وأمَّا المقضيُّ فمنه ما هو مكروهٌ ومنه ما هو محبوبٌ، والمبغوضُ مرادٌ لغيرِه، والمحبوبُ مرادٌ لذاتِه.

٣٢٧٩- وَيَحِلُّ مَـا قَـدْ عَقَّـدُوا بِأُصُولِـهِمْ وَبُحُـوثِهِمْ فَافْهَمْـهُ فَهْـمَ بَيَـانِ

يعني: هذا البيانُ يَحِلُّ ما قد عقَّدوا بأصولِهم؛ أي: ما جعلوه مُعَقَّدًا لم يعرفوا أن يتخلَّصوا منه.

٣٢٨٠- مَنْ وَافَـقَ الكَـوْنِيَّ وَافَـقَ سُـخْطَهُ إِنْ لَـمْ يُوَافِـقْ طَاعَـةَ الـدَّيَّانِ

مَنْ وَافَقَ القضاءَ الكونيَّ، وليست هذه الموافقةُ موافقةً لطاعةِ الله، فهذا وقَع في سخطِ الله لكنَّه بقضاءِ الله الكونيِّ، وبهذا نقولُ: العاصي موافقٌ لمرادِ الله الكونيِّ، لكنَّه ليس مُوافقًا لمرادِ الله الشَّرعيِّ، ومرادُه رحمه الله بقوله: «**إِنْ لَـمْ يُوَافِقْ طَاعَةَ الدَّيَّانِ**»؛ يعني: إنْ كان مخالفًا للطَّاعة، وذلك لأنَّ الأشياءَ إمَّا واجبٌ، أو حرامٌ، أو مباحٌ، فمرادُ ابن القيِّم -رحمه الله- الحرامُ.

٣٢٨١- فَلِـذَاكَ لا يَعْـدُوهُ ذَمٌّ أَوْ فَـوَا تُ الحَمْدِ مَعْ أَجْرٍ وَمَعْ رِضْوَانِ

قَوْلُهُ: «**لَا يَعْدُوه**»؛ أي: لا يعدو مَنْ وَافَقَ الكونيَّ ذَمٌّ؛ يعني: لا بُدَّ أن يكونَ مذمومًا؛ لأنَّه خالَفَ الطَّاعةَ.

قَوْلُهُ: «أَوْ فَوَاتُ الحَمْدِ مَعْ أَجْرٍ وَمَعْ رِضْوَانِ»؛ يعني: أو يفوتُه الحمدُ والأجرُ والرِّضوان؛ يعني: فهو إمَّا أن يُذَمَّ إن كان الشَّيءُ الذي فعله مكروهًا، أو يفوتُه الحمدُ والرِّضوان والأجرُ إذا ترك شيئًا محبوبًا.

مثلًا مَنْ زَنَى -نسألُ اللهَ العافيةَ- هذا يلحقه الذَّمُّ، ومَن لم يقم بالواجبِ فإنَّه يفوتُه الحمدُ والأجرُ والرِّضوانُ، وإن كان قد يُذَمُّ من وجهٍ آخرَ.

٣٢٨٢- وَمُوَافِقُ الدِّينِيِّ لا يَعْدُوهُ أَجْـ ـرٌ بَلْ لَهُ عِنْدَ الصَّوَابِ اثْنَانِ

قَوْلُهُ: «وَمُوَافِقُ الدِّينِيِّ لَا يَعْدُوهُ أَجْرٌ» «الدِّينيِّ»؛ أي: الشَّرعيِّ، وصفةٌ لمحذوفٍ تقديرُه: «الأمرِ» أو «الحُكْمِ» الدِّينيِّ، لا يعدوه أجرٌ.

يعني: لا بُدَّ أنْ ينالَ أجرًا بخِلافِ مَنْ وَافَقَ الأمرَ الكونيَّ، فقد يُذَمُّ، وقد يفوتُه الحمدُ والرِّضوان، أمَّا موافقُ الأمرِ الدِّينيِّ فإنَّه لا يعدوه أجرٌ، «بَلْ لَهُ عِنْدَ الصَّوَابِ اثْنَانِ»؛ وذلك إذا أصاب، قال النَّبيُّ ﷺ: «إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ»(١).

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم (٦٩١٩)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم (١٧١٦).

فصل

٣٢٨٣- وَالحِكْمَةُ العُلْيَا عَلَى نَوْعَيْنِ أَيْـ ـضًا حُصِّلَا بِقَوَاطِعِ البُرْهَانِ

٣٢٨٤- إِحْدَاهُمَا فِي خَلْقِهِ سُبْحَانَهُ نَوْعَانِ أَيْضًا لَيْسَ يَفْتَرِقَانِ

٣٢٨٥- أَحْكَامُ هَذَا الخَلْقِ إِذْ إِيجَادُهُ فِي غَايَةِ الإِحْكَامِ وَالإِتْقَانِ

٣٢٨٦- وَصُدُورُهُ مِنْ أَجْلِ غَايَاتٍ لَهُ وَلَهُ عَلَيْهَا حَمْدُ كُلِّ لِسَانِ

٣٢٨٧- وَالحِكْمَةُ الأُخْرَى فَحِكْمَةُ شَرْعِهِ أَيْضًا وَفِيهَا ذَانِكَ الوَصْفَانِ

٣٢٨٨- غَايَاتُهَا اللَّاتِي حُمِدْنَ وَكَوْنُهَا فِي غَايَةِ الإِتْقَانِ وَالإِحْسَانِ

الشرحُ

٣٢٨٣- وَالحِكْمَةُ العُلْيَا عَلَى نَوْعَيْنِ أَيْـ ـضًا حُصِّلَا بِقَوَاطِعِ البُرْهَانِ

٣٢٨٤- إِحْدَاهُمَا فِي خَلْقِهِ سُبْحَانَهُ نَوْعَانِ أَيْضًا لَيْسَ يَفْتَرِقَانِ

لما انتهى الكلامُ على الحُكْمِ شَرَعَ في الكلامِ على الحكمةِ التي هي الإحكامُ، وهي على نوعين: حكمة في الخلقِ، وحكمة في الشَّرعِ، والحكمةُ في الخلقِ أيضًا نوعان: إحكامُ هذا الخلقِ، والثَّاني: الغايةُ من هذا الخلقِ، فهي حكمةٌ ذاتيَّةٌ صوريَّةٌ، وحكمةٌ غائيَّةٌ.

إِذَنْ الحكمةُ إمَّا في ذاتِ الشَّيءِ المخلوقِ أو المشروعِ، وإمَّا في غايتِهِ، فتكونُ الأقسامُ أربعةً وهي: حكمةٌ في المخلوقِ ذاتِه، وحكمةٌ في غايتِه، وحكمةٌ في المشروعِ،

وحكمةٌ في غايتِه.

٣٢٨٥- أَحْكَامُ هَذَا الخَلْقِ إذْ إيجَادُهُ ... فِي غَايَةِ الإِحْكَامِ وَالإِتْقَانِ

تأمَّل السَّماءَ، الأرضَ، الشَّمسَ، القمرَ، النُّجومَ، تجدها كُلَّها بهذا التَّرتيبِ والنِّظامِ مُطابقةً للحكمةِ؛ كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس:٥]، هذا التَّقديرُ المرتَّبُ الذي لا يفوتُ ولا يتغيَّرُ منذ خُلِقَ إلى اليومِ وإلى أنْ يشاءَ اللهُ، وكذلك الشَّمسُ فقد قَدَّرَ اللهُ جرَيانها على فُصولٍ أربعةٍ، النُّجومُ، والإنسانُ وتركيبُه على هذا الشَّكلِ وبهذه القامةِ، وبإيداعِ ما أَوْدَعَهُ اللهُ تعالى في قُواه الظَّاهرةِ والباطنةِ، كونُه على هذا الوجهِ مُوافقٌ للحِكمةِ، فمثَلًا: «**اليد**» لماذا كانت أصابعُها طويلةً وأصابعُ الرِّجلِ قصيرةً؟ الجوابُ: لحكمةٍ؛ لأنَّ اليدَ بها يقبضُ، وبها يأكلُ، وبها يشدُّ وبها يحلُّ، لكن لو كانت أصابعُ الرِّجلِ طويلةً لأشكل على الإنسانِ كيف يمشي؟ لكن جعلَها اللهُ قصيرةً من أجل أنْ تثبتَ على الأرضِ، ولماذا جعل أظفارًا في أطرافِ الأصابعِ؟ الجوابُ: لحكمةٍ، لولا هذه الأظفارُ لتدرَّنت أطرافُ الأصابعِ، وأشياءُ كثيرةٌ، ومَن أراد الزِّيادةَ في هذا الأمرِ فعليه بقراءة كتاب: «**مفتاح دار السَّعادة**» للنَّاظم رحمه الله، ففيه عجائبُ.

والغايةُ من هذا الخلقِ أيضًا حكمةٌ؛ ولهذا قال:

٣٢٨٦- وَصُدُورُهُ مِنْ أَجْلِ غَايَاتٍ لَهُ ... وَلَهُ عَلَيْهَا حَمْدُ كُلِّ لِسَانِ

فصارت الحكمةُ في الخلقِ من وجهين:

الأوَّل: إيجادُ الخلقِ على هذه الصُّورة.

الثَّاني: الغاياتُ من هذا الخلقِ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢].

الشَّرعُ له حكمتان أيضًا:

الحكمة الأولى: كونُه على هذا الوجهِ.

الحكمة الثَّانية: الغايةُ منه.

فكونُه على هذا الوجهِ كصلاةٍ، وزكاةٍ، وصيامٍ، وحَجٍّ، هذه حكمةٌ عظيمةٌ، فالصَّلاةُ على هذا الوصفِ وفي هذا الوقتِ في غايةِ الإتقانِ والإحكامِ، وكونُ الغايةِ منها نَيْلَ الأجرِ والثَّواب وما أشبه ذلك، هي أيضًا حكمةٌ، فهي عملٌ بدنيٌّ محضٌ، وليس فيها عملٌ ماليٌّ إلَّا ما يتمُّ به هذا العملُ البدنيُّ كالماءِ تشتريه بالدَّراهمِ مثلًا، والسُّترةُ كالثِّيابِ وشبهِها، نأتي إلى الزَّكاةِ نجدُها عبادةً ماليَّةً؛ لأنَّ من النَّاسِ مَنْ يهونُ عليه أن يصلِّيَ ألفَ ركعةٍ ويشقُّ عليه أن يتصدَّقَ بدرهمٍ.

ويُقَالُ: إنَّ رجلًا عَثَرَ، وعليه نعلٌ فانقطع أصبعُه، فقال: الحمدُ لله الذي جعله في الأصبعِ لا في النَّعلِ، فالأصبعُ أشدُّ، لكن لا يهمُّه الأصبعُ، بل عنده أنَّ النَّعلَ شديدُ الأهميَّةِ.

وقد نوَّع اللهُ العباداتِ؛ هذه عبادةٌ بدنيَّةٌ، وتلك عبادةٌ ماليَّةٌ، الصِّيامُ يمكنُ للإنسانِ أن يبذلَ شيئًا كثيرًا، ولا يُقَالُ له: لا تأكل، ولا تشرب، لاسيَّما في أيَّامِ الصَّيفِ الطَّويلةِ الحارَّةِ، لكنَّه امتحانٌ، إِذَنْ إذا نظَرْنا إلى الأحكامِ الشَّرعيَّةِ وجدنا أنَّها هي نفسها في غايةِ الإتقانِ، وغاياتُها محمودةٌ.

ويُذْكَرُ أنَّ بعضَ العلماءِ استحسن أمرًا لكنَّه ليس بحسَنٍ، فقد وَجَبَتْ على أحدِ الخلفاءِ كفَّارةٌ فيها عتقٌ ثُمَّ صيامٌ، وهذا الخليفةُ عنده من العبيدِ ما لا يُحْصَى،

فقال هذا العالم: لو أَفْتَيْتُه بإعتاقِ رقبةٍ لكان الأمرُ سهلًا، لكن سأُفتيه بصيامِ شهرين متتابعين، فغلَّطه العلماءُ، هو ظَنَّ أنَّ الكفاراتِ تأديبٌ لتمنعَ الإنسانَ، وقال: إنَّ صيامَ شهرين متتابعين على هذا الخليفةِ أشدُّ من أن يعتقَ رقبةً أو مئةَ رقبةٍ، لكنَّه أخطأ؛ لأنَّ هذا قياسٌ في مقابلةِ النَّصِّ، ولأنَّه لم يتفطن لتحريرِ الرَّقبةِ وتخليصِها من الرِّقِّ، وهذه فائدةٌ عظيمةٌ.

على كُلِّ حالٍ إذا تَأَمَّلْتَ الشَّريعةَ وجدتَها حكمةً في كونِها على هذه الصُّورةِ وهذا الوجهِ.

حكمةٌ غائيَّةٌ؛ أي: الغايةُ منها أيضًا حكمةٌ عظيمةٌ وليس عبثًا، لم يفرض اللهُ عزَّ وجلَّ الجهادَ على الإنسانِ مع كونِه كُرْهًا له لمجرَّدِ أن يعذِّبَه بل لغاياتٍ محمودةٍ، وما الغايةُ؟ قال اللهُ -سبحانه وتعالى-: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧١]، هذه غايةٌ عظيمةٌ؛ ولهذا لـمَّا قال اللهُ عزَّ وجلَّ لعبد الله بن حَرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي قُتل في سبيلِ الله شهيدًا وكَلَّمَه اللهُ عزَّ وجلَّ كِفَاحًا، قال له: «يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ، قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِينِي فَأُقْتَلُ فِيكَ ثَانِيةً، قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّه قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يرْجِعُونَ»[1]، انظُر كيف تمنَّى هذا وهو في الدُّنيا! يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦] لكن تمنَّى هذا؛ لأنَّه وجد الغايةَ الحميدةَ العظيمةَ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب التفسير، باب ومن سورة آل عمران، رقم (٣٠١٠)، وابن ماجه: كتاب افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٩٠).

٣٢٨٧- وَالحِكْمَةُ الأُخْرَى فَحِكْمَةُ شَرْعِهِ أَيْضًا وَفِيهَا ذَانِكَ الوَصْفَانِ

٣٢٨٨- غَايَاتُهَا اللَّاتِي حُمِدْنَ وَكَوْنُهَا فِي غَايَةِ الإِتْقَانِ وَالإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «غَايَاتُهَا اللَّاتِي حُمِدْنَ»، هذه واحدةٌ.

قَوْلُهُ: «وَكَوْنُهَا فِي غَايَةِ الإِتْقَانِ وَالإِحْسَانِ» نفسُ الشَّرائعِ كُلُّها حكمةٌ عظيمةٌ مُتْقَنَةٌ على أكملِ وَجْهٍ، فيها إحسانٌ وليس فيها ظُلْمٌ، بل كُلُّها إحسانٌ؛ ولهذا قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾ [الرَّحمن:٦٠]، فهي إحسانٌ للعبادِ حتَّى إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أعطى عبادَه قاعدةً عامَّةً فقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، وقال: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦]، ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب:٥]، وغايةُ القيامِ بهذه العباداتِ هي السَّعادةُ في الدُّنيا والآخرةِ؛ ولذلك لا تجدُ أسعدَ حياةً ممَّن يقومُ بهذه الأعمالِ بالدِّين الإسلاميِّ، واتلُ قولَ الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل:٩٧] هذه الدُّنيا، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النَّحل:٩٧] هذه الآخرةُ، النَّاس كُلُّهم ينشدون أن يحيوا حياةً طيِّبةً، حتَّى الكفار يريدون ذلك لكن لا يمكنُ ذلك إلَّا بهذين الشَّرطين: العملِ الصَّالحِ المبنيِّ على الإيمانِ ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النَّحل:٩٧]؛ ولذلك لا تجدُ أسعدَ حياةً ولا أنعمَ بالًا ولا أشدَّ طمأنينةً في قلبٍ من المؤمنِ الذي يعملُ الصَّالحاتِ، اللَّهُمَّ اجعلنا منهم يا ربَّ العالمين.

المؤلِّف -رحمه الله- بدأ في الحكمةِ في الخلقِ، بدأ بالحكمةِ الأولى، وفي الشَّريعةِ بدأ بالحكمةِ الثَّانيةِ وهي الغاية، والظَّاهرُ لي -واللهُ أعلمُ- أنَّه ما قَصَدَ بهذا شيئًا، وإنَّما ضيقُ النَّظمِ أَوْجَبَ له أن يبدأَ بهذا وبهذا.

وقد أنكر قومٌ من المبتدعةِ الحكمةَ في غايتِه، وقالوا: إنَّ الحكمةَ غرضٌ، واللهُ -سبحانه وتعالى- منزَّهٌ عن الأغراضِ، إذا قلت: إنَّه فَعَلَ كذا لكذا فمعناه أنَّه فَعَلَ لِغَرَضٍ، واللهُ مُنزَّهٌ عن الأغراضِ، والواجبُ أن تعتقدَ أنَّ اللهَ فَعَلَ هذا الشَّيءَ أو شَرَعَ هذا الشَّيءَ لمجرَّدِ مشيئةٍ فقط رجَّحت مثلًا على مثلٍ بلا سببٍ، أَوْجَبَتْ هذا بلا سببٍ، حرَّمت هذا بلا سببٍ، ولا يجوزُ أن تقولَ: إنَّ اللهَ حرَّم كذا لكذا، لماذا؟ قالوا: لأنَّ هذا نقصٌ، فكونُ الله يفعلُ الشَّيءَ للشَّيءِ، هذا نقصٌ، بل قل: إنَّ اللهَ يفعلُ ما يشاءُ لمجرَّدِ المشيئةِ.

ولكنَّ الحقيقةَ أنَّ هذا القولَ باطلٌ؛ لأنَّه يبطلُه آياتٌ كثيرةٌ ونصوصٌ كثيرةٌ، فكُلُّ شيءٍ فيه لامُ التَّعليلِ فهو دَالٌّ على الحكمةِ، وكُلُّ شيءٍ فيه «**من أجل**» فهو دالٌّ على الحكمةِ كقولِه تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [المائدة:٣٢]، وكقول النَّبيِّ: «**لَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الآخَرِ حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ**»(١)، إلى غيرِ ذلك، ثُمَّ نقولُ: أيُّهما أكملُ مَنْ يفعلُ لغيرِ مصلحةٍ أو مَنْ يفعلُ لمصلحةٍ؟ الجوابُ: الثَّاني، والأوَّل سفهٌ، فدعواهم أنَّ هذا نقصٌ دعوى باطلة، بل نقولُ: هذا هو الكمالُ، وكونُه عزَّ وجلَّ يفعلُ شرعًا أو خَلْقًا لحكمةٍ هذا هو غايةُ الكمالِ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء:١٦]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون:١١٥]، والآياتُ في هذا كثيرةٌ، حتَّى العقل يَدُلُّ على ثبوتِ الحكمةِ لله عزَّ وجلَّ، كونُها

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب لا يتناجى اثنان دون الثالث، رقم (٥٩٣٠)، ومسلم: كتاب السلام باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه، رقم (٢١٨٣).

على هذا الوضعِ هذا حكمةٌ لا شكَّ، القمرُ قدَّره اللهُ منازلَ لنعلمَ عددَ السِّنين والحسابَ، الشَّمسُ قَدَّرَ اللهُ جريانها على فصولٍ أربعةٍ، كونُ الإنسانِ نفسِه معتدلَ القامةِ وله يدان، وهَلُمَّ جرًّا، هذا حكمةٌ.

ولذلك نقولُ: الصُّدفةُ في فعلِ الله ليس لها حقيقةٌ، ولا يجوزُ أن يكونَ شيءٌ في فعلِ الله صدفةً؛ لأنَّ كُلَّ شيءٍ من فعلِ الله معلومٌ عنده وواقعٌ بإرادتِه، وفعلُ الله مُطْلَقٌ، أمَّا بالنِّسبة لنا فتقعُ الأشياءُ صُدفةً، أحيانًا لا يعرفُ الإنسانُ شيئًا ومع ذلك ينجحُ في عملِه، أحيانًا لا يكونُ في خاطرِك أن توافقَ رجلًا من النَّاسِ ثُمَّ تصادفُه، أحيانًا تحفر بئرًا ويُصادفُك حجرٌ صلبٌ، المهمُّ المصادفةُ في حقِّ الإنسانِ واردةٌ لقصورِ علمِه، أمَّا في حقِّ الله فليست واردةً؛ لأنَّه عزَّ وجلَّ لا تصدرُ الأشياءُ منه إلَّا عن علمٍ؛ ولهذا لا يُنْكَرُ على مَنْ قال: «**وَجَدْتُ فلانًا صدفةً**»؛ لأنَّه يريدُ باعتبارِه لنفسِه، لا باعتبار أنَّ اللهَ قَدَّرَ أن يُلاقيَه، فهو باعتبارِ فعلِ الله ليس صدفةً، وباعتبارِ المخلوقِ صدفةٌ.

***

فصـــل

٣٢٨٩- وَهُوَ الـحَيِيُّ فَلَيْسَ يَفْضَـحُ عَبْـدَهُ عِنْـدَ التَّجَـاهُرِ مِنْـهُ بِالعِصْـيَانِ

٣٢٩٠- لَكِنَّـــهُ يُلْقِـــي عَلَيْـــهِ سِـــتْرَهُ فَهُـو السِّـتِيرُ وَصَـاحِبُ الغُفْـرَانِ

٣٢٩١- وَهُوَ الـحَلِيمُ فَـلا يُعَاجِـلُ عَبْـدَهُ بِعُقُوبَـــةٍ لِيَتُـــوبَ مِـــنْ عِصْـــيَانِ

٣٢٩٢- وَهُوَ العَفُوُّ فَعَفْـوُهُ وَسِـعَ الـوَرَى لَـــوْلاهُ غَـــارَ الأَرْضَ بِالسُّـــكَّانِ

٣٢٩٣- وَهُـوَ الصَّـبُورُ عَـلَى أَذَى أَعْدَائِـهِ شَـــتَمُوهُ بَـــلْ نَسَـــبُوهُ لِلبُهْتَـــانِ

٣٢٩٤- قَـالُوا لَـهُ وَلَـدٌ وَلَـيْسَ يُعِيـدُنَا شَـــتْمًا وَتَكْـــذِيبًا مِـــنَ الإِنْسَـــانِ

٣٢٩٥- هَـــذَا وَذَاكَ بِسَـــمْعِهِ وَبِعِلْمِـــهِ لَـوْ شَـاءَ عَـاجَلَهُمْ بِكُـلِّ هَـوَانِ

٣٢٩٦- لَكِـنْ يُعَـافِيهِمْ وَيَـرْزُقُهُمْ وَهُـمْ يُؤْذُونَـــهُ بِالشِّـــرْكِ وَالكُفْـــرَانِ

الشـــرحُ

٣٢٨٩- وَهُوَ الحَيِيُّ فَلَيْسَ يَفْضَـحُ عَبْـدَهُ عِنْـدَ التَّجَـاهُرِ مِنْـهُ بِالعِصْـيَانِ

٣٢٩٠- لَكِنَّـــهُ يُلْقِـــي عَلَيْـــهِ سِـــتْرَهُ فَهُـو السِّـتِيرُ وَصَـاحِبُ الغُفْـرَانِ

من أسماءِ الله عزَّ وجلَّ «الحَيِيُّ»، وهو من الحياءِ وليس من الحياةِ، وهنا «حيٌّ وحَيِيٌّ ومُحيي» تشتبهُ على بعضِ النَّاس؛ فيظنُّون أنَّ «المُحيي» هو «الحيُّ» وأنَّ «الحيَّ» هو «الحَيِيُّ»، وهذا خطأٌ، فـ «المحيي» الذي يخلقُ الحياةَ في غيرِه، و«الحيُّ»

هو المتَّصفُ بالحياةِ؛ ولهذا الفعلُ من الأوَّل «أحيا»، ومن الثَّاني: «حَيَّ»، وأمَّا «الحَيِيُّ» فمن الحياءِ وليس من الإحياءِ ولا من الحياةِ.

قَوْلُهُ: «الحَيِيُّ»: اسمٌ من أسماءِ الله، لقولِ النَّبيِّ ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُمْ تَبارَكَ وَتَعالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا»[1]؛ يعني: يستحيي اللهُ عزَّ وجلَّ إذا رَفَعْتَ يديك إليه تسأله أن يردَّهُما صفرًا، لا بُدَّ أن يجزيَك على هذا الدُّعاءِ إمَّا أجرًا، وإمَّا حصولَ مطلوبٍ، وإمَّا أن يدفعَ عنك من الشَّرِّ ما هو أعظم، فلا يفوتُ الدَّعاءُ بلا فائدةٍ، فهو حَيِيٌّ، وفي القرآنِ الكريمِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة:٢٦]، وفيه أيضًا: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب:٥٣]، فالحياءُ ثابتٌ لله عزَّ وجلَّ.

فإذا قال قائلٌ: الحياءُ انكسارٌ وتطامنٌ وتهاونٌ، فكيف يَلِيقُ بالله؟ الجوابُ: هذا حياءُ المخلوقِ، أمَّا حياءُ الخالقِ فليس كمثلِه شيءٌ.

انتبه حتَّى لا يقولُ لك المعطِّلُ: إنَّك إذا وَصَفْتَ اللهَ بالحياءِ فقد وَصَفْتَهُ بالنَّقصِ؛ لأنَّ الحياءَ انكسارٌ يعتري الإنسانَ عند فعلِ ما يُسْتَحْيَا منه، فيُقَالُ: هذا حياءُ المخلوقِ، أمَّا حياءُ الله فإنَّه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فإن قال قائلٌ: «الحَيِيُّ» عادةً يخجلُ من الأفعالِ التي تتعلَّقُ به، فيُقَالُ: و«الحَيِيُّ» أيضًا يخجلُ من أفعالِ غيرِه؛ ولهذا تجدُ الإنسانَ «الحَيِيَّ» يخجلُ أن يحكيَ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم (١٤٨٨). والترمذي: أبواب الدعوات، باب، رقم (٣٥٥٦). وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب رفع اليدين في الدعاء، رقم (٣٨٦٥).

ذُنوبَ الآخرينِ، فكيف إذا كان له حقُّ العقوبةِ؟! فتجده يستحي أن يُعَاقِبَ غيرَه، فلهذا كان «الحَيِيُّ» صفةَ كمالٍ؛ لأنَّه يدلُّ على كمالِ سترِ الله عزَّ وجلَّ ورحمتِه بعبدِه، ولولا ذلك لافتضح النَّاسُ.

لو كان كُلُّ ما يعلمُه اللهُ منَّا ينشرُه ما مشينا على الأرضِ، ولكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ حَيِيٌّ كريمٌ يستحيي أن يفضحَ عبدَه بالعقوبةِ.

ثُمَّ ذكر مثالًا على هذا فقال: «**لَيْسَ يَفْضَحُ عَبْدَهُ عِنْدَ التَّجَاهُرِ بِالعِصْيَانِ**».

والله ما أكثرَ ذنوبَنا الخفيَّةَ حتَّى قال القحطانِيُّ رحمه اللهُ:

وَالله لَوْ عَلِمُوا خَبِيءَ سَرِيرَتِي ... لأَبَى السَّلَامَ عَلَيَّ مَنْ يَلْقَانِي[1]

يعني: لو يعلمون ما عندي ما سلَّموا عليَّ، وما أكثرَ الذَّنوبَ الخفيَّةَ القلبيَّةَ والجوارحيَّةَ! ولكنَّ اللهَ -ولله الحمدُ- يُضْفِي سترَه على العبدِ، يستحيي -سبحانه وتعالى- أن يفضحَ عبدَه؛ لعلَّه يتوبُ إلى الله عزَّ وجلَّ، لكنَّه يُلقي عليه سترَه فهو السَّتِيرُ وصاحبُ الغفرانِ.

«**وَالسِّتِير**» من أسماءِ الله، «**والسَّاتِرُ**» من أوصافِه، وأمَّا «**السَّتَّار**» فلم أعلم أنَّه وَرَدَ بهذا اللفظِ، لكنَّه من الأوصافِ التي لا تنطبقُ إلَّا على الله عزَّ وجلَّ، ويظهرُ أثرُ هذا السِّتر يومَ القيامة فإنَّ اللهَ يخلو بعبدِه المؤمنِ ويحاسبُه، ويقولُ: «**فَعَلْتَ كَذَا فِي يَوْمِ كَذَا حتَّى يُقِرَّ**»، ثُمَّ يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: «**إِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَإِنِي أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ**»[2].

---

(١) نونية القحطاني البيت (١٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨]، رقم (٢٣٠٩)، ومسلم: كتاب التوبة قبول توبة القاتل وإن كثر قتله رقم، رقم (٢٧٦٨).

٣٢٩١- وَهُوَ الحَلِيمُ فَلا يُعَاجِلُ عَبْدَهُ بِعُقُوبَةٍ لِيَتُوبَ مِنْ عِصْيَانِ

من أسماءِ الله «**الحليمُ**»، وهو في القرآنِ الكريمِ، ويَقْرِنُ اللهُ تعالى بينه وبين «**الغفور**».

و«**الحَلِيمُ**» من الحِلْمِ، وهو سَعَةُ النَّفَسِ، وعدمُ التَّعجيلِ والأَخْذِ بالعقوبةِ؛ ولهذا يقولُ النَّاسُ للأميرِ إذا كان لا يُعاجلُ بالعقوبةِ: «**فلانٌ حليمٌ واسعُ الحِلْمِ**»، وهو قريبٌ من معنى التَّأنِّي؛ يعني: أنَّه إذا فَعَلَ الإنسانُ الذَّنبَ لا يُعاقبُه كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥]، ولكنَّه يُمهِلُ فلا يُعَاجِلُ ليتوبَ العبدُ ويكون عنده فسحةٌ يتمكَّنُ من التَّوبةِ قبل أنْ تأخذَه العُقوبةُ، فإذا تَابَ إليه مُحِيَت السَّيِّئةُ، بل إنَّ الإنسانَ إذا عَمِلَ عَمَلًا صالحًا من المكفِّراتِ كالصَّلاةِ مُحِيَت السَّيِّئةُ، وهذا من حِلْمِ الله عزَّ وجلَّ، ولكن مع ذلك هو عزَّ وجلَّ يُمْلِي للظَّالمِ فيستمرُّ في معصيتِه حتَّى يأخذَه أَخْذَ عزيزٍ مُقْتَدرٍ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم:٤٤]، وقال: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف:١٨٣]؛ ولذلك يجبُ على العبدِ أنْ يُلاحِظَ نفسَه إذا رأى النِّعمَ تَتْرَى عليه وهو مُقَصِّرٌ، فليعلم أنَّ هذا استدراجٌ من الله عزَّ وجلَّ، فليقلع عن المعصيةِ وليتُبْ إلى الله قبل أن يؤاخذَه بالعقوبةِ.

٣٢٩٢- وَهُوَ العَفُوُّ فَعَفْوُهُ وَسِعَ الوَرَى لَوْلاهُ غَارَ الأَرْضَ بِالسُّكَّانِ

«**العَفُوُّ**» من أسماءِ الله تعالى أيضًا، وهو كثيرٌ في القُرآنِ، فما معنى «**العَفُوُّ**»؟ فسَّره المؤلِّفُ -رحمه الله- بقولِه: «**فَعَفْوُهُ وَسِعَ الوَرَى**»، وهو قريبٌ من «**الحَليمِ**»؛

يعني: يتجاوزُ عن عبدِه إذا ترك الواجبَ؛ ولهذا يُقَالُ: «عفوٌّ غفورٌ»، «العفوٌّ» في جانبِ الأوامرِ، إذا فَرَّطَ فيها الإنسانُ ولم يفعلْها عَفَا اللهُ عنه، و«الغفور» في جانبِ المعاصي، إذا فَعَلَهَا العبدُ سترها اللهُ عزَّ وجلَّ، ومحا عنه أثرَها.

من أسمائِه تعالى العفوُّ، وهو عزَّ وجلَّ يحبُّ العفوَ، وقد عَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ أمَّ المؤمنين عائشةَ أن تقولَ، حينَ سَأَلَتْهُ مَاذَا تَقُولُ إِنْ وَافَقَتْ لَيْلَةَ القَدْرِ؟ أن تقولَ: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي»[1]، «تُحِبُّ العَفْوَ»؛ يعني: أن تعفوَ عن العبادِ، أو أن يعفوَ عن العبادِ وأن يعفوَ العبادُ بعضُهم عن بعضٍ؟ الجوابُ: كِلَا الأمرين جميعًا، فهو يُحِبُّ أن يعفوَ عن عبدِه، ويحبُّ من العبدِ أن يعفوَ عن إخوانِه، قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن:١٤].

إِذَنْ العَفُوُّ هو المتجاوِزُ عن سيِّئاتِ عبادِه مع القُدرةِ على الانتقامِ منهم؛ ولهذا جمع اللهُ بينهما في قولِه: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النِّساء:١٤٩]، والعفوُ مع القدرةِ هو الذي يُمْدَحُ، أمَّا العفوُ مع العجزِ فهو نقصٌ.

إِذَنْ العفوُ هو التَّجاوزُ عن سيِّئاتِ العبادِ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشُّورى:٢٥].

٣٢٩٣- وَهُوَ الصَّبُورُ عَلَى أَذَى أَعْدَائِهِ شَتَمُوهُ بَلْ نَسَبُوهُ لِلبُهْتَانِ

قَوْلُهُ: «الصَّبُورُ» بوزن «فَعُول» من الصَّبرِ، فهو صفةٌ مُشَبَّهَةٌ، أو صِيغةُ مبالغةٍ، والصَّبرُ قريبٌ من الحِلْمِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٧١)، والترمذي: كتاب الدعوات، بعد باب ما جاء في عقد التسبيح باليد، رقم (٣٥١٣)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب الدعاء بالعفو والعافية، رقم (٣٨٥٠).

هو الصَّبورُ على أذى أعدائِه، فلا يُعاجِلُهم بالعقوبةِ، و«الصَّبُورُ» لم يَرِدْ بهذا اللَّفظِ، لكنَّه ورَد بلفظٍ آخَرَ أخَذه المؤلِّفُ -رحمه الله- من قولِ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم: «لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ»[1]، فـ«أَصْبَرُ» اسمُ تفضيلٍ، فـ«الصَّبُورُ»: من أوصافِه، فهو -سبحانه وتعالى- يصبرُ على أذى أعدائِه مع أنَّهم شتموه وسبُّوه وكذَّبوه.

٣٢٩٤- قَالُوا لَهُ وَلَدٌ وَلَيْسَ يُعِيدُنَا شَتْمًا وَتَكْذِيبًا مِنَ الإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «قَالُوا: لَهُ وَلَدٌ»، وهو ليس له ولدٌ.

قَوْلُهُ: «وَلَيْسَ يُعِيدُنَا»؛ أي: في البعثِ، وهو يُعيدُهم.

فابنُ آدمَ شَتَمَ اللهَ وليس له ذلك، وكَذَّبَ اللهَ وليس له ذلك، فالشَّتمُ في قولِهم: إنَّ له ولدًا؛ لأنَّ دعوى أنَّ له ولدًا؛ يعني: وصفَه بالنَّقصِ؛ إذ لا يحتاجُ للولدِ إلَّا مَنْ كان ناقصًا لبقاءِ ذكرِه بذرِّيَّتِهِ، أو لاستعانتِهِ بولدِه، أو ما أشبه ذلك؛ ولهذا إذا لم يكن للإنسانِ ولدٌ انقطع ذكرُه بموتِهِ ولم يُذْكَرْ.

فهم إذا قالوا: إنَّ اللهَ له ولدٌ فهو شتمٌ وعيبٌ وسبٌّ، أمَّا التَّكذيبُ فهو قولُهم: إنَّه لن يُعيدَنا إذا مِتنا، قال اللهُ تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون:٨٢]، فهم يُنكرون هذا، وهذا تكذيبٌ؛ لأنَّ اللهَ أخبر بأنَّه سيُعِيدُ الخلائقَ يومَ القيامةِ، لكنَّهم كذَّبوا، ومع ذلك فهو عزَّ وجلَّ صابرٌ عليهم؛ ولهذا قال النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم: «لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ»، سبحان الله! مع أنَّه قادرٌ على الأَخْذِ، قادرٌ على الانتقامِ، لو أنَّ أحدًا آذانا وشتمنا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الصبر على الأذى، رقم (٥٧٤٨)، ومسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لا أحد أصبر على أذى من الله عزَّ وجلَّ، رقم (٢٨٠٤).

وكذَّبنا ما صبرنا، بل أخذنا منه باليمينِ، لكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ مع تمامِ قدرتِه -تبارك وتعالى- يصبرُ على أذى أعدائِه، «**قَالُوا: لَهُ وَلَدٌ**» وهل له ولدٌ؟ الجوابُ: لا، هو نفسُه عزَّ وجلَّ نفى أن يكونَ له ولدٌ لكن كذَّبوه.

«**قَالُوا: لَيْسَ يُعِيدُنَا**»؛ يعني: يومَ القيامة، حتَّى أنكروا، وأقاموا الشُّبهَ، وقالوا: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]، وقوله: ﴿وَهِىَ رَمِيمٌ﴾، هذه حُجَّةٌ لهم، لكنَّها في الواقع شبهةٌ وليست بحُجَّةٍ؛ ولهذا أُجيبوا بقولِه تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩]، هذه واحدةٌ، وهذا أكبرُ دليلٍ.

مَن الذي أنشأها أوَّلَ مرَّةٍ؟

الجوابُ: اللهُ، إعادتُها أسهلُ وأهونُ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الرُّوم:٢٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٧٩- ٨٣].

وقد ذَكَرَ اللهُ سبعةَ أدلَّةٍ عقليَّةٍ حِسِّيَّةٍ تدلُّ على إمكانِ ذلك:

الدَّليلُ الأوَّل: قولُه تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩]، فهذا لكن كيف نُركِّبُ الدَّليلَ؟ الجوابُ: القادرُ على الابتداءِ قادرٌ على الإعادةِ.

الدَّليلُ الثَّاني: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩]، وهذا دليلٌ أيضًا؛ لأنَّ الذي لا يقدرُ قد يكونُ جاهلًا، فقال اللهُ: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩]، فهو عالـمٌ كيف يخلقُ هذا العَظْمَ الذي صار رَمِيمًا حتَّى يكونَ سليمًا.

الدَّليلُ الثَّالثُ: قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس:٨٠]، الشَّجرُ الأخضرُ يكونُ نارًا ينقدحُ، وكانوا فيما سبَق يقدحون النَّارَ من هذا الشَّجرِ الأخضرِ، يكون فيه زندٌ - وقد أدركتُ الزَّندَ وهو حديدةٌ عريضةٌ إلى حَدٍّ ما، يُضربُ بها الشَّجرةَ المعروفةَ التي تُسْتَخْرَجُ منها النَّارُ، إذا ضرب هذا اشتعلت النَّارُ من الشَّجرِ الأخضرِ، والشَّجرُ الأخضرُ فيه ضدَّان للنَّارِ: الرُّطوبةُ والبرودةُ، والنَّارُ حارَّةٌ ويابسةٌ، فالقادرُ على أن يُخْرِجَ هذه النَّارَ الحارَّةَ اليابسةَ من هذا الشَّجرِ الرَّطبِ الباردِ قادرٌ على أنْ يُعيدَ الإنسانَ، وأكَّد اللهُ عزَّ وجلَّ ذلك بقولِه: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس:٨٠]، يعني: ليس أمرًا مفروضًا، بل هو أمرٌ واقعٌ.

الدَّليلُ الرابعُ: قولُه تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس:٨١] هذا دليلٌ، وأعظمُ دليلٍ، قال اللهُ تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]، وإذا كان قادرًا على أن يخلقَ السَّماواتِ والأرضَ ونحن الآن خُلِقْنَا من الأرضِ فهو قادرٌ على أن يُعيدَنا.

الدَّليلُ الخامسُ: قولُه تعالى: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس:٨١]، وهذا أيضًا تأكيدٌ لقولِه: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩]؛ يعني: هو أيضًا من أسمائِه أنَّه خلَّاقٌ تامُّ القدرةِ على الخلقِ عليمٌ.

الدَّليلُ السَّادسُ: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، والذي أمرُه هكذا لا يستحيلُ أن يُعيدَ، بل بكلمةٍ واحدةٍ يخرجُ النَّاسُ كُلُّهم، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣]، في أيِّ مكانٍ من الأرضِ، صَيْحة واحدة:

احضروا، فيحضرون، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النَّازعات:١٣-١٤]؛ أي: على وجهِ الأرضِ، كلمةٌ واحدةٌ بإذنِ الله تُحيي هذه الخلائقَ من أوَّلِهم إلى آخِرِهم في هذه اللَّحظةِ، ومَنْ هذه قدرتُه هل يستحيلُ أن يعيدَ الإنسانَ؟ الجوابُ: لا.

الدَّليلُ السَّابعُ: قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يس:٨٣]؛ أي: تنزيهًا له، وبيدِه ملكوتُ كُلِّ شيءٍ أن يَعْجَزَ عن إعادةِ الإنسانِ بعد أن كان رميمًا، فهذه سبعةُ أدلَّةٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٨٣] هذا دليلٌ عقليٌّ في الواقعِ؛ لأنَّنا لو فرضنا أنَّ إعادةَ العظامِ بعد كونِها رَميمًا محالٌ لكان خلقُ النَّاسِ عَبَثًا لا فائدةَ منه، لكن لا بُدَّ من رجوعٍ إلى الله، لا بُدَّ أن نُخْلَقَ مرَّةً أخرى، فنرجع إلى الله عزَّ وجلَّ، فانظر كيف كان تقريرُ هذا الأمرِ العظيمِ؟! وهم يقولون: إن اللهَ ليس بقادرٍ، ومع ذلك يقولُ المؤلِّف رحمه الله:

٣٢٩٥- هَـذَا وَذَاكَ بِسَـمْعِهِ وَبِعِلْمِـهِ ... لَـوْ شَـاءَ عَـاجَلَهُمْ بِكُـلِّ هَـوَانِ

قَوْلُهُ: «هَذَا وَذَاكَ بِسَمْعِهِ وَعِلْمِهِ»؛ يعني: «قولُهم: إنَّ لَهُ ولدًا»، وقولُهم: «لن يُعِيدَنا».

قَوْلُهُ: «لَـوْ شَـاءَ عَاجَلَهُمْ بِكُلِّ هَـوَانِ»؛ أي: بكُلِّ عقوبةٍ، وبكُلِّ عذابٍ تُهينُهم.

٣٢٩٦- لَكِـنْ يُعَـافِيهِمْ وَيَـرْزُقُهُمْ وَهُـمْ ... يُؤْذُونَـهُ بِالشِّـرْكِ وَالكُفْـرَانِ

سبحانه وتعالى ما أصبرَ الله!

وقول المؤلِّف: «يُؤْذُونَهُ» يجب أنْ نعلمَ أنَّ الأذى غيرُ الضَّررِ، فلا أحدَ يضرُّ اللهَ كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٧٦]، وفي الحديثِ القدسيِّ: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي»(١)، بخلاف الأذى فإنَّه ثابتٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب:٥٧]، وقال تعالى في الحديثِ القدسيِّ: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ»(٢)، والأذيَّةُ لا تستلزمُ الضَّررَ، والدَّليلُ على ذلك الواقعُ، يتأذَّى الإنسانُ برائحةِ البصلِ والكرَّاثِ، ولكن لا يتضرَّرُ بذلك، يتأذَّى إذا كان بجوارِه مُصَلٍّ التصق به التصاقًا وقد أكل ثومًا أو بصلًا حتَّى لا يكاد يتحرَّك، فلا شكَّ أنَّه يتأذَّى بهذا، ولكن لا يتضرَّرُ به، فلا يلزمُ من الأذيَّةِ الضَّررُ؛ ولذلك ثَبَتَت الأذيَّةُ في حقِّ الله عزَّ وجلَّ، ونُفِيَ الضَّررُ.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]، رقم (٤٥٤٩)، ومسلم: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦).

فصل

٣٢٩٧- وَهُوَ الرَّقِيبُ عَلَى الخَوَاطِرِ وَاللَّوَا ... حِظِ كَيْفَ بِالأَفْعَالِ بِالأَرْكَانِ

٣٢٩٨- وَهُوَ الحَفِيظُ عَلَيْهِمُ وَهُوَ الكَفِيـ ... ـلُ بِحِفْظِهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عَانِي

٣٢٩٩- وَهُوَ اللَّطِيفُ بِعَبْدِهِ وَلِعَبْدِهِ ... وَاللُّطْفُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ

٣٣٠٠- إِدْرَاكُ أَسْرَارِ الأُمُورِ بِخِبْرَةٍ ... وَاللُّطْفُ عِنْدَ مَوَاقِعِ الإِحْسَانِ

٣٣٠١- فَيُرِيكَ عِزَّتَهُ وَيُبْدِي لُطْفَهُ ... وَالعَبْدُ فِي الغَفَلاتِ عَنْ ذَا الشَّانِ

الشرحُ

٣٢٩٧- وَهُوَ الرَّقِيبُ عَلَى الخَوَاطِرِ وَاللَّوَا ... حِظِ كَيْفَ بِالأَفْعَالِ بِالأَرْكَانِ

«الرَّقيبُ» من أسماءِ الله أيضًا، وفي القرآنِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب:٥٢]، فهو عزَّ وجلَّ رقيبٌ يُراقِبُ الخواطرَ واللَّواحظَ والأفعالَ، ذَكَرَ ثلاثةَ أشياءَ: الخواطرَ في القلبِ، واللَّواحظَ في العينِ، والأركانَ في بقيَّةِ الأعضاءِ، ولهذا قال: «كَيْفَ بِالأَفْعَالِ بِالأَرْكَانِ؟!».

فهو -سبحانه وتعالى- رقيبٌ على خَواطِرِنا، على ما في قلوبِنا؛ لقولِ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦]، وكذلك اللَّواحظ لقولِ الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩]، وهذه الآيةُ فيها دليلٌ لهذا ولهذا، كيف بالأفعالِ؟ من باب أولى؛ يعني: حركاتُنا الآن يراها اللهُ عزَّ وجلَّ ويراقبُها -تبارك وتعالى-، فما من إنسانٍ يتحرَّكُ في أيِّ مكانٍ ولا من

مَلَكٍ ولا من أيِّ شيءٍ يتحرَّكُ إلَّا واللهُ -سبحانه وتعالى- يعلمُه ويراقبُه، وهذا دليلٌ على إحاطتِه -سبحانه وتعالى- بكُلِّ شيءٍ علمًا.

٣٢٩٨- وَهُوَ الحَفِيظُ عَلَيْهِمُ وَهُوَ الكَفِيـ ـلُ بِحِفْظِهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عَانِي

كذلك هو «حفيظٌ» و«كفيلٌ»، وهل في القُرآنِ اسمُ الله «الحفيظ»؟ الجوابُ: نعم، موجودٌ في القرآنِ، قال اللهُ تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٦٤]، فهو حفيظٌ عليهم.

والحفيظُ له معنيان: حفيظٌ عليهم، وحفيظٌ لهم، حفيظٌ عليهم؛ يعني: يحفظُ أعمالَهم ويُحْصِيها عليهم، وسيخبرُهم بها يومَ القيامة ويحاسبُهم عليها، وحفيظٌ لهم؛ يعني: يحفظُهم من كُلِّ الأمورِ، وهذا يكونُ بنفسِه جلَّ وعلا، أو برُسُلِه من الملائكةِ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١]، فكُلُّ واحدٍ منَّا له ملائكةٌ يتعاقبون ليلًا ونهارًا ويجتمعون في صلاةِ الفجرِ وصلاةِ العصرِ ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بأمرِ الله عزَّ وجلَّ، هذا حفظُ الكفالةِ.

كذلك ملائكةٌ يحفظون الأعمالَ، قال اللهُ تعالى: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الانفطار:٩-١٢]، وهذا من حفظِ الإحصاءِ، أنَّه يُحْصِي الأعمالَ ويحفظُها.

كذلك يحفظُهم من الآفاتِ، من كُلِّ أمرٍ يشقُّ عليهم إذا هم أَتَوْا بأسبابِ الحفظِ، من ذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ «أَخبَرَ أَنَّ الأذانَ يطردُ الشَّيطانَ»(١)، وفي الحديثِ:

(١) كما في حديث: «إِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا سَمِعَ الأَذَانَ أَدْبَرَ وَلَهُ ضُرَاطٌ». أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل التأذين، رقم (٦٠٨)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه، رقم (٣٨٩).

«إِذَا تَغَوَّلَتِ الغِيلَانُ فَبَادِرُوا بِالأَذَانِ»(١)، والغِيلانُ هي أجسامٌ يتخيَّلُها النَّاسُ في الأسفارِ ويخافون منها، ولكنَّها شياطين تُخِيفُ الإنسانَ، فإذا كبَّر الإنسانُ هَرَبَتْ ولم يرها، وأقرَّ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الكُرْسِيِّ لَنْ يَزَالَ عَلَيْهِ مِنَ الله حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ»(٢)، وحَدَّثَنِي مُؤَذِّنُ هذا المسجدِ جدُّ مؤذِّنِنا الموجود الآن، وهو صَدُوقٌ وعَدْلٌ، قال: إنَّه كان يحافظُ على قراءةِ آيةِ الكرسيِّ في كُلِّ ليلةٍ، وفي ليلةٍ من الليالي لَدَغَتْهُ عقربٌ، يقولُ: ففكَّرتُ، وإذا أنا قد نسيتُ آيةَ الكرسِيِّ تلك الليلة، سبحان الله! هذا شيءٌ واقعٌ، فدلَّ هذا على أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يحفظُ الإنسانَ، لكن هناك أسبابٌ كقراءةِ آيةِ الكرسيِّ.

٣٢٩٩- وَهُوَ اللَّطِيفُ بِعَبْدِهِ وَلِعَبْدِهِ ... وَاللُّطْفُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ

٣٣٠٠- إِدْرَاكُ أَسْرَارِ الأُمُورِ بِخِبْرَةٍ ... وَاللُّطْفُ عِنْدَ مَوَاقِعِ الإِحْسَانِ

من أسماءِ الله تعالى «اللَّطيفُ»، و«اللَّطيفُ» له معنيان بحسَب ما يتعدَّى بالحرفِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف:١٠٠]، فهو لطيفٌ بعبدِه ولطيفٌ لعبدِه، أمَّا اللَّطيفُ بعبدِه فمعناه أنَّه يُدْرِكُ أسرارَ أمورِ العبادِ بخبرةٍ تامَّةٍ؛ لأنَّه لطيفٌ بهم، عليمٌ بخَبايا أمورِهم ودَقائقِ أحوالِهم، واللَّطيفُ لعبدِه أنَّه يُيسِّرُ له ويُمَهِّدُ له الأشياءَ التي يندفعُ بها الشَّرُّ ويحصلُ بها الخيرُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف:١٠٠]، قال ذلك يوسفُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلام- حين جَمَعَ به أهلَه، فصار «اللَّطيفُ» الذي في أسماءِ الله له معنيان:

المعنى الأوَّل: اللُّطفُ بالعبدِ، وهو إدراكُ أسرارِه وأحوالِه.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٥، رقم ١٤٣١٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلا، رقم (٢٣١١).

المعنى الثَّاني: اللُّطفُ للعبدِ، وهو أنَّه -سبحانه وتعالى- يُقَدِّرُ له ما به تتيسَّرُ الأمورُ ويحصلُ المطلوبُ؛ إمَّا بجلبِ المحبوبِ أو بدفعِ المكروهِ.

وهنا مسألة، وهي: أنَّ كثيرًا ما يقولُ النَّاسُ في الدُّعاءِ: «**يا لطيفُ يا لطيفُ**» فأيَّ المعنيين يريدون؟ **الجوابُ**: الغالبُ أنَّهم يريدون باللَّامِ.

٣٣٠١- فَيُرِيكَ عِزَّتَهُ وَيُبْدِي لُطْفَهُ   وَالعَبْدُ فِي الغَفَلاتِ عَنْ ذَا الشَّانِ

قَوْلُهُ: «**فَيُرِيكَ عِزَّتَهُ وَيُبْدِي لُطْفَهُ**» الله أكبر، يُريكَ عزَّتَه وغلبتَه وأنَّه لا غالبَ له، ويُنْزِلُ بك الأشياءَ، وإذا باللُّطفِ يأتي من الله، كم من إنسانٍ انهدم عليه الجدارُ، وهذه مصيبةٌ، وإذا بالله عزَّ وجلَّ يُيَسِّرُ له ما ينقذُه من سقوطِ هذا الجدارِ، كذلك في حوادثِ السَّيَّاراتِ، كم من إنسانٍ حصل عليه حادثٌ عظيمٌ عظيمٌ عظيمٌ وإذا بالله ينجِّيه، أحيانًا تجدُ في الطُّرقاتِ حوادثَ سيَّاراتٍ لا تُصَدِّقُ أنَّ أحدًا ينجو منها، ثُمَّ تُحَدَّثُ أنَّ أصحابَها قد نَجَوْا.

أحيانًا يَرِدُ شيءٌ من أسبابِ النَّجاة لا يخطرُ بالبالِ، حدَّثنا مَنْ نَثِقُ به، ولا بأسَ بالحديثِ في هذا، يقولُ: التقت سيَّارةٌ صغيرةٌ وسيَّارةُ نقلٍ كبيرٍ «**تريلا**» وكانت الكارثةُ، طبعًا السَّيَّارةُ الكبيرةُ عجنت الصَّغيرةَ، فلمَّا حصلت الصَّدمةُ انفتح البابُ الذي عند السَّائقِ، والسَّائقُ بدون اختيارٍ طار، وإذا هو بعيدٌ عن الخطِّ فَسَلِمَ، لا شكَّ أنَّ هذا من لطفِ الله، أنَّه إذا جاءت الأمورُ الصَّعبةُ لا تدري إلَّا واللهُ قد لَطَفَ بك؛ ولهذا قال: «**فَيُرِيكَ عِزَّتَهُ**»، وأنَّ الأمرَ أمرُه عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «**وَالعَبْدُ فِي الغَفَلَاتِ عَنْ ذَا الشَّانِ**» إي والله، في غفلةٍ، ما أكثر ما نجدُ من عزَّةِ الله عزَّ وجلَّ، ثُمَّ ننجو ويغفل الإنسانُ عن هذا، فلا يذكرُ هذه النِّعمةَ إلَّا حين وجودِها قليلًا.

فصل

٣٣٠٢- وَهُوَ الرَّفِيقُ يُحِبُّ أَهْلَ الرِّفْقِ بَلْ ... يُعْطِيهِمُ بِالرِّفْقِ فَوْقَ أَمَانِ

٣٣٠٣- وَهُوَ القَرِيبُ وَقُرْبُهُ الْمُخْتَصُّ بِالدْ ... دَاعِي وَعَابِدِهِ عَلَى الإِيمَانِ

٣٣٠٤- وَهُوَ الْمُجِيبُ يَقُولُ مَنْ يَدْعُو أُجِبْـ ... ـهُ أَنَا الْمُجِيبُ لِكُلِّ مَنْ نَادَانِي

٣٣٠٥- وَهُوَ الْمُجِيبُ لِدَعْوَةِ الْمُضْطَرِّ إِذْ ... يَدْعُوهُ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلانِ

٣٣٠٦- وَهُوَ الجَوَادُ فَجُودُهُ عَمَّ الوُجُو ... دَ جَمِيعَهُ بِالفَضْلِ وَالإِحْسَانِ

٣٣٠٧- وَهُوَ الجَوَادُ فَلا يُخَيِّبُ سَائِلًا ... وَلَوَ انَّهُ مِنْ أُمَّةِ الكُفْرَانِ

٣٣٠٨- وَهُوَ الْمُغِيثُ لِكُلِّ مَخْلُوقَاتِهِ ... وَكَذَا يُجِيبُ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ

الشرحُ

٣٣٠٢- وَهُوَ الرَّفِيقُ يُحِبُّ أَهْلَ الرِّفْقِ بَلْ ... يُعْطِيهِمُ بِالرِّفْقِ فَوْقَ أَمَانِ

«الرَّفيقُ»: اسمٌ من أسماءِ الله، لكن هل هذا الاسمُ مأخوذٌ من قول النَّبيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى»؟[1] الظَّاهرُ أنَّ حديثَ: «اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى، اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى»، هكذا وَرَدَ أيضًا يُرَادُ به النَّبيُّون والصِّدِّيقون والشُّهداءُ والصَّالحون؛ لقولِه تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، رقم (٤١٧٢)، ومسلم: كتاب السلام، باب استحباب رقية المريض، رقم (٢١٩١).

مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النِّساء:٦٩]؛ لأنَّ قولَه: «أَلْـحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الأَعْلَى»(١) لا يُسْتَعْمَلُ بمعنى: أَلْـحِقْنِي بالله؛ يعني: لو قال: «اللَّهُمَّ أَلْـحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الأَعْلَى» إذا قلنا: الرَّفيقُ الأعلى هو اللهُ صار معنى الحديثِ: «اللَّهُمَّ أَلْـحِقْنِي بِالله»، وطلبُ الإلحاقِ للرُّسلِ بالصَّالحين كما قال يوسفُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١]، ويُؤَيِّدُ هذا الرِّوايةُ الأخرى: «اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى»، و«فِي» للظَّرفيَّة، فالصَّحيحُ أنَّ هذا الحديثَ ليس المرادُ به: أَلْـحِقْنِي بنفسِك يا ربِّ، بل أَلْـحِقْنِي بالنَّبِيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداءِ والصَّالحين.

أمَّا إنَّ اللهَ رفيقٌ فهذه قد يُقَالُ: إنَّها اسمٌ كما قلنا في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ [البقرة:١٧٣]: إنَّ «الغفورَ» اسمٌ من أسماءِ الله، وقد يُقَالُ: إنَّها صفةٌ بمعنى أنَّها وَصْفٌ له بالرِّفقِ وليست اسمًا؛ لأنَّ الغفورَ وردت نكرةً كما في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٣]، ووردت معرفةً كما في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس:١٠٧]، ولا شَكَّ أنَّ المُعَرَّفَ اسمٌ، لكن الذي يُشْكِلُ على بعض النَّاسِ إذا كان مُنكَّرًا مثل: «إنَّ اللهَ غفورٌ، إنَّ اللهَ رفيقٌ»، هل نقولُ: إنَّ هذا وصفٌ؛ يعني: أنَّه اسمُ فاعلٍ فقط، وهو كقولِنا: «إنَّ اللهَ متكلِّمٌ»؛ أي: أنَّه مُخْبَرٌ عن الله بأنَّه رفيقٌ، أو أنَّ هذا من أسماءِ الله؟

كلامُ العلماءِ -رحمهم اللهُ- في هذا محتملٌ؛ فمنهم مَنْ يرى أنَّ ما لم يُعَرَّفْ بـ«أل» فليس من الأسماءِ، وما عُرِّفَ بـ«أل» فهو اسمٌ، وهذا القولُ في الحقيقةِ قويٌّ، ومنهم مَنْ قال: ما غلب عليه الوصفُ فهو اسمٌ، وما غلب عليه الفعلُ فهو صفةٌ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، بعد باب ما جاء في عقد التسبيح باليد، رقم (٣٤٩٦)، وابن ماجه: كتاب الجنائز، باب ما جاء في ذكر مرض رسول الله ﷺ، رقم (١٦١٩).

على كُلِّ حالٍ لا شَكَّ أَنَّك تُخْبِرُ عن الله بأنَّه رفيقٌ، وأنَّ مِن وَصْفِه الرِّفقَ، وقد جعله النَّوويُّ -رحمه الله- اسمًا وصفةً.

وهو -جلَّ وعلا- رفيقٌ بعبادِه، ويُحِبُّ أهلَ الرِّفقِ، بل يُحِبُّ الرِّفقَ في الأمرِ كُلِّه، ويعطي الإنسانَ بالرِّفق فوقَ أمانٍ؛ أي: فوق ما يتمنَّاه؛ يعني: يعطيه فوق أمانيه.

يظنُّ بعضُ النَّاسِ أنَّ الرِّفقَ المقصودَ، وأنَّه دليلٌ على عدمِ الغيرةِ، لكنَّ هذا ظنٌّ باطلٌ، بل إنَّ الرِّفقَ يدلُّ على الحكمةِ والتَّروِّي وعدمِ السُّرعةِ؛ ولهذا ثبَت عن النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ «**إنَّ اللهَ يُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى العُنْفِ**»[1]، وهذا شيءٌ مُشَاهَدٌ، إذا عَامَلْتَ النَّاسَ بالرِّفقِ حصل لك الخيرُ الكثيرُ، وإذا عامَلْتَهم بالعنفِ شردوا عنك وكرهوك وأبغضوك ولم تُحصِّل فائدةً.

والرِّفقُ هو التَّأنِّي في الأمورِ، ومعالجتُها باللِّينِ والرِّقَّةِ وما أشبه ذلك، وضدُّ الرِّفقِ: العنفُ والشِّدَّةُ والصَّلف.

وفي الحديثِ أنَّ يهوديًّا مَرَّ بالنَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّم- وعنده عائشةُ فقال: السَّامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّد، قالها بسرعةٍ، وكَانَ اليَهودُ إذا سَلَّمُوا يَقُولُون: السَّامُ عَلَيْكَ؛ أي: الموت، عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مِنْ مَحَبَّتِها لِلرَّسُولِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وَغَيْرَتِهَا عَلَيْهِ، قَالَتْ لِلْيَهُودِيِّ: عَلَيْكَ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، رَضِيَ اللهُ عنها أَعْطَتْهُ الصَّاعَ بِصَاعَيْنِ، ولكنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ نَهَاهَا، وَقَالَ لَهَا: «**إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ**»[2].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق، رقم (٢٥٩٣).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، رقم (٢٥٩٣).

نحن نقولُ: إِذَا قالَ اليهودِيُّ: السَّامُ عَلَيْكُمْ، نقولُ: وَعَلَيْكُمْ، فنكون أحسنَ ردًّا منهم؛ لأنَّهم صرَّحوا بالسَّامِ بالاسمِ المكروه، أمَّا نحن فقلنا: «**وَعَلَيْكُمْ**» وهذا أحسنُ، لكن تؤدِّي معناها تمامًا؛ ولهذا أَتَيْنَا بالواوِ العاطفةِ «**وَعَلَيْكُمْ**»، فيجبُ أن نقولَ في سَلام أهلِ الكتابِ أو غيرِهم من الكُفَّارِ: «**وَعَلَيْكُمْ**»، ولا نقول: «**عَلَيْكُمْ**»، والواوُ حرفُ عطفٍ على ما سبق.

فأنت إذا كنتَ رفيقًا نِلْتَ بذلك فائدَتَيْنِ عظيمَتَيْنِ:

أوَّلًا: محبَّة الله عزَّ وجلَّ، فإنَّ اللهَ يحبُّ الرِّفْقَ وأهلَ الرِّفْقِ.

ثانيًا: أنَّك تنالُ برفْقِكِ ما لا تنالُ بعنفِك، فلا تتعجَّلْ ولا تتسرَّعْ، لا تأخذْك الغَيْرَةُ والعاطفةُ على عدمِ الرِّفق، تأنَّ وارفقْ في كُلِّ أمورِك حتَّى في نفسِك، ارفُقْ بنفسِك.

إِذَنْ عليك بالرِّفقِ، وكم من إنسانٍ أدرك بالرِّفقِ خيرًا كثيرًا سَواءٌ في أهلِه، أو في نفسِه، أو فيمَنْ يدعوهم إلى الله، أو فيمَنْ يَأمرُهم بالمعروفِ ويَنهاهم عن المنكرِ، حتَّى في نفسِك، إذا رَفَقْتَ بنفسِك أَدْرَكْتَ خيرًا كثيرًا، لعلَّه مَرَّ عليكم، وفي حديث عبدِ الله بن عمرو بن العاص أنَّه قال لمحبَّتِه للخيرِ: «وَاللهِ لأَصُومَنَّ النَّهارَ مَا عِشْتُ وَلأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عِشْتُ»، فَدَعَاه الرَّسُولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ونهاه عن هذا، وآخِر ما تنازل معه أنَّه قال: «**صُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا، إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**»، عبدُ الله بنُ عمرو بن العاص كَبِرَ وتقدَّمت به السِّنُّ، وكان يتمنَّى أنَّه قَبِلَ رُخْصَةَ الرَّسُولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والرَّسُولُ قَالَ لَهُ: «**ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ**»، لكن لحماسِه ورغبتِه، قال: لا، أُطيقُ أكثرَ من هذا، قال: لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ النَّبِيِّ ﷺ[1]، اجتهد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ماذا صنع في آخِرِ حَياتِه صار

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم، رقم (١٨٧٤)، ومسلم: كتاب الصيام باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به، رقم (١١٥٩).

يصومُ خَمْسَةَ عَشَرَ يومًا تِبَاعًا، ويُفْطِرُ خَمْسَةَ عَشَرَ يومًا، ونرجو اللهَ تعالى أن يعفوَ عنه، وإلَّا فهو فَارَقَ الرَّسولَ على أن يصومَ يومًا ويُفْطِرَ يومًا، لكن شَقَّ عليه ذلك، وصار يصومُ خَمْسَةَ عَشَرَ يومًا تِباعًا، ويُفْطِرُ خَمْسَةَ عَشَرَ يومًا تِباعًا.

وكذلك الرِّفقُ في أهلِك أيضًا، انظُر إلى رِفقِ الرَّسولِ ﷺ بأهلِه، كيف يُدْخِلُ عليهم السُّرورَ، يُساعِدُهم في البيتِ، يَخْصِفُ النَّعلَ ويحلبُ الشَّاةَ، ويكونُ في مِهْنَةِ أَهْلِهِ في البيتِ حتَّى يأتيَ وقت الصَّلاةِ[1]، مَنْ مِنَّا يفعلُ هذا؟!

انظر لـمَّا جاء الحَسَنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والرَّسُولُ ﷺ ساجدٌ في الجماعةِ ركب على ظهرِه، جعله راحلةً له، فتركه الرَّسولُ ﷺ حتَّى قضى نهمتَه، ولـمَّا نزل قَامَ[2]، مَنْ مِنَّا يفعلُ هذا؟!

المهمُّ عليك يا أخي بالرِّفق في معاملةِ نفسِك وأهلِك وقومِك، واعلم أنَّه لو لم يكن لك من الرِّفق إلَّا أنَّ اللهَ يُحِبُّه لكان كافيًا، فكيف وهو يُعْطِي على الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي على العُنْفِ، لا تَحْمِلْكَ الغَيْرَةُ على العُنفِ والشِّدَّةِ، اضبط أعصابَك، لا تتوتَّرْ، وارفقْ في كُلِّ موطنٍ يكونُ فيه الرِّفقُ.

٣٣٠٣- وَهُوَ القَرِيبُ وَقُرْبُهُ المُخْتَصُّ بِالـدْ ... دَاعِـي وَعَابِـدِهِ عَـلَى الإِيمَانِ

من أسماءِ الله تعالى «القريبُ»، وهو موجودٌ في القُرآنِ، و«القريبُ» في اللُّغةِ ضدُّه «البعيدُ»، ونحن نؤمنُ بأنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- فوق كُلِّ شيءٍ على عرشِه،

(١) كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ -تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ- فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ». أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج، رقم (٦٤٤).

(٢) أخرجه النسائي: كتاب التطبيق، باب هل يجوز أن تكون سجدة أطول من سجدة، رقم (١١٤١).

فكيف يمكنُ أن يكونَ قريبًا بعيدًا؟ والجوابُ على هذا سهلٌ، وهو قولُه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، فيمكنُ أن يكونَ قريبًا وهو بعيدٌ كما قال شيخُ الإسلام -رحمه الله- في «العقيدة الواسطيَّة»: «إنَّ اللهَ تعالى ليس كَمِثْلِهِ شيءٌ في جميعِ نعوتِه -أي: جميعِ صفاتِه- وَهوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّهِ، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ»[1]، إذا كانت السَّماواتُ السَّبعُ والأرضون السَّبعُ في كَفِّه -جلَّ وعلا- كخردلةٍ في كفِّ أحدِنا فهو قريبٌ بعيدٌ، فقربُه لا يُنافي علوَّه؛ لأنَّ اللهَ ليس كمثلِه شيءٌ، ومَنْ قال: إنَّ قربَه ينافي علوَّه فقد شبَّه اللهَ بخلقِه؛ لأنَّ الذي قربُه ينافي علوَّه هم الخلق، أمَّا الخالقُ فلا، فهو قريبٌ مع علوِّه عزَّ وجلَّ.

ولكن هل القُربُ كالمعيَّةِ عامٌّ وخاصٌّ أم القُربُ أخصُّ من المعيَّة؟ الجوابُ: الثَّاني، القربُ أخصُّ من المعيَّةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يَذْكُرْ لنفسِه قربًا عامًّا، بل ذَكَرَ قربَه -سبحانه وتعالى- بالدَّاعِي والعابدِ، فقال جلَّ وعلا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]؛ يعني: إذا سألوك، إذا دعوني: هل أنا بعيدٌ أو قريبٌ؟ فأَخْبِرْهُم أنِّي قريبٌ أُجيبُ دعوةَ الدَّاعي إذا دعانِ، هذا قُرْبُه من سائلِه وداعيه، وهذا **هو القربُ الأوَّلُ**.

القربُ الثَّاني: قربُه من عابدِه، وعليه يدلُّ قولُه صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم: «**أَقْرَبُ ما يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ**»[2].

فالله قريبٌ من عابدِه ومن داعيه، قريبٌ من داعيه يستجيبُ له، وقريبٌ من عابدِه يقبلُ منه سبحانه وتعالى، قال النَّبيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- حين رفع

(١) العقيدة الواسطيَّة لشيخ الإسلام ابن تيميَّة (ص:٨٦).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٢).

أصحابُه أصواتَهم بالتَّكبيرِ، وأزعجوا أنفسَهم وشقُّوا عليها، قال: «أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا؛ إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»[1]، وعنقُ الرَّاحلةِ وأنت راكبٌ عليها مِنْ أقربِ شيءٍ لك، لكنَّ اللهَ أقربُ إليك من هذا، ولكن لا تظن أنَّ هذا القربَ الذي بيَّنَه الرَّسولُ -عليه الصَّلاة والسَّلام- يُنافي علوَّ الله؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ محيطٌ بكُلِّ شيءٍ، ولا يُماثِلُه أحدٌ من مخلوقاتِه، صحيحٌ أنَّ الشَّيءَ إذا كان بعيدًا في السَّماءِ فإنَّه ليس قريبًا لك أقرب من عنقِ الرَّاحلةِ، هذا باعتبارِ المخلوقِ، لكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يُقَاسُ بخلقِه، لا تَظُنُّ أنَّ كونَه فوق عرشِه ينافي كونَه أقربَ إلى الإنسانِ من عنقِ راحلتِه، أبدًا لا تظنُّ هذا، بل قل: آمَنْتُ بالله بعلوِّه وبقربِه؛ لأنَّ اللهَ ليس كمثلِه شيءٌ في جميعِ نعوتِه، وأنت إذا تصوَّرتَ -ويجبُ أن تتصوَّرَ- أنَّ السَّماواتِ السَّبعَ والأرضين السَّبعَ في كَفِّه عزَّ وجلَّ كالخردلةِ في كَفِّ أحدِنا، إِذَنْ كُلُّ شيءٍ عنده؛ أي: في قبضتِه، وهو قريبٌ من الإنسانِ إذا كان يدعوه أو إذا كان يعبُدُه.

أمَّا قُرْبُه القُرْبُ العامُّ بأن نقولَ: قريبٌ من كُلِّ أحدٍ فلا، لم يَرِدْ هذا في القُرآنِ والسُّنَّةِ؛ لأنَّ القربَ أخصُّ من المعيَّةِ، هل يمكنُ أنْ نقولَ: إنَّ اللهَ قريبٌ من الكافرِ؟ الجوابُ: لا يمكنُ، لكن نقولُ: إنَّ اللهَ مع الكافرِ بالمعيَّةِ العامَّةِ.

وقال بعضُ أهلِ العلمِ: إنَّ القُرْبَ كالمعيَّةِ ينقسمُ إلى قُرْبٍ عامٍّ وهو قربُ الإحاطةِ بجميعِ الخلقِ، وإلى قُرْبٍ خاصٍّ وهو قربُ الله -تبارك وتعالى- لعابدِه

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٢ رقم ١٩٦١٤) واللفظ له، البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير، رقم (٢٩٩٢)، ومسلم: كتاب الذكر، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٤).

وداعِيه، واستدلُّوا لقولِهم بقولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، فـ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ عامٌّ، والضَّمير «نحن» يعودُ على الله، و ﴿حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ هو العِرْقُ الغليظُ الذي في رقبتِنا، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة:٨٣-٨٥]، وهذا عامٌّ بدليلِ أنَّه جاء بعدها التَّقسيمُ ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الواقعة:٨٨-٩٢]، ولكنَّ شيخَ الإسلامِ -رحمه الله- ردَّ هذا القولَ وقال في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ [البقرة:١٨٦]، ﴿قَرِيبٌ﴾ متحمِّلةٌ للضَّميرِ الذي يعودُ على الله عزَّ وجلَّ، «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»، فقال: «مِنْ رَبِّهِ» ولم يقل: من علمِ رَبِّه.

ولكن يجبُ أن نعلمَ أنَّ اللهَ لا يُقَاسُ بخَلقِه، فهو فوق كُلِّ شيءٍ، وهو قريبٌ ممَّن يعبدُه ويدعوه، ولا مُنافاةَ؛ لأنَّ اللهَ ليس كمثلِه شيءٌ، ولأنَّ اللهَ محيطٌ بكُلِّ شيءٍ، والذي في يدِه السَّماواتُ والأرضون كخردلةٍ في يدِ الواحدِ مِنَّا معناه أنَّه محيطٌ بكُلِّ شيءٍ.

وهذه القاعدةُ -أعني: أنَّ اللهَ إذا أَضَافَ الفعلَ أو الوصفَ إلى نفسِه اختصَّ به نفسه- ذكرها ابنُ القيِّم -رحمه الله- في مختصر «الصَّواعق المرسلة»، وهذا هو الواقعُ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ [الأعراف:٥٤] فالخلقُ صادرٌ منه؛ لأنَّه أَضَافَهُ إلى نفسِه، فكُلُّ شيءٍ أَضَافَهُ اللهُ لنفسِه فهو لنفسِه حقيقةً، ولكنَّه لا ينافي كمالَ صفاتِه، واللهُ أعلمُ.

إِذَنْ ابنُ القيِّم -رحمه الله- هنا قال: إنَّ القربَ خاصٌّ وليس بعامٍّ، فاللهُ قريبٌ من داعيه، قريبٌ من عابدِه، ودليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦].

٣٣٠٤- وَهُوَ المُجِيبُ يَقُولُ مَنْ يَدْعُو أُجِبْـ ـهُ أَنَا المُجِيبُ لِكُلِّ مَنْ نَادَانِي

هو عزَّ وجلَّ مجيبُ الدَّعواتِ، فادْعُ اللهَ بإخلاصٍ وافتقارٍ وإيمانٍ بأنَّه عزَّ وجلَّ قادرٌ على أن يُعطيَك فيجيبك، لكن الكلام على صدقِ الدُّعاءِ، لأنَّ بعضَ النَّاسِ يدعو يريدُ أن يُجرِّبَ هل يُجابُ أو لا يُجابُ؟ لكن ادْعُ اللهَ بإخلاصٍ وأنت مُوقِنٌ بالإجابةِ، لكن الإجابةُ لها شروطٌ من أهمِّها اجتنابُ أكلِ الحرامِ، فإِنَّ أكلَ الحرامِ يحولُ بين المرءِ وبين إجابةِ الدُّعاءِ، قال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وإِنَّ اللهَ أَمَرَ المُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ المُرْسَلِينَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون:٥١]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ النَّبيُّ ﷺ **«الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!»**[1]، استبعد النَّبيُّ ﷺ أنْ يستجيبَ اللهُ تعالى لهذا الرَّجُلِ مع أنَّه فَعَلَ أسبابَ الإجابةِ؛ فهو مسافرٌ أشعثُ أغبرُ، رافعٌ يديه إلى الله عزَّ وجلَّ، يقولُ: يا ربِّ يا ربِّ، ومع ذلك لم يُجَبْ.

والآن لا تكادُ تجدُ مَنْ لا يأكلُ الحرامَ إلَّا نادرًا، فإن جِئْتَ للموظَّفِ تجدُ أنَّه رُبَّما لا يحضرُ إلَّا نصفَ الوقتِ أو ثلاثة أرباعِ الوقتِ، وهذا حرامٌ، فما زاد على

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم (١٠١٥).

وقتِ الحضورِ فهو حرامٌ، إن جِئْتَ للموظَّفِ وإذا هو يأخُذُ انتِدابات ليس لها أصلٌ ولا يتعدَّى مكانَه، ويُصْرَفُ له، وهذا حرامٌ، إن جِئْتَ للمعاملاتِ فإذا هي غشٌّ وربا وغير ذلك، ولذلك استبعد النَّبِيُّ ﷺ أن يُجابَ؛ لأنَّه كان يأكلُ الحرامَ ويتغذَّى به.

«**إِذَنْ مَنْ يَدْعُونِي أُجِبْهُ**» لكن بشروطٍ كما سبق، المهمُّ أنَّ هناك مَوانعَ أخرى أيضًا منها: ضعفُ الإيمانِ واليَقينِ، فقد يدعو النَّاسُ ربَّهم وهم في شَكٍّ من إجابتِهِ فكيف يجيبُهم؟! ثُمَّ إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد يمنعُ الإجابةَ المعيَّنةَ التي طلبها السَّائلُ ويدَّخر له ما هو أفضل، أو تكونُ هناك عقوبةٌ انعقدت أسبابُها فيدفعُها اللهُ عنه بسببِ الدُّعاءِ.

قَوْلُهُ: «**فَأَنَا المُجِيبُ لِكُلِّ مَنْ نَادَانِي**» ولاسيَّما في ثُلُثِ اللَّيلِ الآخِر، فإنَّه -جلَّ وعلا- ينزلُ إلى السَّماءِ الدُّنيا، ويقول: «**مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**»(١).

٣٣٠٥- وَهُوَ المُجِيبُ لِدَعْوَةِ المُضْطَرِّ إِذْ يَدْعُوهُ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلَانِ

المضطرُّ هو الذي ألجأَتْه الضَّرورةُ إلى الدُّعاءِ، وهو في كُلِّ موضعٍ بحسَبِه، ففي قولِه تعالى في أكلِ الميتةِ: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ﴾ [المائدة:٣]، «**اضْطُرَّ**»؛ يعني: ألجأَتْه الضَّرورةُ إلى أكلِ الميتةِ، وهنا ألجأته الضَّرورةُ إلى الدُّعاءِ، وظاهرُ النُّصوصِ أنَّ اللهَ يُجيبُ دعوةَ المضطرِّ ولو كان كافرًا؛ لأنَّه -سبحانه وتعالى-

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

سَبقَتْ رحمتُه غضبَه، لَدَليلَيْن: **الأوَّل**: عامٌّ، وهو قولُه تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النَّمل:٦٢]؛ لأنَّ المضطرَّ حين الدَّعوة تجدُ قلبَه مملوءًا بالافتقارِ إلى الله عزَّ وجلَّ، وبقُدرتِه عزَّ وجلَّ على الإنقاذ فقد تَمَّ الشَّرطان: حاجةُ العبدِ، وقدرةُ الخالقِ، فيجيبه عزَّ وجلَّ.

والثَّاني: خاصٌّ، كما ذكر اللهُ عزَّ وجلَّ عن المشركين أنَّه ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان:٣٢] فينجيهم، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٦٧]؛ يعني: كُلُّ الآلهةِ التي تدعونها تضيعُ إلَّا الله ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء:٦٧]، يُنجِّيهم اللهُ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّهم مضطرُّون يجيبُهم وهو يعلمُ أنَّهم سيرجعون إلى الشِّركِ، فيجيبُ عزَّ وجلَّ دعوةَ المضطرِّ ولهذا أطلق المؤلِّفُ فقال: «**المجُيبُ لِدَعْوَةِ المُضْطَرِّ إِذْ يَدْعُوه فِي سِرٍّ وَفِي إعْلانِ**».

٣٣٠٦- وَهُوَ الجَوَادُ فَجُودُهُ عَمَّ الوُجُو ... دَ جَمِيعَهُ بِالفَضْلِ وَالإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «**وَهْوَ الجَوَادُ**» «**الجَوَادُ**» من أسماءِ الله كما جاء في الحديثِ القُدسيِّ حديثِ أبي ذرٍّ الغفاريِّ الطَّويلِ قال: «**ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَادٌ مَاجِدٌ عَطَائِي كَلَامٌ وعَذَابِي كَلَامٌ**»(١)، فهو عزَّ وجلَّ جَوادٌ؛ أي: كثيرُ الجودِ والكرمِ.

قَوْلُهُ: «**فَجُودُهُ عَمَّ الوُجُودَ جَمِيعَهُ بِالفَضْلِ وَالإِحْسَانِ**»، ومن جودِه ما نراه من النِّعمِ العظيمةِ التي لا نُحْصِي لها تعدادًا.

أيضًا هو جَوادٌ من وجهٍ آخَرَ، كُلُّ مَنْ قَصَدَ اللهَ عزَّ وجلَّ بإخلاصٍ يسألُه فإنَّه يُجيبُه لجودِه؛ ولهذا نجدُ جودَ الأجوادِ من بني آدمَ -ولله المثَلُ الأعلى- لا يَنْحَصِرُ

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة، بعد باب ما جاء في صفة أواني الحوض، رقم (٢٤٩٥)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، رقم (٤٢٥٧).

على أقاربِهم أو على معارفِهم، وإنَّما يشملُ كُلَّ أحدٍ، تجدُ الرَّجُلَ الكريمَ الجوادَ يجودُ على كُلِّ مَنْ وُجِدَ، وجودُ الله تعالى أعظمُ.

٣٣٠٧- وَهُوَ الجَوَادُ فَلا يُخَيِّبُ سَائِلًا ... وَلَوَ انَّهُ مِنْ أُمَّةِ الكُفْرَانِ

هو الجوادُ فلا يُخيِّبُ سائلًا، ولو كان كافرًا، لكن هذا في حالِ الاضطرارِ، أو فيما إذا دعا الكافرُ وهو مظلومٌ فإنَّ اللهَ يُجِيبُ دعوتَه، والدَّليلُ على ذلك عمومُ قولِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجَابٌ»[1]، هذا من جهةِ النَّصِّ، أمَّا من جهةِ المعنى: فاللهُ عزَّ وجلَّ حَكَمٌ عدلٌ، فيزيلُ ظلمَ الظَّالمِ ولو كان المظلومُ كافرًا؛ ولهذا لو تحاكم رجلان: مسلمٌ وكافرٌ عند القاضي، وكان الحقُّ للكافرِ وَجَبَ عليه أن يقضيَ به على المسلمِ.

٣٣٠٨- وَهُوَ المُغِيثُ لِكُلِّ مَخْلُوقَاتِهِ ... وَكَذَا يُجِيبُ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ

قَوْلُهُ: «المُغِيثُ»؛ يعني: المُنْقِذ من الشِّدَّةِ.

«المُغِيثُ» الظَّاهرُ أنَّه وصفٌ من أوصافِ الله عزَّ وجلَّ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [لقمان:٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٩]، فإذا كان اللهُ تعالى هو المغيثُ فبأيِّ أحدٍ تستغيثُ عند الشِّدَّةِ؟ الجوابُ: بالله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا ضَلَّ مَنْ يستغيثون بالأولياءِ أو بالأنبياءِ أو بالأقاربِ الأمواتِ؛ لأنَّهم لن يغيثوك، ولكنَّ استغاثةَ الإنسانِ بالإنسانِ في أمرٍ يقدرُ عليه هذه جائزةٌ، قال اللهُ تعالى عن موسى عليه السَّلام: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥]، أمَّا ما لا يقدرُ عليه إلَّا اللهُ أو كان

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، رقم (١٤٢٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩).

المُسْتَغَاثُ لا يقدرُ عليه فهذا لا يجوزُ إِلَّا لله وحدَه.

لكن ما الفرقُ بين الشَّطرِ الأوَّلِ والشَّطرِ الثَّاني؟

الجوابُ: الفرقُ بين الشَّطر الأوَّلِ والثَّاني أنَّه يُغيثُ المخلوقاتِ وإن لم تَدْعُ، أمَّا الثَّاني فإنَّه «**يُجِيبُ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ**» فهذا إذا دعا، فاللهُ تعالى يُغِيثُ مَنْ يحتاجُ إلى الغوثِ سواءٌ دعا أم لم يَدْعُ.

* * *

فصل

٣٣٠٩- وَهُوَ الوَدُودُ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُ ... أَحْبَابُهُ وَالفَضْلُ لِلمَنَّانِ

٣٣١٠- وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ المَحَبَّةَ فِي قُلُو ... بِهِمُ وَجَازَاهُمْ بِحُبٍّ ثَانِي

٣٣١١- هَذَا هُوَ الإِحْسَانُ حَقًّا لا مُعَا ... وَضَةً وَلا لِتَوَقُّعِ الشُّكْرَانِ

٣٣١٢- لَكِنْ يُحِبُّ شَكُورَهُمْ وَشُكُورَهُمْ ... لا لاحْتِيَاجٍ مِنْهُ لِلشُّكْرَانِ

٣٣١٣- وَهُوَ الشَّكُورُ فَلَنْ يُضَيِّعَ سَعْيَهُمْ ... لَكِنْ يُضَاعِفُهُ بِلا حُسْبَانِ

٣٣١٤- مَا لِلعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... هُوَ أَوْجَبَ الأَجْرَ العَظِيمَ الشَّانِ

٣٣١٥- كَلَّا وَلا عَمَلٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ ... إِنْ كَانَ بِالإِخْلاصِ وَالإِحْسَانِ

٣٣١٦- إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ، وَالحَمْدُ لِلمَنَّانِ

الشرحُ

٣٣٠٩- وَهُوَ الوَدُودُ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُ ... أَحْبَابُهُ وَالفَضْلُ لِلمَنَّانِ

من أسمائِه عزَّ وجلَّ «الوَدُودُ»، قال اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج:١٤]، وكلمةُ «فَعُول» بمعنى «فاعل»، وبمعنى «مفعول»، بمعنى «فاعلٍ» لقولِه: «يُحِبُّهُمْ»، فهو عزَّ وجلَّ وَادٌّ، وبمعنى «مفعول» لقولِه: «يُحِبُّه أَحْبَابُهُ»، وهو -أيضًا- مودود، والودُّ: خالصُ المحبَّةِ، واللهُ عزَّ وجلَّ وادٌّ؛ أي: يُحِبُّ، ومودودٌ؛ أي: محبوبٌ، فهو عزَّ وجلَّ مُحِبٌّ لأحبابِه، وأحبابُه محبُّون له، قال اللهُ -تبارك وتعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]، فهو -جلَّ وعلا- الودودُ بالمعنيَيْنِ؛ ولهذا قال «**يُـحِبُّـهُمْ وَيُـحِبُّـهُ أَحْبَابُـهُ**»، ولمن الفضلُ؟ الجوابُ: لله عزَّ وجلَّ، فهو الذي جعل المحبَّةَ في قلوبِهم، ثُمَّ مَنَّ عليهم مرَّةً أخرى فأحبَّهم؛ ولهذا قال:

٣٣١٠- وَهُوَ الَّـذِي جَعَـلَ المَحَبَّـةَ فِي قُلُـو ... بِهِـمُ وَجَـازَاهُمْ بِحُـبٍّ ثَـانِي

الحُبُّ الثَّانِي؛ أي: من الله عزَّ وجلَّ، فهم أحبُّوا اللهَ فقاموا بطاعتِه واتِّباعِ رسولِه فأحبَّهم، قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، نزلت في قومٍ ادَّعوا أنَّهم يحبُّون اللهَ تعالى، فأعطاهم اللهُ تعالى ميزانًا: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، وقال: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل: «**اتَّبِعُونِي تَصْدُقُوا فيما قُلْتُم**» مع أنَّ المتوقَّعَ أن يكونَ الجوابُ هكذا: «**اتَّبعوني تَصْدُقُوا فيما قلتم**»، لكنَّه ما قال ذلك، بل قال: ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، وهذه هي الغايةُ.

إِذَنْ محبَّةُ العبدِ لله عزَّ وجلَّ لها مِيزانٌ، وهو اتِّباعُ الرَّسولِ ﷺ ظاهرًا وباطنًا في العقيدةِ والقولِ والعملِ.

مَنِ ادَّعَى محبَّةَ الرَّسولِ وابتدع في دِينِ الرَّسولِ فهو كاذبٌ، نقولُ: لو كنتَ صادقًا في دعواك محبَّةَ الرَّسولِ ما أَتَيْتَ بالبدعةِ في دِينِه؛ لأنَّ بدعتَك في دينِه؛ يعني: تكذيبَ هذه القضيَّة العامَّة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]؛ إذ أنَّ هذا الذي ابتدعه واعتقد أنَّه دينٌ وليس موجودًا في الشَّريعةِ من لازمِه أنَّ الشَّريعةَ ناقصةٌ لم تَكْمُلْ، فيكونُ مضمونُ هذا القولِ ولازمُه -نسألُ اللهَ العافيةَ- تكذيبَ الآيةِ الكريمةِ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]؛ ولهذا أهلُ البدعِ على خطرٍ عظيمٍ حتَّى قال بعضُ السَّلفِ: إِنَّ المبتدعَ لا تُقْبَلُ له توبةٌ؛ لأنَّه لا يمكنُ أن يمحوَ

ما حَصَلَ من الأثرِ السَّيِّئ في بدعتِه، لكن على كُلِّ حالٍ القولُ الرَّاجحُ أنَّها تصحُّ توبتُه، وأنَّ البدعةَ أقسامٌ كثيرةٌ، منها المُكَفِّرَةُ ومنها المُفَسِّقَةُ، ومنها التي يُعْذَرُ فيها صاحبُها حسب ما هو معروفٌ عند أهلِ العلمِ.

٣٣١١- هَـذَا هُـوَ الإِحْسَـانُ حَقًّـا لا مُعَـا ... وَضَـةً وَلا لِتَوَقُّـعِ الشُّـكْرَانِ

قَوْلُهُ: «**هَذَا هُوَ الإِحْسَانُ حَقًّا**» إي والله هذا هو الإحسانُ، أن يُحْسِنَ أوَّلًا، ثُمَّ يُحْسِنَ ثانيًا، يُحْسِنُ أوَّلًا بوضعِ المحبَّة في قلوبِ عبادِه، ثُمَّ ثانيًا بمحبَّتِه لهم.

قَوْلُهُ: «**لَا مُعَاوَضَةً وَلَا لِتَوَقُّعِ الشُّكْرَانِ**»؛ أي: لا يرجو بذلك أن يُعاوضوه ولا يتوقَّعُ منهم أن يشكروه، بمعنى أنَّه لا ينتظرُ أن يشكروه، فهو سبحانه وتعالى يحبُّهم ويُلْقِي في قلوبِهم المحبَّةَ تفضُّلًا.

٣٣١٢- لَكِنْ يُحِبُّ شَكُورَهُمْ وَشُكُورَهُمْ ... لا لاحْتِيَـاجٍ مِنْـهُ لِلشُّـكْرَانِ

قَوْلُهُ: «**لَكِنْ يُحِبُّ شَكُورَهُمْ وَشُكُورَهُم**»؛ أو «**شُكُورَهُمْ وشَكُورَهُمْ**» أيُّهما؟ الجوابُ: لا يختلفُ المعنى، يعني: سواءً قلت: «**شَكُورَهُم**» وهو الفاعلُ؛ أي: العبد الشَّاكر، «**وشُكُورَهُمْ**» وهو الفعل؛ أي: الشُّكر، أو قَدَّمْتَ الثَّانيَ، فهو يُحِبُّ منهم الشُّكرَ ويُحِبُّ مَنْ شَكَرَ.

قَوْلُهُ: «**لَا لِاحْتِيَاجٍ مِنْهُ لِلشُّكْرَانِ**»؛ لأنَّه غنيٌّ عن كُلِّ مَنْ سواه.

٣٣١٣- وَهُوَ الشَّكُورُ فَلَنْ يُضَيِّعَ سَعْيَهُمْ ... لَكِـنْ يُضَـاعِفُهُ بِـلا حُسْبَانِ

هذا أيضًا من شُكرِ الله عزَّ وجلَّ، أنَّه لن يُضَيِّعَ سعيَ العبادِ، بل يُضاعفُ الحسَنةَ بعشرِ أمثالِـها إلى سبعِمئةِ ضعفٍ، وإذا كانت الحسَنةُ تعليمَ الخلقِ فما أكثر ما يُضَاعِفُ كُلُّ مَنِ انتفعَ بعلمِك فلك مِثْلُ أجرِه، ومَن الذي ينتفعُ بالعلمِ؟

الجوابُ: أممٌ؛ ولهذا ما تفعلُه أُمَّةُ النَّبِيِّ -عليه الصَّلاة والسَّلامُ- من خيرٍ إلَّا وله -صلواتُ الله وسلامُه عليه- أجرُه، وكذلك العلماءُ الذين نَفَعَنَا اللهُ بهم، كُلُّ ما انتفعوا به فلهم مِثْلُ أجرِهم، وهذا من شكرِ الله، وإلَّا لكان الإنسانُ يُؤْجَرُ على سعيه الخاصِّ فقط لا على آثارِ سعيِه، ولكن من شكرِ الله عزَّ وجلَّ للعاملِ أنَّه يُثِيبُه حتَّى فيما تَرَتَّبَ على فعلِه.

٣٣١٤- مَــا لِلعِبَــادِ عَلَيْــهِ حَــقٌّ وَاجِــبٌ هُوَ أَوْجَبَ الأَجْرَ العَظِيمَ الشَّــانِ

هذه مسألةٌ مهمَّةٌ، هل للعبادِ عليه حقٌّ واجبٌ؟

الجوابُ: لا، ليس للعبادِ على الله حقٌّ واجبٌ؛ لأنَّ العبدَ مخلوقٌ مَرْبوبٌ، فليس له حقٌّ على ربِّه، لكنَّ اللهَ تعالى لكرمِه أَوْجَبَ لعبدِه حقًّا عليه، قال اللهُ -تبارك وتعالى-: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤]، هذا في المذنبين أنَّ الإنسانَ إذا تَابَ وأَصْلَحَ فقد كَتَبَ اللهُ على نفسِه الرَّحمةَ، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنعام:١٢]، فاللهُ تعالى هو الذي أَوْجَبَ الحقَّ على نفسِه، وفي حديثِ مُعاذٍ المشهور أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: «**يَا مُعَاذُ تَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى العِبَادِ وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى الله؟**» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّ حَقَّ الله عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ العِبَادِ عَلَى الله عزَّ وجلَّ أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»(١)، فاللهُ هو الذي أَوْجَبَ الحقَّ على نفسِه؛ ولهذا قال: «**هُوَ أَوْجَبَ الأَجْرَ العَظِيمَ الشَّانِ**»؛ أي: أَوْجَبَ الأجرَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب اسم الفرس والحمار، رقم (٢٧٠١)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، رقم (٣٠).

العظيمَ الشَّانِ لِـمَنْ أَطَاعَ أو لِـمَنْ تَابَ إليه من المعاصي، إِذَنْ لا ننفي أن يكونَ على الله حقٌّ واجبٌ ولا نثبتُ، بل نُفَصِّلُ كما سَبَقَ.

٣٣١٥- كَــلَّا وَلا عَمَــلٌ لَدَيْــهِ ضَــائِعٌ إِنْ كَــانَ بِـالإِخْلاصِ وَالإِحْسَــانِ

قَوْلُهُ: «كَلَّا وَلَا عَمَلٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ» «لَدَيْهِ»؛ أي: من أجلِه؛ أي: ليس هناك عملٌ يضيعُ عند الله عزَّ وجلَّ أبدًا، كُلُّ عملِ الإنسانِ وإن دَقَّ فإنَّه لا يَضِيعُ عند الله، بينما أعمالُ العبادِ للعبادِ قد تضيعُ، فرُبَّما تجتهدُ في العملِ لشخصٍ بمساعدةٍ أو معاونةٍ أو تحضيرِ غائبٍ، أو ما أشبه ذلك، فيضيعُ عملُك.

ولكنَّ المؤلِّفَ -رحمه الله- اشترط شرطين فقال: «إِنْ كَانَ بِالإِخْلَاصِ وَالإِحْسَانِ» الإخلاصُ لله، والإحسانُ: المتابعةُ لرسولِ الله ﷺ، فكُلُّ عملٍ مَبْنِيٍّ على الإخلاصِ والمتابعةِ فلن يضيعَ، فإن فُقِدَ الإخلاصُ فلا قَبُولَ، وإن فُقِدَتَ المتابعةُ فلا قَبُولَ، فإن كان بغيرِهما فإن فاتا أو أحدُهُما فهو ضائعٌ.

والدَّليلُ من القُرآنِ آياتٌ كثيرةٌ، ومنها قولُه تعالى: ﴿لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، ومن السُّنَّةِ قولُ الله تعالى في الحديثِ القُدسيِّ الذي رواه عنه نبيُّه محمَّدٌ ﷺ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١)، فهذا العملُ فَقَدَ الإخلاصَ، وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ فيما رَوَتْهُ عنه أمُّ المؤمنينِ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(٢)؛ أي: مردودٌ، هذا فُقِدتْ منه المتابعةُ، إِذَنْ لا بُدَّ من إخلاصٍ وإحسانٍ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، رقم (٢٦٩٧)، مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨).

٣٣١٦- إِنْ عُـــذِّبُوا فَبِعَدْلِـــهِ أَوْ نُعِّمُـــوا فَبِفَضْـــلِهِ، وَالحَمْـــدُ لِلمَنَّـــانِ

قَوْلُهُ: «إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ» فلم يظلمْهم؛ لأنَّه -سبحانه وتعالى- رَكَّبَ فيهم العَقولَ والفطرَ السَّليمةَ، وأرسل إليهم الرُّسلَ، وهداهم، ولم يَحْصُلْ أيُّ قاصرٍ، فإذا كذَّبوا واستكبروا وعذَّبهم على ذلك فهذا عدلٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠] لم يقل: «سيِّئة» فقط؛ لئلا يظُنَّ ظانٌّ أنَّها سيِّئةٌ تكونُ أكبرَ من السَّيِّئةِ العاملةِ، بل قال: ﴿سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ لا تزيدُ عليها، ومَنْ عَمِلَ صالحًا فإنه يُجْزَى الحسنةَ بعشر أمثالِها إلى سبعِمئة ضعفٍ لأضعافٍ كثيرة.

نقولُ: هنا بمقتضى التَّقسيمِ العقليِّ حالٌ ثالثةٌ وهي الظُّلم، وهذه ممتنعةٌ على الله، قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

قال اللهُ تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]، وهذا الاستفهامُ للتَّقريرِ؛ يعني: قد أتى على الإنسانِ حينٌ من الدَّهرِ لـم يكن شيئًا مذكورًا.

الآن لو سألتكم ما الدُّنيا التي سَبقَتْكُم؟

الجوابُ: لا تُحْصَى، كُلُّ ما مَضَى قَبْلَ ولادتِنا ليس بشيءٍ بالنِّسبة لنا، لسنا شيئًا مذكورًا، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢]، أداةُ الابتلاءِ والاختبارِ موجودةٌ وهي السَّمعُ والبصرُ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان:٣]؛ أي: بَيَّنَّا له الطَّريقَ ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣]؛ يعني: سواءٌ كان شاكرًا أم كفورًا فقد بُيِّنَتِ السَّبيلُ، لكن مِنَ النَّاسِ مَنْ آمَنَ، ومنهم مَنْ كَفَرَ، إِذَنْ إذا حَصَلَ العذابُ على الإنسانِ فإنَّ ذلك بعدلِه، لم يظلم اللهُ عزَّ وجلَّ أحدًا، كُلُّ شيءٍ مُبَيَّنٌ حتَّى إِنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى-

أرسل الرُّسلَ ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النِّساء:١٦٥].

قَوْلُهُ: «**أَوْ نُعِّمُوا فَبِفَضْلِهِ**» تَفَضَّلَ على مَنْ أَنْعَمَ عليهم أوَّلًا وثانيًا، أوَّلًا بتوفيقِهم، وكم من أناسٍ ضَلُّوا، والذي يَضِلُّ من بني آدمَ تسعُمئةٍ وتسعةٍ وتسعونَ، كُلُّهم ضالُّون في النَّار، وما أكثرَ الضُّلَّالَ، فإذا نُعِّمَ الإنسانُ فبفضلِ الله، **النَّعيمُ الأَوَّلُ**: هدايتُه للإسلامِ، **والنَّعيمُ الثَّاني**: الجزاءُ على عملِه، قال اللهُ تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠].

قَوْلُهُ: «**وَالحَمْدُ لِلْـمَنَّانِ**»، وفي نسخةٍ: «**الحَمْدُ لِلرَّحْمَنِ**»، و«**الحَمْدُ**»؛ يعني: الوصف بالكمالِ والجميلِ مع التَّعظيمِ والمحبَّة للمنَّانِ الذي مَنَّ على عبدِه بالتَّوفيقِ أوَّلا، ثُمَّ بالإثابة ثانيًا.

وهذه الأبياتُ الثَّلاثةُ الأخيرةُ أخذَها المؤلِّفُ من بيتَيْنِ قالهما مَنْ سبقه، وهما:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... كَلَّا وَلَا عَمَلٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ

إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ، أَوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ، وَهُوَ الكَرِيمُ الوَاسِعُ(١)

لكن كلامُ ابنِ القيِّمِ أحسنُ بلا شكٍّ؛ لأنَّ ابنَ القيِّمَ لـمَّا قال: «**مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ**» قَيَّدَ فقال: «**مَا لَـهُمْ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ هم الذين أوجبوه، أمَّا حقٌّ واجبٌ عليه أَوْجَبَهُ هو فهو ثَابِتٌ**».

أيضًا صاحبُ البيتين أَطْلَقَ، وهنا قَيَّدَ فقال: «**إِنْ كَانَ بِالإِخْلَاصِ وَالإِحْسَانِ**».

***

(١) البيتان وردا في كثير من كتب العقيدة بلا نسبة.

فصــل

٣٣١٧- وَهُــوَ الغَفُــورُ فَلَـوْ أَتَـى بِقُرَابِهَـا مِنْ غَـيْرِ شِرْكٍ بَـلْ مِـنَ العِصْـيَانِ

٣٣١٨- لأَتَــاهُ بِــالغُفْرَانِ مِــلْءَ قُرَابِهَــا سُــبْحَانَهُ هُــوَ وَاسِــعُ الغُفْــرَانِ

٣٣١٩- وَكَــذَلِكَ التَّــوَّابُ مِــنْ أَوْصَــافِهِ وَالتَّــوْبُ فِي أَوْصَــافِهِ نَوْعَــانِ

٣٣٢٠- إِذْنٌ بِتَوْبَــةِ عَبْــدِهِ وَقَبُولُــهَا بَعْــدَ المَتَــابِ بِمِنَّــةِ الــمَنَّانِ

الشــرحُ

٣٣١٧- وَهُــوَ الغَفُــورُ فَلَـوْ أَتَـى بِقُرَابِهَـا مِنْ غَـيْرِ شِرْكٍ بَـلْ مِـنَ العِصْـيَانِ

٣٣١٨- لأَتَــاهُ بِــالغُفْرَانِ مِــلْءَ قُرَابِهَــا سُــبْحَانَهُ هُــوَ وَاسِــعُ الغُفْــرَانِ

قَوْلُهُ: «الغَفُورُ»: هذا اسمٌ من أسماءِ الله، وهو السَّاترُ للذَّنبِ المتجاوزُ عنه؛ لأنَّ «الغفورَ» مشتقٌّ من المِغْفَرِ، والمِغْفَرُ ما يُوضَعُ على الرَّأسِ اتِّقاءَ السِّهامِ، وإذا وُضِعَ على الرأسِ حصَل فيه فائدتان:

الأولى: السَّترُ، الثَّانية: الوقايةُ من السِّهامِ.

فهو عزَّ وجلَّ غفورٌ يغفرُ الذَّنبَ سترًا وعفوًا.

قَوْلُهُ: «لَوْ أَتَى بِقُرَابِهَا»؛ أي: قرابِ الأرض؛ أي: ما يُقَارِبُ مِلأَها من العِصيانِ لكن بدون شِركٍ، فإنَّ اللهَ تعالى يغفرُه؛ لقولِه تعالى في الحديث القدسيِّ: «يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ

بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»[1]، وهذا الاسمُ العظيمُ المتضمِّنُ لهذا المعنى الجليلِ ينبغي للإنسانِ أنْ يُعَلِّقَ به قَلبَه، وأنْ يُكثِرَ من الاستغفارِ حتَّى يتحقَّقَ له ما دَلَّ عليه هذا الاسمُ الكريمُ.

٣٣١٩- وَكَــذَلِكَ التَّــوَّابُ مِــنْ أَوْصَــافِهِ وَالتَّــوْبُ فِي أَوْصَــافِهِ نَوْعَــانِ

٣٣٢٠- إِذْنٌ بِتَوْبَــةِ عَبْــدِهِ وَقَبُولُــهَا بَعْــدَ المَتَــابِ بِمِنَّــةِ الــمَنَّانِ

وكذلك من أسمائِهِ «**التَّوَّابُ**»، وليتَ المؤلِّفَ قال: «**مِنْ أَسْمَائِهِ**»؛ لأنَّ «**التَّوَّابَ**» من أسماءِ الله بلا شكٍّ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٠]، لكنَّه قال: «**وَكَذَلِكَ التَّوَّابُ مِنْ أَوْصَافِهِ**»؛ يعني: ممَّا تضمَّن أوصافَ التَّوبةِ، وإلَّا فهو اسمٌ.

و«**التَّوَّابُ**»؛ أي: كثيرُ التَّوبةِ على مَنْ تَابَ مهما أَذْنَبَ العبدُ، إذا تَابَ تَابَ اللهُ عليه، لو فعل الذَّنبَ ثُمَّ تَابَ توبةً حقيقيَّةً ثُمَّ غَلَبَتْهُ نفسُه فَفَعَلَهَا وتَابَ يتوبُ اللهُ عليه، ثُمَّ غَلَبَتْهُ نفسُه فَفَعَلَهَا وتَابَ يتوبُ اللهُ عليه مهما تكرَّر، حتَّى جاء في الحديثِ في رَجُلٍ أَخْبَرَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ أَذْنَبَ وَتَابَ، وَأَذْنَبَ وَتَابَ، وَأَذْنَبَ وَتَابَ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: «**عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ**»[2]، اللهُ أكبر! نعمةٌ عظيمةٌ، لكن ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحمه الله- أنَّ التَّوبةَ في أوصافِ الله؛ يعني: التَّوب الذي دَلَّ عليه التَّوَّابُ، وهو وصفٌ عن التَّوبِ، فالتَّوَّابُ اسمٌ من أسماءِ الله، والصِّفةُ التَّوْبُ، وهي نوعان: **الأوَّل**: توبةٌ سابقةٌ على توبةِ العبدِ، **والثَّاني**: توبةٌ لاحقةٌ لتوبةِ العبدِ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، بعد باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله بعباده، رقم (٣٥٤٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:١٥]، رقم (٧٠٦٨)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب، رقم (٢٧٥٨).

توبةُ العبد محفوفةٌ بتوبتين: سابقةٍ ولاحقةٍ، السَّابقةُ يقولُ: «إِذْنٌ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ»؛ يعني: أنَّ اللهَ يَأْذَنُ قدرًا بتوبةِ العبدِ فيُوفِّقه للتَّوبةِ، إِذَنْ الإذنُ في كلامِ المؤلِّفِ هنا المرادُ به الإذنُ القدَرِيُّ.

الثاني: قَبولُ التَّوبة، ولهذا نقول: «**قَبولُها**» بالرَّفعِ؛ لأنَّه هو النَّوع الثَّاني، فتكونُ توبةُ العبدِ إلى الله محفوفةً بتوبَتَيْنِ: توبةٍ سابقةٍ وهي أنَّ اللهَ يُوَفِّقَه للتَّوبةِ؛ لأنَّ الإنسانَ قد لا يُوفَّقُ للتَّوبةِ، فقد يعمى قلبُه ويُصِرُّ على المعصيةِ وقد يُوَفَّقُ للتَّوبةِ، وتوبةٍ لاحقةٍ وهي أنَّ اللهَ تعالى يقبلُ منه التَّوبةَ.

فإن قال قائلٌ: ما الدَّليلُ على هذا التَّقسيمِ؟ قلنا: الدَّليلُ قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التَّوبة:١١٨]، فقولُه: ﴿تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ هل تَابَ عليهم توبةً سابقةً أو لاحقةً؟ الجوابُ: توبة سابقة؛ لأنَّه قال: ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾، إِذَنْ قولُه: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾؛ يعني: أَذِنَ لهم قَدَرًا بالتَّوبةِ فَوَفَّقهم لها ليتوبوا إليه، فيقبلُ منهم التَّوبةَ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشُّورى:٢٥]، وقولُه أيضًا: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التَّوبة:١١٨] معطوفٌ على قولِ الله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [التَّوبة:١١٧]؛ يعني: وَتَابَ على الثَّلاثةِ الذين خُلِّفُوا؛ أي: خَلَّفَهم النَّبيُّ ﷺ ولم يَبُتَّ في أمرِهم، وهم الذين تخلَّفوا عن غزوةِ تبوك، وهم ثلاثةٌ: هلالُ بنُ أُمَيَّةَ، وكعبُ بنُ مالكٍ، ومرارة بن الرَّبيعِ، تخلَّفوا عن غزوة تبوكٍ بلا عذرٍ، ولَـمَّا قَدِمَ النَّبيُّ ﷺ المدينةَ جلس للنَّاسِ، فَجَاءَهُ المعذِّرون الذين يعتذرون وهم مُنافقون، وبعضهم له الحقُّ، هؤلاء الثَّلاثةُ صَدَقُوا اللهَ وصدقوا رسولَه، وكان كعبُ بنُ مالكٍ أشبَّ القومِ وأجلدَهم وأبينَهم وأجدلَهم، وقد أُوتِيَ جدلًا يستطيعُ أن يتخلَّصَ، فَجَلَسَ إلى النَّبيِّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- قائلًا: إِنَّهُ أُوتِيَ جَدَلًا، وَلَوْ جَلَسَ عِنْدَ غَيْرِ الرَّسُولِ

لتخلَّصَ، لكنَّه لو تخلَّص عند الرَّسولِ الآن بالجدلِ فربُّ الرَّسولِ عزَّ وجلَّ لن يهملَه، يعلمُ بحالِه، وقال: إِنِّي لَا يُمْكِنُ أَنْ أُجادِلَ بشيءٍ؛ يعني: تَقْبَلُه مِنِّي يا رسولَ الله، ثُمَّ يفضحني اللهُ بعد ذلك، وأَخْبَرَ بالصِّدقِ، وقال: عندي راحِلَتَيْن، وقويٌّ وقادرٌ، ولا عُذرَ لي، قال النَّبيُّ ﷺ: «أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ»، ثُمَّ أمره أن ينصرفَ حتَّى يقضيَ اللهُ فيه ما شاء، وبقوا على هذا خمسين ليلةً منها عشرُ ليالٍ أُمِرَتْ نساؤهم اللَّاتي هُنَّ أَخصُّ النَّاسِ بهم فاعتزلوهم إِلَّا هلال بن أُمَيَّة ومرارة بن الرَّبيع، فكانا شَيْخَيْن كَبيرَيْن، استأذنا أن تبقى زوجاتُهما عندهما للخِدمةِ، ولـمَّا مضت خمسون ليلةً أنزل اللهُ التَّوبةَ عليهم، فكانت هذه أبلغَ من الماءِ للعطشانِ الذي يخاف الدَّركَ؛ ولهذا يقولُ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ [التَّوبة:١١٨]، يعني: على رَحْبَتِهَا وسَعَتِهَا ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ [التَّوبة:١١٨] حتَّى أنفسُهم ضاقت عليهم، وصاروا يَرَوْنَ النَّاسَ وكأنَّهم ليسوا هم النَّاس الذين يعرفونهم، وليست المدينةُ هي المدينة، ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ [التوبة:١١٨]؛ أي: أيقنوا أنَّه لا ملجأَ من الله إِلَّا إليه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التَّوبة:١١٨]، فقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التَّوبة:١١٨] هذه بمعنى وَفَّقَهم للتَّوبةِ ليتوبوا فيقبلُ اللهُ توبتَهم.

فالحاصلُ: أنَّ توبةَ الله على العبدِ نوعان: توبةٌ سابقةٌ لتوبتِه، وتوبةٌ لاحقةٌ.

وشروطُ التَّوبةِ لا حاجةَ إلى تَكْرَارِها؛ لأنَّها معروفٌة للجميعِ، وهي بعددِ أصابعِ اليدِ؛ أي: خمسةٌ، وهي: الإخلاصُ، والنَّدم على المعصيةِ، والإقلاعُ عنها، والعزمُ على ألَّا يعودَ، وأن تكونَ التَّوبةُ في وقتٍ تُقْبَلُ فيه.

* * *

فصل

٣٣٢١- وَهُوَ الإِلَـهُ السَّـيِّدُ الصَّـمَدُ الَّـذِي ... صَـمَدَتْ إِلَيْـهِ الخَلْـقُ بِالإِذْعَـانِ

٣٣٢٢- الكَامِلُ الأَوْصَافِ مِنْ كُلِّ الوُجُو ... هِ كَمَالُـهُ مَـا فِيـهِ مِـنْ نُقْصَـانِ

٣٣٢٣- وَكَـذَلِكَ القَهَّـارُ مِـنْ أَوْصَـافِهِ ... فَـالخَلْقُ مَقْهُـورُونَ بِالسُّـلْطَانِ

٣٣٢٤- لَـوْ لَـمْ يَكُـنْ حَيًّـا عَزِيـزًا قَـادِرًا ... مَـا كَـانَ مِـنْ قَهْـرٍ وَمِـنْ سُـلْطَانِ

٣٣٢٥- وَكَـذَلِكَ الـجَبَّارُ مِـنْ أَوْصَـافِهِ ... وَالـجَبْرُ فِي أَوْصَـافِهِ نَوْعَـانِ

٣٣٢٦- جَبْرُ الضَّعِيفِ وَكُلِّ قَلْبٍ قَدْ غَـدَا ... ذَا كَسْـرَةٍ فَالـجَبْرُ مِنْـهُ دَانِي

٣٣٢٧- وَالثَّـانِي جَـبْرُ القَهْـرِ بِـالعِزِّ الَّـذِي ... لا يَنْبَغِـي لِسِـوَاهُ مِـنْ إِنْسَـانِ

٣٣٢٨- وَلَـهُ مُسَـمًّى ثَالِـثٌ وَهُـوَ العُلُـوْ ... وُ فَلَـيْسَ يَـدْنُو مِنْـهُ مِـنْ إِنْسَـانِ

٣٣٢٩- مِـنْ قَوْلِـهِمْ جَبَّـارَةٌ لِلنَّخْلَـةِ الـ ... ـعُلْيَا الَّتِـي فَاتَـتْ لِكُـلِّ بَنَـانِ

الشرح

٣٣٢١- وَهُوَ الإِلَـهُ السَّـيِّدُ الصَّـمَدُ الَّـذِي ... صَـمَدَتْ إِلَيْـهِ الخَلْـقُ بِالإِذْعَـانِ

٣٣٢٢- الكَامِلُ الأَوْصَافِ مِنْ كُلِّ الوُجُو ... هِ كَمَالُـهُ مَـا فِيـهِ مِـنْ نُقْصَـانِ

من أسماءِ الله تعالى: «الإلهُ» و«السَّيِّدُ» و«الصَّمدُ»، فهو «الإلهُ»؛ أي: المألوهُ المعبودُ محبَّةً وتعظيمًا، قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة:١٦٣]، وأمَّا «السَّيِّدُ»؛

أي: ذو السِّيادةِ المطلقةِ من كُلِّ الوجوه، فقال النَّبِيُّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم-: «**السَّيِّدُ اللهُ**»[١].

ولذلك خاف الرَّسُولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أنْ يجعلوا له السِّيادةَ المطلقةَ لـمَّا قالوا له: «أَنْتَ سَيِّدُنَا»، فَقَالَ: «**قَولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ**»[٢]، وأمَّا أنَّه ﷺ **السَّيِّدُ** على البشرِ فهذا لا شكَّ فيه، ولذا فالأولى ألَّا يُطْلَقَ «**السَّيِّد**» على النَّبِيِّ ﷺ، وإنما يُقَيَّدُ فيُقَالُ: «**سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ**»[٣] كما قال النَّبِيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-.

فإن قال قائلٌ: ما حكمُ قولِ البعضِ: السَّيِّد فلانٌ، أو السَّادةُ والسَّيِّداتُ؟ الجوابُ: الظَّاهرُ أنَّ هذه مسلوبةُ المعنى وأنَّها كلمةُ تبجيلٍ فقط.

وأمَّا «**الصَّمَدُ**» ففَسَّره المؤلِّفُ بمعنيين: **المعنى الأوَّل**: قال: «**الَّذِي صَمَدَتْ إِلَيْهِ الخَلْقُ بِالإِذْعَانِ**»، فكُلُّ الخلقِ تَصْمِدُ إلى الله في حوائجِها، فهو صمدٌ لا يحتاجُ إلى أحدٍ ويحتاجُ إليه كُلُّ أحدٍ حتَّى البهائمُ العجمِ والحشراتُ تصمدُ إلى الله سبحانه وتعالى، ويُذْكَرُ أنَّ سليمانَ بن داوُد -عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ- خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ يَسْتَسْقِي، فَوَجَدَ نَمْلَةً مُسْتَلْقِيَةً عَلَى ظَهْرِهَا رَافِعَةً قَوائِمَهَا إِلَى السَّمَاءِ تَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِكَ فَلَا تَمْنَعْ عَنَّا رِزْقَكَ، فَقَالَ: «**ارْجِعُوا فَقَدْ سُقِيتُمْ بِدَعْوَةِ غَيْرِكُمْ**»[٤].

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في كراهية التمادح، رقم (٤٨٠٦).
(٢) أخرجه أبو داود، وهو جزء من الحديث السابق.
(٣) كما في حديث: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ». أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق، رقم (٢٢٧٨).
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٦٢، رقم ٢٩٤٨٧).

إِذَنْ لِـمَنْ تلجأُ الخلائقُ حتَّى الحشراتُ؟ الجوابُ: إلى الله؛ ولهذا فُسِّرَ «**الصَّمَدُ**» بمعنى المفعول؛ يعني: المصمود إليه؛ أي: الذي تَصْمِدُ إليه الخلائقُ كُلُّها في حوائجِها، ولهذا يقولُ المؤلِّفُ: «**الَّذِي صَمَدَتْ إِلَيْهِ الخَلْقُ بِالإِذْعَانِ**» هل المرادُ بالإذعانِ الإذعانُ الشَّرعِيُّ أو الكونِيُّ؟ أمَّا الكافرُ فالكونيُّ، فالكافرُ مذعِنٌ لله عزَّ وجلَّ كونًا، لا يستطيعُ أبدًا أن يُعارِضَ حكمَ الله تعالى فيه، وأمَّا المؤمنُ فهو مذعِنٌ لله كونًا وشرعًا.

المعنى الثَّاني: قال: «**الكَامِلُ الأَوْصَافِ**»؛ يعني: الذي كَمُلَتْ أوصافُه عزَّ وجلَّ كما قال ابنُ عبَّاسٍ: «الصَّمَدُ: السَّيِّدُ الكاملُ في سُؤْدُدِهِ، العليمُ الكَامِلُ في علمِه»[1]، وعَدَّد أشياءَ، فهو إِذَنْ الكاملُ في أوصافِه الذي تصمِدُ إليه جميعُ مخلوقاتِه.

ويدخلُ في كمالِ الأوصافِ أيضًا تفسيرُ «**الصَّمد**» بأنَّه الذي لا جوفَ له، فلا يحتاجُ إلى أكلٍ وشربٍ، فهو لكمالِه ليس له أوعيةُ الأكلِ والشُّربِ؛ ولهذا لو قال قائلٌ: أنا أُثْبِتُ لله مَعًى لكن ليست كأمعائِنا كما أُثْبِتُ له يدًا ليست كأيدِينا، قلنا: هذا خطأٌ؛ لأنَّ ما ذَكَرْتَ من الأمعاءِ إنَّما هي لمن يأكلُ ويشربُ، واللهُ عزَّ وجلَّ لا يأكلُ ولا يشربُ.

إِذَنْ يدورُ «**الصَّمَدُ**» على هذين المعنَيَيْن: الكمالِ لله عزَّ وجلَّ، وافتقارِ الخلقِ إليه سبحانه وتعالى.

٣٣٢٣- وَكَـذَلِكَ القَهَّـارُ مِـنْ أَوْصَـافِهِ ... فَـالخَلْقُ مَقْهُـورُونَ بِالسُّـلْطَانِ

هو «**القَهَّارُ**» أيضًا، وقوله: «**مِنْ أَوْصَافِهِ**»؛ يعني: مـمَّا يدلُّ على صفةِ القهرِ،

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٤٧٤).

وإلَّا فالقهَّارُ من أسمائِه جلَّ وعلا، ومن أشرفِ أسمائِه كما قال اللهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، فقولُ المؤلِّف: «مِنْ أَوْصَافِهِ»؛ يعني: أنَّه دَلَّ على وصفِ القهرِ، وإلَّا -لا شكَّ- أنَّه من أسمائِه.

قَوْلُهُ: «فَالخَلْقُ مَقْهُورُونَ بِالسُّلْطَانِ»؛ أي: كُلُّ الخلقِ مَقهورون، لا يمكنُ أنْ يخرجوا عن قهرِ الله عزَّ وجلَّ، واللهُ يتحدَّى الجنَّ والإنسَ فيقولُ: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْ﴾ [الرَّحمن:٣٣]، وهذا لا يمكنُ، ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ [الرَّحمن:٣٣]؛ يعني: ولا سُلطانَ لكم؛ لأنَّه لا أحدَ يَفِرُّ من قَدَرِ الله ولا من قهرِ الله، فكُلُّ الخلقِ مقهورون بسُلطانِ الله الأعظمِ الذي ليس فوقه سلطانٌ ولا يُدانيه سلطانٌ، كُلُّ الخلائقِ مقهورةٌ بالله عزَّ وجلَّ مهما عظمت قوَّتُها، إذا شاء شيئًا قال: «كُنْ فيكون»، عصا من شجرٍ ضُرِبَ به البحرُ فانفلق في لحظةٍ، ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الشُّعراء:٦٣]، ويغزو الكعبةَ جيشٌ حتَّى إذا كانوا ببيداءَ من الأرضِ خُسِفَ بهم[(١)]؛ أي: هلكوا عن آخِرِهم، فتُجَّارُهم وصاغتُهم والمعتدون منهم كُلُّهم يذهبون في لحظةٍ، فكُلُّ الخلقِ مقهورون بسلطانِ الله عزَّ وجلَّ، هذا في الدُّنيا والنَّاسُ يُشَاهِدونَ، فكيف بالآخرة؟! يكونُ الأمرُ أشدَّ وأشدَّ وأظهرَ.

٣٣٢٤- لَوْ لَمْ يَكُنْ حَيًّا عَزِيزًا قَادِرًا ... مَا كَانَ مِنْ قَهْرٍ وَمِنْ سُلْطَانِ

يعني: أنَّ القهَّارَ يشملُ عِدَّةَ مَعانٍ: الحياة، والعِزَّة، والقُدرة، ولولا هذه

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب ما ذكر في الأسواق، رقم (٢٠١٢)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت، رقم (٢٨٨٤).

المعاني الثَّلاثة ما صار قَهَّارًا ولا صار له سُلطانٌ، فهو حيٌّ عزيزٌ قادرٌ قاهرٌ.

٣٣٢٥- وَكَـذَلِكَ الـجَبَّارُ مِـنْ أَوْصَـافِهِ وَالـجَبْرُ فِي أَوْصَـافِهِ نَوْعَـانِ

٣٣٢٦- جَبْرُ الضَّعِيفِ وَكُلِّ قَلْبٍ قَدْ غَدَا ذَا كَسْـرَةٍ فَالـجَبْرُ مِنْـهُ دَانِي

٣٣٢٧- وَالثَّـانِي جَـبْرُ القَهْـرِ بِـالعِزِّ الَّـذِي لا يَنْبَغِـي لِسِـوَاهُ مِـنْ إِنْسَـانِ

٣٣٢٨- وَلَـهُ مُسَـمًّى ثَالِـثٌ وَهُـوَ العُلُـوْ وُ فَلَـيْسَ يَـدْنُو مِنْـهُ مِـنْ إِنْسَـانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَلِكَ الـجَبَّارُ مِنْ أَوْصَافِهِ»، ولَيْتَه قال: «مِنْ أَسْمَائِهِ»؛ لأنَّ من أسماءِ الله عزَّ وجلَّ الـجَبَّارَ، ووَصْفُهُ الـجَبْرُ، وله ثلاثةُ معانٍ:

المعنى الأوَّل: أنَّه عزَّ وجلَّ يَجْبُرُ الكسيرَ ويجبرُ الضَّعيفَ؛ بمعنى: أنَّه يُزِيلُ العيبَ والنَّقصَ بالجبرِ، قال النَّبيُّ ﷺ: «فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُمْ»[1].

لكن قولُ الدَّاعي: «سُبْحَانَ ذِي العِزَّةِ وَالجَبَرُوتِ» من أيِّهما؟ الجوابُ: من الثَّاني الذي هو جبرُ القهرِ، ويجوزُ أنْ يكونَ من الأوَّل الذي هو جبرُ الضَّعيفِ، فيكونُ قد وَصَفَ اللهَ بالعزَّةِ التي هي القهرُ والجبرُ الذي هو بالنِّسبةِ لنا اللِّينُ واللُّطفُ، وما أشبه ذلك.

المعنى الثَّاني: أنَّه عزَّ وجلَّ جَبَّارٌ بقهرِه؛ أي: قويٌّ قاهرٌ جبَّارٌ، ومنه قولُه تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩]، وقولُه: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٩٨]، فهذا جَبْرُ القهرِ الذي يدلُّ على كمالِ السُّلطانِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب، رقم (٢٨٩٦).

فهو سبحانه يقهرُ الخلائقَ؛ لأنَّ عنده جبروتًا وملكوتًا، فهو يجبرُ كُلَّ أحدٍ مهما بلغ جبروتُه، فهذا فرعونُ أعتى عبادِ الله فيما نعلمُ كان جبَّارًا مُتكبِّرًا عنيدًا، وجَبَرَه اللهُ عزَّ وجلَّ؛ أي: قَهَرَه بأخفِّ الأشياءِ وهو الماء حتَّى أغرقه.

المعنى **الثَّالث**: جبرُ العلوِّ، فـ«**الجَبَّارُ**»؛ يعني: العليَّ، وهو أنَّه سبحانه فوق كُلِّ شيءٍ، ولـمَّا كان هذا المعنى خفيًّا ذكر ابنُ القيِّم -رحمه الله- وجهَ اشتقاقِه فقال:

٣٣٢٩- مِـنْ قَوْلِـهِمْ جَبَّـارَةٌ لِلنَّخْلَـةِ الـــ ... ــعُلْيَا الَّتِـي فَاتَـتْ لِكُـلِّ بَنَـانِ

قَوْلُهُ: «**فَاتَتْ**»، وفي نسخةٍ: «**فَاقَتْ**»؛ أي: علَتْ.

قَوْلُهُ: «**مِنْ قَوْلِـهِمْ: جَبَّارَةٌ لِلنَّخْلَةِ العُلْيَا**»، وما زال النَّاسُ يقولون هذا، الفلَّاحون الآن يقولون: هذه النَّخلةُ جَبَّارةٌ؛ يعني: طويلة عالية.

وأشار المؤلِّفُ بقولِه: «**مِنْ قَوْلِـهِمْ: جَبَّارَةٌ**» إلى الاشتقاقِ، والاشتقاقُ فنٌّ مهمٌّ جدًّا لطالبِ العلمِ، يعرفُ به طالبُ العلمِ كيف يُرْجِعُ الفروعَ إلى أصولِها؟ وإرجاعُ الفروعِ إلى الأصولِ يُعِينُ على فَهْمِ المعنى؛ ولذلك كثيرًا ما يُشْكِلُ المعنى، فإذا قيل للطَّالبِ: هذا «**فَعْلٌ**» من «**فَعَلَ**» زال عنه الإشكالُ، فَعِلْمُ الاشتقاقِ مهمٌّ جدًّا حتَّى إنَّ بعضَ العلماءِ يقولُ: حتَّى الأسماء الجامدة التي لا تدلُّ على معنى هي في الحقيقةِ مُشتقَّةٌ، وزَعَمَ أنَّ كُلَّ لفظٍ يدلُّ على معناه، حتَّى زَعَمَ أنَّ الأسماءَ الجامدةَ دالَّةٌ على المعنى، فقال: «**حَجَرٌ**» غيرُ مشتقٍّ، لكن تتصوَّرُ أنت إذا قيل: «**حَجَرٌ**» تتصوَّرُ منه القسوةَ والشِّدَّةَ، ولكنَّ هذا خلافُ ما كان عليه الجمهورُ؛ لأنَّه ليس مشتقًّا من معنى، وكونُ الإنسانِ يتخيَّلُ أنَّ الحجرَ فيه قوَّةٌ وشدَّةٌ بناءً على أنَّه قد فَهِمَه وعرف أنَّ الحجرَ صَلْبٌ ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤].

فصار الجبرُ له ثلاثةُ معانٍ: جبرُ القوَّةِ، وجبرُ الرَّحمةِ، وجبرُ العلوِّ، **جبرُ القوَّة**؛ يعني: يجبرُ كُلَّ إنسانٍ مُسْتكْبِرٍ، **وجبرُ الرَّحمة**؛ أي: يجبرُ الضَّعيفَ والمنكَسِرَ، والثَّالث: **جبرُ العلوِّ**، وهو أنَّه -سبحانه وتعالى- فوق كُلِّ شيءٍ.

* * *

فصل

٣٣٣٠- وَهُوَ الحَسِيبُ حِمَايَةً وَكِفَايَةً — وَالحَسْبُ كَافِي العَبْدِ كُلَّ أَوَانِ

٣٣٣١- وَهُوَ الرَّشِيدُ فَقَوْلُهُ وَفِعَالُهُ — رُشْدٌ وَرَبُّكَ مُرْشِدُ الحَيْرَانِ

٣٣٣٢- وَكِلاهُمَا حَقٌّ فَهَذَا وَصْفُهُ — وَالفِعْلُ لِلإِرْشَادِ ذَاكَ الثَّانِي

٣٣٣٣- وَالعَدْلُ مِنْ أَوْصَافِهِ فِي فِعْلِهِ — وَمَقَالِهِ وَالحُكْمُ فِي المِيزَانِ

٣٣٣٤- فَعَلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ إِلَهُنَا — قَوْلًا وَفِعْلًا ذَاكَ فِي القُرْآنِ

الشرحُ

٣٣٣٠- وَهُوَ الحَسِيبُ حِمَايَةً وَكِفَايَةً — وَالحَسْبُ كَافِي العَبْدِ كُلَّ أَوَانِ

الحسيبُ فَسَّره بقولِه: «حِمَايَةً وَكِفَايَةً»، و«الحسيبُ»؛ أي: ذو الحَسْبِ، و«الحَسْبُ»؛ يعني: الكفايةَ، فهو الكافي الذي يحمي عبدَه، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلاق:٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب:٣٩]، وإذا كان هو الحسيب فإلى أيِّ أحدٍ يرجعُ الإنسانُ عند مهمَّاتِه وملمَّاته؟ الجوابُ: إلى الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلاق:٣]، «والحسيبُ» من أوصافِه، فإنَّه تعالى حَسْبُ كُلِّ مَنْ تَوَكَّلَ عليه.

٣٣٣١- وَهُوَ الرَّشِيدُ فَقَوْلُهُ وَفِعَالُهُ — رُشْدٌ وَرَبُّكَ مُرْشِدُ الحَيْرَانِ

هو أيضًا «الرَّشيدُ»، و«الرَّشيدُ» لا أعلمُه من أسماءِ الله، لكنَّه لا شكَّ أنَّه من

أوصافِه؛ لأنَّ الرُّشدَ إحسانُ التَّصرُّفِ، وضدُّه السَّفَهُ، ودليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ [النِّساء:٦]، و﴿رُشۡدٗا﴾؛ يعني: سدادًا في بيعِهم وشرائِهم وتصرُّفِهم، فلا شَكَّ أنَّ اللهَ تعالى رشيدٌ، وأنَّ الرُّشدَ له معنيان:

الأوَّل: أنَّ قولَه وأفعالَه وأحكامَه كُلُها رشدٌ، فـ«**رشيد**» هنا بمعنى «**راشد**».

الثَّاني: أنَّه مُرْشِدُ الحيرانِ، فتكون «**فعيل**» بمعنى «**مُفْعِل**»؛ يعني: يُرْشِدُ غيرَه، فيكون لِه معنيان: **الأوَّل**: متعلِّقٌ بوصفِه، **والثَّاني**: متعلِّقٌ بخلقِه، فإذا قال قائلٌ: وهل «**فعيلٌ**» تأتي بمعنى مُفْعِل؟

فالجوابُ: نعم، والشَّاهدُ من كلامِ العربِ في قولِ الشَّاعرِ:

أَمِـنْ رَيْحَانَـةِ الـدَّاعِي السَّـمِيعُ ... يُـؤَرِّقُنِي وَأَصْـحَابِي هُجُـوعُ؟(١)

قَوْلُهُ: «**وَرَبُّكَ مُرْشِدُ الحَيْرَانِ**» هذا هو المعنى الثَّاني أنَّه «**مُرْشِدُ الحَيْرَانِ**»، فكم من إنسانٍ حيرانٍ يرشدُه اللهُ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا تَحَيَّرَ يكونُ كالمضطرِّ يسألُ اللهَ الهدايةَ، والحَيْرَةُ قد تكونُ حيرةً في العلمِ، وقد تكونُ في أمرٍ محسوسٍ؛ ففي العلمِ إذا رَأَيْتَ نفسَك متحيِّرًا فالزم الاستغفارَ، فإنَّ الاستغفارَ ممَّا يفتحُ اللهُ به على العبدِ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ۝١٠٥ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء:١٠٦].

(١) البيتِ لعمرو بن معديكرب، كما في الأصمعيات (ص:١٧٢).

إذا تحيَّرت في مسألةٍ من العلمِ فقُل: «اللَّهُمَّ يا مُفَهِّمَ سليمانَ فَهِّمني، ويا مُعَلِّمَ إبراهيمَ عَلِّمني»[1]، والجأ إلى الله عزَّ وجلَّ يرشدْك، كذلك إرشادُ الحيرانِ في الأمورِ الحِسِّيَّةِ هذهَّ أيضًا يحتاجُها الإنسانُ إلى ربِّه عزَّ وجلَّ، أحيانًا تكونُ في البرِّ وتشتبهُ عليك الطُّرُقُ، ولاسيَّما الطُّرُقُ الموجودةُ في الفَلَاةِ يتحيَّرُ فيها الإنسانُ، يلجأُ إلى الله عزَّ وجلَّ، واستمع إلى موسى -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- لـمَّا توجَّه تلقاءَ مَدْيَنَ قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص:٢٢]، وكنَّا مع شيخِنا في سنةٍ من السَّنوات حُجَّاجًا، وكان ذلك الوقت ليس فيه خطوطٌ، فتُهْنَا بعضَ الشَّيءِ فجعل يقولُ: «**عسى أن يهديَني ربِّي سواءَ السَّبيلِ**»، فَهُدينا إلى الطَّريقِ، فأنت إذا تَحَيَّرْتَ عليك بهذه الآيةِ: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص:٢٢]، فإذا قلتها مخلصًا لله مفتقرًا إليه هداك اللهُ عزَّ وجلَّ.

٣٣٣٢- وَكِلاهُمَا حَقٌّ فَهَذَا وَصْفُهُ ... وَالفِعْلُ لِلإِرْشَادِ ذَاكَ الثَّانِي

قَوْلُهُ: «**كِلَاهُمَا حَقٌّ**»؛ يعني: كونُه راشدًا بمقالِه وفعالِه، وكونُه مُرْشِدًا، فكلاهما حقٌّ.

قَوْلُهُ: «**فَهَذَا وَصْفُهُ**»؛ يعني: الرُّشدَ.

أي: إنَّ أقوالَه وأفعالَه وأحكامَه كُلُّها رشدٌ، فالأوَّلُ -وهو كونُه راشدًا- وصفُه، فالرُّشدُ وصفٌ.

قَوْلُهُ: «**الفِعْلُ لِلإِرْشَادِ**»؛ أي: إرشادُه الخلقَ هذا من فعلِه؛ لأنَّه خَلْقٌ.

---

(١) هذا دعاء مأثور عن شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، انظر: العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، لابن عبد الهادي (ص:٤٢).

٣٣٣٣- وَالعَــدْلُ مِــنْ أَوْصَــافِهِ فِي فِعْلِــهِ وَمَقَالِــهِ وَالــحُكْمُ فِي المِيــزَانِ

من أوصافِ الله تعالى العدلُ، ودليلُ ذلك أنَّ اللهَ نَفَى الظُّلْمَ عن نفسِه فقال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصِّلت:٤٦]، وذلك لكمالِ عدلِه عزَّ وجلَّ، هذا العدلُ أنَّه عزَّ وجلَّ لا يُفرِّقُ بين المتماثِلَيْنِ بل بالميزان، وَلا يَجْمَعُ بين المتفرِّقَيْنِ، لأَنَّه لو كان كذلك لم يكن عدلًا.

إِذَنْ من أوصافِ الله تعالى العدلُ، وعَدَّهُ بعضُ العلماءِ من أسمائِه، ولكن لا شكَّ أنَّ العدلَ وصفُه في فعلِه وقولِه وحُكْمِه، ففعلُه كُلُّه عدلٌ، وقولُه كلُّه عدلٌ، وحُكْمُه كُلُّه عدلٌ، وما خَالَفَ حُكْمَه فهو جَوْرٌ وظلمٌ وإِنْ سمَّاه مُشَرِّعوه ما يسمُّونه به من ديمقراطيَّةٍ وغيرِها، فإنَّه لا أعدلَ من حُكْمِ الله عزَّ وجلَّ، فحكمُ الله أعدلُ الأحكامِ، فمن زَعَمَ أنَّ الإسلامَ يظلمُ أحدًا من النَّاسِ، أو يُفَضِّلُ أحدًا على أحدٍ بغيرِ مُوجِبٍ بهذا التَّفضيلِ فإنَّه إِمَّا جاهلٌ بالإسلامِ، وإِمَّا مُلَبِّسٌ على النَّاسِ.

واعلم أنَّ المتأخِّرين ابتُلوا بكلمةٍ يقولونها بدلَ العدلِ يقولون: «**الدِّينُ الإسلاميُّ دينُ المساواة**»، وهذا على إطلاقِه غيرُ صحيحٍ، الدِّين الإسلاميُّ دينُ العدلِ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل:٩٠]؛ ولهذا يجبُ أن نقولَ: الدِّينُ الإسلاميُّ دينُ العدلِ لا دينُ المساواةِ؛ إذ إنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ يساوي بين النَّاسِ إذا اتَّفقوا في الاستحقاقِ، وإِلَّا فاللهُ يقولُ: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النِّساء:١١]، ويقولُ: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ [البقرة:٢٨٢]، وأكثرُ ما في القرآنِ نفيُ المساواةِ، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ﴾ [الحديد:١٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد:١٦]،

والآياتُ في هذا كثيرةٌ، فكيف نقولُ: الدِّينُ الإسلاميُّ دينُ المساواةِ، ونصوصُه في أكثرِ الأحيانِ في القرآنِ على نفيِ المساواةِ؟! وكيف نقولُ هذا، ولدينا آيةٌ في كتابِ الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النَّحل:٩٠]، فقال: ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾؟! لو أنَّ فقيرًا سرَق وأَمَرْنَا بقطعِ يدِه، وغنيًّا سرق ورفعنا عنه الحدَّ هل نقولُ: الدِّينُ الإسلاميُّ يقتضي قطعَ يدِ الغنيِّ؛ لأنَّه دينُ المساواةِ، أو نقولُ: الدِّينُ الإسلاميُّ يقتضي قطعَ يدِ الغنيِّ؛ لأنَّه دينُ العدلِ؟ الجوابُ: الثَّاني لا شكَّ، لكنَّ النَّاسَ ولاسيَّما الكُتَّابُ الذين غالبُ كتاباتِهم أدبيَّة لا ينتبهون لهذا الشَّيءِ.

مسألة: بعضُ النَّاسِ يقولُ: قال الحقُّ -تبارك وتعالى-، فهل هذا جائزٌ؟

الجوابُ: لا شكَّ أنَّ اللهَ هو الحقُّ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النُّور:٢٥]، لكن التَّعبيرُ بما لم يعبِّر به السَّلفُ هو الذي ينبغي ألَّا يفعلَه الإنسانُ، والسَّلفُ كانوا يقولون: «**قال اللهُ تعالى**»، «**قال الرَّبُّ جلَّ وعلا**»، وما أشبه ذلك، مثل قول المتأخِّرين إذا أرادوا أن يقولوا: «**قال رسولُ الله**»، قالوا: «**قال المُصْطَفَى**»، أو «**قال محمَّد بنُ عبدِ الله**»، نعم هو المُصْطَفَى وهو محمَّدُ بنُ عبدِ الله، لكن قولوا كما قال الصَّحابةُ، والمُصْطَفَى لا تختصُّ بالرُّسلِ وغيرِهم، وأيضًا قولُهم: «**محمَّدُ بن عبد الله**» إشكالٌ أيضًا؛ لأنَّ الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- لـمَّا أراد أن يُصالحَ قريشًا، قال: «**اكْتُبْ، هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله**»، فرفض مندوبُ قريشٍ: وقال: «**وَلَكِنِ اكْتُبْ: مُحَمَّدُ بِنُ عَبْدِ الله**»(١)، فلماذا نعدلُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٥٨١).

عن الألفاظِ التي كان الصَّحابةُ يستعملونها وهم أشدُّ منَّا تعظيمًا للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأشدُّ منَّا تعظيمًا للرَّبِّ عزَّ وجلَّ، ونأتي بألفاظٍ خارجةٍ عمَّا يتكلَّمُ به السَّابقون؟! لكن المتأخِّرون يحصلُ فيهم التَّنطُّعُ والتَّعمُّقُ.

٣٣٣٤- فَعَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ إِلَهُنَا قَوْلًا وَفِعْلًا ذَاكَ فِي القُرْآنِ

وهذا في القرآنِ في قولِه تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [هود:٥٦]، فاللهُ عزَّ وجلَّ في فعالِه وأقوالِه وحُكْمِه على صراطٍ مستقيمٍ، ليس بزائغٍ ولا مُنْحَرِفٍ.

* * *

فصل

٣٣٣٥- هَذَا وَمِنْ أَوْصَافِهِ القُدُّوسُ ذُو التْـ تَنْزِيــهِ بِــالتَّعْظِيمِ لِلــرَّحْمَنِ
٣٣٣٦- وَهُوَ السَّلامُ عَلَى الحَقِيقَةِ سَالِـمٌ مِـنْ كُـلِّ تَمْثِيـلٍ وَمِـنْ نُقْصَـانِ
٣٣٣٧- وَالـبِرُّ فِي أَوْصَـافِهِ سُـبْحَانَهُ هُـوَ كَثْـرَةُ الخَـيْرَاتِ وَالإِحْسَـانِ
٣٣٣٨- صَدَرَتْ عَنِ البَرِّ الَّذِي هُوَ وَصْفُهُ فَـالبَرُّ حِينَئِـذٍ لَـهُ نَوْعَـانِ
٣٣٣٩- وَصْـفٌ وَفِعْـلٌ فَهْـوَ بَـرٌّ مُحْسِـنٌ مُـولِي الجَمِيـلِ وَدَائِـمُ الإِحْسَـانِ
٣٣٤٠- وَكَـذَلِكَ الوَهَّـابُ مِـنْ أَسْـمَائِهِ فَـانْظُرْ مَوَاهِبَـهُ مَـدَى الأَزْمَـانِ
٣٣٤١- أَهْلُ السَّمَاوَاتِ العُلَى وَالأَرْضِ عَـنْ تِلْـكَ المَوَاهِـبِ لَـيْسَ يَنْفَكَّـانِ
٣٣٤٢- وَكَـذَلِكَ الفَتَّـاحُ مِـنْ أَسْـمَائِهِ وَالفَـتْحُ فِي أَوْصَـافِهِ أَمْـرَانِ
٣٣٤٣- فَـتْحٌ بِحُكْـمٍ وَهْـوَ شَرْعُ إِلَـهِنَا وَالفَـتْحُ بالأقـدار فـتح ثـاني
٣٣٤٤- وَالـرَّبُّ فَتَّـاحٌ بِـذَيْنِ كِلَـيْهِمَا عَـدْلًا وَإِحْسَـانًا مِـنَ الـرَّحْمَنِ
٣٣٤٥- وَكَـذَلِكَ الـرَّزَّاقُ مِـنْ أَسْـمَائِهِ وَالـرِّزْقُ مِـنْ أَفْعَالِـهِ نَوْعَـانِ
٣٣٤٦- رِزْقٌ عَـلَى يَـدِ عَبْـدِهِ وَرَسُـولِهِ نَوْعَـانِ أَيْضًـا ذَانِ مَعْرُوفَـانِ
٣٣٤٧- رِزْقُ القُلُوبِ العِلْمُ وَالإِيمَانُ وَالـرْ رِزْقُ المُعَـدُّ لِـهَذِهِ الأَبْـدَانِ
٣٣٤٨- هَـذَا هُـوَ الـرِّزْقُ الحَـلالُ وَرَبُّنَـا رَزَّاقُـهُ وَالفَضْـلُ لِلمَنَّـانِ

٣٣٤٩- وَالثَّانِي سَوْقُ القُوتِ لِلأَعْضَاءِ فِي ... تِلْكَ المَجَارِي سَوْقُهُ بِوِزَانِ

٣٣٥٠- هَذَا يَكُونُ مِنَ الحَلالِ كَمَا يَكُو ... نُ مِنَ الحَرَامِ كِلاهُمَا رِزْقَانِ

٣٣٥١- وَاللهُ رَازِقُهُ بِهَذَا الإِعْتِبَا ... رِ وَلَيْسَ بِالإِطْلاقِ دُونَ بَيَانِ

الشرحُ

٣٣٣٥- هَذَا وَمِنْ أَوْصَافِهِ القُدُّوسُ ذُو التْـ ... ـتَنْزِيهِ بِالتَّعْظِيمِ لِلرَّحْمَنِ

«القُدُّوسُ» من أوصافِه؛ يعني: مـمَّا دَلَّ على وصفِه بالقُدُّوسيَّةِ، وإلَّا فـ«القُدُّوس» لا شكَّ من أسمائِه، قال اللهُ تعالى في سورة الحشر: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر:٢٣]، فما معنى القُدُّوس؟ يقول رحمه الله هو: «ذُو التَّنْزِيهِ بِالتَّعْظِيمِ»؛ يعني: هو المنزَّهُ عن كُلِّ نقصٍ المُعظَّمُ بأكملِ التَّعظيمِ.

٣٣٣٦- وَهُوَ السَّلامُ عَلَى الحَقِيقَةِ سَالِمٌ ... مِنْ كُلِّ تَمْثِيلٍ وَمِنْ نُقْصَانِ

«السَّلامُ» أيضًا من أسمائِه، قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر:٢٣]، فسمَّى اللهُ نفسَه قُدُّوسًا، وسمَّى نفسَه سَلامًا، وبدأ بالقُدُّوسِ؛ لأنَّه تطهيرٌ، وبالسَّلامِ؛ لأنَّه مَنْعٌ من النَّقصِ في المستقبلِ، فالقُدُّوسُ محوٌ للنَّقصِ في الماضي إن قُدِّرَ، والسَّلامُ مَنْعٌ للنَّقصِ في المستقبلِ.

وكان الصَّحابةُ يقولون: «السَّلامُ على الله من عبادِه»؛ لأنَّ السَّلامَ بين النَّاسِ تحيَّةٌ، فكانوا يقولون: السَّلامُ عَلَى اللهِ مِنْ عبادِه، السَّلَامُ عَلَى جِبْرِيلَ، السَّلَامُ عَلَى مِيكَائِيلَ، السَّلامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فقال النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُولُوا: السَّلَامُ عَلَى اللهِ مِنْ عِبَادِهِ»؛ لأَنَّ السَّلامَ إِنَّما يُدْعَى به لِـمَنْ يحتمل أن

يُنَالَ بسوءٍ ونقصٍ، فقال: «لَا تَقُولُوا: السَّلامُ عَلَى الله، فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلامُ»، وكان قد علَّمهم ماذا يحيُّون اللهَ به في قولِه: «التَّحِيَّاتُ لله»[١]، إِذَنْ هو السَّلامُ من كُلِّ تمثيلٍ ونقصٍ، فهو لا يماثِلُ المخلوقين، ولا تنقصُ صفاتُه الكاملةُ أبدًا.

٣٣٣٧- وَالبِرُّ فِي أَوْصَافِهِ سُبْحَانَهُ هُوَ كَثْرَةُ الخَيْرَاتِ وَالإِحْسَانِ

٣٣٣٨- صَدَرَتْ عَنِ البِرِّ الَّذِي هُوَ وَصْفُهُ فَالبِرُّ حِينَئِذٍ لَهُ نَوْعَانِ

٣٣٣٩- وَصْفٌ وَفِعْلٌ فَهْوَ بَرٌّ مُحْسِنٌ مُولِي الجَمِيلِ وَدَائِمُ الإِحْسَانِ

«البَرُّ» من أسماءِ الله تعالى، وانظر إلى قولِ أهلِ الجنَّةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطُّور:٢٨]، والبِرُّ هو كثرةُ الخيراتِ وسعتُها، ومنه «البَرُّ» لما خرج عن القرى والمدن؛ لأنَّه واسعٌ منتشرٌ، فالبَرُّ نوعان:

الأوَّل: وصفٌ لله عزَّ وجلَّ، وهو ذو البِرِّ العظيمِ والإحسانِ العميمِ.

الثَّاني: فِعْلٌ له عزَّ وجلَّ؛ أي: مُوصِلٌ للفضلِ والإحسانِ لِـمَنْ شَاءَ من خلقِه، إِذَنْ هو بَرٌّ باعتبارِ الوصفِ، ومحسنٌ باعتبارِ فعلِه؛ لأنَّ الإحسانَ من البِرِّ، إِذَنْ هناك بِرٌّ وهو الإحسانُ، ومنه: بِرُّ الوالدَيْنِ، وهناك «بَرٌّ» على وزن: «فَعْل» وهو اسمُه ووصفُه، فهو وصفٌ وفِعْلٌ.

٣٣٤٠- وَكَذَلِكَ الوَهَّابُ مِنْ أَسْمَائِهِ فَانْظُرْ مَوَاهِبَهُ مَدَى الأَزْمَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَلِكَ الوَهَّابُ مِنْ أَسْمَائِهِ» «الوَهَّابُ»؛ أي: كثيرُ الهِبَاتِ، فهو صيغةُ مبالغةٍ من وجهٍ، وكذلك اسمُ نسبةٍ من وجهٍ آخرَ، وهو من أسماءِ الله عزَّ وجلَّ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب التشهد في الآخرة، رقم (٨٣١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، رقم (٤٠٢).

قال اللهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨]؛ أي: كثيرُ الهباتِ.

قَوْلُهُ: «**فَانْظُرْ مَوَاهِبَهُ مَدَى الأَزْمَانِ**» لو نظرنا إلى مواهبِه مدى الأزمانِ لوجدنا أنَّها لا تُحصَى، واسمُ «**الوهَّابِ**» موجودٌ في القرآنِ بهذا اللَّفظِ، وموجودٌ كذلك بالفعلِ في قولِه تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشُّورى:٤٩].

٣٣٤١- أَهْلُ السَّماوَاتِ العُلَى وَالأَرْضِ عَنْ ... تِلْكَ المَوَاهِبِ لَيْسَ يَنْفَكَّانِ

لا ينفكُّ أهلُ السَّماءِ والأرضِ عن مواهبِ الله عزَّ وجلَّ ونعمِه لحظةً، ولو انفكَّ أحدٌ عن هباتِ الله لحظةً لهلك.

٣٣٤٢- وَكَذَلِكَ الفَتَّاحُ مِنْ أَسْمَائِهِ ... وَالفَتْحُ فِي أَوْصَافِهِ أَمْرَانِ

٣٣٤٣- فَتْحٌ بِحُكْمٍ وَهْوَ شَرْعُ إِلَهِنَا ... وَالفَتْحُ بالأقدار فتح ثاني

٣٣٤٤- وَالرَّبُّ فَتَّاحٌ بِذَيْنِ كِلَيْهِمَا ... عَدْلًا وَإِحْسَانًا مِنَ الرَّحْمَنِ

«**الفتَّاحُ**» من أسماءِ الله عزَّ وجلَّ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سبأ:٢٦]، وذكر أنَّ الفتحَ نوعان: فتحٌ بالشَّرعِ، وفتحٌ بالقَدَرِ، الفتحُ بالشَّرعِ ما يفتحُه اللهُ تعالى على عبادِه من العلمِ النَّافعِ الذي لا مُنْتَهى له حيث يبلغُه العبدُ، أو هو الحكمُ بين عبادِه بالشَّرعِ؛ ولهذا قال: «**فَتْحٌ بِحُكْمٍ وَهْوَ شَرْعُ إِلَهِنَا**»، ومنه قولُه تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٨٩]، فهذا شرعيٌّ؛ يعني: احكم بيننا بالحقِّ، مع أنَّه يصحُّ أن يكونَ كونيًّا أيضًا، ومنه أيضًا: ما يُقَالُ في الدُّعاءِ المعروفِ بين النَّاسِ: «**فَتَحَ اللهُ على قلبِك**» فهذا من الفتحِ الشَّرعيِّ، والفتحُ

ضدُّ الإغلاقِ؛ يعني: هداه وشرحه للإسلامِ، وما أشبه ذلك.

الثَّاني: الفتحُ القَدَرِيُّ وهو ما قَدَّرَه كونًا، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١]، هذا فتحُ قَدَرٍ، وقولُه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر:١]، هذا كونيٌّ أيضًا.

إِذَنْ فاللهُ تعالى فتَّاحٌ بهذا وهذا، فاسأل ربَّك الفتحَ، قل: «اللَّهُمَّ افتحْ لِي» إِذَا دَخَلَ الإنسانُ المسجدَ قال: «اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ»، وإذا خرج قال: «اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ»(١).

٣٣٤٥- وَكَذَلِكَ الرَّزَّاقُ مِنْ أَسْمَائِهِ	وَالرِّزْقُ مِنْ أَفْعَالِهِ نَوْعَانِ
٣٣٤٦- رِزْقٌ عَلَى يَدِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ	نَوْعَانِ أَيْضًا ذَانِ مَعْرُوفَانِ
٣٣٤٧- رِزْقُ القُلُوبِ العِلْمُ وَالإِيمَانُ وَالرْ	رِزْقُ المُعَدُّ لِهَذِهِ الأَبْدَانِ
٣٣٤٨- هَذَا هُوَ الرِّزْقُ الحَلَالُ وَرَبُّنَا	رَزَّاقُهُ وَالفَضْلُ لِلمَنَّانِ
٣٣٤٩- وَالثَّانِي سَوْقُ القُوتِ لِلأَعْضَاءِ فِي	تِلْكَ المَجَارِي سَوْقُهُ بِوِزَانِ
٣٣٥٠- هَذَا يَكُونُ مِنَ الحَلَالِ كَمَا يَكُو	نُ مِنَ الحَرَامِ كِلاهُمَا رِزْقَانِ

«الرَّزَّاقُ» من أسماءِ الله عزَّ وجلَّ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨]، وأَتَتْ «الرَّزَّاقُ» بصيغةِ المبالغةِ لكثرةِ رزقِه وكثرةِ مَنْ يرزقُه عزَّ وجلَّ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، فما

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب ما يقول عند دخوله المسجد، رقم (٣١٤)، وابن ماجه: كتاب المساجد والجماعات، باب الدعاء عند دخول المسجد، رقم (٧٧١).

أكثَرَ الذين يرزقُهم اللهُ، ثُمَّ المرزوقُ من عبادِ الله رزقُه كثيرٌ أيضًا، لو أَحْصَيْتَ ما يرزقُك اللهُ عزَّ وجلَّ ما اسْتَطَعْتَ أن تُحْصِيَ له عددًا.

والرِّزقُ نوعان: رزقٌ معنويٌّ، وهو ما به غِذاءُ الرُّوحِ وهو رِزقُ القُلوبِ العلمَ والإيمانَ، وهذا هو الرِّزقُ الذي جعَلَه اللهُ على يدِ رسولِه صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، فما بنا من علمٍ فهو من عند الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- على يدِه، وما بنا من إيمانٍ فهو على يدِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، هذا الرِّزقُ معنويٌّ، فالعلمُ والإيمانُ رزقٌ معنويٌّ، علمٌ يَحِلُّ في القلبِ بعده إيمانٌ وهو تصديقٌ وقَبولٌ وإذعانٌ فهذا رزقٌ، وهذا ما تحيا به الرُّوحُ والقلوبُ.

الثَّاني: «**المُعَدُّ لِـهَذِهِ الأَبْدَانِ**» الرِّزقُ الحسِّيُّ الذي يقومُ به البدنُ، هذا الرِّزقُ ينقسمُ إلى قسمين: الرِّزقُ الأوَّلُ: الحصولُ على هذا القوتِ رِزقٌ، كم من إنسانٍ يتمنَّى كسرةَ خبزٍة ولا يحصلُ عليها!

الرِّزق **الثَّاني**: سَوْقُ القُوتِ للأعضاءِ في تلك المجاري؛ أي: تفريقُ هذا القوتِ في مجاري البدنِ، لو أراد اللهُ عزَّ وجلَّ لأكلتَ الطَّعامَ ولكن لم يتوزَّع ولم ينتشرِ القوتُ في البدنِ ولَبَقِيَ كالحصاةِ في معدتِك.

إِذَنْ الرِّزقُ الحسِّيُّ نوعان:

الأَوَّلُ: الحصولُ عليه، كم من إنسانٍ لم يحصل عليه.

الثَّاني: تفريقهُ وسَوْقُه في مجاري البدنِ، هذا رزقٌ عظيمٌ أيضًا.

بالمعنى الأوَّلِ رَبُّنا عزَّ وجلَّ رزَّاقُ كُلِّ شيءٍ، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود:٦]، كُلُّ شيءٍ في الأرضِ يدبُّ على الأرضِ رزقُه على الله حتَّى ولو كان من أصغرِ الحشراتِ، أحيانًا تفتحُ

الكتابَ تجد فيه مخلوقًا صغيرًا لا تكادُ تدركُه بعينِك، ومع ذلك مَن الذي رَزَقَهُ في هذا المكانِ؟ الجوابُ: اللهُ عزَّ وجلَّ، وجعل قوتَه يجري في أعضائِه، إنَّك لترى الذَّرَّةَ كيف تُرْزَقُ، وكيف يُيسِّرُ اللهُ لها الرِّزقَ.

وذكَر ابنُ القيِّم -رحمه الله- في كتابه: «مفتاح دار السَّعادة» أنَّه هو حَكَى لشيخِه أنَّ ذرَّةً كانت تلتمسُ الرِّزقَ، فَوَضَعَ رجلٌ أمامَها طُعمًا وقفت عليه، ولكنَّها لا تستطيعُ أن تحملَه، فذهبت إلى أخَواتِها في جُحْرِها ودعتهُنَّ، فأقبلن سراعًا إلى هذا الطُّعم، فلمَّا أَقْبَلْنَ إليه نزعه الرَّجلُ، فجاءت المسكينةُ الأولى تطلبُ وتبحث ولم تجد شيئًا، ثُمَّ رجع أخواتُها إلى الجُحرِ؛ لأنَّهُنَّ لم يجدنَ شيئًا، أمَّا الأولى فبقيت ولم تيأسْ، فَوَضَعَ الطُّعمَ، فلمَّا أَدْرَكَتْهُ يقينًا، ذهبت، وقالت: تَعَالَيْنَ، فجئن إليه سراعًا، فلمَّا أقبلن عليه رفعه، فجعلت تطلبُ وتبحثُ فلم تجد شيئًا، فرجعت أخواتُها إلى الجُحرِ، وبقيت هي لم تيأسْ، فوضع الطُّعمَ للمرَّةِ الثَّالثةِ، فَأَدْرَكَتْهُ تمامًا وذهبت إلى صاحباتِها، وقالت: تَعَالَيْنَ، فجئن للمرَّةِ الثَّالثةِ، فلمَّا أَقْبَلْنَ رفعه، إِذَنْ هذه تلعبُ بعقولِهِنَّ، ما وَجَدْنَ شيئًا، يقول: فاجْتَمَعْنَ عليها فقطَّعْنَها إِرْبًا إِرْبًا، سبحان الله! يقول: حَكَيْتُ هذا لشيخي شيخِ الإسلامِ ابن تيميَّة، قال: سبحان الله! كُلُّ أحدٍ لا يُقِرُّ الكذبَ ولا الظُّلمَ، وهذه كذبت عليهنَّ باعتبارِ أنَّهُنَّ لم يجدن شيئًا، وظلمتهُنَّ؛ لأنَّها أخرجتهُنَّ من جحرِهِنَّ وهُنَّ مستتراتٌ فيه، وربَّما يكونُ ذلك في البردِ، فالمهمُّ أنَّ اللهَ تعالى رزَّاقُ كُلِّ شيءٍ.

وتُحكَى لنا حكاياتٌ عجيبةٌ من هذه النَّاحيةِ، حتَّى حكى لي شخصٌ أنَّه كان في سفرٍ وكان حول بئرٍ تغطَّت فخرج منها ثعبانٌ أعمى ينتصبُ هكذا كالعودِ، فَيُقَيِّدُ اللهُ له طيرًا يقعُ عليه يحسبُ أنَّه عودٌ فيأكله الثُّعبانُ ثُمَّ يرجعُ، يقولُ: أَدْرَكْتُ هذا عدَّةَ أيَّامٍ، سبحان الله! الله أكبر.

وكذلك الطُّيورُ كما قال الرَّسولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-: «لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا»؛ أي: في أَوَّلِ النَّهارِ، ليس في بطونِها شيءٌ «وَتَرُوحُ -أي: في آخرِ النَّهارِ- بِطَانًا»[1]؛ يعني: مملوءةَ البطونِ.

فالمهمُّ أنَّ اللهَ تعالى هو الرَّزَّاقُ، فإذا قال قائلٌ: الرِّزقُ الحسِّيُّ هل هو الرِّزقُ الحلالُ أو يشملُ الحلالَ والحرامَ؟ الجوابُ: الثَّاني حتىَّ رِزق قُطَّاعِ الطَّرِيقِ من رِزقِ الله عزَّ وجلَّ، رزقُ أهلِ الرِّبا من رِزقِ الله، رزقُ الكُفَّارِ من رِزقِ الله.

لو أنَّ رجلًا غَصَبَ مالَ رجلٍ هل نقولُ: أَخَذَ رزقَه أو أَخَذَ رزقَ غيرِه؟ نقولُ: أخَذ رِزْقَه، ولكن ذاك سيرزقُه اللهُ، ولكن ما تقولُ في هِرَّةٍ أَخَذَتْ دجاجةً هل لك أن تُنْقذَها من الهِرَّةِ أو إن أَنْقَذْتَهَا فأنت قَطَعْتَ رزقَها؟ بقولُ: تنقذُها منها؛ لأنَّ حرمةَ الآدمِيِّ أعظمُ من حرمةِ الحيوانِ، وهذا مالُ آدمِيٍّ محترَمٍ، سواءً أنَّ ما أخذته لي أم لغيري.

إِذَنْ الرِّزقُ الماديُّ البدنيُّ يكونُ حلالًا ويكونُ حرامًا، فما لا تَبِعَةَ فيه فهو حلالٌ، وما فيه تَبِعَةٌ فهو حرامٌ، والذي فيه التَّبِعَةُ -أحيانًا- يكون محرَّمًا لعينِهِ، وأحيانًا يكونُ محرَّمًا لكسبِه، فالدَّراهمُ المكتسَبةُ عن طريقِ الرِّبا محرَّمةٌ للكسبِ، والخمرُ والخنزيرُ و الميتةُ لعينِه، ومع ذلك يُسَمَّى رزقًا؛ لأنَّه يكونُ به القوتُ الذي يصلُ إلى المجاري ويحيا به البدنُ، وهل رزقُ الكافرِ حرامٌ أو حلالٌ؟

الجوابُ: حرامٌ لا يَحِلُّ له، قال اللهُ تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب في التوكل على الله، رقم (٢٣٤٤)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب التوكل واليقين، رقم (٤١٦٤).

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ [المائدة:٩٣]؛ يعني: وضدُّهم عليهم جُناحٌ فيما طَعِمُوا، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف:٣٢]، أمَّا مَنْ لم يؤمنْ فهي وإن كانت لهم في الدُّنيا فليست خالصةً يومَ القيامةِ؛ ولهذا نقولُ: إنَّ الكافرَ لن يرفعَ لقمةً إلى فمِه ولا جُرْعةً من ماءٍ إلَّا حُوسِبَ عليها يومَ القيامة وعُوقِبَ عليها لماذا؟ لأنَّه كافرٌ، كيف يتمتَّعُ بنعمِ الله ويبارزُه بالكفرِ به؟! ويكونُ هذا أيضًا باعتبارِ البشرِ واعتبارِ البهائمِ، حتَّى البهائمُ لها رزقٌ ماديٌّ يحيا به جسمُها وبدنُها، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦].

مسألةٌ: هل يجوزُ أخذُ مالِ الكافرِ؟ أمَّا المعاهَدُ فلا يجوزُ؛ لأنَّه بيننا وبينه عهدٌ، أمَّا الحربِيُّ فيجوزُ.

٣٣٥١- وَاللهُ رَازِقُــهُ بِهَــذَا الإعْتِبَـا ... رِ وَلَـيْسَ بِـالإطْلَاقِ دُونَ بَيَـانِ

يعني: رازقُه باعتبارِ أنَّه آتاه قوتًا يتغذَّى به بدنُه لا باعتبارِ أنَّ هذا القوتَ ليس به تَبِعةٌ.

إذا عَلِمْنَا أنَّ من أسماءِ الله «**الرَّزَّاق**»، فإنَّنا لا نريدُ أن نعلمَ علمًا نظريًّا فقط، ونقول: إنَّ اللهَ يرزقُ وإنَّ الرِّزقَ أنواعٌ، بل إنَّنا نريدُ إذا عَلِمْنَا أنَّ من أسمائِه الرَّزَّاقَ ألَّا نطلبَ الرِّزقَ إلَّا منه وأن نلجأَ إليه دائمًا في طلبِ الرِّزقِ الماديِّ والمعنويِّ، «**اللَّهُمَّ ارزقني علمًا نافعًا وعملًا صالحًا ورزقًا طيِّبًا واسعًا**».

إذَنْ نقولُ: كُلُّ أسماءِ الله ينبغي لنا أن نستخلصَ منها طريقًا للوصولِ إلى الله عزَّ وجلَّ، وليس المرادُ أن نفهمَ أنَّ معناها كذا ومعناها كذا، وتنقسمُ إلى كذا وإلى كذا، لا؛ لأنَّ هذا مجرَّدُ علمٍ نظريٍّ، لكنَّنا نريدُ علمًا تربويًّا يتأثَّرُ به الإنسانُ.

إِذَنْ فالفائدةُ أَلَّا نطلبَ الرِّزقَ إِلَّا من الله، وأَلَّا نعتمدَ في رزقِنا إلَّا على الله.

كثيرٌ من النَّاسِ الآن -نسأَلُ اللهَ أن يرزُقَنا وإِيَّاهم التوكُّلَ الحقيقيَّ- يقولُ إذا جاء رأسُ الشَّهرِ أو آخرُ الشَّهرِ: «**هل فُتِحَت الماليَّةُ؟**»، فيكون اعتمادُه اعتمادًا كُلِّيًّا على هذا المرتَّبِ، ولا شكَّ أنَّ الإنسانَ له الحقُّ أن يطلبَ حقَّه، لا نقولُ: لا تطلبْه، لكن كونُك تعتمدُ على هذا اعتمادًا كُلِّيًّا وتنسى المُسَبِّبَ وهو اللهُ عزَّ وجلَّ، لولا أنَّ اللهَ يسَّرَ لك هذا الرِّزقَ ما حصل لك، فاعتَمِدْ على الله أوَّلًا، وهذا الرِّزقُ يكونُ سببًا.

* * *

فصل

٣٣٥٢- هَـذَا وَمِـنْ أَوْصَـافِهِ القَيُّـومُ وَالْـ ـــقَيُّومُ فِي أَوْصَـافِهِ أَمْـرَانِ

٣٣٥٣- إِحْـدَاهُمَا القَيُّـومُ قَـامَ بِنَفْسِـهِ وَالكَـوْنُ قَـامَ بِـهِ هُمَـا الأَمْـرَانِ

٣٣٥٤- فَـالأَوَّلُ اسْـتِغْنَاؤُهُ عَـنْ غَـيْرِهِ وَالفَقْـرُ مِـنْ كُـلٍّ إِلَيْـهِ الثَّـانِي

٣٣٥٥- وَالوَصْفُ بِـالقَيُّومِ ذُو شَـأْنٍ كَـذَا مَوْصُـوفُهُ أَيْضًـا عَظِـيمُ الشَّـانِ

٣٣٥٦- وَالحَـيُّ يَتْلُـوهُ فَأَوْصَـافُ الكَـمَا لِ هُمَـا لأُفْـقِ سَـمَائِهِ قُطْبَـانِ

٣٣٥٧- فَـالحَيُّ وَالقَيُّـومُ لَـنْ تَتَخَلَّـفَ الـ أَوْصَـافُ أَصْـلًا عَـنْهُمَا بِبَيَـانِ

٣٣٥٨- هُوَ قَابِضٌ هُوَ بَاسِطٌ هُـوَ خَـافِضٌ هُـوَ رَافِـعٌ بِالعَـدْلِ وَالإِحْسَـانِ

٣٣٥٩- وَهُـوَ المُعِـزُّ لأَهْـلِ طَاعَتِـهِ وَذَا عِـزٌّ حَقِيقِـيٌّ بِـلا بُطْـلانِ

٣٣٦٠- وَهُوَ المُذِلُّ لِـمَنْ يَشَـاءُ بِذِلَّـةِ الـدْ دَارَيْـنِ ذُلَّ شَـقَا وَذُلَّ هَـوَانِ

٣٣٦١- هُـوَ مَـانِعٌ مُعْـطٍ فَهَـذَا فَضْـلُهُ وَالمَنْـعُ عَـيْنُ العَـدْلِ لِلمَنَّـانِ

٣٣٦٢- يُعْطِـي بِرَحْمَتِـهِ وَيَمْنَـعُ مَـنْ يَشَـا ءُ بِحِكْمَـةٍ وَاللهُ ذُو سُـلْطَانِ

الشـرحُ

٣٣٥٢- هَـذَا وَمِـنْ أَوْصَـافِهِ القَيُّـومُ وَالْـ قَيُّـومُ فِي أَوْصَـافِهِ أَمْـرَانِ

٣٣٥٣- إِحْـدَاهُمَا القَيُّـومُ قَـامَ بِنَفْسِـهِ وَالكَـوْنُ قَـامَ بِـهِ هُمَـا الأَمْـرَانِ

قَوْلُهُ: «مِنْ أَوْصَافِهِ القَيُّومُ»؛ أي: مـمَّا يدلُّ على وصفِ القيُّوميَّةِ اسمُه «القيُّوم»؛ لأنَّ «القيُّومَ» لا شكَّ أنَّه من أسماءِ الله، قال اللهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥].

قَوْلُهُ: «إِحْدَاهُمَا القَيُّومُ» هنا عَبَّرَ المؤلِّفُ -رحمه الله تعالى- بـ«إِحْدَاهُمَا» عن «أَحَدِهِمَا» من أجل ضِيقِ الوزنِ، وإلَّا فإنَّه إذا كان المعدودُ مُذكَّرًا فلا يُقَالُ: «إِحْدَاهُمَا»، وإنَّما يُقَالُ: «أَحَدُهُمَا».

والقَيُّومُ له معنيان:

الأوَّلُ: القَائِمُ بنفسِه، وهذا يستلزمُ غناه عزَّ وجلَّ عن كُلِّ أحدٍ، فهو يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ، وهو يُعِزُّ ولا يحتاجُ إلى أحدٍ يُعِزُّه، فهو قَائِمٌ بنفسِه في كُلِّ شيءٍ.

الثَّاني: «الكَوْنُ قَامَ بِهِ»؛ أي: كُلُّ الكونِ قَامَ بالله عزَّ وجلَّ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم:٢٥]؛ أي: فهو القَائِمُ بنفسِه القَائِمُ به غيرُه، وإن شِئْتَ فقُلْ: «القَائِمُ بنفسِه، القَائِمُ على غيرِه» كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرَّعد:٣٣]؛ يعني: وهو اللهُ، كمن لا يقومُ على أحدٍ.

٣٣٥٤- فَـالأَوَّلُ اسْـتِغْنَاؤُهُ عَـنْ غَـيْرِهِ وَالفَقْـرُ مِـنْ كُـلٍّ إِلَيْـهِ الثَّـانِي

فالأوَّلُ: قيامُه بنفسِه، استغناؤه عن غيرِه، أمَّا نحن فلا نقومُ بأنفسِنا؛ لأنَّنا مفتقرون إلى الأكلِ والشُّربِ واللِّباسِ والسَّكنِ وغيرِ ذلك، أمَّا اللهُ عزَّ وجلَّ فقد قام بنفسِه.

والثَّاني: «الفَقْرُ مِنْ كُلِّ»؛ أي: الفقرُ من كُلِّ الخلقِ إلى الله هو الثَّاني، وهو الذي قَامَ به غيرُه.

٣٣٥٥- وَالوَصْفُ بِالقَيُّومِ ذُو شَأْنٍ كَذَا مَوْصُوفُهُ أَيْضًا عَظِيمُ الشَّانِ

قَوْلُهُ: «وَالوَصْفُ بِالقَيُّومِ ذُو شَأْنٍ» ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحمه الله- أنَّ الوصفَ بالقيُّومِ له شأنٌ عظيمٌ تَبْطُلُ به جميعُ الآلهةِ؛ لأنَّ الآلهةَ لا يقومُ بها أحدٌ، وهي أيضًا لا تقومُ بنفسِها، بل هي قَائِمَةٌ بالله، فجميعُ الأشياءِ مفتقرةٌ إليه.

قَوْلُهُ: «كَذَا مَوْصُوفُهُ أَيْضًا عَظِيمُ الشَّانِ» موصوفُه هو اللهُ عزَّ وجلَّ، فهو عظيمُ الشَّانِ؛ لأنَّه يتبيَّنُ به أنَّه مُسْتَغْنٍ عن غيرِه.

فالوصفُ ذو شأنٍ عظيمٍ، والموصوفُ أشدُّ وأشدُّ.

٣٣٥٦- وَالحَيُّ يَتْلُوهُ فَأَوْصَافُ الكَمَا لِ هُمَا لأُفْقِ سَمَائِهِ قُطْبَانِ

قَوْلُهُ: «الحَيُّ يَتْلُوهُ»؛ يعني: يتلوه ليس ترتيبًا في القرآنِ، بل يتلوه ذِكْرًا في هذا النَّظمِ؛ لقولِ الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، أمَّا في القُرآنِ فإنَّ «القيُّومَ» هو الذي يتلو الحيَّ؛ لأنَّ الحيَّ وصفٌ لازمٌ، وأمَّا القيُّومُ فهو وصفٌ لازمٌ مُتعدٍّ، فباعتبارِ أنَّ معناها أنَّ اللهَ قَامَ بنفسِه لازمٌ، وباعتبار أنَّه قَامَ به غيرُه متعدٍّ.

والحيُّ والقيُّومُ اسمان من أسماءِ الله عزَّ وجلَّ، وقد ذُكِرَا في القُرآنِ في ثلاثةِ مواضع: في سورة «البقرة»، و«آل عمران»، و«طه».

قَوْلُهُ: «لأُفْقِ سَمَائِهِ قُطْبَانِ»؛ أي: سماءِ الكمالِ، فيصحُّ «لأُفْقِ سَمَائِهِ»، وفي نسخةٍ: «سَمَائِهَا»؛ أي: سماءِ الأوصافِ، فكلاهما صحيحٌ.

قَوْلُهُ: «**فَأَوْصَافُ الكَمَالِ هُمَا لأُفْقِ سَمَائِهِ قُطْبَانِ**»؛ يعني: كُلُّ أوصافِ الكمالِ تدورُ على هذين القُطْبَيْنِ كما أنَّ نجومَ الأفقِ تدورُ على قطبين: قطبٍ شماليٍّ وقطبٍ جنوبيٍّ، أوصافُ الكمالِ كُلُّها تدورُ على هذين القطبين: «**الحيُّ**» و«**القيُّوم**»؛ ولهذا قال:

٣٣٥٧- فَالحَيُّ وَالقَيُّومُ لَنْ تَتَخَلَّفَ الـ أَوْصَافُ أَصْلًا عَنْهُمَا بِبَيَانِ

ولهذا كان هذان الاسمان هما اسم الله الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب وإذا سُئِلَ به أَعْطَى؛ كما ورد بذلك الحديثُ[1]، نسألُ اللهَ يا حيُّ يا قيُّومُ أنْ تهديَنا صراطَكَ المستقيمَ.

٣٣٥٨- هُوَ قَابِضٌ هُوَ بَاسِطٌ هُوَ خَافِضٌ هُوَ رَافِعٌ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «**هُوَ قَابِضٌ هُوَ بَاسِطٌ**» هذا أيضًا من أوصافِه وهي من أسمائِه؛ لأنَّه جاء في حديثِ التَّسعيرِ، قال النَّبِيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**إنَّ اللهَ هُوَ المُسَعِّرُ القَابِضُ البَاسِطُ**»[2]، والقبضُ ضدُّ البسطِ، والبسطُ: التَّوسعةُ، قال اللهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرَّعد:٢٦]، ﴿وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يُضَيِّقُ، وبهذا نعرفُ خطأَ التَّعبيرِ الذي يقولُ في الشَّيءِ اليسيرِ يقولُ: «**إنَّه بسيطٌ**»، هذا غيرُ صحيحٍ، بسيطٌ، أي: واسعٌ، فإذا أردتَ أن تُقَلِّلَ الشَّيءَ قل: يسيرٌ، أو قليلٌ، أو ما أشبه ذلك.

---

(١) يعني حديث: «اسْمُ اللهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]، وَفَاتِحَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران:٢]». أخرجه أبو داود: كتاب الوتر، باب الدعاء، رقم (١٤٩٦)، والترمذي: كتاب الدعوات، بعد باب جامع الدعوات عن النبي ﷺ، رقم (٣٤٧٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٦)، وأبو داود: كتاب الإجارة، باب في التسعير، رقم (٣٤٥١)، والترمذي: كتاب البيوع، باب ما جاء في التسعير، رقم (١٣١٤).

مسألةٌ: بعضُ المدِّرسين يقومُ بتَمثيلِ صِفاتِ الله تعالى بصفاتِ المخلوقين، فَيُمَثِّلُ قبضَ السَّماواتِ والأرضِ بيديه، فما الحكمُ؟

الجوابُ: هذا خطأٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أخبرنا أنَّه يقبضُ، ولم يخبِرْنا كيف يقبضُ، فنحن لا نعلمُ كيفيَّةَ قبضِ الله تعالى، لكنْ إن أراد أن يُبَيِّنَ حقيقةَ القبضِ دون أن ينسبَها إلى الله تعالى بأن يقولَ: حقيقةُ القبضِ هكذا، دون أن يقولَ: إنَّ اللهَ يقبضُ هكذا فلا حرجَ، كما أنَّ النَّبيَّ ﷺ بَيَّنَ حقيقةَ الرُّؤيةِ، وقال: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عزَّ وجلَّ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ**»(١)، وهذا إنَّما يجوزُ أمامَ التَّلاميذِ لأجلِ التَّعليمِ؛ لأنَّهم رُبَّما لا يفهمون إلَّا بهذه الطَّريقةِ، أمَّا أمامَ العامَّةِ فلا يفعلُ؛ لأنَّهم رُبَّما تنطلقُ أفكارُهم إلى التَّشبيهِ مباشرةً، وهذا محذورٌ.

قَوْلُهُ: «**هُوَ خَافِضٌ هُوَ رَافِعٌ**» هو أيضًا خَافِضٌ رَافِعٌ، خَافِضٌ بيدِه عزَّ وجلَّ، القسطَ يخفضُه ويرفعُه؛ يعني: العدلَ، وكم من أناسٍ خَفَضَهم! وكم من أناسٍ رَفَعَهم! وممَّن يرفعُهم اللهُ: أهلُ العلمِ والإيمانِ، قال اللهُ تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١].

أراد المؤلِّفُ -رحمه الله- بهذه الأوصافِ المتقابلةِ: «**قابضٌ**» يقابلُه «**بَاسِطٌ**»، و«**خافِضٌ**» يقابلُه «**رَافِعٌ**»، أراد أنَّها: «**بِالعَدْلِ وَالمِيزَانِ**»، فلا يمكنُ أن يرفعَ أحدًا إلَّا وهو يستحقُّ، ولا يخفضُ أحدًا إلَّا وهو يستحقُّ.

٣٣٥٩- وَهُوَ المُعِزُّ لأَهْلِ طَاعَتِهِ وَذَا ... عِزٌّ حَقِيقِيٌّ بِلا بُطْلانِ

وقد بَيَّنَ اللهُ مَنْ هم أهلُ العزِّ فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، باب (٥٥٤)، مسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٣).

[المنافقون:٨]، هؤلاء هم الذين يستحقُّون العزَّةَ، أمَّا اللهُ عزَّ وجلَّ فعِزُّه ذاتِيٌّ لازمٌ لحياتِه، وأمَّا الرَّسولُ والمؤمنون فعزُّهم ليس ذاتيًّا؛ لأنَّه من الله متعلِّقٌ بمشيئتِه وحكمتِه.

٣٣٦٠- وَهُوَ الْمُذِلُّ لِـمَنْ يَشَـاءُ بِذِلَّـةِ الـدْ دَارَيْـنِ ذُلَّ شَـقَا وَذُلَّ هَـوَانِ

الذُّلُّ ضِدُّ العِزِّ، فهو مُعِزٌّ مُذِلٌّ، والذُّلُّ لِـمَنْ ليس بمؤمنٍ، ولكن قد يُعَزُّ الذَّليلُ أو مَنْ يستحِقُّ الذُّلَّ لحكمةٍ، وهو عزَّ وجلَّ المُعِزُّ المُذِلُّ، وهذا من الصِّفاتِ المتقابلةِ.

٣٣٦١- هُـوَ مَـانِعٌ مُعْـطٍ فَهَـذَا فَضْـلُهُ وَالمَنْـعُ عَـيْنُ العَـدْلِ لِلمَنَّـانِ

قَوْلُهُ: «**هُوَ مَانِعٌ مُعْطٍ**»، ونحن نقولُ في أدبارِ الصَّلواتِ: «**اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِـمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِـمَا مَنَعْتَ**»(١)، فاللهُ مانعٌ مُعْطٍ فهذا فضلُه؛ يعني: العطاءَ.

قَوْلُهُ: «**وَالمَنْعُ عَيْنُ العَدْلِ لِلْـمَنَّانِ**» فهو لا يمنعُ أحدًا حَقًّا له، وإنَّما يمنعُ فضلَه، واللهُ يُؤتي فضلَه مَنْ يشاءُ؛ ولهذا لـمَّا احتجَّ بعضُ المعتزلةِ على رجلٍ من أهلِ السُّنَّةِ قال: أَرَأَيْتَ إن منعني الهدى وَقَضَى عليَّ بالرَّدى أَحْسَنَ إليَّ أم أَسَاءَ؟ يريدُ أن يُلْزِمَ السُّنِّيَّ بالقولِ بأنَّ اللهَ تعالى لا يُقَدِّرُ المعصيةَ؛ لأنَّه يقولُ: إنْ قَدَّرَ عليك المعصيةَ فقد أساء إليه، فقال له السُّنِّيُّ: «**إن منعني ما هو لي فقد أَسَاءَ، وإن منعني ما هو فضلُه فذلك فضلُ الله يؤتيه مَنْ يشاءُ**»، اللهُ أكبر! والجوابُ: مَنَعَهُ فضلَه، فاللهُ عزَّ وجلَّ ذو سُلطانٍ يُعْطِي مَنْ يشاءُ ويتفضَّلُ على مَنْ يشاءُ، ومع ذلك فهو لا يمنعُ إِلَّا مَنْ يستحقُّ المنعَ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم (٥٩٣).

[الصَّفّ:٥]، فلم يمنعهم الهدى إلَّا حين زاغوا والعياذُ بالله، وقدَّموا ضلالَهم على هداهم، أضلَّهم اللهُ وإلَّا لو عَلِمَ اللهُ فيهم خيرًا لأسْمَعَهم، كُلُّ إنسانٍ يعلمُ اللهُ فيه خيرًا يُسْمِعُه كما جاء في الحديثِ الصَّحيحِ أيضًا ممَّا يُفَسِّرُ الآيَةَ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»[1].

٣٣٦٢- يُعْطِي بِرَحْمَتِهِ وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَا ... ءُ بِحِكْمَةٍ وَاللهُ ذُو سُلْطَانِ

قَوْلُهُ: «يُعْطِي بِرَحْمَتِهِ»، فإذا أعطاك فهو من رحمتِهِ، عليك أن تشكرَ له سبحانه وتعالى.

قَوْلُهُ: «وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَاءُ بِحِكْمَةٍ»؛ يعني: لا يمنعُ ظلمًا، بل بحكمةٍ.

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين، رقم (٧١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم (١٠٣٧).

فصـــل

٣٣٦٣- وَالنُّـورُ مِـنْ أَسْـمَائِهِ أَيْضًـا وَمِـنْ ... أَوْصَـافِهِ سُـبْحَانَ ذِي البُرْهَـانِ

٣٣٦٤- قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ كَلامًـا قَـدْ حَكَـا ... هُ الـدَّارِمِيْ عَنْـهُ بِـلا نُكْـرَانِ

٣٣٦٥- مَـا عِنْـدَهُ لَيْـلٌ يَكُـونُ وَلا نَهَـا ... رٌ قُلْـتُ تَحْـتَ الفَلْـكِ يُوجَـدُ ذَانِ

٣٣٦٦- نُـورُ السَّمَاوَاتِ العُـلَى مِـنْ نُـورِهِ ... وَالأَرْضِ كَيْفَ الـنَّجْمُ وَالقَمَـرَانِ

٣٣٦٧- مِنْ نُورِ وَجْهِ الـرَّبِّ جَـلَّ جَلالُـهُ ... وَكَـذَا حَكَـاهُ الحَـافِظُ الطَّـبَرَانِي

٣٣٦٨- فَبِهِ اسْتَنَارَ العَرْشُ وَالكُـرْسِيُّ مَـعْ ... سَـبْعِ الطِّبَـاقِ وَسَـائِرِ الأَكْـوَانِ

٣٣٦٩- وَكِتَابُـهُ نُـورٌ كَـذَلِكَ شَرْعُـهُ ... نُـورٌ كَـذَا المَبْعُـوثُ بِالفُرْقَـانِ

٣٣٧٠- وَكَـذَلِكَ الإِيـمَانُ فِي قَلْـبِ الفَتَـى ... نُـورٌ عَـلَى نُـورٍ مَـعَ القُـرْآنِ

٣٣٧١- وَحِجَابُهُ نُورٌ فَلَـوْ كَشَـفَ الحِجَـا ... بَ لأَحْـرَقَ السُّـبُحَاتِ لِلأَكْـوَانِ

٣٣٧٢- وَإِذَا أَتَـى لِلفَصْـلِ يُشْـرِقُ نُـورُهُ ... فِي الأَرْضِ يَـوْمَ قِيَامَـةِ الأَبْـدَانِ

٣٣٧٣- وَكَـذَاكَ دَارُ الـرَّبِّ جَنَّـاتُ العُـلَى ... نُـورٌ تَـلأْلأُ لَـيْسَ ذَا بُطْـلانِ

٣٣٧٤- وَالنُّورُ ذُو نَوْعَيْنِ مَخْلُـوقٌ وَوَصْـ ... ـفٌ مَـا هُمَـا وَاللهِ مُتَّحِـدَانِ

٣٣٧٥- وَكَذَلِكَ المَخْلُـوقُ ذُو نَـوْعَيْنِ مَحْـ ... ـسُوسٌ وَمَعْقُـولٌ هُمَـا شَـيْئَانِ

٣٣٧٦- احْذَرْ تَـزِلَّ فَتَحْـتَ رِجْلِـكَ هُـوَّةٌ ... كَمْ قَدْ هَـوَى فِيهَـا عَـلَى الأَزْمَـانِ

٣٣٧٧- مِنْ عَابِدٍ بِالجَهْلِ زَلَّتْ رِجْلُهُ ... فَهَوَى إِلَى قَعْرِ الحَضِيضِ الدَّانِي

٣٣٧٨- لاحَتْ لَهُ أَنْوَارُ آثَارِ العِبَا ... دَةِ ظَنَّهَا الأَنْوَارَ لِلرَّحْمَنِ

٣٣٧٩- فَأَتَى بِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَبَلِيَّةٍ ... مَا شِئْتَ مِنْ شَطْحٍ وَمِنْ هَذَيَانِ

٣٣٨٠- وَكَذَا الحُلُولِيُّ الَّذِي هُوَ خِدْنُهُ ... مِنْ هَاهُنَا حَقًّا هُمَا أَخَوَانِ

٣٣٨١- وَيُقَابِلُ الرَّجُلَيْنِ ذُو التَّعْطِيلِ وَالْـ ... ـحُجُبِ الكَثِيفَةِ مَا هُمَا سِيَّانِ

٣٣٨٢- ذَا فِي كَثَافَةِ طَبْعِهِ وَظَلامِهِ ... وَبِظُلْمَةِ التَّعْطِيلِ هَذَا الثَّانِي

٣٣٨٣- وَالنُّورُ مَحْجُوبٌ فَلا هَذَا وَلا ... هَذَا لَهُ مِنْ ظُلْمَةٍ يَرَيَانِ

الشرح

٣٣٦٣- وَالنُّورُ مِنْ أَسْمَائِهِ أَيْضًا وَمِنْ ... أَوْصَافِهِ سُبْحَانَ ذِي البُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «**وَالنُّورُ مِنْ أَسْمَائِهِ أَيْضًا وَمِنْ أَوْصَافِهِ**»، لكن لم أرَ حتَّى الآن أنَّ النُّورَ من أسماءِ الله، وإنَّما الذي بلغنا قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النُّور:٣٥]، أي: مُنَوِّرِهما، أو هو اللهُ نفسُه فيهما نورٌ؛ لأنَّه في السَّماءِ، ولا يمنعُ أن يُقَالَ: نورُ السَّماواتِ والأرضِ وهو في السَّماواتِ كما قال اللهُ تعالى في القمرِ: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح:١٦] وهو في السَّماءِ الدُّنيا، وليس في السَّماواتِ الأخرى.

المهمُّ أنَّ لها معنيين: **الأوَّل**: أنَّه هو نفسُه النُّورُ فيهما، **والثَّاني**: أنَّه مُنَوِّرُهما.

فهو نورٌ ومن أوصافِه النُّورُ، لكن لا تُطْلِق «اللهُ نورٌ» على أنَّه اسمٌ، بل اللهُ نورُ السَّماواتِ والأرضِ وذلك بالإضافةِ، وفرقٌ بين هذا وهذا، لكنَّه جاء في

حديث أبي موسى لـمَّا سُئِلَ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»[١]، وفي لفظٍ: «رَأَيْتُ نُورًا»[٢]، فيكونُ اللهُ عزَّ وجلَّ نورًا، وأمَّا أنَّه من أسمائِه على الإطلاقِ بدون إضافةٍ فلا نعلمُه.

قَوْلُهُ: «سُبْحَانَ ذِي الْبُرْهَانِ!» «سُبْحَانَ»؛ أي: تنزيهًا له عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «ذِي الْبُرْهَانِ»؛ أي: ذي الدَّليلِ القاطعِ الجَلِيِّ الواضحِ الذي تَعَرَّفَ لعبادِه بآياتِه حتىَّ أصبح الإنسانُ وكأنَّه يُشَاهِدُ اللهَ، ولهذا قال النَّبِيُّ ﷺ في الإحسانِ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَـمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[٣].

٣٣٦٤- قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ كَلامًا قَدْ حَكَا ... هُ الـدَّارِمِيْ عَنْـهُ بِـلا نُكْـرَانِ

٣٣٦٥- مَـا عِنْـدَهُ لَيْـلٌ يَكُـونُ وَلا نَهَـا ... رٌ قُلْتُ تَحْتَ الفَلْكِ يُوجَدُ ذَانِ

قَوْلُهُ: «قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ كَلَامًا»؛ يعني: أنَّ ابنَ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «إِنَّ رَبَّكُمْ تَعَالَى لَيْسَ عِنْدَهُ لَيْلٌ وَلَا نَهَارٌ، نُور السَّماوَاتِ والأَرْضِ مِنْ نُورِ وَجْهِهِ»[٤].

قَوْلُهُ: «الفَلْكِ» الظَّاهر أنَّ الصَّوابَ «الفَلْك»؛ لأنَّها مأخوذةٌ من الفَلَكِ لا من الفُلْكِ الذي هو السَّفينةُ.

وبَيَّنَ المؤلِّفُ -رحمه الله- وجهَ ذلك فقال: «قُلْتُ»؛ يعني: نفسَه «تَحْتَ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «نور أنى أراه»، رقم (١٧٨).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «نور أنى أراه»، رقم (١٧٨).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، وعلم الساعة، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (٩).

(٤) أخرجه الطبراني (٩/ ١٧٩، رقم ٨٨٨٦).

الفُلْكِ يُوجَدُ ذَانِ»؛ يعني: تَحْتَ فَلَكِ الشَّمسِ والقمرِ يوجدُ ذانِ؛ يعني: اللَّيلَ والنَّهارَ؛ لأنَّه من المعروفِ -الآن- أنَّ الليلَ والنَّهارَ يكونُ بتعاقبِ الشَّمسِ على سطحِ الأرضِ، إذا غَابَتْ جاء اللَّيلُ وإذا ظَهَرَتْ جاء النَّهارُ.

فوق السَّماواتِ لا يوجدُ شمسٌ ولا قمرٌ، لكن يوجدُ النُّورُ العظيمُ الذي لا يمكنُ للإنسانِ أنْ يتصوَّرَه؛ لأنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- نورُ السَّماواتِ والأرضِ، فاللَّيلُ والنَّهارُ مُكوَّران على الأرضِ، قال اللهُ تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ [الزمر:٥]، وقال تعالى: ﴿يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف:٥٤]، ونحن نعلمُ جميعًا أنَّ النَّهار من ضوءِ الشَّمسِ، وأنَّ اللَّيلَ من فَقْدِ هذا الضَّوْءِ، والشَّمس تحت السَّماءِ وليست في السَّماءِ.

٣٣٦٦- نُورُ السَّمَاوَاتِ العُلَى مِنْ نُورِهِ وَالأَرْضِ كَيْفَ النَّجْمُ وَالقَمَرَانِ

قَوْلُهُ: «**وَالأَرْضِ**»؛ أي: ونورُ الأَرْضِ.

قَوْلُهُ: «**كَيْفَ النَّجْمُ وَالقَمَرَانِ؟**»؛ يعني: هما من بابِ أولى.

يعني: هو الذي خَلَقَ فيهما هذا النُّورَ، فنُورُ السَّماواتِ والأرضِ من نورِ الله، نورُ الشَّمسِ والقمرِ من نورِ الله، ومن المعلومِ أنَّ نورَ القمرِ مُستفادٌ من نورِ الشَّمسِ كما لو كان هناك مِرآةٌ تُقَابِلُ بها السِّراجَ أو الشَّمسَ صار فيها نورٌ؛ ولذلك كُلَّما قَرُبَ القمرُ من الشَّمسِ ضَعُفَ نورُه لماذا؟ لضَعفِ المقابلةِ؛ لأنَّ نورَه من نورِ الشَّمسِ، فإذا تمَّت المقابلةُ صَارَتْ هذه في المشرقِ وهذا في المغرب، أو بالعكس امتلأ القمرُ نورًا؛ لأنَّ السَّماواتِ مِثْلُ القُبَّةِ، فالذي في طرفِها من الجهةِ الغربيَّةِ يُقابِلُ الذي في طَرَفِها من الجهةِ الشَّرقيَّةِ، لكن عندما يقربُ القمرُ من الشَّمسِ يضعفُ نورُه حتَّى إنَّه في ليلة المِحَاق -كما يُسَمُّونها- لا يوجدُ فيه نورٌ أصلًا، ومع

ذلك نقولُ: هذا النُّورُ الذي أَوْدَعَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في الشَّمسِ والقمرِ من نورِ الله عزَّ وجلَّ، لكنَّه ليس من نورِه الذي هو وصفُه، بل هو من نورِه الذي هو خَلْقُهُ عزَّ وجلَّ، فاللهُ هو الذي خَلَقَ نورَ السَّماواتِ والأرضِ، وليس نورُ السَّماواتِ والأرضِ نورَ الله الذي هو وصفُه.

٢٣٦٧- مِنْ نُورِ وَجْهِ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ   وَكَذَا حَكَاهُ الحَافِظُ الطَّبَرَانِي

قَوْلُهُ: «مِنْ نُورِ وَجْهِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ» هذا كلامُ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قَوْلُهُ: «وَكَذَا حَكَاهُ الحَافِظُ الطَّبَرَانِي»؛ يعني: حكاه مع الدَّارِمِيِّ، كلاهما رواه عن ابنِ مسعودٍ، ولكن لاحظوا أنَّ هذا النُّورَ المنفصلَ عن ذاتِه نورٌ مخلوقٌ، ليس هو نورَ الله الذي هو نورُ ذاتِه، بل نورُه الذي خَلَقَهُ عزَّ وجلَّ، لكن لـمَّا كان نورًا ووصفُه النُّورَ خَلَقَ النُّورَ.

٢٣٦٨- فَبِهِ اسْتَنَارَ العَرْشُ وَالكُرْسِيُّ مَعْ   سَبْعِ الطِّبَاقِ وَسَائِرِ الأَكْوَانِ

قَوْلُهُ: «وَسَائِرُ الأَكْوَانِ»، ويجوزُ «وَسَائِرِ الأَكْوَانِ»؛ يعني: ومع سائرِ الأكوانِ.

العرشُ والكرسِيُّ شيئان مُتَباينان، العرشُ هو الذي استوى عليه الرَّبُّ جلَّ وعلا، وهو أعظمُ من الكرسِيِّ، والكرسِيُّ موضعُ قَدَمَي الله سبحانه وتعالى، فهو بين يَدَي العرشِ، والرَّبُّ عزَّ وجلَّ قد وضَع قدميه عليه، ولكن لا لحاجةٍ إلى هذا الكرسِيِّ، واستوى على العرشِ لكن لا لحاجةٍ إلى هذا العرشِ، لكن لبيانِ عظمتِه -جلَّ وعلا- وتمامِ مُلْكِه.

٢٣٦٩- وَكِتَابُهُ نُورٌ كَذَلِكَ شَرْعُهُ   نُورٌ كَذَا المَبْعُوثُ بِالفُرْقَانِ

قَوْلُهُ: «وَكِتَابُهُ نُورٌ» كتابُ الله نورٌ، لكن مَنْ يستنيرُ به؟ يستنيرُ به مَنْ يعلمُ

كيف يشعلُه، وأمَّا مَنْ لا يعلمُ فلن يستفيدَ منه؛ والدَّليلُ على أنَّ القرآنَ نورٌ قولُ الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النِّساء:١٧٤]؛ يعني: بَيِّنًا واضحًا، ومُبَيِّنًا لغيرِه أيضًا، ولكنَّه ليس نورًا حسِّيًّا، بل هو نورٌ معنوِيٌّ، مَنْ مَلأَ اللهُ قلبَه بهذا القرآنِ استنار وصار كما قال اللهُ تعالى: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النُّور:٣٥]، وهذا أعلى ما يكونُ مثلًا لضربِ النُّورِ «كَمِشْكَاةٍ»، والمشكاةُ هي الكُوَّةُ.

قَوْلُهُ: «**كَذَلِكَ شَرْعُهُ**»؛ أي: نورٌ يَهتدي به الإنسانُ كالعَلَمِ عليه نارٌ يستدلُّ النَّاسُ بها، فالشَّرعُ نورٌ يمشي به الإنسانُ، والعِلْمُ بالشَّرعِ نورٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام:١٢٢].

قَوْلُهُ: «**كَذَا المَبْعُوثُ بِالفُرْقَانِ**» المبعوثُ بالفرقانِ وهو الرَّسولُ ﷺ يُسَمَّى نورًا؛ لأنَّ اللهَ تعالى أَنَارَ به الطَّريقَ الموصِلَ إليه، فالنَّاسُ يستضيئون به، وقد قال كَعْبُ بنُ زهيرٍ:

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ ... وَصَارِمٌ مِنْ سُيوفِ الله مَسْلُولُ(١)

ولا شكَّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ نورٌ، والعلماءُ الوارثون للرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- هم أيضًا أنوارٌ يُضيئون للنَّاسِ كأنَّ في أيديهم شُعلًا يمشون أمامَ النَّاسِ والنَّاسُ من ورائِهم، قال اللهُ تعالى في العلماءِ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٦٧٠، رقم ٦٤٧٧)، والطبراني (١٩/ ١٧٧)، والبيهقي (١٠/ ٤١٢، ٢١١٤٢).

ونورُ النَّبِيِّ ﷺ نورٌ معنويٌّ وليس نورًا حسِّيًّا، وما رُوِيَ من أنَّه ﷺ يُضيءُ ما حولَه وأنَّه يمشي في الشَّمسِ وليس له ظلٌّ؛ لأنَّ نورَه يطمسُ الظِّلَّ الذي حَصَلَ(١)، فإنَّ هذا كَذِبٌ لا صحَّةَ له، فالنَّبِيُّ ﷺ نورٌ معنويٌّ.

وَقَوْلُهُ: «المَبْعُوثُ بِالفُرْقَانِ» الفرقانُ هو القرآنُ، سُمِيَّ فرقانًا لأنَّ اللهَ تعالى فَرَّقَ فيه بين الحقِّ والباطلِ، بين أولياءِ الله وأعداءِ الله، بين الحلالِ والحرامِ، بين الواجبِ وغيرِ الواجبِ، فهو فرقانٌ في كُلِّ شيءٍ.

فالنَّبِيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- نورٌ، وكتابُ الله نورٌ، وشريعتُه نورٌ، ولكنَّ هذا النُّورَ من النُّورِ المعنويِّ؛ لأنَّ النُّورَ ينقسمُ إلى قسمين: نورٍ حسِّيٍّ، ونورٍ معنويٍّ، فالنُّورُ الحسِّيُّ كنورِ الشَّمسِ والقمرِ وما أشبهها، والنُّورُ المعنويُّ نورُ القرآنِ والشَّريعةِ والنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم.

٣٣٧٠- وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ فِي قَلْبِ الفَتَى نُورٌ عَلَى نُورٍ مَعَ القُرْآنِ

أيضًا من النُّورِ ما يجعلُه اللهُ في قلبِ العبدِ وهو نورٌ معنويٌّ مخلوقٌ يجعلُه اللهُ تعالى في قلبِ الإنسانِ، فإذا انضاف إلى ذلك نورُ القُرآنِ صار نورًا على نورٍ، وهذا النُّورُ القلبيُّ يكشفُ للإنسانِ من العلومِ والمكاشفاتِ ما لا يحصلُ لغيرِه، حتَّى إنَّه لَيَسْتَنْبِطُ من الدَّليلِ الواحدِ عِدَّةَ مسائلَ وأحكامٍ لا يستنبطُها غيرُه من عدَّةِ

(١) مثل حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: استعرت من حفصة بنت رواحة إبرة كنت أخيط بها ثوب رسول الله ﷺ فسقطت الإبرة فطلبتها فلم أقدر عليها فدخل رسول الله ﷺ فتبينت الإبرة بشعاع نور وجهه فضحكت فقال: «يا حميراء لم ضحكت». قلت: كان كيت وكيت. فنادى بأعلى صوته: «يا عائشة الويل ثم الويل لمن حُرم النظر إلى هذا الوجه ما من مؤمن ولا كافر إلا ويشتهي أن ينظر إلى وجهي». عزاه السيوطي في جامع الأحاديث (٤٠/ ٥٥، رقم ٤٣١٢٢) للديلمي وابن عساكر.

أدلَّةٍ، وهذا بما يُلقيه اللهُ في قلبِه من النُّورِ، ومن ذلك ما جَرَى لعمرَ ابن الخطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في مُوافقتِه النَّبِيَّ ﷺ في عدَّةِ مسائلَ، بل في مُوافقتِه لله، وكذلك ما جَرَى لأبي بكرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في أحلكِ المواطنِ التي جرت للرَّسولِ ﷺ وذلك في صُلحِ الحديبيةِ، فإنَّ صلحَ الحديبيةِ كما هو معروفٌ حَصَلَ فيه شيءٌ من الضَّغطِ على المسلمين، ولم يتحمَّلْ بعضُهم هذا، حتَّى إنَّ عمرَ بنَ الخطَّاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مع أنَّ الإيمانَ راسخٌ في قلبِه قام يجادلُ النَّبِيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ولكنَّ النَّبِيَّ ﷺ أجابه بجوابٍ كان جوابُ أبي بكرٍ مِثْلَه تمامًا؛ لأنَّ عمرَ لـمَّا رأى نفسَه لم يُقْنِعِ الرَّسولَ ﷺ ذهب إلى أبي بكرٍ لعلَّه يساعدُه على إقناعِ الرَّسولِ ﷺ، فكان جوابُ أبي بكرٍ كجوابِ النَّبِيِّ ﷺ تمامًا[(١)]، فهذا من النُّورِ الذي يضَعُه اللهُ في قلبِ المؤمنِ؛ ولهذا كان من دعاءِ الرَّسولِ ﷺ حين يخرجُ إلى الصَّلاةِ أن يقولَ: «**وَاجْعَلْنِي نُورًا**»[(٢)]، اجعلني أنا نورًا؛ يعني: نورًا يهتدي به النَّاسُ.

٣٣٧١- وَحِجَابُهُ نُورٌ فَلَوْ كَشَفَ الحِجَا ... بَ لأَحْرَقَ السُّبُحَاتِ لِلأَكْوَانِ

قَوْلُهُ: «**وَحِجَابُهُ نُورٌ**» حجابُ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ الذي احتجب به نورٌ عظيمٌ يحولُ بين الإنسانِ وبين رؤيةِ الله؛ ولهذا لـمَّا سُئِلَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- هَلْ رَأَيْتَ اللهَ؟ قَالَ: «**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ**»[(٣)]؛ أي: نورٌ حجبني عنه، وفي روايةٍ: «**رَأَيْتُ نُورًا**»[(٤)]؛ يعني: ولم أرَ اللهَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى من وراءِ هذا النُّورِ.

---

(١) هو حديث صلح الحديبية الطويل، وقد أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٥٨١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٦٣).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «**نور أنى أراه**»، رقم (١٧٨).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «**نور أنى أراه**»، رقم (١٧٨).

لكن لا تظنُّوا أنَّ النُّورَ المذكورَ كالنُّورِ الذي يكونُ في الشَّمسِ، هو أعظمُ، ولا يمكنُ أن يُدْرِكَ الإنسانُ كيفيَّةَ هذا النُّورِ.

قَوْلُهُ: «فَلَوْ كَشَفَ الحِجَابَ»؛ يعني: لو كشف الرَّبُّ عزَّ وجلَّ الحجابَ بهذا النُّورِ.

قَوْلُهُ: «لأَحْرَقَ السُّبُحَاتُ للأَكْوَانِ» قولُه: «لأَحْرَقَ» أصلُه: «لأَحْرَقَتْ» بالتَّاء، لكن كُلُّ مجموعٍ سوى جمعِ المؤنَّثِ والمذكَّرِ السَّالمِ يجوزُ فيه التَّذكيرُ والتَّأنيثُ، قال ابنُ مالك:

وَالتَّاءُ مَعْ جَمْعٍ -سِوَى السَّالِـمِ مِـنْ مُذَكَّرٍ- كَالتَّاءِ مَعْ إِحْـدَى اللَّـبِنْ[1]

فـ«لَبِنَة» مؤنَّثُها مجازِيٌّ يجوزُ فيها التَّذكيرُ والتَّأنيثُ، كذلك سائرُ الجموعِ إلَّا جمعَ المذكَّرِ السَّالمَ، والصَّحيحُ وإلَّا جمعَ المؤنَّثِ السَّالمَ، فإنَّ جمعَ المذكَّرِ السَّالمَ يجبُ فيه التَّذكيرُ وجمعَ المؤنَّثِ السَّالمَ يجبُ فيه التَّأنيثُ، وما عدا ذلك يجوزُ فيه الوجهان.

و«السُّبُحَاتُ» هي البهاءُ والعظمةُ والنُّورُ؛ ولهذا قال النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم: «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[2]، وابنُ القيِّمِ يقولُ: «لِلأَكْوَانِ»؛ أي: كُلِّها، والحديث: «لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»، ومعلومٌ أنَّ بصرَه ينتهي لكُلِّ المخلوقاتِ، لكن هذا من بابِ المبالغةِ، إِذَنْ لأَحْرَقَت سُبُحَاتُ وجهِه جميعَ خلقِه سبحانه وتعالى.

---

(١) شرح ابن عقيل (٢/ ٩٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «إن الله لا ينام»، وفي قوله: «حجابه النور لو كشفه لأحرق سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره مِن خلقه»، رقم (١٧٩).

٣٣٧٢- وَإِذَا أَتَى لِلفَصْلِ يُشْرِقُ نُورُهُ ... فِي الأَرْضِ يَوْمَ قِيَامَةِ الأَبْدَانِ

قال اللهُ تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [الزمر:٦٩]، ولكن لا تظنُّوا أنَّ هذا النُّورَ كنورِنا هذا، بل هو نورٌ عظيمٌ لا يمكنُ أن يَقْدِرَ قَدْرَه أحدٌ، تُشْرِقُ بنورِ الله عزَّ وجلَّ، ويُؤتَى بالنَّبيِّين والشُّهداءِ من أهل العلمِ فيشهدون بالحقِّ بأنَّ الرُّسلَ أَتَوْا بالحقِّ وأنَّ الأُممَ أُبلغُوا بالحقِّ كما جاء في الحديثِ(١).

٣٣٧٣- وَكَذَاكَ دَارُ الرَّبِّ جَنَّاتُ العُلَى ... نُورٌ تَلَأْلَأَ لَيْسَ ذَا بُطْلَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ دَارُ الرَّبِّ جَنَّاتُ العُلَى نُورٌ تَلأْلأْ» الجنَّاتُ -جعلَني اللهُ وإيَّاكم من أهلِها- نورٌ تلألأ، ليس فيها ظلمةٌ إطلاقًا، ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان:١٣]، ليس فيها شمسٌ، لكنَّها نورٌ يتلألأُ، هذا النُّورُ من النُّورِ الذي يخلقُه اللهُ عزَّ وجلَّ.

وليس لها نظيرٌ؛ لقولِ الله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السَّجدة:١٧]، وما بين الإنسانِ وهذه الجنَّاتِ -اللَّهُمَّ اجعلنا من أهلِها- إلَّا أن تنقضِيَ الدُّنيا وتقومَ القيامةُ، وهذه المدَّةُ وإن طالت تمرُّ سريعًا ولو كانت آلافَ الملايين كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف:٣٥]، وإذا شِئْتَ أن تُدْرِكَ هذا فانظر إلى الإنسانِ حال النَّومِ، ينامُ أربعَ

(١) كما في حديث: «يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى، هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ، فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ لَا مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ، فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأُمَّتُهُ، فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَالوَسَطُ العَدْلُ». أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح:١]، رقم (٣١٦١).

ساعاتٍ، خمسَ ساعاتٍ، ستَّ ساعاتٍ أو أكثر وكأنَّها لحظةٌ، النَّاسُ في قبورِهم مُمتَّعونَ بما يُمتِّعُهم اللهُ به إن كانوا من أهلِ الخيرِ، أو مُعَذَّبون بما يعذِّبُهم اللهُ به، لكن تمرُّ وكأنَّها لحظاتٌ قليلةٌ.

قَوْلُهُ: «**لَيْسَ ذَا بُطْلَانِ**»؛ أي: ليس هذا الخبرُ بباطلٍ، بل هو حقٌّ.

٣٣٧٤- وَالنُّورُ ذُو نَوْعَيْنِ مَخْلُوقٌ وَوَصْـــ ـــفٌ مَـا هُمَـا وَاللهِ مُتَّحِـدَانِ

صحيحٌ، فالنُّور نوعان: نوعٌ مخلوقٌ بائِنٌ عن الله منفصلٌ، ونوعٌ وصفٌ لله عزَّ وجلَّ، وليسا سواءً، خِلافًا لما يدَّعيه أهلُ التَّصوُّفِ حين يظنُّون أنَّ الأنوارَ التي تحدُثُ لهم في قلوبِهم أو يُشاهدونها في الكونِ يظنُّون أنَّها هي نورُ الله عزَّ وجلَّ الذي هو وَصْفُهُ، فإنَّ هذا كَذِبٌ، فهذا النُّورُ المخلوقُ ليس هو النُّورَ الذي وصفُه، فالنُّورُ الذي هو وَصْفُ الله غيرُ مخلوقٍ؛ لأنَّ كُلَّ صفاتِ الله غيرُ مخلوقةٍ، لكن ما يشاهدُه النَّاسُ فهذا مخلوقٌ؛ ولهذا أَقْسَمَ المؤلِّفُ -رحمه الله- أنَّهما غيرُ مُتَّحدَيْنِ.

٣٣٧٥- وَكَذَلِكَ المَخْلُـوقُ ذُو نَـوْعَيْنِ مَحْـــ ـــسُوسٌ وَمَعْقُـولٌ هُمَـا شَـيْئَانِ

قَوْلُهُ: «**وَكَذَلِكَ المَخْلُوقُ ذُو نَوْعَيْنِ مَحْسُوسٌ وَمَعْقُولٌ**»، فما يكونُ في القلبِ من العلمِ والإيمانِ والطُّمأنينةِ هذا معقولٌ فهو أمرٌ معنويٌّ، وما نُشاهدُه من الإصباحِ في أوَّلِ النَّهارِ فهذا محسوسٌ.

فصار النُّورُ أوَّلًا ينقسمُ إلى قسمين: وصفٍ له ومخلوقٍ له، والمخلوقُ ينقسمُ إلى نوعين: حسِّيٍّ، وعقلِيٍّ.

٣٣٧٦- احْذَرْ تَـزِلَّ فَتَحْـتَ رِجْلِـكَ هُـوَّةٌ كَمْ قَدْ هَـوَى فِيهَـا عَـلَى الأَزْمَـانِ

قَوْلُهُ: «**احْذَرْ تَزِلَّ**»؛ يعني: احذر أن تَزِلَّ.

قَوْلُهُ: «فَتَحْتَ رِجْلِكَ هُوَّةٌ»، الهُوَّةُ: المكانُ المنخفِضُ.

والإنسانُ إذا زَلَّتْ رجلُه وتحته هُوَّةٌ سَقطَ وَهلَكَ، لكن ما هذه؟ يقولُ:

٣٣٧٧- مِنْ عَابِدٍ بِالجَهْلِ زَلَّتْ رِجْلُهُ فَهَوَى إِلَى قَعْرِ الحَضِيضِ الدَّانِي

قَوْلُهُ: «الحَضِيضِ»؛ أي: العميق.

٣٣٧٨- لاحَتْ لَهُ أَنْوَارُ آثَارِ العِبَادَةِ ظَنَّهَا الأَنْوَارَ لِلرَّحْمَنِ

٣٣٧٩- فَأَتَى بِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَبَلِيَّةٍ مَا شِئْتَ مِنْ شَطْحٍ وَمِنْ هَذَيَانِ

هذا يعودُ إلى الصُّوفيَّةِ، الصُّوفيَّةُ عندهم نوعُ عبادةٍ، لكن عندهم ضلالٌ عظيمٌ تلوحُ لهم أنوارٌ أحيانًا نورٌ في القلبِ فيظنُّونَ ذلك نورَ الرَّبِّ، ويدَّعون أنَّ الرَّبَّ حَلَّ فيهم والعياذُ بالله، أو تلوحُ لهم الأنوارُ من خارجٍ وتنشرحُ الصُّدورُ فيظنُّون ذلك نورَ الرَّبِّ، ويدَّعون أنَّه حَلَّ في هذا المكانِ؛ لأنَّه كما هو معلومٌ أنَّ الإنسانَ إذا ضَاقَ صدرُه صار النُّورُ عنده ظلمةً، وإذا اتَّسعَ صدرُه انشرح صدرُه و رأى كُلَّ شيءٍ نورًا.

هؤلاء المتصوِّفةُ -والعياذُ بالله- زيَّنَ لهم الشَّيطانُ أعمالَهم، فكان يَرِدُ على قلوبِهم من الأنوارِ الشَّيطانيَّةِ لا الرَّحمانيَّة ما يجعلُهم يظنُّونَ أنَّ هذا هو نورُ الرَّبِّ، فيُحوِّلون النُّورَ المخلوقَ إلى نورِ الوصفِ «نور الخالقِ» عزَّ وجلَّ، فيظنونَّه هو نور الله.

وهذا يُحمَلُ على صوفيٍّ جاهلٍ، وأمَّا الصوفيُّ العالِمُ فإنَّه مهما عَمِلَ من العملِ المخالفِ للسُّنَّةِ فليس بعبادةٍ، لكن الجاهل رُبَّما يتعبَّدُ بالشَّيءِ المبتدَعِ يظنُّه شرعًا وحقًّا فيُثَابُ على نيَّتِه، أمَّا المعانِدُ فلا، هؤلاء هم الصُّوفيَّةُ.

والعجيبُ أنَّ هؤلاء الصُّوفيَّةَ لهم فناءٌ صوفيٌّ بدعيٌّ، فناءٌ يَفْنونَ به عن شهودِ ما سوى الله عزَّ وجلَّ، حتَّى إنَّ الإنسانَ يَفنَى في الله -كما يزعمُ- عن ذكرِ الله، يقولُ: «**لا إلهَ إلَّا اللهُ**» وهو لا يدري؛ لأنَّ قلبَه منشغلٌ بمشاهدةِ المذكور، يعبدُ اللهَ ولكنَّه ساهٍ كالنَّائمِ يعبدُ اللهَ وهو كنائمٍ يعبد الله؛ لأنَّه غَابَ قلبُه بالمعبودِ، هذا يسمُّونه «**الفناء الصوفيّ**»، وهو فناءٌ مُبْتَدَعٌ ضلالٌ، ولم يكن عليه الصَّحابةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ولا التَّابعون لهم بإحسانٍ، وليس من شريعةِ النَّبيِّ ﷺ، لكنَّه من إيراداتٍ تَرِدُ على قلوبِهم فيظنُّونها حقًّا، ويغيبُ الواحدُ كالسَّكرانِ حتَّى إنَّ بعضَهم يبدأُ يخبطُ بيديه ورجليه كأنَّه مجنونٌ، ويأخذون عِصيًّا أو أسواطًا يُخَبِّطُون بها الأرضَ، وأعظمُهم وأقربُهم مَنْ يتطايرُ الغبارُ مِن ضَرْبِهِ، ولهذا يسمُّون هذا النَّوعَ من الذِّكرِ يسمُّونه «**الغُبَيْرَاء**»؛ لأنَّها تُغبِّرُ، والإنسانُ إذا انفعل يضربُ بقوَّةٍ، فهم لشدَّةِ انفعالِهم يضربون بقوَّةٍ، إذا قال: «**لا إلهَ إلَّا اللهُ**» مَدَّ «**الله**» خبطوا بهذه العِصيِّ على الأرض كأنَّهم مجانين، وبعضُهم رُبَّما يُصْعَقُ وبعضُهم رُبَّما يموتُ، وهذا لم يَرِدْ عن النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- ولا عن الصَّحابةِ وهم أكملُ منهم إيمانًا، لكنَّ الشَّياطين تُزَيِّنُ ذلك لهم.

من جملةِ هذا أنَّهم يظنُّون أنَّ النُّورَ الذي يكونُ في قلوبِهم هو نورُ الله، أو الذي يكونُ في الكونِ هو نورُ الله، فيجعلون الصِّفةَ الإلهيَّةَ الذَّاتيَّةَ حالَّةً في المخلوقاتِ.

٣٣٨٠- وَكَذَا الحُلُولِيُّ الَّذِي هُوَ خِدْنُهُ   مِنْ هَاهُنَا حَقًّا هُمَا أَخَوَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَا الحُلُولِيُّ» الحلوليُّ هو الذي يقولُ: إنَّ اللهَ حالٌّ في كُلِّ شيءٍ؛ يعني: أهلَ وحدةِ الوجودِ.

قَوْلُهُ: «هُوَ خِدْنُهُ» الخِدْنُ: هو الصَّاحبُ الخاصُّ؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا مُتَّخِذِيَ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة:٥]، فالصَّاحبُ الخاصُّ خِدْنٌ لهذا الصوفِيِّ؛ لأنَّ حقيقةَ أمرِهم أنَّ اللهَ حالٌّ في الكونِ.

٣٣٨١- وَيُقَابِلُ الرَّجُلَيْنِ ذُو التَّعْطِيلِ وَالـ ـحُجُبِ الكَثِيفَـةِ مَـا هُمَـا سِـيَّانِ

يُقَابِلُ الرَّجُلَيْنِ أصحابُ التَّعطيلِ الذين يُنكرون أنَّ يكونَ لله -سبحانه وتعالى- صفةٌ، فهم محجوبون عن هذه الصِّفاتِ العظيمةِ لله بحجبِ التَّعطيلِ والبِدَعِ، فالمُعَطِّلُ لم يَسْتَنِرْ قلبُه بالعبادةِ والإيمانِ والعياذُ بالله؛ لأنَّ المُعَطِّلَ يُعَطِّلُ مَنْ لا صفات له، بل ولا وجودَ له في الحقيقةِ؛ لأنَّه لا يَصِفُ اللهَ بأيِّ صِفةٍ من الصِّفاتِ، ويقولُ: إنَّ اللهَ تعالى ليس فوقُ ولا تحتُ ولا يمينُ ولا يسارُ، ولا هو مُباينٌ ولا مُتَّصِلٌ، فهو في الحقيقةِ قد فَقَدَ النُّورَ من أصلِه، وهو كما نعلمُ يعبدُ عدمًا.

٣٣٨٢- ذَا فِي كَثَافَـةِ طَبْعِـهِ وَظَلَامِـهِ وَبِظُلْـمَةِ التَّعْطِيـلِ هَـذَا الثَّـانِي

يعني: كلاهما في ظُلمةٍ، الأوَّلُ الذي هو الصوفيُّ والحلوليُّ عنده كثافةُ طَبْعٍ، وهذا عنده ظلمةُ تعطيلِ الخالقِ عزَّ وجلَّ من أوصافِه.

٣٣٨٣- وَالنُّـورُ مَحْجُـوبٌ فَـلا هَـذَا وَلا هَـذَا لَـهُ مِـنْ ظُلْـمَةٍ يَرَيَـانِ

النُّورُ محجوبٌ عن الصِّنفَيْن جميعًا، فلا هذا ولا هذا من الظُّلمةِ يَرَى؛ لأنَّ الأوَّلَ أَظْلَمَ قلبُه بالحلولِ، وهذا أَظْلَمَ قلبُه بالتَّعطيلِ.

وَقَوْلُهُ: «مِنْ ظُلْـمَةٍ» «مِنْ» هذه للتَّعليلِ؛ يعني: فلا هذا ولا هذا يَرَى من أجلِ الظُّلمةِ التي أَحَاطَتْ بهما.

وهنا نُنَبِّهُ على أنَّ مسائلَ الغيبِ لا يمكنُ أن نقولَ فيها: كيف؟ ليس فيها إلَّا التَّصديقُ والتَّسليمُ، أمَّا «**كيف**» فهذا ليس إلينا، امنع لسانَك عن شَيْئَيْنِ: عن «**كيف**»، و«**لِـمَ**»، أمَّا «**بِمَ**» فهذا لا بأسَ به، إذا قلتُ: اعمل: فقل: بِمَ أعملُ؟ ولا تقلْ: لِـمَ أعملُ؟ ولا تقلْ: كيف أعملُ؟ لأنَّ هذا هو حقيقةُ التَّسليم، فكذلك أيضًا الأمورُ الخبريَّةُ، هذا النُّورُ العظيمُ الذي خَلَقَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ واحتجب به عن العبادِ لا نعلمُ كيفيَّتَه، فإذا كانت الجنَّةُ وهي منازلُنا لا نعلمُ عن كيفيَّتِها كما قال اللهُ تعالى: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِـحِينَ مَالَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»[1]، وهو معَدٌّ لنا إن شاء الله، فكيف نقولُ في نورٍ خلقه اللهُ عزَّ وجلَّ يحتجبُ به عن عبادِه؟! فلا ندري، فهذا شيءٌ فوق تصوُّرِنا.

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٠٧٢)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤).

فصل

٣٣٨٤- وَهُوَ الْمُقَدِّمُ وَالْمُؤَخِّرُ ذَانِكَ الصْـ ... ـفَتَانِ لِلأَفْعَالِ تَابِعَتَانِ

٣٣٨٥- وَهُمَا صِفَاتُ الذَّاتِ أَيْضًا إِذْ هُمَا ... بِالذَّاتِ لا بِالغَيْرِ قَائِمَتَانِ

٣٣٨٦- وَلِذَاكَ قَدْ غَلِطَ الْمُقَسِّمُ حِينَ ظَنْـ ... ـنَ صِفَاتِهِ نَوْعَانِ مُخْتَلِفَانِ

٣٣٨٧- إِنْ لَمْ يُرِدْ هَذَا وَلَكِنْ قَدْ أَرَا ... دَ قِيَامَهَا بِالفِعْلِ ذِي الإِمْكَانِ

٣٣٨٨- وَالفِعْلُ وَالمَفْعُولُ شَيْءٌ وَاحِدٌ ... عند الْمُقَسِّمِ مَا هُمَا شَيْئَانِ

٣٣٨٩- فَلِذَاكَ وَصْفُ الفِعْلِ لَيْسَ لَدَيْهِ إِلْـ ... ـلَا نِسْبَةٌ عَدَمِيَّةٌ بِبَيَانِ

٣٣٩٠- فَجَمِيعُ أَسْمَاءِ الفِعَالِ لَدَيْهِ لَيْـ ... ـسَتْ قَطُّ ثَابِتَةً ذَوَاتِ مَعَانِي

٣٣٩١- مَوْجُودَةٌ لَكِنْ أُمُورٌ كُلُّهَا ... نِسَبٌ تُرَى عَدَمِيَّةَ الوِجْدَانِ

٣٣٩٢- هَذَا هُوَ التَّعْطِيلُ لِلأَفْعَالِ كَالتْـ ... ـتَعْطِيلِ لِلأَوْصَافِ بِالمِيزَانِ

الشرحُ

٣٣٨٤- وَهُوَ الْمُقَدِّمُ وَالْمُؤَخِّرُ ذَانِكَ الصْـ ... ـفَتَانِ لِلأَفْعَالِ تَابِعَتَانِ

يقول المؤلِّفُ رحمه الله: من أسماءِ الله: «الْمُقَدِّمُ» و«الْمُؤَخِّرُ»، أو من أوصافِه: «الْمُقَدِّمُ» و«الْمُؤَخِّرُ»، فهو قد سمَّاه النَّبِيُّ -عليه الصَّلاة والسَّلام- فقال: «أَنْتَ

الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ»(١)، والتَّقديمُ والتَّأخيرُ صفتان ثابتتان لله عزَّ وجلَّ، متعلِّقتان بأفعالِه، كالمحيي والمميت، فالمحيي والمميتُ صفتان من صفاتِ الله، والإحياءُ والإماتةُ متعلِّقتان بأفعالِه، فهما من صفاتِ الأفعالِ، وهما من صفاتِ الذَّاتِ من وجهٍ، فَمِنْ وجهِ قيامِهما بالله هما من صفاتِ الذَّاتِ، ومن وجهِ تعلُّقِهما بالمخلوقِ الحادثِ هما من صفاتِ الأفعالِ؛ ولهذا قال:

٣٣٨٥- وَهُمَا صِفَاتُ الذَّاتِ أَيْضًا إِذْ هُمَا   بِالذَّاتِ لا بِالغَيْرِ قَائِمَتَانِ

فهما صفاتُ ذاتٍ وصفاتُ أفعالٍ.

واعلم أنَّ التَّقديمَ والتَّأخيرَ نوعان: حسِّيَّان ومعنويَّان، أمَّا الحِسِّيَّان بأن يُقَدِّمَ اللهُ ولادةَ هذا قبلَ هذا، وموتَ هذا قبلَ هذا، ومرضَ هذا قبلَ هذا، ويُقَدِّمَ مجيءَ المطرِ ويُؤخِّرَ مجيءَ المطرِ، يُقَدِّمَ النَّصرَ ويؤخِّرَ النَّصرَ، وهذا كثيرٌ جدًّا، فكُلُّ أفعالِ الله فيها تقديمٌ وتأخيرٌ، وأمَّا المعنى فمِثْلُ قولِ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- حين رَأى رِجَالًا مُتأخِّرين في المسجدِ: «لَا يَزَالُ قَوْمٌ يَتَأَخَّرُونَ حَتَّى يُؤَخِّرَهُمُ اللهُ»(٢)، وَرُبَّ شَخْصٍ فِي الصَّفِّ الأَوَّلِ فِي الصَّلَاةِ وهو عند الله مُؤخَّرٌ، فهو مُتَقَدِّمٌ حِسًّا لكن مُتَأَخِّرٌ معنى، فالتَّقديمُ والتَّأخيرُ نوعان: حِسِّيٌّ ومعنويٌّ، وهما من صفاتِ الأفعالِ باعتبارِ تعلُّقِهما بالمخلوقِ، ومن صفاتِ الذَّاتِ باعتبارِ تعلُّقِهما بالخالقِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب التهجد بالليل وقوله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء:٧٩]، رقم (١٠٦٩)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٦٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الاستهام على الأذان، رقم (٦١٥)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول، رقم (٤٣٧).

٣٣٨٦- وَلِذَاكَ قَدْ غَلِطَ الْمُقَسِّمُ حِينَ ظَنْ نَ صِفَاتِهِ نَوْعَانِ مُخْتَلِفَانِ

قَوْلُهُ: «الْمُقَسِّمُ» يريدُ بذلك الأشاعرةَ حيث قَسَّموا الصِّفاتِ إلى نوعين:

النَّوع الأوَّل: صفاتُ ذاتٍ، وتُسَمَّى عندهم صفاتِ المعاني، وهي السَّبعُ التي أثبتوها، وزعموا أنَّ العقلَ دَلَّ عليها وهي: الحياة، والسَّمع، والبصرُ، والكلامُ، والعلمُ، والإرادةُ، والقدرةُ، هذه الصِّفاتُ المعنويَّةُ عندهم صفاتٌ قَائِمَةٌ بذاتِ الله عزَّ وجلَّ.

النَّوع الثَّاني: صفاتُ الأفعالِ، فيقولون: إنَّها غيرُ قائمةٍ بالله سواءٌ كانت متعديَّةً أم لازمةً، لماذا؟ قالوا: لأنَّ الأفعالَ حادثةٌ، والحوادثُ لا تقومُ إلَّا بحادثٍ، فوَجَبَ نفيُها عنه؛ ولهذا أنكروا نُزولَ الله للسَّماءِ الدُّنيا؛ لأنَّها فِعْلٌ، والفعلُ عندهم حادثٌ، والحادثُ لا يقومُ إلَّا بحادثٍ، فأنكروه، كذلك أيضًا الأفعالُ المتعدِّيةُ للغيرِ أنكروها: خَلْقُه ورَزْقُه وإحياؤه وإماتتُه، كُلُّ هذه عند الأشاعرةِ مُنْكَرَةٌ؛ يعني: يُنكرونَ أن تقومَ بالله، فالإحياءُ عندهم ليست صفةً متعلِّقةً بالذَّاتِ، ولا يمكنُ أن تكونَ متعلِّقةً بالذَّاتِ؛ لأنَّها حادثةٌ، هذا يُحْيَا اليوم مثلًا، والثَّاني يُماتُ اليوم، فهي صفاتٌ حادثةٌ لا يمكنُ أن تكونَ متعلِّقةً بذاتِ الخالقِ عزَّ وجلَّ، إذ لو كانت متعلِّقةً به لكان -على زعمِهم- حادثًا، وهذا محالٌ.

إِذَنْ عند الأشاعرةِ الصِّفاتُ معنويَّةٌ وفعليَّةٌ؛ المعنويَّةُ يُثبتونها، والفعليَّةُ يُنكرونها لأنَّها حادثةٌ، والحادثُ لا يقومُ إلَّا بحادثٍ، إِذَنْ لا تُنْسَبُ إلى الله نسبةَ ذاتٍ.

قالوا لهم: هناك صفاتُ أفعالٍ متعلِّقةٌ بذاتِ الله مثل: النُّزولِ والاستواءِ على العرشِ والمجيءِ يوم القيامةِ، وأنكروا أن يكونَ كلامُه مترتِّبًا، قالوا: هذه لا نُثْبِتُهَا، فلا نُثْبِتُ الاستواءَ على العرشِ، ولا النُّزولَ إلى السَّماءِ الدُّنيا، ولا الإتيانَ يوم القيامةِ.

فَرَدَّ المؤلِّفُ عليهم وقال: «وَلِذَاكَ قَدْ غَلِطَ المُقَسِّمُ حِينَ ظَنَّ صِفَاتِهِ نَوْعَانِ مُخْتَلِفَانِ».

قَوْلُهُ: «نَوْعَانِ مُخْتَلِفَانِ» هذا على لغةِ مَنْ يُلْزِمُ المثنَّى الألفَ مطلقًا، لغة للعربِ، يقولون: إنَّ المثنَّى بالألفِ دائمًا، فما أولى الذين يلحنون بهذه اللُّغةِ! فكُلَّما لَـحَنْتَ ونَصَبْتَ، وجَعَلْتَ المثنَّى بالألفِ وهو منصوبٌ فاعتذر بأنَّ هذه لغةٌ.

ونقولُ للمؤلِّف رحمه الله: ليس لك حقٌّ أن تذهبَ إلى لغةٍ غيرِ مشهورةٍ أو غيرِ لغةِ قريشٍ، لكن ألزمته قافيةُ القصيدةِ أن يأتيَ بالألفِ فقال: «نَوْعَانِ مُخْتَلِفَانِ».

٣٣٨٧- إِنْ لَـمْ يُـرِدْ هَـذَا وَلَكِـنْ قَـدْ أَرَا ... دَ قِيَامَهَـا بِالفِعْـلِ ذِي الإِمْكَـانِ

٣٣٨٨- وَالفِعْـلُ وَالمَفْعُـولُ شَيْءٌ وَاحِـدٌ ... عِنْـدَ المُقَسِّـمِ مَـا هُمَـا شَـيْئَانِ

يعني: أنَّه قال: إنَّ الصِّفاتِ نوعان: معنويَّةٌ وفعليَّةٌ، ومع هذا لم يَصِفِ اللهَ حقًّا بالصِّفاتِ الفعليَّةِ، بل قال: إنَّ الفعلَ والمفعولَ شيءٌ واحدٌ، ففعلُ الله هو مفعولُه، وإحياؤه نُسِبَ إليه وهو في الحقيقةِ المُحْيَا، ورَزْقُه نُسِبَ إليه وهو في الحقيقةِ المرزوقُ، وهلمَّ جرًّا.

٣٣٨٩- فَلِذَاكَ وَصْفُ الفِعْلِ لَيْسَ لَدَيْهِ إِلْـ ... ـلَا نِسْـبَةٌ عَدَمِيَّـةٌ بِبَيَـانِ

يعني: أنَّه أُضِيفَ إلى الله على سبيلِ النِّسبةِ والإضافةِ، لا على سبيلِ الحقيقةِ، وإلَّا فالفعلُ والمفعولُ شيءٌ واحدٌ، فـ«خلقُ السَّماواتِ» هل اتَّصفَ اللهُ بصفةٍ هي الخلقُ عندهم؟ الجوابُ: لا، ولكنَّه فعل مفعولًا هو السَّماوات، والفعلُ عندهم هو عينُ المفعولِ.

٣٣٩٠- فَجَمِيعُ أَسْمَاءِ الفِعَالِ لَدَيْهِ لَيْـ ـسَتْ قَطُّ ثَابِتَةً ذَوَاتِ مَعَانِي

٣٣٩١- مَوْجُودَةً لَكِنْ أُمُورٌ كُلُّهَا نِسَبٌ تُرَى عَدَمِيَّةَ الوِجْدَانِ

سبحان الله! إذا قيل لهم: هذا غيرُ ممكنٍ، المفعولاتُ موجودةٌ، قالوا: إنَّها أُضِيفَت إلى الله على سبيلِ النِّسبةِ والإضافةِ، وليست حقيقةً هي فعل الله، بل هي مفعولُه، وحينئذٍ يلزمُهم أن يقولوا بوجودِ مفعولٍ بدون فعلٍ، وهذا مكابرةٌ، هل يُوجَدُ فاعلٌ بلا فعلٍ؟ الجوابُ: لا يُوجَدُ، ولا فعلٌ بلا فاعلٍ، ولا مفعولٌ بلا فاعلٍ أبدًا، لكن هم يكابرون.

٣٣٩٢- هَذَا هُوَ التَّعْطِيلُ لِلأَفْعَالِ كَالتَّـ ـعْطِيلِ لِلأَوْصَافِ بِالمِيزَانِ

تعطيلُ الأشاعرةِ لصفاتِ الأفعالِ كتعطيلِ المعتزلةِ للأوصافِ مطلقًا، هؤلاء مُعَطِّلَةُ الأفعالِ، والمعتزلةُ مُعَطِّلَةُ الأوصافِ، فإنَّ مذهبَ المعتزلةِ إثباتُ الأسماءِ دون الصِّفاتِ، ومعلومٌ أنَّ مذهبَهم باطلٌ أيضًا، يقولون: إنَّ اللهَ سميعٌ ولا سمع، بصيرٌ ولا بصر، عليمٌ ولا علم، حيٌّ ولا حياة، وهلمَّ جرًّا، يُنكرون أن يكونَ لله صفةٌ إمَّا؛ لأنَّ الصِّفةَ لا تقومُ إلَّا بجسمٍ والأجسامُ متماثلةٌ، وإمَّا؛ لأنَّنا لو أثْبَتْنَا صفةً قديمةً لَزِمَ تعدُّدُ القدماءِ، وهذا مستحيلٌ على زعمِهم.

قَوْلُهُ: «كَالتَّعْطِيلِ للأَوْصَافِ بِالمِيزَانِ»؛ يعني: سواءً بسواءٍ.

* * *

٣٣٩٣- فَالحَقُّ أَنَّ الوَصْفَ لَيْسَ بِمَوْرِدِ التْـ ـتَقْسِيمِ هَذَا مُقْتَضَى البُرْهَانِ

٣٣٩٤- بَلْ مَوْرِدُ التَّقْسِيمِ مَا قَدْ قَامَ بِالذْ ذَاتِ الَّتِي لِلوَاحِدِ الرَّحْمَنِ

٣٣٩٥- فَهُمَا إِذَن نَوْعَانِ أَوْصَافٌ وَأَفْـ ـعَالٌ فَهَذِي قِسْمَةُ التِّبْيَانِ

٣٣٩٦- فَالوَصْفُ بِالأَفْعَالِ يَسْتَدْعِي قِيَا ... مَ الفِعْلِ بِالمَوْصُوفِ بِالبُرْهَانِ

٣٣٩٧- كَالوَصْفِ بِالمَعْنَى سِوَى الأَفْعَالِ مَا ... إِنْ بَيْنَ ذَيْنِكَ قَطُّ مِنْ فُرْقَانِ

٣٣٩٨- وَمِنَ العَجَائِبِ أَنَّهُمْ رَدُّوا عَلَى ... مَنْ أَثْبَتَ الأَسْمَاءَ دُونَ مَعَانِي

٣٣٩٩- قَامَتْ بِمَنْ هِيَ وَصْفُهُ هَذَا مُحَا ... لٌ غَيْرُ مَعْقُولٍ لِذِي الأَذْهَانِ

٣٤٠٠- وَأَتَوْا إِلَى الأَوْصَافِ بِاسْمِ الفِعْلِ قَا ... لُوا لَمْ تَقُمْ بِالوَاحِدِ الدَّيَّانِ

٣٤٠١- فَانْظُرْ إِلَيْهِمْ أَبْطَلُوا الأَصْلَ الَّذِي ... رَدُّوا بِهِ أَقْوَالَهُمْ بِوِزَانِ

٣٤٠٢- إِنْ كَانَ هَذَا مُمْكِنًا فَكَذَاكَ قَوْ ... لُ خُصُومِكُمْ أَيْضًا فَذُو إِمْكَانِ

٣٤٠٣- وَالوَصْفُ بِالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ كَوْ ... نِيٌّ وَدِينِيٌّ هُمَا نَوْعَانِ

٣٤٠٤- وَكِلاهُمَا أَمْرٌ حَقِيقِيٌّ وَنِسْـ ... ـبِيٌّ وَلا يَخْفَى عَلَى الأَذْهَانِ

٣٤٠٥- وَاللهُ قَدَّرَ ذَاكَ أَجْمَعَهُ بِإِحْـ ... ـكَامٍ وَإِتْقَانٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

الشرحُ

٣٣٩٣- فَالحَقُّ أَنَّ الوَصْفَ لَيْسَ بِمَوْرِدِ التْـ ... ـتَقْسِيمِ هَذَا مُقْتَضَى البُرْهَانِ

٣٣٩٤- بَلْ مَوْرِدُ التَّقْسِيمِ مَا قَدْ قَامَ بِالذْ ... ذَاتِ الَّتِي لِلوَاحِدِ الرَّحْمَنِ

٣٣٩٥- فَهُمَا إِذَنْ نَوْعَانِ أَوْصَافٌ وَأَفْـ ... ـعَالٌ فَهَذِي قِسْمَةُ التِّبْيَانِ

يقولُ: ليس موردُ التَّقسيمِ ما ذَهَبَ إليه هذا المعطِّلُ للأفعالِ حيث يقولُ: إنَّ اللهَ موصوفٌ بأفعالٍ لكنَّها لا تتعلَّقُ بذاتِه، وموصوفٌ بصفاتٍ معنويَّةٍ تتعلَّقُ

بذاتِه، هذا ليس بصحيحٍ، بل موردُ التَّقسيمِ ما قاله المؤلِّفُ رحمه الله: إِنَّ الأفعالَ نوعان: قَائِمٌ بذاتِ الله، وقَائِمٌ بغيرِها؛ يعني: مُتعدِّيًا إلى الغيرِ، ولازمًا، فالاستواءُ على العرشِ لا يتعدَّى إلى الغيرِ، النُّزولُ إلى السَّماءِ الدُّنيا لا يتعدَّى إلى الغيرِ، الخَلْقُ يتعدَّى للغيرِ، فَخَلْقٌ لا بُدَّ فيه من مخلوقٍ، والنُّزولُ لا بُدَّ فيه من نازلٍ فقط.

فهم أنكروا ذلك وحرَّفوه، ولكنَّهم لم يتفطَّنوا لكلامِ الشَّيخِ -رحمه الله- أنَّ هناك فرقًا بين قيامِ هذه الأشياءِ بالمخلوقِ، وقيامِها بالخالقِ، فقيامُها بالخالقِ نوعٌ من أنواعِ فعلِه، فاستواءُ الله على العرشِ نوعٌ من أنواعِ فعلِه، لكن المخلوقُ الذي قَامَتْ به هو الحادثُ، فهناك فرقٌ بين إضافتِها إلى الله وإضافتِها إلى المخلوقِ.

إِذَنْ يقولُ ابنُ القيِّمِ: ليس موردُ التَّقسيمِ أنَّ هذا وصفٌ وهذا فعلٌ، والوصفُ ثابتٌ، والفعلُ غيرُ ثابتٍ، بل موردُ التَّقسيمِ أنَّ الأفعالَ نوعان هما: لازمٌ وهو مالا يتجاوزُ الذَّاتَ، ومتعدٍّ وهو ما يتجاوزُها إلى غيرِها.

٣٣٩٦- فَالوَصْفُ بِالأَفْعَالِ يَسْتَدْعِي قِيَا مَ الفِعْلِ بِالمَوْصُوفِ بِالبُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «فَالوَصْفُ بِالأَفْعَالِ يَسْتَدْعِي قِيَامَ الفِعْلِ بِالمَوْصُوفِ» مَنْ هو الموصوفُ؟ الفاعلُ، فـ«**الوَصْفُ بِالأَفْعَالِ**»؛ يعني: إذا وُصِفَ موصوفٌ بفعلٍ فإنَّه يستدعي قيامَ الفعلِ به؛ أي: بالموصوفِ.

وهذا صحيحٌ، إذا قيل: فلانٌ فاعلٌ، ولنُمَثِّل بـ«**ضارب**»، «**زيدٌ ضاربٌ عَمْرًا**» هنا «**ضَارِبٌ**» مشتقٌّ من الضَّربِ، وهذا يستدعِي أنَّ زيدًا موصوفٌ بالضَّربِ باعتبارِ صدورِه منه، و«**عَمْرًا**» موصوفٌ به باعتبارِ وقوعِه عليه، هم يُنكرون المعنى الأوَّل، يقولون: إِنَّ اللهَ لا يقومُ به وصفٌ باعتبارِه صادرًا منه، وإِنَّما يقومُ به الوصفُ باعتبارِه واقعًا على غيرِه؛ ولهذا قالوا: فعلُ الله هو عينُ مفعولِه، وليس

هناك فعلٌ صادرٌ من الله، بل هناك مفعولٌ صادرٌ منه، فابنُ القيِّم يَرُدُّ عليهم فيقول: كيف يمكنُ أن يكونَ فعلٌ بدونِ فاعلٍ؟!

٣٣٩٧- كَالوَصْفِ بِالمَعْنَى سِوَى الأَفْعَالِ مَا   إِنْ بَيْنَ ذَيْنِكَ قَطُّ مِنْ فُرْقَانِ

قَوْلُهُ: «**كَالوَصْفِ بِالمَعْنَى سِوَى الأَفْعَالِ**»؛ يعني: كالوصف بالمعنى الذي ليس بفعلٍ، مثل: الحياة والعلم والقدرة.

٣٣٩٨- وَمِنَ العَجَائِبِ أَنَّهُمْ رَدُّوا عَلَى   مَنْ أَثْبَتَ الأَسْمَاءَ دُونَ مَعَانِي

قَوْلُهُ: «**ومن العجائب أنهم**» يعني: الذين عَطَّلُوا صفاتِ الأفعالِ، وقالوا: إنَّ الفعلَ هو عينُ المفعولِ، وإضافتُه إلى الله عزَّ وجلَّ نسبيَّةٌ وليست حقيقيَّةً، هؤلاء رَدُّوا على مَنْ أَثْبَتَ الأسماءَ دون معانٍ وهم المعتزلة الذين أثبتوا لله الأسماءَ دون المعاني، فقالوا: إنَّ اللهَ سميعٌ بلا سمعٍ، وبصيرٌ بلا بصرٍ، وقالوا: إنَّ هذه الأسماءَ أسماءٌ جامدةٌ كـ«**حجرٍ، وبقرٍ، وجملٍ، وشاةٍ**»، وما أشبهها، لا تدلُّ على معنىً، فيقولُ المؤلِّفُ رحمه اللهُ:

٣٣٩٩- قَامَتْ بِمَنْ هِيَ وَصْفُهُ هَذَا مُحَا   لٌ غَيْرُ مَعْقُولٍ لِذِي الأَذْهَانِ

قَوْلُهُ: «**قَامَتْ بِمَنْ هِيَ وَصْفُهُ**»؛ يعني: دونَ معانٍ قامت بِمَنْ هي وصفُه، فقوله: «**قَامَتْ بِمَنْ هِيَ وَصْفُهُ**» الجملُة صفةٌ لقولِه: «**مَعَانِي**»؛ أي: دون معانٍ قَامَتْ بمَنْ هي وصفُه.

قَوْلُهُ: «**هَذَا مُحَالٌ غَيْرُ مَعْقُولٍ لِذِي الأَذْهَانِ**» مَنْ الذين يقولون: هذا محالٌ؟ الجواب: الأشاعرةُ، يقولون: محالٌ أن تكونَ الأسماءُ دون معانٍ قامتْ بمَنْ هي وصفُه، هذا محالٌ غيرُ معقولٍ لذي الأذهانِ.

٣٤٠٠- وَأَتَوْا إِلَى الأَوْصَافِ بِاسْمِ الفِعْلِ قَا لُوا لَمْ تَقُمْ بِالوَاحِدِ الدَّيَّانِ

قَوْلُهُ: «وَأَتَوْا إِلَى الأَوْصَافِ» من هؤلاء؟ هؤلاء الأشاعرةُ قالوا: إِنَّ صفاتِ الفعلِ لم تَقُمْ بالله، فهو خالقٌ لكن بدون خلقٍ، والمرادُ بالخَلْقِ نفسُ المخلوقِ كما سبق أنَّهم يَرَوْنَ أنَّ الفعلَ عينُ المفعولِ.

قَوْلُهُ: «وَأَتَوْا إِلَى الأَوْصَافِ بِاسْمِ الفِعْلِ» يريدُ بذلك الصِّفاتِ الفعليَّةَ.

قَوْلُهُ: «قَالُوا» الضَّميرُ يعودُ على الأشاعرةِ.

٣٤٠١- فَانْظُرْ إِلَيْهِمْ أَبْطَلُوا الأَصْلَ الَّذِي رَدُّوا بِهِ أَقْوَالَهُمْ بِوَزَانِ

هم قالوا للمعتزلةِ: لا يمكنُ أن تُوجَدَ أسماءٌ بدونِ مَعانٍ قَامَتْ بمَنْ هي وصفُه، ثُمَّ قالوا: يمكنُ أن تُوجَدَ أفعالٌ لم تَقُمْ بِمَنْ هي وصفُه فيكون الفعلُ عينَ المفعولِ.

٣٤٠٢- إِنْ كَانَ هَذَا مُمْكِنًا فَكَذَاكَ قَوْ لُ خُصُومِكُمْ أَيْضًا فَذُو إِمْكَانِ

يعني: إِنْ كان ما قلتم من أنَّه موصوفٌ بصفاتِ أفعالٍ غيرِ قائمةٍ به فقولُ خصومِكم أنَّه مُتَّصِفٌ بأوصافٍ لم تَقْمُ به هو أيضًا ذو إمكانٍ.

إِذَنْ المؤلِّفُ -رحمه الله تعالى- قال لهم: كيف تُنكرون على هؤلاء وتقولون: لا يمكنُ أن تقومَ الصِّفةُ إِلَّا بموصوفٍ، وأنتم تقولون: إِنَّ الفعلَ لا يقومُ بالله، فأنتم -الآن- رددتم عليهم على أصلٍ هو في الحقيقةِ رَدٌّ عليهم، فلا فرقَ؛ ولهذا أَطَالَ المؤلِّفُ في هذا؛ لأنَّه جديرٌ بالإطالةِ؛ إذ أنَّ إنكارَ قيامِ الأفعالِ بالله عزَّ وجلَّ تعطيلٌ محضٌ، ولا فرقَ بينه وبين إنكارِ قيامِ الصِّفاتِ به؛ لأنَّ الأصلَ واحدٌ، فإمَّا أن يُثْبَتَ الجميعُ، وإمَّا أن يُنْكَرَ الجميعُ.

انتهى المؤلِّفُ -رحمه الله- من الكلامِ على مناقشةِ مذهبِ المعتزلةِ ومذهبِ الأشاعرةِ، ثُمَّ رجع إلى معنى المُقَدِّم والمُؤَخِّر، فقال:

٣٤٠٣- وَالوَصْفُ بِالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ كَوْ نِيٌّ وَدِينِيٌّ هُمَا نَوْعَانِ

التَّقديمُ يكون كونيًّا مثل: سَبْقِ اللَّيلِ النَّهارَ، وسبقِ الحوادثِ بعضها لبعضٍ، ويكون دِينيًّا «شرعيًّا» مثل: تقديمِ العلماءِ وأهلِ الإيمانِ على مَنْ سواهم، تقديمِ المهاجرين على الأنصارِ، وهكذا.

فإِذَن المُقَدِّمُ والمُؤَخِّرُ متعلِّقٌ بالأمورِ الكونيَّةِ وبالأمورِ الشَّرعيَّةِ الدِّينيَّةِ.

٣٤٠٤- وَكِلاهُمَا أَمْرٌ حَقِيقِيٌّ وَنِسْـ ـبِيٌّ وَلا يَخْفَى عَلَى الأَذْهَانِ

٣٤٠٥- وَاللهُ قَدَّرَ ذَاكَ أَجْمَعَهُ بِإِحْـ ـكَامٍ وَإِتْقَانٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «كِلَاهُمَا أَمْرٌ حَقِيقِيٌّ»؛ يعني: أنَّ بعضَ الشَّيءِ مُقَدَّمٌ على بعضٍ.

قَوْلُهُ: «وَنِسْبِيٌّ» بمعنى: أنَّ المؤخَّرَ عن شيءٍ قد يكونُ سابقًا على غيرِه مثل: واحد، اثنين، ثلاثة؛ فاثنان مُؤَخَّرٌ عن الواحدِ، ولكنَّه مُقَدَّمٌ على الثَّلاثةِ، هذا معنى قوله: «حَقِيقِيٌّ وِنِسْبِيٌّ»، وحقيقيٌّ ونسبِيٌّ؛ وذلك؛ لأنَّ الأحداثَ تتوالى وتَتْرَى، فكُلُّ شيءٍ يحدثُ يكون قبلَه شيءٌ وبعدَه شيءٌ.

وخُلاصةُ هذا الفصلِ: الكلامُ على المُقَدِّم والمُؤَخِّر، وأنَّهما اسمان متقابلان.

* * *

فصل

٣٤٠٦- هَـذَا وَمِـنْ أَسْـمَائِهِ مَـا لَـيْسَ يُفْـ ـرَدُ بَـلْ يُقَـالُ إِذَا أَتَـى بِقِـرَانِ

٣٤٠٧- وَهِـيَ الَّتِـي تُـدْعَى بِمُزْدَوَجَاتِهَـا إِفْرَادُهَـا خَطَـرٌ عَـلَى الإِنْسَـانِ

٣٤٠٨- إِذْ ذَاكَ مُوهِمُ نَوْعِ نَقْصٍ جَلَّ رَبْ بُ العَرْشِ عَنْ عَيْبٍ وَعَنْ نُقْصَانِ

٣٤٠٩- كَالمَانِعِ المُعْطِي وَكَالضَّـارِ الَّـذِي هُـوَ نَـافِعٌ وَكَمَالُـهُ الأَمْـرَانِ

٣٤١٠- وَنَظِيرُ هَذَا القَابِضُ المَقْرُونُ بِاسْـ ـمِ البَاسِـطِ اللَّفْظَـانِ مُقْتَرِنَـانِ

٣٤١١- وَكَـذَا المُعِـزُّ مَـعَ المُـذِلِّ وَخَـافِضٍ مَـعَ رَافِـعٍ لَفْظَـانِ مُزْدَوِجَـانِ

٣٤١٢- وَحَدِيثُ إِفْرَادِ اسْـمِ مُنْتَقِمٍ فَمَوْ قُـوفٌ كَـمَا قَـدْ قَـالَ ذُو العِرْفَـانِ

٣٤١٣- مَـا جَـاءَ فِي القُـرْآنِ غَـيْرَ مُقَيَّـدٍ بِـالمُجْرِمِينَ وَجَـا بِـ«ذُو» نَوْعَـانِ

الشـرحُ

هذه من الأسماءِ المُزْدَوجَةِ التي يقترنُ بعضُها ببعضٍ كما قال ابنُ القيِّمِ رحمه اللهُ: هناك أسماءٌ لا بُدَّ أن تقولَها جميعًا، فإن أفردتَها أَوْهَمَتْ معنًى ناقصًا.

٣٤٠٦- هَـذَا وَمِـنْ أَسْـمَائِهِ مَـا لَـيْسَ يُفْـ ـرَدُ بَـلْ يُقَـالُ إِذَا أَتَـى بِقِـرَانِ

أي: بمقارنةٍ للاسمِ الآخَرِ.

٣٤٠٧- وَهِـيَ الَّتِـي تُـدْعَى بِمُزْدَوَجَاتِهَـا   إِفْرَادُهَـا خَطَـرٌ عَـلَى الإِنْسَـانِ

قَوْلُهُ: «وَهْيَ الَّتِي تُدْعَى بِمُزْدَوَجَاتِهَا» مُزْدَوِجَة؛ يعني: أنَّ بعضَها مع بعضٍ.

قَوْلُهُ: «إِفْرَادُهَا خَطَرٌ عَلَى الإِنْسَانِ»، والسَّببُ في ذلك ما قاله:

٣٤٠٨- إِذْ ذَاكَ مُوهِمُ نَوْعِ نَقْصٍ جَلَّ رَبْـ   ـبُ العَرْشِ عَنْ عَيْبٍ وَعَنْ نُقْصَانِ

قَوْلُهُ: «إِذْ ذَاكَ مُوْهِمُ نَوْعِ نَقْصٍ» لو أَفْرَدْتَهَا لكان يُوهِمُ النَّقصَ في الله عزَّ وجلَّ.

٣٤٠٩- كَالمَانِعِ المُعْطِـي وَكَالضَّـارِ الَّـذِي   هُـوَ نَـافِعٌ وَكَمَالُـهُ الأَمْـرَانِ

قَوْلُهُ: «كَالمَانِعِ المُعْطِي» فلو قلتَ: إنَّ اللهَ مانعٌ ولم تقيِّدْه، فلم تقل: إنَّ اللهَ مانعٌ كذا، فهذا يُوهِمُ النَّقصَ أنَّ من أسمائِه المانعَ؛ يعني: وليس يُعْطِي بل يمنعُ دائمًا؛ لأنَّ المنعَ بخلٌ وشحٌّ، واللهُ عزَّ وجلَّ مُنَزَّهٌ عن ذلك، فإذا قَرَنْتَ المانعَ بالمُعْطِي حَصَلَ من الجمع بينهما معنًى غير الحاصلِ بإفرادِ كُلٍّ منهما، وهو تمامُ التَّصرُّفِ، أنَّه لكمالِ تصرُّفهِ وسلطانِه كان مانعًا معطيًا.

لكن قولُ المؤلِّفِ رحمه الله فيما سبق: «إِفْرَادُهَا خَطَرٌ» ليس على إطلاقه، مرادُه: إفرادُ ما يقتضي النَّقصَ منها، فمثلًا «المُعْطِي» لو أفردناه يجوزُ؛ لأنَّ «المُعْطِي» وحدَه لا يُوهِمُ نقصًا، الذي يُوهِمُ هو أن تُفْرِدَ المانعَ، قال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللهُ مُعْطٍ»[1]، فإفرادُ ما يقتضي النَّقصَ فقط خطرٌ، وحينئذٍ نقولُ: هذه إمَّا أن تُقَالَ جميعًا، وإمَّا أن يُفْرَدَ منها ما يدلُّ على الكمالِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، رقم (٧١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم (١٠٣٧).

قَوْلُهُ: «**وَكَالضَّارِ الَّذِي هُوَ نَافِعٌ**»؛ يعني: لا بُدَّ أن تقولَ: «**الضَّارُّ النَّافعُ**»، إذا قلت: «**الضَّارُّ**» فقل: «**النَّافِع**»؛ لأنَّك لو قلت: «**اللهُ هو الضَّارُّ**» فهذا فيه نقصٌ أنَّه لا يتَّصفُ عزَّ وجلَّ بالنَّافعِ، وهو أنَّ الرَّبَّ عزَّ وجلَّ موصوفٌ بالضَّررِ على الإطلاقِ، ولكن إذا قلتَ: «**الضَّار النَّافع**» صار معنى ذلك أنَّه الكاملُ التَّصرُّفِ والسُّلطانِ، فهو يضرُّ وينفعُ، فلا بُدَّ أن تقولَ: «**الضَّارُّ النافعُ**»، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام:١٧].

قَوْلُهُ: «**وَكَمَالُهُ الأَمْرَانِ**»؛ أي: كمالُ الله عزَّ وجلَّ بالأمرين جميعًا، وكذلك بأحدِهما وهو ما دلَّ على الكمالِ وهو «**النَّافِعُ**» ؛ لأنَّ العِلَّةَ منتفيةٌ.

٣٤١٠- وَنَظِيرُ هَذَا القَابِضُ المَقْرُونُ بِاسْـ ... ـمِ البَاسِطِ اللَّفْظَانِ مُقْتَرِنَانِ

قَوْلُهُ: «**القَابِضُ البَاسِطُ**»، لا تقل: إنَّ اللهَ قابضٌ؛ لأنَّ القبضَ نقصٌ، بل قل: «**القابض الباسط**»؛ حتَّى يكونَ اجتماعُهما دالًا على كمالِ تصرُّفِه عزَّ وجلَّ، لكن لو قلتَ: «**الباسط**» وحدَه فالظَّاهرُ الجوازُ، وذلك؛ لأنَّه كمالٌ.

٣٤١١- وَكَذَا المُعِزُّ مَعَ المُذِلِّ وَخَافِضٍ ... مَعَ رَافِعٍ لَفْظَانِ مُزْدَوِجَانِ

قَوْلُهُ: «**وَكَذَا المُعِزُّ مَعَ المُذِلِّ**»؛ يعني: لا تقل: «**المُذِلُّ**» وحدَه، بل قل: «**المُعِزُّ المُذِلُّ**» حتَّى يُفيدَا كمالَ سلطانِ الله تعالى وتصرُّفِه في عبادِه إلَّا إذا قَيَّدْتَه بشيءٍ مثل أن تقولَ: «**المُذِلُّ لأعدائِه**»، لكن لو قلت: «**المُعِزُّ**» فالظَّاهرُ أنَّه لا مانعَ؛ لأنَّه لا يُوهِمُ نقصًا.

قَوْلُهُ: «**وَخَافِضٌ مَعَ رَافِعٍ**» «**الخافضُ الرَّافعُ**»، لا تقل: «**الخافضُ**» فقط؛ لأنَّ

هذا يُوهِمُ نقصًا، بل اجمعْ بينها وبين «الرَّافع»، أو أَطْلِق «الرَّافع» وحدَه، لأنَّ هذا كمالٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١].

٣٤١٢- وَحَدِيثُ إِفْرَادِ اسْـمِ مُنْـتَقِمٍ فَمَـوْ قُـوفٌ كَـمَا قَـدْ قَـالَ ذُو العِرْفَـانِ

مَنْ عَدُّوا أسماءَ الله عَدُّوا «المنتقم»، لكن لا يصحُّ، و«المنتقِمُ» لم تأتِ مفردةً إِلَّا في حديثٍ موقوفٍ على الصَّحابيِّ[1]، والموقوفُ ليس بحجَّةٍ، لكن لو قلتَ: «العفوُّ المنتقمُ» صار من الأسماءِ المُزْدَوَجَةِ؛ لأنَّ العفوَ يُقَابِلُ الانتقامَ.

لكن ما الذي جاء في القرآنِ؟ قال المؤلِّف رحمه الله:

٣٤١٣- مَـا جَـاءَ فِي القُـرْآنِ غَـيْرَ مُقَيَّـدٍ بِـالمُجْرِمِينَ وَجَـا بِـ«ذُو» نَوْعَـانِ

قَوْلُهُ: «مَا جَاءَ فِي القُرْآنِ غَيْرَ مُقَيَّدٍ بِالمُجْرِمِينَ»؛ يعني: جاء في القرآنِ مُقَيَّدًا بالمجرمين، قال اللهُ -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السَّجدة:٢٢] فَقَيَّدَ، والمُقَيَّدُ ليس كالمطلَقِ؛ لأنَّ المطلقَ يفيدُ اتِّصافَ الله بالصِّفةِ على الإطلاقِ بخلافِ المقيَّدِ.

قَوْلُهُ: «وَجَا بِـ«ذُو» نَوْعَانِ»؛ يعني: أنَّهما نوعان: نوعٌ مُقَيَّدٌ بالمجرمين، ونوعٌ جاء بـ«ذو» في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران:٤].

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، بعد باب ما جاء في عقد التسبيح باليد، رقم (٣٥٠٧)، وقال: هذا حديث غريب حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح، ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح، وهو ثقة عند أهل الحديث وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ولا نعلم في كبير شيء من الروايات ذِكر الأسماء إلا في هذا الحديث، وقد روى آدم بن أبي إياس، هذا الحديث بإسناد غير هذا عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ وذكر فيه الأسماء، وليس له إسناد صحيح.

وَقَوْلُهُ: «وَجَا بـ«ذُو» نَوْعَانِ» كيف رَفَعَ «نَوْعَانِ» و «ذُو» مُضافةٌ إليها؟ نقولُ: ما أُضِيفَتْ؛ و«نَوْعَانِ»: خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: «هُمَا نَوْعَانِ» إِمَّا مُقَيَّدٌ وإِمَّا بِـ«ذُو»؛ لأنَّ معنى كلامِه: «وَجَاءَ بِذُو»؛ يعني: هذا الوصفُ جَاءَ بـ«ذُو»؛ أي: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران:٤].

* * *

فصل

٣٤١٤- وَدَلالَــةُ الأَسْــمَاءِ أَنْــوَاعٌ ثَــلا ... ثٌ كُلُّهَــا مَعْلُومَــةٌ بِبَيَــانِ

٣٤١٥- دَلَّــتْ مُطَابَقَــةً كَــذَاكَ تَضَــمُّنًا ... وَكَــذَا التِزَامًــا وَاضِــحَ البُرْهَــانِ

٣٤١٦- أَمَّــا مُطَابَقَــةُ الدَّلالَــةِ فَهْــيَ أَنْ ... نَ الإِسْــمَ يُفْهَــمُ مِنْــهُ مَفْهُومَــانِ

٣٤١٧- ذَاتُ الإِلَهِ وَذَلِكَ الوَصْـفُ الَّـذِي ... يُشْــتَقُّ مِنْــهُ الإِسْــمُ بِــالمِيزَانِ

٣٤١٨- لَكِــنْ دَلالَتُــهُ عَــلَى إِحْــدَاهُمَا ... بِتَضَــمُّنٍ فَافْهَمْــهُ فَهْــمَ بَيَــانِ

٣٤١٩- وَكَــذَا دَلالَتُــهُ عَــلَى الصِّــفَةِ الَّتِــي ... مَــا اشْــتُقَّ مِنْهَــا فَــالتِزَامٌ دَانِي

٣٤٢٠- وَإِذَا أَرَدْتَ لِــذَا مِثَــالًا بَيِّنًــا ... فَمِثَــالُ ذَلِــكَ لَفْظَــةُ الــرَّحْمَنِ

٣٤٢١- ذَاتُ الإِلَــهِ وَرَحْمَــةٌ مَدْلُولُــهَا ... فَهُــمَا لِــهَذَا اللَّفْــظِ مَــدْلُولانِ

٣٤٢٢- إِحْدَاهُمَا بَعْضٌ لِذَا المَوْضُوعِ فَهْــ ... ــيَ تَضَــمُّنٌ ذَا وَاضِــحُ التِّبْيَــانِ

٣٤٢٣- لَكِنَّ وَصْفَ الحَيِّ لازِمُ ذَلِـكَ الــ ... ــمَعْنَى لُــزُومَ العِلْــمِ لِلــرَّحْمَنِ

٣٤٢٤- فَلِــذَا دَلالَتُــهُ عَلَيْــهِ بِــالتِزَا ... مٍ بَــيِّنٍ وَالحَــقُّ ذُو تِبْيَــانِ

الشــرحُ

٣٤١٤- وَدَلالَــةُ الأَسْــمَاءِ أَنْــوَاعٌ ثَــلا ... ثٌ كُلُّهَــا مَعْلُومَــةٌ بِبَيَــانِ

قَوْلُهُ: «دَلَالَةُ الأَسْمَاءِ» يريدُ بذلك أسماءَ الله، ولكنَّ هذا الحُكْمَ ثابتٌ في جميعِ

دلالاتِ الكلماتِ والألفاظِ، أنواعُها ثلاثةٌ.

٣٤١٥- دَلَّتْ مُطَابَقَةً كَذَاكَ تَضَمُّنًا ... وَكَذَا التِزَامًا وَاضِحَ البُرْهَانِ

يعني: أنَّ الدَّلالاتِ ثلاثةٌ: دلالةُ مُطَابَقَةٍ، ودلالةُ تضمُّنٍ، ودلالةُ التزامٍ.

فدلالةُ **المُطَابَقَةِ**: هي دلالةُ الاسمِ على جميعِ معناه، فتدلُّ على الذَّاتِ والوصفِ الذي اشْتُقَّ منه هذا الاسمُ.

والتَّضمُّن: دلالةُ الاسمِ على بعضِ معناه؛ بأن يَدُلَّ على الذَّاتِ وحدَها أو على الصِّفةِ وحدَها.

والالتزامُ: دلالتُه على أمرٍ خارجٍ لازمٍ لا يدلُّ عليه اللَّفظُ من حيث الاشتقاقُ، لكنَّه لازمٌ للمعنى.

٣٤١٦- أَمَّا مُطَابَقَةُ الدَّلالَةِ فَهيَ أَنْ ... نَ الإِسْمَ يُفْهَمُ مِنْهُ مَفْهُومَانِ

٣٤١٧- ذَاتُ الإِلَهِ وَذَلِكَ الوَصْفُ الَّذِي ... يُشْتَقُّ مِنْهُ الإِسْمُ بِالمِيزَانِ

قَوْلُهُ: «الإِسْمَ»؛ أي: الاسم من أسماءِ الله.

أفاد المؤلِّفُ -رحمه الله تعالى- أنَّ أسماءَ الله مشتقَّةٌ لقولِه: «**الَّذِي يُشْتَقُّ مِنْهُ الإِسْمُ بِالمِيزَانِ**» وهو كذلك، فإنَّ أسماءَ الله تعالى مشتقَّةٌ من مَعانٍ يتضمَّنُها الاسمُ، ولا يُسْتَثْنَى من ذلك شيءٌ، خِلافًا لِـمَنْ قَالَ من أهلِ العلمِ: إنَّ لفظَ «الله» غيرُ مشتقٍّ، بل هو مشتقٌّ وأمُّ المشتقَّاتِ في الحقيقةِ، مشتقٌّ من الألوهيَّةِ.

إِذَنْ دلالةُ الاسمِ على الذَّاتِ والوصفِ جميعًا يُسمَّى دلالةَ مطابقةٍ.

٣٤١٨- لَكِــنْ دَلالَتُـــهُ عَـــلَى إِحْـــدَاهُمَا بِتَضَـــمُّنٍ فَافْهَمْـــهُ فَهْـــمَ بَيَـــانِ

قَوْلُهُ: «عَلَى إِحْدَاهُمَا»؛ أي: الذَّاتِ أو الوصفِ؛ يعني: دلالة على الذَّاتِ وحدَها بقطعِ النَّظرِ عن الوصفِ، أو على الوصفِ وحدَه بقطعِ النَّظرِ على الذَّاتِ، هذا يُسَمَّى دلالةَ تضمُّنٍ.

وجهُ التَّسميةِ «مطابقةً» هو أنَّ اللَّفظَ طَابَقَ معناه تمامًا، ووجهُ الثَّاني: «تضمُّنًا» أنَّ اللفظَ متضمِّنٌ لهذا المعنى وزائدٍ عليه.

٣٤١٩- وَكَـذَا دَلالَتُـهُ عَـلَى الصِّـفَةِ الَّتِـي مَـا اشْـتُقَّ مِنْهَـا فَـالتِزَامٌ دَانِي

دلالتُه على الصِّفةِ التي لم يُشْتَقَّ منها هذا دلالةُ التزامٍ.

وَقَوْلُهُ: «دَانِي»؛ يعني: أنَّ الالتزامَ يكونُ قريبًا، ويكونُ بعيدًا، ويكونُ وسَطًا، والمؤلِّفُ يرى أنَّ الدَّلالةَ المؤكَّدةَ المتيقَّنةَ هي الالتزامُ الدَّاني القريبُ، أمَّا البعيدُ الذي لا يُفْهَمُ من اللَّفظِ إلَّا بكلفةٍ فهذا قد يُنَازَعُ في دلالةِ اللَّفظِ عليه.

المهمُّ: أنَّ دلالةَ الالتزامِ هي أن يدلَّ اللَّفظُ على صفةٍ لم يُشْتَقَّ منها، ولكنَّها لازمةٌ للمعنى المشتقِّ منه، ولهذا سمَّيناها دلالةَ التزامٍ.

٣٤٢٠- وَإِذَا أَرَدْتَ لِـــذَا مِثَـــالًا بَيِّنًـــا فَمِثَـــالُ ذَلِـــكَ لَفْظَـــةُ الـــرَّحْمَنِ

يعني: إذا أَردتَ أن تضربَ مَثَلًا فمثالُ ذلك لفظةُ: «الرَّحمن».

٣٤٢١- ذَاتُ الإِلَـــهِ وَرَحْمَـــةٌ مَدْلُولُـــهَا فَهُـــمَا لِـــهَذَا اللَّفْـــظِ مَـــدْلُولانِ

لفظةُ «الرَّحمنُ» دَلَّت على ذاتٍ وهو «الله»، وعلى صفةٍ وهي «الرَّحمة»، دلالتُها عليهما جميعًا مطابقةٌ، وعلى «الرَّحمةِ» وحدَها تضمُّنٌ، وعلى الذَّاتِ وحدَها وهو اللهُ عزَّ وجلَّ تضمُّنٌ.

٣٤٢٢- إِحْدَاهُمَا بَعْضٌ لِذَا المَوْضُوعِ فَهْـ ـيَ تَضَمُّنٌ ذَا وَاضِحُ التِّبْيَانِ

إحدى الدَّلالتين بعضٌ لهذا المدلولِ، ودلالةُ البعضِ تُسَمَّى دلالةَ تضمُّنٍ.

٣٤٢٣- لَكِنَّ وَصْفَ الحَيِّ لازِمُ ذَلِكَ الـ ـمَعْنَى لُزُومَ العِلْمِ لِلرَّحْمَنِ

٣٤٢٤- فَلِذَا دَلالَتُهُ عَلَيْهِ بِالتِزَا مٍ بَيِّنٍ وَالحَقُّ ذُو تِبْيَانِ

«**الرَّحمنُ**» لا بُدَّ أن يكونَ حيًّا، فكونُه رحمانًا يستلزمُ أن يكونَ حيًّا؛ لأنَّ الميِّتَ لا يرحمُ، فلا توجدُ صفةُ رحمةٍ، إِذَنْ إذا قلت: «**الرَّحمن**» دَلَّت على ذاتٍ موصوفةٍ بالرَّحمةِ، وعلى رحمةٍ اتَّصفت بها تلك الذَّاتُ، وعلى حياةِ تلك الذَّاتِ.

دلالتُها على الذَّاتِ وحدَها تضمُّنٌ، وعلى الرَّحمةِ وحدَها تضمُّنٌ، وعليهما مطابقةٌ، وعلى الحياةِ بالالتزامِ، فمن لازمِ الرَّحيمِ أن يكونَ حيًّا.

أيضًا «**العلمُ**» من لازمِ الرَّحمةِ، فلا يمكنُ رحمةٌ بلا علمٍ؛ إذ إنَّ الرَّحمةَ إيصالُ الرَّحمةِ إلى المرحومِ، وهذا لا بُدَّ أن يكونَ عن علمٍ، ودلالةُ «**الرَّحمن**» على العلمِ والحياةِ دلالةُ التزامٍ.

وأيضًا «**الخلَّاق**» دَالٌّ على ذاتِ الله وعلى الخلقِ بالمطابقةِ، وعلى أحدِهما تضمُّنًا، وعلى العلمِ والقُدرةِ دلالةُ التزامٍ؛ قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطَّلاق:١٢]؛ يعني: أَعْلَمْناكم بأنَّنا خَلَقْنَا السَّماواتِ والأرضَ لتعلموا أنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنَّ اللهَ قد أَحَاطَ بكُلِّ شيءٍ علمًا؛ لأنَّه لولا العلمُ ما خَلَقَ، ولولا القدرةُ ما خَلَقَ، إِذَنْ دلالةُ الخلقِ على العلمِ والقدرةِ دلالةُ التزامٍ؛ لأنَّ «**عَلِمَ**» «**وقَدَرَ**» لم تُشْتَقَّ من الخلقِ؛ ولهذا دلالةُ الالتزامِ بعيدةٌ عن اشتقاقِ اللَّفظِ الذي دَلَّ عليها.

إذا قلنا: «هذه دارٌ»، كلمة «دار» تدلُّ على البيتِ وما فيه دلالةُ مطابقةٍ؛ يعني: تشملُ ما يسمُّونه بالحوش والغُرَف والحُجَر والصَّالةِ والمَجْلِس، فتدلُّ على الجميعِ دلالةَ مطابقةٍ، وتدلُّ على المجلِس وحدَه بالتَّضمُّنِ، وتدلُّ على بانٍ لها بالالتزامِ؛ لأنَّه لا بُدَّ لهذا البيتِ من بانٍ.

أمَّا دلالةُ المطابقةِ ودلالةُ التَّضمُّنِ فلا أحدَ يعجزُ عنهما، فكُلُّ إنسانٍ يُدْرِكُ أنَّك إذا قلتَ: اللهُ هو السَّميعُ، فالسَّميعُ تدلُّ على ذاتٍ مُتَّصفةٍ بالسَّمعِ، لكن دلالةُ الالتزامِ هي التي يختلفُ فيها العلماءُ كثيرًا؛ لأنَّها مَبْنِيَّةٌ على الفَهْمِ الصَّحيحِ، والنَّاسُ في الأفهامِ يختلفون ويتفاوتون، قد يعرفُ الإنسانُ من هذا الدَّليلِ عدَّةَ مسائلَ من لازمِ الدَّليلِ، ويأتي إنسانٌ آخَرُ بليدٌ لا يفهمُ منها هذه اللَّوازمَ، فاللَّوازمُ يختلفُ النَّاسُ فيها كثيرًا؛ ولهذا رُبَّما نجدُ شخصًا يستنبطُ من دليلٍ واحدٍ مسائلَ متعدِّدةً كثيرةً، وآخرَ لا يستطيعُ أن يستنبطَ إلَّا مسألةً واحدةً أو مسألتَيْنِ، كُلُّ هذا بسببِ الفَهْمِ والالتزامِ الذي يلزمُ من النَّصِّ والذي يتفرَّعُ عليهما.

إِذَنْ أسماءُ الله كُلُّها دالَّةٌ على أمرين ولا بُدَّ، وهما: الذَّاتُ والصِّفةُ التي اشْتُقَّ منها الاسمُ، أمَّا الالتزامُ فقد يكونُ الالتزامُ متعدِّدًا كـ«**الرَّحمن**» -كما قال المؤلِّفُ- دَلَّ على الحياةِ والعلمِ، وقد يكونُ واحدًا، وقد لا يَفْهَمُ منه أحدٌ شيئًا، فالالتزامُ ليس واضحًا لكُلِّ أحدٍ، بل يختلفُ النَّاسُ فيه اختلافًا كثيرًا.

وعند المعتزلةِ الأسماءُ لا تدلُّ إلَّا على الذَّاتِ فقط، فلا تدلُّ على الصِّفاتِ؛ لأنَّهم لا يُقِرُّون بأنَّ اللهَ تعالى موصوفٌ بأيِّ صفةٍ، وعلى هذا فقد منعوا أو كسروا أحدَ جَنَاحَي الدَّلالةِ وهي دلالة التَّضمُّنِ وهي الصِّفة، ولا شكَّ أنَّ المشتقَّ يدلُّ على ذاتٍ وعلى صفةٍ اتَّصفت بها هذه الذَّاتُ واشْتُقَّ منها هذا الاسمُ.

ومن هنا نعرفُ أنَّه ليس في أسماءِ الله ما هو جامدٌ، وهذا مأخوذٌ من قولِه: «**ذَاتُ الإِلَهِ**»، «**وَذَلِكَ الوَصْفُ الَّذِي يُشْتَقُّ مِنْهُ الإِسْمُ**»، كُلُّ اسمٍ من أسماءِ الله فهو متضمِّنٌ للدَّلالةِ على الذَّاتِ وعلى الصِّفةِ ولا بُدَّ، وليس هناك شيءٌ من أسماءِ الله يكونُ جامدًا أبدًا.

وهل دلالةُ الالتزامِ تكونُ في كلامِ المخلوقين؟

الجوابُ: نعم، تكونُ في كلامِ المخلوقين، ولكن هل يُلْزَمُ القائلُ بهذا اللَّازمِ ويُجْعَلُ قولًا له؟ الصَّحيحُ أنَّه لا يكونُ قولًا له، وإن كان لازمَ كلامِه؛ وذلك لأمورٍ:

الأوَّل: أنَّ هذا القائلَ الذي لَزِمَ من قولِهِ كذا وكذا قد لا يلتزمُ بهذا اللَّازمِ.

الثَّاني: وقد يكونُ حين الكلام غائبًا عنه، وقد يلتزمُ بهذا اللَّازمِ ثُمَّ يرجعُ عن قولِه؛ ولهذا لا يُلْزَمُ به الجهميَّةُ وغيرُهم من المعاني الفاسدةِ المترتِّبةِ على أقوالِهم إذا لم يلتزموها، فإنَّنا نقولُ: هي لازمٌ لكم، لكن قد يَلتزمون بها، ثُمَّ يرجعون عن قولِهم، وقد لا يلتزمون بها ويُنكرون أن تكونَ لازمَ قولِهم، ويقولون: نحن نقولُ بكذا ولكن لا نقولُ بهذا اللَّازم.

الثَّالث: أن يكونَ قد ذهل عن هذا اللَّازمِ وغفل عنه حين قال هذا القولَ، ولو أنَّه ذُكِّرَ بهذا اللَّازمِ الفاسدِ لرَجَعَ، وهذا قد سبق، وهو هل لازمُ القولِ قولٌ أو لا؟ فنقول: أمَّا لازمُ قولِ الله ورسولِه فهو قولٌ وحقٌّ؛ ولهذا ما زَالَ العلماءُ يستنبطون من كلامِ الله ورسولِه أحكامًا كثيرةً، كُلُّها تكونُ باللَّازمِ، وأمَّا لازمُ قولِ غيرِهما فليس بقولٍ.

فهو إذا لم يلتزم فلا نُلْزِمُه، لكن إذا لم يلتزمْ واللُّزومُ واضحٌ فإنَّه يكونُ مُكابِرًا، فاللَّازمُ قد يكونُ واضحًا، فمثلًا هؤلاء الذين يقولون: إنَّ اللهَ تعالى ليس

له صفاتٌ، من لازمِ ذلك أن يكونَ موصوفًا بأعظمِ النَّقصِ، الذَّاتُ التي ليس لها صفاتٌ ماذا تكونُ؟! هم قد لا يلتزمون بها، قد يَرَوْنَ أنَّ نفيَ الصِّفاتِ كمالٌ، لكن هل يُطَاعُونَ في هذا؟ الجوابُ: لا يُطَاعُونَ.

إِذَنْ مُرادُ المؤلِّفِ -رحمه الله- بهذا الفصلِ أنَّك إذا أَثْبَتَّ اسمًا من أسماءِ الله فَأَثْبِتْ كُلَّ ما يدلُّ عليه من صفةٍ سواءٌ كان بالتَّضمُّن بأن يكونَ الاسمُ دالًّا على الصِّفةِ التي اشْتُقَّ منها، أو بالالتزامِ؛ لأنَّ دلالةَ الاسمِ على الصِّفةِ وحدَها دلالةُ تضمُّنٍ، فعليه يَتَبَيَّنُ خطأُ مَنْ قالوا: إنَّ اللهَ تعالى يُسَمَّى بالاسمِ ولكن بدون صفةٍ، ألم تعلموا أنَّ بعضَ النَّاسِ قال: إنَّ اللهَ سميعٌ بلا سمعٍ، وبصيرٌ بلا بصرٍ، وعليمٌ بلا علمٍ، وهلمَّ جرًّا، إِذَنْ هل نقصوا من دلالةِ اللَّفظِ أو لا؟ الجوابُ: نعم نقصوا ما دَلَّ عليه بالتَّضمُّنِ وهو الصِّفة، ومعلومٌ أنَّهم إذا أنكروا ما دَلَّ عليه الاسمُ بالتَّضمُّن فسيُنكرون ما يدلُّ عليه بالالتزامِ من بابِ أَوْلَى.

* * *

فصل

فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ الإِلْحَادِ فِي أَسْمَاءِ رَبِّ العَالمِينَ وَذِكْرِ انْقِسَامِ المُلْحِدِينَ

٣٤٢٥- أَسْمَاؤُهُ أَوْصَافُ مَدْحٍ كُلُّهَا ... مُشْتَقَّةٌ قَدْ حُمِّلَتْ لِمَعَانِي

٣٤٢٦- إِيَّاكَ وَالإِلْحَادَ فِيهَا إِنَّهُ ... كُفْرٌ مَعَاذَ الله مِنْ كُفْرَانِ

٣٤٢٧- وَحَقِيقَةُ الإِلْحَادِ فِيهَا المَيْلُ بِالـ ... إِشْرَاكِ وَالتَّعْطِيلِ وَالنُّكْرَانِ

٣٤٢٨- فَالمُلْحِدُونَ إِذَن ثَلاثُ طَوَائِفٍ ... فَعَلَيْهِمُ غَضَبٌ مِنَ الرَّحْمَنِ

٣٤٢٩- المُشْرِكُونَ لأَنَّهُمْ سَمُّوا بِهَا ... أَوْثَانَهُمْ قَالُوا إِلَهٌ ثَانِي

٣٤٣٠- هُمْ شَبَّهُوا المَخْلُوقَ بِالخَلَّاقِ عَكْـ ... ـسَ مُشَبِّهِ الخَلَّاقِ بِالإِنْسَانِ

٣٤٣١- وَكَذَاكَ أَهْلُ الإِتِّحَادِ فَإِنَّهُمْ ... إِخْوَانُهُمْ مِنْ أَقْرَبِ الإِخْوَانِ

٣٤٣٢- أَعْطُوا الوُجُودَ جَمِيعَهُ أَسْمَاءَهُ ... إِذْ كَانَ عَيْنَ الله ذِي السُّلْطَانِ

٣٤٣٣- وَالمُشْرِكُونَ أَقَلُّ شِرْكًا مِنْهُمُ ... هُمْ خَصَّصُوا ذَا الإِسْمَ بِالأَوْثَانِ

٣٤٣٤- وَلِذَاكَ كَانُوا أَهْلَ شِرْكٍ عِنْدَهُمْ ... لَوْ عَمَّمُوا مَا كَانَ مِنْ كُفْرَانِ

الشرحُ

الإلحادُ ذَكَرَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في أسماءِ الله وفي آياتِ الله، فقال تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠]،

وقال -سبحانه وتعالى-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ ﴾ [فصلت:٤٠]، وسيلقون في النَّارِ، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ [فصلت:٤٠].

٣٤٢٥- أَسْمَاؤُهُ أَوْصَافُ مَدْحٍ كُلُّهَا ... مُشْتَقَّةٌ قَدْ حُمِّلَتْ لِمَعَانِي

أسماءُ الله عزَّ وجلَّ كُلُّها أوصافُ مَدْحٍ، وأنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- تَوَعَّدَ المُلْحِدينَ فيها فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف:١٨٠]، وهذا أمرٌ للتَّهديدِ كقولِه: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾ [المدثر:١١]، يعني: فَسَأَفْتِكُ به، وكذلك: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف:١٨٠]؛ يعني: اتركوهم لي فأنا أُعاقِبُهم؛ ولهذا قال: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٠].

٣٤٢٦- إِيَّاكَ وَالإِلْحَادَ فِيهَا إِنَّهُ ... كُفْرٌ مَعَاذَ اللهِ مِنْ كُفْرَانِ

قَوْلُهُ: «إِيَّاكَ وَالإِلْحَادَ» «إِيَّاكَ» يُسمِّيها النَّحويُّون مفعولًا لفعلٍ محذوفٍ على سبيلِ التَّحذيرِ، وأصلُه: **«أُحَذِّرُكَ»** ولكن حُذِفَ الفعلُ، ولـمَّا حُذِفَ الفعلُ لَزِمَ انفصالُ الضَّميرِ؛ لأنَّ الضَّميرَ المتَّصلَ لا يمكنُ أن يبقى متَّصلًا بدون عاملٍ، فلمَّا انفصل الضَّميرُ بعد حذفِ الفعلِ صار بهذا اللَّفظِ **«إِيَّاكَ»**.

وأمَّا **«الواو»** فهي العاطفةُ، لكنَّها تفيدُ معنى المعيَّة؛ يعني: إِيَّاك أن تُجامِعَ الإلحادَ.

المؤلِّفُ -رحمه الله- أراد أن يُبيِّنَ الإلحادَ في الأسماءِ وبَيَّنَ أنَّه كفرٌ، لكن هل هو كفرٌ مخرجٌ عن الملَّةِ أو هو كفرٌ دون كفرٍ؟ هذا على حسب نوعِ الإلحادِ؛ فقد يكونُ كفرًا مخرجًا عن الملَّةِ، وقد يكونُ غيرَ مخرجٍ، ثُمَّ استعاذ المؤلِّفُ رَبَّهُ عزَّ وجلَّ من

الكفرانِ؛ ولذا قال: «مَعَاذَ اللهِ مِنْ كُفْرَانِ»، ثُمَّ بَيَّنَ حقيقةَ الإلحادِ في الأسماءِ فقال:

٣٤٢٧- وَحَقِيقَةُ الإِلْـحَادِ فِيهَـا المَيْـلُ بِالــ　　　إِشْرَاكِ وَالتَّعْطِيــلِ وَالنُّكْــرَانِ

قَوْلُهُ: «الإِلْـحَادِ» الإلحادُ: مصدرُ أَلْـحَدَ يُلْحِدُ، وهو مأخوذٌ من الميلِ.

فحقيقةُ الإلحادِ هو الميلُ عمَّا يجبُ فيها، هذا الضَّابطُ، وهو مشتقٌّ من لحدِ القبرِ، واللَّحدُ كما نعرفُ جميعًا هو عبارةٌ عن حفرةٍ تكونُ في قبلةِ القبرِ يُوضَعُ فيها الميِّتُ، فهي إِذَنْ غيرُ متوسِّطةٍ، فهي مائلةٌ إلى جانبِ القبرِ القبليِّ، هذا هو أصلُ الإلحادِ، فمن قال: «إِنَّ اللهَ عليمٌ لكن لا علمَ له» فهو مُلْحِدٌ، ومن قال: «إِنَّ اللهَ أبٌ»، وسمَّى اللهَ الأبَ فهو مُلْحِدٌ، فمَنْ سَمَّاه بغيرِ ما سَمَّى به نفسَه فهو مُلْحِدٌ، ومَنْ أنكر اسمًا من أسمائِه فهو مُلْحِدٌ.

قَوْلُهُ: «المَيْلُ بِالإِشْرَاكِ وَالتَّعْطِيلِ وَالنُّكْرَانِ» هذه ثلاثةُ أشياء: الإشراكُ والتَّعطيلُ والنُّكرانُ، أمَّا الإشراكُ فيها فيكونُ إمَّا بالتَّمثيلِ، أو باستعارةِ أسمائِه للأصنامِ، وما أشبه ذلك، والتَّعطيلُ؛ يعني: أن يُعَطِّلَ ما دلَّت عليه من الصِّفاتِ، والنُّكرانُ؛ يعني: يُنكرُها، ويقولُ: ليس لله أسماءٌ كما هو مذهبُ غلاةِ الغلاةِ من الجهميَّةِ ونحوهِم.

٣٤٢٨- فَالمُلْحِـدُونَ إِذَن ثَـلاثُ طَوَائِـفٍ　　　فَعَلَـيْهِمُ غَضَــبٌ مِــنَ الــرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «طَوَائِفٍ» لماذا نوَّنَّاها وصَرَفْنَاها وهي مما يَمْتَنِعُ من الصَّرفِ؟ الجوابُ: لضرورةِ الشِّعرِ، قال ابنُ مالكٍ:

وَلِاضْــطِرَارٍ أَوْ تَنَاسُــبٍ صُرِفْ　　　ذُو المَنْعِ وَالمَصْرُوفُ قَدْ لَا يَنْصَرِفْ[1]

(١) شرح ابن عقيل (٣/ ٣٣٨).

قَوْلُهُ: «فَعَلَيْهِمُ غَضَبٌ مِنَ الرَّحْمَنِ» عليهم غضبٌ؛ لأنَّهم عَلِمُوا الحقَّ ولم يتَّبعوه، وكُلُّ مَنْ عَلِمَ الحقَّ ولم يتَّبعْه فإنَّه من أصحابِ الغضبِ، وكُلُّ مَنْ جَهِلَ الحقَّ فهو من أصحابِ الضَّلالِ.

٣٤٢٩- الـمُشْرِكُونَ لأَنَّهُمْ سَمُّوا بِهَا ... أَوْثَانَهُمْ قَالُوا إِلَهٌ ثَانِي

هؤلاء مُلْحِدُون سَمَّوْا أوثانَهم بأسماءِ الله، كاشتقاقِ اللَّاتِ من «**الإله**»، والعُزَّى من «**العزيز**»، ومناة من «**المَنَّان**»، فهذا إلحادٌ.

٣٤٣٠- هُمْ شَبَّهُوا المَخْلُوقَ بِالخَلَّاقِ عَكْـ ... ـسَ مُشَبِّهِ الخَلَّاقِ بِالإِنْسَانِ

شَبَّهوا المخلوقَ بالخلَّاقِ؛ لأنَّهم شَبَّهوا هذه الأصنامَ بالله عكس مَنْ يُشَبِّهُ الخالقَ بالمخلوقِ، فيقول مثلًا: لله يدٌ كيدي، ووجهٌ كوجهي، وعينٌ كعيني، وما أشبه ذلك.

إِذَنْ هؤلاء مُشَبِّهةٌ لكن اختلف وجهُ التَّشبيهِ، فالمشركون شَبَّهوا المخلوقَ بالخالقِ، وهؤلاء شَبَّهوا الخالقَ بالمخلوقِ.

٣٤٣١- وَكَذَاكَ أَهْلُ الإِتِّحَادِ فَإِنَّهُمْ ... إِخْوَانُهُمْ مِنْ أَقْرَبِ الإِخْوَانِ

أهلُ الاتِّحادِ الذين يقولون بوحدة الوجودِ؛ أي أنَّ الخالقَ والمخلوقَ شيءٌ واحدٌ هم إخوانُ هؤلاء المشركين.

٣٤٣٢- أَعْطُوا الوُجُودَ جَمِيعَهُ أَسْمَاءَهُ ... إِذْ كَانَ عَيْنَ اللهِ ذِي السُّلْطَانِ

أهلُ الوحدةِ -والعياذُ بالله- جعلوا أسماءَ الله أسماءً للوجودِ كُلِّه لماذا؟ لأنَّ الوجودَ عندهم هو عينُ المُوجِدِ، فالخلقُ عينُ الخالقِ، فإذا كان الخلقُ عينَ الخالقِ كانت أسماءُ الخالقِ أسماءً للخلقِ.

٣٤٣٣- وَالـــمُشْرِكُونَ أَقَـلُّ شِرْكًـا مِـنْهُمُ   هُمْ خَصَّصُوا ذَا الإِسْـمَ بِالأَوْثَـانِ

المشركون إِذَنْ مُلْحِدُون؛ لأنَّهم سَمَّوْا بعضَ المخلوقاتِ بأسماءِ الله، الاتِّحاديُّون أشدُّ شركًا؛ لأنَّهم سَمَّوْا جميعَ الوجودِ بأسماءِ الله؛ ووجهُ ذلك أنَّهم جعلوا المخلوقَ عينَ الخالقِ، فإذا كان المخلوقُ عينَ الخالقِ صارت أسماءُ الخالقِ أسماءً للمخلوقِ.

٣٤٣٤- وَلِذَاكَ كَـانُوا أَهْـلَ شِرْكٍ عِنْـدَهُمْ   لَـوْ عَمَّمُـوا مَـا كَـانَ مِـنْ كُفْـرَانِ

المشركون أهلُ شركٍ عند أهلِ الاتِّحادِ، وأهلُ الاتِّحادِ أهلُ توحيدٍ لماذا؟ قال: إنَّ المشركين أشركوا؛ لأنَّهم خصُّوا الإلهَ بالوثنِ، ففرعونُ كافرٌ؛ لأنَّه خصَّصَ فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ﴾ [النازعات:٢٤]، لو قال: «**الكونُ كُلُّه ربُّكم**» لكان موحِّدًا، المشركون قالوا: «**اللَّاتُ ومناة والعُزَّى آلـهةٌ**»، لو قالوا: «**كُلُّ الموجوداتِ آلـهةٌ**» صاروا موحِّدين ولم يكونوا مشركين.

انظر -والعياذُ بالله- الذي يخصِّصُ الألوهيَّةَ بشخصٍ أو بطائفةٍ أو ما أشبهَ ذلك هذا مشركٌ عند أهلِ الاتِّحادِ، والذي يقولُ: «**كُلُّ الكونِ إلهٌ**» هذا مُوَحِّدٌ.

وهذه والله عقولٌ منكوسةٌ والعياذُ بالله، ولهذا ابنُ عربيٍّ وأمثالُه يقولون: إنَّما كَفَرَ آلُ فرعونَ بتخصيصِهم الإلهَ بفرعون، ولو كانوا عمَّموا لكانوا موحِّدين.

إِذَنْ إلحادُ هذه الطَّائفةِ أنَّهم نقلوا أسماءَ الله إلى المخلوقِ، فسمَّوْه إلهًا، وعبدوه من دون الله.

* * *

٣٤٣٥- وَالمُلْحِدُ الثَّانِي فَذُو التَّعْطِيلِ إِذْ يَنْفِي حَقَائِقَهَا بِلا بُرْهَانِ
٣٤٣٦- مَا ثَمَّ غَيْرُ الإِسْمِ أَوَّلَهُ بِمَا يَنْفِي الحَقِيقَةَ نَفْيَ ذِي بُطْلانِ
٣٤٣٧- فَالقَصْدُ دَفْعُ النَّصِّ عَنْ مَعْنَى الحَقِيـ ـقَةِ فَاجْتَهِدْ فِيهِ بِلَفْظِ بَيَانِ
٣٤٣٨- عَطِّلْ وَحَرِّفْ ثُمَّ أَوِّلْ وَانْفِهَا وَاقْذِفْ بِتَجْسِيمٍ وَبِالكُفْرَانِ
٣٤٣٩- لِلمُثْبِتِينَ حَقَائِقُ الأَسْمَاءِ وَالـ أَوْصَافِ بِالأَخْبَارِ وَالقُرْآنِ
٣٤٤٠- فَإِذَا هُمُ احْتَجُّوا عَلَيْكَ فَقُلْ لَهُمْ هَذَا مَجَازٌ وَهْوَ وَضْعٌ ثَانِي
٣٤٤١- فَإِذَا غُلِبْتَ عَلَى المَجَازِ فَقُلْ لَهُمْ لا يُسْتَفَادُ حَقِيقَةُ الإِيقَانِ
٣٤٤٢- أَنَّى وَتِلْكَ أَدِلَّةٌ لَفْظِيَّةٌ عُزِلَتْ عَنِ الإِيقَانِ مُنْذُ زَمَانِ
٣٤٤٣- فَإِذَا تَضَافَرَتِ الأَدِلَّةُ كَثْرَةً وَغُلِبْتَ عَنْ تَقْرِيرِ ذَا بِبَيَانِ
٣٤٤٤- فَعَلَيْكَ حِينَئِذٍ بِقَانُونٍ وَضَعْـ ـنَاهُ لِدَفْعِ أَدِلَّةِ القُرْآنِ
٣٤٤٥- وَلِكُلِّ نَصٍّ لَيْسَ يَقْبَلُ أَنْ يُؤَوْ وَلَ بِالمَجَازِ وَلا بِمَعْنًى ثَانِي
٣٤٤٦- قُلْ عَارَضَ المَنْقُولَ مَعْقُولٌ وَمَا الـ أَمْرَانِ عِنْدَ العَقْلِ يَتَّفِقَانِ
٣٤٤٧- مَا ثَمَّ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْ أَرْبَعٍ مُتَقَابِلاتٍ كُلُّهَا بِوِزَانِ
٣٤٤٨- إِعْمَالُ ذَيْنِ وَعَكْسُهُ أَوْ تُلْغِيَ الـ مَعْقُولَ مَا هَذَا بِذِي إِمْكَانِ
٣٤٤٩- العَقْلُ أَصْلُ النَّقْلِ وَهْوَ أَبُوهُ إِنْ تُبْطِلْهُ يَبْطُلْ فَرْعُهُ التَّحْتَانِي
٣٤٥٠- فَتَعَيَّنَ الإِعْمَالُ لِلمَعْقُولِ وَالـ إِلْغَاءُ لِلمَنْقُولِ بِالبُرْهَانِ

٣٤٥١- إِعْمَالُـــهُ يُفْضِـــي إِلَى إِلْغَائِـــهِ فَـاهْجُرْهُ هَجْـرَ الـتَّرْكِ وَالنِّسْـيَانِ

٣٤٥٢- وَاللهُ لَـــمْ نَكْـذِبْ عَلَـيْهِمْ إِنَّنَـا وَهُـمُ لَـدَى الـرَّحْمَنِ مُخْتَصِـمَانِ

٣٤٥٣- وَهُنَاكَ يُجْزَى الْمُلْحِدُونَ وَمَنْ نَفَى الـ إِلْــحَادَ يُجْـزَى ثَـمَّ بِـالغُفْرَانِ

٣٤٥٤- فَاصْـبِرْ قَلِـيلًا إِنَّـمَا هِـيَ سَـاعَةٌ يَـا مُثْبِـتَ الأَوْصَـافِ لِلـرَّحْمَنِ

٣٤٥٥- فَلَسَوْفَ تَجْنِي أَجْرَ صَبْرِكَ حِينَ يَجْـ ـنِي الغَـيْرُ وِزْرَ الإِثْـمِ وَالعُـدْوَانِ

٣٤٥٦- فَـاللهُ سَـائِلُنَا وَسَـائِلُهُمْ عَـنِ الـ إِثْبَـاتِ وَالتَّعْطِيـلِ بَعْـدَ زَمَـانِ

٣٤٥٧- فَأَعِــدَّ حِينَئِــذٍ جَوَابًــا كَافِيًــا عِنْـدَ السُّـؤَالِ يَكُـونُ ذَا تِبْيَـانِ

الشـــرحُ

يقولُ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ تعالى- في القسمِ الثَّاني من المُلْحِدين:

٣٤٣٥- وَالمُلْحِـدُ الثَّـانِي فَـذُو التَّعْطِيـلِ إِذْ يَنْفِــي حَقَائِقَهَــا بِــلا بُرْهَــانِ

المُعَطِّلُ مُلْحِدٌ؛ لأنَّه مَالَ بالألفاظِ عمَّا يجبُ لها عن حقائقِها؛ لأنَّه ينفي الحقائقَ؛ فمثلًا يقولُ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]؛ يعني: استولى، وهذا تعطيلٌ للاستواءِ الحقيقيِّ وإلحادٌ بدلالةِ النُّصوصِ «بِلَا بُرْهَانِ»؛ أي: بلا دليلٍ.

٣٤٣٦- مَـا ثَـمَّ غَـيْرُ الإِسْـمِ أَوِّلْـهُ بِـمَا يَنْفِــي الحَقِيقَـةَ نَفْـيَ ذِي بُطْـلانِ

يعني: لا يُوجَدُ إلَّا الاسمُ فقط، فأَوِّلْه بكُلِّ ما يَنفي الحقيقةَ، واختَرْ ما شِئْتَ من المعاني، المهمُّ ألَّا تحملَه على الحقيقةِ، وهذا من أظلمِ الظُّلمِ؛ إذ يَنْفُونَ الحقيقةَ التي هي ظاهرُ اللَّفظِ، ويقولون: أَثْبِتْ ما شِئْتَ من المعاني الأخرى، وهذا لا شكَّ أنَّه ظلمٌ وجورٌ وإلحادٌ.

ثُمَّ ذكر المؤلِّفُ -رحمه الله- مراتبَ الأدلَّةِ عندهم فقال:

٣٤٣٧- فَالقَصْدُ دَفْعُ النَّصِّ عَنْ مَعْنَى الحَقِيـ ـقَةِ فَاجْتَهِـدْ فِيـهِ بِلَفْـظِ بَيَـانِ

قَوْلُهُ: «فَالقَصْدُ دَفْعُ النَّصِّ عَنْ مَعْنَى الحَقِيقَةِ» وبِئْسَ هذا القصدُ؛ يعني: أنَّ مقصودَهم بسلوكِ هذه الطَّريقِ دفعُ النَّصِّ عن معناه الحقيقيِّ.

قَوْلُهُ: «فَاجْتَهِدْ فِيهِ بِلَفْظِ بَيَانِ» «اجْتَهِدْ فِيهِ»؛ أي: في دفعِ النَّصِّ عن معناه الحقيقيِّ بكُلِّ لفظٍ يكونُ ذا بيانٍ وسِحْرٍ.

٣٤٣٨- عَطِّـلْ وَحَـرِّفْ ثُـمَّ أَوِّلْ وَانْفِهَـا وَاقْـذِفْ بِتَجْسِـيمٍ وَبِـالكُفْرَانِ

قَوْلُهُ: «عَطِّلْ»؛ يعني: عَطِّل اللهَ عزَّ وجلَّ من صفاتِه.

قَوْلُهُ: «وحَرِّفْ»؛ أي: حَرِّفِ النَّصَّ عن معناه الحقيقيِّ.

قَوْلُهُ: «وَأَوِّلْ»؛ أي: ائتِ له بمعنى مُؤَوَّل خلاف الظَّاهرِ.

قَوْلُهُ: «وَانْفِهَا»؛ أي: انفِ الحقيقةَ، وهذه النَّتيجةُ.

فمثلًا قولُ الله -تبارك وتعالى-: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، يقولُ: ليس المرادُ به «اليد» الحقيقيَّةَ، فيُعَطِّلُ «اليدَ» ثُمَّ يُحَرِّفُ النَّصَّ، ويقولُ: «اليدُ» هي القدرةُ مثلًا، ويؤوِّلـهُا؛ يعني: يصرفُ المعنى الظَّاهرَ إلى معنى آخرَ بخلافِه، وانفِ «اليد»، وهذه النَّتيجةُ.

قَوْلُهُ: «اقْذِفْ»؛ يعني: ارْمِ بالتَّجسيمِ والكفرِ لِـمَنْ؟

قال رحمه الله:

٣٤٣٩- لِلْمُثْبِتِـينَ حَقَـائِقُ الأَسْـمَاءِ وَالـ أَوْصَـافِ بِالأَخْبَـارِ وَالقُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «لِلْمُثْبِتِينَ حَقَائِقَ الأَسْمَاءِ وَالأَوْصَافِ» أَثْبَتُوهَا بماذا؟ بالأخبار؛ أي: بالأحاديثِ.

وَقَوْلُهُ: «بِالأَخْبَارِ»: مُتعلِّقٌ بالمثبتين؛ يعني: الذين أثبتوها بالأخبارِ والقرآنِ.

فجَنَوْا على النُّصوصِ وجَنَوْا على مُثْبِتي النُّصوص، قالوا للمُثبتين: إنَّهم مُجَسِّمَةٌ، وقالوا: إنَّهم مُمَثِّلَةٌ، وقالوا: إنَّهم كُفَّارٌ، ورَمَوْهُم بكُلِّ سبٍّ وشتمٍ؛ لأنَّهم أثبتوا الحقائقَ بالقرآنِ والأخبارِ الثَّابتةِ عن الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم.

٣٤٤٠- فَإِذَا هُمُ احْتَجُّوا عَلَيْكَ فَقُلْ لَهُمْ ... هَذَا مَجَازٌ وَهْوَ وَضْعٌ ثَانِي

إذا احتجَّ عليك أهلُ السُّنَّةِ بظاهرِ اللَّفظِ، وقالوا: ظاهرُ اللَّفظِ في ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ [البقرة:٢٩]؛ يعني: علا العرشَ، قل: هذا مجازٌ، ويدُ الله مجازٌ.

والمجازُ كما عرَّفه أهلُ البلاغةِ: «استعمالُ اللَّفظِ بوضعٍ ثانٍ»؛ أي: استعمالُ اللفظِ في غيرِ ما وُضِعَ له أوَّلًا؛ لعَلاقةٍ بقرينةٍ تمنعُ من المعنى الحقيقيِّ، إذَنْ هل المجازُ وضعٌ ثانٍ أو أوَّلٍ؟ الجوابُ: ثانٍ، فـ«أسد» وُضِعَ أوَّلًا للحيوانِ المفترسِ، ثُمَّ وُضِعَ ثانيًا للرَّجُلِ الشُّجاعِ، أمَّا الحقيقةُ فهي الوضعُ الأوَّلُ.

٣٤٤١- فَإِذَا غُلِبْتَ عَلَى المَجَازِ فَقُلْ لَهُمْ ... لا يُسْتَفَادُ حَقِيقَةُ الإِيقَانِ

قَوْلُهُ: «فَإِذَا غُلِبْتَ عَلَى المَجَازِ»؛ يعني: إذا هم رَدُّوا عليك وصار المجازُ غيرَ مناسبٍ ولا مقبولٍ، فمثلًا لو قال لك: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] قال: لا يمكنُ أن يكونَ المرادُ باليدِ القُدرةَ أو النِّعمةَ؛ لأنَّه لو قال هكذا: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، لقال إبليسُ: وأنا يا ربُّ خلقتني بيدِك؛ أي: بقدرتِك، فإذا هم ردُّوا عليك وغُلِبْتَ عن المجازِ بحيث تعذَّرت القرينةُ الدَّالَّةُ على المجازِ فانْتَقِلْ إلى مرتبةٍ

أخرى، وقل لهم: «**لَا يُسْتَفَادُ حَقِيقَةُ الإِيقَانِ**»؛ يعني: أنَّ هذا اللَّفظَ لا يُفيدُ الحقيقةَ اليقينيَّةَ، لماذا؟ قال:

٣٤٤٢- أَنَّى وَتِلْكَ أَدِلَّةٌ لَفْظِيَّةٌ   عُزِلَتْ عَنِ الإِيقَانِ مُنْذُ زَمَانِ

قَوْلُهُ: «أَنَّى»؛ يعني: أَنَّى يُسْتَفَادُ؟!

نسألُ اللهَ العافيةَ، يقولون: إنَّ الأدلَّةَ اللَّفظيَّةَ لا تُفيدُ اليقينَ؛ إمَّا من حيثُ الثُّبوتُ وإمَّا من حيث الدَّلالةُ، وهذا قانونٌ فاسدٌ باطلٌ، إمَّا من حيث الثُّبوتُ؛ يعني: بأن يكونَ الذين نقلوها أفرادًا؛ ولهذا عندهم لا يُقْبَلُ خبرُ الآحادِ في إثباتِ العقائدِ؛ لأنَّ العقائدَ يُطْلَبُ فيها اليقينُ، وخبرُ الآحادِ لا يُفِيدُ اليقينَ.

إِذَنْ خبرُ الآحادِ ظَنِّيٌّ على زعمِهم فلا يُقْبَلُ، قل: واللهِ، هذا خبرُ آحادٍ لا نقبلُه؛ لأنَّه ظَنِّيٌّ من حيثُ الثُّبوتُ ومن حيثُ الدَّلالةُ، وهذا إذا عَجَزْتَ عن إثباتِ المجازِ.

لكن بأيِّها يُبْدَأُ بالثُّبوتِ أو بالدَّلالةِ؟ يُبْدَأُ بالثُّبوتِ أوَّلًا؛ لأنَّه إذا لم يَثْبُتْ كُفِيتَ البحثَ، وإذا ثَبَتَ ابدأ بالدَّلالةِ، إِذَنْ نبدأُ أوَّلًا بالنُّصوصِ بثبوتِها ثُمَّ بدلالتِها، هم يقولون: إن لم يمكنْ الطَّعنُ في الثُّبوتِ فالطَّعنُ في الدَّلالة.

فإذا كان الخبرُ ثابتًا يقينًا كالقُرآنِ الكريمِ والمتواترِ من السُّنَّةِ، فقل لهم: هو ظَنِّيُّ الدَّلالةِ؛ يعني: أنَّ دلالتَه على المعنى ليست يقينيَّةً؛ إذ ما من لفظٍ إلَّا ويحتملُ معنى غير ظاهرٍ إمَّا قريبٌ وإمَّا بعيدٌ، أنا أقولُ هذا مُقرِّرًا قاعدتَهم وإلَّا فإنَّنا لا نُسَلِّمُ لهم بهذا كُلِّه.

فنقول: أمَّا ما ادَّعيتم من أنَّ الأدلَّةَ اللَّفظيَّةَ لا تفيدُ اليقينَ إمَّا في الثُّبوتِ أو في الدَّلالةِ فهذا كَذِبٌ، بل هي تفيدُ اليقينَ في الثُّبوتِ وتفيدُ اليقينَ في الدَّلالةِ، فإنَّ

دلالةَ الألفاظِ على معناها تكونُ قطعيَّةً في بعضِ الأحيانِ، ولا تحتملُ معنىً آخرَ؛ ولهذا قال أهلُ الأصولِ: «**إنَّ النَّصَّ يكونُ صَريحًا ويكونُ ظاهرًا**»؛ يعني: يكون صريحًا لا يحتملُ إلَّا معنىً واحدًا، وهذا دلالتُه يقينيَّةٌ، وله دلالةٌ ظاهرةٌ تحتملُ التَّأويلَ، فزعمُكم أنَّ الأدلَّةَ اللَّفظيَّةَ لا تفيدُ اليقينَ؛ لأنَّها إمَّا ظنِّيَّةٌ في ثبوتِها وإمَّا ظنِّيَّةٌ في دلالتِها، هذا كذبٌ، ويا سبحان الله العظيم! لو جاء أحدٌ من أئمَّتِكم وألَّفَ كتابًا وتكَلَّمَ، ألستم تقولون: إنَّ دلالةَ اللَّفظِ على هذا المعنى الذي أراده هذا الكاتبُ أو هذا المؤلِّفُ يقينيَّةٌ؟ سيقولون: بلى، يقينيَّةٌ، ويُجادلون، وإنْ أحدٌ حَرَّفَ الكلامَ فقال: هذا خلافُ ظاهرِ كلامِ سيِّدِنا، لا يمكنُ، فكيف بكلامِ الله رَبِّ العالمين وكلامِ رسولِه ﷺ الأمين؟! ولهذا يقولون: «**أَنَّى وَتِلْكَ أَدِلَّةٌ لَفْظِيَّةٌ**» أي: من حيث الثُّبوتُ ومن حيث الدَّلالةُ.

٣٤٤٣- فَـإِذَا تَضَـافَرَتِ الأَدِلَّـةُ كَثْـرَةً ... وَغُلِبْـتَ عَـنْ تَقْرِيـرِ ذَا بِبَيَـانِ

يعني: إذا كان لا يمكنُ دعوى الظَّـنِّيَّةِ لا في ثبوتِها ولا في دلالتِها فماذا نقولُ؟ قال:

٣٤٤٤- فَعَلَيْـكَ حِينَئِـذٍ بِقَـانُونٍ وَضَعْــ ... ـنَاهُ لِـدَفْعِ أَدِلَّـةِ القُـرْآنِ

يعني: إذا لم يمكنْك الطَّعنُ في الدَّلالةِ أو الطَّعنُ في المدلولِ من حيث ثبوتُه، والطَّعنُ في الدَّلالةِ من حيث النَّصِّيَّة، فعليك بالقانونِ الذي وضعناه، لماذا؟ قال: «**لِدَفْعِ أَدِلَّةِ القُرْآنِ**» نسألُ اللهَ العافيةَ؛ يعني: ندفعُ به أدلَّةَ القرآنِ.

٣٤٤٥- وَلِكُلِّ نَـصٍّ لَـيْسَ يَقْبَـلُ أَنْ يُـؤَوْ ... وَلَ بِالمَجَـازِ وَلا بِمَعْنًـى ثَـانِي

يعني: وندفعُ به أيضًا كُلَّ نصٍّ لا يقبلُ التَّأويلَ بالمجازِ، «**وَلَا بِمَعْنًى ثَانِي**» لكن ما هذا القانونُ؟

٣٤٤٦- قُلْ عَارَضَ المَنْقُولَ مَعْقُولٌ وَمَا الـ أَمْـرَانِ عِنْـدَ العَقْـلِ يَتَّفِقَـانِ

قَوْلُهُ: «قُلْ: عَارَضَ المَنْقُولَ مَعْقُولٌ» «المَنْقُولَ»: مفعولٌ مُقَدَّمٌ، و«مَعْقُولٌ»: فاعلٌ مؤخَّرٌ.

قَوْلُهُ: «قُلْ: عَارَضَ المَنْقُولَ مَعْقُولٌ»؛ يعني: عَارَضَ الأدلَّةَ النَّقليَّةَ أدلَّةٌ عقليَّةٌ؛ يعني: إذا لم يمكنْ رَدُّ الأدلَّةِ لكثرتِها، ولا يمكنُ حملُها على المجازِ فعليك بآخرِ المراحلِ، وقُلْ: «هذه الأدلَّةُ يعارضُها المنقولُ»، والعقلُ يمنعُ هذا.

قَوْلُهُ: «وَمَا الأَمْرَانِ عِنْدَ العَقْلِ يَتَّفِقَانِ» ما الأمران يتَّفقان، بل بينهما الخلافُ؛ يعني: لا يمكنُ أن يتَّفقَ العقلُ والنَّقلُ في قَبولِ هذا، فالعقلُ يُنْكِرُ والنَّقلُ يُثْبِتُ، ولا يمكنُ أن يجتمعَ مثبتٌ ونافٍ، إِذَنْ مَنْ نُقَدِّمُ؟ يَرَوْنَ تقديمَ العقلِ، ثُمَّ ذَكَرَ المؤلِّفُ الأحوالَ الأربعَ فقال:

٣٤٤٧- مَـا ثَـمَّ إِلَّا وَاحِـدٌ مِـنْ أَرْبَـعٍ مُتَقَـابِلاتٍ كُلُّهَـا بِـوِزَانِ

٣٤٤٨- إِعْمَالُ ذَيْنِ وَعَكْسُـهُ أَوْ تَلْغِـيَ الـ مَعْقُـولَ مَـا هَـذَا بِـذِي إِمْكَـانِ

يعني: إِمَّا أن نُعْمِلَ الأمرين جميعًا، وهما: الدَّليلُ العقليُّ والدَّليلُ النقليُّ، أو «عَكْسُهُ» وهو إهمالُهما جميعًا، فلا نأخذُ بدليلٍ عقليٍّ ولا بدليلٍ نقليٍّ، أو «تُلْغِيَ المَعْقُولَ» ونأخذ بالدَّليلِ النَّقليِّ ونُلْغِي الدَّليلَ العقليَّ، يقولُ: هذا غيرُ ممكنٍ، «مَا هَذَا بِذِي إِمْكَانِ»؛ يعني: لا يمكنُ أن نُلْغِيَ المعقولَ، إِذَنْ نُلْغِي المنقولَ.

فإذا لم يتَعارَضا أعمَلْناهما جميعًا، وإذا تعارضا إِمَّا أن نعملَهما جميعًا أو نُهملَهما جميعًا، أو نُعْمِلَ المعقولَ وندعَ المنقولَ، أو نُعْمِلَ المنقولَ وندعَ المعقولَ، فهذه أربعُ حالاتٍ منها: إعمالُ المنقولِ وإهمالُ المعقولِ، يقولُ: وهذا غيرُ ممكنٍ،

لماذا؟ قال:

٣٤٤٩- العَقْلُ أَصْلُ النَّقْلِ وَهْوَ أَبُوهُ إِنْ تُبْطِلْهُ يَبْطُلُ فَرْعُهُ التَّحْتَانِي

لأَنَّه من المعلومِ أَنَّه إذا عُدِمَ الأبُ فلا يمكنُ أن يكونَ الابنُ، إِذَنْ يكونُ العقلُ هو الأصلَ، فإذا قلتَ: النَّقْلُ مُقَدَّمٌ على العقلِ، قال: هذا لا يمكنُ؛ لأنَّ العقلَ هو الأصلُ.

٣٤٥٠- فَتَعَيَّنَ الإِعْمَالُ لِلمَعْقُولِ وَالْـ إِلْغَاءُ لِلمَنْقُولِ بِالبُرْهَانِ

يقولُ: العِلَّةُ أَنَّنا لا نُلْغي المعقولَ بل نُلْغي المنقولَ؛ لأنَّ العقلَ أصلُ النَّقلِ وهو أبوه إنْ أَبْطَلْتَهُ بَطَلَ الفرعُ؛ أي: إنْ أَبْطَلْتَ العقلَ الذي هو أصلُ النَّقلِ بطل الفرعُ، هكذا ادَّعوا، فإذا كان الأمرُ هكذا فتعيَّن الإعمالُ للمعقولِ والإلغاءُ للمنقولِ بالبرهان.

ولكن نجيبُ على هذا بأمورٍ:

أوَّلًا: إعمالُ العقلِ في بابِ السَّمعيَّاتِ مخالفٌ للعقلِ، وجهُ ذلك: أنَّ الأمورَ السَّمعيَّةَ تعتمدُ على مجرَّدِ الخبرِ، والخبرُ في الأمورِ الغيبيَّةِ التي ليس لها نظيرٌ يجبُ فيه التَّلقِّي من الخبرِ المحضِ، ولا مجالَ للعقلِ فيه، فإذا أَعْمَلْنَا العقلَ في مُخْبَرِ ذلك الخبرِ كان ذلك مخالفًا للعقلِ؛ لأنَّ هذا خبرٌ محضٌ لا يدخلُه القياسُ حتَّى نقولَ: إِنَّنا نُعْمِلُ العقلَ فيه، فالعقلُ إِذَنْ في هذا هو تحكيمُ النَّقلِ؛ لأنَّ هذا خبرٌ محضٌ عن شيءٍ غائبٍ لا نظيرَ له، فمقتضى العقلِ الصَّريحِ أن تُحكِّمَ النَّقلَ فقط، هذا مع أنَّ هذا الكلامَ متناقضٌ؛ لأنَّ أصحابَ العقولِ الذين يَرَوْنَ أنَّهم يُحكِّمونَ العقلَ متناقضون، قال الإمامُ مالكٌ رحمه الله: «بأيِّ شيءٍ يُوزَنُ الكتابُ والسُّنَّةُ، أفكلَّما

جاءنا رجلٌ أَجْدَلُ من رجلٍ تركنا قولَنا لقولِ هذا الجدليِّ؟!»[١].

هم بأنفسِهم متناقضون؛ أحيانًا يقولُ بعضُهم: هذا العقلُ يمنعُ هذه الصِّفةَ، والثَّاني يقولُ: العقلُ يُوجبُها، والثَّالثُ يقولُ: العقلُ يُجوِّزُها، ثلاثةُ أقوالٍ، بل إِنَّ الواحدَ من هؤلاء المتكلِّمين يتناقضُ في نفسِه، فتجدُه يُؤلِّفُ كتابًا يُثْبِتُ فيه ما يُثْبِتُ من الصِّفاتِ، ويقولُ: إِنَّ العقلَ دَلَّ عليها، ثُمَّ يُؤلِّفُ كتابًا آخرَ ينقضُه، إِذَنْ إلى أيِّ عقلٍ نرجعُ؟ هل إلى عقِل زيدٍ أو عقلِ عمرٍو، أو عقلِ زيدٍ في أوَّل عمرِه أو عقلِه في آخِرِ عُمُرِه؟ لا ندري، ففيه تناقضٌ.

ثانيًا: الرُّجوعُ إلى العقلِ يستلزمُ القولَ على الله بلا علم نفيًا وإثباتًا، فتجدُ الذي يُحكِّمُ عقلَه في بابِ الصِّفاتِ يقولُ: هذه الصِّفةُ ممنوعةٌ؛ لأنَّ العقلَ يمنعُها، فينفي عن الله ما أَثْبَتَهُ اللهُ لنفسِه، ويكونُ هذا قولًا على الله بلا علمٍ، أو يُثْبِتُ صفةً لم يثبتْها اللهُ لنفسِه فيكون قائلًا على الله بلا علمٍ.

ثالثًا: الرُّجوعُ إلى العقلِ في بابِ الصِّفاتِ مخالفٌ لما كان عليه النَّبيُّ ﷺ، فهو بدعةٌ، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ**»[٢]، فتبيَّن الآن أنَّهم مُخطئون.

رابعًا: دعواهم أنَّ العقلَ أصلُ النَّقلِ في هذا البابِ خطأٌ، وليس بصحيحٍ، بل الأصلُ في بابِ صفاتِ الله النَّقلُ، والعقلُ تابعٌ له.

خامسًا: كذلك لو قلنا: «**إنَّ العقلَ دليلٌ**» فلا حاجةَ للرُّسلِ؛ لأنَّ إرسالَ الرُّسلِ حينئذٍ يكونُ لا فائدةَ منه؛ لأنَّ النَّقلَ يُلْغَى عند تعارضِه مع العقلِ؛ لأنَّ

---

(١) انظر: أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات، لمرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكرمي المقدسي الحنبلي (ص:٢٣٥).

(٢) أخرجه النسائي: كتاب صلاة العيدين، باب كيف الخطبة، رقم (١٥٧٨).

هذا شيءٌ -كما سبق في أوَّلِ رَدٍّ- شيءٌ يعتمدُ على النَّقلِ المحضِ أو الخبرِ المحضِ، ولا مجالَ للعقلِ فيه، فهذه خمسةُ وجوهٍ.

٣٤٥١- إِعْمَالُـــهُ يُفْضِـــي إِلَى إِلْغَائِـــهِ فَـاهْجُرْهُ هَجْـرَ الـتَّرْكِ وَالنِّسْـيَانِ

يعني: أنَّ إعمالَ النَّقلِ وتقديمَه على العقلِ يُفْضِي إلى إلغائِه فاهجرْه، وقوله: «إِلَى إِلْغَائِهِ» يحتملُ أنَّه يريدُ إلغاءَ العقلِ؛ يعني: لو أنَّنا أَعْمَلْنَا النَّقلَ عند التَّعارضِ مع العقلِ لَزِمَ من إعمالِ النَّقلِ إلغاءُ العقلِ؛ ولذا قال: «**فَاهْجُرْهُ هَجْرَ التَّرْكِ وَالنِّسْيَانِ**»؛ أي: اهجر النَّقلَ هجرَ التَّركِ والنِّسيان؛ أي: واتركه وتناسَه كأنَّه لم يكن والعياذُ بالله.

وأنا أعجبُ لهؤلاء القومِ الذين يقولون: إنَّنا نتبعُ العقلَ، هل يرضى أحدٌ منهم أن يصفَه بصفاتٍ ليست فيه، أو يُنْكِرَ من صفاتِه ما هو فيه؟ الجوابُ: لا يرضى أبدًا، لو يأتي إنسانٌ يَصِفُ هذا العاقلَ الذي يدَّعي أنَّه عاقلٌ بما ليس فيه أو يُنْكِرُ الصِّفاتِ التي يتَّصفُ بها لم يَرْضَ بذلك، فإذا كان لا يرضى بذلك كيف يرضى بهذا لربِّ العالمين؟! يصفُ اللهَ بما لم يصفْ به نفسَه أو يُنْكِرُ ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه؟! هذه جرأةٌ عظيمةٌ، إذا كنتَ لا ترضاها لنفسِك كيف ترضاها لربِّك؟! ولكن -والعياذُ بالله- نحن نقولُ بصريحِ القولِ: إنَّهم ليسوا عقلاءَ، ولكنَّهم أهلُ أهواءٍ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٥٠]، هذه حقيقةُ حالِهم أنَّهم ذوو أهواءٍ، فما موقفُنا نحن وقد مَنَّ اللهُ علينا -ولله الحمدُ- بعقيدةٍ سليمةٍ؟

موقفُنا يدورُ على أمرين:

أوَّلًا: الثَّباتُ على ما نحن عليه؛ لأنَّنا على حقٍّ.

ثانيًا: تفنيدُ ما هم عليه؛ لأنَّهم على باطلٍ، وحينئذٍ لا بُدَّ أن نعرفَ من أدلَّتِهم ما نستطيعُ أن نرميَهم به؛ لأنَّ رَمْيَ الإنسانِ بسهمِه الذي صنعه بيدِه خيرٌ من رميه بسهمٍ آخرَ جديدٍ، وأظنُّكم تعرفون أنَّ كُلَّ واحدٍ من هؤلاء المعطِّلةِ يُنْكِرُ على الآخرِ ما يكونُ هذا القانونُ الذي أنكر به على الآخَرِ قانونًا للرَّدِّ عليه هو، ومَرَّ علينا في كلامِ ابنِ القيِّمِ قريبًا مثل هذه المسألةِ في تعطيلِ الله تعالى عن وصفِ الأفعالِ من أهلِ الكلامِ، وتفنيدِهم على المعتزلةِ في إثباتِ الأسماءِ بدون أوصافٍ، وقلنا: إنَّ القانونَ الذي ردُّوا به على المعتزلةِ هو قانونٌ يردُّون به على أنفسِهم.

٣٤٥٢- وَاللهِ لَمْ نَكْذِبْ عَلَيْهِمْ إِنَّنَا وَهُمُ لَدَى الرَّحْمَنِ مُخْتَصِمَانِ

أَقْسَمَ المؤلِّفُ -رحمه الله- أنَّه ما كذب على هؤلاء في أنَّهم يتواصَوْنَ بما ذكرنا، بأنَّ المسألةَ مجَازٌ، فإن لم يمكنُ المجازُ فإنَّ هذه أدلَّةٌ ظنِّيَّةٌ لا تفيدُ اليقينَ، فإن لم يمكنْك ذلك فهاتِ القانونَ الذي وضعناه وهو تقديمُ العقلِ على النَّقلِ، إذَنْ فالمراتبُ ثلاثُ.

أيُّ عقلٍ يأخذون به؛ لأنَّ العقولَ مختلفةٌ، هذا يقولُ: هذا شيءٌ واجبٌ، والثَّاني يقولُ: هذا مستحيلٌ، وانظر كتبَهم، بل قال شيخُ الإسلامِ: «إنَّ الواحدَ منهم يتناقضُ في نفسِه، فيقول في كتابٍ: هذا واجبٌ على الله، وفي كتابٍ آخرَ يقولُ: هذا مستحيلٌ، أين العقلُ؟!»[1].

٣٤٥٣- وَهُنَاكَ يُجْزَى المُلْحِدُونَ وَمَنْ نَفَى الـ إِلْحَادَ يُجْزَى ثَمَّ بِالغُفْرَانِ

قَوْلُهُ: «وَهُنَاكَ يُجْزَى المُلْحِدُونَ»، وفي نسخةٍ: «يُخْزَى» وهو الصَّوابُ.

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣١٣).

٣٤٥٤- فَاصْبِرْ قَلِيلًا إِنَّمَا هِيَ سَاعَةٌ ... يَا مُثْبِتَ الأَوْصَافِ لِلرَّحْمَنِ

٣٤٥٥- فَلَسَوْفَ تَجْنِي أَجْرَ صَبْرِكَ حِينَ يَجْـ ... ـنِي الغَيْرُ وِزْرَ الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ

٣٤٥٦- فَاللهُ سَائِلُنَا وَسَائِلُهُمْ عَنِ الـ ... إِثْبَاتِ وَالتَّعْطِيلِ بَعْدَ زَمَانِ

٣٤٥٧- فَأَعِدَّ حِينَئِذٍ جَوَابًا كَافِيًا ... عِنْدَ السُّؤَالِ يَكُونُ ذَا تِبْيَانِ

فَتبيَّنَ الآن أنَّ مصدرَ القولِ فيما يتعلَّقُ بأسماءِ الله وصفاتِه هو النَّقلُ، ولكن هل يمكنُ أن يأتيَ صحيحُ النَّقلِ بما يُخَالِفُ صريحَ العقلِ؟ الجوابُ: لا، لا يمكنُ أن يأتيَ في صحيحِ النَّقلِ ما يخالفُ صريحَ العقلِ ويناقضُه، واقرأ كتابَ: «**درء تعارض العقلِ والنَّقلِ**»؛ لشيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله، تجد العجبَ العُجَابَ، حتىَّ إِنَّ ابنَ القيِّم قال في الثَّناءِ عليه: «**مَا فِي الوُجُودِ لَهُ نَظِيرٌ ثَانِي**»؛ يعني: ممَّا أُلِّفَ في بابِه.

يقولُ: سوف يسألُنا اللهُ عزَّ وجلَّ ويحكمُ بيننا يومَ القيامةِ، نحن المثبتين وأولئك المعطِّلين، فيجب أن نُعِدَّ جوابًا شافيًا كافيًا، ولا أَشْفَى ولا أَكْفَى من أن نقولَ: يا ربَّنا قَرَأْنَا كتابَك فآمَنَّا به وصَدَّقْنَا، وبلَّغَنَا رسولُك فآمَنَّا به وصَدَّقْنَا، هذا الجوابُ كافٍ، وهو الحُجَّةُ، قال اللهُ -تبارك وتعالى-: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص:٦٢]، وهذا سؤالٌ عن التَّوحيدِ، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥]، هذا سؤالٌ عن الرِّسالةِ، فأَعِدَّ لهذا جوابًا، أَعِدَّ لهذا جوابًا ما دُمْتَ في زمنِ الإمكانِ قبل ألَّا تستطيعَ الجوابَ.

لكن ما جوابُ هؤلاء إذا قال اللهُ لهم يومَ القيامة: لقد قلتُ في كتابي: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [الرَّحمن:٥]، وقلتم أنتم: لا استواءَ ولكن استيلاء، لقد

قلتُ في كلامي: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥]، وقلتم: لا يدان ولكن نعمتان أو قدرتان أو ما أشبه ذلك، وإذا قلتُ: لقد قلتُ في كتابي: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤] وقلتم: لا عين، ما جوابُهم على هذا؟ ليس هناك جوابٌ، هم وإن أوتوا جدلًا في الدُّنيا لكن لا يمكنُ أن يُعْطَوْا جدلًا في الآخرةِ، ثُمَّ جدلُهم في الدُّنيا أيضًا لا يفيدُ إنَّما يلتبسُ على العُميان، أمَّا ذوو البصائرِ فإنَّ جدلَهم هذا لا يفيدُهم، بل هو خزيٌ لهم -والعياذُ بالله- كما حصل -ولله الحمدُ- من أئمَّةِ الهدى في الرَّدِّ على هؤلاء المعطِّلةِ من الجهميَّةِ والمعتزلةِ وغيرِهم.

فالحاصلُ أنَّ المؤلِّفَ -رحمه الله- أوصانا -جزاه اللهُ خيرًا- وصيةً نافعةً ليست في نصوصِ الصِّفاتِ فقط حتىَّ في الأمورِ العمليَّةِ فقال: «**فَأَعِدَّ حِينَئِذٍ جَوَابًا كَافِيًا عِنْدَ السُّؤَالِ يَكُونُ ذَا تِبْيَانِ**».

قال اللهُ تعالى للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:٤٤]، أنت وقومُك تُسْأَلُونَ عن هذا الكتابِ، هل قمتم بحقِّه؟ هل بلَّغتموه الأممَ؟ هل جاهدتم به الكافرين؟ ... إلخ.

في الحقيقةِ أنَّ الأمرَ شديدٌ والمسئوليةَ شديدةٌ ولا تحتاجُ إلَّا إلى العزيمةِ الصَّادقةِ والاستعانةِ بالله عزَّ وجلَّ.

* * *

٣٤٥٨- هَـــذَا وَثَـــالِثُهُمْ فَنَافِيهَـــا وَنَـــا ... فِي مَـــا تَـــدُلُّ عَلَيْـــهِ بِالبُهْتَـــانِ

٣٤٥٩- ذَا جَاحِدُ الـرَّحْمَنِ رَأْسًـا لَـمْ يُقِـرْ ... رَ بِخَـــالِقٍ أَبَـــدًا وَلا رَحْمَـــنِ

٣٤٦٠- هَذَا هُـوَ الإِلْـحَادُ فَاحْـذَرْهُ لَعَـلْ ... لَ اللهَ أَنْ يُنْجِيـكَ مِـنْ نِـيرَانِ

٣٤٦١- وَتَفُوزُ بِالزُّلْفَى لَدَيْهِ وَجَنَّةِ الـ ... ـمَأْوَى مَعَ الغُفْرَانِ وَالرِّضْوَانِ

٣٤٦٢- لَا تُوحِشَنَّكَ غُرْبَةٌ بَيْنَ الوَرَى ... فَالنَّاسُ كَالأَمْوَاتِ فِي الحُسْبَانِ

٣٤٦٣- أَوَمَا عَلِمْتَ بِأَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ الـ ... ـغُرَبَاءَ حَقًّا عِنْدَ كُلِّ زَمَانِ

٣٤٦٤- قُلْ لِي مَتَى سَلِمَ الرَّسُولُ وَصَحْبُهُ ... وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ عَلَى الإِحْسَانِ

٣٤٦٥- مِنْ جَاهِلٍ وَمُعَانِدٍ وَمُنَافِقٍ ... وَمُحَارِبٍ بِالبَغْيِ وَالطُّغْيَانِ

٣٤٦٦- وَتَظُنُّ أَنَّكَ وَارِثٌ لَهُمُ وَمَا ... ذُقْتَ الأَذَى فِي نُصْرَةِ الرَّحْمَنِ

٣٤٦٧- كَلَّا وَلا جَاهَدْتَ حَقَّ جِهَادِهِ ... فِي الله لا بِيَدٍ وَلا بِلِسَانِ

٣٤٦٨- مَنَّتْكَ وَاللهِ المُحَالَ النَّفْسُ فَاسْـ ... ـتَحْدِثْ سِوَى ذَا الرَّأْيِ وَالحُسْبَانِ

٣٤٦٩- لَوْ كُنْتَ وَارِثَهُ لآذَاكَ الأُلَى ... وَرِثُوا عِدَاهُ بِسَائِرِ الأَلْوَانِ

الشرحُ

٣٤٥٨- هَذَا وَثَالِثُهُمْ فَنَافِيهَا وَنَا ... فِي مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ بِالبُهْتَانِ

قَوْلُهُ: «وَثَالِثُهُمْ»؛ أي: الثَّالثُ من المُلْحِدِينَ الذين نَفَوُا الصِّفاتِ وآياتِها وما تدلُّ عليه.

٣٤٥٩- ذَا جَاحِدُ الرَّحْمَنِ رَأْسًا لَمْ يُقِرْ ... رَ بِخَالِقٍ أَبَدًا وَلا رَحْمَنِ

هذا مُلْحِدٌ، وهذا هو الذي يُسمَّى مُلْحِدًا في عرفِ النَّاسِ اليوم، إذا قيل: «فلانٌ مُلْحِدٌ» عند النَّاسِ اليومَ فالمفهوم عندهم أنَّه مُنْكِرٌ لله، مع أنَّ المُلْحِدَ أعمُّ

من المُنْكِرِ لله عزَّ وجلَّ، فالمُنْكِرُ لله واحدٌ من المُلْحِدينَ، نوعٌ من أنواعِ الإنكارِ لله عزَّ وجلَّ.

٣٤٦٠- هَذَا هُوَ الإِلْحَادُ فَاحْذَرْهُ لَعَلْـ ... ـلَ اللهَ أَنْ يُنْجِيكَ مِنْ نِيرَانِ

يعني: إذا حذرْتَه وتجنَّبْتَه -اللَّهُمَّ أَعِنَّا على الحذرِ منه- وآمَنْتَ بالله وآياتهِ على ما أرادها اللهُ عزَّ وجلَّ ورسولُه فـ«لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُنْجِيكَ مِنْ نِيرَانِ».

٣٤٦١- وَتَفُوزُ بِالزُّلْفَى لَدَيْهِ وَجَنَّةِ الْـ ... ـمَأْوَى مَعَ الغُفْرَانِ وَالرِّضْوَانِ

قَوْلُهُ: «مَعَ الغُفْرَانِ وَالرِّضْوَانِ» الغفرانُ للذُّنوبِ، والرِّضوانُ بالطَّاعاتِ؛ لأنَّك بمغفرةِ الذُّنوبِ تنجو من النَّارِ، وبالرِّضا بالطَّاعاتِ تدخلُ الجنَّةَ.

يعني: إذا سَلِمْتَ من الإلحادِ في أسماءِ الله وآياتِه حَصَلَ لك هذا، ثُمَّ قال جزاه اللهُ خيرًا وصيةً من مُخْلِصٍ:

٣٤٦٢- لَا تُوحِشَنَّكَ غُرْبَةٌ بَيْنَ الوَرَى ... فَالنَّاسُ كَالأَمْوَاتِ فِي الحُسْبَانِ

قَوْلُهُ: «لَا تُوحِشَنَّكَ غُرْبَةٌ بَيْنَ الوَرَى»؛ يعني: لا تتوحَّشْ إذا كنتَ غريبًا بين النَّاسِ، فإذا كان النَّاسُ فُسَّاقًا وكنتَ مطيعًا فأنت غريبٌ، وإذا كان النَّاسُ معطِّلَةً وأنت مُثْبِتٌ كنت غريبًا، لا تستوحشْ من هذا؛ لأنَّ الإنسانَ حقيقةً إذا لم يرَ معه أحدًا رُبَّما يستوحشُ أو يتوقَّفُ أو يرجعُ عمَّا هو عليه من الهدى؛ ولهذا أخبر النَّبِيُّ ﷺ عن أيَّام الصَّبرِ أنَّ العاملَ فيهنَّ لهُ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ[1]؛ لأنَّ الإنسانَ إذا

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم (٤٣٤١)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، رقم (٣٠٥٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ [المائدة:١٠٥]، رقم (٤٠١٤).

رأى مَنْ حولَه وهم كُلُّهم على طريقٍ فلا يستوحشُ ولا يتعبُ ولا يَزِلُّ، لكن أيَّام الصَّبرِ كُلُّ النَّاسِ على خلافِه فتصعبُ عليه الطَّاعةُ وتشقُّ لكنَّه صابرٌ راسخُ القدمَيْن؛ ولذا قال: «**لَا تُوحِشَنَّكَ غُرْبَةٌ بَيْنَ الوَرَى**»، وهذا -والله- هو الحقُّ، فما دُمْتَ على نورٍ من الله فمن أين تأتيك الوحشةُ؟! لا وحشةَ، فأنت على دينٍ، وأنت على حقٍّ، لا يهمنَّك أحدٌ، إنَّك سَتُدْفَنُ وحدَك وهم يُدْفنون وحدَهم، وسَتُبْعَثُ يومَ القيامةِ بلا مالٍ ولا بنينَ؛ ولذا لا تستوحشْ من هذا؛ لأنَّ أمامَك أنسًا لا وحشةَ بعده، لكن إذا أَنِسْتَ مع النَّاسِ في مخالفةِ الشَّرعِ فهذا أنسٌ بعدَه وحشةٌ طويلةٌ.

الوحشة الآن بين الغُرَباءِ تزولُ وما هي إلَّا ساعةٌ كما قال المؤلِّف: «**فَاصْبِرْ قَلِيلًا إِنَّمَا هِيَ سَاعَةٌ**» ثُمَّ تنقضي، لكنَّ الشَّأنَ كُلَّ الشَّأنِ في الأنسِ بعد هذه الوحشةِ.

قَوْلُهُ: «**فَالنَّاسُ كَالأَمْوَاتِ فِي الحُسْبَانِ**» وفي نسخةٍ: «**فِي الحَيَّانِ**» أو «**فِي الأَحْيَاءِ**» إمَّا أن يكونَ معنى البيتِ: النَّاسُ أمواتٌ في أثوابِ أحياء، أو النَّاسُ أمواتٌ، يعني: حسابُهم حسابُ موتى القلوبِ لا يفهمون ولا يَعُون.

فالنَّاسُ كالأمواتِ وصاحبُ الحقِّ حيٌّ، بل إنَّ صاحبَ الحقِّ حيٌّ بعد موتِه كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

أهلُ العلمِ الآن أحياءٌ بيننا، ألسنا كُلَّ يومٍ نقرأُ في كتب شيخِ الإسلام مثلًا؟! الجوابُ: بلى، فهو يُعَلِّمُنا، هو شيخُنا، أستاذُنا، وهذه هي الحياةُ، ولهذا قال الشَّاعرُ:

ذِكْرُ الفَتَى عُمْرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ ... مَا قَاتَهُ، وَفُضُولُ العَيْشِ أَشْغَالُ[1]

---

(١) البيت للمتنبي، كما في زهر الآداب وثمر الألباب، لأبي إسحاق القيرواني (١/ ٣١٢).

فهذه هي الحياةُ حقيقةً، أمَّا بقاؤك في الدُّنيا فهي ساعاتٌ وأيامٌ تمشي وتمضي.

٣٤٦٣- أَوَمَا عَلِمْتَ بِأَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ الـ ـغُرَبَاءَ حَقًّا عِنْدَ كُلِّ زَمَانِ

قَوْلُهُ: «أَوَ مَا عَلِمْتَ بِأَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ الغُرَبَاءُ حَقًّا؟» الجوابُ: بلى، والله أهلُ السُّنَّةِ هم الغُرَباء حقًّا في كُلِّ مكانٍ، اللَّهُم اجعلنا من هؤلاء الغرباءِ.

فأهلُ السُّنَّةِ هم الغُرَباءُ حقيقةً، ولو تأمَّلْتَ التَّاريخَ لوجدتَ أنَّ الأمرَ كذلك، ففي الخلافاتِ والآراءِ والعقائدِ والمللِ تجدُ صاحبَ السُّنَّةِ كغرَّةِ وجهِ الفرسِ غريبًا بين النَّاسِ، ثُمَّ يسألُ متحدِّيًا فيقولُ:

٣٤٦٤- قُلْ لِي مَتَى سَلِمَ الرَّسُولُ وَصَحْبُهُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ عَلَى الإِحْسَانِ

٣٤٦٥- مِنْ جَاهِلٍ وَمُعَانِدٍ وَمُنَافِقٍ وَمُحَارِبٍ بِالبَغْيِ وَالطُّغْيَانِ

يعني: متى سَلِمُوا من هؤلاء؟؛ يعني: هل سَلِمُوا؟ الجوابُ: ما سَلِمَ الرَّسولُ ولا الصَّحَابةُ من الأذى، بل إنَّ ثلاثةً من خلفائِه وهم عمرُ وعثمانُ وعليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قُتِلُوا على أيدي أعدائِهم، فما سَلِمُوا من جاهلٍ ومعاندٍ ومنافقٍ ومحاربٍ بالبغي والطُّغيانِ، فهؤلاء أربعةُ أصنافٍ كُلُّهم مستعدُّون لأذى الرَّسولِ ﷺ وصحبِه وأتباعِه:

الأوَّل: جاهلٌ لا يعلمُ، أُمِّيٌّ يؤذي أهلَ الحقِّ ويَرُدُّ قولَهم.

الثَّاني: معاندٌ عنده شيءٌ من الحقِّ، عنده شيءٌ من العلمِ، لكن متعصِّبٌ معاندٌ.

الثَّالث: منافقٌ، يأخذُ بالتَّقيَّة، والمنافقُ هو أشرُّهم، والمنافقُ كما قال الشَّاعرُ:

يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً وَيَرُوغُ مِنْكَ كَمَا يَرُوغُ الثَّعْلَبُ

يَلْقَاكَ يَحْلِفُ أَنَّهُ بِكَ وَاثِقٌ ... وَإِذَا تَوَارَى عَنْكَ فَهْوَ العَقْرَبُ[(١)]

المنافقُ هو البلاءُ، إذا كَلَّمْتَه قال: هذا هو الحقُّ، الحمدُ لله الذي هدانا لهذا وما كُنَّا لنهتدِيَ لولا أن هدانا اللهُ، لكن إذا خَلَوْا إلى شياطِينِهم قالوا: إنَّا معكم إنَّما نحن مستهزئون، هؤلاء قلوبُهم سليمةٌ ينطلي عليهم الحقُّ، آمِنُوا إذا لقيتموهم، وإذا خلا بعضُكم إلى بعضٍ فاكفروا.

الرَّابع: المحاربُ، هذا شديدٌ أيضًا، و«مُحَارِبٌ»؛ يعني: أنَّه عَرَّضَ رقبتَه للسَّيفِ من أجلِ أن يقيمَ ما هو عليه من الباطلِ، ولم يبالِ، فهو معلنٌ بالعداوةِ.

هل سَلِمَ الرَّسول -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- من هذه الأصنافِ الأربعةِ؟ الجوابُ: لا.

٣٤٦٦- وَتَظُنُّ أَنَّكَ وَارِثٌ لَهُمُ وَمَا ... ذُقْتَ الأَذَى فِي نُصْرَةِ الرَّحْمَنِ

يعني: هل تظنُّ أنَّك وارثُ الرَّسولِ -عليه الصَّلاة والسَّلام- ولم تذق الذي ذاق؟! إن كنتَ تظنُّ ذلك فقد خَابَ ظَنُّكَ؛ لأنَّ الإرثَ يقتضي تلقِّي ما تركه المُورِّثُ من كُلِّ شيءٍ: في الدَّعوةِ، والعملِ، والصَّبرِ على الأذى، وإرخاص الدُّنيا كُلِّها من أجلِ تحقيقِ هذه الدَّعوةِ.

والله هذا ظنٌّ خاطئٌ خَائِبٌ؛ يعني: تَظُنُّ أنَّك وارثُ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- ولم يُصبْك ما أصابَه؟! أين الإرثُ؟ إذا لم يُصِبْك ما أصابَه أو شيءٌ منه أو من نوعِه، فإنَّك قاصرٌ في إرثِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ولا يمكنُ أن

---

(١) البيتان بلا نسبة في حياة الحيوان للدميري (١/ ٥١)، ونسبه في جواهر الأدب (٢/ ٤٢٩) لقيس ابن الخطيم.

تُفْرَشَ الأرضُ زهورًا وورودًا لإنسانٍ مُتمسِّكٍ بالسُّنَّةِ كما ينبغي أبدًا، فَمَنْ رَامَ ذلكَ فقد رَامَ المحالَ، وفَتِّشْ في التَّاريخِ، ما من إنسانٍ قَامَ لله عزَّ وجلَّ بحقٍّ إلَّا وَجَدَ أذىً، لكن هذا الأذى يختلفُ، قد يكونُ مَنْ يريدُ الأذى لا يتمكَّنُ لقوَّةِ السُّلطانِ مثلًا، أو لا يتمكَّنُ لشرفِ الرَّجلِ وجاهِه عند النَّاسِ أو لموانعَ أخرى، لكن لا بُدَّ أن يجدَ أذيَّةً.

٣٤٦٧- كَـلَّا وَلا جَاهَـدْتَ حَـقَّ جِهَـادِهِ ... فِي الله لا بِيَـــدٍ وَلا بِلِسَـــانِ

يعني: لا جاهدتَ بيدٍ، وجهادُ اليدِ يكونُ بالقلمِ ويكونُ بالسَّيفِ وبالرُّمحِ والقوسِ، «وَلَا بِلِسَانِ»، وجهادُ اللِّسانِ يكونُ بالقولِ، وتريدُ أن تكونَ وارثًا للرَّسولِ ﷺ! لا، إن كنت تريدُ هذا أو تظنُّ أنَّك وارثُه فقد خَابَ ظنُّك.

٣٤٦٨- مَنَّتْكَ وَالله المُحَـالَ الـنَّفْسُ فَاسْـ ... ـتَحْدِثْ سِوَى ذَا الرَّأْيِ وَالحُسْبَانِ

قَوْلُهُ: «**مَنَّتْكَ وَالله المُحَالَ النَّفْسُ**» نعم، فـ«**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِـمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى الله الأَمَانِي**»(١)، فأنت إذا كنت تُمَنِّيك نفسُك أن تصلَ إلى درجةِ النَّبيِّين ووارثِ النَّبيِّين، وأنت لم تقم بما قام به النَّبيُّون من الدَّعوةِ والصَّبرِ على الأذى فيها، فإنَّ نفسَك تُمَنِّيكَ المُحالَ؛ يعني: هذا شيءٌ مستحيلٌ، وأنت إذا نَظَرْتَ إلى الذين قاموا بالدَّعوةِ إلى الله وجدتَهم أشدَّ النَّاسِ أذيَّةً من غيرِهم، وإن كانت الأذيَّةُ تختلفُ، وقد يُوجَدُ لها موانعُ، لكن لا بُدَّ منها، فهذا الإمامُ أحمدُ إمامُ أهلِ السُّنَّةِ يُجَرُّ بالبغلةِ في السُّوقِ، إمامٌ ويُضْرَبُ بالسِّياط حتَّى يُغْمَى عليه وهو صابرٌ على كلمتِه ثابتٌ.

(١) أخرجه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في صفة آنية الحوض، رقم (٢٤٥٩).

وهذا شيخُ الإسلام يُطَافُ به على العربةِ في السُّوقِ ويُزَجُّ في السِّجنِ، ويُمْنَعُ عنه الورقُ والمِدَادُ، ويُمْنَعُ عنه حتىَّ الكتابة في الجدرانِ؛ لأنَّه -رحمه الله- لـمَّا مُنِعَ المدادَ والورقَ جعل يكتبُ في الجدرانِ فمنعوا ذلك عنه، وبالتَّالي منعوا زُوَّارَه، لا يأتيه أحدٌ، ولم يحضرْه عند وفاتِه إلَّا أخوه عبدُ الرَّحمنِ، ومثل هؤلاء الأئمَّةِ وغيرِهم من أئمَّةٍ أُوذُوا في الله عزَّ وجلَّ، فإذا تَأَمَّلْتَ التَّاريخَ وجدتَ أنَّ كُلَّ مَنْ كان أقومَ لله كان أشدَّ أذيَّةً من أعداءِ الله، وهذا شيءٌ مُسَلَّمٌ؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١]، فَيَلْزَمُ أن يَجْعَلَ لكُلِّ تابعِ نبيٍّ عدوًّا من المجرمين؛ لأنَّ أعداءَ الرُّسلِ ليسوا يُعَادُون الرَّسلَ لأشخاصِهم، كان محمَّدٌ ﷺ قبل الرِّسالةِ: الصَّادقَ الأمينَ عند قريشٍ، فكان مُعَظَّمًا مُبَجَّلًا، ولـمَّا جاء بالرِّسالةِ صار الكاذبَ الخائنَ الشَّاعرَ الكاهنَ السَّاحرَ.

إذا كان المجرمون لا يُعَادُون الرُّسلَ لأشخاصِهم، وإنَّما لِـمَا جاؤوا به من الحقِّ، فهذا الحقُّ إذا بَقِيَ وقامِ به مَنْ يقومُ من النَّاسِ صار المجرمون أعداءً له إرثًا بإرثٍ، وإذا شِئْتَ الدَّليلَ فكم من بني آدمَ يضلُّ؟ الجوابُ: تسعُمئةٍ وتسعةٌ وتسعون بالألفِ، أتظنُّ هؤلاء الضَّالِّين يحبُّون المهتدين؟! الجوابُ: لا يحبُّونهم أبدًا، وإن أظهروا المحبَّةَ لهم فهو نفاقٌ، كيف تحبُّه وهو على غيرِ طريقِك؟! هذا مستحيلٌ.

قَوْلُهُ: «فَاسْتَحْدِثْ سِوَى ذَا الرَّأْيِ وَالحُسْبَانِ» «ذَا» هنا اسمُ إشارةٍ، وليست بمعنى «صَاحِب»؛ يعني: ابحث رأيًا غيرَ هذا.

٣٤٦٩- لَـوْ كُنْـتَ وَارِثَـهُ لآذَاكَ الأُلَـى ... وَرِثُـوا عِـدَاهُ بِسَـائِرِ الأَلْـوَانِ

قَوْلُهُ: «لَوْ كُنْتَ وَارِثَهُ لآذَاكَ الأُلَى وَرِثُوا عِدَاهُ» وهذا صحيحٌ؛ يعني:

لو كنتَ وارثَ الرَّسولِ ﷺ حقيقةً وقَائِمًا بما قَامَ به لآذاك أعداؤه الذين كانوا يُؤذونه، والمرادُ هنا جنسُهم، وليس المرادُ أشخاصَهم؛ لأنَّهم ماتوا.

قَوْلُهُ: «بِسَائِرِ الأَلْوَانِ» «بِسَائِرِ» مُتعلِّقٌ بـ«آذَاكَ»؛ يعني: بِسَائِرِ الألوانِ من الأذى.

المهمُّ: أنَّ الإلحادَ في أسماءِ الله هو الميلُ بها عمَّا يجبُ ولها، ويكونُ بتحريفِها وتعطيلِها، والإلحادُ في آياتِ الله أيضًا الميلُ عمَّا يجبُ لها، ويكونُ إمَّا باعتقادِ شريكٍ مع الله فيها كخلقِ السَّماواتِ، أو باعتقادِ مُنْفَرِدٍ خَلَقَ بعضَ المخلوقاتِ، أو يكونُ باعتقادِ مُعِينٍ لله عزَّ وجلَّ فيها، وهذا يجمعُه قولُ الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ:٢٢]؛ يعني: لا يملكون استقلالًا، ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ [سبأ:٢٢]؛ أي: مشاركة، والثَّالث: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢]، كُلُّ هذه منتفيةٌ عن الآلهةِ، بقيت الشَّفاعةُ هل تشفعُ هذه الآلهةُ أو لا؟ قال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٣].

* * *

فصــل

فِي النَّوْعِ الثَّانِي مِنْ نَوْعَيْ تَوْحِيدِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ المُخَالِفِ لِتَوْحِيدِ المُعَطِّلِينَ وَالمُشْرِكِينَ

٣٤٧٠- هَـذَا وَثَـانِي نَـوْعَيِ التَّوْحِيـدِ تَـوْ ... حِيـدُ العِبَـادَةِ مِنْـكَ لِلـرَّحْمَنِ

٣٤٧١- أَلَّا تَكُـونَ لِغَـيْرِهِ عَبْـدًا وَلا ... تَعْبُـدْ بِغَـيْرِ شَرِيعَـةِ الإِيمَانِ

٣٤٧٢- فَتَقُـومُ بِالإِسْـلامِ وَالإِيـمَانِ وَالـ ... إِحْسَـانِ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْـلانِ

٣٤٧٣- وَالصِّدْقُ وَالإِخْلاصُ رُكْنَا ذَلِكَ التَّـ ... ـوْحِيدِ كَـالرُّكْنَيْنِ لِلبُنْيَـانِ

٣٤٧٤- وَحَقِيقَةُ الإِخْـلاصِ تَوْحِيـدُ المُرَا ... دِ فَـلا يُزَاحِمُـهُ مُـرَادٌ ثَـانِي

٣٤٧٥- لَكِـنْ مُـرَادُ العَبْـدِ يَبْقَـى وَاحِـدًا ... مَـا فِيـهِ تَفْرِيـقٌ لَـدَى الإِنْسَـانِ

٣٤٧٦- إِنْ كَـانَ رَبُّـكَ وَاحِـدًا سُـبْحَانَهُ ... فَاخْصُصْهُ بِالتَّوْحِيدِ مَـعْ إِحْسَـانِ

٣٤٧٧- إِنْ كَانَ رَبُّكَ وَاحِـدًا أَنْشَـاكَ لَـمْ ... يُشْـرِكْهُ إِذْ أَنْشَـاكَ رَبٌّ ثَـانِي

٣٤٧٨- فَكَـذَاكَ أَيْضًـا وَحْـدَهُ فَاعْبُـدْهُ لَا ... تَعْبُـدْ سِـوَاهُ يَـا أَخَـا العِرْفَـانِ

الشَّـرحُ

٣٤٧٠- هَـذَا وَثَـانِي نَـوْعَيِ التَّوْحِيـدِ تَـوْ ... حِيـدُ العِبَـادَةِ مِنْـكَ لِلـرَّحْمَنِ

سَبَقَ لنا في الفصولِ السَّابقةِ التَّوحيدُ العلميُّ الخبريُّ، أمَّا هذا النَّوعُ فهو

التَّوحيدُ الحكميُّ الطلبيُّ، فما سَبَقَ كُلُّه فيما يتعلَّقُ بالرَّحمنِ -جلَّ وعلا- من أسمائِه وصفاتِه وأفعالِه، أمَّا الآن فهو فيما يتعلَّقُ بأفعالِ الإنسانِ الذي وُجِّه إليه الطَّلبُ؛ فلهذا يقولُ:

٣٤٧١- أَلَّا تَكُونَ لِغَيْرِهِ عَبْدًا وَلا تَعْبُدْ بِغَيْرِ شَرِيعَةِ الإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «**أَلَّا تَكُونَ لِغَيْرِهِ عَبْدًا**»؛ يعني: أن تكونَ لله عبدًا، فلا تعبدْ غيرَه، فلا تعبدْ لا المَلِكَ ولا الرَّئيسَ ولا الأميرَ ولا الوزيرَ ولا الرَّسولَ ولا المَلَكَ، ولا الأبَ ولا العمَّ، بل ولا تعبد الدِّينارَ ولا الدِّرهمَ ولا الخميصةَ ولا الخميلةَ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيلَةِ**»[1]، لا تكن عبدًا لغيرِ الله عزَّ وجلَّ، ألم تعلموا أنَّ من النَّاسِ مَنْ يعبدُ البقرَ؟ الجوابُ: بلى، فيهم مَنْ يعبدُ البقرَ، فيهم مَنْ يعبدُ الشَّمسَ، فيهم مَنْ يعبدُ القمرَ، فيهم مَنْ يعبدُ الفَرْجَ، إلى هذا الحدِّ، والعياذُ بالله، لا تكن لغيرِ الله عبدًا، تعلُّقُ القلبِ بغيرِ الله تعلُّقًا يساوي تعلُّقَ القلبِ بالله يُعتبرُ شركًا، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

قَوْلُهُ: «**وَلَا تَعْبُدْ بِغَيْرِ شَرِيعَةِ الإِيمَانِ**» هذا إشارةٌ إلى المتابعةِ، مع أنَّ العبادةَ بغيرِ شريعةِ الإيمانِ نوعٌ من الشِّركِ؛ فإنَّ اللهَ يقولُ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التَّوبة:٣١]؛ لأنَّهم يُشَرِّعُونَ لهم فيَتْبَعُونَهم.

لا تعبدْ أحدًا، بل اعبد اللهَ وحدَه؛ فهو الذي له الذُّلُّ المُطْلَقُ والحُبُّ المُطْلَقُ، الحبُّ المُطْلَقُ الذي لا يعتريه شيءٌ من الكراهةِ والبُغضِ، والذُّلُّ المُطْلَقُ الذي

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو، رقم (٢٨٨٦).

لا يعتريه ترفُّعٌ، إِنَّما هو لله وحدَه، اجعل الذُّلَّ له والمحبَّةَ له حتَّى تكونَ عابدًا حقيقةً؛ ولهذا قال: «**أَلَّا تَكُونَ لِغَيْرِهِ عَبْدًا**»؛ أي: لا تكونَ لغيرِ الله عبدًا أبدًا، اعبد اللهَ، واعلم أنَّ الإنسانَ قد يعبدُ هواه، وما أكثرَ عبادةَ الهوى! ومن ذلك أن يكتمَ الحقَّ إرضاءً للنَّاسِ، أو أن يقولَ الباطلَ إرضاءً للنَّاسِ، فهذا حقيقةً إنَّما عَبَدَ غيرَ الله ولم يعبدِ اللهَ، فالذي يعبدُ اللهَ يَذِلُّ لله مهما كان الغيرُ معاديًا له، يلتمسُ رضا الله قبلَ كُلِّ شيءٍ؛ ولهذا قال: «**أَلَّا تَكُونَ لِغَيْرِهِ عَبْدًا**».

والشَّطرُ الأوَّلُ من البيتِ فيه الإخلاصُ، والثَّاني فيه المتابعةُ.

٣٤٧٢- فَتَقُومُ بِالإِسْلامِ وَالإِيمَانِ وَالـ ... إِحْسَانِ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلانِ

قَوْلُهُ: «**فَتَقُومَ بِالإِسْلَامِ وَالإِيمَانِ وَالإِحْسَانِ**» هذه الأمورُ الثَّلاثةُ هي الدِّينُ؛ لأنَّ جبريلَ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عنها، ثُمَّ قال النَّبِيُّ ﷺ: «**هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**»[1]، الإسلامُ: الأعمالُ الظَّاهرةُ، والإيمانُ: الأعمالُ الباطنةُ، وأمَّا الإحسانُ فيشملُ هذا وهذا، يشملُ إحسانَ السَّرائرِ وإحسانَ الظَّواهرِ.

قَوْلُهُ: «**فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلَانِ**»؛ يعني: سواء كان ذلك في الخفاءِ عن أعينِ النَّاسِ أم في الإعلانِ.

٣٤٧٣- وَالصِّدْقُ وَالإِخْلاصُ رُكْنَا ذَلِكَ التْـ ... ـتَوْحِيدِ كَالرُّكْنَيْنِ لِلْبُنْيَانِ

الصِّدقُ سيأتي معناه في كلامِ المؤلِّفِ، وهو الجِدُّ في الطَّلَبِ؛ لأنَّ كُلَّ مَنْ كان صادقًا في القصدِ فلا بُدَّ أن يكونَ جادًّا في الطَّلَبِ، لو قلتَ مثلًا لشخصٍ: «**أنا أريدُ أن أسافرَ إلى مكَّةَ**»، إذا كنت صادقًا في إرادة السَّفرِ إلى مكَّةَ، ماذا تعملُ؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، رقم (٨).

الجوابُ: تسعى بقدرِ ما تستطيعُ إلى الوصولِ إلى مكَّةَ.

إِذَنْ الصِّدقُ معناه: الجِدُّ في الطَّلَبِ لوصولِ المقصودِ، ومن قال: «إِنِّي صادقٌ»، ولكن ليس عنده جِدٌّ فهو كاذبٌ.

أمَّا الإخلاصُ فهو التَّوحيدُ: أن تُوَحِّدَ المقصودَ ولا تقصد سواه.

٣٤٧٤- **وَحَقِيقَةُ الإِخْلاصِ تَوْحِيدُ المُرَا ... دِ فَلا يُزَاحِمُهُ مُرَادٌ ثَانِي**

الإخلاصُ توحيدُ المرادِ، مَنِ المرادُ؟ اللهُ عزَّ وجلَّ تُوَحِّدُه، لا يزاحمُه مرادٌ ثانٍ.

فمثلًا: إذا صلَّى الإنسانُ يريدُ رضا الله، هذا مُوَحِّدٌ، وإذا صلَّى يريدُ أن يمدحَه النَّاسُ فهذا مشركٌ غيرُ مُوَحِّدٍ.

وَحِّدِ اللهَ عزَّ وجلَّ في قصدِك وفي عملِك.

٣٤٧٥- **لَكِنْ مُرَادُ العَبْدِ يَبْقَى وَاحِدًا ... مَا فِيهِ تَفْرِيقٌ لَدَى الإِنْسَانِ**

لـمَّا قال: «**فَلَا يُزَاحِمُهُ مُرَادٌ ثَانِي**» اسْتَدْرَكَ فقال: «**لَكِنْ**»، وهذا استدراكٌ على قولِه: «**فَلَا يُزَاحِمُهُ**» لكن مَنِ المرادُ بالواحدِ في العبادةِ؟ الجوابُ: اللهُ عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قال:

٣٤٧٦- **إِنْ كَانَ رَبُّكَ وَاحِدًا سُبْحَانَهُ ... فَاخْصُصْهُ بِالتَّوْحِيدِ مَعْ إِحْسَانِ**

قَوْلُهُ: «**إِنْ كَانَ رَبُّكَ وَاحِدًا**»، وفي نسخة: «**إِذْ كَانَ رَبُّكَ وَاحِدًا**»، فعلى النُّسخةِ الأولى يكونُ المعنى: إذا كنتَ تعتقدُ أنَّ ربَّكَ واحدٌ فالواجبُ أن تخصَّه بالتَّوحيدِ والإحسانِ، وعلى نسخة: «**إِذْ كَانَ رَبُّكَ وَاحِدًا**» فالمعنى أنَّه كالتَّعليلِ.

والرَّبُّ عزَّ وجلَّ واحدٌ، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون:٩١]، فاللهُ تعالى وَاحِدٌ؛ ولهذا قال: «**إِنْ كَانَ رَبُّكَ وَاحِدًا**»؛ يعني: إن كنتَ تعتقد هذا وأنت صادقٌ «**فَاخْصُصْهُ بِالتَّوْحِيدِ مَعْ إِحْسَانِ**»، واخْصُصْهُ بِالتَّوحِيدِ؛ أي: بالإخلاصِ، و«**مَعْ إِحْسَانِ**»؛ أي: بالمتابعةِ.

٣٤٧٧- إِنْ كَانَ رَبُّكَ وَاحِدًا أَنْشَاكَ لَمْ ... يُشْرِكْهُ إِذْ أَنْشَاكَ رَبٌّ ثَانِي

وهل هذا مُسَلَّمٌ أو غيرُ مُسَلَّمٍ؟ فالذي أنشأني واحدٌ وهو اللهُ، ما خَلَقَتْنِي أُمِّي ولا أبي ولا أحدٌ من النَّاسِ، الذي خَلَقَنِي هو اللهُ عزَّ وجلَّ وحدَه، فإذا كان واحدًا فاخصصه بالعبادةِ؛ ولهذا قال:

٣٤٧٨- فَكَذَاكَ أَيْضًا وَحْدَهُ فَاعْبُدْهُ لَا ... تَعْبُدْ سِوَاهُ يَا أَخَا العِرْفَانِ

المؤلِّفُ -رحمه الله- ذَكَرَ سَبَبَيْنِ لوجوبِ الإخلاصِ:

السَّبب الأوَّل: أنَّك تعتقدُ أنَّ اللهَ واحدٌ.

السَّبب الثَّاني: أنَّك تعتقدُ أنَّ اللهَ وحدَه هو الذي أنشأك، فإذا كان الأمرُ كذلك، فهل يحقُّ لك بعد هذا أن تجعلَ معه شريكًا في العبادةِ؟ الجوابُ: لا.

***

٣٤٧٩- وَالصِّدْقُ تَوْحِيدُ الإِرَادَةِ وَهْوَ بَذْ ... لُ الجُهْدِ لا كَسَلًا وَلا مُتَوَانِي

٣٤٨٠- وَالسُّنَّةُ المُثْلَى لِسَالِكِهَا فَتَوْ ... حِيدُ الطَّرِيقِ الأَعْظَمِ السُّلْطَانِي

٣٤٨١- فَلِوَاحِدٍ كُنْ وَاحِدًا فِي وَاحِدٍ ... أَعْنِي سَبِيلَ الحَقِّ وَالإِيمَانِ

٣٤٨٢- هَـذِي ثَـلاثٌ مُسْـعِدَاتٌ لِلَّـذِي قَـدْ نَالَـهَا وَالفَضْـلُ لِلمَنَّـانِ

٣٤٨٣- فَإِذَا هِـيَ اجْتَمَعَـتْ لِـنَفْسٍ حُـرَّةٍ بَلَغَـتْ مِـنَ العَلْيَـاءِ كُـلَّ مَكَـانِ

٣٤٨٤- لله قَلْـبٌ شَـامَ هَاتِيـكَ الـبُرُو قَ مِـنَ الخِيَـامِ فَهَـمَّ بِـالطَّيَرَانِ

٣٤٨٥- لَـوْلا التَّعَلُّـلُ بِالرَّجَـاءِ تَصَـدَّعَتْ أَعْشَـارُهُ كَتَصَـدُّعِ البُنْيَـانِ

٣٤٨٦- وَتَـرَاهُ يَبْسُـطُهُ الرَّجَـاءُ فَيَنْثَنِـي مُـتَمَايِلًا كَتَمَايُـلِ النَّشْـوَانِ

٣٤٨٧- وَيَعُـودُ يَقْبِضُـهُ الإِيَـاسُ لِكَوْنِـهِ مُتَخَلِّفًـا عَـنْ رُفْقَـةِ الإِحْسَـانِ

٣٤٨٨- فَتَرَاهُ بَيْنَ القَبْضِ وَالبَسْطِ اللَّذَيْـ ـنِ هُمَـا لِأُفْـقِ سَمَائِهِ قُطْبَـانِ

٣٤٨٩- وَبَدَا لَهُ سَعْدُ السُّعُودِ فَصَـارَ مَسْـ ـرَاهُ عَلَيْـهِ لا عَلَى الـدَّبَرَانِ

٣٤٩٠- لله ذَيَّـاكَ الفَرِيـقُ فَـإِنَّهُمْ خُصُّـوا بِخَالِصَـةٍ مِـنَ الـرَّحْمَنِ

٣٤٩١- شُـدَّتْ رَكَـائِبُهُمْ إِلَى مَعْبُـودِهِمْ وَرَسُـولِهِ يَـا خَيْبَـةَ الكَسْـلانِ!

الشرح

٣٤٧٩- وَالصِّدْقُ تَوْحِيدُ الإِرَادَةِ وَهْـوَ بَـذْ لُ الجُهْـدِ لا كَسَـلًا وَلا مُتَـوَانِي

الصِّدقُ أن تبذلَ الجهدَ في الوصولِ إلى المرادِ، وأن تكونَ جادًّا في العملِ؛ فلا تكن كسلانَ ولا متوانيًا؛ ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الأَمَانِي»[(١)]، وَقَال ﷺ:

(١) أخرجه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في صفة آنية الحوض، رقم (٢٤٥٩).

«**الْمُؤمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنَ الْمُؤمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِالله وَلَا تَعْجِزْ**»(١)؛ ولهذا حتَّى فيما بين النَّاسِ إذا قيل: «**فلانٌ يريدُ كذا وكذا**» وهو كسلانُ لم يعمل، قيل: أبدًا، لو كان صادقًا لَفعَلَ، قال: «**فلانٌ يحبُّك ويحبُّ أن يزورَك دائمًا**» ولكنَّه لا يراه بالسَّنةِ إلَّا مرَّةً، ماذا يقولُ؟ يقول: لو كان صادقًا أنَّه يُحِبُّ الزِّيارةَ لَزَارَنَا.

٣٤٨٠- وَالسُّنَّةُ الْمُثْلَى لِسَالِكِهَا فَتَوْ   حِيدُ الطَّرِيقِ الأَعْظَمِ السُّلْطَانِي

الله أكبر، هذا توحيدُ الطَّريقِ؛ لأنَّ الرَّبَّ عزَّ وجلَّ هو المقصودُ والمرادُ، فلا بُدَّ من الإخلاصِ له، ولا بُدَّ من الصِّدقِ في طلبِه، ولا بُدَّ أيضًا من سلوكِ الطَّريقِ المُوصِلِ إليه.

لو قال إنسانٌ: أنا -والله- أُحِبُّ بكُلِّ قلبي أن أصلَ إلى مكَّةَ، وهَيَّأَ الرَّاحلةَ، ثُمَّ ذهب إلى الشَّرقِ، وقال: أنا ذاهبٌ إلى مكَّةَ؟

نقولُ: هذا غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّه لم يسلك الطَّريقَ الموصلَ إلى الله، فلا بُدَّ من سلوكِ الطَّريقِ الذي يُوصِلُك إلى الله، وما هو الطَّريقُ؟ ليس هناك إلَّا طريقٌ واحدٌ، وهو طريقُ رسولِ الله ﷺ، أسألُ اللهَ أن يُوفِّقَنا وإيَّاكم لسلوكِه، قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، فالطُّرقُ سوى الطَّريقِ الأعظمِ كُلُّها ضلالاتٌ، ولهذا قال: «**وَالسُّنَّةُ الـمُثْلَى**»؛ يعني: العُلْيَا في المَثَلِ التي هي خيرُ الهدي لسالكِها، فتوحيدُ الطَّريقِ الأعظمِ السُّلطاني.

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم (٢٦٦٤).

٣٤٨١- فَلِوَاحِدٍ كُنْ وَاحِدًا فِي وَاحِدٍ   أَعْنِي سَبِيلَ الحَقِّ وَالإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «فَلِوَاحِدٍ» الواحدُ هو اللهُ عزَّ وجلَّ، وذلك بالإخلاصِ.

قَوْلُهُ: «كُنْ وَاحِدًا»؛ أي: في صدقِك وجِدِّك واجتهادِك.

قَوْلُهُ: «فِي وَاحِدٍ»؛ أي: وَحِّدْ نفسَك لله عزَّ وجلَّ في طريقٍ واحدٍ وهو طريقُ النَّبِيِّ ﷺ وذلك بالمتابعةِ.

٣٤٨٢- هَذِي ثَلاثٌ مُسْعِدَاتٌ لِلَّذِي   قَدْ نَالَهَا وَالفَضْلُ لِلمَنَّانِ

قَوْلُهُ: «هَذِي ثَلَاثٌ مُسْعِدَاتٌ»، وهي: الأولى: الإخلاصُ، والثَّانية: الصِّدقُ، والثَّالثة: المتابعةُ، اللَّهُمَّ اجعلنا مِمَّنْ ينالُها.

٣٤٨٣- فَإِذَا هِيَ اجْتَمَعَتْ لِنَفْسٍ حُرَّةٍ   بَلَغَتْ مِنَ العَلْيَاءِ كُلَّ مَكَانِ

هذا بيتٌ لرجلٍ سبق ابنَ القيِّم وهو المتنبِّي حيث قال:

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ   هُوَ أَوَّلٌ وَهِيَ المَحَلُّ الثَّانِي

فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا لِنَفْسٍ حُرَّةٍ   بَلَغَتْ مِنَ العَلْيَاءِ كُلَّ مَكَانِ[1]

إِلَّا أنَّ المؤلِّفَ يقولُ: «فَإِذَا هِيَ اجْتَمَعَتْ»، والمتنبِّي يقولُ: «فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا»؛ لأنَّ الضَّميرَ يعودُ على ما قبلَه في البيتَيْنِ.

وهذان البيتان من حِكَم المتنبِّي، وكُلُّ ديوانِ المتنبِّي إِلَّا القليل منه كُلُّه حِكَمٌ عظيمةٌ جدًّا، ومِمَّا أنشدناه شيخُنا رحمه اللهُ حيث قال:

وَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالعُلَى   مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

---

(١) نهاية الأرب (٦/ ٧٧).

قَوْلُهُ: «النَّدَى»؛ أي: العطاء.

قَوْلُهُ: «فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالعُلَى مُضِرٌّ»؛ أي: مُضِرٌّ بالعُلَى، والمعنى: أنَّ موضعَ السَّيفِ مُضِرٌّ بالعُلَى كوضعِ السَّيفِ في موضعِ النَّدى، فليس بصحيحٍ أن تضربَ عنقَ إنسانٍ جاء يستجديك ولم تأتِ منه خطيئةٌ.

المهمُّ أنَّ هذه الثَّلاثَ هي سببُ سعادةِ المرءِ، فإذا اجتمعت لنفسٍ حُرَّةٍ بَلَغَتْ من العلياءِ كُلَّ مكانٍ.

٣٤٨٤- للهِ قَلْبٌ شَامَ هَاتِيكَ البُرُو ... قَ مِنَ الخِيَامِ فَهَمَّ بِالطَّيَرَانِ

قَوْلُهُ: «شَامَ»؛ أي: نَظَرَ، ومنه قولُ الشَّاعرِ:

أَقُولُ لِعَبْدِ اللهِ لَـمَّا سِقَاؤُنَا ... وَنَحْنُ بِوَادِي عَبْدِ شَمْسٍ وَهَاشِمِ

وهذا فيه لغزٌ أيضًا، وهو قولُه: «وَهَاشِمِ»؛ لأنَّ أصلَها «وَهَى»؛ يعني: ضَعُفَ.

والمعنى: لـمَّا وَهَى سقاؤنا وضَعُفَ ولم يكن فيه ماءٌ، أقولُ له: شِمْ؛ يعني: انظر إلى البرقِ؛ لأنَّ البرقَ يكونُ فيه الرَّعدُ والمطرُ.

هذا قلبُ إنسانٍ في الخيامِ فرأى البرقَ بعد مُدَّةٍ طويلةٍ لم يره تجد قلبَه من شدَّةِ شوقِه إلى البرقِ يَهِمُّ بالطَّيرانِ.

٣٤٨٥- لَوْلا التَّعَلُّلُ بِالرَّجَاءِ تَصَدَّعَتْ ... أَعْشَارُهُ كَتَصَدُّعِ البُنْيَانِ

قَوْلُهُ: «أَعْشَارُهُ» الظَّاهر لي -واللهُ أعلمُ- أنَّ أعشارَ البيتِ (الخيمة) أنَّها جوانبُها.

وَقَوْلُهُ: «أَعْشَارُهُ»، وفي نسخة: «أَحْشَاؤُهُ».

فلو أنَّ الإنسانَ -ونحن قاصرون- يرجو العفوَ من الله عزَّ وجلَّ عن التَّفريطِ في الطَّاعاتِ والغفرانِ للسَّيِّئاتِ لولاه لتصدَّعت الأحشاءُ وهلك الإنسانُ، وهذا صحيحٌ.

٣٤٨٦- وَتَـرَاهُ يَبْسُـطُهُ الرَّجَـاءُ فَيَنْثَنِـي   مُـتَمَايِلًا كَتَمَايُـلِ النَّشْـوَانِ

٣٤٨٧- وَيَعُـودُ يَقْبِضُـهُ الإِيَـاسُ لِكَوْنِـهِ   مُتَخَلِّفًـا عَـنْ رُفْقَـةِ الإِحْسَـانِ

يعني: قلبُه أحيانًا ينفتحُ له الرَّجاءُ فيفرحُ ويطربُ سواء تمايلت حِسًّا أو معنًى، ويقولُ: وَصَلْتُ إلى الغايةِ، وأحيانًا يقبضُه اليأسُ، وهذا ليس من قِبَلِ الله عزَّ وجلَّ، فإنَّ اللهَ أهلُ الكرمِ لكن من قِبَلِ العبدِ؛ لأنَّه متخلِّفٌ عن رفقةِ الإحسانِ، يجدُ نفسَه يقولُ: أين أنا من قومٍ لا ينامون اللَّيلَ، يُحيونه رُكَّعًا وسُجَّدًا وقيامًا لله عزَّ وجلَّ، فمتى أَصِلُ إلى منازلِ هؤلاء؟ وأحيانًا يبسطُه الرَّجاءُ فيقولُ: إنَّ عفوَ الله أوسعُ من عقوبتِهِ، ويحملُه الرَّجاءُ على أن ينشرحَ صدرُه ويفرحَ ويطربَ، ولهذا قال المؤلِّف رحمه الله:

٣٤٨٨- فَتَرَاهُ بَيْنَ القَبْضِ وَالبَسْطِ اللَّذَيْـ   ـنِ هُمَـا لِأُفْـقِ سَمَائِهِ قُطْبَـانِ

يعني: قلبُه بين القبضِ والبسطِ، يَبسطُ عند الرَّجاء، وينقبضُ عند اليأسِ والخوفِ، ولهذا اختلف أهلُ العلم -رحمهم اللهُ- في السَّائرِ إلى الله عزَّ وجلَّ هل يُغَلِّبُ الرَّجاءَ أو يُغَلِّبُ الخوفَ؛ لأنَّه إنْ غلَّب الرَّجاءَ وقع في محذورٍ وهو الأمنُ من مكرِ الله، وإن غَلَّب الخوفَ وقع في محذورٍ وهو اليأسُ من رحمةِ الله، فهو بين محذورين؟

قال الإمامُ أحمدُ -رحمه الله-: ينبغي أن يكونَ خوفُه ورجاؤه واحدًا، فأيُّهما غلب هلك صاحبُه، وشَبَّهَه بعضُ العلماءِ بالطَّائرِ يطيرُ بين جناحَيْنِ: جناحِ الرَّجاءِ

وجناحِ الخوفِ، إن مال أحدُهما هوى وسَقَطَ.

وفَصَّلَ بعضُ أهلِ العلمِ فقال: ينبغي إذا حَدَّثَتْهُ نفسُه بالمعصيةِ أن يُغَلِّبَ جانبَ الخوفِ لِئَلَّا يقعَ فيه؛ لأَنَّه قد تَحْمِلُه نفسُه على الرَّجاءِ، فيقولُ: أفعلُ المعصيةَ واللهُ غفورٌ رحيمٌ، وإذا فَعَلَ الطَّاعةَ فليُغَلِّبْ جانبَ الرَّجاءِ؛ لأَنَّه إذا فَعَلَ الطَّاعةَ فلا ينبغي أن يقولَ: «**لا تُقْبَلُ منِّي**»، بل يُرَجِّحُ جانبَ القَبولِ وهو جانبُ الرَّجاءِ حتَّى يكونَ محسنًا للظَّنِّ بالله عزَّ وجلَّ، هذان قولان.

القولُ الثَّالثُ: يقولُ: ينبغي أن يكونَ الرَّجاءُ والخوفُ مَبْنِيًّا على اختلافِ الجهةِ، فإذا نَظَرْتَ إلى أفعالِك فَغَلِّبْ جانبَ الخوفِ سواء كانت طاعةً أم معصيةً، وإذا نَظَرْتَ إلى فضلِ الله فَغَلِّبْ جانبَ الرَّجاءِ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى «كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ أَنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ»(١)، أَمَّا أنت فأنت مَحَلُّ التُّهمة، متى نَظَرْتَ إلى نفسِك فغَلِّبْ جانبَ الخوفِ ليحملكَ هذا الجانبُ على تركِ المحرَّماتِ وفعلِ الطَّاعاتِ.

القولُ الرَّابعُ: في حالِ الصِّحَّةِ والنَّشاطِ يُغَلِّبُ جانبَ الخوفِ، وفي حالِ المرضِ -ولاسيَّما المرضُ المزمن الذي يظنُّ المرءُ أنَّه قريبُ الأجلِ- يُغَلِّبُ جانبَ الرَّجاءِ حتَّى يموتَ وهو يُحْسِنُ الظَّنَّ بالله عزَّ وجلَّ، واللهُ تعالى عند ظنِّ عبدِه به.

والحقيقةُ أنَّ الإنسانَ ينبغي له -فيما نرى- أن يَنظرَ حالَه، إذا رأى نفسَه تميلُ إلى الرَّجاءِ فتحملُه على التَّهاونِ بالطَّاعاتِ وعلى فعلِ المحرَّماتِ فيجبُ أن يَكْبَحَ جِمَاحَها فيردَّها إلى جانبِ الخوفِ، وإذا غلب على نفسِه الخوفُ حتَّى يكادَ ييأس من أنَّ اللهَ قَبِلَ منه طاعةً، أو أنَّه أتى بطاعةٍ تُرْضِي ربَّه فهنا يُغَلِّبُ جانبَ الرَّجاءِ، والإنسانُ الذي يُوفِّقُه اللهُ عزَّ وجلَّ يكونُ طبيبَ نفسِه، يعرفُ نفسَه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]، ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩]، رقم (٦٩٨٦).

٣٤٨٩- وَبَدَا لَهُ سَعْدُ السُّعُودِ فَصَارَ مَسْـ ـرَاهُ عَلَيْهِ لا عَلَى الدَّبَرَانِ

«**الدَّبَرَانِ**»: نجمٌ أحمرُ من النُّجومِ الفصليَّةِ يسيرُ دُبُرَ الثُّرَيَّا، والثُّرَيَّا معروفةٌ، وبمجيء الدَّبَرَانِ يكونُ ابتداءُ الحرِّ في الغالبِ، أمَّا «**سَعْدُ السُّعُودِ**» فهو السَّعدُ الثَّالثُ من السُّعداءِ الثَّلاثةِ، وهي ما يُسَمَّى عند العامَّةِ في لغتنا «**العقرب**»، أتعرفون العقاربَ التي تقومُ في آخرِ الشِّتاءِ؟ سعد الذَّابح، وسعد بُلَع، وسعد السُّعودِ، آخرُها سعدُ السُّعود وبه ينتهي فصلُ الشِّتاءِ ويدخلُ فصلُ الرَّبيعِ؛ ولهذا يكونُ طالعُه جيِّدًا بمعنى أنَّه إذا دخل هذا النَّجمُ عند العامَّةِ قالوا: الآنَ أقبل الخيرُ، ليس لأنَّ النَّجمَ يأتي بالخيرِ أو بالشَّرِّ، فهو لا يُفِيدُ سعادةً ولا شقاءً، ولا عَلاقةَ لتغيُّرِ الأفلاكِ السَّماويةِ بالحوادثِ الأرضيَّةِ، لكنَّه علامةٌ على حُسْنِ الفصلِ أو الطَّقسِ كما يقولون باللُّغة الحاضرة، فهذا سعدُ السُّعُودِ.

٣٤٩٠- للهِ ذَيَّاكَ الفَرِيقُ فَإِنَّهُمْ خُصُّوا بِخَالِصَةٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص:٤٦-٤٧]، وما أسعدَ الذي يُخْلِصُه اللهُ بخالصةٍ، وهذا الفريقُ خُصَّ بخالصةٍ، لكن عندنا إشكالٌ في قوله: «**للهِ ذَيَّاكَ الفَرِيقُ**»، «**ذَيَّاكَ**» تصغيرٌ مع أنَّ رُتبتَهم عاليةٌ لكن التَّصغيرُ قد يُرَادُ به التَّمليحُ، وعندنا حتَّى في اللغة العامِّيَّة يقول: «**يا حِلِيلُهْ**»، ومنه قولُ الرَّسولِ لابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**يا غُلَيِّمُ**»(١) تمليحًا.

وقد ذكر ابنُ القيِّم -رحمه الله- في النُّونيَّةِ لـمَّا ذَكَرَ السَّماعَ في الجنَّةِ قال:

وَاهًا لِذَيَّاكَ السَّمَاعِ وَلَمْ أَقُلْ ذَيَّاكَ تَصْغِيرًا لَهُ بِلِسَانِي

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧، رقم ٢٨٠٤).

فهنا لم يقل تصغيرًا لهذا الفريقِ، وهذا الفريقُ هم أفضلُ الفرق.

٣٤٩١- شُـدَّتْ رَكَـائِبُهُمْ إِلَى مَعْبُـودِهِمْ وَرَسُـولِهِ يَـا خَيْبَـةَ الكَسْـلانِ!

قَوْلُهُ: «شَدَّتْ رَكَائِبُهُمْ إِلَى مَعْبُودِهِمْ»؛ أي: بالإخلاصِ، وإلى «رَسُولِهِ»؛ أي: بالمتابعة.

قَوْلُهُ: «يَا خَيْبَةَ الكَسْلَانِ!» كيف ناداها؟ هل هي تعقلُ حتَّى تُنَادَى؟ أَنْزَلَـهَا منزلةَ العاقلِ؛ أي: يا خيبةَ الكسلان احْضرِي، فإِنَّ الكسلانَ ليس له إِلَّا الخيبةُ والنَّدمُ، نسأَلُ اللهَ أن يجعلَنا وإِيَّاكم من أهلِ العملِ لا من أهلِ الكسلِ.

* * *

فصل

٣٤٩٢- وَالشِّرْكَ فَاحْذَرْهُ فَشِرْكٌ ظَاهِرٌ ... ذَا القِسْمُ لَيْسَ بِقَابِلِ الغُفْرَانِ

٣٤٩٣- وَهُوَ اتِّخَاذُ النِّدِّ لِلرَّحْمَنِ أَيْـ ... ـيًا كَانَ مِنْ حَجَرٍ وَمِنْ إِنْسَانِ

٣٤٩٤- يَدْعُوهُ أَوْ يَرْجُوهُ ثُمَّ يَخَافُهُ ... وَيُحِبُّهُ كَمَحَبَّةِ الدَّيَّانِ

٣٤٩٥- وَاللهِ مَا سَاوَوْهُمُ بِاللهِ فِي ... خَلْقٍ وَلا رِزْقٍ وَلا إِحْسَانِ

٣٤٩٦- فَاللهُ عِنْدَهُمُ هُوَ الخَلَّاقُ وَالرْ ... رَزَّاقُ مُولِي الفَضْلِ وَالإِحْسَانِ

٣٤٩٧- لَكِنَّهُمْ سَاوُوهُمُ بِاللهِ فِي ... حُبٍّ وَتَعْظِيمٍ وَفِي إِيمَانِ

٣٤٩٨- جَعَلُوا مَحَبَّتَهُمْ مَعَ الرَّحْمَنِ مَا ... جَعَلُوا المَحَبَّةَ قَطُّ لِلرَّحْمَنِ

٣٤٩٩- لَوْ كَانَ حُبُّهُمُ لِأَجْلِ اللهِ مَا ... عَادُوا أَحِبَّتَهُ عَلَى الإِيمَانِ

٣٥٠٠- وَلَمَا أَحَبُّوا سُخْطَهُ وَتَجَنَّبُوا ... مَحْبُوبَهُ وَمَوَاقِعَ الرِّضْوَانِ

٣٥٠١- شَرْطُ المَحَبَّةِ أَنْ تُوَافِقَ مَنْ تُحِبْ ... بُ عَلَى مَحَبَّتِهِ بِلا عِصْيَانِ

٣٥٠٢- فَإِذَا ادَّعَيْتَ لَهُ المَحَبَّةَ مَعْ خِلا ... فِكَ مَا يُحِبُّ فَأَنْتَ ذُو بُهْتَانِ

٣٥٠٣- أَتُحِبُّ أَعْدَاءَ الحَبِيبِ وَتَدَّعِي ... حُبًّا لَهُ مَا ذَاكَ فِي إِمْكَانِ

٣٥٠٤- وَكَذَا تُعَادِي جَاهِدًا أَحْبَابَهُ ... أَيْنَ المَحَبَّةُ يَا أَخَا الشَّيْطَانِ

الشرحُ

لـمَّا ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحمه الله- التَّوحيدَ ذَكَرَ الشِّركَ المضادَّ لتوحيدِ العبادةِ الذي نُسمِّيه بتوحيدِ الطَّلبِ؛ لأنَّ توحيدَ الخبرِ سبق الكلامُ عليه وانتهى، يقولُ:

٣٤٩٢- وَالشِّـرْكَ فَاحْذَرْهُ فَشِـرْكٌ ظَـاهِرٌ ... ذَا القِسْـمُ لَـيْسَ بِقَابِـلِ الغُفْـرَانِ

نَصَحَ -رحمه الله- وأخلص في نُصحِه حيث حَذَّرَ من الشِّركِ كُلِّه الظَّاهِرِ والخفيِّ؛ لأنَّ الشِّركَ هو البلاءُ، وقَسَّمَه إلى قسمين: شركٍ ظاهرٍ وشركٍ خفيٍّ، فالشِّركُ الظَّاهرُ هو الشِّركُ الأكبرُ، وهذا القسمُ لا يقبلُ الغفرانَ لقولِ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النِّساء:٤٨]، واختلف العلماءُ -رحمهم اللهُ- في الشِّركِ الأصغرِ كالحلفِ بغيرِ الله ويسيرِ الرِّياءِ وما أشبه ذلك، هل يغفرُه اللهُ أو لا؟ فمنهم مَنْ قال: إنَّه لا يُغْفَرُ؛ لعمومِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النِّساء:٤٨]، وهو ظاهرُ لفظِ القرآنِ الكريمِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾، «**أَنْ**» وما دخلت عليه في تأويلِ مصدرٍ تقديرُه: «**إشراكًا به**»، وهذا عامٌّ؛ لأنَّه نكرةٌ في سياقِ النَّفيِ، وإن كانت ليست نكرةً صريحةً بل بالتَّأويلِ، ومَنْ نَظَرَ إلى المعنى وأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة:٧٢]، وهذا بالاتِّفاقِ المرادُ به الشِّركُ الأكبرُ، قال: إنَّ الآيةَ التي في النِّساءِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ هذا في الشِّركِ الأكبرِ، ولكن على كُلِّ حالٍ فالإنسانُ على خطرٍ ويجبُ عليه أن يتوبَ من الشِّركِ الأصغرِ إذ يُخْشَى إن مات بدون توبةٍ منه أن يُعَذَّبَ به.

ومنهم مَنْ قال: بل يُغْفَرُ؛ لأنَّ الشِّركَ الذي لا يُغْفَرُ هو الذي قال اللهُ عنه:

﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢]، وهذا الثَّاني هو ظاهرُ كلامِ ابنِ القيِّم رحمه اللهُ؛ ولهذا قال: «**فَشِرْكٌ ظَاهِرٌ ذَا القِسْمُ**»؛ يعني: الشِّركُ الظَّاهرُ «**لَيْسَ بِقَابِلِ الغُفْرَانِ**».

ثُمَّ ذَكَرَ منه أمثلةً فقال:

٣٤٩٣- وَهُوَ اتِّخَاذُ النِّدِّ لِلرَّحْمَنِ أَيْـــ ـيًا كَانَ مِنْ حَجَرٍ وَمِنْ إِنْسَانِ

اتِّخاذُ النِّدِ؛ أي: النَّظيرِ والمثيلِ والشَّبيهِ لله سواء كان من حجرٍ أم إنسانٍ أم مَلَكٍ مهما كان.

أمَّا الحجرُ فيُوجَدُ مَن يتَّخذُ نِدًّا من الأحجارِ، يُعَظِّمُ الحجرَ أكثرَ مِمَّا يُعَظِّمُ اللهَ أو مِثْلَ تعظيمِ الله، «**اللَّات والعُزَّى ومناة وهُبَل**»، وثلاثمائة وستين صنمًا كَسَّرَها النَّبيُّ ﷺ بيدِه في الكعبةِ(١).

أمَّا الإنسانُ فما أكثرَ الذين يعبُدون الإنسانَ، ولكن ليست العبادةُ أن تركعَ وتسجدَ له، إذا جَعَلْتَ محبَّتَه كمحبَّةِ الله وتعظيمَه كتعظيمِ الله فهذا شركٌ، ويدلُّ لهذا علاماتٌ: أن تُقَدِّمَ ما يحبُّه هذا على ما يُحِبُّه اللهُ، فإذا قال: «**لا تُصَلِّ**» لم تُصَلِّ، وإذا أمرك بشيءٍ من معصيةِ الله أَطَعْتَه، وإذا نهاك عن شيءٍ مـمَّا يحبُّه اللهُ تَرَكْتَهُ، فهذا شركٌ.

٣٤٩٤- يَدْعُوهُ أَوْ يَرْجُوهُ ثُمَّ يَخَافُهُ وَيُحِبُّهُ كَمَحَبَّةِ الدَّيَّانِ

قَوْلُهُ: «**يَدْعُوهُ**»؛ يعني: دعاءَ مسألةٍ أو دعاءَ عبادةٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب هل تكسر الدنان التي فيها الخمر، أو تخرق الزقاق، رقم (٢٣٤٦)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب إزالة الأصنام من حول الكعبة، رقم (١٧٨١).

قَوْلُهُ: «يَرْجُوهُ» كرجاءِ الله.

قَوْلُهُ: «يَخَافُهُ» كمخافةِ الله.

قَوْلُهُ: «يُحِبُّهُ» كمحبَّة الله، وهذا يُوجَدُ من أناسٍ يُحِبُّونَ المخلوقَ كمحبَّةِ الله عزَّ وجلَّ أو أشدُّ.

وكُلُّ هذا شركٌ.

٣٤٩٥- وَالله مَا سَاوَوْهُمُ بِالله فِي خَلْقٍ وَلا رِزْقٍ وَلا إِحْسَانِ

يعني: بذلك: المشركين، يقولُ: إِنَّهم ما ساووهم بالله؛ يعني: ما ساوَوْا أصنامَهم بالله في هذه الأمور: في الخلقِ والرِّزْقِ والإحسانِ، فهؤلاء المشركون لا يقولون: إنَّ هذه الأصنامَ تخلقُ كما يخلقُ اللهُ أو تَرْزُقُ كما يرزقُ اللهُ؛ ولهذا لو سألتَهم: مَنْ خلَقَ السَّماواتِ؟ لقالوا: الله كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، وكما قال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس:٣١]، فهم مُقِرُّون بأنَّ الخلقَ والرِّزْقَ كُلَّه لله عزَّ وجلَّ، ولم يساووا أصنامَهم بالله في ذلك.

٣٤٩٦- فَاللهُ عِنْدَهُمُ هُوَ الخَلَّاقُ وَالرْ رَزَّاقُ مُولِي الفَضْلِ وَالإِحْسَانِ

٣٤٩٧- لَكِنَّهُمْ سَاوُوهُمُ بِالله فِي حُبٍّ وَتَعْظِيمٍ وَفِي إِيمَانِ

ففي مسألةِ الرُّبوبيَّةِ لم يساووهم بالله، وفي مسألة العبادةِ والتَّألُّهِ ساوَوْهم بالله، وفي الحُبِّ والتَّعظيمِ والإيمانِ جعلوا محبَّتَهم كمحبَّةِ الله كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، كذلك في

التَّعظيمِ تجدُ الواحدَ منهم يقومُ يُصلِّي بين يدي الله، وله حركاتٌ قلبيَّةٌ وحركاتٌ بصريَّةٌ وحركاتٌ سمعيَّةٌ وحركاتُ جوارح، فله حركاتٌ قلبيَّةٌ فتجدُه في كُلِّ وادٍ، وله حركاتٌ بصريَّةٌ، فكُلُّ مَنْ مَرَّ أَتْبَعَ بصرَه إيَّاه، حركاتٌ سمعيَّةٌ تجدُه إذا سَمِعَ كلامًا قام يُنْصِتُ ويسمعُ ماذا يقولون؟ حتىَّ إِنَّه إذا سَمِعَ أغنيَّةً أَنْصَتَ لها وهو يُصَلِّي، وهذا موجودٌ، نسأَلُ اللهَ العافيةَ.

٣٤٩٨- جَعَلُوا مَحَبَّتَهُمْ مَعَ الرَّحْمَنِ مَا ... جَعَلُوا المَحَبَّةَ قَطُّ لِلرَّحْمَنِ

يعني: أنَّ محبَّةَ هؤلاءِ مساويةٌ عندهم لمحبَّةِ الله، فهم لم يجعلوا المحبَّةَ لله وحدَه، ولم يُخْلِصوا لله وحدَه، وهذه هي المحبَّةُ الشِّركيَّةُ، أمَّا المحبَّةُ في الرَّحمنِ فهي محبَّةٌ إيمانيَّةٌ؛ ولهذا يُفرَّقُ بين الحُبِّ في الله والحُبِّ مع الله، الحُبُّ مع الله شركٌ، والحُبُّ في الله أو لله هذا إيمانٌ، فمن تمامِ الإيمانِ أن تُحِبَّ الشَّخصَ لا تحبُّه إلَّا لله.

٣٤٩٩- لَوْ كَانَ حُبُّهُمُ لِأَجْلِ اللهِ مَا ... عَادُوا أَحِبَّتَهُ عَلَى الإِيمَانِ

وهذا صحيحٌ، فلو كانوا يحبُّون اللهَ حقًّا ما عادَوْا أحبَّةَ الله، ما عادَوُا الرُّسلَ ولا عادَوْا أتباعَ الرُّسلِ؛ لأنَّهم مؤمنون، وقولُه: «**عَلَى الإِيمَانِ**»؛ يعني: لكونهم مؤمنين.

٣٥٠٠- وَلَمَا أَحَبُّوا سُخْطَهُ وَتَجَنَّبُوا ... مَحْبُوبَهُ وَمَوَاقِعَ الرِّضْوَانِ

وهذا صحيحٌ أيضًا، فمن لازمِ محبَّتِهم لله أن يتَّبِعوا ما يرضيه، أمَّا أن يتَّبعوا ما يُسخِطُ اللهَ فإنَّهم وإن ادَّعَوا المحبَّةَ فهم كاذبون في ذلك، ثُمَّ قال المؤلِّفُ رحمه اللهُ:

٣٥٠١- شَرْطُ المَحَبَّةِ أَنْ تُوَافِقَ مَنْ تُحِـبْـ ... ـبُ عَلَى مَحَبَّتِهِ بِلا عِصْيَانِ

وهذا صحيحٌ، فشرطُ المحبَّةِ الدَّالُّ على صدقِها أن تُوافِقَ مَنْ تُحِبُّ على محبَّتِهِ؛ يعني: على ما يُحِبُّه بلا عصيانٍ.

وأنت لو جَرَّبْتَ هذا فيما بينك وبين النَّاسِ وقلتَ لشخصٍ: «والله إنِّي أُحبُّك حُبًّا شديدًا»، وفي يومٍ من الأيَّامِ جاء إليك وقال: «افعل كذا وكذا، اذهب إلى فلان كَلِّمْه»، فقال: «والله لا أذهب»، هل هذا يدلُّ على محبَّتِهِ لك؟ الجوابُ: لا؛ لأَنَّك لو كنتَ صادقًا لَذَهَبْتَ، والإنسانُ الذي يُحِبُّ الشَّخصَ يتشرَّفُ ويفرحُ إذا أمره ولا يخالفُه، بل إنَّه يقتدي به في أفعالِه وأخلاقِه حتىَّ وإنْ لم يأمرْه بذلك لموافقةِ الطِّبَاعِ.

٣٥٠٢- فَإِذَا ادَّعَيْتَ لَهُ المَحَبَّةَ مَعْ خِلا ... فِكَ مَا يُحِبُّ فَأَنْتَ ذُو بُهْتَانِ

أي: ذو كذبٍ، إذ كيف تَعصي الإلهَ وتدَّعِي أنَّك تُحبُّه؟!

٣٥٠٣- أَتُحِبُّ أَعْدَاءَ الحَبِيبِ وَتَدَّعِي ... حُبًّا لَهُ مَا ذَاكَ فِي إِمْكَانِ

وهذا صحيحٌ، إنسانٌ يدَّعِي أنَّه يُحِبُّ شخصًا وهو يُحِبُّ أعداءَه، هل هذا صحيحٌ؟ الجوابُ: غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّه لو كان يُحِبُّه حقًّا ما أحبَّ أعداءَه، بل لكان عدوًّا لأعدائِه، حتىَّ الصِّبيان في الأسواقِ الآن إذا أراد أن يختبرَك هل أنت تحبُّه أو لا، وكان له عدوٌّ من الصِّبيان الآخَرين يأتي إليك ويقولُ: هل أنت معي أو معه؟ يعني: هل أنت من أوليائي أو من أوليائِه؟ إذا قال: لا، أنا معك، ولكنَّه في آخِرِ النَّهارِ وَجدَه مع الثَّاني فإنَّه يعتبُ عليه ويقولُ له: أنت كذَّابٌ، كيف تقولُ بأنَّك معي وأنك تحبُّني وتذهب تحبُّ عدوِّي؟ فهذا شيءٌ في الفِطَرِ، فنحن ما تعلَّمنا هذا، لكنَّه شيءٌ في الفِطَرِ، لا يمكنُ أن تُحِبَّ أعداءَ شخصٍ وأنت صادقٌ في محبَّتِهِ أبدًا.

٣٥٠٤- وَكَــذَا تُعَــادِي جَاهِــدًا أَحْبَابَــهُ أَيْــنَ المَحَبَّــةُ يَــا أَخَــا الشَّــيْطَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَا تُعَادِي جَاهِدًا أَحْبَابَهُ»؛ يعني: تُحِبُّ أعداءَه وتُعادي جاهدًا أحبابَه بقدرِ ما تستطيعُ.

قَوْلُهُ: «أَيْنَ المَحَبَّةُ يَا أَخَا الشَّيْطَانِ؟» ليست موجودةً؛ ولهذا من علامةِ محبَّةِ الإنسانِ لله أن يُحِبَّ مَنْ يعبدُ اللهَ، فإذا رَأَيْتَ في نفسِك كراهةً لأحدٍ من عبادِ الله فإنَّه يجبُ عليك أن تُصحِّحَ إيمانَك ومحبَّتَك لله.

لكن لاحظوا أنَّ بعضَ النَّاسِ قد يكرهُ بعض المستقيمين لشخصِه وليس لأجل استقامتِه، وهذا يقعُ كثيرًا، كثيرًا ما ينقمُ على بعض المستقيمين فِعْلَ شيءٍ لو فعله غيرُهم لَقَبِلَهُ لكن يكرهُه مِنْ هذا الشَّخصِ، هذا ما يُحْكَمُ عليه بأنَّه كَرِهَ السُّنَّةَ أو قَدَحَ في السُّنَّةِ، وهذه مسألةٌ يجبُ التَّنبُّه لها، فلو فرضنا أنَّ شخصًا استهزأ بشخصٍ؛ لأنَّه أعفى لحيتَه، فلا يعني ذلك أنَّ هذا الرَّجلَ يكرهُ إعفاءَ اللِّحى مطلقًا؛ ولهذا تجده يقبلُ الإعفاءَ ولو طال من شخصٍ آخرَ دون الثَّاني، ولو أنَّ إنسانًا استهزأ بتقصيرِ الثَّوبِ إلى نصفِ السَّاقِ من شخصٍ لكن لو فعله آخرُ لقَبِلَهُ منه كما هو موجودٌ فعلًا، لا نقولُ: إنَّ هذا الرَّجلَ استهزأ بالسُّنَّةِ، لكنَّه استهزأ بمَنْ تلبَّسَ بالسُّنَّةِ لعينِه، فهذا فرقٌ يجبُ التَّنبُّهُ له؛ ولهذا لو كَرِهَ السُّنَّةَ وإن لم يَعْمَلْ بها أحدٌ كان على خطرٍ، فلو فرضنا أنَّ كُلَّ مَنْ حوله يحلقون لحاهم ولكنَّه يستهزئ بمن يرخي لحيتَه لكان هذا مستهزئًا بإرخاءِ اللِّحيةِ، فهذا قد نقولُ: إنَّه خرج من الإسلامِ؛ ولهذا نرى أنَّ أبعدَ النَّاسِ عن محبَّةِ الله مَنْ يُبغضون صحابةَ رسولِ الله ﷺ، فإنَّ الذي يُبْغِضُ الصَّحابةَ لاشكَّ أنَّه لا يُحِبُّ اللهَ؛ لأنَّ الصَّحابةَ من أولياءِ الله وهم خيرُ القرونِ[1] نصًّا من

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، رقم (٣٤٥١)،

الرَّسول عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فإذا أبغضهم شخصٌ فكيف يقولُ: أنا أُحِبُّ اللهَ؟! إذا أبغضهم شخصٌ وسبَّهم فهو في الحقيقةِ قد طعن فيهم، وطعن برسولِ الله ﷺ وطعن بشريعةِ الله، وطعن بالله.

طَعَنَ فيهم وذلك بسبِّهم، وهذا واضحٌ، طَعَنَ بالشَّريعةِ؛ لأنَّ الشَّريعةَ متلقَّاةٌ مِن عنده، مَن الذي أوصل الشَّريعةَ إلى الأُمَّة إلَّا الصَّحابةُ، فإذا طُعِنَ فيهم وجُعِلُوا غيرَ عدولٍ فكيف نَثِقُ بشريعةٍ تأتي من طريقٍ ليس أهلُه بعدولٍ؟!

طعنٌ بالرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّ هؤلاءِ أصحابُه، والمرءُ مَعْ مَنْ أَحَبَّ، ويُسْتَدَلُّ على المرءِ بقرينِهِ، ولهذا قال الحكيمُ الشَّاعرُ:

عَنِ المَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارَنِ يَقْتَدِي[1]

طعنٌ بالله: وذلك أنَّ اللهَ اختار هؤلاء الفسَقةَ -على زَعمِهم والعياذُ بالله- لصحبةِ خيرِ الخلقِ عند الله، وهل الحكمةُ تأبى ذلك أو تؤيِّدُ ذلك؟ الجوابُ: تأبى ذلك غايةَ الإباءِ، فالمُهِمُّ أنَّ كُلَّ أحدٍ يدَّعِي محبَّةَ الله ثُمَّ يُحِبُّ أعداءَ الله ويُبْغِضُ أولياءَ الله فإنَّه كاذبٌ فيما يقولُ.

* * *

٣٥٠٥- لَيْسَ العِبَادَةُ غَيْرَ تَوْحِيدِ المَحَبْـ ... ـبَةِ مَعْ خُضُوعِ القَلْبِ وَالأَرْكَانِ

٣٥٠٦- وَالحُبُّ نَفْسُ وِفَاقِهِ فِيمَا يُحِبْـ ... ـبُ وَبُغْضُ مَا لا يَرْتَضِي بِجِنَانِ

٣٥٠٧- وَوِفَاقُهُ نَفْسُ اتِّبَاعِكَ أَمْرَهُ ... وَالقَصْدُ وَجْهُ الله ذِي الإِحْسَانِ

= ومسلم: كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣).

(١) البيت لعدي بن زيد، كما في العقد الفريد (٢/ ٢٣٠).

٣٥٠٨- هَـذَا هُـوَ الإِحْسَـانُ شَرْطٌ فِي قَبُـو ... لِ السَّـعْيِ فَافْهَمْـهُ مِـنَ القُـرْآنِ

٣٥٠٩- وَالإِتِّبَـاعُ بِـدُونِ شَرْعِ رَسُـولِهِ ... عَـيْنُ المُحَـالِ وَأَبْطَـلُ الـبُطْلانِ

٣٥١٠- فَـإِذَا نَبَـذْتَ كِتَابَـهُ وَرَسُـولَهُ ... وَتَبِعْـتَ أَمْـرَ الـنَّفْسِ وَالشَّـيْطَانِ

٣٥١١- وَتَخِـذْتَ أَنْـدَادًا تُحِـبُّهُمْ كَحُـبْـ ... ـبِ الله كُنْـتَ مُجَانِـبَ الإِيـمَانِ

الشــرحُ

تقدَّم أنَّه -رحمه الله تعالى- قال: إنَّ العبادةَ لها ركنان أساسان هما: الصِّدقُ والإخلاصُ مع متابعةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وعَلى آله وسلَّم، وهذا أيضًا مَبْنِيٌّ على المحبَّةِ والتَّعظيمِ، فلا يمكنُ عبادةٌ بدون محبَّةٍ أبدًا، ولا يمكنُ استقامةٌ بدون تعظيمٍ.

٣٥٠٥- لَيْسَ العِبَـادَةُ غَـيْرَ تَوْحِيـدِ المَحَبْـ ... ـبَةِ مَعْ خُضُوعِ القَلْبِ وَالأَرْكَـانِ

معنى توحيد المحبَّةِ: ألَّا تُحِبَّ أحدًا كمحبَّةِ الله، وكُلَّما كانت محبَّتُك تابعةً لمحبَّةِ الله كان ذلك أصدقَ في عبادتِك، أن تحبَّ في الله وتبغض في الله، وتواليَ في الله وتعاديَ في الله، هذا هو العبادة، لكن يقول: «مَعْ خُضُوعِ القَلْبِ وَالأَرْكَانِ» يعني: الجوارحَ.

٣٥٠٦- وَالـحُبُّ نَفْسُ وِفَاقِـهِ فِـيمَا يُحِبْـ ... ـبُ وَبُغْضُ مَا لا يَرْتَضِي بِجِنَـانِ

قَوْلُهُ: «**بِجَنَانِ**» الجَنَانُ: القلبُ.

الحبُّ الصَّادقُ أن تُوافقَ اللهَ عزَّ وجلَّ فيما يُحِبُّ، وتبغضَ ما لا يرتضي، فمَنْ قال: أنا أحبُّ اللهَ لكن لا أحبُّ الصَّلاةَ، قلنا له: كَذَبْتَ، ومَنْ قال: أنا أحبُّ اللهَ

ولكن لا أكرهُ الزِّنا، قلنا: كَذَبْتَ، فالذي يُحِبُّ اللهَ لا بُدَّ أن يُحِبَّ ما يحبُّه اللهُ، ولا بُدَّ أن يكرهَ ما يكرهُه اللهُ.

٣٥٠٧- وَوِفَاقُـهُ نَفْـسُ اتِّبَاعِـكَ أَمْـرَهُ　　　وَالقَصْـدُ وَجْـهُ الله ذِي الإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «وَالقَصْدُ وَجْهُ الله» وهو الإخلاصُ، إذا قيل: ما هو الوفاقُ؟ نقولُ: أن تتَّبعَ أوامرَه قاصدًا وجهَه، فاتِّباعُ الأمرِ هو اتِّباعُ الشَّرعِ، هذا هو الموافقةُ لله عزَّ وجلَّ.

٣٥٠٨- هَـذَا هُـوَ الإِحْسَـانُ شَرْطٌ فِي قَبُـو　　　لِ السَّـعْيِ فَافْهَمْـهُ مِـنَ القُـرْآنِ

لا يقبلُ اللهُ -سبحانه وتعالى- شيئًا بدون إحسانٍ، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، وقال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢]، فعملٌ ليس فيه إحسانٌ غيرُ مقبولٍ عند الله، ودليلُه قولُه تعالى أيضًا: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ﴾ [البقرة:١١٢]، فقولُه تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ هذا الإخلاصُ، وقولُهُ: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، هذا الاتِّباعُ.

٣٥٠٩- وَالإِتِّبَـاعُ بِـدُونِ شَرْعِ رَسُـولِهِ　　　عَـيْنُ المُحَـالِ وَأَبْطَـلُ الـبُطْلانِ

لو قال: أنا مُتَّبِعٌ، وابْتَدَعَ في دينِ الله ما ليس منه، قلنا: هذا محالٌ، كيف تقولُ: إنَّك مُتَّبِعٌ وأنت مبتدعٌ، ولهذا نقولُ: كُلُّ مَنْ جاء ببدعةٍ في دينِ الله فقد نَقَصَ من اتِّباعِه دينَ الله بقدرِ ما أتى به من البدعةِ سواء في العقيدة أم في القولِ أم في الفعلِ، فمثلًا: مَنْ حَرَّفَ النُّصوصَ في العقائدِ فهو مبتدعٌ، وفاتَه من الاتِّباع بقدر ما حَرَّفَ، مَنْ أتى بأقوالٍ، بأذكارٍ، بصلواتٍ على الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بأدعيةٍ مخالفةٍ لما جاءت به الشَّريعةُ فهو مبتدعٌ، ولو قال: إنَّه يُحِبُّ اللهَ ويُحِبُّ

الوصولَ إليه ونقص من اِتِّباعه بقدر ما جاء به من البدعةِ، وكذلك لو فَعَلَ أفعالًا خلاف ما جاءت به الشَّريعةُ فإنَّه مُبْتَدِعٌ.

٣٥١٠- فَإِذَا نَبَذْتَ كِتَابَهُ وَرَسُولَهُ ... وَتَبِعْتَ أَمْرَ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

٣٥١١- وَتَخِذْتَ أَنْدَادًا تُحِبُّهُمُ كَحُبْ ... بِ الله كُنْتَ مُجَانِبَ الإِيمَانِ

وهذا واضحٌ؛ لأَنَّه ليس هناك اتِّباعٌ مع هذه الأحوالِ التي ذَكَرَ المؤلِّفُ.

* * *

٣٥١٢- وَلَقَدْ رَأَيْنَا مِنْ فَرِيقٍ يَدَّعِي الـ ... إِسْلامَ شِرْكًا ظَاهِرَ التِّبْيَانِ

٣٥١٣- جَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ وَالُوهُمْ وَسَوْ ... وَوْهُمْ بِهِ فِي الحُبِّ لا السُّلْطَانِ

٣٥١٤- وَالله مَا سَاوَوْهُمُ بِالله بَلْ ... زَادُوا لَهُمْ حُبًّا بِلا كِتْمَانِ

٣٥١٥- وَالله مَا غَضِبُوا إِذَا انْتُهِكَتْ مَحَا ... رِمُ رَبِّهِمْ فِي السِّرِّ وَالإِعْلانِ

٣٥١٦- حَتَّى إِذَا مَا قِيلَ فِي الوَثَنِ الَّذِي ... يَدْعُونَهُ مَا فِيهِ مِنْ نُقْصَانِ

٣٥١٧- فَأَجَارَكَ الرَّحْمَنُ مِنْ غَضَبٍ وَمِنْ ... حَرْبٍ وَمِنْ شَتْمٍ وَمِنْ عُدْوَانِ

٣٥١٨- وَأَجَارَكَ الرَّحْمَنُ مِنْ ضَرْبٍ وَتَعْـ ... ـزِيرٍ وَمِنْ سَبٍّ وَمِنْ تَسْجَانِ

٣٥١٩- وَالله لَوْ عَطَّلْتَ كُلَّ صِفَاتِهِ ... مَا قَابَلُوكَ بِبَعْضِ ذَا العُدْوَانِ

٣٥٢٠- وَالله لَوْ خَالَفْتَ نَصَّ رَسُولِهِ ... نَصًّا صَرِيحًا وَاضِحَ التِّبْيَانِ

٣٥٢١- وَتَبِعْتَ قَوْلَ شُيُوخِهِمْ أَوْ غَيْرِهِمْ ... كُنْتَ المُحَقِّقَ صَاحِبَ العِرْفَانِ

٣٥٢٢- حَتَّى إِذَا خَالَفْتَ آرَاءَ الرِّجَا ... لِ لِسُنَّةِ المَبْعُوثِ بِالقُرْآنِ

٣٥٢٣- نَادَوْا عَلَيْكَ بِبِدْعَةٍ وَضَلالَةٍ ... قَالُوا وَفِي تَكْفِيرِهِ قَوْلانِ

٣٥٢٤- قَالُوا تَنَقَّصْتَ الكِبَارَ وَسَائِرَ الـ ... ـعُلَمَاءِ بَلْ جَاهَرْتَ بِالبُهْتَانِ

٣٥٢٥- هَذَا وَلَمْ نَسْلُبْهُمُ حَقًّا لَهُمْ ... لِيَكُونَ ذَا كَذِبٍ وَذَا عُدْوَانِ

الشرحُ

٣٥١٢- وَلَقَدْ رَأَيْنَا مِنْ فَرِيقٍ يَدَّعِي الـ ... إِسْلامَ شِرْكًا ظَاهِرَ التِّبْيَانِ

قَوْلُهُ: «شِرْكًا»: مفعولُ «رَأَيْنَا».

رَأَيْنَا من فريقٍ يدَّعي أنَّه مسلمٌ، وهو مشركٌ شِركًا ظاهرًا، لكنَّه مشركٌ ليس في العبادةِ، ولكن في الاتِّباعِ كما سَيُبيِّنُ رحمه الله.

٣٥١٣- جَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ وَالُوهُمْ وَسَوْ ... وَوْهُمْ بِهِ فِي الحُبِّ لا السُّلْطَانِ

أَحبُّوهم كما أحبُّوا اللهَ، ولكنَّهم لم يجعلوا لهم سلطانًا كسلطانِ اللهِ، لو سَأَلْتَهُم: مَنْ رَبُّ السَّماواتِ والأرضِ؟ قالوا: اللهُ، لكن تجدُ قلوبَهم مملوءةً بمحبَّةِ أوليائِهم ومتبوعيهم كمحبَّةِ الله أو أشدُّ، وسيتَبيَّنُ -فيما بعد- أنَّهم يحبُّون متبوعيهم أشدَّ من محبَّةِ الله.

٣٥١٤- وَاللهِ مَا سَاوَوْهُمُ بِاللهِ بَلْ ... زَادُوا لَهُمْ حُبًّا بِلا كِتْمَانِ

يعني: ما أحبُّوهم كما أحبُّوا اللهَ، بل جعلوهم أشدَّ حبًّا لله، قال اللهُ -سبحانه وتعالى-: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، وقوله: ﴿أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾؛ أي: من هؤلاء لله أو مِن هؤلاء لأندادِهم؟ فيها قولان: فمنهم مَنْ قال: أشدُّ حبًّا لله من هؤلاء

لأندادِهم، ومنهم مَنْ قال: أشَدُّ حبًّا لله من هؤلاء لله؛ لأنَّ محبَّةَ هؤلاءِ لله محبَّةٌ مشروكةٌ ومحبَّةَ المؤمنين محبَّةٌ خالصةٌ.

٣٥١٥- وَاللهِ مَا غَضِبُوا إِذَا انْتُهِكَتْ مَحَا رِمُ رَبِّهِمْ فِي السِّرِّ وَالإِعْلانِ

٣٥١٦- حَتَّى إِذَا مَا قِيلَ فِي الوَثَنِ الَّذِي يَدْعُونَهُ مَا فِيهِ مِنْ نُقْصَانِ

قَوْلُهُ: «مَا» بمعنى الذي، وليست النَّافية؛ يعني: حتَّى إذا قيل في الوثنِ الذي يدْعونه الذي فيه من النُّقصانِ فَأَجَارَكَ الرَّحْمَنُ.

وَقَوْلُهُ: «إِذَا مَا قِيلَ» تنطبقُ عليها قاعدة:

يَا طَالِبًا خُذْ فَائِدَهْ بَعْدَ إِذَا «مَا» زَائِدَهْ

يكون تقديرُ الكلام: «حَتىَّ إِذَا قِيلَ».

٣٥١٧- فَأَجَارَكَ الرَّحْمَنُ مِنْ غَضَبٍ وَمِنْ حَرْبٍ وَمِنْ شَتْمٍ وَمِنْ عُدْوَانِ

٣٥١٨- وَأَجَارَكَ الرَّحْمَنُ مِنْ ضَرْبٍ وَتَعْـ ـزِيرٍ وَمِنْ سَبٍّ وَمِنْ تَسْجَانِ

إذا قُلْتَ في الوثنِ الذي يدعونه ما فيه من النُّقصانِ وبَيَّنْتَ نقصَه وعيبَه فأجارك الرَّحمنُ من غضبٍ؛ يعني: أنَّهم يغضبون عليك، «وَمِنْ حَرْبٍ» يحاربونك، «وَمِنْ شَتْمٍ» يشتمونك، «وَمِنْ عُدْوَانِ» عليك بالضَّربِ أو بأخذِ المالِ أو ما أشبه ذلك، «وَأَجَارَكَ الرَّحْمَنُ مِنْ ضَرْبٍ» يضربونك، و«مِنْ تَعْزِيرٍ» يُعزِّرونك إمَّا بالضَّربِ أو بغيرِه، «وَمِنْ سَبٍّ» يسبُّونك، فيُطلقون ألسنتَهم فيك، «وَمِنْ تَسْجَانِ» أي: سجن يسجنونك فيه؛ لأنَّك عِبْتَ آلهتَهم.

٣٥١٩- وَاللهِ لَوْ عَطَّلْتَ كُلَّ صِفَاتِهِ مَا قَابَلُوكَ بِبَعْضِ ذَا العُدْوَانِ

لو عَطَّلْتَ كُلَّ صفاتِ الله عزَّ وجلَّ ما قابلوك ببعضِ ذا العدوانِ.

٣٥٢٠- وَاللهِ لَوْ خَالَفْتَ نَصَّ رَسُولِهِ نَصًّا صَرِيحًا وَاضِحَ التِّبْيَانِ

٣٥٢١- وَتَبِعْتَ قَوْلَ شُيُوخِهِمْ أَوْ غَيْرِهِمْ كُنْتَ المُحَقِّقَ صَاحِبَ العِرْفَانِ

نعوذُ باللهِ، إذا خَالَفْتَ النَّصَّ الصَّريحَ تبعًا لقولِ شيوخِهم قالوا: هذا العارفُ، هذا الذي عنده العلمُ، أنت المُحقِّقُ، أنت صاحبُ المعرفةِ، لكن لو خَالَفْتَ قولَ شيوخِهم بكتابِ الله وسُنَّةِ رسولِه قالوا: هذا جاهلٌ.

٣٥٢٢- حَتَّى إِذَا خَالَفْتَ آرَاءَ الرِّجَا لِ لِسُنَّةِ المَبْعُوثِ بِالقُرْآنِ

٣٥٢٣- نَادَوْا عَلَيْكَ بِبِدْعَةٍ وَضَلالَةٍ قَالُوا وَفِي تَكْفِيرِهِ قَوْلانِ

وهذا عجيبٌ، إذا خَالَفْتَ آراءَ الرِّجالِ وقولَ شيوخِهم لكتابِ الله وسُنَّةِ رسولِه قالوا: هذا مُبْتَدِعٌ ضالٌّ، ثُمَّ قالوا: وفي تكفيرِه عندَنا قولان: مِنَّا مَنْ قال: إِنَّه كافرٌ، ومِنَّا مَنْ قال: إِنَّه مُبْتَدِعٌ ضالٌّ، ونبرأُ إلى الله أن نُطْلِقَ عليه الكفرَ، وهؤلاء وَرِعون، فهم تورَّعُوا من الكفرِ، أمَّا الآخَرون فهم أشجعُ منهم؛ كَفَّروا هذا الذي خَالَفَ آراءَ الشُّيوخِ لكلامِ الله وكلامِ رسولِه.

٣٥٢٤- قَالُوا تَنَقَّصْتَ الكِبَارَ وَسَائِرَ الـ ـعُلَمَاءِ بَلْ جَاهَرْتَ بِالبُهْتَانِ

وهذا لا شَكَّ أنَّه واقعٌ، لكن نحن في بلادِنا -والحمدُ لله- لا نُحِسُّ به؛ لأنَّه لا يُوجَدُ، لكن اخرُج إلى البلادِ الأخرى في البلادِ الإسلاميَّةِ، أو اقرأ ما جرى في التَّاريخِ تجدُ أن هذا أمرٌ محقَّقٌ، إذا خَالَفْتَ أمرَ الشُّيوخِ يُنادون عليك بالصِّياحِ والعويلِ: أنت مُبْتَدِعٌ ضالٌّ، أنت مُتَنَقِّصٌ للعلماءِ، أنت فاعلٌ كذا... إلخ.

٣٥٢٥- هَـذَا وَلَـمْ نَسْـلُبْهُمُ حَقًّـا لَـهُمْ لِيَكُـونَ ذَا كَـذِبٍ وَذَا عُـدْوَانِ

أنَّه قال:

هَذَا وَلَـمْ تَسْلُبْهُمُ حَقًّـا لَـهُمْ لِتكُـونَ ذَا كَـذِبٍ وَذَا عُـدْوَانِ

لو أنَّه قال ذلك لكان أَحْسَنَ؛ لأنَّه قال: «بَلْ جَاهَرْتَ بِالبُهْتَانِ»؛ يعني: هذا مع أنَّك لم تَسْلُبْهُم حقَّهم ولم تكن كاذبًا فيما قلت فيهم.

* * *

٣٥٢٦- وَإِذَا سَـلَبْتَ صِـفَاتِهِ وَعُلُـوَّهُ وَكَلامَـهُ جَهْـرًا بِـلا كِـتْمَانِ

٣٥٢٧- لَـمْ يَغْضَبُوا بَلْ كَانَ ذَلِكَ عِنْـدَهُمْ عَيْنَ الصَّوَابِ وَمُقْتَضَى الإِحْسَانِ

٣٥٢٨- وَالأَمْـرُ وَاللهِ العَظِـيمِ يَزِيـدُ فَـوْ قَ الوَصْفِ لا يَخْفَى عَلَى العُمْيَانِ

٣٥٢٩- وَإِذَا ذَكَـرْتَ اللهَ تَوْحِيـدًا رَأَيْـ ـتَ وُجُوهَهُمْ مَكْسُوفَةَ الأَلْوَانِ

٣٥٣٠- بَلْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ شَـزْرًا مِثْـلَ مَـا نَظَرَ التُّيُوسُ إِلَى عَصَا الـجَوْبَانِ

٣٥٣١- وَإِذَا ذَكَـرْتَ بِمِدْحَـةٍ شُرَكَـاءَهُمْ يَتَبَـاشَرُونَ تَبَـاشُرَ الفَرْحَـانِ

٣٥٣٢- وَاللهِ مَـا شَـمُّوا رَوَائِـحَ دِينِـهِ يَـا زَكْمَـةً أَعْيَـتْ طَبِيـبَ زَمَـانِ

الشـرحُ

٣٥٢٦- وَإِذَا سَـلَبْتَ صِـفَاتِهِ وَعُلُـوَّهُ وَكَلامَـهُ جَهْـرًا بِـلا كِـتْمَانِ

٣٥٢٧- لَـمْ يَغْضَبُوا بَلْ كَانَ ذَلِكَ عِنْـدَهُمْ عَيْنَ الصَّوَابِ وَمُقْتَضَى الإِحْسَانِ

إذا جَحَدْتَ صفاتِ الله وكلامَه وعلوَّه لم يغضبوا، بل كان ذلك عندهم عينَ الصَّوابِ ومقتضى الإحسانِ؛ لأنَّهم يُنكرون الصِّفاتِ، يُنكرون الكلامَ، يُنكرون العلوَّ، فمَنْ أَثْبَتَهُ فهو ضالٌّ مُبْتَدِعٌ، ومَنْ نفاه فهو الذي قال الصَّوابَ.

٣٥٢٨- وَالأَمْـرُ وَاللهِ العَظِـيمِ يَزِيـدُ فَـوْ قَ الوَصْفِ لا يَخْفَى عَلَى العُمْيَـانِ

أمرُ هؤلاءِ يزيدُ على الوصفِ حتىَّ على ما قاله رحمه الله.

٣٥٢٩- وَإِذَا ذَكَـرْتَ اللهَ تَوْحِيـدًا رَأَيْـ ـتَ وُجُوهَهُمْ مَكْسُـوفَةَ الأَلْـوَانِ

نعوذُ بالله، قال اللهُ تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزُّمر:٤٥].

٣٥٣٠- بَلْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ شَـزْرًا مِثْـلَ مَـا نَظَرَ التُّيُوسُ إِلَى عَصَـا الـجَوْبَانِ

وهذا تشبيهٌ جيِّدٌ، ينظرون إليك إذا ذَكَرْتَ اللهَ وحدَه نظر التَّيْسِ إلى عصا الرَّاعي الذي يضربُه بها؛ أي: نظرَ كراهةٍ؛ لأنَّ التَّيْسَ يكرهُ العصا مع الجوبانِ يخشى أن يضربَه بها.

٣٥٣١- وَإِذَا ذَكَـرْتَ بِمِدْحَـةٍ شُرَكَـاءَهُمْ يَتَبَـاشَرُونَ تَبَـاشُرَ الفَرْحَـانِ

٣٥٣٢- وَاللهِ مَـا شَـمُّوا رَوَائِـحَ دِينِـهِ يَـا زَكْمَـةً أَعْيَـتْ طَبِيـبَ زَمَـانِ

قَوْلُهُ: «يَتَبَاشَرُونَ»، وفي نسخة: «يَسْتَبْشِرُونَ» وهذا أقربُ للقرآنِ، قال اللهُ تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزُّمر:٤٥]، نسألُ اللهَ العافيةَ، هل هؤلاء مُوَحِّدون؟ هل هؤلاء عابدون اللهَ حقًّا؟ أبدًا، لو عبدوا اللهَ حقًّا لأحبُّوا اللهَ، ولو أحبُّوا اللهَ لالتزموا شرعَه.

فصـــل

فِي صَفِّ العَسْكَرَيْنِ، وَتَقَابُلِ الصَّفَّيْنِ وَاسْتِدَارَةِ رَحَى الحَرْبِ العَوَانِ، وَتَصَاوُلِ الأَقْرَانِ

٣٥٣٣- يَا مَنْ يَشُبُّ الحَرْبَ جَهْلًا مَا لَكُمْ ... بِقِتَالِ حِزْبِ اللهِ قَطُّ يَدَانِ

٣٥٣٤- أَنَّى تَقُومُ جُنُودُكُمْ لِجُنُودِهِمْ ... وَهُمُ الهُدَاةُ وَعَسْكَرُ القُرْآنِ

٣٥٣٥- وَجُنُودُكُمْ مَا بَيْنَ كَذَّابٍ وَدَجْـ ... ـجَالٍ وَمُحْتَالٍ وَذِي بُهْتَانِ

٣٥٣٦- مِنْ كُلِّ أَرْعَنَ يَدَّعِي المَعْقُولَ وَهْـ ... ـوَ مُجَانِبٌ لِلعَقْلِ وَالإِيمَانِ

٣٥٣٧- أَوْ كُلِّ مُبْتَدِعٍ وَجَهْمِيٍّ غَدَا ... فِي قَلْبِهِ حَرَجٌ مِنَ القُرْآنِ

٣٥٣٨- أَوْ كُلِّ مَنْ دَانَ دِينَ شُيُوخِ أَهْـ ... ـلِ الإِعْتِزَالِ البَيِّنِ البُطْلَانِ

٣٥٣٩- أَوْ قَائِلٍ بِالإِتِّحَادِ وَأَنَّهُ ... عَيْنُ الإِلَهِ وَمَا هُنَا شَيْئَانِ

٣٥٤٠- أَوْ مَنْ غَدَا فِي دِينِهِ مُتَحَيِّرًا ... أَتْبَاعَ كُلِّ مُلَدِّدٍ حَيْرَانِ

الشَّرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلٌ فِي صَفِّ العَسْكَرَيْنِ، وَتَقَابُلِ الصَّفَّيْنِ، وَاسْتِدَارَةِ رَحَى الحَرْبِ العَوَانِ وَتَصَاوُلِ الأَقْرَانِ» عناوينُ المؤلِّفِ -رحمه الله- كُلُّها عناوينُ شجاعةٍ وتحمُّسٍ، وكأنَّك بين الصَّفَّيْنِ إذا سَمِعْتَ هذه العناوين، والمؤلِّفُ -رحمه الله- عَقَدَ هذا الفصلَ ليُبيِّنَ الجنودَ والأحزابَ، والجنودُ والأحزابُ نوعان: جندُ الله وحزبُه، وجندُ الشَّيطانِ وحزبُه.

٣٥٣٣- يَا مَنْ يَشُبُّ الحَرْبَ جَهْلًا مَا لَكُمْ بِقِتَالِ حِزْبِ الله قَطُّ يَدَانِ

ويعني بذلك: أهلَ البدعِ والضَّلالِ والإشراكِ، ليس لهم بقتالِ حزبِ الله «أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، أهلِ التَّوحيدِ» «قَطُّ يَدَانِ» «يَدَانِ»؛ أي: قوَّة.

٣٥٣٤- أَنَّى تَقُومُ جُنُودُكُمْ لِجُنُودِهِمْ وَهُمُ الهُدَاةُ وَعَسْكَرُ القُرْآنِ

قَوْلُهُ: «وَعَسْكَرُ القُرْآنِ»، وفي نسخةٍ: «وَنَاصِرُو الرَّحْمَنِ».

وهذا الاستفهامُ للإنكارِ؛ يعني: لا يمكنُ أن تقومَ جنودُكم لجنودِهم في هذه الحالِ حيث يكونون هداةً وعسكرًا للقُرآنِ الكريمِ.

٣٥٣٥- وَجُنُودُكُمْ مَا بَيْنَ كَذَّابٍ وَدَجْـ ـجَالٍ وَمُحْتَالٍ وَذِي بُهْتَانِ

قَوْلُهُ: «كَذَّابٍ»: صيغةُ مبالغةٍ من الكذب، وهو الإخْبارُ بخلافِ الواقعِ.

قَوْلُهُ: «دَجَّالٍ»: صيغةُ مبالغةٍ من الدَّجَل، وهو التَّمويهُ والخداعُ، إذ يدَّعي أنَّه على حقٍّ ويأتي بالشُّبهاتِ.

قَوْلُهُ: «وَمُحْتَالٍ»: المحتالُ هو صاحبُ الحيلةِ الذي يحتالُ ليَصطادَ النَّاسَ بحيلتِه بعد أن يُمَوِّهَ عليهم، فهو يَتَحيَّنُ الفرصَ حتَّى إذا حانت له الفرصةُ تَكَلَّمَ، وإذا لم يجد مقالًا سكت وداهَنَ.

قَوْلُهُ: «ذِي بُهْتَانِ»؛ أي: ذي كذبٍ.

والظَّاهر أنَّ هذا من باب عطفِ المترادِفَيْنِ كقولِ الشَّاعرِ:

فقَدَّدَتِ الأَدِيمَ لراهِشَيْهِ فَأَلْفَى قَوْلَهَا كَذِبًا وَمَيْنَا[1]

(١) البيت لعدي بن زيد، كما في لسان العرب، مادة: «مين».

والمَيْنُ هو الكذبُ.

ذكر -رحمه الله- أنَّ جنودَ الشَّيطانِ وأحزابَ الشَّيطانِ ما بين كذَّابٍ ودجَّالٍ ومحتالٍ وذي بهتانٍ، ومَن اتَّصف بهذه الصِّفاتِ فهو إلى الخِذلان أقربُ منه إلى النَّصرِ.

٣٥٣٦- مِنْ كُلِّ أَرْعَنَ يَدَّعِي المَعْقُولَ وَهْـــوَ مُجَانِــبٌ لِلعَقْــلِ وَالإِيــمَانِ

قَوْلُهُ: «مِنْ كُلِّ أَرْعَنَ يَدَّعِي المَعْقُولَ» «الأَرْعَنُ» هو الجبانُ شديدُ الجُبنِ، «يَدَّعِي المَعْقُولَ»؛ يعني: يدَّعِي أنَّه صاحبُ العقلِ.

ولنضرب لهذا مثلًا بأهلِ التَّعطيلِ، أهلُ التَّعطيلِ من أشعريَّةٍ ومعتزلةٍ وجهميَّةٍ وأشباهِهم يَدَّعون أنَّهم هم أصحابُ العقولِ، وأنَّ العقلَ دَلَّ على أنَّ اللهَ ليس متَّصفًا بهذه الصِّفاتِ.

فهم يرجعون في باب أسماءِ الله وصفاتِه إلى العقلِ، وبَيَّنَّا أنَّ رجوعَهم إلى العقلِ مخالفٌ للعقلِ؛ لأنَّ العقلَ يقتضي أنَّ الأمورَ الغيبيَّةَ يجبُ الاستسلامُ فيها للنَّقلِ، ولا يتعرَّضُ لـها الإنسانُ؛ لأنَّها أمورٌ غائبةٌ، كيف تُحكِّمُ العقلَ؟ هذه واحدة.

ثانيًا: إلى أيِّ عقلٍ نرجعُ؟ وأصحابُ العقلِ الذين يدَّعون العقلَ كُلُّهم متنازعون، يُضَلِّلُ بعضُهم بعضًا، ويقول أحدُهم: إِنَّ هذا الحكمَ يوجِبُه العقلُ، والثَّاني يقولُ: إِنَّ هذا الحكمَ يمنعُه العقلُ، بل إنَّ الواحدَ منهم يتناقضُ في مؤلَّفاتِه فتجدُه يُؤلِّفُ مُؤلَّفًا يقولُ: العقلُ يُوجِبُ أن يكونَ اللهُ كذا، وفي مُؤلَّفٍ آخرَ يقولُ: العقلُ يمنعُ أن يكونَ اللهُ كذا وكذا، وإذا أردتَ أن تطَّلعَ على هذا رَاجِعْ كتبَ المناقشاتِ في هذا البابِ ككتبِ شيخِ الإسلامِ ابن تيميَّةَ -رحمه الله- يتبيَّن لك،

والإمامُ مالكٌ -رحمه الله- يقولُ: «بأيِّ عقلٍ يُوزَنُ الكتابُ والسُّنَّةُ؟ أفكلَّما جاءنا رجلٌ أجدلُ من رجلٍ تركنا قولَه وتركنا الكتابَ والسُّنَّةَ من أجل قولِه؟»[1]، هذا لا يمكنُ.

٣٥٣٧- أَوْ كُـلِّ مُبْتَـدِعٍ وَجَهْمِـيٍّ غَـدَا فِي قَلْبِـهِ حَـرَجٌ مِـنَ القُـرْآنِ

نسألُ اللهَ العافيةَ، قولُه: «**مُبْتَدِعٍ**» هذا عامٌّ، قوله: «**جَهْمِيٍّ**» من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ الجهميَّةَ -لا شَكَّ- مبتدعةٌ، وهم أتباعُ الجهمِ بن صفوان، والجهمُ بن صفوان ليس هو رأسَ الجهميَّة، رأسُ الجهميَّةِ هو الجعدُ بن درهمٍ، لكنَّ الجعدَ بنَ درهمٍ لم يكن لقولِه انتشارٌ، ولكنَّه أسَّس القاعدةَ وقال: (**إنَّ اللهَ لم يتَّخذ إبراهيمَ خليلًا، ولم يُكَلِّمْ موسى تكليمًا**)، فبدأ بنفي هاتين الصِّفَتَيْنِ: المحبَّةِ والكلامِ، ومعلومٌ أنَّه إذا انتفت هاتان الصِّفتان بطل الشَّرعُ، إذا كان اللهُ لم يتكلَّم بالقرآنِ ولم يُكَلِّمْ الرُّسلَ بطل القرآنُ، ثُمَّ إنَّ الجهمَ بنَ صفوان تتلمذَ عليه، وبئس التِّلميذُ والأستاذُ، تتلمذ عليه ونشر المذهبَ، ونُسِبَ المذهبُ إلى الجهمِ؛ لأنَّه ناشرُه لا لأنَّه مُنْشِئهُ؛ إذ أنَّ المُنْشِئَ له هو الجعدُ بن درهمٍ.

المهمُّ: أنَّ هؤلاء غَدَا في قلوبِهم ضيقٌ من القرآنِ لاسيَّما في أسماءِ الله وصفاتِه حتَّى إنَّهم في وقتٍ من الأوقاتِ كتبوا على كسوةِ الكعبةِ (**ليس كمثلهِ شيء وهو العزيزُ الحكيمُ**) لماذا؟ لأنَّ السَّميعَ البصيرَ لا يريدونها؛ لأنَّها تُثْبِتُ السَّمعَ وتُثْبِتُ البصرَ، وهم ينكرون ذلك، وأهمُّ شيءٍ أنَّهم حَرَّفُوا القرآنَ، فهم في قلوبِهم حَرَجٌ من القرآنِ حتَّى قال بعضُهم: أتمنَّى أن تكونَ لي قدرةٌ حتَّى أَحُكَّ من القرآنِ: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] والعياذُ بالله؛ لأنَّه يُنْكِرُ الاستواءَ.

---

(١) انظر: أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات (ص:٢٣٥).

٣٥٣٨- أَوْ كُلِّ مَـنْ دَانَ ديـن شُـيُوخِ أَهْـــ ـــلِ الإِعْتِـزَالِ البَـيِّنِ الـبُطْلانِ

المعتزلةُ أصحابُ عمرو بن عبيد وواصلِ بن عطاء، سُمُّوا بذلك لأنَّهم اعتزلوا مسجدَ الحسنِ البصريِّ رحمه الله، وكان أصلُه أنَّ النَّاسَ في ذلك الوقتِ اختلفوا في فاعلِ الكبيرةِ، فاعلُ الكبيرةِ هل هو كافرٌ أو غيرُ كافرٍ؟ الخوارجُ يقولون: إِنَّه كافرٌ مُخَلَّدٌ في النَّارِ كمَن يعبدُ الصَّنمَ، وأهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ يقولون: هو مؤمنٌ إِلَّا أَنَّه ناقصُ الإيمانِ، وكان الحسنُ البصريُّ -رحمه الله- يُقَرِّرُ هذا في مجلسِه، فنازَعه عمرو بن عبيدٍ وقال: لا يمكنُ، الإيمانُ لا ينقصُ ولا يزيدُ، ولا يمكنُ أن نقولَ: إنَّه مؤمنٌ ناقصُ الإيمانِ، لكن نقولُ: إِنَّه في منزلةٍ بين منزلتين، ليس مؤمنًا ولا كافرًا، فحصل جِدالٌ بينهما، ثُمَّ قام إلى جهةِ المسجدِ الأخرى فاعتزله، وجعل يُقَرِّرُ هذا المذهبَ أَنَّه في منزلةٍ بين منزلتين، فأثبت قسمًا ثالثًا لم يُثْبِتْه اللهُ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢]، ولم يذكر قسمًا ثالثًا، فَمِنْ ثَمَّ سُمِّي معتزليًّا، وتَسَمَّوْا بأنَّهم أهلُ العدلِ وأهلُ التَّوحيدِ تزييفًا على النَّاسِ وإضلالًا لهم، وقالوا: إِنَّهم هم أصحابُ العقلِ، أصحابُ الذَّكاءِ، لكنَّهم كما قال شيخُ الإسلامِ: «أوتوا ذكاءً ولم يُؤتوا زكاءً»[1]، ما زَكَّوْا أنفسَهم، ولا اتَّبعوا منهجَ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- وأصحابِه، هم أذكياء لا شكَّ، لكنَّهم ضَلُّوا والعياذُ بالله.

والمعتزلةُ يشاركون الجهميَّةَ في بعضِ الأشياءِ ويُخالفونهم في بعضِ الأشياءِ، ففي الصِّفاتِ أقوالُهم متقاربةٌ، كُلُّهم بَنَوْا مذهبَهم على التَّعطيلِ، لكن في بابِ القَدَرِ على طَرَفَيْ نقيضٍ، المعتزلةُ يُنكرون أن يكونَ لتقديرِ الله عَلاقةٌ في فعلِ الإنسانِ، والجهميَّةُ بالعكسِ يَرَوْنَ أنَّ العبدَ مُجْبَرٌ وأنَّه يسيرُ جبرًا ليس له إرادةٌ،

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١١٩).

كذلك في بابِ أسماءِ الإيمانِ والدِّين، الجبريَّةُ يقولون: إنَّ فاعلَ الكبيرةِ مؤمنٌ كاملُ الإيمانِ، والمعتزلةُ يقولون: ليس بمؤمنٍ وليس بكافرٍ أيضًا، فَأَتَوْا بقسمٍ ثالثٍ ما أنزل اللهُ به من سلطانٍ، قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢]، ولم يذكر قسمًا ثالثًا، هم قالوا: هناك قسمٌ ثالثٌ: لا مؤمنٌ ولا كافرٌ، وفي الأحكام يقولُ الجهميَّةُ: إنَّ فاعلَ الكبيرةِ لا يدخلُ النَّارَ؛ لأنَّه لم يفعل ما يستحقُّ دخولَ النَّارِ، والمعتزلةُ يقولون: فاعلُ الكبيرةِ مُخَلَّدٌ في النَّارِ، فافترقوا في ثلاثةِ أبوابٍ، واتَّفقوا في بابِ الصِّفاتِ ليس بينهم اختلافٌ إلَّا يسيرٌ.

٣٥٣٩- أَوْ قَائِلٍ بِالإِتِّحَادِ وَأَنَّهُ عَيْنُ الإِلَهِ وَمَا هُنَا شَيْئَانِ

والقائلُ بهذا هو أخبثُهم، أهلُ الاتِّحاد سبق أنَّهم يقولون: إنَّ الكونَ والمُكَوِّنَ شيءٌ واحدٌ، فالرَّبُّ هو العبدُ، والعبدُ هو الرَّبُّ، وليس هناك شيئان.

٣٥٤٠- أَوْ مَنْ غَدَا فِي دِينِهِ مُتَحَيِّرًا أَتْبَاعَ كُلِّ مُلَدِّدٍ حَيْرَانِ

قال العلماءُ: «**أكثرُ النَّاسِ شكًّا عند الموتِ هم أهلُ الكلام**»؛ لأنَّهم لم يهتَدُوا للمنقولِ ولا للمعقولِ الصَّريحِ، بل المعقول المشوب بالشُّبهاتِ والشُّكوكِ؛ ولهذا كان بعضُهم في آخِرِ وقتِهِ يقولُ: «إنِّي خُضْتُ البحرَ الخِضَمَّ وفعلتُ وفعلتُ، وها أنا الآن أموتُ على عقيدةِ أُمِّي»[1]، أمُّه العجوزُ الجاهلةُ! وهذا إقرارٌ منهم بأنَّهم لم يستفيدوا من الخوضِ في علمِ الكلامِ شيئًا.

ويقولُ الآخرُ:

لَعَمْرِي لَقَدْ طُفْتُ المَعَاهِدَ كُلَّهَا وَسَيَّرْتُ طَرْفِي بَيْنَ تِلْكَ المَعَالِمِ

(١) هذا قول أبي المعالي الجويني، كما في شرح العقيدة الطحاوية (ص:١٧٨).

فَلَــمْ أَرَ إِلَّا وَاضِــعًا كَــفَّ حَــائِرٍ عَــلَى ذَقَــنٍ أَوْ قَارِعًــا سِــنَّ نَــادِمِ(١)

وأَقَرُّوا على أنفسِهم بأنَّهم أخطؤوا خطأً عظيمًا، وضلُّوا ضلالًا بعيدًا، وعلى رأسِهم الشَّيخُ الكبيرُ الرازِيُّ الذي أَقَرَّ بأنَّه لم يستفِدْ من بحثِهِ طولَ عمرِه سوى أن جمعنا فيه قِيلَ وقالوا.

هؤلاء أصحابُ الشَّكِّ المتحيِّرون الذين لا يدرون أهم على حقٍّ أم على ضلالٍ؟ والعياذُ بالله، ويرفضون أن يدينوا بأيِّ دينٍ؛ لأنَّه ليس عندهم عقيدةٌ، وهذا رُبَّما يَرِدُ على قلبِ المؤمن الخالصِ من الشَّيطانِ الرَّجيمِ ما يجعلُه في شكٍّ وحَيْرَةٍ، ولكنَّ دواءَ ذلك أن تستعيذَ بالله من الشَّيطانِ الرَّجيمِ، وأن تنتهيَ عن هذه التَّقديراتِ؛ كما أرشد إلى ذلك النَّبيُّ ﷺ حين شكا إليه الصَّحابةُ ما يجدون في نفوسِهم من هذه الأنواعِ من الوساوسِ، فأمرهم بالانتهاءِ والاستعاذةِ بالله من الشَّيطانِ الرَّجيمِ(٢).

***

٣٥٤١- وَجُنُودُهُمْ جِبْرِيلُ مَعْ مِيكَالَ مَعْ بَـاقِي المَلَائِكِ نَـاصِرِي القُـرْآنِ

٣٥٤٢- وَجَمِيعُ رُسْلِ الله مِنْ نُوحٍ إِلَى خَيْرِ الوَرَى المَبْعُوثِ مِنْ عَدْنَانِ

٣٥٤٣- فَالقَلْبُ خَمْسَتُهُمْ أُولُو العُزْمِ الأُلَى فِي سُورَةِ الشُّورَى أَتَوْا بِبَيَانِ

---

(١) هذا قول أبي عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، كما في شرح العقيدة الطحاوية (ص:١٧٨).

(٢) كما في حديث: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا، مَنْ خَلَقَ كَذَا، حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتَهِ». أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣١٠٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٤).

٣٥٤٤- فِي أَوَّلِ الأَحْـزَابِ أَيْضًـا ذِكْـرُهُمْ هُـمْ خَـيْرُ خَلْـقِ اللهِ مِـنْ إِنْسَـانِ

٣٥٤٥- وَلِـوَاؤُهُمْ بِيَـدِ الرَّسُـولِ مُحَمَّـدٍ وَالكُـلُّ تَحْـتَ لِـوَاءِ ذِي الفُرْقَـانِ

٣٥٤٦- وَجَمِيعُ أَصْحَابِ الرَّسُولِ عِصَابَةِ الـ إِسْـلامِ أَهْـلِ العِلْـمِ وَالإِيـمَانِ

٣٥٤٧- وَالتَّـابِعُونَ لَـهُمْ بِإِحْسَـانٍ عَـلَى طَبَقَـاتِهِمْ فِي سَـائِرِ الأَزْمَـانِ

٣٥٤٨- أَهْلُ الحَدِيثِ جَمِيعُهُمْ وَأَئِمَّـةُ الـ ـفَتْوَى وَأَهْـلُ حَقَـائِقِ العِرْفَـانِ

٣٥٤٩- العَـارِفُونَ بِـرَبِّهِمْ وَنَبِـيِّهِمْ وَمَرَاتِـبِ الأَعْـمَالِ فِي الرُّجْحَـانِ

٣٥٥٠- صُوفِيَّـةٌ سُنِّيَّـةٌ نَبَوِيَّـةٌ لَيْسُـوا أُولِي شَـطْحٍ وَلا هَـذَيَانِ

الشَّـرحُ

٣٥٤١- وَجُنُودُهُمْ جِبْرِيلُ مَعْ مِيكَالَ مَعْ بَـاقِي المَلائِـكِ نَـاصِرِي القُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «وجنودهم»؛ أي: جنودُ أهلِ الحقِّ.

فالملائكةُ هم جنودُ أصحابِ السُّنَّةِ والجماعةِ يُؤيِّدونهم؛ ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ لحسان بن ثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يدافعُ عن الإسلامِ قال: «اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ القُدُسِ»[1]؛ أي: جبريلَ عليه السَّلامُ، والملائكةُ قاتلت مع النَّبيِّ ﷺ إثباتًا للحقِّ.

وهل يمكن أنْ تقاومَ جنودُ الشَّياطين لجنودِ الله عزَّ وجلَّ وملائكتِه؟ الجوابُ: أبدًا، فمَنْ معه الملائكةُ أقوى ممَّن معه الشَّياطينُ لاشكَّ في هذا، وهاكَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٠٤٠)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رقم (٢٤٨٥).

مثالًا واقعًا لـمَّا قال سليمانُ: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣٨]، مع أنَّ عرشَ بلقيسَ في اليمنِ وسليمانَ في الشَّامِ، ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النَّمل:٣٩] هذا جِنِّيٌّ؛ يعني: يريدُ أن يأتيَ بالعرشِ من اليمنِ إلى الشَّامِ قبل أن يقومَ من مقامِه، وكان سليمانُ له عادةٌ يقومُ من مقامِه في وقتٍ معيَّنٍ معروفٍ، ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النَّمل:٤٠]؛ أي: مُدَّ طرفَك هكذا وردَّه فإذا هو عندك؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ [النَّمل:٤٠]، قال النَّحويُّون: كيف يكونُ مستقِرًّا والقاعدةُ أنَّ متعلَّقَ الظَّرفِ والجارِ والمجرور لا يُذْكَرُ؟! ولذا يقولُ ابنُ مالكٍ -رحمه الله- في ألفيَّته:

وَأَخْبَرُوا بِظَرْفٍ اَوْ بِحَرْفِ جَرّْ نَاوِينَ مَعْنَى كَائِنٍ أَوِ اسْتَقَرّْ

الشَّاهد قولُه: «نَاوِينَ مَعْنَى كَائِنٍ أَوِ اسْتَقَرّ»، لا يَذْكُرونَ «**كَائِن**» ولا «**اسْتَقَرَّ**» ولا «**مُسْتَقَرّ**»، فهنا قال: لما رآه مستقِرًّا؟ أجابوا عن هذا بأنَّ هذا الاستقرارَ ليس الاستقرارَ المطلقَ، وإنَّما يُرادُ به استقرارٌ خاصٌّ، فإذا قلتَ: «**زيدٌ في البيتِ**» فهو مُستقِرٌّ في البيتِ، لكن رُبَّما يكونُ في قلقٍ، ويصحُّ أن يقولَ: «**زيدٌ في البيتِ**»، لكن إذا قلتَ: «**زيدٌ مستقِرٌّ في البيتِ**» هذا معنى جديد خاصٌّ، ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾ [النَّمل:٤٠]، لو قال: «**فَلَمَّا رَآهُ عِنْدَهُ**» رُبَّما يكونُ عنده لكنَّه ليس مستقِرًّا؛ هذا جاء به ووضعه كأنَّه وضعه قبل عشرين يومًا.

فـ«**مُسْتَقِرٌّ**»؛ أي: منضبطٌ تمامًا، أنت الآن إذا أَتَيْتَ بكرسيٍّ وكان بعضُ أرجله قصيرًا ووضعتَه رُبَّما يحتاجُ إلى تعديلٍ كأن تضعَ حصاةً تحت رِجْلِه القصيرة، لكن هذا وجده مُستقِرًّا، فهذا الاستقرارُ إنَّما ذُكِرَ لأنَّه استقرارٌ خاصٌّ،

ليس الاستقرارَ العامَّ، على كُلِّ حالٍ تبيَّنَ الآن أنَّ الملائكةَ أقوى من الجنِّ؛ لأنَّ الجنِّيَّ وَعَدَ أن يأتِيَ به قبل أن يقومَ من مقامِه لكن هذا قبل أن يرتدَّ إليه طرفُه، وفعلًا حَصَلَ.

فهؤلاء الذين جنودُهم جبريلُ وميكائيلُ وباقي الملائكةِ هل يمكنُ أن يُقاومَهم عساكرُ الشَّياطين؟ الجوابُ: أبدًا، لكن إنَّما يُخْذَلُ أهلُ الحقِّ بتقصيرِهم إمَّا في التوكُّلِ والاعتمادِ على الله، وإما بتخلُّفِ بعضِ الأسبابِ، فلهذا قد يُغْلَبُون.

٣٥٤٢- وَجَمِيعُ رُسْلِ اللهِ مِنْ نُوحٍ إِلَى خَيْرِ الوَرَى المَبْعُوثِ مِنْ عَدْنَانِ

أي: وجنودُهم أيضًا جميعُ رسلِ الله من نوحٍ إلى خَيْرِ الوَرَى -أي: خَيْرِ الخَلْقِ- المبعوثِ من عدنان، وهو محمَّدٌ رسولُ الله ﷺ فهو آخرُهم، أسألُ اللهَ أن يجعلنيُ وإيَّاكم من أتباعِه، وأن يحشرَنا تحت لوائِه.

ونِعْمَ الرِّجالُ، نِعْمَ الجنودُ، رسلُ الله من نوحٍ إلى محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلامُ، إذَنْ جميعُ الرُّسلِ جنودُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، وأهلُ السُّنَّةِ جنودُهم أيضًا، فالكُلُّ ناصرٌ للآخَرِ.

وأفادنا المؤلِّفُ -رحمه الله- في قولِه: «مِنْ نُوحٍ إِلَى...» أنَّ آدمَ ليس برسولٍ وأنَّ ما يُذْكَرُ من أنَّ إدريسَ جَدٌّ نوحٍ كَذِبٌ، فإدريسُ ليس قبلَ نوحٍ، بل إدريسُ بعدَه، والظَّاهرُ -واللهُ أعلمُ- أنَّه من بني إسرائيلَ، فمَنْ زَعَمَ أنَّ إدريسَ جَدٌّ لنوحٍ وأنَّه قبله، أو أنَّ شيئًا -أو ما أشبه ذلك من الأقوالِ- قبل نوحٍ فقد ضَلَّ وكَذَبَ وخالَفَ القُرآنَ والسُّنَّةَ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النِّساء:١٦٣]، فلو كان قبل نوحٍ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أحدٌ لقال: «إلى فُلَانٍ وَالنَّبِيِّين مِنْ بَعْدِه»، لكن ليس قبلَه أحدٌ.

وانتبهوا إلى شجرةِ الأنبياءِ المكتوبةِ والتي تُبَاعُ أحيانًا، مكتوبٌ فيها إدريسُ قبل نوحٍ، هذا كَذِبٌ، ويجبُ على مَنْ شاهدها أنْ يُمزِّقَها؛ لأَنَّه سَيُحوِّلُ عقيدةَ المسلمين إلى خطأٍ، سيُحوِّلُ العقيدةَ إلى أن نعتقدَ أنَّ نوحًا مسبوقٌ برسولٍ، وهذا كَذِبٌ، ففي القرآن: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣]، وفي القرآنِ أيضًا: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الحديد:٢٦]، إِذَنْ لا يمكنُ أن تُوجَدَ نُبوَّةٌ وكتابٌ قبل نوحٍ، والمرادُ بالنُّبوَّةِ هنا نُبوَّةُ الرِّسالةِ، وفي السُّنَّةِ الصَّحيحةِ: «أَنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَى نُوحٍ فيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَوَّلُ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ»[(١)]، وهذا صريحٌ، فحينئذٍ نقولُ: إنَّ ما نُشِرَ من هذه الشَّجرةِ باطلٌ.

إِذَنْ من العقيدةِ الواجبةِ على كُلِّ مسلمٍ أن يعتقدَ أنَّ نوحًا هو أوَّلُ الرُّسلِ، وأنَّه لا رسولَ قبلَه، أمَّا النُّبوَّة فنعم ثَبَتَتْ لآدمَ؛ كما جاء في الحديثِ الصَّحيحِ الذي صحَّحه جماعةٌ من العلماءِ أنَّ آدمَ «نبيٌّ مُكَلَّمٌ»[(٢)]، لكنَّه لم يُرْسَلْ؛ لأنَّ النَّاسَ كانوا قليلين ولا يفتنهم شيءٌ، ولم يقع بينهم خلافٌ، فبمجرَّد ما يشاهدون آدمَ يتعبَّدُ لله بعبادةٍ يتعبَّدون لله بها؛ ولهذا قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]، وقد قرأ بعضُ السَّلفِ: «**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا**»، وهذه القراءةُ يدلُّ عليها قولُه: ﴿لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [نوح:١]، رقم (٣١٦٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٤).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٨، رقم ٢١٥٨٦).

٣٥٤٣- فَالقَلْبُ خَمْسَتُهُمْ أُولُو العُـزْمِ الأُلَى   فِي سُـورَةِ الشُّـورَى أَتَـوْا بِبَيَـانِ

٣٥٤٤- فِي أَوَّلِ الأَحْـزَابِ أَيْضًـا ذِكْـرُهُمْ   هُـمْ خَـيْرُ خَلْـقِ الله مِـنْ إِنْسَـانِ

«القَلْبُ»؛ أي: قَلْبُ الجيشِ خمسةُ الرُّسلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهم على التَّرتيبِ بالأفضليَّةِ: مُحَمَّدٌ، إبراهيمُ، موسى، ثُمَّ عيسى ونوح في مرتبةٍ واحدةٍ، ومِن النَّاسِ مَنْ فَضَّلَ نوحًا، ومنهم مَنْ فَضَّلَ عيسى، فَمَنْ فَضَّلَ «نوحًا» قال: لأنَّه أُوذِي وبَقِيَ في قومِه ألفَ سنةٍ وتَعِبَ مع قومِه، والذين قدَّموا «عيسى» قدَّموه من جهةٍ أخرى، فهذا له مَقامُ صبرٍ، وهذا له مقامُ شُكرٍ، والأَوْلَى التَّوقُّف، إنَّما الثَّلاثةُ الأوَّلون: محمَّد، وإبراهيم، وموسى، هذه رُتبتُهم.

قَوْلُهُ: «فِي سُورَةِ الشُّورَى» هو قولُه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشُّورى:١٣].

قَوْلُهُ: «فِي أَوَّلِ الأَحْزَابِ أَيْضًا ذِكْرُهُمْ» وهو قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب:٧]، ففي هذين الموضعين ذُكِرَ أولو العزمِ الخمسةِ، وهم خيرُ خلقِ الله من إنسانٍ.

٣٥٤٥- وَلِـوَاؤُهُمْ بِيَـدِ الرَّسُـولِ مُحَمَّـدٍ   وَالكُـلُّ تَحْـتَ لِـوَاءِ ذِي الفُرْقَـانِ

قَوْلُهُ: «وَالكُلُّ تَحْتَ لِوَاءِ ذِي الفُرْقَانِ»؛ يعني: محمَّدًا صلى الله عليه وسلم.

يعني: هؤلاء الذين يحملون ألويةَ الحقِّ ألويةَ التَّوحيدِ ومعهم الملائكةُ هل يمكن لأحدٍ أن يقاومَهم؟ الجوابُ: لا -والله- لا يمكنُ أبدًا.

٣٥٤٦- وَجَمِيعُ أَصْحَابِ الرَّسُولِ عِصَابَةِ الـ إسـلامِ أَهْـلِ العِلْـمِ وَالإِيـمَانِ

جميعُ أصحابِ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- كُلُّهم جنودٌ لعساكرِ القرآنِ، كُلُّهم جنودٌ لأهلِ السُّنَّةِ، وهم أهلُ العلمِ والإيمانِ، لا شَكَّ والله هم أهلُ العلمِ والإيمانِ، وليس في الأُمَّةِ مَنْ يساويهم في علمِهم وإيمانِهم.

٣٥٤٧- وَالتَّـابِعُونَ لَـهُمْ بِإِحْسَـانٍ عَـلَى طَبَقَـاتِهِمْ فِي سَـائِرِ الأَزْمَـانِ

قَوْلُهُ: «**التَّابِعُونَ لَـهُمْ بِإِحْسَانٍ**» ينبغي إذا ذَكَرْتَ التَّابعينَ أن تُقَيِّدَ «بِإِحْسَانٍ»؛ لأنَّ مِن النَّاسِ مَنْ يَدَّعِي أنَّه تابعٌ وليس بتابعٍ، فإذا لم يكن تابعًا على الإحسانِ فليس بتابعٍ، واقرأ قولَ الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التَّوبة:١٠٠]، لم يقل: «**الَّذين اتَّبَعُوهُمْ**» فقط، بل قال: ﴿ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾، والإحسانُ هنا الإخلاصُ والمتابعةُ، وعلى هذا فجميعُ أهلِ البدعِ لم يتَّبِعوهم بإحسانٍ، فقد يُحسنون في شيءٍ ولا يُحسنون في شيءٍ آخرَ، لكن لم يتَّبعوهم بإحسانٍ على الإطلاقِ، ولذلك إذا قلت: «**اللَّهُمَّ صَلِّ وسَلِّمْ على محمَّدٍ وأصحابِه والتَّابعين**»، قَيِّد فقل: «**والتَّابعين بإحسانٍ**» حتىَّ تُوافِقَ القرآنَ، والقرآنُ -لا شكَّ- أنَّ عباراتِه خيرُ العباراتِ.

٣٥٤٨- أَهْلُ الحَدِيثِ جَمِـيعُهُمْ وَأَئِمَّـةُ الـ ـفَتْوَى وَأَهْـلُ حَقَـائِقِ العِرْفَـانِ

كُلُّ هؤلاء جنودٌ، هل يُقَابِلونَ جنودَ أولئك الكفرةِ أو المبتدعةِ؟ هل تقاومُهم تلك الجنودُ؟ الجوابُ: لا.

قَوْلُهُ: «**وَأَئِمَّةُ الفَتْوَى**» لا يعني ذلك أنَّ فتواهم مقبولةٌ أخطؤوا أم أصابوا، ولكنَّهم هم أئمَّةُ الفتوى؛ ولذلك تجدُ أنَّ العلماءَ مِن بعد هؤلاء الأئمَّةِ يقولون:

قال الإمامُ أحمدُ، قال الإمامُ الشَّافعيُّ، قال الإمامُ أبو حنيفةَ، قال الإمامُ مالكٌ، قال الإمامُ سفيانُ... وهكذا، فهم الأئمَّةُ المرجعُ، لكن مع ذلك فإنَّ أهلَ السُّنَّةِ لا يعتقدون العِصمةَ في أئمَّتِهم بخلافِ الرَّافضةِ، فالرَّافضةُ يدَّعون أنَّ أئمَّتَهم معصومون، حتىَّ إنَّ زعيمَهم يقولُ: إنَّ من أصولِ عقيدتِنا أنَّ لأئمَّتِنا منزلةً لا ينالُها مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ولا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وأنَّهم معصومون من كُلِّ خطأٍ، أين هذا؟ إذا كان أئمَّةُ المسلمين المشهودُ لهم بالصَّلاحِ والعلم والإيمانِ لا يُعْصَمُون من الخطأ فَمَنْ دونَهم بمراتبٍ لا يُعْصَمُ من الخطأِ، كُلٌّ يخطِئ إلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ كالرُّسلِ فيما يُبَلِّغون به عن الله.

٣٥٤٩- العَارِفُونَ بِرَبِّهِمْ وَنَبِيِّهِمْ ... وَمَرَاتِبِ الأَعْمَالِ فِي الرُّجْحَانِ

يعرفون الرَّاجحَ من المرجوحِ؛ لأنَّنا نعلمُ أنَّ الأعمالَ تتفاضلُ، قال النَّبِيُّ ﷺ: «أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا»(١)، والنُّصوصُ في هذا كثيرةٌ من القرآنِ والسُّنَّةِ تدلُّ على تفاضلِ الأعمالِ وتفاضلِ العاملِ أيضًا.

٣٥٥٠- صُوفِيَّةٌ سُنِّيَّةٌ نَبَوِيَّةٌ ... لَيْسُوا أُولِي شَطْحٍ وَلا هَذَيَانِ

قَوْلُهُ: «سُنِّيَّةٌ»؛ أي: لتمسُّكِهم بها.

قَوْلُهُ: «صُوفِيَّةٌ سُنِّيَّةٌ» هل يمكنُ أن تكونَ الصُّوفيَّةُ سُنِّيَّةً؟ الجوابُ: نعم؛ لأنَّ الصُّوفيَّةَ مبناها على الزُّهدِ في الدُّنيا وتركِ ما لا ينفعُ في الآخرةِ، وهذا هو السَّببُ أنَّهم سُمُّوا صوفيَّةً؛ لأنَّهم لا يلبسون إلَّا الصُّوفَ، وليست من الصَّفاءِ كما يدَّعي بعضُهم، لو كانت من الصَّفاءِ لكانت النِّسبةُ صفويَّةً، ولكنَّها من الصُّوفِ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب وسمى النبي ﷺ الصلاة عملا، رقم (٧٠٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم (٨٥).

وكان أوَّلُهم لزهدِهم لا يلبسُ الكتَّانَ ولا الألبسةَ الجميلةَ لكن يقتصرُ على الصُّوفِ، فقولُ ابنِ القيِّم: «صُوفِيَّةٌ» يريدُ بذلك الزَّهادةَ في الدُّنيا لا طريقةَ الشَّطحِ والهذيان.

وكان ابنُ القيِّم -رحمه الله- في أوَّلِ أمرِه كان من الصُّوفيَّة حتَّى قيَّضَ اللهُ له هذا الإمامَ العظيمَ أحمد ابنَ تيميَّةَ -رحمه الله- فلازمه، فهداه اللهُ على يدِه، وقد ذَكَرَ ذلك -رحمه الله- في هذه القصيدةِ نفسِها أنَّ اللهَ تعالى مَنَّ عليه بشيخٍ أتى من أرضِ حرَّان، فهداه اللهُ به وإلَّا لهلك مع الصُّوفيَّةِ.

قَوْلُهُ: «نَبوِيَّةٌ»؛ لأنَّ طريقتَهم طريقةُ النَّبيِّ ﷺ، وليست كصوفيَّةٍ ذي الشَّطحِ والهذيان، فالصُّوفيَّةُ الذين عندهم من الشَّطحِ والهذيان هؤلاء بعيدون عن السُّنَّة.

* * *

٣٥٥١- هَـذَا كَلامُهُـمُ لَـدَيْنَا حَـاضِرٌ ... مِـنْ غَـيْرِ مَـا كَـذِبٍ وَلا كِـتْمَانِ

٣٥٥٢- فَاقْبَلْ حِوَالَـةَ مَـنْ أَحَـالَ عَلَـيْهِمُ ... هُـمْ أَمْلِيَـاؤُهُمُ أُولُـو إِمْكَـانِ

٣٥٥٣- فَـإِذَا بَعَثْنَـا غَـارَةً مِـنْ أُخْرَيَـا ... تِ العَسْـكَرِ المَنْصُـورِ بِـالقُرْآنِ

٣٥٥٤- طَحَنَتْكُمُ طَحْنَ الرَّحَى لِلحَبِّ حَتْـ ... ـتَى صِرْتُـمُ كَـالبَعْرِ فِي القِيعَـانِ

٣٥٥٥- أَنَّى يُقَـاوِمُ ذِي العَسَـاكِرَ طَمْطَـمٌ ... أَوْ تنكلُوشَّـا أَوْ أَخُـو اليُونَـانِ

٣٥٥٦- أَعْنِـي أَرِسْـطُو عَابِـدَ الأَوْثَـانِ أَوْ ... ذَاكَ الكَفُـورَ مُعَلِّـمَ الأَلْـحَانِ

٣٥٥٧- ذَاكَ المُعَلِّـمُ أَوَّلًا لِلحَـرْفِ وَالثْـ ... ـثَانِي لِصَـوْتٍ بِئْسَـتِ العِلْـمَانِ

٣٥٥٨- هَذَا أَسَاسُ الفِسْقِ وَالحَرْفِ الَّذِي ... وَضَعُوا أَسَاسَ الكُفْرِ وَالـهَذَيَانِ

٣٥٥٩- أَوْ ذَلِكَ المَخْدُوعُ حَامِلُ رَايَةِ الـ ... إِلْـحَادِ ذَاكَ خَلِيفَةُ الشَّيْطَانِ

٣٥٦٠- أَعْنِي ابْنَ سِينَا ذَلِكَ المَحْلُولَ مِنْ ... أَدْيَانِ أَهْلِ الأَرْضِ ذَا الكُفْرَانِ

٣٥٦١- وَكَذَا نَصِيرُ الشِّرْكِ فِي أَتْبَاعِهِ ... أَعْدَاءِ رُسْلِ اللهِ وَالإِيمَانِ

٣٥٦٢- نَصَرُوا الضَّلالَةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِمْ ... وَغَزَوْا جُيُوشَ الدِّينِ وَالقُرْآنِ

٣٥٦٣- فَجَرَى عَلَى الإِسْلامِ مِنْهُمْ مِحْنَةٌ ... لَمْ تَجْرِ قَطُّ بِسَالِفِ الأَزْمَانِ

٣٥٦٤- أَوْ جَعْدٌ اَوْ جَهْمٌ وَأَتْبَاعٌ لَهُ ... هُمْ أُمَّةُ التَّعْطِيلِ وَالبُهْتَانِ

٣٥٦٥- أَوْ حَفْصٌ اَوْ بِشْرٌ أَوِ النَّظَّامُ ذَا ... كَ مُقَدِّمُ الفُسَّاقِ وَالمُجَّانِ

٣٥٦٦- وَالجَعْفَرَانِ كَذَاكَ شَيْطَانٌ وَيُدْ ... عَى الطَّاقَ لا حُيِّيتَ مِنْ شَيْطَانِ

٣٥٦٧- وَكَذَلِكَ الشَّحَّامُ وَالعَلَّافُ وَالنْـ ... نَجَّارُ أَهْلُ الجَهْلِ بِالقُرْآنِ

٣٥٦٨- وَاللهِ مَا فِي القَوْمِ شَخْصٌ رَافِعٌ ... بِالوَحْيِ رَأْسًا بَلْ بِرَأْيِ فُلانِ

٣٥٦٩- وَخِيَارُ عَسْكَرِكُمْ فَذَاكَ الأَشْعَرِيْ ... يُ القِرْمُ ذَاكَ مُقَدَّمُ الفُرْسَانِ

٣٥٧٠- لَكِنَّكُمْ وَاللهِ مَا أَنْتُمْ عَلَى ... إِثْبَاتِهِ وَالحَقُّ ذُو بُرْهَانِ

الشرحُ

٣٥٥١- هَذَا كَلامُهُمُ لَدَيْنَا حَاضِرٌ ... مِنْ غَيْرِ مَا كَذِبٍ وَلا كِتْمَانِ

٣٥٥٢- فَاقْبَلْ حِوَالَةَ مَنْ أَحَالَ عَلَيْهِمُ ... هُمْ أَمْلِيَاؤُهُمُ أُولُو إِمْكَانِ

كلامُ السَّلفِ حاضرٌ، فاقبل حوالةَ مَنْ حَوَّلَكَ عليه؛ لأَنَّه حَوَّلَكَ على مَلِيء،

ولقد قال النَّبِيُّ ﷺ: «وَإِذَا أُتْبِعَ -يعني: إذا أُحِيلَ بِدَيْنٍ- أَحَدُكُمْ عَلَى مَلِيءٍ فَلْيَتْبَعْ»(١)، إذا أَحَالَنَا على كلامِ هؤلاء الأئمَّةِ فقد أَحَالَنَا على مَلِيٍّ وَفِيٍّ.

٣٥٥٣- فَإِذَا بَعَثْنَا غَارَةً مِنْ أُخْرَيَا ... تِ العَسْكَرِ المَنْصُورِ بِالقُرْآنِ

٣٥٥٤- طَحَنَتْكُمُ طَحْنَ الرَّحَى لِلحَبِّ حَتْـ ... ـتَى صِرْتُمُ كَالبَعْرِ فِي القِيعَانِ

والله عجيبٌ تصوُّرُه هذا؛ يقولُ: إذا بعثنا غارةً وليست من مقدِّماتِ الجيشِ بل من أُخرياتِ الجيشِ، وعادةً أنَّ المُقَدَّمَ من الجيوشِ أقوى وأشجعُ، لكن ما نعطيكم من مُقَدِّمات الجيشِ، بل نبعثُ غارةً من أُخرياتِ الجيشِ على هؤلاء المبتدعةِ والملحدين وما أشبههم، وهذا هو تمامُ الشَّجاعةِ، طَحَنَتْكُم طَحْنَ الرَّحَى، ومعلومٌ ماذا تفعلُه الرَّحى في الحَبِّ؟ وإذا فعلت ذلك فإنَّهم يصيرون دقيقًا، وهو -رحمه الله- مَثَّلَ أبلغَ من الدَّقيق فقال: «**حَتَّى صِرْتُمُ كَالبَعْرِ فِي القِيعَانِ**» «البعر»؛ أي: روث الإبل في القيعانِ؛ يعني: ليس له قيمةٌ، فالبعرُ في القيعانِ يتفتَّتُ، ولا يمكنُ أن يقابلَ شيئًا، حتَّى الهواء يمكنُ أن يفرِّقَه.

٣٥٥٥- أَنَّى يُقَاوِمُ ذِي العَسَاكِرَ طَمْطَمٌ ... أَوْ تنكلُوشَا أَوْ أَخُو اليُونَانِ

نعم، لا يُمكن أن يُقَاوِمَ، لكن من هو أخو اليونان؟ قال رحمه الله:

٣٥٥٦- أَعْنِي أَرِسْطُو عَابِدَ الأَوْثَانِ أَوْ ... ذَاكَ الكَفُورَ مُعَلِّمَ الأَلْحَانِ

٣٥٥٧- ذَاكَ المُعَلِّمُ أَوَّلًا لِلحَرْفِ وَالثْـ ... ـثَانِي لِصَوْتٍ بِئْسَتِ العِلْمَانِ

قَوْلُهُ: «**أَرِسْطُو**» مُعَلِّمُ الحرفِ، والثَّاني: مُعَلِّمٌ للصَّوتِ «**التَّلحين**».

---

(١) أخرجه النسائي: كتاب البيوع، باب مطل الغني، رقم (٤٦٨٨).

٣٥٥٨- هَذَا أَسَاسُ الفِسْقِ وَالحَرَفِ الَّذِي ... وَضَعُوا أَسَاسَ الكُفْرِ وَالـهَذَيَانِ

٣٥٥٩- أَوْ ذَلِكَ المَخْدُوعُ حَامِلُ رَايَةِ الـ ... إِلْـحَادِ ذَاكَ خَلِيفَةُ الشَّيْطَانِ

٣٥٦٠- أَعْنِي ابْنَ سِينَا ذَلِكَ المَحْلُولَ مِنْ ... أَدْيَانِ أَهْلِ الأَرْضِ ذَا الكُفْرَانِ

هذا ابنُ سينا، وهو الآن مُعَظَّمٌ عندَ كثيرٍ من النَّاسِ، ورُبَّما يُسَمُّون المدارسَ باسمِه؛ لأنَّه طبيبٌ، ولم يراعوا أنَّه كافرٌ، وابنُ القيِّم وكذا شيخُه -رحمهما اللهُ- يُصَرِّحانِ بأنَّه كافرٌ، بل قائدُ الكفرِ أيضًا؛ ولذلك لا يجوزُ أن نرفعَ من شأنِ هؤلاء، نحن أُمَّةٌ مسلمةٌ نرفعُ شأنَ مَنْ كان إمامًا في الدِّين، أمَّا مَنْ كان إمامًا في الكفرِ فإنَّه تحت أقدامِنا ولو كان عنده من علمِ الطِّبِّ أو الصِّناعة ما عنده، هذا هو الواجبُ؛ ولهذا يقولُ: «**أَعْنِي: ابْنَ سِينَا ذَلِكَ المَحْلُولَ مِنْ أَدْيَانِ أَهْلِ الأَرْضِ ذَا الكُفْرَانِ**»، تَنبَّهوا يا إخوان، تنبَّهوا، لا يغرنَّكم مَنْ يُقَدِّسُ أمثالَ هؤلاءِ وهم أئمَّةُ الكفرِ الذين قادوا الأُمَّةَ الإسلاميَّةَ إلى الهاوية، وماذا يُغني طبُّ الأبدانِ إذا ماتت القلوبُ؟! الجوابُ: لا يُغني شيئًا، والله إنَّ طبَّ الأبدانِ وصلاحَ المجتمع في صلاحِ القلبِ وفي حياةِ القلبِ، أمَّا إذا مَاتَ القلبُ أو مَرِضَ فماذا تنفعُ صحَّةُ الجسمِ؟!

٣٥٦١- وَكَذَا نَصِيرُ الشِّرْكِ فِي أَتْبَاعِهِ ... أَعْـدَاءِ رُسْـلِ اللهِ وَالإِيـمَانِ

٣٥٦٢- نَصَرُوا الضَّلالَةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِمْ ... وَغَزَوْا جُيُوشَ الدِّينِ وَالقُرْآنِ

٣٥٦٣- فَجَرَى عَلَى الإِسْلامِ مِنْهُمْ مِحْنَةٌ ... لَـمْ تَجْرِ قَطُّ بِسَالِفِ الأَزْمَانِ

قَوْلُهُ: «**فَجَرَى عَلَى الإِسْلَامِ مِنْهُمْ مِحْنَةٌ**»، وفي نسخةٍ: «**أَعْظَمُ مِحْنَةٍ**»، والنِّسخةُ التي بأيدينا أحسنُ؛ لأنَّ قوله: «**لَـمْ تَجْرِ قَطُّ**» تدلُّ على أنَّها أعظمُ محنةٍ.

نصيرُ الشِّركِ يريدُ بذلك مَنْ يُسَمَّى نصيرَ الدِّين الطوسيَّ، هذا الخبيثُ الذي جَرَى على الإسلامِ منه أعظمُ محنةٍ، وسَيُصَوِّرُ المؤلِّفُ -رحمه الله- بعضًا منها أيضًا، وسقطت الخلافةُ العباسيَّةُ على يدِه، وأوغل التَّتارُ في القتلِ في المسلمينِ وهتكِ الأعراضِ، وما أشبه ذلك.

٣٥٦٤- أَوْ جَعْـدٌ اَوْ جَهْـمٌ وَأَتْبَـاعٌ لَـهُ ... هُـمْ أُمَّـةُ التَّعْطِيـلِ وَالبُهْتَـانِ

الجوابُ: كُلُّ هذا بـ«لا»؛ يعني: هؤلاء لا يُقَاوِمُونَ جنودَ الرَّحمنِ.

٣٥٦٥- أَوْ حَفْـصٌ اَوْ بِشْـرٌ أَوِ النَّظَّـامُ ذَا ... كَ مُقَـدَّمُ الفُسَّـاقِ وَالمُجَّـانِ

٣٥٦٦- وَالجَعْفَـرَانِ كَـذَاكَ شَـيْطَانٌ وَيُـدْ ... عَى الطَّاقَ لا حُيِّيتَ مِـنْ شَـيْطَانِ

٣٥٦٧- وَكَذَلِكَ الشَّحَّامُ وَالعَـلَّافُ وَالنْـ ... نَجَّـارُ أَهْـلُ الجَهْـلِ بِـالقُرْآنِ

٣٥٦٨- وَاللهِ مَـا فِي القَـوْمِ شَـخْصٌ رَافِـعٌ ... بِـالوَحْيِ رَأْسًـا بَـلْ بِـرَأْيِ فُـلانِ

٣٥٦٩- وَخِيَارُ عَسْكَرِكُمْ فَذَاكَ الأَشْعَرِيْ ... يُ القِـرْمُ ذَاكَ مُقَـدَّمُ الفُرْسَـانِ

٣٥٧٠- لَكِـنَّكُمْ وَاللهِ مَـا أَنْـتُمْ عَـلَى ... إِثْبَاتِـهِ وَالـحَقُّ ذُو بُرْهَـانِ

كُلُّ هذه أسماءٌ لشيوخِ المعتزلِةِ، والأشعريُّ -رحمه الله- هو خيرُ القومِ، كان في أوَّلِ أمرِه معتزليًّا، مَضَى عليه أربعون سنةً وهو معتزليٌّ، ثُمَّ مَنَّ اللهُ عليه بالهدايةِ، فرجع عن مذهبِ المعتزلةِ وأعلن بطلانَه، وَرَدَّ عليه علنًا بعد صلاةِ الجمعةِ، ثُمَّ كان على مذهبٍ وسطٍ بين مذهبِ المعتزلةِ وأهلِ السُّنَّةِ، ثُمَّ تَبَيَّنَ له بعد هذا أنَّ الحقَّ في مذهبِ السَّلفِ وتَبعَ الإمامَ المُبَجَّلِ أحمدَ رحمه الله، لكنَّ قومَه الذين انتسبوا إليه بَقَوْا على مذهبِه الذي هو دون الاعتزالِ، ولكنَّه لم يبلغْ إلى مذهبِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ.

٣٥٧١- هُوَ قَالَ إِنَّ اللهَ فَوْقَ العَرْشِ وَاسْـــ ـــتَوْلَى مَقَالَـةُ كُـلِّ ذِي بُهْتَـانِ

٣٥٧٢- فِي كُتْبِهِ طُـرًّا وَقَـرَّرَ قَـوْلَ ذِي الـ إِثْبَـاتِ تَقْرِيـرًا عَظِـيمَ الشَّـانِ

٣٥٧٣- لَكِـنَّكُمْ أَكْفَرْتُمُـوهُ وَقُلْـتُمُ مَـنْ قَـالَ هَـذَا فَهْـوَ ذُو كُفْـرَانِ

٣٥٧٤- فَخِيَـارُ عَسْـكَرِكُمْ فَـأَنْتُمْ مِـنْهُمُ بُـرَآءُ إِذْ قَرُبُـوا مِـنَ الإِيـمَانِ

٣٥٧٥- هَذِي العَسَاكِرُ قَدْ تَلاقَـتْ جَهْـرَةً وَدَنَـا القِتَـالُ وَصِـيحَ بِـالأَقْرَانِ

٣٥٧٦- صُفُّوا الجُيُوشَ وَعَبِّئُوهَا وَابْـرُزُوا لِلحَـرْبِ وَاقْتَرِبُـوا مِـنَ الفُرْسَـانِ

٣٥٧٧- فَهُـمُ إِلَى لُقْيَـاكُمُ بِالشَّـوْقِ كَـيْ يُوفُـوا بِنَـذْرِهِمُ مِـنَ القُرْبَـانِ

٣٥٧٨- وَلَـهُمْ إِلَيْكُمْ شَـوْقُ ذِي قِـرْمٍ فَـمَا يَشْـفِيهِ غَـيْرُ مَوَائِـدِ اللُّحْـمَانِ

٣٥٧٩- تَبًّـا لَكُـمْ لَـوْ تَعْقِلُـونَ لَكُنْـتُمُ خَلْفَ الخُدُورِ كَأَضْعَفِ النِّسْـوَانِ

٣٥٨٠- مِنْ أَيْنَ أَنْـتُمْ وَالـحَدِيثُ وَأَهْلُـهُ وَالـوَحْيُ وَالمَعْقُـولُ بِالبُرْهَـانِ

٣٥٨١- مَا عِنْدَكُمْ إِلَّا الـدَّعَاوَى وَالشَّـكَا وَى أَوْ شَـهَادَاتٌ عَـلَى البُهْتَـانِ

٣٥٨٢- هَـذَا الَّـذِي وَاللهِ نِلْنَـا مِـنْكُمُ فِي الحَـرْبِ إِذْ يَتَقَابَـلُ الصَّـفَّانِ

٣٥٨٣- وَاللهِ مَـا جِئْـتُمْ بِقَـالَ اللهُ أَوْ قَـالَ الرَّسُـولُ وَنَحْـنُ فِي المَيْـدَانِ

٣٥٨٤- إِلا بِجَعْجَعَـةٍ وَفَرْقَعَـةٍ وَغَمْـ ـمَـةٍ وَقَعْقَعَـةٍ بِكُـلِّ لِسَـانِ

٣٥٨٥- وَيَحِـقُّ ذَاكَ لَكُـمْ وَأَنْـتُمْ أَهْلُـهُ أَنْـتُمْ بِحَاصِـلِكُمْ أُولُـو عِرْفَـانِ

٣٥٨٦- وَبِحَقِّكُـمْ تَحْمُـوا مَنَاصِـبَكُمْ وَأَنْ تَحْمُـوا مَـآكِلَكُمْ بِكُـلِّ سِـنَانِ

٣٥٨٧- وَبِحَقِّنَا نَحْمِي الـهُدَى وَنَذُبُّ عَنْ سُنَنِ الرَّسُولِ وَمُقْتَضَــى القُـرْآنِ

٣٥٨٨- قَــبَحَ الإِلَــهُ مَنَاصِــبًا وَمَــآكِلًا قَامَـتْ عَـلَى العُـدْوَانِ وَالطُّغْيَـانِ

٣٥٨٩- وَاللهِ لَــوْ جِئْـتُمْ بِقَــالَ اللهُ أَوْ قَالَ الرَّسُـولُ كَفِعْـلِ ذِي الإِيمَانِ

٣٥٩٠- كُنَّا لَكُـمْ شَـاوِيشَ تَعْظِـيمٍ وَإِجْـ ـلالٍ كَشَـاوِيشٍ لِـذِي سُـلْطَانِ

٣٥٩١- لَكِــنْ هَجَـرْتُمْ ذَا وَجِئْـتُمْ بِدْعَـةً وَأَرَدْتُــمُ التَّعْظِــيمَ بِالبُهْتَــانِ

الشـــرحُ

٣٥٧١- هُوَ قَالَ إِنَّ اللهَ فَوْقَ العَرْشِ وَاسْـ ـتَوْلَى مَقَالَــةُ كُــلِّ ذِي بُهْتَــانِ

الأشاعرةُ الآن لا يقولون: إنَّ اللهَ استوى على العرشِ، والإمامُ الذي ينتسبون إليه يقولُ: «**إنَّ اللهَ استوى على العرشِ**»، ويقولُ: «**اسْتَوْلَى» مَقَالَةُ كُلِّ ذِي بُهْتَانٍ**»، وهذا من العجبِ أن ينتسبوا إلى إمامٍ ثُمَّ يخالفوا قولَه، فَيُقَالُ: إذا كنتم صادقين فهذه كتبُه، فـ«**الإبانةُ عن أصولِ الدِّيانة**» صَرَّحَ فيه بمذهبِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ على وجهِ التَّفصيلِ.

٣٥٧٢- فِي كُتْبِهِ طُـرًّا وَقَـرَّرَ قَـوْلَ ذِي الْـ إِثْبَـاتِ تَقْرِيـرًا عَظِـيمَ الشَّـانِ

٣٥٧٣- لَكِـــنَّكُمْ أَكْفَرْتُمُــوهُ وَقُلْــتُمُ مَــنْ قَــالَ هَــذَا فَهْـوَ ذُو كُفْـرَانِ

أتباعُه الآن لا يُكفِّرونه، فلا يقولون: إنَّه كافرٌ، وهم يدَّعون أنَّهم مُتَّبعوه، لكن يقولون: «**مَنْ قال هذا فهو كافرٌ**».

ولهذا ففي الأشاعرة مذهب يُنكرون ما يُنْسَبُ لأبي الحسنِ الأشعريِّ من كتاب: «**الإبانة**»، و«**مقالات الإسلاميِّين**»، وما أشبه ذلك، يقولون: هذه منسوبةٌ إليه،

وليست بصحيحةٍ؛ لأنَّها تُخَالِفُ ما كانوا عليه، ولذا فينكرونها كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النَّمل:١٤]، والسَّببُ أنَّهم أخذوا بمذهبِه الوسط الذي بين الاعتزالِ وبين مذهبِ السَّلفِ، أخذوه وقرَّروه، وبَقَوْا عليه.

٣٥٧٤- فَخِيَارُ عَسْكَرِكُمْ فَأَنْتُمْ مِنْهُمُ   بُرَآءُ إِذْ قَرُبُوا مِنَ الإِيمَانِ

يعني: أنَّ المعتزلةَ فيهم بعضُ الأئمَّةِ منهم قد قربوا من الحقِّ، ولكن مع ذلك لا يقبلونه، يذكرون أقوالَهم على أنَّها أقوالٌ مهجورةٌ.

٣٥٧٥- هَذِي العَسَاكِرُ قَدْ تَلاقَتْ جَهْرَةً   وَدَنَا القِتَالُ وَصِيحَ بِالأَقْرَانِ

يُصوِّرُ المسألةَ كأنَّ الملاقاةَ حصلت ودنا القتالُ وصِيحَ بالأقرانِ، والأقرانُ هم الذين يتكافؤون في الشَّجاعةِ والإقدامِ.

٣٥٧٦- صُفُّوا الجُيُوشَ وَعَبِّئُوهَا وَابْرُزُوا   لِلحَرْبِ وَاقْتَرِبُوا مِنَ الفُرْسَانِ

٣٥٧٧- فَهُمُ إِلَى لُقْيَاكُمُ بِالشَّوْقِ كَيْ   يُوفُوا بِنَذْرِهِمُ مِنَ القُرْبَانِ

فهم مشتاقون إلى لقياكم من أجلِ أن يتقرَّبوا إلى الله بقتلِكم.

٣٥٧٨- وَلَهُمْ إِلَيْكُمْ شَوْقُ ذِي قِرْمٍ فَمَا   يَشْفِيهِ غَيْرُ مَوَائِدِ اللُّحْمَانِ

قَوْلُهُ: «وَلَهُمْ إِلَيْكُمْ شَوْقُ ذِي قَرِمٍ» القَرَمُ، يُقَال: «قَرِمَتْ نفسي لأكلِ اللحمِ أو لكذا وكذا»؛ يعني: اشتاقت بشدَّةٍ.

٣٥٧٩- تَبًّا لَكُمْ لَوْ تَعْقِلُونَ لَكُنْتُمُ   خَلْفَ الخُدُورِ كَأَضْعَفِ النِّسْوَانِ

يعني: لو تعقلون ما أنتم عليه وأنَّه لا يمكنُ أن تُقَاوِمُوا لكنتم خلفَ الخدورِ مثل النِّساءِ، بل مثل أضعفِ النِّساءِ.

٣٥٨٠- مِنْ أَيْنَ أَنْـتُمْ وَالـحَدِيثُ وَأَهْلُـهُ وَالـوَحْيُ وَالمَعْقُـولُ بِالبُرْهَـانِ

يعني: لستم بشيءٍ مع أهلِ الحديثِ وأهلِ الوحي وأهلِ المعقولِ بالبرهانِ.

٣٥٨١- مَا عِنْدَكُمْ إِلَّا الـدَّعَاوَى وَالشَّـكَا وَى أَوْ شَـهَادَاتٌ عَـلَى البُهْتَـانِ

٣٥٨٢- هَـذَا الَّـذِي وَاللهِ نِلْنَـا مِـنْكُمُ فِي الحَـرْبِ إِذْ يَتَقَابَـلُ الصَّـفَّانِ

ومعلومٌ أنَّ الدَّعاوَى والشَّكاوَى والشَّهاداتِ بالكذبِ لا تُحِقُّ حقًّا ولا تُبطلُ باطلًا، لكن هذا ديدنُهم، يرفعون الأمرَ إلى السُّلطانِ ويكذبون على أهلِ السُّنَّةِ حتىَّ إنَّ السَّلاطين تحبسُ أهلَ السُّنَّةِ وتضربُهم كما هو معروفٌ فيما صنعوا بالإمامِ أحمدَ، وبشيخِ الإسلامِ، وبابنِ القيِّم، وبغيرِهم رحمهم اللهُ.

٣٥٨٣- وَاللهِ مَـا جِئْـتُمْ بِقَـالَ اللهُ أَوْ قَـالَ الرَّسُـولُ وَنَحْـنُ فِي المَيْـدَانِ

وهذا صحيحٌ، فإذا قَرأْتَ كتبَهم تُقلِّب الصَّفحاتِ العديدةَ لا تجدُ قال اللهُ ولا قال رسولُ اللهِ.

٣٥٨٤- إلا بِجَعْجَعَـةٍ وَفَرْقَعَـةٍ وَغَمْـ غَمَـةٍ وَقَعْقَعَـةٍ بِكُـلِّ لِسَـانِ

قَوْلُهُ: «إِلَّا بِجَعْجَعَةٍ»؛ يعني: ما أتيتم إلَّا بجعجعةٍ.

وَقَوْلُهُ: «بِجَعْجَعَةٍ وَفَرْقَعَةٍ وَغَمْغَمَةٍ وَقَعْقَعَةٍ» كُلُّ هذه معناها أنَّها لا تُغني شيئًا.

قَوْلُهُ: «وَقَعْقَعَةٍ بِكُلِّ لِسَانٍ»، وفي نسخة: «بِكُلِّ شِنَانٍ» جمع «شَنَّة»، ولا بأسَ، والمعنى أنَّهم يُقَعْقِعُونَ بالشِّنانِ الباليةِ التي لا تنفعُ.

فكُلُّ هذه الصَّيْحاتِ لا تفيدُ؛ فالجعجعةُ، والفرقعةُ مثل: التَّصفيقِ، والغمغمة كُلُّ هذه لا تُفيدُ.

٣٥٨٥- وَيَحِــقُّ ذَاكَ لَكُــمْ وَأَنْــتُمْ أَهْلُــهُ أَنْــتُمْ بِحَاصِــلِكُمْ أُولُــو عِرْفَــانِ

قَوْلُهُ: «وَيَحِقُّ ذَاكَ»؛ يعني: الجعجعة والفرقعة والغمغمة والقعقعة.

قَوْلُهُ: «وَأَنْتُمْ أَهْلُهُ»؛ أي: وأنتم أهلٌ له.

قَوْلُهُ: «أَنْتُمْ بِحَاصِلِكُمْ أُولُو عِرْفَانِ»؛ يعني: أنتم بحسب ما تعتقدون وتظنُّون أنَّكم أصحابُ عرفانٍ، ومع ذلك ليس عندكم إلَّا الجعجعةُ.

٣٥٨٦- وَبِحَقِّكُــمْ تَحْمُــوا مَنَاصِــبَكُمْ وَأَنْ تَحْمُــوا مَــآكِلَكُمْ بِكُــلِّ سِــنَانِ

هذا الذي هم يدافعون عنه، يدافعون عن المناصبِ والمآكلِ؛ يعني: أنَّهم لا يريدون إلَّا أن يكونوا عند ذَوِي السُّلطانِ وأصحابِ الجاهِ والمآكلِ، أمَّا نحن فنقول:

٣٥٨٧- وَبِحَقِّنَا نَحْمِي الـهُدَى وَنَذُبُّ عَنْ سُنَنِ الرَّسُولِ وَمُقْتَضَــى القُـرْآنِ

وفَرْقٌ بين هذا وهذا، فَرْقٌ بين مَنْ يصولُ ويجولُ من أجل القرآنِ ونصرةِ الحقِّ، ومَنْ يصولُ ويجولُ من أجلِ المنصبِ والأكلِ.

٣٥٨٨- قَــبَحَ الإِلَــهُ مَنَاصِــبًا وَمَــآكِلًا قَامَــتْ عَـلَى العُـدْوَانِ وَالطُّغْيَـانِ

قَوْلُهُ: «قَبَحَ» بمعنى قَبَّحَ.

٣٥٨٩- وَاللهِ لَــوْ جِئْــتُمْ بِقَــالَ اللهُ أَوْ قَالَ الرَّسُـولُ كَفِعْـلِ ذِي الإِيمَانِ

٣٥٩٠- كُنَّا لَكُـمْ شَـاوِيشَ تَعْظِـيمٍ وَإِجْــ ــلالٍ كَشَـاوِيشٍ لِـذِي سُـلْطَانِ

قَوْلُهُ: «كُنَّا لَكُمْ شَاوِيشَ تَعْظِيمٍ» «الشَّاوِيشُ»؛ يعني: الرِّجالَ والأتباعَ.

يعني: لو أنَّكم تقولون: قال اللهُ وقال الرسولُ لكنَّا أتباعًا وجنودًا لكم.

٣٥٩١- لَكِـنْ هَجَـرْتُمْ ذَا وَجِئْـتُمْ بِدْعَـةً   وَأَرَدْتُـمُ التَّعْظِـيمَ بِالبُهْتَـانِ

قَوْلُهُ: «**هَجَرْتُمْ ذَا**»؛ يعني: قال اللهُ وقال رسولُه.

يقولُ: لكنَّكم هجرتم «**قال اللهُ وقال رسولُه**»، وأتيتم ببدعةٍ وأردتم التَّعظيمَ أن يُعَظِّمَكُم النَّاسُ بالبهتانِ والكذبِ، إذا كانت هذه حال هؤلاء وتلك حال أولئك فمن المعلومِ أنَّه لا يمكنُ لهؤلاء المبتدعةِ والملحدين وجنودِ الشَّياطين أن يُقَاوِمُوا أهلَ السُّنَّةِ وأهلَ الحقِّ بأيِّ حالٍ من الأحوالِ، نسألُ اللهَ أن يجعلَنا وإيَّاكم منهم.

* * *

فصل

٣٥٩٢- العِلْمُ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ ... قَالَ الصَّحَابَةُ هُمْ أُولُو العِرْفَانِ

٣٥٩٣- مَا العِلْمُ نَصْبُكَ لِلخِلافِ سَفَاهَةً ... بَيْنَ الرَّسُولِ وَبَيْنَ رَأْيِ فُلانِ

٣٥٩٤- كَلَّا وَلَا جَحْدُ الصِّفَاتِ لِرَبِّنَا ... فِي قَالَبِ التَّنْزِيهِ وَالسُّبْحَانِ

٣٥٩٥- كَلَّا وَلَا نَفْيُ العُلُوِّ لِفَاطِرِ الـ ... أَكْوَانِ فَوْقَ جَمِيعِ ذِي الأَكْوَانِ

٣٥٩٦- كَلَّا وَلَا عَزْلُ النُّصُوصِ وَأَنَّهَا ... لَيْسَتْ تُفِيدُ حَقَائِقَ الإِيمَانِ

٣٥٩٧- إِذْ لَا تُفِيدُكُمْ يَقِينًا لَا وَلَا ... عِلْمًا فَقَدْ عُزِلَتْ عَنِ الإِيقَانِ

٣٥٩٨- وَالعِلْمُ عِنْدَكُمُ يُنَالُ بِغَيْرِهَا ... بِزِبَالَةِ الأَفْكَارِ وَالأَذْهَانِ

٣٥٩٩- سَمَّيْتُمُوهُ قَوَاطِعًا عَقْلِيَّةً ... تَنْفِي الظَّوَاهِرَ حَامِلاتِ مَعَانِي

٣٦٠٠- كَلَّا وَلَا إِحْصَاءُ آرَاءِ الرِّجَا ... لِ وَضَبْطُهَا بِالحَصْرِ وَالحُسْبَانِ

٣٦٠١- كَلَّا وَلَا التَّأْوِيلُ وَالتَّبْدِيلُ وَالتَّـ ... ـحْرِيفُ لِلوَحْيَيْنِ بِالبُهْتَانِ

٣٦٠٢- كَلَّا وَلَا الإِشْكَالُ وَالتَّشْكِيكُ وَالـ ... ـوَقْفُ الَّذِي مَا فِيهِ مِنْ عِرْفَانِ

٣٦٠٣- هَذِي عُلُومُكُمُ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا ... عَادَيْتُمُونَا يَا أُولِي العِرْفَانِ

الشرحُ

سبق أنَّ المؤلِّفَ -رحمه الله- ذَكَرَ وَصْفَ المُعَسْكَرَيْنِ واستدارةِ رَحَى الحربِ العوان بين الصَّفَّيْنِ، ثُمَّ انتهى إلى الفصلِ الذي قال فيه: «فَصْلٌ».

٣٥٩٢- العِلْـمُ قَـالَ اللهُ قَـالَ رَسُـولُهُ قَالَ الصَّحَابَةُ هُمْ أُولُـو العِرْفَـانِ

العلمُ النَّافعُ الشَّرعيُّ هو المبنيُّ على هذه المصادرِ الثَّلاثةِ:

الأوَّل: قولُ الله عزَّ وجلَّ، وهو ما جاء في كتابِه.

الثَّاني: قولُ النَّبيِّ ﷺ، وهو ما صَحَّ عنه من سنَّتِه.

الثَّالث: قولُ الصَّحابةِ؛ أي: إجماعُ الصَّحابةِ لا شكَّ فيه.

فلنسأل: هل أجمع الصَّحابةُ على إجراءِ نصوصِ الصِّفاتِ على ظاهرِها؟ نعم، أجمعوا على ذلك، ما منهم أحدٌ فَسَّرَ ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف:٥٤] بـ«**استولى عليه**»، ولا أحدٌ منهم فَسَّرَ ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٦٤] بقدرتِه، ولا أحدٌ فَسَّرَ ﴿وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥] بثوابِه أبدًا، وعلى هذا فهم مُجْمِعون على ظاهرِ الكتابِ والسُّنَّةِ؛ إذ لو كان عندهم خلافُ الظَّاهرِ لتكلَّموا به، مَنْ يمنعُهم؟! ولهذا إذا أردتَ أن تُقَرِّرَ إجماعَ الصَّحابةِ على هذه المسألةِ المهمَّةِ فقل: إنِّي أُقَرِّرُ إجماعَهم بأنَّه لم يَرِدْ عنهم قولٌ بخلافِها وهم يقرؤونها صباحًا و مساءً، ولو كانوا يعتقدون خلافَها لبيَّنوه.

فهذه الثَّلاثةُ أدلَّةُ المسلمين: كلامُ الله، وكلامُ رسولِه، وكلامُ الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، أعني: الإجماعَ، أمَّا إذا جاء عن واحدٍ من الصَّحابةِ فقد اختلف العلماءُ في حُجِّيَّتِهِ؛ فقال أكثرُ أهلِ العلمِ: إنَّه ليس حُجَّةً، وقال آخرون: بل هو حُجَّةٌ لكن بشرط ألَّا يخالفَ نصًّا وألَّا يخالفَ صحابيًّا آخرَ، فإن خالف نصًّا فالمُعَوَّلُ على النَّصِّ، وإن خالف صحابيًّا آخرَ طُلِبَ التَّرجيحُ، فكان القولُ الرَّاجحُ هو الحقَّ، وهذا أقربُ إلى الصَّوابِ؛ لأنَّ الصَّحابةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أفقهُ النَّاسِ في دينِ الله؛ وذلك لقربِهم من رسولِ الله ﷺ وبُعْدِهم من الاختلافِ، و سلامةِ عقيدتِهم إلى غيرِ ذلك من المُرَجِّحَاتِ، ولهذا قال المؤلِّفُ: «**هُمْ أُولُو العِرْفَانْ**»؛ أي: أصحابُ المعرفةِ.

٣٥٩٣- مَا العِلْمُ نَصْبُكَ لِلخِلافِ سَفَاهَةً   بَيْنَ الرَّسُولِ وَبَيْنَ رَأْيِ فُلانِ

قَوْلُهُ: «مَا العِلْمُ نَصْبَكَ» «نَصْبَكَ» بالفتحِ بناءً على أنَّ «مَا» حجازيَّةٌ، ولغةُ الحجازِ هي اللُّغةُ المشهورةُ المعتمدةُ.

وصدق رحمه اللهُ، فليس العلمُ أن تَنْصِبَ الخلافَ بينك وبين رسولِ الله ﷺ وتكون جدليًّا تُجادلُ بالباطلِ لإدحاضِ الحقِّ، فهؤلاء الذين يأتون بالقرآنِ أو بالسُّنَّةِ ثُمَّ ينصبون الخلافَ بين قولِ الله ورسولِه وقولِ أئمَّتِهم ويقولون: قال الإمامُ كذا مخالفًا للكتابِ والسُّنَّةِ، فهذا ليس بعلمٍ، بل هذا -والله- هو الجهلُ.

٣٥٩٤- كَلَّا وَلَا جَحْدُ الصِّفَاتِ لِرَبِّنَا   فِي قَالَبِ التَّنْزِيهِ وَالسُّبْحَانِ

يعني: وليس العلمُ أن تجحدَ صفاتِ الله تدَّعي أنَّك تُنَزِّهُ اللهَ، فهؤلاء المعطِّلةُ الذين عطَّلوا النُّصوصَ يدَّعون أنَّهم مُنزِّهون لله عزَّ وجلَّ عن مشابهةِ الحوادثِ؛ ولهذا كان من عقائدِهم التي يرتكزون عليها أنَّ اللهَ مخالفٌ للحوادثِ، من أين أَتَوْا بهذا الكلامِ «مخالفٌ للحوادثِ»؟ وهل هو مخالفٌ للحوادثِ بصفةٍ جيِّدةٍ أو بصفةٍ رديئةٍ؟ الجوابُ: لا ندري، «مخالفٌ للحوادثِ» هذه لا تُعطِي أيَّ شيءٍ، ولو أنَّهم أحلُّوا محلَّها قولَ الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشُّورى:١١] لأصابوا.

هؤلاء الذين جَحَدُوا الصِّفاتِ لله عزَّ وجلَّ، لماذا جحدوها؟

الجوابُ: لاعتقادِهم أنَّ إثباتَ الصِّفاتِ يستلزمُ التَّشبيهَ، وقالوا: إنَّ اللهَ مُنَزَّهٌ عن الشَّبيهِ، وإذا كان مُنَزَّهًا عن الشَّبيهِ لزم إنكارُ الصِّفاتِ؛ ولهذا نقولُ: كُلُّ معطِّلٍ فهو مُمَثِّلٌ جامعٌ بين التَّمثيلِ والتَّعطيلِ لماذا؟ لأنَّه إنَّما عَطَّلَ لظنِّه أنَّ الإثباتَ يستلزمُ التَّمثيلَ فَمَثَّلَ أوَّلًا وعَطَّلَ ثانيًا، فهم قالوا: إنَّ اللهَ لا يستوي على العرشِ،

كيف يستوي على العرشِ؟ لا ينزلُ إلى السَّماءِ الدُّنيا، لا يأتي للفصلِ بين عبادِه، ليس له وجهٌ ولا عينٌ ولا يدٌ؛ لأنَّ هذه لو أَثْبَتْنَاها لَزِمَ أن يكونَ اللهُ مماثلًا للمخلوقِ، إِذَنْ إذا كان هذا اللَّازمُ باطلًا بطلَ الملزومُ ولا نُثْبِتُه، فَيُقَالُ لهم: سبحان الله! أليس لك وجهٌ أَيُّها الرَّجُلُ؟

فيقولُ: بلى، أليس للجملِ وجهٌ؟ سيقولُ: بلى، هل وجهُك مماثلٌ لوجهِ الجملِ؟ يلزمُه أن يقولَ: إنَّ وجهَه مماثلٌ لوجهِ الجملِ، أو لأخبثِ دابَّةٍ على وجهِ الأرضِ، وإِلَّا تَنَاقَضَ، فلا يلزمُ إذا قلنا: «**لله وجهٌ**» أن يكونَ وجهُه كوجوهِنا، أو «**لله يدٌ**» نقولُ: «**ألك يدٌ؟**» يقولُ: نعم، هل للهِرِّ يدٌ؟ سيقولُ: نعم، هل يدُك مثلُ يدِ الهرِّ؟ يقولُ: لا، قطعًا، نقولُ: إِذَنْ أَثْبِتْ لله يدًا، وقل: ليست كأيدي المخلوقين؛ لأنَّه إذا كانت أيدي المخلوقاتِ تتفاوتُ تفاوتًا عظيمًا، فكيف بين الخالقِ والمخلوقِ؟! لكن مع ذلك يلعبون بعقولِ النَّاسِ، ويقولون: نحن ننكرُ هذا تنزيهًا لله عزَّ وجلَّ عن التَّمثيلِ، ولهذا قال: «**فِي قَالَبِ التَّنْزِيهِ وَالسُّبْحَانِ**».

المهمُّ أنَّ هؤلاء الذين يجادلون في صفاتِ الله فيجحدونها بزعمِهم تنزيهًا لله عزَّ وجلَّ عن مشابهةِ الحوادثِ لا شكَّ أنَّه لا علمَ عندهم، وهم في الحقيقةِ وقعوا فيما فرُّوا منه؛ لأنَّهم إذا نَفَوُا الصِّفاتِ شَبَّهُوا اللهَ عزَّ وجلَّ بالخالي منها، ومعلومٌ أنَّ الصِّفاتِ التي أثبتها اللهُ لنفسِه صفاتُ كمالٍ، فإذا سلبوا صفاتِ الكمالِ عنه لَزِمَ أن يكونَ متَّصفًا بالنَّقصِ، فمثلًا إذا قالوا: إنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- ليس فوقَ العرشِ، لَزِمَ أن يكونَ إمَّا أنَّه ليس في مكانٍ إطلاقًا أو أنَّه في كُلِّ مكانٍ، وكلاهما نقصٌ كما مَرَّ هذا علينا كثيرًا، فهؤلاء الذين يجادلون ويدَّعون أنَّهم أهلُ الكلامِ وأهلُ المعرفةِ، نقولُ: ليس عندكم إِلَّا الكلامُ كما سمَّيتم أنفسَكم.

٣٥٩٥- كَـلَّا وَلَا نَفْـيُ العُلُـوِّ لِفَـاطِرِ الـــ أَكْـوَانِ فَـوْقَ جَمِيـعِ ذِي الأَكْـوَانِ

قَوْلُهُ: «**كَلَّا**»؛ يعني: وليس لهم أيضًا.

هذا أيضًا ما ذهب إليه أهلُ التَّعطيلِ الذين ينكرون علوَّ الله بذاتِه على كُلِّ شيءٍ.

وسبق لنا أنَّهم انقسموا قسمين:

القسم الأوَّل قال: إنَّ اللهَ نفسَه بكُلِّ مكانٍ، كُلُّ مكانٍ فاللهُ فيه، سبحان الله! كيف هذا؟ قال: نعم، إن كنت في المسجدِ فاللهُ في المسجدِ، في السُّوقِ فاللهُ في السُّوقِ، في الجوِّ، في الطَّائرةِ فاللهُ في الطَّائرةِ، في كُلِّ مكانٍ، في الحَمَّامِ، يَلْزَمُهم أن يقولوا: إنَّ اللهَ في الحَمَّامِ على قاعدتِهم في كُلِّ مكانٍ، تعالى اللهُ عن قولِهم علوًّا كبيرًا، وإذا قلنا بهذا لَزِمَ أحدُ أمرين ولا بُدَّ، إمَّا أن يكونَ اللهُ مُتعدِّدًا بتعدُّدِ الأمكنةِ، وإذا كانت النَّصارى كفروا بقولِهم: إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ، فما ظَنُّكَ بالذي يقول: إنَّه لا يُحْصَى، في كُلِّ مكانٍ إلهٌ، أو يلزمُ أن يتجزَّأَ اللهُ عزَّ وجلَّ، بعضُه هنا وبعضُه هنا وبعضُه هناك، تعالى اللهُ عن قولِهم علوًّا كبيرًا، ونسألُ اللهَ لهم الهدايةَ، وهذا واضحٌ.

القسم الثَّاني قالوا: لا يجوزُ أن نقولَ: إنَّ اللهَ فوق السَّماءِ ولا في الأرضِ ولا في أيِّ مكانٍ، بل يجبُ أن نعتقدَ أنَّه لا فوقَ ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا متَّصلٌ بالعالَـمِ ولا منفصلٌ بالعالَـمِ، إذَنْ يكونُ عدمًا، ولهذا أنكر ابن سبكتكين -رحمه الله- على محمَّد بن فورَك، وقال له: «**أنت إذا قلت: هذا وَصْفُ ربِّك فهو عدَم**»، وَصَدَقَ رحمه اللهُ، هذا هو العدمُ تمامًا.

أهلُ السُّنَّةِ -جعلنا اللهُ وإيَّاكم منهم- أثبتوا لله أنَّه فوق كُلِّ شيءٍ وأنَّه -سبحانه وتعالى- وَسِعَ كُرسيُّه السَّماواتِ والأرضَ، وقالوا: هذا الحقُّ، هذا السُّلطانُ، هذا القهرُ، هذه العظمةُ أن يكونَ فوق كُلِّ شيءٍ؛ لأنَّه عزَّ وجلَّ خالقُ كُلِّ شيءٍ.

٣٥٩٦- كَـلَّا وَلَا عَـزْلُ النُّصُـوصِ وَأَنَّهَـا ⁂ لَيْسَـتْ تُفِيـدُ حَقَـائِقَ الإِيـمَانِ

هذا أيضًا من مذهبِ المتكلِّمين أنَّ أدلَّةَ النُّصوصِ أدلَّةٌ لفظيَّةٌ، هم يقولون مثلًا: «العرشُ» له عشرةُ معانٍ في اللُّغةِ العربيَّةِ، و«الاستواءُ» له كذا وكذا من المعاني في اللُّغةِ العربيَّةِ، ويشكِّكون فيقولون: الأدلَّةُ اللفظيَّةُ لا تفيدُ اليقينَ، ما هي الأدلَّةُ القطعيَّةُ عندهم؟ العقلُ، هو الذي يفيدُ الأدلَّةَ القطعيَّةَ، أمَّا هذه النُّصوصُ فكُلُّها ظواهرُ لا تفيدُ إلَّا الظَّنَّ، والظَّنُّ لا يُغني من الحقِّ شيئًا.

إِذَنْ هؤلاء يقولون: إنَّ النُّصوصَ لا تفيدُ اليقينَ ولا تفيدُ الحقيقةَ، بل هي مجازٌ، فيقولون: قولُه تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، هذا مجازٌ عن القدرةِ والنِّعمةِ وما أشبهَ ذلك، ولا تفيدُ الحقيقةَ.

٣٥٩٧- إِذْ لَا تُفِيـدُكُمْ يَقِينًـا لَا وَلَا ⁂ عِلْـمًا فَقَـدْ عُزِلَـتْ عَـنِ الإِيقَـانِ

يقولون: هذه دلالتُها ظنِّيَّةٌ ولا تفيدُ اليقينَ.

٣٥٩٨- وَالعِلْـمُ عِنْـدَكُمُ يُنَـالُ بِغَيْرِهَـا ⁂ بِزِبَالَـةِ الأَفْكَـارِ وَالأَذْهَـانِ

قَوْلُهُ: «العِلْمُ عِنْدَكُمُ يُنَالُ بِغَيْرِهَا» يُخَاطِبُ أهلَ التَّعطيلِ جميعًا، يقولُ: العلمُ -عندكم- يُنَالُ بغيرِ هذه الأدلَّةِ الثَّلاثةِ، وهي: الكتاب، والسُّنَّة، وأقوال الصَّحابةِ رضي الله تعالى عنهم.

قَوْلُهُ: «بِزُبَالَةِ الأَفْكَارِ وَالأَذْهَانِ» الزُّبالةُ هي مُلْقَى الأوساخِ والأذى والقذرِ.

٣٥٩٩- سَـمَّيْتُمُوهُ قَوَاطِعًـا عَقْلِيَّـةً ⁂ تَنْفِـي الظَّـوَاهِرَ حَـامِلاتِ مَعَـانِي

قَوْلُهُ: «سَمَّيْتُمُوهُ قَوَاطِعًا عَقْلِيَّةً»؛ يعني: سمَّيتم الدَّليلَ الذي يفيدُ العلمَ واليقينَ قواطعَ عقليَّةً.

وَقَوْلُهُ: «**قَوَاطِعًا**» منصرفةٌ لأجلِ الضَّرورةِ كما قال ابنُ مالكٍ رحمه اللهُ:

وَلِاضْطِرَارٍ اوْ تَنَاسُبٍ صُرِفْ

ذُو الْـمَنْعِ، وَالْـمَصْرُوفُ قَدْ لَا يَنْصَرِفْ[1]

قَوْلُهُ: «**تَنْفِي الظَّوَاهِرَ**»، وفي نسخةٍ: «**وَهِيَ الظَّوَاهِرُ**»؛ يعني: هذه الزُّبالةُ زُبالةُ الأفكارِ سَمَّوْهَا قواطعَ عقليَّةً.

قَوْلُهُ: «**تَنْفِي الظَّوَاهِرَ حَامِلَاتِ مَعَانِي**»؛ يعني: تنفي الظَّاهرَ؛ ولهذا يقولون: إنَّ ظاهرَ النُّصوصِ في الصِّفاتِ غيرُ مرادٍ.

فهم يقولون: كُلُّ نصٍّ في الصِّفاتِ فإنَّ ظاهرَه غيرُ مرادٍ، والحقيقةُ أنَّ هذه الجملةَ خطأٌ على كُلِّ حالٍ، ووجهُ ذلك أن نقولَ لهم: ماذا تريدون بالظَّاهرِ؟ هل تُريدون بالظَّاهرِ ما يظهرُ من النُّصوصِ من المعاني اللَّائقةِ باللهِ؟ إن قالوا: نعم، فماذا نقولُ؟ نعم، لكن أخطأتم في قولِكم: «**غَيْرُ مُرَادٍ**»، فالآن يقولون: «**ظاهرُ نصوصِ الصِّفاتِ غيرُ مرادٍ**» هذه الجملةُ، الجملةُ لها صدرٌ ولها عَجُزٌ، صدرُها: «**ظاهرُ النُّصوصِ**»، وعَجُزُها «**غيرُ مرادٍ**»، نسألُهم أوَّلًا: ماذا تُريدون بالظَّاهرِ الذي هو صدرُ الجملةِ؟ إن قالوا: نريدُ بالظَّاهرِ التَّمثيلَ؛ يعني: نُريدُ أنَّ التَّمثيلَ ليس مرادًا، نقولُ: أَصَبْتُم في قولِكم: «**غيرُ مرادٍ**»، لكن أخطأتم في قولِكم: إنَّ هذا هو ظاهرُ النُّصوصِ.

فإن أرادوا بالظَّاهرِ ما يظهرُ من النُّصوصِ من المعاني اللَّائقةِ باللهِ، إذا قالوا: هذا هو ظاهرُ النُّصوصِ؛ يعني: ظاهرُ النُّصوصِ أنَّ للهِ يدًا لا تُماثِلُ أيدي المخلوقين،

---

(١) شرح ابن عقيل (٣/ ٣٣٨).

ماذا نقولُ لهم؟ نقولُ: أَصَبْتُم في قولِكم: إنَّ هذا هو الظَّاهرُ لكن أخطأتم في قولكم: «غيرُ مرادٍ».

فصارت هذه الجملةُ خطًا على كُلِّ تقديرٍ، ويظهرُ ذلك بالمثالِ، إذا قالوا: ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] إثباتُ يدين اثنتين لله، وهذا غيرُ مرادٍ، بماذا أخطؤوا؟ بقولِهم: غيرُ مرادٍ، وإلَّا فنحن معهم بأنَّ ظاهرَ الآيةِ إثباتُ يَدَيْنِ لله عزَّ وجلَّ، وإذا قالوا: ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] إثباتُ يَدَيْنِ تُماثِلُ أيدي المخلوقين، وهذا غيرُ مرادٍ، نقولُ: قولُكم: «**إنَّ هذا ظاهرُ النُّصوصِ**» خطأٌ، ليس هذا ظاهرَ النُّصوصِ؛ لأنَّ اللهَ أضاف اليدَ إلى نفسِه، وإضافةُ اليدِ إلى نفسِه عزَّ وجلَّ كسائرِ صفاتِه، كإضافةِ العلمِ إلى نفسِه، فكما أنَّ علمَه ليس كعلمِ المخلوقِ، فيدُه ليست كيدِ المخلوقِ.

فدعواكم أنَّ ظاهرَ قولِه: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] إثباتُ يَدَيْنِ تُماثِلُ أيدي المخلوقين، هذه دعوى كاذبةٌ، وقولُكم: «**غيرُ مرادٍ**»، يعني: هذا المعنى غيرُ مرادٍ نوافقُ عليه فنقولُ: هذا الذي زعمتم أنَّه ظاهرُ النُّصوصِ نحن معكم في أنَّه غيرُ مرادٍ، لكن أخطأتم في أنَّ هذا هو ظاهرُ النَّصِّ.

فصارت هذه الجملةُ التي يتناقلُها المتكلِّمون من أنَّ ظاهرَ نصوصِ الصِّفاتِ غيرُ مرادٍ خطًا على كُلِّ تقديرٍ؛ لأنَّهم إن فسَّروا الظَّاهرَ بمعنًى يليقُ بالله فقد أخطؤوا بقولِهم: «**غيرُ مرادٍ**»، وإن فسَّروه بما يقتضي التَّمثيلَ فقد أخطؤوا في هذا التَّفسيرِ؛ إذ ليس ظاهرُ النُّصوصِ تمثيلَ الله عزَّ وجلَّ بالخلقِ.

٣٦٠٠- كَلَّا وَلَا إِحْصَاءُ آرَاءِ الرِّجَا ... لِ وَضَبْطُهَا بِالحَصْرِ وَالحُسْبَانِ

قَوْلُهُ: «**كَلَّا**»؛ يعني: وليس العِلْمُ أيضًا.

يعني: أنَّ العلمَ ليس تجميعَ آراءِ الرِّجالِ، تقولُ: هذه المسألةُ فيها مئةُ قولٍ، نقولُ: ما الفائدةُ من مئة قولٍ؟ أهلُ الكلام عندهم طريقةٌ يقولون مثلًا: «**استوى على العرشِ**» اختلف النَّاسُ في الاستواءِ على خمسة أقوالٍ، واختلفوا في العرشِ على عشرين قولًا، يُوقعونك في الشَّكِّ والحَيْرَةِ، هذا ليس هو العلم، العلمُ أن تحصرَ الحقَّ في قولٍ واحدٍ فقط، أمَّا جمعُ الآراءِ: قال فلانٌ كذا، وقال فلانٌ كذا، بدون أن يكون هناك برهانٌ فهذا ليس بعلمٍ.

٣٦٠١- كَلَّا وَلَا التَّأْوِيـلُ وَالتَّبْـدُيلُ وَالتْـ ـــتَحْرِيفُ لِلْـوَحْيَيْنِ بِالبُهْتَـانِ

قَوْلُهُ: «**التَّأْوِيلَ وَالتَّبْدِيلَ وَالتَّحْرِيفَ**» وهذا موجودٌ عند الذين لا يُثْبِتُونَ ما أَثْبَتَهُ أهلُ السُّنَّةِ في أسماءِ الله وصفاتِه.

«**التَّأويلُ**» للمعنى تحريفُ المعنى، و«**التَّبديلُ**» للكلمةِ رأسًا، و«**التَّحريفُ**» للفظِ في الشَّكْلِ.

وإنَّما فَسَّرَنا هذا التَّفسيرَ؛ لأنَّ المؤلِّفَ -رحمه الله- جَمَعَ بين هذه الثَّلاثةِ وإلَّا فواحدٌ منها يكفي عن الباقي، فالتَّأويلُ إذا كان بدليلٍ فهو حقٌّ، وبغيرِ دليلٍ يُسَمَّى تحريفًا، والتَّبديلُ؛ يعني: إبدالُ الكلمةِ مكانَ كلمةٍ، هذا أيضًا لا يمكنُ، هؤلاء قالوا: «**استوى**» بمعنى: «**استولى**»، فبعضُهم قد يقرؤها بهذا اللَّفظِ «**استولى على العرشِ**».

والتَّحريف؛ أي: باللَّفظِ، ولا أقولُ: بالمعنى؛ لأنَّ المؤلِّفَ قال بالأوَّل: «**التَّأْوِيلُ**».

٣٦٠٢- كَلَّا وَلَا الإِشْكَالُ وَالتَّشْكِيكُ وَالـ ـوَقْفُ الَّذِي مَـا فِيـهِ مِـنْ عِرْفَـانِ

صحيحٌ، العلمُ ليس إشكالًا، الإنسانُ الذي يقولُ: «**أَشْكَلَتْ عَلَيَّ هذه المسألةُ**»

هل هو عالـمٌ؟ لا، إِذَنْ ليس الإشكالُ علمًا، فإذا قال قائلٌ: «**أَشْكَلَتْ عليَّ هذه المسألةُ**»، وهذا أيضًا من ديدنِ أهلِ التَّعطيل يقولون: هذه مشكلةٌ.

كذلك «**التَّشكيك**» بأن يُشَكِّكَ المُخَاطَبَ، يقول: يحتملُ كذا، ويحتملُ كذا، بدون ترجيحٍ.

الثَّالث: «**الوقف**» يقولُ: أنا مُتوقِّفٌ، ومعلومٌ أنَّ الوقفَ لا يدلُّ على العلمِ؛ لأنَّ المتوقِّفَ، إمَّا أن يكونَ جاهلًا بالأدلَّةِ وإمَّا أن تكونَ الأدلَّةُ عنده متكافئةً، فيتوقَّفُ في التَّرجيحِ.

إِذَنْ «**الإشكالُ**» بالنِّسبة للإنسانِ، و«**التَّشكيكُ**» بالنِّسبة لغيرِه، و«**الوقفُ**» حيرانٌ، وهذا الذي يتوقَّفُ أهونُ من الذي عنده إشكالٌ أو تشكيكٌ.

٣٦٠٣- هَذِي عُلُـومُكُمُ الَّتِـي مِـنْ أَجْلِهَـا ... عَادَيْتُمُونَـــا يَـــا أُولِي العِرْفَـــانِ

يعني: هذه علومُكم: التَّشكيكُ، والإشكالُ، والوقفُ، وحصرُ آراءِ الرِّجالِ، وهذه المسألةُ فيها كذا وكذا من الأقوالِ، ثُمَّ سَخِرَ بهم فقال: «**يَا أُولِي العِرْفَانِ**» هل مَنْ كانت هذه طريقَه يُعْتَبَرُ عارفًا؟ الجوابُ: أبدًا، بل هو من أجهلِ عبادِ الله؛ ولذا تَهَكَّمَ بهم فقال: «**يَا أُولِي العِرْفَانِ**»، وحُقَّ له أن يَتَهَكَّمَ بهم؛ لأنَّهم أهلٌ للتَّهكُّمِ، نسألُ اللهَ لنا ولهم الهدايةَ.

* * *

فصـــل

فِي عَقْدِ الهُدْنَةِ والأَمَانِ الوَاقِعِ بَيْنَ المُعطِّلَةِ وأَهْلِ الإِلْحَادِ حِزْبِ جِنْكِيزْ خَانِ

٣٦٠٤- يَا قَوْمُ صَالَحْتُمْ نُفَاةَ الذَّاتِ وَالـ ... أَوْصَافِ صُلْحًا مُوجِبًا لِأَمَانِ

٣٦٠٥- وَأَغَرْتُمُ وَهْنًا عَلَيْهِمْ غَارَةً ... قَعْقَعْتُمُ فِيهَا لَهُمْ بِشِنَانِ

٣٦٠٦- مَا كَانَ فِيهَا مِنْ قَتِيلٍ مِنْهُمُ ... كَلَّا وَلَا فِيهَا أَسِيرٌ عَانِي

٣٦٠٧- وَلَطَفْتُمُ فِي القَوْلِ أَوْ صَانَعْتُمُ ... وَأَتَيْتُمُ فِي بَحْثِكُمْ بِدِهَانِ

٣٦٠٨- وَجَلَسْتُمُ مَعَهُمْ مَجَالِسَكُمْ مَعَ الـ ... أُسْتَاذِ بِالآدَابِ وَالمِيزَانِ

٣٦٠٩- وَضَرَعْتُمُ لِلقَوْمِ كُلَّ ضَرَاعَةٍ ... حَتَّى أَعَارُوكُمْ سِلَاحَ الجَانِي

٣٦١٠- فَغَزَوْتُمُ بِسِلَاحِهِمْ لِعَسَاكِرِ الـ ... إِثْبَاتِ وَالآثَارِ والقرآن

٣٦١١- وَلِأَجْلِ ذَا صَانَعْتُمُوهُمْ عِنْدَ حَرْ ... بِكُمُ لَهُمْ بِاللُّطْفِ وَالإِذْعَانِ

٣٦١٢- وَلِأَجْلِ ذَا كُنْتُمْ مُخَانِيثًا لَهُمْ ... لَمْ تَنْفَتِحْ مِنْكُمْ لَهُمْ عَيْنَانِ

٣٦١٣- حَذَرًا مِنِ اسْتِرْجَاعِهِمْ لِسِلَاحِهِمْ ... فَتُرَوْنَ بَعْدَ السَّلْبِ كَالنِّسْوَانِ

الشَّرْحُ

أراد المؤلِّفُ -رحمه الله- في هذا الفصلِ أن يُبيِّنَ أنَّ بين أهلِ الإلحادِ والنُّفاةِ تشابهًا، فأهلُ الإلحادِ نَفَوْا ذاتَ الإلهِ ووصفَه، ولم يُقِرُّوا بالله عزَّ وجلَّ، والنُّفاةُ

أقرُّوا بالذَّاتِ ولكن سلبوها الأوصافَ، فصار الطَّرفان كلاهما مُتَّفقٌ على نفيِ الحقائقِ، لكن في الصِّفاتِ وذاك في الذَّاتِ، فإذَن هذه هدنةٌ، اجتمع الطَّرفان على أهل الإثباتِ وكفَّروهم، وقالوا: مُجسِّمَةٌ مُشَبِّهَةٌ إلى آخرِ الألقابِ التي لقَّبوا بها أهلَ الحقِّ كما لقَّبت أعداءُ الرُّسلِ الرُّسلَ بمثلِ ذلك، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذَّاريات:٥٢]، هكذا أعداءُ الرُّسلِ هم أعداءٌ لأتباعِ الرُّسلِ لا شكَّ.

إذَنْ صار بين أهلِ التَّعطيلِ وبين أهلِ الإثباتِ حربٌ، وبينهم وبين أهلِ الإلحادِ سِلْمٌ وهدنةٌ؛ ولذا يقولُ رحمه الله:

٣٦٠٤- يَا قَوْمُ صَالَحْتُمْ نُفَاةَ الذَّاتِ وَالـ أَوْصَافِ صُلْحًا مُوجِبًا لِأَمَانِ

قَوْلُهُ: «يَا قَوْمُ» الخطابُ للمعطِّلةِ.

قَوْلُهُ: «صَالَحْتُمْ نُفَاةَ الذَّاتِ وَالأَوْصَافِ» وهم المُلحدون الذين يُنكرون وجودَ الله عزَّ وجلَّ، ووجودَ صفاتِه، صالحتموهم صلحًا مُوجِبًا لأَمَانٍ، أي: بين المعطِّلةِ وبين أهلِ الإلحادِ.

٣٦٠٥- وَأَغَرْتُمُ وَهْنًا عَلَيْهِمْ غَارَةً قَعْقَعْتُمُ فِيهَا لَهُمْ بِشِنَانِ

يعني: أغرتم على أهلِ الإلحادِ لكنَّها غارةُ ضعفٍ لا غارةُ قوَّةٍ؛ لأنَّ أهلَ التَّعطيلِ يدَّعون أنَّهم هم الذين دفعوا المعتزلةَ ودفعوا أهلَ الإلحادِ وهم الذين أقاموا عليهم الحُجَّةَ، ولكن سَيُبيِّنُ المؤلِّفُ -رحمه الله- أنَّ هذه دعوى لا أصلَ لها ولا دليلَ عليها.

٣٦٠٦- مَـا كَـانَ فِيهَـا مِـنْ قَتِيـلٍ مِـنْهُمُ   كَـلَّا وَلَا فِيهَـا أَسِـيرٌ عَـانِي

يعني: أنَّ حربَكم عليهم لم تُفِدْ شيئًا، فلم تَقْتُلْ أحدًا من أهلِ الإلحادِ ولا فيها أسيرٌ عَانٍ؛ يعني: ولم تَأْسِرْ، إِذَنْ ما هي إلَّا قعقعةٌ كالذي يُخَبِّطُ بالشَّنِّ البالي من أجل أن يهربَ عدوُّه وليس عنده شيءٌ.

٣٦٠٧- وَلَطَفْـتُمُ فِي القَـوْلِ أَوْ صَـانَعْتُمُ   وَأَتَيْـتُمُ فِي بَحْـثِكُمْ بِـدِهَانِ

يعني: أنَّكم معهم تُلَطِّفونَ القولَ وأحيانًا تُصانعونهم، والمصانعةُ: الموافقةُ والمداهنةُ؛ ولهذا قال: «وَأَتَيْتُمُ فِي بَحْثِكُمْ بِدِهَانِ»؛ أي: مداهنون لهم، بينما يقولون في أهلِ السُّنَّةِ: إنَّهم حَشْوِيَّةٌ مُجَسِّمةٌ سُذَّج نوابتُ، ويصفونهم بصفاتِ العيبِ التي لا نهايةَ لها.

٣٦٠٨- وَجَلَسْتُمُ مَعَهُمْ مَجَالِسَكُمْ مَعَ الـ   أُسْـتَاذِ بِـالآدَابِ وَالمِيـزَانِ

اللهُ المستعانُ؛ يعني: أنَّكم جلستم معهم مجْلِسَ التِّلميذِ المتعلِّمِ من شيخِه.

٣٦٠٩- وَضَرَعْـتُمُ لِلقَـوْمِ كُـلَّ ضَرَاعَـةٍ   حَتَّـى أَعَـارُوكُمْ سِـلاحَ الجَـانِي

أي: تقرَّبتم إليهم وتَودَّدتم إليهم وصِرتم طَرْحَى بين أيدِيهم حتَّى أعاروكم سلاحَ الجاني لِـمَنْ؟ قال:

٣٦١٠- فَغَـزَوْتُمُ بِسِـلاحِهِمْ لِعَسَـاكِرِ الـ   إِثْبَـاتِ وَالآثَـارِ والقـرآن

يعني: أَعْطَوْكُم سِلاحًا غرتم به على أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ وأهلِ الحقِّ، إِذَنْ هؤلاء لا يصحُّ أن نقولَ إنَّهم حاربوا أهلَ الإلحادِ، بل يصحُّ أن نقولَ: إنَّهم تلاميذُ أهلِ الإلحادِ، أخذوا سلاحَهم وغَزَوْا به أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ.

٣٦١١- وَلِأَجْلِ ذَا صَانَعْتُمُوهُمْ عِنْدَ حَرْ بِكُمُ لَـهُمْ بِـاللُّطْفِ وَالإِذْعَـانِ

يعني: أنَّ أهلَ التَّعطيلِ إذا بحثوا مع أهلِ الإلحادِ يبحثون بحثَ المُصانِعِ كأنَّهم يَرَوْنَ أنفسَهم غيرَ قادرين على إقامةِ الحُجَّةِ عليهم، ويأخُذون أيضًا منهم ومن قواعِدِهم؛ ولهذا كان انتشارُ بدعةِ التَّعطيلِ بسبب تعريبِ كتبِ اليونانِ كما قال ذلك شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ في «الفتوى الحمويَّة»، قال: «لـمَّا عُرِّبَت الكتبُ اليونانيَّة والرُّوميَّة في عهد المأمون انتشرت البدعُ»[1]؛ لأنَّهم أخذوا من مبادئِهم ومن نظريَّاتِهم.

٣٦١٢- وَلِأَجْلِ ذَا كُنْتُمْ مَخَانِيثًا لَـهُمْ لَـمْ تَنْفَـتِحْ مِـنْكُمْ لَـهُمْ عَيْنَـانِ

قَوْلُهُ: «كُنْتُمْ مَخَانِيثًا لَـهُمْ» لماذا؟ الجوابُ: من شدَّةِ الحياءِ، والغالبُ أنَّ المُخَنَّثَ يَسْتَحْيِي أن يفتحَ عينيه على مَنْ كان مُخَنَّثًا له؛ فلهذا يقولُ: «لَـمْ تَنْفَتِحْ مِنْكُمْ لَـهُمْ عَيْنَانِ».

ثُمَّ ذكر أنَّ هؤلاء النُّفاةَ المعطِّلةَ مخانيثُ لأهلِ الإلحادِ، والمخانيثُ ليس معناها الذين تُفْعَلُ بهم الفاحشةُ، لكن الذين صاروا بمنزلة الإناثِ عند هؤلاء، و معلومٌ أنَّ النِّساءَ بالنِّسبة للرِّجال ما هُنَّ إلَّا من أضعفِ الحيوانِ كما هو مُشَاهَدٌ ومعروفٌ.

فإن قال صاحبُ الإثباتِ: إنِّي أُثْبِتُ الصِّفاتِ لله عزَّ وجلَّ على الوجهِ اللَّائقِ، به، قالوا له: أنت كافرٌ؛ لأنَّك جَعَلْتَ اللهَ جسمًا، نسألُ اللهَ العافيةَ.

ومن المعلومِ أنَّ لفظَ الجسمِ لم يَرِدْ في القرآنِ ولا السُّنَّةِ نفيُه ولا إثباتُه، فالواجبُ علينا في هذا اللَّفظِ أن نتوقَّفَ وألَّا نثبتَه ولا ننفيَه، أمَّا بالنِّسبةِ لمعناه

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٨٤).

فنسألُ هذا الذي قال: «إنَّه ليس بجسمٍ» ماذا تريدُ؟ أتريدُ أنَّه ليس قَائِمًا بنفسِه يفعلُ ما يريدُ ويتكلَّمُ ويستوي على العرشِ، ويأتي يومَ القيامةِ للفصلِ بين عبادِه أم تريدُ أنَّه ليس بجسمٍ مماثلٍ للأجسامِ؟ إن أراد الثَّانيَ فحقٌّ، وإن أراد الأوَّلَ فباطلٌ؛ لأنَّنا نعلمُ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ له ذاتٌ مُتَّصفةٌ بالصِّفاتِ اللَّائقةِ به عزَّ وجلَّ.

٣٦١٣- حَذَرًا مِنِ اسْتِرْجَاعِهِمْ لِسِلاحِهِمْ ... فَـتُرَوْنَ بَعْـدَ السَّـلْبِ كَالنِّسْـوَانِ

وهذا غريبٌ! ابنُ القيِّمِ يُشَدِّدُ عليهم فيقول: إنَّكم تُصانعونهم في هذا حذرًا من استرجاعِهم لسلاحِهم فَتُرَوْنَ بَعْدَ السَّلبِ كالنِّسوانِ، إذا سَلَبُوا السِّلاحَ منكم لم يكن معكم سلاحٌ، فتكونوا بعد أخذِ السِّلاحِ منكم مثلَ النِّساءِ.

* * *

٣٦١٤- وَبَحَثْتُمُ مَعَ صَاحِبِ الإِثْبَاتِ بِالتْـ ... ـتكْفِيرِ وَالتَّضْـلِيلِ وَالعُـدْوَانِ

٣٦١٥- وَقَلَبْـتُمُ ظَهْـرَ المِجَـنِّ لَـهُ وَأَجْـ ... ـلَبْتُمْ عَلَيْـهِ بِعَسْـكَرِ الشَّـيْطَانِ

٣٦١٦- وَاللهِ هَـذِي رِيبَـةٌ لا يَخْتَفِـي ... مَضْـمُونُهَا إِلَّا عَـلَى الثِّـيرَانِ

٣٦١٧- هَـذَا وَبَيْـنَهُمَا أَشَـدُّ تَفَـاوُتٍ ... فِئَتَـانِ فِي الـرَّحْمَنِ يَخْتَصِـمَانِ

٣٦١٨- هَـذَا نَفَـى ذَاتَ الإِلَـهِ وَوَصْـفَهُ ... نَفْيًـا صَرِيحًـا لَـيْسَ بِـالكِتْمَانِ

٣٦١٩- لَكِـنَّ ذَا وَصَـفَ الإِلَـهَ بِكُـلِّ أَوْ ... صَـافِ الكَـمَالِ المُطْلَـقِ الرَّبَّـانِي

٣٦٢٠- وَنَفَى النَّقَائِصَ وَالعُيُوبَ كَنَفْيِهِ التْـ ... ـتَشْبِيهَ لِلـرَّحْمَنِ بِالإِنْسَـانِ

٣٦٢١- فَـلِأَيِّ شَيْءٍ كَـانَ حَـرْبُكُمْ لَـهُ ... بِالـحَدِّ دُونَ مُعَطِّـلِ الـرَّحْمَنِ

٣٦٢٢- قُلْنَـا نَعَـمْ هَـذَا المُجَسِّـمُ كَـافِرٌ ... أَفَكَـانَ ذَلِـكَ كَامِـلَ الإِيـمَانِ

٣٦٢٣- لا تَنْطَفِـي نِـيرَانُ غَـيْظِكُمُ عَـلَى هَـذَا المُجَسِّـمِ يَـا أُولِي النِّـيرَانِ

٣٦٢٤- فَـاللهُ يُوقِـدُهَا وَيُصْـلِي حَرَّهَـا يَـوْمَ الحِسَـابِ مُحَـرِّفَ القُـرْآنِ

الشـرحُ

٣٦١٤- وَبَحَثْتُمُ مَعَ صَاحِبِ الإِثْبَاتِ بِالتْـ ـتكْفِيرِ وَالتَّضْـلِيلِ وَالعُـدْوَانِ

هم يُكَفِّرونَ أهلَ الإثباتِ، يقولون: إِنَّك إذا أَثْبَتَّ لله اليدَ أو العينَ فقد شَبَّهْتَه بالمخلوقاتِ، وهذا كفرٌ، ويُصَرِّحونَ بذلك، بينما هم مع الفلاسفة يُداهنون ويأخذون منهم حثالةَ أفكارِهم.

٣٦١٥- وَقَلَبْـتُمُ ظَهْـرَ المِجَـنِّ لَـهُ وَأَجْـ ـلَبْتُمْ عَلَيْـهِ بِعَسْـكَرِ الشَّـيْطَانِ

قَوْلُهُ: «**وَقَلَبْتُمُ ظَهْرَ المِجَنِّ لَهُ**»؛ يعني: أَنَّكم بعد أن كنتم تُسالمون له قلبتم ظهرَ المِجَنِّ فكنتم أعداءً لصاحبِ الإثباتِ.

قَوْلُهُ: «**وَأَجْلَبْتُمْ عَلَيْهِ بِعَسْكَرِ الشَّيْطَانِ**»؛ يعني: ضممتم إليكم في محاربتِه عسكرَ الشَّيطانِ.

٣٦١٦- وَاللهِ هَـذِي رِيبَـةٌ لا يَخْتَفِـي مَضْـمُونُهَا إِلَّا عَـلَى الثِّـيرَانِ

يعني: هذا الذي صنعتم مُوجِبٌ للرِّيبَةِ؛ بأَنَّكم على مِنْهَاجِ هؤلاء الفلاسفةِ وإن أظهرتم أَنَّكم أعداءٌ لهم.

٣٦١٧- هَـذَا وَبَيْـنَهُمَا أَشَـدُّ تَفَـاوُتٍ فِئَتَـانِ فِي الـرَّحْمَنِ يَخْتَصِـمَانِ

هذا وبينهما أشدُّ تفاوُتٍ بين أهلِ الحقِّ وأهلِ الباطلِ من أهلِ التَّعطيلِ، أَشَدُّ تفاوتٍ، يعني: أعظمُ تفاوتٍ يكونُ بين مُفْتَرِقَيْن وما بين أهلِ الحقِّ وأهلِ الباطلِ،

ثُمَّ ذَكَرَ الفرقَ فقال:

٣٦١٨- هَـذَا نَفَـى ذَاتَ الإِلَـهِ وَوَصْـفَهُ نَفْيًـا صَرِيحًـا لَـيْسَ بِـالكِتْمَانِ

٣٦١٩- لَكِـنَّ ذَا وَصَـفَ الإِلَـهَ بِكُـلِّ أَوْ صَـافِ الكَـمَالِ المُطْلَـقِ الرَّبَّـانِي

وهذا تفاوتٌ عظيمٌ، ففرقٌ بين مَنْ يُثْبِتُ اللهَ عزَّ وجلَّ بأوصافِه الكاملةِ وهم السَّلفُ التَّابعون أهلُ السُّنَّةِ، وبين مَنْ يُنْكِرُ الرَّحمنَ وأوصافَه، وهم الفلاسفةُ وأهلُ الإلحادِ، ومعلومٌ أنَّ نفيَ الذَّاتِ يستلزمُ نفيَ الصِّفاتِ؛ لأنَّه إذا لم تكن ذاتٌ لم تكن صفاتٌ، فبينهما كما بين المشرقِ والمغربِ، ومع ذلك تُداهنون هؤلاء الذين ينكرون ذاتَ الله وصفاتِه وتُعَادون بصراحةٍ ووقاحةٍ مَنْ يثبتون لله الأوصافَ والأسماءَ.

٣٦٢٠- وَنَفَى النَّقَائِصَ وَالعُيُوبَ كَنَفْيِهِ التْـ ـتَشْبِيهَ لِلـرَّحْمَنِ بِالإِنْسَـانِ

فلهم نفيان؛ أي: لأهلِ السُّنَّة نفيان: النَّفيُ الأوَّلُ: نفيُ النَّقائصِ والعيوبِ، والنَّفيُ الثَّاني: نفيُ التَّماثُلِ بين الخالقِ والمخلوقِ.

٣٦٢١- فَـلِأَيِّ شَيْءٍ كَـانَ حَـرْبُكُمْ لَـهُ بِالـحَدِّ دُونَ مُعَطِّـلِ الـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «بِالـحَدِّ»، وفي نسخةٍ: «بِالجِدِّ»، ونسخةُ «بِالجِدِّ» أحسنُ.

يعني: لأيِّ شيءٍ تحاربون يا أهلَ التَّعطيلِ تحاربون صاحبَ السُّنَّةِ والآثارِ دون مُعَطِّلِ الرَّحمنِ من أهلِ الفلسفةِ والإلحادِ؟

٣٦٢٢- قُلْنَـا نَعَـمْ هَـذَا المُجَسِّـمُ كَـافِرٌ أَفَكَـانَ ذَلِـكَ كَامِـلَ الإِيـمَانِ

يعني: أنَّنا نُجيبُ عنكم فنقولُ: نعم، كنتم حربًا للمُثْبِتِ؛ لأنَّه على زعمِكم مُجَسِّمٌ كافرٌ، فهم يقولون: كُلُّ مُثْبِتٍ للصِّفاتِ مُجَسِّمٌ، وكُلُّ مُجَسِّمٍ كافرٌ، فالمثبتُ

كافرٌ، لكن كُلُّ هذه المقدِّماتِ والنِّتيجة كَذِبٌ، فليس كُلُّ مثبتٍ للصِّفاتِ مُجَسِّمًا؛ لأنَّ إثباتَ الصِّفاتِ لا يستلزمُ التَّجسيمَ عقلًا.

فها نحن نقولُ: يومٌ شديدٌ، حَرٌّ شديدٌ، بردٌ شديدٌ، ظلمةٌ شديدةٌ، وكُلُّ هذه غيرُ أجسامٍ، فهذه أوقاتٌ وأزمانٌ، ثُمَّ نقولُ بالنِّسبة للخالقِ عزَّ وجلَّ: إذا وصفناه بالصِّفاتِ فإن لَزِمَ من هذه الصِّفاتِ أن يكونَ جسمًا فاللَّازمُ للحقِّ حقٌّ، وإن لم يَلْزَمْ فإنَّه لا يسوغُ لكم أن تلزمونا بشيءٍ لم نلتزم به وليس لازمًا لصفاتِه.

ثُمَّ نقولُ: ثالثًا: الجسم الذي نفَيْتُم عن الله وأجلبتم عليه بالخيلِ والرَّجِلِ ماذا تريدون به؟ أتريدون به جسمًا مركَّبًا كما تُرَكَّبُ الأجسامُ المخلوقةُ فهذا منتفٍ عن الله أم تريدون به ذاتًا منفصلةً عن الخلقِ بَائِنَةً عن الخلقِ مُتَّصفةً بالصِّفاتِ اللَّائقةِ بها فهذا حقٌّ، فإنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- ذاتٌ بلا شَكٍّ، قَائِمَةٌ بنفسِها بَائِنَةٌ من الخلقِ، متَّصفةٌ بالصِّفاتِ اللَّائقةِ بها، ومع هذا انظر كيف هذا الدَّجَل والتَّمويه: كُلُّ مُثبتٍ مُجَسِّمٌ، وكُلُّ مُجَسِّمٌ كافرٌ، كيف هذا؟ من قال هذه القاعدة؟!

٣٦٢٣- لا تَنْطَفِي نِيرَانُ غَيْظِكُمْ عَلَى ... هَذَا المُجَسِّمِ يَا أُولِي النِّيرَانِ

نعم؛ أنتم دائمًا في غيظٍ عظيمٍ وحَنَقٍ شديدٍ على هذا المُجَسِّمِ؛ ولهذا إذا أَثْبَتَ أحدٌ من صفاتِ الله ما أَثْبَتَهُ اللهُ لنفسِه شَبَّتْ نيرانُ الغيظِ عندهم والبغضاءُ لهذا المُثْبِتِ المُجَسِّمِ على زعمِهم.

٣٦٢٤- فَاللهُ يُوقِدُهَا وَيُصْلِي حَرَّهَا ... يَوْمَ الحِسَابِ مُحَرِّفَ القُرْآنِ

ومَنْ هو مُحَرِّفُ القرآنِ؟ هم أهلُ التَّعطيلِ، فأهلُ التَّعطيلِ -والله- حَرَّفُوا القرآنَ، أَثْبَتَ اللهُ لنفسِه الصِّفةَ، وقالوا: لا نُثْبِتُها، حرَّفوا القرآنَ عن مواضعِه،

وقالوا: المرادُ بكذا كذا وكذا ممَّا لا يُريدُه اللهُ، فمن هم أولى صِلِيًّا بالنَّارِ؟ الجوابُ: هم أهلُ التَّحريفِ.

* * *

٣٦٢٥- يَا قَوْمَنَا لَقَدِ ارْتَكَبْتُمْ خُطَّةً ... لَمْ يَرْتَكِبْهَا قَطُّ ذُو عِرْفَانِ

٣٦٢٦- وَأَعَنْتُمُ أَعْدَاءَكُمْ بِوِفَاقِكُمْ ... لَهُمُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْبُطْلَانِ

٣٦٢٧- أَخَذُوا نَوَاصِيَكُمْ بِهَا وَلِحَاكُمُ ... فَغَدَتْ تَجُرُّ بِذِلَّةٍ وَهَوَانِ

٣٦٢٨- قُلْتُمْ بِقَوْلِهِمُ وَرُمْتُمْ كَسْرَهُمْ ... أَنَّى وَقَدْ غَلَقُوا لَكُمْ بِرِهَانِ

٣٦٢٩- وَكَسَرْتُمُ البَابَ الَّذِي مِنْ خَلْفِهِ ... أَعْدَاءُ رُسْلِ اللهِ وَالإِيمَانِ

٣٦٣٠- فَأَتَى عَدُوٌّ مَا لَكُمْ بِقِتَالِهِمْ ... وَبِحَرْبِهِمْ أَبَدَ الزَّمَانِ يَدَانِ

٣٦٣١- فَغَدَوْتُمُ أَسْرَى لَهُمْ بِحِبَالِهِمْ ... أَيْدِيكُمُ شُدَّتْ إِلَى الأَذْقَانِ

٣٦٣٢- حَمَلُوا عَلَيْكُمْ كَالسِّبَاعِ اسْتَقْبَلَتْ ... حُمُرًا مُعَقَّرَةً ذَوِي أَرْسَانِ

٣٦٣٣- صَالُوا عَلَيْكُمْ بِالَّذِي صُلْتُمْ بِهِ ... أَنْتُمْ عَلَيْنَا صَوْلَةَ الفُرْسَانِ

٣٦٣٤- لَوْلَا تَحَيُّزُكُمْ إِلَيْنَا كُنْتُمُ ... وَسْطَ العَرِينِ مُمَزَّقِي اللُّحْمَانِ

٣٦٣٥- لَكِنْ بِنَا اسْتَنْصَرْتُمُ وَبِقَوْلِنَا ... صُلْتُمْ عَلَيْهِمْ صَوْلَةَ الشُّجْعَانِ

٣٦٣٦- وَالَيْتُمُ الإِثْبَاتَ إِذْ صُلْتُمْ بِهِ ... وَعَزَلْتُمُ التَّعْطِيلَ عَزْلَ مُهَانِ

٣٦٣٧- وَأَتَيْتُمُ تَغْزُونَنَا بِسَرِيَّةٍ ... مِنْ عَسْكَرِ التَّعْطِيلِ وَالكُفْرَانِ

٣٦٣٨- مَنْ ذَا بِحَقِّ اللهِ أَجْهَلُ مِنْكُمُ ... وَأَحَقُّنَا بِالجَهْلِ وَالعُدْوَانِ

٣٦٣٩- تَـاللهِ مَـا يَـدْرِي الفَتَـى بِمُصَـابِهِ وَالقَلْـبُ تَحْـتَ الخَتْمِ وَالخِـذْلانِ

الشـــرحُ

٣٦٢٥- يَـا قَوْمَنَـا لَقَـدِ ارْتَكَبْـتُمْ خُطَّـةً لَـمْ يَرْتَكِبْهَـا قَـطُّ ذُو عِرْفَـانِ

٣٦٢٦- وَأَعَنْـتُمُ أَعْـدَاءَكُمْ بِوِفَـاقِكُمْ لَـهُمُ عَـلَى شَيْءٍ مِـنَ الـبُطْلانِ

قَوْلُهُ: «يَا قَوْمَنَا» يريدُ بذلك أهلَ التَّعطيلِ، وهم قومُه وإن كانوا على غير المِلَّةِ التي نحن عليها؛ أي: على غيرِ المنهجِ الذي نحن عليه وهم على الإسلامِ لا شَكَّ إِلَّا مَنْ خرج ببدعتِه عن الإسلامِ، ولكنَّ وصفَ القوميَّةِ لا يستلزمُ الوفاقَ في الدِّين، فهاهمُ الأنبياء يقولون لأقوامِهم: «يا قوم» مع أنَّهم كُفَّارٌ، لكن ينادونهم بالقوميَّةِ من أجل أنَّهم مُتَّفقون معهم في القبيلةِ والقرابةِ.

٣٦٢٧- أَخَذُوا نَوَاصِـيَكُمْ بِهَـا وَلِـحَاكُمُ فَغَـدَتْ تَجُـرُّ بِذِلَّـةٍ وَهَـوَانِ

قَوْلُهُ: «لِـحَاكُمُ» «اللِّحَى» جمعُ «لِـحْيَةٍ».

يعني: أمسكوا الواحدَ من ناصيتِه ولـحيتِه وجَرُّوه يقودونه لِـمَا يُريدون فأوقعوهم في الهلاكِ والعياذُ بالله.

٣٦٢٨- قُلْتُمْ بِقَوْلِـهِمُ وَرُمْـتُمْ كَسْـرَهُمْ أَنَّـى وَقَـدْ غَلَقُـوا لَكُـمْ بِرِهَـانِ

قَوْلُهُ: «قُلْتُمْ بِقَوْلِـهِمْ وَرُمْتُمْ كَسْرَهُمْ»؛ يعني: أَنَّكم قلتم بقولهم ثُمَّ ادَّعَوْتُم أَنَّكم تريدونُ بهذا كَسْرَهُمْ.

وَقَوْلُهُ: «رُمْتُمْ كَسْرَهُمْ»؛ يعني: قَصدتم كسرَهم؛ ولهذا يدَّعِي أهلُ التَّعطيلِ أنَّهم حربٌ للفلاسفةِ وهم في الحقيقةِ موافقون لـهم من بعضِ الوجوهِ، فأهلُ

التَّعطيلِ عطَّلوا الذَّاتَ والصِّفاتِ، وهم عطَّلوا الصِّفاتِ إمَّا كُلِّيَّةً وإمَّا جزئيَّةً، والسَّلفُ الصَّالحُ أثبتوا الذَّاتَ وأثبتوا الصِّفاتِ.

قَوْلُهُ: «أَنَّى وَقَدْ غَلَقُوا لَكُمْ بِرِهَانِ»؛ يعني: أَنَّى تكسروهم وقد غلقوا لكم برِهَانِ، والرَّسُولُ ﷺ يقولُ: «لَا يَغْلَقُ الرَّهْنُ مِنْ صَاحِبِهِ»[1]، لكن هم ارتهنوكم رهنًا أغلقوكم به، وصرتم لا تتمكَّنون من التَّصرُّف كما تشاؤون.

٣٦٢٩- وَكَسَرْتُمُ البَابَ الَّذِي مِنْ خَلْفِهِ ... أَعْدَاءُ رُسْلِ اللهِ وَالإِيمَانِ

٣٦٣٠- فَأَتَى عَدُوٌّ مَا لَكُمْ بِقِتَالِهِمْ ... وَبِحَرْبِهِمْ أَبَدَ الزَّمَانِ يَدَانِ

هم فتحوا البابَ لأهلِ التَّعطيلِ المحضِ، فمثلًا: أهلُ التَّعطيلِ أنكروا وجودَ الله عزَّ وجلَّ، ووجودَ صفاتِه، وأعني بذلك: الفلاسفةَ الذين هم أهلُ التَّخييلِ، قالوا: إنَّ اللهَ ليس موجودًا، وليس هناك صفاتٌ، وليس هناك جنَّةٌ ولا نارٌ، كُلُّ ما ذكره الرُّسلُ من ذلك فهو تخييلٌ لا حقيقةَ له، أرادوا بذلك إصلاحَ الخلقِ؛ لأنَّ النَّاسَ إذا قيل لهم: إنَّ لكم ربًّا عظيمًا ينتقمُ من المجرمِ ويُثِيبُ الطَّائعَ، وإنَّ لكم ثوابًا جزيلًا إذا أطعتم وهو الجنَّةُ التي لا تفنى ولا تبيدُ، وإنَّ لكم عذابًا أليمًا إذا عصيتم وهو النَّارُ، فإنَّ النَّاسَ سوف يستجيبون؛ فلهذا كان الرُّسلُ على زعمِهم عباقرةً، وضعوا خططًا ومنهجًا، وأرادوا من النَّاسِ أن يسلكوا هذا المنهجَ، وقالوا: إنَّ هناك ربًّا وجزاءً ويومًا آخرَ ... إلخ.

فقال هؤلاء الذين سلكوا هذا المسلكَ؛ قالوا لأهلِ التَّعطيلِ: أنتم حرَّفتم نصوصَ الصِّفاتِ، وقلتم: ليس لله وجهٌ، ولا يدٌ ولا عينٌ ولا قَدَمٌ، وليس له استواءٌ، ولا نزولٌ إلى السَّماءِ الدُّنيا، ولا إتيانٌ ... إلخ، فأنتم أوَّلتم في هذا، ونحن

(١) أخرجه البيهقي (٦/ ٦٥، رقم ١١٢١٠).

أوَّلنا في هذا، أيُّ فرقٍ بيننا؟ فقال لهم أهلُ التَّعطيلِ الذين يقولون باليومِ الآخرِ قالوا: نحن عَلِمْنَا بأنَّ الرُّسلَ جاؤوا بإثباتِ اليوم الآخِرِ، انظر الجوابَ المفحمَ، «**عَلِمْنَا بأنَّ الرُّسلَ جاؤوا بإثباتِ اليومِ الآخِرِ**»، وأنَّ الشُّبْهَةَ المانعةَ منه فاسدةٌ، أيُّ شيءٍ يمنعُ من البعثِ؟ الجوابُ: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس:٧٨]، شبهةٌ فاسدةٌ أفسدها اللهُ عزَّ وجلَّ، فإذا جاءت الرُّسلُ به والشُّبهةُ المانعةُ منه فاسدةٌ لَزِمَ القولُ بموجَبِهِ.

وهذا جوابٌ صحيحٌ؛ ولهذا كان قولُ أهلِ التَّعطيلِ في هذا البابِ قولًا صحيحًا، فقال أهلُ السُّنَّةِ: إنَّ إجابتَكم للفلاسفةِ أهلِ التَّخييلِ إجابةٌ صحيحةٌ، ولكنَّنا نحن نُلزمكم بها أن تقولوا بالصِّفاتِ؛ لأنَّنا نعلمُ أنَّ الرُّسلَ جاءت بإثباتِ الصِّفاتِ لله عزَّ وجلَّ، وهذا وِزَانُ قولِهم: «**إنَّ الرُّسلَ جاءت بإثباتِ المعنى**»، وقد علمنا فسادَ الشُّبهةِ المانعةِ منه، ما هي الشُّبهةُ المانعةُ منه على زعمِ أهلِ التَّعطيلِ؟ التَّمثيلُ والتَّجسيمُ وما أشبه ذلك، وهذه الشُّبهةُ فاسدةٌ، فوَجَبَ القولُ بموجَبِهِ.

فصار دليلُ أهلِ السُّنَّةِ على أهلِ التَّعطيلِ في إثباتِ الصِّفاتِ كدليلِ أهلِ التَّعطيلِ على أهلِ الفلاسِفة والتَّخييلِ في إثباتِ المعادِ.

هم لـمَّا أنكروا الصِّفاتِ وهي في القُرآنِ أكثرُ، فَذِكْرُ الصِّفاتِ في القُرآنِ أكثرُ وتقريرُها أَثْبَتُ، لـمَّا أنكرها أهلُ التَّعطيلِ، قال الفلاسفةُ وأهلُ التَّخييلِ: أنتم أيُّها المعطِّلةُ أبحتم لأنفسِكم تأويلَ آياتِ الصِّفاتِ وإنكارَ مدلولِها فلماذا تُنكرون علينا تأويلَ نصوصِ المعادِ، فنحن وأنتم على حدٍّ سواء؛ لأنَّ البابَ واحدٌ، فكلاهما أمرٌ غيبيٌّ، فإذا كانت عقولُكم لا تتحمَّلُ إثباتَ هذه الصِّفاتِ لله عزَّ وجلَّ فإنَّ عقولَنا لا تتحمَّلُ إثباتَ المعادِ، فإمَّا أن توافقونا، وإمَّا أن توافقوا السَّلفَ، اطَّردوا البابَ، أَمَّا أن تتناقضوا فإنَّ هذا ليس من شأنِ العلماءِ.

فانظُر كيف فَتَحَ أهلُ التَّعطيلِ البابَ لأهلِ الفلسفةِ والتَّعطيلِ المحض الذين لا يؤمنون بربٍّ ولا جزاءٍ، إِذَنْ الذي فَتَحَ البابَ أهلُ التَّعطيلِ؛ لأنَّ أهلَ التَّخييلِ ألزموهم بأن يقولوا بإنكارِ المعادِ كما قالوا بإنكارِ الصِّفاتِ؛ ولهذا قال المؤلِّفُ رحمه الله:

٣٦٣١- فَغَدَوْتُمُ أَسْرَى لَهُمْ بِحِبَالِهِمْ أَيْدِيكُمُ شُدَّتْ إِلَى الأَذْقَانِ

وكيف تكونُ اليدُ إذا شُدَّتْ إلى الأذقانِ؟ الجوابُ: لا يستطيعُ الإنسانُ أن يتحرَّكَ، فأنتم الآن لهم أسرى، أيديكم شُدَّتْ إلى الأذقانِ.

٣٦٣٢- حَمَلُوا عَلَيْكُمْ كَالسِّبَاعِ اسْتَقْبَلَتْ حُمُرًا مُعَقَّرَةً ذَوِي أَرْسَانِ

وهذا تشبيهٌ بليغٌ؛ يعني: أنَّ الفلاسفةَ والملاحدةَ حملوا عليكم كحملِ السِّبَاعِ على حُمُرٍ مُعَقَّرةٍ مُرَسَّنَةٍ، فالحمارُ المُعَقَّرُ المُرَسَّنُ إذا حَمَلَ عليه السَّبُعُ لا يستطيعُ أن يفعلَ شيئًا، يأكلُه السَّبُعُ أكلةً واحدةً، ولا يستطيعُ أن يدافعَ عن نفسِه؛ ولهذا حَمَلَ أهلُ التَّخييلِ «**الفلاسفةُ**» على أهلِ التَّعطيلِ حملةً لا يستطيعون ردَّها؛ لأنَّهم يقولون لهم: يلزمكم أن تقولوا بتأويلِ آياتِ المعادِ وتحريفِها كما حرَّفتم آياتِ الصِّفاتِ.

٣٦٣٣- صَالُوا عَلَيْكُمْ بِالَّذِي صُلْتُمْ بِهِ أَنْتُمْ عَلَيْنَا صَوْلَةَ الفُرْسَانِ

صَالَ فلاسفةُ التَّخييلِ على أهلِ التَّعطيلِ بمثل الذي صَالَ به علينا أهلُ التَّعطيلِ؛ لأنَّ أهلَ التَّعطيلِ صالوا علينا فقالوا: لا يمكنُ أن نُثْبِتَ الصِّفاتِ؛ لأنَّ إثباتَها يستلزمُ التَّمثيلَ، هذه شبهتُهم، وأولئك صالوا عليهم فقالوا: إذا كنتم أبحتم لأنفسِكم أن تؤوِّلوا أو تُحرِّفوا آياتِ الصِّفاتِ فأبيحوا لأنفسِكم أن تؤوِّلوا آياتِ المعادِ و تُحرِّفوها وإلَّا فأنتم متناقضون.

٣٦٣٤- لَــوْلَا تَحَيُّــزُكُمْ إِلَيْنَــا كُنْــتُمُ   وَسْــطَ العَــرِينِ مُمَزِّقِــي اللُّحْــمَانِ

٣٦٣٥- لَكِــنْ بِنَــا اسْتَنْصَــرْتُمُ وَبِقَوْلِنَــا   صُــلْتُمْ عَلَــيْهِمُ صَــوْلَةَ الشُّــجْعَانِ

بأيِّ شيءٍ صالوا عليهم؟ الجوابُ: بما نقولُه نحن، قال أهلُ التَّعطيلِ لأهلِ التَّخييلِ «**الفلاسفة**»: نحن قد عَلِمْنَا بأنَّ الرُّسلَ جاءت بإثباتِ المعادِ وأنَّ الشُّبهةَ المانعةَ منه فاسدةٌ فَلزِمَ القولُ بموجَبِه، نحن -أيضًا- قُلنا لأهلِ التَّعطيلِ كما قالوا هم لأهلِ التَّخييل، قلنا: قد عَلِمْنَا بأنَّ الرُّسلَ جاءت بإثباتِ الصِّفاتِ وقد عَلِمْنَا بأنَّ الشُّبهةَ المانعةَ منه فاسدةٌ فَلزِمَ القولُ بموجَبِه.

قَوْلُهُ: «**لَكِنْ بِنَا اسْتَنْصَرْتُمْ وَبِقَوْلِنَا صُلْتُمْ عَلَيْهِمْ**» ما الذي قلناه؟ نحن قلنا لهم: قد عَلِمْنَا بأنَّ الرُّسلَ جاءت بإثباتِ الصِّفاتِ، وأنَّ الشُّبهةَ المانعةَ منه فاسدةٌ فَلزِمَ القولُ بموجَبِهِ، هم قالوا نفسَ هذا القولِ لأهلِ الإلحادِ «**للفلاسفةِ**» المنكرين للمعادِ قالوا: قد عَلِمْنَا بأنَّ الرُّسلَ جاءت بإثباتِ المعادِ، وأنَّ الشُّبهةَ المانعةَ منه فاسدةٌ فلَزِمَ القولُ بموجَبِهِ، فصالوا عليهم بما صلنا به عليهم، إِذَنْ استنصروا عليهم بقولِنا وسلاحِنا، فلولا أنَّ اللهَ قَيَّضَنا لهم ما استطاعوا أن يردُّوا قولَ هؤلاء.

٣٦٣٦- وَالَيْــتُمُ الإِثْبَــاتَ إِذْ صُــلْتُمْ بِــهِ   وَعَــزَلْتُمُ التَّعْطِيــلَ عَــزْلَ مُهَــانِ

يعني: أنَّهم أخذوا بالإثباتِ إذا كانت الحُجَّةُ لهم، وعزلوا التَّعطيلَ؛ يعني: أخذوا الإثباتَ وعزلوا التَّعطيلَ عزلَ مُهَانٍ، وهذا بالنِّسبة للمعادِ، فإنَّ أهلَ التَّعطيلِ بالنِّسبة للمعادِ تولَّوا الإثباتَ وعزلوا النَّفيَ والتَّعطيلَ، فقالوا: نحن نؤمنُ بأنَّ نصوصَ المعادِ حقٌّ على حقيقتِها، ونُثْبِتُها على حقيقتِها، ونقولُ: في الدَّارِ الآخرةِ جَنَّةٌ ونارٌ، وفي الجنَّةِ نخلٌ ورمَّانٌ وفاكهةٌ وأنهارٌ، وفي النَّارِ عذابٌ إلى آخرِ

ما جاء به الكتابُ والسُّنَّةُ، فهم وَلَّوا الإثباتَ إذ صالوا به وعزلوا التَّعطيلَ حين صولهم بالإثباتِ، وهذا بالنِّسبة لنصوصِ المعادِ.

٣٦٣٧- وَأَتَيْـــتُمُ تَغْزُونَنَـــا بِسَـــرِيَّةٍ   مِـنْ عَسْـكَرِ التَّعْطِيـلِ وَالكُفْـرَانِ

قَوْلُهُ: «**وَأَتَيْتُمُ تَغْزُونَنَا بِسَرِيَّةٍ**»؛ أي: أتيتم تغزوننا بسريَّةٍ دون الجيشِ.

قَوْلُهُ: «**مِنْ عَسْكَرِ التَّعْطِيلِ وَالكُفْرَانِ**»؛ يعني: بذلك أنَّ قولَ أهلِ التَّعطيلِ في الصِّفاتِ جزءٌ من قولِ أهلِ الإلحادِ؛ لأنَّ أهلَ الإلحادِ أنكروا اللهَ وأنكروا الصِّفاتِ وأنكروا المعادَ، وأهلَ التَّعطيلِ أثبتوا المعادَ وأثبتوا وجودَ الله وأنكروا الصِّفاتِ، فأَتَوْا بسريَّةٍ إذ أنَّهم أنكروا جزءًا واحدًا من ثلاثةِ أجزاء؛ ولهذا قال:

٣٦٣٨- مَـنْ ذَا بِحَـقِّ الله أَجْهَـلُ مِـنْكُمُ   وَأَحَقُّنَـا بِالجَهْـلِ وَالعُـدْوَانِ

الجوابُ: هم أجهلُ؛ لأنَّهم مُتَناقِضون؛ يعني: انظر إلى الطَّردِ، فأهلُ التَّخييلِ والملاحدةِ قولُهم مُطَّردٌ؛ لأنَّهم أنكروا الحقائقَ هنا وهناك، أنكروا الحقائقَ بالنِّسبةِ لله عزَّ وجلَّ وصفاتِه وبالنِّسبةِ للمعادِ، وهؤلاء أنكروا الحقائقَ بالنِّسبةِ لصفاتِ الله وأثبتوها بالنِّسبةِ للمعادِ، فكانوا متناقِضين، والسَّلفُ الصَّالحُ أثبتوا الحقائقَ لله وصفاتِه وللمَعَادِ.

إِذَنْ الاطِّرادُ في الإثباتِ عند السَّلفِ وفي الإنكارِ عند الفلاسفةِ وأهلِ التَّخييلِ، والتَّناقضُ عند أهلِ التَّعطيلِ للصِّفاتِ.

٣٦٣٩- تَـالله مَـا يَـدْرِي الفَتَـى بِمُصَـابِهِ   وَالقَلْـبُ تَحْـتَ الخَـتْمِ وَالخِـذْلانِ

صدَق رحمه اللهُ، الفتى لا يعرفُ المصيبةَ إذا كان قلبُه مختومًا عليه مخذولًا والعياذُ بالله؛ لأنَّ الذين طَبَعَ اللهُ على قلوبِهم لا يدرون ماذا يصيبُهم من المصائبِ؟

الذي يدري بالمصيبةِ مَنْ قلبُه حيٌّ، أمَّا الميِّت فكما قال المتنبِّي:

مَـنْ يَهُـنْ يَسْـهُلِ الـهَوَانُ عَلَيْـهِ ... مَـا لِـجُرْحٍ بِمَيِّـتٍ إِيـلَامُ(١)

ولهذا تجدُ الإنسانَ كُلَّما قَسَا قلبُه لا يتأَثَّرُ بالمعصيةِ، لكن إذا كان قلبُه حيًّا وفَعَلَ المعصيةَ تجدُه يحزنُ ويندمُ ويخجلُ ويُحْدِثُ توبةً، فإذا وجدتَ من نفسِك أنَّ قلبَك لا يتأَثَّرُ بمعصيةِ الله فاعلم أنَّه مختومٌ عليه -والعياذُ بالله- وإذا رَأَيْتَهُ يتأَثَّرُ كُلَّما عَصَى أَحَسَّ بالذَّنبِ، ورجع إلى الله، وأناب إليه، واستغفر ربَّه، فاعلم أنَّ قلبَك حيٌّ؛ لأنَّ الميِّتَ لو أتيت بِشُواظٍ من نارٍ وأَصَبْتَ به جسدَه هل يتأَثَّرُ؟ أبدًا، ولا يُحِسُّ، والحيُّ يُحِسُّ، فهكذا القلوبُ متى أحسَّت بالمعصيةِ وتركِ الطَّاعةِ فاعلم أنَّ فيها حياةً، ومتى لم تُحِسَّ فاعلم أنَّها ميِّتةٌ وأنَّها قد خُتِمَ عليها، وانظر إلى كلام الله عزَّ وجلَّ أشرفِ الكلامِ وأعظمِ الكلامِ وأشدِّه تأثيرًا، يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم:١٥] لا يتأَثَّرُ بها، بل يقولُ: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم:١٥]، والأسطورةُ هي الكلماتُ التي تُحكَى وليس لها أصلٌ وتسمَّى عندنا «**سواليف**» أو «**سباحيل**»؛ لأنَّها تُبْدَأُ بالتَّسبيحِ، وعند الإخوانِ في غير البلادِ السعوديَّةِ تُسمَّى «**حدوتة**».

على كُلِّ حالٍ هو لكونِه لا يتَأَثَّرُ بالقرآنِ -والعياذُ بالله- يقولُ: هذه أساطيرُ الأوَّلينِ، قصصٌ وحكاياتٌ، ماذا قال اللهُ عزَّ وجلَّ؟ كلا، ليست أساطيرَ الأوَّلين، ولكن البلاءُ به هو، قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]، فلم يعرفوا الحقَّ ولم يتأَثَّرُوا به، وهذا ميزانٌ ينبغي لنا أن نتعاهدَه دائمًا، أن ننظرَ هل قلوبُنا تتأَثَّرُ عند فعلِ المعصيةِ وتركِ الطَّاعةِ أو لا؟ إن كانت تتأَثَّر ففيها حياةٌ

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي الجرجاني (ص:١٦٥).

نحافظُ على هذه الحياةِ، وإن لم تتأثَّرْ فهي ميِّتةٌ قد رَانَ عليها ما كَسَبَتْ من المعاصي، نسألُ الله أن يعاملَنا وإيَّاكم بعفوِه.

الخلاصةُ من هذا كُلِّه هو أنَّ أهلَ الإلحادِ والتَّعطيلِ كلاهما حربٌ على أهلِ الإثباتِ، لكنَّه -رحمه الله- عنده تخيُّلٌ كبيرٌ وتصوُّرٌ عجيبٌ.

* * *

فصل

فِي مَصَارِعِ النُّفَاةِ وَالمُعَطِّلِينَ بِأَسِنَّةِ أُمَرَاءِ الإِثْبَاتِ المُوَحِّدِينَ

٣٦٤٠- وَإِذَا أَرَدْتَ تَرَى مَصَارِعَ مَنْ خَلا ... مِنْ أُمَّةِ التَّعْطِيلِ وَالكُفْرَانِ

٣٦٤١- وَتَرَاهُمُ أَسْرَى حَقِيرًا شَأْنُهُمْ ... أَيْدِيهِمُ غُلَّتْ إِلَى الأَذْقَانِ

٣٦٤٢- وَتَرَاهُمُ تَحْتَ الرِّمَاحِ دَرِيئَةً ... مَا فِيهِمُ مِنْ فَارِسٍ طَعَّانِ

٣٦٤٣- وَتَرَاهُمُ تَحْتَ السُّيُوفِ تَنُوشُهُمْ ... مِنْ عَنْ شَمَائِلِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِ

٣٦٤٤- وَتَرَاهُمُ انْسَلَخُوا مِنَ الوَحْيَيْنِ وَالْـ ... ـعَقْلِ الصَّحِيحِ وَمُقْتَضَى القُرْآنِ

٣٦٤٥- وَتَرَاهُمُ وَاللهِ ضِحْكَةَ سَاخِرٍ ... وَلَطَالَمَا سَخِرُوا مِنَ الإِيمَانِ

٣٦٤٦- قَدْ أَوْحَشَتْ مِنْهُمْ رُبُوعٌ زَادَهَا الْـ ... ـجَبَّارُ إِيحَاشًا مَدَى الأَزْمَانِ

٣٦٤٧- وَخَلَتْ دِيَارُهُمُ وَشُتِّتَ شَمْلُهُمْ ... مَا فِيهِمُ رَجُلانِ مُجْتَمِعَانِ

٣٦٤٨- قَدْ عَطَّلَ الرَّحْمَنُ أَفْئِدَةً لَهُمْ ... مِنْ كُلِّ مَعْرِفَةٍ وَمِنْ إِيمَانِ

٣٦٤٩- إِذْ عَطَّلُوا الرَّحْمَنَ مِنْ أَوْصَافِهِ ... وَالعَرْشَ أَخْلَوْهُ مِنَ الرَّحْمَنِ

٣٦٥٠- بَلْ عَطَّلُوهُ عَنِ الكَلامِ وَعَنْ صِفَا ... تِ كَمَالِهِ بِالجَهْلِ وَالبُهْتَانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «النُّفَاةِ» جمع «نَافٍ».

قَوْلُهُ: «المُعَطِّلِينَ» جمع «مُعَطِّل».

قَوْلُهُ: «أَسِنَّةِ» جمعُ «سِنَان»، وهو الرُّمحُ الذي في طرفهِ زُجٌّ؛ يعني: حديدة مُدَبَّبة أعلاها دقيقٌ ينفذ.

قَوْلُهُ: «بِأَسِنَّةِ أُمَرَاءِ الإِثْبَاتِ المُوَحِّدِينَ» فجعلَ أهلَ الإثباتِ أمراءً؛ لأنَّ المقامَ مقامُ حربٍ، والأميرُ في الحربِ غيرُ العالِـمِ في السِّلمِ، فأمراءُ الحروبِ هم الذين يأمرون ويُنَفِّذُون.

بَيَّنَ المؤلِّفُ -رحمه الله- في هذا الفصلِ ما كان أهلُ السُّنَّةِ والإثباتِ يُصنِّفونه ويُؤلِّفونه من الكتبِ التي تدفعُ حججَ هؤلاء المعطِّلةِ، فقال رحمه الله:

٣٦٤٠- وَإِذَا أَرَدْتَ تَرَى مَصَارِعَ مَنْ خَلا ... مِنْ أُمَّةِ التَّعْطِيلِ وَالكُفْرَانِ

قَوْلُهُ: «وَإِذَا أَرَدْتَ تَرَى» التَّقديرُ: «إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَرَى»، وهذا التَّركيبُ جائزٌ في اللُّغةِ العربيَّةِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ [الرُّوم:٢٤]؛ أي: أن يُرِيَكم البرقَ.

٣٦٤١- وَتَرَاهُمُ أَسْرَى حَقِيرًا شَأْنُهُمْ ... أَيْدِيهِمُ غُلَّتْ إِلَى الأَذْقَانِ

قَوْلُهُ: «أَسْرَى» جمعُ «أسير».

قَوْلُهُ: «حَقِيرًا شَأْنُهُمْ»؛ أي: ليسوا مُكْرَمِين ولا مُعظَّمين.

٣٦٤٢- وَتَرَاهُمُ تَحْتَ الرِّمَاحِ دَرِيئَةً ... مَا فِيهِمُ مِنْ فَارِسٍ طَعَّانِ

قَوْلُهُ: «دَرِيئَةً» «فعيلة» بمعنى مفعولة، من الدَّرْءِ وهو الدَّفعُ؛ أي: مدفوعين لا يستطيعون المقاومةَ.

أي: تراهم تحت رماحِ جنودِ الله عزَّ وجلَّ مدفوعين لا يستطيعون المقاومةَ.

٣٦٤٣- وَتَرَاهُمُ تَحْتَ السُّيُوفِ تَنُوشُهُمْ مِنْ عَنْ شَمَائِلِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِ

أي: تأتيهم السُّيوفُ من كُلِّ جانبٍ تُمَزِّقُهم.

٣٦٤٤- وَتَرَاهُمُ انْسَلَخُوا مِنَ الوَحْيَيْنِ وَالْـ ـعَقْلِ الصَّحِيحِ وَمُقْتَضَى القُرْآنِ

قَوْلُهُ: «الوَحْيَيْنِ»؛ أي: الكتابِ والسُّنَّةِ.

قَوْلُهُ: «العَقْلِ الصَّحِيحِ»، وفي نسخةٍ: «العَقْلِ الصَّرِيحِ» وهو الصَّوابُ؛ لأنَّ الصِّحَّةَ يُوصَفُ بها النَّقلُ، فنقول: النَّقلُ الصَّحيحُ، والصَّراحةُ يُوصَفُ بها العقلُ.

قَوْلُهُ: «وَمُقْتَضَى القُرْآنِ»؛ أي: ما يقتضيه القرآنُ.

٣٦٤٥- وَتَرَاهُمُ وَاللهِ ضِحْكَةَ سَاخِرٍ وَلَطَالَمَا سَخِرُوا مِنَ الإِيمَانِ

أي: تراهم محلًّا لِضَحكِ مَنْ يَسْخَرُ بهم؛ لأنَّهم سقطوا تحت جهادِ أولياءِ الله عزَّ وجلَّ.

٣٦٤٦- قَدْ أَوْحَشَتْ مِنْهُمْ رُبُوعٌ زَادَهَا الْـ ـجَبَّارُ إِيحَاشًا مَدَى الأَزْمَانِ

قَوْلُهُ: «رُبُوعٌ» جمع: «ربع» وهو ما يكونُ بمعنى الحيِّ أو القومِ.

يعني: قد أَوْحَشَتْ منهم الدِّيارُ، زادها اللهُ عزَّ وجلَّ إيحاشًا؛ لأنَّهم فقراءُ من الوحي والعقلِ الصَّريحِ.

٣٦٤٧- وَخَلَتْ دِيَارُهُمُ وَشُتِّتَ شَمْلُهُمْ مَا فِيهِمُ رَجُلانِ مُجْتَمِعَانِ

قَوْلُهُ: «خَلَتْ دِيَارُهُمُ» خلت ديارُهم منهم؛ لأنَّهم فرُّوا من جنودِ الله عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «وَشُتِّتَ شَمْلُهُمْ» تفرَّقُوا وتمزَّقوا.

٣٦٤٨- قَـدْ عَطَّـلَ الـرَّحْمَنُ أَفْئِـدَةً لَـهُمْ ... مِـنْ كُـلِّ مَعْرِفَـةٍ وَمِـنْ إِيـمَانِ

أعوذُ بالله، يعني: أنَّ اللهَ عَطَّلَ قلوبَهم من معرفةِ الله والإيمانِ به، فصاروا في وحشةٍ عظيمةٍ وتَشتُّتٍ.

٣٦٤٩- إِذْ عَطَّلُـوا الـرَّحْمَنَ مِـنْ أَوْصَـافِهِ ... وَالعَـرْشَ أَخْلَـوْهُ مِـنَ الـرَّحْمَنِ

وذلك بإنكارهم لاستواءِ الله على العرشِ.

٣٦٥٠- بَلْ عَطَّلُوهُ عَنِ الكَلامِ وَعَنْ صِـفَا ... تِ كَمَالِـهِ بِالـجَهْلِ وَالبُهْتَـانِ

قَوْلُهُ: «بَلْ عَطَّلُوهُ عَنِ الكَلَامِ وَعَنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ»؛ أي: عطَّلوه عن الكلامِ والكمالِ، قالوا: لا يتكلَّمُ، وقالوا: ليس له صفاتُ كمالٍ، كما مرَّ علينا كثيرًا.

قَوْلُهُ: «بِالـجَهْلِ وَالبُهْتَانِ» الـجهلُ: عدمُ العلمِ، والبُهتانُ: عدمُ الصِّدقِ، فكلامُهم خالٍ من العلمِ، وخالٍ من الصِّدقِ، فكُلُّه جهلٌ وكُلُّه بهتانٌ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

* * *

٣٦٥١- فَـاقْرَأْ تَصَـانِيفَ الإِمَـامِ حَقِيقَـةً ... شَـيْخِ الوُجُـودِ العَالِـمِ الرَّبَّـانِي

٣٦٥٢- أَعْنِي أَبَا العَبَّـاسِ أَحْمَـدَ ذَلِـكَ الـ ... ـبَحْرَ الُمحِـيطَ بِسَـائِرِ الـخُلْجَانِ

٣٦٥٣- وَاقْرَأْ كِتَابَ «العَقْلِ وَالنَّقْـلِ» الَّـذِي ... مَـا فِي الوُجُـودِ لَـهُ نَظِـيرٌ ثَـانِي

٣٦٥٤- وَكَـذَاكَ «مِنْهَـاجٌ» لَـهُ فِي رَدِّهِ ... قَـوْلَ الـرَّوَافِضِ شِـيعَةِ الشَّـيْطَانِ

٣٦٥٥- وَكَـذَاكَ أَهْـلُ الإِعْتِـزَالِ فَإِنَّـهُ ... أَرْدَاهُـمُ فِي حُفْـرَةِ الـجَبَّانِ

٣٦٥٦- وَكَذَلِكَ «التَّأْسِيسُ» أَصْبَحَ «نَقْضُهُ» ... أُعْجُوبَـةً لِلعَالِـمِ الرَّبَّـانِي

٣٦٥٧- وَكَـذَاكَ «أَجْوِبَـةٌ» لَـهُ مِصْـرِيَّةٌ فِي سِـتِّ أَسْـفَارٍ كَتِـبْنِ سِـمَانِ

٣٦٥٨- وَكَذَا «جَوَابٌ لِلنَّصَارَى» فِيهِ مَا يَشْـفِي الصُّـدُورَ وَإِنَّـهُ سِـفْرَانِ

٣٦٥٩- وَكَـذَاكَ «شَرْحُ عَقِيـدَةٍ لِلأَصْـبَهَا نِي» شَارِحِ «المَحْصُولِ» شَرْحَ بَيَانِ

٣٦٦٠- فِيهَـا «النُّبُـوَّاتُ» الَّتِـي إِثْبَاتُهَـا فِي غَايَـةِ التَّقْرِيـرِ وَالتِّبْيَـانِ

٣٦٦١- وَاللهِ مَـا لأُولِي الكَـلامِ نَظِـيرُهُ أَبَـدًا وَكُتْـبُهُمْ بِكُـلِّ مَكَـانِ

٣٦٦٢- وَكَذَا حُدُوثُ العَالَـمِ العُلْوِيِّ وَالسُّـ ـفْلِيِّ فِيـهِ فِي أَتَـمِّ بَيَـانِ

٣٦٦٣- وَكَـذَا قَوَاعِـدُ «الاسْـتِقَامَةِ» إِنَّهَـا سِـفْرَانِ فِـيهَا بَيْنَنَـا ضَـخْمَانِ

٣٦٦٤- وَقَـرَأْتُ أَكْثَرَهَـا عَلَيْـهِ فَـزَادَنِي وَاللهِ فِي عِلْـمٍ وَفِي إِيـمَانِ

٣٦٦٥- هَـذَا وَلَـوْ حَـدَّثْتُ نَفْسِـي أَنَّـهُ قَبْلِـي يَمُـوتُ لَكَـانَ غَـيْرَ الشَّـانِ

الشـرحُ

٣٦٥١- فَـاقْرَأْ تَصَـانِيفَ الإِمَـامِ حَقِيقَـةً شَـيْخِ الوُجُـودِ العَالِـمِ الرَّبَّـانِي

اقرأ تصانيفَ الإمامِ حقيقةً، وهنا وَصَفَ شيخَه ابنَ تيميَّةَ بأنَّه إمامٌ، وأنَّ إمامتَه حقيقيَّةٌ، وصَدَقَ رحمهُ الله، فإنَّه كان إمامًا مُدافِعًا عن عقيدةِ السَّلفِ بما أَلَّفه من الكتبِ والرَّسائلِ الكبيرةِ والصَّغيرةِ، إذا قَرَأْتَ تصانيفَه عَرَفْتَ ما أنعمَ اللهُ به عليه من النِّعمةِ العظيمةِ في الحِفظِ والوعيِ والفَهْمِ وقوَّةِ الجدلِ، حتَّى إنَّه يأتي للقومِ بأدلَّةٍ عقليَّةٍ لا يأتون بها هم ثُمَّ يُفَنِّدُها ويَرُدُّ عليها.

٣٦٥٢- أَعْنِي أَبَا العَبَّاسِ أَحْمَدَ ذَلِكَ الـ ـبَحْرَ المُحِيطَ بِسَائِرِ الـخُلْجَانِ

قَوْلُهُ: «أَعْنِي أَبَا العَبَّاسِ» «أبو العبَّاس» كُنيةٌ لشيخِ الإسلامِ ابن تيميَّة.

قَوْلُهُ: «ذَلِكَ البَحْرُ المُحِيطُ بِسَائِرِ الخُلْجَانِ» بحرٌ محيطٌ بسائرِ الخُلجانِ؛ يعني: علومُ النَّاسِ عنده كنسبةِ الخُلْجَانِ إلى البحارِ.

وهو -رحمه الله- ليس له ولدٌ، وليس له زوجةٌ، فقِيلَ: لعلَّه ليس فيه ما في الرِّجالِ من شهوةٍ للنِّساءِ، وقِيلَ: لأنَّه كان مشتغلًا بالدَّعوة إلى الله عزَّ وجلَّ والجهادِ باللِّسانِ والبنانِ والسِّنانِ، وهذا هو الأقربُ، بل هو المتعيِّنُ؛ لأنَّ الرَّجلَ -وأعني به ابن تيميَّةَ رحمه الله- إذا تكلَّم عن الجماعِ تعرفُ أنَّه يتكلَّمُ عن علمٍ ودرايةٍ، ومثلُ هذا لا يقعُ ممَّن ليس له شهوةٌ في النِّساءِ، لكنَّه مشغولٌ، ولعلَّه كما قال القائلُ:

تَـأَلَّقَ الـبَرْقُ نَجْـدِيًّا فَقُلْـتُ لَـهُ يَا أَيُّهَا الـبَرْقُ إِنِّي عَنْـكَ مَشْـغُولُ(١)

وهو -رحمه الله تعالى- له قبرٌ معروفٌ، حدَّثني أخونا محمَّدُ بنُ منصور الزَّامل وزميلُنا عند شيخِنا عبد الرَّحمن السِّعديِّ رحمه الله، وهو أكبرُ مِنَّا، حَدَّثَنَا أَنَّه زار دمشقَ ذاتَ يومٍ، وصَلَّى في الجامعِ الأمويِّ، وجاءه المزوِّرون، وقالوا: أتريدُ أن تُسَلِّمَ على شيخِ الإسلامِ ابن تيميَّةَ؟ قال: نعم، قالوا: هذا قبرُه، وهذا قبرُ وَلَدِه، والرَّجلُ ليس له زوجةٌ أصلًا، لكن هكذا المزوِّرون، المهمُّ أنَّ أبا العبَّاس -رحمه الله- وَصَفَهُ ابنُ القيِّمِ بأنَّه بحرٌ محيطٌ وَمَنْ سواه خُلْجَانٌ، وذلك فضلُ الله يؤتيه مَنْ يشاءُ.

---

(١) البيت في لباب الآداب لأبي المظفر الكناني (ص:١٩٨) بلا نسبة.

٣٦٥٣- وَاقْرَأْ كِتَابَ «العَقْلِ وَالنَّقْلِ» الَّذِي   مَا فِي الوُجُودِ لَهُ نَظِيرٌ ثَانِي

كتابُ «**العقل والنَّقل**» له اسمٌ مشهورٌ به وهو: «**العقلُ والنَّقلُ**»، وله اسمٌ مكتوبٌ على هذا المؤلَّفِ اسمُه: «**موافقةُ صريحِ المعقولِ لصحيحِ المنقولِ**» وهو معروفٌ، يقولُ ابنُ القيِّم عنه: «**مَا فِي الوُجُودِ لَهُ نَظِيرٌ ثَانٍ**»؛ يعني: مِـمَّا كُتِبَ وأُلِّفَ، وإِلَّا فمعلومٌ أنَّ كتابَ الله عزَّ وجلَّ لا نظيرَ له وهو في الوجودِ، فهو أعظمُ منه، وكذلك ما صَحَّ من سُنَّةِ رسولِ الله ﷺ أعظمُ منه، لكن فيما كُتِبَ وأُلِّف في بابِه ليس له نظيرٌ.

٣٦٥٤- وَكَذَاكَ «مِنْهَاجٌ» لَهُ فِي رَدِّهِ   قَوْلَ الرَّوَافِضِ شِيعَةِ الشَّيْطَانِ

قَوْلُهُ: «**وَكَذَاكَ «مِنْهَاجٌ» لَهُ**»، أي: «**مِنْهاجُ السُّنَّةِ**» في الرَّدِّ على الشِّيعة على الكتابِ المُعَظَّمِ عندهم كتاب «**مِنْهاج الكرامةِ في إثباتِ الإمامةِ**»، وشيخُ الإسلامِ يقولُ: يستحِقُّ أن يُسَمَّى هذا الكتابُ «**منهاجَ النَّدامةِ**»، وصدَق رحمه اللهُ، هذا الكتابُ لا يُوجَدُ له نظيرٌ فيما نعلمُ في الرَّدِّ على الرَّوافضِ، كُلُّ ما يستدلُّون به اليومَ موجودٌ في كتاب «**المنهاج**» مردودٌ عليه.

وفي هذا العامِ التقَى بنا رجلٌ يقولُ: إِنَّه كان مُتذبذِبًا بين منهجِ السُّنَّةِ ومنهجِ الشِّيعةِ، وإِنَّهُ متردِّدٌ ويريدُ الحقَّ، فأتى بأحاديثَ في فضلِ آل البيتِ فوجدنا هذه الأحاديثَ موجودةً في «**المِنْهَاج**»، وقد رَدَّ عليها شيخُ الإسلامِ رحمه الله، وكان يُركِّزُ في أوَّل ما يَرُدُّ عليهم يقولُ: «**نقولُ في الرَّدِّ أو في الجوابِ: أوَّلًا: المطالبةُ بصحَّةِ النَّقلِ، هذا هو الأصلُ؛ لأنَّه إذا لم يصحَّ النَّقلُ فقد كُفِينَا، ولا نحتاج أن نتعبَ في توجيهِه أو حملِه على كذا وكذا**»، وهذا هو الحقيقة؛ لأنَّه إذا سَقَطَ الأصلُ سَقَطَ الفرعُ.

قَوْلُهُ: «فِي رَدِّهِ قَوْلَ الرَّوَافِضِ» الرَّوافضُ جمع «**رافضٍ**» أو «**رافضةٍ**»، وسُمُّوا بذلك لأنَّهم رفضوا زيدَ بنَ عليِّ بن الحسين بن عليِّ بن أبي طالبٍ، حيث جاؤوا يسألونه عن أبي بكرٍ وعمرَ، يريدون منه أن يَسُبَّهما ويَذُمَّهما فقال فيهما خيرًا، وقال: «هُمَا وَزِيرَا جَدِّي»[1]؛ يعني: الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، كان الرَّسولُ يقولُ دائمًا: خَرَجْتُ أَنَا وأبو بَكْرٍ وعمرُ، جِئْتُ أنا وأبو بكرٍ وعمرُ؛ ولهذا دُفِنَا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا إلى جنبِه، يقومون جميعًا يومَ القيامةِ من هذا المكان، وهذه منقبةٌ لا ينالُها أحدٌ، فأثنى عليهما، فلمَّا أثنى عليهما رفضوه وعادوه وقلبوا له ظهرَ المِجَنِّ، ومن ذلك اليوم سُمُّوا رافضةً.

قَوْلُهُ: «شِيعَةِ الشَّيْطَانِ»؛ أي: هم مُساعدوه وناصِروه؛ يعني: أنَّهم ليسوا شيعةً لآلِ البيتِ؛ لأنَّ آلَ البيتِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ لا يُمكِنُ أن يُقِرُّوا ما صنع هؤلاء الشِّيعةُ فيهم من الغلوِّ ودعوى الألوهيَّةِ، وتفضيل بعضِهم حتىَّ على رسولِ الله ﷺ، وهم يقولون: إنَّ لهم أئمَّةً من آلِ البيتِ يدَّعون أنَّه لا يمكنُ أن تتحرَّكَ ذرَّةٌ في الكونِ إلَّا من تحت إرادتِهم، فجعلوهم شركاءَ مع الله في الرُّبوبيَّة التي نفاها المشركون؛ أي: نَفَوُا الشِّركَ في الرُّبوبيَّةِ وهؤلاء أثبتوها؛ ولهذا وَصَفَهُم -رحمه الله- بأنَّهم شيعةُ الشَّيطانِ، وصدَق رحمه الله في وصفِهم، هؤلاء الشِّيعةُ لا يزالون يستدلُّون بقولِ أشياخِهم وما يروونه من الأحاديثِ التي بعضُها صحيحٌ وبعضُها غيرُ صحيحٍ.

والعجبُ أنَّ مُتأخِّريهم يستدلُّون بالأدلَّةِ التي استدلَّ بها المتقدِّمون، وردُّها موجودٌ في هذا الكتابِ «**منهاج أهلِ السُّنَّة**»، فمَن أراد أن يتشبَّعَ بالرَّدِّ عليهم فعليه بهذا الكتابِ، فإنَّه يجدُ كلَّ ما يحتجُّون به من الأدلَّةِ النَّقليَّةِ أو العقليَّةِ في هذا الكتابِ، ويجدُ الرَّدَّ عليهم من هذا العالِـمِ البحرِ، رحمه الله.

---

(١) انظر: لوامع الأنوار البهية، لشمس الدين السفاريني (١/ ٨٥).

٣٦٥٥- وَكَــذَاكَ أَهْــلُ الإِعْتِــزَالِ فَإِنَّــهُ أَرْدَاهُــمُ فِي حُفْــرَةِ الْــجَبَّانِ

المعتزلةُ أرداهم شيخُ الإسلامِ -رحمه الله- في حُفرة الجَبَّان، وحفرةُ الجَبَّانِ؛ أي: القبر، فالجَبَّانُ صاحبُ الجَبَّانةِ التي هي المقبرة، وحفرتُه قبورٌ؛ يعني: قَبَرَهم.

٣٦٥٦- وَكَذَلِكَ «التَّأْسِيسُ» أَصْبَحَ «نَقْضُهُ» أُعْجُوبَــةً لِلعَالِــمِ الرَّبَّــانِي

كتاب «**التَّأسيس**» للرَّازيِّ كتابٌ مُقَدَّسٌ عند أهلِ الكلامِ، وشيخُ الإسلامِ -رحمه الله- نَقَضَ هذا «**التَّأسيس**»، وصار يأتي به جملةً وينقضُه نقضًا تامًّا بالنَّقلِ وبالعقلِ.

٣٦٥٧- وَكَــذَاكَ «أَجْوِبَــةٌ» لَــهُ مِصْــرِيَّةٌ فِي سِــتِّ أَسْــفَارٍ كَتَــبْنَ سِــمَانِ

قَوْلُهُ: «سِمَانِ»؛ يعني: ضخمةً، من السِّمن.

الأجوبة المصريَّةُ هذه لا نعرفُها ولم نطَّلع عليها إلى الآن، وهذه غيرُ «**الفتاوى المصريَّة**»، هذه أجوبةٌ في العقيدةِ، وليست بالفتاوى المصريَّة، وأمَّا قولُ الشَّيخِ الهرَّاسِ رحمه الله بأنَّها الفتاوى المصريَّة[1] فهذه على أبوابِ الفقه؛ أي: «**الفتاوى المصريَّة**»، ولعلَّ الشَّيخَ هرَّاسَ اطَّلع على هذه الفتاوى، أمَّا الأجوبةُ فهي في بابِ العقيدةِ لا شَكَّ؛ لأنَّ ابن القيِّمِ الآن يتكلَّمُ عن العقيدةِ.

٣٦٥٨- وَكَذَا «جَوَابٌ لِلنَّصَارَى» فِيــهِ مَـا يَشْــفِي الصُّــدُورَ وَإِنَّــهُ سِــفْرَانِ

قَوْلُهُ: «سِفْرَانِ»؛ أي: في مجلدَيْنِ، ولعلَّه يشيرُ إلى: «**الجواب الصَّحيح فيمَنْ بَدَّلَ دينَ المسيحِ**».

---

(١) شرح القصيدة النُّونيَّة للشَّيخ محمد خليل هرَّاس رحمه الله تعالى (٢/ ١٧٥) ط: دار المنهاج بالقاهرة.

٣٦٥٩- وَكَـذَاكَ «شَرْحُ عَقِيـدَةٍ لِلأَصْـبَهَا نِي» شَارِحِ «المَحْصُولِ» شَرْحَ بَيَانِ

هذ موجودٌ أيضًا في الفتاوى القديمة، وهو في الحقيقةِ شرحٌ مختصرٌ لكن مفيدٌ جدًّا، وكُلُّ الكلامِ فيه مَبْنيٌّ على العقلِ الصَّحيحِ، وليس على عقلِ أهلِ الكلامِ، وقد قرأناه على شيخِنا عبد الرَّحمن بن سعديٍّ رحمه الله؛ لأنَّه كتابٌ مُخْتَصَرٌ وليس بطويلٍ.

٣٦٦٠- فِيهَـا «النُّبُـوَّاتُ» الَّتِـي إِثْبَاتُهَـا فِي غَايَـةِ التَّقْرِيـرِ وَالتِّبْيَـانِ

قَوْلُهُ: «فِيهَا»؛ أي: في شرح الإصبهانيَّة.

قَوْلُهُ: «النُّبُوَّاتُ»؛ يعني: إثباتَها.

٣٦٦١- وَالله مَـا لأُولِـي الكَـلامِ نَظِـيرُهُ أَبَـدًا وَكُتْـبُهُمْ بِكُـلِّ مَكَـانِ

يعني: لم يُؤَلِّفوا نظيرَ هذا الكتابِ، وكتبُهم موجودةٌ في كُلِّ مكانٍ، مَنْ أراد أن يطَّلِعَ عليها حتَّى يعرفَ الفرقَ بين ما كتبه شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ وما كتبه أهلُ الكلامِ فلينظُرْ.

٣٦٦٢- وَكَذَا حُدُوثُ العَالَـمِ العُلْوِيِّ وَالسُّـ ـفْلِيِّ فِيـهِ فِي أَتَـمِّ بَيَـانِ

يعني: في شرح عقيدةِ الإصبهانيِّ إثباتُ حدوثِ العالَـمِ العلويِّ والسُّفلِيِّ في أتمِّ بيانٍ.

٣٦٦٣- وَكَـذَا قَوَاعِـدُ «الاسْـتِقَامَةِ» إِنَّهَـا سِـفْرَانِ فِـيمَا بَيْنَنَـا ضَـخْمَانِ

كتابُ «الاستقامة» مطبوعٌ معروفٌ، وهو سِفْرَانِ كما قال المؤلِّفُ رحمه الله؛ أي: مجلدان، وهو كتابٌ جيِّدٌ في موضوعِهِ.

٣٦٦٤- وَقَـرَأْتُ أَكْثَرَهَـا عَلَيْـهِ فَـزَادَنِي ... وَاللهُ فِي عِلْـــمٍ وَفِي إِيـــمَانِ

رحمه اللهُ، ورَحِمَ شيخَه، يقولُ: إنَّه قرأ أكثرَ هذه الكتبِ عليه، وإنَّه -رحمه الله- زاده علمًا وزاده إيمانًا، وهذا فضلُ الله يؤتيه مَنْ يشاءُ، وهكذا فائدةُ العالِمِ ألَّا يحقنَ طلابَه علمًا فقط، بل ينبغي أن يُضِيفَ إلى ذلك الإيمانَ، فيأتي بالأشياءِ التي تُقَوِّي إيمانَهم ما استطاع.

٣٦٦٥- هَـذَا وَلَـوْ حَـدَّثْتُ نَفْسِـي أَنَّـهُ ... قَبْلِي يَمُوتُ لَكَانَ غَيْرَ الشَّانِ

يقولُ: لو حَدَّثْتُ نفسي أنَّه يموتُ قبلي لكان غيرُ الشَّأنِ؛ يعني: غير عملي معه؛ يعني: لَكُنْتُ أُلازمُه ليلًا ونهارًا وآخُذُ منه وأقرأُ عليه الكتبَ أكثرَ ممَّا كان، ولاجتهدتُ في قِراءةِ كُتبه كُلِّها عليه، وهو إشارةٌ إلى أنَّه -رحمه الله تعالى- كان يرى أنَّ قراءتَه على شيخِه فُرصةُ العُمرِ، لكنَّه ظَنَّ أنَّ الأمدَ طويلٌ، فَأَضَاعَ بعضَ الوقتِ.

* * *

٣٦٦٦- وَكَـذَاكَ تَوْحِيـدُ الفَلاسِـفَةِ الأُلَى ... تَوْحِيـدُهُمْ هُـوَ غَايَـةُ الكُفْـرَانِ

٣٦٦٧- سِفْرٌ لَطِيفٌ فِيهِ نَقْـضُ أُصُولِـهِمْ ... بِحَقِيقَـةِ الـمَعْقُولِ وَالبُرْهَـانِ

٣٦٦٨- وَكَـذَاكَ «تِسْـعِينِيَّةٌ» فِيهَـا لَـهُ ... رَدٌّ عَـلَى مَـنْ قَـالَ بِالنَّفْسَـانِي

٣٦٦٩- تِسْـعُونَ وَجْهًـا بَيَّنَـتْ بُطْلانَـهُ ... أَعْنِـي كَـلامَ النَّفْسِ ذَا الوِحْدَانِ

٣٦٧٠- وَكَـذَا «قَوَاعِـدُهُ» الكِبَـارُ وَإِنَّهَـا ... أَوْفَى مِـنَ الـمِئَتَيْنِ فِي الـحُسْبَانِ

٣٦٧١- لَـمْ يَتَّسِع نَظْمِـي لَـهَا فَأَسُوقَهَا ... فَـأَشَرْتُ بَعْـضَ إِشَـارَةٍ لِبَيَـانِ

٣٦٧٢- وَكَـذَا رَسَـائِلُهُ إِلَى البُلْـدَانِ وَالــ أَطْـرَافِ وَالأَصْـحَابِ وَالإِخْـوَانِ

٣٦٧٣- هِـيَ فِي الـوَرَى مَبْثُوثَـةٌ مَعْلُومَـةٌ تُبْتَـاعُ بِالغَـالِي مِـنَ الأَثْـمَانِ

٣٦٧٤- وَكَـذَا فَتَـاوَاهُ فَـأَخْبَرَنِي الَّـذِي أَضْـحَى عَلَيْهَـا دَائِـمَ الطَّوَفَـانِ

٣٦٧٥- بَلَـغَ الَّـذِي أَلْفَـاهُ مِنْهَـا عِـدَّةَ الـ أَيَّـامِ مِـنْ شَـهْرٍ بِـلا نُقْصَـانِ

٣٦٧٦- سِـفْرٌ يُقَابِـلُ كُـلَّ يَـوْمٍ وَالَّـذِي قَـدْ فَـاتَنِي مِنْهَـا بِـلا حُسْـبَانِ

٣٦٧٧- هَذَا وَلَيْسَ يُقَصِّرُ «التَّفْسِيرُ» عَـنْ عَشْـرٍ كِبَـارٍ لَـيْسَ ذَا نُقْصَـانِ

٣٦٧٨- وَكَذَا المَفَارِيـدُ الَّتِـي فِي كُـلِّ مَسْـ ـأَلَةٍ فَسِـفْرٌ وَاضِـحُ التِّبْيَـانِ

٣٦٧٩- مَا بَـيْنَ عَشْـرٍ أَوْ تَزِيـدُ بِضِـعْفِهَا هِـيَ كَـالنُّجُومِ لِسَـالِكٍ حَـيْرَانِ

الشـــرحُ

٣٦٦٦-وَكَـذَاكَ تَوْحِيـدُ الفَلاسِـفَةِ الأُلَى تَوْحِيـدُهُمْ هُـوَ غَايَـةُ الكُفْـرَانِ

هذا أيضًا ردٌّ على توحيدِ الفلاسفةِ، لكنَّه يقولُ:

٣٦٦٧-سِفْرٌ لَطِيفٌ فِيهِ نَقْـضُ أُصُولِـهِمْ بِحَقِيقَـةِ الـمَعْقُولِ وَالبُرْهَـانِ

ولعلَّه يشيرُ إلى «**نقد المنطق**»، وهذا غيرُ «**الرَّدِّ على المنطقيِّين**»، و«**نقدُ المنطقِ**» كتابٌ لطيفٌ كما قال ابنُ القيِّم، لكن فيه قواعدُ عظيمةٌ في إبطالِ كلامِ أهلِ المنطقِ وقواعِدِهم، وهو أيضًا مطبوعٌ.

٣٦٦٨-وَكَـذَاكَ «تِسْـعِينِيَّةٌ» فِيهَـا لَـهُ رَدٌّ عَـلَى مَـنْ قَـالَ بِالنَّفْسَـانِي

٣٦٦٩- تِسْعُونَ وَجْهًا بَيَّنَتْ بُطْلَانَهُ　　أَعْنِي كَلَامَ النَّفْسِ ذَا الوِحْدَانِ

له كتابٌ اسمُه «التِّسعينيِّة» رَدَّ فيه على الأشاعرةِ الذين يقولون: إنَّ كلامَ الله ليس بحرفٍ ولا صوتٍ مسموعٍ لكنَّه المعنى القَائِمُ بنفسِه، رَدَّ هذا القولَ من تسعين وجهًا، ونحن لو أردنا أن نتتبَّعَ الأوجهَ ما نُحَصِّلَ عُشرَ ما قال، لكن على كُلِّ حالٍ شيخُ الإسلامِ كما قال ابنُ القيِّم عنه: بحرٌ، وعلومُ مَنْ دونه خُلْجَانٌ.

٣٦٧٠- وَكَذَا «قَوَاعِدُهُ» الكِبَارُ وَإِنَّهَا　　أَوْفَى مِنَ المِئَتَيْنِ فِي الحُسْبَانِ

«قَوَاعِدُهُ الكِبَارُ» لا أعرفُها، لكن هي قواعدُ، يقولُ: إنَّها زادت على المئتين في الحُسْبَانِ، وسمَّاها قواعدَ كبارًا، وهي بلا شكٍّ في العقيدةِ؛ لأنَّ كُلَّ كلامِ المؤلِّف فيما أَلَّفَه شيخُه في العقائدِ.

٣٦٧١- لَمْ يَتَّسِع نَظْمِي لَهَا فَأَسُوقَهَا　　فَأَشَرْتُ بَعْضَ إِشَارَةٍ لِبَيَانِ

٣٦٧٢- وَكَذَا رَسَائِلُهُ إِلَى البُلْدَانِ وَالـ　　أَطْرَافِ وَالأَصْحَابِ وَالإِخْوَانِ

٣٦٧٣- هِيَ فِي الوَرَى مَبْثُوثَةٌ مَعْلُومَةٌ　　تُبْتَاعُ بِالغَالِي مِنَ الأَثْمَانِ

يعني: لم يقتصر على التَّأليفِ العامِّ، بل له رسائلُ خاصَّةٌ إلى إخوانِه وإلى الأمراءِ وإلى الزُّعماءِ، وهذا معلومٌ في بعضِ المجموعاتِ التي جُمِعَت لشيخِ الإسلام ابن تيميَّة، وكذلك أيضًا في الكتب التي كُتِبَتْ في حياتِه، وهذه الرَّسائلُ موجودةٌ.

٣٦٧٤- وَكَذَا فَتَاوَاهُ فَأَخْبَرَنِي الَّذِي　　أَضْحَى عَلَيْهَا دَائِمَ الطَّوَفَانِ

٣٦٧٥- بَلَغَ الَّذِي أَلْفَاهُ مِنْهَا عِدَّةَ الـ　　أَيَّامِ مِنْ شَهْرٍ بِلَا نُقْصَانِ

٣٦٧٦- سِفْرٌ يُقَابِلُ كُلَّ يَوْمٍ وَالَّذِي　　قَدْ فَاتَنِي مِنْهَا بِلا حُسْبَانِ

فتاواه كثيرةٌ أيضًا، والفتاوى الكثيرةُ ليست بمُؤلَّفاتٍ، بل فتوى يكتبُها في ورقةٍ يُمليها على شخصٍ، يقول: «**أَخْبَرَنِي الَّذِي أَضْحَى عَلَيْهَا دَائِمَ الطَّوَفَانِ**».

قَوْلُهُ: «**سِفْرٌ يُقَابِلُ كُلَّ يَوْمٍ**»، إِذَنْ تكونُ هذه الفتاوى في ثلاثين مجلَّدًا.

٣٦٧٧- هَذَا وَلَيْسَ يُقَصِّرُ «التَّفْسِيرُ» عَنْ　　عَشْرٍ كِبَارٍ لَيْسَ ذَا نُقْصَانِ

أيضًا له تفسيرٌ يبلغُ عشرَ مجلَّداتٍ، ولكن لا أدري: هل هذا التَّفسيرُ شاملٌ لكُلِّ القُرآنِ أو لبعضِ الآياتِ والسُّوَرِ، وقد طُبِعَ منه -على ما أظنُّ- ستَّةُ مجلَّدات.

٣٦٧٨- وَكَذَا المَفَارِيدُ الَّتِي فِي كُلِّ مَسْـ　　ـأَلَةٍ فَسِفْرٌ وَاضِحُ التِّبْيَانِ

٣٦٧٩- مَا بَيْنَ عَشْرٍ أَوْ تَزِيدُ بِضِعْفِهَا　　هِيَ كَالنُّجُومِ لِسَالِكٍ حَيْرَانِ

قَوْلُهُ: «**أَوْ تَزِيدُ بِضِعْفِهَا**»؛ أي: عشرين.

كُلُّ هذه مؤلَّفاتٌ لشيخِه(١) رحمه الله، وهي عظيمةٌ مفيدةٌ غاية الفائدةِ.

* * *

٣٦٨٠- وَلَهُ المَقَامَاتُ الشَّهِيرَةُ فِي الوَرَى　　قَدْ قَامَهَا لله غَيْرَ جَبَانِ

٣٦٨١- نَصَرَ الإِلَهَ وَدِينَهُ وَكِتَابَهُ　　وَرَسُولَهُ بِالسَّيْفِ وَالبُرْهَانِ

٣٦٨٢- أَبْدَى فَضَائِحَهُمْ وَبَيَّنَ جَهْلَهُمْ　　وَأَرَى تَنَاقُضَهُمْ بِكُلِّ زَمَانِ

---

(١) لابن القيِّم -رحمه الله- مصنَّفٌ لطيفٌ جَمَعَ فيه أسماءَ مؤلَّفاتِ شيخ الإسلام ابن تيميَّة، تحقيق د.صلاح الدِّين المنجد، ط: دار الكتاب العربيِّ الجديد، بيروت، لبنان.

٣٦٨٣- وَأَصَارَهُمْ وَاللهِ تَحْتَ نِعَالِ أَهْـ ـلِ الحَقِّ بَعْدَ مَلابِسِ التِّيجَانِ

٣٦٨٤- وَأَصَارَهُمْ تَحْتَ الحَضِيضِ وَطَالَمَا كَانُوا هُمُ الأَعْلامَ لِلبُلْدَانِ

٣٦٨٥- وَمِنَ العَجَائِبِ أَنَّهُ بِسِلاحِهِمْ أَرْدَاهُمُ تَحْتَ الحَضِيضِ الدَّانِي

٣٦٨٦- كَانَتْ نَوَاصِينَا بِأَيْدِيهِمْ فَمَا مِنَّا لَهُمْ إِلَّا أَسِيرٌ عَانِي

٣٦٨٧- فَغَدَتْ نَوَاصِيهِمْ بِأَيْدِينَا فَلَا يَلْقَوْنَنَا إِلَّا بِحَبْلِ أَمَانِ

٣٦٨٨- وَغَدَتْ مُلُوكُهُمُ مَمَالِيكًا لِأَنْـ ـصَارِ الرَّسُولِ بِمِنَّةِ الرَّحْمَنِ

٣٦٨٩- وَأَتَتْ جُنُودُهُمُ الَّتِي صَالُوا بِهَا مُنْقَادَةً لِعَسَاكِرِ الإِيمَانِ

٣٦٩٠- يَدْرِي بِهَذَا مَنْ لَهُ خُبْرٌ بِمَا قَدْ قَالَهُ فِي رَبِّهِ الفِئَتَانِ

٣٦٩١- وَالفَدْمُ يُوحِشُنَا وَلَيْسَ هُنَاكُمُ فَحُضُورُهُ وَمَغِيبُهُ سِيَّانِ

الشرحُ

في هذه الأبيات انتقل المؤلِّفُ إلى مواقفَ أخرى للشَّيخِ غير المؤلَّفاتِ والرَّسائلِ فقال:

٣٦٨٠- وَلَهُ المَقَامَاتُ الشَّهِيرَةُ فِي الوَرَى قَدْ قَامَهَا للهِ غَيْرَ جَبَانِ

له مقاماتٌ يُخَاطِبُ بها الملوكَ والرُّؤساءَ والزُّعماءَ، ويُقَاتِلُ التَّتارَ وغيرَهم، مقاماتٌ عظيمةٌ شهيرةٌ وهي أنَّه رجلٌ شجاعٌ مقدامٌ في الحربِ، يقودُ النَّاسَ، ويَخُوضُ غمارَ صفوفِ الأعداءِ حتَّى إنَّه لـمَّا حَاصَرَ التَّتارُ أهلَ الشَّامِ في رمضانَ، ورأى من المصلحةِ أن يُفطِرَ الجنودُ ليتقوَّوْا على الجِهادِ أفتاهم -رحمه الله- بأنَّه

يجوزُ لهم الفطرُ ليتقوَّوْا على القتالِ؛ لأنَّ الإنسانَ سوف يتعبُ مع الصَّومِ، لكن العلماء قالوا: لا يجوزُ الفطرُ؛ لأنَّه لا يوجدُ سفرٌ ولا مرضٌ، والفِطرُ إنما يكونُ في السَّفرِ أو المرضِ، فاستَدلَّ عليهم -رحمه الله- بقولِ النَّبِيِّ ﷺ في غزوةِ الفتحِ بأنَّه كان يَأمُرهم أنْ يفطروا أثناء السَّفرِ، ولـمَّا قربوا من مكَّةَ قال: «**أَفْطِرُوا فَإِنَّ الفِطْرَ أَقْوَى لَكُمْ**»[1]، ولم يقل: «أفطروا فإنَّكم مسافرون»، بل قال: «**الفِطْر أَقْوَى لَكُمْ**»، فدَلَّ هذا على أنَّه إذا كان الفطرُ أقوى على العدوِّ فإنَّه جائزٌ، ثُمَّ أخَذ معه كسرًا من الخبزِ وجعل يأكلُها بين صفوفِ المقاتلين من أجلِ أنْ يطمئنُّوا إلى الاقتداءِ والتَّأسِّي به، رحمهم اللهُ وجزاهم عن الإسلامِ خيرًا، ونسأَلُ اللهَ أن يجعلَنا وإيَّاكم معهم في جنَّاتِ النَّعيمِ.

٣٦٨١- نَصَـرَ الإِلَـهَ وَدِينَـهُ وَكِتَابَـهُ ... وَرَسُـولَهُ بِالسَّـيْفِ وَالبُرْهَـانِ

قَوْلُهُ: «**بِالسَّيْفِ**»؛ أي: في قتالِ الكُفَّارِ.

قَوْلُهُ: «**وَالبُرْهَانِ**»؛ أي: في مجادلةِ المنافقين والمؤلَّفاتِ التي أَلَّفها.

٣٦٨٢- أَبْـدَى فَضَـائِحَهُمْ وَبَـيَّنَ جَهْلَهُـمْ ... وَأَرَى تَنَاقُضَـهُمْ بِكُـلِّ زَمَـانِ

٣٦٨٣- وَأَصَـارَهُمْ وَاللهِ تَحْـتَ نِعَـالِ أَهْـ ... ـلِ الـحَقِّ بَعْـدَ مَلابِـسِ التِّيجَـانِ

وهذا الفخرُ، فقد كانوا في أوَّل الأمرِ لهم السَّيطرةُ على كثيرٍ من العلماءِ في شُبهاتِهم وحُجَجِهم الباطلة، وكانوا يلبسون التِّيجانَ كالملوكِ، فلمَّا جاء شيخُ الإسلامِ -رحمه الله- وبَيَّنَ ما هم عليه من الباطلِ، وبَيَّنَ فضائحَهم وجهلَهم وتناقضَهم صاروا تحت نعالِ أهلِ الحقِّ، وناهيك بهذا الذُّلِّ والعياذُ باللهِ، وهذا من

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب أجر المفطر في السفر إذا تولى العمل، رقم (١١٢٠).

نعمةِ الله -سبحانه وتعالى- على المسلمين عمومًا، وإلَّا لتطاولَ هؤلاء الأشرارُ على دينِ الله وعلى عبادِ الله.

٣٦٨٤- وَأَصَارَهُمْ تَحْتَ الحَضِيضِ وَطَالَـمَا كَـانُوا هُـمُ الأَعْـلامَ لِلبُلْـدَانِ

قَوْلُهُ: «الأَعْلَامَ» جمعُ «عَلَمٍ»؛ أي: الجبالُ الشَّامخةُ.

فبعدَ أن كانوا في عُلوٍّ نزلوا إلى السُّفلِ والحضيضِ.

٣٦٨٥- وَمِـنَ العَجَائِـبِ أَنَّـهُ بِسِـلاحِهِمْ أَرْدَاهُـمُ تَحْـتَ الحَضِـيضِ الـدَّانِي

صحيحٌ، هذا -والله- من العجائبِ، أخذ سلاحَهم من أيديهم وجعل يقاتلُهم به، فمن العجائبِ أنَّه جَعَلَ أدلَّتَهم أدلَّةً عليهم؛ لأنَّ كُلَّ الأشياءِ التي يُعلِّلون بها صارت حُجَّةً عليهم، حتَّى إنَّه قال في أوَّل كتاب: «العقل والنَّقل»: «أنا مستعدٌّ وملتزمٌ أنَّه ما من شخصٍ يستدلُّ بآيةٍ أو حديثٍ صحيح على باطلِه إلَّا جَعَلْتُهُ دليلًا عليه»[1]، وهذا قلبٌ للدَّليلِ، يجعلُ الدَّليلَ الذي يُسْتَدَلُّ به على الباطلِ يجعلُه دليلًا عليه؛ لأنَّ القرآنَ وصحيحَ السُّنَّةِ لا يمكنُ أن يدلَّا على باطلٍ أبدًا؛ ولهذا قال:

٣٦٨٦- كَانَـتْ نَوَاصِـينَا بِأَيْـدِيهِمْ فَـمَا مِنَّـا لَـهُـمْ إِلَّا أَسِـيرٌ عَـانِي

٣٦٨٧- فَغَـدَتْ نَوَاصِـيهِمْ بِأَيْـدِينَا فَـلَا يَلْقَوْنَنَـا إِلَّا بِحَبْـلِ أَمَـانِ

قَوْلُهُ: «فَلَا يَلْقَوْنَنَا إِلَّا بِحَبْلِ أَمَانِ»؛ يعني: يقولون: أَمِّنَّا، كالأسيرِ يطلبُ مِمَّن أَسَرَهُ أن يُؤَمِّنَه.

انقلبت الأمورُ، كانوا بالأوَّل هم القادةَ، وهم الذين لهم الكلمةُ، ولهم الغلبةُ ونواصي النَّاسِ بأيديهم، فصاروا بعد أن أَظْهَرَ اللهُ هذا الرَّجُلَ الحَبْرَ، ومَنَّ به على

(١) انظر: مقدمة درء تعارض العقل والنقل.

الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ ونَصَرَ به الحقَّ فصارت نواصيهم بأيدينا، فلا يلقوننا إلَّا بحبل أمانٍ، يعني: أنَّهم لا يقومون لنا إلَّا إذا أعطيناهم الأمانَ وذلك لِذُلِّهم ورعبِهم.

٣٦٨٨- وَغَدَتْ مُلُوكُهُمُ مَمَالِيكًا لِأَنْـ ـصَارِ الرَّسُولِ بِمِنَّةِ الرَّحْمَنِ

الحمدُ لله انقلبت الأمورُ، ملوكُهم صاروا مماليكَ، فالمَلِكُ صار مملوكًا.

٣٦٨٩- وَأَتَتْ جُنُودُهُمُ الَّتِي صَالُوا بِهَا مُنْقَادَةً لِعَسَاكِرِ الإِيمَانِ

أي: بعد أن كانت تُهاجِمُ جاءت منقادةً.

٣٦٩٠- يَدْرِي بِهَذَا مَنْ لَهُ خُبْرٌ بِمَا قَدْ قَالَهُ فِي رَبِّهِ الفِئَتَانِ

٣٦٩١- وَالفَدْمُ يُوحِشُنَا وَلَيْسَ هُنَاكُمُ فَحُضُورُهُ وَمَغِيبُهُ سِيَّانِ

قَوْلُهُ: «الفَدْمُ»؛ يعني: العيُّ الذي لا يستطيعُ أن يُعَبِّرَ، أو: الغليظ الجاهل.

المهمُّ: أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- قَيَّضَ للإسلامِ شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميَّةَ ومَنْ على شاكِلَتِه، فَنَصَرَ اللهُ بهم دينَه وأَذَلَّ أعداءَه، وهذا من نعمةِ الله أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- يُقَيِّضُ عند كُلِّ بدعةٍ وفتنةٍ مَنْ يُبَيِّنُ هذه البدعةَ ويُظْهِرُهَا.

* * *

فصـــل

فِي بَيَانِ أَنَّ المُصِيبَةَ الَّتِي حَلَّتْ بِأَهْلِ التَّعْطِيلِ وَالكُفْرَانِ مِنْ جِهَةِ الأَسْمَاءِ الَّتِي مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ

٣٦٩٢- يَا قَوْمُ أَصْلُ بَلائِكُمْ أَسْمَاءُ لَمْ يُنْزِلْ بِهَا الرَّحْمَنُ مِنْ سُلْطَانِ

٣٦٩٣- هِيَ عَكَّسَتْكُمْ غَايَةَ التَّعْكِيسِ وَاقْـ ـتَلَعَتْ دِيَارَكُمْ مِنَ الأَرْكَانِ

٣٦٩٤- فَتَهَدَّمَتْ تِلْكَ القُصُورُ وَأَوْحَشَتْ مِنْكُمْ رُبُوعُ العِلْمِ وَالإِيمَانِ

٣٦٩٥- وَالذَّنْبُ ذَنْبُكُمْ قَبِلْتُمْ لَفْظَهَا مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ وَلا فُرْقَانِ

٣٦٩٦- وَهِيَ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَى أَمْرَيْنِ مِنْ حَقٍّ وَأَمْرٍ وَاضِحِ البُطْلانِ

٣٦٩٧- سَمَّيْتُمُ عَرْشَ المُهَيْمِنِ حَيِّزًا وَالإِسْتِوَاءَ تَحَيُّزًا بِمَكَانِ

٣٦٩٨- وَجَعَلْتُمُ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ العُلَى جِهَةً وَسُقْتُمْ نَفْيَ ذَا بِوِزَانِ

٣٦٩٩- وَجَعَلْتُمُ الإِثْبَاتَ تَشْبِيهًا وَتَجْـ ـسِيمًا وَهَذَا غَايَةُ البُهْتَانِ

٣٧٠٠- وَجَعَلْتُمُ المَوْصُوفَ جِسْمًا قَابِلَ الـ أَعْرَاضِ وَالأَكْوَانِ وَالأَلْوَانِ

٣٧٠١- وَجَعَلْتُمُ أَوْصَافَهُ عَرَضًا وَهَـ ـذَا كُلُّهُ جِسْرٌ إِلَى النُّكْرَانِ

٣٧٠٢- وَكَذَاكَ سَمَّيْتُمْ حُلُولَ حَوَادِثٍ أَفْعَالَهُ تَلْقِيبَ ذِي عُدْوَانِ

٣٧٠٣- إِذْ تَنْفِرُ الأَسْمَاعُ مِنْ ذَا اللَّفْظِ نُفْـ ـرَتَهَا مِنَ التَّشْبِيهِ وَالنُّقْصَانِ

٣٧٠٤- فَكَسَوْتُمُ أَفْعَالَهُ لَفْظَ الحَوَا ... دِثِ ثُمَّ قُلْتُمْ قَوْلَ ذِي بُطْلانِ

٣٧٠٥- لَيْسَتْ تَقُومُ بِهِ الحَوَادِثُ وَالمُرَا ... دُ النَّفْيُ لِلأَفْعَالِ لِلدَّيَّانِ

٣٧٠٦- فَإِذَا انْتَفَتْ أَفْعَالُهُ وَصِفَاتُهُ ... وَكَلامُهُ وَعُلُوُّ ذِي السُّلْطَانِ

٣٧٠٧- فَبِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ رَبًّا عِنْدَكُمْ ... يَا فِرْقَةَ التَّحْقِيقِ وَالعِرْفَانِ

٣٧٠٨- وَالقَصْدُ نَفْيُ فِعَالِهِ عَنْهُ بِذَا التَّـ ... ـتَلْقِيبِ فِعْلَ الشَّاعِرِ الفَتَّانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلٌ فِي بَيَانِ أَنَّ المُصِيبَةَ الَّتِي حَلَّتْ بِأَهْلِ التَّعْطِيلِ وَالْكُفْرَانِ مِنْ جِهَةِ الأَسْمَاءِ الَّتِي مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ»؛ يعني: أنَّ هذه المصيبةَ الَّتي حلَّت بهم أنَّهم أحدثوا أسماءً ما أنزل اللهُ بها من سلطانٍ، فصار هذا الإحداثُ مُوجبًا للتَّشكُّكِ والتَّشكيكِ والتَّلبيسِ، فالمؤلِّفُ الآن يريدُ أن يتكلَّمَ على أسماءٍ يُشَبِّهُ بها أهلُ التَّعطيلِ، يقولون: لو كان كذا لكان كذا، لو ثَبَتَتْ له الصِّفاتُ لكان محلًّا للحوادثِ، والصِّفاتُ عَرَضٌ، ولو قامت به الصِّفاتُ لكان جسمًا، وما أشبه ذلك.

يقولُ ابنُ القيِّم: هي اشتملت على أمرين: الأوَّل: حقٌّ، والثَّاني: أمرٌ واضحُ البُطلانِ، وأنتم أطلقتموها بدون تفصيلٍ، وهذا أصلُ البلاءِ، فلو أنَّكم فَصَّلتم لزال الإشكالُ؛ ولذا قال رحمه الله:

٣٦٩٢- يَا قَوْمُ أَصْلُ بَلائِكُمْ أَسْمَاءُ لَمْ ... يُنْزِلْ بِهَا الرَّحْمَنُ مِنْ سُلْطَانِ

قَوْلُهُ: «أَسْمَاءُ» بلا تنوينٍ من أجل استقامةِ الوزنِ، أمَّا إذا لم يكن هناك ضرورةٌ فإنَّ الواجبَ التَّنوينُ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [النَّجم:٢٣]،

لكن تأتي «أسماءُ» غيرَ منوَّنةٍ إذا كانت الألفُ فيها للتَّأنيثِ مثل: «أسماء» اسم امرأة؛ ولهذا يغلطُ بعضُ النَّاسِ فيقولُ: «إِنَّ لهؤلاءِ أسماءَ حَسَنَةً»، إذا قال ذلك صار المعنى يختلفُ اختلافًا عظيمًا، تكونُ «أسماءُ» هنا بمعنى امرأة.

فالحاصلُ أنَّ «أسماءً» جمعُ «اسمٍ»، منوَّنةٌ مصروفةٌ، لكن في كلام المؤلِّفِ هنا لا تُنَوَّنُ لإقامةِ الوزنِ.

٣٦٩٣- هِيَ عَكَّسَتْكُمْ غَايَةَ التَّعْكِيسِ وَاقْـ ـتَلَعَتْ دِيَارَكُمُ مِنَ الأَرْكَانِ

قَوْلُهُ: «عَكَّسَتْكُمْ»؛ يعني: جَعَلَتْ أمورَكم ترجعُ إلى الوراءِ؛ لأنَّ عكسَ الشَّيءِ ما يكونُ مقابلًا له على وجهِ الضِّدِّ.

٣٦٩٤- فَتَهَدَّمَتْ تِلْكَ القُصُورُ وَأَوْحَشَتْ مِنْكُمْ رُبُوعُ العِلْمِ وَالإِيمَانِ

٣٦٩٥- وَالذَّنْبُ ذَنْبُكُمُ قَبِلْتُمْ لَفْظَهَا مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ وَلا فُرْقَانِ

يعني: سبب إنعكاسِكم وتهدُّمِ بنيانِكم أنتم بأنفسِكم؛ لأنَّكم قبلتم لفظَها بدون تفصيلٍ.

٣٦٩٦- وَهِيَ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَى أَمْرَيْنِ مِنْ حَقٍّ وَأَمْرٍ وَاضِحِ البُطْلانِ

يعني: أنَّ هذه الألفاظَ التي أحدثتموها اشْتَمَلَتْ على أمرين: حقٍّ وباطلٍ، فأنتم قبلتموها على سبيلِ الإطلاقِ فدخل عليكم الباطلُ، أو نفيتموها على سبيلِ الإطلاقِ فنفيتم الحقَّ، واللَّفظُ إذا كان يحتملُ معنًى حقًّا ومعنى باطلًا فالواجبُ التَّفصيلُ.

٣٦٩٧- سَمَّيْتُمُ عَرْشَ المُهَيْمِنِ حَيِّزًا وَالإِسْتِوَاءَ تَحَيُّزًا بِمَكَانِ

هذا مثالٌ، يقولون: لو أنَّنا أَثْبَتْنَا أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- على العرشِ لكان

العرشُ حيِّزًا، يحوزُ الشَّيءَ كما يحوزُ الإناءُ الماءَ، وجعَلتُم اللهَ عزَّ وجلَّ إذا كان مستندًا عليه جعلتموه مُتَحَيِّزًا، وقلتم: إنَّ الحَيِّزَ والتَّحيُّزَ ممتنعٌ؛ لأنَّه على زعمِهم يقتضي التَّجسيمَ والتَّشبيهَ؛ ولهذا نَفَوُا الحَيِّزَ والتَّحيُّزَ، وهذا نفيٌ للفظٍ يحتملُ معنى حقًّا ومعنى باطلًا، فإذا أطلقوا نفيَه دَخَلَ فيه نفيُ الحقِّ.

والجوابُ أن نقولَ: أوَّلًا: كلمة «حيِّز» نفيًا أو إثباتًا لم تَرِدْ في الكتابِ ولا في السُّنَّةِ، وموقفُنا منها أن نتوقَّفَ، أمَّا من حيثُ المعنى فإن أردتم بالحيِّزِ أنَّ اللهَ تحوزُه المخلوقاتُ فهذا باطلٌ، ونحن معكم على نفيِ هذا المعنى، وإن أردتم أنَّ اللهَ منحازٌ عن المخلوقاتِ فوق كُلِّ شيءٍ فإنَّنا لا نوافقُكم على نفيه، بل نقولُ: إنَّ اللهَ -جلَّ وعلا- منحازٌ عن مخلوقاتِه؛ لم يَحِلَّ فيها ولم تَحِلَّ فيه.

٣٦٩٨- وَجَعَلْتُمُ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ العُلَى ... جِهَةً وَسُقْتُمْ نَفْيَ ذَا بِوِزَانِ

قلتم: إذا قلنا: إنَّ اللهَ فوقَ السَّماواتِ لَزِمَ أن يكونَ في جهةٍ، وإذا كان في جهةٍ فقد أَحَاطَتْ به الجهةُ، وهذا يستلزمُ أن يكونَ اللهُ عزَّ وجلَّ محاطًا به، إِذَنْ فننفي أن يكونَ فوقَ السَّماءِ؛ لأنَّ ذلكَ يستلزمُ الجهةَ.

وسبحان الله! هؤلاء الذين يقولون ذلك إمَّا أن يقولوا: إنَّ اللهَ تعالى ليس فوقَ العالَمِ ولا تحتَه ولا يمينه ولا يساره ولا مُتَّصلًا ولا مُنفَصلًا، فنقولُ: أنتم الآن نفَيْتم وجودَ الله، وإمَّا أن يقولوا: إنَّ اللهَ بذاتِه في كُلِّ مكانٍ، وحينئذٍ جعلوا اللهَ تعالى محُوزًا بالمخلوقاتِ، إذا كان في الحجرةِ صارت جدرانُ الحجرةِ محيطةً به، فأنتم فررتم من شيءٍ ووقعتم في أشدَّ منه.

والجوابُ عن هذا أن نقولَ: إن أردتم جهةً محيطةً بالله، فهذا ممنوعٌ بلا شكٍّ، ونوافقُكم على نفيه، وإن أردتم جهةً؛ أي: ما فوق العالمِ، فهذا لا نُوافقُكم على

نفيه، ونقولُ: إنَّ أَفْصَحَ الخلقِ وأعلمَهم بالله محمَّدًا رسولَ الله ﷺ قال للجارية: «أَيْنَ اللهُ؟»، و«أَيْنَ» يُسْتَفْهَمُ بها عن المكانِ والجهةِ، وأقرَّها حين قالت: «فِي السَّمَاءِ»[1].

٣٦٩٩- وَجَعَلْتُمُ الإِثْبَاتَ تَشْبِيهًا وَتَجْـ ... ـسِيمًا وَهَـذَا غَايَـةُ البُهْتَـانِ

قلتم: مَنْ أَثْبَتَ فقد شَبَّهَ؛ لأنَّ الإثباتَ يستلزمُ التَّجسيمَ، كيف؟ قالوا: الصِّفاتُ عَرَضٌ، والعَرَضُ لا يقومُ إلَّا بالجسمِ، والأجسامُ متماثلةٌ، فإذا أَثْبَتْنَا صفةً لَزِمَ إثباتُ جسمٍ، وإذا أَثْبَتْنَا جسمًا لَزِمَ التَّشبيهُ، فَنَفَوُا الصِّفاتِ من هذه الحيثيَّة.

إِذَنْ الذي غَرَّهم هنا إطلاقُ نفي الجسمِ، ولو أنَّهم فَصَّلُوا لاستقامت أمورُهم، ولكنَّهم أطلقوا النَّفيَ فأنكروا من أجلِ هذا الإطلاقِ صفاتِ الله عزَّ وجلَّ.

٣٧٠٠- وَجَعَلْتُمُ المَوْصُوفَ جِسْمًا قَابِلَ الـ ... أَعْـرَاضِ وَالأَكْـوَانِ وَالأَلْـوَانِ

فهم جعلوا الموصوفَ -وهو اللهُ، عزَّ وجلَّ- جسمًا قابلَ الأعراضِ والأكوانِ والألوانِ.

٣٧٠١- وَجَعَلْـتُمْ أَوْصَـافَهُ عَرَضًـا وَهَــ ... ـذَا كُلُّـهُ جِسْـرٌ إِلَى النُّكْـرَانِ

قالوا: الصِّفاتُ أعراضٌ، والأعراضُ حوادثُ؛ لأنَّ العَرَضَ ما يَعْرِضُ ثُمَّ يزولُ، والحوادثُ لا تقومُ بالأزليِّ الأبدِيِّ، فالحوادثُ لا تقومُ إلَّا بحادثٍ، وقد سَبَقَ بيانُ زَيْفِ هذه الحُجَّةِ، وأنَّها باطلةٌ، لكنَّهم يقولون هذا، ولهذا عندهم من أذكارِهم الشَّريفة: «سُبْحَانَ مَنْ تَنَزَّهَ عن الأعراضِ والأغراضِ والأبعاضِ»

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).

«**الأعراض**»: الصِّفاتُ، و«**الأغراض**»: الحكمةُ، و«**الأبعاض**»: اليدُ والوجهُ والعينُ وما أشبهها، كُلُّ هذا من أجل أن ينفوا ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه من الصِّفاتِ الكاملةِ.

٣٧٠٢- وَكَذَاكَ سَـمَّيْتُمْ حُلُـولَ حَـوَادِثٍ ... أَفْعَالَـــهُ تَلْقِيـــبَ ذِي عُـــدْوَانِ

يعني: جعلتم أفعالَ الله حلولَ حوادثٍ بالله، وقلتم: لا تَحِلُّ الحوادثُ إِلَّا بحادثٍ تمنعُ الأفعالَ.

٣٧٠٣- إِذْ تَنْفِرُ الأَسْمَاعُ مِنْ ذَا اللَّفْـظِ نُفْـ ... ـرَتَهَا مِـنَ التَّشْـبِيهِ وَالنُّقْصَـانِ

٣٧٠٤- فَكَسَـوْتُمُ أَفْعَالَـهُ لَفْـظَ الـحَوَا ... دِثِ ثُـمَّ قُلْـتُمْ قَـوْلَ ذِي بُطْـلانِ

٣٧٠٥- لَيْسَتْ تَقُومُ بِهِ الحَـوَادِثُ وَالـمُرَا ... دُ النَّفْـــيُ لِلأَفْعَـــالِ لِلـــدَّيَّانِ

إِذَنْ نَفَوْا أفعالَ الله بِحُجَّةِ أَنَّ الأفعالَ حادثةٌ، ومن أفعالِ الله: الاستواءُ، النُّزولُ إلى السَّماءِ الدُّنيا، الضَّحكُ، الفرحُ، العجبُ، وما أشبه ذلك، قالوا: هذه حوادثُ لا تقومُ إِلَّا بحادثٍ، واللهُ عزَّ وجلَّ أَزَلِيٌّ أبدِيٌّ ليس بحادثٍ، ولا يَفْنَى، ومعلومٌ أَنَّ العامِّيَّ إذا سَمِعَ هذا الكلامَ فإِنَّه يظنُّ أَنَّ هذا حقٌّ، ولكنَّهم لم يقولوا: هذه أفعالٌ، ومن كمالِ الذَّاتِ أن تقومَ بها الأفعالُ، وهذا هو الحقُّ، هي أفعالٌ وليست حوادثَ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٢٧].

٣٧٠٦- فَـإِذَا انْتَفَـتْ أَفْعَالُـهُ وَصِـفَاتُهُ ... وَكَلامُـهُ وَعُلُـوُّ ذِي السُّـلْطَانِ

٣٧٠٧- فَبِـأَيِّ شَيْءٍ كَـانَ رَبًّـا عِنْـدَكُمْ ... يَـا فِرْقَـةَ التَّحْقِيـقِ وَالعِرْفَـانِ

قَوْلُهُ: «**يَا فِرْقَةَ التَّحْقِيقِ وَالعِرْفَانِ**» هل هذا على وجهِ الحقيقة؟ الجوابُ: على وجهِ السُّخريَّةِ والاستهزاءِ بهم، وهم أهلٌ لأن يُسْخَرَ بهم و يُسْتَهْزَأَ بهم.

نَفَوُا الأفعالَ بحُجَّةِ أنَّها حوادثُ، والحوادثُ لا تقومُ إلَّا بحادثٍ، نَفَوُا الصِّفاتِ بِحُجَّةِ أنَّها أعراضٌ، والأعراضُ لا تقومُ إلَّا بأجسامٍ، والأجسامُ متماثلةٌ، نَفَوُا الفوقيَّةَ فقالوا: لأنَّ هذا يستلزمُ أن يكونَ اللهُ في جهةٍ، والجهةُ تحيطُ بما فيها، فيجبُ نفيُ العلوِّ، نَفَوْا الاستواءَ على العرشِ، قالوا: لأنَّ العرشَ حَيِّزٌ؛ أي: مكانٌ يَحوزُ مَنْ فيه، فإذا أَثْبَتْنَا استواءَه على العرشِ لَزِمَ أن يكونَ اللهُ متحيِّزًا فيجب نفيُ استواءِ الله على العرشِ.

وسبق أنَّهم نَفَوُا الكلامَ، فإذا نَفَوْا أفعالَه وصفاتِه وكلامَه وعلوَّه فماذا يبقى؟!

٣٧٠٨- وَالقَصْدُ نَفْيُ فِعَالِهِ عَنْهُ بِذَا التْـ ـتَلْقِيبِ فِعْلَ الشَّاعِرِ الفَتَّانِ

هذا القصدُ، القصدُ أنَّكم تنفون أفعالَه بهذا التَّلقيبِ، وهو أنَّ الحوادثَ لا تقومُ إلَّا بحادثٍ، ومعلومٌ أنَّنا إذا نَفَيْنَا أن يكونَ عزَّ وجلَّ فاعلًا لَزِمَ أن يكونَ أشلَّ لا يفعلُ، والشَّللُ نقصٌ، فهم فرُّوا بزَعمِهم عن إثباتِ النَّقصِ ووقعوا في نقصٍ أَشدَّ، كما أنَّهم إذا نَفَوُا الكلامَ لَزِمَ أن يكونَ أخرسَ، والخَرَسُ نقصٌ، والذين أثبتوا الكلامَ لكنَّهم جعلوه كلامًا نفسيًّا لا كلامًا حقيقةً بحرفٍ وصوتٍ قد سَبَقَ أنَّ ابنَ القيِّمِ -رحمه الله- ذَكَرَ أنَّ شيخَ الإسلام رَدَّ عليهم من تسعين وجهًا في كتابٍ سمَّاه: «التِّسعينيَّة».

* * *

٣٧٠٩- وَكَــذَاكَ حِكْمَــةَ رَبِّنَــا سَــمَّيْتُمُ عِلَــلًا وَأَغْرَاضًــا وَذَانِ اسْــمَانِ
٣٧١٠- لا يُشْـعِرَانِ بِمِدْحَـةٍ بَـلْ ضِـدِّهَا فَيَهُــونُ حِينَئِــذٍ عَــلَى الأَذْهَــانِ
٣٧١١- نَفْيُ الصِّفَاتِ وَحِكْمَةِ الخَلَّاقِ وَالـ أَفْعَــالِ إِنْكَــارًا لِــهَذَا الشَّــانِ
٣٧١٢- وَكَذَا اسْتِوَاءُ الرَّبِّ فَوْقَ العَرْشِ قُلْـ ـتُمْ إِنَّــهُ التَّرْكِيــبُ ذُو بُطْــلانِ
٣٧١٣- وَكَذَاكَ وَجْـهُ الـرَّبِّ جَـلَّ جَلالُـهُ وَكَــذَاكَ لَفْـظُ يَـدٍ وَلَفْـظُ يَـدَانِ
٣٧١٤- سَــمَّيْتُمُ ذَا كُلَّــهُ الأَعْضَــاءَ بَــلْ سَــمَّيْتُمُوهُ جَــوَارِحَ الإِنْسَــانِ
٣٧١٥- وَسَـطَوْتُمُ بِـالنَّفْيِ حِينَئِـذٍ عَلَيْـ ـهِ كَنَفْيِنَـا لِلعَيْـبِ مَـعْ نُقْصَـانِ
٣٧١٦- قُلْتُمْ نُنَزِّهُـهُ عَـنِ الأَعْـرَاضِ وَالْـ أَغْـرَاضِ وَالأَبْعَـاضِ وَالـجُثْمَانِ
٣٧١٧- وَعَـنِ الـحَوَادِثِ أَنْ تَحُـلَّ بِذَاتِـهِ سُـبْحَانَهُ مِـنْ طَـارِقِ الـحَدَثَانِ
٣٧١٨- وَالقَصْـدُ نَفْـيُ صِـفَاتِهِ وَفِعَالِـهِ وَالإِسْـتِوَاءِ وَحِكْمَـةِ الـرَّحْمَنِ
٣٧١٩- وَالنَّاسُ أَكْثَرُهُمْ بِسِجْنِ اللَّفْـظِ مَحْـ ـبُوسُونَ خَـوْفَ مَعَـرَّةِ السَّـجَّانِ
٣٧٢٠- وَالكُـلُّ إِلَّا الفَـرْدَ يَقْبَـلُ مَـذْهَبًا فِي قَالَـبٍ وَيَـرُدُّهُ فِي ثَـانِي
٣٧٢١- وَالقَصْدُ أَنَّ الذَّاتَ وَالأَوْصَافَ وَالـ أَفْعَـالَ لا تُنْفَـى بِـذَا الـهَذَيَانِ
٣٧٢٢- سَمُّوهُ مَا شِئْتُمْ فَلَيْسَ الشَّأْنُ فِي الـ أَسْـمَاءِ بَـلْ فِي مَقْصِـدٍ وَمَعَـانِي
٣٧٢٣- كَمْ ذَا تَوَسَّلْتُمْ بِلَفْظِ الجِسْمِ وَالتْـ ـتَجْسِيمِ لِلتَّعْطِيـلِ وَالكُفْـرَانِ
٣٧٢٤- وَجَعَلْتُمُوهُ الـتُّرْسَ إِنْ قُلْنَـا لَكُـمْ اللهُ فَـوْقَ العَـرْشِ وَالأَكْـوَانِ

٣٧٢٥- قُلْتُمْ لَنَا جِسْمٌ عَلَى جِسْمٍ تَعَا لَى اللهُ عَنْ جِسْمٍ وَعَنْ جُثْمَانِ

الشرحُ

٣٧٠٩- وَكَذَاكَ حِكْمَةَ رَبِّنَا سَمَّيْتُمُ عِلَلًا وَأَغْرَاضًا وَذَانِ اسْمَانِ

٣٧١٠- لا يُشْعِرَانِ بِمِدْحَةٍ بَلْ ضِدِّهَا فَيَهُونُ حِينَئِذٍ عَلَى الأَذْهَانِ

٣٧١١- نَفْيُ الصِّفَاتِ وَحِكْمَةِ الخَلَّاقِ وَالـ أَفْعَالِ إِنْكَارًا لِـهَذَا الشَّانِ

قَوْلُهُ: «**لَا يُشْعِرَانِ**» الضَّميرُ يعودُ على العللِ والأغراضِ.

قَوْلُهُ: «**نَفْيُ الصِّفَاتِ وَحِكْمَةِ الخَلَّاقِ وَالأَفْعَالِ**»؛ أي: ونفيُ الأفعالِ.

قَوْلُهُ: «**إِنْكَارًا لِـهَذَا الشَّانِ**»؛ أي: لهذا اللَّفظِ الذي أحدثوه يُنَفِّرون النَّاسَ عن إثباتِ هذا المعنى لله عزَّ وجلَّ.

سبحان الله! أيضًا نَفَوُا الحكمةَ، وإذا انتفت حِكمةُ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ لَزِمَ أن تكونَ أفعالُه كُلُّها لَعِبًا وسُدًى؛ لأنَّ مَنْ لا حكمةَ له لو أصاب الحكمةَ فقد أصابها عن غير قصدٍ، وإلَّا فالأصلُ أنَّ أفعالَه كُلَّها سفهٌ، لكن لماذا نَفَوُا الحكمةَ؟ قالوا: لو أَثْبَتْنَا الحكمةَ لَزِمَ أن تكونَ إرادةُ الله متعلِّقةً بالأغراضِ؛ يعني: أنَّ له غرضًا، واللهُ عزَّ وجلَّ ليس له غرضٌ، وليس يفعلُ لعلَّةٍ، إِذَنْ أفعالُه لا حكمةَ لها، فهو ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [النَّحل:٩٣] لغيرِ حكمةٍ، ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النَّحل:٩٣] لغيرِ حكمةٍ، يوجبُ أشياءَ لغيرِ حكمةٍ، يُحَرِّمُ أشياءَ لغيرِ حكمةٍ، فليس له حكمةٌ إطلاقًا؛ لأنَّ الحكمةَ غرضٌ، أنت عندما تفعلُ شيئًا لشيءٍ معناه أنَّك فَعَلْتَ هذا لهذا، واللهُ تعالى مُنَزَّهٌ عن الأغراضِ، ولذا فمن سجعِهم في الثَّناءِ على الله: «**سُبْحَانَ مَنْ تَنَزَّهَ**

عن الأعراضِ والأغراضِ والأبعاضِ»، وهذا سجعٌ له رنينٌ في الأذن، لكنَّه يخرقُ الأذنَ فيفسد الدِّماغَ، فقولهُم: «**مَنْ تَنَزَّهَ عن الأعراضِ**»؛ يعني به: نفيَ الحكمةِ، و«**الأغراض**»: الصِّفات، و «**الأبعاض**»: اليد، والوجه، والعين، وما أشبه ذلك.

فَيُقَالُ لهم إن كانوا ممَّن يثبتون الإرادةَ: والإرادةُ أيضًا إنَّما تكونُ من أجلِ أن ينالَ بها المُريدُ ما يقصدُه، فالحكمةُ التي لا يكونُ فعلٌ من أفعالِ الله تعالى إلَّا مقرونًا بها ليست غَرَضًا يعودُ نفعُه إلى الله، بل هي حكمةٌ يعودُ نفعُها إلى المخلوقِ، أمَّا اللهُ عزَّ وجلَّ فإنَّه غَنِيٌّ عنها، لا يحتاجُ إليها، قال اللهُ تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزُّمر:٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧]، لكن الحكمة التي تقتضي أفعالَ الله عزَّ وجلَّ هي حكمةٌ تتعلَّقُ بمصالحِ المخلوقِ ودفعِ الضَّررِ عنه، وليست غرضًا ينتفعُ به الفاعلُ وهو اللهُ عزَّ وجلَّ، إِذَنْ إن أردتم بالأغراضِ الأغراضَ التي يحتاجُها فهذا باطلٌ وليس مُرادًا، وإن أردتم بالأغراضِ مصلحةَ العبادِ فهذا حقٌّ، وسمُّوه ما شئتم.

إِذَنْ هم سَمَّوُا الحكمةَ عِلَّةً وغرضًا من أجلِ تنفيرِ النَّاسِ عن إثباتِ الحكمةِ، وسبحانَ الله أن يُسَمُّوا الحكمةَ اللَّذيذةَ على السَّمعِ السَّلِسةَ على اللِّسانِ يُسمُّونها عِلَّةً ويسمُّونها غَرَضًا؛ من أجلِ أن يُنَفِّروا النَّاسَ عن قَبولِها، نسألُ اللهَ العافيةَ، فهم جَنَوْا على أنفسِهم وجَنَوْا على غيرِهم.

٣٧١٢- وَكَذَا اسْتِوَاءُ الرَّبِّ فَوْقَ العَرْشِ قُلْـ ... ـتُمْ إِنَّـهُ التَّرْكِيـبُ ذُو بُطْـلانِ

استواءُ الله على العرشِ قالوا: إنَّه من التَّركيبِ «**تركيب جوار**» على زعمِهم كما سبق في أقسامِ التَّركيبِ، وليس تركيبَ اختلاطٍ، ونحن نقولُ: أين التَّركيبُ؟ الرَّبُّ عزَّ وجلَّ مُسْتَغْنٍ عن العرشِ وعن غيرِه، والعرشُ قَائِمٌ بالله، فلولا اللهُ ما قام

العرشُ، فأين التَّركيبُ الذي يفتقرُ فيه الجارُ إلى جارِه؟ اللهُ عزَّ وجلَّ غنيٌّ عن العرشِ وعن غيرِه، لكنَّهم يقولون: هذا أيضًا من العللِ التي نَفَوْا بها الاستواءَ أنَّه يلزمُ منه التَّركيبُ، وهذا لا شكَّ أنَّه معنًى باطلٌ؛ لأنَّ التَّركيبَ هنا غيرُ واردٍ إطلاقًا.

٣٧١٣- وَكَذَاكَ وَجْهُ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ وَكَذَاكَ لَفْظُ يَدٍ وَلَفْظُ يَدَانِ

٣٧١٤- سَمَّيْتُمُ ذَا كُلَّهُ الأَعْضَاءَ بَلْ سَمَّيْتُمُوهُ جَوَارِحَ الإِنْسَانِ

قالوا: إذا قلنا: إنَّ لله وجهًا، وإنَّ له يدًا أو يَدَيْنِ، لَزِمَ أن نُثْبِتَ له أبعاضًا وأعضاءً، واللهُ مُنَزَّهٌ عن ذلك، أو يُسمُّونه جوارحَ، فيقولون: «**اليدُ جارحةٌ كجارحةِ الإنسانِ**»، واليدُ جارحةٌ للإنسانِ؛ أي: كاسبةٌ كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ [المائدة:٤]؛ أي: من الكواسبِ، فجعلتم يدَ الله كيدِ المخلوقِ، ولو أنَّهم سَلِمُوا من التَّشبيهِ لعلموا أنَّ لله يدًا ليست كأيدي المخلوقِ.

إذا قالوا: إنَّ اليدَ عضوٌ، أو إنَّ اليدَ بعضُ الكُلِّ، وما أشبه ذلك، فماذا نقولُ؟ نقولُ: نحن نُثْبِتُ لله ما أَثْبَتَهُ اللهُ لنفسِه من اليدِ، ولا نقولُ: إنَّها بعضُ الله، ولا عضوُ الله وإن كان نظيرُ مسمَّاها بالنِّسبة إلينا بعضًا وعضوًا، لكن بالنِّسبة لله لا نقولُ: بعضٌ، ولا نقولُ: عضوٌ، بل نقولُ: يدُ الله، وهي حقٌّ على حقيقتِها، ونحن إذا لَزِمْنَا الأدبَ مع الله ومع رسولِه ﷺ وأَثْبَتْنَا ما أَثْبَتَهُ اللهُ بدون أن نزيدَ سَلِمْنَا من هذه التَّقديراتِ.

ولعلَّ سائلًا يسألُ فيقولُ: جاء في القرآنِ الكريمِ لفظُ «**يد**»، و«**يدان**»، و«**أيد**»، فلفظُ: «**يد**» كما في قولِه تعالى: ﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١]، ولفظُ «**يدان**» كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، ولفظُ «**أيدٍ**» كما في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [يس:٧١]، وليس من ذلك قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ

بَنَيْنَهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧]، فإنَّه يَحْرُمُ أن نُفَسِّرَها بأنَّها يدُ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ اللهَ لم يُضِفْهَا لنفسِه، فلم يقل: «بأيدينا»، وأنت إذا أَضَفْتَهَا إلى الله فقد افْتَرَيْتَ على الله كذبًا، إِذَنْ المرادُ بقولِه: ﴿بَنَيْنَهَا بِأَيْيْدٍ﴾؛ أي: بقوَّةٍ، فهي مصدر من «آدَ يَئِيدُ» كقولِهم: «بَاعَ يَبِيعُ»، و«نَالَ يَنَالُ نَيْلًا»، وما أشبه ذلك من المصادرِ، فهي مصدرٌ، وليست تُعَبِّرُ عن يدِ الله سبحانه وتعالى.

فإذا قال قائلٌ: كيف نجمعُ بين المثنَّى والجمعِ والمفردِ؟

نقولُ: الحمدُ لله، ليس هناك تناقضٌ، فالجمعُ للتَّعظيمِ، والمفردُ المضافُ للعمومِ، والمثنَّى هو الواقعُ أنَّ اللهَ له يدان اثنتان لا تُشْبِهَانِ أيدي المخلوقين.

٣٧١٥- وَسَطَوْتُمُ بِالنَّفْيِ حِينَئِذٍ عَلَيْـ ـهِ كَنَفْيِنَا لِلعَيْبِ مَعْ نُقْصَانِ

معناه: أنَّكم نفيتم نفيًا قاطعًا لهذه الصِّفاتِ كما ننفي العيبَ والنُّقصانَ.

٣٧١٦- قُلْتُمْ نُنَزِّهُهُ عَنِ الأَعْرَاضِ وَالْـ أَغْرَاضِ وَالأَبْعَاضِ وَالجُثْمَانِ

٣٧١٧- وَعَنِ الحَوَادِثِ أَنْ تَحُلَّ بِذَاتِهِ سُبْحَانَهُ مِنْ طَارِقِ الحَدَثَانِ

يقولون: «**نُنَزِّهُهُ عَنِ الأَعْرَاضِ وَالأَغْرَاضِ وَالأَبْعَاضِ وَالجُثْمَانِ**»؛ يعني: الجسمَ، «**وَعَنِ الحَوَادِثِ أَنْ تَحِلَّ بِذَاتِهِ**» يريدون بذلك نفيَ الأفعالِ.

قَوْلُهُ: «**سُبْحَانَهُ**»؛ يعني: تنزيهًا له «**مِنْ طَارِقِ الحِدْثَانِ**»؛ يعني: سبحانه أن يطرقَه شيءٌ حادثٌ!

وكُلُّ هذا -والعياذُ بالله- يُقْصَدُ به نفيُ ما جاء في الكتابِ والسُّنَّةِ من صفاتِ الله؛ ولهذا قال:

٣٧١٨- وَالقَصْدُ نَفْيُ صِفَاتِهِ وَفِعَالِهِ وَالإِسْتِوَاءِ وَحِكْمَةِ الرَّحْمَنِ

والذي يسمعُ قولَهم هذا: «نُنَزِّهُه عن الأَعْرَاضِ وَالأَغْرَاضِ وَالأَبْعَاضِ» يغترُّ بهذا، ويظنُّ أنَّه حقٌّ، وابنُ القيِّمِ يقولُ: قصدُكم بهذا نفيُ أربعةِ أشياء: نفيُ الصِّفاتِ، والأفعالِ، والاستواءِ، وحكمةِ الرَّحمنِ، ثمَّ قال قولًا ينبغي لنا أن نفهمَه جيِّدًا قال:

٣٧١٩- وَالنَّاسُ أَكْثَرُهُمْ بِسِجْنِ اللَّفْظِ مَحْـ ـبُوسُونَ خَوْفَ مَعَرَّةِ السَّجَّانِ

وهذا صحيحٌ، فبعضُ النَّاسِ بل أكثرُهم يعتمدُ على اللَّفظِ فيغترُّ به إثباتًا أو نفيًا، فتجدُه محبوسًا بسجنِ اللَّفظِ، لا ينظرُ للمعنى، ولا ينظرُ للهدفِ، ولا ينظرُ للمقصودِ، بل ينظرُ لظاهرِ اللَّفظِ، وذلك خَوْفَ مَعَرَّةِ السَّجَّانِ؛ أي: خوفًا من أن يُخَالِفَ فَيُسْجَن سجنًا جسديًّا، لكنَّه في الحقيقةِ مسجونٌ سجنًا ذهنيًّا وعقليًّا.

٣٧٢٠- وَالكُلُّ إِلَّا الفَرْدَ يَقْبَلُ مَذْهَبًا فِي قَالَبٍ وَيَرُدُّهُ فِي ثَانِي

الله أكبر؛ صحيحٌ، الذين يعتمدون على مجرَّدِ اللَّفظِ إذا أَتَيْتَهُ بالمعنى في لفظٍ ثُمَّ أَتَيْتَ به في لفظٍ ثانٍ قَبِلَه في اللَّفظِ الأوَّلِ ورَدَّه في اللَّفظِ الثَّاني، مع أنَّ المعنى واحدٌ لكن؛ لأنَّه لفظيٌّ لا يعرفُ المعنى ولا يُدْرِكُه يعتمدُ على مجرَّدِ اللَّفظِ، فإذا قلتَ مثلًا: «إِنَّ اللهَ مُنَزَّهٌ عن الأَبْعَاضِ» يقولُ: سُبْحَانَهُ! ويُسَبِّحُ اللهَ، ويُقدِّسُ اللهَ، ويقولَ: سبحانَ مَنْ لا بعضَ له! لكن لو قلت: «إِنَّ اللهَ لَيْسَتْ لَهُ يدٌ» قال: أعوذُ باللهِ، تُنْكِرُ يدَ الله وقد أَثْبَتَهَا اللهُ لنفسِه، مع أنَّ المعنى واحدٌ، لكنَّ اللَّفظَ مختلفٌ، لكن في القَالبِ الأوَّل قَبِلَهَا.

وإذا قيل له: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يحتاجُ إلى أحدٍ، فهو مُنَزَّهٌ عن الأغراضِ، يقول: هذا صحيحٌ، وإذا قيل له: إنَّ اللهَ يفعلُ الشَّيءَ لا لحكمةٍ بل يفعلُه سَفَهًا وعَبَثًا،

فيقول: هذا غيرُ صحيحٍ، مع أنَّ المعنى واحدٌ، لكنَّه لا يُقَدِّسُ إلَّا اللَّفظَ فقط.

وهذا يقعُ كثيرًا، وما أكثرَه عند أهلِ الحِيَلِ! أهلُ الحِيَلِ -وما أدراكَ ما الحِيَلُ- تجدُ الإنسانَ يصوغُ الشَّيءَ في قَالَبٍ هو معنى الشَّيءِ الممنوعِ، مثل: حيل النَّاسِ على الرِّبا وغيره، إذا نَظَرْتَ إلى ظاهرِ الفعلِ قلت: صحيحٌ ولا شيءَ فيه، لكن معناهُ والمرادُ منه فاسدٌ، كُلُّه سوءٌ، هكذا الألفاظُ أيضًا يتلاعبُ بها بعضُ النَّاسِ حتَّى يُغْرِيَ الآخرين.

٣٧٢١- وَالقَصْدُ أَنَّ الذَّاتَ وَالأَوْصَافَ وَالـ ... أَفْعَالَ لا تُنْفَى بِذَا الهَذَيَانِ

وصدَق رحمه اللهُ؛ يعني: ذاتُ الله وصفاتُه وأفعالُه لا تُنْفَى بمثلِ هذا الهذيان، ولا يمكنُ أن ينطليَ هذا الهذيانُ إلَّا على شخصٍ ليس له عقلٌ وتفكيرٌ.

٣٧٢٢- سَمُّوهُ مَا شِئْتُمْ فَلَيْسَ الشَّأْنُ فِي الـ ... أَسْمَاءِ بَلْ فِي مَقْصِدٍ وَمَعَانِي

الأسماءُ لا تُغيِّرُ الحقائقَ؛ ولهذا أخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّه يَأْتِي أناسٌ يَشْرَبُونَ الخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا[1]، فأكثرُ النَّاسِ محبوسون على اللَّفظ، فالآن عند الكُفَّارِ والفُسَّاقِ والفُجَّارِ يسمُّون الخَمرَ الشَّرابَ الرُّوحيَّ، ولكنَّه الشَّرابُ الجُنونيُّ في الواقعِ؛ لأنَّه يجعلُ الإنسانَ في جنونٍ، بل أخبث.

٣٧٢٣- كَمْ ذَا تَوَسَّلْتُمْ بِلَفْظِ الجِسْمِ وَالتَّـ ... ـجْسِيمِ لِلتَّعْطِيلِ وَالكُفْرَانِ

يعني: جعَلتُم لفظَ الجسمِ إثباتًا أو نفيًا، ولفظَ التَّجسيمِ إثباتًا أو نفيًا جعلتموه وسيلةً للتَّعطيلِ والكفرانِ، والفَرْقُ بين «الجسمِ» و«التَّجسيمِ» الفَرْقُ بينهما ظاهرٌ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الداذي، رقم (٣٦٨٩)، والنسائي: كتاب الأشربة، باب منزلة الخمر، رقم (٥٦٥٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب العقوبات، رقم (٤٠٢٠). والإمام أحمد (٤/ ٢٣٧، رقم ١٨٠٩٨).

فالجسمُ منفصلٌ عن المتكلِّمِ، والتَّجسيمُ قولُ المتكلِّمِ بأن يقولَ بلسانِه و يعتقدَ بقلبِه الجسمَ.

٣٧٢٤- وَجَعَلْتُمُوهُ التُّرْسَ إِنْ قُلْنَا لَكُمْ ... اللهُ فَوْقَ العَرْشِ وَالأَكْوَانِ

قَوْلُهُ: «**جَعَلْتُمُوهُ**»؛ يعني: الجسمَ والتَّجسيمَ.

قَوْلُهُ: «**التُّرْسَ**»؛ يعني: الوقاية التي يَتَوقَّى بها الإنسانُ عند القتالِ، وهو شيءٌ من جلدٍ قويٍّ يُصْنَعُ على مثل صاج الخبز يُمْسِكُه الفارسُ أو المقاتِلُ بيدِه اليسرى ويجعلُ السَّيفَ والرُّمحَ في يدِه اليمنى، فإذا رأى أحدًا قد كَرَّ عليه قال بيدِه هكذا، يتَّقي به السِّهامَ.

هم جعلوا التُّرسَ مثل هذه الألفاظِ، إذا قلنا: «**إنَّ اللهَ فوقَ العرشِ**»، قالوا: هذا جسمٌ، لا يجوزُ.

٣٧٢٥- قُلْتُمْ لَنَا جِسْمٌ عَلَى جِسْمٍ تَعَا ... لَى اللهُ عَنْ جِسْمٍ وَعَنْ جُثْمَانِ

قَوْلُهُ: «**قُلْتُمْ**»: القائلُ هم المعطِّلةُ المنكرون للاستواءِ.

قَوْلُهُ: «**جِسْمٌ عَلَى جِسْمٍ تَعَالَى اللهُ عِنْ جِسْمٍ وَعَنْ جُثْمَانِ**» ما أعظمَ هذه الكلمةَ! لاسيَّما إذا صَرَخَ بها عند العامَّةِ، فهذا رجلٌ من أهلِ السُّنَّةِ جاء يُقَرِّرُ قائلًا: «**إنَّ اللهَ استوى على العرشِ استواءً يليقُ بجلالِه**»، وعنده رجلٌ معطِّلٌ قال: أعوذُ باللهِ، تقول: إنَّ اللهَ مستوٍ على العرشِ، قال: نعم، قال: أعوذُ باللهِ! «**جسمٌ على جسمٍ**» تعالى اللهُ، يَرفعُ صوتَه جدًّا، ماذا يقولُ العامَّةُ؟ العامَّةُ يصيحون مثلما صاح، ويَضربون بأيديهم على رؤوسِهم، يقولون: كيف يقولُ: «**إنَّ اللهَ جسمٌ على جسمٍ؟**»، مع أنَّ «**جسمٌ على جسمٍ**» يقابلُها في المعنى الصَّحيحِ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى

ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف:٥٤]، لكن هو قال: «**جسمٌ على جسمٍ**» من أجل تنفيرِ العامَّةِ، أمَّا لو قال: «**إنَّ اللهَ استوى على العرشِ**» لقال العامَّةُ كُلُّهم: صَدَقْتَ.

يعني: إذا قُلنا: «**إنَّ اللهَ فوقَ العرشِ**» قالوا: جسمٌ على جسمٍ! وقولُهم: «على جسمٍ» هذا صحيحٌ؛ لأنَّ العرشَ جسمٌ بلا شكٍّ، جسمٌ هو اللهُ، نحن قلنا: إنَّنا لا نقولُ: إنَّ اللهَ جسمٌ، ولا إنَّه ليس بجسمٍ حتَّى نستفصلَ عن المعنى، ماذا تريدُ بأنَّ اللهَ جسمٌ؟ إذا قال: أريدُ أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- جسمٌ كالأجسامِ، نقولُ: هو بهذا المعنى باطلٌ، لا نقولُ بأنَّ اللهَ جسمٌ، وإذا قال: أريدُ أنَّ اللهَ جسمٌ؛ أي: له ذاتٌ متميِّزةٌ عن غيرِها، بَائِنةٌ متَّصفةٌ بالصِّفاتِ اللَّائقةِ بها، قلنا: هذا حقٌّ.

* * *

٣٧٢٦- وَكَـذَاكَ إِنْ قُلْنَـا القُـرَانُ كَلامُـهُ ... مِنْـهُ بَـدَا لَـمْ يَبْـدُ مِـنْ إِنْسَـانِ

٣٧٢٧- كَـلَّا وَلَا مَلَـكٌ وَلَا لَـوْحٌ وَلَـ ... ـكِنْ قَالَـهُ الـرَّحْمَنُ قَـوْلَ بَيَـانِ

٣٧٢٨- قُلْـتُمْ لَنَـا إِنَّ الكَـلامَ قِيَامُـهُ ... بِالجِسْـمِ أَيْضًـا وَهْـوَ ذُو حَـدَثَانِ

٣٧٢٩- عَرَضٌ يَقُومُ بِغَيْرِ جِسْمٍ لَـمْ يَكُـنْ ... هَـذَا بِمَعْقُـولٍ لِـذِي الأَذْهَـانِ

٣٧٣٠- وَكَـذَاكَ حِـينَ نَقُـولُ يَنْـزِلُ رَبُّنَـا ... فِي ثُلْـثِ لَيْـلٍ آخِـرٍ أَوْ ثَـانِي

٣٧٣١- قُلْـتُمْ لَنَـا إِنَّ النُّـزُولَ لِغَـيْرِ أَجْـ ... ـسَامٍ مُحَـالٌ لَـيْسَ ذَا إِمْكَـانِ

٣٧٣٢- وَكَـذَاكَ إِنْ قُلْنَـا يُـرَى سُـبْحَانَهُ ... قُلْـتُمْ أَجِسْـمٌ كَـيْ يُـرَى بِعِيَـانِ

٣٧٣٣- أَمْ كَـانَ ذَا جِهَـةٍ تَعَـالَى رَبُّنَـا ... عَـنْ ذَا فَلَـيْسَ يَـرَاهُ مِـنْ إِنْسَـانِ

الشـــرحُ

٣٧٢٦- وَكَـذَاكَ إِنْ قُلْنَـا القُـرَانُ كَلامُـهُ   مِنْـهُ بَـدَا لَـمْ يَبْـدُ مِـنْ إِنْسَـانِ

٣٧٢٧- كَـلَّا وَلَا مَلَـكٌ وَلَا لَـوْحٌ وَلَـ   ـكِنْ قَالَـهُ الـرَّحْمَنُ قَـوْلَ بَيَـانِ

إذا قلنا: إنَّ القرآنَ كلامُه، منه بدَا لم يَبْدُ من إنسانٍ، خِلافًا لِـمَنْ قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدَّثِّر:٢٥]، فقوله: «لَـمْ يَبْدُ مِنْ إِنْسَانِ» كالنَّبيِّ ﷺ، وكما قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النَّحل:١٠٣]، «وَلَـمْ يَبْدُ مِنْ مَلَكٍ» خلافًا لِـمَنْ قال: إنَّ جبريلَ هو الذي تكلَّم به ولم يتكلَّمْ به اللهُ، «وَلَا لَوْحٍ» خلافًا لِـمَنْ قال: إنَّ اللهَ خلق حروفًا في اللَّوحِ المحفوظِ، فأخذها جبريلُ من اللَّوحِ.

نحن نقولُ: القرآنُ تَكَلَّمَ اللهُ به حقيقةً، وسَمِعَه جبريلُ، ونَزَلَ به على قلبِ النَّبيِّ -عليه الصلاة والسلام- فوعاه، وقد التزم اللهُ -سبحانه وتعالى- أن يُبيِّنَ ما قرأه جبريلُ على النَّبيِّ ﷺ فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦-١٧]، وكان النَّبيُّ ﷺ إذا قَرَأَ عليه جِبْرِيلُ القرآنَ يتعجَّلُ لئلَّا يَنْسَى(١)، فقال اللهُ له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾؛ يعني: لن يتفرَّقَ عليك ولن تنساه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ [القيامة:١٨]؛ يعني: قرأه جبريلُ عليه السَّلامُ ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٨]؛ يعني: بعد ما ينتهي، ثُمَّ تَكَفَّلَ اللهُ به فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٩]، لكنَّهم يقولون: اللهُ لا يتكلَّمُ.

فإن قال قائلٌ: أليس اللهُ تعالى يقولُ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة:٤٠] في مَوْضِعَيْنِ من كتابِه؟ فالجوابُ: بلى، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (٥)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الاستماع للقراءة، رقم (٤٤٨).

بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة:٤٠-٤١]، فالرَّسولُ الكريمُ في هذه الآيةِ محمَّدٌ ﷺ، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢٠] وهذا جبريلُ، فهل يُعْقَلُ أنَّ كلامًا واحدًا يُنْسَبُ لمتكلِّمَيْنِ؟! الجوابُ: لا؛ إِذَنْ ليس كلامًا لهذا، ولا كلامًا لهذا، ولكنَّه كلامُ الله عزَّ وجلَّ، وإنَّما أُضِيفَ إلى الرَّسُولَيْنِ؛ لأنَّهما بلَّغاه، وإلَّا فإنَّ الكلامَ يُضَافُ إلى مَنْ قاله أوَّلًا.

٣٧٢٨- قُلْتُمْ لَنَا إِنَّ الكَلامَ قِيَامُهُ ... بِالجِسْمِ أَيْضًا وَهْوَ ذُو حَدَثَانِ

قَوْلُهُ: «قُلْتُمْ لَنَا إِنَّ الكَلَامَ قِيَامُهُ بِالجِسْمِ أَيْضًا»، فإذا أَثْبَتَّ أنَّ اللهَ يتكلَّمُ فقد أَثْبَتَّ أنَّه جسمٌ، والجسمُ عندهم ممنوعٌ، فيتمنعُ على هذا الكلامُ، ثُمَّ يقولون أيضًا: والكلامُ «ذُو حَدْثَانِ»، وهذا لا يقولُه الأشاعرةُ؛ لأنَّ الأشاعرةَ عندهم أنَّ الكلامَ هو المعنى القَائِمُ بالنَّفسِ أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ، لكن يقولُه الجهميَّةُ والمعتزلةُ ومَنْ شَابَهَهُم، يقولون: إنَّ القرآنَ حادثٌ، فيقولون: إِذَنْ وَصَفْتُم اللهَ تعالى بأنَّه تقومُ به الحوادثُ -إذا أثبتم الكلامَ- ونحن لا نقولُ به.

٣٧٢٩- عَرَضٌ يَقُومُ بِغَيْرِ جِسْمٍ لَمْ يَكُنْ ... هَذَا بِمَعْقُولٍ لِذِي الأَذْهَانِ

يعني: هم يقولون: إنَّ الكلامَ عَرَضٌ، ولا يمكنُ أن يقومَ عَرَضٌ بغير جسمٍ، من أجل أن ينكروا أن يكونَ اللهُ جسمًا حتَّى يتوصَّلوا به بذلك إلى إنكارِ الصِّفاتِ.

فانظر كيف كان عاقبةُ هؤلاء الذين يُؤصِّلون قواعدَ يَرَوْنَها عقليَّةً وهي وهميَّةٌ، كيف أدَّى بهم هذا إلى إنكارِ ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه؟! نسألُ اللهَ لنا ولكم الثَّباتَ.

٣٧٣٠- وَكَذَاكَ حِينَ نَقُولُ يَنْزِلُ رَبُّنَا ... فِي ثُلْثِ لَيْلٍ آخِرٍ أَوْ ثَانِي

أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ يقولون: إنَّ اللهَ ينزلُ نفسُه إلى السَّماءِ الدُّنيا في ثلثِ

اللَّيل الآخِر أو ثلُثِ اللَّيل الأوسط؛ ولهذا قال: «**ثُلْثِ لَيْلٍ آخِرٍ أَوْ ثَانِي**»، وقوله: «**فِي ثُلْثِ لَيْلٍ آخِرٍ**»؛ يعني: الثَّلث الأخير، «**أَوْ ثَانِي**»؛ يعني: الثُّلث الأوسط؛ لأنَّه في بعض الأحاديث أنَّه يَنزِلُ حين يبقى نصفُ الليلِ(١).

٣٧٣١- قُلْتُمْ لَنَا إِنَّ النُّزُولَ لِغَيْرِ أَجْـ ... ـسَامٍ مُحَالٌ لَيْسَ ذَا إِمْكَانِ

يعني: فإذا أثبتُّم النُّزولَ أَثْبَتُّم أنَّه جسمٌ، والجسمُ عندهم ممنوعٌ؛ لأنَّ الأجسامَ متماثلةٌ.

ذكر المؤلِّفُ عدَّةَ صفاتٍ منها: النُّزولُ إلى السَّماءِ الدُّنيا وهذا ثَبَتَ في الصَّحيحين وغيرِهما من حديث أبي هريرة وغيرِه أنَّه ينزلُ عزَّ وجلَّ هو نفسُه إلى السَّماءِ الدُّنيا(٢).

واعلم أنَّ القاعدةَ المستقرَّةَ أنَّ كُلَّ شيءٍ يُضَافُ إلى الله فهو يعني: نفسَه، هذا الأصلُ، كما قَرَّرَ ذلك ابنُ القيِّم في: «مختصر الصواعق» وهو ظاهرُ اللَّفظِ، فما أضافه اللهُ إلى نفسِه فهو لنفسِه هذا هو الأصل إلَّا أن يمنعَ مانعٌ، فإذا جاء في الحديث «**يَنْزِلُ رَبُّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟**»(٣)، كان المرادُ بالنُّزولِ نزولَ الله نفسِه، لكنَّ أهلَ التَّحريفِ أَبَوْا إلَّا أن يقولوا: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا**»؛ يعني: ينزلُ أمرُه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١٠٩٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، رقم (٧٥٨).

(٢) هو جزء من الحديث السابق.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

والرَّدُّ عليهم أن نقولَ: أمرُ الله ينزلُ إلى الأرضِ وإلى السَّماواتِ في كُلِّ وقتٍ، قال اللهُ تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السَّجدة:٥] قالوا: إنَّ الذي ينزلُ رحمتُه، قلنا: هذا كالأوَّل، الرَّحمةُ تنزلُ كُلَّ وقتٍ، ولا تنتهي بالسَّماءِ، تنتهي بالأرضِ، ونزولُ رحمةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا لا فائدةَ لنا منه، قالوا: ينزلُ مَلَكٌ من ملائكتِه، قلنا: المَلَكُ لا يمكنُ أن يقولَ: «**مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ**»؛ لأنَّ المَلَكَ لو قال هذا الكلامَ لكان كفرًا، حيث جعل المَلَكُ نفسَه إلـهًا مُجيبًا، إذَنْ يَتَعيَّنُ أنَّ الذي ينزلُ هو اللهُ، ولكن هل نقولُ بكيفيَّةٍ معيَّنةٍ لنزولِه؟ الجوابُ: لا، هذا حرامٌ، هل نقولُ: إذا نزل صارت السَّماءُ الدُّنيا فوقَه؟ الجوابُ: لا؛ لأنَّ اللهَ له العلوُّ المطلقُ، فهو ينزلُ وإن كان في العلوِّ.

فإذا قال قائلٌ: هذا غيرُ معقولٍ؟ قلنا: هو غيرُ معقولٍ بالنِّسبة للمخلوقِ، أمَّا بالنِّسبة للخالقِ فإنَّه لا يُحاطُ بصفاتِه، والواجبُ علينا أن نقولَ: ينزلُ وهو فوق كُلِّ شيءٍ.

فإن قال قائلٌ: هل يخلو منه العَرْشُ إذا نزل؟ قلنا: هذا السُّؤالُ سؤالُ بدعةٍ كما قال مالكٌ فيمن قال: كيف استوى؟ ولهذا كان القولَ الرَّاجحَ في هذه المسألة هو ألَّا نسألَ: هل يخلو منه العرشُ أو لا؟

٣٧٣٢- وَكَـذَاكَ إِنْ قُلْنَـا يُـرَى سُـبْحَانَهُ قُلْـتُمْ أَجِسْـمٌ كَـيْ يُـرَى بِعِيَـانِ

قَوْلُهُ: «**أَجِسْمٌ كَيْ يُرَى بِعِيَانِ**» هذا الاستفهامُ للإنكارِ؛ يعني: هل هو جسمٌ حتَّى يُرَى؟! وإذا كان كذلك فقد نَفَوُا الرُّؤيةَ.

ويُنكرون القُرآنَ والسُّنَّةَ وإجماعَ الصَّحابةِ في ثبوتِ الرُّؤيةِ، ولَيْتَهم يحضرون ونقولُ لهم: لندعوا اللهَ عزَّ وجلَّ: «**اللَّهُمَّ مَنْ أنكر رؤيتَك في الآخرةِ فاحرِمْه منها**»

ولا أظنُّ أن تَثْبُتَ أقدامُهم على هذا أبدًا؛ لأنَّهم يعرفون أنَّ المسألةَ ليست هيِّنةً، لكن من أجلِ زعمائِهم وأئمَّتِهم الذين ينكرون هذا صاروا ينكرون رؤيةَ الله عزَّ وجلَّ.

هذه رؤيةُ الله عزَّ وجلَّ؛ فاللهُ تعالى يُرَى في الآخرة، أمَّا في الدُّنيا فلا يُرَى، لم نعلم أنَّ أحدًا رآه إلَّا النَّبيَّ ﷺ في المنامِ، أمَّا في اليقظةِ فلم يَرَهْ أحدٌ؛ ولهذا لما قال موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ [الأعراف:١٤٣]، فإذا كان الجبلُ -وهو الأصمُّ الحجريُّ- لم يستقم لرؤيةِ الله فما بالُك بالبشرِ؟!؛ ولهذا ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗا﴾ [الأعراف:١٤٣] من هَوْلِ ما رَأَى، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣]، أمَّا في الآخرةِ فَيُرَى، وقد جاءت الآياتُ القرآنيَّةُ والأحاديثُ النَّبويَّةُ صريحةً في ذلك؛ ولهذا حَكَمَ بعضُ السَّلفِ بكفرِ من أنكرَ رؤيةَ الله في الآخرةِ؛ لأنَّه أنكر شيئًا صريحًا، ففي القرآنِ يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] «ناضرة» بالضَّاد؛ يعني: حَسَنَةً، من النَّضارة وهي الحُسْنُ، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ من النَّظرِ؛ ولهذا تجدون الأولى مكتوبةً بالضَّادِ، والثَّانيةَ مكتوبةً بالظَّاء؛ لأنَّها من النَّظر، وقال تعالى في أصحابِ الجحيمِ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، فلمَّا حَجَبَ هؤلاء في حال الغضبِ دَلَّ على أنَّ الآخرين غيرُ محجوبين.

أمَّا السُّنَّة فإنَّ الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- قال: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا»[1]، وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النَّاسَ قالُوا: يَا رَسُولَ الله، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، رقم (٧٤٣٥).

القِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ؟» قالوا: لَا يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ...»(١)، وهذا لا يمكنُ أن يُرَادَ به المجازُ؛ لأنَّه صريحٌ واضحُ «عِيَانًا» بالعينِ، وكذا «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ»؛ أي: كما تَرَوْنَ القمرَ وكما تَرَوْنَ الشَّمسَ، والتَّشبيهُ هنا ليس تشبيهًا للمرئيِّ بالمرئيِّ، ولكن للرُّؤيةِ بالرُّؤيةِ كما تقولُ مثلًا: «رَأَيْتُ الجملَ كرؤيتي لهذا البابِ»، أو «رَأَيْتُ سيَّارةَ فلانٍ كما أرى سيَّارتَك»، فلا يلزمُ من هذا تساوي المرئيِّ.

٣٧٣٣- أَمْ كَانَ ذَا جِهَةٍ تَعَالَى رَبُّنَا ... عَنْ ذَا فَلَيْسَ يَرَاهُ مِنْ إِنْسَانِ

أيضًا هم قالوا: إنَّكم إذا قلتم: إنَّ اللهَ يُرَى لَزِمَ أن يكونَ في جهةٍ، وإذا لَزِمَ هل يمنعُ؟ نحن نقولُ: إنَّ اللهَ في جهةٍ؛ أي: في جهةِ العلوِّ، لكن هذه الجهةُ لا تُحِيطُ به، فهو فوق كُلِّ شيءٍ، والفوقيَّةُ المطلقةُ عَدَمٌ، وهذا معناه أنَّه ليس هناك شيءٌ يُحاذي اللهَ ولا فوق الله عزَّ وجلَّ.

* * *

٣٧٣٤- أَمَّا إِذَا قُلْنَا لَهُ وَجْهٌ كَمَا ... فِي النَّصِّ أَوْ قُلْنَا كَذَاكَ يَدَانِ

٣٧٣٥- وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا كَمَا فِي النَّصِّ إِنْ ... نَ القَلْبَ بَيْنَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ

٣٧٣٦- وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا الأَصَابِعُ فَوْقَهَا ... كُلُّ العَوَالِمِ وَهْيَ ذُو رَجَفَانِ

٣٧٣٧- وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا يَدَاهُ لِأَرْضِهِ ... وَسَمَائِهِ فِي الحَشْرِ قَابِضَتَانِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، رقم (٦٢٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢).

٣٧٣٨- وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا سَيَكْشِفُ سَاقَهُ ... فَيَخِرُّ ذَاكَ الجَمْعُ لِلأَذْقَانِ

٣٧٣٩- وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا يَجِيءُ لِفَصْلِهِ ... بَيْنَ العِبَادِ بِعَدْلِ ذِي سُلْطَانِ

٣٧٤٠- قَامَتْ قِيَامَتُكُمْ كَذَاكَ قِيَامَةُ الـ ... آتِي بِهَذَا القَوْلِ فِي الرَّحْمَنِ

٣٧٤١- وَاللهِ لَوْ قُلْنَا الَّذِي قَالَ الصَّحَا ... بَةُ وَالأُلَى مِنْ بَعْدِهِمْ بِلِسَانِ

٣٧٤٢- لَرَجَمْتُمُونَا بِالحِجَارَةِ إِنْ قَدَرْ ... تُمْ بَعْدَ رَجْمِ الشَّتْمِ وَالعُدْوَانِ

٣٧٤٣- وَاللهِ قَدْ كَفَّرْتُمُ مَنْ قَالَ بَعْـ ... ـضَ مَقَالِهِمْ يَا أُمَّةَ العُدْوَانِ

الشرحُ

٣٧٣٤- أَمَّا إِذَا قُلْنَا لَهُ وَجْهٌ كَمَا ... فِي النَّصِّ أَوْ قُلْنَا كَذَاكَ يَدَانِ

يعني: فكذلك تنكرون، فهم ينكرون أن يكونَ لله وجهٌ، ويقولون: المرادُ بـ«الوجه» الثَّوابُ، فقولُه تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرَّحمن:٢٧]، يقولون: أي: ثوابُ ربِّك، وهذا صريحٌ بأنَّ الذي يبقى وجهُ الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرَّحمن:٢٧]، وقال: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ﴾ [الرَّحمن:٧٨] فَفَرَّقَ، فالاسمُ لا يُوصَفُ بالجلالِ، الذي يُوصَفُ بالجلالِ هو الرَّبُّ، الوجهُ يُوصَفُ بالجلالِ، وإذا كان اسمُ الله لا يُوصَفُ بالجلال فما بالُك بالثَّوابِ؟ الثَّوابُ لا يُمكِن أن يُوصَفَ بالجلالِ، والسُّنَّةُ واردةٌ في ذلك أيضًا: «أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا والآخِرَةِ»(١).

كذلك أيضًا اليدان صريحةٌ في القرآنِ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤].

---

(١) أخرجه الطبراني (١٣/ ٧٣).

٣٧٣٥- وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا كَمَا فِي النَّصِّ إِنْ ... نَ القَلْبَ بَيْنَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ

أيضًا أنكرتم ذلك، فإذا قُلنا: إِنَّ القلبَ بين أصابعِ الرَّحمنِ، قلتم: سُبْحَانَ اللهِ! الرَّحمنُ له أصابعُ؟! نقولُ: هكذا قال أعلمُ الخلقِ به وهو رسولُ الله ﷺ، القلبُ بين أصابعِ الرَّحمنِ، سبحانَ ذي العزَّةِ والجبروت! كُلُّ قلوبِ بني آدمَ الذين لا يُحصيهم إلَّا خالقُهم كُلُّها بين أصبعَيْن من أصابعِ الرَّحمنِ كقلبٍ واحدٍ، وهذا حقٌّ كما قال النَّبيُّ ﷺ[1]، ولا نشكُّ في هذا، لكن ضَلَّ في هذا طائفتان:

الطَّائفةُ الأولى: أنكرَتْ هذا الشَّيءَ، وقالت: لا يمكنُ هذا، فإنَّنا لا نحسُّ بأنَّ أصابعَ الرَّحمنِ في صدورِنا، وكذلك إذا كان بين أصابعِ الرَّحمنِ فمقتضى ذلك أن تكونَ أصابعُ الله في أجوافِنا؟ فالجوابُ: أنَّ هذا ليس بلازمٍ؛ لأنَّ البينيَّةَ لا تقتضي الملامسةَ أو المماسَّةَ بدليلِ قولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤]، ومع ذلك فإنَّ السَّحابَ لا يمسُّ الأرضَ ولا يمسُّ السَّماءَ، وجعله اللهُ بينهما، وتقولُ مثلًا: «**بَدْرٌ بين مكَّةَ والمدينةِ**»، وهل هي مماسَّةٌ للمدينةِ أو لمكَّةَ؟ الجوابُ: لا؛ إِذَنْ بين أصابعِ الرَّحمنِ، فلا يَلْزَمُ من ذلك المماسَّةُ، فإذا كان لا يلزمُ وَجَبَ أن نؤمنَ به، إِذَنْ القلوبُ بين أصابعِ الرَّحمنِ لكن على كيفيَّةٍ لا نعلمُها.

وقد قِيلَ لأعرابيٍّ: بِمَ عَرَفْتَ ربَّك؟ قال: «بنقضِ العزائمِ وصرفِ الهممِ»[2]، نقضُ العزائمِ بأن يعزمَ الإنسانُ على الشَّيءِ، يقولُ مثلًا: سأسافرُ غدًا، وإذا بعزيمتِه تنتقضُ بدون أن يقولَ له أحدٌ شيئًا، مَنْ الذي نَقَضَ هذه العزيمةَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء، رقم (٢٦٥٤).
(٢) انظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى إعجاز القرآن ومعترك الأقران، للسيوطي (٣/ ٣٨١).

إِلَّا اللهُ، وأمَّا «صرف الهمم» فمثاله: أن يكونَ إنسانٌ له هِمَّةٌ قويَّةٌ على شراءِ شيءٍ أو على دراسةِ كتابٍ مُعَيَّنٍ، وإذا به تنتقضُ هذه الهمَّةُ فينصرف عنها، لولا أنَّ القلوبَ بيدِ الله عزَّ وجلَّ، بل إنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال:٢٤] أيُّ شيءٍ أبلغُ من هذا؟! اللَّهُمَّ ثَبِّتْ قلوبَنا.

الطَّائفةُ الثَّانية: مَثَّلَت كذبًا وزورًا، فجعلوا يقولون: بين أصابعِ الرَّحمنِ، ويمسكون بأصابِعهم هكذا، نسألُ اللهَ العافيةَ؛ لأنَّ هذا قولٌ على الله بلا علمٍ، مَن الذي أعلمهم أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- جعل الأصابعَ هكذا تَقْبِضُ القلوبَ؟! الجوابُ: لا أحدَ، لكنَّهم قالوا: الرَّسولُ لـمَّا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النِّساء:٥٨] جعل إبهامَه وسبَّابتَيْهِ على أُذنيه وعَيْنَيْهِ؟[1] قلنا: الرَّسولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- قال ذلك؛ لإثباتِ البصرِ والرُّؤيةِ وإثباتِ السَّمعِ، لا أنَّ له أذنًا، ولولا أنَّ اللهَ أَثْبَتَ أنَّ له عينًا لم يلزم من رؤيتِهِ أن يكون له عينٌ.

فالمهم: أنَّني سَمِعْتُ عن بعض النَّاسِ المثبتةِ أنَّهم يُمَثِّلُونَ، ويقولون: القلبُ بين أصابعِ الرَّحمنِ هكذا، فنقول: سُبْحَانَهُ وتعالى! أعندكَ علمٌ من هذا؟ هل قال الرَّسولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- هكذا؟! إنَّك قد افْتَرَيْتَ على الله كذبًا إذا مَثَّلْتَه على هذا الوجهِ، فعليك بما جاء به النَّصُّ، فهل الرَّسولُ فَعَلَ هذا وهو أحرصُ مِنك على إفهامِ النَّاسِ وتعليمِهم؟!

---

(١) كما في حديث أبي يونس سليم بن جبير مولى أبي هريرة، قال: سمعت أبا هريرة يقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:٥٨] قال: «رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَضَعُ إِبْهَامَهُ عَلَى أُذُنِهِ، وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى عَيْنِهِ»، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقْرَؤُهَا وَيَضَعُ إِصْبَعَيْهِ»، قال ابن يونس: قال المقرئ: يعني: إن الله سميع بصير، يعني أن لله سمعًا وبصرًا، قال أبو داود: وهذا رد على الجهمية. أخرجه أبو داود: كتاب السُّنَّة، باب في الجهمية، رقم (٤٧٢٨).

٣٧٣٦- وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا الأَصَابِعُ فَوْقَهَا كُلُّ العَوَالِمِ وَهْيَ ذُو رَجَفَانِ

كما جاء في الحديث في يومِ القيامةِ «أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ...»(١).

٣٧٣٧- وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا يَدَاهُ لِأَرْضِهِ وَسَمَائِهِ فِي الحَشْرِ قَابِضَتَانِ

قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزُّمر:٦٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

٣٧٣٨- وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا سَيَكْشِفُ سَاقَهُ فَيَخِرُّ ذَاكَ الجَمْعُ لِلأَذْقَانِ

الذي يكشفُ ساقَه هو اللهُ عزَّ وجلَّ، وهذا له دليلٌ صريحٌ من السُّنَّةِ في حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ: «يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ»(٢)؛ لأنَّ حجابَ الله النُّورُ، لا يُرَى عزَّ وجلَّ من الأنوارِ التي حوله، ولكنَّه إذا شاء كَشَفَ هذا النُّورَ فَبَانَ ما يُريدُه عزَّ وجلَّ، أمَّا في القرآنِ فقد قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢]، وهذه الآيةُ استدلَّ بها مَنْ أَثْبَتَ لله السَّاقَ، ولكن إذا تَأَمَّلْتَ لم تجد فيها دليلًا على ثبوتِ السَّاقِ لله؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ ولم يُضِفْهَا إلى نفسِه، وإذا لم يُضِفْهَا اللهُ إلى نفسِه فإنَّه لا يحلُّ لنا أن نضيفَها إلى نفسِه، فقال: ﴿سَاقٍ﴾ ولم يُبيِّن ساقَ مَنْ؟ ولهذا فسَّرها ابنُ عبَّاسٍ بأنَّه الشِّدَّة كما

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام:٩١]، رقم (٤٥٣٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٧٨٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣]، رقم (٧٠٠١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣).

يُقَالُ: «كَشَفَتِ الحَرْبُ عَنْ سَاقِهَا»(١).

لكن هناك قولٌ آخرُ يقولُ: المرادُ بِالسَّاقِ ساقُ الله عزَّ وجلَّ، ولا يستدلُّ بلفظِ الآيةِ، بل يقولُ: إنَّ سِياقَ الآيةِ يُطَابِقُ تمامًا حديثَ أبي سعيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والسُّنَّةُ تُفَسِّرُ القرآنَ، فإذا تَأَمَّلْتَ الآيَةَ والحديثَ وجدتَ سياقَهما يدلُّ على معنًى واحدٍ، وحينئذٍ نُثْبِتُ السَّاقَ لله بهذه الآيةِ لكن بإضافتِها إلى الحديثِ، ويتمُّ الاستدلالُ حينئذٍ، فيكونُ الحديثُ دالًا على أنَّ المرادَ بذلك ساقُ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ، ولولا الحديثُ لقلنا: يَحْرُمُ أن تقولَ: إنَّ هذا ساقُ الله، لكن مادام الحديثُ قد جاء عن النَّبِيِّ ﷺ بما يدلُّ على أنَّ المرادَ ساقُ الله عزَّ وجلَّ، فالواجبُ علينا أن نؤمنَ بهذا ولكنَّها كسائرِ الصِّفاتِ، فهي ساقٌ لا يماثلُها ساقٌ، فهي تليقُ بالله عزَّ وجلَّ، ولا يمكنُ للإنسانِ أن يتصوَّرَها ولا أن يُحيطَ بها.

٣٧٣٩- وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا يَجِيءُ لِفَصْلِهِ ... بَيْنَ العِبَادِ بِعَدْلِ ذِي سُلْطَانِ

كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان:٢٥] لنزولِ الله عزَّ وجلَّ ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان:٢٥-٢٦].

٣٧٤٠- قَامَتْ قِيَامَتُكُمْ كَذَاكَ قِيَامَةُ الـ ... آتِي بِهَذَا القَوْلِ فِي الرَّحْمَنِ

إذا قلنا هذا وما سبق قَامَتْ قيامتُكم؛ يعني: أنكرتم علينا غايةَ الإنكارِ، وقيامةُ الآتي بهذا القولِ في الرَّحمنِ تقومُ أيضًا، فيحصل بذلك من النِّزاعِ والخصومةِ ما لا يعلمُه إلَّا اللهُ.

---

(١) حكاه الطبري في تفسيره (٢٣/ ١٨٧) عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قَالَ: «هُوَ يَوْمُ حَرْبٍ وَشِدَّةٍ».

٣٧٤١- وَاللهِ لَوْ قُلْنَا الَّذِي قَالَ الصَّحَا بَةُ وَالأُلَى مِنْ بَعْدِهِمْ بِلِسَانِ

٣٧٤٢- لَرَجَمْتُمُونَا بِالحِجَارَةِ إِنْ قَدَرْ تُمْ بَعْدَ رَجْمِ الشَّتْمِ وَالعُدْوَانِ

سبحان الله! يقولُ: لو قلنا ما قاله الصَّحابةُ في هذا وغيرِه لرجمتمونا بالقولِ وبالفعلِ، بالقولِ بالسَّبِّ والشَّتمِ، والفعلِ بالحجارةِ.

٣٧٤٣- وَاللهِ قَدْ كَفَّرْتُمُ مَنْ قَالَ بَعْـ ـضَ مَقَالِهِمْ يَا أُمَّةَ العُدْوَانِ

قَوْلُهُ: «كَفَّرْتُمْ مَنْ قَالَ بَعْضَ مَقَالِهِمْ»؛ يعني: بعضَ مقالِ أهلِ الإثباتِ لِصفاتِ الله عزَّ وجلَّ، فكيف بِمَنْ قال كُلَّ القولِ؟! ولهذا من شأنِ أهلِ البدعِ أنَّ بعضَهم يُكَفِّرُ مَنْ سواهم من أهل البدعِ الآخرِين، ويُكَفِّرُ أهلَ السُّنَّةِ، ولا يبالون في هذا، فالتَّكفيرُ عندهم كالتَّهليلِ والتَّسبيحِ، فهو من أسهلِ ما يكونُ، بخلافِ أهلِ السُّنَّةِ، فأهلُ السُّنَّةِ لا يُكَفِّرونَ إلَّا بدليلٍ صَريحٍ ولا يُضلِّلون إلَّا بدليلٍ صريحٍ، وإذا احتمل الكفرَ أو التَّضليلَ حملوه على التَّضليلِ؛ لأنه مُتيَقَّن، والكفرُ شيءٌ زائدٌ كما ذكره شارحُ الطَّحاويَّةِ وغيرُه على أنَّ مذهبَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ هو التَّأنِّي والتَّثبُّتُ والتَّوقُّفُ في التَّكفيرِ.

* * *

٣٧٤٤- وَجَعَلْتُمُ الجِسْمَ الَّذِي قَدَّرْتُمُ بُطْلانَهُ طَاغُوتَ ذَا البُطْلانِ

٣٧٤٥- وَوَضَعْتُمُ لِلجِسْمِ مَعْنًى غَيْرَ مَعْـ رُوفٍ بِهِ فِي وَضْعِ كُلِّ لِسَانِ

٣٧٤٦- وَبَنَيْتُمُ نَفْيَ الصِّفَاتِ عَلَيْهِ فَاجْـ ـتَمَعَتْ لَكُمْ إِذْ ذَاكَ مَحْذُورَانِ

٣٧٤٧- كَذِبٌ عَلَى لُغَةِ الرَّسُولِ وَنَفْيُ إِثْـ ـبَاتِ العُلُوِّ لِفَاطِرِ الأَكْوَانِ

٣٧٤٨- وَرَكِبْتُمُ إِذْ ذَاكَ تَحْـريفَيْنِ تَحْـ ... ـرِيفَ الحَدِيثِ وَمُحْكَمِ القُرْآنِ

٣٧٤٩- وَكَسَبْتُمُ وِزْرَيْنِ وِزْرَ النَّفْيِ وَالتْـ ... ـتَحْرِيفِ فَاجْتَمَعَتْ لَكُمْ كِفْلانِ

٣٧٥٠- وَعَدَاكُمُ أَجْرَانِ أَجْرُ الصِّدْقِ وَالـ ... إِيمَانِ حَتَّى فَاتَكُمْ حَظَّانِ

٣٧٥١- وَكَسَبْتُمُ مَقْتَيْنِ مَقْتَ إِلَهِكُمْ ... وَالمُؤْمِنِينَ فَنَالَكُمْ مَقْتَانِ

٣٧٥٢- وَلَبِسْتُمُ ثَوْبَيْنِ ثَوْبَ الجَهْلِ وَالظْـ ... ـظُلْمِ القَبِيحِ فَبِئْسَتِ الثَّوْبَانِ

٣٧٥٣- وَتَخِذْتُمُ طِرْزَيْنِ طِرْزَ الكِبْرِ، وَالتْـ ... ـتِيهِ العَظِيمِ فَبِئْسَتِ الطِّرْزَانِ

٣٧٥٤- وَمَدَدْتُمُ نَحْوَ العُلَى بَاعَيْنِ لَـ ... ـكِنْ لَمْ تَطُلْ مِنْكُمْ لَهَا البَاعَانِ

٣٧٥٥- وَأَتَيْتُمُوهَا مِنْ سِوَى أَبْوَابِهَا ... لَكِنْ تَسَوَّرْتُمْ مِنَ الحِيطَانِ

٣٧٥٦- وَغَلَقْتُمُ بَابَيْنِ لَوْ فُتِحَا لَكُمْ ... فُزْتُمْ بِكُلِّ بِشَارَةٍ وَتَهَانِي

٣٧٥٧- بَابَ الحَدِيثِ وَبَابَ هَذَا الوَحْيِ مَنْ ... يَفْتَحْهُمَا فَلْيَهْنِهِ البَابَانِ

الشَّرحُ

٣٧٤٤- وَجَعَلْتُمُ الجِسْمَ الَّذِي قَدَّرْتُمُ ... بُطْلانَهُ طَاغُوتَ ذَا البُطْلانِ

قَوْلُهُ: «وَجَعَلْتُمُ الجِسْمَ»؛ يعني: قولهم: «لو كان اللهُ فوقُ لكان جسمًا»، ولو كان متَّصفًا بالصِّفاتِ لكان جسمًا، وهكذا.

يعني: أنَّ الجسمَ جعلوه هو المِعْوَلَ الذي يَهْدِمُون به جميعَ نصوصِ الصِّفاتِ، فجعلتموه طاغوتَ الهدمِ؛ أي: هدم ما جاء به القرآنُ والسُّنَّةُ من الصِّفاتِ؛ ولهذا قال:

٣٧٤٥- وَوَضَعْتُمُ لِلجِسْمِ مَعْنًى غَيْرَ مَعْـ ... ـرُوفٍ بِهِ فِي وَضْعِ كُلِّ لِسَانِ

لأنَّهم يقولون: إنَّ الجسمَ هو ما قَامَ بغيرِه بمعنى: أنَّه مخلوقٌ، ثُمَّ شَرَعُوا ينفون كُلَّ هذا.

٣٧٤٦- وَبَنَيْتُمُ نَفْيَ الصِّفَاتِ عَلَيْهِ فَاجْـ ـــتَمَعَتْ لَكُـمْ إِذْ ذَاكَ مَحْـذُورَانِ

٣٧٤٧- كَذِبٌ عَلَى لُغَةِ الرَّسُولِ وَنَفْـيُ إِثْـ ـــبَاتِ العُلُـوِّ لِفَـاطِرِ الأَكْـوَانِ

إِذَنْ ركبوا مفسدتَيْنِ:

المفسدة الأولى: الكذبُ على اللُّغةِ، حيث وضعوا للجسمِ معنى لا يُعْرَفُ في اللُّغةِ العربيَّةِ، وهذا كذِبٌ عليها، والكذبُ على اللُّغةِ العربيَّةِ يقتضي إبطالَ دلالةِ الكتابِ والسُّنَّةِ؛ لأنَّ الكتابَ والسُّنَّةَ إنَّما كانا باللُّغةِ العربيَّةِ.

والمفسدة الثَّانية: نفيُ ما جاء به القرآنُ والسُّنَّةُ من إثباتِ العلوِّ لفاطرِ الأكوانِ؛ لأنَّهم قالوا: إذا كان في العلوِّ وهو على العرشِ صار جسمًا على جسمٍ، والجسمُ محدودٌ، وما أشبه ذلك من الـهَذَيَانِ.

٣٧٤٨- وَرَكِبْـتُمُ إِذْ ذَاكَ تَحْـرِيفَيْنِ تَحْـ ـــرِيفَ الحَـدِيثِ وَمُحْكَـمِ القُـرْآنِ

إِذَنْ حَرَّفُوا القرآنَ، وحرَّفوا السُّنَّةَ، فهذان تحريفان.

٣٧٤٩- وَكَسَبْتُمُ وِزْرَيْنِ وِزْرَ النَّفْـيِ وَالتْـ ـتَحْرِيفِ فَاجْتَمَعَتْ لَكُمْ كِفْـلانِ

قَوْلُهُ: «وَكَسَبْتُمُ وِزْرَيْنِ وِزْرَ النَّفْيِ وَالتَّحْرِيفِ» الوزر الأوَّل: وزر النَّفيِ، والوزر الثَّاني: وزر التَّحريفِ.

قَوْلُهُ: «فَاجْتَمَعَتْ لَكُمْ كِفْلَانِ»؛ يعني: من الإثمِ والوزرِ، والعياذُ بالله، قال اللهُ تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النِّساء:٨٥].

٣٧٥٠- وَعَدَاكُمُ أَجْرَانِ أَجْرُ الصِّدْقِ وَالـ إِيمَانِ حَتَّى فَاتَكُمْ حَظَّانِ

سبحان الله! كُلُّها اثنان اثنان.

قَوْلُهُ: «وَعَدَاكُمُ أَجْرَانِ أَجْرُ الصِّدْقِ وَالإِيمَانِ»؛ أي: أجرُ الصِّدقِ فيما تقولون، والثَّاني: أجرُ الإيمانِ، حتَّى فاتكم حظَّان.

٣٧٥١- وَكَسَبْتُمُ مَقْتَيْنِ مَقْتَ إِلَـهِكُمْ وَالمُؤْمِنِينَ فَنَالَكُمْ مَقْتَانِ

المقتُ أشدُّ البُغْضِ، فهم نالوا بتعطيلِهم وتحريفِهم مَقْتَيْنِ: مقت الله عزَّ وجلَّ، والثَّاني: مقت المؤمنين.

٣٧٥٢- وَلَبِسْتُمُ ثَوْبَيْنِ ثَوْبَ الجَهْلِ وَالظْـ ـظُلْمِ القَبِيحِ فَبِئْسَتِ الثَّوْبَانِ

الثَّوب الأوَّل: الجهل؛ لأنَّهم جَهِلُوا كتابَ الله وسُنَّةَ رسولِه ﷺ، فوصفوا اللهَ عزَّ وجلَّ بما لم يَصِفْ به نفسَه فضلُّوا.

والثَّاني: ثوب الظُّلمِ والعدوانِ؛ لأنَّهم كانوا يسبُّون أهلَ السُّنَّةِ، ويَرْمُونَهم بألقابِ السُّوءِ، فيقولون: هم حَشْوِيَّةٌ مُجَسِّمَةٌ نوابتُ غثاءٌ عامَّةٌ، وما أشبه ذلك، وهذا ظلمٌ قبيحٌ.

٣٧٥٣- وَتَخِذْتُمُ طِرْزَيْنِ طِرْزَ الكِبْرِ، وَالتْـ ـتِيهِ العَظِيمِ فَبِئْسَتِ الطِّرْزَانِ

هذا أيضًا فعلوه، الكِبْرُ، وهو عدمُ قَبولِ الحقِّ، قال النَّبيُّ ﷺ: «الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ»[1]، والتِّيهُ التَّرفُّعُ على النَّاسِ، والإعجابُ بالنَّفسِ حتىَّ ظنُّوا أنَّهم المعصومون، وأنَّ غيرَهم هم الضالُّون.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١).

٣٧٥٤- وَمَـدَدْتُمُ نَحْـو العُـلَى بَـاعَيْنِ لـ ـكِنْ لَـمْ تَطُلْ مِنْكُمْ لَـهَا البَاعَـانِ

قَوْلُهُ: «وَمَدَدْتُمُ نَحْوَ العُلَى بَاعَيْنِ» «العُلَى»: معالي الرُّتبِ، وهم يظنُّون أنَّهم هم أهلُ الحقِّ وأهلُ العدلِ.

يعني: أنَّهم مَدُّوا باعَيْنِ لينالوا العُلَى، ولكن عجزوا عن نيلِ العُلَى؛ لأنَّهم ما صدقوا، لو صدقوا لنالوا العُلَى؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١]، لكنَّهم لم يصدقوا في هذا، إنَّما أرادوا انتصارَ قولِهم فقط.

٣٧٥٥- وَأَتَيْتُمُوهَـا مِـنْ سِـوَى أَبْوَابِهَـا لَكِـنْ تَسَـوَّرْتُمْ مِـنَ الـحِيطَانِ

قَوْلُهُ: «أَتَيْتُمُوهَا مِنْ سِوَى أَبْوَابِهَا»؛ أي: أتيتم المسألةَ من سوى أبوابِها، وإذا أتى الإنسانُ الشَّيءَ من سوى أبوابِه فلا بُدَّ أن يتسوَّرَ الجدرانَ تسوُّرًا، والدَّاخلُ على هذه الصِّفةِ ليس بداخلٍ دخولًا مشروعًا مستقِرًّا، ومعلومٌ أنَّ اللهَ تعالى أرشدنا أن نأتيَ البيوتَ من أبوابِها.

٣٧٥٦- وَغَلَقْـتُمُ بَـابَيْنِ لَـوْ فُتِحَـا لَكُـمْ فُـزْتُمْ بِكُـلِّ بِشَـارَةٍ وَتَهَـانِي

٣٧٥٧- بَابَ الحَدِيثِ وَبَابَ هَذَا الوَحْيِ مَـنْ يَفْـتَحْهُمَا فَلْيَهْنِـهِ البَابَـانِ

يعني: أنَّكم غَلَّقْتُم على أنفسِكم بابَيْنِ: بابَ السُّنَّةِ وبابَ القُرآنِ؛ لأنَّهم رجعوا -فيما يُثبتون ويَنْفُون عن اللهِ- إلى العقلِ، وتركوا الكتابَ والسُّنَّةَ، ضربوا عنهما صفحًا، نسألُ اللهَ العافيةَ.

* * *

٣٧٥٨- وَفَتَحْـتُمُ بَـابَيْنِ مَـنْ يَفْـتَحْهُمَا تُفْـتَحْ عَلَيْـهِ مَوَاهِـبُ الشَّـيْطَانِ

٣٧٥٩- بَابُ الكَلَامِ وَقَدْ نُهِيتُمْ عَنْـهُ وَالـ ـبَابُ الـحَرِيقُ فَمَنْطِـقُ اليُونَـانِ

٣٧٦٠- فَدَخَلْتُمُ دَارَيْنِ دَارَ الـجَهْلِ فِي الدْ ... دُنْيَـا وَدَارَ الـخِزْيِ فِي النِّـيرَانِ

٣٧٦١- وَطَعِمْتُمُ لَوْنَيْنِ لَوْنَ الشَّـكِّ وَالتْـ ... تَشْـكِيكِ بَعْـدُ فَبِئْسَـتِ اللَّوْنَـانِ

٣٧٦٢- وَرَكِبْـتُمُ أَمْـرَيْنِ كَـمْ قَـدْ أَهْلَكَـا ... مِـنْ أُمَّـةٍ فِي سَـالِفِ الأَزْمَـانِ

٣٧٦٣- تَقْـدِيمُ آرَاءِ الرِّجَـالِ عَـلَى الَّـذِي ... قَـالَ الرَّسُـولُ وَمُحْكَـمِ القُـرْآنِ

٣٧٦٤- وَالثَّانِي نِسْبَتُهُمْ إِلَى الإِلْغَـازِ وَالتْـ ... تَلْبِـيسِ وَالتَّـدْلِيسِ وَالكِـتْمَانِ

٣٧٦٥- وَمَكَـرْتُمُ مَكْـرَيْنِ لَـوْ تَـمَّا لَكُـمْ ... لَتَفَصَّـمَتْ فِينَـا عُـرَى الإِيـمَانِ

٣٧٦٦- أَطْفَـأْتُمُ نُـورَ الكِتَـابِ وَسُـنَّةِ الـ ... هَادِي بِـذَا التَّحْرِيـفِ وَالـهَذَيَانِ

٣٧٦٧- لَكِـنَّكُمْ أَوْقَـدْتُمُوا لِلحَـرْبِ نَـا ... رًا بَـيْنَ طَـائِفَتَيْنِ مُخْتَلِفَـانِ

٣٧٦٨- وَاللهُ مُطْفِيهَـا بِأَلْسِـنَةِ الأُلَى ... قَـدْ خَصَّـهُمْ بِـالعِلْمِ وَالإِيـمَانِ

٣٧٦٩- وَاللهِ لَوْ غَرِقَ الـمُجَسِّمُ فِي دَمِ التْـ ... تَجْسِـيمِ مِـنْ قَـدَمٍ إِلَى الآذَانِ

٣٧٧٠- فَالنَّصُّ أَعْظَـمُ عِنْـدَهُ وَأَجَـلُّ قَـدْ ... رًا أَنْ يُعَارِضَـهُ بِقَـوْلِ فُـلانِ

الشـرحُ

٣٧٥٨- وَفَتَحْـتُمُ بَـابَيْنِ مَـنْ يَفْـتَحْهُمَا ... تُفْـتَحْ عَلَيْـهِ مَوَاهِـبُ الشَّـيْطَانِ

وبِئْسَتِ المواهبُ، لكن ما هما البابان؟ قال:

٣٧٥٩- بَابُ الكَلامِ وَقَدْ نُهِيتُمْ عَنْهُ وَالـ ... ـبَابُ الـحَرِيقُ فَمَنْطِقُ اليُونَـانِ

هذان البابان، فَتَحُوا على أنفسِهم بابَ الكلامِ، والكلامُ كما سبق هو إثباتُ

العقائدِ بالعقولِ المبنيَّةِ على المجادلاتِ والمناظراتِ؛ ولهذا سُمُّوا أهلَ الكلام؛ لكثرةِ كلامِهم وثرثرتِهم وخوضِهم في أمورٍ لا تَعْنِيهم، في أمورٍ يَصْدُقُ عليها قولُ النَّبِيِّ ﷺ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»[1]، ولو أنَّهم أخذوا العقيدةَ من أبوابِها بسهولتِها ويُسْرِها وعدمِ التَّنطُّعِ فيها لكان أسلمَ لهم.

الباب الثَّاني: باب المنطقِ والفلسفة المتلقَّاة من اليونانِ، والذي صار سببًا لردِّ نصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ.

فهم فتحوا علينا البابَيْنِ: بابَ الكلامِ وبابَ المنطق، وأغلقوا بابَيْنِ: بابَ الكتابِ وبابَ السُّنَّةِ.

وقول المؤلِّف: «وَقَدْ نُهِيتُمْ عَنْهُ» مَنْ الذي نهاهم؟ إن شِئنا قُلنا: نَهى عنه النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- حيث قال: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ»[2]، وإن شِئنا قُلنا: نَهى عنه السَّلفُ وحذَّروا منه، حتَّى إنَّ الشَّافعيَّ -رحمه الله- قال: «حُكْمِي في أهلِ الكلامِ أن يُضْرَبُوا بالجريدِ والنِّعالِ، ويُطَافَ بهم في العشائرِ والأسواقِ، ويُقَالَ: هذا جزاءُ مَنْ تَرَكَ الكتابَ والسُّنَّةَ، وأقبلَ على علمِ الكلامِ»[3]، هذا حُكمُ الشَّافعيِّ -رحمه الله- في أهلِ الكلامِ، وهذا حكمٌ صارمٌ يدلُّ على شدَّةِ نهيِهم -رحمهم اللهُ ورَضِيَ عنهم- عن علمِ الكلامِ، ثُمَّ إنَّه يدخلُ في قولِ النَّبيِّ ﷺ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»[4]، فمثلًا الصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لـمَّا قال لهم النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِيْنَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، رقم (٢٦٧٠).
(٢) أخرجه أحمد (٢٨/ ٣٧٣، رقم ١٧١٤٤). وأبو داود: كتاب السُّنَّة، باب في لزوم السُّنَّة، رقم (٤٦٠٧).
(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص:١٧٩).
(٤) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، رقم (٢٦٧٠).

يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ»[1]، سَلَّموا واستسلموا وآمنوا، أمَّا أهلُ الكلامِ فقالوا: كيف ينزلُ وهو على العرشِ؟ كيف ينزلُ والسَّماواتُ ليست بشيءٍ بالنِّسبةِ له، هي كالخردلةِ في يدِ أحدِنا؟ كيف يكونُ هذا؟ فأوردوا وشكَّكوا وسدُّوا على أنفسِهم بابَ اليقينِ، ولو أنَّهم سَلَّموا كما سَلَّمَ الصَّحابةُ لَسَلِمُوا، لكنَّهم -والعياذُ بالله- تنطَّعوا فَهَلَكُوا.

٣٧٦٠- فَدَخَلْتُمُ دَارَيْنِ دَارَ الـجَهْلِ فِي الدْ ... دُنْيَـا وَدَارَ الـخِزْيِ فِي النِّـيرَانِ

لـمَّا فتحوا بابينَ: بابَ الكلامِ والمنطقِ دخلوا دارَيْنِ:

الدَّار الأولى: دار الجهل في الدُّنيا؛ لأنَّ أهلَ الكلامِ وأهلَ المنطقِ أجهلُ النَّاسِ بالله، نسألُ اللهَ العافيةَ، وأعلمُ النَّاسِ بالله مَن اتَّبع الكتابَ والسُّنَّةَ.

الدَّار الثَّانية: «دَارَ الخِزْيِ فِي النِّيرَانِ» وهي جهنَّمُ، فهي دارُ الخزيِ والذُّلِّ.

٣٧٦١- وَطَعِمْتُمُ لَوْنَيْنِ لَوْنَ الشَّـكِّ وَالتْـ ... تَشْـكِيكِ بَعْـدُ فَبِئْسَـتِ اللَّوْنَـانِ

طَعِمُوا لونَ الشَّكِّ والتَّشكيكِ، الشَّكُّ في أنفسِهم والتَّشكيكُ لغيرِهم؛ ولهذا تجدُ كتبَهم كُلَّها مملوءةً بالتَّشكيكِ النَّاتج عن شَكِّهم، فأكثرُ النَّاسِ شكًّا هم أهلُ الكلامِ ولاسيَّما عند فراقِ الدُّنيا، فتجدُ الواحدَ منهم -نسألُ اللهَ لنا ولكم الحمايةَ- عند فراق الدُّنيا يشكُّ، بل رُبَّما يصلُ به الشَّكُّ إلى الشَّكِّ في الخالقِ جلَّ وعلا، تجدُ كتبَ أهلِ السُّنَّةِ ككتبِ شيخِ الإسلامِ وابنِ القيِّمِ كُلَّها مملوءةً باليقينِ والاستدلالِ والإيمانِ، نسألُ اللهَ أن يُثبِّتَنا وإيَّاكم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

٣٧٦٢- وَرَكِبْتُمُ أَمْرَيْنِ كَمْ قَدْ أَهْلَكَا   مِنْ أُمَّةٍ فِي سَالِفِ الأَزْمَانِ

٣٧٦٣- تَقْدِيمُ آرَاءِ الرِّجَالِ عَلَى الَّذِي   قَالَ الرَّسُولُ وَمُحْكَمِ القُرْآنِ

يُخَاطِبُ هؤلاءَ المعطِّلَةَ بأنَّهم رَكِبُوا أمرين أهلكا الأممَ في سالفِ الأزمانِ وهما:

الأمر الأوَّل: تقديم آراءِ الرِّجالِ على الكتابِ والسُّنَّةِ لقولِه: «**تَقْدِيمَ آرَاءِ الرِّجَالِ عَلَى الَّذِي قَالَ الرَّسُولُ وَمُحْكَمِ القُرْآنِ**»؛ يعني: «**وَعَلَى مُحْكَمِ القُرْآنِ**»، فإذا أَتَيْتَهم بدليلٍ من الكتابِ والسُّنَّةِ، قالوا: قال فلانٌ كذا وكذا، فعارضوا قولَ الله ورسولِه بقولِ فلانٍ، ويُرْوَى عن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّه قال: «يُوشِكُ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»[1].

فهذا أبو بكرٍ وعمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا إذا عَارَضَ أحدٌ قولَ رسولِ الله ﷺ بقولِهما فإنَّه يُوشِكُ أن تنزلَ عليه حجارةٌ من السَّماءِ، فكيف بِمَنْ يُعَارِضُ قولَ الله ورسولِه بقولِ من هو أدنى منهما بكثيرٍ؟! يكونُ هذا أقربَ إلى العقوبةِ ممَّن عَارَضَ قولَ الله ورسولِه بقولِ أبي بكرٍ وعمرَ رَضِيَ اللهُ عنهما.

الأمر الثَّاني: يقولُ:

٣٧٦٤- وَالثَّانِي نِسْبَتُهُمْ إِلَى الإِلْغَازِ وَالتْـ   ـتَلْبِيسِ وَالتَّدْلِيسِ وَالكِتْمَانِ

لأنَّهم إذا عَطَّلُوا النُّصوصَ عن المرادِ بها صارت النُّصوصُ في ظواهِرِها تلبيسًا وألغازًا، وليست دالَّةً على الهدى في ظاهِرِها، وإنَّما تدلُّ على الضَّلالِ على

---

(١) أخرج الإمام أحمد نحوه بلفظ: «أُرَاهُمْ سَيَهْلِكُونَ أَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَيَقُولُ: نَهَى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ». أخرجه أحمد (١/ ٣٣٧)، رقم (٣١٢١).

زعمِهم؛ لأنَّهم إنَّما أوَّلوها ظنًّا منهم أنَّها تستلزمُ التَّشبيهَ فأوَّلوها لهذا السَّببِ؛ لأنَّه إذا كان قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢]؛ أي: «**جَاءَ أَمْرُ رَبِّك**» فهذا لغزٌ لا يفهمُه أحدٌ؛ لأنَّ المفهومَ منه أنَّ اللهَ جاء بنفسِه.

وإذا قالوا: المرادُ باليدِ: «**القدرةُ**» أو «**القوَّةُ**» أو «**النِّعمةُ**» أو ما أشبه ذلك، فقد جعلوا هذا القرآنَ ألغازًا؛ لأنَّ مَنْ يفهمُ أنَّ المرادَ بها القدرةُ أو النِّعمةُ أو القوَّةُ، وظاهرُها أنَّها اليدُ الحقيقيَّةُ.

فهم رَكبوا شيئين: **أوَّلًا**: تقديم آراء الرِّجال على الوحيِ: «**الكتاب والسُّنَّة**»، **والثَّاني**: نسبة الكتابِ والسُّنَّةِ إلى الإلغازِ والتَّلبيسِ والتَّدليسِ والكتمانِ؛ لأنَّه إذا كان الحقُّ في مثلِ قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢]: إذا كان حقًّا أنَّه «**جَاءَ أمرُ ربِّك**» فهذا يُعْتَبَرُ ألغازًا وتلبيسًا وتدليسًا وكتمًا للحقِّ؛ لأنَّه لم تأتِ آيةٌ أخرى تدلُّ على أنَّ المرادَ: «**جَاءَ أَمْرُ ربِّك**».

وأمَّا قولُه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، فليس من هذا البابِ، بل المرادُ أمرُ الله تعالى الكونيُّ الذي سيكونُ يومَ القيامةِ والذي كانوا يقولون: متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين؟

٣٧٦٥- وَمَكَرْتُمُ مَكْرَيْنِ لَوْ تَمَّا لَكُمْ ... لَتَفَصَّمَتْ فِينَا عُرَى الإِيمَانِ

٣٧٦٦- أَطْفَأْتُمُ نُورَ الكِتَابِ وَسُنَّةِ الـ ... هَادِي بِذَا التَّحْرِيفِ وَالهَذَيَانِ

٣٧٦٧- لَكِنَّكُمْ أَوْقَدْتُمُوا لِلحَرْبِ نَا ... رًا بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ مُخْتَلِفَانِ

قَوْلُهُ: «**بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ مُخْتَلِفَانِ**» هذا غريبٌ من المؤلِّف، لكنَّه -رحمه الله- يأتي مرَّةً بالكلامِ على لغةٍ، ومرَّةً على لغةٍ، فهنا مثلًا: «**بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ**» أَعْرَبَ المثنَّى على

الإعرابِ المشهورِ أنَّه يُجَرُّ بالياء، ثُمَّ قال: «مُخْتَلِفَانِ»: صفةٌ لـ«طَائِفَتَيْنِ»، لكنَّها بالألفِ بناءً على لغة مَنْ يُلْزِمُ المثنَّى الألفَ مطلقًا، فبعضُ العرب يُلْزِمُ المثنَّى الألفَ مطلقًا، ومنه قولُ الشَّاعرِ:

وَاهًـا لِرَيَّـا ثُـمَّ وَاهًـا وَاهَـا يَـا لَيْـتَ عَيْنَاهَـا لَنَـا وَفَاهَـا[1]

ولو مشى على المشهورِ لقال: «عَيْنَيْهَا»، وقد يكونُ أرادَ أن يقولَ: «مُخْتَلِفَتَيْنِ» لكن لضيقِ النَّظمِ قال: «مُخْتَلِفَانِ».

هم مكروا مَكْرَيْنِ: أطفؤوا نورَ الكتابِ والسُّنَّةِ، وأوقدوا نارَ الحربِ بين الطَّوائفِ.

قَوْلُهُ: «بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ مُخْتَلِفَانِ» الطَّائفتان المختلفتان هما أهلُ التَّعطيلِ وأهلُ التَّمثيلِ، أهلُ التَّعطيلِ غَلَوْا في التَّنزيهِ، وأهلُ التَّمثيلِ غَلَوْا في الإثباتِ.

فهم أطفؤوا نورَ الكتابِ والسُّنَّةِ؛ لأنَّه إذا صُرِفَت نصوصُ الكتابِ والسُّنَّةِ عن ظاهرِها زَالَ رونقُها و زال نورُها، وصارت كلماتٍ ممزوجةً لا تفيدُ اليقينَ.

٣٧٦٨- وَاللهُ مُطْفِيهَـا بِأَلْسِـنَةِ الأُلَى قَـدْ خَصَّـهُمْ بِـالعِلْمِ وَالإِيـمَانِ

ولا شَكَّ أنَّ الذين أوقدوا الحربَ بين الأُمَّةِ بهذه التَّحريفاتِ وهذا التَّعطيلِ أنَّهم أوقدوها، ولكنَّ اللهَ أطفأها بألسنةِ الأُلَى؛ يعني: «الذين» قد خَصَّهم بالعلمِ والإيمانِ.

٣٧٦٩- وَاللهِ لَوْ غَرِقَ الـمُجَسِّمُ فِي دَمِ التْـ ـجْسِـيمِ مِـنْ قَـدَمٍ إِلَى الآذَانِ

(١) البيت لأبي النجم، كما في صحاح الجوهري (٦/ ٢٢٥٧).

٣٧٧٠- فَالنَّصُّ أَعْظَمُ عِنْدَهُ وَأَجَلُّ قَدْ رًا أَنْ يُعَارِضَهُ بِقَوْلِ فُلانِ

الله أكبر، المُجَسِّمُ -على زَعمِهم- يقولُ: لو غَرِقَ في دمِ التَّجسيمِ من قدَمِه إلى أُذنِه بتمويهِكم وتمثيلِكم عنه لكان النَّصُّ عنده أعظمَ وأجلَّ قدرًا من أن يُعْارِضَه بقولِ فلانٍ؛ يعني: فقولوا ما شئتم، لا يهمُّنا أن ترمونا بالتَّجسيمِ وأن تجعلونَنا من القدمِ إلى الآذان مُجَسِّمَةً، لا يهمُّنا هذا، فلن نُقَدِّمَ قَولَ أحدٍ على قولِ الله ورسولِه.

وهذا ثناءٌ من المؤلِّف -رحمه الله تعالى- على أهلِ الإثباتِ بالثَّباتِ، وعدمِ معارضةِ النُّصوصِ بالآراءِ.

* * *

فصــل

فِي كَسْرِ الطَّاغُوتِ الَّذِي نَفَوْا بِهِ صِفَاتِ ذِي المَلَكُوتِ وَالجَبَرُوتِ

٣٧٧١- أَهْوِنْ بِذَا الطَّاغُوتِ لا عَزَّ اسْمُهُ ... طَاغُوتُ ذِي التَّعْطِيلِ وَالكُفْرَانِ
٣٧٧٢- كَمْ مِنْ أَسِيرٍ بَلْ جَرِيحٍ بَلْ قَتِيـ ... ـلٍ تَحْتَ ذَا الطَّاغُوتِ فِي الأَزْمَانِ
٣٧٧٣- وَتَرَى الـجَبَانَ يَكَادُ يُخْلَعُ قَلْبُهُ ... مِنْ لَفْظِهِ تَبًّا لِكُلِّ جَبَانِ
٣٧٧٤- وَتَرَى المُخَنَّثَ حِينَ يُقْرَعُ سَمْعُهُ ... تَبْدُو عَلَيْهِ شَمَائِلُ النِّسْوَانِ
٣٧٧٥- وَيَظَلُّ مَنْكُوحًا لِكُلِّ مُعَطِّلٍ ... وَلِكُلِّ زِنْدِيقٍ أَخِي كُفْرَانِ
٣٧٧٦- وَتَرَى صَبِيَّ العَقْلِ يُفْزِعُهُ اسْمُهُ ... كَالغُولِ حِينَ يُقَالُ لِلصِّبْيَانِ
٣٧٧٧- كُفْرَانَ هَذَا الإِسْمِ لَا سُبْحَانَهُ ... أَبَدًا وَسُبْحَانَ العَظِيمِ الشَّانِ
٣٧٧٨- كَمْ ذَا التَّتَرُّسُ بِالـمَحَالِ أَمَا تَرَى ... قَدْ مَزَّقَتْهُ كَثْرَةُ السَّهْمَانِ
٣٧٧٩- جِسْمٌ وَتَجْسِيمٌ وَتَشْبِيهٌ أَمَا ... تَعْيُونَ مِنْ فَشْرٍ وَمِنْ هَذَيَانِ
٣٧٨٠- أَنْتُمْ وَضَعْتُمْ ذَلِكَ الطَّاغُوتَ ثُمْ ... مَ بِهِ نَفَيْتُمْ مُوجِبَ القُرْآنِ
٣٧٨١- وَجَعَلْتُمُوهُ شَاهِدًا بَلْ حَاكِمًا ... هَذَا عَلَى مَنْ يَا أُولِي العُدْوَانِ
٣٧٨٢- أَعَلَى كِتَابِ الله ثُمَّ رَسُولِهِ ... بِالله فَاسْتَحْيُوا مِنَ الرَّحْمَنِ
٣٧٨٣- فَقَضَاؤُهُ بِالجَوْرِ وَالعُدْوَانِ مِثْـ ... ـلُ قِيَامِهِ بِالزُّورِ وَالعُدْوَانِ

٢٧٨٤- وَقِيَامُــهُ بِــالزُّورِ مِثْــلُ قَضَــائِهِ بِالــجَوْرِ وَالعُــدْوَانِ وَالبُهْتَــانِ

الشـــرحُ

قَوْلُهُ: «الطَّاغُوت» أصلُ الطَّاغوتِ من الطُّغيانِ، وهو مجاوزةُ الحدِّ، ومعلومٌ أنَّ الطَّاغوتَ فيه تاءٌ زائدةٌ؛ لأنَّه إذا كان من الطُّغيانِ فأصولُ الحروفِ: طاءٌ، وغينٌ، وياءٌ، والتَّاءُ زائدةٌ، وتُزَادُ التَّاءُ في آخرِ الكلمةِ للمبالغةِ أحيانًا كما في قولِهم: «فلانٌ علَّامةٌ»؛ أي: كثيرُ العلمِ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النَّحل:١٢٠]؛ أي: إمامًا، لكنَّه أهلٌ للإمامةِ، فما هو الطَّاغوتُ؟ قال رحمه الله:

٢٧٧١- أَهْوِنْ بِذَا الطَّاغُوتِ لا عَـزَّ اسْـمُهُ طَاغُوتُ ذِي التَّعْطِيـلِ وَالكُفْـرَانِ

قَوْلُهُ: «أَهْوِنْ بِذَا» صيغةُ تعجُّبٍ؛ يعني: ما أهونَهُ! ومثلُ هذه الصِّيغةِ قولُه تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم:٣٨]؛ يعني: ما أسمعَهم وما أبصرَهم يَوْمَ يأتوننا!

قَوْلُهُ: «لَا عَزَّ اسْمُهُ»؛ أي: لا ارتفع وغَلَبَ.

٢٧٧٢- كَمْ مِنْ أَسِيرٍ بَلْ جَرِيحٍ بَـلْ قَتِيـ ـلٍ تَحْتَ ذَا الطَّاغُوتِ فِي الأَزْمَـانِ

يعني: أنَّ هذا الطَّاغوتَ كان منه الأسرى، وكان منه الجَرْحَى، وكان منه القَتْلَى، فَتَرَقَّى المؤلِّفُ -رحمه الله- من الأهونِ إلى الأعظمِ.

٢٧٧٣- وَتَرَى الـجَبَانَ يَكَـادُ يُخْلَـعُ قَلْبُـهُ مِــنْ لَفْظِــهِ تَبًّــا لِكُــلِّ جَبَــانِ

تَرَى الجبانَ يَكَادُ يُخْلَعُ قلبُه من هذا اللَّفظِ، ثُمَّ قال: «تبًّا»؛ أي: خسارًا لكُلِّ جبانٍ.

٣٧٧٤- وَتَرَى الْمُخَنَّثَ حِينَ يُقْرَعُ سَمْعُهُ تَبْدُو عَلَيْهِ شَمَائِلُ النِّسْوَانِ

الْمُخَنَّثُ؛ يعني: الذي سَلَبَ الذُّكوريَّةَ عن نفسِه وجَعَلَ نفسَه بمنزلةِ النِّسوانِ، إذا سَمِعَ هذا الطَّاغوتَ تبدو عليه شمائلُ النِّسوان؛ أي: صفاتُ النِّسوان.

٣٧٧٥- وَيَظَلُّ مَنْكُوحًا لِكُلِّ مُعَطِّلٍ وَلِكُلِّ زِنْدِيقٍ أَخِي كُفْرَانِ

يعني: أنَّهم يجعلونه بمنزلةِ المرأةِ، يُهينونه بالنِّكاحِ.

٣٧٧٦- وَتَرَى صَبِيَّ العَقْلِ يُفْزِعُهُ اسْمُهُ كَالغُولِ حِينَ يُقَالُ لِلصِّبْيَانِ

قَوْلُهُ: «وَتَرَى صَبِيَّ العَقْلِ يُفْزِعُهُ اسْمُهُ» «صَبِيُّ العَقْلِ»؛ يعني: الذي عقلُه صغيرٌ لم يشتدَّ يفزعُه اسمُه.

قَوْلُهُ: «كَالغُولِ حِينَ يُقَالُ لِلصِّبْيَانِ» الغولُ يُخَوَّفُ به الصِّبيانُ، يُقَالُ للصَّبيِّ: اسكت حتى لا يأتيك الغولُ، والغولُ هذا ليس له أصلٌ.

٣٧٧٧- كُفْرَانَ هَذَا الإِسْمِ لَا سُبْحَانَهُ أَبَدًا وَسُبْحَانَ العَظِيمِ الشَّانِ

المؤلِّف في الأوَّل قال: «لَا عَزَّ اسْمُهُ»، وقال: «أَهْوِنْ بِذَا»، وهنا صرَّحَ بأنَّه كافرٌ بهذا الطَّاغوتِ، وأنَّه لا يُنزِّهُه ولا يُعَظِّمُه ولا يراه شيئًا، وسبحانَ العظيمِ الشَّانِ!

٣٧٧٨- كَمْ ذَا التَّتَرُّسُ بِالمَحَالِ أَمَا تَرَى قَدْ مَزَّقَتْهُ كَثْرَةُ السُّهْمَانِ

يعني: كم تترَّسوا بهذا المُحَالِ! ولكن سُهمانُ أهلِ الحقِّ تُخَرِّقُه وتُمَزِّقُه لكن ما هذا الذي يتكلَّمُ عنه المؤلِّفُ حتَّى جعلنا نشتاقُ ونتطلَّعُ، ما هذا الطَّاغوتُ؟ يقولُ:

٣٧٧٩- جِسْمٌ وَتَجْسِيمٌ وَتَشْبِيهٌ أَمَا تَعْيُونَ مِنْ فَشْرٍ وَمِنْ هَذَيَانِ

هذا هو الطَّاغوتُ، إذا قلتَ: «إِنَّ اللهَ استوى على العرشِ» وضع يديه على رأسِه متعجِّبًا مستنكرًا، قال: أعوذُ بالله، جسمٌ على جسمٍ! إذا قلتَ: «يأتي» قال: أعوذُ بالله، جسمٌ، اتَّقِ اللهَ! خفِ اللهَ! لا تصفِ اللهَ بالتَّجسيمِ، صبيُّ العقلِ يتوحَّشُ من هذا، والجبانُ يهربُ منه، يقول: إِذَنْ أعوذُ بالله، أنا لا أُجَسِّمُ، هل إذا قلتُ: «استوى على العرشِ» أكونُ مُجَسِّمًا؟ قال: نعم، قال: إِذَنْ أعوذُ بالله من ذلك، إِذَنْ أَبْلِغْنِي -جزاك اللهُ خيرًا- ما معنى استوى على العرشِ؟ قال: معناه «استولى»، قال ذلك حتَّى لا يُجَسِّمُ، لأنَّه لَعِبَ به، قال: أنت إذا أَثْبَتَّ هذا صِرْتَ مُجَسِّمًا، وصِرْتَ من أهلِ التَّجسيمِ والتَّشبيهِ، والإنسانُ الذي ليس عنده إدراكٌ صغيرُ العقلِ يظنُّ أنَّ هذا الكلامَ حقيقةٌ فيتوقَّف، ويقولُ: أعوذُ بالله من التَّجسيمِ ومن كُلِّ شيءٍ يستلزمُ التَّجسيمَ، ثُمَّ يُنْكِرُ الصِّفاتِ التي أَثْبَتَهَا اللهُ لنفسِه بهذه الحُجَّةِ الباطلةِ.

إِذَنْ ابنُ القيِّم بَيَّنَ لنا بعد أن جعلنا نشتاقُ إلى معرفةِ هذا الطَّاغوتِ بأنَّ الطَّاغوتَ هو التَّجسيمُ، الغارةُ على أهلِ السُّنَّةِ بالتَّجسيمِ.

وتقدَّم أنَّ المؤلِّفَ -رحمه الله- ذكَر أنَّ أهلَ التَّعطيلِ ارتكبوا طاغوتًا اعتَدْوا به على أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، واستطالوا به على النُّصوصِ، هذا الطَّاغوتُ هو الجسمُ والتَّجسيمُ، فجعلوه كالغولِ عند الصِّبيانِ أمام العامَّةِ، وقالوا: من باب التَّشويهِ للمثبتةِ قالوا: إِنَّهم مُجَسِّمَةٌ، يقولونه أمامَ العالَمِ، والعامَّةُ يظنُّون أنَّ هذه الكلمةَ تعني أنَّ اللهَ تعالى مماثلٌ للخلقِ، فالمؤلِّفُ بَيَّنَ أنَّ هذا خطأٌ فقال:

٣٧٨٠- أَنْتُمْ وَضَعْتُمْ ذَلِكَ الطَّاغُوتَ ثُمْ ... مَ بِهِ نَفَيْتُمْ مُوجِبَ القُرْآنِ

٣٧٨١- وَجَعَلْتُمُوهُ شَاهِدًا بَلْ حَاكِمًا ... هَذَا عَلَى مَنْ يَا أُولِي العُدْوَانِ

جعَلُوه حاكمًا وشاهدًا على الله سبحانه وتعالى، فقالوا مثلًا: إنَّ اللهَ إذا قال في كتابه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، ولو أَثْبَتْنَا المعنى على ظاهِرِه لَزِمَ أن يكونَ اللهُ جسمًا، وعلى هذا فننفي الاستواءَ، فجعلوا هذا الطَّاغوتَ حاكمًا على كتابِ الله وسُنَّةِ رسولِه ﷺ، وجعلوه حَكَمًا يَرْجِعون إليه في هذا الباب؛ ولهذا قال: «**عَلَى مَنْ يَا أُولِي العُدْوَانِ**».

٣٧٨٢- أَعَلَى كِتَابِ الله ثُمَّ رَسُولِهِ ... بِالله فَاسْتَحْيُوا مِنَ الرَّحْمَنِ

يعني: أتجعَلونه حَكَمًا على كتابِ الله وعلى رسولِ الله ﷺ؟! استحيوا من الله عزَّ وجلَّ، ولكن مَنْ كان قَدْرُ الله عنده موزونًا بعقلِه فإنَّه لم يستحي من الله، لأنَّ قَدْرَ الله موزونٌ بالوحي «**بالكتابِ والسُّنَّةِ**».

٣٧٨٣- فَقَضَاؤُهُ بِالجَوْرِ وَالعُدْوَانِ مِثْـ ... ـلُ قِيَامِهِ بِالزُّورِ وَالعُدْوَانِ

٣٧٨٤- وَقِيَامُهُ بِالزُّورِ مِثْلُ قَضَائِهِ ... بِالجَوْرِ وَالعُدْوَانِ وَالبُهْتَانِ

معنى كلامِ المؤلِّفِ: أنَّ هؤلاءِ قَضَوْا بالجَوْرِ والعدوانِ كما أنَّهم تكلَّموا بالزُّورِ والبهتانِ، فقَضَوْا بالجَوْرِ والعدوانِ حيث جعلوا عقولَهم حَكَمًا على كتابِ الله وسُنَّةِ رسولِه ﷺ، ثُمَّ قَضَوْا بالزُّورِ والبهتانِ حيثُ نَفَوْا ما أَثْبَتَهُ اللهُ لنفسِه وأَثْبَتَهُ رسولُه ﷺ، وقالوا: إنَّ هذا يقتضي التَّجسيمَ، فجمعوا بين الزُّورِ والبهتانِ في القولِ وبين الجَوْرِ والعدوانِ في الحُكْمِ.

* * *

٣٧٨٥- كَمْ ذِي الجَعَاجِعَ لَيْسَ شَيْءٌ تَحْتَهَا إِلَّا الصَّدَى كَالْبُومِ فِي الخِرْبَانِ

٣٧٨٦- وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُ مُلْحِدِكُمْ وَقَدْ جَحَدَ الصِّفَاتِ لِفَاطِرِ الأَكْوَانِ

٣٧٨٧- لَوْ كَانَ مَوْصُوفًا لَكَانَ مُرَكَّبًا فَالوَصْفُ وَالتَّرْكِيبُ مُتَّحِدَانِ

٣٧٨٨- ذَا المَنْجَنِيقُ وَذَلِكَ الطَّاغُوتُ قَدْ هَدَمَا دِيَارَكُمُ إِلَى الأَرْكَانِ

٣٧٨٩- وَاللهُ رَبِّي قَدْ أَعَانَ بِكَسْرِ ذَا وَبِقَطْعِ ذَا سُبْحَانَ ذِي الإِحْسَانِ

٣٧٩٠- فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ هَذَا لازِمٌ لِمَقَالِكُمْ حَقًّا لُزُومَ بَيَانِ

٣٧٩١- فَلَنَا جَوَابَاتٌ ثَلاثٌ كُلُّهَا مَعْلُومَةُ الإِيضَاحِ وَالتِّبْيَانِ

٣٧٩٢- مَنْعُ اللُّزُومِ وَمَا بِأَيْدِيكُمْ سِوَى دَعْوَى مُجَرَّدَةٍ عَنِ البُرْهَانِ

٣٧٩٣- لا يَرْتَضِيهَا عَالِمٌ أَوْ عَاقِلٌ بَلْ تِلْكَ حِيلَةُ مُفْلِسٍ فَتَّانِ

الشرحُ

٣٧٨٥- كَمْ ذِي الجَعَاجِعَ لَيْسَ شَيْءٌ تَحْتَهَا إِلَّا الصَّدَى كَالْبُومِ فِي الخِرْبَانِ

قَوْلُهُ: «الجَعَاجِعَ» تَقَدَّمَ معناها وهي الأصواتُ التي لا تفيدُ شيئًا، ومنه المَثَلُ المعروفُ: «**أَسْمَعُ جَعْجَعَةً وَلَا أَرَى طِحْنًا**»؛ يعني: أَسْمَعُ أصواتًا مُزْعِجَةً من هذا الرَّحَى ولكن لا أَرَى طِحْنًا؛ يعني: لا أرى طحينًا، وهنا يقول: «**إِلَّا الصَّدَى كَالْبُومِ فِي الخِرْبَانِ**»؛ يعني: البوم في المواضعِ الخَرِبَةِ تُصَوِّتُ وتُدَوِّي ولكن لا تفيدُ شيئًا، فهذه أصواتُكم كأصواتِ البومِ في المواضع الخَرِبَةِ لا تفيدُ شيئًا.

٣٧٨٦- وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُ مُلْحِدِكُمْ وَقَدْ جَحَدَ الصِّفَاتِ لِفَاطِرِ الأَكْوَانِ

٣٧٨٧- لَـوْ كَـانَ مَوْصُـوفًا لَكَـانَ مُرَكَّبًـا ... فَالوَصْـفُ وَالتَّرْكِيـبُ مُتَّحِـدَانِ

هذا طاغوتٌ آخَرُ أيضًا، وهو أنَّه لو كان مُتَّصِفًا بالصِّفاتِ لكان مركَّبًا من الصِّفةِ والذَّاتِ، والتَّركيبُ ممتنعٌ على الله؛ لأنَّ التَّركيبَ يستلزمُ الحدوثَ وافتقارَ المركَّبَيْنِ بعضِهما إلى بعضٍ، وحينئذٍ يجبُ إنكارُ الصِّفاتِ.

٣٧٨٨- ذَا المَنْجَنِيقُ وَذَلِكَ الطَّـاغُوتُ قَـدْ ... هَـدَمَا دِيَـارَكُمُ إِلَى الأَرْكَـانِ

المؤلِّفُ -رحمه الله- جعل التَّجسيمَ طاغوتًا، وجعل القولَ بأنَّ الوصفَ يلزمُ منه التَّركيبُ جعله منجنيقًا، والمعنى أو المؤدَّى واحدٌ؛ لأنَّ المقصودَ بالتَّجسيمِ والتَّركيبِ هو رَدُّ ما جاء به الكتابُ والسُّنَّةُ من صفاتِ الله عزَّ وجلَّ.

٣٧٨٩- وَاللهُ رَبِّي قَـدْ أَعَـانَ بِكَسْـرِ ذَا ... وَبِقَطْعِ ذَا سُبْحَانَ ذِي الإِحْسَانِ

أعان اللهُ عزَّ وجلَّ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ على كسرِ الطَّاغوتِ وعلى قطعِ المنجنيق فتَهَدَّمَ -ولله الحمدُ- بنيانُهم، وصاروا يُخْرِبُون بيوتَهم بأيدِيهم وأيدي المؤمنين، ثُمَّ بدأ المؤلِّفُ يُبيِّنُ الكسرَ والقطعَ فقال:

٣٧٩٠- فَلَـئِنْ زَعَمْـتُمْ أَنَّ هَـذَا لازِمٌ ... لِـمَقَالِكُمْ حَقًّـا لُـزُومَ بَيَـانِ

٣٧٩١- فَلَنَـا جَوَابَـاتٌ ثَـلاثٌ كُلُّهَـا ... مَعْلُومَـةُ الإِيضَـاحِ وَالتِّبْيَـانِ

ثُمَّ ذَكَرَ الجوابَ الأوَّلَ فقال:

٣٧٩٢- مَنْعُ اللُّزُومِ وَمَـا بِأَيْـدِيكُمْ سِـوَى ... دَعْـوَى مُجَـرَّدَةٍ عَـنِ البُرْهَـانِ

٣٧٩٣- لا يَرْتَضِـيهَا عَالِـمٌ أَوْ عَاقِـلٌ ... بَـلْ تِلْـكَ حِيلَـةُ مُفْلِسٍ فَتَّـانِ

يعني: إذا قالوا: إنَّه يلزمُ من ثُبوتِ الصِّفةِ أن يكونَ جِسمًا، نقولُ: لا يلزمُ؛

لأَنَّه ليس عندهم إلَّا دعوى فقط، والدَّعْوَى لنا أن نمنعَها كما أنَّه لو ادَّعى شخصٌ على آخَرَ بمئةِ ريالٍ فللمُدَّعَى عليه أن يمنعَ ويقولُ: «هاتِ البيِّنَةَ»، فالأوَّلُ يقولُ: «مَنْعُ اللُّزُومِ».

إِذَنْ الجوابُ الأوَّلُ: هو منعُ اللُّزومِ، ونقولُ: لا تَلازُمَ بين ثُبوتِ الصِّفةِ والجسمِ؛ إذ قد تثبتُ الصِّفاتُ لغيرِ الأجسامِ، أَلَسْنَا نقولُ: هذا يومٌ طويلٌ؟ وهذا فصلٌ حارٌّ؟ الجوابُ: بلى، هل اليوم جسمٌ؟ لا، بل هو زمنٌ ووقتٌ، فإذا قلتم: يلزمُ من ثبوتِ الصِّفةِ أن يكونَ جسمًا، قلنا: هذا ليس بلازمٍ، وهذه دعوى مجرَّدةٌ منكم لا يقبلُها عالـمٌ ولا عَاقِلٌ.

* * *

٣٧٩٤- فَلَـئِنْ زَعَمْـتُمْ أَنَّ مَنْـعَ لُزُومِـهِ ... مِـنْكُمْ مُكَـابَرَةٌ عَـلَى الـبُطْلانِ

٣٧٩٥- فَجَوَابُنَا الثَّانِي امْتِنَاعُ النَّفْيِ فِيـ ... ـمَا تَـدَّعُونَ لُزُومَـهُ بِبَيَـانِ

٣٧٩٦- إِنْ كَانَ ذَلِـكَ لَازِمًـا لِلـنَّصِّ وَالـ ... ـمَلْزُومُ حَـقٌّ وَهْـوَ ذُو بُرْهَـانِ

٣٧٩٧ وَالـحَقُّ لَازِمُـهُ فَحَـقٌّ مِثْلُـهُ ... أَنَّـى يَكُـونُ الشَّـيْءُ ذَا بُطْـلانِ

٣٧٩٨- وَيَكُـونَ مَلْزُومًـا بِـهِ حَقًّـا فَـذَا ... عَـيْنُ المُحَـالِ وَلَـيْسَ فِي الإِمْكَـانِ

٣٧٩٩- فَتَعَـيَّنَ الإِلْـزَامُ حِينَئِـذٍ عَـلَى ... قَـوْلِ الرَّسُـولِ وَمُحْكَـمِ القُـرْآنِ

٣٨٠٠- وَجَعَلْـتُمُ أَتْبَاعَـهُ مَـا نَسْـتُرَا ... خَوْفًـا مِـنَ التَّصْـرِيحِ بِـالكُفْرَانِ

٣٨٠١- وَاللهِ مَـا قُلْنَـا سِـوَى مَـا قَالَـهُ ... هَـذِي مَقَالَتُنَـا بِـلا كِـتْمَانِ

٣٨٠٢- فَجَعَلْتُمُونَـا جُنَّـةً وَالقَصْـدُ مَفْهُـ ... ـومٌ فَـنَحْنُ وِقَايَـةُ القُـرْآنِ

الشـــرحُ

٣٧٩٤- فَلَـئِنْ زَعَمْـتُمْ أَنَّ مَنْـعَ لُزُومِـهِ ... مِـنْكُمْ مُكَـابَرَةٌ عَـلَى الـبُطْلانِ

يعني: لو قلتم: إنَّ هذه مكابرةٌ، ما هي المكابرة؟ منعُ اللُّزوم؛ يعني: منع التَّلازُم؛ يعني: لو قالوا لنا: بل هذا لازمٌ بلا شكٍّ، وكونُكم تقولون: إنَّه ليس بلازم مكابرةٌ، وقد تَقَدَّمَ أنَّ قولَنا بمنعِ التَّلاُزمِ ليس بمكابرةٍ، ووجهُه أنَّه قد يُوصَفُ الشَّيءُ بالصِّفةِ وليس بجسمٍ، فمنعُنا هذا صحيحٌ وليس مكابرةً؛ لأنَّنا نقولُ: يومٌ طويلٌ، وحرٌّ شديدٌ، وما أشبه ذلك، وهذه ليست أجسامًا، فمنعُنا للتَّلازُمِ ليس بمكابرةٍ؛ لأنَّنا وجدنا أنَّه يصحُّ، فلا يكونُ مكابرةً، ولكن مع ذلك على التَّنزُّلِ:

٣٧٩٥- فَجَوَابُنَا الثَّـانِي امْتِنَـاعُ النَّفْـيِ فِيـ ... ـمَا تَـدَّعُونَ لُزُومَـهُ بِبَيَـانِ

٣٧٩٦- إِنْ كَانَ ذَلِـكَ لَازِمًـا لِلـنَّصِّ وَالـ ... ـمَلْزُومُ حَـقٌّ وَهْـوَ ذُو بُرْهَـانِ

٣٧٩٧ وَالـحَقُّ لَازِمُـهُ فَحَـقٌّ مِثْلُـهُ ... أَنَّـى يَكُـونُ الشَّـيْءُ ذَا بُطْـلانِ

٣٧٩٨- وَيَكُـونَ مَلْزُومًـا بِـهِ حَقًّـا فَـذَا ... عَـيْنُ المُحَـالِ وَلَـيْسَ فِي الإِمْكَـانِ

الجوابُ الثَّاني أن نقولَ: إذا قلتم: إنَّنا مُكَابِرون وأنَّه لا بُدَّ أن يكونَ الموصوفُ جسمًا، فإنَّنا نقولُ: إذا كان كذلك فإنَّنا لا نمنعُ الجسمَ؛ لأنَّه إذا كان ثبوتُ الجسمِ لازمًا لقولِ الله وقولِ رسولِه؛ فإنَّ قولَ الله وقولَ رسولِه حقٌّ، ولازمُ الحقِّ حقٌّ، ولا يمكنُ أن يكونَ لازمُ الحقِّ باطلًا أبدًا، كما أنَّه لا يمكنُ أن يكونَ لازمُ الباطلِ حقًّا، فأنتم الآن إذا قلتم: يلزمُ من ثُبوتِ الصِّفةِ التي أَثْبَتَها اللهُ لنفسِه أن يكونَ اللهُ جسمًا، قلنا مَن الذي أَثْبَتَهُ؟ الجوابُ: اللهُ، وكلامُ الله حقٌّ، وحينئذٍ يكونُ الجسمُ حقًّا؛ لأنَّ لازمَ الحقِّ حقٌّ، ولا يمكنُ أن يكونَ لازمُ الباطلِ باطلًا.

إِذَنْ نلقمُهم حجرًا، نقولُ: إذا كان إثباتُ الصِّفاتِ التي أَثْبَتَها اللهُ لنفسِه يستلزمُ التَّجسيمَ، والتَّجسيمُ حقٌّ ونفيُكم إيَّاه خطأٌ، لماذا كان حقًّا؟ لأَنَّه لازمٌ للحقِّ، ولازمُ الحقِّ حقٌّ، لا يمكنُ أن يكونَ اللَّازمُ باطلًا والملزومُ حقًّا أبدًا، ولا يمكنُ العكسُ، وهذا في الحقيقةِ حُجَّةٌ تُلقمُهم حجرًا؛ ولهذا قال: «**فَجَوَابُنَا الثَّانِي امْتِنَاعُ النَّفْيِ فِيمَا تَدَّعُونَ لُزُومَهُ بِبَيَانِ**»، ما هو الذي يدَّعون لزومَه التَّجسيم أو الجسميَّة؟ نقولُ: نحن لا ننفيه، ونقولُ: هو ثابتٌ؛ لأَنَّه لازمُ الحقِّ على زعمِكم، ولازمُ الحقِّ حقٌّ؛ ولهذا قال: «**إِنْ كَانَ ذَلِكَ لازمًا لِلنَّصِّ وَالمَلْزُومُ حَقٌّ**»، وَالحَقُّ لَازِمُهُ فَحَقٌّ ما هو الملزوم؟ النَّصُّ، واللَّازمُ على قولِهم: «**الجسم**».

قَوْلُهُ: «**أَنَّى يَكُونُ الشَّيءُ ذَا بُطْلَانِ؟!**» الشَّيءُ الذي يكونُ ذا بطلانٍ على كلامِهم التَّجسيمُ، فلازمُ الحقِّ حقٌّ، ولا يمكنُ أن يكونَ لازمُ الحقِّ باطلًا، فإذا كان «**الجسمُ**» لازمًا ممَّا أَثْبَتَهُ اللهُ لنفسِه فهو حقٌّ، وإن لم يكن لازمًا فإنَّه لا يصحُّ أن تلزمونا به.

٣٧٩٩- فَتعَـيَّنَ الإِلْـزَامُ حِينَئِـذٍ عَـلَى قَـوْلِ الرَّسُـولِ وَمُحْكَـمِ القُـرْآنِ

على كُلِّ حالٍ الآن تبيَّن أنَّ قولَهم هذا باطلٌ، **الجوابُ الأوَّل**: أن نمنعَ اللُّزومَ، ونقولَ: هذا مجرَّدُ دعوى، فعليكم بالدَّليلِ.

الثَّاني: سَلَّمْنَا جدلًا أنَّه لازمٌ، فإذا كان لازمًا على قولِ الله وقولِ رسولِه فهو حقٌّ؛ لأنَّ لازمَ الحقِّ حقٌّ، وحِينئذٍ يلزمُكم أن تقولوا به، ونحن إذا قُلنا به فليس علينا حَرَجٌ، وهذا من أهمِّ ما يكونُ، وهو مُفيدٌ للإنسانِ في بابِ المناظرةِ، فإذا نَاظَرْتَ كافرًا أو مُبْتَدِعًا انتفع بهذا التَّقريرِ، بقي الجوابُ الثَّالثُ وسيأتي -إن شاءَ اللهُ- بعد ذلك.

٣٨٠٠- وَجَعَلْتُمُ أَتْبَاعَهُ مَانَسْتُرَا خَوْفًا مِنَ التَّصْرِيحِ بِالكُفْرَانِ

قَوْلُهُ: «بِالْكُفْرَانِ»، وفي نسخةٍ: «وَالْكُفْرَانِ»، والأوَّلُ أقربُ إلى الصَّواب إذا جعلنا «مَانَسْتُرَا» هذا اسمَ رجلٍ.

قَوْلُهُ: «جَعَلْتُمُ أَتْبَاعَهُ»؛ أي: أتباعَ الرَّسولِ، والخطابُ الآن للمُعَطِّلَةِ.

على كُلِّ حالٍ هم جعلوا أتباعَ الرَّسولِ كَفَرَةً؛ لأنَّهم يَرَوْنَ أنَّ التَّجسيمَ كفرٌ وأنَّ إثباتَ الصِّفاتِ كفرٌ، يلزمُ مِن هذا أنَّ مَنْ أَثْبَتَ الصِّفاتِ فهو كافرٌ.

٣٨٠١- وَاللهِ مَا قُلْنَا سِوَى مَا قَالَهُ هَذِي مَقَالَتُنَا بِلَا كِتْمَانِ

قَوْلُهُ: «وَاللهِ مَا قُلْنَا سِوَى مَا قَالَهُ» «مَا قُلْنَا»؛ أي: نحن المثبتين للصِّفاتِ «سِوَى مَا قَالَهُ هَذِي مَقَالَتُنَا بِلَا كِتْمَانِ».

٣٨٠٢- فَجَعَلْتُمُونَا جُنَّةً وَالقَصْدُ مَفْهُـ ـومٌ فَنَحْنُ وِقَايَةُ القُرْآنِ

قَوْلُهُ: «جَعَلْتُمُونَا جُنَّةً»؛ يعني: صبَبْتُم اللَّوْمَ علينا، وقلتم: أنتم كفرةٌ، والحقيقةُ أنَّكم تَسبُّون الرَّسولَ والقرآنَ؛ لأنَّنا مُتَّبعون للكتابِ والسُّنَّةِ، فجعلتم اللَّوْمَ علينا، والمقصودُ الرَّسولُ والقرآنُ؛ ولهذا قال: «فَجَعَلْتُمُونَا جُنَّةً» تتَّقون بها.

* * *

٣٨٠٣- هَذَا وَثَالِثُ مَا نُجِيبُ بِهِ هُوَ اسْـ ـتِفْسَارُكُمْ يَا فِرْقَةَ العِرْفَانِ

٣٨٠٤- مَاذَا الَّذِي تَعْنُونَ بِالجِسْمِ الَّذِي أَلْزَمْتُمُونَا أَوْضِحُوا بِبَيَانِ

٣٨٠٥- تَعْنُونَ مَا هُوَ قَائِمٌ بِالنَّفْسِ أَوْ عَالٍ عَلَى العَرْشِ العَظِيمِ الشَّانِ

٣٨٠٦- أَوْ ذَا الَّذِي قَامَتْ بِهِ الأَوْصَافُ أَوْ صَافُ الكَمَالِ عَدِيمَةُ النُّقْصَانِ

٣٨٠٧- أَوْ مَـا تَرَكَّـبَ مِـنْ جَـوَاهِرِ فَـرْدَةٍ أَوْ صُـورَةٌ حَلَّـتْ هِيُـولِي ثَـانِي

٣٨٠٨- أَوْ مَا هُوَ الجِسْمُ الَّذِي فِي العُـرْفِ أَوْ فِي الوَضْـعِ عِنْـدَ تَخَاطُـبٍ بِلِسَـانِ

٣٨٠٩- أَوْ مَا هُوَ الجِسْمُ الَّذِي فِي الذِّهْنِ ذَا كَ يُقَـالُ تَعْلِـيمٌ لِـذِي الأَذْهَـانِ

٣٨١٠- مَاذَا الَّـذِي فِي ذَاكَ يَلْـزَمُ مِـنْ ثُبُـو تِ عُلُـوِّهِ مِـنْ فَـوْقِ كُـلِّ مَكَـانِ

٣٨١١- فَـأَتَوْا بِتَعْيِـينِ الَّـذِي هُـوَ لازِمٌ فَـإِذَا تَعَـيَّنَ ظَـاهِرُ التِّبْيَـانِ

٣٨١٢- فَـأَتَوْا بِبُرْهَـانَيْنِ بُرْهَـانِ اللُّـزُو مِ وَنَفْـيِ لازِمِـهِ فَـذَانِ اثْنَـانِ

٣٨١٣- وَاللهِ لَوْ نَشَـرَتْ لَكُـمْ أَشْـيَاخُكُمْ عَجَـزُوا وَلَـوْ وَاطَـاهُمُ الـثَّقَلَانِ

الشـــرحُ

٣٨٠٣- هَذَا وَثَالِثُ مَا نُجِيبُ بِهِ هُـوَ اسْــ ـتِفْسَارُكُمْ يَـا فِرْقَـةَ العِرْفَـانِ

وهذا تهكُّمٌ بهم وسُخريةٌ؛ يعني: أنتم أصحابُ معرفةٍ وأصحابُ علمٍ، وإذا لم تقتنعوا بالجوابِ الأوَّل والثَّاني فإنَّنا نستفسرُكم؛ يعني: نطلبُ منكم التَّفسيرَ، وأنتم أهلٌ للتَّفسيرِ؛ لأنَّكم ذوو عرفانٍ، ولا تهكُّمَ أبلغُ من هذا.

٣٨٠٤- مَاذَا الَّذِي تَعْنُـونَ بِالجِسْـمِ الَّـذِي أَلْزَمْتُمُونَـا أَوْضِـحُوا بِبَيَـانِ

٣٨٠٥- تَعْنُـونَ مَـا هُـوَ قَـائِمٌ بِـالنَّفْسِ أَوْ عَالٍ عَلَى العَـرْشِ العَظِـيمِ الشَّـانِ

نسألُهم: ماذا تريدون بالجسمِ؟ هل تريدون ما هو قَائِمٌ بالنَّفسِ أو عالٍ على العرشِ؟ إن أرادوا ذلك فالجسمُ حقٌّ؛ لأنَّ اللهَ قَائِمٌ بنفسِه عالٍ على عرشِه، وهل يلزمُ من هذا فسادٌ أو نقصٌ؟ أبدًا، أَوْ تَعْنُونَ:

٣٨٠٦- أَوْ ذَا الَّذِي قَامَتْ بِهِ الأَوْصَافُ أَوْ   صَافُ الكَمَالِ عَدِيمَةُ النُّقْصَانِ

إذا قالوا: نعم، نريدُ بالجسمِ ما قامت به الأوصافُ، نقولُ: هو اللهُ، اللهُ تعالى قَامَتْ به الأوصافُ، وما الذي يضرُّ إذا أَثْبَتْنَا جسمًا بهذا المعنى، هذا ليس فيه نقصٌ بوجهٍ من الوجوهِ.

٣٨٠٧- أَوْ مَا تَرَكَّبَ مِنْ جَوَاهِرِ فَرْدَةٍ   أَوْ صُورَةٌ حَلَّتْ هِيُولِي ثَانِي

إن أرادوا ذلك فإنَّنا نمنعُهم؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لم يكن جسمًا بهذا المعنى؛ يعني: جسمًا مركَّبًا من جواهرَ فردةٍ أو صورة حَلَّت هَيُولَى ثاني، والهَيُولَى: مثل: الشَّكل والهيئة.

٣٨٠٨- أَوْ مَا هُوَ الجِسْمُ الَّذِي فِي العُرْفِ أَوْ   فِي الوَضْعِ عِنْدَ تَخَاطُبٍ بِلِسَانِ

قَوْلُهُ: «أَوْ مَا هُوَ الجِسْمُ؟»؛ يعني: أو تعنون: «مَا هُوَ الجِسْمُ؟».

قَوْلُهُ: «الوَضْعِ» يعني: اللُّغة العربيَّة، إذا أُطلِقَ الوضعُ عند العلماءِ في أصولِ الفقهِ أو غيرِها فالمرادُ بالوضعِ، يعني: اللُّغَةَ العربيَّةَ.

قَوْلُهُ: «فِي العُرْفِ»؛ يعني: لغة أهلِ العرفِ.

يعني: تعنون الجسمَ الذي في العرفِ أو في الوضع عند تخاطبٍ بلسانٍ، الجسمُ عند النَّاسِ جسدُ الإنسانِ، والجسمُ بالوضعِ قد يكونُ أعمَّ، كُلُّ ما له ثِقَلٌ.

٣٨٠٩- أَوْ مَا هُوَ الجِسْمُ الَّذِي فِي الذِّهْنِ ذَا   كَ يُقَالُ تَعْلِيمٌ لِذِي الأَذْهَانِ

قَوْلُهُ: «أَوْ مَا هُوَ الجِسْمُ؟»؛ يعني: أو تعنون الجسمَ الذي في الذِّهنِ؟

قَوْلُهُ: «ذَاكَ يُقَالُ تَعْلِيمٌ لِذِي الأَذْهَانِ»؛ يعني: يريدون الجسمَ «الكُلِّيَّة» أو

الكُلِّيَّات الذِّهنيَّة، وهذا كما سبق مِرارًا ليس له وجودٌ، الكُلِّيَّةُ الذِّهنيَّةُ ليس لها وجودٌ، مثالُها: «**الحيوان**»، الحيوان كلمةٌ تشملُ كُلَّ ذي حياةٍ من إبلٍ وبقرٍ وغنمٍ وحمرٍ، وغيرِها، وقد يتخيَّلُ الذِّهنُ أنَّ هناكَ حيوانيَّةً عامَّةً تجمعُ هذه الأجناسَ، هذا الذي يتصوَّرُه الذِّهنُ ليس له حقيقةٌ في الخارجِ، ولكنَّه شيءٌ يفرضُه الذِّهنُ، يتخيَّلُ أنَّ الحيوانيَّةَ شملت هذه الأنواعَ.

«**البشريَّة**» أيضًا معنى كُلِّيٌّ يفرضُه الذِّهنُ، وإلَّا فبشريَّتي أنا غيرُ بشريَّتِكِ أنت، لكن الذِّهنُ يتخيَّلُ أنَّ هناك معنى كُلِّيًّا فيه يشتركُ فيه كُلُّ بشرٍ.

يقولُ: هل تعنون بالجسمِ الجسمَ الذِّهنيَّ الذي يتصوَّرُه الذِّهنُ ولا حقيقةَ له في الخارجِ؟ هذا معنى قوله: «**يُقَالُ تَعْلِيمٌ لِذِي الأَذْهَانِ**».

٣٨١٠- مَاذَا الَّـذِي فِي ذَاكَ يَلْـزَمُ مِـنْ ثُبُـو ... تِ عُلُـوِّهِ مِـنْ فَـوْقِ كُـلِّ مَكَـانِ

انعطف الآن المؤلِّفُ على المعنى الأوَّل، ما هو الجسمُ؟ أنَّه القَائِمُ بنفسِه العالِي على عرشِه، ما الذي يلزمُ؟ هل يلزمُ نقصٌ؟ الجوابُ: أبدًا، أو هل يلزمُ مماثلةٌ للمخلوقين؟ الجوابُ: أبدًا.

٣٨١١- فَـأَتَوْا بِتَعْيِـينِ الَّـذِي هُـوَ لازِمٌ ... فَـإِذَا تَعَـيَّنَ ظَـاهِرُ التِّبْيَـانِ

٣٨١٢- فَـأَتَوْا بِبُرْهَـانَيْنِ بُرْهَـانِ اللُّـزُو ... مِ وَنَفْـيِ لازِمِـهِ فَـذَانِ اثْنَـانِ

معناه: إذا ادَّعَيْتُم أنَّه يلزمُ من ثبوتِ علوِّ الله فوق كُلِّ شيءٍ يلزمُ من ذلك النَّقصُ فَأْتُوا بهذا، عيِّنوه، فإذا تَعَيَّنَ وبيَّنتموه فإنَّنا نطلبُ منكم برهانين: أوَّلًا: برهانَ اللُّزومِ، والثَّاني: نفيَ لازمِه، فإذا أتيتم ببرهانِ اللُّزومِ ونفيِ اللَّازمِ حينئذٍ نقبلُ كلامَكم، ومعنى «**بُرْهَانِ اللُّزُومِ**»؛ يعني: أن تأتوا بأنَّ هذا لازمٌ لهذا، هذا

واحدٌ، ثُمَّ تقولون: وهذا اللَّازمُ منفيٌّ، فلا بُدَّ من أمرين إِذَنْ:

الأوَّل: إثبات أنَّ هذا لازمٌ لهذا، والثَّاني: نفي هذا اللَّازمِ، فمثلًا إذا قالوا يلزمُ من هذا النَّقصُ، قلنا: أَثبِتُوا هذا اللَّازمَ، ثُمَّ أَثْبِتُوا أنَّ هذا النَّوعَ من اللَّوازمِ منتفٍ، فإن لم تُثْبِتُوا هذا ولا هذا فقد عجزتم عن الجوابِ.

إِذَنْ هذا الذي يدَّعِي اللَّازمَ مُطَالَبٌ بإثباتِ أنَّ هذا لازمٌ، فإذا أَثْبَتَ أنَّ هذا لازمٌ يُطَالَبُ بطلبٍ آخرَ وهو أنَّ هذا اللَّازمَ يلزمُ نفيُه، هذا معنى كلامِ المؤلِّف.

٣٨١٣- وَاللهِ لَوْ نَشَرَتْ لَكُمْ أَشْيَاخُكُمْ ... عَجَزُوا وَلَوْ وَاطَاهُمُ الثَّقَلَانِ

لو أنَّ أشياخَكم الذين تُقلِّدونهم الآن وتتَّبعونهم نُشِرُوا وأحياهم اللهُ عجزوا عن إثباتِ ذلك.

* * *

٣٨١٤- إِنْ كُنْتُمُ أَنْتُمْ فُحُولًا فَابْرُزُوا ... وَدَعُوا الشَّكَاوَى حِيلَةَ النِّسْوَانِ

٣٨١٥- وَإِذَا اشْتَكَيْتُمْ فَاجْعَلُوا الشَّكْوَى إِلَى الْـ ... ـوَحْيَيْنِ لَا القَاضِي وَلا السُّلْطَانِ

٣٨١٦- فَنُجِيبُ بِالتَّرْكِيبِ حِينَئِذٍ جَوَا ... بًا شَافِيًا فِيهِ هُدَى الحَيْرَانِ

٣٨١٧- الحَقُّ إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ وَنَفْيُهَا ... عَيْنُ المُحَالِ وَلَيْسَ فِي الإِمْكَانِ

٣٨١٨- فَالجِسْمُ إِمَّا لَازِمٌ لِثُبُوتِهَا ... فَهُوَ الصَّوَابُ وَلَيْسَ ذَا بُطْلَانِ

٣٨١٩- أَوَلَيْسَ يَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ صِفَاتِهِ ... فَشَنَاعَةُ الإِلْزَامِ بِالبُهْتَانِ

٣٨٢٠- فَالمَنْعُ فِي إِحْدَى المُقَدِّمَتَيْنِ مَعْـ ... ـلُومُ البَيَانِ إِذَن بِلا نُكْرَانِ

٣٨٢١- الـمَنْعُ إِمَّا فِي اللُّزُومِ أَوِ انْتِفَا ءِ الـلَّازِمِ المَنْسُوبِ لِلْـبُطْلَانِ

٣٨٢٢- هَذَا هُوَ الطَّاغُوتُ قَدْ أَضْحَى كَمَا أَبْصَرْتُمُوهُ بِمِنَّةِ الـرَّحْمَنِ

الشرحُ

٣٨١٤- إِنْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ فُحُولًا فَابْرُزُوا وَدَعُوا الشَّكَاوَى حِيلَةَ النِّسْوَانِ

وهذا تحدٍّ، هكذا ينبغي أن يكونَ الإنسانُ قويًّا أمامَ الباطلِ، يقولُ: «**إِنْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ فُحُولًا فَابْرُزُوا وَدَعُوا الشَّكَاوَى حِيلَةَ النِّسْوَانِ**»؛ لأنَّ أعداءَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أكثر ما يعتمدون على الشَّكاوى إلى السَّلاطين والخلفاءِ، يشكون هذا إلى الخليفةِ، يقولون: هذا أَضَلَّ النَّاسَ، هذا فَعَلَ، هذا فَعَلَ، ثُمَّ الخليفةُ جاهلٌ يأمرُ بحبسِه، أو يأمرُ بجرِّه في الأسواقِ في ذيولِ الخيولِ أو البغالِ، أو ما أشبه ذلك، كما فعل المأمونُ في الإمامِ أحمدَ رحمه الله.

٣٨١٥- وَإِذَا اشْتَكَيْتُمْ فَاجْعَلُوا الشَّكْوَى إِلَى الـ ـوَحْيَيْنِ لَا القَاضِي وَلا السُّلْطَانِ

وهذا صحيحٌ، هل الإنسانُ المُحِقُّ يذهبُ إذا عجز عن مناظرتي وعن مُقاوَمتي يذهبُ إلى القاضي أو إلى الحاكمِ «**السُّلطان**»؟! هذا يدلُّ على ضَعفِه، إذا كان صادقًا فليتفضَّل، فهذا القُرآنُ وهذه السُّنَّةُ، فالشَّكوى إلى القُرآنِ والسُّنَّةِ لا إلى القاضي والسُّلطانِ.

٣٨١٦- فَنُجِيبُ بِالتَّرْكِيبِ حِينَئِذٍ جَوَا بًا شَافِيًا فِيهِ هُدَى الحَيْرَانِ

قَوْلُهُ: «**فَنُجِيبُ بِالتَّرْكِيبِ**»، يعني: بجوابٍ مُركَّبٍ من إثباتٍ ونفيٍ كما سَيُبيِّنُه.

٣٨١٧- الحَقُّ إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ وَنَفْيُهَا عَيْنُ المُحَالِ وَلَيْسَ فِي الإِمْكَانِ

قَوْلُهُ: «**الحَقُّ إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ**» هذا واحدٌ.

قَوْلُهُ: «**وَنَفْيُهَا عَيْنُ المُحَالِ وَلَيْسَ فِي الإِمْكَانِ**» هذه القاعدةُ.

الحقُّ إثباتُ الصِّفاتِ لله عزَّ وجلَّ، ونفيُ الصِّفاتِ عنه عينُ المحالِ؛ أي: مستحيلٌ أن تنتفيَ صفاتُ الكمالِ عنه.

٣٨١٨- فَالجِسْمُ إِمَّا لَازِمٌ لِثُبُوتِهَا فَهُوَ الصَّوَابُ وَلَيْسَ ذَا بُطْلَانِ

وهذا صحيحٌ، إن كان الجسمُ لازمًا لثبوتِ الصِّفاتِ فهو حقٌّ وصوابٌ، وليس ذا بطلانٍ.

٣٨١٩- أَوَلَيْسَ يَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ صِفَاتِهِ فَشَنَاعَةُ الإِلْزَامِ بِالبُهْتَانِ

إن كان لا يلزمُ من إثباتِ الصِّفاتِ الجسمُ فتشنيعكم علينا به بهتانٌ وكَذِبٌ.

٣٨٢٠- فَالمَنْعُ فِي إِحْدَى المُقَدِّمَتَيْنِ مَعْـ ـلُومُ البَيَانِ إِذَن بِلا نُكْرَانِ

وصدَق رحمه اللهُ، إحدى المقدِّمَتَيْنِ، نقولُ: إن كان إثباتُ الصِّفاتِ يستلزمُ التَّجسيمَ فهو صوابٌ وحقٌّ، وإن كان لا يستلزمُه فتشنيعكم علينا كَذِبٌ وبهتانٌ، لا بُدَّ إِمَّا هذا وإمَّا هذا.

٣٨٢١- المَنْعُ إِمَّا فِي اللُّزُومِ أَوِ انْتِفَا ءِ اللَّازِمِ المَنْسُوبِ لِلبُطْلانِ

قَوْلُهُ: «**المَنْعُ إِمَّا فِي اللُّزُومِ**»؛ يعني بأن نقولَ: هذا ليس بلازمٍ، لو ألزمتمونا به فإنَّه ليس بلازمٍ.

قَوْلُهُ: «**أَوِ انْتِفَاءِ اللَّازِمِ المَنْسُوبِ لِلْبُطْلَانِ**»؛ يعني: أو نقولَ: هو لازمٌ لكن

ليس باطلًا، ننفي اللَّازمَ المنسوبَ للبطلانِ.

٣٨٢٢- هَذَا هُوَ الطَّاغُوتُ قَدْ أَضْحَى كَمَا أَبْصَرْتُمُوهُ بِمِنَّةِ الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «أَضْحَى»؛ أي: أَضْحَى صَرِيعًا؛ تقولُ: «أَضْحَى صَرِيعًا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ»؛ أي: طَاحَ على وجهِه ويديه، فما بَقِيَتْ له حركةٌ.

الخلاصة: أنَّ هذا الطَّاغوتَ هو الجسمُ أو التَّجسيمُ، وتَبَيَّنَ الآن في الجواب عنه ثلاثةُ أوجهٍ:

أوَّلًا: منعُ اللُّزوم، وهل يحقُّ لنا أن نمنعَه؟ الجوابُ: نعم؛ لأنَّ مُدَّعِي اللَّزوم يحتاجُ إلى إثباتٍ، فهو مُدَّعٍ، «والْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي»[(١)].

ثانيًا: على فرضِ أنَّه لازمٌ فإنَّه حقٌّ؛ لأنَّ قولَ الله ورسولِه حقٌّ، ولازمُ الحقِّ حقٌّ، ولا يمكنُ أن يكونَ الملزومُ حقًّا، واللَّازمُ باطلًا، أو بالعكسِ لا يمكنُ.

ثالثًا: التَّفصيلُ، نقولُ: ماذا تعنون بالجسمِ؟ إن أردتم بالجسمِ: القَائِمَ بنفسِه، العاليَ على خَلْقِه، الكاملَ في صفاتِه، فنحن نُقِرُّه وليس فيه شيءٌ، ما الذي يلزمُ؟ وإن أردتم بالجسمِ المُركَّب من الهَيُولَى والصُّورةِ وما أشبه ذلك، أو من الجواهرِ الفردةِ فإنَّنا نمنعُ ذلك، ونقولُ: هذه حُجَّةٌ لا نلتزمُ بها.

***

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الأحكام، باب ما جاء في أن البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه، رقم (١٣١٤).

فصـــل

فِي مَبْدَأِ العَدَاوَةِ الوَاقِعَةِ بَيْنَ المُثْبِتِينَ المُوَحِّدِينَ وَبَيْنَ النُّفَاةِ المُعَطِّلِينَ

٣٨٢٣- يَـا قَـوْمُ تَـدْرُونَ العَـدَاوَةَ بَيْنَنَـا ... مِـنْ أَجْـلِ مَـاذَا فِي قَـدِيمِ زَمَـانِ

٣٨٢٤- إِنَّـا تَحَيَّزْنَـا إِلَى القُـرْآنِ وَالنْـ ... ـنَقْلِ الصَّحِيحِ مُفَسِّـرِ القُـرْآنِ

٣٨٢٥- وَكَذَا إِلَى العَقْلِ الصَّرِيحِ وَفِطْرَةِ الرْ ... رَحْمَـنِ قَبْـلَ تَغَـيُّرِ الإِنْسَـانِ

٣٨٢٦- هِـيَ أَرْبَـعٌ مُتَلازِمَـاتٌ بَعْضُـهَا ... قَـدْ صَـدَّقَتْ بَعْضًـا عَـلَى مِيـزَانِ

٣٨٢٧- وَاللهِ مَـا اجْتَمَعَـتْ لَـدَيْكُمْ هَـذِهِ ... أَبَـدًا كَـمَا أَقْـرَرْتُمُ بِلِسَـانِ

٣٨٢٨- إِذْ قُلْتُمُ العَقْلُ الصَّحِيحُ يُعَارِضُ الـ ... مَنْقُـولَ مِـنْ أَثَـرٍ وَمِـنْ قُـرْآنِ

٣٨٢٩- فَنُقَدِّمُ المَعْقُـولَ ثُـمَّ نُصَـرِّفُ الـ ... ـمَنْقُولَ بِالتَّأْوِيـلِ ذِي الأَلْـوَانِ

٣٨٣٠- فَـإِذَا عَجَزْنَـا عَنْـهُ أَلْفَيْنَـاهُ لَـمْ ... نَعْبَـأْ بِـهِ قَصْـدًا إِلَى الإِحْسَـانِ

الشَّـرحُ

قَوْلُهُ: «المُثْبِتِينَ»؛ أي: الذين يُثبتون الصِّفاتِ.

قَوْلُهُ: «المُعَطِّلِينَ»؛ أي: الذين ينفون الصِّفاتِ.

٣٨٢٣- يَـا قَـوْمُ تَـدْرُونَ العَـدَاوَةَ بَيْنَنَـا ... مِـنْ أَجْـلِ مَـاذَا فِي قَـدِيمِ زَمَـانِ

قَوْلُهُ: «يَا قَـوْمُ»، أو «يَا قَـوْمِ» يجوزُ الوجهان، يجوز أن تُراعِيَ المحذوفَ

فتقول: «يَا قَوْمِ»، وأن تنويَ القطعَ عن الإضافةِ فتقول: «يَا قَوْمُ»، لكن الذي في القرآنِ مراعاةُ المحذوفِ كما قال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ [الصَّف:٥].

يعني: هل تعلمون ما سببُ العداوةِ التي كانت بيننا من قديمِ الزَّمانِ؛ أي: التي كانت بين المثبتين والمعطِّلين؟ لأنَّ كُلَّ عداوةٍ لا بُدَّ لها من سببٍ، والأسبابُ متعدِّدةٌ، بَيَّنَها رحمه اللهُ في قولِه:

٣٨٢٤- إِنَّـــا تَحَيَّزْنَـــا إِلَى القُـــرْآنِ وَالنْـــ ـــنَقْلِ الصَّـــحِيحِ مُفَسِّـــرِ القُـــرْآنِ

٣٨٢٥- وَكَذَا إِلَى العَقْلِ الصَّرِيحِ وَفِطْرَةِ الرْ رَحْمَـــنِ قَبْـــلَ تَغَـــيُّرِ الإِنْسَـــانِ

هذه أربعةُ أدلَّةٍ تحيَّزنا إلى القُرآنِ وهو كلامُ الله، والنَّقلِ الصَّحيحِ عن رسولِ الله ﷺ، **والثَّالث**: العقلِ الصَّريحِ؛ أي: السَّالمِ من الشُّبهاتِ والشَّهواتِ، **الشُّبهات**: التباسُ الحقِّ على الإنسانِ والعياذُ بالله، بحيثُ لا ينجلِي له الحقُّ، وهذا يقعُ كثيرًا، لا ينجلِي للإنسانِ الحقُّ وسببُه الذُّنوبُ، انظر إلى الذي قال: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين:١٣]، قال اللهُ تعالى: ﴿كَلَّا﴾، أي: ليست أساطيرَ الأولين ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين:١٤]، فمنعتهم أن يَرَوُا الحقَّ حقًّا، نسألُ اللهَ العافيةَ.

وأمَّا الشَّهواتُ فمعناها الميلُ والإرادةُ، وليس المرادُ بها شهوةَ الجنسِ «**شهوةَ الجماعِ**»، بل المرادُ بالشَّهواتِ الميلُ والإرادةُ، يكون الإنسانُ عنده علمٌ لكن عنده سوءُ قصدٍ لا يريدُ الحقَّ، بل يتبعُ هوى نفسِه.

إِذَنْ العقلُ الصَّريحُ، يعني: السَّالـمُ من الشُّبهاتِ والشَّهواتِ، سالـمٌ من الشُّبهاتِ؛ يعني: عنده علمٌ، والشَّهوات؛ يعني: عنده إرادةٌ حسنةٌ، والخللُ يأتي إمَّا من الأوَّلِ، وإمَّا من الثَّاني؛ ولذلك لا تجدُ أحدًا خالَفَ الحقَّ إلَّا لقصورٍ في

فهمِه، أو نقصٍ في علمِه، أو تقصيرٍ في طلبِه، أو سوءٍ في قصدِه، هذه أسبابُ قصورِ الإنسانِ أو أسبابُ عدمِ العلمِ.

الرَّابع: «**وَفِطْرَةِ الرَّحْمَنِ قَبْلَ تَغَيُّرِ الإِنْسَانِ**» وهي الفطرةُ التي ركَّبَها اللهُ تعالى في قلوبِ العبادِ قبل تغيُّرِ الإنسانِ؛ لأنَّ هؤلاءِ المبتدعةَ تغيَّرت فِطَرُهم والعياذُ بالله، وإلَّا فالفطرةُ السَّليمةُ تُوجِبُ إثباتَ ما أَثْبَتَهُ اللهُ لنفسِه ونَفْيَ ما نفى عن نفسِه والسُّكوتَ عمَّا لم يَرِدْ إثباتُه ولا نفيُه، فهذه هي القاعدةُ، فالفطرةُ السَّليمةُ تُؤيِّدُ العقلَ الصَّريحَ والنَّقلَ الصَّحيحَ والقرآنَ.

وَقَوْلُهُ: «**قَبْلَ تَغَيُّرِ الإِنْسَانِ**» أشار رحمه اللهُ إلى الحديثِ الثَّابتِ عن النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»[1].

٣٨٢٦- هِيَ أَرْبَعٌ مُتَلازِمَاتٌ بَعْضُهَا ... قَدْ صَدَّقَتْ بَعْضًا عَلَى مِيزَانِ

قَوْلُهُ: «**هِيَ أَرْبَعٌ مُتَلازِمَاتٌ**» الأربعُ هي: الكتابُ، والسُّنَّةُ، والعقلُ الصَّريحُ، والفِطْرَةُ، هذه أربعٌ متلازماتٌ يُصَدِّقُ بعضُها بعضًا، ويشهدُ بعضُها لبعضٍ؛ ولهذا قال: «**بَعْضُهَا قَدْ صَدَّقَتْ بَعْضًا عَلَى مِيزَانِ**».

٣٨٢٧- وَاللهِ مَا اجْتَمَعَتْ لَدَيْكُمْ هَذِهِ ... أَبَدًا كَمَا أَقْرَرْتُمْ بِلِسَانِ

يقولُ: إنَّ هذه الأربعَ التي اعتمدنا عليها في إثباتِنا لا توجدُ لديكم، فإنَّهم أقرُّوا بأنَّه لا رُجوعَ إلى الكتابِ والسُّنَّةِ في إثباتِ الصِّفاتِ أو نفيِها، وإنَّما الرُّجوعُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام، رقم (١٣٥٨). ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، رقم (٢٦٥٨).

إلى العقلِ، فإذا تَعَارَضَ العقلُ والنَّقلُ قُدِّمَ العقلُ على كلامِهِم؛ ولهذا قَالَ المؤلِّفُ:

٣٨٢٨- إذْ قُلْتُمُ العَقْلُ الصَّحِيحُ يُعَارِضُ الـ مَنْقُولَ مِنْ أَثَرٍ وَمِنْ قُرْآنِ

٣٨٢٩- فَنُقَدِّمُ المَعْقُولَ ثُمَّ نُصَرِّفُ الـ مَنْقُولَ بِالتَّأْوِيلِ ذِي الأَلْوَانِ

قَوْلُهُ: «**فَنُقَدِّمُ المَعْقُولَ**»؛ يعني: المعلومَ بالعقلِ.

قَوْلُهُ: «**ثُمَّ نُصَرِّفُ المَنْقُولَ بِالتَّأْوِيلِ ذِي الأَلْوَانِ**» نُصَرِّفُهُ بالتَّأويلِ بألوانٍ شتَّى؛ تارةً يُقَالُ: إنَّه مجازٌ، أو استعارةٌ، أو تمثيلٌ، أو ما أشبه ذلك ممَّا يقولون.

وقول المؤلِّف: «**بِالتَّأْوِيلِ**» حقيقةُ هذا التَّأويلِ الذي سلكه المعطِّلون حقيقتُه التَّحريفُ؛ لأنَّهم حَرَّفُوا الكَلِمَ عن مواضعِه؛ ولهذا لـمَّا حصلت المناظرةُ بين شيخِ الإسلامِ -رحمه الله- وخصومِه على العقيدةِ الواسطيَّةِ بَيَّنَ أنَّه عَبَّرَ بالتَّحريفِ فقال: «**مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ**»، فقال: لأنَّ التَّأويلَ لا يمكنُ، مع صرفِ الكَلِمِ عمَّا أراد اللهُ، بل يُسَمَّى هذا تحريفًا.

وابنُ القيِّم الآن لا يدلُّ سِياقُ كلامِه على أنَّه وافَقَهُم على أنَّه تأويلٌ؛ لأنَّه يحكي كلامَهم، فقولُه: «**فَنُقَدِّمُ المَعْقُولَ ثُمَّ نُصَرِّفُ المَنْقُولَ بِالتَّأْوِيلِ**» هذا قولُ المعطِّلةِ.

٣٨٣٠- فَإِذَا عَجَزْنَا عَنْهُ أَلْفَيْنَاهُ لَمْ نَعْبَأْ بِهِ قَصْدًا إِلَى الإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «**فَإِذَا عَجَزْنَا عَنْهُ أَلْفَيْنَاهُ لَمْ نَعْبَأْ بِهِ**»؛ يعني: وجدناه شيئًا لا نَعْبَأُ به ولا نهتمُّ به، هذا على نسخة: «**أَلْفَيْنَاهُ**»، وعلى نسخة: «**أَلْقَيْنَاهُ**» بالقافِ؛ يعني: تركناه ورَمَيْنَا به.

قَوْلُهُ: «**قَصْدًا إِلَى الإِحْسَانِ**»؛ يعني: مريدين بذلك الإحسانَ بالتَّوفيقِ بين

المعقولِ والمنقولِ، فقالوا: نُثْبِتُ ما دلَّ عليه المعقولُ، وما خَالَفَهُ من المنقولِ نُحَرِّفُه -أو على عبارتِهم- نُؤوِّلُه ليوافقَ المعقولَ، فنكون بذلك أَحْسَنَّا صُنعًا ووفَّقنا بين الأدِّلَةِ العقليَّةِ والنَّقليَّة.

* * *

٣٨٣١- وَلكُمْ بِذَا سَلَفٌ لَهُمْ تَابَعْتُمُ ... لَمَّا دُعُوْا لِلأَخْذِ بِالقُرْآنِ

٣٨٣٢- صَدُّوا فَلَمَّا أَنْ أُصِيبُوا أَقْسَمُوا ... لِمُرَادِنَا تَوْفِيقَ ذِي الإِحْسَانِ

٣٨٣٣- وَلَقَدْ أُصِيبُوا فِي قُلُوبِهِمُ وَفِي ... تِلْكَ العُقُولِ بِغَايَةِ النُّقْصَانِ

٣٨٣٤- فَأَتَوْا بِأَقْوَالٍ إِذَا حَصَّلْتَهَا ... أَسْمَعْتَ ضِحْكَةَ هَازِلٍ مَجَّانِ

٣٨٣٥- هَذَا جَزَاءُ المُعْرِضِينَ عَنِ الهُدَى ... مُتَعَوِّضِينَ زَخَارِفَ الهَذَيَانِ

الشرحُ

٣٨٣١- وَلكُمْ بِذَا سَلَفٌ لَهُمْ تَابَعْتُمُ ... لَمَّا دُعُوْا لِلأَخْذِ بِالقُرْآنِ

٣٨٣٢- صَدُّوا فَلَمَّا أَنْ أُصِيبُوا أَقْسَمُوا ... لِمُرَادِنَا تَوْفِيقَ ذِي الإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «وَلَكُمْ بِذَا سَلَفٌ لَهُمْ تَابَعْتُمُ» «لَكُمْ» الخطابُ للمعطِّلةِ بهذا العملِ أو بهذا الصَّنيعِ.

يُشيرُ -رحمه الله- إلى قولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ

إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾ [النِّساء:٦٠- ٦٢]، وهؤلاء المعطِّلةُ كذلك يقولون: نحن آمنَّا بالله ورسولِه ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾، وهؤلاء المعطِّلةُ تحاكموا إلى الطَّاغوتِ «إلى العقلِ» الذي أبطلوا به السَّمعَ، ﴿وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾؛ يعني: أُمِرَ هؤلاء أن يكفروا بالطَّاغوتِ وأن يتحاكموا إلى الله ورسولِه، وهؤلاء المعطِّلةُ أُمِرُوا أن يرجعوا في إثباتِ الصِّفاتِ ونفيِها إلى الكتابِ والسُّنَّةِ، ولكنَّهم أَبَوْا ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾؛ أي: عن الحقِّ بما ارتكبوه من المخالفاتِ، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾ تراهم يصدُّون: يُبْعِدون، فلو قلت: تَعَالَوْا أَثْبِتُوا ما أَثْبَتَهُ الكتابُ والسُّنَّةُ صدُّوا وأعرضوا، ﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ واطُّلِع عليهم وعُثِرَ عليهم ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾، ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ﴾ ؛ يعني: ما أردنا إلَّا إحسانًا وتوفيقًا بين الطَّاغوتِ وبين حكمِ الله فيمَنْ تحدَّثَ اللهُ عنهم، وهؤلاء يقولون: ما أردنا إلَّا الإحسانَ والتَّوفيقَ بين الأدلَّةِ العقليَّةِ والنَّقليَّةِ، لأنَّنا إذا أوَّلنا القرآنَ والسُّنَّةَ ليطابقَ المعقولَ عندنا توافقَت الأدلَّةُ العقليَّةُ والنَّقليَّةُ.

٣٨٣٣- وَلَقَدْ أُصِيبُوا فِي قُلُوبِهِمُ وَفِي ... تِلْكَ العُقُولِ بِغَايَةِ النُّقْصَانِ

قَوْلُهُ: «وَلَقَدْ أُصِيبُوا»؛ يعني: هؤلاء المعطِّلة في قلوبِهم وفي عقولِهم، «في قلوبِهم»؛ لأنَّهم لم يريدوا الرُّجوعَ إلى الكتابِ والسُّنَّةِ، و«وفي عقولِهم»؛ لأنَّهم ظنُّوا أنَّ ما قالوه عقليَّاتٌ وهي في الحقيقةِ وهميَّاتٌ ليس لها حقيقةٌ؛ ولهذا قال:

٣٨٣٤- فَأَتَوْا بِأَقْوَالٍ إِذَا حَصَّلْتَهَا ... أَسْمَعْتَ ضِحْكَةَ هَازِلٍ مَجَّانِ

٣٨٣٥- هَذَا جَزَاءُ الْمُعْرِضِينَ عَنِ الْهُدَى ... مُتَعَوِّضِينَ زَخَارِفَ الْهَذَيَانِ

جزاءُ مَنْ أَعْرَضَ عن كتابِ الله أن تكونَ أقوالُه ضُحْكَةً وهزءًا للنَّاسِ يسخرون بها ولا يعرفون لها قَدْرًا.

* * *

٣٨٣٦- وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا بِشَيْخِ القَوْمِ إِذْ ... يَأْبَى السُّجُودَ بِكِبْرِ ذِي طُغْيَانِ

٣٨٣٧- ثُمَّ ارْتَضَى أَنْ صَارَ قَوَّادًا لِأَرْ ... بَابِ الفُسُوقِ وَكُلِّ ذِي عِصْيَانِ

٣٨٣٨- وَكَذَاكَ أَهْلُ الشِّرْكِ قَالُوا كَيْفَ ذَا ... بَشَرٌ أَتَى بِالوَحْيِ وَالقُرْآنِ

٣٨٣٩- ثُمَّ ارْتَضُوا أَنْ يَجْعَلُوا مَعْبُودَهُمْ ... مِنْ هَذِهِ الأَحْجَارِ وَالأَوْثَانِ

٣٨٤٠- وَكَذَاكَ عُبَّادُ الصَّلِيبِ حَمَوْا بَتَا ... رِكَهُمْ مِنَ النِّسْوَانِ وَالوِلْدَانِ

٣٨٤١- وَأَتَوْا إِلَى رَبِّ السَّمَاوَاتِ العُلَى ... جَعَلُوا لَهُ وَلَدًا مِنَ الذُّكْرَانِ

٣٨٤٢- وَكَذَلِكَ الجَهْمِيُّ نَزَّهَ رَبَّهُ ... عَنْ عَرْشِهِ مِنْ فَوْقِ ذِي الأَكْوَانِ

٣٨٤٣- حَذَرًا مِنَ الحَصْرِ الَّذِي فِي ظَنِّهِ ... أَوْ أَنْ يُرَى مُتَحَيِّزًا بِمَكَانِ

٣٨٤٤- فَأَصَارَهُ عَدَمًا وَلَيْسَ وُجُودُهُ ... مُتَحَقِّقًا فِي خَارِجِ الأَذْهَانِ

الشرحُ

٣٨٣٦- وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا بِشَيْخِ القَوْمِ إِذْ ... يَأْبَى السُّجُودَ بِكِبْرِ ذِي طُغْيَانِ

قَوْلُهُ: «وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا بِشَيْخِ القَوْمِ» شيخُ القومِ هو إبليسُ.

قَوْلُهُ: «إِذْ يَأْبَى السُّجُودَ بِكِبْرِ ذَي طُغْيَانِ»؛ لأَنَّه قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف:١٢]، وهذا كِبْرٌ.

٣٨٣٧- ثُـمَّ ارْتَضَـى أَنْ صَـارَ قَـوَّادًا لِأَرْ ... بَابِ الفُسُـوقِ وَكُـلِّ ذِي عِصْـيَانِ

لم يَذِلَّ لله، لكنَّه صار قوَّادًا لأهلِ الفسقِ والعصيانِ.

٣٨٣٨- وَكَذَاكَ أَهْلُ الشِّرْكِ قَالُوا كَيْفَ ذَا ... بَشَـرٌ أَتَـى بِـالوَحْيِ وَالقُـرْآنِ

أنكروا رسالةَ النَّبِيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

٣٨٣٩- ثُمَّ ارْتَضُـوا أَنْ يَجْعَلُـوا مَعْبُـودَهُمْ ... مِـنْ هَـذِهِ الأَحْجَـارِ وَالأَوْثَـانِ

أعوذُ باللهِ؛ يعني: كُلُّ إنسانٍ يخالفُ الحقَّ لا بُدَّ أن يأتيَ بما يُضْحِكُ العقلاءَ، هؤلاء لم ينقادوا إلى البشرِ، قالوا: كيف يكونُ رسولًا وهو بشرٌ؟! لكنَّهم لم يقولوا: «كيف يكونُ معبودًا وهو حجرٌ؟!»، رضوا بأن يكونَ معبودُهم حجرًا، ولم يرضوا أن يكونَ رسولُهم بشرًا.

٣٨٤٠- وَكَذَاكَ عُبَّادُ الصَّلِيبِ حَمَوْا بَتَا ... رِكَهُـمْ مِـنَ النِّسْـوَانِ وَالوِلْـدَانِ

البِطْرِيقُ عندهم أظنُّه لا يتزَّوجُ؛ لأَنَّه مُنَزَّهٌ عن أن يكونَ له ولدٌ، ولكن ربُّ العالمين لا بأسَ أن يكونَ له ولدٌ؛ ولهذا قال:

٣٨٤١- وَأَتَـوْا إِلَى رَبِّ السَّـمَاوَاتِ العُـلَى ... جَعَلُـوا لَـهُ وَلَـدًا مِـنَ الـذُّكْرَانِ

مع أنَّ البِطْرِيقَ لا يتزوَّجُ، ولا يُولَدُ له، مُنَزَّهٌ عن الزَّوجةِ والولدِ، وربُّ العالمينِ ليس مُنَزَّهًا، نسألُ اللهَ العافيةَ.

٣٨٤٢- وَكَـذَلِكَ الـجَهْمِيُّ نَـزَّهَ رَبَّـهُ ... عَنْ عَرْشِهِ مِنْ فَـوْقِ ذِي الأَكْـوَانِ

٣٨٤٣- حَذَرًا مِنَ الحَصْرِ الَّذِي فِي ظَنِّهِ ... أَوْ أَنْ يُرَى مُتَحَيِّزًا بِمَكَانِ

قال الجهميُّ: إنَّ اللهَ مُنَزَّهٌ عن أن يكونَ فوق العرشِ؛ لأنَّه إذا كان فوق العرشِ صار محدودًا على محدودٍ، فهو إِذَنْ محصورٌ، أو صار متحيِّزًا في مكانٍ، وهذا أيضًا عندهم ممتنعٌ: ولهذا قال: «**أَوْ أَنْ يُرَى مُتَحَيِّزًا بِمَكَانِ**».

٣٨٤٤- فَأَصَارَهُ عَدَمًا وَلَيْسَ وُجُودُهُ ... مُتَحَقِّقًا فِي خَارِجِ الأَذْهَانِ

فَأَصَارَهُ عَدَمًا، فقال: هو لا فوقَ العالمِ ولا تحتَه، ولا يمينٌ ولا شمالٌ، ولا متَّصلٌ ولا منفصلٌ، ولا مباينٌ ولا محايثٌ، إِذَنْ صار عدمًا.

* * *

٣٨٤٥- لَكِنَّمَا قُدَمَاؤُهُمْ قَالُوا بِأَنْـ ... ـنَ الذَّاتَ قَدْ وُجِدَتْ بِكُلِّ مَكَانِ

٣٨٤٦- جَعَلُوهُ فِي الآبَارِ وَالأَنْجَاسِ وَالْـ ... ـحَانَاتِ وَالخَرِبَاتِ وَالقِيعَانِ

٣٨٤٧- وَالقَصْدُ أَنَّكُمُ تَحَيَّزْتُمْ إِلَى الْـ ... آرَاءِ وَهْيَ كَثِيرَةُ الهَذَيَانِ

٣٨٤٨- فَتَلَوَّنَتْ بِكُمُ فَجِئْتُمْ أَنْتُمُ ... مُتَلَوِّنِينَ عَجَائِبَ الأَكْوَانِ

٣٨٤٩- وَعَرَضْتُمُ قَوْلَ الرَّسُولِ عَلَى الَّذِي ... قَدْ قَالَهُ الأَشْيَاخُ عَرْضَ وِزَانِ

٣٨٥٠- وَجَعَلْتُمُ أَقْوَالَهُمْ مِيزَانَ مَا ... قَدْ قَالَهُ وَالقَوْلُ فِي المِيزَانِ

٣٨٥١- وَوَرَدْتُمُ سَفْلَ المِيَاهِ وَلَمْ نَكُنْ ... نَرْضَى بِذَاكَ الوِرْدَ لِلظَّمْآنِ

٣٨٥٢- وَأَخَذْتُمُ أَنْتُمْ بُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ وَنَحْـ ... ـنُ سِرْنَا فِي الطَّرِيقِ الأَعْظَمِ السلطان

٣٨٥٣- وَجَعَلْتُمْ تُرْسَ الكَلامِ مِجَنَّكُمْ ... تَبًّا لِذَاكَ التُّرْسِ عِنْدَ طِعَانِ

الشـــرحُ

٣٨٤٥- لَكِـــنَّمَا قُـــدَمَاؤُهُمْ قَـــالُوا بِـــأَنْ ... نَ الذَّاتَ قَدْ وُجِدَتْ بِكُـلِّ مَكَـانِ

أعوذُ باللهِ، الجهميَّةُ الأوائلُ قالوا: إنَّ اللهَ بذاتِه في كُلِّ مكانٍ، والأواخرُ الذين يُقَالُ لهم: «محقِّقون» جعلوه عَدَمًا محضًا لا وجودَ له.

٣٨٤٦- جَعَلُوهُ فِي الآبَارِ وَالأَنْجَاسِ وَالْـ ... ــحَانَاتِ وَالخَرِبَــاتِ وَالقِيعَــانِ

٣٨٤٧- وَالقَصْــدُ أَنَّكُــمُ تَحَيَّــزْتُمْ إِلَى الْــ ... آرَاءِ وَهْــيَ كَثِــيرَةُ الْـــهَذَيَانِ

٣٨٤٨- فَتَلَوَّنَـــتْ بِكُـــمُ فَجِئْـــتُمْ أَنْـــتُمُ ... مُتَلَـــوِّنِينَ عَجَائِـــبَ الأَكْـــوَانِ

وصدَق رحمه اللهُ، فهم تحيَّزوا إلى الآراءِ فتلوَّنوا، قدماؤهم أَثْبَتُوه في كُلِّ مكانٍ، ومُتأخِّروهم نَفَوْه عن كُلِّ مكانٍ، وهذا تلونٌ عجيبٌ؛ لأنَّهم يتَّبعون ما يدَّعونه عقليَّاتٍ وهي وهميَّاتٌ.

٣٨٤٩- وَعَرَضْتُمُ قَوْلَ الرَّسُولِ عَلَى الَّذِي ... قَـدْ قَالَـهُ الأَشْـيَاخُ عَـرْضَ وِزَانِ

يعني: عرضتم قولَ الرَّسولِ على أقوالِ الشُّيوخِ عرضَ موازنةٍ لا عرضَ مفاضلةٍ، لو عرضوه عَرْضَ مفاضلةٍ وقالوا: «**الفضلُ لقولِ الرَّسولِ**» لكان هذا صحيحًا، لو عرضوا قولَ الرَّسولِ على قولِ أشياخِهم عرضَ مفاضلةٍ على أنَّ الفضلَ لقولِ الرَّسولِ، لكان هذا حقًّا، لكن عرضوه عرضَ موازنةٍ، ثُمَّ فَضَّلوا أقوالَ شيوخِهم، وهذه مشكلةٌ أيضًا.

٣٨٥٠- وَجَعَلْــتُمُ أَقْوَالَــهُمْ مِيــزَانَ مَــا ... قَــدْ قَالَــهُ وَالقَــوْلُ فِي المِيــزَانِ

قَوْلُهُ: «**وَالقَوْلُ فِي المِيزَانِ**»، وفي نسخةٍ: «**وَالعَدْلُ فِي المِيزَانِ**»، أو «**وَالعَدْلَ فِي**

المِيزَانِ»؛ يعني: جعلتموه العدلَ؛ أي: المعادلَ، ونسخةُ «العَدْل» أحسنُ.

٣٨٥١- وَوَرَدْتُمُ سَفْلَ المِيَاهِ وَلَمْ نَكُنْ   نَرْضَى بِذَاكَ الوِرْدَ لِلظَّمْآنِ

يعني: أنَّهم وَرَدُوا سُفْلَ المياه لا أعلاها النَّقيّ، ولم نكن نرضى بذاك الوِرْدِ للظَّمْآنِ، يعني: وأمَّا نحن فلا نَرْضَى بذاك الوِرْدِ الذي وردتم، بل نشربُ من فوق.

٣٨٥٢- وَأَخَذْتُمُ أَنْتُمْ بُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ وَنَحْـ   ـنُ سِرْنَا فِي الطَّرِيقِ الأَعْظَمِ السلطان

الظَّاهر أنَّ صوابَ البيتِ:

وَأَخَذْتُمُ أَنْتُمْ بُنَيَّاتِ الطَّرِيـ   ـقِ وَنَحْنُ سِرْنَا الأَعْظَمَ السُّلْطَانِ

«بُنَيَّات الطَّريقِ»؛ يعني: الطَّرق الصَّغيرة التي لا تُسْلَكُ، والطَّريقُ الأعظمُ هو الطَّريقُ الرئيسُ الذي يسلكُه السُّلطانُ، أو أنَّه الأعظمُ السُّلْطَانِ؛ لأنَّها تتفرَّعُ من الطُّرقِ.

٣٨٥٣- وَجَعَلْتُمْ تُرْسَ الكَلامِ مِجَنَّكُمْ   تَبًّا لِذَاكَ التُّرْسِ عِنْدَ طِعَانِ

قَوْلُهُ: «جَعَلْتُمُ تُرْسَ الكَلَامِ مِجَنَّةً»؛ يعني: تترَّستم بعلمِ الكلامِ فيما ذهبتم إليه.

* * *

٣٨٥٤- وَرَمَيْتُمُ أَهْلَ الحَدِيثِ بِأَسْهُمٍ   عَنْ قَوْسِ مَوْتُورِ الفُؤَادِ جَبَانِ

٣٨٥٥- فَتَتَرَّسُوا بِالوَحْيِ وَالسُّنَنِ الَّتِي   تَتْلُوهُ نِعْمَ التُّرْسِ لِلشُّجْعَانِ

٣٨٥٦- هُوَ تُرْسُهُمْ وَاللهِ مِنْ عُدْوَانِكُمْ   وَالتُّرْسُ يَوْمَ البَعْثِ مِنْ نِيرَانِ

٣٨٥٧- أَفَتَارِكُوهُ لِفَشْرِكُمْ وَمُحَالِكُمْ ... لا كَانَ ذَاكَ بِمِنَّةِ الرَّحْمَنِ

٣٨٥٨- وَدَعَوْتُمُونَا لِلَّذِي قُلْتُمْ بِهِ ... قُلْنَا مَعَاذَ اللهِ مِنْ خِذْلانِ

٣٨٥٩- فَاشْتَدَّ ذَاكَ الحَرْبُ بَيْنَ فَرِيقِنَا ... وَفَرِيقِكُمْ وَتَفَاقَمَ الأَمْرَانِ

٣٨٦٠- وَتَأَصَّلَتْ تِلْكَ العَدَاوَةُ بَيْنَنَا ... مِنْ يَوْمِ أَمْرِ اللهِ لِلشَّيْطَانِ

٣٨٦١- بِسُجُودِهِ فَعَصَى وَعَارَضَ أَمْرَهُ ... بِقِيَاسِهِ وَبِعَقْلِهِ الخَوَّانِ

٣٨٦٢- فَأَتَى التَّلامِيذُ الوَقَاحُ فَعَارَضُوا ... أَخْبَارَهُ بِالفَشْرِ وَالهَذَيَانِ

٣٨٦٣- وَمُعَارِضٌ لِلأَمْرِ مِثْلُ مُعَارِضِ الـ ... أَخْبَارِ هُمْ فِي كُفْرِهِمْ صِنْوَانِ

الشرحُ

٣٨٥٤- وَرَمَيْتُمُ أَهْلَ الحَدِيثِ بِأَسْهُمٍ ... عَنْ قَوْسِ مَوْتُورِ الفُؤَادِ جَبَانِ

لأنَّهم رَمَوْهم بِأسْهُمٍ تدلُّ على جبنِهم؛ لأنَّها أَسْهُمٌ غيرُ مَبْنِيَّةٍ على دليلٍ، وإنَّما هي شتمٌ وسبٌّ وعيبٌ كقولِهم في أهلِ الحديثِ: إنَّهم حَشْوِيَّةٌ، مُجَسِّمَةٌ مُمَثِّلَةٌ، وما أشبه ذلك.

إِذَنْ هم رَمَوْا أهلَ الحديثِ بِأسْهُمٍ، لكنَّها صادرةٌ عن قوسِ رجلٍ موتورِ الفؤادِ جبانٍ، وإذا كان هكذا فإنَّ هذه السِّهامَ لا تُجْدِي شيئًا، ومن الأسهمِ التي رَمَوْا بها أهلَ الحديثِ أنَّهم قالوا: إنَّهم مُجَسِّمَةٌ وإنَّهم حَشْوِيَّةٌ، وإنَّهم نوابتُ، وما أشبه ذلك، لكن هل هذا الوصفُ بالسُّوءِ يقلبُ الحقَّ باطلًا؟ الجوابُ: لا؛ ولهذا حاول أعداءُ الرُّسلِ أن يَصِفُوا دعوتَهم بكُلِّ سوءٍ، بالشِّعرِ والكهانةِ والجنونِ وما أشبه ذلك، ولكنَّ ذلك لم يؤثِّر شيئًا، فكونُهم يقولون: نحن مُجَسِّمَةٌ، نقولُ:

والله إذا كان إثباتُ صفاتِ ربِّنا عزَّ وجلَّ تجسيمًا فنحن مُجَسِّمَةٌ وأهلٌ للتَّجسيمِ.

٣٨٥٥- فَتَتَرَّسُوا بِالوَحْيِ وَالسُّنَنِ الَّتِي تَتْلُوهُ نِعْمَ التُّرْسِ لِلشُّجْعَانِ

أهلُ السُّنَّةِ وأهلُ الحديثِ تترَّسُوا بالوحي: «كتابِ الله وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ»، يقولُ المؤلِّفُ: «نِعْمَ التُّرْسُ لِلشُّجْعَانِ»، فالتُّرسُ قويٌّ والحاملُ شجاعٌ.

٣٨٥٦- هُوَ تُرْسُهُمْ وَاللهِ مِنْ عُدْوَانِكُمْ وَالتُّرْسُ يَوْمَ البَعْثِ مِنْ نِيرَانِ

ذكر أنَّ التَّترُّسَ بالكتابِ والسُّنَّةِ تُرْسٌ في مَوْضِعَيْنِ:

الموضع الأوَّل: في الدُّنيا؛ أي: من عُدوانِ هؤلاء الذين يُحاولون أن يردُّوا قولَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، ولن يستطيعوا إلى ذلك سبيلًا؛ لأنَّ قولَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ مَبْنِيٌّ على الكتابِ والسُّنَّةِ، فهؤلاء إذا احتجُّوا علينا بما يَرَوْنَه معقولًا احْتَجَجْنَا عليهم بما هو منقولٌ، وهذه العلومُ لا تُدْرَكُ إلَّا بالنَّقلِ.

الموضع الثَّاني: التُّرس يوم البعثِ من النِّيرانِ؛ يعني: أنَّه هو الذي يَقِيهم من النِّيران يومَ القيامةِ؛ لأنَّ مَنْ أَثْبَتَ لله ما وَصَفَ به نفسَه فقد أنجى نفسَه من التَّعطيلِ.

وضدُّ ذلك هؤلاء الذين تترَّسوا بعلمِ الكلامِ وغيرِه لن ينفعَهم لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ.

٣٨٥٧- أَفَتَارِكُوهُ لِفَشْرِكُمْ وَمُحَالِكُمْ لا كَانَ ذَاكَ بِمِنَّةِ الرَّحْمَنِ

يعني: أفنتركه من أجلِ فَشْرِكم وهو الكلامُ الذي لا فائدةَ فيه، ومحالِكم الذي تأتون به، «لَا كَانَ ذَاكَ بِمِنَّةِ الرَّحْمَنِ»، وهذه الجملةُ دعائيَّةٌ؛ يعني: أسألُ اللهَ تعالى ألَّا يكونَ ذلك.

٣٨٥٨- وَدَعَوْتُمُونَا لِلَّذِي قُلْتُمْ بِهِ قُلْنَا مَعَاذَ اللهِ مِنْ خِذْلانِ

يعني: أَنَّكم تدعوننا أن نقولَ ما قُلتم في التَّعطيلِ، ونحن نعوذُ باللهِ من الخِذلان؛ لأنَّ نزولَ الإنسانِ إلى ما كان عليه هؤلاء المعطِّلةُ لا شكَّ أنَّه من أكبرِ الخِذْلانِ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

٣٨٥٩- فَاشْتَدَّ ذَاكَ الحَرْبُ بَيْنَ فَرِيقِنَا وَفَرِيقِكُمْ وَتَفَاقَمَ الأَمْرَانِ

٣٨٦٠- وَتَأَصَّلَتْ تِلْكَ العَدَاوَةُ بَيْنَنَا مِنْ يَوْمِ أَمْرِ اللهِ لِلشَّيْطَانِ

٣٨٦١- بِسُجُودِهِ فَعَصَى وَعَارَضَ أَمْرَهُ بِقِيَاسِهِ وَبِعَقْلِهِ الخَوَّانِ

هذا تشبيهٌ جيِّدٌ؛ يعني: أنَّ العَداوةَ بيننا وبينكم من ذاك الوقتِ من حين عصى الشَّيطانُ ربَّه حين أمره بالسُّجودِ، والأمرُ بالسُّجودِ اعتمادٌ على وحيٍ ونقلٍ، عُورِضَ هذا الأمرُ بقياسٍ باطلٍ ومعقولٍ موهومٍ، قال الشَّيطانُ لـمَّا أمره أن يسجدَ لآدمَ قال: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف:١٢]، وقال هؤلاء لـمَّا قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص:٧٥] قالوا: ليس لله يدٌ، هذا محالٌ، والمرادُ باليدِ القدرةُ، و﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [الأعراف:٥٤] قالوا: محالٌ أن يستويَ على العرشِ، ولكن المراد بـ«استوى» استولى، فعارضوا المنقولَ بالمعقول كما عارض إبليسُ المنقولَ بالمعقولِ عنده، وليس بعقلٍ.

٣٨٦٢- فَأَتَى التَّلَامِيذُ الوَقَاحُ فَعَارَضُوا أَخْبَارَهُ بِالفَشْرِ وَالهَذَيَانِ

تلاميذُ الشَّيطانِ إبليسَ عارَضوا أخبارَ الله التي أَخْبَرَ بها عن نفسِه وأَخْبَرَ بها عنه رسولُه بالفشرِ والـهَذَيانِ.

٣٨٦٣- وَمُعَارِضٌ لِلأَمْرِ مِثْل مُعَارِضِ الـ أَخْبَـارِ هُـمْ فِي كُفْـرِهِمْ صِـنْوَانِ

قَوْلُهُ: «وَمُعَارِضٌ للأَمْرِ» الذي عَارَضَ الأمرَ هو الشَّيطانُ، حيث أُمِرَ أن يسجدَ، فقال: لا، ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، وقَاسَ بقولِه: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾، وهؤلاء التَّلاميذُ عارَضوا الأخبارَ بعقولِهم، وقالوا: لا يمكنُ أن يستويَ اللهُ على العرشِ، ولا يمكنُ أن يتكلَّمَ بكلامٍ مسموعٍ، ولا يمكنُ أن يكون عاليًا فَوْقَ خَلْقِه، وهكذا، فصار إبليسُ مُعَارِضًا للأمرِ، وهؤلاء مُعارضون للخبرِ، أمَّا في بابِ الأوامرِ فإنَّهم لم يعارضوا، بل يصلُّون ويصومون ويزكُّون ويحجُّون، ويأمرون بالمعروفِ ويَنْهَوْن عن المنكرِ، لكن في الأخبارِ عارضوا الأخبارَ المنقولةَ بالأوهامِ المعقولةِ.

* * *

٣٨٦٤- مَنْ عَارَضَ المَنْصُوصَ بِالمَعْقُولِ قِـدْ مًـا أَخْبَرُونَـا يَـا أُولِي العِرْفَـانِ

٣٨٦٥- أَوَمَـا عَـرَفْتُمْ أَنَّـهُ القَـدَرِيُّ وَالـ ـجَبْرِيُّ أَيْضًـا ذَاكَ فِي القُـرْآنِ

٣٨٦٦- إِذْ قَـالَ قَـدْ أَغْـوَيْتَنِي وَفَتَنْتَنِـي لَأُزَيِّـنَنَّ لَـهُمْ مَـدَى الأَزْمَـانِ

٣٨٦٧- فَـاحْتَجَّ بِالمَقْـدُورِ ثُـمَّ أَبَـانَ أَنْ نَ الفِعْـلَ مِنْـهُ بُغْيَـةٌ وَزِيَـانِ

٣٨٦٨- فَانْظُرْ إِلَى مِيرَاثِهِمْ ذَا الشَّيْخِ بِالتْـ ـتَعْصِيبِ وَالمِـيرَاثِ بِالسُّـهْمَانِ

٣٨٦٩- فَسَـأَلْتُكُمْ بِـاللهِ مَـنْ وُرَّاثُـهُ مِنَّـا وَمِـنْكُمْ بَعْـدَ ذَا التِّبْيَـانِ

٣٨٧٠- هَـذَا الَّـذِي أَلْقَـى العَـدَاوَةَ بَيْنَنَـا إِذْ ذَاكَ وَاتَّصَـلَتْ إِلَى ذَا الآنِ

٣٨٧١- أَصَّلْتُمُ أَصْـلًا وَأَصَّـلَ خَصْـمُكُمْ أَصْـلًا فَحِـينَ تَقَابَـلَ الأَصْـلانِ

٣٨٧٢- ظَهَرَ التَّبَايَنُ فَانْتَشَتْ مَـا بَيْنَنَـا الــ ـحَرْبُ العَوَانُ وَصِـيحَ بِـالأَقْرَانِ

الشــرحُ

٣٨٦٤- مَنْ عَارَضَ المَنْصُوصَ بِالمَعْقُولِ قِـدْ مًـا أَخْبَرُونَـا يَـا أُولِي العِرْفَـانِ

قَوْلُهُ: «قِدْمًا»؛ يعني: مِن سَلَفِ هذه الأُمَّةِ.

هل أحدٌ مِن سَلَفِ هذه الأُمَّةِ عَارَضَ المنقولَ بالمعقولِ، وقال: عقولُنا لا تُصَدِّقُ بهذا؟ أبدًا، هاتوا عن أبي بكرٍ، عن عمرَ، عن عثمانَ، عن عليٍّ، عن ابن مسعودٍ، عن ابن عبَّاسٍ، عن غيرِهم، رَضِيَ اللهُ عن الجميعِ، ما منهم أحدٌ عَارَضَ المنقولَ بالمعقولِ أبدًا.

٣٨٦٥- أَوَمَـا عَـرَفْتُمْ أَنَّـهُ القَـدَرِيُّ وَالــ ـــجَبْرِيُّ أَيْضًـا ذَاكَ فِي القُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «أَوَمَا عَرَفْتُمْ أَنَّهُ القَدَرِيُّ وَالجَبْرِيُّ أَيْضًا» مَنْ؟ الجوابُ: إبليسُ قَدَرِيٌّ جَبْرِيٌّ، فكان جبريًّا حين احتجَّ على الله بأنَّ اللهَ أغواه، وكان قَدَرِيًّا حين قال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ [ص:٨٢]، وكأَنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- ليس قادرًا على منعِه، فصار الشَّيطانُ إبليسُ جامعًا بين كونِه قدريًّا وكونِه جبريًّا.

٣٨٦٦- إِذْ قَـالَ قَـدْ أَغْـوَيْتَنِي وَفَتَنْتَنِـي لَأُزَيِّـنَنَّ لَـهُمْ مَـدَى الأَزْمَـانِ

قَوْلُهُ: «إِذْ قَالَ قَدْ أَغْوَيْتَنِي» هذا جَبْرٌ.

قَوْلُهُ: «وَفَتَنْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَـهُمْ مَدَى الأَزْمَانِ» هذا قَدَرِيٌّ؛ لأنَّ القَدَرِيَّ معناه هو الذي يجعلُ فِعْلَه لا عَلاقةَ لله به، والجَبْرِيُّ هو الذي يجعلُ فِعْلَه لا عَلاقةَ له بنفسِه، وإنَّما هو مجبورٌ عليه.

٣٨٦٧- فَاحْتَجَّ بِالمَقْدُورِ ثُمَّ أَبَانَ أَنْ نَ الفِعْلَ مِنْهُ بُغْيَةٌ وَزِيَانِ

قَوْلُهُ: «زِيَانِ» لعلَّها من الزَّيْنِ الذي هو ضدُّ الشَّيْن، و«الغيُّ»: ضدُّ الرُّشدِ.

٣٨٦٨- فَانْظُرْ إِلَى مِيرَاثِهِمْ ذَا الشَّيْخِ بِالتْـ ـتَعْصِيبِ وَالمِيرَاثِ بِالسُّهْمَانِ

قَوْلُهُ: «ذَا الشَّيْخَ» المرادُ به الشَّيطانُ.

قَوْلُهُ: «بِالتَّعْصِيبِ» وهو ما ليس له سهمٌ مُقَدَّرٌ.

قَوْلُهُ: «المِيرَاثِ بِالسُّهْمَانِ»: أي: بالفرضِ.

يعني: أنَّهم وَرِثُوه فرضًا وتعصيبًا؛ أي: ورثوه بكُلِّ جهاتِ الإرثِ.

٣٨٦٩- فَسَأَلْتُكُمْ بِاللهِ مَنْ وُرَّاثُهُ مِنَّا وَمِنْكُمْ بَعْدَ ذَا التِّبْيَانِ

لأنَّنا نحن نُقَدِّمُ المنقولَ ونقولُ: إنَّ الوحيَ حَاكِمٌ على عقولِنا وليست عقولُنا حاكمةً على الوحي، ونقولُ فيما أَخْبَرَنَا اللهُ به عن نفسِه: آمَنَّا وصَدَّقْنَا، ولا نُعارِضُ هذا بعقولِنا.

٣٨٧٠- هَذَا الَّذِي أَلْقَى العَدَاوَةَ بَيْنَنَا إِذْ ذَاكَ وَاتَّصَلَتْ إِلَى ذَا الآنِ

٣٨٧١- أَصَّلْتُمْ أَصْلًا وَأَصَّلَ خَصْمُكُمْ أَصْلًا فَحِينَ تَقَابَلَ الأَصْلانِ

٣٨٧٢- ظَهَرَ التَّبَايُنُ فَانْتَشَتْ مَا بَيْنَنَا الْـ ـحَرْبُ العَوَانُ وَصِيحَ بِالأَقْرَانِ

وهذا معلومٌ؛ لأنَّه إذا اختلف الأصلان فإنَّه لا يمكنُ أن يتَّفقَ هؤلاء وهؤلاء، بل لا بُدَّ أن تكونَ رَحَى الحربِ بينهم دائرةً إلى أن يصطلحوا بالرُّجوعِ إلى الكتابِ والسُّنَّةِ.

* * *

٣٨٧٣- أَصَّلْتُمْ آرَا الرِّجَالِ وَخَرْصَهَا ... مِنْ غَيْرِ بُرْهَانٍ وَلَا سُلْطَانِ

٣٨٧٤- هَذَا وَكَمْ رَأْيٍ لَهُمْ فَبِرَأْيِ مَنْ ... نَزِنُ النُّصُوصَ فَأَوْضِحُوا بِبَيَانِ

٣٨٧٥- كُلٌّ لَهُ رَأْيٌ وَمَعْقُولٌ لَهُ ... يَدْعُو وَيَمْنَعُ أَخْذَ رَأْيِ فُلَانِ

٣٨٧٦- وَالخَصْمُ أَصَّلَ مُحْكَمَ القُرْآنِ مَعْ ... قَوْلِ الرَّسُولِ وَفِطْرَةِ الرَّحْمَنِ

٣٨٧٧- وَبَنَى عَلَيْهِ فَاعْتَلَى بُنْيَانُهُ ... نَحْوَ السَّمَا أَعْظِمْ بِذَا البُنْيَانِ

٣٨٧٨- وَعَلَى شَفَا جُرْفٍ بَنَيْتُمْ أَنْتُمُ ... فَأَتَتْ سُيُولُ الوَحْيِ وَالإِيمَانِ

٣٨٧٩- قَلَعَتْ أَسَاسَ بِنَائِكُمْ فَتَهَدَّمَتْ ... تِلْكَ السُّقُوفُ وَخَرَّ لِلأَرْكَانِ

٣٨٨٠- اللهُ أَكْبَرُ لَوْ رَأَيْتُمْ ذَلِكَ الـ ... ـبُنْيَانَ حِينَ عَلا كَمِثْلِ دُخَانِ

٣٨٨١- تَسْمُو إِلَيْهِ نَوَاظِرٌ مِنْ تَحْتِهِ ... وَهُوَ الوَضِيعُ وَلَوْ يُرَى بِعِيَانِ

٣٨٨٢- فَاصْبِرْ لَهُ وَهْنًا وَرُدَّ الطَّرْفَ تَلْـ ... ـقَاهُ قَرِيبًا فِي الحَضِيضِ الدَّانِي

الشرحُ

٣٨٧٣- أَصَّلْتُمْ آرَا الرِّجَالِ وَخَرْصَهَا ... مِنْ غَيْرِ بُرْهَانٍ وَلَا سُلْطَانِ

قَوْلُهُ: «آرَا»، وفي نسخةٍ: «رَأْي»، والمعنى واحدٌ.

يعني: أنَّكم جعَلتُم الأصلَ آراءَ الرِّجالِ التي يدَّعون أنَّها عقلٌ، وهذه الآراءُ كُلُّها خَرْصٌ وظنٌّ وتخمينٌ، ليس لها حقيقةٌ؛ ولهذا قال: «**مِنْ غَيْرِ بُرْهَانٍ وَلَا سُلْطَانِ**».

٣٨٧٤- هَذَا وَكَمْ رَأْيٍ لَهُمْ فَبِرَأْيِ مَنْ ... نَزِنُ النُّصُوصَ فَأَوْضِحُوا بِبَيَانِ

قَوْلُهُ: «كَمْ رَأْيٍ لَهُمْ»؛ يعني: ما أَكْثَرَ آراءَهم!

يعني: أنَّ أصحابَ المعقولِ لهم آراءٌ كثيرةٌ، فبأيِّ رأيٍ نَزِنُ القُرآنَ والسُّنَّةَ؟ هل برأي الأوَّل أو الثَّاني أو الثَّالث أو الخامس، برأيِ مَنْ؟ وهذا معنى قولِ بعضِهم: «**يَا لَيْتَ شِعْرِي بِأيِّ شَيء يُوزَنُ الكِتَابُ والسُّنَّةُ برأيِ فلانٍ أو فلانٍ أو فلانٍ؟ ما دمتم أنتم متنازعين في آرائِكم فإلي مَنْ نرجعُ؟**».

٣٨٧٥- كُلٌّ لَهُ رَأْيٌ وَمَعْقُولٌ لَهُ ... يَدْعُو وَيَمْنَعُ أَخْذَ رَأْيِ فُلانِ

سبحان الله! صارت العقولُ كثيرةً، كُلٌّ له رأيٌ، كُلٌّ له معقولٌ، كُلٌّ يدعو إلى رأيه، ويقولُ: انبذوا رأيَ فلانٍ، بل إنَّ بعضَهم يتناقضُ في نفسِه فتجده يُؤلِّفُ كتابًا اليومَ ثُمَّ يُؤلِّفُ كتابًا ينقضُ ما كتبه بالأمسِ، وهذا مشهورٌ؛ وذلك لأنَّهم لم يبنوا على أصلٍ، إنَّما بَنَوْا على جُرُفٍ هارٍ فَانْهَارَ بهم.

٣٨٧٦- وَالخَصْمُ أَصَّلَ مُحْكَمَ القُرْآنِ مَعْ ... قَوْلِ الرَّسُولِ وَفِطْرَةِ الرَّحْمَنِ

٣٨٧٧- وَبَنَى عَلَيْهِ فَاعْتَلَى بُنْيَانُهُ ... نَحْوَ السَّمَا أَعْظِمْ بِذَا البُنْيَانِ

قَوْلُهُ: «الخَصْمُ»؛ يعني: خصم أهلِ التَّعطيلِ الذي حَكَّمَ الوحيَ.

قَوْلُهُ: «أَصَّلَ مُحْكَمَ القُرْآنِ مَعْ قَوْلِ الرَّسُولِ وَفِطْرَةِ الرَّحْمَنِ» ثلاثةُ أشياء، بل والعقل أيضًا؛ لأنَّ العقلَ يدلُّ على وجوبِ الرُّجوعِ إلى الوحي في هذا البابِ؛ إذ أنَّ هذا البابَ يعتمدُ على الخبرِ المحضِ؛ لأنَّه خبرٌ عن أمرٍ غيبيٍّ لا نظيرَ له حتَّى يُقَاسَ عليه، فكان مقتضى العقلِ أن يُرْجَعَ في هذا البابِ إلى الكتابِ والسُّنَّةِ، فصار أَصْلُ هؤلاءِ -أعني: المثبتةَ- الكتابَ والسُّنَّةَ والفطرةَ والعقلَ، وأولئك ليس

عندهم إلَّا أوهامٌ يظنُّونها عقليَّاتٍ وهي وهميَّاتٌ.

٣٨٧٨- وَعَلَى شَفَا جُرْفٍ بَنَيْتُمْ أَنْتُمُ فَأَتَتْ سُيُولُ الوَحْيِ وَالإِيمَانِ

٣٨٧٩- قَلَعَتْ أَسَاسَ بِنَائِكُمْ فَتَهَدَّمَتْ تِلْكَ السُّقُوفُ وَخَرَّ لِلأَرْكَانِ

٣٨٨٠- اللهُ أَكْبَرُ لَوْ رَأَيْتُمْ ذَلِكَ الـ بُنْيَانَ حِينَ عَلا كَمِثْلِ دُخَانِ

٣٨٨١- تَسْمُو إِلَيْهِ نَوَاظِرٌ مِنْ تَحْتِهِ وَهُوَ الوَضِيعُ وَلَوْ يُرَى بِعِيَانِ

٣٨٨٢- فَاصْبِرْ لَهُ وَهْنًا وَرُدَّ الطَّرْفَ تَلْـ ـقَاهُ قَرِيبًا فِي الحَضِيضِ الدَّانِي

قَوْلُهُ: «وَهْنًا» الظَّاهرُ أنَّ «وَهْنًا» من جنسِ «هُنَيْهَة» كقولِك: «سَكَتَ هُنَيْهَةً».

المهمُّ أنَّ بناءَ هؤلاءِ على جُرُفٍ هارٍ مثل الدُّخانِ تلقاه عاليًا ثُمَّ يتضاءلُ وتذروه الرِّياحُ اليسيرةُ في كُلِّ مكانٍ، أمَّا بناء أهلِ السُّنَّةِ فهو كالجبالِ لا تهزُّه العواصفُ، وهو ثابتٌ باقٍ؛ لأنَّه مَبْنِيٌّ على أصلٍ وهو الكتابُ والسُّنَّةُ.

* * *

فصــل

فِي بَيَانِ أَنَّ التَّعْطِيلَ أَسَاسُ الزَّنْدَقَةِ وَالكُفْرَانِ وَالإِثْبَاتَ أَسَاسُ العِلْمِ وَالإِيمَانِ

٣٨٨٣- مَــنْ قَــالَ إِنَّ اللهَ لَـيْسَ بِفَاعِــلٍ ... فِعْــلًا يَقُــومُ بِــهِ قِيَــامَ مَعَــانِي

٣٨٨٤- كَــلَّا وَلَـيْسَ الأَمْــرُ أَيْضًــا قَــائِمًا ... بِــالرَّبِّ بَـلْ مِـنْ جُمْلَـةِ الأَكْـوَانِ

٣٨٨٥- كَــلَّا وَلَــيْسَ اللهُ فَــوْقَ عِبَــادِهِ ... بَــلْ عَرْشُــهُ خِلْــوٌ مِـنَ الـرَّحْمَنِ

٣٨٨٦- فَثَلاثَــةٌ وَاللهِ لا تُبْقِــي مِــنَ الــ ... إِيــمَانِ حَبَّــةَ خَــرْدَلٍ بِــوِزَانِ

٣٨٨٧- وَقَدِ اسْـتَرَاحَ مُعَطِّـلُ هَـذِي الـثَّلا ... ثَ مِــنَ الإِلَــهِ وَجُمْلَــةِ القُــرْآنِ

٣٨٨٨- وَمِنَ الرَّسُولِ وَدِينِـهِ وَشَرِيعَـةِ الــ ... إِسْــلامِ بَــلْ مِـنْ جُمْلَــةِ الأَدْيَــانِ

٣٨٨٩- وَتَمَــامُ ذَاكَ جُحُــودُهُ لِصِــفَاتِهِ ... وَالذَّاتِ دُونَ الوَصْفِ ذُو بُطْلانِ

٣٨٩٠- وَتَمَــامُ ذَا الإِيــمَانُ إِقْــرَارُ الفَتَــى ... بِــاللهِ فَــاطِرِ هَــذِهِ الأَكْــوَانِ

٣٨٩١- فَـإِذَا أَقَـرَّ بِـهِ وَعَطَّـلَ كُـلَّ مَفْــ ... ـرُوضٍ وَلَـمْ يَتَـوَقَّ مِـنْ عِصْـيَانِ

٣٨٩٢- لَـمْ يَـنْقُصِ الإِيـمَانُ حَبَّـةَ خَـرْدَلٍ ... أَنَّــى وَلَــيْسَ بِقَابِــلِ النُّقْصَــانِ

الشــرحُ

يقولُ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ تعالى- مُبيِّنًا ما عليه أهلُ التَّعطيلِ من المذاهبِ أو من الأقوالِ المخالفةِ لقولِ السَّلفِ:

٣٨٨٣- مَـنْ قَـالَ إِنَّ اللهَ لَـيْسَ بِفَاعِـلٍ فِعْـلًا يَقُـومُ بِـهِ قِيَـامَ مَعَـانِي

٣٨٨٤- كَـلَّا وَلَـيْسَ الأَمْـرُ أَيْضًـا قَـائِمًا بِـالرَّبِّ بَـلْ مِـنْ جُمْلَـةِ الأَكْـوَانِ

٣٨٨٥- كَـلَّا وَلَـيْسَ اللهُ فَـوْقَ عِبَـادِهِ بَـلْ عَرْشُـهُ خِلْـوٌ مِـنَ الـرَّحْمَنِ

٣٨٨٦- فَثَلاثَـةٌ وَاللهِ لا تُبْقِـي مِـنَ الـ إِيـمَانِ حَبَّـةَ خَـرْدَلٍ بِـوِزَانِ

هذه ثلاثةُ أشياء:

أوَّلًا: مَنْ نَفَى أن تقومَ الأفعالُ الاختياريَّةُ بالله، وقال: إنَّ اللهَ لا يفعلُ، ولا يستوي على العرشِ، ولا ينزلُ إلى السَّماءِ الدُّنيا، ولا يأتي للفصلِ بين عبادِه، ولا يضحكُ إلى رَجُلَيْنِ يقتلُ أحدهُما الآخرَ كلاهما يدخلُ الجنَّةَ، ولا يفرحُ بتوبةِ عبدِه المؤمن، ونَفَى جميعَ الأفعالِ الاختياريَّة، إِذَنْ بَقِيَ اللهُ مُعطَّلًا بمنزلةِ الصَّخرةِ والعياذُ بالله، إِذَنْ إذا قال: إنَّ اللهَ ليس بفاعلٍ لَزِمَ أن يكونَ معطَّلًا عن الفعلِ، فأين الرُّبوبيَّةُ؟! أين الرُّبوبيَّةُ مِنْ رَبٍّ لا يقدرُ على الفعلِ؟! إِذَنْ أَنْكَرَ القضاءَ والقدرَ والشَّرَّ والرَّبَّ.

كذلك أيضًا مَنْ قال: إنَّ اللهَ ليس له أمرٌ وإنَّ أمرَه -وهو وحيُه- خَلْقٌ من الأكوانِ، ويقولُ أيضًا عن القرآنِ المشتَمِلِ على الأمرِ والنَّهي يقولُ: إنَّه مخلوقٌ كما أنَّ الأرضَ مخلوقةٌ والسَّماءَ مخلوقةٌ، إِذَنْ بطل الوحيُ؛ لأنَّ الوحيَ صار من جملةِ المخلوقاتِ.

إذا قالوا أيضًا: ليس اللهُ فوقَ عرشِه بل العرشُ خالٍ منه، أين يكونُ؟ ليس فوقَ العالمِ ولا تحته، ولا يمينَه ولا يسارَه، ولا متَّصلًا ولا مُنفصِلًا، أين يكونُ؟ يكونُ عَدَمًا، أو يكونُ بذاتِه في كُلِّ مكانٍ، أيضًا لا يصحُّ أن يكون ربًّا ولا واحدًا.

٣٨٨٧- وَقَدِ اسْتَرَاحَ مُعَطِّلٌ هَذِي الثَّلا ... ثَ مِنَ الإِلَهِ وَجُمْلَةِ القُرْآنِ

استراح من الله؛ لأنَّه نَفَى وجودَه بالكُلِّيَّةِ.

٣٨٨٨- وَمِنَ الرَّسُولِ وَدِينِهِ وَشَرِيعَةِ الـ ... إِسْلامِ بَلْ مِنْ جُمْلَةِ الأَدْيَانِ

نعوذُ بالله، إِذَنْ التَّعطيلُ يؤدِّي إلى هذا الأمرِ، لكنَّه يحتاجُ إلى نظرةٍ فاحصةٍ متأمِّلةٍ؛ يعني: قد يقولُ قائلٌ: هذا ابنُ القيِّمِ خصمٌ، والخصمُ لا يُقْبَلُ كلامُه على خصمِه، فكيف ذلك؟ نقولُ: إذا قالوا: «**إنَّ اللهَ لا يستطيعُ أن يفعلَ أبدًا**» فهذا معناه التَّعطيلُ، معناه أنَّ اللهَ صار إمَّا أشلَّ -والعياذُ بالله- وإمَّا حجرًا كالتَّماثيلِ التي تُعْبَدُ من دون الله.

إذا قال: «**إنَّ اللهَ ليس له أمرٌ وإنَّ الأمرَ هو الخلقُ**» هذا أيضًا معناه أنَّ اللهَ لا يأمرُ ولا يَنْهَى، يخلقُ كلماتٍ ولا تُنْسَبُ إليه قولًا ولا كلامًا، مع أنَّ اللهَ يقولُ في كتابِه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، فَفَرَّقَ بين الخلقِ والأمرِ.

كذلك أيضًا إذا قال: إنَّ اللهَ ليس فوقَ عبادِه، نقولُ: أين هو؟ إن قال: بذاتِه في كُلِّ مكانٍ، نقولُ: لم تُنَزِّه اللهَ عن أخسِّ الأماكنِ، وإن قال: ليس في شيءٍ، قلنا: هذا هو العَدَمُ المحضُ.

فابنُ القيِّمِ -رحمه الله تعالى- يقولُ: إنَّه إذا وَصَفَ اللهَ بهذه الصِّفاتِ استراح من الله، واستراح من الرَّسولِ، واستراح من القرآنِ، واستراح من الشَّريعةِ كُلِّها، واستراح من الأديانِ كُلِّها، وصار زنديقًا ملحدًا.

٣٨٨٩- وَتَمَامُ ذَاكَ جُحُودُهُ لِصِفَاتِهِ ... وَالذَّاتِ دُونَ الوَصْفِ ذُو بُطْلانِ

قَوْلُهُ: «**وَتَمَامُ ذَاكَ جُحُودُهُ لِصِفَاتِهِ**» يتكلَّمُ عن المعتزلةِ، المعتزلةُ يُثْبِتُون الذَّاتَ،

وينكرون الصِّفاتِ، فبالله عليكم هل يُمكن أن توجدَ ذاتٌ بلا صفاتٍ؟ الجوابُ: لا يُوجَدُ، فلا بُدَّ لكُلِّ ذاتٍ من صفةٍ، على أدنى تقديرٍ أن نقولَ: «**صفةُ الوجودِ**» لا بُدَّ أن تكونَ، فما دامت ذاتٌ ثابتةٌ ففيها صفةٌ ولو صفة الوجودِ، مع أنَّه لا بُدَّ أن تكونَ ذاتَ طولٍ وعرضٍ وثقلٍ وحجمٍ، وما أشبه ذلك، فلا يمكنُ أن تُعْقَلَ ذاتٌ بلا وصفٍ؟!

والعجيبُ أنَّ هؤلاءِ الذين يدَّعون أنَّهم عُقَلاءُ يقولون: إنَّ اللهَ موجودٌ لكن بلا وصفٍ، فهل هذا معقولٌ؟ الجوابُ: غيرُ معقولٍ، وأوَّلُ ما يَرِدُ عليهم أنَّهم وَصَفُوا اللهَ بالوصفِ «**الوجود**»، فإن قالوا: لا نَصِفُه بالوجودِ، قلنا: إِذَنْ قد وصفتموه بالعَدَمِ.

والحقيقةُ أنَّ الإنسانَ كُلَّما تأمَّلَ أقوالَهم عَلِمَ أنَّها باطلةٌ عقلًا كما هي باطلةٌ شرعًا، وأنَّ الإنسانَ يخشى على قلبِه، وأنَّه يجبُ أن يسألَ اللهَ دائمًا الثَّباتَ؛ لأنَّه أضَلَّ قومًا أذكياءَ كبارَ العقولِ التي ليست عقولَ الرُّشدِ، بل عقول الإدراكِ، فليسأل اللهَ الثَّباتَ، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران:٨].

قَوْلُهُ: «وَالذَّاتُ دُونَ الوَصْفِ ذُو بُطْلَانِ» هذه جملةٌ مُستَأنفةٌ لبيانِ الرَّدِّ عليهم، وليست معطوفةً على ما سبق، يعني: أنَّ القولَ بوجودِ ذاتٍ دون وصفٍ باطلٌ.

٣٨٩٠- وَتَمَامُ ذَا الإِيمَانُ إِقْرَارُ الفَتَى ... بِاللهِ فَاطِرِ هَذِهِ الأَكْوَانِ

هذا أيضًا من تمامِه، «**وَتَمَامُ ذَا الإِيمَانُ**» برفع «**الإِيمَانِ**»؛ أي: «**وَتَمَامُ ذَا**» -أي: التَّعطيلِ- الإيمانُ إقرارُ الفتى بالله؛ يعني: أنَّ الإيمانَ إقرارُ الفتى بالله فاطرِ هذه الأكوانِ.

٣٨٩١- فَـإِذَا أَقَـرَّ بِـهِ وَعَطَّـلَ كُـلَّ مَفْـ ـرُوضٍ وَلَـمْ يَتَـوَقَّ مِـنْ عِصْيَانِ

٣٨٩٢- لَـمْ يَـنْقُصِ الإِيـمَانُ حَبَّـةَ خَـرْدَلٍ أَنَّـى وَلَـيْسَ بِقَابِـلِ النُّقْصَـانِ

هذا مذهبُ مُرجئةِ الجهميَّةِ، الذين يقولون: الإيمانُ هو مجرَّدُ الإقرارِ بالله، فإذا أَقْرَرْتَ بالله فاترُك جميعَ الواجباتِ وافعَل جميعَ المحرَّماتِ من كبائرَ وصَغائرَ وأنت مؤمنٌ كاملُ الإيمانِ، فإيمانُك كإيمانِ جبريلَ ومحمَّدٍ، فيقولون: إنَّ أقومَ النَّاسِ بدِينِ الله وأقواهم طاعةً له مِثْلُ مَنْ لا يقومُ بالطَّاعةِ، فرجلٌ يقومُ آناءَ اللَّيلِ والنَّهارِ ويتجنَّبُ المعاصيَ، وآخرُ بالعكس يقومُ بالمعاصي آناءَ اللَّيلِ والنَّهارِ ويتجنَّبُ الطَّاعاتِ، ولكنَّهما مُقِرَّان بأنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- موجودٌ، يقولون: إنَّ إيمانَهما سواءٌ، فإيمانُ أفسقِ النَّاسِ كإيمانِ أعدلِ النَّاسِ.

وهذا -لا شكَّ- أنَّه يُبطِلُه العقلُ كما يُبطِلُه النَّقلُ، أعوذُ بالله، هل هذا لائقٌ؟! هل يمكنُ أن يقولَه عاقلٌ؟! هل يمكنُ لشخص يؤمنُ بالله عزَّ وجلَّ، ثُمَّ هو يفعلُ كُلَّ ما نُهِيَ عنه ويتركُ كُلَّ ما أُمِرَ به؟! لا يمكنُ، لكن هم يَرَوْنَ ويقولون أيضًا: إنَّ الإيمانَ لا يمكنُ أن ينقصَ؛ لأنَّ الإيمانَ هو الاعترافُ، والاعترافُ لا يختلفُ، فإذا أَقَرَّ بالله وعَطَّلَ جميعَ المفروضاتِ من صلاةٍ وزكاةٍ وصيامٍ وحجٍّ وغيرِ ذلك فهو ليس بناقصِ الإيمانِ، بل هو كاملُ الإيمانِ.

* * *

٣٨٩٣- وَتَمَـامُ هَـذَا قَوْلُـهُ إِنَّ النُّبُـوْ ـوَةَ لَـيْسَ وَصْـفًا قَـامَ بِالإِنْسَـانِ

٣٨٩٤- لَكِـنْ تَعَلُّـقُ ذَلِـكَ المَعْنَـى القَدِيـ ـمِ بِوَاحِـدٍ مِـنْ جُمْلَـةِ الإِنْسَـانِ

٣٨٩٥- هَـذَا وَمَـا ذَاكَ التَّعَلُّـقُ ثَابِتًـا فِي خَـارِجٍ بَـلْ ذَاكَ فِي الأَذْهَـانِ

٣٨٩٦- فَتَعَلُّقُ الأَقْوَالِ لا يُعْطِي الَّذِي ... وَقَفَتْ عَلَيْهِ الكَوْنُ فِي الأَعْيَانِ

٣٨٩٧- هَذَا إِذَا مَا حُصِّلَ المَعْنَى الَّذِي ... قُلْتُمْ هُوَ النَّفْسِيُّ فِي البُرْهَانِ

٣٨٩٨- لَكِنَّ جُمْهُورَ الطَّوَائِفِ لَمْ يَرَوْا ... ذَا مُمْكِنًا بَلْ ذَاكَ ذُو بُطْلانِ

٣٨٩٩- مَا قَالَ هَذَا غَيْرُكُمْ مِنْ سَائِرِ النْـ ... ـنُظَّارِ فِي الآفَاقِ وَالأَزْمَانِ

٣٩٠٠- تِسْعُونَ وَجْهًا بَيَّنَتْ بُطْلَانَهُ ... لَوْلَا القَرِيضُ لَسُقْتُهَا بِوِزَانِ

الشرحُ

٣٨٩٣- وَتَمَامُ هَذَا قَوْلُهُ إِنَّ النُّبُوْ ... ـوَةَ لَيْسَ وَصْفًا قَامَ بِالإِنْسَانِ

٣٨٩٤- لَكِنْ تَعَلُّقُ ذَلِكَ المَعْنَى القَدِيـ ... ـمِ بِوَاحِدٍ مِنْ جُمْلَةِ الإِنْسَانِ

٣٨٩٥- هَذَا وَمَا ذَاكَ التَّعَلُّقُ ثَابِتًا ... فِي خَارِجٍ بَلْ ذَاكَ فِي الأَذْهَانِ

وأيضًا من أقوالِهم السَّيِّئةِ الباطلةِ قولُهم: إنَّ النُّبوَّةَ ليست وصفًا قائمًا بالإنسانِ، وإنَّما هي تَعلُّقُ المعنى القديمِ بواحدٍ من النَّاسِ، والمعنى القديمُ هو كلامُ الله؛ يعني: أنَّ النَّبيَّ مَنْ تَعَلَّقَ به كلامُ الله الذي هو المعنى القديمُ، وهم لا يُثْبِتُونَ أنَّ كلامَ الله بحروفٍ ينزلُ بها جبريلُ على هذا النَّبيِّ ويكونُ نبيًّا، لا، يقولون: إنَّ الرَّسولَ هو الذي تَعَلَّقَ به المعنى النفسيُّ، ومع ذلك يقولون: هذا التَّعلُّقُ ليس ثابتًا في الخارجِ، بل هو في الذِّهنِ فقط، وليس موجودًا حقيقةً في الخارجِ، إنَّما هو شيءٌ يفرضُه الذِّهنُ.

فهم يقولون: النُّبوَّةُ أيضًا ليس وصفًا قامَ بالإنسانِ، لكنَّها أمرٌ خارجٌ، وهذا

أيضًا غيرُ معقولٍ، فهم يقولون مثلًا: الطُّولُ والقصرُ، والحمرةُ والسُّمرةُ، وما أشبه ذلك، هذه من أوصافِ الإنسانِ، أمَّا النُّبوَّة فلا.

فَيُقَالُ: بل هي من أَوصافِ الإنسانِ، مَنَّ اللهُ بها عليهم كالخُلُقِ الحسنِ، فهو مكتسبٌ وهو غريزيٌّ، ومع ذلك نقولُ: من صفتِهِ أنَّه حسَنُ الخلقِ كما قال اللهُ عن نبيِّه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

٣٨٩٦- فَتَعَلُّقُ الأَقْوَالِ لا يُعْطِي الَّذِي وَقَفَتْ عَلَيْهِ الكَوْنُ فِي الأَعْيَانِ

يعني: أنَّ المعنى القَائِمَ بالنَّفسِ -وهو كلامُ الله على زَعمِهم- لا يكونُ مُتَعلِّقًا تعلُّقًا خارجيًّا بِمَنْ صار نبيًّا بل هو تعلّقٌ ذهنِيٌّ فقط.

وأنا لا أتصوَّرُ هذا القولَ في الحقيقةِ؛ لأنَّه لا يمكنُ أن يكونَ نبيًّا إلَّا بوحيٍ ينزلُ عليه؛ ولهذا رَدَّهُ المؤلِّفُ فقال:

٣٨٩٧- هَذَا إِذَا مَا حُصِّلَ المَعْنَى الَّذِي قُلْتُمْ هُوَ النَّفْسِيُّ فِي البُرْهَانِ

يقولون: إنَّ الكلامَ هو المعنى القَائِمُ بالنَّفسِ، وليس الشَّيءَ الذي يُسْمَعُ، فهو ليس بصوتٍ وليس بحرفٍ.

٣٨٩٨- لَكِنَّ جُمْهُورَ الطَّوَائِفِ لَمْ يَرَوْا ذَا مُمْكِنًا بَلْ ذَاكَ ذُو بُطْلانِ

يقولُ المؤلِّفُ: كيف يُقَالُ: إنَّه كلامٌ وهو معنى قَائِمٌ بالنَّفسِ؟! وكيف يُقَالُ: إنَّه وحيٌ إلى رسولٍ وهو معنى قَائِمٌ بالنَّفسِ؟! هذا شيءٌ لا يمكنُ، لكنَّهم يقولون: هذا شيءٌ يفرضُه الذِّهنُ وليس موجودًا في الأعيانِ، إِذَنْ ما الفائدةُ إذا كان مفروضًا فرضًا ذهنيًّا لا وجودَ له في الخارجِ، فأين الفائدةُ؟!

٣٨٩٩- مَا قَالَ هَذَا غَيْرُكُمْ مِنْ سَائِرِ النْـ ـنُظَّارِ فِي الآفَاقِ وَالأَزْمَانِ

يُخَاطِبُ الأشاعرةَ في هذا الكلام؛ لأنَّ الأشاعرةَ يقولون: إنَّ الكلامَ هو المعنى القَائِمُ بالنَّفسِ، أمَّا ما يُسْمَعُ ويُكْتَبُ ويُقْرَأُ فهو من جملةِ الأكوانِ؛ أي: مخلوقٌ.

٣٩٠٠- تِسْعُونَ وَجْهًا بَيَّنَتْ بُطْلَانَهُ لَوْلَا القَرِيضُ لَسُقْتُهَا بِوِزَانِ

قَوْلُهُ: «تِسْعُونَ وَجْهًا بَيَّنَتْ بُطْلَانَهُ»، وقد أَشَارَ إلى هذا فيما سَبَقَ في النُّونيَّةِ نفسِها، وقال: إنَّ شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميَّةَ أَلَّفَ كتابَه: «التِّسعينيَّة» في بيانِ بطلانِ الكلامِ النَّفسيِّ من تسعين وجهًا.

* * *

٣٩٠١- يَا قَوْمُ أَيْنَ الرَّبُّ أَيْنَ كَلامُهُ أَيْنَ الرَّسُولُ فَأَوْضِحُوا بِبَيَانِ

٣٩٠٢- مَا فَوْقَ عَرْشِ الرَّبِّ مَنْ هُوَ قَائِلٌ ﴿طه﴾ وَلا حَرْفًا مِنَ القُرْآنِ

٣٩٠٣- وَلَقَدْ شَهِدْتُمْ أَنَّ هَذَا قَوْلُكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ مَعْ أُولِي الإِيمَانِ

٣٩٠٤- وَارَحْمَتَاهُ لَكُمْ غَبَنْتُمْ حَظَّكُمْ مِنْ كُلِّ مَعْرِفَةٍ وَمِنْ إِيمَانِ

٣٩٠٥- وَنَسَبْتُمُ لِلكُفْرِ أَوْلَى مِنْكُمُ بِاللهِ وَالإِيمَانِ وَالقُرْآنِ

٣٩٠٦- هَذِي بِضَاعَتُكُمْ فَمَنْ يَسْتَامُهَا فَقَدِ ارْتَضَى بِالجَهْلِ وَالخُسْرَانِ

الشرحُ

٣٩٠١- يَا قَوْمُ أَيْنَ الرَّبُّ أَيْنَ كَلامُهُ أَيْنَ الرَّسُولُ فَأَوْضِحُوا بِبَيَانِ

يقولُ المؤلِّفُ -رحمه الله-: إذا قُلتم بالمعنى النَّفسيِّ، فأين اللهُ؟ أين كلامُه؟

أين الرَّسولُ؟ لأنَّ هذا الوحيَ معنى قَائِمٌ بالنَّفسِ، فكيف يُنْقَلُ إلى الرَّسولِ؟! إِذَنْ لا رسولَ في الحقيقةِ، كذلك أيضًا يقولُ -رحمه الله-: أين الرَّبُّ؟ لأنَّهم يُنكرون علوَّ الذَّاتِ، فيقول: أين يكونُ اللهُ إذا أنكَرتم أنَّه عالٍ؟ أين كلامُه؟! لأنَّهم يقولون: إنَّ الكلامَ هو المعنى القَائِمُ بالنَّفسِ لا يُسْمَعُ ولا يُكْتَبُ، وإنَّما المكتوبُ والمسموعُ عبارةٌ عنه.

٣٩٠٢- مَا فَوْقَ عَرْشِ الرَّبِّ مَنْ هُوَ قَائِلٌ ﴿طه﴾ وَلا حَرْفًا مِنَ القُرْآنِ

لأنَّهم ينكرون العلوَّ، يُنكرون أن يكونَ اللهُ تكَلَّمَ بالقُرآنِ الذي نقرؤه، ويقولون: هذا عبارةٌ عن كلامِ اللهِ.

٣٩٠٣- وَلَقَدْ شَهِدْتُمْ أَنَّ هَذَا قَوْلُكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ مَعْ أُولِي الإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «شهدتم أَنَّ هَذَا قَوْلُكُمْ»؛ يعني: اعترفتم بأنَّ هذا قولُكم، واعترافُ الإنسانِ على نفسِه يُسَمَّى شهادةً، قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النِّساء:١٣٥].

٣٩٠٤- وَارَحْمَتَاهُ لَكُمْ غَبَنْتُمْ حَظَّكُمْ مِنْ كُلِّ مَعْرِفَةٍ وَمِنْ إِيمَانِ

قَوْلُهُ: «وَا رَحْمَتَاهُ لَكُمْ» ينبغي أن نعلمَ أنَّ لنا نَظَرَيْنِ في أهلِ البدعِ الذين زاغوا عن الصِّراطِ المستقيمِ، وهما:

النَّظرُ الأوَّلُ: نظرٌ بعينِ القَدَرِ، ففي هذه الحالِ نرحمُهم ونَرِقُّ لهم، كما نرحمُ ونَرِقُّ للمريضِ مرضًا جسمانيًّا؛ لأنَّ هؤلاء حُرِمُوا الخيرَ وحُرِمُوا الطُّهرَ فَنَرِقُّ لهم.

النَّظرُ الثَّاني: نظرُ الشَّرعِ، وفي هذه الحالِ يجبُ أن نُجْرِيَ عليهم ما يقتضيه الشَّرعُ؛ ولهذا قال الشَّافعيُّ رحمه الله: «حُكْمي في أهلِ الكلامِ أن يُضْرَبُوا بالجريدِ

والنِّعالِ، ويُطَافَ بهم في الأسواقِ، ويُقَالَ: هذا جزاءُ مَنْ تَرَكَ الكتابَ والسُّنَّةَ وأقبلَ على علمِ الكلامِ»(١).

وكذلك في بقيَّةِ المعاصي ننظُر إلى الزَّاني بعَيْنَيْنِ: عينِ القدرِ، وعينِ الشَّرعِ، فبعينِ القَدَرِ نَرِقُّ له، نقولُ: هذا مِسكينٌ، ابْتُلِي بهذه المصيبةِ، ابْتُلِي بهذه المعصيةِ، فنرقُّ له ونرحمُه كما لو ابْتُلِيَ بمرضٍ جسميٍّ، والثَّاني: نظرٌ شرعيٌّ فنقيمُ عليه الحدَّ، ونكونُ كما أمرنا اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٢]، فقول المؤلِّف: «**وَا رَحْمَتَاهُ لَكُمْ**» نَدَبَ الرَّحمةَ أن تكونَ لهم، وهذا بالنَّظرِ إلى عينِ القدرِ.

قَوْلُهُ: «**غَبَنْتُمْ حَظَّكُمْ مِنْ كُلِّ مَعْرِفَةٍ وَمِنْ إِيمَانِ**»، صَدَقَ رحمه اللهُ؛ فَإِنَّ هذا القولَ الذي قالوه جهلٌ وبعيدٌ عن الإيمانِ؛ لأنَّ الإيمانَ أن نؤمنَ بأنَّ اللهَ فوقَ العرشِ وأنَّه يتكلَّمُ بكلامٍ مسموعٍ بحرفٍ وصوتٍ، وأنَّ هذا الكلامَ المسموعَ نَزَلَ به جبريلُ على قلبِ النَّبيِّ ﷺ، هذا هو إيمانُنا، كُلُّ هذا قد غُبِنُوه ولم يقولوا به.

٣٩٠٥- وَنَسَبْتُمُ لِلْكُفْرِ أَوْلَى مِنْكُمُ ... بِاللهِ وَالإِيمَانِ وَالقُرْآنِ

يعني: نَسَبْتُمُ للكفرِ مَنْ هو أولى منكم بالله وبالإيمانِ وبالقُرآنِ، لأنَّهم يُكَفِّرونَ مَنْ يقولُ: إنَّ اللهَ يتكلَّمُ بحرفٍ وصوتٍ.

٣٩٠٦- هَـذِي بِضَاعَتُكُمْ فَمَنْ يَسْتَامُهَا ... فَقَدِ ارْتَضَى بِالجَهْلِ وَالخُسْرَانِ

الذي يَسُومُ هذه البضاعةَ جاهلٌ خاسرٌ.

* * *

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص:١٧٩).

٣٩٠٧- وَتَمَـامُ هَـذَا قَـوْلُكُمْ فِي مَبْـدَأٍ ... وَمَعَادِنَـا أَعْنِـي الْمَعَـادَ الثَّـانِي

٣٩٠٨- وَتَمَـامُ هَـذَا قَـوْلُكُمْ بِفَنَـاءِ دَا ... رِ الْـخُلْدِ فَالـدَّارَانِ فَانِيَتَـانِ

٣٩٠٩- يَا قَوْمَنَا بَلَغَ الوُجُودَ بِأَسْرِهِ الدْ ... دُنْيَا مَعَ الأُخْرَى مَعَ الإِيمَانِ

٣٩١٠- وَالخَلْقُ وَالأَمْرُ الـمُنَزَّلُ وَالـجَزَا ... وَمَنَـازِلُ الـجَنَّاتِ وَالنِّـيرَانِ

٣٩١١- وَالنَّـاسُ قَـدْ وَرِثُوهُ بَعْـدُ فَمِنْهُمُ ... ذُو السَّهْمِ وَالسَّهْمَيْنِ وَالسَّهْمَانِ

٣٩١٢- بِئْسَ الـمُوَرِّثُ وَالـمُوَرَّثُ وَالتُّرَا ... ثُ ثَلَاثَـةٌ أَهْـلٌ لِكُـلِّ هَـوَانِ

الشـرحُ

٣٩٠٧- وَتَمَـامُ هَـذَا قَـوْلُكُمْ فِي مَبْـدَأٍ ... وَمَعَادِنَـا أَعْنِـي الْمَعَـادَ الثَّـانِي

٣٩٠٨- وَتَمَـامُ هَـذَا قَـوْلُكُمْ بِفَنَـاءِ دَا ... رِ الْـخُلْدِ فَالـدَّارَانِ فَانِيَتَـانِ

يعني: أنَّهم قالوا قولًا مُنْكَرًا في المبدأ والمَعَادِ، ففي المبدأ قالوا بمنعِ تسلسُلِ الحوادثِ في الماضي، فاللهُ تعالى كان فاعلًا بعد أن كان غيرَ فاعلٍ، وفي المَعَادِ قالوا بفَناءِ دار الخلدِ، فالدَّاران فانيتان؛ يعني بذلك: فَناءَ الجنَّةِ وفَناءَ النَّارِ، فإنَّ المعتزلةَ يقولون بفنائِها وأنَّ النَّار والجنَّة تفنيان، وقد سبق أنَّ بعضَهم وهو العَلَّاف قال: إنَّ الذي تَفْنَى هي الحركاتُ، وأمَّا الذَّواتُ فتبقى.

وأهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ يقولون: إنَّ النَّارَ والـجنَّةَ لا تفنيان، وكم من آيةٍ صَرَّحَ اللهُ تعالى فيها بالخلودِ الأبديِّ في الجنَّةِ وفي النَّارِ، ففي النَّارِ صَرَّحَ اللهُ تعالى في ثلاثةِ مواضعَ من كتابه بأنَّ أهلَها خالدون فيها أبدًا، في سورة «النِّساء» قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩]، وفي سورةِ «الأحزاب» قال -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥]، وفي سورة «الجنِّ» قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣]، وما بعد هذه الآياتِ الثَّلاث قولٌ لقائلٍ؛ لأَنَّه إذا تَأَبَّدَ خلودُ الخالدِ لَزِمَ خلودُ المكانِ الذي هو خالدٌ فيه، أمَّا الجنَّةُ فالآياتُ في التَّأبيدِ فيها كثيرةٌ.

ويظهر أنَّ له في المسألة قَوْلَيْنِ: قولًا يدلُّ على أنَّها تَفْنَى وليس يدلُّ دلالةً صريحةً، لكنَّه سَاقَ أدلَّةً كثيرةً ممَّا يدلُّ على أنَّه يَميلُ إلى القولِ بذلك، ولكن كُلٌّ يُؤْخَذُ من قولِه ويُتْرَكُ؛ لأَنَّه إذا وَرَدَ في القرآنِ صريحًا قولُه تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ لا نأخذُ بقولِ أحدٍ بعده.

ولقد رأيتُ كتابةً بقلمِ شيخِنا على كتاب: «**شفاء العليل**»؛ لابنِ القيِّم رحمه الله؛ لأَنَّه ذَكَرَ هذه المسألةَ وأطال فيها، قال فيها شيخُنا: «**إنَّ هذا غلطٌ محضٌ**» أو كلمةً نحوها، ثُمَّ استغرب أن يقعَ من ابنِ القيِّمِ مثلُ هذا، وقال: «**لكُلِّ جوادٍ كبوةٌ، ولكُلِّ صارمٍ نَبْوَةٌ**»، وصدق -رحمه الله- فكُلُّ المؤيِّداتِ التي ذَكَرَها لا يمكنُ أن تنقضَ آيةً واحدةً من القرآنِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥] يقولون: إنَّ اللهَ قال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٦-١٠٧]، وفي أهل الجنَّة قال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨]، فيُقَالُ: لا فَرْقَ، إنَّما قال: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾؛ لأَنَّها مِنَّةٌ ورحمةٌ وفضلٌ، فأراد عزَّ وجلَّ أن يُبيِّنَ فضلَه، وأمَّا قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾؛ فلأَنَّها عقوبةٌ

وانتقامٌ، فبَيَّنَ أنَّه -سبحانه وتعالى- له الحكمُ وأنَّه يفعلُ ما يريدُ، ولو أبقى هؤلاء في النَّارِ أبدَ الآبدين؛ لأنَّه يفعلُ ما يريدُ، هذا وجهُ الفرقِ بين الآيتَيْنِ.

وأمَّا قولُه: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ فهذا مذكورٌ في أهلِ الجنَّة وفي أهلِ النَّارِ، وهذا إمَّا أن يُقَالَ على سبيل المَثَلِ؛ لأنَّ النَّاسَ يقولون في كلامِهم: «**لا أَصْحَبُكَ ما دَامَت السَّماواتُ والأرضُ**»؛ يعني: أبدَ الآبِدين، أو يُقَالَ: «**مَا دَامَت السَّماواتُ والأرضُ إلَّا ما شاء ربُّك**»؛ أي: فوق ذلك، فوق دوامِ السَّماواتِ والأرضِ، وعلى كُلِّ حالٍ إذا تنزَّلنا مع هؤلاء قلنا: هذه الآيةُ من المتشابهِ فتُحْمَلُ على المُحْكَمِ الذي لا شكَّ فيه.

٣٩٠٩- يَا قَوْمَنَا بَلَغَ الوُجُودَ بِأَسْرِهِ الدْ ... دُنْيَا مَعَ الأُخْرَى مَعَ الإِيمَانِ

معناه: أنَّ صَنِيعَهم بَلَغَ الدُّنيا والآخرةَ، ففي قولِهم فسادُ الدُّنيا وفسادُ الآخرةِ.

٣٩١٠- وَالخَلْقُ وَالأَمْرُ المُنَزَّلُ وَالجَزَا ... وَمَنَازِلُ الجَنَّاتِ وَالنِّيرَانِ

كُلُّ هذا يُعْرَفُ مُفَصَّلًا من مَذاهبِ هؤلاء المعطِّلةِ حتَّى إنَّهم قالوا: إنَّ الموازينَ يوم القيامةِ ليست حِسِّيَّةً، والصِّراطَ ليس حِسِّيًّا، والحوضَ ليس حِسِّيًّا، أماَّ الفلاسفةُ الأوَّلون فمعلومٌ قولُهم في الجزاءِ وأنَّه ليس هناك جنَّةٌ ولا نارٌ، وإنَّما هي أمورٌ تخييليَّةٌ.

٣٩١١- وَالنَّاسُ قَدْ وَرِثُوهُ بَعْدُ فَمِنْهُمُ ... ذُو السَّهْمِ وَالسَّهْمَيْنِ وَالسَّهْمَانِ

قَوْلُهُ: «**وَالنَّاسُ قَدْ وَرِثُوهُ بَعْدُ**»؛ يعني: قد وَرِثُوا هذا التَّعطيلَ وهذا الضَّلالَ.

قَوْلُهُ: «فَمِنْهُمُ ذُو السَّهْمِ وَالسَّهْمَيْنِ وَالسُّهْمَانِ»؛ فواحدٌ أَخذَ سهمًا، والثَّاني أَخذَ سهمَيْن، والثَّالث أَخذَ سهامًا.

٣٩١٢- بِئْسَ الـمُوَرِّثُ وَالـمُوَرَّثُ وَالـتُّرَا ثُ ثَلاثَـةٌ أَهْـلٌ لِكُـلِّ هَـوَانِ

وصَدَقَ رحمه اللهُ، فَإِنَّ هؤلاء الذين وَرِثُوا الفلاسفةَ والمناطقةَ من أهل الكلامِ وغيرِهم يُقَالُ في إرثِهم وفيما ورثوه ما قاله ابنُ القيِّم -رحمه الله تعالى-: «بِئْسَ الـمُوَرِّثُ وَالـمُوَرَّثُ وَالتُّرَاثُ»، «الـمُوَرِّثُ»: الأوَّل، «الـمُوَرَّثُ»: الثَّاني، و«التُّرَاثُ»: الشَّيءُ الموروثُ، فمثلًا إذا مَاتَ إنسانٌ وخَلَّفَ مالًا وورثةً، الأوَّل: الميِّت وهو المُوَرِّث، والوارثُ «مُوَرَّث»، والمالُ «تراثٌ»، كُلُّ هذه الثَّلاثةِ أهلٌ لكُلِّ هَوَانٍ.

***

٣٩١٣- يَـا وَارِثِـينَ نَبِـيَّهُمْ بُشْـرَاكُمُ مَـا إِرْثُكُـمْ مَـعَ إِرْثِهِـمْ سِيَّانِ

٣٩١٤- شَـتَّانَ بَيْنَ الـوَارِثِينَ وَبَـيْنَ مَـوْ رُوثَـيْهِمَا وَسِـهَامِ ذِي سَـهْمَانِ

٣٩١٥- يَا قَوْمُ مَا صَـاحَ الأَئِمَّـةُ جُهْـدَهُمْ بِالـجَهْمِ مِـنْ أَقْطَارِهَـا بِـأَذَانِ

٣٩١٦- إِلَّا لِـمَا عَرَفُـوهُ مِـنْ أَقْوَالِـهِ وَمَآلِـهَا بِحَقِيقَـةِ العِرْفَـانِ

٣٩١٧- قَوْلُ الرَّسُولِ وَقَوْلُ جَهْمٍ عِنْـدَنَا فِي قَلْـبِ عَبْـدٍ لَـيْسَ يَجْتَمِعَـانِ

٣٩١٨- نَصَـحُوكُمُ وَاللهِ جُهْـدَ نَصِـيحَةٍ مَـا فِـيهِمُ وَاللهِ مِـنْ خَـوَّانِ

٣٩١٩- فَخُـذُوا بِهَـدْيِهِمُ فَـرَبِّي ضَـامِنٌ وَرَسُـولُهُ إِنْ تَفْعَلُـوا بِجِنَـانِ

٣٩٢٠- فَإِذَا أَبَيْتُمْ فَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتْـ ـتَبَعَ الـهُدَى وَانْقَـادَ لِلقُـرْآنِ

الشــرحُ

لـمَّا ذَكَرَ هؤلاء المعطِّلةَ من المتكلِّمين وغيرِهم أنَّهم وَرِثُوا الفلاسفةَ والمناطقةَ قال -رحمه الله-:

٣٩١٣- يَــا وَارِثِــينَ نَبِــيَّهُمْ بُشْــرَاكُمُ مَــا إِرْثُكُــمْ مَــعَ إِرْثِهِــمْ سِــيَّانِ

قَوْلُهُ: «بُشْرَاكُمُ»؛ يعني: البُشْرَى لكم.

والوارثون للرَّسولِ ﷺ هم الذين وَرِثُوه علمًا وعملًا ودعوةً، وليس الوارثون للرَّسولِ ﷺ هم الذين وَرِثُوا العلمَ فقط؛ لأنَّ العلمَ إذا لم يكن معه عملٌ ودعوةٌ فإنَّه قد يكونُ وبالًا على صاحبِه.

٣٩١٤- شَــتَّانَ بَــيْنَ الــوَارِثِينَ وَبَــيْنَ مَــوْ رُوثَــيْهِمَا وَسِــهَامِ ذِي سَــهْمَانِ

قَوْلُهُ: «شَتَّانَ» بمعنى: بَعُدَ.

يعني: بَعُدَ ما بين الوارثين لهؤلاء وهؤلاء وبين المُوَرِّثين أيضًا.

٣٩١٥- يَا قَوْمُ مَا صَاحَ الأَئِمَّـةُ جُهْـدَهُمْ بِالــجَهْمِ مِــنْ أَقْطَارِهَــا بِــأَذَانِ

٣٩١٦- إِلَّا لِـــمَا عَرَفُــوهُ مِــنْ أَقْوَالِــهِ وَمَآلِـــهَا بِحَقِيقَـــةِ العِرْفَــانِ

العلماءُ في أقطارِ الدُّنيا كُلِّها صَاحَتْ بالجهمِ وَشنَّعَتْ عليه وبَيَّنَتْ بطلانَ مذهبِه؛ لأنَّهم يعرفون ما لهذا المذهبِ من الآثارِ السَّيِّئةِ على الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ؛ فلذلك صاحوا به من كُلِّ مكانٍ.

٣٩١٧- قَوْلُ الرَّسُولِ وَقَوْلُ جَهْـمٍ عِنْـدَنَا فِي قَلْــبِ عَبْــدٍ لَــيْسَ يَجْتَمِعَــانِ

لماذا؟ لأنَّ قولَ الرَّسولِ ﷺ قولٌ حقٌّ، وقولَ جهمٍ قولٌ باطلٌ، فلا يجتمعُ

حقٌّ مع باطلٍ بحيث يكونُ كُلٌّ منهما صحيحًا مُعْتَقَدًا، بل قال اللهُ تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢].

٣٩١٨- نَصَحُوكُمُ وَالله جُهْدَ نَصِيحَةٍ مَا فِيهِمُ وَالله مِنْ خَوَّانِ

نَصَحَكُم أهلُ السُّنَّةِ نصيحةً بالغةً ما فيهم والله من خَوَّانٍ.

٣٩١٩- فَخُذُوا بِهَدْيِهِمُ فَرَبِّي ضَامِنٌ وَرَسُولُهُ إِنْ تَفْعَلُوا بِجِنَانِ

يعني: إذا أخَذتم بهَدْي أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ المَبْنِيِّ على قولِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بل على قولِ الله وقولِ رسولِه فإنَّ اللهَ ورسولَه قد ضَمِنَا لكم الجِنَانَ إن فعلتم ذلك؛ لأنَّكم على صراطٍ مستقيمٍ.

وصريحُ كلامِ المؤلِّف -رحمه الله- أنَّ المبتدعَ تَصِحُّ توبتُه؛ لأنَّه قال: «فَخُذُوا بِهَدْيِهِمُ فَرَبِّي ضَامِنٌ وَرَسُولُهُ إِنْ تَفْعَلُوا -ضَامِنٌ- بِجِنَانِ»؛ يعني: أن تدخلوا الجنَّةَ وهو يُخَاطِبُ الجهميَّةَ، فَدَلَّ ذلك على أنَّ ابنَ القيِّم -رحمه الله- يرى أنَّ المبتدعَ له توبةٌ، ولا شكَّ أنَّ هذا هو الصَّوابُ، ومَنْ يحولُ بينَ الإنسانِ وبين توبتِه إلى ربِّه؟! أليس اللهُ -سبحانه وتعالى- يقولُ: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمر:٥٣]، بلى، والله يقولُ هكذا، فمَنْ يحولُ بين الإنسانِ وبين التَّوبةِ؟! أو ليس أئمَّةُ الكفرِ ودعاةُ الضَّلالِ الذين يسبُّون اللهَ ورسولَه ودينَ الإسلامِ آمنوا فقُبِلَ إيمانُهم، وتابوا إلى الله فَقَبِلَ اللهُ توبتَهم، لكن على المبتدعِ أن يُبيِّنَ ضلالَه السَّابقَ لا سيَّما إذا انتشر بين النَّاسِ، عليه أن يُبيِّنَ أنَّه على ضلالةٍ فيما سَبَق، وأنَّ السُّنَّةَ والصَّوابَ خلافُ ما قاله أوَّلًا، وقد فَعَلَ ذلك الأئمَّةُ -رحمهم اللهُ- الذين كانوا على البدعةِ في أوَّل الأمرِ كأبي الحسن الأشعريِّ، فإنَّ أبا الحسن الأشعريَّ -رحمه الله- كان على مذهبِ

المعتزلةِ أربعين سنةً وهو يُدافعُ عن المذهبِ ويُؤيِّدُه، فَمَنَّ اللهُ عليه واهتدى؛ يعني: بقولٍ وسطٍ، فَصَاحَ بعد صلاةِ الجمعةِ مُعْلِنًا بطلانَ مذهبِ المعتزلةِ، وقام يَرُدُّ عليهم، ثُمَّ اهتدى في النِّهاية حتَّى صار على مذهبِ إمامِ أهلِ السُّنَّةِ أحمدَ ابنِ حنبلٍ -رحمه الله-، ومثلُ هذا الرَّجلِ هل يمكنُ أن نقولَ: لا تُقْبَلُ توبتُه؟ لا يمكنُ، خصوصًا وأنَّه أعلن بطلانَ ما كان عليه في المذهبِ الأوَّلِ.

٣٩٢٠- فَإِذَا أَبَيْتُمْ فَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتْـ ـتَبَعَ الهُدَى وَانْقَادَ لِلقُرْآنِ

يعني: فأنتم ضُلَّالٌ، والسَّلامُ على مَن اتَّبَعَ الهدى وانقادَ للقُرآنِ.

* * *

٣٩٢١- سِيرُوا عَلَى نُجُبِ العَزَائِمِ وَاجْعَلُوا بِظُهُورِهَا المَسْرَى إِلَى الرَّحْمَنِ

٣٩٢٢- سَبَقَ المُفَرِّدُ وَهْوَ ذَاكِرُ رَبِّهِ فِي كُلِّ حَالٍ لَيْسَ ذَا نِسْيَانِ

٣٩٢٣- لَكِنْ أَخُو الغَفَلاتِ مُنْقَطِعٌ بِهِ بَيْنَ المَفَاوِزِ تَحْتَ ذِي الغِيلَانِ

٣٩٢٤- صَيْدُ السِّبَاعِ وَكُلِّ وَحْشٍ كَاسِرٍ بِئْسَ المُضِيفُ لأَعْجَزِ الضِّيفَانِ

٣٩٢٥- وَكَذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَصْطَادُ الَّذِي لا يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ كُلَّ أَوَانِ

٣٩٢٦- وَالذِّكْرُ أَنْوَاعٌ فَأَعْلَى نَوْعِهِ ذِكْرُ الصِّفَاتِ لِرَبِّنَا المَنَّانِ

٣٩٢٧- وَثُبُوتُهَا أَصْلٌ لِهَذَا الذِّكْرِ وَالنْـ ـنَافِي لَهَا دَاعٍ إِلَى النِّسْيَانِ

٣٩٢٨- فَلِذَاكَ كَانَ خَلِيفَةَ الشَّيْطَانِ ذَا لا مَرْحَبًا بِخَلِيفَةِ الشَّيْطَانِ

٣٩٢٩- وَالذَّاكِرُونَ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ فَأَعْـ ـلاهُمْ أُولُو الإِيمَانِ وَالعِرْفَانِ

٣٩٢٠- بِصِفَاتِهِ العُلْيَا إِذَا قَامُوا بِحَمْـ ـدِ اللهِ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلَانِ

الشرحُ

يقول المؤلِّفُ -رحمه الله تعالى- في بيانِ أهلِ الذِّكرِ وأهلِ الغفلةِ، يقولُ:

٣٩٢١- سِيرُوا عَلَى نُجُبِ العَزَائِمِ وَاجْعَلُوا بِظُهُورِهَا المَسْرَى إِلَى الرَّحْمَنِ

الخطابُ لأهلِ السُّنَّةِ؛ يعني: لا يهمُّكم هؤلاء، بل «سِيرُوا عَلَى نُجُبِ العَزَائِمِ»، و«نُجُب» جمع نَجِيبَة، وهي النَّاقةُ المختارة التي تفوقُ غيرَها.

٣٩٢٢- سَبَقَ المُفَرِّدُ وَهْوَ ذَاكِرُ رَبِّهِ فِي كُلِّ حَالٍ لَيْسَ ذَا نِسْيَانِ

قَوْلُهُ: «سَبَقَ المُفَرِّدُ وَهْوَ ذَاكِرُ رَبِّهِ»؛ وذلك كما قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «سَبَقَ المُفَرِّدُونَ»، قالوا: وَمَا المُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قال: «الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ»(١).

قَوْلُهُ: «فِي كُلِّ حَالٍ» أَخَذَه المؤلِّفُ من قولِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ»(٢)، وفي القرآنِ الكريمِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:١٩١].

٣٩٢٣- لَكِنْ أَخُو الغَفَلاتِ مُنْقَطِعٌ بِهِ بَيْنَ المَفَاوِزِ تَحْتَ ذِي الغِيلَانِ

قَوْلُهُ: «الغَفَلَاتِ»؛ يعني: عن ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

وكُلَّما غفل الإنسانُ عن ذكرِ ربِّه انقطعت به السَّبيلُ، وكُلَّما عَمَرَ قلبُه بذكرِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٦).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب هل يتتبع المؤذن فاه ها هنا وها هنا وهل يلتفت في الأذان، ومسلم: كتاب الحيض، باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها، رقم (٣٧٣).

ربِّه وَصَلَ إلى الغايةِ، فالذِّكرُ بمنزلةِ النُّورِ يهتدي به الإنسانُ في ظلماتِ الطُّرقِ حتَّى يصلَ إلى غايته.

٣٩٢٤- صَيْدُ السِّبَاعِ وَكُلِّ وَحْشٍ كَاسِرٍ   بِئْسَ المُضِيفُ لأَعْجَزِ الضِّيفَانِ

قَوْلُهُ: «صَيْدُ السِّبَاعِ»؛ يعني: هم صيدُ السِّبَاعِ.

قَوْلُهُ: «وَكُلِّ وَحْشٍ كَاسِرٍ»؛ يعني: كُلَّ وحشٍ شديدِ الوحشيَّةِ.

قَوْلُهُ: «بِئْسَ المُضِيفُ لأَعْجَزِ الضِّيفَانِ»، وهذا كقولِ الله تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣].

٣٩٢٥- وَكَذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَصْطَادُ الَّذِي   لا يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ كُلَّ أَوَانِ

الشَّيطانُ يَصطادُ الغافلين عن ذِكرِ الله؛ ولهذا سُمِّي الخَنَّاس؛ قال اللهُ تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [النَّاس:٤]، قال العلماء: هو الذي يَخْنَسُ إذا ذُكِرَ اللهُ عزَّ وجلَّ.

ولهذا كان الغافلُ عن ذِكرِ الله يَتَّبعُ هواه ويضيعُ عليه أمرُه كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]؛ أي: ضياعًا لا بركةَ فيه، لكنَّ ذاكرَ الله عزَّ وجلَّ يُنْزِلُ اللهُ له البركةَ في قولِه وفعلِه وسعيِه وجميعِ أحوالِه.

٣٩٢٦- وَالذِّكْرُ أَنْوَاعٌ فَأَعْلَى نَوْعِهِ   ذِكْرُ الصِّفَاتِ لِرَبِّنَا المَنَّانِ

الذِّكرُ أنواعٌ؛ يكونُ بالقلبِ، ويكونُ باللِّسانِ، ويكونُ بالجوارحِ، أمَّا بالقلبِ كأن يكونَ قلبُ الإنسانِ دائمًا متعلِّقًا بربِّه، يذكرُ اللهَ عزَّ وجلَّ كُلَّما شَاهَدَ آيةً من آياتِ الله.

وَفِي كُـــلِّ شَيْءٍ لَـــهُ آيَـــةٌ تَـــدُلُّ عَـــلَى أَنَّـــهُ وَاحِـــدُ[(١)]

فهو كُلَّما نَظَرَ في الكونِ ذَكَرَ اللهَ عزَّ وجلَّ.

والذِّكرُ باللِّسانِ هو قولُ: لا إلهَ إلَّا الله، وسبحان الله، والحمدُ لله، وما أشبَهَ ذلك، ونَصِفُه بصفةِ العمومِ فنقول: كُلُّ قولٍ يُقَرِّبُ إلى الله فهو من ذكرِ الله، فيشملُ قراءةَ القرآنِ، والأمرَ بالمعروفِ، والنَّهيَ عن المنكرِ، ودراسةَ العلمِ، وغيرَ ذلك.

وأمَّا الذِّكرُ بالجوارحِ فهو التَّعبُّدُ لله تعالى بالجوارحِ، فالصَّلاةُ مثلًا تجمعُ أنواعَ الذِّكرِ؛ لأنَّها ذكرٌ بالقلبِ؛ إذ أنَّ الإنسانَ حين صلاته متعلِّقٌ قلبُه بربِّه عزَّ وجلَّ، وهي ذكرٌ باللِّسانِ؛ لأنَّها تشتملُ على تكبيرٍ وقرآنٍ وتسبيحٍ ودعاءٍ، وهي ذكرٌ أيضًا بالجوارحِ؛ لأنَّ فيها قيامًا وقعودًا وركوعًا وسجودًا، فهي في الحقيقةِ روضةٌ من رياضِ الذِّكرِ لا نظيرَ لها في العباداتِ، ولهذا كانت أفضلَ العباداتِ بعد الشَّهادتين.

٣٩٢٧- وَثُبُوتُهَا أَصْلٌ لِـهَذَا الـذِّكْرِ وَالنْـــ ـــنَافِي لَـــهَا دَاعٍ إِلَى النِّسْـــيَانِ

قَوْلُهُ: «وَثُبُوتُهَا أَصْلٌ لِـهَذَا الذِّكْرِ»؛ يعني: ثبوتُ صفاتِ الله عزَّ وجلَّ أصلُ لهذا الذِّكرِ؛ لأنَّه لا يمكنُ أن يذكرَ الإنسانُ ربَّه بصفاتِه إلَّا بعد إثباتِها؛ إذ كيف يذكرُه بصفاتٍ لا يُثْبِتُها؛ ولهذا نجدُ المعطِّلةَ محرومين غايةَ الحرمانِ من لذَّةِ الذِّكرِ؛ لأنَّهم لا يعتقدون لله وجهًا ولا يدًا ولا رحمةً ولا فَرَحًا ولا ضَحِكًا ولا عَجَبًا، فهم -والعياذُ بالله- محرومون من لذَّةِ الذِّكرِ؛ إذ أنَّهم في الحقيقةِ كما قال ابنُ القيِّم في مقدِّمة النُّونيَّة: «**المُعَطِّلُ يعبدُ عَدَمًا والمُمَثِّلُ يعبدُ صَنَمًا**»، وصَدَقَ رحمه اللهُ.

(١) البيت عزاه في معارج القبول (١/ ١١١) لأبي العتاهية.

قَوْلُهُ: «وَالنَّافِي لَـهَا دَاعٍ إِلَى النِّسْيَانِ»: الذي ينفيها يدعو النَّاسَ إلى نسيانِ ذكرِ الله، وحينئذٍ يضيعُ أمرُه في الدُّنيا والآخرةِ؛ لأنَّهم إذا لم يُثبتوا الصِّفاتِ لم يذكروا الله.

٣٩٢٨- فَلِـذَاكَ كَـانَ خَلِيفَـةَ الشَّـيْطَانِ ذَا   لا مَرْحَبًـا بِخَلِيفَـةِ الشَّـيْطَانِ

قَوْلُهُ: «فَلِذَاكَ كَانَ خَلِيفَةَ الشَّيْطَانِ ذَا»؛ أي: هذا الذي يَنْفِي الصِّفاتِ كان خليفةً للشَّيطانِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ يصدُّ النَّاسَ عن ذكرِ الله، وهذا يصدُّ النَّاسَ عن إثباتِ الصِّفاتِ، وبالتَّالي عن ذكرِ الله عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «لَا مَرْحَبًا بِخَلِيفَةِ الشَّيْطَانِ» ولا بالشَّيطانِ، لا مرحبًا بالخليفةِ ولا بالمخلوفِ.

٣٩٢٩- وَالـذَّاكِرُونَ عَـلَى مَـرَاتِبِهِمْ فَأَعْـ   ـلاهُمْ أُولُـو الإِيـمَانِ وَالعِرْفَـانِ

بماذا؟ قال:

٣٩٣٠- بِصِـفَاتِهِ العُلْيَـا إِذَا قَـامُوا بِحَمْـ   ـدِ الله فِي سِرٍّ وَفِي إِعْـلانِ

قَوْلُهُ: «إِذَا قَامُوا بِحَمْدِ الله فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلَانِ»، وفي نسخةٍ: «إِذْ»، ونسخةُ «إِذَا» هي التي يَتِمُّ بها البيتُ.

الذَّاكرون على مراتبَ بحسَب ما قام في قلوبِهم من تعظيمِ الله عزَّ وجلَّ والتَّعلُّقِ به؛ فأعلاهم أولو الإيمانِ والعرفانِ بصفاتِه العُلْيَا؛ يعني: أعلاهم مَنْ آمَنَ بصفاتِ الله وعَرَفَ صفاتِ الله، فهؤلاء أعلى أهلِ الذِّكرِ منزلةً.

* * *

٣٩٣١- وَأَخَصُّ أَهْلَ الذِّكْرِ بِالرَّحْمَنِ أَعْـ ـلَمُهُمْ بِهَا هُمْ صَفْوَةُ الرَّحْمَنِ

٣٩٣٢- وَكَذَاكَ كَانَ مُحَمَّدٌ وَأَبُوهُ إِبْـ ـرَاهِيمُ وَالمَوْلُودُ مِنْ عِمْرَانِ

٣٩٣٣- وَكَذَاكَ نُوحٌ وَابْنُ مَرْيَمَ عِنْدَنَا هُمْ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ مِنْ إِنْسَانِ

٣٩٣٤- لِمَعَارِفٍ حَصَلَتْ لَهُمْ بِصِفَاتِهِ لَمْ يُؤْتَهَا أَحَدٌ مِنَ الإِنْسَانِ

٣٩٣٥- وَهُمُ أُولُو العَزْمِ الَّذِينَ بِسُورَةِ الـ أَحْزَابِ وَالشُّورَى أَتَوْا بِبَيَانِ

٣٩٣٦- وَكَذَلِكَ القُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنَ الـ أَوْصَافِ وَهْيَ القَصْدُ بِالقُرْآنِ

٣٩٣٧- لِيَصِيرَ مَعْرُوفًا لَنَا بِصِفَاتِهِ وَيَصِيرَ مَذْكُورًا لَنَا بِجِنَانِ

٣٩٣٨- وَلِسَانٍ ايْضًا مَعْ مَحَبَّتِنَا لَهُ فَلأَجْلِ ذَا الإِثْبَاتُ فِي الإِيمَانِ

٣٩٣٩- مِثْلُ الأَسَاسِ مِنَ البِنَاءِ فَمَنْ يَرُمْ هَدْمَ الأَسَاسِ فَكَيْفَ بِالبُنْيَانِ

٣٩٤٠- وَاللهِ مَا قَامَ البِنَاءُ لِدِينِ رُسْـ ـلِ اللهِ بِالتَّعْطِيلِ لِلدَّيَّانِ

٣٩٤١- مَا قَامَ إِلَّا بِالصِّفَاتِ مُفَصَّلًا إِثْبَاتُهَا تَفْصِيلَ ذِي عِرْفَانِ

٣٩٤٢- فَهِيَ الأَسَاسُ لِدِينِنَا وَلِكُلِّ دِيـ ـنٍ قَبْلَهُ مِنْ سَائِرِ الأَدْيَانِ

الشرحُ

٣٩٣١- وَأَخَصُّ أَهْلَ الذِّكْرِ بِالرَّحْمَنِ أَعْـ ـلَمُهُمْ بِهَا هُمْ صَفْوَةُ الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «أَخَصُّ»: مبتدأٌ، و«أَعْلَمُهُمْ»: خبرُ المبتدأ، أو بالعكس.

يعني: أَخَصُّ أهلِ الذِّكرِ بالله عزَّ وجلَّ أعلمُهم بصفاتِ الله.

٣٩٣٢- وَكَــذَاكَ كَــانَ مُحَمَّــدٌ وَأَبُــوهُ إِبْــ ـــرَاهِيمُ وَالمَوْلُــودُ مِــنْ عِمْــرَانِ

٣٩٣٣- وَكَذَاكَ نُـوحٌ وَابْـنُ مَـرْيَمَ عِنْـدَنَا هُـمْ خَـيْرُ خَلْـقِ اللهِ مِـنْ إِنْسَـانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ كَانَ مُحَمَّدٌ وَأَبُوهُ إِبْرَاهِيمُ» من أولي العزمِ: محمَّدٌ ﷺ، وأبوه إبراهيمُ، قال اللهُ تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج:٧٨]، وقال له إبراهيمُ لَـمَّا عُرِجَ به: «مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالابْنِ الصَّالِحِ»(١)، فأبوه إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

قَوْلُهُ: «والمَوْلُودُ مِنْ عِمْرَانِ» هو موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

يقولُ ابنُ القيِّم -رحمه الله-: إنَّ أولي العزمِ خمسةٌ من الرُّسلِ، وقد رَتَّبَهم على الأفضليَّة، فأفضلُهم محمَّدٌ، ثُمَّ إبراهيمُ، ثُمَّ موسى، ثُمَّ نوحٌ، ثُمَّ ابنُ مريمَ، وهم خيرُ خلقِ الله من إنسانٍ؛ لأنَّهم أفضلُ الرُّسلِ، والرُّسلُ أفضلُ الخلقِ، وإنَّما كان هؤلاء أولى العزمِ لما سيذكرُه.

٣٩٣٤- لِـمَعَارِفٍ حَصَلَتْ لَـهُمْ بِصِـفَاتِهِ لَــمْ يُؤْتَهَــا أَحَــدٌ مِــنَ الإِنْسَــانِ

ولا شكَّ أنَّ هؤلاء الرُّسلَ الخمسةَ نالهم أو أتاهم من العلمِ بالله وأسمائِه وصفاتِه ما لم يحصلْ لغيرِهم، ثُمَّ النَّبيُّون والرُّسلُ على طبقاتٍ كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة:٢٥٣]، ولقولِه: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥]، فالرُّسلُ قد فُضِّلَ بعضُهم على بعضٍ، والنَّبيُّون أيضًا قد فُضِّلَ بعضُهم على بعضٍ، وفضلُ الله يؤتيه مَنْ يشاءُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء، رقم (٣٤٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، رقم (١٦٣).

٣٩٣٥- وَهُمُ أُولُو العَزْمِ الَّذِينَ بِسُورَةِ الـ أَحْـزَابِ وَالشُّـورَى أَتَـوْا بِبَيَـانِ

قال اللهُ -تبارك وتعالى-: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب:٧] هذا في «الأحزابِ»، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشُّورى:١٣] هذا في سورة «الشُّورى».

٣٩٣٦- وَكَـذَلِكَ القُـرْآنُ مَمْلُـوءٌ مِـنَ الـ أَوْصَـافِ وَهْـيَ القَصْـدُ بِـالقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «**وَكَذَلِكَ القُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنَ الأَوْصَافِ**»؛ أي: من أوصافِ الله عزَّ وجلَّ، فلا تكادُ تجد آيةً إلَّا وفيها وصفٌ لله، بل إنَّنا نقولُ: كُلُّ آيةٍ فهي وصفٌ لله، كيف ذلك؟ لأنَّها كلامُ الله، فهي وصفُه، بل كُلُّ حرفٍ صفةٌ؛ لأنَّ كُلَّ حرفٍ كلامُ الله عزَّ وجلَّ، تكلَّم اللهُ به بكُلِّ حرفٍ، وعلى هذا فكُلُّ حرفٍ من القرآنِ إثباتُ صفةٍ لله عزَّ وجلَّ، وهي صفةُ الكلامِ الذي به الكمالُ، فللَّهِ دَرُّ ابنِ القيِّم.

قَوْلُهُ: «**وَهْيَ القَصْدُ بِالقُرْآنِ**»؛ يعني: أوصافُ الله عزَّ وجلَّ والإخبارُ بها هي القصدُ من القرآنِ؛ لأنَّ القرآنَ كُلَّه أخبارٌ عن الله، وأخبارٌ عن أحكامِ الله، وأخبارٌ عن عبادِ الله.

٣٩٣٧- لِيَصِـيرَ مَعْرُوفًـا لَنَـا بِصِـفَاتِهِ وَيَصِـيرَ مَـذْكُورًا لَنَـا بِجِنَـانِ

قَوْلُهُ: «**لِيَصِيرَ مَعْرُوفًا لَنَا بِصِفَاتِهِ**»؛ أي: ليصيرَ الرَّبُّ عزَّ وجلَّ معروفًا لنا بصفاتِه.

قَوْلُهُ: «**لِيَصِيرَ مَعْرُوفًا**»؛ يعني: على التَّفصيلِ، أمَّا على الإجمالِ فإنَّ معرفةَ الخالقِ فطريَّةٌ، قد أخذ اللهُ علينا الميثاقَ بما ركَّز في فِطَرِنا من معرفتِه عزَّ وجلَّ،

لكنَّك لا تعرفُ اللهَ على سبيلِ التَّفصيلِ إلَّا عن طريقِ الوحي.

قَوْلُهُ: «وَيَصِيرَ مَذْكُورًا لَنَا بِجَنَانٍ»، والجَنَانُ؛ أي: القلبُ، وسُمِّي جَنَانًا؛ لأَنَّه مستترٌ، وأصلُ المادة: الجيمُ والنُّونُ تدلُّ على الاستتار.

٣٩٣٨- وَلِسَـانٍ ايْضًـا مَـعْ مَحَبَّتِنَـا لَـهُ ....

قَوْلُهُ: «وَلِسَانٍ ايْضًا» بتنوينٍ وإحفاء الهمزة؛ يعني: وكذلك يصيرُ مذكورًا لنا باللِّسانِ، نذكرُه عزَّ وجلَّ بأسمائِه وصفاتِه بألسنتِنا.

قَوْلُهُ: «مَعْ مَحَبَّتِنَا لَهُ»، وهذا هو الرَّابع: أن نحبَّه سبحانه وتعالى؛ لأنَّنا كُلَّما ذكرنا هذه الأوصافَ أحببناه لتمامِ فضلِه وكمالِ عدلِه، كُلُّ هذا يُعْلَمُ من صفاتِه سبحانه وتعالى، وهذه فوائدُ ذكرِ صفاتِ الله عزَّ وجلَّ.

٣٩٣٨- .... فَلِأَجْـلِ ذَا الإِثْبَـاتُ فِي الإِيـمَانِ

٣٩٣٩- مِثْلُ الأَسَاسِ مِنَ البِنَاءِ فَمَـنْ يَـرُمْ هَـدْمَ الأَسَـاسِ فَكَيْـفَ بِالبُنْيَـانِ

يعني: صار الإثباتُ في الإيمانِ كالأساسِ للبناءِ، فهو أساسُ الإيمانِ.

قَوْلُهُ: «فَمَنْ يَرُمْ هَدْمَ الأَسَاسِ فَكَيْفَ بِالبُنْيَانِ؟!» الذي يَهْدِمُ الأساسَ، هل يبقى البنيانُ أولا؟ الجوابُ: لا يبقى، فالذي يرومُ هَدْمَ الأساسِ معناه أنَّه لن يُبْقِيَ للبناءِ شيئًا.

٣٩٤٠- وَاللهِ مَـا قَـامَ البِنَـاءُ لِـدِينِ رُسْــ ــلِ اللهِ بِالتَّعْطِيـلِ لِلـدَّيَّانِ

٣٩٤١- مَـا قَـامَ إِلَّا بِالصِّـفَاتِ مُفَصَّـلًا إِثْبَاتُهَـا تَفْصِيـلَ ذِي عِرْفَـانِ

وصدَق -رحمه الله- فهذه يمينٌ بارَّةٌ، فما قام الإيمانُ بالتَّعطيلِ أبدًا.

٣٩٤٢- فَهِيَ الأَسَاسُ لَـدِينِنَا وَلِكُـلِّ دِيـ ـــنٍ قَبْلَــهُ مِــنْ سَـائِرِ الأَدْيَـانِ

أمَّا كونُها أساسًا لدِينِنا فهذا أمرٌ معروفٌ مشهودٌ، وأمَّا كونُها أساسًا للأديانِ السَّابقةِ فلِمَا ينْقلُ اللهُ -سبحانه وتعالى- عن الكتبِ السَّابقةِ من أسمائِه وصفاتِه.

***

٣٩٤٣- وَكَذَاكَ زَنْدَقَةُ العِبَادِ أَسَاسُهَا التْـ ـــتَعْطِيلُ يَشْـهَدُ ذَا أُولُـو العِرْفَـانِ

٣٩٤٤- وَاللهِ مَـا فِي الأَرْضِ زَنْدَقَـةٌ بَـدَتْ إِلَّا مِــنَ التَّعْطِيـــلِ وَالنُّكْــرَانِ

٣٩٤٥- وَاللهِ مَـا فِي الأَرْضِ زَنْدَقَـةٌ بَـدَتْ مِـنْ جَانِـبِ الإِثْبَـاتِ وَالقُـرْآنِ

٣٩٤٦- هَـذِي زَنَادِقَــةُ العِبَـادِ جَمِـيعِهِمْ وَمُصَـــنَّفَاتُهُمْ بِكُـــلِّ مَكَـــانِ

٣٩٤٧- مَـا فِـيهِمُ أَحَـدٌ يَقُـولُ اللهُ فَـوْ قَ العَرْشِ مُسْتَوْلٍ عَـلَى الأَكْـوَانِ

٣٩٤٨- وَيَقُــولُ إِنَّ اللهَ جَــلَّ جَلالُــهُ مُـــتَكَلِّمٌ بِـــالوَحْيِ وَالقُــرْآنِ

٣٩٤٩- وَيَقُــولُ إِنَّ اللهَ كَلَّــمَ عَبْــدَهُ مُوسَــى فَأَسْــمَعَهُ بِـذِي الآذَانِ

٣٩٥٠- وَيَقُـولُ إِنَّ النَّقْـلَ غَـيْرُ مُعَـارِضٍ لِلعَقْــلِ بَــلْ أَمْــرَانِ مُتَّفِقَــانِ

٣٩٥١- وَالنَّقْلُ جَاءَ بِـمَا يَحَارُ العَقْـلُ فِيـ ــــهِ لَا المُحَــالِ البَـيِّنِ الــبُطْلانِ

٣٩٥٢- فَانْظُرْ إِلَى الجَهْمِيِّ كَيْـفَ أَتَـى إِلَى أُسِّ الـــهُدَى وَمَعَاقِــلِ الإِيـمَانِ

٣٩٥٣- بِمَعَــاوِلِ التَّعْطِيــلِ يَقْطَعُهَــا فَـمَا يُبْقِـي عَـلَى التَّعْطِيـلِ مِـنْ إِيـمَانِ

٣٩٥٤- يَـدْرِي بِهَـذَا عَـارِفٌ بِمَآخِـذِ الـ أَقْــوَالِ مُضْــطَلِعٍ بِهَـذَا الشَّــانِ

٣٩٥٥- وَاللهِ لَـــوْ حَـــدَّقْتُمُ لَـــرَأَيْتُمُ هَــذَا وَأَعْظَــمُ مِنْــهُ رَأْيُ عِيَــانِ

٣٩٥٦- لَكِنْ عَلَى تِلْكَ العُيُونِ غِشَاوَةٌ مَا حِيلَةُ الكَحَّالِ فِي العُمْيَانِ

الشرحُ

٣٩٤٣- وَكَذَاكَ زَنْدَقَةُ العِبَادِ أَسَاسُهَا التْـ ـتَعْطِيلُ يَشْهَدُ ذَا أُولُو العِرْفَانِ

قَوْلُهُ: «زَنْدَقَةُ» الزَّندقةُ: المروقُ من الإسلامِ.

قَوْلُهُ: «أَسَاسُهَا التَّعْطِيلُ»؛ أي: تعطيلُ الله عزَّ وجلَّ من أوصافِه وأفعالِه، فهذا هو أساسُ الزَّندقة؛ ولهذا قال:

٣٩٤٤- وَالله مَا فِي الأَرْضِ زَنْدَقَةٌ بَدَتْ إِلَّا مِنَ التَّعْطِيلِ وَالنُّكْرَانِ

٣٩٤٥- وَالله مَا فِي الأَرْضِ زَنْدَقَةٌ بَدَتْ مِنْ جَانِبِ الإِثْبَاتِ وَالقُرْآنِ

فهذا القَسَمُ تَضَمَّنَ إثباتًا ونفيًا، إثبات أنَّ الزَّندقةَ بَدَتْ من التَّعطيلِ، ونفي أن تكونَ الزَّندقةُ بَدَتْ من الإثباتِ.

٣٩٤٦- هَذِي زَنَادِقَةُ العِبَادِ جَمِيعِهِمْ وَمُصَنَّفَاتُهُمُ بِكُلِّ مَكَانِ

يعني: فارجع إلى أقوالِ هؤلاءِ الزَّنادقةِ وإلى مُصَنَّفَاتِهِم تجد أنَّهم بَنَوْا زندقتَهم على التَّعطيلِ.

٣٩٤٧- مَا فِيهِمُ أَحَدٌ يَقُولُ اللهُ فَوْ قَ العَرْشِ مُسْتَوْلٍ عَلَى الأَكْوَانِ

ما فيهم أحدٌ يقولُ: إنَّ اللهَ فوق العرشِ ومُستَوْلٍ على الأكوانِ، الطَّيِّبُ منهم يقولُ: إنَّ اللهَ مستولٍ على العرشِ كما هو مستولٍ على الأرضِ وعلى السَّماءِ وعلى البَشَرِ وعلى البهائمِ.

وَسَبَقَ لنا أنَّ منهم مَنْ قال: إنَّ اللهَ في كُلِّ مكانٍ، ومنهم مَنْ قال: إنَّ اللهَ لا يُوصَفُ بأيِّ مكانٍ، فلا يُقَالُ: إنَّ اللهَ فوقٌ ولا تحتُ ولا يمينُ ولا شمالُ، فالأوَّلُ حلوليَّةٌ، والثَّاني: معطِّلةٌ غايةَ التَّعطيلِ والعياذُ باللهِ.

٣٩٤٨- وَيَقُـولُ إِنَّ اللهَ جَـلَّ جَلالُـهُ   مُـتَكَلِّمٌ بِـالوَحْيِ وَالقُـرْآنِ

يعني: وما فيهم أحدٌ يقولُ: إنَّه متكلِّمٌ بالوحي والقرآنِ، منهم مَنْ يقولُ: إنَّ القرآنَ مخلوقٌ بَائِنٌ من اللهِ، ومنهم مَنْ يقولُ: إنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ ولكنَّه كلامٌ نفسيٌّ، وهذه الحروفُ خُلِقَت تعبيرًا عنه.

٣٩٤٩- وَيَقُـولُ إِنَّ اللهَ كَلَّـمَ عَبْـدَهُ   مُوسَـى فَأَسْـمَعَهُ بِـذِي الآذَانِ

يعني: ما فيهم أحدٌ يقولُ: إنَّ اللهَ كَلَّمَ موسى -عليه الصلاة والسلام- فأسمعه كلامَه بِأُذُنَيْه.

٣٩٥٠- وَيَقُـولُ إِنَّ النَّقْـلَ غَـيْرُ مُعَـارِضٍ   لِلعَقْـلِ بَـلْ أَمْـرَانِ مُتَّفِقَـانِ

قَوْلُهُ: «وَيَقُولُ: إِنَّ النَّقْلَ غَيْرُ مُعَارِضٍ لِلْعَقْلِ»؛ يعني: ما فيهم أحدٌ يقولُ: إنَّ النَّقلَ غيرُ معارِضٍ للعقلِ، بل فيهم مَنْ يقولُ: إنَّ النَّقلَ معارِضٌ للعقلِ، وإذا تَعَارَضَ العقلُ والنَّقلُ وَجَبَ تقديمُ العقلِ.

قَوْلُهُ: «بَلْ أَمْرَانِ مُتَّفِقَانِ»؛ يعني: بل هما أمران متَّفقان.

مَنْ الذي يقولُ هذا القولَ هل أهلُ الإثباتِ أو أهلُ التَّعطيلِ؟ الذين يقولون: إنَّ النَّقلَ غيرُ معارضٍ للعقلِ، وأنَّهما أمران مُتَّفقان هم أهلُ الإثباتِ، وليس هناك من أهلِ التَّعطيلِ مَنْ يقولُ هذا القولَ.

٣٩٥١- وَالنَّقْلُ جَاءَ بِمَا يَحَارُ العَقْلُ فِيـ ـهِ لَا المُحَالِ البَيِّنِ البُطْلَانِ

يعني: أنَّ النَّقلَ جاء بما تحارُ فيه العقولُ لا بما تجعلُه محالًا، النَّقلُ لم يأتِ بشيءٍ محالٍ، لكن جاء بما يُحَيِّرُ العقولَ، وهذا هو الواقعُ، لكنَّ تحييرَ العقولِ لما جاء به النَّقلُ لا يدلُّ على فسادِ النَّقلِ، بل يدلُّ على قصورِ العقولِ حيث حَارَتْ بهذا.

مثلًا: النَّقلُ جاء بأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ على عرشِه، وأنَّه ينزلُ إلى السَّماءِ الدُّنيا، يَحَارُ العقلُ، يقولُ: كيف يَنْزِلُ وهو على عرشِه؟! كيف نُثْبِتُ أنَّه نَزَلَ وله العلوُّ المطلقُ؟!

نقولُ: هذا يُحَيِّرُ العقلَ، لكنَّ العقلَ لا يَرَى هذا محالًا بالنِّسبةِ إلى الله عزَّ وجلَّ، هو محالٌ بالنِّسبةِ لنا، لكن بالنِّسبةِ لله ليس محالًا، في يومِ القيامةِ النَّاسُ في مكانٍ واحدٍ، في صعيدٍ واحدٍ، يُسْمِعُهم الدَّاعِي وينفذهم البصرُ، منهم مَنْ يعرقُ حتَّى يبلغُ العرقُ كعبيه، ومنهم مَنْ يصلُ إلى ركبتيه، ومنهم مَنْ يصلُ إلى حِقْوَيْه، ومنهم مَنْ يُلْجِمُه وهم في صعيدٍ واحدٍ ومكانٍ واحدٍ، العقلُ هنا يَحَارُ، كيف يكونُ هذا وهم في صعيدٍ واحدٍ؟! فنقول: هذا غيرُ محالٍ؛ لأنَّ اليومَ الآخِرَ لا يُقَاسُ بالدُّنيا، فهو محالٌ في الدُّنيا لكن في الآخرةِ غيرُ محالٍ، على أنَّه في الدُّنيا يمكنُ؛ لأنَّه لو وُجِدَ ماءٌ في أرضٍ غيرِ مستويةٍ صار الماءُ في أعلاها مثلًا إلى الكعبِ، وفي عمقها يُلْجِمُ، لكن على كُلِّ حالٍ الأساسُ أنَّنا لا نقيسُ أمورَ الآخِرةِ بأمورِ الدُّنيا، والقاعدةُ هنا: النَّقلُ أتى بما تَحَارُ فيه العقول لا بما تُحِيلُه العقولُ، وهذه قاعدةٌ صحيحةٌ.

إِذَنْ العقولُ لا تُدْرِكُ الحِكَمَ والأسرارَ في الشَّرائعِ أحيانًا، فهي أحيانًا تقفُ متحيِّرةً، وإذا جاءها الحُكْمُ غير معلومِ العِلَّة سمَّاه الفقهاءُ تعبُّديًّا، لكن هل جاء الشَّرعُ بما يحيلُه العقلُ؟ الجوابُ: لا، وبينهما فرقٌ، فالنَّقلُ جاء بما تحارُ فيه العقولُ

لا بما تُحيلُه العقولُ، وقولنا: «بِمَا تَحَارُ» ليس معناه أنَّ كُلَّ ما جاء به الشَّرعُ فهو مُحَيِّرٌ، لا، لكن أحيانًا يعجزُ الإنسانُ عن إدراكِ الحكمةِ والسِّرِّ في أحكامِ الله عزَّ وجلَّ، فيقفُ حائرًا، ولكنَّه مع وقوفِه حائرًا هل يُنْكِرُ أو يُسَلِّمُ؟ المؤمنُ يُسَلِّمُ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦]، وعائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لَـمَّا سُئِلَتْ مَا بَالُ الحَائِضِ تَقْضِي الصَّوْمَ وَلَا تَقْضِي الصَّلَاةَ؟! -وهذا قد يبدو مُحيِّرًا- فقالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَ يُصِيبُنَا ذَلِكَ فَنُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ وَلَا نُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ»(١)، وهذا كافٍ؛ لأنَّنا نعلمُ علمَ اليقينِ -والله- أنَّ الشَّرعَ لا يمكنُ أن يُفرِّقَ بين شَيْئَيْنِ فِي الحكمِ إلَّا وبينهما فَرْقٌ في الحكمةِ، نعلمُ هذا علمَ اليقينِ بلا شكٍّ، لكن من الحِكَمِ ما ندركُه ومنها ما لا ندركُه، ولكنَّنا نستسلِمُ ونرى أنَّ كُلَّ شيءٍ فَرَّقَ اللهُ ورسولُه بينهما فإنَّه لحكمةٍ بلا شكٍّ.

٣٩٥٢- فَانْظُرْ إِلَى الجَهْمِيِّ كَيْفَ أَتَى إِلَى ... أُسِّ الهُدَى وَمَعَاقِلِ الإِيمَانِ

لكن أتى إليهما بماذا؟ قال:

٣٩٥٣- بِمَعَاوِلِ التَّعْطِيلِ يَقْطَعُهَا فَمَا ... يُبْقِي عَلَى التَّعْطِيلِ مِنْ إِيمَانِ

الجهميُّ نسبةٌ إلى الجهمِ بن صفوان الذي كان تلميذًا للجعدِ بن درهمٍ، والجعدُ بن درهمٍ هو أوَّلُ مَنْ قال بالتَّعطيلِ؛ لأنَّ الجعدَ بن درهمٍ قال كلمتين: قال: «**إنَّ اللهَ لم يتَّخذ إبراهيمَ خليلًا، ولم يُكَلِّمْ موسى تكليمًا**»، فأخذَها عنه الجهمُ ابنُ صفوانٍ ونشَرَها فَنُسِبَتْ إليه، ويُقَالُ: إنَّ خالدَ بن عبد الله القسريَّ أحدَ أمراء بني أُمَيَّةَ خرج بالجعدِ موثوقًا بوثاقٍ إلى مُصَلَّى العيدِ وقال: «**أَيُّها النَّاسُ ضَحُّوا**

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة، رقم (٣٢١)، مسلم: كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الحائض الصوم، رقم (٣٣٥).

تَقَبَّلَ اللهُ ضحاياكم فإنِّي مُضَحٍّ بالجعدِ بن درهمٍ، إنَّه زَعَمَ أنَّ اللهَ لم يتَّخذ إبراهيمَ خليلًا ولم يُكَلِّم موسى تكليمًا»، ثُمَّ نزل فذبحه، وكانوا فيما سبق من عهدِ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- يخرجون بضحاياهم إلى مُصَلَّى العيد يذبحونها هناك، ومنهم مَنْ يذبحُ في بيتِهِ من أجلِ إظهارِ شعيرةِ الذَّبحِ لله عزَّ وجلَّ، ومن أجلِ أن يُطْعَمَ منها الفقراءُ، يقولُ ابنُ القيمِّ في النُّونيَّة:

وَلأَجْلِ ذَا ضَحَّى بِجَعْدٍ خَالِدُ الـ ـقَسْرِيُّ يَوْمَ ذَبَائِحِ القُرْبَانِ
إِذْ قَالَ: إِبْرَاهِيمُ لَيْسَ خَلِيلَهُ كَلَّا وَلَا مُوسَى الكَلِيمَ الدَّانِي
شَكَرَ الضَّحِيَّةَ كُلُّ صَاحِبِ سُنَّةٍ لله دَرُّكَ مِنْ أَخِي قُرْبَانِ[1]

٣٩٥٤- يَدْرِي بِهَذَا عَارِفٌ بِمَآخِذِ الـ أَقْوَالِ مُضْطَلِعٍ بِهَذَا الشَّانِ

يعني: يدري العارفُ بمآخذِ الأقوالِ أنَّ التَّعطيلَ سببٌ لهدمِ الإيمانِ، وإن كان الرَّجلُ السَّطْحِيُّ لا يرى هذا الشَّيءَ، ولكنَّ الرَّجلَ المتعمِّقَ يعرفُ أنَّ التَّعطيلَ هدمٌ للإيمانِ، صحيحٌ أنَّ مِثْلَ هذه المسائلِ العظيمةِ لا يعرفُها طالبُ العلم المبتدئ، ولا يعرفُ ماذا تستلزمُه من الباطلِ، وماذا يترتَّبُ عليها من الكفرِ، والعاميُّ من بابِ أولى، ولهذا تجدُ كثيرًا من العوامِّ تحصلُ لهم المزالقُ العظيمةُ حيث يظنُّون أنَّه لا فرقَ بين هذا وهذا.

وأَخَسُّ من ذلك وأخبثُه ما بدأ يتكلَّم به أذنابُ الغربِ من محاولةِ التَّوفيقِ بين اليهودِ والنَّصاريِ والمسلمين، أعوذُ بالله، هل يمكنُ أن يُحَاوِلَ هذا مؤمنٌ بالله

(١) انظر: النُّونيَّة لابن القيم الأبيات (٥٠، ٥١، ٥٢).

واليومِ الآخِرِ؟ هل يمكنُ لأحدٍ أن يجمعَ بين الماءِ والنَّارِ؟ الجوابُ: لا يمكنُ، فيحاولون أن يجمعوا، وهذا هو الإدهانُ الذي قال اللهُ تعالى فيه: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩]، وهم والكُفَّارُ يعلمون أنَّه لو سَرَى هذا الفكرُ -لا أقامَه اللهُ- ما بَقِيَ للجهادِ موضعٌ، ولا بَقِيَ لمعاداتِهم موضعٌ، ولأَصْبَحَ الكافرُ وليًّا للمؤمنِ، والمؤمنُ وليًّا للكافرِ؛ لأنَّ الاختلافَ على حدِّ زعمِهم كالاختلافِ بين الحنابلةِ والشَّافعيَّةِ والمالكيَّةِ فقط، وهذا مبدأٌ خطيرٌ للغايةِ؛ ولهذا يجبُ على طلبةِ أهلِ العلمِ إنكارُه بكُلِّ وسيلةٍ، والتَّأمُّلُ والتَّفكُّرُ في المفاسدِ التي يُفْضِي إليها هذا الفكرُ الخبيثُ.

فيجب أن نعلمَ أنَّ الإنسانَ العارفَ بمآخذِ أهلِ التَّعطيلِ يدري ماذا يترتَّبُ على هذا التَّعطيلِ من المفاسدِ العظيمةِ دون الإنسانِ الذي لا يعرفُ المآخذَ فإنَّه قد يغترُّ بزخارفِ القولِ.

٣٩٥٥- وَاللهِ لَــوْ حَـــدَّقْتُمُ لَـــرَأَيْتُمُ ... هَــذَا وَأَعْظَــمُ مِنْــهُ رَأْيُ عِيَــانِ

٣٩٥٦- لَكِـنْ عَـلَى تِلْـكَ العُيُـونِ غِشَـاوَةٌ ... مَــا حِيلَــةُ الكَحَّــالِ فِي العُمْيَــانِ

قَوْلُهُ: «مَا حِيلَةُ الكَحَّالِ فِي العُمْيَانِ؟» الجوابُ: لا حيلةَ له، وهذا صحيحٌ، فهذا كَحَّالٌ يبيعُ الكحلَ، وجاءه عُميان، ماذا يصنعُ؟ لو مَلأَ عيونَهم من الكحلِ ما انتفعوا به، وهذا حقيقةٌ، فالقلبُ إذا طُبِعَ عليه لا يمكنُ أن يهتديَ، واقرأ قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٣-١٤]، فرَأَوْا كلامَ الله ورسولِه أساطيرَ الأوَّلين، نسألُ اللهَ أن يُنيرَ قلوبَنا وقلوبَهم

* * *

فصــل

فِي بَهْتِ أَهْلِ الشِّرْكِ وَالتَّعْطِيلِ فِي رَمْيِهِمْ أَهْلَ التَّوْحِيدِ وَالإِثْبَاتِ بِتَنْقِيصِ الرَّسُولِ

٣٩٥٧- قَــالُوا تَنَقَّصْــتُمْ رَسُــولَ اللهِ وَا ... عَجَبًــا لِــهَذَا البَغْــيِ وَالبُهْتَــانِ

٣٩٥٨- عَزَلُــوهُ أَنْ يَحْــتَجَّ قَــطُّ بِقَوْلِــهِ ... فِي العِلْــمِ بِــاللهِ العَظِــيمِ الشَّــانِ

٣٩٥٩- عَزَلُــوا كَــلامَ اللهِ ثُــمَّ رَسُــولِهِ ... عَــنْ ذَاكَ عَــزْلًا لَــيْسَ ذَا كِـتْمَانِ

٣٩٦٠- جَعَلُوا حَقِيقَتَـهُ وَظَـاهِرَهُ هُـوَ الــ ... ـكُفْرَ الصَّــرِيحَ البَـيِّنَ الـبُطْلانِ

٣٩٦١- قَالُوا وَظَـاهِرُهُ هُـوَ التَّشْـبِيهُ وَالتَّــ ... ـتَجْسِيمُ حَاشَـا ظَـاهِرُ القُـرْآنِ

الشَّــرحُ

قَوْلُهُ: «فِي بَهْتِ أَهْلِ الشِّرْكِ وَالتَّعْطِيلِ فِي رَمْيِهِمْ أَهْلَ التَّوْحِيدِ وَالإِثْبَاتِ بِتَنْقِيصِ الرَّسُولِ» يقولُ المؤلِّفُ رحمه الله تعالى: إنَّ أهلَ الشِّركِ والتَّعطيلِ رَمَوْا أهلَ التَّوحيدِ والإثباتِ بتنقيصِ الرَّسولِ ﷺ؛ يعني: قالوا: إنَّكم تنقَّصتم الرَّسولَ ﷺ بإثباتِكم ما يقتضي التَّجسيمَ، وهذا لا شكَّ أنَّه يقولُه كُلُّ ذي بدعةٍ وكُلُّ ذي باطلٍ.

واليوم يومُ الثَّاني عشر من شهرِ ربيعٍ الأوَّل، وعامَّةُ المسلمين يُقيمون في هذا اليومِ واللَّيلة احتفالًا بمولدِ النَّبيِّ ﷺ، ويقولون: إنَّ هذا عنوانُ محبَّتِه، وأنَّ مَنْ لم يُقِمْه فإنَّه لا يُحِبُّ الرَّسولَ ﷺ؛ لأنَّه يدلُّ على أنَّه لا يحتفلُ به.

وفي الحقيقةِ أنَّ هذا ينطبقُ عليه قولُ القائلِ: «**رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَانْسَلَّتْ**»[١]، فأيُّهما أشدُّ حُبًّا وتعظيمًا للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: رجلٌ يقولُ: أنا أحذو حذوَه وأتبَّعُ أثرَه ولا أخرجُ عن سنَّتِه ولا أبتدعُ في شرعِه ما ليس منه، ورجلٌ آخرُ يقولُ: لا، لا بُدَّ أن أفرِضَ إرادتي وأُحْدِثَ في دينهِ ما ليس منه، أيُّهما أشدُّ حبًّا؟ الجوابُ: الأوَّل، فهذا رسولُ الله ﷺ، وهذا أبو بكرٍ، وهذا عمرُ، وعثمانُ، وعليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وسائرُ الصَّحابةِ والتَّابعين والأئمَّةِ الأربعةِ ومَنْ على شاكلتِهم، كُلُّهم لم يُقيموا احتفالًا لمولدِ الرَّسولِ ﷺ مع أنَّ الأمرَ مُتَيَسِّرٌ وسهلٌ والنُّفوسَ تدعو إليه والسَّببَ موجودٌ، فما المانعُ؟

ما الذي يمنعُهم ما دام كُلُّ شيء مُتيسِّرًا، والنُّفوسُ تدعو إلى تعظيمِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ولا مانعَ من ذلك، والسَّببُ موجودٌ وهو مرورُ هذه اللَّيلة عليهم، فما الذي يمنعُهم؟

لو كان ذلك من مُقتَضيات حُبِّه لكانوا هم أوَّلَ النَّاسِ بذلك وأشدَّ النَّاسِ تطبيقًا له، لكنَّهم لم يفعلوا، فَدَلَّ هذا على أنَّه ليس من الشَّرعِ، ثُمَّ لو كان من شريعةِ الله لكان يجبُ على الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أن يُبَلِّغَ النَّاسَ ذلك إمَّا بفعلِه وإمَّا بقولِه.

والمتنقِّصُ للرَّسولِ ﷺ هو الذي يقولُ قولًا أو يفعلُ فعلًا مضمونُه عدمُ تبليغِ الرَّسولِ ﷺ شريعةَ الله؛ لأنَّنا إذا جعلنا هذا من الشَّريعةِ والرَّسولُ لم يفعلْه ولم يأمرْ به فمضمونُ ذلك أنَّه كَتَمَ شريعةَ الله أو أنَّه لم يعلمْ بها، وصار هؤلاء أعلَمَ بها منه، أو صاروا أنصحَ للخلقِ منه، وهذا مُنْكَرٌ، نقولُه: ليس في هذه البدعةِ

(١) هذا من أمثال العرب، انظر: مجمع الأمثال للميداني (١/ ٢٨٦).

فقط، بل في كُلِّ بدعةٍ، ولهذا نقولُ: أنتم إذا رَمَيْتُم مَنْ لم يُقِم الاحتفالَ بمولدِ النَّبِيِّ ﷺ بأنَّه يُبْغِضُه أو يَتَنَقَّصُه فقد رميتموه بدائِكم؛ لأنَّ حقيقةَ الأمرِ أنَّكم أنتم الذين تَنَقَّصتموه ولم تُحِبُّوه ولم تُعظِّموه، عنوانُ محبَّةِ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- اتِّباعُ أثرِه وعدمُ إحداثِ شيءٍ في شرعِه، وهو يُعْلِنُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- في كُلِّ خطبةِ جمعةٍ أو أكثر خطبِ الجمعةِ: «فَإِنَّ خَيْرَ الحَدِيثِ كِتَابُ الله، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ»(١)، فأنتم الآن إمَّا أن تفعلوها عادةً أو عبادةً، ولكن الذي يظهرُ أنَّها عبادةٌ، وهي عبادةٌ شاؤوا أو أَبَوْا؛ لأنَّ مضمونَها تعظيمُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتعظيمُ الرَّسولِ من العبادةِ، فهل جاء هذا النَّوعُ من التَّعظيمِ في شريعةِ الرَّسولِ؟ الجوابُ: لا، إِذَنْ هو بدعةٌ، ثُمَّ إنَّه يتبعُه من الأشياءِ التي تُنَافي العقلَ فضلًا عن الدِّينِ، بعضُهم يجلسُ ويذكرُ الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بقصائدَ تبلغُ في الغلوِّ أن يكونَ الرَّسولُ شريكًا لله أو أعظمَ من الله، يرددون قولَ البوصيري(٢):

يَا أَكْرَمَ الخَلْقِ مَا لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ ... سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الحَادِثِ العَمَمِ
إِنْ لَمْ تَكُنْ آخِذًا يَوْمَ المَعَادِ يَدِي ... فَضْلًا وَإِلَّا فَقُلْ: يَا زَلَّةَ القَدَمِ
فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتَهَا ... وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمَ اللَّوْحِ وَالقَلَمِ

يقول بعضُ العلماءِ: إنَّه بهذا البيتِ لم يُبْقِ لله شيئًا؛ لأنَّه جعل الدُّنيا والآخِرةَ من جُودِ الرَّسولِ، فقال: «وَمِنْ عُلُومِهِ»، ولم يقل: «كُلُّ عُلُومِهِ» أيضًا، بل قال:

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧)، والنسائي: كتاب العيدين، باب كيف الخطبة، رقم (١٥٨٧)، واللفظ له.
(٢) انظر: البردة شرحًا وإعرابًا وبلاغةً، لمحمد يحيى حلو (ص:٢٠٧).

«**وَمِنْ عُلُومِهِ عِلْـمَ اللَّوْحِ وَالقَلَمِ**» يردِّدون هذا عن عقيدةٍ، نسألُ اللهَ العافيةَ، فهذه بدعةٌ قد تصلُ إلى الكفرِ، وليتَهم أيضًا يقتَصِرون على هذا مع أنَّ هذا من أعظم شيءٍ إن لم يكن أعظمَ شيءٍ، بينما هم في هزِّ الرُّؤوسِ والحركاتِ إذا بهم يقومون ويقولون: «**وعليك السَّلامُ**»، من الذي دخل؟ دخل النَّبِيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

سبحان الله! يعني: تُسْلَبُ العقولُ في هذه المناسباتِ، نسألُ اللهَ العافيةَ، لكن لو أنَّهم كُلِّفوا بهذا من قِبَلِ الشَّرعِ هل يقومون به على هذا الوجهِ؟ الظَّاهرُ أنَّهم لا يقومون به والعلمُ عند الله، لكن كيف يُكَلِّفون أنفسَهم في أشياءَ لا تزيدُهم من الله إلَّا بُعْدًا؟! ولكن الجهل والشَّيطان هو الذي يُحْدِثُ مثلَ هذه الأمورِ؛ لأنَّهم إذا عظَّموا الرَّسولَ -كما يقولون- في هذه اللَّيلة نسوه في بقيَّةِ الأيَّامِ، مرَّةً في السَّنة وتنتهي، مع أنَّ الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- قد رَفَعَ اللهُ ذكرَه بغيرِ هذا، ففي الأذانِ فرضُ كفايةٍ على المسلمين أن يُعلنوا على أعلى مكانٍ: «**أشهدُ أنَّ محمَّدًا رسولُ الله**» خمسَ مرَّاتٍ في اليومِ واللَّيلةِ، وفي الصَّلاةِ فرضٌ على كُلِّ مُصَلٍّ أن يقولَ: «**السَّلامُ عليك أيُّها النَّبِيُّ**»، وأن يقولَ: «**أشهدُ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله**»، هل يريدون أعظمَ من هذه الذِّكرى؟! لا أعظمَ من هذه الذِّكرى.

والإشكالُ أنَّ مثلَ هؤلاء -نسألُ اللهَ لنا ولهم الهدايةَ- يدَّعون أنَّ من لم يفعلْ ذلك فهو يبغضُ الرَّسولَ، سبحان الله! فما أَشْبَهَ اللَّيلةَ بالبارحةِ، ما أَشْبَهَ كلامَ ابنِ القيمِّ -رحمه الله- بكلامِ هؤلاء.

وهم قد يُثابون على ما في قلوبِهم من حُبِّ الرَّسولِ، لكنَّهم يُعَاقَبون على ما أحدَثُوا من البدعةِ؛ يعني: قد يُثَابُونَ من وجهٍ، لكنَّهم لا يُثَابُونَ إذا بُيِّنَ لهم أنَّ هذه بدعةٌ وأصرُّوا عليها.

٣٩٥٧- قَــالُوا تَنَقَّصْــتُمْ رَسُــولَ اللهِ وَا عَجَبًــا لِــهَذَا البَغْــيِ وَالبُهْتَــانِ

وصدَق رحمه اللهُ، هذا عجبٌ أنَّ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ المتَّبعين للوحيين: «**الكتاب والسُّنَّة**»، هم الذين يُقَالُ عنهم: إنَّهم تنقَّصوا الرَّسولَ، وهذه حُجَّةٌ يحتجُّ بها أناسٌ يقولون: مَنْ لم يَغْلُ بالرَّسولِ فهو مُبْغِضٌ له، من لم يبتدع البدعةَ في دينِه التي تدعو إلى الغلوِّ فيه فهو مُتَنَقِّصٌ له؛ ولهذا يقولُ: «**فِي رَمْيِهِمْ أَهْلَ التَّوحِيدِ وَالإِثْبَاتِ بِتَنْقِيصِ الرَّسُولِ ﷺ**»، وهو كما قال الأَوَّلُ: «**رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَانْسَلَّتْ**»[1].

٣٩٥٨- عَزَلُــوهُ أَنْ يَحْــتَجَّ قَــطُّ بِقَوْلِــهِ فِي العِلْــمِ بِــاللهِ العَظِــيمِ الشَّــانِ

أهلُ التَّعطيلِ عزلوا الرَّسولَ أن يُحْتَجَّ بقولِه في العلمِ بالله العظيمِ الشَّانِ؛ لأنَّهم لا يحتجُّون بأحاديثِ الصِّفاتِ، إن جاءت عن طريقِ التَّواترِ ولم يكن لهم بُدٌّ من دفعِها حرَّفوها، وإن جاءت عن طريقِ الآحادِ قالوا: هذه عقيدةٌ ولا تَثْبُتُ بخبرِ الواحدِ، فمزَّقوا السُّنَّةَ بهذه الطَّريقةِ.

٣٩٥٩- عَزَلُــوا كَــلامَ اللهِ ثُــمَّ رَسُــولِهِ عَــنْ ذَاكَ عَــزْلًا لَــيْسَ ذَا كِـتْمَانِ

قَوْلُهُ: «**عَنْ ذَاكَ**»؛ أي: عن الاحتجاجِ بالكتابِ والسُّنَّةِ.

٣٩٦٠- جَعَلُوا حَقِيقَتَـهُ وَظَـاهِرَهُ هُـوَ الــ ـكُفْرَ الصَّــرِيحَ البَـيِّنَ الـبُطْلانِ

ما هو؟ قال:

٣٩٦١- قَالُوا وَظَـاهِرُهُ هُـوَ التَّشْـبِيهُ وَالتْـ ـتَجْسِيمُ حَاشَـا ظَـاهِرُ القُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «**وَالتَّمْثِيلُ**» زيادةٌ في بعضِ النُّسخِ، وبها يطولُ البيتِ، وغالب المتكلِّمين يعبِّرون بالتَّشبيهِ، لكنَّ التَّعبيرَ بالتَّمثيلِ أحسنُ.

(١) انظر: مجمع الأمثال للميداني (١/ ٢٨٦).

قَوْلُهُ: «حَاشَا» هذا من كلامِ ابنِ القيِّم.

يقولون: إنَّ ظاهرَ آياتِ الصِّفاتِ التَّمثيلُ، إِذَنْ المَفَرُّ من ذلك أن نُعَطِّلَ، فظاهرُ قولِه تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرَّحمن:٢٧] أنَّ له وجهًا مماثلًا لوجهِ المخلوقِ، إِذَنْ ماذا أفعلُ أمامَ هذا الظَّاهرِ؟ قالوا: عَطِّلْ، فقل: ليس له وجهٌ.

الذي يجعلُ ظاهرَ كلامِ الله ورسولِه في الله هو التَّمثيل معناه أنَّه جَعَلَ ظاهرَ القرآنِ والسُّنَّةِ الكفرَ؛ لأنَّ مَنْ مَثَّلَ اللهَ بخلقِه فقد كَفَرَ.

إِذَنْ على كلامِهم يكونُ ظاهرُ القُرآنِ والسُّنَّةِ هو الكفرَ والشِّركَ؛ لأنَّهم يقولون: إنَّ ظاهرَهما التَّمثيلُ والتَّشبيهُ والتَّجسيمُ، وإذا كان جسمًا كان وَثَنًا والعياذُ بالله، فيرمون أهلَ التَّوحيدِ وأهلَ الإثباتِ بأنَّهم مُجَسِّمَةٌ مُمَثِّلَةٌ يعبدون الأصنامَ، وما أشبه ذلك، كما قال نعيمُ بن حمَّاد الخزاعيُّ شيخُ البخاريِّ رحمه الله، قال: **«مَنْ أنكرَ ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه فقد كَفَرَ، ومَنْ شَبَّهَ اللهَ بخلقِه فقد كَفَرَ، وليس ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه تشبيهًا»**(١).

* * *

٣٩٦٢- مَنْ قَالَ فِي الرَّحْمَنِ مَا دَلَّتْ عَلَيْـ ... ـهِ حَقِيقَةُ الأَخْبَارِ وَالفُرْقَانِ

٣٩٦٣- فَهُوَ المُشَبِّهُ وَالمُمَثِّلُ وَالمُجَسْـ ... ـسِمُ عَابِدُ الأَوْثَانِ لَا الرَّحْمَنِ

٣٩٦٤- تَاللهِ قَدْ مُسِخَتْ عُقُولُكُمُ فَلَيْـ ... ـسَ وَرَاءَ هَذَا قَطُّ مِنْ نُقْصَانِ

٣٩٦٥- وَرَمَيْتُمُ حِزْبَ الرَّسُولِ وَجُنْدَهُ ... بِمُصَابِكُمْ يَا فِرْقَةَ البُهْتَانِ

٣٩٦٦- وَجَعَلْتُمُ التَّنْقِيصَ عَيْنَ وِفَاقِهِ ... إِذْ لَمْ يُوَافِقْ ذَاكَ رَأْيَ فُلَانِ

---

(١) أورده الذهبي في العلو (ص:١٧٢).

٣٩٦٧- أَنْـتُمْ تَنَقَّصْـتُمْ إِلَـهَ العَـرْشِ وَالـ ... ـقُرْآنَ وَالمَبْعُـوثَ بِـالقُرْآنِ

٣٩٦٨- نَزَّهْتُمُـوهُ عَـنْ صِـفَاتِ كَمَالِـهِ ... وَعَـنِ الكَـلامِ وَفَـوْقِ كُـلِّ مَكَـانِ

٣٩٦٩- وَجَعَلْـتُمُ ذَا كُلَّـهُ التَّشْـبِيهَ وَالتْـ ... ـتَمْثِيلَ وَالتَّجْسِـيمَ ذَا الـبُطْلانِ

٣٩٧٠- وَكَلامُكُمْ فِيهِ الشِّفَاءُ وَغَايَـة التْـ ... ـتَحْقِيقِ يَا عَجَبًا لِـذَا الـخِذْلانِ

٣٩٧١- جَعَلُوا عُقُولَـهُمُ أَحَـقَّ بِأَخْـذِ مَـا ... فِيهَـا مِـنَ الأَخْبَـارِ وَالقُـرْآنِ

٣٩٧٢- وَكَلامُـهُ لَا يُسْـتَفَادُ بِـهِ اليَقِيـ ... ـنُ لِأَجْـلِ ذَا لَا يَقْبَـلُ الـخَصْمَانِ

٣٩٧٣- تَحْكِيمَـهُ عِنْـدَ اخْـتِلافِهِمَا بَـلِ الـ ... ـمَعْقُولَ ثُـمَّ الـمَنْطِقَ اليُونَـانِي

٣٩٧٤- أيُّ التَّـنَقُّصِ بَعْـدَ ذَا لَـوْلَا الوَقَـا ... حَـةُ وَالـجَرَاءَةُ يَـا أُولِي العُـدْوَانِ

٣٩٧٥- يَـا مَـنْ لَـهُ عَقْـلٌ وَنُـورٌ قَـدْ غَـدَا ... يَمْشِـي بِـهِ فِي النَّـاسِ كُـلَّ زَمَـانِ

الشـرحُ

بَيَّنَ المؤلِّفُ -رحمه الله- في بَهْتِ أهلِ الشِّركِ والتَّعطيلِ حيث رَمَوْا أهلَ الإثباتِ والتَّوحيدِ بتنقُّصِ الرَّسولِ، وقلنا: إنَّ هذا شيءٌ مُطَّرِد في أهلِ الباطلِ، يَرمون أهلَ الحقِّ بما هم مُتَّصفون به، وهم به أولى، أرأيتم قولَ المنافقين في الرَّسولِ ﷺ وأصحابه: «مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنَةً، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ»(١)؛ يعنون: الرَّسولَ ﷺ وأصحابَه، فبالله عليكم مَنْ أحقُّ بهذه الأوصافِ؟ الجوابُ: هم، فالمنافقون هم أكذبُ النَّاسِ ألسنًا، وهم

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٢٩، رقم ١٠٠٤٤)، والطبري (١٤/ ٣٣٣).

أرغبُ النَّاسِ بطونًا، وهم أجبنُ النَّاسِ عند اللِّقاءِ، أهلُ التَّعطيلِ أيضًا قالوا لأهلِ السُّنَّةِ: أنتم تنقَّصتم اللهَ فجعلتموه جسمًا، وشبَّهتموه بخلقِه، وفعلتم وفعلتم.

فنقول: أيُّنا أحقُّ نحن أم أنتم؟ لا شكَّ أنَّ مَنْ تَدَبَّرَ طريقَهم عَلِمَ أنَّهم هم الذين تنقَّصوا اللهَ وكتابَه ورسولَه، يقول المؤلِّفُ -رحمه الله-:

٣٩٦٢- مَنْ قَالَ فِي الرَّحْمَنِ مَا دَلَّتْ عَلَيْـ ـــهِ حَقِيقَـةُ الأَخْبَـارِ وَالفُرْقَـانِ

٣٩٦٣- فَهُوَ المُشَبِّهُ وَالـمُمَثِّلُ وَالـمُجَسْـ ـسِمُ عَابِـدُ الأَوْثَـانِ لَا الـرَّحْمَنِ

مَنْ يقولُ هذا؟ أهلُ التَّعطيلِ، أهلُ التَّعطيلِ يقولون: الذي يقولُ في الرَّحمنِ ما دَلَّتْ عليه حقيقةُ الأخبارِ والفرقانِ فهو المُشَبِّهُ والمُمَثِّلُ والمُجَسِّمُ عَابِدُ الأوثانِ لا الرَّحمنِ، يقولون: أنت مُجَسِّمٌ، أنت تعبدُ جسمًا، أنت مُشَبِّهٌ، أنت لَسْتَ تعبدُ اللهَ؛ لأنَّ اللهَ لا يُوصَفُ بعلوٍّ ولا يُوصَفُ بصفةٍ، فَأَيُّ إنسانٍ يُثْبِتُ له علوًّا أو صفةً فهو عابدُ وثنٍ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

يقولُ ابنُ القيِّم:

٣٩٦٤- تَاللهِ قَـدْ مُسِـخَتْ عُقُـولُكُمُ فَلَيْـ ـسَ وَرَاءَ هَـذَا قَـطُّ مِـنْ نُقْصَـانِ

صَدَقَ رَحِمَهُ اللهُ، الذي يقولُ هذا القولَ لا شكَّ أنَّ عقلَه ممسوخٌ، ولا أردأ من هذا النَّقصِ الذي اتَّصفَ به.

٣٩٦٥- وَرَمَيْتُمُ حِـزْبَ الرَّسُـولِ وَجُنْـدَهُ بِمُصَـابِكُمْ يَـا فِرْقَـةَ البُهْتَـانِ

قَوْلُهُ: «وَرَمَيْتُمُ حِزْبَ الرَّسُولِ وَجُنْدَهُ بِمُصَابِكُمْ» ما هو مصابُهم؟ التَّنقيصُ باللهِ، فرميتم به حزبَ الرَّسولِ وجندَه، وقلتم: أنتم الذين تنقَّصتم اللهَ عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «يَا فِرْقَةَ البُهْتَانِ» «البُهْتَانُ»: الكذبُ.

٣٩٦٦- وَجَعَلْتُمُ التَّنْقِيصَ عَيْنَ وِفَاقِهِ إِذْ لَمْ يُوَافِقْ ذَاكَ رَأْيَ فُلَانِ

يعني: جعلتم التَّنقيصَ هو النَّقصَ حقيقةً إذا لم يُوافِقْ رأيَ فلانٍ، فإن وَافَقَهُ فليس بنقصٍ على زعمِهم؛ ولهذا يَرْجِعُون إلى رأي فلانٍ وفلانٍ دون الكتابِ والسُّنَّةِ.

٣٩٦٧- أَنْتُمْ تَنَقَّصْتُمْ إِلَهَ العَرْشِ وَالْـ ـقُرْآنَ وَالمَبْعُوثَ بِالقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «أَنْتُمْ تَنَقَّصْتُمْ إِلَهَ العَرْشِ»؛ يعني: اللهَ عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «وَالمَبْعُوثَ بِالقُرْآنِ» وهو الرَّسولُ صلى الله عليه وسلم.

٣٩٦٨- نَزَّهْتُمُوهُ عَنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ وَعَنِ الكَلَامِ وَفَوْقِ كُلِّ مَكَانِ

قَوْلُهُ: «نَزَّهْتُمُوهُ عَنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ»؛ أي: نَزَّهْتُم اللهَ عن صفاتِ كمالِه، نزَّهوه عن صفاتِ كمالِه؛ ولهذا كان المعطِّلةُ يُنْكِرونَ الصِّفاتِ، وأمَّا الأشاعرةُ فيثبتون منها سبعًا فقط.

قَوْلُهُ: «... وَعَنِ الكَلَامِ وَفَوْقَ كُلِّ مَكَانِ» نزَّهتموه على زعمِكم عن الكلامِ، فقلتم: إنَّه لا يتكلَّمُ، ونزَّهتموه عن الفوقيَّةِ، عن فوق كُلِّ مكانٍ؛ لأنَّهم يقولون: إنَّ اللهَ ليس فوق، وينقسمون كما سَبَقَ، فأوَّلُ الجهميَّةِ كانوا حلوليَّةً، يقولون: إنَّ اللهَ بذاتِه في كُلِّ مكانٍ، وآخرُهم معطِّلةٌ، يقولون: ليس فوقُ ولا تحتُ، ولا يمينُ ولا يسارُ، ولا متَّصلًا ولا منفصلًا، ولا مباينًا ولا محايثًا كما سَبَقَ.

٣٩٦٩- وَجَعَلْتُمُ ذَا كُلَّهُ التَّشْبِيهَ وَالتْـ ـتَمْثِيلَ وَالتَّجْسِيمَ ذَا البُطْلَانِ

جعَلتُم هذا كُلَّه تجسيمًا وتشبيهًا وتمثيلًا، وقلتم: هذا شيءٌ باطلٌ فيلزم عليه بطلانُ هذه الصِّفاتِ؛ لأنَّها تستلزمُه، وقد سَبَقَ الجوابُ عليهم من ثلاثةِ أوجهٍ في كلامِ المؤلِّفِ رحمه الله.

٣٩٧٠- وَكَلامُكُمْ فِيهِ الشِّفَاءُ وَغَايَـة التْـ ـتَحْقِيقِ يَا عَجَبًا لِـذَا الـخِذْلانِ

يعني: وجعَلتُم كَلامَكم فيه الشِّفاء، والله هذا هو الخِذلان، أن يرى الإنسانُ كلامَه الباطلَ حقًّا، هذا هو المخذولُ حقيقةً؛ لأنَّ مَنْ رأى البطلانَ في كلامِه أوشك أن يهتديَ، لكن من رَأى أنَّه على حقٍّ فهذا هو الخِذلان إذا كان على باطلٍ، يقولُ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ مَنْ هؤلاء؟ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤].

٣٩٧١- جَعَلُوا عُقُولَـهُمُ أَحَـقَّ بِأَخْـذِ مَـا فِيهَـا مِـنَ الأَخْبَـارِ وَالقُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «مِنَ الأَخْبَارِ» متعلِّقة بـ«أَحَقَّ».

جعَلُوا عقولَـهم أحقَّ بأخذِ ما فيها، لكن «أَحَقَّ» من أيِّ شيءٍ؟ الجوابُ: من الأخبارِ والقرآنِ.

٣٩٧٢- وَكَلامُـهُ لَا يُسْـتَفَادُ بِـهِ اليَقِيـ ـنُ لِأَجْـلِ ذَا لَا يَقْبَـلُ الـخَصْمَانِ

٣٩٧٣- تَحْكِيمَـهُ عِنْـدَ اخْـتِلافِهِمَا بَـلِ الـ ـمَعْقُولَ ثُـمَّ الـمَنْطِقَ اليُونَـانِي

جعلوا كلامَ الله لا يُفيدُ اليقينَ، لماذا؟ قالوا: لأنَّ دلالةَ الألفاظِ ظنِّيَّةٌ حتَّى لو قلت: «قَامَ زَيْدٌ» فدلالتُه على قيامِه ظنِّيَّةٌ لاحتمال أن يكونَ «قَامَ» بمعنى «اسْتَقَامَ»، ولاحتمال أن يكونَ «زَيْدٌ» الشَّخصَّ المُشَبَّهَ بـ«زيد»، فاستُعير له اسمُ «زيد»؛ ولهذا عندهم قاعدة وهي: «كُلُّ الدَّلالاتِ اللَّفظيَّةِ ظنِّيَّةٌ»، وسبحان الله! الدَّلالاتُ العقليَّةُ التي هي أوهامٌ تكونُ عندهم قطعيَّةً؛ ولهذا يقولُ: «وَكَلَامَهُ لَا يُسْتَفَادُ بِهِ اليَقِينُ لأَجْلِ ذَا»؛ أي: لأجلِ كونِه لا يُسْتَفَادُ به اليقينُ لا يَقْبَلُ الخصمان تحكيمَه عند اختلافِهما.

إذا دُعوا إلى القرآنِ، قالوا: والله القرآنُ دلالتُه لفظيَّةٌ، والدَّلالةُ اللَّفظيَّةُ لا تفيدُ اليقينَ، أمَّا إذا جاؤوا في الحديثِ فيمزِّقونه أوَّلًا قبل أن يتكلَّموا فيه، ماذا يقولون؟ يقولون: خبرُ آحادٍ، وأخبارُ الآحادِ لا تُفيدُ إلَّا الظَّنَّ، فاهدموها من الأوَّل، ولا تتعبوا في تأويلِها.

٣٩٧٤- أيُّ التَّـنَقُّصِ بَعْـدَ ذَا لَـوْلَا الوَقَـا ... حَـةُ وَالـجَرَاءَةُ يَـا أُولِي العُـدْوَانِ

٣٩٧٥- يَـا مَـنْ لَـهُ عَقْـلٌ وَنُـورٌ قَـدْ غَـدَا ... يَمْشِـي بِـهِ فِي النَّـاسِ كُـلَّ زَمَـانِ

يُخَاطِبُ مَنْ له عقلٌ، فيقول: أين التَّنَقُّصُ إذا نحن حَكَّمْنَا كتابَ الله وأنتم لم تحكِّموه، هل التَّنَقُّصُ فينا أو فيكم؟ هل نحن الذين تَنقَّصْنَا كلامَ الله عزَّ وجلَّ ورسولِه أم هم يَا مَنْ لَه عقلٌ؟ فكأنَّه يقولُ: احكم بيننا: هل نحن أهلُ التَّنقيصِ أم هم؟ لكن يقولُ: الوقاحةُ التي تأتي منكم والعدوانُ هو الذي جَعَلَكُم تقولون هذا القولَ مع أنَّ اللهَ يعلمُ بأنَّكم أنتم أهلُ التَّنَقُّصِ.

* * *

٣٩٧٦- لَكِنَّنَـا قُلْنَـا مَقَالَـةَ صَـارِخٍ ... فِي كُـلِّ وَقْـتٍ بَيْـنكُمْ بِـأَذَانِ

٣٩٧٧- الـرَّبُّ رَبٌّ وَالرَّسُـولُ فَعَبْـدُهُ ... حَقًّـا وَلَـيْسَ لَنَـا إِلَـهٌ ثَـانِي

٣٩٧٨- فَلِذَاكَ لَـمْ نَعْبُدْهُ مِثْـلَ عِبَادَةِ الـرْ ... ـرَحْمَنِ فِعْلَ الـمُشْرِكِ النَّصْـرَانِي

٣٩٧٩- كَـلَّا وَلَـمْ نَغْـلُ الغُلُـوَّ كَـمَا نَهَـى ... عَنْـهُ الرَّسُـولُ مَخَافَـةَ الكُفْـرَانِ

٣٩٨٠- لله حَـقٌّ لَا يَكُـونُ لِغَـيْرِهِ ... وَلِعَبْـدِهِ حَـقٌّ هُـمَا حَقَّـانِ

٣٩٨١- لَا تَجْعَلُـوا الحَقَّـيْنِ حَقًّـا وَاحِـدًا ... مِـنْ غَـيْرِ تَمْيِيـزٍ وَلَا فُرْقَـانِ

٣٩٨٢- فَالـحَجُّ لِلـرَّحْمَنِ دُونَ رَسُولِهِ وَكَـذَا الصَّـلاةُ وَذَبْـحُ ذَا القُرْبَـانِ

٣٩٨٣- وَكَـذَا السُّـجُودُ وَنَـذْرُنَا وَيَمِينُنَـا وَكَذَا مَتَـابُ العَبْـدِ مِـنْ عِصْـيَانِ

٣٩٨٤- وَكَـذَا التَّوَكُّـلُ وَالإِنَابَـةُ وَالتُّقَـى وَكَـذَا الرَّجَـاءُ وَخَشْـيَةُ الـرَّحْمَنِ

٣٩٨٥- وَكَـذَا العِبَـادَةُ وَاسْـتِعَانَتُنَا بِـهِ إِيَّـاكَ نَعْبُـدُ ذَانِ تَوْحِيـدَانِ

٣٩٨٦- وَعَلَـيْهِمَا قَـامَ الوُجُـودُ بِـأَسْرِهِ دُنْيَـا وَأُخْـرَى حَبَّـذَا الرُّكْنَـانِ

٣٩٨٧- وَكَذَلِكَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِـيرُ وَالتْـ ـتَهْلِيلُ حَـقُّ إِلَـهِنَا الـدَّيَّانِ

٣٩٨٨- لَكِـنَّمَا التَّعْزِيـرُ وَالتَّـوْقِيرُ حَـقْ قُ لِلرَّسُـولِ بِمُقْتَضَـى القُـرْآنِ

٣٩٨٩- وَالـحُبُّ وَالإِيـمَانِ وَالتَّصْـدِيقُ لَا يَخْـتَصُّ بَـلْ حَقَّـانِ مُشْـتَرِكَانِ

٣٩٩٠- هَـذِي تَفَاصِيلُ الـحُقُوقِ ثَلاثَـةٌ لا تَجْهَلُوهَـا يَـا أُولِي العُـدْوَانِ

الشـرحُ

٣٩٧٦- لَكِنَّنَـا قُلْنَـا مَقَالَـةَ صَـارِخٍ فِي كُـلِّ وَقْـتٍ بَيْـنكُمْ بِـأَذَانِ

يعني: أَنَّنا لا نُبالي، نقولُ الحقَّ ونصرخُ به بينكم؛ كما قال اللهُ تعالى لنبيِّه: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر:١٥]، فالمؤمنُ يصرخُ بالحقِّ ولا يُبالي، ويتحدَّى أهلَ الباطلِ.

٣٩٧٧- الـرَّبُّ رَبٌّ وَالرَّسُـولُ فَعَبْـدُهُ حَقًّـا وَلَـيْسَ لَنَـا إِلَـهٌ ثَـانِي

الرَّبُّ ربٌّ والرَّسولُ عبدٌ، «وَلَيْسَ لَنَا إِلَهٌ ثَانِي»، بل اللهُ واحدٌ.

٣٩٧٨- فَلِذَاكَ لَـمْ نَعْبُدْهُ مِثْلَ عِبَادَةِ الرْ ... ـرَحْمَنِ فِعْلَ الـمُشْرِكِ النَّصْـرَانِي

قَوْلُهُ: «فَلِذَاكَ لَـمْ نَعْبُدْهُ»؛ أي: لم نعبد الرَّسولَ صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ: «مِثْلَ عِبَادَةِ الرَّحْمَنِ فِعْلَ الْمُشْرِكِ النَّصْرَانِي»، فالنَّصرانيُّ عَبَدَ رسولَه، أَرْسَلَ اللهُ عيسى إلى النَّصارى فآلَ بهم الأمرُ حتَّى غَلَوْا فيه فجعلوه إلـهًا ثانيًا.

٣٩٧٩- كَلَّا وَلَـمْ نَغْلُ الغُلُوَّ كَمَا نَهَى ... عَنْـهُ الرَّسُـولُ مَخَافَـةَ الكُفْـرَانِ

الرَّسولُ ﷺ حذَّرَ من أن نغلوَ فيه لئلَّا يُؤدِّي ذلك إلى الشِّركِ والكفرِ؛ ولهذا قال: «مَخَافَةَ الكُفْرَانِ»؛ لأنَّ الغلوَّ في الشَّخصِ يُلحقُه بالإلهِ، ويُلْحِقُ الغاليَ بالمشركِ.

إِذَنْ نحن نُنَزِّلُ الرَّسولَ ﷺ منزلتَه، ونجعلُ حقَّ الله له وحدَه لا يَشْرَكُه فيه غيرُه؛ ولهذا قال المؤلِّفُ:

٣٩٨٠- للهِ حَـقٌّ لَا يَكُـونُ لِغَـيْرِهِ ... وَلِعَبْـدِهِ حَـقٌّ هُمَـا حَقَّـانِ

قَوْلُهُ: «للهِ حَقٌّ لَا يَكُونُ لِغَيْرِهِ وَلِعَبْدِهِ حَقٌّ»؛ أي: لَا يَكُونُ للهِ، إِذَنْ هما حَقَّانِ.

وهناك حقٌّ ثالثٌ مشتركٌ سيذكرُه المؤلِّفُ، فالحقوقُ ثلاثةٌ: حقٌّ خاصٌّ باللهِ، وحقٌّ خاصٌّ بالرَّسولِ، وحقٌّ مُشْتَرَكٌ.

٣٩٨١- لَا تَجْعَلُـوا الحَقَّـيْنِ حَقًّـا وَاحِـدًا ... مِـنْ غَـيْرِ تَمْيِيـزٍ وَلَا فُرْقَـانِ

بل اعرَفوا للهِ حقَّه، وَصِفوه بصفاتِه، وفرِّقوا بين صفاتِه وصفاتِ رسولِه.

٣٩٨٢- فَالـحَجُّ لِلـرَّحْمَنِ دُونَ رَسُـولِهِ ... وَكَـذَا الصَّـلَاةُ وَذَبْـحُ ذَا القُرْبَـانِ

قَوْلُهُ: «فَالـحَجَّ لِلرَّحْمَنِ دُونَ رَسُولِهِ» الـحَجُّ للهِ، فلو أراد الإنسانُ أن يَـحُجَّ

للرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- في المدينةِ لكان مُشرِكًا مُرتَدًّا عن الإسلامِ؛ لأنَّ الحجَّ لله وحدَه، فلا نَحجُّ إلَّا لبيتِ الله، أمَّا المشركون فيحجُّون للقبورِ، يشدُّون الرَّحْلَ ويطوفون على القبورِ أشدَّ من طوافِهم حول الكعبةِ، يجد هذا المشركُ ارتباطَه بصاحبِ القبرِ عند طوافِه به أشدَّ من ارتباطِه بالله عند طوافِه بالبيتِ، وهذا مُشَاهَدٌ، هل هؤلاء الذين يحجُّون إلى القبورِ هل هم مخلصون عابدون لله؟ الجوابُ: لا، بالعكس.

وَقَوْلُهُ: «**فَالحَجُّ لِلرَّحْمَنِ دُونَ رَسُولِهِ**»، وغيرُ الرَّسولِ من بابِ أَوْلَى.

قَوْلُهُ: «**وَكَذَا الصَّلَاةُ وَذَبْحُ ذَا القُرْبَانِ**»؛ أي: لله، الصَّلاةُ لله، فلو أراد أحدٌ أن يُصَلِّيَ للرَّسولِ -عليه الصَّلاة والسَّلام- أو لغيرِه لكان مُشركًا، كذلك «**ذَبْحُ ذَا القُرْبَانِ**» تقرُّبًا وتعظيمًا لا يكونُ إلَّا لله، فلو أنَّ إنسانًا ذَبَحَ أمامَ مَلِكٍ أو رئيسٍ أو وزيرٍ ذَبَحَ أمامَه تعظيمًا له وتقرُّبًا إليه لكان هذا شركًا أكبرَ، والذَّبائحُ حرامٌ؛ لأنَّها أُهِلَّ لغيرِ الله بها أو مـمَّا ذُبِحَ على النُّصُبِ، وأمَّا الذَّبحُ للضَّيفِ إكرامًا فهذا ليس من الشِّركِ؛ مع أنَّ العملَ واحدٌ لكن اختلف بالنِّيَّةِ؛ لأنَّ الذَّابحَ للضَّيفِ يذبحُ له على أنَّه مفتقرٌ إلى هذه الذَّبيحةِ ليأكلَ منها لا لمجرَّدِ التَّعظيمِ، أمَّا الذي يذبحُ لله فهو يذبحُ ذلك تعظيمًا له معتقدًا أنَّ اللهَ غَنِيٌّ عنها؛ ولهذا لو جاء ضيفٌ كبيرٌ فذبحنا له الغنمَ إكرامًا وقدَّمناها ليأكلَها فهذا ليس بشركٍ، والصَّعْبُ بنُ جَثَّامَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذَهَبَ وَصَادَ لِلرَّسُولِ ﷺ حِمَارًا وَحْشِيًّا، وَجَاءَ بِهِ إِلَيْهِ لِيُكْرِمَهُ بِهِ، وَلَـمْ يَقُل الرَّسولُ: «هذا شركٌ»، بل رَدَّهُ؛ لأنَّه كان مُحْرِمًا[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب إذا أهدى للمحرم حمارا وحشيا حيا لم يقبل، رقم (١٧٢٩)، ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم الصيد للمحرم، رقم (١١٩٣).

٣٩٨٣- وَكَـذَا السُّـجُودُ وَنَـذْرُنَا وَيَمِينُنَـا وَكَذَا مَتَـابُ العَبْـدِ مِـنْ عِصْـيَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَا السُّجُودُ وَنَذْرُنَا وَيَمِينُنَا» السُّجودُ لله، فلو سَجَدَ أحدٌ لغيرِ الله سجدةً واحدةً لكان كافرًا مشركًا، والنَّذرُ لله، فلا يجوزُ للإنسانِ أن يقولَ للنَّبِيِّ: «عَلَيَّ نَذْرٌ أن أصومَ أو أن أُصَلِّيَ»، أو «عليَّ نذرٌ أن أذبحَ للوليِّ»، أو ما أشبه ذلك.

وكذا اليمينُ، فلا يحلفُ إلَّا بالله، قال النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ أَشْرَكَ»[1].

قَوْلُهُ: «وَكَذَا مَتَابُ العَبْدِ مِنْ عِصْيَانِ»؛ أي: إلى الله لا إلى غيرِه، فَإِنْ قال قائلٌ: ماذا تُجيبون عن حديثِ عائشةَ حين جاء الرَّسولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- فوجد في البيتِ نُمْرُقَةً فيها صورٌ، فَوَقَفَ، وعُرِفَت الكراهِيَةُ في وجهِه، فقالت عائشةُ: «أَتُوبُ إِلَى الله وَإِلَى رَسُولِهِ، مَاذَا أَذْنَبْتُ؟»[2]، وأنتم تقولون: إنَّ التَّوبةَ خاصَّةٌ لله؟ فنقولُ: إنَّ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حاشاها أن تُشْرِكَ بالله معه غيرَه، لكنَّها تقولُ: «أَتُوبُ إِلَى الله» عبادةً، وإلى رسولِه اتِّباعًا؛ لأنَّ الرَّسولَ ﷺ هو المشرِّعُ المُبَلِّغُ عن الله، فهي تتوبُ إلى الرَّسولِ اتِّباعًا له لا تقرُّبًا إليه كما تتقرَّبُ إلى الله عزَّ وجلَّ، كأنَّما تقولُ: أنا لا أقصدُ أن أخالفَ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، إنَّما أقصدُ شيئًا لا يكرهُه الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أو يُقَالُ: بأنَّها جاءت بلفظٍ مشتركٍ بين توبةِ العبادةِ وتوبةِ اللُّغةِ، فتوبتُها إلى الله توبةُ عبادةٍ، وتوبتُها إلى الرَّسولِ توبةُ لغةٍ؛ لأنَّ «تَابَ» بمعنى «رَجَعَ»، هذا إذا كانت لفظةُ «وَإِلَى رَسُولِهِ»

(١) أخرجه أحمد (١٠/ ٢٤٩، رقم ٦٠٧٢)، والترمذي أبواب النذور والإيمان، باب ما جاء في كراهة الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء، رقم (٢١٠٥)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة، رقم (٢١٠٧).

محفوظةً، أمَّا إن لم تكن محفوظةً فلا إشكالَ.

٣٩٨٤- وَكَـذَا التَّوَكُّـلُ وَالإِنَابَـةُ وَالتُّقَـى ... وَكَـذَا الرَّجَـاءُ وَخَشْـيَةُ الـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَا التَّوَكُّلُ»؛ أي: التَّوكُّلُ على الله عزَّ وجلَّ، بأن تتوكَّلَ على الله وحدَه، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلاق:٣]، وهذا بخلافِ الاعتمادِ على العبدِ فيما يقدرُ عليه كتوكيلِ العبدِ في بيعٍ أو شراءٍ، فَإنَّ الإنسانَ يعتمدُ عليه لكنَّه ليس كتوكُّلِه على الله، الإنسانُ يتوكَّلُ على وكيلِه وهو يرى أنَّه فوقَه وأنَّ وكيلَه يأتمرُ بأمرِه، لكن يتوكَّلُ على الله وهو يعلمُ أنَّه حَسْبُه وأنَّه مُفْتَقِرٌ إلى ربِّه وأنَّ اللهَ تعالى فوقَه، ففرقٌ بين التَّوكُّلَيْن؛ فتوكُّلُ الموكِّلِ على وكيلِه ليس كتوكُّلِ الإنسانِ على ربِّه؛ لأنَّ توكُّلَه على وكيلِه توكُّلُ استغناءٍ، وتوكُّلَه على ربِّه توكُّلُ افتقارٍ يعلم أنَّه محتاجٌ إليه ومضطرٌ إليه، لكن يعتمدُ عليه عزَّ وجلَّ؛ ولهذا يعتمدُ على ربِّه ويفعلُ الأسبابَ التي يتحقَّقُ بها مطلوبُه.

قَوْلُهُ: «الإِنَابَةُ»؛ أي: إلى الله سبحانه وتعالى، وهي الرُّجوعُ إلى الله وحدَه، فلا تُنِبْ لغيرِ الله أبدًا.

قَوْلُهُ: «وَالتُّقَى» مَنْ نتَّقي؟ الجوابُ: الله، لكن اللهُ عزَّ وجلَّ يذكرُ التَّقوى مضافةً إليه أحيانًا، ومضافةً إلى العذابِ أحيانًا، ومضافةً إلى دارِ العذابِ أحيانًا، ومضافةً إلى زمنِ العذابِ أحيانًا، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١] هذا مكانُ العذابِ، وقولُه: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١] هذا زمنُ العذابِ، ويذكرُ اللهُ تقواه كثيرًا، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة:١٩٧]، فإذا كانت التَّقوى لله فكيف صحَّ أن تُضَافَ إلى المذكوراتِ السَّابقةِ؟ نقولُ: لأنَّ هذه من فعلِ الله وخَلْقِ الله، وهي محلُّ عذابِه أو زمانِه، فتقاتُها

تُعْتَبَرُ تقوىً لله عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «وَكَذَا الرَّجَاءُ» الرَّجاءُ أيضًا لله عزَّ وجلَّ، والإنسانُ قد يرجو غيرَ الله، لكن رجاؤه لغيرِ الله ليس كرجائِه لله؛ لأنَّ رجاءَه لله رجاءُ عبادةٍ وثقةٍ بخلافِ رجائِه لغيرِه فإنَّه دون ذلك بكثيرٍ.

قَوْلُهُ: «وَخَشْيَةُ الرَّحْمَنِ» وكذلك أيضًا الخشيةُ، فقد يخشى الإنسانُ غيرَ الله، لكن الخشيةُ في العبادةِ لا تكونُ إلَّا لله، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ ﴾ [لقمان:٣٣]، لكن ليس المعنى أن نخشى هذا اليومَ كخشيةِ الله، وقال اللهُ -سبحانه وتعالى- لنبيِّه: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧]، وقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران:١٧٥]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٤٤]، لكن الإنسانُ يجدُ فرقًا عظيمًا بين خشيتِه لله وخشيتِه لعبادِ الله، خشيتُه لله خشيةُ إجلالٍ وتعظيمٍ وتقرُّبٍ، وخشيتُه لغيرِ الله خشيةُ خوفٍ ورهبةٍ، وَإلَّا فليس في قلبِه محبَّةٌ ولا تعظيمٌ لهذا المخوفِ، بل ذعرٌ ورهبٌ.

ثُمَّ قال المؤلِّفُ في بيانِ الحقوقِ التي لله وحدَه، والتي للرَّسولِ ﷺ وحدَه، والتي لله وللرَّسولِ، قال:

٣٩٨٥- وَكَذَا العِبَادَةُ وَاسْتِعَانَتُنَا بِهِ ... إِيَّاكَ نَعْبُدُ ذَانِ تَوْحِيدَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَا العِبَادَةُ وَاسْتِعَانَتُنَا بِهِ»؛ أي: بالله عزَّ وجلَّ، فالعبادةُ خاصَّةٌ بالله فلا نعبدُ غيرَه، والاستعانةُ خاصَّةٌ بالله فلا نستعينُ بغيرِه، لكنَّ المرادَ الاستعانةُ المطلقةُ المبنيَّةُ على الاعتمادِ المطلقِ، فهذه لا تكونُ إلَّا بالله، أمَّا الاستعانةُ بما يستطيعُه المستعانُ في الدُّنيا فهذه جائزةٌ، فَإنَّ النَّبيَّ -عليه الصَّلاة والسَّلامُ- قال: «تُعِينُ

الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ»(١)، ولا يزالُ النَّاسُ يستعينُ بعضُهم بعضًا، قال اللهُ تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢]، لكن هناك فرقٌ بين الاستعانةِ بالله التي تكونُ عبادةً واعتمادًا كُلِّيًّا على الله وبين الاستعانةِ بالمخلوق الذي ترى أنَّه بإعانتِك مشاركٌ لك فقط في هذا العملِ، فقولُ المؤلِّفِ: «**العِبَادَةُ وَاسْتِعَانَتُنَا بِهِ**» أضافها إلى استعانتِنا بالله، وهي استعانةٌ خاصَّةٌ غيرُ استعانتِنا بالمخلوقِ.

قَوْلُهُ: «**إِيَّاكَ نَعْبُدُ ذَانِ تَوْحِيدَانِ**» فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥] في القرآنِ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] في القرآنِ، ونوحِّدُ اللهَ بالعبادةِ ونوحِّدُه بالاستعانةِ، أمَّا العبادةُ فمطلقًا، وأمَّا الاستعانةُ فإنَّنا نستعينُ بالمخلوقِ فيما يقدرُ عليه، لكنَّ استعانتَنا بالمخلوقِ ليست كاستعانتِنَا بالخالقِ.

٣٩٨٦- وَعَلَيْهِمَا قَامَ الوُجُودُ بِأَسْرِهِ ... دُنْيَا وَأُخْرَى حَبَّذَا الرُّكْنَانِ

قَوْلُهُ: «**وَعَلَيْهِمَا قَامَ الوُجُودُ بِأَسْرِهِ**»؛ أي: على العبادةِ والاستعانةِ قام الوجودُ بأسرِه؛ لأنَّ الوجودَ قَامَ بالحقِّ، ولا أحقَّ من عبادتِنا لله واستعانتِنا به؛ ولهذا قال اللهُ عزَّ وجلَّ فيما لو اتَّبع الحقُّ أهواءَهم قال: ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون:٧١]، فبالحقِّ صلحت السَّماواتُ والأرضُ، وبالباطلِ تفسدُ السَّماواتُ والأرضُ.

٣٩٨٧- وَكَذَلِكَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَالتْـ ... ـتَهْلِيلُ حَقُّ إِلَهِنَا الدَّيَّانِ

لا نُسَبِّحُ إلَّا اللهَ فنقول: «**سبحان الله!**»، ولا نقولُ: «**سبحان الرَّسول**»،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الكسوف، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (١٠٠٩).

ونقولُ: «اللهُ أكبرُ»، ولا نقولُ: «الرَّسولُ أكبرُ»، نقولُ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ»، ولا نقولُ: «لَا إلهَ إلَّا رسولُ الله»، فهذا حقُّ الدَّيَّانِ.

٣٩٨٨- لَكِنَّمَا التَّعْزِيرُ وَالتَّوْقِيرُ حَقٌّ لِلرَّسُولِ بِمُقْتَضَى القُرْآنِ

قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح:٩]، فقولُه: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ الهاء تعودُ على الرَّسولِ، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ على الرَّسولِ، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ على الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الحقَّيْنِ الأوَّلَيْن من حقوقِ الرَّسولِ، والثَّالثَ من حقِّ الله عزَّ وجلَّ.

٣٩٨٩- وَالحُبُّ وَالإِيمَانِ وَالتَّصْدِيقُ لَا يَخْتَصُّ بَلْ حَقَّانِ مُشْتَرَكَانِ

الحُبُّ والإيمانُ والتَّصديقُ لا يختصُّ لا بالرَّسولِ ولا بالله، بل هو مشتركٌ، فالحُبُّ والإيمانُ والتَّصديقُ لله وللرَّسولِ، كُلٌّ منهما فرضٌ علينا محبَّتُه والإيمانُ به وتصديقُه، ولكن لاحِظوا أنَّ محبَّتَنا للرَّسولِ -عليه الصلاة والسلام- فرعٌ عن محبَّتِنا لله، لولا أنَّه رسولُ الله لم يجبْ علينا محبَّتُه ولا الإيمانُ به ولا تصديقُه، فمحبَّتُنا له وإيمانُنا به وتصديقُنا إيَّاه فرعٌ عن محبَّةِ الله، خلافًا للغُلَاةِ بالرَّسولِ الذين يَرَوْنَ أنَّ محبَّةَ الله والإيمانَ به والتَّصديقَ فرعٌ عن محبَّةِ الرَّسولِ، حتَّى إنَّا سَمِعْنا مِن بعضِهم مَنْ يقولُ: إنَّ زيارةَ المدينةِ أفضلُ من الحجِّ إلى مكَّةَ؛ لأنَّهم يَرَوْنَ أنَّ الرَّسولَ أعظمُ حقًّا من الله، والعياذُ بالله.

٣٩٩٠- هَذِي تَفَاصِيلُ الحُقُوقِ ثَلَاثَةٌ لَا تَجْهَلُوهَا يَا أُولِي العُدْوَانِ

إِذَنْ الحقوقُ ثلاثةٌ: حقٌّ لله خالصٌ، وحقٌّ للرَّسولِ خالصٌ، وحقٌّ مشتركٌ، الحقُّ الخالصُ بالله هو العبادةُ بجميعِ أنواعِها، فلا تكونُ إلَّا لله عزَّ وجلَّ، والحقُّ

الخاصُّ بالرَّسولِ هو التَّعزيرُ والتَّوقيرُ لقولِ الله تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾، والحقُّ المشتركُ هو الحُبُّ والإيمانُ والتَّصديقُ، لكن ليس حُبُّنا للرَّسولِ كحُبِّنا لله، بل حُبُّنا للرَّسولِ من حُبِّنا لله عزَّ وجلَّ.

***

٣٩٩١- حَــقُّ الإِلَـــهِ عِبَـــادَةٌ بِـــالأَمْرِ لَا ... بِهَـوَى النُّفُـوسِ فَـذَاكَ لِلشَّـيْطَانِ

٣٩٩٢- مِــنْ غَــيْرِ إِشْرَاكٍ بِـهِ شَـيْئًا هُـمَـا ... سَـبَبَا النَّجَـاةِ فَحَبَّــذَا السَّــبَبَانِ

٣٩٩٣- وَرَسُــولُهُ فَهُــوَ المُطَـاعُ وَقَوْلُـهُ الــ ... ـمَقْبُولُ إِذْ هُوَ صَـاحِبُ البُرْهَـانِ

٣٩٩٤- وَالأَمْرُ مِنْـهُ الــحَتْمُ لَا تَخْيِـيرَ فِيـ ... ـهِ عِنْـدَ ذِي عَقْــلٍ وَذِي إِيـمَانِ

٣٩٩٥- مَــنْ قَــالَ قَــوْلًا غَــيْرَهُ قُمْنَــا عَــلَى ... أَقْوَالِـــهِ بِالسَّـــبْرِ وَالمِيـــزَانِ

٣٩٩٦- إِنْ وَافَقَتْ قَوْلَ الرَّسُولِ وَحُكْمَـهُ ... فَعَلَى الـرُّؤُوسِ تُشَـالُ كَالتِّيجَـانِ

٣٩٩٧- أَوْ خَالَفَــتْ هَــذَا رَدَدْنَاهَــا عَــلَى ... مَنْ قَالَــهَا مَـنْ كَـانَ مِـنْ إِنْسَـانِ

٣٩٩٨- أَوْ أَشْــكَلَتْ عَنَّــا تَوَقَّفْنَــا وَلَــمْ ... نَجْــزِمْ بِــلَا عِلْــمٍ وَلا بُرْهَـــانِ

٣٩٩٩- هَــذَا الَّــذِي أَدَّى إِلَيْـــهِ عِلْمُنَـــا ... وَبِـــهِ نَـــدِينُ اللهَ كُـــلَّ أَوَانِ

الشـــرحُ

٣٩٩١- حَــقُّ الإِلَـــهِ عِبَـــادَةٌ بِـــالأَمْرِ لَا ... بِهَـوَى النُّفُـوسِ فَـذَاكَ لِلشَّـيْطَانِ

يعني: أنَّنا نعبدُ اللهَ، والعبادةُ حقُّه، لكن نعبدُه بأمرِه لا بهوانا، لو كانت العبادةُ بالهوى لأَصْبَحَ النَّاسُ فوضى؛ لأنَّ كُلَّ واحدٍ يَهْوَى عبادةً دون الآخَرِ،

الآن عبادةُ الله تعالى يختلفُ النَّاسُ فيها، تجد الإمامَ يُصَلِّي بالجماعةِ، واحدٌ يقولُ: أَطَلْتَ، والثَّاني يقولُ: خَفَّفْتَ، والثَّالثُ يقولُ: تَقَدَّمْتَ في الإقامةِ، والرَّابع يقولُ: تأخَّرتَ، والخامسُ يقولُ: أَسْرَعْتَ في الرُّكوعِ والسُّجودِ، والسَّادسُ يقولُ: أَبْطَأْتَ، وهي عبادةٌ مُحَدَّدةٌ مضبوطةٌ من قِبَلِ الشَّرعِ، كيف لو كانت العباداتُ موكولةً إلى أهواءِ النَّاسِ؟! لا يمكنُ أن يتَّفقَ النَّاسُ، إذَنْ نعبدُ اللهَ بأمرِ الله، قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(١)؛ ولهذا قال:

٣٩٩٢- مِـنْ غَـيْرِ إِشْرَاكٍ بِـهِ شَـيْئًا هُمَـا ... سَـبَبَا النَّجَـاةِ فَحَبَّـذَا السَّـبَبَانِ

يعني: نعبدُه إخلاصًا له وامتثالًا لأمرِه دون إشراكٍ ولا بدعةٍ، هذان هما السَّببان المُنْجِيان.

٣٩٩٣- وَرَسُـولُهُ فَهُـوَ المُطَـاعُ وَقَوْلُـهُ الـ ... ـمَقْبُولُ إِذْ هُوَ صَـاحِبُ البُرْهَـانِ

قَوْلُهُ: «**إِذْ هُوَ صَاحِبُ البُرْهَانِ**»؛ أي: صاحبُ الدَّليلِ.

يقولُ: قولُ الرَّسولِ ﷺ مطاعٌ وأمرُه مطاعٌ.

٣٩٩٤- وَالأَمْرُ مِنْـهُ الـحَتْمُ لَا تَخْيِـيرَ فِيـ ... ـهِ عِنْـدَ ذِي عَقْـلٍ وَذِي إِيـمَانِ

قَوْلُهُ: «**وَالأَمْرَ مِنْهُ الحَتْمُ**» الأمرُ من الرَّسولِ حَتْمٌ يلزمُنا قبولُه، إمَّا أن يَلْزَمَنَا العملُ به إن كان واجبًا، أو يُسْتَحَبَّ لنا العملُ به إن كان تطوُّعًا، لكن قَبولُه أنَّه مشروعٌ واجبٌ.

قَوْلُهُ: «**لَا تَخْيِيرَ فِيهِ**»؛ لقولِ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، رقم (٢٦٩٧)، مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨).

وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ﴾ [الأحزاب:٣٦]، فلا خيارَ للمؤمنِ في أمرِ الله ورسولِه.

فالأمرُ من الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- حتمٌ لا تخييرَ فيه؛ يعني: ليس لنا الخيارُ أن نأخذَ به أو ندعَه، وليس المرادُ ما يكونُ على سبيلِ الإستحبابِ؛ يعني مثلًا: لو أمر الرَّسولُ بأمرٍ على سبيلِ الاستحبابِ فليس لنا الخيارُ بين أن نفعلَه أو نقولَ: هذا لا نعبأُ به، بل يجبُ أن نعبأَ به، ولكنَّنا نقولُ: إنَّه على سبيلِ الاستحبابِ بحيث لا يأثمُ الإنسانُ بتركِه، وقد قرَّرنا كثيرًا أنَّه لا يليقُ بالمسلمِ إذا جاءه الأمرُ من الله ورسولِه أن يقولَ: هل هذا واجبٌ أو مستحبٌّ؟ وإذا جاءه النَّهيُ لا ينبغي أن يقولَ: هل هذا حرامٌ أو مكروهٌ؟ لأنَّ الصَّحابةَ ما كانوا يقولون هذا، ولكن إذا تَوَرَّطَ الإنسانُ ووقع في المخالفةِ حينئذٍ ينظرُ هل هو واجبٌ أو مستحبٌّ؟ هل هو محرَّمٌ أو مكروهٌ؟ حتَّى يُحْدِثَ توبةً، أو يتداركَ ما فاتَه.

٣٩٩٥- مَـنْ قَـالَ قَـوْلًا غَـيْرَهُ قُمْنَـا عَـلَى ... أَقْوَالِـــهِ بِالسَّـــبْرِ وَالمِيـــزَانِ

مَنْ قال قولًا غيرَ الرَّسولِ فإنَّنا نَسْبُرُ قولَه وَنزِنُه، ننظرُ هل يوافقُ أو يُخَالِفُ؟

إِذَنْ الميزانُ أن نعرضَ أقوالَ كُلِّ إنسانٍ كائنًا مَنْ كان نعرضَها ونردَّها إلى الكتابِ والسُّنَّةِ.

٣٩٩٦- إِنْ وَافَقَتْ قَوْلَ الرَّسُولِ وَحُكْمَـهُ ... فَعَلَى الـرُّؤُوسِ تُشَـالُ كَالتِّيجَـانِ

إذا وافَقَتْ أقوالُ غيرِ الرَّسولِ أقوالَ الرَّسولِ وحُكْمَ الرَّسولِ «**فَعَلَى الرُّؤوسِ تُشَالُ كَالتِّيجَانِ**»؛ يعني: تُحْمَلُ وُتْرَفُع كالتِّيجَانِ؛ يعني: تُشَالُ مُعَظَّمةً محترمةً، لا؛ لأنَّها قولُ فلانٍ ولكن لأنَّها وَافَقَتْ قولَ الرَّسولِ ﷺ، والتِّيجانُ هي التي يضعُها الملوكُ على رؤوسِهِم.

إِذَنْ رَفَعْنَا قولَ هذا العَالِـمِ؛ لأَنَّه وَافَقَ قولَ الرَّسولِ، ووضعناه على رؤوسِنا كالتِّيجانِ.

٣٩٩٧- أَوْ خَالَفَــتْ هَــذَا رَدَدْنَاهَــا عَــلَى مَنْ قَالَــهَا مَــنْ كَــانَ مِــنْ إِنْسَــانِ

قَوْلُهُ: «أَوْ خَالَفَتْ هَذَا»؛ أي: خَالَفَتْ قولَ الرَّسولِ وحُكْمَه.

يعني: إذا خَالَفَتْ قولَ الرسولِ رددناها على مَنْ قالها مَنْ كان من إنسانٍ، حتَّى ولو كان أبا بكرٍ وعمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فكيف بِمَن دونهما؟

٣٩٩٨- أَوْ أَشْــكَلَتْ عَنَّــا تَوَقَّفْنَــا وَلَــمْ نَجْــزِمْ بِــلَا عِلْــمٍ وَلا بُرْهَــانِ

قَوْلُهُ: «أَوْ أَشْكَلَتْ عَنَّا تَوَقَّفْنَا»؛ يعني: أَشْكَلَتْ علينا تَوَقَّفْنَا.

هذا -والله- الإنصافُ، أن نعرضَ أقوالَ غيرِ الرَّسولِ على قولِ الرَّسولِ، وهذا لا يخلو من ثلاثِ حالاتٍ:

الأولى: أن يوافقَ قولَ الرَّسولِ، فماذا نعملُ؟ الجوابُ: نحملُه على الرُّؤوسِ.

الثَّانية: أن يخالفَ، نردُّه على قائلِه.

الثَّالثة: أن يُشْكِلَ، نتوقَّفُ ولم نجزمْ بلا علمٍ ولا برهانٍ.

٣٩٩٩- هَــذَا الَّــذِي أَدَّى إِلَيْــهِ عِلْمُنَــا وَبِــــهِ نَــــدِينُ اللهَ كُــــلَّ أَوَانِ

ونِعْمَ ما سَلَكَ رحمه الله، وهذا هو العدلُ، هذا هو الإنصافُ.

لكن لو أنَّ قولَ إمامِنا الذي ننتمي إليه خَالَفَ قولَ الرَّسولِ، وقولَ غيرِ إمامِنا الذي ننتمي إليه وَافَقَ الرَّسولَ ماذا نفعلُ؟

الجوابُ: نأخذُ بالثَّاني، ولا يُقَالُ: حَنْبَلِـيٌّ أَخَذَ بمذهبِ الشَّافعيِّ، ولا شافعِيٌّ

أَخَذَ بمذهبِ الحَنْبَلِـيِّ، بل يُقَالُ: مسلمٌ أَخَذَ بقولِ الرَّسولِ، وهذا الواجبُ.

نعم أقوالُ العلماءِ لا شَكَّ أَنَّها يُسْتَأْنَسُ بها، وأنَّ الإنسانَ إذا تَوَهَّمَ حكمًا دَلَّ عليه الكتابُ والسُّنَّةُ والجمهورُ على خلافِه فإنَّ الواجبَ عليه أن يتأنَّى وألَّا يُقْدِمَ على الفتوى به أو العملِ به؛ لأنَّ مخالفةَ جمهورِ العلماءِ له لها قيمتُها ووزنُها، كيف يكونُ جمهورُ العلماءِ على هذا وأنت تفهمُ شيئًا آخرَ؟! تأنَّ في الموضوعِ، ولهذا نجد الذين يتسرَّعون الآن إلى الأقوالِ الشَّاذَّةِ يكثرُ منهم الخطأُ، فإذا رَأَيْتَ أو تَوَهَّمْتَ من الأدلَّةِ ما يخالفُ رأيَ الجمهورِ فإيَّاك والتَّسرُّع؛ لأنَّ الجمهورَ لهم وزنُهم، وهم كأنت لهم فَهْمُهم، وقد يكونُ فَهْمُهم أقوى من فَهْمِك وعلمُهم أكثرَ من علمِك، فتأنَّ، هذه واحدةٌ، يجبُ عليكم -يا طلبةَ العلمِ- أن تعتنوا بها، وألَّا تتسرَّعوا بالأقوالِ الشَّاذَّةِ، هذه واحدةٌ.

ثانيًا: ما جرى عليه النَّاسُ في البلدِ لا تتسرَّعُ في نقلِ النَّاسِ منه إلى ما تراه صوابًا؛ لأنَّهم قد اقتدَوْا بعلماء، قد يكونُ الصَّوابُ في رأيِ العلماءِ الآخرين؛ ولهذا يُخطئُ كثيرًا مَنْ يريدُ أن ينقلَ النَّاسَ عمَّا هم عليه وعمَّا عليه علماؤهم إلى قولٍ يراه راجحًا، بل يجبُ أن يتأنَّى وينظرَ لماذا خَالَفَ النَّاسُ ما أراه صحيحًا؟ فإذا تبيَّن أنَّه صحيحٌ فلا مَناصَ منه، لكن قبل ذلك لا تتسرَّعْ، فمخالفةُ النَّاسِ ليست بالأمرِ الهيِّن، رُبَّما تحاولُ أن تنقلَهم إلى ما تراه صحيحًا فتحصلُ بذلك مفسدةٌ، إمَّا بالنِّسبةِ لك بحيث يُلْقُون بأفواهِهم سبًّا وشتمًا وغِيبةً، وإمَّا بالنِّسبةِ لتفريقِهم، بعضُهم يرى أن يتَّبعوا ما كانت عليه مشايخُهم، وبعضُهم يرى أن نأخذَ بهذا القولِ الجديدِ، فيحصلُ التَّفريقُ بين الأُمَّةِ بدون برهانٍ بَيِّنٍ، أمَّا مع البرهانِ البيِّنِ فلا تعبأْ بأحدٍ، لكن أقولُ: تَأَنَّ.

ولقد كان النَّبِيُّ ﷺ يُراعي مِثْلَ هذه الأمورِ وهو أعلمُ مِنَّا وأحكمُ، لـمَّا فَتَحَ مكَّةَ كان بإمكانِه أن يهدمَ الكعبةَ وأن يعيدَ بناءَها على ما كانت عليه في عهدِ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، لكنَّه ترك ذلك؛ خوفًا من الفتنةِ، وقال لعائشةَ: «لَوْلَا حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ لَفَعَلْتُ»[1]؛ أي: لَـهَدَمْتُ الكَعْبَةَ وَبَنَيْتُهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ، فانظر لقد ترك أمرًا مشروعًا خوفًا من الفتنةِ مع أنَّ بإمكانِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أن يبنيَ ويُقْنِعَ النَّاسَ؛ لأنَّه رسولٌ، لكنَّه رَاعَى أحوالَ النَّاسِ.

وكان معاذُ بنُ جبلٍ رَدِيفَهُ عَلَى حِمَارِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَتَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى العِبَادِ، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى الله؟» قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّ الله عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ العِبَادِ عَلَى الله أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»، كلمتان، قال: أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا»[2]، فنهاه عن نشرِ العلمِ مع أنَّ نشرَ العلمِ واجبٌ لاسيَّما في هذا الأمرِ المهمِّ «عبادة وشرك»، نهاه فقال: «لا تُبَشِّرْهُمْ»؛ خوفًا من مفسدةٍ وهي الاتِّكال، يتَّكلون على الإخلاصِ دُون العملِ، فأمره أن يكتمَ العلمَ خَوْفًا من المفسدةِ، فلماذا لا يكونُ لنا أسوةٌ في الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأن نَحْذَرَ ما يكونُ تشويشًا على النَّاسِ أو إفسادًا لعباداتِهم حتَّى يأتيَ الأوانُ للقولِ والعملِ.

لكنَّ هذا الحديثَ قد يُشْكِلُ على كثيرٍ من النَّاسِ، يقولُ: كيف أَخْبَرَ معاذٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ والنَّبِيُّ ﷺ نَهَى عن ذلك؟ نقولُ: لأنَّ معاذَ بنَ جبلٍ من فقهاء الصَّحابةِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب فضل الكعبة وبنيانها، رقم (١٥٨٣)، ومسلم: كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها، رقم (١٣٣٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب اسم الفرس والحمار، رقم (٢٧٠١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، رقم (٣٠).

يعلمُ أنَّ الرَّسولَ ﷺ لم يخبرْه ليكونَ مجهولًا عند الأُمَّةِ، لو كان الرَّسولُ -عليه الصَّلاة والسَّلام- يُريد ألَّا تعلمَه الأُمَّةُ هل يُحدِّثُ معاذًا به؟ الجوابُ: لا يُحدِّثُه، ولا يعلمُ النَّاسُ ما في قلبِه، لكنَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلِمَ أنَّ الرَّسولَ ﷺ لم يُحدِّثْ به معاذًا إلَّا لتعلمَه الأُمَّةُ ولا بد، ثُمَّ إنَّ الخوفَ الذي خافه النَّبيُّ -عليه الصَّلاة والسَّلامُ- فَهِمَ مُعاذٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ قولَ الرَّسولِ ﷺ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا»؛ يعني: تحذيرَ الأمةِ من أن يتَّكِلوا عليه، وكُلُّ إنسانٍ يعلمُ أنَّ الرَّسولَ يخشى أن يتَّكِلَ عليه لا يتَّكِل على هذا، فكان هذا من فقهِه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإلَّا فقد يقولُ الجاهلُ الِغرُّ: كيف عَصَى معاذٌ رسولَ الله ﷺ؟ يقولُ: «لَا تُخْبِرْهُمْ» وهو يُخْبِرُهم؟! فتقول: هذا هو السَّببُ، ثُمَّ إنَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اقتصر على الضَّرورةِ في إخبارِهم؛ ولذا فإنَّه أَخْبَرَ عند موتِه، حيث كان في ساعاتٍ من الزَّمنِ لم يخبرْهم، لكن عند موتِه رأى أنَّه لا بد أن يُخْبِرَهم.

فالقصدُ من هذا هو أنَّ أقوالَ العلماءِ تُعْرَضُ على الكتابِ والسُّنَّةِ؛ فإمَّا أن تُوافِقَ، أو تخالفَ، أو تُشْكِلَ، في الموافقةِ نأخذُ بها، وفي المخالفةِ لا نَأخذُ بها بل نردُّها، وفي الإشكالِ نتوقَّفُ حتَّى يتبيَّنَ الأمرُ، لكن في الغالبِ أنَّه لا يمكنُ أن يكونَ توقُّفًا؛ لأنَّه لا بد أن يكونَ هناك أصولٌ يُبْنَى عليها، والذي يُعْطِيه اللهُ تعالى فقهًا يتبيَّنُ له الأمرُ، ثُمَّ عَرَّجْنَا إلى ما يفعلُه بعضُ النَّاسِ من التَّسرُّعِ في مخالفةِ الجمهورِ، ولا تتسرَّعْ في مخالفةِ ما النَّاسُ فيه تابعونُ لعلمائِهم حتَّى يتبيَّنَ، وضربنا مَثَلَيْنِ من هدي النَّبيِّ -عليه الصلاة والسلام- أحدهما: في بناء الكعبة، والثَّاني: في حديث معاذٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

* * *

٤٠٠٠- فَهُوَ الـمُطَاعُ وَأَمْرُهُ العَالِي عَلَى ... أَمْرِ الـوَرَى وَأَوَامِرِ السُّلْطَانِ

٤٠٠١- وَهُوَ الـمُقَدَّمُ فِي مَحَبَّتِنَا عَلَى الـ ... أَهْلِينَ وَالأَزْوَاجِ وَالوِلْدَانِ

٤٠٠٢- وَعَلَى العِبَادِ جَمِيعِهِمْ حَتَّى عَلَى النْـ ... ـنَفْسِ الَّتِي قَدْ ضَمَّهَا الـجَنْبَانِ

٤٠٠٣- وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُ أَعْدَاءِ الـمَسِيـ ... ـحِ مِنَ النَّصَارَى عَابِدِي الصُّلْبَانِ

٤٠٠٤- إِنَّا تَنَقَّصْنَا الـمَسِيحَ بِقَوْلِنَا ... عَبْدٌ وَذَلِكَ غَايَةُ النُّقْصَانِ

٤٠٠٥- لَوْ قُلْتُمُ وَلَدٌ إِلَهٌ خَالِقٌ ... وَفَّيْتُمُوهُ حَقَّهُ بِوِزَانِ

٤٠٠٦- وَكَذَاكَ أَشْبَاهُ النَّصَارَى مُذْ غَلَوْا ... فِي دِينِهِمْ بِالـجَهْلِ وَالطُّغْيَانِ

٤٠٠٧- صَارُوا مُعَادِينَ الرَّسُولَ وَدِينَنَا ... فِي صُورَةِ الأَحْبَابِ وَالإِخْوَانِ

٤٠٠٨- فَانْظُرْ إِلَى تَبْدِيلِهِمْ تَوْحِيدَهُ ... بِالشِّرْكِ وَالإِيمَانِ بِالكُفْرَانِ

٤٠٠٩- وَانْظُرْ إِلَى تَجْرِيدِهِ التَّوْحِيدَ مِنْ ... أَسْبَابِ كُلِّ الشِّرْكِ بِالرَّحْمَنِ

٤٠١٠- وَاجْمَعْ مَقَالَتَهُمْ وَمَا قَدْ قَالَهُ ... وَاسْتَدْعِ بِالنُّقَّادِ وَالوُزَّانِ

٤٠١١- عَقْلٍ وَفِطْرَتِكَ السَّلِيمَةِ ثُمَّ زِنْ ... هَذَا وَذَا لَا تَطْغَ فِي المِيزَانِ

٤٠١٢- فَهُنَاكَ تَعْلَمُ أَيُّ حِزْبَيْنَا هُوَ الـ ... مُتَنَقِّصُ المَنْقُوصُ ذُو العُدْوَانِ

٤٠١٣- رَامِي البَرِيءِ بِدَائِهِ وَمُصَابِهِ ... فِعْلُ الـمُبَاهِتِ أَوْقَحِ الحَيَوَانِ

٤٠١٤- كَمُعَيِّرٍ لِلنَّاسِ بِالزَّغَلِ الَّذِي ... هُوَ ضَرْبُهُ فَاعْجَبْ لِذَا البُهْتَانِ

٤٠١٥- يَا فِرْقَةَ التَّنْقِيصِ بَلْ يَا أُمَّةَ الدْ ... دَعْوَى بِلَا عِلْمٍ وَلَا عِرْفَانِ

٤٠١٦- وَاللهِ مَــا قَــدَّمْتُمُ يَوْمًــا مَقَــا ... لَتَــهُ عَــلَى التَّقْلِيــدِ لِلإِنْسَــانِ

٤٠١٧- وَاللهِ مَـا قَـالَ الشُّـيُوخُ وَقَـالَ إِلْـ ... لَا كُنْــتُمُ مَعَهُــمْ بِــلا كِــتْمَانِ

٤٠١٨- وَاللهِ أَغْــلاطُ الشُّــيُوخِ لَــدَيْكُمُ ... أَوْلَى مِــنَ المَعْصُــومِ بِالبُرْهَــانِ

الشـــرحُ

٤٠٠٠- فَهُوَ الــمُطَاعُ وَأَمْـرُهُ العَـالِي عَـلَى ... أَمْـرِ الـوَرَى وَأَوَامِـرِ السُّـلْطَانِ

قَوْلُهُ: «**فَهُوَ المُطَاعُ**»؛ يعني: النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ: «**أَمْرِ الوَرَى**» يقصدُ كُلَّ الخلقِ.

وَقَوْلُهُ: «**وَأَوَامِرِ السُّلْطَانِ**» هذا تخصيصٌ بعد تعميمٍ؛ لأنَّ السُّلطانَ من الوَرَى، لكن لما كانت أوامرُ السُّلطانِ غالبًا تكونُ مطاعةً وغالبًا يطيعُهم الإنسانُ في معصيةِ الله نَصَّ عليها وإِلَّا فهم داخلون في «**أَمْرِ الوَرَى**».

قَوْلُهُ: «**وَأَمْرُهُ العَالِي عَلَى أَمْرِ الوَرَى**» أمرُ الرَّسولِ ﷺ عالٍ على أمرِ الورى؛ أي: على كُلِّ الخلقِ حتَّى على أُمِّك وأبيك، فإذا أمرك الرَّسولُ بشيءٍ وأمرك أبوك بخلافِه مَنْ تقبلُ؟ الجوابُ: تقبلُ أمرَ الرَّسولِ، لو قال أبوك: لا تصلِّ تحيةَ المسجدِ إذا دَخَلْتَ المسجدَ فيأخذك زبانيةُ السُّلطانِ، ماذا تفعلُ؟ الجوابُ: أُصلِّي، والوهمُ من أخذِ زبانيةِ السُّلطانِ وهمٌ، قد يفعلون وقد لا يفعلون، وبه نعرفُ الميزانَ الذي يكونُ به بِرُّ الوالدين، فإذا قالا: «**لا تطلب العلمَ**»، لا تطعهما، اطلب العلمَ إِلَّا في حال الضَّرورة التي لا يدفعُها عنهم إلَّا أنت، فحينئذٍ يجبُ أن تُقَدِّمَ خدمتَهم على ذلك، وأمَّا مع غيرِ هذا فلا؛ ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن

رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ [الإسراء:٢٨]؛ يعني: قولًا يحصلُ به التَّوفيقُ بين ما تريدُ وبين ما يريدُ ذوو الأرحامِ.

قَوْلُهُ: «وَأَمْرُهُ العَالِي عَلَى ... أَوَامِرِ السُّلْطَانِ»؛ يعني: هذا الواجبُ علينا، أن نجعلَ أمرَه عاليًا على أوامرِ السُّلطانِ، والسُّلطانُ أوامرُه مُطَاعَةٌ بنصِّ القرآنِ كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النِّساء:٥٩]، لكنَّ أمرَ النَّبيِّ ﷺ مُقَدَّمٌ على أمرِ السُّلطانِ، فإذا تَعَارَضَ أمرُ الرَّسولِ ﷺ وأوامرُ السُّلطانِ قُدِّمَ أمرُ الرَّسولِ.

وتأمَّل الحكمةَ في التَّعبيرِ القرآنيِّ، قال اللهُ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النِّساء:٥٩]، ما قال: «**أَطِيعُوا أُولِي الأَمْرِ**»؛ لأنَّ طاعةَ ولاةِ الأمرِ ليست مستقلَّةً، فلا يُطَاعونَ إلَّا في طاعةِ الله ورسولِه، وقد أمرنا اللهُ ورسولُه بطاعتِهم في غيرِ المعصيةِ.

فأوامرُ السُّلطانِ ثلاثةُ أقسامٍ:

القسم الأوَّل: قسمٌ أَمَرَ اللهُ به ورسولُه مثل أن يأمرَ بإقامةِ الصَّلاةِ جماعةً، فهذا واجبٌ، لكن هل بأمرِ السُّلطانِ أو بأمرِ الله ورسولِه؟ الجوابُ: بهما جميعًا، لكن الأصلُ أمرُ الله ورسولِه، فنكون مثابين على طاعةِ الله ورسولِه وعلى طاعةِ السُّلطانِ التي أُمِرْنَا بها.

القسم الثَّاني: أن يأمُرَنا السُّلطانُ بمعصيةِ الله ورسولِه فحينئذٍ ننظر، اللهُ يقولُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النِّساء:٥٩]، فجعل طاعتَهم تابعةً لطاعةِ الله ورسولِه، فإذا أَمَرَنَا السُّلطانُ بمعصيةٍ قُلنا: لا، لا نوافقُك، لكن كيف نقولُ: لا؟ هل معنى ذلك أن نصادمَه مصادمةً، فإذا قال:

افعل معصيةَ كذا، قلنا: لا سمعَ ولا طاعةَ؟! الجوابُ: لا، هذا غلطٌ، هذا منابذةٌ، ولكنَّا نمتنعُ ثُمَّ نتلقَّاه بالجوابِ السَّليمِ الهيِّن اللِّينِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى بَعَثَ رسولًا من أولي العزمِ إلى أعتى عبادِ الله وهو فرعون، وقال لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه:٤٤]، وهو كافرٌ عنيدٌ، فلا ننابذُه ونقول: لا سمعَ ولا طاعةَ، وما ورد عن بعضِ السَّلفِ من منابذة الحاكمِ على هذا الوجه فهو لأحوالٍ معيَّنةٍ مخصوصةٍ تخالفُ القاعدةَ العامَّةَ من مخاطبةِ ولاةِ الأمورِ بما يليقُ بمنزلتِهم، بمعنى: أنَّه رُبَّما في ذلك الوقتِ لا يغضبُ السُّلطانُ لو أنَّه قال: لا سمعَ ولا طاعةَ، بل يرى ذلك من منقبتِهِ إذا وَافَقَ لهذا الذي قال: «**لا سمعَ ولا طاعةَ**»، ولا نتَّهمُ أحدًا؛ إذ رُبَّما يقولُ السُّلطانُ لأحدِ النَّاسِ: إنِّي سآمُرُ بكذا ممَّا يكونُ معصيةً، ولكن قُمْ، وقل لي: لا سمعَ ولا طاعةَ، ثُمَّ سأقولُ: ما الدَّليلُ؟ فإذا قلتَ: الدَّليلُ كذا وكذا، فسوف أنسَحبُ؛ ليكون ذلك منقبةً له ورفعةً له، فتلك أحوالٌ فيها وَرَدَ عن بعضِ السَّلفِ من منابذةِ الحُكَّامِ، تلك أحوالٌ لها خصوصيَّتُها، وهي التي يُسمِّيها العلماءُ بقضيةِ العينِ، وقضايا الأعيانِ لا تصلحُ لخرقِ القواعدِ العامَّةِ من النَّهيِ عن منابذةِ الحُكَّامِ، بل نعاملُهم بما تقتضيه المصلحةُ.

واعلم أنَّك إذا عامَلْتَ السُّلطانَ بما تقتضيه المصلحةُ من كونِ ذلك سرًّا بينك وبينه فإنَّ ذلك أقربُ إلى القَبولِ والإجابةِ؛ لأنَّ السُّلطانَ يرى نفسَه له السُّلطة، وهو له السُّلطةُ حقًّا، فمنابذتُه ليست بالهيِّنةِ، ثُمَّ إذا بَذَلْتَ أيُّها الإنسانُ ما بينك وبين ربِّك سَقَطَ عنك الإثمُ وَبرِئَت الذِّمَّةُ، أليس الإمامُ أحمدُ وغيرُه من العلماءِ يخاطبون السُّلطانَ ويكاتبونه في الرُّجوعِ إلى الكتابِ والسُّنَّةِ وإلى مذهب أهلِ السُّنَّةِ ومع ذلك فالولاةُ في عهدِهم يخالفونهم، هل نقولُ: إنَّ ذمَّةَ الإمامِ أحمدَ ومَنْ معه من علماءِ السَّلفِ لم تبرأ أو بَرِئَتْ؟ الجوابُ: بَرِئَتْ، ومع ذلك لم ينابذ

الإمامُ أحمدُ ولا غيرُه من السَّلفِ الحُكَّامَ ولم يجعلوا أنفسَهم هم السُّلطان على السُّلطةِ، هذا غلطٌ وَسفَهٌ ممَّن يفعلُه، والإنسانُ إنَّما يريدُ أن تكونَ كلمةُ الله هي العُليا، ولن تكونَ بطريقِ العنفِ والمنابذةِ أبدًا.

إِذَنْ الرَّسولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- هو المطاعُ، وأمرُه العالي على أمرِ الورى وأوامرِ السُّلطانِ مهما كان السُّلطانُ، لكن كما قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل:١٢٥].

القسم الثَّالث: أن يأمرَ ولاةُ الأمور بما ليس من أوامرِ الله ورسولِه عَيْنًا وليس من مناهي الله ورسولِه؛ يعني: مـمَّا يَرَوْنَ أنَّ فيه مصلحةً للنَّاسِ، لكنَّ القرآنَ والسُّنَّةَ لم ينصَّا عليه، فهل تجبُ طاعتُهم أو لا؟ الجوابُ: تجبُ طاعتُهم فيه، وطاعتُهم هذه طاعةٌ لله ورسولِه؛ لأنَّ اللهَ أمرنا بذلك، فهي طاعةٌ لله ورسولِه لكنَّها تقصرُ عن القسمِ الأوَّلِ الذي أمر اللهُ به ورسولُه عينًا، هذا تجبُ طاعتُهم، ومَنْ قال: إنَّ طاعةَ السُّلطانِ لا تجبُ إلَّا فيما أَمَرَ اللهُ به ورسولُه فقد ضَلَّ ضلالًا بعيدًا وهو نفسُه لم يُطَبِّقْ ما أَمَرَ اللهُ به ورسولُه؛ لأنَّ اللهَ أمر بطاعةِ السُّلطانِ، ولم ينهَ عن طاعةِ السُّلطانِ إلَّا في حالٍ واحدةٍ وهي أن يأمرَ بمعصيةِ الله.

وهل نقولُ: من شرطِ امتثالِنا لأمرِ السُّلطانِ ألَّا يكونَ السُّلطانُ عاصيًا لله؟ الجوابُ: لا، ليس من شرطِه، يجبُ أن نطيعَه ولو كان عاصيًا، والسَّلفُ الصَّالحُ كانوا يطيعون السَّلاطين مع أنَّ عندهم المغنِّياتِ، وعندهم السُّكرَ، وعندهم الضَّربَ على فعلِ العباداتِ، راجعوا التَّاريخَ، راجعوا سيرَ أعلامِ النُّبلاء تجدون عن بعضِ الولاةِ على بعضِ البلدان الإسلاميَّةِ الآن شيئًا عجيبًا؛ يعني: يَقُصُّون رقبةَ مَنْ يُصَلِّي ومع ذلك يطيعونهم في حدودِ أمرِ الله، فليس من شرطِ وجوبِ طاعةِ السُّلطانِ ألَّا يعصيَ السُّلطانُ.

وأقولُ لكم: لو طبَّقنا هذه القاعدةَ، وقلنا: لا تجبُ علينا طاعةُ مَنْ تجبُ علينا طاعتُه إلَّا إذا كان هو لا يَعْصِي اللهَ لكان أولادُنا يعصوننا؛ لأنَّنا لم نَسْلَمْ من معصيةِ الله، ولقال لك ولدُك إذا قلت له: «**اخرُج للصَّلاةِ**» لقال: لستُ بخارجٍ، أنتظر الضُّيوفَ في البيتِ، قال: لا، لماذا؟ قال: لأنَّك تعصي اللهَ، يقولُ لأبيه: لأنَّك تَحْلقُ لحيتَك، كيف أطيعُك وأنت تعصي اللهَ؟! ولهذا لا شكَّ في ضلالِ مَنْ قال: إنَّ السُّلطانَ لا يُطَاعُ إلَّا إذا كان لا يَعْصِي اللهَ، نقولُ: يا رجل أنت بَرِّىء نفسَك من معصيةِ الله.

إِذَنْ الأقسامُ ثلاثةٌ: فما أمر به السُّلطانُ مـمَّا لا يكونُ معصيةً لله بعينِه فطاعتُه فيه واجبةٌ، سواءٌ رأينا نحن أنَّ المصلحةَ فيه أو لم نَرَ؛ لأنَّنا لو قِسْنَا المصلحةَ التي يراها السُّلطانُ بما نراه مصلحةً لم يَبْقَ للسُّلطانِ فائدةٌ، ولكان كُلُّ واحدٍ سلطانًا على نفسِه، أنت ترى أنَّ هذا مصلحةٌ، والثَّاني يراه ليس بمصلحةٍ، والثَّالثُ يقولُ: فيه نظرٌ، وذاك يقولُ: فيه قولان، وذاك يقولُ: فيه ثلاثةُ أقوالٍ، وآخَر يقولُ: إن كان كذا فهو مصلحةٌ، وإن كان كذا فهو مفسدةٌ، وإن لم يكن لا هذا ولا لهذا ففيه نظرٌ، ثُمَّ النَّظرُ يتولَّدُ منه النَّظراتُ، فلو قلنا في الأمورِ التي لم يأمر بها اللهُ ورسولُه ولم يَنْهَ اللهُ عنها ورسولُه، لو قلنا: إنَّك ترجعُ إلى أذواقِ كُلِّ واحدٍ منَّا فأيُّ فائدةٍ للسُّلطانِ؟! ليس له فائدةٌ، فقد يرى السُّلطانُ أنَّ هذا مصلحةٌ ويأمرُ به ويُلْزِمُ به، وأنا أرى أنَّه ليس مصلحةً؛ إذ لا يُوجَدُ حُكْمٌ في كتابِ الله وسُنَّةِ رسولِه يُعَيِّنُ هذه المسألَةَ، فالواجبُ عليَّ أن أخضعَ للسُّلطانِ وإن كنتُ لا أرى المصلحةَ فيه؛ لأنَّ هذا ليس فيه أمرٌ ولا نهيٌ من الله ورسولِه، وإنَّما هو مجرَّدُ اجتهادٍ يرى السُّلطانُ أنَّ هذا مصلحةٌ وأرى أنَّه ليس بمصلحةٍ، فالواجب عليَّ طاعةُ السُّلطانِ، وموافقةُ الجماعةِ.

انتَبِهوا لهذه القواعد المهمَّة، لا تَضِلُّوا كما ضَلَّ بعضُ العاطفيِّين الذين عواطفُهم عواصفُ عليهم وعلى غيرِهم من أهلِ الخيرِ وعلى الأُمَّةِ كُلِّها، لنا سلفٌ مَأمورون باتِّباعِهم؛ قال اللهُ -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التَّوبة:١٠٠]، ننظرُ طريقَ السَّلفِ، ولا ننظرُ طريقَ مَنْ نَابَذَ الولاةَ وعاكسوهم؛ لأنَّه معصيةٌ، أو بعضُهم يقولُ: أنا لا أطيعُ السُّلطانَ إلَّا في أمرٍ أَمَرَ اللهُ به ورسولُه، إِذَنْ ما الفائدةُ من السُّلطانِ؟! الجوابُ: لا فائدةَ منه.

فهذه قواعدُ عامَّةٌ أرجو أن تبنوا منهجَكم عليها، وهي أمانةٌ عليَّ أتركُها بينكم، نحن لا نُراعي أحَدًا في دِين الله أبَدًا مهما كان، لكن يجبُ علينا أن نُوجِّهَ الأُمَّةَ إلى صوابِ المنهجِ والمَسْلكِ، ماذا فَعَلَت الأُمَّةُ الآن في الوقتِ الحاضرِ حيث خرج مَنْ خرج عن جادَّةِ السَّلفِ ماذا حَصَلَ؟ إراقةُ دماءٍ، وانتهاكُ أعراضٍ، وتعطُّلُ مصالحٍ، كُلُّه بسبب فَهْمِ النُّصوصِ على غيرِ مرادِ الله ورسولِه، وبسببِ الغفلةِ عن طريقِ السَّلفِ الصَّالحِ.

٤٠٠١- وَهُوَ الـمُقَدَّمُ فِي مَحَبَّتِنَا عَلَى الـ ـــأَهْلِينَ وَالأَزْوَاجِ وَالوِلْـدَانِ

نعم؛ يجبُ أن نُقَدِّمَ محبَّةَ الرَّسولِ ﷺ على محبَّةِ أهلينا وأزواجِنا وأولادِنا، بل «**وَعَلَى العِبَادِ جَمِيعِهِمْ**»؛ ولذا قال:

٤٠٠٢- وَعَلَى العِبَادِ جَمِيعِهِمْ حَتَّى عَلَى النَّـ ـفْسِ الَّتِي قَدْ ضَمَّهَا الـجَنْبَانِ

نُقَدِّمُ محبَّتَه على أنفسِنَا، وعلامةُ ذلك أنَّك تتصوَّرُ لو تَعَارَضَ قولُه وقولُ زوجتِك تُقَدِّمُ قولَه، ولو تَعَارَضَ قولُه وقولُ أبيك تُقَدِّمُ قولَ الرَّسولِ، ولو تَعَارَضَ قولُه وما تهواه نفسُك؟ تُقَدِّمُ قولَه، إِذَنْ تقديمُ قولِه ﷺ من علامةِ المحبَّةِ.

المهمُّ أنَّه يجبُ علينا أمور:

أوَّلًا: أن نُقَدِّمَ محبَّةَ الله على محبَّةِ كُلِّ أحدٍ.

ثانيًا: أن نُقَدِّمَ محبَّةَ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- على محبَّةِ كُلِّ مخلوقٍ حتَّى على أنفسِنا، ولا يتمُّ الإيمانُ إلَّا بهذا كما قال النَّبِيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[(١)]، نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَرْزُقَنَا وَإِيَّاكُمْ مَحَبَّةَ الله وَرَسُولِهِ.

٤٠٠٣- وَنَظِيرُ هَذَا قَـوْلُ أَعْـدَاءِ الـمَسِيـ ـحِ مِنَ النَّصَارَى عَابِدِي الصُّلْبَانِ

قَوْلُهُ: «وَنَظِيرُ هَذَا»؛ يعني: نظيرُ قولِ أهلِ التَّعطيلِ لنا أنَّكم مُتنقِّصون لله نظيرُه: «قَوْلُ أَعْدَاءِ المَسِيحِ مِنَ النَّصَارَى عَابِدِي الصُّلْبَانِ».

قَوْلُهُ: «قَوْلُ أَعْدَاءِ المَسِيحِ» كيف أعداؤه؟ أعداؤه يُقَدِّسُونه، يقولون: إنَّه إلهٌ، إنَّه ابنُ الله، فتلك هي العداوةُ، إِذَنْ أولياءُ المسيحِ هم المسلمون، فهم أولياؤه الذين نزَّلوه منزلتَه التي يرضاها هو بنفسِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أمَّا النَّصارى فهم أعداءُ المسيحِ، لو أنَّ المسيحَ خَرَجَ لقاتلَهم؛ ولهذا إذا نزل في آخرِ الزَّمانِ فإنَّه «يَكْسِرُ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الخِنْزِيرَ وَيَضَعُ الجِزْيَةَ»[(٢)]، وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا الإِسْلَامَ فقط؛ لأنَّ النَّصارى أعداءٌ له.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان، رقم (١٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد، رقم (٤٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب قتل الخنزير، رقم (٢١٠٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٥).

٤٠٠٤- إِنَّـا تَنَقَّصْـنَا الـمَسِيحَ بِقَوْلِنَـا عَبْـدٌ وَذَلِـكَ غَايَـةُ النُّقْصَانِ

قَوْلُهُ: «إِنَّا تَنَقَّصْنَا المَسِيحَ بِقَوْلِنَا عَبْدٌ» هم يقولون: أنتم أيُّها المسلمون تنقَّصتم المسيحَ، قلتم: إنَّه عبدٌ ورسولٌ، وهو حقيقة إلهٌ وربٌّ، فأنتم تنقَّصتموه.

قَوْلُهُ: «وَذَلِكَ غَايَةُ النُّقْصَانِ» الظَّاهرُ أنَّه من تتمَّةِ كلامِ النَّصارى؛ يعني: حيث جعلتموه عبدًا، فهذا نقصانٌ له.

يقول المسيحيُّون الذين هم أعداءُ المسيحِ حقيقةً، إنَّنا تنقَّصنا المسيحَ؛ لأنَّنا قلنا: إنَّه عبدٌ، وهذا نقصانٌ عظيمٌ عندهم، وَوَصَفَهُم بأعداءِ المسيحِ ونحن نشهدُ بالله أنَّهم أعداءُ المسيحِ، وأنَّ المسيحَ بَرِيءٌ منهم براءةَ الذِّئبِ من دمِ يوسفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأنَّه متبرِّئٌ منهم في الدُّنيا والآخرةِ، يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ في الآخرةِ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة:١١٦-١١٧]، فهم أعداؤه، وهم الذين كَذَّبوا المسيحَ، فقد قال لهم المسيحُ: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [الصَّف:٦]، وهذا تصديقٌ لرسولٍ سابقٍ وهو موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصَّف:٦]، وهذا تبشيرٌ برسولِ الله، ولكنَّهم كذَّبوه، قالوا: أبدًا، محمَّدٌ هذا رسولٌ للعربِ، وليس رسولًا إلى النَّاسِ، واسمُه عندنا أحمدُ، وعند العربِ محمَّدٌ.

ولكن نقولُ لهم: إنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الصَّف:٦]، فأنتم إنْ صدَّقتم أنَّ اسمَه محمَّدٌ لورودِه في القرآنِ فَصَدِّقوا أنَّه جاءكم بالبيِّناتِ لورودِ ذلك

في القرآنِ، فالقرآنُ صريحٌ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ [الصَّف:٦]؛ أي: هذا الرَّسولُ الذي بَشَّرَ به عيسى، وسمَّاه أحمد، لـمَّا جاءهم بالبيِّنات ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، فهم مُكَذِّبون إمَّا باحتمالِ هذا أو باحتمالِ هذا، إن قالوا: «المبعوثُ محمَّدٌ» قلنا: من أين جعلتموه كاذبًا، قالوا: إنَّه عندنا أحمد، قلنا: إذا صَدَّقتم أنَّ اسمَه أحمد وأقررتم به فأقرُّوا بقولِهِ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصَّف:٦]؛ ولهذا نحن نَشْهَدُ ونُشْهِدُ اللهَ وملائكتَه أنَّ الذين يُسمُّون أنفسَهم المسيحيِّين الآن هم أبعدُ النَّاسِ عن المسيحِ ومن أكفرِ النَّاسِ به، رَدُّوا بشارتَه وكذَّبوه، وقاتلوا مَنْ يُصَدِّقُ به ويؤمنُ به وهم المسلمون، وكان اسمُهم قبل الثَّورةِ الصِّناعيَّةِ في أوروبا كان اسمُهم النَّصارى، فكانوا معروفين باسمِ النَّصارى في القرآنِ وفي السُّنَّةِ وفي كلامِ السَّلفِ، لكن لـمَّا استعمروا المسلمين قالوا: نريدُ أن تكونَ نسبتُنا إلى نَبِيٍّ وهو المسيح فتسمَّوا بالمسيحيِّين؛ ولذلك ينبغي أن نُسمِّيَهم بالاسمِ الحقيقيِّ لهم وهو النَّصارى؛ لأنَّ تسميتَنا إيَّاهم بالمسيحيِّين إقرارٌ لهم بأنَّهم على دِينِ المسيحِ، ومَعاذَ الله أن يكونَ المسيحُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- يدعوهم إلى أنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ، أو إلى أنَّه ابنُ الله، أو ما أشبه ذلك.

فيقول رحمه الله: إنَّ هؤلاء الذين يُنكرون علينا ألَّا نغلُوَا في الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- يُشْبِهُون المسيحيِّين، بل يُشْبهون النَّصارى؛ لأنَّه قال: «**النَّصارى**» الذين قالوا: إنَّنا -نحن المسلمين- نبغضُ المسيحَ عيسى ابنَ مريمَ؛ لأنَّنا وصفناه بأنَّه عبدٌ.

٤٠٠٥- لَوْ قُلْتُمُ وَلَدٌ إِلَهٌ خَالِقٌ وَفَّيْتُمُوهُ حَقَّهُ بِوِزَانِ

يعني: قالوا لنا: لو قُلتم: إنَّ عيسى -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- ولدٌ لله، وهو في الوقتِ نفسِه إلهٌ خالقٌ لوفَّيتموه حقَّه بِوِزَانٍ.

وهم كذبوا، والله ما صدقوا، لو قلنا: إنَّه عبدٌ ورسولٌ حينئذٍ وفَّيناه حقَّه، أمَّا لو قلنا: إنَّه إلهٌ وولدٌ وخالقٌ فإنَّنا لم نُوفِّه حَقَّه، بل أعطيناه ما لا يستحقُّ، ولكنَّنا نعلمُ علمَ اليقينِ أنَّ عيسى -عليه السَّلامُ- لا يقولُ أبدًا: هذا حقِّي؛ ولهذا يقولُ لله يومَ القيامة: ﴿سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة:١١٦]، وصَدَقَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فلا أحدَ من الخلقِ يستحقُّ أن يُعْبَدَ من دونِ الله.

٤٠٠٦- وَكَذَاكَ أَشْبَاهُ النَّصَارَى مُـذْ غَلَـوْا ... فِي دِيـنِهِمْ بِالْـجَهْلِ وَالطُّغْيَـانِ

قَوْلُهُ: «**مُذْ غَلَوْا**»، وفي نسخةٍ: «**قَدْ غَلَوْا**» .

٤٠٠٧- صَـارُوا مُعَـادِينَ الرَّسُـولَ وَدِينَنَـا ... فِي صُـورَةِ الأَحْبَـابِ وَالإِخْـوَانِ

يعني: أنَّ هؤلاء الذين يعادوننا يعادون الرَّسولَ ويعادون دينَه يدَّعون أنَّهم أحبابُ الرَّسولِ وأنَّهم إخوانُ الرَّسولِ وأنَّهم أنزلوه منزلتَه، وهم يَدْعُون الرَّسولَ ﷺ، ويقولون: إنَّه يعلمُ الغيبَ، ويُجيبُ الدَّعوةَ، وما أشبهَ ذلك ممَّا قالوه في الرَّسولِ، وأخبثُ من ذلك الرَّافضةُ الذين يَدْعُون عليَّ بن أبي طالبٍ عند الشَّدائدِ، وعند الرَّخاءِ يَدْعُون اللهَ عزَّ وجلَّ، فيعدُّون عليًّا للشَّدائدِ وربَّ عليٍّ للرَّخاء، ثُمَّ إذا أنكرنا عليهم وقلنا: إنَّ عليَّ بن أبي طالبٍ بشرٌ كغيرِه من البشرِ ولو كان ربًّا يُدْعَى لمنع نفسَه من الخارجيِّ الذي قتله، قالوا: أنتم تُبْغِضونَ عليًّا ولا تحبُّونه.

فسبحان الله! الذي يسيرُ خلفَ عليِّ بن أبي طالبٍ امتثالًا لأمرِ الرَّسولِ ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ**»[1] هو المُبْغِضُ له، والذي يأتي بما يُنكرُه

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٧)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، رقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه: المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، رقم (٤٢).

عليٌّ يكونُ هو المحبَّ له.

فابنُ القيِّم -رحمه الله- يقول: «**صَارُوا مُعَادِينَ الرَّسُولَ وَدِينَنَا فِي صُورَةِ الأَحْبَابِ وَالإِخْوَانِ**» الأحبابُ لمن؟ للرَّسولِ ومَنْ يُغْلون فيهم، نقولُ: نحن الذين نحبُّه أمَّا أنتم فلا تحبُّونه.

٤٠٠٨- فَـــانْظُرْ إِلَى تَبْـــدِيلِهِمْ تَوْحِيـــدَهُ بِالشِّـــرْكِ وَالإِيـــمَانِ بِـــالكُفْرَانِ

انظُر أيُّها العاقلُ إلى تبديلِ هؤلاء المُشْبِهين للنَّصارى توحيدَ الله بالشِّركِ وتبديلِهم الإيمانَ بالكفرانِ.

٤٠٠٩- وَانْظُـــرْ إِلَى تَجْرِيـــدِهِ التَّوْحِيـــدَ مِـــنْ أَسْـــبَابِ كُـــلِّ الشِّـــرْكِ بِـــالرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «**وَانْظُرْ إِلَى تَجْرِيدِهِ التَّوْحِيدَ**»؛ أي: تجريدِ الرَّسولِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

يعني: جَرَّدَ التَّوحيدَ من أسبابِ كُلِّ الشِّركِ بالرَّحمنِ، حتَّى إنَّ رجلًا قال له: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فقال: «**أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا**»[1]، ويُرْوَى أنَّ رجلًا جاءه وقال: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِالله عَلَيْكَ وَبِكَ عَلَى الله، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**سُبْحَانَ الله! سُبْحَانَ الله! سُبْحَانَ الله!**» فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ؛ لأنَّه قال: «**نَسْتَشْفِعُ بِالله عَلَيْكَ**»، فجعل اللهَ شفيعًا إلى الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ثُمَّ قَالَ: «**وَيْحَكَ لَا يُسْتَشْفَعُ بِالله عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ الله أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ**»[2]، بل يُسْتَشْفَعُ بالخلقِ على الله إذا كان يوم القيامةِ.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١/ ٢٧٤، رقم ٧٨٣)، والطبراني (١٢/ ٢٤٤، رقم ١٣٠٠٥).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب ي الجهمية، رقم (٤٧٢٦).

٤٠١٠- وَاجْمَــعْ مَقَــالَتَهُمْ وَمَــا قَــدْ قَالَــهُ ... وَاسْــــتَدْعِ بِالنُّقَّـــادِ وَالــــوُزَّانِ

قَوْلُهُ: «وَاجْمَعْ مَقَالَتَهُمْ»؛ أي: مقالة أشباهِ النَّصارى.

قَوْلُهُ: «وَمَا قَدْ قَالَهُ»؛ يعني: الرَّسولَ.

قَوْلُهُ: «وَاسْتَدْعِ بِالنَّقَّادِ وَالوَزَّانِ» صيغةُ مبالغةٍ للمفردِ الواحدِ، أو «بالنُّقَّادِ وَالوُزَّانِ» جمع «ناقد» و «وازن».

فهو يَرُدُّ على الذين يغلون في الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، يقولُ: اجمعهما جميعًا.

٤٠١١- عَقْــلٍ وَفِطْرَتِــكَ السَّــلِيمَةِ ثُــمَّ زِنْ ... هَـــذَا وَذَا لَا تَطْـــغَ فِي المِيـــزَانِ

قَوْلُهُ: «عَقْلٍ وَفِطْرَتِكَ السَّلِيمَةِ» اعرِضْ قولَ هؤلاءِ وقولَ الرَّسولِ على العقلِ والفطرةِ السَّليمةِ، وانظر ماذا يحكمُ به العقلُ والفطرةُ.

قَوْلُهُ: «ثُمَّ زِنْ هَذَا وَذَا»؛ يعني: زِنْ أقوالَـهم وأقوالَ الرَّسولِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

قَوْلُهُ: «وَلَا تَطْغَ فِي المِيزَانِ»؛ يعني: زِنْ زِنَةَ عَدْلٍ.

٤٠١٢- فَهُنَــاكَ تَعْلَــمُ أَيُّ حِزْبَيْنَــا هُــوَ الــ ... مُتَــنَقِّصُ المَنْقُــوصُ ذُو العُــدْوَانِ

وما الذي يُؤدِّيه علمُنا إليه؟ أنَّهم هم أصحابُ التَّنقُّصِ وهم المنقوصون، أمَّا نحن الذين عرفنا لربِّنا حقَّه، ولنبيِّنا حقَّه، فنحن الذين أعطيناه ما يستحقُّ، وأعطينا الرَّبَّ عزَّ وجلَّ ما يستحِقُّ، ولم نكن بنعمةِ الله منقوصين، بل نحن الذين على أتمِّ الطُّرقِ.

٤٠١٣- رَامِـي الـبَرِيءِ بِدَائِـهِ وَمُصَـابِهِ فِعْـلُ الـمُبَاهِتِ أَوْقَـحِ الحَيَـوَانِ

يعني: أنَّ هؤلاء رَمَوْا البُرَآءَ بدائِهم ومُصابِهم، رَمَوْنا بأنَّنا نتنقَّصُ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أو نتنقَّصُ اللهَ، والحقيقةُ أنَّهم هم الذين سلكوا هذا المسلكَ، فَرَمَوْنا بالدَّاءِ والمُصَابِ على حدِّ قولِ المَثَل: «رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَانْسَلَّتْ»(١).

٤٠١٤- كَمُعَـيِّرٍ لِلنَّـاسِ بِالزَّغَـلِ الَّـذِي هُوَ ضَرْبُـهُ فَاعْجَـبْ لِـذَا البُهْتَـانِ

قَوْلُهُ: «كَمُعَيِّرِ النَّاسِ بِالزَّغَلِ الَّذِي هُوَ ضَرْبُهُ»؛ يعني: يُعَيِّرُ النَّاسَ بالزَّغَلِ وهو الذي ضَرْبُهُ، والزَّغَلُ هو الغِشُّ في الذَّهبِ أو في الفضَّةِ، يُعَيِّرُ النَّاسَ، يقولُ: فلانٌ -واللهِ- لا يخافُ اللهَ؛ يتعاملُ بالزَّغَلِ، وهذا غريبٌ؛ إذ هو الذي يضربُ السِّكَّةَ ويجعلُ فيها الغشَّ، ثُمَّ يَعيبُ الذين يتعاملون به.

قَوْلُهُ: «فَاعْجَبْ لِذَا البُهْتَانِ» صحيحٌ، هذا من أعجبِ ما يكون.

ثُمَّ اتَّجه -الآن- لـهؤلاء الذين رَمَوْا أهلَ الحقِّ بالتَّنقُّصِ والتَّنقيصِ فقال:

٤٠١٥- يَا فِرْقَةَ التَّنْقِيصِ بَـلْ يَـا أُمَّـةَ الـدْ دَعْـوَى بِـلا عِلْـمٍ وَلَا عِرْفَـانِ

قَوْلُهُ: «يَا فِرْقَةَ التَّنْقِيصِ»؛ أي: حسَب مَسلكِهم ومَنهجِهم.

قَوْلُهُ: «أُمَّةَ الدَّعْوَى» حسب ما رَمَوْنا به من أنَّنا متنقِّصون لله ولرسولِه.

وَقَوْلُهُ: «يَا فِرْقَةَ التَّنْقِيصِ بَلْ يَا أُمَّةَ الدَّعْوَى» «بل» هنا للإضرابِ، ولكنَّها ليست لإضرابِ الإبطالِ، بل لإضراب الانتقالِ ليَصِحَّ الوصفُ الأوَّلُ والثَّاني لهم، فهم مُتنقِّصون للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهم أُمَّةُ الدعوى الباطلة التي ليس فيها علمٌ ولا عرفانٌ.

---

(١) انظر: مجمع الأمثال للميداني (١/ ٢٨٦).

٤٠١٦- وَاللهِ مَا قَدَّمْتُمُ يَوْمًا مَقَا ... لَتَهُ عَلَى التَّقْلِيدِ لِلإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «مَقَالَتَهُ»؛ أي: مقالة الرَّسولِ، بل مقالة الله ورسولِه.

ما قَدَّمتموها على التَّقليدِ، إذا قال شيوخُكم قولًا وقال الرَّسولُ قولًا قَدَّمتم قولَ الشُّيوخِ؛ ولهذا قال:

٤٠١٧- وَاللهِ مَا قَالَ الشُّيُوخُ وَقَالَ إِلْـ ... لَا كُنْتُمُ مَعَهُمْ بِلا كِتْمَانِ

يعني: والله ما قال الشُّيوخُ قولًا وقال النَّبِيُّ ﷺ قولًا إلَّا كنتم معهم؛ أي: مع الشُّيوخِ، تُقَدِّمونَ قولَـهم على قولِ الرَّسولِ -عليه الصلاة والسلام-.

٤٠١٨- وَاللهِ أَغْلاطُ الشُّيُوخِ لَدَيْكُمُ ... أَوْلَى مِنَ المَعْصُومِ بِالبُرْهَانِ

وهذا نقولُه نحن؛ يعني: أنَّ أقوالَ الشُّيوخِ -وإن كانت غلطًا- أولى عندكم من أقوالِ المعصومِ بالقرآنِ وهو النَّبِيُّ ﷺ، هذا على نسخةٍ، والنَّسخة الثَّانية:

وَاللهِ أَغْلَاطُ الشُّيوخِ لَدَيْكُمُ ... عَيْنُ الصَّوَابِ وَمُقْتَضَى البُرْهَانِ

يعني: أنَّكم تَرَوْنَ أنَّ أغلاطَ الشُّيوخِ صوابٌ، وأيُّهما أشدُّ: أن يجعلوا أغلاطَ الشُّيوخِ أَوْلَى من قولِ المعصومِ أو أن يجعلوا أغلاطَ الشُّيوخِ صوابًا؟ الجوابُ: الأَوَّلُ أشدُّ، وهذا -والعياذُ بالله- من تلبيسِ الحقِّ، وقوله: «**مُقْتَضَى البُرْهَانِ**»؛ أي: مقتضى الدَّليلِ.

وهذا في الحقيقةِ من عَمى البصيرةِ والعِياذُ بالله، الذي يظنُّ الغلطَ صَوابًا؛ قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤]، وكُلُّ إنسانٍ لا يريدُ الحقَّ فالغالبُ أن يُعْمَى عنه وألَّا يُوَفَّقَ له لقولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

فعليك يا عبدَ الله بقصدِ الحقِّ حتَّى تُوَفَّقَ له، لا يكن همَّك أن تنصرَ ما قلتَ، اجعل همَّك أن تنصرَ الحقَّ، إن كُنْتَ قُلْتَهُ تظنُّ أنَّه الحقُّ فتبيَّن لك أنَّه غيرُ الحقِّ فاعدل عنه، وإن كنتَ قُلْتَهَ تظنُّ أنَّه الحقُّ ولا يزالُ عندكَ هو الحقُّ فاستمسِكْ به، ولا تخالفْه لقولِ أحدٍ، واعلم أنَّك إذا قَصَدْتَ الحقَّ وُفِّقْتَ له، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].

* * *

٤٠١٩- وَكَذَا قَضَيْتُمْ بِالَّذِي حَكَمَتْ بِهِ ... جَهْلًا عَلَى الأَخْبَارِ وَالقُرْآنِ
٤٠٢٠- وَاللهِ إِنَّهُمُ لَدَيْكُمْ مِثْلُ مَعْـ ... ـصُومٍ وَهَذَا غَايَةُ الطُّغْيَانِ
٤٠٢١- تَبًّا لَكُمْ مَاذَا التَّنَقُّصُ بَعْدَ ذَا ... لَوْ تَعْرِفُونَ العَدْلَ مِنْ نُقْصَانِ
٤٠٢٢- وَاللهِ مَا يُرْضِيهِ جَعْلُكُمُ لَهُ ... تُرْسًا لِشِرْكِكُمُ وَلِلعُدْوَانِ
٤٠٢٣- وَكَذَاكَ جَعْلُكُمُ المَشَايِخَ جُنَّةً ... بِخِلَافِهِ وَالقَصْدُ ذُو تِبْيَانِ
٤٠٢٤- وَاللهُ يَشْهَدُ ذَا بِجَذْرِ قُلُوبِكُمْ ... وَكَذَاكَ يَشْهَدُهُ أُولُو الإِيمَانِ
٤٠٢٥- وَاللهِ مَا عَظَّمْتُمُوهُ طَاعَةً ... وَمَحَبَّةً يَا فِرْقَةَ العِصْيَانِ
٤٠٢٦- أَنَّى وَجَهْلُكُمُ بِهِ وَبِدِينِهِ ... وَخِلَافُكُمْ لِلوَحْيِ مَعْلُومَانِ
٤٠٢٧- أَوْصَاكُمُ أَشْيَاخُكُمْ بِخِلَافِهِمْ ... لِوِفَاقِهِ فِي سَالِفِ الأَزْمَانِ
٤٠٢٨- خَالَفْتُمُ قَوْلَ الشُّيُوخِ وَقَوْلَهُ ... فَغَدَا لَكُمْ خُلْفَانِ مُتَّفِقَانِ
٤٠٢٩- وَاللهُ أَمْرُكُمُ عَجِيبٌ مُعْجِبٌ ... ضِدَّانِ فِيكُمْ لَيْسَ يَتَّفِقَانِ

٤٠٣٠- تَقْدِيمُ آرَاءِ الرِّجَالِ عَلَيْهِ مَعْ هَذَا الغُلُوِّ فَكَيْفَ يَجْتَمِعَانِ

الشرحُ

٤٠١٩- وَكَذَا قَضَيْتُمْ بِالَّذِي حَكَمَتْ بِهِ جَهْلًا عَلَى الأَخْبَارِ وَالقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَا»، وفي نسخةٍ: «وَلِذَا».

قَوْلُهُ: «وَكَذَا قَضَيْتُمْ بِالَّذِي حَكَمَتْ بِهِ» الفاعلُ الأشياخُ.

يعني: قَضَيْتُم بما حَكَمَ به الأشياخُ على الأخبارِ والقرآنِ، فما حَكَمَتْ به الأشياخُ على الأخبارِ والقرآنِ قضيتم به وإن كان ذلك جهلًا إمَّا منكم أو من الشُّيوخِ؛ لأنَّ كُلَّ إنسانٍ يحكمُ على القرآنِ بما يخالفُ القرآنَ فهو جاهلٌ، فصار المخصومُ عندهم الأخبارَ والقرآنَ، والخاصمُ هم الشُّيوخ.

٤٠٢٠- وَاللهِ إِنَّهُمُ لَدَيْكُمْ مِثْلُ مَعْـ ـصُومٍ وَهَذَا غَايَةُ الطُّغْيَانِ

قَوْلُهُ: «إِنَّهُمُ» الضَّميرُ يعودُ على الأشياخِ.

قَوْلُهُ: «مِثْلُ مَعْصُومٍ»؛ أي: مثل الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بل هو على كلامِ المؤلِّفِ، هم أعلى من المعصومِ، يُقَدِّمونَ أقوالَهم على قولِه.

٤٠٢١- تَبًّا لَكُمْ مَاذَا التَّنَقُّصُ بَعْدَ ذَا لَوْ تَعْرِفُونَ العَدْلَ مِنْ نُقْصَانِ

قَوْلُهُ: «تَبًّا»؛ أي: خسارةً لكم.

قَوْلُهُ: «مَاذَا التَّنَقُّصُ بَعْدَ ذَا»؛ أي: هل يمكنُ أن يُوجَدَ تنقُّصٌ وراء ذلك أن تُقَدِّموا قولَ أشياخِكم على قولِ الرَّسولِ؟ الجوابُ: أبدًا، هذا غايةُ التَّنقيصِ للرَّسولِ صلى الله عليه وسلم.

٤٠٢٢- وَاللهِ مَـا يُرْضِـيهِ جَعْلُكُـمُ لَـهُ   تُرْسًـا لِشِـرْكِكُمُ وَلِلعُـدْوَانِ

ما يُرضِي الرَّسولَ أن تجعلوه تُرْسًا لكم، فتقولوا: نحن أحبابُه، وهو حبيبُنا، وهو قدوتُنا، وهو إمامُنا، وأنتم تشركون به بالغلوِّ ودعائِه والاستغاثةِ به، فهؤلاء جمعوا بين الشِّركِ بالرَّسولِ وبين تنقُّصِ أقوالِه.

٤٠٢٣- وَكَـذَاكَ جَعْلُكُـمُ المَشَايِـخَ جُنَّـةً   بِخِلافِـهِ وَالقَصْـدُ ذُو تِبْيَـانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ جَعْلُكُمُ المَشَايِخَ جُنَّةً بِخَلَافِهِ» يجعلون المشايخَ جُنَّةً؛ أي: وقايةً أمامَ النَّاسِ، إذا قيل لهم: القرآنُ والسُّنَّة يقولان: كذا وكذا، قالوا: لكنَّ هذا قاله الشَّيخُ الفلانيُّ، يجعلونهم جُنَّةً.

قَوْلُهُ: «بِخِلَافِهِ»؛ أي: بمخالفة الرَّسولِ، وفي نسخةٍ: «لِخِلَافِهِ»؛ أي: لاختلافٍ معه أو بخلافه، والظَّاهرُ أنَّه يصحُّ الوجهان.

قَوْلُهُ: «وَالقَصْدُ ذُو تِبْيَانِ» القصدُ: تقديمُ آراءِ الشُّيوخِ على قولِ الرَّسولِ.

٤٠٢٤- وَاللهُ يَشْـهَدُ ذَا بِجَـذْرِ قُلُـوبِكُمْ   وَكَـذَاكَ يَشْـهَدُهُ أُولُـو الإِيـمَانِ

قَوْلُهُ: «بِجَذْرِ قُلُوبِكُمْ»؛ أي: بأصلِها.

يعني: أنَّ اللهَ يشهدُ بقصدِكم ويعلمُه، يشهدُ بها في قلوبِكم بها في أصلِها.

٤٠٢٥- وَاللهِ مَـا عَظَّمْتُمُـوهُ طَاعَـةً   وَمَحَبَّـةً يَـا فِرْقَـةَ العِصْيَـانِ

وإنَّما عظَّموه مُداهنةً وتَتَرُّسًا بهذا التَّعظيمِ أمامَ العامَّةِ، فهم يُعظِّمونه من وجهٍ لكنَّه تعظيمٌ لا يرضاه وذلك بالغلوِّ، ويتنقَّصونه من وجهٍ وذلك بتقديمِ كلامِ الشُّيوخِ على كلامِه.

٤٠٢٦- أَنَّـى وَجَهْلُكُـمُ بِـهِ وَبِدِينِـهِ ... وَخِلافُكُـمْ لِلْـوَحْيِ مَعْلُومَـانِ

يعني: كيف تكونون مُعظِّمين له وأنتم تجهلون به وبدينِه وتخالفون الوحيَ؟!

٤٠٢٧- أَوْصَـاكُمُ أَشْـيَاخُكُمْ بِخِلافِهِـمْ ... لِوِفَاقِـهِ فِي سَـالِفِ الأَزْمَـانِ

المرادُ «بأشياخِهم» هنا الأئمَّةُ، أَوْصَوْهُم بخلافِهم لوفاقِه؛ أي: بمخالفتِهم لوفاقِ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم.

يعني: إذا خالَفْنا الرَّسولَ فخُذوا بما يُوافِقُ الرَّسولَ، وهو يعني بذلك أئمَّةَ الهدى، فالشَّافعيُّ -رحمه الله- يقولُ: «إذا رَأَيْتُم قولي يخالفُ قولَ الرَّسولِ فخذوا بقولِ الرَّسولِ واضربوا بقولي عُرْضَ الحائطِ»[1]، ومالكٌ يقولُ: «كُلٌّ يُؤْخَذُ من قولِه ويُتْرَكُ إلَّا صاحبَ هذا القبرِ»[2]؛ يعني: الرَّسولَ ﷺ، والإمامُ أحمدُ كذلك له في هذا كلامٌ كثيرٌ حتَّى إنَّه يُحَذِّرُ عن تقليدِ الرِّجالِ، وأبو حنيفةَ كذلك.

٤٠٢٨- خَـالَفْتُمُ قَـوْلَ الشُّـيُوخِ وَقَوْلَـهُ ... فَغَـدَا لَكُـمْ خُلْفَـانِ مُتَّفِقَـانِ

قَوْلُهُ: «خَالَفْتُمُ قَوْلَ الشُّيُوخِ وَقَوْلَهُ»؛ يعني: لم تأخذوا بوصيَّتِه، فَقَدَّمتم قولَ الشُّيوخِ على قولِه وخالفتم قولَه.

قَوْلُهُ: «فَغَدَا لَكُمْ خُلْفَانِ مُتَّفِقَانِ» ما هما؟ مخالفةُ الأشياخِ الذين أَوْصَوْا باتِّباعِ الرَّسولِ وطرحِ أقوالِهم، ومخالفةِ الرَّسولِ حيث خالفوا قولَه لقولِ أشياخِهم.

---

(١) انظر: معارج القبول (٣/ ١٢٣٩).
(٢) انظر: جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، للألوسي (ص:٩٣).

٤٠٢٩- وَاللهُ أَمْـرُكُمْ عَجِيـبٌ مُعْجِـبٌ ... ضِـدَّانِ فِـيكُمْ لَـيْسَ يَتَّفِقَـانِ

صدَق رحمه اللهُ، فأمرُهم عجيبٌ، يُقَدِّمون قولَ الشُّيوخِ وهم ينهونهم عن تقديمِ قولِهم، هذا عجيبٌ «مُعْجِبٌ»؛ يعني: أنَّه يُعْجِبُ الإنسانَ، فهو بنفسِه عجيبٌ وهو أيضًا مُعْجِبٌ، كُلُّ مَنْ عَلِمَ به يتعجَّبُ منه.

٤٠٣٠- تَقْـدِيمُ آرَاءِ الرِّجَـالِ عَلَيْـهِ مَـعْ ... هَـذَا الغُلُـوِّ فَكَيْـفَ يَجْتَمِعَـانِ

يقولُ: تُقَدِّمون آراءَ الرِّجالِ على قولِه، وتغلُون فيه غُلوًّا جائرًا خارجًا عن العدلِ، كيف يتَّفقان؟! كيف تغلُون فيه هذا الغلوَّ حتَّى تجعلوه إلهًا تدعونه إلى أن تعبدوه وربَّا تدعونه يُغيثكم عند الشَّدائدِ ويُنْقذُكم من المَهَالِكِ؟! وكيف تُقَدِّمون قولَ غيرِه على قولِه؟! هذا عجيبٌ؛ إذ لو كانت محبَّتُهم صادقةً وغلوُّهم صحيحًا لم يُقَدِّموا على قولِه قولَ أحدٍ من النَّاسِ.

***

٤٠٣١- كَفَّرْتُمُ مَـنْ جَـرَّدَ التَّوْحِيـدَ جَهْـ ... ـلًا مِـنْكُمُ بِحَقَـائِقِ الإِيـمَانِ

٤٠٣٢- لَكِنْ تَـجَرَّدْتُمْ لِنَصْرِ الشِّرْكِ وَالـ ... ـبِدَعِ المُضِلَّةِ فِي رِضَا الشَّيْطَانِ

٤٠٣٣- وَاللهِ لَـمْ نَقْصِدْ سِوَى التَّجْرِيـدِ لِلتَّـ ... ـوْحِيدِ ذَاكَ وَصِـيَّةُ الـرَّحْمَنِ

٤٠٣٤- وَرِضَـا رَسُـولِ اللهِ مِنَّـا لَا غُلُـوْ ... وَ الشِّـرْكِ أَصْلَ عِبَادَةِ الأَوْثَـانِ

٤٠٣٥- وَاللهِ لَـوْ يَـرْضَى الرَّسُـولُ دُعَاءَنَـا ... إِيَّـاهُ بَادَرْنَـا إِلَى الإِذْعَـانِ

٤٠٣٦- وَاللهِ لَوْ يَرْضَى الرَّسُـولُ سُجُودَنَا ... كُنَّـا نَخِـرُّ لَـهُ عَـلَى الأَذْقَـانِ

٤٠٣٧- وَاللهِ مَـا يُرْضِـيهِ مِنَّـا غَـيْرُ إِخْـ ... ـلاصٍ وَتَحْكِـيمٍ لِـذَا القُـرْآنِ

٤٠٣٨- وَلَقَدْ نَهَى ذَا الخَلْقَ عَنْ إِطْرَائِهِ ... فِعْلَ النَّصَارَى عَابِدِي الصُّلْبَانِ

٤٠٣٩- وَلَقَدْ نَهَانَا أَنْ نُصَيِّرَ قَبْرَهُ ... عِيدًا حَذَارِ الشِّرْكِ بِالرَّحْمَنِ

٤٠٤٠- وَدَعَا بِأَلَّا يُجْعَلَ القَبْرُ الَّذِي ... قَدْ ضَمَّهُ وَثَنًا مِنَ الأَوْثَانِ

٤٠٤١- فَأَجَابَ رَبُّ العَالَمِينَ دُعَاءَهُ ... وَأَحَاطَهُ بِثَلاثَةِ الجُدْرَانِ

٤٠٤٢- حَتَّى اغْتَدَتْ أَرْجَاؤُهُ بِدُعَائِهِ ... فِي عِزَّةٍ وَحِمَايَةٍ وَصِيَانِ

٤٠٤٣- وَلَقَدْ غَدَا عِنْدَ الوَفَاةِ مُصَرِّحًا ... بِاللَّعْنِ يَصْرُخُ فِيهِمُ بِأَذَانِ

٤٠٤٤- وَعَنَى الأُلَى جَعَلُوا القُبُورَ مَسَاجِدًا ... وَهُمُ اليَهُودُ وَعَابِدُو الصُّلْبَانِ

٤٠٤٥- وَاللهِ لَوْلَا ذَاكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ ... لَكِنَّهُمْ حَجَبُوهُ بِالحِيطَانِ

٤٠٤٦- قَصَدُوا إِلَى تَسْنِيمِ حُجْرَتِهِ لِيَمْـ ... ـتَنِعَ السُّجُودُ لَهُ عَلَى الأَذْقَانِ

٤٠٤٧- قَصَدُوا مُوَافَقَةَ الرَّسُولِ وَقَصْدُهُ التْـ ... ـتَجْرِيدُ لِلتَّوْحِيدِ لِلرَّحْمَنِ

٤٠٤٨- يَا فِرْقَةً جَهِلَتْ نُصُوصَ نَبِيِّهِمْ ... وَقُصُودَهُ وَحَقِيقَةَ الإِيمَانِ

٤٠٤٩- فَسَطَوْا عَلَى أَتْبَاعِهِ وَجُنُودِهِ ... بِالبَغْيِ وَالعُدْوَانِ وَالبُهْتَانِ

٤٠٥٠- لا تَعْجَلُوا وَتَبَيَّنُوا وَتَثَبَّتُوا ... فَمُصَابُكُمْ مَا فِيهِ مِنْ جُبْرَانِ

الشرحُ

يقولُ المؤلِّفُ -رحمه الله- في هؤلاء الذين قَدَّموا آراءَ الرِّجالِ على قولِ الرَّسولِ ﷺ مع غلوِّهِم فيه:

٤٠٣١- كَفَّرْتُمُ مَنْ جَرَّدَ التَّوْحِيدَ جَهْـــ ـــلًا مِنْكُمُ بِحَقَائِقِ الإِيمَانِ

يعني: أنَّهم كَفَّروا مَنْ جَرَّدَ التَّوحيدَ لله، وقالوا: إنَّكم إذا لم تفعلوا مِثْلَ فِعْلِنا في الرَّسولِ فأنتم كُفَّارٌ تُبغضونَ الرَّسولَ صلى الله عليه وسلم.

٤٠٣٢- لَكِنْ تَجَرَّدْتُمْ لِنَصْرِ الشِّرْكِ وَالْـــ ـــبِدَعِ الْمُضِلَّةِ فِي رِضَا الشَّيْطَانِ

كَفَّروا مَنْ جَرَّدَ التَّوحيدَ وتجرَّدوا هم لنَصْرِ الشِّركِ وصاروا دعاةً له، يَدْعُون العامَّةَ إلى دعاءِ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- والاستغاثةِ به، والبدعِ المضلَّةِ، وكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ.

٤٠٣٣- وَاللهِ لَمْ نَقْصِدْ سِوَى التَّجْرِيدِ لِلتْـــ ـــتَوْحِيدِ ذَاكَ وَصِيَّةُ الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «وَاللهِ لَمْ تَقْصِدْ سِوَى التَّجْرِيدِ لِلتَّوْحِيدِ» يُخْبِرُ عن نفسِه وهو صادقٌ -رحمه الله- أنَّه ما قَصَدَ إلَّا التَّجريدَ للتَّوحيدِ.

قَوْلُهُ: «ذَاكَ وَصِيَّةُ الرَّحْمَنِ» حيث قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، فإنَّ معنى «قَضَى»: «وَصَّى» كما قال به كثيرٌ من المُفَسِّرين.

٤٠٣٤- وَرِضَا رَسُولِ اللهِ مِنَّا لَا غُلُوْ وَ الشِّرْكِ أَصْلَ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ

قَوْلُهُ: «وَرِضَا رَسُولِ اللهِ»؛ يعني: لم نقصد سوى رضا رسولِ الله.

قَوْلُهُ: «لَا غُلُوَّ الشِّرْكِ»: يعني: لم نقصدْ غلوَّ الشِّركِ.

قَوْلُهُ: «أَصْلَ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ» الظَّاهر أنَّ «أَصْلَ» بالفتحِ أصحُّ؛ لأنَّ الغلوَّ هو أصلُ عبادةِ الأصنامِ كما قال الإمامُ محمَّدُ بن عبد الوهَّاب رحمه الله: «بابُ ما جاء أنَّ الغُلُوَّ فِي قُبورِ الصَّالحين يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ»(١)، فالغلوُّ هو أصلُ

(١) التوحيد لابن عبد الوهاب (ص:٦٤).

الشِّركِ؛ ولهذا قال: «لَا غُلُوَّ الشِّرْكِ أَصْلَ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ»، فالغلوُّ هو أصلُ العبادةِ، إِذَنْ الغلوُّ في الصَّالحين جعلهم أوثانًا يُعْبَدُون من دونِ الله؛ ولهذا نهى الرَّسولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلام- عن الغلوِّ.

٤٠٣٥- وَاللهِ لَوْ يَرْضَى الرَّسُولُ دُعَاءَنَا   إِيَّاهُ بَادَرْنَا إِلَى الإِذْعَانِ

وَصَدَق رحمه اللهُ، لو قال لنا الرَّسولُ: «ادْعُونِ» -وحاشاه أن يقولَ ذلك- لدعَوْناه.

٤٠٣٦- وَاللهِ لَوْ يَرْضَى الرَّسُولُ سُجُودَنَا   كُنَّا نَخِرُّ لَهُ عَلَى الأَذْقَانِ

نعم؛ لو قال: «اسجدوا لي» سَجَدْنَا على الأَذْقَانِ، لكنَّه -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- نَهَى عن ذلك أشدَّ النَّهيِ، نَهَى عن أن يُدْعَى أو يُسْجَدَ له.

٤٠٣٧- وَاللهِ مَا يُرْضِيهِ مِنَّا غَيْرُ إِخْـ   ـلاصٍ وَتَحْكِيمٍ لِذَا القُرْآنِ

وهذا معلومٌ من هديِه وسُنَّتِهِ أنَّه لا يَرْضَى منَّا إلَّا الإخلاصَ لله وتحكيمَ شريعتِه.

٤٠٣٨- وَلَقَدْ نَهَى ذَا الخَلْقَ عَنْ إِطْرَائِهِ   فِعْلَ النَّصَارَى عَابِدِي الصُّلْبَانِ

قَوْلُهُ: «وَلَقَدْ نَهَى ذَا الخَلقِ عَنْ إِطْرَائِهِ» يعني: نهى أن نُطْرِيَه، فقال: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ»(١)؛ يعني: لا تَغْلُوا فيَّ كما غَلَت النَّصارى.

قَوْلُهُ: «عَابِدِي الصُّلْبَانِ»؛ يعني: أنَّ النَّصارى يعبدون الصَّليبَ، وهذا مِن سفهِهم وجهلِهم، فالصَّليبُ مصلوبٌ عليه نبيُّهم بزعمِهم، وكان مقتضى العقلِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾، رقم (٣٤٤٥).

أنَّهم إذا رَأَوُا الصَّليبَ كَسَّروه؛ لأنَّه صُلِبَ عليه نبيُّهم، فكان من العقلِ أن يسخطوا هذا الذي صُلِبَ عليه نبيُّهم وأن يكَسِّروه لكن لجهلِهم وضلالِهم وسفهِهم صاروا يُقَدِّسونه ويعبدونه والعياذُ بالله، وصَدَقَ اللهُ أنَّهم ضالُّون كما قال تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٧].

٤٠٣٩- وَلَقَــدْ نَهَانَــا أَنْ نَصَــيِّرَ قَــبْرَهُ ... عِيــدًا حَــذَارِ الشِّــرْكِ بِــالرَّحْمَنِ

فقال ﷺ: «**لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا**»[1]، لماذا؟ لأنَّنا إذا اتخذناه عيدًا تكرَّر عَوْدُنا إليه وصار ذلك سببًا للشِّرك به؛ فلهذا قال: «**لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا**».

٤٠٤٠- وَدَعَــا بِــأَلَّا يُجْعَــلَ القَــبْرُ الَّــذِي ... قَــدْ ضَــمَّهُ وَثَنًــا مِــنَ الأَوْثَــانِ

أي: دعا اللهَ فقال ﷺ: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**».

٤٠٤١- فَأَجَــابَ رَبُّ العَالَــمِينَ دُعَــاءَهُ ... وَأَحَاطَــهُ بِثَلَاثَــةِ الــجُدْرَانِ

٤٠٤٢- حَتَّــى اغْتَــدَتْ أَرْجَــاؤُهُ بِدُعَائِــهِ ... فِي عِــزَّةٍ وَحِمَايَــةٍ وَصِــيَانِ

يقولُ ابنُ القيِّمِ: إنَّ اللهَ أَجَابَ دعاءَه وأحاط القبرَ بثلاثة جُدران، فلا أحدَ يصلُ إليه حتَّى يجعلَه وثنًا، حتَّى لو عُبِدَ القبرُ فإنَّه لا يمكنُ أن يكونَ وثنًا، لماذا؟ لأنَّه محاطٌ بثلاثةِ جدران، الحجرةُ النَّبويَّةُ «**حجرةُ الرَّسول**» -ولا أُريدُ الحجرةَ المبنيَّةَ هذه- أصلًا جُعِلَت ثلاثةَ جدران، وجُعِلَت مُثَلَّثةً، زاويتُها القائمةُ من خلف القبلةِ من أجل أَلَّا يُتَّجَهَ إلى القبر اتِّجاهٌ مستقيمٌ، فالحجرةُ جُعِلَت مثلَّثةً لا مُرَبَّعةً، فالذي يستقبلُه يستدبرُ القبلةَ، لكن الذي يستقبلُ القبرَ الآن ماذا يستقبلُ؟ يستقبلُ زاويةَ «**رأسَ سهمٍ**»، لا يستقبلُ جِدارًا مُرَبَّعًا أو مستقيمًا.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب المناسك، باب زيارة القبور، رقم (٢٠٤٢).

وهذا من حمايةِ الله عزَّ وجلَّ لقبرِ الرَّسولِ ﷺ، كما أنَّه أيضًا لا يمكنُ الوصولُ إليه الآن؛ لأنَّه قد فقد أُحْكِمَ.

وفي التَّاريخ أنَّ رَجُلَيْن جاءَا من المشرِقِ بصفةِ غَرِيبَيْنِ إلى المدينةِ يُريدان أن يَنْبُشَا قبرَ النَّبِيِّ ﷺ، فجِيء إلى الملكِ في ذلك الوقتِ، وأُرِيَ في المنام أنَّ رجلَيْن جاءَا إلى المدينةِ من أجل أن يَنْبُشَا قبرَ النَّبِيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ويأخُذا جسدَه الشَّريفَ؛ لأنَّ جسدَه الشَّريفَ لم تأكُلْه الأرضُ، فَفَزِعَ وقام بسرعةٍ، وكما هو معلومٌ في ذاك الوقتِ لا تُوجَدُ مواصلاتٌ، بل على ظهورِ الإبلِ وظهورِ السُّفنِ، المهمُّ أنَّه جاء بما معه من الجنودِ ونزل المدينةَ وصنَع موائدَ كثيرةً، وقال لأمرائِه: «**اجمعوا لي أهلَ المدينةِ كُلَّهم**»، فبدؤوا يجمعونهم، يأتون بأناسٍ ويأتون بأناسٍ وهو واقفٌ ينظر؛ لأنَّه قد أُرِيَ في المنام وَجْهَي الرَّجُلَيْن، كُلَّما جاءت طائفةٌ نظر فيها، ولكنَّه لم ير الرَّجُلَيْنِ، حتَّى قالوا له: إنَّ أهلَ المدينةِ انتهوا، كُلُّ مَنْ في المدينةِ جِئنا بهم، فقال: لا، قالوا: لا يُوجَدْ إلَّا رجلان غريبان في بيتٍ حول المسجدِ، فقال: في قرارةِ نفسِه واللهُ أعلمُ: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِ﴾ [الكهف:٦٤]، فجِيء بهما، فإذا هما على الوصفِ الذي رآه في المنامِ، فسألهما وحَقَّقَ معهما، فإذا هما قد حفَرا خندقًا في الأرضِ من البيتِ الذي هما فيه إلى قبرِ النَّبِيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، لكنَّهما لم يَصلاه بعدُ، على كُلِّ حالٍ أجرى اللَّازمَ عليهما، ثُمَّ أَمَرَ بأن يُذَابَ رصاصٌ عظيمٌ وصَل إلى الجبلِ أحاطه بقبرِ النَّبِيِّ ﷺ حمايةً لهذا الجسدِ الشَّريفِ، ثُمَّ بنى عليه هذه الجدرانَ الثَّلاثة.

قَوْلُهُ: «**حَتَّى اغْتَدَتْ أَرْجَاؤُهُ بِدعَائِهِ**»؛ أي: بسببه في عِزَّةٍ وحمايةٍ وصيانٍ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أحاطَه بثلاثةِ جدرانٍ مَبْنِيَّةٍ على الحجرةِ، وهذه الثَّلاثةُ مُثَلَّثَةٌ، وزاويةُ المثلَّثِ يتَّجهُ إليها مَنْ يريدُ أن يُصلِّيَ إلى القبرِ، فلا يستطيعُ أن يُصلِّيَ إلى القبرِ على وجهِ الاستواءِ؛ فلو أراد أحدٌ أن يُصَلِّيَ إليه تكونُ الزَّاويةُ الثُّلاثيَّةُ قِبَلَ وجهِهِ،

وحينئذٍ لا يمكنُ أن يكونَ القبرُ وثنًا، فإن قال قائلٌ: أَلَسْنَا نجدُ الآنَ مَنْ يُصَلِّي إلى القبرِ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؟

قلنا: إن صَحَّ هذا فإنَّه لم يكن القبرُ وثنًا، وإن اعتقد هذا المصلِّي له أنَّ ذلك وثنٌ فإنَّه ليس وثنًا، لماذا؟ لتعذُّرِ الوصولِ إلى القبرِ، وقد ذكرنا سابقًا أنَّ بعضَ أهلِ العلمِ يقولُ: إنَّ زيارةَ النِّساءِ لقبرِ الرَّسولِ ﷺ ليست زيارةً لقبرٍ؛ لأنَّه لا يُمْكِنُ الوصولُ إلى القبرِ؛ ولهذا لا نجزمُ بأنَّ مَنْ زارت قبرَ الرَّسولِ ﷺ من النِّساء أنَّها داخلةٌ في لعنِ زائراتِ القبورِ؛ إذ في الحقيقة بينها جدرانٌ لم تصل إلى القبرِ؛ ولهذا قال أهلُ العلم رحمهم الله: تُسَنُّ زيارةُ قبرِ النَّبيِّ ﷺ حتَّى للنِّساءِ، هكذا صَرَّحَ فقهاءُ الحنابلة رحمهم الله، وذكر شيخُنا عبدُ الرَّحمن ابن سعدي -رحمه الله- أنَّ العِلَّةَ في ذلك أنَّ زيارةَ النِّساءِ للقبرِ ليست زيارةً حقيقيَّةً للقبرِ؛ للحيلولةِ بينهنَّ وبين الوصولِ إلى القبرِ، لكنَّنا مع ذلك نقولُ: الاحتياطُ ألَّا تزورَ القبرَ؛ لأنَّ ذلك زيارةٌ عرفًا وليس زيارةً حقيقيَّةً شرعيَّةً، فهي زيارةٌ عرفيَّةٌ، تعارف النَّاسُ أنَّ مَنْ وَقَفَ عند القبرِ الشَّريفِ ولو مع حيلولةِ هذه الجدران فهو زائرٌ.

فالمهمُّ أنَّ ابنَ القيِّم -رحمه الله- يقولُ: إنَّ الله أجابَ دعاءَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حين قال: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**»[(١)].

ولو قال قائلٌ: إنَّه يوجد مَنْ يعبدُه قلنا: لكن القبرُ لم يكن وثنًا، فالقبرُ مستورٌ، وكونُنا نقولُ: إنَّ اللهَ أجابَ دعوتَه خيرٌ من كونِنا نقولُ: إنَّ اللهَ لم يُجِبْ دعوتَه في أمرٍ محتمِلٍ، وعدمُ إجابةِ دعوةِ الله للرَّسولِ لحكمةٍ فوق حكمةِ الرَّسولِ ﷺ؛ ولهذا سأل الرَّسولُ ربَّه ثلاثًا، فهل أَجَابَ الثَّلاثَ كُلَّها؟ الجوابُ: لا، ما أَجَابَ اللهُ الثَّلاثَ كُلَّها، واللهُ عزَّ وجلَّ هو الذي له الملكُ، يُعْطِي ويمنعُ،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ١٥٠، رقم ٧٥٤٤)، وعبد الرزاق (١/ ٤٠٦، رقم ١٥٨٧).

ويُجيبُ ولا يُجيبُ، ولا شكَّ أنَّ قولَنا بأنَّ اللهَ أجابَ دعاءَه حين قال: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ» هو المتعيِّنُ؛ لأنَّ غيرَه مُحْتَمِلٌ، والأصلُ أنَّ اللهَ أجاب دعاءَه، وإن عُبِدَ القبرُ فليس القبرُ نفسُه وثنًا؛ للحيلولةِ بهذه الجدران الثَّلاثةِ.

فإن قيل: إنَّ بعضَ النَّاسِ يقولُ: إنَّ قبرَ النَّبيِّ في المسجدِ فما الجوابُ؟

نقولُ: وهل الذي يقولُ: إنَّ مسجدَ الرَّسولِ ﷺ هو قباء، هل تُطيعُه؟ الجوابُ: لا، كذلك إذا قال: قبرُه في المسجدِ هل تطيعُه، أو أنَّ المعنى أنَّ المسجدَ يشملُه؟ فهل معناه إذا قلت بالأوَّل: أنَّ القبرَ في المسجدِ؛ يعني: في الرَّوضةِ، وليس في المكان الذي فيه الآن، ما معنى في المسجد؟ معنى في المسجد هل معناه: أنَّ قبرَ الرَّسولِ ليس في مكانِه الآن ولكنَّه في الرَّوضةِ؟ الجوابُ: في مكانِه، والمسجدُ شاملٌ له، نقولُ: لا حُجَّةَ لكم في هذا؛ لأنَّ الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- دُفِنَ وبيتُه مستقلٌّ عن المسجدِ، ولكن لـمَّا وَسَّعوا المسجدَ كأنَّهم في ذلك الوقتِ ما رَأَوْا مثلًا فُسحةً إلَّا من هذه الجهةِ، فدخلت الحجرةُ في المسجدِ، فهي حجرةٌ في مسجدٍ، وليست قبرًا في مسجدٍ.

٤٠٤٣- وَلَقَدْ غَدَا عِنْدَ الوَفَاةِ مُصَرِّحًا ... بِاللَّعْنِ يَصْرُخُ فِيهِمُ بِأَذَانِ

٤٠٤٤- وَعَنَى الأُلَى جَعَلُوا القُبُورَ مَسَاجِدًا ... وَهُمُ اليَهُودُ وَعَابِدُو الصُّلْبَانِ

في مَرَضِ موتِه كان يقولُ صلواتُ الله وسلامُه عليه: «لَعْنَةُ اللهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، يقولُ ذلك تحذيرًا لأُمَّتِهِ مِـمَّا صَنَعُوا[1]؛

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة، رقم (٤٣٥)، مسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، رقم (٥٢٩).

ولهذا قال:

٤٠٤٥- وَاللهِ لَوْلَا ذَاكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ ... لَكِنَّهُمْ حَجَبُوهُ بِالحِيطَانِ

فهو قال ذلك يُحَذِّرُ أُمَّتَه أن يصنعوا مثلما صنعوا، قالت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَلَوْلَا ذَلِكَ لأُبْرِزَ قَبْرُهُ غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»(١).

مَن الذين حجبوه؟ الجوابُ: الصَّحابةُ، فهم دفنوه في البيتِ نفسِه، على أنَّه أيضًا قد وردت آثارٌ أنَّ النَّبِيَّ يُدْفَنُ حَيْثُ قُبِضَ(٢).

٤٠٤٦- قَصَدُوا إِلَى تَسْنِيمِ حُجْرَتِهِ لِيَمْـ ... ـتَنِعَ السُّجُودُ لَهُ عَلَى الأَذْقَانِ

قصدوا إلى تسنيمِ الحجرةِ وليس تسنيمَ القبرِ، فالقبرُ مُسَنَّمٌ لا شكَّ، لكن أيضًا الحجرةُ مُسَنَّمَةٌ؛ يعني: مُثَلَّثَةٌ لماذا؟ لأجل أن يمتنعَ السُّجودُ له على الأذقانِ.

٤٠٤٧- قَصَدُوا مُوَافَقَةَ الرَّسُولِ وَقَصْدُهُ التْـ ... ـتَجْرِيدُ لِلتَّوْحِيدِ لِلرَّحْمَنِ

يعني: أنَّهم قصدوا موافقةَ الرَّسولِ في ألَّا يُجْعَلَ قبرُه وَثَنًا يُعْبَدُ.

٤٠٤٨- يَا فِرْقَةً جَهِلَتْ نُصُوصَ نَبِيِّهِمْ ... وَقُصُودَهُ وَحَقِيقَةَ الإِيمَانِ

٤٠٤٩- فَسَطَوْا عَلَى أَتْبَاعِهِ وَجُنُودِهِ ... بِالبَغْيِ وَالعُدْوَانِ وَالبُهْتَانِ

٤٠٥٠- لا تَعْجَلُوا وَتَبَيَّنُوا وَتَثَبَّتُوا ... فَمُصَابُكُمْ مَا فِيهِ مِنْ جُبْرَانِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة، رقم (٤٣٥)، مسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، رقم (٥٢٩).

(٢) كما في حديث: «ما قُبض نبي إلا دُفن حيث يُقبض». أخرجه ابن ماجه: كتاب الجنائز، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ، رقم (١٦٢٨).

يعني: بذلك الذين يُشَنِّعونَ على مَنْ جَرَّدوا التَّوحيدَ ويقولون: أنتم تنقَّصتم الرَّسولَ، أنتم لا تعبدونه، أنتم لا تدعونه، أنتم لا تغلون فيه، أنتم لا تحبُّونه، وأمثال ذلك، فهم سَطَوْا على أتباعِ الرَّسولِ وجندِه بالبغيِ والعدوانِ والعياذُ بالله، ولكن ما موقفُ أتباعِ الرَّسولِ وجندِه من هذا؟

موقفهم: **الأوَّلُ**: الصَّبرُ، **الثَّاني**: الثَّباتُ، **الثَّالثُ**: المدافعةُ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾ [الأنفال:٤٥]، اثْبُتْ، لا تتغيَّرْ بكثرةِ الهجومِ عليك أو التَّشنيعِ على قولِك، ما دُمْتَ على حقٍّ فَاثْبُتْ، فالحقُّ لا يمكنُ أن يُزَحْزَحَ، اصبر، ثُمَّ بعد ذلك دَافِعْ، هذا إذا كُنْتَ في مقامِ الضَّعفِ، فلا أدنى من المدافعةِ، أمَّا إذا كُنْتَ في مقامِ القوَّةِ فعليك بالهجومِ، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٣].

ولا شكَّ أنَّ النَّاسَ منذ كانت الدُّنيا يداولُ اللهُ الأيَّامَ بينهم، فتارةً يكونون في مقامِ القوَّةِ، وتارةً يكونون في مقامِ الضَّعفِ، ولكُلِّ مقامٍ ما يناسبُه، لكن أهمُّ شيءٍ أنَّك في مقامِ الضَّعفِ يجبُ أن تَثْبُتَ، لا تتزحزحْ عن الحقِّ، لا تقل: النَّاسُ كُلُّهم على خلاف ذلك، بل اثْبُتْ، فلك أتباعٌ، قال رحمه اللهُ:

وَاللهُ نَـــاصِرُ دِينِـــهِ وَكِتَابِـــهِ ... وَرَسُـــولِهِ فِي سَـــائِرِ الأَزْمَـــانِ

* * *

٤٠٥١- قُلْنَـــا الَّـــذِي قَـــالَ الأَئِمَّـــةُ قَبْلَنَـــا ... وَبِهِ النُّصُوصُ أَتَـتْ عَـلَى التِّبْيَـانِ

٤٠٥٢- القَصْدُ حَجُّ البَيْتِ وَهْوَ فَرِيضَـةُ الـرْ ... رَحْمَــنِ وَاجِبَــةٌ عَــلَى الأَعْيَــانِ

٤٠٥٣- وَرِحَالُنَــا شُــدَّتْ إِلَيْــهِ مِــنْ بِقَــا ... عِ الأَرْضِ قَاصِـيهَا كَـذَاكَ الـدَّانِي

٤٠٥٤- مَنْ لَـمْ يَـزُرْ بَيْـتَ الإِلَـهِ فَـمَا لَـهُ ... مِـنْ حَجِّـهِ سَـهْمٌ وَلا سَـهْمَانِ

٤٠٥٥- وَكَذَا نَشُدُّ رِحَالَنَا لِلمَسْجِدِ النْـ ... ـنَبَوِيِّ خَيْرِ مَسَاجِدِ البُلْدَانِ

٤٠٥٦- مِنْ بَعْدِ مَكَّةَ أَوْ عَلَى الإِطْلاقِ فِيـ ... ـهِ الخُلْفُ عِنْدَ النَّاسِ مُنْذُ زَمَانِ

٤٠٥٧- وَنَرَاهُ عِنْدَ النَّذْرِ فَرْضًا لَكِنِ النْـ ... ـنُعْمَانُ يَأْبَى ذَا وَلِلنُّعْمَانِ

٤٠٥٨- أَصْلٌ هُوَ النَّافِي الوُجُوبَ فَإِنَّهُ ... مَا جِنْسُهُ فَرْضًا عَلَى الإِنْسَانِ

٤٠٥٩- وَلَنَا بَرَاهِينٌ تَدُلُّ بِأَنَّهُ ... بِالنَّذْرِ مُفْتَرَضٌ عَلَى الإِنْسَانِ

٤٠٦٠- أَمْرُ الرَّسُولِ لِكُلِّ نَاذِرِ طَاعَةٍ ... بِوَفَائِهِ بِالنَّذْرِ بِالإِحْسَانِ

٤٠٦١- وَصَلاتُنَا فِيهِ بِأَلْفٍ مِنْ سِوَا ... هُ مَا خَلا ذَا الحِجْرِ وَالأَرْكَانِ

٤٠٦٢- وَكَذَا صَلاةٌ فِي قِبَا فَكَعُمْرَةٍ ... فِي أَجْرِهَا وَالفَضْلُ لِلْمَنَّانِ

٤٠٦٣- فَإِذَا أَتَيْنَا المَسْجِدَ النَّبَوِيَّ صَلْـ ... ـلَيْنَا التَّحِيَّةَ أَوَّلًا ثِنْتَانِ

٤٠٦٤- بِتَمَامِ أَرْكَانٍ لَهَا وَخُشُوعِهَا ... وَحُضُورِ قَلْبٍ فِعْلَ ذِي الإِحْسَانِ

٤٠٦٥- ثُمَّ انْثَنَيْنَا لِلزِّيَارَةِ نَقْصِدُ الْـ ... ـقَبْرَ الشَّرِيفَ وَلَوْ عَلَى الأَجْفَانِ

٤٠٦٦- فَنَقُومُ دُونَ القَبْرِ وَقْفَةَ خَاضِعٍ ... مُتَذَلِّلٍ فِي السِّرِّ وَالإِعْلانِ

٤٠٦٧- فَكَأَنَّهُ فِي القَبْرِ حَيٌّ نَاطِقٌ ... فَالوَاقِفُونَ نَوَاكِسُ الأَذْقَانِ

٤٠٦٨- مَلَكَتْهُمُ تِلْكَ المَهَابَةُ فَاعْتَرَتْ ... تِلْكَ القَوَائِمَ كَثْرَةُ الرُّجْفَانِ

٤٠٦٩- وَتَفَجَّرَتْ تِلْكَ العُيُونُ بِمَائِهَا ... وَلَطَالَمَا غَاضَتْ عَلَى الأَزْمَانِ

٤٠٧٠- وَأَتَى الـمُسَلِّمُ بِالسَّلامِ بِهَيْبَةٍ ... وَوَقَارِ ذِي عِلْمٍ وَذِي إِيمَانِ

٤٠٧١- لَمْ يَرْفَعِ الأَصْوَاتِ حَوْلَ ضَرِيحِهِ ... كَلَّا وَلَمْ يَسْجُدْ عَلَى الأَذْقَانِ

٤٠٧٢- كَلَّا وَلَمْ يَرَ طَائِفًا بِالقَبْرِ أُسْـ ... ـبُوعًا كَأَنَّ القَبْرَ بَيْتٌ ثَانِي

٤٠٧٣- ثُمَّ انْثَنَى بِدُعَائِهِ مُتَوَجِّهًا ... لله نَحْوَ البَيْتِ ذِي الأَرْكَانِ

٤٠٧٤- هَذِي زِيَارَةُ مَنْ غَدَا مُتَمَسِّكًا ... بِشَرِيعَةِ الإِسْلامِ وَالإِيمَانِ

٤٠٧٥- مِنْ أَفْضَلِ الأَعْمَالِ هَاتِيكَ الزِّيَا ... رَةُ وَهْيَ يَوْمَ الحَشْرِ فِي المِيزَانِ

٤٠٧٦- لا تَلْبِسُوا الـحَقَّ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ ... سُنَنُ الرَّسُولِ بِأَعْظَمِ البُرْهَانِ

٤٠٧٧- هَذِي زِيَارَتُنَا وَلَمْ نُنْكِرْ سِوَى الـ ... ـبِدَعِ المُضِلَّةِ يَا أُولِي العُدْوَانِ

٤٠٧٨- وَحَدِيثُ شَدِّ الرَّحْلِ نَصٌّ ثَابِتٌ ... يَجِبُ المَصِيرُ إِلَيْهِ بِالبُرْهَانِ

الشرحُ

لـمَّا بَيَّنَ المؤلِّفُ -رحمه الله- أنَّ غلوَّ هؤلاءِ بالرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- مع مخالفتِهم قولَه فيما وَصَفَ به ربَّه مُنْكَرٌ من وَجْهَيْنِ هما:

الوجه الأوَّل: الغلوُّ.

الوجه الثَّاني: التَّحريفُ لكلامِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

لـمَّا بَيَّنَ ذلك قال رحمه الله:

٤٠٥١- قُلْنَا الَّذِي قَالَ الأَئِمَّةُ قَبْلَنَا ... وَبِهِ النُّصُوصُ أَتَتْ عَلَى التِّبْيَانِ

يعني: أنَّنا نحن نقولُ ما قاله الأئمَّةُ قبلَنا وجاءت به النُّصوصُ، ثُمَّ ذَكَرَ الزِّيارةَ الشَّرعيَّة فبدأ بالحجِّ فقال:

٤٠٥٢- القَصْدُ حَجُّ البيْتِ وَهْوَ فَرِيضَـةُ الـرْ ... رَحْمَــنِ وَاجِبَــةٌ عَــلَى الأَعْيَــانِ

قَوْلُهُ: «القَصْدُ حَجُّ البَيْتِ»؛ يعني: أنَّنا نُسافرُ إلى البيتِ للحجِّ بخلاف هؤلاء الذين يغلون فيمَنْ يزعمونهم أولياءَ؛ فإنَّهم يحجُّون إليهم، ويَرَوْنَ أنَّ الحجَّ إلى قبورِهم أفضلُ من الحجِّ إلى بيتِ الله عزَّ وجلَّ، فجعلوا قصدَ قبورِ الأمواتِ أفضلَ من قصدِ بيتِ ربِّ السَّماواتِ والعياذُ بالله.

قَوْلُهُ: «وَهْوَ فَرِيضَةُ الرَّحْمَنِ وَاجِبَةٌ عَلَى الأَعْيَانِ»، وهذا معروفٌ، فالحجُّ أحدُ أركانِ الإسلامِ.

٤٠٥٣- وَرِحَالُنَـا شُـدَّتْ إِلَيْـهِ مِـنْ بِقَـا ... عِ الأَرْضِ قَاصِيهَا كَـذَاكَ الـدَّانِي

قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج:٢٧]، فالنَّاسُ يأتون إلى هذا البيتِ من أقاصي الأرضِ ودانيها.

٤٠٥٤- مَنْ لَـمْ يَـزُرْ بَيْـتَ الإِلَـهِ فَـمَا لَـهُ ... مِـنْ حَجِّـهِ سَـهْمٌ وَلا سَـهْمَانِ

يعني: أنَّ مَنْ لم يَطُفْ بالبيتِ فليس له حجٌّ؛ لأنَّ الطَّوافَ بالبيتِ وهو طوافُ الزِّيارةِ ركنٌ من أركانِ الحجِّ، قال اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج:٢٩]، فَمَنْ حَجَّ ولم يَزُرِ البيتَ ولم يَطُفْ به فلا حجَّ له حتَّى لو وَقَفَ بعرفةَ وبمزدلفةَ ورَمَى الجمارَ، وبَاتَ بمنى، فإنَّه لا حجَّ له.

٤٠٥٥- وَكَذَا نَشُدُّ رِحَالَنَا لِلمَسْجِدِ النَّـ ـنَبَوِيِّ خَيْرِ مَسَاجِدِ البُلْدَانِ

٤٠٥٦- مِنْ بَعْدِ مَكَّةَ أَوْ عَلَى الإِطْلَاقِ فِيـ ـهِ الخُلْفُ عِنْدَ النَّاسِ مُنْذُ زَمَانِ

نشدُّ الرَّحلَ إلى مسجدِ الرَّسولِ ﷺ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ أَذِنَ فيه، بل رَغَّبَ فيه فقال: «لَا تُشَدُّ الرِّحالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِي هَذَا، وَالمَسْجِدِ الأَقْصَى»(١).

لكن هل هو أفضلُ من مكَّةَ أو مكَّةُ أفضلُ؟ لا شكَّ أنَّ مكَّةَ أفضلُ، أمَّا الصَّلاةُ في البيتِ فإنَّه بالنَّصِّ عن النَّبيِّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- حيث قال: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاه من المَسَاجِدِ إِلَّا مَسْجِدَ الكَعْبَةِ»(٢)، هكذا في صحيحِ مسلمٍ، وكذلك في الصَّحيحين من حديث أبي هُريرة أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا المَسْجِدَ الحَرَامَ»(٣)، لكن هل مكَّةُ أفضلُ أو المدينةُ؟ هذا محلُّ الخلاف، والصَّوابُ بلا شكٍّ أنَّ مكَّةَ أفضلُ من المدينةِ.

المسجدُ النَّبويُّ لا شَكَّ أنَّه خيرُ مساجدِ البلدانِ مِنْ بَعْدِ مَكَّةَ أو على الإطلاقِ، لكن القولُ بأنَّه «على الإطلاقِ» ضعيفٌ، والصَّوابُ أنَّه خيرُ المساجدِ من بعد مسجدِ مكَّةَ، والحديثُ في هذا صريحٌ صحيحٌ كما سبق.

لكن لعلَّ الذين قالوا بخِلاف ذلك يريدون نفسَ المسجدِ دُون الصَّلاةِ فيه،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم (١١٨٩). ومسلم: كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد، رقم (١٣٧٩).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة، رقم (١٣٩٦).
(٣) أخرجه البخاري: كتاب التطوع، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم (١١٣٣)، ومسلم: كتاب الحج، باب فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة، رقم (١٣٩٤).

والصَّوابُ أنَّ المسجدَ الحرامَ أفضلُ من المسجدِ النَّبويِّ، وأنَّ الصَّلاةَ فيه أفضلُ من الصَّلاةِ في المسجد النَّبويِّ، وأمَّا ما زعمه بعضُ العلماءِ من أنَّ الحجرةَ النَّبويَّةَ أفضلُ من المسجدِ الحرامِ وأفضلُ من الكعبةِ فهذا قولٌ باطلٌ، قال ابنُ عقيلٍ -رحمه الله- وهو من علماء الحنابلة: «الكعبةُ أفضلُ من مُجَرَّدِ الحجرةِ، فأمَّا والنَّبيُّ ﷺ فيها فلا وَالله وَلَا العرشُ وَحَمَلَتُهُ ولَا الجَنَّةُ»[1]، وهذا غلطٌ منه رحمه الله؛ لأنَّنا لسنا نُريدُ التَّفضيلَ بين محمَّدٍ ﷺ وبين الكعبة، إنَّما نُريدُ التَّفضيلَ بين هذا المسجدِ وهذا المسجدِ، وأمَّا كونُ النَّبيِّ ﷺ فيها فإنَّ ذلك لا يُوجِبُ أنَ يزيدَ فَضلُها على فضلِ الكعبةِ والمسجدِ الحرامِ.

٤٠٥٧- وَنَرَاهُ عِنْدَ النَّذْرِ فَرْضًا لَكِنِ النْـ ـنُعْمَانُ يَأْبَى ذَا ....

قَوْلُهُ: «وَنَرَاهُ عِنْدَ النَّذْرِ فَرْضًا» المعنى: شدُّ الرَّحلِ إلى المسجدِ النبويِّ نراه فرضًا عند النَّذرِ، إِذَنْ المؤلِّفُ -رحمه الله- يُشيرُ إلى أنَّه بالاتِّفاقِ أنَّ شدَّ الرَّحلِ إلى المسجدِ الحرامِ فرضٌ من أصلِ الإسلامِ، وفرضٌ بالنَّذرِ إذا نَذَرَ الصَّلاةَ فيه.

قَوْلُهُ: «لَكِنِ النُّعْمَانُ يَأْبَى ذَا» النُّعمان هو: أبو حنيفةَ رحمه الله، يرى أنَّ الإنسانَ إذا نَذَرَ شدَّ الرَّحلِ إلى مسجدِ المدينةِ فإنَّه لا يلزمه الوفاءُ به لماذا؟ بناءً على أصلٍ، ما هو الأصل؟ قال رحمه الله:

٤٠٥٧- .... وَلِلنُّعْمَانِ

٤٠٥٨- أَصْلٌ هُوَ النَّافِي الوُجُوبَ فَإِنَّهُ مَا جِنْسُهُ فَرْضًا عَلَى الإِنْسَانِ

يقول النُّعمانُ رحمه الله: إنَّه لا يجبُ الوفاءُ بنذرِ الطَّاعةِ إلَّا إذا كان جنسُه

(١) انظر: الفروع لابن مفلح (٦/ ٢٨).

فرضًا، فنذرُ الصَّلاةِ يجبُ الوفاءُ به؛ لأنَّ جنسَه فرضٌ، ونذرُ الصَّدقةِ يجبُ الوفاءُ به لأنَّ جنسَه فرضٌ وهو الزَّكاةُ، ونذرُ الحجِّ يجبُ الوفاءُ به؛ لأنَّ جنسَه فرضٌ، ونذرُ الصَّومِ يجبُ الوفاءُ بِه؛ لأنَّ جنسَه فرضٌ، ونذرُ شدِّ الرَّحلِ إلى المسجدِ النبويِّ ليس بفرضٍ عند أبي حنيفةَ؛ لأنَّه ليس له جنسٌ مفروضٌ، فليس هناك فرضٌ بشَدِّ الرَّحلِ إلى المسجدِ النَّبويِّ، وعند الجمهورِ يجبُ الوفاءُ به، وهو الصَّوابُ، فإذا نَذَرَ أن يُصَلِّيَ في المسجدِ النَّبويِّ فيجبُ الوفاءُ به؛ ولذا قال:

٤٠٥٩- وَلَنَا بَرَاهِينٌ تَدُلُّ بِأَنَّهُ ... بِالنَّذْرِ مُفْتَرَضٌ عَلَى الإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «**لَنَا بَرَاهِينٌ**»؛ يعني: أدلَّةَ.

يقولُ: لنا أدلَّةٌ تدلُّ على أنَّ شَدَّ الرَّحلِ لزيارةِ المسجدِ النَّبويِّ يكونُ فرضًا على الإنسانِ إذا نذره، ما هذه البراهين؟ منها:

٤٠٦٠- أَمْرُ الرَّسُولِ لِكُلِّ نَاذِرِ طَاعَةٍ ... بِوَفَائِهِ بِالنَّذْرِ بِالإِحْسَانِ

قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ**»(١)، وهذا أمرٌ، ولا شكَّ أنَّ شدَّ الرَّحلِ إلى المسجدِ النَّبويِّ طاعةٌ، وإذا كان طاعةً دَخَلَ في عمومِ قولِه: «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ**»، ثُمَّ قال:

٤٠٦١- وَصَلاتُنَا فِيهِ بِأَلْفٍ مِنْ سِوَا ... هُ مَا خَلا ذَا الحِجْرِ وَالأَرْكَانِ

قَوْلُهُ: «**صَلَاتُنَا فِيهِ بِأَلْفٍ مِنْ سِوَاهُ**»، ولكن الأَوْلَى أن نقولَ: «**خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ**» كما قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهناك فرقٌ بين أن نقولَ: صلاةٌ بألفِ، وصلاةٌ خيرٌ من ألفِ، والحديثُ الثَّابتُ: «**صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ**

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة، رقم (٦٦٩٦).

أَلْفِ»[١]، وفي لفظٍ لمسلمٍ: «أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ»[٢]، وبينهما فرقٌ، لكن ما ذكره المؤلِّفُ هو روايةٌ فِي مسندِ الإمامِ أحمدَ[٣] رحمه الله.

قَوْلُهُ: «مَا خَلَا ذَا الحِجْرِ وَالأَرْكَانِ»؛ يعني: مسجدَ الكعبةِ.

قَوْلُهُ: «مَا خَلَا ذَا الحِجْرِ وَالأَرْكَانِ» فيه إشارةٌ إلى أنَّ التَّفضيلَ بمئةِ ألفِ صلاةٍ أو خيرٍ من مئةِ ألفِ صلاةٍ إنَّما هو في مسجدِ الكعبةِ فقط لا في جميعِ مكَّةَ، ويدلُّ على هذا ما ثبت في صحيح مسلمٍ من قول النَّبِيِّ -عليه الصلاة والسلام-: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا مَسْجِدَ الكَعْبَةِ»[٤]، وهذا نصٌّ صريحٌ.

نعم؛ مكَّةُ الصَّلاةُ فيها أفضلُ من الصَّلاةِ في الحِلِّ، والدَّليلُ على هذا كونُ النَّبِيِّ ﷺ يُصَلِّي بالحرمِ وهو نازلٌ في الحِلِّ في عام الحديبية[٥]، مِـمَّا يدلُّ على أنَّ الصَّلاةَ في الحرمِ أفضلُ، وأمَّا التَّفضيلُ الخاصُّ فهو خاصٌّ في المسجدِ الحرامِ الذي فيه الكعبةُ، وحتَّى لو اتَّسع فإنَّ ما زِيدَ في المسجدِ له حكمُ المزيدِ كما نَصَّ على ذلك العلماءُ ومنهم شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه الله.

فإذا كان الرَّسولُ ﷺ أمر مَنْ نَذَرَ أن يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، فالصَّلاةُ في مسجدِ النَّبِيِّ ﷺ مقصودةٌ، وفيها ثوابٌ، فهي طاعةٌ، فإذا نَذَرَ الصَّلاةَ في المسجدِ النَّبويِّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب التطوع، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم (١١٣٣)، ومسلم: كتاب الحج، باب فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة، رقم (١٣٩٤).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة، رقم (١٣٩٦).
(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٣٤٣، رقم ١٤٧٣٥).
(٤) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة، رقم (١٣٩٦).
(٥) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٥٨١).

لَزِمَه أن يُصَلِّيَ في المسجدِ النَّبَوِيِّ، ولكن يجوزُ أن يُصَلِّيَ في المسجدِ الحرامِ؛ لأَنَّه أفضلُ منه.

وَقَوْلُهُ: «الحِجْرِ» الحِجْرُ معروفٌ، وهو القطعةُ أو الطَّائفةُ من الكعبة التي مُحَجَّرٌ عليها الآن، وهي من الكعبةِ، ولكن ليس كُلُّ الحِجْرِ من الكعبةِ، فمن الكعبةِ بمقدار ستَّة أذرع وشيء، يعني: ثلاثةَ أمتارٍ وربعًا تقريبًا، وحَدَّه بعضُهم فقال: من منعطف الحِجْر هذا من الكعبة، وما بعدَه ليس من الكعبةِ، وسُمِّي حِجْرًا؛ لأنَّ قريشًا لـمَّا بَنَوُا الكعبةَ نقصت النَّفقةُ عليهم، وكانوا قد عزَموا على ألَّا يبنوه إلَّا بمالٍ حلالٍ فنقصت النَّفقةُ، فقالوا: نبني بعضَه فَبَنَوا ما هو قائمٌ الآن، وجعلوا هذا محوطًا عليهِ بهذا الجِدار خارج المُسَقَّف، فَسُمِّي حِجْرًا؛ لأنَّه مُحَجَّرٌ، وسُمِّي حطيمًا؛ لأنَّه حُطِمَ، وحطيمٌ بمعنى محطوم من الكعبة وأُخْرِجَ منها، وأمَّا ما اشتهر عند العامَّةِ الجُهَّالِ من أنَّ فيه قبرَ إسماعيلَ فإنَّ هذا كَذِبٌ لا أصلَ له، ويُسَمِّيه بعضُ العامَّةِ الآن حِجْرَ إسماعيل، لكن هذا هو الأصلُ، فإنَّه لم يكن معروفًا في عهد إسماعيلَ، ولم يكن مدفونًا فيه، وكانت الكعبةُ قبل ذلك أوسعَ من هذا، فقال النَّبِيُّ -عليه الصَّلاة والسَّلامُ- وهو يُحَدِّثُ عائشةَ: «يَا عَائِشَةُ، لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ لأَمَرْتُ بِالْبَيْتِ فَهُدِمَ فَأَدْخَلْتُ فِي البَيْتِ مَا أُخْرِجَ مِنْهُ، وَأَلْزَقْتُهُ بِالأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ: بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا»(١)، وفي رواية: «يَدْخُلُونَ مِنْ هَذَا وَيَخْرُجُونَ مِنْ هَذَا»(٢)، فتوفي الرَّسولُ ﷺ وهي على ما كانت عليه في الجاهلية،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب فضل الكعبة وبنيانها، رقم (١٥٨٣)، ومسلم: كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها، رقم (١٣٣٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من ترك بعض الاختيار، مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه، فيقعوا في أشد منه، رقم (١٢٦)، ومسلم: كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها، رقم (١٣٣٣).

ولـمَّا تولَّى عبدُ الله بن الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على الحجاز هدمها وبناها[1] على قواعدِ إبراهيمَ على حسَب ما أراده النَّبِيُّ ﷺ، ولـمَّا قُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واستَوْلَى الحجَّاجُ على مكَّةَ وهو أميرٌ من أمراء بني أُمَيَّة، أرسلَ إلى عبد الملك بن مروان، ثُمَّ أمره بأن يُعِيدَ الكعبةَ على ما كانت عليه في زمنِ الجاهليَّةِ وفي عهدِ الرَّسولِ ﷺ فأعادها[2]، ثُمَّ لـمَّا بلغه -أي: عبد الملك- الخبرُ عن عائشةَ تمنَّى أنَّه عَلِمَ به أوَّلا، ولـمَّا تولَّى هارونُ الرَّشيد أراد أن يُغَيِّرَ الكعبةَ من بناءِ الحَجَّاجِ إلى بناء عبد الله بن الزُّبَيْرِ، فاستشار مالكًا في ذلك فقال: «لا تجعل بيتَ الله ملعبةً للملوك، كُلَّما جاءَ ملكٌ هَدَمَه وغيَّره»[3]، فَأُبْقِيَ على ما كان عليه.

وهذا في الحقيقةِ من رحمة الله عزَّ وجلَّ وحِكمتِه، لو أنَّه كان على ما أراده النَّبِيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لكان في مثلِ هذه الأوقاتِ سببًا للهلاكِ والموتِ؛ لأنَّ النَّاسَ إذا كانوا يقتتلون على رمي الجمراتِ ويُقْتَلُ بعضُهم فما بالُك إذا كانوا يَقتتلون على الدُّخولِ في الكعبةِ من بابٍ ضيِّقٍ والكعبةُ مُسَقَّفةٌ وضيِّقةٌ! ولكن -والحمد لله- ما أراده النَّبِيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- قضاه اللهُ عزَّ وجلَّ، صار الحِجْرُ الآنَ مفتوحًا وله بابان بابٌ يدخلُ منه النَّاسُ وبابٌ يخرجون منه، والذي يدخلُ مع البابِ الشَّرقيِّ من الحِجْرِ ويخرجُ من الغربيِّ كأنَّما دَخَلَ الكعبةَ وخَرَجَ منها، فحصل -ولله الحمدُ- ما أراده النَّبِيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- مع انتفاءِ الضَّررِ، وهذا يدلُّك على حكمةِ الله عزَّ وجلَّ، وبه تتذكَّرُ دائمًا قولَه تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها، رقم (١٣٣٣).

(٢) هو جزء من الحديث السابق.

(٣) انظر: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، لأبي الطيب الفاسي (١/ ١٣٦)، و تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، لابن الضياء (ص:١١٢).

أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١٦].

فصارت -والحمدُ لله- الخيرةُ فيما وقع فيه هذا الحِجْر، وأمَّا قولُه: «**والأَرْكَانِ**» يعني: الأركانَ الأربعةَ، فالكعبةُ -شرَّفها اللهُ- لها أركانٌ أربعةٌ، منها رُكنان على بِناءِ إبراهيمَ، وهما اللَّذان فيهما الاستلام: الرُّكنُ اليمانيُّ والحَجَرُ الأسودُ، وركنان على غيرِ قواعدِ إبراهيمَ؛ ولهذا لا يُسْتَلمان، ولـمَّا طَافَ معاويةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في ذات سنةٍ من السَّنواتِ التي حَجَّ فيها جعَل يستلمُ الأركانَ الأربعةَ: الحَجَرَ، والحِجْرَ، والرُّكنَ الشَّاميَّ، والعراقيَّ، فقال له ابنُ عبَّاسٍ: إنَّ النَّبيَّ ﷺ لَـمْ يَكُنْ يَسْتَلِم إِلَّا الـحَجَرَ الأَسْوَدَ وَالرُّكْنَ اليَمانِيَّ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: لَيْسَ شَيءٌ مِنَ البَيْتِ مَهْجُورًا -يعني: كُلُّ الأركانِ ليست مهجورةً- فَقَالَ له ابنُ عَبَّاسٍ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١]، فَرَجَعَ معاويةُ[١]، أراد معاويةُ أن يُعارِضَ النَّصَّ بالقياسِ، ولكن بَيَّنَ له ابنُ عبَّاسٍ أنَّ معارضةَ النَّصِّ بالقياسِ باطلةٌ فاسدةٌ، فإذا كان النَّبِيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- لم يستلم إلَّا الرُّكنَيْنِ اليمانيَّيْن فإنَّه لا يُشْرَعُ لنا أن نستلمَ بقيَّةَ الأركانِ.

٤٠٦٢- وَكَـذَا صَـلاةٌ فِي قِبَـا فَكَعُمْـرَةٍ   فِي أَجْرِهَـا وَالفَضْـلُ لِلمَنَّـانِ

وهذا الأجرُ مُقَيَّدٌ بما إذا تطهَّر الإنسانُ في بيتِه، ثُمَّ خرج قاصدًا قُباء وصلَّى فيه صلاةً فإنَّه كَمَنْ أَدَّى عمرةً[٢]، وكان النَّبِيُّ ﷺ يُصلِّي الجمعةَ في المسجدِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب من لم يستلم إلا الركنين اليمانيين، رقم (١٥٣٠).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء في الصلاة في مسجد قباء، رقم (٣٢٤)، والنسائي: كتاب المساجد، باب مسجد قباء والصلاة فيه، رقم (٦٩٩)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الصلاة في مسجد قباء، رقم (١٤١١).

النَّبويِّ، وفي يومِ السَّبت يخرجُ إلى مسجدِ قُباء[١]؛ لأنَّه أَوَّلُ مسجدٍ أُسِّس على التَّقوى، ومسجدُ قُباء معروفٌ، فإن قال قائلٌ: مسجدُ قُباء الموجود أكبرُ من مسجد قُباء في عهدِ الرَّسولِ ﷺ؟ قلنا: ما زِيدَ في المسجدِ فله حكمُه؛ ولهذا انظُر إلى المسجدِ الحرامِ هل هو على ما كان عليه على عهدِ الرَّسولِ؟ الجوابُ: أبدًا، ما كان عليه على عهدِ الرَّسولِ ﷺ قريبٌ جدًّا من حوالي بئر زمزم، كذلك أيضًا المسجدُ النَّبويُّ هل هو على ما كان عليه في عهد الرَّسولِ؟ الجوابُ: لا، زَادَ فيه عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أوَّلا، ثُمَّ زاد فيه عثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والصَّحابةُ أجمعوا على أنَّ الزِّيادةَ لها حكمُ المزيدِ، والدَّليلُ على إجماعِهم أنَّ عثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لـمَّا زاد في المسجدِ النَّبويِّ من جهةِ القبلةِ كان يُصلِّي في محرابِ الزِّيادةِ التي زادها[٢]، وكان المسلمون يتسابقون إليها ويصلُّون في الصَّفِّ الأوَّل، ولو لم يكن لها حكمُ المسجدِ لكانوا يتأخَّرون إلى المسجدِ الأوَّلِ الذي كان على عهدِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم.

٤٠٦٣- فَـإِذَا أَتَيْنَـا المَسْـجِدَ النَّبَـوِيَّ صَلْـ ـــلَيْنَا التَّحِيَّـــةَ أَوَّلًا ثِنْتَـــانِ

إذا دَخلْتَ المسجدَ النبويَّ فأوَّل ما تفعلُ أنَّ تصلِّيَ ركعتين لله عزَّ وجلَّ؛ لقولِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ المَسْجِدَ فَلَا يَجْلِسْ حَتَّى يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ»[٣].

٤٠٦٤- بِـتَمامِ أَرْكَـانٍ لَـهَا وَخُشُـوعِهَا وَحُضُورِ قَلْبٍ فِعْلَ ذِي الإِحْسَانِ

يعني: أن يُصلِّيَها تامَّةً بأركانِها وواجباتِها وشُروطِها مع خُشوعِ القلبِ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب مسجد قباء، رقم (١١٣٤)، ومسلم: كتاب الحج، باب فضل مسجد قباء وفضل الصلاة فيه وزيارته، رقم (١٣٩٩).
(٢) انظر: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (٢/ ٤٣٤).
(٣) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى، رقم (٤٣٣)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحية المسجد بركعتين، رقم (٧١٤).

وأراد بذلك الإشارةَ إلى ما يفعَلُه بعضُ الجهلةِ، تجده يُحِبُّ أن يبدأَ أوَّلًا بزيارةِ القبرِ، فإذا قيل له: «صَلِّ ركعتَيْن» يُصلِّيهما بسرعةٍ نقرًا وبقلبٍ متعلِّقٍ بالقبرِ، ليس بخاشعٍ، فأراد ابنُ القيِّم -رحمه الله- بهذا أن يُلْفِتَ النَّظرَ إلى أنَّه لا ينبغي أن تتسرَّعَ في هاتين الرَّكعتين، بل بطمأنينةٍ وخشوعٍ.

٤٠٦٥- ثُـمَّ انْثَنَيْنَـا لِلزِّيَـارَةِ نَقْصِـدُ الـــ ـقَبْرَ الشَّرِيفَ وَلَوْ عَـلَى الأَجْفَـانِ

يعني: ولو كُنَّا نمشي على أجفانِ عُيوننِا، لا على أقدامِ سُوقِنا؛ يعني: نمشي تعظيمًا للرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- ولو على الأذقانِ، لكنَّهم في الحقيقةِ إنَّما يمشون على الأقدامِ لا شكَّ.

٤٠٦٦- فَنَقُـومُ دُونَ القَـبْرِ وَقْفَـةَ خَاضِـعٍ مُتَــذَلِّلٍ فِي السِّـــرِّ وَالإِعْـــلانِ

٤٠٦٧- فَكَأَنَّـــهُ فِي القَـــبْرِ حَـــيٌّ نَـــاطِقٌ فَـــالوَاقِفُونَ نَـــوَاكِسُ الأَذْقَـــانِ

هذا من ابن القيِّم -رحمه الله- لا شكَّ أنَّه مُبالغةٌ؛ ولذا يجبُ أن نعلمَ أنَّ هذا الخضوعَ ليس كخضوعِنا الأوَّل في صلاةِ الرَّكعتين، فالخضوعُ الأوَّلُ خضوعُ عبادةٍ لله عزَّ وجلَّ، والخضوعُ الثَّاني خضوعُ احترامٍ وإكرامٍ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢]، وعلى هذا فلا نقفُ واضعي أيدينا على صدورِنا هكذا كالصَّلاةِ، لا يجوزُ ذلك، إنَّما نقفُ كأنَّه -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بيننا باحترامٍ وخضوعٍ، وما كان الصَّحابةُ يقفون على قبرِ الرَّسولِ كهذا الوقوفِ الذي ذكره ابنُ القيِّمِ، وهذا الخشوعُ خشوعٌ لا ينبغي إلَّا أن يكونَ لربِّ العالمين عزَّ وجلَّ، حتَّى الصَّحابة والرَّسولُ بين أيديهم حيٌّ، هل كانوا يأتون إليه على هذا الوجهِ من التَّعظيمِ؟!

ولذا فإنَّ قولَه: «فَالوَاقِفُونَ نَوَاكِسُ الأَذْقَانِ» هذا لا يصحُّ إلَّا لله.

وهذا في الحقيقةِ من الزَّلةِ التي نرجو اللهَ عزَّ وجلَّ أن يعفوَ عن ابنِ القيِّمِ منها، لأنَّها ليست هيِّنةً، فنحن نقولُ لابنِ القيِّمِ: هل كان ابنُ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو يُسَلِّمُ على رسولِ الله ﷺ وعلى أبي بكرٍ وعلى أبيه، هل كان يقفُ هذا الوقوفَ؟ هل كان يقفُ نواكسَ الأذقانِ؟! هل كان يقفُ خاضعًا كأنَّما هو بين يدي الله عزَّ وجلَّ؟! الجوابُ: لا، ونحن نعلمُ أنَّ ابنَ القيِّمِ وغيرَه ممَّن دونَ الصَّحابةِ لا يمكنُ أن يكونوا في توقيرِهم للرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- كتوقيرِ الصَّحابةِ للرَّسولِ أبدًا، فنسألُ اللهَ أن يعفوَ عنه.

٤٠٦٨- مَلَكَتْهُمُ تِلْكَ المَهَابَةُ فَاعْتَرَتْ   تِلْكَ القَوَائِمَ كَثْرَةُ الرُّجْفَانِ

يقولُ: إنَّ مهابةَ الرَّسولِ ﷺ مَلَكَتْهُ حتَّى صارت قوائمُهم تَرْجُفُ من شِدَّة المهابةِ.

وهذا لا ينبغي؛ يعني: لا ينبغي أن يكونَ وقوفُ الإنسانِ أمام قبرِ الرَّسولِ الى هذا الحدِّ، صحيحٌ أنَّ الإنسانَ إذا وقف يشعرُ أنَّ الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أُرْسِلَ إلى النَّاسِ كافَّةً، وأنه بَلَّغَ الرِّسالةَ، وأَدَّى الأمانةَ، وأنَّه نَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في الله، أمَّا أن يقفَ هذا الوقوفَ الذي وصفه ابنُ القيِّمِ، فكلَّا والله.

٤٠٦٩- وَتَفَجَّرَتْ تِلْكَ العُيُونُ بِمَائِهَا   وَلَطَالَمَا غَاضَتْ عَلَى الأَزْمَانِ

هذا لا بأسَ به، لا بأسَ أن يذكرَ الإنسانُ حالَ النَّبِيِّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- ثُمَّ يبكي، وهذا الإنسانُ لو ذَكَرَ ابنَه أو أباه أو أخاه الذي مات قد تفيضُ عيناه من الدَّمعِ، فكيف بالرَّسولِ ﷺ؟! يكونُ من بابِ أولى.

٤٠٧٠- وَأَتَى الـمُسَلِّمُ بِالسَّلامِ بِهَيْبَةٍ وَوَقَارِ ذِي عِلْمٍ وَذِي إِيمَانِ

هذا أهوَنُ من الذي قبله؛ يعني: أنَّ الإنسانَ يُسَلِّمُ سلامًا بوقارٍ مبنيًّا على علمٍ وإيمانٍ.

٤٠٧١- لَمْ يَرْفَعِ الأَصْوَاتِ حَوْلَ ضَرِيحِهِ كَلَّا وَلَمْ يَسْجُدْ عَلَى الأَذْقَانِ

قَوْلُهُ: «لَمْ يَرْفَعِ الأَصْوَاتِ حَوْلَ ضَرِيحِهِ»؛ أي: لم يرفع الأصواتَ حول ضريحِ النَّبِيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ أي: حولَ قبرِه، بل يتكلَّمُ بهدوءٍ، فمن الأدبِ أَلَّا ترفعَ الصَّوتَ عند قبرِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وقد ثَبَتَ في البخاريِّ أنَّ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعَ رَجُلَيْنِ يَرْفَعَانِ أَصْوَاتَهُمَا في مَسْجِدِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، فَنَادَاهُمَا وَقَالَ: مِنْ أَيْنَ أَنْتُمَا؟ قَالَا: مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ، فَقَالَ: «لَوْ كُنْتُمَا مِنْ أَهْلِ البَلَدِ لَأَوْجَعْتُكُمَا؛ تَرْفَعَانِ أَصْوَاتَكُمَا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ الله ﷺ»[1]، ولا شَكَّ أنَّه من الأدبِ أَلَّا ترفعَ الصَّوتَ في المسجدِ النَّبويِّ، بل ولا في المساجد الأخرى أيضًا، حتَّى إنَّ الرَّسولَ جعل رفعَ الأصواتِ في المساجدِ من علاماتِ السَّاعةِ[2].

قَوْلُهُ: «كَلَّا وَلَمْ يَسْجُدْ عَلَى الأَذْقَانِ» هذا هو الصَّحيحُ، فلا سجودَ إِلَّا لله عزَّ وجلَّ.

٤٠٧٢- كَلَّا وَلَمْ يَرَ طَائِفًا بِالقَبْرِ أُسْـ ـبُوعًا كَأَنَّ القَبْرَ بَيْتٌ ثَانِي

وهذا صحيحٌ، ومن العامَّةِ الـجُهَّالِ لاسيَّما مَنْ عندهم قبورٌ في بلادِهم

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب رفع الصوت في المساجد، رقم (٤٥٨).

(٢) كما جاء عن عطاء بن يسار قال: «مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ عُلُوُّ صَوْتِ الْفَاسِقِ فِي الْـمَسَاجِدِ، وَمَطَرٌ وَلَا نَبَاتٌ، وَأَنْ تُتَّخَذَ الْـمَسَاجِدُ طُرُقًا، وَأَنْ تَظْهَرَ أَوْلَادُ الزُّنَاةِ». أخرجه عبد الرزاق (٣/ ١٥٥، رقم ٥١٣٨).

يطوفون عليها، تجدُهم يطوفون على قبرِ النَّبِيِّ ﷺ، ولكن بفضلِ الله أنَّهم في هذه السَّنواتِ الأخيرةِ جعلوا حاجزًا يمنعُ من تمامِ الطَّوافِ، لكنِّي أخشى أن يأتيَ عامِّيٌّ يخرجُ من البابِ ويدخلُ مع البابِ الثَّاني حتَّى يُكمِلَ الطَّوافَ، فالعامَّةُ عندهم اعتقاداتُهم الزَّائفةُ يرخصُ عندهم كُلُّ غالٍ.

٤٠٧٣- ثُـمَّ انْثَنَـى بِدُعَائِـهِ مُتَوَجِّهًـا ... لله نَحْـوَ البَيْـتِ ذِي الأَرْكَـانِ

يعني: بعد أن يُسَلِّمَ على الرَّسولِ ﷺ ينثني؛ يعني: يتقدَّمُ ويتَّجهُ إلى الكعبةِ فيدعو اللهَ عزَّ وجلَّ.

أفادنا المؤلِّفُ -رحمه الله- أنَّ الزِّيارةَ النَّبويَّةَ على الوصفِ الذي ذَكَرَ، يُسَلِّمُ على النَّبِيِّ ﷺ، ولم يذكر -رحمه الله- السَّلامَ على أبي بكرٍ وعمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ لأنَّه بصدَدِ الرَّدِّ على هؤلاء الغلاةِ الذين يَغْلون في رسولِ الله ﷺ، فلم يتكلَّمْ على السَّلامِ على أبي بكرٍ وعمرَ، وإلَّا فمن المشروعِ أن تُسَلِّمَ على أبي بكرٍ وعمرَ كما كان ابنُ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يفعلُ(١)، فلأبي بكرٍ وعمرَ من التَّوقيرِ ما يليقُ بحالِهما، فهما خليفتا رسولِ الله ﷺ، وهما وزيراه، وهما اللَّذان يكونان معه دائمًا، إذا ذهب وإذا رجع، ودائمًا يقولُ هو نفسُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «خَرَجْتُ أَنَا وأبو بكرٍ وعمرُ»، «رَجَعْتُ أَنَا وأبو بَكْرٍ وعُمَرُ» وهكذا يُطريهما دائمًا معه؛ ولهذا اختار اللهُ عزَّ وجلَّ بعلمِه وقدرتِه أن يكونا إلى جنبِهِ في قبرِه حتَّى إذا كان يومُ القيامةِ خرج الثَّلاثةُ جميعًا من مكانٍ واحدٍ، فكما كانوا جميعًا يذهبون ويجيئون فإنَّهم في الآخرةِ كذلك، اللَّهُمَّ احشرنا معهم يا ربَّ العالمين.

---

(١) كما في حديث عبد الله بن دينار، أنه قال: «رَأَيْتُ عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ يَقِفُ عَلَى قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ يُسَلِّمُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَيَدْعُو، ثُمَّ يَدْعُو لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا». أخرجه البيهقي (٥/ ٤٠٣، رقم ١٠٢٧٢).

ثُمَّ بعد الزِّيارة اتَّجه إلى القِبلةِ وادْعُ اللهَ عزَّ وجلَّ بما شئت، فليس هناك دعاءٌ مُعَيَّنٌ، هكذا قال المؤلِّفُ رحمه الله، لكنَّ بعضَ أهلِ العلمِ عَارَضَ في هذا، وقال: إنَّه لم يَثْبُتْ أنَّ هذا المكانَ مكانُ دعاءٍ، وأنَّ الإنسانَ إذا سَلَّمَ ينصرفُ كما كان عبدُ الله بنُ عمرَ يفعلُ، ولا يقومُ يدعو اللهَ، وإذا أراد أن يدعوَ اللهَ يدعوه في صلاتِه، أو بعدها، أو بين الأذان والإقامة، على حسب ما جاءت به السُّنَّةُ، أمَّا أن يُجْعَلَ ما حول قبرِ الرَّسولِ مكانًا للدُّعاءِ فهذا فيه نظرٌ، وأنا إلى هذا القولِ أَمْيَلُ مِنِّي إلى قولِ ابنِ القيِّم -رحمه الله- وغيرِه من أهلِ العلم، أنَّ الإنسانَ لا يقفُ هنا للدُّعاءِ، بل يُسَلِّمُ ثُمَّ ينصرفُ، وللدُّعاءِ مكانٌ آخرُ.

إِذَنْ الصَّوابُ خلاف ذلك، وأنَّ هذا ليس بمشروعٍ؛ لأنَّ هذا يحتاجُ إلى دليلٍ، ولا دليلَ على هذا، فالخلفاءُ الرَّاشدون رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ما كانوا يفعلون هذا عند قبرِه؛ يعني: أنَّهم إذا سلَّموا عليه اتَّجهوا إلى القبلةِ فدَعَوْا، لكن بعض أهلِ العلمِ -رحمهم الله- قال: «**إذا سلَّم اتَّجه إلى القِبلةِ فدعا**» ردًّا لقولِ مَنْ يدعو وهو واقفٌ على القبرِ، فتجده يُسَلِّمُ على القبرِ ثُمَّ يرفعُ يديه ويدعو اللهَ، وهذا غلطٌ، فالسَّلفُ الذين قالوا هذا أو فعلوه للرَّدِّ على مَنْ قالوا: إنَّه يقفُ متَّجهًا إلى القبرِ فيدعو.

٤٠٧٤- هَـٰذِي زِيَـارَةُ مَـنْ غَـدَا مُتَمَسِّـكًا ... بِشَـــرِيعَةِ الإِسْـــلامِ وَالإِيـــمَانِ

قَوْلُهُ: «**هَذِي زِيَارَةُ مَنْ غَدَا مُتَمَسِّكًا بِشَرِيعَةِ الإِسْلَامِ**» الإشارةُ إلى كُلِّ الصِّفةِ السَّابقة أنَّها زيارةُ مَنْ غَدَا متمسِّكًا، ولكنَّا نقولُ لابنِ القيِّم: رحمك اللهُ وجزاك عن أُمَّةِ الإسلامِ خيرًا، هذه الزِّيارةُ في نظرِك، أمَّا ما ذكرتَ من بعضِ ما يكونُ غلوًّا فلا شكَّ أنَّها ليست زيارةً شرعيَّةً، ولكن يشفعُ له أنَّه -رحمه الله- كان مجتهدًا، والمجتهدُ قد يُصِيبُ وقدْ يُخطِئ.

٤٠٧٥- مِنْ أَفْضَلِ الأَعْـمَالِ هَاتِيـكَ الزِّيَـا رَةُ وَهْـيَ يَـوْمَ الـحَشْرِ فِي المِيـزَانِ

الزِّيارةُ الشَّرعيَّةُ -لا شكَّ- أنَّها في ميزانِ الحسناتِ، أمَّا الزِّيارةُ البدعيَّةُ فهي في ميزانِ السَّيِّئاتِ.

وهنا أُنبِّـهُ على مسألةٍ دائـمًا يُطلقُها بعضُ النَّاسِ أخيـرًا، وهـي أن يقولَ: «**جعل اللهُ ذلك في ميزانِ أعمالِك**»، والأحسنُ أن يقولَ: «**جعل اللهُ ذلك في ميزانِ حسناتِك**»؛ لأنَّ ميزانَ الأعمالِ يشملُ السَّيِّئاتِ والحسناتِ، فإذا قال: «**في ميزانِ أعمالِك**» ما أدري! لكن هو على كُلِّ حالٍ يقصدُ «**ميزان الحسناتِ**» بلا شكٍّ، لكن اللَّفظُ صالحٌ، فالأحسنُ أن نَعْدِلَ عن هذا اللَّفظِ إلى لفظٍ لا يحتملُ.

٤٠٧٦- لا تَلْبِسُوا الـحَقَّ الَّذِي جَاءَتْ بِـهِ سُـنَنُ الرَّسُـولِ بِـأَعْظَمِ البُرْهَـانِ

قَوْلُهُ: «**لَا تَلْبِسُوا الحَقَّ**»؛ يعني: لا تلبسوه بالباطلِ وتَخْلطُوه به، وتقولوا: هذه زيارةٌ شرعيَّةٌ، وهي زيارةٌ مبنيَّةٌ على الغلوِّ الذي نهى عنه الرَّسولُ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

قَوْلُهُ: «**بِأَعْظَمِ البُرْهَانِ**»، وفي نسخةٍ «**بِأَعْظَمِ البُطْلَانِ**»، فعلى نسخة «**بِأَعْظَمِ البُرْهَانِ**» قولُه: «**بِأَعْظَمِ**» متعلِّقةٌ بـ«**جَاءَتَ**»؛ يعني: جاءت به بأعظمِ دليلٍ، أمَّا «**بِأَعْظَمِ البُطْلَانِ**» فهي متعلِّقةٌ بـ«**تَلْبِسُوا**»؛ يعني: لا تلبسوا الحقَّ بأعظمِ البطلانِ كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة:٤٢].

٤٠٧٧- هَذِي زِيَارَتُنَا وَلَـمْ نُنْكِرْ سِوَى الـ ـبِدَعِ المُضِـلَّةِ يَـا أُولِي العُـدْوَانِ

وهذا صحيحٌ، ابنُ القيِّم -رحمه الله- لـمَّا أنكر على هؤلاء ما أنكر لم يُنْكِرْ عليهم إلَّا البدعَ المُضِلَّةَ.

٤٠٧٨- وَحَدِيثُ شَدِّ الرَّحْلِ نَصٌّ ثَابِتٌ ... يَجِبُ المَصِيرُ إِلَيْهِ بِالبُرْهَانِ

حديثُ شدِّ الرَّحلِ هو: «لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى»[1]، فلا تُشَدُّ الرِّحالُ إلَّا إلى هذه المساجِدِ، وقولُه في هذا الحديثِ: «إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ» هذا استثناءٌ من أعمِّ الأحوالِ والأزمانِ والأماكنِ، إذا قلنا بهذا أورد علينا الذين يشدُّون الرِّحالَ إلى القبورِ، وقالوا: أَلَسْتُم تُجِيزونَ شَدَّ الرَّحلِ إلى أيِّ بلدٍ لطلبِ التِّجارةِ؟ قلنا: بلى، قالوا: أَلَسْتُم تُجِيزونَ شَدَّ الرِّحالِ لطلبِ العلمِ وهو عبادةٌ؟ قلنا: بلى.

يقولون: إنَّ تقديرَ الحديثِ: «لَا تُشَدُّ الرِّحالُ إلى مسجدٍ إلَّا إلى ثلاثةِ مساجدَ»؛ لأنَّ المستثنى يكونُ من جنس المستثنى منه، وما دام المستثنى منه ليس عامًّا كما تُقِرُّون به فليكن مناسِبًا للمستثنى؛ أي: «لا تشدُّوها إلَّا إلى ثلاثةِ مساجدَ: المسجدِ الحرامِ ومسجدي هذا والمسجد الأقصى»، وهذا القولُ ذهب إليه بعضُ الفقهاءِ، وقالوا: إنَّ شَدَّ الرَّحلِ إلى القبورِ لا يُسْتَفَادُ تحريمُه من هذا الحديثِ، بل من أدلَّةٍ أخرى؛ لأنَّ هذا الحديثَ لا يمكنُ أن يُرَادَ به العمومُ، وإذا لم يمكن فليكن المُقَدَّرُ من جنسِ المذكورِ؛ يعني: المستثنى منه من جنسِ المستثنى، فأيُّ إنسانٍ يَشُدُّ الرَّحلَ إلى مسجدٍ من أيِّ مساجد الدُّنيا نقولُ: هذا حرامٌ إلَّا المساجدَ الثَّلاثةَ، أمَّا زيارةُ القبورِ فإنَّ التَّحريمَ لا يأتي من أجلِ أنَّها داخلةٌ في الحديثِ، لكن من أجلِ الغلوِّ فيها؛ لأنَّ مَنْ شَدَّ الرَّحلَ إلى القبرِ إنَّما يريدُ الغلوَّ فيه كما هو الواقع، يَرَوْنُ أنَّ دعاءَ الله عند هذا القبرِ أقربُ إلى الإجابةِ من غيرِه، وربَّما

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم (١١٨٩). ومسلم: كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد، رقم (١٣٧٩).

يَرَوْنَ أنَّ شَدَّ الرَّحلِ إلى قبرِ الوليِّ وما أشبه ذلك لأجلِ دعاءِ هذا الوليِّ، فيكونُ شدًّا إلى الشِّركِ أو إلى وسائلِ الشِّركِ، فلذلك حرَّمناه من أجل هذا؛ أي: من أجلِ أنَّه شدٌّ للشِّركِ بهذا الوليِّ المقبورِ، أو وسيلةٌ إلى الشِّركِ كما هو الواقع الآن.

بعضُ النَّاسِ رأى شَخْصًا يُسَافِرُ من بلدٍ إلى آخَرَ يوم الجمعةِ ليستمعَ إلى خطبةِ إمام المسجدِ، فصاحَ عليه قائلًا: نعوذُ بالله منك، ونبرأُ إلى الله من فعلِك فقال: ماذا فعلتُ؟ قال: شَدَدْتَ الرَّحْلَ إلى غيرِ المساجدِ الثَّلاثةِ؟ نقول: ما شَدَّ الرَّحلَ للمسجدِ، بل شَدَّ الرَّحلَ للعلمِ ليستفيدَ من خطبةِ هذا الرَّجلِ؛ ولهذا لو كان الرَّجلُ عنده في بلدِه ما شدَّ الرَّحلَ، ففرقٌ بين مَنْ يَشُدُّ الرَّحلَ ليستمعَ إلى خطبةِ الإمامِ أو ليُصلِّيَ خلفَ الإمامِ كما يفعل بعضُ النَّاسِ في أيَّام رمضانَ؛ يكونُ في البلد قُرَّاءٌ يتلذَّذون بقراءتِهم، فيشدُّون الرَّحْلَ إليهم، هذا نقولُ: لا بأسَ؛ لأنَّه لم يَشُدَّ الرَّحلَ إلى المكان، إنَّما شَدَّ الرَّحلَ إلى العلمِ إذا كانت خطبةً، أو إلى التَّلذذ بقراءتِه واستماعِ قراءتِه، وهذا لا بأسَ به.

***

فصل

فِي تَعْيِينِ أَنَّ اتِّبَاعَ السُّنَّةِ وَالقُرْآنِ طَرِيقَةُ النَّجَاةِ مِنَ النِّيرَانِ

٤٠٧٩- يَا مَنْ يُرِيدُ نَجَاتَهُ يَوْمَ الحِسَا ... بِ مِنَ الجَحِيمِ وَمَوْقِدِ النِّيرَانِ

٤٠٨٠- اتْبَعْ رَسُولَ اللهِ فِي الأَقْوَالِ وَالـ ... أَعْمَالِ لا تَخْرُجْ عَنِ القُرْآنِ

٤٠٨١- وَخُذِ «الصَّحِيحَيْنِ» اللَّذَيْنِ هُمَا لِعِقْـ ... ـدِ الدِّينِ وَالإِيمَانِ وَاسِطَتَانِ

٤٠٨٢- وَاقْرَأْهُمَا بَعْدَ التَّجَرُّدِ مِنْ هَوًى ... وَتَعَصُّبٍ وَحَمِيَّةِ الشَّيْطَانِ

٤٠٨٣- وَاجْعَلْهُمَا حَكَمًا وَلَا تَحْكُمْ عَلَى ... مَا فِيهِمَا أَصْلًا بِقَوْلِ فُلَانِ

٤٠٨٤- وَاجْعَلْ مَقَالَتَهُ كَبَعْضِ مَقَالَةِ الـ ... أَشْيَاخِ تَنْصُرُهَا بِكُلِّ أَوَانِ

٤٠٨٥- وَانْصُرْ مَقَالَتَهُ كَنَصْرِكَ لِلَّذِي ... قَلَّدْتَهُ مِنْ غَيْرِ مَا بُرْهَانِ

٤٠٨٦- قَدِّرْ رَسُولَ اللهِ عِنْدَكَ وَحْدَهُ ... وَالقَوْلُ مِنْهُ إِلَيْكَ ذُو تِبْيَانِ

٤٠٨٧- مَاذَا تَرَى فَرْضًا عَلَيْكَ مُعَيَّنًا ... إِنْ كُنْتَ ذَا عَقْلٍ وَذَا إِيمَانِ

٤٠٨٨- عَرْضَ الَّذِي قَالُوا عَلَى أَقْوَالِهِ ... أَوْ عَكْسُ ذَاكَ فَذَانِكَ الأَمْرَانِ

٤٠٨٩- هِيَ مَفْرِقُ الطُّرُقَاتِ بَيْنَ طَرِيقِنَا ... وَطَرِيقِ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالعُدْوَانِ

٤٠٩٠- قَدِّرْ مَقَالاتِ العِبَادِ جَمِيعِهِمْ ... عَدَمًا وَرَاجِعْ مَطْلَعَ الإِيمَانِ

٤٠٩١- وَاجْعَلْ جُلُوسَكَ بَيْنَ صَحْبِ مُحَمَّدٍ ... وَتَلَقَّ مَعْهُمْ عَنْهُ بِالإِحْسَانِ

٤٠٩٢- وَتَلَــقَّ عَــنْهُمْ مَــا تَلَقَّــوْهُ هُــمُ عَنْــهُ مِــنَ الإِيــمَانِ وَالعِرْفَــانِ

٤٠٩٣- أَفَلَــيْسَ فِي هَــذَا بَــلاغٌ مُسَــافِرٍ يَبْغِــي الإِلَــهَ وَجَنَّــةَ الحَيَــوَانِ

٤٠٩٤- لَوْلَا التَّنَاوُشُ بَيْنَ هَذَا الـخَلْقِ مَا كَـانَ التَّفَـرُّقُ قَـطُّ فِي الـحُسْبَانِ

الشـــرحُ

كُلٌّ منَّا -نحن المؤمنين- يريدُ النَّجاةَ من النَّارِ ويريدُ دخولَ الجنَّةِ، فما الطَّريقُ؟ بَيَّنَ المؤلِّفُ -رحمه الله- في هذا الفصلِ هذا الطَّريقَ فقال:

٤٠٧٩- يَا مَـنْ يُرِيـدُ نَجَاتَـهُ يَـوْمَ الـحِسَا بِ مِنَ الـجَحِيمِ وَمَوْقِـدِ النِّـيرَانِ

هذا النِّداءُ مُوجَّهٌ لكُلِّ مَنْ يريدُ النَّجاةَ من الجحيمِ ومُوقَدِ النِّيرانِ.

٤٠٨٠- اتْبَـعْ رَسُـولَ اللهِ فِي الأَقْـوَالِ وَالـ أَعْـمَالِ لا تَخْـرُجْ عَـنِ القُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «**اتْبَعْ رَسُولَ اللهِ**»؛ أي: حتَّى تنجوَ.

قَوْلُهُ: «**فِي الأَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ**»، وهل يدخلُ في ذلك أيضًا الاعتقادُ؟ الجوابُ: نعم يدخلُ؛ لأنَّ الأقوالَ تشملُ أقوالَ البدنِ وأقوالَ القلوبِ، والأعمالَ تشملُ أعمالَ البدنِ وأعمالَ القلوبِ، أقوالُ القلوبِ هي إقرارُها واعترافُها وإيمانُها بالشَّيءِ، أمَّا أعمالُها فهي حركاتُها من المحبَّةِ والتَّوكُّلِ والخشيةِ والخوفِ وما أشبه ذلك، أمَّا أقوالُ الجوارحِ فهي قولُ اللِّسانِ، وأعمالُ الجوارحِ عملُ الأركانِ، فقولُ اللِّسانِ كالقِراءةِ والذِّكرِ والأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكرِ وحِفظِ الأحاديثِ وغيرِها، وأعمالُ الجوارحِ كالصَّلاةِ في قيامِها وركوعِها وسجودِها والذَّهابِ إليها وغيرِ ذلك.

وَقَوْلُهُ: «لَا تَخْرُجْ عَنِ القُرْآنِ» إشارة إلى أنَّ ما جاء عن الرَّسولِ ﷺ فهو من القرآنِ حُكْمًا يجبُ أن نعملَ به كما نعملُ بالقرآنِ، وعملُنا به عملٌ بالقرآنِ حقيقةً.

٤٠٨١- وَخُذِ «الصَّحِيحَيْنِ» اللَّذَيْنِ هُمَا لِعِقْـ ـــدِ الــدِّينِ وَالإِيــمَانِ وَاسِــطَتَانِ

قَوْلُهُ: «وَخُذِ الصَّحِيحَيْنِ»؛ يعني: بعد القرآنِ.

وهذا حثٌّ واضحٌ من المؤلِّفِ -رحمه الله- على قراءة الصَّحيحَيْنِ، ويعني بهما: صحيحَ البخاريِّ وصحيحَ مسلمٍ؛ لأنَّهما أصحُّ الكتبِ فيما أُلِّفَ في الحديثِ، والبخاريُّ أصَحُّ من مسلمٍ وإن كان ترتيبُ مسلمٍ -رحمه الله- أجودَ لكن من حيثُ الصِّحَّةُ، فالبخاريُّ أصحُّ.

٤٠٨٢- وَاقْرَأْهُمَا بَعْـدَ التَّجَـرُّدِ مِـنْ هَـوًى وَتَعَصُّــــبٍ وَحَمِيَّـــةِ الشَّـــيْطَانِ

اقرأ الصَّحيحَيْنِ متجرِّدًا عن الهوى والحميَّةِ والتَّعصُّبِ، وهذا واجبٌ على كُلِّ مَنْ قرأ دليلًا أن يتجرَّدَ من الهوى والتَّعصُّبِ ليحكمَ بما دَلَّ عليه الدَّليلُ؛ ولهذا يُقَالُ: «استدِلَّ ثُمَّ اعتقِدْ ثُمَّ اعملْ» ولا تعتقدْ ثُمَّ تستدلُّ؛ لأنَّك إن اعتقدتَ ثُمَّ استدلَلْتَ فربَّما تميلُ إلى اعتقادِك وتصرفُ نصوصَ الكتابِ والسُّنَّةِ إليه، لكن إذا قَرأْتَ الدَّليلَ أوَّلا، ثُمَّ بَنيْتَ العقيدةَ والعملَ عليه فحينئذٍ يكونُ طريقُك صوابًا.

٤٠٨٣- وَاجْعَلْهُــمَا حَكَــمًا وَلَا تَحْكُــمْ عَـلَى مَــا فِــيهِمَا أَصْــلًا بِقَــوْلِ فُــلَانِ

وصدَق رحمه اللهُ، اجعل ما في الصَّحيحَيْنِ هو الأصل، ولا تحكمْ عليهما بقولِ فلانٍ وفلانٍ فتجعلَهما تَابِعَيْنِ لا متبوعَيْنِ.

٤٠٨٤- وَاجْعَلْ مَقَالَتَهُ كَبَعْضِ مَقَالَـةِ الــ أَشْــيَاخِ تَنْصُــرُهَا بِكُــلِّ أَوَانِ

قَوْلُهُ: «وَاجْعَلْ مَقَالَتَهُ»؛ أي: مقالةَ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم.

اجعَلْ مقالةَ الرَّسولِ كبعض مقالةِ الأشياخِ، وهذا تَنَزُّلٌ من ابنِ القيِّمِ، والواجبُ أن أجعلَها فوق مقالةِ كُلِّ الأشياخِ، لكنَّه يقولُ: نريدُ منكم من بابِ التَّنزُّلِ أن تنصروا قولَ الرَّسولِ ﷺ كما تنصرون قولَ أشياخِكم، لكن هذا من بابِ التَّنَزُّلِ، يقولُ: على الأقلِّ أَعْطِه ولو بعضَ الشَّيءِ، وهو يُخَاطِبُ مَنْ يُقَدِّمون مقالةَ الأشياخِ على مقالةِ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم.

٤٠٨٥- وَانْصُرْ مَقَالَتَهُ كَنَصْرِكَ لِلَّذِي ... قَلَّدْتَهُ مِنْ غَيْرِ مَا بُرْهَانِ

يعني: انصر مقالةَ الرَّسولِ كنصر الذي قَلَّدْتَه وأنت تقلِّدُه بلا بُرهانٍ، لكن لو اتَّبَعْتَ الرَّسولَ اتَّبَعْتَه ببُرهانٍ.

٤٠٨٦- قَدِّرْ رَسُولَ الله عِنْدَكَ وَحْدَهُ ... وَالقَوْلُ مِنْهُ إِلَيْكَ ذُو تِبْيَانِ

يعني: اجعلْ قَدْرَ الرَّسولِ وحدَه عندك، واجعل كلامَه ذا تبيانٍ؛ أي: كلامًا فصيحًا واضحًا حتَّى تأخذَ بمدلولِه.

٤٠٨٧- مَاذَا تَرَى فَرْضًا عَلَيْكَ مُعَيَّنًا ... إِنْ كُنْتَ ذَا عَقْلٍ وَذَا إِيمَانِ

٤٠٨٨- عَرْضَ الَّذِي قَالُوا عَلَى أَقْوَالِهِ ... أَوْ عَكْسُ ذَاكَ فَذَانِكَ الأَمْرَانِ

يعني: هل ترى من الفرضِ عليك أن تَعرِضَ ما قالوه على أقوالِ الرَّسولِ أو أن تَعْرِضَ أقوالَ الرَّسولِ على الذي قالوه؟ الجوابُ: الأوَّل، فالفرضُ أن تَعرِضَ أقوالَهم على أقوالِ الرَّسولِ، فإن وَافَقَتْ قُبِلَتْ وإلَّا رُدَّتْ.

٤٠٨٩- هِيَ مَفْرِقُ الطُّرُقَاتِ بَيْنَ طَرِيقِنَا ... وَطَرِيقِ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالعُدْوَانِ

نحن نَعْرِضُ مقالةَ غيرِ الرَّسولِ على مقالةِ الرَّسولِ، وهم يَعْرِضُون مَقالةَ

الرَّسولِ على مقالةِ غيرِ الرَّسولِ، هذا هو مفترقِ الطُّرقِ، والحقُّ مع مَنْ عَرَضَ مقالةَ النَّاسِ على مقالةِ الرَّسولِ.

فإن وَافَقَتْ أقوالُ الشُّيوخِ أقوالَ الرَّسولِ ﷺ فعلى العينِ والرَّأسِ، وإن خَالَفَتْ أقوالَ الرَّسولِ فليس لها حظٌّ من النَّظرِ عندنا، هم بالعكس؛ ولهذا إذا خَالَفَتْ أقوالُ الرَّسولِ أقوالَ أشياخِهم لجأوا إلى أحد أمرين: إمَّا التَّحريفِ، وهذا فيما ثبت وما لم يثبت، وإمَّا الرَّدِّ إذا أمكنهم الرَّدُّ، فمثلًا إذا جاءت المخالَفةُ في أقوالِ الرَّسولِ في المتواتر ماذا يصنعون؟ يحرِّفون، وإذا جاءت بأخبارِ الآحادِ قالوا: مردودةٌ، هذا الحديثُ مردودٌ؛ لأنَّ أخبارَ الآحادِ لا يثبتُ بها اليقينُ، فهي تفيدُ الظَّنَّ، ودلالةُ العقلِ عندهم يقينيَّةٌ، ولا شكَّ أنَّ هذا -والعياذُ بالله- زيغٌ عظيمٌ، فالواجبُ أنَّ كُلَّ ما صَحَّ عن رسولِ الله ﷺ عن طريقِ الآحادِ أو التَّواترِ فالواجبُ تقديمُه على كُلِّ قولٍ.

٤٠٩٠- قَـدِّرْ مَقَـالاتِ العِبَـادِ جَمِـيعِهِمْ عَـدَمًا وَرَاجِـعْ مَطْلَـعَ الإِيـمَانِ

قَوْلُهُ: «**قَدِّرْ مَقَالَاتِ العِبَادِ جَمِيعِهِمْ عَدَمًا**» كأنَّهم لم يقولوا شيئًا، إذَنْ إلى أيِّ شيءٍ أرجعُ؟ قال: «**وَرَاجِعْ مَطْلَعَ الإِيمَانِ**»؛ يعني: منبعَ الإيمانِ، وهو كلامُ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم.

٤٠٩١- وَاجْعَلْ جُلُوسَكَ بَيْنَ صَحْبِ مُحَمَّدٍ وَتَلَـقَّ مَعْهُـمْ عَنْـهُ بِالإِحْسَـانِ

يعني: اجعل كأنَّك مع الصَّحابةِ تسمعُ كلامَ النَّبيِّ ﷺ، وترى أفعالَه، لتكونَ مِثْلَهم في الاتِّباعِ، وهذه فائدةٌ عظيمةٌ، اجعل جلوسَك مع أصحابِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وعلى هذا فلا تسأل عمَّا لم يسألوا عنه ولا تُحْدِثْ ما لم يقولوه؛ ولهذا نحن ننتقدُ على بعضِ إخوانِنا المُثبتين للصِّفاتِ أن يتعمَّقوا في

إثباتِها، فمثلًا قالوا: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حتَّى تَمَلُّوا»[(١)]، فهل نُثْبِتُ لله المللَ أو لا؟ نقولُ: الصَّحابةُ ما ذهبوا يراجعون الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- في هذا، عرفوا المرادَ والمقصودَ وسكتوا عمَّا سوى ذلك، عرفوا أنَّ مرادَ الرَّسولِ ﷺ أنَّه مهما أكثَرتُم من العملِ فاللهُ تعالى يُجازيكم عليه، ولم يسألوا: هل اللهُ يُوصَفُ بالمللِ أو لا يُوصَفُ؟ وأشياءُ كثيرةٌ من هذا النَّوعِ يتعمَّقُ فيها المتعمِّقون، والصَّحابةُ الذين هم -والله- أفضلُ منَّا وأحرصُ منَّا على الخيرِ، وعندهم مَنْ يستطيعُ أن يُجيبَ وهو الرَّسولُ ﷺ لم يسألوا، إِذَنْ يسعُك ما وَسِعَهم.

٤٠٩٢- وَتَلَقَّ عَنْهُمْ مَا تَلَقَّوْهُ هُمُ عَنْهُ مِنَ الإِيمَانِ وَالعِرْفَانِ

فإذا قال قائلٌ: كيف أتلقَّى عنهم؟ نقولُ: الحمدُ لله بالسَّندِ، هذه الأُمَّةُ حفظ اللهُ دِينَها بالسَّندِ، اقرأ: «**حدَّثنا فلانٌ عن فلانٍ عن فلانٍ**» حتَّى تصلَ إلى الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم.

٤٠٩٣- أَفَلَيْسَ فِي هَذَا بَلاغُ مُسَافِرٍ يَبْغِي الإِلَهَ وَجَنَّةَ الحَيَوَانِ

الجوابُ: بلى، وبلاغُ المسافرِ الزَّادُ الذي يُبْلِغُه مقصدَه؛ يعني: فأنت الآن إذا أَخَذْتَ بما قلتُه لك فقد أَخَذْتَ بلاغَ المسافرِ الذي يُوصلُه إلى منتهى سفرِه.

٤٠٩٤- لَوْلَا التَّنَاوُشُ بَيْنَ هَذَا الخَلْقِ مَا كَانَ التَّفَرُّقُ قَطُّ فِي الحُسْبَانِ

قَوْلُهُ: «**لَوْلَا التَّنَاوُشُ**»، وفي نسخةٍ: «**لَوْلَا التَّنَافُسُ**».

لولا هذا ما كان التَّفرُّقُ قَطُّ في الحسبانِ، فلولا هذا لكان النَّاسُ أُمَّةً واحدةً، ولكنَّهم تَنَاوشوا فتفرَّقوا، أو تنافسوا فاختلفوا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله عزَّ وجلَّ أَدْوَمُه، رقم (٤٣)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن، رقم (٧٨٥).

٤٠٩٥- فَــالرَّبُّ رَبٌّ وَاحِــدٌ وَكِتَابُــهُ　　حَــقٌّ وَفَهْــمُ الحَــقِّ مِنْــهُ دَانِي

٤٠٩٦- وَرَسُولُهُ قَدْ أَوْضَحَ الحَـقَّ الـمُبِيـ　　ـنَ بِغَايَـةِ الإِيضَـاحِ وَالتِّبْيَـانِ

٤٠٩٧- مَـا ثَـمَّ أَوْضَـحُ مِـنْ عِبَارَتِـهِ فَـلا　　يَحْتَـاجُ سَـامِعُهَا إِلَى تِبْيَـانِ

٤٠٩٨- وَالنُّصْحُ مِنْـهُ فَـوْقَ كُـلِّ نَصِـيحَةٍ　　وَالعِلْـمُ مَـأْخُوذٌ عَـنِ الـرَّحْمَنِ

الشَّـرحُ

ذكَر -رحمه الله- في هذه الأبياتِ أنَّ الرَّبَّ عزَّ وجلَّ واحدٌ، وكتابَه حقٌّ ورسولَه حقٌّ، والكتابَ فهمُه دانٍ؛ ولذا قال رحمه الله:

٤٠٩٥- فَــالرَّبُّ رَبٌّ وَاحِــدٌ وَكِتَابُــهُ　　حَــقٌّ وَفَهْــمُ الحَــقِّ مِنْــهُ دَانِي

الرَّبُّ واحدٌ، ويريدُ يريدُ بذلك أن يمنعَ التَّناقضَ في كلامِ الله؛ لأنَّه واحدٌ، وأيضًا كتابُه حقٌّ، ولو لم يكن حقًّا لكان متناقضًا، والفهمُ من القرآنِ دانٍ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧]، أمَّا الرَّسولُ فيقول:

٤٠٩٦- وَرَسُولُهُ قَدْ أَوْضَحَ الحَـقَّ الـمُبِيـ　　ـنَ بِغَايَـةِ الإِيضَـاحِ وَالتِّبْيَـانِ

٤٠٩٧- مَـا ثَـمَّ أَوْضَـحُ مِـنْ عِبَارَتِـهِ فَـلا　　يَحْتَـاجُ سَـامِعُهَا إِلَى تِبْيَـانِ

٤٠٩٨- وَالنُّصْحُ مِنْـهُ فَـوْقَ كُـلِّ نَصِـيحَةٍ　　وَالعِلْـمُ مَـأْخُوذٌ عَـنِ الـرَّحْمَنِ

اجتمع في كلامِ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- ثلاثةُ أمورٍ:

الأوَّل: الفصاحةُ، فلا شيءَ أوضحُ من عبارتِه، ولا أفصحُ ولا أَبْيَنُ.

الثَّاني: النُّصحُ، فهو ﷺ فوق كُلِّ ناصحٍ، فلا أحدَ أنصحُ للخَلقِ منه.

الثَّالث: العلمُ، فإنَّ كلامَ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- مأخوذٌ من الرَّحمنِ، لا منِ قولِ فلانٍ ولا من قولِ فلانٍ.

فإذا اجتمع في الكلامِ تمامُ العلمِ وتمامُ النُّصحِ وتمامُ الفصاحةِ والبيان، فإنَّه يكونُ بذلك كاملًا ولا يحتاجُ إلى ما يُكَمِّلُه؛ لأنَّ أكثرَ ما يعيبُ الكلامَ أن يكونَ الكلامُ ركيكًا، لا يُفْهَمُ المرادُ منه، أو أن يكونَ القائلُ به جاهلًا لا يُوثَقُ به، أو أن يكونَ القائلُ به غيرَ ناصحٍ لا يُوثَقُ به.

وهناك وصفٌ رابعٌ لم يذكره المؤلِّفُ، وهو الصِّدقُ، أن يكونَ صادقًا، فكلامُ الرَّسولِ ﷺ اجتمع فيه أربعةُ أوصافٍ وهي: العلمُ وهذا أخذه من الرَّحمنِ عزَّ وجلَّ، وكمالُ النُّصحِ، وكمالُ الفصاحةِ، وكمالُ الصِّدقِ، أفبعدَ هذه الأوصافِ الأربعة نحتاجُ إلى أن نطلبَ الحقَّ من غيرِ كلامِه؟! الجوابُ: أبدًا.

* * *

٤٠٩٩- فَلأَيِّ شَيْءٍ يَعْدِلُ البَاغِي الـهُدَى ... عَنْ قَوْلِهِ لَوْلَا عَمَى الـخِذْلانِ

٤١٠٠- فَالنَّقْلُ عَنْهُ مُصَدَّقٌ وَالقَوْلُ مِنْ ... ذِي عِصْمَةٍ مَا عِنْدَنَا قَوْلانِ

٤١٠١- وَالعَكْسُ عِنْدَ سِوَاهُ فِي الأَمْرَيْنِ يَا ... مَنْ يَهْتَدِي هَلْ يَسْتَوِي النَّقْلانِ

٤١٠٢- تَاللهِ قَدْ لاحَ الصَّبَاحُ لِمَنْ لَهُ ... عَيْنَانِ نَحْوَ الفَجْرِ نَاظِرَتَانِ

٤١٠٣- وَأَخُو العَمَايَةِ فِي عَمَايَتِهِ يَقُو ... لُ اللَّيْلُ بَعْدُ أَيَسْتَوِي الرَّجُلانِ

٤١٠٤- تَاللهِ قَدْ رُفِعَتْ لَكَ الأَعْلامُ إِنْ ... كُنْتَ المُشَمِّرَ نِلْتَ دَارَ أَمَانِ

٤١٠٥- وَإِذَا جَبُنْتَ وَكُنْتَ كَسْلانًا فَمَا ... حُرِمَ الوُصُولَ إِلَيْهِ غَيْرُ جَبَانِ

٤١٠٦- فَاقْدِمْ وَعِدْ بِالوَصْلِ نَفْسَكَ وَاهْجُرِ الـ ـــمَقْطُوعَ مِنْــهُ قَــاطِعَ الإِنْسَـانِ

٤١٠٧- عَـنْ نَيْـلِ مَقْصِـدِهِ فَـذَاكَ عَـدُوُّهُ وَلَـوَ انَّـهُ مِنْـهُ القَرِيـبُ الـدَّانِي

الشــرحُ

يقول المؤلِّفُ -رحمه الله تعالى-: إذا اتَّضحت هذه الأمورُ الثَّلاثةُ في كلامِ الرَّسولِ ﷺ، ونحن زدنا أمرًا رابعًا وهو الصِّدق، يقولُ:

٤٠٩٩- فَلِأَيِّ شَيْءٍ يَعْدِلُ البَاغِي الـهُدَى عَنْ قَوْلِـهِ لَـوْلَا عَمَـى الـخِذْلَانِ

قَوْلُهُ: «فَلأَيِّ شَيْءٍ يَعْدِلُ البَاغِي الـهُدَى عَنْ قَوْلِهِ» «البَاغِي الـهُدَى»؛ يعني: الطالبَ الـهدى، لأيِّ شيءٍ يَعْدِلُ عن قولِه وقد اجتمع في قولِه الكمالاتُ الأربعة.

قَوْلُهُ: «لَوْلَا عَمَى الـخِذْلَانِ» نعوذُ بالله؛ يعني: لولا أنَّ هذا مصابٌ بالعمى الذي خَذَلَهُ لكان لا يَعْدِلُ عن قولِه أبدًا.

٤١٠٠- فَالنَّقْلُ عَنْهُ مُصَـدَّقٌ وَالقَـوْلُ مِـنْ ذِي عِصْـمَةٍ مَـا عِنْـدَنَا قَـوْلَانِ

النَّقلُ عن الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- مُصَدَّقٌ، وقولُه معصومٌ ما عندنا في هذا قولان، أمَّا غيرُ الرَّسولِ فالبعكس.

٤١٠١- وَالعَكْسُ عِنْدَ سِوَاهُ فِي الأَمْرَيْنِ يَـا مَنْ يَهْتَدِي هَـلْ يَسْـتَوِي الـنَّقْلَانِ

قَوْلُهُ: «وَالعَكْسُ عِنْدَ سِوَاهُ فِي الأَمْرَيْنِ» فالنَّقلُ عنه ليس بِمُصَدَّقٍ، والخطأُ ليس معصومًا منه، فما سوى الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- ليس بمعصومٍ عن الكذبِ ولا عن الخطأ ولا عن الجهلِ، وأمَّا النَّبيُّ ﷺ فمعصومٌ من ذلك.

قَوْلُهُ: «هَلْ يَسْتَوِي النَّقْلَانِ؟» الجوابُ: لا يستويان.

٤١٠٢- تَـالله قَـدْ لاحَ الصَّـبَاحُ لِـمَنْ لَـهُ ... عَيْنَـانِ نَحْـوَ الفَجْـرِ نَاظِرَتَـانِ

أقْسَمَ بأنَّه لَاحَ الصَّباحُ، وهو انشقاقُ النُّورِ لمن ينظرُ إلى الفجرِ، أمَّا مَنْ نَكَّسَ رأسَه فلم يُطالِعْ في الأفُقِ فإنَّه لا يَرَى الصَّباحَ.

٤١٠٣- وَأَخُـو العَـمَايَةِ فِي عَـمَايَتِهِ يَقُـو ... لُ اللَّيْـلُ بَعْـدُ أَيَسْـتَوِي الـرَّجُلانِ

قَوْلُهُ: «أَيَسْتَوِي الرَّجُلَانِ؟» الجوابُ: لا.

٤١٠٤- تَاللهِ قَـدْ رُفِعَـتْ لَـكَ الأَعْـلامُ إِنْ ... كُنْـتَ الْمُشَـمِّرَ نِلْـتَ دَارَ أَمَـانِ

قَوْلُهُ: «الأَعْلَامُ» جمعُ «عَلَم»، وهو ما يُرْفَعُ في القتالِ وغيرِ القتالِ ليكونَ دليلًا على المقصودِ.

٤١٠٥- وَإِذَا جَبُنْـتَ وَكُنْـتَ كَسْـلانًا فَـمَا ... حُـرِمَ الوُصُـولَ إِلَيْـهِ غَـيْرُ جَبَـانِ

٤١٠٦- فَاقْدِمْ وَعِدْ بِالوَصْلِ نَفْسَكَ وَاهْجُرِ الـ ... ـمَقْطُوعَ مِنْـهُ قَـاطِعَ الإِنْسَـانِ

قَوْلُهُ: «فَاقْدِمْ»؛ أي: تَقَدَّمْ.

يعني: أَقْدِم ولا تتأَخَّرْ، وكُلُّ شيء يقطعُك عن الإقدامِ فاهجرْه.

٤١٠٧- عَـنْ نَيْـلِ مَقْصِـدِهِ فَـذَاكَ عَـدُوُّهُ ... وَلَـوَ انَّـهُ مِنْـهُ القَرِيـبُ الـدَّانِي

كُلُّ إنسانٍ يعوقُك عن مقصدِك وعن اتِّباعِ الرَّسولِ ﷺ فإنَّه عدوُّك ولو كان من أقربِ النَّاسِ إليك.

* * *

فصــل

فِي تَيْسِيرِ السَّيْرِ إِلَى اللهِ عَلَى المُثْبِتِينَ المُوَحِّدِينَ، وَامْتِنَاعِهِ عَلَى المُعَطِّلِينَ وَالمُشْرِكِينَ

٤١٠٨- يَـا قَاعِـدًا سَـارَتْ بِـهِ أَنْفَاسُــهُ ... سَـيْرَ البَرِيـدِ وَلَـيْسَ بِالـذَّمَلانِ

٤١٠٩- حَتَّى مَتَى هَذَا الرُّقَـادُ وَقَـدْ سَرَى ... وَفْـدُ المَحَبَّـةِ مَـعْ أُولِي الإِحْسَـانِ

٤١١٠- وَحَدَتْ بِهِمْ عَزَمَاتُهُمْ نَحْـوَ العُلَى ... لا حَـادِيَ الرُّكْبَـانِ وَالأَظْعَـانِ

٤١١١- رَكِبُوا العَزَائِمَ وَاعْتَلَـوْا بِظُهُورِهَـا ... وَسَرَوْا فَـمَا حَنُّـوا إِلَى نُعْـمَانِ

٤١١٢- سَـارُوا رُوَيْـدًا ثُـمَّ جَـاؤُوا أَوَّلَا ... سَـيْرَ الـدَّلِيلِ يَـؤُمُّ بِالرُّكْبَـانِ

٤١١٣- سَارُوا بِإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ إِلَيْهِ لا التْـ ... ـتَعْطِيلِ وَالتَّحْرِيـفِ وَالنُّكْـرَانِ

٤١١٤- عَرَفُوهُ بِالأَوْصَافِ فَـامْتَلأَتْ قُلُـو ... بُهُـمُ لَـهُ بِالـحُبِّ وَالإِيـمَانِ

٤١١٥- فَتَطَايَرَتْ تِلْكَ القُلُوبُ إِلَيْـهِ بِالْـ ... أَشْـوَاقِ إِذْ مُلِئَـتْ مِـنَ العِرْفَـانِ

٤١١٦- وَأَشَـدُّهُمْ حُبًّـا لَـهُ أَدْرَاهُـمُ ... بِصِـفَاتِهِ وَحَقَـائِقِ القُـرْآنِ

٤١١٧- فَالـحُبُّ يَتْبَعُ لِلشُّـعُورِ بِحَسْبِهِ ... يَقْـوَى وَيَضْـعُفُ ذَاكَ ذُو تِبْيَـانِ

٤١١٨- وَلِـذَاكَ كَـانَ العَـارِفُونَ صِـفَاتِهِ ... أَحْبَابَـهُ هُـمْ أَهْـلُ هَـذَا الشَّـانِ

٤١١٩- وَلِـذَاكَ كَـانَ العَالِـمُونَ بِـرَبِّهِمْ ... أَحْبَابَـهُ وَبِشِـرْعَةِ الإِيـمَانِ

٤١٢٠- وَلِذَاكَ كَانَ المُنْكِرُونَ لَـهَا هُـمُ الْـ ... أَعْـدَاءَ حَقًّـا هُـمْ أُولُـو الشَّـنَآنِ

٤١٢١- وَلِذَاكَ كَانَ الجَاهِلُونَ بِذَا وَذَا ... بُغَضَاءَهُ حَقًّا ذَوِي شَنَآنِ

٤١٢٢- وَحَيَاةُ قَلْبِ العَبْدِ فِي شَيْئَيْنِ مَنْ ... يُرْزَقْهُمَا يَحْيَا مَدَى الأَزْمَانِ

٤١٢٣- فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَفِي الأُخْرَى يَكُو ... نُ الحَيُّ ذَا الرِّضْوَانِ وَالإِحْسَانِ

٤١٢٤- ذِكْرُ الإِلَهِ وَحُبُّهُ مِنْ غَيْرِ إِشْـ ... ـرَاكٍ بِهِ وَهُمَا فَمُمْتَنِعَانِ

٤١٢٥- مَنْ صَاحِبَ التَّعْطِيلَ حَقًّا كَامْتِنَا ... عِ الطَّائِرِ المَقْصُوصِ مِنْ طَيَرَانِ

٤١٢٦- أَيُحِبُّهُ مَنْ كَانَ يُنْكِرُ وَصْفَهُ ... وَعُلُوَّهُ وَكَلامَهُ بِقُرَانِ

٤١٢٧- لا وَالَّذِي حَقًّا عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ... مُتَكَلِّمًا بِالوَحْيِ وَالفُرْقَانِ

٤١٢٨- اللهُ أَكْبَرُ ذَاكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْ ... تِيهِ لِمَنْ يَرْضَى بِلا حُسْبَانِ

٤١٢٩- وَتَرَى المُخَلَّفَ فِي الدِّيَارِ تَقُولُ ذَا ... إِحْدَى الأَثَافِي خُصَّ بِالحِرْمَانِ

٤١٣٠- اللهُ أَكْبَرُ ذَاكَ عَدْلُ اللهِ يَقْـ ... ـضِيهِ عَلَى مَنْ شَاءَ مِنْ إِنْسَانِ

٤١٣١- وَلَهُ عَلَى هَذَا وَهَذَا الحَمْدُ فِي الـ ... أُولَى وَفِي الأُخْرَى هُمَا حَمْدَانِ

٤١٣٢- حَمْدٌ لِذَاتِ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ ... وَكَذَاكَ حَمْدُ العَدْلِ وَالإِحْسَانِ

الشرحُ

٤١٠٨- يَا قَاعِدًا سَارَتْ بِهِ أَنْفَاسُهُ ... سَيْرَ البَرِيدِ وَلَيْسَ بِالذَّمَلانِ

قَوْلُهُ: «يَا قَاعِدًا» يا أيَّ قاعدٍ، إنَّما نَصَبَها؛ لأنَّها نكرةٌ غيرُ مقصودةٍ، والنِّداءُ إذا وُجِّه لنكرةٍ غيرِ مقصودةٍ صار المنادَى منصوبًا.

قَوْلُهُ: «سَيْرَ البَرِيدِ» كانوا فيما سبق يقيمون شخصًا يركبُ على الخيلِ إلى مسافةِ بريدٍ، ثُمَّ تقفُ هذه الخيلُ في مكانٍ ما، وإذا بخيلٍ أخرى مجهَّزةٍ تحملُ الرَّسائلَ والأخبارَ من الخيلِ الأولى إلى بريدٍ آخرَ فيأخذ ما معه من الرَّسائلِ، ثُمَّ يعدو بها إلى بريدٍ آخرَ، وهكذا، والبريدُ أربعةُ فراسخ، والفرسخُ ثلاثةُ أميالٍ، والميلُ اثنا عشر ألف ذراعٍ، فهذا يُسمَّى بريدًا؛ لأنَّه أسرعُ ممَّا لو كان السَّيرُ من خيَّالٍ واحدٍ.

وَقَوْلُهُ: «سَيْرَ البَرِيدِ»؛ لأنَّه يُسْرِعُ.

قَوْلُهُ: «وَلَيْسَ بِالذَّمَلَانِ»؛ أي: السَّير، و«الذَّمَلَانِ»: نوعٌ من المشي الضَّعيفِ[1].

٤١٠٩- حَتَّى مَتَى هَذَا الرُّقَادُ وَقَدْ سَرَى   وَفْدُ المَحَبَّةِ مَعْ أُولِي الإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «حَتَّى مَتَى هَذَا الرُّقَادُ؟»؛ يعني: إلى أين تبقى راقدًا؟

قَوْلُهُ: «وَقَدْ سَرَى وَفْدُ المَحَبَّةِ» سَرَوْا؛ أي: مَشَوْا ليلًا، ويقولُ الشَّاعرُ:

عَنْدَ الصَّبَاحِ: يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرَى   ....[2]

٤١١٠- وَحَدَتْ بِهِمْ عَزَمَاتُهُمْ نَحْوَ العُلَى   لا حَادِيَ الرُّكْبَانِ وَالأَظْعَانِ

قَوْلُهُ: «وَحَدَتْ بِهِمْ عَزَمَاتُهُمْ نَحْوَ العُلَى»؛ يعني: أنَّ عزماتِهم حَدَتْ بهم نحو العُلَى، و«العُلَى»؛ يعني: الأخلاقَ العاليةَ.

(١) الذَّمِيلُ: ضَرْبٌ من سَيْرِ الإبل، وقيل: هو السَّيْرُ اللَّيِّن ما كان. انظر: لسان العرب، مادة: «ذمل».

(٢) هذا من أمثال العرب، انظر: مجمع الأمثال (٢/ ٣).

قَوْلُهُ: «لَا حَادِيَ الرُّكْبَانِ وَالأَظْعَانِ» «الأَظْعَان» جمعُ «ظعينة» وهنَّ النِّساءُ، وقد جرت العادةُ فيما سبق أنَّ أهلَ الأسفارِ يَحْدُون بالإبلِ التي عليها النِّساءُ؛ لأنَّ الإبلَ إذا حدا الحادي صارت تمشي بسهولةٍ وسرعةٍ، فتُسْرِعُ مع سهولةِ المشي، وحداءُ الإبل معروفٌ.

٤١١١- رَكِبُوا العَزَائِمَ وَاعْتَلَوْا بِظُهُورِهَا ... وَسَرَوْا فَمَا حَنُّوا إِلَى نُعْمَانِ

قَوْلُهُ: «رَكِبُوا العَزَائِمَ»؛ يعني: أنَّهم لم يهتمُّوا بما وراءَهم، وإنَّما ينظرون إلى ما أمامهم، فهم رَكِبُوا العزائمَ، و«العُزَائِمُ» جمعُ: «عزيمة».

قَوْلُهُ: «وَاعْتَلَوْا بِظُهُورِهَا»؛ أي: على ظهورِها.

قَوْلُهُ: «وَسَرَوْا فَمَا حَنُّوا إِلَى نُعْمَانِ»؛ أي: إلى بلدِهم.

٤١١٢- سَارُوا رُوَيْدًا ثُمَّ جَاؤُوا أَوَّلًا ... سَيْرَ الدَّلِيلِ يَؤُمُّ بِالرُّكْبَانِ

ساروا رُوَيْدًا، ولكنَّهم لاستمرارِهم في السَّيرِ جاؤوا أوَّلًا كما يجيءُ الدَّليلُ الذي يَؤُمُّ بالرُّكْبَانِ ويقودُهم.

٤١١٣- سَارُوا بِإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ إِلَيْهِ لا التْـ ... ـتَعْطِيلِ وَالتَّحْرِيفِ وَالنُّكْرَانِ

من هنا عرفنا أنَّه يريدُ -بمن سبق- أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ الذين يُثبتون لله تعالى الصِّفاتِ، لا أهلَ التَّعطيلِ والتَّحريفِ والنُّكرانِ، فأهلُ التَّعطيلِ هم الذين يُعطِّلونَ اللهَ عمَّا له من الصِّفاتِ، ويُعطِّلون النُّصوصَ عن معناها، وأهلُ التَّحريفِ هم الذين يُحرِّفونها إلى معنىً آخرَ، والنُّكران الذين يُكَذِّبونها، وهذا وصفُ أهلِ التَّعطيلِ، فهم يعطِّلونَ اللهَ عمَّا يجبُ له من الصِّفاتِ، ويَعْدُون على النُّصوصِ فيُحرِّفونها، ويَعْدُون على بعضِ النُّصوصِ فينكرونها، ما هي النُّصوص التي ينكرونها؟ هي

أخبارُ الآحادِ مثلًا في السُّنَّةِ، وأمَّا ما لا يمكنُ إنكارُه فَيَسْطون عليه بالتَّحريفِ.

٤١١٤- عَرَفُوهُ بِالأَوْصَافِ فَامْتَلأَتْ قُلُو ... بُهُمُ لَهُ بِالحُبِّ وَالإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «عَرَفُوهُ» الضَّميرُ يعودُ على الله عزَّ وجلَّ.

فهم عرفوه بأوصافِه الكاملةِ، فامتلأت قلوبُهم له محبَّةً وإيمانًا به.

٤١١٥- فَتَطَايَرَتْ تِلْكَ القُلُوبُ إِلَيْهِ بِالـ ... أَشْوَاقِ إِذْ مُلِئَتْ مِنَ العِرْفَانِ

لأنَّه من المعلومِ أنَّك كُلَّما عَرَفْتَ صفاتِ الشَّخصِ وكانت هذه الصِّفاتُ حميدةً فإنَّك سوف تسعى إلى الوصولِ إليه بكُلِّ ما تستطيعُ، هم عرفوا اللهَ عزَّ وجلَّ بأوصافِه فطارت قلوبُهم شوقًا إليه.

٤١١٦- وَأَشَدُّهُمْ حُبًّا لَهُ أَدْرَاهُمُ ... بِصِفَاتِهِ وَحَقَائِقِ القُرْآنِ

هؤلاء هم أشدُّ النَّاسِ حُبًّا لله عزَّ وجلَّ العالمون بصفاتِه؛ لأنَّه كُلَّما عَلِمَ الإنسانُ بصفةٍ ازداد محبَّةً للموصوفِ.

٤١١٧- فَالحُبُّ يَتْبَعُ لِلشُّعُورِ بِحَسْبِهِ ... يَقْوَى وَيَضْعُفُ ذَاكَ ذُو تِبْيَانِ

وهذا صحيحٌ؛ فالحبُّ مدارُه على شعورِ الإنسانِ بمَنْ يُحِبُّ، فإذا شعر الإنسانُ بصفاتٍ كاملةٍ في المحبوبِ فإنَّه لا بد أن يميلَ إليه بالحُبِّ، حتَّى الأمور المعتادة كالطَّعامِ والشَّرابِ واللِّباسِ والمساكنِ، كُلَّما شَعَرَ الإنسانُ بكمالِ هذا الشَّيءِ ازداد حُبًّا له.

٤١١٨- وَلِذَاكَ كَانَ العَارِفُونَ صِفَاتِهِ ... أَحْبَابُهُ هُمْ أَهْلُ هَذَا الشَّانِ

قَوْلُهُ: «العَارِفُونَ صِفَاتِهِ» الضَّميرُ يعودُ على الله.

٤١١٩- وَلِذَاكَ كَانَ العَالِمُونَ بِرَبِّهِمْ ... أَحْبَابَهُ وَبِشِرْعَةِ الإِيمَانِ

٤١٢٠- وَلِذَاكَ كَانَ المُنْكِرُونَ لَهَا هُمُ الـ ... أَعْدَاءَ حَقًّا هُمْ أُولُو الشَّنَآنِ

قَوْلُهُ: «الشَّنَآنِ»؛ يعني: البغض، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة:٢].

المنكِرون بل الجاهلون بهذه الأوصافِ هم أبعَدُ النَّاسِ عن محبَّةِ الله؛ لأنَّ مَنْ كان بالله أجهلَ كان عنه أبعدَ؛ إذ كيف يُحِبُّ مَنْ لا يعرفُ؟! هذا شيءٌ مستحيلٌ.

٤١٢١- وَلِذَاكَ كَانَ الجَاهِلُونَ بِذَا وَذَا ... بُغَضَاءَهُ حَقًّا ذَوِي شَنَآنِ

قَوْلُهُ: «الجَاهِلُونَ بِذَا وَذَا»؛ أي: الجاهلون بصفاتِه والجاهلون به عزَّ وجلَّ وبأحكامِه هم البُغَضاءُ حقًّا ذوي شَنآن.

٤١٢٢- وَحَيَاةُ قَلْبِ العَبْدِ فِي شَيْئَيْنِ مَنْ ... يُرْزَقْهُمَا يَحْيَا مَدَى الأَزْمَانِ

٤١٢٣- فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَفِي الأُخْرَى يَكُو ... نُ الحَيُّ ذَا الرِّضْوَانِ وَالإِحْسَانِ

ما هما؟ يقولُ:

٤١٢٤- ذِكْرُ الإِلَهِ وَحُبُّهُ مِنْ غَيْرِ إِشْـ ... ـرَاكٍ بِهِ وَهُمَا فَمُمْتَنِعَانِ

٤١٢٥- مَنْ صَاحَبَ التَّعْطِيلَ حَقًّا كَامْتِنَا ... عِ الطَّائِرِ المَقْصُوصِ مِنْ طَيَرَانِ

يقول: إذا رُزِقَ الإنسانُ هذين الأمرَيْنِ: الأوَّل: ذِكْرَ الإله، والثَّاني: حبَّه، صار حيًّا في الدُّنيا وفي الآخرةِ؛ أمَّا في الدُّنيا فحياتُه طيِّبةٌ، وأمَّا في الآخرةِ فأطيبُ؛ لقولِه -سبحانه وتعالى-: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النَّحل:٩٧]؛ يعني: في الدُّنيا، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ

مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النّحل:٩٧]؛ يعني: في الآخرةِ، فكُلَّما أَدَامَ الإنسانُ ذكرَ ربِّهِ ازداد قلبُه حياةً، وكُلَّما أَحَبَّ اللهَ ازداد قلبُه حياةً لكن «**مِنْ غَيْرِ إِشْرَاكٍ بِهِ**»، و«**هُمَا**»؛ أي: الذِّكرُ والمحبَّةُ فممتنعان «**مِنْ صَاحِبِ التَّعْطِيلِ حَقًّا كَامْتِنَاعِ الطَّائِرِ المَقْصُوصِ مِنْ طَيَرَانِ**»، لو أَنَّك قَصَصْتَ جَنَاحَيْ الطَّائرِ هل يطيرُ؟ لا يمكنُ، إِذَنْ أهلُ التَّعطيلِ لا يمكنُ أن تمتلئَ قلوبُهم حُبًّا لله، ولا يمكنُ أن تَلْهَجَ ألسنتُهم ذكرًا به ما داموا معطِّلين؛ لأَنَّه يقرأُ النُّصوصَ التي فيها الإثباتُ وهو لا يُثْبِتُها، إِذَنْ تكونُ حروفًا على ورقٍ.

٤١٢٦- أَيُحِبُّهُ مَنْ كَانَ يُنْكِرُ وَصْفَهُ ... وَعُلُوَّهُ وَكَلامَهُ بِقُرَانِ

٤١٢٧- لا وَالَّذِي حَقًّا عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ... مُتَكَلِّمًا بِالوَحْيِ وَالفُرْقَانِ

قَوْلُهُ: «**أَيُحِبُّهُ مَنْ كَانَ يُنْكِرُ وَصْفَهُ...؟**» هل يُحِبُّ اللهَ مَنْ كان يُنكرُ أنَ يكونَ موصوفًا بالكمالِ؟ الجوابُ: أبدًا، وكيف يُحِبُّ مَنْ لا يتَّصفُ بالكمالِ؟

قَوْلُهُ: «**لَا وَالَّذِي حَقًّا عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى**» يريدُ أن يُكايدَ هؤلاء الذين يُنكرون العلوَّ.

قَوْلُهُ: «**مُتَكَلِّمًا بِالوَحْيِ**» يُريد أن يُكايدَ هؤلاء الذين يُنكرون كلامَه.

٤١٢٨- اللهُ أَكْبَرُ ذَاكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْ ... تِيهِ لِمَنْ يَرْضَى بِلا حُسْبَانِ

قَوْلُهُ: «**ذَاكَ**» المشارُ إليه: الذِّكرُ والمحبَّةُ أو الإقرارُ بالصِّفاتِ.

فمَنْ أُعْطِيَ الفضلَ بإثباتِ الصِّفاتِ والأسماءِ والمحبَّةِ لله عزَّ وجلَّ وكثرةِ الذِّكرِ فهذا فضلُ الله يؤتيه مَنْ يشاءُ.

٤١٢٩- وَتَرَى الْمُخَلَّفَ فِي الدِّيَارِ تَقُولُ ذَا إِحْدَى الأَثَافِي خُصَّ بِالْحِرْمَانِ

قَوْلُهُ: «الْمُخَلَّفَ فِي الدِّيَارِ» يُريدُ بذلك الذي لم يُسَافِرْ إلى الله.

قَوْلُهُ: «تَقُولُ ذَا إِحْدَى الأَثَافِي» «الأَثَافِي» هي التي يُنْصَبُ عليها القِدْرُ، والتي يُنْصَبُ عليها القِدْرُ لا يمكنُ أن تزولَ عن مكانِها؛ لأنَّ مكانَ الطَّبخِ واحدٌ، فهم مِثْلُ الأثافي خُصَّ بالحِرمانِ.

٤١٣٠- اللهُ أَكْبَرُ ذَاكَ عَدْلُ اللهِ يَقْـ ـضِيهِ عَلَى مَنْ شَاءَ مِنْ إِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «ذَاكَ» المشارُ إليه: ما حُرِمُوا من الوصولِ إلى الحقِّ؛ لأنَّهم عَدَلُوا عن الحقِّ فقابلهم اللهُ عزَّ وجلَّ بالعدلِ، فمَنْ خُذِلَ فذلك عدلُ الله كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصَّف:٥]، وكما قال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة١٣].

٤١٣١- وَلَهُ عَلَى هَذَا وَهَذَا الْحَمْدُ فِي الْـ أُولَى وَفِي الأُخْرَى هُمَا حَمْدَانِ

قَوْلُهُ: «وَلَهُ عَلَى هَذَا وَهَذَا الحَمْدُ» «عَلَى هَذَا»؛ يعني: على الفضلِ، «وَهَذَا»؛ يعني: العدلَ، والحمدُ في الأولى وفي الأخرى هما حَمْدَانِ.

٤١٣٢- حَمْدٌ لِذَاتِ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ وَكَذَاكَ حَمْدُ العَدْلِ وَالإِحْسَانِ

إِذَنْ اللهُ يُحْمَدُ على كمالِه الذَّاتِيِّ وعلى كمالِه المتعدِّي، كمالُه الذَّاتيُّ هو كمالُ صفاتِه، والمتعدِّي هو العدلُ والإحسانُ.

* * *

٤١٣٣- يَـا مَـنْ تَعِـزُّ عَلَـيْهِمُ أَرْوَاحُهُـمْ ... وَيَـرَوْنَ غُبْنًـا بَيْعَهَـا بِهَـوَانِ

٤١٣٤- وَيَـرَوْنَ خُسْـرَانًا مُبِينًـا بَيْعَهَـا ... فِي إِثْـرِ كُـلِّ قَبِيحَـةٍ وَمُهَـانِ

٤١٣٥- وَيَـرَوْنَ مَيْـدَانَ التَّسَـابُقِ بَـارِزًا ... فَيُتَـارِكُونَ تَقَحُّـمَ الـمَيْدَانِ

٤١٣٦- وَيَـرَوْنَ أَنْفَـاسَ العِبَـادِ عَلَـيْهِمُ ... قَدْ أُحْصِيَتْ بِالعَـدِّ وَالـحُسْبَانِ

٤١٣٧- وَيَـرَوْنَ أَنَّ أَمَـامَهُمْ يَـوْمُ اللِّقَـا ... لله مَسْـأَلَتَانِ شَـامِلَتَانِ

٤١٣٨- مَـاذَا عَبَـدْتُمْ ثُـمَّ مَـاذَا قَـدْ أَجَبْـ ... ـتُمْ مَـنْ أَتَـى بِـالحَقِّ وَالبُرْهَـانِ

٤١٣٩- هَـاتُوا جَوَابًـا لِلسُّـؤَالِ وَهَيِّئُـوا ... أَيْضًـا صَـوَابًا لِلجَـوَابِ يَـدَانِ

٤١٤٠- وَتَيَقَّنُوا أَنْ لَـيْسَ يُنْجِـيكُمْ سِـوَى ... تَجْرِيـدِكُمْ لِـحَقَائِقِ الإِيـمَانِ

٤١٤١- تَجْرِيـدِكُمْ تَوْحِيـدَهُ سُـبْحَانَهُ ... عَـنْ شِرْكَـةِ الشَّـيْطَانِ وَالأَوْثَـانِ

٤١٤٢- وَكَـذَاكَ تَجْرِيـدُ اتِّبَـاعِ رَسُـولِهِ ... عَـنْ هَـذِهِ الآرَاءِ وَالـهَذَيَانِ

٤١٤٣- وَالله مَـا يُنْجِـي الفَتَـى مِـنْ رَبِّـهِ ... شَيْءٌ سِـوَى هَـذَا بِـلا رَوَغَـانِ

الشـرحُ

في هذه الأبياتِ وَجَّهَ المؤلِّفُ -رحمه الله- هذا الخطابَ إلى مَنْ أَنْفُسُهم عزيزةٌ عليهم فقال:

٤١٣٣- يَـا مَـنْ تَعِـزُّ عَلَـيْهِمُ أَرْوَاحُهُـمْ ... وَيَـرَوْنَ غُبْنًـا بَيْعَهَـا بِهَـوَانِ

وهؤلاء هم أحياءُ القلوبِ الذين يعزُّ عليهم أن تهونَ أرواحُهم، وَيرَوْنَ من الغَبْنِ أن يبيعوها بالهوانِ.

٤١٣٤- وَيَــرَوْنَ خُسْــرَانًا مُبِينًــا بَيْعَهَــا فِي إِثْــرِ كُــلِّ قَبِيحَــةٍ وَمُهَــانِ

يَرَوْنَ أيضًا من الـخسرانِ المبين أن يبيعوها في إِثْرِ كُلِّ قولةٍ قبيحةٍ صادرةٍ من مُهَانٍ.

٤١٣٥- وَيَــرَوْنَ مَيْــدَانَ التَّسَــابُقِ بَــارِزًا فَيُتَــارِكُونَ تَقَحُّــمَ الــمَيْدَانِ

يَرَوْنَ أنَّ ميدانَ التَّسابقِ بارزًا فَيُتَارِكُونَ تقحُّمَ الميدانِ، ولكنَّهم يدخلونه من غير تقحُّمٍ، ويدخلونه بهونٍ حتَّى يَصِلوا إلى مُرادِهم.

٤١٣٦- وَيَــرَوْنَ أَنْفَــاسَ العِبَــادِ عَلَــيْهِمُ قَدْ أُحْصِيَتْ بِالعَـدِّ وَالـحُسْبَانِ

الإنسانُ -في الحقيقةِ- تُعَدُّ عليه أنفاسُه، ومَنْ يُحْصِي نَفَسَه؟! بل يُعَدُّ عليه ما دون النَّفَسِ، فكُلُّ لحظةٍ تمرُّ به فإنَّها إمَّا له وإمَّا عليه، واللهُ المستعانُ.

٤١٣٧- وَيَــرَوْنَ أَنَّ أَمَــامَهُمْ يَــوْمُ اللِّقَــا للهِ مَسْــــــأَلَتَانِ شَــــــامِلَتَانِ

في هذا البيتِ أَخَذَ المؤلِّفُ بلُغةِ من يُلْزِمُ المثنَّى الألفَ مطلقًا؛ لأنَّ قولَه: «أَنَّ أَمَامَهُم» «أَمَام»: مصدرٌ، خبرٌ مقدَّمٌ، و«مَسْأَلَتَانِ»: اسمُ «أَنَّ» مؤخَّرٌ، و«شَامِلَتَانِ» صفةٌ له، ويصحُّ أن نجعلَ «أَمَامَ» هو الاسم على أنَّه ليس بظرفٍ، ولكنَّه اسمٌ لما كان قُدَّام الإنسانِ؛ لأنَّ هذا الأمامَ والفوقَ والتَّحتَ قد يُرَادُ بها المعنى نفسُه لا أنَّها ظرفٌ لشيءٍ آخرَ، فيكون المؤلِّفُ جاريًا على اللُّغةِ الفصحي، على كُلِّ حالٍ يقولُ: يَرَوْنَ أنَّ أمامَهم يوم لقاءِ الله مسألتان شاملتان، ثُمَّ ذكر المسألَتَيْنِ فقال:

٤١٣٨- مَــاذَا عَبَـدْتُمْ ثُــمَّ مَــاذَا قَــدْ أَجَبْــ ــتُمْ مَــنْ أَتَــى بِــالحَقِّ وَالبُرْهَــانِ

المسألة الأولى: ماذا عَبَدْتُم؟؛ يعني: يُسْأَلُ الإنسانُ يوم القيامة: مَنْ عَبَدْتَ؟

وهذا في قولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص:٧٤]، فيسألهم.

المسألة الثَّانية: ثُمَّ ماذا قد أجبتُم مَن أتى بالحقِّ والبرهانِ؟ وهم الرُّسل، وذلك في قولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥]، فأنت مسؤولٌ يوم القيامةِ عن هذين السُّؤالَيْنِ، فكُلُّ إنسانٍ يُسْأَلُ عن هذا: ماذا عَبَدْتَ؟ هل عَبَدَ اللهَ أو أشركَ؟ وماذا أَجَابَ المرسلين؟ هل اتَّبعهم أو ابْتَدَعَ؟

٤١٣٩- هَاتُوا جَوَابًا لِلسُّؤَالِ وَهَيِّئُوا ... أَيْضًا صَوَابًا لِلجَوَابِ يَدَانِ

يُطْلَبُ منهم شيئان:

الشَّيءُ الأَوَّلُ: الجوابُ، والشَّيءُ الثَّاني: أن يكونَ صَوابًا، أنت الآنَ إذا سَأَلْتَ التِّلميذَ عن مسألةٍ تطلبُ منه شيئين وهما: الإجابة، وأن تكونَ الإجابةُ صوابًا؛ ولهذا إذا سَكَتَ تقولُ له: أَجِبْ، وإذا أجاب خطًا، قلت: خطأٌ، هاتِ الصَّوابَ، نسأَلُ اللهَ أن يجعلنَا وإيَّاكم ممَّن يجيبُ بالصَّوابِ.

٤١٤٠- وَتَيَقَّنُوا أَنْ لَيْسَ يُنْجِيكُمْ سِوَى ... تَجْرِيدِكُمْ لِحَقَائِقِ الإِيمَانِ

٤١٤١- تَجْرِيدِكُمْ تَوْحِيدَهُ سُبْحَانَهُ ... عَنْ شِرْكَةِ الشَّيْطَانِ وَالأَوْثَانِ

٤١٤٢- وَكَذَاكَ تَجْرِيدُ اتِّبَاعِ رَسُولِهِ ... عَنْ هَذِهِ الآرَاءِ وَالهَذَيَانِ

يعني: لا يُنْجِي الإنسانَ إلَّا هذان التَّجريدان: التَّجريدُ الأَوَّلُ: تجريدُ العبادةِ بألَّا يعبدَ إلَّا اللهَ عزَّ وجلَّ، والتَّجريدُ الثَّاني: تجريدُ المتابعةِ بألَّا يُتَابعَ إلَّا الرَّسولَ، ولا يَدَعَ قولَه لقولِ فلانٍ وفلانٍ، بل لا يتَّبعُ إلَّا رسولَ الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

٤١٤٣- وَاللهِ مَـا يُنْجِـي الفَتَـى مِـنْ رَبِّـهِ شَيْءٌ سِـوَى هَـذَا بِـلا رَوَغَـانِ

وصدَق رحمه اللهُ، لا يُنْجِي الإنسانَ إلَّا الإخلاصُ والمتابعةُ.

* * *

٤١٤٤- يَـا رَبِّ جَـرِّدْ عَبْـدَكَ المِسْـكِينَ رَا جِي الفَضْلِ مِنْكَ أَضْعَفَ العَبْدَانِ

٤١٤٥- لَـمْ تَنْسَـهُ وَذَكَرْتَـهُ فَاجْعَلْـهُ لَا يَنْسَـاكَ أَنْـتَ بَـدَأْتَ بِالإِحْسَـانِ

٤١٤٦- وَبِهِ خَتَمْـتَ فَكُنْـتَ أَوْلَى بِالجَمِيـ ـلِ وَبِالثَّنَاءِ مِنَ الـجَهُولِ الـجَانِي

٤١٤٧- فَالعَبْـدُ لَـيْسَ يُضِـيعُ بَـيْنَ فَـوَاتِحٍ وَخَوَاتِمٍ مِـنْ فَضْـلِ ذِي الغُفْـرَانِ

٤١٤٨- أَنْـتَ العَلِـيمُ بِـهِ وَقَـدْ أَنْشَـأْتَهُ مِـنْ تُرْبَـةٍ هِـيَ أَضْـعَفُ الأَرْكَـانِ

٤١٤٩- كُـلٌّ عَلَيْهَـا قَـدْ عَـلا وَهَـوَتْ إِلَى تَحْـتِ الـجَمِيعِ بِذِلَّـةٍ وَهَـوَانِ

٤١٥٠- وَعَلَتْ عَلَيْهَا النَّـارُ حَتَّـى ظَـنَّ أَنْ يَعْلُـو عَلَيْهَـا الخَلْـقُ مِـنْ نِـيرَانِ

٤١٥١- وَأَتَـى إِلَى الأَبَـوَيْنِ ظَنًّـا أَنَّـهُ سَيُصَـيِّرُ الأَبَـوَيْنِ تَحْـتَ دُخَـانِ

٤١٥٢- فَسَعَتْ إِلَى الأَبَوَيْنِ رَحْمَتُـكَ الَّتِـي وَسِـعَتْهُمَا فَعَـلَا بِـكَ الأَبَـوَانِ

٤١٥٣- هَـذَا وَنَحْـنُ بَنُوهُمَـا وَحُلُومُنَـا فِي جَنْـبِ حِلْمِهِـمَا لَـدَى المِيـزَانِ

٤١٥٤- جُـزْءٌ يَسِـيرٌ وَالعَـدُوُّ فَوَاحِـدٌ لَـهُمَا وَأَعْـدَانَا بِـلا حُسْـبَانِ

٤١٥٥- وَالضَّعْفُ مُسْتَوْلٍ عَلَيْنَا مِـنْ جَمِيـ ـعِ جِهَاتِنَـا سِـيمَا مِـنَ الإِيـمَانِ

٤١٥٦- يَـا رَبِّ مَعْـذِرَةً إِلَيْـكَ فَلَـمْ يَكُـنْ قَصْدُ العِبَادِ رُكُـوبَ ذَا العِصْـيَانِ

٤١٥٧- لَكِـنْ نُفُـوسٌ سَـوَّلَتْهُ وَغَرَّهَـا هَـذَا العَـدُوُّ لَـهَا غُـرُورَ أَمَـانِ

٤١٥٨- فَتَيَقَّنَتْ يَا رَبُّ أَنَّكَ وَاسِعُ الـ ـــغُفْرَانِ ذُو فَضْلٍ وَذُو إِحْسَانِ

٤١٥٩- وَمَقَالُنَا مَا قَالَهُ الأَبَوَانِ قَبْـ ـــلُ مَقَالَةُ العَبْدِ الظَّلُومِ الجَانِي

٤١٦٠- نَحْنُ الأُلَى ظَلَمُوا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرِ الذْ ذَنْبَ العَظِيمَ فَنَحْنُ ذُو خُسْرَانِ

٤١٦١- يَا رَبُّ فَانْصُرْنَا عَلَى الشَّيْطَانِ لَيْـ ـــسَ لَنَا بِهِ لَوْلا حِمَاكَ يَدَانِ

الشـــرحُ

قال المؤلِّفُ -رحمه الله- مبتهلًا إلى ربِّه عزَّ وجلَّ:

٤١٤٤- يَا رَبِّ جَرِّدْ عَبْدَكَ المِسْكِينَ رَا جِي الفَضْلِ مِنْكَ أَضْعَفَ العَبْدَانِ

قَوْلُهُ: «عَبْدَكَ المِسْكِينَ»؛ يعني: نفسَه.

يسألُ اللهَ -سبحانه وتعالى- أن يُنجيَه، ويَصِفُ نفسَه بأنَّه عبدُ الله، والعبوديَّةُ أشرفُ وصفٍ يتَّصفُ به الإنسانُ؛ ولهذا يذكرُها اللهُ عزَّ وجلَّ في مقامِ التَّأييدِ والتَّحدِّي وبيانِ الفضلِ على الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فيقولُ متحدِّيًا: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣]، ويقولُ: مؤيِّدًا: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان:١]، ويقولُ مبيِّنًا فضلَه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء:١].

كذلك أيضًا وصف نفسَه بأنَّه مسكينٌ بالنِّسبة لله، قال اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥]، ويَصِفُ نفسَه بأنَّه أضعفُ العُبدان، وهذا من بابِ التَّنزُّلِ والتَّواضعِ وإلَّا فإنَّه ليس أضعفَ العُبدانِ؛ إذ أنَّه لم يتجوَّل في عبادِ الله حتَّى يعرفَ أنَّه أضعفُهم.

٤١٤٥- لَـمْ تَنْسَـهُ وَذَكَرْتَـهُ فَاجْعَلْـهُ لَا يَنْسَـاكَ أَنْـتَ بَـدَأْتَ بِالإِحْسَـانِ

قَوْلُهُ: «لَـمْ تَنْسَهُ وَذَكَرْتَهُ» هذا كلامٌ عجيبٌ، لم تَنْسَه وذَكَرْتَه، نعم، اللهُ عزَّ وجلَّ لم ينسَ الإنسانَ، لم ينسَ العبدَ المؤمنَ، وذَكَرَهُ بماذا؟ أَمَدَّه بالنِّعمِ وهداه للإسلامِ، وهذا من أعظمِ الذِّكرِ.

قَوْلُهُ: «فَاجْعَلْهُ لَا يَنْسَاكَ»؛ يعني: كما أنَّك لم تنسَه فاجعله لا ينساك، وهذا من باب التَّوسُّلِ إلى الله -سبحانه وتعالى- بأفعالِه، والتَّوسُّل إلى الله تعالى بأفعالِه جائزٌ، فنحن نقولُ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ»(١) فتَوَسَّلْنَا بصلاتِه على إبراهيمَ أن يُصلِّيَ على نبيِّه محمَّدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

٤١٤٦- وَبِهِ خَتَمْـتَ فَكُنْـتَ أَوْلَى بِالجَمِيـ ـلِ وَبِالثَّنَاءِ مِنَ الـجَهُولِ الـجَانِي

قَوْلُهُ: «وَبِهِ خَتَمْتَ»؛ يعني: وبالإحسانِ خَتَمْتَ، فاللهُ بدأ الإنسانَ بالإحسانِ وخَتَمَهُ بالإحسانِ، وقال في جزائِه: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرَّحمن:٦٠]، الله أكبر؛ كأنَّنا نحن المحسنون من أنفسِنا مع أنَّ اللهَ هو الذي ابتدأ بالإحسانِ وخَتَمَ به.

٤١٤٧- فَالعَبْـدُ لَـيْسَ يُضِـيعُ بَـيْنَ فَـوَاتِحٍ وَخَوَاتِمٍ مِـنْ فَضْـلِ ذِي الغُفْـرَانِ

الإنسانُ لا يضيعُ بين الفضلِ الأوَّلِ والفضلِ اللَّاحقِ، بين الإحسانِ الأوَّلِ والإحسانِ اللَّاحقِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، بابٌ، رقم (٣٣٧٠)، مسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، رقم (٤٠٥).

٤١٤٨- أَنْــتَ العَلِـيمُ بِـهِ وَقَـدْ أَنْشَـأْتَهُ ... مِـنْ تُرْبَـةٍ هِـيَ أَضْـعَفُ الأَرْكَـانِ

قال اللهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج:٥]، فأصلُنا من التُّرابِ ومرجعُنا إلى التُّرابِ، قال اللهُ تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥]، فالمرجعُ النِّهائيُّ -إن شاء اللهُ تعالى- إلى السَّماواتِ العُلَى في جنَّاتِ النَّعيمِ.

٤١٤٩- كُـلٌّ عَلَيْهَـا قَـدْ عَـلا وَهَـوَتْ إِلَى ... تَحْـتِ الـجَمِيعِ بِذِلَّـةٍ وَهَـوَانِ

أي: كُلٌّ على الأرضِ التي منها التُّرابِ قَدْ عَلَا وَهَوَتْ إِلَى تَحْت الجَمِيعِ بِذِلَّةٍ وَهَوَانٍ.

٤١٥٠- وَعَلَتْ عَلَيْهَا النَّـارُ حَتَّـى ظُـنَّ أَنْ ... يَعْلُـو عَلَيْهَـا الخَلْـقُ مِـنْ نِـيرَانِ

قَوْلُهُ: «وَعَلَتْ عَلَيْهَا النَّارُ» النَّارُ -كما هو معروفٌ- جوهرٌ يطيرُ يرتفعُ كما تشاهدون، فاللَّهبُ يصعدُ والدُّخانُ يرتفعُ.

قَوْلُهُ: «حَتَّى ظَنَّ أَنْ يَعْلُو عَلَيْهَا الخَلْقُ مِنْ نِيرَانِ» الخَلْقُ بمعنى المخلوق؛ يعني: ظنَّ أن يعلوَ المخلوقُ من النَّارِ على المخلوقِ من ترابٍ؛ لأنَّ التُّرابَ موضوعٌ مُهَانٌ يُدَاسُ بالأقدامِ، والنَّار بالعكسِ مرتفعةٌ تطلبُ العلوَّ، والمخلوقُ من نيرانٍ هو إبليسُ؛ ولهذا ارتفع واعتزَّ بأصلِه فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾ [الأعراف:١٢].

٤١٥١- وَأَتَـى إِلَى الأَبَـوَيْنِ ظَنًّـا أَنَّـهُ ... سَيُصَـيِّرُ الأَبَـوَيْنِ تَحْـتَ دُخَـانِ

أَتَى إِلَى الأَبَوَيْنِ؛ أي: آدمَ وحوَّاء، وقصَّتُه معهما مشهورةٌ، ظنًّا أنَّه سَيُصَيِّرُهُمَا تحت دخانٍ.

٤١٥٢- فَسَعَتْ إِلَى الأَبَوَيْنِ رَحْمَتُـكَ الَّتِـي وَسِـعَتْهُمَا فَعَـلَا بِـكَ الأَبَـوَانِ

الحمدُ لله، رحمةُ الله أَدْرَكَت الأبوين، فَعَلَا الأبوان برحمتِه وصار ما يريدُه إبليسُ منهما ممتنعًا برحمةِ الله.

٤١٥٣- هَـذَا وَنَحْـنُ بَنُوهُمَـا وَحُلُومُنَـا فِي جَنْـبِ حِلْمِهِـمَا لَـدَى المِيـزَانِ

٤١٥٤- جُـزْءٌ يَسِـيرٌ وَالعَـدُوُّ فَوَاحِـدٌ لَـهُمَا وَأَعْـدَانَا بِـلا حُسْـبَانِ

قَوْلُهُ: «**هَذَا وَنَحْنُ بَنُوهُمَا**»؛ يعني: نحن أبناؤهما.

قَوْلُهُ: «**وَحُلُومُنَا فِي جَنْبِ حِلْمِهِمَا لَدَى المِيزَانِ جُزْءٌ يَسِيرٌ**» يعني: عقولُنا بالنِّسبة إلى عقلِ الأبوين جزءٌ يسيرٌ.

قَوْلُهُ: «**وَالعَدُوُّ فَوَاحِدٌ لَـهُمَا وَأَعْدَانَا بِلَا حُسْبَانِ**»؛ يعني: إذا كان أبوانا آدمُ وحوَّاءُ غَرَّهما الشَّيطانُ وأغواهما فحصلت منهما المخالفةُ مع أنَّهما خيرٌ منَّا، فحلومُهما أقوى منَّا وعدوُّهما واحدٌ، أمَّا نحن فدونهما، فحلومُنا ضعيفةٌ، وأعداؤنا كثيرون بلا عددٍ.

٤١٥٥- وَالضَّعْفُ مُسْتَوْلٍ عَلَيْنَا مِـنْ جَمِيـ ـعِ جِهَاتِنَـا سِـيمَا مِـنَ الإِيـمَانِ

الضَّعفُ مُستَوْلٍ علينا من كُلِّ جهةٍ لا سيَّما ضعفُ الإيمانِ، وإبليسُ متوعِّدٌ لنا من كُلِّ جهةٍ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦] يجلس على الصِّراطِ، إذا أردنا أن ندخلَ صَرَفَنَا، وإن دخلنا حاول إخراجَنا؛ ولهذا لم يقل: «**لأقعدنَّ لهم على صراطِك**»، بل قال: ﴿صِرَٰطَكَ﴾ ليشملَ القعودَ على بابِ الصِّراطِ والقعودَ من داخلِ الصِّراط ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ

وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧]، ولكن لا يأتينا من فوق؛ لأنَّ فوق ربَّ العالمين عزَّ وجلَّ، بل يأتي من هذه الجهاتِ الأربعِ، فإذا كان إبليسُ يأتينا من جميعِ الجهاتِ يقولُ المؤلِّفُ:

٤١٥٦- يَا رَبُّ مَعْذِرَةً إِلَيْكَ فَلَمْ يَكُنْ قَصْدُ العِبَادِ رُكُوبَ ذَا العِصْيَانِ

يعني: يعتذرُ إلى الله عزَّ وجلَّ مـمَّا جَرَى مِنَّا من المعاصي التي قد لا تكونُ مقصودةً.

٤١٥٧- لَكِنْ نُفُوسٌ سَوَّلَتْهُ وَغَرَّهَا هَذَا العَدُوُّ لَـهَا غُرُورَ أَمَانِ

يعني: أنَّ نفوسَنا سَوَّلَتْ لنا وزيَّنت لنا معاصيَ الله، وزادها ذلك هذا العدوُّ إبليسُ، فإبليسُ قَاسَمَ الأبوين؛ أي: بالغ في الإقْسَامِ لهما، قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف:٢١-٢٢] «**دَلَّاهُمَا**»؛ أي: نزَّلهما من مرتبتهما العُلْيَا إلى المرتبةِ الدُّنيا بغرورٍ بالغٍ، فهو عدوٌّ قويٌّ يُقْسِمُ بأنَّه ناصحٌ فدلَّاهما بغرورٍ.

٤١٥٨- فَتَيَقَّنَتْ يَا رَبُّ أَنَّكَ وَاسِعُ الْـ ـغُفْرَانِ ذُو فَضْلٍ وَذُو إِحْسَانِ

يعني: بعد أن حصل ما حصل من المعصيةِ يرجعُ الإنسانُ إلى نفسِه وإلى ربِّه فيتيقَّن أنَّ اللهَ تعالى واسعُ الغفرانِ ذو فضلٍ وذو إحسانٍ.

٤١٥٩- وَمَقَالُنَا مَا قَالَهُ الأَبَوَانِ قَبْـ ـلُ مَقَالَةُ العَبْدِ الظَّلُومِ الجَانِي

ما هي؟ قال:

٤١٦٠- نَحْنُ الأُلَى ظَلَمُوا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرِ الذْ ذَنْبَ العَظِيمَ فَنَحْنُ ذُو خُسْرَانِ

أتى المؤلِّفُ بالآيةِ بالمعنى، قال اللهُ -سبحانه وتعالى- عن آدمَ وحوَّاء: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، ثُمَّ قال رحمه اللهُ:

٤١٦١- يَا رَبُّ فَانْصُرْنَا عَلَى الشَّـيْطَانِ لَيْـ ـــسَ لَنَـا بِـهِ لَـوْلا حِمَـاكَ يَـدَانِ

آمين.

* * *

فصــل

فِي ظُهُورِ الفَرْقِ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ وَعَدَمِ الْتِبَاسِهِ إِلاَّ عَلَى مَنْ لَيْسَ بِذِي عَيْنَيْنِ

٤١٦٢- وَالفَرْقُ بَيْنَكُمُ وَبَيْنَ خُصُومِكُمْ ... مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ثَابِتٍ بِبَيَانِ
٤١٦٣- مَا أَنْتَ مِنْهُمُ وَلا هُمْ مِنْكُمُ ... شَتَّانَ بَيْنَ السَّعْدِ وَالدَّبَرَانِ
٤١٦٤- فَإِذَا دَعَوْنَا لِلقُرَانِ دَعَوْتُمُ ... لِلرَّأْيِ أَيْنَ الرَّأْيُ مِنْ قُرْآنِ
٤١٦٥- وَإِذَا دَعَوْنَا لِلحَدِيثِ دَعَوْتُمُ ... أَنْتُمْ إِلَى تَقْلِيدِ قَوْلِ فُلانِ
٤١٦٦- وَكَذَا تَلَقَّيْنَا نُصُوصَ نَبِيِّنَا ... بِقَبُولِهَا بِالحَقِّ وَالإِذْعَانِ
٤١٦٧- مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلا جَحْدٍ وَلَا ... تَفْوِيضِ ذِي جَهْلٍ بِلا عِرْفَانِ
٤١٦٨- لَكِنْ بِإِعْرَاضٍ وَتَجْهِيلٍ وَتَأْ ... وِيلٍ تَلَقَّيْتُمْ مَعَ النُّكْرَانِ
٤١٦٩- أَنْكَرْتُمُوهَا جُهْدَكُمْ فَإِذَا أَتَى ... مَا لا سَبِيلَ لَهُ إِلَى نُكْرَانِ
٤١٧٠- أَعْرَضْتُمُ عَنْهُ وَلَمْ تَسْتَنْبِطُوا ... مِنْهُ هُدًى لِحَقَائِقِ الإِيمَانِ
٤١٧١- فَإِذَا ابْتُلِيتُمْ مُكْرَهِينَ بِسَمْعِهَا ... فَوَّضْتُمُوهَا لَا عَلَى العِرْفَانِ
٤١٧٢- لَكِنْ بِجَهْلٍ لِلَّذِي سِيقَتْ لَهُ ... تَفْوِيضَ إِعْرَاضٍ وَجَهْلَ مَعَانِي
٤١٧٣- فَإِذَا ابْتُلِيتُمْ بِاحْتِجَاجِ خُصُومِكُمْ ... أَوَّلْتُمُوهَا دَفْعَ ذِي صَوَلانِ
٤١٧٤- فَالجَحْدُ وَالإِعْرَاضُ وَالتَّأْوِيلُ وَالتْـ ... تَجْهِيلُ حَظُّ النَّصِّ عِنْدَ الجَانِي

٤١٧٥- لَكِــنْ لَــدَيْنَا حَظُّــهُ التَّسْـلِيمُ مَــعْ حُسْنِ القَبُولِ وَفَهْمِ ذِي الإِحْسَانِ

الشــرحُ

هذا الفصلُ بَيَّنَ فيه المؤلِّفُ طريقةَ المنحرفين عن طريقِ السَّلفِ وأنَّ بينهم وبين السَّلفِ فرقًا عظيمًا شاسعًا فقال:

٤١٦٢- وَالفَرْقُ بَيْـنكُمُ وَبَـيْنَ خُصُـومِكُمْ مِــنْ كُــلِّ وَجْــهٍ ثَابِــتٍ بِبَيَــانِ

قَوْلُهُ: «ثَابِتٌ»: خبرُ المبتدأ «الفَرْقُ»، فالفرقُ ثابتٌ من كُلِّ وجهٍ.

٤١٦٣- مَــا أَنْــتَ مِــنْهُمُ وَلا هُــمْ مِــنْكُمُ شَــتَّانَ بَــيْنَ السَّــعْدِ وَالــدَّبَرَانِ

قَوْلُهُ: «شَتَّانَ»؛ أي: بَعُدَ.

قَوْلُهُ: «بَيْنَ السَّعْدِ وَالدَّبَرَانِ» السَّعْدُ واحدُ «السُّعود»، وهي ثلاثةٌ: سعدُ الذَّابح، وسعدُ بلع، وسعدُ السُّعود، هذه ثلاثةُ نجوم تكونُ في آخر فصلِ الشِّتاءِ، قُبَيْلَ فصلِ الرَّبيعِ، وتُسَمَّى عند عامَّتِنا في البلدِ تُسَمَّى «العقارب»، فـ«سعد الذَّابح» يسمُّونه العقربُ الأولى، و«سعد بلع» العقرب الثَّانية، و«سعد السُّعود» العقرب الثَّالثة، ومن أمثالِ العربِ: «إذا طلع سعدُ السُّعود كُرِهَ في الشَّمس القعودُ»؛ لأنَّ الحرَّ بدأ يأتي، أمَّا الدَّبَرَانِ فنجمٌ أحمر يكونُ خلفَ الثُّريَّا؛ ولذلك سُمِّي الدَّبَرَان؛ لأنَّه مدابرٌ لها، والثُّريَّا أنجمٌ مجتمعةٌ بإذن الله معروفةٌ، يخلفُها ويتلوها نجمٌ أحمر ليس بالكبيرِ لكن لونه أحمر يُسَمَّى الدَّبَرَانِ يسيرُ على آثارِها دبرانها فلا هو مسبوقٌ ولا هو لاحقٌ يخاطبُ الثُّريَّا يقولُ:

يَسِــــيرُ عَــــلَى آثَارِهَـــا دَبَرَانِهَـــا فَلَا هُــوَ مَسْـبُوقٌ وَلَا هُــوَ لَاحِــقُ (١)

(١) البيت لذي الرُّمة، كما في لسان العرب، مادة: «دفف».

إِذَنْ السَّعدُ والدَّبَرَانُ بينهما فرقٌ؛ لأنَّ الدَّبَرَانَ من نجومِ الصَّيفِ، والسَّعدَ من نجومِ الشِّتاءِ، فبينهما فرقٌ عظيم، فهذا هو الفرقُ بيننا وبينكم.

ثُمَّ ذكر وجهَ الفرقِ فقال:

٤١٦٤- فَإِذَا دَعَوْنَا لِلقُرَانِ دَعَوْتُمُ لِلرَّأْيِ أَيْنَ الرَّأْيُ مِنْ قُرْآنِ

قَوْلُهُ: «فَإِذَا دَعَوْنَا لِلْقُرَانِ دَعَوْتُمُ لِلرَّأْيِ» وهذا فرقٌ؛ ولهذا قال: «أَيْنَ الرَّأْيُ مِنْ قُرْآنٍ؟!»، فبينهما فرقٌ عظيمٌ.

٤١٦٥- وَإِذَا دَعَوْنَا لِلحَدِيثِ دَعَوْتُمُ أَنْتُمْ إِلَى تَقْلِيدِ قَوْلِ فُلَانِ

نحن نقولُ: تعالوا إلى حديثِ الرَّسولِ ﷺ نقلِّدُه، وهم يقولون: لا، تعالوا إلى قولِ الشَّيخِ فلانٍ نقلِّدُه، وهذا فرقٌ أيضًا، إِذَنْ يجبُ على الإنسانِ أن يستغنيَ بالكتابِ والسُّنَّةِ عن تقليدِ الرِّجالِ والآراءِ؛ لأنَّنا سنُسْأَلُ يومَ القيامةِ: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥]، لكن إذا كان الإنسانُ لا يستطيعُ هذا بنفسِه ففرضُه التَّقليدُ؛ لقولِ الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النَّحل:٤٣]، وما أحسَنَ ما قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه الله: «إنَّ التَّقليدَ بمنزلة أكلِ الميتةِ»(١)، وأكلُ الميتةِ للضَّرورةِ جائزٌ، وأمَّا مَنْ قَدِرَ على أن يُدْرِكَ الحقَّ بنفسِه من أصولِه «الكتاب والسُّنَّة» فإنَّه لا يجوزُ له التَّقليدُ، ولا يجوزُ أن يحتجَّ بقولِ مَنْ يُقَلِّدُه النَّاسُ.

٤١٦٦- وَكَذَا تَلَقَّيْنَا نُصُوصَ نَبِيِّنَا بِقَبُولِهَا بِالحَقِّ وَالإِذْعَانِ

يعني: تلقَّينا النُّصوصَ بالقَبولِ بدون رفضٍ، وبالإذعانِ؛ أي: بالانقيادِ التَّامِّ لها تصديقًا بأخبارِها وعملًا بأحكامِها.

(١) انظر: رفع الملام عن الأئمة الأعلام (ص:٦٠).

٤١٦٧- مِـنْ غَـيْرِ تَحْرِيـفٍ وَلا جَحْـدٍ وَلَا　　　تَفْـوِيضِ ذِي جَهْـلٍ بِـلا عِرْفَـانِ

قَوْلُهُ: «مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا جَحْدٍ لَا تَفْوِيضٍ» هذه ثلاثُ طرقٍ يسلكُها أهلُ البدعِ.

وَقَوْلُهُ: «مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ» فهم يُحرِّفونَ الكلمَ عن مواضعِه، مثالُه: يقولون معنى قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرَّعد:٢] «ثُمَّ استولى على العرشِ»، وهذا تحريفٌ، ويقولون معنى قولِه تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]: «بل نعمتاه مبسوطتان»، وهذا تحريفٌ.

قَوْلُهُ: «وَلَا جَحْدٍ»؛ أي: إنكارٍ، والمُحَرِّفُ مُنكرٌ للمعنى المراد مُدَّعٍ لغيرِه، فقد جمع بين أمرين: بين جحدِ المرادِ ودعوى غيرِ المراد، فمثلًا يقولُ في قولِه تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] ليس المرادُ بهما اليدين الحقيقيَّتين، بل: النِّعمتان، فهو جَحَدَ المعنى الأوَّلَ، وادَّعى معنىً آخرَ، فجمع بين أمرينِ كلاهما غيرُ مقبولٍ.

قَوْلُهُ: «وَلَا تَفْوِيضٍ» وما أدراك ما التَّفويضُ؟ التَّفويضُ الذي زَعَمَ الجُهَّالُ أنَّه مذهبُ السَّلَفِ، قالوا: أهلُ السُّنَّةِ انقسَمُوا إلى قِسمين: مؤوِّلةٌ ومفوِّضةٌ، المؤوِّلةُ؛ يعني: المُحَرِّفةَ، والمفوِّضة؛ يعني: الذين إذا قيل لهم: ما معنى قولِ الله: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد:٢]؟ قالوا: اللهُ أعلمُ، ما معنى ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]؟ قالوا: اللهُ أعلمُ، ما معنى ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرَّحمن:٢٧]؟ قالوا: اللهُ أعلمُ، ما معنى قولِ الرَّسولِ ﷺ: «يِنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا»[1]؟ قالوا: اللهُ أعلمُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

فعند أهل التَّفويضِ الأنبياءُ يتكلَّمون بالكلامِ من صِفاتِ الله لا يعلمون معناه، سبحان الله! هل أحَدٌ عاقلٌ يتكلَّمُ بكلامٍ لا يعرفُ معناه؟! الجوابُ: أبدًا، هم يَرَوْنُ الأنبياءَ فيما يتعلَّقُ بالصِّفاتِ يتكلَّمون بكلامٍ لا يدرون ما معناه، يقولون: حتَّى الرَّسول لا يدري معنى ما يقولُ، فهؤلاءِ المفوِّضةُ ادَّعى الجُهَّالُ بمذهبِ السَّلفِ أنَّ هذا هو مذهبُ السَّلفِ.

والإشكالُ أنَّ هذا الكلامَ يُنْقَلُ حتَّى في كتُبِ العلماءِ المشهورين مثل: «**شرح مسلم للنَّوويِّ**»، وغيرِه، يقولون: إنَّ مذهبَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ هو تفويضُ المعنى، مع الأسفِ! ولهذا جاؤوا بالعبارةِ الكاذبةِ المتناقضةِ، وهي قولـهُم: «**طريقةُ السَّلفِ أسلمُ، وطريقةُ الخلفِ أعلمُ وأحكمُ**»، قالوا: «**أسلم**»؛ لأنَّهم يقولون: نُفوِّضُ المعنى ولا نتكلَّم فيه، وهل هذا سلامةٌ؟! الجوابُ: لا، بل هذا هو العطبُ، ولا شكَّ أنَّ هذا كذبٌ على السَّلفِ أو جهلٌ بحقيقةِ مذهبِهم، فالسَّلفُ لا يُفَوِّضون المعنى أبدًا، بل يثبتونه ويقرِّرونه ويفصِّلون فيه، نعم هم يجهلون الكيفيَّةَ والحقيقةَ، وقد قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ -رحمه الله- في كتابه: «دَرْءُ تَعَارُضِ العَقْلِ وَالنَّقْلِ» قال: «إنَّ قولَ أهل التَّفويض من شرِّ أقوالِ أهلِ البدعِ والإلحاد»[(١)]؛ إذ كيف يدَّعِي مُدَّعٍ أنَّ هذا مذهبُ السَّلفِ، وقال: «إنَّ هذا المذهبَ هو الذي فتح الأبوابَ للفلاسفةِ والملاحدةِ»[(٢)]؛ لأنَّ الفلاسفةَ والملاحدةَ يُثبتون للنُّصوصِ معانيَ لكن على أهوائِهم، ومَنْ يُثْبِتُ المعنى خيرٌ من الأُمِّيِّ الذي لا يدري عن المعنى، فالذي يثبتُ المعنى يكونُ عنده علمٌ أكثر من الذي لا يثبتُ المعنى، وإن كان علمه مبنيًّا على باطلٍ، لكن الكلام الذي يجعلُ للألفاظِ رُوحًا خيرٌ ممَّن لا يدري ما هي.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٠٥).
(٢) المصدر السابق.

المهمُّ: أنَّ هؤلاء المخالفين لمذهبِ السَّلفِ يتولَّون النُّصوصَ على وجهِ التَّحريفِ والجحدِ والتفَّويضِ؛ ولهذا قال: «**تَفْوِيضِ ذِي جَهْلٍ بِلَا عِرْفَانِ**»، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨]، لكن ينبغي أن يُعْلَمَ أنَّ بعضَ هؤلاء الذين يحرِّفون الصِّفاتِ يظنُّون أنَّ هذا هو الحقُّ ونحن نعرفُ أنَّ لهم نيَّةً طيِّبةً، وأنَّهم من خُلَّص المؤمنين، فلا نكفِّرهم هل يستطيعُ أحدٌ أن يُكَفِّرَ مثل النَّوويِّ أو ابن حجرٍ في بعضِ كلامه؟ لا يمكنُ هذا.

٤١٦٨- لَكِـنْ بِـإِعْرَاضٍ وَتَجْهِيـلٍ وَتَـأْ ... وِيـلٍ تَلَقَّيْـتُمْ مَـعَ النُّكْـرَانِ

يعني: نحن تلقَّينَا النُّصوصَ بالقَبولِ والإذعانِ، وأنتم تلقَّيتموها بالإعراضِ والتَّجهيلِ والتَّأويلِ، تَلَقَّيْتُم ذلك مَعَ النُّكْرَانِ.

٤١٦٩- أَنْكَرْتُمُوهَـا جُهْـدَكُمْ فَـإِذَا أَتَـى ... مَـا لا سَـبِيلَ لَـهُ إِلَى نُكْـرَانِ

٤١٧٠- أَعْرَضْـتُمُ عَنْـهُ وَلَـمْ تَسْـتَنْبِطُوا ... مِنْـهُ هُـدًى لِـحَقَائِقِ الإِيـمَانِ

يعني: إذا أتاهم ما لا طاقةَ لهم بردِّه أعرضوا عنه، وقالوا: لا نتكلَّمُ بهذا، دَعْنَا من هذا الكلامِ.

٤١٧١- فَـإِذَا ابْتُلِيـتُمْ مُكْـرَهِينَ بِسَـمْعِهَا ... فَوَّضْـتُمُوهَا لَا عَـلَى العِرْفَـانِ

يعني: إذا ابتُلِيتم وأُلْزِمتم بالقولِ بها قلتم إِذَنْ نقولُ بها، ولكن نفوِّضُ المعنى، فلا نتكلَّمُ في المعنى إطلاقًا، بل نقولُ: اللهُ أعلمُ.

٤١٧٢- لَكِـنْ بِجَهْـلٍ لِلَّـذِي سِـيقَتْ لَـهُ ... تَفْوِيضَ إِعْـرَاضٍ وَجَهْـلَ مَعَـانِي

يعني: هم لو تأمَّلوها لوجدوا لـها معنًى، لكن هم يُعْرِضُونَ، ويقولون:

اللهُ أعلمُ، كما لو سألك سائلٌ وأنت تكرهُ الإجابةَ فإنَّك تقولُ: «دَعْنِي، اللهُ أعلمُ»، هم هكذا يقولون، إذا أحدٌ أكرههم على الإجابةِ لجؤوا إلى هذا.

٤١٧٣- فَإِذَا ابْتُلِيتُمْ بِاحْتِجَاجِ خُصُومِكُمْ   أَوْلَيْتُمُوهَا دَفْعَ ذِي صَوَلَانِ

بماذا؟ بالصُّراخِ والشِّكايةِ والتَّشويهِ إلى وليِّ الأمرِ، يصولون صولًا، ولا يردُّون بحقٍّ.

٤١٧٤- فَالجَحْدُ وَالإِعْرَاضُ وَالتَّأْوِيلُ وَالتْـ   ـتَجْهِيلُ حَظُّ النَّصِّ عِنْدَ الجَانِي

٤١٧٥- لَكِنْ لَدَيْنَا حَظُّهُ التَّسْلِيمُ مَعْ   حُسْنِ القَبُولِ وَفَهْمِ ذِي الإِحْسَانِ

هذه طريقتُهم؛ إمَّا الإعراضُ، وإمَّا التَّأويلُ الذي هو التَّحريفُ، وإمَّا التَّجهيلُ، حتَّى إنَّهم يقولون: إنَّ الرَّسولَ ﷺ يقولُ كلامًا وهو لا يعرفُ معناه، يقولون: إنَّ الرَّسولَ قال: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إلى السَّماء الدُّنْيَا»[1] وهو لا يدري ما معنى النُّزول؟ -نسألُ اللهَ العافيةَ- وهل أشدُّ قدحًا من هذا أنَّ الرَّسولَ ﷺ يتكلَّمُ بالكلامِ ولا يدري ما معناه؟! وأيضًا لا يدري ما معناه في أعظمِ الأمورِ وهو معرفةُ الله وأسمائِه وصفاتِه؟!

إِذَنْ ظهر الفرقُ بين الطَّرفَيْنِ، وأنَّ بينهما كما بين السَّعدِ والدَّبَرَانِ.

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

فصل

فِي التَّفَاوُتِ بَيْنَ حَظِّ المُثْبِتِينَ وَالمُعَطِّلِينَ مِنْ وَحْيِ رَبِّ العَالَمِينَ

٤١٧٦- وَلَنَا الحَقِيقَةُ مِنْ كَلامِ إِلَهِنَا ... وَنَصِيبُكُمْ مِنْهُ المَجَازُ الثَّانِي

٤١٧٧- وَقَوَاطِعُ الوَحْيَيْنِ شَاهِدَةٌ لَنَا ... وَعَلَيْكُمُ هَلْ يَسْتَوِي الأَمْرَانِ

٤١٧٨- وَأَدِلَّةُ المَعْقُولِ شَاهِدَةٌ لَنَا ... أَيْضًا فَقَاضُونَا إِلَى البُرْهَانِ

٤١٧٩- وَكَذَاكَ فِطْرَةُ رَبِّنَا الرَّحْمَنِ شَا ... هِدَةٌ لَنَا أَيْضًا شُهُودَ بَيَانِ

٤١٨٠- وَكَذَاكَ إِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ وَالأُلَى ... تَبِعُوهُمُ بِالعِلْمِ وَالإِحْسَانِ

٤١٨١- وَكَذَاكَ إِجْمَاعُ الأَئِمَّةِ بَعْدَهُمُ ... هَذَا كَلامُهُمُ بِكُلِّ مَكَانِ

٤١٨٢- هَذِي الشُّهُودُ فَهَلْ لَدَيْكُمْ أَنْتُمُ ... مِنْ شَاهِدٍ بِالنَّفْيِ وَالنُّكْرَانِ

٤١٨٣- وَجُنُودُنَا مَنْ قَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ ... وَجُنُودُكُمْ فَعَسَاكِرُ الشَّيْطَانِ

٤١٨٤- وَخِيَامُنَا مَضْرُوبَةٌ بِمَشَاعِرِ الـ ... ـوَحْيَيْنِ مِنْ خَبَرٍ وَمِنْ قُرْآنِ

٤١٨٥- وَخِيَامُكُمْ مَضْرُوبَةٌ بِالتِّيهِ فَالسُّـ ... ـكَّانُ كُلُّ مُلَدَّدٍ حَيْرَانِ

٤١٨٦- هَذِي شَهَادَتُهُمْ عَلَى مَحْصُولِهِمْ ... عِنْدَ المَمَاتِ وَقَوْلِهِمْ بِلِسَانِ

٤١٨٧- وَاللهُ يَشْهَدُ أَنَّهُمْ أَيْضًا كَذَا ... تَكْفِي شَهَادَةُ رَبِّنَا الرَّحْمَنِ

الشــرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلُ فِي التَفَاوُتِ بَيْنَ حَظِّ الْمُثْبِتِينَ وَالْمُعَطِّلِينَ مِنْ وَحْيِ رَبِّ العَالِمِينَ»؛ يعني: أيُّنا أحظُّ هم أو نحن؟ ننظرُ، قال رحمه اللهُ:

٤١٧٦- وَلَنَا الحَقِيقَةُ مِنْ كَلامِ إِلَهِنَا وَنَصِيبُكُمْ مِنْهُ المَجَازُ الثَّانِي

نحن نحملُ كلامَ الله على الحقيقةِ، وهم يحملونه على المجازِ، مثالُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢]، فهذا نحملُه على الحقيقةِ وأنَّه مجيءٌ حقيقيٌّ، وهم يحملونه على أنَّه مجازٌ عن مجيءِ أمرِه.

ومثلُه أيضًا قولهُ تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، فنحن نحملُ ذلك على الحقيقةِ، فهو له يَدٌ حقيقةً، وهم يقولون: لا، ليس له يدٌ حقيقةً، ولكنَّها مجازٌ عن النِّعمةِ، إِذَنْ حظُّنا من القرآنِ الحقيقةُ وحظُّهم المجازُ، هذا واحدٌ.

٤١٧٧- وَقَوَاطِعُ الوَحْيَيْنِ شَاهِدَةٌ لَنَا وَعَلَيْكُمُ هَلْ يَسْتَوِي الأَمْرَانِ

قَوْلُهُ: «وَقَوَاطِعُ الوَحْيَيْنِ شَاهِدَةٌ لَنَا وَعَلَيْكُمُ» وهذا فرقٌ، فقواطعُ الوَحْيَيْنِ «الكتاب والسُّنَّة» أدلَّتُها قاطعةٌ شاهدةٌ لنا، أمَّا بالنِّسبةِ لكم فهي شاهدةٌ عليكم.

قَوْلُهُ: «هَلْ يَسْتَوِي الأَمْرَانِ؟» الجوابُ: لا يستويان.

٤١٧٨- وَأَدِلَّةُ المَعْقُولِ شَاهِدَةٌ لَنَا أَيْضًا فَقَاضُونَا إِلَى البُرْهَانِ

أيضًا الأدلَّةُ العقليَّةُ تحكمُ لنا وتشهدُ لنا، وإذا كنتم صادقين فقاضونا، تعالوا نتقاضى نحن وإيَّاكم إلى الأدلَّةِ العقليَّةِ.

٤١٧٩- وَكَـذَاكَ فِطْـرَةُ رَبِّنَـا الـرَّحْمَنِ شَـا هِـدَةٌ لَنَـا أَيْضًـا شُـهُودَ بَيَـانِ

الفطرةُ تشهدُ بما نقولُ، ولا تشهدُ لكم، ونظيرٌ لهذا عُلوُّ الله عزَّ وجلَّ هم ينكرونه، فمتقدِّمو الجهميَّةِ يقولون: إنَّ اللهَ في كُلِّ مكانٍ؛ في المسجدِ، في السُّوقِ، في المطعمِ، ولو كانوا يشربون الدُّخانَ وكُلَّ شيءٍ، فاللهُ في كُلِّ مكانٍ، بل في أقذر من ذلك والعياذُ بالله، فاللهُ فيه هو نفسُه، أمَّا المتأخِّرون منهم فقالوا: هذا غيرُ معقولٍ، هذا مُنْكَرٌ، ولكنَّ الصَّوابَ أنَّ اللهَ ليس فوقَ العالمِ ولا تحتَه، ولا يمينَه ولا شمالَه، ولا متَّصلًا ولا منفصلًا، ولا داخلَ العالمِ ولا خارجَ العالمِ، إِذَنْ هو عَدَمٌ محضٌ كما قال محمود بن سبكتكين رحمه الله لـمَّا قال: «صِفْ لنا ربَّك»، قال: هو لا داخل العالمِ ولا خارجه... إلى آخرِه من هذا النَّفي، فقال: والله ما تصفُ العدمَ بأحسنَ من هذا الوصفِ، هذا هو العَدَمُ.

لكن نحن نقولُ: اللهُ عزَّ وجلَّ فوق كُلِّ شيءٍ، لو أنَّ الإنسانَ لم يقرأ أيَّ كتابٍ في العلوِّ أين يطلبُ ربَّه؟ الجوابُ: في العلوِّ، بمقتضى الفِطرةِ السَّليمةِ يطلبُه في العلوِّ، وإذا قال: «يا ربِّ» لا يمكنُ إلَّا إلى السَّماءِ، وإذا جُودِلُوا وقيل لهم: أنتم ترفعون أيديكم عند دعاءِ الله، قالوا: نعم، نرفعُ أيديَنا؛ لأنَّ السَّماءَ جهة قبلة الدَّاعِي، وليس لأنَّ اللهَ في السَّماءِ، أعوذ بالله، لكن كيف قبلة الدَّاعي والمدعو تحت؟ كيف هذا؟ لكن نسألُ اللهَ العافيةَ، إنَّه الجهلُ، إِذَنْ الشُّهودُ هي: الكتابُ والسُّنَّةُ والعقلُ والفطرةُ.

٤١٨٠- وَكَـذَاكَ إِجْمَـاعُ الصَّـحَابَةِ وَالأُلَى تَبِعُـوهُمُ بِـالعِلْمِ وَالإِحْسَـانِ

الخامسُ والسَّادسُ: إجماعُ الصَّحابةِ والذين اتَّبعوهم بالعلمِ والإحسانِ.

٤١٨١- وَكَـذَاكَ إِجْمَـاعُ الأَئِمَّـةِ بَعْـدَهُمْ ... هَـذَا كَلامُهُـمُ بِكُـلِّ مَكَـانِ

قَوْلُهُ: «بَعْدَهُمْ»؛ أي: بعد التَّابعين، إِذَنْ السَّابعُ: إجماعُ الأئمَّةِ بعد التَّابعين، فصارت الآن الأدلَّةُ سبعةً.

٤١٨٢- هَذِي الشُّهُودُ فَهَـلْ لَـدَيْكُمْ أَنْـتُمُ ... مِـنْ شَـاهِدٍ بِـالنَّفْيِ وَالنُّكْـرَانِ

إِذَنْ كُلُّ هذه شاهدةٌ لنا والحمدُ لله، وليس عندهم واحدٌ منها.

هل أحدٌ يشهد لكم بالطَّريقةِ التي أنتم عليها النَّفي والنُّكران؟

الجوابُ: لا.

٤١٨٣- وَجُنُودُنَـا مَـنْ قَـدْ تَقَـدَّمَ ذِكْـرُهُمْ ... وَجُنُـودُكُمْ فَعَسَـاكِرُ الشَّـيْطَانِ

وفرقٌ، فجنودُنا الأنبياءُ والصَّحابةُ والتَّابعون وتابعوهم بإحسانٍ والأئمَّةُ، أمَّا جنودُكم فعساكرُ الشَّيطانِ من فلاسفةِ اليونانِ والمناطقةِ وغيرِهم.

٤١٨٤- وَخِيَامُنَـا مَضْـرُوبَةٌ بِمَشَـاعِرِ الْـ ... ـوَحْيَيْنِ مِـنْ خَـبَرٍ وَمِـنْ قُـرْآنِ

خيامُنا مضروبةٌ بالمشاعرِ المقدَّسةِ، وهي مشاعرُ الوَحْيَيْنِ من الخبرِ ومن القُرآنِ، والخبرُ عن الرَّسولِ، والقُرآنُ كلامُ الله، وقَدَّمَ الخبرَ على القُرآنِ في الذِّكرِ من أجلِ القافيةِ.

٤١٨٥- وَخِيَامُكُمْ مَضْرُوبَةٌ بِالتِّيـهِ فَالسْـ ... ـسُكَّانِ كُـلُّ مُلَـدَّدٍ حَـيْرَانِ

قَوْلُهُ: «وَخِيَامُكُمْ مَضْرُوبَةٌ بِالتِّيهِ» التِّيهُ مكانٌ معلومٌ.

فهي مضروبةٌ بمكانٍ لا يُدْرَى عنه ولا تُقْصَدُ ولا يُنْتَفَعُ بها، والعياذُ بالله.

٤١٨٦- هَذِي شَهَادَتُهُمْ عَلَى مَحْصُولِهِمْ عِنْدَ المَمَاتِ وَقَوْلِهِمْ بِلِسَانِ

يقولون: علماءُ الكلامِ هم أشدُّ النَّاسِ شَكًّا عند المماتِ، والعياذُ بالله! لأنَّهم ما بَنَوْا على عقيدةٍ، وعند المماتِ مَنْ وُفِّقَ منهم رجع، وقال: «**أموتُ على عقيدةِ أُمِّي**»؛ أي: على عقيدةِ أُمِّه التي ما تعلَّمت، ويقولُ بعضُهم: «**أموتُ على عقائدِ عجائزِ نيسابور**»؛ لأنَّ كُلَّ حياتِه التي أمضاها لم يَسْتَفِدْ شيئًا إلَّا كما قال كبراؤهم:

لَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا[1]

٤١٨٧- وَاللهُ يَشْهَدُ أَنَّهُمْ أَيْضًا كَذَا تَكْفِي شَهَادَةُ رَبِّنَا الرَّحْمَنِ

فإنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه:١٢٤-١٢٦]، وأظنُّ أنَّ الفرقَ بينهم وبين السَّلفِ واضحٌ جدًّا، فأدلَّةُ هؤلاء من كتابِ الله ومن سُنَّةِ رسولِه وإجماعِ أهلِ الخيرِ، وأمَّا هؤلاء فبالعكسِ.

* * *

٤١٨٨- وَلَنَا المَسَانِدُ وَالصِّحَاحُ وَهَذِهِ السْـ سُنَنُ الَّتِي نَابَتْ عَنِ القُرْآنِ

٤١٨٩- وَلَكُمْ تَصَانِيفُ الكَلَامِ وَهَذِهِ الـ آرَاءُ وَهْيَ كَثِيرَةُ الهَذَيَانِ

٤١٩٠- شُبَهٌ يُكَسِّرُ بَعْضُهَا بَعْضًا كَبَيْـ ـتٍ مِنْ زُجَاجٍ خَرَّ لِلأَرْكَانِ

٤١٩١- هَلْ ثَمَّ شَيْءٌ غَيْرُ رَأْيٍ أَوْ كَلَا مٍ بَاطِلٍ أَوْ مَنْطِقِ اليُونَانِ

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص:١٧٧).

٤١٩٢- وَنَقُولُ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ ... فِي كُلِّ تَصْنِيفٍ وَكُلِّ مَكَانِ

٤١٩٣- لَكِنْ تَقُولُوا قَالَ آرِسْطُو وَقَا ... لَ ابْنُ الخَطِيبِ وَقَالَ ذُو العِرْفَانِ

٤١٩٤- شَيْخٌ لَكُمْ يُدْعَى ابْنَ سِينَا لَمْ يَكُنْ ... مُتَقَيِّدًا بِالدِّينِ وَالإِيمَانِ

٤١٩٥- وَخِيَارُ مَا تَأْتُونَ قَالَ الأَشْعَرِيْ ... يُ وَتَشْهَدُونَ عَلَيْهِ بِالبُهْتَانِ

٤١٩٦- فَالأَشْعَرِيُّ مُقَرِّرٌ لِعُلُوِّ رَبْ ... بِ العَرْشِ فَوْقَ جَمِيعِ ذِي الأَكْوَانِ

٤١٩٧- فِي غَايَةِ التَّقْرِيرِ بِالمَعْقُولِ وَالْـ ... ـمَنْقُولِ ثُمَّ بِفِطْرَةِ الرَّحْمَنِ

٤١٩٨- هَذَا وَنَحْنُ فَتَارِكُو الآرَاءِ لِلنْـ ... ـنَقْلِ الصَّحِيحِ وَمُحْكَمِ الفُرْقَانِ

٤١٩٩- لَكِنَّكُمْ بِالعَكْسِ قَدْ صَرَّحْتُمُ ... وَوَضَعْتُمُ القَانُونَ ذَا البُهْتَانِ

٤٢٠٠- وَالنَّفْيُ عِنْدَكُمُ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْـ ... إِثْبَاتِ إِجْمَالًا بِلَا نُكْرَانِ

٤٢٠١- وَالمُثْبِتُونَ طَرِيقَهُمْ نَفْيٌ عَلَى الْـ ... إِجْمَالِ وَالتَّفْصِيلِ بِالتِّبْيَانِ

٤٢٠٢- فَتَدَبَّرُوا القُرْآنَ مَعْ مَنْ مِنْكُمَا ... وَشَهَادَةَ المَبْعُوثِ بِالقُرْآنِ

الشَّرحُ

٤١٨٨- وَلَنَا المَسَانِدُ وَالصِّحَاحُ وَهَذِهِ السْـ ... ـسُنَنُ الَّتِي نَابَتْ عَنِ القُرْآنِ

قَوْلُهُ: «**وَلَنَا المَسَانِدُ وَالصِّحَاحُ وَهَذِهِ السُّنَنُ**»؛ يعني: لنا أدلَّةٌ، و«**المَسَانِدُ**» جمعُ «**مُسْنَد**» مثل مُسْنَد الإمام أحمد، و«**الصِّحَاحُ**» جمع «**صحيح**» كالبخاريِّ، و«**السُّنَنُ**» جمع سُنَّة، والمرادُ بها سننُ النَّسائيُّ وأبي داودَ، وما أشبه ذلك.

يعني: أدلَّتُنا من سننِ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- الموجودةِ في المسانِدِ والصِّحاحِ والسُّننِ.

قَوْلُهُ: «نَابَتْ عَنِ القُرْآنِ»؛ يعني: أنَّها تأتي بالتَّفصيلِ فيما يجيءُ به القرآنُ إجمالًا، ورُبَّما تأتي بحكمٍ مُستَقِلٍّ لا يُوجَدُ في القُرآنِ، لكن هذا الحكمُ المستقلُّ الذي لم يُوجَد في القرآنِ قد أَرْشَدَ القرآنُ إلى قَبولِه في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النِّساء:٥٩]، وقولِه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧]، وهذه الآيةُ وإن كانت واردةً في الفَيْءِ فإنَّه إذا كان يجبُ قَبولُ ما آتاه من الفَيْءِ، وما نَهَى عنه من الفَيْءِ يجبُ الانتهاءُ عنه، فما جاء منه تشريعًا فهو من بابِ أَوْلَى.

على كُلِّ حالٍ السُّنَّةُ تَنُوبُ عن القُرآنِ فيما يحتاجُ إلى تفصيلٍ أو ما أشبه ذلك.

٤١٨٩- وَلَكُمْ تَصَانِيفُ الكَلامِ وَهَـذِهِ الـ ... آرَاءُ وَهْـيَ كَثِيرَةُ الهَذَيَانِ

ففرقٌ بين هذا وهذا بلا شكٍّ.

٤١٩٠- شُبَهٌ يُكَسِّرُ بَعْضُهَا بَعْضًا كَبَيْـ ... ـتٍ مِنْ زُجَاجٍ خَرَّ لِلأَرْكَانِ

يعني: الذي عندكم شُبَهٌ يُكَسِّرُ بعضُها بعضًا؛ ولهذا تجدهم متناقضين، بل تجدُ الواحدَ منهم يؤلِّفُ كتبًا يتناقضُ فيها، وهذا البيتُ أخذه المؤلِّفُ من بيتٍ سابقٍ ذَكَرَهُ الخَطَّابيُّ يقولُ:

حُجَجٌ تَهَافَتُ كَالزُّجَاجِ تَخَالُهَا ... حَقًّا وكُلٌّ كَاسِرٌ مَكْسُورُ[1]

(١) انظر: غاية الأماني في الرد على النبهاني (٢/ ٢٢٨).

يعني: حُججُ أهلِ الكلامِ كهذا البيتِ، فحججُهم تتهافتُ مثل الزُّجاجِ تظنُّها حقًّا، وكُلٌّ يكسرُ الآخرَ.

٤١٩١- هَلْ ثَمَّ شَيْءٌ غَيْرُ رَأْيٍ أَوْ كَلا ... مٍ بَاطِلٍ أَوْ مَنْطِقِ اليُونَانِ

الجوابُ: لا، أمَّا نحن فنقول:

٤١٩٢- وَنَقُولُ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ ... فِي كُلِّ تَصْنِيفٍ وَكُلِّ مَكَانِ

يعني: نبني أقوالَنا على قولِ الله ورسولِه.

٤١٩٣- لَكِنْ تَقُولُوا قَالَ آرِسْطُو وَقَا ... لَ ابْنُ الخَطِيبِ وَقَالَ ذُو العِرْفَانِ

٤١٩٤- شَيْخٌ لَكُمْ يُدْعَى ابْنَ سِينَا لَمْ يَكُنْ ... مُتَقَيِّدًا بِالدِّينِ وَالإِيمَانِ

هذه أشياخُهم، فلاسفةٌ مَلاحِدةٌ لا يتقيَّدون بإيمانٍ ولا يتقيَّدون بدِينٍ، وهذا بيتٌ من عدَّةِ أبياتٍ يُصَرِّحُ ابنُ القيِّمِ وكذلك شيخُه بأنَّ ابنَ سينا كافرٌ خارجٌ من الدِّينِ، وإن كان عند بعضِ المثقَّفين يُرَى أنَّه مؤمنٌ، ولكنَّنا نقولُ: إنَّه طبيبٌ جيِّدٌ في الطِّبِّ، ولكنَّه فيما يتعلَّقُ بالأديانِ نرى أنَّ النَّاقلين عنه الكفرَ كشيخِ الإسلامِ وتلميذِه وغيرِهما نرى أنَّهم ثقاتٌ، وأنَّ شهادتَهم عليه مقبولةٌ، وكذلك الأصلُ عدمُ رُجوعِه إلى الإسلامِ، أمَّا أبو الحسن الأشعريُّ فكان على مذهبِ المعتزلةِ، ثُمَّ كان وسَطًا بين المعتزلةِ وأهلِ السُّنَّة، ثُمَّ كان من أهلِ السُّنَّةِ، فهذا رجَع وصَرَّحَ برُجوعِه، فهل هؤلاء القومِ كابنِ سينا وغيرِه صَرَّحُوا برُجوعِهم؟ الأصلُ عدمُ الرُّجوعِ، وأمَّا ما رُوِي عنه من نظمٍ أو كلامٍ له بأنَّه رجع، فإنَّه يُنْظَرُ في صِحَّةِ إثباتِ هذا النَّظمِ له، وأين مَنْ رواها؟ حدَّثنا فلانٌ عن فلانٍ حتَّى يصلَ إليه؛ لأنَّه رُبَّما يقولُ هذه القصيدةَ مَنْ يدَّعي أنَّه رجع.

٤١٩٥- وَخِيَارُ مَا تَأْتُونَ قَالَ الأَشْعَرِيْ ... يُ وَتَشْهَدُونَ عَلَيْهِ بِالبُهْتَانِ

هذا خيارُ ما تأتون به أن تضيفوا أقوالَكم إلى الأشعريِّ، ومع ذلك تقولون عليه بالبهتانِ، تكذبون عليه؛ لأنَّ أبا الحسن الأشعريَّ كان في أوَّل عُمرِه على مذهبِ المعتزلةِ، بَقِيَ على هذا أربعين سنةً يُعَطِّلُ الصِّفاتِ، وله أيضًا آراءٌ في الإيمانِ والقدرِ وما أشبهها، ثُمَّ اتَّصل بعبدِ الله بن سعيد بن كُلَّابٍ، فعرف منه بعضَ الشَّيءِ المخالفِ لمذهبِ المعتزلةِ، فاعتَنَقَه وخالَفَه في بعضِ الأمورِ، وخَرَجَ ذات يومٍ في يوم الجمعةِ، وكان له كرسيٌّ يتكلَّمُ منه بعد صلاةِ الجمعةِ، فَوَضَعَ عمامتَه فقال: «**مَنْ عَرَفني فقد عرفني، ومَن لم يعرفني فأنا أبو الحسن الأشعريُّ**».

انظُر إلى العلماءِ الأوَّلين يصدعون بالحقِّ، ثُمَّ قال: إنَّه كان على مذهبِ المعتزلةِ، وأنا الآنَ أُقِرُّ ببطلانِه وأنَّه مذهبٌ باطلٌ، وجعَل رحمه الله يُفَنِّدُه، ثُمَّ بعد مُدَّةٍ طَالَعَ كتبَ السَّلفِ وكتبَ أهلِ السُّنَّةِ، وأعجبه مذهبُ الإمامِ أحمدَ -رحمه الله- إمامِ أهلِ السُّنَّة، وصنَّف كتابَه: «**الإبانة عن أصول الدِّيانة**»، وصَرَّحَ بأنَّه تابعٌ للإمامِ أحمد ابن حنبلٍ، وسَاقَ الأدلَّةَ على إثباتِ الصِّفاتِ، وَرَدَّ على المعتزلةِ ردًّا بليغًا، وكتابُه -والحمدُ لله- مشهورٌ الآن ومعروفٌ ومطبوعٌ.

أصحابُه الذين ينتمون إليه الآن تعلَّقوا بأيِّ زمنٍ من حالِه؟ الجوابُ: بالأوسط، فصاروا بين مذهبِ المعتزلةِ ومذهبِ أهلِ السُّنَّةِ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

٤١٩٦- فَالأَشْعَرِيُّ مُقَرِّرٌ لِعُلُوِّ رَبْ ... بِ العَرْشِ فَوْقَ جَمِيعِ ذِي الأَكْوَانِ

وأنتم أيُّها المنتسِبون إليه تقولون: لا، إنَّ اللهَ ليس عاليًا فوق كُلِّ شيءٍ، بل علوُّه علوُّ معنى وصفةٍ، لا علوُّ ذاتٍ.

٤١٩٧- فِي غَايَـةِ التَّقْرِيـرِ بِـالمَعْقُولِ وَالـ ـــمَنْقُولِ ثُـمَّ بِفِطْـرَةِ الـرَّحْمَنِ

هذه أدلَّةُ العلوِّ: المنقولُ وهو كتابٌ وسُنَّةٌ، والمعقولُ، والفطرةُ، بَقِيَ دليلٌ خامسٌ هو الإجماع، فالقرآنُ مملوءٌ بذكرِ علوِّ الله عزَّ وجلَّ، فكثيرٌ من آياتِ القرآنِ فيها ذكرُ العلوِّ.

والسُّنَّةُ كذلك؛ فقد قَرَّرَ النَّبِيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- علوَّ الله قولًا وفعلًا وإقرارًا، فأقوالُ الرَّسولِ كثيرةٌ جدًّا في إثباتِ علوِّ الله، ففي كُلِّ صلاةٍ يقولُ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى»(١)، وهذا تقريرٌ لعلوِّ الله، وبالفعلِ فَلَمَّا خَطَبَ الأُمَّةَ يوم عرفةَ وقرَّرَهم بتبليغِه وقالوا: نشهدُ بأنَّك قد بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» يَرْفَعُ إِصْبَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا لِلنَّاسِ(٢)، هذا تقريرٌ للعلوِّ بالفعلِ، وكان ﷺ ينتظرُ الوحيَ دائمًا ويرفعُ وجهَه إلى السَّماءِ، قال اللهُ تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:١٤٤] ينتظر الوحيَ نازلًا من ربِّ السَّماءِ عزَّ وجلَّ.

أمَّا إقرارُه غيرَه فجاريةُ معاوية بن الحكمِ دعاها النَّبِيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- وقال لها: «أَيْنَ اللهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، جاريةٌ ما دَرَسَتْ ولا تعلَّمت، لكن اهتدت لذلك بالفطرةِ، قالت: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»(٣).

هؤلاء يقولون: الذي يقولُ: إنَّ اللهَ في السَّماءِ كافرٌ؛ لأنَّ اللهَ في كُلِّ مكانٍ أو لأنَّ اللهَ لا في السَّماءِ ولا في الأرضِ ولا يمين ولا يسار.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب الخطبة في منى، رقم (١٧٤١)، مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).

ويُذْكَرُ أنَّه قال لحصين أبي عمران بن الحصين: «كَمْ إِلَـهًا تَعْبُدُ؟» قال: أَعْبُدُ سَبْعَةً؛ سِتَّةً فِي الأَرْضِ وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «فَأَيُّهُمْ تُعِدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟» قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ[١]، وهو كافرٌ مشركٌ يعبدُ ستَّةَ آلهةٍ مع الله.

أمَّا الفطرةُ فلا تسأل، فكُلُّ إنسانٍ مفطورٌ على علوِّ الله، حتَّى إِنَّ أبا المعالي الجوينيَّ -رحمه الله- كان يُقرِّرُ ذات يومٍ -والمشايخُ الكبارُ في عهدِهم يُجْعَلُ لهم كراسٍ يُدَرِّسونَ النَّاسَ عمومًا- كان يُقَرِّرُ فيقولُ: «**إنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- كان، ولم يكن شيءٌ معه، وهو الآن على ما كان عليه**»، وهذه كلمةٌ طيِّبةٌ في ظاهِرِها، لكنَّه يريدُ بذلك أن ينكرَ استواءَ الله على العرشِ، فـ«**كان**»؛ أي: كان ولا عرش، وهو الآن على ما كان عليه، إِذَنْ لا استواءَ على العرشِ، فقال له أبو العلاء الهمدانيُّ رحمه الله: «**يا شيخ دعنا من ذكرِ العرشِ، أَخْبِرْنَا عن هذه الضَّرورةِ، ما قال عارفٌ قطُّ: يا الله إلَّا وَجَدَ من قلبِه ضرورةً بطلبِ العلوِّ**»، فقام يضربُ على رأسِه يصرخُ يقولُ: حيَّرني الهمدانيُّ حيَّرني[٢]؛ لأنَّ الفطرةَ لا يمكنُ إنكارُها أبدًا.

ويُذْكَرُ أنَّ سُليمانَ -عليه السَّلامُ- لـمَّا مُنِعَ المطرُ عنهم خرج ذاتَ يومٍ يستسقي بالنَّاسِ فَمَرَّ بالطَّريقِ على نملةٍ مستلقيةٍ على ظهرِها رافعةٍ قوائمَها إلى السَّماءِ تقولُ: «**اللَّهُمَّ إِنَّا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِكَ لَيْسَ بِنَا غِنًى عَنْ سُقْيَاكَ ورِزْقِكَ**» -وهي نملةٌ- فقال: «**ارْجِعُوا فَقَدْ سُقِيتُم بِدَعْوَةِ غَيْرِكُمْ**»[٣]، الله أكبر! حشرةٌ تدري أين ربُّها؛ ولهذا رَفَعَتْ قوائمَها إلى السَّماءِ، فالمهمُّ أنَّ هذه فطرةٌ، حتَّى الحيوان مفطورٌ عليها أنَّ اللهَ في السَّماءِ.

(١) أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٧٧)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤/ ٧٢١، رقم ١١٨٤).
(٢) انظر: العرش للذهبي (١/ ١٥٣)، والعلو له (١/ ٢٥٩)، وغاية الأماني (١/ ٥٧١).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي الصديق الناجي (٩/ ٢٨٥٨، رقم ١٦٢٠٣).

أمَّا الإجماع، فيقول شيخُ الإسلامِ: إنَّ الصَّحابةَ والسَّلفَ مُجْمِعُونَ على أنَّ اللهَ في العلوِّ، يقولُ: واللهُ يعلمُ أنِّي بعد البحثِ التَّامِّ ومطالعةِ ما أمكن من كلامِ السَّلفِ ما وجدتُ أحدًا منهم قال: إنَّ اللهَ ليس في السَّماءِ، ولا إنَّ اللهَ ليس على العرشِ، ولا إنَّه لا داخلَ العالَـمِ ولا خارجَه، وشيخُ الإسلامِ كما هو معلومٌ في سعةِ العلمِ والاطلاعِ والأمانةِ، يقول: «**ما وجدتُ أحدًا صَرَّحَ بنفي ذلك**».

فصارت الأدلَّةُ على علوِّ الله: الكتابَ، والسُّنَّةَ، والإجماعَ، والعقلَ، والفطرةَ.

لكن كيف دَلَّ العقلُ على علوِّ الله؟

نقولُ: من المعلومِ أنَّ العلوَّ صفةُ كمالٍ، كُلٌّ يعرفُ ذلك، وإذا كان العلوُّ صفةَ كمالٍ لَزِمَ أن يكونَ اللهُ متَّصفًا به هذا أوَّلًا، ثانيًا: ولأنَّ السُّلطةَ التَّامَّة لا تكونُ إلَّا بالعلوِّ؛ ولهذا إذا كان عدوُّك يأتيك من فوق لا تستطيعُ أن تقابلَه، فهو إِذَنْ من تمام سلطانِ الله عزَّ وجلَّ ومن كمالِ صفاتِه.

٤١٩٨- هَـذَا وَنَحْـنُ فَتَـارِكُو الآرَاءِ لِلنْـ ـنَقْلِ الصَّحِيحِ وَمُحْكَـمِ الفُرْقَـانِ

قَوْلُهُ: «**لِلنَّقَلِ الصَّحِيحِ**»؛ أي: عن النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وعلى آلِه وسلَّم، إِذَنْ مذهبُنا تقديمُ النَّقلِ على العقلِ، ونرى أنَّ النَّقلَ هو مصدرُ التَّلقِّي لا سيَّما فيما يتعلَّقُ بأسماءِ الله وصفاتِه.

٤١٩٩- لَكِـنَّكُمْ بِـالعَكْسِ قَـدْ صَرَّحْـتُمُ وَوَضَـعْتُمُ القَـانُونَ ذَا البُهْتَـانِ

قَوْلُهُ: «**بِالْعَكْسِ**»؛ يعني: قَدَّمتم العقلَ على النَّقلِ، ولاحظوا أنَّ العقلَ الذي قدَّموه ليس عقلًا صريحًا؛ لأنَّه عقلٌ مَبْنِيٌّ على الشُّبهاتِ، أمَّا العقلُ الصَّريحُ فلا يمكنُ أن يُخَالِفَ النَّقلَ الصَّحيحَ، ولا يمكنُ أن يُعارِضَه.

٤٢٠٠- وَالنَّفْيُ عِنْدَكُمُ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالـ ... إِثْبَـاتِ إِجْمَـالًا بِـلا نُكْـرَانِ

طريقةُ أهل التَّعطيلِ في الصِّفاتِ النَّفيُ؛ لئلَّا يُشَبِّهوا اللهَ بالموجوداتِ إن أَثْبَتُوا، يقولونُ: اللهُ تعالى لا داخِلَ العالَمِ ولا خارِجَه ولا سميعٌ ولا بصيرٌ ولا أعمى إلى آخِرِه، فالنَّفيُ دائمًا، فهم لا يُثبتون، لماذا؟ قالوا: لأنَّنا إذا أَثْبَتْنَا شبَّهناه بالموجوداتِ فننفي، قلنا لهم: إذا نفيتم شبَّهتموه بالمعدوماتِ، فوقعتم في شرٍّ ممَّا فررتم منه، فجاءت طائفةٌ ثالثةٌ قالت: إِذَنْ نَسْلَمُ من الاعتراضِ فلا نَصِفُه بإثباتٍ ولا نفيٍ، فلا نقولُ: سميعٌ، ولا نقولُ: غيرُ سميعٍ، قالوا ذلك حتَّى يتخلَّصوا من السَّلفِ ومن المعطِّلةِ، قلنا لهم: إذا قلتم هكذا شبَّهتموه بالممتنعاتِ؛ لأنَّه لا يَوجَدُ شيءٌ لا موجودٌ ولا معدومٌ، ولا سميعٌ ولا أصمُّ، ولا بصيرٌ ولا أعمى، فأهلُ التَّعطيلِ -والعياذُ بالله- كُلَّما فرُّوا من شيءٍ وقعوا في شرٍّ منه.

٤٢٠١- وَالـمُثْبِتُونَ طَرِيقَهُمْ نَفْيٌ عَلَى الـ ... إِجْمَـالِ وَالتَّفْصِـيلِ بِالتِّبْيَـانِ

المثبتون وهم السَّلفُ وأتباعُهم على العكسِ من أهلِ التَّعطيلِ، يُجملون في النَّفي ويُفصِّلون في الإثباتِ، وذلك لِسَبَبَيْنِ:

السَّبب الأوَّل: لأنَّ هذا طريقةُ القرآنِ، فكم آية ذَكَرَ اللهُ فيها صفاتِ الكمالِ على وجهِ التَّفصيلِ؟ الجوابُ: كثيرٌ، تكادُ تقولُ: كُلُّ الآياتِ أو أكثرُها كُلُّها تفصيلٌ لصفاتِ الله عزَّ وجلَّ، فهم يقولون: إنَّ اللهَ سميعٌ، عليمٌ، عزيزٌ، حكيمٌ، سلامٌ، قدُّوسٌ،... إلى آخرِه، وكم آية ذَكَرَ فيها النَّفيَ إجمالًا؟ الجوابُ: قليلٌ، تعدُّها بالأصابعِ، ما تتجاوز عشرَ آياتٍ إلَّا فيما يتعلَّقُ بالألوهيَّةِ والعبادةِ فهي كثيرةٌ.

السَّبب الثَّاني: أنَّ التَّفصيلَ في الإثباتِ ثناءٌ وتعظيمٌ على الموصوفِ، والتَّفصيلُ في النَّفي قدحٌ وعيبٌ واستهزاءٌ بالموصوفِ، ولنضرب لذلك مثالًا: هذا إنسانٌ قام

يمدحُ مَلِكًا أمامَه فقال: أنت الملكُ، الشُّجاعُ، المقدامُ، الكريمُ، الحليمُ، وصار يذكرُ من صفاتِ الكمالِ ما يملأُ الأوراقَ، وكُلَّما ذَكَرَ صفةَ كمالٍ انتفخ الملكُ وزاد حتَّى صار كالجبلِ العظيمِ من كثرةِ صفاتِ الإثباتِ في المدحِ، فجاء مسكين يريدُ أن يُقلِّدَ صاحبَ الإثباتِ ووقف أمام الملكِ فقال له: أيُّها الملكُ لست بكسَّاحٍ، ولا زبَّال، ولا دمَّالٍ، ولا وحشٍ، ولا حمارٍ، ولا كلبٍ، فإذا قال ذلك فإنَّ الملكَ يأمرُ به إلى السِّجنِ؛ لأنَّ هذا ليس مدحًا له، بل هو ذمٌّ له.

إِذَنْ التَّفصيلُ في النَّفيِ حكمُه ذمٌّ للموصوفِ في الحقيقةِ، ففي النَّفي يُجْمِلُونَ كقولِه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشُّورى:١١]، وكقولِه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]؛ ولهذا لم يذكر اللهُ التَّفصيلَ في النَّفيِ إلَّا في مسائلَ قليلةٍ، إمَّا لإبطالِ قولِ مَنْ وَصَفَهُ بهذا المنفيِّ مثل قولِه تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣]، وكقولِه تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الفرقان:٢]، وإمَّا لتوهُّمِ نقصٍ في كمالِه مثل قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]؛ لأنَّ الإنسانَ قد يتصوَّرُ أنَّ الذي خَلَقَ هذه السَّماواتِ العظيمةَ والأرضَ العظيمةَ خلقها في ستَّةِ أيَّامٍ لا بُدَّ أن يتعبَ فقال: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾، وربَّما يتجرَّأُ العاصي على المعصيةِ ويقولُ: لعلَّه يعصي اللهَ في غفلةِ الله، فقال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٧٤]، وربَّما يقولُ قائلٌ: السَّماواتُ والأرضُ كُلُّها لعبٌ، حياةٌ وموتٌ فقط، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدُّخان:٣٨]، فالحاصلُ أنَّك لا تجدُ نفيًا في صفاتِ الله إلَّا على سبيلِ التَّفصيلِ إلَّا لسببٍ.

إِذَنْ طريقُ أهل السُّنَّة والجماعة التَّفصيلُ في الإثباتِ والإجمالُ في النَّفي.

أمَّا هؤلاء المعطِّلة فهم على العكسِ، فيقولون: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ليس داخلَ العالمِ ولا خارجَه، ولا متَّصلًا ولا منفصلًا، ولا مباينًا ولا محايثًا، إلى آخر ما يقولون من الكلامِ الطَّويلِ الذي هو تفصيلٌ في نفي ما يدَّعون أنَّه لا يصحُّ إلَّا لله عزَّ وجلَّ.

إِذَنْ طريقُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ التَّفصيلُ في الإثباتِ، والإجمالُ في النَّفي، لكن هل التَّفصيلُ في الإثباتِ يكونُ أمامَ العامَّة؟

نقولُ: هناك أشياء تُفَصَّلُ فيها؛ فمثلًا إذا قلت: «إنَّ اللهَ سميعٌ»؛ أي أنَّه -سبحانه وتعالى- يسمعُ كُلَّ شيءٍ، فتُفَصِّل لهم، فهذا طَيِّبٌ، لكن هناك أشياء قد يكونُ من الأحسنِ ألَّا تُحَدِّثَ بها، مثل لو فَصَّلْتَ في يدِ الله أو أصابعِ الله مثلًا، أو ما أشبه ذلك؛ لأنَّ العامِّيَّ قد لا يعرفُ هذا الشَّيءَ، فإذا خفت أن يفهمَ التَّمثيلَ مثلًا فهذا لا يحسنُ كما قال عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ...»(١).

٤٢٠٢- فَتَدَبَّرُوا القُرْآنَ مَعْ مَنْ مِنْكُمَا ... وَشَهَادَةَ المَبْعُوثِ بِالقُرْآنِ

يعني: تَدبَّروا كتابَ الله وسُنَّةَ رسولِه ﷺ مع مَنْ هما؟ هل هما معكم أيُّها النُّفاةُ أو مع المثبتين؟ إذا تدبَّرنا ذلك وجدنا أنَّها مع المثبتين، وأنَّ القُرآنَ والسُّنَّةَ يُفَصِّلان في الإثباتِ ويُجْمِلَانِ في النَّفي، وطريقةُ أهلِ التَّعطيلِ التَّفصيلُ في النَّفي والإجمالُ في الإثباتِ.

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم، كراهية أن لا يفهموا، رقم (١٢٧).

٤٢٠٣- وَعَرَضْتُمُ قَوْلَ الرَّسُولِ عَلَى الَّذِي ... قَالَ الشُّيُوخُ وَمُحْكَمَ الفُرْقَانِ

٤٢٠٤- فَالمُحْكَمُ النَّصُّ المُوَافِقُ قَوْلَهُمْ ... لا يَقْبَلُ التَّأْوِيلَ فِي الأَذْهَانِ

٤٢٠٥- لَكِنَّمَا النَّصُّ المُخَالِفُ قَوْلَهُمْ ... مُشَابِهٌ مُتَأَوَّلٌ بِمَعَانِي

٤٢٠٦- وَإِذَا تَأَدَّبْتُمْ تَقُولُوا مِشْكِلٌ ... أَفَوَاضِحٌ يَا قَوْمُ رَأْيُ فُلانِ

٤٢٠٧- وَاللهِ لَوْ كَانَ المُوَافِقَ لَمْ يَكُنْ ... مُتَشَابِهًا مُتَأَوَّلًا بِلِسَانِ

٤٢٠٨- لَكِنْ عَرَضْنَا نَحْنُ أَقْوَالَ الشُّيُو ... خِ عَلَى الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الوَحْيَانِ

٤٢٠٩- مَا خَالَفَ النَّصَّيْنِ لَمْ نَعْبَأْ بِهِ ... شَيْئًا وَقُلْنَا حَسْبُنَا النَّصَّانِ

٤٢١٠- وَالمُشْكِلُ القَوْلُ المُخَالِفُ عِنْدَنَا ... فِي غَايَةِ الإِشْكَالِ لا التِّبْيَانِ

الشَّرحُ

٤٢٠٣- وَعَرَضْتُمُ قَوْلَ الرَّسُولِ عَلَى الَّذِي ... قَالَ الشُّيُوخُ وَمُحْكَمَ الفُرْقَانِ

قَوْلُهُ: «وَمُحْكَمَ الفُرْقَانِ»؛ أي: وعرضتم محكمَ القرآنِ أيضًا.

والمعنى: تعرضون قولَ الله ورسولِه على قولِ الشُّيوخِ، فإن وَافَقَ قولَ الشُّيوخِ قبلتموه، وإن خَالَفَ قولَ الشُّيوخِ رددتموه؛ ولهذا قال:

٤٢٠٤- فَالمُحْكَمُ النَّصُّ المُوَافِقُ قَوْلَهُمْ ... لا يَقْبَلُ التَّأْوِيلَ فِي الأَذْهَانِ

يعني: تجعَلون النَّصَّ الموافقَ لقولِهم هو المُحْكَم الذي لا يقبلُ التَّأويلَ، وهو الواضح الذي لا يقبلُ الاشتباهَ.

٤٢٠٥- لَكِنَّمَا النَّصُّ المُخَالِفُ قَوْلَهُمْ مُشَابِهٌ مُتَأَوَّلٌ بِمَعَانِي

فطريقةُ هؤلاء أنَّهم يَعْرِضُونَ القرآنَ والسُّنَّة على ما قال الشُّيوخُ، فإن وَافَقَ ما قال الشُّيوخُ فهو مُحْكَمٌ واضحٌ لا يحتملُ التَّأويلَ، وإن خَالَفَ فهو المتشابهُ القابلُ للتَّأويلِ، وتأويلُ هؤلاء المعطِّلةِ عندهم تأويلٌ وعندنا تحريفٌ؛ لأنَّه لا دليلَ عليه.

٤٢٠٦- وَإِذَا تَأَدَّبْتُمْ تَقُولُوا مِشْكِلٌ أَفَوَاضِحٌ يَا قَوْمُ رَأْيُ فُلانِ

يعني: إذا تأدَّبتم وأردتم أن تتكلَّموا بلَباقةٍ لا تقولوا: هذا متشابهٌ، بل تقولوا: هذا مُشْكِلٌ، يقولون: المُشْكِلُ: القرآنُ والسُّنَّةُ إذا خالفا آراءَ الرِّجالِ، والواضحُ آراءُ الرِّجالِ، فإذا تأدَّبوا قالوا: مُشْكِلٌ، أمَّا إذا لم يتأدَّبوا قالوا: هذا مُتَشَابِهٌ، فأَوِّلوه حَرِّفوه.

٤٢٠٧- وَاللهِ لَوْ كَانَ المُوَافِقَ لَمْ يَكُنْ مُتَشَابِهًا مُتَأَوَّلًا بِلِسَانِ

يعني: والله لو كان النَّصُّ هو الموافقَ لقولِ الشُّيوخِ لم يكن مُتَشَابِهًا، بل كان مُحْكَمًا واضحًا.

٤٢٠٨- لَكِنْ عَرَضْنَا نَحْنُ أَقْوَالَ الشُّيُو خِ عَلَى الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الوَحْيَانِ

وهذا طريقُ أهلِ السُّنَّةِ المثبتين، يَعْرِضُونَ أقوالَ الشُّيوخِ على ما جاء به الوحيان.

٤٢٠٩- مَا خَالَفَ النَّصَّيْنِ لَمْ نَعْبَأْ بِهِ شَيْئًا وَقُلْنَا حَسْبُنَا النَّصَّانِ

فما خَالَفَ «**النَّصَّيْنِ**»: الكتابَ والسُّنَّةَ «**لَمْ نَعْبَأْ بِهِ شَيْئًا**»؛ يعني: لم نُبالِ به شيئًا، و«**قُلْنَا: حَسْبُنَا النَّصَّانِ**»، ونِعْمَ الحسيبُ، و«**حَسْبُنَا**»؛ يعني: يكفينا النَّصَّان عن آراءِ الرِّجالِ، هذا إذا خالَفَتْ آراءُ الرِّجالِ النَّصَّيْنِ.

٤٢١٠- وَالمُشْكِلُ القَوْلُ المُخَالِفُ عِنْدَنَا ... فِي غَايَةِ الإِشْكَالِ لا التِّبْيَانِ

«المُشْكِلُ» أقوالُ الشُّيوخِ المخالفةُ للكتابِ والسُّنَّةِ، أَمَّا الواضحُ عندنا فهو دلالةُ الكتابِ والسُّنَّةِ.

* * *

٤٢١١- وَالعَزْلُ وَالإِبْقَاءُ مَرْجِعُهُ إِلَى الـ ... آرَاءِ عِنْدَكُمُ بِلا كِتْمَانِ

٤٢١٢- لَكِنْ لَدَيْنَا ذَاكَ مَرْجِعُهُ إِلَى ... قَوْلِ الرَّسُولِ وَمُحْكَمِ القُرْآنِ

٤٢١٣- وَالكُفْرُ وَالإِسْلامُ عَيْنُ خِلافِهِ ... وَوِفَاقِهِ لَا غَيْرَ بِالبُرْهَانِ

٤٢١٤- وَالكُفْرُ عِنْدَكُمُ خِلافُ شُيُوخِكُمْ ... وَوِفَاقُهُمْ فَحَقِيقَةُ الإِيمَانِ

٤٢١٥- هَذِي سَبِيلُكُمُ وَتِلْكَ سَبِيلُنَا ... وَالمَوْعِدُ الرَّحْمَنُ بَعْدَ زَمَانِ

٤٢١٦- وَهُنَاكَ يُعْلَمُ أَيُّ حِزْبَيْنَا عَلَى الـ ... حَقِّ الصَّرِيحِ وَفِطْرَةِ الدَّيَّانِ

٤٢١٧- فَاصْبِرْ قَلِيلًا إِنَّمَا هِيَ سَاعَةٌ ... فَإِذَا أُصِبْتَ فَفِي رِضَا الرَّحْمَنِ

٤٢١٨- فَالقَوْمُ مِثْلُكَ يَأْلَمُونَ وَيَصْبِرُو ... نَ وَصَبْرُهُمْ فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ

الشرحُ

٤٢١١- وَالعَزْلُ وَالإِبْقَاءُ مَرْجِعُهُ إِلَى الـ ... آرَاءِ عِنْدَكُمُ بِلا كِتْمَانِ

قَوْلُهُ: «العَزْلُ» هو الرَّدُّ.

قَوْلُهُ: «الإِبْقَاءُ»؛ يعني: القَبولَ في كلامِ المؤلِّفِ.

فالرَّدُّ والقَبولُ مَرجِعُه عندكم إلى الآراءِ، فما وَافَقَ آراءَ الشُّيوخِ فهو مقبولٌ، وما خَالَفَهَا فهو مردودٌ، فهو يُبَيِّنُ أنَّ المرجعَ عندهم آراءُ الرِّجالِ، فهي التي تعزلُ أو تُبْقِي.

٤٢١٢- لَكِـــنْ لَـــدَيْنَا ذَاكَ مَرْجِعُـــهُ إِلَى ... قَـوْلِ الرَّسُـولِ وَمُحْكَـمِ القُـرْآنِ

وفرقٌ بين هذا وهذا، فرقٌ بين مَنْ يرجعُ في أمورِه إلى الكتابِ والسُّنَّةِ وبين مَنْ يرجعُ إلى آراءِ الرِّجالِ.

٤٢١٣- وَالكُفْـرُ وَالإِسْـلامُ عَـيْنُ خِلافِـهِ ... وَوِفَاقِـــهِ لَا غَـــيْرَ بِالبُرْهَـــانِ

قَوْلُهُ: «**الكُفْرُ وَالإِسْلَامُ عَيْنُ خِلَافِهِ وَوِفَاقِهِ**» هذا لفٌّ ونشرٌ مُرتَّبٌ، فالكفرُ عَيْنُ خلافِه، والإسلامُ عَيْنُ وفاقِه، ففي البيتِ لفٌ ونشرٌ مُرتَّب، فـ: «**عَيْنُ خِلَافِهِ**» يعودُ إلى الكفرِ، و«**وِفَاقِهِ**» يعودُ إلى الإسلامِ.

يعني: أنَّ الكفرَ عندنا مخالفةُ النَّصَّيْنِ: القرآنِ وقولِ الرَّسولِ، والإسلامَ موافقتُهما لا غير، فمَنْ وَافَقَ الكتابَ والسُّنَّةَ فهو مسلمٌ، ومن خَالَفَهُما فهو كافرٌ، لكن الكفرُ أنواعٌ.

٤٢١٤- وَالكُفْرُ عِنْدَكُمُ خِلافُ شُـيُوخِكُمْ ... وَوِفَـــاقُهُمْ فَحَقِيقَـــةُ الإِيـــمَانِ

قَوْلُهُ: «**وَالكُفْرُ عِنْدَكُمُ خِلَافَ شُيُوخِكُمْ**» هذا الكفرُ عندهم، فمَنْ خَالَفَ الشَّيخَ فهو كافرٌ.

قَوْلُهُ: «**وَوِفَاقُهُمْ فَحَقِيقَةُ الإِيمَانِ**» وَمَنْ وافقهم فهو مؤمنٌ.

إِذَنْ فرقٌ بيننا وبينهم، نحن نقولُ: الإيمانُ موافقةُ الكتابِ والسُّنَّةِ، والكفرُ مخالفةُ الكتابِ والسُّنَّةِ، وهؤلاء يقولون: الإيمانُ موافقةُ الشُّيوخِ والكفرُ مخالفةُ الشُّيوخِ.

٤٢١٥- هَـذِي سَـبِيلُكُمُ وَتِلْـكَ سَـبِيلُنَا ... وَالْـمَوْعِدُ الـرَّحْمَنُ بَعْـدَ زَمَـانِ

٤٢١٦- وَهُنَاكَ يُعْلَمُ أَيُّ حِزْبَيْنَا عَـلَى الْـ ... ـحَـقِّ الصَّـرِيحِ وَفِطْـرَةِ الـدَّيَّانِ

يعني: هذه طريقُنا وهذه طريقُكم، والذي يحكمُ بيننا هو اللهُ بعد زَمانٍ، فاللهُ يوم القيامة يَحكُمُ بين العبادِ فيما كانوا فيه يختلفون، فكما يحكمُ بينهم في الحقوقِ الخاصَّةِ كأخذ المالِ وقتل النَّفسِ والعِرْضِ فهو يحكمُ بينهم أيضًا فيما اختلفوا فيه من الحقِّ يوم القيامةِ، يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ في سورة «النِّساء»: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النِّساء:١٤١]، وهذه بُشرى سارَّة، حيث يخبرُنا بأنَّنا سنتحاكمُ، والحقُّ لنا، ولن يجعلَ اللهُ للكافرين على المؤمنين سبيلًا، فبالله عليكم لو أنَّ خصمَيْنِ ذهبا إلى القاضي، فقال القاضي لأحدِهما: «**لن يكونَ لفُلانٍ عليك سبيلًا**»، فإنَّه سيذهبُ مستبشِرًا مُنتصِرًا، فاللهُ بَيَّنَ أنَّه سيحكمُ بين الكافرين والمؤمنين، ولن يجعلَ اللهُ للكافرين على المؤمنين سبيلًا.

٤٢١٧- فَاصْـبِرْ قَلِـيلًا إِنَّـمَا هِـيَ سَـاعَةٌ ... فَـإِذَا أُصِـبْتَ فَفِـي رِضَـا الـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «**فَاصْبِرْ قَلِيلًا إِنَّمَا هِيَ سَاعَةٌ**» نعم، اصبر قليلًا لو خالفك النَّاسُ، لو رَأَيْتَ النَّاسَ على باطلٍ، اصبِرْ فَإِنَّما هي ساعةٌ من زمانٍ مهما طال بك الوقتُ لو تبلغ مئات السِّنين فكأنَّما بقيت ساعةً من زمانٍ، فكُلُّ شيءٍ ينفد، كُلُّ شيءٍ يذهبُ.

قَوْلُهُ: «**فَإِذَن أُصِبْتَ فَفِي رِضَا الرَّحْمَنِ**»؛ يعني: فإذا أُصِبْتَ من هؤلاء المبتدعةِ من هؤلاء المعتدين بأن اعْتَدَوْا عليك بضربٍ أو قتلٍ أو غيرِ ذلك فهذا العدوانُ في رضا الله عزَّ وجلَّ، تُثابُ عليه وتُؤْجَرُ عليه.

٤٢١٨- فَالقَوْمُ مِثْلُكَ يَأْلَمُونَ وَيَصْبِرُو ... نَ وَصَبْرُهُمْ فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ

قَوْلُهُ: «فَالَقَومُ مِثْلَكَ»، ويجوزُ: «مِثْلُكَ».

وأمَّا أنت فتتألَّمُ وتصبر، وصبرُك في طاعةِ الله، قال اللهُ تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ [النِّساء:١٠٤]، «تهنوا»؛ يعني: تَضْعُفُوا، و﴿فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾؛ أي: في طلب الكُفَّارِ الذين يقاتلونكم على الإسلامِ، لا تهنوا في ابتغائِهم، اطلبوهم، اقْفُوا آثارَهم، و﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ [النِّساء:١٠٤]؛ لأنَّهم بشرٌ وأنتم بشرٌ، لكن الفرقُ كما في قولِه تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النِّساء:١٠٤]، فأنتم تُقاتلون في سبيلِ الله، والذين كفروا يُقاتِلون في سبيلِ الطَّاغوتِ، وفرقٌ بين الأمرين؛ ولذا لا تقولوا: إنَّ القتالَ تعبٌ، وإزهاقُ نفسٍ، وإتلافُ مالٍ، فهؤلاء القومُ مثلُكم يتعبون ويألمون، ولكنَّكم أنتم ترجون من الله ما لا يرجون.

وهذه مسألةٌ مهمَّةٌ ينبغي للإنسانِ أن يجعلَها على بالِه في مخاصمةِ الأعداءِ وجدالِهم أنَّ ما يصيبُه من الأذى والتَّحمُّلِ والهمِّ والغمِّ ففي سبيلِ الله، وما يصيبُ خصمَه ففي سبيلِ الطَّاغوتِ والشَّيطانِ، فهو على خيرٍ، وهم على شرٍّ.

وفي هذا تسليةٌ للمؤمنِ إذا أصابه من الكافرِ ما يُصيبُه أن يتسلَّى بكلامِ الله عزَّ وجلَّ.

* * *

فصـــل

فِي بَيَانِ الاسْتِغْنَاءِ بِالوَحْيِ المُنَزَّلِ مِنَ السَّمَاءِ عَنْ تَقْلِيدِ الرِّجَالِ وَالآرَاءِ

٤٢١٩- يَا طَالِبَ الحَقِّ المُبِينِ وَمُؤْثِرًا ... عِلْمَ اليَقِينِ وَصِحَّةَ الإِيمَانِ

٤٢٢٠- اسْمَعْ مَقَالَةَ نَاصِحٍ خَبَرَ الَّذِي ... عِنْدَ الوَرَى مُذْ شَبَّ حَتَّى الآنِ

٤٢٢١- مَا زَالَ مُذْ عَقَدَتْ يَدَاهُ إِزَارَهُ ... قَدْ شَدَّ مِيزَرَهُ إِلَى الرَّحْمَنِ

٤٢٢٢- وَتَخَلُّلَ الفَتَرَاتِ لِلعَزَمَاتِ أَمْـ ... ـرٌ لازِمٌ لِطَبِيعَةِ الإِنْسَانِ

٤٢٢٣- وَتَوَلَّدَ النُّقْصَانُ مِنْ فَتَرَاتِهِ ... أَوَلَيْسَ سَائِرُنَا بَنِي النُّقْصَانِ

٤٢٢٤- طَافَ المَذَاهِبَ يَبْتَغِي نُورًا لِيَهْـ ... ـدِيهِ وَيُنْجِيهِ مِنَ النِّيرَانِ

٤٢٢٥- وَكَأَنَّهُ قَدْ طَافَ يَبْغِي ظُلْمَةَ الْـ ... ـلَيْلِ البَهِيمِ وَمَذْهَبَ الحَيْرَانِ

٤٢٢٦- وَاللَّيْلُ لَا يَزْدَادُ إِلَّا قُوَّةً ... وَالصُّبْحُ مَقْهُورٌ بِذِي السُّلْطَانِ

٤٢٢٧- حَتَّى بَدَتْ فِي سَيْرِهِ نَارٌ عَلَى ... طَوْرِ المَدِينَةِ مَطْلَعِ الإِيمَانِ

٤٢٢٨- فَأَتَى لِيَقْبِسَهَا فَلَمْ يُمْكِنْهُ مَعْ ... تِلْكَ القُيُودِ مَنَالُهَا بِأَمَانِ

٤٢٢٩- لَوْلَا تَدَارَكَهُ الإِلَهِ بِلُطْفِهِ ... وَلَّى عَلَى العَقِبَيْنِ ذَا نُكْصَانِ

٤٢٣٠- لَكِنْ تَوَقَّفَ خَاضِعًا مُتَذَلِّلًا ... مُسْتَشْعِرَ الإِفْلَاسِ مِنْ أَثْمَانِ

٤٢٣١- فَأَتَاهُ جُنْدٌ حَلَّ عَنْهُ قُيُودَهُ ... فَامْتَدَّ حِينَئِذٍ لَهُ البَاعَانِ

٤٢٣٢- وَاللهِ لَــوْلَا أَنْ تُحَــلَّ قُيُــودُهُ ... وَتَــزُولَ عَنْـهُ رِبْقَــةُ الشَّــيْطَانِ

٤٢٣٣- كَـانَ الرُّقِـيُّ إِلَى الثُّرَيَّـا مُصْـعِدًا ... مِـنْ دُونِ تِلْـكَ النَّـارِ فِي الإِمْكَـانِ

٤٢٣٤- فَـرَأَى بِتِلْـكَ النَّـارِ آطَـامَ المَدِيــ ... ــنَةِ كَالــخِيَامِ تَشُـوفُهَا العَيْنَـانِ

٤٢٣٥- وَرَأَى عَـلَى طُرُقَاتِهَـا الأَعْـلَامَ قَـدْ ... نُصِبَتْ لِأَجْلِ السَّـالِكِ الـحَيْرَانِ

٤٢٣٦- وَرَأَى هُنَالِـكَ كُـلَّ هَـادٍ مُهْتَـدٍ ... يَــدْعُو إِلَى الإِيــمَانِ وَالإِيقَــانِ

٤٢٣٧- فَهُنَــاكَ هَنَّــأَ نَفْسَــهُ مُتَــذَكِّرًا ... مَــا قَالَــهُ المُشْــتَاقُ مُنْــذُ زَمَــانِ

٤٢٣٨- وَالـمُسْتَهَامُ عَلَى الـمَحَبَّةِ لَـمْ يَزَلْ ... حَاشَــا لِـذِكْرَاكُمْ مِـنَ النِّسْـيَانِ

٤٢٣٩- لَـوْ قِيـلَ مَـا تَهْـوَى لَقَـالَ مُبَـادِرًا ... أَهْـوَى زِيَـارَتَكُمْ عَـلَى الأَجْفَـانِ

٤٢٤٠- تَـاللهِ إِنْ سَـمَحَ الزَّمَـانُ بِقُـرْبِكُمْ ... وَحَلَلْـتُ مِـنْكُمْ بِالمَحَـلِّ الـدَّانِي

٤٢٤١- لَأُعَفِّرَنَّ الـخَدَّ شُـكْرًا فِي الثَّـرَى ... وَلَأُكْحِلَــنَّ بِــتُرْبِكُمْ أَجْفَــانِي

الشَّــرحُ

٤٢١٩- يَا طَالِـبَ الحَـقِّ الـمُبِينِ وَمُـؤْثِرًا ... عِلْــمَ اليَقِـينِ وَصِـحَّةَ الإِيــمَانِ

يعني: يا مَنْ يطلبُ الحقَّ المبينَ، ويُؤْثِرُ علمَ اليقينِ على الشُّكوكِ والظُّنونِ التي يقولُـها هؤلاء الشُّيوخُ، وصحَّةَ الإيمانِ على سقمِ الإيمانِ.

٤٢٢٠- اسْمَعْ مَقَالَـةَ نَاصِـحٍ خَـبَرَ الَّـذِي ... عِنْدَ الوَرَى مُـذْ شَـبَّ حَتَّـى الآنِ

ويعني بذلك نفسَه، فإنَّه خَبَرَ الوَرَى؛ يعني: عرفهم عن خبرةٍ مُذْ شَبَّ؛ يعني: منذ كان صغيرًا حتَّى الآن.

٤٢٢١- مَـا زَالَ مُـنْذُ عَقَـدَتْ يَـدَاهُ إِزَارَهُ قَـدْ شَـدَّ مِيـزَرَهُ إِلَى الـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «مَا زَالَ مُنْذُ عَقَدَتْ يَدَاهُ إِزَارَهُ» وهذا يكونُ من سبعِ سنين، أو ما أشبه ذلك؛ لأنَّ الصَّغيرَ لا يستطيعُ أن يربطَ إزارَه، والذي يعقدُ إزارَه له أُمُّهُ أو الخادم أو ما أشبه ذلك، فإذا كبر تمكَّن من أن يعقدَ إزارَه بنفسِه.

وهو يقولُ هذا مُتحدِّثًا بنعمة الله لا فاخِرًا به على عبادِ الله، ولا يُقَالُ: إنَّ هذا من بابِ تزكيةِ النَّفسِ؛ لأنَّ المقصودَ بذلك إغراءُ النَّاسِ على أن يأخذوا من الكتابِ والسُّنَّةِ، وها هو عبدُ الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقولُ: «لَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهَّ، تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ»[1]، هل أراد عبدُ الله ابنُ مسعودٍ أن يُزَكِّيَ نفسَه؟ الجوابُ: لا، بل أراد حَثَّ النَّاسِ على طلبِ العلمِ مهما بعدت أقطارُه، وهكذا ابنُ القيِّمِ -رحمه الله- لا نعتقدُ ولا نظنُّ أنَّه أراد بذلك أن يمدحَ نفسَه أمام النَّاسِ، أو يزكِّيَها عند الله عزَّ وجلَّ.

٤٢٢٢- وَتَخَلُّـلَ الفَـتَرَاتِ لِلعَزَمَـاتِ أَمْــ ـــرٌ لازِمٌ لِطَبِيعَــةِ الإِنْسَــانِ

لـمَّا أخبر أنَّه منذ كان صغيرًا وهو لا زال يشدُّ مِئزرَه إلى الرَّحمنِ استثنى فقال: هناك فتراتٌ تعتري الإنسانَ وتصدُّه عن عزمِه، وهذا لازمٌ لطبيعةِ الإنسانِ، فالإنسانُ يكونُ نشيطًا في وقتٍ، ويكون كسلانَ في وقتٍ آخرَ، ففي بعض الأحيان تكونُ عنده عزيمةٌ قويَّةٌ وإيمانٌ قويٌّ كأنَّما يُشَاهِدُ العرشَ والكرسيَّ والجنَّةَ والنَّارَ، ثُمَّ تحصلُ فترةٌ لا يصلُ إلى هذا الحدِّ، وهذا شيءٌ كُلُّ إنسانٍ مُبْتَلىً به.

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، رقم (٤٧١٦)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رقم (٢٤٦٣).

٤٢٢٣- وَتَوَلَّـدَ النُّقْصَـانُ مِـنْ فَتَرَاتِـهِ أَوَلَـيْسَ سِـائِرُنَا بَنِـي النُّقْصَـانِ

يعني: أنَّ الإنسانَ إذا فتر لا بُدَّ أن ينقصَ علمُه، ولا بُدَّ أن ينقصَ فهمُه، ولا بُدَّ أن ينقصَ دينُه إذا فتر عن طاعةِ الله، وهذا لا شكَّ أنَّه نقصٌ، ولكن كُلُّنا بنو النَّقصِ.

٤٢٢٤- طَافَ المَذَاهِبَ يَبْتَغِي نُورًا لِيَهْـ ـدِيهِ وَيُنْجِيـهِ مِـنَ النِّـيرَانِ

يعني بذلك نفسَه، فإنَّه -رحمه الله- له اطِّلاعٌ واسعٌ على مذاهبِ العلماءِ، وكان أوَّلَ أمرِه صوفيًّا، لولا أن مَنَّ اللهُ عليه بشيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ كاد أن يهلكَ في طريقِ الصُّوفيَّةِ، ولكنَّ اللهَ مَنَّ عليه بشيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ، فلازمه وانتفع بعلمِه، وهداه اللهُ على يدِه.

٤٢٢٥- وَكَأَنَّهُ قَدْ طَافَ يَبْغِي ظُلْـمَةَ الْـ ـلَيْلِ البَهِـيمِ وَمَـذْهَبَ الـحَيْرَانِ

يعني: ومع هذا الطَّوافِ يريدُ ما يُنجيه كأنَّه طَافَ اللَّيلَ، فهو حتَّى الآن لم يهتدِ إلى النُّورِ.

٤٢٢٦- وَاللَّيْـلُ لَا يَـزْدَادُ إِلَّا قُـوَّةً وَالصُّبْحُ مَقْهُورٌ بِـذِي السُّـلْطَانِ

٤٢٢٧- حَتَّـى بَـدَتْ فِي سَـيْرِهِ نَـارٌ عَـلَى طَـوْرِ المَدِينَـةِ مَطْلَـعِ الإِيـمَانِ

قَوْلُهُ: «طَوْرِ المَدِينَةِ» بالرَّاء؛ أي: السُّور، وفي نسخةٍ: «طَوْدِ المَدِينَةِ»؛ أي: الجبل، ومعلومٌ أنَّ النَّارَ إذا بَدَتْ بعد التَّعبِ الشَّديدِ في طلبِها يكونُ الإنسانُ بها أشدَّ فرحًا، وأشدَّ شوقًا إليها.

٤٢٢٨- فَـأَتَى لِيَقْبِسَـهَا فَلَـمْ يُمْكِنْـهُ مَـعْ تِلْـكَ القُيُـودِ مَنَالُـهَا بِأَمَـانِ

جاء يقتبسُ من هذه النَّارِ، لكن عليه ذنوبٌ قَيَّدَتْهُ فلم يَسْتَطِعْ أن يقتبسَ منها.

٤٢٢٩- لَـــوْلَا تَدَارَكَـــهُ الإِلَـــهِ بِلُطْفِـــهِ وَلَّى عَـــلَى العَقِبَـــيْنِ ذَا نُكْصَـــانِ

يعني: لولا أنَّ اللهَ تداركه بلُطفِه لكان حين عجز عن الاقتباسِ يرجعُ ويتركُ كما يوجدُ من بعضِ النَّاسِ إذا عجز عن إدراكِ الشَّيءِ لأوَّل مرَّةٍ نكص على عَقِبَيْهِ وتركه.

٤٢٣٠- لَكِـــنْ تَوَقَّـــفَ خَاضِـــعًا مُتَـــذَلِّلًا مُسْتَشْـــعِرَ الإِفْـــلَاسِ مِـــنْ أَثْـــمَانِ

يعني: أنَّه لم ينكص، ولكن وقف، وقال: لعلَّ اللهَ يفتحُ عليَّ.

٤٢٣١- فَأَتَـــاهُ جُنْـــدٌ حَـــلَّ عَنْـــهُ قُيُـــودَهُ فَامْتَـــدَّ حِينَئِـــذٍ لَـــهُ البَاعَـــانِ

ومعلومٌ أنَّه إذا حُلَّت القيودُ يستطيعُ أن يخطوَ خطوةً واسعةً ويمتدَ باعُه.

٤٢٣٢- وَاللهِ لَـــوْلَا أَنْ تُحَـــلَّ قُيُـــودُهُ وَتَـــزُولَ عَنْـــهُ رِبْقَـــةُ الشَّـــيْطَانِ

٤٢٣٣- كَـــانَ الرُّقِـــيُّ إِلَى الثُّرَيَّـــا مُصْـــعِدًا مِـــنْ دُونِ تِلْـــكَ النَّـــارِ فِي الإِمْكَـــانِ

لولا أنَّ اللهَ يَسَّرَ له مَنْ حَلَّ له القيودَ حتَّى مشى لكان الرُّقِيُّ إلى الثُّرَيَّا وهي في السَّماءِ أيسرَ من الوصولِ إلى هذه النَّارِ التي يريدُ أن يقتبسَ منها.

٤٢٣٤- فَـــرَأَى بِتِلْـــكَ النَّـــارِ آطَـــامَ المَدِيـــ ـــنَةِ كَالـــخِيَامِ تَشُـــوفُهَا العَيْنَـــانِ

قَوْلُهُ: «الآطَام» جمع «أُطُم»، وهي الأماكنُ المرتفعةُ.

٤٢٣٥- وَرَأَى عَـــلَى طُرُقَاتِهَـــا الأَعْـــلَامَ قَـــدْ نُصِبَتْ لِأَجْلِ السَّـــالِكِ الـــحَيْرَانِ

الأعلامُ وهي إرشاداتُ الطرُّقِ نُصِبَتْ لِتُرْشِدَ الإنسانَ المتحيِّرَ، فهنا آطامٌ وهنا أعلامٌ.

٤٢٣٦- وَرَأَى هُنَالِـكَ كُـلَّ هَـادٍ مُهْتَـدٍ　　　يَـدْعُو إِلَى الإِيـمَانِ وَالإِيقَـانِ

إِذَنْ هناك علاماتٌ أرضيَّةٌ وعلاماتٌ بشريَّةٌ، العلاماتُ البشريَّةُ هم هؤلاء الـهُداةُ المهتدون الذين يدعون إلى الله عزَّ وجلَّ.

٤٢٣٧- فَهُنَـاكَ هَنَّـأَ نَفْسَـهُ مُتَـذَكِّرًا　　　مَـا قَالَـهُ المُشْـتَاقُ مُنْـذُ زَمَـانِ

هناك حين رَأى الآطامَ وأعلامَ الـهدى من الـهُداةِ المهتدين هَنَّأَ نفسَه متذكِّرًا ما قاله المشتاقُ منذ زمانٍ، لكن ما الذي قال؟

٤٢٣٨- وَالـمُسْتَهَامُ عَلَى الـمَحَبَّةِ لَـمْ يَزَلْ　　　حَاشَـا لِـذِكْرَاكُمْ مِـنَ النِّسْـيَانِ

قَوْلُهُ: «الْمُسْتَهَامُ»: الذي أصابه الـهُيامُ من شدَّةِ الشَّوقِ.

قَوْلُهُ: «لَـمْ يَزَلْ»؛ يعني: لم يزل على المحبَّةِ.

قَوْلُهُ: «حَاشَا لِذِكْرَاكُمْ مِنَ النِّسْيَانِ» «حَاشَا» بمعنى: تنزيهًا؛ يعني: تنزيهًا أن أنسى ذِكْرَكم، فأنا لن أنسى ذِكْرَكم.

٤٢٣٩- لَـوْ قِيـلَ مَـا تَهْـوَى لَقَـالَ مُبَـادِرًا　　　أَهْـوَى زِيَـارَتَكُمْ عَـلَى الأَجْفَـانِ

إِذَنْ مُنْيَتُهُ أن يزورَهم ولو على الأجفانِ بدلًا عن الأقدامِ، وهذا من المبالغةِ في محبَّتِهِ لزيارتِهم.

٤٢٤٠- تَـاللهِ إِنْ سَـمَحَ الزَّمَـانُ بِقُـرْبِكُمْ　　　وَحَلَلْـتُ مِـنْكُمْ بِالمَحَـلِّ الـدَّانِي

٤٢٤١- لأُعَفِّرَنَّ الـخَدَّ شُكْرًا فِي الثَّرَى　　　وَلأُكْحِلَـنَّ بِـتُرْبِكُمْ أَجْفَـانِي

وهذه مبالغةٌ شديدةٌ، لكن لعلَّه ينقلُ قولَ غيرِه، يقولُ: «تَاللهِ إِنْ سَمَحَ الزَّمَانُ بِقُرْبِكُمْ»؛ يعني: إن تيسَّر لي أن أَقْرُبَ منكم، «وَحَلَلْتُ مِنْكُمْ بِالمَحَلِّ

الدانِي» وهو ديارُهم.

قَوْلُهُ: «**لأُعَفِّرَنَّ الخَدَّ شُكْرًا فِي الثَّرَى**» «**فِي الثَّرَى**» متعلِّقٌ بـ«**أُعَفِّر**»؛ يعني: أُعفِّر خدِّي بالتُّرابِ شكرًا للوصولِ إلى محلَّاتِكم.

قَوْلُهُ: «**وَلأُكْحِلَنَّ بِتُرْبِكُمْ أَجْفَانِي**» بدل أن يكحلَ بالإثمدِ يكحل بالتُّرابِ، وهذه مبالغةٌ لا شكَّ، وهذا يقولُه العُشَّاقُ في الزَّمنِ الأوَّلِ، فالعشقُ يقتلُ الإنسانَ، فإذا عشق محبوبةً مثلًا، ثُمَّ لو قالت له: «**اسجد**» لسجد لها، ويبالغون في بيان ما في نفوسِهم من محبَّة اللقاءِ والشَّوْقِ إليها.

لكن يقولُ شيخُنا ابنُ سعديٍّ رحمه الله: إنَّ عشقَ الصُّورِ وَلَّى، لكن جاء عشقُ الدُّنيا، عشقُ المالِ، فما ظنُّكم لو أنَّه بَقِيَ إلى هذا الوقتِ لكان أشدَّ وأشدَّ، فالنَّاسُ الآن -نسألُ اللهَ العافيةَ- آثروا الدُّنيا على الآخرةِ؛ ولهذا لا يبالون بالحلالِ والحرامِ والرِّبا والغشِ والكذبِ، نسألُ اللهَ السَّلامةَ.

والظَّاهرُ لـي -واللهُ أعلمُ- أنَّ هذه أبياتٌ قيلت مِنْ قَبْلِه، فإن كان هو الذي قالها فنسأل اللهَ له العفوَ؛ لأنَّ هذا مبالغةٌ، وليس من المشروعِ، لكن هذه من المبالغات التي يقولُها الشُّعراءُ، والشِّعرُ إذا كان فيه مبالغةٌ يَرَوْنَ أَنَّ هذا من مُلَحِه وطراوتِه، لكنَّه لا يومئ إلى مسألة القبوريِّين الذين يأتون إلى القبورِ ويُعَفِّرون الخدودَ؛ لأنَّه قال: «**لأُعَفِّرَنَّ الـخَدَّ شُكْرًا**»، والقبوريُّون يُعفِّرونها تعظيمًا وعبادةً.

* * *

٤٢٤٢- **إِنْ رُمْتَ تُبْصِرُ مَا ذَكَرْتُ فَغُضَّ طَرْ ... فًا عَنْ سِوَى الآثَارِ وَالقُرْآنِ**

٤٢٤٣- **وَاتْرُكْ رُسُومَ الخَلْقِ لا تَعْبَأْ بِهَا ... فِي السَّعْدِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ دَبَرَانِ**

٤٢٤٤- حَذِّقْ لِقَلْبِكَ فِي النُّصُوصِ كَمِثْلِ مَا قَدْ حَذَّقُوا فِي الرَّأْيِ طُولَ زَمَانِ

٤٢٤٥- وَاكْحَلْ جُفُونَ القَلْبِ بِالوَحْيَيْنِ وَاحْـ ـذَرْ كُحْلَهُمْ يَا كَثْرَةَ العُمْيَانِ

٤٢٤٦- فَاللهُ بَيَّنَ فِيهِمَا طُرُقَ الهُدَى لِعِبَادِهِ فِي أَحْسَنِ التِّبْيَانِ

٤٢٤٧- لَمْ يُحْوِجِ اللهُ الخَلائِقَ مَعْهُمَا لِـخَيَالِ فَلْتَانٍ وَرَأْيِ فُلانِ

٤٢٤٨- فَالوَحْيُ كَافٍ لِلَّذِي يُعْنَى بِهِ شَافٍ لِدَاءِ جَهَالَةِ الإِنْسَانِ

٤٢٤٩- وَتَفَاوُتُ العُلَمَاءِ فِي أَفْهَامِهِمْ لِلوَحْيِ فَوْقَ تَفَاوُتِ الأَبْدَانِ

الشرحُ

٤٢٤٢- إِنْ رُمْتَ تُبْصِرُ مَا ذَكَرْتُ فَغُضَّ طَرْ فًا عَنْ سِوَى الآثَارِ وَالقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «تُبْصِرُ»؛ يعني: بعينِ قلبِك.

قَوْلُهُ: «مَا ذَكَرْتُ»؛ أي: ما ذَكَرْتُ لك من أنَّ الوحيَ بقسميه «الكتاب والسُّنَّة» كافٍ.

قَوْلُهُ: «فغُضَّ الطَّرْفَ عَنْ سِوَى الآثَارِ وَالقُرْآنِ»، أي: اترك هذه الكتبَ التي ليس فيها إلَّا الهذيانُ والكلامُ الباطلُ.

٤٢٤٣- وَاتْرُكْ رُسُومَ الخَلْقِ لا تَعْبَأْ بِهَا فِي السَّعْدِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ دَبَرَانِ

قَوْلُهُ: «وَاتْرُكْ رُسُومَ الخَلْقِ لَا تَعْبَأْ بِهَا»؛ يعني: اترك ما رسموه من كُلِّ كلامٍ مخالفٍ لما في الكتابِ والسُّنَّةِ، وأمَّا الكلامُ الموافقُ لما في الكتابِ والسُّنَّةِ فهو من الكتابِ والسُّنَّةِ.

قَوْلُهُ: «فِي السَّعْدِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ دَبَرَانِ» سبق أنَّ السُّعودَ ثلاثةٌ: سعد الذَّابحِ، و سعد بلعٍ، وسعد السُّعودِ، و«الدَّبَرَان» نجمٌ صغيرٌ أحمرُ يكونُ خلفَ الثُّريَّا.

وَقَوْلُهُ: «فِي السَّعْدِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ دَبَرَانِ» وكأنَّ ابنَ القيِّم -رحمه الله- أنا أظنُّ من كلامِه أنَّ العربَ كانوا يتشاءمون بالدَّبَرَانِ، والسَّعد يتفاءلون به؛ لأنَّ السَّعدَ من السَّعادة، والدَّبَرَان من الدُّبور، ففي السَّعدِ ما يغنيك عن دَبَرَانِ.

٤٢٤٤- حَذِّقْ لِقَلْبِكَ فِي النُّصُوصِ كَمِثْلِ مَا ... قَدْ حَذَّقُوا فِي الرَّأْيِ طُولَ زَمَانِ

يعني: اجعلْ قلبَك حاذقًا في النُّصوصِ كما حَذَّقوا هم للآراءِ طولَ زمانٍ، والقلبُ إذا كان مهتمًّا بالوحيين؛ الكتابِ والسُّنَّةِ، نال بهما سعادةَ الدُّنيا والآخرة.

٤٢٤٥- وَاكْحَلْ جُفُونَ القَلْبِ بِالوَحْيَيْنِ وَاحْـ ... ـذَرْ كُحْلَهُمْ يَا كَثْرَةَ العُمْيَانِ

قَوْلُهُ: «وَاكْحُلْ جُفُونَ القَلْبِ بِالوَحْيَيْنِ وَاحْذَرْ كُحْلَهُمْ»؛ لأنَّهم يكتحلون بالآراءِ والهذيانِ، ولهذا كَثُرَ فيهم العمى.

قَوْلُهُ: «يَا كَثْرَةَ العُمْيَانِ»، فيا كثرةَ العُمْيَانِ الذين اكتحلوا بالآراءِ والهذيانِ، أمَّا مَن اكْتَحَلَ بالوحي فسيكون بصيرًا قويَّ البصرِ.

٤٢٤٦- فَاللهُ بَيَّنَ فِيهِمَا طُرُقَ الهُدَى ... لِعِبَادِهِ فِي أَحْسَنِ التِّبْيَانِ

الحمدُ لله؛ بَيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ طرقَ الهدى في القرآنِ والسُّنَّةِ بأتمِّ التِّبيان.

٤٢٤٧- لَمْ يُحْوِجِ اللهُ الخَلائِقَ مَعْهُمَا ... لِخَيَالِ فَلْتَانٍ وَرَأْيِ فُلانِ

عندنا مَثَلٌ يقولُ: «فُلَيْتَان ورُقَيْعَان»، و«فَلْتَان» مكبَّر «فُلَيْتَان»؛ لأنَّ «فُلَيْتَان» مصغَّر، و«الفَلْتَان» معناه الذي لا يُعْبَأُ بكلامِه؛ لأنَّ كلامَه لا ينبني على شيءٍ، و«رَأْيِ فُلَانِ» فُلَان يُكْنَى به عن الرَّجُلِ، يُقَالُ: فلانٌ، ويُقَالُ: فلانةٌ.

٤٢٤٨- فَالوَحْيُ كَافٍ لِلَّذِي يُعْنَى بِهِ ... شَافٍ لِدَاءِ جَهَالَةِ الإِنْسَانِ

صدَق والله، إنَّ الوحيَ كافٍ لِـمَن اعتنى به، فهو شافٍ من كُلِّ داءٍ كما قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢].

٤٢٤٩- وَتَفَاوُتُ العُلَمَاءِ فِي أَفْهَامِهِمْ ... لِلوَحْيِ فَوْقَ تَفَاوُتِ الأَبْدَانِ

نحن نرى النَّاسَ يتفاوتون في الأبدانِ، هذا قصيرٌ وهذا طويلٌ، وهذا عريضٌ وهذا دقيقٌ، وهذا نحيفٌ وهذا سمينٌ، وهذا أبيضُ وهذا أسودُ، وهكذا، وهذا شيءٌ مُشَاهَدٌ.

والأفهامُ كذلك؛ لأنَّ الأفهامَ قوى باطنةٌ، وتفاوتُ العلماءِ في الأفهامِ أشدُّ من تَفاوتِهم في الأبدانِ؛ ولهذا تجدُ بعضَهم لا يعرفُ شيئًا، وبعضَهم لا يفهمُ ولا يحفظُ، وبعضَهم يحفظُ ويفهمُ، فهم أربعةُ أقسامٍ، حافظٌ فاهمٌ، وحافظٌ غيرُ فاهمٍ، وفاهمٌ غيرُ حافظٍ، وليس بحافظٍ ولا بفاهمٍ، وشَرُّ الأقسامِ: الأخيرُ، وخيرُ الأقسامِ الأوَّلُ: الحافظُ الفاهمُ.

فالنَّاسُ يختلفون في الأَفهامِ بلا شكٍّ، تَرِدُ آيةٌ من كتابِ الله يستنبطُ منها بعضُ النَّاسِ مسائلَ عديدة، وبعضُ النَّاسِ لا يعرفُ شيئًا، ولقد حدَّثناكم عن حمار الفُروعِ، وحمارُ الفروعِ رجلٌ قد حفظ كتابَ «**الفروع**»، و«**الفروعُ**» كتابُ فقهٍ أَلَّفَه محمَّدُ بنُ مفلحٍ أحدُ تلاميذِ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ الذي قال له ابنُ تيميَّةَ: «**ما أنت ابنُ مفلحٍ، بل أنت مفلحٌ**»، وهذا الكتابُ حوى جُلَّ ما قاله الفقهاء، ليس فقهاء الحنابلةِ فقط حتَّى غير الحنابلة؛ لأنَّ له اطِّلاعًا واسعًا، تجده مثلًا يذكرُ المسألةَ، ثُمَّ يقولُ: وفاقًا للشَّافعيِّ، وفاقًا لمالكٍ، وفاقًا لأبي حنيفةَ، خلافًا لمالكٍ،

خلافًا للشَّافعيِّ، خلافًا لأبي حنيفةَ، وهو كتاب يُعْتَبَرُ جامعًا حتَّى إنَّ بعضَهم يسمِّيه مِكْنَسة المَذْهَبِ؛ يعني: يكنسُ كُلَّ شيءٍ، وهو رجلٌ حافظٌ عن ظهر قلبٍ لهذا الكتابِ، وهو ثلاثةُ مجلَّداتٍ مع تصحيحِ الفروعِ، وجعله القَطَرِيُّون ستَّةَ مجلَّدات.

المهمُّ: أنَّ هذا الرَّجُلَ حافظٌ للكتابِ عن ظهرِ قلبٍ، لكنَّه لا يفهمُ إطلاقًا، فكان أصحابُه يخرجون به معهم كأنَّه كتابٌ، إذا أشكل عليهم شيءٌ، قالوا: اقرأ علينا الفصلَ الفلانيَّ في البابِ الفلانيِّ، ثُمَّ يقرؤه عليهم، لا يقولون له: ماذا قال صاحبُ الفروعِ فيه؟ لأنَّه لا يدري، فكان يُلَقَّبُ بحمارِ الفروعِ، وهذا اللَّقبُ لا شكَّ أنَّه ليس بطيِّبٍ، لكن يقولون: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ضَرَبَ مثلًا للذين حُمِّلُوا التَّوراةَ ثُمَّ لم يحملوها كمثل الحمارِ يحملُ أسفارًا، فالحمارُ إذا حَمَّلْتَه كتبًا لا يستفيدُ منها، فهو نفسُه بليدٌ.

على كُلِّ حالٍ تفاوتُ العلماءِ في أفهامِهم للوحيِ فوق تفاوتِ الأبدانِ، وصدق رحمه اللهُ، فالتَّفاوتُ بينهم عظيمٌ جدًّا.

* * *

٤٢٥٠- وَالـجَهْلُ دَاءٌ قَاتِلٌ وَشِفَاؤُهُ ... أَمْرَانِ فِي التَّرْكِيبِ مُتَّفِقَانِ

٤٢٥١- نَصٌّ مِنَ القُرْآنِ أَوْ مِنْ سُنَّةٍ ... وَطَبِيبُ ذَاكَ العَالِمُ الرَّبَّانِي

٤٢٥٢- وَالعِلْمُ أَقْسَامٌ ثَلاثٌ مَا لَهَا ... مِنْ رَابِعٍ وَالـحَقُّ ذُو تِبْيَانِ

٤٢٥٣- عِلْمٌ بِأَوْصَافِ الإِلَهِ وَفِعْلِهِ ... وَكَذَلِكَ الأَسْمَاءُ لِلرَّحْمَنِ

٤٢٥٤- وَالأَمْرُ وَالنَّهْيُ الَّذِي هُوَ دِينُهُ ... وَجَزَاؤُهُ يَوْمَ المَعَادِ الثَّانِي

٤٢٥٥- وَالكُـلُّ فِي القُـرْآنِ وَالسُّـنَنِ الَّتِـي جَـاءَتْ عَـنِ المَبْعُـوثِ بِالفُرْقَـانِ

٤٢٥٦- وَاللهِ مَـا قَـالَ امْـرُؤٌ مُتَحَـذْلِقٌ بِسِـوَاهُمَا إِلَّا مِـنَ الـهَذَيَانِ

٤٢٥٧- إِنْ قُلْـتُمُ تَقْرِيـرَهُ فَمُقَـرَّرٌ بِـأَتَمِّ تَقْرِيـرٍ مِـنَ الـرَّحْمَنِ

٤٢٥٨- أَوْ قُلْـتُمُ إِيضَـاحَهُ فَمُبَـيَّنٌ بِـأَتَمِّ إِيضَـاحٍ وَخَـيْرِ بَيَـانِ

٤٢٥٩- أَوْ قُلْـتُمُ إِيجَـازَهُ فَهُـوَ الَّـذِي فِي غَايَـةِ الإِيجَـازِ وَالتِّبْيَـانِ

٤٢٦٠- أَوْ قُلْـتُمُ مَعْنَـاهُ هَـذَا فَاقْصِـدُوا مَعْنَـى الخِطَـابِ بِعَيْنِـهِ وَعِيَـانِ

٤٢٦١- أَوْ قُلْتُمُ نَحْنُ التَّرَاجِمُ فَاقْصِدُوا الـ ـمَعْنَى بِـلا شَـطَطٍ وَلا نُقْصَـانِ

٤٢٦٢- أَوْ قُلْـتُمُ بِخِلافِـهِ فَكَلامُكُـمْ فِي غَايَـةِ الإِنْكَـارِ وَالـبُطْلانِ

الشـرحُ

٤٢٥٠- وَالـجَهْلُ دَاءٌ قَاتِـلٌ وَشِـفَاؤُهُ أَمْـرَانِ فِي التَّرْكِيـبِ مُتَّفِقَـانِ

٤٢٥١- نَـصٌّ مِـنَ القُـرْآنِ أَوْ مِـنْ سُـنَّةٍ وَطَبِيـبُ ذَاكَ العَالِـمُ الرَّبَّـانِي

وهذا لا يُنكره أحدٌ أنَّ الجهلَ داءٌ قاتلٌ؛ لأنَّه لا يبلغُ الأعداءُ من جاهلٍ ما يبلغُ الجاهلُ من نفسِه، فالجهلُ مرضٌ قتَّالٌ، لكن ما شفاؤه؟ يقولُ: «**أَمْرَانِ فِي التَّرْكِيبِ مُتَّفِقَانِ**»، ثُمَّ ذكرهما فقال: «**نَصٌّ مِنَ القُرْآنِ أَوْ مِنْ سُنَّةٍ**»، فالشِّفاءُ نصٌّ من القُرآنِ أو من السُّنَّةِ، وهذا دواءٌ، والدَّواءُ يحتاجُ إلى طبيبٍ يصفُه للمريضِ، فمَنْ هذا الطَّبيبُ؟ قال: «**وَطَبِيبُ ذَاكَ العَالِـمُ الرَّبَّانِي**» فالعلماءُ أطبَّاء، والدَّواءُ: الكتابُ والسُّنَّة.

والطَّبيبُ الذي يُوصِلُنا إلى أن ننتفعَ بالكتابِ والسُّنَّةِ هو العالمُ الرَّبَّانِيُّ، وليس كُلُّ عالمٍ ينفعُ، بل هو العالمُ الرَّبَّانيُّ، والعالمُ الرَّبَّانيُّ قيل: إنَّه الحكيمُ في التَّعليمِ، الذي يُربِّي النَّاسَ بصغارِ العلمِ قبل كبارِه، وقيل: إنَّ العالـمَ الرَّبَّانيَّ مَنْ لا يريدُ بعلمِه إلَّا الوصولَ إلى الرَّبِّ عزَّ وجلَّ، فهو مُهتدٍ هادٍ للخلقِ، لا يريدُ رياءً ولا سمعةً ولا كبرياء ولا غير ذلك، إنَّما يريدُ وصولَ العبادِ إلى ربِّ العبادِ، ولا مانعَ من أن نقولَ: إنَّ العالمَ الرَّبَّانيَّ من اتَّصف بهذا وهذا؛ لأنَّ الوَصْفَيْنِ لا يختلفان، يمكن أن يجتمعا في شخصٍ واحدٍ، لكن لا بُدَّ من القرآنِ والسُّنَّةِ، لا بُدَّ من عالمٍ، فهو كالطَّبيبِ بالنِّسبةِ للأدويةِ الحسِّيَّةِ.

٤٢٥٢- وَالعِلْـمُ أَقْسَـامٌ ثَـلاثٌ مَـا لَـهَا ... مِـنْ رَابِـعٍ وَالـحَقُّ ذُو تِبْيَـانِ

لـمَّا ذكَر المؤلِّفُ -رحمه الله- أنَّ الجهلَ داءٌ قاتلٌ وأنَّ شفاءَه في أمرين، وأنَّ العالـمَ هو طبيبُ هذين الأمرين ذكر أنَّ العلمَ ثلاثةُ أقسامٍ فقال:

٤٢٥٣- عِلْـمٌ بِأَوْصَـافِ الإِلَـهِ وَفِعْلِـهِ ... وَكَـذَلِكَ الأَسْـمَاءُ لِلـرَّحْمَنِ

٤٢٥٤- وَالأَمْـرُ وَالنَّهْـيُ الَّـذِي هُـوَ دِينُـهُ ... وَجَـزَاؤُهُ يَـوْمَ المَعَـادِ الثَّـانِي

قَوْلُهُ: «عِلْمٌ بِأَوْصَافِ الإِلَهِ وَفِعْلِهِ» هذا الأوَّلُ، أن يكونَ الإنسانُ عالمًا بأوصافِ الله وعالمًا بأفعالِ الله، وأفعالُ الله من صفاتِه ولكنَّها من الصِّفاتِ الفعليَّة، فـ«الحياة» مثلًا صفةٌ، و«الخلق» صفةٌ وفعلٌ، فالعلمُ بالأوصافِ التي لا تتعدَّى الموصوفَ أو بالأفعالِ التي هي صفاتٌ متعدِّيةٌ لغيرِ الموصوف.

قَوْلُهُ: «وَكَذَلِكَ الأَسْمَاءُ لِلرَّحْمَنِ»، كذلك الأسماءُ للرَّحمن.

إِذَنْ الأوَّل: العلمُ بأسماءِ الله وصفاتِه وأفعالِه.

قَوْلُهُ: «**الأَمْرُ وَالنَّهْيُ الَّذِي هُوَ دِينُهُ**» هذا الثَّاني.

قَوْلُهُ: «**جَزَاؤهُ يَوْمَ المَعَادِ الثَّانِي**» هذا الثَّالث.

إِذَنْ أقسامُ العلومِ ثلاثةٌ:

الأَوَّلُ: علمٌ يتعلَّقُ بالله عزَّ وجلَّ وأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه، وهو أشرفُها وأعظمُها.

الثَّاني: علمٌ يتعلَّقُ بأحكامِه وشَرائعِه التي تعبَّدنا اللهُ بها، وهو العلمُ بالأمرِ والنَّهي، افعلوا ولا تفعلوا، وهذا يتعلَّقُ بأفعالِ العبادِ.

الثَّالث: عِلمٌ بجَزائِه وهو العلمُ باليومِ الآخِرِ وما يكونُ فيه فيدخلُ فيه كُلُّ ما يكونُ يوم القيامةِ؛ ولهذا قال النَّبيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- إنَّ «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ **تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ**»[1]؛ لأنَّها خبرٌ عنِ الله وأسمائِه وصفاتِه، ويبقى أحكامُه وجزاؤه، فهذه أقسامُ العلمِ ليس لها رابعٌ، والدَّليلُ على انحصارِ العلمِ في هذه الثَّلاثةِ هو التَّتبُّع، فلا تجدُ أنَّ هناك علمًا يخرجُ عن هذه الثَّلاثةِ.

فالعلمُ الحقيقيُّ ثلاثةُ أقسامٍ؛ ولهذا جَزَمَ المؤلِّفُ بأنَّه ليس لها من رابعٍ.

٤٢٥٥- وَالكُلُّ فِي القُرْآنِ وَالسُّنَنِ الَّتِي ... جَاءَتْ عَنِ المَبْعُوثِ بِالفُرْقَانِ

قَوْلُهُ: «**الكُلُّ**»؛ يعني: من الأقسامِ الثَّلاثةِ.

يعني: كُلُّ هذه الأقسامِ موجودةٌ في القُرآنِ والسُّنَّةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، رقم (٥٠١٣)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، رقم (٨١١).

٤٢٥٦- وَاللهِ مَا قَالَ امْرُؤٌ مُتَحَذْلِقٌ بِسِوَاهُمَا إِلَّا مِنَ الْهَذَيَانِ

قَوْلُهُ: «المُتَحَذْلِق»؛ أي: الطَّالبُ للحِذْقِ وهو الإجادة، وزِيدَت اللَّامُ من أجلِ النِّسبةِ.

والمعنى: أنَّ الإنسانَ المُتَحَذْلِقَ الذي ينسبُ نفسَه للحذْقِ وليس كذلك لا يقولُ بسوى الكتابِ والسُّنَّةِ إلَّا قولَ هذيانٍ، فلا خيرَ فيه ولا فائدةَ.

٤٢٥٧- إِنْ قُلْتُمُ تَقْرِيرُهُ فَمُقَرَّرٌ بِأَتَمِّ تَقْرِيرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «تَقْرِيرُه»؛ أي: تقريرُ النَّبِيِّ ﷺ، فإنَّه مُقَرِّرٌ لما يقولُ بأتمِّ تقريرٍ.

٤٢٥٨- أَوْ قُلْتُمُ إِيضَاحُهُ فَمُبَيَّنٌ بِأَتَمِّ إِيضَاحٍ وَخَيْرِ بَيَانِ

ولا شَكَّ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ أفصحُ الخلقِ، وأنَّ كلامَه أوضحُ الكلامِ.

٤٢٥٩- أَوْ قُلْتُمُ إِيجَازُهُ فَهُوَ الَّذِي فِي غَايَةِ الإِيجَازِ وَالتِّبْيَانِ

يعني: ليس عنده هذيانٌ وتطويلٌ ولَفٌّ ودورانٌ، بل كلامُه مُوجَزٌ فصيحٌ واضحٌ، وهو مع كونِه موجَزًا فهو في غايةِ التِّبيانِ، فقد أُعْطِيَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- مفاتيحَ الكَلِمِ[1]، واخْتُصِرَ له الكلامُ؛ ولهذا تجدُ الجملةَ الواحدةَ من كلامِه يُكْتَبُ عليها مجلَّداتٌ.

٤٢٦٠- أَوْ قُلْتُمُ مَعْنَاهُ هَذَا فَاقْصِدُوا مَعْنَى الخِطَابِ بِعَيْنِهِ وَعِيَانِ

يعني: أو أردتم أن تعيبوا في المعنى أو تطلبوا المعنى فأنتم اقصدوا معنى الخطابِ، لا تقولوا: هذا مجازٌ عن كذا، هذا مجازٌ عن كذا فتضلُّوا، اقصدوا المعنى بعينِه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التعبير، باب رؤيا الليل، رقم (٦٥٩٧).

٤٢٦١- أَوْ قُلْتُمُ نَحْنُ التَّرَاجِمُ فَاقْصِدُوا الـ ـمَعْنَى بِلا شَطَطٍ وَلا نُقْصَانِ

الظَّاهِرُ أنَّ معنى قوله: «أَوْ قُلْتُمُ نَحْنُ التَّرَاجِمُ»؛ يعني: نشرحُ كلامَ الله ورسولِه، فإذا كنتم تدَّعون هذا فاقصدوا المعنى بلا شَطَطٍ، أي: زيادةٍ، ولا نقصانٍ.

٤٢٦٢- أَوْ قُلْتُمُ بِخِلافِهِ فَكَلامُكُمْ فِي غَايَةِ الإِنْكَارِ وَالبُطْلانِ

قَوْلُهُ: «أَوْ قُلْتُمُ بِخِلَافِهِ»؛ أي: بخلافِ قولِ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ: «فَكَلَامُكُمْ فِي غَايَةِ الإِنْكَارِ وَالبُطْلَانِ»؛ يعني: كلامُكم باطلٌ مُنْكَرٌ؛ لأنَّ كُلَّ مَنْ خَالَفَ قولَ الله ورسولِه فكلامُه مرفوضٌ مردودٌ، وهو باطلٌ مُنْكَرٌ.

* * *

٤٢٦٣- أَوْ قُلْتُمُ قِسْنَا عَلَيْهِ نَظِيرَهُ فَقِيَاسُكُمْ نَوْعَانِ مُخْتَلِفَانِ

٤٢٦٤- نَوْعٌ يُخَالِفُ نَصَّهُ فَهُوَ المُحَا لُ وَذَاكَ عِنْدَ الله ذُو بُطْلانِ

٤٢٦٥- وَكَلامُنَا فِيهِ وَلَيْسَ كَلامُنَا فِي غَيْرِهِ أَعْنِي القِيَاسَ الثَّانِي

٤٢٦٦- مَا لا يُخَالِفُ نَصَّهُ فَالنَّاسُ قَدْ عَمِلُوا بِهِ فِي سَائِرِ الأَزْمَانِ

٤٢٦٧- لَكِنَّهُ عِنْدَ الضَّرُورَةِ لا يُصَا رُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ ذَا الفُقْدَانِ

٤٢٦٨- هَذَا جَوَابُ الشَّافِعِيِّ لِأَحْمَدٍ لله دَرُّكَ مِنْ إِمَامِ زَمَانِ

٤٢٦٩- وَالله مَا اضْطُرَّ العِبَادُ إِلَيْهِ فِيـ ـمَا بَيْنَهُمْ مِنْ حَادِثٍ بِزَمَانِ

٤٢٧٠- فَإِذَا رَأَيْتَ النَّصَّ عَنْهُ سَاكِتًا فَسُكُوتُهُ عَفْوٌ مِنَ الرَّحْمَنِ

٤٢٧١- وَهُوَ الـمُبَاحُ إِبَاحَةَ العَفْوِ الَّذِي ... مَا فِيهِ مِنْ حَرَجٍ وَلا نُكْرَانِ

٤٢٧٢- فَأَضِفْ إِلَى هَذَا عُمُومَ اللَّفْظِ وَالـ ... مَعْنَى وَحُسْنَ الفَهْمِ فِي القُرْآنِ

٤٢٧٣- فَهُنَاكَ تُصْبِحُ فِي غِنًى وَكِفَايَةٍ ... عَنْ كُلِّ ذِي رَأْيٍ وَذِي حُسْبَانِ

الشرحُ

٤٢٦٣- أَوْ قُلْتُمُ قِسْنَا عَلَيْهِ نَظِيرَهُ ... فَقِيَاسُكُمْ نَوْعَانِ مُخْتَلِفَانِ

يعني قلتم: إنَّنا نقيسُ هذا على هذا، يعني: نُثْبِتُ الحُكْمَ بالقياسِ، فنقولُ: القياسُ نوعان، ثُمَّ ذكرهما فقال:

٤٢٦٤- نَوْعٌ يُخَالِفُ نَصَّهُ فَهُوَ الـمُحَا ... لُ وَذَاكَ عِنْدَ اللهِ ذُو بُطْلانِ

نوعٌ يخالفُ النَّصَّ، فهذا مُحالٌ أن يكونَ صحيحًا، بل هو باطلٌ، ويُسَمَّى عند الأصوليِّين فاسدَ الاعتبارِ، فكُلُّ قياسٍ يخالفُ النَّصَّ فإنَّه نصٌّ باطلٌ مردودٌ فاسدُ الاعتبارِ.

٤٢٦٥- وَكَلامُنَا فِيهِ وَلَيْسَ كَلامُنَا ... فِي غَيْرِهِ أَعْنِي القِيَاسَ الثَّانِي

٤٢٦٦- مَا لا يُخَالِفُ نَصَّهُ فَالنَّاسُ قَدْ ... عَمِلُوا بِهِ فِي سَائِرِ الأَزْمَانِ

قَوْلُهُ: «**وَكَلامُنَا فِيهِ**»؛ أي: في القياسِ المخالفِ للنَّصِّ.

يعني: نحنُ نُبْطِلُ القياسَ المخالفَ للنَّصِّ، أمَّا القياسُ الثَّاني الذي لا يخالفُ النَّصَّ فإنَّنا لا ننكرُه، «**فَالنَّاسُ قَدْ عَمِلُوا بِهِ فِي سَائِرِ الأَزْمَانِ**»؛ يعني: أجمع النَّاسُ على العملِ به ما عدا الظَّاهريَّة، فإنَّهم متناقضون؛ أحيانًا يعملون به، وأحيانًا لا يعملون به، ولكنَّهم إذا لم يعملوا به أَتَوْا بما يُضْحِكُ، أَتَوْا بالأشياء التي تُضْحِكُ

العاقلَ، مثلًا قالوا: إنَّ الإنسانَ لو ضَحَّى بشاةٍ ثنيَّة لم تُقْبَل الأضحيةُ، ولو ضَحَّى بجَذَعٍ من الضَّأنِ أجزأ، وهذا كلامٌ غيرُ معقولٍ، والدَّليلُ قولُ النَّبيِّ ﷺ: «**لَا تَذْبَحُوا إِلَّا مُسِنَّةً إِلَّا أَنْ تَعْسُرَ عَلَيْكُمْ فَتَذْبَحُوا جَذَعَةً مِنَ الضَّأْنِ**»[1]، فقالوا: «إِلَّا مُسِنَّةً» يعني: من غيرِ الضَّأنِ، وجَذَعَة من الضَّأنِ في الضَّأنِ، فيُقَالُ: تبًّا لهذه العقولِ، كيف لا تجزئُ الثَّنيَّةُ، والجذعةُ تجزئ، أيُّهما أولى بالإجزاء؟ الجوابُ: الثَّنيَّة.

كذلك أيضًا مـمَّا يُضْحَكُ منه أنَّهم قالوا: لو أنَّ رجلًا قال لبنتِهِ البكر: فلانٌ خطبك، قالت: فلانٌ؟ قال: نعم، قالت: الرَّجُل طالبُ العلمِ المستقيمُ، قال: نعم، قالت: لا أريدُ سوى هذا، هذا هو الذي أتمنَّى، قالوا: لا يجوز أن يُزوِّجَها بهذا؛ لأنَّها ما أذنت؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لـمَّا سُئِلَ عن إذنِ البكرِ قال: «**إِذْنُهَا صُمَاتُهَا**»[2]؛ أي: «أَنْ تَسْكُتَ»، وهذه تكلَّمت، وعلى رأيهم يجبُ على الأمِّ أن توصيَ هذه البنتَ تقولُ: اسكتي إذا قال أبوك: أزوِّجُك، لا تتكلَّمي ولا بكلمةٍ، حتَّى يزوِّجَها، وإذا قالت: هذا الرَّجلُ الذي أريدُه ولا أريدُ سواه، يقولُ: لا يُزوِّجُها.

ومنهم مَنْ قال: إذا بَالَ الرَّجلُ في الماءِ الرَّاكدِ فهو حرامٌ، وإن بال في إناءٍ وصبَّه في الماءِ الرَّاكد فهو جائزٌ، سبحان الله! ما الفرقُ؟ قال: هذا الرَّسولُ يقولُ: «**لَا يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي المَاءِ**»[3]، وهذا لم يَبُلْ في الماء، بل في إناءٍ، ثُمَّ صُبَّ في الماءِ، هذه قالها بعضُهم، لكن مثل ابن حزمٍ -رحمه الله- لا يقولُ هذا القولَ الأخيرَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأضاحي، باب سن الأضحية، رقم (١٦٦٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها، رقم (٥١٣٦). ومسلم: كتاب النكاح، باب استئذان الثيب في النكاح بالنطق والبكر بالسكوت، رقم (١٤١٩).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب البول في الماء الدائم، رقم (٢٣٦)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب النهي عن البول في الماء الدائم، رقم (٢٨٢).

فالمهمُّ أنَّ القياسَ أنكره أهلُ الظَّاهرِ في الجملةِ لا في كُلِّ مسألةٍ؛ لأنَّهم أحيانًا يتناقضون ويقيسون.

٤٢٦٧- لَكِنَّـهُ عِنْـدَ الضَّـرُورَةِ لا يُصَـا ... رُ إِلَيْـهِ إِلَّا بَعْـدَ ذَا الفُقْـدَانِ

يعني: أنَّنا لا نصيرُ إلى القياسِ إلَّا إذا عَدِمْنَا النَّصَّ، أمَّا إذا وَجَدْنَا النَّصَّ فإنَّنا في غنًى عن القياسِ، إذا عَدِمْنَاه فَإنَّنا نقيسُ، فيكونُ القياسُ بالنِّسبة للنُّصوصِ كالميتةِ بالنِّسبةِ للمُذكَّاةِ؛ أي: عند الضَّرورةِ، ويكونُ القياسُ كذلك بالنِّسبةِ للنُّصوصِ بمنزلةِ التُّرابِ عند الماءِ، لا نستعملُه إلَّا إذا تَعَذَّرَ استعمالُ الماءِ، فالقياسُ لا يُصَارُ إليه إلَّا عند الضَّرورةِ؛ لأنَّك لو أَدْخَلْتَ القياسَ في أمرٍ فيه الكتابُ والسُّنَّةُ فَتَحْتَ بابَ المعقولِ لِيُعَارَضَ به المنقولُ، فإذا اضطُررنا إليه ولم نجد نصًّا ولا إجماعًا نعتمدُ عليه حينئذٍ نلجأُ إلى القياسِ.

٤٢٦٨- هَـذَا جَـوَابُ الشَّـافِعِيِّ لِأَحْمَـدٍ ... للهِ دَرُّكَ مِـنْ إِمَـامِ زَمَـانِ

الشَّافعيُّ أجاب الإمامَ أحمدَ لـمَّا سأله عن القياسِ بهذا الجوابِ بأنَّ القياسَ لا يُصَارُ إليه إلَّا عند الضَّرورةِ.

والشَّافعيُّ شيخُ الإمامِ أحمدَ، وجَوابُه هذا حقٌّ؛ لأنَّه متى أمكن إثباتُ الحكمِ بالنَّصِّ فهو أَوْلَى، وإن لم يمكنْ فالقياسُ، لكن أحيانًا نضطرُ إلى القياسِ في مقابلةِ مَنْ لا يعترفُ بالنَّصِّ؛ لأنَّ بعضَ النَّاسِ لا يُقِرُّ إلَّا الدَّليلَ العقليَّ القياسيَّ، فحينئذٍ نستعملُ القياسَ من أجلِ إرغامِ هذا المُنْكِرِ للحُكْمِ على أن يُقِرَّ.

٤٢٦٩- وَاللهِ مَـا اضْـطُرَّ العِبَـادُ إِلَيْـهِ فِيـ ... ـمَا بَيْـنَهُمْ مِـنْ حَـادِثٍ بِزَمَـانِ

يعني: أنَّ النُّصوصَ كافيةٌ، ولكن لا شكَّ أنَّ هذا ليس على إطلاقِه، فإنَّ

الحوادثَ لا مُنتهى لها، وهي -أعني: الحوادَث- أحيانًا قد تكونُ داخلةً في العموم، ولكن لا يفهمُ بعضُ النَّاسِ دخولَها فيذهبُ إلى القياسِ، ودعوى أنَّ كُلَّ مسألةٍ بعينِها يُوجَدُ حُكْمُهَا في الكتابِ والسُّنَّةِ في النَّفسِ منه شيءٌ، لكن يُوجَدُ الإحالةُ على القياسِ في الكتابِ والسُّنَّةِ، وحينئذٍ يكونُ لها أصلٌ في الكتابِ والسُّنَّةِ من حيث أنَّ الكتابَ والسُّنَّةَ يُحيلان على القياسِ الصَّحيحِ.

٤٢٧٠- فَإِذَا رَأَيْتَ النَّصَّ عَنْهُ سَاكِتًا فَسُكُوتُهُ عَفْوٌ مِنَ الرَّحْمَنِ

٤٢٧١- وَهُوَ المُبَاحُ إِبَاحَةَ العَفْوِ الَّذِي مَا فِيهِ مِنْ حَرَجٍ وَلا نُكْرَانِ

وهذا جاء به الحديثُ عن النَّبِيِّ -عليه الصلاة والسلام- أنَّه قال: «وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ»(١)، وقال: «إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَنَهَى عَنْ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رُخْصَةً لَكُمْ لَيْسَ بِنِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا»(٢)، فإذا لم تجد في النَّصِّ إثباتًا ولا نفيًا ولا تحريمًا ولا إباحةً فعليك بالإباحةِ إلَّا ما تُعبِّدَ به لله فالأصلُ التَّحريمُ؛ ولذلك من مَنَعَ عبادةً أو وَصَفًا في عبادةٍ أو قَدْرًا في عبادةٍ فإنَّه لا يُطَالَبُ بالدَّليلِ؛ لأنَّ الأصلَ معه، وإنَّما يُطَالَبُ بالدَّليلِ مَنْ أَثْبَتَ ما لم يَقُمْ عليه الدَّليلُ، إِذَنْ إذا تُعبِّدَ بعبادةٍ لا يُعْلَمُ لها أصلٌ ونَهَيْتَ المُتعبِّدَ بها وقال لك: ما دليلُك؟ ماذا تقولُ؟ تقولُ: أنت ما دليلُك؟ هذه عبادةٌ، وقد قال اللهُ تعالى مُنْكِرًا على هؤلاء: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشُّورى:٢١]، وقال النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا

(١) أخرجه الترمذي: كتاب اللباس، باب لبس الفراء، رقم (١٧٢٦)، وابن ماجه: كتاب الأطعمة، باب أكل الجبن والسمن، رقم (٣٣٦٧).

(٢) أخرجه الطبراني (٢٢/ ٢٢١، رقم ٥٨٩)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ١٧)، والبيهقي موقوفًا (١٠/ ١٢، رقم ١٩٥٠٩)، والدارقطني (٤/ ١٨٤) والحاكم موقوفًا (٤ / ١٢٩، رقم ٧١١٤).

لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١)، أمَّا غيرُ العباداتِ فالأصلُ الحلُّ؛ لأنَّه مسكوتٌ عنها، وما سَكَتَ اللهُ عنه فهو عفوٌ.

فما يفعلُه العبادُ من الانتفاعاتِ والمعاملاتِ الأصلُ فيه الحلُّ، فالمعاملاتُ الأصلُ فيها الإباحةُ، والانتفاعاتُ الأصلُ فيها أيضًا الإباحةُ، فكُلُّ شيءٍ في الأرضِ فلنا أن نتنفعَ به إلَّا بنصٍّ، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، فإذا سكت اللهُ عنه فهو ممَّا أباحه، فما سَكَتَ اللهُ عنه فهو عفوٌ وهو المباحُ.

وكذلك أيُّ إنسانٍ يدَّعي أنَّ هذا حرامٌ من نباتٍ أو حيوانٍ، نقولُ: ما الدَّليلُ؟ كُلُّ ما في الأرضِ مخلوقٌ لنا، ولو كان حرامًا علينا ما انتفعنا به، ولا صار مخلوقًا لنا، فإذا قال لك قائلٌ: هذه الشَّجرةُ حرامٌ أكلُها، هذا الطَّيرُ حرامٌ أكلُه، هذا الزَّاحفُ حرامٌ أكلُه، قل: ما الدَّليلُ؟ فإن أتى بدليلٍ فعلى العينِ والرَّأسِ، وإلَّا فالأصلُ الحلُّ.

٤٢٧٢- فَأَضِفْ إِلَى هَذَا عُمُومَ اللَّفْظِ وَالـ ... مَعْنَى وَحُسْنَ الفَهْمِ فِي القُرْآنِ

قَوْلُهُ: «**فَأَضِفْ إِلَى هَذَا عُمُومَ اللَّفْظِ وَالمَعْنَى**»؛ يعني: أَضِفْ إلى هذا الأصلِ وهو أنَّ ما سَكَتَ عنه فهو عفوٌ أَضِفْ إليه عمومَ اللَّفظِ والمعنى، فإنَّك ربَّما تجدُ حُكْمَ هذه الحادثةِ داخلًا في عمومِ لفظٍ أو في عموم معنى، والفرقُ بينهما: أنَّ عمومَ اللَّفظِ ما دَلَّ عليه اللَّفظُ بمادتِه، وعمومَ المعنى ما دلَّ عليه بمعناه وهو القياسُ الجليُّ، فإنَّ القياسَ الجليَّ يكونُ فيه المقيسُ موافقًا للمقيسِ عليه في العِلَّة،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

والعِلَّةُ هي المعنى الموجِبُ للحكمِ؛ ولهذا نقولُ: العموماتُ إمَّا لفظيَّةٌ وهي ما دَلَّ عليه اللَّفظُ بمادتِه، وإمَّا معنويَّةٌ وهي ما دَلَّ عليه اللَّفظُ بمعناه وهذا هو القياسُ الجليُّ؛ وذلك لأنَّ القياسَ الجليَّ يتساوى فيه الفرعُ -وهو المقيس- والأصلُ وهو المقيس عليه، يتساويان في العِلَّةِ وهي المعنى العامُّ الموجِبُ للحكمِ.

قَوْلُهُ: «**وَحُسْنَ الفَهْمِ**» وهذا مهمٌّ أيضًا، فكم من إنسانٍ يفهمُ الشَّيءَ على خلاف ما أراد اللهُ ورسولُه، فإذا وُفِّقَ الإنسانُ لحسنِ الفَهْمِ مع قوَّةِ الملاحظةِ والذَّكاءِ فلا تسأل عن حالِه في إصابةِ الصَّوابِ.

٤٢٧٣- فَهُنَاكَ تُصْبِحُ فِي غِنًى وَكِفَايَةٍ ... عَنْ كُلِّ ذِي رَأْيٍ وَذِي حُسْبَانِ

يعني: إذا أَخَذْتَ بالأصلِ وهو أنَّ الأصلَ الإباحةُ، وكذلك أيضًا أَضَفْتَ إلى هذا عُمومَ اللَّفظِ والمعنى تستغني بهذا عن كُلِّ ذي رأيٍ وذي حُسْبَان.

***

٤٢٧٤- وَمُقَدَّرَاتُ الذِّهْنِ لَمْ يَضْمَنْ لَنَا ... تِبْيَانَهَا بِالنَّصِّ وَالقُرْآنِ

٤٢٧٥- وَهِيَ الَّتِي فِيهَا اعْتَرَاكَ الرَّأْيُ مِنْ ... تَحْتَ العَجَاجِ وَجَوْلَةِ الأَذْهَانِ

٤٢٧٦- لَكِنْ هُنَا أَمْرَانِ لَوْ تَمَّا لَنَا احْـ ... ـتَجْنَا إِلَيْهِ فَحَبَّذَا الأَمْرَانِ

٤٢٧٧- جَمْعُ النُّصُوصِ وَفَهْمُ مَعْنَاهَا المُرَا ... دِ بِلَفْظِهَا وَالفَهْمُ مَرْتَبَتَانِ

٤٢٧٨- إِحْدَاهُمَا مَدْلُولُ ذَاكَ اللَّفْظِ وَضْـ ... ـعًا أَوْ لُزُومًا ثُمَّ هَذَا الثَّانِي

٤٢٧٩- فِيهِ تَفَاوَتَتِ الفُهُومُ تَفَاوُتًا ... لَمْ يَنْضَبِطْ أَبَدًا لَهُ طَرَفَانِ

٤٢٨٠- فَالشَّيْءِ يَلْزَمُهُ لَوَازِمُ جَمَّةٌ ... عِنْدَ الخَبِيرِ بِهِ وَذِي العِرْفَانِ

٤٢٨١- فَبِقَدْرِ ذَاكَ الـخُبْرِ يُحْصِي مِـنْ لَـوَا زِمِـهِ وَهَـذَا وَاضِـحُ التِّبْيَـانِ

الشَّـرحُ

٤٢٧٤- وَمُقَدَّرَاتُ الذِّهْنِ لَـمْ يَضْـمَنْ لَنَـا تِبْيَانَهَـا بِـالنَّصِّ وَالقُـرْآنِ

٤٢٧٥- وَهِيَ الَّتِي فِيهَا اعْتَرَاكَ الرَّأْيُ مِـنْ تَحْـتَ العَجَـاجِ وَجَوْلَـةِ الأَذْهَـانِ

قَوْلُهُ: «مُقَدَّرَاتُ الذِّهْنِ»؛ يعني: ما تُقَدِّرُها الأذهانُ، وهي الاحتمالاتُ التي يفرضُها الذِّهنُ في نصوصِ القرآنِ أو السُّنَّةِ، فالأذهانُ تُقَدِّرُ أشياءَ طويلةً عريضةً عويصةً، هل هذا مضمونٌ لنا تبيانُها بالقرآنِ؟ الجوابُ: لا؛ لأنَّ من الأمورِ المقدَّرات في العقلِ ما يكونُ الشَّرعُ ساكتًا عنه، فتدخلُ في العموماتِ؛ ولهذا قال ابنُ حجرٍ في فتح الباري وغيرُه من العلماءِ: «الِاحْتِمَالَاتِ الْعَقْلِيَّةَ لَا مَدْخَلَ لَـهَا فِي الْأُمُورِ النَّقْلِيَّةِ»[1]؛ لأنَّك لو أردتَ الاحتمالاتِ العقليَّةَ ما استقام لك دليلٌ قطُّ، فكُلُّ دليلٍ يمكنُ أن تورِدَ عليه احتمالًا عقليًّا، وحينئذٍ تضيعُ فوائدُ الأدلَّةِ اللفظيَّةِ.

ولا شكَّ أنَّنا لو ذهبنا نقدِّرُ كما يوجدُ من بعضِ النَّاسِ الآن -نسألُ اللهَ لنا ولهم الهدايةَ- إذا جِئْتَ بالدَّليلِ قال: يحتملُ كذا، نقولُ: خُذْ بظاهرِه، أمَّا أن تقولَ: يحتملُ كذا، فإنَّ الثَّاني يقولُ لك: يحتملُ كذا، وإذا قلنا: يحتملُ كذا ويحتملُ كذا، فإنَّ الدَّلالةَ تبطلُ، لا لي ولا لك، لأنَّك إذا قُلْتَ: يحتملُ كذا، وأنا قلتُ: يحتملُ كذا، والثَّالثُ يقولُ: يحتملُ كذا، فبأيِّ شيءٍ نستدلُّ؟!

خُذِ اللَّفظَ على ظاهرِه كما أخذَه الصَّحابةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ واستغنوا عن التَّكلُّفِ والتَّنطُّعِ؛ ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ كلمةً تشهدُ بصِدقِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ

(١) فتح الباري (١/ ١٩٣).

حقيقةً، كما له من الآياتِ الكثيرةِ الدَّالةِ على صدقِه قال: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»(١)، فالمتنطِّعُ هالكٌ لن يصلَ إلى حياةٍ، والآخِذُ للأمورِ على ظاهرِها ويتقبَّلُها كما يتقبَّلُها الصَّحابةُ هذا هو الذي على حَقٍّ؛ ولهذا أقولُ: إنَّ أهلَ التَّنطُّعِ لا تجدُ نورَ الإيمانِ في قلوبِهم إلَّا أن يشاءَ اللهُ؛ لأنَّ قلوبَهم تكونُ دائمًا قلقةً تُورِدُ الإيراداتِ والشُّبهات ولا تبقى منقادةً، لو أنَّك أَمْعَنْتَ النَّظرَ لكنت تحكمُ على أنَّ قلوبَ العامَّةِ أصفى من قلوبِ كثيرٍ من طلبةِ العلمِ؛ لأنَّهم يأخذون الأمورَ على ظاهرِها قبولًا وتسليمًا تامًّا بدون إيرادِ احتمالاتٍ؛ ولهذا أُحذِّرُ نفسي وإيَّاكم من طريقِ الاحتمالاتِ، فهذه اتركوها، خُذْ بما ظهر كما أخذ به مَنْ قبلك من الصَّحابةِ والتَّابعينَ والأئمَّةِ؛ ولهذا أنا أكرهُ أن يقولَ الإنسانُ: «لو قال قائلٌ...»، فإذا جاءت «**لو قَالَ قائلٌ**» انفتح بابُ الجدلِ، بل سلِّم للنُّصوصِ على ما هي عليه، ولا تفرض احتمالاتٍ ذهنيَّةً فتضلَّ، وتبقى في كُلِّ أعمالِك شاكًّا، ولستُ أقول: إنَّك تكونُ شاكًّا في العلمِ، بل حتَّى في العملِ؛ لأنَّك ستقولُ: لَعَلَّ اللهَ أراد كذا، لَعَلَّ الرَّسولَ أراد كذا، وتبقى في فَهْمِ الكتابِ والسُّنَّةِ كالموسوسِ في العبادةِ.

فاترُكِ الاحتمالاتِ العقليَّةَ؛ لأنَّها واسعةٌ، فيمكن أن يفرضَ الذِّهنُ عشرةَ احتمالاتٍ في نصٍّ واحدٍ مثلما فَرَضَ المعطِّلةُ في الاستواءِ على العرشِ، فقالوا: الاستواءُ له معانٍ، والعرشُ له عشرة معانٍ، فأيُّها تريدُ؟

إِذَنْ خُذوا الأمورَ على ظاهرِها، والحمدُ لله أنتم لـم تُـخَاطَبُوا إلَّا بالظَّواهرِ، والاحتمالاتُ التي تُوجِبُ التَّشكُّكَ والتَّشكيكَ ابعدوها عن أنفسِكم حتَّى تسلموا.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، رقم (٢٦٧٠).

٤٢٧٦- لَكِنْ هُنَا أَمْرَانِ لَـوْ تَـمَّا لَـمَا احْـ ـــتَجْنَا إِلَيْـهِ فَحَبَّـذَا الأَمْـرَانِ

٤٢٧٧- جَمْعُ النُّصُوصِ وَفَهْمُ مَعْنَاهَا المُـرَا دِ بِلَفْظِهَا ....

قَوْلُهُ: «لَكِنْ هُنَا أَمْرَانِ لَوْ تَـمَّا لَـمَا احْتَجْنَا إِلَيْهِ»؛ أي: إلى القياسِ، «فَحَبَّذَا الأَمْرَانِ»: الأوَّلُ: جمعُ النُّصوص، والثَّاني: فَهْمُ مَعْنَاهَا المُرَادِ بِلَفْظِهَا، وهذان الأمران لا بُدَّ منهما، ولا يمكنُ الاستدلالُ إلَّا بهما.

الأمرُ الأوَّلُ: جمعُ النُّصوصِ؛ وذلك لأنَّك قد تسمعُ نصًّا عامًّا له مُخَصَّصاتٌ فتحكم بالعمومِ وحينئذٍ تكونُ مخطئًا، وعدمُ جمعِ النُّصوصِ ابْتُلِيَ به بعضُ الطَّلبةِ المبتدئين، فصار إذا وصل إلى نصٍّ أخذ به، ولم يبالِ بخلافِ العلماءِ ولا بخلافِ عملِ أهلِ البلادِ، ويقولُ: أنا معي العموم، مع أنَّ هذا العمومَ لعلَّه قد خُصَّ بما هو أقوى منه رتبةً في الثُّبوتِ وهو لا يدري.

مثالُ ذلك قولُ النَّبيِّ ﷺ: «فِيمَا سَقَتِ السَّمَاءُ العُشْرُ»(١)، وهذا الحديثُ عمومُه يقتضي وجوبَ الزَّكاةِ في القليلِ والكثيرِ، وأخذنا العمومَ من قولِه: «فِيمَا سَقَتْ» ما قال: «فِيمَا سَقَتْ إذَا بِلَغَ كَذا»، فإذا لم تجمع النُّصوصَ حَكَمْتَ على شخصٍ يملكُ نصفَ النِّصاب بوجوبِ الزَّكاة عليه وهي العشر؛ لأنَّك أَخَذْتَ بالعمومِ، الآن لـمَّا حَكَمْتَ بوجوبِ الزَّكاةِ عليه وزرعُه دون النِّصابِ أَخْطَأْتَ، والذي فاتك هنا جمعُ النُّصوصِ، لو جَمَعْتَ هذا العمومَ إلى قولِ النَّبيِّ ﷺ: «لَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسَةِ أَوْسُقٍ صَدَقَةٌ»(٢)، تبيَّن لك أنَّ ما دون النِّصاب ليس فيه زكاةٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب العشر فيما يسقي من ماء السماء وبالماء الجاري، رقم (١٤١٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب ما أدى زكاته فليس بكنز، رقم (١٣٤٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، رقم (٩٧٩).

الأمرُ الثَّاني: فَهْمُ المرادِ بها، وهذا هو الذي صارت فيه المعاركُ بين النَّاسِ؛ لأنَّ كُلَّ واحدٍ يفهمُ فهمًا غيرَ فَهْمِ الثَّاني، وصحَّةُ الفَهْمِ لها أسبابٌ، سواء من جهةِ الفَهْمِ الذي يلقيه اللهُ في قلبِ الإنسانِ، أو من جهةِ الاعتقادِ السَّابقِ؛ لأنَّ بعضَ النَّاسِ إذا كان عنده اعتقادٌ سابقٌ حمله اعتقادُه على فَهْمِ النُّصوصِ بمقتضى هذا الاعتقادِ، ولذلك كان من طرقِ العلمِ السَّليمةِ أن تستدلَّ أوَّلًا ثُمَّ تعتقدَ أو تحكمَ ثانيًا.

لكن فَهْمُ المرادِ هو الذي يختلفُ فيه النَّاسُ كثيرًا، هل أراد اللهُ كذا أو أراد كذا؟ مثالُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ [البقرة:٢٢٨]؛ يعني: إذا طُلِّقَت المرأةُ فلا بُدَّ أن تعتدَّ بثلاثة قُروء، لكن ما هي القروء؟ قال بعضُ العلماء: القروءُ هي الحِيَض، وقال آخرون: القروءُ هي الأطهارُ، اختلفوا، فَمَنْ قال: هي الحِيَض، قال: تعتدُّ بثلاثة حِيَضٍ، ومَنْ قال: هي الأطهارُ، قال: تعتدُّ بثلاثةِ أطهارٍ كاملةٍ.

وقال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلام: «ذَكَاةُ الجَنِينِ ذَكَاةُ أُمِّهِ»(١)، والجنينُ هو الحملُ في البطنِ، سُمِّيَ جنينًا لأنَّه مستترٌ، لكن ما معنى الحديث؟ قال بعضُ العلماء: يعني: إذا ذُكِّيت الشَّاةُ الحاملُ فذكاتُها ذكاةٌ لجنينها، فإذا سلخناها وشققنا بطنَها وأخرجنا الولدَ فهو مُذَكًّى حلالٌ، وقال بعضُ العلماء: ذكاةُ الجنينِ كذكاةِ أُمِّه؛ يعني: أنَّك إذا أردت أن تُذَكِّيَه فاقطع رأسَه، وبناءً على هذا القولِ لو ذَكَّيْتَ الشَّاةَ وأَخْرَجْتَ الجنينَ لم يحلَّ؛ لأنَّك لم تُذَكِّه.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الضحايا، باب ما جاء في ذكاة الجنين، رقم (٢٨٢٨)، والترمذي: كتاب الأطعمة، باب ما جاء في ذكاة الجنين، رقم (١٤٧٦)، وابن ماجه: كتاب الذبائح، باب ذكاة الجنين، ذكاة أمه، رقم (٣١٩٩).

فانظُر إلى اختلافِ الفَهْمِ، والصَّحيحُ أنَّ معنى الحديث أنَّ الأُمَّ إذا ذُكِّيت فذكاتُها ذكاةٌ للجنينِ، ولا يحتاجُ إلى أن يُذَكَّى؛ لأنَّ الرُّوحَ تخرجُ مع روحِ الأمِّ أو تبقى قليلًا، فالمهمُّ أنَّه لا بُدَّ من جمعِ النُّصوصِ، والثَّاني: فَهْمُ المراد، ثُمَّ إنَّ الفَهْمَ يختلفُ فيه النَّاسُ اختلافًا عظيمًا، ويُذْكَرُ أنَّ الشَّافعيَّ -رحمه الله تعالى- نزل ضيفًا على الإمامِ أحمدَ، وكان الإمامُ أحمدُ يُثْنِي عليه عند أهلِه -أي: أهلِ الإمامِ أحمدَ- يُثْنِي على الإمامِ الشَّافِعِيِّ كثيرًا، وهو أهلٌ للثَّناءِ، فنزل عليه ضيفًا، فَقَدَّمَ إليه العَشَاء فأكل العَشَاءَ كُلَّه، وهو كثيرٌ؛ يعني: ملأ بطنَه، ثُمَّ تفرَّق كُلٌّ منهما إلى منامِه ولم يقم الشَّافِعِيُّ لصلاةِ اللَّيلِ، ولـمَّا أَذَّنَ الفجرُ خَرَجَ إلى الصَّلاةِ بدون أن يطلبَ ماءً يتوضَّأُ به، فقال أهلُ الإمامِ أحمدَ للإمامِ أحمدَ: هذا الشَّافعيُّ الذي تُثْنِي عليه دائمًا أَكَلَ العَشَاءَ كُلَّه، وقد قال النَّبِيُّ عليه الصلاة والسلام: «**إِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ**»[1]، ثُمَّ إنَّه بَقِيَ على فراشِه ولم يَقُم اللَّيلَ، ثُمَّ إنَّه قام إلى صلاةِ الفجرِ ولم يتوضَّأ، وهذه أدهى في رأيهم، يُصلِّي بلا وضوء! فقال: ننظرُ في الأمرِ، فسأل الشَّافعيَّ -رحمه الله- عن هذا، فقال: أمَّا كوني آكُلُ العَشَاءَ كُلَّه فلأنِّي لا أعلمُ في هذا البلدِ طعامًا أحلَّ من طعامِ الإمامِ أحمدَ فأردتُ أن أملأَ بطني منه؛ يعني: وكأنَّه يقولُ: ولا ملامةَ عليَّ في ذلك، وأبو هريرةَ ملأَ بَطْنَهُ مِنْ اللَّبَنِ حتَّى إِنَّ الرَّسولَ قَالَ لَهُ: «اشْرَبْ» قَالَ: لَا أَجِدُ لَهُ مَسَاغًا[2]؛ لأنَّ البطنَ امتلأ، وأمَّا كوني لم أقم اللَّيلَ فلأنَّني أتأمَّلُ العلمَ، والعلمُ أفضلُ من قيامِ اللَّيلِ، كنتُ أتأمَّلُ في قولِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ**

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، رقم (٢٣٨٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم من الدنيا، رقم (٦٠٨٧).

النُّغَيْرُ؟»[١]، وهذا حديثٌ يقولُه الرَّسولُ لِصَبِيٍّ صغيرٍ كان معه نُغَيرٌ، والنُّغَيْرُ: الطَّيرُ يلعبُ به، فلمَّا مات الطَّيرُ حزن الصَّبِيُّ عليه كالعادةِ، فالصَّبِيُّ إن كان له هرَّةٌ يلعبُ بها ثُمَّ تموتُ كأنَّما ماتت أمُّه أو أختُه، فكان الرَّسولُ -عليه الصَّلاة والسَّلامُ- من حُسنِ خلقِه إذا مرَّ به بعد أن مَاتَ الطَّيرُ يقولُ مازحًا له: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟»، وهذا الحديثُ اختلفت فيه الرِّواياتُ، استنبط من هذا الحديثِ مِئتَي فائدةٍ، مَنْ يستنبطُ منَّا مِئتي فائدةٍ من هذا الحديثِ؟ ولا خمس فوائد، لكن هو -رحمه الله- إذا استنبط فائدةً يطلبُ لها دليلًا آخرَ، ثُمَّ يتولَّدُ من هذا الدَّليلِ فوائدُ أخرى، فيكونُ هذا الحديثُ سببًا لموسوعةٍ علميَّةٍ في الحديثِ، وليس لأجلِ هذا الحديثِ فقط، وإلَّا فهذا الحديثُ -والعلمُ عند الله- لا يصلُ إلى هذا مهما كان، لكن كُلَّما استدلَّ به على مسألةٍ فَرَّعَ عليها، كُلَّ اللَّيلِ وهو يستنبطُ هذه الفوائدَ، وهذا لا شكَّ أنَّه أفضلُ من قيام اللَّيلِ، فالعلمُ أفضلُ من قيام اللَّيلِ، قال الإمامُ أحمدُ: «العلمُ لا يعدلُه شيءٌ»[٢].

الثَّالثة: خروجُه إلى المسجدِ ولم يتوضَّأ؛ لأنَّه لم ينم، فلم يحتجْ إلى وضوءٍ، فرجع الإمامُ أحمدُ إلى أهلِه وأخبرهم بذلك، اللَّهُمَّ اجعلنا منهم، اللَّهُمَّ ألحقنا بالصَّالحين.

٤٢٧٧- .... وَالفَهْمُ مَرْتَبَتَانِ

٤٢٧٨- إِحْدَاهُمَا مَدْلُولُ ذَاكَ اللَّفْظِ وَضْـ ـعًا أَوْ لُزُومًا ثُمَّ هَذَا الثَّانِي

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الانبساط إلى الناس، رقم (٥٧٧٨)، ومسلم: كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته، رقم (٢١٥٠).

(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ٤٥).

٤٢٧٩- فِيـهِ تَفَاوَتَـتِ الفُهُـومُ تَفَاوُتًـا لَـمْ يَنْضَـبِطْ أَبَـدًا لَـهُ طَرَفَـانِ

يقولُ المؤلِّفُ رحمه اللهُ: إنَّ الفَهْمَ مرتبتان:

المرتبة الأولى: فَهْمُ مدلولِ اللَّفظِ وضعًا، بأن تفهمَ مدلولَ هذا اللَّفظِ وضعًا؛ أي: بحسَب الوضعِ؛ أي: باعتبار الوضعِ الشَّرعيِّ إن كان شرعيًّا أو اللُّغويِّ إن كان لغويًّا، وهذا رُبَّما يكونُ سهلًا على كثيرٍ من النَّاسِ أن يفهمَ معنى اللَّفظ بحسب اللُّغةِ العربيَّة؛ يعني: افهَمْ ما تدلُّ عليه هذه الكلمةُ، فمثلًا: «لَا يَقْبَلُ اللهُ صَلاةً بِغَيْرِ وُضُوءٍ»[1]، الوضوءُ في اللُّغةِ أعمُّ من الوضوءِ في الشَّرعِ، فالذي غسل ونظَّف يديه يُسَمَّى متوضئًا، فلا بُدَّ أن تفهمَ معنى الوضوءِ في الشَّرعِ؛ لأنَّ قولَ ابن القيمِّ رحمه الله: «وَضْعًا» يقصدُ بذلك الوضعَ الشَّرعيَّ والوضعَ اللُّغويَّ.

المرتبة الثَّانية: فَهْمُ لوازمِ الخطابِ؛ يعني: دلالةَ اللُّزومِ، وهذه يتفاوتُ فيها النَّاسُ تفاوتًا عظيمًا، رُبَّما يفهمُ هذا الرَّجلُ من دليلٍ واحدٍ لوازمَ كثيرةً لا يفهمُها الآخرون فيستفيد فوائدَ كثيرةً لا يستفيدُها الآخرون، فتجد مثلًا رجلًا يقولُ: «**يدلُّ هذا الحديثُ بمنطوقِه على كذا، وبمفهومِه على كذا، وبفحواه على كذا، وبإشارتِه على كذا، وبلازمِه على كذا**»، ثُمَّ يستخرجُ فوائدَ كثيرةً لا يقدرُ عليها إنسانٌ آخرُ؛ فلذلك يقولُ رحمه الله: «**ثُمَّ هَذَا الثَّانِي**» ما هو هذا الثَّاني؟ هو مدلولُ اللَّفظِ لزومًا، يقولُ: «**هَذَا الثَّانِي فِيهِ تَفَاوَتَتِ الفُهُومُ تَفَاوُتًا لَـمْ يَنْضَبِطْ أَبَدًا لَهُ طَرَفَانِ**»، وهذا صحيحٌ، فالفهومُ تفاوتت تفاوتًا عظيمًا، ومن أدقِّ ما رَأَيْتُ في فَهْمِ النُّصوص البخاريُّ رحمه الله، فإنَّ تراجمَه على الأحاديثِ قد يعجزُ الإنسانُ عن

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيل، باب في الصلاة، رقم (٦٩٥٤). ومسلم: كتاب الطهارة، باب وجوب الطهارة للصلاة، رقم (٢٢٥).

معرفةِ وجهِ استشهادِه بالحديثِ، هذا إذا لم يكن في البابِ حديثٌ على غيرِ شَرْطِه؛ لأنَّه أحيانًا يذكرُ التَّرجمةَ إشارةً إلى حديثٍ ليس على شرطِه، ثُمَّ يأتي بحديثٍ مُقَارِبٍ، والنَّاسُ يتفاوتون تفاوتًا عظيمًا.

٤٢٨٠- فَالشَّيْءِ يَلْزَمُهُ لَوَازِمُ جَمَّةٌ عِنْدَ الخَبِيرِ بِهِ وَذِي العِرْفَانِ

٤٢٨١- فَبِقَدْرِ ذَاكَ الخُبْرِ يُحْصِي مِنْ لَوَا زِمِهِ وَهَذَا وَاضِحُ التِّبْيَانِ

قَوْلُهُ: «الشَّيْءُ» يريدُ به اللَّفظَ.

قَوْلُهُ: «ذَاكَ الخُبْرِ»؛ أي: المعرفة.

والمعنى: أنَّ اللَّفظَ يلزمُه لوازمُ كثيرةٌ، لكن مَنْ يعرفُ هذه اللَّوازمَ؟ الجوابُ: يعرفُها الخبيرُ بدلالاتِ اللُّزومِ، فمثلًا: قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرَّعد:١٦]، نفهمُ من هذا أنَّ اللهَ خالقٌ، نفهمُ صفةَ الخلقِ، ونفهمُ غيرَها باللُّزومِ، فالخلقُ لا بُدَّ له من قدرةٍ، إِذَنْ فالآيةُ دالَّةٌ على قدرةِ الله.

وثانيًا: نفهمُ العلمَ؛ لأنَّه لا يمكنُ أن يخلقَ بلا علمٍ، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

ثالثًا: نفهمُ الإرادةَ، لأنَّه لا يمكنُ أن يخلقَ بلا إرادةٍ.

رابعًا: نفهمُ الحياةَ؛ لأنَّ الميِّتَ لا يخلقُ.

خامسًا: نفهمُ افتقارَ الخلقِ إلى الله، وغنى الله عنهم.

ورُبَّما إذا تأمَّلْتَ أيضًا تجدُ فوائدَ كثيرةً، وهذه المدلولاتُ هل أخَذْناها من دلالة اللَّفظِ وضعًا أو لُزومًا؟ الجوابُ: لُزومًا، فلم نأخُذ من دلالة اللَّفظِ وضعًا إلَّا صفةً واحدةً وهي الخلق فقط، والباقي كُلُّه من اللُّزومِ، هذا اللُّزومُ يتفاوتُ

النَّاسُ فيه تفاوتًا عظيمًا كما قال المؤلِّف رحمه الله: «**لا يمكنُ أن ينضبطَ له طرفان**».

والأمثلةُ كثيرةٌ لا تُحْصَى، ومنها أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- أَمَرَ بالوضوءِ عند إرادةِ الصَّلاةِ[١]، فلو أنَّ إنسانًا ليس عنده ماءٌ، لكن الماءُ في السُّوقِ يُبَاعُ ومعه دراهمُ يستطيعُ أن يشتريَ، فإنَّنا نقولُ له: يلزمُك شراءُ الماءِ، فاللهُ أَوْجَبَ عليك أن تشتريَ الماءَ الآن؛ لأنَّه لا يتمُّ امتثالُ الأمرِ بالوضوءِ إلَّا بالشِّراءِ، وما أَكْثَرَ اللَّوازمَ التي تخفى على كثيرٍ من النَّاسِ وهي عند آخرين مثل الشَّمسِ!

* * *

٤٢٨٢- وَلِذَاكَ مَنْ عَرَفَ الكِتَابَ حَقِيقَةً ... عَرَفَ الوُجُودَ جَمِيعَهُ بِبَيَانِ

٤٢٨٣- وَكَذَاكَ يَعْرِفُ جُمْلَةَ الشَّرْعِ الَّذِي ... يَحْتَاجُهُ الإِنْسَانُ كُلَّ زَمَانِ

٤٢٨٤- عِلْمًا بِتَفْصِيلٍ وَعِلْمًا مُجْمَلًا ... تَفْصِيلُهُ أَيْضًا بِوَحْيٍ ثَانِي

٤٢٨٥- وَكِلاهُمَا وَحْيَانِ قَدْ ضَمِنَا لَنَا ... أَعْلَى العُلُومِ بِغَايَةِ التِّبْيَانِ

٤٢٨٦- وَكَذَاكَ يَعْرِفُ مِنْ صِفَاتِ اللهِ وَالـ ... أَفْعَالِ وَالأَسْمَاءِ ذِي الإِحْسَانِ

٤٢٨٧- مَا لَيْسَ يَعْرِفُ مِنْ كِتَابٍ غَيْرِهِ ... أَبَدًا وَلا مَا قَالَتِ الثَّقَلانِ

٤٢٨٨- وَكَذَاكَ يَعْرِفُ مِنْ صِفَاتِ البَعْثِ بالتْـ ... ـتَفْصِيلِ وَالإِجْمَالِ في القرآن

٤٢٨٩- مَا يَجْعَلُ اليَوْمَ العَظِيمَ مُشَاهَدًا ... بِالقَلْبِ كَالمَشْهُودِ رَأْيَ عِيَانِ

٤٢٩٠- وَكَذَاكَ يَعْرِفُ مِنْ حَقِيقَةِ نَفْسِهِ ... وَصِفَاتِهَا بِحَقِيقَةِ العِرْفَانِ

---

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾ [المائدة:٥].

٤٢٩١- يَعْـرِفْ لَوَازِمَهَـا وَيَعْـرِفُ كَوْنَهَـا ... مَخْلُوقَـــةً مَرْبُوبَـــةً بِبَيَـــانِ

٤٢٩٢- وَكَذَاكَ يَعْرِفُ مَا الَّذِي فِيهَا مِنَ الـ ... ـحَاجَاتِ وَالإِعْـدَامِ وَالنُّقْصَـانِ

٤٢٩٣- وَكَـذَاكَ يَعْـرِفُ رَبَّـهُ وَصِـفَاتِهِ ... أَيْضًـا بِـلا مِثْـلٍ وَلا نُقْصَـانِ

٤٢٩٤- وَهُنَـا ثَلاثَـةُ أَوْجُـهٍ فَـافْطُنْ لَـهَا ... إِنْ كُنْـتَ ذَا عِلْـمٍ وَذَا عِرْفَـانِ

٤٢٩٥- بِالضِّـدِّ وَالأُولَى كَـذَا بِالإِمْتِنَـا ... عِ لِعِلْمِنَـا بِـالنَّفْسِ وَالـرَّحْمَنِ

٤٢٩٦- فَالضِّـدُّ مَعْرِفَـةُ الإِلَـهِ بِضِـدِّ مَـا ... فِي النَّفْسِ مِنْ عَيْبٍ وَمِـنْ نُقْصَـانِ

٤٢٩٧- وَحَقِيقَـةُ الأُولَى ثُبُـوتُ كَـمَالِهِ ... إِذْ كَـانَ مُعْطِيـهِ عَـلَى الإِحْسَـانِ

الشـــرحُ

لما ذكَر المؤلِّفُ -رحمه الله- أنَّ نصوصَ الوحيَيْن «الكتاب والسُّنَّة» فيهما الكفايةُ، وفيهما الغنى عمَّا عداهما، قال رحمه الله:

٤٢٨٢- وَلِذَاكَ مَنْ عَرَفَ الكِتَـابَ حَقِيقَـةً ... عَـرَفَ الوُجُـودَ جَمِيعَـهُ بِبَيَـانِ

مَنْ عَرَفَ القرآنَ معرفةً حقيقيَّةً مطابقةً لمرادِ الله به فإنَّه يعرفُ حقيقةَ الوجودِ معرفةً كونيَّةً قدريَّةً، ولماذا خُلِقَ؟ وما غايتُه؟ وما نهايتُه؟ وما ثمرةُ الحياةِ؟ لأنَّ كلامَ الله قد بَيَّنَ هذا إمَّا جملةً وإمَّا تفصيلًا.

٤٢٨٣- وَكَذَاكَ يَعْرِفُ جُمْلَةَ الشَّرْعِ الَّـذِي ... يَحْتَاجُـهُ الإِنْسَـانُ كُـلَّ زَمَـانِ

إذا عَرَفَ القُرآنَ حقيقةً عَرَفَ كُلَّ ما يحتاجُه الإنسانُ من شريعةِ الله؛ لأنَّ اللهَ قال وهو أصدَقُ القائلين: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النَّحل:٨٩]،

والتِّبيانُ؛ أي: الذي يُبيِّنُ كُلَّ شيءٍ، ولكن القصورُ منَّا، إمَّا قصورٌ وإمَّا تقصيرٌ.

إِذَنْ مَنْ عَرَفَ الكتابَ حقيقةً يعرفُ أيضًا جملةَ الشَّرعِ الذي يحتاجُه الإنسانُ كُلَّ زمانٍ؛ أي: من عهدِ الرَّسولِ ﷺ إلى يومِ القيامةِ، و«أل» في «**الإِنْسَان**» هنا للجنسِ، لكن متى يوجدُ إنسانٌ يعرفُ الكتابَ حقيقةً؟ وهو نادرٌ، لكن من وَفَّقَ اللهُ -وجعلني اللهُ وإيَّاكم منهم- لهذا عَرَفَ الوجودَ.

٤٢٨٤- عِلْمًا بِتَفْصِيلٍ وَعِلْمًا مُجْمَلًا   تَفْصِيلُهُ أَيْضًا بِوَحْيٍ ثَانِي

يعني: أحيانًا يكونُ القرآنُ مُفَصِّلًا، وأحيانًا يكونُ مُجْمِلًا وتُفَصِّلُه السُّنَّةُ، فمثلًا قولُه تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة:٤٣] هذا مُجْمَلٌ؛ إذ ما الصَّلاةُ التي نُقيمُها؟ وكيف نقيمُها؟ وهذا الإجمالُ قد بَيَّنَتْهُ السُّنَّةُ، وقولُه تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:٤٣]، هذا مُجْمَلٌ، لم يُبيِّن اللهُ عزَّ وجلَّ ما الذي يُؤْتَى هل هو قليلٌ أو كثيرٌ؟ لكن بَيَّنَتْهُ السُّنَّةُ، ولم يُبيِّن اللهُ عزَّ وجلَّ ما الذي تجبُ الزَّكاةُ فيه من الأنصبةِ، وما المالُ المزكَّى، ومَنْ نعطيها؟ ولكن بَيَّنَتْهُ السُّنَّةُ.

فأنت ترى أنَّ النُّصوصَ تأتي مُجْمَلَةً أحيانًا ومُفَصَّلَةً أحيانًا، وما جاء في الكتابِ مُجْمَلًا وفَصَّلَتْهُ السُّنَّةُ فإنَّ تفصيلَه جاء بوحيٍ.

فالحاصلُ أنَّ الوحيَ -ولله الحمدُ- تامٌّ بالقرآنِ والسُّنَّةِ، ولا يحتاجُ إلى غيرِه.

٤٢٨٥- وَكِلاهُمَا وَحْيَانِ قَدْ ضَمِنَا لَنَا   أَعْلَى العُلُومِ بِغَايَةِ التِّبْيَانِ

قَوْلُهُ: «وَكِلَاهُمَا» الضَّميرُ يعودُ على الكتابِ والسُّنَّةِ.

فهما وحيان قد ضَمِنَا لنا أعلى العلومِ بغايةِ التِّبيانِ، فإذا قال قائلٌ: أمَّا كونُ القرآنِ وحيًا فلا شكَّ فيه، ولكن كونُ السُّنَّةِ وحيًا نجدُ بعضَ الأحاديثِ تدلُّ على

أنَّ السُّنَّةَ ليست بوحيٍ مثل قولِه ﷺ: «لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لأَمَرْتُهُم بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ»(١)، و«...مَعَ كُلِّ وُضُوءٍ»(٢)، فهذا يدلُّ على أنَّها ليست وحيًا؛ لأنَّها لو كانت وحيًا لكان الأمرُ إلى الله، وقال في صلاة العِشاء: «إِنَّهُ لَوَقْتُهَا لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي»(٣)، وسأله رجلٌ عن الشَّهادةِ: هَلْ تُكَفِّرُ الذُّنُوبَ؟ فأجابه بأنَّها تُكَفِّرُ كُلَّ شَيءٍ، فَلَمَّا أَدْبَرَ الرَّجُلُ نَادَاهُ أَوْ أَمَرَ بِهِ فَنُودِيَ لَهُ، فَقَالَ رَسُولُ ﷺ: «كَيْفَ قُلْتَ؟» فَأَعَادَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «نَعَم إِلَّا الدَّيْنَ كَذَلِكَ قَالَ لِي جِبْرِيلُ»(٤)، وهذا أيضًا يدلُّ على أنَّها ليست بوحيٍ؛ لأنَّ الوحيَ يكونُ متكاملًا.

المهمُّ هناك أحاديثُ تدلُّ على أنَّ السُّنَّةَ ليست بوحيٍ من الله، فما الجوابُ؟ نقولُ: إنَّ العلماءَ قالوا: إنَّ إقرارَ النَّبيِّ ﷺ على الشَّيءِ من سُنَّتِه، فإقرارُ الله نبيَّه على الشَّيءِ كالوحي، فإذا وَقَعَ من النَّبيِّ ﷺ شيءٌ ولم يقرَّهُ اللهُ بَيَّنَه له كما في قولِه تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التَّوبة:٤٣]، وكقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التَّحريم:١].

المهمُّ أنَّ الجوابَ عن هذا الإشكالِ أن نقولَ: ما وَقَعَ من الأحاديثِ ممَّا ظاهرُه أنَّه ليس بوحيٍ فإنَّه وحيٌ باعتبارٍ آخرَ وهو إقرارُ الله له، كما قال العلماءُ: إنَّ إقرارَ النَّبيِّ ﷺ على الشَّيءِ يُعْتَبَرُ من سُنَّةِ النَّبيِّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب السواك يوم الجمعة، رقم (٨٨٧). ومسلم: كتاب الطهارة، باب السواك، رقم (٢٥٢).
(٢) أخرجه البخاري تعليقا: كتاب الصوم، باب سواك الرطب واليابس للصائم.
(٣) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب وقت العشاء وتأخيرها، رقم (٦٣٨).
(٤) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلَّا الدَّين، رقم (١٨٨٥).

٤٢٨٦- وَكَذَاكَ يَعْرِفُ مِنْ صِفَاتِ اللهِ وَالـ   أَفْعَالِ وَالأَسْمَاءِ ذِي الإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «الأَفْعَالِ»؛ أي: أفعالِ الله.

قَوْلُهُ: «الأَسْمَاءِ»؛ أي: أسماءِ الله.

قَوْلُهُ: «ذِي الإِحْسَانِ» «ذِي» بالجرِّ صفةٌ لـ«الله».

٤٢٨٧- مَا لَيْسَ يَعْرِفُ مِنْ كِتَابٍ غَيْرِهِ   أَبَدًا وَلا مَا قَالَتِ الثَّقَلانِ

قَوْلُهُ: «مَا لَيْسَ يَعْرِفُ» «يَعْرِفُ» بفتح الياءِ، وبضمِّها «يُعْرَفُ»، أي: يَعْرِفُ من صفاتِ الله ما لا يُعْرَفُ.

وهذا صحيحٌ، تَعْرِفُ من كتابِ الله ما لا تعرفُه من غيرِه، بل تَعْرِفُ منه مالا تَعْرِفُه ممَّا قاله الثَّقَلَانِ.

٤٢٨٨- وَكَذَاكَ يَعْرِفُ مِنْ صِفَاتِ البَعْثِ بالتْـ   ـتَفْصِيلِ وَالإِجْمَالِ فِي القرآن

صفاتُ البعثِ بيَّنَها اللهُ عزَّ وجلَّ بيانًا إجماليًّا أحيانًا، وبيانًا تفصيليًّا أحيانًا.

٤٢٨٩- مَا يَجْعَلُ اليَوْمَ العَظِيمَ مُشَاهَدًا   بِالقَلْبِ كَالمَشْهُودِ رَأْيَ عِيَانِ

الله أكبر، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر:٧]، و«الأجداثُ»؛ أي: القبورُ، تُشَاهِدُ هذا كأنَّك تُشَاهِدُ أرضًا مُنبسطةً يمشي عليها جرادٌ مُنْتَشِرٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة:٤-٥]، كأنَّك تُشَاهِدُ، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج:٢]،

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النَّمل:٨٨]، والآياتُ في هذا كثيرةٌ، كُلُّها تُصَوِّرُ القيامةَ كأنَّها رأيُ عينٍ.

٤٢٩٠- وَكَذَاكَ يَعْرِفُ مِنْ حَقِيقَةِ نَفْسِهِ ... وَصِفَاتِهَا بِحَقِيقَةِ العِرْفَانِ

وهذه هي المهمَّة، أن يعرفَ الإنسانُ نفسَه، ويعرفُ حقيقتَها، ويعرفُ أنَّها غادرةٌ خائنةٌ إلَّا مَنْ عَصَمَ اللهُ؛ ولهذا يقولُ:

٤٢٩١- يَعْرِفْ لَوَازِمَهَا وَيَعْرِفُ كَوْنَهَا ... مَخْلُوقَةً مَرْبُوبَةً بِبَيَانِ

قَوْلُهُ: «يَعْرِفْ لَوَزِامَهَا» «يَعْرِفْ» بالسُّكون؛ لأجل الوزنِ.

فإذا عرف الإنسانُ نفسَه عرف ربَّه، فيعرفُ أنَّه مخلوقٌ ضعيفٌ ومحتاجٌ إلى الله، وبذلك يعرفُ أنَّ اللهَ خالقٌ قويٌّ غنيٌّ.

٤٢٩٢- وَكَذَاكَ يَعْرِفُ مَا الَّذِي فِيهَا مِنَ الـ ... ـحَاجَاتِ وَالإِعْدَامِ وَالنُّقْصَانِ

قَوْلُهُ: «يَعْرِفُ مَا فِيهَا»؛ أي: ما في نفسِه.

والمعنى: يعرفُ ما في نفسِه من الحاجاتِ، وأنَّه بحاجةٍ إلى الله، وأنَّه لا غنى له عن الله طرفةَ عينٍ، ويعرفُ كذلك ما فيها من الإعدامِ أنَّها مُعْدَمَةٌ لولا إيجادُ الله، يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

ويعرفُ ما فيها من النَّقصِ، فالإنسانُ ناقصٌ إذا لم يَمُنَّ اللهُ عليه بالكمالِ، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النَّحل:٧٨]، إذَنْ الأصلُ في الإنسانِ العدمُ، عدمُ القدرةِ، عدمُ الغنى، عدمُ القوَّةِ، وأنَّنا بحاجةٍ إلى غذاءٍ وهواءٍ ولباسٍ وغيرِ ذلك، إِذَنْ الأصلُ فيه النَّقصُ، فيعرفُ بنقصانِه كمالَ الله عزَّ وجلَّ.

٤٢٩٣- وَكَــذَاكَ يَعْـرِفُ رَبَّـهُ وَصِـفَاتِهِ　　أَيْضًـا بِـلا مِثْـلٍ وَلا نُقْصَـانِ

هذا ليس تكرارًا مع البيتِ السَّابقِ، ولكنَّه قَيَّدَ هنا بأَنَّه يَعْرِفُهُ بصفاتِه بلا مِثْلٍ ولا نقصانٍ، «**بِلَا مِثْلٍ**»؛ يعني: لا يماثلُه المخلوقُ وهو لا يماثِلُ المخلوقَ، و«**لَا نُقْصَانٍ**»، بينما النُّقصانُ لازمٌ للإنسانِ، أمَّا اللهُ عزَّ وجلَّ فإنَّه مُنَزَّهٌ عنه.

٤٢٩٤- وَهُنَـا ثَلاثَـةُ أَوْجُـهٍ فَـافْطُنْ لَـهَا　　إِنْ كُنْـتَ ذَا عِلْـمٍ وَذَا عِرْفَـانِ

٤٢٩٥- بِالضِّـدِّ وَالأُولَى كَـذَا بِالإِمْتِنَـا　　عِ لِعِلْمِنَـا بِـالنَّفْسِ وَالـرَّحْمَنِ

يعني: هناك ثلاثةُ أوجهٍ بين الخالقِ والمخلوقِ افْطُنْ لها إن كنت ذا علمٍ وذا عرفانٍ: بِالضِّدِّ، والأَوْلَى، كذا بِالإِمْتِنَاعِ لِعِلْمِنَا بِالنَّفْسِ وَالرَّحْمَنِ.

فَسَّرهَا بقوله:

٤٢٩٦- فَالضِّـدُّ مَعْرِفَـةُ الإِلَـهِ بِضِـدِّ مَـا　　فِي النَّفْسِ مِنْ عَيْبٍ وَمِـنْ نُقْصَـانِ

هذا الضِّدُّ؛ يعني: أنَّك إذا عَرَفْتَ نفسَك بأَنَّك مخلوقٌ من عَدَمٍ وآيلٌ إلى العدمِ، وأنَّك محتاجٌ وناقصٌ، اعرف أنَّ ضدَّ ذلك ثابتٌ للخالقِ، ووجهُه أنَّ الخالقَ مُوجِدٌ والمخلوقَ مُوجَدٌ، ولا يمكنُ أن يتساوى المُوجِدُ والمُوجَدُ، بل لا بُدَّ أن يكونَ بينهما ما يكونُ بين الإيجادِ والوجودِ، فالإنسانُ مُوجَدٌ؛ إِذَنْ لا بُدَّ أن يكونَ على ضدِّ صفاتِ الموجِدِ وهو اللهُ عزَّ وجلَّ.

فإذا كُنَّا ذا نقصٍ فالرَّبُّ ذو كَمالٍ، وعلى هذا فَقِسْ، كذلك إذا كُنَّا ذا عيبٍ فالرَّبُّ مُنَزَّهٌ عن العيبِ، وجودُنا هل هو من الممكنِ أو من الواجبِ أو من المستحيلِ؟

الجوابُ: لا يمكنُ أن نقولَ: من المستحيلِ؛ لأَنَّنا موجودون، ولا يمكن أن

نقولَ: من الواجبِ؛ لأنَّنا من عَدَمٍ، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١].

٤٢٩٧- وَحَقِيقَــةُ الأُولَى ثُبُــوتُ كَــمَالِهِ إِذْ كَــانَ مُعْطِيــهِ عَــلَى الإِحْسَــانِ

قَوْلُهُ: «**الأَوْلَى**» معناه: كُلُّ صفةِ كمالٍ في المخلوقِ فاللهُ أَوْلَى بها؛ ولهذا قال رحمه الله: «**إِذْ كَانَ مُعْطِيهِ عَلَى الإِحْسَانِ**».

حقيقةُ الأَوْلَى ثبوتُ كمالِه، فمتى ثَبَتَ في المخلوقِ كمالٌ فإنَّ الخالقَ أَوْلَى به لماذا؟ لأنَّه مُعْطِ الكمالَ، ومُعْطِي الكمالِ أَوْلَى بالكمالِ.

بقينا في الوجه الثَّالثِ: الامتناعُ؛ أي: امتناعُ العَيْبِ والنُّقصانِ، فإنَّ اللهَ تعالى ممتنِعٌ عليه العيبُ والنُّقصانُ، لكن لو قال قائلٌ: النَّومُ في الإنسانِ هل هو كمالٌ أو نقصٌ؟ نسألُ أوَّلًا: أيُّهما أكملُ: حياتُنا هنا أو في الجنَّة؟ الجوابُ: في الجنَّة، هل في الجنَّةِ نومٌ؟ إِذَنْ صار نقصًا، لكنَّ هذا النَّقصَ إنَّما كان لضعفِ البدنِ عن مكابدةِ الحياةِ ومقاومتِها، فمن أجلِ ذلك مَنَّ اللهُ علينا بالنَّومِ لنستريحَ من شيءٍ من تعبِ الماضي، ونستجدَّ نشاطًا للمستقبل، لكنَّه باعتبارِ البشريَّةِ المبنيَّةِ على النَّقصِ يُعْتَبَرُ كمالًا؛ لأنَّ مَنْ ينامُ ويستيقظُ أكملُ من الذي لا ينامُ، ولهذا فإنَّ الإنسانَ إذا كان لا ينامُ تنهدمُ صحَّتُه.

والأكلُ والشُّربُ هل هما كمالٌ أو نقصٌ؟ هما نقصٌ في الأصلِ؛ لأنَّ البدَنَ يحتاجُ إليهما للبقاءِ والنَّماءِ، فإِذَن هما نقصٌ، لكنَّهما كمالٌ من جهةٍ أخرى وهي أنَّ بهما قيامَ البدنِ ونماءَه؛ ولهذا مَنْ لا يأكلُ لا بُدَّ أن يكونَ لمرضٍ وإلَّا بمقتضى الطَّبيعة لا يمكنُ أن يدعَ الأكلَ.

فإن قال قائلٌ: إِذَنْ أهلُ الجنَّةِ حياتُهم ناقصةٌ؛ لأنَّهم يأكلون ويشربون؟

نقولُ: يأكلون ويشربون لكمالِ نعيمِهم تلذُّذًا، ولا نقولُ: لأنَّهم لو لم يأكلوا الماتوا؛ لأنَّه ليس فيها موتٌ لكن للتَّلذُّذِ؛ ولهذا عندهم نساءٌ يتلذَّذون بهنَّ، وهم ليسوا بحاجةٍ إلى الأولادِ، ولا يأتيهم أولادٌ أيضًا.

فالحاصلُ أنَّنا نقولُ: الرَّبُّ عزَّ وجلَّ كاملٌ لا تأخذُه سِنَةٌ ولا نومٌ، وهو يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ، لا يحتاجُ إلى أكْلٍ ولا شُربٍ، ولا إلى غيرِ ذلك، فهو سبحانه وتعالى كاملُ الغنى، وكُلُّ ما سواه فهو مفتقرٌ إليه؛ ولهذا يلجأُ الخلقُ إلى ربِّهم عزَّ وجلَّ يسألونه حاجاتِهم من تفريجِ الكرباتِ وتحصيلِ الخيراتِ.

بفضل الله تعالى وتوفيقه تمَّ المجلد الثالث

ويليه بمشيئة الله تعالى المجلد الرابع

وأوله: فصلٌ في بَيَانِ شُرُوطِ كِفَايَةِ النَّصَّيْنِ، البيت رقم (٤٢٩٨)

* * *

فهرس الآيات

* * *

فهرس الأحاديث والآثار

* * *

فهرس الموضوعات والفوائد

الموضوع — الصفحة

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٢٣)

شرح
الكافية الشافية
في الانتصار للفرقة الناجية

للحافظ المحقق
شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية
تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جناته

شرح فضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الرابع

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

شرح الكافية الشافية

في الانتصار للفرقة الناجية

٤

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
شرح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية لابن قيّم الجوزية./
محمد بن صالح العثيمين - الرياض، ١٤٣٤هـ
٤مج؛ (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٢٣)
ردمك: ٩٧٨ ـ ٦٠٣ ـ ٨٠٣٦ ـ ٦٢ ـ ٤ (مجموعة)
٩٧٨ ـ ٦٠٣ ـ ٨٠٣٦ ـ ٦٦ ـ ٢ (ج٤)
١ ـ العقيدة الإسلامية ٢ ـ التوحيد ٣ ـ أهل السنّة
أ. العنوان ب. السلسلة
ديوي ٢٤٠ ١٤٣٤/١٠٢٢٧

الطبعة الأولى
محرم ١٤٣٥هـ

يُطلب الكتاب من:
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص. ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٢٣)

شرح
الكافية الشافية
في الانتصار للفرقة الناجية

للحافظ المحقق
شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية
تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جنانه

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الرابع

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

فصـــل

في بَيَانِ شُرُوطِ كِفَايَةِ النَّصَّيْنِ وَالاسْتِغْنَاءِ بِالوَحْيَيْنِ

٤٢٩٨- وَكِفَايَةُ النَّصَّيْنِ مَشْـرُوطٌ بِتَجْـ ـــرِيدِ التَّلَقِّـي عَـنْهُمَا لِـمَعَانِي

٤٢٩٩- وَكَذَاكَ مَشْرُوطٌ بِخَلْـعِ قُيُـودِهِمْ فَقُيُـودُهُمْ غِـلٌّ إِلَى الأَذْقَـانِ

٤٣٠٠- وَكَـذَاكَ مَشْـرُوطٌ بِهَدْمِ قَوَاعِـدٍ مَـا أُنْزِلَـتْ بِبِنَائِهَـا الوَحْيَـانِ

٤٣٠١- وَكَذَاكَ مَشْرُوطٌ بِإِقْدَامٍ عَلَى الْـ آرَاءِ إِنْ عَرِيَـتْ عَـنِ البُرْهَـانِ

٤٣٠٢- بِـالرَّدِّ وَالإِبْطَـالِ لا تَعْبَـأْ بِهَـا شَـيْئًا إِذَا مَـا فَاتَهَـا النَّصَّـانِ

٤٣٠٣- لَوْلا القَوَاعِدُ وَالقُيُودُ وَهَـذِهِ الْـ آرَاءُ لاتَّسَـعَتْ عُـرَى الإِيمَانِ

٤٣٠٤- لَكِنَّـهَا وَاللهِ ضَـيِّقَةُ العُـرَى فَاحْتَاجَـتِ الأَيْـدِي لِـذَاكَ تَـوَانِي

٤٣٠٥- وَتَعَطَّلَـتْ مِـنْ أَجْلِهَـا وَاللهِ أَعْـ ـدَادٌ مِـنَ النَّصَّـيْنِ ذَاتُ بَيَـانِ

٤٣٠٦- وَتَضَـمَّنَتْ تَقْيِيـدَ مُطْلَقِهَـا وَإِطْـ ـلاقَ الـمُقَيَّدِ وَهْـوَ ذُو مِيـزَانِ

٤٣٠٧- وَتَضَمَّنَتْ تَخْصِيصَ مَا عَمَّتْهُ وَالتْـ ـتَعْمِيمَ لِلمَخْصُـوصِ بِالأَعْيَـانِ

٤٣٠٨- وَتَضَمَّنَتْ تَفْرِيقَ مَا جَمَعَـتْ وَجَمْـ ـعًا لِلَّـذِي وَسَـمَتْهُ بِالفُرْقَـانِ

٤٣٠٩- وَتَضَمَّنَتْ تَضْيِيقَ مَـا قَـدْ وَسَّعَتْـ ـهُ وَعَكْسَـهُ فَلْتَنْظُـرِ الأَمْـرَانِ

٤٣١٠- وَتَضَمَّنَتْ تَحْلِيـلَ مَـا قَـدْ حَرَّمَتْـ ـهُ وَعَكْسَـهُ فَلْتَنْظُـرِ النَّوْعَـانِ

٤٣١١- سَكَتَتْ وَكَانَ سُكُوتُهَا عَفْوًا فَلَمْ ... تَعْـفُ القَوَاعِـدُ بِاتِّسَـاعِ بِطَـانِ

٤٣١٢- وَتَضَمَّنَتْ إِهْدَارَ مَا اعْتَبَرَتْ كَذَا ... بِـالعَكْسِ وَالأَمْـرَانِ مَحْـذُورَانِ

٤٣١٣- وَتَضَمَّنَتْ أَيْضًا شُرُوطًا لَـمْ تَكُـنْ ... مَشْـرُوطَةً شَرْعًـا بِـلا بُرْهَـانِ

٤٣١٤- وَتَضَمَّنَتْ أَيْضًا مَوَانِعَ لَـمْ تَكُـنْ ... مَمْنُوعَـةً شَرْعًـا بِـلا تِبْيَـانِ

٤٣١٥- إِلَّا بِأَقْيِسَـةٍ وَآرَاءٍ وَتَقْـ ... ـلِيدٍ بِـلا عِلْـمٍ أَوِ اسْتِحْسَـانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «النَّصَّيْنِ» النَّصَّان هما نصُّ الكتابِ والسُّنَّةِ، و«الوَحْيَانِ» هُمَا الكتابُ والسُّنَّة.

٤٢٩٨- وَكِفَايَةُ النَّصَّيْنِ مَشْرُوطٌ بِتَجْـ ... ـرِيدِ التَّلَقِّي عَنْهُمَا لِمَعَانِي

يعني: يُشْتَرَطُ لكفايةِ النَّصَّيْنِ -أي: الكتاب والسُّنَّة- لمن استدلَّ بهما أن يكونَ مُجَرَّدًا للتَّلقِّي عنهما لمعانيهما، ومعنى «مُجَرَّدًا» أنَّه لا ينظرُ إلى غيرِهما؛ فيجعل استدلالَه وأخذَه للمعاني من النَّصَّيْنِ لا غير، فيكون دينُه عقيدةً وقولًا وعملًا مُتَلَقَّيًا من النَّصَّيْنِ: الكتابِ والسُّنَّةِ، وهذا هو **الشَّرطُ الأوَّلُ** من شروطِ الاكتفاءِ بالنَّصَّيْنِ.

٤٢٩٩- وَكَذَاكَ مَشْرُوطٌ بِخَلْعِ قُيُودِهِمْ ... فَقُيُودُهُمْ غِلٌّ إِلَى الأَذْقَانِ

الشَّرطُ الثَّاني: يُشْتَرَطُ أيضًا أنَّ القيودَ التي اشترطوها تُحْذَفُ وتُخْلَعُ؛ مثل قولِهِم: يُشْتَرَطُ لِقَبولِ أخبارِ الصِّفاتِ أن تكونَ متواترةً، فمن أين هذا؟! ومثل قولهم: يُشْتَرَطُ للعملِ بظواهرِ النُّصوصِ ألَّا تكونَ مخالفةً للعقلِ، من أين هذا؟!

بينما العقلُ هو الذي يُحكَمُ بالنُّصوصِ لا بالعكس، ثُمَّ ما هو العقلُ الذي يحكمُ على النُّصوص؛ وعقلُ مَنْ؟ إذَنْ لا بُدَّ أن نخلعَ جميعَ القيودِ التي قيَّدوها.

٤٣٠٠- وَكَذَاكَ مَشْرُوطٌ بِهَدْمِ قَوَاعِدٍ   مَا أُنْزِلَتْ بِبِنَائِهَا الوَحْيَانِ

ومن القواعدِ -ما أشرتُ إليه آنفًا- إذا تعارَضَ العقلُ والنَّقلُ في بابِ الصِّفاتِ قُدِّمَ العقلُ عندهم، هذه قاعدةُ المتكلِّمين من الأشاعرةِ وغيرِهم، ولا شَكَّ أنَّ هذه القاعدةَ باطلةٌ؛ لأنَّ تقديمَ العقلِ عند معارضةِ النَّقلِ إبطالٌ ومخالفةٌ للعقلِ، فبابُ الصِّفاتِ من بابِ الخبرِ الذي لا مَدخَلَ للعقلِ فيه، فإذا قدَّمنا فيه العقلَ على النَّقلِ فقد خَالَفْنَا العقلَ نفسَه؛ إذ إنَّ العقلَ يقولُ: «**الأمورُ الغيبيَّةُ نستنُد فيها إلى النَّقلِ المحضِ**»، هذا مُقتضى العقل.

فأنت الآن لو أردت أن تتحدَّثَ عن حياةِ شخصٍ فإنه لا يمكنُ أن تُحكِّمَ عقلَك، بل تتلقَّى الخبرَ أو العِلْمَ عن حياتِه من طريقِ الخبرِ، الذي هو «**النَّقل**».

هم قعَّدوا هذه القاعدةَ الباطلةَ، أنَّه إذا تَعارَضَ العقلُ والنَّقلُ فإنَّه يُقَدَّمُ العقلُ، والذي يقولُ هذا لا يمكنُ أنْ يكتفيَ بالوحيَيْنِ عمَّا سواهما، بل هذا هادمٌ للوحيَيْنِ في الواقعِ.

بل إنَّ هؤلاء يُقَعِّدونَ قواعدَ ما أنزل اللهُ بها من سُلطانٍ، فمثلًا ونحن الآن نتكلَّمُ عن العقيدةِ، يقولُ هؤلاء المعطِّلةُ: لا يمكنُ أن يستويَ اللهُ على العرشِ، ولا أنْ يأتِيَ للقضاءِ بين عبادِه، ولا أنْ ينزلَ إلى السَّماءِ الدُّنيا، ولا أن ينزلَ إلى السَّماءِ الدُّنيا يوم عرفةَ يُبَاهِي بأهلِ عرفةَ الملائكةَ، فقالوا أن هذا لا يمكنُ، قالوا: لأنَّ هذه الأفعالَ حوادثُ، والحوادثُ لا تقومُ إلَّا بحادثٍ، واللهُ عزَّ وجلَّ أزليٌّ أبديٌّ سبحانه وتعالى، فمن أين أَتَوْا بهذه القاعدةِ؟ ما أنزل اللهُ بها من سُلطانٍ، ولا تُقْبَلُ،

ولو كُنَّا نحكمُ على الوحيَيْنِ بعقولنِا لم يكن القرآنُ ولا السُّنَّةُ بيانًا للنَّاسِ وهدًى.

إذَنْ الشُّروط ثلاثةٌ:

الأوَّلُ: تجريدُ التَّلقِّي.

الثَّاني: خلعُ القيودِ.

الثَّالثُ: هدمُ القواعِدِ التي ما أنزل اللهُ بها من سُلطانٍ.

٤٣٠١- وَكَذَاكَ مَشْرُوطٌ بِإِقْدَامٍ عَلَى الْـ ... آرَاءِ إِنْ عَرِيَتْ عَنِ البُرْهَانِ

٤٣٠٢- بِالرَّدِّ وَالإِبْطَالِ لا تَعْبَأْ بِهَا ... شَيْئًا إِذَا مَا فَاتَهَا النَّصَّانِ

يُشْتَرَطُ أيضًا للاكتفاءِ بالوحيَيْنِ أن تُقْدِمَ على الآراءِ المخالفةِ بالرَّدِّ والإبطالِ؛ يعني: لا يكفي أنْ تتلقَّى عن الوحيَيْنِ فقط، بل ما خَالَفَ الوحيَيْنِ فلا بُدَّ أن تقابلَه بالرَّدِّ والإبطالِ، أمَّا إن كانت هذه الآراءُ بدليلٍ فاحترِمْها لاحترامِ الدَّليلِ، لكن إن عَرِيَت فلا تهمُّك.

قَوْلُهُ: «**لَا تَعْبَأْ بِهَا**»؛ أي: بالآراءِ، «**شَيْئًا إِذَا مَا فَاتَهَا النَّصَّان**»، وهذا صحيحٌ، فكُلُّ رأيٍ يفوته النَّصُّ فلا تعبأْ به، ولا تلتفتْ إليه، ولا تتهيَّبْ منه، فإنَّه زَبَدٌ يذهبُ جُفَاءً، فما دام هذا الرَّأيُ مجرَّدًا عن القُرآنِ والسُّنَّةِ فإنَّه لا يُعْبَأُ به، بل ولا يُسَاوِي فَلْسًا.

٤٣٠٣- لَوْلا القَوَاعِدُ وَالقُيُودُ وَهَذِهِ الْـ ... آرَاءُ لاتَّسَعَتْ عُرَى الإِيمَانِ

وهذا صحيحٌ، فهذه القيودُ والقواعدُ التي أصَّلوها ضَيَّقت البِطَانَ، وصار الإيمانُ لا يتَّسعُ! وأضربُ لكم مثلًا: فالذي يُثبتُه الأشاعرةُ من صفاتِ الله سبعُ صفاتٍ فقط، مع أنَّ صفاتِ الله عزَّ وجلَّ لا تُحْصَرُ ولا تُحْصَى؛ إذَنْ هم ضيَّقوا على

أنفسِهم بحذفِ صفاتٍ لا تُحْصَى من صفاتِ الله؛ بناءً على قواعِدِهم الباطلة، وأنَّنا نرجعُ إلى العقلِ فيما نحكمُ به على ربِّنا من الصِّفاتِ.

فلولا قيودٌ يضعُها هؤلاء من أهلِ العقائدِ بل وأهل الفقه، لاتَّسعت العُرَى وتوسَّع النَّاسُ، فالفقهاء -رحمهم الله- ذكروا شُروطًا للمسحِ على الخُفَّيْنِ، شروطًا ما أنزل اللهُ بها من سُلطانٍ، ولا يصح أن نأخذَ بهذه الشُّروطِ بلا دليلٍ؛ لأنَّنا لو أخذنا بهذه الشُّروطِ بلا دليلٍ ضيَّقنا على عبادِ الله بدون دليلٍ.

ذكروا مثلًا أنَّ الإنسانَ إذا خلع الـخُفَّيْنِ بعد مسحِهما بطُل الوضوءُ، أين الدَّليلُ على هذا؟ فهذا رجلٌ توضَّأ وصَحَّ وضوءُه بمقتضى الدَّليلِ الشَّرعيِّ، فلا يمكنُ أن ننقضَ هذا الوضوءَ إلَّا بدليلٍ شرعيٍّ، أمَّا مجرَّدُ قياسٍ فهذا غلطٌ، وتطهيرُ الـخُفِّ هل هو تطهيرٌ للخفِّ أم أنَّه تطهيرٌ للرِّجْلِ التي تحته؟ بل هو للرِّجْلِ التي تحته، أمَّا الخفُّ فهو طاهرٌ لا نجاسةَ فيه، وأيضًا ليس المسحُ بمطهِّرٍ له لو كان به نجاسةٌ.

وعلى هذا فنقولُ: أيُّ إنسانٍ يأتي بشرطٍ في كُلِّ الأحكامِ فعليه الدَّليلُ، وإلَّا فقد تحجَّر واسعًا.

٤٣٠٤- لَكِنَّـــهَا وَالله ضَـــيِّقَةُ العُـــرَى فَاحْتَاجَـتِ الأَيْـدِي لِـذَاكَ تَـوَانِي

يعني: أنَّها ضيِّقةُ العُرَى «**فَاحْتَاجَتِ الأَيْدِي لِذَاكَ تَوَانِي**»، فالعُرَى إذا ضاقت تحتاجُ الأيدي في حلِّها إلى تَوانٍ، فلا يسهلُ حلُّها إذا ضاقت.

على كُلِّ حالٍ معروفٌ أنَّ العُرَى إذا ضاقت فإنَّها تحتاجُ إلى تَوانٍ في حلِّها، بخلاف ما إذا كانت متَّسعةً، وأنتَ إذا عقدْتَ أيَّ عقدةٍ فإذا كانت متَّسعةً يسهلُ عليك الحلُّ، لكن إذا ضَيَّقْتَهَا صَعُبَ حلُّها؛ فإنها تحتاج إلى توانٍ وتُؤَدةٍ في حَلِّها.

٤٣٠٥- وَتَعَطَّلَتْ مِنْ أَجْلِهَا وَاللهِ أَعْـ ـدَادٌ مِنَ النَّصَّيْنِ ذَاتُ بَيَانِ

لأنَّهم يقولون: كُلُّ هذه النُّصوصِ المثبِتَةِ للصِّفاتِ كُلُّها مجازٌ، فعطَّلوا دلالتَها، مع أنَّها بيِّنةٌ واضحةٌ، لكنَّهم أهدروها.

وفي القُرونِ الوسطى لو رَجَعْتَ إلى مؤلَّفاتِ الفقهاءِ خاصَّةً لوجدت الصَّفحاتِ العديدةَ ليس فيها ذكرٌ لآيةٍ أو حديثٍ، فكُلُّها: (قال فلان، وقال فلان، والعِلَّةُ كذا)، وما أشبهَ ذلك، تعطَّل الكتابُ والسُّنَّة؛ ولهذا إذا خرج عالمٌ يَبْنِي أحكامَه على الكتابِ والسُّنَّةِ عادَوْه، وقالوا: هذا خَرَجَ عمَّا قال الشُّيوخُ، ولكنَّ الحقَّ منصورٌ ومُمْتَحَنٌ، كما قال ابنُ القيمِّ في هذه القصيدة:

الحقُّ مَنْصُورٌ وَمُمْتَحَنٌ، فَلَا تَعْجَبْ فَهَذِي سُنَّةُ الرَّحْمَنِ[1]

ثم قال:

٤٣٠٦- وَتَضَمَّنَتْ تَقْيِيدَ مُطْلَقِهَا وَإِطْـ ـلاقَ المُقَيَّدِ وَهْوَ ذُو مِيزَانِ

٤٣٠٧- وَتَضَمَّنَتْ تَخْصِيصَ مَا عَمَّتْهُ وَالتْـ ـتَعْمِيمَ لِلمَخْصُوصِ بِالأَعْيَانِ

تضمَّنت هذه القيودُ وهذه القواعدُ تقييدَ المُطْلَقِ وإطلاقَ المقيَّدِ؛ يعني: عكسَ ما جاء في القرآنِ والسُّنَّةِ، وتضمَّنت أيضًا «**تخصيصَ ما عمَّته والتَّعميمَ للمخصوصِ بالأعيانِ**».

لكنْ بماذا يكونُ تقييدُ المطلَقِ؟

الجوابُ: يكونُ تقييدُ المطلقِ بكُلِّ شرطٍ يُوضَعُ لحكمٍ بلا دليلٍ، فكُلُّ شرطٍ يُوضَعُ لحكمٍ بلا دليلٍ فهذا تقييدٌ للمطلَقِ وتضييقٌ للموسَّعِ، أمَّا مطْلَقُ المقيَّدِ فربَّما

(١) تقدم برقم (٢١٧).

يكونُ بحيث يحملُ هذا التَّقييدَ على أنَّه قضيةُ عينٍ، أو في حالٍ معيَّنةٍ، أو ما أشبه ذلك.

إذَنْ هناك فرقٌ بين المُطْلَقِ والعامِّ، وبين المخصِّص والمقيِّد، فالتَّقييدُ يَرِدُ على المُطْلَقِ ولا يَرِدُ على العامِّ، والتَّخصيصُ يَرِدُ على العامِّ ولا يَرِدُ على المُطْلَقِ، فإذا قلت: «**أَعْتِق رقبةً مؤمنةً**» فهنا تقييدٌ وَرَدَ على مُطْلَقٍ، وهو «**رقبة**»، والقيد: «**مؤمنة**»، وإذا قلت: «**أَكْرِم الطلبةَ المجتهدَ منهم**» فهذا تخصيصٌ وَرَد على عمومٍ.

والمؤلِّفُ -رحمه الله- يقولُ: هذه القواعدُ أَوْجَبَتْ أن يُعَمِّمَ الخاصَّ، وأن يُخَصِّصَ العامَّ؛ على عكس ما أراد اللهُ به ورسولُه.

٤٣٠٨- وَتَضَمَّنَتْ تَفْرِيقَ مَا جَمَعَتْ وَجَمْـ ـعًا لِلَّـذِي وَسَمَتْهُ بِالفُرْقَانِ

يعني: أنَّ هذه القواعدَ والآراءَ تضمَّنت أيضًا جمعَ ما دَلَّ الدَّليلُ على التَّفريقِ فيه، أو تفريقَ ما دَلَّ الدَّليلُ على جمعِه.

٤٣٠٩- وَتَضَمَّنَتْ تَضْيِيقَ مَا قَدْ وَسَّعَتْـ ـهُ وَعَكْسَهُ فَلْتَنْظُرِ الأَمْرَانِ

قَوْلُهُ: «**وَتَضَمَّنَتْ تَضْيِيقَ مَا قَدْ وَسَّعَتْهُ وَعَكْسَهَ**»، وعَكْسُهُ هو توسيعُ ما ضَيَّقَتْهُ.

قَوْلُهُ: «**فَلْتَنْظُرِ الأَمْرَانِ**»؛ أي: «**فلتنظر الأَمْرَيْنِ**»، لكن إمَّا أنَّه على لغة مَنْ يُلْزِمُ المثنَّى الألِفَ مطلقًا، أو لضيقِ النَّظمِ، ومشهورٌ عند العلماءِ أنَّ النَّظمَ لا يُبيحُ إلَّا صرفَ ما لا ينصرفُ، لكنَّ بعضَ علماءِ النَّحو يقولُ: ضيقُ النَّظمِ يُبيحُ حتَّى رفع المنصوبِ أو نصب المرفوعِ؛ يعني: يُجيز كُلَّ ما يخالفُ الإعرابَ، وابنُ القيِّمِ -رحمه الله- يمشي على هذا الرَّأي ولا يُبالي.

٤٣١٠- وَتَضَمَّنَتْ تَحْلِيلَ مَا قَدْ حَرَّمَتْـ ـهُ وَعَكْسَهُ فَلْتَنْظُرِ النَّوْعَانِ

إذَنْ صارت هذه الآراءُ والقواعدُ مضادَّةً لما أراد اللهُ ورسولُه بالوَحْيَيْنِ.

٤٣١١- سَكَتَتْ وَكَانَ سُكُوتُهَا عَفْوًا فَلَمْ تَعْفُ القَوَاعِدُ بِاتِّسَاعِ بِطَانِ

يعني: أنَّ النُّصوصَ سكتت عمَّا سكتت عنه، وكان ما سكتت عنه عفوًا، أمَّا قواعدُهم فإنَّها لم تكن متَّسعةً، ولم يكن سكوتُها عفوًا.

٤٣١٢- وَتَضَمَّنَتْ إِهْدَارَ مَا اعْتَبَرَتْ كَذَا بِالعَكْسِ وَالأَمْرَانِ مَحْذُورَانِ

قَوْلُهُ: «تَضَمَّنَتْ إِهْدَارَ مَا اعْتَبَرَتْهُ» كَذَا بِالعَكْسِ؛ أي: واعتبارَ ما أَهْدَرَتْهُ.

٤٣١٣- وَتَضَمَّنَتْ أَيْضًا شُرُوطًا لَمْ تَكُنْ مَشْرُوطَةً شَرْعًا بِلا بُرْهَانِ

إذَنْ وَضَعَتْ شروطًا لم تكن شرطًا، وهذه زيادةٌ على النُّصوصِ.

٤٣١٤- وَتَضَمَّنَتْ أَيْضًا مَوَانِعَ لَمْ تَكُنْ مَمْنُوعَةً شَرْعًا بِلا تِبْيَانِ

كأنَّ المؤلِّفَ يقولُ: إنَّ هذه القواعدَ خالَفَتِ النُّصوصَ من كُلِّ وجهٍ، وهذا هو حاصلُ كلامِ المؤلِّف.

٤٣١٥- إِلَّا بِأَقْيِسَةٍ وَآرَاءٍ وَتَقْـ ـلِيدٍ بِلا عِلْمٍ أَوِ اسْتِحْسَانِ

يعني: أنَّ هذه الأشياءَ التي تضمَّنَتْها مخالفة للكتابِ والسُّنَّةِ ليست مَبْنِيَّةً على شيءٍ، إلَّا على أقيسةٍ وآراءٍ باطلةٍ، وتقليدٍ لعامَّتِهم بلا علمٍ أو استحسانٍ.

* * *

٤٣١٦- عَمَّنْ أَتَتْ هَذِي القَوَاعِدُ مِنْ جَمِيـ ـعِ الصَّحْبِ وَالأَتْبَاعِ بِالإِحْسَانِ

٤٣١٧- مَا أَسَّسُوا إِلَّا اتِّبَاعَ نَبِيِّهِمْ لا عَقْلَ فَلْتَانٍ وَرَأْيَ فُلانِ

٤٣١٨- بَلْ أَنْكَرُوا الآرَاءَ نُصْحًا مِنْهُمُ للهِ وَالدَّاعِي وَلِلْقُرْآنِ

٤٣١٩- أَوَلَيْسَ فِي خُلْفٍ بِهَا وَتَنَاقُضٍ مَا دَلَّ ذَا لُبٍّ وَذَا عِرْفَانِ

٤٣٢٠- وَاللهِ لَوْ كَانَتْ مِنَ الرَّحْمَنِ مَا اخْـ ـتَلَفَتْ وَلا انْتُقِضَتْ مَدَى الأَزْمَانِ

٤٣٢١- شُبَهٌ تَهَافَتُ كَالزُّجَاجِ تَخَالُهَا حَقًّا وَقَدْ سَقَطَتْ عَلَى صَفْوَانِ

٤٣٢٢- وَاللهِ لا يَرْضَى بِهَا ذُو هِمَّةٍ عَلْيَاءَ طَالِبَةٍ لِهَذَا الشَّانِ

٤٣٢٣- فَمِثَالُهَا وَاللهِ فِي قَلْبِ الفَتَى وَنَبَاتُهَا فِي مَنْبِتِ الإِيمَانِ

٤٣٢٤- كَالزَّرْعِ يَنْبُتُ حَوْلَهُ دَغَلٌ فَيَمْـ ـنَعُهُ النَّمَا فَتَرَاهُ ذَا نُقْصَانِ

٤٣٢٥- وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ فِي قَلْبِ الفَتَى غَرْسٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فِي الإِنْسَانِ

٤٣٢٦- وَالنَّفْسُ تُنْبِتُ حَوْلَهُ الشَّهَوَاتِ وَالشْـ ـشُبُهَاتِ وَهْيَ كَثِيرَةُ الأَفْنَانِ

٤٣٢٧- فَيَعُودُ ذَاكَ الغَرْسُ يَبْسًا ذَاوِيًا أَوْ نَاقِصَ الثَّمَرَاتِ كُلَّ أَوَانِ

٤٣٢٨- فَتَرَاهُ يَحْرُثُ دَائِبًا وَمَغَلُّهُ نَزْرٌ وَذَا مِنْ أَعْظَمِ الخُسْرَانِ

٤٣٢٩- وَاللهِ لَوْ نَكَشَ النَّبَاتَ وَكَانَ ذَا بَصَرٍ لِذَاكَ الشَّوْكِ وَالسَّعْدَانِ

٤٣٣٠- لأَتَى كَأَمْثَالِ الجِبَالِ مَغَلُّهُ وَلَكَانَ أَضْعَافًا بِلا حُسْبَانِ

الشـرحُ

٤٣١٦- عَمَّنْ أَتَتْ هَذِي القَوَاعِدُ مِنْ جَمِيـ ـعِ الصَّحْبِ وَالأَتْبَاعِ بِالإِحْسَانِ

يعني: هذه القواعدُ التي أسَّسوها عمَّن أتت؟ هل جاءت عن الصَّحابةِ؟ هل جاءت عن التَّابعين لهم بإحسانٍ؟

فقوله: «عَمَّنْ» «مَنْ» هنا استفهاميَّةٌ؛ يعني: عن أيِّ أحدٍ أتت هذه، هل جاءت عن الصَّحابةِ أو الأتباعِ بالإحسانِ؟ والجوابُ: لا.

٤٣١٧- مَا أَسَّسُوا إِلَّا اتِّبَاعَ نَبِيِّهِمْ لا عَقْلَ فَلْتَانٍ وَرَأْيَ فُلانِ

يعني: أنَّ الصَّحابةَ والتَّابعين لهم بإحسانٍ ما أسَّسوا إلَّا اتِّباعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم.

٤٣١٨- بَلْ أَنْكَرُوا الآرَاءَ نُصْحًا مِنْهُمُ لله وَالدَّاعِي وَلِلْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «أَنْكَرُوا» الضَّميرُ يعودُ على الصَّحابةِ والتَّابعين لهم بإحسانٍ.

فهم أنكروا الآراءَ، وأنكروا معارضةَ النَّصِّ بالآراءِ؛ لـمَّا حَدَّثَ عبدُ الله بنُ عمرَ عن النَّبِيِّ ﷺ: «لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ الله مَسَاجِدَ الله» قال ابنه بلالٌ: «وَالله لَنَمْنَعُهُنَّ» والرَّسولُ يقولُ: «لَا تَمْنَعُوا»، لكن بلالٌ ابنُه رأى ما عليه النَّاس من فسادٍ فقال: «والله لَنَمْنَعُهُنَّ»، فأقبلَ عليه أبوه عبدُ الله يَسُبُّهُ سَبًّا شَدِيدًا ما سَبَّه مثله قطُّ، وقال: أَقُولَ لَك: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ الله مَسَاجِدَ الله» وتقولُ: «وَالله لَنَمْنَعُهُنَّ»، ثُمَّ هجره حتَّى مات[١]، مع أنَّه عَارَضَ النَّصَّ باجتهادٍ، لكن لا يجوزُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنةٌ وأنها لا تخرج مطيَّبة، رقم (٤٤٢).

أن نعارضَ النَّصَّ، واللهُ ورسولُه أعلمُ، بل اتَّبع النَّصَّ وفيه الخيرُ، وإذا حَدَثَ شيءٌ معيَّنٌ فعالجه، أمَّا أن تعارضَ النَّصَّ قائلًا: «وَاللهِ لَنَمْنَعُهُنَّ» والرَّسولُ يقولُ: «لَا تَمْنَعُوا»، فهذا خطأٌ، لكن لو حدثت فتنةٌ من امرأةٍ معيَّنةٍ امنعْها، فمقابلةُ النَّصِّ بالمعارضةِ خطيرٌ.

٤٣١٩- أَوَلَـيْسَ فِي خُلْـفٍ بِهَـا وَتَنَـاقُضٍ مَــا دَلَّ ذَا لُــبٍّ وَذَا عِرْفَــانِ

الجوابُ: بلى، هذا الاختلافُ بين أهلِ الآراءِ وهذا التَّناقضُ يدلُّ على فسادِها؛ لأنَّها لو كانت سليمةً ما اختلف أهلُها ولا تناقضوا.

٤٣٢٠- وَاللهِ لَوْ كَانَتْ مِنَ الرَّحْمَنِ مَـا اخْـ ـتَلَفَتْ وَلا انْتُقِضَتْ مَدَى الأَزْمَـانِ

قال اللهُ تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّساء:٨٢].

٤٣٢١- شُـبَهٌ تَهَافَـتُ كَالزُّجَـاجِ تَخَالُــهَا حَقًّا وَقَـدْ سَـقَطَتْ عَـلَى صَـفْوَانِ

هذا بيتٌ مشهورٌ لكنَّ آخرَه: «وَكُلٌّ كَاسِرٌ مَكْسُورُ» كما قال الشَّاعرُ:

حُجَجٌ تَهَافَتُ كَالزُّجَاجِ تَخَالُــهَا حَقًّـا، وَكُـلٌّ كَـاسِرٌ مَكْسُـورُ[1]

أمَّا ابنُ القيِّمِ فأتـمَّه بغيرِ هذا من أجلِ النَّظمِ، فقال: «وَقَدْ سَقَطَتْ عَلَى صَفْوَانِ»، وإذا سَقَطَتْ على صفوان؛ يعني: على صفًا، لا يبقى لها باقيةٌ.

٤٣٢٢- وَاللهِ لا يَــرْضَى بِهَــا ذُو هِمَّــةٍ عَلْيَــاءَ طَالِبَــةٍ لِــهَذَا الشَّــانِ

يعني: لا يرضى بهذه الآراءِ ذو همَّةٍ عاليةٍ تطلبُ هذا الشَّأنَ، وهو الحقُّ في

---

(١) البيت لابن الرومي، في ديوانه (٢/ ١٦٦).

بابِ أسماءِ الله وصفاتِه وغيرِها.

٤٣٢٣- فَمِثَالُهَا وَالله في قَلْبِ الفَتَى ... وَنَبَاتُهَا في مَنْبِتِ الإِيمَانِ

٤٣٢٤- كَالزَّرْعِ يَنْبُتُ حَوْلَهُ دَغَلٌ فَيَمْـ ... ـنَعُهُ النَّمَا فَتَرَاهُ ذَا نُقْصَانِ

هذا مثالٌ عجيبٌ منضبطٌ، فهذا إنسانٌ عنده زرعٌ نبت حوله دَغَلٌ، والدَّغل: زروعٌ تُفْسِدُ الزَّرعَ، وتقضي عليه من فوق ومن تحت؛ يعني: هذه الزُّروعُ تُفسدُ الزَّرعَ من تحت بالعروق، تحولُ بين عروقِه وبين أخذ الطعم الذي في الأرضِ، وتفسدُه أيضًا من فوق، تغمره عن الشَّمسِ والهواء، فماذا يكونُ حالُ الزَّرعِ؟ الجوابُ: يفسدُ، يذبلُ، يموتُ، أو يكونُ ناقصًا.

٤٣٢٥- وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ في قَلْبِ الفَتَى ... غَرْسٌ مِنَ الرَّحْمَنِ في الإِنْسَانِ

نسألُ اللهَ أن يغرسَ في قلوبِنا وقلوبِكم الإيمانَ وينمِّيَه.

٤٣٢٦- وَالنَّفْسُ تُنْبِتُ حَوْلَهُ الشَّهَوَاتِ وَالشْـ ... ـشُبُهَاتِ وَهْيَ كَثِيرَةُ الأَفْنَانِ

قَوْلُهُ: «**وَالنَّفْسُ تُنْبِتُ حَوْلَهُ الشَّهَوَاتِ**»؛ أي: تنبتُ حولَ القلبِ الشَّهواتِ.

قَوْلُهُ: «**وَهْيَ كَثِيرَةُ الأَفْنَانِ**»؛ أي: كثيرةُ الأغصانِ، كثيرةُ الفروعِ.

فالإيمانُ يغرسُه اللهُ في قلبِ الإنسانِ، ثُمَّ تأتي النَّفسُ الأمَّارةُ بالسُّوءِ فَتُنْبِتُ حولَه الشَّهواتِ والشُّبهاتِ وتُؤَثِّرُ عليه.

٤٣٢٧- فَيَعُودُ ذَاكَ الغَرْسُ يَبْسًا ذَاوِيًا ... أَوْ نَاقِصَ الثَّمَرَاتِ كُلَّ أَوَانِ

صحيحٌ؛ إذا نَبَتَتْ حول الإيمانِ الشُّبهاتُ والشَّهواتُ -والعياذُ بالله- فإنَّ الإيمانَ يَذوِي، وربَّما يزولُ بالكُلِّيَّة؛ ولهذا قال العلماءُ: «**إنَّ المعاصيَ بريدُ الكفرِ**».

٤٣٢٨- فَتَرَاهُ يَحْرُثُ دَائِبًا وَمَغَلُّهُ نَزْرٌ وَذَا مِنْ أَعْظَمِ الخُسْرَانِ

ترى الزَّارِعَ يحرثُ دائمًا، ولكن المَغَلُّ قليلٌ لما يَنْبُتُ حولَه من هذه النَّوابتِ التي تُؤَثِّرُ عليه في الأرضِ وفي الجوِّ.

٤٣٢٩- وَاللهِ لَوْ نَكَشَ النَّبَاتَ وَكَانَ ذا بَصَرٍ لِذَاكَ الشَّوْكِ وَالسَّعْدَانِ

٤٣٣٠- لأَتَى كَأَمْثَالِ الجِبَالِ مَغَلُّهُ وَلَكَانَ أَضْعَافًا بِلا حُسْبَانِ

قَوْلُهُ: «لَوْ نَكَشَ النَّبَاتَ»؛ يعني: أزاله ونبشَه.

فلو زال هذا النَّباتُ المُضِرُّ لأتاك أمثالَ الجبالِ مَغَلُّهُ ولكان أضعافًا بلا حُسْبَانٍ.

والمؤلِّف -رحمه الله- يريدُ بهذا المثالِ أنْ يحرصَ الإنسانُ فينظر ماذا نَبَتَ حول قلبِه، بل حول غرسِ الرَّحمنِ «**الإيمان في قلبه**» حتَّى يُزيلَه ويُطَهِّرَه منه.

* * *

فصل

٤٣٣١- هَذَا وَلَيْسَ الطَّعْنُ بِالإِطْلاقِ فِيـ ـهَا كُلِّها فِعْلَ الـجَهُولِ الـجَانِي
٤٣٣٢- بَلْ فِي الَّتِي قَدْ خَالَفَتْ قَوْلَ الرَّسُو لِ وَمُحْكَمَ الإِيـمَانِ وَالفُرْقَانِ
٤٣٣٣- أَوْ فِي الَّتِي مَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ فِي تَقْرِيرِهَا يَا قَوْمُ مِنْ سُلْطَانِ
٤٣٣٤- فَهِيَ الَّتِي كَمْ عَطَّلَتْ مِنْ سُنَّةٍ بَلْ عَطَّلَتْ مِنْ مُحْكَمِ القُرْآنِ
٤٣٣٥- هَـذَا وَنَرْجُو أَنَّ وَاضِعَهَا فَلا يَعْدُوهُ أَجْرٌ، أَوْ لَهُ أَجْرَانِ
٤٣٣٦- إِذْ قَالَ مَبْلَغَ عِلْمِهِ مِنْ غَيْرِ إِيـ ـجَابِ القَبُولِ لَهُ عَلَى إِنْسَانِ
٤٣٣٧- بَلْ قَدْ نَهَانَا عَنْ قَبُولِ كَلامِهِ نَصًّا بِتَقْلِيدٍ بِلا بُرْهَانِ
٤٣٣٨- وَكَذَاكَ أَوْصَانَا بِتَقْدِيمِ النُّصُو صِ عَلَيْهِ مِنْ خَبَرٍ وَمِنْ قُرْآنِ
٤٣٣٩- نَصَحَ العِبَادَ بِذَا وَخَلَّصَ نَفْسَهُ عِنْدَ السُّؤَالِ لَـهَا مِنَ الدَّيَّانِ
٤٣٤٠- وَالخَوْفُ كُلُّ الخَوْفِ فَهْوَ عَلَى الَّذِي تَرَكَ النُّصُوصَ لِأَجْلِ قَوْلِ فُلانِ
٤٣٤١- فَإِذَا بَغَى الإِحْسَانَ أَوَّلَـهَا بِـمَا لَوْ قَالَهُ خَصْمٌ لَهُ ذُو شَانِ
٤٣٤٢- لَرَمَاهُ بِالدَّاءِ العُضَالِ مُنَادِيًا بِفَسَادِ مَا قَدْ قَالَهُ بِأَذَانِ

الشرحُ

لـمَّا ذَكَرَ -رحمه الله- الطَّعنَ في أقوالِ مَنْ خَالَفَ الكتابَ والسُّنَّةَ قال:

٤٣٣١- هَذَا وَلَيْسَ الطَّعْنُ بِـالإِطْلَاقِ فِيـــ ـــهَا كُلِّها فِعْلَ الــجَهُولِ الــجَانِي

يعني: نحن إذا طَعَنَّا في أقوالِ هؤلاء فلا نطعنُ فيها على الإطلاقِ كما يفعلُ الجَهولُ الجاني الذي يطعنُ في أقوالِنا على الإطلاقِ.

٤٣٣٢- بَلْ فِي الَّتِي قَدْ خَالَفَتْ قَوْلَ الرَّسُو لِ وَمُحْكَـــمَ الإِيـــمَانِ وَالفُرْقَـــانِ

وهذا من العدلِ ألَّا نطعنَ إلَّا فيما خَالَفَ القرآنَ والسُّنَّةَ، وهذا هو الواجبُ على الإنسانِ، أن يكونَ عدلًا يقبلُ الحقَّ ممَّن جاء به ويَرُدُّ الباطلَ ممَّن جاء به، فيكونُ مرادُه الحقَّ.

٤٣٣٣- أَوْ فِي الَّتِـــي مَـــا أَنْـــزَلَ الـــرَّحْمَنُ فِي تَقْرِيرِهَـــا يَـــا قَـــوْمُ مِـــنْ سُـــلْطَانِ

يعني: نطعنُ فيما خَالَفَ أو في شيءٍ لم ينزل به سلطانٌ من الله يُقرِّرُه، فأقوالُ النَّاسِ ثلاثةُ أقسامٍ:

الأوَّل: قولٌ وَافَقَ الدَّليلَ فهو مقبولٌ من أيِّ شخصٍ.

الثَّاني: قولٌ خَالَفَ الدَّليلَ فهو مردودٌ.

الثَّالث: قولٌ لم يُنَزِّل اللهُ به من سلطانٍ، ويُطْلَبُ فيه الدَّليلُ، ولكن لا دليلَ، فهذا مردودٌ أيضًا.

ولهذا قال: نَرُدُّ شَيْئَيْنِ: ما خَالَفَ قولَ الرَّسولِ، والذي لم ينزل اللهُ في تقريرِه من سلطانٍ، أمَّا ما وَافَقَ قولَ الرَّسولِ فإنَّنا نقبلُه وإن كان من أقوالِ هؤلاء الفلاسفةِ أو المناطقةِ.

٤٣٣٤- فَهِيَ الَّتِي كَـمْ عَطَّلَـتْ مِـنْ سُـنَّةٍ بَـلْ عَطَّلَـتْ مِـنْ مُحْكَـمِ القُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «فَهِيَ الَّتِي»؛ أي: هذان النَّوْعَانِ من الأقوالِ، «كَمْ عَطَّلَتْ مِنْ سُنَّةٍ،

بَلْ عَطَّلَتْ مِنْ مُحْكَمِ القُرْآنِ»، وهذا واضحٌ.

٤٣٣٥- هَـذَا وَنَرْجُـو أَنَّ وَاضِـعَهَا فَـلا يَعْـدُوهُ أَجْـرٌ، أَوْ لَـهُ أَجْـرَانِ

يعني: نرى أَنَّ مَنْ قالها عن اجتهادٍ فلا يخلو من أجرٍ أو أجرينٍ، فهو يأخذُ الأجرين إذا أَصَابَ، وواحدًا إذا أخطأ.

٤٣٣٦- إِذْ قَالَ مَبْلَغَ عِلْمِهِ مِنْ غَيْرِ إِيـ ـجَابِ القَبُولِ لَهُ عَلَى إِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «**إِذْ قَالَ مَبْلَغَ عِلْمِهِ**»؛ يعني: وجهُ أَنَّه مأجورٌ أَنَّه قال (**مَبْلَغَ عِلْمِهِ**)، وكُلُّ إنسانٍ قال مَبْلَغَ علمِه فإنَّه لا يُلامُ.

قَوْلُهُ: «**مِنْ غَيْرِ إِيجَابِ القَبُولِ لَهُ عَلَى إِنْسَانِ**» الله أكبر، وهذا هو العدلُ؛ إذ أَنَّه قال مَبْلَغَ علمِه، ولم يقل: يجبُ على النَّاسِ أن يتَّبعوه، وهذا هو العالِـمُ الرَّبَّانيُّ الذي يُبيِّنُ الحقَّ في نظرِه، ولا يقولُ للنَّاسِ: يلزمُكم أن تتَّبعوا قولي.

إذَنْ هو قال مَبْلَغَ علمِه؛ لأَنَّه بَحَثَ ونَظَرَ في الأدلَّةِ وفي أقوالِ العلماءِ حتَّى وَصَلَ إلى هذا الرَّأيِ، فهذا مَبْلَغُ علمِه، واللهُ يقولُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، ومع ذلك لـمَّا قال هذا الرَّأيَ لم يوجبْه على أحدٍ، ولا يحلُّ لأحدٍ أن يُوجِبَ القولَ بما قال على أيِّ أحدٍ من النَّاسِ أبدًا، إلَّا أن يدَّعِيَ أَنَّه رسولٌ.

فأنت إذا رَأَيْتَ رأيًا فإنه لا يحلُّ لك أن تُلزِمَ النَّاسَ به؛ لأَنَّ غيرَك قد يرى خلافَك، أمَّا إذا كان لك سُلطةٌ وكان قولُك هو الحقَّ فهنا تُلْزِمُهم بالموافقةِ بالظَّاهرِ.

مثالُ ذلك: رجلٌ له سلطةٌ يرى أَنَّ شربَ الدُّخانِ حرامٌ، ومن النَّاسِ مَنْ يَرَى أَنَّه حلالٌ، هنا يُلْزِمُ النَّاسَ في ظاهرِ حالِهم بما يرى أَنَّه حرامٌ إذا كان له سُلطةٌ؛

لأنَّنا لو لم نَقُلْ بهذا لأصبح النَّاسُ فوضى؛ ولهذا ألزم عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النَّاسَ ألَّا يرجعوا إلى نسائِهم إذا طلقوهُنَّ ثلاثًا؛ لئلَّا يحصلَ اللَّعِبُ بآياتِ الله عزَّ وجلَّ(١)، وهذا في المسائلِ الاجتهاديَّةِ القابلةِ للأخذِ والرَّدِّ.

وأمَّا إذا كان الاستدلالُ صحيحًا والدَّليلُ صحيحًا، لَزِمَهم الأخذُ بقولِه، لا لأنَّه قولُ فلانٍ، ولكن لأنَّه مقتضى الدَّليلِ، وهذا متَّفقٌ عليه بين العلماءِ، فليس للإنسانِ أن يُجْبِرَ النَّاسَ على الأخذِ بقولِه، لكن عليه أن يُجبرَهم على الأخذِ بالدَّليلِ؛ لأنَّ هذا كلامُ الله أو كلامُ رسولِه، لا لأنَّه قاله، مثلًا لو قال: «**الميتةُ حرامٌ**» هنا يلزمُهم أن يأخذوا بأنَّ الميتةَ حرامٌ؛ لأنَّ الله قاله، لا لأنَّ فلانًا قاله.

٤٣٣٧- بَلْ قَدْ نَهَانَا عَنْ قَبُولِ كَلامِهِ نَصًّا بِتَقْلِيدٍ بِلا بُرْهَانِ

مَن الذي نهانا؟ الجوابُ: الذي قال برأيه مجتهدًا قال: لا تُقلِّدوني إلَّا ببرهانٍ، انظر كلامَ الأئمَّةِ، ولاسيَّما الأئمَّةُ المتبوعون الأربعةُ: أبو حنيفةَ، ومالكٌ والشَّافعيُّ، وأحمدُ، رحمهم اللهُ جميعًا، تجدُ كُلَّ كلامِهم يَنْهَوْنَ عن تقليدِ آراءِ الرِّجالِ، ويقولونُ بلسانِ المقالِ أو بلسانِ الحالِ: «**إذا خالَفَتْ أقوالُنا قولَ الرَّسولِ فاضربوا بها عُرْضَ الحائطِ**»، كُلُّهم يقولُ هذا إمَّا بهذا اللَّفظِ أو بمعناه، وهذا هو الحقُّ والله، ليس الحقَّ أن يقولَ الإنسانُ بلسانِ حالِه أو بمقالِه: يا جماعة لا تخرجوا عن قولي، ثُمَّ يغضبُ إذا رأى النَّاسَ خرجوا عن قولِه.

أقولُ: إنَّ كُلَّ شخصٍ يريدُ من النَّاسِ أنْ يتَّبعوا قولَه ويرى أنَّ ذلك واجبٌ، فإنَّه قد جعل نفسَه شريكًا للرَّسولِ ﷺ؛ لأنَّه لا أحدَ يجبُ اتِّباعُ قولِه إلَّا الرَّسول صلى الله عليه وسلم.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطلاق، باب طلاق الثلاث، رقم (١٤٧٢).

٤٣٣٨- وَكَـذَاكَ أَوْصَـانَا بِتَقْـدِيمِ النُّصُـو صِ عَلَيْـهِ مِـنْ خَـبَرٍ وَمِـنْ قُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ أَوْصَانَا»؛ يعني: المجتهد مِنَّا معشرَ أهلِ السُّنَّةِ «**أَوْصَانَا بِتَقْدِيمِ النُّصُوصِ عَلَيْهِ**»؛ يعني: على قولِه «**مِنْ خَبَرٍ وَمِنْ قُرْآنِ**»، هذا يقولُه المؤلِّفُ.

٤٣٣٩- نَصَحَ العِبَـادَ بِـذَا وَخَلَّـصَ نَفْسَـهُ عِنْـدَ السُّـؤَالِ لَـهَا مِـنَ الـدَّيَّانِ

أي: نَصَحَ العبادَ بألَّا يتَّبعوا قولَه بلا حُجَّةٍ، ونَصَحَهم حيث اجتهد وبَالَغَ في الاجتهادِ وقال مَبْلَغَ علمِه، واجتهد فَبَيَّنَ للعبادِ، فقال: أنا أرى هذا حلالًا، أرى هذا حرامًا، أرى هذا واجبًا، هذا هو النُّصحُ أن يُبَيِّنَ للنَّاسِ ما ظَهَرَ له من نصوصٍ، ثُمَّ خَلَّصَ نفسَه عند السُّؤالِ لها من الدَّيَّانِ، خَلَّصَ نفسَه لـمَّا قال: أنا لستُ نبيًّا، لستُ واجبَ الاتِّباعِ، أنا أقولُ لكم: «**هذا مَبْلَغُ عِلْمِي، هذا محطُّ اجتهادي، ولستُ نبيًّا أُلزِمُكم بقولي**»، فهو خَلَّصَ نفسَه، ويوم القيامةِ إذا سأله اللهُ قال: يا ربِّ ما ألزمتُ عبادَك بما أقولُ لكنِّي اجتهدتُ لهم وقلتُ مَبْلَغَ علمي، وهذا غايةُ جهدي، فيكون بذلك قد جَمَعَ بين حُسْنَيَيْنِ:

الأولى: بيان الحقِّ حسب رأيه.

والثَّانية: نهي النَّاسِ عن أن يأخذوا بقولِه بلا برهانٍ.

٤٣٤٠- وَالخَوْفُ كُلُّ الخَوْفِ فَهْوَ عَلَى الَّذِي تَرَكَ النُّصُوصَ لِأَجْلِ قَـوْلِ فُـلانِ

نَعَم، واللهِ هذا هو الخوفُ؛ أن يتركَ الإنسانُ النَّصَّ، ويقولَ: قال فلانٌ، تقولُ: قال رسولُ اللهِ، ويقولُ: قال فلانٌ، لو قلت: قال رسولُ اللهِ، فقال: قال أبو بكر: هل يُخَافُ عليه أم لا؟ أليس الرَّسولُ قال: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ**

الرَّاشِدِينَ»[١]، فبدأ بسنَّتِه، فهي مقدَّمةٌ على كُلِّ سُنَّةٍ؛ ولهذا يُرْوَى عن ابن عبَّاسٍ أنَّه قال: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ كَمَا نَزَلَتْ عَلَى قَوْمِ لُوطٍ؛ أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله، وتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»[٢]، هذا وهما أبو بكرٍ وعمر اللَّذان رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال فيهما رسولُ الله ﷺ: «**اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ**»[٣]، وقال: «**إِنْ يُطِيعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ يَرْشُدُوا**»[٤]، ومع ذلك لو عَارَضْتَ قولَ الرَّسولِ بقولَيْهما لأوشكَ أن تنزلَ عليك حجارةٌ من السَّماءِ.

وهل التَّعصُّبُ إلى الأئمَّةِ وتقديمِ أقوالِهم على قولِ الرَّسولِ ﷺ هل يصلُ إلى الكفرِ؟

الجوابُ: لا، لا يصلُ إلى الكفرِ؛ لأنَّ غالبَ الذين يتعصَّبون للأئمَّةِ جُهَّالٌ عامَّةٌ؛ لأنَّك تجدُه يتعصَّبُ لهذا الإمامِ، لا لأنَّه يقدِّمُه على الرَّسولِ، لكن يقولُ: لأنَّ الإمامَ أعلمُ منك أنت، فقد تخفى عليك أحاديثُ لم تَخْفَ على الإمامِ، فأكثرُ ما يُحاجُّون به هذا، يقولُ: هل أنت أعلمُ من أحمدَ بنِ حنبلٍ؟ فإن قلت: نعم، يا ويلك منه، وإن قلت: لا، قال: إذَنْ أَقْرَرْتَ على نفسِك بأنَّك أقصرُ منه، فهو أعلمُ منك.

٤٣٤١- فَإِذَا بَغَى الإِحْسَانَ أَوَّلَهَا بِمَا ... لَوْ قَالَهُ خَصْمٌ لَهُ ذُو شَانِ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨/ ٣٧٣، رقم ١٧١٤٤). وأبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٧).

(٢) أوردهُ شيخُ الإسلامِ في الفتاوى (٢٠/ ٢١٥، ٢٦/ ٥٠، ٢٨١)، والإمامُ ابنُ القيمِ في إعلامِ الموقعين (٢/ ٢٣٨)، والزاد (٢/ ١٩٥)، والصواعق المرسلة (٣/ ١٠٦٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٧٣٤)، والترمذي: كتاب المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا كليهما، رقم (٣٦٦٢)، وابن ماجه في المقدمة، باب فضل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، رقم (٩٧).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها، رقم (٦٨١).

٤٣٤٢- لَرَمَــاهُ بِالــدَّاءِ العُضَــالِ مُنَادِيًــا   بِفَسَــادِ مَــا قَــدْ قَالَــهُ بِــأَذَانِ

قَوْلُهُ: «وَإِذَا بَغَى الإِحْسَانَ أَوَّلَـهَا» إذا بغى الإحسانَ فأراد أن يُوفِّقَ بين قولِ فلانٍ وبين النُّصوصِ فإنه يُؤوِّلُها تأويلَ تحريفٍ، لا تأويلَ تفسيرٍ، فالمرادُ أوَّلها تأويلَ تحريفٍ لأجل أن تُوافِقَ قولَ فلانٍ؛ مثل ما أوَّل دعاةُ الاشتراكيَّةِ، فدعاةُ الاشتراكيَّةِ قالوا: الاشتراكيَّةُ من الإسلامِ، كما قال الشَّاعر:

(الإِشْــتِرَاكِيُّونَ أَنْــتَ إِمَــامُهُمْ)[1]   ....

واقرأ قولَ الله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [الروم:٢٨]، ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ هذه الاشتراكيَّةُ، وهل غيرُ كلام الله شيءٌ؟ إذَنْ هذا من التَّأويلِ، فهم تَبِعُوا إمامَ الاشتراكيَّةِ، وقالوا: هذا القرآنُ يدلُّ عليها، أوَّلوا تأويلَ تحريفٍ؛ لأنَّ المعنى أنَّ اللهَ يُنكِرُ على هؤلاء، هل عبيدُكم يشاركونكم في الرِّزق ويكونون معكم سواء؟ هذا إنكارٌ ونفيٌ، فإذا كان عبيدُكم لا يُشاركونكم فيما رزقناكم فكيف تجعلون عبيدي يشاركونني في العبادة؟! وهذا خلافُ العدلِ.

قَوْلُهُ: «لَوْ قَالَهُ خَصْمٌ لَهُ ذُو شَانٍ لَرَمَاهُ بِالدَّاءِ العُضَالِ... إلخ» وصدق رحمه اللهُ؛ يعني: لو أنَّ غيرَه أوَّلها هذا التَّأويلَ لرماه بالدَّاءِ العُضَالِ، وقال: أنت مُحرِّفٌ، أنت مرتدٌّ، أنت ضالٌّ، وما أشبه ذلك.

وخُلاصةُ هذا الفصلِ: أنَّ الواجبَ على الإنسانِ أن يقولَ العدلَ، واذا جاء الحقُّ من عدوٍّ فاقبلْه، وإذا جاء الباطلُ من صديقٍ فرُدَّه.

---

(١) جزء من بيت أحمد شوقي، في ديوانه (١/ ٣٧)، وتمامه:
....   لَوْلَا دَعَاوَى الْقَوْمِ وَالْغُلَوَاءُ

فصــل

في لازِمِ المَذْهَبِ هَلْ هُوَ مَذْهَبٌ أَمْ لا؟

٤٣٤٣- وَلَـوَازِمُ الْــمَعْنَى تُـرَادُ بِـذِكْرِهِ ... مِـنْ عَـارِفٍ بِلُزُومِهَـا الـحَقَّانِي

٤٣٤٤- وَسِــوَاهُ لَــيْسَ بِــلازِمٍ فِي حَقِّــهِ ... قَصْــدُ اللَّــوَازِمِ وَهْــيَ ذُو تِبْيَــانِ

٤٣٤٥- إِذْ قَدْ يَكُونُ لُزُومُهَا المَجْهُـولَ، أَوْ ... قَــدْ كَــانَ يَعْلَمُــهُ بِــلا نُكْــرَانِ

٤٣٤٦- لَكِــنْ عَرَتْــهُ غَفْلَــةٌ بِلُزُومِهَــا ... إِذْ كَــانَ ذَا سَــهْوٍ وَذَا نِسْــيَانِ

٤٣٤٧- وَلِذَاكَ لَـمْ يَكُ لازِمًا لِـمَذَاهِبِ الْـ ... ــعُلَمَاءِ مَــذْهَبُهُمْ بِــلا بُرْهَــانِ

٤٣٤٨- فَالـمُقْدِمُونَ عَلَى حِكَايَـةِ ذَاكَ مَـذْ ... هَــبُهُمْ أُولُــو جَهْــلٍ مَعَ العُـدْوَانِ

٤٣٤٩- لا فَــرْقَ بَــيْنَ ظُهُــورِهِ وَخَفَائِــهِ ... قَـدْ يَـذْهَلُونَ عَـنِ اللُّـزُومِ الـدَّانِي

٤٣٥٠- سِــيَّمَا إِذَا مَــا كَــانَ لَــيْسَ بِــلازِمٍ ... لَكِــنْ يَظُــنُّ لُزُومَــهُ بِجَنَــانِ

٤٣٥١- لا تَشْــهَدُوا بِـالزُّورِ وَيُحْكُــمُ عَـلَى ... مَــا تَلْزَمُــونَ شَــهَادَةَ البُهْتَــانِ

٤٣٥٢- بِخِــلافِ لازِمِ مَــا يَقُــولُ إِلَــهُنَا ... وَنَبِيُّنَــا المَعْصُــومُ بِالبُرْهَــانِ

٤٣٥٣- فَلِــذَا دَلالاتُ النُّصُــوصِ جَلِيَّــةٌ ... وَخَفِيَّــةٌ تَخْفَــى عَــلَى الأَذْهَــانِ

٤٣٥٤- وَاللهُ يَـرْزُقُ مَــنْ يَشَــاءُ الفَهْــمَ فِي ... آيَاتِــهِ رِزْقًــا بِــلا حُسْــبَانِ

٤٣٥٥- وَاحْذَرْ حِكَايَاتٍ لأَرْبَـابِ الكَـلا ... مِ عَنِ الـخُصُومِ كَثِيرَةَ الــهَذَيَانِ

٤٣٥٦- فَحَكَـوْا بِـمَا ظَنُّـوهُ يَلْـزَمُهُمْ فَقَـا لُـوا ذَاكَ مَـذْهَبُهُمْ بِـلا بُرْهَـانِ

٤٣٥٧- كَـذَبُوا عَلَـيْهِمْ بَـاهِتِينَ لَـهُمْ بِـمَا ظَنُّـوهُ يَلْـزَمُهُمْ مِـنَ البُهْتَـانِ

٤٣٥٨- فَحَكَى المُعَطِّلُ عَنْ أُولِي الإِثْبَاتِ قَـوْ لَـهُمُ بِـأَنَّ اللهَ ذُو جُـثْمَانِ

٤٣٥٩- وَحَكَى الـمُعَطِّلُ أَنَّهُمْ قَـالُوا بِـأَنْ نَ اللهَ لَـيْسَ يُـرَى لَنَـا بِعِيَـانِ

٤٣٦٠- وَحَكَى الـمُعَطِّلُ أَنَّهُمْ قَـالُوا يَجُـو زُ كَلامُـهُ مِـنْ غَـيْرِ قَصْـدِ مَعَـانِي

٤٣٦١- وَحَكَى الـمُعَطِّلُ أَنَّهُمْ قَالُوا بِتَحْـ ـيِيزِ الإِلَـهِ، وَحَصْـرِهِ بِمَكَـانِ

٤٣٦٢- وَحَكَى الـمُعَطِّلُ أَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ الْـ أَعْضَـاءُ جَـلَّ اللهُ عَـنْ بُهْتَـانِ

٤٣٦٣- وَحَكَى المُعَطِّلُ أَنَّ مَذْهَبَهُمْ هُـوَ التْـ ـتَشْبِيهُ لِلْخَـلَّاقِ بِالإِنْسَـانِ

٤٣٦٤- وَحَكَى الـمُعَطِّلُ عَنْهُمُ مَا لَـمْ يَقُو لُـوهُ وَلا أَشْـيَاخُهُمْ بِلِسَـانِ

الشـرحُ

هذا الفصلُ مهمٌّ جدًّا: هل لازمُ المذهبِ مذهبٌ؟

والجوابُ: إذا كان القائلُ عارفًا بلوازمِ كلامِه فإنَّها حقٌّ، وتُعْتَبَرُ من قولِه.

لكن مَن الذي يعرفُ بلوازمِ كلامِه؟

الجوابُ: هو اللهُ ورسولُه.

ولهذا نقولُ: لوازمُ الكتابِ والسُّنَّةِ من الكتابِ والسُّنَّةِ؛ إِلَّا أَنَّه يُشْكِلُ على هذا أنَّ الرَّجُلَ قد يظنُّ هذا لازمًا وليس بلازمٍ، فالمعطِّلةُ الآن يَرَوْنَ أنَّ إثباتَ الصِّفاتِ يلزمُ منه التَّمثيلُ، فيقولون لأهلِ الإثباتِ: لازمُ إثباتِكم للصفاتِ أنَّ اللهَ

مماثلٌ للعبادِ، وهذا منهم إمَّا أن يكونَ ظنًّا، وإمَّا أن يكونَ عدوانًا.

إذَنْ إذا قال نافي الصِّفاتِ للمُثبتِ لها: يلزمُك من إثباتِ هذه الصِّفةِ أن يكونَ اللهُ مماثلًا للخلقِ، وهي موجودةٌ في القرآنِ، هل نلتزمُ بهذا؟

فالجوابُ: لا، بل نقولُ: هذا لازمٌ عند فَهْمِك.

لكن إذا قال قائلٌ: إنَّ اللهَ تعالى خالقُ كُلِّ شيءٍ، فهل يلزمُ أن يكونَ عالمًا بأحوالِ العبادِ؟

فالجوابُ: نعم، لأنَّه لا خَلْقَ إلَّا بعلمٍ، ولهذا قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

أمَّا غيرُ الكتابِ والسُّنَّةِ من أقوالِ العلماءِ، فهل لازمُ المذهبِ مذهبٌ؟

والجوابُ: لا، إلَّا لعارفٍ، لكن لنا أن نُلْزِمَ هذا المتمَذْهِبَ بالرُّجوعِ عن مذهبِه بذِكرِ لازمِه، ولا نقولُ: يقولُ بكذا.

٤٣٤٣- وَلَوَازِمُ الْمَعْنَى تُرَادُ بِذِكْرِهِ مِنْ عَارِفٍ بِلُزُومِهَا الْحَقَّانِي

أوَّلًا: هل لازمُ الكلام ملزومٌ للقائلِ أو لا؟ يقولُ ابنُ القيِّمِ رحمه الله: إنَّه لا يُلْزَمُ القائلُ بلازمِ كلامِه إلَّا إذا كان عارفًا باللَّازمِ، فيحتاجُ إلى مسألتين: أن يُقِرَّ بأنَّه من اللَّازمِ، وأن يعرفَ أنَّه من اللَّازمِ، فإذا أَقَرَّ به وقد عرفه صار هذا اللَّازمُ قولًا له، بشرط أن يعترفَ بأنَّه لازمٌ، أمَّا إذا منع فسيأتي -إن شاء اللهُ تعالى- الكلامُ عليه.

٤٣٤٤- وَسِوَاهُ لَيْسَ بِلازِمٍ في حَقِّهِ قَصْدُ اللَّوَازِمِ وَهْيَ ذُو تِبْيَانِ

فسوى الله ورسولِه وسوى العارفِ بكلامِه، «لَيْسَ بِلَازِمٍ في حَقِّه قَصْدُ

اللَّوَازِمِ، وَهْيَ ذُو تِبْيَانِ»، وفي نسخة: «**ذَاتُ بَيَانِ**»؛ يعني: سوى مَنْ لا يعرفُ لازمَ كلامِه لا يكونُ لازمًا له، أما لماذا؟ فقال:

٤٣٤٥- **إِذْ قَدْ يَكُونُ لُزُومُهَا المَجْهُولَ، أَوْ ... قَدْ كَانَ يَعْلَمُهُ بِلا نُكْرَانِ**

٤٣٤٦- **لَكِنْ عَرَتْهُ غَفْلَةٌ بِلُزُومِهَا ... إِذْ كَانَ ذَا سَهْوٍ وَذَا نِسْيَانِ**

يقول: ليس بلازم قَصْدُ اللَّوازمِ، وبَيَّنَ السَّببَ فقال: «**إِذْ قَدْ يَكُونُ لُزُومُهَا المَجْهُولَ**»؛ يعني: مجهولًا له، إذ قد يكونُ اللَّازمُ مجهولًا للمتكلِّمِ؛ يعني: لم يظنَّ أَنَّه يلزمُ من كلامِه هذا المعنى، ولو ظنَّ لرجع عن قولِه، مثلًا لو قال: إنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- بذاتِه في كُلِّ مكانٍ، يلزمُ على هذا القولِ أن يكونَ اللهُ في المواضعِ القذرةِ، وأنْ يكونَ متجزِّئًا، وأن يكونَ متعدِّدًا، ولا شكَّ أنَّ هذا اللَّازمَ باطلٌ، فهل هذا يُعْتَبَرُ قولًا لِـمَنْ قال: إنَّ اللهَ بذاتِه في كُلِّ مكانٍ؟

يُنْظَرُ؛ فإذا كان قد عرف أنَّ هذا لازمُ قولِه والتزمه صار قولًا له وإن لم ينطق به، وإن كان لا يعلمُ أنَّه لازمُ قولِه؛ بأن يكونَ قد غفل أو جَهِلَ أو نَسِيَ أو امتنع من أن يكونَ لازمًا، قال: أبدًا، هذا لا يلزمُ أن يكونَ في القاذوراتِ وغيرِها، فإنَّه لا يكونُ قولًا له؛ ولهذا إذا تكلَّم العلماءُ على أحدٍ قال قولًا خاطئًا يلزمُ على قولِه شيءٌ باطلٌ، لم يجعلوا هذا اللَّازمَ قولًا له؛ ولهذا يقولون: يلزمُ من هذا القولِ، ولا يقُولون: هذا اللَّازمُ قولٌ للقائلِ؛ لوجوهٍ ثلاثةٍ:

الوجه الأَوَّل: لأَنَّه قد يكونُ جاهلًا بهذا اللَّازمِ، وإذا كان جاهلًا به كيف يُقَالُ: إنَّه من أقوالِه؟!

الوجه الثَّاني: قد تكونُ اعترَتْه غفلةٌ ونسيانٌ؛ يعني: يعلم أنَّه يلزمُ لكن نَسِيَ، فكيف نقولُ: إنَّ الرَّجُلَ النَّاسيَ لهذا اللازمِ يُجْعَلُ اللَّازمُ قولًا له؟! وأنتم أحيانًا قد

تمُرُّ بكم نصوصٌ فتستحضِرون لها معانيَ، وتستفيدون منها فوائدَ، فإذا مَرَّت بكم أخرى وجدتم أنفسَكم قد نسيتم أو غفلتم.

الوجه الثَّالث: قد يمنعُ هذا اللَّازمَ، ويقولُ: لا يلزمُ على قولي كذا وكذا، وحينئذٍ لا يكونُ قولًا له.

فما دامت الاحتمالاتُ الثَّلاثةُ واردةً على اللَّازمِ؛ فإنَّه لا يُجْعَلُ لازمُ القولِ قولًا لقائلِه كما سيأتي.

٤٣٤٧- وَلِذَاكَ لَمْ يَكُ لازِمًا لِمَذَاهِبِ الْـ ـعُلَمَاءِ مَذْهَبُهُمْ بِلا بُرْهَانِ

يعني: ما كان لازمًا من أقوالِ العلماءِ فلي من مذاهبِهم، فإذا كان يلزمُ على قولِ هذا العالِـمِ كذا، فليس قولًا له، وإذا كان يلزمُ على هذا المذهبِ كذا، فليس مذهبًا، حتَّى يُورَدَ هذا اللَّازمُ على القائلِ، ثُمَّ يقول: نعم، هذا يلزمُ على قولِي وأنا مُلْتَزِمٌ به، فحينئذٍ يكونُ اللَّازمُ قولًا.

فصار لازمُ القولِ ليس بقولٍ إلَّا إذا عرفه القائلُ والتزم به؛ فإن لم يَعْرِفْه فليس له بقولٍ، وإن عرفه ورَدَّه، فقال: «**لا يلزمُ من قولي كذا وكذا**» فليس بقولٍ له.

فإذا قال قائلٌ: إذا كنَّا نجهلُ: هل الرَّجُلُ الذي قال هذا القولَ يعلمُ أنَّ قولَه يستلزمُ هذا القولَ أو لا يعلمُ؟ فالأصلُ أنَّه لا يعلمُ؛ لأنَّ الأصلُ عدمُ العلمِ، والأصلُ عدمُ التزامِه.

٤٣٤٨- فَالـمُقْدِمُونَ عَلَى حِكَايَةِ ذَاكَ مَذْ هَبُهُمْ أُولُو جَهْلٍ مَعَ العُدْوَانِ

يعني: المُقْدِمُون على أن يحكوا لازمَ القولِ قولًا هؤلاء جُهَّالٌ وذوو عدوانٍ؛

لأنَّ القائلَ إذا أُورِدَ عليه اللَّازمُ فإنْ قَبِلَهُ والتزمه فهو قولٌ له، وإن ردَّه وأنكره وقال: «**هذا لا يلزمُ**» فليس قولًا له.

فإن قال قائلٌ: هذه الأقوالُ المُنْكَرَةُ في بابِ الصِّفاتِ وغيرِها إذا كان يلزمُ عليها لوازمُ باطلةٌ لماذا لم يرجع عنها أصحابُها؟

نقولُ: هل عندك علمٌ أنَّها بَلَغَتْهُم؟ لا، ما ندري، رُبَّما كانوا لا يُلْزَمُونَ بها، وكانوا قد جهلوا هذا اللَّازمَ أو نسوه، وكثيرًا ما يُقَالُ للقائِلِ: إنَّه يلزمُ من كلامِك كذا وكذا، ثُمَّ يرجعُ إذا عَلِمَ أنَّ اللَّازمَ باطلٌ فإنَّ الملزومَ باطلٌ عند العقلاءِ كُلِّهم.

٤٣٤٩- لا فَـرْقَ بَـيْنَ ظُهُـورِهِ وَخَفَائِـهِ قَـدْ يَـذْهَلُونَ عَـنِ اللُّـزُومِ الـدَّانِي

يعني: أنَّ الذين يُقْدِمونَ على حكايةِ اللَّازمِ أنَّه مذهبٌ للقائلِ لا يُفَرِّقون بين اللَّازمِ الظَّاهرِ واللَّازمِ الخفيِّ؛ لأنَّ اللَّوازمَ -كما تعلمون- قد تكونُ ظاهرةً، فلو قلت: «**صَنَعَ فلانٌ البابَ**»، فاللَّازمُ ممَّن صنعه أن يكونَ قادرًا، وأن يكونَ عالمًا، وأن يكونَ عنده موادُّ.

إذَنْ نقولُ: هذا الذي صَنَعَ البابَ عنده قدرةٌ بدنيَّةٌ، وقدرةٌ فكريَّةٌ، وقدرةٌ ماليَّةٌ، من أين عرفنا ذلك؟ الجوابُ: من أنَّه لا يمكنُ صنعُ البابِ إلَّا بهذا، وهذا ظاهرٌ، وقد يكونُ اللُّزومُ خفيًّا لا يُدْرِكُه كُلُّ أحدٍ، فكونُنا لا نفرِّقُ بين الخفيِّ والظَّاهرِ لا شكَّ أنَّه زورٌ؛ ولهذا قال: «**لَا فَرْقَ بَيْنَ ظُهُورِهِ وَخَفَائِهِ**» حيث يجعلون لازمَ المذهبِ مذهبًا، «**قَدْ يَذْهَلُونَ عَنِ اللُّزُومِ الدَّانِي**»، و«**الدَّانِي**»؛ يعني: القريب.

٤٣٥٠- سِـيَمَا إِذَا مَـا كَـانَ لَـيْسَ بِـلازِمٍ لَكِـنْ يَظُـنُّ لُزُومَـهُ بِجَنَـانِ

قَوْلُهُ: «**سِيمَا**» بمعنى: لَا سِيَّما.

قَوْلُهُ: «إِذَا مَا كَانَ لَيْسَ بِلَازِمٍ» «مَا» هنا زائدةٌ، ويقولُ القائلُ:

يَـا طَالِـبًا خُـذْ فَائِـدَهْ ... بَعْـدَ (إِذَا) (مَـا) زَائِـدَهْ[1]

فإذا جاءت «مَا» بعد «إِذَا» فهي زائدةٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشُّورى:٣٧]؛ أي: إذا غضبوا، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ﴾ [فصِّلت:٢٠]؛ يعني: حتَّى إذا جاؤوها، وهنا يقولُ المؤلِّفُ رحمه الله: «سِيمَا إِذَا مَا كَانَ لَيْسَ بِلَازِمٍ»؛ يعني: سيما إذا كَانَ ليس بلازمٍ.

قَوْلُهُ: «بِجَنَانِ» الجَنَانُ؛ أي: القلب.

٤٣٥١- لا تَشْـهَدُوا بِـالزُّورِ وَيُحَكُّـمُ عَـلَى ... مَـا تَلْزَمُـونَ شَـهَادَةَ البُهْتَـانِ

قَوْلُهُ: «لَا تَشْهَدُوا بِالزُّورِ» الخطابُ لمن أَلْزَمَ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ لوازمَ غير لازمةٍ لهم، مثاله: قالوا: إنَّكم لو أثبتُّم أنَّ اللهَ مُستوٍ على العرشِ لَزِمَ أن يكونَ محدودًا؛ لأنَّ المستويَ على المحدودِ محدودٌ، نقولُ: لا يلزمُنا هذا.

إذا قالوا: إنَّكم إذا أثبتُّم الوجهَ واليدين لَزِمَكُم أن تُثْبِتُوا أنَّ اللهَ جسمٌ مُركَّبٌ من أعضاء، نقولُ: لا يلزمُ؛ لأنَّ اللهَ ليس كمثلِه شيءٌ، وإذا كان يُقَالُ: وجهُ الثَّوْر لمستقبلِه، ونعلم أنَّه ليس كقولنِا: وجه الإنسان، وإذا كان اللهُ يقولُ عن بعض بني إسرائيلَ: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ [آل عمران:٧٢] فقال: ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾، فجعل للنَّهارِ وجهًا، ومعلومٌ أنَّ وجهَ النَّهارِ؛ يعني: مستقبلَه.

٤٣٥٢- بِخِـلافِ لازِمِ مَـا يَقُـولُ إِلَـهُنَا ... وَنَبِيُّنَـا المَعْصُـومُ بِالبُرْهَـانِ

يعني: فإنَّه مُعْتَبَرٌ ولازمٌ.

(١) ذكره في فتح رب البرية في شرح نظم الآجرومية (ص:١٧٢) بدون قائل.

٤٣٥٣- فَلِذَا دَلالاتُ النُّصُوصِ جَلِيَّةٌ وَخَفِيَّةٌ تَخْفَى عَلَى الأَذْهَانِ

يعني: أنَّ دلالةَ النُّصوصِ على اللَّازمِ تجعلُ اللَّازمَ حُكْمًا ثابتًا، فإذا كان يلزمُ من هذا النَّصِّ كذا وكذا فهو لازمٌ، وهو حقٌّ ولا يمكنُ إنكارُه، لكن الذي يجبُ هنا هو التَّوقُّفُ: هل هذا لازمٌ أو ليس بلازمٍ؛ لأنَّ النَّاسَ يختلفون في فَهْمِ اللَّازمِ اختلافًا كثيرًا، فقد يقولُ قائلٌ: هذا لازمٌ، لهذا وليس بلازمٍ، وقد يكونُ هذا لازمًا للكلامِ، ولكن لم يُدْرِكْه أحدٌ إلَّا واحدٌ من اثنين مثلًا؛ ولهذا يقولُ المؤلِّفُ رحمه الله: «فَلِذَا دَلَالَاتُ النُّصُوصِ جَلِيَّةٌ وَخَفِيَّةٌ»؛ يعني: دلالاتُ النُّصوصِ جليَّةٌ واضحةٌ، وهناك دلالاتٌ خفيَّةٌ تخفى على بعضِ النَّاسِ.

ونحن نضربُ مثلًا لدلالةِ اللُّزومِ، قال اللهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [الطَّلاق:١٢] فيلزمُ من الخلقِ القدرةُ؛ لأنَّ غيرَ القادرِ لا يخلقُ، ويلزم أيضًا العلمُ؛ لأنَّ غيرَ العالمِ لا يخلقُ، ويلزم منه الحياةُ؛ لأنَّ غيرَ الحيِّ لا يخلقُ، ويلزم له الإرادةُ؛ لأنَّه لا فعلَ إلَّا بإرادةٍ.

واللَّوازمُ يختلفُ فيها النَّاسُ اختلافًا كثيرًا، وبعضُها قريبٌ وبعضُها بعيدٌ.

٤٣٥٤- وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ الفَهْمَ في آيَاتِهِ رِزْقًا بِلا حُسْبَانِ

وصَدَقَ رحمه اللهُ، فقد يرزقُ اللهُ الإنسانَ فَهْمًا في كلامِه فَهْمًا لا نظيرَ له، وقد يكونُ الأمرُ بالعكسِ.

٤٣٥٥- وَاحْذَرْ حِكَايَاتٍ لأَرْبَابِ الكَلا مِ عَنِ الخُصُومِ كَثِيرَةَ الهَذَيَانِ

قَوْلُهُ: «احْذَرْ حِكَايَاتٍ لأَرْبَابِ الكَلَامِ»؛ يعني: المتكلِّمين.

قَوْلُهُ: «عَنِ الخُصُومِ»؛ يعني بهم: أهلَ السُّنَّةِ.

٤٣٥٦- فَحَكَوْا بِمَا ظَنُّوهُ يَلْزَمُهُمْ فَقَا　　　لُوا ذَاكَ مَذْهَبُهُمْ بِلا بُرْهَانِ

حَكَوْا عن أهلِ السُّنَّةِ ما يظنُّونه لازمًا لمذهبِهم، فقالوا: هذا مذهبُهم، كما قالوا: (يقولُ أهلُ السُّنَّة: إنَّ اللهَ له أعضاءٌ، وله أجزاءٌ، وأنَّه يتحرَّكُ، وأنَّه يُبْصِرُ شيئًا ولا يُبْصِرُ آخَرَ... إلخ)، فيُوهِّمون على العامَّةِ، ويظنُّون أنَّ هذا هو المذهبُ الصَّحيحُ.

٤٣٥٧- كَذَبُوا عَلَيْهِمْ بَاهِتِينَ لَهُمْ بِمَا　　　ظَنُّوهُ يَلْزَمُهُمْ مِنَ البُهْتَانِ

فهل يلزمُنا نحن إذا أَثْبَتْنَا لله وجهًا وعينًا ويدًا وقَدَمًا أن نكونَ قد مثَّلنا؟

الجوابُ: أبدًا، لا يلزمُ.

وهم يقولون: أنتم ممثِّلةٌ، وهل يلزمُنا أن نقولَ بالتَّجسيمِ؟

الجوابُ: لا يلزمُنا، لكن هم يقولون: أنتم مُجَسِّمةٌ.

وهل يلزمنا أن نقولَ: إنَّ اللهَ له أعضاءٌ؟

الجوابُ: لا، لا يلزمُنا، وهم يقولون: إنَّكم ممثِّلةٌ تقولون بهذا.

٤٣٥٨- فَحَكَى المُعَطِّلُ عَنْ أُولِي الإِثْبَاتِ قَوْ　　　لَهُمُ بِأَنَّ اللهَ ذُو جُثْمَانِ

وهذا من الكذبِ، وقوله: «الجُثْمان»؛ يعني: الجسمَ، يقولُ: إنَّكم تقولون أنتم المُثْبِتَة: إنَّ اللهَ تعالى له سمعٌ، وبصرٌ، ويدٌ، ووجهٌ، إلى آخرِه، وهذا يلزمُ أن يكونَ جسمًا؛ فأنتم مُجسِّمةٌ ومُجَثِّمَةٌ.

٤٣٥٩- وَحَكَى المُعَطِّلُ أَنَّهُمْ قَالُوا بِأَنْ　　　نَ اللهَ لَيْسَ يُرَى لَنَا بِعِيَانِ

يقولُ المعطِّلةُ: إنَّ أهلَ السُّنَّة يقولون: «إنَّ اللهَ لا يُرَى بِعِيانٍ»، وهذا كذبٌ

عليهم، هم يقولون: إنَّ اللهَ يُرَى بالعِيانِ، ومَنْ أنكر الرُّؤيةَ فهو على خطرٍ، ورُبَّما أطلق بعضُهم عليه الكفرَ.

٤٣٦٠- وَحَكَى الـمُعَطِّلُ أَنَّهُمْ قَالُوا يَجُو زُ كَلامُهُ مِنْ غَيْرِ قَصْدِ مَعَانِي

معناه: يجوزُ أن يتكلَّمَ اللهُ عزَّ وجلَّ من غيرِ أن يقصدَ المعنى؛ ولهذا فَصَلُوا اللَّفظَ عن المعنى؛ فمنهم مَنْ قَالَ: إنَّ الكلامَ هو المعاني فقط، ومنهم مَنْ قال: إنَّ الكلامَ هو الألفاظُ فقط، ولكنَّ الكلامَ عند أهل السُّنَّةِ هو اللَّفظُ والمعنى جميعًا.

٤٣٦١- وَحَكَى الـمُعَطِّلُ أَنَّهُمْ قَالُوا بِتَحْـ ـيِيزِ الإِلَـهِ، وَحَصْرِهِ بِمَكَانِ

ولم نَقُل بذلك، لكن هو يزعمُ أنَّك إذا قلتَ: «**إنَّ اللهَ استوى على العرشِ**» لَزِمَ من ذلك أن يكونَ محدودًا محصورًا.

٤٣٦٢- وَحَكَى الـمُعَطِّلُ أَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ الْـ أَعْضَاءُ جَلَّ اللهُ عَنْ بُهْتَانِ

قالوا ذلك لأنهم أثبتوا لله اليدَ، والوجهَ، والعينَ، والسَّاقَ، فقالوا: إذَنْ أنتم مَثَّلْتُم اللهَ عزَّ وجلَّ، فأنتم ممثِّلَةٌ.

٤٣٦٣- وَحَكَى المُعَطِّلُ أَنَّ مَذْهَبَهُمْ هُوَ التَّـ ـشْبِيهُ لِلْخَلَّاقِ بِالإِنْسَانِ

على زعمِهم أنَّ مَنْ أَثْبَتَ لله صفةً فهو مُشَبِّهٌ.

٤٣٦٤- وَحَكَى المُعَطِّلُ عَنْهُمُ مَا لَمْ يَقُو لُوهُ وَلا أَشْيَاخُهُمْ بِلِسَانِ

ولكنَّه كذِبٌ، يحكي عنهم أشياءَ ما قالوها، وليس لها أصلٌ عندهم، ومع ذلك يقولُ: إنَّهم يقولون بهذا اللَّازمِ الباطلِ على زعمِه أنَّه لازمٌ.

* * *

٤٣٦٥- ظَـــنَّ المُعَطِّـــلُ أنَّ هَـــذَا لازِمٌ فَلِــذَا أَتَــى بِــالزُّورِ وَالعُــدْوَانِ

٤٣٦٦- فَعَلَيْـــهِ فِي هَـــذَا مَحَـــاذِيرٌ ثَـــلا ثٌ، كُلُّهَـــا مُتَحَقِّـــقُ الــبُطْلانِ

٤٣٦٧- ظَــنُّ اللُّــزُومِ وَقَــذْفُهُمْ بِلُزُومِــهِ وَتَمَــامُ ذَاكَ شَـــهَادَةُ الكُفْـــرَانِ

٤٣٦٨- يَا شَاهِدًا بِالزُّورِ وَيْلَكَ لَـمْ تَخَـفْ يَــوْمَ الشَّــهَادَةِ سَـطْوَةَ الـدَّيَّانِ

٤٣٦٩- يَـا قَائِـلَ البُهْتَـانِ غَـطِّ لَوَازِمًـا قَـــرَّرْتَ مَلْزُومَاتِهَـــا بِبَيَـــانِ

٤٣٧٠- وَاللهِ لازِمُهَـا انْتِفَـاءُ الـذَّاتِ وَالْــ أَوْصَـــافِ وَالأَفْعَـــالِ لِلـــرَّحْمَنِ

٤٣٧١- وَاللهِ لازِمُهَـا انْتِفَـاءُ الـدِّينِ وَالْــ قُـــرْآنِ وَالإِسْـــلامِ وَالإِيـــمَانِ

٤٣٧٢- وَلُــزُومُ ذَلِـكَ بَـيِّنٌ جِـدًّا لِـمَنْ كَانَـــتْ لَـــهُ أُذْنَـــانِ وَاعِيَتَـــانِ

٤٣٧٣- وَاللهِ لَـوْلا ضِـيقُ هَـذَا الـنَّظْمِ بَيْــ ــيَنْتُ اللُّــزُومَ بِأَوْضَـحِ التِّبْيَـانِ

٤٣٧٤- وَلَقَدْ تَقَدَّمَ مِنْـهُ مَـا يَكْفِـي لِـمَنْ كَانَـــتْ لَـــهُ عَيْنَـــانِ نَاظِرَتَـــانِ

٤٣٧٥- إِنَّ الـذَّكِيَّ بِـبَعْضِ ذَلِـكَ يَكْتَفِـي وَأَخُــو الـبَلادَةِ سَـاكِنُ الـجَبَّانِ

الشرحُ

٤٣٦٥- ظَـــنَّ المُعَطِّـــلُ أنَّ هَـــذَا لازِمٌ فَلِــذَا أَتَــى بِــالزُّورِ وَالعُــدْوَانِ

قَوْلُهُ: «ظَنَّ المُعَطِّلُ أَنَّ هَذَا لَازِمٌ» المُشَارُ إليه: ما رَمَاهُمْ به من التَّشبيهِ وغيرِه.

قَوْلُهُ: «فَلِذَا أَتَى بِالزُّورِ وَالعُدْوَانِ»؛ يعني: أنَّ المعطِّلَ قد يكونُ لمزُه لأهلِ السُّنَّةِ بأنَّهم مُشَبِّهةٌ قد يكونُ ذلك حقيقةً، وقد يكونُ على سبيلِ العدوانِ؛ فلهذا

يقولُ رحمه الله:

٤٣٦٦- فَعَلَيْــهِ فِي هَــذَا مَحَــاذِيرٌ ثَــلا ثٌ، كُلُّهَــا مُتَحَقِّــقُ الــبُطْلانِ

٤٣٦٧- ظَــنُّ اللُّــزُومِ وَقَــذْفُهُمْ بِلُزُومِــهِ وَتَمَــامُ ذَاكَ شَــهَادَةُ الكُفْــرَانِ

الأوَّل: «ظنُّ اللُّزومِ».

الثَّاني: «قَذْفُهم بلزومِه»، حيث قالوا: إنَّه يلزمُ على قولِكم كذا وكذا، ويلزمُ على قولِكم تشبيهٌ، فأنتم وقعتم في الحرامِ، فهذا رميهم بهذا اللَّازمِ على زعمِهم، وهم منه براء.

الثَّالث: «شَهَادَةُ الكُفْرَانِ»؛ يعني: شهادتهم بأنَّهم كفروا؛ لأنَّهم يدَّعون أنَّ إثباتَ الصِّفاتِ يستلزمُ التَّشبيهَ والتَّجسيمَ، وأنَّ التَّشبيهَ والتَّجسيمَ كفرٌ.

فقالوا لأهلِ السُّنَّةِ: أنتم كُفَّارٌ؛ لأنَّكم تمثِّلونَ اللهَ بخلقِه، فتجعلون الخلقَ يعبدون صنمًا، فأنتم كُفَّارٌ، سبحانك هذا بهتانٌ عظيمٌ! يعني: هم الذين كذَّبوا اللهَ ورسولَه؛ لكن ليس تكذيبًا صريحًا، وإلَّا لضربنا أعناقَهم، ثُمَّ يُكفِّرون أهلَ السُّنَّةِ.

٤٣٦٨- يَا شَاهِدًا بِالزُّورِ وَيْلَكَ لَـمْ تَخَـفْ يَــوْمَ الشَّــهَادَةِ سَــطْوَةَ الــدَّيَّانِ

قَوْلُهُ: «الدَّيَّانِ» هو اللهُ عزَّ وجلَّ.

٤٣٦٩- يَــا قَائِــلَ البُهْتَــانِ غَــطِّ لَوَازِمًــا قَــرَّرْتَ مَلْزُومَاتِهَــا بِبَيَــانِ

يعني: غَطِّ أنتَ اللَّوازمَ التي تفضحُك، فإنَّها أشدُّ من اللَّوازمِ التي نَسَبْتَها لنا.

٤٣٧٠- وَاللهِ لازِمُهَــا انْتِفَــاءُ الــذَّاتِ وَالْــ أَوْصَــافِ وَالأَفْعَــالِ لِلــرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «وَاللهِ...» أَقْسَمَ رحمه اللهُ على هذه اللَّوازمِ.

قَوْلُهُ: «لَازِمُهَا انْتِفَاءُ الذَّاتِ وَالأَوْصَافِ وَالأَفْعَالِ لِلرَّحْمَنِ»؛ يعني: أنَّ ما قلته من النَّفي والتَّعطيلِ من لازمِه انتفاءُ ذاتِ الله، وانتفاءُ أوصافِه، وانتفاءُ أفعالِه.

إذا قالوا: إنَّه -سبحانه وتعالى- ليس تحتَ العالمِ، وليس فوقَ العالمِ، ولا يمينَه، ولا شمالَه، ولا متَّصلًا بالعالَـمِ، ولا منفصلًا عن العالمِ، فلو قالُوا بذاك لكن معناه العَدَمُ، وهذا انتفاءُ الذَّاتِ، وهم لم يُقِرُّوا بذلك.

وانتفاءُ الأوصافِ واضحٌ، فهم يصرِّحون بأنَّ اللهَ تعالى لا صفةَ له.

الثَّالث: انتفاءُ الأفعالِ، فهم يُنكرون أنَّ اللهَ يستوي على العرشِ، أو ينزلُ إلى السَّماءِ الدُّنيا، أو يأتي للقضاءِ بين عبادِه، أو يفرحُ، أو يضحكُ، أو يعجب، فكُلُّ هذا مُنتفٍ عن الله عزَّ وجلَّ عندهم، فنَفَوا الأفعالَ.

٤٣٧١- وَالله لازِمُهَـا انْتِفَـاءُ الـدِّينِ وَالْـ ... قُـرْآنِ وَالإِسْـلامِ وَالإِيـمَانِ

إذَنْ قولُ هؤلاءِ يلزمُ منه هذه اللَّوازمُ الباطلةُ التي فيها انتفاءُ ذاتِ الله وصفاتِه وأفعالِه وكلامِه والإسلامِ والإيمانِ، كُلُّ شيءٍ ينتفي؛ لأنَّ تعطيلَهم يؤدِّي إلى أنَّه ليس في الوجودِ إلهٌ يُعْبَدُ ولا يُرْكَعُ له ويُسْجَدُ، وهذا أعظمُ ما يكونُ من التَّعطيلِ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

٤٣٧٢- وَلُـزُومُ ذَلِـكَ بَـيِّنٌ جِـدًّا لِـمَنْ ... كَانَـتْ لَـهُ أُذْنَـانِ وَاعِيَتَـانِ

٤٣٧٣- وَالله لَـوْلا ضِـيقُ هَـذَا الـنَّظْمِ بَيْـ ... ـيَنْتُ اللُّـزُومَ بِأَوْضَـحِ التِّبْيَـانِ

ولكن أحالنا -رحمه الله- على أنْ ننظرَ نحن بأنفسِنا، وننظرَ هذه اللَّوازمَ.

فإذا قال قائلٌ: إنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- لا يُوصَفُ بوجودٍ ولا عَدَمٍ، ولا سمعٍ ولا بصرٍ، ولا صممٍ ولا عمى، ولا أنَّه فوق العالمِ ولا تحته، فماذا يكونُ

هذا غيرَ العدمِ المحضِ، بل هو المستحيلُ؛ لأنَّه لا يمكنُ أن يُوجَدَ شيءٌ لا يُوصَفُ بوجودٍ ولا عَدَمٍ، فكُلُّ شيء فهو إمَّا موجودٌ وإمَّا معدومٌ، دعونا من الحياة والموت؛ فقد يقولُ قائلٌ: الحياةُ والموتُ لا يُوصَفُ بهما إلَّا الحيوانُ بخلافِ غيرِه كالجمادِ والحجرِ، فالحجرُ لا يُوصَفُ بحياةٍ ولا موتٍ.

ولذا نقولُ: الوجودُ والعدمُ لا مفرَّ منهما، لا يمكنُ أن يُوصَفُ شيءٌ بأنَّه لا موجودٌ ولا معدومٌ، إذا نَفَيْتَ وجودَه لَزِمَ أن يكونَ معدومًا، وإذا نَفَيْتَ عَدَمَه لَزِمَ أن يكونَ موجودًا.

٤٣٧٤- وَلَقَدْ تَقَدَّمَ مِنْـهُ مَـا يَكْفِـي لِـمَنْ ... كَانَـتْ لَـهُ عَيْنَـانِ نَاظِرَتَـانِ

قَوْلُهُ: «تَقَدَّمَ»؛ يعني: في كلامِ المؤلِّفِ في هذه القصيدةِ.

قَوْلُهُ: «مَا يَكْفِي»؛ أي: ما يكفي في الرَّدِّ على هؤلاء وبيانِ لوازِمِهم الباطلة.

٤٣٧٥- إِنَّ الذَّكِيَّ بِبَعْضِ ذَلِكَ يَكْتَفِي ... وَأَخُو البَلادَةِ سَاكِنُ الجَبَّانِ

الذَّكيُّ هو الذي يفهمُ بسرعةٍ ويعرفُ، والبليدُ هو الذي لا يفهمُ كالحمارِ، سَاكِنُ الجَبَّانِ؛ أي: ساكنُ المقابرِ، فهو ميِّتٌ، فأخو البلادةِ مَيِّتٌ لا ينفعُه شيءٌ.

* * *

٤٣٧٦- يَا قَوْمَنَا اعْتَبِرُوا بِجَهْلِ شُيُوخِكُمْ ... بِحَقَـائِقِ الإِيـمَانِ وَالقُـرْآنِ

٤٣٧٧- أَوَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ أَفْضَلِ وَقْتِهِ ... فِـيكُمْ مَقَالَـةَ جَاهِـلٍ فَتَّـانِ

٤٣٧٨- إِنَّ السَّمَاوَاتِ العُلَى وَالأَرْضَ قَبْـ ... ـلَ العَرْشِ بِالإِجْمَاعِ مَخْلُوقَانِ

٤٣٧٩- وَاللهِ مَا هَذِي مَقَالَةُ عَالِمٍ ... فَضْلًا عَنِ الإِجْمَاعِ كُلَّ زَمَانِ

٤٣٨٠- مَنْ قَالَ ذَا قَدْ خَالَفَ الإِجْمَاعَ وَالْـ ـخَبَرَ الصَّحِيحَ وَظَاهِرَ القُرْآنِ

٤٣٨١- فَانْظُرْ إِلَى مَا جَرَّهُ تَأْوِيلُ لَفْـ ـظِ «الإِسْتِوَاءِ» بِظَاهِرِ البُطْلانِ

٤٣٨٢- زَعَمَ المُعَطِّلُ أَنَّ تَأْوِيلَ ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بِالخَلْقِ وَالإِقْبَالِ وَضْعُ لِسَانِ

٤٣٨٣- كَذَبَ المُعَطِّلُ لَيْسَ ذَا لُغَةَ الأُلَى قَدْ خُوطِبُوا بِالوَحْيِ وَالقُرْآنِ

٤٣٨٤- فَأَصَارَهُ هَذَا إِلَى أَنْ قَالَ: خَلْـ ـقُ العَرْشِ بَعْدَ جَمِيعِ ذِي الأَكْوَانِ

٤٣٨٥- يَهْنِيهِ تَكْذِيبُ الرَّسُولِ لَهُ وَإِجْـ ـمَاعِ الهُدَاةِ وَمُحْكَمِ القُرْآنِ

الشرحُ

٤٣٧٦- يَا قَوْمَنَا اعْتَبِرُوا بِجَهْلِ شُيُوخِكُمْ بِحَقَائِقِ الإِيمَانِ وَالقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «يَا قَوْمَنَا» يُخَاطِبُ المعطِّلةَ، ولا بأسَ أن يُخَاطِبَ الإنسانُ بالقومِ؛ لأنَّ القومَ لفظٌ عامٌّ يشملُ المؤمنَ والكافرَ.

ثُمَّ ذكر قولًا غريبًا من أغربِ ما يكونُ فقال:

٤٣٧٧- أَوَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ أَفْضَلِ وَقْتِهِ فِيكُمْ مَقَالَةَ جَاهِلٍ فَتَّانِ

ما هذه المقالةُ؟ قال:

٤٣٧٨- إِنَّ السَّمَاوَاتِ العُلَى وَالأَرْضَ قَبْـ ـلَ العَرْشِ بِالإِجْمَاعِ مَخْلُوقَانِ

يقولُ: السَّماواتُ والأرضُ مخلوقان قبل العرشِ بالإجماعِ، وهذا مقالُ جاهلٍ، بل مقالُ أجهل من حمارِه، لكن لماذا قال هذا الكلامَ؟ لأنَّه قيل له: إذا قلت: إنَّ «استوى» بمعنى مَلَكَ واستولى، لَزِمَ أن يكونَ العرشُ قبل خلقِ السَّماوات

والأرضِ مملوكًا لغيرِ الله؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد:٤]، إذَنْ ما دام هذا هو اللَّازمُ قال: إنَّ العرشَ خُلِقَ بعد خلقِ السَّماوات والأرضِ، فيكون معنى الآية -على رأيه- أنه -سبحانه وتعالى- خَلَقَ السَّماوات والأرضَ، ثُمَّ خَلَقَ العرشَ فاستولى عليه، ومع هذا يقولُ: هذا بالإجماعِ، وهو أفضلُ أهلِ وقتِهِ في زمانِه[1].

قال ابنُ القيِّم رحمه اللهُ:

٤٣٧٩- وَاللهِ مَا هَـذِي مَقَالَـةُ عَالِـمٍ ... فَضْلًا عَنِ الإِجْمَاعِ كُلَّ زَمَانِ

وهذا صحيحٌ، فوالله ما يقولُ هذا الكلامَ عالـمٌ، فضلًا عن أن يقولَ: هذا أَجْمَعَ النَّاسُ عليه من عهدِ الرَّسولِ إلى يومِهِ، فهو يدَّعِي أنَّ النَّاسَ منذ عهدِ الرَّسولِ إلى يومِه مجمعون على أنَّ خَلْقَ السَّماوات والأرضِ قبل خلقِ العرشِ.

٤٣٨٠- مَنْ قَالَ ذَا قَدْ خَالَفَ الإِجْمَاعَ وَالْـ ... ـخَبَرَ الصَّحِيحَ وَظَاهِرَ القُرْآنِ

قال اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]؛ أي: عند خلقِ السَّماوات والأرضِ، إذَنْ ظاهرُ القرآنِ أنَّ العرشَ سابقٌ؛ ولهذا قال: «فِي ظَاهِرِ القُرْآنِ» ولم يقل: «صَرِيحِ»، أمَّا السُّنَّةُ فصريحةٌ في هذا أنَّ العرشَ مخلوقٌ قبل السَّماوات.

٤٣٨١- فَانْظُرْ إِلَى مَا جَرَّهُ تَأْوِيلُ لَفْـ ... ـظِ «الإِسْتِوَاءِ» بِظَاهِرِ البُطْلَانِ

حيث قال: الاستواءُ بمعنى الاستيلاء.

(١) وهذا الذي هو أفضل أهل وقته: «فخر الدين أبو عبد الله الرازي».

٤٣٨٢- زَعَمَ المُعَطِّلُ أَنَّ تَأْوِيلَ ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ بِالْـخَلْقِ وَالإِقْبَالِ وَضْعُ لِسَانِ

زعم أنَّ تأويلَ «استوى» «بالخَلْقِ وَالإِقْبَالِ وَضْعُ لِسَانِ»؛ يعني: أنَّه وضعٌ لغويٌّ؛ أي: إنَّ اللُّغةَ يأتي فيها «استوى» بمعنى «خَلَقَ» و«أَقْبَلَ»، وهذا كذَّبه ابنُ القيِّم رحمه الله، فلا يأتي في اللُّغةِ «استوى» بمعنى «أَقْبَلَ»، ولكنْ وَرَدَ عن بعضِ علماءِ السُّنَّةِ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:٢٩] قال: إنَّ الاستواءَ هنا بمعنى القصد والإقبال، فإن صَحَّ هذا المعنى فإنَّ هناك فرقًا بين أن يتعدَّى «استوى» بـ«عَلَى»، أو يتعدَّى بـ«إلى»، والمقصودُ ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، لا يمكنُ أن يأتيَ في اللُّغةِ العربيَّةِ «استوى» المعدَّى بـ«على» بمعنى «قَصَدَ» أو «أَقْبَلَ»، لا يمكنُ هذا.

٤٣٨٣- كَذَبَ الـمُعَطِّلُ لَيْسَ ذَا لُغَةَ الأُلَى قَدْ خُوطِبُوا بِالوَحْيِ وَالقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «الأُلَى»؛ يعني: الذين.

قَوْلُهُ: «قَدْ خُوطِبُوا بِالوَحْيِ وَالقُرْآنِ» وهم الصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

٤٣٨٤- فَأَصَارَهُ هَـذَا إِلَى أَنْ قَـالَ: خَلْـقُ العَرْشِ بَعْدَ جَمِيعِ ذِي الأَكْوَانِ

قَوْلُهُ: «أَصَارَهُ هَذَا» أَصَارَهُ بمعنى صَيَّرَه.

قَوْلُهُ: «هَذَا» المُشَارُ إليه؛ أي: تأويلُ «استوى» بـ«استولى».

المعنى: أصاره إلى أن يجعلَ خلقَ العرشِ بعد خلقِ السَّماوات والأرضِ؛ للعِلَّةِ التي أَشَرْنَا إليها أوَّلا، وهي أنَّه قيل له: إذا قلت «استوى» بمعنى «استولى» فَلِمَنْ يكونُ الاستيلاءُ قبل خلقِ السَّماوات والأرضِ على العرشِ؟ قال: إذَنْ أُعْرِضُ عن هذا، وأقولُ: إنَّ العرشَ خُلِقَ بعد السَّماواتِ والأرضِ، ولم أسمع

بهذه المقالة إلَّا اللَّيلةَ أنَّ أحدًا من العلماءِ الذين يُقَالُ: إنَّهم علماء، يقولون: إنَّ خَلْقَ العرشِ كان متأخِّرًا عن خلقِ السَّماواتِ والأرضِ، ما عَلِمْنَا بهذا، لكن نعوذُ بالله، فالقولُ الباطلُ يجرُّ إلى باطلٍ.

٤٣٨٥- يَهْنِيهِ تَكْـذِيبُ الرَّسُـولِ لَـهُ وَإِجْـ ـمَاعِ الـهُدَاةِ وَمُحْكَـمِ القُـرْآنِ

يعني أنَّ قولَه: إنَّ العرشَ مخلوقٌ بعد السَّماوات والأرضِ قد كَذَّبه الرَّسولُ، وكذَّبَه إجماعُ الـهُداةِ، وكَذَّبَه محكمُ القرآنِ.

قَوْلُهُ: «**يَهْنِيهِ تَكْذِيبُ الرَّسُولِ لَهُ...**»، وليس هذا تهنئةً، بل هذا هو التَّشقيةُ والعياذُ بالله، لكنَّه قال ذلك على سبيلِ التَّهكُّم به، والتَّهكُّمُ بالإنسانِ ورادٌ حتَّى في القرآنِ؛ مثل قولِه تعالى في صاحبِ الجحيمِ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدُّخان:٤٩]، فهذا تهكُّمٌ به، فأين العِزَّةُ وأين الكرمُ وهو يُقَالُ له: ذُقْ هذا العذابَ؟ إذَنْ هو ليس عزيزًا ولا كريمًا، وإن كان بعضُ العلماءِ يقولُ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدُّخان:٤٩]؛ يعني: في الدُّنيا؛ أي: فيما سَبَقَ، لكنَّ الأصلَ أنَّ الوصفَ يكونُ مطابقًا للموصوفِ حين خطابِه به، وهنا قال: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدُّخان:٤٩].

* * *

فصــل

فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ فِي تَكْفِيرِهِمْ أَهْلَ العِلْمِ وَالإِيمَانِ وَذِكْرِ انْقِسَامِهِمْ إِلَى أَهْلِ الجَهْلِ وَالتَّفْرِيطِ وَالبِدْعَةِ وَالكُفْرَانِ

٤٣٨٦- وَمِنَ العَجَائِبِ أَنَّكُمْ كَفَّرْتُمُ ... أَهْلَ الحَدِيثِ وَشِيعَةَ القُرْآنِ

٤٣٨٧- إِذْ خَالَفُوا رَأْيًا لَهُ رَأْيٌ يُنَا ... قِضُهُ؛ لِأَجْلِ النَّصِّ وَالبُرْهَانِ

٤٣٨٨- وَجَعَلْتُمُ التَّكْفِيرَ عَيْنَ خِلافِكُمْ ... وَوِفَاقَكُمْ فَحَقِيقَةَ الإِيمَانِ

٤٣٨٩- فَوِفَاقُكُمْ وَخِلافُكُمْ مِيزَانُ دِيـ ... ـنِ اللهِ، لا مَنْ جَاءَ بِالقُرْآنِ

٤٣٩٠- مِيزَانُكُمْ مِيزَانُ بَاغٍ جَاهِلٍ ... وَالعَوْلُ كُلُّ العَوْلِ فِي المِيزَانِ

٤٣٩١- أَهْوِنْ بِهِ مِيزَانُ جَوْرٍ عَائِلٍ ... بِيَدِ المُطَفِّفِ، وَيْلَ ذَا الوَزَّانِ

٤٣٩٢- لَوْ كَانَ ثَمَّ حَيَا وَأَدْنَى مُسْكَةٍ ... مِنْ دِينٍ اَوْ عِلْمٍ وَمِنْ إِيمَانِ

٤٣٩٣- لَمْ تَجْعَلُوا آرَاءَكُمْ مِيزَانَ كُفْـ ... ـرِ النَّاسِ بِالبُهْتَانِ وَالعُدْوَانِ

٤٣٩٤- هَبْكُمْ تَأَوَّلْتُمْ وَسَاغَ لَكُمْ أَيُكْـ ... ـفُرُ مَنْ يُخَالِفُكُمْ بِلا بُرْهَانِ

٤٣٩٥- هَذِي الوَقَاحَةُ وَالجَرَاءَةُ وَالجَهَا ... لَةُ، وَيْحَكُمْ يَا فِرْقَةَ الطُّغْيَانِ

٤٣٩٦- اللهُ أَكْبَرُ ذَا عُقُوبَةُ تَارِكِ الْـ ... ـوَحْيَيْنِ لِلآرَاءِ وَالهَذَيَانِ

٤٣٩٧- لَكِنَّنَا نَأْتِي بِحُكْمٍ عَادِلٍ ... فِيكُمْ؛ لِأَجْلِ مَخَافَةِ الرَّحْمَنِ

الشـرحُ

هذا الفصلُ في الرَّدِّ عليهم في تكفيرِهم أهلَ العلمِ؛ لأنَّ أهلَ البدعِ والضَّلالِ ليس لهم سيرٌ ولا سلاحٌ إلَّا التَّكفيرُ والتَّشهيرُ؛ كما حَصَلَ من الخوارجِ وغيرِهم، حين خرجوا على الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ بدعوى أنَّهم كُفَّارٌ، وأنَّ أقسامَ هؤلاء: إمَّا أهلُ جهلٍ وتفريطٍ، وإمَّا أهلُ بِدَعٍ وكفرانٍ.

٤٣٨٦- وَمِـنَ العَجَائِـبِ أَنَّكُـمْ كَفَّـرْتُمُ ... أَهْـلَ الـحَدِيثِ وَشِـيعَةَ القُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «**العَجَائِبِ**» جمعُ: «**عجيب**».

يعني: من الأمورِ التي تدعو إلى العجبِ أنَّكم كفَّرتم أهلَ الحديثِ وشيعةَ القرآنِ.

٤٣٨٧- إِذْ خَـالَفُوا رَأْيًـا لَـهُ رَأْيٌ يُنَـا ... قِضُـهُ؛ لِأَجْـلِ الـنَّصِّ وَالبُرْهَـانِ

قَوْلُهُ: «**إِذْ خَالَفُوا رَأْيًا**»؛ أي: خالفوا رأي المعطِّلةِ.

قَوْلُهُ: «**لَهُ رَأْيٌ يُنَاقِضُهُ**»؛ يعني: أنتم تتناقضون فيما بينكم.

وقد خالفوه لأجل النَّصِّ والبرهانِ؛ يعني: هم خالفوا هذا الرَّأيَ المتناقضَ لأجلِ النَّصِّ والبرهانِ.

٤٣٨٨- وَجَعَلْتُمُ التَّكْفِـيرَ عَـيْنَ خِلافِكُـمْ ... وَوِفَـاقَكُمْ فَحَقِيقَـةَ الإِيـمَانِ

قَوْلُهُ: «**وَجَعَلْتُمُ التَّكْفِيرَ عَيْنَ خِلَافِكُمْ**»؛ يعني: جعلتم التَّكفيرَ أن يخالفَكم النَّاسُ.

قَوْلُهُ: «**وَوِفَاقَكُمْ**»؛ يعني: وجعلتم وفاقَكم.

يعني: جعلتم وفاقَكم هو الإيمان وخلافَكم هو الكفر، وعلى هذا فمَنْ خَالَفَكم فهو كافرٌ، ومَنْ وَافقَكم فهو مؤمنٌ.

٤٣٨٩- فَوِفَاقُكُمْ وَخِلافُكُمْ مِيزَانُ دِيـ ـنِ الله، لا مَنْ جَاءَ بِالقُرْآنِ

يعني أنَّ ميزانَ الدِّينِ عندكم هو الموافقةُ والمخالفةُ، فَمَنْ وَافَقَكم فهو مؤمنٌ، ومَنْ خَالَفَكم فهو كافرٌ، ولم تجعلوا الميزانَ مَنْ جاء بالبرهانِ والفرقانِ وهو الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ يعني: لم تردُّوا الأمرَ إلى الله ورسولِه، ولكن جعلتموه الموافقةَ والمخالفةَ لكم.

٤٣٩٠- مِيزَانُكُمْ مِيزَانُ بَاغٍ جَاهِلٍ وَالعَوْلُ كُلُّ العَوْلِ فِي المِيزَانِ

قَوْلُهُ: «مِيزَانُ بَاغٍ»؛ أي: معتدٍ، «جَاهِلٍ»؛ أي: غير عالمٍ، ومع ذلك فهو ميزانٌ عائلٌ؛ أي: مائلٌ عن الاستقامةِ.

٤٣٩١- أَهْوِنْ بِهِ مِيزَانُ جَوْرٍ عَائِلٍ بِيَدِ المُطَفِّفِ، وَيْلَ ذَا الوَزَّانِ

إذا كان الميزانُ ميزانَ جورٍ، والوازنُ مطفِّفًا فمعناه أنَّه ليس فيه عدالةٌ إطلاقًا، فالميزانُ ميزانُ جورٍ وعولٍ، والوازنُ مطفِّفٌ، فلا يمكنُ أن يكونَ هناك عدلٌ.

٤٣٩٢- لَوْ كَانَ ثَمَّ حَيَا وَأَدْنَى مُسْكَةٍ مِنْ دِينٍ اَوْ عِلْمٍ وَمِنْ إِيمَانِ

٤٣٩٣- لَمْ تَجْعَلُوا آرَاءَكُمْ مِيزَانَ كُفْـ ـرِ النَّاسِ بِالبُهْتَانِ وَالعُدْوَانِ

صحيحٌ، لو كان عندهم حياءٌ أو أدنى مُسْكةٍ من دينٍ أو علمٍ أو إيمانٍ، لم يجعلوا الآراءَ ميزانَ كفرِ النَّاسِ وإيمانِهم، فيقولوا: مَنْ وَافَقَ آراءَنا فهو مؤمنٌ، ومن خَالَفَها فهو كافرٌ.

٤٣٩٤- هَبْكُمْ تَـأَوَّلْتُمْ وَسَـاغَ لَكُـمْ أَيَكْـــ ـــفُرُ مَـنْ يُـخَالِفُكُمْ بِـلا بُرْهَـانِ

يعني: قدِّروا أنَّكم تأوَّلتم، والمتأوِّلُ مجتهدٌ، وسَاغَ لكم ما تأوَّلتموه وصار هو الحقَّ، وليس يكفرُ مَنْ يخالفُكم بلا برهانٍ؛ إذَنْ هذا عدوانٌ منكم، بل من أكبرِ العدوان؛ لأنَّنا لو كفَّرنا مَنْ خَالَفَنَا في الاجتهادِ لَزِمَ أن يكفِّرَنا هو أيضًا باجتهادِنا؛ لأنَّ اجتهادَنا ليس أَوْلَى بالصَّوابِ من اجتهادِه.

٤٣٩٥- هَذِي الوَقَاحَةُ وَالـجَرَاءَةُ وَالـجَهَا لَـةُ، وَيْحَكُـمْ يَـا فِرْقَـةَ الطُّغْيَـانِ

الوقاحةُ ضدُّ حسنِ الخلقِ، والجراءةُ ضدُّ التَّأنِّي والطُّمأنينة، والجهالةُ ضدُّها العلمُ.

قَوْلُهُ: «وَيْحَكُمْ»؛ أي: ويحًا لكم يا فرقةَ الطُّغيانِ.

٤٣٩٦- اللهُ أَكْـبَرُ ذَا عُقُوبَــةُ تَــارِكِ الْـــ ـــوَحْيَيْنِ لِـــلآرَاءِ وَالــــهَذَيَانِ

يعني: أنَّ هذا الذي جَرَى منهم -وهو تكفيرُهم المؤمنين إذا خالفوهم- سببُه تركُ الوحيين «**الكتاب والسُّنَّة**» للآراءِ؛ أي: من أجلِ الآراءِ والهذيانِ، فإذا تركَ الإنسانُ القرآنَ والسُّنَّةَ فإنَّه يُبْتَلَى بمثل هذه البليَّةِ العظيمةِ، وهي تكفيرُ أهلِ الحقِّ والإيمانِ.

٤٣٩٧- لَكِنَّنَــا نَـــأْتِي بِحُكْـــمٍ عَـــادِلٍ فِــيكُمْ؛ لِأَجْــلِ مَخَافَــةِ الــرَّحْمَنِ

هذا كقولِ عبد الله بن رواحةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في مُقاسمةِ أهلِ خيبر، لـمَّا جمعهم قال لهم: «**وَاللهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَـيَّ، وَلأَنْتُمْ أَبْغَضُ إِلَـيَّ مِنْ عِدَّتِكُمْ مِنَ القِرَدَةِ وَالخَنَازِيرِ، وَلَا يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِيَّاكُمْ وَحُبِّي إِيَّاهُ عَلَى أَلَّا أَعْدِلَ**

بَيْنَكُمْ»(١)، وهكذا يجبُ على الإنسانِ ألَّا يحملَه البُغضُ الشَّخصيُّ على الجورِ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾ [المائدة:٨]، وهذا هو العدلُ؛ أنْ يحكمَ الإنسانُ بالعدلِ له ولغيرِه؛ خوفًا من الله عزَّ وجلَّ.

***

٤٣٩٨- فَاسْمَعْ إِذَنْ يَا مُنْصِفًا حُكْمَيْهِمَا ... وَانْظُرْ إِذَنْ: هَلْ يَسْتَوِي الحُكْمَانِ

٤٣٩٩- هُمْ عِنْدَنَا قِسْمَانِ: أَهْلُ جَهَالَةٍ ... وَذَوُو العِنَادِ، وَذَانِكَ القِسْمَانِ

٤٤٠٠- جَمْعٌ وَفَرْقٌ بَيْنَ نَوْعَيْهِمْ، هُمَا ... فِي بِدْعَةٍ لا شَكَّ يَجْتَمِعَانِ

٤٤٠١- وَذَوُو العِنَادِ فَأَهْلُ كُفْرٍ ظَاهِرٍ ... وَالجَاهِلُونَ فَإِنَّهُمْ نَوْعَانِ

٤٤٠٢- مُتَمَكِّنُونَ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ بِالْـ ... أَسْبَابِ ذَاتِ اليُسْرِ وَالإِمْكَانِ

٤٤٠٣- لَكِنْ إِلَى أَرْضِ الجَهَالَةِ أَخْلَدُوا ... وَاسْتَسْهَلُوا التَّقْلِيدَ كَالعُمْيَانِ

٤٤٠٤- لَمْ يَبْذُلُوا المَقْدُورَ فِي إِدْرَاكِهِمْ ... لِلْحَقِّ تَهْوِينًا لِهَذَا الشَّانِ

٤٤٠٥- فَهُمُ الأُلَى لا شَكَّ فِي تَفْسِيقِهِمْ ... وَالكُفْرُ فِيهِ عِنْدَنَا قَوْلانِ

٤٤٠٦- وَالوَقْفُ عِنْدِي فِيهِمُ لَسْتُ الَّذِي ... بِالكُفْرِ أَنْعَتُهُمْ وَلا الإِيمَانِ

٤٤٠٧- وَاللهُ أَعْلَمُ بِالبِطَانَةِ مِنْهُمُ ... وَلَنَا ظَهَارَةُ حُلَّةِ الإِعْلانِ

٤٤٠٨- لَكِنَّهُمْ مُسْتَوْجِبُونَ عِقَابَهُ ... قَطْعًا لِأَجْلِ البَغْيِ وَالعُدْوَانِ

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٩/ ١٣٨، رقم ١٨١٦٨).

الشـرحُ

٤٣٩٨- فَاسْمَعْ إِذَنْ يَـا مُنْصِـفًا حُكْمَـيْهِمَا وَانْظُرْ إِذَنْ: هَلْ يَسْتَوِي الـحُكْمَانِ

قَوْلُهُ: «حُكْمَيْهِمَا»؛ يعني: حكمَ الكتابِ والسُّنَّةِ.

يقولُ رحمه الله: انظر هل يستوي حكمُ الكتابِ والسُّنَّةِ مع حكمِ هؤلاء؟

٤٣٩٩- هُـمْ عِنْـدَنَا قِسْـمَانِ: أَهْـلُ جَهَالَـةٍ وَذَوُو العِنَـادِ، ....

الذين كَفَّروا أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ قسمان: أهلُ جهالةٍ وذوو العنادِ.

فالقسم الأول: هم أناسٌ جهلةٌ يكفِّرون تقليدًا لمتَّبعيهم.

والقسم الثَّاني: أهل عنادٍ واستكبارٍ يكفِّرون، وهم يعلمون أنَّهم ليسوا على حقٍّ.

وهذا تقسيمٌ جيِّدٌ لأهلِ البدعِ.

٤٣٩٩- .... وَذَانِـكَ القِسْـمَانِ

٤٤٠٠- جَمْـعٌ وَفَـرْقٌ بَـيْنَ نَـوْعَيْهِمْ، هُمَـا فِي بِدْعَـــةٍ لا شَـــكَّ يَجْتَمِعَـــانِ

ذانك القسمان يجتمعان ويفترقان؛ فهما يجتمعان في أنَّهما ذوو بدعةٍ سواءٌ الجاهلُ أو المعانِدُ، كُلٌّ منهما مبتدعٌ؛ فإنَّ تكفيرَ أهلِ الحقِّ بدون أصلٍ يُرْجَعُ إليه هذا من فعلِ أهلِ البدعِ كالخوارجِ مثلًا، ولكنَّ هناك فرقًا بكفرِ هؤلاء المكفِّرين لأهلِ الحقِّ، إذَنْ هم في جمعٍ وفَرْقٍ، أما الجمعُ فأنَّهم جميعًا أهلُ بدعة، وأمَّا الفرقُ فيقول:

٤٤٠١- وَذَوُو العِنَـادِ فَأَهْـلُ كُفْـرٍ ظَـاهِرٍ وَالـــجَاهِلُونَ فَـــإِنَّهُمْ نَوْعَـــانِ

قَوْلُهُ: «وَذوُو العِنَادِ فَأَهْلُ كُفْرٍ ظَاهِرٍ» أي: المعاندون لا شكَّ أنَّهم كُفَّارٌ؛ لأنَّهم تبيَّن لهم الحقُّ، ولكن خالفوه وكفَّروا مَنْ قال به، فهم كُفَّارٌ من وجهين:

الوجه الأوَّل: مخالفة الحقِّ.

الوجه الثَّاني: تكفير مَنْ قال بالحقِّ.

وهذا عدوانٌ وظلمٌ بلا شكٍّ.

قَوْلُهُ: «وَالـجَاهِلُونَ فَإِنَّهُمْ نَوْعَانِ» ذَكَرَ النَّوعَ الأوَّل فقال:

٤٤٠٢- مُتَمَكِّنُونَ مِنَ الـهُدَى وَالعِلْمِ بِالْـ أَسْبَابِ ذَاتِ اليُسْرِ وَالإِمْكَانِ

قَوْلُهُ: «مُتَمَكِّنُونَ مِنَ الـهُدَىَ وَالعْلْمِ» يقولُ: الجاهلون نوعان:

النَّوْعُ الأوَّلُ: مَنْ تمكَّنوا من الهدى والعلمِ؛ أي: أناسٌ يُمكنُهم أن يطلبوا العلمَ وأن يبحثوا ويسألوا، ولكنَّهم تهاونوا.

قَوْلُهُ: «بِالأَسْبَابِ ذَاتِ اليُسْرِ وَالإِمْكَانِ»؛ يعني: أنَّ أسبابَ الوصولِ إلى العلمِ مُيَسَّرةٌ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧]، فلا توجدُ صعوبةٌ لو أرادوا الحقَّ، ولكنَّهم لم يريدوه.

٤٤٠٣- لَكِنْ إِلَى أَرْضِ الـجَهَالَةِ أَخْلَدُوا وَاسْتَسْهَلُوا التَّقْلِيدَ كَالْعُمْيَانِ

قَوْلُهُ: «لَكِنْ إِلَى أَرْضِ الـجَهَالَةِ أَخْلَدُوا»؛ أي: مالوا إلى أرضِ الجهالةِ.

قَوْلُهُ: «وَاسْتَسْهَلُوا التَّقْلِيدَ كَالعُمْيَانِ»، قالوا: ما لَنَا وللنَّاسِ؟ نُقَلِّدُ مشايخَنا، ولا نسألُ ولا نبحثُ، إذَنْ عندهم تفريطٌ؛ لأنَّهم يتمكَّنون من طلبِ العلمِ والأسبابُ متيسِّرةٌ، لكن أخلدوا إلى الجهلِ واستسهلوا التَّقليدَ، قالوا: نقلِّدُ فلانًا ونحنُ في ذمَّتِه.

٤٤٠٤- لَـــمْ يَبْـذُلُوا المَقْـدُورَ في إِدْرَاكِهِـمْ   لِلْحَـــقِّ تَهْوِينًـــا لِـــهَذَا الشَّـــانِ

قَوْلُهُ: «لَـمْ يَبْذُلُوا المَقْدُورَ في إِدْرَاكِهِمْ لِلْحَقِّ»؛ يعني: ما بذلوا الذي يقدرون عليه ليُدركوا الحقَّ «تَهْوِينًا بِهَذَا الشَّانِ»، فهؤلاء يقولُ المؤلِّفُ -رحمه الله تعالى- عنهم:

٤٤٠٥- فَهُـمُ الأُلَى لا شَـكَّ في تَفْسِـيقِهِمْ   وَالْكُفْـرُ فِيـهِ عِنْـدَنَا قَـوْلانِ

قَوْلُهُ: «فَهُمُ الأُلَى لَا شَكَّ في تَفْسِيقِهِمْ»؛ يعني: لا شكَّ أنَّ هؤلاء فَسَقَةٌ.

إذَنْ العوامُّ الذين في بلد البدعِ الآن أو في بلدٍ فيه شركٌ وهم مسلمون، هؤلاء العوامُّ -على كلامِ ابن القيِّم- فَسَقَةٌ؛ لأنَّهم يمكنُهم طلبُ العلمِ، ولكنَّهم أخلدوا إلى الجهلِ واستسهلوا التَّقليدَ، وقالوا: ما لنا وللبحثِ؟ الشَّيخُ الفلانيُّ يقولُ: هذا جائزٌ، والشَّيخُ الفلانيُّ على هذا الطَّريقِ، والشَّيخُ الفلانيُّ يرانا ولم ينهنا! لسنا بملزومين، فغذا ذكروا أهل السنة قالوا: اترك هؤلاء! هؤلاء متشدِّدون! هؤلاء متزمِّتون! هؤلاء فيهم كذا! وهؤلاء فيهم كذا! لسنا ملزومين بهم! يقولُ ابنُ القيِّمِ: لا شكَّ في أن هؤلاء فَسَقَةٌ.

قَوْلُهُ: «وَالكُفْرُ فِيهِ عِنْدَنَا قَوْلَانِ»؛ أي: في تفكيرهم قولان: هل يكفرون أو لا؟

فَمَنْ قال: إنَّ هؤلاء كالذين قال اللهُ فيهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزُّخرف:٢٢] يرى أنَّهم كُفَّارٌ.

والذي يقولُ: هؤلاء جُهَّالٌ يظنُّون أنَّ علماءَهم أعلمُ من الآخرين، يقولُ: هؤلاء عندهم عذرٌ، فهم فَسَقَةٌ.

وعلى هذا نأخذُ الاتِّفاقَ على أنَّ هؤلاء لا يُوصَفُونَ بالعدالةِ؛ لأنَّ حالَهم دائرةٌ بين الفسقِ والكفرِ، أمَّا أن يكونوا عدولًا فلا.

٤٤٠٦- وَالْوَقْفُ عِنْدِي فِيهِمُ لَسْتُ الَّذِي ... بِالْكُفْرِ أَنْعَتُهُمْ وَلا الإِيمَانِ

يعني: يرى الوقفَ، فهو يتوقَّفُ هل هم فُسَّاقٌ أم هم كُفَّارٌ؟ إن قلنا: «**إنَّهم فُسَّاقٌ**» كانوا من المؤمنين الفَسَقَة، وإن قلنا: «**كُفَّارٌ**» خرجوا من دائرةِ الإسلام، وهو -رحمه الله تعالى- يرى التوقُّفَ؛ ولذا قال: «**لَسْتُ الَّذِي بِالكُفْرِ أَنْعَتُهُمْ وَلَا الإِيمَانِ**»؛ يعني: لا أقولُ: كُفَّارٌ، ولا أقولُ: مؤمنون.

وهل الوقفُ قولٌ أو يُعْتَبَرُ جهلًا؟

فيه خلافٌ، بعضُ العلماءِ يقولُ: إنَّ التَّوقُّفَ ليس بقولٍ، ولكنَّه جهلٌ، وبعضُ العلماءِ يقولُ: هو قولٌ؛ يعني: أنَّه قال بها تَعَارَضَتْ فيه الأدلَّةُ، وفرقٌ بين الذي يقولُ: (لا أدري) وهو عامِّيٌّ، وبين الذي بحث ولكن لم يتبيَّن له أحدُ الأمرين من الأدلَّةِ، فيقول: (أنا متوقِّفٌ)؛ ولهذا ينقل أصحابُ الإمامِ أحمدَ -رحمه الله- عن الإمامِ أحمدَ في المسألةِ قولًا بالوقفِ، فيقولون: (**وعنه**)؛ يعني: عن الإمامِ أحمدَ (التَّوقُّفُ)، وهذا يدلُّ على أنَّه قولٌ، وهو عند التَّأمُّلِ كذلك؛ لأنَّ المجتهدَ إذا تَوَقَّفَ فيعني ذلك أنَّه قد تَعَارَضَتْ عنده الأدلَّةُ، لأنه عنده علمٌ، بخلافِ العامِّيِّ الذي تسألُه فتقول: هل هذا حرامٌ؟ فيقولُ: (**والله لا أدري**)، فهذا متوقِّفٌ للجهلِ، أما العالمُ المجتهدُ فمتوقِّفٌ للعلمِ.

فابنُ القيِّم -رحمه الله- يكونُ متوقِّفًا عن علمٍ لا عن جهلٍ؛ لأنَّ فيهم من الأوصافِ ما يقتضي كفرَهم، وفيهم من الأوصافِ ما يقتضي أنَّهم فَسَقَةٌ وليسوا كُفَّارًا.

٤٤٠٧- وَاللهُ أَعْلَمُ بِالبِطَانَةِ مِنْهُمُ ... وَلَنَا ظَهَارَةُ حُلَّةِ الإِعْلَانِ

اللهُ أعلمُ بالبِطانةِ، هل هم معذورون أم لا؟ أمَّا نحن فليس لنا إلَّا الظَّاهرُ، وظاهرُ حالِهم الكفرُ من وجهٍ، والعذرُ من وجهٍ آخرَ؛ ومِنْ ثَمَّ حَصَلَ التَّوقُّفُ.

٤٤٠٨- لَكِنَّهُمْ مُسْتَوْجِبُونَ عِقَابَهُ ... قَطْعًا لِأَجْلِ البَغْيِ وَالعُدْوَانِ

يعني: هؤلاء مستحقُّون للعقوبةِ لبغيهم وعدوانِهم على أهلِ السُّنَّةِ؛ حيث نعتوهم بالكفرِ تقليدًا لعلمائِهم وذَوِي الأمرِ منهم.

* * *

٤٤٠٩- هَبْكُمْ عُذِرْتُمْ بِالجَهَالَةِ، إِنَّكُمْ ... لَنْ تُعْذَرُوا بِالظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ

٤٤١٠- وَالطَّعْنِ فِي قَوْلِ الرَّسُولِ وَدِينِهِ ... وَشَهَادَةٍ بِالزُّورِ وَالبُهْتَانِ

٤٤١١- وَكَذَلِكَ اسْتِحْلَالُ قَتْلِ مُخَالِفِيـ ... ـكُمْ قَتْلَ ذِي الإِشْرَاكِ وَالكُفْرَانِ

٤٤١٢- إِنَّ الخَوَارِجَ مَا أَحَلُّوا قَتْلَهُمْ ... إِلَّا لِمَا ارْتَكَبُوا مِنَ العِصْيَانِ

٤٤١٣- وَسَمِعْتُمُ قَوْلَ الرَّسُولِ وَحُكْمَهُ ... فِيهِمْ، وَذَلِكَ وَاضِحُ التِّبْيَانِ

٤٤١٤- لَكِنَّكُمْ أَنْتُمْ أَبَحْتُمْ قَتْلَهُمْ ... بِوِفَاقِ سُنَّتِهِ مَعَ القُرْآنِ

٤٤١٥- وَاللهِ مَا زَادُوا النَّقِيرَ عَلَيْهِمَا ... لَكِنْ بِتَقْرِيرٍ مَعَ الإِيمَانِ

٤٤١٦- فَبِحَقِّ مَنْ قَدْ خَصَّكُمْ بِالعِلْمِ وَالتَّـ ... ـحْقِيقِ وَالإِنْصَافِ وَالعِرْفَانِ

٤٤١٧- أَنْتُمْ أَحَقُّ أَمِ الخَوَارِجُ بِالَّذِي ... قَالَ الرَّسُولُ فَأَوْضِحُوا بِبَيَانِ

٤٤١٨- هُمْ يَقْتُلُونَ العَابِدِي الرَّحْمَنِ، بَلْ ... يَدْعُونَ أَهْلَ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ

٤٤١٩- هَـذَا وَلَيْسُـوا أَهْـلَ تَعْطِيـلٍ، وَلا عَـزْلِ النُّصُـوصِ الحَـقِّ بِالبُرْهَـانِ

الشـرحُ

٤٤٠٩- هَبْكُمْ عُـذِرْتُمْ بِالـجَهَالَةِ، إِنَّكُـمْ لَـنْ تُعْـذَرُوا بِـالظُّلْمِ وَالطُّغْيَـانِ

قَوْلُهُ: «هَبْ» بمعنى: قَدِّر أنَّ الأمرَ كذا.

يعني: قدِّروا أنَّكم عُذِرْتُم بالجهالةِ فلن تُعْذَرُوا بالظُّلمِ والطُّغيانِ.

٤٤١٠- وَالطَّعْنِ فِي قَـوْلِ الرَّسُـولِ وَدِينِـهِ وَشَـــهَادَةٍ بِـــالزُّورِ وَالبُهْتَـــانِ

لا تُعْذَرُونَ بهذا؛ يعني: لو عذرناكم بالجهالةِ، وقلنا: لا حسابَ عليكم فيما بينكم وبين الله، لن نعذرَكم بالعدوانِ علينا وَوَصْفِنَا بالكفرِ والعدوانِ على قولِ الرَّسولِ وقولِ الله عزَّ وجلَّ.

٤٤١١- وَكَـذَلِكَ اسْـتِحْلالُ قَتْـلِ مُخَالِفِيـ ـكُمْ قَتْلَ ذِي الإِشْرَاكِ وَالكُفْـرَانِ

يعني: أنَّكم لا تُعْذَرون بقتلِ مخالفيكم؛ لأنَّ بعضَ أهلِ البدعِ يقتلون مَنْ يخالِفُهم، ويَرَوْنَ أنَّهم كُفَّارٌ مباحو الدَّمِ والمالِ فيقتلونهم، ولا شك أنهم لا يُعْذَرُونَ بهذا؛ حتَّى ولو كانوا جُهَّالًا.

٤٤١٢- إِنَّ الـخَوَارِجَ مَـا أَحَلُّـوا قَـتْلَهُمْ إِلَّا لِـمَا ارْتَكَبُـوا مِـنَ العِصْـيَانِ

فالآن يريدُ المؤلِّفُ -رحمه الله- أن يُقَارِنَ بين هؤلاء وبين الخوارجِ، فالخوارجُ كفَّروا العصاةَ «**أهلَ الكبائرِ**»، ويقولون: فاعلُ الكبيرةِ مُخَلَّدٌ في النَّارِ، فالذي يسرقُ درهمًا كالذي يعبدُ صنمًا عند الخوارجِ؛ لأنَّهم يُكَفِّرون بالكبائرِ، وكُلُّ كبيرةٍ فهي عندهم مُكَفِّرةٌ، فالخوارجُ ما استحلُّوا قتلَ العُصَاةِ إلَّا لأنَّهم يَرَوْنَهم

كُفَّارًا خارجين عن دينِ الله.

٤٤١٣- وَسَمِعْتُمْ قَوْلَ الرَّسُولِ وَحُكْمَهُ فِيهِمْ، وَذَلِكَ وَاضِحُ التِّبْيَانِ

فماذا قال النبي ﷺ في الخوارجِ؟ إنه أَمَرَ بقتلِهم، وقال: «يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»[1]، أعوذُ بالله، السَّهمُ إذا ضَرَبَ الرَّميَّةَ يضربُها بسرعةٍ ويخرجُ، فالخوارجُ يمرقون من الإسلامِ كما يمرقُ السَّهمُ من الرَّميَّةِ؛ لأنَّ إيمانَهم لا يجاوزُ حناجرَهم، وقال: «يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ»[2]، وقال: «فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُم فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ»[3]، وشَدَّدَ فيهم.

فهؤلاء الخوارجُ كفَّروا العُصَاةَ، وأباحوا قتلَهم، واستحلُّوا دماءَ المسلمين لكونِهم عَصَوْا اللهَ عزَّ وجلَّ، أمَّا هؤلاء المعتدون المبتدعةُ الذين أحلُّوا قتلَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أحلُّوا قتلَهم على طاعةِ الله.

٤٤١٤- لَكِنَّكُمْ أَنْتُمْ أَبَحْتُمْ قَتْلَهُمْ بِوِفَاقِ سُنَّتِهِ مَعَ القُرْآنِ

قَوْلُهُ: «بِوِفَاقِ سُنَّتِهِ مَعَ القُرْآنِ» أي: سُنَّة الرَّسولِ ﷺ مع القرآنِ. أي: أنتم أبحتم قتلَ مَنْ يقولُ بالكتابِ والسُّنَّةِ.

٤٤١٥- وَاللهِ مَا زَادُوا النَّقِيرَ عَلَيْهِمَا لَكِنْ بِتَقْرِيرٍ مَعَ الإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «عَلَيْهِمَا»؛ أي: على الكتابِ والسُّنَّةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٤١٥)، ومسلم: كتاب الزكاة باب التحريض على قتل الخوارج، رقم (١٠٦٦).
(٢) هذا جزء من الحديث السابق.
(٣) هذا جزء من الحديث السابق.

أي: ما زاد هؤلاء الذين حكمتم بكُفرِهم وجوازِ قتلِهم ما زادوا النَّقيرَ عليهما؛ أي: على الكتابِ والسُّنَّةِ، ولم يتجاوزوهما، والنَّقيرُ يُضْرَبُ مثلًا للقِلَّةِ والتَّحقيرِ، وفي القرآنِ: «**قِطْمِير، ونَقِير، وفَتِيل**»، قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النِّساء:١٢٤]، وقال: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النِّساء:٧٧]، والنَّواةُ فيها ثلاثةُ أشياء: النَّقير والفتيل والقِطْمِير، كُلُّها في النَّواةِ:

١- **فالفتيلُ**: العِرْقُ الذي يكونُ كالخيطِ في وسطِ النَّواةِ.

٢- **والنَّقيرُ**: نقرةٌ في ظهرِها، منها يَخْرجُ العِرْقُ إذا دُفِنَت في الأرضِ لينغرسَ في الطِّينِ وتخرج بإذنِ الله.

٣- **والقِطْمِير**: وهو الثَّوبُ الملفوفُ على النَّواةِ؛ أي: القشرة أو الغشاء، فيقول رحمه الله: إنَّهم ما زادوا نقيرًا على الكتابِ والسُّنَّةِ.

وهنا أَقْسَمَ ابنُ القيِّمِ -رحمه الله- أنَّ أهلَ الإثباتِ ما زادوا على الكتابِ والسُّنَّةِ نقيرًا، ولكن بتقريرٍ مع الإيمانِ، فهم قَرَّروا ما جاء بالكتابِ والسُّنَّةِ، وآمنوا به، ووضَّحوه للنَّاسِ، ولم يزيدوا عليه.

٤٤١٦- فَبِحَقِّ مَنْ قَدْ خَصَّكُمْ بِالعِلْمِ وَالتْـ ـتَحْقِيقِ وَالإِنْصَافِ وَالعِرْفَانِ

معناه: مَنِ الذي خَصَّكم أنتم بالعلمِ والتَّحقيقِ والإنصافِ والعرفانِ وحَرَمَ هؤلاء؟

الجوابُ: لا أحدَ، بل بالعكس، هم الذين خَصَّهم اللهُ بالعلمِ والتَّحقيقِ والإنصافِ والعرفانِ.

٤٤١٧- أَنْتُمْ أَحَقُّ أَمِ الخَوَارِجُ بِالَّذِي ... قَالَ الرَّسُولُ فَأَوْضِحُوا بِبَيَانِ

قَوْلُهُ: «أَنْتُمْ أَحَقُّ أَمِ الخَوَارِجِ بِالَّذِي قَالَ الرَّسُولُ» ما الذي قال الرَّسولُ في الخوارجِ؟ قال: إنَّهم «يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»(١)، فهل هم أحقُّ أم أنتم؟ هو يقولُ: أنتم أحقُّ منهم؛ لأنَّ الخوارجَ إنَّما يُكفِّرون بالمعاصي ويستبيحون الدَّمَ ممَّن عَصَى اللهَ، أمَّا أنتم فتكفِّرون باتِّباعِ الكتابِ والسُّنَّةِ، فبينكم فرقٌ عظيمٌ.

قَوْلُهُ: «فَأَوْضِحُوا بِبَيَانِ» إن كان عندكم بيانٌ فأوضحوه، هل أنتم أحقُّ بما قال الرَّسولُ أم الخوارج؟

٤٤١٨- هُمْ يَقْتُلُونَ العَابِدِي الرَّحْمَنِ، بَلْ ... يُدْعَوْنَ أَهْلَ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ

يعني: أنَّ الخوارجَ يقتلون عبادَ الله، فهم يقتلون المسلمين الذين يعبدون اللهَ بناءً على أنَّهم عندهم كعبدةِ الأوثانِ، فقوله: «يُدْعَوْنَ»؛ يعني: باعتقادِ الخوارجِ.

٤٤١٩- هَذَا وَلَيْسُوا أَهْلَ تَعْطِيلٍ، وَلا ... عَزْلِ النُّصُوصِ الحَقِّ بِالبُرْهَانِ

يعني: أنَّ الخوارجَ ليسوا أهلَ تعطيلٍ، بل يُثْبِتُونَ لله ما أَثْبَتَهُ لنفسِه، ولا يعزلون النُّصوصَ عن الحقِّ، بل يُبقونها على ما هي عليه.

ولكن لا شكَّ أنَّ الخوارجَ عزلوا نصوصَ الرَّجاءِ عمَّا أراد اللهُ بها ورسولُه، وغلَّبوا نصوصَ الوعيدِ على نصوصِ الرَّجاءِ، فهم -بلا شكٍّ- متأوِّلون ومخطئون في تأويلِهم، ومحرِّفون لنصوصِ الرَّجاءِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٤١٥)، ومسلم: كتاب الزكاة باب التحريض على قتل الخوارج، رقم (١٠٦٦).

لكن هل نقولُ: إنَّ تحريفَهم لنصوصِ الرَّجاء كتحريفِ هؤلاء لنصوصِ الصِّفاتِ أو أشدُّ؟

هذا هو محلُّ النَّظرِ؛ فابنُ القيِّمِ -رحمه الله- يرى أنَّ تحريفَ نصوصِ الصِّفاتِ أشدُّ وأعظمُ من تحريفِ نصوصِ الرَّجاء؛ لأنَّ تحريفَ نصوصِ الرَّجاءِ غايةُ ما فيه أنَّه تحريفٌ لثوابِ الله وجزائِه فقط، بخلاف تحريفِ نصوصِ الصِّفاتِ؛ فإنَّه تعطيلُ الله عزَّ وجلَّ من كمالِه.

وهنا مسألة: هل الخوارجُ كُفَّارٌ؟

فالخوارجُ سُئِلَ عنهم عليُّ بن أبي طالبٍ فقال: «**إِنَّهُمْ مِنَ الكُفْرِ فَرُّوا**»[1]، وتَوَقَّفَ فيهم.

ومن العلماء مَنْ قال: إنَّ الدَّاعيةَ لبدعتِه منهم يكونُ كافرًا.

ومنهم مَنْ كفَّرهم مطلقًا.

فالعلماءُ مختلفون فيهم، ولا شكَّ أنَّ قتلَهم واجبٌ لدفعِ شرِّهم، سواء قلنا بكفرِهم أم لم نقل، ولا يقالُ: إنَّ قولَ الرَّسولِ ﷺ: «**يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»[2] دليلٌ على كفرِهم؛ لأنَّ قوله ﷺ: «**يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ**»؛ قد يعني أنهم يمرقون في شيءٍ من أحكامِه.

* * *

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٠/ ١٥٠، رقم ١٨٦٥٦)، وابن أبي شيبة (٧/ ٥٤٨، رقم ٣٧٨٤٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٤١٥)، ومسلم: كتاب الزكاة باب التحريض على قتل الخوارج، رقم (١٠٦٦).

فصل

٤٤٢٠- وَالآخَرُونَ فَأَهْلُ عَجْزٍ عَنْ بُلُو ... غِ الحَقِّ مَعْ قَصْدٍ وَمَعْ إِيمَانِ

٤٤٢١- بِاللهِ ثُمَّ رَسُولِهِ وَلِقَائِهِ ... وَهُمُ إِذَا مَيَّزْتَهُمْ ضَرْبَانِ

٤٤٢٢- قَوْمٌ دَهَاهُمْ حُسْنُ ظَنِّهِمُ بِمَا ... قَالَتْهُ أَشْيَاخٌ ذَوُو أَسْنَانِ

٤٤٢٣- وَدِيَانَةٍ فِي النَّاسِ لَمْ يَجِدُوا سِوَى ... أَقْوَالِهِمْ، فَرَضُوا بِهَا بِأَمَانِ

٤٤٢٤- لَوْ يَقْدِرُونَ عَلَى الهُدَى لَمْ يَرْتَضُوا ... بَدَلًا بِهِ مِنْ قَائِلِ البُهْتَانِ

٤٤٢٥- فَأُولاءِ مَعْذُورُونَ إِذْ لَمْ يَظْلِمُوا ... وَيُكَفِّرُوا بِالجَهْلِ وَالعُدْوَانِ

٤٤٢٦- وَالآخَرُونَ فَطَالِبُونَ الحَقَّ لَـ ... ـكِنْ صَدَّهُمْ عَنْ عِلْمِهِ شَيْئَانِ

٤٤٢٧- مَعْ بَحْثِهِمْ وَمُصَنَّفَاتٍ، قَصْدُهُمْ ... مِنْهَا وُصُولُهُمُ إِلَى العِرْفَانِ

٤٤٢٨- إِحْدَاهُمَا طَلَبُ الحَقَائِقِ مِنْ سِوَى ... أَبْوَابِهَا مُتَسَوِّرِي الجُدْرَانِ

٤٤٢٩- وَسُلُوكُ طُرْقٍ غَيْرِ مُوْصِلَةٍ إِلَى ... دَرْكِ اليَقِينِ وَمَطْلَعِ الإِيمَانِ

٤٤٣٠- فَتَشَابَهَتْ تِلْكَ الأُمُورُ عَلَيْهِمُ ... مِثْلَ اشْتِبَاهِ الطُّرْقِ بِالحَيْرَانِ

٤٤٣١- فَتَرَى أَفَاضِلَهُمْ حَيَارَى كُلُّهُمْ ... فِي التِّيهِ يَقْرَعُ نَاجِذَ النَّدْمَانِ

٤٤٣٢- وَيَقُولُ: قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ الطُّرْقُ، لَا ... أَدْرِي الطَّرِيقَ الأَعْظَمَ السُّلْطَانِي

٤٤٣٣- بَلْ كُلُّهَا طُرْقٌ مَخُوفَاتٌ، بِهَا الْـ ... آفَاتُ حَاصِلَةٌ بِلَا حُسْبَانِ

٤٤٣٤- فَــالْوَقْفُ غَايَتُــهُ وَآخِــرُ أَمْــرِهِ ... مِــنْ غَــيْرِ شَــكٍّ مِنْــهُ فِي الــرَّحْمَنِ

٤٤٣٥- أَوْ دِينِــهِ وَكِتَابِــهِ وَرَسُــولِهِ ... وَلِقَائِــهِ وَقِيَامَــةِ الأَبْــدَانِ

٤٤٣٦- فَأُولاءِ بَيْنَ الـذَّنْبِ وَالأَجْـرَيْنِ أَوْ ... إِحْــدَاهُمَا أَوْ وَاسِــعِ الغُفْــرَانِ

الشرحُ

المؤلِّفُ -رحمه الله- سبق أنَّه قال: إنَّ الجُهَّالَ ينقسمون إلى قسمين، وتكلَّم عن القسمِ الأوَّلِ، ثُمَّ بدأ يتكلَّم هنا عن القسمِ الثَّاني، فقال:

٤٤٢٠- وَالآخَرُونَ فَأَهْلُ عَجْزٍ عَـنْ بُلُـو ... غِ الــحَقِّ مَـعْ قَصْـدٍ وَمَـعْ إِيـمَانِ

القسمُ الثَّاني من الـجُهَّالِ: نوعٌ عجزوا عن بلوغِ الحقِّ مع أنَّ قصدَهم حسنٌ وإيمانَهم قويٌّ، لكن عجزوا عن الوصولِ إلى الحقِّ.

٤٤٢١- بِــالله ثُــمَّ رَسُــولِهِ وَلِقَائِــهِ ... وَهُــمُ إِذَا مَيَّــزْتَهُمْ ضَرْبَــانِ

يعني: هؤلاء الذين عندهم جهلٌ ولكنَّهم عاجزون عن الوصولِ إلى الحقِّ هم أيضًا «ضَرْبَانِ»؛ أي: نوعان.

٤٤٢٢- قَـوْمٌ دَهَـاهُمْ حُسْـنُ ظَـنِّهِمُ بِـمَا ... قَالَتْــهُ أَشْــيَاخٌ ذَوُو أَسْــنَانِ

قَوْلُهُ: «أَسْنَانِ» جمعُ «سِنٍّ»، وليس المرادُ به العَظْمَ، بل المرادُ به السَّنواتُ؛ أي: أشياخٌ كبار.

يعني: أنَّ هذا الضَّربَ لـمَّا قرؤوا ما قالتْه أشياخٌ ذوو أسنانٍ وكذلك:

٤٤٢٣- وَدِيَانَةٍ فِي النَّاسِ لَـمْ يَجِدُوا سِـوَى ... أَقْوَالِــهِمْ، فَرَضُــوا بِهَــا بِأَمَــانِ

قَوْلُهُ: «وَدِيَانَةٍ فِي النَّاسِ» أيضًا الأشياخُ ذوو دينٍ، فعندهم كِبَرٌ ومشيخةٌ ودِينٌ.

قَوْلُهُ: «لَـمْ يَجِدُوا سِوَى أَقْوَالِـهِمْ، فَرَضُوا بِهَا بِأَمَانِ»؛ يعني: أنَّهم لم يجدوا إلَّا ما بين أيديهم من كلامِ أشياخِهم، ولا يعلمون أحدًا أقدرَ على بيانِ الحقِّ من أشياخِهم، فَرَضُوا بما عندهم من هذه الْكُتُبِ بأمانٍ؛ يعني: أنَّهم رَضُوا بها وهم آمِنون على أنَّها حقٌّ، لا يخافون من أنَّها باطلٌ.

٤٤٢٤- لَوْ يَقْدِرُونَ عَلَى الـهُدَى لَـمْ يَرْتَضُوا ... بَـدَلًا بِـهِ مِـنْ قَائِـلِ الْبُهْتَـانِ

يعني: لو أنَّهم عَلِمُوا بالحقِّ ما رَضُوا به بدلًا، «من قائلِ البهتانِ»؛ يعني: ما رضوا بقولِ صاحبِ البهتانِ بدلًا عن الحقِّ.

٤٤٢٥- فَأُولاءِ مَعْذُورُونَ إِذْ لَـمْ يَظْلِمُـوا ... وَيُكَفِّـرُوا بِالـجَهْلِ وَالعُـدْوَانِ

قَوْلُهُ: «إِذْ»، وفي نسخةٍ: «إِنْ»، لكن ما الفرقُ بين «إِذْ» و«إِنْ»؟

الجوابُ: «إِذْ» تكونُ الجملةُ معها تعليليَّةً؛ يعني: فهؤلاء معذُورون؛ لأنَّهم لم يظلموا ويُكَفِّروا بالجهْلِ والعدوانِ، وأمَّا على نسخةِ «إِنْ» فتكونُ شرطيَّةً؛ يعني: أنَّ هؤُلاءِ معذُورُونَ بشرطِ ألَّا يَظْلِمُوا ويكُفِّروا بالجهلِ والعدوانِ، ومُؤدَّى النُّسختَيْنِ واحدٌ، سواءً جَعَلْتَهُ شرطًا أم جَعَلْتَهُ تعليلًا.

٤٤٢٦- وَالآخَـرُونَ فَطَـالِبُونَ الـحَقَّ لَـ ... ـكِنْ صَـدَّهُمْ عَـنْ عِلْمِـهِ شَـيْئَانِ

٤٤٢٧- مَعْ بَحْثِهِمْ وَمُصَـنَّفَاتٍ، قَصْـدُهُمْ ... مِنْهَـا وُصُولُـهُـمُ إِلَى العِرْفَـانِ

٤٤٢٨- إِحْدَاهُمَا طَلَبُ الحَقَائِقِ مِنْ سِوَى ... أَبْوَابِهَـا مُتَسَـوِّرِي الـجُدْرَانِ

٤٤٢٩- وَسُلُوكُ طُرْقٍ غَيْرِ مُوْصِلَةٍ إِلَى دَرْكِ اليَقِينِ وَمَطْلَعِ الإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «الآخَرُونَ»؛ أي: الضَّرب الثَّاني، فطالبون الحقَّ.

هؤلاء طالبون للحقِّ، لكن لم يَصِلُوا إلى علمِه، صَدَّهم عَنْ علْمِه شيئان: الشَّيءُ الأَوَّلُ: «طَلَبُ الحقائقِ مِنْ سِوَى أَبْوَابِها» بدلًا من أن يرجعوا إلى الكتابِ والسُّنَّةِ في طلبِ الحقائقِ، رَجَعُوا إلى طُرُقٍ أخرى غير مُوصِلَةٍ إلى الحقِّ، فتشابهتْ عليهم؛ ولهذا قال:

٤٤٣٠- فَتَشَابَهَتْ تِلْكَ الأُمُورُ عَلَيْهِمُ مِثْلَ اشْتِبَاهِ الطُّرْقِ بِالحَيْرَانِ

لأنَّ الطُّرقَ تشتَّتُ بهم، وإلَّا فهم حَسَنُو النِّيةِ، قاصِدُون للعلمِ الشَّرعيِّ، لكن أَتَوْا الْبُيوتَ من غيرِ أبوابِها.

٤٤٣١- فَتَرَى أَفَاضِلَهُمْ حَيَارَى كُلُّهُمْ فِي التِّيهِ يَقْرَعُ نَاجِذَ النَّدْمَانِ

يعني: الأفاضلُ من هؤلاء تجدُهم متحيِّرِينَ؛ لأنَّه حِيلَ بينهم وبين الوُصولِ إلى الحقِّ؛ حيث لم يطْرُقُوا طُرُقَ الحقِّ، ولم يأْتُوا الْبُيوتَ من أبوابِها، فتشابهت عليهم، فصاروا حَيَارى يقرَعُون «ناجَذَ النَّدمانِ»، والنَّاجِذُ هو أقصى الأضراسِ، والعادةُ أنَّ الإنسانَ إذا نَدِمَ يقرعُ سِنَّه نَدَمًا، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٢٧]، فالنَّدمانُ إمَّا أن يَبْقى يقْرَعُ سِنَّه، وإمَّا أن يَعَضَّ يدَيْه.

٤٤٣٢- وَيَقُولُ: قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ الطُّرْقُ، لَا أَدْرِي الطَّرِيقَ الأَعْظَمَ السُّلْطَانِي

الطَّريقُ الأعظمُ السُّلطاني هو الكتابُ والسُّنَّةُ، طريقُ الأئمَّةِ وأهلِ الهدى.

٤٤٣٣- بَلْ كُلُّهَا طُرُقٌ مُخُوفَاتٌ، بِهَا الْـ ... آفَاتُ حَاصِلَةٌ بِلا حُسْبَانِ

٤٤٣٤- فَالْوَقْفُ غَايَتُهُ وَآخِرُ أَمْرِهِ ... مِنْ غَيْرِ شَكٍّ مِنْهُ فِي الرَّحْمَنِ

٤٤٣٥- أَوْ دِينِهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ ... وَلِقَائِهِ وَقِيَامَةِ الأَبْدَانِ

قَوْلُهُ: «**الوَقْفُ غَايَتُهُ**» مثل أهلِ الكلامِ، يقولون: إنَّ أكثرَ النَّاسِ شكًّا عند الموتِ هم أهلُ الكلامِ، فهم حَيَارَى حتَّى أئمَّتُهم يُصَرِّحُونَ بالحيرةِ، يقولُ بعضُهم:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ العُقُولِ عِقَالُ ... وَأَكْثَرُ سَعْيِ العَالَمِينَ ضَلَالُ

وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا ... وَغَايَةُ دُنْيَانَا أَذًى وَوَبَالُ

وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا ... سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا[(١)]

وقال: «**لَقَدْ تَأَمَّلْتُ الطُّرُقَ الكلاميَّةَ والمناهجَ الفلسفيَّةَ، فما رأيتُها تَشْفِي عَلِيلًا ولا تَرْوِي غَلِيلًا، ووجدتُ أقربَ الطُّرقِ طريقةَ القرآنِ، أقرأُ في الإثباتِ:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، **و**﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠]، **وأقرأُ في النَّفي:** ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، **ومَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجْرِبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي**»[(٢)]، هذا يقولُه إمامٌ من أئمَّتِهم وهو فخرُ الدِّين[(٣)] الرَّازيُّ، وهذا إقرارٌ

(١) الأبيات لأبي عبد الله محمد بن عمر الرازي، وهي في طبقات الشافعية للسبكي (٨/ ٩٦)، وعيون الأنباء (٢/ ٢٨).

(٢) شرح القصيدة النونية (٢/ ٢٣٥)، وانظر: شرح الطحاوية (ص:٢٢٧).

(٣) هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي، البكري، فخر الدين، ولد في الرَّي سنة (٥٤٤هـ)، وكان بارعًا في العلوم، مجيدًا للغة الفارسية والعربية، وتوفي في هَراة سنة (٦٠٦هـ)، وانظر: الأعلام للزركلي (٦/ ٣١٣).

بأنَّ جميعَ البحثِ في علمِ الكلامِ كُلُّه هدرٌ لا يفيدُ.

وقال بعضُهم: «**لقد خُضْتُ البحرَ الخِضَمَّ** -يعني: فلم أجد شيئًا يشفيني- **وها أنا أموتُ على عقيدةِ أُمِّي**»[1]، وعقيدةُ أمِّه أنَّها لم تبحث في علمِ الكلامِ، فَهِي عَلَى الْفِطْرةِ.

فهؤلاء أهلُ شكٍّ وحَيْرَةٍ؛ لأنَّهم لم يأْتُوا الْبُيوتَ من أبوابِها.

قَوْلُهُ: «**مِنْ غَيْرِ شَكٍّ مِنْهُ فِي الرَّحْمَنِ أَوْ دِينِهِ...**»؛ يعني: ليْسَ عنده شكٌّ في الله، أو في الكتابِ، أو في الرَّسولِ، أو في القيامةِ، لكنَّه مُتحيِّرٌ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

٤٤٣٦- فَأُولاءِ بَيْنَ الذَّنْبِ وَالأَجْرَيْنِ أَوْ إِحْدَاهُمَا أَوْ وَاسِعِ الغُفْرَانِ

لهم أربعُ حالاتٍ، يقولُ: «**بَيْنَ الذَّنْبِ والأَجْرَيْنِ**»؛ أي: إذا أَصَابَ، «**أَوْ إِحْدَاهُمَا**»؛ أي: الأجر الواحد إذا أخطأ، «**أَوْ وَاسِعِ الغُفْرَانِ**»؛ أي: يغفرُ اللهُ لهم؛ لأنَّ هؤلاءِ قَصَدُوا وبحثوا، لكن لـمَّا لم يأْتُوا البيوتَ من أبوابِها، ولم يَسْلُكوا الطُّرقَ التي تُوصِلُ إلى الحقِّ بَقَوْا جاهِلِين، لا يَعْرِفون شيئًا عن الحقِّ، فهؤلاء تُرْجَى لهم المغفرةُ؛ لأنَّ معهم عَجْزًا وتردُّدًا، فهؤلاءِ لـمَّا صاروا يُطالعون ويَبْحَثُون صار عِنِدَهم شكٌّ وتَرُدُّدٌ.

* * *

٤٤٣٧- فَانْظُرْ إِلَى أَحْكَامِنَا فِيهِمْ وَقَدْ جَحَدُوا النُّصُوصَ وَمُقْتَضَى القُرْآنِ

٤٤٣٨- وَانْظُرْ إِلَى أَحْكَامِهِمْ فِينَا لِأَجْلِ خِلافِهِمْ، إِذْ قَادَهُ الوَحْيَانِ

---

(١) قاله الإمام الجويني، وذكره ابن تيمية، انظر: الحموية لابن تيمية (ص:٧)، وانظر: ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ط (٨).

٤٤٣٩- هَلْ يَسْتَوِي الـحُكْمَانِ عِنْـدَ اللهِ أَوْ ... عِنْـدَ الرَّسُـولِ وَعِنْـدَ ذِي الإِيـمَانِ

٤٤٤٠- الكُفْــرُ حَــقُّ اللهِ ثُــمَّ رَسُــولِهِ ... بِـالنَّصِّ يَثْبُــتُ، لا بِقَـوْلِ فُـلانِ

٤٤٤١- مَـنْ كَـانَ رَبُّ العَالَــمِينَ وَعَبْـدُهُ ... قَــدْ كَفَّــرَاهُ فَــذَاكَ ذُو الكُفْــرَانِ

٤٤٤٢- فَهَلُـمَّ وَيْحَكُـمُ نُحَـاكِمْكُمْ إِلَى الْـ ... ـوَحْيَيْنِ مِـنْ خَـبَرٍ وَمِـنْ قُـرْآنِ

٤٤٤٣- وَهُنَاكَ يُعْلَمُ أَيُّ حِزْبَيْنَـا عَـلَى الْـ ... ـكُفْرَانِ حَقًّـا، أَوْ عَـلَى الإِيـمَانِ

٤٤٤٤- فَلْيَهْنِكُمْ تَكْفِيرُ مَنْ حَكَمَتْ بِإِسْـ ... ـلامٍ وَإِيـمَانٍ لَـهُ النَّصَّـانِ

٤٤٤٥- لَكِنَّ غَايَتَهُ كَغَايَـةِ مَـنْ سِـوَى الْـ ... ـمَعْصُومِ، غَايَةُ نَوْعِ ذَا الإِحْسَانِ

٤٤٤٦- خَطَأٌ يَصِـيرُ الأَجْـرُ أَجْـرًا وَاحِـدًا ... إِنْ فَاتَـهُ مِـنْ أَجْلِـهِ الكِفْـلانِ

٤٤٤٧- إِنْ كَـانَ ذَاكَ مُكَفِّـرًا يَـا أُمَّـةَ الْـ ... ـعُدْوَانِ مَـنْ هَـذَا عَـلَى الإِيـمَانِ

٤٤٤٨- قَدْ دَارَ بَيْنَ الأَجْرِ وَالأَجْرَيْنِ وَالتْـ ... ـتَكْفِيرِ بِالـدَّعْوَى بِـلا بُرْهَـانِ

٤٤٤٩- كَفَّـرْتُمُ وَاللهِ مَـنْ شَـهِدَ الرَّسُـو ... لُ بِأَنَّــهُ حَقًّــا عَــلَى الإِيــمَانِ

٤٤٥٠- ثِنْتَانِ مِنْ قِبَـلِ الرَّسُـولِ وَخَصْـلَةٌ ... مِـنْ عِنْـدِكُمْ، أَفَـأَنْتُمَا عَـدْلانِ

الشـرحُ

٤٤٣٧- فَــانْظُرْ إِلَى أَحْكَامِنَـا فِـيهِمْ وَقَـدْ ... جَحَدُوا النُّصُوصَ وَمُقْتَضَـى القُرْآنِ

ومع ذلك نعذرُ جاهلَهم الحريصَ على طلبِ الحقِّ، الذي لم يُوفَّق لطلبِه من الطُّرقِ الصَّحيحةِ.

٤٤٣٨- وَانْظُـرْ إِلَى أَحْكَـامِهِمْ فِينَـا لِأَجْـ ـلِ خِلافِهِـمْ، إِذْ قَـادَهُ الوَحْيَـانِ

قَوْلُهُ: «وَانْظُرْ إِلَى أَحْكَامِهِمْ فِينَا» والذي حكموا فينا هو حكمهم علينا بالكفرِ.

قَوْلُهُ: «لأَجْلِ خِلَافِهِمْ»؛ يعني: لأجل أَنَّنا خالفْناهم صِرنا كُفَّارًا في زعمِهم.

قَوْلُهُ: «إِذْ قَادَه الوَحْيَانِ»؛ أي: قاد خلافَنا معهم الْوحْيَان. يعني: نحن لم نُخالِفْهم بأهوائِنا، ولكنْ بقيادةِ الكتابِ والسُّنَّةِ.

٤٤٣٩- هَلْ يَسْتَوِي الـحُكْمانِ عِنْـدَ الله أَوْ عِنْـدَ الرَّسُـولِ وَعِنْـدَ ذِي الإِيـمانِ

الجوابُ: لا؛ لأَنَّنا نحن حَكَمْنَا فيهم بالعدلِ، وهم حكموا فينا بالجورِ والطُّغيانِ، ثُمَّ ذكَر المؤلِّفُ -رحمه الله- قاعدةً مفيدةً مهمَّةً، ما أحوجَ النَّاسِ إليها في هذا الزَّمان! إذ يقولُ:

٤٤٤٠- الكُفْـرُ حَـقُّ الله ثُـمَّ رَسُـولِهِ بِـالنَّصِّ يَثْبُـتُ، لا بِقَـوْلِ فُـلانِ

قَوْلُهُ: «الكُفْرُ حَقُّ الله ثُمَّ رَسُولِهِ» نعم، هذه قاعدةٌ عظيمةٌ، أَنَّ الكفرَ حقٌّ لله، وحقٌّ للرَّسولِ، والذي يحكمُ بأنَّ الشَّيءَ كفرٌ أو غيرُ كفرٍ هو اللهُ ورسولُه، كما أَنَّ الذي يحكمُ بأنَّ هذا حلالٌ وهذا حرامٌ هو اللهُ ورسولُه، فإذا كان اللهُ يقولُ في القرآنِ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النَّحل:١١٦]، فكذلك نقولُ: لا تقولوا: هذا مؤمنٌ وهذا كافرٌ، لتفتروا على الله الكذبَ.

وَقَوْلُهُ: «بِالنَّصِّ»؛ أي: بنصٍّ على الكفرِ واضحٍ، وأيُّ نصٍّ تجدُ به الكفرَ غيرَ صريحٍ فلا تحكمْ بالكفرِ، بل لا بُدَّ أن يكونَ نصًّا صريحًا، حتَّى لو قاله مَنْ قاله لا تتَّبعْه.

٤٤٤١- مَـنْ كَـانَ رَبُّ العَالَـمِينَ وَعَبْـدُهُ قَـدْ كَفَّـرَاهُ فَـذَاكَ ذُو الكُفْـرَانِ

قَوْلُهُ: «مَنْ كَانَ رَبُّ العَالَـمِينَ وَعَبْدُهُ» أي: الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلام، «قد كفَّراه فذاك ذو الكفران»، ومَنْ لم يُكفِّراه فليس بكافرٍ.

٤٤٤٢- فَهَلُـمَّ وَيْحَكُـمُ نُحَـاكِمْكُمْ إِلَى الْـ ـوَحْيَيْنِ مِـنْ خَـبَرٍ وَمِـنْ قُـرْآنِ

٤٤٤٣- وَهُنَاكَ يُعْلَمُ أَيُّ حِزْبَيْنَـا عَـلَى الْـ ـكُفْرَانِ حَقًّـا، أَوْ عَـلَى الإِيـمَانِ

٤٤٤٤- فَلْيَهْنِكُمْ تَكْفِيرُ مَنْ حَكَمَتْ بِإِسْـ ـلامٍ وَإِيـمَانٍ لَـهُ النَّصَّـانِ

قَوْلُهُ: «فَلْيَهْنِكُمْ»؛ يعني: لكم الهناءُ، وهذا من بابِ التَّهكُّمِ بهم.

قَوْلُهُ: «تَكْفِيرُ مَنْ حَكَمَتْ بِإِسْلَامٍ وَإِيمَانٍ لَهُ النَّصَّانِ» «النَّصَّانِ»: فاعلُ «حَكَمَتْ»؛ يعني: مَنْ حَكَمَتْ له النَّصَّانِ بالإيمانِ والإسلامِ، وأنتم تُكفِّرونَه.

٤٤٤٥- لَكِنَّ غَايَتَهُ كَغَايَـةِ مَـنْ سِـوَى الْـ ـمَعْصُومِ، غَايَةُ نَوْعِ ذَا الإِحْسَـانِ

يعني: غاية هذا الذي حكمتم عليه بالكفْر «كغايةِ مَنْ سوى المعصومِ، غايةِ نوعِ ذا الإحسانِ».

٤٤٤٦- خَطأٌ يَصِـيرُ الأَجْـرُ أَجْـرًا وَاحِـدًا إِنْ فَاتَـهُ مِـنْ أَجْلِـهِ الكِفْـلانِ

قَوْلُهُ: «خَطأٌ يُصِيرُ الأَجْرَ أَجْرًا وَاحِدًا»، وفي نسخةٍ أخرى: «فَيُصَيِّرُ الأَجْرَيْنِ أَجْرًا وَاحِدًا»، والمعنى على النُّسختَيْنِ واحدٌ؛ يعني: أنَّ الخطأَ إذا كان من مجتهدٍ يَجْعَل له بدلَ الأَجْرَيْنِ أجرًا واحدًا.

قَوْلُهُ: «إِنْ فَاتَهُ مِنْ أَجْلِهِ الكِفْلَانِ» وإنما يفوتُ من أجلِه الكِفْلَانِ إذا أخطأ، فالمجتهدُ إمَّا مصيبٌ فله أجران، وإما مُخْطِئٌ فله أجرٌ واحدٌ.

٤٤٤٧- إِنْ كَـانَ ذَاكَ مُكَفِّـرًا يَـا أُمَّـةَ الْـ ـعُدْوَانِ مَـنْ هَـذَا عَـلَى الإِيـمَانِ

يعني: إنْ كان الاجتهادُ الذي يبذلُه الإنسانُ ثُمَّ يُخطِئ فيه على أيِّ تقديرٍ كفرًا، فمَن الذي على الإيمانِ؟ والاستفهامُ هنا للإنكارِ والتَّوبيخِ.

٤٤٤٨- قَدْ دَارَ بَيْنَ الأَجْرِ وَالأَجْرَيْنِ وَالتْـ ـتكْفِيرِ بِالـدَّعْوَى بِـلا بُرْهَـانِ

قَوْلُهُ: «بَيْنَ الأَجْرِ» وذلك إن أخطأَ.

قَوْلُهُ: «الأَجْرَيْنِ»؛ أي: إن أَصَابَ.

قَوْلُهُ: «والتَّكْفِيرِ» هذا ليس بصحيحٍ، ليس هناك تكفيرٌ؛ ولهذا قال: «بِالدَّعْوَى بِلَا بُرْهَانِ».

٤٤٤٩- كَفَّـرْتُمْ وَاللهِ مَـنْ شَـهِدَ الرَّسُـو لُ بِأَنَّـهُ حَقًّـا عَـلَى الإِيـمَانِ

وقد جاءت شهادةُ الرَّسولِ بأنَّه «حَقًّا عَلَى الإِيمَانِ» من أنَّ إثباتَ الأجرِ له يَدُلُّ على أنَّه مؤمنٌ؛ إذ إنَّ الكافرَ ليس له أجرٌ ولو أَصَابَ.

٤٤٥٠- ثِنْتَانِ مِنْ قِبَلِ الرَّسُـولِ وَخَصْـلَةٌ مِـنْ عِنْـدِكُمْ، أَفَـأَنْتُمَا عَـدْلانِ

قَوْلُهُ: «ثِنْتَانِ مِنْ قِبَلِ الرَّسُولِ» وهما: الأجر أو الأجران.

قَوْلُهُ: «وَخَصْلَةٌ مِنْ عِنْدِكُمْ» وهي التَّكفيرُ.

قَوْلُهُ: «أَفَأَنْتُمَا عِدْلَانِ؟»؛ يعني: أنتم مع الرَّسولِ «عِدْلَانِ»؛ يعني: بعضُكم يعدلُ بعضًا فتحكمون كما يحكمُ الرَّسولُ، والاستفهامُ هنا للنَّفي والإنكارِ.

* * *

فصل

في تَلاعُبِ المُكَفِّرِينَ لأَهْلِ السُّنَّةِ وَالإيمَانِ بِالدِّينِ كَتَلاعُبِ الصِّبْيَانِ

٤٤٥١- كَمْ ذَا التَّلاعُبُ مِنْكُمُ بِالدِّينِ وَالْـ ... إيـمَانِ مِثْـلَ تَلاعُـبِ الصِّـبْيَانِ؟
٤٤٥٢- خُسِفَتْ قُلُوبُكُمُ كَمَا خُسِفَتْ عُقُو ... لُكُـمُ، فَـلا تَزْكُـوا عَـلَى القُـرْآنِ
٤٤٥٣- كَـمْ ذَا تَقُولُـوا: مُجْمَـلٌ وَمُفَصَّـلٌ ... وَظَـوَاهِرٌ عُزِلَـتْ عَـنِ الإِيقَـانِ
٤٤٥٤- حَتَّـى إِذَا رَأْيُ الرِّجَـالِ أَتَـاكُمُ ... فَاسْـمَعْ لِـمَا يُـوحَى بِـلا بُرْهَـانِ
٤٤٥٥- مِثْلُ الـخَفَافِيشِ الَّتِـي إِنْ جَاءَهَـا ... ضَوْءُ النَّهَارِ فَفِي كُوَى الـحِيطَانِ
٤٤٥٦- عَمِيَتْ عَنِ الشَّمْسِ المُنِيرَةِ لا تُطِيـ ... ـقُ هِدَايَـةً فِيهَـا إِلَى الطَّـيَرَانِ
٤٤٥٧- حَتَّـى إِذَا مَـا اللَّيْـلُ جَـاءَ ظَلامُـهُ ... جَالَـتْ بِظُلْمَتِـهِ بِكُـلِّ مَكَـانِ
٤٤٥٨- فَتَرَى المُوَحِّدَ حِينَ يَسْمَعُ قَوْلَـهُمْ ... وَيَـرَاهُمُ فِي مِحْنَـةٍ وَهَـوَانِ
٤٤٥٩- وَارَحْمَتَـاهُ لِعَيْنِـهِ وَلأُذْنِـهِ ... يَـا مِحْنَـةَ الْعَيْنَـيْنِ وَالأُذُنَـانِ
٤٤٦٠- إِنْ قَـالَ حَقًّـا كَفَّـرُوهُ، وَإِنْ يَقُـو ... لُـوا بَـاطِلًا نَسَـبُوهُ لِلإِيـمَانِ
٤٤٦١- حَتَّـى إِذَا مَـا رَدَّهُ عَـادَوْهُ مِثْـ ... ـلَ عَـدَاوَةِ الشَّـيْطَانِ لِلإِنْسَـانِ
٤٤٦٢- قَالُوا لَهُ: (خَالَفْـتَ أَقْـوَالَ الشُّـيُو ... خِ) وَلَـمْ يُبَالُوا الـخُلْفَ لِلفُرْقَـانِ
٤٤٦٣- خَالَفْـتُ أَقْـوَالَ الشُّـيُوخِ فَـأَنْتُمُ ... خَـالَفْتُمُ مَـنْ جَـاءَ بِـالْقُرْآنِ

٤٤٦٤- خَـالَفْتُمُ قَـوْلَ الرَّسُـولِ، وَإِنَّـمَا ... خَالَفْـتُ مِـنْ جَـرَّاهُ قَـوْلَ فُـلانِ

٤٤٦٥- يَـا حَبَّـذَا ذَاكَ الـخِلافُ، فَإِنَّـهُ ... عَـيْنُ الْوِفَـاقِ لِطَاعَـةِ الـرَّحْمَنِ

الشـرحُ

ذكر المؤلِّفُ -رحمه الله- في هذا الفصلِ أنَّ هؤلاء الذين يُكَفِّرونَ أهلَ السُّنَّةِ يتلاعبون بالدِّينِ كتَلاعُبِ الصِّبيانِ؛ ولذا قال:

٤٤٥١- كَمْ ذَا التَّلاعُبُ مِنْكُمُ بِالدِّينِ وَالْـ ... إِيـمَانِ مِثْـلَ تَلاعُـبِ الصِّـبْيَانِ؟

يعني: كما يتلاعبُ الصِّبيانُ بالكرةِ وغيرِها فأنتم تَتَلاعَبُون بالدِّينِ، تقولون: هذا حقٌّ وهذا باطلٌ، وهذا كفرٌ، وهذا إيمانٌ، بدُونِ بُرهانٍ.

٤٤٥٢- خُسِفَتْ قُلُوبُكُمُ كَمَا خُسِفَتْ عُقُو ... لُكُـمُ، فَـلا تَزْكُـوا عَـلَى القُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «خُسِفَتْ قُلُوبُكُمُ»؛ يعني: ذهب نورُها وانطمس؛ كما يُخْسَفُ القمرُ.

٤٤٥٣- كَـمْ ذَا تَقُولُـوا: مُجْمَـلٌ وَمُفَصَّـلٌ ... وَظَـوَاهِرٌ عُزِلَـتْ عَـنِ الإِيقَـانِ

يعني: أنَّكم تَرُدُّون الكتابَ والسُّنَّةَ بمثلِ هذه الأقوالِ، تقولون: هذا مُجْمَلٌ، وهذا مُفَصَّلٌ، وهذه ظواهرُ لا تدلُّ على اليقينِ، وما أشبه ذلك، وهذا هو ما يذهبون إليه الآن، إذا رَأَوْا دليلًا خَالَفَ عقولَهم قالوا: هذا ظاهرٌ، والظَّاهرُ لا يدُلُّ على اليقينِ، نقولُ: وإذا كان الظَّاهرُ لا يدلُّ على اليقينِ فما الذي يدلُّ على اليقين؟!

٤٤٥٤- حَتَّـى إِذَا رَأْيُ الرِّجَـالِ أَتَـاكُمُ ... فَاسْـمَعْ لِـمَا يُـوحَى بِـلا بُرْهَـانِ

يعني: إذا جاءتكمُ الآراءُ فإنَّكم تسمعون لها بدُونِ أيِّ دليلٍ، الأدلَّةُ من الكتابِ والسُّنَّةِ تُرَدُّ، وآراءُ الرِّجالِ التي لا دليلَ لها تُقْبَلُ!

٤٤٥٥- مِثْلُ الخَفَافِيشِ الَّتِي إِنْ جَاءَهَا ... ضَوْءُ النَّهَارِ فَفِي كُوَى الحِيطَانِ

الخفافيشُ نوعٌ من الطُّيورِ، لكنَّه طيرٌ بلا ريشٍ، جناحُه عبارةٌ عن لحمٍ متَّصلٍ بعضُه ببعضٍ، ولا يأتي إلَّا في الظَّلامِ، فلا يأتي في النَّهارِ أبدًا، ولا يأتي في اللَّيلِ المدْلَهِمِّ، بل يأتي في أوَّلِ الليلِ وفي آخرِه، وهو غيرُ موجودٍ في الْمُدُن الآن؛ لأنَّ الأنوارَ بها في اللَّيلِ كالأنوارِ في النَّهارِ، وهو يصيرُ في محلٍّ لا نورَ فيه؛ لأنَّ النُّورَ يُعْمِيه، إذا جاء «ضوءُ النَّهارِ ففي كُوَى الحيطانِ»، و(**الكُوَى**) جمع «كُوَّة»؛ يعني: تكون في الْفُرَج، تتعلَّق بالسُّقوف وهكذا.

٤٤٥٦- عَمِيَتْ عَنِ الشَّمْسِ المُنِيرَةِ لا تُطِيـ ... ـقُ هِدَايَةً فِيهَا إِلَى الطَّيَرَانِ

فهو يقولُ: إنَّهم إذا عُرِضَتْ عليهم الأدلَّةُ من الكتابِ والسُّنَّةِ عَمَوْا عنها، كما تعمى الخفافيشُ في ضوءِ الشَّمسِ، وإذا عُرِضَت عليهم أقوالُ البشرِ قَبلوها وفَرِحُوا بها.

٤٤٥٧- حَتَّى إِذَا مَا اللَّيْلُ جَاءَ ظَلامُهُ ... جَالَتْ بِظُلْمَتِهِ بِكُلِّ مَكَانِ

هذا التَّشبيهِ المرادُ به التَّقبيحُ؛ يعني: أراد بتشبيهِهم بهذه الخَفَافِيشِ تقبيحَ حالِهم.

٤٤٥٨- فَتَرَى المُوَحِّدَ حِينَ يَسْمَعُ قَوْلَهُمْ ... وَيَرَاهُمُ فِي مِحْنَةٍ وَهَوَانِ

إذا رآهم الموحِّدُ وسَمِعَ قولَهم صار في محنةٍ وهوانٍ، كما قال المتنبِّي:

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الحُرِّ أَنْ يَرَى ... عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ[1]

---

(١) في ديوانه (١/ ٣٧٥).

هذا من نَكَدِ الدُّنيا على الحرِّ، فهؤُلاءِ الْقومُ الذين يأتون إلى مجالسِ أهلِ السُّنَّةِ ويتكلَّمون معهم ويجادلونهم يُؤذُون أهلَ السُّنَّةِ؛ يُؤْذُونهم برؤَيتِهم، ويُؤْذونهم بأقوالِـهم.

٤٤٥٩- وَارَحْمَتَــــاهُ لِعَيْنِــــهِ وَلِأُذْنِــــهِ يَـــا مِحْنَـــةَ الْعَيْنَـــيْنِ وَالأُذُنَـــانِ

قَوْلُهُ: «وَارَحْمَتَاهُ لِعَيْنِهِ وَلأُذْنِهِ» لعينِهِ إذا رآهم، ولأذنِهِ إذا سَمِعَهم.

٤٤٦٠- إِنْ قَــالَ حَقًّــا كَفَّــرُوهُ، وَإِنْ يَقُــو لُــوا بَــاطِلًا نَسَــبُوهُ لِلإِيــمَانِ

إن قال هذا السُّنِّيُّ حقًّا قالوا: (هذا كافرٌ)، وإن قالوا هم باطلًا قالوا: (هذا هو الإيمانُ)، فباطلُهم إيمانٌ، وحقُّ المُثْبِتِ كفرٌ.

٤٤٦١- حَتَّــى إِذَا مَــا رَدَّهُ عَــادَوْهُ مِثْــ ــلَ عَــدَاوَةِ الشَّــيْطَانِ لِلإِنْسَــانِ

حتَّى إذا رَدَّ الباطلَ الذي نَسَبُوه للإيمانِ عَادَوْهُ «مِثْلَ عداوةِ الشَّيطانِ للإنسانِ»، فالشَّيطانُ قال للإنسانِ: ﴿ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر:١٦]؛ أي: تَبَرَّأَ منه وصَارَ من أعدائِه.

٤٤٦٢- قَالُوا لَهُ: (خَالَفْـتَ أَقْـوَالَ الشُّـيُو خِ) وَلَـمْ يُبَالُوا الـخُلْفَ لِلفُرْقَـانِ

يعني: أنكروا عليه أنَّه خَالَفَ أقوالَ الشُّيوخِ، ولم يُبالوا أنَّهم خَالَفُوا الفرقانَ الذي هو القُرآنُ.

٤٤٦٣- خَالَفْــتُ أَقْــوَالَ الشُّــيُوخِ فَــأَنْتُمُ خَــالَفْتُمُ مَــنْ جَــاءَ بِــالْقُرْآنِ

ولا شك أن الثَّانيَ أعظمُ، لأنَّه يقولُ: أنا (خَالَفْتُ أقوالَ الشُّيوخِ)، أمَّا أنتم فَـ(خَالَفْتُم مَنْ جاء بالقرآنِ)، وهو الرَّسولُ صلى الله عليه وسلم.

٤٤٦٤- خَالَفْتُمُ قَوْلَ الرَّسُولِ، وَإِنَّمَا خَالَفْتُ مِنْ جَرَّاهُ قَوْلَ فُلانِ

يعني: خالفتم أنتم قولَ الرَّسولِ، أمَّا أنا فخالَفْتُ «مِنْ جَرَّاهُ»؛ أي: من أجلِه ﷺ قولَ فلانٍ.

٤٤٦٥- يَا حَبَّذَا ذَاكَ الخِلافُ، فَإِنَّهُ عَيْنُ الْوِفَاقِ لِطَاعَةِ الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «يَا حَبَّذَا» هذه كلمةٌ يُرَادُ بها الثَّناءُ.

يعني: ما أحسنَ هذا الخلافَ الذي سَلَكْتُهُ! لأنَّه (عينُ الوفاقِ لطاعةِ الرَّحمنِ)، فأنا مخالفٌ بزعمِكمْ، ولكنِّي موافقٌ لطاعةِ الله عزَّ وجلَّ.

* * *

٤٤٦٦- أَوَمَا عَلِمْتَ بِأَنَّ أَعْدَاءَ الرَّسُو لِ عَلَيْهِ عَابُوا الخُلْفَ بِالبُهْتَانِ

٤٤٦٧- لِشُيُوخِهِمْ، وَلِمَا عَلَيْهِ قَدْ مَضَى أَسْلافُهُمْ فِي سَالِفِ الأَزْمَانِ

٤٤٦٨- مَا العَيْبُ إِلَّا فِي خِلافِ النَّصِّ، لَا رأيِ الرِّجَالِ وَفِكْرَةِ الأَذْهَانِ

٤٤٦٩- أَنْتُمْ تَعِيبُونَا بِهَذَا، وَهْوَ مِنْ تَوْفِيقِنَا، وَالفَضْلُ لِلْمَنَّانِ

٤٤٧٠- فَلْيَهْنِكُمْ خُلْفُ النُّصُوصِ، وَيَهْنِنَا خُلْفُ الشُّيُوخِ، أَيَسْتَوِي الخُلْفَانِ؟

٤٤٧١- وَالله مَا تَسْوَى عُقُولُ جَمِيعِ أَهْـ ـلِ الأَرْضِ نَصًّا صَحَّ ذَا تِبْيَانِ

٤٤٧٢- حَتَّى نُقَدِّمَهَا عَلَيْهِ مُعَرِّضِيـ ـنَ مُؤَوِّلِينَ مُحَرِّفِي القُرْآنِ

٤٤٧٣- وَالله إِنَّ النَّصَّ فِيمَا بَيْنَنَا لأَجَلُّ مِنْ آرَاءِ كُلِّ فُلانِ

الشــرحُ

٤٤٦٦- أَوَمَا عَلِمْـتَ بِـأَنَّ أَعْـدَاءَ الرَّسُـو ... لِ عَلَيْهِ عَـابُوا الــخُلْفَ بِالبُهْتَـانِ

٤٤٦٧- لِشُيُوخِهِمْ، وَلِـمَا عَلَيْهِ قَدْ مَضَـى ... أَسْــلافُهُمْ فِي سَــالِفِ الأَزْمَــانِ

يعني: أنَّ أعداءَ الرَّسولِ عابوا على النَّبِيِّ ﷺ الخُلْفَ لشيوخِهم، لكنَّ هذا العيبَ صدقٌ أو بهتانٌ؟ الجوابُ: بهتانٌ، فالنَّبيُّ ﷺ لا يُعَابُ بمخالفةِ شيوخِهم لتوحيدِ الله عزَّ وجلَّ، هم يقولون: هذا خَالَفَ آباءَنا، سَفَّهَ عقولَهم، أغوى شبابَنا، وما أشبه ذلك، وهم أهلُ العيبِ، يقولُ المؤلِّفُ رحمه الله:

٤٤٦٨- مَا العَيْبُ إِلَّا فِي خِلافِ الـنَّصِّ، لَا ... رأيِ الرِّجَــالِ وَفِكْــرَةِ الأَذْهَــانِ

العيبُ هو ما كان فيه خلافُ النَّصِّ؛ أي: إنَّ العيبَ حقيقةً مخالفةُ النَّصِّ لا مخالفة الآراءِ.

٤٤٦٩- أَنْـتُمْ تَعِيبُونَـا بِهَـذَا، وَهْـوَ مِـنْ ... تَوْفِيقِنَــــا، وَالفَضْــــلُ لِلْمَنَّــــانِ

وَصَدَقَ رحمهُ اللهُ، في كَوْنِهم يعيبون علينا أن نأخذَ بالنَّصِّ، أمَّا نحن فنرى أنَّ هذا من التَّوفيقِ، والفضلُ للمنَّانِ.

٤٤٧٠- فَلْيَهْنِكُمْ خُلْفُ النُّصُوصِ، وَيَهْنِنَا ... خُلْفُ الشُّيُوخِ، أَيَسْتَوِي الخُلْفَانِ؟

قَوْلُهُ: «أَيَسْتَوِي الخُلْفَانِ؟» الجوابُ: لا.

نحن نهنأُ بمخالفةِ الشُّيوخِ إذا كانوا على باطلٍ، وأنتم لِيَهْنِكُمْ خُلْفُ النُّصوصِ، وهذا لا شكَّ أنَّه من التَّهكُّمِ بهم؛ إذ لا يستوي الخُلْفَانِ: فخُلْفُ الشُّيوخِ مع مخالفة النَّصِّ واجبٌ، وخُلْفُ النُّصوصِ محُرَّمٌ.

٤٤٧١- وَالله مَا تَسْوَى عُقُولُ جَمِيعِ أَهْـــ ـــلِ الأَرْضِ نَصًّا صَحَّ ذَا تِبْيَانِ
٤٤٧٢- حَتَّـى نُقَـدِّمَهَا عَلَيْـهِ مُعَرِّضِيــ ـــنَ مُـؤَوِّلِينَ مُحَرِّفِـي القُـرْآنِ

وهذا صحيحٌ؛ يعني: لو أنَّنا وزنَّا عقولَ جميعِ أهلِ الأرضِ بنصٍّ صَحَّ عن النَّبِيِّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- ما ساوته هذه العقولُ حتَّى نقدِّمَها؛ يعني: لا يمكنُ أن نقدِّمَها؛ لأنَّها لا تُسْوَى.

٤٤٧٣- وَالله إِنَّ الـنَّصَّ فِـيمَا بَيْنَنَـا لأَجَـلُّ مِـنْ آرَاءِ كُـلِّ فُـلانِ

وصدق في يمينِه، وبَرَّ فيها، فالنَّصُّ فيما بيننا أَجَلُّ من آراءِ كُلِّ أحدٍ.

***

٤٤٧٤- وَالله لَـمْ يَـنْقِمْ عَلَيْنَـا مِـنْكُمُ أَبَـدًا خِـلافَ الـنَّصِّ مِـنْ إِنْسَـانِ
٤٤٧٥- إِلَّا خِـلافَ الأَشْـعَرِيِّ بِـزَعْمِكُمْ وَكَـذَبْتُمُ أَنْـتُمْ عَـلَى الإِنْسَـانِ
٤٤٧٦- كَفَّـرْتُمُ مَـنْ قَـالَ مَـا قَـدْ قَالَـهُ فِي كُتْبِـهِ حَقًّـا بِـلا كِـتْمَانِ
٤٤٧٧- هَـذَا وَخَالَفْنَـاهُ فِي القُـرْآنِ مِثْــ ـــلَ خِلافِكُـمْ فِي الفَـوْقِ لِلـرَّحْمَنِ
٤٤٧٨- فَالأَشْـعَرِيُّ مُصَـرِّحٌ بِالإِسْـتِوَا ءِ وَبِـالعُلُوِّ بِغَايَـةِ التِّبْيَـانِ
٤٤٧٩- وَمُصَـرِّحٌ أَيْضًـا بِإِثْبَـاتِ اليَدَيْــ ـنِ وَوَجْهِ رَبِّ العَرْشِ ذِي السُّلْطَانِ
٤٤٨٠- وَمُصَـرِّحٌ أَيْضًـا بِـأَنَّ لِرَبِّنَـا سُـبْحَانَهُ عَيْنَـانِ نَاظِرَتَـانِ
٤٤٨١- وَمُصَـرِّحٌ أَيْضًـا بِإِثْبَـاتِ النُّـزُو لِ لِرَبِّنَـا نَحْـوَ الرَّفِيـعِ الـدَّانِي
٤٤٨٢- وَمُصَـرِّحٌ أَيْضًـا بِإِثْبَـاتِ الأَصَـا بِـعِ مِثْلُ مَـا قَـدْ قَـالَ ذُو البُرْهَـانِ

٤٤٨٣- وَمُصَــرِّحٌ أَيْضًــا بِــأَنَّ اللهَ يَــوْ   مَ الـحَشْرِ يُبْصِـرُهُ أُولُـو الإِيـمَانِ

٤٤٨٤- جَهْــرًا يَــرَوْنَ اللهَ فَــوْقَ سَـمَائِهِ   رُؤْيَـا العِيَـانِ كَـمَا يُـرَى القَمَـرَانِ

٤٤٨٥- وَمُصَرِّحٌ أَيْضًـا بِإِثْبَـاتِ الـمَجِي   ءِ وَأَنَّـــهُ يَـــأْتِي بِـــلا نُكْـــرَانِ

٤٤٨٦- وَمُصَــرِّحٌ بِفَسَـادِ قَـوْلِ مُـؤَوِّلٍ   لِلإِسْــتِوَاءِ بِقَهْــرِ ذِي السُّــلْطَانِ

٤٤٨٧- وَمُصَرِّحٌ أَنَّ الأُلَى قَـالُوا بِـذَا التْـ   ـتَأْوِيلِ أَهْـلُ ضَـلالَةٍ بِبَيَـانِ

٤٤٨٨- وَمُصَــرِّحٌ أَنَّ الَّـذِي قَـدْ قَالَـهُ   أَهْلُ الـحَدِيثِ وَعَسْكَرُ القُرْآنِ

٤٤٨٩- هُــوَ قَوْلُــهُ يَلْقَــى عَلَيْــهِ رَبَّــهُ   وَبِـــهِ يَـــدِينُ اللهَ كُـــلَّ أَوَانِ

الشرحُ

٤٤٧٤- وَاللهِ لَــمْ يَــنْقِمْ عَلَيْنَـا مِــنْكُمُ   أَبَـدًا خِـلافَ الـنَّصِّ مِـنْ إِنْسَـانِ

٤٤٧٥- إِلَّا خِـلافَ الأَشْـعَرِيِّ بِـزَعْمِكُمْ   وَكَــذَبْتُمُ أَنْــتُمْ عَــلَى الإِنْسَــانِ

قَوْلُهُ: «إِلَّا خِلَافَ الأَشْعَرِيِّ»، وفي نسخةٍ: «لَكِنْ خِلَافَ الأَشْعَرِيِّ»، والأولى أوضحُ.

يعني: أنَّكم لم تنقموا علينا منَّا خلافَ النَّصِّ أبدًا، وإنَّما تنقمون خلافَ الأشعريِّ بزعمِكم؛ يعني: أنتم تقولون: إنَّكم خالفتم الأشعريَّ ولم تنقموا علينا يومًا من الأيَّامِ أنَّنا خَالَفْنَا النَّصَّ.

قَوْلُهُ: «وَكَذَبْتُمُ أَنْتُمْ عَلَى الإِنْسَانِ» يريدُ «بِالإِنْسَانِ» الأشعريَّ، كذبتم عليه بأنَّه يوافقُكم ويخالفُنا.

٤٤٧٦- كَفَّـرْتُمُ مَـنْ قَـالَ مَـا قَـدْ قَالَـهُ فِي كُتْبِــهِ حَقًّــا بِــلا كِـــتْمَانِ

يعني: أنَّهم كفَّروا مَنْ قال ما قال الأشعريُّ في كتبه؛ لأنَّهم يُنكرون أنْ يكونَ الأشعريُّ تَابَعَ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ في آخرِ الأمرِ.

ثُمَّ قال المؤلِّفُ -رحمه الله تعالى- مُبيِّنًا أنَّنا نحن نوافقُ الحقَّ أينما كان سواء كان من الأشعريِّ أم من غيرِه، يقولُ:

٤٤٧٧- هَـذَا وَخَالَفْنَـاهُ فِي القُـرْآنِ مِثْــ ـلَ خِلافِكُـمْ فِي الفَـوْقِ لِلـرَّحْمَنِ

يعني: مثلما خالفتموه أنتم في الفوقِ للرَّحمنِ نحن خالفناه في القرآنِ؛ لأنَّه -رحمه الله- يَرَى أنَّ كلامَ الله هو المعنى القَائِمُ بنفسِه؛ أي: الكلامُ النفسيُّ، الذي سَبَقَ أنَّ ابنَ القيِّمِ -رحمه الله- ذكر أنَّ شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميَّةَ رَدَّ عليه من تسعين وجهًا.

قَوْلُهُ: «مِثْلَ خِلَافِكُمْ لَهُ فِي الفَوْقِ لِلرَّحْمَنِ» فهو يؤمنُ بفوقيَّةِ الله وأنتم تُنكرونها؛ لأنَّ الأشاعرةَ يقولون: إنَّ اللهَ ليس فوقَ العالَـمِ ولا تحتَ العالَـمِ، ولا يمينَ العالَـمِ ولا شمالَ العالَـمِ، ولا متَّصلًا ولا منفصلًا، ولا مباينًا ولا محايثًا، إذَنْ يكونُ لا شيء، أمَّا الأشعريُّ -رحمه الله تعالى- فقال وصَرَّحَ بأنَّ اللهَ فوقَ سماواتِه.

٤٤٧٨- فَالأَشْـعَرِيُّ مُصَــرِّحٌ بِالإِسْـتِوَا ءِ وَبِـــالعُلُوِّ بِغَايَـــةِ التِّبْيَـــانِ

والأشاعرةُ لا يقولون لا بهذا ولا بهذا، لا يُؤمنون بالاستواءِ على معناه الحقيقيِّ، ولا يؤمنون بعلوِّ الله عزَّ وجلَّ، والأشعريُّ الذي يدَّعون أنَّهم مُتَّبِعُونَ له مؤمنٌ بالاستواءِ والعلوِّ.

٤٤٧٩- وَمُصَــرِّحٌ أَيْضًــا بِإِثْبَــاتِ اليَدَيْــ ـنِ وَوَجْهِ رَبِّ العَرْشِ ذِي السُّلْطَانِ

قَوْلُهُ: «وَمُصَرِّحٌ أَيْضًا بِإِثْبَاتِ اليَدَيْنِ» الأشعريُّ مُصَرِّحٌ بإثباتِ اليدين لله عزَّ وجلَّ، فللَّهِ يدان اثنتان، كلتاهما يمينٌ من حيث البركة، ومن حيث القوَّة، ومن حيث البسط، ولكن إحداهما يمينٌ وإحداهما شمالٌ من حيث ذات اليدِ، وبهذا نجمعُ بين الأحاديثِ الواردةِ بإثباتِ الشِّمال لله[1] عزَّ وجلَّ والأحاديثِ التي ورد فيها أنَّ «كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ»[2].

وقد وَرَدَت اليدان في القرآنِ الكريمِ وكذلك في السُّنَّةِ على أوجهٍ ثلاثةٍ: الجمع، والتَّثنية، والإفراد، أمَّا الجمعُ فكقولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يس:٧١]، وأمَّا الإفرادُ فكقولِه تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك:١]، وأمَّا التَّثنية فكقولِه تعالى يخاطبُ إبليسَ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، وكقولِه تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، والجمعُ بين هذه الأوجهِ الثَّلاثةِ سهلٌ بأن نقولَ: أمَّا الجمعُ فإنَّما جُمِعَتْ للتَّعظيمِ والتَّناسب بين المضافِ والمضافِ إليه، المضافُ إليه «نا» الدَّالَّةُ على العظمةِ، فجُمِعَت «**اليد**» لتكونَ مناسبةً لـ«**نا**» التي للعظمةِ.

وأمَّا التَّثنية فلأنَّ ذلك هو الحقيقة أنَّ لله يدين اثنتين، وأمَّا الإفرادُ فإنَّ المفردَ المضافَ لا يمنعُ التَّعدُّدَ؛ لأنَّه يعمُّ، وبهذا يصحُّ التَّعبيرُ بالتَّثنيةِ والإفرادِ والجمعِ.

---

(١) كما في قوله ﷺ: «يَطْوِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْـمَلِكُ، أَيْنَ الْـجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْـمُتَكَبِّرُونَ. ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْـمَلِكُ أَيْنَ الْـجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْـمُتَكَبِّرُونَ؟». أخرجه مسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٧٨٨).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، رقم (١٨٢٧).

قَوْلُهُ: «**وَوَجْهِ رَبِّ العَرْشِ ذِي السُّلْطَانِ**» الأشعريُّ -رحمه الله- أيضًا يؤمنُ بأنَّ اللهَ له وجهٌ، قال اللهُ -سبحانه وتعالى-: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرَّحمن:٢٧]، وأمَّا أتباعُ الأشعريِّ الذين هم الأشاعرةُ فلا يؤمنون بوجهِ الله، بل يُحَرِّفونه.

٤٤٨٠- وَمُصَرِّحٌ أَيْضًا بِأَنَّ لِرَبِّنَا ... سُبْحَانَهُ عَيْنَانِ نَاظِرَتَانِ

المُصَرِّحُ هو الأشعريُّ يُصَرِّحُ «**أَنَّ لِرَبِّنَا عَيْنَانِ نَاظِرَتَانِ**»، وهنا قال: «**بِأَنَّ لِرَبِّنَا... عَيْنَانِ نَاظِرَتَانِ**»، ابنُ القيِّمِ -رحمه الله تعالى- في هذه النُّونيَّةِ يرفعُ المثنَّى -أحيانًا- في موضعِ النَّصبِ، وفي موضعِ الجرِّ، ويرفعُه؛ يعني: يجعلُه بالألفِ؛ إمَّا لضرورةِ الشِّعرِ، وإمَّا على لغة مَنْ يُلْزِمُ المثنَّى الألفَ مطلقًا.

والذي يظهرُ لي -واللهُ أعلمُ- أنَّه لأجلِ الضَّرورةِ؛ لأنَّه مَرَّ علينا قبل ذلك أنَّه عطف مثنًّى بالألفِ على مثنًّى بالياءِ، وهذا يدلُّ على أنَّه إنَّما يفعلُ ذلك للضَّرورةِ، وقد ذَهَبَ بعضُ العلماءِ إلى أنَّ ضرورةَ الشِّعرِ كما تُوجِبُ أحيانًا صرفَ ما لا ينصرفُ، كذلك تُوجِبُ تغييرَ الحرفِ؛ أي: تغيير ما يُعْرَبُ بالحروفِ.

قَوْلُهُ: «**عَيْنَانِ نَاظِرَتَانِ**» وهذا الذي أجمع عليه أهلُ السُّنَّةِ أنَّ لله عينَيْنِ ناظرتَيْنِ ينظرُ بهما عزَّ وجلَّ، وقد وَرَدَت العينان بصفةِ الجمعِ، وبصفةِ الإفرادِ، فبصفةِ الجمعِ كقولِه تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]، وبصفةِ الإفرادِ كقولِه تعالى يخاطبُ موسى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه:٣٩]، فنقولُ في الجمعِ بينهما كما قلنا في الجمعِ بين اليدين؛ أنَّ الجمعَ للتَّعظيمِ والمناسبةِ، والتَّعظيمُ واضحٌ، والمناسبة؛ لأنَّها أُضِيفَت إلى ما يفيدُ العظمةَ، أمَّا الإفراد فلأنَّه مفردٌ مضافٌ فلا ينافي التَّعدُّدَ؛ إذ إنَّ المفردَ المضافَ يكونُ للعمومِ.

وهل وَرَدَت العينان بصفة التَّثنيةِ؟ نقولُ: جاءت في السُّنَّةِ، لكن جاءت على وجهين:

الوجه الأوَّل: أنَّها وردت بلفظٍ صريحٍ وهو قولُه: «**إنَّ العَبْدَ إِذَا قَامَ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّهُ بَيْنَ عَيْنَي الرَّحْمَنِ**»(١)، ولكنَّ في صحَّتِه نظرًا إلَّا أنَّه يقوِّيه ما ثَبَتَ في الصَّحيحين وغيرِهما في وصفِ الدَّجَّال: «**إِنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ**»(٢)؛ أي: أعور العين لا أعور البدن، من العَوَر وهو العيبُ؛ لأنَّه جاء مُصَرَّحًا به، وهذا يدلُّ قطعًا على أنَّ لله عينين فقط؛ لأنَّه لو كان له أكثرُ من عينين لكانت الزِّيادةُ على العينين كمالًا، وإذا كانت كمالًا فلا بُدَّ أن تُذْكَرَ، وإذا ذُكِرَت حَصَلَ الفرقُ أو التَّمييزُ بين هذا الأعورِ الدَّجَّالِ وبين ربِّ العالمين عزَّ وجلَّ، فيظهرُ الفرقُ بالزِّيادةِ، أمَّا كونُ الرَّسولِ ﷺ يجعلُ الفرقَ أنَّه أعورُ فهذا يدلُّ قطعًا على أنَّ لله عينين اثنتين لا زيادة، ووجهُ ذلك أنَّه لو كان له أكثرُ من ثنتين لكان الزَّائدُ كمالًا، وإذا كان كمالًا فإنَّه لا يمكنُ أن يُهْمِلَه الرَّسولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- ويغفلَه، ولقال: «**إنَّ ربَّكم له ثلاث أو أربع أو عشر**»، فلمَّا لم يذكره عُلِمَ أنَّه لا يزيدُ على عينين، لكن التَّمييز؛ لأنَّ عَيْنَي الدَّجَّال عَوْراوَيْنِ بخلاف عَيْنَي الرَّبِّ عزَّ وجلَّ.

وهذا أيضًا أمرٌ قد أجمع عليه سلفُ الأُمَّةِ، فكُلُّ مَنْ تكلَّم من أصحابِ كتبِ العقائدِ يذكرونها بالتَّثنيةِ، وقد ذكر الأشعريُّ -رحمه الله- في كتاب «**الإبانة**»

---

(١) أخرجه العقيلى (١/ ٧٠ ترجمة ٧٢ إبراهيم بن يزيد الخوزى)، والبزار كما في كشف الأستار (١/ ٢٦٨، رقم ٥٥٣) . قال الهيثمى (٢/ ٨٠) : فيه إبراهيم بن يزيد الخوزى، وهو ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم:١٦]، رقم (٣٤٣٩)، مسلم: كتاب الإيمان، باب ذِكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال، رقم (١٦٩).

أنَّ أهلَ السُّنَّةِ أجمعوا على ذلك، وذكره -أيضًا- غيرُه، وبهذا نعرفُ أنَّ ما حصل من بعض الطَّلبةِ الصِّغارِ من الذَّبذبةِ حول العينين لا أصلَ له، وهم لم يفهموا معنى: «إِنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ»، لو فطنوا لما ذكرناه لكان الأمرُ جليًّا واضحًا.

٤٤٨١- وَمُصَـــرِّحٌ أَيْضًــا بِإِثْبَـاتِ النُّـزُو ... لِ لِرَبِّنَــا نَحْــوَ الرَّفِيــعِ الــدَّانِي

مَن المُصَرِّحُ؟ الجوابُ: الأشعريُّ، فالأشعريُّ مصرِّحٌ بإثباتِ نزولِ ربِّنا نحوَ الرَّفيعِ الدَّاني، والرَّفيعُ الدَّاني؛ يعني: السَّماءَ الدُّنْيَا؛ لأنَّه بالنِّسبة لأهلِ الأرضِ رفيعٌ، وبالنِّسبة للسَّماواتِ دَانٍ.

٤٤٨٢- وَمُصَــرِّحٌ أَيْضًــا بِإِثْبَـاتِ الأَصَــا ... بِـعِ مِثْلُ مَـا قَـدْ قَـالَ ذُو البُرْهَـانِ

قَوْلُهُ: «ذُو البُرْهَانِ»؛ أي: الرَّسولُ صلواتُ الله وسلامُه عليه.

فالأشعريُّ مُصَرِّحٌ بأنَّ لله أصابعَ كما أخبر بذلك النَّبِيُّ ﷺ حين قال: «مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ»(١).

الأشاعرةُ الذين يدَّعون أنَّهم أتباعُ الأشعريِّ أنكروا الأصابعَ، وقالوا: لا يمكنُ أن يكونَ لله أصابعُ، نقولُ: مَنْ الذي قال هذا؟ الجوابُ: أعلمُ الخلقِ بالله محمَّدٌ صلواتُ الله وسلامُه عليه، قالوا: هذا يمنعُه اللَّفظُ؛ لأنَّه قال: «مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ»، وهذا يقتضي أنْ تكونَ أصابعُ الله في أجوافِنا؛ لأنَّك إذا قلت: «هذا بين أصابعي» معناه أنَّ الأصابعَ مسَّته، وإذا مسَّت القلبَ لَزِمَ أن تكونَ أصابعُ الله في صدورِنا، وهذا مستحيلٌ، إذَنْ فلا يُرَادُ بالحديثِ ظاهرُه.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء، رقم (٢٦٥٤).

فنقولُ لهم: إنَّ النَّبِيَّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- يخاطبُ الأُمَّةَ بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، ولا يمكنُ أن يخاطبَهم بمثلِ هذه الصَّراحةِ وهو يريدُ غيرَها إلَّا يُبيِّنُها ولم يُبيِّن، وقولُكم: إنَّه لا بُدَّ أن تكونَ هناك مماسَّةٌ، هذا غيرُ صحيحٍ، فالبينيَّةُ لا تستلزمُ المماسَّةَ، ألم تسمعوا قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤]، ومع ذلك هل هو مماسٌّ للسَّماءِ والأرضِ؟ الجوابُ: لا، غيرُ مماسٍّ، فالسَّماءُ بعيدةٌ منه والأرضُ بعيدةٌ منه، ألم تسمعوا النَّاسَ يقولون: «**المدينةُ بين دمشق ومكَّةَ**»، وهل هي محادَّةٌ لها؟ الجوابُ: لا، إذَنْ البينيَّةُ في المكانِ لا تستلزمُ المماسَّةَ أبدًا، وبهذا نعرفُ أنَّ المرادَ بالحديثِ حقيقتُه، وأنَّ القلوبَ بين أُصبعين من أصابعِ الله، وليس المرادُ كما قالوا: إنَّها كنايةٌ عن التَّدبيرِ والسُّلطانِ التَّامِّ.

٤٤٨٣- وَمُصَرِّحٌ أَيْضًا بِأَنَّ اللهَ يَوْ ... مَ الحَشْرِ يُبْصِرُهُ أُولُو الإِيمَانِ

٤٤٨٤- جَهْرًا يَرَوْنَ اللهَ فَوْقَ سَمَائِهِ ... رُؤْيَا العِيَانِ كَمَا يُرَى القَمَرَانِ

يعني: أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُرَى يومَ الحشرِ؛ يعني: يومَ القيامةِ، وقائلُ هذا هو الرَّسولُ ﷺ، قال: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ**»(١)، وقال: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ**»، قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ**»(٢)، وهل أبلغُ من هذا التَّحقيقِ «**كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ؟!**» هذه

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٢٩)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، رقم (٦٢٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢).

الرُّؤيةُ يُخَاطِبُ بها النَّبِيُّ ﷺ قومًا يفهمون اللِّسانَ العربيَّ وأنَّها رؤيةٌ حقيقيَّةٌ، ولكن أنكر الأشاعرةُ رؤيةَ الله، وقالوا: إنَّ اللهَ لا يُرَى، كيف يُرَى هل هو جسمٌ حتَّى يُرَى؟! لا يمكنُ أن يُرَى، ويقولون: دليلُنا من القرآنِ الكريمِ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣] هذه واحدةٌ، وقولُه تعالى لموسى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف:١٤٣]، و«لَنْ»: نافيةٌ للتَّأبيدِ؛ يعني: لن تراني لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، كيف تقولون أنتم: إنَّ اللهَ يُرَى؟!

نقولُ لهم: الحمدُ لله الذي جعل ما استدللتم به عليكم، فقولُه تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ يدلُّ على أنَّه يُرَى؛ لأنَّه لو لم يُرَ لقال: «لَا تَرَاهُ»، فلمَّا نَفَى الأخصَّ ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ دَلَّ على وجودِ الأعمِّ وهو الرُّؤية، وأنَّ هناك رؤيةً لكن بدون إدراكٍ، قالوا: سبحان الله! هل يمكنُ رؤيةٌ بدون إدراكٍ؟ نقولُ: يمكنُ، أنتم الآن تَرَوْنَ الشَّمسَ ولا تُدركونها، مع أنَّنا نقولُ: لو سلَّمنا جدلًا أنَّه لا يمكنُ رؤيةٌ بدون إدراكٍ في المخلوقِ فإنَّ هذا في الخالقِ ممكنٌ؛ لأنَّ اللهَ ليس كَمِثْلِهِ شيءٌ، وإذا كُنَّا لا نحيطُ علمًا بالله ونحن نحيطُ علمًا بالمخلوقاتِ التي ندركُها فإنَّ هذا كذلك.

أمَّا قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ فالآيةُ دليلٌ عليكم أيضًا؛ لأنَّنا لو جعلنا الرُّؤيةَ مستحيلةً في حقِّ الله وهي عندكم مستحيلةٌ؛ لأنَّ رؤيةَ الله نقصٌ على زعمِكم؛ لأنَّهم يقولون: إذا رُئِي اللهُ فهو جسمٌ، والجسمُ نقصٌ.

نقولُ: لو كانت الرُّؤيةُ مستحيلةً لكونِها نقصًا في حقِّ الله هل يمكنُ أن يسألَها رسولٌ من أولي العزمِ؟ الجوابُ: لا يمكنُ، كما أنَّه لا يمكنُ أن يقولَ رسولٌ من أولي العزمِ: «**يا ربِّ أرني عجزَك، أو أرني ظلمَك**»، فإذا كان موسى سأل دَلَّ هذا على إمكانِ الرُّؤيةِ، لكنَّها في الدُّنيا لا تمكنُ؛ لعدمِ قدرةِ الإنسانِ على تحمُّلِها؛

ولهذا قال اللهُ له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾؛ يعني: في الدُّنيا؛ لأنَّه لا يمكنُ أن يتحمَّلَ الرُّؤيةَ، ولكن انظر إلى الجبلِ، وهذا قياسٌ، ﴿ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣]، فلَّما نَظَرَ إلى الجبلِ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ [الأعراف:١٤٣]، اندكَّ وصار ترابًا، ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗا﴾ [الأعراف:١٤٣]، فموسى عليه السَّلامُ انبهر من عظمةِ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣]، إذَنْ الآيةُ فيها ما يدلُّ على إمكانِ الرُّؤيةِ بسؤالِ موسى له.

وأمَّا قولهُم: «**إنَّ «لَنْ» تقتضي التَّأبيدَ**» فقولٌ يردُّه القرآنُ؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [البقرة:٩٥]، ومع ذلك أخبر اللهُ عن أهلِ النَّارِ أنَّهم يقولون: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ﴾ [الزُّخرف:٧٧] يَتَمَنَّون الموتَ، وهو يقولُ: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا﴾ [البقرة:٩٥]، فأتى بـ«**أبدًا**».

إذَنْ «لَنْ» في قولِه: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ ذلك في الدُّنيا، أمَّا الآخرةُ فلها شأنٌ آخرُ، فالذي ندينُ اللهَ به أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُرَى يومَ القيامةِ بالبصرِ، ولكنَّنا لا نحيطُ به؛ لأنَّ اللهَ أعظمُ وأجلُّ من أن تدركَه الأبصارُ.

والرَّبُّ عزَّ وجلَّ يراه أهلُ الإيمانِ رؤيةَ رضًا في عَرَصَاتِ القيامةِ وبعد دخولِ الجنَّةِ، ويراه كذلك المنافقون في عَرَصَاتِ القيامةِ، ولكنَّهم بعد ذلك يُحْجَبُون، والحكمةُ من هذا زيادةُ الحسرةِ عليهم والعياذُ بالله؛ ولأنَّهم آمنوا ثُمَّ كفروا، ويراه كذلك الكُفَّارُ على قولِ بعضِ أهلِ العلمِ، ولكنَّه يحتجبُ عنهم، وظاهرُ النُّصوصِ أنَّ الكُفَّارَ الخُلَّصَ لا يَرَوْنَهُ؛ لقولِ الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥].

٤٤٨٥- وَمُصَرِّحٌ أَيْضًا بِإِثْبَاتِ الـمَجِي ءِ وَأَنَّـهُ يَـأْتِي بِـلا نُكْـرَانِ

مَنِ المُصَرِّحُ؟ الجوابُ: أبو الحسن الأشعريُّ -رحمه الله- صَرَّحَ بأنَّ اللهَ تعالى يأتي يومَ القيامةِ كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢]، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:١٥٨]، وهذا الإتيانُ هو إتيانُ الله تعالى حقيقةً، فهو يأتي بنفسِه، ولكن هل يأتي على كيفيَّةٍ معلومةٍ لنا؟ الجوابُ: لا؛ لأنَّ هذا أمرٌ غيبيٌّ، وقد أخبرنا اللهُ أنَّه يأتي، ولم يقل: إنَّه يأتي على كيفيَّةٍ معيَّنةٍ، وهل لإتيانِه كيفيَّةٌ؟ الجوابُ: نعم، لا بُدَّ أن يكونَ على كيفيَّةٍ، فما من موجودٍ إلَّا وله كيفيَّةٌ، ولكن هي غيرُ معلومةٍ لنا؛ ولهذا قال الإمامُ مالكٌ في الاستواءِ: «**الكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ**»، أمَّا الاستواءُ فهو «**غَيْرُ مَجْهُولٍ**»؛ لأنَّه معلومُ المعنى.

٤٤٨٦- وَمُصَـرِّحٌ بِفَسَـادِ قَـوْلِ مُـؤَوِّلٍ لِلإِسْـتِوَاءِ بِقَهْـرِ ذِي السُّـلْطَانِ

قَوْلُهُ: «**مُصَرِّحٌ بِفَسَادِ قَوْلِ مُؤَوِّلٍ للإِسْتِوَاءِ بِالقَهْرِ**» مَنْ هؤلاء؟ هم الأشاعرةُ والمعتزلةُ ونحوُهم ممَّن عطَّلوا الأفعالَ الاختياريَّة، وقالوا: لا يمكنُ أن يستويَ اللهُ على العرشِ استواءَ استقرارٍ أو علوٍّ؛ لأنَّ هذا يستلزمُ أن يكونَ جسمًا، وقال بعضُهم: يستلزمُ أن يكونَ محدودًا؛ لأنَّ العرشَ محدودٌ له قوائمُ؛ أي: محدَّدٌ، فإذا قلت: «**إنَّه استوى على العرشِ**» جَعَلْتَ اللهَ محدودًا، إذَنْ علَّلوا هذا بوجهين:

الوجه الأوَّل: إذا جَعَلْتَ الاستواءَ حقيقةً لَزِمَ أن يكونَ اللهُ جسمًا، والأجسامُ متماثلةٌ على زعمِهم.

الوجه الثَّاني: إذا جَعَلْتَ الاستواءَ حقيقةً صار محدودًا على محدودٍ؛ يعني: يلزمُ من هذا أن يكونَ اللهُ محدودًا، واللهُ عزَّ وجلَّ لا يحدُّه شيءٌ.

إذَنْ ما المعنى على رأيِهِم؟ يقولون: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]؛ يعني: «**اسْتَوْلَى ومَلَكَ وقَهَرَ**»، وقد علمتم أنَّ بعضَهم من أجلِ هذا التَّأويلِ ادَّعى أنَّ خلقَ العرشِ بعد خلقِ السَّماواتِ من أجلِ ألَّا يقولَ قائلٌ: إذا كان اللهُ لم يستولِ على العرشِ إلَّا بعد خلقِ السَّماواتِ فمَن الذي له العرشُ قبل ذلك؟ ومعلومٌ أنَّ تفسيرَ الاستواءِ بالقهرِ والغلبةِ باطلٌ من وجوهٍ كثيرة: أنَّه خلافُ ما أجمع عليه السَّلفُ، وأنَّه خلافُ ما تقتضيه اللُّغةُ، وأنَّه يتضمَّنُ أنَّ العرشَ قبلَ خلقِ السَّماواتِ والأرضِ ملكٌ لغيرِ الله، وأنَّه يجوزُ أن نقولَ: إنَّ اللهَ استوى على الأرضِ؛ لأنَّه مُستَولٍ عليها وغالبٌ لها وقاهرٌ لها ومالكٌ لها، بل نقولُ: إنَّ اللهَ استوى على أخبثَ من هذا على زعمِهم، فهو يستلزمُ لوازمَ باطلةً، فهو باطلٌ؛ لأنَّ ما لَزِمَ منه الباطلُ فهو باطلٌ.

٤٤٨٧- وَمُصَرِّحٌ أَنَّ الأُلَى قَالُوا بِذَا التْـ ... ـتَأْوِيلِ أَهْلُ ضَلالَةٍ بِبَيَانِ

ولا شكَّ أنَّهم ضالُّون، وأيُّ ضلالٍ أبلغُ من ضلالِ شخصٍ يقولُ: «**إنَّ اللهَ لم يستوِ على عرشِه**»؛ أي: لم يَعْلُ عليه؟! ونحن نؤمنُ بأنَّ اللهَ مُستَوٍ على العرشِ؛ أي: عالٍ عليه، ولكن هل هذا العلوُّ هو العلوُّ العامُّ على جميعِ المخلوقاتِ؟ الجوابُ: لا، هذا علوٌّ خاصٌّ.

ونحن نضربُ مثلًا ولله المثلُ الأعلى: لو أنَّ شخصًا نصَب كرسيًّا على السَّطحِ وجلس عليه يكونُ مستويًا على الكرسيِّ، وهو في الوقتِ نفسِه عالٍ على الكرسيِّ وعلى السَّطحِ، فاستواءُ الله على العرشِ ليس هو العلوَّ الشَّاملَ لكُلِّ المخلوقاتِ، بل هو علوٌّ خاصٌّ يختصُّ بالعرشِ؛ ولهذا لا يصلحُ أن تقولَ: إنَّ اللهَ استوى على السَّماءِ أو على الأرضِ مع أنَّه عالٍ عليهما.

٤٤٨٨- وَمُصَـــرِّحٌ أَنَّ الَّـــذِي قَــدْ قَالَــهُ أَهْلُ الـحَدِيثِ وَعَسْكَرُ القُرْآنِ

٤٤٨٩- هُــوَ قَوْلُــهُ يَلْقَــى عَلَيْــهِ رَبَّــهُ وَبِـــهِ يَـــدِينُ اللهَ كُـــلَّ أَوَانِ

أبو الحسن الأشعريُّ يُصَرِّحُ أنَّ قولَه ما قاله أهلُ الحديثِ وعسكرُ القرآنِ يلقى عليه ربَّه، وبه يدينُ اللهَ كُلَّ أوانٍ.

* * *

٤٤٩٠- لَكِنَّـــهُ قَـــدْ قَـــالَ إِنَّ كَلامَـــهُ مَعْنًـــى يَقُـــومُ بِرَبِّنَـــا الـــرَّحْمَنِ

٤٤٩١- فِي القَـوْلِ خَالَفْنَـاهُ نَحْـنُ وَأَنْـتُمُ فِي الفَــوْقِ وَالأَوْصَــافِ لِلــدَّيَّانِ

٤٤٩٢- لِـمَ كَانَ نَفْسُ خِلافِنَـا كُفْـرًا وَكَـا نَ خِلافُكُمْ هُوَ مُقْتَضَــى الإِيـمَانِ

٤٤٩٣- هَـذَا وَخَـالَفْتُمْ لِـنَصٍّ حِـينَ خَـا لَفْنَـا لِـرَأْيِ الــجَهْمِ ذِي البُهْتَـانِ

٤٤٩٤- وَاللهِ مَـا لَكُـم جَـوَابٌ غَـيْرَ تَكْـ ـــفِيرٍ بِـــلا عِلْـــمٍ وَلا إِيقَـــانِ

٤٤٩٥- أَسْـتَغْفِرُ اللهَ العَظِـيمَ لَكُـمْ جَـوَا بٌ غَيْرَ ذَا الشَّـكْوَى إِلَى السُّـلْطَانِ

٤٤٩٦- فَهُوَ الـجَوَابُ لَدَيْكُمُ وَلَنَحْنُ مُنْـ ـتَظِرُوهُ مِـنْكُمْ يَـا أُولِي البُرْهَـانِ

٤٤٩٧- وَاللهِ لا لِلأَشْـــعَرِيِّ تَبِعْـــتُمُ كَـــلَّا وَلا لِلـــنَّصِّ بِالإِحْسَـــانِ

٤٤٩٨- يَا قَوْمُ فَـانْتَبِهُوا لأَنْفُسِـكُمْ وَخَلْـ ـلُوا الـجَهْلَ وَالدَّعْوَى بِلا بُرْهَانِ

٤٤٩٩- مَا فِي الرِّيَاسَةِ بِالجَهَالَةِ غَيْرُ ضِحْـ ـكَةِ عَاقِلٍ مِـنْكُمْ مَـدَى الأَزْمَـانِ

٤٥٠٠- لا تَرْتَضُــوا بِرِيَاسَــةِ البَقَـرِ الَّتِـي رُؤَسَــاؤُهَا مِــنْ جُمْلَــةِ الثِّــيرَانِ

الشـرحُ

ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحمه الله- مخالفةَ أبي الحسنِ لأهلِ الحديثِ في مسألةِ الكلامِ فقال:

٤٤٩٠- لَكِنَّـــهُ قَـــدْ قَـــالَ إِنَّ كَلامَـــهُ مَعْنًـــى يَقُـــومُ بِرَبِّنَـــا الــرَّحْمَنِ

يقولُ أبو الحسن الأشعريُّ: إنَّ اللهَ لا يتكلَّمُ بحرفٍ وصوتٍ مسموعٍ، بل ما يُسْمَعُ من كلامِه عبارةٌ عن كلامِه، وليس كلامَه، كلامُه هو المعنى القَائِمُ بنفسِه، فمثلًا الآن: افرِضْ أنَّك تريدُ أن تقولَ خطبةً، تقدِّرُ الكلامَ في قلبِك قبل أن تتكلَّمَ، ثُمَّ إذا تَكَلَّمْتَ عَبَّرْتَ عمَّا في نفسِك.

فهو يقولُ رحمه اللهُ وعفا عنه: إنَّ اللهَ لا يتكلَّمُ بكلامٍ يُسْمَعُ أو بصوتٍ، وإنَّما كلامُه المعنى الذي في نفسِه، ثُمَّ يخلقُ أصواتًا وحروفًا يسمعُها مَنْ يخاطبُه اللهُ عزَّ وجلَّ؛ وعلى هذا فإنَّ هذا القرآنَ الذي بأيدِينا ليس كلامَ الله على زعمِهم، بل هو عبارةٌ عنه.

وهذا القولُ لا شكَّ في بطلانِه، وإذا تَأَمَّلْتَهُ حقيقةً وَجَدْتَ أنَّه يُفَسِّرُ الكلامَ بالإرادةِ، وهذا لا يستقيمُ.

وأمَّا المعتزلةُ فيقولون: إنَّ القرآنَ كلامُ الله، لكنَّه خَلْقٌ من مخلوقاتِه، ويُنكرون الكلامَ النَّفسيَّ، بل يقولون: هذا كلامُ الله لكنَّه مخلوقٌ، أمَّا هم فيقولون: هذا عبارةٌ عن كلامِ الله وهو مخلوقٌ أيضًا؛ ولهذا كان المعتزلةُ من هذا الوجهِ خيرًا منهم؛ لأنَّهم يُصَرِّحُونَ بأنَّ القُرآنَ كلامُ الله، ويتَّفقُ المعتزلةُ والأشاعرةُ على أنَّ ما نقرؤه مخلوقٌ.

٤٤٩١- فِي القَـوْلِ خَالَفْنَـاهُ نَحْـنُ وَأَنْـتُمُ   فِي الفَـوْقِ وَالأَوْصَـافِ لِلـدَّيَّانِ

يعني: نحن خالَفْناه في مسألةٍ واحدةٍ وهي القول، أمَّا أنتم خالَفتُموه في الفوقيَّةِ، وفي جميعِ الأوصافِ، فكُلُّ صِفاتِ الله التي أقرَّها خالَفتُموها أنتم، أمَّا نحن لم نخالفْه إلَّا في مسألةٍ واحدةٍ.

٤٤٩٢- لِـمَ كَانَ نَفْسُ خِلافِنَـا كُفْـرًا وَكَـا   نَ خِلافُكُمْ هُوَ مُقْتَضَـى الإِيـمَانِ

وهذا صحيحٌ، فهذا إنكارٌ؛ يعني: نحن الآن خالَفْنَا أبا الحسنِ في مسألةٍ واحدةٍ وهي مسألة الكلامِ، وفي الباقي وافَقْناه، وأنتم خالَفتُموه في كُلِّ شيءٍ إلَّا الكلام، فلماذا كان خلافُنا نحن كفرًا وخلافُكم أنتم إيمانًا وهو مقتضى الإيمانِ، مع أنَّكم خالَفتُموه فيما هو مقتضى الإيمانِ؟!

٤٤٩٣- هَـذَا وَخَـالَفْتُمْ لِـنَصٍّ حِـينَ خَـا   لَفْنَـا لِـرَأْيِ الـجَهْمِ ذِي البُهْتَـانِ

يعني: ونحن لم نخالف النَّصَّ، أنتم خالَفتُم النَّصَّ ونحن خَالَفْنَا رأيَ الجهمِ، فأيُّنا أحقُّ بالكفرِ: مَنْ خَالَفَ النَّصَّ أو مَنْ خالف الرَّأيَ الباطلَ؟ الجوابُ: مَنْ خَالَفَ النَّصَّ.

٤٤٩٤- وَاللهِ مَـا لَكُـم جَـوَابٌ غَـيْرَ تَكْـ   ـفِيرٍ بِـلا عِلْـمٍ وَلا إِيقَـانِ

صحيحٌ، ليس لهم جوابٌ إلَّا أنْ يرفعوا أصواتَهم: أنتم كُفَّارٌ، أنتم مُجَسِّمةٌ، أنتم مشبِّهةٌ، إلى آخِر ما يقولون من القدحِ.

٤٤٩٥- أَسْـتَغْفِرُ اللهَ العَظِـيمَ لَكُـمْ جَـوَا   بٌ غَيْرَ ذَا الشَّـكْوَى إِلَى السُّـلْطَانِ

قَوْلُهُ: «الشَّكْوَى» إمَّا عطفُ بيانٍ لـ«جَوَابٌ»، وإمَّا خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: «هُوَ الشَّكْوَى»، وليست «ذَا» مضافةً إلى «الشَّكْوَى»؛ لأنَّ «ذَا» اسمُ

إشارةٍ، واسمُ الإشارةِ لا يُضَافُ.

لـمَّا قال: «**لَيْسَ لَكُمْ جَوَابٌ غَيْرُ هَذَا**» استدرك فقال: «**أَسْتَغْفِرُ اللهَ ممَّا قلتُ لكم، فلكم جوابٌ آخرُ غيرُ هذا الجواب وهو الشَّكوى إلى السُّلطانِ**»؛ أي: تشكوننا إلى السُّلطانِ، وتُوشون بنا، وهذا يقعُ كثيرًا، يأتي به الإنسانُ للاستدراكِ، يقولُ: «**فلانٌ فيه كذا من الصِّفاتِ الذَّميمةِ، أستغفرُ اللهَ، بل فيه غيرُ هذا، فيه كذا وكذا**»، إذَنْ هذا الكلامُ يُعْتَبَرُ توكيدًا لما سبق وإضافةَ أمرٍ يُذَمُّونَ عليه.

والمعنى: لكم جوابٌ آخرُ غيرُ التَّكفيرِ وهو الشَّكوى إلى السَّلطانِ، ولذلك تجدُ الذين تسبَّبوا في تعذيبِ الإمامِ أحمدَ وغيرِه من أهل السُّنَّةِ إنَّما كان ذلك بسببِ الوشاةِ.

٤٤٩٦- فَهُوَ الـجَوَابُ لَدَيْكُمُ وَلَنَحْنُ مُنْـ ـتَظِرُوهُ مِـنْكُمْ يَـا أُولِي البُرْهَـانِ

وهل الذي ليس له جوابٌ إلَّا الشَّكوى إلى السُّلطانِ هل عنده عِلْمٌ؟ الجوابُ: لا، يقولُ لخصمِه: اسكت وإلَّا لأرفعنَّ أمرَكَ إلى السُّلطانِ؟ هل هذا عنده علمٌ؟ أبدًا، ليس عنده علمٌ.

٤٤٩٧- وَاللهِ لا لِلأَشْـعَرِيِّ تَبِعْـتُمُ كَـلَّا وَلا لِلـنَّصِّ بِالإِحْسَانِ

إذَنْ هم أخطؤوا تقليدًا وأخطؤوا اجتهادًا، أخطؤوا تقليدًا حيث لم يتَّبعوا الأشعريَّ، وأخطؤوا اجتهادًا حيث لم يتَّبعوا النَّصَّ.

٤٤٩٨- يَا قَوْمُ فَـانْتَبِهُوا لأَنْفُسِـكُمْ وَخَلْـ ـلُوا الـجَهْلَ وَالدَّعْوَى بِلا بُرْهَانِ

جزاه اللهُ خيرًا، فهو ينصحُهم قائلًا: انتبهوا لأنفسِكم ودعوا الجهلَ والدَّعوى بلا برهانٍ.

٤٤٩٩- مَا فِي الرِّيَاسَةِ بِالجَهَالَةِ غَيْرُ ضِحْـ ـكَةِ عَاقِلٍ مِـنْكُمْ مَـدَى الأَزْمَـانِ

ولا شكَّ أنَّ الرِّئاسةَ بالجهلِ ضُحْكَةٌ إلى يومِ الدِّينِ؛ لأنَّ الرِّئاسةَ إنَّما تُنَالُ بالشَّرفِ والعلمِ، أمَّا الجهلُ فإنَّه لا خيرَ في الرِّئاسةِ فيه، ومآلُه إلى الفشلِ.

٤٥٠٠- لا تَرْتَضُـوا بِرِيَاسَـةِ البَقَـرِ الَّتِـي رُؤَسَـاؤُهَا مِـنْ جُمْلَـةِ الثِّـيرَانِ

يعني: لا ترتضوا لأنفسِكم هذا الحظَّ أن تكونوا رؤساءَ لبقرٍ، إذَنْ إن رضيتم برئاسةِ البقرِ فأنتم ثيرانٌ. إذَنْ الجهميَّةُ والمعتزلةُ ثيرانٌ، وأقولُ: الثِّيرانُ خيرٌ منهم.

* * *

فصـــل

فِي أَنَّ أَهْلَ الحَدِيثِ هُمْ أَنْصَارُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَخَاصَّتُهُ، وَلَا يُبْغِضُ الأَنْصَارَ رَجُلٌ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ

٤٥٠١- يَا مُبْغِضًا أَهْلَ الحَدِيثِ وَشَاتِمًا ... أَبْشِرْ بِعَقْدِ وِلَايَةِ الشَّيْطَانِ

٤٥٠٢- أَوَمَا عَلِمْتَ بِأَنَّهُمْ أَنْصَارُ دِيـ ... ـنِ اللهِ وَالإِيمَانِ وَالقُرْآنِ

٤٥٠٣- أَوَمَا عَلِمْتَ بِأَنَّ أَنْصَارَ الرَّسُو ... لِ هُمُ بِلَا شَكٍّ وَلَا نُكْرَانِ

٤٥٠٤- هَلْ يُبْغِضُ الأَنْصَارَ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ ... أَوْ مُدْرِكٌ لِرَوَائِحِ الإِيمَانِ

٤٥٠٥- شَهِدَ الرَّسُولُ بِذَاكَ وَهْيَ شَهَادَةٌ ... مِنْ أَصْدَقِ الثَّقَلَيْنِ بِالبُرْهَانِ

٤٥٠٦- أَوَمَا عَلِمْتَ بِأَنَّ خَزْرَجَ دِينِهِ ... وَالأَوْسَ هُمْ أَبَدًا بِكُلِّ زَمَانِ

٤٥٠٧- مَا ذَنْبُهُمْ إِذْ خَالَفُوكَ لِقَوْلِهِ ... مَا خَالَفُوهُ لأَجْلِ قَوْلِ فُلَانِ

٤٥٠٨- لَوْ وَافَقُوكَ وَخَالَفُوهُ كُنْتَ تَشْـ ... ـهَدُ أَنَّهُمْ حَقًّا أُولُو الإِيمَانِ

٤٥٠٩- لَمَّا تَحَيَّزْتُمْ إِلَى الأَشْيَاخِ وَانْـ ... ـحَازُوا إِلَى المَبْعُوثِ بِالقُرْآنِ

٤٥١٠- نُسِبُوا إِلَيْهِ دُونَ كُلِّ مَقَالَةٍ ... أَوْ حَالَةٍ أَوْ قَائِلٍ وَمَكَانِ

٤٥١١- هَذَا انْتِسَابُ أُولِي التَّفَرُّقِ نِسْبَةً ... مِنْ أَرْبَعٍ مَعْلُومَةِ التِّبْيَانِ

٤٥١٢- فَلِذَا غَضِبْتُمْ حَيْثُمَا انْتَسَبُوا إِلَى ... خَبَرِ الرَّسُولِ بِنِسْبَةِ الإِحْسَانِ

٤٥١٣- فَوَضَعْتُمُ لَـهُمُ مِـنَ الأَلْقَـابِ مَـا　　تَسْـتَقْبِحُونَ وَذَا مِـنَ العُـدْوَانِ

٤٥١٤- هُـمْ يُشْـهِدُونَكُمُ عَـلَى بُطْلانِهَـا　　أَفَتُشْـهِدُونَهُمُ عَـلَى الـبُطْلانِ

٤٥١٥- مَـا ضَرَّهُـمْ وَاللهِ بُغْضُـكُمُ لَـهُمْ　　إِذْ وَافَقُـوا حَقًّـا رِضَـا الـرَّحْمَنِ

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلٌ فِي أَنَّ أَهْلَ الحَدِيثِ هُمْ أَنْصَارُ رَسُولِ اللهِ ﷺ»، وهذا لا شكَّ فيه؛ لأنَّهم آخذون به، متَّبعون له، ذابُّون عنه.

قَوْلُهُ: «وَلَا يُبْغِضُ الأَنْصَارَ رَجُلٌ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ» هكذا جاء عن النَّبيِّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أنَّه قال: «لَا يُبْغِضُ الأَنْصَارَ رَجُلٌ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ»[1]، ثُمَّ قال رحمه الله:

٤٥٠١- يَا مُبْغِضًا أَهْلَ الحَدِيثِ وَشَاتِـمًا　　أَبْشِـرْ بِعَقْـدِ وِلايَـةِ الشَّـيْطَانِ

يعني: إنَّ مَنْ يشتمُ أهلَ الحديثِ ويُبْغِضُهم فقد عقد الولايةَ مع الشَّيطانِ.

٤٥٠٢- أَوَمَـا عَلِمْـتَ بِـأَنَّهُمْ أَنْصَـارُ دِيـ　　ـنِ اللهِ وَالإِيـمَانِ وَالقُـرْآنِ

وهذا للتَّقريرِ يعني: أنَّه قد عُلِمَ أنَّ أهلَ الحديثِ هم أنصارُ دينِ اللهِ والإيمانِ والقرآنِ.

٤٥٠٣- أَوَمَا عَلِمْـتَ بِـأَنَّ أَنْصَـارَ الرَّسُـو　　لِ هُـمُ بِـلا شَـكٍّ وَلا نُكْـرَانِ

وهذا أيضًا للتَّقريرِ؛ فإنَّ أهلَ السُّنَّةِ هم الذين نَصَرُوا رسولَ اللهِ ﷺ؛

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم من الإيمان وعلاماته، وبغضهم من علامات النفاق، رقم (٧٦).

لأخذِهم بها وذبِّهم عنها.

٤٥٠٤- هَلْ يُبْغِضُ الأَنْصَارَ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ أَوْ مُدْرِكٌ لِرَوَائِحِ الإِيمَانِ

الجوابُ: لا، فالاستفهامُ هنا بمعنى النَّفي، فالإنسانُ المؤمنُ لا يمكنُ أن يُبْغِضَ أنصارَ الرَّسولِ ﷺ سواء أنصاره في حياتِه أم بعد مماتِه.

٤٥٠٥- شَهِدَ الرَّسُولُ بِذَاكَ وَهْيَ شَهَادَةٌ مِنْ أَصْدَقِ الثَّقَلَيْنِ بِالبُرْهَانِ

شَهِدَ الرَّسولُ بأنَّه لا يُبغضُهم مؤمنٌ، وهي شهادةٌ صَدَرَتْ من أصدقِ الثَّقَلَيْنِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم.

٤٥٠٦- أَوَمَا عَلِمْتَ بِأَنَّ خَزْرَجَ دِينِهِ وَالأَوْسَ هُمْ أَبَدًا بِكُلِّ زَمَانِ

الأنصارُ قبيلتان: الأوسُ والخزرجُ، لكنْ هل هذا يختصُّ بتلك القبيلتَيْنِ؟ الجوابُ: لا، أنصارُ الدِّينِ الأوسُ والخزرجُ في كُلِّ زمانٍ وفي كُلِّ مكانٍ، كُلُّ مَنْ نَصَرَ دينَ الله فإنَّه مثلُ الأنصارِ من الأوسِ والخزرجِ.

٤٥٠٧- مَا ذَنْبُهُمْ إِذْ خَالَفُوكَ لِقَوْلِهِ مَا خَالَفُوهُ لأَجْلِ قَوْلِ فُلانِ

يعني: ما ذنبُ أهلِ الحديثِ حين خالفوك لقولِه؟ أي: لقولِ الرَّسولِ ﷺ، هم ما خالفوا الرَّسولَ لأجل قولِ فلانٍ، وأنت خَالَفْتَ الرَّسولَ لأجلِ قولِ فلانٍ، فهل الذَّنبُ ذنبُ أهلِ الحديثِ أو ذنبُ مَنْ أبغضهم؟ الجوابُ: ذنبُ مَنْ أبغضهم وعاداهم بلا شكٍّ.

٤٥٠٨- لَوْ وَافَقُوكَ وَخَالَفُوهُ كُنْتَ تَشْـ ـهَدُ أَنَّهُمْ حَقًّا أُولُو الإِيمَانِ

يعني: لو أنَّهم خالفوا الرَّسولَ ﷺ ووافقوك لشهدتَ بأنَّهم أهلُ الإيمانِ.

٤٥٠٩- لَـمَّا تَحَيَّـزْتُمْ إِلَى الأَشْـيَاخِ وَانْـ ـحَازُوا إِلَى المَبْعُـوثِ بِـالقُرْآنِ

٤٥١٠- نُسِـبُوا إِلَيْـهِ دُونَ كُـلِّ مَقَالَـةٍ أَوْ حَالَـةٍ أَوْ قَائِـلٍ وَمَكَـانِ

يعني: أنَّ هؤلاء المعطِّلةَ أخذوا بأقوالِ الشُّيوخِ وتركوا ما قاله النَّبيُّ ﷺ، أمَّا المُثبتةُ فأخذوا بما قال النَّبيُّ ﷺ، وتركوا ما قال الشُّيوخُ ممَّا يخالفُ قولَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم.

٤٥١١- هَـذَا انْتِسَـابُ أُولِي التَّفَـرُّقِ نِسْـبَةً مِـنْ أَرْبَـعٍ مَعْلُومَـةِ التِّبْيَـانِ

هذا انتسابُ أولي التَّفرُّقِ؛ يعني: الذين تفرَّقوا في دينِ الله، «**نِسْبَةً مِنْ أَرْبَعٍ مَعْلُومَةِ التِّبْيَانِ**»، ما هذه النِّسبةُ من أربعٍ؟

الظَّاهرُ -واللهُ أعلمُ- أنَّ النِّسبَ الأربع: موافقةُ الكتابِ ومخالفتُه، وموافقةُ السُّنَّةِ ومخالفتُها، فأهلُ الإثباتِ قد وافقوا في الكتابِ والسُّنَّةِ، وأمَّا أهلُ التَّعطيلِ فخالفوا في الكتابِ والسُّنَّةِ؛ ولهذا قال: «**دُونَ كُلِّ مَقَالَةٍ، أَوْ حَالَةٍ، أَوْ قَائِلٍ وَمَكَانِ**»، لا شَكَّ أنَّ الأربعَ الذي ذكر الآن: المقالة، والحالة، والقائل، والمكان، لكن الذي يظهرُ ما دامت المسألةُ موافقةً ومخالفةً أنَّها موافقةُ الكتابِ والسُّنَّةِ، ومخالفتُها.

٤٥١٢- فَلِـذَا غَضِـبْتُمْ حَيْـثُمَا انْتَسَـبُوا إِلَى خَـبَرِ الرَّسُـولِ بِنِسْـبَةِ الإِحْسَـانِ

قَوْلُهُ: «**حَيْثُمَا انْتَسَبُوا إِلَى خَبَرِ الرَّسُولِ**»، وفي نسخةٍ: «**حِينَمَا**».

والخطابُ هنا لأهلِ التَّعطيلِ؛ يعني: أنَّكم غضبتم حيث انتسبوا إلى خبرِ الرَّسولِ بنسبةِ الإحسانِ، ونسبةُ الإحسانِ في الخبرِ هي التَّصديقُ من غيرِ زيادةٍ ولا نقصٍ.

٤٥١٣- فَوَضَعْتُمُ لَـهُمُ مِـنَ الأَلْقَـابِ مَـا تَسْـتَقْبِحُونَ وَذَا مِـنَ العُـدْوَانِ

قَوْلُهُ: «وَضَعْتُمُ مِنَ الأَلْقَابِ» اللَّقب: قال أهلُ النَّحوِ: كُلُّ ما أشعر بمدحٍ أو ذمٍّ، ومثَّلوا لذلك بـ«قُفَّة»، و«زين العابدين»، فـ«قُفَّة» مشعرٌ بالذَّمِّ، «وزين العابدين» بالمدحِ[1].

فأهلُ التَّعطيلِ وضعوا لأهلِ الإثباتِ من الألقابِ ما يستقبحون، كُلَّما استقبحوا لقبًا وضعوه على أهلِ السُّنَّةِ والإثباتِ، فقالوا: إنَّهم حَشْوِيَّةٌ، نوابتُ، غُثاءٌ، وما أشبه ذلك.

٤٥١٤- هُـمْ يُشْـهِدُونَكُمُ عَـلَى بُطْلانِهَـا أَفَتُشْـهِدُونَهُمُ عَـلَى الـبُطْلانِ

يعني: أنَّ أهلَ السُّنَّةِ يُشْهِدُونَ أهلَ التَّعطيلِ على بطلانِ ما لقَّبوهم به، فهل أنتم تُشْهِدُونَهم على البطلانِ كما شهدوا هم على بطلانِ ما لقَّبتموهم به؟ الجوابُ: لا، هم يَرَوْنَ أنَّهم على أكملِ شيءٍ، وأنَّهم هم أهلُ السُّنَّةِ وأهلُ العدلِ وأهلُ التَّوحيدِ، وما أشبه ذلك.

٤٥١٥- مَـا ضَرَّهَـمْ وَاللهِ بُغْضُـكُمُ لَـهُمْ إِذْ وَافَقُـوا حَقًّـا رِضَـا الـرَّحْمَنِ

صحيحٌ، الإنسانُ إذا وَافَقَ رضا الرَّحمنِ فلا يهمُّه أنْ يغضبَ عليه النَّاسُ، المهمُّ أن تلتمسَ رضا الله عزَّ وجلَّ ولو غضب النَّاسُ.

* * *

(١) انظر: شرح الكافية الشافية (١/ ٢٤٩).

٤٥١٦- يَـا مَـنْ يُعَـادِيهِمْ لأَجْـلِ مَآكِـلٍ ... وَمَنَاصِـبٍ وَرِيَاسَـةِ الإِخْـوَانِ

٤٥١٧- تَهْنِيـكَ هَاتِيـكَ العَـدَاوَةُ كَـمْ بِهَـا ... مِـنْ حَسْـرَةٍ وَمَذَلَّـةٍ وَهَـوَانِ

٤٥١٨- وَلَسَـوْفَ تَجْنِـي غِبَّهَـا وَاللهِ عَـنْ ... قُرْبٍ وَتَـذْكُرُ صِـدْقَ ذِي الإِيـمَانِ

٤٥١٩- فَـإِذَا تَقَطَّعَـتِ الوَسَـائِلُ وَانْتَهَـتْ ... تِلْـكَ المَآكِـلُ فِي سَرِيـعِ زَمَـانِ

٤٥٢٠- فَهُنَاكَ تَقْرَعُ سِنَّ نَـدْمَانٍ عَـلَى التْـ ... ـتَفْرِيطِ وَقْـتَ السَّـيْرِ وَالإِمْكَـانِ

٤٥٢١- وَهُنَاكَ تَعْلَـمُ مَـا بِضَـاعَتُكَ الَّتِـي ... حَصَّـلْتَهَا فِي سَـالِفِ الأَزْمَـانِ

٤٥٢٢- إِلَّا الوَبَالَ عَلَيْكَ وَالـحَسَرَاتِ وَالْـ ... ـخُسْرَانِ عِنْدَ الوَضْعِ فِي الـمِيزَانِ

٤٥٢٣- قِيـلٌ وَقَـالَ مَـا لَـهُ مِـنْ حَاصِـلٍ ... إِلَّا العَنَـاءَ وَكُـلُّ ذِي الأَذْهَـانِ

٤٥٢٤- وَاللهِ مَـا يُجْـدِي عَلَيْـكَ هُنَـاكَ إِلْـ ... لَا ذَا الَّـذِي جَـاءَتْ بِـهِ الوَحْيَـانِ

٤٥٢٥- وَاللهِ مَا يُنْجِيكَ مِنْ سِجْنِ الـجَحِيـ ... ـمِ سِوَى الـحَدِيثِ وَمُحْكَـمِ القُـرْآنِ

٤٥٢٦- وَاللهِ لَـيْسَ النَّـاسُ إِلَّا أَهْلُـهُ ... وَسِـوَاهُمُ مِـنْ جُمْلَـةِ الـحَيَوَانِ

الشرحُ

٤٥١٦- يَـا مَـنْ يُعَـادِيهِمْ لأَجْـلِ مَآكِـلٍ ... وَمَنَاصِـبٍ وَرِيَاسَـةِ الإِخْـوَانِ

يعني: أنَّ هؤلاء الذين عَادَوْا أهلَ الإثباتِ لهم مآربُ؛ إمَّا المآكل، أو المناصب عند ذَوِي السُّلطانِ، أو رئاسة الإخوانِ بأن يكونَ رئيسًا مُبَجَّلًا في قومِه فيخشى إن تحوَّل إلى الإثباتِ أن يعاديَه قومُه.

٤٥١٧- تَهْنِيكَ هَاتِيكَ العَدَاوَةُ كَمْ بِهَا ... مِنْ حَسْرَةٍ وَمَذَلَّةٍ وَهَوَانِ

لكن متى؟ قال:

٤٥١٨- وَلَسَوْفَ تَجْنِي غِبَّهَا وَاللهِ عَنْ ... قُرْبٍ وَتَذْكُرُ صِدْقَ ذِي الإِيمَانِ

وهذا يكونُ إذا مَاتَ ورأى أنَّه ليس على شيءٍ، حينئذٍ يكونُ قد جَنَى غِبَّ ما ذهب إليه من تعطيلِ الله عزَّ وجلَّ عن أوصافِه.

٤٥١٩- فَإِذَا تَقَطَّعَتِ الوَسَائِلُ وَانْتَهَتْ ... تِلْكَ المَآكِلُ في سَرِيعِ زَمَانِ

٤٥٢٠- فَهُنَاكَ تَقْرَعُ سِنَّ نَدْمَانٍ عَلَى التْـ ... ـتَفْرِيطِ وَقْتَ السَّيْرِ وَالإِمْكَانِ

يعني: أنَّه إذا تقطَّعت الوسائلُ وانتهت الحياةُ فهناك تقرعُ سنَّ النَّادمِ، ولكن بعد فَواتِ الأوانِ.

٤٥٢١- وَهُنَاكَ تَعْلَمُ مَا بِضَاعَتُكَ الَّتِي ... حَصَّلْتَهَا في سَالِفِ الأَزْمَانِ

٤٥٢٢- إِلَّا الوَبَالَ عَلَيْكَ وَالحَسَرَاتِ وَالْـ ... ـخُسْرَانِ عِنْدَ الوَضْعِ في المِيزَانِ

٤٥٢٣- قِيلٌ وَقَالَ مَا لَهُ مِنْ حَاصِلٍ ... إِلَّا العَنَاءَ وَكَلُّ ذِي الأَذْهَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَلُّ ذِي الأَذْهَانِ»؛ أي: تعبُ الأذهانِ، هذا الذي يُحصِّلون، وقد مرَّ علينا مثل هذا كثيرًا فلا حاجةَ للإطالةِ في شرحِه.

٤٥٢٤- وَاللهِ مَا يُجْدِي عَلَيْكَ هُنَاكَ إِلْـ ... ـلَا ذَا الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الوَحْيَانِ

أقسم المؤلِّفُ بأنَّه لا يُجْدِي عليه هناك إلَّا ما جاءت به الوحيان؛ يعني: الكتابَ والسُّنَّةَ.

٤٥٢٥- وَاللهِ مَا يُنْجِيكَ مِنْ سِجْنِ الـجَحِيـ ـمِ سِوَى الـحَدِيثِ وَمُحْكَـمِ القُـرْآنِ

٤٥٢٦- وَاللهِ لَـيْسَ النَّـاسُ إِلَّا أَهْلُـهُ وَسِـوَاهُمُ مِـنْ جُمْلَـةِ الـحَيَوَانِ

قَوْلُهُ: «أَهْلَهُ»؛ أي: أهلَ الحديثِ.

فالنَّاسُ حقيقةً الذين ربحوا الدُّنيا والآخرةَ همُ أهلُ الحديثِ، أمَّا سواهم فهو من جملةِ الحيوانِ.

* * *

٤٥٢٧- وَلَسَوْفَ تَذْكُرُ بِرَّ ذِي الإِيمَانِ عَنْ قُـرْبٍ وَتَقْـرَعُ نَاجِـذَ النَّـدْمَانِ

٤٥٢٨- رَفَعُـوا بِـهِ رَأْسًـا وَلَـمْ يَرْفَـعْ بِـهِ أَهْـلُ الكَـلامِ وَمَنْطِـقِ اليُونَـانِ

٤٥٢٩- فَهُـمْ كَـمَا قَـالَ الرَّسُـولُ مُمَـثِّلًا بِالمَـاءِ مَهْبَطُـهُ عَـلَى القِيعَـانِ

٤٥٣٠- لا المَـاءَ تُمْسِـكُهُ وَلا كَـلأً بِهَـا يَرْعَـاهُ ذُو كَبِـدٍ مِـنَ الـحَيَوَانِ

٤٥٣١- هَذَا إِذَا لَـمْ يُحْرَقِ الـزَّرْعُ الَّـذِي بِجُوَارِهَـا بِالنَّـارِ أَوْ بِـدُخَانِ

٤٥٣٢- وَالـجَاهِلُونَ بِـذَا وَهَـذَا هُـمْ زُوَا نُ الـــزَّرْعِ إِيْ وَاللهِ شَرُّ زُوَانِ

٤٥٣٣- وَهُمُ لَدَى غَرْسِ الإِلَهِ كَمِثْـلِ غَـرْ سِ الـدُّلْبِ بَـيْنَ مَغَـارِسِ الرُّمَّـانِ

٤٥٣٤- يَمْـتَصُّ مَـاءَ الـزَّرْعِ مَـعْ تَضْـيِيقِهِ أَبَـدًا عَلَيْـهِ وَلَـيْسَ ذَا قِنْـوَانِ

٤٥٣٥- ذَا حَالُـهُمْ مَعْ حَالِ أَهْلِ العِلْمِ أَنْـ ـصَارِ الرَّسُـولِ فَـوَارِسِ الإِيـمَانِ

٤٥٣٦- فَعَلَيْـهِ مِـنْ قِبَـلِ الإِلَـهِ تَحِيَّـةٌ وَاللهُ يُبْقِيـهِ مَـدَى الأَزْمَـانِ

الشرحُ

٤٥٢٧- وَلَسَوْفَ تَذْكُرُ بِرَّ ذِي الإِيمَانِ عَنْ ... قُرْبٍ وَتَقْرَعُ نَاجِذَ النَّدْمَانِ

وكُلُّ هذا إنَّما يكونُ بعد الموتِ.

٤٥٢٨- رَفَعُوا بِهِ رَأْسًا وَلَمْ يَرْفَعْ بِهِ ... أَهْلُ الكَلامِ وَمَنْطِقِ اليُونَانِ

قَوْلُهُ: «رَفَعُوا بِهِ رَأْسًا» مَنْ؟ أهلُ الإثباتِ أهلُ السُّنَّةِ، ولم يرفع به أهلُ الكلامِ ومنطقِ اليونانِ؛ يعني: لم يرفعوا به رأسًا، بل حطُّوه وأعرضوا عنه.

٤٥٢٩- فَهُمْ كَمَا قَالَ الرَّسُولُ مُمَثِّلًا ... بِالمَاءِ مَهْبَطُهُ عَلَى القِيعَانِ

٤٥٣٠- لا المَاءَ تُمْسِكُهُ وَلا كَلأً بِهَا ... يَرْعَاهُ ذُو كَبِدٍ مِنَ الحَيَوَانِ

قَوْلُهُ: «لَا المَاءَ تُمْسِكُهُ»، ويجوزُ «لَا المَاءُ».

وقد مَثَّلَ الرَّسولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- ما بُعِثَ به كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا[1]، ومن هذه الأراضي التي أصابها أرضٌ قيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلًا؛ يعني: أنَّها تشربُ الماءَ ولكنَّها لا تُنْبِتُ، فهذه لا نَفَعَتِ النَّاسَ بنباتِها ولا نَفَعَتِ النَّاسَ بحفظِ الماءِ، **الأرضُ الثَّانيةُ**: كانت صفاءً أمسكت الماءَ وانتفع النَّاسُ بشربِه، **الأرضُ الثَّالثةُ**: شربت الماءَ وأَنْبَتَتْ الكلأَ فنفعت النَّاسَ.

٤٥٣١- هَذَا إِذَا لَمْ يُحْرَقِ الزَّرْعُ الَّذِي ... بِجُوَارِهَا بِالنَّارِ أَوْ بِدُخَانِ

فإذا أُحْرِقَ لم يكن هناك فائدةٌ إطلاقًا؛ لأنَّ الزَّرعَ رُبَّما يخرجُ، ويرى صاحبُه أنَّه قادرٌ عليه، ثُمَّ بعد ذلك يأتيه ما يحرقُه من نارٍ أو دخانٍ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم (٢٢٨٢).

٤٥٣٢- وَالـجَاهِلُونَ بِـذَا وَهَـذَا هُـمْ زُوَا   نُ الـــزَّرْعِ إِيْ وَاللهِ شَرُّ زُوَانِ

قَوْلُهُ: «زُوَانُ الزَّرْعِ» هو بذرٌ يخالطُ الزَّرعَ فيضيِّقُ عليه ويُفْسِدُه، وسيأتينا أيضًا الدُّلْبُ.

٤٥٣٣- وَهُمُ لَدَى غَرْسِ الإِلَهِ كَمِثْلِ غَـرْ   سِ الـدُّلْبِ بَـيْنَ مَغَـارِسِ الرُّمَّـانِ

٤٥٣٤- يَمْـتَصُّ مَـاءَ الـزَّرْعِ مَـعْ تَضْـيِيقِهِ   أَبَـدًا عَلَيْـهِ وَلَـيْسَ ذَا قِنْـوَانِ

يعني: هؤلاء المعطِّلةُ بين غرسِ الرَّحمنِ وهم المثبتةُ مثل غرسِ الدُّلْبِ بين الرُّمَّانِ، والدُّلْبُ -حسب ما وَصَفَهُ ابنُ القيِّمِ- شجرٌ كبيرُ الحجمِ، وأنَّه لا خيرَ فيه، وهو يمتصُّ ماءَ الزَّرعِ من باطنِ الأرضِ، فلا يأتي الزَّرعَ من الماءِ إلَّا الشَّيءُ القليلُ، وأمَّا ما فوق فيقول: «**مَعْ تَضْيِيقِهِ أَبَدًا عَلَيْهِ وَلَيْسَ ذَا قِنْوَانِ**»؛ يعني: يُضَيِّق من خارجِ الأرضِ ويمتصُّ الماءَ من داخلِ الأرضِ، ومع ذلك ليس له قنوانٌ؛ أي: ليس له ثمرٌ.

٤٥٣٥- ذَا حَالُـهُمْ مَعْ حَالِ أَهْلِ العِلْمِ أَنْـ   ـصَارِ الرَّسُـولِ فَـوَارِسِ الإِيـمَانِ

إذَنْ حالُـهم مع حالِ هؤلاء أنَّهم يُضَيِّقون المكانَ ويأكلون ما كان، يأكلون ما كان بالعروقِ التي في الأسفلِ، ويضيِّقون المكانَ فوق ظاهرِ الأرضِ.

٤٥٣٦- فَعَلَيْـهِ مِـنْ قِبَـلِ الإِلَـهِ تَحِيَّـةٌ   وَاللهُ يُبْقِيـهِ مَـدَى الأَزْمَـانِ

قَوْلُهُ: «**فَعَلَيْهِ**» يحتمل أنَّ الضَّميرَ يعودُ على «**أَنْصَارِ**» وهي جمعٌ باعتبار الجنسِ؛ أي: فعلى أنصارِ الرَّسولِ فوارسِ الإيمانِ من قِبَلِ الله تحيةٌ، واللهُ مُبْقِيه مدى الأزمانِ.

وكأنَّ الهرَّاسَ -رحمه الله- كأنَّه يريدُ أن يقولَ: الضَّميرُ في «فَعَلَيْهِ» عائدٌ على شيخِ الإسلامِ[1]، لكن لـمَّا لم نجد له ذِكْرًا ينبغي أن نقولَ: «فَعَلَيْهِ»؛ أي: على هذا الأنصارِ، ويكون هذا الجمعُ باعتبارِ الجنسِ.

* * *

٤٥٣٧- لَوْلاهُ مَا سُقِيَ الغِرَاسُ فَسَوْقُ ذَا ... كَ المَاءِ لِلدُّلْبِ العَظِيمِ الشَّانِ

٤٥٣٨- فَالغَرْسُ دُلْبٌ كُلُّهُ وَهُوَ الَّذِي ... يُسْقَى وَيُحْفَظُ عِنْدَ أَهْلِ زَمَانِ

٤٥٣٩- فَالغَرْسُ فِي تِلْكَ الحَضَارَةِ شَارِبٌ ... فَضْلَ المِيَاهِ مَصَارُهُ البُسْتَانِ

٤٥٤٠- لَكِنَّمَا البَلْوَى مِنَ الحَطَّابِ قُطْـ ... طَاعِ الغِرَاسِ وَعَاقِرِ الحِيطَانِ

٤٥٤١- بِالفُؤْسِ يَضْرِبُ فِي أُصُولِ الغَرْسِ كَيْ ... يَجْتَثَّهَا وَيَظُنُّ ذَا إِحْسَانِ

٤٥٤٢- وَيَظَلُّ يَحْلِفُ كَاذِبًا لَمْ أَعْتَمِدْ ... فِي ذَا سِوَى التَّثْبِيتِ لِلعِيدَانِ

٤٥٤٣- يَا خَيْبَةَ البُسْتَانِ مِنْ حُطَّابِهِ ... مَا بَعْدَ ذَا الحَطَّابِ مِنْ بُسْتَانِ

٤٥٤٤- فِي قَلْبِهِ غِلٌّ عَلَى البُسْتَانِ فَهْـ ... ـوَ مُوَكَّلٌ بِالقَطْعِ كُلَّ أَوَانِ

٤٥٤٥- فَالجَاهِلُونَ شِرَارُ أَهْلِ الحَقِّ وَالْـ ... ـعُلَمَاءُ سَادَتُهُمْ أُولُو الإِحْسَانِ

٤٥٤٦- وَالجَاهِلُونَ خِيَارُ أَحْزَابِ الضَّلا ... لِ وَشِيعَةِ الكُفْرَانِ وَالشَّيْطَانِ

٤٥٤٧- وَشِرَارُهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ هُمْ شَرُّ خَلْـ ... ـقِ اللهِ آفَةُ هَذِهِ الأَكْوَانِ

---

(١) انظر: شرح القصيدة النُّونيَّة للهرَّاس رحمه الله (٢/ ٣٠٠).

الشـرحُ

٤٥٣٧- لَوْلاهُ مَا سُقِيَ الغِـرَاسُ فَسَـوْقُ ذَا ... كَ المَـاءِ لِلـدُّلْبِ العَظِـيمِ الشَّـانِ

يعني: لولا أنصارُ الرَّسولِ -عليه الصَّلاة والسَّلامُ- فوارسُ الإيمانِ ما سُقِيَ الغراسُ.

٤٥٣٨- فَالغَرْسُ دُلْـبٌ كُلُّـهُ وَهُـوَ الَّـذِي ... يُسْـقَى وَيُحْفَـظُ عِنْـدَ أَهْـلِ زَمَـانِ

يقولُ: إنَّ الأوضاعَ انقلبت، فصار الدُّلْبُ هذا الشَّجرُ الكبيرُ الذي يمتصُّ الماءَ والذي لا خيرَ فيه صار هو غراسَ وقتِهم.

٤٥٣٩- فَالغَرْسُ فِي تِلْكَ الحَضَارَةِ شَارِبٌ ... فَضْـلَ الـمِيَاهِ مَصَـارُهُ البُسْـتَانِ

قَوْلُهُ: «مَصَارُهُ البُسْتَانِ»، وفي نسخةٍ: «مَصَاوُهُ البُسْتَانِ».

٤٥٤٠- لَكِنَّمَا البَلْـوَى مِـنَ الحَطَّـابِ قُطْـ ... ـطَاعِ الغِـرَاسِ وَعَـاقِرِ الـحِيطَانِ

قَوْلُهُ: «لَكِنَّمَا البَلْوَى مِنَ الحَطَّابِ...» يقولُ: إنَّ هناك بلوى أخرى غير مسألةِ الدُّلْبِ، وهي هذا الذي يقطعُ الشَّجرَ ويهدمُ الجِدارَ.

قَوْلُهُ: «الحَطَّابِ قَطَّاعِ الغِرَاسِ وَعَاقِرِ الحِيطَانِ» ويعني بذلك: هؤلاء المعطِّلةَ الذين قَضَوْا على هذه النُّصوصِ بالقطعِ وهدمِ الحيطانِ حتَّى لم يكن بستانٌ محوطٌ ولا ذو أشجارٍ.

٤٥٤١- بِالفُؤْسِ يَضْرِبُ فِي أُصُولِ الغَـرْسِ كَـيْ ... يَجْتَثَّهَـــا وَيَظُـــنُّ ذَا إِحْسَـــانِ

يعني: هذا الحطَّابُ يضربُ بالفوسِ، والفؤسُ جمعُ «فأسٍ»، فهو يضربُ أصولَـها حتَّى يجتثَّها ولا يبقى فيها أصلٌ ولا فرعٌ.

٤٥٤٢- وَيَظَلُّ يَحْلِفُ كَاذِبًا لَمْ أَعْتَمِدْ ... فِي ذَا سِوَى التَّثْبِيتِ لِلعِيدَانِ

يعني: يظلُّ هذا الذي يقطعُها من أصلِها وعِرْقِها يحلفُ أنَّه ما أراد إلَّا أن يُثبِّتَ العيدان؛ يعني: يحفر لها حتَّى تثبتَ وترسخَ، وهو في الحقيقةِ يحفرُ لها من أجل أن يقطعَها.

٤٥٤٣- يَا خَيْبَةَ البُسْتَانِ مِنْ حُطَّابِهِ ... مَا بَعْدَ ذَا الحَطَّابِ مِنْ بُسْتَانِ

وهذا صحيحٌ، هذا الحطَّابُ هل بعده بستانٌ وهو يجتثُّ الغرسَ من أصلِه؟ الجوابُ: أبدًا.

٤٥٤٤- فِي قَلْبِهِ غِلٌّ عَلَى البُسْتَانِ فَهْـ ... ـوَ مُوَكَّلٌ بِالقَطْعِ كُلَّ أَوَانِ

وهكذا أهلُ البدعِ في قلوبِهم غِلٌّ على السُّنَّةِ ذاتِ الثِّمارِ والأشجارِ اليانعةِ، ففي قلوبِهم غِلٌّ، يريدون أن يجتثُّوها من أصلِها وهم يدَّعون أنَّهم إنَّما يريدون الإصلاحَ.

٤٥٤٥- فَالجَاهِلُونَ شِرَارُ أَهْلِ الحَقِّ وَالْـ ... ـعُلَمَاءُ سَادَتُهُمْ أُولُو الإِحْسَانِ

الجاهلون شرارُ أهلِ الحقِّ، لماذا؟

لأنَّ الجاهلَ عَامِيٌّ وإن كان يريدُ الحقَّ لكن لا يعرفُه، وسادتُهم العلماءُ هم أولو الإحسانِ؛ أي: إنَّهم يدَّعون أنَّ هؤلاء الجهلةَ هم أهلُ الحقِّ، وأنَّ العلماءَ الذين يلقِّنونهم هذه البدعَ هم السَّادةُ أهلُ الإحسانِ ويقولون: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النِّساء:٦٢].

٤٥٤٦- وَالجَاهِلُونَ خِيَارُ أَحْزَابِ الضَّلَا ... لِ وَشِيعَةِ الكُفْرَانِ وَالشَّيْطَانِ

٤٥٤٧- وِشِرَارُهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ هُـمْ شَرُّ خَلْـ ـقِ اللهِ آفَـةُ هَـذِهِ الأَكْـوَانِ

يعني: إنَّ الحقيقةَ أنَّ الجاهلين هم خيارُ أحزابِ الضَّلالةِ وشرارُ أهلِ الحقِّ، وأمَّا علماؤهم فهم شرارُ خلقِ الله آفةُ هذه الأكوانِ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

والمؤلِّفُ -رحمه الله- أتى بهذا الفصلِ، وهو كُلُّه تصويرٌ وتخيُّلٌ لشيءٍ محسوسٍ لِيُمَثِّلَ به لشيءٍ معقولٍ، ولا شكَّ أنَّ علماءَ الضَّلالِ بين علماءِ الهدايةِ كالزَّرعِ النَّابت بين زرعِ الحِنطةِ، وهو من الزُّروعِ الخبيثةِ التي تُفْسِدُ الأرضَ وتُضَيِّقُ على سيقانِ الزُّروعِ المفيدةِ.

* * *

فصــل

في تَعَيُّنِ الهِجْرَةِ مِنَ الآرَاءِ وَالبِدَعِ إِلَى سُنَّتِهِ كَمَا كَانَتْ فَرْضًا مِنَ الأَمْصَارِ إِلَى بَلْدَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

٤٥٤٨- يَا قَوْمُ فَرْضُ الهِجْرَتَيْنِ بِحَالِهِ ... وَاللهِ لَمْ يُنْسَخْ إِلَى ذَا الآنِ

٤٥٤٩- فَالهِجْرَةُ الأُولَى إِلَى الرَّحْمَنِ بِالْـ ... إِخْلَاصِ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلَانِ

٤٥٥٠- حَتَّى يَكُونَ القَصْدُ وَجْهَ اللهِ بِالْـ ... أَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ وَالإِيمَانِ

٤٥٥١- وَيَكُونَ كُلُّ الدِّينِ لِلرَّحْمَنِ مَا ... لِسِوَاهُ شَيْءٌ فِيهِ مِنْ إِنْسَانِ

٤٥٥٢- وَالحُبُّ وَالبُغْضُ اللَّذَانِ هُمَا لِكُلْـ ... لِ وِلَايَةٍ وَعَدَاوَةٍ أَصْلَانِ

٤٥٥٣- للهِ أَيْضًا هَكَذَا الإِعْطَاءُ وَالْـ ... مَنْعُ اللَّذَانِ عَلَيْهِمَا يَقِفَانِ

٤٥٥٤- وَاللهِ هَذَا شَطْرُ دِينِ اللهِ وَالتْـ ... ـتَحْكِيمُ لِلْمُخْتَارِ شَطْرٌ ثَانِ

٤٥٥٥- وَكِلَاهُمَا الإِحْسَانُ لَنْ يَتَقَبَّلَ الرْ ... رَحْمَنُ مِنْ سَعْيٍ بِلَا إِحْسَانِ

٤٥٥٦- وَالهِجْرَةُ الأُخْرَى إِلَى المَبْعُوثِ بِالْـ ... إِسْلَامِ وَالإِيمَانِ وَالإِحْسَانِ

٤٥٥٧- أَتَرَوْنَ هَذِي هِجْرَةَ الأَبْدَانِ لَا ... وَاللهِ بَلْ هِيَ هِجْرَةُ الإِيمَانِ

٤٥٥٨- قَطْعُ المَسَافَةِ بِالقُلُوبِ إِلَيْهِ فِي ... دَرْكِ الأُصُولِ مَعَ الفُرُوعِ وَذَانِ

٤٥٥٩- أَبَدًا إِلَيْهِ حُكْمُهَا لَا غَيْرِهِ ... فَالحُكْمُ مَا حَكَمَتْ بِهِ النَّصَّانِ

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «**فَصْلٌ فِي تَعَيُّنِ الهِجْرَةِ مِنَ الآرَاءِ وَالبِدَعِ إِلَى سُنَّتِهِ**»؛ يعني: سُنَّةَ النَّبِيِّ ﷺ، وهذا العنوانُ جيِّدٌ، وأمَّا قولُه: «**كَمَا كَانَتْ فَرْضًا مِنَ الأَمْصَارِ إِلَى بَلْدَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ**» فهذا ليس على إطلاقِه؛ لأنَّ الهجرةَ إلى المدينةِ إنَّما كانت على أهلِ مكَّةَ قبل الفتحِ، وأمَّا بعد الفتحِ فقال النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ**»؛ يعني: من مكَّةَ، وكذلك لم يُفْرَضْ على أهلِ الطَّائفِ بعد فتحِها أنْ يُهاجروا منها إلى المدينةِ، فهذا الإطلاقُ فيه نظرٌ.

٤٥٤٨- يَا قَوْمُ فَرْضُ الهِجْرَتَيْنِ بِحَالِهِ وَاللهِ لَمْ يُنْسَخْ إِلَى ذَا الآنِ

أَقْسَمَ -رحمه الله تعالى- أنَّ الهجرةَ لم تُنْسَخ؛ أي: لم يُنْسَخْ وجوبُها، بل يجبُ على الإنسانِ أن يهاجرَ، وأمَّا قولُ النَّبِيِّ ﷺ: «**لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ**»[(١)]، فالمرادُ لا هجرةَ من مكَّةَ؛ لأنَّ السَّائلَ كان يسألُه وهو بمكَّةَ وإلَّا فالهجرةُ باقيةٌ -باتِّفاق المسلمين- إلى يومِ القيامةِ لاسيَّما من البدعةِ إلى السُّنَّة، فما هما الهجرتان المذكورتان في قولِه: «**فَرْضُ الهِجْرَتَيْنِ**»؟ الجوابُ: **الهجرةُ الأولى**: إلى الرَّحمن، **والهجرةُ الثَّانيةُ**: إلى الرَّسولِ؛ ولذا قال:

٤٥٤٩- فَالهِجْرَةُ الأُولَى إِلَى الرَّحْمَنِ بِالْـ إِخْلَاصِ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلَانِ

ثُمَّ فَسَّرَ هذا الإخلاصَ بقولِه:

٤٥٥٠- حَتَّى يَكُونَ القَصْدُ وَجْهَ اللهِ بِالْـ أَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ وَالإِيمَانِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإحصار وجزاء الصيد، باب لا يحل القتال بمكة، رقم (١٧٣٧)، ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام، رقم (١٣٥٣).

والنَّاسُ يتفاوتون في هذه الهجرةِ تفاوتًا كبيرًا؛ منهم مَنْ هجرتُه خالصةٌ، ومنهم مَنْ هجرتُه مَشُوبَةٌ؛ فَمَنْ قال قولًا يُرائي فيه فهجرتُه مَشُوبَةٌ، ومَنْ قال قولًا لا يريدُ به إلَّا الدُّنيا فقط فهجرتُه مُحطَّمَةٌ، فالنَّاسُ يختلفون في هذه الهجرةِ إلى الله بالإخلاصِ.

وَقَوْلُهُ: «**بِالأَقْوَالِ**» كالذِّكرِ، و«**الأَفْعَالِ**» كالصَّلاةِ، و«**الإِيمَانِ**» كاعتقادِ القلبِ، فالنَّاسُ يختلفون في هذا اختلافًا كبيرًا.

٤٥٥١- وَيَكُونَ كُلُّ الدِّينِ لِلرَّحْمَنِ مَا ... لِسِوَاهُ شَيْءٌ فِيهِ مِنْ إِنْسَانِ

«**كُلُّ الدِّين**»؛ أي: كُلُّ ما يتعبَّدُ به الإنسانُ يكونُ لله عزَّ وجلَّ ما لسواه فيه شيءٌ.

٤٥٥٢- وَالحُبُّ وَالبُغْضُ اللَّذَانِ هُمَا لِكُلْ ... لِ وِلايَةٍ وَعَدَاوَةٍ أَصْلانِ

يعني: ويكونُ الحبُّ والبغضُ أيضًا، خالصًا لله، والحبُّ والبغضُ هما أصلانِ للولايةِ والعداوةِ، فبالحُبِّ تكونُ الولايةُ، وبالبغضِ تكونُ العداوةُ، لا يمكنُ أن تكونَ العداوةُ مع الحُبِّ أبدًا، ولا أن تكونَ الولايةُ مع البغضِ، فالحبُّ أصلٌ والولايةُ فرعٌ؛ يعني: مَنْ أَحَبَّ شيئًا تولَّاه، والبغضُ أصلٌ والعداوةُ فرعٌ، يعني: مَن أَبْغَضَ شيئًا عاداه، فأنت إذا أَحْبَبْتَ اللهَ عزَّ وجلَّ فحينئذٍ تكونُ ولايةُ الله عزَّ وجلَّ لك، وولايتُك أنت لله، وإذا كان الأمرُ بالعكسِ -والعياذُ بالله- فحينئذٍ تكونُ عداوةُ الله لك وعداوتُك أنت لله؛ ولهذا كان الكُفَّارُ محلَّ بغضِ الله ومقتِه، وهم أهلُ عداوتِه.

إذَنْ الأصلُ للولايةِ هو الحُبُّ، والأصلُ للعداوةِ هو البغضُ، والحُبُّ والبغضُ في القلبِ، والولايةُ والعداوةُ في الظَّاهرِ.

٤٥٥٣- لله أَيْضًا هَكَذَا الإِعْطَاءُ وَالْـ ـمَنْعُ اللَّذَانِ عَلَيْهِمَا يَقِفَانِ

قَوْلُهُ: «عَلَيْهِمَا يَقِفَانِ» «عَلَيْهِمَا»؛ أي: على العطاءِ والمنعِ، «يَقِفَانِ»؛ أي: الحبُّ والبغضُ والعداوةُ والولايةُ، يقولُ: «لله أَيْضًا هَكَذَا الإِعْطَاءُ وَالمَنْعُ» الإعطاءُ من الله؛ والمنعُ من الله، يعني: هو الذي يَهَبُ الحُبَّ الذي يترتَّبُ عليه الولايةُ، والبغضَ الذي يترتَّبُ عليه العداوةُ، فمَن أعطاه الحُبَّ والولايةَ فقد أعطاه، ومَن منعه حُرِمَ من الحُبِّ والولايةِ، «اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ»(١).

٤٥٥٤- وَالله هَذَا شَطْرُ دِينِ الله وَالتْـ ـتَحْيكِمُ لِلْمُخْتَارِ شَطْرٌ ثَانِ

قَوْلُهُ: «وَالله هَذَا شَطْرُ دِينِ الله» المُشَارُ إليه بقولِه: «هَذَا» الإخلاصُ؛ فإنَّه شطرُ الدِّينِ، والنِّصفُ الثَّاني: اتِّباعُ الرَّسولِ؛ ولهذا قال: «وَالتَّحْكِيمُ لِلْمُخْتَارِ شَطْرٌ ثَانِي»، فالتَّحكيمُ للمختارِ؛ أي: لرسولِ الله ﷺ؛ يعني: نجعلُه هو الحَكَمَ بيننا كما قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [النِّساء:٥٩]، وكما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النِّساء:٦٥]، فالإخلاصُ لله، والتَّحكيمُ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم.

٤٥٥٥- وَكِلَاهُمَا الإِحْسَانُ لَنْ يَتَقَبَّلَ الرْ رَحْمَنُ مِنْ سَعْيٍ بِلَا إِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «كِلَاهُمَا»؛ أي: الإخلاصُ والمتابعةُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٤). ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم (٥٩٣).

الإخلاصُ والمتابعةُ هما الإحسانُ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢] مَنْ هو الأحسنُ عملًا؟

الجوابُ: هو مَنْ كان أخلصَ لله وأتبعَ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم.

٤٥٥٦- وَالهِجْرَةُ الأُخْرَى إِلَى المَبْعُوثِ بِالْـ إِسْلامِ وَالإِيمَانِ وَالإِحْسَانِ

الهجرةُ الثَّانيةُ: هجرةٌ إلى المبعوثِ محمَّدٍ ﷺ بالإسلامِ والإيمانِ والإحسانِ، لكن كيف تهاجرُ إليه؟ تُهاجرُ إليه باتِّباعِه، تسلكُ طريقَه الذي مشى إليه، لا تتجاوزه، ولا تقصر عنه؛ ولهذا ينبغي للإنسانِ حين فعل العبادةِ أن يستحضرَ هذين الأمرين: الإخلاص لله، والمتابعة لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم.

٤٥٥٧- أَتَرَوْنَ هَذِي هِجْرَةَ الأَبْدَانِ لَا وَالله بَلْ هِيَ هِجْرَةُ الإِيمَانِ

يعني: هذه ليست هجرةَ أبدانٍ، ولكنَّها هجرةُ إيمانٍ وهجرةُ قلوبٍ، يُهاجِرُ القلبُ إلى الله فيكونُ دائمًا واقفًا بين يديه وفي رحابِه، بأن يلتفتَ إلى الله دائمًا، يجعل دائمًا ذكرَ الله في قلبِه قَائِمًا وقَاعِدًا فَاعِلًا وتَارِكًا، فالإنسانُ الموفَّقُ يكونُ دائمًا في يقظةٍ، والمخذولُ -نسألُ اللهَ العافيةَ- يكونُ دائمًا في غفلةٍ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]؛ ولهذا إذا رَأَيْتَ من نفسِك أنَّك لا تعملُ، تمضي عليك الأيَّامُ وأنت ما عَمِلْتَ شيئًا فاتَّهِمْ نفسَك، فإنَّ قلبَك يكونُ غافلًا عن ذِكْرِ الله؛ لأنَّ مَنْ أَقْبَلَ على الله بَارَكَ له في وقتِه وفي عملِه، وكانت ساعاتُه كُلُّها معمورةً بما فيه الخير.

ولا شكَّ أنَّ ذكرَ الله باللِّسانِ يُعِينُ على ذكرِه بالقلبِ، وكثرةَ قراءةِ القرآنِ وكثرةَ العبادةِ يجرُّ بعضُها بعضًا، ومصاحبةَ الأخيارِ، وأشياءَ كثيرة، كُلُّ ذلك يُعِينُ على ذكرِه تعالى بالقلبِ.

يهاجرُ إلى الرَّسولِ فيكونُ دائمًا متَّبعًا له وكأنَّه أمامَه ينظرُ إليه فيسلك ما يسلكُه، هذه الهجرةُ الحقيقيَّةُ، وهجرةُ الأبدانِ فرعٌ عن هذه الهجرةِ؛ لقولِ النَّبيِّ ﷺ: «فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ»[1]، اللَّهُمَّ وفِّقنا لذلك.

٤٥٥٨- قَطْعُ المَسَافَةِ بِالقُلُوبِ إِلَيْهِ فِي ... دَرَكِ الأُصُولِ مَعَ الفُرُوعِ وَذَانِ

٤٥٥٩- أَبَدًا إِلَيْهِ حُكْمُهَا لا غَيْرِهِ ... فَالحُكْمُ مَا حَكَمَتْ بِهِ النَّصَّانِ

قَوْلُهُ: «قَطْعُ المَسَافَةِ بِالقُلُوبِ إِلَيْهِ...» هل يمكنُ أن تقطعَ المسافةَ بالقلوبِ إلى الله؟ الجوابُ: نعم، يكونُ قلبُك يحومُ حولَ العرشِ دائمًا، ولا يجولُ حولَ الفَرْشِ؛ والفَرْش: أي: الأرض؛ لأنَّ كونَك تجولُ حولَ الأرضِ معناه أنَّك أَهْبطْتَ نفسَك، قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦].

فالحاصلُ أنَّ المؤلِّفَ يقولُ: قطعُ المسافةِ بالقلوبِ إليه في دَرَكِ الأصُولِ، وأمَّا قطعُ المسافةِ بالقلوبِ إلى الرَّسولِ فذلك بأن تحومَ حول سُنَّتِه وتنبذَ كُلَّ ما خَالَفَ سنَّتَه، تجعله وراءَك وتجعل أمامك محمَّدًا صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ: «إِلَيْهِ حُكْمُهَا لَا غَيْرِهِ»؛ أي: لا إلى غيرِه؛ لأنَّ الحكمَ لله ورسولِه.

قَوْلُهُ: «فَالحُكْمُ مَا حَكَمَتْ بِهِ النَّصَّانِ»، والنَّصَّان هما الكتابُ والسُّنَّةُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، رقم (١)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية»، رقم (١٩٠٧).

٤٥٦٠- يَـا هِجْـرَةً طَالَـتْ مَسَـافَتُهَا عَـلَى ... مَنْ خُصَّ بِالـحِرْمَانِ وَالـخِذْلانِ

٤٥٦١- يَـا هِجْـرَةً طَالَـتْ مَسَـافَتُهَا عَـلَى ... كَسْـلانَ مَنْخُـوبِ الفُـؤَادِ جَبَـانِ

٤٥٦٢- يَـا هِجْـرَةً وَالعَبْـدُ فَـوْقَ فِرَاشِـهِ ... سَـبَقَ السُّـعَاةَ لِـمَنْزِلِ الرِّضْـوَانِ

٤٥٦٣- سَارُوا أَحَثَّ السَّـيْرِ وَهْـوَ فَسَـيْرُهُ ... سَـيْرُ الـدَّلالِ وَلَـيْسَ بالـذَّمْلانِ

٤٥٦٤- هَـذَا وَتَنْظُـرُهُ أَمَـامَ الرَّكْـبِ كَالْـ ... عَلَـمِ العَظِـيمِ يُشَـافُ فِي القِيعَـانِ

٤٥٦٥- رُفِعَتْ لَـهُ أَعْـلامُ هَاتِيـكَ النُّصُـو ... صِ رُؤُوسُهَا شَـابَتْ مِـنَ النِّـيرَانِ

٤٥٦٦- نَارٌ هِيَ النُّورُ الـمُبِينُ وَلَـمْ يَكُـنْ ... لِـيَرَاهُ إِلَّا مَـنْ لَـهُ عَيْنَـانِ

٤٥٦٧- مَكْحُولتَـانِ بِمِـرْوَدِ الـوَحْيَيْنِ لَا ... بِمَـرَاوِدِ الآرَاءِ وَالـهَذَيَانِ

٤٥٦٨- فَلِذَاكَ شَمَّرَ نَحْوَهَـا لَـمْ يَلْتَفِـتْ ... لا عَـنْ شَـمَائِلِهِ وَلا أَيْـمَانِ

الشـرحُ

٤٥٦٠- يَـا هِجْـرَةً طَالَـتْ مَسَـافَتُهَا عَـلَى ... مَنْ خُصَّ بِالـحِرْمَانِ وَالـخِذْلانِ

يعني: أنَّه يتأسَّفُ على هذه الهجرةِ؛ أي: الهجرةِ إلى الله ورسولِه، فإنَّه طالَتْ مَسَافَتُهَا عَلَىَ مَنْ خُصَّ بِالحِرْمَانِ والخِذْلَانِ، وأمَّا مَنْ مَنَّ اللهُ عليه بالتَّوفيقِ والنَّصرِ والعِزِّ فليست عليه طويلةً.

٤٥٦١- يَـا هِجْـرَةً طَالَـتْ مَسَـافَتُهَا عَـلَى ... كَسْـلانَ مَنْخُـوبِ الفُـؤَادِ جَبَـانِ

قَوْلُهُ: «مَنْخُوبِ»؛ أي: ضعيفِ القلبِ.

فضعيفُ القلبِ، الجبانُ، الكسلانُ، هذا تطولُ عليه الهجرةُ، ويعجزُ عن الوصولِ إلى مكانِ هذه الهجرةِ.

٤٥٦٢- يَـا هِجْـرَةً وَالعَبْـدُ فَـوْقَ فِرَاشِـهِ ... سَبَقَ السُّـعَاةَ لِـمَنْزِلِ الرِّضْـوَانِ

الظَّاهرُ أنَّ «**سَبَقَ السُّعَاةَ**» يعني: أنَّه على فراشِه لكنَّه يذكرُ اللهَ عزَّ وجلَّ ويُحكِّمُ الكتابَ والسُّنَّةَ، فيسبقُ هؤلاء الذين يَسْعَوْن لمنزلِ الرِّضوانِ، فهو على فراشِه يسبقُ العاملَ الجادَّ في عملِه.

٤٥٦٣- سَارُوا أَحَثَّ السَّـيْرِ وَهْـوَ فَسَـيْرُهُ ... سَـيْرُ الـدَّلالِ وَلَـيْسَ بالـذَّمْلانِ

سيرُ الدَّلالِ سيرٌ بطيءٌ، والذَّمَلان سيرٌ سريعٌ، وهذا يسيرُ سيرَ الدَّلالِ فكيف يُعَانِقُ مَنْ يسيرُ سيرَ الذَّمَلان السَّريع؟! ومع هذا قال رحمه الله:

٤٥٦٤- هَـذَا وَتَنْظُـرُهُ أَمَـامَ الرَّكْـبِ كَالْـ ... ـعَلَـمِ العَظِـيمِ يُشَـافُ في القِيعَـانِ

يعني: أنَّ هذا الذي سار سيرَ الدَّلالِ تنظرُه مثل العَلَمِ في القيعانِ، والقيعانُ جمعُ «قاع»، وهو الأرضُ الواسعةُ المستويةُ.

٤٥٦٥- رُفِعَتْ لَـهُ أَعْـلامُ هَاتِيـكَ النُّصُـو ... صِ رُؤُوسُهَا شَـابَتْ مِـنَ النِّـيرَانِ

قَوْلُهُ: «**رُفِعَتْ لَهُ**» «**لَهُ**»؛ أي: إلى هذا الرَّجُلِ الذي يسيرُ سيرَ الدَّلالِ يريدُ الهجرةَ إلى الله ورسولِه.

قَوْلُهُ: «**شَابَتْ مِنَ النِّيرَانِ**» «**شَابَتْ**»؛ أي: من الشَّيب، والنِّيران جمعُ «نار».

المعنى: أنَّ هذه الأعلامَ واضحةٌ لكثرةِ النِّيرانِ على رؤوسِها.

٤٥٦٦- نَارٌ هِيَ النُّورُ الـمُبِينُ وَلَـمْ يَكُـنْ ... لِـيَرَاهُ إِلَّا مَـنْ لَـهُ عَيْنَـانِ

٤٥٦٧- مَكْحُولتَانِ بِمِرْوَدِ الوَحْيَيْنِ لَا ... بِمَرَاوِدِ الآرَاءِ وَالهَذَيَانِ

قَوْلُهُ: «نَارٌ هِيَ النُّورُ المُبِينُ»؛ يعني: هي نارٌ، ولكنَّها في الحقيقةِ نورٌ مبينٌ.

يقول رحمه الله: إنَّ أعلامَ السُّنَّةِ لا يراها إلَّا مَنْ له عينان مكحولتان بمراود السُّنَّةِ لا بمراود الهذيانِ والقولِ اللَّغوِ، وهو يشيرُ إلى ما عليه السَّلفُ الصَّالحُ رحمهم اللهُ، وما عليه هؤلاء المعطِّلةُ.

٤٥٦٨- فَلِذَاكَ شَمَّرَ نَحْوَهَا لَمْ يَلْتَفِتْ ... لا عَنْ شَمَائِلِهِ وَلا أَيْمَانِ

وهذا هو التَّوفيقُ من الله عزَّ وجلَّ أنْ يفتحَ اللهُ على الإنسانِ نورَ العلمِ والإيمانِ حتَّى يسيرَ خلفه، ومن الخِذلان أن يُغْلَقَ عليه هذا حتَّى لا يفهمَ ولا يعلمَ.

* * *

٤٥٦٩- يَا قَوْمُ لَوْ هَاجَرْتُمُ لَرَأَيْتُمُ ... أَعْلامَ طَيْبَةَ رُؤْيَةً بِعِيَانِ

٤٥٧٠- وَرَأَيْتُمُ ذَاكَ اللِّوَاءِ وَتَحْتَهُ الرْ ... رُسُلُ الكِرَامُ وَعَسْكَرُ القُرْآنِ

٤٥٧١- أَصْحَابُ بَدْرٍ وَالأُلَى قَدْ بَايَعُوا ... أَزْكَى البَرِيَةِ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ

٤٥٧٢- وَكَذَا المُهَاجِرَةُ الأُلَى سَبَقُوا كَذَا الْ ... أَنْصَارُ أَهْلُ الدَّارِ وَالإِيمَانِ

٤٥٧٣- وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَا ... لِكُ هَدْيِهِمْ أَبَدًا بِكُلِّ زَمَانِ

٤٥٧٤- لَكِنْ رَضِيتُمْ بِالأَمَانِي وَابْتُلِيـ ... ـتُمْ بِالحُظُوظِ وَنُصْرَةِ الإِخْوَانِ

٤٥٧٥- بَلْ غَرَّكُمْ ذَاكَ الغَرُورُ وَسَوَّلَتْ ... لَكُمُ النُّفُوسُ وَسَاوِسَ الشَّيْطَانِ

٤٥٧٦- وَنَبَذْتُمُ عَسَلَ النُّصُوصِ وَرَاءَكُمْ ... وَقَنَعْتُمُ بِقُطَارَةِ الأَذْهَانِ

٤٥٧٧- وَتَـرَكْتُمُ الـوَحْيَيْنِ زُهْـدًا فِـيهِمَا   وَرَغِبْـتُمُ فِي رَأْيِ كُـلِّ فُـلانِ

٤٥٧٨- وَعَـزَلْتُمُ النَّصَّـيْنِ عَـمَّا وُلِّيَـا   لِلْحُكْـمِ فِيـهِ عَـزْلَ ذِي عُـدْوَانِ

الشـرحُ

٤٥٦٩- يَـا قَـوْمُ لَـوْ هَـاجَرْتُمُ لَـرَأَيْتُمُ   أَعْـلامَ طَيْبَـةَ رُؤْيَـةً بِعِيَـانِ

قَوْلُهُ: «يَا قَوْمُ»، مثلُ هذه العبارةِ يجوزُ فيها: «يَا قَوْمِ»، ويجوزُ فيها «يَا قَوْمُ» بكسرِ الميمِ مراعاة للياءِ المحذوفةِ، وبضمِّها على سبيل القطعِ عن الإضافةِ.

قَوْلُهُ: «طَيْبَةَ»، أي: المدينة، ولا ينبغي أن تُسَمَّى «يثربَ» كما يفعلُه بعضُ الكُتَّابِ المعاصرين تبعًا للنَّصارى المنصِّرين، بل إنَّما هي طَيْبَةُ كما قال النَّبيُّ عليه والصَّلاة والسَّلامُ: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَمَّاهَا طَيْبَةَ»(١)، وصدق النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلام، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ [الأحزاب:١٣] فهذا حكايةُ قولِ المنافقين، وليس إقرارًا له.

٤٥٧٠- وَرَأَيْـتُمْ ذَاكَ اللِّـوَاءِ وَتَحْتَـهُ الـرْ   رُسُـلُ الكِـرَامُ وَعَسْـكَرُ القُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «رَأَيْتُمْ ذَاكَ اللِّوَاءَ» اللِّواءُ هو ما يُرْفَعُ علمًا عند قيادةِ الجيوشِ ليكونَ مُتَّبَعًا.

قَوْلُهُ: «وَتَحْتَهُ الرُّسْلُ الكِرَامُ» فيه إشكالٌ؛ لأنَّه ليس في المدينةِ إلَّا رسولٌ واحدٌ وهو محمَّدٌ ﷺ، والجوابُ عنه أنْ يُقَالَ: إنَّ محمَّدًا ﷺ جاء بما جاءت به الرُّسلُ قبلَه، فهو كالرُّسلِ جميعًا في المعنى، يقولُ الشَّاعرُ:

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٨٩، رقم ٢١١٠٧).

وَالنَّـاسُ أَلْـفٌ مِـنْهُمُ كَوَاحِـدٍ وَوَاحِدٌ كَالأَلْفِ إِنْ أَمْرٌ عَنَـى(١)

قَوْلُهُ: «وَعَسْكَرُ القُرْآنِ» مَنْ هم عسكرُ القرآنِ؟ قال:

٤٥٧١- أَصْحَابُ بَدْرٍ وَالأُلَى قَدْ بَايَعُوا أَزْكَى البَرِيَّةِ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ

قَوْلُهُ: «أَصْحَابُ بَدْرٍ» أصحابُ بدرٍ الذين قاتلوا في بدرٍ، وكانوا ثلاثمئةٍ وبضعةَ عَشَرَ رجلًا، وخصَّهم اللهُ بخصيصةٍ حيث اطَّلع عليهم وقال: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»(٢).

قَوْلُهُ: «الأُلَى قَدْ بَايَعُوا» «الأُلَى» بمعنى الذين، قال ابنُ مالكٍ رحمه الله: (جَمْعُ «الَّذِي» الأُلَى الَّذِينَ...)(٣).

فجمعُ «الَّذي»: الأُلَى والَّذين.

قَوْلُهُ: «أَزْكَى البَرِيَّةِ»؛ يعني: محمَّدًا رسولَ الله.

قَوْلُهُ: «بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ»؛ لأنَّ اللهَ قال في هذه المبايعةِ: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨]، أَحَلَّ اللهُ عليهم رضاه، وقال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»(٤)؛ يعني: الذين بايعوا تحت الشَّجرةِ

(١) البيت لابن دُريد، كما في شرح ديوان المتنبي للعكبري (١/ ٣٨٠).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، رقم (٢٨٤٥)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، رقم (٢٤٩٤).
(٣) شرح ابن عقيل (١/ ١٤١).
(٤) أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، رقم (٢٤٩٦).

لا يدخلون لا دخولًا مؤقَّتًا ولا مؤبَّدًا، فهم بايعوا النَّبِيَّ ﷺ على ألَّا يفرُّوا حِين شَاعَ في النَّاسِ أنَّ عثمانَ قد قُتِلَ، وكان عثمانُ قد ندبه النَّبِيُّ ﷺ إلى أهلِ مكَّةَ للمفاوضةِ، فَبَايَعَ النَّاسُ، وعثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يحضر، ولكنَّ النَّبِيَّ ﷺ بايع عنه بنفسِه فقال: «**هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ**»، فبايع يدَه بيدِه الأخرى عن عثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1].

هؤلاء الذين بايعوا عددُهم ألفٌ وأربعمائة رجلٍ، كُلُّهم بايعوا تحت الشَّجرةِ، وبَقِيَت هذه الشَّجرةُ حتَّى ذُكِرَ لأميرِ المؤمنين عمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الموحِّدِ المخلصِ أنَّ أناسًا يذهبون إليها فأمر بقطعِها[2]، فاجْتُثَّت من أصلِها، والحمدُ لله الذي وَفَّقَ هذا الخليفةَ لهذا العملِ، والله لو بَقِيَت لكانت مثل اللَّاتِ والعُزَّى لاسيَّما في هذا الوقتِ، لكن الحمدُ لله الذي وَفَّقَ هذا الخليفةَ الرَّاشدَ لهذا، وانظر إلى إخلاصِ هذا الرَّجلِ في توحيدِه لـمَّا قَبَّلَ الحجرَ الأسودَ وخاف أن يكونَ فتنةٌ قال: «**إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ**»[3]، كُلُّ هذا إبعادٌ للنَّاسِ عن التَّعلُّقِ بالأحجارِ والأشجارِ، فجزاه اللهُ عن أُمَّةِ محمَّدٍ خيرًا.

وعمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فعَلَ هذا وهو وَلِيُّ الأمرِ، فيجب على ولاةِ الأمورِ من المسلمين أن يقطعوا كُلَّ وسائلِ الشِّركِ، أمَّا عامَّةُ النَّاسِ فقد يكونُ في هذا من الضَّررِ ما يربو على قطعِه، رُبَّما يقطعون مثلًا شجرةً أو يهدمون صنمًا، فَيُعَادُ الصَّنمُ أو الشَّجرةُ على أحسن ممَّا سبق، وهؤلاء يُقْضَى عليهم وعلى دعوتِهم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عثمان بن عفان أبي عمرو القرشي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٣٤٩٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ١٥٠، رقم ٧٥٤٥).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب ما ذكر في الحجر الأسود، رقم (١٥٩٧).

٤٥٧٢- وَكَذَا الْمُهَاجِرَةُ الأُلَى سَبقُوا كَذَا الْـ أَنْصَارُ أَهْلُ الدَّارِ وَالإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَا الْمُهَاجِرَةُ الأُلَى سَبقُوا» قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التَّوبة:١٠٠]؛ أي: الذين هاجروا من مكَّةَ أفضلِ بلادِ الله وأحبِّ البلادِ إليهم، هاجروا إلى الله ورسولِه تاركين أموالَهم وديارَهم وعيالَهم، هاجروا إلى الله ورسولِه فكان لهم سَبْقُ الهجرةِ.

قَوْلُهُ: «كَذَا الأَنْصَارُ أَهْلُ الدَّارِ وَالإِيمَانِ» الأنصارُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين ﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر:٩]؛ أي: من قبل المهاجرين ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ [الحشر:٩]؛ يعني: لا يجدون في صدورِهم شيئًا من البغضاءِ أو الضَّغينةِ ﴿مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ الضَّميرُ يعودُ على المهاجرين؛ يعني: لا يجدون في صُدورِهم شيئًا على المهاجرين حين فَضَّلَهم اللهُ -سبحانه وتعالى- بما فَضَّلَهم به مع أنَّهم هم الذين قَدموا إليهم.

٤٥٧٣- وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَا لِكُ هَدْيِهِمْ أَبَدًا بِكُلِّ زَمَانِ

يعني: لو أنَّ الإنسانَ هاجر لوجد هذه الأعلامَ الطَّيِّبَةَ النَّيِّرةَ.

٤٥٧٤- لَكِنْ رَضِيتُمْ بِالأَمَانِي وَابْتُلِيـ ـتُمْ بِالحُظُوظِ وَنُصْرَةِ الإِخْوَانِ

وهذه محنةٌ -والعياذُ بالله- من الله عزَّ وجلَّ أن يُعْرِضَ الإنسانُ عن الكتابِ والسُّنَّةِ، وأن يأخذَ برأي فلانٍ وفلانٍ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩]، وهذا مَثَلٌ ينطبقُ تمامًا على المقلِّدين الذين يقدِّمون أقوالَ الشُّيوخِ على قولِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

٤٥٧٥- بَلْ غَـرَّكُمْ ذَاكَ الغَـرُورُ وَسَـوَّلَتْ لَكُمُ النُّفُوسُ وَسَـاوِسَ الشَّـيْطَانِ

قَوْلُهُ: «ذَاكَ الغَرُورُ» الغَرُورُ هو الشَّيطانُ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد:١٤].

قَوْلُهُ: «وَسَوَّلَتْ لَكُمُ النُّفُوسُ وَسَاوِسَ الشَّيْطَانِ»؛ يعني: زيَّنت لكم وساوسَ الشَّيطانِ فتبعتموه.

٤٥٧٦- وَنَبَذْتُمْ عَسَلَ النُّصُوصِ وَرَاءَكُـمْ وَقَنَعْـتُمْ بِقُطَـارَةِ الأَذْهَـانِ

ذلك العسل الصَّافي الكثير نبذتموه وراءكم، وأخذتم بالقُطَارَةِ الضَّعيفةِ المُلَوَّثةِ بالأوساخِ، وهي قُطَارةُ الأذهانِ.

٤٥٧٧- وَتَـرَكْتُمُ الـوَحْيَيْنِ زُهْـدًا فِـيهِمَا وَرَغِبْـتُمُ فِي رَأْيِ كُـلِّ فُـلانِ

سبحان الله! تركوا شَيْئَيْنِ وأخذوا أشياءَ، كُلُّ ما ذُكِرَ لهم من رأيٍ تبعوه، وتركوا الوحيين كتابَ الله وسُنَّةَ رسولِه صلى الله عليه وسلم.

٤٥٧٨- وَعَـزَلْتُمُ النَّصَّـيْنِ عَـمَّا وُلِّيَـا لِلْحُكْـمِ فِيـهِ عَـزْلَ ذِي عُـدْوَانِ

يقولُ: يجبُ الرُّجوعُ في التَّحاكمِ إلى الله ورسولِه، قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النِّساء:٥٩]، فكما أنَّه إذا تنازع الرَّجُلان في أمرٍ من أمورِ الدُّنيا يذهبان إلى الحاكمِ، فكذلك إذا تَنَازَعْنَا في شيءٍ من الدِّينِ نردُّه إلى الكتابِ والسُّنَّةِ، هؤلاء -والعياذُ بالله- عزلوا النَّصَّيْنِ عمَّا وُلِّيا للحكمِ فيه، وقد ولَّى اللهُ النَّصَّيْنِ الحُكْمَ بين النَّاسِ، ولكن هؤلاء عزلوهما عزلَ ذي عدوانٍ.

* * *

٤٥٧٩- وَزَعَمْـتُمُ أَنْ لَـيْسَ يَحْكُـمُ بَيْنَنَـا ... إِلَّا العُقُــولُ وَمَنْطِــقُ اليُونَــانِ

٤٥٨٠- فَهُـمَا بِحُكْـمِ الـحَقِّ أَوْلَى مِـنْهُمَا ... سُـبْحَانَكَ اللَّهُـمَّ ذَا السُّـبْحَان

٤٥٨١- حَتَّى إِذَا انْكَشَفَ الغِطَاءُ وَحُصِّـلَتْ ... أَعْمَالُ هَـذَا الـخَلْقِ فِي الـمِيزَانِ

٤٥٨٢- وَإِذَا انْجَلَى هَذَا الغُبَارُ وَصَـارَ مَيْـ ... ـدَانُ السِّـبَاقِ تَنَالُـهُ العَيْنَـانِ

٤٥٨٣- وَبَدَتْ عَلَى تِلْـكَ الوُجُـوهِ سِمَاتُهَا ... وَسْـمَ الـمَلِيكِ القَـادِرِ الـدَّيَّانِ

٤٥٨٤- مُبْيَضَّـةٌ مِثْـلَ الرِّيَـاضِ بِجَنَّـةٍ ... وَالسُّـودُ مِثْـلَ الفَحْـمِ لِلنِّـيرَانِ

٤٥٨٥- فَهُنَـاكَ يَعْلَـمُ رَاكِـبٌ مَـا تَحْتَـهُ ... وَهُنَـاكَ يُقْـرَعُ نَاجِـذُ النَّـدْمَانِ

٤٥٨٦- وَهُنَاكَ تَعْلَمُ كُلُّ نَفْـسٍ مَـا الَّـذِي ... مَعَهَـا مِـنَ الأَرْبَـاحِ وَالـخُسْرَانِ

٤٥٨٧- وَهُنَاكَ يَعْلَـمُ مُـؤْثِرُ الآرَاءِ وَالشْـ ... ـشَطَحَاتِ وَالـهَذَيَانِ وَالـبُطْلَانِ

٤٥٨٨- أَيُّ البَضَائِعِ قَدْ أَضَاعَ وَمَـا الَّـذِي ... مِنْهَـا تَعَـوَّضَ فِي الزَّمَـانِ الفَـانِي

الشـرحُ

٤٥٧٩- وَزَعَمْـتُمُ أَنْ لَـيْسَ يَحْكُـمُ بَيْنَنَـا ... إِلَّا العُقُــولُ وَمَنْطِــقُ اليُونَــانِ

يخاطبُ أهلَ التَّعطيلِ؛ لأنَّ أهلَ التَّعطيلِ يُحَكِّمُونَ العقلَ في بابِ الصِّفاتِ، ويقولون: ما خَالَفَ العقلَ فإنَّه يجبُ تأويلُه، فيرجعون إلى العقلِ مع أنَّ الصِّفاتِ تُتَلَقَّى من السَّمعِ من الكتابِ والسُّنَّةِ، لا من العقولِ.

٤٥٨٠- فَهُـمَا بِحُكْـمِ الـحَقِّ أَوْلَى مِـنْهُمَا ... سُـبْحَانَكَ اللَّهُـمَّ ذَا السُّـبْحَان

قَوْلُهُ: «فَهُمَا»؛ أي: الكتابُ والسُّنَّة أو الوحيان.

قَوْلُهُ: «بِحُكْمِ الحَقِّ» وهو اللهُ عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «أَوْلَى مِنْهُمَا»؛ أي: من العقولِ ومنطق اليونانِ.

قَوْلُهُ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ذَا السُّبْحَانِ»؛ أي: تنزيهًا لك يا ذا السُّبْحَان، يا ذا التَّنزيه.

المعنى: أنَّ هؤلاء المعطِّلةَ يقولون: لا يحكمُ بين النَّاسِ في بابِ الصِّفاتِ إلَّا العقولُ ومنطقُ اليونانِ، ولكنَّ ابنَ القيِّمِ يقولُ: الحقُّ أنَّ الأَوْلَى بالحُكْمِ النَّصَّان: «الكتابُ والسَّنَّةُ»، والذي جعلهما أَوْلَى بالحقِّ هو اللهُ عزَّ وجلَّ.

٤٥٨١- حَتَّى إِذَا انْكَشَفَ الغِطَاءُ وَحُصِّلَتْ أَعْمَالُ هَذَا الخَلْقِ فِي المِيزَانِ

وذلك يكونُ يومَ القيامةِ.

٤٥٨٢- وَإِذَا انْجَلَى هَذَا الغُبَارُ وَصَارَ مَيْـ ـدَانُ السِّبَاقِ تَنَالُهُ العَيْنَانِ

قَوْلُهُ: «مَيْدَانُ السِّبَاقِ»؛ أي: منتهى السِّباق.

يعني مثلًا: لو أردنا أن نتسابقَ إلى أمدٍ إلى غايةٍ، إذا كان هناك غبارٌ فإنَّنا لا نُشَاهِدُ الغايةَ؛ لأنَّها بعيدةٌ ومحجوبةٌ بالغبارِ، فإذا انجلى الغبارُ صرنا نرى هذه الغايةَ؛ ولهذا يقولُ:

٤٥٨٣- وَبَدَتْ عَلَى تِلْكَ الوُجُوهِ سِمَاتُهَا وَسْمَ المَلِيكِ القَادِرِ الدَّيَّانِ

قَوْلُهُ: «عَلَى تِلْكَ الوُجُوهِ»؛ أي: على وجوهِ الخلقِ.

قَوْلُهُ: «سِمَاتُهَا»؛ أي: علاماتُها.

قَوْلُهُ: «وَسْمَ المَلِيكِ»؛ أي: تعليم المليكِ، فالذي يضعُ العَلَامةَ هو اللهُ عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «الدَّيَّانِ» الذي يجزي عبادَه بما يعملون، فكما تدينُ تُدَانُ.

٤٥٨٤- مُبْيَضَّةٌ مِثْلَ الرِّيَاضِ بِجَنَّةٍ وَالسُّودُ مِثْلَ الفَحْمِ لِلنِّيرَانِ

الوجوهُ يومَ القيامةِ تكونُ هكذا؛ قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦]، وجوهُ المؤمنين -اللَّهُمَّ اجعلنا جميعًا منهم- تكونُ بيضاءَ، ووجوهُ الكافرين تكونُ سوداءَ -والعياذُ بالله- مِثْلَ الفحمِ للنِّيرانِ.

٤٥٨٥- فَهُنَاكَ يَعْلَمُ رَاكِبٌ مَا تَحْتَهُ وَهُنَاكَ يُقْرَعُ نَاجِذُ النَّدْمَانِ

هناك يَعْلَمُ الرَّاكبُ ما الذي تحته؟ هل هو مركوبٌ أو هل هو راحلةٌ تؤدِّي إلى الغرضِ أو ليس كذلك؟

٤٥٨٦- وَهُنَاكَ تَعْلَمُ كُلُّ نَفْسٍ مَا الَّذِي مَعَهَا مِنَ الأَرْبَاحِ وَالخُسْرَانِ

قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران:٣٠].

٤٥٨٧- وَهُنَاكَ يَعْلَمُ مُؤْثِرُ الآرَاءِ وَالشْـ ـشَطَحَاتِ وَالهَذَيَانِ وَالبُطْلانِ

٤٥٨٨- أَيُّ البَضَائِعِ قَدْ أَضَاعَ وَمَا الَّذِي مِنْهَا تَعَوَّضَ فِي الزَّمَانِ الفَانِي

وهذا صحيحٌ، يعلمُ مَنْ يُؤثِرُ الآراءَ والشَّطحاتِ والهذيان والبطلان على كتابِ الله وسُنَّةِ رسولِه يعلمُ: أيُّ البضائعِ قد أَضَاعَ؟ أَضَاعَ من البضائعِ ما فيه الرِّبحُ واختار ما فيه الخَسَارةَ؛ ولهذا قال: «وَمَا الَّذِي مِنْهَا تَعَوَّضَ» ولم يتعوَّض إلَّا ما فيه الخسارة والنَّدم في الزَّمان الفَانِي؛ يعني: زمان الدُّنيا، فإنَّه أَضَاعَ ما فيه الرِّبحُ إلى ما فيه الخسرانُ.

٤٥٨٩- سُبْحَانَ رَبِّ الخَلْقِ قَاسِمِ فَضْلِهِ ... وَالعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ فِي المِيزَانِ

٤٥٩٠- لَوْ شَاءَ كَانَ النَّاسُ شَيْئًا وَاحِدًا ... مَا فِيهِمُ مِنْ تَائِهٍ حَيْرَانِ

٤٥٩١- لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَخْتَصُّ بِالْـ ... ـفَضْلِ العَظِيمِ خُلاصَةَ الإِنْسَانِ

٤٥٩٢- وَسِوَاهُمُ لا يُصْلِحُونَ لِصَالِحٍ ... كَالشَّوْكِ فَهْوَ عِمَارَةُ النِّيرَانِ

٤٥٩٣- وَعِمَارَةُ الجَنَّاتِ هُمْ أَهْلُ الهُدَى ... اللهُ أَكْبَرُ لَيْسَ يَسْتَوِيَانِ

٤٥٩٤- فَسَلِ الهِدَايَةَ مِنْ أَزِمَّةِ أَمْرِنَا ... بِيَدَيْهِ مَسْأَلَةُ الذَّلِيلِ العَانِي

٤٥٩٥- وَسَلِ العِيَاذَ مِنِ اثْنَتَيْنِ هُمَا اللَّتَا ... نِ بِهُلْكِ هَذَا الخَلْقِ كَافِلَتَانِ

٤٥٩٦- شَرُّ النُّفُوسِ وَسَيِّئُ الأَعْمَالِ مَا ... وَاللهِ أَعْظَمُ مِنْهُمَا شَرَّانِ

٤٥٩٧- وَلَقَدْ أَتَى هَذَا التَّعَوُّذُ مِنْهُمَا ... فِي خُطْبَةِ المَبْعُوثِ بِالقُرْآنِ

٤٥٩٨- لَوْ كَانَ يَدْرِي العَبْدُ أَنَّ مُصَابَهُ ... فِي هَذِهِ الدُّنْيَا هُوَ الشَّرَّانِ

٤٥٩٩- جَعَلَ التَّعَوُّذَ مِنْهُمَا دَيْدَانَهُ ... حَتَّى تَرَاهُ دَاخِلَ الأَكْفَانِ

٤٦٠٠- وَسَلِ العِيَاذَ مِنَ التَّكَبُّرِ وَالهَوَى ... فَهُمَا لِكُلِّ الشَّرِّ جَامِعَتَانِ

٤٦٠١- وَهُمَا يَصُدَّانِ الفَتَى عَنْ كُلِّ طُرْ ... قِ الخَيْرِ إِذْ فِي قَلْبِهِ يَلِجَانِ

٤٦٠٢- فَتَرَاهُ يَمْنَعُهُ هَوَاهُ تَارَةً ... وَالكِبْرُ أُخْرَى ثُمَّ يَشْتَرِكَانِ

٤٦٠٣- وَاللهِ مَا فِي النَّارِ إِلا تَابِعٌ ... هَذَيْنِ فَاسْأَلْ سَاكِنِي النِّيرَانِ

٤٦٠٤- وَاللهِ لَوْ جَرَّدْتَ نَفْسَكَ مِنْهُمَا ... لأَتَتْ إِلَيْكَ وُفُودُ كُلِّ تَهَانِ

الشرحُ

٤٥٨٩- سُبْحَانَ رَبِّ الـخَلْقِ قَاسِمِ فَضْـلِهِ   وَالعَدْلِ بَـيْنَ النَّـاسِ فِي الـمِيزَانِ

يعني: يُسَبِّحُ اللهَ عزَّ وجلَّ الذي يقسمُ الفضلَ بين النَّاسِ، ويعدلُ بينهم في الميزانِ، فهذا فضلُه، وهذا عدلُه، مَنْ هداه فبفضلِه، ومَنْ أضلَّه فبعدلِه، قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصَّف:٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزُّخرف:٧٦]، ولكن مَنْ تَفَضَّلَ عليه فهداه فهذا فضلُه يؤتيه مَنْ يشاءُ، نسألُ اللهَ أن يؤتيَنا وإيَّاكم من فضلِه.

٤٥٩٠- لَوْ شَاءَ كَانَ النَّـاسُ شَـيْئًا وَاحِـدًا   مَـا فِـيهِمُ مِـنْ تَائِـهٍ حَـيْرَانِ

وذلك كما قال تعالى: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:١٤٩]، وكما قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأٓتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السَّجدة:١٣]، ولكنَّه عزَّ وجلَّ حكيمٌ، له الحكمةُ في أنَّه يهدي مَنْ يشاءُ، ويُضِلُّ مَنْ يشاءُ.

٤٥٩١- لَكِنَّـهُ سُـبْحَانَهُ يَخْـتَصُّ بِالْـ   ـفَضْلِ العَظِيمِ خُلاصَـةَ الإِنْسَـانِ

يختصُّ الخلاصةَ من الإنسانِ، فإذا كان اللهُ تعالى يقولُ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، فهو كذلك أعلمُ حيث يجعلُ أثرَ هذه الرِّسالةِ، هل هذا أهلٌ لأن يكونَ من أتباعِ الرُّسلِ أو ليس أهلًا؟ اللهُ أعلمُ، فمَن آتاه اللهُ عزَّ وجلَّ من آثارِ هذه الرِّسالةِ من العلمِ والإيمانِ والهدى فليبشر بالخيرِ، فإنَّ اللهَ لم يضعْه فيه إلَّا وهو يعلمُ أنَّه أهلٌ، ومَنْ حُرِمَ فلا ييئس، وليلجأْ إلى الله عزَّ وجلَّ، وليسألْه الخيرَ والثَّباتَ.

٤٥٩٢- وَسِــوَاهُمُ لا يُصْــلِحُونَ لِصَــالِحٍ كَالشَّــوْكِ فَهْــوَ عِــمَارَةُ النِّــيرَانِ

الشَّوْكُ لا يُنْتَفَعُ به، ولكن تُوقَدُ به النَّارُ، هؤلاء الذين ليسوا خلاصةَ الإنسانِ هم كالشَّوْكِ.

٤٥٩٣- وَعِمَارَةُ الـجَنَّاتِ هُمْ أَهْلُ الـهُدَى اللهُ أَكْـــبَرُ لَـــيْسَ يَسْـــتَوِيَانِ

ساكنو الجنَّاتِ وعامرُوها هم أهلُ الهدى، أمَّا الشَّوْك فهو للنِّيرانِ.

٤٥٩٤- فَسَـلِ الــهِدَايَةَ مِـنْ أَزِمَّـةِ أَمْرِنَـا بِيَدَيْــهِ مَسْــأَلَةُ الــذَّلِيلِ العَــانِي

هذا توجيهٌ من المؤلِّف -رحمه الله- ونصيحةٌ أن تسألَ الهدايةَ من الله «مَنْ أَزِمَّةُ أَمْرِنَا بِيَدَيْهِ»، وأَزِمَّة جمعُ «زمام»؛ فأمورُنا زمامُها بيدِ الله، قال تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود:٥٦]، فإذَنْ إلى مَنْ نلجأُ؟ الجوابُ: إلى الله عزَّ وجلَّ، فاسأل مَنْ أَزِمَّةُ الأمورِ بيديه، اسأله الهدايةَ مسألةَ الذَّليلِ العاني، لا مسألةَ المتكبِّرِ المُدِلِّ على ربِّه بعملِه، بل مسألةَ الذَّليلِ العاني؛ يعني: الأسيرَ.

٤٥٩٥- وَسَلِ العِيَاذَ مِـنِ اثْنَتَـيْنِ هُـمَا اللَّتَـا نِ بِهُلْــكِ هَــذَا الــخَلْقِ كَافِلَتَــانِ

يعني: اسأل اللهَ عزَّ وجلَّ اسأله العياذَ؛ يعني: أن يُعِيذَكَ من اثنتين «هُمَا بِهُلْكِ هَذَا الخَلْقِ كَافِلَتَانِ»، فَأَرْشَدَنَا -رحمه الله- إلى سؤالِ الهدايةِ من الله والتَّعوُّذِ به من هاتين الخصلتين وهما:

٤٥٩٦- شَرُّ النُّفُـوسِ وَسَـيِّئُ الأَعْـمَالِ مَـا وَاللهِ أَعْظَـــــمُ مِــــنْهُمَا شَرَّانِ

يعني: استَعِذْ بالله من شَرِّ النُّفوس وسيِّءِ الأعمالِ؛ لأنَّهما هما الكفيلتان بهلاكِ النَّاسِ.

٤٥٩٧- وَلَقَدْ أَتَى هَذَا التَّعَوُّذُ مِنْهُمَا فِي خُطْبَةِ الْمَبْعُوثِ بِالْقُرْآنِ

وذلك في قولِه ﷺ في خطبةِ الحاجةِ: «نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا»[1]؛ لأنَّ النَّفسَ الأمَّارةَ بالسُّوءِ تقودُك إلى كُلِّ هلاكٍ، والأعمالَ السَّيِّئَةَ تمنعُك من كُلِّ خيرٍ، فإذا كانت الأعمالُ السَّيِّئةُ تمنعُك من الخيرِ والنَّفسُ تقودُك إلى الشَّرِّ هلك الإنسانُ.

٤٥٩٨- لَوْ كَانَ يَدْرِي العَبْدُ أَنَّ مُصَابَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا هُوَ الشَّرَّانِ

قَوْلُهُ: «هُوَ الشَّرَّانِ»، وفي نسخةٍ أخرى: «هُمَا الشَّرَّانِ»، والوجهان جائزان من النَّاحية النَّحويَّة، لكن ما هما؟ الجوابُ: شرُّ نفسِه وسيِّئاتُ أعمالِه.

يقولُ: لو كان يعلمُ ذلك لـ«جَعَلَ التَّعَوُّذَ مِنْهُمَا دَيْدَانَهُ»؛ ولذا قال:

٤٥٩٩- جَعَلَ التَّعَوُّذَ مِنْهُمَا دَيْدَانَهُ حَتَّى تَرَاهُ دَاخِلَ الأَكْفَانِ

قَوْلُهُ: «جَعَلَ التَّعَوُّذَ...» هذا جوابُ «لَوْ».

قَوْلُهُ: «دَيْدَانَهُ»؛ يعني: الشَّيءَ الملازمَ له.

قَوْلُهُ: «حَتَّى تَرَاهُ دَاخِلَ الأَكْفَانِ»؛ أي: حتَّى يموتَ.

٤٦٠٠- وَسَلِ العِيَاذَ مِنَ التَّكَبُّرِ وَالهَوَى فَهُمَا لِكُلِّ الشَّرِّ جَامِعَتَانِ

نعوذُ باللهِ من التَّكبُّرِ والهوى، سل العياذَ من التَّكبُّرِ، والكِبْرُ كما حدَّه النَّبيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- هو: «بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ»[2]؛ أي: ردُّ الحقِّ واحتقارُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٨).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١).

النَّاسِ، فإذا ابْتُلِيَ الإنسانُ بهذا مع الهوى فابنُ القيِّمِ يقولُ: «**هُمَا لِكُلِّ الشَّرِّ جَامِعَتَانِ**»، قل: «**اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك من الكِبر والهوى**».

٤٦٠١- وَهُمَا يَصُدَّانِ الفَتَى عَنْ كُلِّ طُرْ ... قِ الخَيْرِ إِذْ في قَلْبِهِ يَلِجَانِ

يعني: إذا وَلَجَ الكِبْرُ والـهوى في قلبِ الإنسانِ صدَّاه عن كُلِّ طرقِ الخيرِ، نسألُ اللهَ العياذَ من التَّكبُّرِ والـهوى.

٤٦٠٢- فَتَرَاهُ يَمْنَعُهُ هَوَاهُ تَارَةً ... وَالكِبْرُ أُخْرَى ثُمَّ يَشْتَرِكَانِ

يعني: أحيانًا يمنعُه الـهوى، وأحيانًا يمنعُه الكِبْرُ، وأحيانًا يمنعُه الـهوى والكِبْرُ جميعًا.

٤٦٠٣- وَالله مَا في النَّارِ إلا تَابِعٌ ... هَذَيْنِ فَاسْأَلْ سَاكِنِي النِّيرَانِ

قَوْلُهُ: «**وَالله مَا فِي النَّارِ إِلَّا تَابِعٌ هَذِيْنِ**» وهما: الكِبْرُ والهوى، «**فَاسْأَلْ سَاكِنِي النِّيرَانِ**»، نسألُ اللهَ أن يعيذَنا وإيَّاكم من التَّكبُّرِ والهوى.

٤٦٠٤- وَالله لَوْ جَرَّدْتَ نَفْسَكَ مِنْهُمَا ... لأَتَتْ إِلَيْكَ وُفُودُ كُلِّ تَهَانِ

وصَدَقَ رحمه اللهُ، وهو كما رأيتم يُكْثِرُ القَسَمَ في هذا الفصلِ؛ لأنَّ المقامَ يقتضيه؛ إذ إنَّ هؤلاء المعاندين متمرِّدون وسائرون في عنادِهم، فرُبَّما يغترُّ بهم مَنْ يغترُّ من النَّاسِ، فكان يُقْسِمُ -رحمه الله- لإثباتِ أنَّ هؤلاء على ضلالٍ، وأنَّ مآلَهم -والعياذُ بالله- نارُ جهنَّمَ، فكان قَسَمُه وإن لم يُسْأَلْ إيَّاه في محلِّه؛ لأنَّ الشَّيءَ العظيمَ ينبغي أن يُقْسَمَ عليه وإن لم يُسْتَقْسَم الإنسانُ.

* * *

فصــل

في ظُهُورِ الفَرْقِ المُبِينِ بَيْنَ دَعْوَةِ الرُّسُلِ وَدَعْوَةِ المُعَطِّلِينَ

٤٦٠٥- وَالفَـرْقُ بَـيْنَ الـدَّعْوَتَيْنِ فَظَـاهِرٌ ... جِـدًّا لِـمَنْ كَانَـتْ لَـهُ أُذْنَـانِ

٤٦٠٦- فَـرْقٌ مُبِـينٌ ظَـاهِرٌ لا يَخْتَفِـي ... إِيضَـاحُهُ إِلَّا عَـلَى العُمْيَـانِ

٤٦٠٧- فَالرُّسْـلُ جَاؤُونَـا بِإِثْبَـاتِ العُلُـوِّ ... وَلِرَبِّنَـا مِـنْ فَـوْقِ كُـلِّ مَكَـانِ

٤٦٠٨- وَكَذَا أَتَوْنَـا بِالصِّـفَاتِ لِرَبِّنَـا الـرْ ... رَحْمَـنِ تَفْصِـيلًا بِكُـلِّ بَيَـانِ

٤٦٠٩- وَكَـذَاكَ قَـالُوا إِنَّـهُ مُـتكَلِّمٌ ... وَكَلامُـهُ المَسْـمُوعُ بِـالآذَانِ

٤٦١٠- وَكَـذَاكَ قَـالُوا إِنَّـهُ سُـبْحَانَهُ الْـ ... ـمَرْئِيُّ يَـوْمَ لِقَائِـهِ بِعِيَـانِ

٤٦١١- وَكَـذَاكَ قَـالُوا إِنَّـهُ الفَعَّـالُ حَقْـ ... ـقًا كُـلَّ يَـوْمٍ رَبُّنَـا فِي شَـانِ

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «الفَرْقِ المُبِينِ»؛ يعني: البَيِّن، أو المُبِين؛ يعني: المُظْهِر؛ وذلك لأنَّ «أَبَانَ» تجوزُ أن تكونَ لازمةً وتجوزُ أن تكونَ متعدِّيةً، يُقَالُ: «أَبَانَ الحقَّ»؛ يعني: أظهره، وهي في هذه الحالِ متعدِّيةٌ، ويُقَالُ: «أَبَانَ الصُّبحُ»؛ أي: ظَهَرَ، وهي في هذه الحالِ لازمةٌ، فالفرقُ بَيِّنٌ مُبِينٌ بين دعوةِ الرُّسلِ ودعوةِ المعطِّلين؛ ولهذا قال:

٤٦٠٥- وَالفَـرْقُ بَـيْنَ الـدَّعْوَتَيْنِ فَظَـاهِرٌ ... جِـدًّا لِـمَنْ كَانَـتْ لَـهُ أُذْنَـانِ

قَوْلُهُ: «جِدًّا»: مصدرٌ عاملُه محذوفٌ؛ أي: أُجِدُّ الأمرَ جِدًّا، والجِدُّ ضدُّ الهزلِ.

قَوْلُهُ: «لِـمَنْ كَانَتْ لَهُ أُذُنَانِ» قال: «لِـمَنَ كَانَتْ لَهُ أُذْنَانِ»؛ لأنَّه -رحمه الله- سَيُلْقِي الفرقَ، وكان المتوقَّع أن يقولَ: «لِـمَنَ كَانَتْ لَهُ عَيْنَانِ»، لكن لـمَّا كان سَيُلْقِي الفرقَ طلب منَّا أن نستمعَ فقال: «لِـمَنَ كَانَتْ لَهُ أُذُنَانِ».

٤٦٠٦- فَـرْقٌ مُبِـينٌ ظَـاهِرٌ لا يَخْتَفِـي إِيضَـاحُهُ إِلَّا عَـلَى العُمْيَـانِ

ثُمَّ بَيَّنَ وجهَ الفرقِ فقال:

٤٦٠٧- فَالرُّسْـلُ جَاؤُونَـا بِإِثْبَـاتِ العُلُـوِّ وَلِرَبِّنَـا مِـنْ فَـوْقِ كُـلِّ مَكَـانِ

قال اللهُ تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النَّحل:٥٠]، الرُّسلُ كُلُّهم مجمعون على أنَّ اللهَ تعالى فوق كُلِّ شيءٍ، والمعطِّلون يقولون: لا، وانقسَمُوا في ذلك في ضدِّ ما جاءت به الرُّسلُ انقسموا إلى قسمين:

قسم قال: إنَّه بذاتِه في كُلِّ مكانٍ؛ في المساجدِ، في البيوتِ، في الحشوشِ، في كُلِّ مكانٍ والعياذُ بالله.

قسم قال: إنَّه ليس له مكانٌ، لا فوقَ العالمِ ولا تحتَه، ولا يمينَه ولا شمالَه، ولا أمامَه ولا خلفَه، ولا داخلَ العالمِ ولا خارجَه، ولا متَّصلٌ ولا منفصلٌ، ولا مباينٌ ولا محايثٌ، وأَتَوْا من هذا بالعجبِ العُجَاب.

أمَّا الرُّسل فقالوا: إنَّه فوق كُلِّ شيء؛ ولهذا قال: «مِنْ فَوْقِ كُلِّ مَكَانِ».

٤٦٠٨- وَكَذَا أَتَوْنَـا بِالصِّـفَاتِ لِرَبِّنَـا الـرْ رَحْمَـنِ تَفْصِـيلًا بِكُـلِّ بَيَـانِ

نعم أَتَوْا بالصِّفاتِ مُفَصَّلةً، وأحيانًا مُجْمَلَةً، ففي قولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النَّحل:٦٠] هذا مُجْمَلٌ، وفي قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ

﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ...﴾ [الحشر:٢٢]، مُفَصَّلٌ.

٤٦٠٩- وَكَـذَاكَ قَـالُوا إِنَّـهُ مُـتَكَلِّمٌ وَكَلامُـهُ المَسْـمُوعُ بِـالآذَانِ

كُلُّهم يقولُ: إنَّه متكلِّمٌ، وكلَّموا ربَّهم عزَّ وجلَّ، منهم مَنْ كَلَّمَ اللهَ، كلَّمه موسى، كلَّمه آدمُ، كلَّمه محمَّدٌ، عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ.

٤٦١٠- وَكَـذَاكَ قَـالُوا إِنَّـهُ سُبْحَانَهُ الْـ ـمَرْئِيُّ يَـوْمَ لِقَائِـهِ بِعِيَـانِ

يعني: أنَّه يُرَى بالعينِ، يوم نلقاه عزَّ وجلَّ، نسألُ اللهَ أن نلقاه وهو راضٍ عنَّا، فهو يُرَى بِعِيَانٍ، يراه النَّاسُ بأعينِهم، وقد بَيَّنَ أفصحُ الخلقِ وأنصحُ الخلقِ وأهدى الخلقِ بَيَّنَ أنَّه يُرَى كما يُرَى القمرُ، ويُرَى كما تُرَى الشَّمسُ صحوًا ليس دونها سحابٌ، والتَّشبيهُ للرُّؤية بالرُّؤية لا للمرئيِّ بالمرئيِّ، وهل أَبْيَنُ من قولِ الرَّسولِ ﷺ حينما نظر إلى القمرِ ليلةً؛ يعني: البدرَ فقال: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هذا القَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»[1].

٤٦١١- وَكَـذَاكَ قَـالُوا إِنَّـهُ الفَعَّـالُ حَقْـ ـقًا كُـلَّ يَـوْمٍ رَبُّنَـا فِي شَـانِ

اللهُ أكبرُ، قال اللهُ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرَّحمن:٢٩]، فهو يُغني ويُفْقِرُ، ويُحْيي ويُميتُ، ويُنشِئ ويُعْدِمُ، كُلَّ يومٍ هو في شأنٍ، وما أكثرَ الأيَّام، مَنْ يُحصيها؟ الجوابُ: اللهُ عزَّ وجلَّ، وما أكثرَ الحوادث في الأيَّام، كُلُّ هذه الحوادثِ بأمرِ ربِّنا عزَّ وجلَّ، يُحْدِثُها كما يشاءُ حيث تقتضيها حكمتُه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٢٩)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٣).

٤٦١٢- وَأَتَيْتُمُونَا أَنْتُمُ بِالنَّفْيِ وَالتْـ ـتَعْطِيلِ بَلْ بِشَهَادَةِ الكُفْرَانِ
٤٦١٣- لِلْمُثْبِتِينَ صِفَاتِهِ وَعُلُوَّهُ وَنِدَاءَهُ فِي عُرْفِ كُلِّ لِسَانِ
٤٦١٤- شَهِدُوا بِإِيمَانِ المُقِرِّ بِأَنَّهُ فَوْقَ السَّمَاءِ مُبَايِنَ الأَكْوَانِ
٤٦١٥- وَشَهِدْتُمُ أَنْتُمْ بِتَكْفِيرِ الَّذِي قَدْ قَالَ ذَلِكَ يَا أُولِي العُدْوَانِ
٤٦١٦- وَأَتَى بِـ«أَيْنَ اللهُ» إِقْرَارًا وَنُطْـ ـقًا قُلْتُمُ هَذَا مِنَ البُهْتَانِ
٤٦١٧- فَسُؤَالُنَا بِـ«الأَيْنَ» مِثْلُ سُؤَالِنَا مَا الْكَوْنُ عِنْدَكُمُ هُمَا شَيْئَانِ
٤٦١٨- وَكَذَا أَتَوْنَا بِالبَيَانِ فَقُلْتُمُ بِاللُّغْزِ أَيْنَ اللُّغْزُ مِنْ تِبْيَانِ
٤٦١٩- إِذْ كَانَ مَدْلُولُ الكَلامِ وَوَضْعُهُ لَمْ يَقْصِدُوهُ بِنُطْقِهِمْ بِلِسَانِ
٤٦٢٠- وَالقَصْدُ مِنْهُ غَيْرُ مَفْهُومٍ بِهِ مَا اللُّغْزُ عِنْدَ النَّاسِ إِلا ذَانِ
٤٦٢١- يَا قَوْمُ رُسْلُ اللهِ أَعْرَفُ مِنْكُمُ وَأَتَمُّ نُصْحًا فِي كَمَالِ بَيَانِ

الشرحُ

٤٦١٢- وَأَتَيْتُمُونَا أَنْتُمُ بِالنَّفْيِ وَالتْـ ـتَعْطِيلِ بَلْ بِشَهَادَةِ الكُفْرَانِ
٤٦١٣- لِلْمُثْبِتِينَ صِفَاتِهِ وَعُلُوَّهُ وَنِدَاءَهُ فِي عُرْفِ كُلِّ لِسَانِ

قَوْلُهُ: «بَلْ بِشَهَادَةِ الكُفْرَانِ لِلْمُثْبِتِينَ صِفَاتِهِ» «لِلْمُثْبِتِينَ» متعلِّقةٌ بقولِهِ: «شَهَادَةِ».

أتت الرُّسلُ بإثباتِ الصِّفاتِ والعلوِّ والكلامِ للرَّبِّ عزَّ وجلَّ، وأمَّا أنتم فأتيتمونا بالنَّفيِ؛ ولذا قال: «**وَأَتَيْتُمُونَا أَنْتُمُ بِالنَّفْيِ**» فقلتم: لا يتكلَّمُ، وليس

فوقَ العرشِ، وليس له صفةٌ، ففرقٌ بين هذا وهذا، فهم -والعياذُ بالله- جَنَوْا في حقِّ الله، وحقِّ كلامِه، وحقِّ رسولِه، وحقِّ أتباعِه، ليتهم عطَّلوا وسكتوا.

فهم لم يقتصروا على النَّفيِ والتَّعطيلِ، بل اعْتَدَوْا على المثبتين بأنَّهم كُفَّارٌ، فصار منهم عدوانٌ عظيمٌ ويلزمُ من قولِهم أنَّ الرُّسلَ كُفَّارٌ؛ لأنَّهم مُثبِتون، وهم يقولون: مَنْ أَثْبَتَ فقد جَسَّمَ، ومَنْ جَسَّمَ فقد كَفَرَ، هذا اللَّازمُ قد يُنكِرونه مكابرةً، ويقولون: نحن لا نكفِّرُ الرُّسلَ، معاذ الله، نقولُ: إذا كنتم تقولون: «مَنْ قال: **إنَّ لله وجهًا فهو كافرٌ**» فما معنى هذا؟! هل هذا إلَّا تكفيرُ الرُّسلِ؟!

٤٦١٤- شَـــهِدُوا بِــإِيمَانِ الـــمُقِرِّ بِأَنَّـــهُ ... فَـــوْقَ السَّـــمَاءِ مُبَـــايِنَ الأَكْـــوَانِ

يعني: أنَّ الرُّسلَ شهدوا بإيمانِ المُقرِّ بأنَّه فوقَ السَّماءِ مباينَ الأكوانِ.

٤٦١٥- وَشَـــهِدْتُمُ أَنْـــتُمْ بِتَكْفِـــيرِ الَّـــذِي ... قَـــدْ قَـــالَ ذَلِـــكَ يَـــا أُولِي العُـــدْوَانِ

وهذا فرقٌ، فالرُّسلُ يشهدون بأنَّ مَنْ أَقَرَّ بعلوِّ الله فهو مؤمنٌ، وأنتم تشهدون بأنَّ مَنْ أَقَرَّ بعلوِّ الله فهو كافرٌ، إذَنْ ناقضتم الرُّسلَ تمامًا.

٤٦١٦- وَأَتَـــى بِـــ«أَيْـــنَ اللهُ» إِقْـــرَارًا وَنُطْـــ ... ـــقًا قُلْـــتُمُ هَـــذَا مِـــنَ البُهْتَـــانِ

من الذي قال: «**أين اللهُ**»؟ الجوابُ: الرَّسولُ ﷺ قال للجارية التي أعتقَها معاويةُ بن الحكمِ قال لها: «**أَيْنَ اللهُ؟**» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ قَالَ: «**مَنْ أَنَا؟**» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «**أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**»(١)، فشهد لها بالإيمان حين أَقَرَّت بأنَّ ربَّها هو الذي في السَّماءِ، ويُذْكَرُ أنَّه قال لحصين أبي عمران بن حُصَيْن: «**كَمْ إِلَـهًا تَعْبُدُ؟**» قَالَ: سَبْعَةً: سِتَّةً فِي الأَرْضِ وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «**مَنْ تُعِدُّ لِرَغْبَتِكَ**

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).

وَرَهْبَتِكَ؟» قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ[1]، فأقرَّه النَّبِيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

٤٦١٧- فَسُؤَالُنَا بِـ«الأَيْنَ» مِثْلُ سُؤَالِنَا ... مَا الْكَوْنُ عِنْدَكُمُ هُمَا شَيْئَانِ

يعني: أنَّ السُّؤالَ بـ«الأين» إنَّما يكونُ عن الكونِ؛ يعني: أين هو كائنٌ؟ أين هو موجودٌ؟ فهو سؤالٌ عن المكانِ، فإذا قيل: أين فلانٌ؟ فما الجوابُ؟ الجوابُ: في بيتِهِ، في المسجدِ، في السُّوقِ، لكن لو قيل: «أين فلانٌ؟» قال: غدًا، فهذا لا يصحُّ، وكذلك لو أَجَبْتَ السَّائلَ الذي سألك «أين فلانٌ؟» فقلت: فلانٌ لحمٌ وعصبٌ وعظامٌ، لقال عنك إنَّك مجنونٌ، أسألُك أين هو؟ تُجيبني عن حقيقتِه وماهيَّتِهِ، فـ«الأين» إنَّما يُسْأَلُ بها عن المكانِ بلا شكٍّ، والنَّبِيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أفصحُ الخلقِ وأعلمُهم بمدلولاتِ اللُّغةِ العربيَّةِ لـمَّا قال: أين؟ لم يسأل: ما الله؟ ولم يسأل: ما سُلطانُه أين هو؟ بل يسألُ عن الله نفسِه أين هو؟ والجاريةُ أَجَابَت: «في السَّماءِ»، وهذا واضحٌ جدًّا.

٤٦١٨- وَكَذَا أَتَوْنَا بِالبَيَانِ فَقُلْتُمُ ... بِاللُّغْزِ أَيْنَ اللُّغْزُ مِنْ تِبْيَانِ

قَوْلُهُ: «اللُّغْزُ»؛ أي: التَّعميةُ والإخفاءُ.

والرُّسل أَتَوا بالتِّبيانِ البيِّنِ الواضحِ، أمَّا اللُّغز فلم يأتوا به؛ ولهذا فلو قال لكم قائلٌ: رجلٌ صلَّى صلاةَ فريضةٍ وَوَجَبَ عليه أن يتشهَّدَ فيها ستَّ مرَّاتٍ ما هذه الصَّلاةُ؟ صلاةٌ واحدةٌ فيها ستَّةُ تشهُّداتٍ! هذا لغزٌ؛ لأنَّه يُعَمِّي علينا.

والجوابُ على هذا اللُّغزِ أنَّ هذا المصلِّي دَخَلَ مع الإمام في الرَّكعة الثَّانيةِ من المغربِ، فجلس للتَّشهُّد الأوَّل للإمامِ ولا يُحْسَبُ له هو، وتَشَهَّدَ مع الإمامِ

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، بعد باب جامع الدعوات عن النبي ﷺ، رقم (٣٤٨٣)، وقال: هذا حديث غريب وقد روي هذا الحديث عن عمران بن حصين من غير هذا الوجه.

التَّشهُّدَ الثَّاني، وكان الإمامُ ساهيًا سهوًا يكونُ سجودُه بعد السَّلامِ، والمشهورُ من المذهبِ أنَّ المأمومَ يتابعُ الإمامَ في السُّجودِ بعد السَّلام وأنَّ السُّجودَ بعد السَّلامِ يجبُ فيه التَّشهُّدُ، فهذا تَابَعَ الإمامَ وتشهَّد، فهذه ثلاثةٌ، ثُمَّ قَامَ إلى الرَّكعةِ الثَّانيةِ فجلس للتَّشهُّدِ الأوَّل في حقِّه، ولكنَّه سَلَّمَ قبل تمامِ الصَّلاةِ، ثُمَّ ذكر فقام فأتى بالرَّكعةِ الثَّالثةِ وتشهَّد، وكان محلُّ السُّجودِ عنده بعد السَّلامِ؛ لأنَّه سَلَّمَ قبل إتمامِها، فسجد بعد السَّلام وتشهَّد، فهذه ستَّةُ تشهُّداتٍ.

المهمُّ أنَّ اللُّغزَ معناه التَّعميةُ بأن يأتيَ الإنسانُ بشيءٍ يُعَمِّي على غيرِه؛ ولهذا يقولون: إنَّه لا يجوزُ أن تُؤْكَلَ الأُتْرُجَّةُ بعد العصرِ، وهذا لغزٌ أيضًا.

٤٦١٩- إذْ كَانَ مَدْلُولُ الكَلامِ وَوَضْعُهُ لَمْ يَقْصِدُوهُ بِنُطْقِهِمْ بِلِسَانِ

يعني: أنَّ العِلَّةَ في أنَّ الرُّسلَ أَتَوْا باللُّغزِ أنَّ مدلولَ الكلامِ لم يُقْصَدْ وَوَضْعَ الكلامِ -؛ أي: الألفاظ- لم تُقْصَد أيضًا فإذا قيل: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢]، فقيل: المرادُ «جاء أمرُ ربِّك» صار اللَّفظُ لم يُقْصَدْ؛ لأنَّ اللَّفظَ الذي أمامنا «جاء رَبُّك»، هم يقولون: هذا غيرُ مقصودٍ، إذَنْ ما المقصودُ؟ قالوا: «جاء أمرُ ربِّك»، فالمعنى الذي يظهرُ من قولِه: «جاء رَبُّك» غيرُ مقصودٍ عندهم.

إذَنْ فاللَّفظُ بحسب وضعِه غيرُ مقصودٍ، ومدلولُ اللَّفظِ عندهم غيرُ مقصودٍ أيضًا، مقصودُ اللَّفظ في قولِه: «جاء رَبُّك» أنَّ الجائيَ الرَّبُّ عزَّ وجلَّ، وهذا أيضًا مدلولُ الخطابِ وَضْعًا؛ أي: لغةً، وهم نَفَوْا هذا وهذا.

٤٦٢٠- وَالقَصْدُ مِنْهُ غَيْرُ مَفْهُومٍ بِهِ مَا اللُّغْزُ عِنْدَ النَّاسِ إلا ذَانِ

قَوْلُهُ: «وَالقَصْدُ مِنْهُ غَيْرُ مَفْهُومٍ بِهِ» ماذا قصدوا بقولِه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ على

زعمِ هؤلاء المؤوِّلةِ؟ قصدوا به: «جاء أمرُ ربِّك»، نقولُ: بل الذي يُفْهَمُ من ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢] أنَّه هو الذي جاء بنفسِه.

قَوْلُهُ: «**مَا اللُّغْزُ عِنْدَ النَّاسِ إِلَّا ذَانِ**» «**إِلَّا ذَانِ**» المُشَارُ إليه مخالفةُ الوضعِ باللِّسان العربيِّ، وقصد غير المفهومِ منه، هذا هو اللُّغز.

٤٦٢١- **يَا قَوْمُ رُسْلُ اللهِ أَعْرَفُ مِنْكُمُ ... وَأَتَمُّ نُصْحًا فِي كَمَالِ بَيَانِ**

ذكر ثلاثةَ أشياء من مقوِّماتِ اللَّفظ: «**أَعْرَفُ مِنْكُمْ**» و«**أَعْرَفُ**» بمعنى «**أَعْلَم**» وأعرف بمدلول الخطابِ، الثَّانية والثَّالثة: «**وَأَتَمُّ نُصْحًا فِي كَمَالِ بَيَانِ**» «**بَيَانِ**»؛ يعني: فصاحةً، فهذه ثلاثةُ أشياء من مقوِّمات الكلام: العِلْمُ، والنُّصحُ، والبيان، وكُلُّها اجتمعت في كلامِ الرُّسلِ، وهناك أمرٌ رابعٌ أيضًا وهو الصِّدقُ، فهم أصدقُ النَّاسِ خبرًا، فإذا اجتمعت هذه المقوِّماتُ صار الكلامُ على أتمِّ وجهٍ.

* * *

٤٦٢٢- **أَتَرَوْنَهُمْ قَدْ أَلْغَزُوا التَّوْحِيدَ إِذْ ... بَيَّنْتُمُوهُ يَا أُولِي العِرْفَانِ**

٤٦٢٣- **أَتُرَوْنَهُمْ قَدْ أَظْهَرُوا التَّشْبِيهَ وَهْـ ... ـوَ لَدَيْكُمُ كَعِبَادَةِ الأَوْثَانِ**

٤٦٢٤- **وَلِأَيِّ شَيْءٍ لَمْ يَقُولُوا مِثْلَ مَا ... قَدْ قُلْتُمُ فِي رَبِّنَا الرَّحْمَنِ**

٤٦٢٥- **وَلِأَيِّ شَيْءٍ صَرَّحُوا بِخِلَافِهِ ... تَصْرِيحَ تَفْصِيلٍ بِلَا كِتْمَانِ**

٤٦٢٦- **وَلِأَيِّ شَيْءٍ بَالَغُوا فِي الوَصْفِ بالْـ ... إِثْبَاتِ دُونَ النَّفْيِ كُلَّ زَمَانِ**

٤٦٢٧- **وَلِأَيِّ شَيْءٍ أَنْتُمُ بِالعَكْسِ ... فِي النَّفْيِ وَالتَّعْطِيلِ بِالقُفْزَانِ**

٤٦٢٨- **فَجَعَلْتُمُ نَفْيَ الصِّفَاتِ مُفَصَّلًا ... تَفْصِيلَ نَفْيِ العَيْبِ وَالنُّقْصَانِ**

٤٦٢٩- وَجَعَلْتُمُ الإِثْبَاتَ أَمْرًا مُجْمَلًا عَكْسَ الَّذِي قَالُوهُ بِالبُرْهَانِ

٤٦٣٠- أَتُرَاهُمُ عَجَزُوا عَنِ التِّبْيَانِ وَاسْـ ـتَوْلَيْتُمُ أَنْتُمْ عَلَى التِّبْيَانِ

٤٦٣١- أَتُرَوْنَ أَفْرَاخَ اليَهُودِ وَأُمَّةَ التْـ ـتَعْطِيلِ وَالعُبَّادَ لِلنِّيرَانِ

٤٦٣٢- وَوَقَاحَ أَرْبَابِ الكَلامِ البَاطِلِ الْـ ـمَذْمُومِ عِنْدَ أَئِمَّةِ الإِيمَانِ

٤٦٣٣- مِنْ كُلِّ جَهْمِيٍّ وَمُعْتَزِلٍ وَمَنْ وَالاهُمَا مِنْ حِزْبِ جَنْكِزْخَانِ

٤٦٣٤- بِاللهِ أَعْلَمُ مِنْ جَمِيعِ الرُّسْلِ وَالتْـ ـتَوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالقُرْآنِ

٤٦٣٥- فَسَلُوهُمُ بِسُؤَالِ كُتْبِهِمُ الَّتِي جَاؤُوا بِهَا عَنْ عِلْمِ هَذَا الشَّانِ

٤٦٣٦- وَسَلُوهُمُ هَلْ رَبُّكُمْ فِي أَرْضِهِ أَوْ فِي السَّمَاءِ وَفَوْقَ كُلِّ مَكَانِ

٤٦٣٧- أَمْ لَيْسَ مِنْ ذَا كُلِّهِ شَيْءٌ فَلا هُوَ دَاخِلٌ أَوْ خَارِجُ الأَكْوَانِ

٤٦٣٨- فَالعِلْمُ وَالتِّبْيَانُ وَالنُّصْحُ الَّذِي فِيهِمْ يُبِينُ الحَقَّ كُلَّ بَيَانِ

٤٦٣٩- لَكِنَّمَا الإِلْغَازُ وَالتَّلْبِيسُ وَالْـ ـكِتْمَانُ فِعْلُ مُعَلِّمِ الشَّيْطَانِ

الشرحُ

٤٦٢٢- أَتُرَوْنَهُمْ قَدْ أَلْغَزُوا التَّوْحِيدَ إِذْ بَيَّنْتُمُوهُ يَا أُولِي العِرْفَانِ

وهذا سخريةٌ عظيمةٌ بهؤلاء؛ يعني: أَتظنُّون أنَّ الرُّسلَ وأتباعَهم قد ألغزوا في التَّوحيدِ، وأنتم بيَّنتموه يا أولي العرفان؛ يعني: يا أصحابَ المعرفةِ؟! وهذا تهكُّمٌ بهم واستهزاءٌ.

٤٦٢٣- أَتُرَوْنَهُمْ قَدْ أَظْهَرُوا التَّشْبِيهَ وَهْـ ـوَ لَـدَيْكُمْ كَعِبَـادَةِ الأَوْثَـانِ

أظهروا التَّشبيهَ بماذا؟

الجوابُ: بإثباتِ الصِّفاتِ؛ لأنَّ هؤلاء المعطِّلةَ يقولون: كُلُّ مَنْ أَثْبَتَ صفةً لله فهو مُشَبِّهٌ وهو عابدُ وثنٍ؛ لأنَّه يلزمُ من إثباتِه أن يكونَ اللهُ جِسمًا كالأوثانِ؛ ولهذا قال المؤلِّفُ: «**وَهْوَ لَدَيْكُمْ كَعِبَادَةِ الأَوْثَانِ**»؛ يعني: والإثباتُ لديكم كعبادةِ الأوثانِ؛ لأنَّكم تقولون: مَنْ أَثْبَتَ صفةً فهو مُجَسِّمٌ؛ أي: جاعلٌ لله جسمًا كالوثنِ الذي يُعْبَدُ.

٤٦٢٤- وَلِأَيِّ شَيْءٍ لَـمْ يَقُولُـوا مِثْـلَ مَـا قَـدْ قُلْـتُمُ فِي رَبِّنَـا الـرَّحْمَنِ

يعني: ما الذي منعهم أن يقولوا كما تقولون مع أنَّهم مُلْزَمُون بالبلاغِ، ولو كان الحقُّ كما قلتم لكانوا هم الذين يبيِّنونه لا أنتم.

٤٦٢٥- وَلِأَيِّ شَيْءٍ صَرَّحُـوا بِخِلافِـهِ تَصْـرِيحَ تَفْصِـيلٍ بِـلا كِـتْمَانِ

يعني: ما الذي حملهم على أن يُصَرِّحُوا بخلافِ ما تزعمون أنَّه الحقُّ؟

٤٦٢٦- وَلِأَيِّ شَيْءٍ بَالَغُوا فِي الوَصْفِ بِالْـ إِثْبَـاتِ دُونَ النَّفْـيِ كُـلَّ زَمَـانِ

قَوْلُهُ: «**بَالَغُوا فِي الوَصْفِ بِالإِثْبَاتِ**»؛ يعني: أَتَوْا في إثباتِ الصِّفاتِ لله عزَّ وجلَّ على وجهِ الأكثريَّةِ؛ ولهذا لو تَأَمَّلْتَ النُّصوصَ وجدتَ أكثرَ ما فيها في الإثباتِ التَّفصيلَ وفي النَّفيِ الإجمالَ عكس طريقةِ هؤلاء.

٤٦٢٧- وَلِأَيِّ شَيْءٍ أَنْـتُمُ بَـالَغْتُمُ فِي النَّفْـيِ وَالتَّعْطِيـلِ بِـالقُفْزَانِ

هذا عكسُ ما جاءت به الرُّسلُ، الرُّسلُ أَتَوْا بإثباتِ المُفَصَّلِ غالبًا، ونفي

المُجْمَلِ، وهؤلاء بالعكسِ؛ ولهذا لا تكادُ تجد نفيًا مُفَصَّلًا في صفاتِ الله إلَّا لسببٍ، إمَّا أن تكونَ صفةَ عيبٍ ادَّعاها المفترِي مثل: دعوى اليهودِ والنَّصارى والمشركين بأنَّ له ولدًا فقال: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣]، أو نفيَ صفةٍ يتوهَّمُها واهمٌ من فعلِ شيءٍ كبيرٍ عظيمٍ مثل: خلقِ السَّماواتِ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [قّ:٣٨]؛ لأنَّه رُبَّما يقولُ قائلٌ: خَلْقُ السَّماواتِ والأرضِ وما بينهما في ستَّةِ أيَّامٍ تُلْحِقُ الفاعلَ تعبًا، فقال تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾، وفي الوقتِ نفسِه قولُه: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ رَدٌّ لما قاله المفترون وهم اليهودُ -لعنةُ الله عليهم- حيث قالوا: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لـمَّا خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ في ستَّة أيَّامٍ وكان آخرها يوم الجمعة تَعِبَ فاستراح يوم السَّبت، ولم يكن خلقٌ في يومِ السَّبتِ، هذا على زعمِ اليهودِ.

قَوْلُهُ: «**القُفْزَانِ**» الظَّاهر أنَّها جمعُ «قَفِيز»، والقَفِيزُ أكبرُ من الصَّاعِ بكثيرٍ، يعني: أنتم كأنَّكم كِلتم بالمكيال الأوفى بالنِّسبةِ للنَّفي.

٤٦٢٨- فَجَعَلْتُمْ نَفْيَ الصِّفَاتِ مُفَصَّلًا ... تَفْصِيلَ نَفْيِ العَيْبِ وَالنُّقْصَانِ

٤٦٢٩- وَجَعَلْتُمُ الإِثْبَاتَ أَمْرًا مُجْمَلًا ... عَكْسَ الَّذِي قَالُوهُ بِالبُرْهَانِ

يعني: أنَّ أهلَ التَّعطيلِ سلكوا طريقًا مخالفًا لطريقِ القرآنِ والسُّنَّةِ ففصَّلوا في النَّفي وأجملوا في الإثباتِ، ولهذا تجدُ في كتبِهم أنَّ اللهَ ليس بجوهرٍ، ولا عَرَضٍ، ولا كذا، ولا كذا، ولا فوقُ ولا تحتُ، ولا يمينُ ولا شمالُ، ولا أصمَّ، ولا أعمى، ولا أخرسَ، وما أشبه ذلك، لا تكادُ تجدُ فيهم صفةً ثبوتيَّةً، وأمَّا طريقُ الكتابِ والسُّنَّةِ فهو التَّفصيلُ في الإثباتِ والإجمالُ في النَّفيِ.

٤٦٣٠- أَتُرَاهُمُ عَجَزُوا عَنِ التِّبْيَانِ وَاسْـ ... ـتَوْلَيْتُمُ أَنْتُمْ عَلَى التِّبْيَانِ

هذا الاستفهامُ للنَّفي والإنكارِ؛ يعني: لا تظنُّهم أنَّهم عجزوا عن التِّبيانِ وأنَّكم أنتم استوليتم عليه.

٤٦٣١- أَتُرَوْنَ أَفْرَاخَ اليَهُودِ وَأُمَّةَ التْـ ... ـتَعْطِيلِ وَالعُبَّادَ لِلنِّيرَانِ

قَوْلُهُ: «**أَتُرَوْنَ أَفْرَاخَ اليَهُودِ**» الفرخُ صغارُ الطَّيرِ، ومعلومٌ لنا جميعًا أنَّ الفرخَ مَهينٌ ضعيفٌ لا يقوى أن يُخَلِّصَ نفسَه، فيقول: «**أَفْرَاخَ اليَهُودِ**»؛ يعني بذلك: أهلَ التَّعطيلِ؛ لأنَّ الجعدَ بنَ درهمٍ يُقَالُ: إنَّه أخذ مقالتَه عن لبيد بن الأعصم الذي ثَبَتَ في صحيحِ البخاريِّ أنَّه سَحَرَ النَّبِيَّ ﷺ(١)، ومن هنا أُخِذَت مقالةُ أهلِ التَّعطيلِ من اليهودِ، ولا شكَّ أنَّ اليهودَ معروفون بسبِّ الله عزَّ وجلَّ، فقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران:١٨١]، وقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤]، فوصفوه بالفقرِ والإعدامِ وبالبخلِ، وقالوا: إنَّه عجز واستراح يوم السَّبتِ، فوصفوه بالعجزِ، فأهلُ التَّعطيلِ كانوا أفراخًا لليهودِ؛ لأنَّ الجعدَ بنَ درهمٍ -على ما يُقَالُ- أخذ مقالتَه من لبيدِ بن الأعصمِ.

قَوْلُهُ: «**وَالعُبَّادِ لِلنِّيرَانِ**»؛ أي: المجوس.

والظَّاهرُ أنَّ أفراخَ اليهودِ وأمَّةَ التَّعطيلِ «**والعُبَّادِ**»؛ يعني: وأفراخَ العُبَّادِ للنِّيرانِ؛ يعني: المجوس، كيف كان أخذُ هذه المقالةِ من المجوسِ؟ يُقَالُ: إنَّ الجعدَ ابنَ درهمٍ كان في حرَّان، وكان فيها كثيرٌ من الصَّابئةِ والمجوسِ فأخذ منهم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب هل يستخرج السحر، رقم (٥٤٣٢)، ومسلم: كتاب السلام، باب السحر، رقم (٢١٨٩).

٤٦٣٢- وَوَقَاحَ أَرْبَابِ الكَلامِ البَاطِلِ الْـ ـمَذْمُومِ عِنْـدَ أَئِمَّـةِ الإِيـمَانِ

يعني: وكذلك الوقاحُ من أربابِ الكلامِ الباطلِ؛ أي: أصحاب الكلامِ المذمومِ عند أئمَّةِ الإيمانِ.

فَعِلْمُ الكلامِ عند الأئمَّةِ مذمومٌ حتَّى إنَّ بعضَهم قال: «**مَنْ تعلَّم الكلامَ فقد تزندق**»[1]، وقال الشَّافعيُّ رحمه الله: «**حُكْمِي في أهلِ الكلامِ أن يُضْرَبُوا بالجريدِ والنِّعالِ، ويطافَ بهم في العشائرِ، ويُقَالَ: هذا جزاءُ مَنْ تَرَكَ الكتابَ والسُّنَّةَ، وأَقْبَلَ على علمِ الكلامِ**»[2].

ثُمَّ بَيَّن هؤلاء فقال:

٤٦٣٣- مِـنْ كُـلِّ جَهْمِـيٍّ وَمُعْتَـزِلٍ وَمَـنْ وَالاهُمَـا مِـنْ حِـزْبِ جَنْكِزْخَـانِ

قَوْلُهُ: «**مِنْ كُلِّ جَهْمِيٍّ**» نسبة إلى الجهمِ بن صفوان.

قَوْلُهُ: «**مُعْتَزِلٍ**» نسبة إلى عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء، فإنَّ واصلَ ابنَ عطاء اعتزل مجلسَ الحسن البصريِّ وجعل يقرِّرُ مذهبَ المعتزلة، ويقولُ: إنَّ فاعلَ الكبيرةِ في منزلةٍ بين منزلتين لا مؤمنٌ ولا كافرٌ.

قَوْلُهُ: «**وَمَنْ وَالَاهُمَا مِنْ حِزْبِ جنْكِزْخَانِ**»؛ يعني: التَّتارَ وغيرَهم ممَّن عطَّلوا اللهَ عزَّ وجلَّ عن صفاتِه.

٤٦٣٤- بِالله أَعْلَمُ مِنْ جَمِيعِ الرُّسْـلِ وَالتْـ ـتَوْرَاةِ وَالإِنْجِيـلِ وَالقُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «**بِالله أَعْلَمَ**» هذا متعلِّقٌ بقوله: «**أَتَرَوْنَ**»؛ يعني: «**أَتَرَوْنَ هؤلاءِ بالله**

(١) أخرجه أبو إسماعيل الهروي، في ذم الكلام وأهله (٥/ ٧١، رقم ٨٥٩).
(٢) انظر: شرح الطحاوية (١/ ١٧).

أَعْلَمَ مِنْ جَمِيعِ الرُّسلِ... إلخ»، وهذا الاستفهامُ للإنكارِ؛ يعني: لا تظنُّوهم أعلمَ من هؤلاء.

٤٦٣٥- فَسَلُوهُمُ بِسُؤَالِ كُتْبِهِمُ الَّتِي جَاؤُوا بِهَا عَنْ عِلْمِ هَذَا الشَّانِ

قَوْلُهُ: «**سَلُوهُمُ**» كيف نسألُهم وقد ماتوا؟ يقولُ: «**بِسُؤَالِ كُتْبِهِمُ**»؛ لأنَّ الكتابَ يُعَبِّرُ عمَّا في نفسِ الكاتبِ.

والمرادُ بالرُّسلِ باعتبارِ الجنسِ؛ أي: من جميعِ الرُّسلِ الذين من جملتِهم موسى الذي أُنْزِلَتْ عليه التَّوراةُ، وعيسى الذي أُنْزِلَ عليه الإنجيلُ، ومحمَّدٌ الذي أُنْزِلَ عليه القرآنُ.

٤٦٣٦- وَسَلُوهُمُ هَلْ رَبُّكُمْ فِي أَرْضِهِ أَوْ فِي السَّمَاءِ وَفَوْقَ كُلِّ مَكَانِ

٤٦٣٧- أَمْ لَيْسَ مِنْ ذَا كُلِّهِ شَيْءٌ فَلا هُوَ دَاخِلٌ أَوْ خَارِجُ الأَكْوَانِ

هم ينقسمون في هذا إلى قسمين: منهم مَنْ يجيبُ بالأوَّلِ، ومنهم مَنْ يجيبُ بالثَّاني:

الجوابُ الأوَّل: أنَّ اللهَ في أرضِه كما هو في السَّماءِ، وهؤلاء هم الحلوليَّةُ الذين قالوا: إنَّ اللهَ في كُلِّ مكانٍ.

الجوابُ الثَّاني: قولُهم: «**أَمْ لَيْسَ مِنْ ذَا كُلِّهِ شيءٌ، فَلَا هُوَ دَاخِلٌ أَوْ خَارِجُ الأَكْوَانِ**» هؤلاء المعطِّلةُ النُّفاةُ الذين قالوا: إنَّ اللهَ لا داخلَ العالمِ ولا خارجَه، ولا متَّصلٌ ولا منفصلٌ، ولا فوقٌ ولا تحتُ، ولا يمينٌ ولا شمالُ، ولا مباينٌ ولا محايثٌ.

ونحن نقولُ: إنَّ اللهَ لا يخلو إمَّا أن يكونَ في الأرضِ كما هو في السَّماءِ؛ أي: فيهما جميعًا، أو في السَّماءِ وحدَها، أو في الأرضِ وحدَها، أو ليس في الأرضِ

ولا في السَّماءِ؛ يعني: ليس في واحدةٍ منهما، فالأقسامُ أربعةٌ: في الأرضِ وحدَها وهذا ما عَلِمْنَا أحدًا قال به، وفي السَّماءِ وحدَها قال بذلك أهلُ السُّنَّةِ، وفي السَّماءِ والأرضِ قال بذلك الحلوليَّةُ، لا في السَّماءِ ولا في الأرضِ قاله المعطِّلةُ النُّفاةُ.

وقولُ الاتِّحاديَّة أقبحُ؛ لأنَّهم يقولون: الرَّبُّ والخلقُ شيءٌ واحدٌ.

٤٦٣٨- فَالعِلْمُ وَالتِّبْيَانُ وَالنُّصْحُ الَّذِي ... فِيهِمْ يُبِينُ الحَقَّ كُلَّ بَيَانِ

٤٦٣٩- لَكِنَّمَا الإِلْغَازُ وَالتَّلْبِيسُ وَالْـ ... ـكِتْمَانُ فِعْلُ مُعَلِّمِ الشَّيْطَانِ

العلمُ والتِّبيانُ والنُّصحُ هذا كُلُّه للرُّسلِ وأتباعِهم، ولا شكَّ أنَّهم بيَّنوا للنَّاسِ غايةَ البيانِ، أمَّا هؤلاء فعندهم الإلغازُ والتَّلبيسُ والكتمانُ؛ لأنَّهم يتلقَّون علومَهم من الشَّياطين، فيأتون بها كالألغازِ لا تُفْهَمُ، فأهلُ التَّعطيلِ والنُّكرانِ لا شكَّ أنَّهم هم الذين نصبوا أنفسَهم أولياءَ للشَّيطانِ.

* * *

فصــل

في شَكْوَى أَهْلِ السُّنَّةِ وَالقُرْآنِ أَهْلَ التَّعْطِيلِ وَالآرَاءِ المُخَالِفَةِ لَهُمَا إِلَى الرَّحْمَنِ

٤٦٤٠- يَـا رَبِّ هُـمْ يَشْـكُونَنَا أَبَـدًا بِبَغْــ ـــيِهِمُ وَظُلْمِهِـمُ إِلَى السُّــلْطَانِ

٤٦٤١- وَيُلَبِّسُــونَ عَلَيْــهِ حَتَّــى إِنَّــهُ لَيُظُـنُّهُمْ هُـمْ نَـاصِرِي الإِيـمَانِ

٤٦٤٢- فَيَرَوْنَـهُ البِـدَعَ الــمُضِلَّةَ فِي قَـوَا لِــبِ سُـــنَّةٍ نَبَوِيَّـــةٍ وَقُـــرَانِ

٤٦٤٣- وَيَرَوْنَـهُ الإِثْبَـاتَ لِلأَوْصَـافِ فِي أَمْـــرٍ شَـنِيعٍ ظَـاهِرِ النُّكْـرَانِ

٤٦٤٤- فَيُلَبِّسُــونَ عَلَيْــهِ تَلْبِيسَــيْنِ لَــوْ كُشِـــفَا لَــهُ بَـــادَاهُمُ بِطِعَـــانِ

٤٦٤٥- يَــا فِرْقَــةَ التَّلْبِــيسِ لا حُيِّيــتُمُ أَبَــدًا وَحُيِّيــتُمْ بِكُــلِّ هَـــوَانِ

٤٦٤٦- لَكِنَّنَــا نَشْــكُوهُمُ وَصَــنِيعِهِمْ أَبَـدًا إِلَيْـكَ فَأَنْـتَ ذُو السُّـلْطَانِ

٤٦٤٧- فَاسْـمَعْ شِـكَايَتَنَا وَأَشْـكِ مُحِقَّنَـا وَالــمُبْطِلَ ارْدُدْهُ عَــنِ الــبُطْلانِ

٤٦٤٨- رَاجِعْ بِهِ سُبُلَ الـهُدَى وَالْطُفْ بِـهِ حَتَّــى تُرِيــهِ الـــحَقَّ ذَا تِبْيَــانِ

٤٦٤٩- وَارْحَمْهُ وَارْحَمْ سَعْيَهُ المِسْكِينَ قَـدْ ضَــلَّ الطَّرِيــقَ وَتَــاهَ فِي القِيعَــانِ

الشَّــرحُ

بَيَّنَ المؤلِّفُ- رحمه اللهُ- في هذا الفصلِ أنَّ الشِّكايةَ تقعُ من أهلِ السُّنَّةِ ومن أهلِ التَّعطيلِ، لكن مَن المُشْتكَى إليه؟ هنا يختلفُ، يقولُ:

٤٦٤٠- يَا رَبِّ هُمْ يَشْكُونَنَا أَبَدًا بِبَغْـ ـيِهِمُ وَظُلْمِهِمُ إِلَى السُّلْطَانِ

يعني: إذا رَأَوْا منَّا أحدًا شَكَوْه إلى السُّلطانِ، فحبسه وضربه كما جَرَى ذلك للأئمَّةِ وأتباعِهم.

٤٦٤١- وَيُلَبِّسُونَ عَلَيْهِ حَتَّى إِنَّهُ لَيُظُنُّهُمْ هُمْ نَاصِرِي الإِيمَانِ

٤٦٤٢- فَيَرَوْنَهُ البِدَعَ المُضِلَّةَ في قَوَا لِبِ سُنَّةٍ نَبَوِيَّةٍ وَقُرَانِ

٤٦٤٣- وَيَرَوْنَهُ الإِثْبَاتَ لِلأَوْصَافِ في أَمْرٍ شَنِيعٍ ظَاهِرِ النُّكْرَانِ

٤٦٤٤- فَيُلَبِّسُونَ عَلَيْهِ تَلْبِيسَيْنِ لَوْ كُشِفَا لَهُ بَادَاهُمُ بِطِعَانِ

هؤلاء يشكون أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ إلى السُّلطانِ مثلما صَنَعَ ابن أبي دؤادَ في شِكايةِ الإمامِ أحمدَ إلى المأمونِ ومَنْ بعده، ومن تلبيسِ هؤلاء أنَّهم «**يُرُونَهُ البِدَعَ في قَوَالِبِ سُنَّةٍ**» هذا تلبيسٌ، فالذي يُظْهِرُ لك البدعةَ في قَالَبِ السُّنَّةِ مُلَبِّسٌ، ويُرُونَهُ الإثباتَ أمرًا عظيمًا منكرًا، وهذا تلبيسٌ آخرُ، فصاروا يُلَبِّسون من وجهين هما:

الوجهُ الأوَّل: تحسينُ البدعِ حيث يجعَلُونها في قوالب سُننٍ.

الوجهُ الثَّاني: تشويهُ السُّننِ والإثباتِ حتَّى يجعلونه في قَالَبِ الكفرانِ.

لو كُشِفَا للسُّلطانِ وبُيِّنَا له لباداهم بالطِّعانِ؛ أي: بالقتلِ؛ لأنَّه يعلمُ أنَّهم لَبَّسوا عليه؛ ولذا قال: «**لَوْ كُشِفَا لَهُ بَادَاهُم بِطِعَانِ**».

٤٦٤٥- يَا فِرْقَةَ التَّلْبِيسِ لا حُيِّيتُمُ أَبَدًا وَحُيِّيتُمْ بِكُلِّ هَوَانِ

كيف يقولُ: «**لَا حُيِّيتُمُ**»، ويقولُ: «**وَحُيِّيتُمْ؟**»؛ يعني: لا حُييتم تحيةَ إكرامٍ،

وحييتم تحيةَ هوانٍ، وهو كقولِه تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧].

٤٦٤٦- لَكِنَّنَا نَشْكُوهُمُ وَصَنِيعِهِمْ ... أَبَدًا إِلَيْكَ فَأَنْتَ ذُو السُّلْطَانِ

وَصَدَقَ رحمه اللهُ؛ فذو السُّلطانِ الأعظم القدير هو اللهُ، فنحن نشكوهم إليه، ولكن انظر للفرقِ بين شكايتِنا وشكايتِهم.

٤٦٤٧- فَاسْمَعْ شِكَايَتَنَا وَأَشْكِ مُحِقَّنَا ... وَالمُبْطِلَ ارْدُدْهُ عَنِ البُطْلانِ

قَوْلُهُ: «**المُبْطِلَ**» نقولُ: «**المُبْطِلَ**» أو المُبْطِلُ؟ هذا من بابِ الاشتغالِ، والقاعدةُ أنَّه إذا كان الاسمُ المقدَّمُ مَتْلُوًّا بأمرٍ فالأرجحُ النَّصبُ، تقولُ: «**زيدًا اضْرِبْه**» وتقولُ: «**زيدٌ اضرِبْه**» والأحسنُ: «**زيدًا**» لقوَّة طلبِ العاملِ؛ لأنَّه فعلُ طلبٍ.

أهلُ السُّنَّةِ يدعون لأهلِ البدعِ بالهدايةِ إلى السُّنَّةِ، وأنَّ اللهَ يرحمُهم، وأهلُ البدعِ بالعكسِ يدعون بأن يُهْلِكَ اللهُ أهلَ السُّنَّةِ ويَقضيَ عليهم ويَدحرَهم، وهذا هو الظُّلمُ والعدوانُ، فهم يشكوننا إلى السُّلطانِ لينتقمَ منَّا، ونحن لم نقل: اللَّهُمَّ عذِّبْهم، اللَّهُمَّ انتقمْ منهم، بل نقولُ: اللَّهُمَّ اهدِهم، وكان الإمامُ أحمدُ يعذِّبُه المأمونُ تعذيبًا بليغًا وهو يدعو له، ويقولُ: «**لو أعلمُ أنَّ لي دعوةً مستجابةً لصرفتُها للسُّلطانِ**»(١)، خلافًا لما يفعلُه بعضُ النَّاسِ اليوم الذين يدَّعون أنَّهم أهلُ غيرةٍ، يدعون على وليِّ الأمر وهو ما أساء إليهم، وتجدهم يدعون عليه وهم مخطئون على أنفسِهم وعلى وليِّ الأمر وعلى المسلمين عمومًا، إذا كانوا صادقين في نُصحِ الله

(١) أخرجه البربهاري في شرح السنة عن الفضيل بن عياض (ص:١١٣)، وعزاه شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٩١) إلى الفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيرهما.

ورسولِه فليدعوا له؛ لأنَّه إذا صلح صلحت الرَّعيَّةُ؛ لأنَّ الأمرَ مشكلٌ، هذا بيدِه القوَّةُ وبيدِه السُّلطةُ، فإذا دَعَوْتَ عليه زاد في شرِّه، وإذا دَعَوْتَ له فاللهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، فقد يفتحُ اللهُ عليه.

نحن ندعو لأهل البدعِ، وهم يشكون إلى السُّلطانِ ليكونَ علينا؛ ولهذا يقولُ: «**وَالمُبْطِلَ ارْدُدْهُ عَنِ البُطْلَانِ**».

وَقَوْلُهُ: «**وَالمُبْطِلَ ارْدُدْهُ عَنِ البُطْلَانِ**» يعني: ما دعا على المبطلين أنْ يهلكَهم اللهُ وما أشبه ذلك، بل قال: «**ارْدُدْهُ عَنِ البُطْلَانِ**»، وهذا هو الخير؛ لأنَّ اللهَ تعالى إذا رَدَّ أهلَ الباطلِ إلى الحقِّ قَوِيَ بهم أهلُ الحقِّ، وازداد عددُ المحقِّين، وحَصَلَ الخيرُ للجميعِ، هؤلاء انكَفُّوا عن باطلِهم، وهؤلاء ازدادوا بهم عددًا وقوَّةً، وما أحسن أن يرجعَ أهلُ الباطلِ إلى الحقِّ، ثُمَّ يُبيِّنوا الباطلَ، فتجد أنَّ اللهَ يهدي على هذا الذي رجع من الباطلِ إلى الحقِّ وبَيَّنَ بطلانَ ما كان عليه تجدُ اللهَ ينصرُ به أقوامًا كثيرين من باطلِهم.

ونبشِّرُكم بخيرٍ أنَّ بعضَ إخوانِنا الذين في بعضِ المراكزِ الإسلاميَّةِ في البلادِ الكافرةِ يذكرون أنَّه يرجعُ إلى الحقِّ من الشَّبابِ الذين عندهم شهاداتٌ عاليةٌ من الدكتوراه أو غيرِها؛ لأنَّهم وجدوا أنَّ ما هم عليه من الباطلِ يخالفُ الفطرَ السَّليمةَ ويخالفُ ما تطلبُه طبيعةُ الإنسانِ، فَيُسْلِمُونَ ويبيِّنون للنَّاسِ أنَّ ما كانوا عليه فهو باطلٌ، حدَّثنا بذلك الذين يأتون من المراكزِ، أحدهم كان نصرانيًّا وأبوه قِسٌّ كبيرٌ وهو معه شهاداتٌ عاليةٌ، رجَع إلى الحقِّ وبيَّنه وبيَّن الباطلَ، وهو نصرانيٌّ، والثَّاني: يهوديٌّ متوغِّلٌ في اليهوديَّة، فعرف الحقَّ ورجع إلى الحقِّ وبَيَّنَ بطلانَ مذهبِه.

المهمُّ أنَّه ينبغي لنا أن ندعوَ لأهلِ الباطلِ أن يردَّهم اللهُ عن باطلِهم إلى الحقِّ؛ ليستفيدوا هم بأنفسِهم ويفيدوا غيرَهم، هذا هو العدلُ الذي مَشَى عليه المؤلِّفُ، عكس ما يفعلُه بعضُ الجُهَّال إذا رأوا مَنْ تَمادَى في الباطلِ قاموا يدعون عليه، فإذا قِيلَ لهم: ادعوا اللهَ لهم بالهدايةِ، قالوا: نسألُ اللهَ ألَّا يهديَه، كأنَّهم يستبعدون قدرةَ الله على هدايتِه، واللهُ تعالى قادرٌ على أنْ يهديَه، أرأيتم أنَّ مِن زعماءِ المسلمين في صدرِ الإسلامِ مَنْ كان من زعماءِ الكفرِ و الشِّرك؟!

٤٦٤٨- رَاجِعْ بِهِ سُبُلَ الـهُدَى وَالْطُفْ بِـهِ ... حَتَّـى تُرِيـهِ الـحَقَّ ذَا تِبْيَـانِ

٤٦٤٩- وَارْحَمْهُ وَارْحَمْ سَعْيَهُ المِسْكِينَ قَـدْ ... ضَـلَّ الطَّرِيـقَ وَتَـاهَ في القِيعَـانِ

أعوذُ باللهِ، إذا تاه الإنسانُ في القيعانِ متى يأتي؟ القيعانُ ليس فيها جوادٌ ولا فيها خطوطٌ، يرجعُ إلى أقصى الطَّريقِ، ثُمَّ يرجعُ إلى أوَّلِه؛ لأنَّه يَتِيهُ، فهؤلاء مثل الذين تاهوا في القيعان.

* * *

٤٦٥٠- يَا رَبِّ قَدْ عَمَّ الـمُصَابُ بِهَذِهِ الْـ ... آرَاءِ وَالشَّـطَحَاتِ وَالبُهْتَـانِ

٤٦٥١- هَجَرُوا لَـهَا الوَحْيَيْنِ وَالفِطْرَاتِ وَالْـ ... آثَـارِ لَـمْ يَعْبُـوا بِـذَا الـهُجْرَانِ

٤٦٥٢- قَـالُوا وَتِلْـكَ ظَـوَاهِرٌ لَفْظِيَّـةٌ ... لَـمْ تُغْـنِ شَـيْئًا طَالِـبَ البُرْهَـانِ

٤٦٥٣- فَالعَقْـلُ أَوْلَى أَنْ يُصَـارَ إِلَيْـهِ مِـنْ ... هَذِي الظَّوَاهِرِ عِنْـدَ ذِي العِرْفَـانِ

٤٦٥٤- ثُـمَّ ادَّعَـى كُـلٌّ بِـأَنَّ العَقْـلَ مَـا ... قَـدْ قُلْتُـهُ دُونَ الفَرِيـقِ الثَّـانِي

٤٦٥٥- يَا رَبِّ قَدْ حَارَ العِبَـادُ بِعَقْـلِ مَـنْ ... يَزِنُـونَ وَحْيَـكَ فَـأْتِ بِالـمِيزَانِ

٤٦٥٦- وَبِعَقْلِ مَنْ يَقْضِي عَلَيْكَ فَكُلُّهُمْ ... قَدْ جَاءَ بِالمَعْقُولِ وَالبُرْهَانِ

٤٦٥٧- يَا رَبِّ أَرْشِدْنَا إِلَى مَعْقُولِ مَنْ ... يَقَعُ التَّحَاكُمُ إِنَّنَا خَصْمَانِ

٤٦٥٨- جَاؤُوا بِشُبْهَاتٍ وَقَالُوا إِنَّهَا ... مَعْقُولَةٌ بِبَدَائِهِ الأَذْهَانِ

٤٦٥٩- كُلٌّ يُنَاقِضُ بَعْضُهُ بَعْضًا وَمَا ... فِي الحَقِّ مَعْقُولانِ مُخْتَلِفَانِ

٤٦٦٠- وَقَضَوْا بِهَا كَذِبًا عَلَيْكَ وَجُرْأَةً ... مِنْهُمْ وَمَا الْتَفَتُوا إِلَى القُرْآنِ

الشرحُ

يقولُ المؤلِّفُ -رحمه الله- شاكيًا إلى الرَّبِّ العظيمِ جلَّ وعلا:

٤٦٥٠- يَا رَبِّ قَدْ عَمَّ المُصَابُ بِهَذِهِ الْـ ... آرَاءِ وَالشَّطَحَاتِ وَالبُهْتَانِ

قَوْلُهُ: «**قَدْ عَمَّ المُصَابُ**»؛ يعني: اتَّسع وصار مصيبًا لكُلِّ أحدٍ.

قَوْلُهُ: «**بِهَذِهِ الآرَاءِ**»؛ يعني: الآراءَ المخالفةَ للشَّريعةِ وهي آراءُ أهلِ التَّعطيلِ.

قَوْلُهُ: «**والشَّطَحَاتِ وَالبُهْتَانِ**» الشَّطَحَات: البعد عن الحقِّ، «**والبُهْتَان**»: الكذب.

٤٦٥١- هَجَرُوا لَهَا الوَحْيَيْنِ وَالفِطْرَاتِ وَالْـ ... آثَارِ لَمْ يَعْبُوا بِذَا الهُجْرَانِ

هجروا بهذه الآراءِ الوحيين؛ يعني: الكتابَ والسُّنَّة، و«**الفِطْرَاتِ**» معروفةٌ، وهي ما فطر اللهُ الخلقَ عليه، و«**الآثَارَ**»؛ أي: آثارَ السَّلفِ كالصَّحابةِ والتَّابعين، «**لَمْ يَعْبُوا بِذَا الهِجْرَانِ**»؛ أي: ما همَّهم أن يهجروا هذه الأربعةَ: الوحيين: «**الكتابُ والسُّنَّة**»، والثَّالث: الفطرة، والرَّابع: الآثار.

٤٦٥٢- قَالُوا وَتِلْكَ ظَوَاهِرٌ لَفْظِيَّةٌ لَمْ تُغْنِ شَيْئًا طَالِبَ البُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «تِلْكَ» المشارُ إليه: الكتابُ والسُّنَّةُ والآثارُ.

فهذه ظواهرُ لفظيَّةٌ لا تغني شيئًا لمن طلب البرهانَ والدَّليلَ.

٤٦٥٣- فَالعَقْلُ أَوْلَى أَنْ يُصَارَ إِلَيْهِ مِنْ هَذِي الظَّوَاهِرِ عِنْدَ ذِي العِرْفَانِ

لـمَّا كانت هذه ظواهرَ لفظيَّةً لا تُغْنِي شيئًا وَجَبَ أن نرجعَ إلى العقلِ على زعمِهم.

٤٦٥٤- ثُمَّ ادَّعَى كُلٌّ بِأَنَّ العَقْلَ مَا قَدْ قُلْتُهُ دُونَ الفَرِيقِ الثَّانِي

لـمَّا قالوا: نرجعُ إلى العقلِ، وكانوا عشرةً، فقال: الأوَّل: العقلُ ما قُلْتُهُ، وقال الثَّاني: العقلُ ما قُلْتُهُ، وقال الثَّالث: العقلُ ما قُلْتُهُ، وقال الرَّابُع: العقلُ ما قُلْتُهُ، إلى العاشرِ، كُلُّ واحدٍ يقولُ: العقلُ ما قُلْتُهُ، كم صارت العقولُ؟ الجوابُ: صارت عشرةً، كُلُّها متباينةٌ؛ ولهذا تجدهم أكثرَ النَّاسِ نزاعًا واختلافًا؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النِّساء:٨٢].

٤٦٥٥- يَا رَبِّ قَدْ حَارَ العِبَادُ بِعَقْلِ مَنْ يَزِنُونَ وَحْيَكَ فَأْتِ بِالـمِيزَانِ

هذا يُرَدُّ به على مَنْ حَكَّمَ العقولَ في بابِ الصِّفاتِ، يقولُ: لو رجعنا إلى العقلِ فبأيِّ عقلٍ نزنُ ما يجبُ لله وما يمتنعُ عليهِ؟ هل بعقلِ زيدٍ، أم بعقلِ عُبيدٍ، أم بعقلِ خالدٍ، أم بعقلِ بكرٍ، بعقلِ مَنْ؟ إن قلنا: بعقلِ الأوَّلِ، قال الثَّاني: لا ، وإن قلنا: بعقلِ الثَّاني، قال الأوَّل والثَّالثُ: لا، وإن قلنا بعقلِ الرَّابعِ، قال الأوَّلُ والثَّاني والثَّالثُ: لا، وهكذا، إذَنْ لا رجوعَ للعقولِ، الرُّجوعُ لما جاء في الوحيين من الكتابِ والسُّنَّةِ؛ ولهذا قال المؤلِّفُ:

٤٦٥٦- وَبِعَقْلِ مَنْ يَقْضِي عَلَيْكَ فَكُلُّهُمْ قَدْ جَاءَ بِالمَعْقُولِ وَالبُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «**وَبِعَقْلِ مَنْ يَقْضِي عَلَيْكَ**»؛ يعني: بعقلِ مَنْ يقضي عليك بما تستحقُّه من صفاتٍ وأفعالٍ، فَمَنْ هو صاحبُ العقلِ الذي يقضي عليك؟

قَوْلُهُ: «**فَكُلُّهُمْ قَدْ جَاءَ بِالمَعْقُولِ وَالبُرْهَانِ**» بِالمَعْقُولِ؛ أي: على حسَبِ قولِهم، «**والبُرْهَانِ**»: الحُجَّة، ولكنَّه ليس لهم حُجَّةٌ، فكُلُّ حُججِهم شبهاتٌ وليست بِحُجَجٍ.

٤٦٥٧- يَا رَبِّ أَرْشِدْنَا إِلَى مَعْقُولِ مَنْ يَقَعُ التَّحَاكُمُ إِنَّنَا خَصْمَانِ

يسألُ المؤلِّفُ ربَّه أن يرشدَه إلى عقلِ مَنْ يكونُ التَّحاكمُ عنده، وهذا على سبيلِ التَّنزُّلِ من المؤلِّف رحمه الله، وإلَّا فقد أرشدنا اللهُ عزَّ وجلَّ أن نأخذَ بما قال اللهُ وقال الرَّسولُ، فهذا هو الحاكمُ بين الخلقِ، لكن هذا على سبيلِ التَّنزُّلِ، يُشْبِهُ المباهلةَ بأن يتقابلَ الخصمان، ويدعو كُلُّ واحدٍ منهما على المُبْطِلِ منهما.

٤٦٥٨- جَاؤُوا بِشُبُهَاتٍ وَقَالُوا إِنَّهَا مَعْقُولَةٌ بِبَدَائِهِ الأَذْهَانِ

جَاؤُوا بِشُبهَاتٍ يدَّعون أنَّها حُجَجٌ وبيِّناتٌ، وأنَّها معقولةٌ، وأنَّ البديهةَ تدلُّ عليها، فلا تحتاجُ إلى نظرٍ وتعبٍ.

٤٦٥٩- كُلٌّ يُنَاقِضُ بَعْضُهُ بَعْضًا وَمَا فِي الحَقِّ مَعْقُولانِ مُخْتَلِفَانِ

قَوْلُهُ: «**كُلٌّ يُنَاقِضُ بَعْضُهُ بَعْضًا**»؛ يعني أنَّ هؤلاء الذين قالوا: «**إنَّ المرجعَ إلى العقلِ في بابِ الصِّفاتِ**» كُلٌّ يناقضُ الآخَرَ، يقولُ أحدُهم: هذه الصِّفةُ واجبةٌ لله، ويقولُ الثَّاني: هذه مستحيلةٌ على الله، ويقولُ الثَّالثُ: هذه جائزةٌ على الله، بل إنَّ الإنسانَ الواحدَ منهم يتناقضُ؛ فتجده في بعضِ كتبِه يُقِرُّ هذه الصِّفةَ ويرى أنَّها

واجبةٌ لله، وفي بعضِ كتبهِ ينكرُ هذه الصِّفةَ، ويقولُ: هذه ممتنعةٌ على الله، ومستحيلةٌ عليه؛ لأنَّهم إنَّما يعتمدون على شُبهاتٍ لا على حقائقَ.

قَوْلُهُ: «**وَمَا فِي الحَقِّ مَعْقُولَانِ مُخْتَلِفَانِ**»؛ يعني: أنَّ الحقَّ لا تختلفُ فيه العقولُ لأنَّها تتَّفقُ عليه؛ فإذا اختلفت العقولُ في شيءٍ دَلَّ على أنَّه باطلٌ؛ لأنَّ العقولَ السَّليمةَ لا تختلفُ في الحقِّ.

٤٦٦٠- وَقَضَوْا بِهَا كَذِبًا عَلَيْكَ وَجُرْأَةً مِنْهُمْ وَمَا الْتَفَتُوا إِلَى القُرْآنِ

قَوْلُهُ: «وَقَضَوْا بِهَا»؛ أي: بالعقولِ.

يقولون: كُلُّ ما جاء في القرآنِ ممَّا يخالفُ العقولَ فإنَّه يجبُ فيه أحدُ أمرين: إمَّا التَّأويل وإمَّا التَّفويض، وهذه قاعدةٌ خبيثةٌ، التَّأويلُ معناه التَّحريفُ، أو التَّفويضُ بأن تقولَ: لا أدري، فصارت قاعدتُهم مَبْنِيَّةً إمَّا على العدوَّانِ وإمَّا على الجهلِ، أمَّا العدوَّان فإذا أَوَّلُوا الصفةَ عن معناها الحقيقيِّ، وأما والجهل إذا قالوا: واللهِ لا ندري بل فَوِّض.

وقد قال شيخُ الإسلام -رحمه الله- عن قولِ أهلِ التَّفويضِ: «**إنَّه من شرِّ أقوالِ أهلِ البدعِ والإلحادِ**»[1]، مع أنَّك تجدُ كثيرًا في كتبِ المتأخِّرين مَنْ يقولُ: إنَّ التَّفويضَ مذهبُ أهلِ السُّنَّة، وهذا قولٌ خطأٌ؛ لأنَّ التَّفويضَ تفويضان: تفويضُ المعنى، وتفويضُ الحقيقة والكيفيَّة، فالأوَّلُ لا يقولُ به السَّلفُ ولا أهلُ السُّنَّةِ، أعني به: تفويضَ المعنى؛ لأنَّهم يقولون: المعنى معلومٌ، والثَّاني يقولون به، فمَن أطلق التَّفويضَ على أهلِ السُّنَّةِ فقد أخطأ عليهم، ولم يفهم مذهبَهم حقيقةً.

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٠٥).

٤٦٦١- يَا رَبِّ قَدْ أَوْهَى النُّفَاةُ حَبَائِلَ الْـ ـــقُرْآنِ وَالآثَارِ وَالإِيمَانِ

٤٦٦٢- يَا رَبِّ قَدْ قَلَبَ النُّفَاةُ الدِّينَ وَالْـ إِيمَانَ ظَهْرًا مِنْهُ فَوْقَ بِطَانِ

٤٦٦٣- يَا رَبِّ قَدْ بَغَتِ النُّفَاةُ وَأَجْلَبُوا بِالخَيْلِ وَالرَّجْلِ الحَقِيرِ الشَّانِ

٤٦٦٤- نَصَبُوا الحَبَائِلَ وَالغَوَائِلَ لِلأُلَى أَخَذُوا بِوَحْيِكَ دُونَ قَوْلِ فُلانِ

٤٦٦٥- وَدَعَوْا عِبَادَكَ أَنْ يُطِيعُوهُمْ فَمَنْ يَعْصِيهِمُ سَامُوهُ شَرَّ هَوَانِ

٤٦٦٦- وَقَضَوْا عَلَى مَنْ لَمْ يَقُلْ بِضَلالِهِمْ بِاللَّعْنِ وَالتَّضْلِيلِ وَالكُفْرَانِ

٤٦٦٧- وَقَضَوْا عَلَى أَتْبَاعِ وَحْيِكَ بِالَّذِي هُمْ أَهْلُهُ لَا عَسْكَرُ الفُرْقَانِ

٤٦٦٨- وَقَضَوْا بِعَزْلِهِمُ وَقَتْلِهِمُ وَحَبْـ ـسِهِمُ وَنَفْيِهِمُ عَنِ الأَوْطَانِ

٤٦٦٩- وَتَلاعَبُوا بِالدِّينِ مِثْلَ تَلاعُبِ الْـ ـحُمُرِ الَّتِي نَفَرَتْ بِلا أَرْسَانِ

٤٦٧٠- حَتَّى كَأَنَّهُمُ تَوَاصَوْا بَيْنَهُمُ يُوصِي بِذَلِكَ أَوَّلٌ لِلثَّانِي

الشرحُ

٤٦٦١- يَا رَبِّ قَدْ أَوْهَى النُّفَاةُ حَبَائِلَ الْـ ـــقُرْآنِ وَالآثَارِ وَالإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «أَوْهَى»؛ أي: أَضْعَفَ.

فهم أضعفوا حبائلَ القرآنِ والآثارِ والإيمانِ بما فعلوه من التَّحريفِ في آياتِ الله وفي أحاديثِ رسولِ ﷺ حتَّى أوهنوا الإيمانَ في قلوبِ النَّاسِ، فهؤلاء النُّفاةُ لا يؤمنون بأنَّ اللهَ استوى على العرشِ حقيقةً، إذَنْ نَقَصَ الإيمانُ، لأنَّ اللهَ أخبر عن نفسِه أنَّه استوى على العرشِ حقيقةً، فإذا لم تؤمنْ به وقلت: معنى

«استوى»: «استولى» ضعف إيمانُك؛ لأنَّك أَخْلَلْتَ بعقيدةٍ، فهؤلاء النُّفاةُ أَوْهَوْا حبائلَ القرآنِ والآثارِ والإيمانِ.

٤٦٦٢- يَا رَبِّ قَدْ قَلَبَ النُّفَاةُ الدِّينَ وَالْـ إِيـمَانَ ظَهْـرًا مِنْـهُ فَـوْقَ بِطَـانِ

يعني: قلبوا الدِّينَ ظهرًا على بطنٍ، وهذا واضحٌ، لكن كيف ذلك؟ لأنَّهم صرفوا ظواهرَ النُّصوصِ عن معناها الظَّاهر، وجعلوا لها معنًى باطنًا، فمثلًا قولُه تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، معناها الظَّاهرُ: أنَّ لله يَدَيْنِ حقيقيَّتَيْنِ مبسوطَتَيْنِ، هم قالوا: لا، هناك معنى آخر غير الظَّاهرِ، المعنى الباطنُ المرادُ عندهم وهو: القدرةُ أو القوَّة، فهم قلبوا ظهورَ النُّصوصِ إلى بواطنَ لا يريدُها اللهُ ولا رسولُه.

٤٦٦٣- يَا رَبِّ قَـدْ بَغَـتِ النُّفَـاةُ وَأَجْلَبُـوا بِالْـخَيْلِ وَالرَّجْلِ الْـحَقِيرِ الشَّـانِ

قَوْلُهُ: «بَغَتْ»؛ أي: تَعَدَّتْ.

قَوْلُهُ: «وَأَجْلَبُوا بِالْـخَيْلِ» هذا مأخوذٌ من قولِه تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء:٦٤].

٤٦٦٤- نَصَبُوا الْـحَبَائِلَ وَالْغَوَائِـلَ لِـلأُلَى أَخَذُوا بِوَحْيِـكَ دُونَ قَـوْلِ فُـلَانِ

قَوْلُهُ: «نَصَبُوا الْـحَبَائِلَ وَالْغَوَائِلَ» «الغَوائل» جمعُ: غَائِلَة، وذلك بشكايتِهم إلى السَّلاطينِ والأمراءِ، ولا يخفى علينا جميعًا ما حَدَثَ لإمامِ أهلِ السُّنَّةِ الإمامِ أحمدَ -رحمه الله- أيَّامَ المحنةِ حيث جعلوا يجرُّونه على البغلةِ ويضربونه بالسِّياط حتَّى يُغْمَى عليه في الأسواقِ، ولا يخفى أيضًا ما جَرَى لشيخِ الإسلامِ ابن تيميَّةَ رحمه الله؛ حيث كانوا يركبونه على عربةٍ مكشوفةٍ ويطوفون به ويُشَهِّرون به، وفي

النِّهاية سجنوه حتَّى مات في السِّجنِ، ولـمَّا سجنوه صار أصحابُه يأتون إليه ليأخذوا من علمِه، فمنعوا أصحابَه عنه، ثُمَّ صار يكتبُ وينشرُ، فمنعوا الكتابةَ عنه، ثُمَّ صار يكتبُ على جدرانِ الحبسِ؛ لأجل أنْ ينشرَ علمَه الذي في قلبِه، وآخرُ الأمرِ مات مسجونًا رحمه الله.

فالمهمُّ أنَّ هؤلاء النُّفاةَ -والعياذُ بالله- ما تركوا النَّاسَ بلا شرٍّ ولا عدوانٍ، بل فعلوا بهم كُلَّ الأفعالِ التي يستطيعون بالوشايةِ فيها.

٤٦٦٥- وَدَعَوْا عِبَادَكَ أَنْ يُطِيعُوهُمْ فَمَنْ ... يَعْصِيهِمُ سَامُوهُ شَرَّ هَوَانِ

يعني: هؤلاء النُّفاةُ دَعَوا النَّاسَ إلى طاعتِهم، وقالوا: اسلكوا مَسْلَكَنَا، فمَنْ عصاهم ساموه شرَّ هوانٍ؛ إمَّا بأيديهم، وإمَّا بألسنتِهم، وإمَّا بتسليطِ الولاةِ عليهم انتقامًا منهم، نسألُ اللهَ العافيةَ.

٤٦٦٦- وَقَضَوْا عَلَى مَنْ لَمْ يَقُلْ بِضَلالِهِمْ ... بِاللَّعْنِ وَالتَّضْلِيلِ وَالكُفْرَانِ

يقولون مثلًا: لعنةُ الله على فلانٍ؛ لأنَّه يقولُ: إنَّ لله يَدَيْنِ حقيقيَّتَيْنِ، ما تقولون في هذا الضَّالِّ الذي يُثْبِتُ لله جارحةً؟ ما تقولون في هذا الكافرِ الذي جعل اللهَ جسمًا؟ وما أشبه ذلك، العامِّيُّ إذا سَمِعَ مثل هذا الكلامِ لا سيَّما من شيخٍ مُعمَّمٍ واسعِ الكُمِّ، ماذا يقولُ؟ يقولُ: صحيحٌ، هؤلاء ضُلَّالٌ، هؤلاء كُفَّارٌ، هؤلاء مستحِقُّون للعنِ، ولهذا وصفهم المؤلِّفُ وصفًا تامًّا وقال:

٤٦٦٧- وَقَضَوْا عَلَى أَتْبَاعِ وَحْيِكَ بِالَّذِي ... هُمْ أَهْلُهُ لَا عَسْكَرُ الفُرْقَانِ

ماذا قَضَوْا على أتباعِ الوحي؟ الجوابُ: بالتَّضليلِ والكفرانِ، وهم أحقُّ بالكفرِ والضَّلالِ، هذا معنى كلامِ المؤلِّف، هم أحقُّ، وليس عسكرُ القرآنِ أحقَّ.

٤٦٦٨- وَقَضَوْا بِعَزْلِـهِمُ وَقَـتْلِهِمُ وَحَبْـ ـسِهِمُ وَنَفْـيِهِمُ عَـنِ الأَوْطَـانِ

كُلُّ هذا يُصدرونه أحكامًا إلى الولاةِ، يقولُ: هذا مُفسدٌ احبسْه، هذا ساعٍ في الأرضِ فسادًا اقتلْه، هذا لا يمكنُ بقاؤه في هذا البلدِ انْفِه، وهكذا، ونحن -ولله الحمدُ- في عافيةٍ من هذا، ولكنَّه في زمانِ المؤلِّف وما قبلَه موجودٌ، وليس من بابِ المبالغةِ.

٤٦٦٩- وَتَلاعَبُوا بِالدِّينِ مِثْلَ تَلاعُـبِ الْـ ـحُمُرِ الَّتِي نَفَـرَتْ بِـلا أَرْسَـانِ

هل رأيتم الحُمُرَ وهي نافرةٌ بلا أَرْسانٍ؟ نعم، رأيناها ترقصُ وتتسابقُ لكن على غيرِ هدى، ولا سيَّما الصِّغارُ منها، وهذه الصِّغارُ إذا رَأَيْتَ لعبَها تعجَّبْتَ منها.

فهو يقولُ: إنَّهم مثلُ هؤلاء الحُمُرِ التي نَفَرَتْ بلا أرسانٍ، لا يمسكُها أحدٌ.

٤٦٧٠- حَتَّـى كَـأَنَّهُمُ تَوَاصَـوْا بَيْـنَهُمُ يُـوصِي بِـذَلِكَ أَوَّلٌ لِلثَّـانِي

هذا البيتُ مأخوذٌ من قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات:٥٢-٥٣]، كُلُّ الأُمَمِ التي سَبَقَتْ تقولُ لرسُلِهم: ساحرٌ أو مجنونٌ، وهل قيل للرَّسولِ هكذا؟ الجوابُ: نعم، قيل له هكذا، وقال اللهُ تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾؛ يعني: هل أَوْصَى بعضُهم بعضًا؟ الجوابُ: لا، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾، فهم تَوَافَقَتْ أقوالُهم لِتَوَافُقِ إراداتِهم، والجامعُ بينهم هو الطُّغيان.

* * *

٤٦٧١- هَجَرُوا كَلامَكَ هَجْرَ مُبْتَدِعٍ لِـمَنْ قَـدْ دَانَ بِالآثَـارِ وَالقُـرْآنِ

٤٦٧٢- فَكَأَنَّـهُ فِـيمَا لَـدَيْهِمْ مُصْـحَفٌ فِي بَيْـتِ زِنْـدِيقٍ أَخِـي كُفْـرَانِ

٤٦٧٣- أَوْ مَسْـجِدٌ بِجِـوَارِ قَـوْمٍ هَمُّهُـمْ ... فِي الفِسْـقِ لا فِي طَاعَـةِ الـرَّحْمَنِ

٤٦٧٤- وَخَوَاصُـهُمْ لَـمْ يَقْـرَؤُوهُ تَـدَبُّرًا ... بَـلْ لِلتَّـبَرُّكِ لا لِفَهْـمِ مَعَـانِ

٤٦٧٥- وَعَـوَامُهُمْ فِي الشِّـبْعِ أَوْ فِي خَتْمَـةٍ ... أَوْ تُرْبَـةٍ عِوَضًـا لِـذِي الأَثْـمَانِ

٤٦٧٦- هَـذَا وَهُـمْ حَرْفِيَّـةُ التَّجْوِيـدِ أَوْ ... صَـوْتِيَّةُ الأَنْغَـامِ وَالأَلْـحَانِ

٤٦٧٧- يَا رَبِّ قَدْ قَالُوا بِأَنَّ مَصَاحِفَ الْـ ... إِسْـلامِ مَـا فِيهَـا مِـنَ القُـرْآنِ

٤٦٧٨- إِلَّا الـمِدَادَ وَهَـذِهِ الأَوْرَاقَ وَالْـ ... جِلْدَ الَّذِي قَـدْ سُـلَّ مِنْ حَيَـوَانِ

٤٦٧٩- وَالكُـلُّ مَخْلُـوقٌ وَلَسْـتُ بِقَائِـلٍ ... أَصْـلًا وَلا حَرْفًـا مِـنَ القُـرْآنِ

٤٦٨٠- إِنْ ذَاكَ إِلا قَـوْلُ مَخْلُـوقٍ وَهَـلْ ... هُـوَ جِبْرَئِيـلُ أَوِ الرَّسُـولُ فَـذَانِ

٤٦٨١- قَـوْلانِ مَشْـهُورَانِ قَـدْ قَـالَتْهُمَا ... أَشْـيَاخُهُمْ يَـا مِحْنَـةَ القُـرْآنِ

٤٦٨٢- لَوْ دَاسَـهُ رَجُـلٌ لَقَـالُوا لَـمْ يَطَـأْ ... إِلَّا الـمِدَادَ وَكَاغِـدَ الإِنْسَـانِ

٤٦٨٣- يَا رَبِّ زَالَـتْ حُرْمَـةُ القُـرْآنِ مِـنْ ... تِلْـكَ القُلُـوبِ وَحُرْمَـةُ الإِيـمَانِ

٤٦٨٤- وَجَرَى عَلَى الأَفْوَاهِ مِنْهُمُ قَوْلُـهُمْ ... مَـا بَيْنَنَـا للهِ مِـنْ قُـرْآنِ

٤٦٨٥- مَا بَيْنَنَـا إِلَّا الـحِكَايَةُ عَنْـهُ وَالتَّـ ... ـعْبِيرُ ذَاكَ عِبَـارَةٌ بِلِسَـانِ

الشرحُ

٤٦٧١- هَجَرُوا كَلامَكَ هَجْرَ مُبْتَدِعٍ لِـمَنْ ... قَـدْ دَانَ بِالآثَـارِ وَالقُـرْآنِ

يعني: هجروا كلامَ الله كهجرِ المبتدعِ لِـمَنْ دَانَ بالآثارِ والقُرآنِ، وهجرُ

المبتدعِ لِـمَنْ قال بالآثارِ والقرآنِ هجرٌ لا يمكنُ أنْ يزولَ؛ لأَنَّه يهجرُه عن دينٍ، فالمبتدعُ يهجرُ مَنْ دَانَ بالآثارِ، ورُبَّما يرى أَنَّه أشدُّ على الإسلامِ من اليهودِ والنَّصارى، هم هجروا كلامَ الله وذهبوا في البدعِ، فهجروه كهجرِ المبتدعِ لصاحبِ السُّنَّةِ.

٤٦٧٢- فَكَأَنَّـــهُ فِـــيمَا لَـــدَيْهِمْ مُصْـــحَفٌ ... في بَيْـــتِ زِنْـــدِيقٍ أَخِـــي كُفْـــرَانِ

نعوذُ بالله، المصحفُ في بيت الزِّنديقِ الكافرِ هل يُنْتَفَعُ به؟ الجوابُ: أبدًا، لا يُنْتَفَعُ به، هؤلاء أيضًا لم ينتفعوا بالوحي.

٤٦٧٣- أَوْ مَسْـــجِدٌ بِجِـــوَارِ قَـــوْمٍ هَمُّهُـــمْ ... في الفِسْـــقِ لا في طَاعَـــةِ الـــرَّحْمَنِ

مسجدٌ بجوارِ قومٍ فسقةٍ ليس لهم هَمٌّ إلَّا شربَ الخمورِ وعزفَ القِيانِ والزِّنا، وغير ذلك من المُحَرَّماتِ، هل ينتفعون بهذا المسجدِ؟ الجوابُ: لا.

٤٦٧٤- وَخَوَاصُـــهُمْ لَـــمْ يَقْـــرَؤُوهُ تَـــدَبُّرًا ... بَـــلْ لِلتَّـــبَرُّكِ لا لِفَهْـــمِ مَعَـــانِ

انتَبِه لهذه النُّقطةِ التي وقع فيها كثيرٌ من النَّاسِ اليوم، كثيرٌ من النَّاسِ اليوم لا يقرؤون القرآنَ قراءةَ تدبُّرٍ ولكن قراءة تبرُّكٍ وانتظارٍ للأجرِ، وهذا وإن كان طيِّبًا، لكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]، هذه الفائدةُ من إنزالِ القرآنِ، وهذه الحكمةُ من إنزالِه، هؤلاء يقرؤونه تبرُّكًا.

٤٦٧٥- وَعَـــوَامُهُمْ في الشِّـــبْعِ أَوْ في خَتْمَـــةٍ ... أَوْ تُرْبَـــةٍ عِوَضًـــا لِـــذِي الأَثْـــمَانِ

قَوْلُهُ: «**في الشِّبْعِ**»، وفي نسخةٍ: «**السُّبْعِ**».

على كُلِّ حالٍ الظَّاهرُ ما ذهب إليه الهرَّاس[1] رحمه الله تعالى، وأنَّ الصَّوابَ: «**وَعَوَامُهُمْ فِي الشِّبْعِ**»؛ يعني في: الشِّبَعِ؛ يعني: لا يقرؤونه إلَّا من أجلِ أن يُشبعوا بطونَهم، وهذا يوجدُ كثيرًا، لو فرضنا أنَّ شخصًا رَتَّبَ غداءً وعشاءً لمن يقرأُ القرآنَ، تجدُ العوامَّ يقرؤون القرآنَ كثيرًا، كُلَّ يوم يأتون لهذا البيتِ يقرؤون القرآنَ من أجلِ الغداءِ أو العشاءِ، كذلك يقرؤون ختمةً، وهذه معروفةٌ في بعضِ البلادِ الإسلاميَّةِ، الإنسانُ يقرأُ ختمةً للميِّتِ ما قرأها لله، بل قرأها للعِوَضِ الذي يأخذُه على هذه الختمةِ، «**أَوْ فِي تُرْبَةٍ**»؛ أي: عند القبورِ، يُؤَجَّر القارئ للقراءةِ عند القبرِ، هؤلاء هم العوامُّ.

٤٦٧٦- هَـذَا وَهُـمْ حَرْفِيَّـةُ التَّجْوِيـدِ أَوْ صَـوْتِيَّةُ الأَنْغَـامِ وَالأَلْـحَانِ

هذا إشارةٌ إلى هؤلاء الذين يعتَنُون بألفاظِ القرآنِ وتجويدِه ونغماتِه الصَّوتيَّة، لكن ليس عندهم معنى، تجدهم في المعنى لا يلتفتون إليه، فتجدهم يُقيمون حروفَه ولا يُقيمون معناه، لكنْ في التَّجويدِ يشتدُّون به حتى إنَّ الواحدَ منهم إذا أراد أن يقرأَ يتكلَّفُ ويحمرُّ وجهُه من شدَّةِ ما يُعَالِجُ من أجلِ أن يُطَبِّقَ قواعدَ التَّجويدِ، مع أنَّ تطبيقَ قواعدِ التَّجويدِ ليس بواجبٍ؛ إذ إنَّ التَّجويدَ غاية ما فيه أنَّه من بابِ تحسينِ اللَّفظِ فقط، وقد مَضَى أكثرُ من أربعةَ عَشَرَ قرنًا، وكُلُّ أناسٍ يأتون يُدخلون تحسينًا آخرَ غير الأوَّلين، حتَّى وصلت الحالُ إلى ما وصلت، والعجب ممَّن يقولُ: «**كُلُّ مَنْ لم يقرأ بالتَّجويدِ فهو آثمٌ**».

ولو أخذنا بهذا القولِ لكان عامَّةُ المسلمين تسعون بالمئةِ منهم آثمين، إذا كان القرآنُ نزَل على سبعةِ أحرفٍ؛ أي: سبع لغات في الأوَّل، ثُمَّ جاء على حرفٍ

(١) انظر: شرح النُّونيَّة لهرَّاس رحمه الله (٢/ ٣١٩).

واحدٍ، كُلُّ ذلك تيسيرًا على العبادِ، فكيف نُؤَثِّمُ تسعين بالمئةِ من المسلمين؛ لأنَّهم لم يُطَبِّقوا التَّجويدَ؟!.

إذا أراد الإنسانُ أن يقولَ قولًا يجبُ أن ينظرَ ماذا يلزمُ على هذا القولِ قبل أنْ يتكلَّمَ به، فالصَّحيحُ أنَّ التَّجويدَ إذا لم يصل إلى حدِّ العنتِ والمشقَّةِ فهو من الأمورِ المستحبَّة فقط؛ لأنَّه من بابِ تزيين القرآنِ، أمَّا أنْ يُقالَ: إنَّه واجبٌ وإنَّ مَنْ لم يقرأ به آثِمٌ، فلا.

هنا يقولُ ابنُ القيِّم -رحمه الله-: «**هَذَا وَهُمْ حَرْفِيَّةُ التَّجْوِيدِ**»؛ يعني: يُجيدون القرآنَ وأحرفَه، «**أَوْ صَوْتِيَّةُ الأَنْغَامِ وَالأَلْحَانِ**»؛ يعني: يأتون بالقُرآنِ بالصَّوتِ والنَّغماتِ الجميلةِ لكنَّهم لا يفهمون، تجدُ الواحدَ منهم يقرأُ القرآنَ وكأنَّه تلحينُ غناءٍ؛ لا لأنَّه كلامُ ربِّ العالمين، بل لأجلِ أن يطربوا به مَنْ حولهم.

٤٦٧٧- يَا رَبِّ قَدْ قَالُوا بِأَنَّ مَصَاحِفَ الْـ ... إِسْـلامِ مَـا فِيهَـا مِـنَ الْقُـرْآنِ

٤٦٧٨- إِلَّا الْـمِدَادَ وَهَـذِهِ الأَوْرَاقَ وَالْـ ... جِلْدَ الَّذِي قَـدْ سُـلَّ مِـنْ حَيَـوَانِ

٤٦٧٩- وَالكُـلُّ مَخْلُـوقٌ وَلَسْـتُ بِقَائِـلٍ ... أَصْـلًا وَلا حَرْفًـا مِـنَ الْقُـرْآنِ

يعني: أنَّ هؤلاء المعطِّلةَ يقولون: إنَّ المصاحفَ ما فيها من القرآنِ إلَّا المدادُ وهذه الأوراقُ والجلدُ الذي قد سُلَّ من حيوانٍ، والكُلُّ مخلوقٌ، فيقولون: إنَّ ما بين دفتي المصحفِ مخلوقٌ، لماذا؟ لأنَّه مدادٌ؛ أي: حبرٌ، مكتوبٌ بقلمٍ على أوراقٍ، والقلمُ والمِدادُ والأوراقُ والجلدُ الذي هو من الحيوانِ مخلوقةٌ فيقولون: هذا الذي بيننا من القرآن هو هذا المِدادُ.

ويقولون: إنَّ اللهَ لم يقل القرآنَ، لم يتكلَّم به، وإنَّما هو شيءٌ مخلوقٌ، أو عبارةٌ

عن كلامِ الله، أو حكايةٌ عن كلامِ الله، وليس هو كلامَ الله، ويترتَّبُ على هذا القولِ -والعياذُ بالله- ما سيذكرُه المؤلِّفُ رحمه الله.

٤٦٨٠- إِنْ ذَاكَ إِلا قَــوْلُ مَخْلُــوقٍ وَهَــلْ   هُــوَ جَبْرَئِيــلُ أَوِ الرَّسُــولُ فَــذَانِ

٤٦٨١- قَــوْلانِ مَشْــهُورَانِ قَــدْ قَــالَتْهُمَا   أَشْــيَاخُهُمْ يَــا مِحْنَــةَ القُــرْآنِ

يقولون: إنَّ القرآنَ مخلوقٌ وهو قولُ جبريلَ على رأيٍ، أو قولُ محمَّدٍ على رأيٍ.

ومن المعلومِ أنَّ اللهَ في القرآنِ الكريمِ أضاف القرآنَ مرَّةً إلى قولِ الرَّسولِ ﷺ، ومرَّةً إلى قولِ جبريلَ؛ ممَّا يدلُّ على أنَّه ليس قولَ محمَّدٍ ولا قولَ جبريلَ على وجهِ الحقيقةِ، وإنَّما هو قولُ غيرِهما؛ وذلك لأنَّ القولَ الواحدَ لا يمكنُ أن يكونَ مقولًا لقائِلَيْنِ أبدًا، فقال اللهُ تعالى في سورة «الحاقَّة»: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة:٣٨- ٤١]، فالمرادُ بالرَّسولِ هنا محمَّدٌ ﷺ؛ لأنَّه قال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾، وقال اللهُ تعالى في سورة «التَّكوير»: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التَّكوير:١٩-٢٠] والمرادُ بالرَّسولِ جبريلُ، فأضاف القرآنَ إلى هذا وهذا، إذَنْ ليس قولَ هذا ولا هذا؛ لأنَّ المقولَ الواحدَ لا يكونُ لقائِلَيْنِ، فَمَن القائلُ؟ اللهُ سبحانه وتعالى، لكن أُضِيفَ إلى جبريلَ باعتباره مُبَلِّغًا له لرسولِ الله ﷺ، وإلى رسولِ الله باعتبارِه مُبَلِّغًا له إلى الأُمَّةِ.

هؤلاء المعطِّلةُ الذين أنكروا كلامَ الله يقولون: إنَّه يُضَافُ إلى جبريلَ على أنَّه هو الذي ابتدأه أو إلى الرَّسولِ على أنَّه هو الذي ابتدأه، وإذا أُضِيفَ إلى هذا أو هذا صار مخلوقًا؛ لأنَّ كلامَ المخلوقِ مخلوقٌ.

٤٦٨٢- لَوْ دَاسَهُ رَجُلٌ لَقَالُوا لَمْ يَطَأْ إِلَّا المِدَادَ وَكَاغِدَ الإِنْسَانِ

يعني: لو أنَّ أحدًا أتى بالمصحف وداسه بقَدَمِه لقالوا: لا يكفرُ؛ لأَنَّه ما دَاسَ كلامَ الله، وإنَّما دَاسَ المِدادَ والورقَ، ودَوْسُ المِدادِ والورقِ لا شيءَ فيه، فانظر كيف يؤدِّي هذا القولُ الباطلُ إلى هذا اللَّازم الباطلِ! أنا أعتقدُ لو أنَّ أحدًا دَاسَ المصحفَ أمام العوامِّ لمزَّقوه قبل أن يَرفعَ قَدَمَه من المصحفِ، ولا يمكنُ أن يقولوا: إنَّ هذا الرَّجُلَ لم يَدُسْ إلَّا الكَاغَدَ والمِدَادَ، أبدًا، لكن هذا اللَّازمُ باطلٌ، وإذا بطل اللَّازمُ بطل الملزومُ.

٤٦٨٣- يَا رَبِّ زَالَتْ حُرْمَةُ القُرْآنِ مِنْ تِلْكَ القُلُوبِ وَحُرْمَةُ الإِيمَانِ

يعني: أنَّ هؤلاء لَزِمَ على قولِهم زوالُ حُرمةِ القرآنِ وحُرمةِ الإيمانِ، وهو واضحٌ.

٤٦٨٤- وَجَرَى عَلَى الأَفْوَاهِ مِنْهُمْ قَوْلُهُمْ مَا بَيْنَنَا للهِ مِنْ قُرْآنِ

وهذا شيءٌ عجيبٌ فظيعٌ، إلى حدِّ أنَّهم يقولون بأفواهِهم: «**ما بيننا قرآنٌ لله عزَّ وجلَّ**».

٤٦٨٥- مَا بَيْنَنَا إِلَّا الحِكَايَةُ عَنْهُ وَالتَّـ ـعْبِيرُ ذَاكَ عِبَارَةٌ بِلِسَانِ

المعطِّلةُ الذين ينكرون كلامَ الله انقسموا ثلاثةَ أقسامٍ هي:

قسم قال: إنَّه مخلوقٌ.

قسم آخَر قال: إنَّه غيرُ مخلوقٍ، لكن ما في المصحف عبارةٌ عنه.

قسم ثالث قال: ليس بمخلوقٍ، وما في المصحفِ حكايةٌ عنه.

فالعبارةُ للأشاعرةِ، والحكايةُ للكُلَّابيَّةِ، والقولُ الأوَّلُ قولُ المعتزلةِ الذين يقولون: إنَّ القرآنَ مخلوقٌ لا يُنْسَبُ إلى الله على أنَّه صفةٌ من صفاتِه، بل يُنْسَبُ إليه على أنَّه خَلْقٌ من مخلوقاتِه كما نُسِبَت النَّاقةُ والبيتُ إلى الله.

وهذا القرآنُ عند المعتزلةِ مخلوقٌ لكنَّه كلامُ الله، وعند الأشاعرةِ مخلوقٌ وليس كلامَ الله، بل هو عبارةٌ عنه، وعند الكُلَّابيَّة مخلوقٌ وليس كلامَ الله بل هو حكايةٌ عنه، وبهذا نعرفُ أنَّ المعتزلةَ من هذه النَّاحيةِ خيرٌ من الأشاعرةِ ومن الكُلَّابيَّة.

والفرقُ بين العبارةِ والحكايةِ أنَّ العبارةَ معناها أنَّ اللهَ خَلَقَ هذا لتُعبِّرَ عمَّا في نفسِه، والحكاية؛ يعني: كأنَّه شيءٌ ما وَصَلَ إلى ما في نفسِ الله عزَّ وجلَّ، ولكنَّه حُكِيَ كما يُقَالُ: «**فلانٌ يَحْكِي فلانًا**»؛ يعني: يُضاهيه، كأنَّ هذا المسموعَ يَحْكِي ما في نفسِ الله عزَّ وجلَّ، والفرقُ بينهما دقيقٌ جدًّا، لكن القولُ بالعبارةِ؛ أبعد عن كونِه كلامَ الله من القولِ بأنَّه حكايةٌ، الحكايةُ أقربُ، لكن كُلُّها أقوالٌ باطلةٌ.

* * *

٤٦٨٦- هَـذَا وَمَـا التَّـالُونَ عُـمَّالًا بِـهِ ... إِذْ هُـمْ قَـدِ اسْـتَغْنَوْا بِقَـوْلِ فُـلانِ

٤٦٨٧- إِنْ كَانَ قَدْ جَازَ الـحَنَاجِرَ مِـنْهُمُ ... فَبِقَـدْرِ مَـا عَقَلُـوا مِـنَ القُـرْآنِ

٤٦٨٨- وَالبَـاحِثُونَ فَقَـدَّمُوا رَأْيَ الرِّجَـا ... لِ عَلَيْـهِ تَصْـرِيحًا بِـلا كِـتْمَانِ

٤٦٨٩- عَزَلُـوهُ إِذْ وَلَّـوْا سِـوَاهُ وَكَـانَ ذَا ... كَ العَـزْلُ قَائِـدَهُمْ إِلَى الـخِذْلانِ

٤٦٩٠- قَالُوا وَلَـمْ يَحْصُـلْ لَنَا مِنْـهُ يَقِيـ ... ـنٌ فَهْـوَ مَعْـزُولٌ عَـنِ الإِيقَـانِ

٤٦٩١- إِنَّ اليَقِـينَ قَوَاطِـعٌ عَقْلِيَّـةٌ ... مِيزَانُهَـا هُـوَ مَنْطِـقُ اليُونَـانِ

٤٦٩٢- هَــذَا دَلِيــلُ الرَّفْــعِ مِنْــهُ وَهَــذِهِ　　أَعْلامُــــهُ فِي آخِــــرِ الأَزْمَــــانِ

٤٦٩٣- يَا رَبِّ مَنْ أَهْلُوهُ حَقًّـا كَـيْ يَـرَى　　أَقْــدَامَهُمْ مِنَّــا عَــلَى الأَذْقَــانِ

٤٦٩٤- أَهْلُوهُ مَـنْ لا يَرْتَضِــي مِنْـهُ بَدِيــ　　ــلًا فَهْــوَ كَـافِيهِمْ بِـلا نُقْصَـانِ

٤٦٩٥- وَهُوَ الدَّلِيلُ لَـهُمْ وَهَادِيهِمْ إِلَى الْــ　　إِيــمَانِ وَالإِيقَــانِ وَالعِرْفَــان

٤٦٩٦- هُوَ مُوصِـلٌ لَــهُمُ إِلَى دَرَكِ اليَقِيــ　　ــنِ حَقِيقَــةً وَقَوَاطِــعِ البُرْهَــانِ

٤٦٩٧- يَـا رَبِّ نَحْـنُ العَـاجِزُونَ بَحُـبِّهِمْ　　يَــا قِلَّــةَ الأَنْصَــارِ وَالأَعْــوَانِ

الشـرحُ

٤٦٨٦- هَــذَا وَمَــا التَّــالُونَ عُــمَّالًا بِــهِ　　إِذْ هُـمْ قَـدِ اسْـتَغْنَوْا بِقَـوْلِ فُـلانِ

يعني: هؤلاء الذين يتلون الكتابَ ويصفونه بأنَّه مخلوقٌ لَيْتَهم اقتصروا على هذا، بل إنَّهم لا يعملون به، وإنَّما يعملون بقولِ فلانٍ وفلانٍ، فَجَنَوْا عليه جنايتَيْنِ:

الأولى: في أصلِه، والثَّانية: في تطبيقِه.

٤٦٨٧- إِنْ كَانَ قَدْ جَازَ الــحَنَاجِرَ مِـنْهُمُ　　فَبِقَــدْرِ مَــا عَقَلُــوا مِــنَ القُــرْآنِ

يعني: إن كان القرآنُ قد جَاوَزَ حناجرَهم فإنَّما يجاوزُ حناجرَهم من القُرآنِ ما عقلوا منه فقط؛ لأنَّ الحكمَ يدورُ مع عِلَّتِه، أمَّا العمل فلا، فإنَّه لا يصحُّ، فهم يُشْبِهُون الخوارجَ من بعضِ الوجوهِ، بل تقدَّم في كلامِ ابنِ القيِّم -رحمه الله- أنَّهم أشدُّ من الخوارجِ؛ لأنَّ الخوارجَ إنَّما يُكفِّرون بالمعاصي، وأهلُ التَّعطيلِ يكفِّرون باتِّباعِ السُّنَّةِ، يقولون: إنَّ المثبتةَ كُلَّهم كُفَّارٌ، وتقدَّم أيضًا في هذا الفصلِ أنَّهم

يستحلُّون دماءَهم وقَتْلَهم، فيقول ابنُ القيِّم: الخوارجُ أهونُ منهم؛ لأنَّ الخوارجَ لا يكفِّرون إلَّا أهلَ المعاصي، وأنتم تكفِّرون أهلَ التَّوحيدِ والإيمانِ، وثانيًا: الخوارجُ إنَّما قد خرجوا على مَنْ عَصَى اللهَ، فهم خارجون على المعاصي نفسِها، يريدون أن تزولَ من الأرضِ، أمَّا أنتم فقد خرجتم على السُّنَّةِ، تريدون أن تمحوا السُّنَّةَ من الأرضِ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

٤٦٨٨- وَالبَـاحِثُونَ فَقَـدَّمُوا رَأْيَ الرِّجَـا ... لِ عَلَيْـهِ تَصْـرِيحًا بِـلا كِـتْمَانِ

أهلُ البحثِ منهم صَرَّحُوا بأنَّ آراءَ الرِّجالِ مُقَدَّمةٌ على القرآنِ.

٤٦٨٩- عَزَلُـوهُ إِذْ وَلَّـوْا سِـوَاهُ وَكَـانَ ذَا ... كَ العَـزْلُ قَائِـدَهُمْ إِلَى الـخِذْلانِ

عزلوا القرآنَ لـمَّا وَلَّوْا غيرَه، فما هو الذي وَلَّوْا؟ الجوابُ: وَلَّوْا آراءَ الرِّجالِ والعقولَ؛ لأنَّ أهلَ التَّعطيلِ يرجعون في إثباتِ الصِّفاتِ ونفيها إلى العقلِ، فيقولون: ما أَثْبَتَهُ العقلُ أثبَتْناه، وما لا فلا، ولو كان في الكتابِ والسُّنَّةِ، وما لم يقتضِ العقلُ إثباتَه ولا نفيَه فمنهم مَنْ تَوَقَّفَ فيه، وأكثرُهم نَفَوْهُ، فالذين توقَّفوا فيه قالوا: لأنَّه لا دليلَ هناك، والواجبُ الوقفُ، والذين نَفَوْهُ قالوا: لا بُدَّ من دليلِ إيجابٍ من العقلِ يُثْبِتُ هذا الشَّيءَ؛ إذَنْ ابنُ القيِّمِ وشيخُ الإسلامِ قبلَه ما كذبا عليهم، هذا هو الواقعُ، فهذه عقيدتُهم، فالمسألةُ خطيرةٌ جدًّا.

٤٦٩٠- قَالُوا وَلَـمْ يَحْصُـلْ لَنَـا مِنْـهُ يَقِيـ ... ـنٌ فَهْـوَ مَعْـزُولٌ عَـنِ الإيقَـانِ

يقولون: القرآنُ دلالتُه ظنِّيَّةٌ ليست قطعيَّةً، والعقائدُ لا تَثْبُتُ بالظَّنِّ، ودلالةُ العقولِ التي يدَّعون أنَّها عقولٌ عندهم قطعيَّةٌ، والعجبُ أنَّهم يقولون: إنَّ دلالةَ العقولِ قطعيَّةٌ مع أنَّهم يختلفون فيها اختلافًا كثيرًا، فهل اليقينُ يمكنُنا فيه

الاختلافُ؟ الجوابُ: اليقينُ ليس فيه اختلافٌ، إذا قيل: هذه شمعةٌ فهي شمعةٌ، ولا اختلافَ في ذلك، فدلالةُ القرآنِ عندهم ظنِّيَّةٌ، ودلالةُ العقولِ التي هم فيها مضطربون اضطرابًا عظيمًا هي قطعيَّةٌ، سبحان الله! كذبٌ وافتراءٌ والعياذُ بالله ولكن: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف:٥].

٤٦٩١- إِنَّ اليَقِينَ قَوَاطِعٌ عَقْلِيَّةٌ ... مِيزَانُهَا هُوَ مَنْطِقُ اليُونَانِ

قَوْلُهُ: «**إِنَّ اليَقِينَ قَوَاطِعٌ عَقْلِيَّةٌ**» هذا اليقينُ، فاليقينُ هو القواطعُ العقليَّةُ.

قَوْلُهُ: «**مِيزَانُهَا هُوَ مَنْطِقُ اليُونَانِ**» الميزانُ عندهم منطقُ اليونانِ الذي هو علمُ المنطقُ، يقولُ شيخُ الإسلامِ رحمه الله في كتابه: «**الرَّدُّ على المنطقيين**»: «**كُنْتُ أظنُّ دائمًا أنَّ المنطقَ اليونانيَّ لا ينتفعُ به البليدُ ولا يحتاجُ إليه الذَّكِيُّ**»[1]، إذَنْ لا فائدةَ منه، فالذَّكيُّ يستغني بذكائِه عنه، والبليدُ لو يردِّدُه آناءَ الليلِ والنَّهارِ ما استفاد منه، إذَنْ فهو مضيعةُ وقتٍ.

٤٦٩٢- هَذَا دَلِيلُ الرَّفْعِ مِنْهُ وَهَذِهِ ... أَعْلامُهُ فِي آخِرِ الأَزْمَانِ

يقولُ: إنَّ إعراضَ النَّاسِ عن القرآنِ من علاماتِ رفعِه في آخِرِ الزَّمانِ؛ لأنَّه في آخِرِ الزَّمانِ يُرْفَعُ هذا القرآنُ -نسألُ اللهَ ألَّا يدركَنا هذا الزَّمانُ- يُرْفَعُ من المصاحفِ ومن الصُّدورِ احترامًا له وتعظيمًا له؛ حيث يُعْرِضُ النَّاسُ عنه إعراضًا كُلِّيًا، وهذا في عهدِ ابن القيِّم وهو في القرنِ الثَّامنِ، فكيف بعهدنا نحن الآن؟! فآياتُ رفعِ القرآنِ الآن كثيرةٌ جدًّا، وهذا كما أنَّه في آخِرِ الزَّمانِ يُسَلَّطُ على الكعبة رجلٌ من الحبشةِ، رجلٌ ليس فيه خيرٌ وهو ذو السُّوَيْقَتَيْنِ، أفحَجُ قصيرٌ يُسَلَّطُ عليها، فيقوم عليها

---

(١) انظر: الرد على المنطقيين (ص:٣).

ينقضُها حجرًا حجرًا حتَّى يُلقيها في البحرِ ولا يأتيه شيءٌ(١)، مع أنَّ الله حماها من أصحابِ الفيلِ مع قوَّتِهم، بل دُمِّرُوا عن آخرِهم، وحماها اللهُ منهم؛ لأنَّه سبحانه وتعالى يعلمُ أنَّه سيأتي الزَّمنُ الذي يُعَظَّمُ فيه هذا البيتُ، لكن في آخِرِ الزمانِ تُنْتَهَكُ الكعبةُ ويكونُ تعظيمُها تعظيمًا ظاهريًّا، أمَّا باطنًا فحدِّث ولا حرجَ، وآياتُ هدمِ الكعبةِ الآن قد تكونُ ظاهرةً، كُلَّما كثر الفسقُ والفجورُ في مكَّةَ فهذا من علاماتِ قُربِ هدمِها، نسألُ اللهَ السَّلامةَ؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَغَارُ لبيتِهِ أنْ يكونَ عنده مَنْ لا يحترمُه ولا يعظِّمُه إلَّا بالظَّاهرِ، والظَّاهرُ ليس فيه فائدةٌ، فعمارةُ المسجدِ الحرامِ تكونُ بطاعةِ الله عزَّ وجلَّ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التَّوبة:١٨].

فالحاصلُ أنَّ ابنَ القيِّمِ -رحمه الله- يقولُ: إنَّ علاماتِ رفعِ القرآنِ هو إعراضُ النَّاسِ عنه.

٤٦٩٣- يَا رَبِّ مَنْ أَهْلُوهُ حَقًّا كَيْ يَرَى ... أَقْدَامَهُمْ مِنَّا عَلَى الأَذْقَانِ

يسألُ اللهَ فيقول: مَنْ أهلُ القرآنِ حقًّا حتى يرى أقدامَهم منَّا على الأذقانِ؛ يعني: إذا كُنَّا أهلَه فستكونُ أقدامُنا على أذقانِهم، والأَذْقَانُ جمع «ذَقَن» وهي مَجْمَعُ اللَّحيةِ؛ أي: إنَّنا سنعلوا عليهم ونغلبُهم إذا كُنَّا أهلَه.

٤٦٩٤- أَهْلُوهُ مَنْ لا يَرْتَضِي مِنْهُ بَدِيـ ... ـلًا فَهْوَ كَافِيهِمْ بِلا نُقْصَانِ

هؤلاء أهلُ القرآنِ الذين لا يَرْضَوْنَ به بديلًا لا في الأمورِ العقديَّةِ ولا في

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب قول الله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة:٩٧]، رقم (١٥١٤)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، رقم (٢٩٠٩).

الأمور التعبدية ولا في الأمورِ العمليَّةِ، فالذين يُحَكِّمونَ القوانينَ الوضعيَّةَ، قانون فرنسا أو إنجلترا أو أمريكا أو غيرها، هؤلاء رضوا بديلًا عن القرآنِ، ما هو البديلُ؟ الجوابُ: هذه القوانينُ؛ لأنَّ القرآنَ كتابٌ هادٍ في العقيدةِ وفي السُّلوكِ وفي العبادةِ وفي المعاملاتِ، في كُلِّ شيءٍ، فَمَنْ خرج عنه ورَضِيَ عنه بديلًا فقد أخذ بحظٍّ وافرٍ بحسب إعراضِه عن القرآنِ.

٤٦٩٥- وَهُوَ الدَّلِيلُ لَهُمْ وَهَادِيهِمْ إِلَى الْـ ... إِيمَانِ وَالإِيقَانِ وَالعِرْفَانِ

اللَّهُمَّ اهدِنا به يا ربَّ العالمين.

٤٦٩٦- هُوَ مُوصِلٌ لَهُمُ إِلَى دَرَكِ اليَقِيـ ... ـنِ حَقِيقَةً وَقَوَاطِعِ البُرْهَانِ

ولذلك كُلَّما قَوِيَ إيمانُ الإنسانِ بالقرآنِ فَتَحَ اللهُ له من أدلَّتِه من اليقينِ ما لا يجدُه في أيِّ كتابٍ آخرَ؛ ولهذا أنا أحثُّكم ونفسي على الحِرصِ التَّامِّ على القرآنِ تلاوةً وتدبُّرًا وعملًا به، وجَرِّبْ نفسَك، ارجِع للقرآنِ في هذه الأمورِ، وانظر ماذا يحصلُ لقلبِك من الإيمانِ وانشِراحِ الصَّدرِ ونورِ القلبِ ونورِ الوجهِ، هذا شيءٌ مُجَرَّبٌ، وبقدرِ إعراضِك عن هذا القرآنِ الكريمِ ستتَخلَّفُ عنك هذه الثَّمرةُ العظيمةُ الجليلةُ.

٤٦٩٧- يَا رَبِّ نَحْنُ العَاجِزُونَ بِحُبِّهِمْ ... يَا قِلَّةَ الأَنْصَارِ وَالأَعْوَانِ

قَوْلُهُ: «**يَا رَبِّ نَحْنُ العَاجِزُونَ بِحُبِّهِمْ**»؛ يعني: إنَّنا عاجزون مع أنَّنا نحبُّك، فهي من باب إضافةِ المصدرِ إلى فاعلِه؛ يعني: نحن العاجزون مع محبَّتِنا لك، وليس الضَّميرُ في قولِهِ: «**بِحُبِّهِمْ**» يعودُ إلى أهل التَّعطيلِ، لا؛ إذ أنَّنا لا نحبُّ أهلَ التَّعطيلِ، لكن يقول: نحن العاجزون مع محبَّتِهم لك يا ربُّ.

فصــل

فِي أَذَانِ أَهْلِ السُّنَّةِ الأَعْلَامِ بِصَرِيحِهَا جَهْرًا عَلَى رُؤُوسِ مَنَابِرِ الإِسْلَامِ

٤٦٩٨- يَا قَوْمُ قَدْ حَانَتْ صَلاةُ الفَجْرِ فَانْـ ـــتَبِهُوا فَـإِنِّي مُعْلِــنٌ بِـأَذَانِ
٤٦٩٩- لا بِالـمُلَحَّنِ وَالـمُبَدِّلِ ذَاكَ بَـلْ تَـأْذِينِ حَـقٍّ وَاضِـحِ التِّبْيَـانِ
٤٧٠٠- وَهُـوَ الَّـذِي حَقًّـا إِجَابَتُـه عَـلَى كُلِّ امْـرِئٍ فَـرْضٌ عَـلَى الأَعْيَـانِ
٤٧٠١- اللهُ أَكْـبَرُ أَنْ يَكُـونَ كَلامُـهُ الْـ ـــعَرَبِيُّ مَخْلُوقًـا مِـنَ الأَكْـوَانِ
٤٧٠٢- وَاللهُ أَكْـبَرُ أَنْ يَكُـونَ رَسُـولُهُ الْـ ـــمَلَكِيُّ أَنْشَـأَهُ عَـنِ الـرَّحْمَنِ
٤٧٠٣- وَاللهُ أَكْـبَرُ أَنْ يَكُـونَ رَسُـولُهُ الْـ ـــبَشَرِيُّ أَنْشَـأَهُ لَنَـا بِلِسَـانِ
٤٧٠٤- هَذِي مَقَـالاتٌ لَكُـمْ يَـا أُمَّـةَ التْـ ـــتَشْبِيهِ مَـا أَنْـتُمْ عَـلَى إِيمَانِ
٤٧٠٥- شَـبَّهْتُمُ الـرَّحْمَنَ بِالأَوْثَـانِ فِي عَـدَمِ الكَـلامِ وَذَاكَ لِلأَوْثَـانِ
٤٧٠٦- مِـمَّا يَـدُلُّ بِأَنَّهَـا لَيْسَـتْ بِـآ لِـهَةٍ وَذَا البُرْهَـانُ فِي الفُرْقَـانِ
٤٧٠٧- فِي سُـورَةِ الأَعْـرَافِ مَـعْ طَـهَ وَثَـا لِثِهَـا فَـلا تَعْـدِلْ عَـنِ القُـرْآنِ

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلٌ فِي أَذَانِ أَهْلِ السُّنَّةِ الأَعْلَامِ بِصَرِيحِهَا»؛ أي: بصريحِ السُّنَّةِ، «جَهْرًا عَلَى رُؤُوسِ مَنَابِرِ الإِسْلَامِ»، وهذا واجبٌ على أهلِ السُّنَّةِ أن يُعْلِنُوا السُّنَّةَ

صريحةً في كُلِّ مكانٍ ولا سيَّما في الأماكنِ التي تخفى فيها السُّنَّةُ.

٤٦٩٨- يَا قَوْمُ قَدْ حَانَتْ صَلاةُ الفَجْرِ فَانْـ ـتَبِهُوا فَإِنِّي مُعْلِنٌ بِأَذَانِ

وخَصَّ صلاةَ الفجرِ لِسَبَبَيْنِ:

السَّبب الأوَّل: أنَّها تأتي بعد النَّومِ.

السَّبب الثَّاني: أنَّ بها يلوحُ النَّهارُ ويتبيَّنُ الإسفارُ.

قَوْلُهُ: «مُعْلِنٌ بِأَذَانِ»؛ أي: موافقٍ للشَّريعةِ.

٤٦٩٩- لا بِالمُلَحَّنِ وَالمُبَدَّلِ ذَاكَ بَلْ تَأْذِينِ حَقٍّ وَاضِحِ التِّبْيَانِ

قَوْلُهُ: «لَا بِالمُلَحَّنِ»؛ يعني: المُطَرَّب به، «وَلَا المُبَدَّلِ» المُغَيَّر، «بَلْ تَأْذِينَ حَقٍّ وَاضِحِ التِّبْيَانِ»، فهو معلنٌ بأذانٍ موافقٍ للشَّريعةِ.

٤٧٠٠- وَهُوَ الَّذِي حَقًّا إِجَابَتُه عَلَى كُلِّ امْرِئٍ فَرْضٌ عَلَى الأَعْيَانِ

قَوْلُهُ: «وَهُوَ» الضَّميرُ يعودُ على هذا الأذانِ الذي يؤذِّنُ به المؤلِّفُ وهو الأذانُ بالسُّنَّةِ والإعلانُ بها، إجابتُه فرضٌ على كُلِّ امرئٍ، ثُمَّ بدأ بالأذان فقال:

٤٧٠١- اللهُ أَكْبَرُ أَنْ يَكُونَ كَلامُهُ الْـ ـعَرَبِيُّ مَخْلُوقًا مِنَ الأَكْوَانِ

كما قاله الجهميَّةُ والمعتزلةُ والأشاعرةُ والكُلَّابيَّةُ، فالجهميَّةُ والمعتزلةُ يقولون: إنَّ كلامَ الله مخلوقٌ كما خَلَقَ الشَّمسَ والقمرَ والثُّريَّا وغيرَها، وعلى هذا فهو مخلوقٌ على صورةٍ معيَّنةٍ، نقوشٌ ليس فيها أمرٌ ولا فيها نهيٌ.

انتَبِهوا لخطرِ هذا القولِ، فالكثيرُ من الطَّلبةِ لا يَدرون ماذا يترتَّبُ على هذا؟ يترتَّبُ عليه أنَّه إن كُتِبَ فهو نقشٌ منقوشٌ، علامةُ السُّكونِ دائرةٌ، وعلامةُ الضَّمَّةِ

دائرةٌ من على اليمينِ، وهلمَّ جرًّا، إن سُمِعَ فهو مجرَّدُ أصواتٍ مخلوقةٍ كما يُسْمَعُ الرَّعدُ، زمجرةٌ، إذَنْ لا يوجد أمرٌ ولا نهيٌ؛ فـ«أَقِمْ» مثل: «**يستفتح**» كُلُّها نقوشٌ فقط، هذا يترتَّبُ على القولِ بأنَّ القرآنَ مخلوقٌ، فما كان مسموعًا فهو كأصواتِ الرَّعدِ، ليس له مَعانٍ، وما كان مكتوبًا فهو كالنُّقوشِ على الأبوابِ والجدران، تحذلق الأشعريَّةُ وأَتَوْا بالعجبِ العُجاب، قالوا: كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ لكنَّه المعنى القَائِمُ بنفسِه، وما سَمِعَه جبريلُ فهي أصواتٌ خَلَقَهَا اللهُ لتعبِّرَ عمَّا في نفسِه.

إذَنْ اتَّفق المعتزلةُ والأشعريَّة على أنَّ ما نقرؤه في هذا المصحفِ مخلوقٌ، لكن الأشعريَّةُ قالوا: هو عبارةٌ عن كلامِ الله، والمعتزلةُ قالوا: هو كلامُ الله، فصاروا أشجعَ من الأشعريَّةِ، قالوا: نقولُ: كلامُ الله ولا نبالي، أمَّا «**عبارةٌ عن كلامِ الله**» فهذا لا يستقيمُ؛ ولهذا قال بعضُ حُذَّاقِ الأشعريَّة: ليس بيننا وبين المعتزلةِ فرقٌ، فإنَّنا متَّفقون على أنَّ ما بين دفتي المصحفِ مخلوقٌ.

والحمدُ لله الذي عافانا ممَّا ابتلاهم به ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران:٨]، الأشعريَّةُ يقولون: الأمرُ والنَّهيُ والخبرُ والاستخبارُ والنِّداءُ والزَّجْرُ كُلُّها معنى واحد، لا تختلفُ إلَّا في الصُّورةِ، وهذا كلامٌ غيرُ معقولٍ، لكن هكذا مَنْ أضلَّه اللهُ -والعياذُ بالله- يقولُ أقوالًا لا يُصدِّقُها العقلُ فضلًا عن النَّقلِ والشَّرعِ.

٤٧٠٢- وَاللهُ أَكْبَرُ أَنْ يَكُونَ رَسُولُهُ الْـ ... ـمَلَكِيُّ أَنْشَأَهُ عَنِ الرَّحْمَنِ

٤٧٠٣- وَاللهُ أَكْبَرُ أَنْ يَكُونَ رَسُولُهُ الْـ ... ـبَشَرِيُّ أَنْشَأَهُ لَنَا بِلِسَانِ

هؤلاء يقولون: إنَّ الصَّوتَ صوتُ جبريلَ، واللهُ عزَّ وجلَّ ليس له صوتٌ، ويقولُ آخَرون: بل هو صوتُ محمَّدٍ، والرَّسولُ المَلَكِيُّ هو جبريلُ عليه السَّلامُ،

وقد أضافَه اللهُ إليه في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢٠]، وأمَّا الرَّسولُ البشريُّ فهو محمَّدٌ صلواتُ الله وسلامُه عليه، وقد أضافه اللهُ إليه في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ [الحاقة:٤٠-٤١]، فاللهُ أكبرُ أنْ يكونَ كلامُ الله هو كلام جبريلَ أو كلامُ الله هو كلام محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.

٤٧٠٤- هَذِي مَقَالاتٌ لَكُمْ يَا أُمَّةَ التْـ ـتَشْبِيهِ مَا أَنْتُمْ عَلَى إِيمَانِ

قَوْلُهُ: «يَا أُمَّةَ التَّشْبِيهِ»؛ يعني: الذين فرُّوا -على زعمِهم- من التَّشبيهِ فعطَّلوا صفاتِ الله عزَّ وجلَّ.

٤٧٠٥- شَبَّهْتُمُ الرَّحْمَنَ بِالأَوْثَانِ في عَدَمِ الكَلامِ وَذَاكَ لِلأَوْثَانِ

قَوْلُهُ: «شَبَّهْتُمُ الرَّحْمَنَ بِالأَوْثَانِ في عَدَمِ الكَلَامِ» فقلتم: إنَّ اللهَ لا يتكلَّمُ.

قَوْلُهُ: «وَذَاكَ لِلأَوْثَانِ» الأوثانُ هي جماداتٌ لا تتكلَّمُ، أمَّا الرَّبُّ عزَّ وجلَّ فإنَّه مُريدٌ متكلِّمٌ.

٤٧٠٦- مِمَّا يَدُلُّ بِأَنَّهَا لَيْسَتْ بِآ لِهَةٍ وَذَا البُرْهَانُ في الفُرْقَانِ

يعني: كونُها لا تتكلَّمُ دليلٌ على أنَّها ليست بآلهةٍ؛ لأنَّها لو كانت آلهةً لنطقت، وذاك في ثلاثةِ مواضعَ من القرآنِ، ذَكَرَها فقال:

٤٧٠٧- في سُورَةِ الأَعْرَافِ مَعْ طَهَ وَثَا لِثِهَا فَلا تَعْدِلْ عَنِ القُرْآنِ

الموضع الأوَّل: في سورةِ «الأعرافِ» في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف:١٤٨]، فاسْتَدَلَّ بعدم تكليمِه على عدمِ صلاحيَّته للألوهيَّةِ.

الموضع الثَّاني: في سورة «طه» في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه:٨٨-٨٩].

الموضع الثَّالث: في سورة «الأنبياء»، في قولِهِ تعالى على لسانِ إبراهيمَ: قال إبراهيمُ: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء:٦٣]، فاستدلَّ بعدم نطقِهم على أنَّهم لا يصلحون أن يكونوا آلهةً، فهذه ثلاثةُ مواضعَ.

إذَنْ استدلَّ اللهُ عزَّ وجلَّ على أنَّ الأصنامَ لا تصلحُ أن تكونَ آلهةً بعدمِ الكلامِ، وهم يقولون: إنَّ اللهَ لا ينطقُ ولا يمكنُ أن ينطقَ، بل كلامُه مخلوقٌ، فشبَّهوه بالأصنامِ.

***

٤٧٠٨- أَفَصَحَّ أَنَّ الـجَاحِدِينَ لِكَوْنِـهِ ... مُتَكَلِّمًا بِحَقِيقَـةٍ وَبَيَـانِ

٤٧٠٩- هُـمْ أَهْـلُ تَعْطِيـلٍ وَتَشْبِيهٍ مَعًـا ... بِالـجَامِدَاتِ عَظِيمَـةُ النُّقْصَانِ

٤٧١٠- لا تَقْذِفُوا بِالدَّاءِ مِنْكُمْ شِيعَةَ الرْ ... رَحْمَـنِ أَهْـلَ العِلْـمِ وَالعِرْفَـانِ

٤٧١١- إِنَّ الَّـذِي نَـزَلَ الأَمِـينُ بِـهِ عَـلَى ... قَلْبِ الرَّسُـولِ الوَاضِـحِ البُرْهَـانِ

٤٧١٢- هُوَ قَوْلُ رَبِّي اللَّفْظُ وَالـمَعْنَى جَمِيـ ... ـعًا إِذْ هُمَـا أَخَـوَانِ مُصْـطَحِبَانِ

٤٧١٣- لا تَقْطَعُوا رَحِمًا تَوَلَّى وَصْـلُهَا الرْ ... رَحْمَـنُ تَنْسَـلِخُوا مِـنَ الإِيـمَانِ

٤٧١٤- وَلَقَدْ شَـفَانَا قَـوْلُ شَـاعِرِنَا الَّـذِي ... قَالَ الصَّـوَابَ وَجَـاءَ بِالإِحْسَـانِ

٤٧١٥- (إِنَّ الَّذِي هُوَ فِي الـمَصَاحِفِ مُثْبَتٌ ... بِأَنَامِـلِ الأَشْـيَاخِ وَالشُّـبَّانِ

٤٧١٦- هُــوَ قَــوْلُ رَبِّي آيُــهُ وَحُرُوفُــهُ   وَمِــدَادُنَا وَالــرِّقُّ مَخْلُوقَــانِ)

الشـرحُ

٤٧٠٨- أَفَصَــحَّ أَنَّ الــجَاحِدِينَ لِكَوْنِــهِ   مُتَــكَلِّمًا بِحَقِيقَــةٍ وَبَيَــانِ

٤٧٠٩- هُــمْ أَهْــلُ تَعْطِيــلٍ وَتَشْــبِيهٍ مَعًــا   بِالــجَامِدَاتِ عَظِيمَــةُ النُّقْصَــانِ

قَوْلُهُ: «أَفَصَحَّ أَنَّ الجَاحِدِينَ...»؛ أي: أَفَصَحَّ أنَّهم هم أهلُ التَّعطيلِ والتَّشبيهِ؟ وفي نسخةٍ: «أَفْصِحْ» وهذا غيرُ صحيحٍ.

قَوْلُهُ: «بِحَقِيقَةٍ وَبَيَانِ»: متعلِّقٌ بـ«صَحَّ»؛ يعني: صَحَّ على وجهِ الحقيقةِ والبيانِ أنَّهم أهلُ تعطيلٍ وتشبيهٍ، فهم في الحقيقةِ قالوا: لا نقولُ: يتكلَّمُ لئلَّا نشبِّهه بالحوادثِ، فنقول: أنتم الآن شبَّهتموه بالجماداتِ، بالأصنامِ، بالأوثانِ، وعطَّلتموه عن كمالِه بالكلامِ.

يقول رحمه اللهُ: أَفَصَحَّ بعد هذا البيانِ الواضحِ أنَّ هؤلاء المنكِرين للكلامِ هم أهلُ التَّعطيلِ والتَّشبيهِ؟ وجوابُ الاستفهامِ: نعم، صَحَّ أنَّهم هم أهلُ التَّعطيلِ وهم أهلُ التَّشبيهِ، شبَّهوه بماذا؟ الجوابُ: «بِالجَامِدَاتِ عَظِيمَةِ النُّقْصَانِ»، والجامداتُ هي التي لا تتكلَّم، فهم عطَّلوا اللهَ عن الكلامِ، وشَبَّهوا اللهَ بالجماداتِ، وجمعوا بين التَّعطيلِ والتَّشبيهِ.

٤٧١٠- لا تَقْذِفُوا بِالدَّاءِ مِنْكُمْ شِيعَةَ الرْ   رَحْمَــنِ أَهْــلَ العِلْــمِ وَالعِرْفَــانِ

هم الآن يقذفون أهلَ السُّنَّةِ بالتَّشبيهِ، يقولون: إنَّهم مُشَبِّهةٌ، فيقول: لا تقذفوا أهلَ السُّنَّة بدائِكم، أنتم المشبِّهةُ؛ لأنَّكم شبَّهتموه بالجماداتِ.

٤٧١١- إِنَّ الَّـذِي نَـزَلَ الأَمِـينُ بِـهِ عَـلَى   قَلْبِ الرَّسُـولِ الوَاضِـحِ البُرْهَـانِ

٤٧١٢- هُوَ قَوْلُ رَبِّي اللَّفْظُ وَالـمَعْنَى جَمِيـ   ـعًا إِذْ هُمَـا أَخَـوَانِ مُصْـطَحِبَانِ

قَوْلُهُ: «إِنَّ الَّذِي نَزَلَ بِهِ الأَمِينُ...» والذي نَزَلَ به الأمينُ على قلبِ محمَّدٍ ﷺ هو القرآنُ.

قَوْلُهُ: «...هُوَ قَوْلُ رَبِّي اللَّفْظُ وَالمَعْنَى جَمِيعًا» أراد بذلك الرَّدَّ على الأشاعرةِ الذين قالوا: إنَّ القرآنَ هو المعنى، وأمَّا اللَّفظُ فليس كلامَ الله، وإنَّما هو عبارةٌ عن كلامِ الله عزَّ وجلَّ، فكلامُ الله هو المعنى، أمَّا نحن فنؤمنُ بأنَّ كلامَ الله هو اللَّفظُ والمعنى.

٤٧١٣- لا تَقْطَعُوا رَحِمًا تَوَلَّى وَصْـلُهَا الـرْ   رَحْمَـنُ تَنْسَـلِخُوا مِـنَ الإِيـمَانِ

الرَّحِمُ هو الارتباطُ بين اللَّفظِ والمعنى، أنتم فرَّقتم بينهما، فقلتم: اللَّفظُ لفظُ المَلَكِ أو لفظُ الرَّسولِ محمَّدٍ، والمعنى: قولُ الله، وهذا لا يصحُّ.

٤٧١٤- وَلَقَدْ شَـفَانَا قَـوْلُ شَـاعِرِنَا الَّـذِي   قَالَ الصَّـوَابَ وَجَـاءَ بِالإِحْسَـانِ

قَوْلُهُ: «شَفَانَا»؛ أي: أَزَالَ عِلَّتَنا وأبرأنا من المرضِ.

قَوْلُهُ: «قَوْلُ شَاعِرِنَا الَّذِي قَالَ الصَّوَابَ» وهو القحطانيُّ[1] -رحمه اللهُ- في «النُّونيَّة القحطانيَّة»، وهي معروفةٌ مشهورةٌ، يقولُ رحمه اللهُ:

٤٧١٥- (إِنَّ الَّذِي هُوَ فِي المَصَاحِفِ مُثْبَـتٌ   بِأَنَامِـلِ الأَشْـيَاخِ وَالشُّـبَّانِ

---

(١) هو محمد بن صالح بن محمد بن سعد بن نزار بن عمرو بن ثعلبة أبو عبد الله القحطاني المعافري الأندلسي الفقيه المالكي، توفي سنة (٣٨٣هـ)، انظر ترجمته في: تاريخ الإسلام للذهبي (٨/ ٥٤٨).

٤٧١٦- هُــوَ قَــوْلُ رَبِّي آيُــهُ وَحُرُوفُــهُ　　　وَمِــدَادُنَا وَالــرِّقُّ مَخْلُوقَــانِ)[(١)]

وهذا التَّفصيلُ هو مذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، فالذي في المصاحفِ مُثْبَتٌ بأناملِ الأشياخِ والشُّبَّانِ، وكانت المصاحفُ سابقًا تُكْتَبُ بأناملِ الأشياخِ الكبارِ والشُّبَّانِ الصِّغار.

وهنا إذا قال قائلٌ: هل القرآنُ المكتوبُ في هذا الكتابِ مخلوقٌ أو لا؟ نُفَصِّلُ فنقول: أمَّا المكتوبُ فليس بمخلوقٍ، وأمَّا المِدَادُ «الحبر» والرَّقُّ وهو ما يُكْتَبُ عليه من جلدٍ أو ورقٍ أو غيرِهما فهما مخلوقان، وكذلك اليدُ التي كَتَبَتْ مخلوقةٌ، كذلك مثلًا لو قرأ قارئ فقال: ما تقولُ في هذه القراءةِ: مخلوقةٌ أو غيرُ مخلوقةٍ؟ أقولُ: أمَّا المقروءُ فغيرُ مخلوقٍ، وأمَّا القارئُ وصوتُه وآلةُ الصَّوتِ من اللسانِ والشَّفَتَيْنِ فهذا مخلوقٌ، وبهذا التَّفصيلِ تزولُ به الشُّبهاتُ.

إِذَنْ عندنا مكتوبٌ، ومقروءٌ، ومكتوبٌ به، ومكتوبٌ فيه، وقارئٌ، كُلُّ هذه يجبُ أن نُفرِّقَ بينها، المكتوبُ والمقروءُ غيرُ مخلوقٍ، فهو قولُ الله عزَّ وجلَّ، والمكتوبُ به -وهو القلمُ والمِدَادُ- مخلوقٌ، والمكتوبُ فيه -وهو الرَّقُّ والورقُ- مخلوقٌ، والكاتبُ والقارئُ مخلوقٌ، والصَّوتُ صوتُ القارئِ مخلوقٌ، واللَّفظُ لفظُ القارئِ مخلوقٌ، والملفوظُ به غيرُ مخلوقٍ، والمسموعُ غيرُ مخلوقٍ.

فإن قال قائلٌ: إنَّ الإمامَ أحمدَ -رحمه الله تعالى- يقولُ: «مَنْ **قال: لفظي بالقرآنِ مخلوقٌ فهو جهمِيٌّ، ومَنْ قال: غيرُ مخلوقٍ فهو مبتدعٌ**»[(٢)]، فأنكر القولَيْنِ جميعًا؟

---

(١) انظر: النونية (ص:٥٣).

(٢) انظر: الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، لأبي الحسين الشافعي (٢/ ٥٧٠).

نقولُ: إنَّ الإمامَ أحمدَ -رحمه اللهُ- بَيَّنَ أنَّ قولَ مَنْ قَالَ: «**لفظي بالقرآنِ مخلوقٌ**» يعني به القرآنَ، كما جاء في روايةٍ أخرى عنه، قال: «**مَنْ قال: لفظي بالقرآنِ مخلوقٌ** -يعني به القرآنَ- **فهو جهميٌّ**»، هذا مذهبُ الجهميَّةِ، وأمَّا مَنْ قال: غيرُ مخلوقٍ فهو مبتدعٌ؛ لأنَّ السَّلَفَ لم يقولوا هكذا، وكان الإمامُ أحمدُ -رحمه اللهُ- حريصًا على ما جاء عن السَّلفِ لا يتعدَّاه ولا يتجاوزُه.

إذَنْ مَنْ قال: «**لفظي بالقرآنِ مخلوقٌ**» نقولُ: أخطأ، ومَنْ قال: «**غيرُ مخلوقٍ**» أخطأ، بل يُفَصِّلُ، فإن أراد باللَّفظِ الملفوظَ به فهو غيرُ مخلوقٍ، وإن قال: مخلوقٌ فهو جهميٌّ، وإن أراد باللَّفظِ التَّلفُّظ الذي هو فعلُ اللَّافظِ فهو مخلوقٌ.

* * *

٤٧١٧- وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى لَكِنَّهُ اسْتَوْلَى عَلَى الأَكْوَانِ

٤٧١٨- وَاللهُ أَكْبَرُ ذُو المَعَارِجِ مَنْ إِلَيْـ ـهِ تَعْرُجُ الأَمْلاكُ كُلَّ أَوَانِ

٤٧١٩- وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ يَخَافُ جَلالَهُ أَمْلاكُهُ مِنْ فَوْقِهِمْ بِبَيَانِ

٤٧٢٠- وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ غَدَا لِسَرِيرِهِ أَطٌّ بِهِ كَالرَّحْلِ لِلرُّكْبَانِ

٤٧٢١- وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ أَتَانَا قَوْلُهُ مِنْ عِنْدِهِ مِنْ فَوْقِ سِتٍّ ثَمَانِ

٤٧٢٢- نَزَلَ الأَمِينُ بِهِ بِأَمْرِ اللهِ مِنْ رَبٍّ عَلَى العَرْشِ اسْتِوَا الرَّحْمَنِ

٤٧٢٣- وَاللهُ أَكْبَرُ قَاهِرٌ فَوْقَ العِبَا دِ فَلا تَضَعْ فَوْقِيَّةَ الرَّحْمَنِ

٤٧٢٤- مِنْ كُلِّ وَجْهٍ تِلْكَ ثَابِتَةٌ لَهُ لا تَهْضِمُوهَا يَا أُولِي البُهْتَانِ

٤٧٢٥- قَهْرًا وَقَدْرًا وَاسْتِوَاءَ الذَّاتِ فَوْ قَ العَرْشِ بِالبُرْهَانِ وَالقُرْآنِ

٤٧٢٦- فَبِذَاتِـهِ خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ العُـلَى ثُــمَّ اسْـتَوَى بِالـذَّاتِ فَـافْهَمْ ذَانِ

٤٧٢٧- فَضَمِيرُ فِعْلِ الإِسْتِوَاءِ يَعُـودُ لِلـذْ ـذَاتِ الَّتِـي ذُكِـرَتْ بِـلا فُرْقَـانِ

٤٧٢٨- هُـوَ رَبُّنَـا هُـوَ خَـالِقٌ هُـوَ مُسْـتَوٍ بِالــذَّاتِ هَـذِي كُلُّهـا بِـوِزَانِ

الشـرحُ

٤٧١٧- وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى لَكِنَّــهُ اسْــتَوْلَى عَــلَى الأَكْــوَانِ

قَوْلُهُ: «وَاللهُ أَكْبَرُ» هذا من الأذانِ الذي أَعْلاهُ.

يُقَالُ: «استولى على كُلِّ الأكوانِ»، و«استوى على العرشِ خاصَّةً»، ثُمَّ نقولُ أيضًا: «استولى على الأكوانِ أزلًا وأبدًا» وليس بعد أنْ خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ، إذَنْ هو استوى على العرشِ خاصَّةً، واستولى على الأكوانِ كُلِّها، فكُلُّ مَنْ سوى الله فاللهُ تعالى مُستَوْلٍ عليه مالكٌ له، قاهرٌ له، مُدبِّرٌ له كيف يشاءُ، فهؤلاء القومُ الذين فسَّروا «استوى» بـ«استولى» لم يُفرِّقوا بين العرشِ والفَرْشِ، فأسفلُ الدُّنيا وأعلى الكونِ عندهم على حدٍّ سواء، كُلُّه استولى عليه اللهُ، فضلُّوا وأضلُّوا.

٤٧١٨- وَاللهُ أَكْـبَرُ ذُو المَعَـارِجِ مَـنْ إِلَيْــ ــهِ تَعْـرُجُ الأَمْـلاكُ كُـلَّ أَوَانِ

وذلك كما قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ [المعارج:١- ٣]، وقولُه: ﴿ذِي﴾: صفةٌ لله، ثُمَّ بيَّن كونَه ذا المعارجِ فقال: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج:٤].

٤٧١٩- وَاللهُ أَكْـبَرُ مَــنْ يَخَــافُ جَلالَــهُ أَمْلاكُــهُ مِــنْ فَــوْقِهُمْ بِبَيَــانِ

كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النَّحل:٥٠]، وهذا فيه إثباتُ العلوِّ.

٤٧٢٠- وَاللهُ أَكْـبَرُ مَـنْ غَـدَا لِسَـرِيرِهِ ... أَطٌّ بِـهِ كَالرَّحْـلِ لِلرُّكْبَـانِ

قَوْلُهُ: «سَرِيرِهِ»؛ أي: عرشِه، فإنَّه قد جاء في الحديثِ أنَّ له أَطِيطًا كَأَطِيطِ الرَّحْلِ[1]، والأَطِيطُ هو ما يُسْمَعُ من صريرِ الرَّحلِ إذا كان عليه حملٌ، فالبعيرُ إذا كان عليه حملٌ ثقيلٌ تجد أنَّ رحلَه يكونُ له صريرٌ، والرَّحلُ هو الذي يكونُ على ظهرِ البعيرِ، يُرْكَبُ عليه ويُشَدُّ عليه المتاعُ، فتسمع له أطيطًا، ونحن نؤمنُ بهذا، ولكنَّنا لا نُشَبِّه.

٤٧٢١- وَاللهُ أَكْـبَرُ مَـنْ أَتَانَـا قَوْلُـهُ ... مِـنْ عِنْـدِهِ مِـنْ فَـوْقِ سِـتٍّ ثَـمَانِ

قَوْلُهُ: «مَنْ أَتَانَا قَوْلُهُ»؛ يعني: القرآنَ.

قَوْلُهُ: «مِنْ عِنْدِهِ مِنْ فَوْقِ سِتٍّ ثَمَانِ» كيف قال: «سِتٍّ ثَمَانِ» مع أنَّ السَّماواتِ سبعٌ وليست سِتًّا؟ الجوابُ: قال: «ثَمَانِ» باعتبار أنَّ العرشَ هو الثَّامنُ، أمَّا قولُه: «سِتٍّ» فهذا إذا أراد أن يُسْقِطَ السَّماءَ الدُّنيا[2]، واللهُ أعلمُ.

٤٧٢٢- نَـزَلَ الأَمِـينُ بِـهِ بِـأَمْرِ اللهِ مِـنْ ... رَبٍّ عَلَى العَـرْشِ اسْـتِوَا الـرَّحْمَنِ

الأمينُ هو جبريلُ، وَصَفَهُ اللهُ بأنَّه أمينٌ وبأنَّه قويٌّ فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢٠]، وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشُّعراء:١٩٣]، وبالقوَّةِ والأمانةِ يحصلُ الكمالُ، قال -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].

٤٧٢٣- وَاللهُ أَكْـبَرُ قَـاهِرٌ فَـوْقَ العِبَـا ... دِ فَـلا تَضَـعْ فَوْقِيَّـةَ الـرَّحْمَنِ

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم»، رقم (٢٣١٢).
(٢) انظر: شرح البيتين (٤١٢، ٥٢٣) من المجلد الأوَّل.

٤٧٢٤- مِـنْ كُـلِّ وَجْـهٍ تِلْـكَ ثَابِتَـةٌ لَـهُ لا تَهْضِـمُوهَا يَـا أُولِي البُهْتَـانِ

قَوْلُهُ: «يَا أُولِي البُهْتَانِ»، وفي نسخةٍ: «يَا أُولِي العُدْوَانِ».

قَوْلُهُ: «فَلَا تُضِعْ» يجوزُ أن تكونَ «فَلَا تَضَعْ»، فيصحُّ هذا وهذا.

قَوْلُهُ: «مِنْ كُلِّ وَجْهٍ تِلْكَ ثَابِتَةٌ لَهُ»؛ يعني: العلوَّ والفوقيَّةَ؛ لأنَّ هؤلاء هضموا الفوقيَّةَ، وقالوا: إنَّها ليست فوقيَّةَ الذَّاتِ وإنَّما هي فوقيَّةُ الصِّفةِ.

٤٧٢٥- قَهْرًا وَقَدْرًا وَاسْـتِوَاءَ الـذَّاتِ فَـوْ قَ العَـرْشِ بِالبُرْهَـانِ وَالقُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «قَهْرًا وَقَدْرًا وَاسْتِوَاءَ الذَّاتِ»؛ يعني أَنَّ علوَّ الله علوُّ قهرٍ وعلوُّ قدرٍ وعلوُّ ذاتٍ؛ ولهذا قال: «وَاسْتِوَاءَ الذَّاتِ» هذا علوُّ الذَّاتِ فوقِ العرشِ بالبرهانِ والقرآنِ.

فاللهُ تعالى ثَبَتَتْ له الفوقيَّةُ بجميع المعاني، فوقيَّةُ الذَّاتِ بمعنى أنَّه فوق كُلِّ شيءٍ، وفوقيَّةُ القدرِ بمعنى أنَّه أشرفُ من كُلِّ شيءٍ، وفوقيَّةُ القهرِ بمعنى أنَّه غالبٌ كُلَّ شيءٍ.

٤٧٢٦- فَبِذَاتِـهِ خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ العُـلَى ثُـمَّ اسْـتَوَى بِالـذَّاتِ فَـافْهَمْ ذَانِ

هذا إشارةٌ إلى قاعدةٍ مفيدةٍ وهي: كُلُّ ما أضافه اللهُ لنفسِه فالمرادُ لذاتِه، فهنا قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، فهو تعالى خَلَقَ بذاتِه، واستوى بذاتِه، كُلُّ الأفعالِ تعودُ على الذَّاتِ، فإذا كانت تعودُ على الذَّاتِ فلماذا نُفَرِّقُ ونقولُ: إنَّه لم يستوِ بذاتِه بل علا بقدرِه؛ ونقولُ: خَلَقَ بِذَاتِهِ؟!

قَوْلُهُ: «فَافْهَمْ ذانِ» بناءً على مَنْ يُلْزِمُ المثنَّى الألفَ ولو كان منصوبًا أو مجرورًا.

٤٧٢٧- فَضَمِيرُ فِعْلِ الإِسْتِوَاءِ يَعُودُ لِلـذْ ـــذَاتِ الَّتِي ذُكِرَتْ بِلا فُرْقَانِ

قَوْلُهُ: «فَضَمِيرُ فِعْلِ الاسْتِوَاءِ يَعُودُ لِلذَّاتِ الَّتِي ذُكِرَتْ» ضميرُ فعلِ الاستواءِ في قولِه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] يعودُ للذَّاتِ التي ذُكِرَت بلا فرقانٍ، لكن أين الذَّاتُ التي ذُكِرَتْ؟ الجوابُ: قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [الأعراف:٥٤] هو نفسُه الرَّبُّ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ [الأعراف:٥٤]؛ أي: الرَّبُّ الذي خَلَقَ.

قَوْلُهُ: «بِلَا فُرْقَانِ»؛ أي: بلا فرقانٍ بين الخلقِ والاستواءِ، فكما أنَّ كُلَّ واحدٍ من النَّاسِ يقولُ: خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ بذاتِه، هو الذي خلقها، لا أخذها، واستوى على العرشِ أيضًا بذاتِه.

فالقاعدةُ أنَّ كُلَّ شيءٍ أضافه اللهُ إلى نفسِه فهو لنفسِه حقيقةً، لكن لا تتوهَّم منه معنى باطلًا، فإنْ خفت إن حدَّثْتَ به أن يتوهَّمَ المخاطَبُ وهمًا باطلًا فدعه، فلا تشوِّش على غيرِك، وهذه القاعدةُ ذكرها ابنُ القيِّم -رحمه اللهُ- في «مختصر الصَّواعِق المُرْسَلَة»، وَأَكْثَرَ من الأمثلةِ الدَّالَّةِ على أنَّ الشَّيءَ إذا أُضِيفَ إلى الله فهو له حقيقة بذاتِه.

٤٧٢٨- هُـوَ رَبُّنَـا هُـوَ خَـالِقٌ هُـوَ مُسْـتَوٍ بِالـذَّاتِ هَـذِي كُلُّهَـا بِـوِزَانِ

هو ربُّنا ذاتُه، وهو الخالقُ ذاتُه، وهو المستوي ذاتُه، كُلُّها بِوِزَانٍ، فكُلُّ الضَّمائرِ الثَّلاثةِ تعودُ إلى الله عزَّ وجلَّ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤].

* * *

٤٧٢٩- وَاللهُ أَكْبَرُ ذُو العُلُوِّ الـمُطْلَقِ الْـ ... ـمَعْلُومِ بِالفِطْرَاتِ لِلإِنْسَانِ

٤٧٣٠- فَعُلُوُّهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ثَابِتٌ ... فَاللهُ أَكْبَرُ جَلَّ ذُو السُّلْطَانِ

٤٧٣١- وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ رَقَا فَوْقَ الطِّبَا ... قِ رَسُولُهُ فَدَنَا مِنَ الدَّيَّانِ

٤٧٣٢- وَإِلَيْهِ قَدْ صَعَدَ الرَّسُولُ حَقِيقَةً ... لا تُنْكِرُوا المِعْرَاجَ بِالبُهْتَانِ

٤٧٣٣- وَدَنَا مِنَ الجَبَّارِ جَلَّ جَلالُهُ ... وَدَنَا إِلَيْهِ الرَّبُّ ذُو الإِحْسَانِ

٤٧٣٤- وَاللهُ قَدْ أَحْصَى الَّذِي قَدْ قُلْتُمُ ... في ذَلِكَ المِعْرَاجِ بِالـمِيزَانِ

٤٧٣٥- قُلْتُمْ خَيَالًا أَوْ أَكَاذِيبًا أَوْ الْـ ... ـمِعْرَاجُ لَمْ يَحْصُلْ إِلَى الرَّحْمَنِ

٤٧٣٦- إِذْ كَانَ مَا فَوْقَ السَّمَاوَاتِ العُلَى ... رَبٌّ إِلَيْهِ مُنْتَهَى الإِنْسَانِ

٤٧٣٧- وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ أَشَارَ رَسُولُهُ ... حَقًّا إِلَيْهِ بِإِصْبَعٍ وَبَنَانِ

٤٧٣٨- في مَجْمَعِ الحَجِّ العَظِيمِ بِمَوْقِفٍ ... دُونَ الـمُعَرَّفِ مَوْقِفِ الغُفْرَانِ

٤٧٣٩- مَنْ قَالَ مِنْكُمْ مَنْ أَشَارَ بِإِصْبَعٍ ... قُطِعَتْ فَعِنْدَ اللهِ يَجْتَمِعَانِ

الشرحُ

يقولُ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- في أذانِه وإعلانِه للسُّنَّة:

٤٧٢٩- وَاللهُ أَكْبَرُ ذُو العُلُوِّ الـمُطْلَقِ الْـ ... ـمَعْلُومِ بِالفِطْرَاتِ لِلإِنْسَانِ

٤٧٣٠- فَعُلُوُّهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ثَابِتٌ ... فَاللهُ أَكْبَرُ جَلَّ ذُو السُّلْطَانِ

قَوْلُهُ: «بِالفِطْرَاتِ لِلإِنْسَانِ»، وفي نسخةٍ: «بِالفِطْرَاتِ وَالإِيمَانِ».

قَوْلُهُ: «ذُو العُلُوِّ المُطْلَقِ»؛ أي: الكاملِ من كُلِّ وجهٍ، فله علوُّ الذَّاتِ، وعلوُّ الصِّفةِ، وعلوُّ القدرِ والقهرِ.

٤٧٣١- وَاللهُ أَكْـبَرُ مَـنْ رَقَـا فَـوْقَ الطِّبَـا ... قِ رَسُـولُهُ فَـدَنَا مِـنَ الـدَّيَّانِ

٤٧٣٢- وَإِلَيْهِ قَـدْ صَـعَدَ الرَّسُـولُ حَقِيقَـةً ... لا تُنْكِـرُوا المِعْـرَاجَ بِالبُهْتَـانِ

٤٧٣٣- وَدَنَـا مِـنَ الجَبَّـارِ جَـلَّ جَلالُـهُ ... وَدَنَـا إِلَيْـهِ الـرَّبُّ ذُو الإِحْسَـانِ

هذا فيه دليلٌ على علوِّ الله أيضًا، فرسولُنا -صلواتُ الله وسلامُه عليه- أُسْرِيَ به إلى بيتِ المقدسِ، قال اللهُ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء:١]، وعُرِجَ به إلى السَّماواتِ العُلَى؛ لأنَّ المعراجَ هو ما يُعْرَجُ به، ودنا من الله عزَّ وجلَّ وخاطبه ، قال الله تعالى في سورة «النَّجمِ»: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ﴾ [النَّجم:٥-٦]؛ أي: هيئةٍ حسنةٍ، ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ [النَّجم:٦]؛ أي: علا، ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النَّجم:٧-٨]؛ يعني: جبريلَ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النَّجم:٩]، ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ [النَّجم:١٠]؛ أي: جبريل ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [النَّجم:١٠]؛ أي: عبدِ الله ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾.

إِذَنْ الصواب في الآيةِ أنَّ قولَه تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ يعودُ إلى جبريلَ؛ لأنَّ اللهَ لا يتدلَّى، بل جبريلُ كان بالأفقِ الأعلِى ثُمَّ دنا من الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- في وقتِ الوحي حتَّى كان قَابَ قَوْسَيْنِ أو أدنى، فأوحى إلى عبدِ الله ما أوحى، لكن لا شكَّ أنَّ الرَّسولَ قَرُبَ من الله؛ لأنَّه صعد إلى ما فوق السَّماواتِ السَّبعِ ووصل إلى مكانٍ سَمِعَ فيه صريفَ أقلامِ القضاءِ تكتب، وهذا المكانُ لم يصل إليه أحدٌ من البشرِ فيما نعلمُ.

هذه كُلُّها آياتُ المعراجِ، وليس هذا موضعَ قصدِها وإلَّا ففيها عِبَرٌ، يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ فيها: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النَّجم:١٧]، ويقولُ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النَّجم:١١].

سبحان الله! الإنسانُ لو يرى أدنى أدنى شيءٍ من هذه الآياتِ زَاغَ بصرُه، وقام يلتفتُ يمينًا وشمالًا: ما هذا؟ لكنَّ محمَّدًا ﷺ ما زَاغَ بصرُه وما طَغَى، ما تجاوز لكمالِ أدبِه وحسنِ خُلقِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وثباتِ جَأْشِه، كذلك الفؤاد ما قال: هذه خيالاتٌ، هذه أوهامٌ، هذه أحلامٌ، أبدًا، ما كذب ما رأى، بل ما رآه فهو حقيقةٌ اطمَأنَّ إليه القلبُ وبصر به وعرف به، هؤلاء يُنكرون المعراجَ يقولون: اللهُ عزَّ وجلَّ ليس في السَّماءِ، أين المعراجُ؟ لا شيءَ، ولهذا يقولُ إليهم: «**لَا تُنْكِرُوا المِعْرَاجَ بِالبُهْتَانِ**».

٤٧٣٤- وَاللهُ قَدْ أَحْصَى الَّذِي قَدْ قُلْتُمُ ... فِي ذَلِكَ المِعْرَاجِ بِالمِيزَانِ

يشيرُ إلى أنَّ هؤلاءِ القومَ أنكروا عروجَ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- إلى اللهِ؛ لأنَّهم يُنكرون علوَّ اللهِ، فإذا أنكروا علوَّ الله لَزِمَ من ذلك إنكارُ مَنْ يعلو إلى اللهِ، أو إنكارُ علوِّ مَنْ يعلو إلى اللهِ.

٤٧٣٥- قُلْتُمْ خَيَالًا أَوْ أَكَاذِيبًا أَوْ الْـ ... ـمِعْرَاجُ لَمْ يَحْصُلْ إِلَى الرَّحْمَنِ

هذه ثلاثةُ أقوالٍ:

الأوَّل: «قُلْتُمْ خَيَالًا»، ومن ذلك قَوْلُ مَنْ قال: **«إنَّ الرَّسولَ لم يُعْرَجْ به حقيقةً، وإنَّما رأى في المنام»**.

الثَّاني: «قُلْتُمْ أَكَاذِيبًا» وذلك؛ لأنَّ من قاعدتِهم أنَّ العقيدةَ لا تثبتُ بأخبارِ الآحادِ مع أنَّ المعراجَ متواترٌ والقرآنَ قد دَلَّ عليه في سورة «النَّجمِ».

الثَّالث: قلتم: إنَّ الرَّسولَ لم يعرجْ إلى الرَّحمنِ، وإنَّما عَرَجَ إلى السَّماواتِ، وأمَّا الرَّحمن فليس فوق السَّماواتِ، فالعروجُ ليس إلى الله، بل عروجٌ إلى ما فوق السَّماواتِ، لكن ليس إلى الله.

فهذه ثلاثةُ أقوالٍ قالوها من أجلِ إنكارِ علوِّ الله عزَّ وجلَّ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

٤٧٣٦- إِذْ كَانَ مَا فَوْقَ السَّمَاوَاتِ العُلَى ... رَبٌّ إِلَيْهِ مُنْتَهَى الإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «إِذْ كَانَ»؛ يعني: إذ كان الأمرُ.

وإذا لم يكن فوق السَّماواتِ رَبٌّ فعروجُ الرَّسولِ إلى غيرِ الله، ويكونُ قد طلع يتفرَّجُ على السَّماواتِ وعلى ما فيها، ثُمَّ رجع.

٤٧٣٧- وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ أَشَارَ رَسُولُهُ ... حَقًّا إِلَيْهِ بِإِصْبَعٍ وَبَنَانِ

هذا أيضًا من الأدلَّةِ أنَّ الرَّسولَ ﷺ أشار إلى الله بالإِصْبَعِ والبَنَانِ[1].

قَوْلُهُ: «إِصْبَع» يقولون: فيها عشرُ لغاتٍ، و«أَنْمُلَة» فيها تسعُ لغاتٍ، وضُبِطَت هذه اللُّغاتُ في بيتٍ واحدٍ، يعني: تسعَ عشرةَ لغةً في بيتٍ واحدٍ، قال فيه النَّاظمُ:

وَهَمْزَ أَنْمُلَةٍ ثَلِّثْ وَثَالِثَهُ التْـ ... ـتِسْعُ فِي إِصْبَعٍ وَاخْتِمْ بِأُصْبُوعِ[2]

---

(١) كما في حديث جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الحج، وفيه: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ: بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ «اللهُمَّ، اشْهَدْ، اللهُمَّ، اشْهَدْ». أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

(٢) البيت في تاج العروس، مادة: نمل، وعزاه للعز القسطلاني.

وعندنا في لغة السَّيَّاراتِ «إصباع» للبطاريَّة، لكن الظَّاهر أنَّها ليست لغةً، فهذه عشرُ لغاتٍ في إِصْبَع، وتسعُ لغاتٍ في أَنْمُلَةٍ.

قَوْلُهُ: «هَمْزَ أَنْمُلَةٍ ثَلِّثْ»؛ أي: بالحركاتِ الثَّلاث؛ الفتحِ والكسرِ والضمِّ، الثَّالث من «أَنْمُلَة» وهي الميمُ أيضًا فيها حركاتٌ ثلاثٌ، وثلاثةٌ في ثلاثةٍ بتسعٍ، «وَاخْتِمْ بِأُصْبُوعٍ» تكونُ عشرةً، تقولُ: إِصْبَع إِصْبِع أُصْبُع، وهكذا، فلا يغلطُ الإنسانُ في أيِّ وجهٍ يقرؤها به.

٤٧٣٨- فِي مَجْمَعِ الحَجِّ العَظِيمِ بِمَوْقِفٍ   دُونَ المُعَرَّفِ مَوْقِفِ الغُفْرَانِ

وهذا لـمَّا نزل الرَّسولُ ﷺ وادي عُرَنَةَ، خطب النَّاسَ في وادي عُرَنَةَ، ووادي عُرَنَةَ ليس هو الـمُعَرَّف، الـمُعَرَّفُ هو عرفةُ لكنَّه قريبٌ منه؛ ولهذا قال: «بِمَوْقِفٍ دُونَ الـمُعَرَّفِ»، وقوله: «مَوْقِفِ الغُفْرَانِ» هذا نعتٌ لـ«الـمُعَرَّفِ» لا للموقفِ الذي خطب فيه الرَّسولُ صلى الله عليه وسلم.

المهمُّ أنَّه نزل هناك وخطب في النَّاسِ خطبةً عظيمةً بليغةً قبل الصَّلاةِ، وقال للنَّاسِ: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»، يَرْفَعُ إِصْبَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا لِلنَّاسِ(١)، «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»؛ يعني: عليهم، قالها -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- ثلاثَ مرَّاتٍ.

٤٧٣٩- مَنْ قَالَ مِنْكُمْ مَنْ أَشَارَ بِإِصْبَعٍ   قُطِعَتْ فَعِنْدَ اللهِ يَجْتَمِعَانِ

هؤلاء المنكرون للعلوِّ يقولون: مَنْ رفَع إصبعَه إلى السَّماءِ مشيرًا إلى علوِّ الله وَجَبَ قطعُها، وعلى هذا فيجبُ قطعُ إصبعِ النَّبِيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلَامُ؛ لأنَّه

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

رَفَعَهَا مشيرًا إلى علوِّ الله؛ ولهذا أنا أرى شخصيًّا أنَّ الذي يُنْكِرُ علوَّ الله كافرٌ؛ لأنَّه مكذِّبٌ للقرآنِ والسُّنَّةِ وإجماعِ السَّلفِ والعقلِ والفطرةِ تكذيبًا صريحًا، فإنْ لم يَكْفُرْ هذا فَمنِ الذي يَكْفُرُ؟! سبحان الله! أدلَّةٌ عظيمةٌ كُلُّها قاطعةٌ أشدُّ من الشَّمسِ ظهورًا، ثُمَّ تُنْكَرُ، نعم؛ إذا كان الإنسانُ جاهلًا تابعًا لأئمَّةِ الضَّلالِ ولا يدري عن الحقِّ فهذا يُعْذَرُ كما دَلَّتْ على ذلك آياتٌ كثيرةٌ وأحاديثُ، لكن إذا تبيَّنَ الحقُّ فلا عذرَ لأحدٍ، يقولُ ابنُ القيِّم: «**فَعِنْدَ الله يَجْتَمِعَانِ**»؛ أي: يوم القيامة يختصمان إلى الله، فمحمَّدٌ رسولُ الله الذي أشار إلى السَّماءِ، ومَنْ قال: «**مَنْ رَفَعَ إصبعَه إلى السَّماءِ قُطِعَت إصبعُه**» يجتمعان، وما ظنُّكَ بأحدٍ يكونُ خصمَه محمَّدٌ ﷺ؛ إنَّه لمهزومٌ وإنَّه لمخصومٌ.

انتَبِهوا للخلافِ بيننا وبين أهلِ البدعِ، فلا يكونُ في الدُّنيا فقط، بل في يوم القيامة نخاصِمُهم، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزُّمر:٣٠-٣١]، وقال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:٣]؛ أي: نحاكمُهم، ومن المعلومِ أنَّ اللهَ لن يجعلَ لأهلِ الباطلِ سبيلًا على أهلِ الحقِّ كما قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النِّساء:١٤١]، كذلك أيضًا غيرُ الكافرين ممَّن هم على باطلٍ لن يجعلَ اللهُ لهم حقًّا على أهلِ الحقِّ.

* * *

٤٧٤٠- وَاللهُ أَكْـبَرُ ظَـاهِرٌ مَـا فَوْقَـهُ ... شَيْءٌ وَشَـأْنُ الله أَعْظَـمُ شَـانِ

٤٧٤١- وَاللهُ أَكْـبَرُ عَرْشُـهُ وَسِـعَ السَّـمَا ... وَالأَرْضَ وَالكُـرْسِيَّ ذَا الأَرْكَـانِ

٤٧٤٢- وَكَذَلِكَ الكُرْسِيُّ قَدْ وَسِـعَ الطِّبَـا ... قَ السَّـبْعَ وَالأَرَضِـينَ بِالبُرْهَـانِ

٤٧٤٣- وَاللهُ فَوْقَ العَرْشِ وَالكُرْسِيِّ لَا ... يَخْفَى عَلَيْهِ خَوَاطِرُ الإِنْسَانِ

٤٧٤٤- لَا تَحْصُرُوهُ فِي مَكَانٍ إِذْ تَقُو ... لُوا رَبُّنَا حَقًّا بِكُلِّ مَكَانِ

٤٧٤٥- نَزَّهْتُمُوهُ بِجَهْلِكُمْ عَنْ عَرْشِهِ ... وَحَصَرْتُمُوهُ فِي مَكَانٍ ثَانِ

٤٧٤٦- لا تُعْدِمُوهُ بِقَوْلِكُمْ لا دَاخِلٌ ... فِينَا وَلا هُوَ خَارِجُ الأَكْوَانِ

٤٧٤٧- اللهُ أَكْبَرُ هُتِّكَتْ أَسْتَارُكُمْ ... وَبَدَتْ لِمَنْ كَانَتْ لَهُ عَيْنَانِ

٤٧٤٨- وَاللهُ أَكْبَرُ جَلَّ عَنْ شِبْهٍ وَعَنْ ... مِثْلٍ وَعَنْ تَعْطِيلِ ذِي كُفْرَانِ

٤٧٤٩- وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ لَهُ الأَسْمَاءُ وَالْـ ... أَوْصَافُ كَامِلَةٌ بِلا نُقْصَانِ

الشرحُ

٤٧٤٠- وَاللهُ أَكْبَرُ ظَاهِرٌ مَا فَوْقَهُ ... شَيْءٌ وَشَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ شَانِ

وهذا تفسيرُ أعلمِ الخلقِ بكتابِ الله، قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»[1]، والظَّاهِرُ؛ أي: العالي، فإذا كان هذا تفسيرَ محمَّدٍ ﷺ فكيف يُنْكَرُ؟! ولكنْ قال الكافرون للرَّسولِ ﷺ: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٤-٥]، فوصفوا الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بالسِّحرِ والكذبِ، ووصفوا التَّوحيدَ بالشَّيءِ العُجَابِ، والعُجَابُ أبلغُ من العَجَبِ، وأبلغُ من العجيب، فهم قالوا: كيف يجعلُ الآلهةَ إلـهًا واحدًا؟!

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٣).

٤٧٤١- وَاللهُ أَكْـبَرُ عَرْشُـهُ وَسِـعَ السَّـمَا وَالأَرْضَ وَالكُـرْسِيَّ ذَا الأَرْكَـانِ

إذَنْ فهو أكبرُ من السَّماءِ والأرضِ والكرسيِّ.

٤٧٤٢- وَكَذَلِكَ الكُرْسِيُّ قَدْ وَسِعَ الطِّبَا قَ السَّـبْعَ وَالأَرَضِـينَ بِالبُرْهَـانِ

البرهانُ هو قولُه تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، إذَنْ عندنا ثلاثةُ أشياءَ: السَّماوات والأرض وسعها الكرسيُّ، والكرسيُّ وَسِعَهُ العرشُ، إذَنْ العرشُ أكبرُ الثَّلاثةِ، ولا يقدرُ قدرَه إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ.

والمؤلِّفُ -رحمه اللهُ- ذكر ما دَلَّتْ عليه الآثارُ؛ إذ إنَّ العرشَ أكبرُ من الكرسيِّ، والكرسيُّ أكبرُ من السَّماواتِ والأرضِ، أمَّا كونُ الكرسيِّ أكبرَ من السَّماواتِ والأرضِ فهذا في القرآنِ الكريمِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وأمَّا كونُ العرشِ أوسعَ من الكرسيِّ فهذا قد جاءت به الآثارُ، فـ«**السَّماواتُ والأرضون**» كحلقةِ الدِّرعِ، فهي يسيرةٌ مثل الأنملةِ بل أقلُّ، نسبةُ هذه الحلْقةِ إلى فَلاةٍ من الأرضِ ليس بشيءٍ، «**وَفَضْلُ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الفَلَاةِ عَلَى الحَلْقَة**»[1]، سبحان الله! مخلوقاتٌ عظيمةٌ، هذا وهو مخلوقٌ، فكيف بالخالقِ؟!

الآن لا يمكنُ أنْ يتصوَّرَ الإنسانُ عظمَ الكرسيِّ ولا عظمَ العرشِ، فكيف بالخالقِ جلَّ وعلا؟! واللهُ تعالى فوق ذلك كُلِّه ليس محصورًا بمكانٍ، هو فوق كُلِّ شيءٍ، فما فوق المخلوقاتِ عدمٌ فضاءٌ، لا يُوجَدُ شيءٌ، ليس ثَمَّ إلَّا اللهُ عزَّ جلَّ، فلا يحيطُ به شيءٌ من مخلوقاتِه، ولا هو حالٌّ في شيءٍ من مخلوقاتِه.

(١) أخرجه ابن حبان (٢/ ٧٧، رقم ٣٦١).

٤٧٤٣- وَاللهُ فَوْقَ العَرْشِ وَالكُرْسِيِّ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَوَاطِرُ الإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «وَاللهُ»، وفي نسخةٍ: «وَالرَّبُّ».

إذا كانت خواطرُنا لا تخفى على ربِّنا فما بالُك بأقوالِنا وأفعالِنا؟ الجوابُ: تكونُ أولى بالعلمِ.

٤٧٤٤- لَا تَحْصُرُوهُ فِي مَكَانٍ إِذْ تَقُولُوا رَبُّنَا حَقًّا بِكُلِّ مَكَانِ

وهذا أحدُ أقوالِ أهلِ التَّعطيلِ الذين يقولون: إنَّ اللهَ بذاتِه في كُلِّ مكانٍ؛ في المسجدِ، في الحجرةِ، في البيتِ، في السُّوقِ، في الحُشِّ، في الأقذارِ، في الأنتانِ، في الأوساخِ، في كُلِّ مكانٍ، قاتلهم اللهُ!

ولا ريبَ أنَّ مَن اعتقد في ربِّه هذا أنَّه كافرٌ كُفرًا يخرجُ به من المِلَّةِ؛ لأنَّه مُكَذِّبٌ للنُّصوصِ الصَّريحةِ الواضحةِ في علوِّ الله عزَّ وجلَّ، ثُمَّ إنَّه قد تنقَّص اللهَ غايةَ التَّنَقُّصِ والعياذُ بالله، أنْ جعله في مكانِ الحشوشِ، لو خاطب ملكًا من الملوكِ في الدُّنيا قال: أنت في الحُشِّ، ماذا يقولُ؟ الجوابُ: يُعْدِمُه.

٤٧٤٥- نَزَّهْتُمُوهُ بِجَهْلِكُمْ عَنْ عَرْشِهِ وَحَصَرْتُمُوهُ فِي مَكَانٍ ثَانِ

قالوا: ليس على العرشِ، لكنَّه في الحُشِّ، ليس فوقَ العرشِ، لكنَّه داخلُ الحُشِّ، أعوذُ بالله! فهم نزَّهوه عن العرشِ الذي هو أعلى المخلوقاتِ وأعظمُها، لكنَّهم تنقَّصوه بقولهم: «في كُلِّ مكانٍ».

٤٧٤٦- لا تُعْدِمُوهُ بِقَوْلِكُمْ لا دَاخِلٌ فِينَا وَلا هُوَ خَارِجُ الأَكْوَانِ

قَوْلُهُ: «لَا تُعْدِمُوهُ»؛ يعني: لا تجعلوه معدومًا بقولِكم: «لا داخلٌ فينا ولا هو خارجُ الأكوانِ».

وهذا رأيٌ آخرُ لأهلِ التَّعطيلِ، يقولون: ليس اللهُ داخلَ العالمِ ولا خارجَه، وقصَّةُ ابن فورك مع محمود بن سبكتكين -رحمه اللهُ تعالى- مشهورةٌ، فقد ناظره وقال: إذا كنت تقولُ في ربِّك هذا فأين اللهُ؟! فقد وَصَفْتَ ربَّك بالعدمِ المحضِ والعياذُ بالله، والطَّائفةُ الأولى تقولُ: «في كُلِّ مكانٍ»، وكلاهما ضالَّةٌ، ونحن نقولُ: ربُّنا فوق السَّماواتِ، ولا يخفى عليه شيءٌ من أعمالِنا، وليس داخلَ العالمِ، بل هو فوق العالـمِ.

٤٧٤٧- اللهُ أَكْـبَرُ هُتِّكَـتْ أَسْـتَارُكُمْ وَبَـدَتْ لِـمَنْ كَانَـتْ لَـهُ عَيْنَـانِ

قَوْلُهُ: «هُتِّكَتْ»؛ يعني: مُزِّقَت.

الأستارُ التي تتستَّرون بها وتقولون: نحن أهلُ التَّنزيهِ لله، هُتِّكَت -ولله الحمدُ- بما أبانه أهلُ السُّنَّةِ من الحقِّ.

٤٧٤٨- وَاللهُ أَكْـبَرُ جَـلَّ عَـنْ شِـبْهٍ وَعَـنْ مِثْـلٍ وَعَـنْ تَعْطِيـلِ ذِي كُفْـرَانِ

ذكر أيضًا طائفتَيْنِ متضادَّتين ضالَّتين مبتدعتين «**اللهُ أَكْبَرُ جَلَّ عَنْ شِبْهٍ وَعَنْ مِثْلٍ**» خلافًا لِـمَنْ قال بالتَّمثيلِ، «**وَجَلَّ عَنْ تَعْطِيلِ ذِي كُفْرَانِ**» خلافًا لِـمَنْ نَفَى الصِّفاتِ.

فالمشبِّهةُ والممثِّلةُ قالوا: إنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- مماثلٌ لخلقِه، فوجهُ الله كوجوهِ الخلقِ، عينُه كذلك، يدُه كذلك، مثَّلوه بالخلقِ، والمعطِّلةُ عطَّلوه فقالوا: ليس له يدٌ ولا رجلٌ ولا وجهٌ ولا شيءٌ.

واعلم أنَّ كُلَّ ممثِّلٍ معطِّلٌ وكُلَّ معطِّلٍ ممثِّلٌ، شاؤوا أم أَبَوْا؛ فكُلُّ ممثِّلٍ معطِّلٌ من ثلاثة وجوه:

أوَّلًا: لأنَّ الممثِّل عَطَّلَ كُلَّ نصٍّ أَثْبَتَ به الصِّفةَ؛ إذ إنَّ النَّصَّ الذي ثَبَتَتْ به الصِّفةُ لا يدلُّ على التَّمثيلِ أبدًا.

ثانيًا: أنَّه عَطَّلَ اللهَ من كمالِه الواجب.

ثالثًا: أنَّه عَطَّلَ كُلَّ نصٍّ يدلُّ على نفي المماثلةِ للخلقِ.

والمعطِّلُ ممثِّلٌ أيضًا؛ لأنَّه إذا عَطَّلَ اللهَ، وقال: اللهُ ليس له وجهٌ، ولا ينزلُ إلى السَّماءِ الدُّنيا، ولا يستوي على العرشِ، فإنَّما بنى هذا التَّعطيلَ على اعتقادِ أنَّه لو لم يفعل لَـمَثَّلَ، فيكون مَثَّلَ أوَّلًا، ثُمَّ عَطَّلَ ثانيًا، ثُمَّ إذا نَفَى جميعَ الصِّفاتِ فقد مَثَّلَ أيضًا، مَثَّلَ بالشَّيءِ المعدومِ؛ لأنَّه ما من شيءٍ قَائِمٍ بنفسِه إلَّا وله صفةٌ، فإذا نَفَى عنه الصِّفةَ، فليس قَائِمًا بنفسِه، اللَّهمَّ اهدنا الصِّراطَ المستقيمَ، اللَّهمَّ عَافِنَا.

فالنَّاسُ طرفان ووسطٌ، أهلُ التَّمثيلِ أثبتوا مع التَّمثيلِ، وأهلُ التَّعطيلِ نَفَوْا، وأهلُ السُّنَّةِ أثبتوا بدون تمثيلٍ.

٤٧٤٩- وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ لَهُ الأَسْمَاءُ وَالْـ ... أَوْصَافُ كَامِلَةٌ بِلا نُقْصَانِ

لـمَّا ذكر أنَّ اللهَ انتفى عنه الشِّبْهُ والمِثْلُ بَيَّنَ أنَّه إمَّا انتفى عنه الشِّبْهُ والمِثْلُ لكمالِ أوصافِه عزَّ وجلَّ، لا يلحقه أحدٌ في كمالِ أوصافِه وتمامِها.

* * *

٤٧٥٠- وَاللهُ أَكْبَرُ جَلَّ عَنْ وَلَدٍ وَصَا ... حِبَةٍ وَعَنْ كُفْءٍ وَعَنْ أَخْدَانِ

٤٧٥١- وَاللهُ أَكْبَرُ جَلَّ عَنْ شِبْهِ الـجَمَا ... دِ كَقَوْلِ ذِي التَّعْطِيلِ وَالكُفْرَانِ

٤٧٥٢- هُمْ شَبَّهُوهُ بِالـجَمَادِ وَلَيْتَهُمْ ... قَدْ شَبَّهُوهُ بِكَامِلٍ ذِي شَانِ

٤٧٥٣- وَاللهُ أَكْبَرُ جَلَّ عَنْ شِبْهِ العِبَا دِ فَذَانِ تَشْبِيهَانِ مُمْتَنِعَانِ

٤٧٥٤- وَاللهُ أَكْبَرُ وَاحِدٌ صَمَدٌ وَكُلْ لُ الشَّأْنِ فِي صَمَدِيَّةِ الرَّحْمَنِ

٤٧٥٥- نَفَتِ الوِلادَةَ وَالأُبُوَّةَ عَنْهُ وَالْـ كُفْءَ الَّذِي هُوَ لازِمُ الإِنْسَانِ

٤٧٥٦- وَكَذَاكَ أَثْبَتَتِ الصِّفَات جَمِيعَهَا لله سَالِمَةً مِنَ النُّقْصَانِ

٤٧٥٧- وَإِلَيْهِ يَصْمُدُ كُلُّ مَخْلُوقٍ فَلَا صَمَدٌ سِوَاهُ عَزَّ ذُو السُّلْطَانِ

٤٧٥٨- لَا شَيْءَ يُشْبِهُهُ تَعَالَى كَيْفَ يُشْـ ـبِهُ خَلْقَهُ مَا ذَاكَ فِي الإِمْكَانِ

٤٧٥٩- لَكِنْ ثُبُوتُ صِفَاتِهِ وَكَلامِهِ وَعُلُوِّهِ حَقًّا بِلا نُكْرَانِ

٤٧٦٠- لا تَجْعَلُوا الإِثْبَاتَ تَشْبِيهًا لَهُ يَا فِرْقَةَ التَّلْبِيسِ وَالطُّغْيَانِ

٤٧٦١- كَمْ تَرْتَقُونَ بِسُلَّمِ التَّنْزِيهِ لِلتَّـ ـعْطِيلِ تَرْوِيجًا عَلَى العُمْيَانِ

٤٧٦٢- فَاللهُ أَكْبَرُ أَنْ تَكُونَ صِفَاتُهُ كَصِفَاتِنَا جَلَّ العَظِيمُ الشَّانِ

٤٧٦٣- هَذَا هُوَ التَّشْبِيهُ لا إِثْبَاتُ أَوْ صَافِ الكَمَالِ فَمَا هُمَا سِيَّانِ

الشرحُ

٤٧٥٠- وَاللهُ أَكْبَرُ جَلَّ عَنْ وَلَدٍ وَصَا حِبَةٍ وَعَنْ كُفْءٍ وَعَنْ أَخْدَانِ

قَوْلُهُ: «جَلَّ عَنْ وَلَدٍ»؛ أي: تنزَّه وعَظُمَ عن ولدٍ، لا ذكرٌ ولا أنثى، وقد قالت اليهودُ: عزيرٌ ابنُ الله، وقالت النَّصارى: المسيحُ ابنُ الله، وقال المشركون: الملائكةُ بناتُ الله، واللهُ عزَّ وجلَّ منزَّهٌ عن هذا كُلِّه.

قَوْلُهُ: «وَعَنْ كُفْءٍ»؛ أي: مكافِئٍ له في أسمائِه وصفاتِه وأفعالِه.

قَوْلُهُ: «وَعَنْ أَخْدَانِ»؛ أي: مُصَاحِبٍ.

٤٧٥١- وَاللهُ أَكْبَرُ جَلَّ عَنْ شِبْهِ الـجَمَا دِ كَقَوْلِ ذِي التَّعْطِيلِ وَالكُفْرَانِ

٤٧٥٢- هُمْ شَبَّهُوهُ بِالـجَمَادِ وَلَيْتَهُمْ قَدْ شَبَّهُوهُ بِكَامِلٍ ذِي شَانِ

قَوْلُهُ: «وَاللهُ أَكْبَرُ جَلَّ عَنْ شِبْهِ الجَمَادِ» اللهُ أكبرُ! أيضًا جَلَّ عن شِبْهِ الجمادِ، وأهلُ التَّعطيلِ شبَّهوه بالجمادِ، فقالوا: ليس له سمعٌ، ولا بصرٌ، ولا كلامٌ، ولا فعلٌ، ولا استواءٌ، ولا نزولٌ، فشبَّهوه بالجمادِ.

قَوْلُهُ: «وَلَيْتَهُمْ قَدْ شَبَّهُوهُ بِكَامِلٍ ذِي شَانِ»؛ يعني: ليتهم شبَّهوه بمَنْ يتكلَّمُ كالإنسانِ مثلًا الذي فَضَّلَه اللهُ على كثيرٍ ممَّن خلق تفضيلًا.

وتمنِّي المؤلِّفِ هنا ليس يريدُ به تمنِّي الكمالِ، بل هذا الذي تمنَّاه خيرٌ من الأوَّلِ فقط؛ يعني: ليتهم اقتصروا على أن قالوا: إنَّه مثلُ الإنسانِ فقط، بل قالوا: إنَّه مثلُ الجمادِ.

٤٧٥٣- وَاللهُ أَكْبَرُ جَلَّ عَنْ شِبْهِ العِبَا دِ فَذَانِ تَشْبِيهَانِ مُمْتَنِعَانِ

ما هما؟ تشبيهُه بالجمادِ، وتشبيهُه بالعبادِ الأحياءِ، وهو مُنَزَّهٌ عن هذا وعن هذا.

٤٧٥٤- وَاللهُ أَكْبَرُ وَاحِدٌ صَمَدٌ وَكُلْ لُ الشَّأْنِ فِي صَمَدِيَّةِ الرَّحْمَنِ

اللهُ أكبرُ، واحدٌ صَمَدٌ، وفي القرآنِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الاخلاص:١-٢]، وفيه قولُه تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، فهو واحدٌ أحدٌ صَمَدٌ، وكُلُّ الشَّأنِ في صمديَّةِ الرَّحمنِ؛ لأنَّ الصَّمديَّةَ تعني: كمالَ غناه عن خلقِه، وافتقارَ خلقِه إليه؛ ولهذا كان كُلُّ الشَّأنِ فيها.

٤٧٥٥- نَفَتِ الـوِلادَةَ وَالأُبُـوَّةَ عَنْـهُ وَالْـ ... كُـفْـءَ الَّـذِي هُـوَ لازِمُ الإِنْسَـانِ

قَوْلُهُ: «نَفَتِ الوِلَادَةَ»؛ لأَنَّه غَنِيٌّ عنها.

قَوْلُهُ: «وَالأُبُوَّةَ عَنْهُ»؛ لأنَّه هو الأوَّلُ الذي ليس قبله شيءٌ، ولو كان له أبٌ لكان محتاجًا إليه، واللهُ لا يحتاجُ إلى أحدٍ.

قَوْلُهُ: «وَالكُفْءَ»؛ لأَنَّه لا أحدَ يكونُ مثلَ الله عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «الَّذِي هُوَ لَازِمُ الإِنْسَانِ» الإنسانُ لا بُدَّ له من ولادةٍ؛ أبوَّةٍ أو أُمومةٍ، ولا بُدَّ له من كفءٍ، كُلُّ النَّاسِ لهم أكفاءٌ.

٤٧٥٦- وَكَذَاكَ أَثْبَتَـتِ الصِّـفَات جَمِيعَهَـا ... للهِ سَالِـــمَةً مِـــنَ النُّقْصَـــانِ

هذا غناه، وأمَّا افتقارُ غيرِه إليه فقال:

٤٧٥٧- وَإِلَيْـهِ يَصْـمُدُ كُـلُّ مَخْلُـوقٍ فَـلَا ... صَـمَدٌ سِـوَاهُ عَـزَّ ذُو السُّـلْطَانِ

إذَنْ الصَّمديَّةُ هي كمالُ غنى الله وافتقارُ جميعِ الخلقِ إليه.

٤٧٥٨- لَا شَيْءَ يُشْبِهُهُ تَعَالَى كَيْفَ يُشْـ ... ـبِهُ خَلْقَـهُ مَـا ذَاكَ فِي الإِمْكَـانِ

يعني: أنَّ مشابهةَ الله لخلقِه أمرٌ مستحيلٌ لا يمكنُ.

٤٧٥٩- لَكِـنْ ثُبُـوتُ صِـفَاتِهِ وَكَلَامِـهِ ... وَعُلُـوِّهِ حَقًّـا بِـلا نُكْـرَانِ

قَوْلُهُ: «وَعُلُوِّهِ حَقًّا»، ويجوزُ: «وَعُلُوُّهُ» عطفًا على «ثُبُوتُ».

المعنى: أنَّه عزَّ وجلَّ لا يُشبهُه أحدٌ مع ثبوتِ صفاتِه وعلوِّه على خلقِه وكلامِه.

٤٧٦٠- لا تَجْعَلُـوا الإِثْبَـاتَ تَشْـبِيهًا لَـهُ   يَـا فِرْقَـةَ التَّلْبِـيسِ وَالطُّغْيَـانِ

قَوْلُهُ: «**يا فِرْقَةَ التَّلْبِيسِ**»، وفي نسخةٍ: «**يَا فِرْقَةَ التَّشْبِيهِ**»، والأوَّلُ أصحُّ.

هؤلاء الذين عطَّلوا اللهَ زعموا أنَّ كُلَّ مَنْ أَثْبَتَ لله صفةً فهو مُشَبِّهٌ، ثُمَّ قالوا: وبناءً على ذلك لا يجوزُ أن نثبتَ لله صفةً؛ لأنَّنا لو أَثْبَتْنَا لله صفةً لوقعنا في التَّشبيهِ، فيلبِّسون على العامَّةِ، ويقولون مثلًا إذا سَمِعُوا رجلًا يقولُ: إنَّ لله يدينِ، صرخوا وقالوا: أعوذُ بالله شَبَّهْتَ، أَلْـحَدْتَ، كَفَرْتَ، عَبَدْتَ صنمًا، يصرخُ في وجهِه، وإذا سَمِعَ العوامُّ ذلك يقولون: صدق سيِّدُنا، ويُصفِّقون وراءَهم، ولذلك يلبِّسون على العوامِّ بهذا.

إذَنْ هم يُسمُّون أهلَ الإثباتِ بالمشبِّهةِ والمجسِّمةِ والحَشْوِيَّةِ، وما أشبه ذلك من ألقابِ السُّوء، وقد سبقهم آباؤهم في هذا حيث شبَّهوا الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بأنَّه ساحرٌ مجنونٌ شاعرٌ كاهنٌ.

٤٧٦١- كَـمْ تَرْتَقُـونَ بِسُـلَّمِ التَّنْزِيـهِ لِلتْـ   ـتَعْطِيلِ تَرْوِيجًـا عَـلَى العُمْيَـانِ

قَوْلُهُ: «**كَمْ تَرْتَقُونَ بِسُلَّمِ التَّنْزِيهِ لِلتَّعْطِيلِ**» «**اللام**» بمعنى «**إلى**».

يعني: كم ترتقون بسلَّم التَّنزيه إلى التَّعطيلِ، تعطِّلون اللهَ تدَّعون أنَّكم تنزِّهونه ترويجًا على العُميانِ.

٤٧٦٢- فَـاللهُ أَكْـبَرُ أَنْ تَكُـونَ صِـفَاتُهُ   كَصِـفَاتِنَا جَـلَّ العَظِـيمُ الشَّـانِ

نعم، هو عزَّ وجلَّ أكبرُ من أن تكونَ صفاتُه كصفاتِنا.

٤٧٦٣- هَـذَا هُـوَ التَّشْـبِيهُ لا إِثْبَـاتُ أَوْ ... صَـافِ الكَـمَالِ فَـمَا هُمَـا سِـيَّانِ

قَوْلُهُ: «هَذَا هُوَ التَّشْبِيهُ»؛ يعني: أن نجعلَ صفاتِ الله كصفاتِنا.

قَوْلُهُ: «لَا إِثْبَاتُ أَوْصَافِ الكَمَالِ فَمَا هُمَا سِيَّانِ» صدق رحمه اللهُ، لا يستوي مَنْ أَثْبَتَ لله صفاتِ الكمالِ ومَنْ أَثْبَتَ لله صفاتٍ تماثلُ صفاتِ المخلوقين.

إذَنْ هذا الفصلُ كُلُّه أذانٌ؛ ولهذا كُلَّما أراد أن يتكلَّمَ عن مسألةٍ قال: «اللهُ أَكْبَرُ».

* * *

فصـــل

في تلازمِ التَّعْطِيلِ والشِّرْكِ

٤٧٦٤- وَاعْلَمْ بِأَنَّ الشِّرْكَ وَالتَّعْطِيلَ مُذْ ... كَانَا هُمَا لا شَكَّ مُصْطَحِبَانِ

٤٧٦٥- أَبَدًا فَكُلُّ مُعَطِّلٍ هُوَ مُشْرِكٌ ... حَتْمًا وَهَذَا وَاضِحُ التِّبْيَانِ

٤٧٦٦- فَالعَبْدُ مُضْطَرٌّ إِلَى مَنْ يَكْشِفُ الْـ ... بَلْوَى وَيُغْنِي فَاقَةَ الإِنْسَانِ

٤٧٦٧- وَإِلَيْهِ يَصْمُدُ فِي الحَوَائِجِ كُلِّهَا ... وَإِلَيْهِ يُفْزَعُ طَالِبًا لِأَمَانِ

٤٧٦٨- فَإِذَا انْتَفَتْ أَوْصَافُهُ وَفِعَالُهُ ... وَعُلُوُّهُ مِنْ فَوْقِ كُلِّ مَكَانِ

٤٧٦٩- فَزِعَ العِبَادُ إِلَى سِوَاهُ وَكَانَ ذَا ... مِنْ جَانِبِ التَّعْطِيلِ وَالنُّكْرَانِ

٤٧٧٠- فَمُعَطِّلُ الأَوْصَافِ ذَاكَ مُعَطِّلُ التْـ ... ـتَوْحِيدِ حَقًّا ذَانِ تَعْطِيلانِ

٤٧٧١- قَدْ عَطَّلَا بِلِسَانِ كُلِّ الرُّسْلِ مِنْ ... نُوحٍ إِلَى المَبْعُوثِ بِالقُرْآنِ

٤٧٧٢- وَالنَّاسُ فِي هَذَا ثَلاثُ طَوَائِفٍ ... مَا رَابِعٌ أَبَدًا بِذِي إِمْكَانِ

٤٧٧٣- إِحْدَى الطَّوَائِفِ مُشْرِكٌ بِإِلَهِهِ ... فَإِذَا دَعَاه دَعَا إِلَهًا ثَانِ

٤٧٧٤- هَذَا وَثَانِي هَذِهِ الأَقْسَامِ ذَا ... لَكَ جَاحِدٌ يَدْعُو سِوَى الرَّحْمَنِ

٤٧٧٥- هُوَ جَاحِدٌ لِلرَّبِّ يَدْعُو غَيْرَهُ ... شِرْكًا وَتَعْطِيلًا لَهُ قَدَمَانِ

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلٌ فِي تَلَازُمِ التَّعْطِيلِ وَالشِّرْكِ» التَّلازمُ؛ أي: جعلُ الشَّيءِ لازمًا للشَّيءِ؛ وذلك أنَّ الدَّلالاتِ إمَّا تضمُّنٌ أو مطابقةٌ أو التزامٌ، والشَّيءُ إمَّا مستقلٌّ وإمَّا لازمٌ، واللَّازمُ تابعٌ للملزومِ، يقولُ رحمه اللهُ:

٤٧٦٤- وَاعْلَمْ بِأَنَّ الشِّرْكَ وَالتَّعْطِيلَ مُذْ ... كَانَا هُمَا لا شَكَّ مُصْطَحِبَانِ

يعني: اعلم بأنَّ الشِّركَ والتَّعطيلَ مصطحبان؛ يعني: يصحبُ أحدُهما الآخرَ.

٤٧٦٥- أَبَدًا فَكُلُّ مُعَطِّلٍ هُوَ مُشْرِكٌ ... حَتْمًا وَهَذَا وَاضِحُ التِّبْيَانِ

فالمعطِّلُ مشركٌ، ويقولُ ابنُ القيِّمِ: «حَتْمًا وَأَنَّ هَذَا وَاضِحُ التِّبْيَانِ»، ثُمَّ شرع يُبيِّنُه فقال:

٤٧٦٦- فَالعَبْدُ مُضْطَرٌّ إِلَى مَنْ يَكْشِفُ الْـ ... بَلْوَى وَيُغْنِي فَاقَةَ الإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «إِلَى مَنْ يَكْشِفُ البَلْوَى»؛ يعني: يزيلُ الضُّرَّ.

قَوْلُهُ: «وَيُغْنِي فَاقَةَ الإِنْسَانِ»؛ يعني: يجلبُ النَّفعَ.

فكُلُّ إنسانٍ مضطرٌّ إلى مَنْ يدفعُ عنه الشَّرَّ ويجلبُ له الخيرَ.

٤٧٦٧- وَإِلَيْهِ يَصْمُدُ فِي الحَوَائِجِ كُلِّهَا ... وَإِلَيْهِ يُفْزَعُ طَالِبًا لِأَمَانِ

قَوْلُهُ: «يَصْمُدُ فِي الحَوَائِجِ كُلِّهَا»؛ يعني: يَميلُ ويُنيبُ في الحوائجِ كُلِّها.

قَوْلُهُ: «وَإِلَيْهِ يفْزَعُ طَالِبًا لأَمَانِ» طالبًا لأمانٍ عند الخوفِ، فكُلُّ العبادِ يفزعون إلى اللهِ في طلبِ الغنى، وفي إزالة الفقرِ، في الحوائجِ كُلِّها.

٤٧٦٨- فَـإِذَا انْتَفَـتْ أَوْصَـافُهُ وَفِعَالُـهُ وَعُلُـوُّهُ مِـنْ فَـوْقِ كُـلِّ مَكَـانِ

٤٧٦٩- فَـزِعَ العِبَـادُ إِلَى سِـوَاهُ وَكَـانَ ذَا مِـنْ جَانِـبِ التَّعْطِيـلِ وَالنُّكْـرَانِ

قَوْلُهُ: «فَإِذَا انْتَفَتْ أَوْصَافُهُ... فَزِعَ العِبَادُ إِلَى سِوَاهُ» هذا وجهُ التَّلازمِ، إذا انتفت أوصافُ الله ولم يكن سميعًا ولا بصيرًا ولا غنيًّا ولا حميدًا ولا غير ذلك من الصِّفاتِ، فإلى مَنْ يفزعون؟ الجوابُ: إلى غيرِ الله، يفزعون إلى مَنْ يحقِّقُ لهم المطالبَ، ويكشفُ عنهم السُّوءَ ويجلبُ لهم الخيرَ، فيذهبون إلى غيرِ الله ويُعَلِّقون آمالَهم بغيرِه، وحينئذٍ يكونون مشركين، فمن لازمِ اعتقادِ انتفاءِ الصِّفاتِ عن الله فَزَعُ الخلقِ إلى غيرِ الله، وحينئذٍ يكونون مشركين.

قَوْلُهُ: «وَكَانَ ذَا مِنْ جَانِبِ التَّعْطِيلِ وَالنُّكْرَانِ»؛ يعني: بسببِ التَّعطيلِ والنُّكرانِ.

٤٧٧٠- فَمُعَطِّلُ الأَوْصَافِ ذَاكَ مُعَطِّـلُ التْـ ـــتَوْحِيدِ حَقًّـا ذَانِ تَعْطِـيلانِ

قَوْلُهُ: «فَمُعَطِّلُ الأَوْصَافِ ذَاكَ مُعَطِّلُ التَّوْحِيدِ» معطِّلُ الأوصافِ لا شكَّ أنَّه معطِّلُ التَّوحيدِ، وممثِّلُ الأوصافِ معطِّلٌ للتَّوحيدِ، فالذي يقولُ: «**إنَّ عيسى -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- كالرَّبِّ**» مشركٌ، والذي يقولُ: «**إنَّ صفاتِ الله كصفاتِ غيرِه**» مشركٌ، المعطِّلُ هو مشركٌ أيضًا.

قَوْلُهُ: «ذَانِ تَعْطِيلَانِ» ما هما؟ الجوابُ: تعطيلُ الأوصافِ وتعطيلُ التَّوحيدِ.

٤٧٧١- قَدْ عَطَّلَا بِلِسَانِ كُـلِّ الرُّسْـلِ مِـنْ نُـوحٍ إِلَى المَبْعُـوثِ بِـالقُرْآنِ

يعني: هذا التَّعطيلُ كان من عهدِ نوحٍ إلى عهدِ محمَّدٍ ﷺ، ونوحٌ أوَّلُ الرُّسلِ، ومحمَّدٌ خاتمُهم.

٤٧٧٢- وَالنَّـاسُ فِي هَـذَا ثَـلاثُ طَوَائِـفٍ ... مَـا رَابِـعٌ أَبَـدًا بِـذِي إِمْكَـانِ

٤٧٧٣- إِحْدَى الطَّوَائِفِ مُشْـرِكٌ بِإِلَـهِهِ ... فَـإِذَا دَعَـاه دَعَـا إِلَـهًا ثَـانِ

يدعون اللَّاتَ والعُزَّى ومَنَاةَ وهُبَلَ، ولكُلِّ قومٍ صنمٌ يدعونه، ولا يدعون اللهَ.

٤٧٧٤- هَـذَا وَثَـانِي هَـذِهِ الأَقْسَـامِ ذَا ... لَكَ جَاحِدٌ يَـدْعُو سِوَى الـرَّحْمَنِ

هذا قد جحَد اللهَ ربَّ العالمين وصار يدعو غيرَه، توجد الآن أممٌ لا تعرفُ اللهَ، وإنَّما تعرفُ زعماءَها فتدعو زعماءَها، البوذيُّون يعبدون «بوذا»، ولا يعرفون اللهَ إطلاقًا، هؤلاء جاحدون يعبدون غيرَ الله، وهي ثاني الأقْسَام.

٤٧٧٥- هُـوَ جَاحِـدٌ لِلـرَّبِّ يَـدْعُو غَـيْرَهُ ... شِرْكًـا وَتَعْطِـيلًا لَـهُ قَـدَمَانِ

يعني: أنَّ الشِّركَ والتَّعطيلَ له بمنزلةِ القَدَمَيْنِ يسيرُ عليهما والعياذُ بالله، وبِئْسَتِ القدمان، فهذا الثَّاني، فالأوَّلُ: مشركٌ يدعو إلـهين، والثَّاني: جاحدٌ يدعو إلـهًا واحدًا، فهو يدعو غيرَ الله.

* * *

٤٧٧٦- هَـذَا وَثَالِـثُ هَـذِهِ الأَقْسَـامِ خَيْـ ... ـرُ الخَلْـقِ ذَاكَ خُلاصَـةُ الإِنْسَـانِ

٤٧٧٧- يَدْعُو الإِلَهَ الـحَقَّ لا يَـدْعُو سِـوَا ... هُ قَـطُّ فِي الأَزْمَـانِ وَالأَكْـوَانِ

٤٧٧٨- يَدْعُوهُ فِي الرَّغَبَاتِ وَالرَّهَبَاتِ وَالْـ ... ـحَالاتِ مِـنْ سِرٍّ وَمِـنْ إِعْـلانِ

٤٧٧٩- تَوْحِيـدُهُ نَوْعَـانِ عِلْمِـيٌّ وَقَصْـ ... ـدِيٌّ كَـمَا قَـدْ جُـرِّدَ النَّوْعَـانِ

٤٧٨٠- فِي سُورَةِ الإِخْلاصِ مَعْ تَالٍ لِنَصْـ ... ـرِ الله قُـلْ يَـا أَيُّهَـا بِبَيَـانِ

٤٧٨١- وَلِـذَاكَ قَـدْ شُرِعَـا بِسُـنَّةِ فَجْرِنَـا وَكَــذَاكَ سُــنَّةُ مَغْـرِبٍ طَرَفَـانِ

٤٧٨٢- لِيَكُـونَ مُفْتَـتَحُ النَّهَـارِ وَخَتْمُـهُ تَجْرِيــدَكَ التَّوْحِيــدَ لِلــدَّيَّانِ

٤٧٨٣- وَكَذَاكَ قَـدْ شُرِعَـا بِخَـاتَمِ وِتْرِنَـا خَــتْمًا لِسَــعْيِ اللَّيْــلِ بِــالآذَانِ

٤٧٨٤- وَكَذَاكَ قَدْ شُرِعَا بِرَكْعَتَـيِ الطَّـوَا فِ وَذَاكَ تَحْقِيــقٌ لِــهَذَا الشَّــانِ

٤٧٨٥- فَهُـمَا إِذَنْ أَخَـوَانِ مُصْـطَحِبَانِ لا يَتَفَارَقَــانِ وَلَــيْسَ يَنْفَصِــلانِ

٤٧٨٦- فَمُعَطِّلُ الأَوْصَافِ ذُو شِرْكٍ كَـذَا ذُو الشِّــرْكِ فَهْـوَ مُعَطِّـلُ الـرَّحْمَنِ

٤٧٨٧- أَوْ بَعْضِ أَوْصَافِ الكَمَالِ لَهُ فَحَقْ قِــقْ ذَا وَلا تُسْــرِعْ إِلَى النُّكْـرَانِ

الشـرحُ

٤٧٧٦- هَـذَا وَثَالِـثُ هَـذِهِ الأَقْسَـامِ خَيْـ ـرُ الخَلْـقِ ذَاكَ خُلاصَـةُ الإِنْسَـانِ

٤٧٧٧- يَدْعُو الإِلَهَ الـحَقَّ لا يَـدْعُو سِـوَا هُ قَــطُّ فِي الأَزْمَــانِ وَالأَكْــوَانِ

قَوْلُهُ: «فِي الأَزْمَانِ وَالأَكْوَانِ»، وفي نسخةٍ: «فِي الأَشْيَاءِ وَالأَكْوَانِ».

٤٧٧٨- يَدْعُوهُ فِي الرَّغَبَاتِ وَالرَّهَبَاتِ وَالْـ ــحَالاتِ مِـنْ سِرٍّ وَمِـنْ إِعْـلانِ

قَوْلُهُ: «يَدْعُوهُ فِي الرَّغَبَاتِ»؛ يعني: يدعوه فيما يرغبُه من الخيرِ.

قَوْلُهُ: «وَفِي الرَّهَبَاتِ»؛ أي: فيما يرهبُ منه من الشَّرِّ.

قَوْلُهُ: «وَالـحَالَاتِ»؛ يعني: في جميعِ الأحوالِ من سرٍّ ومن إعلانٍ، هذا الثَّالثُ.

فصار النَّاسُ ثلاثةَ أقسامٍ أو ثلاثَ طوائفَ: مَنْ يشركُ بالله، ومَنْ يوحِّدُ غيرَه، ومَنْ يوحِّدُ اللهَ، وهناك قسمٌ رابعٌ لكنَّه لا عبادةَ له أصلًا، وهو الملحدُ الذي لا يعبدُ أحدًا، لكنْ مرادُ المؤلِّفُ مَنْ يعبدُ شيئًا، فالذين لهم معبودٌ لا يخرجون عن هذه الطَّوائفِ الثَّلاث: مَنْ يوحِّدُ اللهَ، مَنْ يوحِّدُ غيرَه، مَنْ يشركُ به، ثُمَّ انتقل المؤلِّفُ استطرادًا إلى التَّوحيدِ فقال:

٤٧٧٩- تَوْحِيدُهُ نَوْعَانِ عِلْمِيٌّ وَقَصْـ ... ـدِيٌّ كَمَا قَدْ جُرِّدَ النَّوْعَانِ

٤٧٨٠- فِي سُورَةِ الإِخْلاصِ مَعْ تَالٍ لِنَصْـ ... ـرِ الله قُلْ يَا أَيُّهَا بِبَيَانِ

قَوْلُهُ: «**تَوْحِيدُهُ نَوْعَانِ**»؛ يعني: توحيدُ الله عزَّ وجلَّ نوعان.

يعني: توحيدُ الله عزَّ وجلَّ علميٌّ؛ وهو توحيدُه بأوصافِه وأفعالِه، وقَصْدِيٌّ؛ وهو توحيدُه بالإرادةِ؛ يعني: بالعبادةِ فلا تقصدْ غيرَه، فما وَصَفَ اللهُ به نفسَه هذا يُسَمَّى توحيدًا علميًّا اعتقاديًّا، وما أمر اللهُ به من العبادةِ وقصدناه به فهو قصديٌّ.

قَوْلُهُ: «**فِي سُورَةِ الإِخْلَاصِ**» وهي: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] وسمِّيت بذلك؛ لأنَّها تُخَلِّصُ قارئَها من الشِّركِ، ولأنَّ اللهَ أخلصها لنفسِه، فليس فيها سوى ما يتعلَّقُ بأسمائِه وصفاتِه.

قَوْلُهُ: «**مَعْ تَالٍ لِنَصْرِ الله قُلْ يَا أَيُّهَا بِبَيَانِ**»؛ يعني: مع السُّورةِ التي تتلو ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النَّصر:١] وهي سورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون:١-٢]؛ ولذا فالصَّحيحُ: «**مَعْ مَتْلُوٍّ لِنَصْرِ الله**».

المهمُّ أنَّ المؤلِّفَ بَيَّنَهَا بقولِه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا﴾ [الكافرون:١]؛ لأنَّ التَّالي: للنَّصرِ سورة: ﴿تَبَّتْ﴾ [المسد:١]، وليست ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا﴾ [الكافرون:١]، لكنَّه -رحمه اللهُ- بَيَّنَ

أنَّ التَّاليَ بالعكسِ، حينئذٍ يكونُ قد بدأ القرآنَ من آخرِه، فإذا بدأ القرآنَ من آخرِه صار الذي يتلو سورةَ «النَّصر»: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١].

وسورةُ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١] فيها التَّوحيدُ القصديُّ العمليُّ؛ لأنَّه يقولُ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون:١-٢]، فهذا توحيدُ القصدِ؛ أي: لا أعبدُ إلَّا اللهَ عزَّ وجلَّ، فلا أقصدُ بعبادتي إلَّا اللهَ، ففي هاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ نوعا التَّوحيدِ.

٤٧٨١- وَلِذَاكَ قَدْ شُرِعَا بِسُنَّةِ فَجْرِنَا ... وَكَذَاكَ سُنَّةُ مَغْرِبٍ طَرَفَانِ

قَوْلُهُ: «قَدْ شُرِعَا بِسُنَّةِ فَجْرِنَا» شُرِعَا؛ أي: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١] و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]؛ يعني: شُرِعَت قراءتُهما في سُنَّةِ الفجرِ(١)، وهل يُسَنُّ قراءةُ غيرِهما؟ نعم، وهو قولُه: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٦] التي في سورة «البقرة» في الركعة الأولى، و﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤] في سورة «آل عمران» في الثَّانيةِ(٢)، إذَنْ سُنَّتان.

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ سُنَّةُ مَغْرِبٍ»؛ يعني: يُشْرَعُ أيضًا في سُنَّةِ المغربِ أنْ تقرأَ في

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، والحث عليهما وتخفيفهما، رقم (٧٢٦).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، والحث عليهما وتخفيفهما، رقم (٧٢٧).

الرَّكعة الأولى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الكافرون:١]، وفي الثَّانية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾(١) [الإخلاص:١].

وَقَوْلُهُ: «طَرَفَانِ» الأولى في طَرَفِ النَّهارِ، والثَّانيةُ في طرفِ النَّهارِ أيضًا؛ أي: آخره.

٤٧٨٢- لِيَكُونَ مُفْتَتَحُ النَّهَارِ وَخَتْمُهُ ... تَجْرِيدَكَ التَّوْحِيدَ لِلدَّيَّانِ

٤٧٨٣- وَكَذَاكَ قَدْ شُرِعَا بِخَاتَمِ وِتْرِنَا ... خَتْمًا لِسَعْيِ اللَّيْلِ بِالآذَانِ

قَوْلُهُ: «خَتْمًا لِسَعْيِ اللَّيْلِ»؛ يعني: لعملِ اللَّيلِ؛ لقولِ النَّبيِّ ﷺ: «اجْعَلُوا آخِرَ صَلَاتِكُمْ بِاللَّيْلِ وِتْرًا»(٢)، إذَنْ خُتِمَت صلاةُ النَّهارِ وهو سُنَّةُ المغربِ بهما، وأوَّل النَّهار سُنَّة الفجرِ بهما، وآخِر اللَّيلِ الوتر، يُقْرَأُ في الرَّكعةِ الثَّانيةِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الكافرون:١]، وفي الثَّالثةِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾(٣) [الإخلاص:١].

٤٧٨٤- وَكَذَاكَ قَدْ شُرِعَا بِرَكْعَتَيِ الطَّوَا ... فِ وَذَاكَ تَحْقِيقٌ لِهَذَا الشَّانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ قَدْ شُرِعَا بِرَكْعَتَيِ الطَّوَافِ»؛ يعني: ركعتا الطَّوافِ يُقْرَأُ فيهما بـ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الكافرون:١] و: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص:١].

قَوْلُهُ: «وَذَاكَ تَحْقِيقٌ لِهَذَا الشَّانِ»؛ أي: للتَّوحيدِ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء في الركعتين بعد المغرب والقراءة فيهما، رقم (٤٣١)، والنسائي: كتاب الافتتاح، باب القراءة في الركعتين بعد المغرب، رقم (٩٩٢)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب القراءة في صلاة المغرب، رقم (٨٣٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوتر، باب ليجعل آخر صلاته وترا، رقم (٩٩٨)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الليل مثنى مثنى، رقم (٧٥١).

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب الوتر، باب ما جاء ما يقرأ في الوتر، رقم (٤٦٢)، والنسائي: كتاب قيام الليل، باب ذكر اختلاف ألفاظ الناقلين لخبر أبي بن كعب في الوتر، رقم (١٧٠٠)

إذَنْ فسورة: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١] وسورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] تُسَنُّ في أربعةِ أنواعٍ من السُّنن: سُنَّة الفجرِ، وسُنَّة المغربِ، وسُنَّة الوترِ، وسُنَّة الطَّوافِ، وفي ركعتي الطَّواف الإخلاصُ واضحٌ؛ لأنَّك تعبدُ ربًّا واحدًا ذا بيتٍ واحدٍ، وهو المكانُ الذي أعلن فيه النَّبِيُّ ﷺ التَّوحيدَ.

٤٧٨٥- فَهُـمَا إذَنْ أَخَـوَانِ مُصْـطَحِبَانِ لا يَتَفَارَقَـانِ وَلَـيْسَ يَنْفَصِـلانِ

سورتا الإخلاصِ دائمًا مصطحبتان؛ لأنَّ الأولى فيها التَّوحيدُ القصديُّ، والثَّانية ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] فيها التَّوحيد العلميُّ الخبريُّ.

٤٧٨٦- فَمُعَطِّلُ الأَوْصَافِ ذُو شِرْكٍ كَـذَا ذُو الشِّـرْكِ فَهْـوَ مُعَطِّـلُ الـرَّحْمَنِ

المشركُ في العبادةِ الذي تضمَّنته إخلاصُ العبادةِ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١] مشركٌ، والمعطِّلُ لأوصافِ الرَّحمنِ التي تضمَّنتها سورةُ الإخلاصِ هو أيضًا مشركٌ، فمُعَطِّلُ الأوصافِ مشركٌ بالتَّوحيدِ العلميِّ، والعابدُ لغيرِ الله مشركٌ بالتَّوحيدِ القصديِّ.

٤٧٨٧- أَوْ بَعْضِ أَوْصَافِ الكَمَالِ لَهُ فَحَقْ قِـقْ ذَا وَلا تُسْـرِعْ إِلَى النُّكْـرَانِ

أي: لا تستعجلْ في رَدِّ الشَّيءِ الذي لا تُدركه في أوَّل مرَّةٍ، لا تستعجلْ في ردِّه، بل تَأَنَّ، وانظُر ما وجهُ هذا القولِ؛ لأنَّه لو قال قائلٌ مثلًا: كيف يكونُ تعطيلٌ وشركٌ؟! لكن إذا تَأَمَّلَ وجد أنَّهما قرينان.

إِنَّ البِـدَارَ بِـرَدِّ شَيءٍ لَـمْ تُحِـطْ عِلْـمًا بِـهِ سَـبَبٌ إِلَى الـحِرْمَانِ

خلاصةُ الفصلِ ظاهرةٌ أنَّ التَّعطيلَ يلزمُ منه الإشراكُ، فالتَّعطيلُ والإشراكُ متلازمان؛ فمَنْ أَشْرَكَ بالله فهو معطِّلٌ لتوحيدِه، ومَنْ عَطَّلَ أوصافَه فهو مشركٌ.

فصــل

في بَيَانِ أنَّ المُعطِّلَ شَرٌّ مِنَ المُشْرِكِ

٤٧٨٨- لَكِنْ أَخُو التَّعْطِيلِ شَرٌّ مِنْ أَخِي الْـ ... إِشْرَاكِ بِـالمَعْقُولِ وَالبُرْهَـانِ

٤٧٨٩- إِنَّ الـمُعَطِّلَ جَاحِـدٌ لِلـذَّاتِ أَوْ ... لِكَمَالِـهَا هَـذَانِ تَعْطِـيلانِ

٤٧٩٠- مُتَضَمِّنَانِ القَـدْحَ فِي نَفْسِ الأُلُـو ... هَةِ كَمْ بِذَاكَ القَـدْحِ مِـنْ نُقْصَـانِ

٤٧٩١- وَالشِّرْكُ فَهْوَ تَوَسُّلٌ مَقْصُودُهُ الـزْ ... زُلْفَى مِنَ الـرَّبِّ العَظِـيمِ الشَّانِ

٤٧٩٢- بِعِبَادَةِ المَخْلُوقِ مِـنْ حَجَرٍ وَمِـنْ ... بَشَـرٍ وَمِـنْ قَـبْرٍ وَمِـنْ أَوْثَـانِ

٤٧٩٣- فَالشِّـرْكُ تَعْظِـيمٌ بِجَهْـلٍ مِـنْ قِيَا ... سِ الـرَّبِّ بِـالأُمَرَاءِ وَالسُّـلْطَانِ

٤٧٩٤- ظَنُّـوا بِـأَنَّ البَـابَ لا يُغْشَـى بِـدُو ... نِ تَوَسُّـطِ الشُّـفَعَاءِ وَالأَعْـوَانِ

٤٧٩٥- وَدَهَـاهُمُ ذَاكَ القِيَـاسُ الـمُسْتَبِيـ ... ـنُ فَسَـادُهُ بِبَدِيهَـةِ الإِنْسَـانِ

٤٧٩٦- الفَـرْقُ بَـيْنَ اللهِ وَالسُّـلْطَانِ مِـنْ ... كُـلِّ الوُجُـوهِ لِـمَنْ لَـهُ أُذُنَـانِ

٤٧٩٧- إِنَّ الـمُلُوكَ لَعَاجِزُونَ وَمَـا لَـهُمْ ... عِلْـمٌ بِـأَحْوَالِ الـدُّعَا بِـأَذَانِ

٤٧٩٨- كَلَّا وَلا هُـمْ قَـادِرُونَ عَـلَى الَّـذِي ... يَحْتَاجُـهُ الإِنْسَـانُ كُـلَّ زَمَـانِ

٤٧٩٩- كَـلَّا وَمَـا تِلْـكَ الإِرَادَةُ فِـيهِمُ ... لِقَضَـا حَـوَائِجِ كُـلِّ مَـا إِنْسَـانِ

٤٨٠٠- كَـلَّا وَلا وَسِـعُوا الخَلِيقَـةَ رَحْمَـةً ... مِنْ كُلِّ وَجْهٍ هُـمْ أُولُـو النُّقْصَـانِ

٤٨٠١- فَلِذَلِكَ احْتَاجُوا إِلَى تِلْكَ الوَسَا ئِطِ حَاجَةً مِنْهُمْ مَدَى الأَزْمَانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلٌ فِي بَيَانِ أَنَّ الـمُعَطِّلَ شَرٌّ مِنَ المُشْرِكِ» «الـمُعَطِّل»؛ أي: لأسماءِ الله وصفاتِه: «شَرٌّ مِنْ المُشْرِكِ»؛ أي: أشرُّ منه.

٤٧٨٨- لَكِنْ أَخُو التَّعْطِيلِ شَرٌّ مِنْ أَخِي الْ إِشْرَاكِ بِالمَعْقُولِ وَالبُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «بِالمَعْقُولِ وَالبُرْهَانِ»؛ يعني: بدلالة العقلِ ودلالةِ السَّمعِ.

يُقرِّرُ ابنُ القيِّمِ -رحمه اللهُ- أنَّ المعطِّلَ شرٌّ من المشركِ، ثُمَّ شَرَحَ وجهَ ذلك فقال:

٤٧٨٩- إِنَّ الـمُعَطِّلَ جَاحِدٌ لِلذَّاتِ أَوْ لِكَمَالِـهَا هَـذَانِ تَعْطِيلانِ

المعطِّلُ جاحدٌ لذاتِ الله أو جاحدٌ للصِّفاتِ التي بها كمالُ الذَّاتِ؛ لأنَّ من المعطِّلةِ مَنْ ينكرُ ذاتَ الله مثل مَنْ يقولُ: إنَّ اللهَ لا يُوصَفُ بأنَّه موجودٌ ولا أنَّه معدومٌ، أو جاحدٌ لكمالِـها؛ كالذين يؤمنون بالله ولكن لا يؤمنون بصفاتِه، هذان تعطيلان.

٤٧٩٠- مُتَضَمِّنَانِ القَدْحَ فِي نَفْسِ الأُلُو هَةِ كَمْ بِذَاكَ القَدْحِ مِنْ نُقْصَانِ

إذَنْ التَّعطيلُ قدحٌ في الألوهيَّةِ نفسِها، قدحٌ في الله عزَّ وجلَّ نفسِه، فالذين يُنكرون اللهَ ويقولون: إنَّه ليس داخلَ العالمِ ولا خارجَه، ولا متَّصلًا ولا منفصلًا، ولا ما أشبه ذلك، والذين يقولونُ: إنَّ اللهَ ليس له فعلٌ وليس له نزولٌ، وليس له استواءٌ، وما أشبه ذلك، كُلُّهم متنقِّصٌ لله عزَّ وجلَّ.

٤٧٩١- وَالشِّرْكُ فَهْوَ تَوَسُّلٌ مَقْصُودُهُ الـزْ زُلْفَى مِـنَ الـرَّبِّ العَظِـيمِ الشَّـانِ

٤٧٩٢- بِعِبَادَةِ المَخْلُوقِ مِـنْ حَجَـرٍ وَمِـنْ بَشَـرٍ وَمِـنْ قَـبْرٍ وَمِـنْ أَوْثَـانِ

وأمَّا المشركُ فهو مُثْبِتٌ للذَّاتِ والصِّفاتِ، لكنَّه عَبَدَ مع الله غيرَه ليتقرَّبَ بعبادةِ هذا الغيرِ إلى الله عزَّ وجلَّ كما قال اللهُ -تبارك وتعالى- عنهم أنَّهم يقولون: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزُّمر:٣]، وهذا صريحٌ أنَّهم يعتقدون أنَّ الرَّبَّ عزَّ وجلَّ متَّصفٌ بصِفاتِ الكمالِ، ويريدون أنْ يتَّخذوا أولياءَ يتقرَّبون بهم إلى الله عزَّ وجلَّ، إذَنْ هم يُقِرُّونَ بالرُّبوبيَّةِ بأنَّ اللهَ هو الخالقُ، وهو الرازقُ، فهو الذي خلقهم، وهو الذي يرزقُهم، يُقِرُّون بهذا، ويقولون: إنَّهم لم يشركوا إلَّا من أجلِ أن تُقَرِّبَهم هذه الأوثانُ إلى الله عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «بِعِبَادَةِ المَخْلُوقِ»؛ يعني: يعبدون المخلوقَ ليُقَرِّبَهم إلى الله كما يُكْرِمُ الإنسانُ خادمَ الملكِ ليقرِّبَه من الملكِ، فَيُعْطِي البوَّابَ دراهمَ أو كسوةً أو ما أشبه ذلك؛ ليدخلَه على الملكِ.

٤٧٩٣- فَالشِّرْكُ تَعْظِيمٌ بِجَهْلٍ مِـنْ قِيَـا سِ الـرَّبِّ بِـالأُمَرَاءِ وَالسُّـلْطَانِ

الشِّركُ تعظيمٌ لله، لكنَّه تعظيمٌ مَبْنِيٌّ على الجهلِ، كيف هذا الجهلُ؟ قال: «مِنْ قِيَاسِ الرَّبِّ بِالأُمَرَاءِ وَالسُّلْطَانِ»، قاسوا اللهَ على الخلقِ فقالوا: كما أنَّ ملوكَ الدُّنيا لا نصلُ إليهم إلَّا بوسائطَ فكذلك الرَّبُّ عزَّ وجلَّ لا نصلُ إليه إلَّا بوسائطَ.

٤٧٩٤- ظَنُّـوا بِـأَنَّ البَـابَ لا يُغْشَـى بِـدُو نِ تَوَسُّـطِ الشُّـفَعَاءِ وَالأَعْـوَانِ

هذا ظنُّهم.

٤٧٩٥- وَدَهَاهُمُ ذَاكَ القِيَاسُ الـمُسْتَبِيـ ـنُ فَسَادُهُ بِبَدِيهَةِ الإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «وَدَهَاهُمُ ذَاكَ القِيَاسُ» دَهَاهُمُ؛ يعني: أصابهم بداهيةٍ.

والمعنى: أنَّ هذا القياسَ قياسٌ مع الفارقِ العظيمِ، وفسادُه واضحٌ بَيِّنٌ بالبديهةِ، لا يحتاجُ إلى تفكيرٍ ولا إلى عُمقٍ؛ وذلك لظهورِ الفرقِ بين الرَّبِّ عزَّ وجلَّ وبين السُّلطانِ من أميرٍ أو خليفةٍ، أو ما أشبه ذلك، ووجهُ ذلك قال:

٤٧٩٦- الفَرْقُ بَيْنَ اللهِ وَالسُّلْطَانِ مِنْ كُلِّ الوُجُوهِ لِمَنْ لَهُ أُذُنَانِ

وَصَدَقَ رحمه اللهُ؛ فالفرقُ بين الله وبين ملوكِ الدُّنيا من كُلِّ وجهٍ، لو أراد الإنسانُ أن يعدَّها لعدَّ أوجهًا كثيرةً بين الله وبين ملوكِ الدُّنيا، يقولُ الشَّاعرُ:

لَا تَسْأَلَنَّ بُنَيَّ آدَمَ حَاجَةً ... وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لَا تُحْجَبُ

اللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ[1]

فرقٌ عظيمٌ، فبنو آدمَ إذا سَأَلْتَهم ولو شيئًا يسيرًا غضبوا وملُّوا، فهذا يمكنُ في أوَّلِ مرَّةٍ أن يُلاقيَك بوجهٍ لا بأسَ به، والثَّانية يسودُّ وجهُه، والثَّالثة يَصِيحُ بك، والرَّابعةُ رُبَّما يضربُك إذا أمكن، لكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يحبُّ المُلِحِّين في الدُّعاء، كُلَّما أَلْـحَحْتَ عليهِ أحبَّك، فالفرقُ من كُلِّ الوجوهِ.

٤٧٩٧- إِنَّ الـمُلُوكَ لَعَاجِزُونَ وَمَا لَهُمْ عِلْمٌ بِأَحْوَالِ الدُّعَا بِأَذَانِ

قَوْلُهُ: «إِنَّ المُلُوكَ» بكسرِ همزةِ «إنَّ»، وعلى قراءةِ الفتحِ: «أَنَّ المُلُوكَ»؛ أي: «الفرقُ أنَّ الملوكَ»، وهذا صحيحٌ لولا اللَّامُ، واللَّامُ إذا جاءت في خبر «إِنَّ» يجبُ

(١) البيت في المستطرف (ص:٣٣٠) بلا نسبة.

أن تُكْسَرَ، قال اللهُ تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ [المنافقون:١]، لو لا اللَّامُ لوجب الفتحُ فكانت: «وَاللهُ يَعْلَمُ أَنَّكَ».

قَوْلُهُ: «إِنَّ الْمُلُوكَ لَعَاجِزُونَ...» وهذا صحيحٌ، فالمَلِكُ لا يمكنُ أن يعلمَ الذي وراء البابِ إلَّا بواسطةِ الحاجبِ، فالملوكُ لا يُحيطون بكُلِّ شيءٍ، فهم عاجزون عن الإحاطةِ، ولا يعلمون عن أحوالِ النَّاسِ؛ ولذا فإنَّ الشَّفيعَ يأتي إلى الملكِ ويقولُ: «**إنَّ فلانَ بنَ فلانٍ فيه كذا وكذا من الأحوالِ التي تُوجِبُ العطفَ عليه**»، والرَّبُّ عزَّ وجلَّ كما سيذكر المؤلِّفُ: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر:١٩]، ولا يخفى عليه هذا؛ إذَنْ لا حاجةَ للشَّفيعِ، هذا وجهٌ، الوجه الثَّاني ذَكَرُه فقال:

٤٧٩٨- كَلَّا وَلا هُمْ قَادِرُونَ عَلَى الَّذِي يَحْتَاجُهُ الإِنْسَانُ كُلَّ زَمَانِ

وهذا صحيحٌ، ليسوا قادرين على ما يحتاجُه الإنسانُ كُلَّ زمانٍ.

إِذَنْ لا بُدَّ من شفعاءَ ولا بُدَّ من خدمٍ يُعينونهم على قضاءِ الحوائجِ، فمثلًا: يأتي إنسانٌ يشفعُ عند الملكِ يقولُ: فلانٌ فيه كذا وكذا، فلانٌ فيه كذا وكذا، فيقول: أنا لا أستطيعُ أن أصلَ إليه، فيقول: أنا أكفيك، إذَنْ هم محتاجون إلى مَنْ يُعينُهم؛ لأنَّهم عاجزون عن إيصالِ الحوائجِ إلى أهلِها، أمَّا اللهُ عزَّ وجلَّ فليس بعاجزٍ.

٤٧٩٩- كَلَّا وَمَا تِلْكَ الإِرَادَةُ فِيهِمُ لِقَضَا حَوَائِجِ كُلِّ مَا إِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «**كُلِّ مَا إِنْسَانِ**» «**مَا**» هنا زائدةٌ؛ لأنَّك لو حَذَفْتَهَا لاستقام الكلامُ.

يعني: حتَّى لو فُرِضَ أنَّهم قادرون على قضاءِ الحوائج فإنَّه ليس عندهم إرادةٌ، فقد لا يُريدون، قد يكونُ الملكُ ذو السُّلطانِ قادرًا على أنْ يعطيَك حاجتَك ولكنَّه

لا يريدُ، فقد يكونُ له هوىً فيقضي حاجةَ هذا ولا يقضي حاجةَ هذا، أمَّا الرَّبُّ عزَّ وجلَّ فإنَّه منزَّهٌ عن هذا؛ لأنَّ أفعالَه كُلَّها عدلٌ وحكمةٌ، وهذا أيضًا فرقٌ ثالثٌ.

٤٨٠٠- كَــلَّا وَلا وَسِــعُوا الخَلِيقَــةَ رَحْمَــةً ... مِنْ كُلِّ وَجْهٍ هُــمْ أُولُــو النُّقْصَــانِ

هذا من الفروقِ أيضًا؛ الرَّبُّ عزَّ وجلَّ رحيمٌ، رحمتُه وَسِعَت كُلَّ شيءٍ، هؤلاء وإن قُدِّرَ فيهم رحمةٌ فإنَّ رحمتَهم لا تَسَعُ الخلائقَ؛ فلهذا يحتاجون إلى مَنْ يُذكِّرُهم ويصوِّرُ الشَّيءَ أمامهم بصورةٍ تقتضي العطفَ والرَّحمةَ والحنانَ.

٤٨٠١- فَلِذَلِكَ احْتَاجُوا إِلَى تِلْـكَ الوَسَـا ... ئِطِ حَاجَـةً مِـنْهُمْ مَـدَى الأَزْمَـانِ

وهذا فرقٌ ظاهرٌ، هذا فرقٌ واضحٌ جدًّا، فَذَوو السُّلطانِ في الدُّنيا كُلُّهم نقصٌ يحتاجون إلى ما يكمِّلُهم، والرَّبُّ عزَّ وجلَّ كاملٌ من كُلِّ وجهٍ لا يحتاجُ إلى مَنْ يكمِّلُه.

* * *

٤٨٠٢- أَمَّا الَّذِي هُوَ عَالِـمٌ لِلْغَيْـبِ مُقْـ ... ـتَدِرٌ عَـلَى مَـا شَـاءَ ذُو إِحْسَـانِ

٤٨٠٣- وَتَخَافُهُ الشُّـفَعَاءُ لَـيْسَ يُرِيـدُ مِنْـ ... ـهُمْ حَاجَـةً جَلَّ العَظِـيمُ الشَّـانِ

٤٨٠٤- بَلْ كُـلُّ حَاجَـاتٍ لَــهُمْ فَإِلَيْـهِ لَا ... لِسِــوَاهُ مِــنْ مَلَــكٍ وَلا إِنْسَــانِ

٤٨٠٥- وَلَـهُ الشَّـفَاعَةُ كُلُّهَـا وَهُـوَ الَّـذِي ... فِي ذَاكَ يَــأْذَنُ لِلشَّــفِيعِ الــدَّانِي

٤٨٠٦- لِـمَنِ ارْتَضَى مِـمَّنْ يُوَحِّـدُهُ وَلَـمْ ... يُشْــرِكْ كَـمَا قَـدْ جَـاءَ فِي القُـرْآنِ

٤٨٠٧- سَـبَقَتْ شَـفَاعَتُهُ إِلَيْـهِ فَهْـوَ مَشْـ ... ـفُوعٌ إِلَيْــهِ وَشَــافِعٌ ذُو شَــانِ

٤٨٠٨- فَلِـذَا أَقَـامَ الشَّـافِعِينَ كَرَامَـةً　　لَـهُمُ وَرَحْمَـةَ صَـاحِبِ العِصْـيَانِ

٤٨٠٩- فَالْكُـلُّ مِنْـهُ بَـدَا وَمَرْجِعُـهُ إِلَيْـ　　ـهِ وَحْـدَهُ مَـا مِـنْ إِلَـهٍ ثَـانِ

٤٨١٠- غَلِطَ الأُلَى جَعَلُوا الشَّفَاعَةَ مِنْ سِوَا　　هُ إِلَيْـهِ دُونَ الإِذْنِ مِـنْ رَحْمَـنِ

٤٨١١- هَذِي شَفَاعَةُ كُلِّ ذِي شِرْكٍ فَلَا　　تَعْقِـدْ عَلَيْهَـا يَـا أَخَـا الإِيـمَانِ

٤٨١٢- وَاللهُ فِي القُـرْآنِ أَبْطَلَهَـا فَـلَا　　تَعْـدِلْ عَـنِ الآثَـارِ وَالقُـرْآنِ

الشرحُ

يقولُ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- في بيانِ توحيدِ الألوهيَّةِ والفَرْقِ بين ما ادَّعاه المشركون من كونِهم يقولون: إنَّما نعبدُ هؤلاء ليكونوا شفعاءَ كالسُّلطانِ له شفعاءُ يشفَعون للنَّاسِ، يتوسَّطون لهم عند الملكِ، يقولُ: الفرقُ ظاهرٌ؛ لأنَّ أولئك الملوكَ والسَّلاطين قاصرون، يحتاجون إلى مَنْ يُنبِّهُهم وإلى مَنْ يُعِينُهم، وإلى مَنْ يُعْلِمُهم بأحوالِ النَّاسِ، وأمَّا اللهُ عزَّ وجلَّ فيقول:

٤٨٠٢- أَمَّا الَّذِي هُوَ عَالِـمٌ لِلْغَيْـبِ مُقْـ　　ـتَدِرٌ عَـلَى مَـا شَـاءَ ذُو إِحْسَـانِ

٤٨٠٣- وَتَخَافُهُ الشُّـفَعَاءُ لَـيْسَ يُرِيـدُ مِنْـ　　ـهُمْ حَاجَـةً جَـلَّ العَظِـيمُ الشَّـانِ

يعني: فإنَّه لا يحتاجُ إلى الشُّفعاءِ والوسطاءِ، بل حاجاتُ العبادِ منهم إلى اللهِ مباشرةً بلا وسطاء، وهذا من كمالِ رحمتِه -سبحانه وتعالى- بعبادِه أنْ تكونَ حاجةُ العبادِ من العبادِ إليه مباشرةً بدون واسطةٍ، لو كان ثَمَّة واسطةٌ فمَنْ يأتي بهذه الواسطةِ؟ ومتى نُدركُ هذه الواسطةَ؟ ومتى ترضى هذه الواسطةُ أن ترفعَ الدُّعاءَ؟ ولكنَّها من العبدِ إلى ربِّه مباشرةً، بينما الشُّفَعاء في ملوكِ الدُّنيا قد لا يخافون

الملوكَ، رُبَّما يكونُ شفيعٌ وهو لا يبالي بهذا الملكِ أو هذا السُّلطانِ، أمَّا الشُّفعاءُ عند الله فكُلُّهم محتاجٌ إلى الله، وكُلُّهم يخافونه.

٤٨٠٤- بَلْ كُلُّ حَاجَاتٍ لَهُمْ فَإِلَيْهِ لَا ... لِسِوَاهُ مِنْ مَلَكٍ وَلا إِنْسَانِ

كُلُّ الحاجاتِ لهم إلى الله لا لسواه، فهم محتاجون إلى الله، وأمَّا الوزراءُ والشُّفعاءُ لملوكِ الدُّنيا فهؤلاء -أعني: ملوكَ الدُّنيا- محتاجون إليهم.

٤٨٠٥- وَلَهُ الشَّفَاعَةُ كُلُّهَا وَهُوَ الَّذِي ... فِي ذَاكَ يَأْذَنُ لِلشَّفِيعِ الدَّانِي

قَوْلُهُ: «وَلَهُ الشَّفَاعَةُ كُلُّهَا»؛ لقولِه تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزُّمر:٤٤].

قَوْلُهُ: «وَهْوَ الَّذِي فِي ذَاكَ يَأْذَنُ لِلشَّفِيعِ الدَّانِي» هذا وجهُ كونِ كُلِّ الشَّفاعاتِ له أنَّه لا يمكنُ أن تُوجَدَ الشَّفاعةُ إلَّا بإذنِه؛ كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، حتَّى أعلى الخلقِ مقامًا وهو محمَّد ﷺ لا يشفعُ إلَّا بإذنِ الله.

٤٨٠٦- لِمَنِ ارْتَضَى مِمَّنْ يُوَحِّدُهُ وَلَمْ ... يُشْرِكْ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي القُرْآنِ

فالشَّفاعةُ لا بُدَّ فيها من شرطين:

الشَّرط الأوَّل: رضا الله عن الشَّافعِ والمشفوعِ له، وعلى هذا فالأصنامُ لا تشفعُ؛ لأنَّ اللهَ لا يرضى عنها ولا يرضاها، فالشَّافعُ لا بُدَّ أن يكونَ أيضًا مَرضِيًّا عند الله عزَّ وجلَّ، فلا يمكنُ أن يأذنَ لكافرٍ أن يشفعَ لأحدٍ؛ لأنَّه إذا كان الكفرُ مانعًا في المشفوعِ له ففي الشَّافعِ من بابِ أولى، والمشركون لا تصحُّ لهم الشَّفاعةُ؛ لأنَّ اللهَ لا يَرْضَى عنهم.

فلا نعلمُ أحدًا من المشركين أنَّه شُفِعَ له وقُبِلَت شفاعتُه إلَّا واحدًا وهو أبو طالب، فإنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- قَبِلَ شفاعةَ النَّبِيِّ ﷺ فيه، لا لأنَّه عمُّه ولكن لأنَّه أَسْدَى خيرًا إلى الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ونصَرَه ودافع عنه، فجزاه اللهُ عزَّ وجلَّ أن أَذِنَ لرسولِه -صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم- أن يشفعَ له، ولكنَّ هذه الشَّفاعةَ لم تنقذْه من النَّارِ، بل خُفِّفَ عنه حتَّى كان في ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ عَلَيْهِ نَعْلَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ[1]، والعياذُ بِالله، وإلَّا فمن المعلومِ أنَّ المشركين لا يمكنُ أن يأذنَ اللهُ بالشَّفاعةِ فيهم؛ كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨].

الشَّرط الثَّاني: أنْ يأذنَ في الشَّفاعةِ، فإن لم يأذن فلا شفاعةَ، ودليلُ هذا قولُه تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقولُه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، وقولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه:١٠٩]، فلا بُدَّ من رضا الله عن الشَّافعِ والمشفوعِ له، ولا بُدَّ من إذنِه، ثُمَّ قال:

٤٨٠٧- سَبَقَتْ شَفَاعَتُهُ إِلَيْهِ فَهْوَ مَشْـ ـفُوعٌ إِلَيْهِ وَشَافِعٌ ذُو شَانِ

يعني: أنَّ الشَّافعَ سبقت شفاعتُه إلى الله عزَّ وجلَّ، فاللهُ مشفوعٌ إليه؛ يعني: وشافعٌ؛ أي: آذِنٌ في الشَّفاعةِ؛ لقولِه تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤]، وهذا الذي يظهرُ لي من البيتِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢٠٩).

٤٨٠٨- فَلِـــذَا أَقَــامَ الشَّـــافِعِينَ كَرَامَـــةً لَـــهُمُ وَرَحْمَـةَ صَـاحِبِ العِصْـيَانِ

يعني: أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- أَذِنَ في الشَّفاعةِ لِسَبَبَيْنِ هما:

السَّببُ الأَوَّلُ: إكرامُ الشَّافعِ حيث قبل شفاعتَه، ولا شكَّ أنَّ قَبولَ شفاعةِ الشَّافعِ إكرامٌ له، أنت لو أَتَيْتَ إلى ملكٍ من ملوكِ الدُّنيا وشفعت إليه لشخصٍ ثُمَّ قَبِلَ شفاعتَك أليس هذا إكرامًا لك؟ الجوابُ: بلى، إذَنْ إذْنُ الله بالشَّفاعةِ لِـمَن أَذِنَ له إكرامٌ له؛ ولهذا سمَّى اللهُ عزَّ وجلَّ شفاعةَ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- المقامَ المحمودَ[1]، وهذا إكرامٌ من الله له.

السَّببُ الثَّاني: رحمةُ العاصي، أنَّ اللهَ تعالى يرحمُ العاصيَ بسبب شفاعةِ الشَّافعِ.

فللشَّفاعةِ إذَنْ فائدتان:

الفائدةُ الأولى: إكرامُ الشَّافعِ.

والفائدةُ الثَّانيةُ: الرَّحمةُ بالمشفوعِ له.

٤٨٠٩- فَالْكُـلُّ مِنْـهُ بَـدَا وَمَرْجِعُـهُ إِلَيْـــهِ وَحْـدَهُ مَـا مِـنْ إِلَـهٍ ثَـانِ

قَوْلُهُ: «الكُلُّ مِنْهُ بَدَا وَمَرْجِعُهُ إِلَيْهِ»؛ أي: الشَّفاعةُ والإذنُ فيها وقَبولُـها كُلُّه من الله وإليه.

فشفاعةُ الشَّافعِ بإذنِ الله، ونفعُ شفاعتِه بإذنِ الله، وقَبولُـها بإذنِ الله.

---

(١) كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ جُثًا، كُلُّ أُمَّةٍ تَتْبَعُ نَبِيَّهَا يَقُولُونَ: يَا فُلَانُ اشْفَعْ، يَا فُلَانُ اشْفَعْ، حَتَّى تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللهُ المَقَامَ المَحْمُودَ». أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قَوْلِهِ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩]، رقم (٤٤٤١).

٤٨١٠- غَلِطَ الأُلَى جَعَلُوا الشَّفَاعَةَ مِنْ سِوَا ... هُ إِلَيْـــهِ دُونَ الإِذْنِ مِـــنْ رَحْمَـــنِ

قَوْلُهُ: «الأُلَى»؛ يعني: الذين.

وهؤلاء هم المشركون الذين جعلوا الشَّفاعةَ مِن سِواه دون إذنِه، فقالوا: إنَّ آلهتَهم تَشفَعُ لهم من دونِ الله، ومعلومٌ أنَّ آلهتَهم لا يمكنُ أن تُقْبَلَ شفاعتُها؛ لأنَّ اللهَ لا يرضاها ولا يرضى عابديها، فقد انتفى فيها الشَّرطُ الأوَّلُ وهو رضا الله عن الشَّافعِ والمشفوعِ له، هم ظنُّوا أنَّ هذه الأصنامَ والأوثانَ تنفعُهم وتشفعُ لهم عند الله بدون إذنِه فغلطوا.

٤٨١١- هَذِي شَـفَاعَةُ كُـلِّ ذِي شِرْكٍ فَـلَا ... تَعْقِـدْ عَلَيْهَـا يَـا أَخَـا الإِيـمَانِ

قَوْلُهُ: «لا تَعْقِدْ عَلَيْهَا»؛ أي: لا تعتمدْ عليها؛ فإنَّها باطلةٌ.

٤٨١٢- وَاللهُ فِي القُـــرْآنِ أَبْطَلَهَـــا فَـــلَا ... تَعْـــدِلْ عَـــنِ الآثَـــارِ وَالقُـــرْآنِ

أَبْطَلَهَا في قولِه تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدّثّر:٤٨]، فإذا كان اللهُ أبطلها فلا تعقدْ عليها ولا تؤمِّلْ عليها ولا تعدلْ عن الآثارِ والقرآنِ.

* * *

٤٨١٣- وَكَـــذَا الوَلايَـــةُ كُلُّهَـــا للهِ لَا ... لِسِـــوَاهُ مِـــنْ مَلَـــكٍ وَلا إِنْسَـــانِ

٤٨١٤- وَاللهِ لَـــمْ يَفْهَـــمْ أُولُـــو الإِشْرَاكِ ذَا ... وَرَأَوْهُ تَنْقِيصًـــا أُولُـــو النُّقْصَـــانِ

٤٨١٥- إِذْ قَدْ تَضَمَّنَ عَزْلَ مَنْ يُدْعَى سِوَى الرْ ... رَحْمَـــنِ بَـــلْ أَحَدِيَّـــةَ الـــرَّحْمَنِ

٤٨١٦- بَـلْ كُـلُّ مَـدْعُوٍّ سِـوَاهُ مِـنْ لَـدُنْ ... عَرْشِ الإِلَهِ إِلَى الـحَضِيضِ الدَّانِي

٤٨١٧- هُـوَ بَاطِـلٌ فِي نَفْسِـهِ وَدُعَـاءُ عَـا ... بِـدِهِ لَـهُ مِـنْ أَبْطَـلِ الـبُطْلانِ

٤٨١٨- فَلَـهُ الوِلايَـةُ وَالوَلايَـةُ مَـا لَنَـا ... مِـنْ دُونِـهِ وَالٍ مِـنَ الأَكْـوَانِ

٤٨١٩- فَـإِذَا تَـوَلَّاهُ امْـرُؤٌ دُونَ الـوَرَى ... طُـرًّا تَـوَلَّاهُ العَظِـيمُ الشَّـانِ

٤٨٢٠- وَإِذَا تَـوَلَّى غَـيْرَهُ مِـنْ دُونِـهِ ... وَلَّاهُ مَـا يَـرْضَى بِـهِ لِـهَوَانِ

٤٨٢١- فِي هَـذِهِ الـدُّنْيَا وَبَعْـدَ مَـمَاتِهِ ... وَكَـذَاكَ عِنْـدَ قِيَامَـةِ الأَبْـدَانِ

٤٨٢٢- حَقًّـا يُنَـادِيهِمْ نِـدَا سُـبْحَانَهُ ... يَـوْمَ المَعَـادِ فَيَسْـمَعُ الـثَّقَلانِ

الشرحُ

٤٨١٣- وَكَـذَا الوَلايَـةُ كُلُّهَـا للهِ لَا ... لِسِـوَاهُ مِـنْ مَلَـكٍ وَلا إِنْسَـانِ

الوَلايةُ لله وحدَه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ [الكهف:٤٤]، فلا أحدَ يتولَّى العبادَ إلَّا ربُّهم عزَّ وجلَّ، لا يتولَّاهم مَلَكٌ ولا نبيٌّ، ولا شجرٌ ولا حجرٌ، ولا أيُّ أحدٍ، فالوَلايةُ لله وحدَه.

٤٨١٤- وَاللهِ لَـمْ يَفْهَـمْ أُولُـو الإِشْرَاكِ ذَا ... وَرَآهُ تَنْقِيصًـا أُولُـو النُّقْصَـانِ

يعني: لم يفهم أصحابُ الشِّركِ أنَّ الولايةَ لله وحدَه، ورآه تنقيصًا أولو النُّقصان؛ أي: تنقيصًا للأولياءِ إذا لم نتخذْهم شفعاءَ، قالوا: هذا تنقُّصٌ، كيف تقولُ: إنَّ هذا الوليَّ لا يستطيعُ أن يشفعَ، لا يملكُ شيئًا، هذا تنقُّصٌ له.

٤٨١٥- إِذْ قَدْ تَضَمَّنَ عَزْلَ مَنْ يُدْعَى سِوَى الرْ ... رَحْمَـنِ بَـلْ أَحَدِيَّـةَ الـرَّحْمَنِ

يعني: قولُك هذا -إنَّ الولايةَ لله وحدَه، وإنَّه لا ولايةَ لأحدٍ- تضمَّن عَزْلَ مَنْ يُدْعَى سوى الرَّحمن، «**بَلْ أَحَدِيَّةَ الرَّحْمَنِ**»، و«**بَلْ**» هنا بمعنى «**الواو**»؛ يعني: وتضمَّن أحديَّةَ الرَّحمنِ؛ أي: انفرادَه في هذا، هذا معنى البيتِ فيما يظهرُ.

٤٨١٦- بَلْ كُلُّ مَدْعُوٍّ سِوَاهُ مِنْ لَدُنْ عَرْشِ الإِلَهِ إِلَى الحَضِيضِ الدَّانِي

٤٨١٧- هُوَ بَاطِلٌ فِي نَفْسِهِ وَدُعَاءُ عَا بِدِهِ لَهُ مِنْ أَبْطَلِ البُطْلَانِ

قَوْلُهُ: «بَلْ كُلُّ مَدْعُوٍّ سِوَاهُ... هُوَ بَاطِلٌ فِي نَفْسِهِ»؛ لقولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان:٣٠]، وهذا القولُ من كلامِ ابن القيِّم مُستأنَفٌ.

قَوْلُهُ: «وَدُعَاءُ عَابِدِهِ لَهُ مِنْ أَبْطَلِ البُطْلَانِ»؛ لأنَّه إذا بطل بنفسِه لَزِمَ أن يبطلَ دعاؤه؛ إذ إنَّ دعاءَ الباطلِ باطلٌ.

٤٨١٨- فَلَهُ الوِلَايَةُ وَالوَلَايَةُ مَا لَنَا مِنْ دُونِهِ وَالٍ مِنَ الأَكْوَانِ

قَوْلُهُ: «فَلَهُ الوِلَايَةُ وَالوَلَايَةُ» الوِلَايَةُ؛ يعني: تولِّي الأمور، والوَلاية منَّا له نتولَّاه.

يعني: هو الذي يتولَّى أمورَنا، ونحن الذين نتولَّاه وحدَه دون غيرِه.

٤٨١٩- فَإِذَا تَوَلَّاهُ امْرُؤٌ دُونَ الوَرَى طُرًّا تَوَلَّاهُ العَظِيمُ الشَّانِ

قَوْلُهُ: «إِذَا تَوَلَّاهُ امْرُؤٌ»؛ أي: تولَّى اللهَ دون الورى فلم يتولَّهم، وخصَّ الوِلايةَ بالله، تولَّاه العظيمُ الشَّانِ.

فهنا ولايتان: ولايةٌ منَّا لله، وولايةٌ من الله لنا، فَمَنْ تَوَلَّى اللهَ تولَّاه اللهُ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة:٥٦]، فَمَنْ تَوَلَّى اللهَ تولَّاه اللهُ، ومَنْ لم يتولَّ اللهَ تخلَّى عنه اللهُ؛ ولهذا قال:

٤٨٢٠- وَإِذَا تَوَلَّى غَيْرَهُ مِنْ دُونِهِ وَلَّاهُ مَا يَرْضَى بِهِ لِهَوَانِ

٤٨٢١- فِي هَـــذِهِ الـــدُّنْيَا وَبَعْـــدَ مَـــمَاتِهِ وَكَـــذَاكَ عِنْـــدَ قِيَامَـــةِ الأَبْـــدَانِ

إذا تولَّى الإنسانُ غيرَ الله ولَّاه اللهُ إيَّاه، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النِّساء:١١٥]، وعلى هذا فتكون الولايةُ من الله تابعةً لولايةِ الله، إن تَولَّيْتَه تولَّاك، وإن تَولَّيْتَ غيرَه تخلَّى عنك ووكلك إلى مَنْ تَوَلَّيْتَه، في ثلاثة مواضع، أو ثلاثة دُورٍ: في الدُّنيا، وبعد المماتِ، وعند قيامةِ الأبدانِ، نسألُ اللهَ أن يتولَّانا جميعًا في هذه المواضعِ كُلِّها.

٤٨٢٢- حَقًّـــا يُنَـــادِيهِمْ نِـــدَا سُـــبْحَانَهُ يَـــوْمَ المَعَـــادِ فَيَسْـــمَعُ الـــثَّقَلانِ

يعني: أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- يُناديهم يومَ القيامةِ أنَّ مَنْ كان يعبدُ أحدًا فليتبعْه، فيقوم مَنْ يعبدُ الشَّمسَ يتبعُ الشَّمسَ، ومَنْ يعبدُ القمرَ يتبعُ القمرَ وهكذا، ويبقى مَنْ يعبدُ اللهَ وحده فيتولَّاهم اللهُ -سبحانه وتعالى- بعنايتِه[1].

مسألة: وهل تولِّي غير الله عزَّ وجلَّ يُعْذَرُ فيه الإنسانُ بالجهلِ؟ الصَّحيحُ أنَّ كُلَّ شيءٍ يُعْذَرُ فيه الإنسانُ بالجهلِ، ولكن قد لا يُعْذَرُ من جهةٍ أخرى وهي التَّفريطُ وعدمُ السُّؤالِ؛ يعني: قد يبلغُ هذا المتولِّي أنَّ هذا لا يجوزُ وأنَّه شركٌ، فيقول: نحن وجدنا عليه آباءَنا، مشايخُنا لا ينهوننا عنه، حينئذٍ نعرفُ أنَّه مفرِّطٌ فلا يُعْذَرُ، لكن لو لم يُنبَّه على هذا وكان ينتمي إلى الإسلامِ ويصلِّي ويزكِّي ويصومُ ويحجُّ لكن فيه هذا البلاءُ وهو يعتقدُ أنَّه ليس بشيءٍ فهذا لا يُحْكَمُ بكفرِه.

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، رقم (٦٢٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢).

٤٨٢٣- يَـا مَـنْ يُرِيـدُ وِلايَـةَ الـرَّحْمَنِ دُو ... نَ وِلايَـةِ الشَّـيْطَانِ وَالأَوْثَـانِ

٤٨٢٤- فَـارِقْ جَمِيـعَ النَّـاسِ فِي إِشْرَاكِهِـمْ ... حَتَّـى تَنَـالَ وِلايَـةَ الـرَّحْمَنِ

٤٨٢٥- يَكْفِيكَ مَنْ وَسِعَ الـخَلائِقَ رَحْمَةً ... وَكِفَايَـةً ذُو الفَضْـلِ وَالإِحْسَـانِ

٤٨٢٦- يَكْفِيكَ مَنْ لَـمْ تَخْلُ مِـنْ إِحْسَـانِهِ ... فِي طَرْفَـةٍ بِتَقَلُّـبِ الأَجْفَـانِ

٤٨٢٧- يَكْفِيـكَ رَبٌّ لَـمْ تَـزَلْ أَلْطَافُـهُ ... تَـأْتِي إِلَيْـكَ بِرَحْمَـةٍ وَحَنَـانِ

٤٨٢٨- يَكْفِيـكَ رَبٌّ لَـمْ تَـزَلْ فِي سَـتْرِهِ ... وَيَـرَاكَ حِـينَ تَجِـيءَ بِالعِصْـيَانِ

٤٨٢٩- يَكْفِيكَ رَبٌّ لَـمْ تَـزَلْ فِي حِفْظِـهِ ... وَوِقَايَـةٍ مِنْـهُ مَـدَى الأَزْمَـانِ

٤٨٣٠- يَكْفِيـكَ رَبٌّ لَـمْ تَـزَلْ فِي فَضْـلِهِ ... مُتَقَلِّبًـا فِي السِّـرِّ وَالإِعْـلانِ

الشـرحُ

يقولُ المؤلِّفُ -رحمه الله تعالى- في بابِ ذكرِ الولايةِ وأنَّ مَنْ تَوَلَّى غيرَ الله ولَّاه اللهُ ما تولَّى، يقولُ:

٤٨٢٣- يَـا مَـنْ يُرِيـدُ وِلايَـةَ الـرَّحْمَنِ دُو ... نَ وِلايَـةِ الشَّـيْطَانِ وَالأَوْثَـانِ

٤٨٢٤- فَـارِقْ جَمِيـعَ النَّـاسِ فِي إِشْرَاكِهِـمْ ... حَتَّـى تَنَـالَ وِلايَـةَ الـرَّحْمَنِ

مَنْ أراد ولايةَ الرَّحمنِ دُون ولايةِ الشَّيطانِ فليفارقْ جميعَ النَّاسِ في إشراكِهم حتَّى ينالَ ولايةَ الرَّحمنِ.

٤٨٢٥- يَكْفِيكَ مَنْ وَسِعَ الـخَلائِقَ رَحْمَةً ... وَكِفَايَـةً ذُو الفَضْـلِ وَالإِحْسَـانِ

أي: يَكْفِيكَ عَنْ غَيْرِهِ مَنْ وَسِعَ الخَلَائِقَ رَحْمَةً وَكِفَايَةً ذُو الفَضْلِ وَالإِحْسَانِ.

٤٨٢٦- يَكْفِيكَ مَنْ لَمْ تَخْلُ مِنْ إِحْسَانِهِ ... في طَرْفَةٍ بِتَقَلُّبِ الأَجْفَانِ

يعني: أنَّه يكفيك أيضًا مَنْ لم تَخْلُ من إحسانِه طرفةَ عينٍ.

٤٨٢٧- يَكْفِيكَ رَبٌّ لَمْ تَزَلْ أَلْطَافُهُ ... تَأْتِي إِلَيْكَ بِرَحْمَةٍ وَحَنَانِ

قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨].

٤٨٢٨- يَكْفِيكَ رَبٌّ لَمْ تَزَلْ في سَتْرِهِ ... وَيَرَاكَ حِينَ تَجِيءُ بِالعِصْيَانِ

يكفيك الرَّبُّ الذي يسترُ عليك معصيتَك وهو يراك، ولو أَطْلَعَ الخلقَ على عيوبِك لجفاك كُلُّ النَّاسِ، ولكنَّه عزَّ وجلَّ يعلمُ بعيوبِك ويسترُها -سبحانه وتعالى- لُطفًا وإحسانًا.

٤٨٢٩- يَكْفِيكَ رَبٌّ لَمْ تَزَلْ في حِفْظِهِ ... وَوِقَايَةٍ مِنْهُ مَدَى الأَزْمَانِ

اللهُ حفيظٌ على عبادِه، وقد وَكَّلَ ملائكةً كرامًا يحفظونهم، قال اللهُ تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١].

٤٨٣٠- يَكْفِيكَ رَبٌّ لَمْ تَزَلْ في فَضْلِهِ ... مُتَقَلِّبًا في السِّرِّ وَالإِعْلانِ

الإنسانُ -ولاسيَّما المؤمنُ- متقلِّبٌ في فضلِ الله في السِّرِّ والإعلانِ، إن أَصَابَتْهُ ضرَّاءُ صَبَرَ فكان خيرًا له، وإنْ أصابته سرَّاءُ شَكَرَ فكان خيرًا له.

* * *

٤٨٣١- يَدْعُوهُ أَهْلُ الأَرْضِ مَعْ أَهْلِ السَّمَا ... ءِ فَكُلَّ يَوْمٍ رَبُّنَا في شَانِ

٤٨٣٢- وَهُوَ الكَفِيلُ بِكُلِّ مَا يَدْعُونَهُ ... لا يَعْتَرِي جَدْوَاهُ مِنْ نُقْصَانِ

٤٨٣٣- فَتَوَسُّطُ الشُّفَعَاءِ وَالشُّرَكَاءِ وَالظْـ ... ظُهَرَاءِ أَمْرٌ بَيِّنُ البُطْلانِ

٤٨٣٤- مَـا فِيـهِ إِلَّا مَحْـضُ تَشْـبِيهٍ لَـهُـمْ ... بِـالله وَهْـوَ فَـأَقْبَحُ البُهْتَـانِ

٤٨٣٥- مَـعَ قَصْـدِهِمْ تَعْظِيمَـهُ سُـبْحَانَهُ ... مَـا عَطَّلُـوا الأَوْصَـافَ لِلـرَّحْمَنِ

٤٨٣٦- لَكِنْ أَخُو التَّعْطِيلِ لَيْسَ لَدَيْـهِ إِلْـ ... لَا النَّفْـيُ أَيْـنَ النَّفْـيُ مِـنْ إِيـمَانِ

٤٨٣٧- وَالقَلْـبُ لَـيْسَ يَقَـرُّ إِلَّا بِالتَّعَبْـ ... ـبُدِ فَهْـوَ يَـدْعُوهُ إِلَى الأَكْـوَانِ

٤٨٣٨- فَـتَرَى الـمُعَطِّلَ دَائِـمًا في حَـيْرَةٍ ... مُتَـنَقِّلًا في هَـذِهِ الأَعْيَـانِ

٤٨٣٩- يَـدْعُو إِلَـهًا ثُـمَّ يَـدْعُو غَـيْرَهُ ... ذَا شَـأْنُهُ أَبَـدًا مَـدَى الأَزْمَـانِ

٤٨٤٠- وَتَـرَى الـمُوَحِّدَ دَائِـمًا مُتَـنَقِّلًا ... بِمَنَـازِلِ الطَّاعَـاتِ وَالإِحْسَـانِ

٤٨٤١- مَـا زَالَ يَنْـزِلُ في الوَفَـاءِ مَنَـازِلًا ... وَهِـيَ الطَّرِيـقُ لَـهُ إِلَى الـرَّحْمَنِ

٤٨٤٢- لَكِـنَّمَا مَعْبُـودُهُ هُـوَ وَاحِـدٌ ... مَـا عِنْـدَهُ رَبَّـانِ مَعْبُـودَانِ

الشرحُ

٤٨٣١- يَدْعُوهُ أَهْلُ الأَرْضِ مَعْ أَهْلِ السَّمَا ... ءِ فَكُـلَّ يَـوْمٍ رَبُّنَـا في شَـانِ

سبحانه وتعالى كُلَّ يومٍ هو في شأنٍ! يُقلِّبُ القلوبَ والأفئدةَ والأبصارَ حسَب ما تقتضيه حكمتُه؛ يُغْنِي فقيرًا، ويُفقر غنيًّا، ويُعَلِّمُ جاهلًا، ويوسِّعُ لهذا، ويضيِّقُ على هذا، ويحيي ويُميت، كُلَّ يومٍ هو في شأنٍ.

٤٨٣٢- وَهُـوَ الكَفِيـلُ بِكُـلِّ مَـا يَدْعُونَـهُ ... لا يَعْـتَرِي جَـدْوَاهُ مِـنْ نُقْصَـانِ

الكَفِيلُ من أسماءِ الله؛ يعني: الضَّامن لكُلِّ ما يدعوه، لو دعاه أهلُ الأرضِ وأهلُ السَّماءِ الإنسُ والجنُّ وأعطى كُلَّ إنسانٍ مسألتَه ما نقص ذلك ممَّا عنده

إلَّا كما ينقصُ المِخْيَطُ إذا غُمِسَ في البحرِ[(١)]، لو غَمَسْتَ مخيطًا في البحرِ ثُمَّ نَزَعْتَهُ هل ينقصُ البحر شيئًا؟ أبدًا لا ينقصُ البحر شيئًا؛ ولهذا يقولُ: «**لَا يَعْتَرِي جَدْوَاهُ**»؛ أي: عطاياه «**مِنْ نُقْصَانِ**».

٤٨٣٣- فَتَوَسُّطُ الشُّفَعَاءِ وَالشُّرَكَاءِ وَالظُّـ ... ـهَـرَاءِ أَمْـرٌ بَـيِّنُ الـبُطْلانِ

يعني: إذَنْ لا حاجةَ لوسيطٍ بين الله وبين العبادِ، لا شافعَ، ولا شريكَ، ولا ظهيرَ، والظَّهيرُ هو المُعينُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]، وقد بَيَّنَ اللهُ هذه الأمورَ الثَّلاثةَ التي ذكرها المؤلِّفُ في قولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٣]، فنفى كُلَّ ما يتعلَّقُ به المشركون.

٤٨٣٤- مَـا فِيـهِ إِلَّا مَحْـضُ تَشْـبِيهٍ لَـهُمْ ... بِـالله وَهْـوَ فَـأَقْبَحُ البُهْتَـانِ

قَوْلُهُ: «**مَا فِيهِ إِلَّا مَحْضُ تَشْبِيهٍ لَـهُمْ بِالله**»؛ يعني: هؤلاء الذين اتَّخذوا الشُّفعاءَ والوُسَطاءَ شبَّهوهم بالله عزَّ وجلَّ، «**وَهْوَ فَأَقْبَحُ البُهْتَانِ**».

قَوْلُهُ: «**وَهْوَ فَأَقْبَحُ البُهْتَانِ**»، يعني: تشبيهُ الخالقِ بالمخلوقِ أقبحُ البهتانِ.

٤٨٣٥- مَـعَ قَصْـدِهِمْ تَعْظِيمَـهُ سُـبْحَانَهُ ... مَـا عَطَّلُـوا الأَوْصَـافَ لِلـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «**مَعَ قَصْدِهِمْ تَعْظِيمَه سُبْحَانَهُ**»؛ يعني: الذين اتَّخذوا هذه الأصنامَ شُفَعاءَ قصدوا بذلك تعظيمَ الله، ولم يُعطِّلوا أوصافَه.

قَوْلُهُ: «**مَا عَطَّلُوا الأَوْصَافَ لِلرَّحْمَنِ**» هذا تنديدٌ بالمعطِّلةِ؛ ولهذا قال:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

٤٨٣٦- لَكِنْ أَخُو التَّعْطِيلِ لَيْسَ لَدَيْـهِ إِلْـ   لَا النَّفْـيُ أَيْـنَ النَّفْـيُ مِـنْ إِيـمَانِ

المعطِّلُ لا يصفُ اللهَ إلَّا بالنَّفي، لا يصفُه بالإثباتِ، فأين النَّفْي من إيمانٍ؟! لا إيمانَ لمن ينفي؛ لأنَّ النَّفيَ عَدَمٌ، والعَدَمُ ليس بشيءٍ، إذا قال: إنَّ اللهَ لا يسمعُ ولا يبصرُ وليس له وجهٌ ولا عينٌ، وأخَذ ينفي الصِّفاتِ، يؤولُ به الأمرُ إلى العَدَمِ.

٤٨٣٧- وَالقَلْـبُ لَـيْسَ يَقَـرُّ إِلَّا بِالتَّعَبْـ   ـبُدِ فَهْـوَ يَـدْعُوهُ إِلَى الأَكْـوَانِ

القلبُ لا بُدَّ له من معبودٍ، فَمَن الذي يعبدُ؟ إمَّا أن يعبدَ اللهَ وإمَّا أن يعبدَ غيرَ الله؛ ولهذا قال: «**فَهْوَ يَدْعُوهُ إِلَى الأَكْوَانِ**»؛ يعني: أنَّ قلبَ المعطِّلِ رُبَّما يصلُ به الحالُ إلى أن يعبدَ الأكوانَ كما هو مذهبُ أهلِ وحدةِ الوجودِ الذين يقولون: إنَّ الكونَ كُلَّه هو اللهُ.

٤٨٣٨- فَـتَرَى الـمُعَطِّلَ دَائِـمًا فِي حَـيْرَةٍ   مُتَـنَقِّلًا فِي هَـذِهِ الأَعْيَـانِ

٤٨٣٩- يَـدْعُو إِلَـهًا ثُـمَّ يَـدْعُو غَـيْرَهُ   ذَا شَـأْنُهُ أَبَـدًا مَـدَى الأَزْمَـانِ

نسألُ اللهَ العافيةَ، المعطِّلُ أحيانًا يَعبُدُ هذا، وأحيانًا يَعبُدُ هذا، وأحيانًا يَعبُدُ هذا؛ لأنَّه ليس له ما يُعَيِّنُ معبودَه بصفاتِه، فهو حائرٌ.

٤٨٤٠- وَتَـرَى الـمُوَحِّدَ دَائِـمًا مُتَـنَقِّلًا   بِمَنَـازِلِ الطَّاعَـاتِ وَالإِحْسَـانِ

٤٨٤١- مَـا زَالَ يَنْـزِلُ فِي الوَفَـاءِ مَنَـازِلًا   وَهِـيَ الطَّرِيـقُ لَـهُ إِلَى الـرَّحْمَنِ

٤٨٤٢- لَكِـنَّمَا مَعْبُـودُهُ هُـوَ وَاحِـدٌ   مَـا عِنْـدَهُ رَبَّـانِ مَعْبُـودَانِ

الموحِّدُ متنقِّلٌ في منازلِ الطَّاعاتِ من صلاةٍ وذكرٍ وقُرآنٍ وصَدَقةٍ وصيامٍ وعِلْمٍ وأمرٍ بالمعروفِ ونهيٍ عن المنكر، والمعبودُ عنده واحدٌ لا يتنقَّلُ فيه.

فصـــل

في مَثَلِ المُشْرِكِ والمُعَطِّلِ

٤٨٤٣- أَيْنَ الَّذِي قَدْ قَالَ فِي مَلَكٍ عَظِيـ ـمٍ لَسْتَ فِينَا قَطُّ ذَا سُلْطَانِ

٤٨٤٤- مَا فِي صِفَاتِكَ مِنْ صِفَاتِ المُلْكِ شَيْ ءٌ كُلُّهَا مَسْلُوبَةُ الوِجْدَانِ

٤٨٤٥- فَهَلِ اسْتَوَيْتَ عَلَى سَرِيرِ المُلْكِ أَوْ دَبَّرْتَ أَمْرَ المُلْكِ وَالسُّلْطَانِ

٤٨٤٦- أَوْ قُلْتَ مَرْسُومًا تُنَفِّذُهُ الرَّعَا يَا أَوْ نَطَقْتَ بِلَفْظَةٍ بِبَيَانِ

٤٨٤٧- أَوْ كُنْتَ ذَا أَمْرٍ وَذَا نَهْيٍ وَتَكْـ ـلِيمٍ لِمَنْ وَافَى مِنَ البُلْدَانِ

٤٨٤٨- أَوْ كُنْتَ ذَا سَمْعٍ وَذَا بَصَرٍ وَذَا عِلْمٍ وَذَا سُخْطٍ وَذَا رِضْوَانِ

٤٨٤٩- أَوْ كُنْتَ قَطُّ مُكَلِّمًا مُتَكَلِّمًا مُتَصَرِّفًا بِالفِعْلِ كُلَّ زَمَانِ

٤٨٥٠- أَوْ كُنْتَ تَفْعَلُ مَا تَشَاءُ حَقِيقَةَ الْـ ـفِعْلِ الَّذِي قَدْ قَامَ بِالأَذْهَانِ

٤٨٥١- أَوْ كُنْتَ حَيًّا فَاعِلًا بِمَشِيئَةٍ وَبِقُدْرَةٍ أَفْعَالَ ذِي السُّلْطَانِ

٤٨٥٢- فِعْلٌ يَقُومُ بِغَيْرِ فَاعِلِهِ مُحَا لٌ غَيْرُ مَعْقُولٍ لِذِي الإِنْسَانِ

٤٨٥٣- بَلْ حَالَةُ الفَعَّالِ قَبْلَ وَمَعْ وَبَعْـ ـدُ هِيَ الَّتِي كَانَتْ بِلا فُرْقَانِ

٤٨٥٤- وَاللهِ لَسْتَ بِفَاعِلٍ شَيْئًا إِذَا مَا كَانَ شَأْنُكَ مِثْلَ هَذَا الشَّانِ

٤٨٥٥- لا دَاخِلًا فِينَا وَلَسْتَ بِخَارِجٍ عَنَّا خَيَالًا دُرْتَ فِي الأَذْهَانِ

٤٨٥٦- فَبِـأَيِّ شَيْءٍ كُنْـتَ فِينَـا مَالِكًـا ... مُلْكًـا مُطَاعًـا قَـاهِرَ السُّـلْطَانِ

٤٨٥٧- إِسْـمًا وَرَسْـمًا لا حَقِيقَـةَ تَحْتَـهُ ... شَأْنُ الـمُلُوكِ أَجَلُّ مِـنْ ذَا الشَّـانِ

الشرحُ

قد تقدَّم نحوُ هذا البحثِ، وأنَّ ابنَ القيِّمِ -رحمه اللهُ- يرى أنَّ فتنةَ التَّعطيلِ أشدُّ من فتنة الشِّركِ، وقد قَرَّرَ ذلك في هذا الفصلِ، وهذه الأبياتُ في الذين لا يَصِفون اللهَ تعالى بالثُّبوتِ أبدًا، وإنَّما يصفونه بالسُّلوبِ «النَّفي»، وهؤلاء هم غُلَاةُ الجهميَّةِ، يقولون: لا يمكنُ أن نصفَ اللهَ تعالى بشيءٍ ثبوتيٍّ أبدًا؛ بِحُجَّةِ أنَّنا لو وصَفْناه بالشَّيء الثُّبوتيِّ شبَّهناه بالموجوداتِ، فقِيلَ لهم: وإذا وصَفتُموه بشيءٍ عَدَمِيٍّ شبَّهتموه بالمعدوماتِ، فتكايُس بعضُهم وقالوا: لا نَصِفُه بالوجودِ ولا بالعَدَمِ، فنقولُ لهم: إذَنْ شبَّهتموه بالمستحيلاتِ الممتنعاتِ.

وكلامُ ابنِ القيِّمِ كُلُّه في الذين لا يصفون اللهَ بالثُّبوتِ أبدًا، قال رحمه الله:

٤٨٤٣- أَيْنَ الَّذِي قَدْ قَـالَ فِي مَلَـكٍ عَظِيـ ... ـمٍ لَسْـتَ فِينَـا قَـطُّ ذَا سُـلْطَانِ

٤٨٤٤- مَا فِي صِفَاتِكَ مِنْ صِفَاتِ المُلْكِ شَيْ ... ءٌ كُلُّهَـا مَسْـلُوبَةُ الوِجْـدَانِ

قَوْلُهُ: «مَسْلُوبَةُ الوِجْدَانِ»؛ أي: مسلوبةُ الوجودِ، لكن مَنْ هذا؟ هذا هو المعطِّلُ.

٤٨٤٥- فَهَلِ اسْتَوَيْتَ عَلَى سَرِيرِ الـمُلْكِ أَوْ ... دَبَّـرْتَ أَمْـرَ الـمُلْكِ وَالسُّـلْطَانِ

هذا الاستفهامُ للنَّفي؛ يعني: أنَّك لم تستوِ على العرشِ؛ لأنَّ المعطِّلةَ ينكرون استواءَ الله على عرشِه.

٤٨٤٦- أَوْ قُلْـتَ مَرْسُـومًا تُنَفِّـذُهُ الرَّعَـا　　يَـا أَوْ نطَقْـتَ بِلَفْظَـةٍ بِبَيَـانِ

قَوْلُهُ: «أَوْ قُلْتَ مَرْسُومًا» هذا معطوفٌ على الاستفهامِ الذي بمعنى النَّفي؛ يعني: ما قُلْتَ مرسومًا ويعني بهذا المرسومِ القرآنَ.

قَوْلُهُ: «أَوْ نَطَقْتَ بِلَفْظَةٍ بِبَيَانِ» هذا عمومُ الكلامِ.

٤٨٤٧- أَوْ كُنْـتَ ذَا أَمْـرٍ وَذَا نَهْـيٍ وَتَكْـ　　ـلِيمٍ لِـمَنْ وَافَى مِـنَ البُلْـدَانِ

هذا أيضًا تابعٌ النَّفيَ؛ يعني: أنَّك لم تأمر ولم تَنْهَ ولم تُكلِّم؛ لأنَّ الأمرَ والنَّهيَ من خصائصِ القولِ، وهم يقولون: إنَّ اللهَ لا يقولُ ولا يتكلَّمُ، إذَنْ فهو لا يأمرُ ولا يَنْهَى.

٤٨٤٨- أَوْ كُنْتَ ذَا سَمْعٍ وَذَا بَصَـرٍ وَذَا　　عِلْـمٍ وَذَا سُـخْطٍ وَذَا رِضْـوَانِ

هذا أيضًا داخلٌ في النَّفي.

٤٨٤٩- أَوْ كُنْـتَ قَـطُّ مُكَلِّـمًا مُتَـكَلِّمًا　　مُتَصَـرِّفًا بِالفِعْـلِ كُـلَّ زَمَـانِ

قَوْلُهُ: «مُكَلِّمًا مُتَكَلِّمًا» «مُكَلِّمًا»؛ أي: الكلام المتعدِّي، و«مُتَكَلِّمًا»؛ أي: الوصف اللَّازم.

هذا أيضًا داخلٌ في النَّفي.

٤٨٥٠- أَوْ كُنْتَ تَفْعَلُ مَا تَشَاءُ حَقِيقَةَ الْـ　　ـفِعْلِ الَّـذِي قَـدْ قَـامَ بِالأَذْهَـانِ

هذا أيضًا داخلٌ في النَّفي؛ لأنَّهم يُنكرون أنَّ اللهَ يفعلُ، ويقولون: إنَّ فعلَه مفعولُه، وليس له فعلٌ قَائِمٌ بذاتِه.

٤٨٥١- أَوْ كُنْتَ حَيًّا فَاعِلًا بِمَشِيئَةٍ ... وَبِقُدْرَةٍ أَفْعَالَ ذِي السُّلْطَانِ

لأنَّهم لا يَرَوْنَ لله أفعالًا تتعلَّقُ بالمشيئةِ، يقولون: إنَّه لو قامت به أفعالٌ تتعلَّقُ بمشيئتِهِ لقامت به الحوادثُ، وما قامت به الحوادثُ فهو حادثٌ، وكُلُّ هذا سبق.

٤٨٥٢- فِعْلٌ يَقُومُ بِغَيْرِ فَاعِلِهِ مُحَا ... لٌ غَيْرُ مَعْقُولٍ لِذِي الإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «لِذِي الإِنْسَانِ» إن جعلنا «لِذِي» اسمَ إشارةٍ كُتِبَتْ «لِذَا الإِنْسَانِ»، وإن جعلناها بمعنى «صاحب» فإنَّ المعنى لا يستقيمُ، لكن لعلَّها «لَدَى الإِنْسَانِ».

معناه: أنَّهم يقولون: إنَّ فعلَ الله مفعولُه، فيقولُ ابنُ القيِّمِ: هذا محالٌ أن يكونَ فعلٌ يقومُ بغيرِ الفاعلِ.

٤٨٥٣- بَلْ حَالَةُ الفَعَّالِ قَبْلَ وَمَعْ وَبَعْـ ... ـدُ هِيَ الَّتِي كَانَتْ بِلا فُرْقَانِ

حالةُ الفعَّالِ قبل أنْ يفعلَ ومع فعلِه وبعد أن يفعلَ، كُلُّها إنَّما يتَّصفُ بها الفاعلُ دون المفعولِ.

٤٨٥٤- وَاللهِ لَسْتَ بِفَاعِلٍ شَيْئًا إِذَا ... مَا كَانَ شَأْنُكَ مِثْلَ هَذَا الشَّانِ

يعني أنَّ ابنَ القيِّمِ يقولُ: لا يمكنُ أن يكونَ فاعلًا شيئًا إذا كان شأنُه هذا الشَّأن.

٤٨٥٥- لا دَاخِلًا فِينَا وَلَسْتَ بِخَارِجٍ ... عَنَّا خَيَالًا دُرْتَ فِي الأَذْهَانِ

يعني: أنَّهم يقولون: إنَّ اللهَ ليس داخلًا فينا ولا خارجًا عنَّا، إذَنْ يكونُ عَدَمًا وخيالًا في الأذهانِ فقط.

٤٨٥٦- فَبِـأَيِّ شَيْءٍ كُنْـتَ فِينَـا مَالِكًـا ... مُلْكًـا مُطَاعًـا قَـاهِرَ السُّـلْطَانِ

٤٨٥٧- إِسْـمًا وَرَسْـمًا لا حَقِيقَـةَ تَحْتَـهُ ... شَأْنُ الـمُلُوكِ أَجَلُّ مِـنْ ذَا الشَّـانِ

شأنُ الملوكِ -يعني: في الدُّنيا- أَجَلُّ من ذا الشَّأنِ، أو شأنُ الملوكِ عمومًا أجلُّ من مَلِكٍ ليس لنا منه إلَّا اسمُه ورسمُه فقط.

* * *

٤٨٥٨- هَـذَا وَثَـانٍ قَـالَ أَنْـتَ مَلِيكُنَـا ... وَسِـوَاكَ لا نَرْضَـاهُ مِـنْ سُـلْطَانِ

٤٨٥٩- إِذْ حُزْتَ أَوْصَافَ الكَمَالَ جَمِيعَهَـا ... وَلِأَجْـلِ ذَا دَانَـتْ لَـكَ الـثَّقَلانِ

٤٨٦٠- وَقَدِ اسْتَوَيْتَ عَلَى سَرِيرِ المُلْكِ وَاسْـ ... ـتَوْلَيْتَ مَـعْ هَـذَا عَـلَى البُلْـدَانِ

٤٨٦١- لَكِـنَّ بَابَـكَ لَـيْسَ يَغْشَـاهُ امْـرُؤٌ ... إِنْ لَـمْ يَجِـئْ بِالشَّـافِعِ الـمِعْوَانِ

٤٨٦٢- وَيَذِلُّ لِلْبَوَّابِ وَالـحُجَّابِ وَالشُّـ ... ـفَعَاءِ أَهْلِ القُـرْبِ وَالإِحْسَـانِ

٤٨٦٣- أَفَيَسْـتَوِي هَـذَا وَهَـذَا عِنْـدَكُمْ ... وَاللهِ مَـا اسْـتَوِيَا لَـدَى إِنْسَـانِ

٤٨٦٤- وَالـمُشْرِكُونَ أَخَـفُّ فِي كُفْـرَانِهِمْ ... وَكِلاهُمَـا مِـنْ شِـيعَةِ الشَّـيْطَانِ

٤٨٦٥- إِنَّ المُعَطِّـلَ بِالعَـدَاوَةِ قَـائِمٌ ... فِي قَالَـبِ التَّنْزِيـهِ لِلـرَّحْمَنِ

الشرحُ

٤٨٥٨- هَـذَا وَثَـانٍ قَـالَ أَنْـتَ مَلِيكُنَـا ... وَسِـوَاكَ لا نَرْضَـاهُ مِـنْ سُـلْطَانِ

يعني بالثَّاني: المشركَ «قَالَ: أَنْتَ مَلِيكُنَا وَسِوَاكَ لَا نَرْضَاهُ مِنْ سُلْطَانِ»؛ لأنَّ المشركين يُقِرُّون بأنَّ اللهَ وحده هو الخالقُ الرَّازقُ وأنَّه بيدِه ملكوتُ السَّماواتِ والأرضِ.

٤٨٥٩- إِذْ حُزْتَ أَوْصَافَ الكَمَالَ جَمِيعَهَا وَلِأَجْلِ ذَا دَانَتْ لَكَ الثَّقَلَانِ

٤٨٦٠- وَقَدِ اسْتَوَيْتَ عَلَى سَرِيرِ المُلْكِ وَاسْـ ـتَوْلَيْتَ مَعْ هَذَا عَلَى البُلْدَانِ

كُلُّ هذا يُقِرُّ به المشركون.

٤٨٦١- لَكِنَّ بَابَكَ لَيْسَ يَغْشَاهُ امْرُؤٌ إِنْ لَمْ يَجِئْ بِالشَّافِعِ المِعْوَانِ

هنا حَصَلَ الخللُ من المشركين، قالوا: إنَّ اللهَ لا بُدَّ أن يكونَ بيننا وبينه شفعاءُ؛ لأنَّ بابَه عظيمٌ لا يَلِجُه أحدٌ إلَّا بشافعٍ معوانٍ.

٤٨٦٢- وَيَذِلَّ لِلْبَوَّابِ وَالحُجَّابِ وَالشْـ ـشُفَعَاءِ أَهْلِ القُرْبِ وَالإِحْسَانِ

يعني: أنَّ بابَك لا يدخله أحدٌ إلَّا بشفيعٍ يَذِلُّ له الطَّالبُ الذي يطلبُ القُربَ منك، فقوله: «وَيَذِلَّ» معطوفةٌ على «يَجِئْ»؛ يعني: إن لم يَجِئْ وإن لم يذلَّ للبوَّابِ والحَجَّابِ والشُّفعاءِ أهلِ القربِ والإحسانِ.

٤٨٦٣- أَفَيَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا عِنْدَكُمْ وَاللهِ مَا اسْتَوَيَا لَدَى إِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «أَفَيَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا عِنْدَكُمْ» الإشارةُ إلى مَنْ؟ الجوابُ: إلى المعطِّلِ والمشركِ، والله ما استويا لدى إنسانٍ.

فانظر أيُّهما أشدُّ: المشركُ أو المعطِّلُ الذي لا يَصِفُ اللهَ بشيءٍ من صفاتِ الكمالِ إطلاقًا، ويقول: إنَّه لا يُوصَفُ إلَّا بالسُّلوبِ؛ أي: بالنَّفي؛ يعني: أنَّه لم يُثْبِتْ ربًّا؟ الجوابُ: المشركون أخفُّ؛ ولذا قال:

٤٨٦٤- وَالمُشْرِكُونَ أَخَفُّ فِي كُفْرَانِهِمْ وَكِلَاهُمَا مِنْ شِيعَةِ الشَّيْطَانِ

قَوْلُهُ: «وَالمُشْرِكُونَ أَخَفُّ»، وهذا هو الفرقُ.

قَوْلُهُ: «وَكِلَاهُمَا»؛ أي: المشركُ والمعطِّلُ.

٤٨٦٥- إِنَّ الـــمُعَطِّلَ بِالعَـــدَاوَةِ قَـــائِمٌ   فِي قَالَـــبِ التَّنْزِيـــهِ لِلـــرَّحْمَنِ

المعطِّلُ مُلَبِّسٌ؛ لأَنَّه يقولُ: أنا أقولُ هكذا تنزيهًا لله أن يُشابِهَ المخلوقين، فيَدَّعي بإنكارِه وتعطيلِه أنَّه مُنَـزَّهٌ لله، ويدَّعي أنَّ الذين يُثْبِتُونَ الصِّفاتِ مُجَسِّمةٌ ممثِّلةٌ حَشْوِيَّةٌ ليس عندهم عقولٌ ولم يقدِّروا اللهَ حقَّ قدرِه.

* * *

فصل

فِيمَا أَعَدَّ اللهُ تَعَالَى مِنَ الإِحْسَانِ لِلْمُتَمَسِّكِينَ بِكِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ عِنْدَ فَسَادِ الزَّمَانِ

٤٨٦٦- هَـذَا وَلِلْمُتَمَسِّـكِينَ بِسُـنَّةِ الْـ ... ـمُخْتَارِ عِنْدَ فَسَادِ ذِي الأَزْمَانِ

٤٨٦٧- أَجْرٌ عَظِيمٌ لَيْسَ يَقْدِرُ قَدْرَهُ ... إِلَّا الَّـذِي أَعْطَاهُ لِلإِنْسَانِ

٤٨٦٨- فَرَوَى أَبُـو دَاوُدَ فِي سُـنَنٍ لَـهُ ... وَرَوَاهُ أَيْضًـا أَحْمَـدُ الشَّـيْبَانِي

٤٨٦٩- أَثَرًا تَضَمَّنَ أَجْرَ خَمْسِينَ امْرَءًا ... مِنْ صَحْبِ أَحْمَدَ خِيرَةِ الرَّحْمَنِ

٤٨٧٠- إِسْنَادُهُ حَسَـنٌ وَمِصْـدَاقٌ لَـهُ ... فِي «مُسْلِمٍ» فَافْهَمْهُ فَهْمَ بَيَانِ

٤٨٧١- أَنَّ العِبَادَةَ وَقْتَ هَرْجٍ هِجْرَةٌ ... حَقًّـا إِلَيَّ وَذَاكَ ذُو بُرْهَـانِ

٤٨٧٢- هَذَا فَكَمْ مِنْ هِجْرَةٍ لَكَ أَيُّهَا السْـ ... ـسُنِّيُّ بِالتَّحْقِيقِ لا بِأَمَانِي

٤٨٧٣- هَـذَا وَكَمْ مِنْ هِجْرَةٍ لَـهُمُ بِمَا ... قَالَ الرَّسُـولُ وَجَاءَ فِي القُرْآنِ

٤٨٧٤- وَلَقَدْ أَتَى مِصْدَاقُهُ فِي «التِّرْمِذِيْ ... يِ» لِـمَنْ لَـهُ أُذُنَانِ وَاعِيَتَانِ

٤٨٧٥- فِي أَجْرِ مُحْيِي سُـنَّةٍ مَاتَـتْ فَذَا ... كَ مَـعَ الرَّسُـولِ رَفِيقُـهُ بِجِنَانِ

٤٨٧٦- هَـذَا وَمِصْـدَاقٌ لَـهُ أَيْضًـا أَتَى ... فِي «التِّرْمِذِيِّ» لِـمَنْ لَـهُ عَيْنَانِ

٤٨٧٧- تَشْـبِيهُ أُمَّتِهِ بِغَيْـثٍ أَوَّلٌ ... مِنْـهُ وَآخِـرُهُ فَمُشْـتَبِهَانِ

٤٨٧٨- فَلِذَاكَ لا يَدْرِي الَّـذِي هُـوَ مِـنْهُمَا ... قَدْ خُـصَّ بِالتَّفْضِـيلِ وَالرُّجْحَـانِ

الشَّـرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلٌ فِيمَا أَعَدَّ اللهُ تَعَالَى مِنَ الإِحْسَانِ لِلْمُتَمَسِّكِينَ بِكِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ» متى؟ الجوابُ: عند فسادِ الزَّمانُ؛ لأَنَّه إذا كان الزَّمانُ صالحًا وكان النَّاسُ فيه على الاستقامةِ سهل على الإنسانِ أنْ يستقيمَ، لكن إذا كان الزَّمانُ فاسدًا وكان النَّاسُ فيه على غيرِ الاستقامةِ فإنَّ الاستقامةَ تكونُ صعبةً؛ لأنَّ الإنسانَ إذا اسْتَقَامَ في مثلِ هذا الزَّمانِ وجد نفسَه غريبًا بين النَّاسِ، وطُوبَى للغُرَباء، وهذا أمرٌ واضحٌ، انظُر إلى رَجُلٍ صالحٍ في بيتٍ أهلُهُ غيرُ صالحين ماذا يجد هذا الابنُ الصَّالحُ من التَّعَبِ والمشقَّةِ والمُعاناةِ؟! وانظر إلى رجلٍ صالحٍ في بيتٍ أهلُه صالحون، فهذا الثَّاني يَسهلُ عليه الصَّلاحُ، بل لو فَسَدَ يُرَى غريبًا؛ لأَنَّه بين قومٍ صالحين، فإذا صلح الإنسانُ عند فسادِ الزَّمانِ كان عند الله أعظمَ أجرًا كما سَيُبَيِّنُه المؤلِّفُ رحمه الله.

٤٨٦٦- هَـذَا وَلِلْمُتَمَسِّـكِينَ بِسُـنَّةِ الْـ ... ـمُخْتَارِ عِنْـدَ فَسَـادِ ذِي الأَزْمَـانِ

٤٨٦٧- أَجْـرٌ عَظِـيمٌ لَـيْسَ يَقْـدِرُ قَـدْرَهُ ... إِلَّا الَّـذِي أَعْطَـاهُ لِلإِنْسَـانِ

قَوْلُهُ: «ذِي»؛ بمعنى: هذي، فهو اسمُ إشارةٍ، وليس من الأسماءِ الخمسةِ.

للمُتمسِّكين بهذه السُّنَّةِ أجرٌ عظيمٌ ليس يَقْدُرُ قَدْرَهُ -يعني: ليس يعلمُ قَدْرَهُ- إلَّا الذي أعطاه للإنسانِ، والذي أعطاه للإنسانِ هو اللهُ عزَّ وجلَّ.

٤٨٦٨- فَـرَوَى أَبُـو دَاوُدَ فِي سُـنَنٍ لَـهُ ... وَرَوَاهُ أَيْضًـا أَحْمَـدُ الشَّـيْبَانِي

٤٨٦٩- أَثَـرًا تَضَـمَّنَ أَجْـرَ خَمْسِـينَ امْـرَءًا مِنْ صَـحْبِ أَحْمَـدَ خِـيرَةِ الـرَّحْمَنِ

يقولُ: روى أبو داودَ والإمامُ أحمدُ -رحمهما اللهُ- أثرًا يتضمَّنُ أنَّ المتمسِّكَ بالسُّنَّةِ عند فسادِ الزَّمانِ له أجرُ خمسين من أصحابِ النَّبيِّ ﷺ[1]، وهذا أجرٌ عظيمٌ؛ يعني: إذا كنت متمسِّكًا بالسُّنَّةِ مُتَّبعًا لها عند فَسادِ الزَّمانِ ومخالفةِ النَّاسِ لها فلَكَ أجرُ خمسين امرءًا من أصحابِ رسولِ الله -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-، ويقولُ المؤلِّفُ:

٤٨٧٠- إِسْـنَادُهُ حَسَـنٌ وَمِصْـدَاقٌ لَـهُ فِي «مُسْـلِمٍ» فَافْهَمْـهُ فَهْـمَ بَيَـانِ

الرَّسولُ ﷺ أخبر فيما صَحَّ عنه كما في **«صحيح مسلم»** أنَّ العبادةَ في زمنِ الـهَرْجِ -يعني: الاختلاطَ والقتلَ- كهجرةٍ إلى الرَّسولِ ﷺ[2]، وهذا يُؤيِّدُ ما رواه أبو داودَ والإمامُ أحمدُ في أنَّ للمتمسِّكِ بالسُّنَّةِ أجرَ خمسين من أصحابِ النَّبيِّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-.

٤٨٧١- أَنَّ العِبَـادَةَ وَقْـتَ هَـرْجٍ هِجْـرَةٌ حَقًّـا إِلَيَّ وَذَاكَ ذُو بُرْهَـانِ

٤٨٧٢- هَذَا فَكَمْ مِنْ هِجْرَةٍ لَكَ أَيُّهَا السُّـ ـنِّيُّ بِـالتَّحْقِيقِ لا بِأَمَـانِي

قَوْلُهُ: «لَا بِأَمَانِي»؛ يعني: فهي من الأماني وليست من الأمنِ؛ أي: لا بالأماني الكاذبةِ التي يتَمنَّاها الإنسانُ ولا تحصلُ له كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النساء:١٢٣].

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم (٤٣٤١)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، رقم (٣٠٥٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة:١٠٥]، رقم (٤٠١٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب فضل العبادة في الهرج، رقم (٢٨٤٨).

يعني: إذا كانت العبادةُ في زمن الهَرْج كهجرةٍ إلى الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- فما أكثر الهجراتِ التي تكونُ لك أيُّها السُّنِّيُّ بالتَّحقيقِ لا بأماني.

فهي هجرةٌ حقيقةً كما قال النَّبِيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ومرادُ النَّبِيِّ ﷺ من هذا سواء ما رواه الإمامُ أحمدُ وما رواه أبو داودَ أو ما رواه مسلمٌ، مرادُه الحثُّ على التَّمسُّكِ بالسُّنَّةِ والصَّبرِ عليها وإن أُوذِيَ الإنسانُ؛ لأنَّه لا بُدَّ أن يُؤْذَى إذا كان الزَّمانُ فاسدًا، لا بُدَّ أن يُسْخَرَ منه، ولا بُدَّ أن يَتَغَامَزَ به مَنْ مَرَّ به من المجرمين؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين:٢٩-٣٠]، أحيانًا يسخرون منه في لباسِه، وأحيانًا في لحيتِه، وأحيانًا في هَيْئتِه، وأحيانًا في وَرَعِه وتجنُّبِه المشتبهاتِ، وغيرِ ذلك، المهمُّ أنَّ المتمسِّكَ بالسُّنَّة لا بُدَّ أن يُؤْذَى عند فسادِ الزَّمانِ.

٤٨٧٣- هَـذَا وَكَـمْ مِـنْ هِجْـرَةٍ لَـهُمُ بِـمَا ... قَـالَ الرَّسُـولُ وَجَـاءَ فِي القُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «هَذَا وَكَمْ مِنْ هِجْرَةٍ لَـهُمُ بِمَا» «لَـهُمُ» الضَّميرُ يعودُ على الصَّحابةِ، فالصَّحابةُ لهم هِجَرٌ كثيرةٌ، وهجرةٌ بما قال الرَّسولُ، وأنت لك هِجَرٌ كثيرةٌ أيضًا، كُلُّ مسألةٍ شرعيَّةٍ تفعلُها عند فسادِ الزَّمانِ فإنَّها كهجرةٍ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فما أكثر الذين هاجروا وجاهدوا بأموالِهم وأنفسِهم في سبيلِ الله! رضي الله عنهم.

٤٨٧٤- وَلَقَدْ أَتَـى مِصْـدَاقُهُ فِي «التِّرْمِـذِيْ ... ي» لِـمَنْ لَـهُ أُذُنَـانِ وَاعِيَتَـانِ

٤٨٧٥- فِي أَجْـرِ مُحْيِـي سُـنَّةٍ مَاتَـتْ فَـذَا ... كَ مَـعَ الرَّسُـولِ رَفِيقُـهُ بِجِنَـانِ

معناه: أنَّ الذي يُحيي سُنَّةً من سننِ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- التي ماتت فإنَّه رفيقُ النَّبِيِّ ﷺ في الجنَّةِ.

٤٨٧٦- هَـذَا وَمِصْـدَاقٌ لَـهُ أَيْضًـا أَتَـى ... فِي «التِّرْمِـذِيِّ» لِـمَنْ لَـهُ عَيْنَـانِ

٤٨٧٧- تَشْـبِيهُ أُمَّتِـهِ بِغَيْـثٍ أَوَّلٌ ... مِنْـهُ وَآخِـرُهُ فَمُشْـتَبِهَانِ

٤٨٧٨- فَلِذَاكَ لا يَدْرِى الَّـذِي هُـوَ مِنْهُمَا ... قَدْ خُـصَّ بِالتَّفْضِـيلِ وَالرُّجْحَـانِ

شَبَّهَ النَّبِيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أُمَّتَه بالغيثِ لا يُدْرَى أوَّلُه من آخرِه[1]؛ يعني: أنَّهم متشابهون، أوَّلُ الأُمَّةِ وآخرُها؛ لأنَّ أوَّلَ الأُمَّةِ لهم السَّبقُ والفضلُ ونقلُ الشَّريعةِ، وآخرَ الأُمَّةِ لهم حمايتُها عند فسادِ الزَّمانِ، فكُلٌّ منهم قد أخذ من حمايةِ هذه الشَّريعةِ بنصيبٍ؛ فلهذا لا يُدْرَى أوَّلُهم من آخرِهم.

***

٤٨٧٩- وَلَقَدْ أَتَى أَثَرٌ بِأَنَّ الفَضْلَ فِي الطْ ... طَـرَفَيْنِ أَعْنِـي أَوَّلًا وَالثَّـانِي

٤٨٨٠- وَالوَسْـطُ ذُو ثَبَجٍ فَـأَعْوَجُ هَكَـذَا ... جَاءَ الـحَدِيثُ وَلَـيْسَ ذَا نُكْـرَانِ

٤٨٨١- وَلَقَدْ أَتَى فِي الـوَحْيِ مِصْـدَاقٌ لَـهُ ... فِي الثُّلَّتَـيْنِ وَذَاكَ فِي القُـرْآنِ

٤٨٨٢- أَهْـلُ اليَمِـينِ فَثُلَّـةٌ مَـعَ مِثْلِهَـا ... وَالسَّـابِقُونَ أَقَـلُّ فِي الـحُسْبَانِ

٤٨٨٣- مَـا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ تَـابِعَهُمْ هُـمُ الْـ ... ـغُرَبَاءُ لَيْسَـتْ غُرْبَـةَ الأَوْطَـانِ

٤٨٨٤- لَكِنَّهَـا وَاللهِ غُرْبَـةُ قَـائِمٍ ... بِالـدِّينِ بَـيْنَ عَسَـاكِرِ الشَّـيْطَانِ

٤٨٨٥- فَلِـذَاكَ شَـبَّهَهُمْ بِهِـمْ مَتْبُـوعُهُمْ ... فِي الغُـرْبَتَيْنِ وَذَاكَ ذُو تِبْيَـانِ

---

(١) كما في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ المَطَرِ لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ». أخرجه الترمذي: كتاب الأمثال، بعد باب مثل الصلوات الخمس، رقم (٢٨٦٩).

٤٨٨٦- لَـمْ يُشْـبِهُوهُمْ فِي جَمِيـعِ أُمُـورِهِمْ ... مِـنْ كُـلِّ وَجْـهٍ لَـيْسَ يَسْـتَوِيَانِ

٤٨٨٧- فَـانْظُرْ إِلَى تَفْسِـيرِهِ الغُرَبَـاءَ بِالْـ ... مُحْيِـينَ سُنَّـتَهُ بِكُـلِّ زَمَـانِ

٤٨٨٨- طُوبَى لَـهُمْ وَالشَّوْقُ يَحْدُوهُمْ إِلَى ... أَخْـذِ الـحَدِيثِ وَمُحْكَـمِ القُرْآنِ

٤٨٨٩- طُوبَى لَـهُمْ لَـمْ يَعْبَؤُوا بِنُحَاتَةِ الْـ ... أَفْكَـارِ أَوْ بِزِبَالَـةِ الأَذْهَـانِ

٤٨٩٠- طُوبَى لَـهُمْ رَكِبُوا عَلَى مَتْنِ العَـزَا ... ئِـمِ قَاصِـدِينَ لِـمَطْلَعِ الإِيـمَانِ

٤٨٩١- طُوبَى لَـهُمْ لَـمْ يَعْبَؤُوا شَيْئًا بِـذِي الْـ ... آرَاءِ إِذْ أَغْنَـاهُمُ الوَحْيَـانِ

٤٨٩٢- طُوبَى لَـهُمْ وَإِمَامُهُمْ دُونَ الـوَرَى ... مَـنْ جَـاءَ بِـالإِيمَانِ وَالفُرْقَـانِ

٤٨٩٣- وَاللهِ مَـا ائْتَمُّـوا بِشَـخْصٍ دُونَـهُ ... إِلَّا إِذَا مَـا دَلَّـهُمْ بِبَيَـانِ

الشرحُ

٤٨٧٩- وَلَقَدْ أَتَى أَثَرٌ بِأَنَّ الفَضْـلَ فِي الـطْ ... طَـرَفَيْنِ أَعْنِـي أَوَّلًا وَالثَّـانِي

قَوْلُهُ: «الطَّرَفَيْنِ»؛ يعني: طَرَفَي الأُمَّةِ.

أتى أثرٌ بأنَّ الفضلَ في أوَّلِ الأُمَّةِ وفي آخِرِها(١)، أَمَّا الفضلُ في أوَّلِها فواضحٌ للسَّبقِ والجهادِ وتبيينِ الشَّريعةِ ونقلِها للأُمَّةِ، وأمَّا في آخِرِها فمن أجل ما يحصلُ في آخرِها من الفتنِ والضَّلالِ، ويكونُ الصَّابرُ على هذه الفتنِ وهذا الضَّلالِ يكونُ مأجورًا، وقد سبق أنَّ له أجرَ خمسين من الصَّحابةِ.

---

(١) يعني حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ المَطَرِ لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ». أخرجه الترمذي: كتاب الأمثال، بعد باب مثل الصلوات الخمس، رقم (٢٨٦٩).

٤٨٨٠- وَالوَسْطُ ذُو ثَبَجٍ فَأَعْوَجُ هَكَذَا   جَاءَ الحَدِيثُ وَلَيْسَ ذَا نُكْرَانِ

قَوْلُهُ: «ثَبَجٍ» الثَّبَجُ: الوسطُ.

٤٨٨١- وَلَقَدْ أَتَى فِي الوَحْيِ مِصْدَاقٌ لَهُ   فِي الثُّلَّتَيْنِ وَذَاكَ فِي القُرْآنِ

يُشيرُ إلى قولِهِ تعالى في سورةِ «الواقعةِ»: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الواقعة:١٠-١٤]، وأصحُّ التَّفسيرَيْنِ فيها أنَّ المرادَ بذلك هذه الأُمَّةُ، فالسَّابقون ثُلَّةٌ من الأوَّلين كثيرون ومن الآخرين قليلٌ، وأصحابُ اليمينِ ثُلَّةٌ من الأوَّلين وثُلَّةٌ من الآخرين؛ يعني: أنَّهم كثيرون من هؤلاء وهؤلاء، ومرتبةُ أصحابِ اليمين أقلُّ من مرتبةِ السَّابقينِ، لا شكَّ في هذا؛ ولذلك كان ثوابُهم الذي ذكره اللهُ عزَّ وجلَّ أقلَّ من ثوابِ السَّابقين، نسألُ اللهَ أن يجعلَني وإيَّاكم من السَّابقين.

٤٨٨٢- أَهْلُ اليَمِينِ فَثُلَّةٌ مَعَ مِثْلِهَا   وَالسَّابِقُونَ أَقَلُّ فِي الحُسْبَانِ

أهلُ اليمينِ قال اللهُ عزَّ وجلَّ فيهم: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الواقعة:٢٧-٤٠]، وأمَّا السَّابقون فقال اللهُ فيهم: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الواقعة:١٣-١٤]، وإذا جمَعْنا هاتَيْنِ الآيتَيْنِ بعضِهما إلى بعضٍ تبيَّنَ أنَّ أوَّلَ الأُمَّةِ أفضلُ من آخرِها، وأنَّ آخرَها أفضلُ من وسطِها؛ لأنَّ اللهَ قال في أَصْحَابِ اليمينِ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الواقعة:٤٠]، وقال في السَّابقين: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الواقعة:١٣-١٤].

٤٨٨٣- مَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ تَابِعَهُمْ هُمُ الْـ ... ـغُرَبَاءُ لَيْسَتْ غُرْبَةَ الأَوْطَانِ

فالغربةُ ليست غربةَ الوطنِ، ولكنَّها غربةُ الدِّين، وهذه أشدُّ من غربةِ الوطنِ؛ إذ إنَّ غريبَ الوطنِ رُبَّما تزولُ غربتُه بما يحصلُ له من الفرحِ والسُّرورِ وتجدُّدِ الإخوانِ والأصحابِ، لكنْ غربةُ الدِّينِ هي البلاءُ، وهي التي تحتاجُ إلى صبرٍ.

٤٨٨٤- لَكِنَّهَا وَاللهِ غُرْبَةُ قَائِمٍ ... بِالدِّينِ بَيْنَ عَسَاكِرِ الشَّيْطَانِ

فهذه غربةُ الدِّينِ؛ بأن يكونَ الإنسانُ في وسطِ مجتمعٍ بعيدٍ عن الدِّينِ، فيكون بينهم كأنَّه غريبٌ، وقد جاء في الحديثِ أنَّ الغرباءَ هم: «**الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ**»(١).

٤٨٨٥- فَلِذَاكَ شَبَّهَهُمْ بِهِمْ مَتْبُوعُهُمْ ... فِي الغُرْبَتَيْنِ وَذَاكَ ذُو تِبْيَانِ

قَوْلُهُ: «**مَتْبُوعُهُمْ**»؛ يعني به: رسولَ الله صلى الله عليه وسلم.

يعني: أنَّهم غرباءُ بين عساكرِ الشَّيطانِ كما شبَّههم النَّبيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- فقال: «**بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**»(٢)؛ إذَنْ الغربةُ في أوَّلِ الإسلامِ، والغربةُ في آخرِ الإسلامِ، فأهلُ الإسلامِ غرباءُ في الأوَّلِ وغرباءُ في الثَّاني.

٤٨٨٦- لَمْ يُشْبِهُوهُمْ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ ... مِنْ كُلِّ وَجْهٍ لَيْسَ يَسْتَوِيَانِ

يعني: أنَّ الغرباءَ في الثَّاني لا يُشْبِهُونَ الغرباءَ في الأوَّلِ من كُلِّ وجهٍ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا، رقم (٢٦٣٠)، وقال: هذا حديث حسن.

(٢) تقدم تخريجه، وهو الجزء الأول من الحديث السابق.

٤٨٨٧- فَـانْظُرْ إِلَى تَفْسِـيرِهِ الغُرَبَـاءَ بِالْـ ... مُحْيِـينَ سُنَّـتَهُ بِكُـلِّ زَمَـانِ

يعني: أنَّ الرَّسولَ ﷺ فَسَّرَ الغرباءَ بالذين يُحيون سُنَّتَه بين أهلِ البدعِ، أو يقومون بطاعتِه بين أهلِ الفسقِ، والغريبُ معروفٌ مأخوذٌ من «**الغربة**»، وهي ألَّا يكونَ للإنسانِ مَنْ يُشَابِهُه في مجتمعِه.

٤٨٨٨- طُوبَى لَـهُمْ وَالشَّوْقُ يَحْـدُوهُمْ إِلَى ... أَخْـذِ الـحَدِيثِ وَمُحْكَـمِ القُـرْآنِ

اختلف المفسِّرون في قولِه تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرَّعد:٢٩]، فقال بعضُهم: إنَّها شجرةٌ بالجنَّةِ، يسيرُ الرَّاكبُ في ظلِّها مائتَيْ عامٍ لا يقطعُها، وقال بعضُهم: بل إنَّ طُوبَى «فُعْلَى» مأخوذةٌ من الطِّيبِ، والمرادُ بها الجنَّةُ، فالجنَّةُ كُلُّها تُسَمَّى «طُوبَى» باعتبار أنَّها طيِّبةٌ، وهذا الأخيرُ أعمُّ من الأوَّلِ، ويكونُ إطلاقُ «طُوبَى» على الشَّجرةِ من بابِ إطلاقِ العامِّ على الخاصِّ.

٤٨٨٩- طُوبَى لَـهُمْ لَـمْ يَعْبَؤُوا بِنُحَاتَةِ الْـ ... أَفْكَـارِ أَوْ بِزِبَالَـةِ الأَذْهَـانِ

كما فَعَلَ مَنْ خَالَفُوا الحديثَ والقرآنَ في أسماءِ الله وصفاتِه وغيرِها.

٤٨٩٠- طُوبَى لَـهُمْ رَكِبُوا عَلَى مَتْنِ العَـزَا ... ئِـمِ قَاصِـدِينَ لِـمَطْلَعِ الإِيـمَانِ

ركبوا مَطايا العزائمِ، ولم يتوانَوْا ولم يتأخَّروا.

٤٨٩١- طُوبَى لَـهُمْ لَـمْ يَعْبَؤُوا شَيْئًا بِـذِي الْـ ... آرَاءِ إِذْ أَغْنَـاهُمُ الوَحْيَـانِ

٤٨٩٢- طُوبَى لَـهُمْ وَإِمَامُهُمْ دُونَ الـوَرَى ... مَـنْ جَـاءَ بِـالإِيمَانِ وَالفُرْقَـانِ

٤٨٩٣- وَالله مَـا ائْتَمُّـوا بِشَـخْصٍ دُونَـهُ ... إِلَّا إِذَا مَـا دَلَّـهُمْ بِبَيَـانِ

يعني: أنَّ هؤلاء المتمسِّكين بالحديثِ ومحكمِ القرآنِ إمامُهم دون النَّاسِ

محمَّدٌ ﷺ، لم يأتمُّوا بأحدٍ سواه، بل كان هو الإمامَ المقتدى به في العَقائدِ والأخلاقِ والأعمالِ فعلًا وتركًا.

***

٤٨٩٤- فِي البَـابِ آثَـارٌ عَظِـيمٌ شَـأْنُهَا ... أَعْيَـتْ عَـلَى العُلَـماءِ فِي الأَزْمَـانِ

٤٨٩٥- إِذْ أَجْمَـعَ العُلَـماءُ أَنَّ صَـحَابَةَ الْـ ... ـمُخْتَارِ خَـيْرُ طَوَائِـفِ الإِنْسَـانِ

٤٨٩٦- ذَا بِالضَّرُورَةِ لَيْسَ فِيهِ الخُلْـفُ بَيْـ ... ـنَ اثْنَـيْنِ مَـا حُكِيَـتْ بِـهِ قَـوْلانِ

٤٨٩٧- فَلِذَاكَ ذِي الآثَـارِ أَعْضَـلَ أَمْرُهَـا ... وَبَغَـوْا لَـهَا التَّفْسِـيرَ بِالإِحْسَـانِ

٤٨٩٨- فَاسْـمَعْ إِذَنْ تَأْوِيلَهَـا وَافْهَمْـهُ لا ... تَعْجَـلْ بِـرَدٍّ مِنْـكَ أَوْ نُكْـرَانِ

٤٨٩٩- إِنَّ البِـدَارَ بِـرَدِّ شَيْءٍ لَـمْ تُحِـطْ ... عِلْـمًا بِـهِ سَـبَبٌ إِلَى الـحِرْمَانِ

٤٩٠٠- الفَضْـلُ مِنْـهُ مُطْلَـقٌ وَمُقَيَّـدٌ ... وَهُمَـا لِأَهْـلِ الفَضْـلِ مَرْتَبَتَـانِ

٤٩٠١- وَالفَضْلُ ذُو التَّقْيِيدِ لَيْسَ بِمُوجِبٍ ... فَضْلًا عَـلَى الإِطْـلاقِ مِـنْ إِنْسَـانِ

٤٩٠٢- لا يُوجِبُ التَّقْيِيـدُ أَنْ يُقْضَـى لَـهُ ... بِالإِسْـتِوَاءِ فَكَيْـفَ بِالرُّجْحَـانِ

٤٩٠٣- إِذْ كَانَ ذُو الإِطْلاقِ حَازَ مِنَ الفَضَـا ... ئِـلِ فَـوْقَ ذِي التَّقْيِيـدِ بِالإِحْسَـانِ

٤٩٠٤- فَإِذَا فَرَضْـنَا وَاحِـدًا قَـدْ حَـازَ نَـوْ ... عًـا لَـمْ يَحُـزْهُ فَاضِـلُ الإِنْسَـانِ

٤٩٠٥- لَـمْ يُوجِبِ التَّخْصِيصُ مِنْ فَضْلٍ عَلَيْـ ... ـهِ وَلا مُسَـاوَاةٍ وَلا نُقْصَـانِ

٤٩٠٦- مَـا خَلْـقُ آدَمَ بِاليَـدَيْنِ بِمُوجِـبٍ ... فَضْـلًا عَـلَى المَبْعُـوثِ بِـالقُرْآنِ

٤٩٠٧- وَكَذَا خَصَائِصُ مَنْ أَتَى مِنْ بَعْـدِهِ ... مِـنْ كُـلِّ رُسْـلِ اللهِ بِالبُرْهَـانِ

٤٩٠٨- فَمُحَمَّدٌ أَعْلاهُمُ فَوْقًا وَمَا حَكَمَتْ لَهُمْ بِمَزِيَّةِ الرُّجْحَانِ

٤٩٠٩- فَالحَائِزُ الخَمْسِينَ أَجْرًا لَمْ يَحُزْ هَا في جَمِيعِ شَرَائِعِ الإِيمَانِ

٤٩١٠- هَلْ حَازَهَا في بَدْرٍ اَوْ أُحُدٍ أَوِ الْـ ـفَتْحِ المُبِينِ وَبَيْعَةِ الرِّضْوَانِ

٤٩١١- بَلْ حَازَهَا إِذْ كَانَ قَدْ عَدِمَ المُعِيـ ـنَ وَهُمْ فَقَدْ كَانُوا أُولِي أَعْوَانِ

الشرحُ

٤٨٩٤- في البَابِ آثَارٌ عَظِيمٌ شَأْنُهَا أَعْيَتْ عَلَى العُلَمَاءِ في الأَزْمَانِ

قَوْلُهُ: «**في البَابِ**»؛ أي: في هذا البحثِ، والبابُ يُطْلَقُ عند العلماءِ إذا قالوا: لم يَصِحَّ في هذا البابِ شيءٌ؛ يعني: في هذه المسألةِ، أو في هذا البحثِ، أو في هذا الموضوعِ.

يقولُ: «**في البَابِ آثَارٌ عَظِيمٌ شَأْنُهَا أَعْيَتْ عَلَى العُلَمَاءِ في الأَزْمَانِ**» «**أَعْيَتْ**»؛ يعني: أَعْجَزَتْهُم، وصَعُبَ عليهم التَّوفيقُ بينها؛ لأنَّها آثارٌ تدلُّ على أنَّ المتأخِّرين من هذه الأُمَّةِ أفضلُ من السَّابقين، وآثارٌ بالعكسِ، فلا بُدَّ من جمعٍ.

ابنُ القيِّمِ -رحمه اللهُ- يقولُ: إنَّها أَعْيَتْ على العلماءِ؛ يعني: أَعْجَزَتْهُم، كيف يجمعون بينها؟ وهذا صحيحٌ، فهذا أمرٌ يُشْكِلُ على الإنسانِ حقيقةً، العاملُ لَهُ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ[1]، والرَّسولُ ﷺ يقولُ: «**لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا**

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم (٤٣٤١)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، رقم (٣٠٥٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [المائدة:١٠٥]، رقم (٤٠١٤).

بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»[١]، فكيف الجمعُ؟ تَعَرَّضَ -رحمه الله- للجمعِ فقال:

٤٨٩٥- إِذْ أَجْمَعَ العُلَمَاءُ أَنَّ صَحَابَةَ الْـ ـمُخْتَارِ خَيْرُ طَوَائِفِ الإِنْسَانِ

٤٨٩٦- ذَا بِالضَّرُورَةِ لَيْسَ فِيهِ الخُلْفُ بَيْـ ـنَ اثْنَيْنِ مَا حُكِيَتْ بِهِ قَوْلَانِ

وهذا مُجْمَعٌ عليه، أنَّ صحابةَ النَّبيِّ ﷺ هم خيرُ الأُمَّةِ، بل خيرُ النَّاسِ كُلِّهم كما دَلَّ عليه النَّصُّ الثَّابتُ عن النَّبيِّ ﷺ في قولِه: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»[٢]، وهذا لا إشكالَ فيه.

٤٨٩٧- فَلِذَاكَ ذِي الآثَارِ أَعْضَلَ أَمْرُهَا وَبَغَوْا لَهَا التَّفْسِيرَ بِالإِحْسَانِ

فهذه الآثارُ «أَعْضَلَ أَمْرُهَا»؛ يعني: امتنع أمرُها، وشَقَّ على النَّاسِ، وبَغَوْا لها التَّفسيرَ بالإحسانِ.

٤٨٩٨- فَاسْمَعْ إِذَنْ تَأْوِيلَهَا وَافْهَمْهُ لا تَعْجَلْ بِرَدٍّ مِنْكَ أَوْ نُكْرَانِ

أراد المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- أنْ يُنبِّهَنا إلى تأويلِ هذه النُّصوصِ والجمعِ بينها فقال: «لَا تَعْجَلْ بِرَدٍّ»، ثُمَّ ذَكَرَ بيتًا ينبغي أن يكونَ نِبراسًا يسيرُ عليه المرءُ فقال:

٤٨٩٩- إِنَّ البِدَارَ بِرَدِّ شَيْءٍ لَمْ تُحِطْ عِلْمًا بِهِ سَبَبٌ إِلَى الحِرْمَانِ

قَوْلُهُ: «البِدَارَ»؛ يعني: المبادرةَ، من «بَادَرَ»، كقَاتَلَ يُقَاتِلُ مُقَاتَلَةً.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا»، رقم (٣٤٧٠)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم، رقم (٢٥٤٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، رقم (٣٤٥١)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣).

وهذا بيتٌ مهمٌّ، بيتٌ عظيمٌ، المبادرةُ بردِّ الشَّيءِ الذي لم تُحِطْ به علمًا سببٌ إلى الحرمانِ وعدمِ الوصولِ إلى الحقِّ، فكُلُّ شيءٍ لا تحيطُ به علمًا لا تُبَادِرْ بردِّه، ولا تعجلْ في الرَّدِّ حتَّى يتبيَّنَ أنَّه يستحقُّ أن يُرَدَّ، وما أكثرَ ما نَرُدُّ الشَّيءَ ثُمَّ نندمُ إذا تعجَّلنا! أحيانًا مثلًا تجد حتَّى في كتبِ العلمِ تجد أنَّ المؤلِّفَ أَطْلَقَ العبارةَ، فتقولُ: لماذا أَطْلَقَهَا؟ ثُمَّ تحاولُ أن تُحشِّيَ على الكتابِ وتقولَ: «**هذا الإطلاقُ فيه نظرٌ**»، فإذا بالمؤلِّفِ يُقَيِّدُ في آخِرِ الكلامِ، أيضًا يتكلَّمُ معك أحدٌ من النَّاسِ فتبدرُ منه كلمةٌ تظنُّ أنَّها خطأٌ، فَتَرُدُّ عليه، فيقولُ: «**اصبر لم يتمَّ الكلامُ**».

فكونُ الإنسانِ يتأنَّى ولا يَرُدُّ الشَّيءَ إلَّا بعد أن يتبيَّنَ فيه الخطأُ، لا شكَّ أنَّ هذا من العقلِ ومن الشَّرعِ؛ إذَنْ ماذا أعملُ؟ أنتظرُ، وأتأنَّى حتَّى إذا استكملت الأمورُ وصار هناك مجالٌ للرَّدِّ رَدَدْتُ.

٤٩٠٠- الفَضْـــلُ مِنْـــهُ مُطْلَـــقٌ وَمُقَيَّـــدٌ وَهُمَـــا لِأَهْـــلِ الفَضْـــلِ مَرْتَبَتَـــانِ

قَوْلُهُ: «**الفَضْلُ مِنْهُ مُطْلَقٌ وَمُقَيَّدٌ**»؛ يعني: الفضلُ الذي يُوصَفُ به الإنسانُ مُطْلَقٌ ومقيَّدٌ، «**مُطْلَقٌ**»؛ يعني: على كُلِّ حالٍ، و«**مُقَيَّدٌ**»؛ يعني: في حالٍ مُعيَّنةٍ، فمثلًا نقولُ: «**هذا الرَّجلُ أفضلُ من هذا الرَّجلِ**»؛ أي: على سبيلِ الإطلاقِ، ثُمَّ نقولُ: «**والرَّجلُ المفضولُ أفضلُ منه في كذا**»، فمثلًا: لو وجدنا رجلًا عالمًا كريمًا شجاعًا كان فاضلًا فضلًا مُطْلَقًا على مَنْ ليس كذلك، لكن قد يفضلُه الثَّاني بُحْسنِ الخُلقِ ودَمَاثَةِ الأَخلاقِ، فيكونُ الفضلُ المُطْلَقُ للأوَّلِ، والثَّاني له فضلٌ مقيَّدٌ.

إذَنْ ينقسمُ إلى قسمين: مطلقٌ ومُقَيَّدٌ، وسيذكرُ المؤلِّفُ مثالًا واضحًا، يقولُ:

٤٩٠١- وَالفَضْلُ ذُو التَّقْيِيدِ لَيْسَ بِمُوجِبٍ فَضْلًا عَـلَى الإِطْـلاقِ مِـنْ إِنْسَـانِ

يعني: أنَّ الفضلَ المُقَيَّدَ لا يُوجِبُ أن يكونَ الفاضلُ أفضلَ من ذي الفضلِ المُطْلَقِ؛ إذَنْ الفضلُ نوعان: فضلٌ مُطْلَقٌ؛ بأنْ يكونَ هذا الإنسانُ أفضلَ من غيرِه على الإطلاقِ، وفضلٌ مُقَيَّدٌ؛ بأن يَفْضُلَ غيرَه في شيءٍ مُعيَّنٍ، فهل إذا فضل الإنسانُ غيرَه في شيءٍ معيَّنٍ هل يستلزمُ أن يكونَ أفضلَ منه على الإطلاقِ؟ الجوابُ: لا؛ فصاحبُ الفضلِ المُقَيَّدِ ليس بموجِبٍ فضلًا على مَنْ فضلُه مُطْلَقٌ.

٤٩٠٢- لا يُوجِبُ التَّقْيِيدُ أَنْ يُقْضَى لَهُ ... بِالإِسْتِوَاءِ فَكَيْفَ بِالرُّجْحَانِ

صحيحٌ؛ يعني: أنَّ الفضلَ المقيَّدَ لا يُوجِبُ أن يكونَ مُساويًا لذي الفضلِ المُطْلَقِ، فضلًا عن أن يكونَ أرجحَ منه وأعلى منه، ولقد صَدَقَ، الآن مثلًا نحن نقولُ: التَّابعون أفضلُ من تابعي التَّابعين على الإطلاقِ، لكن قد يُوجَدُ من تابعي التَّابعين مَنْ هو أفضلُ من كثيرٍ من التَّابعين، لكنَّه فردٌ معيَّنٌ، كذلك الفضائلُ في شخصٍ معيَّنٍ، قد يكونُ هذا الرَّجلُ له فضائلُ عديدةٍ فيكونُ أفضلَ من غيرِه على الإطلاقِ، ويكونُ غيرُه له خاصِّيَّةٌ أفضلُ من الأوَّلِ، وهذا لا يُوجِبُ أن يكونَ الثَّاني أفضلَ على الإطلاقِ.

٤٩٠٣- إِذْ كَانَ ذُو الإِطْلَاقِ حَازَ مِنَ الفَضَا ... ئِلِ فَوْقَ ذِي التَّقْيِيدِ بِالإِحْسَانِ

هذا تعيينٌ لقولِه: «**فَكَيْفَ بِالرُّجْحَانِ؟!**»، «**إِذْ كَانَ**»؛ يعني: لأنَّ ذا الإطلاقِ حَازَ من الفضائلِ فوق ذي التَّقييدِ بالإحسانِ؛ فمثلًا: هذا له مئةُ فضيلةٍ، وهذا له فضيلةٌ واحدةٌ لا تُوجَدُ في ذي المئةِ، الأوَّلُ نسمِّيه: «**فضلًا مُطْلَقًا**»، والثَّاني: «**مُقَيَّدًا**»، وهل هذا الذي اختصَّ بفضيلةٍ لا تُوجَدُ عند صاحبِ الفضائلِ الكثيرةِ هل يُوجِبُ أن يكونَ أفضلَ من الأوَّلِ؟ الجوابُ: لا.

٤٩٠٤- فَإِذَا فَرَضْنَا وَاحِدًا قَدْ حَازَ نَوْ ... عًا لَمْ يَحُزْهُ فَاضِلُ الإِنْسَانِ

٤٩٠٥- لَمْ يُوجِبِ التَّخْصِيصُ مِنْ فَضْلٍ عَلَيْـ ـــهِ وَلا مُسَاوَاةٍ وَلا نُقْصَانِ

٤٩٠٦- مَا خَلْقُ آدَمَ بِاليَدَيْنِ بِمُوجِبٍ فَضْلًا عَلَى المَبْعُوثِ بِالقُرْآنِ

وهذا من أوضحِ الأمثلةِ، آدمُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- امتاز بفضيلةٍ لم تكن لغيرِه، وهي: أنَّ اللهَ خَلَقَهُ بيدِه الكريمةِ، وأمَّا محمَّدٌ ﷺ فَخَلَقَهُ كسائرِ الخلقِ بالكلمةِ، هل هذه الفضيلةُ تُوجِبُ أن يكونَ أفضلَ من محمَّدٍ؟ الجوابُ: لا؛ لأنَّ فضلَ محمَّدٍ مُطْلَقٌ، وفضلَ آدمَ مُقَيَّدٌ بشيءٍ مُعَيَّنٍ، فلا يُوجِبُ أن يكونَ هذا المُقَيَّدُ مساويًا أو راجحًا على ذي الفضلِ المُطْلَقِ.

٤٩٠٧- وَكَذَا خَصَائِصُ مَنْ أَتَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ كُلِّ رُسْلِ اللهِ بِالبُرْهَانِ

٤٩٠٨- فَمُحَمَّدٌ أَعْلاهُمُ فَوْقًا وَمَا حَكَمَتْ لَهُمْ بِمَزِيَّةِ الرُّجْحَانِ

الرُّسلُ مَنْ بعد آدمَ لهم خصائصُ ليست لمحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فموسى يُلْقِي العصا فتكونُ حيَّةً ومحمَّدٌ لم يحصل له ذلك، إبراهيم أُلْقِيَ في النَّارِ وخَرَجَ سالمًا ومحمَّدٌ لم يحصل له ذلك، عيسى يَقِفُ على القبرِ فَيَخْرُجُ صاحبُ القبرِ حيًّا ومحمَّدٌ لم يحصل له ذلك، هل هذا يُوجِبُ أن يكونَ هؤلاء الرُّسُلُ الكرامُ الذين خُصُّوا بهذه الفضائلِ أفضلَ من محمَّدٍ؟ الجوابُ: لا، لماذا؟ لأنَّ هذا الفضلَ مُقَيَّدٌ بفضيلةٍ واحدةٍ، وليس كَمَنْ كان فضلُه على الإطلاقِ.

ثُمَّ انتقل المؤلِّفُ بعد هذا التَّقريرِ إلى قولِه:

٤٩٠٩- فَالحَائِزُ الخَمْسِينَ أَجْرًا لَمْ يَحُزْ هَا في جَمِيعِ شَرَائِعِ الإِيمَانِ

الذي عَمِلَ في آخرِ زمانِ الغُربةِ له أجرُ خمسين واحدًا من الصَّحابةِ لم يَحُزْهَا على الإطلاقِ، بل على التَّقييدِ في هذا الزَّمنِ زمنِ الغربةِ، ولكن هل هذا الفضلُ

المُقَيَّدُ يستلزمُ أن يكونَ أفضلَ ممَّن حازوا الفضائلَ في بدرٍ وأحدٍ وحنينٍ وفتحِ مكَّةَ؟ الجوابُ: لا؛ ولهذا قال:

٤٩١٠- **هَلْ حَازَهَا فِي بَدْرٍ اَوْ أُحُدٍ أَوِ الْـ ... ـفَتْحِ الـمُبِينِ وَبَيْعَـةِ الرِّضْـوَانِ**

قَوْلُهُ: «**هَلْ حَازَهَا فِي بَدْرٍ اوْ أُحُدٍ...؟**» الجوابُ: لا، ما حازها قطعًا.

انتبه لوجهِ الجمعِ: الفضلُ نوعان: فضلٌ مُطْلَقٌ على الإطلاقِ، وفضلٌ مُقَيَّدٌ؛ أي: مُقَيَّدٌ بحالٍ دون حالٍ أو بزمنٍ دون زمنٍ، فلا يمكنُ أن يساويَ أحدٌ الصَّحابةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في الفضلِ المُطْلَقِ، وأمَّا الفضلُ المُقَيَّدُ فيمكنُ أن يكونَ واحدٌ أفضلَ من الصَّحابةِ في هذه الحالِ، أو في هذا الزَّمنِ، أو ما أشبه ذلك.

الآن تُوجَدُ خصائصُ لبعضِ الصَّحابةِ يذكرُها الرَّسولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- لا تُذْكَرُ لأبي بكرٍ مثلًا، ولا شكَّ أنَّ أبا بكرٍ هو أفضلُ الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ فمثلًا: إذا جاءت منقبةٌ لعمرَ بأنَّ الشَّيطانَ يَفْرَقُ منه، كما قال ﷺ: «**إِنِّي لَأَحْسَبُ الشَّيْطَانَ يَفْرَقُ مِنْكَ يَا عُمَرُ**»[1]، هل هذا يستلزمُ أن يكونَ عمرُ أفضلَ من أبي بكرٍ على الإطلاقِ؟ الجوابُ: لا.

إذا جاء في عثمانَ فضيلةٌ: مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ فَيَكُونُ دَلْوُهُ فِيهَا مَعَ دِلَاءِ المُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي الجَنَّةِ، فَاشتراها عثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]، هل هذا يقتضي أن

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٥٣، رقم ٢٣٠٣٩)، والترمذي: كتاب المناقب، بعد باب في مناقب أبي حفص عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٣٦٩٠)، وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٢) أخرجه البخاري تعليقًا: كتاب المساقاة، باب في الشرب، ومن رأى صدقة الماء وهبته ووصيته جائزة، مقسومًا كان أو غير مقسوم، والترمذي: كتاب المناقب، باب في مناقب عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وله كنيتان، يقال: أبو عمرو، وأبو عبد الله، رقم (٣٧٠٣)، والنسائي: كتاب الجهاد، باب فضل من جهز غازيا، رقم (٣١٨٢).

يكونَ أفضلَ من عمرَ؟ الجوابُ: لا.

إذا جاء في عليٍّ بن أبي طالبٍ: «لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ»(١)، فَأعطاها عليًّا، هل هذا يستلزمُ أن يكونَ أفضلَ من عثمانَ؟ الجوابُ: لا.

إذَنْ الفضلُ نوعان: فضلٌ مُطْلَقٌ وهذا للصَّحابةِ، وفضلٌ مُقَيَّدٌ وهذا لِـمَنْ خَصَّهُ اللهُ تعالى به.

٤٩١١- بَلْ حَازَهَا إِذْ كَانَ قَدْ عَدِمَ الـمُعِيـ ـنَ وَهُمْ فَقَـدْ كَـانُوا أُولِي أَعْـوَانِ

قَوْلُهُ: «بَلْ حَازَهَا»؛ أي: بل حَازَ الخمسينَ أجرًا.

قَوْلُهُ: «إِذْ كَانَ قَدْ عَدِمَ المُعِينَ»، وفي نسخةٍ: «إِذْ كَانَ قَدْ فَقَدَ المُعِينَ».

يقولُ: السَّببُ في أنَّه حَازَ هذا الأجرَ أنَّه ليس له مُعِينٌ يعينُه على العبادةِ، وهؤلاء لهم أعوانٌ يعينونهم، فتسهلُ عليهم العبادةُ، وأمَّا في آخرِ الزَّمانِ فيقلُّ الأعوانُ، ومع قلَّةِ الأعوانِ تشقُّ العبادةُ والطَّاعةُ على الإنسانِ، فيكونُ ما قام في قلبِه من الصَّبرِ والرِّضا والإخلاصِ يجعلُ الأجرَ مضاعفًا إلى خمسين مرَّةً بالنِّسبة إلى الصحابةِ، فلا يحوزون فضلَ الغربةِ كما حازَها هو، فصار هذا له أجرُ خمسينَ في هذه العبادةِ فقط، وليس له الأجرُ الكاملُ المُطْلَقُ؛ لأنَّ لهم فضائلَ عديدةٍ ما شاركهم فيها.

وما قاله رحمه اللهُ هو الحقُّ، وبه يزولُ الإشكالُ، وأنت الآن قدِّر نفسَك مع قومٍ فسقةٍ ليس فيهم مَنْ يعينُك، بل فيهم مَنْ يسخرُ بك ويستهزئُ بك، ولا تؤدِّي العبادةَ إلَّا وأنت مُختَفٍ بها، وبين قومٍ صالحينٍ يساعدونك ويفعلون كما تفعلُ من

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في لواء النبي ﷺ، رقم (٢٨١٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٤٠٧).

الخيرِ والبرِّ، أيُّهما تصعبُ عليه العبادةُ: الأوَّلُ أو الثَّاني؟ الجوابُ: الأوَّلُ بلا شكٍّ، فلأجل هذا كان للعاملِ في أيَّامِ الصَّبرِ أجرُ خمسين من الصَّحابةِ.

وهنا مسألةٌ: ما حكمُ الاستهزاءِ والتَّعييرِ بالسُّنَّةِ؟

نقولُ: هذا الذي يُعَيِّرُ، إن كان يُعَيِّرُ الشَّخصَ بنفسِه فإنَّه لا يكفرُ، وإن كان يُعَيِّرُ بالسُّنَّةِ فهو كافرٌ، لكن غالب مَنْ يُعَيِّرُ لا يُعَيِّرُ بالسُّنَّةِ بل يُعَيِّرُ الشَّخصَ نفسَه؛ ولهذا لو كانت لحيةُ هذا على رجلٍ آخرَ مُعَظَّمٍ عنده ما عَيَّرَهُ بها؛ ومثل ذلك أيضًا: تقصيرُ الثِّيابِ، تجدُ مثلًا بعضَ النَّاسِ إذا رأى أحدًا قد رفع ثوبَه إلى نصفِ السَّاقِ يسخرُ به ويستهزئ، لكن لو رفعه أحدٌ مُعَظَّمٌ عنده لم يقل شيئًا، بل قال: «**هذا هو السُّنَّةُ**»، فهذه المسألةُ خطيرةٌ جدًّا جدًّا، إن كان عَيَّرَه كراهةً لهذه السُّنَّةِ فهو كافرٌ، وإن كان عَيَّرَه لشخصِه مثلًا فهذا لا يكفرُ، لكنَّه على خطرٍ عظيمٍ بلا شكٍّ.

* * *

٤٩١٢- وَالرَّبُّ لَيْسَ يُضِيعُ مَا يَتَحَمَّلُ الْـ ـــمُتَحَمِّلُونَ لِأَجْلِهِ مِنْ شَانِ

٤٩١٣- فَتَحَمُّلُ العَبْدِ الوَحِيدِ رِضَاهُ مَعْ فَيْضِ العَدُوِّ وَقِلَّةِ الأَعْوَانِ

٤٩١٤- مِمَّا يَدُلُّ عَلَى يَقِينٍ صَادِقٍ وَمَحَبَّةٍ وَحَقِيقَةِ العِرْفَانِ

٤٩١٥- يَكْفِيهِ ذُلًّا وَاغْتِرَابًا قِلَّةُ الْـ أَنْصَارِ بَيْنَ عَسَاكِرِ الشَّيْطَانِ

٤٩١٦- فِي كُلِّ يَوْمٍ فِرْقَةٌ تَغْزُوهُ إِنْ تَرْجِعْ يُوَافِيهِ الفَرِيقُ الثَّانِي

٤٩١٧- فَسَلِ الغَرِيبَ المُسْتَضَامَ عَنِ الَّذِي يَلْقَاهُ بَيْنَ عِدًى بِلَا حُسْبَانِ

٤٩١٨- هَذَا وَقَدْ بَعُدَ المَدَى وَتَطَاوَلَ الْـ ـعَهْدُ الَّذِي هُوَ مُوجِبُ الإِحْسَانِ

٤٩١٩- وَلِذَاكَ كَانَ كَقَابِضٍ جَمْرًا فَسَلْ ... أَحْشَاءَهُ عَنْ حَرِّ ذِي النِّيرَانِ

٤٩٢٠- وَاللهُ أَعْلَمُ بِالَّذِي فِي قَلْبِهِ ... يَكْفِيهِ عِلْمُ الوَاحِدِ المَنَّانِ

٤٩٢١- فِي القَلْبِ أَمْرٌ لَيْسَ يَقْدِرُ قَدْرَهُ ... إِلَّا الَّذِي آتَاهُ لِلإِنْسَانِ

٤٩٢٢- بِرٌّ وَتَوْحِيدٌ وَصَبْرٌ مَعْ رِضًا ... وَالشُّكْرُ وَالتَّحْكِيمُ لِلْقُرْآنِ

الشرحُ

يقولُ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ تعالى- مبيِّنًا فضيلةَ هؤلاء الغرباءِ حين عبدوا اللهَ عزَّ وجلَّ على حين غربةٍ، يقولُ:

٤٩١٢- وَالرَّبُّ لَيْسَ يُضِيعُ مَا يَتَحَمَّلُ الْـ ... ـمُتَحَمِّلُونَ لِأَجْلِهِ مِنْ شَانِ

الحمدُ لله، لا يُضِيعُ اللهَ عزَّ وجلَّ أجرَ المتحمِّلين من أجلِه، الذين صبروا وأُوذُوا وصاروا غُرَباءَ بين النَّاسِ وهم ثابتون على دِينِهم، فهؤلاء لهم أجرٌ عظيمٌ لا يُضَيِّعُهُ اللهُ.

٤٩١٣- فَتَحَمُّلُ العَبْدِ الوَحِيدِ رِضَاهُ مَعْ ... فَيْضِ العَدُوِّ وَقِلَّةِ الأَعْوَانِ

٤٩١٤- مِمَّا يَدُلُّ عَلَى يَقِينٍ صَادِقٍ ... وَمَحَبَّةٍ وَحَقِيقَةِ العِرْفَانِ

يقولُ: تحمُّلُ العبدِ الوحيدِ الذي ليس معه أحدٌ، بل هو غريبٌ بين النَّاسِ تحمُّلُه رضا الله مع فَيْضِ العدوِّ؛ أي: مع كثرته، وقلَّةِ الأعوانِ؛ ممَّا يدلُّ على يقينٍ صادقٍ، ولا شكَّ، إذا التفتَ يمينًا وشمالًا، وإذا كُلُّ النَّاسِ على خلافِه، فإنَّ ثبوتَه على ما هو عليه دليلٌ على يَقينِه الصَّادقِ ومحبَّةِ الله عزَّ وجلَّ وحقيقةِ العرفانِ بالله، وأنَّه عارفٌ بالله حقيقةً.

٤٩١٥- يَكْفِيهِ ذُلًا وَاغْتِرَابًا قِلَّةُ الْـ ... أَنْصَارِ بَيْنَ عَسَاكِرِ الشَّيْطَانِ

فهو وإنْ كان غريبًا ذليلًا باعتبارِ الظَّاهرِ للنَّاسِ، لكنَّه -واللهِ- عزيزٌ، عزيزٌ بما أَنْعَمَ اللهُ به عليه من العبادةِ، والتَّوكُّلِ على الله واحتسابِ الأجرِ من الله.

٤٩١٦- في كُلِّ يَوْمٍ فِرْقَةٌ تَغْزُوهُ إِنْ ... تَرْجِعْ يُوَافِيهِ الفَرِيقُ الثَّانِي

يعني: النَّاسُ يغزونه من كُلِّ وجهٍ، تغزوه هذه الفرقةُ، ثُمَّ ترجعُ فتغزوه أخرى، وهكذا، لكنَّه متمسِّكٌ بالسُّنَّةِ، فظاهرُه كظاهرِ السَّلفِ الصَّالحِ؛ فاللِّحيَّةُ مُوفَّرةٌ، والثِّيابُ مرفوعةٌ عن الكعبِ وذو هيبةٍ ووقارٍ.

تغزوه طائفةٌ أخرى في العقيدةِ هذا مُمَثِّلٌ، هذا مُجَسِّمٌ، هذا حَشويٌّ، وما أشبه ذلك، تغزوه فرقةٌ من جهةِ الأخلاقِ وتركِ اللغو والبُعدِ عن ضَياعِ الوقتِ، فيقولون: هذا منعزلٌ، مُنطوٍ على نفسِه، لا خيرَ فيه، فالمهمُّ أنَّ فرقَ شياطين الإنسِ تغزوه من كُلِّ جانبٍ وهو مستعينٌ بالله ثابتٌ.

٤٩١٧- فَسَلِ الغَرِيبَ المُسْتَضَامَ عَنِ الَّذِي ... يَلْقَاهُ بَيْنَ عِدًى بِلا حُسْبَانِ

قَوْلُهُ: «فَسَلِ الغَرِيبَ المُسْتَضَامَ» «الغَرِيبُ»؛ يعني: الذي ليس معه أحدٌ، و«المُسْتَضَام»: المُضيَّق عليه.

قَوْلُهُ: «عَنِ الَّذِي يَلْقَاهُ بَيْنَ عِدًى بِلَا حُسْبَانِ» «عِدًى» جمع «عَدُوٍّ».

بعضُ النَّاسِ حينما يصادفُ شخصًا مستقيمًا من الشَّبابِ يكرهُه؛ ولذا أخشى أنْ يكونَ هذا نِفاقًا في قلبِه، ومثلُ هذا يجبُ أن يُعَالِجَ قلبَه قبل كُلِّ شيءٍ؛ لأنَّ المسألةَ خطيرةٌ، لكن بعضُ النَّاسِ قد يكرهُ بعضَ الشَّبابِ لفعلِ بعضِهم ممَّن يتزمَّتون ويحملون النَّاسَ على ما يُريدون هم دون ما جاء في الشَّريعةِ، ويقولون:

«كُلُّ مَنْ خَالَفَنَا فهو مبتدعٌ أو ضالٌّ»، وتعرفُ أنَّ النَّاسَ يفسدُ بعضُهم على بعضٍ، لكن الواجبُ أنَّك كُلَّما رَأَيْتَ شخصًا مستقيمًا أن تحبَّه لله، وإذا رأيتَ منه شيئًا يخالفُ منهجَ السَّلفِ فانصَحْه.

٤٩١٨- هَذَا وَقَدْ بَعُدَ الـمَدَى وَتَطَاوَلَ الْـ ـعَهْدُ الَّذِي هُوَ مُوجِبُ الإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «بَعُدَ المَدَى وَتَطَاوَلَ العَهْدُ»؛ أي: العهدُ الذي بينه وبين الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّه كُلَّما قَرُبَ العهدُ من زمنِ الرِّسالةِ فإنَّه يكونُ أقوى إيمانًا وأصحَّ إسلامًا، وكُلَّما بَعُدَ النَّاسُ عن عهدِ الرِّسالةِ فبالعكسِ.

٤٩١٩- وَلِذَاكَ كَانَ كَقَابِضٍ جَمْرًا فَسَلْ أَحْشَاءَهُ عَنْ حَرِّ ذِي النِّيرَانِ

الرَّجلُ القابضُ على الجمرِ يجدُ حرًّا لا يعلمُه إلَّا اللهُ.

٤٩٢٠- وَاللهُ أَعْلَمُ بِالَّذِي فِي قَلْبِهِ يَكْفِيهِ عِلْمُ الوَاحِدِ الـمَنَّانِ

٤٩٢١- فِي القَلْبِ أَمْرٌ لَيْسَ يَقْدِرُ قَدْرَهُ إِلَّا الَّذِي آتَاهُ لِلإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «فِي القَلْبِ أَمْرٌ» فما هذا الأمرُ؟ يقولُ:

٤٩٢٢- بِرٌّ وَتَوْحِيدٌ وَصَبْرٌ مَعْ رِضًا وَالشُّكْرُ وَالتَّحْكِيمُ لِلْقُرْآنِ

بِرٌّ، وتوحيدٌ، وصبرٌ، ورضا، وشكرٌ، وتحكيمُ القرآنِ، ستَّةُ أشياءَ، والبِرُّ ليس بِرَّ الوالدينِ، بل البِرُّ مَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ كما ذَكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ.

***

٤٩٢٣- سُبْحَانَ قَاسِمِ فَضْلِهِ بَيْنَ العِبَا دِ فَذَاكَ مَوْلَى الفَضْلِ وَالإِحْسَانِ

٤٩٢٤- فَالفَضْلُ عِنْدَ اللهِ لَيْسَ بِصُورَةِ الْـ أَعْمَالِ بَلْ بِحَقَائِقِ الإِيمَانِ

٤٩٢٥- وَتَفَاضُلُ الأَعْمَالِ يَتْبَعُ مَا يَقُو ... مُ بِقَلْبِ صَاحِبِهَا مِنَ البُرْهَانِ

٤٩٢٦- حَتَّى يَكُونَ العَامِلانِ كِلاهُمَا ... في رُتْبَةٍ تَبْدُو لَنَا بِعِيَانِ

٤٩٢٧- هَذَا وَبَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَا ... وَالأَرْضِ في فَضْلٍ وَفِي رُجْحَانِ

٤٩٢٨- وَيَكُونُ بَيْنَ ثَوَابِ ذَا وَثَوَابِ ذَا ... رُتَبٌ مُضَاعَفَةٌ بِلا حُسْبَانِ

٤٩٢٩- هَذَا عَطَاءُ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ ... وَبِذَاكَ تُعْرَفُ حِكْمَةُ الرَّحْمَنِ

الشرحُ

٤٩٢٣- سُبْحَانَ قَاسِمِ فَضْلِهِ بَيْنَ العِبَا ... دِ فَذَاكَ مَوْلَى الفَضْلِ وَالإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «سُبْحَانَ قَاسِمِ فَضْلِهِ بَيْنَ العِبَادِ»؛ يعني: تنزيهًا له حيث قَسَمَ الفضلَ بين عبادِه، لم يقسمْه عن عبثٍ، ولكن عن حكمةٍ، قال اللهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

٤٩٢٤- فَالفَضْلُ عِنْدَ اللهِ لَيْسَ بِصُورَةِ الْـ ... أَعْمَالِ بَلْ بِحَقَائِقِ الإِيمَانِ

إي واللهِ، الفضلُ بحقائقِ الإيمانِ لا بصورةِ الأعمالِ، فالصُّورةُ على اسمِها صورةٌ؛ ولهذا انظر إلى الخوارجِ فهم كفرةٌ وهم يُصَلُّون أحسنَ ممَّا نُصَلِّي، ويصومون، ويتصدَّقون، ويذكرون اللهَ كثيرًا، وصورةُ أعمالِهم أحسنُ من صورةِ أعمالِنا؛ كما قال النَّبِيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-: «يَحْقُرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ عِنْدَ صَلاتِهِمْ»(١)، ومع ذلك هم من أبعدِ النَّاسِ عن ربِّ العالمين، نسألُ اللهَ العافيةَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٤١٤)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم (١٠٦٤).

وأمَّا المنافقُ فقد قال اللهُ تعالى فيه: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون:٤]؛ أي: من حُسْنِه، وهم أبعدُ النَّاسِ عن الإيمانِ.

٤٩٢٥- وَتَفَاضُلُ الأَعْمَالِ يَتْبَعُ مَا يَقُو ... مُ بِقَلْبِ صَاحِبِهَا مِنَ البُرْهَانِ

اللَّهُمَّ حَقِّقْ لنا هذا البرهانَ.

٤٩٢٦- حَتَّى يَكُونَ العَامِلانِ كِلاهُمَا ... فِي رُتْبَةٍ تَبْدُو لَنَا بِعِيَانِ

قَوْلُهُ: «حَتَّى يَكُونَ العَامِلَانِ...»؛ يعني: حتَّى تجدَ العامِلَيْنِ كلاهما في رُتبةٍ تبدو لنا بعيانٍ.

٤٩٢٧- هَذَا وَبَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَا ... وَالأَرْضِ فِي فَضْلٍ وَفِي رُجْحَانِ

تجد اثنين يُصلِّيان جميعًا، بين كُلِّ واحدٍ والآخرِ في الفضلِ في هذه الصَّلاةِ كما بين السَّماءِ والأرضِ؛ وذلك لما يقومُ بقلبِ صاحبِها من الإنابةِ إلى الله والإيمانِ به والصِّدقِ والطُّمأنينةِ وغيرِ ذلك.

٤٩٢٨- وَيَكُونُ بَيْنَ ثَوَابِ ذَا وَثَوَابِ ذَا ... رُتَبٌ مُضَاعَفَةٌ بِلا حُسْبَانِ

نعم، يعملُ العاملان العملَ الواحدَ وبينهما في الفضلِ والثَّوابِ عند الله رُتَبٌ عظيمةٌ متباينةٌ.

٤٩٢٩- هَذَا عَطَاءُ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ ... وَبِذَاكَ تُعْرَفُ حِكْمَةُ الرَّحْمَنِ

نسألُ اللهَ أنْ يُعطيَنا وإيَّاكم من فضلِه؛ إنَّه جوادٌ كريمٌ.

* * *

فصل

فِيمَا أَعَدَّ اللهُ تَعَالَى فِي الجَنَّةِ لأَوْلِيَائِهِ المُتَمَسِّكِينَ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

٤٩٣٠- يَا خَاطِبَ الحُورِ الحِسَانِ وَطَالِبًا ... لِوِصَالِهِنَّ بِجَنَّةِ الحَيَوَانِ

٤٩٣١- لَوْ كُنْتَ تَدْرِي مَنْ خَطَبْتَ وَمَنْ طَلَبْـ ... ـتَ بَذَلْتَ مَا تَحْوِي مِنَ الأَثْمَانِ

٤٩٣٢- أَوْ كُنْتَ تَدْرِي أَيْنَ مَسْكَنُهَا جَعَلْـ ... ـتَ السَّعْيَ مِنْكَ لَهَا عَلَى الأَجْفَانِ

٤٩٣٣- وَلَقَدْ وَصَفْتَ طَرِيقَ مَسْكَنِهَا فَإِنْ ... رُمْتَ الوِصَالَ فَلا تَكُنْ بِالوَانِي

٤٩٣٤- أَسْرِعْ وَحُثَّ السَّيْرَ جُهْدَكَ إِنَّمَا ... مَسْرَاكَ هَذَا سَاعَةٌ لِزَمَانِ

٤٩٣٥- فَاعْشَقْ وَحدِّثْ بِالوِصَالِ النَّفْسَ وَابْـ ... ـذُلْ مَهْرَهَا مَا دُمْتَ ذَا إِمْكَانِ

٤٩٣٦- وَاجْعَلْ صِيَامَكَ قَبْلَ لُقْيَاهَا وَيَوْ ... مَ الوَصْلِ يَوْمَ الفِطْرِ مِنْ رَمَضَانِ

٤٩٣٧- وَاجْعَلْ نُعُوتَ جَمَالِهَا الحَادِي وَسِرْ ... تَلْقَ المَخَاوِفَ وَهْيَ ذَاتُ أَمَانِ

٤٩٣٨- لا يُلْهِيَنَّكَ مَنْزِلٌ لَعِبَتْ بِهِ ... أَيْدِي البِلَى مِنْ سَالِفِ الأَزْمَانِ

٤٩٣٩- فَلَقَدْ تَرَحَّلُ عَنْهُ كُلُّ مَسَرَّةٍ ... وَتَبَدَّلَتْ بِالهَمِّ وَالأَحْزَانِ

٤٩٤٠- سِجْنٌ يَضِيقُ بِصَاحِبِ الإِيمَانِ لَـ ... ـكِنْ جَنَّةُ المَأْوَى لِذِي الكُفْرَانِ

٤٩٤١- سُكَّانُهَا أَهْلُ الجَهَالَةِ وَالبَطَا ... لَةِ وَالسَّفَاهَةِ أَنْجَسُ السُّكَّانِ

٤٩٤٢- وَأَلَذُّهُمْ عَيْشًا فَأَجْهَلُهُمْ بِحَقْـ ... ـقِ اللهِ ثُمَّ حَقَائِقِ القُرْآنِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلٌ فِيمَا أَعَدَّ اللهُ تَعَالَى فِي الجَنَّةِ لأَوْلِيَائِهِ المُتَمَسِّكِينَ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ» أَفَادَنَا بقولِه: «فِيمَا أَعَدَّ» أنَّ الجنَّةَ الآن موجودةٌ، وهو كذلك كما قال اللهُ تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣]، وأَفَادَنَا بقولِه: «لأَوْلِيَائِهِ المُتَمَسِّكِينَ» أنَّ الأولياءَ هم المتمسِّكون بالكتابِ والسُّنَّةِ، وهؤلاء هم المؤمنون المتَّقون؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣]، ثُمَّ قال:

٤٩٣٠- يَا خَاطِبَ الحُورِ الحِسَانِ وَطَالِبًا لِوِصَالِهِنَّ بِجَنَّةِ الحَيَوَانِ

قَوْلُهُ: «الحُورِ الحِسَانِ» يقولون: لا تكونُ المرأةُ حوراءَ إلَّا إذا ابيضَّ وجهُها واسودَّت عيناها، فهو سوادُ العينَيْنِ في بياضِ الوجْنَتَيْنِ، هذا هو الحَوَرُ[1].

قَوْلُهُ: «وَطَالِبًا لِوِصَالِهِنَّ بِجَنَّةِ الحَيَوَانِ»؛ أي: بجنَّة الحياةِ، فالحيوانُ هنا بمعنى الحياة الكاملة؛ ولهذا جاءَتْ فيها الألفُ والنُّونُ إشارةً إلى الكثرةِ والسَّعَةِ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت:٦٤].

قَوْلُهُ: «يَا خَاطِبَ الحُورِ الحِسَانِ...»، ولا شكَّ أنَّ هذه الدَّعوةَ من المؤلِّفِ دعوةٌ حميدةٌ، كُلٌّ يريدُها ويريدُ الوصولَ إليها، لكن هناك ما هو أَلَذُّ وأنعمُ من الوصالِ إلى هؤلاء الحورِ، وهو الوصالُ إلى رضا الله ورؤيةِ الله عزَّ وجلَّ، ولعلَّ المؤلِّفَ سيذكرُه فيما بعدُ، لكن ذَكَرَ هذا -واللهُ أعلمُ- من بابِ التَّشويقِ والمقدِّمةِ.

(١) الحَوَرُ -بالتَّحْريك-: أن يشتد بياضُ بياضِ العين، وسواد سوادها، وتستدير حَدَقَتُهَا، وتَرِقَّ جُفُونُها ويَبْيَضَّ مَا حَوَالَيْهَا، أو الحَوَر: شِدَّةُ بَيَاضِهَا وشدَّةُ سَوَادِهَا في شدَّة بَيَاض الجَسَد. انظر: تاج العروس، مادة: حور.

٤٩٣١- لَوْ كُنْتَ تَدْرِي مَنْ خَطَبْتَ وَمَنْ طَلَبْـ ـتَ بَذَلْتَ مَا تَحْـوِي مِـنَ الأَثْـمَانِ

صحيحٌ والله؛ يعني: لو لم يكن لأهلِ الجنَّةِ -اللَّهُمَّ اجعَلْنا منهم- إلَّا النَّجاةُ من النَّارِ لكفَى، والإنسانُ كُلَّما سَمِعَ ما في النَّارِ -والعياذُ بالله- من العذابِ يقولُ: «لَيْتَ أُمِّي لم تلدْنِي» خوفًا؛ لأنَّه لا يدري ماذا يُخْتَمُ له؟ ولا يدري أين مصيرُه؟ فلو لم يكن من الجنَّةِ إلَّا أنَّ أهلَها سَلِمُوا من العذابِ فكيف وفيها من النَّعيمِ ما لا عينٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قلبِ بشرٍ؟! اللَّهُمَّ اجعَلْنا مِنْ ساكنيها.

فلو كُنَّا ندري لَبَذَلْنَا كُلَّ ما نحويه من الأثمانِ ومن الأعمالِ، ونحن في الحقيقةِ ندري، ولكنَّنا لا ندري عن حقيقةِ هؤلاء النِّساءِ، ندري أنَّهُنَّ حورٌ حِسَانٌ، خيِّراتُ الأخلاقِ، وأنَّهنَّ مقصوراتٌ في الخيامِ، وأنَّهُنَّ قاصراتُ الطَّرْفِ؛ ولهذا تأمَّلوا الآياتِ التي في آخرِ سورةِ «الرَّحمن»، لـمَّا ذَكَرَ اللهُ المأكولاتِ والمشروباتِ فَرَّقَ بين الجنَّتَيْنِ فقال في الأولى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن:٥٠]، وقال: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن:٥٢]، وقال في الثَّانية: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن:٦٦]، وقال: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾ [الرحمن:٦٨]، فهي دُون الأولى، لكن في النِّساء قال في كُلِّ الأربعِ: ﴿فِيهِنَّ﴾، فقال في الأولى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن:٥٦]، وقال في الثَّانية: ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ ٧٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧١ حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ﴾ [الرحمن:٧٠-٧٢]، والفرقُ بين «الخَيْرَاتِ» و«الحِسَانِ» أنَّهُنَّ خيراتٌ في أخلاقِهِنَّ، وحِسَانٌ في خِلْقَتِهِنَّ، فالخِلْقَةُ حسنةٌ، والطَّبعُ جميلٌ خَيِّرٌ، نسألُ اللهَ أن يجعلَنا وإيَّاكم من أهلِها.

فهو يقولُ: لو كنتَ تدري ما فَعَلْتَ، نحن ندري لكنَّنا لا ندري عن الحقيقةِ، حقيقةُ ما بالجنَّةِ لا يعلمُه أحدٌ؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم

مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السَّجدة:١٧]، ثُمَّ إنَّ عَمَلَنا -نسألُ اللهَ أن يُعاملَنا بعفوِه- عملُ مَنْ كان جاهلًا حتَّى في معناه، عملُنا عملُ الجاهلِ؛ ولهذا قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون:١٥]، فَأَكَّدَ الموتَ بـ«إنَّ» و«اللَّام» مع أنَّه واضحٌ، فكُلٌّ يُقِرُّ به؛ لأنَّ عملَ النَّاسِ عملُ مَنْ لا يؤمنُ بالموتِ ومَنْ يستبعدُ هذا؛ لذلك نحن نعلمُ ما في الجنَّةِ من النَّعيمِ، لكن كأنَّنا جاهلون لم نعمل له، نسألُ اللهَ أن يعاملَنا بعفوِه وإحسانِه.

٤٩٣٢- أَوْ كُنْتَ تَدْرِي أَيْنَ مَسْكَنُهَا جَعَلْـ ... ـتَ السَّعْيَ مِنْكَ لَـهَا عَلَى الأَجْفَـانِ

السَّعيُ للمحبوبِ المطلوبِ على الأقدامِ، لكن لو كنت تدري أين مسكنُها؟ مسكنُها في جنَّاتِ عدنٍ، وفوقَه عرشُ الرَّحمنِ جلَّ جلالُه، أعظمُ مسكنٍ وأعلى مسكنٍ وأطيبُ مسكنٍ، لو كُنْتَ تعلمُ هذا المسكنَ لَـجَعَلْتَ السَّعيَ منك لها على الأجفانِ؛ أي: أجفانِ العيونِ التي هي أرقُّ شيءٍ في الإنسانِ لا على الأقدامِ، ولكن تتحمَّلُ هذه المشقةَ بالسَّعيِ على الأجفانِ من أجلِ الوصولِ إلى هذا المسكنِ.

٤٩٣٣- وَلَقَدْ وَصَفْتَ طَرِيقَ مَسْكَنِهَا فَـإِنْ ... رُمْتَ الوِصَالَ فَـلا تَكُـنْ بِـالوَانِي

قَوْلُهُ: «**لَا تَكُنْ بِالْوَانِي**»؛ أي: بالضَّعيفِ في الطَّلبِ، اسْعَ على وجهِ القوَّةِ في الطَّلبِ، ولكن كما قال نبيُّنا وإمامُنا -عليه الصلاة والسلام-: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»(١)، لا تعتَمِدْ على نفسِك فتُخْذَلَ، استعنْ بالله عزَّ وجلَّ في كُلِّ مطلوبِك.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم (٢٦٦٤).

٤٩٣٤- أَسْرِعْ وَحُثَّ السَّيْرَ جُهْدَكَ إِنَّمَا مَسْرَاكَ هَذَا سَاعَةً لِزَمَانِ

الله أكبر، نعم، كُلُّ الدُّنيا ساعةٌ من زمانٍ، لو جَعَلْتَ اللَّيلَ والنَّهارَ كُلَّه عملًا للوصولِ إلى هذا المكانِ لانقضى بسرعةٍ وكأنَّه لحظاتٌ، ساعةٌ من نهارٍ؛ كما قال ابنُ القيِّم: «إِنَّمَا مَسْرَاكَ هَذَا سَاعَةٌ لِزَمَانٍ».

٤٩٣٥- فَاعْشَقْ وَحدِّثْ بِالوِصَالِ النَّفْسَ وَابْـ ـذُلْ مَهْرَهَا مَا دُمْتَ ذَا إِمْكَانِ

قَوْلُهُ: «اعْشَقْ»؛ يعني: كن بالنِّسبةِ لهذه الحورِ مُحِبًّا شديدَ المحبَّةِ، والإنسانُ بلا عِشقٍ لا يتحرَّك، فيبعدُ على إنسانٍ أن يتزوَّجَ امرأة وهو لم يُحِبَّها ولم يعشقها، والعشقُ من أعلى أنواعِ المحبَّةِ، وأعلى أنواعِ المحبَّةِ الخُلَّةُ، ولهذا لا نعلمُ أنَّ اللهَ اتَّخذ خليلًا من خَلْقِهِ إلَّا رجلين اثنين؛ وهما: إبراهيمُ، ومحمَّدٌ، صلواتُ الله عليهما وسلامُه.

أمَّا نحن فنسألُ اللهَ أن يجعلَنا متَّخذين محمَّدًا خليلًا لنا، لكنْ كونُ بعضِنا يجعلُ نفسَه خليلًا، ففي هذا نظرٌ؛ لأنِّي أخشى أن تتطوَّرَ هذه الخُلَّةُ حتَّى تكونَ محبَّةً مع الله، وإذا كانت محبَّةً مع الله -أعاذنا اللهُ وإيَّاكم من ذلك- صارت نوعًا من الشِّركِ كقولِه تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، فالإنسانُ يجبُ عليه أنْ يضبطَ نفسَه في هذه المسائلِ، ولا يتَّخذَ خليلًا من البشرِ إلَّا محمَّدًا ﷺ ومَن اتَّخذه اللهُ خليلًا؛ ولهذا يقولُ أبو هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «سَمِعْتُ خَلِيلِي ﷺ يقولُ: كَذَا وكَذَا»[1].

---

(١) كما في حديث: «أوصاني خليلي بثلاث: ركعتي الضحى، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وأن أُوتِرَ قبل أن أنام». أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب صلاة الضحى في الحضر، رقم (١١٧٨)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى، رقم (٧٢١).

قَوْلُهُ: «وَحَدِّثْ بِالوِصَالِ النَّفْسَ وَابْذُلْ مَهْرَهَا» أيضًا حَدِّثْ بالوصالِ، أمَّا أنْ تعشقَ ولا تُحَدِّثْ نفسَك بالوصالِ فاعلم أنَّك لم تَسْعَ للوصالِ، فلو أنَّ شخصًا عَشَقَ امرأةً، ولكنَّه يعلمُ أنَّه لو خَطَبَهَا من أهلِها ما أجابوها ولا أَجَابَتْ هي، هل يعملُ لهذا أو لا يعملُ؟ الجوابُ: لا يعملُ؛ لأنَّه يعلمُ أنَّ عملَه ضائعٌ، فإذا لم يكن هناكَ محبَّةٌ وتحديثُ النَّفسِ بأنَّ هذا المحبوبَ سيحصلُ فإنَّك لن تسعى ولن تعملَ؛ ولهذا قال: «وَابْذُلْ مَهْرَهَا مَا دُمْتَ ذَا إِمْكَانِ»، لكن ما هو مهرُها؟ الجوابُ: الإيمانُ والعملُ الصَّالحُ، أعاننا اللهُ وإيَّاكم عليه.

٤٩٣٦- وَاجْعَلْ صِيَامَكَ قَبْلَ لُقْيَاهَـا وَيَـوْ ... مَ الوَصْلِ يَوْمَ الفِطْرِ مِـنْ رَمَضَـانِ

اللهُ أكبرُ، اجعل صيامَك قبل أن تلقاها؛ لأنَّك إن متَّ قبل أنْ تصومَ عن المعاصي ما وَصَلْتَ إليها، فَصُمْ عن المعاصي في هذه الدُّنيا قبل أن تلقاها، ويكونُ الفطرُ يومَ القيامةِ «يَوْمَ الوَصْلِ».

٤٩٣٧- وَاجْعَلْ نُعُوتَ جَمَالِـهَا الحَادِي وَسِرْ ... تَلْـقَ المَخَـاوِفَ وَهْـيَ ذَاتُ أَمَـانِ

قَوْلُهُ: «وَاجْعَلْ نُعُوتَ جَمَالِـهَا الحَادِي»، ولا يمكنُ أن نصلَ إلى نعوتِ الجمالِ إلَّا عن طريقِ الوحْيَيْنِ «الكتابِ والسُّنَّةِ»، وقد ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- في كتابه: «حادي الأرواحِ إلى بلادِ الأفراحِ» من أوصافِ الحورِ ما يكفي لمن له هِمَّةٌ أن يعملَ للوصالِ إليهنَّ.

قَوْلُهُ: «وَسِرْ تَلْقَ المَخَاوِفَ وَهْيَ ذَاتُ أَمَانِ»؛ يعني: تَلْقَ المخاوفَ في سيرِك؛ لأنَّ الجنَّةَ حُفَّتْ بالمكارهِ، فالإنسانُ لا تطيعُه نفسُه أن يفعلَ كُلَّ الطَّاعةِ، لكن ليصبرْ ويحملْ نفسَه على طاعةِ الله عزَّ وجلَّ، وما هي إلَّا ساعةٌ ثُمَّ تنقضي ويذهبُ كُلُّ شيءٍ، لكن ابن القيِّم -رحمه اللهُ- يقولُ: «تَلْقَ المَخَاوِفَ وَهْيَ ذَاتُ أَمَانِ»، فَمَنْ

خَافَ أَدْلَجَ، ومَنْ أَدْلَجَ[١] بَلَغَ المنزلةَ[٢].

٤٩٣٨- لا يُلْهِيَنَّـكَ مَنْـزِلٌ لَعِبَـتْ بِـهِ أَيْدِي الـبِلَى مِـنْ سَـالِفِ الأَزْمَـانِ

قَوْلُهُ: «لا يُلْهِيَنَّكَ مَنْزِلٌ لَعِبَتْ بِهِ»؛ يعني بهذا المنزلِ: الدُّنيا.

قَوْلُهُ: «البِلَى»؛ يعني: الفناءَ والتَّلفَ.

قَوْلُهُ: «لَعِبَتْ بِهِ مِنْ سَالِفِ الأَزْمَانِ»؛ أي: ممَّا مضى.

لا تلهيك الدُّنيا عن الآخرةِ، فإنَّما ترك النَّاسُ لك الدُّنيا بعد أن غادروها وبعد أنْ أفسدوها أو أفسدتهم ولم يَبْقَ إلَّا الـحُثَالةُ.

٤٩٣٩- فَلَقَـدْ تَرَحَّـلُ عَنْـهُ كُـلُّ مَسَـرَّةٍ وَتَبَـدَّلَتْ بِالْـهَمِّ وَالأَحْـزَانِ

يعني: أنَّ هذه الدُّنيا لا تدومُ مسرَّاتُها، بل تتبدَّلُ بالأحزانِ، يقولُ الشَّاعرُ:

فَيَـوْمٌ عَلَيْنَـا وَيَـوْمٌ لَنَـا وَيَـوْمٌ نُسَـاءُ وَيَـوْمٌ نُسَـرُّ[٣]

ويقولُ الآخرُ:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصَةً لَذَّاتُهُ بِادِّكَارِ الـمَوْتِ وَالـهَرَمِ[٤]

وصَدَقَ الأوَّلُ والثَّاني، فلا يكادُ يمرُّ بك يومان وأنت مسرورٌ لم يُنَغِّصْك

---

(١) أَدْلَجَ -بالتَّخفيف-: إِذَا سَار مِن أَوَّلِ الليل، وادَّلَجَ -بِالتَّشْدِيدِ- إِذا سار مِن آخِرِهِ، والاسم منهما الدُّلْـجَة والدَّلْـجَة، بِالضَّمِّ وَالْفَتْحِ. انظر: البداية والنهاية، مادة: دلج.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، بعد باب ما جاء في صفة أواني الحوض، رقم (٢٤٥٠).

(٣) البيت للنمر بن تولب، كما في زهر الأكم، لنور الدين اليوسي (٣/ ١٣٥).

(٤) البيت في توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، للمرادي بلا نسبة (٣/ ١٦٧٨).

شيءٌ؛ إمَّا من خاصَّةِ نفسِك أو من أهلِك أو من أصحابِك أو من المجتمعِ، كُلُّ إنسانٍ قلبُه حيٌّ لابُدَّ أن ينالَ هذا.

ولو فُرِضَ أنَّ الإنسانَ في أطيبِ ما يكونُ من العيشِ وأبعدِ ما يكونُ عن المشاكلِ فهو إذا فَكَّرَ ساعةً ما المآل؟

المآلُ أحدُ أمرين: إمَّا موتٌ أو هَرَمٌ، إن متَ فقد فُتَّ، وإن هرمت فقد تَعِبْتَ أنت وأَتْعَبْتَ؛ ولهذا تجدُ أنَّ الهرمَ الذي يصلُ إلى حدِّ الهذيان يَمَلُّ منه أهلُه، يضعونه في زاويةٍ من البيتِ يتكلَّمُ ويصيحُ ومع ذلك لا يحييه أحدٌ.

٤٩٤٠- سِجْنٌ يَضِيقُ بِصَاحِبِ الإِيمَانِ لَـ ـكِنْ جَنَّةُ الـمَأْوَى لِذِي الكُفْرَانِ

قَوْلُهُ: «**سِجْنٌ يَضِيقُ بِصَاحِبِ الإِيمَانِ**» وهذا صحيحٌ، فالمؤمنُ سجنُه الدُّنيا لوجهين:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّه لا يرى فيها ما يسرُّه من حيث الإيمانُ والعملُ الصَّالحُ إلَّا نادرًا.

الوجه الثَّاني: أنَّه يرتقبُ دارًا أنعمَ وأكملَ وأطيبَ من هذه الدُّنيا، يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [النَّحل:٣٢]، في حال الموتِ يُتَوَفَّوْنَ طيِّبين، اللَّهُمَّ اجعلنا منهم، وتقولُ لهم الملائكةُ: «**سلامٌ عليكم ادخلوا الجنَّةَ الآن**»؛ ولهذا إذا وُضِعَ الإنسانُ في قبرِه وسُئِلَ، انْفَتَحَتْ له أبوابٌ إلى الجنَّةِ، فهذه الدُّنيا سجنُ المؤمنِ لا شكَّ.

قَوْلُهُ: «**لَكِنْ جَنَّةُ المَأْوَى لِذِي الكُفْرَانِ**»؛ يعني: الدُّنيا جَنَّةٌ للكافرِ؛ لأنَّها بالنِّسبةِ لما يلقاه من العذابِ جَنَّةٌ، ولأنَّ الكافرَ لا يتقيَّدُ بشيءٍ، كُلُّ شيءٍ حلالٌ؛

يزني، ويسرقُ، ويشربُ الخمرَ، ويلبسُ الحريرَ، يفعلُ كُلَّ شيءٍ، فهو مُنَعَّمٌ نفسَه، فهي له جنَّةٌ، وليس له جنَّةٌ في الآخرةِ، ولكن للمؤمنِ سجنٌ.

يُقَالُ: إنَّ قاضيَ القضاةِ -كما يصفونه- ابنَ حجرٍ العسقلانيَّ -رحمه اللهُ- في مصرَ، وكان إذا أتى من بيتِه إلى العملِ أو ذَهَبَ يمينًا وشمالًا يركبُ العربةَ، والعربةُ في ذلك الوقتِ بمنزلةِ السَّيَّارة عندنا.

العربة تجرُّها البغالُ أو الخيلُ ويحيطُ النَّاسُ به، فَمَرَّ ذاتَ يومٍ بيهوديٍّ يبيعُ الزَّيتَ، وكُلُّ ثيابِه مُدَنَّسةٌ بالزَّيتِ، فأوقفه اليهوديُّ وقال: إنَّ نبيَّكم يقولُ: «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ**»[1]، وأنت الآن فيما أنت فيه من النَّعيمِ في الدُّنيا، وترى ما أنا فيه من البؤسِ؛ لأنَّه زيَّاتٌ، قال: نعم، صَدَقَ رسولُ الله، ما أَنْعَمُ به من الدُّنيا هو بالنِّسبةِ لنعيمِ الآخرةِ سجنٌ، وما أنت فيه من البؤسِ في الدُّنيا هو بالنِّسبة لعذابِ الآخرةِ نعيمٌ، قال: صحيحٌ؟ قال: نعم، قال: أشهدُ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ وأشهدُ أنَّ محمَّدًا رسولُ الله، وهذا هو الحقُّ، الدُّنيا سجنُ المؤمنِ وجنَّةُ الكافرِ.

٤٩٤١- سُكَّانُهَا أَهْلُ الجَهَالَةِ وَالبَطَا لَةِ وَالسَّفَاهَةِ أَنْجَسُ السُّكَّانِ

قَوْلُهُ: «**سُكَّانُهَا**»؛ أي: سُكَّانُ الدُّنيا «**أَهْلُ الجَهَالَةِ وَالبَطَالَةِ والسَّفَاهَةِ أَنْجَسُ السُّكَّانِ**»، نسألُ اللهَ العافيةَ.

وابن القيِّم -رحمه اللهُ- يأخذُ بالعمومِ دائمًا، سُكَّانُ الدُّنيا هم أهلُ الجهالةِ ليس عندهم علمٌ، أهلُ البطالةِ ليس عندهم عملٌ، أهلُ السَّفاهةِ ليس عندهم حكمةٌ، «**أَنْجَسُ السُّكَّانِ**» ليس فيهم طهارةٌ، لكن لعلَّه -رحمه اللهُ- يريدُ سُكَّانَها الذين آثروها على الآخرةِ، يجبُ أن يكونَ هذا مرادَه؛ لأنَّه لا يريدُ سُكَّانَ الدُّنيا،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٥٦).

فسُكَّانُ الدُّنيا فيها الأنبياءُ، فيها الصِّدِّيقون، فيها الشُّهداءُ، فيها الصَّالحون، لكن يريدُ سُكَّانَها الذين آثروها على الآخرةِ بلا شكٍّ.

٤٩٤٢- وَأَلَـذُّهُمْ عَيْشًـا فَـأَجْهَلُهُمْ بِحَقْـ ـــقِ الله ثُــمَّ حَقَــائِقِ القُــرْآنِ

الجاهلُ بالله وبحقائقِ الإيمانِ هذا ألذُّهم عيشًا؛ لأنَّه ميِّتُ القلبِ، لا يبحثُ في أسماءِ الله، ولا في صفاتِ الله، ولا في أحكامِ الله، ولا في الإيمانِ، ولا في الأعمالِ، فهو بهيمةٌ، بل هو أضلُّ من البهيمةِ.

* * *

٤٩٤٣- عُمِرَتْ بِهِمْ هَذِي الدِّيَارُ وَأَقْفَرَتْ مِــنْهُمْ رُبُــوعُ العِلْــمِ وَالإِيــمَانِ

٤٩٤٤- قَدْ آثَرُوا الـدُّنْيَا وَلَـذَّةَ عَيْشِـهَا الْـ ـفَانِي عَـلَى الجَنَّـاتِ وَالرِّضْـوَانِ

٤٩٤٥- صَحِبُوا الأَمَانِيَ وَابْتُلُوا بِحُظُـوظِهِمْ وَرَضُــوا بِكُــلِّ مَذَلَّـةٍ وَهَــوَانِ

٤٩٤٦- كَـــدْحًا وَكَـــدًّا لا يُفَـــتَّرُ عَـــنْهُمُ مَــا فِيــهِ مِــنْ غَــمٍّ وَمِــنْ أَحْــزَانِ

٤٩٤٧- وَالله لَوْ شَاهَدْتَ هَاتِيـكَ الصُّــدُو رَ رَأَيْتَهَــا كَمَرَاجِــلِ النِّــيرَانِ

٤٩٤٨- وَوَقُودُهَا الشَّهَوَاتُ وَالحَسَـرَاتُ وَالْـ آلامُ لا تَخْبُــو مَــدَى الأَزْمَــانِ

٤٩٤٩- أَبْـدَانُهُمْ أَجْـدَاثُ هَاتِيـكَ النُّفُــو سِ اللَّاءِ قَـدْ قُـبِرَتْ مَـعَ الأَبْـدَانِ

٤٩٥٠- أَرْوَاحُهُمْ فِي وَحْشَـةٍ وَجُسُـومُهُمْ فِي كَــدْحِهَا لا فِي رِضَــا الــرَّحْمَنِ

٤٩٥١- هَرَبُوا مِنَ الرِّقِّ الَّـذِي خُلِقُـوا لَـهُ فَبُلُــوا بِــرِقِّ الــنَّفْسِ وَالشَّــيْطَانِ

٤٩٥٢- لا تَرْضَ مَا اخْتَارُوهُ هُمْ لِنُفُوسِهِمْ فَقَـدِ ارْتَضَـوْا بِالـذُّلِّ وَالــحِرْمَانِ

٤٩٥٣- لَوْ سَاوَتِ الـدُّنْيَا جَنَاحَ بَعُوضَـةٍ لَـمْ يَسْقِ مِنْهَـا الـرَّبُّ ذَا الكُفْـرَانِ
٤٩٥٤- لَكِنَّـــهَا وَالله أَحْقَـــرُ عِنْـــدَهُ مِـنْ ذَا الجَنَـاحِ القَـاصِرِ الطَّـيَرَانِ
٤٩٥٥- وَلَقَدْ تَوَلَّـتْ بَعْـدُ عَـنْ أَصْحَابِهَا فَالسَّـعْدُ مِنْهَـا حَـلَّ فِي الـدَّبَرَانِ
٤٩٥٦- لا يُرْتَجَـى مِنْهَـا الوَفَـاءُ لِصَـبِّهَا أَيْـنَ الوَفَـا مِـنْ غَـادِرٍ خَـوَّانِ
٤٩٥٧- طُبِعَتْ عَلَى كَـدَرٍ فَكَيْـفَ تَنَالُـهَا صَـفْوًا أَهَـذَا قَـطُّ فِي الإِمْكَـانِ
٤٩٥٨- يَـا عَاشِـقَ الـدُّنْيَا تَأَهَّـبْ لِلَّـذِي قَـدْ نَالَـهُ العُشَّـاقُ كُـلَّ زَمَـانِ
٤٩٥٩- أَوَمَا سَمِعْتَ بَلَى رَأَيْتَ مَصَـارِعَ الْـ ـعُشَّاقِ مِـنْ شِـيبٍ وَمِـنْ شُـبَّانِ

الشـرحُ

٤٩٤٣- عُمِرَتْ بِهِمْ هَذِي الدِّيَارُ وَأَقْفَرَتْ مِـنْهُمْ رُبُـوعُ العِلْـمِ وَالإِيـمَانِ

قَوْلُهُ: «عُمِرَتْ بِهِمْ»؛ أي: بسكَّانِ الدُّنيا الذين آثروها على الآخرةِ.

٤٩٤٤- قَدْ آثَرُوا الـدُّنْيَا وَلَـذَّةَ عَيْشِـهَا الْـ ـفَانِي عَـلَى الجَنَّـاتِ وَالرِّضْـوَانِ

ولذلك لا يهمُّهم العملُ الصَّالحُ ولا الإيمانُ، وإنَّما يهمُّهم لذَّاتُهم في هذه الدُّنيا.

واعلم أنَّ الحياةَ الطَّيِّبةَ لا تقتضي كثرةَ المالِ ولا كثرةَ الأولادِ ولا القصورَ المشيَّدَةَ، بل الطَّيِّبةُ ما طَابَ عيشُ صاحبِها ولو كان أفقرَ النَّاسِ؛ ولهذا لم يقل اللهُ عزَّ وجلَّ: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنَرْزُقَنَّهُ) بكثرةِ أولادِه، وكثرةِ مالِه، وبتحسينِ مسكنِه، بل قال: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النَّحل:٩٧]؛

ولهذا أحيانًا تجدُ المؤمنَ التَّقيَّ ولو كان من أفقرِ عبادِ الله تجدُه من أطيبِ النَّاسِ قلبًا.

٤٩٤٥- صَحِبُوا الأَمَانِيَ وَابْتُلُوا بِحُظُوظِهِمْ وَرَضُوا بِكُلِّ مَذَلَّةٍ وَهَوَانِ

يعني: أنَّهم عاشوا على الأماني، وليس عندهم إلَّا هذا، وقد قال النَّبِيُّ ﷺ: «العَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى الله الأَمَانِيَ»[1]، ومن ذلك أنَّ منهم مَنْ إذا نَصَحْتَهُ وقلت له: «اتَّقِ اللهَ، أَدِّ مَا عليك»، قال: اللهُ غفورٌ رحيمٌ، أو تلا عليك هذه الآيةَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، وكأنَّه لم يفهم قولَه: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾؛ لأنَّنا نقولُ له: ما الذي أَعْلَمَكَ أنت أنَّك ممَّن شَاءَ اللهُ أن يغفرَ له؟ إنَّ اللهَ لم يقل: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ فَقَط، لو قال ذلك لكنَّا نقول: نعم، افعلْ ما شِئْتَ إلَّا الشِّركَ، لكنَّه قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ حسَب ما تقتضيه حكمتُه، ولست أنت على جَزْمٍ بأنَّك ممَّنْ يُغْفَرُ له، فأنت مُتَمَنٍّ على الله الأماني.

٤٩٤٦- كَدْحًا وَكَدًّا لا يُفَتَّرُ عَنْهُمُ مَا فِيهِ مِنْ غَمٍّ وَمِنْ أَحْزَانِ

يعني: أنَّهم يكدحون ويعملون ويكدُّون ويُتعبون أنفسَهم، ومع ذلك قلوبُهم مملوءةٌ من الغمِّ والحَزَنِ.

٤٩٤٧- وَالله لَوْ شَاهَدْتَ هَاتِيكَ الصُّدُو رَ رَأَيْتَهَا كَمَرَاجِلِ النِّيرَانِ

قَوْلُهُ: «كَمَرَاجِلِ النِّيرَانِ» المِرْجَل: القِدْر على النَّارِ، مُوقَدٌ تسمعُ له أزيزًا وصوتًا.

---

(١) أخرجه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في صفة آنية الحوض، رقم (٢٤٥٩).

فقلوبُهم -والعياذُ بالله- مثل مراجلِ النِّيرانِ لما فيها من الحرِّ والغمِّ والهمِّ؛ ولذلك نحن نقولُ: هؤلاء الكفرةُ من الغربيِّين وغيرِ الغربيِّين لا تظنُّوا أنَّهم في نعيمٍ، واللهِ إنَّهم في جحيمٍ، قلوبُهم الآن ملأى من الجحيمِ، مهما زَانَتْ لهم الدُّنيا فهم في جحيمٍ، لكنَّهم يغرُّوننا بما يدَّعون أنَّهم فيه من النَّعيمِ، ونظنُّ أنَّ هذا حقيقةٌ.

لكن لو نَظَرْتَ إلى قلوبِهم لَوَجَدْتَ نِيرانًا تتلظَّى من الهمِّ والغمِّ والتَّحسُّرِ، تجدُ الواحدَ منهم يُفكِّرُ: هل سيبقى مالُه له؟ هل سيبقى هذا التَّمتُّعُ له أو سيزولُ؟ لأنَّه يَرَى النَّاسَ تحصدُهم المنايا عن يمينِه وشِمالِه، فتجده كُلَّما ازداد نعيمًا ازدادت حسرتُه؛ خوفًا من أن يزولَ هذا النَّعيمُ.

٤٩٤٨- وَوَقُودُهَا الشَّهَوَاتُ وَالحَسَرَاتُ وَالْـ ... آلامُ لا تَخْبُــو مَــدَى الأَزْمَـــانِ

يعني: الذي تُوقَدُ به هذه الأنواعُ شهواتٌ وحَسَرَاتٌ على ما فاتهم من الدُّنيا، كُلُّ واحدٍ يريدُ أن يكونَ مثلَ الثَّاني، إذا فاته ما للثَّاني ازداد همًّا وغمًّا وحسرةً، والآلامُ القلبيَّةُ والبدنيَّةُ لا تخبو مدى الأزمانِ.

٤٩٤٩- أَبْـدَانُهُمْ أَجْـدَاثُ هَاتِيـكَ النُّفُـو ... سِ اللَّاءِ قَـدْ قُـبِرَتْ مَـعَ الأَبْـدَانِ

قَوْلُهُ: «**أَبْدَانُهُمْ أَجْدَاثُ**»؛ أي: قبورٌ.

أبدانُهم هي قبورُ هذه الأرواحِ الخبيثةِ التي ليس عندها إلَّا الهمومُ والأحزانُ.

٤٩٥٠- أَرْوَاحُهُمْ فِي وَحْشَـةٍ وَجُسُـومُهُمْ ... فِي كَـدْحِهَا لا فِي رِضَـا الـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «**فِي كَدْحِهَا**»، وفي نسخةٍ: «**فِي كَدِّهَا**»، والوزنُ لا يختلفُ، وكذلك المعنى.

أرواحُهم في وحشةٍ؛ لأنَّها لم تأنسْ بالله عزَّ وجلَّ، ولم تأنسْ بما ترجوه من رحمتِه، فهي في وحشةٍ من الله وفي وحشةٍ من عبادِ الله؛ ولهذا قِسْ نفسَك الآن إذا فَعَلْتَ معصيةً تجدُ أنَّك تستوحشُ من النَّاسِ وكأنَّ النَّاسَ يقرؤونها على صفحاتِ وجهِكَ، فتجدُ أنَّك خجلانُ حتَّى لو لم يعلم عنك النَّاسُ شيئًا، حتَّى لو كنتَ في بيتٍ مظلمٍ لا يعلمُ بك أحدٌ، إذا فَعَلْتَ المعصيةَ فإنَّك تخجلُ من النَّاسِ، وكأنَّك إذا شاهدتَهم كأنَّما تقولُ: إنَّهم يقرؤونها في جبينِك.

٤٩٥١- هَرَبُوا مِنَ الرِّقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ ... فَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

قَوْلُهُ: «**هَرَبُوا مِنَ الرِّقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ**» ما هو الرِّقُ الذي خُلِقْنَا له؟ الجوابُ: الرِّقُّ لله عزَّ وجلَّ بأن نكونَ عبيدًا له، ونسألُ اللهَ أن يجعلَنا عبيدًا له.

قَوْلُهُ: «**فَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ**» صاروا عبيدًا لنفوسِهم وللشَّيطانِ، أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ؟! هربوا من الرِّقِّ الذي يُعْتَبَرُ حريَّةً لهم وهو عبوديَّةُ الله إلى رِقِّ الشَّيطانِ الذي هو الذُّلُّ والخَسارةُ في الدُّنيا والآخرةُ.

«**وهذا البيتُ لو كُتِبَ بماءِ الذَّهبِ لكان رخيصًا**».

٤٩٥٢- لا تَرْضَ مَا اخْتَارُوهُ هُمْ لِنُفُوسِهِمْ ... فَقَدِ ارْتَضَوْا بِالذُّلِّ وَالحِرْمَانِ

نعم، العاقلُ لا يَرْضَى بما رَضِيَه هؤلاء لنفوسِهم، وإنَّما يَرْضَى بما رَضِيَه الرُّسلُ وأتباعُهم، جعلنا اللهُ وإيَّاكم منهم.

٤٩٥٣- لَوْ سَاوَتِ الدُّنْيَا جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ... لَمْ يَسْقِ مِنْهَا الرَّبُّ ذَا الكُفْرَانِ

وذلك كما جاء في الحديثِ: «**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا**

سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»[1]؛ إذ إنَّ الكافرَ ليس أهلًا مع أنَّ اللهَ يُنَعِّمُ الكافرَ في الدُّنيا؛ لأنَّها ليست شيئًا عند الله.

٤٩٥٤- لَكِنَّهَا وَاللهِ أَحْقَرُ عِنْدَهُ ... مِنْ ذَا الجَنَاحِ القَاصِرِ الطَّيَرَانِ

الدُّنيا أحقرُ عند الله من جَنَاحِ البعوضةِ؛ ولهذا إذا صَلَّى الإنسانُ ركعتي الفجرِ صار ذلك خيرًا من الدُّنيا وما فيها[2]، كُلُّ الدُّنيا منذ خُلِقَتْ إلى أن تَفْنَى، هاتان الرَّكعتان خيرٌ منها، كم تستوعبُ الرَّكعتان من الزَّمنِ؟ خمس دقائق بالوضوءِ، خمسُ دقائقَ تساوي الدُّنيا كُلَّها من أوَّلِها إلى آخرِها، إِذَنْ الدُّنيا لا تساوي عند الله عزَّ وجلَّ شيئًا.

٤٩٥٥- وَلَقَدْ تَوَلَّتْ بَعْدُ عَنْ أَصْحَابِهَا ... فَالسَّعْدُ مِنْهَا حَلَّ فِي الدَّبَرَانِ

تولَّت عن أصحابِها حقيقةً أو حكمًا؛ **حقيقةً**: إذا كان صاحبُها فقيرًا، وعندنا مَثَلٌ يُضْرَبُ للإنسانِ الذي ليس له حظٌّ؛ قالوا: «**هذا مثلُ فقيرِ النَّصارى لا دنيا ولا دين**»، فهي تولَّت عن أصحابِها حقيقةً إذا كانوا لم يُنَعَّموا فيها، **أو حُكمًا**: إذا كانوا قد نُعِّمُوا فيها؛ لأنَّهم سيُفارقون هذا النَّعيمَ عن قُرْبٍ.

٤٩٥٦- لا يُرْتَجَى مِنْهَا الوَفَاءُ لِصَبِّهَا ... أَيْنَ الوَفَا مِنْ غَادِرٍ خَوَّانِ

قَوْلُهُ: «لَا يُرْتَجَى مِنْهَا الوَفَاءُ لِصَبِّهَا» «صَبِّهَا»؛ أي: مُحِبِّهَا.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عزَّ وجلَّ، رقم (٢٣٢٠)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، رقم (٤١١٠).

(٢) دليله قوله ﷺ: «رَكْعَتَا الفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا». أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، والحث عليهما وتخفيفهما، والمحافظة عليهما، رقم (٧٢٥).

قَوْلُهُ: «أَيْنَ الوَفَا مِنْ غَادِرٍ خَوَّانِ؟!» الجوابُ: لا يُوجَدُ، الغادرُ الخَوَّانُ لا يمكنُ أن يفيَ لك.

فالدُّنيا لا يُرْتَجَى منها الوفاءُ لمن يحبُّونها ويقدِّمونها على الآخِرةِ، بل بالعكسِ، أين الوفاءُ من غادرٍ خوَّانٍ؟!

٤٩٥٧- طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ فَكَيْفَ تَنَالُهَا صَفْوًا أَهَذَا قَطُّ فِي الإِمْكَانِ

قَوْلُهُ: «فَكَيْفَ تَنَالُهَا صَفْوًا أَهَذَا قَطُّ فِي الإِمْكَانِ؟!» الجوابُ: لا، مَا دَامَتْ طبيعتُها الكَدَرَ فكيف تصفو؟! وكان شيخُ الإسلامِ -رحمه اللهُ- يتمثَّلُ كثيرًا بهذين البيتَيْنِ:

طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا صَفْوًا مِنَ الأَقْذَارِ وَالأَكْدَارِ
وَمُكَلِّفُ الأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا مُتَطَلِّبٌ فِي المَاءِ جَذْوَةَ نَارِ

وهذان بيتان عظيمان يُسَلِّي بهما الإنسانُ نفسَه، الذي يتطلَّبُ في الماءِ جذوةَ نارٍ لا يمكنُ أن يجدَ شيئًا، حتَّى جذوة النَّارِ في الماءِ تنطفئ لا تبقى أبدًا.

يقولُ صاحبُ «الفروعِ»[1] رحمه اللهُ: «**وكان شيخُنا يَتَمَثَّلُ بهذين البَيْتَيْنِ كثيرًا**»، شيخُه مَنْ؟ ابنُ تيميَّةَ رحمه اللهُ، ولقد نَالَ من الكَدَرِ ما لم ينله أحدٌ من النَّاسِ إلَّا قليلًا، لكن هذا الكَدَرُ الذي ناله صار صفوًا، فقد صَارَ إمامًا للنَّاسِ إلى اليومِ، فإلى اليومِ النَّاسُ يقتدون به، ويأخذون بأقوالِه، رحمه الله، وألْحَقَنَا وإيَّاكم به وبالصَّالحين.

---

(١) انظر: الفروع لابن مفلح الحنبلي (٣/ ٤٠٠).

٤٩٥٨- يَـا عَاشِـقَ الـدُّنْيَا تَأَهَّـبْ لِلَّـذِي ... قَـدْ نَالَـهُ العُشَّـاقُ كُـلَّ زَمَـانِ

قَوْلُهُ: «تَأَهَّبْ لِلَّذِي قَدْ نَالَهُ العُشَّاقُ كُلَّ زَمَانِ» ما هو؟ الجوابُ: الموتُ.

يقولُ: تأهَّبْ لهذا، لو بَقِيتَ ما بَقِيتَ في الدُّنيا فالرَّحيلُ.

٤٩٥٩- أَوَمَا سَمِعْتَ بَلَى رَأَيْتَ مَصَارِعَ الْـ ... ـعُشَّاقِ مِـنْ شِـيبٍ وَمِـنْ شُـبَّانِ

قَوْلُهُ: «أَوَمَا سَمِعْتَ بَلَى رَأَيْتَ مَصَارِعَ العُشَّاقِ؟» الجوابُ: بَلَى، رَأَيْنَا الدُّنيا يموتُ فيها الكبيرُ ويموتُ فيها الشَّبابُ، ويموتُ فيها الكهولُ، ويموتُ فيها الأغنياءُ، ويموتُ فيها الفقراءُ، وليست شيئًا مقرَّرًا أنَّ النَّاسَ يصلون إلى حدٍّ معيَّنٍ من العمرِ، بل تجدُ الرَّجلَ يدفنُ أولادَه وأولادَ أولادِه ويبقى حيًّا، أو بالعكسِ، وهذا شيءٌ مُشَاهَدٌ؛ ولهذا لـمَّا قال: «أَوَ مَا سَمِعْتَ» قال: «بَلْ رَأَيْتَ»، والرُّؤيةُ أبلغُ من السَّماعِ، وصَدَقَ، نحن نرى ونسمعُ مصارعَ النَّاسِ من شيبٍ ومن شُبَّانٍ، وأنَّهم لن يبقوا في هذه الدُّنيا، فاعتبر بما حَصَلَ، أَحْسَنَ اللهُ لنا ولكم الخاتمةَ.

* * *

فصــل

في صِفَةِ الجَنَّةِ الَّتي أَعَدَّهَا اللهُ ـ ذُو الفَضْلِ وَالمِنَّةِ ـ لأَوْلِيَائِهِ المُتَمَسِّكِينَ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

٤٩٦٠- فَاسْمَعْ إِذًا أَوْصَافَهَا وَصِفَاتِ هَا ... تِيكَ المَنَازِلِ رَبَّةِ الإِحْسَانِ

٤٩٦١- هِيَ جَنَّةٌ طَابَتْ وَطَابَ نَعِيمُهَا ... فَنَعِيمُهَا بَاقٍ وَلَيْسَ بِفَانِ

٤٩٦٢- دَارُ السَّلامِ وَجَنَّةُ المَأْوَى وَمَنْـ ... ـزِلُ عَسْكَرِ الإِيمَانِ وَالقُرْآنِ

٤٩٦٣- فَالدَّارُ دَارُ سَلامَةٍ وَخِطَابُهُمْ ... فِيهَا سَلامٌ وَاسْمُ ذِي الغُفْرَانِ

الشــرحُ

وهذه الأبياتُ واضحةُ المعنى.

* * *

فصـــل

في عَدَدِ دَرَجَاتِ الجَنَّةِ وَمَا بيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ

٤٩٦٤- دَرَجَاتُهَـا مِئَـةٌ وَمَـا بَـيْنَ اثْنَتَيْـ ـنِ فَـذَاكَ في التَّحْقِيـقِ لِلْحُسْبَانِ

٤٩٦٥- مِثْلَ الَّذِي بَـيْنَ السَّمَاءِ وَبَـيْنَ هَـ ـذِي الأَرْضِ قَوْلُ الصَّادِقِ البُرْهَـانِ

٤٩٦٦- لَكِنَّ عَالِيَهَا هُـوَ الفِـرْدَوْسُ مَسْـ ـقُوفٌ بِعَـرْشِ الـخَالِقِ الـرَّحْمَنِ

٤٩٦٧- وَسَطَ الـجِنَانِ وَعُلْوَهَا فَلِذَاكَ كَـا نَـتْ قُبَّـةً مِـنْ أَحْسَـنِ البُنْيَـانِ

٤٩٦٨- مِنْـهُ تَفَجَّـرُ سَـائِرُ الأَنْهَـارِ فَالْـ ـمَنْبُوعُ مِنْـهُ نَـازِلٌ بِجِنَـانِ

الشـرحُ

٤٩٦٤- دَرَجَاتُهَـا مِئَـةٌ وَمَـا بَـيْنَ اثْنَتَيْـ ـنِ فَـذَاكَ في التَّحْقِيـقِ لِلْحُسْبَانِ

٤٩٦٥- مِثْلَ الَّذِي بَـيْنَ السَّمَاءِ وَبَـيْنَ هَـ ـذِي الأَرْضِ قَوْلُ الصَّادِقِ البُرْهَـانِ

بَيَّنَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- أنَّ درجاتِ الجنَّةِ مئةٌ، وما بين اثنتين فذاك في التَّحقيقِ لِلْحُسْبَانِ مثل الَّذي بين السَّماءِ وبين وهذه الأرضِ، والَّذي بين السَّماءِ والأرضِ خمسُمئةِ عامٍ، فإذا كانت مئةً، وبين كُلِّ واحدةٍ والأخرى خمسُمئةٍ، يكونُ الجميعُ خمسين ألفًا.

٤٩٦٦- لَكِنَّ عَالِيَهَا هُــوَ الفِـرْدَوْسُ مَسْــ ـــقُوفٌ بِعَـرْشِ الــخَالِقِ الـرَّحْمَنِ

يعني: أنَّ السَّقفَ هو عرشُ الله عزَّ وجلَّ، فعرشُه -سبحانه وتعالى- على سماواتِهِ مثلُ القُبَّةِ؛ أي: مثل الخَيْمَةِ.

٤٩٦٧- وَسَطَ الـجِنَانِ وَعُلْوَهَا فَلِذَاكَ كَـا نَــتْ قُبَّـةً مِــنْ أَحْسَــنِ البُنْيَــانِ

قَوْلُهُ: «وَسَطَ الجِنَانِ»؛ يعني: هو وَسَطُ الجِنَانِ.

قَوْلُهُ: «فَلِذَاكَ كَانَتْ قُبَّةً مِنْ أَحْسَنِ البُنْيَانِ»؛ يعني: كانت الفردوسُ -جعلنا اللهُ وإيَّاكم من أهلِها- مِثْلَ القُبَّةِ التي فوقها عرشُ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ.

٤٩٦٨- مِنْــهُ تَفَجَّــرُ سَــائِرُ الأَنْهَــارِ فَالْــ ــــمَنْبُوعُ مِنْــهُ نَــازِلٌ بِجِنَــانِ

قَوْلُهُ: «مِنْهُ»، وفي نسخةٍ: «مِنْهَا».

* * *

فصــل

في أَبْوَابِ الجَنَّةِ

٤٩٦٩- أَبْوَابُهَــا حَــقٌّ ثَمَانِيَــةٌ أَتَــتْ ... فِي النَّصِّ وَهْيَ لِصَاحِبِ الإِحْسَانِ

٤٩٧٠- بَـابُ الـجِهَادِ وَذَاكَ أَعْلاهَـا وَبَـا ... بُ الصَّوْمِ يُدْعَى البَابُ بِالرَّيَّانِ

٤٩٧١- وَلِكُلِّ سَعْيٍ صَالِحٍ بَابٌ وَرَبْ ... بُ السَّعْيِ مِنْهُ دَاخِلٌ بِأَمَانِ

٤٩٧٢- وَلَسَوْفَ يُدْعَى الـمَرْءُ مِنْ أَبْوَابِهَا ... جَمْعًا إِذَا وَفَّى حُلَى الإِيمَانِ

٤٩٧٣- مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ هُوَ الصِّدِّيقُ ذَا ... كَ خَلِيفَةُ المَبْعُوثِ بِالقُرْآنِ

الشرحُ

هذا الذي ذكره المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- صريحٌ، وفيه أحاديثُ رواها البخاريُّ وغيرُه.

قَوْلُهُ: «أَبْوَابُهَا حَقٌّ ثَمَانِيَةٌ أَتَتْ فِي النَّصِّ»؛ والدَّليلُ على أنَّ أبوابَ الجنَّةِ ثمانيةٌ: ما جاء في النَّصِّ من الكتابِ والسُّنَّةِ: أمَّا في السُّنَّةِ فواضحٌ؛ كقولِ النَّبيِّ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُسْبِغُ الوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»(١)، هذا في الحديثِ، أمَّا في القرآنِ فقال بعضُ النَّحويِّين إنَّ الواوَ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا

(١) أخرجه الترمذي: أبواب الطهارة، باب ما يقال بعد الوضوء، رقم (٥٥).

جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر:٧٣] للثَّمانيةِ، فهي كقولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف:٢٢]، لكنَّ هذا قولٌ ضعيفٌ جدًّا؛ فالواوُ لا تأتي للثَّمانيةِ ولا للسَّبعةِ، بل معانيها معروفةٌ، فالصَّوابُ أنَّها عُلِمَتْ بالنَّصِّ النَّبويِّ.

قَوْلُهُ: «مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ هُوَ الصِّدِّيقُ»؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لـمَّا ذكر أبوابَ الجنَّةِ وأنَّ لكلِّ بابٍ داخلَه، قال أبو بكرٍ للنَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ: «بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله، مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ»؛ يعني: أن يُدْعى الإنسانُ من بابٍ واحدٍ فهذا ليس فيه إشكالٌ، لكن «فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ: **«نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»**(١)، اللَّهُمَّ ارْضَ عنه.

فكان أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يزدادُ على غيرِه ممَّن بُشِّرَ بالجنَّةِ أنَّه يُشْهَدُ له بأنَّه يُدْعَى من أبوابِ الجنَّةِ كُلِّها «**أَقْبِلْ أَقْبِلْ**»، ولكن يُقَالُ: أليس المسلمُ يُصَلِّي ويصومُ ويحجُّ ويُجاهِدُ ويتصدَّقُ فكيف يُقَالُ: «**مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ، مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ، مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ ...**» إلخ؟.

الجوابُ أن يُقَالَ: مَنْ كَانَ أكثرُ عملِه وأحسنُ عملِه الصِّيامَ مثلًا دُعِيَ من بابِ الصِّيامِ، وإن كان له عملٌ صالحٌ آخرُ له بابٌ، ومن كَانَ أكثرُ عملِه وأحسنُه الصَّدقةَ دُعِيَ من بابِ الصَّدقةِ وإن كان له صيامٌ وله صلاةٌ، ومن كان أكثرُ النَّاسِ صلاةً وأحسنُهم صلاةً دُعِيَ من بابِ الصَّلاةِ، وهكذا.

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب الريان للصائمين، رقم (١٧٩٨)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب من جمع صدقة وأعمال البر، رقم (١٠٢٧).

فصل

في مِقْدَارِ مَا بَيْنَ البَابِ وَالبَابِ مِنْهَا

٤٩٧٤- سَبْعُونَ عَامًا بَيْنَ كُلِّ اثْنَيْنِ مِنْـ ـهَا قُدِّرَتْ بِالعَدِّ وَالحُسْبَانِ

٤٩٧٥- هَذَا حَدِيثُ لَقِيطٍ المَعْرُوفِ بِالْـ ـخَبَرِ الطَّوِيلِ وَذَا عَظِيمُ الشَّانِ

٤٩٧٦- وَعَلَيْهِ كُلُّ جَلالَةٍ وَمَهَابَةٍ وَلَكَمْ حَوَاهُ بَعْدُ مِنْ عِرْفَانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «هَذَا حَدِيثُ لَقِيطٍ المَعْرُوفُ بِالخَبَرِ الطَّوِيلِ»، هذا حديثٌ طويلٌ جدًّا، وفيه فوائدُ كثيرةٌ، وقد سَاقَهُ ابنُ القيِّمِ -رحمه اللهُ- في كتابه: «زاد المعاد»[1]، وتكلَّم على فوائدِه.

* * *

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٨٨).

فصــل

في مِقْدَارِ ما بَيْنَ مِصْرَاعَي البَابِ الوَاحِدِ مِنْهَا

٤٩٧٧- لَكِـــنَّ بَيْـــنَهُمَا مَسِـــيرَةَ أَرْبَعِيـــ ـــنَ رَوَاهُ حَــبْرُ الأُمَّــةِ الشَّــيْبَانِي

٤٩٧٨- فِي «مُسْنَدٍ» بِالرَّفْعِ وَهْـوَ لِــمُسْلِمٍ وَقْــفٌ كَمَرْفُــوعٍ بِوَجْــهٍ ثَــانِي

٤٩٧٩- وَلَقَــدْ رَوَى تَقْــدِيرَهُ بِثَلاثَــةِ الْــ أَيَّــامِ لَكِــنَّ عِنْــدَ ذِي العِرْفَــانِ

٤٩٨٠- أَعْنِي البُخَارِيَّ الرِّضَـا هُـوَ مُنْكَـرٌ وَحَــدِيثُ رَاوِيــهِ فَــذُو نُكْــرَانِ

الشـرحُ

في تقديرِ ما بين البابَيْنِ حديثُ لقيطٍ أنَّ بينهما سبعين عامًا[١]، وفي تقدير ما بين مِصراعي البابِ الواحدِ منها أثران:

الأوَّل: بينهما مسيرةُ أربعين[٢]، **والثَّاني**: بينهما مسيرةُ ثلاثةِ أيَّامٍ[٣]، وهذا الأخيرُ مُنْكَرٌ، قال البخاريُّ رحمه اللهُ: إنَّه حديثٌ مُنْكَرٌ، وصاحبُه له مناكيرُ، فهذا الحديثُ مُنْكَرٌ سندًا ومُنْكَرٌ مَتْنًا: أمَّا نكارتُه المتنيَّةُ فلأنَّه خَالَفَ الأحاديثَ التي

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السُّنَّة (١/ ٢٨٦).

(٢) أخرجه أحمد (أحمد ٤/ ١٧٤، رقم ١٧٧١٧)، ومسلم: في أول كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦٧).

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة أبواب الجنة، رقم (٢٥٤٨)، وقال: حديث غريب.

رواها أهلُ الثِّقةِ، وراويه مُنْكَرٌ لا يمكنُ أن يُنْسَبَ إلى هؤلاء الجبالِ، ومن جهةِ السَّندِ ففيه راوٍ مُنْكَرٌ، فإذًا يسقطُ هذا لأنَّه لا يُقَاوِمُ ما رواه الإمامُ أحمدُ مرفوعًا، فالعمدةُ على ما رواه الإمامُ أحمدُ مرفوعًا وأخرجه مسلمٌ موقوفًا، لكنَّ ابنَ القيِّمِ يقولُ: «وَقْفٌ كَمَرفُوعٍ بِوَجْهٍ ثَانِي»، ما هو الوجهُ الثَّاني؟ الجوابُ: أنَّه مرفوعٌ حُكْمًا؛ لأنَّ مثلَ هذا لا يُقَالُ بالرَّأي، فهو لا مجالَ للاجتهادِ فيه؛ لأنَّه خبرٌ محضٌ، فإذا حَدَّثَ به الصَّحابيُّ فهو في حكمِ المرفوعِ.

* * *

فصـــل

في مِفْتَاحِ بَابِ الجَنَّةِ

٤٩٨١- هَذَا وَفَتْحُ البَابِ لَيْسَ بِمُمْكِنٍ ... إِلَّا بِمِفْتَاحٍ عَلَى أَسْنَانِ

٤٩٨٢- مِفْتَاحُهُ بِشَهَادَةِ الإِخْلاصِ وَالتـْ ... ـتَوْحِيدِ تِلْكَ شَهَادَةُ الإِيمَانِ

٤٩٨٣- أَسْنَانُهُ الأَعْمَالُ وَهْيَ شَرَائِعُ الْـ ... إِسْلامِ وَالمِفْتَاحُ بِالأَسْنَانِ

٤٩٨٤- لا تُلْغِيَنْ هَذَا المِثَالَ فَكَمْ بِهِ ... مِنْ حَلِّ إِشْكَالٍ لِذِي العِرْفَانِ

الشـرحُ

لَـمَّا ذَكَرَ -رحمه اللهُ- أبوابَ الجنَّةِ ذَكَرَ مِفْتَاحَ هذه الأبوابِ؛ فَمِفْتَاحُ الجَنَّةِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فقال المرجئةُ: مِفْتَاحُ الجَنَّةِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ولا دخلَ للأعمالِ في ذلكِ، وقال السَّلفُ: إنَّ المِفْتَاحَ لا يفتحُ إلَّا بأسنانٍ، وأسنانُه شرائعُ الإيمانِ، فَمَنْ جاء بالصَّلاةِ والزَّكاةِ والصِّيامِ وشرائعِ الإسلامِ فُتِحَ له، ومَنْ لا فلا؛ إِذَنْ لابُدَّ من الأعمالِ.

ولكن نقولُ: أسنانُ هذه المفاتيحِ هي الشَّرشرةُ؛ يعني: المؤشَّر فيها، وفيما سبق كانت الأسنانُ من خشبٍ، تُخَرَّقُ ويُوضَعُ فيها عُويِّداتٌ على قدرِ ثقوبٍ في اليدِ التي تُدخلُ في الجدارِ، وتُسَمَّى عند النَّاسِ المجرَّة؛ إذا أدخلت المفتاحَ وهو ليس له أسنانٌ فلا يفتحُ أبدًا، لكن إذا أَدْخَلْتَهُ وفيه الأسنانُ فَتَحْتَ، فإذا كان فيه

الأسنانُ كُلُّها إلَّا واحدًا، لا يفتحُ أيضًا، ولو كانت الأسنانُ قصيرةً لا يفتحُ، فالمهمُّ أنَّ مِفْتاحَ الجنَّةِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ولابُدَّ لِلمفْتَاحِ من أسنانٍ؛ ولهذا يقولُ: «**لَا تُلْغِيَنْ هَذَا المِثَالَ فَكَمْ بِهِ مِنْ حَلِّ إِشْكَالٍ لِذِي العِرْفَانِ**».

وهل الأعمالُ شرطٌ لصحَّةِ الإيمانِ ودخولِ الجنَّةِ؟ نقولُ: نعم، بعضُها شرطٌ كالصَّلاةِ مثلًا؛ فالصَّلاةُ شرطٌ لصحَّةِ الإيمانِ ودخولِ الجنَّةِ؛ لأنَّ تركَها كفرٌ أكبرُ مخرجٌ عن المِلَّةِ كما شَهِدَتْ بذلك نصوصُ الكتابِ والسُّنَّةِ وما يُحْكَى من إجماعِ الصَّحابةِ أو قولِ جمهورِهم، وكما هو مقتضى النَّظرِ الصَّحيحِ، أمَّا الإمامُ أحمدُ -رحمه اللهُ- فعنه: أنَّ تاركَ الزَّكاةِ والصِّيامِ والحجِّ كتاركِ الصَّلاةِ؛ لأنَّ الكُلَّ أركانٌ للإسلامِ، ولا يقومُ البيتُ إلَّا بأركانِه، لكن الحقُّ أحقُّ أن يُتَّبَعَ، والصَّحيحُ: أنَّه لا يَكْفُرُ بتركِ الأعمالِ إلَّا بالصَّلاةِ.

***

فصــل

في مَنْشُورِ الجَنَّةِ الَّذِي يُوَقَّعُ بِهِ لِصَاحِبِهَا

٤٩٨٥- هَذَا وَمَنْ يَدْخُلْ فَلَيْسَ بِدَاخِلٍ إِلَّا بِتَوْقِيعٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

٤٩٨٦- وَكَذَاكَ يُكْتَبُ لِلْفَتَى لِدُخُولِهِ مِنْ قَبْلُ تَوْقِيعَانِ مَشْهُودَانِ

٤٩٨٧- إِحْدَاهُمَا بَعْدَ المَمَاتِ وَعَرْضِ أَرْ وَاحِ العِبَادِ بِهِ عَلَى الدَّيَّانِ

٤٩٨٨- فَيَقُولُ رَبُّ العَرْشِ جَلَّ جَلالُهُ لِلْكَاتِبِينَ وَهُمْ أُولُو الدِّيوَانِ

٤٩٨٩- ذَا الإِسْمُ فِي الدِّيوَانِ يُكْتَبُ ذَاكَ دِيـ ـوَانُ الجِنَانِ مُجَاوِرَ المَنَّانِ

٤٩٩٠- دِيوَانُ عِلِّيِّينَ أَصْحَابِ القُرَا نِ وَسُنَّةِ المَبْعُوثِ بِالقُرْآنِ

٤٩٩١- فَإِذَا انْتَهَى لِلجِسْرِ يَوْمَ الحَشْرِ يُعْـ ـطَى لِلدُّخُولِ إِذًا كِتَابٌ ثَانِي

٤٩٩٢- عُنْوَانُهُ هَذَا كِتَابٌ مِنْ عَزِيـ ـزٍ رَاحِمٍ لِفُلانٍ ابْنِ فُلانِ

٤٩٩٣- فَدَعُوهُ يَدْخُلُ جَنَّةَ المَأْوَى الَّتِي ارْ تَفَعَتْ وَلَكِنَّ القُطُوفَ دَوَانِي

٤٩٩٤- هَذَا وَقَدْ كُتِبَ اسْمُهُ مُذْ كَانَ فِي الْ أَرْحَامِ قَبْلَ وِلادَةِ الإِنْسَانِ

٤٩٩٥- بَلْ قَبْلَ ذَلِكَ وَهْوَ وَقْتُ القَبْضَتَيْـ ـنِ كِلاهُمَا لِلعَدْلِ وَالإِحْسَانِ

٤٩٩٦- سُبْحَانَ ذِي الجَبَرُوتِ وَالمَلَكُوتِ وَالْ إِجْلالِ وَالإِكْرَامِ وَالسُّبْحَانِ

٤٩٩٧- وَاللهُ أَكْـبَرُ عَالِـمُ الأَسْرَارِ وَالْـ ... إِعْـلانِ وَاللَّحَظَـاتِ بِالأَجْفَـانِ

٤٩٩٨- وَالْـحَمْدُ لله السَّمِيعِ لِسَائِرِ الْـ ... أَصْـوَاتِ مِـنْ سِرٍّ وَمِـنْ إِعْـلانِ

٤٩٩٩- وَهُوَ الْـمُوَحَّدُ وَالْـمُسَبَّحُ وَالْمُمَجْـ ... ـدُ وَالْـحَمِيدُ وَمُنْـزِلُ القُـرْآنِ

٥٠٠٠- وَالأَمْـرُ مِـنْ قَبْـلٍ وَمِـنْ بَعْـدٍ لَـهُ ... سُـبْحَانَكَ اللَّهُـمَّ ذَا السُّـلْطَانِ

الشـرحُ

٤٩٨٥- هَذَا وَمَـنْ يَـدْخُلْ فَلَـيْسَ بِـدَاخِلٍ ... إِلَّا بِتَوْقِيـعٍ مِـنَ الـرَّحْمَنِ

التَّوقيعُ معروفٌ بأن يُعْطَى الإنسانُ كتابًا ويُوقِّعَ عليه المسؤولُ، فلا يدخلُ الجنَّةَ أحدٌ إلَّا بهذا التَّوقيعِ من الله عزَّ وجلَّ الذي ذَكَرَهُ المؤلِّفُ؛ ولذا قال: «إِلَّا بِتَوْقِيعٍ مِنَ الرَّحْمَنِ».

٤٩٨٦- وَكَـذَاكَ يُكْتَـبُ لِلْفَتَـى لِدُخُولِـهِ ... مِـنْ قَبْـلُ تَوْقِيعَـانِ مَشْـهُودَانِ

٤٩٨٧- إِحْدَاهُمَا بَعْدَ الْـمَمَاتِ وَعَـرْضِ أَرْ ... وَاحِ العِبَـادِ بِـهِ عَـلَى الـدَّيَّانِ

٤٩٨٨- فَيَقُولُ رَبُّ العَـرْشِ جَـلَّ جَلالُـهُ ... لِلْكَـاتِبِينِ وَهُـمْ أُولُـو الـدِّيوَانِ

٤٩٨٩- ذَا الإِسْمُ فِي الدِّيوَانِ يُكْتَبُ ذَاكَ دِيـ ... ـوَانُ الْـجِنَانِ مُجَـاوِرَ الْـمَنَّانِ

٤٩٩٠- دِيـوَانُ عِلِّيِّـينَ أَصْـحَابِ القُـرَا ... نِ وَسُـنَّةِ الْـمَبْعُوثِ بِـالقُرْآنِ

هذا يُكْتَبُ أو يُوَقَّعُ -كما قال المؤلِّفُ- إذا مات الإنسانُ، فإنَّ الملائكةَ تقبضُ روحَه وتصعدُ بها إلى السَّماءِ حتَّى تكونَ بين يَدِي الله عزَّ وجلَّ، ثُمَّ يقولُ: «اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ»، فهذه كتابةٌ، «وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ؛ فَإِنِّي مِنْهَا

خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى»(١)، وهذا مُفَسِّرٌ لقولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨]، وأمَّا الكتابُ الثَّاني فيكونُ عند تجاوُزِ الصِّراطِ، فيُكْتَبُ أنَّه من أهلِ الجنَّةِ ليُفْتَحَ له ويدخلَ مع الدَّاخلين، ولذا قال:

٤٩٩١- فَإِذَا انْتَهَى لِلجِسْرِ يَوْمَ الحَشْرِ يُعْـ ـطَى لِلدُّخُولِ إِذًا كِتَابٌ ثَانِي

الجسرُ هو: جسرٌ ممدودٌ على جهنَّمَ، يعبرُ النَّاسُ عليه على قدرِ أعمالِهم حسب قوَّتِهم وأخذِهم لشريعةِ الله، فمنهم مَنْ يمرُّ كلمحِ البصرِ، ومنهم مَنْ يمرُّ كالبرقِ، ومنهم مَنْ يمرُّ كالرِّيحِ، ومنهم مَنْ يمرُّ كالإبلِ(٢)، المهمُّ أنَّه يمرُّ النَّاسُ فيه على قدرِ أعمالِهم، فيُعْطَى كتابًا يقولُ:

٤٩٩٢- عُنْوَانُهُ هَذَا كِتَابٌ مِنْ عَزِيـ ـزٍ رَاحِمٍ لِفُلَانٍ ابْنِ فُلَانِ

٤٩٩٣- فَدَعُوهُ يَدْخُلُ جَنَّةَ المَأْوَى الَّتِي ارْ تَفَعَتْ وَلَكِنَّ القُطُوفَ دَوَانِي

قَوْلُهُ: «عِنْوَانُهُ هَذَا كِتَابٌ مِنْ عَزِيزٍ رَاحِمٍ» يُعْطَى كتابًا عند الصُّعودِ على الصِّراطِ؛ لأنَّه كتابٌ من عزيزٍ رحيمٍ لفلانِ ابن فلانٍ، ورُبَّما يشهدُ لهذا قولُه تعالى: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصِّلت:٣٢]، فدعوه يدخلُ، وهذا وَرَدَ به أثرٌ عن النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم.

فالمسألةُ محفوظةٌ مُتْقَنَةٌ، كُلُّ شيءٍ بكتابٍ، كُلُّ شيءٍ مُقَدَّرٌ، واللهُ تعالى واسعٌ عليمٌ.

قَوْلُهُ: «جَنَّةَ المَأْوَى الَّتِي ارْتَفَعَتْ وَلَكِنَّ القُطُوفَ دَوَانِي»، «القُطُوفُ» جمعُ:

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧، رقم ١٨٧٣٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٥، رقم ١١٢١٦)، وأبو يعلى (٢/ ٤٤٥، رقم ١٢٥٣)، وابن حبان (١٦/ ٣٨٤، رقم ٧٣٧٩)، والحاكم (٤/ ٦٢٧ رقم ٨٧٣٧) وقال: صحيح على شرط مسلم.

«قِطْفٍ»؛ وهو: الثَّمرُ، فقطوفُها دانيةٌ؛ يعني: هي مع علوِّها هي دانيةٌ، فإذا اشتهى الإنسانُ ثمرةً من هذه الثَّمراتِ دَنَا الغصنُ له حتَّى تكونَ الثَّمرةُ بين يديه، لا يحتاجُ إلى تعبٍ ولا إلى عناءٍ؛ كما قال تعالى: ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة:٢٣]، اللَّهُمَّ اجعلنا من أهلِها.

٤٩٩٤- هَذَا وَقَدْ كُتِبَ اسْمُهُ مُذْ كَانَ فِي الْـ أَرْحَامِ قَبْلَ وِلادَةِ الإِنْسَانِ

لأنَّه إذا تَمَّ له أربعةُ أشهرٍ أُرْسِلَ إليه المَلَكُ «ويُؤْمَرُ بأربعِ كَلِمَات: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أو سَعِيدٌ»، والحديثُ في هذا مشهورٌ، وهو حديثُ عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(١).

٤٩٩٥- بَلْ قَبْلَ ذَلِكَ وَهْوَ وَقْتُ القَبْضَتَيْـ ـنِ كِلاهُمَا لِلعَدْلِ وَالإِحْسَانِ

فاللهُ -جلَّ وعلَّا- قَبَضَ قبضَتَيْنِ مِنْ بني آدمَ، وقال: «هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي وَهَؤلَاءِ لِلنَّارِ وَلَا أُبَالِي»(٢).

٤٩٩٦- سُبْحَانَ ذِي الجَبَرُوتِ وَالمَلَكُوتِ وَالْـ إِجْلالِ وَالإِكْرَامِ وَالسُّبْحَانِ

قَوْلُهُ: «سُبْحَانَ»؛ يعني: تنزيهًا لله عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «ذِي الجَبَرُوتِ»؛ أي: ذي الجبرِ، وقد مَرَّ علينا في هذا الكتابِ أنَّ الجبارَ من أسماءِ الله، وله ثلاثةُ معانٍ: القوَّةُ، وجبرُ الضَّعيفِ، والعلوُّ؛ كما قال:

وَلَهُ مُسَمَّى ثَالِثٌ وَهْوَ العُلُوْ وُ فَلَيْسَ يَدْنُو مِنْهُ مِنْ إِنْسَانِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته، رقم (٣٣٣٢). ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٣).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٦، رقم ١٧٦٩٦).

مِنْ قَوْلِـهِمْ جَبَّـارَةٌ لِلنَّخْلَـةِ الـ ـعُلْيَا الَّتِـي فَاقَـتْ لِكُـلِّ بَنَـانِ(١)

قَوْلُهُ: «المَلَكُوتِ» من المُلْكِ، وأتت التَّاءُ فيه للمبالغةِ، قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون:٨٨].

قَوْلُهُ: «وَالإِجْلَالِ»؛ يعني: أنَّ اللهَ تعالى يُجِلُّهُ كُلُّ مَنْ في السَّماواتِ والأرضِ ويعظِّمُه كُلُّ مَنْ في السَّماواتِ والأرضِ؛ إمَّا تعظيمًا قدريًّا، وإمَّا تعظيمًا شرعيًّا.

قَوْلُهُ: «الإِكْرَامِ»؛ المرادُ: إكرامُ الطَّائعينَ من عبادِه، قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ [الرحمن:٢٧].

قَوْلُهُ: «السُّبْحَانِ»؛ هو: التَّنزيهُ؛ يعني: وسُبْحَانَ ذي التَّنزيهِ.

٤٩٩٧- وَاللهُ أَكْـبَرُ عَالِـمُ الأَسْرَارِ وَالْـ ـإِعْـلانِ وَاللَّحَظَـاتِ بِالأَجْفَـانِ

٤٩٩٨- وَالْـحَمْدُ لله السَّـمِيعِ لِسَـائِرِ الْـ ـأَصْـوَاتِ مِـنْ سِرٍّ وَمِـنْ إِعْـلانِ

وهذا واضحٌ.

٤٩٩٩- وَهُوَ الْـمُوَحَّدُ وَالْـمُسَبَّحُ وَالْمُمَجْـ ـجَـدُ وَالْـحَمِيدُ وَمُنْـزِلُ القُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «الحَمِيدُ»؛ بمعنى: الحامد، وبمعنى: المحمود، فهو حامدٌ لِمَنْ يستحقُّ الحمدَ، وهو محمودٌ.

٥٠٠٠- وَالأَمْـرُ مِـنْ قَبْـلٍ وَمِـنْ بَعْـدٍ لَـهُ سُـبْحَانَكَ اللَّهُـمَّ ذَا السُّـلْطَانِ

قَوْلُهُ: «وَالأَمْرُ مِنْ قَبْلٍ وَمِنْ بَعْدٍ لَهُ»، وهذا مأخوذٌ من قولِه تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الرُّوم:٤].

---

(١) تقدم البيتان برقم (٣٣٢٨، ٣٣٢٩)

فصـــل

في صُفُوفِ أَهْلِ الجَنَّة

٥٠٠١- هَذَا وَإِنَّ صُفُوفَهُمْ عِشْـرُونَ مَـعْ مِئَـــةٍ وَهَـــذِي الأُمَّـــةُ الثُّلُثَـــانِ

٥٠٠٢- يَرْوِيـــهِ عَنْـــهُ بُرَيْـــدَةٌ إِسْـــنَادُهُ شَرْطُ الصَّحِيحِ بِـ«مُسْنَدِ الشَّيْبَانِي»

٥٠٠٣- وَلَهُ شَوَاهِدُ مِنْ حَـدِيثِ أَبِي هُرَيْـ ـرَةَ وَابْـنِ مَسْـعُودٍ وَحَـبْرِ زَمَـانِ

٥٠٠٤- أَعْنِـي ابْـنَ عَبَّـاسٍ وَفِي إِسْـنَادِهِ رَجُـلٌ ضَـعِيفٌ غَـيْرُ ذِي إِتْقَـانِ

٥٠٠٥- وَلَقَـدْ أَتَانَـا فِي «الصَّـحِيحِ» بِـأَنَّهُمْ شَـطْرٌ وَمَـا اللَّفْظَـانِ مُخْتَلِفَـانِ

٥٠٠٦- إِذْ قَالَ أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَـطْرَهُمْ هَـــذَا رَجَـــاءٌ مِنْـــهُ لِلـــرَّحْمَنِ

٥٠٠٧- أَعْطَاهُ رَبُّ العَرْشِ مَـا يَرْجُـو وَزَا دَ مِنَ العَطَاءِ فِعَـالَ ذِي الإِحْسَـانِ

الشـرحُ

هذا الفصلُ ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- فيه أنَّ صفوفَ أهلِ الجَنَّةِ عشرون ومئةٌ، وأنَّ هذه الأُمَّةَ الثُّلثان، فيكونُ من هذه الأُمَّةِ ثمانون صفًّا ومِنْ غيرِها أربعون صفًّا، وهذا يدلُّ على أنَّهم قليلون بالنِّسبةِ لهذه الأُمَّةِ بلا شكٍّ؛ **أوَّلًا**: لأنَّ بعضَ الرُّسلِ ليس معه أحدٌ، فلا يتبعُه ولا واحدٌ[1]، وبعضُ الرُّسلِ يتبعُه أهلُه

(١) كما في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: خرج علينا النبي ﷺ يومًا فقال: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ**».
أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب بَابُ مَنْ لَمْ يَرْقِ، رقم (٥٤٢٠).

إلَّا بعضَهم، فمثلًا: لوطٌ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- يتبعُه أهلُه إلَّا امرأتُه، ونوحٌ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- ما بَقِيَ من ذرِّيَّتِهِ إلَّا ثلاثةٌ، وهَلُمَّ جرًّا.

ثُمَّ ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- بعد أنْ صَحَّحَ هذا الحديثَ ذكر ما ظاهرُه المعارضةُ؛ وهو: أنَّ النَّبيَّ ﷺ لـمَّا حَدَّثَ أصحابَه فقَالَ: «يَقُولُ اللهُ عزَّ وجلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادَى بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ، قَالَ: يَا رَبُّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الحَامِلُ حَمْلَهَا وَيَشِيبُ الوَلِيدُ»، ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:٢]، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلى النَّاسِ حَتَّى تَغَيَّرَتْ وُجُوهُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعَمِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ، ثُمَّ أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَبْيَضِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ»، فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ»، فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ»، فَكَبَّرْنَا[1]، وشطرُ أهلِ الجنَّةِ؛ أي: نصفُهم.

وفي الحديثِ ذِكْرٌ ليأجوجَ ومأجوجَ، ولاشَّك أنَّهم موجودين على عهدِ ذي القَرْنَيْنِ، لكن متى يُبْعَثُونَ؟ هذا الذي يكونُ من أشراطِ السَّاعةِ، إذا بُعِثُوا وسُلِّطُوا على العالَـمِ، وليس هناك في ذلك الوقتِ أسلحةٌ؛ من دَباباتٍ، ولا طائراتٍ، ولا صواريخَ، ولا شيءٍ، فيأتي هذا الجيشُ العرمرمُ الذي يَقِفُ على بحيرةِ طبريَّة ويشربُها، فيمرُّ آخرُهم فيقول: قد كان في هذه مرَّةً ماءٌ، فَيُسَلَّطون حتَّى يضطرَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ﴾ [الحج:٢]، رقم (٤٧٤١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله يقول الله لآدم أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، رقم (٢٢٢).

عيسى -عليه السَّلامُ- ومَنْ معه إلى أن يلتجئوا إلى الطُّورِ، فيُهلكهم اللهُ[(١)]، إِذَنْ جنسُهم موجودٌ من بني آدمَ، لكن ذُرِّيَّتُهم هي التي لم توجدْ بعد، والقولُ بأنَّ يأجوجَ ومأجوجَ هم التَّتارُ هذا غلطٌ، لكن إذا جعلنا التَّتارَ مثلًا يأجوجَ ومأجوجَ من حيث الإفسادُ فصحيحٌ، لكن هل هؤلاء حصروا المؤمنين في جبلِ الطُّورِ؟ وهل نَزَلَ عيسى؟ الجوابُ: لا؛ لأنَّ يأجوجَ ومأجوجَ الذين هم من علاماتِ السَّاعةِ بعد نزولِ عيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

المهمُّ أنَّ هذا الحديثَ يدلُّ على أنَّ هذه الأُمَّةَ الشَّطرُ؛ أي: النِّصفُ، والحديثَ الأوَّلَ الذي رواه الإمامُ أحمدُ يدلُّ على أنَّهم الثُّلثان؛ لأنَّ أهلَ الجنَّةِ مئةٌ وعشرون صفًّا، منهم ثمانون من هذه الأُمَّةِ، فَجَمَعَ المؤلِّفُ بينهما جمعًا حسنًا، وقال: إنَّ الذي فيه الشَّطرُ هو رجاءٌ من الرَّسولِ ﷺ، وإنَّ اللهَ أعطاه فوق ما رَجَاه؛ أي: زَادَهُ أَكْثَرَ ممَّا رَجَاه.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، رقم (٢٩٣٧).

فصل

في صِفَةِ أَوَّلِ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الجَنَّةَ

٥٠٠٨- هَــذَا وَأَوَّلُ زُمْــرَةٍ فَوُجُــوهُهُمْ كَالْبَــدْرِ لَيْـلَ السِّـتِّ بَعْـدَ ثَـمَانِ

٥٠٠٩- السَّـابِقُونَ هُـمُ وَقَـدْ كَـانُوا هُنَـا أَيْضًـا أُولِي سَـبْقٍ إِلَى الإِحْسَـانِ

الشَّرحُ

٥٠٠٨- هَــذَا وَأَوَّلُ زُمْــرَةٍ فَوُجُــوهُهُمْ كَالْبَــدْرِ لَيْـلَ السِّـتِّ بَعْـدَ ثَـمَانِ

أَوَّلُ زمرةٍ تدخلُ الجَنَّةَ على صورةِ القمرِ ليلة البدرِ، متى؟ ليلة الرَّابعَ عشرَ؛ لأنَّ هذا أكملُ ما يكونُ القمرُ إبدارًا، وامتلاءً بالنُّورِ، وهذا لا يلزمُ أن يكونوا مثلَه، لكنَّهم على صورتِه في البهجةِ والسَّناءِ والإضاءةِ، وما أشبه ذلك، ولا يلزمُ أن يكونوا مُماثلين له، وعلى هذا التَّقديرِ يزولُ الإشكالُ الذي حصَل عند كثيرٍ من النَّاسِ في قولِ النَّبيِّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»[1]، حيث ظنُّوا أنَّه إذا كان على صورتِه كان مماثلًا له، ونحن نقولُ: «عَلَى صُورَتِهِ»، ولا يلزمُ أن يكونَ مماثلًا له كما في هذا الحديثِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب بدء السلام، رقم (٥٨٧٣)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن ضرب الوجه، رقم (٢٦١٢).

٥٠٠٩- السَّـابِقُونَ هُـمُ وَقَـدْ كَـانُوا هُنَـا   أَيْضًـا أُولِي سَـبْقٍ إِلَى الإِحْسَـانِ

قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [الواقعة:١٠]، والصَّواب: أنَّ «**السَّابقون**» الثَّانية خبرٌ؛ يعني: السَّابقون في الدُّنيا هم السَّابقون في الآخرةِ.

فهؤلاء سبقوا في الدُّنيا إلى الإحسانِ، وعبدوا اللهَ كأنَّهم يَرَوْنَهُ، فسبقوا في الآخرةِ إلى جزاءِ هذا الإحسانِ، فكانوا أَوَّلَ زمرةٍ تدخلُ الجنَّةَ؛ لأنَّهم يُحْشَرونَ إلى الجنَّةِ زُمرًا كما قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر:٧٣].

* * *

فصــل

في صِفَةِ الزُّمْرَةِ الثَّانِيَةِ

٥٠١٠- وَالزُّمْرَةُ الأُخْرَى كَأَضْوَأِ كَوْكَبٍ ... فِي الأُفْقِ تَنْظُرُهُ بِهِ العَيْنَانِ

٥٠١١- أَمْشَاطُهُمْ ذَهَبٌ وَرَشْحُهُمُ فَمِسْـ ... ـكٌ خَالِصٌ يَا ذِلَّةَ الحِرْمَانِ

الشــرحُ

قَوْلُهُ: «أَمْشَاطُهُمْ ذَهَبٌ» اللهُ أكبرُ، أمشاطُهم ذهبٌ؛ ممَّا يدلُّ على أنَّ لهم شَعْرًا.

قَوْلُهُ: «وَرَشْحُهُمُ فَمِسْكٌ»؛ يعني: العَرَقُ الذي يخرجُ منهم مسكٌ أطيبُ ما يكونُ من الرَّائحةِ، بينما هو في الدُّنيا رائحتُه كريهةٌ مُنْتِنَةٌ، لكن هناك لا، رشحُهم مسكٌ خالصٌ.

قَوْلُهُ: «يَا ذِلَّةَ الحِرْمَانِ»؛ يعني: ما أذلَّ مَنْ حُرِمَ من هذا الخيرِ، اللَّهُمَّ لا تَحْرِمْنَا إيَّاه.

* * *

فصــل

في تفاضُلِ أهْلِ الجنَّةِ في الدَّرجَاتِ العُلَى

٥٠١٢- وَيَرَى الَّذِينَ بِـذَيْلِهَا مَـنْ فَـوْقَهُمْ   مِثْـلَ الكَوَاكِــبِ رُؤيَــةٌ بِعِيَــانِ

٥٠١٣- مَــا ذَاكَ مُخْتَصًّــا بِرُسْـلِ الله بَــلْ   لَـــهُمُ وَلِلْصِّـــدِّيقِ ذِي الإِيــمَانِ

الشــرحُ

لما حَدَّثَ النَّبيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أصحابَه بأنَّهم يَتَرَاءَوْنَ أَصْحَابَ الغُرَفِ كَما يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَ الغَابِرَ في الأُفُقِ -مِنْ بُعْدِهِ وَصَفَائِهِ وَنُورِهِ- قالُوا: يَا رَسُولَ الله تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ، قَالَ: «**بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِالله وَصَدَّقُوا الـمُرْسَلِينَ**»(١)، آمنَّا بالله وصَدَّقْنَا برسلِه، هؤلاء هم أصحابُ هذه الغرفِ، وعلى رأسِهم وأوَّلِـهم هم الأنبياءُ لا شكَّ؛ لأنَّ الأنبياءَ كُلَّهم آمنوا برسلِه، قال اللهُ تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥].

والأنبياءُ والسَّابقون لمحمَّدٍ ﷺ أُخِذَ عليهم العهدُ أنَّه إن بُعِثَ لَيُؤْمِنُنَّ به ولَيَنْصُرُنَّه، وأن يكونوا من جنودِه، فوافقوا على هذا، وأَعْطَوْا اللهَ العهدَ والميثاقَ على أنَّه إن بُعِثَ محمَّدٌ فهم تحت لوائِه ومن جنودِه، فكُلُّ الرُّسلِ آمَنَ بعضُهم ببعضٍ وصَدَّقَ بعضُهم بعضًا، فهم أعلى أهلِ هذه الغرفِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٠٨٣)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف، رقم (٢٨٣١).

فصــل

في ذِكْرِ أَعْلَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً وأَدْنَاهُمْ

٥٠١٤- هَــذَا وَأَعْلاهُــمْ فَنَــاظِرُ رَبِّــهِ ... في كُــلِّ يَــوْمٍ وَقْتَــهُ الطَّرَفَــانِ

٥٠١٥- لَكِــنَّ أَدْنَــاهُمْ وَمَــا فِــيهِمْ دَنِيْ ... يٌ لَيْسَ في الـجَنَّاتِ مِـنْ نُقْصَانِ

٥٠١٦- فَهُـوَ الَّـذِي تُلْفَـى مَسَـافَةُ مُلْكِـهِ ... بِسِنِينِــــنَا أَلْفَــــانِ كَامِلَتَــانِ

٥٠١٧- فَـيَرَى بِهَـا أَقْصَـاهُ حَقًّـا مِثْـلَ رُؤْ ... يَتِــهِ لِأَدْنَــاهُ القَرِيــبِ الــدَّانِي

٥٠١٨- أَوَمَـا سَـمِعْتَ بِـأَنَّ آخِـرَ أَهْلِهَـا ... يُعْطِيــهِ رَبُّ العَـرْشِ ذُو الغُفْـرَانِ

٥٠١٩- أَضْعَافَ دُنْيَانَا جَمِيعًـا عَشْــرَ أَمْــ ... ـثَالٍ لَــهَا سُبْحَانَ ذِي الإِحْسَانِ

الشـرحُ

٥٠١٤- هَــذَا وَأَعْلاهُــمْ فَنَــاظِرُ رَبِّــهِ ... في كُــلِّ يَــوْمٍ وَقْتَــهُ الطَّرَفَــانِ

أعلى أهلِ الجنَّةِ منزلةً هو: الذي ينظرُ إلى الله تعالى كُلَّ يومٍ في الصَّباح والمساءِ[1]، ولكن كيف هذا؟ قيل: إنَّ هذا نورٌ يسطعُ من العرشِ يتبيَّنُ به دخولُ النَّهارِ من دخولِ اللَّيلِ، فإذا صَحَّ هذا فالأمرُ واضحٌ، وإن لم يصحَّ فيكونُ حكمُه

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٣، رقم ٤٦٢٣)، وأبو يعلى (١٠/ ٩٦، رقم ٥٧٢٩)، والطبراني كما في مجمع الزوائد (١٠/ ٤٠١) قال الهيثمي: في أسانيدهم ثوير بن أبي فاختة وهو مجمع على ضعفه.

حكمَ الأمورِ الغيبيَّةِ التي عِلْمُهَا عند الله؛ المهمُّ أنَّه لا بُدَّ أن يكونَ هناك دليلٌ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢].

٥٠١٥- لَكِــنَّ أَدْنَــاهُمْ وَمَــا فِــيهِمْ دَنِيْ ... يٌ لَيْسَ فِي الـجَنَّاتِ مِـنْ نُقْصَـانِ

٥٠١٦- فَهُـوَ الَّـذِي تُلْفَـى مَسَـافَةُ مُلْكِـهِ ... بِسِــــنِينِنَا أَلْفَــــانِ كَامِلَتَــــانِ

٥٠١٧- فَـيَرَى بِهَـا أَقْصَـاهُ حَقًّـا مِثْـلَ رُؤْ ... يَتِــهِ لِأَدْنَــاهُ القَرِيــبِ الــدَّانِي

وأهلُ الجنَّةِ ليس فيهم دَنِيٌّ؛ لأنَّ الجنَّاتِ كُلَّها ليس فيها نقصٌ؛ بل «فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[1]، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزُّخرف:٧١]؛ يعني: مطعمًا ومنظرًا، فالنَّعيمُ من كُلِّ وجهٍ، إِذَنْ لا دَنِـيَّ فيها، فكُلُّ ما فيها عالٍ.

وأدناهم منزلةً -وليس فيهم دَنِيٌّ- هو الذي تكونُ مسافةُ مُلْكِه أَلْفَي عامٍ، يرى أقصاه كما يرى أدناه[2]، وهذا دليلٌ على كمالِ حياتِهم وقوَّتِهم؛ إذ إنَّ النَّاسَ في الدُّنيا لا تقوى أبصارُهم على هذا النَّظرِ، إِذَنْ البصرُ قويٌّ، وقوَّةُ كُلِّ البدنِ كاملةٌ من كُلِّ وجهٍ، والمكانُ متَّسعٌ، واللهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، لكن هو لكمالِ نعيمِه حتَّى يكونَ محيطًا بمُلْكِه يرى أقصاه كما يرى أدناه لا يختلفُ.

وفي الحقيقةِ: أمورُ الآخرةِ يَحَارُ فيها العقلُ، ولكنَّه لا يحيلُها؛ لأنَّ مَنْ قدر اللهَ حقَّ قدرِه وعَرفَ قدرةَ الله وعظمتَه لا يحيلُ هذا الشَّيءَ.

٥٠١٨- أَوَمَـا سَـمِعْتَ بِـأَنَّ آخِـرَ أَهْلِهَـا ... يُعْطِيـهِ رَبُّ العَـرْشِ ذُو الغُفْـرَانِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٠٧٢)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤).

(٢) تقدم تخريجه، وهو جزء من الحديث قبل السابق.

٥٠١٩- أَضْعَافَ دُنْيَانَا جَمِيعًا عَشْـرَ أَمْـ ـثَالٍ لَـهَا سُبْحَانَ ذِي الإِحْسَانِ

آخرُ أهلِ الجنَّةِ دخولًا هذا الذي يُعطيه اللهُ عزَّ وجلَّ مثلَ الدُّنيا وعشرةِ أمثالِ الدُّنيا، فالدُّنيا كُلُّها من أَوَّلِـها إلى يومِ القيامةِ يعطيه اللهُ عزَّ وجلَّ عشرةَ أمثالِـها، وأيضًا هذا النَّعيمُ ليس كنعيمِ الدُّنيا مُهَدَّدًا بالخطرِ والزَّوالِ والنَّقصِ، فهو نعيمٌ لا ينفدُ ولا يزولُ، فتجدُ الفرقَ العظيمَ.

المهمُّ أنَّنا نسألُ اللهَ -سبحانه وتعالى- أنْ يجعلَنا وإيَّاكم من أهلِ الجنَّةِ؛ لأنَّ نعيمَها نعيمٌ لا يعادلُه شيءٌ؛ ولهذا صَحَّ عن النَّبِيِّ -عَلَيه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أنَّه قال: «رَكْعَتَا الفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[1]، فسنَّةُ الفجرِ ركعتان خفيفتَانِ خيرٌ من الدُّنيا وما فيها، النَّاسُ الآن يذهبون يمينًا وشمالًا، وفي شدَّةِ الحرِّ، وفي شدَّة البردِ لينالوا شيئًا زهيدًا من الدُّنيا، وهاتان الرَّكعتان خيرٌ من الدُّنيا وما فيها، نسألُ اللهَ-سبحانه وتعالى- أن يُعينَنا وإيَّاكم على طاعتِهِ.

خلاصةُ هذا الفصلِ أنَّه ذكر ثلاثةَ أحكامٍ:

الأوَّل: حُكمُ أعلى أهلِ الجنَّةِ أنَّه ينظرُ إلى الله تعالى بكرةً وعشيَّةً، جعلنا اللهُ وإيَّاكم منهم.

الثَّاني: أدناهم مَنْ يرى مُلْكَه مسيرةَ ألفي عامٍ، يرى أقصاه كما يرى أدناه.

الثَّالث: أنَّ آخرَ أهلِ الجنَّةِ دخولًا مَنْ يُعطيه اللهُ تعالى مثلَ الدُّنيا وعشرةَ أمثالِـها.

* * *

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، والحث عليهما وتخفيفهما، والمحافظة عليهما، رقم (٧٢٥).

فصــل

في ذِكْرِ سِنِّ أَهْلِ الجَنَّةِ

٥٠٢٠- هَــذَا وَسِــنُّهُمُ ثَــلاثٌ مَــعْ ثَــلا ... ثِــينَ الَّتِــي هِــيَ قُــوَّةُ الشُّــبَّانِ

٥٠٢١- وَصَــغِيرُهُمْ وَكَبِــيرُهُمْ في ذَا عَــلَى ... حَــدٍّ سَــوَاءٍ مَــا سِــوَى الوِلْــدَانِ

٥٠٢٢- وَلَقَدْ رَوَى الـخُدْرِيُّ أَيْضًـا أَنَّهُـمْ ... أَبْنَــاءُ عَشْـــرٍ بَعْــدَهَا عَشْــرَانِ

٥٠٢٣- وَكِلاهُمَا في «التِّرْمِـذِيِّ» وَلَـيْسَ ذَا ... بِتَنَــاقُضٍ بَــلْ هَــا هُنَــا أَمْــرَانِ

٥٠٢٤- حَذْفُ الثَّلاثِ وَنَيِّفٍ بَعْـدَ العُقُـو ... دِ وَذِكْــرُ ذَلِــكَ عِنْــدَهُمْ سِــيَّانِ

٥٠٢٥- عِنْـدَ اتِّسَــاعٍ في الكَــلامِ فَعِنْـدَمَا ... يَــأْتُوا بِتَحْرِيــرٍ فَبِالــمِيزَانِ

الشــرحُ

٥٠٢٠- هَــذَا وَسِــنُّهُمُ ثَــلاثٌ مَــعْ ثَــلا ... ثِــينَ الَّتِــي هِــيَ قُــوَّةُ الشُّــبَّانِ

٥٠٢١- وَصَــغِيرُهُمْ وَكَبِــيرُهُمْ في ذَا عَــلَى ... حَــدٍّ سَــوَاءٍ مَــا سِــوَى الوِلْــدَانِ

ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- أنَّ سنَّهم أبناءُ ثلاثٍ وثلاثين سنةً، وأنَّ الصَّغيرَ والكبيرَ في هذا على حَدٍّ سواء؛ يعني: حتَّى مَنْ مَاتَ وله عشرون سنةً فإنَّه يكونُ ابنَ ثلاثٍ وثلاثين سنةً عند دخولِ الجنَّةِ، ومَنْ مَاتَ وله خمسون سنةً يكونُ ابنَ ثلاثٍ وثلاثين سنةً عند دخولِ الجنَّة وهي أعلى ما يكونُ من الشَّبابِ، ومع ذلك لا يتغيَّرون ولا يهرمون أبدًا ولا يضعفون، فهم دائمًا على هذه الحالِ إلى أبدِ

الآبدين، ويُسْتَثْنَى من ذلك: ولدانُ الجنَّةِ؛ ولذا قال: «**مَا سِوَى الوِلْدَانِ**»؛ أي: ولدان الجنَّةِ الذين هم الخدمُ، فالولدانُ الذين هم خَدَمُ الجنَّةِ ليسوا من المُكَلَّفين الذين يدخلونها بأعمالِهم، بل خُلِقُوا في الجنَّةِ للجنَّةِ، وهذا هو المُتبادَرُ من كلمة «**الولدان**» كما قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان:١٩].

٥٠٢٢- وَلَقَدْ رَوَى الـخُدْرِيُّ أَيْضًـا أَنَّهُـمْ ... أَبْنَـاءُ عَشْـرٍ بَعْـدَهَا عَشْـرَانِ

٥٠٢٣- وَكِلاهُمَا فِي «التِّرْمِذِيِّ» وَلَـيْسَ ذَا ... بِتَنَـاقُضٍ بَـلْ هَـا هُنَـا أَمْـرَانِ

٥٠٢٤- حَذْفُ الثَّلاثِ وَنَيِّفٍ بَعْـدَ العُقُـو ... دِ وَذِكْـرُ ذَلِـكَ عِنْـدَهُمْ سِـيَّانِ

٥٠٢٥- عِنْـدَ اتِّسَـاعٍ فِي الكَـلامِ فَعِنْـدَمَا ... يَـأْتُوا بِتَحْرِيـرٍ فَبِالـمِيزَانِ

ولقد روى أبو سعيدٍ الـخُدريُّ أنَّ أهلَ الـجنَّةِ يدخلونها أبناءَ عشرٍ وعشرين(١)؛ أي: أبناءُ ثلاثين، وهذا لا يناقضُ ما سَبَقَ من أنَّهم يدخلونها وهم أبناءُ ثلاثٍ وثلاثينٍ(٢)؛ وذلك لأنَّ العربَ قد يُسْقِطُونَ ما زاد على العقودِ؛ يعني: ما زَادَ مثلًا على العشرةِ أو على العشرينِ أو على الثَّلاثين قد يحذفونه؛ مثل: «**نَيِّف**»؛ والنَّيِّفُ من ثلاثةٍ إلى تسعةٍ، وثلاثةٍ أيضًا، مع أنَّ المرادَ ما زاد، فيكونُ الذين اقتصروا في الرِّوايةِ على الثَّلاثين حذفوا ما زاد عليها، ونحن نقولُ الآن: «**فلانٌ عمرُه بالثَّلاثين**»؛

---

(١) يعني قوله ﷺ: «مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِ الـجَنَّةِ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ يُرَدُّونَ بَنِي ثَلَاثِينَ فِي الـجَنَّةِ لَا يَزِيدُونَ عَلَيْهَا أَبَدًا، وَكَذَلِكَ أَهْلُ النَّارِ». أخرجه الترمذي: كتاب صفة الجنة، باب ما جاء ما لأدنى أهل الجنة من الكرامة، رقم (٢٥٦٢).

(٢) يعني حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يَدْخُلُ أَهْلُ الـجَنَّةِ الْـجَنَّةَ جُرْدًا مُرْدًا بِيضًا جِعَادًا مُكَحَّلِينَ، أَبْنَاءَ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ، عَلَى خَلْقِ آدَمَ، سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي عَرْضِ سَبْعِ أَذْرُعٍ». أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٣)، رقم ٢٢١٥٩).

يعني: من واحدٍ وثلاثين إلى تسعةٍ وثلاثين، فكُلُّ هذا داخلٌ في قولِنا: «بالثَّلاثين»، لكنَّهم إذا أرادوا التَّحريرَ ذكروا العددَ الزَّائدَ على العقودِ؛ إِذَنْ لا تناقضَ بين الرِّوايتَيْنِ؛ أي: رواية الثَّلاثين، ورواية: ثلاثٍ وثلاثين.

ولله دَرُّ ابنِ القيمِّ رحمه الله؛ لأنَّه جَمَعَ هذا الجمعَ، والعبدُ إذا فَتَحَ اللهُ عليه يَسَّرَ له الجَمعَ بينها ظاهرُه التَّناقضُ.

لكنَّنا نُنَبِّهُ إلى أنَّ كثيرًا من النَّاسِ يأتي بالنُّصوصِ المشكلةِ، يُحِبُّ أن يُغْرِبَ في المقالِ، فتجدُه يذكرُ التَّعارضَ في أشياءَ ليس بينها تعارضٌ؛ ليُغْرِبَ ويقالَ: ما شاء اللهُ، ما أَوْسَعَ علمَه! لكن مَنْ أراد الحقَّ وعَلِمَ أنَّ الكُلَّ حقٌّ سَهُلَ عليه الجمعُ بكُلِّ سهولةٍ، بينما الآخرُ يُغَطَّى عنه الجمعُ والعياذُ بالله؛ لأنَّه يريدُ أن يأتيَ بالمتناقضاتِ، وإذا شِئتم هذا راجعوا مناظرةَ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا لنافعِ بن الأزرقِ في آياتٍ من القرآنِ كثيرة، ذكرها السُّيوطيُّ في كتابه: «الإتقان»[1] تجد أنَّ الإنسانَ الذي يريدُ أن يجمعَ بين كلامِ الله وبين كلام رسولِه يسهلُ عليه الجمعُ ولا يرى التَّناقضَ، وأمَّا الإنسانُ الذي ليس له هَمٌّ إلَّا أن يأتيَ بالأحاديثِ التي بينها تعارضٌ ويقولُ: ما الجمعُ بين كذا وكذا؟ فهذا لا يسهلُ عليه الجمعُ.

وفرقٌ بين مَنْ يأتي بالأحاديثِ لِيُثْبِتَ التَّعارضَ بينها على زعمِه، وشخصٍ يريدُ الجمعَ بين الأحاديثِ، تجدُ الثَّاني يُوَفَّقُ للجمعِ ولا يرى التَّعارضَ، فعليك بهذا، عليك بهذا، واعلم أنَّه إذا صَحَّ الحديثُ عن الرسولِ ﷺ فإنَّه لا يتناقضُ، وكذلك أيضًا لا يناقضُ كلامَ الله عزَّ وجلَّ، ولا تناقضَ في كلام الله أيضًا، عَوِّد نفسَك هذا المسلكَ حتَّى تسلمَ من شُبهاتٍ كثيرةٍ تَرِدُ على بعضِ النَّاسِ.

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (٢/ ٦٧).

فصـــل

في طُولِ قَامَاتِ أَهْلِ الجَنَّةِ وعَرْضِهِمْ

٥٠٢٦- وَالطُّـولُ طُـولُ أَبِـيهِمُ سِـتُّونَ لَــ ـكِنْ عَرْضُهُمْ سَـبْعٌ بِـلا نُقْصَـانِ

٥٠٢٧- الطُّولُ صَحَّ بِغَيْرِ شَكٍّ في «الصَّحِيـ ـحَيْنِ» اللَّـذَيْنِ هُمَـا لَنَـا شَمْسَـانِ

٥٠٢٨- وَالعَرْضُ لَـمْ نَعْرِفْـهُ في إِحْـدَاهُمَا لَكِـــنْ رَوَاهُ أَحْمَـــدُ الشَّـــيْبَانِي

٥٠٢٩- هَذَا وَلا يَخْفَـى التَّنَاسُـبُ بَـيْنَ هَــ ـذَا العَرْضِ وَالطُّولِ البَدِيعِ الشَّانِ

٥٠٣٠- كُــلٌّ عَــلَى مِقْــدَارِ صَــاحِبِهِ وَذَا تَقْــدِيرُ مُــتْقِنِ صَــنْعَةِ الإِنْسَــانِ

الشـرحُ

٥٠٢٦- وَالطُّـولُ طُـولُ أَبِـيهِمُ سِـتُّونَ لَــ ـكِنْ عَرْضُهُمْ سَـبْعٌ بِـلا نُقْصَـانِ

ذكر المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- هنا طولَ أهلِ الجنَّةِ وعرضَهم فقال: الطُّولُ: ستُّون ذراعًا في السَّماءِ، والعَرْضُ: سبعةُ أذرعٍ، حتَّى مَنْ مَاتَ صغيرَ الجِسمِ فإنَّه يبلغُ هذا، وحتَّى مَنْ مَاتَ كبيرَ الجسمِ بالنِّسبةِ لما نشاهدُ يبلغُ هذا أيضًا؛ لأنَّ اللهَ يُنْشِئُهم نشأةً أخرى تُناسِبُ الأحوالَ.

٥٠٢٧- الطُّولُ صَحَّ بِغَيْرِ شَكٍّ في «الصَّحِيـ ـحَيْنِ» اللَّـذَيْنِ هُمَـا لَنَـا شَمْسَـانِ

٥٠٢٨- وَالعَرْضُ لَـمْ نَعْرِفْـهُ في إِحْـدَاهُمَا لَكِـــنْ رَوَاهُ أَحْمَـــدُ الشَّـــيْبَانِي

٥٠٢٩- هَذَا وَلا يَخْفَى التَّنَاسُبُ بَيْنَ هَـ ـذَا العَرْضِ وَالطُّولِ البَدِيعِ الشَّانِ

٥٠٣٠- كُلٌّ عَلَى مِقْدَارِ صَاحِبِهِ وَذَا تَقْدِيرُ مُتْقِنِ صَنْعَةِ الإِنْسَانِ

ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحمه الله- أنَّ السِّتِّين في الطُّولِ ثابتةٌ في الصَّحِيحَيْنِ[1]، وأمَّا العَرْضُ فليس في الصَّحيحَيْنِ ولا في أحدِهما، لكن رواه الإمامُ أحمدُ[2] رحمه اللهُ، وذكر المؤلِّفُ تقويةً لهذا الحديثِ أنَّ السَّبعةَ في العَرْضِ تُنَاسِبُ الطُّولَ؛ لأنَّ الطُّولَ ستِّين ذراعًا لو كان على حسَبِ العرضِ الذي نعرفُه الآن لم يتناسبْ، لكنَّه يتناسبُ مع العَرْضِ «سبعة أذرعٍ».

لكن كم تكونُ نسبةُ السَّبعةِ إلى السِّتِّين؟

الجوابُ: تكونُ العُشْرَ وسُدُسَ العُشْرِ، وهذا متناسبٌ مع الطُّولِ، وهذه نعمةٌ عظيمةٌ.

فإذا قال قائلٌ: هل هذا التَّناسبُ محمودٌ أو لا؟

فالجوابُ: نعم، مألوفٌ ومحمودٌ، نحن الآن بهذه الأجسادِ، أرأيتم لو جعلنا اللهُ تعالى في طولِ الأرنبِ مثلًا هل نستنكرُ هذا أم لا؟ الجوابُ: لا نستنكرُ؛ لأنَّ النَّاسَ كُلَّهم على هذا الطُّولِ، ولو كان الواحدُ منَّا طولَ البعيرِ مرَّتين لا نستنكرُ هذا أيضًا؛ لأنَّنا جميعًا على حدٍّ سواء، فأهلُ الجنَّةِ لا يستنكرُ بعضُهم على بعضٍ؛ لأنَّهم جميعًا على حَدٍّ سواءٍ، بينما لو وجدنا أحدًا طويلًا ولو نصفَ هذا الطُّولِ لاستغرَبْنا هذا كثيرًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته، رقم (٣١٤٨)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب يدخل الجنة أقوام، رقم (٢٨٤١).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣١، رقم ٧١٦٥).

فإذا قال قائلٌ: ما الحكمةُ في أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- يجعلُ أهلَ الجنَّةِ بهذا؟

قلنا: الحكمةُ من أجلِ أنْ يتنعَّموا أكثرَ بالمآكلِ والمشاربِ؛ لأنَّه من المعروفِ في الدُّنيا أنَّ الصِّغارَ لا يأكلون أكلَ الكبارِ، فإذا كبر الجسمُ امتلأ أكثرَ، وتعرفون أنَّ أهلَ الجنَّةِ يأكلون، وكُلُّ أكلِهم وشربِهم يذهبُ رشحًا «عرقًا» كريحِ المسكِ، اللَّهُمَّ اجعلنا منهم.

***

فصــل

في لِحَاهُمْ وأَلْوَانِهِمْ

٥٠٣١- أَلْوَانُهُمْ بِيضٌ وَلَيْسَ لَـهُمْ لِـحًى جَعْدُ الشُّعُورِ مُكَحَّلُو الأَجْفَانِ

٥٠٣٢- هَـذَا كَمَالُ الحُسْنِ فِي أَبْشَارِهِمْ وَشُعُورُهُمْ وَكَـذَلِكَ العَيْنَانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلٌ فِي لِحَاهُمْ وَأَلْوَانِهِمْ»، وفي نسخةٍ: «فَصْلٌ فِي حُلَاهُمْ وَأَلْوَانِهِمْ»، والظَّاهرُ أنَّ الصَّوابَ النُّسخةُ الأولى «لِحَاهُمْ»؛ لأنَّه لم يذكر الحُلَى، إلَّا إن كان من ذِكْرِه الكحلَ، وهذا اختلافٌ بسيطٌ.

قَوْلُهُ: «أَلْوَانُهُمْ بِيضٌ وَلَيْسَ لَهُمْ لِحًى»؛ يعني: ليس لهم شعرٌ في لحاهم.

قَوْلُهُ: «جُعْدُ الشُّعُورِ»؛ يعني: شعورَ الرَّأسِ، والجعدُ ضدُّه المسترسلُ.

والجعدُ محمودٌ عند الناسِ؛ لأنَّه يدلُّ على قوَّةِ الشَّعرِ، وأمَّا الأجفانُ فهي مكحولةٌ؛ يعني: من أحسنِ ما يكونُ.

* * *

فصـــل

في لِسَانِ أَهْلِ الجَنَّةِ

٥٠٣٣- وَلَقَـدْ أَتَـى أَثَـرٌ بِـأَنَّ لِسَـانَهُمْ بِالْـمَنْطِقِ العَـرَبِيِّ خَـيْرِ لِسَـانِ

٥٠٣٤- لَكِـنَّ فِي إِسْـنَادِهِ نَظَـرًا فَفِيـ ـهِ رَاوِيَـانِ وَمَـا هُمَـا ثَبْتَـانِ

٥٠٣٥- أَعْنِي العَلاءَ هُوَ ابْنُ عَمْرٍو ثُمَّ يَحْـ ـيَى الأَشْـعَرِيَّ وَذَانِ مَغْمُـوزَانِ

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «وَلَقَدْ أَتَى أَثَرٌ بِأَنَّ لِسَانَهُمْ بِالْـمَنْطِقِ العَرَبِيِّ... لَكِنَّ فِي إِسْنَادِهِ نَظَرًا» ولا يبعدُ أن يكونَ الحديثُ من حيث النَّظرُ صوابًا، وبذلك يكونُ لسانُهم هو اللِّسانَ العربيَّ؛ وذلك لأنَّ أفضلَ الكتبِ باللغةِ العربيَّةِ، ولأنَّ أتباعَ النَّبيِّ ﷺ أكثرُ أهلِ الجنَّةِ، وإن كان في أتباعِ النَّبيِّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- مَنْ ليس بعربيٍّ، لكن الواجبُ على غيرِ العربيِّ من أتباعِ النَّبِيِّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أن يعرفَ العربيَّةَ؛ لأنَّه لابُدَّ أن يعرفَ معنى القرآنِ والسُّنَّةِ، وهذا لا يتأتَّى إلَّا بمعرفةِ اللُّغةِ العربيَّةِ.

وعلى كُلِّ حالٍ: أمورُ الغيبِ لا يمكنُ أن تُقَالَ بالنَّظرِ والقياسِ.

قَوْلُهُ: «مَغْمُوزَانِ»؛ أي: مَعِيبان عند علماءِ الحديثِ.

* * *

فصـــل

في رِيحِ أَهْلِ الجَنَّةِ مِنْ مَسِيرَةِ كَمْ يُوجَدُ

٥٠٣٦- وَالرِّيحُ تُوجَدُ مِنْ مَسِـيرَةِ أَرْبَعِيـ ـنَ وَإِنْ تَشَـأْ مِئَـةً فَمَرْوِيَّـانِ

٥٠٣٧- وَكَذَا رَوَى سَبْعِينَ أَيْضًا صَحَّ هَـ ـذَا كُلُّـهُ وَأَتَـى بِـهِ أَثَـرَانِ

٥٠٣٨- مَـا فِي رِجَالِـهِمَا لَنَـا مِـنْ مَطْعَـنٍ وَالـجَمْعُ بَيْنَ الكُـلِّ ذُو إِمْكَـانِ

٥٠٣٩- وَلَقَـدْ أَتَـى تَقْـدِيرُهُ مِئَـةً بِخَمْـ ـسٍ ضَرْبُهَا مِـنْ غَـيْرِ مَا نُقْصَانِ

٥٠٤٠- إِنْ صَحَّ هَـذَا فَهْـوَ أَيْضًـا وَالَّـذِي مِـنْ قَبْلِـهِ فِي غَايَـةِ الإِمْكَـانِ

٥٠٤١- إِمَّـا بِحَسْـبِ الـمُدْرِكِينَ لِرِيحِهَـا قُرْبًـا وَبُعْـدًا مَـا هُمَـا سِـيَّانِ

٥٠٤٢- أَوْ بِـاخْتِلافِ قَرَارِهَـا وَعُلُوِّهَـا أَيْضًـا وَذَلِـكَ وَاضِـحُ التِّبْيَـانِ

٥٠٤٣- أَوْ بِاخْتِلافِ السَّيْرِ أَيْضًا فَهْـوَ أَنْـ ـوَاعٌ بِقَـدْرِ إِطَاقَـةِ الإِنْسَـانِ

٥٠٤٤- مَـا بَيْنَ أَلْفَـاظِ الرَّسُـولِ تَنَـاقُضٌ بَـلْ ذَاكَ فِي الأَفْهَـامِ وَالأَذْهَـانِ

الشـرحُ

ذَكَرَ -رحمه اللهُ- أنَّ ريحَ الجنَّةِ يُوجَدُ من مسيرةِ أربعين(١) عامًا، وفي أثرٍ ثانٍ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجزية، باب إِثْمِ مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا بِغَيْرِ جُرْمٍ، رقم (٢٩٩٥).

من مسيرةِ سبعين[١] عامًا، وفي أثرٍ ثالثٍ من مسيرةِ مئةِ[٢] عامٍ، وفي أثرٍ رابعٍ من مسيرةِ خمسِمئةِ[٣] عامٍ، وإذا نَظَرْتَ الفرقَ بين أربعين عامًا وخمسِمئة عامٍ وَجَدْتَهُ شاسعًا، لكن الخمسمئة غَمَزَهُ ابنُ القيِّمِ رحمه الله، فيبقى النَّظرُ بين الأربعين والسَّبعين والمئة، يقولُ رحمه اللهُ: ليس فيها تناقضٌ، وحمل ذلك على أوجهٍ ثلاثةٍ:

الأوَّل: «**إِمَّا بِحَسْبِ الْمُدْرِكِينَ لِرِيحِهَا**»؛ أي: باختلافِ المُدْرِكِينَ لريحِها؛ لأنَّ النَّاسَ يختلفون في إدراكِ الرِّيحِ، فتجدُ بعضَ النَّاسِ يمشي من عند البيتِ، ويقولُ: أهلُ هذا البيتِ يطبخون كذا وكذا، وهذا واقعٌ، والثَّاني: يجعلُ أنفَه في كُوَّةِ البابِ ولا يشمُّ، وهذا فرقٌ، فيكونُ التَّقديرُ الأكثرُ بالنِّسبة لِـمَنْ شمُّه ضعيفٌ، والتَّقديرُ الأدنى بالنِّسبة لِـمَنْ شمُّه قويٌّ.

الثَّاني: «**أَوْ بِاخْتِلَافِ قَرَارِهَا وَعُلُوِّهَا أَيْضًا**» باختلافِ قَرارِها وعلوِّها، ومعلومٌ أنَّ الجنَّةَ درجاتٌ، وإذا كانت درجاتٍ فلابُدَّ أن تختلفَ في الرَّائحةِ، وكُلَّما كانت الرَّائحةُ أطيبَ كان شَمُّها من بعيدٍ أقربَ، فهذا إنسانٌ مثلًا مُتَطَيِّبٌ بطيبٍ باردٍ، وآخرُ متطيِّبٌ بطيبٍ حارٍّ، المتطيِّبُ بطيبٍ حارٍّ يُشَمُّ من بعيدٍ، والثَّاني لا يُشَمُّ إلَّا من قريبٍ.

الثَّالث: «**أَوْ بِاخْتِلَافِ السَّيْرِ**» السَّيرُ يختلفُ أيضًا، رُبَّ مسيرةِ مئةِ عامٍ تكونُ لشخصٍ آخرَ سبعين عامًا، أو أربعين عامًا، فالسَّيرُ يختلفُ.

والآن نحن نشاهدُ هذا؛ فالطَّائرةُ من القصيمِ إلى جدَّةَ تبلغُها في ساعةٍ تقريبًا،

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الديات، باب ما جاء فيمن يقتل نفسًا معاهدة، رقم (١٤٠٣)، والنسائي: كتاب القسامة، باب تعظيم قتل المعاهد، رقم (٤٧٤٩)، وابن ماجه: كتاب الديات، باب من قتل معاهدا، رقم (٢٦٨٧).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٧١، رقم ١١٦٩٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه: كتاب الحدود، باب من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه، رقم (٢٦١١).

بينما هي على الرَّواحلِ أكثر من عشرين يومًا، وإذا ضَرَبْتَ عشرين يومًا في أربعةٍ وعشرين ساعةً تبلغُ أربعَمئةٍ وثمانين، فالآن ساعةٌ تقابلُ خمسَمئةِ ساعةٍ إلَّا عشرين، هذا اختلافُ السَّيرِ، وهذا على كُلِّ حالٍ أضعفُها.

وهذه الوجوهُ الثَّلاثةُ التي ذكرها ابنُ القيِّمِ كُلُّها محتملةٌ.

ومثلُ ذلك أيضًا: سفرُ المرأةِ بلا مَحْرَمٍ حيث جاء مُقَيَّدًا بثلاثةِ أيَّامٍ[1]، ومُقَيَّدًا بيومٍ وليلةٍ[2]، وجاء مطلقًا[3]، كيف الجمعُ؟ نقولُ: الجمعُ أنَّه خاطَبَ مَنْ يقولُ: هل تسافرُ المرأةُ يومًا وليلةً بلا مَحْرَمٍ؟ فقال: لا تُسَافِرِ المرأةُ يومًا وليلةً بلا مَحْرَمٍ، وسأله آخرُ: هل تسافرُ ثلاثةَ أيَّامٍ بلا مَحْرَمٍ؟ فقال: لا تسافرْ ثلاثةَ أيَّامٍ بلا مَحْرَمٍ، ثُمَّ جاء القولُ المُطْلَقُ الذي ليس مَبْنِيًّا على سؤالٍ حين خَطَبَ النَّاسَ يومَ الجمعةِ في المدينةِ قُبَيْلَ الحجِّ، فقال: «لَا تُسَافِرْ امْرَأَةٌ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ»[4]، وأَطْلَق.

وأهمُّ شيءٍ أن نعلمَ أنَّه لا تناقضَ بين أقوالِ الرَّسولِ ﷺ، وإنَّما التَّناقضُ الذي يُظَنُّ يكونُ بحسَب الأَفْهَامِ؛ إذ يكونُ فَهْمُ بعضِ النَّاسِ ضعيفًا فَيَظُنُّ التَّناقضَ، وليس كذلك.

وإذا كان الإنسانُ يريدُ الوصولَ إلى الحقِّ يَسَّرَ اللهُ له الوصولَ إليه، أمَّا الذي يريدُ أن يُوقِعَ التَّعارضَ بين النُّصوصِ، أو يريدُ التَّشكيكَ فيها سواء عن قصدٍ أم

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تقصير الصلاة، باب: في كم يقصر الصلاة، رقم (١٠٣٦)، ومسلم: كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره، رقم (١٣٣٨).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الرضاع، باب ما جاء في كراهية أن تسافر المرأة وحدها، رقم (١١٧٠).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب حج النساء، رقم (١٧٦٣)، ومسلم: كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره، رقم (١٣٤١).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب حج النساء، رقم (١٧٦٣)، ومسلم: كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره، رقم (١٣٤١).

عن غيرِ قصدٍ، فهذا يصعبُ عليه أن يجمعَ.

المهمُّ أنَّه يجبُ أن نحاولَ الجمعَ بين النُّصوصِ الواردةِ بقدرِ الإمكانِ؛ لأنَّا نعلمُ أنَّ الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- لا ينطقُ عن الهوى.

فعليك بهذا الأصلِ، واعلم أنَّه لا تناقضَ، وحاول الجمعَ بقدرِ الإمكانِ حتَّى تَسْلَمَ من الشُّبهاتِ والشُّكوكِ، وإيَّاك أن تُطْلِعَ أحدًا على شكِّك إذا لم تعرف الحلَّ، وهذه مسألةٌ يفعلُها بعضُ النَّاسِ؛ يأتي إلى طالبٍ مثلِه لا يَتَخَرَّجُ من الإشكالاتِ، فَيَعْرِضُ عليه الإشكالَ، معنى ذلك أنَّه زَادَ الطِّينَ بِلَّةً؛ لأنَّه شَكَّ وأَوْصَلَ الشَّكَّ إلى غيرِه، ثُمَّ الثَّاني يقولُ: والله فلانٌ سألني يريدُ الجمعَ بين النُّصوصِ بين كذا وكذا، فيزيد، وهَلُمَّ جرًّا، فإذا كَنتَ لا تعرفُ كيف تتخلَّصُ من الغَرَقِ لا تُغْرِقْ غيرَك، بل اتركها في نفسِك حتَّى يُقَيِّضَ اللهُ لك إمَّا فهمًا تصلُ إلى المرادِ، وإمَّا أن تسألَ عالمًا، وإمَّا أن تُطالعَ كتبَ أهلِ العلمِ، وهذه أيضًا افهموها، فهذه تنفعُ الطَّالبَ، فلا تُوقِع إخوانَك في الشَّكِّ إذا شَكَكْتَ في الأمرِ؛ لأنَّك تُوصِلُ الشَّكَّ إلى واحدٍ وثانٍ وثالثٍ، وهذه المسألةُ ليست هيِّنةً، بل هي مسألةٌ خطيرةٌ، وإذا وَقَعَ في القلبِ هذا المنهجُ فهو على خطرٍ عظيمٍ، ورُبَّما يصلُ إلى أن يُنْكِرَ الأشياءَ الواضحةَ.

وهذا الكلامُ ليس على الشُّبهاتِ التي توضيحُها مُبَيَّنٌ، وكذلك مثلًا: «**تأويل الحديث**»؛ لابن قتيبةَ وغيرِه، فهذا مذكورٌ فيه الحلُّ، بل كلامُنا هذا على واحدٍ وَقَعَ الشَّكُّ في قلبِه ولم يعرف الحلَّ، أمَّا إذا وَقَعَ الشَّكُّ في قلبِه وعرف حلَّه عن طريقِ العلماءِ أو عن طريقِ الكتبِ وهو يخشى أنَّ كثيرًا من النَّاسِ مثلُه، فهذا لا بأسَ أن يَعْرِضَه ويُبيِّنَ الحلَّ.

فصـــل

في أَسْبَقِ النَّاسِ دُخُولاً إِلَى الجَنَّةِ

٥٠٤٥- وَنَظِيرُ هَذَا سَبْقُ أَهْلِ الفَقْرِ لِلْـ ـــجَنَّاتِ في تَقْــدِيرِهِ أَثَــرَانِ

٥٠٤٦- مِئَـةٌ بِخَمْــسٍ ضَرْبُهَـا أَوْ أَرْبَعِيــ ـــنَ كِلاهُمَــا في ذَاكَ مَحْفُوظَــانِ

٥٠٤٧- فَـأَبُو هُرَيْـرَةَ قَـدْ رَوَى أُولاهُمَـا وَرَوَى لَنَـا الثَّـانِي صَـحَابِيَّانِ

٥٠٤٨- هَذَا بِحَسْبِ تَفَاوُتِ الفُقَرَاءِ في اسْـ ـــتِحْقَاقِ سَـبْقِهِمُ إِلَى الإِحْسَـانِ

٥٠٤٩- أَوْ ذَا بِحَسْـبِ تَفَـاوُتٍ في الأَغْنِيَـا ءِ كِلاهُمَــا لا شَــكَّ مَوْجُــودَانِ

الشـرحُ

ذكر المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- أيضًا أنَّ أَوَّلَ النَّاسِ دُخولًا الجنَّةَ الفقراءُ قبل الأغنياءِ إمَّا بخمسِمئةِ عام(١)، وإمَّا بأربعين(٢) عامًا، وهذا أيضًا من جنسِ خِلافِ ما سبق في رائحةِ الجنَّةِ، والفرقُ كبيرٌ جدًّا، فكيف الجمعُ؟

ذَكَرَ -رحمه اللهُ- الجمعَ من أحد وجهين: إمَّا بحسبِ الفقراءِ وأنَّ بعضَهم أشدُّ من الآخرِ، فيُنْظَرُ إلى أشدِّهم فقرًا بالنِّسبةِ إلى الأغنياءِ، ويكونُ ما بعد

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم، رقم (٢٣٥٣) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب منزلة الفقراء، رقم (٤١٢٢).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى: كتاب العلم، باب إجلال السائل المسئول، رقم (٥٨٤٥).

الخمسِمئةِ حسَب الفقرِ، أو بالعكس؛ يعني: أنَّ الفقراءَ يسبقون الأغنياءَ، وأنَّ الأغنياءَ يختلفون، فبعضُ الأغنياءِ قريبٌ من الفقراءِ، فتكونُ المسافةُ قصيرة؛ أربعين، وبعضُهم بعيدٌ فتكون المسافةُ خمسَمئةٍ.

وهذا ليس فيه هضمٌ لحقوقِ الأغنياءِ مِثْلَما أنَّهم في الدَّرجاتِ يختلفون اختلافًا عظيمًا، ومع ذلك لا يَرَى أحدُهم أنَّ غيرَه أفضلُ منه، وهذا أيضًا لا يقتضي أنَّ الفقراءَ أفضلُ من الأغنياءِ؛ لأنَّ سبقَهم لدخولِ الجنَّةِ بسببِ ما حُرِمُوا من النَّعيمِ في الدُّنيا، فإنَّهم ذاقوا البُؤسَ والتَّعبَ والجوعَ والعطَش، والغالبُ أنَّ الفقراءَ أقربُ إلى الإيمانِ من الأغنياءِ، وقد يكونُ أقلَّ منزلةٍ من الغنيِّ؛ فقد يكونُ الغنيُّ إذا دَخَلَ فوقه بمراحلَ.

المهمُّ: أنَّ هذا الاختلافَ إمَّا بحسَبِ تفاوتِ الفقراءِ أو بحسَبِ تفاوتٍ في الأغنياءِ، وهذا بعد أنْ يصحَّ الحديثان وتكونَ مرتبتُهما واحدةً، وإلَّا فيُقَدَّمُ ما هو أرجحُ؛ لأنَّ المعروفَ أنَّه إذا تَعذَّرَ الجمعُ رجعنا إلى التَّرجيحِ، وإذا أمكن فلا حاجةَ.

* * *

٥٠٥٠- هَذَا وَأَوَّلُــهُمْ دُخُــولًا خَــيْرُ خَلْــ ... ــقِ اللهِ مَــنْ قَــدْ خُــصَّ بِــالقُرْآنِ

٥٠٥١- وَالأَنْبِيَاءُ عَــلَى مَـرَاتِبِهِمْ مِـنَ التْـ ... ـتَفْضِيلِ تِلْـكَ مَوَاهِـبُ الــمَنَّانِ

٥٠٥٢- هَــذَا وَأُمَّــةُ أَحْمَــدٍ سَــبَّاقُ بَــا ... قِي الـخَلْقِ عِنْدَ دُخُولِـهِمْ لِـجِنَانِ

٥٠٥٣- وَأَحَقُّهُمْ بِالسَّبْقِ أَسْـبَقُهُمْ إِلَى الْـ ... إِسْــلامِ وَالإِيــمَانِ بِــالقُرْآنِ

٥٠٥٤- وَلِذَا أَبُو بَكْـرٍ هُـوَ الصِّـدِّيقُ أَسْــ ... ـبَقُهُمْ دُخُـولًا قَـوْلُ ذِي البُرْهَـانِ

٥٠٥٥- وَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ أَنَّ أَوَّلَــهُمْ يُصَـا ... فِحُـهُ إِلَـهُ العَـرْشِ ذُو الإِحْسَـانِ

٥٠٥٦- وَيَكُونُ أَوَّلَــهُمْ دُخُـولًا جَنَّـةَ الْـ ... ـفِرْدَوْسِ ذَلِـكَ قَـامِعُ الكُفْـرَانِ

٥٠٥٧- فَـارُوقُ دِيـنِ الله نَـاصِرُ قَوْلِــهِ ... وَرَسُــولِهِ وَشَرَائِــعِ الإِيــمَانِ

٥٠٥٨- لَكِنَّــهُ أَثَــرٌ ضَـعِيفٌ فِيــهِ مُجْــ ... ــرُوحٌ يُسَــمَّى خَالِــدًا بِبَيَــانِ

٥٠٥٩- لَوْ صَحَّ كَانَ عُمُومُهُ المَخْصُوصُ بِالصِّـ ... ـصِدِيقِ قَطْعًـا غَـيْرَ ذِي نُكْـرَانِ

الشـرحُ

٥٠٥٠- هَذَا وَأَوَّلُــهُمْ دُخُـولًا خَـيْرُ خَلْــ ... ــقِ الله مَـنْ قَـدْ خُـصَّ بِـالقُرْآنِ

٥٠٥١- وَالأَنْبِيَاءُ عَـلَى مَـرَاتِبِهِمْ مِـنَ التْــ ... ــتَفْضِيلِ تِلْـكَ مَوَاهِـبُ الـمَنَّانِ

٥٠٥٢- هَــذَا وَأُمَّــةُ أَحْمَــدٍ سَــبَّاقُ بَــا ... قِي الـخَلْقِ عِنْدَ دُخُولِـهِمْ لِـجِنَانِ

٥٠٥٣- وَأَحَقُّهُمْ بِالسَّبْقِ أَسْبَقُهُمْ إِلَى الْــ ... إِسْــلَامِ وَالإِيــمَانِ بِــالقُرْآنِ

٥٠٥٤- وَلِذَا أَبُو بَكْـرٍ هُـوَ الصِّـدِّيقُ أَسْــ ... ـبَقُهُمْ دُخُـولًا قَـوْلُ ذِي البُرْهَـانِ

قَوْلُهُ: «أَوَّلُـهُمْ دُخُولًا خَيْرُ خَلْقِ الله»؛ أي: محمَّدٌ رسولُ صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ: «أَحَقُّهُمْ بِالسَّبْقِ أَسْبَقُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ»، وهذا يحتاجُ إلى دليلٍ، لو قال: «أَسْبَقُهُمْ فِي الإِسْلَامِ» فلا بأسَ؛ فمثلًا: عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هو أفضلُ هذه الأُمَّةِ بعد أبي بكرٍ، ومع ذلك ليس أسبقهم إلى الإسلام، فإن وُجِدَ دليلٌ في هذه المسألةِ بخصوصِها فعلينا اتِّباعُ الدَّليلِ، وإلَّا فينبغي أن يُقَالَ: «أَسْبَقُهُمْ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ أَفْضَلُهُمْ».

قَوْلُهُ: «أَبُو بَكْرٍ هُوَ الصِّدِّيقُ أَسْبَقُهُمْ دُخُولًا»؛ يعني: أنَّ أوَّلَ النَّاسِ دخولًا من هذه الأُمَّةِ أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥٠٥٥- وَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ أَنَّ أَوَّلَهُمْ يُصَا فِحُهُ إِلَهُ العَرْشِ ذُو الإِحْسَانِ

٥٠٥٦- وَيَكُونُ أَوَّلَهُمْ دُخُولًا جَنَّةَ الْـ ـفِرْدَوْسِ ذَلِكَ قَامِعُ الكُفْرَانِ

٥٠٥٧- فَارُوقُ دِينِ اللهِ نَاصِرُ قَوْلِهِ وَرَسُولِهِ وَشَرَائِعِ الإِيمَانِ

٥٠٥٨- لَكِنَّهُ أَثَرٌ ضَعِيفٌ فِيهِ مَجْـ ـرُوحٌ يُسَمَّى خَالِدًا بِبَيَانِ

٥٠٥٩- لَوْ صَحَّ كَانَ عُمُومُهُ المَخْصُوصُ بِالصِّـ ـدِيقِ قَطْعًا غَيْرَ ذِي نُكْرَانِ

يعني: لو صَحَّ أنَّ أَوَّلَ مَنْ يدخلُ الفردوسَ عمرُ[(١)] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لو صحَّ هذا لكنَّه ضعيفٌ، كما ذكر عن الرَّجلِ المُسَمَّى خالدًا فهو ضعيفٌ، لكن لو صَحَّ فهو مخصوصٌ بأبي بكرٍ الصِّدِّيقِ؛ لأنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أسبقُ إلى الإسلامِ وأفضلُ من عمرَ بلا شكٍّ، وأصبرُ من عمرَ عند الشَّدائدِ، وأنتم تعرفون قصَّةَ الحُديبية وما فيها من شِدَّةٍ على المسلمين مَن الذي صَبَرَ عليها؟

الجوابُ: أبو بكرٍ أصبرُ من عمرَ، عمرُ كان ينازعُ الرَّسولَ عليه الصَّلَاةُ والسَّلامُ، يقولُ: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى البَاطِلِ؟ قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: «إِنِّي رَسُولُ الله وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي»، قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: «بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا

---

(١) يعني حديث أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ مَنْ يُصَافِحُهُ الْحَقُّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَأَوَّلُ مَنْ يأْخُذُ بِيَدِهِ فَيُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ». أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٨٠، رقم ١٢٤٥).

نَأْتِيهِ العَامَ؟» قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ»(١).

المهمُّ: أنَّه لم يصبر، وأبو بكرٍ صَبَرَ، وكان جوابُه جوابَ النَّبيِّ ﷺ سواءً بسواءٍ، وعند موتِ الرَّسولِ ﷺ مَنْ صَبَرَ؟ الجوابُ: أبو بكرٍ، أمَّا عمرُ فقام خطيبًا في النَّاسِ، وقال: «وَالله مَا مَاتَ رَسُولُ الله ﷺ... وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللهُ فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ»(٢)، وعند تنفيذِ جيشِ أسامةَ صَبَرَ أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَنفَّذَ الجيشَ مع أنَّ أهلَ المدينةِ محتاجون له، وعند قتالِ أهلِ الرِّدَّةِ صَبَرَ أبو بكرٍ.

من هذه المقاماتِ الضَّنكةِ الشَّديدةِ يتبيَّنُ فضلُ أبي بكرٍ على عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكلاهما ذو فضلٍ.

المهمُّ: أنَّه إذا صَحَّ الحديثُ فلا شكَّ أنَّه مخصوصٌ بحديثِ أبي بكرٍ؛ يعني: أوَّلهم بعد أبي بكرٍ، وإذا كان عمرُ أوَّلَهم بعد أبي بكرٍ فالأمرُ واضحٌ؛ لأنَّ أفضلَ هذه الأُمَّةِ بعد أبي بكرٍ عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

***

٥٠٦٠- هَذَا وَأَوَّلُهُمْ دُخُولًا فَهْوَ حَمْـ ـادُ عَلَى الحَالاتِ لِلرَّحْمَنِ

٥٠٦١- إِنْ كَانَ فِي السَّرَّاءِ أَصْبَحَ حَامِدًا أَوْ كَانَ فِي الضَّرَّا فَحَمْدٌ ثَانِي

٥٠٦٢- هَذَا الَّذِي هُوَ عَارِفٌ بِإِلَهِهِ وَصِفَاتِهِ وَكَمَالِهِ الرَّبَّانِي

٥٠٦٣- وَكَذَا الشَّهِيدُ فَسَبْقُهُ مُتَيَقَّنٌ وَهُوَ الجَدِيرُ بِذَلِكَ الإِحْسَانِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٥٨١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا»، رقم (٣٤٦٧).

٥٠٦٤- وَكَذَلِكَ الـمَمْلُوكُ حِينَ يَقُومُ بِالْـ ـــحَقَّيْنِ سَــبَّاقٌ بِغَــيْرِ تَــوَانِ

٥٠٦٥- وَكَـذَا فَقِـيرٌ ذُو عِيَـالٍ لَـيْسَ بِالْـ ـــمِلْحَاحِ بَـلْ ذُو عِفَّـةٍ وَصِـيَانِ

الشــرحُ

كُلُّ هذه الأشياءِ التي ذَكَرَهَا المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- هي أوَّلِيَّاتٌ نسبيَّةٌ؛ لأنَّنا لو لم نقل بذلك لكانت الأحاديثُ متعارضةً، فَيُقَالُ: هو أوَّلٌ بالنِّسبة لهذا الصِّنفِ، مثلًا: فقيرٌ ذو عيالٍ، نقولُ: هو أوَّلُ الفقراءِ[1]، كذلك العبدُ المملوكُ الذي قام بحقِّ الله وحقِّ سيِّدِه هو أوَّلُ المماليكِ[2]... وهكذا نجعلُ الأوَّليَّةَ نسبيَّةً حتَّى لا يحصلَ التَّعارضُ بين هذه الآثارِ.

***

(١) يعني حديث: «عُرِضَ عَلَيَّ أَوَّلُ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُونَ الْـجَنَّةَ، وَأَوَّلُ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُونَ النَّارَ، فَأَمَّا أَوَّلُ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُونَ الْـجَنَّةَ: فَالشَّهِيدُ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَنَصَحَ لِسَيِّدِهِ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ، وَأَمَّا أَوَّلُ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُونَ النَّارَ: فَأَمِيرٌ مُسَلَّطٌ، وَذُو ثَرْوَةٍ مِنْ مَالٍ لَا يُعْطِي حَقَّ مَالِهِ، وَفَقِيرٌ فَخُورٌ». أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٥، رقم ٩٤٨٨)، وابن أبي شيبة (٧/ ٢٦٨، رقم ٣٥٩٦٩)، والحاكم (١/ ٥٤٤، رقم ١٤٢٩)، والبيهقي (٤/ ٨٢، رقم ٧٠١٩).

(٢) تقدم تخريجه، وهو الحديث السابق نفسُه.

فصــل

في عَدَدِ الجنَّاتِ، وأَجْنَاسِهَا

٥٠٦٦- وَالـجَنَّةُ اسْمُ الجِنْسِ وَهْـيَ كَثِـيرَةٌ جِـدًّا وَلَكِـنْ أَصْـلُهَا نَوْعَـانِ
٥٠٦٧- ذَهَبِيَّتَـانِ بِكُـلِّ مَـا حَوَتَـاهُ مِـنْ حُـلْيٍ وَآنِيَـةٍ وَمِـنْ بُنْيَـانِ
٥٠٦٨- وَكَـذَاكَ أَيْضًـا فِضَّـةٌ ثِنْتَـانِ مِـنْ حُـلْيٍ وَبُنْيَـانٍ وَكُـلِّ أَوَانِي
٥٠٦٩- لَكِنَّ دَارَ الـخُلْدِ وَالـمَأْوَى وَعَـدْ نٍ وَالسَّـلامِ إِضَـافَةٌ لِـمَعَانِي
٥٠٧٠- أَوْصَافُهَا اسْتَدْعَتْ إِضَـافَتَهَا إِلَيْـ ـهَا مِدْحَـةً مَـعْ غَايَـةِ التِّبْيَـانِ
٥٠٧١- لَكِـنَّمَا الفِـرْدَوْسُ أَعْلاهَـا وَأَوْ سَـطُهَا مَسَـاكِنُ صَـفْوَةِ الـرَّحْمَنِ
٥٠٧٢- أَعْلاهُ مَنْزِلَـةً لِأَعْـلَى الـخَلْقِ مَنْـ ـزِلَةً هُـوَ الـمَبْعُوثُ بِـالقُرْآنِ
٥٠٧٣- وَهِـيَ الوَسِـيلَةُ وَهْـيَ أَعْـلَى رُتْبَـةٍ خَلَصَـتْ لَـهُ فَضْـلًا مِـنَ الـرَّحْمَنِ

الشـرحُ

٥٠٦٦- وَالـجَنَّةُ اسْمُ الجِنْسِ وَهْـيَ كَثِـيرَةٌ جِـدًّا وَلَكِـنْ أَصْـلُهَا نَوْعَـانِ
٥٠٦٧- ذَهَبِيَّتَـانِ بِكُـلِّ مَـا حَوَتَـاهُ مِـنْ حُـلْيٍ وَآنِيَـةٍ وَمِـنْ بُنْيَـانِ
٥٠٦٨- وَكَـذَاكَ أَيْضًـا فِضَّـةٌ ثِنْتَـانِ مِـنْ حُـلْيٍ وَبُنْيَـانٍ وَكُـلِّ أَوَانِي

أصلُ الجنَّةِ ثنتان وثنتان كما في قولِه تعالى في سورةِ «الرَّحمن»: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ

مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرَّحمن:٤٦]، ثُمَّ قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرَّحمن:٦٢]، جنَّتان من ذهبٍ آنيتُهما وما فيهما، الأواني والبِنَاءُ وكُلُّ شيءٍ ذَهَبٌ يتلألأُ، وليس كذهبِ الدُّنيا، والثَّانيتان من فضةٍ آنيتُهما وما فيهما، هذا هو الأصلُ، الأُولَيان للمُقرَّبين، والأخريان لأصحابِ اليمينِ.

٥٠٦٩- لَكِنَّ دَارَ الـخُلْدِ وَالـمَأْوَى وَعَـدْ ... نٍ وَالسَّـلامِ إِضَـافَةٌ لِـمَعَانِي

٥٠٧٠- أَوْصَافُهَا اسْتَدْعَتْ إِضَافَتَهَا إِلَيْـ ... ـهَا مِدْحَـةً مَـعْ غَايَـةِ التِّبْيَـانِ

جنَّةُ الخلدِ، وجنَّةُ المأوى، وعَدْنٍ، ودارُ السَّلامِ، هذه أوصافٌ لا أعيانٌ، فلا نقولُ: دارُ الخلدِ واحدةٌ، المأوى واحدةٌ، عَدْنٌ واحدةٌ، السَّلامُ واحدةٌ؛ بل هي أوصافٌ، وقد يكونُ الموصوفُ واحدًا وأوصافُه كثيرةً، فلا تظنَّ أنَّ هذا تعدُّدُ أعيانٍ، ولكنَّه تعدُّدُ أوصافٍ.

إِذَنْ الجنَّةُ لها أسماءٌ متعدِّدةٌ، لكن أصلُها أربعُ.

٥٠٧١- لَكِنَّمَا الفِـرْدَوْسُ أَعْلاهَـا وَأَوْ ... سَـطُهَا مَسَـاكِنُ صَـفْوَةِ الـرَّحْمَنِ

٥٠٧٢- أَعْلاهُ مَنْزِلَـةً لِأَعْـلَى الـخَلْقِ مَنْـ ... ـزِلَةً هُـوَ الـمَبْعُوثُ بِـالقُرْآنِ

٥٠٧٣- وَهِـيَ الوَسِـيلَةُ وَهْـيَ أَعْـلَى رُتْبَـةٍ ... خَلَصَـتْ لَـهُ فَضْـلًا مِـنَ الـرَّحْمَنِ

أعلى الجِنَانِ الفِرْدَوْسُ، فالفردوسُ أعلى الجنَّاتِ وأوسطُ الجنَّاتِ، وإذا كانت أعلاها وأوسطَها دَلَّ ذلك على أنَّها على الجنَّات مثل القُبَّةِ؛ لأنَّه لا يكملُ الأعلى الأوسط إلَّا إذا كان مُقَوَّسًا، فهي مِثْلُ القُبَّةِ على الجنَّاتِ، منها تُفَجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ، وفوقها عرشُ الله عزَّ وجلَّ، فهي أعلى ما يكونُ منزلةً، وهي منازلُ صفوةِ عبادِ الله من الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، ثُمَّ الصِّدِّيقين والشُّهداءِ والصَّالحين على

حسَب مراتبِهم، وفي جنَّة الفردوسِ ما يُسَمَّى بالوسيلةِ، وهذه للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهذه الوسيلةُ «**خَلَصَتْ لَهُ**»؛ أي: اخْتَصَّ بها كما في قولِه تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب:٥٠]؛ يعني: أنت مختصٌّ بها؛ ولذا قَالَ ﷺ في متابعةِ المؤذِّنِ والدُّعاءِ بعدَه: «ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الوَسِيلَةَ؛ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي -يعني: لا تصلحُ- إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ»(١)، فَخُصَّ بها -صلواتُ الله وسلامُه عليه- فضلًا من الله ومِنَّةً، واللهُ يؤتي فضلَه مَنْ يشاءُ، وكما اختصَّ نبيَّه محمَّدًا ﷺ بخصائصَ عظيمةٍ، لكن هذه الخصائصُ لا تقتضي أن يكونَ له شيءٌ ولو قليلًا من الرُّبوبيَّة أبدًا، فهو نفسُه لا يملكُ لنفسِه نفعًا ولا ضَرًّا، لكن له فضائلُ مَيَّزَه اللهُ بها، وأمَّا خصائصُ الرَّبِّ فلا ينازعُه فيها أحدٌ.

* * *

٥٠٧٤- وَلَقَدْ أَتَى فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ تَفْـ ... ـضِيلُ الـجِنَانِ مُفَصَّلًا بِبَيَانِ

٥٠٧٥- هِيَ أَرْبَعٌ ثِنْتَانِ فَاضِلَتَانِ ثُـمْـ ... ـمَ يَلِيهِمَا ثِنْتَانِ مَفْضُولَانِ

٥٠٧٦- فَالأُولَيَانِ الفُضْلَيَانِ لِأَوْجُهٍ ... عَشْرٍ وَيَعْسُرُ نَظْمُهَا بِوِزَانِ

٥٠٧٧- وَإِذَا تَأَمَّلْتَ السِّيَاقَ وَجَدْتَهَا ... فِيهِ تَلُوحُ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ

الشرحُ

٥٠٧٤- وَلَقَدْ أَتَى فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ تَفْـ ... ـضِيلُ الـجِنَانِ مُفَصَّلًا بِبَيَانِ

قَوْلُهُ: «تَفْضِيلُ الجِنَانِ مُفَصَّلًا»، ويجوزُ «تَفْصِيلُ الجِنَانِ مُفَصَّلًا»، لكن الأَوَّلُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يسأل له الوسيلة، رقم (٣٨٤).

أحسنُ؛ لأجل أن نحصلَ على معنيين:

أحدهما: التَّفضيلُ، والثَّاني: التَّفصيلُ.

٥٠٧٥- هِـيَ أَرْبَـعٌ ثِنْتَـانِ فَاضِـلَتَانِ ثُـمْ مَ يَلِـيهِمَا ثِنْتَـانِ مَفْضُـولانِ

ودليلُ هذا واضحٌ؛ وهو قولُه تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرَّحمن:٤٦]، ثُمَّ ذَكَرَ ما فيهما، ثُمَّ قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرَّحمن:٦٢].

٥٠٧٦- فَالأُولَيَـانِ الفُضْـلَيَانِ لِأَوْجُـهٍ عَشْـرٍ وَيَعْسُـرُ نَظْمُهَـا بِـوِزَانِ

قَوْلُهُ: «وَيَعْسُرُ نَظْمُهَا بِوِزَانِ»، ولَيْتَهُ لم يعسر.

٥٠٧٧- وَإِذَا تَأَمَّلْـتَ السِّـيَاقَ وَجَـدْتَهَا فِيـهِ تَلُـوحُ لِـمَنْ لَـهُ عَيْنَـانِ

ابنُ القيِّم -رحمه اللهُ- ذَكَرَ أنَّ المفاضلةَ بين الجنَّتين من عشرةِ أوجهٍ تدلُّ على أنَّ الأُولَيَيْنِ أفضلُ من الأُخريَيْنِ، وذكر أنَّه يعسرُ نظمُها، ولَيْتَهُ لم يعسر، ثُمَّ قال: إنَّها تلوحُ في سياقِ الكلامِ.

من ذلك أنَّه تعالى قال في اللَّتَيْنِ بعدهما: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرَّحمن:٦٨] مقابل: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرَّحمن:٥٢]، ومن ذلك أنَّه قال أيضًا: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرَّحمن:٦٤] مقابل: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ [الرَّحمن:٤٨].

ومن ذلك أنَّه قال أيضًا: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرَّحمن:٧٢]، وهذا مقابلُ: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الرَّحمن:٥٦]، و﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾؛ أي: قاصراتٌ أطرافَهُنَّ على أزواجِهِنَّ، هذا معنى، المعنى الثَّاني: أنَّ أزواجَهُنَّ أيضًا لا ينظرون إلى غيرِهِنَّ لكمالِـهِنَّ وحُسْنِهِنَّ، فَهُنَّ قاصراتُ أطرافِ الأزواجِ، فعلى الوجهِ الأوَّلِ يكونُ الطَّرفُ قاصرًا، فهو من بابِ إضافةِ اسمِ الفاعلِ إلى فاعلِه، وعلى

الثَّاني من بابِ إضافتِه إلى مفعولِه، والآية تحتملُ هذا وهذا، والقاعدةُ أنَّنا نحملُها على المعْنيَيْنِ؛ فهُنَّ قاصراتُ أطرافَهُنَّ على أزواجِهِنَّ لا يَنْظُرْنَ إلى غيرِهم، وهُنَّ كذلك يَقْصُرْنَ أطرافَ أزواجِهِنَّ عليهِنَّ بحيث لا يريدُ الإنسانُ سوى هذه الزَّوجةِ، أمَّا الأخرى فقال: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرَّحمن:٧٢]، فهُنَّ مقصوراتٌ.

فَإِنْ قال قائلٌ: قولُه تعالى: ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرَّحمن:٧٢] أفلا يُؤَدِّي إلى التَّفضيلِ؟ أو يُقَالُ: لا يُؤَدِّي إلى التَّفضيلِ؛ لأنَّ الأولى لم يذكر فيها ﴿فِى ٱلْخِيَامِ﴾ فَهُنَّ سارحاتٌ في الخيامِ، وفي الرَّحَباتِ، وفي كُلِّ مكانٍ، ومع ذلك هُنَّ قاصراتُ الطَّرْفِ؟

الظَّاهرُ أنَّ قولَه: ﴿فِى ٱلْخِيَامِ﴾ لا يدلُّ على التَّفضيلِ.

فَإِنْ قال قائلٌ: في الجنَّتين الأُخْريَيْنِ قال: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرَّحمن:٧٠] ولم يذكر ذلك في الأُولَيَيْنِ، بل قال: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الرَّحمن:٥٦]؟

فالجوابُ أنَّ قولَه: ﴿فِيهِنَّ﴾ مع قولِه في بقيَّةِ الآياتِ: ﴿فِيهِمَا﴾ يدلُّ على أنَّ أوصافَ الحورِ في الجِنَانِ الأربعِ كُلِّها؛ يعني: ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ تشملُ الجنَّتَيْنِ الأُولَيَيْنِ والجنَّتَيْنِ الأُخْرَيَيْنِ، وتمتازُ الأُولَيَانِ بأنَّهما قاصراتُ الطَّرفِ في مقابلِ: ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرَّحمن:٧٢]، أمَّا ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾؛ أي: خيراتُ الطِّباعِ والأخلاقِ حِسَانُ الوجوه فهذه شاملةٌ للجنَّاتِ الأربعِ؛ ولهذا تجدون أنَّ اللهَ تعالى يذكرُ ما في هذه الجِنَانِ الأربعِ بالتَّثنية، فكُلُّ واحدةٍ لها ما اختصَّت به، لكن في الحورِ يذكرُها بلفظِ الجمعِ فيقولُ: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الرَّحمن:٥٦]، ويقولُ: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرَّحمن:٧٠].

وفي تفسير الجلالين[1]: أنَّ الضَّميرَ في قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ لا يعودُ -حسَب تفسيرِه- إلى الجنَّاتِ الأربعِ، ولكن ﴿فِيهِنَّ﴾؛ أي: في قصورِهِنَّ وعلاليهِنَّ؛ أي: مساكنِهِنَّ، ولكن عندي أنَّ ذلك غلطٌ، بل الحورُ العينُ ذُكِرَتْ أوصافُها مرَّتَيْنِ؛ مرَّةً في الجنَّتَيْنِ العاليتَيْنِ، ومرَّةً في الجنَّتَيْنِ المفضولتَيْنِ؛ وذلك في قولِه تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرَّحمن:٥٦]، وفي قولِه: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرَّحمن:٧٢]، لكنَّ قولَه: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرَّحمن:٧٠] هل نقولُ: إنَّ أصحابَ الجنَّتَيْنِ الأُولَيَيْنِ قد حُرِمُوا الحورَ من كونِهِنَّ خيراتِ الأخلاقِ؟ الجوابُ: لا يمكنُ؛ ولذلك أرى -واللهُ أعلمُ بمرادِه من كلامِه- أنَّ الضَّميرَ يعودُ على الجنَّاتِ الأربعِ في مسألةِ الحورِ، فالصَّحيحُ ما أَشَرْتُ إليه؛ ولهذا لم يذكُر ابنُ القيِّمِ -رحمه اللهُ- هذه الجملةَ بأنَّها خاصَّةٌ بالجنَّتَيْنِ الأُخْرَيَيْنِ.

* * *

٥٠٧٨- سُبْحَانَ مَنْ غَرَسَتْ يَدَاهُ جَنَّةَ الْـ ... فِـرْدَوْسِ عِنْـدَ تَكَامُـلِ الْبُنْيَـانِ

٥٠٧٩- وَيَـدَاهُ أَيْضًـا أَتْقَنَـتْ لِبِنَائِهَـا ... فَتَبَـارَكَ الـرَّحْمَنُ أَعْظَـمَ بَـانِ

٥٠٨٠- هِـيَ فِي الـجِنَانِ كَـآدَمٍ وَكِلَاهُمَـا ... تَفْضِـيلُهُ مِـنْ أَجْـلِ هَـذَا الشَّـانِ

٥٠٨١- لَكِنَّمَا الـجَهْمِيُّ لَـيْسَ لَدَيْـهِ مِـنْ ... ذَا الفَضْـلِ شَيْءٌ فَهْـوَ ذُو نُكْـرَانِ

٥٠٨٢- وَلَـدُ عقُـوقٌ عَـقَّ وَالِـدَهُ وَلَـمْ ... يُثْبِـتْ بِـذَا فَضْـلًا عَـلَى الشَّـيْطَانِ

٥٠٨٣- فَكِلَاهُمَـا تَـأْثِيرُ قُدْرَتِـهِ وَتَـأْ ... ثِـيرُ الـمَشِيئَةِ لَـيْسَ ثَـمَّ يَـدَانِ

٥٠٨٤- آلَاهُمَـا أَوْ نِعْمَتَـاهُ وَخَلْقُـهُ ... كُـلٌّ بِنَعْمَـةِ رَبِّـهِ الـمَنَّانِ

---

(١) انظر: تفسير الجلالين (ص:٧١٢).

الشـرحُ

٥٠٧٨- سُبْحَانَ مَنْ غَرَسَتْ يَدَاهُ جَنَّةَ الْـ فِـرْدَوْسِ عِنْـدَ تَكَامُـلِ الْبُنْيَـانِ

٥٠٧٩- وَيَـدَاهُ أَيْضًـا أَتْقَنَـتْ لِبِنَائِهَـا فَتَبَـارَكَ الـرَّحْمَنُ أَعْظَـمَ بَـانِ

قَوْلُهُ: «أَعْظَمُ بَانِي»، ويجوزُ «أَعْظَمَ» بالفتحِ، وهو أحسنُ؛ لأنَّها نكرةٌ، فتكونُ حالًا من «الرَّحْمَنُ».

٥٠٨٠- هِـيَ فِي الْـجِنَانِ كَـآدَمٍ وَكِلاهُمَـا تَفْضِـيلُهُ مِـنْ أَجْـلِ هَـذَا الشَّـانِ

قَوْلُهُ: «هِيَ فِي الجِنَانِ كَآدَمٍ» «هِيَ»؛ أي: الفردوسُ.

الفردوسُ في الجِنَانِ كآدمَ في البشرِ؛ أي: إنَّ الفردوسَ خَلَقَهَا اللهُ بيدِه وآدمَ خَلَقَهُ اللهُ بيدِه.

قَوْلُهُ: «وَكِلاهُمَا تَفْضِيلُهُ مِنْ أَجْلِ هَذَا الشَّانِ»؛ يعني: أنَّها فُضِّلَتْ؛ لأنَّ اللهَ تعالى «خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ، وَكَتَبَ التَّوْرَاةَ -لِـمُوسَى- بِيَدِهِ، وَغَرَسَ الفِرْدَوْسَ بِيَدِهِ»(١)، وكُلُّ ما أضافَه اللهُ إلى نفسِه فهو أفضلُ من غيرِه بلا شكٍّ.

٥٠٨١- لَكِنَّمَا الْـجَهْمِيُّ لَـيْسَ لَدَيْـهِ مِـنْ ذَا الفَضْـلِ شَيْءٌ فَهْـوَ ذُو نُكْـرَانِ

الجهميُّ لا يُثْبِتُ لله يدين، ولا يُثْبِتُ أنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ بيدِه، ولا خَلَقَ جنَّةَ الفردوسِ بيدِه، ولكنْ يرى أنَّ المرادَ باليدِ القوَّةُ والقدرةُ؛ والجهميُّ ليس لديه مِنْ ذَا الفَضْلِ شَيْءٌ؛ لأنَّه يقولُ: آدمُ مخلوقٌ بالقدرةِ والشَّيطانُ مخلوقٌ بالقدرةِ، فلا فضلَ بينهما.

---

(١) أخرجه الدارقطني في الصفات (١/ ٢٦، رقم ٢٨) والخرائطي في مساوئ الأخلاق (ص:١٦٢)، رقم (٤٢٦).

٥٠٨٢- وَلَـدُ عَقُـوقٌ عَـقَّ وَالِـدَهُ وَلَـمْ   يُثْبِـتْ بِـذَا فَضْـلًا عَـلَى الشَّـيْطَانِ

وصدَق رحمه اللهُ، فالجهميُّ عَقَّ والدَه، عَقَّ آدَمَ؛ حيث أَنْكَرَ هذا الفضلَ الذي مَيَّزَهُ اللهُ به، وهو أَنَّه خَلَقَهُ بيدِه؛ حيث قال: إنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ بقوَّتِه، وخَلَقَ الشَّيطانَ أيضًا بقوَّتِه؛ إِذَنْ لا فضلَ لآدمَ على الشَّيطانِ، فيجعلُ آدمَ مِثْلَ الشَّيطانِ، كلاهما خُلِقَ بالكلمةِ ﴿كُن﴾ فكان، فالجهميُّ ينكرُ اليدَ -والعياذُ باللهِ- ومثلُه الأشاعرةُ ومَنْ نحا نحوَهم.

وقد نَصَّ ابنُ القيِّم على الجهميِّ لأَنَّه هو أوَّلُ مَنْ سَنَّ هذه الطَّريقةَ، فعليه وزرُها ووزرُ من تَبِعَه فيها إلى يومِ القيامةِ، مع أنَّ اللهَ أَشَارَ إلى هذا الفضلِ بقولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص:٧٥].

ثم يقولُ على رأي الجهمِ:

٥٠٨٣- فَكِلاهُمَـا تَـأْثِيرُ قُدْرَتِـهِ وَتَـأْ   ثِـيرُ الـمَشِيئَةِ لَـيْسَ ثَـمَّ يَـدَانِ

هذا رأيُ الجهميِّ.

٥٠٨٤- آلاهُمَـا أَوْ نِعْمَتَـاهُ وَخَلْقُـهُ   كُـلٌّ بِنَعْمَـةِ رَبِّـهِ الـمَنَّانِ

يعني: آلاءُ الله ونِعَمُهُ وخَلْقُهُ كُلٌّ بنعمةِ ربِّه المنَّانِ.

* * *

٥٠٨٥- لَـمَّا قَضَى رَبُّ العِبَادِ الغَـرْسَ قَـا … لَ تَكَلَّمِـي فتكَلَّمَـتْ بِبَيَـانِ
٥٠٨٦- قَدْ أَفْلَحَ العَبْـدُ الَّـذِي هُـوَ مُـؤْمِنٌ … مَـاذَا ادَّخَـرْتُ لَـهُ مِـنَ الإِحْسَـانِ
٥٠٨٧- وَلَقَـدْ رَوَى حَقًّـا أَبُـو الـدَّرْدَاءِ ذَا … كَ عُـوَيْمِرٌ أَثَـرًا عَظِـيمَ الشَّـانِ
٥٠٨٨- يَهْتَـزُّ قَلْـبُ العَبْـدُ عِنْـدَ سَمَاعِهِ … طَرَبًـا بِقَـدْرِ حَـلاوَةِ الإِيـمَانِ
٥٠٨٩- مَـا مِثْلُـهُ أَبَـدًا يُقَـالُ بِرَأْيِـهِ … أَوْ كَـانَ يَـا أَهْـلًا بِـذَا العِرْفَـانِ
٥٠٩٠- فِيهِ النُّزُولُ ثَـلاثَ سَـاعَاتٍ فَإِحْـ … ـدَاهُنَّ يَنْظُـرُ فِي الكِتَـابِ الثَّـانِي
٥٠٩١- يَمْحُو وَيُثْبِتُ مَـا يَشَـاءُ بِحِكْمَـةٍ … وَبِعِــزَّةٍ وَبِرَحْمَــةٍ وَحَنَــانِ
٥٠٩٢- فَتَرَى الفَتَى يُمْسِي عَلَى حَالٍ وَيُصْـ … ـبِحُ فِي سِـوَاهَا مَـا هُمَـا مِـثْلانِ
٥٠٩٣- هُـوَ نَـائِمٌ وَأُمُـورُهُ قَـدْ دُبِّـرَتْ … لَـيْلًا وَلا يَـدْرِي بِـذَاكَ الشَّـانِ
٥٠٩٤- وَالسَّاعَةُ الأُخْـرَى إِلَى عَـدْنٍ مَسَـا … كِـنِ أَهْلِـهِ هُـمْ صَـفْوَةُ الـرَّحْمَنِ
٥٠٩٥- الرُّسْلُ ثُمَّ الأَنْبِيَـاءُ وَمَعْهُـمُ الصِّـ … ـدِّيقُ حَسْبُ فَلا تَكُـنْ بِجَبَانِ
٥٠٩٦- فِيهَـا الَّـذِي وَاللهِ لا عَـيْنٌ رَأَتْ … كَـلَّا وَلا سَـمِعَتْ بِـهِ الأُذُنَـانِ
٥٠٩٧- كَـلَّا وَلا قَلْـبٌ بِـهِ خَطَـرَ الـمِثَا … لُ لَـهُ تَعَـالَى اللهُ ذُو السُّـلْطَانِ
٥٠٩٨- وَالسَّاعَةُ الأُخْرَى إِلَى هَذِي السَّمَا … ءِ يَقُـولُ هَـلْ مِـنْ تَائِـبٍ نَـدْمَانِ
٥٠٩٩- أَوْ دَاعٍ اَوْ مُسْـتَغْفِرٍ أَوْ سَـائِلٍ … أُعْطِيـهِ إِنِّي وَاسِـعُ الإِحْسَـانِ
٥١٠٠- حَتَّى يُصَلِّي الفَجْرَ يَشْهَدُهَا مَعَ الْـ … أَمْـلاكِ تِلْـكَ شَـهَادَةُ القُـرْآنِ

٥١٠١- هَـذَا الـحَدِيثُ بِطُولِـهِ وَسِيَاقِهِ وَتَـمَامِهِ في «سُـنَّةِ» الطَّـبَرَانِي

الشَّرحُ

٥٠٨٥- لَـمَّا قَضَى رَبُّ العِبَادِ الغَرْسَ قَا لَ تَكَلَّمِـي فتَكَلَّمَتْ بِبَيَانِ

لـمَّا قضى اللهُ عزَّ وجلَّ الغرسَ قال للجنَّةِ: تكلَّمي، فتكلَّمَتْ[1]، فقالت:

٥٠٨٦- قَدْ أَفْلَحَ العَبْدُ الَّذِي هُوَ مُؤْمِنٌ مَاذَا ادَّخَرْتُ لَهُ مِنَ الإِحْسَانِ

الجنَّةُ تكلَّمت بهذا الكلامِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:١]؛ يعني: نَجَوْا من مكروهِهم، وحَصَلَ لهم مطلوبُهم، واقرأ الآياتِ إلى قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠-١١]، أسألُ اللهَ أن يجعلَني وإيَّاكم منهم.

فإذا شِئْتَ أن تَرِثَ هذه الفردوسَ فعليك بالصِّفاتِ السَّبعِ المذكورةِ في الآياتِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون:١- ٩]، فعليك بهذه الصِّفاتِ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ [المؤمنون:١٠-١١]، ثُمَّ ذَكَرَ حديثًا فقال:

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ١٨٤، رقم ١١٤٣٩) ، (١٢/ ١٤٧، رقم ١٢٧٢٣)، والأوسط (١/ ٢٢٤، رقم ٧٣٨) ، (٥/ ٣٤٩، رقم ٥٥١٨)، وتمام في الفوائد (١/ ١٠٩، رقم ٢٥٨) قال الهيثمي (١٠/ ٣٩٧) : رواه الطبراني في الأوسط والكبير، وأحد إسنادي الطبراني في الأوسط جيد.

٥٠٨٧- وَلَقَدْ رَوَى حَقًّا أَبُو الدَّرْدَاءِ ذَا كَ عُوَيْمِرٌ أَثَرًا عَظِيمَ الشَّانِ
٥٠٨٨- يَهْتَزُّ قَلْبُ العَبْدُ عِنْدَ سَمَاعِهِ طَرَبًا بِقَدْرِ حَلاوَةِ الإِيمَانِ
٥٠٨٩- مَا مِثْلُهُ أَبَدًا يُقَالُ بِرَأْيِهِ أَوْ كَانَ يَا أَهْلًا بِذَا العِرْفَانِ
٥٠٩٠- فِيهِ النُّزُولُ ثَلاثَ سَاعَاتٍ فَإِحْـ ـدَاهُنَّ يَنْظُرُ فِي الكِتَابِ الثَّانِي
٥٠٩١- يَمْحُو وَيُثْبِتُ مَا يَشَاءُ بِحِكْمَةٍ وَبِعِزَّةٍ وَبِرَحْمَةٍ وَحَنَانِ
٥٠٩٢- فَتَرَى الفَتَى يُمْسِي عَلَى حَالٍ وَيُصْـ ـبِحُ فِي سِوَاهَا مَا هُمَا مِثْلانِ
٥٠٩٣- هُوَ نَائِمٌ وَأُمُورُهُ قَدْ دُبِّرَتْ لَيْلًا وَلا يَدْرِي بِذَاكَ الشَّانِ
٥٠٩٤- وَالسَّاعَةُ الأُخْرَى إِلَى عَدْنٍ مَسَا كِنِ أَهْلِهِ هُمْ صَفْوَةُ الرَّحْمَنِ
٥٠٩٥- الرُّسْلُ ثُمَّ الأَنْبِيَاءُ وَمَعْهُمُ الصْـ ـصِدِّيقُ حَسْبُ فَلا تَكُنْ بِجَبَانِ
٥٠٩٦- فِيهَا الَّذِي وَاللهِ لا عَيْنٌ رَأَتْ كَلَّا وَلا سَمِعَتْ بِهِ الأُذُنَانِ
٥٠٩٧- كَلَّا وَلا قَلْبٌ بِهِ خَطَرَ المِثَا لُ لَهُ تَعَالَى اللهُ ذُو السُّلْطَانِ
٥٠٩٨- وَالسَّاعَةُ الأُخْرَى إِلَى هَذِي السَّمَا ءِ يَقُولُ هَلْ مِنْ تَائِبٍ نَدْمَانِ
٥٠٩٩- أَوْ دَاعٍ اَوْ مُسْتَغْفِرٍ أَوْ سَائِلٍ أُعْطِيهِ إِنِّي وَاسِعُ الإِحْسَانِ
٥١٠٠- حَتَّى يُصَلِّي الفَجْرَ يَشْهَدُهَا مَعَ الْـ أَمْلاكِ تِلْكَ شَهَادَةُ القُرْآنِ
٥١٠١- هَذَا الحَدِيثُ بِطُولِهِ وَسِيَاقِهِ وَتَمَامِهِ فِي «سُنَّةِ» الطَّبَرَانِي

قَوْلُهُ: «وَلَقَدْ رَوَى حَقًّا أَبُو الدَّرْدَاءِ...» ولفظُ هذا الحديثِ: «يَنْزِلُ اللهُ تَعَالَى

فِي آخِرِ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ يَبْقَيْنَ مِنَ اللَّيْلِ، فَيَنْظُرُ اللهُ فِي السَّاعَةِ الأُولَى فِي الكِتَابِ الَّذِي لَا يَنْظُرُ فِيه غَيْرُهُ، فَيَمْحُو مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ، ثُمَّ يَنْظُرُ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ وَهِيَ مَسْكَنُهُ الَّذِي يَسْكُنُ فِيهِ، لَا يَكُونُ مَعَهُ فِيهَا أَحَدٌ إِلَّا الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ وَالصِّدِّيقُونَ، وَفِيهَا مَا لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ آخِرَ سَاعَةٍ مِنَ اللَّيْلِ، فَيَقُولُ: أَلَا مُسْتَغْفِرٍ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟ أَلَا سَائِلٌ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ أَلَا دَاعٍ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ حَتَّى يَطْلُعَ الفَجْرُ»(١)، وعلى كُلِّ حالٍ إذا صَحَّ هذا عن أبي الدَّرداء فإنَّ مثلَه لا يُقالُ بالرَّأيِ، وأبو الدَّرداءِ ليس ممَّن عُرِفَ بالأخذِ عن بني إسرائيلَ، فيكونُ له حكمُ الرَّفعِ.

قَوْلُهُ: «فَتَرَى الفَتَى يُمْسِي عَلَى حَالٍ وَيُصْبِحُ فِي سِوَاهَا»؛ يعني: يُمسي على حالٍ ويُصْبِحُ في سواها، يمُسي مؤمنًا ويُصْبِحُ كافرًا، أو بالعكسِ؛ يمُسي كافرًا ويُصبحُ مؤمنًا؛ ولذا قال: «وَيُصْبِحُ فِي سِوَاهَا مَا هُمَا مِثْلَانِ»، اللَّهُمَّ ثَبِّتْنَا بالقولِ الثَّابتِ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ يا ربَّ العالمين.

قَوْلُهُ: «تِلْكَ شَهَادَةُ الكُفْرَانِ»؛ لقولِه تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨].

* * *

(١) أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (١/ ٣٢٥، رقم ٤٧).

فصل

في بِنَاءِ الجَنَّةِ

٥١٠٢- وَبِنَاؤُهَا اللَّبِنَاتُ مِنْ ذَهَبٍ وَأُخْـ ـــرَى فِضَّـــةٌ نَوْعَـــانِ مُخْتَلِفَـــانِ

٥١٠٣- وَقُصُـورُهَا مِـنْ لُؤْلُـؤٍ وَزَبَرْجَـدٍ أَوْ فِضَّـــةٍ أَوْ خَـــالِصِ العِقْيَـــانِ

٥١٠٤- وَكَـــذَاكَ مِـــنْ دُرٍّ وَيَـــاقُوتٍ بِــهِ نُظِـــمَ البِنَـــاءُ بِغَايَـــةِ الإِتْقَـــانِ

٥١٠٥- وَالطِّينُ مِسْكٌ خَـالِصٌ أَوْ زَعْفَـرَا نٌ جَـــا بِـــذَا أَثَـــرَانِ مَقْبُـــولانِ

٥١٠٦- لَيْسَـــا بِمُخْتَلِفَـــيْنِ لا تُنْكِرْهُمَـــا فَهُـــمَا المِـــلاطُ لِـــذَلِكَ البُنْيَـــانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «أَوْ خَالِص العِقْيَانِ» العِقْيَانُ هو الذَّهبُ.

قَوْلُهُ: «الطِّينُ مِسْكٌ خَالِصٌ أَوْ زَعْفَرَانٌ» ليس بينهما تناقضٌ؛ لأنَّهما يكونان مخلوطَيْنِ ويُمْلَطُ بهما البِنَاءُ، فلا تَنافيَ بينهما، والمِلَاطُ؛ أي: الَّذي يُمْلَطُ به الجدارُ، ويُسَمَّى عندنا «التَّلييس».

* * *

فصل

في أَرْضِهَا وَحَصْبَائِهَا وَتُرْبِهَا

٥١٠٧- وَالأَرْضُ مَرْمَرَةٌ كَخَالِصِ فِضَّةٍ ... مِثْلَ المِرَاةِ تَنَالُهُ العَيْنَانِ

٥١٠٨- فِي «مُسْلِمٍ» تَشْبِيهُهَا بِالدَّرْمَكِ الصْـ ... ـصَافِي وَبِالمِسْكِ العَظِيمِ الشَّانِ

٥١٠٩- هَذَا لِحُسْنِ اللَّوْنِ لَكِنْ ذَا لِطِيـ ... ـبِ الرِّيحِ صَارَ هُنَاكَ تَشْبِيهَانِ

٥١١٠- حَصْبَاؤُهَا دُرٌّ وَيَاقُوتٌ كَذَا ... كَ لَآلِئٌ نُثِرَتْ كَنَثْرِ جُمَانِ

٥١١١- وَتُرَابُهَا مِنْ زَعْفَرَانٍ أَوْ مِنَ الْـ ... ـمِسْكِ الَّذِي مَا اسْتُلَّ مِنْ غِزْلَانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «بالدَّرْمَكِ»، «الدَّرْمَكُ»؛ هو: الخبزُ الصَّافي الذي يَضْرِبُ لونُه إلى صُفْرَةٍ.

قَوْلُهُ: «هَذَا لِحُسْنِ اللَّوْنِ لَكِنْ ذَا لِطِيبِ الرِّيحِ»؛ يعني: الدَّرْمَكُ والمسكُ للطِّيبِ.

قَوْلُهُ: «وَتُرَابُهَا مِنْ زَعْفَرَانٍ أَوْ مِنَ المِسْكِ الَّذِي مَا اسْتُلَّ مِنْ غِزْلَانِ»؛ وذلك لأنَّهم يقولون: إنَّ المسكَ دَمُ نوعٍ من الغزلانِ؛ كما قال المتنبِّي:

فَإِنْ تَفُقِ الأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ ... فَإِنَّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الغَزَالِ[1]

---

(١) البيت للمتنبي، انظر: شرح ديوان المتنبي للعكبري (١/ ٣٨٠).

ومعلومٌ أنَّ المسكَ ليس كالدَّمِ مع أنَّ أصلَه دَمٌ، وأنَّ هذا النَّوعَ من الغزلان يُرَوَّضُ على صفةٍ معيَّنةٍ، ثُمَّ بعد ذلك يُطَارَدُ حتَّى يتعبَ، فإذا تَعِبَ نَزَلَ منه دمٌ عند سُرَّتِه، ثُمَّ يأتي هؤلاء الذين يتولَّوْنَه فيربطون هذا الدَّمَ بخيطٍ ربطًا شديدًا قويًّا من أجلِ ألَّا يعودَ الدَّمُ إلى الجسمِ، ومن أجل ألَّا يأتيَ هذا الجزءَ شيءٌ من الغذاءِ، وبعد مدَّةٍ ينقطعُ عنه الغذاءُ فيموتُ، ثُمَّ ينزلُ مسكًا في وِعاءٍ، وِعاؤه هو هذا الجزءُ الذي انفصل، وهذا النَّوعُ من المسكِ يقولون: هو أطيبُ أنواعِ المسكِ.

وتجدون في كلامِ الفقهاءِ أنَّهم يُعبِّرون في البيعِ بالمسكِ وفأرتِه؛ يعني: وِعَاءَه.

وَقَوْلُهُ: «المِسْكِ الَّذِي مَا اسْتُلَّ مِنْ غِزْلَانِ»؛ أي: بل خُلِقَ ابتداءً؛ يعني: هو مخلوقٌ على هذا أصلًا.

* * *

فصــل

في صِفَةِ غُرُفَاتِهَا

٥١١٢- غُرُفَاتُهَا فِي الجَوِّ يُنْظَرُ بَطْنُهَا ... مِنْ ظَهْرِهَا وَالظَّهْرُ مِنْ بَطْنَانِ

٥١١٣- سُكَّانُهَا أَهْلُ القِيَامِ مَعَ الصِّيَا ... مِ وَطَيِّبِ الكَلِمَاتِ وَالإِحْسَانِ

٥١١٤- ثِنْتَانِ خَالِصُ حَقِّهِ سُبْحَانَهُ ... وَعَبِيدُهُ أَيْضًا لَهُمْ ثِنْتَانِ

الشرحُ

مَنْ قَامَ بهذه الأربع فإنَّه من سُكَّانِ الجنَّةِ في هذه الغرفِ؛ فَمَنْ أَطَابَ الكلامَ، وأَطْعَمَ الطَّعامَ، وأَدَامَ الصِّيامَ، وصلَّى باللَّيلِ والنَّاسُ نيامٌ، فهو من سُكَّان الجنَّةِ في هذه الغرفِ، وإنَّه ليسيرٌ على مَنْ يسَّره اللهُ عليه، وقد سُئِلَ الرَّسولُ ﷺ عن سَاكِنِيهَا فقَالَ: «لِـمَنْ أَطَابَ الكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»(١)، فالقيامُ والصِّيامُ حقُّه سبحانه وتعالى، وطيبُ الكلامِ وإطعامُ الطَّعامِ هذا للعبادِ، على أنَّنا نرى أنَّ طيبَ الكلامِ يشملُ الذِّكرَ وقراءةَ القرآنِ وغيرَ ذلك، فهو أعمُّ من كونِه حقًّا خاصًّا للإنسانِ.

فإذا قال قائلٌ: هذا الصَّفاءُ العظيمُ هل يمنعُ من رؤيةِ ما يُحِبُّ أن يكونَ الإنسانُ سرًّا؟ الجوابُ: إذا أراد الإنسانُ أن يكونَ عملُه سرًّا فهناك في وسطِ هذه الخيامِ الكبارِ ما يكونُ كالأخبئةِ لما يريدُ الإنسانُ أن يكونَ سرًّا.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في قول المعروف، رقم (١٩٨٤).

فصل

في خِيَامِ أَهْلِ الجَنَّةِ

٥١١٥- لِلعَبْـدِ فِيهَـا خَيْمَـةٌ مِـنْ لُؤْلُـؤٍ ... قَـدْ جُوِّفَـتْ هِـيَ صَنْعَةُ الـرَّحْمَنِ

٥١١٦- سِتُّونَ مِيلًا طُولُـهَا في الـجَوِّ في ... كُـلِّ الزَّوَايَـا أَجْمَـلُ النِّسْـوَانِ

٥١١٧- يَغْشَى الجَمِيعَ فَلا يُشَاهِدُ بَعْضُهُمْ ... بَعْضًـا وَهَـذَا لاتِّسَـاعِ مَكَـانِ

٥١١٨- فِيهَـا مَقَاصِيرٌ بِهَـا الأَبْـوَابُ مِـنْ ... ذَهَـبٍ وَدُرٍّ زِيـنَ بِالـمَرْجَانِ

٥١١٩- وَخِيَامُهَـا مَنْصُـوبَةٌ بِرِيَاضِـهَا ... وَشَـوَاطِئُ الأَنْهَـارِ ذِي الـجَرَيَانِ

٥١٢٠- مَا في الخِيَامِ سِوَى الَّتِي لَوْ قَابَلَتْ ... لِلنَّـيِّرَيْنِ لَقُلْـتَ مُنْكَسِـفَانِ

٥١٢١- للهِ هَاتِيـكَ الـخِيَامُ فَكَـمْ بِهَـا ... لِلْقَلْـبِ مِـنْ عَلَـقٍ وَمِـنْ أَشْـجَانِ

٥١٢٢- فِيهِنَّ حُورٌ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ خَيْـ ... ـرَاتٌ حِسَـانٌ هُـنَّ خَيْرُ حِسَـانِ

٥١٢٣- خَـيْرَاتُ أَخْـلاقٍ حِسَـانٌ أَوْجُهًـا ... فَالـحُسْنُ وَالإِحْسَـانُ مُتَّفِقَـانِ

الشرحُ

٥١١٥- لِلعَبْـدِ فِيهَـا خَيْمَـةٌ مِـنْ لُؤْلُـؤٍ ... قَـدْ جُوِّفَـتْ هِـيَ صَنْعَةُ الـرَّحْمَنِ

بَيَّنَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- الخيامَ، وأنَّ في الجنَّةِ خيمةً من لؤلؤٍ مُجوَّفة، والذي صنعها الرَّحمنُ عزَّ وجلَّ، فهي مقتضى رحمتِه.

٥١١٦- سِتُّونَ مِيلًا طُولُـهَا في الـجَوِّ في ... كُـلِّ الزَّوَايَـا أَجْمَـلُ النِّسْـوَانِ

قَوْلُهُ: «سِتُّونَ مِيلًا طُولُـهَا في الجَوِّ» سِتُّون ميلًا[1]، والميلُ كيلو ونصف تقريبًا، إِذَنْ طولُـها في الجوِّ تسعون كيلو.

قَوْلُهُ: «وَفِي كُلِّ الزَّوَايَا أَجْمَلُ النِّسْوَانِ» سواءٌ كُنَّ من الحورِ أو من نساءِ الدُّنيا؛ قال اللهُ تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرَّحمن:٧٢].

٥١١٧- يَغْشَى الجَمِيعَ فَلا يُشَاهِدُ بَعْضَهُمْ ... بَعْضًـا وَهَـذَا لاتِّسَـاعِ مَكَـانِ

الرَّجلُ يَغْشَى الجميعَ؛ يعني: بالجماعِ، فَلَا يُشَاهِدُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؛ وَهَذَا لاتِّسَاعِ المكَانِ وبُعْدِه، ولِـمَا يجعلُ اللهُ- عزَّ وجلَّ- بينهم من السِّتْرِ؛ ولأنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- جعل لكُلِّ شيءٍ قَدْرَه، وقد سبق أنَّ أدنى أهلِ الجنَّةِ منزلةً مَنْ يَرَى في مُلْكِه ألفي سنةٍ يرى أقصاه كما يرى أدناه، لكن فيما إذا أرادوا ألَّا يكونَ كذلك، هم في خيمةٍ واحدةٍ متراميةِ الأطرافِ، لا ينظرُ بعضُهم إلى بعضٍ.

٥١١٨- فِيهَـا مَقَاصِـيرٌ بِهَـا الأَبْـوَابُ مِـنْ ... ذَهَـبٍ وَدُرٍّ زِيـنَ بِالـمَرْجَانِ

قَوْلُهُ: «مَقَاصِيرٌ» جمعُ مَقْصُورَةٍ.

المَقَاصِيرُ فيها أبوابُها من ذهبٍ ودُرٍّ ومُرْجَانٍ، والإنسانُ لا يستطيعُ أن يتخيَّلَ مثلَ هذا الحُسْنِ مهما بلغ تخيُّلُه في القوَّةِ.

٥١١٩- وَخِيَامُهَـا مَنْصُـوبَةٌ بِرِيَاضِـهَا ... وَشَـوَاطِئُ الأَنْهَـارِ ذِي الـجَرَيَانِ

يعني: أنَّ الخيامَ بالرِّياضِ وعلى شواطئِ الأنهارِ ذي الجَرَيَانِ.

---

(١) يعني حديث: «الْـمُتَحَابُّونَ في الله عَلَى عَمُودٍ مِنْ يَاقُوتٍ، لَهُ الْـخَيْمَةُ مِنْ يَاقُوتَةٍ مُجَوَّفَةٍ سِتِّينَ مِيلًا في السَّمَاءِ». أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ٢٦١، رقم ٥٢٦٠).

٥١٢٠- مَا فِي الخِيَامِ سِوَى الَّتِي لَوْ قَابَلَتْ ... لِلنَّيِّرَيْنِ لَقُلْتَ مُنْكَسِفَانِ

الله أكبر! نساءٌ لو قَابَلَتِ الشَّمسَ والقمرَ لَقُلْتَ: الشَّمسُ والقمرُ منكسفان من نورِها وبهائِها، أسألُ اللهَ أن يجعلَني وإيَّاكم من أهل الجنة.

٥١٢١- للهِ هَاتِيكَ الخِيَامُ فَكَمْ بِهَا ... لِلْقَلْبِ مِنْ عَلَقٍ وَمِنْ أَشْجَانِ

٥١٢٢- فِيهِنَّ حُورٌ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ خَيْـ ... ـرَاتٌ حِسَانٌ هُنَّ خَيْرُ حِسَانِ

٥١٢٣- خَيْرَاتُ أَخْلاقٍ حِسَانٌ أَوْجُهًا ... فَالحُسْنُ وَالإِحْسَانُ مُتَّفِقَانِ

أفادنا المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- أنَّ قولَه تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرَّحمن:٧٠] أنَّ ﴿خَيْرَٰتٌ﴾ تعودُ إلى الأخلاقِ، و﴿حِسَانٌ﴾ تعودُ إلى الوجوهِ، فَهُنَّ خَيْرَاتُ الأخلاقِ حِسَانُ الوجوهِ، إِذَنْ هُنَّ كاملاتٌ ظاهرًا وباطنًا.

* * *

فصــل

في أرائِكِهَا وَسُرُرِهَا

٥١٢٤- فِيهَا الأَرَائِكُ وَهْيَ مِنْ سُرُرٍ عَلَيْـ ـهِنَّ الـحِجَالُ كَثِـيرَةُ الأَلْـوَانِ

٥١٢٥- لا تَسْتَحِقُّ اسْمَ الأَرَائِـكِ دُونَ هَـا تِيكَ الـحِجَالِ وَذَاكَ وَضْعُ لِسَـانِ

٥١٢٦- بَشْـخَانَةٌ يَـدْعُونَهَا بِلِسَـانِ فَـا رِسَ وَهْوَ ظَهْرُ البَيْـتِ ذِي الأَرْكَـانِ

الشـرحُ

٥١٢٤- فِيهَا الأَرَائِكُ وَهْيَ مِنْ سُرُرٍ عَلَيْـ ـهِنَّ الـحِجَالُ كَثِـيرَةُ الأَلْـوَانِ

الأَرَائِكُ هي: السُّررُ التي عليها الـحِجَالُ، والـحِجَالُ مثلُ الخيمةِ الصَّغيرةِ، ولكنَّها كما قال المؤلِّفُ رحمه اللهُ: «**كَثِيرَةُ الأَلْوَانِ**».

٥١٢٥- لا تَسْتَحِقُّ اسْمَ الأَرَائِـكِ دُونَ هَـا تِيكَ الـحِجَالِ وَذَاكَ وَضْعُ لِسَـانِ

قَوْلُهُ: «**لَا تَسْتَحِقُّ اسْمَ الأَرَائِكِ دُونَ هَاتِيكَ الـحِجَالِ**»؛ يعني: أنَّ السُّررَ لا تستحقُّ أن تُسَمَّى أريكةً إلَّا بالـحِجَالِ.

قَوْلُهُ: «**وَذَاكَ وَضْعُ لِسَانِ**»؛ يعني: اللِّسانَ العربيَّ.

٥١٢٦- بَشْـخَانَةٌ يَـدْعُونَهَا بِلِسَـانِ فَـا رِسَ وَهْوَ ظَهْرُ البَيْـتِ ذِي الأَرْكَـانِ

قَوْلُهُ: «**بَشْخَانَةٌ**»، «**البَشْخَانَةُ**» في لغةِ فارس هي: ظهرُ البيْتِ ذِي الأَرْكَانِ.

ومعنى كلامِه: أنَّ البَشْخَانَةَ في لسانِ فارس هي في اللغة العربِّيةِ: «**ظَهْرُ البَيْتِ ذِي الأَرْكَانِ**»، فالأرائكُ تُسَمَّى «**بَشْخَانَة**» في لغةِ فارسَ؛ يعني: في لغة العجمِ، لكن الأريكةُ في اللغةِ العربيَّةِ لابُدَّ أن يكونَ عليها حجابٌ؛ يعني: غطاءً، فالسَّريرُ عليه غطاءٌ يزيدُه جمالًا وراحةً.

* * *

فصل

في أَشْجَارِهَا وَثِمَارِهَا وَظِلاَلِهَا

٥١٢٧- أَشْجَارُهَا نَوْعَانِ مِنْهَا مَا لَهُ ... فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِثَالٌ دَانِ
٥١٢٨- كَالسِّدْرِ أَصْلُ النَّبْقِ مَخْضُودٌ مَكَا ... نُ الشَّوْكِ مِنْ ثَمَرٍ ذَوِي أَلْوَانِ
٥١٢٩- هَذَا وَظِلُّ السِّدْرِ مِنْ خَيْرِ الظِّلَا ... لِ وَنَفْعُهُ التَّرْوِيحُ لِلأَبْدَانِ
٥١٣٠- وَثِمَارُهُ أَيْضًا ذَوَاتُ مَنَافِعٍ ... مِنْ بَعْضِهَا تَفْرِيحُ ذِي الأَحْزَانِ
٥١٣١- وَالطَّلْحُ وَهْوَ الْمَوْزُ مَنْضُودٌ كَمَا ... نُضِدَتْ يَدٌ بِأَصَابِعٍ وَبَنَانِ
٥١٣٢- أَوْ أَنَّهُ شَجَرُ الْبَوَادِي مُوقَرًا ... حِمْلًا مَكَانَ الشَّوْكِ فِي الأَغْصَانِ
٥١٣٣- وَكَذَلِكَ الرُّمَّانُ وَالأَعْنَابُ وِالنْـ ... ـنَخْلُ الَّتِي مِنْهَا الْقُطُوفُ دَوَانِ
٥١٣٤- هَذَا وَنَوْعٌ مَا لَهُ فِي هَذِه الدْ ... دُنْيَا نَظِيرٌ كَيْ يُرَى بِعِيَانِ
٥١٣٥- يَكْفِي مِنَ التَّعْدَادِ قَوْلُ إِلَهِنَا ... مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ بِهَا زَوْجَانِ
٥١٣٦- وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا فِي اللَّوْنِ مُخْـ ... ـتَلِفَ الطُّعُومِ فَذَاكَ ذُو أَلْوَانِ
٥١٣٧- أَوْ أَنَّهُ مُتَشَابِهٌ فِي الإِسْمِ مُخْـ ... ـتَلِفَ الطُّعُومِ فَذَاكَ قَوْلٌ ثَانِ
٥١٣٨- أَوْ أَنَّهُ وَسَطٌ خِيَارٌ كُلُّهُ ... فَالْفَحْلُ مِنْهُ لَيْسَ ذَا ثُنْيَانِ
٥١٣٩- أَوْ أَنَّهُ لِثِمَارِنَا ذِي مُشْبِهٍ ... فِي اسْمٍ وَلَوْنٍ لَيْسَ يَخْتَلِفَانِ

٥١٤٠- لَكِـنْ لِبَهْجَتِهَـا وَلَـذَّةِ طَعْمِهَـا أَمْـرٌ سِـوَى هَـذَا الَّـذِي تَجِـدَانِ

٥١٤١- فَيَلَـذُّهَا في الأَكْـلِ عِنْـدَ مَنَالِـهَا وَتَلَـذُّهَا مِـنْ قَبْلِـهِ العَيْنَـانِ

الشـرحُ

٥١٢٧- أَشْـجَارُهَا نَوْعَـانِ مِنْهَـا مَـا لَـهُ فِي هَـذِهِ الـدُّنْيَا مِثَـالٌ دَانِ

ذكر المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- أنَّ أشجارَها نوعان؛ نوعٌ له نظيرٌ في الدُّنيا، ونوعٌ لا نظيرَ له في الدُّنيا، ومَثَّلَ لِـمَا له نظيرٌ بأمثلةٍ، فقال:

٥١٢٨- كَالسِّدْرِ أَصْلُ النَّبْقِ مَخْضُـودٌ مَكَـا نُ الشَّـوْكِ مِـنْ ثَمَـرٍ ذَوِي أَلْـوَانِ

السِّدْرُ الذي هو: شجرُ النَّبْقِ فيه شَوْكٌ، لكن في الجنَّةِ لا شَوْكَ فيه، قال اللهُ تعالى: ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ [الواقعة:٢٨]، و«مَخْضُودٌ»؛ يعني: ليس فيه شوكٌ، وإنَّما فيه مكانَ الشَّوْكِ ثمرٌ ذو ألوانٍ.

٥١٢٩- هَذَا وَظِلُّ السِّدْرِ مِـنْ خَـيْرِ الظِّـلا لِ وَنَفْعُـهُ الـتَّرْوِيحُ لِلأَبْـدَانِ

قَوْلُهُ: «هَذَا وَظِلُّ السِّدْرِ»؛ يعني: في الدُّنيا.

ظِلُّ السِّدْرِ في الدُّنيا من خيرِ الظِّلالِ وأبردِه، وفيه أيضًا ترويحٌ للبدنِ، يجدُ الإنسانُ فيظل السِّدرِ نشوةً ولذَّةً، ومن المعلوم أنَّ الجنَّةَ ليس فيها شمسٌ، فإذا لم يكن فيها شمسٌ وليس فيها برودةٌ ولا حرارةٌ، وإنَّما هي معتدلةٌ، فإنَّه يكونُ فيه التَّرويحُ للأبدانِ والتَّنعُّمُ.

٥١٣٠- وَثِـمَارُهُ أَيْضًـا ذَوَاتُ مَنَـافِعٍ مِنْ بَعْضِـهَا تَفْـرِيحُ ذِي الأَحْـزَانِ

يعني: أنَّ ثمرَ السِّدرِ له منافعُ كثيرةٌ، ومن جملتِها أنَّه يُفَرِّحُ الحزينَ، ويُخَفِّفُ

الحزنَ عليه، ويمكنُ الرُّجوعُ في هذا إلى كتبِ الطِّبِّ.

٥١٣١- وَالطَّلْحُ وَهْوَ الـمَوْزُ مَنْضُـودٌ كَـمَا نُضِـدَتْ يَـدٌ بِأَصَـابعٍ وَبَنَـانِ

«والطَّلْحُ» هل في الجنَّةِ طَلْحٌ؟ الجوابُ: نعم، قال تعالى: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ [الواقعة:٢٩] الطَّلْحُ يقولُ: هو الموز، وهو منضودٌ، كما نُضِدَتْ يدٌ بأصابعٍ وبَنَانٍ، فكما أنَّ اليدَ منضودةٌ بالأصابعِ هكذا مثلًا، أيضًا الموزُ هناك منضودٌ، لكن لاحظوا أنَّه ليس كنضدِ مَوْزِ الدُّنيا، بل هو أعظمُ بكثيرٍ، وألذُّ للعينِ، وأشهى للنَّفسِ.

٥١٣٢- أَوْ أَنَّـهُ شَـجَرُ البَـوَادِي مُـوقَرًا حِمْلًا مَكَـانَ الشَّـوْكِ في الأَغْصَـانِ

شجرُ البوادي معروفٌ، تجدونه في الشِّعابِ في البوادي، وهو ذو شَوْكٍ عظيمٍ، وشَوْكُه مثلُ الإبرِ؛ إِذَنْ في تفسيرِ الطَّلْحِ قولان: القولُ الأوَّلُ: أنَّ الطَّلْحَ المنضودَ هو الموزُ، والقول الثَّاني: أنَّه شجرُ البوادي، لكن بدلًا من الشَّوْكِ يكونُ مُوقَرًا من الثِّمارِ.

٥١٣٣- وَكَذَلِكَ الرُّمَّانُ وَالأَعْنَـابُ وِالنْــ ـنَخْلُ الَّتِـي مِنْهَـا القُطُـوفُ دَوَانِ

يعني: ممَّا له نظيرٌ في الدُّنيا: الرُّمَّانُ والأعنابُ والنَّخلُ التي منها القطوفُ دوانٍ، فالرُّمَّانُ قال اللهُ تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرَّحمن:٦٨]، وأمَّا الأعنابُ فقال تعالى: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ [النَّبأ:٣٢]، فهذا عنبٌ في الآخرةِ.

٥١٣٤- هَـذَا وَنَـوْعٌ مَـا لَـهُ في هَـذِه الـدْ دُنْيَـا نَظِـيرٌ كَـيْ يُـرَى بِعِيَـانِ

٥١٣٥- يَكْفِـي مِـنَ التَّعْـدَادِ قَـوْلُ إِلَــهِنَا مِــنْ كُــلِّ فَاكِهَــةٍ بِهَـا زَوْجَـانِ

كُلُّ ما يتفكَّهُ به الإنسانُ ممَّا يُوجَدُ في الدُّنيا وممَّا لا يُوجَدُ فيها زوجان، والزَّوْجانِ هما الصِّنفان؛ يعني: أنَّهما صنفان متنوِّعان من كُلِّ فاكهةٍ.

فإن قال قائلٌ: هل قولُ المؤلِّف: «**قَوْلُ إِلَـهِنَا: مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ بِهَا زَوْجَانِ**»، هل هذا يدلُّ على أنَّ ابنَ القيِّم يرى جوازَ نقلِ القرآنِ بالمعنى؟

الجوابُ: لعلَّه أراد الإشارةَ، وإلَّا فلفظُ الآيةِ هو لفظُ الآيةِ: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوۡجَانِ﴾ [الرَّحمن:٥٢]، لكن كلمة «**بها**» هي التي أوجبت الإشكالَ.

وعلى كُلِّ حالٍ لعلَّه أراد أنَّ زيادةَ «بِهَا» من أجلِ الوزنِ، وأنَّه أَرَادَ لفظَ الآيةِ، أو أنَّه أَرَادَ الإشارةَ إلى الآيةِ فقط، وهو الظَّاهرُ.

٥١٣٦- وَأُتُــوا بِــهِ مُتَشَــابِهًا في اللَّــوْنِ مُخْـــ ـــتَلِفَ الطُّعُــومِ فَــذَاكَ ذُو أَلْــوَانِ

قَوْلُهُ: «**وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا**» قال اللهُ تعالى في سورة «البقرة»: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗا﴾ [البقرة:٢٥]، لكن فِيمَ يكونُ التَّشابهُ؟ يقولُ رحمه الله: فيها أقوالٌ: «**مُتَشَابِهًا في اللَّوْنِ مُخْتَلِفَ الطُّعُومِ فَذَاكَ ذُو أَلْوَانِ**»؛ يعني: يُؤْتَى بالفواكهِ متشابهةً، إذا رَأَيْتَها ظَنَنْتَهَا شيئًا واحدًا، فإذا أَكَلْتَهَا وَجَدْتَهَا تختلفُ في طعمِها، وهذا أعتقدُ أنَّه يكونُ فيه انبِساطٌ للنَّفسِ أن يكونَ شيءٌ واحدٌ نظرًا لكنَّه يختلفُ طعمًا.

تخيَّل الآن أنَّ بين يديك طبقًا فيه فاكهةٌ تظنُّها شيئًا واحدًا، ثُمَّ إذا أَخَذْتَ كُلَّ واحدةٍ فإذا هي تختلفُ عن الأخرى، يكونُ هذا ألذَّ ممَّا لو كان الطَّبَقُ فيه صِنفٌ واحدٌ؛ لأنَّك تقولُ مثلًا في نفسِك: «**سبحان الله! هذان يُشْبِهَان بعضهما بعضًا، ومع ذلك يختلفان في الطَّعمِ والملمسِ «اللِّين» وغزارةِ الماءِ، وما أشبه ذلك**».

٥١٣٧- أَوْ أَنَّــهُ مُتَشَــابِهٌ في الإِسْــمِ مُخْـــ ـــتَلِفَ الطُّعُــومِ فَــذَاكَ قَــوْلٌ ثَــانِ

قَوْلُهُ: «**مُتَشَابِهٌ**» بالرَّفعِ؛ لأنَّه خبرُ «**أنَّ**»، وفي نسخةٍ: «**مُتشَابِهًا**» بالنَّصبِ، فيكونُ أتى به المؤلِّفُ على سبيلِ الحكايةِ؛ لأنَّه في القرآنِ منصوبٌ.

قَوْلُهُ: «فَذَاكَ قَوْلٌ ثَانِي» الأَوَّلُ: متشابهٌ في اللَّونِ، وهذا متشابهٌ في الاسمِ لكنْ طعمُه يختلفُ، الرُّمَّانُ مثلًا الاسمُ واحدٌ والطَّعْمُ يختلفُ.

٥١٣٨- أَوْ أَنَّـــهُ وَسَـــطٌ خِيَـــارٌ كُلُّـــهُ ... فَالفَحْـــلُ مِنْـــهُ لَـــيْسَ ذَا ثُنْيَـــانِ

المتشابه بمعنى: الوسط، ولَعَلَّ المؤلِّفَ أَخَذَه من قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزُّمر:٢٣]؛ أي: يُشْبِهُ بعضُه بعضًا.

٥١٣٩- أَوْ أَنَّـــهُ لِثِـــمَارِنَا ذِي مُشْـــبَهٍ ... فِي اسْـــمٍ وَلَـــوْنٍ لَـــيْسَ يَخْتَلِفَـــانِ

يعني: متشابهًا، يُشْبِهُ ما عندنا في الدُّنيا، ولكن لا شكَّ أنَّه يخالفُه؛ ولهذا قال بعدها:

٥١٤٠- لَكِـــنْ لِبَهْجَتِهَـــا وَلَـــذَّةِ طَعْمِهَـــا ... أَمْـــرٌ سِـــوَى هَـــذَا الَّـــذِي تَجِـــدَانِ

٥١٤١- فَيَلَـــذُّهَا فِي الأَكْـــلِ عِنْـــدَ مَنَالِـــهَا ... وَتَلَـــذُّهَا مِـــنْ قَبْلِـــهِ العَيْنَـــانِ

* * *

٥١٤٢- قَالَ ابْنُ عَبَّـاسٍ وَمَـا بِالـجَنَّةِ الْـ ... ـعُلْيَا سِـوَى أَسْـمَاءِ مَـا تَرَيَـانِ

٥١٤٣- يَعْنِـي الـحَقَائِقُ لا تُـمَاثِلُ هَـذِهِ ... وَكِلاهُمَـا فِي الإِسْـمِ مُتَّحِـدَانِ

٥١٤٤- يَا طِيبَ هَاتِيـكَ الثِّـمَارِ وَغَرْسِـهَا ... فِي الـمِسْكِ ذَاكَ التُّرْبِ لِلْبُسْـتَانِ

٥١٤٥- وَكَـذَلِكَ الـمَاءُ الَّـذِي يُسْقَى بِـهِ ... يَـا طِيـبَ ذَاكَ الـوَرْدِ لِلظَّمْـآنِ

٥١٤٦- وَإِذَا تَنَاوَلَـتِ الثِّـمَارَ أَتَـتْ نَظِيـ ... ـرَتُهَا فَحَلَّـتْ دُونَهَـا بِمَكَـانِ

٥١٤٧- لَـمْ تَنْقَطِعْ أَبَدًا وَلَـمْ تَرْقُـبْ نُـزُو ... لَ الشَّـمْسِ مِـنْ حَمَـلٍ إِلَى مِيـزَانِ

٥١٤٨- وَكَذَاكَ لَمْ تَمْنَعْ وَلَمْ تَحْتَجْ إِلَى ... أَنْ تَرْتَقِي لِلقِنْوِ فِي العِيدَانِ

٥١٤٩- بَلْ ذُلِّلَتْ تِلْكَ القُطُوفُ فَكَيْفَمَا ... شِئْتَ انْتَزَعْتَ بِأَسْهَلِ الإِمْكَانِ

٥١٥٠- وَلَقَدْ أَتَى أَثَرٌ بِأَنَّ السَّاقَ مِنْ ... ذَهَبٍ رَوَاهُ التِّرْمِذِيْ بِبَيَانِ

٥١٥١- قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَهَاتِيكَ الجُذُو ... عُ زُمُرُّدٌ مِنْ أَحْسَنِ الأَلْوَانِ

٥١٥٢- وَمُقَطَّعَاتُهُمُ مِنَ الكَرْمِ الَّذِي ... فِيهَا وَمِنْ سَعَفٍ مِنَ العِقْيَانِ

٥١٥٣- وَثِمَارُهَا مَا فِيهِ مِنْ عَجَمٍ كَأَمْـ ... ـثَالِ القِلَالِ فَجَلَّ ذُو الإِحْسَانِ

٥١٥٤- وَظِلَالُهَا مَمْدُودَةٌ لَيْسَتْ تَقِي ... حَرًّا وَلَا شَمْسًا وَأَنَّى ذَانِ

٥١٥٥- أَوَمَا سَمِعْتَ بِظِلِّ أَصْلٍ وَاحِدٍ ... فِيهِ يَسِيرُ الرَّاكِبُ العَجْلَانِ

٥١٥٦- مِئَةٌ سِنِينًا قُدِّرَتْ لَا تَنْقَضِي ... هَذَا لِعُظْمِ الأَصْلِ وَالأَفْنَانِ

٥١٥٧- وَلَقَدْ رَوَى الخُدْرِيُّ أَيْضًا أَنَّ طُو ... بَى قَدْرُهَا مِئَةٌ بِلَا نُقْصَانِ

٥١٥٨- تَتَفَتَّحُ الأَكْمَامُ فِيهَا عَنْ لِبَا ... سِهِمُ بِمَا شَاؤُوا مِنَ الأَلْوَانِ

الشرحُ

٥١٤٢- قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمَا بِالجَنَّةِ الْـ ... ـعُلْيَا سِوَى أَسْمَاءِ مَا تَرَيَانِ

يعني: ليس في الجنَّةِ ممَّا في الدُّنيا إلَّا الأسماء، فالرُّمَّانُ مثلًا ليس معناه أنَّ رُمَّانَ الجنَّةِ كرمَّانِنا، بل اسمُ الرُّمَّانِ والحقيقةُ تختلفُ؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السَّجدة:١٧]، وقال -سبحانه وتعالى- في الحديثِ القدسيِّ: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ،

وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(١)، ولو كان ما هناك كالذي هنا لكُنَّا نعلمُ ما فيها من قُرَّةِ الأعينِ؛ ولهذا قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «لَيْسَ فِي الجَنَّةِ شَيْءٌ يُشْبِهُ مَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا الأَسْمَاءَ»(٢).

٥١٤٣- يَعْنِي الحَقَائِقُ لا تُمَاثِلُ هَذِهِ ... وَكِلاهُمَا فِي الإِسْمِ مُتَّحِدَانِ

قَوْلُهُ: «مُتَّحِدَانِ»، وفي نسخةٍ: «مُتَّفِقَانِ»، والمعنى واحد.

٥١٤٤- يَا طِيبَ هَاتِيكَ الثِّمَارِ وَغَرْسِهَا ... فِي المِسْكِ ذَاكَ التُّرْبِ لِلبُسْتَانِ

٥١٤٥- وَكَذَلِكَ المَاءُ الَّذِي يُسْقَى بِهِ ... يَا طِيبَ ذَاكَ الوَرْدِ لِلظَّمْآنِ

لأنَّ طِيبَ الثِّمارِ يكونُ من طِيبِ الأرضِ ومن طيبِ الماءِ، أرضُها طَيِّبَةٌ لأنَّها مسكٌ، أمَّا الماءُ فهو غيرُ آسنٍ.

٥١٤٦- وَإِذَا تَنَاوَلْتَ الثِّمَارَ أَتَتْ نَظِيـ ... ـرَتُهَا فَحَلَّتْ دُونَهَا بِمَكَانِ

سبحان الخلَّاقِ العليمِ! إذا تَنَاوَلْتَ الثَّمرةَ من الشَّجرةِ نَبَتَ فورًا مكانها ثمرةٌ بدون تعبٍ وبدون انتظارٍ إلى زمنٍ؛ ولهذا يقولُ: «حَلَّتْ دُونَهَا بِمَكَانِ».

٥١٤٧- لَمْ تَنْقَطِعْ أَبَدًا وَلَمْ تَرْقُبْ نُزُو ... لَ الشَّمْسِ مِنْ حَمَلٍ إِلَى مِيزَانِ

الثِّمارُ عندنا لها أوقاتٌ معلومةٌ، في غيرِها لا تُوجَدُ، أمَّا هناك -اللَّهُمَّ اجعلنا ممَّن يَجنيها- فإنَّك إذا أَخَذْتَ ثمرةً نَبَتَ بدلها في مكانِها، ومع هذا يقولُ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٠٧٢)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤).

(٢) أخرجه أبو نعيم في صفة الجنة (٢/ ٢١)، والضياء في المختارة (١٠/ ١٦، رقم ٦) كلاهما عن ابن عباس موقوفًا.

٥١٤٨- وَكَذَاكَ لَـمْ تَمْنَـعْ وَلَـمْ تَحْتَجْ إِلَى أَنْ تَرْتَقِـي لِلقِنْـوِ في العِيـدَانِ

يعني: لا يُوجَدُ أحدٌ يمنعُك يقولُ: انتظر، ولا تحتاجُ إلى أنْ تصعدَ إلى القِنو، والقنوُ: ما نُسمِّيه نحن القنا، فلا يحتاجُ أن تَرْقَى مثلًا للنَّخلةِ أو للشَّجرةِ؛ لأنَّ قطوفَها دانيةٌ.

٥١٤٩- بَلْ ذُلِّلَتْ تِلْـكَ القُطُـوفُ فَكَـيْفَمَا شِئْتَ انْتَزَعْـتَ بِأَسْـهَلِ الإِمْكَـانِ

اللهُ أكبرُ، يقولُ العلماءُ: الإنسانُ إذا رأى ثمرةً من ثمارِ الجنَّةِ واشتهاها تدلَّى الغصنُ إليه، وأخذ الثَّمرَة، سواء كان جالسًا أم مضطجعًا أم على أيِّ حالٍ، قال اللهُ تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:٢٣]، وقال: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان:١٤].

٥١٥٠- وَلَقَـدْ أَتَـى أَثَـرٌ بِـأَنَّ السَّـاقَ مِـنْ ذَهَـبٍ رَوَاهُ التِّرْمِـذِيْ بِبَيَـانِ

ساقُ الشَّجرةِ من الذَّهبِ، أمَّا الجذوعُ فقال:

٥١٥١- قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَهَاتِيـكَ الـجُذُو عُ زُمُـرُّدٌ مِـنْ أَحْسَـنِ الأَلْـوَانِ

لو تصوَّرت الآن أنَّ أمامَك شجرةً ساقُها ذهبٌ، وجذعُها من الزُّمُرُّدِ، تَخَيَّلْتَ منظرًا عجيبًا يُبهِجُ النَّفسَ مع أنَّ الذَّهبَ الذي هناك ليس كالذَّهبِ الذي هنا، ولا الزُّمُرُّدُ كالزُّمُرُّدِ، سبحان الله! كيف نميلُ إلى الدُّنيا، بل كيف نُعيش بها ونحن نؤمنُ ونُشْهِدُ اللهَ أَنَّنا نُؤمن بهذا الذي وَعَدَ اللهُ للمتَّقين، ومع ذلك كأنَّنا في سَكْرَةٍ، كأنَّنا في غفلةٍ، فنسألُ اللهَ أن يعاملَنا بالعفوِ.

٥١٥٢- وَمُقَطَّعَـاتُهُمُ مِـنَ الكَـرْمِ الَّـذِي فِيهَـا وَمِـنْ سَـعَفٍ مِـنَ العِقْيَـانِ

قَوْلُهُ: «مُقَطَّعَاتُهُمْ»؛ يعني: ما يلبسون من المقاطعِ.

قَوْلُهُ: «الكَرْمِ» هو: العنبُ، وله أوراقٌ معروفةٌ.

فهم يأخذون مُقَطَّعَاتِهم من هذا الكَرْمِ، إِذَنْ الكَرْمُ فيه عنبٌ وفيه لباسٌ.

٥١٥٣- وَثِمَارُهَا مَا فِيهِ مِنْ عَجَمٍ كَأَمْـ ... ـثَالِ القِلالِ فَجَلَّ ذُو الإِحْسَانِ

فثمارُها ما فيه من عَجَمٍ -أي: نوى- كَأَمْثَالِ القِلَالِ، والقِلَالُ هي جَرَّةٌ يُجْعَلُ فيها الماءُ، لكنَّها جرَّةٌ كبيرةٌ، هذي ثمارُها، أنتم الآن لو تصوَّرتم هذه الثِّمارَ لقلتُم: هذه كبيرةٌ، لا تلتَذُّ لها النَّفسُ، لكن إذا كان طولُ الإنسانِ ستِّين ذراعًا وعرضُه سبعةَ أذرعٍ تكونُ هذه الثَّمرةُ مناسبةً ولا شكَّ، ثُمَّ لو فرضنا أنَّ أحدًا في الجنَّةِ لم يتلذَّذ لرؤيةِ شيءٍ ما أو لطعمِه فسوف يتحوَّلُ إلى ما يتلذَّذه، قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزُّخرف:٧١].

٥١٥٤- وَظِلالُـهَا مَمْدُودَةٌ لَيْسَتْ تَقِي ... حَرًّا وَلا شَمْسًا وَأَنَّى ذَانِ

قَوْلُهُ: «وَأَنَّى ذَانِ»؛ أي: الحرُّ والشَّمسُ، والاستفهامُ هنا للنَّفي.

يعني: ليس فيها شمسٌ ولا فيها حرٌّ، بل هو ظِلٌّ ممدودٌ، قال أهلُ العلمِ: كما يكونُ الظِّلُّ فيما بين طلوعِ الفجرِ وطلوعِ الشَّمسِ؛ أي: نورٌ لكن لا ترى شمسًا.

٥١٥٥- أَوَمَا سَمِعْتَ بِظِلِّ أَصْلٍ وَاحِدٍ ... فِيهِ يَسِيرُ الرَّاكِبُ العَجْلانِ

٥١٥٦- مِئَةٌ سِنِينًا قُدِّرَتْ لا تَنْقَضِي ... هَذَا لِعُظْمِ الأَصْلِ وَالأَفْنَانِ

يعني: فيها شجرةٌ يسيرُ الرَّاكبُ العجلانُ فيها مئةَ سنةٍ لا يقطعُ ظِلَّها(١)،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦١٨٦)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمه وأهلها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، رقم (٢٨٢٧).

وهي شجرةٌ من أشجارٍ كثيرةٍ في مكانِ صاحبِ الجنَّةِ.

٥١٥٧- وَلَقَدْ رَوَى الـخُدْرِيُّ أَيْضًا أَنَّ طُو بَـى قَـدْرُهَا مِئَـةٌ بِـلا نُقْصَـانِ

٥١٥٨- تَتَفَـتَّحُ الأَكْـمَامُ فِيهَـا عَـنْ لِبَـا سِـهِمُ بِـمَا شَـاؤُوا مِـنَ الأَلْـوَانِ

اللهُ أكبرُ، شجرةُ طوبى كبيرةٌ واسعةُ طويلةٌ فيها أكمامٌ مثل: كُم طَلْعِ النَّخلِ، تنفتحُ عن لباسٍ متنوِّعٍ في ألوانِه يلبسُه أهلُ الجنَّةِ.

اللَّهُمَّ اجعلنا ممَّن يسكنُها بِمَنِّكَ وكرمِكَ.

* * *

فصــل

في سَمَاعِ أَهْلِ الجَنَّةِ

٥١٥٩- قَـالَ ابْـنُ عَبَّـاسٍ وَيُرْسِـلُ رَبُّنَـا رِيحًـا تَهُـزُّ ذَوَائِـبَ الأَغْصَـانِ
٥١٦٠- فَتُثِيرُ أَصْـوَاتًا تَلَـذُّ لِـمَسْمَعِ الْـ إِنْسَـانِ كَـالنَّغَمَاتِ بِـالأَوْزَانِ
٥١٦١- يَـا لَـذَّةَ الأَسْـمَاعِ لا تَتَعَـوَّضِي بِلَـذَاذَةِ الأَوْتَـارِ وَالعِيـدَانِ
٥١٦٢- أَوَمَا سَـمِعْتِ سَـمَاعَهُمْ فِيهَـا غِنَـا ءَ الـحُورِ بِالأَصْوَاتِ وَالأَلْـحَانِ
٥١٦٣- وَاهًـا لِـذَيَّاك السَّـمَاعِ فَإِنَّـهُ مُلِئَـتْ بِـهِ الأُذْنَـانِ بِالإِحْسَـانِ
٥١٦٤- وَاهًـا لِـذَيَّاك السَّـمَاعِ وَطِيبِـهِ مِـنْ مِثْـلِ أَقْـمَارٍ عَـلَى أَغْصَـانِ
٥١٦٥- وَاهًـا لِـذَيَّاك السَّـمَاعِ فَكَـمْ بِـهِ لِلْقَلْبِ مِنْ طَـرَبٍ وَمِـنْ أَشْـجَانِ
٥١٦٦- وَاهًـا لِـذَيَّاك السَّـمَاعِ وَلَـمْ أَقُـلْ ذَيَّـاكَ تَصْـغِيرًا لَـهُ بِلِسَـانِ
٥١٦٧- مَا ظَنُّ سَامِعِهِ بِصَوْتٍ أَطْيَـبِ الْـ أَصْوَاتِ مِنْ حُورِ الـجِنَانِ حِسَانِ
٥١٦٨- نَحْـنُ النَّـوَاعِمُ وَالْـخَوَالِدُ خَيْـرَا تٌ كَامِلاتُ الـحُسْنِ وَالإِحْسَانِ
٥١٦٩- لَسْنَا نَمُـوتُ وَلا نَخَـافُ وَمَـا لَنَـا سَخَطٌ وَلا ضِـغْنٌ مِـنَ الأَضْـغَانِ
٥١٧٠- طُوبَى لِـمَنْ كُنَّـا لَـهُ وَكَـذَاكَ طُـو بَـى لِلَّـذِي هُـوَ حَظُّنَـا الـحَقَّانِي
٥١٧١- فِي ذَاكَ آثَـارٌ رُوِيـنَ وَذِكْرُهَـا فِي «التِّرْمِذِيِّ» وَ«مُعْجَمِ الطَّبَرَانِي»

٥١٧٢- وَرَوَاهُ يَحْيَى شَـيْخُ الَاوْزَاعِـيِّ تَفْـ ـسِيرًا لِلَفْظَةِ ﴿يُحۡبَرُونَ﴾ أَغَـانِ

الشـرحُ

هذا الفصلُ في سَماعِ أهلِ الجنَّةِ، وَذَكَرَ -رحمه اللهُ- أنَّه نوعان:

النَّوعُ الأوَّلُ: من الأشجارِ؛ حيث يُرْسِلُ اللهُ عزَّ وجلَّ ريحًا تَهُزُّ ذوائبَها، فتُثير أصواتًا لذيذةً على مَسْمَعِ الإنسانِ؛ كأنَّها النَّغماتُ بالأوزانِ.

والدَّليلُ على هذا: أثرٌ عن ابنِ عبَّاسٍ[1] رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وابنُ عبَّاسٍ ممَّن عُرِفَ بالأخْذ عن بني إسرائيلَ، ولكن نحن عندنا آيةٌ في كتابِ الله وهي قولُه تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ [الزُّخرف:٧١]؛ فمثلًا: إذا اشتهى الإنسانُ شيئًا من هذا فلا مانعَ من أن يكونَ، ولكن قد يُقَالُ: إنَّ الإنسانَ لا يشتهي إلَّا شيئًا جعَلَه اللهُ في هذه الجنَّاتِ.

النَّوعُ الثَّاني: غِناءُ الحورِ العِينِ، نسألُ اللهَ أنْ يجعلَني وإيَّاكم ممَّن يسمعُه.

قَوْلُهُ: «**وَاهًا**»؛ يعني: عجبًا لهذا.

قَوْلُهُ: «**وَلَـمْ أَقُـلْ ذَيَّاكَ تَصْغِيرًا لَـهُ بِلِسَانِ**»؛ أي: لـم يقل هذا تصغيرًا له بلسانٍ.

* * *

(١) يعني حديث: «فِي الْـجَنَّةِ شَجَرَةٌ عَلَى سَاقٍ قَدْرَ مَا يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ، فَيَتَحَدَّثُونَ فِي ظِلِّهَا، فَيَشْتَهِي بَعْضُهُمْ وَيَذْكُرُ لَـهْوَ الدُّنْيَا فَيُرْسِلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رِيحًا مِنَ الْـجَنَّةِ فَتُحَرِّكُ تِلْكَ الشَّجَرَةَ بِكُلِّ لَـهْوٍ كَانَ فِي الدُّنْيَا». أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة (ص:١٨٨) موقوفًا على ابن عباس.

٥١٧٣- نَزِّهْ سَمَاعَكَ إِنْ أَرَدْتَ سَمَاعَ ذَيْـ ـيَاكَ الغِنَا عَنْ هَذِهِ الأَلْحَانِ

٥١٧٤- لا تُؤْثِرِ الأَدْنَى عَلَى الأَعْلَى فَتُحْـ ـرَمَ ذَا وَذَا يَا ذِلَّةَ الحِرْمَانِ

٥١٧٥- إِنَّ اخْتِيَارَكَ لِلسَّمَاعِ النَّازِلِ الْـ أَدْنَى عَلَى الأَعْلَى مِنَ النُّقْصَانِ

٥١٧٦- وَاللهِ إِنَّ سَمَاعَهُمْ فِي القَلْبِ وَالْـ إِيمَانِ مِثْلُ السُّمِّ فِي الأَبْدَانِ

٥١٧٧- وَاللهِ مَا انْفَكَّ الَّذِي هُوَ دَأْبُهُ أَبَدًا مِنَ الإِشْرَاكِ بِالرَّحْمَنِ

٥١٧٨- فَالقَلْبُ بَيْتُ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ حُبًّا وَإِخْلاصًا مَعَ الإِحْسَانِ

٥١٧٩- فَإِذَا تَعَلَّقَ بِالسَّمَاعِ أَصَارَهُ عَبْدًا لِكُلِّ فُلانَةٍ وَفُلانِ

٥١٨٠- حُبُّ الكِتَابِ وَحُبُّ أَلْحَانِ الغِنَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ

٥١٨١- ثَقُلَ الكِتَابُ عَلَيْهِمُ لَمَّا رَأَوْا تَقْيِيدَهُ بِشَرَائِعِ الإِيمَانِ

٥١٨٢- وَاللَّهْوُ خَفَّ عَلَيْهِمُ لَمَّا رَأَوْا مَا فِيهِ مِنْ طَرَبٍ وَمِنْ أَلْحَانِ

٥١٨٣- قُوتُ النُّفُوسِ وَإِنَّمَا القُرْآنُ قُو تُ القَلْبِ أَنَّى يَسْتَوِي القُوتَانِ

٥١٨٤- وَلِذَا تَرَاهُ حَظَّ ذِي النُّقْصَانِ كَالْـ ـجُهَّالِ وَالصِّبْيَانِ وَالنِّسْوَانِ

٥١٨٥- وَأَلَذُّهُمْ فِيهِ أَقَلُّهُمُ مِنَ الْـ ـعَقْلِ الصَّحِيحِ فَسَلْ أَخَا العِرْفَانِ

٥١٨٦- يَا لَذَّةَ الفُسَّاقِ لَسْتِ كَلَذَّةِ الْـ أَبْرَارِ فِي عَقْلٍ وَلا قُرْآنِ

الشرحُ

٥١٧٣- نَزِّهْ سَمَاعَكَ إِنْ أَرَدْتَ سَمَاعَ ذَيْـ ـيَاكَ الغِنَا عَنْ هَذِهِ الأَلْحَانِ

٥١٧٤- لا تُؤْثِرِ الأَدْنَى عَلَى الأَعْـلَى فَتُحْـ ـــرَمَ ذَا وَذَا يَـا ذِلَّـةَ الـحِرْمَانِ

قَوْلُهُ: «فَتُحْرَمَ ذَا وَذَا»؛ يعني: الأعلى والأدنى؛ لأنَّ من آثَرَ الحياةَ الدُّنيا حُرِمَ الدُّنيا والآخرةَ؛ لأنَّه لم يستفد من دنياه، ودنياه سوف تنقطعُ وتزولُ، وإذا آثَرَ الآخرةَ على الدُّنيا رَبِحَ الدُّنيا والآخرةَ؛ ولهذا أَقْسَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ بالعصرِ فقال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣].

٥١٧٥- إِنَّ اخْتِيَـارَكَ لِلسَّـمَاعِ النَّـازِلِ الْـ أَدْنَـى عَـلَى الأَعْـلَى مِـنَ النُّقْصَـانِ

قَوْلُهُ: «مِنَ النُّقْصَانِ»؛ أي: من نقصانِ العقلِ والدِّينِ.

الذي يختارُ سماعَ الأدنى النَّازلِ على الأعلى ناقصُ العقلِ وناقصُ الدِّينِ.

٥١٧٦- وَاللهِ إِنَّ سَـمَاعَهُمْ فِي القَلْـبِ وَالْـ إِيـمَانِ مِثْـلُ السُّـمِّ فِي الأَبْـدَانِ

يعني: يَسْرِي في القلبِ فيفسدُه كما يُفْسِدُ السُّمُّ البدنَ، السُّمُّ إذا سَرَى في البدنِ لا يستطيعُ الإنسانُ إمساكَه، بل يَسري في البدنِ بسرعةٍ وبقوَّةٍ، وانظر إلى اللَّديغِ إذا لُدِغَ كيف يَسْرِي السُّمُّ في بدنِهِ ولا يستطيعُ أحدٌ أن يُوقِفَه، سماعُ الأغاني -والعياذُ باللهِ- يَسْرِي في القلبِ فيُفسدُه وفي الإيمانِ فيفسدُه كما يَسْرِي السُّمُّ في الأبدانِ.

وهو هنا -رحمه اللهُ- يُحَذِّرُ من سماعِ الأغاني المحرَّمةِ في هذه الدُّنيا، ويقولُ:

٥١٧٧- وَاللهِ مَـا انْفَـكَّ الَّـذِي هُـوَ دَأْبُـهُ أَبَــدًا مِـــنَ الإِشْرَاكِ بِـالرَّحْمَنِ

أَقْسَمَ -رحمه اللهُ- أنَّ الذي يكونُ دأبُه الغناءَ لا ينفكُّ من الإشراكِ بالرَّحمنِ، لماذا؟

بَيَّنَ فقال:

٥١٧٨- فَالقَلْبُ بَيْتُ الـرَّبِّ جَـلَّ جَلالُـهُ حُبًّـا وَإِخْلاصًـا مَـعَ الإِحْسَـانِ

٥١٧٩- فَـإِذَا تَعَلَّـقَ بِالسَّـمَاعِ أَصَـارَهُ عَبْـدًا لِكُـلِّ فُلانَـةٍ وَفُـلانِ

لأنَّ القلبَ يتعلَّقُ بهذا الغناءِ والعِياذُ بالله، ويكونُ هو هاجسَه ليلًا ونهارًا، قائمًا وقاعدًا؛ ولهذا تجد المفتونين بأهلِ الغناءِ لا يكونُ في قلوبِهم إلَّا أولئك القومُ الذي فُتِنُوا بهم، فتكون محبَّتُهم مزاحمةً لمحبَّةِ الله، ويكونون مشركين مع الله في المحبَّةِ، نسألُ اللهَ العافيةَ، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، والشِّركُ في المحبَّةِ من أشدِّ أنواعِ الشِّركِ على القلبِ والعياذُ بالله، وهذا وجهُ قولِه: «**وَاللهِ مَا انْفَكَّ الَّذِي هُو دَأْبُهُ أَبَدًا مِنَ الإِشْرَاكِ بِالرَّحْمَنِ**».

٥١٨٠- حُبُّ الكِتَابِ وَحُبُّ أَلْـحَانِ الغِنَـا فِي قَلْـبِ عَبْـدٍ لَـيْسَ يَجْتَمِعَـانِ

قَوْلُهُ: «**الكِتَابِ**»؛ يعني: القرآنَ.

يقول: «**حُبُّ الكِتَابِ وَحُبُّ أَلْـحَانِ الغِنَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ لَيْسَ يَجْتَمْعَانِ**»، فهما نقيضان أو ضدَّان؟ الجوابُ: ضدَّان؛ لأنَّه قد يُوجَدُ حُبٌّ ثالثٌ غير ألحانِ الغِناء ولا القرآن، يُحِبُّ مثلًا القرآنَ وتطغى محبَّةُ المالِ على محبَّةِ الله، فالمهمُّ أنَّهما لا يجتمعان؛ لأنَّ حُبَّ القرآنِ يُوجِبُ للإنسانِ التَّعلُّقَ بالله عزَّ وجلَّ، بخلافِ حُبِّ الألحانِ.

٥١٨١- ثَقُـلَ الكِتَـابُ عَلَـيْهِمُ لَـمَّا رَأَوْا تَقْيِيـدَهُ بِشَـرَائِعِ الإِيـمَانِ

٥١٨٢- وَاللَّهْـوُ خَـفَّ عَلَـيْهِمُ لَـمَّا رَأَوْا مَا فِيـهِ مِـنْ طَـرَبٍ وَمِـنْ أَلْـحَانِ

إذا سَمِعُوا الألحانَ أَصْغَوْا واستمعوا، وإذا سَمِعُوا القرآنَ فكأنَّما يُصَبُّ في

آذانِهِم الآنُكُ؛ يعني: الرَّصاصَ المُذَابَ، والعياذُ بالله.

٥١٨٣- قُوتُ النُّفُوسِ وَإِنَّمَا القُرْآنُ قُو تُ القَلْبِ أَنَّى يَسْتَوِي القُوتَانِ

الطَّرَبُ والألحانُ هو قوتُ النُّفوسِ، أمَّا القرآنُ فهو قوتُ القلوبِ؛ ولذا قال: «أَنَّى يَسْتَوِي القُوتَانِ؟».

٥١٨٤- وَلِذَا تَرَاهُ حَظَّ ذِي النُّقْصَانِ كَالْـ ـجُهَّالِ وَالصِّبْيَانِ وَالنِّسْوَانِ

تَرَى الطَّرَبَ والألحانَ حظَّ ذي النُّقصانِ كَالجُهَّالِ والصِّبْيَانِ والنِّسوانِ، أمَّا العقلاءُ فإنَّهم يترفَّعون عنه ويهجرونه.

٥١٨٥- وَأَلَذُّهُمْ فِيهِ أَقَلُّهُمُ مِنَ الْـ ـعقْلِ الصَّحِيحِ فَسَلْ أَخَا العِرْفَانِ

قَوْلُهُ: «فَسَلْ أَخَا العِرْفَانِ» مَنْ أخو العرفانِ؟ الجوابُ: يريدُ نفسَه.

يقولُ: اسأَلْ خبيرًا بأنَّ ألذَّهم فيه أقلُّهم من العقلِ الصَّحيحِ.

٥١٨٦- يَا لَذَّةَ الفُسَّاقِ لَسْتِ كَلَذَّةِ الْـ أَبْرَارِ فِي عَقْلٍ وَلا قُرْآنِ

وَصَدَقَ رحمه اللهُ، لذَّةُ هؤلاء لذَّةُ جسدٍ تزولُ بزوالِ هذه اللَّذةِ، ويعقبُها حسرةٌ وندامةٌ وغِلٌّ في القلبِ لما لهذا الطَّربِ واللَّذَّةِ، لكن لذَّةُ الأبرارِ بخلاف لذلكِ؛ ولهذا قال بعضُ السَّلفِ: «لو يعلمُ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسُّيوفِ»(١)، اللَّهُمَّ اجعلنا من هؤلاء.

* * *

(١) هذا قول إبراهيم بن أدهم، كما في حلية الأولياء، لأبي نعيم (٧/ ٣٧٠).

فصــل

في أَنْهَارِ الجَنَّةِ

٥١٨٧- أَنْهَارُهَـا في غَـيْرِ أُخْـدُودٍ جَـرَتْ ... سُـبْحَانَ مُمْسِـكِهَا عَـنِ الفَيَضَـانِ

٥١٨٨- مِنْ تَحْتِهِمْ تَجْرِي كَمَا شَاؤُوا مُفَجْـ ... ـجَرَةً وَمَـا لِلنَّهْـرِ مِـنْ نُقْصَـانِ

٥١٨٩- عَسَلٌ مُصَـفًّى ثُـمَّ مَـاءٌ ثُـمَّ خَمْـ ... ـرٌ ثُـمَّ أَنْهَـارٌ مِـنَ الأَلْبَـانِ

٥١٩٠- وَاللهِ مَـا تِلْـكَ الْـمَوَادُ كَهَـذِهِ ... لَكِـنْ هُمَـا فِي اللَّفْـظِ يَجْتَمِعَـانِ

٥١٩١- هَــذَا وَبَيْـنَهُمَا يَسِـيرُ تَشَـابُهٍ ... وَهُـوَ اشْـتِرَاكٌ قَـامَ بِالأَذْهَـانِ

الشـرحُ

٥١٨٧- أَنْهَارُهَـا في غَـيْرِ أُخْـدُودٍ جَـرَتْ ... سُـبْحَانَ مُمْسِـكِهَا عَـنِ الفَيَضَـانِ

٥١٨٨- مِنْ تَحْتِهِمْ تَجْرِي كَمَا شَاؤُوا مُفَجْـ ... ـجَرَةً وَمَـا لِلنَّهْـرِ مِـنْ نُقْصَـانِ

سبحان الله! أنهارُ الجنَّةِ تجري بلا أخدودٍ، والأخدودُ هو الشَّيءُ القَائِمُ الذي يمنعُ الماءَ من الانحرافِ يمينًا أو يسارًا، وكذلك أيضًا من غيرِ أخاديدَ محفورةٍ تُحْفَرُ في الأرضِ، فليس لها أخدودٌ قَائِمَةٌ ولا محفورةٌ، تجري كما يشاءُ صاحبُها، يُصَرِّفُها حيث يشاءُ.

فإذا قال قائلٌ: كيف تجري في غيرِ أخدودٍ؟

فالجوابُ: أوَّلًا: أمورُ الآخرةِ لا تُقَاسُ بأمورِ الدُّنيا.

ثانيًا: نحن نُشَاهِدُ الآن السَّحابَ فيه المياهُ العظيمةُ؛ قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ [النُّور:٤٣]، فها نحن نشاهدُ في الجوِّ أبحرًا تجري بإذنِ الله عزَّ وجلَّ بدون أخاديدَ أو حفرٍ، كذلك أنهارُ الجنَّةِ تجري بغير أخدودٍ؛ يعني: لا يضعون أشياءَ تَرُدَّ الماءَ يمينًا أو شمالًا.

٥١٨٩- عَسَلٌ مُصَفًّى ثُمَّ مَاءٌ ثُمَّ خَمْـ ـرٌ ثُمَّ أَنْهَارٌ مِنَ الأَلْبَانِ

قَوْلُهُ: «ثُمَّ» للتَّرتيبِ الذِّكريِّ، وإلَّا فالآيةُ هي: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد:١٥].

وهذه الأنهارُ من عسلٍ مُصَفًّى، وماءٍ غيرِ آسنٍ، وخمرٍ لذَّةٍ للشَّاربين، ولبنٍ لم يتغيَّر طعمُه، فهي أنهارٌ بيدِ الله عزَّ وجلَّ، وليست بأوانٍ، وهذا شيءٌ عجيبٌ.

٥١٩٠- وَاللهِ مَا تِلْكَ الْمَوَادُ كَهَذِهِ لَكِنْ هُمَا فِي اللَّفْظِ يَجْتَمِعَانِ

موادُّ اللَّبنِ والعسلِ والماءِ والخمرِ ليست كموادِّ الدُّنيا، لكنَّها مشتركةٌ في اللَّفظِ فقط، أمَّا الحقيقةُ فتختلفُ كما تختلفُ الدُّنيا عن الآخرةِ، لكن بينهما اشتراكٌ في أصلِ المعنى؛ لأنَّه لولا هذا الاشتراكُ في أصلِ المعنى ما فُهِمَ المعنى، فأصلُ اللَّبنِ هو هو، لكن وصفُه ومادَّتُه ليست كوصفِ لبنِ الدُّنيا ومادَّتِه، كذلك أيضًا نقولُ في الماءِ والخمرِ والعسلِ.

٥١٩١- هَذَا وَبَيْنَهُمَا يَسِيرُ تَشَابُهٍ وَهُوَ اشْتِرَاكٌ قَامَ بِالأَذْهَانِ

يعني: أنَّ هذه الأصنافَ الأربعةَ ليست كالتي في الدُّنيا، بل بينهما فرقٌ عظيمٌ، اتَّفقا في اللَّفظِ واختلفا في الحقيقةِ والكُنهِ، لكن بينها اشتراكٌ يسيرٌ وهو

مُطْلَقُ الحلاوةِ في العسلِ، وكذلك في اللَّبنِ والبقيَّةِ، ولولا هذا القدرُ المشتركُ ما عرفنا ما هو العسل؟ وما هو الماء؟ وما هو الخمر؟ وما هو اللَّبن؟ لكن هذا القدرُ المشتركُ لابُدَّ منه.

كما أنَّ عِلْمَ الله عزَّ وجلَّ أعظمُ من عِلْمِ المخلوقِ، لكن بينه وبين علمِ المخلوقِ قدرٌ مشتركٌ وهو الإحاطةُ بالشَّيءِ، ولولا هذا القَدْرُ ما عرفنا معنى العلمِ، لكن يختلفُ علمُ الخالقِ عزَّ وجلَّ عن علمِ المخلوقِ كما اختلف الخالقُ عن المخلوقِ.

***

فصــل

في طَعَامِ أَهْلِ الجَنَّةِ

٥١٩٢- وَطَعَـامُهُمْ مَـا تَشْـتَهِيهِ نُفُوسُـهُمْ ... وَلُـحُومُ طَـيْرٍ نَـاعِمٍ وَسِـمَانِ

٥١٩٣- وَفَوَاكِـهٌ شَـتَّى بِحَسْـبِ مُنَـاهُمُ ... يَـا شَـبْعَةً كَمُلَـتْ لِـذِي الإِيـمَانِ

٥١٩٤- لَـحْمٌ وَخَمْـرٌ وَالنِّسَـا وَفَوَاكِـهٌ ... وَالطِّيـبُ مَـعْ رَوْحٍ وَمَـعْ رَيْحَـانِ

٥١٩٥- وَصِحَافُهُمْ ذَهَبٌ تَطُـوفُ عَلَـيْهِمُ ... بِـأَكُفِّ خُـدَّامٍ مِـنَ الوِلْـدَانِ

٥١٩٦- وَانْظُـرْ إِلَى جَعْـلِ اللَّـذَاذَةِ لِلْعُيُـو ... نِ وَشَـهْوَةٍ لِلـنَّفْسِ فِي القُـرْآنِ

٥١٩٧- لِلعَـيْنِ مِنْهَـا لَـذَّةٌ تَـدْعُو إِلَى ... شَـهَوَاتِهَا بِـالنَّفْسِ وَالأَمْـرَانِ

٥١٩٨- سَبَبُ التَّنَاوِلِ وَهْـوَ يُوجِـبُ لَـذَّةً ... أُخْـرَى سِـوَى مَـا نَالَـتِ العَيْنَـانِ

الشـرحُ

هذا معنى لطيفٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزُّخرف:٧١]، فالعينُ إذا نَظَرَتْ تَلَذَّذَتْ به، فإذا تَلَذَّذَتْ اشْتَهَت النَّفسُ، فإذا اشْتَهَت النَّفسُ تَنَاوَلَ الإنسانُ؛ ولهذا أحيانًا قد تُوجَدُ فاكهةٌ لا يشتهيها الإنسانُ؛ لأنَّه لم يتلذَّذ برؤيتِها مع أنَّه رُبَّما يكونُ طعمُها طَيِّبًا، فلابُدَّ أن تلتذَ العينُ بالرُّؤيةِ؛ لأجلِ أن تشتهيَ النَّفسُ، ثُمَّ يحصل التَّناولُ.

* * *

فصل

في شَرَابِهِمْ

٥١٩٩- يُسْقَوْنَ فِيهَا مِنْ رَحِيقٍ خَتْمُهُ ... بِالْمِسْكِ أَوَّلُهُ كَمِثْلِ الثَّانِي

٥٢٠٠- مِنْ خَمْرَةٍ لَذَّتْ لِشَارِبِهَا بِلا ... غَوْلٍ وَلا دَاءٍ وَلا نُقْصَانِ

٥٢٠١- وَالخَمْرُ فِي الدُّنْيَا فَهَذَا وَصْفُهَا ... تَغْتَالُ عَقْلَ الشَّارِبِ السَّكْرَانِ

٥٢٠٢- وَبِهَا مِنَ الأَدْوَاءِ مَا هِيَ أَهْلُهُ ... وَيَخَافُ مِنْ عَدَمٍ لِذِي الوِجْدَانِ

٥٢٠٣- فَنَفَى لَنَا الرَّحْمَنُ أَجْمَعَهَا عَنِ الْـ ... ـخَمْرِ الَّتِي فِي جَنَّةِ الحَيَوَانِ

الشرحُ

ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- أنَّ في خمرِ الدُّنيا أدواءً؛ يعني: أمراضًا كثيرةً؛ ومن هذه الأمراضِ: الخوفُ من زوالِ العقلِ؛ ولذا قال: «وَيَخَافُ مِنْ عَدَمٍ لِذِي الوِجْدَانِ»؛ يعني: أنَّها قد تهلكُهُ، اللَّهُمَّ عافِنا.

* * *

٥٢٠٤- وَشَرَابُهُمْ مِنْ سَلْسَبِيلٍ مَزْجُهُ الْـ ... ـكَافُورُ ذَاكَ شَرَابُ ذِي الإِحْسَانِ

٥٢٠٥- هَذَا شَرَابُ أُولِي اليَمِينِ وَلَكِنِ الْـ ... أَبْرَارُ شِرْبُهُمُ شَرَابٌ ثَانِ

٥٢٠٦- يُدْعَى بِتَسْنِيمٍ سَنَامُ شَرَابِهِمْ ... شُرْبُ المُقَرَّبِ خِيرَةِ الرَّحْمَنِ

٥٢٠٧- صَفَّى الـمُقَرَّبُ سَعْيَهُ فَصَفَا لَـهُ ذَاكَ الشَّـرَابُ فَتِلْـكَ تَصْـفِيَتَانِ

٥٢٠٨- لَكِنَّ أَصْحَابَ اليَمِـينِ فَأَهْـلُ مَـزْ جٍ بِالـمُبَاحِ وَلَـيْسَ بِالعِصْـيَانِ

٥٢٠٩- مُزِجَ الشَّرَابُ لَـهُمْ كَمَا مَزَجُوا هُمُ الْـ أَعْمَالَ ذَاكَ الـمَزْجِ بِالـمِيزَانِ

٥٢١٠- هَـذَا وَذُو التَّخْلِيطِ مُرْجًـى أَمْـرُهُ وَالـحُكْمُ فِيـهِ لِرَبِّـهِ الـدَّيَّانِ

الشرحُ

اللهُ أكبرُ، الجزاءُ من جنسِ العملِ، الأبرارُ شرابُهم كما قال تعالى: ﴿مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطفِّفين:٢٧-٢٨]، والتَّسنيمُ مأخوذٌ من السَّنامِ، وسَنَامُ البعيرِ: أعلاه، فهو شرابٌ أعلى الشَّرابِ، وليس فيه مزجٌ، وأمَّا الآخرين الذين دونهم فإنَّ فيه مزجًا وهو الكافورُ، والكافورُ لاشكَّ أنَّه ليس كالتَّسنيمِ؛ فلهذا يقولُ رحمه اللهُ: «**مُزِجَ الشَّرَابُ لَـهُمْ كَمَا مَزَجُوا هُمُ الأَعْمَالَ ذَاكَ المَزْجِ بِالمِيزَانِ**»، والجزاءُ من جنسِ العملِ.

* * *

فصــل

في مَصْرِفِ طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ، وَهَضْمِهِ

٥٢١١- هَـذَا وَتَصْـرِيفُ الـمَآكِلِ مِـنْهُمُ ... عِرْقٌ يَفِـيضُ لَـهُمْ مِـنَ الأَبْـدَانِ

٥٢١٢- كَرَوَائِحِ المِسْكِ الَّذِي مَا فِيـهِ خَلْـ ... ـطٌ غَـيْرُهُ مِـنْ سَـائِرِ الأَلْـوَانِ

٥٢١٣- فَتَعُـودُ هَاتِيـكَ البُطُـونُ ضَـوَامِرًا ... تَبْغِي الطَّعَامَ عَـلَى مَـدَى الأَزْمَـانِ

٥٢١٤- لا غَـائِطٌ فِيهَـا وَلا بَـوْلٌ وَلا ... مُخْـطٌ وَلا بَصْـقٌ مِـنَ الإِنْسَـانِ

٥٢١٥- وَلَـهُمْ جُشَـاءٌ رِيحُـهُ مِسْـكٌ يَكُـو ... نُ بِـهِ تَـمَامُ الـهَضْمِ بِالإِحْسَـانِ

٥٢١٦- هَـذَا وَهَـذَا صَـحَّ عَنْـهُ فَوَاحِـدٌ ... في «مُسْـلِمٍ» وَلِأَحْمَـدَ الأَثَـرَانِ

الشـرحُ

هذا الفصلُ واضحُ المعنى أنَّ أهلَ الـجنَّةِ لا يبولون، ولا يتغوَّطون، ولا يتمخَّطون، ولا يبصقون، وطعامُهمْ إذا أكلوه وشرابُهم يكونُ عَرَقًا يفيضُ من الأبدانِ، وكذلك لهم جُشَاءٌ، والـجُشَاءُ: خروجُ الهواءِ من المعدةِ عن طريقِ الفمِ، فرائحتُه مثلُ رائحةِ المسكِ، بينما الـجُشَاءُ عندنا مُسْتكْرَهٌ ويحصل منه رائحةٌ كريهةٌ، ولكنَّها لأهلِ الجنَّةِ -جعلني اللهُ وإيَّاكم منهم- تكونُ رائحتُها رائحةَ المسكِ يكونُ بها تمامُ الهضمِ، وكُلَّما أكلوا وشربوا وشبعوا فإنَّه يفيضُ عَرَقًا وتبقى البطونُ ضوامرَ، فيأكلون دائمًا، وإنَّما جَعَلَ اللهُ لهم ذلك من أجلِ أن يتلذَّذوا

بالطَّعامِ والشَّرابِ؛ لأنَّهم إذا أكلوا وشربوا تلذَّذوا، وإلَّا فلو شَاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ لجعلهم لا يحتاجون إلى أكلٍ ولا شربٍ، ولكن من أجلِ أن يُتِمَّ سرورَهم وتَتِمَّ نعمتُهم صار يحصلُ لهم هذا.

* * *

فصل

في لِبَاسِ أَهْلِ الجَنَّةِ

٥٢١٧- وَهُمُ المُلُوكُ عَلَى الأَسِرَّةِ فَوْقَ هَا ... تِيـكَ الـرُّؤُوسِ مُرَصَّـع التِّيجَـانِ

٥٢١٨- وَلِبَاسُهُمْ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرٍ وَمِـنْ ... إِسْـتَبْرَقٍ نَوْعَـانِ مَعْرُوفَـانِ

٥٢١٩- مَـا ذَاكَ مِـنْ دودٍ بَنَـى مِـنْ فَوْقِـهِ ... تِلْـكَ البُيُـوت وَعَـادَ ذَا طَـيَرَانِ

٥٢٢٠- كَلَّا وَلا نُسِجَتْ عَلَى المِنْـوَالِ نَسْـ ... ـجَ ثِيَابِنَـا بِـالقُطْنِ وَالكِتَّـانِ

٥٢٢١- لَكِنَّهَـا حُلَـلٌ تَشَـقُّ ثِـمَارَهَا ... عَنْهَـا رَأَيْـتَ شَـقَائِقَ الـنُّعْمَانِ

٥٢٢٢- بِيضٌ وَخُضْرٌ ثُمَّ صُفْرٌ ثُمَّ حُمْـ ... ـرٌ كَالرِّبَـاطِ بِأَحْسَـنِ الأَلْـوَانِ

٥٢٢٣- لا تَقْرَبِ الدَّنَسَ الـمُقَرِّبَ لِلبِلَى ... مَـا لِلـبِلَى فِـيهِنَّ مِـنْ سُـلْطَانِ

٥٢٢٤- وَنَصِيفُ إِحْدَاهُنَّ وَهْـوَ خِمَارُهَـا ... لَيْسَـتْ لَـهُ الـدُّنْيَا مِـنَ الأَثْـمَانِ

٥٢٢٥- سَبْعُونَ مِـنْ حُلَـلٍ عَلَيْهَـا لا تَعُـو ... قُ الطَّرْفَ عَـنْ مُخٍّ وَرَا السِّيقَانِ

٥٢٢٦- لَكِـنْ تَـرَاهُ مِـنْ وَرَا ذَا كُلِّـهِ ... مِثْلَ الشَّـرَابِ لَـدَى زُجَاجٍ أَوَانِ

الشرحُ

٥٢١٧- وَهُمُ المُلُوكُ عَلَى الأَسِرَّةِ فَوْقَ هَا ... تِيـكَ الـرُّؤُوسِ مُرَصَّـع التِّيجَـانِ

٥٢١٨- وَلِبَاسُهُمْ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرٍ وَمِنْ   إِسْتَبْرَقٍ نَوْعَانِ مَعْرُوفَانِ

هذا أيضًا لباسُ أهلِ الجنَّةِ كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ في القرآنِ الكريمِ من سندسٍ وإستبرقٍ، والسُّندسُ والإستبرقُ نوعان معروفان من أعلى أنواعِ الحريرِ، وإن كُنَّا لا نعرفُهما تمامًا، لكن لا شكَّ أنَّهما من أفضلِ أنواعِ اللِّباسِ.

وهنا مسألة: هل في القرآنِ كلماتٌ غيرُ عربيَّةٍ؟

في القرآنِ الكريمِ كلماتٌ دخلت على العربِ، لكن لـمَّا نطقوا بها صارت عربيَّةً، وكُلُّ العربِ الذين من بني إسماعيلَ كُلُّهم أخذوا عربيَّتَهم من غيرِهم؛ ولهذا يُسَمَّوْنَ «**العرب المُسْتَعْرِبَة**»، فقولُ بعضِ النَّاسِ: «**إنَّ القرآنَ فيه شيءٌ من العجمةِ**»، نقولُ: هذا خطأٌ؛ لأنَّه لـمَّا استعمله العربُ في خطابِهم صار عربيًّا.

٥٢١٩- مَا ذَاكَ مِنْ دودٍ بَنَى مِنْ فَوْقِهِ   تِلْكَ البُيُوت وَعَادَ ذَا طَيَرَانِ

يُشِيرُ إلى أنَّ حريرَ الدُّنيا يكونُ من دودِ القَزِّ، ودودُ القزِّ دودةٌ مثل التي تكونُ في التَّمرِ وغيرِه، يخرجُ منها هذا الحريرُ ينطوي عليها ينطوي عليها، وفي النَّهايةِ تموتُ، لكن حريرُ أهل الجنَّةِ ليس هكذا، فليس من الدِّيدانِ.

٥٢٢٠- كَلَّا وَلا نُسِجَتْ عَلَى المِنْوَالِ نَسْـ   ـجَ ثِيَابِنَا بِالقُطْنِ وَالكِتَّانِ

لأنَّ ثيابَ الحريرِ التي في الدُّنيا لابُدَّ أن يكونَ فيها خلطٌ من الكتَّانِ والقطنِ.

٥٢٢١- لَكِنَّهَا حُلَلٌ تَشَقُّ ثِمَارَهَا   عَنْهَا رَأَيْتَ شَقَائِقَ النُّعْمَانِ

٥٢٢٢- بِيضٌ وَخُضْرٌ ثُمَّ صُفْرٌ ثُمَّ حُمْـ   ـرٌ كَالرِّبَاطِ بِأَحْسَنِ الأَلْوَانِ

قَوْلُهُ: «**لَكِنَّهَا حُلَلٌ تَشُقُّ ثِمَارَهَا عَنْهَا**»؛ يعني: أنَّ هذه الحُلَلَ تأتي من أشجارِ الجنَّةِ.

قَوْلُهُ: «رَأَيْتَ شَقَائِقَ النُّعْمَانِ»؛ يعني: هل رَأَيْتَ شقائقَ النُّعمانِ؟ وشقائقُ النُّعمانِ: نوعٌ من الزُّهورِ الطَّيِّبِ الذي يَرُوقُ للعينِ، فلباسُ أهل الجنَّةِ من الأشجارِ يكونُ من هذه الأزهارِ، ويكونُ من أفخمِ ما يكونُو أعلى ما يكونُ من الحريرِ والسُّندسِ والإستبرقِ.

٥٢٢٣- لا تَقْرَبِ الدَّنَسَ الـمُقَرِّبَ لِلبِلَى مَـا لِلبِلَى فِـيهِنَّ مِـنْ سُـلْطَانِ

ثيابُنا هنا في الدُّنيا تتمزَّقُ مع طولِ الزَّمنِ وتتوَّسخُ أيضًا، أمَّا ثيابُ الجنَّةِ فإنَّها لا تَقْرَبُ ذلك، فلا تَقْرَبُ هي الدَّنَسَ المُقَرِّبَ للبلى؛ لأنَّ الوسخَ في الثِّيابِ يُقَرِّبُ لتمزُّقِها سريعًا.

ثُمَّ انتقل إلى لباسِ الحورِ؛ فقال:

٥٢٢٤- وَنَصِيفُ إِحْدَاهُنَّ وَهْوَ خِمَارُهَا لَيْسَتْ لَـهُ الـدُّنْيَا مِـنَ الأَثْـمَانِ

قَوْلُهُ: «وَنَصِيفُ إِحْدَاهُنَّ» نَصِيفُها؛ يعني: خمارَها.

قَوْلُهُ: «وَهْوَ خِمَارُهَا لَيْسَتْ لَهُ الدُّنْيَا مِنَ الأَثْمَانِ»؛ يعني: خمارُها أفضلُ من الدُّنيا كُلِّها.

٥٢٢٥- سَبْعُونَ مِنْ حُلَلٍ عَلَيْهَا لا تَعُو قُ الطَّرْفَ عَنْ مُخٍّ وَرَا السِّيقَانِ

اللهُ أكبرُ، الواحدةُ من الحورِ عليها سبعون حُلَّةً، وهذه الحُلَلُ لا تمنعُ الطَّرفَ عن مُخٍّ وَرَاءَ السِّيقانِ؛ يعني: يَرَى مُخَّ سيقانِها من وراء ذلك، ولا تظنُّوا أنَّ هذه الرُّؤيةَ كرؤيتِنا في الدُّنيا، نحن لو رَأَيْنَا المُخَّ في السِّيقانِ رُبَّما نستقذرُ ذلك ونمجُّه، لكنَّه في الآخرةِ على خلافِ ذلك، يراه الإنسانُ فيتلذَّذُ لرؤيةِ هذا المُخِّ في السَّاقِ؛

ولهذا قال:

٥٢٢٦- لَكِــنْ تَــرَاهُ مِــنْ وَرَا ذَا كُلِّــهِ   مِثْلَ الشَّــرَابِ لَـدَى زُجَـاجِ أَوَانِ

لو وَضَعْتَ شرابًا في زجاجةٍ لرَأَيْتَ الماءَ من ورائِها، ولكنَّك تراه في أحسنِ مَرْئِيٍّ.

* * *

فصل

في فُرُشِهِمْ وَمَا يَتْبَعُهَا

٥٢٢٧- وَالفَرْشُ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ قَدْ بُطِّنَتْ   مَا ظَنُّكُمْ بِظِهَارَةٍ لِبِطَانِ

٥٢٢٨- مَرْفُوعَةٌ فَوْقَ الأَسِرَّةِ يَتَّكِي   هُوَ وَالحَبِيبُ بِخَلْوَةٍ وَأَمَانِ

٥٢٢٩- يَتَحَدَّثَانِ عَلَى الأَرَائِكِ مَا تَرَى   حِبَّيْنِ فِي الخَلَوَاتِ يَنْتَجِيَانِ

٥٢٣٠- هَذَا وَكَمْ زَرْبِيَّةٍ وَنَمَارِقٍ   وَوَسَائِدٍ صُفَّتْ بِلا حُسْبَانِ

الشرحُ

أهلُ الجنَّةِ في الآخرةِ متَّكئون على سررٍ مصفوفةٍ، وأحوالُ الآخرةِ تختلفُ عن أحوالِ الدُّنيا.

* * *

فصـــل

في حُلِيِّ أَهْلِ الجَنَّةِ

٥٢٣١- وَالحلْـيُ أَصْفَى لُؤْلُـؤٍ وَزَبَرْجَـدٍ ... وَكَـذَاكَ أَسْـوِرَةٌ مِـنَ العِقْيَـانِ

٥٢٣٢- مَـا ذَاكَ يَخْـتَصُّ الإِنَـاثُ وَإِنَّـمَا ... هُـوَ لِلإِنَـاثِ كَـذَاكَ لِلـذُّكْرَانِ

٥٢٣٣- التَّـارِكِينَ لِبَاسَـهُ فِي هَـذِهِ الـدْ ... دُنْيَـا لِأَجْـلِ لِبَاسِـهِ بِجِنَـانِ

٥٢٣٤- أَوَمَـا سَـمِعْتَ بِـأَنَّ حِلْيَـتَهُمْ إِلَى ... حَيْـثُ انْتِهَـاءُ وَضُـوئِهِمْ بِـوِزَانِ

٥٢٣٥- وَكَذَا وُضُوءُ أَبِي هُرَيْـرَةَ كَـانَ قَـدْ ... فَـازَتْ بِـهِ العَضُـدَانِ وَالسَّـاقَانِ

٥٢٣٦- وَسِـوَاهُ أَنْكَـرَ ذَا عَلَيْـهِ قَـائِلًا ... مَا السَّاقُ مَوْضِعَ حِلْيَةِ الإِنْسَانِ

٥٢٣٧- مَا ذَاكَ إِلَّا مَوْضِعَ الكَعْبَيْنِ وَالـزْ ... زَنْـدَيْنِ لا السَّـاقَانِ وَالعَضُـدَانِ

٥٢٣٨- وَلِـذَاكَ أَهْـلُ الفِقْـهِ مُخْتَلِفُـونَ فِي ... هَـذَا وَفِيـهِ عِنْـدَهُمْ قَـوْلانِ

٥٢٣٩- وَالرَّاجِحُ الأَقْوَى انْتِهَاءُ وُضُـوئِنَا ... لِلمِـرْفَقَيْنِ كَـذَلِكَ الكَعْبَـانِ

٥٢٤٠- هَذَا الَّذِي قَدْ حَدَّهُ الـرَّحْمَنُ فِي الْـ ... ـقُرْآنِ لا تَعْـدِلْ عَـنِ القُـرْآنِ

٥٢٤١- وَاحْفَظْ حُـدُودَ الـرَّبِّ لا تَتَعَـدَّهَا ... وَكَـذَاكَ لا تَجْـنَحْ إِلَى النُّقْصَـانِ

٥٢٤٢- وَانْظُرْ إِلَى فِعْلِ الرَّسُولِ تَجِدْهُ قَـدْ ... أَبْـدَى الـمُرَادَ وَجَـاءَ بِالتِّبْيَـانِ

٥٢٤٣- وَمَنِ اسْتَطَاعَ يُطِيـلُ غُرَّتِـهِ فَمَـوْ ... قُوفٌ عَلَى الـرَّاوِي هُـوَ الفَوْقَـانِي

٥٢٤٤- فَـأَبُو هُرَيْـرَةَ قَـالَ ذَا مِـنْ كِيسِـهِ فَغَـدَا يُمَيِّـزُهُ أُولُـو العِرْفَـانِ
٥٢٤٥- وَنُعَـيْمٌ الـرَّاوِي لَـهُ قَـدْ شَـكَّ فِي رَفْعِ الـحَدِيثِ كَذَا رَوَى الشَّيْبَانِي
٥٢٤٦- وَإِطَالَـةُ الغُـرَّاتِ لَـيْسَ بِمُمْكِـنٍ أَبَـدًا وَذَا فِي غَايَـةِ التِّبْيَـانِ

الشـرحُ

في هذا الفصلِ يتحدَّثُ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- عن حُلِيِّ أهلِ الجنَّةِ فقال:

٥٢٣١- وَالـحلْـيُ أَصْفَى لُؤْلُـؤٍ وَزَبَرْجَـدٍ وَكَـذَاكَ أَسْـوِرَةٌ مِـنَ العِقْيَـانِ

قَوْلُهُ: «العِقْيَانِ»؛ يعني: الذَّهبَ.

أسورةُ أهلِ الجنَّةِ ذَكَرَ اللهُ أنَّها ثلاثةُ أصنافٍ من: فضَّةٍ، ولؤلؤٍ، وذهبٍ، قال اللهُ تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج:٢٣]، وفي قراءة «ولؤلؤٍ»، وإذا تخَيَّلْتَ هذه الأصنافَ على الذِّراعِ وَجَدْتَ لها منظرًا عجيبًا، فهي لؤلؤٌ صافٍ، وذهبٌ خالصٌ، وفضَّةٌ خالصةٌ، يكونُ لها منظرٌ لا يمكنُ أن يبلُغَ تصوُّرك مدى هذا المنظرِ.

٥٢٣٢- مَـا ذَاكَ يَخْـتَصُّ الإِنَـاثُ وَإِنَّـمَا هُـوَ لِلإِنَـاثِ كَـذَاكَ لِلـذُّكْرَانِ
٥٢٣٣- التَّـارِكِينَ لِبَاسَـهُ فِي هَـذِهِ الـدْ دُنْيَـا لِأَجْـلِ لِبَاسِـهِ بِجِنَـانِ

يقول رحمه اللهُ: إنَّ هذا لا يختصُّ بالإناثِ، بل يشملُ الإناثَ والرِّجالَ، حتَّى الرجال يتحلَّوْنَ بالذِّهبِ وبالفضَّةِ وباللُّؤلؤِ؛ لأنَّهم تركوا هذا في الدُّنيا، فألبسهم اللهُ إيَّاه في الآخرةِ.

٥٢٣٤- أَوَمَا سَمِعْتَ بِأَنَّ حِلْيَتَهُمْ إِلَى حَيْثُ انْتِهَاءُ وَضُوئِهِمْ بِوِزَانِ

والوُضوءُ ينتهي إلى المِرْفقِ في اليدِ، وإلى الكعبِ في الرِّجْلِ، وقد قال النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام-: «تَبْلُغُ الحِلْيَةُ مِنَ المُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الوُضُوءُ»[1]، وهذا ثابتٌ في الصَّحِيحَيْنِ.

٥٢٣٥- وَكَذَا وُضُوءُ أَبِي هُرَيْرَةَ كَانَ قَدْ فَازَتْ بِهِ العَضُدَانِ وَالسَّاقَانِ

العَضُدَان في اليدِ، والسَّاقان في الرِّجْلِ، وكان أبو هريرةَ إذا توضَّأ يُبالغُ حتَّى يصلَ إلى قريبِ المنكبِ، وكذلك في السَّاقِ يبالغُ حتَّى يصلَ إلى قريبِ الرُّكبةِ، وأبو هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَهِمَ من الحديثِ أنَّك كُلَّما زِدْتَ في الوضوءِ زَادَت الحِلْيَةُ، فصار يغسلُ يدَه حتَّى يصلَ إلى المنكبِ، وكذلك يغسلُ رجلَه ويُدْخِلُ السَّاقَ فيها؛ ظنًّا منه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه إذا تجاوز الإنسانُ المحلَّ المحدَّدَ فإنَّ الحليةَ تزيدُ، لكن يقولُ ابنُ القيِّمِ:

٥٢٣٦- وَسِوَاهُ أَنْكَرَ ذَا عَلَيْهِ قَائِلًا مَا السَّاقُ مَوْضِعَ حِلْيَةِ الإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «سِوَاهُ أَنْكَرَ ذَا عَلَيْهِ» «سِوَاهُ»؛ يعني: سوى أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنكر هذا عليه، وقال: هذا غيرُ صحيحٍ، هذا تجاوزٌ لما حدَّه اللهُ عزَّ وجلَّ، وتجاوزٌ لما جاءت به السُّنَّةُ.

قَوْلُهُ: «مَا السَّاقُ مَوْضِعَ حِلْيَةِ الإِنْسَانِ» السَّاقُ ليس موضعَ الحِلْيَةِ في قولِ الرَّسولِ ﷺ: «تَبْلُغُ الحِلْيَةُ مِنَ المُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الوُضُوءُ»، الحِلْيَةُ تكونُ في الرِّجْلِ في الأسفلِ، ولا تكونُ في السَّاقِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء، رقم (٢٥٠).

٥٢٣٧- مَا ذَاكَ إِلَّا مَوْضِعَ الكَعْبَيْنِ وَالـزْ زَنْـدَيْنِ لا السَّاقَانِ وَالعَضُدَانِ

يقولُ: إنَّ الحِلْيَةَ تكونُ إلى الكعبِ وتكونُ أيضًا للزَّنْدَينِ فقط، والزَّندان هما العظمان، فالذِّراعُ فيه عظمان، فلكُلِّ إنسانٍ أربعةُ أزنادٍ، في كُلِّ يد اثنان، والعَضُدُ فوق المِرْفَقِ، والسَّاقُ أيضًا فوق الكعبِ.

٥٢٣٨- وَلِـذَاكَ أَهْـلُ الفِقْـهِ مُخْتَلِفُـونَ في هَـذَا وَفِيـهِ عِنْـدَهُمْ قَـوْلانِ

القولان عند أهلِ الفقهِ: هل يُسَنُّ مجاوزةُ محلِّ الفرضِ أو لا يُسَنُّ؟ يعني: هل ينبغي للإنسانِ إذا توضَّأ أن يغسلَ العَضُدَ كما يغسلُ الذِّراعَ؟ وهل يغسلُ السَّاقَ كما يغسلُ الرِّجْلَ؟ فيه خلافٌ، والمشهورُ عندنا في مذهبِ الحنابلةِ أنَّه تُسَنُّ الزِّيادةِ على محلِّ الفرضِ، لكن ابنُ القيِّم يقولُ:

٥٢٣٩- وَالرَّاجِحُ الأَقْوَى انْتِهَاءُ وُضُـوئِنَا لِلمِـرْفَقَيْنِ كَـذَلِكَ الكَعْبَـانِ

الرَّاجحُ في النَّظرِ والأقوى في الدَّليلِ أنَّه إلى الكعبِ في الرِّجلِ، وإلى المِرْفَقِ في اليدِ.

هذا الذي قال إنَّه الأرجحُ هو الصَّوابُ؛ لأنَّ اللهَ حَدَّدَ لنا، وينبغي لنا عندما نتوضَّأُ أن نستشعرَ ونحن نغسلُ الذِّراعَ قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة:٦]، وأن نستشعرَ أيضًا فعلَ النَّبِيِّ ﷺ حتَّى يكونَ في وضوئِنا هذا تمامُ الإخلاصِ والمتابعة، وأكثرُ النَّاسِ إمَّا بالنِّسبةِ للأحيانِ وإمَّا بالنِّسبةِ للأشخاصِ يغفلون عن هذه النُّقطةِ، يتوضَّأُ على أنَّ الوضوءَ واجبٌ وينتهي، لكن استشعر أمرَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة:٦]، واستشعر مع ذلك فعلَ النَّبِيِّ ﷺ حيث كان يديرُ الماءَ على مِرْفَقَيْهِ[1] ولا يتجاوزُ إلى الكتفِ.

(١) أخرجه البيهقي (١/ ٩٣، رقم ٢٥٥).

أهمُّ شيءٍ عندي أن ننتبهَ لهذه النُّقطةِ؛ حتَّى يكونَ وضوؤنا من أوَّلِهِ إلى آخرِه امتثالًا لأمرِ الله واتِّباعًا لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم.

٥٢٤٠- هَذَا الَّذِي قَدْ حَدَّهُ الرَّحْمَنُ في الْـ ... ـقُرْآنِ لا تَعْدِلْ عَنِ القُرْآنِ

وذلك لأنَّ اللهَ قال: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة:٦]، وقال: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة:٦]، فالله حَدَّدَ ذلك، فلا تَعْدِلْ عن القرآنِ.

٥٢٤١- وَاحْفَظْ حُدُودَ الرَّبِّ لا تَتَعَدَّهَا ... وَكَذَاكَ لا تَجْنَحْ إِلَى النُّقْصَانِ

والنَّاسُ في الحدودِ ينقسمون إلى قسمين: قسمٍ يتعدَّى الحدودَ، وقسمٍ يقصرُ عنها، فأنت لا تتعدَّ ولا تقصر؛ لأنَّ مَنْ تعدَّاها فقد أَفْرَطَ وغلا، ومَنْ نقص فقد فَرَّطَ وأهملَ، فكن على حسبِ حدودِ الله عزَّ وجلَّ.

٥٢٤٢- وَانْظُرْ إِلَى فِعْلِ الرَّسُولِ تَجِدْهُ قَدْ ... أَبْدَى الـمُرَادَ وَجَاءَ بِالتِّبْيَانِ

قَوْلُهُ: «أَبْدَى الـمُرَادَ»؛ يعني: مرادَ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «وَجَاءَ بِالتِّبْيَانِ»؛ أي: لقد بَيَّنَ البيانَ الكافي.

فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ في جميعِ الأحاديثِ التي وَصَفَتْ وضوءَه لم يُذْكَرْ أنَّه كان يغسلُ العَضُدَ أو يغسلُ السَّاقَ، غاية ما هنالك ما أخرجه مسلمٌ من حديثِ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ وفيه أنَّه «**غَسَلَ يَدَهُ اليُمْنَى حَتَّى أَشْرَعَ فِي العَضُدِ، ثُمَّ يَدَهُ اليُسْرَى حَتَّى أَشْرَعَ فِي العَضُدِ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ اليُمْنَى حَتَّى أَشْرَعَ فِي السَّاقِ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ اليُسْرَى حَتَّى أَشْرَعَ فِي السَّاقِ، ثُمَّ قَالَ: هَكَذَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَتَوَضَّأُ**»(١)؛ وذلك لأنَّه لا يمكنُ أن يتحقَّقَ بلوغُ الماءِ إلى الكعبين إلَّا إذا

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، رقم (٢٤٦).

شَرَعَ في السَّاقِ، وكذلك بالنِّسبةِ للعَضُدِ.

٥٢٤٣- وَمَنِ اسْـتَطَاعَ يُطِيـلُ غُرَّتِـهِ فَمَـوْ قُوفٌ عَـلَى الـرَّاوِي هُـوَ الفَوْقَـانِي

يُشِيرُ إلى قولِه في الحديثِ: «**فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ وَتَحْجِيلَهُ فَلْيَفْعَلْ**»[1]، يقولُ: هذا موقوفٌ على الرَّاوي هو الفَوْقَانِيُّ وهو أبو هريرةَ؛ لأنَّه هو منتهى السَّنَدِ.

فيكونُ في علمِ المصطلحِ من بابِ المُدْرَجِ؛ لأنَّ لم يَفْصِلْ بينه وبين النَّصِّ النَّبويِّ.

٥٢٤٤- فَـأَبُو هُرَيْـرَةَ قَـالَ ذَا مِـنْ كِيسِـهِ فَغَـدَا يُمَيِّـزُهُ أُولُـو العِرْفَـانِ

يعني: جاء بـ: «**فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ...**» من عنده، وإلَّا فإنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يَقُلْهُ.

٥٢٤٥- وَنُعَـيْمٌ الـرَّاوِي لَـهُ قَـدْ شَـكَّ في رَفْعِ الـحَدِيثِ كَذَا رَوَى الشَّيْبَانِي

قَوْلُهُ: «نُعَيمٌ الرَّاوِي» هو: نُعَيْمٌ المُجْمِر الذي رَوَى الحديثَ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَوْلُهُ: «كَذَا رَوَى الشَّيْبَانِي» الشَّيبانيُّ يعني به: الإمامَ أحمدَ بنَ حنبلٍ.

يعني: أنَّ روايةَ الإمامِ أحمدَ شَكَّ نُعَيْمٌ هل هذا من قولِ الرَّسولِ ﷺ أم من قولِ أبي هريرةَ؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب فضل الوضوء والغر المحجلون من آثار الوضوء، رقم (١٣٦). ومسلم: كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، رقم (٢٤٦).

٥٢٤٦- وَإِطَالَـةُ الغُـرَّاتِ لَـيْسَ بِمُمْكِـنٍ   أَبَـــدًا وَذَا في غَايَـــةِ التِّبْيَـــانِ

إطالةُ الغُرَّاتِ لا يمكنُ؛ لأنَّ الغُرَّةَ هي الوجهُ، وهل يمكنُ للإنسانِ أن يُطِيلَ وجهَه؟ الجوابُ: لا يمكنُ، لو وَسَّعَه مثلًا فالمنتهى الأذنان، إذا وَصَلَ الغسلُ إلى الأذنِ لم تكن الأذنُ من الوجهِ، أو صعد به إلى النَّاصيةِ لم تكن النَّاصيةُ من الوجهِ، إِذَنْ إطالةُ الغُرَّاتِ المذكورة في الحديثِ: «فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ»[1] غيرُ ممكنةٍ؛ يعني: لو أمكن إطالةُ التَّحجيلِ لم يمكن إطالةُ الغُرَّاتِ، والنَّبيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- لا يمكنُ أن يتكلَّمَ بكلام غيرِ ممكنٍ؛ لأنَّه معصومٌ من الخطأ بخلافِ غيرِه، فكلامُ النَّبِيِّ ﷺ لا يمكنُ إلَّا أنْ يكونَ واقعًا موافقًا للحقيقةِ.

والخلاصةُ: أنَّ أهلَ الجنَّةِ يُحَلَّوْنَ من أساورَ من ذهبٍ ولؤلؤٍ ومن فضَّةٍ، وأنَّ الحِلْيَةَ تبلغُ إلى حيث يبلغُ الوضوءُ، ففي اليدين إلى المِرْفَقَيْنِ، وفي الرِّجْلَيْنِ إلى الكعبين، نسألُ اللهَ أن يجعلَنا وإيَّاكم من هؤلاء.

***

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء، رقم (٢٥٠).

فصـــل

فِي صِفَةِ عَرَائِسِ الجَنَّةِ، وَحُسْنِهِنَّ، وَجَمَالِهِنَّ، وَلَذَّةِ وِصَالِهِنَّ، وَمُهُورِهِنَّ

٥٢٤٧- يَا مَنْ يَطُوفُ بِكَعْبَةِ الحُسْنِ الَّتِي ... حُفَّتْ بِذَاكَ الحجرِ وَالأَرْكَانِ

٥٢٤٨- وَيَظَلُّ يَسْعَى دَائِمًا حَوْلَ الصَّفَا ... وَمُحَسِّرٌ مَسْعَاهُ لا العَلَمَانِ

٥٢٤٩- وَيَرُومُ قُرْبَانَ الوِصَالِ عَلَى مِنًى ... وَالخَيْفِ يَحْجُبُهُ عَنِ القُرْبَانِ

٥٢٥٠- فَلِذَا تَرَاهُ مُحْرِمًا أَبَدًا وَمَوْ ... ضِعُ حِلِّهِ مِنْهُ فَلَيْسَ بِدَانِ

٥٢٥١- يَبْغِي التَّمَتُّعَ مُفْرِدًا عَنْ حُبِّهِ ... مُتَجَرِّدًا يَبْغِي شَفِيعَ قِرَانِ

٥٢٥٢- فَيَظَلُّ بِالجَمَرَاتِ يَرْمِي قَلْبَهُ ... هَذِي مَنَاسِكُهُ بِكُلِّ زَمَانِ

٥٢٥٣- وَالنَّاسُ قَدْ قَضُّوا مَنَاسِكَهُمْ وَقَدْ ... حَثُّوا رَكَائِبَهُمْ إِلَى الأَوْطَانِ

٥٢٥٤- وَحَدَتْ بِهِمْ هِمَمٌ لَهُمْ وَعَزَائِمٌ ... نَحْوَ المَنَازِلِ أَوَّلَ الأَزْمَانِ

٥٢٥٥- رُفِعَتْ لَهُمْ فِي السَّيْرِ أَعْلامُ الوِصَا ... لِ فَشَمَّرُوا يَا خَيْبَةَ الكَسْلانِ

٥٢٥٦- وَرَأَوْا عَلَى بُعْدٍ خِيَامًا مُشْرِفَا ... تٍ مُشْرِقَاتِ النُّورِ وَالبُرْهَانِ

٥٢٥٧- فَتَيَمَّمُوا تِلْكَ الخِيَامَ فَآنَسُوا ... فِيهِنَّ أَقْمَارًا بِلا نُقْصَانِ

٥٢٥٨- مِنْ قَاصِرَاتِ الطَّرْفِ لا تَبْغِي سِوَى ... مَحْبُوبِهَا مِنْ سَائِرِ الشُّبَّانِ

٥٢٥٩- قَصَرَتْ عَلَيْهِ طَرْفَهَا مِنْ حُسْنِهِ ... وَالطَّرْفُ فِي ذَا الوَجْهِ لِلنِّسْوَانِ

٥٢٦٠- أَوْ أَنَّهَا قَصَرَتْ عَلَيْهِ طَرْفَهُ ... مِنْ حُسْنِهَا فَالطَّرْفُ لِلذُّكْرَانِ

٥٢٦١- وَالأَوَّلُ المَعْهُودُ مِنْ وَضْعِ الخِطَا ... بِ فَلا تَحِدْ عَنْ ظَاهِرِ القُرْآنِ

٥٢٦٢- وَلَرُبَّمَا دَلَّتْ إِشَارَتُه عَلَى الثْـ ... ـثَانِي فَتِلْكَ إِشَارَةٌ لِمَعَانِ

٥٢٦٣- هَذَا وَلَيْسَ القَاصِرَاتُ كَمَنْ غَدَتْ ... مَقْصُورَةً فَهُمَا إِذًا صِنْفَانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «قَاصِرَاتِ الطَّرْفِ» يُشِيرُ إلى قولِه تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرَّحمن:٥٦]، يقولُ: لها معنيان:

الأَوَّلُ: قَصَرَتْ عليه طَرْفَها من حُسْنِه، وحينئذٍ الطَّرْفُ للمرأةِ، قَصَرَتْ طَرْفَهَا؛ يعني: نظرَها على زوجِها لا تريدُ سواه.

والثَّاني: «قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ»؛ أي: تقصرُ طَرْفَ زوجِها عليها، وذلك من حُسْنِهَا، ويكونُ الطَّرفُ للذُّكْرَانِ.

والمعنى صالحٌ لهذا وهذا، فَهُنَّ قاصراتُ الطَّرفِ لا تنظرُ الواحدةُ إلى غيرِ زوجِها، وُهَّن قاصراتُ طَرْفِ الأزواجِ، فلا ينظرون إلى سواهُنَّ، وهذا غايةُ ما يكونُ من المحبَّةِ والألفةِ؛ ولهذا جاء في الحديث: «**إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا مَنْ لَهُ نَعْلَانِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِي المِرْجَلُ مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا، وَإِنَّه لأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا**»(١)، وإنَّ أدنى أهلِ الجنَّةِ لا يَبْغِي تحوُّلًا عمَّا هو عليه

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦١٩٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أهون أهل النار عذابا، رقم (٢١٣).

حتَّى يتمَّ للأوَّلِ الشَّقاءُ -والعياذُ بالله- والتَّحسُّرُ، وللثَّاني النَّعيمُ كما قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٨]، أيضًا الزَّوجان إذا كان كُلٌّ واحدٍ منهما قد ابتهج بالآخرِ ولا يرى له بديلًا فهذا من تمامِ السَّعادةِ.

قَوْلُهُ: «وَالأَوَّلُ المَعْهُودُ مِنْ وَضْعِ الخِطَابِ» لا شكَّ أنَّ الأوَّلَ أظهرُ من حيث الوضعُ اللُّغويُّ، لكن لدينا قاعدةٌ في نصوصِ القرآنِ والسُّنَّةِ؛ وهي أنَّ اللَّفظَ متى كان صالحًا للمعنيَيْنِ بدون مناقضةٍ وَجَبَ أن يُحْمَلَ عليهما جميعًا، وهذا من سَعَةِ معاني القرآنِ الكريمِ والسُّنَّةِ النَّبويَّةِ.

قَوْلُهُ: «لَيْسَ القَاصِرَاتُ كَمَنْ غَدَتْ مَقْصُورَةً فَهُمَا إذًا صِنْفَانِ» يُشيرُ إلى الجنَّتَينِ الأُخْرَيَينِ ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرَّحمن:٧٢]، وفي الجنَّتَينِ الأولَيين قال: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الرَّحمن:٥٦]، فليس القاصراتُ كالمقصوراتِ، وهذا صحيحٌ، فهما إذًا صِنْفَانِ: صِنْفٌ مقصورٌ، وصِنْفٌ قاصرٌ.

* * *

٥٢٦٤- يَا مُطْلِقَ الطَّرْفِ المُعَذَّبِ في الأُلَى ... جُرِّدْنَ عَنْ حُسْنٍ وَعَنْ إِحْسَانِ

٥٢٦٥- لا تَسْبِيَنَّكَ صُورَةٌ مِنْ تَحْتِهَا الدْ ... دَاءُ الدَّوِيُّ تَبُوءُ بِالخُسْرَانِ

٥٢٦٦- قَبُحَتْ خَلائِقُهَا وَقُبِّحَ فِعْلُهَا ... شَيْطَانَةٌ فِي صُورَةِ الإِنْسَانِ

٥٢٦٧- تَنْقَادُ لِلأَنْذَالِ وَالأَرْذَالِ هُمْ ... أَكْفَاؤُهَا مِنْ دُونِ ذِي الإِحْسَانِ

٥٢٦٨- مَا ثَمَّ مِنْ دِينٍ وَلا عَقْلٍ وَلا ... خُلُقٍ وَلا خَوْفٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

٥٢٦٩- وَجَمَالُهَا زُورٌ وَمَصْنُوعٌ فَإِنْ ... تَرَكَتْهُ لَمْ تَطْمَحْ لَهَا العَيْنَانِ

٥٢٧٠- طُبِعَتْ عَلَى تَرْكِ الحِفَاظِ فَمَا لَـهَا ... بِوَفَـاءِ حَـقِّ البَعْـلِ قَـطُّ يَـدَانِ

٥٢٧١- إِنْ قَصَّـرَ السَّـاعِي عَلَيْهَـا سَـاعَةً ... قَالَتْ وَهَـلْ أَوْلَيْـتَ مِـنْ إِحْسَـانِ

٥٢٧٢- أَوْ رَامَ تَقْوِيمًا لَـهَا اسْتَعْصَتْ وَلَـمْ ... تَقْبَلْ سِـوَى التَّعْـوِيجِ وَالنُّقْصَـانِ

٥٢٧٣- أَفْكَارُهَا فِي الـمَكْرِ وَالكَيْدِ الَّـذِي ... قَـدْ حَـارَ فِيـهِ فِكْـرُهُ الإِنْسَـانِي

٥٢٧٤- فَجَمَالُـــهَا قِشْـــرٌ رَقِيـــقٌ تَحْتَـــهُ ... مَا شِئْتَ مِنْ عَيْـبٍ وَمِـنْ نُقْصَـانِ

٥٢٧٥- نَقْـــدٌ رَدِيءٌ فَوْقَـــهُ مِـــنْ فِضَّـــةٍ ... شَيْءٌ يَظُـــنُّ بِـــهِ مِـــنَ الأَثْـــمَانِ

٥٢٧٦- فَالنَّاقِـــدُونَ يَـــرَوْنَ مَـــاذَا تَحْتَـــهُ ... وَالنَّـاسُ أَكْثَـرُهُمْ مِـنَ العُمْيَـانِ

٥٢٧٧- أَمَّــا جَمِـيلاتُ الوُجُـوهِ فَخَائِنَـا ... تُ بُعُولِـــهِنَّ وَهُـــنَّ لِلأَخْـــدَانِ

٥٢٧٨- وَالـحَافِظَاتُ الغَيْبِ مِـنْهُنَّ الَّتِـي ... قَدْ أَصْـبَحَتْ فَـرْدًا مِـنَ النِّسْـوَانِ

الشـرحُ

٥٢٦٤- يَا مُطْلِقَ الطَّرْفِ المُعَـذَّبِ فِي الأُلَى ... جُرِّدْنَ عَنْ حُسْـنٍ وَعَـنْ إِحْسَـانِ

قَوْلُهُ: «فِي الأُلَى»؛ يعني: اللَّائي، والمرادُ نساءُ الدُّنيا.

قَوْلُهُ: «جُرِّدْنَ عَنْ حُسْنٍ وَعَنْ إِحْسَانِ» «عَنْ حُسْنٍ»؛ يعني: باعتبارِ نساءِ الجنَّةِ؛ لأنَّ حُسْنَ نساءِ أهلِ الدُّنيا مهما كان لا يُنْسَبُ إطلاقًا إلى حُسْنِ نساءِ أهلِ الجنَّةِ، وكذلك الإحسان، الإحسانُ في النِّساءِ قليلٌ، ولو أَحْسَنَتْ يومًا أَسَاءَتْ دَهْرًا، هذا الغالبُ عليهنَّ؛ ولهذا أمر النَّبيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بأن نصبرَ على النِّساءِ، فقال: «فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ، وإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فإِنْ

ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ»(١).

ثُمَّ اتَّجه المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- إلى عُشَّاقِ النِّساءِ في الدُّنيا فقال:

٥٢٦٥- لا تَسْبِيَنَّكَ صُورَةٌ مِنْ تَحْتِهَا الـدْ ... دَاءُ الدَّوِيُّ تَبُوءُ بِالخُسْرَانِ

٥٢٦٦- قَبُحَتْ خَلائِقُهَا وَقُبِّحَ فِعْلُهَا ... شَيْطَانَةٌ في صُورَةِ الإِنْسَانِ

٥٢٦٧- تَنْقَادُ لِلأَنْذَالِ وَالأَرْذَالِ هُمْ ... أَكْفَاؤُهَا مِنْ دُونِ ذِي الإِحْسَانِ

٥٢٦٨- مَا ثَمَّ مِنْ دِينٍ وَلا عَقْلٍ وَلا ... خُلُقٍ وَلا خَوْفٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

٥٢٦٩- وَجَمَالُهَا زُورٌ وَمَصْنُوعٌ فَإِنْ ... تَرَكَتْهُ لَمْ تَطْمَحْ لَهَا العَيْنَانِ

قَوْلُهُ: «تَرَكَتْهُ» الظَّاهر أنَّها «تَتْرُكْهُ»، فالظَّاهرُ أنَّ البيتَ لا يستقيمُ إلَّا بهذا.

ذَكَرَ -رحمه اللهُ- أنَّ جمالَهَا مصنوعٌ، فهو مصنوعٌ من المكياجِ وشبهِه، لكنَّها خرابٌ، فهي تنقادُ للأَنْذَالِ والأَرْذَالِ والعياذُ بالله.

٥٢٧٠- طُبِعَتْ عَلَى تَرْكِ الحِفَاظِ فَمَا لَهَا ... بِوَفَاءِ حَقِّ البَعْلِ قَطُّ يَدَانِ

٥٢٧١- إِنْ قَصَّرَ السَّاعِي عَلَيْهَا سَاعَةً ... قَالَتْ وَهَلْ أَوْلَيْتَ مِنْ إِحْسَانِ

٥٢٧٢- أَوْ رَامَ تَقْوِيمًا لَهَا اسْتَعْصَتْ وَلَمْ ... تَقْبَلْ سِوَى التَّعْوِيجِ وَالنُّقْصَانِ

٥٢٧٣- أَفْكَارُهَا فِي المَكْرِ وَالكَيْدِ الَّذِي ... قَدْ حَارَ فِيهِ فِكْرُهُ الإِنْسَانِي

كُلُّ هذا جاء به الحديثُ أنَّك إذا قَصَّرْتَ عليها مرَّةً قالت: «مَا رَأَيْتُ مِنْكَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته، رقم (٣٣٣١). ومسلم: كتاب النكاح، باب الوصية بالنساء، رقم (١٤٦٨)

خَيْرًا قَطُّ»[(١)]، وَ«إِنْ تُقِمْهَا تَكْسِرْهَا، وَإِنْ تَتْرُكْهَا تَسْتَمْتِعْ بِهَا وَفِيهَا عِوَجٌ»[(٢)].

٥٢٧٤- فَجَمَالُـــهَا قِشْـــرٌ رَقِيـــقٌ تَحْتَـــهُ   مَا شِئْتَ مِنْ عَيْـبٍ وَمِـنْ نُقْصَـانِ

٥٢٧٥- نَقْـــدٌ رَدِيءٌ فَوْقَـــهُ مِـــنْ فِضَّـــةٍ   شَيْءٌ يَظُـــنُّ بِـــهِ مِـــنَ الأَثْـــمَانِ

٥٢٧٦- فَالنَّاقِـــدُونَ يَـــرَوْنَ مَـــاذَا تَحْتَـــهُ   وَالنَّـــاسُ أَكْثَـــرُهُمْ مِـــنَ العُمْيَـــانِ

٥٢٧٧- أَمَّـــا جَمِـــيلاتُ الوُجُـــوهِ فَخَائِنَـــا   تُ بُعُولِـــهِنَّ وَهُـــنَّ لِلأَخْـــدَانِ

٥٢٧٨- وَالـحَافِظَاتُ الغَيْبِ مِنْهُنَّ الَّتِـي   قَدْ أَصْبَحَتْ فَـرْدًا مِـنَ النِّسْـوَانِ

فالظَّاهرُ فِضَّةٌ، والدَّاخلُ نُحَاسٌ، وهذا الذي ذَكَرَهُ ابنُ القيِّمِ -رحمه اللهُ- في وصفِ النِّساءِ لعلَّه يريدُ بهذا النِّساءَ الباغياتِ؛ أي: اللَّاتي يَخُنَّ أزواجَهُنَّ بالزِّنا واتِّخاذِ الأَخْدَان وما أشبه ذلك، ولا يريدُ بهذا جميعَ النِّساءِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال في كتابِه: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النِّساء:٣٤]، وكم من امرأةٍ ليست على ما وَصَفَ ابنُ القيِّمِ -رحمه اللهُ- في هذا، لكنَّه يريدُ بذلك البغايا اللَّاتي يَخْدَعْنَ بجمالِـهِنَّ الذي هو زيفٌ، تجميلٌ وليس جمالًا في الحقيقةِ، قشرٌ رقيقٌ تحته البلاءُ، والنَّاقدُ معناه البصيرُ بالشَّيءِ يَرَوْنَ ماذا تحته؟ والنَّاسُ أكثرُهم من العُميانِ؛ ولهذا قال: «**وَالـحَافِظَاتُ الغَيْبِ...**».

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب كفران العشير، وكفر دون كفر، رقم (٢٩)، ومسلم: في أول كتاب العيدين، رقم (٨٨٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٩، رقم ٩٧٩٤).

٥٢٧٩- فَانْظُرْ مَصَارِعَ مَنْ يَلِيكَ وَمَنْ خَلا ... مِنْ قَبْلُ مِنْ شِيبٍ وَمِنْ شُبَّانِ

٥٢٨٠- وَارْغَبْ بِعَقْلِكَ أَنْ تَبِيعَ العَالِيَ الـ ... ـبَاقِي بِذَا الأَدْنَى الَّذِي هُوَ فَانِي

٥٢٨١- إِنْ كَانَ قَدْ أَعْيَاكَ خَوْدٌ مِثْل مَا ... تَبْغِي وَلَمْ تَظْفَرْ إِلَى ذَا الآنِ

٥٢٨٢- فَاخْطُبْ مِنَ الرَّحْمَنِ خَوْدًا ثُمَّ قَدْ ... دِمْ مَهْرَهَا مَا دُمْتَ ذَا إِمْكَانِ

٥٢٨٣- ذَاكَ النِّكَاحُ عَلَيْكَ أَيْسَرُ-إِنْ يَكُنْ ... لَكَ نِسْبَةٌ لِلعِلْمِ وَالإِيمَانِ

٥٢٨٤- وَاللهِ لَمْ تَخْرُجْ إِلَى الدُّنْيَا لِلَذْ ... ذَةِ عَيْشِهَا أَوْ لِلحُطَامِ الفَانِي

٥٢٨٥- لَكِنْ خَرَجْتَ لِكَيْ تَعُدَّ الزَّادَ لِلْـ ... أُخْرَى فَجِئْتَ بِأَقْبَحِ الخُسْرَانِ

٥٢٨٦- أَهْمَلْتَ جَمْعَ الزَّادِ حَتَّى فَاتَ بَلْ ... فَاتَ الَّذِي أَلْهَاكَ عَنْ ذَا الشَّانِ

٥٢٨٧- وَاللهِ لَوْ أَنَّ القُلُوبَ سَلِيمَةٌ ... لَتَقَطَّعَتْ أَسَفًا مِنَ الحِرْمَانِ

٥٢٨٨- لَكِنَّهَا سَكْرَى بِحُبِّ حَيَاتِهَا الدْ ... دُنْيَا وَسَوْفَ تُفِيقُ بَعْدَ زَمَانِ

الشرحُ

٥٢٧٩- فَانْظُرْ مَصَارِعَ مَنْ يَلِيكَ وَمَنْ خَلا ... مِنْ قَبْلُ مِنْ شِيبٍ وَمِنْ شُبَّانِ

٥٢٨٠- وَارْغَبْ بِعَقْلِكَ أَنْ تَبِيعَ العَالِيَ الـ ... ـبَاقِي بِذَا الأَدْنَى الَّذِي هُوَ فَانِي

٥٢٨١- إِنْ كَانَ قَدْ أَعْيَاكَ خَوْدٌ مِثْل مَا ... تَبْغِي وَلَمْ تَظْفَرْ إِلَى ذَا الآنِ

٥٢٨٢- فَاخْطُبْ مِنَ الرَّحْمَنِ خَوْدًا ثُمَّ قَدْ ... دِمْ مَهْرَهَا مَا دُمْتَ ذَا إِمْكَانِ

٥٢٨٣- ذَاكَ النِّكَاحُ عَلَيْكَ أَيْسَرُ-إِنْ يَكُنْ ... لَكَ نِسْبَةٌ لِلعِلْمِ وَالإِيمَانِ

يقولُ: إِذَا أَعْيَاكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا خَوْدٌ؛ أي: امرأةٌ مستورةٌ طيِّبةُ الخَلْقِ والخُلُقِ، فَاخْطبْ إِلَى الرَّحْمَنِ؛ يعني: قَدِّم المهرَ إلى الله عزَّ وجلَّ لِـخِطْبَةِ الحورِ العينِ؛ وذلك بالإيمانِ والعملِ الصَّالحِ، والإيمانُ والعملُ الصَّالحُ هو مهرٌ أيسرُ من مهورِ نساءِ الدُّنيا، وهو أيضًا يطِيبُ به القلبُ، وينشرحُ به الصَّدرُ، وتنبسطُ به النَّفسُ، ولا حياةَ ألذُّ من حياةِ أهلِ الإيمانِ والصَّلاحِ أبدًا، حتَّى قال بعضُ السَّلفِ: «لو يعلمُ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسُّيوفِ»[1] الملوكُ وأبناءُ الملوكِ سرورُهم ورفاهيَّتُهم سرورُ جسدٍ لا سرور قلبٍ، ورفاهيةُ جسدٍ لا رفاهية نفسٍ، وإن كانوا منعَّمين ويُخْدَمُونَ وتُقَدَّمُ لهم أطيبُ الفواكهِ والفُرُشِ والأَسِرَّةِ، لكن نفوسُهم ليست مسرورةً، بل نفوسُهم في حبسٍ وضيقٍ، لكن ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النَّحل:٩٧]، لم يقل: «**لَنُوَسِّعَنَّ عليه في الرِّزقِ والقصورِ والمراكبِ**»، بل قال: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾، تجدُ قلبَه مُنْشَرِحًا مُنَعَّمًا مسرورًا دائمًا لا ينغلقُ، حتَّى إنَّه إذا انغلق فَتَحَ اللهُ له بابَ الاستغفارِ كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ**[2] **عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي اليَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ**»[3]، فتجدُه دائمًا مُنْشَرِحًا؛ لأنَّه يقولُ بلسانِ الحالِ: «**إن فاتتني الدُّنيا أَدْرَكْتُ الآخرةَ، وإن لم تَفُتْنِي جَمَعْتُ بين الدُّنيا والآخرةِ**»، فهو يترقَّبُ دارًا أكملَ بكثيرٍ من دارِه التي هو

(١) من كلام إبراهيم بن أدهم، وقد تقدم.

(٢) الغين: الغيم. وغِينَت السماء تُغَان: إذا أطبق عليها الغيم. وقيل: الغَين: شجر ملتف، أراد ما يغشاه من السهو الذي لا يخلو منه البشر، لأن قلبه أبدًا كان مشغولًا بالله تعالى، فإن عرض له وقتا ما عارض بَشَري يشغله مِن أمور الأمة والملة ومصالحهما عدَّ ذلك ذنبًا وتقصيرًا، فيفزع إلى الاستغفار. انظر: النهاية: غين.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم (٢٧٠٢).

فيها؛ لأنَّه يؤمنُ بها ويترقَّبُها ويسعى للوصولِ إليها، ومع ذلك يجعلُ اللهُ في قلبِه من السُّرورِ والبهجةِ وطيبِ العيشِ ما لا يحصلُ لغيرِه.

٥٢٨٤- وَاللهِ لَـمْ تَخْـرُجْ إِلَى الـدُّنْيَا لِلَـذْ ... ذَةِ عَيْشِـهَا أَوْ لِلحُطَـامِ الفَـانِي

٥٢٨٥- لَكِنْ خَرَجْتَ لِكَيْ تَعُدَّ الـزَّادَ لِلْـ ... أُخْرَى فَجِئْـتَ بِـأَقْبَحِ الـخُسْرَانِ

صحيحٌ، ما خَرَجْنَا لنعيشَ في الدُّنيا كما تعيشُ البهائمُ نأكلُ ونشربُ وننامُ فقط، ولكن خَرَجْنَا لكي نُعِدَّ الزَّادَ للأخرى؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّاريات:٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦]؛ أي: تَعَالَى وَتَعاظَمَ أن يخلقَنا عبثًا لا نرجعُ إليه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]، سوف نقفُ بين يدي الله عزَّ وجلَّ ملاقاةً، ويحاسبُنا، ثُمَّ نُؤْتَى الكتبَ بالأَيْمانِ أو بالشَّمائلِ، نسألُ اللهَ أن يجعلَ كتابَنا باليمينِ.

٥٢٨٦- أَهْمَلْتَ جَمْعَ الزَّادِ حَتَّـى فَـاتَ بَـلْ ... فَاتَ الَّذِي أَلْـهَاكَ عَـنْ ذَا الشَّـانِ

قَوْلُهُ: «أَهْمَلْتَ جَمْعَ الزَّادِ حَتَّى فَاتَ»، أيَّ زادٍ أَهْمَلَ؟ الجوابُ: أَهْمَلَ جمعَ زادِ الآخرةِ، حتَّى فَاتَ، وجَمْعُ زادِ الآخرةِ بالأعمالِ الصَّالحةِ.

قَوْلُهُ: «حَتَّى فَاتَ، بَلْ فَاتَ الَّذِي أَلْـهَاكَ عَنْ ذَا الشَّانِ» اللهُ أكبرُ، إِذَنْ فاته زادان: زادُ الآخرةِ والزَّادُ الذي ألهاه عن زادِ الآخرةِ، ما الذي ألهاه عن هذا الزَّادِ؟ الجوابُ: الدُّنيا ومتعُها فَاتَتْ، الدُّنيا الآن لا يمضي منها دقيقةٌ فترجعُ، كُلُّها تفوتُ، فدقائقُ ولحظاتٌ وإذا أنت على شفا البئرِ، انْتَهَيْتَ، لكن نعيمُ الآخرةِ يزدادُ

ويبقى، ولا يَفْنَى أبدًا كما قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨]؛ أي: لا ينقطعُ أبدًا، فكيف نُؤْثِرُ الفانيَ على الباقي؟! والله إنَّه جهلٌ منَّا وغفلةٌ وتغافلٌ؛ إذ كيف نُفَضِّلُ الدُّنيا على الآخرةِ، مع أنَّنا نراها تذهبُ ولا ترجعُ، تفوتُ، فإذا لم نستدرك أعمارَنا بالأعمالِ الصَّالحةِ فاتتنا الدُّنيا والآخرةُ، قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزُّمر:١٥].

٥٢٨٧- وَاللهِ لَــوْ أَنَّ القُلُــوبَ سَــلِيمَةٌ لَتَقَطَّعَــتْ أَسَــفًا مِــنَ الــحِرْمَانِ

أَقْسَمَ، وَصَدَقَ، والله لو أنَّ قلوبَنا سليمةٌ لتقطَّعت أسفًا وحُزْنًا من حرمانِها؛ يعني: يُحْرَمُ الإنسانُ الوصولَ إلى الجنَّةِ بسوءِ فعلِه، وما أكثرَ السَّاعاتِ التي تمرُّ بنا ونحن نُحْرَمُ منها ولا نستفيدُ منها، والعمرُ والزَّمنُ أغلى من الثَّمنِ، أغلى من الذَّهبِ وأغلى من الفضَّةِ، الذَّهبُ والفضَّةُ لو ذهبا يمكن أن يأتيَ بدلهما شيءٌ، لكن العمرُ والزَّمنُ لا يأتي بدلَه شيءٌ، إذا ذَهَبَ ذَهَبَ بدون ردٍّ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون:١١]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]؛ يعني: لا يُوجَدُ رجوعٌ، ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٠]، وقال تعالى: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون:١٠].

أنت الآن في مهلةٍ، اغتنم الوقتَ، اجعل لنفسِك حزبًا من كتابِ الله عزَّ وجلَّ، اجعل لنفسِك وقتًا للعملِ الصَّالحِ، قُمْ في آخرِ اللَّيلِ ولو نصفَ ساعةٍ قبل الفجرِ، نَاجِ ربَّك، ادْعُه، فإنَّه تعالى ينزلُ إلى السَّماءِ الدُّنيا فيَقُولُ: «مَنْ يَدْعُونِي

فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟»(١)، مَن الذي لا يقدرُ أن يقومَ قبل الفجرِ بنصفِ ساعةٍ؟! هذا أمرٌ بسيطٌ جدًّا، نحن نسألُ اللهَ أن يرحمَنا برحمتِه، لا نقومُ ثلثَ اللَّيلِ ولا نصفَ اللَّيلِ، لكن أفلا يمكنُ أن نقومَ نصفَ ساعةٍ فقط، نتوضَّأُ، نذكرُ اللهَ فيها، نصلِّي ما شاء اللهُ، نُوتِرُ؟! هذا أمرٌ أظنُّه بسيطًا جدًّا.

كذلك أيضًا نجعلُ حياتَنا كُلَّها ذكرًا لله، فإنَّ المؤمنَ الكَيِّسَ هو الذي يجعلُ حياتَه كُلَّها ذكرًا لله؛ لأنَّ في كُلِّ شيءٍ أمامنا آيةً من آياتِ الله، فإذا ذَكَرْنَا هذا الشَّيءَ الذي أمامنا من آياتِ الله ذكرنا بذلك اللهَ عزَّ وجلَّ، فيكونُ الإنسانُ دائمًا يذكرُ اللهَ عزَّ وجلَّ بما يُشَاهِدُ من آياتِ الله الكونيَّةِ، بل بما يُشَاهِدُ من نفسِه وتقلُّباتِها، فالقلوبُ ليست على وتيرةٍ واحدةٍ دائمًا، بل في غفلةٍ أحيانًا، في إنابةٍ أحيانًا، في تذكُّرٍ أحيانًا، في حياةٍ بيِّنةٍ أحيانًا، أحيانًا يحيا قلبُك حياةً تتمتَّعُ بها مدَّةً من الزَّمنِ تتذكَّرُها، رُبَّما تتذكَّرُ حالةً وَقَفْتَ فيها بين يدي الله عزَّ وجلَّ مُصَلِّيًا ساجدًا قبل ثلاثين سنةً أو أكثر حسب عُمُرِ الإنسانِ؛ لأنَّها أَثَّرَتْ في قلبِه، فمثلُ هذه الاشياءِ ينبغي أن نستغلَّها، وألَّا نغفلَ، فالغفلةُ قسوةٌ للقلبِ وموتٌ للقلبِ.

٥٢٨٨- لَكِنَّهَا سَكْرَى بِحُبِّ حَيَاتِهَا الدْ ... دُنْيَا وَسَوْفَ تُفِيقُ بَعْدَ زَمَانِ

وَصَدَقَ رحمه اللهُ، القلوبُ سَكْرَى بِحُبِّ حياتِها الدُّنيا، فهي تسعى للدُّنيا أوَّلًا وآخرًا، ينامُ الإنسانُ وهو يفكِّرُ في الدُّنيا، يستيقظُ وهو يفكِّرُ في الدُّنيا، كأنَّما خُلِقْتَ للدُّنيا فتغفلُ عن الآخرةِ، ومتى تُفِيقُ؟ قال: «وَسَوْفَ تُفِيقُ بَعْدَ زَمَانِ»

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١٠٩٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، رقم (٧٥٨).

متى؟ الجوابُ: عند الموتِ يُفيقُ الإنسانُ، يقولُ: «**لَيْتَني فَعَلْتُ، لَيْتَني فَعَلْتُ**»، وأشدُّ من ذلك إفاقةً إذا كان يومُ القيامةِ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ [الفرقان:٢٧-٢٨]، قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان:٢٩]، أو يقولُها القائلُ وهو نفسُ الذي عَضَّ يديه، وحين يقولُ القائلُ: ﴿يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر:٢٤]، وهناك لا ينفعُ النَّدمُ.

فجزاه اللهُ خيرًا، فقد حَرَّكَ القلوبَ وأفاد، نسألُ اللهَ أن يجزيَه عنَّا خيرًا.

أسألُ اللهَ تعالى بأسمائِه وصفاتِه أن يجعلَني وإيَّاكم ممَّن يغتنمُ الأوقاتِ بالأعمالِ الصَّالحاتِ، وأن يُثَبِّتَنا عند المماتِ وبعد المماتِ وفي يومٍ يجعلُ الولدان شيبًا، إنَّه جوادٌ كريمٌ.

* * *



فصل



٥٢٨٩- فَاسْمَعْ صِفَاتِ عَرَائِسِ الجَنَّاتِ ثُـمْ مَ اخْتَرْ لِنَفْسِـكَ يَـا أَخَـا العِرْفَـانِ

٥٢٩٠- حُورٌ حِسَـانٌ قَـدْ كَمُلْـنَ خَلائِقًـا وَمَحَاسِـنًا مِـنْ أَجْمَـلِ النِّسْـوَانِ

٥٢٩١- حَتَّى يَحَارَ الطَّرْفُ فِي الحُسْنِ الَّذِي قَدْ أُلْبِسَـتْ فَـالطَّرْفُ كَالـحَيْرَانِ

٥٢٩٢- وَيَقُـولُ لَـمَّا أَنْ يُشَـاهِدَ حُسْـنَهَا سُبْحَانَ مُعْطِي الحُسْنِ وَالإِحْسَانِ

٥٢٩٣- وَالطَّرْفُ يَشْرَبُ مِنْ كُؤُوسِ جَمَالِـهَا فَـتَرَاهُ مِثْـلَ الشَّـارِبِ النَّشْـوَانِ

٥٢٩٤- كَمُلَتْ خَلائِقُهَا وَأُكْمِـلَ حُسْـنُهَا كَالبَـدْرِ لَيْـلَ السِّـتِّ بَعْـدَ ثَـمَانِ

٥٢٩٥- وَالشَّمْسُ تَجْرِي فِي مَحَاسِنِ وَجْهِهَا وَاللَّيْـلُ تَحْـتَ ذَوَائِـبِ الأَغْصَـانِ

٥٢٩٦- فَتَرَاهُ يَعْجَبُ وَهْوَ مَوْضِعُ ذَاكَ مِنْ لَيْـلٍ وَشَـمْسٍ كَيْـفَ يَجْتَمِعَـانِ

٥٢٩٧- وَيَقُـولُ سُـبْحَانَ الَّـذِي ذَا صُـنْعُهُ سُـبْحَانَ مُـتْقِنِ صَـنْعَةِ الإِنْسَـانِ

٥٢٩٨- لا اللَّيْلُ يُدْرِكُ شَمْسَهَا فَتَغِيبُ عِنْـ ـدَ مَجِيئِـهِ حَتَّـى الصَّـبَاحِ الثَّـانِي

٥٢٩٩- وَالشَّمْسُ لا تَأْتِي بِطَرْدِ اللَّيْـلِ بَـلْ يَتَصَـاحَبَانِ كِلاهُمَـا أَخَـوَانِ

٥٣٠٠- وَكِلاهُمَـا مِـرْآةُ صَـاحِبِهِ إِذَا مَـا شَـاءَ يُبْصِـرُ وَجْهَـهُ يَرَيَـانِ

٥٣٠١- فَـيَرَى مَحَاسِـنَ وَجْهِـهِ فِي وَجْهِهَـا وَتَـرَى مَحَاسِـنَهَا بِـهِ بِعِيَـانِ

٥٣٠٢- حُمْـرُ الـخُدُودِ ثُغُـورُهُنَّ لآلِـئٌ سُـودُ العُيُـونِ فَـوَاتِرُ الأَجْفَـانِ

٥٣٠٣- وَالبَرْقُ يَبْـدُو حِـينَ يَبْسِـمُ ثَغْرُهَـا   فَيُضِيءُ سَقْفُ القَصْرِ بِالـجُدْرَانِ

٥٣٠٤- وَلَقَـدْ رُوِينَـا أَنَّ بَرْقًـا سَـاطِعًا   يَبْـدُو فَيُسْـأَلُ عَنْـهُ مَـنْ بِجِنَـانِ

٥٣٠٥- فَيُقَـالُ هَـذَا ضَـوْءُ ثَغْـرٍ ضَـاحِكٍ   فِي الـجَنَّةِ العُلْيَـا كَـمَا تَرَيَـانِ

٥٣٠٦- لله لاثِـمُ ذَلِـكَ الثَّغْـرِ الَّـذِي   فِي لَثْمِـهِ إِدْرَاكُ كُـلِّ أَمَـانِ

٥٣٠٧- رَيَّانَـةُ الأَعْطَـافِ مِـنْ مَـاءِ الشَّبَا   بِ فَغُصْـنُهَا بِالمَـاءِ ذُو جَرَيَـانِ

٥٣٠٨- لَـمَّا جَـرَى مَـاءُ النَّعِيمِ بِغُصْنِهَا   حَمَـلَ الثِّـمَارَ كَثِـيرَةَ الأَلْـوَانِ

٥٣٠٩- فَـالوَرْدُ وَالتُّفَّـاحُ وَالرُّمَّـانُ فِي   غُصْـنٍ تَعَـالَى غَـارِسُ البُسْـتَانِ

٥٣١٠- وَالقَدُّ مِنْهَـا كَالقَضِـيبِ اللَّـدْنِ فِي   حُسْنِ القَـوَامِ كَأَوْسَـطِ القُضْبَانِ

٥٣١١- فِي مَغْـرِسٍ كَالعَـاجِ تَحْسَـبُ أَنَّـهُ   عَـالِي النَّقَـا أَوْ وَاحِـدُ الكُثْبَـانِ

٥٣١٢- لا الظَّهْـرُ يَلْحَقُهَـا وَلَـيْسَ ثُـدَيُّهَا   بِلَوَاحِـقٍ لِلْـبَطْنِ أَوْ بِـدَوَانِي

٥٣١٣- لَكِـنَّهُنَّ كَوَاعِـبٌ وَنَوَاهِـدٌ   فَثُـدَيُّهُنَّ كَـأَلْطَفِ الرُّمَّـانِ

٥٣١٤- وَالـجِيدُ ذُو طُـولٍ وَحُسْـنٍ فِي بَيَـا   ضٍ وَاعْتِـدَالٍ لَـيْسَ ذَا نُكْـرَانِ

٥٣١٥- يَشْكُو الـحُلِيُّ بِعَادَهُ فَلَهُ مَدَى الْـ   أَيَّـامِ وَسْـوَاسٌ مِـنَ الـهِجْرَانِ

٥٣١٦- وَالـمِعْصَمَانِ فَـإِنْ تَشَـأْ شَـبِّهْهُمَا   بِسَـبِيكَتَيْنِ عَلَـيْهِمَا كَفَّـانِ

٥٣١٧- كَالزُّبْـدِ لِينًـا فِي نُعُومَـةِ مَلْمَـسٍ   أَصْـدَافُ دُرٍّ دُوِّرَتْ بِـوِزَانِ

٥٣١٨- وَالصَّـدْرُ مُتَّسِعٌ عَـلَى بَطْـنٍ لَـهَا   حُفَّـتْ بِـهِ خَصْـرَانِ ذَاتِ ثَـمَانِ

٥٣١٩- وَعَلَيْهِ أَحْسَنُ سُرَّةٍ هِيَ مَجْمَعُ الْـ ـخَصْرَيْنِ قَدْ غَارَتْ مِنَ الأَعْكَانِ
٥٣٢٠- حُقٌّ مِنَ العَاجِ اسْتَدَارَ وَحَوْلَهُ حَبَّاتُ مِسْكٍ جَلَّ ذُو الإِتْقَانِ
٥٣٢١- وَإِذَا انْحَدَرْتَ رَأَيْتَ أَمْرًا هَائِلًا مَا لِلصِّفَاتِ عَلَيْهِ مِنْ سُلْطَانِ
٥٣٢٢- لَا الحَيْضُ يَغْشَاهُ وَلا بَوْلٌ وَلَا شَيْءٌ مِنَ الآفَاتِ فِي النِّسْوَانِ
٥٣٢٣- فَخِذَانِ قَدْ حُفَّا بِهِ حَرَسًا لَهُ فَجَنَابُهُ فِي عِزَّةٍ وَصِيَانِ
٥٣٢٤- قَامَا بِخِدْمَتِهِ هُوَ السُّلْطَانُ بَيْـ ـنَهُمَا وَحَقٌّ طَاعَةُ السُّلْطَانِ
٥٣٢٥- وَهُوَ المُطَاعُ أَمِيرُهُ لا يَنْثَنِي عَنْهُ وَلا هُوَ عِنْدَهُ بِجَبَانِ
٥٣٢٦- وَجِمَاعُهَا فَهُوَ الشِّفَاءُ لِصَبِّهَا فَالصَّبُّ مِنْهُ لَيْسَ بِالضَّجَرَانِ
٥٣٢٧- وَإِذَا يُجَامِعُهَا تَعُودُ كَمَا أَتَتْ بِكْرًا بِغَيْرِ دَمٍ وَلا نُقْصَانِ
٥٣٢٨- فَهُوَ الشَّهِيُّ وَعُضْوُهُ لا يَنْثَنِي جَاءَ الحَدِيثُ بِذَا بِلا نُكْرَانِ
٥٣٢٩- وَلَقَدْ رُوِينَا أَنَّ شُغْلَهُمُ الَّذِي قَدْ جَاءَ فِي ﴿يسٓ﴾ دُونَ بَيَانِ
٥٣٣٠- شُغُلُ العَرُوسِ بِعِرْسِهِ مِنْ بَعْدِ مَا عَبِثَتْ بِهِ الأَشْوَاقُ طُولَ زَمَانِ
٥٣٣١- بِاللهِ لا تَسْأَلْهُ عَنْ أَشْغَالِهِ تِلْكَ اللَّيَالِي شَأْنُه ذُو شَانِ
٥٣٣٢- وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا بِصَبٍّ غَابَ عَنْ مَحْبُوبِهِ فِي شَاسِعِ البُلْدَانِ
٥٣٣٣- وَالشَّوْقُ يُزْعِجُهُ إِلَيْهِ وَمَا لَهُ بِلِقَائِهِ سَبَبٌ مِنَ الإِمْكَانِ
٥٣٣٤- وَافَى إِلَيْهِ بَعْدَ طُولِ مَغِيبِهِ عَنْهُ وَصَارَ الوَصْلُ ذَا إِمْكَانِ

٥٣٣٥- أَتَلُومُـهُ أَنْ صَـارَ ذَا شُـغُلٍ بِـهِ   لَا وَالَّـذِي أَعْطَـى بِـلا حُسْـبَانِ

٥٣٣٦- يَـا رَبِّ غَفْـرًا قَـدْ طَغَـتْ أَقْلامُنَـا   يَـا رَبِّ مَعْـذِرَةً مِـنَ الطُّغْيَـانِ

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «فَتَرَاهُ يَعْجَبُ وَهْوَ مَوْضِعُ ذَاكَ مِنْ لَيْلٍ وَشَمْسٍ كَيْفَ يَجْتَمِعَانِ؟» الشَّمسُ: الوجهُ، واللَّيلُ: ذوائبُ الرَّأسِ، فهو يتعجَّبُ كيف يجتمعُ اللَّيلُ والنَّهارُ؟ لكنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، وهذا كُلُّه كالتَّمثيلِ والمبالغةِ في الاستعارةِ.

قَوْلُهُ: «فَيَرَى مَحَاسِنَ وَجْهِهِ فِي وَجْهِهَا وَتَرَى مَحَاسِنَهَا بِهِ بِعِيَانِ»؛ يعني أنَّ الرَّجُلَ مع أهلِه من الحورِ في الجنَّةِ يستطيعُ أن يَرَى وجهَه في وجهِها، وتَرَى وجهَها في وجهِه، فكُلٌّ منهما مرآةُ صاحبِه، لكن هذا يحتاجُ إلى دليلٍ.

قَوْلُهُ: «وَإِذَا يُجَامِعُهَا تَعُودُ كَمَا أَتَتْ بِكْرًا بِغَيْرِ دَمٍ وَلَا نُقْصَانِ»؛ لقولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ [الواقعة:٣٥-٣٦]؛ يعني: دائمًا.

قَوْلُهُ: «وَلَقَدْ رُوِينَا أَنَّ شُغْلَهُمُ الَّذِي قَدْ جَاءَ فِي ﴿يس﴾ دُونَ بَيَانِ شُغُلُ العَرُوسِ بِعِرْسِهِ» وهذا هو ظاهرُ الآيةِ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس:٥٥-٥٦]، فتفسيرُها بهذا مطابقٌ تمامًا لظاهرِ السِّياقِ.

قَوْلُهُ: «وَاضْرِبْ لَـهُمْ مَثَلًا بِصَبٍّ غَابَ عَنْ مَحْبُوبِهِ فِي شَاسِعِ البُلْدَانِ» «**الصَّبُّ**»؛ أي: الحبيب، فالصَّبابةُ درجةٌ من درجاتِ المحبَّةِ؛ لأنَّ المحبَّةَ عشرُ درجاتٍ ذكَرَها ابنُ القيِّمِ في «**روضة المحبِّين**»، وأعلاها الخُلَّةُ.

وهذا المَثَلُ واضحٌ؛ فهذا رجلٌ غابَ عن زوجتِه طويلًا، وهو يحبُّها وتحبُّه.

قَوْلُهُ: «**الشَّوْقُ يُزْعِجُهُ**»؛ أي: إليها، وكذلك هي، ثُمَّ «**وَافَى إِلَيْهِ بَعْدَ طُولِ مَغِيبِهِ عَنْهُ وَصَارَ الوَصْلُ ذَا إِمْكَانِ أَتَلُومُهُ إِنْ صَارَ ذَا شُغْلٍ بِهِ؟**» الجوابُ: «**لَا، وَالَّذِي أَعْطَى بِلَا حُسْبَانِ**».

قَوْلُهُ: «**يَا رَبِّ غَفْرًا قَدْ طَغَتْ أَقْلَامُنَا يَا رَبِّ مَعْذِرَةً مِنَ الطُّغْيَانِ**»، وهذا صحيحٌ أنَّه طَغَتْ أقلامُه، والطُّغيانُ: الزِّيادةُ، لكن هذه زيادةٌ -إن شاء اللهُ- لا يأثمُ بها؛ لأنَّ قصدَه بهذا التَّشويقُ إلى ما في الجنَّةِ من الحورِ العينِ، وأنَّه ليس ما في الجنَّةِ كما في الدُّنيا، هُنَّ أزواجٌ لكنَّهن أزواجٌ مُطَهَّرَةٌ، وليس في الجنَّةِ ممَّا في الدُّنيا إلَّا الأسماءُ فقط، والحورُ نساءٌ خُلِقْنَ في الجنَّةِ لأهلِ الجنَّةِ، خُلِقْنَ بكلمة «كُن»، لكن نساءُ الدُّنيا يَكُنَّ أحسنَ من الحورِ في الجنَّةِ، ويكنَّ أفضلَ منهُنَّ أيضًا؛ لأنَّ الحورَ العينَ لم يلحقْهُنَّ تكليفٌ ولا ابتلاءٌ وامتحانٌ بطاعةِ الله عزَّ وجلَّ بخلافِ نساءِ الدُّنيا، وكُلُّ ما يكونُ في الحورِ العينِ من الصِّفاتِ فهو موجودٌ في نساءِ الدُّنيا.

المهمُّ أنَّ المؤلِّفَ -رحمه اللهُ- أراد بهذا الوصفِ العجيبِ الغريبِ أن يُشَوِّقَ الإنسانَ إلى هؤلاء الأزواجِ حتَّى يعملَ لَـهُنَّ، نسألُ اللهَ أن يجعلَنا وإيَّاكم من أزواجِهنَّ، وأن يرزقَنا العلمَ النَّافعَ والعملَ الصَّالحَ.

***

فصـــل

٥٣٣٧- أَقْـدَامُهَا مِـنْ فِضَّـةٍ قَـدْ رُكِّبَـتْ مِــنْ فَوْقِهَــا سَــاقَانِ مُلْتَفَّــانِ

٥٣٣٨- وَالسَّاقُ مِثْلُ العَـاجِ مَلْمُـومٌ يَـرَى مُـــخَّ العِظَـــامِ وَرَاءَهُ بِعِيَـــانِ

٥٣٣٩- وَالرِّيحُ مِسْكٌ وَالـجُسُومُ نَـوَاعِمٌ وَاللَّـوْنُ كَاليَـاقُوتِ وَالـمَرْجَانِ

٥٣٤٠- وَكَلامُهَـا يَسْـبِي العُقُـولَ بِنَغْمَـةٍ زَادَتْ عَـلَى الأَوْتَـارِ وَالعِيـدَانِ

٥٣٤١- وَهِيَ العَـرُوبُ بِشَـكْلِهَا وَبِدَلِّـهَا وَتَحَبُّـــبٍ لِلـــزَّوْجِ كُـــلَّ أَوَانِ

٥٣٤٢- وَهِيَ الَّتِي عِنْـدَ الـجِمَاعِ تَزِيـدُ في حَرَكَاتِهَـــا لِلعَـــيْنِ وَالأُذُنَـــانِ

٥٣٤٣- لُطْفًـا وَحُسْـنَ تَبَعُّـلٍ وَتَغَـنُّجٍ وَتَحَبُّـبٍ تَفْسِـيرُ ذِي العِرْفَـانِ

٥٣٤٤- تِلْكَ الـحَلاوَةُ وَالـمَلاحَةُ أَوْجَبَـا إِطْلاقَ هَـذَا اللَّفْـظِ وَضْـعَ لِسَـانِ

٥٣٤٥- فَمَلاحَـةُ التَّصْـوِيرِ قَبْـلَ غِنَاجِهَـا هِـيَ أَوَّلٌ وَهُـوَ الـمَحِلُّ الثَّـانِي

٥٣٤٦- فَـإِذَا هُمَـا اجْتَمَعَـا لَصَـبٍّ وَامِـقٍ بَلَغَـتْ بِـهِ اللَّـذَّاتُ كُـلَّ مَكَـانِ

الشـرحُ

٥٣٣٧- أَقْـدَامُهَا مِـنْ فِضَّـةٍ قَـدْ رُكِّبَـتْ مِــنْ فَوْقِهَــا سَــاقَانِ مُلْتَفَّــانِ

٥٣٣٨- وَالسَّاقُ مِثْلُ العَـاجِ مَلْمُـومٌ يَـرَى مُـــخَّ العِظَـــامِ وَرَاءَهُ بِعِيَـــانِ

قَوْلُهُ: «وَالسَّاقُ مِثْلُ العَاجِ مَلْمُومٌ يُرَى مُخُّ العِظَامِ وَرَاءَهُ بِعِيَانِ» ولا تقيسوا

هذا بالدُّنيا، فلو أنَّ امرأةً صار يُرَى مُخُّ ساقِها فلا يشتهيها الإنسانُ، لكن في الآخِرةِ الأمرُ يختلفُ، فيُوجَدُ الآن تمرٌ صافٍ جدًّا يَرِدُ من الجزائرِ، تَرَى النَّواةَ من ورائِه، فهذا تشتاقُ إلى أكلِه قبل أن تأكلَه؛ لأنَّ هذا طبيعتُه.

٥٣٣٩- وَالرِّيحُ مِسْكٌ وَالـجُسُومُ نَوَاعِمٌ ... وَاللَّـوْنُ كَاليَـاقُوتِ وَالـمَرْجَانِ

٥٣٤٠- وَكَلامُهَـا يَسْـبِي العُقُـولَ بِنَغْمَـةٍ ... زَادَتْ عَـلَى الأَوْتَـارِ وَالعِيـدَانِ

٥٣٤١- وَهِيَ العَـرُوبُ بِشَـكْلِهَا وَبِدَلِّـهَا ... وَتَحَبُّـبٍ لِلـزَّوْجِ كُـلَّ أَوَانِ

٥٣٤٢- وَهِيَ الَّتِي عِنْدَ الـجِمَاعِ تَزِيـدُ فِي ... حَرَكَاتِهَـا لِلعَـيْنِ وَالأُذُنَـانِ

٥٣٤٣- لُطْفًـا وَحُسْـنَ تَبَعُّـلٍ وَتَغَـنُّجٍ ... وَتَحَبُّـبٍ تَفْسِـيرُ ذِي العِرْفَـانِ

يعني: هذا تفسيرُ أصحابِ المعرفةِ، وعلى رأسِهم عبدُ الله بنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّ العَرُوبَ هي ما وُصِفَتْ بالشَّكلِ والدَّلِّ والتَّحبُّبِ والتَّغنُّجِ، وغيرِ ذلك ممَّا يُوجِبُ المحبَّةَ التَّامَّةَ لزوجِها.

٥٣٤٤- تِلْكَ الـحَلاوَةُ وَالـمَلاحَةُ أَوْجَبَا ... إِطْلاقَ هَـذَا اللَّفْـظِ وَضْـعَ لِسَـانِ

٥٣٤٥- فَمَلاحَـةُ التَّصْـوِيرِ قَبْـلَ غِنَاجِهَـا ... هِـيَ أَوَّلٌ وَهُـوَ الـمَحِلُّ الثَّـانِي

٥٣٤٦- فَـإِذَا هُمَـا اجْتَمَعَـا لَصَـبٍّ وَامِـقٍ ... بَلَغَـتْ بِـهِ اللَّـذَّاتُ كُـلَّ مَكَـانِ

قَوْلُهُ: «لِصَبٍّ» الصَّبُّ: شديدُ الحُبِّ.

قَوْلُهُ: «وَامِقٍ»؛ أي: ذو مِقَةٍ؛ والمِقَةُ: رتبةٌ من مرتبةِ المحبَّةِ أيضًا.

* * *

فصل

٥٣٤٧- أَتْـرَابُ سِـنٍّ وَاحِـدٍ مُتَمَاثِـلٍ ... سِـنِّ الشَّـبَابِ لأَجْمَـلِ الشُّـبَّانِ

٥٣٤٨- بِكْرٌ فَلَمْ يَأْخُذْ بَكَارَتَهَا سِوَى الْـ ... ـمَحْبُوبِ مِنْ إِنْسٍ وَلا مِنْ جَانِ

٥٣٤٩- حِصْنٌ عَلَيْهِ حَارِسٌ مِنْ أَعْظَمِ الْـ ... ـحُرَّاسِ بَأْسًا شَأْنُهُ ذُو شَانِ

٥٣٥٠- فَإِذَا أَحَسَّ بِدَاخِلٍ لِلحِصْنِ وَلْـ ... ـلَى هَارِبًا فَتَرَاهُ ذَا إِمْعَانِ

٥٣٥١- وَيَعُودُ وَهْنًا حِينَ رَبُّ الحِصْنِ يَخْـ ... ـرُجُ مِنْهُ فَهْوَ كَذَا مَدَى الأَزْمَانِ

٥٣٥٢- وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّهَا ... تَنْصَاعُ بِكْرًا لِلجِمَاعِ الثَّانِي

٥٣٥٣- لَكِنَّ دَرَّاجًا أَبَا السَّمْحِ الَّذِي ... فِيهِ يُضَعِّفُهُ أُولُو الإِتْقَانِ

٥٣٥٤- هَذَا وَبَعْضُهُمُ يُصَحِّحُ عَنْهُ فِي التْـ ... ـتَفْسِيرِ كَالمَوْلُودِ مِنْ حِبَّانِ

٥٣٥٥- فَحَدِيثُهُ دُونَ الصَّحِيحِ وَإِنَّهُ ... فَوْقَ الضَّعِيفِ وَلَيْسَ ذَا إِتْقَانِ

الشرحُ

هذا وإن كان الحديثُ ضعيفًا في هذه المسألةِ، لكنَّه ظاهرُ القرآنِ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة:٣٥- ٣٧]، فقال: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾؛ يعني: عند كُلِّ جماعٍ، ولو كانت بِكْرًا في أوَّلِ مرَّةٍ لم يكن لها هذا الإنشاءُ الذي قال اللهُ فيه: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾؛ يعني: إنشاءً يُغايِرُ إنشاءَ النِّساءِ في

الدُّنيا، فالصَّحيحُ حتَّى لو كان الحديثُ ضعيفًا[1] أنَّهُنَّ يُنْشَأْنَ أبكارًا، فكُلَّما جَامَعَهَا وَنَزَعَ منها عَادَتْ بِكْرًا، واللهُ عزَّ وجلَّ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ.

***

٥٣٥٦- يُعْطَى الـمُجَامِعُ قُوَّةَ المِئَةِ الَّتِي اجْـ ـــتَمَعَتْ لأَقْـوَى وَاحِـدِ الإِنْسَـانِ

٥٣٥٧- لَا أَنَّ قُوَّتَــهُ تُضَــاعَفُ هَكَــذَا إِذْ قَـدْ يَكُـونُ لأَضْـعَفِ الأَرْكَـانِ

٥٣٥٨- وَيَكُونُ أَقْوَى مِنْهُ ذَا نَقْصٍ مِنَ الْـ إِيـمَانِ وَالأَعْـمَالِ وَالإِحْسَـانِ

٥٣٥٩- وَلَقَــدْ رُوِينَـا أَنَّــهُ يَغْشَــى بِيَـوْ مٍ وَاحِــدٍ مِئَــةً مِــنَ النِّسْـوَانِ

٥٣٦٠- وَرِجَالُهُ شَرْطُ الصَّحِيحِ رَوَوْا لَـهُمْ فِيـهِ وَذَا فِي «مُعْجَـمِ الطَّـبَرَانِي»

٥٣٦١- هَــذَا دَلِيــلٌ أَنَّ قَــدْرَ نِسَـائِهِمْ مُتَفَــاوِتٌ بِتَفَــاوُتِ الإِيــمَانِ

٥٣٦٢- وَبِهِ يَـزُولُ تَـوَهُّمُ الإِشْـكَالِ عَـنْ تِلْـكَ النُّصُـوصِ بِمِنَّـةِ الـرَّحْمَنِ

٥٣٦٣- وَبِقُـوَّةِ الـمِئَةِ الَّتِـي حَصَـلَتْ لَـهُ أَفْضَــى إِلَى مِئَــةٍ بِــلا خَــوَرَانِ

٥٣٦٤- وَأَعَفُّهُـمْ فِي هَـذِهِ الـدُّنْيَا هُـوَ الْـ أَقْـوَى هُنَـاكَ لِزُهْـدِهِ فِي الفَـانِي

٥٣٦٥- فَاجْمَعْ قُوَاكَ لِـمَا هُنَاكَ وَغَمِّضِ الْـ ـــعَيْنَيْنِ وَاصْـبِرْ سَـاعَةً لِزَمَـانِ

٥٣٦٦- مَـا هَاهُنَـا وَاللهِ مَـا يَسْـوَى قُـلا مَـةَ ظُفْـرِ وَاحِـدَةٍ تُـرَى بِجِنَـانِ

٥٣٦٧- مَـا هَاهُنَـا إِلَّا النِّفَـارُ وَسَـيِّئُ الـ أَخْـلاقِ مَـعْ عَيْـبٍ وَمَـعْ نُقْصَـانِ

(١) يعني حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قيل له: أنطأُ في الجنة قال: «نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ دَحْمًا دَحْمًا فَإِذَا قَامَ عَنْهَا رَجَعَتْ مُطَهَّرَةً بكرا». أخرجه ابن حبان (١٦/ ٤١٥، رقم ٧٤٠٢).

٥٣٦٨- هَـمٌّ وَغَـمٌّ دَائِـمٌ لا يَنْتَهِـي | حَتَّى الطَّـلاقِ أَوِ الفِـرَاقِ الثَّـانِي
٥٣٦٩- وَاللهُ قَـدْ جَعَـلَ النِّسَـاءَ عَوَانِيًـا | شَرْعًا فَأَضْحَى البَعْلُ وَهْوَ العَانِي
٥٣٧٠- لَا تُؤْثِرِ الأَدْنَى عَلَى الأَعْلَى فَإِنْ | تَفْعَـلْ رَجَعْتَ بِذِلَّـةٍ وَهَـوَانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «مَا هَاهُنَا إِلَّا النِّقَارُ»؛ أي: المشاجرةُ.

قَوْلُهُ: «هَمٌّ وَغَمٌّ دَائِمٌ»؛ أي: هَمٌّ لما مَضَى، وغَمٌّ لما يأتي.

قَوْلُهُ: «لَا يَنْتَهِي حَتَّى الطَّلَاقِ أَوِ الفَرَاقِ الثَّانِي» «الفِرَاقُ الثَّاني»؛ أي: الموتُ.

قَوْلُهُ: «وَاللهُ قَدْ جَعَلَ النِّسَاءَ عَوَانِيًا» قد جَعَلَ اللهُ النِّساءَ عوانيًا؛ يعني: مثل الأسرى عند الرِّجالِ.

قَوْلُهُ: «فَأَضْحَى البَعْلُ وَهْوَ العَانِي»؛ يعني: انعكست القضيَّةُ، صار البعلُ هو الأسيرَ؛ يعني أنَّها أَسَرَتْهُ، فصار الرَّجُلُ يمشي على ما تريدُ المرأةُ.

وكأنَّ ابنَ القيِّمِ يُشَاهِدُ حالَ كثيرٍ من النَّاسِ اليوم، اليوم أصبح الزَّوجُ هو الأسيرَ عند الزَّوجةِ، ماذا تريد؟ فيفعل، حتَّى إنَّه ليحملُ ابنَه ومتاعَه الذي يشتريه من السُّوقِ، ابنُه يحملُه على عربةٍ يُحَرِّكُها، ومتاعُه بيدِه والزَّوجةُ تمشي، ولا تحملُ شيئًا أبدًا، هذا عكسُ الحقيقةِ، وقد كانت زوجةُ الزُّبَيْرِ بن العوَّام تحملُ النَّوى من المدينةِ إلى بستانِه خارج المدينةِ[1]، هذا هو الحقيقةُ هُنَّ عَوَانٍ، لكن علينا أن نتَّقِيَ اللهَ فيهنَّ ونُعْطِيَهُنَّ مثل ما نُحِبُّ أن يُعْطِينَ إيَّاه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الغيرة، رقم (٤٩٢٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب إرداف المرأة الأجنبية إذا أعيت في الطريق، رقم (٢١٨٢).

فصل

٥٣٧١- وَإِذَا بَـدَتْ فِي حُلَّـةٍ مِـنْ لُبْسِـهَا ... وَتَمَايَلَـتْ كَتَمَايُـلِ النَّشْـوَانِ
٥٣٧٢- تَهْتَـزُّ كَالغُصْـنِ الرَّطِيـبِ وَحَمْلُـهُ ... وَرْدٌ وَتِفَّـاحٌ عَـلَى رُمَّـانِ
٥٣٧٣- وَتَبَخْـتَرَتْ فِي مَشْـيِهَا وَيَحِـقُّ ذَا ... كَ لِـمِثْلِـهَا فِي جَنَّـةِ الـحَيَوَانِ
٥٣٧٤- وَوَصَـائِفٌ مِـنْ خَلْفِهَـا وَأَمَامِهَـا ... وَعَـلَى شَمَائِلِـهَا وَعَـنْ أَيْـمَانِ
٥٣٧٥- كَالبَـدْرِ لَيْلَـةَ تَـمِّهِ قَـدْ حُـفَّ فِي ... غَسَقِ الدُّجَى بِكَوَاكِـبِ الـمِيزَانِ
٥٣٧٦- فَلِسَـانُهُ وَفُـؤَادُهُ وَالطَّـرْفُ فِي ... دَهَـشٍ وَإِعْجَـابٍ وَفِي سُـبْحَانِ
٥٣٧٧- فَالقَلْـبُ قَبْـلَ زِفَافِهَـا فِي عُرْسِـهِ ... وَالعُـرْسُ إِثْـرَ العُـرْسِ مُتَّصِـلانِ
٥٣٧٨- حَتَّـى إِذَا مَـا وَاجَهَتْـهُ تَقَـابَلا ... أَرَأَيْـتَ إِذْ يَتَقَابَـلُ القَمَـرَانِ
٥٣٧٩- فَسَلِ الـمُتَيَّمَ هَلْ يَحِلُّ الصَّبْرُ عَنْ ... ضَـمٍّ وَتَقْبِيـلٍ وَعَـنْ فَلَتَـانِ
٥٣٨٠- وَسَلِ الـمُتَيَّمَ أَيْنَ خَلَّـفَ صَـبْرَهُ ... فِي أَيِّ وَادٍ أَمْ بِـأَيِّ مَكَـانِ
٥٣٨١- وَسَلِ الـمُتَيَّمَ كَيْفَ حَالَتُـهُ وَقَـدْ ... مُلِئَـتْ لَـهُ الأُذُنَـانِ وَالعَيْنَـانِ
٥٣٨٢- مِنْ مَنْطِقٍ رَقَّـتْ حَوَاشِـيهِ وَوَجْـ ... ـهٍ كَـمْ بِـهِ لِلشَّـمْسِ مِـنْ جَرَيَـانِ
٥٣٨٣- وَسَلِ الـمُتَـيَّمَ كَيْـفَ عِيشَـتُهُ إِذًا ... وَهُـمَـا عَـلَى فَرْشَـيْهِمَا خِلْـوَانِ
٥٣٨٤- يَتَسَـاقَطَانِ لآلِئًـا مَنْثُـورَةً ... مِـنْ بَـيْنِ مَنْظُـومٍ كَـنَظْمِ جُمَـانِ

٥٣٨٥- وَسَلِ الـمُتَيَّمَ كَيْفَ مَجْلِسُهُ مَعَ الـ ـــمَحْبُوبِ فِي رَوْحٍ وَفِي رَيْحَانِ
٥٣٨٦- وَتَدُورُ كَاسَاتُ الرَّحِيقِ عَلَيْهِمَا بِـأَكُفِّ أَقْـمَارٍ مِـنَ الوِلْـدَانِ
٥٣٨٧- يَتَنَازَعَـانِ الكَـأْسَ هَـذَا مَـرَّةً وَالـخَوْدُ أُخْـرَى ثُـمَّ يَتَّكِئَـانِ
٥٣٨٨- فَيَضُـمُّهَا وَتَضُـمُّهُ أَرَأَيْـتَ مَعْـ ـشُوقَيْنِ بَعْـدَ البُعْـدِ يَلْتَقِيَـانِ
٥٣٨٩- غَابَ الرَّقِيبُ وَغَـابَ كُـلُّ مُنَكِّـدٍ وَهُمَـا بِثَـوْبِ الوَصْـلِ مُشْـتَمِلانِ
٥٣٩٠- أَتَرَاهُمَا ضَجِرَيْنِ مِنْ ذَا العَيْشِ لا وَحَيَـاةِ رَبِّـكَ مَـا هُمَـا ضَـجِرَانِ
٥٣٩١- وَيَزِيـدُ كُـلٌّ مِـنْهُمَا حُبًّـا لِصَـا حِبِـهِ جَدِيـدًا سَـائِرَ الأَزْمَـانِ
٥٣٩٢- وَوِصَـالُهُ يَكْسُـوهُ حُبًّـا بَعْـدَهُ مُتَسَلْسِـلًا لا يَنْتَهِـي بِزَمَـانِ
٥٣٩٣- فَالوَصْـلُ مَحْفُـوفٌ بِحُـبٍّ سَـابِقٍ وَبِلاحِـقٍ وَكِلاهُمَـا صِـنْوَانِ
٥٣٩٤- فَـرْقٌ لَطِيـفٌ بَـيْنَ ذَاكَ وَبَـيْنَ ذَا يَدْرِيـهِ ذُو شُـغُلٍ بِهَـذَا الشَّـانِ
٥٣٩٥- وَمَزِيدُهُمْ فِي كُـلِّ وَقْـتٍ حَاصِـلٌ سُبْحَانَ ذِي المَلَكُوتِ وَالسُّـلْطَانِ
٥٣٩٦- يَـا غَـافِلًا عَـمَّا خُلِقْـتَ لَـهُ انْتَبِـهْ جَـدَّ الرَّحِيـلُ فَلَسْـتَ بِاليَقْظَـانِ
٥٣٩٧- سَـارَ الرِّفَـاقُ وَخَلَّفُـوكَ مَـعَ الأُلَى قَنَعُوا بِذَا الـحَظِّ الـخَسِيسِ الفَانِي
٥٣٩٨- وَرَأَيْـتَ أَكْثَـرَ مَـنْ تَـرَى مُتَخَلِّفًـا فَتَبِعْـتَهُمْ وَرَضِـيتَ بِالـحِرْمَانِ
٥٣٩٩- لَكِنْ أَتَيْتَ بِخُطَّتَيْ عَجْـزٍ وَجَهْـ ـلٍ بَعْـدَ ذَا وَصَـحِبْتَ كُـلَّ أَمَـانِ
٥٤٠٠- مَنَّتْكَ نَفْسُكَ بِاللَّحَاقِ مَـعَ القُعُـو دِ عَـنِ الـمَسِيرِ وَرَاحَـةِ الأَبْـدَانِ

٥٤٠١- وَلَسَوْفَ تَعْلَمُ حِينَ يَنْكَشِفُ الغِطَا مَـاذَا صَـنَعْتَ وَكُنْـتَ ذَا إِمْكَـانِ

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «وَتَبَخْتَرَتْ فِي مَشْيِهَا» أمَّا في الدُّنيا فالتَّبختُرُ لا يجوزُ إلَّا في حالٍ واحدةٍ، في حالِ الحربِ مع الأعداءِ فإنَّه يجوزُ لنا أن نتبخترَ وأن نمشيَ الخيلاءَ، وأن نلبسَ الحريرَ أيضًا ونحن رجالٌ لقصدِ إذلالِ العدوِّ وإهانتِه.

قَوْلُهُ: «وَوَصَائِفٌ مِنْ خَلْفِهَا وَأَمَامِهَا...» الوَصَائِفُ؛ يعني: الخدمَ، فالحوريَّةُ لها خدمٌ، شبَّههم ابنُ القيِّمِ -رحمه اللهُ- كالبدرِ ليلةَ تمِّه؛ يعني: تمامَه «**قَدْ حُفَّ فِي غَسَقِ الدُّجى بِكَوَاكِبِ المِيزَانِ**» إذا صار البدرُ تامًّا وحوله كواكبُ الميزانِ النَّيِّرة، فإنَّه يكونُ له منظرٌ عجيبٌ لا يعرفُه إلَّا مَنْ شَاهَدَ ذلك.

قَوْلُهُ: «وَفِي سُبْحَانِ» «سُبْحَان»؛ يعني: تسبيحًا لله عزَّ وجلَّ، يُسَبِّحُ اللهَ عزَّ وجلَّ وينزِّهُه عن كُلِّ نقصٍ.

قَوْلُهُ: «فَرْقٌ لَطِيفٌ بَيْنَ ذَاكَ وَبَيْنَ ذَا يَدْرِيهِ ذُو شُغُلٍ بِهَذَا الشَّانِ» وهذا صحيحٌ، فهناك فرقٌ بين حُبِّ التَّلاقي السَّابقِ واللَّاحقِ، لكن ما يدريه إلَّا ذو شُغُلٍ بهذا الشَّانِ.

قَوْلُهُ: «مَنَّتْكَ نَفْسُكَ بِاللَّحَاقِ مَعَ القُعُودِ عَنِ المَسِيرِ وَرَاحَةِ الأَبْدَانِ»؛ وذلك كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [سبأ:٥٢].

* * *

فصـــل

في ذِكْرِ الخِلافِ بَيْنَ النَّاسِ: هَلْ تَحْبَلُ نِسَاءُ أَهْلِ الجَنَّةِ أَمْ لا؟

٥٤٠٢- وَالنَّـاسُ بَيْـنَهُمُ خِـلافٌ هَـلْ بِهَـا ... حَبْـلٌ وَفِي هَــذَا لَـهُمْ قَـوْلانِ

٥٤٠٣- فَنَفَــاهُ طَــاوُسٌ وَإِبْــرَاهِيمُ ثُـمْـ ... ـمَ مُجَاهِـدٌ وَهُـمُ أُولُـو العِرْفَـانِ

٥٤٠٤- وَرَوَى العُقَيْلِيُّ الصَّدُوقُ أَبُو رَزِيـ ... ـنٍ صَـاحِبِ المَبْعُـوثِ بِـالقُرْآنِ

٥٤٠٥- أَلَّا تَوَالُـدَ فِي الـجِنَانِ رَوَاهُ تَعْـ ... ـلِيقًا مُحَمَّـدٌ العَظِـيمُ الشَّـانِ

٥٤٠٦- وَحَكَاهُ عَنْهُ التِّرْمِـذِيُّ وَقَـالَ إِسْـ ... ـحَاقُ بْـنُ إِبْـرَاهِيمَ ذُو الإِتْقَـانِ

٥٤٠٧- لَا يَشْـتَهِي وَلَـدًا بِهَـا وَلَـوِ اشْـتَهَا ... هُ لَكَـانَ ذَاكَ مُحَقَّـقَ الإِمْكَـانِ

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «رَوَاهُ تَعْلِيقًا مُحَمَّدٌ العَظِيمُ الشَّانِ»؛ أي: محمَّدُ بن إسماعيلَ البخاريُّ.

قَوْلُهُ: «وَقَالَ إِسْحَاقُ... لَا يَشْتَهِي وَلَدًا بِهَا وَلَوِ اشْتَهَاهُ لَكَانَ ذَاكَ مُحَقَّقَ الإِمْكَانِ» وهذا هو المناسبُ أَلَّا توالدَ في الجنَّةِ؛ لأنَّ التَّوالدَ في الدُّنيا لِحفظِ بقاءِ النَّسلِ؛ لأنَّ النَّاسَ يموتون، لكن في الآخرةِ لا موت، فتجدُهم لا يحتاجون إلى أولادٍ، ولا يشتهون الولدَ، ولا يتفاخرون به، إِذَنْ لا فائدةَ، فالرَّاجحُ أنَّه لا توالدَ في الجنَّةِ، لكن لو فَرَضْنَا أنَّ أحدًا اشتهاه فعمومُ قولِه تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ [الزُّخرف:٧١]، وقولِه: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصِّلت:٣١] يقتضي أن يحصلَ له الولدُ.

٥٤٠٨- وَرَوَى هِشَامٌ لابْنِهِ عَنْ عَامِرٍ عَنْ نَاجِي عَنْ سَعْدِ بْنِ سِنَانِ

٥٤٠٩- أَنَّ الـمُنَعَّمَ بِالجِنَانِ إِذَا اشْتَهَى الـ ـوَلَدَ الَّذِي هُوَ نُسْخَةُ الإِنْسَانِ

٥٤١٠- فَالحَمْلُ ثُمَّ الوَضْعُ ثُمَّ السِّنُّ فِي فَرْدٍ مِنَ السَّاعَاتِ فِي الأَزْمَانِ

٥٤١١- إِسْنَادُهُ عِنْدِي صَحِيحٌ قَدْ رَوَا هُ التِّرْمِذِيُّ وَأَحْمَدُ الشَّيْبَانِي

٥٤١٢- وَرِجَالُ ذَا الإِسْنَادِ مُحْتَجٌّ بِهِمْ فِي «مُسْلِمٍ» وَهُمُ أُولُو إِتْقَانِ

٥٤١٣- لَكِنْ غَرِيبٌ مَا لَهُ مِنْ شَاهِدٍ فَرْدٍ بِذَا الإِسْنَادِ لَيْسَ بِثَانِ

٥٤١٤- لَوْلا حَدِيثُ أَبِي رَزِينٍ كَانَ ذَا كَالنَّصِّ يَقْرُبُ مِنْهُ فِي التِّبْيَانِ

٥٤١٥- وَلِذَاكَ أَوَّلَهُ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ بِالشْـ ـشَرْطِ الَّذِي هُوَ مُنْتَفِي الوِجْدَانِ

٥٤١٦- وَبِذَاكَ رَامَ الجَمْعَ بَيْنَ حَدِيثِهِ وَأَبِي رَزِينٌ وَهْوَ ذُو إِمْكَانِ

٥٤١٧- هَذَا وَفِي تَأْوِيلِهِ نَظَرٌ فَإِنْ نَ «إِذَا» لِتَحْقِيقٍ وَذِي إِيقَانِ

٥٤١٨- وَلَرُبَّمَا جَاءَتْ لِغَيْرِ تَحَقُّقٍ وَالعَكْسُ فِي «إِنْ» ذَاكَ وَضْعُ لِسَانِ

الشرحُ

إِذَنْ فَهِمْنَا الآن أنَّ نفيَ حَبَلِ نساءِ أهلِ الجنَّةِ في حالٍ لا يشتهي فيها الولدَ كما في حديث أبي رَزِين العُقَيْلِيِّ[1] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والإثباتَ فيما إذا اشتهى الولدَ، وهذا الجمعُ لا شكَّ أنَّه يُوافِقُ قولَه تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزُّخرف:٧١] فما المانعُ إذا اشتهى الإنسانُ ولدًا في الجنَّةِ أن يُولَدَ له في مدَّةٍ وجيزةٍ،

---

(١) أخرجه البيهقي في البعث والنشور، رقم (٣٩٧).

في ساعاتٍ، ولكن هل الإنسانُ هناك يكونُ في نفسِه شوقٌ إلى الأولادِ؟ اللهُ أعلمُ، لكن قد لا يجعلُ اللهُ له شوقًا إلى الأولادِ، ويكونُ نعيمُه فيما عندَه من الحورِ والولدانِ وغيرِ ذلك، وكذلك الذُّرِّيَّة التي تبعته؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الطُّور:٢١]، ونجدُ الإنسانَ في الدُّنيا قد تَطِيبُ نفسُه عن الأولادِ إذا كثروا، ولا يكون له هَمٌّ للأولادِ، فكيف بالجنَّةِ التي فيها من النَّعيمِ ما يُسَلِّي الإنسانَ عن كُلِّ شيءٍ؛ لهذا نجمعُ بين الأحاديثِ الدَّالةِ على الولدِ والأحاديثِ النَّافيةِ بأنْ نقولَ: إنَّه إذا اشتهاه فلا مانعَ أن يكونَ، ولكن مَنْ يقولُ: إنَّه يشتهي؟ وحينئذٍ يُحْمَلُ النَّفيُ على أنَّهم لا يشتهون الولدَ، وإذا لم يشتهوه لا يُولَدُ لهم؛ لكن المؤلِّفُ تعقَّب هذا الجمعَ أيضًا؛ ولذا قال: «**هَذَا وَفِي تَأْوِيلِهِ نَظَرٌ**»؛ ووجهُ ذلك أنَّ الحديثَ جاء بكلمة «**إِذَا**»، قال النَّبيُّ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ إِذَا اشْتَهَى الوَلَدَ فِي الجنَّةِ كَانَ حَمْلُهُ وَوَضْعُهُ وَسِنُّهُ فِي سَاعَةٍ كَمَا يَشْتَهِي**»(١)، وهناك فرقٌ بين «إِن» الشَّرطيَّةِ، و«إذا» الشَّرطيَّةِ.

يقولون: «إذا» لتوقيتِ المُحقَّقِ، و«إِنْ» لتعليقِ غيرِ المُحقَّقِ؛ فمثلًا: إذا قلت: «**إذا قَامَ زيدٌ فَقُمْ**» هذا يُشْعِرُ بأنَّ زيدًا سيقومُ، وأنَّ قيامَك مرتبطٌ بقيامِه، فهي للتَّوقيتِ؛ ومثلُ ذلك أيضًا قولُه تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْ﴾ [البقرة:٢٠]، فهي تدلُّ على تحقُّقِ الشَّرطِ، وإذا قلت: «**إِنْ قَامَ زيدٌ فَقُمْ**» فهذه شرطيَّةٌ؛ لأنَّه قد يقومُ وقد لا يقومُ، وكُلُّ إنسانٍ يجدُ الفرقَ بين «**إِذَا قَامَ زيدٌ فَقُمْ**» وبين «**إِنْ قَامَ زيدٌ فَقُمْ**» هذا هو الأصلُ في اللُّغةِ العربيَّةِ، ولكن مع ذلك قد تأتي «**إِذَا**» لما لم يُتَحَقَّقْ و«**إِنْ**» لما تَحَقَّقَ، إِذَنْ هما يتبادلان.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة الجنة، باب ما جاء ما لأدنى أهل الجنة من الكرامة، رقم (٢٥٦٣)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب صفة الجنة، رقم (٤٣٣٨).

٥٤١٩- وَاحْتَجَّ مَنْ نَصَرَ الوِلادَةَ أَنَّ في الـ ـجَنَّاتِ سَائِرَ شَهْوَةِ الإِنْسَانِ

٥٤٢٠- وَاللهُ قَدْ جَعَلَ البَنِينَ مَعَ النِّسَا مِنْ أَعْظَمِ الشَّهَوَاتِ في القُرْآنِ

٥٤٢١- فَأُجِيبَ عَنْهُ بِأَنَّهُ لا يَشْتَهِي وَلَدًا وَلا حَبَلًا مِنَ النِّسْوَانِ

٥٤٢٢- وَاحْتَجَّ مَنْ مَنَعَ الوِلادَةَ أَنَّهَا مَلْزُومَةٌ أَمْرَانِ مُمْتَنِعَانِ

٥٤٢٣- حَيْضٌ وَإِنْزَالُ المَنِيِّ وَذَانِكَ الـ أَمْرَانِ في الـجَنَّاتِ مَفْقُودَانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «وَاللهُ قَدْ جَعَلَ البَنِينَ مَعَ النِّسَا مِنْ أَعْظَمِ الشَّهَوَاتِ في القُرْآنِ»، وهذا صحيحٌ كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾ [آل عمران:١٤].

قَوْلُهُ: «وَاحْتَجَّ مَنْ مَنَعَ الوِلَادَةَ... وَذَانِكَ الأَمْرَانِ في الجَنَّاتِ مَفْقُودَانِ» مَنْ مَنَعَ الولادةَ؛ قالوا: لأنَّ الولادةَ تستلزمُ حيضَ المرأةِ وإنزالَ الرَّجلِ المنيَّ، وهذا في الجنَّةِ مفقودٌ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة:٢٥]؛ يعني: لا يَحِضْنَ؛ لأنَّ الحيضَ قذرٌ وأذى كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٢٢].

* * *

٥٤٢٤- وَرَوَى صدى عَنْ رَسُولِ الله أَنْ نَ مَنِيَّهُمْ إِذْ ذَاكَ ذُو فُقْدَانِ

٥٤٢٥- بَلْ لا مَنِيَّ وَلا مَنِيَّةَ هَكَذَا يَرْوِي سُلَيْمَانٌ هُوَ الطَّبَرَانِي

٥٤٢٦- وَأُجِيبَ عَنْهُ بِأَنَّهُ نَوْعٌ سِوَى الـ ـمَعْهُودِ في الدُّنْيَا مِنَ النِّسْوَانِ

٥٤٢٧- فَالنَّفْيُ لِلمَعْهُودِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الـ ... إِيـلادِ وَالإِثْبَـاتِ نَـوْعٌ ثَـانِ

الشرحُ

العلماءُ -رحمهم اللهُ- في مناقشاتٍ عجيبةٍ، قالوا: يمكنُ ولدٌ بمنيٍّ غيرِ منيِّ الدُّنيا، فَلَيْسَ فِي الجَنَّةِ مَنِيٌّ وَلَا مَنِيَّةٌ؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «...وَلَكِنْ لَا مَنِيَّ وَلَا مَنِيَّةَ»(1)؛ يعني: لا منيَّ ولا موتَ، والمنيُّ به الحياةُ، والموتُ به الفقدانُ، فالجَنَّةُ ليس فيها مَنِيٌّ ينشأ به الولدانُ، ولا مَنِيَّة يُفْقَدُ بها الموجودُ، يقولُ: أجاب القائلون بالإمكانِ بأنَّ قولَه: «لَا مَنِيَّ»؛ يعني: المنيَّ المعهودَ الذي في الدُّنيا، فالنَّفْيُ لِلْمَعْهُودِ فِي الدُّنْيَا، لكن هذا ضعيفٌ.

* * *

٥٤٢٨- وَاللهُ خَـالِقُ نَوْعِنَـا مِـنْ أَرْبَـعٍ ... مُتَقَـابِلاتٍ كُلُّهَـا بِـوِزَانِ

٥٤٢٩- ذَكَـرٍ وَأُنْثَـى وَالَّـذِي هُـوَ ضِـدُّهُ ... وَكَـذَاكَ مِـنْ أُنْثَـى بِـلا ذُكْـرَانِ

٥٤٣٠- وَالعَكْـسُ أَيْضًـا مِثْـلُ حَـوَّا أُمِّنَـا ... هِـيَ أَرْبَـعٌ مَعْلُومَـةُ التِّبْيَـانِ

الشرحُ

خَلَقَ اللهُ الجنسَ البشريَّ من أصنافٍ أربعةٍ:

الأوَّل: من ذكرٍ وأنثى.

الثَّاني: من أنثى بلا ذكرٍ.

الثَّالث: من ذكرٍ بلا أنثى.

---

(1) أخرجه الطبراني (٨/ ٩٦، رقم ٧٤٧٩).

الرَّابع: لا من ذكرٍ ولا من أنثى.

فآدمُ لا من ذكرٍ ولا من أنثى، وحوَّاء من ذكرٍ بلا أنثى، وعيسى من أنثى بلا ذكرٍ، وسائرُ النَّاسِ من ذكرٍ وأنثى.

* * *

٥٤٣١- وَكَذَاكَ مَوْلُودُ الجِنَانِ يَجُوزُ أَنْ ... يَأْتِي بِلا حَيْضٍ وَلا فَيَضَانِ

٥٤٣٢- وَالأَمْرُ فِي ذَا مُمْكِنٌ فِي نَفْسِهِ ... وَالقَطْعُ مُمْتَنِعٌ بِلا بُرْهَانِ

الشرحُ

جزاه اللهُ خيرًا، هذا هو العَجَبُ، يقولُ: يمكنُ أن يأتيَ بلا حيضٍ وبلا إنزالٍ، لكنَّنا لا نقطعُ بهذا، وهذا آخِرُ ما عنده، فهو يقولُ: ما نقطعُ بشيءٍ، والقطعُ ممتنعٌ بلا برهانٍ.

والذي يظهرُ -والعلمُ عند الله- أنَّهم لا يشتهون الأولادَ، وأنَّهم لو اشتهوا لَحَصَلَ بدونِ فضلاتٍ؛ من: مَنِيٍّ، أو حيضٍ؛ لأنَّ الحيضَ أذًى، ونساءُ الجنَّةِ مُطَهَّراتٌ، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة:٢٥]، واللهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، لكن الذي يظهرُ -واللهُ أعلمُ- أنَّ أهلَ الجنَّةِ في غنًى عن الأولادِ، لا يحتاجون إلى بقاءِ النَّسلِ كما نحتاجُه نحن في الدُّنيا، والإنسانُ إذا مات بلا أولادٍ لا يَجْرِي له ذِكْرٌ، فالأولادُ هم بقاءُ الإنسانِ في الحقيقةِ، وأيضًا الذُّرِّيَّةُ الصِّغارُ يكونون مع أهلِيهم في منازِلِهم كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطُّور:٢١]، فإذا كان معهم ذُرِّيَّتُهم الصِّغارُ وعندهم هؤلاء الحورُ والنَّعيمُ الذي لا يَخطرُ على بالِ

أحدٍ، فهم في غنًى عن الأولادِ، ولكن مع ذلك الذي نجزمُ به من دلالةِ الآيةِ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ [الزُّخرف:٧١] أنَّه لو اشتهى الإنسانُ الولدَ لحصل، وأنَّه ليس بالضَّروريِّ أن يكونَ هناك حيضٌ أو منيٌّ؛ لأنَّ اللهَ خلق الجنسَ البشريَّ كما قال ابنُ القيِّمِ من أصنافٍ أربعةٍ، وهم كُلُّهم بشرٌ، كُلُّهم في الدُّنيا، فكيف بالآخرة؟! قد يكونُ الولدُ من دون إنزالٍ ومن دون حيضٍ، وأيضًا الحملُ المعروفُ في بني آدمَ أنَّه يبقى مدَّةً، وما جاء به الحديثُ من حملِ نساءِ أهلِ الجنَّةِ لا يبقى مدَّةً، واللهُ أعلمُ.

فالظَّاهرُ -واللهُ أعلمُ- أنَّ أهلَ الجنَّةِ لا يرغبون بالأولادِ، وإن رغبوا فالأمرُ يسيرٌ، واللهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ.

انتهت الآن البحوثُ، وشيخُنا عبدُ الرَّحمن بن سعديٍّ -رحمه اللهُ- لـمَّا وصل إلى كرامةِ الله لهؤلاءِ قال: «انتهى الكلامُ على النُّونيَّةِ، ومن أراد الاطِّلاعَ على ما أعدَّ اللهُ لأهلِ الجنَّةِ فليقرأ «حادي الأرواح» للمؤلِّف.

وعلى هذا تُعْتَبَرُ قراءتُنا هذه نافلةً بالنِّسبةِ لما سَلَكَه شيخُنا رحمه اللهُ.

* * *

فصل

في رُؤْيَةِ أَهْلِ الجَنَّةِ رَبَّهُم تَبارَكَ وتَعالَى، وَنَظرِهِمْ إِلَى وَجْهِهِ الكَرِيمِ

٥٤٣٣- وَيَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ مِنْ فَوْقِهِمْ ... نَظَرَ العِيَانِ كَمَا يَرَى القَمَرَانِ

٥٤٣٤- هَذَا تَوَاتَرَ عَنْ رَسُولِ اللهِ لَمْ ... يُنْكِرْهُ إِلَّا فَاسِدُ الإِيمَانِ

٥٤٣٥- وَأَتَى بِهِ القُرْآنُ تَصْرِيحًا وَتَعْـ ... ـرِيضًا هُمَا بِسِيَاقِهِ نَوْعَانِ

٥٤٣٦- وَهِيَ الزِّيَادَةُ قَدْ أَتَتْ فِي يُونُسٍ ... تَفْسِيرُ مَنْ قَدْ جَاءَ بِالقُرْآنِ

٥٤٣٧- وَرَوَاهُ عَنْهُ مُسْلِمٌ بِـ«صَحِيحِهِ» ... يَرْوِي صُهَيْبٌ ذَا بِلا كِتْمَانِ

٥٤٣٨- وَهُوَ المَزِيدُ كَذَاكَ فَسَّرَهُ أَبُو ... بَكْرٍ هُوَ الصِّدِّيقُ ذُو الإِيقَانِ

٥٤٣٩- وَعَلَيْهِ أَصْحَابُ الرَّسُولِ وَتَابِعُو ... هُمْ بَعْدَهُمْ تَبَعِيَّةَ الإِحْسَانِ

٥٤٤٠- وَلَقَدْ أَتَى ذِكْرُ اللِّقَاءِ لِرَبِّنَا الرْ ... رَحْمَنِ فِي سُوَرٍ مِنَ الفُرْقَانِ

٥٤٤١- وَلِقَاؤُهُ إِذْ ذَاكَ رُؤْيَتُهُ حَكَى الـ ... إِجْمَاعَ فِيهِ جَمَاعَةٌ بِبَيَانِ

٥٤٤٢- وَعَلَيْهِ أَصْحَابُ الحَدِيثِ جَمِيعُهُمْ ... لُغَةً وَعُرْفًا لَيْسَ يَخْتَلِفَانِ

الشرحُ

هذا الفصلُ مهمٌّ جدًّا، وهو في إثباتِ رؤيةِ أهلِ الجنَّةِ لله ربِّ العالمين، وهذه الرُّؤيةُ رؤيةُ حقٍّ بالعينِ، ورؤيةُ حقٍّ بالقلبِ؛ لأنَّ القلبَ يعلمُ، والعينَ ترى،

وبذلك يحصلُ علمُ اليقينِ وعينُ اليقينِ، وقد تَوَاتَرَ عن رسولِ الله ﷺ رؤيةُ المؤمنين إلى ربِّهم تواتُرًا قطعيًّا، وجاء في القُرآنِ في عِدَّةِ آياتٍ؛ ولهذا حَكَمَ بعضُ السَّلفِ على كفرِ مَنْ أنكر رؤيةَ الله عزَّ وجلَّ، وقال: «**مَنْ أنكر رؤيةَ الله في الآخرةِ فهو كافرٌ؛ لأنَّه خَالَفَ صريحَ القرآنِ وصريحَ السُّنَّةِ**»، والنَّبِيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- قَرَّرَ هذه الرُّؤيةَ، وأنَّها رؤيةٌ بالعينِ، قال: «**إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ**»[1]، وقال: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟**» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ**»[2]، وهل بعدَ هذا التَّوكيدِ تحريفُ لمحرِّفٍ؟! أبدًا؛ ولهذا نقولُ: إنَّ الكتابَ ومتواترَ السُّنَّةِ قد دَلَّا على إثباتِ رؤيةِ المؤمنين لله عزَّ وجلَّ.

بَقِيَ غيرُ المؤمنين هل يَرَوْنَ اللهَ؟ أمَّا الكُفَّارُ فلا يَرَوْنَ اللهَ؛ لقولِ الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متى؟ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٦]؛ أي: يوم القيامةِ، أمَّا المنافقون فيَرَوْنَ اللهَ في عَرَصَاتِ القيامةِ، ثُمَّ يُحْجَبُ بينهم وبينه كما جاء في حديث أبي سعيدٍ في قصَّةِ كشفِ الله عزَّ وجلَّ عن ساقِه «**فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، فَيَبْقَى كُلُّ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا**»[3]، إِذَنْ يعجزُ عن السُّجودِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٢٩)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، رقم (٦٢٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣]، رقم (٧٠٠١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣).

كُلُّ مَنْ سَجَدَ لله رياءً وسمعةً وهم المنافقون، وفي هذا زيادةُ الحسرةِ عليهم؛ لأنَّ مَنْ لم يَروه أصلًا أهونُ مصيبةً من الذين رَأَوْه ثُمَّ حُجِبُوا عنه؛ ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة:٦٥]، ولم يقل: «لو نشاءُ لم نُنْبِتْهُ»، بل قال: «لجعلناه حُطَامًا بعد نباتِه»؛ لأنَّ تعلُّقَ النَّفسِ به بعد نباتِه أشدُّ من تعلُّقِها به بعد بَذْرِه، فإذا حُرِمَتْهُ بعد النَّباتِ صار أشدَّ وقعًا، وقال أيضًا: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة:٧٠]، ولم يقل جلَّ ذكرُه: «لو نشاءُ لم ننزلْه»؛ لأنَّه إذا نَزَلَ ثُمَّ فَسَدَ صار أشدَّ وقعًا على النُّفوسِ؛ لأنَّ النَّفسَ بعد نزولِه تتعلَّقُ به، فإذا حُرِمَتْهُ صار أشدَّ عليها ممَّا لو لم تره، فالمنافقون يَرَوْنَ اللهَ في عَرَصَاتِ القيامةِ، ثُمَّ يُحْجَبُون عنه، نسألُ اللهَ لنا ولكم العافيةَ، وأن يجعلَنا ممَّن يراه ببصرِه في جنَّاتِ النَّعيمِ.

٥٤٣٣- وَيَرَوْنَـــهُ سُـــبْحَانَهُ مِـــنْ فَـــوْقِهِمْ ... نَظَـرَ العِيَـانِ كَـمَا يَـرَى القَمَـرَانِ

قَوْلُهُ: «**كَمَا يُرَى القَمَرَانِ**»؛ يعني: الشَّمسَ والقمرَ، وهذا من بابِ التَّغليبِ.

٥٤٣٤- هَـذَا تَـوَاتَرَ عَـنْ رَسُـولِ الله لَـمْ ... يُنْكِـــرْهُ إِلَّا فَاسِـــدُ الإِيـــمَانِ

قَوْلُهُ: «**هَذَا تَوَاتَرَ عَنْ رَسُولِ الله**»؛ أي: تَوَاتَرَ عن رسولِ الله ﷺ كما في البيتَيْنِ المعروفَيْنِ:

مِـــمَّا تَـواتَرَ حَـدِيثُ مَـنْ كَـذَبْ ... وَمَـــنْ بَنَـــى لله بَيْتًـــا وَاحْتَسَـــبْ
وَرُؤْيَـــةٌ شَـــفَاعَةٌ وَالـــحَوْضُ ... وَمَسْحُ خُفَّـيْنِ وَهَـذِي بَعْـضُ[1]

(١) انظر: شرح العقيدة السفارينية للشارح (ص:٥١٦).

والمتواترُ عند أهلِ العلمِ يفيدُ القطعَ واليقينَ؛ ولذلك هو عندنا من الأمورِ المقطوعِ بها المتيقَّنةِ أنَّنا سنرى ربَّنا عزَّ وجلَّ كما نرى القمرَ ليلةَ البدرِ، نسألُ اللهَ تعالى أن يُحقِّقَ ذلك.

قَوْلُهُ: «**لَمْ يُنْكِرْهُ إِلَّا فَاسِدُ الإِيمَانِ**»؛ أي: لا ينكرُ رؤيةَ الله إلَّا مَنْ فَسَدَ إيمانُه، ولو كان مؤمنًا بالله حقًّا ما أنكر، وقد ذكرتُ لكم أنَّ بعضَ السَّلفِ أطلق الكُفرَ على مَنْ أَنْكَرَ رؤيةَ الله، وقال: إنَّه كافرٌ خارجٌ عن الإسلامِ؛ لأنَّه مُكَذِّبٌ لله عزَّ وجلَّ ولرسولِه.

٥٤٣٥- وَأَتَى بِهِ القُرْآنُ تَصْرِيحًا وَتَعْـ ... ـرِيضًا هُمَا بِسِيَاقِهِ نَوْعَانِ

يعني: أنَّ إثباتَ الرُّؤيةِ في القُرآنِ الكريمِ نوعان: صريحٌ وتعريضٌ، الصَّريحُ في قولِه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، الحُسْنَى: الجنَّةُ، والزِّيادةُ: النَّظرُ إلى وجهِ الله، مَنْ فَسَّرَ هذا؟ يقولُ المؤلِّفُ:

٥٤٣٦- وَهِيَ الزِّيَادَةُ قَدْ أَتَتْ فِي يُونُسٍ ... تَفْسِيرُ مَنْ قَدْ جَاءَ بِالقُرْآنِ

٥٤٣٧- وَرَوَاهُ عَنْهُ مُسْلِمٌ بِـ«صَحِيحِهِ» ... يَرْوِي صُهَيْبٌ ذَا بِلا كِتْمَانِ

إِذَنْ ثَبَتَ في صحيحِ مسلمٍ أنَّ المرادَ بالزِّيادةِ في قولِه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]: النَّظرُ إلى وجهِ الله[1]، والذي فَسَّرَها أعلمُ النَّاسِ بكلامِ الله، وتفسيرُه نصٌّ كنصِّ القرآنِ، كما أنَّ تفسيرَ الصَّحابيِّ كنصِّ الرَّسولِ عند بعضِ العلماءِ كالحاكمِ رحمه اللهُ، فإنَّه يرى أنَّ تفسيرَ الصَّحابيِّ للقرآنِ في حُكْمِ

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في رؤية الرب -تبارك وتعالى-، رقم (٢٥٥٢)، وابن ماجه: كتاب افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٧).

المرفوعِ[1]، لكنَّ جمهورَ العلماءِ على خِلافِه، وهو الصَّحيحُ، أمَّا تفسيرُ الرَّسولِ للآيةِ فهو كنصِّ القرآنِ.

٥٤٣٨- وَهُوَ الـمَزِيدُ كَذَاكَ فَسَّرَهُ أَبُو بَكْرٍ هُوَ الصِّدِّيقُ ذُو الإِيقَانِ

قَوْلُهُ: «**هُوَ الصِّدِّيقُ**» الصِّدِّيقُ في مقالِه وحالِه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، الصَّادقُ في قولِه المُصَدِّقُ لِـمَنْ قَامَتِ البيِّنةُ على صدقِه.

قَوْلُهُ: «**ذُو الإِيقَانِ**» الإيقانُ ضدُّ الشَّكِّ، فإيمانُ أبي بكرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أقوى النَّاسِ بعد الرُّسلِ.

المزيدُ في قولِه تعالى في سورة «ق»: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥] ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾؛ يعني: زيادةً، فسَّرها أبو بكرٍ بأنَّها النَّظرُ إلى وجهِ الله[2]، وما قيمةُ تفسيرٍ جاء من أبي بكرٍ؟ الجوابُ: أقومُ التَّفاسيرِ؛ لأنَّ أبا بكرٍ أعلمُ النَّاسِ بالقرآنِ بعد رسولِ الله صلى الله عليه وسلم.

٥٤٣٩- وَعَلَيْهِ أَصْحَابُ الرَّسُولِ وَتَابِعُو هُمْ بَعْدَهُمْ تَبَعِيَّةَ الإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «**عَلَيْهِ**»؛ أي: على تفسيرِ أبي بكرٍ بأنَّ المرادَ بالمزيدِ: الرُّؤيةُ لوجهِ الله.

كُلُّ الصَّحابةِ والتَّابعين لهم تبعيَّةَ الإحسانِ أجمعوا على ذلك، وليست التَّبعيَّةَ الظَّاهريَّةَ، بل تبعيَّة الإحسانِ؛ لأنَّ التَّابعين لمن سَبَقَ قسمان: قسمٌ تَبِعَهم على الإحسانِ كما قَيَّدَ اللهُ ذلك فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة:١٠٠]؛ ولهذا نسمعُ بعضَ الخطباءِ يقولُ: «**وعلى محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آله وأصحابِه والتَّابعين**» وهذا نقصٌ في التَّعبيرِ، بل لابُدَّ

(١) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني (٢/ ١٣).
(٢) انظر: فتح القدير، للشوكاني (٢/ ٥٠٢).

أن يُقَيِّدَ التَّابعين بإحسانٍ، كما قيَّده اللهُ، فليس كُلُّ مَن ادَّعى أنَّه تابعٌ يكونُ تابعًا حقًّا، بل لابُدَّ أن يكونَ تابعًا بالإحسانِ يتَّبعُهم خطوةً خطوةً في العقيدةِ، والقولِ، والعملِ، والفعلِ، والتَّركِ.

٥٤٤٠- وَلَقَدْ أَتَى ذِكْرُ اللِّقَاءِ لِرَبِّنَا الـرْ ... رَحْمَنِ فِي سُورٍ مِنَ الفُرْقَانِ

٥٤٤١- وَلِقَاؤُهُ إِذْ ذَاكَ رُؤْيَتُهُ حَكَى الـ ... إِجْمَاعَ فِيهِ جَمَاعَةٌ بِبَيَانِ

٥٤٤٢- وَعَلَيْهِ أَصْحَابُ الحَدِيثِ جَمِيعُهُمْ ... لُغَةً وَعُرْفًا لَيْسَ يَخْتَلِفَانِ

آياتٌ كثيرةٌ فيها إثباتُ لقاءِ الله، قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ [الكهف:١١٠]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾ [العنكبوت:٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ [البقرة:٤٦].

المهمُّ: آياتٌ كثيرةٌ فيها إثباتُ لقاءِ الله، وهل لقاءٌ بلا رؤيةٍ؟ يقولُ: أصحابُ الحديثِ كُلُّهم أجمعوا بأنَّ المرادَ باللِّقاءِ: الرُّؤيةُ، وهذا قد يكونُ من أدلَّةِ التَّعريضِ؛ لأنَّه ليس فيه التَّصريحُ بالرُّؤيةِ.

* * *

٥٤٤٣- هَذَا وَيَكْفِي أَنَّهُ سُبْحَانَهُ ... وَصَفَ الوُجُوهَ بِنَظْرَةٍ بِجِنَانِ

٥٤٤٤- وَأَعَادَ أَيْضًا وَصْفَهَا نَظَرًا وَذَا ... لا شَكَّ يُفْهِمُ رُؤْيَةً بِعِيَانِ

٥٤٤٥- وَأَتَتْ أَدَاةُ «إِلَى» لِرَفْعِ الوَهْمِ مِنْ ... فِكْرٍ كَذَاكَ تَرَقُّبِ الإِنْسَانِ

٥٤٤٦- وَأَضَافَهُ لِمَحَلِّ رُؤْيَتِهِمْ بِذِكْـ ... ـرِ الوَجْهِ إِذْ قَامَتْ بِهِ العَيْنَانِ

٥٤٤٧- تَـالله مَـا هَـذَا بِفِكْـرٍ وَانْتِظَـا ... رِ مُغَيَّـبٍ أَوْ رُؤْيَـةٍ لِـجِنَانِ

٥٤٤٨- مَا فِي الـجِنَانِ مِـنِ انْتِظَـارٍ مُؤْلِـمٍ ... وَاللَّفْـظُ يَأْبَـاهُ لِـذِي العِرْفَـانِ

٥٤٤٩- لَا تُفْسِدُوا لَفْظَ الكِتَابِ فَلَيْسَ فِيـ ... ـهِ حِيلَـةٌ يَـا فِرْقَـةَ الرَّوَغَـانِ

٥٤٥٠- مَا فَوْقَ ذَا التَّصْرِيحِ شَيْءٌ مَا الَّذِي ... يَـأْتِي بِـهِ مِـنْ بَعْـدُ ذَا التِّبْيَـانِ

٥٤٥١- لَـوْ قَـالَ أَبْـيَنَ مَـا يُقَـالُ لَقُلْـتُمُ ... هُـوَ مُجْمَـلٌ مَـا فِيـهِ مِـنْ تِبْيَـانِ

الشَّرحُ

٥٤٤٣- هَـذَا وَيَكْفِـي أَنَّـهُ سُـبْحَانَهُ ... وَصَـفَ الوُجُـوهَ بِنَظْـرَةٍ بِجِنَـانِ

قَوْلُهُ: «بِنَظْرَةٍ بِجِنَانِ» «نَظْرَة» بالظَّاءِ المُشَالَةِ، ويُسَمُّونَها أختَ الطَّاءِ، ولكن الظَّاهرُ أنَّها بالضَّادِ أخت الصَّادِ «بِنَضْرَةٍ»؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢].

هذا أيضًا من الأدلَّةِ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، فـ﴿نَّاضِرَةٌ﴾؛ يعني: حسنةً، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان:١١]؛ أي: حُسْنًا في وجوهِهم وسرورًا في قلوبِهم، وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ الضَّميرُ في ﴿رَبِّهَا﴾ يعودُ على الوجوهِ؛ يعني: هذه الوجوهُ تنظرُ إلى ربِّها، فـ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ بمعنى: رائيَّة؛ أي: نظر عينٍ، واستدلَّ المؤلِّفُ لهذا بأدلَّةٍ أوَّلا: حسنُ الوجوهِ، والمنتظرُ هل يَحْسُنُ وجهُه؟ المُنْتَظِرُ للشَّيءِ المحبوبِ إليه قد يَحْسُنُ وجهُه وقد لا يَحْسُنُ، إنسانٌ وعدناه شيئًا وجَعَلَ ينتظرُ، أحيانًا يُؤمِّلُ فيزينُ وجهُه، وأحيانًا يقنطُ وييأسُ فيسوءُ وجهُه ويسودُّ، فلو قال له شخصٌ: «**أريدُ أن أعطيَك مليون ريالٍ**»

فإنَّ وجهَه يتهلَّلُ، وهو ينتظرُ، فإذا أبطأ وتأخَّر عليه قال: الظَّاهرُ أنَّه تراجع، وحينئذٍ يكونُ وجهُه كالحًا، لكن هذه ناظرةٌ في حالِ نظرِها إلى ربِّها كيف تكونُ منتظرةً؟ ثُمَّ إذا قالوا: «**إلى ثَوَابِ ربِّها ناظرةٌ**» قلنا: هذا خلافُ الظَّاهرِ، ما الذي يمنعُ ربَّنا عزَّ وجلَّ أن يقولَ: «**إلى ثَوَابِ ربِّها؟!**».

ويُذْكَرُ أنَّ الشَّيخَ محمَّد بنَ عبد الوهَّابِ -رحمه اللهُ- حين سافر إلى مكَّةَ رأى عالمًا من علمائِها على كرسيٍّ يُحدِّثُ النَّاسَ، فأعجبه حديثُه وأُعْجِبَ به، فلمَّا أراد أن يقومَ وهو شيخٌ كبيرٌ معتبرٌ عند أهلِ مكَّةَ، لـمَّا أراد أن يقومَ من الكرسيِّ قال: «**يا كعبةَ الله**»، فهذه مشكلةٌ؛ لأنَّه أَشْرَكَ وهو لا يدري، وكان الشَّيخُ محمَّد بن عبد الوهَّابِ -رحمه اللهُ- ذكيًّا، وكان الدَّرسُ قد انتهى عند الأذان، ونزل هذا العالـمُ من على الكرسيِّ وجلس ينتظرُ الإقامةَ، قال له الشَّيخُ محمَّدٌ، بعد أن سَلَّمَ عليه، وسأله من أين أنت؟ فقال: أنا من نجد، لكن أنا أعجبني كلامُك، جزاك اللهُ خيرًا، هذا كلامٌ طيِّبٌ وعالم، وأنا أريد أن أقرأَ عليك شيئًا من القرآنِ؛ لأنَّني مبتدئٌ، فقرأ من آخِرِ القرآنِ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس:١]، و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ [الفلق:١]، و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، و﴿تَبَّتۡ﴾ [المسد:١]، و﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر:١]، و﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١]، و﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر:١]، و﴿ٱلۡمَاعُونَ﴾ [الماعون:٧]، و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾ [قريش:١]، فلمَّا وصل إلى سورة «قريش» فقال: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ [قريش:١- ٤] قال: «**فليعبدوا البيتَ**»، قال: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾ قال: هكذا تَعَلَّمْتُ، قال: لا يمكنُ، لو عبدوا البيتَ لأشركوا، واللهُ لم يأمرْ بالشِّركِ، فقال: ما الصَّوابُ؟ قال: الصَّوابُ: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾، ثُمَّ

قال له: وقال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] ولم يقل: ادعوا الكعبةَ أو البيتَ؛ لأنَّه لا أحدَ يُدْعَى إلَّا اللهُ، فقال له: أنا سَمِعْتُكَ يا شيخنا لما أردتَ أن تقومَ من الكرسيِّ قلت: «**يا كعبةَ الله**» فقال له: فَتَحَ اللهُ عليك، وجزاك اللهُ خيرًا.

فأقولُ: إنَّ الذين يقولون: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]؛ أي: إلى ثَوَابِ ربِّها، نقولُ: لماذا لم يَقُلْ: «**إلى ثَوَابِ ربِّها؟**» ما الذي يمنعُه؟ وهل هذا إلَّا تدليسٌ، لو كان اللهُ عزَّ وجلَّ يريدُ «**إلى ثَوَابِ ربِّها ناظرةٌ**» ويقولُ: «**إلى ربِّها**» ماذا يكونُ؟ يكونُ في هذا أعظمُ تدليسٍ للخلقِ، واللهُ يقولُ: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النِّساء:١٧٦]، ولكان في هذا أيضًا دلالةٌ إلى الكفرِ؛ لأنَّ الذين يُنكرون رؤيةَ الله يقولون: مَنْ قال: إنَّ اللهَ يُرَى فهو كافرٌ؛ لأنَّه أَثْبَتَ أنَّ اللهَ جسمٌ، والقولُ بالتَّجسيمِ كفرٌ، فهل يمكنُ أنَّ اللهَ تعالى يُعَبِّرُ بعبارةٍ تُوهِمُ أنَّ النَّظرَ إليه عزَّ وجلَّ وهو يريدُ أن يكونَ النَّظرُ إلى الثَّوابِ؟ الجوابُ: لا يمكنُ، ثُمَّ قال المؤلِّفُ رحمه الله:

٥٤٤٤- وَأَعَادَ أَيْضًا وَصْفَهَا نَظَرًا وَذَا ... لا شَكَّ يُفْهِمُ رُؤْيَةً بِعِيَانِ

قَوْلُهُ: «**وَأَعَادَ أَيْضًا وَصْفَهَا نَظَرًا**» فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢]، ثُمَّ وَصَفَهَا وَصْفًا آخَرَ فقال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣].

قَوْلُهُ: «**وَذَا لَا شَكَّ يُفْهِمُ رُؤْيَةً بِعِيَانِ**» وهذا صحيحٌ، فهي ناضرةٌ إلى ربِّها ناظرةٌ.

٥٤٤٥- وَأَتَتْ أَدَاةُ «إِلَى» لِرَفْعِ الوَهْمِ مِنْ ... فِكْرٍ كَذَاكَ تَرَقُّبِ الإِنْسَانِ

يعني: لو حُذِفَتْ «إِلَى» لكان يحتملُ أنَّ المرادَ بالنَّظرِ نظرُ القلبِ وهو الفكرُ

كما في قولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١]، وكقولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٥]، فهذا نظرُ قلبٍ لا نظرُ عينٍ؛ لأنَّها لم تتعدَّ بـ«إلى»، ولـمَّا أراد نظرَ العينِ قال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:١٧]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ [ق:٦]، فنظرُ العينِ يُعَدَّى بـ«إلى»، ونظرُ القلبِ يُعَدَّى بنفسِه بدون أداةٍ.

٥٤٤٦- وَأَضَافَهُ لِـمَحِلِّ رُؤْيَتِهِمْ بِذِكْـ ... ـرِ الوَجْهِ إِذْ قَامَتْ بِهِ العَيْنَانِ

قَوْلُهُ: «**وَأَضَافَهُ**»، وفي نسخةٍ: «**وَإِضَافَةٌ**»، والصَّحيحُ: «**وَأَضَافَهُ**».

قَوْلُهُ: «**وَأَضَافَهُ لِـمَحَلِّ رُؤْيَتِهِمْ**»؛ يعني: أَضَافَ النَّظَرَ لمحلِّ رؤيتِهم بذكرِ الوجهِ.

أَضَافَ النَّظَرَ إلى الوجهِ؛ لأنَّ الوجهَ محلُّ العَيْنَيْنِ، فإذا كان محلَّ العَيْنَيْنِ فما الذي ينظرُ؟ هل الوجهُ نفسُه ينظرُ؟ أو العينُ التي في الوجهِ؟ الجوابُ: العينُ التي في الوجهِ هي التي تنظرُ.

٥٤٤٧- تَـاللهِ مَـا هَـذَا بِفِكْـرٍ وَانْتِظَـا ... ـرِ مُغَيَّـبٍ أَوْ رُؤْيَـةٍ لِـجِنَانِ

أقسم بأنَّ هذا ليس نظرَ فكرٍ؛ لأنَّه يدلُّ عليه السِّياقُ؛ أي: يدلُّ على منعِ كونِهِ نظرَ فكرٍ، وليس المعنى الانتظار؛ لأنَّ الانتظارَ أشدُّ من النَّارِ، والجنَّةُ ليس فيها انتظارٌ، وليس المرادُ أيضًا أنَّه رؤيةُ القلبِ؛ لأنَّ بعضَهم يقولُ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣]؛ أي: بقلوبِها، وسبحان الله العظيم! نمنعُ رؤيةَ العينِ التي هي في الوجهِ، ونُثْبِتُ رؤيةَ القلبِ وهو في الصَّدرِ، هذا لا شكَّ أنَّه تحريفٌ، فكُلُّ هذا صرفٌ للفظِ عن ظاهرِه.

٥٤٤٨- مَا فِي الـجِنَانِ مِـنِ انْتِظَـارٍ مُؤْلِـمٍ وَاللَّفْـظُ يَأْبَـاهُ لِـذِي العِرْفَـانِ

٥٤٤٩- لَا تُفْسِدُوا لَفْظَ الكِتَابِ فَلَيْسَ فِيـ ـهِ حِيلَـةٌ يَـا فِرْقَـةَ الرَّوَغَـانِ

إي والله، إنَّهم فرقةُ الرَّوَغَانِ يروغون كما تَرُوغُ الثَّعالبُ؛ ويعني بذلك: الذين يُحَرِّفونَ الآيَةَ، ويُحَرِّفُونَ نصوصَ الرُّؤيةِ وينكرونُها.

يقولُ بعضُ العلماء: إنَّ مَنْ أنكر رؤيةَ الله حَرِيٌّ بأن يُحْرَمَها(١)، نعوذُ بالله؛ لأنَّه -والعياذُ بالله- أنكر ما أَثْبَتَهُ اللهُ لنفسِه.

٥٤٥٠- مَا فَوْقَ ذَا التَّصْرِيحِ شَيْءٌ مَا الَّذِي يَـأْتِي بِـهِ مِـنْ بَعْـدُ ذَا التِّبْيَـانِ

يعني: أنَّ هذا تصريحٌ واضحٌ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، هذا صريحٌ، ما الذي يأتي به من بعد ذا التِّبيانِ؟ الجوابُ: ليس بعد هذا التِّبيانِ شيءٌ.

٥٤٥١- لَـوْ قَـالَ أَبْـيَنَ مَـا يُقَـالُ لَقُلْـتُمُ هُـوَ مُجْمَـلٌ مَـا فِيـهِ مِـنْ تِبْيَـانِ

يعني: هذه طريقةُ أهلِ التَّحريفِ، يقولُ: هذه ألفاظٌ مُجْمَلَةٌ، هذه ألفاظٌ غيرُ مرادةٍ، هذه على تقديرِ محذوفٍ، وما أشبه ذلك، اللَّهُمَّ اهدنا صراطَك المستقيمَ.

نسألُ اللهَ ألَّا يطمسَ على قلوبِنا، والإنسانُ إذا طُمِسَ على قلبِه لو يأتي اللَّفظُ أصلح من أيِّ شيءٍ صار مُجْمَلًا عنده.

* * *

(١) انظر: شرح العقيدة السفارينية، للشارح (ص:٥١٣).

٥٤٥٢- وَلَقَدْ أَتَى فِي سُورَةِ التَّطْفِيفِ أَنْ ... نَ القَوْمَ قَدْ حُجِبُوا عَنِ الرَّحْمَنِ

٥٤٥٣- فَيَدُلُّ بِالمَفْهُومِ أَنَّ المُؤْمِنِيـ ... ـنِ يَرَوْنَهُ فِي جَنَّةِ الحَيَوَانِ

٥٤٥٤- وَبِذَا اسْتَدَلَّ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ ... وَسِوَاهُمَا مِنْ عَالِمِي الأَزْمَانِ

٥٤٥٥- وَأَتَى بِذَا المَفْهُومِ تَصْرِيحًا بِآ ... خِرِهَا فَلا تُخْدَعْ عَنِ القُرْآنِ

٥٤٥٦- وَأَتَى بِذَاكَ مُكَذِّبًا لِلكَافِرِيـ ... ـنَ السَّاخِرِينَ بِشِيعَةِ الرَّحْمَنِ

٥٤٦٧- ضَحِكُوا مِنَ الكُفَّارِ يَوْمَئِذٍ كَمَا ... ضَحِكُوا هُمُ مِنْهُمْ عَلَى الإِيمَانِ

٥٤٦٨- وَأَثَابَهُمْ نَظَرًا إِلَيْهِ ضِدَّ مَا ... قَدْ قَالَهُ فِيهِمْ أُولُو الكُفْرَانِ

٥٤٦٩- فَلِذَاكَ فَسَّرَهَا الأَئِمَّةُ أَنَّهُ ... نَظَرٌ إِلَى الرَّبِّ العَظِيمِ الشَّانِ

٥٤٧٠- للهِ ذَاكَ الفَهْمُ يُؤْتِيهِ الَّذِي ... هُوَ أَهْلُهُ مَنْ جَادَ بِالإِحْسَانِ

الشرحُ

٥٤٥٢- وَلَقَدْ أَتَى فِي سُورَةِ التَّطْفِيفِ أَنْ ... نَ القَوْمَ قَدْ حُجِبُوا عَنِ الرَّحْمَنِ

٥٤٥٣- فَيَدُلُّ بِالمَفْهُومِ أَنَّ المُؤْمِنِيـ ... ـنِ يَرَوْنَهُ فِي جَنَّةِ الحَيَوَانِ

٥٤٥٤- وَبِذَا اسْتَدَلَّ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ ... وَسِوَاهُمَا مِنْ عَالِمِي الأَزْمَانِ

ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- دليلًا ثالثًا على الرُّؤيةِ؛ وهو: قولُه تعالى في الفُجَّارِ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المطفّفين:٧- ١١] إلى قولِه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ

لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطفِّفين:١٥]، وهذا هو الشَّاهدُ، ومفهومُه أنَّ الأبرارَ الذين هم ضدُّهم لا يُحْجَبُونَ عن الله.

٥٤٥٥- وَأَتَى بِذَا المَفْهُومِ تَصْرِيحًا بِآ خِرِهَا فَلا تُخْدَعْ عَنِ القُرْآنِ

وجاء ذلك في آخر سورة «المطفِّفين»؛ في قولِه تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطفِّفين:٣٤-٣٥]؛ أي: ينظرون إلى الله، ولـمَّا قال في أولئك: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطفِّفين:١٥] صار قولُه: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطفِّفين:٣٥]؛ أي: ينظرون إلى الله، في مقابلِ هؤلاء المُكذِّبين.

وعلى هذا يكونُ لدينا من القرآنِ ستَّةُ أدلَّةٍ: **الأوَّلُ**: الزِّيادةُ، **والثَّاني**: المزيدُ، **والثَّالثُ**: اللِّقاءُ، **والرَّابعُ**: النَّظرُ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، **والخامسُ**: حجبُ الكُفَّارِ، **والسَّادسُ**: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطفِّفين:٣٥]، هذه ستَّةُ أدلَّةٍ من القرآنِ الكريم على ثبوتِ رؤيةِ الله عزَّ وجلَّ، أسالُ اللهَ ألَّا يَحْرِمَني وإيَّاكم منها.

والحقيقةُ أنَّها هي أكبرُ نعيمٍ في الجنَّةِ؛ لأنَّ النَّاسَ يجدون في هذه النَّظرةِ من نعيمِ القلبِ وسرورِ الوجهِ والأنسِ ما لا يجدونه في أيِّ شيءٍ من النَّعيمِ الذي هم فيه.

٥٤٥٦- وَأَتَى بِذَاكَ مُكَذِّبًا لِلكَافِرِيـ ـنَ السَّاخِرِينَ بِشِيعَةِ الرَّحْمَنِ

٥٤٥٧- ضَحِكُوا مِنَ الكُفَّارِ يَوْمَئِذٍ كَمَا ضَحِكُوا هُمُ مِنْهُمْ عَلَى الإِيمَانِ

٥٤٥٨- وَأَثَابَهُمْ نَظَرًا إِلَيْهِ ضِدَّ مَا قَدْ قَالَهُ فِيهِمْ أُولُو الكُفْرَانِ

لكن فرقٌ بين الضَّحكِ هذا وذاك؛ ضحكُ هؤلاء على المؤمنين ضحكٌ لا يدومُ، وضحكُ المؤمنين عليهم يوم القيامةِ ضحكٌ يدومُ، وليس بعده حزنٌ،

قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطفِّفين:٢٩-٣٠]، مَن الذي يمرُّ؟ الجوابُ: الطَّرفانِ، إذا مَرَّ المجرمون بهؤلاء ضَحِكُوا منهم، وإن مَرَّ هؤلاء بالمجرمين ضَحِكُوا منهم، قال: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾، فأتى بالفاءِ الدَّالَّةِ على تفريعِ ما بعدها على ما قبلها فقال: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطفِّفين:٣٤-٣٥].

٥٤٥٩- فَلِذَاكَ فَسَّرَهَا الأَئِمَّةُ أَنَّهُ   نَظَرٌ إِلَى الرَّبِّ العَظِيمِ الشَّانِ

فَسَّرها العلماءُ الأئمَّةُ أنَّهم ينظرون الرَّبَّ عزَّ وجلَّ، وإن كانت تشملُ النَّظرَ إلى ما أعطاهم اللهُ من النَّعيمِ في الجنَّاتِ؛ لأنَّ معنى «**الأرائك**»: «**السُّرر**»، والأريكةُ معروفةٌ، فهم على الأرائكِ ينظرون ما أعطاهم اللهُ من النَّعيمِ، وينظرون الرَّبَّ عزَّ وجلَّ، ينظرون الرَّبَّ كما فَسَّره بذلك الأئمَّةُ.

٥٤٦٠- لله ذَاكَ الفَهْمُ يُؤْتِيهِ الَّذِي   هُوَ أَهْلُهُ مَنْ جَادَ بِالإِحْسَانِ

أشار المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- بقولِهِ: «**هو أَهْلُهُ**» أنَّ للفَهْمِ في كتابِ الله أهلًا، وليس كُلُّ أحدٍ يفهمُ كلامَ الله على ما أراد اللهُ، ما يفهمُه إلَّا مَنْ هو أهلٌ للفَهْمِ، ومتى؟ «**مَنْ جَادَ بِالإِحْسَانِ**» يحتمل أنَّ المعنى أنَّ اللهَ تعالى يجودُ عليهم بالإحسانِ بما يعطيهم من الفَهْمِ، ويحتملُ أنَّ المرادَ أنَّ الفَهْمَ يؤتيه اللهُ عزَّ وجلَّ مَنْ جَادَ بالإحسانِ، وأَحْسَنَ في عبادةِ الله وإلى عبادِ الله فإنَّ اللهَ يؤتيه من الفَهْمِ بِقَدْرِ إحسانِه، والمعنيان كلاهما صحيحٌ.

* * *

٥٤٦١- وَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ مُسْنِدًا عَنْ جَابِرٍ ... خَبَرًا وَشَاهِدُهُ فَفِي القُرْآنِ

٥٤٦٢- بَيْنَا هُمُ فِي عَيْشِهِمْ وَسُرُورِهِمْ ... وَنَعِيمِهِمْ فِي لَذَّةٍ وَتَهَانِ

٥٤٦٣- وَإِذَا بِنُورٍ سَاطِعٍ قَدْ أَشْرَقَتْ ... مِنْهُ الجِنَانُ قَصِيُّهَا وَالدَّانِي

٥٤٦٤- رَفَعُوا إِلَيْهِ رُؤُوسَهُمْ فَرَأَوْهُ نُو ... رَ الرَّبِّ لا يَخْفَى عَلَى إِنْسَانِ

٥٤٦٥- وَإِذَا بِرَبِّهِمُ تَعَالَى فَوْقَهُمْ ... قَدْ جَاءَ لِلتَّسْلِيمِ بِالإِحْسَانِ

٥٤٦٦- قَالَ السَّلامُ عَلَيْكُمُ فَيَرَوْنَهُ ... جَهْرًا تَعَالَى الرَّبُّ ذُو السُّلْطَانِ

٥٤٦٧- مِصْدَاقُ ذَا ﴿يسٓ﴾ قَدْ ضَمِنَتْهُ عِنْـ ... ـدَ القَوْلِ مِنْ رَبٍّ بِهِمْ رَحْمَنِ

٥٤٦٨- مَنْ رَدَّ ذَا فَعَلَى رَسُولِ اللهِ رَدْ ... دَ وَسَوْفَ عِنْدَ اللهِ يَلْتَقِيَانِ

٥٤٦٩- فِي ذَا الحَدِيثِ عُلُوُّهُ وَمَجِيئُهُ ... وَكَلامُهُ حَتَّى يُرَى بِعِيَانِ

٥٤٧٠- هَذِي أُصُولُ الدِّينِ فِي مَضْمُونِهِ ... لا قَوْلُ جَهْمٍ صَاحِبِ البُهْتَانِ

٥٤٧١- وَكَذَا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ ذَلِكَ الـ ... ـخَبَرُ الطَّوِيلُ أَتَى بِهِ الشَّيْخَانِ

٥٤٧٢- فِيهِ تَجَلِّي الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ ... وَمَجِيئُهُ وَكَلامُهُ بِبَيَانِ

٥٤٧٣- وَكَذَاكَ رُؤْيَتُهُ وَتَكْلِيمٌ لِمَنْ ... يَخْتَارُهُ مِنْ أُمَّةِ الإِنْسَانِ

٥٤٧٤- فِيهِ أُصُولُ الدِّينِ أَجْمَعُهَا فَلا ... تَخْدَعْكَ عَنْهُ شِيعَةُ الشَّيْطَانِ

٥٤٧٥- وَحَكَى رَسُولُ اللهِ فِيهِ تَجَدُّدَ الـ ... ـغَضَبِ الَّذِي لِلرَّبِّ ذِي السُّلْطَانِ

٥٤٧٦- إِجْمَاعُ أَهْلِ العَزْمِ مِنْ رُسُلِ الإِلَـ ... ـهِ وَذَاكَ إِجْمَاعٌ عَلَى البُرْهَانِ

٥٤٧٧- لا تُخْدَعَنَّ عَنِ الحَدِيثِ بِهَذِهِ الـ ... آرَاءِ فَهْيَ كَثِيرَةُ الهَذَيَانِ

٥٤٧٨- أَصْحَابُهَا أَهْلُ التَّخَرُّصِ وَالتَّنَا ... قُضِ وَالتَّهَاتُرِ قَائِلُو البُهْتَانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «أَصْحَابُهَا أَهْلُ التَّخَرُّصِ وَالتَّنَاقُضِ وَالتَّهَاتُرِ قَائِلُو البُهْتَانِ» صَدَقَ واللهِ، هذا الوصفُ الذي لا ينطبقُ على سواهم.

* * *

٥٤٧٩- يَكْفِيكَ أَنَّكَ لَوْ حَرَصْتَ فَلَنْ تَرَى ... فِئَتَيْنِ مِنْهُمْ قَطُّ تَتَّفِقَانِ

٥٤٨٠- إِلَّا إِذَا مَا قَلَّدُوا لِسِوَاهُمَا ... فَتَرَاهُمُ جِيلًا مِنَ العُمْيَانِ

٥٤٨١- وَيَقُودُهُمْ أَعْمَى يُظَنُّ كَمُبْصِرٍ ... يَا مِحْنَةَ العُمْيَانِ خَلْفَ فُلانِ

٥٤٨٢- هَلْ يَسْتَوِي هَذَا وَمُبْصِرُ رُشْدِهِ ... اللهُ أَكْبَرُ كَيْفَ يَسْتَوِيَانِ

الشرحُ

يعني: لا يمكنُ أن يتَّفقَ اثنان إلَّا إذا كانا مُقَلِّدَيْنِ لواحدٍ، لكن المُقَلِّدُ يكونُ أعمى، وهذا هو الواقعُ، فالمجتهدون من أهلِ الكلامِ تجدُهم متناقضين، بل تجدُ الواحدَ منهم يناقضُ نفسَه؛ ففي كتابٍ يقولُ: هذا واجبٌ، وفي آخرَ يقولُ: هذا ممتنعٌ، وما أشبه ذلك، فهم عُميان وراء أعمى.

* * *

٥٤٨٣- أَوَمَا سَمِعْتَ مُنَادِيَ الإِيمَانِ يُخْـ ـبِرُ عَنْ مُنَادِي جَنَّةِ الحَيَوَانِ
٥٤٨٤- يَا أَهْلَهَا لَكُمُ لَدَى الرَّحْمَنِ وَعْـ ـدٌ وَهْوَ مُنْجِزُهُ لَكُمْ بِضَمَانِ
٥٤٨٥- قَالُوا أَمَا بَيَّضْتَ أَوْجُهَنَا كَذَا أَعْمَالَنَا أَثْقَلْتَ فِي المِيزَانِ
٥٤٨٦- وَكَذَاكَ قَدْ أَدْخَلْتَنَا الجَنَّاتِ حِيـ ـنَ أَجَرْتَنَا مِنْ مَدْخَلِ النِّيرَانِ
٥٤٨٧- فَيَقُولُ عِنْدِي مَوْعِدٌ قَدْ آنَ أَنْ أُعْطِيكُمُوهُ بِرَحْمَتِي وَحَنَانِي
٥٤٨٨- فَيَرَوْنَهُ مِنْ بَعْدِ كَشْفِ حِجَابِهِ جَهْرًا رَوَى ذَا مُسْلِمٌ بِبَيَانِ
٥٤٨٩- وَلَقَدْ أَتَانَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» اللَّذَيْـ ـنِ هُمَا أَصَحُّ الكُتْبِ بَعْدَ قُرَانِ
٥٤٩٠- بِرِوَايَةِ الثِّقَةِ الصَّدُوقِ جَرِيرٍ الـ ـبَجَلِيِّ عَمَّنْ جَاءَ بِالقُرْآنِ
٥٤٩١- أَنَّ العِبَادَ يَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ رُؤْيَا العِيَانِ كَمَا يُرَى القَمَرَانِ
٥٤٩٢- فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ كُلَّ وَقْتٍ فَاحْفَظُوا الْـ ـبَرْدَيْنِ مَا عِشْتُمْ مَدَى الأَزْمَانِ
٥٤٩٣- وَلَقَدْ رَوَى بِضْعٌ وَعِشْرُونَ امْرَءًا مِنْ صَحْبِ أَحْمَدَ خِيرَةِ الرَّحْمَنِ
٥٤٩٤- أَخْبَارَ هَذَا البَابِ عَمَّنْ قَدْ أَتَى بِالوَحْيِ تَفْصِيلًا بِلَا كِتْمَانِ
٥٤٩٥- وَأَلَذُّ شَيْءٍ لِلْقُلُوبِ فَهَذِهِ الـ أَخْبَارُ أَيْضًا بَهْجَةُ الإِيمَانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «البَرْدَيْنِ»؛ يعني: الفجرَ والعصرَ.

* * *

٥٤٩٦- وَاللهِ لَوْلا رُؤْيَةُ الرَّحْمَنِ فِي الـ ـجَنَّاتِ مَا طَابَتْ لِذِي العِرْفَانِ
٥٤٩٧- أَعْلَى النَّعِيمِ نَعِيمُ رُؤْيَةِ وَجْهِهِ وَخِطَابُهُ فِي جَنَّةِ الحَيَوَانِ
٥٤٩٨- وَأَشَدُّ شَيْءٍ فِي العَذَابِ حِجَابُهُ سُبْحَانَهُ عَنْ سَاكِنِي النِّيرَانِ
٥٤٩٩- وَإِذَا رَآهُ المُؤْمِنُونَ نَسُوا الَّذِي هُمْ فِيهِ مِمَّا نَالَتِ العَيْنَانِ
٥٥٠٠- فَإِذَا تَوَارَى عَنْهُمُ عَادُوا إِلَى لَذَّاتِهِمْ مِنْ سَائِرِ الأَلْوَانِ
٥٥٠١- فَلَهُمْ نَعِيمٌ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ سِوَى هَذَا النَّعِيمِ فَحَبَّذَا الأَمْرَانِ
٥٥٠٢- أَوَمَا سَمِعْتَ سُؤَالَ أَعْرَفِ خَلْقِهِ بِجَلالِهِ المَبْعُوثِ بِالقُرْآنِ
٥٥٠٣- شَوْقًا إِلَيْهِ وَلَذَّةِ النَّظَرِ الَّذِي بِجَلالِ وَجْهِ الرَّبِّ ذِي السُّلْطَانِ
٥٥٠٤- فَالشَّوْقُ لَذَّةُ رُوحِهِ فِي هَذِهِ الدْ دُنْيَا وَيَوْمَ قِيَامَةِ الأَبْدَانِ
٥٥٠٥- تَلْتَذُّ بِالنَّظَرِ الَّذِي فَازَتْ بِهِ دُونَ الجَوَارِحِ هَذِهِ العَيْنَانِ
٥٥٠٦- وَاللهِ مَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَلَذْ ذُ مِنِ اشْتِيَاقِ العَبْدِ لِلرَّحْمَنِ
٥٥٠٧- وَكَذَاكَ رُؤْيَةُ وَجْهِهِ سُبْحَانَهُ هِيَ أَكْمَلُ اللَّذَّاتِ لِلإِنْسَانِ
٥٥٠٨- لَكِنَّمَا الجَهْمِيُّ يُنْكِرُ ذَا وَذَا وَالوَجْهَ أَيْضًا خَشْيَةَ الحَدَثَانِ
٥٥٠٩- تَبًّا لَهُ المَخْدُوعُ أَنْكَرَ وَجْهَهُ وَلِقَاءَهُ وَمَحَبَّةَ الدَّيَّانِ
٥٥١٠- وَكَلامَهُ وَصِفَاتِهِ وَعُلُوَّهُ وَالعَرْشَ عَطَّلَهُ مِنَ الرَّحْمَنِ
٥٥١١- فَتَرَاهُ فِي وَادٍ وَرُسْلُ اللهِ فِي وَادٍ وَذَا مِنْ أَعْظَمِ الكُفْرَانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «... شَوْقًا إِلَيْهِ وَلَذَّةَ النَّظَرِ الَّذِي بِجَلَالِ وَجْهِ الرَّبِّ»، وهذا في حديث: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ»[1].

قَوْلُهُ: «تَبًّا لَهُ الـمَـخْدُوْعُ أَنْكَرَ وَجْهَهُ وَلِقَاءَهُ وَمَحَبَّةَ الدَّيَّانِ» «تَبًّا لَهُ»؛ أي: خسر الدُّنيا والآخرةَ.

* * *

(١) أخرجه النسائي: كتاب السهو، بعد باب الذكر بعد التشهد، رقم (١٣٠٥).

فصل

في كلامِ الربِّ ـ جلَّ جلالُه ـ مع أهلِ الجنَّة

٥٥١٢- أَوَمَا عَلِمْتَ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ حَقًّا يُكَلِّمُ حِزْبَهُ بِجِنَانِ
٥٥١٣- فَيَقُولُ جَلَّ جَلالُهُ هَلْ أَنْتُمُ رَاضُونَ قَالُوا نَحْنُ ذُو رِضْوَانِ
٥٥١٤- أَمْ كَيْفَ لا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ يَنَلْهُ قَطُّ مِنْ إِنْسَانِ
٥٥١٥- هَلْ ثَمَّ شَيْءٌ غَيْرُ ذَا فَيَكُونُ أَفْـ ـضَلَ مِنْهُ نَسْأَلُهُ مِنَ الْمَنَّانِ
٥٥١٦- فَيَقُولُ أَفْضَلُ مِنْهُ رِضْوَانِي فَلا يَغْشَاكُمُ سَخَطٌ مِنَ الرَّحْمَنِ
٥٥١٧- وَيُذَكِّرُ الرَّحْمَنُ وَاحِدَهُمْ بِمَا قَدْ كَانَ مِنْهُ سَالِفَ الأَزْمَانِ
٥٥١٨- مِنْهُ إِلَيْهِ لَيْسَ ثَمَّ وَسَاطَةٌ مَا ذَاكَ تَوْبِيخًا مِنَ الرَّحْمَنِ
٥٥١٩- لَكِنْ يُعَرِّفُهُ الَّذِي قَدْ نَالَهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالعَفْوِ وَالإِحْسَانِ
٥٥٢٠- وَيُسَلِّمُ الرَّحْمَنُ جَلَّ جَلالُهُ حَقًّا عَلَيْهِمْ وَهْوَ فِي القُرْآنِ
٥٥٢١- وَكَذَاكَ يُسْمِعُهُمْ لَذِيذَ خِطَابِهِ سُبْحَانَهُ بِتِلاوَةِ الفُرْقَانِ
٥٥٢٢- فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوهُ قَبْلَ ذَا هَذَا رَوَاهُ الحَافِظُ الطَّبَرَانِي
٥٥٢٣- هَذَا سَمَاعٌ مُطْلَقٌ وَسَمَاعُنَا الْـ ـقُرْآنَ فِي الدُّنْيَا فَنَوْعٌ ثَانِي
٥٥٢٤- وَاللهُ يُسْمِعُ قَوْلَهُ بِوَسَاطَةٍ وَبِدُونِهَا نَوْعَانِ مَعْرُوفَانِ

٥٥٢٥- فَسَمَاعُ مُوسَى لَمْ يَكُنْ بِوَسَاطَةٍ وَسَمَاعُنَا بِتَوَسُّطِ الإِنْسَانِ

٥٥٢٦- مِنْ صَيَّرَ النَّوْعَيْنِ نَوْعًا وَاحِدًا فَمُخَالِفٌ لِلعَقْلِ وَالقُرْآنِ

الشرحُ

في هذا الفصلِ ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ تعالى- أنَّ اللهَ يُكَلِّمُ أهلَ الجنَّةِ من وجوهٍ:

الوجه الأوَّل: بيانُ ما مَنَّ اللهُ به عليهم من النَّعيمِ، فيقولُ لهم عزَّ وجلَّ: **«هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَالَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟! فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»**(١).

الوجه الثَّاني: أنَّه يُحدِّثُ بعضَهم بما جرى منه في سالفِ الزَّمنِ في الدُّنيا **«فَعَلْتَ كذا، وَفَعَلْتَ كذا»** لا توبيخًا، ولكن لإظهارِ فضلِه عزَّ وجلَّ عليه حتَّى يزدادَ حُبًّا لله، وتعظيمًا له، وشكرًا له سبحانه وتعالى، كما أنَّه -جلَّ وعلا- يُسَلِّمُ على أهلِ الجنَّةِ، وهو في القرآنِ في قولِه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨].

الوجه الثَّالث: وهو على خِلافِ الأوَّلِ أنَّه -جلَّ وعلا- يُسْمِعُهم القرآنَ، يقرأُ القرآنَ وهم يسمعونه، فيسمعون كلامَه عزَّ وجلَّ منه، وهذا سَماعٌ مُطْلَقٌ؛ يعني: أنَّهم يسمعونه من الرَّبِّ -جلَّ وعلا- بدون واسطةٍ، فيسمعون اللهَ يقرأُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦١٨٣)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة، رقم (٢٨٢٩).

القرآنَ، فأفضلُ كتابٍ أُنْزِلَ، وأفضلُ الذِّكرِ يقرؤه مَنْ تكلَّم به أوَّلًا، أمَّا السَّماعُ في الدُّنيا فَنَوْعٌ ثانٍ غيرُ هذا السَّماعِ، فالذي نسمعُ ممَّن يقرأُ القرآنَ ليس صوتَ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ، بل هو صوتُ القارئِ، فالصَّوتُ صوتُ القارئِ، واللَّفظُ لفظُ القارئِ، والمقروءُ كلامُ الباري عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ سماعَنا لكلامِه بواسطةِ محمَّدٍ ﷺ، وكُلٌّ منَّا يَسمعُ غيرَه بواسطتِه، فالمُعَلِّمُ يُسْمِعُ المتعلِّمَ كلامَ الله بواسطةٍ، وهكذا إلى أن يصلَ إلى الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-، ومَنْ سَوَّى بين النَّوعَيْنِ، وقال: «**الكُلُّ مخلوقٌ**» فمخالفٌ للقُرآنِ.

والذين قالوا بهذا هم الأشاعرةُ وأشباهُهم، يجعلونه شيئًا واحدًا؛ يقولون: إنَّ سماعَ موسى -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- ليس سماعًا لكلامِ الرَّبِّ، لكن يسمعُ أصواتًا خُلِقَتْ لِتُعَبِّرَ عمَّا في نفسِ الله، هذا مذهبُهم، يُصَرِّحُونَ به؛ لأنَّ الكلامَ عندهم هو المعنى القَائِمُ بالنَّفسِ، ويسمُّونه الكلامَ النَّفسيَّ، أمَّا أن يُسْمَعَ صوتٌ من الله فهذا عندهم محالٌ، فيقولون: إنَّ اللهَ خَلَقَ أصواتًا لِتُعَبِّرَ عمَّا في نفسِه، كما يُخْلَقُ صوتُ الرَّعدِ في السَّحابِ، وسَمِعَه جبريلُ فتلقَّاه وَنَزَلَ به إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم؛ ولهذا هم والمعتزلةُ سواءٌ في أنَّ الذي في المصحفِ مخلوقٌ، لكنَّ المعتزلةَ أشجعُ من الأشاعرةِ، المعتزلةُ يقولون: هو مخلوقٌ من جملةِ المخلوقاتِ، وليس كلامَ الله، لكنَّهم يقولون: هو كلامُ الله، وأُضِيفَ إليه على سبيلِ التَّشريفِ والتَّعظيم، وأولئك يقولون: ليس كلامَ الله، هو عبارةٌ عنه، والكلامُ هو: المعنى القَائِمُ بالنَّفسِ، فكأنَّهم يجعلون كلامَ الله علمَ الله القَائِمَ بنفسِه.

ولا شكَّ أنَّ هذا خطأٌ عظيمٌ مُنافٍ للسَّمعِ والعقلِ، فَيُقَالُ لهم: إمَّا أن تُصَرِّحوا بما صَرَّحَتْ به المعتزلةُ وتقولوا: كلامُ الله مخلوقٌ وهو المسموعُ بالآذانِ المُبْصَرُ بالعِيانِ، قولوا: مخلوقٌ كما قالت المعتزلةُ، أو أن تقولوا: الكلامُ غيرُ مخلوقٍ

وهو المعنى القَائِم بنفسِه وما سَمِعَه جبريلُ وما سَمِعَه موسى كذلك، فهي أصواتٌ خُلِقَتْ لِتُعَبِّرَ عنه، فهذا تناقضٌ.

والفرقُ بين العبارةِ والحكايةِ: أنَّ الحكايةَ للكُلَّابيَّةِ، والعبارةَ للأشاعرةِ، الكُلَّابِيَّةُ يقولون: إنَّهُ حِكَايةٌ كما أنَّ الإنسانَ إذا تكلَّم فإنَّ الصَّدى يحكي صوتَه، فكأنَّ اللهَ تكلَّم وجعَل من هذا الكلامِ صدى فتلقَّاه جبريلُ، فيقولون: حكايةٌ عن كلامِ الله، أمَّا أولئك فيقولون: لا، بل هو عبارةٌ عن كلامِ الله، خَلَقَ اللهُ صوتًا مستقلًا، وأمَّا اللهُ فلا يمكنُ أن يخرجَ منه صوتٌ.

* * *

فصل

في يَوْمِ المَزِيدِ، وَمَا أَعَدَّ الله لَهُمْ فِيهِ مِنَ الكَرَامَةِ

٥٥٢٧- أَوَمَا سَمِعْتَ بِشَأْنِهِمْ يَوْمَ المَزِيـ ـدِ وَأَنَّهُ شَأْنٌ عَظِيمُ الشَّانِ

٥٥٢٨- هُوَ يَوْمُ جُمْعَتِنَا وَيَوْمُ زِيَارَةِ الرْ رَحْمَنِ وَقْتَ صَلاتِنَا وَأَذَانِ

٥٥٢٩- وَالسَّابِقُونَ إِلَى الصَّلاةِ هُمُ الأُلَى فَازُوا بِذَاكَ السَّبْقِ بِالإِحْسَانِ

٥٥٣٠- سَبْقٌ بِسَبْقٍ وَالمُؤَخَّرُ هَاهُنَا مُتَأَخِّرٌ فِي ذَلِكَ المَيْدَانِ

٥٥٣١- وَالأَقْرَبُونَ إِلَى الإِمَامِ فَهُمْ أُولُو الزْ زُلْفَى هُنَاكَ فَهَاهُنَا قُرْبَانِ

٥٥٣٢- قُرْبٌ بِقُرْبٍ وَالمُبَاعِدُ مِثْلُهُ بُعْدٌ بِبُعْدٍ حِكْمَةُ الدَّيَّانِ

الشرحُ

بَيَّنَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- أنَّ يومَ المزيدِ الذي هو يومُ الجمعةِ هو يومُ زيارةِ أهلِ الجنَّةِ للرَّبِّ عزَّ وجلَّ، وتكونُ في وقتِ صلاةِ الجمعةِ.

إِذَنْ يومُ المزيدِ بإزاءِ يوم الجمعةِ، والزِّيارةُ بإزاءِ وقت الأذانِ والصَّلاةِ؛ لأنَّ أقربَ ما يكونُ النَّاسُ في يومِ الجمعةِ في وقتِ الصَّلاةِ، يأتون إلى الله عزَّ وجلَّ، يتقرَّبون إليه بالذِّكرِ والقراءةِ والرُّكوعِ والسُّجودِ؛ ولهذا كان أصحُّ الأقوالِ أنَّ ساعةَ الإجابةِ ما بين مجيء الإمامِ إلى انقضاءِ الصَّلاةِ، هذا أحراها وأقربُها، وفيه حديثٌ رواه مسلمٌ[1].

---

(١) يعني حديث أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، قال: قال لي عبد الله بن عمر: أسمعت أباك يحدث

٥٥٣٣- وَلَــهُمْ مَنَــابِرُ لُؤْلُــؤٍ وَزَبَرْجَــدٍ وَمَنَــابِرُ اليَــاقُوتِ وَالعِقْيَــانِ

٥٥٣٤- هَــذَا وَأَدْنَــاهُمْ وَمَــا فِــيهِمْ دَنِي مِـنْ فَـوْقِ ذَاكَ المِسْـكِ كَالكُثْبَـانِ

٥٥٣٥- مَا عِنْدَهُمْ أَهْـلُ الــمَنَابِرِ فَـوْقَهُمْ مِــمَّا يَـرَوْنَ بِهِـمْ مِـنَ الإِحْسَـانِ

٥٥٣٦- فَــيَرَوْنَ رَبَّهُــمُ تَعَــالَى جَهْــرَةً نَظَـرَ العِيَـانِ كَـمَا يُـرَى القَمَـرَانِ

٥٥٣٧- وَيُحَـاضِرُ الـرَّحْمَنُ وَاحِـدَهُمْ مُحَـا ضَرَةَ الـحَبِيبِ يَقُولُ يَا ابْـنَ فُـلانِ

٥٥٣٨- هَلْ تَذْكُرُ اليَوْمَ الَّذِي قَدْ كُنْتَ فِيـ ـهِ مُبَـارِزًا بِالـذَّنْبِ وَالعِصْـيَانِ

٥٥٣٩- فَيَقُــولُ رَبِّ أَمَــا مَنَنْــتَ بِغَفْــرَةٍ قِــدْمًا فَإِنَّــكَ وَاسِــعُ الغُفْــرَانِ

٥٥٤٠- فَيُجِيبُــهُ الــرَّحْمَنُ مَغْفِــرَتِي الَّتِــي قَدْ أَوْصَلَتْكَ إِلَى الـمَحَلِّ الـدَّانِي

الشرحُ

٥٥٣٣- وَلَــهُمْ مَنَــابِرُ لُؤْلُــؤٍ وَزَبَرْجَــدٍ وَمَنَــابِرُ اليَــاقُوتِ وَالعِقْيَــانِ

٥٥٣٤- هَــذَا وَأَدْنَــاهُمْ وَمَــا فِــيهِمْ دَنِي مِـنْ فَـوْقِ ذَاكَ المِسْـكِ كَالكُثْبَـانِ

٥٥٣٥- مَا عِنْدَهُمْ أَهْـلُ الــمَنَابِرِ فَـوْقَهُمْ مِــمَّا يَـرَوْنَ بِهِـمْ مِـنَ الإِحْسَـانِ

إِذَنْ ينقسمون إلى قسمين: قسمٍ على منابرَ من اللُّؤلؤِ والزَّبرجدِ ومنابرِ الياقوتِ والعِقْيَانِ، وقسمٍ آخرَ على الأرضِ، لكن على أرضٍ ترابُها المسكُ يجلسون

= عن رسول الله ﷺ في شأن ساعة الجمعة؟ قال: قلت: نعم، سمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هِيَ مَا بَيْنَ أَنْ يَجْلِسَ الإِمَامُ إِلَى أَنْ تُقْضَى الصَّلَاةُ». أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب في الساعة التي في يوم الجمعة، رقم (٨٥٣).

عليه، ومع ذلك لا يَرَوْنَ أنَّ الذين على منابرَ أفضل منهم؛ لأنَّهم لو رَأَوْا أنَّهم أفضلُ منهم لَنَقَصَ السُّرورُ، لكن لا يَرَوْنَهم أفضلَ.

٥٥٣٦- فَـيَرَوْنَ رَبَّهُـمُ تَعَـالَى جَهْـرَةً ... نَظَـرَ العِيَـانِ كَـمَا يُـرَى القَمَـرَانِ

٥٥٣٧- وَيُحَـاضِرُ الـرَّحْمَنُ وَاحِـدَهُمْ مُحَـا ... ضَرَةَ الـحَبِيبِ يَقُولُ يَا ابْـنَ فُـلانِ

٥٥٣٨- هَلْ تَذْكُرُ اليَوْمَ الَّذِي قَدْ كُنْتَ فِيـ ... ـهِ مُبَـارِزًا بِالـذَّنْبِ وَالعِصْـيَانِ

٥٥٣٩- فَيَقُـولُ رَبِّ أَمَـا مَنَنْـتَ بِغَفْـرَةٍ ... قِـدْمًا فَإِنَّـكَ وَاسِـعُ الغُفْـرَانِ

٥٥٤٠- فَيُجِيبُـهُ الـرَّحْمَنُ مَغْفِـرَتِي الَّتِـي ... قَدْ أَوْصَلَتْكَ إِلَى الـمَحَلِّ الـدَّانِي

قَوْلُهُ: «المَحَلِّ الدَّانِي»؛ أي: القريب منِّي، وليس المعنى من الدُّنوِّ؛ يعني: النَّازلَ؛ بل المعنى: القريبُ مِنِّي، نسألُ اللهَ أن يجعلَني وإيَّاكم منهم.

* * *

فصــل

فِي المَطَرِ الَّذِي يُصِيبُهُمْ هُنَاكَ

٥٥٤١- وَيُظِلُّهُـــمْ إِذْ ذَاكَ مِنْــهُ سَــحَابَةٌ تَــأْتِي بِمِثْــلِ الوَابِــلِ الــهَتَّانِ
٥٥٤٢- بَيْنَــا هُــمُ فِي النُّــورِ إِذْ غَشِــيَتْهُمُ سُــبْحَانَ مُنْشِئِهَا مِــنَ الرِّضْــوَانِ
٥٥٤٣- فَتَظَــلُّ تُمْطِــرُهُمْ بِطَيِّــبِ مَــا رَأَوْا شَــبَهًا لَــهُ فِي سَــالِفِ الأَزْمَــانِ
٥٥٤٤- فَيَزِيــدُهُمْ هَــذَا جَمَــالًا فَــوْقَ مَــا بِهِــمُ وَتِلْــكَ مَوَاهِــبُ الــمَنَّانِ

الشــرحُ

الأحسنُ الرُّجوعُ إلى كتابِ «حادي الأرواح»؛ لأنَّ كُلَّ هذه المباحثِ موجودةٌ فيه.

* * *

فصل

في سُوقِ الجَنَّةِ الَّذِي يَنْصَرِفُونَ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ المَجْلِسِ

٥٥٤٥- فَيَقُولُ جَلَّ جَلالُهُ قُومُوا إِلَى ... مَا قَدْ ذَخَرْتُ لَكُمْ مِنَ الإِحْسَانِ

٥٥٤٦- يَأْتُونَ سُوقًا لا يُبَاعُ وَيُشْتَرَى ... فِيهِ فَخُذْ مِنْهُ بِلا أَثْمَانِ

٥٥٤٧- قَدْ أَسْلَفَ التُّجَّارُ أَثْمَانَ المَبِيـ ... ـعِ بِعَقْدِهِمْ فِي بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ

٥٥٤٨- للهِ سُوقٌ قَدْ أَقَامَتْهُ المَلَا ... ئِكَةُ الكِرَامُ بِكُلِّ مَا إِحْسَانِ

٥٥٤٩- فِيهَا الَّذِي وَاللهِ لا عَيْنٌ رَأَتْ ... كَلَّا وَلا سَمِعَتْ بِهِ أُذُنَانِ

٥٥٥٠- كَلَّا وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ امْرِئٍ ... فَيَكُونُ عَنْهُ مُعَبِّرًا بِلِسَانِ

٥٥٥١- فَيَرَى امْرَءًا مِنْ فَوْقِهِ فِي هَيْئَةٍ ... فَيَرُوعُهُ مَا تَنْظُرُ العَيْنَانِ

٥٥٥٢- فَإِذَا عَلَيْهِ مِثْلُهَا إِذْ لَيْسَ يَلْـ ... ـحَقُ أَهْلَهَا شَيْءٌ مِنَ الأَحْزَانِ

٥٥٥٣- وَاهًا لِذَا السُّوقِ الَّذِي مِنْ حِلِّهِ ... نَالَ التَّهَانِي كُلَّهَا بِأَمَانِ

٥٥٥٤- يُدْعَى بِسُوقِ تَعَارُفٍ مَا فِيهِ مِنْ ... صَخَبٍ وَلا غِشٍّ وَلا أَيْمَانِ

٥٥٥٥- وَتِجَارُهُ مَنْ لَيْسَ تُلْهِيهِ تِجَا ... رَاتٌ وَلا بَيْعٌ عَنِ الرَّحْمَنِ

٥٥٥٦- أَهْلُ المُرُوءَةِ وَالفُتُوَّةِ وَالتُّقَى ... وَالذِّكْرِ لِلرَّحْمَنِ كُلَّ أَوَانِ

٥٥٥٧- يَا مَنْ تَعَوَّضَ عَنْهُ بِالسُّوقِ الَّذِي رُكِـزَتْ لَدَيْـهِ رَايَـةُ الشَّـيْطَانِ

٥٥٥٨- لَوْ كُنْتَ تَدْرِي قَدْرَ ذَاكَ السُّوقِ لَـمْ تَـرْكَنْ إِلَى سُـوقِ الكَسَـادِ الفَـانِي

الشَّـرحُ

٥٥٤٥- فَيَقُـولُ جَـلَّ جَلالُـهُ قُومُـوا إِلَى مَا قَدْ ذَخَرْتُ لَكُمْ مِـنَ الإِحْسَـانِ

٥٥٤٦- يَـأْتُونَ سُـوقًا لا يُبَـاعُ وَيُشْـتَرَى فِيـهِ فَخُـذْ مِنْـهُ بِـلا أَثْـمَانِ

٥٥٤٧- قَدْ أَسْـلَفَ التُّجَّـارُ أَثْـمَانَ الـمَبِيـ ـعِ بِعَقْـدِهِمْ فِي بَيْعَـةِ الرِّضْـوَانِ

اللهُ أكبرُ! انظر إلى النَّعيمِ، في الدُّنيا ينصرفون إلى الأسواقِ، قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ﴾ [الجمعة:١٠]، وفي الآخِرةِ هكذا، ينصرفون من الله عزَّ وجلَّ بعد أنْ ألقى عليهم هذا الرِّضوانَ، وأمطر عليهم هذا المطرَ إلى سوقٍ فيه ما يشاؤون من أنواعِ النَّعيمِ، ويأخذونه بلا ثمنٍ، لماذا؟ لأنَّ الثَّمنَ مُقدَّمٌ، فهم قدَّموه في الدُّنيا، فهو بمنزلةِ السَّلَمِ، يُعْطِي الفلاحَ دراهمَ ويأخذُ منه الثَّمرَ بعد سنةٍ أو سنتين.

٥٥٤٨- للهِ سُـوقٌ قَـدْ أَقَامَتْـهُ الـمَلَا ئِكَـةُ الكِـرَامُ بِكُـلِّ مَـا إِحْسَـانِ

٥٥٤٩- فِيهَـا الَّـذِي وَاللهِ لا عَـيْنٌ رَأَتْ كَـلَّا وَلا سَـمِعَتْ بِـهِ أُذُنَـانِ

٥٥٥٠- كَلَّا وَلَـمْ يَخْطُرْ عَـلَى قَلْـبِ امْـرِئٍ فَيَكُـونُ عَنْـهُ مُعَـبِّرًا بِلِسَـانِ

٥٥٥١- فَـيَرَى امْـرَءًا مِـنْ فَوْقِـهِ فِي هَيْئَـةٍ فَيَرُوعُـهُ مَـا تَنْظُـرُ العَيْنَـانِ

٥٥٥٢- فَـإِذَا عَلَيْـهِ مِثْلُهَـا إِذْ لَـيْسَ يَلْـ ـحَقُ أَهْلَهَـا شَيْءٌ مِـنَ الأَحْـزَانِ

٥٥٥٣- وَاهًا لِذَا السُّوقِ الَّذِي مِنْ حِلِّهِ ... نَالَ التَّهَانِي كُلَّهَا بِأَمَانِ

قَوْلُهُ: «وَاهًا»؛ يعني: عجبًا.

٥٥٥٤- يُدْعَى بِسُوقِ تَعَارُفٍ مَا فِيهِ مِنْ ... صَخَبٍ وَلا غِشٍّ وَلا أَيْمَانِ

الأسواقُ في الدُّنيا فيها صَخَبٌ، وفيها غِشٌّ، وفيها كَذِبٌ، وفيها أيمانٌ؛ أي: أحلافٌ، لكن سوقُ الجنَّةِ ليس به هذا.

٥٥٥٥- وَتِجَارُهُ مَنْ لَيْسَ تُلْهِيهِ تِجَا ... رَاتٌ وَلا بَيْعٌ عَنِ الرَّحْمَنِ

٥٥٥٦- أَهْلُ الْمُرُوءَةِ وَالفُتُوَّةِ وَالتُّقَى ... وَالذِّكْرِ لِلرَّحْمَنِ كُلَّ أَوَانِ

٥٥٥٧- يَا مَنْ تَعَوَّضَ عَنْهُ بِالسُّوقِ الَّذِي ... رُكِزَتْ لَدَيْهِ رَايَةُ الشَّيْطَانِ

٥٥٥٨- لَوْ كُنْتَ تَدْرِي قَدْرَ ذَاكَ السُّوقِ لَمْ ... تَرْكَنْ إِلَى سُوقِ الكَسَادِ الفَانِي

وصَدَقَ رحمه اللهُ.

* * *

فصل

في حَالِهِمْ عِنْدَ رُجُوعِهِمْ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ

٥٥٥٩- فَـإِذَا هُـمُ رَجَعُـوا إِلَى أَهْلِـيهِمُ ... بِمَوَاهِـبٍ حَصَـلَتْ مِـنَ الـرَّحْمَنِ

٥٥٦٠- قَالُوا لَـهُمْ أَهْلًا وَرَحْبًا مَـا الَّـذِي ... أُعْطِيـتُمُ مِـنْ ذَا الـجَمَالِ الثَّـانِي

٥٥٦١- وَاللهِ لازْدَدْتُـمْ جَمَـالًا فَـوْقَ مَـا ... كُنْـتُمْ عَلَيْـهِ قَبْـلَ هَـذَا الآنِ

٥٥٦٢- قَـالُوا وَأَنْـتُمْ وَالَّـذِي أَنْشَـاكُمُ ... قَـدْ زِدْتُـمُ حُسْنًا عَـلَى الإِحْسَـانِ

٥٥٦٣- لَكِـنْ يَحِـقُّ لَنَـا وَقَـدْ كُنَّـا إِذًا ... جُلَسَاءَ رَبِّ العَرْشِ ذِي الرِّضْوَانِ

٥٥٦٤- فَهُـمُ إِلَى يَـوْمِ الـمَزِيدِ أَشَـدُّ شَـوْ ... قًـا مِـنْ مُحِـبٍّ لِلحَبِيـبِ الـدَّانِي

الشرحُ

اللهُ أكبرُ! وهذا دَائِمٌ، كُلَّما رجعوا من زيارةِ الله عزَّ وجلَّ في يومِ المزيدِ، ثُمَّ إلى السُّوقِ الذي يتعارَفون فيه، ثُمَّ إلى أهلِيهم، وجدوهم قد ازدادوا حُسْنًا، إِذَنْ ازديادُهم في الحُسْنِ لا نهايةَ له؛ لأنَّ يومَ المزيدِ ليس له نهايةٌ، هم خالدون فيه أبدًا.

فإنْ قيل: إذا كانوا يتلذَّذون بهذه الزِّيارةِ، فلماذا لا يطلبون استمرارَها؟

نقولُ: لو استمرَّت لصارت معتادةً ولم يكن لها هذا الشَّوقُ، ومعلومٌ أنَّهم إذا كانوا يتشوَّقون إليه ويتطلَّعون إليه ثُمَّ يحصلُ لهم صار ألذَّ، وجَرِّبْ هذا في

شيءٍ تُوعَدُ به، وشيءٍ يكونُ عندك دَائِمٌ؛ ولهذا ذكَر ابنُ القيِّم في النَّظم نفسِه أنَّ اللهَ هو الذي يقولُ لهم: «قُومُوا إِلَى مَا أَعْدَدْتُ لَكُمْ مِنَ الكَرَامَةِ»[1]، وهذا يدلُّ على أنَّ الأمرَ لو كان راجعًا إليهم لَبَقَوْا ولم ينصرفوا.

* * *

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في سوق الجنة، رقم (٢٥٤٩)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب صفة الجنة، رقم (٤٣٣٦).

فصـــل

في خُلُودِ أَهْلِ الجَنَّةِ فِيهَا، وَدَوَامِ صِحَّتِهِمْ وَنَعِيمِهِمْ وَشَبَابِهِمْ، وَاسْتِحَالَةِ المَوْتِ وَالنَّوْمِ عَلَيْهِمْ

٥٥٦٥- هَـذَا وَخَاتِـمَةُ النَّعِيمِ خُلُـودُهُمْ أَبَـدًا بِـدَارِ الـخُلْدِ وَالرِّضْـوَانِ

٥٥٦٦- أَوَمَا سَمِعْتَ مُنَادِيَ الإِيمَانِ يُخْـ ـبِرُ عَـنْ مُنَـادِيهِمْ بِحُسْـنِ بَيَـانِ

٥٥٦٧- لَكُـمُ حَيَـاةٌ مَـا بِهَـا مَـوْتٌ وَعَـا فِـيَةٌ بِـلا سَـقَمٍ وَلا أَحْـزَانِ

٥٥٦٨- وَلَكُـمْ نَعِـيمٌ مَـا بِـهِ بُـؤْسٌ وَمَـا لِشَـبَابِكُمْ هَـرَمٌ مَـدَى الأَزْمَـانِ

٥٥٦٩- كَـلَّا وَلا نَـوْمٌ هُنَـاكَ يَكُـونُ ذَا نَـوْمٍ وَمَـوْتٍ بَيْنَنَـا أَخَـوَانِ

٥٥٧٠- هَـذَا عَلِمْنَـاهُ اضْـطِرَارًا مِـنْ كِتَـا بِ الله فَـافْهَمْ مُقْتَضَـى القُـرْآنِ

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «هَذَا عَلِمْنَاهُ اضْطِرَارًا مِنْ كِتَابِ الله» قال ذلك لأنَّ القرآنَ فيه آياتٌ كثيرةٌ أنَّهم خالدون في الجنَّةِ أبدًا، وهذا يقتضي أنَّهم لا ينامون وأنَّهم لا يموتون، والنَّومُ أخو الموتِ، قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام:٦٠]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزُّمر:٤٢]، فَسَمَّى النَّومَ وفاةً، فالنَّومُ أخو الموتِ؛ ولهذا لـمَّا لم يكن موتٌ في الجنَّةِ لم يكن نومٌ؛ ولأنَّ النَّومَ في الدُّنيا إنَّما نُضطَرُّ إليه؛ لأنَّه يهدمُ التَّعبَ السَّابقَ ويُجدِّدُ

النَّشاطَ للَّاحقِ، فهو يُرِيحُ من عملٍ سابقٍ ويُجَدِّدُ النَّشاطَ لعملٍ لاحقٍ، أمَّا في الآخرةِ فالأمرُ ليس كذلك.

* * *

٥٥٧١- وَالـجَهْمُ أَفْنَاهَـا وَأَفْنَـى أَهْـلَهَا ... تَبًّـا لِـذَاكَ الـجَاهِلِ الفَتَّـانِ

٥٥٧٢- طَرْدًا لِنَفْيِ دَوَامِ فِعْلِ الرَّبِّ في الْـ ... ـمَاضِي وَفِي مُسْـتَقْبَلِ الأَزْمَـانِ

٥٥٧٣- وَأَبُـو الـهُذَيْلِ يَقُـولُ يَفْـنَى كُلُّمَا ... فِيهَـا مِـنَ الـحَرَكَاتِ لِلسُّـكَّانِ

٥٥٧٤- وَتَصِيرُ دَارُ الـخُلْدِ مَـعْ سُكَّـانِهَـا ... وَثِـمَارِهَا كَحِجَـارَةِ البُنْيَـانِ

٥٥٧٥- قَالُـوا وَلَـوْلا ذَاكَ لَـمْ يَثْبُتْ لَنَـا ... رَبٌّ لأَجْـلِ تَسَلْسُـلِ الأَعْيَـانِ

٥٥٧٦- فَالقَـوْمُ إِمَّـا جَـاحِـدُونَ لِرَبِّهِـمْ ... أَوْ مُنْكِـرُونَ حَقَـائِقَ الإِيـمَانِ

الشرحُ

٥٥٧١- وَالـجَهْمُ أَفْنَاهَـا وَأَفْنَـى أَهْـلَهَا ... تَبًّـا لِـذَاكَ الـجَاهِلِ الفَتَّـانِ

٥٥٧٢- طَرْدًا لِنَفْيِ دَوَامِ فِعْلِ الرَّبِّ في الْـ ... ـمَاضِي وَفِي مُسْـتَقْبَلِ الأَزْمَـانِ

قَوْلُهُ: «تَبًّا»؛ يعني: خُسرانًا.

أشار المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- إلى رأيَيْنِ في دَوامِ الجنَّةِ مُقَابِلَيْنِ لما دَلَّ عليه الكتابُ والسُّنَّةُ وإجماعُ الأُمَّةِ، وهما:

الرَّأيُ الأوَّلُ: رأيُ جهمٍ، يقولُ: إنَّ الجنَّةَ وما فيها تفنى كالنَّارِ، كُلُّ شيءٍ يَفْنَى ولا يبقى إلَّا اللهُ، وهذا بِناءً على أنَّ التَّسلسلَ في المستقبلِ ممنوعٌ كالتَّسلسلِ في

الماضي طردًا للقاعدة؛ يعني: تسلسلُ المخلوقاتِ عندهم ممنوعٌ، فلا يمكنُ أن تبقى المخلوقاتُ إلى ما لا نهايةَ له، هذا رأيُ الجهميَّةِ.

وهذا مُكَذِّبٌ للقُرآنِ؛ لأنَّ اللهَ قال في أهلِ الجنَّةِ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وَأَخْبَرَ أَنَّه عزَّ وجلَّ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وإذا كان فعَّالًا لما يريدُ لَزِمَ أن يكونَ فعلُه قديمًا أزليًّا بخلاف المفعولِ، ويجب أن تُفَرِّقَ بين الفعلِ والمفعولِ، المفعولاتُ كُلُّها حادثةٌ بلا شكٍّ، وليس فيها شيءٌ قديمٌ لم يكن حادثًا من عَدَمٍ، بل كُلُّها حادثةٌ من عَدَمٍ، لكنَّ فعلَ الله عزَّ وجلَّ قديمٌ، متى شَاءَ فَعَلَ فأحدث المفعولَ، ومتى شَاءَ أبقى المفعولَ، لو شاء اللهُ عزَّ وجلَّ لأفنى كُلَّ شيءٍ إلَّا نفسَه، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، لكن هل معنى ذلك أنَّنا إذا قلنا بدوامِ فاعليَّةِ الرَّبِّ نقولُ: بأنَّ اللهَ معه إلهٌ كما زعم الجهمُ؟ الجوابُ: لا، نقولُ: فعلُه من أوصافِه، وأوصافُه لازمةٌ له أزلًا وأبدًا.

٥٥٧٣- وَأَبُو الهُذَيْلِ يَقُولُ يَفْنَى كُلُّهَا ... فِيهَا مِنَ الحَرَكَاتِ لِلسُّكَّانِ

٥٥٧٤- وَتَصِيرُ دَارُ الخُلْدِ مَعْ سُكَّانِهَا ... وَثِمَارِهَا كَحِجَارَةِ البُنْيَانِ

وأمَّا أبو الهُذَيل العَلَّاف فجاء بقولٍ عجيبٍ، يقولُ: تَفْنَى الحركاتُ ونموُّ الأشجارِ، ويَبْقَى الشَّيءُ كالأحجارِ؛ يعني: أهلُ الجنَّةِ تَبْقَى أجسامُهم لكن بدون حركةٍ، تَبْقَى الأشجارُ لكن بدون ثمارٍ، تَبْقَى الجَنَّةُ لكن بدون أحجارٍ، حتَّى الرَّجل إذا كان قد رفع اللُّقمةَ إلى فمِه أو الفاكهةَ ثُمَّ قَضَى اللهُ عليهم بتبطيلِ العملِ بَقِيَ بفاكهتِهِ رافعًا يَدَه إلى متى؟ إلى ما لا نهايةَ له، إذا كان على زوجتِه بَقِيَ عليها أبدَ الآبدين؛ لأنَّه يرى أنَّ الحركاتِ تَفْنَى والأعيانَ تَبْقَى، لماذا؟ «حَذَرًا مِنَ التَّسَلْسُلِ»؛ ولذا قال:

٥٥٧٥- قَالُـوا وَلَـوْلا ذَاكَ لَـمْ يَثْبُتْ لَنَـا رَبٌّ لأَجْـلِ تَسَلْسُـلِ الأَعْيَـانِ

يقولون: لو قلنا بتسلسُلِ الأعيانِ لم يكن فرقٌ بين الرَّبِّ وبين المخلوقِ؛ لأنَّ المخلوقَ يَبْقَى والرَّبُّ يَبْقَى أبدَ الآبدين، فلو قلنا بالتَّسلسلِ لَزِمَ أن يكونَ الخالقُ والمخلوقُ شيئًا واحدًا.

٥٥٧٦- فَالقَـوْمُ إِمَّـا جَـاحِـدُونَ لِرَبِّهِـمْ أَوْ مُنْكِـرُونَ حَقَـائِقَ الإِيـمَانِ

وهؤلاء كما قال ابنُ القيِّم: إمَّا جاحدون لربِّهم، أو مُنكرون حقائقَ الإيمانِ؛ يعني: إن أقرُّوا بالله ولكنِ استمرُّوا على هذا القولِ فهم مُنكِرون لحقائقِ الإيمانِ؛ لأنَّ هناك فرقًا بين التَّسلسلِ الذي هو من فِعلِ الله عزَّ وجلَّ وبين دَوامِ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ، فالرَّبُّ باقٍ بنفسِهِ واجبُ البَقاءِ بنفسِهِ، وهذه الأشياءُ متسلسةٌ بفعلِ الله عزَّ وجلَّ، لو شاء لأفناها، ثُمَّ إنَّ تسلسُلَها أيضًا يَخْلُفُ بعضُها بعضًا عَيْنًا، الثَّمرةُ إذا أُخِذَت جاء بدلَهَا ثمرةٌ وإن كانت الأعيانُ مثل البشرِ والحورِ وما أشبه ذلك باقيةً، لكنَّها باقيةٌ ببقاءِ الله بقاءً جائزًا عقلًا وواجبًا شرعًا، واجبًا شرعًا؛ لأنَّه يجبُ أن نؤمنَ ببقائِها، وأمَّا عقلًا فإنَّه يمكنُ أنَّ اللهَ يُهْلِكُهَا.

ونحن نقولُ: ماذا تقولون في الزَّمانِ: أمتسلسلٌ هو أم لا؟ سيقولون: متسلسلٌ بلا شكٍّ، مَنْ خَلَقَ الزَّمانَ؟ اللهُ عزَّ وجلَّ، إِذَنْ يلزمُ من هذا أنَّ التَّسلسلَ غيرُ ممنوعٍ، لكن نعلمُ أنَّ الزَّمنَ ليس موجودًا فيما قبله، فاللهُ أَحْدَثَ الزَّمنَ وَأَبْقَى الزَّمنَ، ولكنَّ اللهَ لم يزل موجودًا، ولا يزالُ موجودًا، «**هُوَ الأَوَّلُ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، وَالآخِرُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ**».

واعلم أنَّ مثلَ هذه الأبحاثِ لا طائلَ تحتها، ولا فائدةَ منها، والجهلُ بها خيرٌ من العلمِ بها، لكن اضطرَّ شيخُ الإسلامِ وابنُ القيِّمِ وغيرُهما من أهلِ العلمِ

إلى البحثِ فيها؛ لأنَّهم دخلوا فيها بالقوَّةِ حيث إنَّ الفلاسفةَ والمتكلِّمين وأهلَ المنطقِ ألجؤوهم إلى الدُّخولِ فيها، وكان دخولُهم فيها واجبًا؛ لئلَّا يكونَ المكانُ خاليًا لهؤلاء الجُهَّالِ من الفلاسفةِ والمناطقةِ، فلابُدَّ أن ندخلَ معهم، وأن نخوضَ المعركةَ، وإلَّا لا يمكنُ أن تجدَ حرفًا واحدًا عن الصَّحابةِ أنَّهم سألوا الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- هذا السُّؤالَ: هل الحوادثُ متسلسلةٌ أو لا؟ إنَّما يأخُذون القُرآنَ على حسَبِ ظاهرِهِ وكما يليق بالمتكلِّم به سبحانه وتعالى.

* * *

فصل

فِي ذَبْحِ المَوْتِ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَالرَّدِّ عَلَى مَنْ قَالَ: إنَّ الذَّبْحَ لِمَلَكِ المَوْتِ، أَوْ إِنَّ ذَلِكَ مَجَازٌ لا حَقِيقَةَ لَهُ

٥٥٧٧- أَوَمَا سَمِعْتَ بِذَبْحِهِ لِلمَوْتِ بَيْـ ـنَ المَنْزِلَيْنِ كَذَبْحِ كَبْشِ الضَّانِ

٥٥٧٨- حَاشَا لِذَا المَلِكِ الكَرِيمِ وَإِنَّمَا هُوَ مَوْتُنَا المَحْتُومُ لِلإِنْسَانِ

٥٥٧٩- وَاللهُ يُنْشِئُ مِنْهُ كَبْشًا أَمْلَحًا يَوْمَ المَعَادِ يَرَى لَنَا بِعِيَانِ

٥٥٨٠- يُنْشِي مِنَ الأَعْرَاضِ أَجْسَامًا كَذَا بِالعَكْسِ كُلٌّ قَابِلُ الإِمْكَانِ

٥٥٨١- أَفَمَا تُصَدِّقُ أَنَّ أَعْمَالَ العِبَا دِ تُحَطُّ يَوْمَ العَرْضِ فِي المِيزَانِ

٥٥٨٢- وَلِذَاكَ تَثْقُلُ تَارَةً وَتَخِفُّ أُخْـ ـرَى ذَاكَ فِي القُرْآنِ ذُو تِبْيَانِ

٥٥٨٣- وَلَهُ لِسَانٌ كِفَّتَاهُ تُقِيمُهُ وَالكِفَّتَانِ إِلَيْهِ نَاظِرَتَانِ

٥٥٨٤- مَا ذَاكَ أَمْرًا مَعْنَوِيًّا بَلْ هُوَ الـ ـمَحْسُوسُ حَقًّا عِنْدَ ذِي الإِيمَانِ

٥٥٨٥- أَوَمَا سَمِعْتَ بِأَنَّ تَسْبِيحَ العِبَا دِ وَذِكْرَهُمْ وَقِرَاءَةَ القُرْآنِ

٥٥٨٦- يُنْشِيهِ رَبُّ العَرْشِ فِي صُوَرٍ تُجَا دِلُ عَنْهُ يَوْمَ قِيَامَةِ الأَبْدَانِ

٥٥٨٧- أَوَمَا سَمِعْتَ بِأَنَّ ذَلِكَ حَوْلَ عَرْ شِ الرَّبِّ ذُو صَوْتٍ وَذُو دَوَرَانِ

٥٥٨٨- يَشْفَعْنَ عِنْدَ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ وَيُذَكِّرُونَ بِصَاحِبِ الإِحْسَانِ

٥٥٨٩- أَوَمَا سَمِعْتَ بِأَنَّ ذَلِكَ مُؤْنِسٌ ... فِي القَبْرِ لِلمَلْفُوفِ فِي الأَكْفَانِ

٥٥٩٠- فِي صُورَةِ الرَّجُلِ الجَمِيلِ الوَجْهِ فِي ... سِنِّ الشَّبَابِ كَأَجْمَلِ الشُّبَّانِ

٥٥٩١- أَوَمَا سَمِعْتَ بِأَنَّ مَا تَتْلُوهُ فِي ... أَيَّامِ هَذَا العُمْرِ مِنْ قُرْآنِ

٥٥٩٢- يَأْتِي يُجَادِلُ عَنْكَ يَوْمَ الحَشْرِ لِلرْ ... رَحْمَنِ كَيْ يُنْجِيكَ مِنْ نِيرَانِ

٥٥٩٣- فِي صُورَةِ الرَّجُلِ الَّذِي هُوَ شَاحِبٌ ... يَا حَبَّذَا ذَاكَ الشَّفِيعُ الدَّانِي

الشرحُ

في هذا الفصلِ بَيَّنَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- أنَّه «يُؤْتَى بِالمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُوْنَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُوْنَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ فَلا مَوْتَ»(١).

قولُهم: «هَذَا المَوْتُ»؛ يعنون: هذا الذي جِيء به على صورةِ كبشٍ أبيضَ، وليس هو مَلَكَ الموتِ، مَلَكُ الموتِ مَلَكٌ من الملائكةِ الكرام، وإنَّما هو الموتُ نفسُه، والمؤلِّفُ -رحمه اللهُ- يقولُ: وَالرَّد عَلَى مَنْ قَالَ: «إِنَّ الذَّبْحَ لِمَلَكِ المَوْتِ وأَنَّ ذَاكَ مَجَازٌ»؛ أي: إنَّ إطلاقَ الموتِ عليهِ مجازٌ عن مَلَكِ الموتِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ [مريم:٣٩]، رقم (٤٤٥٣)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٤٩).

٥٥٧٧- أَوَمَا سَمِعْتَ بِذَبْحِهِ لِلمَـوْتِ بَيْـ ـنَ الـمَنْزِلَيْنِ كَذَبْحِ كَبْشِ الضَّـانِ

قَوْلُهُ: «المَنْزِلَيْنِ»؛ أي: منزلِ أهلِ الجَنَّةِ ومنزلِ أهلِ النَّارِ.

٥٥٧٨- حَاشَا لِذَا الـمَلِكِ الكَـرِيمِ وَإِنَّـمَا هُـوَ مَوْتُنَـا المَحْتُـومُ لِلإِنْسَـانِ

يعني: أُنَزِّهُ أن يكونَ الذَّبحُ لِلْمَلَكِ نفسِه، وإنَّما هو للموتِ المحتومِ.

٥٥٧٩- وَاللهُ يُنْشِـئُ مِنْـهُ كَبْشًـا أَمْلَحًـا يَـوْمَ الـمَعَادِ يَـرَى لَنَـا بِعِيَـانِ

قَوْلُهُ: «وَاللهُ يُنْشِئُ مِنْهُ كَبْشًا أَمْلَحًا» «أَمْلَحًا» بالصَّرفِ والتَّنوينِ من أجلِ ضَرورةِ الشِّعرِ، وإلَّا لو لم يكن ضرورةٌ لكان الصَّوابُ أن يُقَالَ: «أَمْلَحَ»، وقد قال ابنُ مالكٍ رحمه اللهُ:

وَلاضْـطِرَارٍ أَوْ تَنَاسُـبٍ صُرِفْ ذُو المَنْعِ وَالمَصْرُوفُ قَدْ لا يَنْصَرِفْ[1]

٥٥٨٠- يُنْشِي مِنَ الأَعْرَاضِ أَجْسَامًا كَـذَا بِـالعَكْسِ كُـلٌّ قَابِـلُ الإِمْكَـانِ

قَوْلُهُ: «يُنْشِي مِنَ الأَعْرَاضِ أَجْسَامًا كَذَا بِالعَكْسِ»؛ يعني: اللهُ عزَّ وجلَّ يُنشئ من الأعراضِ أجسامًا كذا بالعكسِ؛ بحيث يجعلُ الأجسامَ أعراضًا.

قَوْلُهُ: «كُلٌّ قَابِلُ الإِمْكَانِ»؛ يعني: أنَّ قلبَ الأعيانِ إلى أعراضٍ، والأعراضِ إلى أعيانٍ أمرٌ ممكنٌ قابلُ الإمكانِ؛ لأنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قديرٌ.

ثُمَّ أتى بشواهدَ فقال:

٥٥٨١- أَفَـمَا تُصَـدِّقُ أَنَّ أَعْـمَالَ العِبَـا دِ تُحَطُّ يَـوْمَ العَـرْضِ في الـمِيزَانِ

(١) انظر: شرح ابن عقيل (٣/ ٣٣٨).

الجوابُ: بلى، نُصَدِّقُ، والأدلَّةُ على هذا كثيرةٌ، وأمَّا المعتزلةُ فأنكروا الميزانَ الحسِّيَّ يوم القيامةِ، وقالوا: لا يُوجَدُ ميزانٌ، كيف تُوْزَنُ الأعمالُ وهي أعمالٌ ومعانٍ انتهت في الدُّنيا؟! وقالوا: إنَّ المرادَ بالميزانِ هو العدلُ، فلا ميزان له كِفَّتانِ، ولكنَّ هذا من تحريفِهِم والعياذُ بالله؛ لأنَّ النُّصوصَ واضحةٌ جليَّةٌ في أنَّ الأعمالَ تُوزَنُ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزَّلزلة:٧-٨]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ»(١).

٥٥٨٢- وَلِذَاكَ تَثْقُلُ تَارَةً وَتَخِفُّ أُخْـ ... ـرَى ذَاكَ فِي القُرْآنِ ذُو تِبْيَانِ

وذلك كما في قولِهِ سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة:٦- ٩].

٥٥٨٣- وَلَهُ لِسَانٌ كِفَّتَاهُ تُقِيمُهُ ... وَالكِفَّتَانِ إِلَيْهِ نَاظِرَتَانِ

الميزانُ الذي يكونُ يومَ القيامةِ له كِفَّتَان تقيمُه، وله لسانٌ أيضًا، وهل للموازينِ ألسنةٌ؟ الجوابُ: نعم، أرأيتم الميزانَ سابقًا؟! الميزانُ سابقًا عبارةٌ عن

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ [الأنبياء:٤٧] وأن أعمال بني آدم وقولهم يوزن، رقم (٧١٢٤)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٤).

حديدةٍ ممدودةٍ، وفي وسطِها حديدةٌ مركوزةٌ، هذه الحديدةُ المركوزةُ مُثبَّتةٌ بمسمارٍ كالقوسِ على هذه الحديدةِ المنصوبةِ القائمةِ، والكِفَّتان عن يمينٍ وشمالٍ، إذا رجحت إحداهُما مالَ اللِّسانُ؛ أي: ظَهَرَ اللِّسانُ إليها، وإذا خَفَّتْ إحدهما خرج اللِّسانُ منها، هذا الميزانُ سابقًا، وهو الآن معروفٌ.

٥٥٨٤- مَا ذَاكَ أَمْـرًا مَعْنَوِيًّـا بَـلْ هُـوَ الـ ـمَحْسُوسُ حَقًّا عِنْـدَ ذِي الإِيـمَانِ

هذا ردٌّ على المعتزلةِ الذين قالوا: إنَّ الوزنَ يومَ القيامةِ ليس محسوسًا؛ ولكنَّ المرادَ به: إقامةُ العدلِ، فهو عندهم أمرٌ معنويٌّ؛ ولذا قال: «**مَا ذَاكَ أَمْرًا مَعْنَوِيًّا**»؛ أي: «**ما الوزنُ أمرًا معنويًّا، بَلْ هُوَ المَحْسُوْسُ حَقًّا عِنْدَ ذِي الإِيْمَانِ**»؛ أي: إنَّه ميزانٌ حِسِّيٌّ تُوْزَنُ به الأعمالُ، وإذا كانت تُوْزَنُ به الأعمالُ وهو حسِّيٌّ لَزِمَ أن يكونَ الموزونُ كذلك حِسِّيًّا عَيْنًا يرجحُ تارةً ويَخِفُّ أخرى.

٥٥٨٥- أَوَمَـا سَـمِعْتَ بِـأَنَّ تَسْبِيحَ العِبَـا دِ وَذِكْـــرَهُمْ وَقِـــرَاءَةَ القُـــرْآنِ

٥٥٨٦- يُنْشِيهِ رَبُّ العَـرْشِ فِي صُـوَرٍ تُجَـا دِلُ عَنْـــهُ يَـــوْمَ قِيَامَـــةِ الأَبْـــدَانِ

الجوابُ: بلى.

٥٥٨٧- أَوَمَا سَمِعْتَ بِأَنَّ ذَلِكَ حَـوْلَ عَـرْ شِ الـرَّبِّ ذُو صَـوْتٍ وَذُو دَوَرَانِ

التَّسبيحُ يدورُ حولَ عرشِ الرَّحمنِ عزَّ وجلَّ، وله صوتٌ.

٥٥٨٨- يَشْفَعْنَ عِنْـدَ الـرَّبِّ جَـلَّ جَلالُـهُ وَيُـذَكِّرُونَ بِصَـاحِبِ الإِحْسَـانِ

أي: يُذَكِّرون أنَّه فلانُ بنُ فلانٍ، وأنَّ هذا الذِّكرَ جاء منه.

٥٥٨٩- أَوَمَا سَـمِعْتَ بِـأَنَّ ذَلِـكَ مُـؤْنِسٌ فِي القَـبْرِ لِلمَلْفُـوفِ فِي الأَكْفَـانِ

٥٥٩٠- فِي صُورَةِ الرَّجُلِ الجَمِيلِ الوَجْهِ فِي ... سِنِّ الشَّبَابِ كَأَجْمَلِ الشُّبَّانِ

يعني: العملُ الصَّالحُ يأتي إلى الرَّجلِ إذا دُفِنَ يُؤنسُه، ويكونُ في صورةِ الرَّجُلِ الجميلِ الوجهِ في سنِّ الشَّبابِ كأجملِ الشُّبَّان؛ لأجلِ أن يُؤَنِّسَه، ويقولُ لَهُ: «مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيْءُ بِالخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ»(١).

٥٥٩١- أَوَمَا سَمِعْتَ بِأَنَّ مَا تَتْلُوهُ فِي ... أَيَّامِ هَذَا العُمْرِ مِنْ قُرْآنِ

٥٥٩٢- يَأْتِي يُجَادِلُ عَنْكَ يَوْمَ الحَشْرِ لِلرْ ... رَحْمَنِ كَيْ يُنْجِيكَ مِنْ نِيرَانِ

٥٥٩٣- فِي صُورَةِ الرَّجُلِ الَّذِي هُوَ شَاحِبٌ ... يَا حَبَّذَا ذَاكَ الشَّفِيعُ الدَّانِي

هذا أيضًا جاءَتْ به السُّنَّةُ: أنَّ القرآنَ «يَأْتِي شَافِعًا لأَصْحَابِهِ»(٢).

* * *

٥٥٩٤- أَوَمَا سَمِعْتَ حَدِيثَ صِدْقٍ قَدْ أَتَى ... فِي سُورَتَيْنِ مِنْ أَوَّلِ القُرْآنِ

٥٥٩٥- فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍّ بَيْنَهَا ... شَرْقٌ وَمِنْهُ الضَّوْءُ ذُو تِبْيَانِ

٥٥٩٦- شَبَّهُهُمَا بِغَمَامَتَيْنِ وَإِنْ تَشَأْ ... بِغَيَايَتَيْنِ هُمَا لِذَا مِثْلَانِ

٥٥٩٧- هَذَا مِثَالُ الأَجْرِ وَهْوَ فِعَالُنَا ... كَتِلَاوَةِ القُرْآنِ بِالإِحْسَانِ

٥٥٩٨- فَالمَوْتُ يُنْشِيهِ لَنَا فِي صُورَةٍ ... خَلَّاقَةٍ حَتَّى يُرَى بِعِيَانِ

٥٥٩٩- وَالمَوْتُ مَخْلُوقٌ بِنَصِّ الوَحْيِ وَالْـ ... ـمَخْلُوقُ يَقْبَلُ سَائِرَ الأَلْوَانِ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن، وسورة البقرة، رقم (٨٠٤).

٥٦٠٠- فِي نَفْسِهِ وَبِنَشْأَةٍ أُخْرَى بِقُدْ   رَةِ قَالِبِ الأَعْرَاضِ وَالأَلْوَانِ

الشرحُ

٥٥٩٤- أَوَمَا سَمِعْتَ حَدِيثَ صِدْقٍ قَدْ أَتَى   فِي سُورَتَيْنِ مِنْ اَوَّلِ القُرْآنِ

وهما: البقرةُ، وآلُ عمران.

٥٥٩٥- فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍّ بَيْنَهَا   شَرْقٌ وَمِنْهُ الضَّوْءُ ذُو تِبْيَانِ

٥٥٩٦- شَبَّهَهُمَا بِغَمَامَتَيْنِ وَإِنْ تَشَأْ   بِغَيَايَتَيْنِ هُمَا لِذَا مِثْلانِ

٥٥٩٧- هَذَا مِثَالُ الأَجْرِ ....

فالمؤلِّفُ -رحمه اللهُ- بَيَّنَ أنَّ الذي يأتي يوم القيامةِ كأنَّهما غمامتان أو غيايتان إنَّما هو أجرُهما، وليست «البقرة» و«آل عمران»؛ لأنَّ البقرةَ وآلَ عمرانَ كلامُ الله عزَّ وجلَّ، وهو غيرُ مخلوقٍ، وإنَّما المرادُ بذلك الأجرُ، يأتي يومَ القيامةِ «كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ[١] أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ[٢] مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍّ[٣] يُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا»[٤].

٥٥٩٧- .... وَهُوَ فِعَالُنَا   كَتِلاوَةِ القُرْآنِ بِالإِحْسَانِ

يعني: كما أنَّ التِّلاوةَ فعلُنا فما نراه يومَ القيامةِ هو الأجرُ، واعلم أنَّ القراءةَ

---

(١) الغَيَايَة: كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه كالسّحابة وغيرها. انظر: النهاية: غيا.
(٢) أي قِطعتان. انظر: النهاية: فرق.
(٣) أي بَاسِطَاتٍ أَجْنِحَتَهَا في الطَّيَران، والصَّوَافُّ: جَمْعُ صَافَّة. انظر: النهاية: صفف.
(٤) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن، وسورة البقرة، رقم (٨٠٤).

تشتمِلُ على مقروءٍ وقِراءةٍ؛ فأمَّا المقروءُ -وأعني بذلك: القرآنَ- فهو غيرُ مخلوقٍ، وأمَّا القراءةُ فهي مخلوقةٌ؛ لأنَّ القراءةَ صوتُ القارئِ وفعلُه، بالحركاتِ تظهرُ الأصواتُ، والصَّوتُ فِعْلُ الإنسانِ، فيجبُ أن نعرفَ الفرقَ بين اللَّفظِ والملفوظِ، وبين القولِ والمقولِ، وبين القراءةِ والمقروءِ، فما كان وصفًا لنا فهو مخلوقٌ، وما كان من كلامِ الله فهو غيرُ مخلوقٍ، وهذا واضحٌ، والحمدُ لله.

٥٥٩٨- فَالمَوْتُ يُنْشِيهِ لَنَا فِي صُورَةٍ ... خَلَّاقَةٍ حَتَّى يُرَى بِعِيَانِ

٥٥٩٩- وَالمَوْتُ مَخْلُوقٌ بِنَصِّ الوَحْيِ وَالـ ... ـمَخْلُوقُ يَقْبَلُ سَائِرَ الأَلْوَانِ

٥٦٠٠- فِي نَفْسِهِ وَبِنَشْأَةٍ أُخْرَى بِقُدْ ... رَةِ قَالِبِ الأَعْرَاضِ وَالأَلْوَانِ

قَوْلُهُ: «وَالمَخْلُوقُ يَقْبَلُ سَائِرَ الأَلْوَانِ» «الأَلْوَانِ»؛ يعني: الأصنافَ والأنواعَ؛ يعني: يقبلُ أن يكونَ كبشًا، وأن يكونَ جبلًا، وأن يكونَ أيَّ شيءٍ أراده اللهُ عزَّ وجلَّ، فالألوانُ هنا ليست اللَّونَ الأصفرَ أو الأحمرَ أو الأسودَ، لا، بل الألوانُ: الأصنافُ، ومنه قولُ الإمامِ أحمدَ -رحمه اللهُ- فيما رُوِيَ عن الصَّحابةِ من قيامِ اللَّيلِ، قال: «رُوِيَ فِي ذَلِكَ أَلْوَانٌ»؛ يعني: أنواعًا.

* * *

٥٦٠١- أَوَمَا سَمِعْتَ بِقَلْبِهِ سُبْحَانَهُ الـ ... أَعْيَانَ مِنْ لَوْنٍ إِلَى أَلْوَانِ

٥٦٠٢- وَكَذَلِكَ الأَعْرَاضُ يَقْلِبُ رَبُّهَا ... أَعْيَانَهَا وَالكُلُّ ذُو إِمْكَانِ

٥٦٠٣- لَمْ يَفْهَمِ الجُهَّالُ هَذَا كُلَّهُ ... فَأَتَوْا بِتَأْوِيلاتِ ذِي البُطْلانِ

٥٦٠٤- فَمُكَذِّبٌ وَمُؤَوِّلٌ وَمُحَيَّرٌ ... مَا ذَاقَ طَعْمَ حَلاوَةِ الإِيمَانِ

٥٦٠٥- لَـمَّا فَسَا الـجُهَّالُ فِي آذَانِـهِ ... أَعْمَـوْهُ دُونَ تَـدَبُّرِ القُـرْآنِ

٥٦٠٦- فَثَنَـى لَنَـا العِطْفَـيْنِ مِنْـهُ تَكَـبُّرًا ... وَتَبَخْـتُرًا فِي حُلَّـةِ الـهَذَيَانِ

٥٦٠٧- إِنْ قُلْـتَ قَـالَ اللهُ قَـالَ رَسُـولُهُ ... فَيَقُـولُ جَهْـلًا أَيْـنَ قَـوْلُ فُـلانِ

الشرحُ

٥٦٠١- أَوَمَا سَـمِعْتَ بِقَلْبِـهِ سُـبْحَانَهُ الـ ... أَعْيَـانَ مِـنْ لَـوْنٍ إِلَى أَلْـوَانِ

٥٦٠٢- وَكَـذَلِكَ الأَعْـرَاضُ يَقْلِـبُ رَبُّـهَا ... أَعْيَانَهَـا وَالكُـلُّ ذُو إِمْكَـانِ

بَيَّنَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- أنَّ الذي يُذْبَحُ هو الموتُ نفسُه، وأنَّ ذلك ليس بغريبٍ على قدرةِ الله، فإنَّ اللهَ تعالى يقلبُ الأعمالَ «المعانيَ» أجسامًا، كما أنَّه رُبَّما يجعلُ الأعمالَ معانيَ فقط.

٥٦٠٣- لَـمْ يَفْهَـمِ الـجُهَّالُ هَـذَا كُلَّـهُ ... فَـأَتَوْا بِتَـأْوِيلاتِ ذِي الـبُطْلانِ

٥٦٠٤- فَمُكَـذِّبٌ وَمُـؤَوِّلٌ وَمُحَـيِّرٌ ... مَـا ذَاقَ طَعْـمَ حَـلاوَةِ الإِيـمَانِ

قَوْلُهُ: «مُؤَوِّلٌ» المرادُ بالتَّأويلِ: التَّحريفُ؛ لأنَّ التَّأويلَ نوعان: تأويلٌ حقٌّ؛ وهو: أن يُفَسَّرَ النَّصُّ بما يريدُه اللهُ ورسولُه، والثَّاني: تأويلٌ باطلٌ، وهذا تحريفٌ؛ ولهذا سَمَّى أهلُ التَّحريفِ أنفسَهم بالمؤَوِّلةِ، تلطيفًا لما هم عليه من التَّحريفِ، وإلَّا فحقيقةُ الأمرِ أنَّهم مُحَرِّفةٌ، فمن قال: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]؛ أي: استولى عليه، لا نقولُ: مؤوِّلٌ، بل نقولُ: هذا مُحَرِّفٌ، لاشكَّ في هذا، ومَنْ قال: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النَّحل:١]؛ أي: سيأتي، نقولُ: هذا مُؤَوِّلٌ؛ لأنَّ قولَه: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ يدلُّ على: أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿أَتَىٰٓ﴾: سيأتي، وكذلك إذا قال: ﴿فَإِذَا

قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [النحل:٩٨]؛ أي: إذا أردتَ أن تقرأ، نقولُ: هذا صحيحٌ؛ لأنَّ النَّبيَّ -صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم- إنَّما كان يتعوَّذُ إذا أراد أن يقرأ[1]، فصرفُ اللَّفظِ عن ظاهرِه إن دَلَّ عليه دليلٌ شرعيٌّ فهو تأويلٌ، وإن لم يَدُلَّ عليه دليلٌ فهو تحريفٌ، وإن سمَّاه أهلُه تأويلًا.

٥٦٠٥- لَـمَّا فَسَا الـجُهَّالُ في آذَانِـهِ ... أَعْمَـوْهُ دُونَ تَـدَبُّرِ القُـرْآنِ

٥٦٠٦- فَثَنَى لَنَا العِطْفَيْنِ مِنْهُ تَكَبُّرًا ... وَتَبَخْتُرًا في حُلَّةِ الـهَذَيَانِ

قَوْلُهُ: «لَـمَّا فَسَا الـجُهَّالُ في آذَانِهِ أَعْمَوْهُ»؛ يعني: أسمعوه، ولكنَّه جاء بهذه الصِّيغةِ تقبيحًا لها، فأسمعوه خلافَ الحقِّ فَعَمِيَ، والعياذُ بالله.

٥٦٠٧- إِنْ قُلْتَ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ ... فَيَقُولُ جَهْلًا أَيْنَ قَوْلُ فُلانِ

أعوذُ بالله، يريدُ أن يقارنَ قولَ فلانٍ بقولِ الله ورسولِه.

* * *

(١) لعله يعني حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال له: «إذا افتتحت الْقِرَاءَة فَقُل: أعوذ بِالله من الشَّيْطَان الرَّجِيم». ذكره السمعاني في تفسيره (٣/ ٢٠٠).

فصــل

في أَنَّ الجَنَّةَ قِيعَانٌ، وأَنَّ غِرَاسَهَا الكَلامُ الطَّيِّبُ والعَمَلُ الصَّالِحُ

٥٦٠٨- أَوَمَا سَمِعْتَ بِأَنَّهَا القِيعَانُ فَاغْـ ... ـرِسْ مَا تَشَاءُ بِذَا الزَّمَانِ الفَانِي

٥٦٠٩- وَغِرَاسُهَا التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَالتْـ ... ـتَحْمِيدُ وَالتَّوْحِيدُ لِلرَّحْمَنِ

٥٦١٠- تَبًّا لِتَارِكِ غَرْسِهِ مَاذَا الَّذِي ... قَدْ فَاتَهُ مِنْ مُدَّةِ الإِمْكَانِ

٥٦١١- يَا مَنْ يَقَرُّ بِذَا وَلا يَسْعَى لَهُ ... بِاللهِ قُلْ لِي كَيْفَ يَجْتَمِعَانِ

٥٦١٢- أَرَأَيْتَ لَوْ عَطَّلْتَ أَرْضَكَ مِنْ غِرَا ... سٍ مَا الَّذِي تَجْنِي مِنَ البُسْتَانِ

٥٦١٣- وَكَذَاكَ لَوْ عَطَّلْتَهَا مِنْ بَذْرِهَا ... تَرْجُو المُغَلَّ يَكُونُ كَالكِيمَانِ

٥٦١٤- مَا قَالَ رَبُّ العَالَمِينَ وَعَبْدُهُ ... هَذَا فَرَاجِعْ مُقْتَضَى القُرْآنِ

٥٦١٥- وَتَأَمَّلَ «البَاءَ» الَّتِي قَدْ عَيَّنَتْ ... سَبَبَ الفَلاحَ لِحِكْمَةِ الفُرْقَانِ

٥٦١٦- وَأَظُنُّ «بَاءَ» النَّفْيِ قَدْ غَرَّتْكَ فِي ... ذَاكَ الحَدِيثِ أَتَى بِهِ الشَّيْخَانِ

٥٦١٧- لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّاتِ أَصْلًا كَادِحٌ ... بِالسَّعْيِ مِنْهُ وَلَوْ عَلَى الأَجْفَانِ

٥٦١٨- وَاللهِ مَا بَيْنَ النُّصُوصِ تَعَارُضٌ ... وَالكُلُّ مَصْدَرُهَا عَنِ الرَّحْمَنِ

٥٦١٩- لَكِنَّ «بَا» الإِثْبَاتِ لِلتَّسْبِيبِ وَ«الـ ... ـبَاءُ» الَّتِي لِلنَّفْيِ بَا الأَثْمَانِ

٥٦٢٠- وَالفَرْقُ بَيْنَهُمَا فَفَرْقٌ ظَاهِرٌ ... يَدْرِيهِ ذُو حَظٍّ مِنَ العِرْفَانِ

الشـرحُ

٥٦٠٨- أَوَمَا سَمِعْتَ بِأَنَّهَا القِيعَانُ فَاغْـ ـرِسْ مَا تَشَاءُ بِذَا الزَّمَانِ الفَانِي

٥٦٠٩- وَغِرَاسُهَا التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَالتْـ ـتَحْمِيدُ وَالتَّوْحِيدُ لِلرَّحْمَنِ

ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ تعالى- أنَّ الجَنَّةَ قيعانٌ[1]؛ يعني: خاليةً من النَّباتِ، وأنَّ غراسَها التَّسبيحُ والتَّكبيرُ والتَّحميدُ والتَّهليلُ، والتَّسبيحُ قولُ: «**سُبْحَانَ الله**»، والتَّكبيرُ قولُ: «**اللهُ أكبرُ**»، والتَّحميدُ قولُ: «**الحمدُ لله**»، والتَّوحيدُ قولُ: «**لَا إلهَ إلَّا اللهُ**»، وقد جاءت هذه الأربعُ مجموعةً في أحد أنواعِ الأذكارِ بعد الصَّلاةِ، فإنَّ من أنواعِه أن يقولَ: (**سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبرُ**).

٥٦١٠- تَبًّا لِتَارِكِ غَرْسِهِ مَاذَا الَّذِي قَدْ فَاتَهُ مِنْ مُدَّةِ الإِمْكَانِ

٥٦١١- يَا مَنْ يَقَرُّ بِذَا وَلا يَسْعَى لَهُ بِاللهِ قُلْ لِي كَيْفَ يَجْتَمِعَانِ

يعني: كيف يجتمعُ أن تُقِرَّ بأنَّ الجَنَّةَ قيعانٌ وأنَّ غراسَها العملُ الصَّالحُ، ثُمَّ لا تسعى لهذا؟! هل هذا ممكنٌ؟

الجوابُ: لا؛ لأنَّ مَنْ أقرَّ بهذا، وأنَّ الجَنَّةَ قيعانٌ، وأنَّها تحتاجُ لعملٍ صالحٍ يُغْرَسُ فيها، فلابُدَّ أن يغرسَ العملَ الصَّالحَ، فإذا كنت مُقِرًّا بهذا ولا تسعى له، فإنَّ عدمَ سعيِك يُكَذِّبُ إقرارَك، فالإنسانُ إذا أقرَّ بهذا وآمَنَ به فلماذا لا يسعى؟!

---

(١) كما في حديث ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ المَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ**». أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، بعد باب ما جاء في فضل التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد، رقم (٣٤٦٢).

ثُمَّ ضَرَبَ مَثَلَيْنِ فقال:

٥٦١٢- أَرَأَيْتَ لَوْ عَطَّلْتَ أَرْضَكَ مِنْ غِرَا　　سٍ مَا الَّذِي تَجْنِي مِنَ البُسْتَانِ

٥٦١٣- وَكَذَاكَ لَوْ عَطَّلْتَهَا مِنْ بَذْرِهَا　　تَرْجُو المُغَلَّ يَكُونُ كَالكِيمَانِ

هذان مَثَلَانِ؛ الأَوَّلُ: «**لَوْ عَطَّلْتَ أَرْضَكَ مِنْ غِرَاسٍ مَا الَّذِي تَجْنِي مِنَ البُسْتَانِ**»؟ الجوابُ: لا شيء.

الثَّاني: أو «**عَطَّلْتَهَا مِنْ بَذْرِهَا تَرْجُو المُغَلَّ يَكُونُ كَالكِيمَانِ**»؟ الجوابُ: لا يمكنُ، كيف ترجو أن يكونَ الزَّرعُ كالكيمانِ؛ يعني: أكوامًا كثيرةً وأنت لم تبذرْ؟!

٥٦١٤- مَا قَالَ رَبُّ العَالَمِينَ وَعَبْدُهُ　　هَذَا فَرَاجِعْ مُقْتَضَى القُرْآنِ

قَوْلُهُ: «**مَا قَالَ رَبُّ العَالَمِينَ وَعَبْدُهُ هَذَا**»؛ يعني: أَنَّك تُعَطِّلُ، وتتركُ العملَ وتفوزُ بالجنَّةِ، فَرَاجِعْ مُقْتَضَى الإِيْمَانِ.

٥٦١٥- وَتَأَمَّلَ «البَاءَ» الَّتِي قَدْ عَيَّنَتْ　　سَبَبَ الفَلاحَ لِحِكْمَةِ الفُرْقَانِ

٥٦١٦- وَأَظُنُّ «بَاءَ» النَّفْيِ قَدْ غَرَّتْكَ فِي　　ذَاكَ الحَدِيثِ أَتَى بِهِ الشَّيْخَانِ

في القرآنِ الكريمِ آياتٌ متعدِّدَةٌ؛ منها قولُه تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النَّحل:٣٢] وقولُه تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السَّجدة:١٤]، وما أشبه ذلك من الآياتِ، فَأَثْبَتَتْ أنَّ العملَ يَدْخُلُ الإنسانُ به الجَنَّةَ، ثُمَّ ثَبَتَ عن النَّبيِّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- فيما رواه الشَّيخان أنَّه قال: «**لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمْ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**»، فَقِيلَ لَهُ: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ**

مِنْهُ وَفَضْلٍ»(١)، فالمهملُ قال: إِذَنْ لا أعملُ ما دام العملُ لا يدخلُني الجنَّةَ، وإنَّما الذي يُدْخلُني رحمةُ الله، إِذَنْ لا أعملُ؛ ولهذا قال: «**وَأَظُنَّ «بَاءَ» النَّفْيِ قَدْ غَرَّتْكَ فِي ذَاكَ الحَدِيثِ أَتَى بِهِ الشَّيْخَانِ**»

ما هي «باءُ» النَّفي؟

الجوابُ: هي الموجودةُ في قولِه: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمْ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»، فغرَّتْهُ، وقال: لا أعملُ، ما دام الأمرُ راجعًا إلى مغفرةِ الله ورحمتِه فلا حاجةَ إلى العمل، ثُمَّ قال مبيِّنًا وموضِّحًا:

٥٦١٧- لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّاتِ أَصْلًا كَادِحٌ ... بِالسَّعْيِ مِنْهُ وَلَوْ عَلَى الأَجْفَانِ

هذا النَّصُّ الذي جاء به الحديثُ: أَنَّهُ «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ أَحَدٌ بَعَمَلِهِ».

٥٦١٨- وَالله مَا بَيْنَ النُّصُوصِ تَعَارُضٌ ... وَالكُلُّ مَصْدَرُهَا عَنِ الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «**وَالكُلُّ مَصْدَرُهَا عَنِ الرَّحْمَنِ**» هذه الجملة يحتملُ أن تكونَ حاليَّةً؛ يعني: ليس فيها تعارضٌ، والحالُ أنَّها صادرةٌ من الله؛ لقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النِّساء:٨٢]، ويحتملُ أنَّها استئنافيَّةٌ؛ يعني: وإذا كان مصدرُها من الرَّحمنِ فإنَّها لن تتعارضَ.

٥٦١٩- لَكِنَّ «بَا» الإِثْبَاتِ لِلتَّسْبِيبِ وَ«الـ ... ـبَاءُ» الَّتِي لِلنَّفْيِ بَا الأَثْمَانِ

٥٦٢٠- وَالفَرْقُ بَيْنَهُمَا فَفَرْقٌ ظَاهِرٌ ... يَدْرِيهِ ذُو حَظٍّ مِنَ العِرْفَانِ

«باءُ» الإثباتِ في قولِه تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السَّجدة:١٧] للتَّسبيبِ؛

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، رقم (٦٠٩٨)، ومسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، رقم (٢٨١٦).

يعني: أنَّها باءُ السَّبَبِيَّةِ، و«**لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ**» للأثمانِ؛ يعني: لن يكونَ العملُ ثمنًا لدخولِ الجنَّةِ؛ ولهذا يسمُّونها «**باء**» العِوَضِ.

إِذَنْ الإثباتُ للسَّببِ والنَّفيُ للعوضِ، وحينئذٍ لا تعارضَ، إِذَنْ الدُّخولُ ليس عِوَضًا عن العملِ، ولكن دخولُ الجنَّةِ بسببِ العملِ، كما لو أنَّ إنسانًا قال: «**أنا أعطيكَ جائزةً قدرُها مئةُ ألفٍ إذا كَتَبْتَ لي هذه الورقةَ**»، ومعلومٌ أنَّ مئةَ الألفِ لا تقابلُ كتابةَ الورقةِ، لكن هو جعل ذلك سببًا؛ أي: إنَّك إذا كَتَبْتَ هذه الورقةَ فقد امْتَثَلْتَ أمري ورَجَوْتَ ثوابي، فأنا أعطيك هذا الثَّوابَ، وفرقٌ بين المعنيين.

***

فصــل

في إقَامَةِ المَآتِمِ عَلَى المُتَخَلِّفِينَ عَنْ رُفْقَةِ السَّابِقِينَ

٥٦٢١- بِـالله مَـا عُـذْرُ امْـرِئٍ هُـوَ مُـؤْمِنٌ ... حَقًّـا بِهَـذَا لَـيْسَ بِاليَقْظَـانِ

٥٦٢٢- بَـلْ قَلْبُـهُ فِي رَقْـدَةٍ فَـإِذَا اسْـتَفَا ... قَ فَلُبْسُـهُ هُـوَ حُلَّـةُ الكَسْـلانِ

٥٦٢٣- تَـالله لَـوْ شَـاقَتْكَ جَنَّـاتُ النَّعِيـ ... ـمِ طَلَبْتَهَـا بِنَفَـائِسِ الأَثْـمَانِ

٥٦٢٤- وَسَعَيْتَ جُهْدَكَ فِي وِصَالِ نَـوَاعِمٍ ... وَكَوَاعِبٍ بِـيضِ الوُجُـوهِ حِسَـانِ

٥٦٢٥- جُلِيَـتْ عَلَيْـكَ عَـرَائِسٌ واللهِ لَـوْ ... تُـجْلَى عَـلَى صَـخْرٍ مِـنَ الصَّـوَّانِ

٥٦٢٦- رَقَّـتْ حَوَاشِـيهِ وَعَـادَ لِوَقْتِـهِ ... يَنْهَـالُ مِثْـلَ نَقًـى مِـنَ الكُثْبَـانِ

٥٦٢٧- لَكِنَّ قَلْبَكَ فِي القَسَـاوَةِ جَـازَ حَـدْ ... دَ الصَّخْرِ وَالـحَصْبَاءِ فِي أَشْجَانِ

٥٦٢٨- لَوْ هَزَّكَ الشَّـوْقُ المُقِـيمُ وَكُنْـتَ ذَا ... حِـسٍّ لَـمَا اسْـتَبْدَلْتَ بِـالأَدْوَانِ

٥٦٢٩- أَوْ صَادَفَتْ مِنْكَ الصِّفَاتُ حَيَاةَ قَلْـ ... ـبٍ كُنْتَ ذَا طَلَـبٍ لِـهَذَا الشَّـانِ

٥٦٣٠- خَـوْدٌ تُـزَفُّ إِلَى ضَرِيـرٍ مُقْعَـدٍ ... يَـا مِحْنَـةَ الـحَسْنَاءِ بِالعُمْيَـانِ

٥٦٣١- شَـمْسٌ لِعِنِّـينٍ تُـزَفُّ إِلَيْـهِ مَـا ... ذَا حِيلَـةُ العِنِّـينِ فِي الغِشْـيَانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلٌ فِي إِقَامَةِ الـمَآتِمِ عَلَى الـمُتَخَلِّفِينَ عَنْ رِفْقَةِ السَّابِقِينَ» ليس معنى

ذلك أنَّه جائزٌ أن يُقِيمَ الإنسانُ المآتمَ عند الأحزانِ، لكن هذا بيانٌ للواقعِ أنَّ النَّاسَ عند الأحزانِ يُقِيْمُونَ المآتمَ، لكن شرعًا لا؛ لأنَّ الواجبَ الصَّبرُ وعدمُ إظهارِ ما يدلُّ على التَّسخُّطِ.

قَوْلُهُ: «**وَاللهِ لَوْ تُجْلَى عَلَى صَخْرٍ مِنَ الصَّوَّانِ رَقَّتْ حَوَاشِيهِ** ..» هذا من المبالغةِ من الشَّيخِ رحمه الله، يقولُ: لو أنَّ هذه الحورَ زُفَّتْ إلى صخرٍ من الصَّوَّانِ «**الحجرُ الصَّلبُ**»، لَرَقَّتْ حواشيه؛ يعني: صارت رقيقةً مثل الرَّمْلِ، ولكنَّ هذا من بابِ المبالغةِ في ضربِ الأمثالِ حتَّى يعرفَ الإنسانُ موضعَ قلبِه الذي زُفَّتْ إليه هذه العرائسُ، هل يلينُ قلبُه في الوصولِ إليها حتَّى يؤمنَ؟ جعلنا اللهُ وإيَّاكم من هؤلاء.

قَوْلُهُ: «**شَمْسٌ لِعِنِّينٍ تُزَفُّ إِلَيْهِ**...» الشَّمسُ من جمالِها وحُسْنِها ونورِها تُزَفُّ إلى عِنِّينٍ؛ والعِنِّينُ هو: الذي لا يستطيعُ الجماعَ؛ ولهذا قال: «**مَا حِيلَةُ العِنِّينِ فِي الغِشْيَانِ؟**»، الجوابُ: ليس له حيلةٌ.

* * *

٥٦٣٢- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَسْتِ رَخِيصَةً ... بَلْ أَنْتِ غَالِيَةٌ عَلَى الكَسْلانِ

٥٦٣٣- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَيْسَ يَنَالُهَا ... فِي الأَلْفِ إِلَّا وَاحِدٌ لا اثْنَانِ

٥٦٣٤- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ مَنْ ذَا كُفْؤُهَا ... إِلَّا أُولُو التَّقْوَى مَعَ الإِيمَانِ

٥٦٣٥- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ سُوقُكِ كَاسِدٌ ... بَيْنَ الأَرَاذِلِ سِفْلَةِ الحَيَوَانِ

٥٦٣٦- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ أَيْنَ المُشْتَرِي ... فَلَقَدْ عُرِضْتِ بِأَيْسَرِ الأَثْمَانِ

٥٦٣٧- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ هَلْ مِنْ خَاطِبٍ ... فَالمَهْرُ قَبْلَ المَوْتِ ذُو إِمْكَانِ

٥٦٣٨- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ كَيْفَ تَصَبُّرُ الـ ـخُطَّابِ عَنْكِ وَهُمْ ذَوُو إِيمَانِ

٥٦٣٩- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَوْلا أَنَّهَا حُجِبَتْ بِكُلِّ مَكَارِهِ الإِنْسَانِ

٥٦٤٠- مَا كَانَ عَنْهَا قَطُّ مِنْ مُتَخَلِّفٍ وَتَعَطَّلَتْ دَارُ الجَزَاءِ الثَّانِي

٥٦٤١- لَكِنَّهَا حُجِبَتْ بِكُلِّ كَرِيهَةٍ لِيُصَدَّ عَنْهَا المُبْطِلَ المُتَوَانِي

٥٦٤٢- وَتَنَالُهَا الهِمَمُ الَّتِي تَسْمُو إِلَى رُتَبِ العُلَى بِمَشِيئَةِ الرَّحْمَنِ

الشرحُ

٥٦٣٢- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَسْتِ رَخِيصَةً بَلْ أَنْتِ غَالِيَةٌ عَلَى الكَسْلانِ

وهذا صحيحٌ، والله غاليةٌ على الكسلانِ، وأمَّا على ذي الهمَّةِ فرخيصةٌ؛ لأنَّ العملَ إلى الجنَّةِ أرخصُ من العملِ إلى الدُّنيا وأسهلُ؛ فمثلًا: سُبْحَانَ الله، والحمدُ لله، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبرُ، كم فيها من غراسٍ؟ الجوابُ: أربعةٌ بدون تعبٍ ولا مشقَّةٍ، وفي مكانٍ دائمٍ، لكن في الدُّنيا اغرس أربعَ شجراتٍ، تجد التَّعبَ في تحصيلِها وغَرْسِها وسَقْيِها وملاحظتِها.

فهي -والله- ليست رخيصةً إلَّا على رجلٍ كسلانَ، وربما نقول: إنَّها عند ذي الهمَّةِ فهي رَخيصةٌ؛ بمعنى أنَّها سهلةٌ عليه، ولَيْسَتْ رخيصةً؛ يعني: لا قيمةَ لها عنده أبدًا.

٥٦٣٣- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَيْسَ يَنَالُهَا فِي الأَلْفِ إِلَّا وَاحِدٌ لا اثْنَانِ

هذا جاء به الحديثُ: يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ: «يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ:

مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ»(١)، فلا ينالُ الجَنَّةَ من بني آدمَ إلَّا واحدٌ في الألفِ.

٥٦٣٤- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ مَنْ ذَا كُفْؤُهَا ... إِلَّا أُولُو التَّقْوَى مَعَ الإِيمَانِ

اللَّهُمَّ اجعلنا منهم.

٥٦٣٥- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ سُوقُكِ كَاسِدٌ ... بَيْنَ الأَرَاذِلِ سِفْلَةِ الحَيَوَانِ

قَوْلُهُ: «سِفْلَةِ الحَيَوَانِ» هذا صحيحٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى وَصَفَ الكافرين بأنَّهم ﴿كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البيِّنة:٦]؛ أي: شرُّ مَنْ بَرَأَ اللهُ، فالكُفَّارُ لاشكَّ أنَّهم سِفْلَةُ الحيوانِ، وإن زعموا أنَّهم في قممِ المعالي، فهم واللهِ تحتَ الأقدامِ، بل إنَّ أتباعَهم يقولون يومَ القيامةِ: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [فصِّلت:٢٩]، اللَّهُمَّ اهدنا يا ربُّ.

٥٦٣٦- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ أَيْنَ المُشْتَرِي ... فَلَقَدْ عُرِضْتِ بِأَيْسَرِ الأَثْمَانِ

٥٦٣٧- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ هَلْ مِنْ خَاطِبٍ ... فَالمَهْرُ قَبْلَ المَوْتِ ذُو إِمْكَانِ

ما هو المهرُ؟ الجوابُ: ما سبق؛ وهو: الإيمانُ والتَّقوى، ومع ذلك هذا المهرُ مهرٌ لسلعةِ الرَّحمنِ -اللَّهُمَّ اجعلنا مِن مشتريها- ومهرٌ لسلعةِ الدُّنيا، حتَّى الدُّنيا الآن لا تجدُ أحدًا أَطْيَبَ قلبًا، ولا أحسنَ بالًا من أهلِ الإيمانِ والتَّقوى.

٥٦٣٨- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ كَيْفَ تَصَبُّرُ الـ ... ـخُطَّابِ عَنْكِ وَهُمْ ذَوُو إِيمَانِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم (٣٣٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله: «يقول الله لآدم أخرج بعث النار»، رقم (٢٢٢).

٥٦٣٩- يَـا سِـلْعَةَ الـرَّحْمَنِ لَـوْلا أَنَّهَـا حُجِبَـتْ بِكُـلِّ مَكَـارِهِ الإِنْسَـانِ

٥٦٤٠- مَا كَـانَ عَنْهَـا قَـطُّ مِـنْ مُتَخَلِّـفٍ وَتَعَطَّلَـتْ دَارُ الجَـزَاءِ الثَّـانِي

أَشَارَ هنا إلى معنى جليلٍ جدًّا؛ وهو أنَّ الجنَّةَ حُفَّتْ بالمكارهِ، لماذا؟ يقولُ: لولا هذا ما كان للنَّارِ أهلٌ؛ يعني: لو كانت الجنَّةُ محفوفةً بالشَّهواتِ كالنَّارِ ما بَقِيَ أحدٌ للنَّارِ، وقد أشار اللهُ لهذا في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٨]، فَحُفَّتْ الجنَّةُ بالمكارهِ من أجل ألَّا ينالَها إلَّا مَنْ تَجَشَّمَ هذه المكارهَ، قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ [البلد:١١] بلا أحدٍ؛ ولهذا تجدُ المؤمنَ يُكابِدُ أشياءَ، وهذه الأشياءُ ليست سهلةً، فهو يُكَابِدُ نفسَه، يصبرُ على الوضوءِ في المكارهِ، على الإتيانِ للمساجدِ، يصبرُ على ما ينالُه من أذى النَّاسِ، يصبرُ على ما ينالُه من تعبٍ في العبادةِ أحيانًا، فتجدُه يُصَابِرُ، يصبرُ على كبحِ نفسِه عن شَهواتِها، ليست المسألةُ هيِّنةً؛ ولذلك كانت الجنَّةُ محفوفةً بالمكارهِ، ولكنَّها كما قال ابنُ القيِّم عدَّةَ مرَّاتٍ: «**مَا هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ ثُمَّ تَنْقَضِيْ**»، كُلُّ العمرِ الذي مضى قبل ساعتِنا هذه كأنَّه ساعةٌ، كأنَّنا لم نعش فيه، فهي أيَّامٌ يسيرةٌ ثُمَّ ارتحالٌ، وينقضي زمنُ العملِ إلى زمنِ الجزاءِ، ولكن اصبر، وصَابِرْ حتَّى تنالَ ما يناله الصَّابرون ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمر:١٠]، وهذا أمرٌ واضحٌ، انظُر إلى آبائِك، انظُر إلى إخوانِك الذين هم أكبرُ منك، انظُر إلى أقرانِك، انظُر إلى مَنْ هو دُونَك، كُلُّهم رحلوا عن الدُّنيا وكأنَّهم لم يُخْلَقُوا فيها، قال الشَّاعرُ:

بَيْنَـا يُـرَى الإِنْسَـانُ فِيهَـا مُخْـبِرًا حَتَّى يُرَى خَبَرًا مِـنَ الأَخْبَـارِ[1]

---

(١) البيت لابن الحسن التهامي يرثي ولده، كما في نفح الأزهار في منتخبات الأشعار، لشاكر البتلوني (ص:١٠٣).

وما هي إلَّا ساعةٌ ثُمَّ تنقضي، هذه المكارهُ اصبِرْ عليها، اصبِرْ على كبحِ نفسِك عن شهواتِها، اصبِرْ على الواجباتِ التى أمَرَك اللهُ بها، اصبِرْ على البَلايا التي تصيبُك من نفسِك، أو من الله عزَّ وجلَّ، أو من النَّاسِ، اصبِرْ حتَّى تنالَ دارَ الرَّاحةِ، نسألُ اللهَ أن يكتب لنا ولكم هذه الدَّارَ.

٥٦٤١- لَكِنَّهَا حُجِبَتْ بِكُلِّ كَرِيهَةٍ ... لِيُصَدَّ عَنْهَا المُبْطِلَ المُتَوَانِي

٥٦٤٢- وَتَنَالُهَا الهِمَمُ الَّتِي تَسْمُو إِلَى ... رُتَبِ العُلَى بِمَشِيئَةِ الرَّحْمَنِ

إذا قال: «تَسْمُو إِلَيْهَا الهِمَمُ» قَيَّدَ ذلك بمشيئةِ الرَّحمنِ، مشيئةُ الرَّحمنِ ليست مشيئةً مجرَّدَةً، بل هي مشيئةٌ مَبْنِيَّةٌ على الحكمةِ، كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٧-٢٨]، وقال تعالى في آخِرِ سورةِ «الإنسان»: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣]، فلهذا قَيَّدَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- ذلك بمشيئةِ الرَّحمنِ، نسألُ اللهَ أن يشاءَ لنا ولكم ما فيه الخيرُ والصَّلاحُ.

***

٥٦٤٣- فَاتْعَبْ لِيَوْمِ مَعَادِكَ الأَدْنَى تَجِدْ ... رَاحَاتِهِ يَوْمَ المَعَادِ الثَّانِي

٥٦٤٤- وَإِذَا أَبَتْ ذَا الشَّأْنَ نَفْسُكَ فَاتَّهِمْـ ... ـهَا ثُمَّ رَاجِعْ مَطْلَعَ الإِيمَانِ

٥٦٤٥- فَإِذَا رَأَيْتَ اللَّيْلَ بَعْدُ وَصُبْحَهُ ... مَا انْشَقَّ عَنْهُ عَمُودُهُ لأَذَانِ

٥٦٤٦- وَالنَّاسُ قَدْ صَلَّوا صَلاةَ الصُّبْحِ وَانْـ ... ـتَظَرُوا طُلُوعَ الشَّمْسِ قُرْبَ زَمَانِ

٥٦٤٧- فَاعْلَمْ بِأَنَّ العَيْنَ قَدْ عَمِيَتْ فَنَا ... شِدْ رَبَّكَ الـمَعْرُوفَ بِالإِحْسَانِ
٥٦٤٨- وَاسْأَلْهُ إِيمَانًا يُبَاشِرُ قَلْبَكَ الْـ ... ـمَحْجُوبَ عَنْهُ لِتَنْظُرَ العَيْنَانِ
٥٦٤٩- وَاسْأَلْهُ نُورًا هَادِيًا يَهْدِيكَ فِي ... طُرُقِ الـمَسِيرِ إِلَيْهِ كُلَّ أَوَانِ
٥٦٥٠- وَاللهِ مَا خَوْفِي الذُّنُوبَ فَإِنَّهَا ... لَعَلَى طَرِيقِ العَفْوِ وَالغُفْرَانِ
٥٦٥١- لَكِنَّمَا أَخْشَى انْسِلاخَ القَلْبِ مِنْ ... تَحْكِيمِ هَذَا الوَحْيِ وَالقُرْآنِ
٥٦٥٢- وَرِضًا بِآرَاءِ الرِّجَالِ وَخَرْصِهَا ... لَا كَانَ ذَاكَ بِمِنَّةِ الرَّحْمَنِ

الشرحُ

٥٦٤٣- فَاتْعَبْ لِيَوْمِ مَعَادِكَ الأَدْنَى تَجِدْ ... رَاحَاتِهِ يَوْمَ الـمَعَادِ الثَّانِي
٥٦٤٤- وَإِذَا أَبَتْ ذَا الشَّأْنَ نَفْسُكَ فَاتَّهِمْـ ... ـهَا ثُمَّ رَاجِعْ مَطْلَعَ الإِيمَانِ
٥٦٤٥- فَإِذَا رَأَيْتَ اللَّيْلَ بَعْدُ وَصُبْحَهُ ... مَا انْشَقَّ عَنْهُ عَمُودُهُ لأَذَانِ
٥٦٤٦- وَالنَّاسُ قَدْ صَلَّوا صَلاةَ الصَّبْحِ وَانْـ ... ـتَظَرُوا طُلُوعَ الشَّمْسِ قُرْبَ زَمَانِ
٥٦٤٧- فَاعْلَمْ بِأَنَّ العَيْنَ قَدْ عَمِيَتْ فَنَا ... شِدْ رَبَّكَ المَعْرُوفَ بِالإِحْسَانِ
٥٦٤٨- وَاسْأَلْهُ إِيمَانًا يُبَاشِرُ قَلْبَكَ الْـ ... ـمَحْجُوبَ عَنْهُ لِتَنْظُرَ العَيْنَانِ
٥٦٤٩- وَاسْأَلْهُ نُورًا هَادِيًا يَهْدِيكَ فِي ... طُرُقِ الـمَسِيرِ إِلَيْهِ كُلَّ أَوَانِ

قَوْلُهُ: «فَنَاشِدْ رَبَّكَ الـمَعْرُوفَ بِالإِحْسَانِ»، «المَعْرُوفَ» صفةٌ لـ«رَبِّ»، وليست مفعولَ «نَاشِدْ».

والله هذه أبياتٌ عظيمةٌ، إذا رَأَيْتَ من نفسِك التَّخَلُّفَ وَأَبَتْ نفسُك أن تُعَانِقَ مَنْ وُفِّقوا للخيرِ ورَأَوْا أنوارَ الصَّباحِ فاعلم بأنَّ العينَ قد عَمِيَتْ، فَنَاشِدْ ربَّك المعروفَ بالإحسانِ؛ يعني: الذي عُرِفَ بالإحسانِ عزَّ وجلَّ، واسأَلْه إيمانًا يُبَاشِرُ قلبَك المحجوبَ عنه لتنظر العينان؛ أي: اسألْه إيمانًا يباشرُ القلبَ؛ لأنَّ هذا هو النَّافعُ، أمَّا الإيمانُ الذي لا يتجاوزُ الحناجرَ فليس بإيمانٍ، الإيمانُ هو الذي يُباشِرُ القلبَ مُباشرةً، فإذا رَأَيْتَ من نفسِك أنَّ الإيمانَ لم يُباشر قلبَك فعليك باللُّجوءِ إلى الله عزَّ وجلَّ، اسأله وأنت ساجدٌ في آخِرِ اللَّيلِ، اسأله بين الأذانِ والإقامةِ، اسأله في أوقاتِ الإجابةِ أن يَمُنَّ عليك بإيمانٍ يُبَاشِرُ قلبَك ويحيا به قلبُك، هذا هو المقصودُ.

الإيمانُ الذي لا يتجاوزُ الحناجرَ كُلٌّ يدركُه حتَّى المنافق، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون:٤]، ولكنِ الإيمانُ الذي يباشرُ القلبَ ويصلُ إلى القلبِ حتَّى يكونَ بينه وبين الله سببٌ، هذا هو الذي ينفعُ، فإذا لم تجد نفسَك على هذا الوجهِ فاتَّهِمْها، ومَن الذي يهديك من ضلالِك؟ الجوابُ: اللهُ عزَّ وجلَّ، ارجع إلى الله، لا تيأسْ، لا تقلْ: دَعَوْتُ، ولم أجد إيمانًا، ولم أجد خشوعًا، ولم أجد يقينًا، لا تَيْئسْ، كَرِّرْ سؤالَ الله، كَرِّرْ، «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الـمُلِحِّينَ فِي الدُّعَاءِ**»[1]، رُبَّما يكونُ اللهُ عزَّ وجلَّ قد منعك أوَّلَ مرَّةٍ لمصلحتِك حتَّى يعلمَ عزَّ وجلَّ صِدقَك في الطَّلبِ؛ لأنَّ الصَّادقَ في الطَّلبِ يُلِحُّ، وإذا تأخَّر أَلَحَّ، وإذا عَلِمَ اللهُ عزَّ وجلَّ منك صدقَ النِّيَّةِ فهو والله أكرمُ منك، أنت تسألُه لتلجأَ إليه وتعترفَ به ربًّا، فهو أكرمُ منك، لكن لا تُلْحِقْ نفسَك اليأس أبدًا، لا تقلْ: أنا والله دَعَوْتُ لكن ما وجدتُ الإيمانَ، كما يشكو بهذا كثيرٌ من النَّاسِ الآن.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٨، رقم ١١٠٨).

كثيرٌ من النَّاسِ يتَّصلون بنا: ما وجدتُّ الإيمانَ، ما بَاشَرَ الإيمانُ قلبي، ما وَجَدْتُ طَعمَه، الجأ إلى الله، وأَكْثِرْ من الذِّكرِ، أَكْثِرْ من الصَّلاةِ، أَكْثِرْ من قراءةِ القرآنِ، أَكْثِرْ من فعلِ الخيرِ والإحسانِ لإخوانِك، تجد هذا، أمَّا كونُ الإنسانِ يريدُ أن يأتيَه الشَّيءُ بدون تعبٍ فهذا لا يمكنُ.

اسألوا اللهَ عزَّ وجلَّ، ولا تيأسوا من رحمةِ الله؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أكرمُ منَّا، «مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ شِبْرًا تَقَرَّبَ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، ومَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ ذِرَاعًا تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بَاعًا، وَمَنْ أَتَاهُ يَمْشِي أَتَاهُ هَرْوَلَةً»(١)، فهو أسرعُ إلى عبدِه من عبدِه إليه، ولكنَّ المسألةَ تحتاجُ إلى المصابرةِ، وإلى انتظارِ الفرَجِ، وإلى عدمِ اليأسِ من رحمةِ الله عزَّ وجلَّ.

٥٦٥٠- وَاللهِ مَا خَوْفِي الذُّنُوبَ فَإِنَّهَا ... لَعَلَى طَرِيقِ العَفْوِ وَالغُفْرَانِ

نعم، الذُّنوبُ سهلةٌ بالنِّسبةِ لما هو أعظمُ منها ممَّا يذكرُه المؤلِّفُ؛ لأنَّها على طريقِ العفوِ والغفرانِ مِن الله مِنَّةً وتفضُّلًا، فالذُّنوبُ -والحمدُ لله- ما عدا الشِّركَ بين خوفٍ ورجاءٍ؛ لقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء:٤٨]، قد يَمُنُّ اللهُ عزَّ وجلَّ على الإنسانِ بكلمةٍ واحدةٍ من رضاه يبلغُ بها رضاه، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]، **امرأةٌ دخلت الجَنَّةَ وغُفِرَ لها حيث سَقَتْ كَلْبًا يلهثُ من العطشِ**(٢)، فعلٌ يسيرٌ، فالذُّنوبُ في الحقيقةِ كما قال

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران:٢٨]، رقم (٧٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب الحث على ذكر الله تعالى رقم (٢٦٧٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه، فإن في إحدى جناحيه داء وفي الأخرى شفاء، رقم (٣١٤٣)، ومسلم: كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها، رقم (٢٢٤٥).

المؤلِّفُ: «عَلَى طَرِيقِ العَفْوِ وَالغُفْرَانِ»، فهي بين عفوٍ في تركِ واجبٍ، أو غفرانٍ في فعلِ مُحَرَّمٍ، لكن الخوفُ الذي يُخْشَى منه هو ارتفاعُ الإيمانِ من القلبِ، هذا هو الذي يُخْشَى منه كثيرًا، ويجبُ أن يكونَ الإنسانُ منه على حذرٍ، أجارنا الله وإيَّاكم من ذلك، هذا هو الذي يجبُ أن تحذرَه أن يرتَفعَ الإيمانُ من قلبِك، فهذا هو الذي نسألُ اللهَ أن يجلِّيَه عنَّا وعنكم، وأن يبعدَه عنَّا وعنكم.

٥٦٥١- لَكِنَّمَا أَخْشَى انْسِلاخَ القَلْبِ مِنْ تَحْكِيمِ هَذَا الوَحْيِ وَالقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «**الوَحْيِ وَالقُرْآنِ**» يحتملُ أن يكونَ عطفَ مرادفٍ على مرادفِه؛ كقولِ الشَّاعرِ:

.... **فَأَلْفَى قَوْلَهَا كَذِبًا وَمَيْنَا**[1]

ويحتملُ أن يريدَ بالوحيِ السُّنَّةَ؛ لأنَّها الوحيُ الثَّاني، ويكونُ القرآنُ هو كلامَ الله عزَّ وجلَّ، وأيُّهما أولى إذا دار الأمرُ بين كَوْنِ الكلامِ مؤسِّسًا أو مؤكِّدًا؟ الجوابُ: الأوَّل؛ لأنَّنا إذا حملناه على التَّأسيسِ لم يكن هناك تكرارٌ، وإذا حملناه على التَّوكيدِ صار هناك تكرارٌ.

هذا أيضًا ممَّا يُخْشَى منه خشيةٌ عظيمةٌ؛ لأنَّ الذي لا يُحَكِّمُ القرآنَ منسلخٌ خارجٌ من الإيمانِ، ولو صَلَّى وَصامَ وزَكَّى وفَعَلَ كُلَّ الطَّاعاتِ وهو لا يُحَكِّمُ القرآنَ فإنَّه كافرٌ مرتدٌّ، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]؛ ولهذا قال: «**لَكِنَّمَا أَخْشَى انْسِلاخَ القَلْبِ مِنْ تَحْكِيمِ هَذَا الوَحْيِ وَالقُرْآنِ**».

---

(١) هذا عجُز بيت لعدي بن زيد العبادي، كما في المستقصى في أمثال العرب، لأبي القاسم الزمخشري (١/ ٢٤٣)، وصدره: فَقَدَّدت الْأَدِيم لِرَاهِشيه

٥٦٥٢- وَرِضَا بِـآرَاءِ الرِّجَـالِ وَخَرْصِـهَا   لَا كَـــانَ ذَاكَ بِمِنَّـــةِ الـــرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «وَرِضًا بِآرَاءِ الرِّجَالِ وَخَرْصِهَا»؛ يعني: الآراءَ المَبْنِيَّةَ على الخرصِ والتَّخمينِ، لا على الحكمةِ واليقينِ.

قَوْلُهُ: «لَا كَانَ ذَاكَ بِمِنَّةِ الرَّحْمَنِ» هذه الجملةُ دعائِيَّةٌ، يقولُ: أسْأَلُ اللهَ أَلَّا يكونَ ذلك بمنَّتِه.

وَقَوْلُهُ: «لَا كَانَ ذَاكَ بِمِنَّةِ الرَّحْمَنِ» «لَا كَانَ ذَاكَ» بنفسِه أو بنفسِه هو وإخوانه؟ الجوابُ: العمومُ أَوْلَى، فهو يسألُ اللهَ تعالى أَلَّا يكونَ هذا في قلبِه ولا في قلبِ إخوانِه، وهو الإعراضُ عن الكتابِ والسُّنَّةِ وتحكيمُ آراءِ الرِّجالِ.

قد يقولُ قائلٌ: إنَّ الإنسانَ قد يُعْرِضُ عن تحكيمِ القرآنِ ولا يُحَكِّمُ آراءَ الرِّجالِ، فنقولُ: هذا محالٌ، لابُدَّ للإنسانِ من طريقٍ، فإمَّا طريقُ خيرٍ وإمَّا طريقُ شرٍّ؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢]، وجاء في الحديثِ: «أَصْدَقُهَا -أي: الأَسْمَاءِ- حَارِثٌ وَهَمَّامٌ»[1]؛ لأنَّ كُلَّ إنسانٍ له هَمَّةٌ وله عملٌ، فإذا أَعْرَضَ عن تحكيمِ القرآنِ فلابُدَّ أن يمشيَ على طريقٍ، إلى أين يذهبُ إذا تَرَكَ القرآنَ؟ إلى هوى نفسِه أو إلى آراءِ غيرِه.

وإذا نظرنا إلى بعضِ الحُكَّامِ اليوم في الدُّولِ الإسلاميَّةِ وَجَدْنَا أنَّ هذا الوصفَ ينطبقُ عليهم تمامًا، فقد أعرضوا عن تحكيمِ القُرآنِ وحكموا بآراءِ الرِّجالِ، ومَن الرِّجالِ الذين حكموا بآرائِهم؟ الجوابُ: كُفَّارٌ، قد نقولُ: إنَّ هذا الذي حكموا به في زمانِهم ومكانِهم وأُمَّتِهم مناسبٌ، لكن هل يبقى مُنَاسِبًا للأممِ

(١) أخرجه أحمد (٣١/ ٣٧٧، رقم ١٩٠٣٢). وأبو داود: كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، رقم (٤٩٥٠).

في كُلِّ زمانٍ وفي كُلِّ مكانٍ؟ الجوابُ: أبدًا، لا يمكنُ، إلَّا كلامَ الله عزَّ وجلَّ، وكلامَ رسولِه، فهو صالحٌ لكُلِّ زمانٍ ومكانٍ وأُمَّةٍ، لكن هذه القوانينُ المستوردةُ من الشَّرقِ أو من الغربِ كُلُّها من وضعِ الرِّجالِ في وقتٍ قد يكونُ مناسبًا وقد يكونُ غيرَ مناسبٍ أيضًا، حتَّى وضعها في زمانِهم ومكانِهم وأُمَمِهم قد يكونُ غيرَ مناسبٍ؛ لأنَّهم غيرُ معصومين ولا مُدْرِكِينَ لكُلِّ الأمورِ والمشاكلِ، ومع ذلك يأتي هؤلاء الجُهَّالُ فيتلقَّفون هذه القوانينَ ويُطَبِّقونها على شعبٍ مسلمٍ يتناقضُ غايةَ التَّناقضِ مع الأممِ التي سُنَّتْ فيها هذه القوانينُ، وهذا من جهلِهم، نسألُ اللهَ أن يهديَهم صِراطَه المستقيمَ، وأن يولِّيَ على المسلمين خيارَهم.

فالقلبُ إذا انْسَلَخَ -والعياذُ بالله- من تحكيمِ القرآنِ والسُّنَّةِ صار القُرآنُ في نظرِه أساطيرَ الأوَّلينِ، وصارت السُّنَّةُ بنظرِه آراءَ الرِّجالِ والعياذُ بالله، وصارت الشَّريعةُ في نظرِه شريعةَ عصرٍ مَضَى، كما هو موجودٌ الآن في كثيرٍ من الأُممِ الإسلاميَّةِ يَدَّعُونَ القرآنَ والسُّنَّة ويحكمون بآراءِ الخلقِ، مع أنَّ آراءَ الخلقِ قاصرةٌ؛ أوَّلا: لأنَّ المخلوقَ لا يمكنُ أن يُحِيطَ بكُلِّ مصالحِ الخلقِ لا زمانًا ولا مكانًا.

ثانيًا: لو فُرِضَ أنَّه أَحَاطَ فإنَّه يحيطُ بمحيطِه فقط، فيمَن حوله، لكن مَنْ كانوا بعيدين عنه أو إذا تغيَّرت الأحوالُ هل يُدْرِكُ ما يصلحُ النَّاسَ؟ أبدًا؛ ولذلك لا شكَّ في ضلالِ هؤلاء في دينِهم الذين يُحكِّمونَ قوانين وَضَعَهَا الفرنسيُّون أو الإنجليز أو الأمريكان أو الأُممُ المتَّحدةُ، وَيَدَّعُونَ كتابَ الله وسُنَّةَ رسولِه ﷺ، من قوانين الأممِ المتَّحدةِ -لا أَقَامَ اللهُ لها قانونَها- أنَّ الإنسانَ حُرٌّ في رأيه، حُرٌّ في عقيدتِه، حُرٌّ في خُلُقِه، حُرٌّ في عملِه، يكفرُ يكفرُ، يقولُ ما شاء، يقولُ ما شاء، ولا أحدَ يتعرَّضُ له، يفجُرُ ويكونُ عاهرًا، ولا أحدَ يتعرَّضُ له.

والعجائبُ أنَّهم يدَّعون أنَّهم يحفظون حقوقَ الإنسانِ، وسبحان الله هذا الذي أقولُه الآن سَمِعْتُه في صباحِ هذا اليومِ من إذاعة لندن، فقد ذكَرَتْ معاهدةِ الأُممِ المتَّحدةِ؛ منها هذا البند أنَّ الإنسانَ حُرٌّ ولا أَحدَ يتعرَّضُ له، يكفرُ، يُشْرِكُ، يزني، يشربُ الخمرَ ولا أَحَدَ يتعرَّضُ له؛ لأنَّ هذه حريةُ الإنسانِ، أيُّ فوضى وأيُّ فسادٍ أشدُّ من هذا والعياذُ بالله؟! فيقولُ المؤلِّفُ رحمه الله: «**أَخْشَى انْسِلَاخَ الْقَلْبِ مِنْ تَحْكِيمِ هَذَا الوَحْيِ وَالقُرْآنِ**».

كذلك أيضًا أهلُ الكلامِ في العقائدِ تركوا الكتابَ والسُّنَّةَ وقالوا: إنَّ اليقينَ لا يحصلُ بالقرآنِ ولا بالسُّنَّةِ، ولكن لابُدَّ لنا من عقيدةٍ، من أين نأخُذُها؟ قالوا: من الفلاسفةِ ومنطقِ اليونانِ وآراءِ الرِّجالِ، أمَّا القرآنُ فهو وإن كان يفيدُ اليقينَ في ثبوتِه فإنَّه لا يفيدُ اليقينَ في دلالتِه، يقولون: القرآنُ ليس عندنا إشكالٌ في ثبوتِه وهو متيقَّنٌ متواترٌ غاية التَّواترِ، لكن لا يفيدُ اليقينَ في دلالتِه، وأمَّا السُّنَّةُ فقالوا:

أوَّلا: ننظرُ هل تفيدُ اليقينَ في ثبوتِها أو لا؟ يقولون: المتواترُ يفيدُ اليقينَ، وأمَّا الآحادُ اضربوا به عرضَ الحائطِ، لا تقبلوه في العقائدِ، ثُمَّ المتواترُ متيقَّنُ الثُّبوتِ لكن هل هو متيقَّنُ الدَّلالةِ؟ يقولون فيه مثلَ القرآنِ، ليس متيقَّنَ الدَّلالةِ، إِذَنْ لا يمكنُ أن يفيدَ القرآنُ ولا السُّنَّةُ اليقينَ في جانبِ العقائدِ، وتكونُ كُلُّ العقائدِ المبنيَّةِ على القرآنِ والسُّنَّةِ مَبْنِيَّةً على ظنٍّ، إِذَنْ إلى أين نرجعُ إذا لم نستفد اليقينَ من الكتابِ والسُّنَّةِ؟ إلى العقولِ، العقول المتناحرة المختلفة؟! كُلُّ واحدٍ منهم يُضَلِّلُ الآخر، بل الإنسانُ نفسُه يتناقضُ في مؤلَّفاتِه في أوَّلِ عمرِه وفي آخرِ عمرِه، فكما قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّة رحمهُ اللهَ: «**يَا لَيْتَ شِعْرِي بِأَيِّ شيءٍ يُوزَنُ**

الكتابُ والسُّنَّةُ؟»[1] بعقلِ زيدٍ أو بعقل عبيدٍ؟ وقال الإمامُ مالكٌ: «أفكلَّما جاءنا رجلٌ أجدلُ من رجلٍ تركنا الكتابَ والسُّنَّةَ لقولِ هذا المجادلِ؟!»[2]، هل هذا لائقٌ؟! الجوابُ: لا.

إِذَنْ الذي يُخافُ عليه كما قال المؤلِّفُ: «**لَكِنَّمَا أَخْشَى انسِلَاخَ القَلْبِ مِنْ تَحْكِيمِ هَذَا الوَحْيِ وَالقُرْآنِ وَرِضًا بِآرَاءِ الرِّجَالِ وَخَرْصِهَا**».

* * *

٥٦٥٣- فَبِــأَيِّ وَجْـهٍ أَلْتَقِــي رَبِّي إِذَا ... أَعْرَضْتُ عَنْ ذَا الوَحْيِ طُولَ زَمَانِ

٥٦٥٤- وَعَزَلْتُــهُ عَــمَّا أُرِيــدُ لأَجْلِــهِ ... عَــزْلًا حَقِيقِيًّــا بِــلا كِــتْمَانِ

٥٦٥٥- صَرَّحْــتُ أَنَّ يَقِينَنَــا لا يُسْــتَفَا ... دُ بِــهِ وَلَــيْسَ لَدَيْــهِ مِــنْ إِتْقَــانِ

٥٦٥٦- أَوْلَيْتُــهُ هَجْــرًا وَتَــأْوِيلًا وَتَحْــ ... ــرِيفًا وَتَفْوِيضًــا بِــلا بُرْهَــانِ

٥٦٥٧- وَسَعَيْتُ جُهْدِي فِي عُقُوبَةِ مُمْسِكٍ ... بِعُــرَاهُ لا تَقْلِيــدَ رَأْيِ فُــلانِ

الشرحُ

٥٦٥٣- فَبِــأَيِّ وَجْـهٍ أَلْتَقِــي رَبِّي إِذَا ... أَعْرَضْتُ عَنْ ذَا الوَحْيِ طُولَ زَمَانِ

٥٦٥٤- وَعَزَلْتُــهُ عَــمَّا أُرِيــدُ لأَجْلِــهِ ... عَــزْلًا حَقِيقِيًّــا بِــلا كِــتْمَانِ

بأيِّ شيءٍ؟ بالإيمانِ أو بالكفرِ؟ الجوابُ: بالكفرِ.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ٢٩).

(٢) انظر: المصدر السابق.

٥٦٥٥- صَرَّحْتُ أَنَّ يَقِينَنَا لا يُسْتَفَا ... دُ بِهِ وَلَيْسَ لَدَيْهِ مِنْ إِتْقَانِ

٥٦٥٦- أَوْلَيْتُهُ هَجْرًا وَتَأْوِيلًا وَتَحْـ ... ـرِيفًا وَتَفْوِيضًا بِلا بُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «وَتَفْوِيضًا بِلَا بُرْهَانِ»؛ أي: بلا دليلٍ.

وَقَوْلُهُ: «بِلَا بُرْهَانِ» لا يعني أنَّ هناك تفويضًا ببرهانٍ، لكن هذا كقولِه تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [الأعراف:٣٣]، فهو بيانٌ للواقعِ، وأنَّ كُلَّ تفويضٍ لا دليلَ عليه.

يشيرُ -رحمه اللهُ- إلى طريقِ أهلِ الكلامِ في آياتِ الصِّفاتِ وأحاديثِها، هذه طريقٌ، منهم مَنْ يهجرُها ولا يلتفتُ إليها، ويقولُ: اسكت، لا تتكلَّم، ولا بمعانيها، ومنهم مَنْ يؤوِّلُها، ولكنَّه تأويلُ تحريفٍ، ومنهم مَنْ يُفَوِّضُ المعاني، فهذا لا يسكتُ، لكنَّه يقولُ: هذه اللهُ أعلمُ بمرادِها، ولا أعلمُ ماذا أرادَ.

واعلم أنَّ بعضَ العلماءِ -رحمهم اللهُ- من المحقِّقين يظنُّون أنَّ مذهبَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ هو التَّفويضُ في آياتِ الصِّفاتِ وأحاديثِها؛ أي: تفويضُ المعنى؛ بمعنى: أنَّك إذا سَأَلْتَ الرَّجُلَ من أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ: ما تقولُ في قولِ الله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]؟ قال: اللهُ أعلمُ بما أراد، ما تقولُ في قولِه تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]؟ قال: اللهُ أعلمُ بما أراد، يظنُّونَ أنَّ هذا مذهبُ السَّلفِ، وهذا إمَّا كذبٌ وإمَّا جهلٌ، إن كان الإنسانُ يعلمُ أنَّ مذهبَهم خلافُ ذلك فهو كاذبٌ، وإن كان لا يدري فهو جاهلٌ؛ ولهذا كان السَّلفُ مجمعين على أنَّها معلومةُ المعنى، أجمعوا على قولِهم: «أَمرُّوها كما جَاءَتْ بِلَا كَيْف»[1]؛

---

(١) أخرجه الآجري في الشريعة (٣/ ١١٤٦، رقم ٧٢٠)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٥٨٢، رقم ٩٣٠).

يعني: آياتِ الصِّفاتِ وأحاديثَها، إذا أَمْرَرْنَاهَا كما جاءت فهل هي ألفاظٌ جوفاءُ ليس لها معنى؟ الجوابُ: لها معنى، إِذَنْ قولهم: «**أَمِرُّوها كما جَاءَتْ**»؛ يعني: أثبتوا معناها، ولا تفوِّضوا.

أيضًا وجهٌ آخَرُ في هذه الجملةِ: «**بِلَا كَيْف**»؛ لأنَّ نفيَ الكَيْفِ يدلُّ على: وجودِ الأصلِ، ولو لم يكن الأصلُ موجودًا لكان قولُهم: «**بِلَا كَيْف**» لغوًا لا فائدةَ منه، فأهلُ السُّنَّةِ مُطبِقون على أنَّهم لا يفوِّضون المعنى؛ بل يُثبتونه، ولهم عليه شروحٌ وتقسيماتٌ، يُقَسِّمون العِزَّةَ إلى أقسامٍ، والعلوَّ إلى أقسامٍ، والنَّظرَ إلى أقسامٍ، والكلامَ إلى أقسامٍ؛ كلامِ رضًا، وكلامِ غضبٍ، وما أشبه ذلك، لكنَّهم يفوِّضون شيئًا واحدًا وهو الكيفيَّة، فالكيفيَّةُ لا يتعرَّضون لها، ولا يسألون عنها، ولا يجيبون عنها، وينكرون على مَنْ سأل عنها، وسواء كانت الكيفيَّةُ في الصِّفةِ أو في العددِ، فَمَنْ قال مثلًا: كَمْ أصابعُ الله؟ ننكرُ عليه، ونقولُ له: ليس لك حقٌّ أن تسألَ هذا السُّؤَالَ، أَثْبِتْ ما جاء في الكتابِ والسُّنَّةِ من العددِ، ولكن لا تسأل عن غيرِه، ومَنْ سأل عن كيفيَّةِ وجهِه أنكرنا عليه؛ لأنَّ هذا ليس معلومًا لنا.

٥٦٥٧- وَسَعَيْتُ جُهْدِي فِي عُقُوبَةِ مُمْسِكٍ بِعُرَاهُ لا تَقْلِيدَ رَأْيِ فُلانِ

قَوْلُهُ: «**سَعَيْتُ جُهْدِي فِي عُقُوبَةِ مُمْسِكٍ**» يريدُ بذلك الإشارةَ إلى الوشاةِ الذين وَشَوْا إلى السَّلاطين والخلفاءِ في أهلِ السُّنَّةِ أن يعاقبوهم، وألَّا يعاقبوا من قَلَّدَ فلانًا وفلانًا، فما حُبِسَ الإمامُ أحمدُ ولا شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ ولا غيرُهما إلَّا بوشايةٍ إلى السَّلاطين، نسألُ اللهَ أن يهديَنا وإيَّاكم صراطَه المستقيمَ، وأن يجعلَنا وإيَّاكم من الدُّعاةِ إلى الحقِّ على بصيرةٍ، إنَّه جوادٌ كريمٌ.

* * *

٥٦٥٨- يَـا مُعْرِضًـا عَـمَّا يُـرَادُ بِـهِ وَقَـدْ ... جَـدَّ المَسِـيرُ فَمُنْتَهَـاهُ دَانِ

٥٦٥٩- جَـذْلانَ يَضْـحَكُ آمِنًـا مُتَبَخْـتِرًا ... فَكَأَنَّـهُ قَـدْ نَـالَ عَقْـدَ أَمَـانِ

٥٦٦٠- خَلَـعَ السُّـرُورَ عَلَيْـهِ أَوْفَى حُلَّـةٍ ... طَـرَدَتْ جَمِيعَ الـهَمِّ وَالأَحْـزَانِ

٥٦٦١- يَخْتَـالُ فِي حُلَـلِ الـمَسَرَّةِ نَاسِـيًا ... مَـا بَعْـدَهَا مِـنْ حُلَّـةِ الأَكْفَـانِ

٥٦٦٢- مَا سَعْيُهُ إِلَّا لِطِيبِ العَيْشِ فِي الـدْ ... دُنْيَـا وَلَـوْ أَفْضَـى إِلَى النِّـيرَانِ

٥٦٦٣- قَدْ بَاعَ طِيبَ العَيْشِ فِي دَارِ النَّعِيـ ... ـمِ بِذَا الـحُطَامِ الـمُضْمَحِلِّ الفَـانِي

٥٦٦٤- إِنِّي أَظُنُّـكَ لا تُصَـدِّقُ كَوْنَـهُ ... بِـالقُرْبِ بَـلْ ظَـنٌّ بِـلا إِيقَـانِ

٥٦٦٥- بَلْ قَدْ سَمِعْتَ النَّاسَ قَـالُوا جَنَّةٌ ... أَيْضًـا وَنَـارٌ بَـلْ لَـهُمْ قَـوْلانِ

٥٦٦٦-وَالوَقْـفُ مَـذْهَبُكَ الَّـذِي تَخْتَـارُهُ ... وَإِذَا انْتَهَـى الإِيـمَانُ لِلرُّجْحَـانِ

٥٦٦٧- أَمْ تُؤْثِرُ الأَدْنَى عَلَيْـهِ وَقَالَـتِ النْـ ... ـنَفْسُ الَّتِي اسْتَعْلَتْ عَلَى الشَّيْطَانِ

٥٦٦٨- أَتَبِيـعُ نَقْـدًا حَاصِـلًا بِنَسِـيئَةٍ ... بَعْـدَ المَـمَاتِ وَطَـيِّ ذِي الأَكْـوَانِ

٥٦٦٩- لَـوْ أَنَّـهُ بِنَسِـيئَةِ الـدُّنْيَا لَـهَا ... نَ الأَمْـرُ لَكِـنْ فِي مَعَـادٍ ثَـانِ

٥٦٧٠- دَعْ مَا سَمِعْتَ النَّاسَ قَالُوهُ وَخُـذْ ... مَـا قَـدْ رَأَيْـتَ مُشَـاهَدًا بِعِيَـانِ

٥٦٧١- وَاللهِ لَـوْ جَالَسْـتَ نَفْسَـكَ خَالِيًـا ... وَبَحَثْتَهَـا بَحْثًـا بِـلا رَوَغَـانِ

٥٦٧٢- لَرَأَيْـتَ هَـذَا كَامِنًـا فِيهَـا وَلَـو ... أَمِنَـتْ لأَلْقَتْـهُ إِلَى الآذَانِ

٥٦٧٣- هَذَا هُوَ السِّرُّ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ اخْـ ... ـتَارَتْ عَلَيْـهِ العَاجِلَ الـمُتَدَانِي

٥٦٧٤- نَقْـدٌ قَـدِ اشْـتَدَّتْ إِلَيْـهِ حَاجَـةٌ مِنْهَـا وَلَـمْ يَحْصُـلْ لَـهَا بِهَـوَانِ

الشرحُ

٥٦٥٨- يَـا مُعْرِضًـا عَـمَّا يُـرَادُ بِـهِ وَقَـدْ جَـدَّ المَسِـيرُ فَمُنْتَهَـاهُ دَانِ

قَوْلُهُ: «يَا مُعْرِضًا» يخاطبُ أيَّ مُعْرِضٍ، ولهذا صارت منصوبةً؛ لأنَّها نكرةٌ غيرُ مقصودةٍ.

قَوْلُهُ: «عَمَّا يُرَادُ بِهِ؟» وما الذي يُرادُ به؟

الجوابُ: عبادةُ الله عزَّ وجلَّ التي غايتُها الجزاءُ؛ إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ، وما أكثرَ هؤلاء الذين لا يهمُّهم إلَّا الدُّنيا، فتجدُهم مُعْرِضينَ عَمَّا يُرَادُ بهم.

قَوْلُهُ: «وَقَدْ جَدَّ المَسِيرُ فَمُنْتَهَاهُ دَانِي» المسيرُ الذي نسيرُه نحن إلى الآخِرةِ جادٌّ جدًّا ليلًا ونهارًا يقظةً ومنامًا، وكُلُّ مَنْ سَارَ على الدَّربِ وَصَلَ، لاسيَّما راحلٌ لا يستريحُ في كُلِّ اللَّحظاتِ، في كُلِّ السَّاعاتِ، في كُلِّ الحالاتِ؛ ولهذا قال: «فَمُنْتَهَاهُ دَانِي».

٥٦٥٩- جَـذْلانَ يَضْـحَكُ آمِنًـا مُتَبَخْـتِرًا فَكَأَنَّـهُ قَـدْ نَـالَ عَقْـدَ أَمَـانِ

قَوْلُهُ: «جَذْلَانَ»، ويجوزُ «جَذْلَانُ» على أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، والأوَّلُ أحسنُ، والجَذْلَانُ؛ أي: الفَرِحُ فرحًا كثيرًا.

قَوْلُهُ: «يَضْحَكُ آمِنًا مُتَبَخْتِرًا فَكَأَنَّهُ قَدْ نَالَ عَقْدَ أَمَانِ» كأنَّ الإنسانَ في هذه الدُّنيا لطولِ أملِه قد نال عقدَ أمانٍ أنَّه لن يرتحلَ عنها مع أنَّ المنتهى قريبٌ.

٥٦٦٠- خَلَعَ السُّرُورَ عَلَيْهِ أَوْفَى حُلَّةٍ   طَرَدَتْ جَمِيعَ الـهَمِّ وَالأَحْزَانِ

قَوْلُهُ: «أَوْفَى حُلَّةٍ»؛ أي: أطيب حُلَّةٍ.

يعني: أنَّه مغتبطٌ بالدُّنيا مسرورٌ بها، طردت عنه جميعَ الهمومِ والأحزانِ، لكنَّها في الحقيقةِ تطردُ الهمومَ والأحزانَ في لحظةٍ، ثُمَّ تعودُ الأحزانُ، فهذه المسرَّاتُ هي كالدَّواءِ المهدِّئ إذا انتهى مفعولُه عاد الألـمُ أشدَّ؛ ولهذا قال الشَّاعرُ وهو صادقٌ:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصَةً   لَذَّاتُهُ بِادِّكَارِ الـمَوْتِ وَالـهَرَمِ(١)

المُنْتَهَى إمَّا موتٌ عاجلٌ أو هَرَمٌ يصلُ الإنسانُ به إلى حالةِ الطُّفولةِ، ويملُّه حتَّى أهلُه، أَشْفَقُ النَّاسِ عليه يملونه، الطِّفلُ يُحَنُّ عليه ويُحْمَلُ باليدين وعلى الأكتافِ، والـهَرَمُ يُلْقَى في الأرضِ كأنَّه ثوبٌ خَلَقٌ لا يهتمون به، ولا يؤمِّلون له به شيئًا، ولا يرجونه.

٥٦٦١- يَخْتَالُ فِي حُلَلِ الـمَسَرَّةِ نَاسِيًا   مَا بَعْدَهَا مِنْ حُلَّةِ الأَكْفَانِ

يعني: أنت الآن عليك ثيابٌ جميلةٌ ونظيفةٌ وحسنةٌ وبهيَّةٌ، تذكَّرْ حُلَلَ الأكفانِ، تذكَّرْ حينما تُدْرَجُ بثلاثِ لفائفَ، وليس فيها ما تُوضَعُ فيه النَّفقةُ، وليس فيها حُلِيٌّ ولا شيءٌ من الدُّنيا.

٥٦٦٢- مَا سَعْيُهُ إِلَّا لِطِيبِ العَيْشِ فِي الـدْ   دُنْيَا وَلَوْ أَفْضَى إِلَى النِّيرَانِ

يقولُ: أنا أعيشُ في الدُّنيا في سرورٍ، وفي الآخِرةِ ولو في النَّارِ، وهذه حالُ كثيرٍ من النَّاسِ، نسألُ اللهَ العافيةَ؛ ولهذا ننعى بعضَ أصحابِنا الذين يتحدَّثون دائمًا في الرَّفاه والتَّرفيهِ، ونَضارةِ العيشِ، ونعيمِ الحياةِ، وما أشبه ذلك.

(١) البيت في توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، بلا نسبة (٣/ ١٦٧٨).

والحقيقةُ أنَّا ينبغي أن نُذكِّرَ النَّاسَ بهذا وبشيءٍ آخرَ؛ وهو: نعيمُ الآخرةِ، نرفلُ بالعملِ الصَّالحِ، والدَّعوةِ إلى الله، والأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكرِ؛ لأنَّنا لم نُخْلَقْ إلى الدُّنيا، ولو كان البشرُ مخلوقين للدُّنيا لكان أولاهم بالبَقاءِ الأنبياءَ والرُّسلَ، وقد قال اللهُ تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسَلَّم: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٣٤]؟ الجوابُ: لا، لن يُخَلَّدَ أحدٌ، فإذا كُنَّا لم نُخْلَقْ للدُّنيا فلماذا نزاحمُ أهلَها عليها؟ ولماذا ننسى الآخرةَ؟ لماذا لا يذكرُ الإنسانُ وهو يلبسُ الثَّوبَ الجديدَ أنَّه رُبَّما يلبسُ الكفنَ في آخرِ النَّهارِ، وإن كان في اللَّيلِ رُبَّما يلبسُه قبل الصَّباحِ؟ لكنَّ القلوبَ في غفلةٍ، نسألُ اللهَ أن يحييَ قلوبَنا بالعلمِ والإيمانِ.

٥٦٦٣- قَدْ بَاعَ طِيبَ العَيْشِ في دَارِ النَّعِيـ ـمِ بِذَا الـحُطَامِ الـمُضْمَحِلِّ الفَانِي

وهل هذه البيعةُ خاسرةٌ أو رابحةٌ؟ الجوابُ: خاسرةٌ غاية الخسرانِ، فهذا المسكينُ خَسِرَ الدُّنيا والآخرةَ، لم ينتفع ببقائِه في الدُّنيا ولم ينتفع في الآخرةِ.

٥٦٦٤- إِنِّي أَظُنُّـكَ لا تُصَـدِّقُ كَوْنَـهُ بِـالقُرْبِ بَـلْ ظَـنٌّ بِـلا إِيقَـانِ

كأنَّه يُخَاطِبُ نفسَه، يقولُ: أظنُّكَ لا تُصَدِّقُ كونَه بالقُرْبِ، بل ظنٌّ بلا إيقانٍ، فأنت تظنُّ ظنًّا، تشكُّ في اليومِ الآخرِ، ليس عندك إيمانٌ ولا يقينٌ.

٥٦٦٥- بَلْ قَدْ سَمِعْتَ النَّاسَ قَـالُوا جَنَّـةٌ أَيْضًـا وَنَـارٌ بَـلْ لَـهُمْ قَـوْلانِ

هكذا تقولُ النَّاسُ لهم قولان في الجنَّةِ والنَّارِ؛ هل هي موجودةٌ أو غيرُ موجودةٍ؟ هل هناك جزاءٌ أم لا؟ والذي يخالفُ في ذلك الكُفَّارُ، قال اللهُ تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾ [التَّغابن:٧]، فالكُفَّارُ يقولون: لا يوجَدُ بعثٌ ولا جنَّةٌ

ولا نارٌ، والمؤمنون يقولون: تُوجَدُ جنَّةٌ ونارٌ، فالنَّاسُ الآن لهم قولان في المسألةِ، ومذهبُك أنت الوقفُ؛ ولذا قال:

٥٦٦٦- وَالوَقْـفُ مَـذْهَبُكَ الَّـذِي تَخْتَـارُهُ   وَإِذَا انْتَهَـى الإِيـمَانُ لِلرُّجْحَـانِ

يعني: هذا مذهبُك، إذا رَأَيْتَ خلافَ النَّاسِ تَوَقَّفْتَ حتَّى وإن انتهى الإيمانُ للرُّجحانِ، فابقَ متوقِّفًا، والشَّيطانُ لا شكَّ أنَّه يأتي للإنسانِ بهذه الوساوسِ، وكذلك النَّفسُ الأمَّارةُ بالسُّوءِ، أعوذُ بالله منها.

٥٦٦٧- أَمْ تُؤْثِرُ الأَدْنَى عَلَيْـهِ وَقَالَـتِ النْـ   ـنَفْسُ الَّتِي اسْتَعْلَتْ عَلَى الشَّيْطَانِ

٥٦٦٨- أَتَبِيـعُ نَقْـدًا حَاصِـلًا بِنَسِـيئَةٍ   بَعْـدَ المَـمَاتِ وَطَـيِّ ذِي الأَكْـوَانِ

أيُّما أولى؟ البيعُ بالنَّقدِ أو بالمؤجَّلِ؟ الجوابُ: بالنَّقدِ أولى، يقولُ كثيرٌ من النَّاسِ: أنت عندك نقدٌ الآن، سرورٌ في الدُّنيا، امرحْ، وافرحْ، واسرحْ؛ لأنَّ الذي في الآخرةِ مؤجَّلٌ «نسيئةٌ»، وإذا كان في شكٍّ منه قد يُوفَى وقد لا يُوفَى على زعمِهم، فهذا حالُ كثيرٍ من النَّاسِ إن لم يكن أكثر النَّاسِ، يقولون: النَّقدُ أَوْلَى من النَّسيئةِ، والشَّيءُ الحاضرُ أَوْلَى من الغائبِ، وما تُوعَدُ به في الآخرةِ شيءٌ غائبٌ، وما نحن فيه شيءٌ حاضرٌ، فكيف نبيعُ الشَّيءَ الحاضرَ بشيءٍ مُؤجَّلٍ؟ هكذا يقولُ أكثرُ النَّاسِ، ولكنَّ العاقلَ كما قال النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِـمَا بَعْدَ المَوْتِ»[1].

٥٦٦٩- لَـوْ أَنَّـهُ بِنَسِـيئَةِ الـدُّنْيَا لَـهَا   نَ الأَمْـرُ لَكِـنْ فِي مَعَـادٍ ثَـانِ

تقولُ له النَّفسُ: لو أنَّه نسيئةٌ في الدُّنيا كانت المسألةُ هيِّنةً؛ لأنَّ النَّسيئةَ في

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في صفة آنية الحوض، رقم (٢٤٥٩).

الدُّنيا تجيء، فالمؤجَّلُ يحلُّ وتأخذُه، لكن هذه النَّسيئةُ يوم القيامةِ، ومتى يجيء يومَ القيامةِ؟! هكذا تقولُ النَّفسُ.

٥٦٧٠- دَعْ مَا سَمِعْتَ النَّاسَ قَالُوهُ وَخُذْ ... مَا قَدْ رَأَيْتَ مُشَاهَدًا بِعِيَانِ

قَوْلُهُ: «دَعْ مَا سَمِعْتَ النَّاسَ قَالُوهُ» ماذا يريدُ به؟ الجوابُ: الجزاءُ؛ وهو: النَّارُ أو الجنَّةُ، وخُذْ مَا شَاهَدْتَ الآن.

٥٦٧١- وَالله لَوْ جَالَسْتَ نَفْسَكَ خَالِيًا ... وَبَحَثْتَهَا بَحْثًا بِلا رَوَغَانِ

٥٦٧٢- لَرَأَيْتَ هَذَا كَامِنًا فِيهَا وَلَو ... أَمِنَتْ لأَلْقَتْهُ إِلَى الآذَانِ

قَوْلُهُ: «وَالله لَوْ جَالَسْتَ نَفْسَكَ خَالِيًا... لَرَأَيْتَ هَذَا كَامِنًا فِيهَا»؛ يعني: لو أنَّك خَلَوْتَ بنفسِك وتجرَّدْتَ عن الشَّرعِ وعن دليلِ القرآنِ والسُّنَّةِ لَرَأَيْتَ الكَامِنَ في نفسِك هو هذا، أن تُؤْثِرَ الدُّنيا على الآخرةِ، وأن تَبْقَى في شكٍّ من الآخرةِ إلَّا مَنْ هَدَى اللهُ، والمرادُ بالنَّفسِ هنا: الأمَّارةُ بالسُّوءِ، أمَّا النَّفسُ ذاتُ العقلِ والإيمانِ فلا تقولُ هذا القولَ.

قَوْلُهُ: «وَلَوْ أَمِنَتْ لأَلْقَتْهُ إِلَى الآذَانِ»؛ يعني: لو أَمِنَت النَّاسَ ورميَهم إيَّاه بالكفرِ، وقتلَه إن استطاعوا لأَلْقَتْهُ إلى الآذانِ؛ أي: لتكلَّمت وأَسْمَعَتْ.

٥٦٧٣- هَذَا هُوَ السِّرُّ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ اخْـ ... ـتَارَتْ عَلَيْهِ العَاجِلَ الـمُتَدَانِي

٥٦٧٤- نَقْدٌ قَدِ اشْتَدَّتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ ... مِنْهَا وَلَمْ يَحْصُلْ لَهَا بِهَوَانِ

يعني: لم يحصل لها بشيءٍ هَيِّنٍ، فهي قد أَدْرَكَتْهُ بمشقَّةٍ فآثَرَتْهُ على الآخرةِ.

* * *

٥٦٧٥- أَتَبِيعُـهُ بِنَسِـيئَةٍ فِي غَـيْرِ هَـ ـذِي الـدَّارِ بَعْدَ قِيَامَةِ الأَبْـدَانِ

٥٦٧٦- هَـذَا وَإِنْ جَزَمَتْ بِهَا قَطْعًا وَلَـ ـكِنْ حَظُّهَا فِي حَيِّزِ الإِمْكَانِ

٥٦٧٧- مَا ذَاكَ قَطْعِيًّا لَهَا وَالحَاصِلُ الـ ـمَوْجُودُ مَشْهُودٌ بِرَأْيِ عِيَانِ

٥٦٧٨- فَتَأَلَّفَتْ مِنْ بَيْنِ شَهْوَتِهَا وَشُبْـ ـهَتِهَا قِيَاسَاتٌ مِنَ البُطْلَانِ

٥٦٧٩- وَاسْتَنْجَدَتْ مِنْهَا رِضًا بِالعَاجِلِ الْـ أَدْنَى عَلَى المَوْعُودِ بَعْدَ زَمَانِ

٥٦٨٠- وَأَتَى مِنَ التَّأْوِيلِ كُلُّ مُلَائِمٍ لِـمُرَادِهَا يَا رِقَّةَ الإِيمَانِ

٥٦٨١- وَصَغَتْ إِلَى شُبُهَاتِ أَهْلِ الشِّرْكِ وَالتْـ ـتَعْطِيلِ مَعْ نَقْصٍ مِنَ العِرْفَانِ

٥٦٨٢- وَاسْتَنْقَصَتْ أَهْلَ الهُدَى وَرَأَتْهُمُ فِي النَّاسِ كَالغُرَبَاءِ فِي البُلْدَانِ

٥٦٨٣- وَرَأَتْ عُقُولَ النَّاسِ دَائِرَةً عَلَى جَمْعِ الحُطَامِ وَخِدْمَةِ السُّلْطَانِ

٥٦٨٤- وَعَلَى المَلِيحَةِ وَالمَلِيحِ وَعِشْرَةِ الـ أَحْبَابِ وَالأَصْحَابِ وَالإِخْوَانِ

٥٦٨٥- فَاسْتَوْعَرَتْ تَرْكَ الجَمِيعِ وَلَمْ تَجِدْ عِوَضًا تَلَذُّ بِهِ مِنَ الإِحْسَانِ

٥٦٨٦- فَالقَلْبُ لَيْسَ يَقَرُّ إِلَّا فِي إِنَا ءٍ فَهْوَ دُونَ الجِسْمِ ذُو جَوَلَانِ

٥٦٨٧- يَبْغِي لَهُ سَكَنًا يَلَذُّ بِقُرْبِهِ فَتَرَاهُ شِبْهَ الوَالِهِ الحَيْرَانِ

٥٦٨٨- فَيُحِبُّ هَذَا ثُمَّ يَهْوَى غَيْرَهُ فَيَظَلُّ مُنْتَقِلًا مَدَى الأَزْمَانِ

٥٦٨٩- لَوْ نَالَ كُلَّ مَلِيحَةٍ وَرِيَاسَةٍ لَمْ يَطْمَئِنَّ وَكَانَ ذَا دَوَرَانِ

٥٦٩٠- بَلْ لَوْ يَنَالُ بِأَسْرِهَا الدُّنْيَا لَمَا قَرَّتْ بِمَا قَدْ نَالَهُ العَيْنَانِ

٥٦٩١- نَقِّلْ فُؤَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الهَوَى ... وَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ أَحْسَنَ الإِنْسَانِ

٥٦٩٢- فَالقَلْبُ مُضْطَرٌّ إِلَى مَحْبُوبِهِ الـ ... أَعْلَى فَلا يُغْنِيهِ حِبٌّ ثَانِ

٥٦٩٣- وَصَلاحُهُ وَفَلاحُهُ وَنَعِيمُهُ ... تَجْرِيدُ هَذَا الحُبِّ لِلرَّحْمَنِ

٥٦٩٤- فَإِذَا تَخَلَّى مِنْهُ أَصْبَحَ حَائِرًا ... وَيَعُودُ فِي ذَا الكَوْنِ ذَا هَيَمَانِ

الشرحُ

٥٦٧٥- أَتَبِيعُهُ بِنَسِيئَةٍ فِي غَيْرِ هَـ ... ـذِي الدَّارِ بَعْدَ قِيَامَةِ الأَبْدَانِ

٥٦٧٦- هَذَا وَإِنْ جَزَمَتْ بِهَا قَطْعًا وَلَـ ... ـكِنْ حَظُّهَا فِي حَيِّزِ الإِمْكَانِ

٥٦٧٧- مَا ذَاكَ قَطْعِيًّا لَهَا وَالحَاصِلُ الـ ... ـمَوْجُودُ مَشْهُودٌ بِرَأْيِ عِيَانِ

صحيحٌ، فما قاله المؤلِّفُ فِيمَنْ تَعَلَّقَ قلبُه بغيرِ الله فإنَّه لن يستقرَّ أبدًا.

٥٦٧٨- فَتَأَلَّفَتْ مِنْ بَيْنِ شَهْوَتِهَا وَشُبْـ ... ـهَتِهَا قِيَاسَاتٌ مِنَ البُطْلانِ

قَوْلُهُ: «مِنْ بَيْنِ شَهْوَتِهَا»؛ أي: هواها.

قَوْلُهُ: «وَشُبْهَتِهَا»؛ أي: جهلِها.

يعني: تَوَلَّدَ من هَوَى النَّفسِ وجهلِها قياساتٌ من البطلانِ؛ أي: أقيسةٌ باطلةٌ في أنَّ هذا هو الأَوْلَى وهذا هو الأَوْلَى، كما فُضِّلَت الدُّنيا على الآخرةِ.

٥٦٧٩- وَاسْتَنْجَدَتْ مِنْهَا رِضًا بِالعَاجِلِ الْـ ... أَدْنَى عَلَى المَوْعُودِ بَعْدَ زَمَانِ

قَوْلُهُ: «بِالعَاجِلِ الأَدْنَى»، «العاجل الأدنى» هو: الدُّنيا.

قَوْلُهُ: «المَوْعُودِ بَعْدَ زَمَانِ»؛ أي: الآخرة.

٥٦٨٠- وَأَتَـى مِـنَ التَّأْوِيـلِ كُـلُّ مُلائِـمٍ لِـــمُرَادِهَا يَــا رِقَّــةَ الإِيــمَانِ

يعني: أنَّها تَبِعَتْ كُلَّ ما يلائِمُها؛ بسبب: ما عندها من هذه التَّأويلاتِ والأقيسةِ الفاسدةِ، ونَسِيَت الآخرةَ.

٥٦٨١- وَصَغَتْ إِلَى شُبُهَاتِ أَهْلِ الشِّرْكِ وَالتْـ ـتَعْطِيلِ مَعْ نَقْـصٍ مِـنَ العِرْفَـانِ

٥٦٨٢- وَاسْتَنْقَصَتْ أَهْلَ الـهُدَى وَرَأَتْهُمُ فِي النَّـاسِ كَالغُرَبَـاءِ فِي البُلْـدَانِ

قَوْلُهُ: «وَرَأَتْهُمُ»، وفي نسخةٍ: «وَرَأَيْتُهُمْ».

هذا هو الواقعُ على كثيرٍ من النَّاسِ اليوم، يستنقصون أهلَ الخيرِ وأهلَ الهُدَى وأهلَ الحقِّ، ويقولُ: هذا غريبٌ لا يعرفُ النَّاسَ، ولا يعرفُ أحوالَهم، هذا أَبْلَهٌ، هذا درويشٌ، وما أشبه ذلك.

٥٦٨٣- وَرَأَتْ عُقُولَ النَّاسِ دَائِـرَةً عَـلَى جَمْعِ الـحُطَامِ وَخِدْمَـةِ السُّـلْطَانِ

قَوْلُهُ: «جَمْعِ الـحُطَامِ»؛ أي: الدُّنيا.

قَوْلُهُ: «وَخِدْمَةِ السُّلْطَانِ»؛ بأنْ يكونوا حول السُّلطانِ؛ لأنَّهم يزعُمون أنَّهم إذا كانوا حوله فإنَّهم ينالون بذلك شَرَفًا وعلوًّا.

٥٦٨٤- وَعَلَى المَلِيحَةِ وَالمَلِيحِ وَعِشْـرَةِ الــ أَحْبَـابِ وَالأَصْـحَابِ وَالإِخْـوَانِ

المليحةُ؛ يعني: الأنثى، والمليحُ؛ يعني: الذَّكرَ، ولا شكَّ أنَّ الإنسانَ إذا كان له أبناءٌ وبناتٌ أنَّه يَميلُ إلى المليحةِ والمليح أكثرَ من غيرِه، هذا إذا حملنا هذا الكلامَ على الشَّيءِ المباحِ، أمَّا إذا كانت المليحةُ؛ يعني: المرأَةَ المليحةَ، والمليحُ؛ يعني: الأمردَ المليحَ، فالمسألة موجودةٌ، فلا نقولُ: إنَّ كلامَ ابنِ القيِّمِ -رحمه الله- أمرٌ

فَرْضِيٌّ، بل هو أمرٌ واقعٌ؛ فإنَّ كثيرًا من النَّاسِ ابتُلوا بهذا الأمرِ، نسأَلُ اللهَ العافيةَ، فتجده قد أَنْعَمَ اللهُ عليه بزوجةٍ صالحةٍ خِلْقَةً وخُلُقًا، ومع ذلك قد ابتُلِيَ بالنَّظرِ إلى مَنْ سواها.

فالنِّساءُ ليس لهنَّ هَمٌّ إلَّا بطلبِ المليحِ، والرِّجالُ ليس لهم هَمٌّ إلَّا بطلبِ المليحةِ من النِّساءِ، وعشرةِ الأحبابِ والأصحابِ والإخوانِ.

٥٦٨٥- فَاسْتَوْعَرَتْ تَرْكَ الجَمِيعِ وَلَمْ تَجِدْ عِوَضًا تَلَذُّ بِهِ مِنَ الإِحْسَانِ

يعني: رأت أنَّ هجرَ الجميعِ صَعْبًا؛ لأنَّها لم تجد بدلَه عِوَضًا، ولو وَجَدَتْ بدلَه عوضًا؛ وهو الاقتصارُ على محبَّةِ الله عزَّ وجلَّ، واللُّجوءِ إليه ورجائِه والخوفِ من عقابِه ما همَّها كُلُّ هذا.

٥٦٨٦- فَالقَلْبُ لَيْسَ يَقَرُّ إِلَّا في إِنَا ءٍ فَهْوَ دُونَ الجِسْمِ ذُو جَوَلانِ

قَوْلُهُ: «**فَالقَلْبُ لَيْسَ يَقَرُّ إِلَّا في إِنَاءٍ**» سبحان الله! هذه حكمةٌ عظيمةٌ «**القَلْبُ لا يَقَرُّ إِلَّا في إِنَاءٍ**»، لكن ما هذا الإناءُ الذي يَقَرُّ فيه؟ الجوابُ: قد يكونُ إناءَ خيرٍ وقد يكونُ إناءَ شرٍّ.

قَوْلُهُ: «**فَهْوَ دُونَ الجِسْمِ ذُو جَوَلَانِ**»، وهذا صحيحٌ مطابقٌ للواقعِ، نحن الآن جالسون هنا، وقلوبُ بعضِنا في الشَّرقِ وأخرى في الغربِ، فالقلبُ يتجوَّلُ والبدنُ في مكانٍ واحدٍ؛ ولهذا يقولُ: «**فَهْوَ دُونَ الجِسْمِ ذُو جَوَلَانِ**»، فالقلبُ يتجوَّلُ؛ ولهذا جاء في الحديثِ الصَّحيحِ: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ**»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، رقم (٢١٤٠).

٥٦٨٧- يَبْغِـي لَـهُ سَـكَنًا يَلَـذُّ بِقُرْبِـهِ فَـتَرَاهُ شِـبْهَ الوَالِـهِ الـحَيْرَانِ

الوَالِهُ هو: المتحيِّرُ، والحيرانُ توكيدٌ.

٥٦٨٨- فَيُحِـبُّ هَـذَا ثُـمَّ يَهْـوَى غَـيْرَهُ فَيَظَـلُّ مُنْـتَقِلًا مَـدَى الأَزْمَـانِ

ثُمَّ ضَرَبَ مَثَلًا؛ فقال:

٥٦٨٩- لَـوْ نَـالَ كُـلَّ مَلِيحَـةٍ وَرِيَاسَـةٍ لَـمْ يَطْمَـئِنَّ وَكَـانَ ذَا دَوَرَانِ

لو نالَ كُلَّ مليحةٍ وكُلَّ رئاسةٍ تمنَّى أحسنَ من هذه المليحةِ وأوسعَ من الرِّئاسةِ، قال: أنا -مثلًا- أميرٌ على هذه القطعةِ من الأرضِ، لَيْتَنِي مثلُ فلانٍ، فإنَّه أميرٌ على منطقةٍ كبيرةٍ، وقال: لَيْتَ عندي امرأةً أجملَ من هذه؛ لأنَّ التي عندي كبيرةٌ في السِّنِّ، تجعَّد شعرُها، وأريدُ شابَّةً، مع أنَّ هذه كانت بالأوَّل شابَّةً قد أَرْضَتْهُ، لكن تغيَّرت الحالُ، فهو يطلبُ أحسنَ منها.

٥٦٩٠- بَلْ لَـوْ يَنَـالُ بِأَسْرِهَـا الـدُّنْيَا لَـمَا قَـرَّتْ بِـهَا قَـدْ نَالَـهُ العَيْنَـانِ

صَدَقَ رحمه اللهُ، لو يُعْطَى الدُّنيا كُلَّها لَبَغَى دنيا أعظمَ منها، فلا يستقرُّ، لكن ما الذي يستقرُّ فيه القلبُ؟ قال:

٥٦٩١- نَقِّلْ فُؤَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الهَوَى وَاخْتَرْ لِنَفْسِـكَ أَحْسَـنَ الإِنْسَـانِ

قَوْلُهُ: «وَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ أَحْسَنَ الإِنْسَانِ»؛ يعني: أن تكونَ أحسنَ بني آدمَ.

٥٦٩٢- فَالقَلْـبُ مُضْـطَرٌّ إِلَى مَحْبُوبِـهِ الــ أَعْـلَى فَـلا يُغْنِيـهِ حِـبٌّ ثَـانِ

قَوْلُهُ: «مَحْبُوبِهِ الأَعْلَى» مَنِ المحبوبُ الأعلى؟ اللهُ جلَّ وعلا، نسألُ اللهَ أن يجعلَنا وإيَّاكم ممَّن ملأَ قلبَه محبَّةُ الله.

قَوْلُهُ: «حِبٌّ ثَانِ» «حِبٌّ» بالكسرِ؛ يعني: محبوبَه، ومنه قولُهم: «**أسامةُ ابنُ زيد بن حارثةَ حِبُّ رسولِ الله -صلى الله عليه وسلم- وابنُ حِبِّه**»، فحِبٌّ ثَانِي؛ أي: محبوبٌ آخرُ.

٥٦٩٣- وَصَلاحُهُ وَفَلاحُهُ وَنَعِيمُهُ ... تَجْرِيدُ هَذَا الحُبِّ لِلرَّحْمَنِ

صَدَقَ رحمه اللهُ؛ الذي يريدُ الفلاحَ والسَّعادةَ والهناءَ والرَّاحةَ فَلْيُجَرِّدْ حُبَّه لله يسترِحْ ويطمئنَّ؛ لأنَّه لا يهمُّه أحدٌ، ويُحِبُّ الغيرَ؛ يُحِبُّه لله، وفي الله، ولا يُحِبُّه مع الله؛ بحيث تُزَاحِمُ محبَّتُه لهذا المخلوقِ محبَّةَ الله؛ لأنَّ هذا نوعٌ من الشِّركِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٦].

ويُوجَدُ بعضُ النِّساءِ -كما نسمعُ من الأسئلةِ- تُحِبُّ زوجَها حُبًّا شديدًا، أحيانًا تبوحُ بما في قلبِها، تقولُ: أنت عندي أحبُّ من كُلِّ شيءٍ حتَّى من الله؛ لأنَّ القلبَ -والعياذُ بالله- إذا امتلأ بحبِّ المخلوقِ نَسِيَ كُلَّ شيءٍ، لكن إذا امتلأ بحبِّ الله ذَكَرَ كُلَّ شيءٍ، وصار يسيرُ على هُدًى من الله ونورٍ، لا يُحِبُّ إلَّا لله، ولا يكرهُ إلَّا لله، ولا يُوَالِي إلَّا لله، ولا يُعَادِي إلَّا لله، ولهذا أنا أدعو نفسي وإيَّاكم إلى إخلاصِ المحبَّةِ لله عزَّ وجلَّ، اجعلوا ربَّكم أحبَّ شيءٍ إليكم حتَّى تُحِبُّوا مَنْ يحبُّه اللهُ، وتكرهوا مَنْ يكرهُه اللهُ وتستريحوا، أمَّا المحبَّةُ المَبْنِيَّةُ على ما في الدُّنيا فهي في الحقيقةِ مُتْعِبَةٌ، وكما قال بعضُهم: «**عذبُ الحُبِّ عذابٌ**» إلَّا من الله عزَّ وجلَّ، فإنَّ محبَّتَه راحةٌ في القلبِ وسكونٌ للقلبِ.

وليس معنى ذلك أنَّك لا تُحِبُّ أحدًا إذا أَحْبَبْتَ اللهَ عزَّ وجلَّ، بالضَّرورةِ إذا أَحْبَبْتَ اللهَ سوف تُحِبُّ مَنْ يحبُّه اللهُ، ولهذا جاء في الحديثِ: «**رَجُلَانِ تَحَابَّا في الله**

اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ»(١)، ضرورة أن تُحِبَّ مَنْ يحبُّه اللهُ، لكن محبَّتُك لمن يُحِبُّه اللهُ تابعةٌ لمحبَّةِ الله، وحينئذٍ لا يمكنُ أن تزاحمَها، بل هي فرعٌ عنها؛ ولهذا تجدك تُحِبُّ هذا المرءَ ما دامَ أهلًا للحُبِّ في الله، فإذا انحرفَ -والعياذُ بالله- فإنَّك ستكرهُه، لا تحبُّه، لابُدَّ أن تكرَهه، إِذَنْ املأ قلبَك بمحبَّةِ الله تَسْتَرِحْ، حتَّى تكونَ أقوالُك وأفعالُك ومشيُك ومجيئُك وقعودُك ونومُك كُلُّه نافعًا لك؛ لأنَّك تستحضرُ أنَّك تفعلُه لله عزَّ وجلَّ.

٥٦٩٤- فَإِذَا تَخَلَّى مِنْهُ أَصْبَحَ حَائِرًا ... وَيَعُودُ فِي ذَا الكَوْنِ ذَا هَيَمَانِ

قَوْلُهُ: «فَإِذَا تَخَلَّى مِنْهُ»؛ أي: تخلَّى من حُبِّ الرَّحمنِ عزَّ وجلَّ.

صحيحٌ، إذا خلا قلبُه من محبَّةِ الله صَارَ حائرًا هائمًا، مرَّةً هنا، ومرَّةً هنا، ومرَّةً هنا.

فعليكم بتجريدِ المحبَّةِ لله، وأيضًا عَظِّموا اللهَ عزَّ وجلَّ؛ فبالمحبَّةِ يكونُ فعلُ الطَّاعةِ، وبالتَّعظيمِ يكونُ تركُ المعصيةِ؛ لأنَّك إذا عَلِمْتَ عظمةَ الرَّبِّ هِبْتَه وخِفْتَ من معصيتِه، وإذا أَحْبَبْتَهُ رَغِبْتَ فيه وَطَلَبْتَهُ؛ ولهذا لا يمكنُ أن تتمَّ العبادةُ إلَّا على هذين الأساسين: المحبَّةِ والتَّعظيمِ، ولا تُقْبَلُ ولا تصحُّ إلَّا بشرطين أساسين أيضًا؛ وهما: الإخلاصُ لله، والمتابعةُ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فهناك مَبْنَى أصل، وهناك مُصَحِّحٌ، ما هو المَبْنَى الأصلُ؟ الحبُّ والتَّعظيمُ، الحُبُّ والتَّعظيمُ هو مَبْنَى العبادةِ، بالحُبِّ تكونُ الطَّاعةُ وفعلُ الأوامرِ طلَبًا لهذا المحبوبِ، لو قال لك مَنْ تُحِبُّ من البشرِ: «**افعل كذا، افعل كذا**»، على قَدْرِ محبَّتِك

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، رقم (٦٦٠). ومسلم: كتاب الكسوف، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١).

يكونُ امتثالُك وطاعتُك، إذا كنت تحبُّه لو يدعوك باللَّيلةِ الظَّلماءِ أَجَبْتَ، لو يقولُ: نَم فوقَ السَّطحِ في اللَّيلةِ الثَّالجةِ نِمْتَ؛ لأنَّك تُحِبُّه وتطلبُ الوصولَ إليهِ وإلى رضاه، لكن إذا لم يكن في قلبِك تعظيمٌ له لا يهمُّك أن تعصيَه؛ لأنَّك آمِنٌ، أمَّا إذا كان محبَّةٌ وتعظيمٌ فإنَّك لن تعودَ عاصيًا له؛ ولهذا لا تقومُ العبادةُ لله عزَّ وجلَّ إلَّا على هذين الأساسين، ولا تصحُّ إلَّا بشرطين أساسين أيضًا؛ هما: الإخلاصُ والمتابعةُ.

والحقيقةُ: لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ لكَتَبْتُ مثل هذه الأبياتِ من النُّونيَّةِ؛ لأنَّ هذه في الحقيقةِ جواهرُ قد تعدلُ كُلَّ النُّونيَّةِ، كُلُّ ما سَبَقَ من خلافات المعطِّلةِ والمعتزلةِ وغيرِهم، هذه في الحقيقةِ في فصولِ مَا أَعَدَّ اللهُ من الكرامةِ لأهلِ الجنَّةِ، فهو -رحمه اللهُ تعالى- ذَكَرَ أبياتًا عظيمةً تنفعُك في السَّيرِ إلى الله عزَّ وجلَّ، نسألُ اللهَ أن يلهمَنا وإيَّاكم الرَّشادَ والسَّدادَ.

* * *

فصــل

في زُهْدِ أَهْلِ العِلْمِ والإِيمَانِ وَإِيْثَارِهِمُ الذَّهَبَ البَاقِيَ عَلَى الخَزَفِ الفَانِي

٥٦٩٥- لَكِـنَّ ذَا الإِيـمَانِ يَعْلَـمُ أَنَّ هَــ ـــذَا كَـالظِّلالِ وَكُـلُّ هَـذَا فَـانِ
٥٦٩٦- كَخَيَـالِ طَيْـفٍ مَـا اسْتَتَمَّ زِيَـارَةً إِلَّا وَصُـبْحُ رَحِيلِـهِ بِـأَذَانِ
٥٦٩٧- وَسَـحَابَةٍ طَلَعَـتْ بِيَـوْمٍ صَـائِفٍ فَالظِّـلُّ مَنْسُـوخٌ بِقُـرْبِ زَمَـانِ
٥٦٩٨- وَكَزَهْـرَةٍ وَافَى الرَّبِيـعُ بِحُسْـنِهَا أَوْ لامِعًـا فَكِلاهُمَـا أَخَـوَانِ
٥٦٩٩- أَوْ كَالسَّـرَابِ يَلُـوحُ لِلظَّمْـآنِ فِي وَسَطِ الـهَجِيرِ بِمُسْتَوَى القِيعَـانِ
٥٧٠٠- أَوْ كَالأَمَـانِي طَـابَ مِنْهَـا ذِكْرُهَـا بِـالقَوْلِ وَاسْتِحْضَـارُهَا بِجِنَـانِ
٥٧٠١- وَهِيَ الغُرُورُ رُؤُوسُ أَمْـوَالِ المَفَـا لِـيسِ الأُلَى اتَّجَـرُوا بِـلا أَثْـمَانِ
٥٧٠٢- أَوْ كَالطَّعَـامِ يَلَـذُّ عِنْـدَ مَسَـاغِهِ لَكِـنَّ عُقْبَـاهُ كَـمَا تَجِـدَانِ
٥٧٠٣- هَذَا هُوَ المَثَلُ الَّذِي ضَرَبَ الرَّسُـو لُ لَـهَا وَذَا فِي غَايَـةِ التِّبْيَـانِ

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلٌ فِي زُهْدِ أَهْلِ العِلْمِ وَالإِيمَانِ، وَإِيثَارِهِمُ الذَّهَبَ البَاقِي عَلَى الخَزَفِ الفَانِي» هذا زهدٌ وورعٌ منهم، والفرقُ بينهما: أنَّ الزُّهدَ تركُ ما لا ينفعُ في الآخرةِ، والورعَ تركُ ما يضرُّ في الآخرةِ، والواسطةُ بينهما: ما لا نفعَ فيه ولا ضررَ،

فالزَّاهدُ يتركُه والوَرِعُ لا يتركُه، هذا هو الفرقُ بينهما.

وأمَّا قَوْلُهُ: «الخَزَف، وَالذَّهَب» فالفرقُ بينهما: أنَّ الخزفَ من الطِّينِ المشويِّ، وأمَّا الذَّهبُ فمعروفٌ.

٥٦٩٥- لَكِنَّ ذَا الإِيمَانِ يَعْلَمُ أَنَّ هَـ ـذَا كَالظِّلالِ وَكُلُّ هَذَا فَانِ

أصحابُ الإيمانِ يعلمون أنَّ ما ذُكِرَ من وصفِ الدُّنيا أنَّ هذا كالظِّلالِ، ونحن نعلمُ جميعًا أنَّ الظِّلَّ يزولُ، كُلَّما ارتفعت الشَّمسُ زالَ حتَّى ينمحي كالظِّلالِ، وكُلُّ هذا فانٍ.

٥٦٩٦- كَخَيَالِ طَيْفٍ مَا اسْتَتَمَّ زِيَارَةً إِلَّا وَصُبْحُ رَحِيلِهِ بِأَذَانِ

خيالُ الطَّيْفِ؛ يعني: أنَّ الإنسانَ تخيَّل طائفًا به، أو أنَّ طائفًا طَافَ به، ثُمَّ في مدَّةٍ يسيرةٍ صار صبحُ رحيلِه بأذانٍ؛ أي: بإعلانٍ، فقيل له: ارحل، فما تمَّت الزِّيارةُ إلَّا وقِيلَ له: ارحلْ.

٥٦٩٧- وَسَحَابَةٍ طَلَعَتْ بِيَوْمٍ صَائِفٍ فَالظِّلُّ مَنْسُوخٌ بِقُرْبِ زَمَانِ

سحابةُ الصَّيفِ المعروفُ أنَّها سريعةُ الجري، وأنَّ ظِلَّها مع حرارةِ الشَّمسِ مفيدٌ جدًّا، لكن سحابةُ الشِّتاءِ لا يُسْتَفادُ من ظلِّها كثيرًا؛ لأنَّ الصَّحوَ قد يكونُ أفضلَ من ظلِّها، لكن سحابةُ الصَّيفِ لذيذةٌ، وهي أيضًا سريعةٌ تزولُ سريعًا، هكذا الدُّنيا كذلك كما جاء وصفُها.

٥٦٩٨- وَكَزَهْرَةٍ وَافَى الرَّبِيعُ بِحُسْنِهَا أَوْ لامِعًا فَكِلاهُمَا أَخَوَانِ

الزَّهرةُ في الرَّبيعِ تكونُ حسنةً متفتِّحةً رطبةً، لكن إذا جاء الصَّيفُ زالت كُلُّها، كذلك تكونُ لامعةً، ثُمَّ بعد ذلك تذبلُ وتزولُ.

٥٦٩٩- أَوْ كَالسَّـرَابِ يَلُوحُ لِلظَّمْآنِ فِي وَسَطِ الهَجِيرِ بِمُسْتَوَى القِيعَانِ

قَوْلُهُ: «القِيعَانِ» جمعُ «قاع»؛ وهو: الأرضُ المستويةُ.

إذا كنت في قاعٍ واسعٍ تظنُّ أنَّ هذا القاعَ ماءٌ ولكنَّه سرابٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور:٣٩]، وإذا خَرَجْتَ في أيَّامِ الصَّيفِ وجاء الهجيرُ -وهو: وسطُ النَّهارِ- وَرَأَيْتَ القيعانَ تظنُّ أنَّها ماءٌ، وليست كذلك، فإذا كان الإنسانُ في حرارةِ الشَّمسِ وفي يبس الكبدِ وفي العطشِ الشَّديدِ تجدُه يَفِرُّ من هنا ومن هنا لهذه القيعانِ يظنُّ أنَّها ماءٌ، فإذا هي ليست بشيءٍ، هكذا الدُّنيا وغرورُها.

٥٧٠٠- أَوْ كَالأَمَانِي طَابَ مِنْهَا ذِكْرُهَا بِالقَوْلِ وَاسْتِحْضَارُهَا بِجِنَانِ

قَوْلُهُ: «طَابَ مِنْهَا ذِكْرُهَا بِالقَوْلِ»؛ أي: باللِّسانِ.

قَوْلُهُ: «وَاسْتِحْضَارِهَا» يجوزُ بالجرِّ، ويجوزُ بالرَّفعِ.

قَوْلُهُ: «بِجَنَانِ»؛ أي: بالقلبِ.

من التَّمنِّي أن يُفَكِّرَ الإنسانُ أحيانًا؛ فيقولُ: سأفعلُ، سأكونُ كذا، سأنجحُ، ثُمَّ آخُذُ المرتبةَ العاشرةَ، ثُمَّ بعد ذلك أصيرُ مدرسًا، وإن كان يَهْوَى القضاءَ يقولُ: أصيرُ قاضيًا، أو أصيرُ وزيرًا... إلى آخرِه، فالدُّنيا هكذا.

٥٧٠١- وَهِيَ الغُرُورُ رُؤُوسُ أَمْوَالِ المَفَا لِيسِ الأُلَى اتَّجَرُوا بِلا أَثْمَانِ

هذا المَثَلُ معروفٌ عندنا، لكن حتَّى في زمنِ المؤلِّفِ، عندنا مَثَلٌ يقولُ: «التَّمَنِّي رأسُ مالِ المفاليس»، والمُتَّجِرُ بلا أثمانٍ أين له الرِّبحُ؟!

٥٧٠٢- أَوْ كَالطَّعَامِ يَلَذُّ عِنْدَ مَسَاغِهِ ... لَكِنَّ عُقْبَاهُ كَمَا تَجِدَانِ

قَوْلُهُ: «لَكِنَّ عُقْبَاهُ كَمَا تَجِدَانِ»؛ يعني: عقباه وخيمةٌ.

الإنسانُ يأكلُ طعامًا لذيذًا فتجدُه يملأُ بطنَه منه، ثُمَّ يعودُ هذا الطَّعامُ إلى تخمةٍ وأذًى، وإلى بولٍ وغائطٍ، وربَّما إلى ضررٍ، لكنَّه عند أكلِه كان يتلذَّذُ به، فأوَّلُ ما تأكلُه لذيذُ الطَّعمِ، طيِّبُ الرَّائحةِ، وعلى خِوانٍ، وآخرُ الأمرِ في المراحيضِ منتنُ الرَّائحةِ.

٥٧٠٣- هَذَا هُوَ المَثَلُ الَّذِي ضَرَبَ الرَّسُو ... لُ لَهَا وَذَا فِي غَايَةِ التِّبْيَانِ

قَوْلُهُ: «هَذَا هُوَ المَثَلُ» يحتملُ أنَّ المرادَ به: آخرُ مَثَلٍ، فتكونُ الإشارةُ تعودُ إلى أقربِ مذكورٍ كالضَّميرِ يعودُ إلى أقربِ مذكورٍ، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ: هذا جنسُ الأمثالِ السَّابقةِ.

يعني: هذه الأمثالُ ضَرَبَهَا الرَّسولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- لهذه الدُّنيا.

***

٥٧٠٤- وَإِذَا أَرَدْتَ تَرَى حَقِيقَتَهَا فَخُذْ ... مِنْهُ مِثَالًا وَاحِدًا ذَا شَانِ

٥٧٠٥- أَدْخِلْ بِجُهْدِكَ إِصْبَعًا فِي اليَمِّ وَانْـ ... ـظُرْ مَا تَعَلَّقُهُ إِذًا بِعِيَانِ

٥٧٠٦- هَذَا هُوَ الدُّنْيَا كَذَا قَالَ الرَّسُو ... لُ مُمَثِّلًا وَالحَقُّ ذُو تِبْيَانِ

٥٧٠٧- وَكَذَاكَ مَثَّلَهَا بِظِلِّ الدَّوْحِ فِي ... وَقْتِ الحَرُورِ لِقَائِلِ الرُّكْبَانِ

٥٧٠٨- هَذَا وَلَوْ عَدَلَتْ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ... عِنْدَ الإِلَهِ الحَقِّ فِي المِيزَانِ

٥٧٠٩- لَمْ يَسْقِ مِنْهَا كَافِرًا مِنْ شَرْبَةٍ ... مَاءً وَكَانَ أَحَقَّ بِالحِرْمَانِ

٥٧١٠- تَـاللهِ مَـا عَقَـلَ امْـرُؤٌ قَـدْ بَـاعَ مَـا ... يَبْقَـى بِـمَا هُـوَ مُضْـمَحِلٌّ فَـانِ

٥٧١١- هَذَا وَيُفْتِي ثُـمَّ يَقْضِـي حَاكِـمًا ... بِالـحَجْرِ مِـنْ سَـفَهٍ لِـذَا الإِنْسَـانِ

٥٧١٢- إِذْ بَـاعَ شَـيْئًا قَـدْرُهُ فَـوْقَ الَّـذِي ... يَعْتَاضُـهُ مِـنْ هَـذِهِ الأَثْـمَانِ

٥٧١٣- فَمَـنِ السَّـفِيهُ حَقِيقَـةً إِنْ كُنْـتَ ذَا ... عَقْـلٍ وَأَيْـنَ العَقْـلُ لِلسَّـكْرَانِ

٥٧١٤- وَاللهِ لَـوْ أَنَّ القُلُـوبَ شَـهِدْنَ مِنْـ ... ـنَـا كَـانَ شَـأْنٌ غَـيْرُ هَـذَا الشَّـانِ

٥٧١٥- نَفَسٌ مِنَ الأَنْفَاسِ هَذَا العَـيْشُ إِنْ ... قِسْـنَاهُ بِـالعَيْشِ الطَّوِيـلِ الثَّـانِي

٥٧١٦- يَا خِسَّةَ الشُّرَكَاءِ مَعْ عَـدَمِ الوَفَـا ... ءِ وَطُولِ جَفْوَتِهَـا مِـنَ الـهِجْرَانِ

٥٧١٧- هَـلْ فِيـكَ مُعْتَـبَرٌ فَيَسْـلُو عَاشِـقٌ ... بِمَصَـارِعِ العُشَّـاقِ كُـلَّ زَمَـانِ

٥٧١٨- لَكِـنْ عَـلَى تِلْـكَ العُيُـونِ غِشَـاوَةٌ ... وَعَـلَى القُلُـوبِ أَكِنَّـةُ النِّسْـيَانِ

الشـرحُ

هذه الأبياتُ يريدُ بها المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- بيانَ حقيقةِ الدُّنيا ونسبتِها إلى الآخرةِ، يقولُ رحمه اللهُ:

٥٧٠٤- وَإِذَا أَرَدْتَ تَـرَى حَقِيقَتَهَـا فَخُـذْ ... مِنْـهُ مِثَـالًا وَاحِـدًا ذَا شَـانِ

٥٧٠٥- أَدْخِلْ بِجُهْدِكَ إِصْبَعًا فِي اليَمِّ وَانْـ ... ـظُرْ مَـا تَعَلَّقُـهُ إِذًا بِعِيَـانِ

٥٧٠٦- هَذَا هُـوَ الـدُّنْيَا كَـذَا قَـالَ الرَّسُـو ... لُ مُـمَثِّلًا وَالحَـقُّ ذُو تِبْيَـانِ

إذا أَردتَ نسبةَ الدُّنيا إلى الآخرةِ فاغمسْ أصبعَك في اليمِّ -يعني: في البحرِ- وانظر بِمَ يرجعُ؟ الجوابُ: لا يرجعُ بشيءٍ بالنِّسبةِ للبحرِ، فهكذا نسبةُ

الدُّنيا إلى الأخرى، وقد روى الإمامُ أحمدُ -رحمه اللهُ- من حديث سهل بن سعدٍ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «لَـمَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(١).

٥٧٠٧- وَكَـذَاكَ مَثَّلَهَـا بِظِـلِّ الـدَّوْحِ فِي ... وَقْـتِ الـحَرُورِ لِقَائِـلِ الرُّكْبَـانِ

قَوْلُهُ: «مَثَّلَهَا»؛ يعني: النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ: «الدَّوحِ» الدَّوحة: شجرةٌ كبيرةٌ استظلَّ بها الرَّاكبُ عن الحرِّ فقط، ثُمَّ قَامَ وتَرَكَهَا.

قَوْلُهُ: «لِقَائِلِ»؛ أي: الذي نَامَ في القائلةِ.

٥٧٠٨- هَذَا وَلَـوْ عَـدَلَتْ جَنَـاحَ بَعُوضَـةٍ ... عِنْـدَ الإِلَـهِ الحَـقِّ فِي المِيـزَانِ

٥٧٠٩- لَـمْ يَسْقِ مِنْهَـا كَـافِرًا مِـنْ شَرْبَـةٍ ... مَـاءً وَكَـانَ أَحَـقَّ بِالـحِرْمَانِ

وصدَق رحمه اللهُ، لو أنَّ الدَّنيا تُساوي جَنَاحَ بَعُوضةٍ عند الله ما سقى منها أعداءَه شربةَ ماءٍ.

٥٧١٠- تَـاللهِ مَـا عَقَـلَ امْـرُؤٌ قَـدْ بَـاعَ مَـا ... يَبْقَـى بِـمَا هُـوَ مُضْـمَحِلٌّ فَـانِ

أقسم بأنَّ العقلَ مُنْتَفٍ عن شخصٍ بَاعَ الذي يَبْقَى بالذي هو فانٍ.

٥٧١١- هَذَا وَيُفْتِـي ثُـمَّ يَقْضِـي حَاكِـمًا ... بِالـحَجْرِ مِـنْ سَـفَهٍ لِـذَا الإِنْسَـانِ

يعني: هذا الذي باع ما يَبْقَى بما يَفْنَى تجدُه يُفْتِي وَيقْضِي على السَّفيهِ بالحَجْرِ والمنعِ من التَّصرُّفِ في مالِهِ إذا كان دَيْنُهُ أكثرَ من مالِه، فكيف لا تحجرُ على نفسِك وتمنعُها من الانهماكِ في الدُّنيا؟! فهذا هو السَّفهُ في الواقعِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢).

ثُمَّ ذكَرَ وجهَ القضاءِ بالحَجْرِ؛ فقال:

٥٧١٢- إِذْ بَـاعَ شَـيْئًا قَـدْرُهُ فَـوْقَ الَّـذِي يَعْتَاضُـهُ مِـنْ هَـذِهِ الأَثْـمَانِ

فيقولُ: هذا هو السَّفيهُ، قال ابنُ القيِّمِ:

٥٧١٣- فَمَـنِ السَّـفِيهُ حَقِيقَـةً إِنْ كُنْـتَ ذَا عَقْـلٍ وَأَيْـنَ العَقْـلُ لِلسَّـكْرَانِ

هل السَّفيهُ الذي بَاعَ الآخرةَ بالدُّنيا، أو الذي باع الدُّنيا بالآخرةِ؟ الجوابُ: الأوَّلُ، الذي اعْتَاضَ الدُّنيا وتَرَكَ الآخرةَ هو السَّفيهُ، والذي اعْتَاضَ الآخرةَ عن الدُّنيا هو العاقلُ الرَّشيدُ.

٥٧١٤- وَاللهِ لَـوْ أَنَّ القُلُـوبَ شَـهِدْنَ مِنْـ ـنَـا كَـانَ شَـأْنٌ غَـيْرُ هَـذَا الشَّـانِ

يعني: لو حضرت القلوبُ وتأمَّلَ الإنسانُ وتَفَكَّرَ لكان شأنٌ آخرُ غيرُ هذا الشَّأنِ.

٥٧١٥- نَفَسٌ مِنَ الأَنْفَاسِ هَذَا العَـيْشُ إِنْ قِسْـنَاهُ بِـالعَيْشِ الطَّوِيـلِ الثَّـانِي

والنَّفَسُ -كما نعلمُ- قليلٌ جدًّا بالنِّسبةِ لزمانِ الدُّنيا، فضلًا عن زمانِ الآخرةِ.

٥٧١٦- يَا خِسَّةَ الشُّرَكَاءِ مَـعْ عَـدَمِ الوَفَـا ءِ وَطُولِ جَفْوَتِهَـا مِـنَ الـهِجْرَانِ

يقول: ما أخسَّ الشُّركاءَ إذا لم يكن وفاءٌ وطالت الجفوةُ مع الهِجْرَانِ! فإنَّهُ إذا لم يكن وفاءٌ وطالت الجفوةُ مع الهِجرانِ للشُّركاءِ فإنَّه لا شكَّ أنَّهم شركاءُ رغبوا بالأدنى عن الأعلى.

٥٧١٧- هَـلْ فِيـكَ مُعْتَـبَرٌ فَيَسْـلُو عَاشِـقٌ بِمَصَـارِعِ العُشَّـاقِ كُـلَّ زَمَـانِ

قَوْلُهُ: «هَلْ فِيكَ مُعْتَبَرٌ؟» الاستفهامُ هنا: للتَّشويقِ.

يعني: هل أحدٌ منكم يعتبرُ بعشَّاقِ الدُّنيا كيف صَرَعَتْهُم ولم يستفيدوا منها شيئًا؟!

٥٧١٨- لَكِنْ عَلَى تِلْكَ العُيُونِ غِشَاوَةٌ وَعَلَى القُلُوبِ أَكِنَّةُ النِّسْيَانِ

يعني: التَّركَ، فالعيونُ لا تُبْصِرُ، والقلوبُ لا تذكرُ، فعلى العيونِ غشاوةٌ، وعلى القلوبِ أَكِنَّةُ النِّسيانِ.

* * *

٥٧١٩- وَأَخُو البَصَائِرِ حَاضِرٌ مُتَيَقِّظٌ مُتَفَرِّدٌ عَنْ زُمْرَةِ العُمْيَانِ

٥٧٢٠- يَسْمُو إِلَى ذَاكَ الرَّفِيقِ الأَرْفَعِ الـ أَعْلَى وَخَلَّى اللُّعْبَ لِلصِّبْيَان

٥٧٢١- وَالنَّاسُ كُلُّهُمُ فَصِبْيَانٌ وَإِنْ بَلَغُوا سِوَى الأَفْرَادِ وَالوحدان

٥٧٢٢- وَإِذَا رَأَى مَا يَشْتَهِيهِ قَالَ مَوْ عِدُكَ الجِنَانُ وَجِدَّ فِي الأَثْمَانِ

٥٧٢٣- وَإِذَا أَبَتْ إِلَّا الجِمَاحَ أَعَاضَهَا بِالعِلْمِ بَعْدَ حَقَائِقِ الإِيمَانِ

٥٧٢٤- وَيَرَى مِنَ الخُسْرَانِ بَيْعَ الدَّائِمِ الـ بَاقِي بِهِ يَا ذِلَّةَ الخُسْرَانِ

٥٧٢٥- وَيَرَى مَصَارِعَ أَهْلِهَا مِنْ حَوْلِهِ وَقُلُوبُهُمْ كَمَرَاجِلِ النِّيرَانِ

٥٧٢٦- حَسَرَاتُهَا هُنَّ الوَقُودُ فَإِنْ خَبَتْ زَادَتْ سَعِيرًا بِالوَقُودِ الثَّانِي

٥٧٢٧- جَاؤُوا فُرَادَى مِثْلَ مَا خُلِقُوا بِلا مَالٍ وَلا أَهْلٍ وَلا إِخْوَانِ

٥٧٢٨- مَا مَعْهُمْ شَيْءٌ سِوَى الأَعْمَالِ فَهْـ ـيَ مَتَاجِرٌ لِلنَّارِ أَوْ لِجِنَانِ

٥٧٢٩- تَسْعَى بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ سَوْقًا إِلَى الـدْ دَارَيْنِ سَوْقَ الخَيْلِ بِالرُّكْبَانِ

٥٧٣٠- صَبَرُوا قَلِيلًا فَاسْتَرَاحُوا دَائِمًا ... يَا عِزَّةَ التَّوْفِيقِ لِلإِنْسَانِ

٥٧٣١- حَمِدُوا التُّقَى عِنْدَ المَمَاتِ كَذَا السُّرَى ... عِنْدَ الصَّبَاحِ فَحَبَّذَا الحَمْدَانِ

٥٧٣٢- وَحَدَتْ بِهِمْ عَزَمَاتُهُمْ نَحْوَ العُلَى ... وَسَرَوْا فَمَا نَزَلُوا إِلَى نُعْمَانِ

٥٧٣٣- بَاعُوا الَّذِي يَفْنَى مِنَ الخَزَفِ الخَسِيـ ... ـسِ بِدَائِمٍ مِنْ خَالِصِ العِقْيَانِ

٥٧٣٤- رُفِعَتْ لَهُمْ فِي السَّيْرِ أَعْلَامُ السَّعَا ... دَةِ وَالهُدَى يَا ذِلَّةَ الحَيْرَانِ

٥٧٣٥- فَتَسَابَقَ الأَقْوَامُ وَابْتَدَرُوا لَهَا ... كَتَسَابُقِ الفُرْسَانِ يَوْمَ رِهَانِ

٥٧٣٦- وَأَخُو الهُوَيْنَى فِي الدِّيَارِ مُخَلَّفٌ ... مَعَ شَكْلِهِ يَا خَيْبَةَ الكَسْلَانِ

الشرح

٥٧١٩- وَأَخُو البَصَائِرِ حَاضِرٌ مُتَيَقِّظٌ ... مُتَفَرِّدٌ عَنْ زُمْرَةِ العُمْيَانِ

قَوْلُهُ: «البَصَائِرِ» جمعُ بصيرةٍ، والبصيرةُ بصرُ القلبِ، والبصرُ بصرُ العينِ. فذوو البصائرِ حاضرون متيقِّظون متفرِّدون عن زُمْرَةِ العُمْيَانِ.

٥٧٢٠- يَسْمُو إِلَى ذَاكَ الرَّفِيقِ الأَرْفَعِ الـ ... أَعْلَى وَخَلَّى اللُّعْبَ لِلصِّبْيَان

قَوْلُهُ: «الرَّفِيقِ الأَرْفَعِ الأَعْلَى»؛ الرَّفيقُ الأعلى هو: الجنَّةُ، ونعيمُ الآخرةِ.

قَوْلُهُ: «وَخَلَّى اللُّعْبَ» «اللُّعْب» هو الدُّنيا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد:٣٦].

قَوْلُهُ: «لِلصِّبْيَانِ»؛ يعني بهم: صِبيانَ العقولِ لا صِبيانَ الأعمارِ، فهم شيوخٌ لكنَّ عقولَـهم عقولُ الصِّبْيانِ.

٥٧٢١- وَالنَّـــاسُ كُلُّهُـــمُ فَصِـــبْيَانٌ وَإِنْ   بَلَغُـوا سِـوَى الأَفْـرَادِ وَالوحـدان

قَوْلُهُ: «**وَالنَّاسُ كُلُّهُمُ فَصِبْيَانٌ وَإِنْ بَلَغُوا**»؛ يعني: وإن كبروا.

قَوْلُهُ: «**سِوَى الأَفْرَادِ وَالوِحْدَانِ**»؛ يعني: إلَّا الأفرادَ والوحدان؛ يعني: إلَّا القليلين.

إِذَنْ النَّاسُ كُلُّهم صبيانٌ ولو بلغوا، ولو وصلوا عشرين سنةً أو أكثرَ إلَّا الأفرادَ والوحدانَ، فواحدٌ من الألفِ هو العاقلُ، وتسعُمئةٍ وتسعةٌ وتسعون هم السُّفهاءُ والصِّبيان، وهؤلاء القليلون.

٥٧٢٢- وَإِذَا رَأَى مَـا يَشْـتَهِيهِ قَـالَ مَـوْ   عِـدُكَ الــجِنَانُ وَجِـدَّ فِي الأَثْـمَانِ

إذا رأى ما يَشتَهِيه من الدُّنيا قال: «**مَوْعِدُكِ الجِنَانُ**»، وهذا مَأخوذٌ من كونِ النَّبيِّ ﷺ إذا رأى ما يعجبُه من الدُّنيا يقولُ: «**لَبَّيْكَ إنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَةِ**»[1]، و«**لَبَّيْكَ**»؛ أي: إجابةً لك؛ لأنَّ النَّفسَ قد تطمحُ وتهربُ، فيقولُ: «**لَبَّيْكَ**»؛ يعني: أجبتُك، «**إِنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَةِ**»، أمَّا عَيْشُ الدُّنيا مهما كَانَ فإنَّه عيشٌ زائلٌ لا خيرَ فيه، وما أعظمَ حسرةَ الذين أضاعوا دينَهم بدُنياهم، لكن متى يعلمون الحسرةَ؟

الجوابُ: عند الموتِ، ويومَ القيامةِ؛ كما قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]، نسألُ اللهَ أن يحمينَا وإيَّاكم، وأن يجزيَ شيخَنا ابنَ القيِّمِ -رحمه اللهُ- خيرَ الجزاءِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على القتال، رقم (٢٦٧٩)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم (١٨٠٥).

٥٧٢٣- وَإِذَا أَبَتْ إِلَّا الجِمَاحَ أَعَاضَهَا ... بِالعِلْمِ بَعْدَ حَقَائِقِ الإِيمَانِ

يعني: إنْ أبت نفسُه إلَّا أن تجمحَ ولا تذلَّ فإنَه يُعيضُها بالعلمِ بعدَ حقائقِ الإيمانِ ويرجعُ إلى العلمِ الشَّرعيِّ مع حقيقةِ الإيمانِ، وحينئذٍ يميلُ إلى المنزلِ أو الرَّفيقِ الأعلى.

٥٧٢٤- وَيَرَى مِنَ الخُسْرَانِ بَيْعَ الدَّائِمِ الـ ... ـبَاقِي بِهِ يَا ذِلَّةَ الخُسْرَانِ

٥٧٢٥- وَيَرَى مَصَارِعَ أَهْلِهَا مِنْ حَوْلِهِ ... وَقُلُوبُهُمْ كَمَرَاجِلِ النِّيرَانِ

قَوْلُهُ: «وَيَرَى مَصَارِعَ أَهْلِهَا»؛ أي: الدُّنيا.

قَوْلُهُ: «وَقُلُوبُهُمْ كَمَرَاجِلِ النِّيْرَانِ»؛ يعني: من الحرارةِ والقلقِ وعدمِ الثَّباتِ؛ لأنَّ المِرْجَلَ هو القِدْرُ الذي يفورُ بما يُوقَدُ تحته.

وكُلُّ هذا وصفٌ للدُّنيا، فقلوبُهم ليس فيها فَرَحٌ ولا سُرورٌ، بل مهما ازدانَتْ لهم الحياةُ الدَّنيا فقلوبُهم غيرُ مسرورةٍ كمراجلِ النِّيرانِ.

٥٧٢٦- حَسَرَاتُهَا هُنَّ الوَقُودُ فَإِنْ خَبَتْ ... زَادَتْ سَعِيرًا بِالوَقُودِ الثَّانِي

وكُلُّ هذا وصفٌ للدُّنيا أيضًا؛ يعني: الحسرةُ إذا هانت جاءت حسرةٌ أخرى، فتجدُ صاحبَ الدُّنيا دائمًا في حسرةٍ لما فاته من الرِّبحِ، أو لما حَصَلَ عليه من الخسرانِ.

٥٧٢٧- جَاؤُوا فُرَادَى مِثْلَ مَا خُلِقُوا بِلا ... مَالٍ وَلا أَهْلٍ وَلا إِخْوَانِ

قَوْلُهُ: «جَاؤُوا فُرَادَى» الضَّميرُ يعودُ على أهلِ الدُّنيا، بل وعلى أهلِ الآخرةِ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام:٩٤].

٥٧٢٨- مَا مَعْهُمُ شَيْءٌ سِوَى الأَعْمَالِ فَهْـ ـــيَ مَتَــاجِرٌ لِلنَّــارِ أَوْ لِــجِنَانِ

إن كانت صالحةً فهي متاجرُ للجِنَانِ، وإن كانت سيِّئةً فمتاجرُ للنِّيرانِ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

٥٧٢٩- تَسْعَى بِهِمْ أَعْمَالُـهُمْ سَوْقًا إِلَى الـدْ دَارَيْـنِ سَـوْقَ الـخَيْلِ بِالرُّكْبَـانِ

٥٧٣٠- صَـبَرُوا قَلِـيلًا فَاسْـتَرَاحُوا دَائِـمًا يَـــا عِـــزَّةَ التَّوْفِيـــقِ لِلإِنْسَـــانِ

قَوْلُهُ: «يَا عِزَّةَ التَّوْفِيقِ لِلإِنْسَانِ»؛ يعني: ما أعزَّها وأقلَّها! فإنَّ الموفَّقين من النَّاسِ قليلون.

الذين صبروا قليلًا ثُمَّ استراحوا دائمًا هم أهلُ الخيرِ والسَّعادةِ، صبروا في هذه الدُّنيا على الطَّاعةِ، صبروا عن المعصيةِ، صبروا على الأقدارِ المؤلمةِ، ثُمَّ استراحوا، فهؤلاء هم أهلُ الآخِرةِ الذين عرفوا الدُّنيا ولم يأخُذوا منها إلَّا بما ينفعُهم في الآخرةِ.

٥٧٣١- حَمِدُوا التُّقَى عِنْدَ المَمَاتِ كَذَا السُّرَى عِنْـدَ الصَّـبَاحِ فَحَبَّـذَا الــحَمْدَانِ

قَوْلُهُ: «حَمِدُوا التُّقَى عِنْدَ المَمَاتِ» عند المماتِ حَمِدُوا التُّقى؛ لأنَّها ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصِّلت:٣٠]، وقد جاء في الحديثِ الصَّحيحِ قولُ النَّبيِّ ﷺ: «إِنَّ العَبْدَ الـمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الجَنَّةِ وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الـموتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ»، قَالَ: «فَتَخْرُجُ

تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ القَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَت عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ ... وَإِنَّ العَبْدَ الكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الوُجُوهِ، مَعَهُمُ المُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ»، قَالَ: فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ المَبْلُولِ فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ المُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ ...»(١).

إِذَنْ روحُ المؤمنِ إذا بُشِّرَتْ بهذا خرجت من البدنِ بسهولةٍ؛ لأنَّها سَتُفَارِقُ المألوفَ لكن إلى ما هو خيرٌ منه فيسهلُ عليها أن تخرجَ، بخلافِ رُوحِ الكافرِ والعياذُ بالله؛ فإنَّها إذا بُشِّرَتْ بالنَّارِ تفرَّقت في البدنِ فتؤخذُ منه بشدَّةٍ، نسألُ اللهَ العافيةَ، هذا حمدٌ عند المماتِ؛ ولهذا يُشَاهَدُ بعضُ الأمواتِ حسِّيًّا استنارةُ وجهِه.

وحدَّثني شخصٌ وهو ثقةٌ لاسيَّما في هذا القولِ، وقد حَضَرَ جنازةَ رجلٍ مُحْتَضَرٍ أعرفُه من عبادِ الله الصَّالحين ومن طلبةِ العلمِ، يقولُ: إنَّه في غرفة بالمستشفى، فإذا بنورٍ ملأَ الغرفةَ ولا أستطيعُ أن أصفَه؛ لأنَّه شيءٌ عظيمٌ، يقولُ: فبدأ الموتُ بهذا الرَّجلِ، سبحان الله! هذا يدلُّ على أنَّ الملائكةَ تنزَّلت بنورٍ لهذا الميِّتِ، وهذا شيءٌ أنا أشهدُ به عليه، وأنا أعرفُ حالَ المشهودَ له بأنَّه رجلٌ حَرِيٌّ بذلك، غَفَرَ اللهُ لنا وله.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧، رقم ١٨٥٥٧).

قَوْلُهُ: «كَذَا السُّرَى عِنْدَ الصَّبَاحِ» عند الصَّباحِ متى؟ يوم القيامةِ تتلقَّاهم الملائكةُ: ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ [النَّحل:٣٢]، وهذه لا شكَّ أنَّها بُشرى بخلافِ الذين يُدَعُّونَ إلى نارِ جهنَّم دعًّا، والعياذُ بالله، ويُلْقَوْنَ فيها إلقاءً، و﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ من شدَّةِ غيظِها تكادُ تقطَّع، ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾، فالتَّقريعُ والتَّوبيخُ ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك:٦-٩]، إِذَنْ هؤلاء يحمدون التُّقى عند المماتِ وكذلك السُّرى عند الصباحِ يوم القيامة، اللَّهُمَّ اجعلنا منهم.

إِذَنْ هؤلاء لـمَّا حضرهم الموتُ حَمِدوا اللهَ على ما أَنْعَمَ عليهم من التَّقوى والإيمانِ؛ لأنَّهم أدركوا أنَّهم رابحون، بخلافِ مَنْ حضره الموتُ وهو على العكسِ من هذا، فإنَّه لن يحمدَ نفسَه.

٥٧٣٢- وَحَدَتْ بِهِمْ عَزَمَاتُهُمْ نَحْوَ العُلَى وَسَرَوْا فَمَا نَزَلُوا إِلَى نُعْمَانِ

يعني: أنَّهم جَدُّوا في السَّيْرِ، وَحَدَتْ بهم العَزَمَاتُ مِن الحُدَاءِ للإبلِ؛ يعني: أنَّها أسرعت بهم، وسَرَوْا في اللَّيلِ فَما نَزَلُوا إِلَى نُعْمَان؛ ونُعمانُ وادٍ معروفٌ فيه الأراكُ الكثيرةُ، ينزلُ به المسافرُ للرَّاحةِ، فهؤلاء جَدُّوا في السَّيرِ، ولم ينزلوا للاستراحةِ.

٥٧٣٣- بَاعُوا الَّذِي يَفْنَى مِنَ الخَزَفِ الخَسِيـ ـسِ بِدَائِمٍ مِنْ خَالِصِ العِقْيَانِ

قَوْلُهُ: «العِقْيَانُ»؛ أي: الذَّهبُ.

فهم بَاعُوا الأدنى من الخزفِ بالأعلى من الذَّهبِ، وفرقٌ بين الثَّمَنَيْنِ؛ خَزَفٌ خسيسٌ يَفْنَى بدائمٍ خالصٍ نقيٍّ، وأيُّهما أولى؟ الجوابُ: الثَّاني بلا شكٍّ.

٥٧٣٤- رُفِعَتْ لَهُمْ فِي السَّيْرِ أَعْلامُ السَّعَا دَةِ وَالهُدَى يَا ذِلَّةَ الحَيْرَانِ

يعني: فَاهْتَدَوْا بها، لـمَّا رُفِعَت لهم أعلامُ السَّعادةِ والهُدَى اهْتَدَوْا بها، وَبَقِيَ الحيرانُ في ذُلٍّ.

٥٧٣٥- فَتَسَابَقَ الأَقْوَامُ وَابْتَدَرُوا لَهَا كَتَسَابُقِ الفُرْسَانِ يَوْمَ رِهَانِ

قَوْلُهُ: «كَتَسَابُقِ الفُرْسَانِ يَوْمَ رِهَانِ»؛ يعني: المسابقةُ على الفرسِ بِعِوَضٍ تُسَمَّى مراهنةً، وهي جائزةٌ شرعًا.

٥٧٣٦- وَأَخُو الهُوَيْنَى فِي الدِّيَارِ مُخَلَّفٌ مَعَ شَكْلِهِ يَا خَيْبَةَ الكَسْلانِ

قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [الواقعة:١٠]؛ السَّابقون في الدُّنيا إلى الأعمالِ هم السَّابقون للثَّوابِ يوم القيامةِ.

وحاصلُ الأبياتِ هو: ذَمُّ الدُّنيا والرُّكونِ إليها، وذَمُّ أهلِها، ومدحُ الآخرةِ والنُّهوضِ إليها والمسارعةِ فيها، ومدحُ أهلِها، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:٢٠١].

* * *

فصل

في رَغْبَةِ قَائِلِهَا إِلَى مَنْ يَقِفُ عَلَيْهَا مِنْ أَهْلِ العِلْمِ وَالإِيمَانِ أَنْ يَتجَرَّدَ لله، وَيَحْكُمَ عَلَيْهَا بِمَا يُوجِبُهُ الدَّلِيلُ وَالبُرْهَانُ؛ فَإِنْ رَأَى حَقًّا قَبِلَهُ وَحمِدَ اللهَ عَلَيْهِ، وَإِنْ رَأَى بَاطِلاً عَرَّفَ بِهِ وَأَرْشَدَ إِلَيْهِ

٥٧٣٧- يَا أَيُّهَا القَارِي لَهَا اجْلِسْ مَجْلِسَ الْـ ... ـحَكَمِ الأَمِينِ أَتَى لَهُ الخَصْمَانِ

٥٧٣٨- وَاحْكُمْ هَدَاكَ اللهُ حُكْمًا يَشْهَدُ الْـ ... ـعَقْلُ الصَّرِيحُ بِهِ مَعَ القُرْآنِ

٥٧٣٩- وَاصْبِرْ وَلا تَعْجَلْ بِتَكْفِيرِ الَّذِي ... قَدْ قَالَهَا جَهْلًا بِلا بُرْهَانِ

٥٧٤٠- وَاحْبِسْ لِسَانَكَ بُرْهَةً عَنْ كُفْرِهِ ... حَتَى تُعَارِضَهَا بِلا عُدْوَانِ

٥٧٤١- فَإِذَا فَعَلْتَ فَعِنْدَهُ أَمْثَالُهَا ... فَنَزَالِ آخِرُ دعوة الفرسان

٥٧٤٢- فَالكُفْرُ لَيْسَ سِوَى العِنَادِ وَرَدِّ مَا ... جَاءَ الرَّسُولُ بِهِ لِقَوْلِ فُلانِ

٥٧٤٣- فَانْظُرْ لَعَلَّكَ هَكَذَا دُونَ الَّذِي ... قَدْ قَالَهَا فَتَفُوزَ بِالخُسْرَانِ

٥٧٤٤- فَالحقُّ شَمْسٌ وَالعُيُونُ نَوَاظِرٌ ... لا تَخْتَفِي إِلَّا عَلَى العُمْيَانِ

٥٧٤٥- وَالقَلْبُ يُعْمَى عَنْ هُدَاهُ كَمِثْلِ مَا ... تُعْمَى وَأَعْظَمَ هَذِهِ العَيْنَانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلٌ فِي رَغْبَةِ قَائِلِهَا إِلَى مَنْ يَقِفُ عَلَيْهَا مِنْ أَهْلِ العِلْمِ وَالإِيمَانِ أَنْ

يَتَجَرَّدَ للهِ»؛ يعني: ويبتعدَ عن الهوى.

قَوْلُهُ: «وَيَحْكُمَ عَلَيْهَا بِمَا يُوجِبُهُ الدَّلِيلُ وَالبُرْهَانُ؛ فَإِنْ رَأَى حَقًّا قَبِلَهُ وَحَمِدَ اللهَ عَلَيْهِ، وَإِنْ رَأَى بَاطِلًا عَرَّفَ بِهِ وَأَرْشَدَ إِلَيْهِ» وهذا هو الإنصافُ والحقُّ، فابنُ القيِّم الآن يطلبُ منَّا أن ننظرَ في هذه القصيدةِ العظيمةِ، إن كانت حقًّا قبلناها وإلَّا رَدَدْنَاهَا، وبَيَّنَّا الباطلَ منها؛ من أجلِ أن يُسْتَدْرَكَ ويُرْشَدَ إليه، فقال:

٥٧٣٧- يَا أَيُّهَا القَارِي لَـهَا اجْلِـسْ مَجْلِـسَ الـ ... ـحَكَمِ الأَمِينِ أَتَى لَـهُ الـخَصْمَانِ

الـحَكَمُ الأمينُ، ولابُدَّ أن يكونَ عنده علمٌ؛ لأنَّه لا يصلُ إلى الـحُكْمِ إلَّا بعلمٍ، فإذا كان عنده علمٌ وأمانةٌ فهو حَكَمٌ أمينٌ.

٥٧٣٨- وَاحْكُمْ هَدَاكَ اللهُ حُكْمًا يَشْهَدُ الـ ... ـعَقْلُ الصَّرِيحُ بِـهِ مَـعَ القُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «وَاحْكُمْ... حُكْمًا يَشْهَدُ العَقْلُ الصَّرِيحُ بِهِ مَعَ القُرْآنِ»؛ يعني: يشهدُ به العقلُ والسَّمعُ.

وَقَوْلُهُ: «العَقْلُ الصَّرِيحُ» هذه دائمًا نقرؤها في كلام ابنِ القيِّم وشيخِ الإسلامِ رحمهما اللهُ؛ والمرادُ بالعقلِ الصَّريحِ: السَّالـمُ من الشُّبهاتِ والشَّهواتِ، وهو مأخوذٌ من الماءِ الصَّريحِ أو اللَّبنِ الصَّريحِ الذي لم يُخْلَطْ معه شيءٌ، فهو السَّالـمُ من الشُّبهاتِ والشَّهواتِ، والشُّبُهاتُ منشؤها الجهلُ، والشَّهواتُ منشؤها: الـهَوَى مع العلمِ؛ لأنَّ آفاتِ العقولِ إمَّا جهلٌ بالحقِّ، وإمَّا هوى يُرَدُّ به الحقُّ، لو تأمَّلْتَ كُلَّ الضَّلالاتِ وَجَدْتَهَا لا تخرجُ عن هذا، فالنَّصارى عِلَّتُهم الشُّبهاتُ إلَّا بعد أن عَلِمُوا الحقَّ، واليهودُ عِلَّتُهم الشَّهواتُ.

٥٧٣٩- وَاصْبِرْ وَلا تَعْجَـلْ بِتَكْفِـيرِ الَّـذِي ... قَـدْ قَالَـهَا جَهْـلًا بِـلا بُرْهَـانِ

٥٧٤٠- وَاحْبِسْ لِسَانَكَ بُرْهَةً عَنْ كُفْرِهِ حَتَى تُعَارِضَهَا بِلا عُدْوَانِ

قَوْلُهُ: «احْبِسْ لِسَانَكَ بُرْهَةً عَنْ كُفْرِهِ»؛ يعني: احبس لسانَك، ولا تستعجلْ إذا رَأَيْتَ فيها ما لا ترضاه فتُكَفِّرَ صاحبَها كما هو شأنُ أهلِ البدعِ يُكَفِّرون مَنْ عاداهم.

قَوْلُهُ: «حَتَّى تُعَارِضَهَا»؛ يعني: حتَّى يتسنَّى لك أن تعارضَها وتُبْطِلَ ما فيها بلا عدوانٍ.

٥٧٤١- فَإِذَا فَعَلْتَ فَعِنْدَهُ أَمْثَالُهَا فَنَزَالِ آخِرُ دعوة الفرسان

٥٧٤٢- فَالكُفْرُ لَيْسَ سِوَى العِنَادِ وَرَدِّ مَا جَاءَ الرَّسُولُ بِهِ لِقَوْلِ فُلانِ

٥٧٤٣- فَانْظُرْ لَعَلَّكَ هَكَذَا دُونَ الَّذِي قَدْ قَالَهَا فَتَفُوزَ بِالخُسْرَانِ

٥٧٤٤- فَالحقُّ شَمْسٌ وَالعُيُونُ نَوَاظِرٌ لا تَخْتَفِي إِلَّا عَلَى العُمْيَانِ

قَوْلُهُ: «فَإِذَا فَعَلْتَ فَعِنْدَهُ أَمْثَالُهَا»؛ يعني: جلَسْتَ هذا المجلسَ عند الحكمِ عليها فإنَّ عندَه أمثالَها، عند مَنْ؟ الظَّاهرُ: أنَّها عند مؤلِّفِها؛ يعني أنَّ عندنا أمثالَها ممَّا نُبَيِّنُ به الحقَّ.

قَوْلُهُ: «فَنَزَالِ آخِرُ دَعْوَةِ الفُرْسَانِ» ما معنى نَزَالِ؟ نَزَالِ: اسمُ فعلِ أمرٍ من النُّزولِ؛ وهي كلمةٌ يَتَدَاعَى بها الفُرسانُ عند القتالِ، هذه آخرُ دعوةِ الفُرسانِ، إذا تقابلوا قال: انزل، فقد حَلَّ القتالُ، وهذا يُشْبِهُ المبارزةَ، وكان ذلك مألوفًا في القتالِ، إذا تقابل الصَّفَّان طلب الأشدَّاءُ منهم والشُّجعانُ المبارزةَ، فيبرزُ واحدٌ من هؤلاء وواحدٌ من هؤلاء، ثُمَّ يتقاتلان، ومعلومٌ أنَّ مَنْ يُقْتَلُ سوف يكونُ ذلك هزيمةً لقومِه؛ إذ تنكسرُ قلوبُهم وينهزمون.

٥٧٤٥- وَالقَلْبُ يُعْمَى عَنْ هُدَاهُ كَمِثْلِ مَا ... تُعْمَى وَأَعْظَمَ هَذِهِ العَيْنَانِ

قَوْلُهُ: «وَأَعْظَمَ» بالنَّصبِ؛ يعني: يَعْمَى عمىً أعظم.

قَوْلُهُ: «هَذِهِ العَيْنَانِ» فاعلُ «تَعْمَى».

يعني: القلبُ يعمى عن رؤيةِ الحقِّ أشدَّ من عَمَى العينَيْنِ.

* * *

٥٧٤٦- هَذَا وَإِنِّي بَعْدُ مُمْتَحَنٌ بِأَرْ ... بَعَةٍ وَكُلُّهُمُ ذَوُو أَضْغَانِ

٥٧٤٧- فَظٌّ غَلِيظٌ جَاهِلٌ مُتَمَعْلِمٌ ... ضَخْمُ العِمَامَةِ وَاسِعُ الأَرْدَانِ

٥٧٤٨- مُتَفَيْهِقٌ مُتَضَلِّعٌ بِالجَهْلِ ذُو ... ضَلَعٍ وَذُو جَلَحٍ مِنَ العِرْفَانِ

٥٧٤٩- مُزْجَى البِضَاعَةِ فِي العُلُومِ وَإِنَّهُ ... زَاجٍ مِنَ الإِيهَامِ وَالهَذَيَانِ

٥٧٥٠- يَشْكُو إِلَى اللهِ الحُقُوقَ تَظَلُّمًا ... مِنْ جَهْلِهِ كَشِكَايَةِ الأَبْدَانِ

٥٧٥١- مِنْ جَاهِلٍ مُتَطَبِّبٍ يُفْتِي الوَرَى ... وَيُحِيلُ ذَاكَ عَلَى قَضَا الرَّحْمَنِ

٥٧٥٢- عَجَّتْ فُرُوجُ الخَلْقِ ثُمَّ دِمَاؤُهُمْ ... وَحُقُوقُهُمْ مِنْهُ إِلَى الدَّيَّانِ

٥٧٥٣- مَا عِنْدَهُ عِلْمٌ سِوَى التَّكْفِيرِ وَالتْـ ... ـتَبْدِيعِ وَالتَّضْلِيلِ وَالبُهْتَانِ

٥٧٥٤- فَإِذَا تَيَقَّنَ أَنَّهُ المَغْلُوبُ عِنْـ ... ـدَ تَقَابُلِ الفُرْسَانِ فِي المَيْدَانِ

٥٧٥٥- قَالَ: اشْتَكُوهُ إِلَى القُضَاةِ فَإِنَّهُمْ ... حَكَمُوا وَإِلَّا اشْكُوهُ لِلسُّلْطَانِ

٥٧٥٦- قُولُوا لَهُ هَذَا يُحِلُّ المُلْكَ بَلْ ... هَذَا يُزِيلُ المُلْكَ مِثْلَ فُلَانِ

٥٧٥٧- فَاعْقِرْهُ مِنْ قَبْلِ اشْتِدَادِ الأَمْرِ مِنْـ ـــهُ بِقُـوَّةِ الأَتْبَـاعِ وَالأَعْـوَانِ

٥٧٥٨- وَإِذَا دَعَـاكُمْ لِلرَّسُـولِ وَحُكْمِـهِ فَـادْعُوهُ كُلُّكُـمُ لِـرَأْيِ فُـلانِ

٥٧٥٩- وَإِذَا اجْتَمَعْتُمْ فِي المَجَالِسِ فَالْغَطُوا وَالغَـوْا إِذَا مَـا احْـتَجَّ بِـالقُرْآنِ

٥٧٦٠- وَاسْتَنْصَـرُوا بِمَحَـاضِرٍ وَشَـهَادَةٍ قَـدْ أُصْـلِحَتْ بِـالرِّفْقِ وَالإِتْقَـانِ

٥٧٦١- لَا تَسْأَلُوا الشُّهَدَاءَ كَيْـفَ تَحَمَّلُـوا وَبِـأَيِّ وَقْـتٍ بَـلْ بِـأَيِّ مَكَـانِ

٥٧٦٢- وَارْفُوْا شَـهَادَتَهُمْ وَمَشُّـوا حَالَـهَا بَـلْ أَصْـلِحُوهَا غَايَـةَ الإِمْكَـانِ

٥٧٦٣- وَإِذَا هُـمُ شَـهِدُوا فَزَكُّـوهُمْ وَلَا تَصْـغُوا لِقَـوْلِ الـجَارِحِ الطَّعَّـانِ

٥٧٦٤- قُولُـوا العَدَالَـةَ مِـنْهُمْ قَطْعِيَّـةٌ لَسْـنَا نُعَارِضُـهَا بِقَـوْلِ فُـلانِ

٥٧٦٥- ثَبَتَتْ عَلَى الـحُكَّامِ بَلْ حَكَمُوا بِهَا فَـالطَّعْنُ فِيهَـا لَـيْسَ ذَا إِمْكَـانِ

٥٧٦٦- مَـنْ جَـاءَ يَقْـدَحُ فِـيهِمُ فَلْيَتَّخِـذْ ظَهْـرًا كَمِثْـلِ حِجَـارَةِ الصَّـوَّانِ

٥٧٦٧- وَإِذَا هُـوَ اسْـتَعْدَاهُمُ فَجَـوَابُكُمْ أَتَرُدُّهَـــا بِعَـــدَاوَةِ الأَدْيَـــانِ

الشرحُ

٥٧٤٦- هَـــذَا وَإِنِّي بَعْـــدُ مُمْـــتَحَنٌ بِـــأَرْ بَعَـــةٍ وَكُلُّهُـــمُ ذَوُو أَضْـــغَانِ

قَوْلُهُ: «هَذَا وَإِنِّي بَعْدُ مُمْتَحَنٌ بِأَرْبَعَةٍ» لـمَّا ذَكَرَ وحَثَّ على الحَكَمِ الأمينِ ذَكَرَ أنَّ هنا أربعةَ أشخاصٍ؛ والمرادُ: أنَّهم أربعةٌ بأوصافِهم يُخشى منهم، مُمْتَحَنٌ بهم.

قَوْلُهُ: «وَكُلُّهُمْ ذَوُو أَضْغَانِ»؛ أي: أحقادٍ.

٥٧٤٧- فَـظٌّ غَلِـيظٌ جَاهِـلٌ مُـتَمَعْلِمٌ ضَـخْمُ العِمَامَـةِ وَاسِـعُ الأَرْدَانِ

قَوْلُهُ: «فَظٌّ غَلِيْظٌ جَاهِلٌ مُتَمَعْلِمٌ» «فَظٌّ غَلِيظٌ»؛ يعني: ليس في قلبه لِينٌ، فهو فَظٌّ في قولِه، غليظٌ في طَبْعِهِ، «مُتَمَعْلِمٌ»؛ يعني: يدَّعي العلمَ وليس بعالمٍ.

قَوْلُهُ: «ضَخْمُ العِمَامَةِ وَاسِعُ الأَرْدَانِ»؛ يعني: عمامتُه كبيرةٌ، وأردانُه واسعةٌ؛ يعني: أكمامه، وكانوا يفعلون هذا في المشايخ الكبار، يُكبِّرون عمائمَهم ويُوسِّعُونَ أردانَهم وأكمامَهم حتَّى تكادَ تقول: إنَّ هذا الكُمَّ يصلحُ أن يكونَ قميصًا من سَعتِه.

وهذا من وقتِ ابنِ القيِّم -رحمه اللهُ- أنَّ هؤلاءِ الذي يعتقدون أنَّهم الشُّيوخُ وأنَّهم الأولياءُ يفعلون هذا.

٥٧٤٨- مُتَفَيْهِـقٌ مُتَضَـلِّعٌ بِالْـجَهْلِ ذُو ضَـلَعٍ وَذُو جَلَـحٍ مِـنَ العِرْفَـانِ

قَوْلُهُ: «مُتَفَيْهِقٌ»؛ معناه: أنَّه كأنَّما يمشي على قفاه من شدَّةِ إعجابِه بنفسِه والعياذُ بالله.

قَوْلُهُ: «ضَلَعٍ» قال في «القاموس»: «ضَلَعَ كَمَنَعَ: مَالَ وجَنفَ وجَارَ،... والضَّالعُ: الجائرُ»[1].

قَوْلُهُ: «ذُو جَلَحٍ مِنَ العِرْفَانِ»؛ يعني: أنَّه خالٍ من العرفانِ، ليس عنده علمٌ.

٥٧٤٩- مُزْجَى البِضَـاعَةِ في العُلُومِ وَإِنَّـهُ زَاجٍ مِـنَ الإِيهَـامِ وَالْـهَذَيَانِ

قَوْلُهُ: «مُزْجَى البِضَاعَةِ»؛ يعني: قليلَ البِضاعةِ؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ [يوسف:٨٨]؛ أي: قليلةٍ.

---

(١) انظر: القاموس المحيط، مادة: ضلع.

قَوْلُهُ: «وَإِنَّهُ زَاجٍ مِنَ الإِيهَامِ وَالـهَذَيَانِ»؛ يعني: هو في العلومِ قليلٌ، لكن الهذيانُ والإيهامُ والتَّشكيكُ هو مملوءٌ منها.

٥٧٥٠- يَشْكُو إِلَى اللهِ الحُقُوقَ تَظَلُّمًا ... مِنْ جَهْلِهِ كَشِكَايَةِ الأَبْدَانِ

يشكو إلى الله الحقوقَ من جهلِه؛ يعني: أنَّه دائمًا يشكو الحقوقَ تظلُّمًا؛ لأنَّه جاهلٌ، وهذه حالُ كثيرٍ من النَّاسِ ، فهو يقولُ: أَضَاعَ النَّاسُ الحقوقَ، أو أضاعوا حقوقِي، أو ما أشبه ذلك.

٥٧٥١- مِنْ جَاهِلٍ مُتَطَبِّبٍ يُفْتِي الوَرَى ... وَيُحِيلُ ذَاكَ عَلَى قَضَا الرَّحْمَنِ

هذا من أوصافِه أنَّه جاهلٌ ومُتطبِّبٌ، وهل هو طبيبُ علمٍ أو طبيبُ بدَنٍ؟ الظَّاهرُ أنَّه طبيبُ علمٍ يُفْتِي الوَرَى، ويُحِيلُ ذاك على قَضَاءِ الرَّحمنِ، فيقولُ: **«هذا حُكْمُ الله»**، **«هذا شرعُ الله»**.

وإن كان طبيبَ بدنٍ جاهلًا فإنَّه يُهْلِكُ الورى، يقولُ مثلًا: هذا فيه داءٌ في القلبِ، ويشقُّ القلبَ، فإذا شقَّه ومات الرَّجلُ قال: والله هذا قضاءُ الله وقدرُه، وهو لا يعرفُ شيئًا من الطِّبِّ؛ ولهذا قال شيخُ الإلامِ ابنُ تيميَّة في آخرِ الفتوى الحمويَّةِ: «**وقد قال النَّاسُ: أكثرُ ما يُفْسِدُ الدُّنيا: نصفُ متكلِّمٍ، ونصفُ متفقِّهٍ، ونصفُ متطبِّبٍ، ونصفُ نحويٍّ**»[1]، فهؤلاء الأربعة أفسدوا الدُّنيا كُلَّها، نصفُ الفقيهِ أَفْسَدَ البلدان؛ لأنَّه يحكمُ لهذا على هذا وهو ليس عنده علمٌ، فتفسدُ البلدانُ فتحصلُ الفوضى والعُدوانُ، نصفُ المتكلِّم أَفْسَدَ الأديانَ والعقائدَ، ونصفُ الطَّبيبِ أَفْسَدَ الأبدانَ، ونصفُ النَّحويِّ أَفْسَدَ اللِّسانَ، وهذا صحيحٌ، تجدُه مثلًا عنده علمٌ يسيرٌ بالنَّحوِ ، فإذا أَعْرَبَ فإذا به ينصبُ المرفوعَ ويرفعُ المنصوبَ.

(١) انظر: الفتوى الحموية الكبرى (ص:٥٥٤).

٥٧٥٢- عَجَّتْ فُرُوجُ الخَلْقِ ثُمَّ دِمَاؤُهُمْ ... وَحُقُوقُهُمْ مِنْهُ إِلَى الدَّيَّانِ

قَوْلُهُ: «عَجَّتْ فُرُوجُ الخَلْقِ»؛ يعني: أنَّه يحكمُ بالأنكحةِ والطَّلاقِ فيقولُ لهذا: «بَانَتْ زوجتُك منك»، وإذا بانت منه حَلَّتْ للثَّاني، فيُحلُّها لمن لا تحلُّ له، أو يفسخُ نكاحَ مَنْ لا يستحقُّ الفسخَ، وما أشبه ذلك.

٥٧٥٣- مَا عِنْدَهُ عِلْمٌ سِوَى التَّكْفِيرِ وَالتْـ ... ـتَبْدِيعِ وَالتَّضْلِيلِ وَالبُهْتَانِ

٥٧٥٤- فَإِذَا تَيَقَّنَ أَنَّهُ المَغْلُوبُ عِنْـ ... ـدَ تَقَابُلِ الفُرْسَانِ فِي المَيْدَانِ

٥٧٥٥- قَالَ: اشْتَكُوهُ إِلَى القُضَاةِ فَإِنَّهُمْ ... حَكَمُوا وَإِلَّا اشْكُوهُ لِلسُّلْطَانِ

في الأوَّلِ يصيحُ في خصمِه: هذا كفرٌ، أنت كافرٌ، أنت مُبْتَدِعٌ، أنت ضالٌّ، وإذا عرف أنَّه مغلوبٌ ماذا يصنعُ؟ يقولُ: نذهَبُ إلى المحكمةِ، إلى القاضي، إن حكموا عليه انتهى الأمرُ، وإن لم يحكموا عليه قال: «ارفعوه للسُّلطانِ»، وهذا واقعٌ، فمثلُ الإمامِ أحمدَ وابنِ تيميَّةَ وغيرِهما من أهلِ العلمِ قد حَبَسَهم السَّلاطينُ وعذَّبوهم بسببِ الوشايةِ.

٥٧٥٦- قُولُوا لَهُ هَذَا يُحِلُّ المُلْكَ بَلْ ... هَذَا يُزِيلُ المُلْكَ مِثْلَ فُلَانِ

٥٧٥٧- فَاعْقِرْهُ مِنْ قَبْلِ اشْتِدَادِ الأَمْرِ مِنْـ ... ـهُ بِقُوَّةِ الأَتْبَاعِ وَالأَعْوَانِ

إذا قالوا: هذا يحلُّ مُلكَك ويزيلُ مُلكَك فاعقره حتَّى لا يمشي قبل اشتدادِ الأمرِ منه بقوَّةِ الأتباعِ والأعوانِ؛ أي: قبل أنْ يكثرَ أتباعُه ويلتف النَّاسُ حولَه، ثُمَّ يُزِيلُونَك، والسُّلطانُ خائفٌ لاسيَّما إذا لم يكن عنده خوفٌ من الله، أمَّا مَنْ عنده خوفٌ من الله فإنَّ مَنْ خافَ اللهَ تعالى أَخافَ اللهُ منه كُلَّ شيءٍ، ومَنْ اتَّقى اللهَ اتَّقاه كُلُّ شيءٍ، لكن كثيرٌ من السَّلاطين ليسوا على هذا الوصفِ، فتجدُه يَخافُ، يقولون

له: الشَّيخُ فلانٌ، شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ له أتباعٌ كثيرون، احذَرْ منه، لكن ما العملُ؟ يقولون: السِّجنُ، اعقره حتَّى لا يُزيلَ الملكَ عنك.

٥٧٥٨- وَإِذَا دَعَاكُمْ لِلرَّسُولِ وَحُكْمِهِ ... فَادْعُوهُ كُلُّكُمُ لِرَأْيِ فُلانِ

٥٧٥٩- وَإِذَا اجْتَمَعْتُمْ فِي المَجَالِسِ فَالْغَطُوا ... وَالغَوْا إِذَا مَا احْتَجَّ بِالقُرْآنِ

٥٧٦٠- وَاسْتَنْصِرُوا بِمَحَاضِرٍ وَشَهَادَةٍ ... قَدْ أُصْلِحَتْ بِالرِّفْقِ وَالإِتْقَانِ

فهؤلاءِ قد أعدُّوا أنفسَهم من قبلُ وكتبوا على تأنٍّ، وأثقلوا حُجَجَهم، لكنَّها كُلَّها حُجَجٌ باطلةٌ.

٥٧٦١- لَا تَسْأَلُوا الشُّهَدَاءَ كَيْفَ تَحَمَّلُوا ... وَبِأَيِّ وَقْتٍ بَلْ بِأَيِّ مَكَانِ

٥٧٦٢- وَارْفُوْا شَهَادَتَهُمْ وَمَشُّوا حَالَهَا ... بَلْ أَصْلِحُوهَا غَايَةَ الإِمْكَانِ

٥٧٦٣- وَإِذَا هُمُ شَهِدُوا فَزَكُّوهُمْ وَلَا ... تَصْغُوا لِقَوْلِ الجَارِحِ الطَّعَّانِ

٥٧٦٤- قُولُوا العَدَالَةَ مِنْهُمُ قَطْعِيَّةٌ ... لَسْنَا نُعَارِضُهَا بِقَوْلِ فُلانِ

٥٧٦٥- ثَبَتَتْ عَلَى الحُكَّامِ بَلْ حَكَمُوا بِهَا ... فَالطَّعْنُ فِيهَا لَيْسَ ذَا إِمْكَانِ

٥٧٦٦- مَنْ جَاءَ يَقْدَحُ فِيهِمُ فَلْيَتَّخِذْ ... ظَهْرًا كَمِثْلِ حِجَارَةِ الصَّوَّانِ

٥٧٦٧- وَإِذَا هُوَ اسْتَعْدَاهُمُ فَجَوَابُكُمْ ... أَتَرُدُّهَا بِعَدَاوَةِ الأَدْيَانِ

قَوْلُهُ: «وَمَشُّوا حَالَهَا» هذه العبارةُ ما كُنَّا نعلمُ أنَّها قديمةٌ.

* * *

فصــل

في حَالِ العَدُوِّ الثَّانِي

٥٧٦٨- أَوْ حَاسِدٌ قَدْ بَاتَ يَغْلِـي صَـدْرُهُ   بِعَـــدَاوَتِي كَالــــمِرْجَلِ المَـــلآنِ
٥٧٦٩- لَوْ قُلْتُ هَـذَا البَحْـرُ قَـالَ مُكَـذِّبًا   هَـذَا السَّـــرَابُ يَكُـونُ بِالقِيعَـانِ
٥٧٧٠- أَوْ قُلْتُ هَذِي الشَّمْسُ قَـالَ مُبَاهِتًـا   الشَّـــمْسُ لَـــمْ تَطْلُــعْ إِلَى ذَا الآنِ
٥٧٧١- أَوْ قُلْــتُ قَــالَ اللهُ قَــالَ رَسُــولُهُ   غَضِبَ الـخَبِيثُ وَجَـاءَ بِـالكِتْمَانِ
٥٧٧٢- أَوْ حَرَّفَ القُـرْآنَ عَـنْ مَوْضُـوعِهِ   تَحْرِيــفَ كَــذَّابٍ عَــلَى القُــرْآنِ
٥٧٧٣- صَالَ النُّصُوصَ عَلَيْهِ فَهْوَ بِدَفْعِهَا   مُتَوَكِّـــلٌ بِالـــدَّأْبِ وَالدَّيْـــدَانِ
٥٧٧٤- فَكَلامُــهُ فِي الــنَّصِّ عِنْـدَ خِلافِـهِ   مِـنْ بَـابِ دَفْـعِ الصَّـائِلِ الطَّعَّـانِ
٥٧٧٥- فَالقَصْدُ دَفْعُ الـنَّصِّ عَـنْ مَدْلُولِـهِ   كَيْلا يَصُـولَ إِذَا التَقَـى الزَّحْفَـانِ

الشـرحُ

هذا الثَّاني، الثَّاني ليس مُتَمَعْلِمًا، ولا مُتَشَيِّخًا، وليس عليه أردانٌ واسعةٌ، ولا يدَّعي أنَّه العالـمُ الفذُّ، لكنَّه حاسدٌ، لا يريدُ أن يكونَ لابنِ القيِّمِ فضلٌ، قال رحمه اللهُ:

٥٧٦٨- أَوْ حَاسِدٌ قَدْ بَاتَ يَغْلِـي صَـدْرُهُ   بِعَـــدَاوَتِي كَالــــمِرْجَلِ المَـــلآنِ

٥٧٦٩- لَوْ قُلْتُ هَـذَا البَحْـرُ قَـالَ مُكَـذِّبًا ... هَـذَا السَّــرَابُ يَكُـونُ بِالقِيعَـانِ

أعوذُ بالله، هذا الحاسدُ، هكذا يكونُ، يُخْفِي كُلَّ شيءٍ، بل تجدُه يمدحُ الإنسانَ، هذا رجلٌ فيه كذا، فيه كذا، فيه كذا، حتَّى إذا أَوْصَلَهُ الثُّرَيَّا رَمَى به، وقال: «لكِنْ»، وإذا جاءت «لكِنْ» توقَّع ما بعدها، فَيَحُطُّ قَدْرَه، وهكذا يفعلُ الحُسَّادُ والعياذُ بالله، تقولُ: هذا البحرُ، قال: لا، هذا سرابٌ بالقاعِ، مع أنَّ البحرَ أمامَه.

٥٧٧٠- أَوْ قُلْتُ هَذِي الشَّمْسُ قَـالَ مُبَاهِتًـا ... الشَّــمْسُ لَــمْ تَطْلُـعْ إِلَى ذَا الآنِ

وإذا قلتُ له: «**هذه الشَّمسُ**»، قال: لم تطلع الشَّمسُ بعدُ إلى الآن.

٥٧٧١- أَوْ قُلْــتُ قَــالَ اللهُ قَــالَ رَسُــولُهُ ... غَضِبَ الـخَبِيثُ وَجَـاءَ بِـالكِتْمَانِ

٥٧٧٢- أَوْ حَرَّفَ القُـرْآنَ عَـنْ مَوْضُـوعِهِ ... تَحْرِيــفَ كَــذَّابٍ عَــلَى القُــرْآنِ

وإذا قلتُ له: «**هذا كلامُ الله ورسولِه**» حِينئذٍ يغضبُ والعياذُ بالله، ويأتي بالكتمانِ، وإذا كان حديثًا قال: هذا خبرُ آحادٍ لا يصحُّ، وإذا كان لا يمكنُ دفعُه من حيثُ الثُّبوتُ ذهب يُحرِّفُ؛ وتأمَّلْ لـمَّا جاء إلى «**قال اللهُ وقال رسولُه**» وَصَفَهَ: بالخبيثِ، وإلَّا ففي الأوَّلِ لـمَّا جَحَدَ طلوعَ الشَّمسِ أو وجودَ البحرِ لم يَصِفْهُ بهذا؛ لأنَّ غضبَ الخبيثِ أشدُّ من قولِه: «**لم تطلع الشَّمسُ، أو ليس هذا البحرُ**».

٥٧٧٣- صَالَ النُّصُوصَ عَلَيْهِ فَهْوَ بِدَفْعِهَا ... مُتَوَكِّــلٌ بِالــدَّأْبِ وَالدَّيْــدَانِ

قَوْلُهُ: «**صَالَ النُّصُوصُ**» أصلُها: «**صَالَتِ النُّصُوصُ**»، لكن جمعُ التَّكسيرِ يجوزُ فيه التَّذكيرُ والتَّأنيثُ لاسيَّما أنَّ ضرورةَ الشِّعرِ تدعو إلى ذلك.

قَوْلُهُ: «**فَهْوَ بِدَفْعِهَا مُتَوَكِّلٌ بِالدَّأْبِ وَالدَّيْدَانِ**»؛ أي: متوكِّلٌ بالعادةِ؛ يعني: هو يدفعُها كعادتِه، و«**الدَّأْبُ**»؛ بمعنى: العادة؛ كما قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [الأنفال:٥٢]؛ أي: عادتِهم، و«**الدَّيْدَان**»؛ أي: دَيْدَنُه أنَّه يدفعُ النُّصوصَ، ودأبُه أنَّه يدفعُها كذلك.

٥٧٧٤- فَكَلامُـهُ فِي الـنَّصِّ عِنْـدَ خِلافِـهِ مِـنْ بَـابِ دَفْـعِ الصَّـائِلِ الطَّعَّـانِ

قَوْلُهُ: «**فَكَلَامُهُ فِي النَّصِّ عِنْدَ خِلَافِهِ**»؛ يعني: إذا خالفه النَّصُّ من بابِ دفعِ الصَّائلِ الطَّعَّانِ؛ ولذا تجدُه يلتزمُ أحيانًا أشياءَ لا يلتزمُها عند السَّعةِ؛ يعني: في المناظراتِ بعضُ النَّاسِ إذا أُتِي إليه بالنُّصوصِ وقيل: «**كلامُك يلزمُ منه كذا وكذا**» الْتَزَمَهُ، مع أنَّه عند السَّعةِ لا يلتزمُ هذا الشَّيءَ، لكن عند الضَّرورةِ والمناظرةِ رُبَّما يلتزمُ هذا الشَّيءَ فتجدُه يُقَابِلُ النُّصوصَ إذا خَالَفْتَهُ فيدافعُها مدافعةَ الصَّائلِ.

٥٧٧٥- فَالقَصْدُ دَفْعُ الـنَّصِّ عَـنْ مَدْلُولِـهِ كَيْلا يَصُـولَ إِذَا التَقَـى الزَّحْفَـانِ

تجدُ الخَصْمَ إذا أَوْرَدْتَ عليه النَّصَّ يحملُه على مَحْمَلٍ لا يقولُ به أحدٌ، حتَّى هو لو قِيلَ له: أتقولُ بهذا في حالِ الطُّمأنينةِ والرَّاحةِ؟ قال: لا أقولُ بهذا، ومع ذلك يحملُ النَّصَّ عليه، لماذا؟ كدفع الصَّائلِ، والذي يدفعُ الصَّائلَ يدفعُه بكُلِّ سلاحٍ حتَّى ولو بأظفارِه.

خلاصةُ هذا العدوِّ: أنَّه رجلٌ حاسدٌ، لو يُرَى الحقائقَ الحسِّيَّةَ والسَّمعيَّةَ ما قَبِلَ، إذا قيل: هذا البحرُ، قال: لا، هذا سرابٌ، قيل: هذه الشَّمسُ، قال: الشَّمسُ ما طلعتْ بعدُ، هذا القرآنُ، ذهب يحرِّفُه عن مواضعِه، كُلُّ هذا مضادَّةٌ لمن؟ لابنِ القيِّمِ رحمه الله.

* * *

فصـــل

في حَالِ العَدُوِّ الثَّالِثِ

٥٧٧٦- وَالثَّالِثُ الأَعْمَى المُقَلِّدُ ذَيْنِكَ الـرْ ... رَجُلَـيْنِ قَائِـدُ زُمْـرَةِ العُمْيَـانِ

٥٧٧٧- فَاللَّعْنُ وَالتَّكْفِيرُ وَالتَّبْدِيعُ وَالتْـ ... ـتَضْلِيلُ وَالتَّفْسِيقُ بِالعُـدْوَانِ

٥٧٧٨- فَـإِذَا هُـمُ سَـأَلُوهُ مُسْـتَنَدًا لَـهُ ... قَـالَ اسْـمَعُوا مَـا قَالَـهُ الـرَّجُلانِ

الشـرحُ

اسْتَعَاذَ ابنُ القيِّم -رحمه اللهُ- من ثلاثةٍ من الأعداءِ؛ **الأوَّل**: مُتَفَيْقِهٌ مُتَعَيْلِمٌ يرى أنّه لا أحدَ مثلُه ولا أحدَ أكبرُ منه، **والثَّاني**: حاسدٌ، **والثَّالث**: مُقَلِّدٌ أعمى، وهذا المقلِّدُ يَصِفُ ابنَ القيِّمِ بأنَّه كافرٌ مُبْتَدِعٌ ضالٌّ، وما أشبه ذلك، فَيُقَالُ له: ما مُسْتَنَدُكَ؟ قال: اسمعوا ما قاله الرَّجُلانِ؛ أي: الـمُتَعَيْلِمُ والحاسدُ، إِذَنْ ليس عنده شيءٌ؛ لأنَّه مُقَلِّدٌ أعمى.

* * *

فصــل

في حَالِ العَدُوِّ الرَّابِعِ

٥٧٧٩- هَـذَا وَرَابِعُهُـمْ وَلَـيْسَ بِكَلْـبِهِمْ ... حَاشَـا الكِـلابَ الآكِـلِي الأَنْتَـانِ
٥٧٨٠- خِنْزِيـرُ طَبْـعٍ فِي خَلِيقَـةِ نَـاطِقٍ ... مُتَسَـوِّفٍ بِالكِـذْبِ وَالبُهْتَـانِ
٥٧٨١- كَالكَلْبِ يَتْبَعُهُمْ يُمَشْمِشُ أَعْظُـمًا ... يَرْمُونَهَـا وَالقَـوْمُ لِلحِـمَّانِ
٥٧٨٢- يَتَفَكَّهُـونَ بِهَـا رَخِيصًـا سِـعْرُهَا ... مَيْتًـا بِـلا عِـوَضٍ وَلا أَثْـمَانِ
٥٧٨٣- هُوَ فَضْـلَةٌ فِي النَّـاسِ لا عِلْـمٌ وَلَا ... دِيـنٌ وَلا تَمْكِـينُ ذِي سُـلْطَانِ
٥٧٨٤- فَـإِذَا رَأَى شَرًّا تَحَـرَّكَ يَبْتَغِـي ... ذِكْـرًا كَمِثْـلِ تَحَـرُّكِ الثُّعْبَـانِ
٥٧٨٥- لِيَزُولَ عَنْهُ أَذَى الكَسَادِ فَيُنْفِقَ الـ ... ـكَلْبُ العَقُورُ عَلَى ذُكُورِ الضَّـانِ
٥٧٨٦- فَبَقَـاؤُهُ فِي النَّـاسِ أَعْظَـمُ مِحْنَـةٍ ... مِـنْ عَسْـكَرٍ يُعْـزَى إِلَى غَـازَانِ
٥٧٨٧- هَذِي بِضَاعَةُ ضَارِبٍ فِي الأَرْضِ يَبْـ ... ـغِي تَـاجِرًا يَبْتَـاعُ بِـالأَثْمَانِ
٥٧٨٨- وَجَدَ التُّجَارَ جَمِيعَهُمْ قَـدْ سَـافَرُوا ... عَـنْ هَـذِهِ البُلْـدَانِ وَالأَوْطَـانِ
٥٧٨٩- إِلَّا الصَّـعَافِقَةَ الَّـذِينَ تَكَلَّفُـوا ... أَنْ يُتْجِـرُوا فِينَـا بِـلا أَثْـمَانِ
٥٧٩٠- فَهُـمُ الزَّبُـونُ لَـهَا فَبِـالله ارْحَمُـوا ... مِـنْ بَيْعَـةٍ مِـنْ مُفْلِـسٍ مِـدْيَانِ
٥٧٩١- يَـا رَبِّ فَارْزُقْهَـا بِحَقِّـكَ تَـاجِرًا ... قَـدْ طَـافَ بِالآفَـاقِ وَالبُلْـدَانِ

٥٧٩٢- مَـا كُـلُّ مَنْقُـوشٍ لَدَيْـهِ أَصْـفَرٍ   ذَهَبًـا يَـرَاهُ خَـالِصَ العِقْيَـانِ

٥٧٩٣- وَكَـذَا الزُّجَاجُ وَدُرَّةُ الغَـوَّاصِ فِي   تَمْيِيـزِهِ مَـا إِنْ هُمَـا مِـثْلَانِ

الشـرحُ

٥٧٧٩- هَـذَا وَرَابِعُهُـمْ وَلَـيْسَ بِكَلْـبِهِمْ   حَاشَـا الكِـلَابَ الآكِـلِي الأَنْتَـانِ

يُشِيرُ إلى قولِه تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف:٢٢]، لكن يقولُ: هذا ليس بكلبٍ، فالكلابُ تُنَزَّه عنه، حَاشَا الكلابِ الآكِلِي الأنتانِ، فالكلابُ خيرٌ من هذا.

٥٧٨٠- خِنْزِيـرُ طَبْـعٍ فِي خَلِيقَـةِ نَـاطِقٍ   مُتَسَـوِّفٍ بِالكِـذْبِ وَالبُهْتَـانِ

قَوْلُهُ: «خِنْزِيرُ طَبْعٍ فِي خَلِيقَةِ نَاطِقٍ»؛ يعني: خليقتُه إنسانٌ إلَّا أنَّ طبيعتَه طبيعةُ الخنازيرِ.

قَوْلُهُ: «مُتَسَوِّفٍ بِالكِذْبِ وَالبُهْتَانِ» «متسوِّفٌ»؛ من التَّسويفِ؛ يعني: أنَّه ليس عنده إلَّا الكذبُ والبهتانُ.

٥٧٨١- كَالكَلْبِ يَتْبَعُهُمْ يُمَشْمِشُ أَعْظُمًا   يَرْمُونَهَـا وَالقَـوْمُ لِلحُـمَّانِ

٥٧٨٢- يَتَفَكَّهُونَ بِهَـا ....

هذا تابعٌ وليس كالمقلِّدِ، فهو يرى ما يقولُ النَّاسُ فيقولُه؛ مِثْل: الكلبِ يَتْبَعُ النَّاسَ يُمَشْمِشُ أعظمًا تُرْمَى، والكلابُ الآن تجدونها إذا رُمِيَت العظامُ تُمَشْمِشُهَا؛ تشمُّها أوَّلا، ثُمَّ تأكلُ ما فيها من اللَّحمِ، والقومُ الآخرون يتفكَّهون باللَّحمِ.

٥٧٨٢- .... رَخِيصًا سِعْرُهَا مَيْتًا بِلا عِوَضٍ وَلا أَثْمَانِ

هذا الرَّجلُ هو الذي يغتابُ، ليس له رصيدٌ من العلمِ ولا تقليدٌ ولا هدفٌ، فهو إنسانٌ يغتابُ، إذا حَضَرَ مجلسًا يمدحُ ابنَ القيِّمِ مَدَحَ، وإذا حضر مجلسًا يذمُّه ذَمَّ، ليس عنده قاعدةٌ يَبْنِي عليها عداوةً أو صداقةً، لكنَّه كالكلبِ يَتْبَعُ هؤلاء النَّاسَ الذي يأكلون اللَّحمَ ويرمون العظامَ فَيُمَشْمِشُهَا.

٥٧٨٣- هُوَ فَضْلَةٌ في النَّاسِ لا عِلْمٌ وَلَا دِينٌ وَلا تَمْكِينُ ذِي سُلْطَانِ

وهؤلاء موجودون كثيرًا في عامَّةِ النَّاسِ، فَضْلَةٌ يتبعُ كُلَّ ناعقٍ، وليس عِنْدَهُ عِلْمٌ وَلَا دِينٌ وَلَا تَمْكِينُ ذِي سُلْطَانٍ.

٥٧٨٤- فَإِذَا رَأَى شَرًّا تَحَرَّكَ يَبْتَغِي ذِكْرًا كَمِثْلِ تَحَرُّكِ الثُّعْبَانِ

إذا سَمِعَ في المجلسِ غِيبةً شَرَعَ يتكلَّمُ ويأتي بالكذبِ والبهتانِ من أجل أن يُقَالَ: ما شاء اللهُ، هذا رجلٌ بليغٌ في المجلسِ، هذا رجلٌ له كلمةٌ، ويكونُ له ذِكْرٌ في النَّاسِ، كفاكَ اللهُ لسانَه، وهكذا.

٥٧٨٥- لِيَزُولَ عَنْهُ أَذَى الكَسَادِ فَيُنْفِقَ الـ ـكَلْبُ العَقُورُ عَلَى ذُكُورِ الضَّانِ

قَوْلُهُ: «لِيَزُولَ عَنْهُ أَذَى الكَسَادِ» يقولُ هذا وهو ما فيه خيرٌ؛ لأجل أن يزولَ عنه أذى الكَسَادِ، كيف أذى الكَسَادِ؟ الرَّجلُ إذا كان في المجلسِ لا يتكلَّمُ، قيل: هذا خشبةٌ، ولا يُرْفَعُ له رأسٌ، لكن لو تكلَّم ولو بالباطلِ التفت النَّاسُ إليه، ماذا يقولُ؟ فيريدُ أن يعملَ عملًا يُذْكَرُ به ويكونُ له به شأنٌ في المجلسِ فيزولُ كَسَادُه.

قَوْلُهُ: «فَيَنْفَقَ الكَلْبُ العَقُورُ عَلَى ذُكُورِ الضَّانِ» الكلبُ العقورُ إذا وَجَدَ ذكورَ

الضَّأنِ -والضَّأنُ معروفةٌ بالذُّلِّ والجبنِ- فإذا أتاها كلبُ عقورٌ فيا ويلها منه.

٥٧٨٦- فَبَقَاؤُهُ فِي النَّاسِ أَعْظَمُ مِحْنَةٍ ... مِنْ عَسْكَرٍ يُعْزَى إِلَى غَازَانِ

قوله : «غَازَانِ» أحدُ ملوكِ التَّتارِ.

يعني: بقاءُ هذا الرَّجلِ محنةٌ، وليس في كلامِه -رحمه اللهُ- اعتراضٌ على القَدَرِ، لكن محاولة لإصلاحِ أمثالِ هؤلاء في النَّاسِ.

٥٧٨٧- هَذِي بِضَاعَةُ ضَارِبٍ فِي الأَرْضِ يَبْـ ... ـغِي تَاجِرًا يَبْتَاعُ بِالأَثْمَانِ

٥٧٨٨- وَجَدَ التِّجَارَ جَمِيعَهُمْ قَدْ سَافَرُوا ... عَنْ هَذِهِ البُلْدَانِ وَالأَوْطَانِ

٥٧٨٩- إِلَّا الصَّعَافِقَةَ الَّذِينَ تَكَلَّفُوا ... أَنْ يُتْجِرُوا فِينَا بِلا أَثْمَانِ

وبِئْسَت البضاعةُ أن يجدَ الإنسانُ مَنْ يغتابُ النَّاسَ ليقعَ في أعراضِهم، تجدُه في كُلِّ مكانٍ، في كُلِّ مجلسٍ يطلبُ مَنْ هذا دَأْبُه إلَّا الصَّعَافِقَةَ؛ ولذا قال: «**إِلَّا الصَّعَافِقَةَ الَّذِينَ تَكَلَّفُوا أَنْ يَتْجَرُوا فِينَا بِلَا أَثْمَانِ**»؛ يعني: ليس لديهم فلوسٌ.

٥٧٩٠- فَهُمُ الزَّبُونُ لَهَا فَبِالله ارْحَمُوا ... مِنْ بَيْعَةٍ مِنْ مُفْلِسٍ مِدْيَانِ

قَوْلُهُ: «مِنْ مُفْلِسٍ مِدْيَانِ»؛ يعني: كثيرَ الدُّيونِ.

٥٧٩١- يَا رَبِّ فَارْزُقْهَا بِحَقِّكَ تَاجِرًا ... قَدْ طَافَ بِالآفَاقِ وَالبُلْدَانِ

قوله : «يَا رَبِّ فَارْزُقْهَا»؛ الظَّاهرُ: أنَّه يريدُ المنظومةَ.

قَوْلُهُ: «بِحَقِّكَ» هنا توسَّلَ إلى الله -سبحانه وتعالى- بحقِّه، فما هو حقُّه؟ حقُّه أن نعبدَه، والعبادةُ من فعلِ العبادِ، والتَّوسُّلُ بأفعالِ العبادِ ليس شرعيًّا؛ لأنَّ

فعلَ العبادِ لا ينفعُ العبادَ، لا ينفعُ إلَّا مَنْ فَعَلَهُ، ولكن يُقَالُ: «يَا رَبِّ فَارْزُقْهَا بِحَقِّكَ»؛ أي: الذي أَوْجَبْتَهُ على نفسِك؛ وهو ما قاله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، فكَأَنَّ الحقَّ الذي أَوْجَبَهُ اللهُ على نفسِه هو: إجابةُ الدُّعاءِ، وهذا كقولِه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ...»[1]، وَحَقُّ السَّائلين عليه إجابتُهم، فهو توسُّلٌ إلى الله بفعلِه.

فالمؤلِّفُ يدعو اللهَ ويسألُه بحقِّه عزَّ وجلَّ -وهو: إجابةُ الدَّاعِي- أن يرزقَها تاجرًا قد طَافَ بالآفاقِ والبلدانِ، ولكنَّه تاجرٌ ذو خبرةٍ.

٥٧٩٢- مَـا كُـلُّ مَنْقُـوشٍ لَدَيْـهِ أَصْـفَرٍ ذَهَبًـا يَـرَاهُ خَـالِصَ العِقْيَـانِ

قَوْلُهُ: «مَا كُلُّ مَنْقُوشٍ لَدَيْهِ أَصْفَرٍ ذَهَبًا»؛ لأنَّه يعرفُ الذَّهبَ من غيرِه.

٥٧٩٣- وَكَـذَا الزُّجَـاجُ وَدُرَّةُ الغَـوَّاصِ فِي تَمْيِيـزِهِ مَـا إِنْ هُمَـا مِـثْلَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَا الزُّجَاجُ وَدُرَّةُ الغَوَّاصِ فِي تَمْيِيزِهِ» أيُّهما أحسنُ: الزُّجاجُ المصنوعُ من الخزفِ أو دُرَّةُ الغوَّاصِ؟

الجوابُ: الثَّاني، فَيُمَيِّزُ بين الزُّجاجةِ وبين الدُّرَّةِ.

قَوْلُهُ: «مَا إِنْ هُمَا مِثْلَانِ» «إِنْ» هنا زائدةٌ؛ والتَّقديرِ: «مَا هُمَا مِثْلَانِ»، وابنُ مالكٍ -رحمه اللهُ- يقولُ:

إِعْمَالَ لَيْسَ أُعْمِلَتْ «مَـا» دُوْنَ «إِنْ» مَـعْ بَقَـا النَّفْـيِ وَتَرْتِيـبٍ زُكِـنْ[2]

هنا هل تعملُ أو لا تعملُ؟

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب المساجد والجماعات، باب المشي إلى الصلاة، رقم (٧٧٨).
(٢) انظر: شرح ابن عقيل (١/ ٣٠١).

الجوابُ: لا تعملُ؛ لأنَّ فيها «إِنْ»، فهو كقولِ الشَّاعرِ:

بَنِـــي غُدَانَــةَ مَــا إِنْ أَنْــتُمْ ذَهَــبٌ وَلَا صَرِيفٌ وَلَكِنْ أَنْتُمُ الـــخَزَف[١]

وهذه القصيدةُ جديرةٌ بأن يُغاليَ فيها الإنسانُ ويتفهَّمَها؛ لأنَّها عَذْبةُ المنطقِ، مملوءةُ المعاني، وفيها أشياءُ لا تجدُها في غيرِها.

* * *

(١) البيت في خزانة الأدب (٤/ ١١٩) بلا نسبة.

فصـــل

في تَوَجُّهِ أَهْلِ السُّنَّةِ إِلى رَبِّ العَالَمِينَ أَنْ يَنْصُرَ دِينَهُ وَكِتَابَهُ وَرَسُولَهُ وَعِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ

٥٧٩٤- هَـذَا وَنَصْـرُ الـدِّينِ فَـرْضٌ لازِمٌ ... لا لِلكِفَايَـةِ بَـلْ عَـلَى الأَعْيَـانِ

٥٧٩٥- بِيَـدٍ وَإِمَّـا بِاللِّسَـانِ فَـإِنْ عَجَـزْ ... تَ فَبِالتَّوَجُّـهِ وَالـدُّعَا بِجَنَـانِ

٥٧٩٦- مَـا بَعْـدَ ذَا وَاللهِ لِلإِيـمَانِ حَبْـ ... ـبَةُ خَـرْدَلٍ يَـا نَـاصِرَ الإِيـمَانِ

٥٧٩٧- بِحَيَاةِ وَجْهِـكَ خَـيْرُ مَسْـؤُولٍ بِـهِ ... وَبِنُورِ وَجْهِكَ يَـا عَظِـيمَ الشَّـانِ

٥٧٩٨- وَبِحَــقِّ نِعْمَتِــكَ الَّتِــي أَوْلَيْتَهَــا ... مِـنْ غَـيْرِ مَـا عِـوَضٍ وَلا أَثْـمَانِ

٥٧٩٩- وَبِحَقِّ رَحْمَتِكَ الَّتِي وَسِـعَتْ جَمِيـ ... ـعَ الـخَلْقِ مُحْسِنَهُمْ كَذَاكَ الـجَانِي

٥٨٠٠- وَبِحَقِّ أَسْمَاءٍ لَـكَ الـحُسْنَى مَعًـا ... نِيهَـا نُعُـوتُ الـمَدْحِ لِلـرَّحْمَنِ

٥٨٠١- وَبِحَقِّ حَمْدِكَ وَهْوَ حَمْدٌ وَاسِـعُ الـ ... أَكْوَانِ بَلْ أَضْـعَافُ ذِي الأَكْـوَانِ

٥٨٠٢- وَبِأَنَّـكَ اللهُ الإِلَـهُ الـحَقُّ مَعْـ ... ـبُودُ الـوَرَى مُتَقَـدِّسٌ عَـنْ ثَـانِ

٥٨٠٣- بَـلْ كُـلُّ مَعْبُـودٍ سِـوَاكَ فَبَاطِـلٌ ... مِنْ دُونِ عَرْشِكَ لِلثَّرَى التَّحْتَـانِي

٥٨٠٤- وَبِكَ المَعَـاذُ وَلا مَـلاذَ سِـوَاكَ أَنْـ ... ـتَ غِيَـاثُ كُـلِّ مُلَـدَّدٍ لَـهْفَانِ

٥٨٠٥- مَـنْ ذَاكَ لِلمُضْـطَرِّ يَسْـمَعُهُ سِـوَا ... كَ يُجِيـبُ دَعْوَتَـهُ مَـعَ العِصْـيَانِ

٥٨٠٦- إِنَّـا تَوَجَّهْنَـا إِلَيْـكَ لِـحَاجَةٍ ... تُرْضِيكَ طَالِبُهَـا أَحَـقُّ مُعَـانِ
٥٨٠٧- فَاجْعَلْ قَضَاهَا بَعْضَ أَنْعُمِكَ الَّتِي ... سَبَغَتْ عَلَيْنَا مِنْكَ كُلَّ زَمَانِ
٥٨٠٨- انْصُرْ كِتَابَكَ وَالرَّسُولَ وَدِينَكَ الـ ... ـعَالِي الَّذِي أَنْزَلْتَ بِالبُرْهَانِ
٥٨٠٩- وَاخْتَرْتَهُ دِينًا لِنَفْسِكَ وَاصْطَفَيْـ ... ـتَ مُقِيمَهُ مِنْ أُمَّةِ الإِنْسَانِ
٥٨١٠- وَرَضِيتَهُ دِينًا لِمَنْ تَرْضَاهُ مِنْ ... هَذَا الوَرَى هُوَ قَيِّمُ الأَدْيَانِ
٥٨١١- وَأَقِرَّ عَيْنَ رَسُولِكَ الـمَبْعُوثِ بِالدْ ... دِينِ الحَنِيفِ بِنَصْرِهِ الـمُتَدَانِي
٥٨١٢- وَانْصُرْهُ بِالنَّصْرِ العَزِيزِ كَمِثْلِ مَا ... قَدْ كُنْتَ تَنْصُرُهُ بِكُلِّ زَمَانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلٌ فِي تَوَجُّهِ أَهْلِ السُّنَّةِ إِلَى رَبِّ العَالَمِينَ أَنْ يَنْصُرَ دِينَهُ وَكِتَابَهُ وَرَسُولَهُ وَعِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ» التَّوجُّه: صرفُ الوجهِ إلى الشَّيءِ؛ والمعنى: أنَّ أهلَ السُّنَّةِ يتوجَّهون إلى الله عزَّ وجلَّ بما تَضَمَّنَهُ هذا الفصلُ، قال المؤلِّفُ:

٥٧٩٤- هَذَا وَنَصْرُ الدِّينِ فَرْضٌ لازِمٌ ... لا لِلكِفَايَةِ بَلْ عَلَى الأَعْيَانِ

يعني: يجبُ على كُلِّ واحدٍ من المسلمين أن ينصرَ دينَ الله بالقولِ وبالفعلِ وبكُلِّ ما يستطيعُ، ينصرُ الدِّينَ في نفسِه وفي أهلِه وفي قومِه وفي سائرِ المسلمين، ونصرُ الدِّينِ بالدِّفاعِ عنه والدَّعوةِ إليه، والغَيْرَةِ عليه والجهادِ دونه بِقَدْرِ ما يستطيعُ الإنسانُ من قوَّةٍ حسب ما وجَّهه اللهُ تعالى إليه من الحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، والجدالِ بالتي هي أحسن، وإذا نَصَرْتَ دينَ الله نَصَرَكَ اللهُ عزَّ وجلَّ؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧].

٥٧٩٥- بِيَـدٍ وَإِمَّـا بِاللِّسَـانِ فَـإِنْ عَجَـزْ ... تَ فَبِالتَّوَجُّـهِ وَالـدُّعَا بِجَنَـانِ

يعني: تنصرُه بيدِك أو بلسانِك أو بالدُّعاءِ، وهذه المراتبُ الثَّلاثُ هي التي قال فيها رسولُ الله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَـمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَـمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ»[1]، والإنكارُ بالقلبِ لا يكفي أن يكونَ الإنسانُ كارهًا للمُنْكَرِ، بل لابُدَّ مع ذلك من مفارقةِ أهلِ المُنْكَرِ، فَمَنْ جَلَسَ معهم وهو يقولُ: «إنِّي مُنْكِرٌ بقلبي» فهو كاذبٌ؛ لقولِ الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النِّساء:١٤٠]، فعليك أن تقومَ، أمَّا إنْ أُكْرِهْتَ على البقاءِ وهُدِّدتَ إذا خَرَجْتَ فهذا يكونُ الإنسانُ معذورًا فيه عند الله؛ لأنَّه مُكْرَهٌ على هذا الشَّيءِ.

٥٧٩٦- مَـا بَعْـدَ ذَا وَاللهِ لِلإِيـمَانِ حَبْـ ... ـبَةُ خَـرْدَلٍ يَـا نَـاصِرَ الإِيـمَانِ

يعني: الإنكارُ بالقلبِ والتَّوجُّهُ إلى الله بالدُّعاءِ ما بعده شيءٌ.

ثم بدأ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- يتوسَّلُ إلى الله عزَّ وجلَّ بما ذَكَرَ لدعائِه من الصِّفاتِ العظيمةِ فقال:

٥٧٩٧- بِحَيَاةِ وَجْهِـكَ خَـيْرُ مَسْـؤُولٍ بِـهِ ... وَبِنُورِ وَجْهِـكَ يَـا عَظِـيمَ الشَّـانِ

قَوْلُهُ: «بِحَيَاةِ وَجْهِكَ خَيْرِ مَسْؤُولٍ بِهِ» حياةُ وجهِ الله عزَّ وجلَّ يجوزُ التَّوسُّلُ بها؛ لأنَّها من صفاتِه؛ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرَّحمن:٢٧]، والتَّوسُّلُ إلى الله بصفاتِه جائزٌ، وفي الحديثِ الصَّحيحِ: «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، رقم (٤٩).

الغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيْرًا لِي»[(١)]، فقال: «بِعِلْمِكَ الغَيْبَ» و«وعلم» هنا: صفةٌ، فالمؤلِّفُ -رحمه الله- سأل اللهَ بحياةِ الوجهِ؛ أي: ببقائِه.

قَوْلُهُ: «وَبِنُورِ وَجْهِكَ يَا عَظِيمَ الشَّانِ» ونورُ وجهِه نورٌ عظيمٌ، قال النَّبيُّ ﷺ: «حِجَابُهُ -أي: الرَّبِّ- النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ -أي: بهاؤه وعظمتُه ونورُه- مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[(٢)]، وبصرُه ينتهي إلى كُلِّ شيءٍ؛ يعني: لأَحْرَقَتْ كُلَّ شيءٍ، ولكنَّه عزَّ وجلَّ احْتَجَبَ عن خَلْقِه بحجبٍ عظيمةٍ من النُّورِ، ولهذا لـمَّا قِيلَ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»[(٣)]؛ يعني: أنَّه حال بيني وبينه أنوارٌ عظيمةٌ.

٥٧٩٨- وَبِحَـقِّ نِعْمَتِـكَ الَّتِـي أَوْلَيْتَهَـا ... مِـنْ غَـيْرِ مَـا عِـوَضٍ وَلا أَثْـمَانِ

حقُّ النِّعمةِ هو الشُّكرُ، والشُّكرُ عملٌ صالحٌ، والأعمالُ الصَّالحةُ يجوزُ للإنسانِ أن يتوسَّلَ بها، وقد قَصَّ علينا النَّبيُّ ﷺ قصَّةَ رجالٍ ثلاثةٍ وقعوا في هلكةٍ وتوسَّلوا إلى الله بصالحِ أعمالِهم، وهم الذي انطبق عليهم الغارُ، فَتَوَسَّلَ أحدُهم إلى الله بالبِرِّ العظيمِ التَّامِّ، والثَّاني بالعفَّةِ التَّامَّةِ، والثَّالثُ بالوفاءِ التَّامِّ، توسَّلوا إلى الله حتَّى أزاحَ اللهُ عنهم هذه الصَّخرةَ[(٤)]، فالتَّوسُّلُ إلى الله بالعملِ الصَّالحِ جائزٌ.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠/ ٢٦٥، رقم ١٨٣٢٥). والنسائي: كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء، رقم (١٣٠٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «إن الله لا ينام»، وفي قوله: «حجابه النور لو كشفه لأحرق سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره مِن خلقه»، رقم (١٧٩).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «نور أنى أراه»، رقم (١٧٨).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم (٣٤٦٥). ومسلم: كتاب الرقاق، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال، رقم (٢٧٤٣).

والشُّكرُ دينٌ وعبادةٌ أيضًا، والتَّوسُّلُ بالدِّين والعبادةِ جائزٌ؛ كما قال تعالى في صفاتِ مَنْ وَصَفَهم بأنهَّم ذوو ألبابٍ، قال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران:١٩١]، إلى أن قال: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ [آل عمران:١٩٣].

٥٧٩٩- وَبِحَقِّ رَحْمَتِكَ الَّتِي وَسِعَتْ جَمِيـ ـعَ الـخَلْقِ مُحْسِنَهُمْ كَذَاكَ الـجَانِي

يعني: رحمتُه وَسِعَت المُحْسِنَ من الخلقِ والجاني، وهذه الرَّحمةُ العامَّةُ فإنهَّا وَسِعَتْ كُلَّ الخلقِ، حتَّى الكُفَّارَ مرحومين برحمةِ الله، ولولا رحمةُ الله ما نَزَلَ عليهم الغيثُ، ولا نَبَعَ لهم الماءُ، ولا أَثْمَرَتْ لهم الأشجارُ، ولكنَّ اللهَ تعالى رَحِمَهم رحمةً بَيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ مَغَبَّتَـها، فقـال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ [الأعراف:١٨٢-١٨٣]، لكنَّ الرَّحمةَ الخاصَّةَ خاصَّةٌ بالذين يتَّقون كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٦].

٥٨٠٠- وَبِحَقِّ أَسْمَاءٍ لَـكَ الـحُسْنَى مَعَـا نِيهَـا نُعُـوتُ الـمَدْحِ لِلـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «وَبِحَقِّ أَسْمَاءٍ لَكَ الحُسْنَى» أسماءُ الله الحُسْنَى يُتَوَسَّلُ بها إلى الله عزَّ وجلَّ كما في الحديثِ: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي»(١)، هذا توسُّلٌ إلى الله بأسمائِه.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٥٢، رقم ٤٣١٨).

وأسماءُ الله تعالى كما وَصَفَهَا عزَّ وجلَّ حُسْنَى؛ أي: مشتملةٌ على أحسنِ المعاني والأوصافِ؛ فمثلًا: «**القديرُ**» من أسمائِه، متضمِّنٌ لقدرةٍ هي أكملُ قدرةٍ، لا يعتريها العجزُ بوجهٍ من الوجوه.

وكذلك أيضًا «**العليمُ**» من أسمائِه متضمِّنٌ للعلمِ الذي هو أعلى أنواعِ العلومِ شمولًا وعُمْقًا، وغير ذلك ممَّا يقتضيه العلمُ الكاملُ.

قَوْلُهُ: «مَعَانِيهَا نُعُوتُ المَدْحِ لِلرَّحْمَنِ»؛ يعني: هذه الأسماءُ معانيها نعوتٌ، وهذا فيه الرَّدُّ على المعتزلةِ الذين يقولون: إنَّ أسماءَ الله مجرَّدُ أعلام لا تحملُ معانيَ، فـ«**عليمٌ، سميعٌ، بصيرٌ**» معناه: المسمَّى بهذا الاسمِ فقط، لا مُتَّصفٌ بصفةِ السَّمعِ والعلمِ والبصرِ، وما أشبه ذلك، فيقولون: إنَّ اسماءَ الله أعلامٌ فقط، أمَّا نحن فنقولُ: إنَّ أسماءَ الله أعلامٌ وأوصافٌ، وهي باعتبار دلالتِها على الذَّاتِ مترادفةٌ، وباعتبارِ دلالةِ كُلِّ اسمٍ منها على معناه متباينةٌ، فاللهُ، والرَّحمنُ، والرَّحيمُ، والسَّميعُ، والبصير، تدلُّ على ذاتٍ واحدةٍ، إِذَنْ هي بهذا المعنى مترادفةٌ، لكن اسمُ «**الله**» يدلُّ على الألوهيَّةِ، و«**الرَّحمن**» على الرَّحمةِ، و«**الرَّحيم**» على فعلٍ، و«**السَّميع**» على السَّمعِ، و«**البصيرِ**» على البصرِ، فهي من حيث هذا المعنى تكونُ متباينةً، كُلُّ اسمٍ منها له معنى غير معنى الاسمِ الآخرِ.

٥٨٠١- وَبِحَقِّ حَمْدِكَ وَهْوَ حَمْدٌ وَاسِعُ الـ ... أَكْوَانِ بَلْ أَضْعَافُ ذِي الأَكْوَانِ

قَوْلُهُ: «بِحَقِّ حَمْدِكَ» إن كان المرادُ بحمدِه حمدَ النَّاسِ إيَّاه فإنَّ حمدَهم إيَّاه من الأعمالِ الصَّالحةِ، ويكونُ هذا من بابِ التَّوسُّلِ بالأعمالِ الصَّالحةِ، وإن كان المرادُ بالحمدِ مَنْ يستحقُّ الحمدَ فهذا من بابِ التَّوسُّلِ بصفاتِ الله عزَّ وجلَّ، فـ«**حَمْدِكَ**» الآنَ مصدرٌ مضافٌ إمَّا للفاعلِ وإمَّا للمفعولِ، فاللهُ -سبحانه- حامدٌ ومحمودٌ.

وحمدُ الله تعالى: «مِلْءَ السَّمَاوَاتِ، وَمِلْءَ الأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ»[(١)].

٥٨٠٢- وَبِأَنَّـكَ اللهُ الإِلَـهُ الـحَقُّ مَعْـ ... ـبُودُ الـوَرَى مُتَقَـدِّسٌ عَـنْ ثَـانِ

هذا توسُّلٌ إلى الله بصفاتِه، وهو تفرُّدُه بالألوهيَّةِ؛ ولذا قال: «وَبِأَنَّكَ»؛ يعني: وأسألُك بأنَّك اللهُ، فإنَّ اللهَ تعالى متفرِّدٌ بالألوهيَّةِ مَعْبُودُ الوَرَى مُتَقَدِّسٌ عَنْ ثَانٍ؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣].

٥٨٠٣- بَـلْ كُـلُّ مَعْبُـودٍ سِـوَاكَ فَبَاطِـلٌ ... مِنْ دُونِ عَرْشِكَ لِلثَّـرَى التَّحْتَـانِي

كُلُّ معبودٍ من العرشِ إلى أسفلِ الثَّرى سوى الله فهو باطلٌ؛ لقولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

٥٨٠٤- وَبِكَ المَعَـاذُ وَلا مَـلاذَ سِـوَاكَ أَنْـ ... ـتَ غِيَـاثُ كُـلِّ مُلَـدَّدٍ لَـهْفَانِ

قَوْلُهُ: «وَبِكَ المَعَاذُ»؛ يعني: لا نستعيذُ بغيرِك؛ والمرادُ: فيما لا يَقْدِرُ عليه إلَّا اللهُ، وأمَّا ما يَقْدِرُ عليه البشرُ فإنَّه يصحُّ أن يُسْتَعَاذَ بالإنسانِ؛ أي: بالبشرِ منه، لكن ما لا يَقْدِرُ عليه إلَّا اللهُ لا يمكنُ أن يُسْتَعَاذَ بأحدٍ سواه؛ وعلى هذا فَمَن استعاذَ بميِّتٍ فهو مشركٌ؛ لأنَّ الميِّتَ لا يقدرُ أن يُعِيذَ أحدًا؛ إذ كيف يعيذُه وهو بنفسِه ميِّتٌ؟!

وَقَوْلُهُ: «بِكَ المَعَاذُ وَلَا مَلَاذَ سِوَاكَ» قدَّمَ الخبرَ لإفادةِ الحصرِ، والمَعَاذُ؛ يعني: العياذَ، فهو مصدرٌ ميميٌّ؛ يعني أنَّنا لا نعوذُ إلَّا بك، ولا نلوذُ إلَّا بك، قال أهلُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، رقم (٢٨٤٥)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، رقم (٢٤٩٤).

العلم: والفرقُ بين العياذِ واللِّياذِ: أنَّ العياذَ ممَّا يُخَافُ، واللِّيَاذَ ممَّا يُرْجَى؛ يعني: إذا كنت ترجو شيئًا فقل: «لُذْتُ بفلانٍ حتَّى تَحَقَّقَ لي ما أرجوه»، وإذا كنت تخشى من شيءٍ فقل: «عُذْتُ به حتَّى يُنْجِيَكَ ممَّا تكْرهُ»؛ وعلى هذا قال أحدُ الشُّعراءِ يمدحُ ممدوحًا له يقولُ:

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُؤَمِّلُهُ ... وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أُحَاذِرُهُ

لَا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ ... وَلَا يَهِيضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ(١)

وهذا الوصفُ لا يستحقُّه إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ.

المهمُّ أنَّه قال: «يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُؤَمِّلُهُ، وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ فِيمَا أُحَاذِرُهُ».

قَوْلُهُ: «أَنْتَ غِيَاثُ»؛ يعني: أنت الذي تُغِيثُ، والغَوْثُ: إزالةُ الشِّدَّةِ؛ ومنه دعاؤنا: «اللَّهُمَّ أَغِثْنَا»؛ أي: أزل شِدَّتَنا.

٥٨٠٥- مَنْ ذَاكَ لِلْمُضْطَرِّ يَسْمَعُهُ سِوَا ... كَ يُجِيبُ دَعْوَتَهُ مَعَ العِصْيَانِ

قَوْلُهُ: «لِلْمُضْطَرِّ» المضطرُّ؛ يعني: الذي ألجأته الضَّرورةُ إلى دعاءِ الله.

فإنَّ اللهَ تعالى يجيبُ دعاءَه ولو كان عاصيًا، قال اللهُ تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النَّمل:٦٢]، وهذا عامٌّ، حتَّى العاصي يُجِيبُ اللهُ دعوتَه؛ لأنَّ ضرورتَه جَعَلَتْهُ يَصْدُقُ في اللُّجوءِ إلى الله فَأَجَابَ اللهُ دعوتَه، وانظُر إلى المشركين إذا غَشِيَهم موجٌ كالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مخلصينَ له الدِّينَ فلمَّا نجَّاهم إلى البرِّ أشركوا، وهو -سبحانه وتعالى- يعلمُ أنَّهم سيُشركون، يُجيبُهم وهو عالمٌ أنَّهم سيشركون،

(١) البيتان للمتنبي، كما في محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، للراغب الأصفهاني (٢/ ١٦٣).

لكن لماذا؟ لضرورتِهم وصدقِ لجوئِهم في تلك الحالِ، يُجيبُهم عزَّ وجلَّ لأنَّه أكرمُ الأكرمين، وأرحمُ الرَّاحمين، فيجيبُهم مع علمِه بعصيانِهم، ومع علمِه أنَّهم سيرجعون إلى شركِهم إذا نَجَوْا.

٥٨٠٦- إِنَّـا تَوَجَّهْنَـا إِلَيْـكَ لِـحَاجَةٍ   تُرْضِـيكَ طَالِبُهَـا أَحَـقُّ مُعَـانِ

يعني: أَنَّنا تَوَجَّهْنَا إليك بهذه الأشياءِ التي توسَّلْنَا بها لحاجةٍ تُرْضِيكَ ولا تُغْضِبُكَ، وطالبُ هذه الحاجةِ أحقُّ مَنْ يُعَانُ، ثُمَّ بدأ المؤلِّفُ بما يدعو به فقال:

٥٨٠٧- فَاجْعَلْ قَضَاهَا بَعْضَ أَنْعُمِكَ الَّتِـي   سَبَغَتْ عَلَيْنَـا مِنْـكَ كُـلَّ زَمَـانِ

يعني: اجعل قضاءَ هذه الحاجةِ بعضَ أَنْعُمِكَ التي سَبَغَتْ عَلَيْنَا؛ أي: تمَّتْ وشملت، وإنَّما قال: «**بَعْضَ أَنْعُمِكَ**»؛ لأنَّ نعمةَ الله لا تُحْصَى، لكن ما هذه الحاجةُ؟ قال:

٥٨٠٨- انْصُرْ كِتَابَكَ وَالرَّسُولَ وَدِينَكَ الـ   ـعَالِي الَّـذِي أَنْزَلْـتَ بِالبُرْهَـانِ

قَوْلُهُ: «**انْصُرْ كِتَابَكَ**»، فإن قال قائلٌ: هل يصحُّ أن يقولَ: «**انْصُرْ نَفْسَكَ يَا رَبِّ**»؛ لقولِ الله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج:٤٠]؟ فالجوابُ: لا، بهذا اللَّفظِ لا؛ لأنَّ المرادَ بنصرِ الله نصرُ الدِّينِ الذي ارتضاه والكتابِ الذي أنزله؛ ولهذا عَدَلَ ابنُ القيِّمِ عن قولِه: «**انْصُرْ نَفْسَكَ**».

قَوْلُهُ: «**وَدِينَكَ العَالِي**»؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ لماذا؟ قال: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصَّف:٩].

قَوْلُهُ: «**أَنْزَلْتَ بِالبُرْهَانِ**» «**البُرْهَانُ**»؛ أي: الدَّليلُ، فإنَّ آياتِ النَّبِيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- كُلَّها تدلُّ على أنَّ القرآنَ حقٌّ، وأنَّ الدِّينَ حقٌّ.

هذه الحاجةُ التي لنا، وهذه يجبُ أن تكونَ حاجةً لكُلِّ مسلمٍ أن ينصرَ اللهَ تعالى، وأن ينصرَ كتابَه ورسولَه ودينَه الَّذِي أَنْزَلْتَ بِالبُرْهَانِ.

٥٨٠٩- وَاخْتَرْتَهُ دِينًا لِنَفْسِكَ وَاصْطَفَيْـ ـتَ مُقِيمَهُ مِنْ أُمَّةِ الإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «وَاخْتَرْتَهُ دِينًا لِنَفْسِكَ»؛ يعني: وَاخْتَرْتَ الإسلامَ دينًا لنفسِك يدينُ به عبادُك لك؛ وذلك كما في قولِه تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

قَوْلُهُ: «وَاصْطَفَيْتَ مُقِيمَهُ مِنْ أُمَّةِ الإِنْسَانِ»، «اصْطَفَيْتَ مُقِيمَهُ»؛ يعني: مقيمَ هذا الدِّينِ، فمقيمُ الدِّينِ مُصْطَفًى للهِ عزَّ وجلَّ من بين سائرِ الإنسانِ، وأقومُهم بدينِ اللهِ هو أعظمُهم اصطفاءً، قال اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣٢]، فمقيمُ هذا الدِّينِ هو الرَّسولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- وأُمَّتُه، فإنَّ اللهَ تعالى اصطفاهم على كُلِّ الخَلْقِ، وهذه الأُمَّةُ هي الوسطُ من جميعِ الأممِ، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣]؛ أي: عُدولًا خيارًا من جميعِ الأممِ.

٥٨١٠- وَرَضِيتُهُ دِينًا لِـمَنْ تَرْضَاهُ مِنْ هَـذَا الوَرَى هُوَ قَيِّمُ الأَدْيَانِ

قَوْلُهُ: «رَضِيتَهُ دِينًا لِـمَنْ تَرْضَاهُ مِنْ هَذَا الوَرَى»، قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، وكُلُّ إنسانٍ وَفَّقَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ للدِّينِ الإسلاميِّ فهو دليلٌ على أنَّ اللهَ قد اختاره.

قَوْلُهُ: «هُوَ قَيِّمُ الأَدْيَانِ» ولا شكَّ أنَّ أقومَ الأديانِ بمصالحِ العبادِ هو الإسلامُ؛ ولهذا اختاره اللهُ عزَّ وجلَّ أن يكونَ دينًا للعبادِ منذ بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ إلى

قيامِ السَّاعةِ، فلولا أنَّه صالحٌ لكُلِّ زمانٍ ومكانٍ لكان اللهُ -تباركَ وتعالى- يُحْدِثُ بعد محمَّدٍ رسولًا؛ لأنَّ الأزمانَ تتغيَّرُ والأماكنَ تتغيَّرُ، والأُممَ تتغيَّرُ، ولكن يجبُ أن نعلمَ أنَّ معنى قولِنا: «صالحٌ لكُلِّ زمانٍ ومكانٍ» أنَّ تطبيقَه صالحٌ للزَّمانِ والمكانِ، وليس المعنى أنَّه خاضعٌ لكُلِّ زمانٍ ومكانٍ كما يريدُ بعضُ النَّاسِ، فبعضُ النَّاسِ يقولُ: «صالحٌ لكُلِّ زمانٍ ومكانٍ»؛ يعني مثلًا: يَتْبَعُ حاجةَ النَّاسِ، وهذا غلطٌ؛ بل المعنى: أنَّ إقامتَه صالحةٌ في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ، وبين المعنيين فَرْقٌ؛ لأنَّه على القولِ الأوَّلِ يكونُ الدِّينُ ليس له ضوابطُ، بل رُبَّما يكونُ دينًا في بقعةٍ، وسواه دينًا في بقعةٍ أخرى، أو في زمانٍ دون زمانٍ.

٥٨١١- وَأَقِرَّ عَيْنَ رَسُولِكَ الـمَبْعُوثِ بِالـدْ ... دِينِ الـحَنِيفِ بِنَصْـرِهِ الـمُتَدَانِي

قَوْلُهُ: «المُتَدَانِي»؛ أي: القريب.

قَوْلُهُ: «أَقِرَّ عَيْنَ رَسُولِكَ» كيف قال: «أَقِرَّ عَيْنَ رَسُولِكَ بِنَصْرِهِ المُتَدَانِي» مع أنَّ الرَّسولَ ﷺ ميِّتٌ؟ الجوابُ عن هذا أن نقولَ: إنَّ الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- تُعْرَضُ عليه أعمالُ أُمَّتِه، فإذا عُرِضَ عليه النَّصرُ فلا شكَّ أنَّ عينَه -صلواتُ الله وسلامُه عليه- ستقرُّ بذلك؛ لأنَّه يَرْضَى بما يرضاه اللهُ، ولا يَرْضَى بما لا يرضاه اللهُ، هذا توجيهُ كلامِ ابنِ القيِّمِ رحمه اللهُ.

٥٨١٢- وَانْصُرْهُ بِالنَّصْرِ العَزِيزِ كَمِثْلِ مَا ... قَـدْ كُنْـتَ تَنْصُـرُهُ بِكُـلِّ زَمَـانِ

أي: انصر الدِّينَ الحنيفَ بالنَّصرِ العزيزِ «كَمِثْلِ مَا قَدْ كُنْتَ تَنْصُرُهُ بِكُلِّ زَمَانِ».

إِذَنْ انتصارُ الفرقةِ الإسلاميَّةِ في أيِّ مكانٍ أو زمانٍ هو نصرٌ للرَّسولِ ﷺ؛ لأنَّ النَّصرَ لأتباعِه شهادةٌ بأنَّ دينَه حقٌّ، ومِنْ ثَمَّ قال العلماءُ رحمهم اللهُ: «إنَّ كَراماتِ الأولياءِ آياتٌ لمتبوعيهم»، فإذا حَصَلَ كراماتٌ لهذه الأُمَّةِ فهي في الحقيقةِ

آياتٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم؛ لأنَّها شَهادةٌ من الله على أنَّ ما حصلت له هذه الكرامةُ على حقٍّ.

***

٥٨١٣- يَا رَبِّ وَانْصُرْ خَيْرَ حِزْبَيْنَا عَلَى ... حِزْبِ الضَّلالِ وَعَسْكَرِ الشَّيْطَانِ

٥٨١٤- يَا رَبِّ وَاجْعَلْ شَرَّ حِزْبَيْنَا فِدًى ... لِخِيَارِهِمْ وَلِعَسْكَرِ القُرْآنِ

٥٨١٥- يَا رَبِّ وَاجْعَلْ حِزْبَكَ المَنْصُورَ أَهْـ ... ـلَ تَرَاحُمٍ وَتَوَاصُلٍ وَتَدَانِ

٥٨١٦- يَا رَبِّ وَاحْمِهِمُ مِنَ البِدَعِ الَّتِي ... قَدْ أُحْدِثَتْ فِي الدِّينِ كُلَّ زَمَانِ

٥٨١٧- يَا رَبِّ جَنِّبْهُمْ طَرَائِقَهَا الَّتِي ... تُفْضِي بِسَالِكِهَا إِلَى النِّيرَانِ

٥٨١٨- يَا رَبِّ وَاهْدِهِمُ بِنُورِ الوَحْيِ كَيْ ... يَصِلُوا إِلَيْكَ فَيَظْفَرُوا بِجِنَانِ

٥٨١٩- يَا رَبِّ كُنْ لَهُمُ وَلِيًّا نَاصِرًا ... وَاحْفَظْهُمُ مِنْ فِتْنَةِ الفَتَّانِ

٥٨٢٠- وَانْصُرْهُمُ يَا رَبِّ بِالحَقِّ الَّذِي ... أَنْزَلْتَهُ يَا مُنْزِلَ القُرْآنِ

٥٨٢١- يَا رَبِّ إِنَّهُمُ هُمُ الغُرَبَاءُ قَدْ ... لَجَؤُوا إِلَيْكَ وَأَنْتَ ذُو الإِحْسَانِ

٥٨٢٢- يَا رَبِّ قَدْ عَادُوا لأَجْلِكَ كُلَّ هَـ ... ـذَا الخَلْقِ إِلَّا صَادِقَ الإِيمَانِ

٥٨٢٣- قَدْ فَارَقُوهُمْ فِيكَ أَحْوَجَ مَا هُمُ ... دُنْيَا إِلَيْهِمْ فِي رِضَا الرَّحْمَنِ

٥٨٢٤- وَرَضُوا وِلايَتَكَ الَّتِي مَنْ نَالَهَا ... نَالَ الأَمَانَ وَنَالَ كُلَّ أَمَانِ

٥٨٢٥- وَرَضُوا بِوَحْيِكَ مِنْ سِوَاهُ وَمَا ارْتَضَوا ... بِسِوَاهُ مِنْ آرَاءِ ذِي الهَذَيَانِ

٥٨٢٦- يَا رَبِّ ثَبِّتْهُمْ عَلَى الإِيمَانِ وَاجْـ ... ـعَلْهُمْ هُدَاةَ التَّائِهِ الحَيْرَانِ

٥٨٢٧- وَانْصُرْ عَلَى حِزْبِ النُّفَاةِ عَسَاكِرَ الـ ... إِثْبَاتِ أَهْلَ الحَقِّ وَالعِرْفَانِ
٥٨٢٨- وَأَقِمْ لأَهْلِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الـ ... أَنْصَارِ وَانْصُرْهُمْ بِكُلِّ زَمَانِ
٥٨٢٩- وَاجْعَلْهُمُ لِلمُتَّقِينَ أَئِمَّةً ... وَارْزُقْهُمُ صَبْرًا مَعَ الإِيقَانِ
٥٨٣٠- تَهْدِي بِأَمْرِكَ لا بِمَا قَدْ أَحْدَثُوا ... وَدَعَوْا إِلَيْهِ النَّاسَ بِالعُدْوَانِ
٥٨٣١- وَأَعِزَّهُمْ بِالحَقِّ وَانْصُرْهُمْ بِهِ ... نَصْرًا عَزِيزًا أَنْتَ ذُو السُّلْطَانِ
٥٨٣٢- وَاغْفِرْ ذُنُوبَهُمُ وَأَصْلِحْ شَأْنَهُمْ ... فَلأَنْتَ أَهْلُ العَفْوِ وَالغُفْرَانِ
٥٨٣٣- وَلَكَ المَحَامِدُ كُلُّهَا حَمْدًا كَمَا ... يُرْضِيكَ لا يَفْنَى عَلَى الأَزْمَانِ
٥٨٣٤- مِلْءَ السَّمَاوَاتِ العُلَى وَالأَرْضِ وَالـ ... ـمَوْجُودِ بَعْدُ وَمُنْتَهَى الإِمْكَانِ
٥٨٣٥- مِمَّا تَشَاءُ وَرَاءَ ذَلِكَ كُلِّهِ ... حَمْدًا بِغَيْرِ نِهَايَةٍ بِزَمَانِ
٥٨٣٦- وَعَلَى رَسُولِكَ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ وَالتْـ ... ـتَسْلِيمِ مِنْكَ وَأَكْمَلُ الرِّضْوَانِ
٥٨٣٧- وَعَلَى صَحَابَتِهِ جَمِيعًا وَالأُلَى ... تَبِعُوهُمُ مِنْ بَعْدُ بِالإِحْسَانِ

الشرحُ

٥٨١٣- يَا رَبِّ وَانْصُرْ خَيْرَ حِزْبَيْنَا عَلَى ... حِزْبِ الضَّلالِ وَعَسْكَرِ الشَّيْطَانِ

وهذا من عدلِ النَّاظمِ رحمه اللهُ؛ حيثُ قال: «**انْصُرْ خَيْرَ حِزْبَيْنَا عَلَى حِزْبِ الضَّلالِ**»، ولم يقل: «**انْصُرْنَا، أَوِ انْصُرْ حِزْبَنَا**»، ومن المعلومِ أنَّ اللهَ تعالى يعلمُ مَنْ هو خيرٌ من الحِزْبَيْنِ فينصرُه على الحزبِ الآخرِ الذي هو حزبُ الضَّلالِ، وهذا كقولِ زعيمِ قريشٍ حينما تقابل الصَّفَّان قال: «اللَّهُمَّ أَقْطَعَنَا الرَّحِمَ، وَآتَانَا بِمَا

لَا نَعْرِفُهُ، فَأَحْنِهِ الغَدَاةَ»[١]؛ يعني: أَهْلِكْهُ، ومعلومٌ أنَّ الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- هو أوصلُهم للرَّحِمِ، وأقربُهم إلى الحقِّ، فابنُ القيِّم أخذ هذا المعنى وقال: «**يَا رَبِّ وَانْصُرْ خَيْرَ حِزْبَيْنَا عَلَى حِزْبِ الضَّلَالِ وَعَسْكَرِ الشَّيْطَانِ**»، وهذا من بابِ مُراعاةِ الخَصْمِ، ومن بابِ العدلِ.

٥٨١٤- يَا رَبِّ وَاجْعَلْ شَرَّ حِزْبَيْنَا فِدًى ... لِخِيَارِهِمْ وَلِعَسْكَرِ القُرْآنِ

وهذا عكسُ الأوَّلِ؛ بأن يَنْصُرَ خيرَ الحِزْبَيْنِ، ويجعلَ شرَّهما فِدًى للآخرِ، ولذا نحن نقولُ: آمينَ، ثُمَّ آمينَ.

٥٨١٥- يَا رَبِّ وَاجْعَلْ حِزْبَكَ المَنْصُورَ أَهْ ... لَ تَرَاحُمٍ وَتَوَاصُلٍ وَتَدَانِ

لـمَّا سَأَلَ اللهَ لـهم النَّصرَ سَأَلَ اللهَ أن يجعلَ ما بينهم على وجهِ الاستقامةِ؛ وذلك بأنْ يكونوا أهلَ تراحمٍ وتواصلٍ وتَدانٍ؛ أي: تقاربٍ؛ لأنَّه أحيانًا يحصلُ بين الحزبِ المنصورِ الذي على الحقِّ يحصلُ بينهم اختلافٌ وفرقةٌ، فدعا ابنُ القيِّمِ -رحمه اللهُ- أن يجعلَ هذا الحزبَ المباركَ أهلَ تراحمٍ وتواصلٍ وَتَدَانٍ.

٥٨١٦- يَا رَبِّ وَاحْمِهِمُ مِنَ البِدَعِ الَّتِي ... قَدْ أُحْدِثَتْ فِي الدِّينِ كُلَّ زَمَانِ

قَوْلُهُ: «**أُحْدِثَتْ فِي الدِّينِ**»، أمَّا البدعُ التي أُحْدِثَتْ في الدُّنيا فقد تكونُ خيرًا، لكن البدعُ التي هي شرٌّ محضٌ هي البدعُ في الدِّينِ، ويدلُّ لهذا أنَّ النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- لـمَّا حَثَّ على التَّمسُّكِ بسُنَّتِه قال: «**إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[٢].

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٣١، رقم ٢٤٠٦٠).
(٢) أخرجه أحمد (٢٨/ ٣٧٣، رقم ١٧١٤٤). وأبو داود: كتاب السُّنَّة، باب في لزوم السُّنَّة، رقم (٤٦٠٧).

٥٨١٧- يَا رَبِّ جَنِّبْهُمْ طَرَائِقَهَا الَّتِي ... تُفْضِي بِسَالِكِهَا إِلَى النِّيرَانِ

قَوْلُهُ: «جَنِّبْهُمْ طَرَائِقَهَا»؛ أي: طرائقَ البدعِ.

وهذا أخذَه من قولِ النَّبيِّ ﷺ: «كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ»[1]، ولا شكَّ أنَّ صاحبَ البدعِ على خطرٍ؛ لأنَّه يكونُ -والعياذُ بالله- إمامًا في الشَّرِّ والمخالفةِ في الدِّينِ والابتداعِ فيه.

٥٨١٨- يَا رَبِّ وَاهْدِهِمُ بِنُورِ الوَحْيِ كَيْ ... يَصِلُوا إِلَيْكَ فَيَظْفَرُوا بِجِنَانِ

٥٨١٩- يَا رَبِّ كُنْ لَهُمُ وَلِيًّا نَاصِرًا ... وَاحْفَظْهُمُ مِنْ فِتْنَةِ الفَتَّانِ

٥٨٢٠- وَانْصُرْهُمُ يَا رَبِّ بِالحَقِّ الَّذِي ... أَنْزَلْتَهُ يَا مُنْزِلَ القُرْآنِ

٥٨٢١- يَا رَبِّ إِنَّهُمُ هُمُ الغُرَبَاءُ قَدْ ... لَجَؤُوا إِلَيْكَ وَأَنْتَ ذُو الإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «يَا رَبِّ إِنَّهُمْ هُمُ الغُرَبَاءُ قَدْ لَجَأُوا إِلَيْكَ» هذا من بابِ التَّوسُّلِ بالحالِ، أن يتوسَّلَ الإنسانُ إلى الله بحالِه، والتَّوسُّلُ إلى الله بالحالِ جائزٌ، ومنه قولُ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤]، فإذا تَوَسَّلَ الإنسانُ بحالِه إلى الله فإنَّ هذه الحالَ سببٌ لعطفِ الله عزَّ وجلَّ عليه وعنايتِه به.

قَوْلُهُ: «هُمُ الغُرَبَاءُ»؛ يعني: بين أهلِ البدعِ، ولا شكَّ أنَّ أهلَ السُّنَّةِ -جعلنا اللهُ وإيَّاكم منهم- لا شكَّ أنَّهم غرباءُ بين أهلِ البدعِ، وأنَّ أهلَ البدعِ يرمونهم بكُلِّ لقبٍ سيِّئٍ، فابنُ القيِّمِ -رحمه اللهُ- يقولُ: «إِنَّهُمْ هُمُ الغُرَبَاءُ قَدْ لَجَؤُوا إِلَيْكَ وَأَنْتَ ذُو الإِحْسَانِ»؛ يعني: فَأَحْسِنْ إليهم، واحْمِهِمْ من أعدائِهم.

(١) أخرجه النسائي: كتاب صلاة العيدين، باب كيف الخطبة، رقم (١٥٧٨).

٥٨٢٢- يَا رَبِّ قَدْ عَادُوا لأَجْلِكَ كُلَّ هَـ ـذَا الـخَلْقِ إِلَّا صَادِقَ الإِيمَانِ

وهذا هو الواجبُ؛ أنَّ أهلَ السُّنَّةِ يُعَادُونَ جميعَ البشرِ إلَّا صادقَ الإيمانِ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾؛ أي: تجعلونها بين أيديهم ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة:١]، فكيف تحبُّون هؤلاء أو تُوادُّونَهم وهم قد كفروا بما جاءكم من الحقِّ؟!

٥٨٢٣- قَدْ فَارَقُوهُمْ فِيكَ أَحْوَجَ مَا هُمُ دُنْيَا إِلَـيْهِمْ فِي رِضَا الـرَّحْمَنِ

يعني: أنَّهم فارقوا أعداءَ الله مع أنَّهم محتاجون إليهم في أمورِ الدُّنيا، لكن من أجلِ رضا الله عَادَوْهم وفَارَقُوهُم.

٥٨٢٤- وَرَضُوا وِلايَتَكَ الَّتِي مَنْ نَالَـهَا نَالَ الأَمَانَ وَنَالَ كُلَّ أَمَانِ

قَوْلُهُ: «نَالَ الأَمَانَ»، «الأَمَانُ» ضدُّ الخوفِ.

وَقَوْلُهُ: «وَنَالَ كُلَّ أَمَانِ»؛ أي: كُلَّ أمنيةٍ؛ أي: كُلَّ ما يتمنَّى، وليس قولُه: «كُلَّ أَمَانِ» الأمان الذي هو ضدُّ الخوفِ؛ لئلَّا يكونَ البيتُ مُكَرَّرًا.

٥٨٢٥- وَرَضُوا بِوَحْيِكَ مِنْ سِوَاهُ وَمَا ارْتَضُوا بِسِوَاهُ مِنْ آرَاءِ ذِي الـهَذَيَانِ

يعني: صاروا يتحاكمون إلى الوحيِ لا إلى آراءِ الرِّجالِ.

٥٨٢٦- يَا رَبِّ ثَبِّتْهُمْ عَلَى الإِيمَانِ وَاجْـ ـعَلْهُمْ هُدَاةَ التَّائِهِ الـحَيْرَانِ

٥٨٢٧- وَانْصُرْ عَلَى حِزْبِ النُّفَاةِ عَسَاكِرَ الـ إِثْبَاتِ أَهْلَ الـحَقِّ وَالعِرْفَانِ

قَوْلُهُ: «حِزْبِ النُّفَاةِ» يُريدُ بهذا: نفاةَ الأسماءِ والصِّفاتِ، سواء نَفَوْا ذلك جحودًا وإنكارًا أم نَفَوْا ذلك تحريفًا؛ لأنَّ نفاةَ الصِّفاتِ بعضهم ينفيها إنكارًا

وجحدًا؛ كالذين يقولون: «**إنَّ أخبارَ الآحادِ لا تَثْبُتُ بها الصِّفاتُ**» هذا إنكارٌ، أو تحريفًا؛ إذا عَجَزُوا عن إنكارِها حرَّفوها وصَرَفُوها عن مرادِها، فكلامُه -رحمه اللهُ- يشملُ النَّوعين؛ أي: مَنْ نفاها إنكارًا وجحودًا، ومَنْ نفاها تحريفًا وتأويلًا كما يَدَّعِي.

٥٨٢٨- وَأَقِمْ لأَهْلِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الـ ... أَنْصَارِ وَانْصُرْهُمْ بِكُلِّ زَمَانِ

سأل اللهَ أن يُقِيمَ لأهلِ السُّنَّةِ الأنصارَ؛ ومنهم السَّلاطينُ والأمراءُ، فإنَّهم إذا كانوا أنصارًا لأهلِ السُّنَّةِ نفعوا أهلَ السُّنَّةِ، ولا يخفى على كثيرٍ منكم ما حصل للإمامِ أحمدَ في آخرِ الأمرِ، لـمَّا تولَّاه السُّلطانُ، وصار ناصرًا له انتصر الحقُّ، ولا يخفى أيضًا ما حصل من تولِّي الإمام محمَّد بن سعود -رحمه اللهُ- للإمامِ محمَّد ابن عبد الوهَّاب، فإنَّ اللهَ نصره حيث نصره الإمامُ.

٥٨٢٩- وَاجْعَلْهُمُ لِلْمُتَّقِينَ أَئِمَّةً ... وَارْزُقْهُمُ صَبْرًا مَعَ الإِيقَانِ

قَوْلُهُ: «**وَاجْعَلْهُمُ لِلْمُتَّقِينَ أَئِمَّةً**»، إمامةُ المتَّقين ليست بالسَّهْلةِ، إمامةُ المتَّقين تحتاجُ إلى عبادةٍ وعلمٍ وبصيرةٍ؛ حتَّى يكونَ إمامًا بقولِه وإمامًا بفعلِه.

قَوْلُهُ: «**وَارْزُقْهُمُ صَبْرًا مَعَ الإِيقَانِ**»؛ هذا مأخوذٌ من قولِ الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السَّجدة:٢٤]، ومن كلماتِ شيخِ الإسلامِ رحمه اللهُ: «**بالصَّبرِ واليقينِ تُنَالُ الإمامةُ في الدِّينِ**»(١).

٥٨٣٠- تَهْدِي بِأَمْرِكَ لا بِمَا قَدْ أَحْدَثُوا ... وَدَعَوْا إِلَيْهِ النَّاسَ بِالعُدْوَانِ

قَوْلُهُ: «**تَهْدِي بِأَمْرِكَ لَا بِمَا قَدْ أَحْدَثُوا**»؛ مأخوذٌ من قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا

---

(١) انظر: قاعدة في الصبر (ص:٩٤).

مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾؛ يعني: ويهدون النَّاسَ بأمرِنا؛ أي: بشرعِنا، وبأمرِنا الكونيِّ أيضًا ﴿لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السَّجدة:٢٤]، لا بِمَا قَدْ أَحْدَثُوا، والضَّميرُ يعودُ على النَّاسِ؛ أي: أَحْدَثَ النَّاسُ، وليس المرادُ أَحْدَثَ الأئمَّةُ؛ لأنَّ الأئمَّةَ في الدِّينِ لا يُحْدِثُونَ شيئًا في دينِ الله.

٥٨٣١- وَأَعِزَّهُمْ بِالحَقِّ وَانْصُرْهُمْ بِهِ نَصْرًا عَزِيزًا أَنْتَ ذُو السُّلْطَانِ

قَوْلُهُ: «أَعِزَّهُمْ بِالحَقِّ»؛ يعني: اجعل لهم الغلبةَ بالحقِّ.

قَوْلُهُ: «وَانْصُرْهُمْ بِهِ»؛ أي: وانْصُرْهم بالحقِّ نصرًا عزيزًا؛ وهذا مأخوذٌ من قولِه تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح:٣].

٥٨٣٢- وَاغْفِرْ ذُنُوبَهُمُ وَأَصْلِحْ شَأْنَهُمْ فَلأَنْتَ أَهْلُ العَفْوِ وَالغُفْرَانِ

قَوْلُهُ: «وَاغْفِرْ ذُنُوبَهُمُ وَأَصْلِحْ شَأْنَهُمْ...»؛ هذا مأخوذٌ من قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ [الأحزاب:٧١- ٧٢].

وَقَوْلُهُ: «وَاغْفِرْ ذُنُوبَهُمُ وَأَصْلِحْ شَأْنَهُمْ»؛ وذلك بالتَّقوى، والقولِ السَّديدِ.

٥٨٣٣- وَلَكَ المَحَامِدُ كُلُّهَا حَمْدًا كَمَا يُرْضِيكَ لا يَفْنَى عَلَى الأَزْمَانِ

٥٨٣٤- مِلْءَ السَّمَاوَاتِ العُلَى وَالأَرْضِ وَالـ ـمَوْجُودِ بَعْدُ وَمُنْتَهَى الإِمْكَانِ

٥٨٣٥- مِمَّا تَشَاءُ وَرَاءَ ذَلِكَ كُلِّهِ حَمْدًا بِغَيْرِ نِهَايَةٍ بِزَمَانِ

نعم، له المحامدُ كُلُّها، لا يَفْنَى أبدًا؛ وذلك مأخوذٌ من قولِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «مِلءَ السَّمَاوَاتِ، وَمِلْءَ الأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا، وَمِلْءَ مَا

شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ»(١)، فهو يعمُّ الزَّمانَ والمكانَ.

٥٨٣٦- وَعَلَى رَسُولِكَ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ وَالتْـ ... ـتَسْلِيمِ مِنْكَ وَأَكْمَلُ الرِّضْوَانِ

٥٨٣٧- وَعَلَى صَحَابَتِهِ جَمِيعًا وَالأُلَى ... تَبِعُوهُمُ مِنْ بَعْدُ بِالإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «وَعَلَى رَسُولِكَ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ وَالتَّسْلِيمِ» هذا مأخوذٌ من قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

قَوْلُهُ: «وَأَكْمَلُ الرِّضْوَانِ وَعَلَى صَحَابَتِهِ جَمِيعًا» الرِّضوانُ عليه وعلى صحابتِه؛ مأخوذٌ من قولِه سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٍ﴾ [التَّوبة:١٠٠]، ولا شَكَّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ مُهاجِرٌ؛ إِذَنْ يدخلُ في الرِّضوانِ.

قَوْلُهُ: «وَالأُلَى تَبِعُوهُمُ مِنْ بَعْدُ بِالإِحْسَانِ»؛ لقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٍ﴾.

نسمعُ كثيرًا من بعضِ المتكلِّمين بالوعظِ والإرشادِ يقولُ: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى محمَّدٍ وعلى آلِه وأصحابِه والتَّابعين**»، وهذا لا ينبغي؛ لأنَّه إطلاقٌ لما قيَّده اللهُ، لكن ماذا نقولُ؟

نقولُ: «**والتَّابعينَ لهم بإحسانٍ**» كما قيَّده اللهُ عزَّ وجلَّ، ولكن يُقَالُ في العُذْرِ عن هؤلاء: إنَّك لو سَأَلْتَهُمْ: هل تريدُ التَّابعين زمنًا أو التَّابعين عملًا بإحسانٍ؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، رقم (٢٨٤٥)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، رقم (٢٤٩٤).

لقال: أريدُ الثَّاني، إلَّا أنَّه ينبغي التَّصريحُ بالمرادِ، حتَّى لا ينالَ الإنسانَ شيءٌ من النَّقصِ.

والحقيقةُ: أنَّ هذه القصيدةَ قصيدةٌ رائعةٌ، ولا يُعَابُ عليها إلَّا أنَّ أفهامَنا قاصرةٌ دونها، كما أنَّه يكونُ فيها تَكْرَارٌ أحيانًا من أجلِ تثبيتِ المعاني، والتَّكرارُ من أجلِ التَّثبيتِ، ولأهميَّةِ الموضوعِ أمرٌ مألوفٌ حتَّى في القرآنِ الكريمِ من الأشياءِ المكرَّرةِ معانيها ما هو معلومٌ؛ بل في بعضِ الآياتِ تجدُ التَّكرارَ، بل تجدُ الآيةَ برُمَّتِها مكرَّرَةً؛ مثل قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التَّوبة:٧٣]، وكُلُّ هذا من أجلِ تثبيتِ الأمورِ المُهِمَّةِ في أذهانِ النَّاسِ.

وبذلك انْتَهَت القصيدةُ النُّونيَّةُ، وعَلَّقْنَا عليها بما فَتَحَ اللهُ به علينا، ونسألُ اللهَ أن ينفعَ به، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

* * *

تمَّ بحمْدِ الله وتَوفيقِهِ الْـمُجلَّدُ الرَّابعُ وَهُوَ الْأَخِيرُ

مِنْ شَرحِ الْكافِيَةِ الشَّافيَةِ في الانْتِصارِ لِلْفِرقَةِ النَّاجيَةِ

وَالْـحَمْدُ لله الَّذي بِنَعمَتِهِ تتِمُّ الصَّالِـحَاتُ

وَصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ وَبارَكَ عَلى نبيِّنا مُحَمَّدٍ، وَعَلى آلِهِ وَأصْحَابِهِ

والتَّابِعِينَ لَـهُمْ بِإحسَانٍ إِلَى يوْمِ الدِّينِ

* * *

أبياتٌ مختاراتٌ من النونية

بقلم فضيلة الشَّيخ الشَّارح رحمه الله تعالى

١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ابتدأنا قراءة النونية بعد العصر يومين في الأسبوع من ٢٠ ذي الحجة ١٣٩١هـ نسأل الله أن ينفعنا بها. وهذه أبيات مختارات مما يمر بنا جعلناها فصولا

فصل في مذهب جهم في الصفات

جهم بن صفوان وشيعته الألى	جحدوا صفات الخالق الديان
قالوا وليس لربنا سمع ولا	بصر ولا وجه فكيف يدان
كلا ولا وصف يقوم به سوى	ذات مجردة بغير معان
وحياته هي نفسه وكلامه	هو غيره فاعجب لذا البهتان
وكلامه مذ كان غيرًا كان مخـ	ـلوقًا له من جملة الأكوان

فصل في مذهب جهم في أفعال العبد

والعبد عندهم فليس بفاعل	بل فعله كتحرك الرجفان
والجبر مذهبه الذي قرت به	عين العصاة وشيعة الشيطان
فلذاك قال بأن طاعات الورى	وكذاك ما فعلوا من العصيان
هي عين فعل الرب لا أفعالهم	فيصح عنهم عند ذا النفيان
نفي لقدرتهم عليها أولا	وصدورها عنهم بنفي ثان
فيقال ما صاموا ولا صلوا ولا	زكوا ولا ذبحوا من القربان
إلا على وجه المجاز لأنها	قامت بهم كالطعم والألوان

فصل في مذهب جهم في الإيمان

قالوا وإقرار العباد بأنه	خلاقهم هو منتهى الإيمان
والناس في الإيمان شيء واحد	كالمشط عند تماثل الأسنان

فصل في مذهب جهم في فعل الله

وقضى بأن الله كان معطلا	والفعل ممتنع بلا إمكان

الصفحة الأولى

وحياة قلب المرء في شيئين من ... يرزقهما يحيى مدى الأزمان

ذكر الإله وحبه من غير إشـ ... ـراك به وهما ممتنعان

من صاحب التعطيل حقا كامتنا ... ع الطائر المقصوص من طيران

يا من تعز عليهم أرواحهم ... ويرون غبنا بيعها بهوان

ويرون أن أمامهم يوم اللقا ... لله مسألتان شاملتان

ماذا عبدتم ثم ماذا قد أجبـ ... ـتم من أتى بالحق والبرهان ٦٠٢

هاتوا جوابا للسؤال وهيئوا ... أيضا صوابا للجواب يداني إلخ

الصفحة الأخيرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أبيات مختارات من النونية

بقلم فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى

الحمد لله رب العالمين، ابتدأنا قراءة النونية بعد العصر، يوْمَيْن في الأسبوع، من ٢٠ ذي الحجة ١٣٩١هـ، نسألُ اللهَ أن ينفعنا بها، وهذه أبياتٌ مختارات مما يمر بنا، جعلناها فصولًا.

فَصْلٌ في مَذْهَبِ جَهْمٍ في الصِّفَاتِ

جَهْمُ بْنُ صَفْوَانٍ وَشِيْعَتُهُ الْأُولَى ... جَحَدُوا صِفَاتِ الْخَالِقِ الدَّيَّانِ

قَالُوا وَلَيْسَ لِرَبِّنَا سَمْع وَلَا ... بَصَرٌ وَلَا وَجْهٌ، فَكَيْفَ يَدَانِ

كَلَّا، وَلَا وَصْفٌ يَقُومُ بِهِ سِوَى ... ذَاتٍ مُجَرَّدَةٍ بِغَيْرِ مَعَانِ

وَحَيَاتُهُ هِيَ نَفْسُهُ، وَكَلَامُهُ ... هُوَ غَيْرُهُ فَاعْجَبْ لِهَذَا الْبُهْتَانِ

وكلامه مذ كان غيرًا كان مخـ ... ـلوقا له من جملة الأكوان

فَصْلٌ: في مَذْهَبِ جَهْمٍ في أَفْعَالِ الْعَبْدِ

وَالْعَبْدُ عِنْدَهُمُ فَلَيْسَ بِفَاعِلٍ ... بَلْ فِعْلُهُ كَتَحَرُّكِ الرَّجَفَانِ

وَالْجَبْرُ مَذْهَبُهُ الَّذِي قَرَّتْ بِهِ ... عَيْنُ الْعُصَاةِ، وَشِيعَةُ الشَّيْطَانِ

فَلِـذَاكَ قَـالَ بِـأَنَّ طَاعَـاتِ الْـوَرَى ... وَكَـذَاكَ مَـا فَعَلُـوهُ مِـنْ عِصَـيانِ
هِـيَ عَـيْنُ فِعْـلِ الـرَّبِّ لَا أَفْعَالُــهُمْ ... فَيَصِــحُّ عَــنْهُمْ عِنْــدَ ذَا نَفْيَــانِ
نَفْــيٌ لِقُــدْرَتِهِمْ عَلَيْهَــا أَوَّلًا ... وَصُــدُورُها عَــنْهُمْ بِنَفْــيٍ ثَــانِ
فَيُقَـالُ مَـا صَـامُوا وَلَا صَـلَّوْا وَلَا ... زَكَّــوْا وَلَا ذَبَحُــوا مِــنَ الْقُرْبَـانِ
إِلَّا عَــلَى وَجْــهِ الْــمَجَازِ؛ لِأَنَّهَــا ... قَامَــتْ بِهِــمْ كَـالطَّعْمِ وَالْأَلْـوَانِ

فَصْلٌ: فِي مَذْهَبِ جَهْمٍ فِي الإِيمَانِ

قَــالُوا: وَإِقْــرَارُ الْعِبَــادِ بِأَنَّــهُ ... خَلَّاقُهُــمْ هُــوَ مُنْتَهَــى الْإِيــمَانِ
وَالنَّــاسُ فِي الْإِيــمَانِ شَيْءٌ وَاحِــدٌ ... كَالْــمُشْطِ عِنْــدَ تَــمَاثُلِ الْأَسْــنَانِ

فَصْلٌ: فِي مَذْهَبِ جَهْمٍ فِي فِعْلِ اللهِ

وَقَضَــى بِــأَنَّ اللهَ كَــانَ مُعَطَّــلًا ... وَالْفِعْــلُ مُمْتَنِــعٌ بِــلَا إِمْكَــانِ
ثُــمَّ اسْــتَحَالَ وَصَــارَ مَقْــدُورًا لَــهُ ... مِــنْ غَــيْرِ أَمْــرٍ قَــامَ بِالــدَّيَّانِ
بَــلْ حَالُــهُ سُــبْحَانَهُ فِي ذَاتِــهِ ... قَبْــلَ الْــحُدُوثِ وَبَعْــدَهُ سِــيَّانِ
وَقَضَــى بِــأَنَّ اللهَ لَــيْس بِفَاعِــلٍ ... فِعْــلًا يَقُــومُ بِــهِ بِــلَا بُرْهَــانِ
بَــلْ فِعْلُــهُ الْــمَفْعُولُ خَــارِجَ ذَاتِــهِ ... كَالْوَصْفِ غَـيْرُ الـذَّاتِ فِي الْـحُسْبَانِ
وَقَضَــى بِــأَنَّ النَّــارَ لَــمْ تُخْلَــقْ وَلَا ... جَنَّــاتُ عَــدْنٍ بَــلْ هُمَــا عَــدَمَانِ

فَــإِذَا هُمَــا خُلِقَــا لِيَــوْمِ مَعَادِنَــا ... فَهُمَــا عَــلَى الْأَوْقَــاتِ فَانِيَتَــانِ

وَلِأَجْلِ ذَلِكَ لَــمْ يُقِرَّ الْــجَهْمُ بِالْــ ... أَرْوَاحِ خَارِجَــةً عَــنِ الْأَبْــدَانِ

لَكِنَّهَــا مِــنْ بَعْــضِ أَعْــرَاضٍ بِهَــا ... قَامَــتْ، وَذَا فِي غَايَــةِ الْــبُطْلَانِ

وَقَضَــى عَــلَى أَسْـمَائِهِ بِحُــدُوثِهَا ... وَبِخَلْقِهَــا مِــنْ جُمْلَــةِ الْأَكْــوَانِ

فَـانْظُرْ إِلَى تَعْطِيلِـهِ الْأَوْصَـافِ وَالْــ ... أَفْعَــالِ وَالْأَسْــمَاءِ لِلــرَّحْمَنِ

وَلِــذَا تَقَسَّــمَتِ الطَّوَائِــفُ قَوْلَــهُ ... وَتَوَارَثُــوهُ إِرْثَ ذِي السُّــهْمَانِ

لَــمْ يَنْجُ مِــنْ أَقْوَالِـهِ طُــرًّا سِوَى ... أَهْــلُ الْــحَدِيثِ وَشِـيعَةِ الْقُــرْآنِ

فَصْلٌ: فِي مُقَدِّمَةٍ قَبْلَ التَّحْكِيمِ

يَــا أَيُّهَــا الرَّجُــلُ الْــمُرِيدُ نَجَاتَــهُ ... اسْــمَعْ مَقَالَــةَ نَاصِــحٍ مِعْــوَانِ

كُــنْ فِي أُمُــورِكَ كُلِّهَــا مُتَمَسِّــكًا ... بِــالْوَحْيِ لَا بِزَخَــارِفِ الْــهَذَيَانِ

وَانْصُــرْ كِتَــابَ اللهِ وَالسُّــنَنَ الَّتِــي ... جَــاءَتْ عَــنِ الْــمَبْعُوثِ بِــالْقُرْآنِ

وَاثْبُتْ بِصَـبْرِكَ تَحْـتَ أَلْوِيَـةِ الْــهُدَى ... فَــإِذَا أُصِـبْتَ فَفِــي رِضَـا الــرَّحْمَنِ

وَتَعَــرَّ مِــنْ ثَــوْبَيْنِ مَــنْ يَلْبَسْــهُمَا ... يَلْــقَ الــرَّدَى بِمَذَمَّــةٍ وَهَــوَانِ

ثَــوْبٌ مِــنَ الْــجَهْلِ الْــمُرَكَّبِ فَوْقَــهُ ... ثَــوْبُ التَّعَصُّــبِ، بِئْسَــتِ الثَّوْبَــانِ

وَتَحَــلَّ بِالْإِنْصَــافِ أَفْخَــرِ حُلَّــةٍ ... زِينَــتْ بِهَــا الْأَعْطَــافُ وَالْكَتِفَــانِ

وَالْــحَقُّ مَنْصُــورٌ وَمُــمْتَحَنٌ، فَــلَا ... تَعْجَــبْ؛ فَهَــذِي سُــنَّةُ الــرَّحْمَنِ

وَبِــذَاكَ يَظْهَــرُ حِزْبُــهُ مِــنْ حَرْبِــهِ ... وَلِأَجْــلِ ذَاكَ النَّــاسُ طَائِفَتَــانِ
لَكِــنَّمَا الْعُقْبَــى لِأَهْــلِ الْــحَقِّ إِنْ ... فَاتَــتْ هُنَــا كَانَــتْ لَــدَى الــدَّيَّانِ
وَاجْعَــلْ لِقَلْبِــكَ هِجْــرَتَيْنِ، وَلَا تَــنَمْ ... فَهُــمَا عَــلَى كُــلِّ امْــرِئٍ فَرْضَــانِ
فَالْــهِجْرَةُ الْأُولَى إِلَى الــرَّحْمَنِ بِالْــ ... إِخْــــلَاصِ فِي سِرٍّ، وَفِي إِعْــــلَانِ
وَالْـهِجْرَةُ الْأُخْرَى إِلَى الْـمَبْعُوثِ بِالْـ ... ـحَقِّ الْــمُبِينِ وَوَاضِــحِ الْبُرْهَــانِ
وَشَــجَاعَةِ الْفُرْسَــانِ نَفْــسُ الزُّهْــدِ فِي ... نَفْــسٍ، وَذَا مَحْــذُورُ كُــلِّ جَبَــانِ
وَشَــجَاعَةُ الْــحُكَّامِ وَالْعُلَــمَاءِ زُهْــ ... ــدٌ فِي الثَّنَــا مِــنْ كُــلِّ ذِي بُطْــلَانِ
وَاجْعَــلْ لِقَلْبِــكَ مُقْلَتَــيْنِ، كِلَاهُمَــا ... بِالْــحَقِّ فِي ذَا الْــخَلْقِ نَاظِرَتَــانِ
فَــانْظُرْ بِعَــيْنِ الْــحُكْمِ وَارْحَمْهُــمْ بِهَــا ... إِذْ لَا تُــرَدُّ مَشِــيئَةُ الــدَّيَّانِ
وَانْظُــرْ بِعَــيْنِ الْأَمْــرِ وَاحْمِلْهُــمْ عَــلَى ... أَحْكَامِــهِ، فَهُــمَا إِذَنْ نَظَــرَانِ
وَاحْــذَرْ كَمَائِــنَ نَفْسِــكَ الــلَّاتِي مَتَــى ... خَرَجَتْ عَلَيْكَ كُسِــرْتَ كَسْرَ مُهَانِ
وَإِذَا انْتَصَرَتْ لَــهَا فَأَنْــتَ كَمَــنْ بَغَــى ... طَفْــيَ الــدُّخَانِ بِمَوْقِــدِ النِّــيرَانِ

فَصْلٌ: فِي عَقْدِ مَجْلِسِ التَّحْكِيمِ

فَاجْلِسْ إِذَنْ فِي مَجْلِسِ الْـحَكَمَيْنِ لِلرْ ... رَحْمَــنِ، لَا لِلــنَّفْسِ وَالشَّــيْطَانِ
الْأَوَّلُ النَّقْــلُ الصَّــحِيحُ، وَبَعْــدَهُ الْــ ... ــعَقْلُ الصَّــرِيحُ وَفِطْــرَةُ الــرَّحْمَنِ

وَاحْكُـمْ إِذَنْ فِي رُفْقَـةٍ قَـدْ سَـافَرُوا ... يَبْغُـونَ فَـاطِرَ هَـذِهِ الْأَكْـوَانِ

فَتَرَافَقُـوا فِي سَـيْرِهِمْ، وَتَفَـارَقُوا ... عِنْـدَ افْـتِرَاقِ الطُّـرْقِ بِالْـحَيْرَانِ

فَصْلٌ: فِي قُدُومِ الرَّكْبِ الأَوَّلِ أَهْلِ وِحْدَةِ الْوُجُودِ

فَـأَتَى فَرِيـقٌ ثُـمَّ قَـالَ: وَجَدْتُـهُ ... هَـذَا الْوُجُـودَ بِعَيْنِـهِ وَعِيَـانِ

فَهُـوَ السَّـمَاءُ بِعَيْنِهَـا وَنُجُومِهَـا ... وَكَـذَلِكَ الْأَفْـلَاكُ وَالْقَمَـرَانِ

وَالْكُفْـرُ عِنْـدَهُمُ هُـدًى، وَلَـوَ انَّـهُ ... دِيـنُ الْـمَجُوسِ وَعَابِـدِي الْأَوْثَـانِ

قَـالُوا: وَمَـا عَبَـدُوا سِـوَاهُ، وَإِنَّـمَا ... ضَـلُّوا بِـمَا خَصُّـوا مِـنَ الْأَعْيَـانِ

وَلَـوْ أَنَّـهُـمْ عَمُّـوا وَقَـالُوا: كُلُّهَـا ... مَعْبُـودَةٌ مَـا كَـانَ مِـنْ كُفْـرَانِ

فَالْكُـلُّ عَـيْنُ اللهِ عِنْـدَ مُحَقِّـقٍ ... وَالْكُـلُّ مَعْبُـودٌ لِـذِي الْعِرْفَـانِ

يَـا أُمَّـةً مَعْبُودُهَـا مَوْطُوؤُهَـا ... أَيْـنَ الْإِلَـهُ، وَثُغْـرَةُ الطَّعَّـانِ؟

فَصْلٌ: فِي قُدُومِ رَكْبٍ آخَرَ، وَهُمْ حُلُولِيَّةُ الْجَهْمِيَّةِ

وَأَتَـى فَرِيـقٌ، ثُـمَّ قَـالَ: وَجَدْتُـهُ ... بِالـذَّاتِ مَوْجُـودًا بِكُـلِّ مَكَـانِ

هُـوَ كَالْـهَوَاءِ بِعَيْنِـهِ لَا عَيْنُـهُ ... مَـلَأَ الْـخَلَاءَ، وَلَا يُـرَى بِعِيَـانِ

وَلَـهُمْ مَقَـالَاتٌ ذَكَـرْتُ أُصُولَـهَا ... لَـمَّا ذَكَـرْتُ الْـجَهْمَ فِي الْأَوْزَانِ

فَصْلٌ: فِي قُدُومِ رَكْبٍ آخَرَ، وَهُمْ مُعَطِّلَةُ الْجَهْمِيَّةِ

وَأَتَـى فَرِيـقٌ، ثُـمَّ قَـارَبَ وَصْـفُهُ ... هَـذَا، وَلَكِـنْ جَـدَّ فِي الْكُفْـرَانِ

فَـأَسَرَّ قَـوْلَ مُعَطِّـلٍ وَمُكَـذِّبٍ ... فِي قَالَـبِ التَّنْزِيـهِ لِلـرَّحْمَنِ

إِذْ قَـالَ: لَـيْسَ بِـدَاخِلٍ فِينَـا وَلَا ... هُـوَ خَـارِجٌ عَـنْ جُمْلَـةِ الْأَكْـوَانِ

بَـلْ قَـالَ: لَـيْسَ بِبَـائِنٍ عَنْهَـا وَلَا ... فِيهَـا، وَلَا هُـوَ عَيْنُهَـا بِبَيَـانِ

وَاللهِ مَـا يَـرْضَى بِهَـذَا خَـائِفٌ ... مِـنْ رَبِّـهِ أَمْسَـى عَـلَى الْإِيـمَانِ

وَاللهِ مَا بُلِـيَ الْـمُجَسِّمُ قَـطُّ ذِي الْـ ... ـبَلْوَى وَلَا أَمْسَـى بِـذِي الْـخُذْلَانِ

فَصْلٌ: فِي قُدُومِ رَكْبٍ آخَرَ، وَهُمُ الدَّهْرِيَّةُ

وَأَتَـى فَرِيـقٌ، ثُـمَّ قَـارَبَ وَصْـفُهُ ... هَـذَا، وَزَادَ عَلَيْـهِ فِي الْـمِيزَانِ

قَـالَ: اسْـمَعُوا يَـا قَـوْمُ لَا تُلْهِيكُمُـوا ... هَـذِي الْأَمَـانِي هُـنَّ شَرُّ أَمَـانِ

فَتَّشْـتُ فَـوْقَ وَتَحْـتَ، ثُـمَّ أَمَامَنَـا ... وَوَرَاءَ، ثُـمَّ يَسَـارَ مَـعْ أَيْـمَانِ

مَـا دَلَّنِـي أَحَـدٌ عَلَيْـهِ هُنَـاكُمُوا ... كَـلَّا، وَلَا بَشَـرٌ إِلَيْـهِ هَـدَانِي

إِلَّا طَوَائِـفُ بِالْـحَدِيثِ تَمَسَّـكَتْ ... تَعْـزِي مَـذَاهِبَهَا إِلَى الْقُـرْآنِ

فَسَـأَلْتُ عَـنْهُمْ رُفْقَتِـي وَأَحِبَّتِـي ... أَصْـحَابَ جَهْـمٍ حِـزْبَ جِنْكِزْخَـانِ

مَـنْ هَـؤُلَاءِ وَمَـنْ يُقَـالُ لَـهُمْ؟ فَقَـدْ ... جَـاؤُوا بِـأَمْرٍ مَـالِئِ الآذَانِ

جَاؤُوكُمُوا بِالْوَحْيِ لَكِنْ جِئْتُمُوا بِنُحَاتَةِ الْأَفْكَارِ وَالْأَذْهَانِ
قَالُوا: مُشَبِّهَةٌ مُجَسِّمَةٌ، فَلَا تَسْمَعْ مَقَالَ مُجَسِّمٍ حَيَوَانِ
فَإِذَا ابْتُلِيتَ بِهِمْ فَغَالِطْهُمْ عَلَى الْـ تَأْوِيلِ لِلْأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ
وَكَذَاكَ غَالِطْهُمْ عَلَى التَّكْذِيبِ لِلْـ أَخْبَارِ، ذَانِ لِصَحْبِنَا أَصْلَانِ
وَإِذَا اجْتَمَعْتَ وَهُمْ بِمَجْلِسِ مَشْهَدٍ فَابْدُرْ بِإِيرَادٍ وَشَغْلِ زَمَانِ
هَذَا الَّذِي وَاللهِ أَوْصَانَا بِهِ أَشْيَاخُنَا فِي سَالِفِ الْأَزْمَانِ
فَرَجَعْتُ مِنْ سَفَرِي، وَقُلْتُ لِصَاحِبِي وَمَطِيَّتِي قَدْ آذَنَتْ بِحِرَانِ
عَطِّلْ رِكَابَكَ وَاسْتَرِحْ مِنْ سَيْرِهَا مَا ثَمَّ شَيْءٌ غَيْرُ ذِي الْأَكْوَانِ
مَا ثَمَّ فَوْقَ الْعَرْشِ مِنْ رَبٍّ وَلَمْ يَتَكَلَّمِ الرَّحْمَنُ بِالْقُرْآنِ
فَدَعِ الْحَلَالَ مَعَ الْحَرَامِ لِأَهْلِهِ فَهُمَا السِّيَاجُ لَهُمْ عَلَى الْبُسْتَانِ
وَاقْطَعْ عَلَائِقَكَ الَّتِي قَدْ قَيَّدَتْ هَذَا الْوَرَى مِنْ سَالِفِ الْأَزْمَانِ
لِتَصِيرَ حُرًّا لَسْتَ تَحْتَ أَوَامِرٍ كَلَّا، وَلَا نَهْيٍ، وَلَا فُرْقَانِ
فَذَرُوا الْمِرَاءَ، وَصَرِّحُوا بِمَذَاهِبِ الْـ قُدَمَاءِ، وَانْسَلِخُوا مِنَ الْإِيمَانِ
أَوْ قَاتِلُوا مَعَ أُمَّةِ التَّجْسِيمِ وَالتَّشْـ بِيهِ تَحْتَ لِوَاءِ ذِي الْقُرْآنِ
أَوْ لَا فَلَا تَتَلَاعَبُوا بِعُقُولِكُمْ وَكِتَابِكُمْ، وَبِسَائِرِ الْأَدْيَانِ
فَجَمِيعُهَا قَدْ صَرَّحَتْ بِصِفَاتِهِ وَكَلَامِهِ، وَعُلُوِّهِ بِبَيَانِ

وَالنَّـاسُ بَـيْنَ مُصَـدِّقٍ أَوْ جَاحِـدٍ ... أَوْ بَـيْنَ ذَلِـكَ أَوْ شَـبِيهُ أَتَـانِ
يَـا وَيْـحَ جَهْـمٍ وَابْـنِ دِرْهَـمَ وَالْأُولَى ... قَـالُوا بِقَوْلِـهِمَا مِـنَ الْـخُورَانِ
بَقِيَـتْ مِـنَ التَّشْـبِيهِ فِيـهِ بَقِيَّـةٌ ... نَقَضَـتْ قَوَاعِـدَهُ مِـنَ الْأَرْكَـانِ
يَنْفِـي الصِّـفَاتِ مَخَافَـةَ التَّجْسِـيمِ لَا ... يَلْـوِي عَـلَى خَـبَرٍ وَلَا قُـرْآنِ
وَيَقُـولُ إِنَّ اللهَ يَسْـمَعُ أَوْ يَـرَى ... وَكَـذَاكَ يَعْلَـمُ سِرَّ كُـلِّ جَنَـانِ
وَبِنَفْيِـهِ التَّجْسِـيمَ يَصْـرُخُ فِي الْـوَرَى ... وَاللهِ مَـا هَـذَانِ مُتَّفِقَـانِ
لَكِنَّنَـا قُلْنَـا: مُحَـالٌ كُـلُّ ذَا ... حَـذَرًا مِـنَ التَّجْسِـيمِ وَالْإِمْكَـانِ

فَصْلٌ: فِي قُدُومِ رَكْبِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ

وَأَتَـى فَرِيـقٌ، ثُـمَّ قَـالَ: أَلَا اسْـمَعُوا ... قَـدْ جِئْـتُكُمْ مِـنْ مَطْلَـعِ الْإِيـمَانِ
مِـنْ أَرْضِ طَيْبَـةَ مِـنْ مُهَـاجَرِ أَحْمَـدٍ ... بِالْـحَقِّ وَالْبُرْهَـانِ وَالتِّبْيَـانِ
سَـافَرْتُ فِي طَلَـبِ الْإِلَـهِ فَـدَلَّنِي الْـ ... ـهَادِي عَلَيْـهِ وَمُحْكَـمُ الْقُـرْآنِ
مَـعَ فِطْـرَةِ الـرَّحْمَنِ جَـلَّ جَلَالُـهُ ... وَصَرِيـحِ عَقْـلِي، فَـاعْتَلَى بِبَيَـانِ
شَـهِدُوا بِـأَنَّ اللهَ جَـلَّ جَلَالُـهُ ... مُتَفَـرِّدٌ بِالْـمُلْكِ وَالسُّـلْطَانِ
وَهُـوَ الْإِلَـهُ الْـحَقُّ لَا مَعْبُـودَ إِلْـ ... لَا وَجْهُـهُ الْأَعْـلَى الْعَظِـيمُ الشَّـانِ
وَعِبَـادَةُ الـرَّحْمَنِ غَايَـةُ حُبِّـهِ ... مَـعَ ذُلِّ عَابِـدِهِ، هُمَـا قُطْبَـانِ

وَالنَّـــاسُ بَعْـــدُ فَمُشْـــرِكٌ بِإِلَـــهِهِ ... أَوْ ذُو ابْتِـــدَاعٍ، أَوْ لَـــهُ الْوَصْـــفَانِ
وَهُـــوَ الْعَـلِيُّ يَـــرَى وَيَسْـــمَعُ خَلْقَـــهُ ... مِـــنْ فَـــوْقِ عَـــرْشٍ، فَـــوْقِ سِـــتِّ ثَـــمَانِ
وَهُـــوَ الْعَلِـــيمُ بِـــمَا يَكُـــونُ غَـــدًا وَمَـــا ... قَـــدْ كَـــانَ وَالْـــمَعْلُومِ فِي ذَا الْآنِ
وَهُـــوَ الْقَـــدِيرُ، فَكُـــلُّ شَيْءٍ فَهْـــوَ مُقْـــ ... ـــدُورٌ لَـــهُ طَوْعًـــا بِـــلَا عِصْـــيَانِ
وَلَـــهُ الْـــحَيَاةُ كَـــمَالُـــهَا فَلِأَجْـــلِ ذَا ... مَـــا لِلْمَـــمَاتِ عَلَيْـــهِ مِـــنْ سُـــلْطَانِ
وَكَـــذَلِكَ الْقَيُّـــومُ مِـــنْ أَوْصَـــافِهِ ... مَـــا لِلْمَنَـــامِ لَدَيْـــهِ مِـــنْ غِشْـــيَانِ
وَلَـــهُ الْإِرَادَةُ وَالْكَرَاهَـــةُ وَالرِّضَـــا ... وَلَـــهُ الْـــمَحَبَّةُ، وَهْـــوَ ذُو الْإِحْسَـــانِ
وَلَهُ الْكَمَالُ الْـمُطْلَقُ الْعَارِي عَـنِ التْـــ ... ـــتَشْبِيهِ وَالتَّمْثِيـــلِ بِالْإِنْسَـــانِ
وَكَـــمَالُ مَـــنْ أَعْطَـــى الْكَـــمَالَ لِنَفْسِـــهِ ... أَوْلَى وَأَقْـــدَمُ، وَهْـــوَ أَعْظَـــمُ شَـــانِ
وَاللهُ رَبِّي لَـــمْ يَـــزَلْ مُتَـــكَلِّـــمًا ... وَكَلَامُـــهُ الْـــمَسْمُوعُ بِـــالْآذَانِ
صِـــدْقًا وَعَـــدْلًا أُحْكِمَـــتْ كَلِمَاتُـــهُ ... طَلَبًـــا وَإِخْبَـــارًا بِـــلَا نُقْصَـــانِ
وَكَـــذَلِكَ الْقُـــرْآنُ عَـــيْنُ كَلَامِـــهِ الْـــ ... ـــمَسْمُوعِ مِنْـــهُ حَقِيقَـــةً بِبَيَـــانِ
لَكِـــنَّ أَصْـــوَاتَ الْعِبَـــادِ وَفِعْلَهُـــمْ ... كَمِـــدَادِهِمْ وَالـــرَّقُّ مَخْلُوقَـــانِ
هَـــذِي مَقَالَـــةُ أَحْمَـــدٍ وَمُحَمَّـــدٍ ... وَخُصُـــومُهُمْ مِـــنْ بَعْـــدِ طَائِفَتَـــانِ
إِحْـــدَاهُمَا زَعَمَـــتْ بِـــأَنَّ كَلَامَـــهُ ... خَلْـــقٌ لَـــهُ أَلْفَاظُـــهُ وَمَعَـــانِي
وَالْآخَـــرُونَ أَبَـــوْا وَقَـــالُوا شَـــطْرُهُ ... خَلْـــقٌ، وَشَـــطْرٌ قَـــامَ بِـــالرَّحْمَنِ

زَعَمُوا الْقُرَانَ عِبَارَةً وَحِكَايَةً ... قُلْنَا كَمَا زَعَمُوهُ قُرْآنَانِ
هَذَا الَّذِي نَتْلُوهُ مَخْلُوقٌ كَمَا ... قَالَ الْوَلِيدُ وَبَعْدَهُ الْفِئَتَانِ
وَالْآخَرُ الْمَعْنَى الْقَدِيمُ فَقَائِمٌ ... بِالنَّفْسِ لَمْ يَسْمَعْ مِنَ الدَّيَّانِ
وَدَلِيلُهُمْ فِي ذَاكَ قَوْلٌ قَالَهُ ... فِيمَا يُقَالُ الْأَخْطَلُ النَّصْرَانِي
وَالْخُلْفُ بَيْنَهُمُ فَقِيلَ مُحَمَّدٌ ... أَنْشَاهُ تَعْبِيرًا عَنِ الْقُرْآنِ
وَالْآخَرُونَ أَبَوْا وَقَالُوا: إِنَّمَا ... جِبْرِيلُ أَنْشَاهُ عَنِ الْمَنَّانِ
وَتَكَايَسَتْ أُخْرَى، وَقَالَتْ: إِنَّهُ ... نَقْلٌ مِنَ اللَّوْحِ الرَّفِيعِ الشَّانِ

فَصْلٌ: فِي مَجَامِعِ طُرُقِ أَهْلِ الأَرْضِ وَاخْتِلَافِهِمْ فِي الْقُرْآنِ

وَإِذَا أَرَدْتَ مَجَامِعَ الطُّرُقِ الَّتِي ... فِيهَا افْتِرَاقُ النَّاسِ فِي الْقُرْآنِ
فَمَدَارُهَا أَصْلَانِ قَام عَلَيْهِمَا ... هَذَا الْخِلَافُ هُمَا لَهُ رُكْنَانِ
هَلْ قَوْلُهُ بِمَشِيئَةٍ أَمْ لَا؟ وَهَلْ ... فِي ذَاتِهِ أَمْ خَارِجٌ؟ هَذَانِ
أَصْلَا اخْتِلَافِ جَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ فِي الْـ ... ـقُرْآنِ، فَاطْلُبْ مُقْتَضَى الْبُرْهَانِ
ثُمَّ الْأُلَى قَالُوا بِغَيْرِ مَشِيئَةٍ ... وَإِرَادَةٍ مِنْهُ، فَطَائِفَتَانِ
إِحْدَاهُمَا جَعَلَتْهُ مَعْنًى قَائِمًا ... بِالنَّفْسِ، أَوْ قَالُوا بِخَمْسِ مَعَانِ
وَاللهُ أَحْدَثَ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ كَيْ ... تُبْدِيهِ مَعْقُولًا إِلَى الْأَذْهَانِ

وَكَـذَلِكَ اخْتَلَفُوا فَقِيلَ حِكَايَةٌ ... عَنْهُ، وَقِيلَ عِبَارَةٌ لِبَيَانِ
وَالْآخَرُونَ يَرَوْنَ هَذَا الْبَحْثَ لَفْـ ... ـظِيًّا، وَمَا فِيهِ كَبِيرُ مَعَانِ
وَالْفِرْقَةُ الْأُخْرَى فَقَالَتْ: إِنَّهُ ... لَفْظٌ وَمَعْنًى، لَيْسَ يَنْفَصِلَانِ
وَاللَّفْظُ كَالْمَعْنَى، قَدِيمٌ قَائِمٌ ... بِالنَّفْسِ لَيْسَ بِقَابِلِ الْحِدْثَانِ
فَالسِّينُ عِنْدَ الْبَاءِ لَا مَسْبُوقَةٌ ... لَكِنْ هُمَا حَرْفَانِ مُقْتَرِنَانِ
وَالْقَائِلُونَ بِـذَا فَقَالُوا إِنَّمَا ... تَرْتِيبُهَا بِالسَّمْعِ وَالْآذَانِ
وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ بِمَشِيئَةٍ ... وَإِرَادَةٍ أَيْضًا، فَهُمْ صِنْفَانِ
إِحْدَاهُمَا جَعَلَتْهُ خَارِجَ ذَاتِهِ ... كَمَشِيئَةٍ لِلْخَلْقِ وَالْأَكْوَانِ
فَالْقَوْلُ مَفْعُولٌ لَدَيْهِمْ قَائِمٌ ... بِالْغَيْرِ كَالْأَعْرَاضِ وَالْأَلْوَانِ
قَالُوا: وَصَارَ كَلَامُهُ بِإِضَافَةِ التَّـ ... ـشْرِيفِ مِثْلَ الْبَيْتِ ذِي الْأَرْكَانِ
هَذِي مَقَالَةُ كُلِّ جَهْمِيٍّ وَهُمْ ... فِيهَا الشُّيوخُ مُعَلِّمُو الصِّبْيَانِ
لَكِنَّ أَهْلَ الِاعْتِزَالِ قَدِيمَهُمْ ... لَمْ يَذْهَبُوا ذَا الْمَذْهَبَ الشَّيْطَانِي
لَكِنَّمَا مُتَأَخِّرُوهُمْ بَعْدَ ذَا ... قَدْ وَافَقُوا جَهْمًا عَلَى الْكُفْرَانِ
وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ بِمَشِيئَةٍ ... فِي ذَاتِهِ أَيْضًا فَهُمْ نَوْعَانِ
إِحْدَاهُمَا جَعَلَتْهُ مَبْدُوءًا بِهِ ... نَوْعًا حِذَارَ تَسَلْسُلِ الْأَعْيَانِ
هَذِي مَقَالَاتُ ابْنِ كَرَّامٍ وَمَا ... رَدُّوا عَلَيْهِ قَطُّ بِالْبُرْهَانِ

وَالْآخَـرُونَ أُولُـو الْـحَدِيثِ كَأَحْمَـدٍ ... وَمُحَمَّــــدٍ وَأَئِمَّـــــةِ الْإِيــــمَانِ
قَــالُوا بِــأَنَّ اللهَ حَقًّــا لَــمْ يَــزَلْ ... مُتَـكَلِّــــمًا بِمَشِــــيئَةٍ وَبَيَـــانِ
وَاللهُ قَــالَ وَقَائِــلٌ، وَكَــذَا يَقُــو ... لُ الْـــحَقَّ، لَــيْسَ كَلَامُــهُ بِالْفَــانِي

فَصْــلٌ

وَإِذَا انْتَفَتْ صِـفَةُ الْكَـلَامِ كَـذَلِكَ الْــ ... إِرْسَـــالُ مَنْفِـــيٌّ بِـــلَا فُرْقَـــانِ
فَرِسَــالَةُ الْـــمَبْعُوثِ تَبْلِيــغٌ كَــلَا ... مَ الْـــمُرْسِلِ الـدَّاعِي بِـلَا نُقْصَـانِ
وَحَقِيقَــةُ الْإِرْسَــالِ نَفْــسُ خِطَابِــهِ ... لِلْمُرْسَـــلِينَ وَإِنَّـــهُ نَوْعَـــانِ
نَــوْعٌ بِغَــيْرِ وَسَــاطَةٍ كَكَلَامِــهِ ... مُوسَــى وَجِبْرِيــلَ الْقَرِيــبَ الـدَّانِي
وَالْآخَــرُ التَّكْلِــيمُ مِنْــهُ بِالْوَسَــا ... طَــةِ، وَهْــوَ أَيْضًــا عِنْـدَهُ ضَرْبَـانِ
وَحْـيٌ وَإِرْسَـالٌ إِلَيْـهِ، وَذَاكَ فِي الشُّــ ... ـــورَى أَتَــى فِي أَحْسَــنِ التِّبْيَــانِ
وَإِذَا انْتَفَــتْ صِـفَةُ الْكَـلَامِ فَضِـدُّهَا ... خَــرَسٌ، وَذَلِــكَ غَايَــةُ النُّقْصَــانِ
فَلَــئِنْ زَعَمْــتُمْ أَنَّ ذَلِــكَ فِي الَّــذِي ... هُــوَ قَابِــلٌ مِــنْ أُمَّــةِ الْــحَيَوانِ
وَالـرَّبُّ لَـيْسَ بِقَابِـلٍ صِـفَةَ الْكَـلَا ... مِ فَنَفْيُهَــا مَــا فِيــهِ مِــنْ نُقْصَــانِ
فَيُقَــالُ: سَــلْبُ كَلَامِــهِ وَقَبُولِــهُ ... صِــفَةَ الْكَــلَامِ أَتَــمُّ لِلنُّقْصَــانِ
إِذْ أَخْـرَسُ الْإِنْسَــانِ أَكْمَــلُ حَالَــةً ... مِــنْ ذَا الْــجَمَادِ بِأَوْضَــحِ الْبُرْهَــانِ

فَجَحَدْتَ أَوْصَافَ الْكَمَالِ مَخَافَةَ التـْ ـــتَجْسِيمِ وَالتَّشْــبِيهِ بِالْإِنْسَـــانِ
وَوَقَعْـــتَ فِي تَشْـــبِيهِهِ بِالنَّاقِصَـــا تِ الْــجَامِدَاتِ، وَذَا مِـنَ الْــخِذْلَانِ

فَصْــلٌ

وَاللهُ أَخْـــبَرَ فِي الْكِتَـــابِ بِأَنَّـــهُ مِنْـــهُ وَمَجْـــرُورٌ بِـــ(مِنْ) نَوْعَـــانِ
عَـيْنٌ وَوَصْــفٌ قَـائِمٌ بِـالْعَيْنِ فَالْـــ أَعْيَــانُ خَلْــقُ الْــخَالِقِ الــرَّحْمَنِ
وَالْوَصْــفُ بِالْــمَجْرُورِ قَـامَ لِأَنَّـهُ أَوْلَى بِــهِ فِي عُــرْفِ كُــلِّ لِسَــانِ
وَنَظِــيرُ ذَا أَيْضًــا سَــوَاءً مَــا يُضَــا فُ إِلَيْــهِ مِــنْ صِــفَةٍ وَمِــنْ أَعْيَــانِ
فَــانْظُرْ إِلَى بَيْـــتِ الْإِلَـــهِ وَعِلْمِـــهِ لَـــمَّا أُضِـــيفَا كَيْـــفَ يَفْتَرِقَـــانِ
وَتِــلَاوَةُ الْقُـــرْآنِ أَفْعَـــالٌ لَنَـــا وَكَــذَا الْكِتَابَــةُ، فَهْــيَ خَــطُّ بَنَـانِ
لَكِــنَّمَا الْــمَتْلُوُّ وَالْــمَكْتُوبُ وَالْـــ ـــمَحْفُوظُ قَــوْلُ الْوَاحِـدِ الــرَّحْمَنِ
هَــذَا الَّــذِي نَصَّــتْ عَلَيْــهِ أَئِمَّــةُ الْـــ إِسْـــلَامِ أَهْـــلِ الْعِلْـــمِ وَالْعِرْفَــانِ

فَصْــلٌ

وَأَتَــى ابْــنُ سِــينَا الْقُرْمِطِــيُّ مُصَــانِعًا لِلْمُسْـــلِمِينَ بِإِفْـــكٍ ذِي بُهْتَـــانِ
فَرَآهُ فَيْضًــا فَـاضَ مِـنْ عَقْـلٍ هُـوَ الْـــ ـــفَعَّالُ عِلَّـــةُ هَـــذِهِ الْأَكْـــوَانِ
حَتَّـــى تَلَقَّـــاهُ زَكِـــيٌّ فَاضِـــلٌ حَسَـــنُ التَّخَيُّـــلِ جَيِّـــدُ التِّبْيَـــانِ

فَـــأَتَى بِـــهِ لِلْعَالَـــمِينَ خَطَابَـــةً وَمَوَاعِظًـــا عَرِيَـــتْ عَـــنِ الْبُرْهَـــانِ

فَصْــلٌ

وَأَتَـــتْ طَوَائِـــفُ الِاتِّحَـــادِ بِمِلَّـــةٍ طَمَّـــتْ عَـــلَى مَـــا قَـــالَ كُـــلُّ لِسَـــانِ
قَالَـــتْ: كَـــلَامُ اللهِ كُـــلُّ كَـــلَامِ هَـــ ـــذَا الْـــخَلْقِ مِـــنْ جِـــنٍّ وَمِـــنْ إِنْسَـــانِ
هَـــذَا الَّـــذِي أَدَّى إِلَيْـــهِ أَصْـــلُهُمْ وَعَلَيْـــهِ قَـــامَ مُكَسَّـــحُ الْبُنْيَـــانِ
إِذْ أَصْـــلُهُمْ أَنَّ الْإِلَـــهَ حَقِيقَـــةً عَـــيْنُ الْوُجُـــودِ وَعَـــيْنُ ذِي الْأَكْـــوَانِ
فَاعْطِفْ عَلَى الْـجَهْمِيَّةِ الْـمُغْلِ الْأُلَى خَرَقُـــوا سِـــيَاجَ الْعَقْـــلِ وَالْقُـــرْآنِ
أَفْسَدْتُمُ الْـمَعْقُولَ وَالْـمَنْقُولَ وَالْـ ـــمَسْمُوعَ مِـــنْ لُغَـــةٍ بِكُـــلِّ لِسَـــانِ
أَيَصِحُّ وَصْفُ الشَّيْءِ بِالْـمُشْتَقِّ لِلْـ ـــمَسْلُوبِ مَعْنَـــاهُ لِـــذِي الْأَذْهَـــانِ
أَيَصِـــحُّ صَـــبَّارٌ وَلَا صَـــبْرٌ لَـــهُ وَيَصِـــحُّ شَـــكَّارٌ بِـــلَا شُـــكْرَانِ
وَمُخَالِفُ الْـمَعْقُولِ وَالْـمَنْقُولِ وَالْـ ـــفِطْرَاتِ وَالْـــمَسْمُوعِ لِلْإِنْسَـــانِ
مَـــنْ قَـــالَ: إِنَّ كَلَامَـــهُ سُـــبْحَانَهُ وَصْـــفٌ قَـــدِيمٌ، أَحْـــرُفٌ وَمَعَـــانِ
وَالسِّـــينُ عِنْـــدَ الْبَـــاءِ لَيْسَـــتْ بَعْـــدَهَا لَكِـــنْ هُمَـــا حَرْفَـــانِ مُقْتَرِنَـــانِ
أَوْ قَـــالَ: إِنَّ كَلَامَـــهُ سُـــبْحَانَهُ مَعْنَـــى قَـــدِيمٌ قَـــامَ بِـــالرَّحْمَنِ
وَكَلَامُـــهُ كَحَيَاتِـــهِ مَـــا ذَاكَ مَقْـــ ـــدُورًا لَـــهُ، بَـــلْ لَازِمُ الـــرَّحْمَنِ

لَا تَنْصُرَنَّ سِوَى الْحَدِيثِ وَأَهْلِهِ ... هُمْ عَسْكَرُ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ
وَتَحَيَّزَنَّ إِلَيْهِمُ لَا غَيْرِهِمْ ... لِتَكُونَ مَنْصُورًا لَدَى الرَّحْمَنِ
هَذَا وَقَدْ فَطَرَ الْإِلَهُ عِبَادَهُ ... أَنَّ الْمُهَيْمِنَ دَائِمُ الْإِحْسَانِ
أَوَلَسْتَ تَسْمَعُ قَوْلَ كُلِّ مُوَحِّدٍ ... يَا دَائِمَ الْمَعْرُوفِ وَالسُّلْطَانِ
مِنْ غَيْرِ إِنْكَارٍ عَلَيْهِمْ فِطْرَةٌ ... فُطِرُوا عَلَيْهَا لَا تَوَاصٍ ثَانِ
وَالنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ فِي الْقَلَمِ الَّذِي ... كُتِبَ الْقَضَاءُ بِهِ مِنَ الدَّيَّانِ
هَلْ كَانَ قَبْلَ الْعَرْشِ أَوْ هُوَ بَعْدَهُ ... قَوْلَانِ عِنْدَ أَبِي الْعَلَا الْهَمَذَانِي
وَالْحَقُّ أَنَّ الْعَرْشَ قَبْلُ؛ لِأَنَّهُ ... قَبْلَ الْكِتَابَةِ كَانَ ذَا أَرْكَانِ
وَكِتَابَةُ الْقَلَمِ الشَّرِيفِ تَعَقَّبَتْ ... إِيجَادَهُ مِنْ غَيْرِ فَصْلِ زَمَانِ
لَمَّا بَرَاهُ اللهُ قَالَ: (اكْتُبْ كَذَا) ... فَغَدَا بِأَمْرِ اللهِ ذَا جَرَيَانِ
فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ أَبَدًا إِلَى ... يَوْمِ الْمَعَادِ بِقُدْرَةِ الرَّحْمَنِ
فَاعْلَمْ بِأَنَّ الْقَوْمَ لَمَّا أَسَّسُوا ... عِلْمَ الْكَلَامِ عَمُوا عَنِ الْقُرْآنِ
وَعَنِ الْحَدِيثِ وَمُقْتَضَى الْمَعْقُولِ، بَلْ ... عَنْ فِطْرَةِ الرَّحْمَنِ وَالْبُرْهَانِ
وَبَنَوْا قَوَاعِدَهُمْ عَلَيْهِ فَقَادَهُمْ ... قَسْرًا إِلَى التَّعْطِيلِ وَالْبُطْلَانِ
يَا مِحْنَةَ الْإِسْلَامِ وَالْقُرْآنِ مِنْ ... جَهْلِ الصَّدِيقِ وَبَغْيِ ذِي طُغْيَانِ
وَاللهِ لَوْلَا اللهُ نَاصِرُ دِينِهِ ... وَكِتَابِهِ بِالْحَقِّ وَالْبُرْهَانِ

لَتَخَطَّفَتْ أَعْدَاؤُنَا أَرْوَاحَنَا ... وَلَقَطَّعَتْ مِنَّا عُرَى الْإِيمَانِ
وَاللهُ ثُمَّ رَسُولُهُ قَدْ بَيَّنَا ... طُرُقَ الْهُدَى فِي غَايَةِ التِّبْيَانِ
وَأَصِخْ لِفَائِدَةٍ جَلِيلٍ قَدْرُهَا ... تَهْدِيكَ لِلتَّحْقِيقِ وَالْعِرْفَانِ
إِنَّ الْكَلَامَ إِذَا أَتَى بِسِيَاقَةٍ ... يُبْدِي الْمُرَادَ لِمَنْ لَهُ أُذُنَانِ
أَضْحَى كَنَصٍّ قَاطِعٍ لَا يَقْبَلُ التْـ ... ـتَأْوِيلَ يَعْرِفُ ذَا أُولُو الْأَذْهَانِ
فَتَأَمَّلِ الْأَلْفَاظَ وَانْظُرْ مَا الَّذِي ... سِيقَتْ لَهُ إِنْ كُنْتَ ذَا عِرْفَانِ
فَالرُّسْلُ مُتَّفِقُونَ قَطْعًا فِي أُصُو ... لِ الدِّينِ دُونَ شَرَائِعِ الْإِيمَانِ
كُلٌّ لَهُ شَرْعٌ وَمِنْهَاجٌ وَذَا ... فِي الْأَمْرِ لَا التَّوْحِيدِ، فَافْهَمْ ذَانِ
فَالدِّينُ فِي التَّوْحِيدِ دِينٌ وَاحِدٌ ... لَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ عَلَيْهِ اثْنَانِ
عَقْلَانِ عَقْلٌ بِالنُّصُوصِ مُؤَيَّدٌ ... وَمُؤَيَّدٌ بِالْمَنْطِقِ الْيُونَانِي
وَاللهِ مَا اسْتَوَيَا، وَلَنْ يَتَلَاقَيَا ... حَتَّى تَشِيبَ مَفَارِقُ الْغِرْبَانِ
يَا قَوْمَنَا وَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِنَا ... أَلْفًا تَدُلُّ عَلَيْهِ، بَلْ أَلْفَانِ
عَقْلًا وَنَقْلًا مَعْ صَرِيحِ الْفِطْرَةِ الْـ ... أُولَى وَذَوْقِ حَلَاوَةِ الْقُرْآنِ
كُلٌّ يَدُلُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ ... فَوْقَ السَّمَاءِ مُبَايِنُ الْأَكْوَانِ
وَالْعِلْمُ مَعْرِفَةُ الْهُدَى بِدَلِيلِهِ ... مَا ذَاكَ وَالتَّقْلِيدُ مُسْتَوِيَانِ
أَفَمَنْ حَوَالَتُهُ عَلَى التَّنْزِيلِ وَالْـ ... ـوَحْيِ الْمُبِينِ وَمُحْكَمِ الْقُرْآنِ

كَمُحَيَّرٍ أَضْحَتْ حَوَالَتُهُ عَلَى ... أَمْثَالِهِ، أَمْ كَيْفَ يَسْتَوِيَانِ؟!
أَمْ كَيْفَ يَشْعُرُ تَائِهٌ بِمُصَابِهِ ... وَالْقَلْبُ قَدْ جُعِلَتْ لَهُ قُفْلَانِ
قُفْلٌ مِنَ الْجَهْلِ الْمُرَكَّبِ، فَوْقَهُ ... قُفْلُ التَّعَصُّبِ، كَيْفَ يَنْفَتِحَانِ؟!
وَمَفَاتِحُ الْأَقْفَالِ فِي يَدِ مَنْ لَهُ التْـ ... ـتَصْرِيفِ سُبْحَانَهُ عَظِيمُ الشَّانِ
فَاسْأَلْهُ فَتْحَ الْقُفْلِ مُجْتَهِدًا عَلَى الْـ ... أَسْنَانِ إِنَّ الْفَتْحَ بِالْأَسْنَانِ
وَاللهُ نَاصِرُ دِينِهِ وَكِتَابِهِ ... وَرَسُولِهِ فِي سَائِرِ الْأَزْمَانِ
لَكِنْ بِمِحْنَةِ حِزْبِهِ مِنْ حَرْبِهِ ... ذَا حِكْمَةٌ مُذْ كَانَتِ الْفِئَتَانِ

فَصْلٌ

هَذَا وَأَصْلُ بَلِيَّةِ الْإِسْلَامِ مِنْ ... تَأْوِيلِ ذِي التَّحْرِيفِ وَالْبُطْلَانِ(١)
وَجَمِيعُ مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ بِدَعٍ وَأَحْـ ... ـدَاثٍ تُخَالِفُ مُوجَبَ الْقُرْآنِ
فَأَسَاسُهَا التَّأْوِيلُ ذُو الْبُطْلَانِ لَا ... تَأْوِيلُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ
وَحَقِيقَةُ التَّأْوِيلِ مَعْنَاهُ الرُّجُو ... عُ إِلَى الْحَقِيقَةِ لَا إِلَى الْبُطْلَانِ
تَأْوِيلُ أَهْلِ الْبَاطِلِ الْمَرْدُودِ عِنْـ ... ـدَ أَئِمَّةِ الْعِرْفَانِ وَالْإِيمَانِ
فَجَعَلْتُمُ لِلَّفْظِ مَعْنًى غَيْرَ مَعْـ ... ـنَاهُ لَدَيْهِمْ بِاصْطِلَاحٍ ثَانِ

(١) قد ذكر المؤلف -رحمه الله تعالى- أمثلة كثيرة من البليات من أجل تأويل التحريف.

وَحَمَلْتُمُ لَفْظَ الْكِتَابِ عَلَيْهِ حتْـ ... ـتَى جَاءَكُمْ مِنْ ذَاكَ مَحْذُورَانِ
كَذِبٌ عَلَى الْأَلْفَاظِ مَعْ كَذِبٍ عَلَى ... مَنْ قَالَهَا، كَذِبَانِ مَقْبُوحَانِ
وَكِلَاهُمَا أَمْرَانِ أَقْبَحُ مِنْهُمَا ... جَحْدُ الْهُدَى وَشَهَادَةُ الْبُهْتَانِ
إِذْ يَشْهَدُونَ الزُّورَ أَنَّ مُرَادَهُ ... غَيْرُ الْحَقِيقَةِ، وَهْيِ ذُو بُطْلَانِ

فَصْلٌ

وَعَلَيْكُمُ فِي ذَا وَظَائِفُ أَرْبَعٌ ... وَاللهِ لَيْسَ لَكُمْ بِهِنَّ يَدَانِ
مِنْهَا دَلِيلٌ صَارِفٌ لِلَّفْظِ عَنْ ... مَوْضُوعِهِ الْأَصْلِيِّ بِالْبُرْهَانِ
فَإِذَا اسْتَقَامَ لَكُمْ دَلِيلُ الصَّرْفِ يَا ... هَيْهَاتَ! طُولِبْتُمْ بِأَمْرٍ ثَانِ
وَهُوَ احْتِمَالُ اللَّفْظِ لِلْمَعْنَى الَّذِي ... قُلْتُمْ: هُوَ الْمَقْصُودُ بِالتِّبْيَانِ
فَإِذَا أَتَيْتُمْ ذَاكَ طُولِبْتُمْ بِأَمْـ ... ـرٍ ثَالِثٍ مِنْ بَعْدِ هَذَا الثَّانِي
إِذْ قُلْتُمُ: إِنَّ الْمُرَادَ كَذَا، فَمَا ... ذَا دَلَّكُمْ؟ أَتَخَرُّصُ الْكُهَّانِ؟!
هَبْ أَنَّهُ لَمْ يَقْصِدِ الْمَوْضُوعَ لَـ ... ـكِنْ قَدْ يَكُونُ الْقَصْدُ مَعْنًى ثَانِ

فَصْلٌ

وَكَذَا نُطَالِبُكُمْ بِأَمْرٍ رَابِعٍ ... وَاللهِ لَيْسَ لَكُمْ بِذَا إِمْكَانِ
وَهُوَ الْجَوَابُ عَنِ الْمُعَارِضِ إِذْ بِهِ الدْ ... دَعْوَى تَتِمُّ سَلِيمَةَ الْأَرْكَانِ

فَصْــلٌ

قَــوْمٌ أَقَــامَهُمُ الْإِلَــهُ لِــحِفْظِ هَــ ـــذَا الــدِّينِ مِــنْ ذِي بِدْعَــةٍ شَـيْطَانِ

وَأَقَــامَهُمْ حَرَسًــا مِــنَ التَّبْـدِيلِ وَالتْــ ـــتَحْرِيفِ وَالتَّتْمِــيمِ وَالنُّقْصَــانِ

بَــزْلٌ عَــلَى الْإِسْـلَامِ، بَـلْ حِصْــنٌ لَــهُ يَــأْوِي إِلَيْــهِ عَسَــاكِرُ الْفُرْقَــانِ

فَــإِذَا تَعَــارَضَ نَــصُّ لَفْــظٍ وَارِدٍ وَالْعَقْــلُ حَتَّــى لَــيْسَ يَلْتَقِيَــانِ

فَالْعَقْــلُ إِمَّــا فَاسِــدٌ وَيَظُنُّــهُ الــرَّا ئِــي صَــحِيحًا وَهْــوَ ذُو بُطْــلَانِ

أَوْ أَنَّ ذَاكَ الــنَّصَّ لَــيْسَ بِثَابِــتٍ مَــا قَالَــهُ الْــمَعْصُومُ بِالْبُرْهَــانِ

وَنُصُوصُــهُ لَيْسَــتْ يُعَــارِضُ بَعْضُــهَا بَعْضًــا، فَسَــلْ عَنْهَــا عَلِــيمَ زَمَــانِ

وَإِذَا ظَنَنْــتَ تَعَارُضًــا فِيهَــا فَــذَا مِــنْ آفَــةِ الْأَفْهَــامِ وَالْأَذْهَــانِ

أَوْ أَنْ يَكُــونَ الْــبَعْضُ لَــيْسَ بِثَابِــتٍ مَــا قَالَــهُ الْــمَبْعُوثُ بِــالْقُرْآنِ

فَصْــلٌ

وَاشْــهَدْ عَلَــيْهِمْ أَنَّهُــمْ حَمَلُــوا النُّصُــو صَ عَلَى الْــحَقِيقَةِ لَا الْــمَجَازِ الثَّــانِي

إِلَّا إِذَا مَــا اضْــطَرَّهُمْ لِــمَجَازِهَا الْــ ـــمُضْطَرُ مِــنْ حِــسٍّ وَمِــنْ بُرْهَــانِ

فَهُنَــاكَ عِصْــمَتُهَا أَبَاحَتْــهُ بِغَــيْرِ تَجَــانُفٍ لِلْإِثْــمِ وَالْعُــدْوَانِ

وَاشْــهَدْ عَلَــيْهِمْ أَنَّهُــمْ لَا يُكْفِــرُو نَكُــمُ بِــمَا قُلْــتُمْ مِــنَ الْكُفْــرَانِ

إِذْ أَنْـتُمُ أَهْـلُ الْـجَهَالَةِ عِنْـدَهُمْ ... لَسْـتُمْ أُولِي كُفْـرٍ وَلَا إِيـمَانِ
لَا تَعْرِفُـونَ حَقِيقَـةَ الْكُفْـرَانِ بَـلْ ... لَا تَعْرِفُـونَ حَقِيقَـةَ الْإِيـمَانِ
إِلَّا إِذَا عَانَـدْتُمُ وَرَدَدْتُـمُ ... قَـوْلَ الرَّسُـولِ لِأَجْـلِ قَـوْلِ فُـلَانِ
فَهُنَـاكَ أَنْـتُمْ أَكْفَـرُ الثَّقَلَـيْنِ مِـنْ ... إِنْـسٍ وَجِـنٍّ سَـاكِنِي النِّـيرَانِ

فَصْـلٌ

هَـذَا وَمِـنْ تَوْحِيـدِهِمْ إِثْبَـاتُ أَوْ ... صَـافِ الْكَـمَالِ لِرَبِّنَـا الـرَّحْمَنِ
وَهُوَ الَّذِي حَقًّا عَـلَى الْعَـرْشِ اسْتَوَى ... قَـدْ قَـامَ بِالتَّـدْبِيرِ لِلْأَكْـوَانِ
حَـيٌّ مُرِيـدٌ قَـادِرٌ مُـتَكَلِّمٌ ... ذُو رَحْمَـةٍ وَإِرَادَةٍ وَحَنَـانِ
هُـوَ أَوَّلٌ، هُـوَ آخِـرٌ؛ هُـوَ ظَـاهِرٌ، ... هُـوَ بَـاطِنٌ، هِـيَ أَرْبَـعٌ بِـوِزَانِ
مَـا قَبْلَـهُ شَيْءٌ، كَـذَا مَـا بَعْـدَهُ ... شَيْءٌ، تَعَـالَى اللهُ ذُو السُّـلْطَانِ
مَـا فَوْقَـهُ شَيْءٌ، كَـذَا مَـا دُونَـهُ ... شَيْءٌ، وَذَا تَفْسِـيرُ ذِي الْبُرْهَـانِ
وَهُـوَ الْعَـلِيُّ، فَكُـلُّ أَنْـوَاعِ الْـ ... ـعُلُوِّ لَـهُ فَثَابِتَـةٌ بِـلَا نُكْـرَانِ
وَهُوَ الْعَظِيمُ بِكُلِّ مَعْنًـى يُوجِـبُ التْـ ... ـتَعْظِيمَ لَا يُحْصِـيهِ مِـنْ إِنْسَـانِ
وَهُوَ الْـجَلِيلُ، فَكُلُّ أَوْصَافِ الْـجَلَا ... لِ لَـهُ مُحَقَّقَـةٌ بِـلَا بُطْـلَانِ
وَهُوَ الْـجَمِيلُ عَلَى الْـحَقِيقَةِ، كَيْفَ لَا ... وَجَمَـالُ سَـائِرِ هَـذِهِ الْأَكْـوَانِ

مِـنْ بَعْـضِ آثَـارِ الْـجَمِيلِ؟! فَرَبُّهَـا ... أَوْلَى وَأَجْــدَرُ عِنْــدَ ذِي الْعِرْفَــانِ
فَجَمَالُــهُ بِالـذَّاتِ وَالْأَوْصَـافِ وَالْـ ... أَفْعَــالِ وَالْأَسْـمَاءِ بِالْبُرْهَــانِ
وَهُوَ الْـمَجِيدُ، صِـفَاتُهُ أَوْصَـافُ تَعْـ ... ـظِيمٍ، فَشَأْنُ الْوَصْـفِ أَعْظَـمُ شَانِ
وَهُوَ السَّمِيعُ، يَـرَى وَيَسْـمَعُ كُـلَّ مَا ... فِي الْكَـوْنِ، مِـنْ سِرٍّ وَمِـنْ إِعْـلَانِ
وَهُوَ الْبَصِيرُ، يَرَى دَبِيبَ النَّمْلَـةِ السْـ ... ـسَوْدَاءِ تَحْـتَ الصَّـخْرَةِ الصَّـوَّانِ
وَهُـوَ الْعَلِـيمُ، أَحَـاطَ عِلْـمًا بِالَّـذِي ... فِي الْكَـوْنِ، مِـنْ سِرٍّ وَمِـنْ إِعْـلَانِ

فَصْــلٌ

وَهُـوَ الْـحَمِيدُ، فَكُـلُّ حَمْـدٍ وَاقِـعٍ ... أَوْ كَـانَ مَفْرُوضًـا مَـدَى الْأَزْمَـانِ
هُــوَ أَهْلُــهُ سُــبْحَانَهُ وَبِحَمْـــدِهِ ... كُلُّ الْـمَحَامِدِ وَصْـفُ ذِي الْإِحْسَانِ
وَهُـوَ الْـمُكَلِّمُ عَبْـدَهُ مُوسَـى بِتَكْـ ... ـلِيمِ الْـخِطَابِ وَقَبْلَـهُ الْأَبَـوَانِ
وَهُـوَ الْقَـدِيرُ، وَلَـيْسَ يُعْجِـزُهُ إِذَا ... مَـا رَامَ شَـيْئًا قَـطُّ ذُو سُـلْطَانِ
وَهُـوَ الْقَـوِيُّ، لَـهُ الْقُـوَى جَمْعًـا تَعَـا ... لَى اللهُ ذُو الْأَكْـوَانِ وَالسُّـلْطَانِ
وَهُـوَ الْغَنِـيُّ بِذَاتِـهِ، فَغِنَـاهُ ذَا ... تِيٌّ لَـهُ كَالْـجُودِ وَالْإِحْسَـانِ
وَهُـوَ الْعَزِيـزُ، فَلَـنْ يُـرَامَ جَنَابُـهُ ... أَنَّـى يُـرَامُ جَنَـابُ ذِي السُّـلْطَانِ
وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْقَـاهِرُ الْغَـلَّابُ، لَـمْ ... يَغْلِبْـهُ شَيْءٌ، هَـذِهِ صِـفَتَانِ

وَهُــوَ الْعَزِيــزُ بِقُــوَّةٍ هِــيَ وَصْــفُهُ ... فَــالْعِزُّ حِينَئِــذٍ ثَــلَاثُ مَعَــانِ
وَهُــوَ الْــحَكِيمُ، وَذَاكَ مِــنْ أَوْصَــافِهِ ... نَوْعَــانِ أَيْضًــا، مَــا هُمَــا عَــدَمَانِ
حُكْــمٌ وَإِحْكَــامٌ، فَكُــلٌّ مِــنْهُمَا ... نَوْعَــانِ أَيْضًــا ثَابِتَــا الْبُرْهَــانِ
وَالْــحُكْمُ شَرْعِــيٌّ وَكَــوْنِيٌّ، وَلَا ... يَتَلَازَمَــانِ، وَمَــا هُمَــا سِــيَّانِ
بَــلْ ذَاكَ يُوجَــدُ دُونَ هَــذَا مُفْــرَدًا ... وَالْعَكْــسُ أَيْضًــا ثُــمَّ يَجْتَمِعَــانِ
وَهُــوَ الْــحَيِيُّ، فَلَــيْسَ يَفْضَــحُ عَبْدَهُ ... عِنْــدَ التَّجَــاهُرِ مِنْــهُ بِالْعِصْــيَانِ
وَهُــوَ الْــحَلِيمُ، فَــلَا يُعَاجِــلُ عَبْدَهُ ... بِعُقُوبَــةٍ؛ لِيَتُــوبَ مِــنْ عِصْــيَانِ
وَهُــوَ الْعَفُــوُّ، فَعَفْــوُهُ وَسِــعَ الْــوَرَى ... لَــوْلَاهُ غَــارَ الْأَرْضُ بِالسُّــكَّانِ
وَهُــوَ الصَّــبُورُ عَــلَى أَذَى أَعْدَائِــهِ ... شَــتَمُوهُ، بَــلْ نَسَــبُوهُ لِلْبُهْتَــانِ
وَهُوَ الرَّقِيــبُ عَــلَى الْــخَوَاطِرِ وَاللَّــوَا ... حِــظِ، كَيْــفَ بِالْأَفْعَــالِ بِالْأَرْكَــانِ
وَهُــوَ الْــحَفِيظُ عَلَــيْهِمُ، وَهْــوَ الْــ ... ـكَفِيلُ بِحِفْظِهِــمْ مِــنْ كُــلِّ أَمْــرٍ عَــانِ
وَهُــوَ اللَّطِيــفُ بِعَبْــدِهِ وَلِعَبْــدِهِ ... وَاللُّطْــفُ فِي أَوْصَــافِهِ نَوْعَــانِ
إِدْرَاكُ أَسْرَارِ الْأُمُــورِ بِخِــبْرَةٍ ... وَاللُّطْــفُ عِنْــدَ مَوَاقِــعِ الْإِحْسَــانِ
فَيُرِيــكَ عِزَّتَــهُ وَيُبْــدِي لُطْفَــهُ ... وَالْعَبْــدُ فِي الْغَفَــلَاتِ عَــنْ ذَا الشَّــانِ
وَهُوَ الرَّفِيــقُ يُحِــبُّ أَهْــلَ الرِّفْــقِ، بَــلْ ... يُعْطِــيهِمُ بِــالرِّفْقِ فَــوْقَ أَمَــانِ
وَهُوَ الْقَرِيبُ، وَقُرْبُهُ الْــمُخْتَصُّ بِالــدْ ... دَاعِــي وَعَابِــدُهُ عَــلَى الْإِيــمَانِ

وَهُوَ الْمُجِيبُ يَقُولُ مَنْ يَدْعُو أُجِبْـ ـهُ، أَنَا الْمُجِيبُ لِكُلِّ مَنْ نَادَانِي
وَهُوَ الْجَوَادُ، فَلَا يُخَيِّبُ سَائِلًا وَلَوَ انَّهُ مِنْ أُمَّةِ الْكُفْرَانِ
وَهُوَ الْمُغِيثُ لِكُلِّ مَخْلُوقَاتِهِ وَكَذَا يُجِيبُ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ
وَهُوَ الْوَدُودُ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُ أَحْبَابُهُ، وَالْفَضْلُ لِلْمَنَّانِ
وَهُوَ الشَّكُورُ، فَلَنْ يُضَيِّعَ سَعْيَهُمْ لَكِنْ يُضَاعِفُهُ بِلَا حُسْبَانِ
وَهُوَ الْغَفُورُ، فَلَوْ أُتِي بِقُرَابِهَا مِنْ غَيْرِ شِرْكٍ بَلْ مِنَ الْعِصْيَانِ
لَاقَاهُ بِالْغُفْرَانِ مِلْءَ قُرَابِهَا سُبْحَانَهُ، هُوَ وَاسِعُ الْغُفْرَانِ
وَكَذَلِكَ التَّوَّابُ مِنْ أَوْصَافِهِ وَالتَّوَّابُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ
إِذْنٌ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ وَقَبُولِهَا بَعْدَ الْمَتَابِ بِمِنَّةِ الْمَنَّانِ
وَهُوَ الْإِلَهُ السَّيِّدُ الصَّمَدُ الَّذِي صَمَدَتْ إِلَيْهِ الْخَلْقُ بِالْإِذْعَانِ
الْكَامِلُ الْأَوْصَافِ مِنْ كُلِّ الْوُجُو هِ، كَمَالُهُ مَا فِيهِ مِنْ نُقْصَانِ
وَكَذَلِكَ الْقَهَّارُ مِنْ أَوْصَافِهِ فَالْخَلْقُ مَقْهُورُونَ بِالسُّلْطَانِ
وَكَذَلِكَ الْجَبَّارُ مِنْ أَوْصَافِهِ وَالْجَبْرُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ
جَبْرُ الضَّعِيفِ وَكُلِّ قَلْبٍ قَدْ غَدَا ذَا كَسْرَةٍ، فَالْجَبْرُ مِنْهُ دَانِي
وَالثَّانِ جَبْرُ الْقَهْرِ بِالْعِزِّ الَّذِي لَا يَنْبَغِي لِسِوَاهُ مِنْ إِنْسَانِ
وَلَهُ مُسَمًّى ثَالِثٌ وَهُوَ الْعُلُوُّ فَلَيْسَ يَدْنُو مِنْهُ مِنْ إِنْسَانِ

مِـنْ قَوْلِـهِمْ جَبَّـارَةً لِلنَّخْلَـةِ الْـ ـعُلْيَا الَّتِـي فَاتَـتْ لِكُـلِّ بَنَـانِ
وَهُـوَ الْـحَسِيبُ حِمَايَـةً وَكِفَايَـةً وَالْـحَسْبُ كَـافِي الْعَبْـدِ كُـلَّ أَوَانِ
وَهُـوَ الرَّشِـيدُ، فَقَوْلُـهُ وَفِعَالُـهُ رُشْـدٌ، وَرَبُّـكَ مُرْشِـدُ الْـحَيْرَانِ
وَكِلَاهُمَـا حَـقٌّ، فَهَـذَا وَصْـفُهُ وَالْفِعْـلُ لِلْإِرْشَـادِ، ذَاكَ الثَّـانِي
وَالْعَـدْلُ مِـنْ أَوْصَـافِهِ فِي فِعْلِـهِ وَمَقَالِـهِ، وَالْـحُكْمُ فِي الْـمِيزَانِ
فَعَلَى الصِّـرَاطِ الْـمُسْتَقِيمِ إِلَـهُنَا قَـوْلًا وَفِعْـلًا، ذَاكَ فِي الْقُـرْآنِ
هَذَا وَمِـنْ أَوْصَـافِهِ الْقُـدُّوسُ ذُو التْـ ـتَنْزِيهِ بِـالتَّعْظِيمِ لِلـرَّحْمَنِ
وَهُـوَ السَّـلَامُ عَـلَى الْـحَقِيقَةِ سَالِـمٌ مِـنْ كُـلِّ تَمْثِيـلٍ وَمِـنْ نُقْصَـانِ
وَالْـبِرُّ مِـنْ أَوْصَـافِهِ سُـبْحَانَهُ هُـوَ كَثْـرَةُ الْـخَيْرَاتِ وَالْإِحْسَـانِ
وَكَـذَلِكَ الْوَهَّـابُ مِـنْ أَسْـمَائِهِ فَـانْظُرْ مَوَاهِبَـهُ مَـدَى الْأَزْمَـانِ
وَكَـذَلِكَ الْفَتَّـاحُ مِـنْ أَسْـمَائِهِ وَالْفَـتْحُ فِي أَوْصَـافِهِ أَمْـرَانِ
فَـتْحٌ بِحُكْـمٍ، وَهْـوَ شَرْعُ إِلَـهِنَا وَالْفَـتْحُ بِالْأَقْـدَارِ، فَـتْحٌ ثَـانِ
وَكَـذَلِكَ الـرَّزَّاقُ مِـنْ أَسْـمَائِهِ وَالـرِّزْقُ مِـنْ أَفْعَالِـهِ نَوْعَـانِ
رِزْقٌ عَـلَى يَـدِ عَبْـدِهِ وَرَسُـولِهِ نَوْعَـانِ أَيْضًـا، ذَانِ مَعْرُوفَـانِ
رِزْقُ الْقُلُـوبِ الْعِلْـمَ وَالْإِيمَانِ وَالـرْ رِزْقَ الْـمُعَدَّ لِـهَذِهِ الْأَبْـدَانِ
وَالثَّـانِي سَـوْقُ الْقُـوتِ لِلْأَعْضَـاءِ فِي تِلْـكَ الْـمَجَارِي سَـوْقَهُ بِـوِزَانِ

هَــذَا وَمِــنْ أَوْصَــافِهِ الْقَيُّــومُ وَالْــ ـــــقَيُّومُ فِي أَوْصَــافِهِ أَمْــرَانِ
إِحْــدَاهُمَا الْقَيُّــومُ قَــامَ بِنَفْسِــهِ وَالْكَــوْنُ قَــامَ بِــهِ، هُمَــا الْأَمْــرَانِ
وَالْــحَيُّ يَتْلُــوهُ فَأَوْصَــافُ الْكَــمَا لِ هُمَــا لِأُفْــقِ سَــمَائِهِ قُطْبَــانِ
فَالْــحَيُّ وَالْقَيُّــومُ لَــنْ تَتَخَلَّــفَ الْــ أَوْصَــافُ أَصْــلًا عَــنْهُمَا بِبَيَــانِ
هُوَ قَابِضٌ، هُوَ بَاسِطٌ، هُـوَ خَـافِضٌ، هُــوَ رَافِــعٌ بِالْعَــدْلِ وَالْإِحْسَــانِ
وَهُــوَ الْــمُعِزُّ لِأَهْــلِ طَاعَتِــهِ وَذَا عِــزٌّ حَقِيقِــيٌّ بِــلَا بُطْــلَانِ
وَهُوَ الْمُذِلُّ لِـمَنْ يَشَـاءُ بِذُلِّـهِ الـدْ دَارَيْــنِ ذُلَّ شَــقًا وَذُلَّ هَــوَانِ
هُــوَ مَــانِعٌ مُعْــطٍ فَهَــذَا فَضْــلُهُ وَالْــمَنْعُ عَــيْنُ الْعَــدْلِ لِلْمَنَّــانِ
وَالنُّــورُ مِــنْ أَسْــمَائِهِ أَيْضًــا، وَمِــنْ أَوْصَــافِهِ سُــبْحَانَ ذِي الْبُرْهَــانِ
نُــورُ السَّــمَاوَاتِ الْعُــلَى مِــنْ نُــورِهِ وَالْأَرْضُ، كَيْــفَ الـنَّجْمُ وَالْقَمَـرَانِ؟
وَكِتَابُـــهُ نُـــورٌ كَـــذَلِكَ شَرْعُـــهُ نُـــورٌ كَـــذَا الْــمَبْعُوثُ بِالْفُرْقَــانِ
وَكَــذَلِكَ الْإِيــمَانُ فِي قَلْــبِ الْفَتَــى نُــورٌ عَــلَى نُــورٍ مَــعَ الْقُــرْآنِ
وَالنُّــورُ ذُو نَــوْعَيْنِ مَخْلُــوقٌ وَوَصْــ ـــفٌ مَــا هُمَــا وَاللهِ مُتَّحِــدَانِ
وَكَـذَلِكَ الْـمَخْلُوقُ ذُو نَـوْعَيْنِ مَحْــ ـــسُوسٌ وَمَعْقُــولٌ هُمَــا شَــيْئَانِ
احْــذَرْ تَــزِلَّ؛ فَتَحْـتَ رِجْلِـكَ هُـوَّةٌ كَـمْ قَـدْ هَـوَى فِيهَـا عَـلَى الْأَزْمَـانِ
مِـنْ عَابِـدٍ بِالْــجَهْلِ زَلَّـتْ رِجْلُـهُ فَهَوَى إِلَى قَعْرِ الْـحَضِيضِ الدَّانِـي

وَهُوَ الْـمُقَدِّمُ وَالْـمُؤَخِّرُ، ذَانِكَ الصْـ ـــصِفَتَانِ لِلْأَفْعَـــالِ تَابِعَتَـــانِ
وَهُمَـا صِـفَاتُ الـذَّاتِ أَيْضًـا، إِذْ هُمَـا بِالـــذَّاتِ لَا بِـــالْغَيْرِ قَائِمَتَـــانِ
وَالْوَصْـفُ بِالتَّقْـدِيمِ وَالتَّـأْخِيرِ كَـوْ نِـــيٌّ وَدِينِـــيٌّ، هُمَـــا نَوْعَـــانِ
وَكِلَاهُمَـــا أَمْـــرٌ حَقِيقِـــيٌّ وَنِسْـــ ـــبِيٌّ، وَلَا يَخْفَـى عَـلَى الْأَذْهَـانِ
هَـذَا وَمِـنْ أَسْـمَائِهِ مَـا لَـيْسَ يُفْـ ـــرَدُ بَـلْ يُقَـالُ إِذَا أَتَـى بِقِـرَانِ
وَهِـيَ الَّتِـي تُـدْعَى بِمُزْدَوَجَاتِهَـا إِفْرَادُهَـــا خَطَـــرٌ عَـــلَى الْإِنْسَـــانِ
إِذْ ذَاكَ مُـوْهِمُ نَـوْعِ نَقْـصٍ جَـلَّ رَبْ بُ الْعَرْشِ عَـنْ عَيْـبٍ وَعَـنْ نُقْصَـانِ
كَالْـمَانِعِ الْـمُعْطِي وَكَالضَّـارِّ الَّـذِي هُـــوَ نَـــافِعٌ وَكَـــمَالُهُ الْأَمْـــرَانِ
وَدِلَالَـــةُ الْأَسْـــمَاءِ أَنْـــوَاعٌ ثَـــلَا ثٌ، كُلُّهَـــا مَعْلُومَـــةٌ بِبَيَـــانِ
دَلَّـــتْ مُطَابَقَـــةً كَـــذَاكَ تَضَـــمُّنًا وَكَـــذَا الْتِزَامًـــا وَاضِـــحَ الْبُرْهَـــانِ
وَإِذَا أَرَدْتَ لِـــذَا مِثَـــالًا بَيِّنًـــا فَمِثَـــالُ ذَلِـــكَ لَفْظَـــةُ الـــرَّحْمَنِ
ذَاتُ الْإِلَـــهِ وَرَحْمَـــةٌ مَدْلُولُـــهَا فَهُـــمَا لِـــهَذَا اللَّفْـــظِ مَـــدْلُولَانِ
إِحْدَاهُمَا مَعْنَىً لِـذَا الْـمَوْضُوعِ فِـهْـ ـــيَ تَضَـــمُّنٌ، ذَا وَاضِـــحُ التِّبْيَـــانِ
لَكِـنَّ وَصْـفَ الْـحَيِّ لَازِمُ ذَلِـكَ الْـ ـــمَعْنَى لُـــزُومَ الْعِلْـــمِ لِلـــرَّحْمَنِ

فَصْــلٌ

لَا تُوحِشَــنَّكَ غُرْبَــةٌ بَــيْنَ الْــوَرَى ... فَالنَّــاسُ كَــالْأَمْوَاتِ فِي الْــحُسْبَانِ
أَوَمَــا عَلِمْــتَ بِــأَنَّ أَهْــلَ السُّــنَّةِ الْــ ... ــغُرَبَاءُ حَقًّــا عِنْــدَ كُــلِّ زَمَــانِ
قُلْ لِي: مَتَى سَلِمَ الرَّسُـولُ وَصَـحْبُهُ ... وَالتَّــابِعُونَ لَــهُمْ عَــلَى الْإِحْسَــانِ
مِــنْ جَاهِــلٍ وَمُعَانِــدٍ وَمُنَــافِقٍ ... وَمُحَــارِبٍ بِــالْبَغْيِ وَالطُّغْيَــانِ
أَتَظُــنُّ أَنَّــكَ وَارِثٌ لَــهُمُ وَمَــا ... ذُقْــتَ الْأَذَى فِي نُصْــرَةِ الــرَّحْمَنِ
كَــلَّا، وَلَا جَاهَــدْتَ حَــقَّ جِهَــادِهِ ... فِي اللهِ لَا بِيَــــدٍ وَلَا بِلِسَــــانِ
مَنَّتْــكَ وَاللهِ الْــمُحَالَ الــنَّفْسُ فَاسْــ ... ــتَحْدِثْ سِوَى ذَا الــرَّأْيِ وَالْــحُسْبَانِ
لَــوْ كُنْــتَ وَارِثَــهُ لَآذَاكَ الْأُلَى ... وَرِثُــوا عِــدَاهُ بِسَــائِرِ الْأَلْــوَانِ

فَصْــلٌ

هَــذَا وَثَــانِي نَــوْعَيِ التَّوْحِيــدِ تَــوْ ... حِيــدُ الْعِبَــادَةِ مِنْــكَ لِلــرَّحْمَنِ
وَالصِّدْقُ وَالْإِخْلَاصُ رُكْنَا ذَلِـكَ التـْ ... ــتَوْحِيدِ كَــالرُّكْنَيْنِ لِلْبُنْيَــانِ
وَحَقِيقَــةُ الْإِخْــلَاصِ تَوْحِيــدُ الْــمُرَا ... دِ، فَــلَا يُزَاحِمُــهُ مُــرَادٌ ثَــانِ
وَالصِّــدْقُ تَوْحِيــدُ الْإِرَادَةِ وَهْــوَ بِــذْ ... لُ الْــجَهْدِ لَا كَسِــلًا وَلَا مُتَــوَانِ
وَالسُّــنَّةُ الْــمُثْلَى لِسَــالِكِهَا فَتَــوْ ... حِيــدُ الطَّرِيــقِ الْأَعْظَــمِ السُّــلْطَانِ

فَلِوَاحِـــدٍ كُـــنْ وَاحِـــدًا فِي وَاحِـــدٍ أَعْنِـــي سَـــبِيلَ الْـــحَقِّ وَالْإِيــــمَانِ
فَـــإِذَا هِـــيَ اجْتَمَعَـــتْ لِـــنَفْسٍ حُـــرَّةٍ بَلَغَـــتْ مِـــنَ الْعَلْيَـــاءِ كُـــلَّ مَكَـــانِ

فَصْــلٌ

الْعِلْـــمُ قَـــالَ اللهُ قَـــالَ رَسُـــولُهُ قَـــالَ الصَّـــحَابَةُ، هُـــمْ أُولُـــو الْعِرْفَـــانِ
مَـــا الْعِلْـــمُ نَصْـــبُكَ لِلْخِـــلَافِ سَـــفَاهَةً بَـــيْنَ الرَّسُـــولِ وَبَـــيْنَ رَأْيِ فُـــلَانِ

فَصْــلٌ

وَالنَّـاسُ أَكْثَرُهُـمْ بِسِـجْنِ اللَّفْـظِ مَسْـ ـــجُونُونَ خَـــوْفَ مَعَـــرَّةِ السَّـــجَّانِ
وَالْكُـــلُّ إِلَّا الْفَـــرْدَ يَقْبَـــلُ مَـــذْهَبًا فِي قَالَـــبٍ وَيَـــرُدُّهُ فِي ثَـــانِ
وَالْقَصْـدُ أَنَّ الذَّاتَ وَالْأَوْصَـافَ وَالْـ أَفْعَـــالَ لَا تُنْفَـــى بِـــذَا الْـــهَذَيَانِ
سَمُّوهُ مَا شِـئْتُمْ فَلَـيْسَ الشَّـأْنُ فِي الْـ أَسْـــمَاءِ، بَـــلْ فِي مَقْصَـــدٍ وَمَعَـــانِ
الْـــحَقُّ إِثْبَـــاتُ الصِّـــفَاتِ، وَنَفْيُهَـــا عَـــيْنُ الْـــمُحَالِ، وَلَـــيْسَ فِي الْإِمْكَـــانِ
فَالْـــجِسْمُ إِمَّـــا لَازِمٌ لِثُبُوتِهَـــا فَهُـــوَ الصَّـــوَابُ وَلَـــيْسَ ذَا بُطْـــلَانِ
أَوْ لَـــيْسَ يَلْـــزَمُ مِـــنْ ثُبُـــوتِ صِـــفَاتِهِ فَشَـــنَاعَةُ الْإِلْـــزَامِ بِالْبُهْتَـــانِ

فَصْــلٌ

وَرَسُـولُهُ فَهُـوَ الْـمُطَاعُ وَقَوْلُـهُ الْـ ـــمَقْبُولُ إِذْ هُـوَ صَـاحِبُ الْبُرْهَـانِ
مَـنْ قَـالَ قَـوْلًا غَـيْرُهُ قُمْنَـا عَـلَى أَقْوَالِـــهِ بِالسَّـــبْرِ وَالْـــمِيزَانِ
إِنْ وَافَقَـتْ قَـوْلَ الرَّسُـولِ وَحُكْمَـهُ فَعَـلَى الـرُّؤُوسِ تُشَـالُ كَالتِّيجَـانِ
أَوْ خَالَفَـــتْ هَـــذَا رَدَدْنَاهَـــا عَـــلَى مَـنْ قَالَـهَا مَـنْ كَـانَ مِـنْ إِنْسَـانِ
أَوْ أَشْـــكَلَتْ عَنَّـــا تَوَقَّفْنَـــا وَلَـــمْ نَجْـزِمْ بِـــلَا عِلْـمٍ وَلَا بُرْهَـــانِ
هَـــذَا الَّـــذِي أَدَّى إِلَيْـــهِ عِلْمُنَـــا وَبِـــهِ نَـــدِينُ اللهَ كُـــلَّ أَوَانِ
فَهُـوَ الْـمُطَاعُ وَأَمْـرُهُ الْعَالِـي عَـلَى أَمْـرِ الْـوَرَى وَأَوَامِـرِ السُّـلْطَانِ

فَصْــلٌ

مَـاذَا تَـرَى فَرْضًـا عَلَيْـكَ مُعَيَّنًـا إِنْ كُنْـتَ ذَا عَقْـلٍ وَذَا إِيـمَانِ
عَـرْضَ الَّـذِي قَـالُوا عَـلَى أَقْوَالِـهِ أَوْ عَكْـسَ ذَاكَ؟ فَـذَانِكَ الْأَمْـرَانِ
هِـيَ مَفْـرِقُ الطُّرُقَـاتِ بَـيْنَ طَرِيقِنَـا وَطَرِيـقِ أَهْـلِ الزَّيْـغِ وَالْعُـدْوَانِ
وَحَيَـاةُ قَلْـبِ الْـمَرْءِ فِي شَـيْئَيْنِ مَـنْ يُـرْزَقْهُمَا يَـحْيَا مَـدَى الْأَزْمَـانِ
ذِكْـرُ الْإِلَـهِ، وَحُبُّـهُ مِـنْ غَـيْرِ إِشْـ ـــرَاكٍ بِـهِ، وَهُـمَـا فَمُمْتَنِعَـانِ
مِـنْ صَـاحِبِ التَّعْطِيـلِ حَقًّـا كَامْتِنَـا عِ الطَّـائِرِ الْـمَقْصُوصِ مِـنْ طَـيَرَانِ

يَـا مَـــنْ تَعِــزُّ عَلَـــيْهِمُ أَرْوَاحُهُـــمْ وَيَـــرَوْنَ عَيْبًـــا بَيْعَهَـــا بِهَـــوَانِ

وَيَـــرَوْنَ أَنَّ أَمَـــامَهُمْ يَـــوْمَ اللِّقَـــا لله مَسْـــــــأَلَتَانِ شَـــــــامِلَتَانِ

مَـــاذَا عَبَـدْتُمْ؟ ثُـــمَّ مَـــاذَا قَـدْ أَجَبْـ ـــتُمْ مَـــنْ أَتَـــى بِالْـــحَقِّ وَالْبُرْهَـــانِ؟

هَـــاتُوا جَوَابًـــا لِلسُّـــؤَالِ وَهَيِّئُـــوا أَيْضًـــا صَـــوَابًا لِلجَـــوَابِ يَـــدَانِ

* * *

فهرس الآيات

الآية **الصفحة**

* * *

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث **الصفحة**

* * *

فهرس الموضوعات والفوائد

* * *